



المؤلفاتُ الكاملة
المجلدُ الثاني

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة نوبل للآداب - ١٩٨٨

المؤلفات الكاملة

السرد بين القصرين
بدلية ونهاية قصر الشوق
السيرة

مكتبة البساتين

مكتبة لبنان

ساحة رياض الصلح - بيروت

وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

جميع الحقوق محفوظة ١٩٩١

الطبعة الأولى ١٩٩١

رقم الكتاب 01 R 160118

طبع في لبنان

المحتويات

| ص | |
|-----|------------------|
| ١ | السرّاب .. |
| ١٥٩ | بداية ونهاية .. |
| ٣٢٥ | بين القصرين .. |
| ٥٧٩ | قصر الشّوق .. |
| ٨٠٩ | السُّكْرِيَّة .. |

الشيء الذي

لا تعرف الشور، فلياذ يا ترى هذا العناء كله؟ ألم آو عمري إلى الصمت والكتبان، ألم تظفر الأسرار من صدري بقبر مغلق تستكن فيه وتغتم؟ لبا سرّ هذا الإلحاح العنيف؟ وكيف سللت القلم لأنثى قبراً تراكم عليه ثرى الإخفاء لقد ضاعت الحياة، والقلم ملاذ الضائع، هذه هي الحقيقة. إنّ الذين يكتبون هم في العادة من لا يميون، ولا يعني هذا أنّ كنت أحيا من قبل، ولكنّي لم أكن ألو أن أرنو لأمل بسلام استضيء بنوره، وقد خمد هذا النور. ولست أكتب لإنسان، فليس من شأن المرضى بالهجل أن يطلعوا إنساناً على ذوات نفوسهم، ولكنّي أكتب لنفسي، ونفسي فحسب، فطلما داريت همساتها حتّى ضللت حقيقتها، وبثّ في أشدّ الحاجة إلى جلاء وجهها المطموس في صدق وصراحة وقسوة، عسى أن يعقب ذلك شفاء غير مقدور. أمّا محاولة النسيان فلا شفاء يرجى منها. والحق أنّ النسيان خرافة بارعة وحسبي ما كابدت من خرافات. ولعلّ في شروعي في الكتابة آية على أنّي قد عدلت عن فكرة الانتحار نهائياً، وما كان الانتحار بالجزء الذي لا يستحقّه إنسان قضى على نفسه، بل هو دون ما يستحقّ بكثير، ولكن ما حلّني والحياة لا تتورّع عن وسيلة في سبيل الدفاع عن نفسها؟ ولو كان الماضي قطعة من الكنان المحسوس لوّيت عنه فرازاً، ولكنّه يتبعني كظلّ، ويكون حيثما أكون، فلا مناص من أن ألقاه وجهاً لوجه بعين غير مختلجة، وقلب ثابت، ومهما يكن من أمر فالوت أهون من الخوف من الموت، وإنّه لعمل فيه سحر، تستحيل به هذه الصحائف نفساً خالصة بغير حجاب. ولست أدعي العلم، فبا ناصبت شيئاً العداء كالعلم، وإنّي لغنيّ كسول، ولكنّي عانيت تحارب مرّة زلزلتي

١

إنّي أعجب لما يدعوني للقلم، فالكتابة فنّ لم أعرفه لا بالهواية ولا بالمهنة، ويمكن القول بأنّه فيما عدا الواجبات المدرسيّة على عهد صباي، والأعمال المكتبيّة المتعلقة بوظيفتي، فإنّي لم أكتب شيئاً على الإطلاق. والأعجب من هذا أنّي لا أذكر أنّي سوّمت خطاباً أو رسالة طوال الدهر الذي عشته في الدنيا وهو ما ينيف على ربع قرن من الزمان. والحق أنّ الرسالة - كالكلام - رمز للحياة الاجتماعيّة، وعنوان للوشائج التي تصل ما بين الناس في هذه الحياة، ولست من ذلك كله في شيء. ألسنا ننسب الأشجار قنبر ما اخرج من أغصانها وفروعها؟ فلياذ يُبقي على من لا يصلحون للحياة من أفراد الناس؟ لماذا نستمع بل نعمل فنفرضهم على الحياة فرضاً أو نفرض الحياة عليهم كسرماً؟ لهذا يسعون في الأرض غريباء مدعورين، وقد بلغ الذعر منهم أحياناً أن يجبلوا على وجوههم كالمحمومين فيدرسوا بأقدامهم المتقرّعة ضحايا أبرياء.

أقول مرّة أخرى إنّني لا أذكر أنّي كتبت كتابة تستحقّ هذا الوصف. كذلك طالما أعيايت الحديث وأعجزني، فكنت إذا اضطرت إلى كلام تلعثمت وأدركني العمى والحصر، ولم يكن الإيعاء في قوّة النطق أو الكتابة، إنّّه أجل من ذلك وأخطر وإنّ العمى والحصر والمعجز لأتفه عواقبه على وجه اليقين. ولذلك حتّى في أن أتمسك عمّا يدفعني الآن إلى الكتابة. وليس الأمر قاصراً على رسالة تدوّن، إنّّه شوط طويل تنقطع دونه الأنفاس، وإنّي لأعجب لما يستفزني من نشاط لم أعهد، وحاس أن لفه، حتّى ليخيل لي أنّي ساواصل الكتابة دون تردّد أو تعب، في الليل والنهار، ويعزّة

زلزالاً، وليس كالتجارب كاشف عن مصاوي النفوس. إنّي لأتلفّع على رفع النقاب، وهتك الأسرار، لأضع أصبعي على موطن الداء ومكمن الذكريات ومبعث الآلام، ولعلّي بذلك أتضادّ نهاية عذبة، وأنجو من آلام لا يُقِلّ لي بها، وأتلمّس في الظلماء سبيلاً. لست في الواقع إلّا ضحية، ولا أقول ذلك تخفّيفاً من ذنبي، ولا تهرباً من تبعي، ولكنه حقّ وصدق، فالحقّ أنّي ضحية، إلّا أنّي ضحية ذات ضحيّتين. وأشدّ ما يميّز في نفسي أنّ إحدى الضحيّتين هي أمّي! أقطع بها من حقيقة لا تصدّق! كيف أنسيت أنّها سرّ حياتي وسعادتي، وأنّي لا أحتمل الحياة بدونها! ولكنّي كنت أحيّا على حالة عالم الجنون، وهكذا فقدت كلّ شيء، ووجدت نفسي في خلاء مظلم مخيف. . .

إنّي رجل مؤمن عميق الإيمان، وأعلم علم اليقين أنّي سأبعث حيّاً في اليوم الموعد، ولست أخشى آلام ذلك اليوم وأحواله. إذا تجرّدت أمام الله بما في يميني وبما في شimalي - قدر ما أخشى أن أبعث على الحال التي عانيتُها في دنياي. أروم بعضاً جديداً حقّاً، ويومذاك تصبح الآلام لا شيء يطويها الفناء إلى الأبد، فيمكنني لقاء أحبائي بقلب صافٍ ونفس نقية طاهرة.

كانت أمّي وحياتي شيئاً واحداً، وقد ختمت حياة أمّي في هذه الدنيا، ولكنّها لا تزال كامنة في أعماق حياتي، مستمرة باستمرارها. لا أكاد أذكر وجهها من وجوه حياتي حتّى يترامى لي وجهها الجميل الخنون، فهي دائماً أبداً وراء أسالي وآلامي، وراء حبّتي وكراهيتي، أسعدتني فوق ما أطعم، وأشتيتني فوق ما أنصّور، وكأني لم أحبّ أكثر منها، وكأني لم أكره أكثر منها فهي حياتي جيّداً، وهل وراء الحبّ والكراهية من شيء في حياة الإنسان؟! فلاعترف بأنّي أكذب لأذكريها هي، ولأستعيد حياتها هي، بذلك تعود الحياة كلّها. وبذلك أصلّ ما انقطع من جبل حياتي، لعلّ الأمل أن يتجدّد في النجاة. يبدو لي كلّ شيء الساعة غامضاً متوارباً، كأنّ الشيطان يلزّ في عيني رماداً، ولكن مهلاً إنّي أتلمّس سبيلي في صبر وأناة، وراقي أمل الغريق في النجاة، ومن ورائي نية صادقة في تجديد حياتي

٢

وبعثها خلقاً جديداً، وإنّ شقّ عليّ الطريق أو تولاّني القنوط، أو خللني حيائي، فلن يبقى أمامي إلّا الموت. .

ما جزء الميت - عندنا معشر الأحياء - إذا واره التراب؟ أن نفرّ من ذكره كما نفرّ من الموت نفسه! ولعلّ في هذا حكمة غالية، ولكنّ أناثيتنا تأتي إلّا أن تضفي على هذه الحكمة أسفاً حائفاً مضحكاً. ولقد فررت من بيتنا مولياً كلّ شيء ظهري كالحائف الملدور، ثمّ مضيت أثوب إلى رشدي في هدوء نسبي، وأدرك هول الخطب الذي نزل بي، ففاض بي حنين موجع، وفزعني يدي إلى خزانة الذكريات فاستخرجت كلّ ما بقي منها، ألا وهي صورة!

هي صورة كبيرة يظهر فيها جدّي جالساً على مقعد كبير، بجسمه الضخم وكرشه الكبير، وشاربه الأبيض كأنّه هلال فوق فيه، في بذلته العسكرية المحادة بالنياشين، وأقف أنا عند ركبتيه لا أكاد أجاوزهما إلّا قليلاً، أطلّع إلى عدسة المصور بعينين باسمتين وقد التصقت شفتاي في توتّر من يغالب ضحكة تغالبه.

ووقفت أمّي إلى يمين جدّي معتمدة بساعدها الأيسر مسند الكرسيّ الكبير، في فستان طويل يشتمل عليها من العنق إلى القدمين، ولا ينحصر من ساعديها إلّا عن اليدين، بقامة طويلة وجسم نحيل ووجه مستطيل وعينين واسعتين خضراوين وأنف دقيق مستقيم ونظرة حائلة تقطر حناناً ولا تخلو من بريق ينمّ عن الحيويّة وجعّة المزاج. يا له من وجه شاء الرحمن أن يكرّزه في وجهي حقّ لقد قيل إنّه لا يفرّق بيننا إلّا الثياب! هذه صورة تطلّ عليّ من عالم الذكريات. ولقد ثبتّ عينيّ الملتهيتين على الوجه المحبوب طويلاً حتّى لم أعد أرى شيئاً سواه. كبرت قسبته في عينيّ حتّى خلّفتي روحاً صغيراً يعيش في أحضانها، واشتدّ ما يحيط بي من صمت قهقها! لأنّ هذا الفم المطبق سيفترّ بأسفاً ويُسّمعني من غلب الحديث ما العهد به غير بعيد. إنّ الصورة شيء عجيب فكيف غابت عني هذه الحقيقة؟

وكراهية، وارتعشت يداي، واتسعت عيني انزعاجاً، ثم لم أدر إلا ويدي تمزقاني إرباً، ومذت لي يداً تحاول استنقاذها، ولكنني تغلبت عليها في حق وهياج، فليث صاعقة وقد لاح في عينيها الصافيتين الحزن والأسف. وكأني لم أفزع بما فعلت فتصدت لها غاضباً ومسلتها بلهجة تنم عن الاحتجاج: علام تأسفين؟

فيسلت أسارير وجهها بشيء من الجهد وقالت: - يا لك من طفل مكاشر!... ألا ترى أنني أسف على صورة شبابي؟... لقد مرّقت صورة أمك وأنت لا تدري.

وكانت ذكرى تلك الحادثة تعادني في فترات متباعدة فتحزّ في نفسي، وتلاّلي حيرة وقلقاً، فأضفي متسأللاً عيّا دعاءها حقاً إلى الاحتفاظ بتلك الصورة ولماذا أحزنها تمزيقها؟ ثم أحاول أن أنفذ بخيالي إلى ما فاتني من حياتها، فأقلب متفكراً مغتبطاً.

هكذا فقدت صورة الشباب الأول، وإني لأسف على فقدانها - الآن - أسفاً خالصاً، ولكن ليس ذلك أسفاً مضحكاً بعد أن امتلأت يدي إلى صاحبة الصورة نفسها ففضت عليها؟!

٣

ولم أكن الحظّ المائر الوحيد الذي ابتليت به حياتها. روت لي يوماً قصّة زواجها، في حذر وحرص شديد، وخاصةً وهي تسرد الذكريات الباسمة على ندرتها، فكانت تذكرها في عجلة والفتضاب وتمرحج، وكأني في أعياقتها تخشائي، أو كأنها أشفتت مني أن تخفّف لطافة الذكرى من حدّة كراهيتي لأبي.

على جسر إسماعيل رآها أبي أوّل مرّة! وكان «الحناطور» ينطلق بأني وجدي في بعض الأصائل للنتزّة والفرجة، ففي مرّة مرّ بها «حناطور» يترنّع بصدوره شابّ مزهوّ بشبابه وثرائه أو على الأصحّ بما يتنظره من ثراء، فوقع بصره على وجهها، وسرعان ما وجهه حيرته في أعياها حتى بيّنتا في المنزل. وكنا كلياً غادرا البيت صادفاه في الطريق وكأني ينتظر. ولم أدعُ

هذه أمّي بجسمها وروحها، هذه أمّي بعينيها وأنها وفهما، وهذا الصدر الحنون الذي التصقت به عمري. ربّاه... كيف أتنعج باتّها رحلت عن الدنيا حقاً! أجل إنّ الصورة شيء عجيب، ويبدو لي الآن أنّ كلّ شيء عجيب في هذه الدنيا، وقاتل الله العادة فهي التي تقتل روح العجب والإعجاب فيها. كانت هذه الصورة معلّقة بحيث تراها العين في كلّ حين، بيد أنّي أراها الآن شيئاً جديداً، أطالع في صفحتها حياة عميقة كأنّ نفحة من الروح الطليق قد استكنت بها، وأرى في هاتين العينين نظرة شاردة تبعث الألم. إنّ هذه الصورة حيّة بلا ربّ، ولن أسترّد بصري منها ولو جنت. عكفت عليها طويلاً، ثمّ تمكّنتني رغبة قويّة في تحيّل حياة صاحبها في جميع أطوارها من المهد إلى اللحد. تخيلتها طفلة تحبو، وصبيّة تلهو بعرائسها. ألا ليتها خلّفت في صوّرًا أستعيد بها أحلام طفولتها السعيدة! ثمّ تحيّلّت عهد التيباب الرطيب، وهي عادة حسناء ترنو بطرفها الساجي إلى الأمل والسرور وتلهو بلذّة الفترة المشبوبة، لقد عاصرت عهد الحلو، وكنت ثمرة لخصيه ونضارته، ومع ذلك فقد ضاعت معاللة وولّت آثاره. غشي الظلام كأنّي لم أرتع حضنه وأرضع ثدييه. وكنت إذا تحيّلّت فيها مضى من أيّامي تحيّلته في حيرة وقلق، وساءلت نفسي في عجل واستياء ألم تنبض بدمه الحارّ تلك الرغبات الجامعة التي تستائر الشباب؟! ولعلّ عاطفتي الغامضة تلك هي التي دفعني في صباي إلى تزيق الأثر الباقي لهذا الشباب الأوّل. فقد دخلتُ حجرة نومنا ذات يوم فجأة فوجدتُ أمّي منكبة على درج مفتوح في صوان الملابس تنظر في شيء بين يديها، فاقتربت منها في خفّة تحدوني شطارة الغلمان المدلّكين، وأدخلت رأسي تحت ذراعها المبسوطة، فرايتها ممسكة بصورة عرسها! وبادرت تحاول إرجاعها إلى غيبتها، ولكنّي أمسكت بها في عناد، وحلقت فيها بدھشة، فرايت شاباً جالساً وأمي واقفة مستندة إلى كرسيه كالوردة الناضرة. وتعلّقت عيني بصورة الرجل فأدركت أنّه أبي، وإن كنت أراه أوّل مرّة، بل أراه بعد أن امتلا الفؤاد له خرقاً

عن ذلك كله فهو نفسه لم يكن حصل على الابتدائية، ولم يكن يخلو من ميل للشراب والمقامرة. وبذلك صارت كرمته حرماً لرؤية لاه أو رؤية بك لاه كما كان يدعى، وظنّ جدّي أنّه فرغ من الواجبات الملقاة على عاتقه بترويعه أصغر كرمته. ولكن ما كاد ينقضي أسبوعان على ليلة الزفاف حتّى عادت أمّي إلى بيت جدّي دامعة العينين كسيرة الفؤاد! وانزعج جدّي انزعاجاً شديداً، ولم يكذب بصقّ عينيه، ثمّ علم أنّ الشاب قد عاود سيرته الماضية في الحانات ولها يعض الأسبوع الأول من زواجه، وأنّه كان يرجع إلى بيته عند مشرق الشمس، وأنّه أوسعها ضرباً في ذلك اليوم الذي غادرت فيه قصره. واستنطق جدّي الأمر، وكان على تربيته العسكرية الصارمة رقيق القلب، ويحذب على ابنته حذباً عظيماً، فغضب غضباً شديداً، ومضى لئلاّ يصر لاه، وصبّ جام غضبه على الشاب وأبيه معاً، وليث أمّي في بيت جدّي حتّى وضعت أختي الكبرى. وسعى نفر من أصدقاء الطرفين إلى إصلاح ذات البين، ووصل ما انقطع من حياة الزوجيّة، وكلل مسعاهم بالنجاح لرجعت أمّي وطفلتها إلى قصر لاه مرّة أخرى. وامتنع مكتبها به شهرين، ثمّ نقد صبرها فهجرت إلى بيت جدّي مهية الجنان. والحقّ أنّها لم تلق الراحة إلّا أنّها معدودات، ولكنّها تصبّرت وتجلّدت حتى أن تصلح الأيام ما فسد من حاله، فلم يكن يزداد إلّا فساداً، ولم تعد ترى فيه إلّا سكيراً عريذاً لا يرحى لشيء حرمة، فأبست منه، ولأنت بيت أبيها. وسعى الرجل إلى استردادها، مفرّاً بإيمانه الشراب، محاولاً إقناع جدّي بأنّه من الممكن أن تستقيم الحياة الزوجيّة مع إدمان الشرب، ولكنّ جدّي وقف منه موقفاً صلباً فطلقها، ومَرّت أشهر فوضعت أمّي أختي الأوسط، وعاشت في كنف أبيها متمتعة بعطفه وحضنه. ثمّ ترامت إليهم أنباء غريبة عن رؤية لاه تقول إنّ ألفى الطائش قد حاول في ساعة نزق وجزع أن يلدس السّم لأبيه متمجّلاً حظه من الميراث، ولكنّ الأب اكتشف الحيلة بواسطة الطباخ، فطرد ابنه من قصره، ووقف نصف

هذا الفصل من القصّة يمزّج بين ملاحظة، فسألته عن الغزل في تلك الأيام وكيف كان، وتلقّت سؤالي بريّة وحذر، ولكنّي ما زلت بها حتّى استماتت إلّي، فاستسلمت لرقة الذكريات. وقالت إنّ كان يبعث إليها بنظرات تومض بالابتسامة، أو يلتفت نحوها باهتمام وهو يفتل شاربته الغزير الأسود، بيد أنّه لم يعد حدود الأدب قدراً. وتفكّرت ملياً، وتبت في بيداها الخيال الخالم، فصانيت أحاسيس الدهشة والحيرة والضيق، ثمّ رفعت إليها عينيّ - ولم يكن لنا من سلوى في تلك الأيام إلّا مواصلة الحديث - وسألته مبتسماً عن كيف كانت تلقى تلك اللقّطات الغزليّة. ولم يخف عنها ما في سؤالي من خبث فتضاحك، وكانت إذا ضحكت اهتزّ جسمها من الرأس إلى القدم، وقالت إنّها كانت تتجاهله بطبيعة الحال، وتنتظر فيها أمامها دون أن تلوي على شيء، وتظلّ على حالها كأنّها تمثال ذو برقع أبيض! وداخلني شك، وقلت إنّ أسأله عن الباطن لا الظاهر، عن القلب لا الوجه. ونازعني النفس إلى مصارحتها بما يدور في خلدي، ولكنّ خائنتي الشجاعة، وعقلي الحياء، ولورجعت إلى قلبي لعرفت الجواب، فهذا القلب من ذلك، يبري بها دم واحد، ويسجّعان عن شغفات واحد، فهل أنسى أنّي وقفت كثيراً كمثال التمثال والقلب شعلة ناراً!

وتقدّم الشاب يطلب يدها، لم يكن ذا عمل ولا علم، بل ولا مال حتّى ذلك الوقت، ولكنه كان أحد ابنين لرجل من كبار الموسرين. ولما علم جدّي بموافقة الأب واستمدهه لتكفل ابنه وأسرته، سرّ بالخطبة سروراً لا مزيد عليه، وفرح بجاه الأسرة العريق. وقيل له إنّ جاهل جاهل العوامّ، فقال وما حاجته إلى العلم؟ وقيل له إنّ بلا عمل، فقال وما حاجته إلى العمل؟ بل قيل له صراحة إنّ شاب ذو أهواء جامعة وإنّه سكير عرييد، فقال إنّ يعلم أنّه شابّ وليس يراهب. ولم يكن جدّي طمّاعاً جسماً، ولكنه كان يروم السعادة لابنته. وبحسب أنّ المال كفيل بتحقيق تلك السعادة، هذا إلى تأثر بأسم الأسرة التي تودّ مصاهرته، واطمئنان إلى سمعتها الكريمة، وفضلاً

على استهتاره وعريته، فلم يكن بين الرجلين عدا، ودعاه جدي إلى «حاطوره» فأطاع، وأمر جدي السائق بالذهاب إلى الخلمية، وحيث عليها في الطريق صمت عجيب، فلم ينس أحدهما بكلمة، ولما بلغت العربة البيت أوسع له جدي لينزل، ولكنه أسك بذراع الرجل ودعاه إلى بيته. واعتذر جدي بتأخر الوقت ولكن الآخر لم يقبل اعتذاره وأبى إلا أن ينزل معه وكان ما يزال ثملاً غموراً فأذعن جدي على رغبه، فمضيا معاً إلى حجرة الاستقبال وخيوط الفجر الزرقاء تنشب في الظلمة. وارتقى رؤية لآظ على مقعد وجذب جدي فجلسه على مقعد قريب، وسرعان ما ولّى عنه سكوته فغلبه الانفعال والتأثر وراح يقول بلسان ثقيل حلت الحمر والانفعال عقدته «أرأيت الأويش كيف انهلوا عليّ لكياً وصفتاً؟». أرأيت إلى الإهانة البالغة تنزل بكرامتي، وأنا رؤية بن لآظ، ربيب القصر العتيق؟ هذه هي الدنيا يا هـ... وما بالي أدموك بعني؟ لقد جاوزت الأربعين ولم تُد أنت الخمسين إلا بقليل، فما أحراني أن أدموك بانعي، ولكنني أدموك عني احتراماً وإجلالاً، فإنك بمنزلة أبي... استغفر الله أنت أعظم من ذلك وأجل، لا تؤاخذني بما أنطق من لفظ، واللفظ شيء تافه، أما ركلي بأقدام الأويش فشيء خطير، ليس كذلك؟ لقد سات أبي غاضباً عليّ، ويقولون إنه لا يظفر بالسعادة من حرم رضاء الوالدين، أحقاً هذا يا هـ؟ حتى ولو كان أحد الوالدين أبي؟ رياه، لقد سمعت هذه الحياة، إنها حى وهديان وجنون متواصل، لشد ما تنوق نفسي إلى الهدوء والطمأنينة، اليس هذا هو الندم؟ أمدد إليّ يدك يا هـ، ولتسمن معاً بهذا الفجر الطالع أن نبدا حياة جديدة لا إثم فيها ولا فجور، ردّ إليّ زوجي وطفلي وأسكني أسرتي... هلم... واشتد احمرار عينيه حتى ظنّه جدي باكياً، ولم يجد بداً من أن يطيب خاطره. وعندما انطلق به الحفظور صوب المنزل وقد تحرك سطح الأرض رويداً بالأفواج الأولى من الساعين إلى الرزق، أغمض عينيه في ارتياح، وتفكر في الأمر ملياً، وكان يؤد أن يرى ابنته سيّلة لبيت مجنّها. وفي

ثروته لجهة خير، ووقف النصف الآخر على الابن الأكبر، ولعلّه لم يشأ أن يوقفها كلها للأخ الأكبر حتى لا يوغر صدر ابنه الشّرير عليه فيعرّضه بذلك لأذاه... واستيقظ رؤية لآظ بعد حلم طويل بالثروة الواسعة على فقر نسبي، فلم يعد يملك من حطام الدنيا إلا ربع وقف ورثه في ذلك الوقت من أمه. وهي غير أم أخيه. يقارب الأربعين جنبها شهرها وبينها ذا طابقين في الخلمية انتقل إليه بعد طرده من قصر لآظ. وأثارت تلك الأنباء شجناً في بيت جدي صغقت له ضلوع الذين يشفقون على مستقبل الولدين الصغربين، فقد تضاعلت نفقتهم، وتجهّم مستقبلهم. وتشاور جدي وجدي وأمي في الأمر، وانتهى بهم تبادل الرأي إلى أن يقابل جدي لآظ الكبير، وأن يستعطف قلبه للولدين البرشين حتى يغيّر وصيته لصالحهما، ومضى جدي إلى قصر لآظ، وحادث الرجل فيها جاءه من أجله، ولكنه وجد منه قلباً قاسياً وأدناً صمّاه، ولعن بمحضرة الابن وفزّيته، فعاد جدي عزوّناً نائراً.

وكان من سخرية الأقدار أن مات لآظ بك في نفس العام الذي سعى ابنه فيه إلى القضاء عليه. وانقضى من الدهر سبعة أعوام فبلغت أختي راضية الثامنة، وبلغ أختي مدمت السابعة أو نحو ذلك. وفي ذلك التاريخ حدث ما غير مجرى حياة أسرتنا الهادئ. وشاءت الأقدار أن يتمّ ذلك التغيّر بمحادثة تافهة ممّا يعرض في الطريق، إذ كان جدي يقادر نادياً للفرار بشوارع عباد الدين قبيل الفجر بقليل فرأى نفرًا من السوق يلتفون بأفندي ويوسعون ضرباً وهو يتخيّط بينهم هاجباً مترنّحاً، فبادرهم هاتفاً أن يكفوا عنه، ومضى صوبهم غاضباً، ثم لحق به شرطني على الأثر. وما كاد النفر يتفرقون حتى رأى جدي رؤية لآظ في حالة سكر بين وقد سال الدم من أنفه. ودهش جدي وتولّاه الارتباك موقع الدهشة، ولكنه تقلّم من الرجل دون تردّد وسنده بذراعه وهو يوشك أن يقع. كان ما مضى قد سحب النسيان عليه ذبوله أو كاده، وكان الرجل من الناحية الأخرى يوالي إرسال النفقة لولديه

الزمان يأوي إليه حام الذكريات، الساجع بالحنين إلى ما انقضى من أعمارنا، فلا تَقَبُّ في غيايات الماضي عن أقصى ما يستطيع أن يستقبله رأسي من موجات الذكريات، إنِّي أغمض عيني متوارئاً عن عالم المحسوس، كي أهيئ لروحي سَكينة تنطلق فيها إلى الماضي الخالد. ولأعترف أنَّ شديداً الحنين إلى الماضي، وقد بَتَّ في هذه الفترة الأخيرة أشدَّ ما أكون حنائاً إليه، ولعلَّ ذلك مَنِّي ليس إلَّا توقُّفاً صريحاً إلى الطفولة، وإنِّي لأدرك ما في هذا الحنين والتوق من خطورة هي سرٌّ دائي الأسيف في الحياة، ومع أنَّني عشت حياتي متطلِّماً إلى ذلك الماضي - راضياً أو سائحاً - شديد الشعور بما يشنِّي إليه من رباط وثيق، إلَّا أنَّني أقف عاجزاً حيال سبغه الكثيفة، ترتدُّ ذاكرتي حسيرة عن أرقِّ عهوده وأخطرها. ها أنا أغمض عيني في تشوُّف وتساؤل، فيعشو بصري إلى نور خافت، أرى يدي الصغيرة وهي تُغتنِّد إلى القمر من عل كنف أمي. يا لها من ذكرى! ولكم تُغتنِّد أيدنها إلى أبقار ليست دون ذلك القمر مثلاً، وتماوذي ذكرى جهد مضن بذلته كي أزدرد حلمة اللذي فيصنِّي شيء مَرَّ مذاقه. وشارب جدي الحلالِ وأمامي تشدُّه في سرور لا مزيد عليه. وتحطيم أصص الزهور، وكيف هوت إحداهما مرَّة من حافة الشرفة على ذراع البُواب النوبي فكادت تكسرها. وكان من عادتي ألاَّ أستسلم للنوم حتَّى أمتطي منكب أمي فتذهب بي ونحيي بطول البيت وعرضه، وكلِّما توانت حشيتها بقدمي. وكنت أرفل دائماً في فسائين البنات، وشعري مسدل حتَّى المتكئين. وقد بدا لأمي يوماً أن غمَّتْ لي بلفلة عسكريَّة عملاقة بالنجوم والنشائين، فارتدبها مسروراً، وقطعت البيت في عجب وخيال، ضابطاً عظيمًا ذا ضفيرة تهادى على ظهره! ولم يكن جدي يرتاح إلى ذلك التذليل المفرط. ولكنَّه لم يجد من وقته مسماً للإشراف على تربيته، إذ كان يغادر الفراش عادة عند الظهر ولا يرجع إلى البيت من نادي القهار إلَّا قبيل الفجر. وكان من ناحية أخرى يشفق من تكدير أمي لسوء طالعها، ولأنَّه لم يبقَ له في شيخوخته سواها. عشنا ثلاثتنا وليس للأب

نفس الشهر رُؤت أمي إلى زوجها السابق واجتمع شمل الأسرة. ولكن لم تدم هذه الحياة الجديدة إلَّا أسبوعين! بل لعلمها لم تدم إلَّا يوماً واحداً، وتحملت أمي بقيتها صابرة متصيرة حتَّى أقضها الإشفاق على طفلها من شرِّ السكير العرييد، لحملتها وفرت إلى جدي المسكين. وثار الرجل ثورة عنيفة، ومضى لثوره إلى التائب الزائف وانهار عليه تعنيفاً وتقريعاً وازدراء، واستمع الآخر إليه صامتاً، ثمَّ قال له إنَّ زوجة هي الملوثة لأنها لا تدرُّ العيش معه وإنَّه لا ذنب له إلَّا أنَّه يسكروا وغادره جدي يائساً وبهذه شهادة الطلاق. انقطعت حياة الزوجية إلى الأبد، وكنت أنا ثمرة تلك الثوب الكاذبة!...

وقد سمعت جدي يمازحني يوماً فيقول لي: «لقد جئتُ إلى هذه الدنيا نتيجة لحساباتي أنا دون سواي...» ولكن ما أكثر الذين جاؤوا هذه الدنيا في أعقاب الحفلات. ونشأت في بيت جدي، فلم أعرف بيتاً سواه، بل لم أعرف من الأهل غير جدي وأمي، لأنِّي حين أخذت أمي ما حولي كان أبي قد استرَّه أخيه وأخيت، وكانت جدي قد ماتت. ولم أعرف أنَّ لي أباً إلَّا بلسان أمي، وحديثها المضمع مرارة وحزناً، فتمتَّ كراهيتي له على الأيام. وقد اتَّمتَّ الرجل قسوته عليها فلم يكتب باسترداد ابنه وابنته، ولكنَّه حالَّ بينهما وبين رؤية أمهما، فمرَّت الأعوام تلو الأعوام وهي لا ترى لها أثراً. وترامت الأخبار إلينا تقول إنَّ الرجل يكاد يعبس نفسه دون العالم كلَّه، فأرأى من الدنيا وما فيها بسكر متواصل لا يفيق منه نهائاً ولا ليلاً...»

II

كان بيت جدي بالمثل مولدي ومعلمي وديني. وكان يتكوَّن من دورين كبيرين نقيم في الأعلى منها، وله فناء صغير. لست أريد التحدُّث عن البيت، ولكنِّي أنهلُّف على استعادة الماضي. وما من ماضٍ إلَّا وله بيت يحوم حوله ذكرياته. إنَّ حياتي لا تنفصل عن ذلك البيت أبداً، ولن تنفصل عنه ما حييت، وما البيت ببناء وعمارَة وهندسة، ولكنَّه برج ثابت في

مضى يزداد بتدرجي في مدارج النعم، وآي ذلك أنها أقبلت تحوّفي أشياء لا حصر لها لتردني عما أطلع عليه من حرّية وانطلاق. ولتحتفظ بي في حضنها على الدوام. ملأت أفني بقصص المغامرات والأشباح والأرواح والجنان والقنطة والصوص، حتى خلعتني أسكن عالمًا حافلًا بالشياطين والإرهاب، كل ما به من كائنات خليك بالحذر والخوف. ذاك عهد بعيد، ولكنّه لا يزال حيًا في صدري ودمي، وهو الذي جعل من الخوف جوهرًا أصيلًا في نفسي تدور حوله حياتي جميعًا، فنقص علي صفوي، ورماني بتمسلة لا ترمي، وما أنا إلا مخلوق خائف لولا قيد الجسد لفرت روحه ذعرًا، وأخاف الناس، وأخاف الحيوان والحشرات، وأفرق من الظلام وما يرصدني من أوهامه، وأحامي جهدي أن أنفرد بقطعة، وميهاة أن أنام في حجرة بمفردي. على أن الخوف كان أعمق في حياتي من هذه الأشياء التي يتمثل لي فيها، لقد استطال ظله الكثيف حتى أظلل الماضي والحاضر والمستقبل، واليقظة والنوم، وأسلوب الحياة وفلسفته، والصحة والمرض، والحب والكراهية، فلم يترك شيئًا خالصًا. وقد عشت جلّ حياتي الماضية فرًا جاهلًا لا أدري لتعاسي سببًا، ثمّ جلّت لي المحن جوانب من حياتي، هاتكة بقسوتها ما استتر من الخفايا الأسيفة، بيد أن شعوري بالعجز لا يفارقني، وهو يستند في الحق إلى قصور ثقافتي وضعف ثقتي في قوای العقلية. كانت أمي مبعث هذه الآلام ولكنها كانت الملاذ الوحيد منها، فأويت إليها في غير حيلة...

ومن ذكريات ذلك العهد التي لا تنسى، موقفنا - أنا وأمّي - على قبر جدّي في المواسم تكلمه بالرياحين ونقرأ الفاتحة مترجمين. وكنا نتحدّث كثيرًا عن القبور وأهل القبور، وكيف يرقدون، وكيف يستقبلون، وماذا يلقون من شدّة وحساب، وكيف تنزل عليهم الآيات نورًا، يُذهب وحشتهم ويلطف جفوتهم، ولما كان القبر قبر أمّ أمّي فقد أحبه حبًا جسامًا. وكنت إذا وجدت منها غرة هرعت إلى جانب منه، أنشبت في ثراه أطافري، وأحفر في عجلة لعلي أطلع على ذاك المجهول

إلا أبته وليس للآم إلا أبها، وكسأت أمي تنفوس لذكريات انخفي وأحي بعين دامعة وفؤاد كسير، وتتلهّف على رؤيتها ولو ساعة واحدة، ولم تجد في حزنها من عزاء سواي، فأودعني حضنها، لا تحب أن أبرحه، وتودّ لو أجعل منه مرتمي ومرامي وديني جميعًا. وعفت نسائم الحياة رخاء، فلم أدرك إلا بعد فوات الوقت أنّه كان حننًا شاذًا قد جاوز حدّه، ومن الحنان ما يُهلك. كانت مصابة في صميم أومنتها فوجدت في أنا السلوى والمزاء والشفاء، كسّمت حياتها جميعًا لي، أنام في حضنها، وأقضي نهارني على كتفها أو بين يديها، وحتى في الأوقات التي كانت تتمعدّ فيها شئون البيت لم أكن أفارقتها، أو لم تكن تدعني أفارقها، وحتى في المطبخ كنت أمتطي منكبها مفترشًا رأسها بخدي متسلّيًا بمشاهدة الطاهي وهو يشعل النار ويقطع اللحم ويغزط البصل، بل كنتا نستحمّ معًا فتحتظني في طست حارًّا، وتجلس أمامي متجرّدة فأرشفها بلاله، وأقبض على رغوة الصابون النافثة على حصداء فادلك به جسدي، ولم تكن تغادر البيت إلا قليلًا، فصلتنا بال أبي مقطوعة، وخالتي كانت تقيم في ذلك الوقت بالنصورة مع زوجها، فإذا خرجت في النادر لزيارة إحدى الجارات اصططحني معها. على أننا كنتا نواظب على زيارة السيّد زينب، ولعلّها الزيارة الوحيدة التي كنتا ننظرها بفارغ صبر. ولم يكن يسببها شيء مثل أن تنهي على امرأة من معارفها بما يشي به على الأطفال عادة، فكانت تطير من الثناء وترقيني من العين في إشفاق عميق، ومن عجب أمّي لا أذكر التعاويد والرقى باستهانة أو ازدراء، وأني لمؤمن بها، بل إنّي لأؤمن بكل ما كانت تؤمن به أمّي. وقد نلت من الثقافة حظًا، وحصلت على البكالوريا، ولكن بقي لي إيمان القديم سالمًا غير منقوص، وهيهاة أن يتزعزع إيماني بالله ورسله وأوليائمه والدعوات والتعاويد والأضرحة.

بيد أنني لا أستطيع أن أقول إنّي استكنت إلى تلك الحياة بلا تحمل. ولعلّي ضقت بها في أحيان كثيرة، وتطلعت إلى الحرّية والانطلاق. ولعلّ ضيقي ذاك

خرجنا معاً لزيارة السيدة. إذا كنت تحبني حقاً فلا تفارقي.

ولاح في وجهي التضرع والامتصاص فاستطردت تقول:

- لقد حُرمت رؤية أختك وأخيك، ولم يبق لي في الدنيا سواك، وما أنت تودّ فراقني، ساعك الله... فتودّدت إليها قاتلاً:

- إني أحبك أكثر من أي شيء في الدنيا، ولكنّي أريد أن ألعب...

ولكنّها لم تكن لتدعني لسرغتي تلك، وكنت إذا ضقت بإصرارها نكيت أو ثار بي الغضب ثورة لا أعفُ فيها عن شدّة شعوري وتمزيق ثيابي، ولكنّ شيئاً لم يكن ليجمعها تدعني لرغبي في الابتعاد عنها. وفيها عدا ذلك لم تدخر وسعاً لمرضائي. كانت تبتاع لي اللعب أشكلاً والواناً. وإذا لمست ضيقي ومللي دعت بطفل من أطفال الجيران ليشاركني لهُوي تحت سمعها وبصرها. بيد أنّ ذلك كلّهُ لم يروّغني، فتحنّنت منها غفلة يوماً وانسللت هارباً من الشقة أكاد أخرج من جلدي فرحاً، واستقبلني الأطفال في الفناء بدهشة وترحاب معاً. ومع أنّه كان يتنا شبه تعارف إلّا أنّه لم يسعى الاقتراب منهم، فوفقت مكاني في ارتباك وحياء، وسرعان ما أطلت أمي من الشرفة ونادتني في حدّة الغضب، ولكنّ أكبر الأطفال تقدّم منّي، ودعاني إلى اللعب، وهو يقول لي: «لا تبالها!» ولأوّل مرّة لم أبال صوتها. فاندفعت إلى حلقة اللعب، وأخذت مكاني في سرور لا يوصف، ولم تكذب دقاتي حتّى شجر خلاف بيني وبين أحدهم فلفطني على وجهي، وفعلت ذمّلاً شديداً فلعلّها كانت أوّل لحظة تلقّيتها في حياتي، وارتميت على ساعده وغرست فيه أسناني، ولم يتردّد رفاقه فانهاكوا عليّ ضرباً وركلاً، وترعدتهم أمي في غضب شديد، ولكنّهم لم يقلعوا عني حتّى هدّتهم بقلّهم بالقلة، فغادروني في حالة يرثى لها. ودعيتي للصعود إليها، وكنت ألهث والدموع ملء عيني، فقهرني الحياء وتسرّعت قدمي فلم ألبّ نداءها، ولم أرفع بصري عن الأرض، ولم أفارق موقعي حتّى جاء

المنطوي تحت الأرض. ولشدّ ما كان يحزّ في نفسي أن اسمعها تردّد: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون» أو «آخرتنا التراب» أو «الموت نهاية كلّ شيء» فسألتها مرّة في دهشة.

- سموت جميعاً؟

فساءها السؤال، وحاولت أن تلهي عنّي، ولكنّي وقفت عنده لا أترجّح فقالت:

- بعد عمر طويل إن شاء الله.

فرمقتها بإشفاق وسألتها مرّة أخرى:

- وأنت يا أمّاه...

فقالت لي وهي تداري ابتسامة:

- طبعاً. ساموت يوماً ما...

فوقع قولها من نفسي موقفاً أليماً وهضت بها:

- كلا... كلا... لن نموت أبداً.

وربّيت على رأسي بحتان وقالت برقة:

- ادعُ لي بطول العمر، كما ادعُ لك يستجيب لك الرحمن الرحيم.

وبسطت كفيّ الصغيرتين ودعوت الله من أعماق قلبي، وعياني مغرورتان بالدموع.



أظّل الدهر في حجرها كآثني عضو من أعضاء جسدها! جاوزت الرابعة من عمري، وجاء سنّ الرفاق واللعب. ولم يكن لي من مهرب في البيت إلّا الشرفة، وهي تطلّ على فناء البيت، وتشرّف على الطريق. وكان أطفال الأسرة التي تسكن الدور الأوّل يلعبون في الفناء، فجعلت أنظر إليهم بيمينين مشوّقين، فينطلقون أحياناً بأعين قرأت فيها دعوة صامتة اهزّت لها جوانحي، واستأذنت أمي يوماً في الانضمام إليهم، فقالت لي يارتباع: ماذا حدث لعقلك؟... ألا ترى أنّهم لا يكتفون عن العراك؟!... ما عسى أن أفعل لو ضربوك أو جرحوك؟... أو خرجوا بك إلى الطريق لا تنقطع به العربات؟ بل ماذا تفيد منهم إلّا الشقاوة وسوء الأدب؟ أمّا أنا فأفصّ عليك القصص، وإذا شئت

لإقامة شقيقتها بيتنا ذلك الشهر، لا لغور في عواطفها نحوها، ولكن لأن أبناءها استأثروا بي من دونها، وأفسدوني عليها. وشكت مرةً إلى خالتي ما تخافه عليّ من حوادث الطريق، فضحكت المرأة باستهانة وقالت لها بلهجة لم تخل من لوم:

- «هل ابنك من لحم ودم وأبنائي من حديد!... قوي قلبك وتوكل على الله!.. أمّا أنا فقد نسيت في سعادتي الشاملة تعاليم أمي جيّداً، واستسلمت للسُرور شهراً صادف حياتي الرتيبة كالحلم البهيج، وألقيت بنفسي في أحضان اللعب بشراقة وفهم، لا أشتعر تعباً ولا مللاً. وفي الليل إذا أوبنا إلى البيت كنت أضع حاملة زوج خالتي على رأسي وأحكي لهجته في الحديث، وأتجسّأ كما يتجسّأ، وأتمتع عقب ذلك قائلاً: «استغفر الله العظيم» والكسل من حولي يضحكون!

كان شهراً كالحلم، ولكن الأحلام لا تدوم. وقد انقضى. ورايت بين الحسرة والحطاب وهي تُعَدُّ وتكُوم استعداداً للرحيل. وحسّ الغراق، فكان عناق وسلام، وحملتهم العربة جيّداً ومضت، وأنا أودّعهم من الشرفة بطرف دامع كبير.

وقالت لي أمي:

- كفك لعباً وجرياً في الشارع، ثب إلى رشدك، وعد إليّ كما كنت لا تفارقي ولا أفارقك.

وأصغيت إليها في صمت. كنت أحبها لمؤازري ولكنّي كنت أهقر كذلك للعب والمرح. وبدا لأمي أن تحضر لنا خادمة صغيرة، وسمحت لها بأن تلاعبي تحت سمعها وبصرها. فكانت رفيقاً خيراً من علمه على أيّ حال، كانت صبيّة حميمة، ولكنّها كانت أفضل لي من الطاهي الهرم وأمّ زينب المعجوز. وكانت أمي محافظة على صلاحها، فجعلت أقدّمها إذا صلّت، ولعلّها وجدت الفرصة مناسبة فضمت تلقائي مبادئ الدين كما تعرفه. عرفت الدين مبتدئاً بالجنت والنار، فانضاضت إلى معجم غاوي كليات جديدة، بيد أنّها كانت مصاحبة هذه المرة لعاطفة صدق وحب وإيمان.

البوّاب فحملني إليها. وغسلت لي وجهي وساقّي وهي تقول في انفعال شديد:

- تستاهل... تستاهل... هذا جزء من مخالفت رأي أمّه، إنّ الله يغفر كلّ شيء إلاّ من يعاند أمّه، فلن يغفر له. هذا هو اللعب مع الأطفال، فكيف وجدته؟!!

ألثني هزيعي أمامها أضعاف ما ألثني الضرب، ورحمت أوكّدت لها كذباً أنّ الحقّ كان عليّ، وأنّي كنت المعتدي. ومن عجب أنّ أمي نفسها لم تكن تكتر من الاختلاط بالناس، فلم يألّف بيتنا الصيوف إلاّ فيها ندر. وكان جدّي يضيّق عزلتها، ويغثّها دائماً على المعاشرة لتسرّي عن نفسها. ثمّ شاء الله أن يؤنس وحشتنا، فحلّت خالتي ضيفةً ببيتنا هي وأسرّها! كانت خالتي تقيم مع زوجها - مدرّس لغة عربيّة - بالمنصورة، فانطلقوا إلى القاهرة ليقضوا بيتنا شهراً من العطلة الصيفية. وجدت نفسي بين سته من الأولاد وبنت، فألفت الزمام من يد أمي على رغمها. وكان أكبر الأولاد في العاشرة، وأصغرهم يبيع، فانقلب البيت الهادئ سرّاً تقفز به القروء والنسائس، فلبعت ولحوت حتّى كنت أجبر من الفرح والسُرور. لعبنا الجديد والحجلة، والوايو، والاستغاية.

ولمّا ضبقنا بالبيت انطلقنا إلى الطريق وأنا لا أكاد أصدّق. وأرادت أمي أن تحول بيبي وسين الانطلاق معهم، ولكنّ خالتي تصدّت لها قائلة:

- دعيه يلعب مع الأولاد يا أختي!.. لو كان بيتاً ما جاز لك أن تحجبيه قبل الأوان!

كانت الشقيقتان مختلفتين في المزاج على تقاربهما في الشبه. كانت خالتي مفرطة في السمنة، ميّالة للمرح والمزاح، لا تكرب نفسها بالقلق على أبنائها بغير داع. وكانت إذا غادر جدّي البيت غثت بصوت لطيف محاكية «نيرة المهديّة». أمّا أمي فتبدو على العكس من هذا كله. فهي نحيفة، متزويّة، كثيرة المخاوف والقلق، مفرطة في الختان لحذّ الشذوذ. وقد أرمقت ظروف حياتها أعصابها، فكانت لا تكاد تخلو إلى نفسها حتّى تلقّاها كآبة شاملة. ولعلّها لم ترتع كلّ الارتياح

٦

- أنت الآن تلميذ عظيم، وستفتح المدرسة يوم

السبت القادم...

وأعلنت أمي عن ارتياحها، ولكنها لم تستطع مداراة ما اعترأها من كآبة، حتى برم بها جدي وقال لها بشيء من الحدة:

- ماذا تفعلين غداً إذا بلغ السابعة وأخذته أبوه!

فرمقت جلتي بنظرة فزع وألم وهفت قائلة:

- لن يكون هذا وأنا على قيد الحياة.

وفي يوم السبت المتظر أوصلني جدي إلى المدرسة وعاد من حيث أتى. وقد تلمّعت بيده وهو يفادرنى، واستشعرت خوفاً مبالغاً أنساني طول اشتياقي إلى تلك الساعة، واقترحت عليه أن يمود بي! ولكنه ضحك ضحكته الرثانة وقال وهو يومئ بأصبعه إلى التلاميذ:

- إليك أهلك الجدد...

وقفت على كتب من الباب في ارتباك لم أعاني مثله من قبل، وتولّاني النعم، ونظرت إلى التلاميذ المتفرقين في الفناء يخوف وحياه، وفتيت ألا تقع عين عليّ. ولكن أناتي وجدة ثيابي لفتنا إلى الأنظار فخفضت بصري في خجل شديد. وتساءلت حثام يطول ذاك العذاب؟ بيد أنّ غلاماً اقترب مني وحياتي، ووقف معي كأننا أصدقاء. ثم سألني بغير مناسبة:

- هل أبوك الذي جاء بك؟

وكنيت أعدي جدي جداً وإياها، فنحيت رأسي دلالة

الإعجاب، فعاد يسألني:

- ما مهنته؟... وما اسمه؟

ولئن كان الحديث فضائلي، إلاّ رجحت بذلك السؤال خاصة، فقلت بفخار:

- الأميرالاي عبد الله بك حسن.

وقال لي الغلام إنّ أباه فلان بك كذلك وقد نسيت. ولملّه ضاق بصمتي وجودي فنادني وأنضمّ إلى غربي من الرفاق. اشتدّت بي الوحشة وتساءلت ترى أستطيع أن أندمج في أولئك الغلمان؟ هل يمكنني حتّى أن الاعيهم أم تتكرّر المأساة التي وقعت في بي فناء بيتنا؟ ونقبّس قلبي خوفاً، ولو واتني الشجاعة على الانسحاب من موقعي والعودة إلى البيت لفعلت. ثم

وأدّت حال أمي تلك معي إلى تأجيل تاريخ التحاقني بالمدرسة، فقاربت السابعة دون أن أتعلّم حرفاً. وتدخل جدي في الأمر، مدعاني يوماً إليه وهو جالس بالشرقة على مقعده الطويل المزّاز، وحرك أذني مداعباً وقال لي:

- طالما رغبت في الانضمام إلى أترابك من الغلمان، فالآن قد فكّ الله أسرك، وسأذن لك بالاشتراك معهم في حياتهم عمراً طويلاً، ستدخل المدرسة!

أنصتُ إليه في دهشة بادئ الأمر إذ لم أكن أدري شيئاً عن المدرسة، ثم بدا لي أنّه سيطلق سراحني فنظرت إلى أمي بين مصدّق ومكذّب، ولشّدّ ما دهشت حين رأيتها تبسم إليّ في تشجيع واستسلام، لتابعني الحبور في صدي ثياباً، وهفت بجدي متسائلاً:

- هل اللعب في المدرسة كاللطف؟

فهرّ الشيخ رأسه الأبيض وقال:

- طبعاً... طبعاً... ستلعب كثيراً وتعلّم كثيراً، ثمّ تصير فنياً بعد ضابطاً مثلي...

فسألته في لفة:

- متى أذهب؟...

فابتسم الرجل قائلاً:

- قريباً جداً، سأقيد اسمك غداً...

وفي صباح الغد - وكنا في مطلع الحريف - ألبسني بدلة وطربوشاً وحذاءً جديداً فمأودتي ذكريات العيد السعيد، ومضى بي جدي إلى عطفة قاسم غير بعيد من بيتنا، ودخلنا ثاني بناء صادفنا إلى اليسار، مدرسة الروضة الأولى الأهلية، وقد وقع عليها الاختيار لقربها من البيت، كانت تتكوّن من فناء متوسط ودور واحد من ثلاث حجرات، فصلين وحجرة الناظر. وقد استقبل الناظر - وهو صاحب المدرسة أيضاً - جدي بالاحترام والإجلال، ولاطفني في محضرة برقة، وأطرى نظافتي وجدة ثيابي، فانتست إليه واستبشرت به خيراً. وتمّ لإثباتي بين تلاميذ المدرسة في دقائق، ودفع جلتي المصروفات، وعدنا وهو يقول لي:

وارتفعت السلم وثبًا، وفي الشقة وجدت أمي في انتظاري، فهتفت بي ليا راتني:

- أهلاً بنور العين...

ووقع بصرها مصادفة على البنطلون، فبدا في وجهها الانزعاج، وتمتصت بصوت منخفض:

- رياه... بلت على نفسك!

وانفجرت باكياً، وقلت لها متحجاً:

- لن أعود إلى المدرسة، إن جدي لا يدرى عنها شيئاً، وإني أكره الناظر والمدرسين والتلاميذ، أغضبني منها ولن أبعد عنك ما حيث...

فجففت دموعي، ونزعت ملابسي، وهي تقول رقة:

- لا تقل مثل هذا الكلام، ستألفها وعجبها، كيف تبقى في البيت والغلمان جميعاً في المدرسة؟ وهل يمكن أن تصير ضابطاً مثل جدك إذا تركت المدرسة؟!

وواصلت البكاء، وألححت في الشكوى، ولكنها جعلت تلتطف من حزني وتحليني من السرح لجدي شكواي أن يقضب ويغفري. ولأول مرة أعارت دموعي أدناً صيهاً.

وبدا لها - تشجعي على مواصلة الحياة الجديدة - أن توصلي كل صباح إلى المدرسة، فكنا نذهب يوماً، وأدخل أنا المدرسة بينما تقف هي على الطوار المقابل لها، وأظن ملازمًا للسور، أبادها النظرات والانسام من خلال قضبانها، والكأبة ترين على صدري والضيق يمسك بخناق. كرهت المدرسة وحياتها جميعاً، ولكني أجبرت على اللعب إليها، ولم ينضمي عصياني ولا بكائي ولم ينشأ عني شيئاً، فأبقت أنه قضي عليّ بسجن طويل الأمد. ولأول مرة وجدني أحسد الكبار على حريتهم، وأغبط النساء على قبوعهن في البيوت. وإلى ذلك العهد يرجع سروري بيوم الخميس، فكان اليوم المفضل عندي من الأيام، أما بقية أيام الأسبوع فقد جفوتها واستغفلتها، وكنت أستمع الكأبة ابتداء من أصيل يوم الجمعة، وعز السبب والاحد والاثنين

دق الجرس فألقني من أفكاري، وأوقفونا صفًا، وأدخلونا الفصل. لم أكن أتصور حتى ذلك الوقت إلا أنني التحقت بملعب كبير، فلما أن جلست إلى مقعد، وراح المدرس الشيخ يفتتح العام الدراسي بالإرشادات التقليدية الخاصة بالنظام وعدم الحركة والكلام، أبقت أني دخلت سجنًا... وتولتني الدهشة والانزعاج، ترى أخطأ جدي أم خدعوه؟ وطار خيالي إلى البيت فتمثلت لي أمي في جلستها وحيدة، وتساءلت ترى هل نسيته؟ إنها الآن تراقب ألم زينب وهي تكس الحجرات وتنفض الأثاث، ألم تفكر في؟... هل تطيق فراقك طول اليوم كله؟ وانتهت الحصة الأولى دون أن ألتفت لحظة واحدة إلى كلام الشيخ، ولا عجب، فقد قررت أن يكون ذلك اليوم الأول والأخير. وفي دقائق الاستراحة رأيت الناظر يمر بباب الفصل، فتنصت الصعداء. ومضيت نحوه بلا تردد إذ لم أكن نسيته لطفه ورقته، والقرتبت منه في حياء، فالتفت نحوني في دهشة، ورمقي بعينين جامعتين متساثلتين فظنته قد نسيني، وقلت بصوت لا يكاد يسمع:

- أنا ابن الأميرالي عبد الله ملك حسن.

فسألني بدهشة:

- وماذا تريد؟

فلممت أطراف شجاعتي وقلت:

- أريد أن أعود إلى البيت.

فصرخ في وجهي بصوت غليظ كالرعد:

- عد إلى مقعدك... عمي في عنك...

وأذهلني صراخه، فعدت إلى مكاني يكاد يغمى عليّ من الرعب والألم. وليت في مكاني مروءة محزونًا. وفي أثناء النهار شعرت بحاجة إلى التبول ولكني كتمتها في خوف شديد، ولم أفكر مطلقاً في استئذان المدرس في الخروج. وغلبني الحياء في القسحة فلم أستطع أن أسترشد بأحد عن موقع المراض. وجعلت أتململ تململ الملوغ، واشد على ركبتي في ألم وجزع. ومر الوقت في ثقل وعذاب حتى دق جرس الخروج فاستطعت ساقني للريش، فبلغت البيت في ثوان،

الفاضة. ولما أكلع جني على الشهادة غضب.
وقال لامي بحلة:

- هذا نتيجة تدليك... لقد... أفسدته يا
سقي.

ثم توعد الناظر شراً، ومضى لمقابلته في المدرسة.
ورجع إلينا بعد ساعة وهو يقول بارتياح:

- نجحت يا سيدي بالقوة، وإياك أن تسقط في
السنة التالية!

وكان يدايني أمل بأن سقوطي ربما عدل بهم عن
إرسالني إلى المدرسة، فلما بئرني بذلك النجاح المنصب
خاب أمل. وجاءت السنة الثانية فلم تكن بخير من
الأولى. وزاد من شقائي هفوة لسائية عثرت بها
فضاعت من تنقيص حياتي بقية المدة التي قضيتها في
الروضة الأولى، رفعت أصبعي مرة لاستاذن المدرس
في الخروج، ولكن بدلاً من أن أدعوه «يا أفندي»
أخطأت وأنا لا أدري فقلت له «يا نينة».

وضج الفلّان بالضحك، وضحك المدرس نفسه
وقال لي بسخرية:

- إيه يا سيد أمك؟...

وتفقه الفصل بالضحك، وتولاني الدهول، ولبثت
ذاهلاً حتى اغروقت عياني، لم يكن لي فيهم رفيق أو
صديق، فقد بدا عجزني عن اتخاذ الأصدقاء منذ ذاك
المهد البعيد، فلم يرحمني أحد منهم، ودعوني منذ
تلك الهفوة نينة حتى غلبت على اسمي الحقيقي،
وكنت أحمأهم مقهوراً مغلوباً على أمري ونار الغضب
ترعى صدي.

وفي نهاية العام جاني شهادة الأصفار فاثممت أمي
المدرسة. وقرر جدي أن يلحقني بالمدرسة الابتدائية،
ولما كنت متخزجاً في مدرسة أهلية اشترط الناظر أن
أؤذي امتحاناً، ومضى جدي بي إلى المدرسة قبيل
افتتاح العام الدراسي، وانتظر نتيجة الامتحان. ولم
تكن بحاجة إلى الانتظار، ورجا الناظر أن يقبلي
بصرف النظر عن نتيجة الامتحان، وأراد الرجل أن
يجمال جدي لكبر سنّه ومقامه فطلب إليّ أن أكتب
اسمي «كامل رؤية» ولكني أخطأت في كتابة رؤية

والثلاثة في ضيق وتبرّم، حتى يأتي صباح الأربعاء
فانتسّ الارتياح، ثم استيقظ عند الفجر الخميس
وانقلب تحت الغطاء في سرور وجور والدنيا لا تسعني
من القرح. ولذلك تفوّقت في دروس الخميس، ولم
نعد المحفوظات والديانة... على أنّ ذلك العهد لم يخل
من ذكريات تثير الابتسام، وإن بدت لي وقتذاك في
إطار من الجد والصرامة، من ذلك أننا كنّا نبتاع
السيد في الفسحة، وإذا أعوزنا الملح استعضنا عنه
بالجر الطافع من جلدان الفناء. وكان مدرّسنا الشيخ
بروق له أن يشرب كوباً من العرقوس في أثناء الحصة
الأولى، فكان إذا تناول الكوب يأمرنا بالوقوف ويأدّ إدارة
ظهورنا له حتى لا يصيبه مكروه من أعيننا النهمة.
وجاءنا يوماً متجهّين وقال إنّه شعر ليلة أمس بمغص
وأنّه لا يشك في أنّ أحداً استرق إليه النظر وهو
يشرب العرقوس، وألدنا إذا لم ترشد عن الجاني
بالضرب على أيدينا جميعاً، ولما كنّا نهجل الجاني فقد
شربنا جميعاً. وكان زميله الآخر شيخاً هرمًا رقيق
النفس، فلم يكن يضرب أحداً إلا إذا أهيتة الوسائل،
وكانت طريقته المفضلة في إسكات التلاميذ وضبط
النظام أن يخرّفنا بالعرفيت الذي يسكن أرض الحجر
من قديم الزمان، قائلًا إنّه لا يحبّ الضوضاء، وكان
إذا أفلت الزمان من يده يجلس القرفصاء وينقر على
أرض الغرفة ثم يقول بخشوع ورهبة «عفوك يا
سيدنا». إنهم لا يدركون شيئاً... لا تركبهم وساعهم
هذه المرة.

أما الدراسة فلمي لم أتعلم شيئاً على الإطلاق. ولعلّ
الفن الوحيد الذي أتيقنته في مدرسة الروضة الأولى هو
قياس الزمن بمراية تحوّل ضوء الشمس عن جدران
الفصل، وأنا أعد الثواني في انتظار جرس الخروج.
وكان المعنى الوحيد الذي يتضمّنه توجيه سؤال من
المدرس أنني سأضرب كذا مسطرة على ظاهر كفي. ولم
أحفظ في بحر عام دراسي إلا بعض السور القرآنية
الصغيرة التي كنت أسمع أمي ترنّدها في صلاتها.
وجاء الامتحان في نهاية العام فظفرت بجملة أصفار
تكفي لجعلي مليونيراً لو ظفرت بها في غير الشهادة

حقّ أبلغ التاسعة، وثُقلت الشفاعة بمعجزة من السماء. وما قد اقتربت التاسعة، ولسوف أُنتزع من أحضان أمّي ما لم ينتازل أبي عن حقّه في استردادي. وبكت أمّي يوماً في محضر جدّي وقالت له:

- لقد فقدت راضية ومدحت فلم تقع عليها عيني منذ تسع سنوات، ولم يبق لي إلّا كامل، فهو عزائي الوحيد في هذه الحياة، ولا أدري ماذا أفعل إذا سلبني الرجل إياه.

وهزّ جدّي رأسه الأشيب متبرّماً، وكان ذاك الحديث يكرهه، وقال لها:

- وماذا بيدي أن أفعل؟! هذا حكم الشرع وما لنا من حيلة فيه، والرجل الذي تعنيه هو أبوه على أيّ حال، وليس برجل غريب!

فهتفت أمّي في تألم واحتجاج:

- أبوه...! أتدعو هذا الوحش أباً؟! يا أسفي على راضية ومدحت في البيت الذي جعل السجّير منه حانة. إنّ الأبوة لم تختلج بصدوره قطّ. وكامل قد ترعرع في رعايتي وهبل من حناني، ولم يدّر شيئاً عن شوائد المحلوقات، فإذا أخذه الرجل هلك بين يديه، وهلك هنا وحدي...!

وخنقتها البكاء فامسكت عن الكلام مرغمة، ولمّا استردّت أنفاسها استطردت تقول:

- هل تصوّر يا أبي أنّ كامل يستطيع أن يعيش بعيداً عن أمّه؟ إنّ يديّ هاتين تطعمانه وتلبسانه وتنسّانه، إنّهُ يخاف خياله، وإنّهُ لثُزّعه زفريات الصراصر، فكيف يأنّذ الشرع بأن يُنتزع مثل هذا الطفل من أحضان أمّه؟!!

وقطب جدّي متبرّماً، وبدا وكأنّه ضاق بشكواها، بيد أنّ وجهه لم يكن مرآة صادقة لقلبه، وكثيراً ما كان يبلو ساخطاً والقلب منه نديّ بالرحمة، ولم يزد وقدّاك على أن قال: كفّاك شكوى وبكاء. إن قسم له أن يمكث بيتنا مكث، وإن أراد الله أن يذهب إلى أبيه فلا رادّ لقضائه...!

ذاك كان قوله، أمّا صنيعه فكان شيئاً آخر. فقد حزم أمره يوماً ومضى إلى أبي ليضامه في شأن

فاعتذر الناظر من عدم إمكان قبولي. وعاد بي جدّي وهو يسخر مني طوال الطريق، وقال لأبي وهو ينفخ: - لا فائدة ترجى من إعادته إلى المدرسة الأولى، فحاضر له مدرّساً خصوصياً هذا العام.

وانصتّ إليه وأنا لا أصدّق أفنّي، سألته وأنا أداري فرحي:

- هل أبقى هذا العام في البيت؟

فحدجني بنظرة غاضبة من عينيه الخضراوين وقال بغیظ:

- يا فرحة أمك بك!

V

واستقبلت عامّاً مشمراً لأوّل مرّة في حياتي، وجلست أمناً مطمئناً بين يدي مدرّسي الشيخ، أتلقّن مبادئ العربيّ والحساب. بدأت أخطو الخطوات الأولى في طريق التعليم، وإن مضت ساعات الدراسة في ثقل وضيق كالعادة، ولكي أضمن معاملة حسنة من المدرّس أجلسْتُ أمّي غير بعيد من باب حجرة المدرّس للاستجداء بها عند الحاجة، ولا عجب فإنّ ذكرى العامين اللذين قضيتهما في مدرسة الروضة - ما بين ضرب المدرّسين واعتداء التلاميذ - لم تمنح من نفسي قطّ. ولم أكن أقصّر حتى ذلك الوقت أنّ التعليم واجب ضروريّ ساؤذيه شطراً طويلاً من العمر، ولكنّي عددته عقاباً فُرض عليّ لسبب لا أدريه، ولم أبأس من أن يلين قلب جدّي يوماً فيمضي مني.

على أنّ أمّي لم تكن أسعد حالاً منّي. كانت تعاني عذاباً من نوع أشدّ. وقد ازدادت كآبة في تلك الأيام، فلم تكن تغلّو إلى نفسها حتّى تبكي مرّ البكاء. ولم تكن تجلس إلى جدّي حتّى تفانحه بالأمر الذي يقض مضجعها، أجل لم يعد يفصل بيني وبين التاسعة إلّا أشهر قلائل، فإذا بلغتُ حقّ لأبي أن يضمّني إليه، وهو لا بدّ فاعل كما فعل بأختي وأخي من قبل. وقد تبهّدنا ذاك الخطر حين بلغت السابعة، ولكنّ جدّي كتب إلى عمّي - وهو من كبار المزارعين في الفهيم - راجياً أن يستشف لي عند أبي ليتركني في كفالة جدّي

جدي وأشبعته يده تقيلاً وهي تقول بلهفة:

- حَقًّا؟ ... حَقًّا؟ ... هل رحم الله قلبي
الكبير؟

وأخذ جدي يفتل شاربته في ارتياح بينما عادت أمي
تسأله بنفس اللفظة:

- أرايت راضية ومدحت؟

فهز رأسه أسفًا وقال:

- كانا في المدرسة!

فدعت لها دعاء حارًا وحينها تغرورقان. ولم يكن
جدي يزورها لكرامته لابي، ولأنه لم يكن ينتظر
استقبالاً كريماً في بيته. ثم قصّ جدي كيف قابل أبي
في الفراندا وبين يديه زجاجة خمر وكأس مرتعة. وكيف
تلقّاه بدهشة واستغراب، وكيف أنه لم يعد له من عمل
في الحياة إلا الشراب، ولعلّ اضمحلاله ذلك الذي
جعله ينقاد لاقتراحه متنازلاً عن عناده القديم.

وقد بدا أول الأمر وكأنه يرتاب فيما يلقي على
سمعه، فلما إن تبيّنه ضحك في سخرية وازدراء من
غير ما معاندة أو غضب وقال ببساطة:

- لا دماغ لي للترية، ولأكون مرضعة من جديد.
خله عندك إذا شئت ولكن لا تطالني بمَلِّيم واحد،
هذا شرط صريح، وإذا طولبت بمَلِّيم واحد فيها
يستقبل من الأيام انتزعت منكم فلا تقع عليه أعينكم
ما حبيت.

وقبل جدي الشرط، وكان يحده مقدمًا من قبل
أن يذهب إليه، ولكنه عجب كيف أنّ الرجل لم يبد
عن آية رغبة في رؤية ابنه، ولا سأل عنه على
الإطلاق. ثم قال جدي:

- لم يعد رؤية لاط إنساناً، لقد انتهى الرجل.

فتمخمت أمي في حزن وكآبة:

- واحزنه على راضية ومدحت!

فقال جدي يطمشها:

- إنّ راضية في السابعة عشرة ومدحت في السادسة

عشرة، ولم يمودا طفلين...

وثبنا إلى طمانيتنا المعهودة، فنحنونا من ذاك الحوف

استبقاني في كفاله. والحق أنّ جدّي كان يحسني حباً
بالغا. أحبني لأنّي كنت أنيس شيوخته، والطفولة
تحرك في الشيخوخة أحياك الصدور، وأحبني لحبه أمي
التي لبثت إلى جانبه بعد وفاة جدّي ترعاه بحنانها
وعطفها وحبها. ذهب الشيخ إلى أبي وانتظرنا وأيدينا
على قلوبنا. ومرّ وقت الانتظار على أمي في عذاب لا
يمكن أن أنساه مهما امتدّ بي العمر. لم يكن ليقرّ لها
قرار أو يسكن لها جانب، وجعلت غطاطي حينا
وتخاطب نفسها أحياناً. ودعني مرّات إلى مشاركتها في
الانتماء إلى الله أن يكلم مسعى جدي بالنجاح.
ومضيت أرقبها بعينين عزوبتين حتى انتقلت عدوى
قلقها إلى صدري فاستمرت باكياً، انتظرنا طويلاً - أو
هكذا خيل إلينا - يشملنا حزن وقلق، تسبح أعيننا
دمعاً، وتلهج ألسنتنا بالدعاء، حتى سمعنا جرس
حنطور فهرعنا إلى الشرفة، فرأينا جدي وهو يقطع فناء
البيت بخطاه الثقيل... وعدنا إلى الباب ففتحناه،
ودخل جدي صامتاً وهو يحدجنا بنظرة لم ندرك لها
معنى.

ومضى إلى حجرته فحينها وقد خانت أمي الشجاعة
أن تسأله عما وراءه، وراحت تهمس بصوت متهذج «يا
ربي... يا ربي!» وخلع طربوشه بأناة وهو يتحامي
عني أمي، ثم جلس على مقعد كبير قريب من
فراشه، ثم ألقى علينا نظرة طويلة وقال بصوته
الأجش وكأنما يخاطب نفسه:

- رجل مجرم! ... ماذا كنت تنتظرين من رجل
مجرم؟

وابيضّ وجه أمي وارتعشت شفتاهما، ولاح في
عينها القنوط، وجعلت أرّدد بصري بين جدّي وأمّي
في قلق وخوف. وتركنا جدي لشفتائنا هنيهة، ثم رثي
لنا فرفع عن وجهه نقاب التجهم، وقهقه ضاحكاً،
وقال بصوت ينم عن الظفر:

- لا تقنلي نفسك كمداً يا أمّ راضية. فقد أذهن

الشیطان بنير نعب طويل.

بهتنا بادئ الأمر، ثم تهلّلت وجوهنا بشراً، وتلاّلا

نور الفرح في عيني أمي، ثم جثت على ركبتيها أمام

الغريب، وزاد طبعي تعاسة ما جُبلت عليه من صمت وحي وحصر، فلم أحسن الكلام فكدّ، فضلاً عن الدعاية والمزاح، لذلك جئته رموني بثقل الدم، وقد آتني هذه الصفة، حتّى سألت أمي يوماً:

- هل أنا ثقیل الدم يا أمّاه؟

فرمقني بنظرة ارتباك وقالت بهدنة:

- من قال عنك ذلك؟

فقلت في حياء:

- التلاميذ كلّهم؟

فصاحت بغضب:

- قطعاً لأستهم. إنهم يفسون عليك أدبك

الكامل، والخطور الذي يملك بيننا يتسكّمون على أقدامهم، إنّا وأن نتخذ منهم صديقاً...

ومنى كنت في حاجة إلى مثل تلك النصيحة؟
فكذا كابلت الحياة في المدرسة في وحلة، يطالعني روح عداوة وبغضه من الجوف المحيط بي. ولعلها كانت لا تخلو من غبطة لو أنّي أسهمت في مسراتها، ولكنّ خجلي الشديد أجبرني على مقاطعة الألعاب بأنواعها كالكرة والشطرنج والقسم المخصوص، حتّى الرحلات المدرسيّة لم توافق أمي على الاشتراك فيها أن يصيبي مكروه، وكان التلاميذ يتحدثون عن الأهرام وأبي الهول ودار العاديات والفسطاط فاسترق السمع في حيرة وحزن وكآتي أستمع إلى سائحين يقصّون عن بلاد نائية! ولشدّ ما يتأبني من خجل إذ أقرّر أن عيني لم تقعا من القاهرة - المدينة الوحيدة التي عشت بين أسوارها - إلّا على شوارع مملوءة هي كلّ حظي من مشاهدات في هذه الدنيا الواسعة. ولم يكن لي من عزاء في تلك الأيام إلّا أن أنفرد بأمي في الشرفة أو في حجرتها، ثمّ نأخذ بأطراف الحديث، كأن ليس لحديثنا من نهاية. وكانت عصا المدرّس تدنّني بأنّ عليّ واجباً بنهي أو إؤتيه قبل النوم، فأقبل على الكتاب مستكرهاً، وأذاكر بلا روح ولا حماس وسرعان ما يترنّج رأسي ويرقّ النوم بعفويّ.

ويوماً قرّرت علينا - في حصّة الديانة - هذه الآية

الذي اعترض سبيلنا مهتداً، وواصلت الدراسة في البيت أعابها بصعوبة وضيق. واستدار العام، وحلّ الحريف وكثر الحديث عن الدراسة والمدرسة، وأيقنت أنّي معاد قريباً إلى السجن. وقلت يوماً لأمي:

- إذا كنت تحبّيني ولا توافقيني على أن يأخذني أبي فلماذا ترضين بأن تفوّق المدرسة بيننا؟

فضحكت ضحكتها الرقيقة وقالت:

- يا للعار! كيف تقول هذا وأنت الرجل الكامل؟
ألا ترغب أن تكون يوماً ضابطاً كبيراً مثل جدّك؟ وماذا يبقى إذا هجرت المدرسة إلّا أن تشغل بائع فول أو كمساري ترام!

ومضى بي جدّي إلى مدرسة العقادين بمصر القديمة، ونجحت في الامتحان هذه المرّة. وهل العام الدراسي، وانتظمت في المدرسة كارباً مرغياً. وكان الخطور يوصلي صباحاً إلى المدرسة، ويعود بي مساءً إلى البيت، وفي نظري ذلك منع جدّي أمي من توصيلي بنفسها كما كانت تفعل على عهد المدرسة الأولى. عدت مرّة أخرى إلى المدرسة، وعانيت من جديد الدروس والنظم وقسوة المدرّسين وسخريّة التلاميذ. كانت حياتي المدرسيّة شقاء كلها. وأكّد ذلك الشقاء أنّي كنت ملجأ مستبداً في بيتي وجسداً ذليلاً في مدرستي. وطالما تحيّرت بين الحبّ الذي يغمرني في البيت وبين عصا المعلمّ وسخريّة التلاميذ.

وقد اكتسبت عداوة المدرّسين ببلادتي وهجو ذهني حتّى أطلق عليّ بعضهم «الغبيّ الممتاز» وكان مدرّس الرياضة إذا انتهى من شرح درس سألني عنه وما يزال بي حتّى أجيب إجابة ترضيه فيتنفّس الصعداء ويلتفت نحو التلاميذ قائلاً: «لا بدّ أنكم فهمتم ما دام سيّ كامل قد فهم» ويضحّك الضحك!

أمّا التلاميذ فكان ذاهبهم السخريّة عني ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً. وكان عجزني عن إنشاء علاقة صداقة حقيقة مرّة لا شكّ فيها فلم أعظم في حياتي بصديق. والحقّ أنّي لست أسواً من كثيرين ممن يتمتّعون بصداقات سعيدة، ولكنّي شديد الغور بطبعي، شديد الخجل، محبّ للوحدة والعزلة، عديم الثقة في

فضرب جذّي الأرض بقلعه حتى ارتجت أركان
الحجرة وصاح بغضب:

- محال؟! بل هي الحقيقة الواقعة، هي الفضيحة
العارية، هي الضربة القاصمة لكرامتنا..

ولم تحر أُمّي جوابًا كأنما فقدت السطق. وتنفس
جذّي بشيء من الجهد ثم قال وكأنه يخاطب نفسه:

- أيّ جنون سلبها الرشاد!... ليس هذا الدم
الفساد بدمنا! هذا دم شيطاني يفسح سوء فعله

الأصل القدر الذي استيّدته. لقد مات حدّها وهو
يصب لعناته على رأس أبيها فحلت اللعنة بذريّته.

وازدردت أُمّي رقبها وتمتعت في ارتياح:

- أقطع بها من كارثة! كيف سلّمت الفتاة؟! لقد
أفسد السحّير العرّيب عليها حياتها، ما أتسمها!

فقال جذّي باستياء وحنق:

- لا تتحمل لها الأعداء. لا شيء في الوجود يسوّغ
هذا الفعل الشائن...

فغمضت أُمّي بصوت باك:

- لست أتناحل لها الأعداء، ولكنّها تعيسة ما في
ذلك من شك...

وساد صمت عزن، ولبنا تبادلان نظرات الغم
والكدر والقنوط، وقد أصغيت إلى ما دار بينهما بانبهات

شدّيد، فأدركت أهونه، وغابت عني خطورته الحقة،
كان الأمر يتعلّق بأخت لم تقع عليها عيناى لماذا

هربت؟ وأين اختفت؟ وتساءلت:

- لماذا لم تحضر إلينا؟

فصاح بي جذّي حانقًا:

- اخرس!

وارجمي على مقعد، واستطرد يقول:

- جاءني عمّاه في النادي وأبلغني الخبر قال إنّه لا
يعلم شيئًا عن حقيقة الحال. وقد أبقّر له مدحت

للحضور فورًا، فجاء بلا إبطاء، ثم أخبره الشاب
باختفاء شقيقته. أمّا المجرم السحّير فلم يزد على أن

قال «في داهية». ثمّ ذهنا ممّا إلى بعض أصداق العمّ
من رجال المحافظة وأفضينا إليهم بالخبر الشائن سائلين

معونتهم.

الكريمة «فإذا جاءت الصاخة، يوم يفرّ المرء من أخيه،
وأُمّه وأبيه الخ...» فلا أذكر أنّي انزعجت لشيء
انزعاجي لها، لم أطق أن أتصوّر أن أفرّ من أُمّي في يوم
مهما كانت فظاظته، وأن أعادها في أهواله بقاتمتها

النحيلة الرقيقة وعينيها الخضراوين الخنوين، فقاطعت
الشيخ على غير وعي منّي هانقًا:

- كلّ... كلّ...

وأحدثت مقاطعتي دهشة في الفصل لأنّي لم أكن
أنبس بكلمة، ولم يدرك أحد ماذا أردت، ولم يلبثوا أن

ضجّوا ضاحكين، وغضب الشيخ، وحلّني مسئوليّة
الإخلال بالنظام، فأقبل نحوي متغيّكًا ولطمني على

وجهي بعنف وحنق. ورثبت باللمعة كحذر ظاهر
للبيّاء إذ كنت أقام دموعي جاهدًا ودون جدوى.

لقد زلزلني هذه الآلة الكريمة، وكانت أوّل نذير لي
عن مأساة الحياة...

٨

حياة رتيبة، كابدها على استكراه، بيد أنّها لم تخلّ
من هزّات عنيفة. فذات مساء عاد جذّي ميكرًا على

غير عادته. وقلقت أُمّي لأنّه لم يكن يرجع إلى البيت
قبل الفجر. واقترحت علينا الحجرة متجهّين، فنهضت

أُمّي مستطلعة. ورفعت رأسي عن الكتاب، وقبل أن
نسأله عمّا به قال بحنة وهو يضرب طرف حدّاته

بعضاه:

- زنتي، كارثة نزلت بالأسرة... فضيحة

ستجعلنا مضغّة الأنواء!

فعلقت حيناً أُمّي بالفزع، وهتفت بصوت متهدّج:

- رحماك يا ربّي!... ماذا حدث يا أبي؟

فقتت نظرة عيني الخضراوين، وقال بصوت أجشّ
غليظ:

- ابتك... راضية... هربت!

وشحب وجه أُمّي، وخلعت عيناها، وجعلت ترنو
إلى جذّي بنظرة مستنكرة لا تجد سيّلاً إلى تصديق ما

صلّ أذنيها، ثمّ غمغمت بصوت كالآنين:

- هربت!... راضية!... هذا محال!

تعيصة الحظ، ربه... أين هي الآن؟ خبرني بكل ما تعلم.

فقال جدّي بهدوء:

- سافرتا إلى بنها، أنا وعمّها ومدحت، فوجدناها في أسرة طيبة عثرمة، وتعرّفنا إلى زوجها وهو شابّ موقّف بالحقّانيّة يدعى صابر أمين. فاخبرنا أنّه استأجر شقّة بشارع هدايت بشبرا وأنه سينقل إليها هذا الأسبوع. وقالت راضية: إنّ زوجها تقدّم لخطبتها ولكنّ أباها رفضه بغلظة، وأنه رفض قبله شاباً آخر تقدّم لخطبتها كذلك... ولعلّها الحمر التي لم تبق على ذرّة من إنسانيّته فأنسي واجباته وبكّد مربّياته، واستبدّ بها اليأس فهربت مع الشاب. وسافرا إلى أسرته حيث كان المأذون في انتظارهما.

وأصغت أمّي إليه وهي تبكي بكاء حارّاً، بعثه الحزن والارتياح معاً، ثمّ قالت:

- ساسافر إليها غداً...

فقال جدّي بتأكيد:

- ستجلبنيها في بيتها غداً أو بعد غد...

وعادت تتساءل:

- لماذا لم تأتي إليّ أنا؟

فقال جدّي كمن يمتلئ من بهتار عن الفتاة:

- لعلّها خجلت أن تأتي بخطيئها إلينا وهي هاربة من وجه أبيها، وعلى أيّة حال لنحمد الله على هذه النهاية التي لم تكن نحلم بها...

٩

ركبنا الحنطور جميعاً لأوّل مرّة، فجلس جدّي وأمّي في الصدارة، وجلس على المقعد الخلفيّ، كانت أمّي من الفرح في نهاية، وقد بدت بعدما عانت في الأيام الأخيرة من همّ وحزن وكأها استردّت شبابها الأوّل. كانت عيناها تتألقان بنور السرور الهيج، وكان لسانها يستبجّ بالحمد والشكر. وانتقل سرورها إلى صدري ففرحت برحلتنا السعيدة. وجعلت أذكّر في سقّيتي التي سارها لأوّل مرّة بعد دقائق بدھشة وسرور وقلقي لم أدّر له سبباً، ترى ما شكلها؟ وكيف تلقاها؟ وهل

وترثت جدّي دقيقة ثمّ استطرد:

- ويل للسكّير الجرم!... إنّهُ المثلوث الأوّل عن هذه المسألة، لأذهبنّ إليه وأحطمنّ رأسه!

ولاح الانزعاج في عيني أمّي فقالت بجزع:

- كلّ... كلّ... هذا يزيد من حالنا سوءاً.

فقال جدّي بإصرار:

- ينبغي أن يجرى عن شرّه شرّاً.

فقال أمّي بتوسّل:

- لا شأن لنا به... فلنركّز اهتمامنا في العثور على الفتاة علناً نقيم ما اصرّح من أمرها...

فحدجها بارتياح وتساءل:

- لماذا تلحقين في الحيلولة ببني وبين الذهاب إليه؟

فلاح في وجهها الارتباك وتقمّصت:

- أخاف أن يزداد الأمر سوءاً.

فقال جدّي بهنق:

- بل تخافين أن يؤدّي الشجار إلى أن يستردّ كامل. إنّك لا تقيمين وزنّاً لشيء، ولا تكثرين لغير نفسك، ألا لعنة الله عليكم أجمعين...

وليس البيت رداء الحزن فكأنّه في حدّاده، واحتصرتنا أيام سود فنكد العيش، وكلدت أختني في ذلك الجوّ القاتم. وقد غيّر جدّي نظام حياته، وتخلّف عن سهراته المعتادة في النادي وكان يغيب خارج البيت طوال النهار دون أن ندري عن مكانه شيئاً، على حين تقضي أمّي النهار سائمة أو باكية. وحادنا جدّي ذات مساء، فلمّا أن وقع بصره على أمّي بادرها قائلاً:

- عثرتا على ضالّتنا أخيراً...

فجرت أمّي نحوه وهي تصيح:

- حقّاً!... اللّهمّ ارحمنا...

فقال جدّي بصوت تنمّ نبراته عن الارتياح والسرور:

- أرسلت الفتاة المجنونة إلى مدحت كتاباً تنبّه بأنّها تعيش في بيت زوجها بنها، وتساءله المغفرة عن سلوكها الذي اضطّرت إليه اضطراراً...

وتهدّدت أمّي من الألقاق وقالت وعيناها تدمعان:

- ألم أقل لك!... إنّ راضية فتاة طاهرة ولكنّها

تَحْبَسًا؟ وقطعت أُمِّي عليَّ حبل أفكارِي فسألت جَدِّي
بلهفة:

- هل أجد مدحت هناك؟

فقال جَدِّي وقد اعتمد مقبض عصاه بيديه:

- الراجح أن يكون هناك... لقد تواعدنا على
ذلك... ولاحق في عينيها نظرة حنان ورجاء. وسارت
العربة ميممة شبرا، ورحلت أُنسَى بمشاهدة المآزة
والعربيات والسترام، حتى بلغ الخطوط مقصده،
وانعطفت إلى شارع هدايت، ثم وقف أمام بيت
متوسط الحجم، مكون من ثلاثة أدوار. وغادروا العربة
وصعدنا إلى الدور الثاني وأُمِّي تقول بصوت كالمهمس:
«ما أشدَّ خفقان قلبي!»، ودقَّ جَدِّي الجرس، وأُتِفِحَ
الباب، ودخلنا. رأيت فتاة وشابَّين، وقيل أن أحابهما
هرع اثنان منها إلى أُمِّي، فلم أر إلا عناقًا حارًّا. ولم
أسمع إلا تهديدات الدموع. رمت الثلاثة بحيرة
وخجل وصمت. وطال المناق، وطال البكاء، حتى
تدخل جَدِّي بينهم ضاحكًا وهو يقول:

- إليك زوج ابنتك صابر أفندي أمين.

وتقدَّم الشاب من أُمِّي فقبل يدها، وقبلت جبينه،
ولم ألبث أن رأيت نفسي عكس أنظار الجميع. وقالت
أُمِّي وهي تبتسم خلال دموعها:

- أخوكم كامل..

وهرعت نحوِّي شقيقتي، وضمتني إلى صدرها،
وقبلتني بحرارة، وأنا مستسلم بين يديها لا آتي حراكًا،
ولا أنطق بكلمة، وصاحت بفرح:

- رياه، إنه شابٌّ يافع... إنه نسخة منك يا
أُمَّا!

ثم ضمتني شقيقتي إلى صدره وقبلتني وهو يقول
بسرور:

- يا له من شابٍّ خجول!

ولم أكن حتى تلك اللحظة قد أُنعمت النظر إلى
وجه من وجوههم، وظللت غاضبًا بصري، والحجل
يحرق جيني وخدَّي. ثم مضوا بنا إلى حجرة
الجلوس. فجلست أُمِّي بين راضية ومدحت، وجلس
جَدِّي لصق زوج أختي، وأقمعدتني شقيقتي إلى جانبها،

وقالت أُمِّي وهي تحبِّف دمعها:

- يا رحمتاه! وجنتكما شائبين بعد أن انترعنا مِنِّي
طفلين، الحمد لله والشكر لله...

فقال زوج أختي بتأثر:

- يا لها من حياة هي بالمساة أشبه! وإنِّي لأشكر الله
على أن جعلني الفرصة التي هيأت لكم هذا اللقاء!

وسألت الأشواق القديمة حديثًا فيضًا لا ينضب
معينه، واثالت عليهم الذكريات والخواطر، وشكا كلُّ
بَنَّةٍ وهمه، وامترجت الدموع بالبيسات. وكانت تلوح
في عيني أُمِّي بين الحين والحين نظرة دهشة كأنها لا
تصدِّق أنَّ الله قد جمع شمل الأسرة بعد تفرُّق ونوى.

ولسَّا شغلوا بأنفسهم عني أخذت أُنقِ من الحجل،
واستردَّ أنفاسي، وشعرت بأنِّي - لدرجة كبيرة -

وحدتي، فداخلي ارتياح، ولكن سرعان ما انتابني قلق
وضيق، وجعلت أَسْرِق النظر إلى راضية ومدحت.

بهربي جمال أختي، رأيتها أقصر من أُمِّي قليلًا ولكنها
تمتلك بضَّة، مَيَّالَةً للبياض، أما وجهها فصورة من وجه

أُمِّي، وصورة من وجهي أيضًا، بعينه الخضرأوين
الصابيتين وأنفه الدقيق المستقيم. أمَّا مدحت فأنموذج

من نوع آخر، بلدين في غير إفراط، مستدير الوجه
والرأس، أبيض الوجه مشرب بحمرة، أسود العينين،

ينمُّ مظهره عن الفحولة والقوَّة وإن لم يجاوز الثامنة
عشرة. وكان يقهقه ضاحكًا لأنفه الأسباب، ويبدو

فرحًا صحيحًا معافًى. استرقت إليهما النظر باستطلاع
واهتمام، وسرعان ما جذبني إليهما شعور بالحبِّ

والعطف، واستمنت إلى روحهما المرححة الباسمة. بيد
أنِّي لم أُنعم بشعور الوحلة طويلة، فربَّما انجذبت صوبي

الأنظار وبُذلت للمحاولات لحملِي على الكلام،
واستدراجي لمشاركتهم سرورهم، ولكنني لم أنبس

بكلمة قائمًا برَدِّ الابتسام بالابتسام. ولئن كان كلُّ
شيء مما يكتنفي يدعو للنبهة إلا أنِّي لم أُخلُ من

مشاعر قلق غامض رُعِنِي أكثر من مرَّة في الرحيل،
وقالت لي راضية باسمه:

- كان مولدك عسيرًا، والله يعلم كم تألَّت أُمَّا،
ولبَّنا أنا ومدحت في الحجرة المجاورة لبكي، ثم

بعد ذلك بيننا وبين شقيقتي، وكان مدحت يزورنا كلما سنحت له فرصة.

واستقبلت عامًا مشيرًا نرُوعني فيه الخيرة وحب الاستطلاع والتجربة القاسية. صدمني في مطلعته هروب אחי وما علمت بعد ذلك من زواجها، فحبيلها، ثم إنجابها طفلة. وتساءلت نفسي كما سأملت أمي عن معنى هذا كله، لماذا هربت من أبي إلى رجل غريب؟ لماذا لم تأت إلينا؟ ولماذا تزوجته؟ وكيف حبلت؟ وكيف خسرحت زينب الصغيرة إلى نور الدنيا؟. وارتيبت أمي حيال الحاسي وتطفلي، وجعلت تصطلع في الأجوبة الكاذبة حينًا وتثأني حتى أكبر حينًا آخر، فإذا لمجعت تكلمت في حزمًا غير معهود ولا مألوف. فلم أظفر منها بشيء يتبع الغلة، وفي الوقت نفسه شعرت بأن ثمة سرًا يراد إخفاؤه عني. ثم جامني العون من حيث لا أدري، فتصوّعت الخادمة لإمالة اللثام عني حيرَ خيالي وألمبه. كانت تكبرني بأعوام، وكانت دميمة قبيحة، ولكنها كانت تركز فراغها لخدمتي وكانت تخلو لي في أوقات نادرة إذا شغلت أمي بعمل أو حاجة. وبدا أنها استرقت السمع يوسًا إلى ما يدور بيني وبين أمي عن الألغاز التي استأثرتني من سبابي، فصارحتني مرة بأنها تعلم أمورًا خفية بأن تُعرف، وانجذبت إليها على قبحها في اهتمام وسرور، وواجهت التجربة بلذة وسلاجة. هل أن المهدي بها لم يطل، فما أسرع أن خبطتنا أمي متلبسين. ورأيت في عيني أمي نظرة باردة قاسية فأدرت آتي أخطأت خطأ فاحشًا، وقبضت على شعر الفتاة ومضت بها فلم تقع عليها عياني بعد ذلك. وانتظرت على خوف وخجل. ثم عللت متجهمة قاسية، ورمت صنيعي باللمة والعار، وحذتني عما يستوجب من عقاب في الدنيا وعذاب في الآخرة. ووقع كلامها مني موقع السياط حتى أجهشت باكيا، وليبت أيامًا أنحامي أن تلقي عيناها خزيًا وخجلًا.

حدثت معجزة - على حدّ تعبير جدّي - فنجحت في

أدخلنا في النهاية ورأيناك في اللقمة كقبضة اليد فانلنا عليك بالقبيل.

وفقهه مدحت وقال:

- وأردت أن أطعمك قطعة من الشيكولاتة فحملوني إلى الخارج.

وقالت راضية برقة:

- وكنا نتخيلك في وحدتنا بيت أبيتنا فتنسول لعلّه يعبّر الآن، أو أنّه يمشي ويلعب، أو هذا أو أن المدرسة. وعلى فكرة أيّ سنة بلغت من دراستك؟

وشعرت بحرارة احمرار خدي، وانعقد لساني، فاجاب عني جدّي قائلا بلهجة لا تخلو من تهكم:

- إنه بعيد السنة الأولى الابتدائية وهو في العاشرة من عمره

فقال مدحت ضاحكًا:

- الحال من بعضه، فقد التحقت بالزراعة المتوسطة بعد سقوط عامين بالثانوي!

وقالت أمي:

- إنّ جذك يريد أن يجعل منه ضابطًا..

فهزّ مدحت رأسه وقال:

- عليه إذن أن يحصل على البكالوريا.

وكان جدّي من الذين ألحقوا بالمدرسة الحربية بالابتدائية فقال بازدرأه:

- إنّ بكالوريا اليوم لا تعدل ابتدائية الأمر...

ثم دار الحديث عن الحياة في بيت أبي، حتى قالت راضية:

- كنا في الحقيقة نعيش بمفردنا، ولم تكن نرى أبانا إلا مرة في الصباح الباكر، ثم نحضي وقتنا معًا، نذاكر أو نلعب أو نتحدث، وقد حمدنا الله على تلك الوحدة.

وتنهت أمي إلى الشطر الأخير من الكلام.

وتنهت في إشفاق، فقال جدّي:

- إن كان أوبوكا أعفأكما من عشرته وغالطته حقًا، فقد فعل خيرًا يستحقّ عليه الشكر والدعاء!

وتنقضى النهار كله في جوّ عابثٍ بالحُبِّ والأشواق، وعدنا إلى الليل مجبورين الحاطر. واتصلت الأسباب

تعلم، فناديتها حتى استيقظت. ولبثنا مستيقظين حتى أسفر الصبح.

وفي اليوم التالي زار جدّي ذلك الضابط المتقاعد، وحدث ما حدث بالأمس فدعا جدّي أمّي إلى حجرته، ولبثا مغردين زهاء الساعة، ثم جاءا معاً إلى الشرفة وهي تتعلّق بذرعه وتهتف بانفعال وتأثر شديدتين:

- كلّاً... كلّاً... هذا عال، ولا أحبّ أن يعلم شيئاً. ولكنّه لم يابه فيها بدا وقال لي بحزم:

- إني متظّرك في حجرتي.

وجعلت أمّي تتوسّل إليه وتصرّع، ولكنّه رجع إلى حجرته وأنا في أعقابها على حين مضت أمّي إلى حجرة نومنا في حالة غضب واستياء. وجلس جدّي على مقعده الكبير، وأمرني أن أقرب منه، فاقتربت في رهبة وخوف حتى وضع يده النحيلة على منكبي، ورمقي بنظرة دقيقة ثم قال:

- أريد يا كامل أن أحذّلك بأمر هامّ. لا زلت صغيراً بفكر شكّ، ولكن يوجد في مثل سنّك من يهض بأعمال الرجال، وأحبّ أن تفهمي جيّداً، فهل تعدي بذلك؟

وأجبت بطريقة آليّة:

- أهدك يا جدّي.

فابتسم إليّ متلفّفاً ثم قال:

- الأمر هو أنّ رجلاً فاضلاً غنيّاً من أصدقائي يرغب أن يتزوّج من أمّك، وآني أوافق على ذلك رغبة منّي في سعادة أمّك، فلا بدّ للمرأة من رجل يراعها، وأنا قد جاوزت السنين، وأخاف أن أموت قبل أن تضطلع أنت بواجبك كرجل فلا تجد من تعتمد عليه في الحياة.

وواصل كلامه بإسفاضة، ولكنّ عقلي كلّ فلم يتابعه، ولم أعد أفقه معنى ما يقول.

شكّلت عبارة «يتزوّج من أمّك» مسامعي، وانفجرت في دماغي، وأسمعت عينيّ دهشة ورعباً وتفزّراً وتساءل: هل يعني جدّي ما يقول حقّاً؟ أجل لقد روت أمّي لي قصّة زواجها، ولكن كان ذلك قصّة

الامتحان. ونُقلت إلى السنة الثانية، وإن كنت قضيت عامين في السنة الأولى. ولبّثا أطلع جدّي على الشهادة قال لي مداعباً:

- لو كنت ما أزال في خدمة الجيش لجنّتك بفرقة الطوّيجيّة، وأمرتهم بإطلاق أربعة وعشرين مدفعاً احتفالاً بنجاحك.

على أنّ جدّي إذا كان لم يمكنه أن يطلق لجنّاحي أربعة وعشرين مدفعاً، فقد قلب حياتي بقنبلة. عن قصد حسن - كادت تؤدي بي. حدث أن زاره يوماً ضابط متقاعد في الخمسين من عمره بمنّ عملوا تحت قيادته في السودان. وعقب انصرافه مباشرة جاءنا جدّي في الشرفة وراح يتصرّس في وجهينا في صمت وإن نمّ وجهه عن ارتياح وسرور. ثمّ قال غاطباً أمّي بلهجة مليئة بالمرح:

- اتبعيني بمفردك يا زوزو هانم!

وانفجرت ضاحكاً لذلك التبدّل اللطيف. على حين تبعته إلى حجرة نومه وميّت نفسي بشري جميلة... وغابت أمّي مقدار ساعة ثمّ عادت إليّ، وما إن وقعت عليها عينيّ حتى بادرتها قائلاً:

- أهلاً وسهلاً يا زوزو هانم...

وقهقهت ضاحكاً، ولكنّها ابتسمت ابتسامة باهتة على غير ما انتظرت، وجلست على كرسيّها يلوح في عينيها السهوم والتفكير، وساورني القلق، فملت نحوها. وسألتها عيّاً إلّ بها؟ فقالت لي باقتضاب:

- أمور تافهة لا يمتكّ.

ولكنّ تهرّبها ضاعف من رغبتي في معرفة ما وراءها، فألححت عليها أن تفضي إليّ بكتون صدرها، فتفخت في تبرّم، ورجعتني أن أسك. وجلستنا صامتتين طويلاً، ثمّ تمجّاذبنا أحاديثنا المعتادة في فتور. ودّعينا إلى العشاء فأكلت لقيات مملودات، ولبّثا تهيّاناً للنوم وقفت أمام المرأة طويلاً، ثمّ استلقت إلى جانبي. ووضعت راحتها على رأسي وقرأت سورة قصصاً من القرآن كالعادة، حتى رنّ النوم بجفّي. واستيقظت في المزيع الأخير من الليل، فخيّل إليّ أنّي أسمع حسّاً كالخمس، فأرھفت أذنيّ فأيقنت أنّها تنعم، وظننتها

- لعلّ جدك قال لك إنّه يريد أن يزوّجني، ولكنّه لم يقل بلا ربّ إنّي وافقت على هذا الزواج، والحقّ إنّي رفضته لأوّل وهلة، وبلا أدن تردّد، ووددت لو لم تعلم عن الأمر شيئاً على الإطلاق، وليّاً أعطاني مهلة للتفكير قلت...

وقاطعتها بحدّة قائلاً:

- ولكن يريد لك أمراً معيّناً عزمًا؟

فصمتت قليلاً وهي ترنو إليّ بطرف حائر. ثمّ استطردت متجاهلة اعتراضي:

- قلت إنّ المهلة مضبوطة للوقت، وأبيت أن أجعل هذا الأمر موضوعاً للتفكير، وذلك من أجلك أنت، من أجلك وحدك، فلا تحزن ولا تغضب، ولا نظنّ بأنك الظنون.

ولكن أخرجني كلامها من ظلمات القنوط إلّا أنّي أصررت على ترديد اعتراضي حتّى قالت لي بعد تردّد: - لم أقل أبداً إنّ الزواج من العيوب أو المحرّمات، بل هو علاقة شريفة يباركها الله، إنّي دعت عيوناً أخرى.

واتعقد لسانيّ حياءً وخجلاً، ورّيت هي على خدي لتسرّي عني وقالت بصوت ينمّ عن العتاب: - يا لك من طفل جعود، ألا تتأمل تصحّحتي في نظرك كلمة شكر؟... أترك تذكرها فيها يقبل من العمر؟ أبداً... لتزوّجن يوماً ولتغادرن وحيدة بلا رفيق ولا أنيس!

وقطّعت ساخطاً، وقلت بحماس:

- لن أفارقك ما حييت.

عشت بشعري بتسمية، ولاحت في عينيها الجميلتين نظرة ساهمة..

١١

سارت حياتي المدرسيّة في بطء وتشاقل يدعوان للباس، فبلغت الرابعة عشرة وما جاوزت السنة الثالثة الابتدائيّة، وكان جدّي يقول متأنّفاً:

- متى تُقبل على الدراسة جهمةً ونشاطاً؟ متى تعرف واجبك؟ ألا ترى إذا اطردت دراستك على هذا النوال

وتاريحاً بعيداً، ولم اتصوّره حقيقة واقعة أبداً. وذكرت لتوي الخادمة المطردة ففاض قلبي في صدري وقلت لجدي وأنا الهث:

- أمّي لا تتزوّج. ألا تفهم ما هو الزواج؟!

ولم يتمالك الشيخ نفسه من الضحك، ثمّ قال مبتسماً:

- الزواج سنّة من سنن الله، والله يفضّل المتزوّجين على غير المتزوّجين، ولقد تزوّجت أنا جدّتك، كما تزوّجت أمك فيما مضى، وكما ستزوّج حضرتك يوماً ما. اصبر إليّ يا كامل، أريدك على أن تذهب إلى أمك وتقول لها إنّك ترغب في تزويجها مثلي، وإنّ سعادتك تضاعف بسعادتها... ينبغي أن توافق صلي ما يسعدنا، وحسبها ما قاست من أجلكم جميعاً.

وجعلت أطرافي تنفض انفعالاً وتألّزاً، ونظرت إلى جدّي كما تنظر الفريسة إلى معبّتها، ثمّ سالت بصوت منهّج:

- أريد أن يأخذها ذلك الرجل؟

فابتسم وقال لي:

- نعم، ولكن ليرعاها ويسعدنا.

فسألته بحدّة وأنا لا أدري:

- وأنا؟.

فقال برقة بالغة:

- إن شئت ذهبت معها، أو بقيت عندي على الرجب والسعة...

فعضضت عسل شفتي بقسوة لأحسب دمعني، وتراجعت لحاة فألحّت من يده، وركضت خارجاً متجاهلاً نداءه، وعلوت إلى حجرة نومنا، فوجدت أمّي جالسة محمّرة العينين من البكاء، وفتحت لي ذراعيها فارغيت بينهما منتفض الأطراف من التأثّر، وبادرتي قائلة:

- لا تصدّقه، أعني لا تصدّق أنّ شيئاً مما قال لك

سيقع، لا ليك ولا تحزن... واعذايها!

وحذبتها بنظرة استغراب واستنكار، وصحت بها:

- ألم تقولي إنّ هذا عار وحرام؟!

فشذت عليّ بحنان وهي تقاوم ابتسامة، ثمّ قالت:

فستنتهي منها وقد امتصتيت سرّ المعاش؟
ولشدّ ما كانت تأسى أمّي لذلك التهكّم المرّ،
وكانت تسأله دائماً ألا يلقيه في وجهي أن تنكسر نفسي
فأزداد بلادة، أو تقول له:

- الذكاء من عند الله، وحسبه ما جملة به من كريم
الحلق، لأنّه كالعداء حياء وأدباً!

وكان أن كابدت حياتي تطوّراً خطيراً لا أذكر متى
بدأ ولا كيف بدأ، وأخشى أن يكون الخيال قد زوّر
منه أموراً على الذاكرة. دبت في النفس والجسم يقظة
غريبة، سرت في أطراف قلبي واضطراباً. طافت بي في
وحدتي أحلام جديدة، وغشيت في المدرسة شرود ركّز
شعوري كلّهُ في نفسي. وكنت إذا انطلقت بي العربة
من المدرسة إلى البيت سرّحت طرفي في أفاق السماء
وبنفسى لو أحلق إلى ذراها المتلقّمة بتلك الزرقعة
الغامضة. ولشدّ ما انشأني الكتابة وشغيتي الكدر
فرّست عن قلبي بالدمع الغزير. ولا أنسى الأشواق
الغامضة، والمخاوف المجهولة، والأثبات المهموسة،
والشعيرات النابتة. ربّاه إنّني كائن يتمخّص عن حياة
غارقة مجهولة، تمث بي شياطينها في النهار والليل، في
اليقظة والأحلام.

واكتشفت بنفسي - تحت ضنط تلك الحياة - هوية
الصبا الشيطانية لم يفرني بها أحد إذ كنت معدوم
الرفل. فاكشفتها كما اكتشفت أوّل مرّة في حياة
البشر. واستقبلتها بالدهشة واللذة، ورضيت بها عن
كلّ شيء في الوجود، ووجدت فيها أنساً لوحدي
الغريبة، وعكفت عليها في إدمان، وراح خيالي يقطف
لي من صور المخلوقات ما أزيّن به مائدة المشق
الوهّية.

ومن عجيب أنّ خيالي في عشقه لم يمسّ دائرة
الخوادم بالمئيل اللاتي يسمين حاملات الخضر والفلول.
ولم تكن تلك ظاهرة عارضة ثمّ ولّت، إنّها سرّ دفن،
أو هي داء دفن. كآثري موكّل بعشق الدمامة
والقدارة!! إذا طالعت وجهها ناضراً مشرقاً يقطر نوراً
وبهامة ملكي الإعجاب، وبردت حيواني، وإذا
صادفني وجه مميم ذو صمّة وعافية آثارني وعكّكتي،

وتخذته زأداً لأحلام الوحدة وعيشها. وأفرطت إفراط
جاهل بالمواقب. ونحّل إلى جهلي المفرط أنّ أحدًا
سواي لا يدري بها، حتّى سمعت يومًا - في فناء
المدرسة - بعض التلاميذ يتقافزون بها في غير حياء
فانزعجت انزعاجاً فظيماً وتولّاني خجل الهم. ومنذ
تلك الساعة أمضيت الألم، وكذّر صفوي تأنب الضمير
والشعور بالسلب. . . ولم يكن ذاك ليصدني عن
مارستها، فقضيت وحدتي في لذّة جنونيّة سريعة يعقبها
نكد طويل.

وكانت تسع في آثامنا الرتيبة ساعات باسبات
فتورنا أسر من الجيران والأقارب، سيّدت وبنات في
سرّ الصبا، وربّما قدّمت سيّدة بنتها على سبيل
المداعبة:

- هلّه عروس كامل.

فكانت أمّي تلقى هذه المداعبة وأماها بفشور
ملحوظ، لا يخفى على غابقتها، ولا عليّ. فازدددت
شعوراً بالحياء وبالنفور، وبالحوف خاصّة حيال المرأة.
ثمّ لا تفتأ - عقب انصراف الزائرات - تنتقد مداعباتي
الغامضة المفسدة للأخلاق. . . ومضيت في حياتي
الوحيدة الموحشة أقمل تحت ضغظتها المتواصل دون
أن أبدي حراكاً، أنتهب لذاتها الخفية في جزع وأياس،
وأجني مرّ الشعور بالذنب وقد شقّ عليّ الخلاص، في
عزلة غابت بي عن خضمّ الحياة. علّ أنّني كنت أدرك
إدراكاً غامضاً أنّه توجد حياة واسعة فيها وراء أفقي
الضيّق. كنت أسترّق السمع إلى ما يتناثر من أحاديث
التلاميذ عن السيامة والسينا والألعاب الرياضية
والبنات، وكأني أصغي إلى سجان كوكب آخر.
وددت لو كان لي بعض فصاحتهم ومرحهم وجبرهم،
وددت لو يُرفع ذلك الحاجز الأصمّ الذي يجسني
دونهم. ولكم رمقتهم بعينين عززتين كآني سجين
ينظر من خلال القضبان إلى الطلّقاء. بيد أنّي لم أحاول
قطّ أن أنطلق من سجنّي، لم يكن ليغيب عنيّ ما
ينتظري في دنيا الحرّيّة من قسوة ومهانة، بل إنّني لم
أسلم في سجنّي من أدنى وسخريّة وتهكّم، ذاك سجنّي
فلأنتع به، فيه لذتي وألمي، وفيه أمان من الخوف. إنّهُ

أخفقت مرتين في عاصف متلايين. تملكني الفزع والقنوط وازدعت فزعاً وقنوطاً للامتحان الشفوي، فإ كانت لي قدرة على الكلام، ولا قلب أواجه به المحتن. وقد سألني الممتحن الإنجليزي في العام السابق عن معالم القاهرة التي زرتها؟ وكان كلباً سألني عن أثر من آثارها أو موقع من مواقعها أجبت بأنني لا أعرفه، فظنني أنه زب من أسئلته وأسقطني. تملكني الخوف وأوردني مهالك القنوط ووجدتني لأول مرة ألقى على الحياة نظرة عامة شاملة متأثراً خط الحياة من البداية إلى النهاية، حتى لم أجد أرى منها إلا البداية والنهاية متعلماً عما بين هذا وذاك. ميلاد وموت، هذه هي الحياة! وقد فات الميلاد فلم يبق إلا الموت. ساموت ويتهى كل شيء كان لم يكن، ففهم تحمل هذا العناء؟! فيم أكابد الحوف والهبوط والوحشة والجهد والامتحان؟! وازدعت برأسي ذكرياتي المحزنة عن الحياة التي أحيهاها... امتحان لا حيلة لي فيه ثم سقوط فسخرة مريرة، حرمان من أفراح الحياة التي يحظى بها التلاميذ. دعاؤهم لي بالأبكم، ربهيم لياني بقل الدم حتى رأني تلميذ مرة قادماً وكان قريباً من باب مسجد المدرسة فكور كفه على أنه كانه يدهو للصلاة وصاح في وجهي منشداً «يا ثقل الدم!» وقهقهه الآخرون ضاحكين. وأذكر أن مدرساً أراد يوماً أن يخبّر معلوماتنا العامة، فلما جاء دوري ووقفت مبهوئاً لا أجيب عن شيء سألني عن اسم رئيس الوزراء؟ ولازمت الصمت، فصاح بي وهل أنت من بلاد الواقي؟! كانت مناسبات الإضراب كثيرة، ولكنني لم أشارك في مظاهرة على الإطلاق، وقد أضربت المدرسة يوماً وخرجت في مظاهرة عن بكرة أبيها، إلّا، فقد تحلقت في الفناء مرتباً خائفاً على كوني من أكبر التلاميذ سناً، ورأني على تلك الحال مدرسٌ عُرف وقتذاك بوطيته فقال لي معتفاً: ولماذا خرجت عن الإجماع؟ ليس هذا الوطن وطنك أيضاً؟! ووجدتني في حيرة شديدة بين تعنيف المدرس وبين وصايا أمي التي تحليني كل صباح على أتباعها. يا لها من ذكريات خليقة بأن تُفقد الحياة كل قيمة! ليس في الموت غناء

سجن مفتوح الباب ولكن لا سبيل إلى تجاوز عتبه، ولم أجد من متفهم غير الأحلام. كنت أمكت في الفصل غائباً عما حولي وخيالي يصنع المعجزات، يحارب ويقتل ويهزم، يمتطي متون الجياد ويمتلي الطائرات ويفتح الحصون ويستأثر بالحسان وينكل بالتلاميذ تنكيلاً مرؤفاً، حتى لا بست أحياناً حركات رأسي وتقلصت وجهي انمكاسات من تلك الأخيعة، يرتفع لها الرأس كبرياء ويقطب الوجه قسوة وتشير اليد بالنذير والوعيد!

ولم تقف أحلامي عند حدّ الخلق فطارت إلى ملكوت الخالق. وكان إيماني قديماً راسخاً يعمر قلبي وروحي بحب الله وخوفه ممّا. وقد أدت الفرائض في سن مبكرة أهداً عن أمي وعكاكة لها. ولما أجدت لي لذاتي الخفيفة شعوراً بالذنب لم يكن لي به عهد قوي شعوري الديني، ولفحت إيماني لطف حارة إلى الله ورحمته فإ ختمت صلاتي مرة حتى بسطت يدي مستغفراً. بيد أن أشواالي لم تقف عند حدّ، وانقلبت طلعة لمرفة الله، وتثبت من صميم فؤادي لو كان أتاح لعبه رؤيته وشهود جلاله الذي يحيط بكل شيء ويوجد في كل مكان. وسألت أمي يوماً:

- أين يوجد الله؟

فاجبتني بدشة:

- إنه تعالى في كل مكان...

فرونوت إليها بعرف حائر وتساءلت في خوف:

- وفي هذه الحجرة؟

فقلت بلهجة تنم عن الاستنكار:

- طبعاً... استغفروا على سؤالك هذا!

واستغفرت من أعماق قلبي، ونظرت فيها حولي بحيرة وخوف، وذكّرت بقلب موجع كيف أتى ألم بالإثم تحت بصره القريب لشدة ما حزني الألم، وغضني الندم، ولكنني ما فتئت أغلب على أمري.

وشق عليّ النزاع المتواصل فانتهني بي إلى التفكير الجدي في الانتحار. بلغت وقتذاك السابعة عشرة، وكنت أستخدم لامتحان الابتدائية للمرة الثالثة بعد أن

وحدثت نفسي قائلاً: «يقولون إنني لا أحسن شيئاً في الحياة... ولكنني سأفعل الآن ما لا يسمع أحداً الإقدام عليه». وألقيت على الماء نظرة متحجرة، وتغلل لي ما سأفعله بسرعة البرق ينبغي أن يتم كل شيء في ثوانٍ وألاً أفسد عليّ تدخل المائز غرضي، أنسور السور ثم ألقي بنفسي، ولن يستدعي ذلك مع حزم الأمر إلا لحظات. وانقبض قلبي وأنا أنظر إلى الماء الجاري وقد بدا تحت النظرة العمودية سريعاً صاخباً فدار رأسي. واحد... اثنان... وسرت في بلدي قشعريرة، ترى ما إحساس الإنسان إذا هوى من شامق؟... وكيف يكون اصطدامه بالماء؟ وكيف إذا غاص تحت لجته؟ ومتى يخلص الإنسان من عذاب الغرق؟! وشدت قبضي على حافة السور، وتقلصت ساقاي، وقلت للساني أن سينتهي كل شيء حالاً، ولكنني كنت في الواقع أتراجع وأتقهقر وتخور قواي. هزمتي الخواطر والتصورات التي اعترضت عزمي. لا ينبغي للمتحر أن يفكر أو يتخيل، لقد تفكرت وتخيّلت فانهزمت. واشتد خطفان قلبي. وتراخت قبضتي عن السور. ثم تحوّل عنه متنبّهاً كالذاهل. وعلتني ساقاي المخلخلتان إلى نهاية الجسر حيث تنتظر العربية، فركبت، واستلقيت على المقعد في إعياء حتى غالبني رغبة في النوم.

وطالما ساءلت نفسي عيّا أنقذني من الموت ذلك الصباح؟ فقال قلبي: إنه الخوف! وقال لساني: إنه الله الغفور الرحيم.

ولا شك أنّي بالغت فيما يتعلق بدوافعي نحو الانتحار، لأنني حصلت على الابتدائية في ختام العام!

١٢

فقدت أسرتنا الصغيرة مظهرًا من أجل مظاهرها فانخفضت من أفقها العربية والجوادان والحدوئي المعجوز. باع جدّي العربية والجوادين واستغنى عن الحدوئي. وعلمت مما تسقطه من الحديث أنّه خسر ليلة في النادي خسارة جاوزت المجهود، فاضطرّ إلى اقتراض ما يساوي معاشه من النقود. ولما كان رجلاً مطبوعاً على

عن هذا كله؟ بل وإنّي لآتمنى الموت. وملأت تلك الانكار عليّ شعاب قلبي فأجمعت على أن أرمي بنفسي إلى النيل... وعندما أتى المساء صليت طويلاً، ثم نمت وبدي قابضة على يد أمي، وأنا أظنني في عداد الأموات. وجعلت في الصباح أسترّق النظر إلى وجه أمي في خوف وحزن، وأثر في نفسي هدوؤها وجمالها، فغالبنني شعور بالبكاء، وأكرمني ألا أستطيع توديعها، وسألت نفسي في إشفاق كيف تتلقى الصدمة؟ وهل تطيق الصبر عليها؟ ساكن المثلث عن تكدير هاتين العينين الصافيتين، وتجميد صفحة هذا الوجه المنبسطة، وزوال هذه الطمأنينة إلى الأبد ثم خفت الحور فجأة فلمأدني لباس بقوّة جديدة، وحزني إلى المهرب. وأتيت على قدح الشاي وعيناي لا تفارقان وجهها، ثم حينها وغادرت الحجرة منقبض الصدر مرير النفس وركبت الحنطور، وألقيت على البيت نظرة وأنا أهنم: «الوداع يا أمّاه، الوداع يا بيتنا العزيز». وانطلقت العربية حتى طالعتي جسر الملك الصالح فلقد قلبي بمنف حتى شقّ عليّ التنفّس. ينبغي أن ينتهي الآن كل شيء. دقائق معدودات ثم الراحة الأبدية. ولم يكن لديّ حلم من هذاب المتحر في الآخرة، فلم أشكّ في أنّي أستهل حياة مطمئنة. واقترّب الجسر وريذاً، وراح توقيع سنايك الحليل بصكّ قلبي، ولاحت فيّ التفاتة إلى النيل فرأيت لآلئ الشمس تنتشر على صفحته الدكناء، وعلتني الخجّط على أديمه والأمواج الهادئة الصامتة تتقاذف بغير مبالاة، مطمئنة إلى نتيجة الصراع. وتربّيت لما عقدت العزم عليه بجنون فداغ عن خاطري كل شيء في الحياة فهتفت بالحدوئي المعجوز وهو ينعطف إلى الجسر:

- فف!

فشدّ الرجل على الزمام وتوقفت العربية، فغادرتني متعجّلاً وأنا أقول له:

- اسبق إلى نهاية الجسر وسالط بك مشياً على الأقدام.

وانتظرت ريثما ابتعد عني علة أنزع ثم ملت إلى سور الجسر، واشرفت على النهر بقماتي الطويلة.

ولاً بدا في عين الناس وكأنَّ لا أب له .

فقلت أُمِّي بصوت متهدج :

- هذا أبُ، الجهل به أشرف .

فلاح في وجه جدِّي الضيق وقال بحزم :

- كأنك تخافين أن يستره إذا رآه، فيا له من وهم

لا يدور إلَّا في رأسك، وإني لعلى ثقة من أنَّه سرٌّ

سرورًا كبيرًا حين هيأت له الأقدار من يرثي ابنه عنه .

ولكنِّي أرى الآن أنَّه ينبغي أن يتعرَّف كامل إلى أبيه .

وقد صممتُ هل أن أذهب به إليه، فمن يدري أنه لا

يحتاج إليه غدًا؟ هل صممتُ أن أبقي له إلى الأبد؟ ولا

تسي أنَّ كامل وشيك الالتحاق بالمدارس الثانوية ورُبَّما

أقنعت أبيه بمعاونتي في تعليمه!

ولا شكَّ أنَّ أُمِّي كانت تتحَنَّن للمعارضة، فلَمَّا

سمعت الشطر الأخير من كلامه فقرَّحَها وبدا الحزن

في عينيه، ولم تنبس بكلمة، ولمَّا غادرنا جدِّي

اغرورقت عيناه بالدموع فالتفتت منها متأثرًا عزوئًا

وجفَّت عينيه، وقلت لها :

- لا شيء يستدعي البكاء يا أمَّاه .

فابتسمت إليَّ ابتسامة باعثة وقالت بحزن :

- لا شيء حقًّا . ولكنِّي أبكي الأيام الماضية يا

كامل... أبكي الطمأنينة المطفئة التي استنمت إليها

طويلاً . كانت الحياة رغبة طيِّبة لا يكرِّها علينا

مكدر، اليوم يتحدث جفك عن الغد، وهو إذ يتحدث

عنه يملؤني خوفًا وقلقًا . لنسُدَّ الله معًا ألا يشتت

شملنا، وأن يطيل لنا في عمر جفك، ويفنينا عن

الناس...

ثم تفكرت مليًا، وقالت لي وهي تمجدجني بنظرة

غريبة :

- قابله إذا قابلته بأدب فهو أبوك هل أيَّ حال،

ولكن لا تسي فيا بيتك وبين نفسك أنَّه هو الذي

عذبنا جميعًا .

وجرت على شفهي ابتسامة خفيفة لهذا التحذير

الملفوف الذي لم أكن في حاجة إليه . ليس في وسعي

أن أحبَّ شخصًا كرهه أبوه . ثم فكرت في تلك الزيارة

المرتقة بين ابن وأبيه لأوَّل مرَّة، وحاولت أن أتمجِّل

النظام فقد أثر أن يبيع العربية والجوادين على أن يترك

ميزانيته . لشدَّ ما أحزننا بيع العربية، وضياح الجوادين،

ووداع عمِّ كريم الحوزيِّ المعجوز الذي قضى عمره في

خدمة جدِّي حتَّى فقَّذ فيها أسنانه . ولقد بكيت الجميع

بكاء مرًا دون أن أنبس بكلمة . وكان جدِّي يعيش في

ناحي القنار أكثر ممَّا يعيش بيننا، ولم تكن له من سلوى

أو فرجة سواه وخاصة عقب تركه الخدمة . ولم يكن

يحاول إخفاء سيرته بما يجبل عليه من صراحة وميل

للمرح، فكثيرًا ما كان يقصُّ هل أُمِّي طوفًا ممَّا يصادفه

في سهراته، فيقول هازأ رأسه الأشيب : «بالأسف

لازمي سوء الحظَّ طوال الليل حتَّى قبيل الختام بقليل

فعمُضتُ خسارتي جميعًا بصرتين موقفتين»، أو يقول :

ويا للطمع الأشعبي! أضاع عليَّ مقامرة واحدة في

أخريات الليل عشرين جنيهاً رجعتها بشقَّ النفس» .

ولكنَّه كان بوجه عام مقامرًا عاقلًا إن جاز لي أن أقول

ذلك، تستأثر به لذة المقامرة الجنونية دون أن تنسبه

طاقة ميزانيته وواجباته كربً لا سرتنا ولا أشكَّ في أنَّ

أمر مستقبلي قد شغله كثيرًا، لا لذاتي فحسب - وإن

غمرني دائمًا بحبه ورعايته - ولكن لا ارتباط مصري أُمِّي

بمصريي . ثم كان ما كان من تمكُّر حياتي المدرسية

فاخذت الابتدائية في السابعة عشرة وقد اقترَب هو من

حدود السبعين، وأخذ القلق يساوره كثيرًا وهو أعلم

بما جمع من ثروة لا تكاد تذكر . هل أنَّه كان يتغلب

دائمًا على قلقه بما طبع عليه من ميل للتفاوض مرَّه في

الغالب إلى ما وهبه الله من صمَّة حسنة لم تزيله رغم

طعونه في السن . إلَّا أنَّ خسارته الأخيرة ذكرته بقلقه

ومخاوفه ودفعتَه إلى أن يبالغها بالحيلة والحرص، فقال

يومًا لأُمِّي بعد تردّد غير قليل وكنا يتحدثان عن

مستقبلي :

- أرى أنَّه لا يجوز أن يجهل كامل أباه هذا الجهل

المطلق .

فامتقع وجهها ورمقته باستنكار وتساءلت :

- ماذا تعني يا أبتاه؟

فقال جدِّي بغير مبالاة :

- أعني أنَّه يجب أن يتعرَّف إليه . هذا أمر ضروريٌّ

الفيساء. تبعت جدي في قلق يزداد بتوغلنا في الحديقة، وعندما أخذت في ارتقاء السلم جفّ حلقي من الاضطراب. وبدا أبي واقفاً ينتظر، فالتفت عليه نظرة سريعة من وراء جدي.

كان وقتذاك في السّتين من عمره، ربعة، بديناً وإن بدا في جلابيه الأبيض الفضااض أسدن من الواقع بكثير، أبيض البشرة، محمّر الوجه والعنق، منتفخ الأوداج، محتمن الوجه بالدم، أمّا تسيمات وجهه فكبيرة واضحة في غير تنافر: أصلع الرأس، أسود العينين، وقد جحظت مقلته وتشابكت بها خطوط حمر دقيقة كالشعيرات، وقلقت بهما نظرة زائغة شاردة خاملة بددت ما كانت ضخامته خفيفة بأن تبعته في النفس من رهبة. خامرني شعور بالفرابة والإنكار والنفور، وحقدت على جدي المسلول عن الزبارة. اشتدّ بي الإنكار عندما وضع لي آله لم يبد أي الترحيب بنا إلّا تلك الوقفة الخاملة. تصافح الرجلان، وسمعت صوتاً غليظاً ذكرني بصوت أخي مدحت يقول:

- أهلاً وسهلاً... كيف حالك يا عبد الله بك؟
فرّد جدي قائلاً:

- الحمد لله... وكيف أنت؟!

وتنحّى جدي قليلاً ليكشف عني وأومأ إليّ قائلاً وهو يتشم:

- كامل ابنك.

وتقدّمت منه في ارتباك ظاهر وعيناي متطلعتان إليه، فحدجني بنظرة متفحّصة في اهتمام شديد وقد لاح في عينيه نور خافت، ثمّ مددت يدي، وعند ذاك قال جدي ولعله أراد أن يتفادى من خطأ رأيي حرّاً أن أقع فيه:

- اقهر هذا الحجل وقبّل يد والدك!

وأدركت مراده فقبضت على اليد الممدودة إليّ ولثمت ظاهرها، ورفعت إليه عينيّ فوجدته مبتسماً، وسمعته يقول:

- مرحباً بالابن الذي لم يعرف أباه!.. ما شاء الله (والفتت نحو جدي مستنكراً) صار رجلاً وفرع أباه طويلاً.

صورة لأبي، أو أن أتذكّر صورته القديمة التي مرّقتها بيدي فلم أفلح. . وشعرت بنفور شديد من الزيارة وتغيّبت لو يعدل حتّي عن رأيه.

ولكنّه قرّر أن نقوم بزيارته في صباح اليوم التالي، وقال لي وهو يستحثّي:

- ينبغي أن تبكر في الذهاب إليه قبل أن يغيّبه السكرا!

وخرجنا ممّا قطعنا الطريق إلى محطّة الترام مشياً على الأقدام. ثمّ أخذنا الترام إلى العتبة، ومنها إلى الحليميّة، ثمّ سراً إلى شارع مبارك. وجعل يوصيني في الطريق بما ينبغي أن أعمل به في حضرة أبي من الأدب والتودّد. قال لي:

- أنت محمول جدّاً، منطو على نفسك، وأخاف أن يظنّ ما بك نفوراً مه فبادلك نفوراً بنفور خصوصاً وأنّه لم يتيمّ يوماً بحبّ إنسان، فانفض عنك الجمود ولاقه بالتودّد والرقة والألفة.

ووقفنا أمام بيت كبير مكوّن من دورين، لا يبدو من دوره الأوّل إلّا أعلاه لارتفاع سور البيت، وطرقتنا بأنّا ضحاً، ففتح عن صرير غليظ، وبرز لنا بواب نوريّ طامن في السنّ، فلمّ على جديّ باحترام وترحيب وتنحّى جانباً وهو يقول:

- رؤية بك في السلامك...

وسكّ الاسم مسمعي، فشعرت على رغيي بما يربطني بهذا البيت. وثمّ كنتي رغبة مبالغتة في الرجوع والتحقّير، ولكنّها كانت رغبة لا مسيل إلى تحقيقها، ونظرت فيها أمامي فرايت حديقة كبيرة، وسرعان ما سطعت أنفي رائحة الليمون الزكيّة. هي حديقة كبيرة تأخذ الناظر بضخامة أشجارها ما بين نخيل وليمون وتوت ويزدحم جوسها بالفروع والأغصان، وتنطق أرضها بالأوراق الجافّة، وبها وبالجو المحيط بها مسحة حزن وكآبة اسربت إلى نفسي في غير إبطاء. وفي هايتها يقع البيت، وقد بدا السلامك مقلّماً على سورده حدار خشبيّ يجب ما بداخله عنّ في الحديقة.

سبقنا البوّاب إلى الداخل ليستأذن للقادم، ثمّ عاد بعد قليل وهو يدعونا باحترام، وسار بين يميني في عمّشي من

لفضحك جديّ ضحكته العظيمة وقال:

- أجل إنه رجل... ولكن لا تثريب عليه إذا كان لم يعرف أباه!

وتغرس أبي فيّ طولاً وعرضاً، ثمّ دعانا إلى الجلوس، فجلسنا على مقعدين مقاربين وجلس على كنية في الصدر وراء خوان من الخشب الأسود المطعم بالصدف وضعت عليه قارورة حمراء وكأس ووعاء صينيّ مليء ثلجاً.

كانت القارورة مملوءة إلّا قليلاً، وكانت الكأس فارغة إلّا قليلاً. لم أكن رأيت الخمر أبداً ولكنّي أدركت تواراً أنّي حيال الشراب الملعون الذي فعل بأسرتنا الأعاجيب، وسرعان ما ملأني التقرّز والنفور. واستدرك جديّ قائلاً:

- أي نعم ما ذبه المسكين؟... إنه لم يعرف نفسه أباً، ولا حيلة له في هذا، ولا داعي لإثارة ذكريات ولست. بيد أنّي وجدته رجلاً كما تقول، وقد حصل هذا العلم على الابتدائية، وعيّا قليل يتحقّق بالمدارس الثانوية، فاستنكرت أن يظلّ على جهله أباه، واقتربت عليه أن أقدمه لك، فرحّب باقتراحي مسروراً، وهنا أنا قد فعلت والحمد لله.

وكانت عينا أبي لا تتحوّلان عني فلم أنحفّ من ارتباكي وحيائي، ولمّا ختم جديّ كلامه لاحت في عينية الشاردتين نظرة ارتباب وسألني:

- أحقّاً سرّك أن تُقدّم إليّ؟

فأجبت بصوت لا يكاد يسمع:

- نعم...

فسألني وهو ينظر إليّ بمكر:

- أحبّ أن نمكث معي؟

وانقبض قلبي، ولاحت في عيني نظرة حائرة. ما عسى أن أقول؟ إنّ وصايا جديّ، لا تزال تطنّ في أذني ولكن هبني أجبت بالإيجاب فدعاني إلى البقاء معه فكيف يكون المصير؟ كلا، لا يسعي هذا وغضضت طرفي مطبقاً شفيقاً ولم أنبس بكلمة. وقهقه أبي بصوت ارتدع له جديّ وهو يحدّثني بنظرة استياء:

- ترقّق به يا رؤية بك. إنه لم يفرّق عن أمّه قطك

وليس أشقّ على النفس من تغيير عادة، ولكنّي أؤكد لك أنّه سرّ جدّاً يتعرّف بك. لا تأخذ عليه صحته وارتبأكه فإنّه كالغذاء حياه.

فهوّ أبي رأسه الأصلم المستدير وفوه لا يزال متفرّجاً عقب القهقهة، وسألني فيما يشبه التحديّ:

- هلّا مكثت معي فترة من عطلتك؟! شهرًا أو أسبوعين؟!

فبادر جديّ قائلاً:

- أنا هذا فعن طيب خاطر...

وفطنت إلى ما في قول جديّ من إجماع موجه إليّ، فوجدتني كالغار في المصيدة. وتولّاني ضيق كاد ينشقّ له صدري، ولعنت ذلك التصميم المزيج الذي حدا بجديّ إلى سوفي إلى هذا البيت الكثيب. وانعقد لساني في يأس وعناد، حتّى قال أبي متهمكاً:

- هذا قولك أنت يا عبد الله بك، ولكنّي أنساءل ع رأي كامل بك...

واللّهي همّجهم، وانقلبت إلى حال من التعاسة فلم أنطق ولم أرفع رأسي. وتذكّرت أنّي بلهفة المستغيث شائي إذا اشتدّ بي كرب. وقهقه أبي ساخراً وقال:

- ولعلّه يُسرّ بمعرفتي ولكن من بعيد...

وتنصّرت لهجة الساخرة فقال بصوت يئمّ عن القوّة:

- ألا تعلم أنّي إذا أردت أن تبقى هنا لم يحلّ دون ذلك حائل؟!

وترثت لحظة ريشاً يحدث تصريحه الأثر المطلوب، ثمّ صحك مستلربكاً.

- لا تخف، لا حاجة بي إلى هذا على الإطلاق... وساد صمت رهيب. ولعلّ جديّ أدرك أنّ الرجل قد كشف بقوله ذاك عن شعور عدائيّ. وشعرت أنا بغريزي أنّ كلينا يجحد نحو صاحبه نفوراً لا إخفاء فيه... وهالني ما صدم جديّ من خيبة مريرة وتوقّعت أن يوسعي تعنيفاً وتقريظاً. ثمّ قال جديّ بصوت منخفض:

- ابنك سحّ الحظّ يا رؤية بك، فقد حرم نعممة التعبير عيّا يدور بخلد. إنه طفل خجول لا يدري عن

الدنيا شيئاً فترقّ به واعذره...

فقال أبي بغلظة:

« ما هذا الذي تقول يا عبد الله بك! ... خجول، عذراء، لا يدرى شيئاً! ماذا فعلتم به؟ لقد كانت له أخت عذراء ومع ذلك فقد هربت مع رجل، فمن آية جيلة هو؟! »

وشعرت بطعنة نجلاء تصيب قلبي. واندفع الدم إلى وجه جدّي فغطّب غاضباً وقال بكبرياء:

« لقد اختارت أختي أن تمضي إلى زوجها بعد أن يشت من عدالة أبيها! »

وروح عتي قوله. أمّا أبي فاسترسل ضاحكاً وقد احتقن الدم بوجهه وبدا فلطاً قاسياً ممقوفاً، ثم قال بسخرية:

« تقول بعد أن يشت من عدالة أبيها! ... اسمح لي أولاً أن أملا كائناً (وملا الكاس وعمل منها جرعة) هلاً تربت معي؟ ... كلاً؟ ... كما تشاء فلكلّ إنسان داء. ولتند الآن إلى قولك. ماذا قلت يا حسن بك؟ بعد أن يشت من عدالة أبيها؟ وأنت؟ ألم تياس من عدالة أبيها؟! »

فنظر إليه جدّي باستنكار وازدراء وسأله:

« ماذا تعني؟! »

« أريد أن أقول إنّ الفتاة إذا كانت قد يشت من أبيها فإنّ جدّها لم يياس من عدالته، وأي فُلك أنّك جئتني اليوم بهذا الفق لا لتفدّني كيما قلت، فقد كان يمكن أن يحدث ذلك في أيّ وقت من الماضي، ولكن لتخبرني أنّه عمّا قليل سيلتحق بالمدارس الثانوية... وهنالك المصروفات... هه!! »

فخرج جدّي عن طوره وصاح به مغضباً:

« لقد أعيايت إصلاحك فيما مضى، ومن الحمق أن أحاول ذلك الآن! ... لقد ربّيته حتّى صار رجلاً دون أن يكلفك مليّاً واحداً... »

فصقّ أبي ساعراً وقال وقد أخذ صوته يعلو:

« آه من مكر الرجال! بالأمس جئتني سائلاً أن أترك الغلام لكم، واليوم نمّ عليّ أن ربّيته حتّى صار رجلاً! مرحى... مرحى، هلاً تذكرت اتفاقنا السابق؟ »

فاشدّ حقّ جدّي وقال بصوت وشت نبراته بانفعاله وتأثّره:

« أيّ اتفاق يا هذا؟! ... نحن لا نتحدّث عن صفقة تجارية، ولكن عن ابنك، فسأين الأبوة والعطف؟! »

فقال أبي بنهغم وازدراء:

« الأبوة؟ ... العطف؟ ... يا لها من مسجاليا كريمة يبدّ أن المال يفسدها. يا عبد الله بك لندع الهذر جانباً فإنّه لا يحفل برجل عسكريّ مثلك خاض حروب السودان! وأنك لتعرفني حقّ المعرفة كيف زينت لك نفسك أن تقصديني بهذا الرجاء الخالب؟ تفكر في الأمر مليّاً فإنّما تكفّلت «به» كما اتّفقنا أو أتركه لي إذا شئت. »

ونظرت إلى جدّي فوجدت وجهه ملتهباً بحمرة الغضب، وتوقّعت أن ينفجر في الآخر، ولكنّه ضبط نفسه بجهد كبير، وقال بهدوء:

« لولا واجبي نحو ابنك لاستكرهت أن أفك منك موقفي هذا، ولست أستجديك شيئاً لنفسي، ولكنّي أريد أن أطمئنّ على مستقبل الفتى خصوصاً وأنّي رجل طاعن في السنّ وقد أموت غداً... »

فقال أبي ضجراً:

« إذا متّ غداً تكفّلت به! »

فغطّب جدّي مستاء، وهالتي تعبير أبي الغاصبي فكرهته في تلك اللحظة ضعف ما كرهته طول حياتي، وكأنّما نفذ صبر جدّي فنبض قائلاً مكفهر الوجه، ونهضت معه كاتني مشدود إليه. وألقى إلى أبي بنظرة متعالية في ترّفّع وغطرسة، وقال:

« لا أستطيع أن أقول إنّك خيّبت ظنيّ لأنّي لم أحسن بك الظنّ قطّ ولكنّها أخطاء ترتكبها كارهين ونحن أدرى بمواقبها. أستودعك الله. »

وأخذ بيدي ومضى في فنادونا السلامك وأبي يقول متهمكاً:

« مع السلامة يا عبد الله بك. »

هكذا كان أوّل لقاء بيني وبين أبي. وقد خرجت منه وبغض من الغرور ما لا يقبل لي به. وما كدت

تكوينه الجسدي؟ والحق أني رفته بنظرة غريبة لم يظن إليها أحد على أني أحبته كثيراً كما أحبنا كثيراً. وقد عاتبته أمي على ندرته زيارته لنا فقال لها:

- أنت أدري بإخلاق المجنون!

فضحكت بسرور لا مزيد عليه، ورنوت إلى شقيقي بامتنان، فالتفت نحوي وقال أسفاً:

- علمت بما حدث في المقابلة الأخيرة...

فسألته أمي باهتمام:

- هل أخبرك عنها؟

فقال ضاحكاً:

- حدثني بها عم آدم البواب.

وداخلني استياء شديد فهتفت مستنكراً:

- البواب!... أكان يسرق السمع!

فقال مدحط:

- كلاً، ليس به من حاجة إلى استراق السمع، فما من كبيرة أو صغيرة إلا ويحيط بها أبي، فهو سميره القديم الذي يفضي إليه بمكنون صدره وإن لم ينبج من شر لسانه في غالب الأحيان. ولكم أحزمني الموقف الذي وقفه من جلتي، فوددت لو لقيته اليوم هنا لأعترض إليه وأقبل يده.

ونجاذبنا الحديث طويلاً، وكان مدحط محذناً ماهراً، يدبر الحديث بطلاقة وروح مرحة، ولفظه نهقهة أينا العاليه فيضاهيه في جلجلتها دون برودتها وتسرعها، فسرعان ما غبطته وأعجبت به وثقنت لو كان في بعض مرحة وطلاقة. وإنساق الحديث إلى مستقبله، وكان حصل على شهادة الزراعة المتوسطة صيف ذاك العام، فقال:

- سافرت إلى عمي في القيصوم ليجد لي وظيفة بواسطة أحد معارفه الكثيرين، لكنّه لم يوافق على توظيفي بالحكومة، وعرض عليّ أن أتمزّن في عزبته بأجر عالٍ على أن يؤثّر لي أرضاً في القريب العاجل، ورايت في عرضة فرصة تفتح لي أبواب الرزق العريض عن طريق الزراعة فقبلت. ولكنّ أمي لم ترتع لهذا العرض وقالت معترضة:

اجتاز باب البيت إلى الطريق حتّى تنهّدت ارتياحاً، ودعوت الله بقلبي ألا يقضي عليّ يوماً بأن أطرق هذا الباب أبداً. وسرنا نحو ميدان الخليمية، وجعل جلتي بحث خطاه متّكس الذقن عمّر الوجه، وهو يغمغم بكلام غير ممّيز ولا مفهوم وجعلت أسرق إليه النظر عزوئاً أسيفاً، وخائفاً في الوقت نفسه لشعوري بتقل مسئوليتي فيما أدّى إلى الخصام. ثمّ أخذ صوته يتّضح رويداً فسمعتة يقول وكأنّه يحدث نفسه «حيوان أعجم، لماذا يرزق الله أمثاله أطفالاً؟ لماذا لم يعاقبه بالمعقم؟» ويقول أيضاً: «يا لك من وغد! اليس بقلبك ذرة من عاطفة الأبوة؟ إنك لم تتركه لنا استجابة لرجائنا، ولكنك بعتة بنفقته».

وحين بلغنا المحطة لأذ بالصمت، ووقعت عليّ عيناه فحدجني بنظرة قاسية وأصرّ على أسنانه وقال لي بحلّة:

- وأنت يا سي قطران أنظّل عمرك بغلاً! ألم يفتح الله عليك بكلمة طيبة؟ ماذا كان عليك لو نظاهرت بالثودد إليه؟ أحسبته يا أحمق سبرغني عليك عشفاً وولماً!

وأفزعني غضبه كما يفزعني الغضب عادة، وارتعشت شفتاي كالطفل إذا شرع في البكاء، ورأى حالي فنفخ مغيظاً محشاً، وصاح بي:

- ما أسرع أن تبكي!... ما الذي يبكيك؟... هل ظلمتك؟ هل تجبّيت عليك؟... لقد أخطأت خطأ غيبي أحمق، وما زدت على أن قلت لك أخطأت، فهل كفرت؟!

ولم أنبس بكلمة طوال الطريق، وليث عزوئاً منكسر الحاطر، حتّى ذكرت أنّي عائد إلى أمي، وأنّي ساحتنها بكلّ شيء عماً قليل، فسرّي عنيّ.

وزارنا يوماً مدحط أخني، في الأسبوع الذي تلا مقابلتنا لأبي. ولما تفرّمت في وجهه تلك المرّة أيقنت أنّه صورة طبق الأصل من أبي. وتساملت في حيرة عن سيرته وأخلاقه، وهل يشابه أباه فيها كما شابهه في

وحدة إلآها فهي أشنات لا تجتمع. اللهم عفوكم
ورضاكم!

واستدار الصيف واقترب ميعاد افتتاح الدراسة
فالخفي جدي بالسعيدة. وقد ذهبنا ممًا، وقال لي في
الطريق:

- لو كنت رجلاً حطاً لما أحوجتني إلى الذهاب
معلك، ولكنك لا تعرف الطريق إلى الجزيرة وأنت ابن
سبعة عشر، وعلى آية حال احفظ الطريق جيّداً. لقد
كنت ضابطاً في مثل سنك!

وكان يتظاهر بالتذمر والسخط، ولكني شعرت
بقلمي أنه مبتهج مسرور، وأحسست بعطفه يشملي،
فأخرجني ما يتحمله في سبيل من المشقة وهو الشيخ
السبعيني. وحين عودتنا ضربني بمصاه برقة وقال:
- إنك الآن طالب بالسعيدة، فاجتهد ترفع رأسنا.
أريد أن أراك ضابطاً قبل أن أرحل.

ودعوت له بطول العمر من أعماق قلبي. وسكت
ملياً ثم قال بغير مناسبة ظاهرة:

- على إيماننا كانت الابتدائية شهادة عظيمة تعادل
بحق أكبر الشهادات في هذه الأيام!
وهز رأسه ثم استدرك قائلاً:
- كانت أياماً، وكنا رجالاً!

١٤

انتهت العطلة الصيفية فآلم بي الحزن والكآبة.
كانت المدرسة المنقّص الأول ليأتي، فذكرتها كرمها
عميقاً صادقاً. حطاً كنت بصدد مدرسة جديدة اقترنت
في ذهني بالرجولة والفخار، ولكنها مدرسة على آية
حال لا تخلو من مواعيد وفصول وتلاميذ ومدرّسين
وعقوبات، ودروس تفوق صعوبتها بلا شك سابقاتها
في المدرسة الابتدائية.

وفي صباح السبت الأول من أكتوبر استيقظت
مبكراً بعد انقطاع هذه المادة الثقيلة أربعة أشهر،
وارتديت البذلة، وتأنّقت كعادتي وانتقيت رباط ربة
فاخرًا من صوان جدي! وألقت أمي عليّ نظرة طويلة
ثم قالت بسرور:

- اليس الأكرم أن تتولّف في الحكومة؟
فضحك أخي طويلاً ثم قال:

- إنّ دبلومي لا يؤهلي لوظيفة محترمة، أمّا عمي
فيهجّ في فرص العمل المثلث والثروة.
- وتعيش في الفيوم حياتك؟
فقال باستهانة:

- الفيوم من ضواحي القاهرة!
فقال أمي بحزن:
- طالما مئيت نفسي باليوم الذي تستقلّ فيه بحياتك
لنعيش ممًا؟!...

لفظّل يدها برقة وقال مبتسماً:
- سوف تزيّني كثيراً حتّى تمّلي. . .
ثم ودّعنا وانصرف. وتبدّلت أمي من الأعماق
وقالت بحزن:

- غاب عمي نصف حياته في بيت المجنون،
وسيقب النصف الآخر في الفيوم!
وتفكرت قليلاً ثم قالت وكأنها تحدّث نفسها:
- إنّ عمّه لم يعرض عليه ما عرض حباً في سواد
عينيه، ولكنّه ينوي بلا شك أن يزوّجه إحدى بناته.
وسألها ببساطة:

- وماذا عليه لو فعل؟
فحلجني بنظرة غريبة، وهمت بالكلام أكثر من مرة
ثم تنفّس عمّا همت به.

وقد صدق ظنّها، فجاءنا بعد ذلك بزمّن غير طويل
خطاب مدحت يجربنا بخطبته لابنة عمّه، ويسمّي لنا
يوم الزفاف ويدعونا لحضوره. ولم تخفب أمي استياءها،
وماها أن يغضب بدون مشورتها أوّلاً، وقالت بلجني
بغضب:

- أرايت إلى شقيق المجنون كيف خطف ابني!
ولم نحضر زفافه، لأنّي مرضت قبيل مواعده ولزمت
الفرّاش أسبوعين فنسيت أمي الزفاف بأفراحه وآلامه.
وهكذا تزوّج مدحت دون أن يحضر زفافه لا أبوه ولا
أمّه، حتّى قال جدي متهاكاً كعادته:

- هذه الأسرة خلقها الله أعجوبة للبشر، كلّ أسرة

- كالغمر وحقّ كتاب الله!.. وجه أمك على بشرة
بيضاء ليس لي مثلها. محروس بعناية الرحمن.

ومضت توصيني بالحيلة في المشي والركوب والنزول
وعبر الطريق، ودعت لي طويلاً.. ولما غادرت
البيت وقفت بالشرقة تراقب سيرى حتى غيبي عنها
منعطف الطريق. وواصلت السير مغتماً عزونا حتى
بلغت محطة الترام بشارع قصر العيني. ووقفت أنتظر
الترام وحدي لأول مرة في حياتي، فداخلني إحساس
بالحرية لم يداخلني من قبل. وشري عني قليلاً فوجدت
شيئاً من الارتياح، ثم لاطفي أمل في بده حياة
جديدة! حياة لا تكدرها التعاسة التي لازمتني في
مدرسة العقّادين. إني ماضٍ إلى مدرسة جديدة،
وسألقى أناساً جديداً، فلماذا لا أبدأ صفحة جديدة؟
اللهم إني اجتهدت تحاميت قسوة المدرسين؟ وإذا
أحسن التورّد إلى التلاميذ اكتسبت مؤدبهم ودفعت
زرايتهم، وهذا شيء يقدر عليه الكثيرون فلماذا أعجز
عنه وحدي؟! ورقص بين ضلوعي حماس بيج،
وقلت لنفسي إذا نجحت فيها أخضقت فيه في ماضي
حياتي هيأت لنفسي حياة طيبة وحيت إلى قلبي الحياة
المدرسية المفضي علي بها أردت أم لم أرد. وذهبت إلى
السعيدة متفياً ظلّ الأمل الجديد الذي انبت في نفسي
بغنة على محطة الترام!...

ولكنني وجدت الحياة أشقّ مما هيّا لي الأمل، فحال
خجلي الشديد ونفوري من الناس دون اكتساب
صديق، وضجّ شرود ذهني علي اجتهدتي هباء! لشذ
ما عانيت من شرود ذهني! لقد سلبني عقلي وأفندي
كلّ قدرة على الانتباه وتركيز الفكر، وجعلني صيداً
سهلاً للمدرسين. وقد استيقظت مرة من شرودي - في
الأسبوع الثاني من حياتي المدرسية الجديدة - على
مسطرة المدرس وهي تصدم جبيني، وصوته وهو
يسألني بلهجة الوعيد:

- قلت تحذّ شمالاً بماذا؟

فحملت في وجهه بارتباك وفزع حتى نسيت أن
أنهض قائماً فزعت بي:

- تفضّل بالوقوف لترّة على خادم إبيك!
ونفضت فزعاً، وليت متصلياً دون أن أحر
جواباً، فلطمني على خدي وصاح بي:

- تحذّ شمالاً بماذا؟

ولما لم أخرج عن صمتي لطمني على خدي الآخر
وسألني:

- لنذع مؤقتاً ما يحذها شمالاً، فما هي التي أسأل
عما يحذها شمالاً؟

ولازمت الصمت وخدّاي يلتهبان، فانهال عليّ
لطمة يميناً ولطمة شمالاً وأنا لا أجزر على تغذية
وجهي يديّ، حتى انثأ غضبه فأمرني بالجلوس.
وضجّ جانب من الفصل بالضحك، وجلست أغالب
دموعي. انقلبت مرة أخرى إلى أذى المدرسين وسخرية
التلاميذ. ومضيت أجتزّ الأمل في صمت والياس
يفتك بنفسي فتكاً ذريعاً. خبا الأمل وانتهت المحاولة
الجديدة بالإخفاق السريع، وعدت إلى تعاسي
المهودة. وهل رغم ذلك تعلّفت بخيط وإه فكرست
كلّ وقتي للذاكرة. عكفت على كتبي ساعات
متواصلة، ولكنه كان مجهوداً ضائعاً إلا أقله، والحقّ
أنّي كنت أثبت عيني على الصفحات على حين يتطاير
خيالي في وديان الأحلام فلا أستطيع لسمه. وهي
أحلام تحركها الشهوة وتعبث بها الحاديات القدرات،
ثم تنتهي بالعادة الجهنمية التي أدمنت عليها مذ ناهزت
الحلم، فلا تفوت ليلة إلا وأنصهر في أنونها في لذة
مفتعلة وندم موجه طويل.

ولم أقف من رغبتي في صداقة الرفاق موقف الجمود
المطلق، ولكن أخفقت في مساعي إخفاقاً كاملاً. كان
يقابل تلك الرغبة في نفسي ميل أصيل للوحدة، ونفور
وخوف من الناس، وانطواء على النفس لدفعي إلى
الكتبان الشديد فلا أحب أن يقف إنسان على سرّي
ولا حتى مسكني أو عصري، فهذا إلى عجز من
الحدث، وعدم فهم للنكتة فضلاً عن تأليفها، فلم
يجد في أحد من التلاميذ ميزة تجذبه إليّ، عادوا يرموني
بقتل الدم. أخفقت في اكتساب صديق، وعشت
العمر بلا صديق. بيد أنّي لم أكن أدرك حقيقة نفسي،

وتبادر آتي إلى تأييدي في قولي فيهِز رأسه الأبيض
ويتمتم:
- الأمر لله.

ولذلك كنت أتوقع موسم الامتحان بقلق وخوف
تتحللها الأحلام المزعجة، ولذلك أيضاً كان يفريني
الحياء والغرور بتصنع التعب والتوَعَك في الأشهر
السابقة للامتحان لاعتلَّ بها على إخفاقي المتوَعَك.
وكانت آتي من ناحيتها تزور أم هاشم وتندرد الندود،
وتشدُّ حول عنقي التعاويذ. ولا أنسى مرة - وكنت
قريباً من امتحان الكفاءة - جاءني بامرأة عن يقرآن
الغيب مستعجلة بقدرتها على إنجاعي، فحرقت المرأة
بين يديّ البخور، وركّزت في الملهفة عصاً قصيرة
وأمرتني أن أقفز فوقها ثلاث مرّات، وفعلت ما أمرت
به، فقللت لي بيبقين: «ستنجح بإذن الرحمن»، ولمّا
سقطت في الامتحان قلت لأمتي متعجباً: «كيف أسقط
وقد قفزت المرّات الثلاث؟»
وعلى رغم هذا كلّها واصلت الدراسة، وطوبت
عهد الثانويّ وحصلت على البكالوريا وقد ناهزت
الخامسة والعشرين...

١٥

وداخلني على إخفاقي المتواصل شعور بالزهو
والرجولة. إنّ كثيرين من موظفي الحكومة لا يحملون إلّا
البكالوريا فانا رجل ذو شأن! ولست أطعم من ورائها
انخراطاً في سلك الحكومة ولكنّي أرجو أن أخرج بها
من البيت، أعني أن أتحرك بها من ريفتي التي تشدني
شدّاً يكاد يمزّق ضلوعي. أجل لقد ملكني شعور
جامح هفاً بغزادي إلى التجنّد والانطلاق. لم أعد
غلاماً يقاد من انفه، وما هي الحياة تستغزني للتمرد
والثورة. ولكن أيّ تمرد وآية ثورة؟ على ماذا أولمذا؟
لم أجد جواباً واضحاً، والحقّ أنّي لم أكن أفكر، ولم
يكن هياجي فكراً، ولكن ثورة شعورية تنبثق من
أعماق نفسي، تروم الانطلاق والتغيير، وتشوّف إلى
المجهول. لم أستبين هدفاً على وجه التحديد، وعانيت
حينئذٍ مؤلماً غامضاً كلّما تحركت بصدري شملني بكآبة

فاتممت الرفاق دون نفسي بالعيوب التي حرمتني
الصدقة، واعتقدت زمناً أنّه لا صديق لي لأنّه لا
يوجد من هو أهل للصدقة! ما أعجب غرور
الإنسان! إنّ السماء والأرض لا تسعانه. وعلى حمزي
ونفائسي كان يحلّ لي أحياناً آتي الكمال المطلق، فهذا
الحياء القاتل أدب، وهذا الإخفاق في الدراسة عبقرية
بطيئة النمو، وذاك الفقر المدقع في الصدقة والحبّ
تسام، وأمدني علم النفس - الذي دُرّس لنا علماً في
السنة الخامسة - بالفاظ غامضة انتضعت بها في إرضاء
غروري الكاذب. ومع ذلك كانت تنقل عليّ ساعات
باس فأكاد استشفّ الحقيقة، وقد قلت لأمتي يوماً،
وهي الحبيب والصديق والأنيس الذي لم أظفر بسواه:
- لا صديق لي، التلاميذ يزدرونني!

فتولّاهما الغضب، وهمت بي:

- إنّ نعلك بألف رأس من هؤلاء التلاميذ. إنهم لا
يحبّون من لا يمارسهم في شطارتهم وسوء خلقهم
ويحسدونك لحياكت وأدبك. لا تحزن فلا فضيلة وراء
البعد عن الناس!
قللت محزوناً: أشعر أحياناً بأنّي وحيد فتشغل الوحدة
عليّ!

وها أنا قولي ورمقتي بإنكار، وقالت:

- وابن أمك؟... كيف تقول هذا وأنت على قيد
الحياة؟ ألست أكترس حياتي لخدمتك ورعايتك؟
أجل، إنّها تكرّس حياتها لي، وإنّها كلّ شيء في
حياتي، ولكن من لي خارج بيتنا؟
واظردت حياتي للمدرسة في تمعّر وتناقل على رغم
كورتها تركها على عكاز من المدرسين المخصوصين.
ولشدّ ما كان يحزن جدّي كلّما سقطت في امتحان،
ولم يعد يسخر منّي في مزاح، ولمعلّ طعنه في العمر رده
شديد الإشفاق على مستقبلنا، فكان يقول لي:
- لماذا تحفّق هكذا يا كامل؟ أكلّ عام بعامين؟...
ألا ترى أنّي أتلهّف على رؤيتك موظفاً قبل أن أموت؟
وكان كلامه يقع من نفسي موقفاً محزناً، ثمّ أقول
له:

- ما ألوت أن ذاكرت حتّى منتصف الليل.

- ألا تفضل مهنة بعينها؟

واشتكت حيرتي لأن نفسي لم تنزع بي إلى مهنة غير الحرية وذلك بتأثير جذبي نفسه وإيمانه، فلم أدر بماذا أجب، وقلت:

- كنت أمي نفسي بدخول الحرية، أما الآن فلمهن كلها بالنسبة إليّ سواء. . .

- إنني اختار لك الحقوق فهي خير ما بقي لنا؟ ولا أوصيك بالاجتهاد لأنه من العار أن يخفق الإنسان في الجامعة، وربنا يعينا على مصروفاتها!

أسفت على ضياع المدرسة الحرية من يدي، ولكني لم أدرك فداحة خساري إلا حين أيقنت أنني سأواصل الدراسة أربعة أعوام أخرى على الأقل، أو ثمانية أعوام إذا سرت بالمعدل الذي لازمني في المدرستين الابتدائية والثانوية. وكنت بطبعي أكره الدراسة والمدرسة فنظرت إلى المستقبل باحتماض غير قليل. ولم أكن أدري عن الجامعة شيئاً، ولكن رجحت ألا تكون بغضبة كالمدرسة، وقلت لنفسي إن طلابها في سن الرجال فلا يمكن أن يُخلوا بي كإخوان لهم من قبل خلفوا في نفسي آثاراً لا تزول، كذلك استبعدت أن يكون العقاب عما يجوز أن يعاقب به رجال أو من هم في حكم الرجال. ودأبت على تحبب الدراسة المنتظرة إلى نفسي، ولم أُل عن تهمين خطيها، حتى استطعت أن أزدردتها في صبر وأناة. وفي صيف ذلك العام قُيّدت طالباً - بكلية الحقوق.

١٦

وفي صباح السبت من منتصف أكتوبر غادرت البيت مزوّداً بالدهاء قاصداً الجامعة المصرية. ووقفت على طوار المحطة انتظر الترام، وهو نفس الترام الذي كان يجملي إلى المدرسة السعيدية، ولم أخل ذلك الصباح - على امتعاضي - من شعور بالزهو. ولأني لفي انتظار، إذ طرق مسمعي صفقة مصراع نافذة فتحت بعنف فلطمعت الجدار، فارتفع بصري إلى الدور الثاني من عمارة برتقالية اللون تقع أمام المحطة مباشرة، حيث كانت توجد لافنة عيادة طبيب حتى قبل

ووحشة. وكنت كلما استبذت بي تلك الأحاسيس وقعت فريسة ليد الغضب الحمراء، فثار بي الغضب لافنة الأسباب.

وفي تلك الأثناء كان جذبي يهدف إلى الشائين، وكانت أمي تقطع الخطوط الأولى بعد الخمسين.

انقلب جذبي شيئاً نحيلاً، ولكنّه حافظ على صحته ونجا من شرّ الأمراض، وتمتّع بما وهبه الله من نشاط يمسد عليه، ولم تزاوله روحه اللطيفة ودعابته الماددة. أجل اضطرّ إلى تبديل نظام معيشته لأنه لم يعد يَحتمل السهر الطويل المتواصل، فكان يذهب إلى مقهى لوبانباروك صباحاً ليجتمع بقلة من صحابه، ويعضي في النادي مساء ساعتين ثم يعود إلى البيت في العاشرة، وكان يمشي مشيته العسكرية في قوة ووقار دون أن ينحني له جلع. أما أمي فقد سارع إليها الكبر بنسبة أكبر منه إذا عدّت بالقياس إلى عمرها. جفّ عودها، واشتعل مفرق شعرها وسوالفها شيئاً، إلا أنها تَمَتّت بصحة جيّدة، كما حافظ وجهها على جماله وبهائه. وكانت ربما استسلمت في أحيان للإهمال فلا تَمَي عنائبها المعهودة بهندامها. ولشّد ما كان يتولّاهن الحزن والاستياء لذلك، حتى قلت لها مرّة ولا تقني بالهيئة التي تلبّين بها الضيوف، ولم تحبّب لي رجائي ذاك فكانت تبدو لي وهي على أحسن حال، وطابت نفسي ورضيت.

وظنّ جذبي أن الفرصة تهيأت ليحقق الأمل الذي طالما حلم به ألا وهو أن أصير ضابطاً، ولكنّي كنت جاوزت السن المقررة للالتحاق بالمدرسة الحربية، وحسب أن الشفاعة تستطيع أن تذلل تلك الصعوبة التي بسّدت حلّمي فسعى إلى كثيرين من كبار الضباط، ولكنّه أفهم أن القانون لا يتسامح في ذلك وحزن جذبي حزناً شديداً، وقال لي أسفاً:

- لو دخلت الحرية لضمنت لك مستقبلاً حسناً، ولاطمأن قلبي عليك وعلّ أمك.

وهو رأسه في مسخه، ثم سألني:

- علام نويت؟

ف نظرت إليه في حيرة، ولم أحر جواباً، فعاد يسألني:

شهر تقريباً، فوقع بصري على فتاة في الشرفة واقفة نحسي شاباً. أدركت لئزى أن أسرة سكنت الشقة بعد أن أخلاها الطبيب، وثبتت عياني على الفتاة، وجعلت أتابعها وهي ترفع القدر إلى شفتيها لترشف رشفة، ثم تنفخ السائل الساخن بغم مزمووم. وتبدأ وتعيد لأهية ملذّة الشراب. ويبدأ لي منها قامة طويلة وقد نحيف ورشيق وبشرة قمحية، في سرة وتأثير رمادي، وكأني وشيكة الذهاب إلى المدرسة في احتشام السطاليت. وكانت توليني جانب وجهها فلما اعتدل رأسها رأيت وجهها مستديراً، توحى هيته بتتسيق جميل وإن لم أستطع تبيّن معامله من موقعي، تملوه حالة من شعر كستنائي، فبعثت في نفسي أثراً بهيجاً. ولم تبق هدفاً لناظري إلا قليلاً، ثم دارت على عقبيها ومرت إلى الداخل. واحتفظت بصورتها في حب استطلاع ريثما جاء الترام، ثم ركب متخففاً بالأثر البهيج الذي بعته في من كابة اليوم الذي تبدأ فيه الدراسة. حلّ أني وجدت في الكليّة مزاياء خفيفة بأن تذهب خائوي وإن لم تقل من أسباب نفوري العام من الدراسة. من ذلك أن وقت الدراسة مقصور على أربع ساعات في اليوم تنتهي عادة في الساعة الواحدة، ومنه تفتح الطلبة بحزينة الحضور أو الغياب بلا رقيب، ومنه وهو الأهم انعدام فكرة العقاب بل لمست في روح الطلبة أن ما يتهدّد أساتذتهم أخطر ممّا يتهدّدهم هم. سررت بذلك كله وميّت نفسي بأن تنتهي هذه الدراسة على مرّها كما انتهت الدراسات السابقة، ولم يكن جديداً عليّ أن أخرج دواصة على كره ونفور حتى الثمالة. وعندما عدت ذلك اليوم إلى النيل شعرت بسرور مفاجئ حيّا لي أنّي رجل خطير، ونصف أستاذ وربع وكيل نيابة!

وفي صباح اليوم التالي ذكرت الشرفة وأنا أشارك المحطة فرفعت عينيّ مدفوعاً بتطلّع هادئ طبيعي ولكنني وجدتها خالية، وتسلل بصري إلى الداخل فرأيت امرأة في الجدار المواجه وإلى اليسار عمود سرير فضياً لامعاً ومصبأً كهربائياً يتدلّى من السقف ذا قبة زرقاء كبيرة، ثم بدا لي وسط الحجرة رجل في الخمسين ذو

نظارة ذهبية يزور حائلة بنطلونه، فخفضت بصري ورحت أقطع الطوار جبهة وذهاها. ولاحت منّي التفاتة إلى المحطة المقابلة، للترام الذاهب إلى العتبة، فرأيت الفتاة واقفة. وقد عرفتها بقاتمتها وزيتاً - ويدها كتاب. كانت في وقار بدا حلواً بالقياص إلى عمرها الذي لا يجاوز العشرين، ولم يكن بصرها يعلق بأحد عن يمتشد حولها أو يمرّ بها، فأثّر تحفظها في نفسي أثراً جيلاً ملائي احتراماً وإعجاباً ثم شعرت نحوها بانجذاب وحنان. ولم يكن تأثير المرأة في بالأمر الجديد على نفسي، فإني أرى الحسان في الطريق أو في الترام، وأنتمهن عادة نظرة رجل عابر أنفذه الحرمان والوحدة والرغبة، وأرجع منهنّ بالنشوة البديعة والمزّة الموجهة. أمّا هذه الفتاة فلها شأن آخر، فلن يكون موقعي منها موقف العابر، ولكن موقف المقيم ومن هو في حكم الجار، فإني أراها اليوم، وأراها غداً، وإلى ما شاء الله فضعاف ذلك من اهتمامي بها وحرك في قلبي آمالاً وهمية، ومثاني بسرور متجدد، فكأنه نوع من التعارف ولسون من الأمل الغامض، وملهية سرور سلمي لا يطعم في أكثر منه شخص خجول هباب مثلي. ثم ذهبت إلى الكليّة طيب الشعور، متسائلاً: هل يمكن يا ترى أن تنبّه إلى؟... وقد ذكرتها في أحياق الليل، في وحدتي النفسية، وهذيان الأحلام الجنسية بعث بخيالي، فوجدت من نفسي اعتراضاً وغرّاً وإساءة شديداً، فأبعدتها عن أتون عاذني الدميعة، فأنما هنا بالحيوانات القدرة التي تلهب أحطّ الإحساسات من جسدي...

وفي صباح اليوم الثالث انطلقت إلى المحطة وكأني من التطلّع على موعد، وأرسلت ناظري إلى المحطة المقابلة، فرأيتها بوقوف الأمس بقاتمتها الفارعة ووجهها البديري وقارها الجذاب. وسرى في جوانحي الارتياح. ثم حدثني نفسي بأن أجد سبيلاً إلى الاقتراب منها وهي لا تدري بي لأروي ظمائي إلى معرفة وجهها عن كتب، وحشي الإشفاق من مجيء الترام الذي تنتظره إلى تنفيذ ما تطمح إليه نفسي دون

مضجُ بالدم وأنا، فأهوي إلى خدّها ألتئم به إعجاب واحترام وحُب يسمو عن الشهوات، أجل لا يحبّ خيالي أن يصوّرها لي إلّا في رداثها الطويل تحوط بها هالة الوفا والاحتشام.

وبكرت في الذهاب إلى المحطة في صباح اليوم الرابع فوجدت الشرفة خالية، ونقلت بصري إلى نافذة على يسار الشرفة فرأيت الفتاة من جانب وجهها، وكانت تقف وقفة العناية والاهتمام التي يقفها الشخص حيال صورته على وجه المرأة، ومضت تسوّي شعرها وتحنه اللمسات الاحتشامية التي تشبه لمسات التذليل والمداعبة فانشرح صدري وتبّنت يدها بجوارحي حتى خلّني أجد مسّ الشعر الناعم وأشمّ عرفة الطيّب. ثمّ رأيتها تتحوّل عن المرأة وتطلّ من وراء زجاج النافذة على الطريق فقدّرت من المناء وجهها أنّ عينيها على طوار المحطة، ونزعت بخجل الفطري إلى خفض عيني، بيد أنّي تشجّعت بعد المسافة بيني وبينها وثبّت عينيّ بجهد قليل. ترى هل وقع بصرها عليّ؟ وهل ذكرت في الأمس الذي التفت عيناه بعينيها لحظة بلديعة؟ كلّ إنّه لا تحسّ لي وجوداً، ولن تحسّ بهذا الوجود. لبثت قليلاً، ثمّ تراجعت إلى الداخل وغابت عن ناظري. وقطعت طوار المحطة ذهاباً وجيئة، ثمّ عدت إلى موقعي، وجاء ترام إثر ترام ثان وأنا بمكالي كالمتنظر. وفي أثناء ذلك ظهرت في الشرفة فتاة في العاشرة في مريّة زرقاء أدركت لتزني أنّها اختها. ثمّ رأيت فتاة تبرز من العبارة وتوجّه صوب المحطة المقابلة. رأيتها تسمّر لأوّل مرّة، فنحدث تشيّة هادئة مترّنة توافق وقارها الجميل وتناسب قدّها الرشيق وقسامتها الطويلة. وتحركّ في أعصاقي الإحجاب والإحترام. وأرسلت بناظري حتى جاء الترام وصعدت إليه. استوفيت جزاء الانتظار سروراً وارتياحاً، وركبت الترام مزوّداً بأطيب أزهار الأحلام ولم يخف عني اهتمامي بها وسروري باحتشامها وقارها، فلم أشكّ في أنّ التطلّع لذلك البيت سيكون من الآن فصاعداً هوايتي. وقلت لنفسي: «ما أحوجي إلى رفيقة

تردّد، فالتجّمت صوب المحطة الأخرى بقدمين قلقتين وقلب يغمص في صدري فرقاً، وسررت بها مسترقاً النظر، فرأيت في عجلة المدعور عينين عسليتين صابيتين تقطران ملاحه، وأنفّاً صغيراً دقيقاً وشفتين رقيقتين، ولعلّها أحسّت حرارة بصري ففرغت عينيها عرضاً فالتفت عيناها، وسرعا ما استرددت بصري لأنّه أيسر عليّ أن أحمق في قرص الشمس إلّا أن اعتدالها من أن أحمّل وقع نظرة عين، ومضيت إلى طرف الطوار وليث حائرّاً لا أدري كيف أعود إلى المحطة الأخرى. وبخيل إليّ أنّ ارتكبت شططاً جنوبياً فأوقعت نفسي في ورطة عسيرة المخرج، فكذا كانت تترامى لي أشفة الأمور. وليث مستمرّاً حتى استقلت الفتاة الترام وخلا الطوار من المنتظرين فعدت إلى مكاني لاهثاً، وجعلت أحدث نفسي: «أجلّ بها من ملاحه ورشاقة واحتشام! وعشت مع خيالها يومي فلم أكد أنته إلى ما يلقى عليّ من محاضرات. وعّل قدر ما نازعتني النفس إلى قلّي عواطفي على قدر ما ازدادت كرهًا للمحاضرة التي تعرض سبيل أخيتي، ففاض بي شعور بالتمرد على تلك الحياة الدراسية التي تمذّب عقلي وتتجاهل قلبي وشعوري وكأني أنته إلى قلبي لأوّل مرّة، فأحسّ به عضواً حياً مثل بقية الأعضاء، يهوى جوع المعدة، ويرقّ رقة النفس، ويتشوّف تشوّف الروح، فتعنتّ أن أكرّس حياتي لسعادته، وأن استسلم لحنان المتعة التي تتعجّر عنها بنايحه.

تهدّت من الأعالي وأنا جالس في نهاية قاعة المحاضرات بجسم حاضر وعقل غائب. وحديثي نفسي بأنّ وراء هذه الحياة الجافّة الضيقّة المكثّة بالأغلال حياة ناعمة واسعة حرّة، فهتّت نفسي إليها في جزع ولهفة. وعدت إلى الفتاة، ولم يقنع خيالي هذه المرّة بالرؤية. فخلقت ما شاء له هواه فرأيتني الفت نظرها إليّ، واقتربت منها كما فعلت في الصباح، ولكنّي لم أدرك كما ارتكبت فلوامت إليها في جسارة نادرة، وبغلها ابتسام الموقّة فتبسّم إليّ، وأمسّ لها بما أحبّ وغمس لي كذلك، وزكّب الترام معاً، وفي مكان ما على شاطئ النيل أقول لها أحبك، فتقول لي بوجه

وحادرت البيت في ارتياح مطمئناً إلى ما عسى أن يتركه منظرني من أثر حسن في نفس الفتاة إذا شاء القدر أن يلفت عينيها إليّ. بيد أنّ ارتياحي لم يطل، وذكورت أمراً طلالاً نقص عليّ صفوي، فقتر حماسي. . . ذكرت ما ربيت به كثيراً من ثقل الدم، ولم أستبعد في تلك اللحظة أن يكون ذلك العلة في إخفاقي في اكتساب صديق واحد، وسرعان ما تكدر صفوي وتجهمت لي الدنيا. . . وسرت بخطأ ثقيلة حتى انتهيت إلى المحطة. ودار بصري يتقّب في مكانها حتى استقرّ عليها في الشرفة تحسّي الشاي كما رأيته أول مرة. هناك نسيت كدري وهّمي، وانشرح صدري، وانبعث السرور في كلّ قطرة من دمي. هناك أدركت أنّها سروري وفرحي وأنّها روحي وحياتي، وأنّ الدنيا من غير طلعة عيّاها لا تساوي ذرة من رمادا

وواظبت على ذلك الموعد الذي لا يدرى به الطرف الآخر شهرين أو يزيد، يوماً بعد يوم دون انقطاع أو تأخير. تطلّعت بناظريّ حتى كلّ البصر، ووهبتها الإعجاب والاحترام عن طيب خاطر حتى ثوّث بها، وتعلّمت السرور والأحلام حتى نسيت الحقيقة والواقع، وسحت في دنيا الهيام حتى سلبت العقل والرشاد، حفظتها عن ظهر قلب، طولاً وعرضاً، إمّاءة ولفّة، وقفة ومشية، سكوناً وحركة. وعرفت من وراء زجاج النوافذ أسرته من أب وأم وأخت وأخ، كلّ هذا وهي لا تدري بي، ولا تحسّ بي وجوداً، وكأنّني بالنسبة إليها ليس من سكان هذا الكوكب. وأمضيت الجزع والضيق، وأحرقته الرغبة في إثبات وجودي، ولكنّ شأنيّ عجزني إلى موقفي لا أتمدّاه. حلمت في شرودي كثيراً بأنّي اعترض سبيلها، وأتبعها، أو أنّي أبوح لها بإعجابي واحترامي. أمّا في الحقيقة فلم تكن تبرّز من باب المعارة حتى يتقبض قلبي حياءً وخوفاً، وحتى أتيتها لنفّسٍ بصري فيها إذا أنّّه بصرها نحوي. ولعلّه كان أسهل عليّ أن أرمي بنفسي من جسر الملك الصالح من أن أصمد لنظرة من عينيها. وكنت أتسامل في يأس وجزع متى تنسب لوجودي؟ متى تدري أنّ

لحياتي في مثل كإلهاء! وضاعف من حسرتي أنّي عشت حياتي بلا رفيق. على أنّي شعرت بقلق من جرّاء إقصائي عن هذه الرغبة، كما شعرت بحياء شديد. ولم تكن تلك أوّل مرّة أنقص بها عن الرغبة في الرفيق، ولكنّه كان إقصاءً عابراً وتشتوّفاً عائلاً ورغبة بلا هدف معيّن وشوقاً غامضاً، أمّا هذه فإنصاح خطير حرّك حياتي وخوفي، وتشوّف خاصّ، ورغبة يغرّر بها أمل، وشوق يستمدّ الوقود كلّ صباح. وأعجب ما في شعوري أنّه كان شعوراً بيئياً إن صحّ هذا التعبير، فانصّب من بادئ الأمر على الفتاة وبيتها، وما ذكرتها قطّ إلا وتحضر لي صورة البيت، فامتزجت الصورتان في مخيلتي، وثالثا من اهتمامي وأحلامي نصيباً واحداً وسرعان ما تمثّلت فيها زوجتي. ولا عجب طأّني امرؤ إذا وقعت عينه على فتاة في الترام نشطت أحلامه الشاردة فتصوّر أنّه خطبها وعقد عليها وزفّ إليها والتمام لا يزال في منتصف المسافة ما بين جسر الملك الصالح وجسر عباس فكيف لا أمثّل فتاة الصباح زوجة ١٩٤٠ ومكثني الإعجاب والاحترام، وقديسيّة الإحساس البيّ، وحنان العاطفة الزوجيّة، وانتظم هذه الأحاسيس خيط موصول من الليل الصادق، لعله الحبّ الذي لم يعرفه قلبي.

وفي صباح اليوم الخامس أطلت وفتقي حياءً المرأة قبل أن اغادر البيت، وألقيت على صوري نظرة متضمّصة. ينبغي أن أعترف هنا بإعجابي الشديد بذاتي! فلم تكن أناتيقي بقاصرة على سلوكي، ولكنّها امتدّت إلى حبّ الصورة والإعجاب بها. ولشّد ما أنعمت النظر إلى هاتين العينين الخضراوين الواسعتين، وهذا الأنف الدقيق المستقيم، وهذا الوجه الطويل المناسق ذي البشرة البيضاء. . . وكان نأثقي مضرب الأمثال في البيت والمدرسة على السواء حتى لأذكر قول أستاذ اللغة العربيّة لي مرّة: «ولو أنقنت العربيّة إفتانك لعقد رباط رقبك لما كنت أسوأ تلميذ عندي!» نظرت إلى صوري طويلاً ذاك الصباح وجعلت أمّي ترمقني بإعجاب وتمازحتي بكلمات كالغزل فقلت لنفسي أه لو تدري لمن أنا أتأتّي!

مقضيًا عليّ الهيام الصامت للمفرد وحيثي على قيد
خطوة مني!

١٧

واعترض سبيل حادث لعلّه في ذاته ثاقه ، ولكنّه
غير مجرى حياتي . وكانت حيالي الدراميّة نزاعًا
متواصلًا بين عقلي الراكذ ونفسي الشاردة يتمخض -
كما تمخض في الماضي - عن عناء شديد وثمرة قليلة .
وقد بات الشرود لديّ ملكة أسرة غلبت على نفسي
جميع قواها العقلية ، حتّى أشفت من ألا أنال
الليسانس قبل الخامسة والثلاثين! عل أنّي عرفت من
خطورة دراسة القانون أشياء غاب عني شيء لا يكاد
يقيم له الطلبة وزناً ، بل يقبلون عليه في سرور
ويعدّونه رياضة ولها ، ذلك هو درس الخطابة . وكان
يلقى علينا مرّة في الأسبوع في مدرج عام يحضره جميع
طلبة القسم الإعدادي . وفي أثناء الشهرين الأولين
استمعنا إلى دراسة نظريّة في فنّ الخطابة ثمّ بدأ
التدريب العملي . وطفن الأستاذ يدعو الطلبة إلى
ارتحال الخطب في الأغراض المختلفة فكانوا يخطبون
بطلاقة ، وبأصوات جهرية ، في ثبات وشجاعة
ورحت أنصت إليهم في دهشة مقرونة بالإعجاب
البالغ ، ماعوذًا بطلاقتهم وشجاعتهم ، ملهولًا
لمقدرتهم على التصنّي لهذا الموقف الرهيب حيال هذا
الجميع الحاشد ، فكنت أتطوّع بالهجل نيابة عنهم حتّى
يتفصّد جيبي عرفًا! وما أدري في أحد الأيام ألا
والأستاذ ينادي :

- كامل رؤية لاط!

ونعشت قائمًا بحركة عكسيّة ، في الصفّ الأخير من
المدرج - المكان المفضّل عندي - حيث لا تقع عليّ
عين . . وأحدث اسمي اهتمامًا ساخرًا ، فهمس
أحدهم قائلاً :

- هذا حفيد لاطوغي!

وتساءل آخر :

- اسم هذا أم فعل؟!

هناك قلبًا غريبًا يكنّ لها من الوداد أضغاف ما يكنّه
لها الوالدان؟! . . . أليس غريبًا أن يمرّ شخص مرّ
الكرام بقلب يؤدّ لو يفرش شغافه تحت قلبي؟!

وترجّزت أفكاري - تلك الفترة - في قلبي بالآلام
وألمه ، خوافه وأفراده ، وشعرت شعورًا قويًا بحاجتي
إلى نصيح أو مشير ، وكانت أمّي هي صديقي الوحيد
في دنياي ، ولكنّي لم أتوجّه إليها بطبيعة الحال في أزمتي
تلك لشعوري بأنّها ستصف من رغبات قلبي موقف
العداوة! . . . بيد أنّي وجدت في بعض المجلّات التي
يقرأها جديّ صفحات مخصّصة لأسئلة القراء فأملت
أن أظفر منها بالمشير الذي أفتقد . وأرسلت إلى إحداها
هذا السؤال الذي أقصّ مضجعي : «رجل ثقيل الدم ،
أليس ثمة أمل أن يحبّه محبوبه؟» وكان جواب المجلّة
«الحبّ سرّ من الأسرار لا شأن له بالحفّة ولا بالثقل ،
وقد يتعاضى عن القبح والدعامة فلا تخفّ على حبّك
من ثقل دمك! » وإذا جاز لنا أن نتخلّص عن طبيعة
المرأة فلعلّه يصبح أن تقول إنّها مفرسة بالقوّة
والشجاعة! سررت بمطلع الإجابة ، فليّا أن بلغت
ختامها خاضعتي لشعور بالخيبة ، وتساءلت عمّا يعنيه
بالقوّة . . أهـ . لست قويًا على أيّ حال ، والحق أنّ
إدماي العادة المرفولة جعلني نحيفًا أكثر ممّا ينبغي
وأضفى على بشرتي شعورًا . وعندما ذكرت الشجاعة
لم أتمالك نفسي من ضحكة مريرة ، وعددت ما يجيئي
في هذه الدنيا من الأناسيّ والأجواء والفسيران
والصرابير ، فعصر اليأس قلبي!

ولكنّي لم أسلم لليأس لأنّ النار التي تستعر بنفسي
كانت أقوى من أن تخمدتها ضربة من قبضة اليأس
الباردة ، فأرسلت إلى المجلّة هذا السؤال : «كيف
أجلب محبوبتي؟» وكان الجواب : «انذهب إلى أيها أو
وليّ أمرها واطلب يدها إليه واثني كليل بأن تحبّك» .
ربّاه ، ما أقسى المجلّة! إنّها لا تدري أنّي طالب ، وأنّ
أمامي أربعة أعوام - أو ثمانية - قبل أن أصير رجلًا
مستولًا ، وأنّي فوق هذا كله أقدر عليّ اقتحام أبواب
جهنّم متى على طرق باب محبوبتي لأطلب يدها . . يا
أسفاً ، ألا يعلم هؤلاء الناس ما الحجل؟! ما أراني إلا

مغشياً عليّ، وتولّاني ذلك الإحساس الحادّ بالقيود الذي يسكّ بخناقنا في الكابوس. ولم يخطر لي لحظة واحدة أن أفكر في الموضوع، ولعلّي أنسيته، ولم يكن يدور بخلدني إلا هذا السؤال: متى تنكشف هذه الغمّة! ومن الأستاذ الانتظار فقال:

- تكلم. لا تخش الخطأ. أفصح عيّاً ببالك جيئاً. ربّاه متى يتقضي هذا العذاب؟ هيهات أن يرثي أحد لي. وما هم الطلبة يتغامزون ويتضاحكون، وقد قال أحدهم بلهجة من يحذر إخوانه من الاستهانة بي:

- هُكُدا بدأ سعد زغلول.

وقال آخر:

- وهُكُدا انتهى!

وصاح ثالث:

- أنصتوا إلى بلاغة الصمت.

وامتلا المكان ضجّة وضحكات فدار رامي وأخلفت أنفُس بصعوبة، ثم صمّت على إنهاء ذلك الموقف المحزن فنادرت المنصّة ومضيت صوب باب الخروج دون التفات إلى نداء الأستاذ، وضجّة الشياطين تلاحقني وتصدّك أدنّى، وما زلت أخطب على وجهي معمولاً هاذيماً حتّى انتهيت إلى عسّلة الترام. ورحت أردّد بتصميم وحقّ هلن أعود. . . لن أعود، وكان ذلك التصميم البلسم الشافي لجرح ذلك اليوم. أجل لن أعود، ولن تقع أعينهم عليّ مرّة أخرى، ولن أعرض نفسي لبسات الهزء والسخرية، وآية فائدة ترجى من العودة إلى الكليّة ما دامت حياة الحقوقيّ لا تحلّو ساعة من هذه المواقف؟! الأفضل أن أسدل الستار على عهد الدراسة كلّها، وحسي ما عانيت من عبوديّة العذاب. وتعمّيت بهذا التصميم عن جميع ما لحقني من مهانة وإحراج بل نسيت به ألمي وحفني فتركّب صدرتي للمحترق بنسمة ارتياح، وعدت إلى البيت وليس أمام عينيّ إلا ذلك التصميم. . . وبعد الغداء قصصت على جنتيّ وأميّ ما لقيت في يومي من شدّة ومكرهه، واختنق صوتي بالبكاء وأنا أقول:

- هذه حياة لا تطلق، ولن أعود إلى الكليّة أبداً.

وقفت مهوئاً خافق الفؤاد، فقال الأستاذ:

- تعال إلى المنصّة. . .

وتسرّعت في مكاني في ارتباك لا يقيّل لي به، وغبت أن اعتذر ولكنّ بعدي عن الأستاذ كان يوجب عليّ أن أعليّ صوتي فيسمعهم الجميع، فسكّت على رغيي. ونظر الأستاذ إليّ دهشاً، ثم قال:

- ما لك واقفاً لا تتحرّك؟! . . . تعال إلى المنصّة!

واستدارت الرموس إليّ حتّى شعرت بأنّي أحترق تحت وقعها، واستحقني الأستاذ بإشارة من يده، فقلت على كره:

- لماذا؟

وضحك كثيرون من مؤالي، وقال الأستاذ بحلّة:

- لماذا؟! لكي تخطب يا إني كالآخرين!

وقلت بصوت منخفض لم يجاوز صفّين من المدرج:

- لا أدري كيف أخطب!

وطبيعيّ أنّ صوتي لم يبلغ الأستاذ فتطوّر طالب قريب بإبلاغ جمليّ صائناً بلهجة سائرة:

- يقول إنّه لا يدري كيف يخطب!

فقال الأستاذ بلهجة تنمّ عن التشجيع:

- هذا درس تدريب، وأخلق أن ينتفع به من لا يجيد الخطابة. تعال. . .

ولم أرّ مناصاً من الذهاب، فحرّكت قدميّ في جهد وعذاب كأنّي أساق إلى المشنقة، ثم ارتقت المنصّة في حالة ذهول، ووقفت عدّتها في الأستاذ باستسلام واستعطف مؤالي المدرج جانبي الأيسر. وأدرك الأستاذ ارتباكي فقال بلطف:

- انظر إلى زملاتك، واملك جنتاك، وتكلم كأنك

وحبك. لا بدّ من اعتبار هذه المواقف لأنّ حياة الحقوقيّ لا تحلّو ساعة منها وإلاّ كانت هراء لا معنى له. كيف تقف غداً في ساحة القضاء سواء تحت ظلّ النياية أم للمحاماة؟! ادعُ شجاعتك واخطب هذا الجمع حاثاً إيّاه على التبرّع لإحدى الجمعيات الخيرية.

وتطلّع إلى الجميع باهتمام شديد لم يحظ بمثله الخطباء المصاقع، فحملت في الوجوه المتطلّعة دون أن أرى شيئاً، ولقيت ذهول وخجل عمت فكلت أنع

مغرورة العينين. ومع ذلك فاست أشك في أن معارضة جدي كانت نصف جدية فقط. ولو أنه أراد حقاً أن يكسر عزيمتي لما وسعني مخالفتي. والحق أن أمر مستقبلنا كان يحتمل من تفكيره مكاناً واسعاً وخاصة في تلك الأيام الأخيرة التي استوفى فيها شيخوخته، ولعله ارتاح لاقتراح توظيفي ليضمن على مصبر أمي.

وهكذا انقطعت حياتي الدراسية بعد أن قضيت نيفاً وشهرين بكلية الحقوق، بيد أنني لم أجد السرور الذي كنت أحلم به. أجل لم أفكر لحظة واحدة في الرجوع إلى تجربة الدراسة القسامية، إلا أنني وجدت نفسي بحاجة شديدة إلى انتحال الأضداد الكاذبة عن انقطاعي عن العلم وفراخي من معاشه، ونصوير نفسي في صورة الضحية البريئة. ومع أن محاولتي تلك نجحت لحّد ما مع الآخرين أو على الأقل مع أمي الصديقة لي بالحق أو الباطل، إلا أنها لم تنفع معي إلا قليلاً. ملأني السخط والتبرّم، وثار بي نزوع نحو تأديب النفس ومقاومتها! واتخذ ذلك النزوع صورة حملة هجائية على نفسي، فواجهت نقائصي في تسليم واعتراف لأول مرة.

رأيت حياتي كما هي أحلاماً شاردة سخيّة، وخجلاً وخوفاً يمتان المم، وأنانية مطلقة قضت عليّ بعزلة لا يؤنسها صديق أو رفيق، وجهلاً بالدنيا وما فيها، فلا زمان ولا مكان، ولا سياسة ولا رياضة، حتّى المدينة الكبيرة التي ولدت وعشت فيها لا أعرف منها إلا شارعين، وكأني أعيش في حجرة بمغارة! وغشيتني كتابة ثقيلة فاجترت أحزالي في وحلة قلبية مهلكة. ولكنّ أمي لم تفارقني لحظة واحدة في تلك الأيام السود، ولم تنطق بالوقوف معي موقف المعارضة طويلاً فسرعان ما تحوّلت من جانب المعارضة إلى جانب التأييد، وتظاهرت بالسرور والارتياح، وقالت لي يوماً لتسرّي عني:

- الخير فيها اختار الله، وهل نملك لأنفسنا شيئاً؟
وعياً قليل تصبّح رجلاً مسئولاً، ويحيي دورك في تدليل أمك لتقضي بعض ما عليك من دين!
وقضينا الساعات الطوال معاً، وأنا آنس بحديثها

وهال جدي الأمر فقال بانزعاج:
- أنت رجل! ألا ليك خلقت بشاً. إذن لكت أكمل الفتيات؟... أتريد أن تقطع حياتك التعليمية في السطور الأخير منها لأنك عجزت عن قول كلمتين!... والله لو كانت أمك مكانك لخطبت الموجودين!

وجعلت أمي تقبض أصابع يمتاها وتبسطها في تشنّج وتقول:

- حسدوه... حسدوه يا ربّي!
وحاول جدي أن يثني عن عزيمتي تارة باللين وتارة بالعنف، ولكنّ اليأس ثبت عنادي فلم أثن، ولما فرغ صبره قال لي بحدّة:

- إذن ضاعت السنة، وليس ثمة فائدة من إلحاقك بكلية أخرى بعد انقضاء شهرين وثبّت على افتتاح العام الدراسي.

فركبني الحوف أن يلقي بي تارة أخرى إلى عذاب التعليم فقلت:

- ليس ثمة فائدة من مواصلة التعليم.
وقاطعتي أمي هاتفة بالأم:

- لا تقل هذا يا كامل. بل لتواصلنّ التعليم سواء في هذا المعهد أم أيّ معهد آخر.

وضرب جدي كفّاً بكفّ وهو يقول:
- لقد جنّ، وهذه نهاية التذليل.

ولكنّي كنت كمن يدافع عن نفسه حيال الموت، ولم يعد بي من صبر أواجه به الطلبة والدروس والامتحانات، فقلت بفتوت:

- لا أستطيع... لا أستطيع... ارحموني!
وثار جدل عنيف صمدت له بقوة لا يُقيل لي بها، قوّة مصدرها الحوف واليأس، حتّى سكّت جدي مغنيلاً عنقاً. وبعد فترة صمت مرهق سألني:

- أترغب أن تتولّف بالبيكالوريا!
فقلت خافض العينين:

- نعم!
واختلست منه نظرة فوجدهت صامئاً مقطباً وبده تعبت بشاربه الغصّي. وحولت عينيّ إلى أمي فأرابتها

البعيد من «الطوار» حتى لا يصعقني وجودي على كتب منها. وجاءت بعد حين قليل تنهأ في شئيتها التي تجمع بين النشاط والوقار فاستقبلها قلبي بخفقان كزغردة اللسان، ولبثت غاضبا بصري ولكن في نشوة جعلت الدنيا من حولي أطيافا وترنينا، وجاء الترام فركبنا معا، وكانت أول مرة يجتمعنا مكان واحد فسرى من ملمسه إلى جسدي مثل الكهرباء، ووددت لو ينطلق بنا بغير توقف. وإلى الأبد. وحين غادرت الترام عبرت الطريق متعجلا إلى الطوار وأرسلت بانظري إلى مقصورة السيدات فوقعتا على ظهرها وهي جالسة عاكفة على كتاب بين يديها. ولما تحرك الترام التفتت فجأة إلى الورا فوقع بصرها علي ثم ولتني ظهرها ثانية. انتفضت من الرأس إلى القدم، وتسمرت قدماي في الأرض وعلقت عيني بالتزام حتى لم أعد أتيين من معلمه شيئا، ثم واصلت السير غائبا عما حولي، سكران بالنظرة التي جادت بها السماء، وتساءلت في ذعول وحشة لماذا التفتت؟ أي داع دعاها إلى ذلك؟ بل أي داع يمكن أن يكون هذا إذا لم يكن تلبية لنداء روعي الخفي؟ إن الراديو يلتقط الصوت من تضاعيف الهواء على بُعد الشقة، فما وجه الاستحالة في أن تليّ الروح نداء روح أخرى مشحونة بالهيام والرغبة! وزدها ذلك الحاضر وأمنت في سعادة لا توصف بأن روعي تأثيرا على روحها. ولكن رحمتك اللهم، فلشد ما ارتجفت تحت وقع النظرة الحافظة! ترى هل أنكرت وجهي أم ذكرت به الفتي الذي تطلع إليها لحظة على المحطة منذ ثلاثة أشهر! وكنت قد اقتربت من الوزارة فعاودتني البقطة رويدا، وقلت لنفسي وكأني أودع ساعة النشوة المولدة «لأي أحبها، وهذا هو الحب بلا زيادة ولا نقصان!» وخرجت من دنيا الهيام لأدخل دنيا الحكومة. وقدمت نفسي للمدير فقدمني بدوره إلى زملائي في الإدارة وكانوا تسعة. هؤلاء قلّة بالقياس إلى الطلبة ولأنهم لرجال حقّا فلا يمكن أن أتوقع منهم زراية أو سخريّة، ورجوت من صميم قلبي أن أبدا حياة جديدة غنية، ولما لم يُعهد إليّ بعمل ذلك اليوم

الطيب الشافي، وبفضلها وحدها انكشفت عني الغمة وتفتح قلبي للحياة ونفض عن جواهره غبار الوسواس...

١٨

واستشفع حدي بضابط عظيم من رجالات الجيش بمن «عمل ملازما صغيرا» تحت رئاسته في السودان» على حدّ قوله، ليجد لي وظيفة بوزارة الحربيّة وكُلّل مسعاه بالتوفيق ولكن الضابط أخبره بأنني ربّما عُيّن في السلم ولما قال جدي ذلك نهمّ وجه أمي وقالت باستنكار:

- السلم؟! ألا ترى أنّ كامل لا يستطيع العيش بمفرده؟!

وكانت تظنّ السلم بلدا قريبا كالزقازيق أو طنطا على الأكثر، فلما عرفت حقيقتها نلت عنها ضحكة عصبية وعدت الأمر مزاحا. وصاح جدي متبرّما:

- وظهيه بنسك، أو عيّيه في حضنك وأرجعني! ولكنّه لم يأل جهدا فسعى لدى مافره القديما من مواليد القرن التاسع عشر بمن عملوا قديما تحت قيادته، ولعلّهم تأثروا بشيخوخته الشاتية ونشاطه الموفور... وما أبغض في صدورهم من ذكريات فوعده خيرا، ووجدوا لي بالفعل وظيفة بإدارة المخازن بديوان الوزارة العام. ولم يكن يفصل بين الوزارة وبين بيتنا إلا ثلاث عكلات وعشر دقائق شيئا على الأقدام فرضيت أمي وقرّرت عينا، وقدمت مسوغات التعمين وتقدّمت للزمسبون الطيّب العام كالشيم، وبالاختصار صرت موكّفا من موكّفي الدولة. وكان الشعور الذي لايسي وأنا أغادر البيت ميمّا الوزارة لأول مرة شعورا معقّدا، فيه زهو وخيلاء، وفيه فرح بالتحرّر من عبوديّة البيت والمدرسة على السواء، ولا يتخلو من قلق يساورني كلّما أقبلت على جليدي من الأمر. ومضيت بقلب خائف إلى محطة «عجويي» لأنّ طريقنا أصبح واحدا منذ ذلك اليوم السعيد ولو لمحات معدودات، ولئن لم يكن لي الوظيفة إلا هذا لكان حسي من الهناء والسرور، واحتلت بقلبي الضعيف فوفقت في الطرف

مستولاً، أما الآن فلم أرَ أملي إلا مستقبلاً متجهتاً
مريراً لا نجاة منه إلا الموت. أجل أدركت أنني لن أظفر
بالراحة مدى الحياة، وأنه لن تزياني الرغبة الحفية في
الحرب. ولكن إلى أين هذه المرة؟ ولم يكن سرّ بلوتي في
عجزتي حيال العقبات فحسب، ولكن في تضخيمها
وتكبيرها، فإني نصبت من عقلي حرب أعصاب هائلة
ضد نفسي... لم أرُ نفسي على الحياة في الواقع،
ولم أوطئها على احتلالها، فلم أدر ما فلسفة الرضا أو
الاستهانة، كما أنني لم أقدر على فلسفة القوة أو الثروة،
وكان إذا صادفتي أمر لا يحتمل - والدنيا كلها عندي لا
تحتمل - راح خيالي السقيم يصنع من الحياة قبة،
ولاقت المهّم بما يشبه الصبر في الظاهر على حين
أنطوي على نفسي في كمد قاتل ورغم فتك. لذلك لم
يُخلّ مكان أحلّ فيه من علو حقيقي أو وهمي. كان
التلاميذ والمدرّسون أعدائي القدامى فغدا الموقظون
أعدائي الجدد.

ولكن كنت أنتِ العزاء والسرور الحياة صحراء
قاحلة مهلكة وأنتِ بها وحسك الواحة الخضراء الرطبة
تلوذ بها النفس. ووالله ما حملت للوظيفة من شيء إلا
أن تغلني طريقها إلى محطتك، فعندها أنتظر كلّ صباح
مطلّك حتى إذا رأيتك مقبلة في حقّة الغزال ووقار
الطاووس تراجعت إلى طرفها البعيد فيها يشبه الذعر
ودعوت الله أن يخفّف عني شدة الحفّان ثم أسترق
إليك اللحظ متحايلاً أن تلقني العين بالعين فالتقاؤهما
جلل لا يصمد له إلا الألفاء. وإذا جاء الترام ركبتنا
معاً ولا تدرين سروري به إذ يحملنا معاً، ثم أغادره
فيسير بك إلى هدفة المجهول مزوّدة بدعائي أن يصونك
المولى ويسعدك، وتبقي لي بعد ذلك صورتك عالقة
بخيالي تلدّر عليّ الأتى في روضة سجن الجديد. ولكن
الإثم أظنّ على تلك الحال؟ لقد صفّق الجزع بقلبي،
وأضني الانتظار.

وزاد من التناهي أنني جعلت أراها في الأصائل كما
أراها في الأبكار، لأنني كنت أغادر البيت عصراً كما
يجلو لكثير من الموقظين في غير معارضة من أمي التي لم

وجدت فسحة لمعاودة خواطري السعيدة عن الحرية
التي أمّني النفس بها، والتي أرجو بها أن أستنقذ نفسي
من سجن البيت وعبودية المدرسة، ثم من النظرة
السعيدة التي انتزعها روحي من الأحياء قوة واقتداراً.

واقبلت على الحياة الجديدة بأمل جذّاب. وظفرت
بأول نوع من الصداقة عرفته في حياتي، وهو ما
يسمونه بصداقة «المكاتب» هي صداقة جبرية تفرضها
زمانة الموقظين في المكتب الواحد. وقد فرحت بها بدئي
الامر لأنه لم يسعني - أنا الذي لم أعرف في حياتي
صديقاً - إلا أن أفرح بين تسعة من الرجال ينادونني بلا
كلفة، ويستقبلوني ويودّعونني بأطيب تحية. ولكن
وأسفاه قام خجلي حاجزاً منياً بيني وبينهم. ثم أثبتت
لي التجربة أنّ تلك صداقة لا تستحقّ الأسف عليها،
فهي تبدأ مع الصباح بالتحية والمداعبة وقد تقلّب عند
الظهور إلى وقعة دنيتية تنتم إلى أذار أو عقاب. والأدهى
من ذلك أنني لم أعرف لي معلماً مستقلاً، ولكن ما من
واحد منهم إلا ويكلفني بعمل آلي أثقله صاعراً. وربما
قمصوا أكثر النهار في ثروة وتدخين وشرب القهوة وأنا
مكبّ على الأوراق في شبه مسخرة. ولا شك أنهم
فطنوا بمكرهم إلى أنني «عزّ خجولة» فاستغلّوا ضعفني
أسوأ استغلال. وضاق صدري، وخبا سروري بالحياة
الجديدة في الشهر الأوّل منها، وأيقنت أنني المستجير من
الرمضاء بالنار زاد من سوء حالتي أنّ الشرود لم ينقطع
عني أثناء عملي فوقعت مراراً وتكراراً في أخطاء
السهر، وتوالى عليّ الانتقادات الساخرة والإنذارات
ممن يدعونهم «برؤساء البدة» فكأنني رُددت إلى المدرسة
بتلاميذها ومدرّسيها، فعادوني مرارة حياتي الماضية،
وصحّ عندي أنني لن أظفر براحة حقيقية ما دمت على
صلة بأحد من الناس... واجترأت الأمي في خفاه.

ولم أكن أثور على شيء فقط ممّا يشقيني، وكان ديدني
دائماً أن أطبع بقلب دام كظيم، وسخط مكثوم. وزاد
البلاء حقّة أنني لم أجد لحياتي متحوّلاً، ولا أملاً في
الخلاص ولو بعد حين. وقد كنت أجهلّد في المدرسة
أحياناً على أمل أنّها تنتهي يوماً فاصبر رجلاً حراً

وابتعت بالفعل فراشاً ولكّني ركبته في نفس الحجرة
فظَلْتُ تحوينا مدام، وهي الحجرة التي رأيت فيها نور
الدنيا.

١٩

ثم كان صباح تاريخي في حياتي إذ وقع بصرها
عليّ. والتقت عيننا وهي قادمة نحو المحطة،
وارتعشت جوارحي وتساءلت وأنا أعاني الحياة: ترى
ألم تذكر الفتى الذي رآته يوم لَبِث نداء روعي؟
وأسكرتني نشوة لم يَحْصِدها جميع السجّلين المتأففين
نفسه. وحملنا الترام جيئاً حتّى محطة الوزارة لغادرته،
وهرعت إلى الطوار ثم بعثت بناطريّ إلى مقصورة
السيدات، وكانت تجلس في الصفّ الآخر ووجهها إلى
ناحيتي فالتقت عينانا مرّة أخرى، وغضضت بصري في
حياء وصدرتي بالسعادة يترد، ثم غمغمت لنفسي وأنا
أجدّ في السير «برح الخفاء وانفضحت»! وقد تذكّرت
سعادتي عصراً وأنا جالس في حجرتي غير بعيد عن
أمي فقلت لنفسي وأنا أحتلس منها نظرة غريبة «أه لو
تدري بأفكاري!». ألم تعلمني تجاربي الماضية أنّ مثل
سعادتي هذه عمّا تعدّه هي - أمي - كُفراً لا يُغتفر؟! هذه
حقيقة لم تغب عن خاطري قط، ومع ذلك بدت لي
وقدذاك غريبة مستكرّة كأنما اكتشفها لأوّل مرّة،
وسدّعت نحو الوجه الوقور الجميل نظرة احتجاج
واسْتِياء، وقلت لنفسني متعَبّاً: «ربّما كان الضرر يقع
بي أخفّ لديها من كشف حبي!». ولعلّي بالفت
كثيراً، ولكنّ سيرتها الماضية جعلتني لا أرنو إلى الجانب
البهيج من الحياة إلّا في خوف وحياء شديدين من
ناحيتها! وكأنّما ضفت بكشائي سعادتي في حضرتها
فغادرت البيت مسروراً وهرعت كالعتاد إلى المحطة
القدية، وسبقني بصري فروع على الشقيقتين وراه
زجاج النافذة ففطمت في سعادة غامرة، أمشي على
استحياء.. واندمست في زحمة الواقفين وقلبي يتمنّى
ألا أبرح المحطة حتّى يسدل الليل سدوله. وكان الجوّ
شديد البرودة فداخلي سرور باتيّ أتمحّل قسوة الجوّ في
سبيل نظرة من عينيها. ولم أشكّ في أنّ طول قلمي

يعد بوسعما أنّ تعارض في ذلك. وكنت أهرع إلى
عجّلي القديمة تلقاء بيتها، فالتفت بين المنتظرين
مستطعلاً مشرق روعي بطرف مشوّق، فأحياناً أرى
الأمّ أو الأب أو الأخ أو الأخت، وأحياناً أراها في
فستان بسيط أنيق من فساتين البيت يزلزل نفسي زلزلاً
شديداً.

لم أعد أرى حياتي أملاً إلّا في الرفيق الأنيس،
فهضتُ بها هيئاً، واستأترتني رغبة صادقة حارّة في
السعادة التي لم يكن لها من معنى في نفسي إلّا أن ألقى
فيها وأن تغني فيّ. بيد أنّي لم أجاهل العقبات، وهل
كان دأبي إلّا تكثير العقبات؟! فلم أنس أنّي في أوّل
السطرين وأنّ مرثئيّ سبعة جنينها ونصف؟ ثمّ
لاحظت مجرّد الفلق أنّ ثمة زجّلين يقفان معنا في
المحطة صلباً لا يفتان ينعان النظر في وجه الفتاة
باهتمام. أمّا أحدهما فرأيتُه يخرج مرّات من العمارة التي
تقيم فيها، وهو رجل في نحو الأربعين تلوح في وجهه
آي الرزانة والوقار، ويتّسم بطابع المولّفين المتنازين.
وأما الآخر فشاب في الثلاثين ميّال للسخامة والبذانة
مع أناقة ورواجة، إلّا أنّ إكباته ونظراته تنمّ عن
المعجب والزهر. وصحبت لتطلّعها التواصل إليها وما
من داعٍ إلى المعجب، ولكّني ظننتني.. ويا له من ظنّ
مضحك - أوّل من نبّأ له كشف ذلك الكنز. وثار بي
الغضب والحق، وتلوّث دودة الغيرة في سويداء قلبي.
إنّما لا تحيد عن نظرتها المستقيمة ولكن ترى هل
تجهلها حقاً كما تجهلي؟ خصوصاً هذا الجار الذي
يقطن تحتها أو فوقها؟ وتقبّض قلبي فرعاً وريّساً
ورمقتها ببطئ كأنّها المسئولة عن اهتمام الناس بها؟
وأطردت حياتي بين عمل محمّوت وحُبّ حائر
غريب.

وكان يتنا في ذلك الحين يمدّ من البيوت السعيدة،
اطمأنت قلوب أهله، فسكن خاطر الشيخ الهرم،
وقعت أمي بما قسم لي ولها. بيد أنّ جلّي قال لي يوماً
بلهجة ساخرة:

«ألا أتحجل يا رجل وابتن لك فراشاً، أنظّل الدهر
تنام في حضن أمك؟!»

وما كان قد كانه. ومرة رأيت الأخت الصغيرة في النافذة وأنا مقبل نحو المحطة عصراً، ولما لمحتني التفتت إلى الوراء كالتها تخاطب شخصاً لا أراه، ثم بدت الأم وراء زجاج النافذة وألقت علي نظرة متفحصة. رباها لقد داخلني شعور الجاني إذا صُبط متلبساً بجريته. ولم يبق ثمة شك في أن البيت يعرفني، وازددت يقيناً فيها تلاً ذلك من أيام! فما كان يقع علي بصر أحدهم حتى يتفحصني باهتنام إلا مولاي طيباً! وازددت اضطراباً.

ورحت أسأل نفسي الحيرى عما يقولون، وعما يظنون، لي منظر حسن خداع، ولعلمهم يظنونني موثقاً مغبوطاً ذا مستقبل باهر! أواه، ما كنت موثقاً كثيراً إلا في تقدير آتي، ولعلني ندمت عند ذاك على قطع حياتي الجامعية، وعزيت نفسي المحزونة بآتي سأرت يوماً ثروة لا بأس بها! مهما يكن من أمر فلا داعي للخوف من البيت. بل إنني لأشعر بأنه سبحانه الرسوفة. وإنني لأحبّه من مجامع قلبي، أناسه وإثائه وحجراته وحتى خادمته. إنني أعيش فيه بروحي، وأجاذب أهله - في الخيال - أشهى الأحاديث، أما حبيبتي فهي ملء القلب والعقل والخيال. وكنت إذا رأيت الغسيل منشوراً على الشرفة تنفّس به نسائم الأصائل أرنو إليه بعين محب حنون، ويصيري يتنقل بين ألوانه وأشكاله مشغولاً بأهداب رفاق يطرب لها قلبي طرباً قدسياً كأنما يشتت أذاني سجع ألحان الحية! ولكنم خاطبت حجرة حبيبتي موصياً إياها بها في البقعة والمنام، وعندما تحلّق بها الأحلام، أو حين تتحدث بنبراتنا التي لم أسعد بساهاها.

ويوماً دفعني الهوى إلى البقاء في الترام حتى أوصول حبيبتي إلى مدرستها. واضطربت خوفاً وقلقاً من جرّاء المخاطرة التي نسبت فيها، وبلغ الترام العتبة الخضراء وعيناي لا تفارقان مقصورة السيدات لأرى أين تنزل حبيبتي. ودار الترام بنا مخترقاً شوارع كنت أراها لأول مرة حتى عبر جسر أبي العلاء. وفي المحطة التالية له غادرت الفتاة الترام. وهبطت إلى الطوار وأنا أتبعها عينيّ قرأتها تتجه إلى الطوار الأيمن بطولها الفارع

ومعطني الأسود خليفان بأن يذكراها بي. ورنعت عينيّ في خوف شديد فرائتها تنظر صوري وإن لم أتمكن لبعد المسافة من تحديد تحديق عينيها، ومع ذلك سرت إلى أطرافي رعدة السرور. وجاء الترام على رغي، ودفعني الخجل دفعا إلى ركوبه.

لم يعد لحياتي من غاية إلا المحطة وصاحبة المحطة. قصاري أن أسترّق النظر بعينين خجولتين، وأن أخفضهما سرياً إذا رنت إليّ العيان اللتان أحبّهما أكثر من الحياة نفسها. ولم تعد فتاتي تجهلني كما جهلني أشهراً أربعة، فأحسّت بلا شك أن في يتطلع إليها حيثما تحلّ، وأنه يتعمّد ذلك في صبر طويل وإن كان لا يبدي حراكاً، بل ابسم الحظّ فجعلت أفوز بنظرة كلّ يوم تقريباً. وإن بدا أن الاتفاق وحده هو باعثها، نظرة عابرة تلقى على المكان كله فتصادفي في جانب منه! وفيما عدا ذلك فقد حافظت على وقارها واحتشامها. أجل ما عادت لمجهلي مها تجهلني، وأنه لظفر رائع - بالقياس إلى عجزتي - أن تحسّ وجودي بعد ذلك النضال الصامت الطويل. وثابتت على النظر والصبر وكأنني أنتظر أن تحمي الخطوة التالية من ناحيتها هي، أو من ربّ السماوات والأرض. . .

تلك أيام حلوة سعيدة على خلوها من الأمل. أنفتحتها في إحساس عميق بهيج وأحلام لا يحيط بها الخيال، رقت على قلبي في طهر وقداصة. وقد أوصدت دونها باب خلوتي الليلية، ولذّي الشيطانية.

وتبيّن لي بعد حين أن سرّي المكنون يتسرّب من أصاقي صديري على تكتّمي وحرصي. لا أدري كيف حدث ذلك، ولعل الأمر لم يعد أنني أنسى نفسي في لحظات الهيام فتقع العين متى عل ما أحرس على كتمانها. وما أدري يوماً إلا والرجلان «النافسان» برمقاني برية، وكأنيما فلنا إلى ظهور منافس جديد. ويوماً مرّت بي في موقفني من المحطة خادمة الفتاة فالتفت عليّ نظرة ذات معنى ذاب لها قلبي ذوباناً، وسألت نفسي في خوف وسرور: ترى هل بلغ سرّي البيت نفسه؟! ثم غمغمت في حياة بالغ «الفتفتحت

الصالحه. ولم يبدَ جديد في حياتي إلا مواطني على الصلاة بعد أن كنت أنقطع عنها في فترات متباعدة. ولعلَّ هيان صدري بالحبِّ هو الذي هيأ لي ذلك الاتصال الطاهر بالله خمس مرَّات في اليوم، على أنَّ نفسي لم تتخفَّف من المِها القديم، وزادها الصلاة الهيا، لما يفرط مِنِّي في ساعات اللَّذَّة الجنويَّة التي اختلسها بليل، فلم يعد يسعني الكفَّ عنها، بل زدت استسلامًا لها، دون أن يرحمني الندم يومًا واحدًا، وليس أشقى من أن يقرعك الندم وأنت ذو إيمان. وما من شكٍّ في أنَّ ذلك الصراع المتواصل هو الذي جذبني إلى إنعام النظر في نفسي وحياتي، فهالني أوَّل الأمر ما تسرَّ عليه حياتي من نوال رتيب فاليرم فيها بعلم والعام بيوم، ألم ينقضَّ عليَّ عام منذ تولَّقني بالمُخْرِبة دون أن يبدَّ جديد؟! عسر يمضي في ضيق بالعمل المقصِّي به عليَّ، وفي وحشة لا تبدَّد إلا ساعتين: ساعة للمُحَلَّة، وساعة الأسس بآتي في بيتنا. وحتىَّ تلك الأوقات السعيدة لم تخل من تنغيص والم، فعند حبيبتي كان يطاردني طيف أمِّي، وعند أمِّي كان يخفيني طيف حبيبتي. وتولَّد من ذلك قلق مخمَّر امتزج في نفسي بما يثَّرن بها من نلم فشملي بكآبة لا تريم. وإني إذا رجعت بالذاكرة إلى تلك الأيام أنحيت باللائمة على نفسي، لا لأنِّي لم أجد سببًا وجيهاً لتعاسمي، ولكن لسوء صنيعي المعتاد في تضخيم الحزن والألام، ولأنِّي لم أواجه أمرًا في حياتي بما يستوجب من حزم وشجاعة. ولذلك لم تدبَّ أمِّي علَّة لسهرمي الذي كان يلقاها، ولطالما قالت لي بحزن وأسف:

- لماذا تبلى أحيانًا كالخزين؟ لعمري ماذا ينقصك؟ أردت أن تكون موكفًا فكنْتَ، ومُتَمَكِّك الله بعطف جُذْكَ الذي يبيِّن لنا عيشًا رغيذاً، وفي خدمتك أم لو استوهبتها حياتها لوهبتهك إيماناً عن طيب خاطر، وبين يديك الشباب والصحة أدامها الله لك. فإذا ينقصك؟

وعجبت كيف تتساءل عمَّا ينقصني!.. أجل إنَّها حدَّت لي نعيًا سابغة، بيد أنَّي أجهل فضل تلك

وقفاً الرشيق، ثُمَّ انعطفت إلى طريق جانبيٍّ يمتدُّ بحذاء القصور القائمة على التل، وسحت منها الثفانة وهي تنطفئ إلى الوراء فوقع بصرها عليَّ وأنا واقف أنظر صوبها. ارتجفت أوَّسالي كأنَّها مَسَّني تيسار كهربائي، وتساعد دم الحجل إلى وجهي. وسرعان ما غابت عن ناظرِي فتقدَّمت خطوات حتَّى أمكنني رؤية الطريق فرأيتها تبعد بخطواتها الرشيقَة، ثُمَّ مرَّت من باب جانبيٍّ غير بعيد. ولبَّثت متردِّداً، وفكرت في العودة إلى الوزارة التي تأسَّرت عن ميعادها بغير اعتذار، ولكن أبَت نفسي أن تنهي المخاطرة بلا نتيجة. وتقدَّمت نحو المدرسة بقلب هَيَّاب، ثُمَّ مررت بها متعجِّلاً، ولكنِّي قرأت الثلاثة «معهد التربية العالمي للبنات»، ورجعت إلى المُحَلَّة وركبت الترام العائد وأنا أتساءل عن معنى ما قرأت. وعلمت ما فاتني علمه في إدارة المخازن فأخبرني موكف أنَّه معهد لتخريج المُعَلِّمات لمدارس البنات الابتدائية، وأنَّهنَّ يدخلن بعد البكالوريا. وداخلني زهو لأنَّ حبيبتي ستصير أستاذة، ولكن لم يغب عني الفارق الكبير بيننا في الثقافة، فلعلت نفسي الخائرة التي حملتني على الفرار من الجامعة وساورني خوف وكآبة. ثُمَّ لجأت إلى المُحَلَّة مشيري القديم فأرسلت إليها هذا السؤال: وهل يمكن أن تحبَّ فتاة مثقفة ثقافة عالية شابًّا من حملة البكالوريا؟. فلذُكرت المُحَلَّة في جوابها الأميرة التي أحبَّت الراعي!.. وحلمت تلك الليلة بحبيبتي، فكانت أوَّل زورة في المنام...

٢٠

تركزت أحلامي في أمرين، أن أتمتج بدخل حسن - وهو آتٍ يومًا ما - وأن أظفر بعروسي. لم أكن ممن يشفيهم الطموح، وإذا كان لي منه شيء فيا مضى من أيام الأحلام، فقد تُبِّر في إدارة المخازن بوزارة الحربيَّة حيث تمَدَّ علاوة نصف جنته من الآمال البعيدة. أجل لم تب بي الهمة في الطموح، ولكن هَمَّت نفسي إلى السعادة والطمأنينة، إلى العيشة الطيبة والزوجة المحبة

- إثمَن لا يمرن سعادتك ولكنَّ يردنك مطيَّة
لسمادة بنتنن!

لم أنهم لقولها معنى، وقرأت في عينيها أنها ترجو أن
أفصح عن عدم اكترائي للأسر، ولكنني تشبعت
ولازمت الصمت، فقلت بلهجة تنفي بالقلق:

- الزواج سنَّة، ولا يجوز أن يتزوَّج الشخص قبل
أن تكتمل رجولته.

فتسألت في امتعاض: إذا لم تكتمل رجولتي في
السادة والعشرين فمتى تكتمل إذن؟ ووددت لو
أصرَّح بأفكاري ولكنَّ شجاعتي لم تسعني فواصلت
الصمت. وتقرَّست في وجهي ملياً ثمَّ استطردت قائلة
بجزع:

- إني أريد لك عروساً جذيرة بك حقاً. يبر حسننا
الأعين، وتطري أخلائها الألسن، من أسرة كريمة ذات
معد، فتهمي لك قصراً شاعراً!

فسألته وأنا أداري غيظي:

- وأين توجد مثل هذه العروس؟!

فقلت وهي تعضُّ شفتها:

- ستوجد حين ياذن الله!

وقلت لنفسي هذا تعجيز بلا ريب. واحتلم الغيظ
بصدري وتراءى لي وجهها في حالة الغضب والثورة،
فقلت لنفسي ساخطاً:

- إنَّ أمي إذا احتدَّت تواري جمالها ونضبت مساحة
وجهها.

٢١

الزواج! الزواج! لم يعد لي فكرة سواه، ولم أجد
لحياتي معنى إلَّا أن تتمَّ به. إذا لم تنزوَّج فلماذا إذن
نحيا، بل لماذا وجدنا في الحياة؟ إني أحسنَّ إليه حينئذٍ
موجعاً تندي له الضلوع فتسحُّ أشواقاً: إنَّه جنة المثل
بنار الجحيم. ولست أكثُ لحظة عن تحيَّله في أحلام
اليفظة الشاردة التي تغيب بي عن الوجود. إني أراي
لصق حبيتي وعلى وجهها الأنيق نقاب الحرير المطرَّز
بالفل، والشمع يزه من حولنا. وأراي أمضي بها إلى
مسكن في آخر القاهرة ولا أدري لماذا أحبُّ أن يكون

النعم، وكانت لي بمثابة الهواء الذي ناعم به في كلِّ
لحظة من لحظات حياتنا دون أن يحظر لنا أن نشكر
عليه. ولكنني لا أنفك عن التفكير فيما ينقصني فيعيني
ما أطلع إليه عمَّا أنعم به. إني شخص لم يقدر له أن
يعرف شيئاً عن حكمة الحياة، فلم يخرج قطَّ عن دائرة
نفسه الضيقة، وفي ذلك سرُّ ذاتي، هو الذي حال
بيني وبين مسرَّات الحياة، وما فيها من فضائل ومعاني
وصداقات، وطوى صدري على التفور من الناس
والخوف منهم، بل جعلني أعدَّ الدنيا عدوًّا يترصَّص
بي. ولعلَّه لم يكن مرضي إلَّا أن تحلَّ الدنيا نفسها من
همومها لتكرس حياتنا لسماعي، وليا لم يسعها ذلك
فاطمته في عجز وخوف ونابستها العدا، وانكششت
في أعراق ذاتي جاهلاً بما يمتلئ صدرها من آثاس وآمال
وفضائل، وحتى الحبِّ وهو أول إحساس سامٍ أُممه
وقفت حياله جامداً حائفاً، أنتظر في يأس أن يبادر هو
إليّ...

ثمَّ جاء دور أمي ولو متأخراً، فاخلعت أقرَّد عليها
وإن لبث ثمزدي نازاً مكنونة لا يتطايها شرر. ونشأ
ذلك من موقفها الغريب حيال ما يلدغها بزواجي
عاجلاً أو أجلاً. وقد لمست ذلك بنفسي حين حدَّثتها
خالتي - في إحدى زياراتها الرسمية - عن رغبتها في
زواجي من ابنتها التي صارت شاة ناضجة، فرأيت
كيف تلقَّت الاقتراح بنرفزة ظاهرة لم تستطع معها أن
تحافظ على ما ينبغي المحافظة عليه فيما بين شقيقتين من
مودة أو محاملة ففادرتنا خالتي مغضبة.

ولسته مرةً أخرى حين اقترحت عليها امرأة دلالة -
كانت تزورنا في مواسم الكساء - أن تخطب لي عروساً
لائقة، فرأيت كيف انفجرت فيها غاضبة ساخطة حتى
انعد لسان المرأة دهشة وإرباكاً.

لاحظت ذلك بوجوم وغيظ، واستنكرته استنكاراً
شديداً، ولم أجد له تفسيراً أرتاح إليه. ولم تكن بي
رغبة إلى ابنة خالتي، ولا إلى عروس من عرائس
الدلالة، ولكنني أنست منها كرهًا لزواجي، فاشفقت
على آمالي، وثارت ثائرتي وبدا لي أنَّ قلبها توجَّس
خيفة فقلت لي يوماً:

وتردأت لحظة ثم استطردت متسائلة:

- ولكن... لماذا تلقي عليّ هذا السؤال؟

وحولت عنها بصري كأنني خفت أن نقرأ ما في ضميري، وقلت بعدم اكتراث:

- سؤال لا أكثر. أحب دائمًا أن أعرف ما يجوز بخاطرك.

فتهدج صوتها وهي تقول:

- ليس بخاطري إلا فوق ما تحب لنفسك من

السعادة والهناء... ولكن ليس الزواج هوًا ولعبًا،

واليك مسألة أمك فهي أكبر دليل على ما أقول. وأذكر

دائمًا أن اختيار الزوجة مهمة شاقة، وهي من شأن الأم

قبل أيّ إنسان آخر، لأنّ هذا ميدان مجاربها، وهي

تعرف ابنها أكثر مما يعرف نفسه، وتستهدف سعادته

قبل سعادتها هي، كذلك السنّ أمر عظيم الخطورة،

وأنت بعد في حكم الأطفال... لماذا تلقي عليّ هذا

السؤال «وهنا ازداد صوتها تهدجًا». إليك مسألة

أمك فهي لا ينبغي أن تغيب عن وعيك. كم

تعدّبت، وكم تأملت، وكم كابدت الإهانة تلو الإهانة!

كم بكيت حينًا إلى أطفالي الذين عاشوا غرباء عني

ونحن في مدينة واحدة! وحتى أنت كان شبح فراقك

يطاردني ويقصّ مضجعي، ولو أخذوك مني لقضيت

غناً وكمداً وكم غمّيت الموت صادقة لأرتاح من

وساوس حياتي المقلقة وخيل إليّ أنها تعني حياتها

الرائحة بقولها الأخير» ولذلك تركست حياتي لرعايتك،

وضحيت بسعادتي في سبيلك، و... «تردأت لحظة

ولعلها همت بتذكيري بالرجل الذي رفضته من أجل ثمّ

عدلت». ولا تحسب أنّي آمن عليك، فالأمومة تستنكر

المنّ. ليتك كان للبنوة بعض ما للأمومة من عطف.

لشدّ ما تنسى... ربّاه لا تؤاخذني، أنا لا أدري ماذا

أقول. ولكن لا تنظّر بأمك الظنون. إنّنا نعطى كلّ

شيء عن طيب خاطر، حتّى إذا شبّ المولود عن

الطوق لم يفكر إلا في أن يولينا ظهره ويجد لنفسه

مهربًا. أقول مرّة أخرى لا تؤاخذني. لست أحسن

ضبط نفسي وأسفاه. ولكن لقد عشنا ممّا طوال هذا

العمر. وليس لي أمل في هذه الدنيا سواك، فإذا نبذتي

في آخر القاهرة. ثمّ أراها تنتظري بالشرفة فأهرع نحوها وقد انطلقت من قفص إدارة المخازن فتجدد لي سعادة هفافة يعجزني تصوّرها حتّى في الأحلام بيد أنّي لم أخلّ الأحلام صافية فطالما أعقبت نشوة الفرح الوهمي كآبة غامضة لا أدريها، ولم يغل خاطري قطّ من وجه أمي المحبوب فكان يتتابني حياء شديد يتصبّب له جيني عرقًا، ويغارني شعور بالذنب تعافه النفس. فيتلوّى بوزي استمئزازًا...

وفضلاً عن هذا كلّه فإنّني لم ألتصّص من بعض هوى للزوجة نفسها! إنّ حبّ الوحدة داء، إنّ شبه بالمخدر تودّ منه فرارًا ولا تستطيع عنه فكّاكًا، وتبغضه لنفسك وأنت تعالي الحنين إليه. أمّا تبتني الجرة حقًا على نيل ماضي الطويل؟... إنّ نفسي تهنو إلى البيت الزوجي السعيد حينًا، ثمّ يملكها الإشفاق على الوحدة الهادئة والطمأنينة المعفاة من المسؤوليات حينًا آخر. وإنّ الحرب من المسؤوليات داء قديم حتّى لأصقّ بحلاقة الذنوب أو عقد رباط الرقية، فكيف أنبري لحمل تبعات البيت والزوجة والذريّة وما يجرّ ذلك من حياة اجتماعيّة متعبة بما تفرضه من واجبات وتقاليد! إلى انقضاء تلك الواجبات فتبرد أطرافني، ولكني في الوقت نفسه لا أكفّ دقيقة عن الحنين إلى الحياة الزوجيّة.

بثّ أشعر بأنّ فريسة همّين قاتلين: تردّدي وأني. ومن يدرى فعلت أمي هي المهمّ كلّها. وتجمّعت نفسي الحيرى تروم سلامًا تلوذ به، فأجمعت على أن أقابل الخطر وجهًا لوجهه وليكن ما يكون...

وإني لجالس إلى أمي ليلة إذ قلت لها بلا سابق إنذار:

- لاحظ يا أمّاه أنّك لا ترغبين في زواجي.

فأشعّت عينها الخضران الجميلتان دهشة، وقلقت فيها نظرة حائرة، ثمّ قالت بصوت متغيّر:

- إنّني أرغب في سعادتك دائمًا، وهذا شغلي الشاغل. وإذا كنت لم أوافق على ما عرض لي من هذا الأمر في الماضي فلأني وجدته دون ما أرجوه لك، ولا شكّ أنّك تدرك هذا تمام الإدراك. ولكن...

شديد الذبول والهزال لنحولها الطبيعي فتوَجّع قلبي
توجّعًا أليسًا. ولم أطق أن أراها عروية من جمالها
وصحتها، فأحزني منظرها وساءني إحساسها نفسها.
وكانت تعصب رأسها بمندبل فبرزت تحت طرفه
خصلات من شعرها وتغطها المنيب وشمتها الإهمال
فضيقت صدرًا ونجّهم لي وجه الدنيا. ويومًا وكنت
جالسًا إلى جانبها - جرت في تيار شعوري خواطر
غريبة لعلّ باعثها الحنوف والإشفاق، فطرحت على
نفسي هذا السؤال الحظير: كيف تكون الحياة لو خلت
من هذه الأمّ الحنون؟ واقشعرّ بدني، بيد أنّ خيالي لم
يسك عن هلهائه، فتسابت المناظر أمام عيني
واستسلمت لمشاهدها في حزن صامت ثقيل. رأيت
بيتًا مقفّرًا ورايتي تائهاً حائزًا كمن ضلّ سبيله في
مفازة، وبدا جدّي متزيّنًا ساحتًا يصبّ جام غضبه
على الخادم العجوز والطاهي. ولست عجزني عن
مواصلة هذه الحياة الموحشة فالتزحت على جدّي أن
أتزوّج لنجد من يكلمنا برعايته. ثم رأيت حبيبي
بقامتها الرشيقه ووقارها المحبوب تتمهّد البيت وآله
بعطف سابغ وحبّ شامل. ثم رأيتنا جميعًا - أنا
وزوجي وجدّي - واقفين على قبر عزيز نرويه بدموعنا.
وانتهيت إلى نفسي في فزع فأحسست بالدمع حائزًا بين
جفني. وعفّ الندم قلبي، وامتلأت نفسي امتعاضًا
وثورة، وغمغت لنفسي «اللهمّ غفرانك، اللهمّ اكتب
لها طول العمر»، ثم هويت على وجهها فقبّلته بحنان،
وقد طارحتني ذكرى تلك الحفلات كثيرًا حتّى تركت في
أثاري عميقة من الألم والحنن. ولازمي همّ مقيم حتّى
بعد أن يراثت وعادها نشاطها وجمالها. وكنت أعود
إلى ذلك التفكير السقيم في الحياة الذي يقف عند
طرفها - الميلاد والموت - ويرى ما عدا ذلك هباء في
هباء، وهو ذلك التفكير الذي تأذى بي فيما مضى إلى
محاولة الانتحار لولا أنّ الله سلّم

جاء الصيف، ومعناه - بمقياس القلب - أنّ حبيبي
ستقطع عن الذهاب إلى المعهد فلا نتاح لي رؤيتها إلا

لم أجد لي ماوى. أنتم حياتنا في صغرنا وكبرنا على
السواء، أمّا نحن فتحبّونا صغارًا وتكروهنا كبارًا، أو
أنكم تحبّونا حين لا نجلدون من تحبّونه غيرنا، ماذا
قلت؟ ... أستغفر الله. ... سامحي يا كامل، إنّي
مضطربة، لست أحسن الحديث على الإطلاق. ...
وعجبت كيف انحدر بها الحديث ذلك المنحدر
الصعب. بدأ الكلام مقبولًا ثمّ تشبّع. وحاولت أن
أحول دون استرسالها فلم نجو عاولي، فاضطرت أن
أعزّعه على ما أثار من ألم وحزن، وتبادلنا نظرة طويلة،
دلت على العتاب من ناحيتي، وعلى الذبول من
ناحيتها. لم تكن في كامل وعيها وأسفاه. وقلت
باسى:

- أهذا جزء من يسأل سؤالاً ربّيًا؟!

فاغرورقت عيناها، وقالت وهي خافضة العينين:
- أنا لا أحسن الحديث أحيانًا ومجسّن بي أن
أمسك. لا تخش جانبي، وإذا راق لك يومًا أن أغيب
عن وجهك فما عليك إلّا أن تؤمّن إليّ ولن نحمد لي
أثّرًا. ...

ووضعت يدي على فمها وصحّت بها:

- سامحك الله. حسبنا كلامًا. لقد أخطأت بسؤال

البريء خطأ كبيرًا!

ثمّ نظاهرتُ بعدم الاكتراث، بل ضحككت طويلاً،
وكانّ ما كان لم يكن، وراح قلبي وحله يجرّ الآمه.
أثّر في كلامها حتّى هزّني هزًّا عنيفًا فحزنت حزناً لم
أشعر بمثله من قبل. وعجبت كيف يغلّبها الانفعال
على نفسها فتلقّي في وجهي بتلك الاتهامات الجارحة.
ولم أخلّ من سحق عليها لا لأنّها اتهمتني بالباطل -
فذاك نثار غضب وقفي لا قيمة له - ولكن لأنّها قابلت
رغباني الكامنة بثورة تجاوزت حدود الحكمة! وتناديت
في سخطي فقلت إنّها ذكرت نفسها أكثر ممّا ينبغي
ونسيتني أكثر ممّا ينبغي. ... واستسلمت كالمعهد بي
لداعي أنانيتي فرميتها بالأنانية. .

وعقب حديثنا الغريب بيومين أصابتها وعكة مرض
ألزمتها الفراش فلم أفارقها أثناء مرضها إلّا في أوقلت
العمل. ومع أنّ الحالة كانت خفيفة إلّا أنّ وجهها بدا

في الشرفة أو الثالثة. إنها تعرفني الآن حق المعرفة كما يعرفني البيت جيمًا، ذلك الفتى الذي يتطلع إليها دوماً، ويرنو صوبها بعينين يتجمل فيها الإعجاب والحب، ويثابر على ذلك في صبر عجيب زهاء عام دون أن يبدي حراكاً، والأعجب من هذا كله أنني كنت أصطب عينها في لففت عارضة وهما ترنوا إلى فاجز جنوناً. وإلى أكاد اسمعها تتسائل صاً أريد، بل اسمعهم جيمًا يتسائلون، وهذا يسعدني ويشفي مني، والحق أني أحبك يا حبيبي، أحبك بكل قوة نفسي، فإذا سألت بعد لماذا لا أبدي حراكاً؟ أجبتك بأنني لم أدر كيف أبدي حراكاً في حياتي، وورائي أم، وحظ محدود، فكيف يمكن تدليل هذه الصعاب؟... عجبني يا حبيبي أطر إليك بنير جنتحنا!

وكان يوم غريب في حياتي...

وبدأت الصباح بوقفة الهيام وتطلع العشق. ثم ذهبت إلى الوزارة تتنازعني أحاسيس السعادة والشقاء شائي كل صباح، وراح الموقفون يستقبلون اليوم كعادتهم بالثرثرة، فقال أحدهم وكان يليني في مجلسه: - سكرت أمس حتى تارجحت بي الكرة الأرضية! وثار اهتمامي فجأة وحضرتني أبي بصورته وذكرياته. ترك في قوله أنراً لم يدركه أحد ممن يجلسون حولي، ولا عجب فالخمر كتبت تاريخ أسرتنا وقررت مصائرها، والتفت نحو الموقف ونذ عني هذا السؤال همساً بلا وعي تقريباً:

- لماذا نشرب حضرتك الخمر؟

ثم أدركت في التوتسرحي وخططي فعلاني الارتباك والحياء. ولم أكن عاطية أحدًا في الإدارة منذ التحافي بالخدمة في غير شئون العمل حتى أطلقوا عليّ «غاندي» لما عُرف عن الزعيم من أنه ينذر يومًا في الأسبوع للصمت. وفرح الرجل بتطقلي عليه وقال بصوت مرتفع وهو يومئ إليّ:

- أخيراً تكلم!

وسأله أحدهم وهم يصوّون أنظارهم نحوي:

- من؟

- غاندي.

- وماذا قال؟

فقال الرجل ضاحكاً:

- يسألني لماذا أضرب الخمر!

فقال آخر:

- سكت دهرًا ونطق كفرًا!!

وفيقهوا ضاحكين، بينما ذبت في مقعدي صامتًا، وراح أكثرهم يحذثني عن الخمر والنشوة واللذة والنسيان. نذمت على ما بدر مني مما وضعني موضع سخريه ومزاح. وتفتخرت في الأمر طويلاً، ثم افقت إلى نفسي فوجدتها - لدعشتي - تتلف على تجربة الخمر!! ولشد ما عجبت فيها أعقب ذلك من أيام لتلك اللهفة الغريبة بعد ستة وعشرين عامًا، قطعها فيها يشبه النسيك إذا استبثت اللذة السريّة التي جرعتني مرارة الذنب والندم. هل نشبت تلك الرغبة في نفسي فجأة؟ إن طاهر الأمر يدل على أن ذاك الحديث الذي دار بين الموقفين كان الباعث على تلك اللهفة، ولكن هل يعقل أن يوي إنسان مستقيم مثلي لعارض تافه كذلك العارض؟! لقد ركبتني جنون، فتمنيت أن ينقضي النهار سريعاً لأقصر باب اللذات الموصد، ولأحطّم الأغلال التي أذعنت لها طوال عمري، وقلت لنفسي وكان الذي يتحدث شخص غريب: «سأجرب الليلة الخمر والنساء» وأراحتي التصميم لأنه خير من القلق والتردد، ولأنّي متيت نفسي بأن أجود وراعه متنفساً للضغط الشديد الذي يؤدني، ولم أعرف التردد - ذلك الفريق البغيض - طوال يومي، فعند الأصيل كان الترام يحملني إلى العتبة، ووقفت في الميدان حائرًا لا أدري أين توجد الحانات! ثم رأيت عربة فنائيت الحوذني وركبت ثم قلت له بصوت منخفض في حياء شديد:

- حانة... آية حانة من فضلك!

فحدجني الرجل بنظرة غريبة ثم قال وهو يلهب:

ظهر الجوادين بسوطة:

- سأذهب إلى شارع ألفي بك وهناك تختار الحانة

التي تعجبك!

كونياك... جعة... نبيذ؟!

لسأله في ارتباك أشد:

- أيتها أفضل؟

- هذا يتعلق برغبتك، ولكن الجو حارٌ فالجعة شراب مفضل.

وخرجت من حبرتي وطلبت جعة، وغاب دقائق ثم عاد بقدرح يغور ووضعه أمامي، وقبل أن يتعد سأله:

- كم قدحًا من هذه يُسكر؟

فنظر صوبي كما نظر الخوذي من قبل وقال:

- تختلف النسبة تبعًا للناس، ولكن إذا كنت مبتدئًا يحسن ألا تجاوز القدر الثالث.

فقبضت على القدر فوجدته باردًا لطيفًا، وأدريت منه أنني فشممت رائحة حمضية لم أرتج لها، ولكن فأت وقت التردد، وقربت وجهي وأدليت لساني، ولعقت من رغبتها لعقة في خوف وحذر. واشتد توتر أعصابي فرفعت القدر إلى فمي وأفرغت ما فيه دفعة واحدة في تفرّز كأنما ألتهم شرية. وأنشيت برودته، وشعرت به في بطني يتلوى نائفًا حرارة غريبة. وانتظرت ذاك الأثر السحري الذي سمعت عنه الكثير. وفي تلك اللحظة جاءت لسة من الأجانب يرطنون ويتفاحكون وتحلقوا مائدة كبيرة، فداعلني شعور بالضيق، بيد أنهم لم يلتفتوا نحوي على الإطلاق، فسكن روحي، وعاد شعوري إلى الحرارة الطيبة التي تنتشر في بطني. ودمل الدم المتصاعد إلى الرأس نفحة من هذه الحرارة إلى المخ فتعطى كما يتعطى المستيقظ لدى تلقيه أوّل شعاع من الشمس، ونفّس عنه القلق والحذر، فأحسست ارتياحًا عاშًا للذيء، وانبسطلت أساور وجهي... وما لبثت أن طلبت قدحًا آخر بشجاعة لم أعهدها في نفسي من قبل، وما كاد النوي يضعه أمامي حتى رفعتني إلى فمي ونجّزته على دفعتين. وانتظرت في ارتباك شامل وإحساس مركّز في باطني، وصرى في جسمي سرور عجيب أغمضت له جفني استسلامًا، سرور دار مع دمي، ورقص في عخي، باعثًا لثة هي الجنون نفسه، حتى وجدتي مخلوقًا أثيرًا طليقًا من متاعب عقله وقلبه

وانطلقت العربية فذكرتني بالمانطور القديم وآيامه الخوالي. وكان بحافطتي عشرون جنبها غير «الفكة» لأنّ مرتبي وإن كان صغيرًا في ذاته إلّا أنّه كان يُترك لي كلّ فكفاني وزاد عن كفاني. ولما شعرت بأنّ العربية تقترب من المهدف الذي تلّفت عليه اليوم كلّ دق قلبي بعنف واعتراني اضطراب شغلني عن رؤية الشوارع التي تحترقها العربية. ووقفت العربية عند رأس طريق طويل يتوسطه صفّ طويل من السيّارات والعربات. وقال الخوذي وهو يلوح بسوطه:

- إليك الحانات على الجانبين...

وغادرت العربية بعد أن نقدته الأجرة فوجدت نفسي حيال حانة صغيرة لا تزيد في الحجم على حجرة كبيرة وقد وقف اللؤلؤ ببابها لأنه لم يكن أمّها أحد بعد، وانتابني التردد لأوّل مرّة ففكرت في أن أعود من حيث أتيت. ووقفت متحيرًا ثمّ تولّاني الشعور الذي ملكني يوم اندفعت إلى سور جسر الملك الصالح لأرمي بنفسي إلى النيل فانتقلت صوب الحانة ودخلت. وتبيّن لي أنّه يوجد في نهايتها مدخل إلى حديقة صغيرة في حجم المكان الخارجي في وسطها نافورة، وتظّلها عريشة عنب، وفي جنباتها الموائد، فوجدتها آمن للمختلس، وانتقلت إليها وجلست إلى إحدى الموائد بعيدًا عن مدخلها. كنت متوتّر الأعصاب ولكن لم أعد أفكر في الهرب، وجاءني نويّ في سروال أسود وسترة بيضاء فابتسم في أدب ووقف منتظرًا أمري. فقلت بصوت مهموس والدم يتصاعد إلى وجهي:

- حمرا!

فلم يبد عليه أنّه فهم شيئًا، وتساءل في نبرات كروين النحاس:

- ويسكي؟... كونيّاك؟... جعة؟...

نبيذ؟...

وتولّفتي حيرة الجاهل، فقلت بلارتياك:

- أريد حمرا...

فابتسم الرجل ابتسامة آلمني وتساءل:

- أيّ نوع منها تريد؟... ويسكي...

وحياته. وداخلي إحساس لا عهد لي به بالنفخة والعظمة فرفعت رأسي عاليًا في سلطنة وأنا أعجب للنشوة السحرية التي لم يدر بخلدني فكأ أنها توجد في هذه الدنيا. ثم فركت يدي في سرور وملدت ساقي لا أبالي أين تقعان... ويغتنم تخاليل لعيني صورة حبيبي بقامتها الهيفاء ونظرتها المستقيمة المحتشمة فأترع قلبي حننًا وشوقًا وهزني نشوة فوق نشوة الخمر. ما أطفك يا حبيبي! إنني أدرك الآن سرَّ نشوة الخمر. إنه الحب.

الحب ونشوة الخمر من عصير واحد يقطر من صميم الروح، وهل الحب الموقوت إلا سكرة طويلة؟ فإن فاني الحب بين يديك فلن يفسوتي في الخمر! لماذا أعاف دائمًا؟ إلا أن المخاوف جميعًا لأوهام، وألا غياها اختفت من أفقي في غمضة عين؟ لقد تكشَّف لي وجه الحكمة ولن أتردَّد بعد اليوم، ساومني حبيبي إذا وقعت عليها عيناى أو ألوح لها بيدي. ستعقد الدهشة لسانها ويحمر منها الحقدان ويحيى دورها في الحجل، دقة بدقة والبادئ أظلم. وسوف تتساهد في استغراب هل تحرك أخيرًا، أجل يا حبيبي، تحرك، ولن يوقفه شيء، ورأيت عند ذاك النادل يحوم حولي فطلبت الفصح الثالث ثم أحلقته بصاحبيه. وعدت إلى خيال حبيبي بجسم كله قلوب، وما به من عقل. وقلت بصوت مهموس وكأني أعظ جليسا غير منظور «إذا أحببت فبُحَّ بحبك إلى حبيبي وليكن ما يكون» ثم ذكرت أمي، ولكن دون خوف هذه المرة، لم أشك في أنها ستحب حبيبي إذا رأتها، وستلهب غاوفي القديمة إلى غير رجعة، أما جدِّي فما أحرأه إذا علم بالنبا السعيد أن يفقه ضاحكًا، وهنا ضحكت بصوت مسموع لفت إلي الحاضرين. والقيت نظرة حل ما حولي فرأيت الحديقة اكتظت بالوافدين... وقد تضاحك الأقربون، ولكني لم أرتبك، بل ابتسمت إليهم وقلت بجساسة غريبة «اضحكوا!» فضحكوا، وتساءل أحدهم مبتسبًا:

- هل من أمر آخر؟

وكننت من السكر في غاية فقلت بلسان ملمش:

- هاتوا لي حبيبي!

فسألني الشاب:

- أين هي؟... وأنا كليل بإحضارها...

فقلت:

- البيت أمام المحطة!

فسألني مبتسبًا:

- آية محطّة؟

فتفتحت قليلًا حتى عثرت على شاهد للمحطّة

فقلت:

- المحطّة أمام المرحاض العمومي!

فضحكوا جميعًا، وانهاالوا عليّ قفسًا وتكيشًا، وشاركهم ضحكهم بغير مبالاة، ثم أثرت أن أغادر المكان، فدعوت النادل ونقذته الثمن وحيت رفقاء السكر، وذهبت وقفشاتهم توأصل توديعي بلا رحمة، كنت أترنح، فقصدت عربة في الموقف، وتوسّطت مقعدها في خيلاء، وقلت للحوذي بصوت مرتفع:

- إلى بؤر الفساد!

وتحرّكت العربة وسرعان ما ارتحمت إلى سريها الوائي، وجعلت أنظر إلى الطريق في لذة بهيجة، حتى وددت أن يطول السير إلى غير نهاية، وأدركت أنني مقبل على تجربة جديدة لا تقل خطورة عن الأخرى، فساورني بعض القلق، ثم غلبني اللهفة. ووقفت العربة في شارع معربد، ولوح الحوذي بسوطه وهو يقول ضاحكًا:

- هنا الفساد الأصلي...

وسألته بعد ترّدّد:

- أليس فكرة عن الأسعار؟

فقال مقهقها:

- أغلّ مرة بريال!

وألقي التعبير على رغم سكري، وشادرت العربة فوجدتني في دنيا تتوهج بالألوان كالصواريخ، وتزدحم بالسكران والعابدين، وتختلط بها أصوات الضحك بالشتم والصراخ، وتنبعث من جنباتها دقات الدفوف وأنغام مبتذلة من كيان مسلول أو بيان محشرج. وقد سطع أنفي شذا بخور طيب. ولم أجد من نفسي الجرأة على التخطّط وسط الجموع المربدة، فعرّجت إلى أقرب

«تأخّرت كثيراً» ولم أجبها بكلمة وواصلت نزع الملابس حتى خذلتني قدمي فارقت على المقعد، واستجمعت قواي ونهضت، ولكنّي ترنّحت في موقعي وكذلت أهوي إلى الأرض لولا أن أمسكت بعمود السرير.. وانزلت أمتي من فراشها وأقبلت نحوّي متّسعة العينين دهشة وفرغاً، وتفرّست في وجهي قليلاً دون أن تنبس بكلمة، ثمّ أجلسني على المقعد وراحت تنزع عني ملابسني، ثمّ أنامتني على فراشي، لها من جانبي الحشية حتى سارع ليّ النوم. وغيل ليّ، أو حلمت، أن أمتي تنتحب...

٢٣

استيقظت مبكراً على غير ما كان يُتوقّع. وتذكّرت الأسس كلّها في ثواني. والتفتّ براسي في خوف نحو الفراش الآخر فعثر بصري في طريقه بآتي وهي تصلي. والتهب وجهي حياءً، وغادرت الفراش في عجلة ومضيت إلى الحَيّام في حيرة بالغة. ورجعت إلى الحجرة فوجدتها منتظرة، نحاول أن تبدو هادئة لولا أن خانتها عينها الصافيتان اللتان لا تعرفان الكذب، ونحامت نظراتها، وحيتتها تحية الصباح بصوت لا يكاد يُسمع، فتنبّدت بصوت مسموع، واقتربت منّي، ووضعت يدها على كتفي وقالت بصوت رقيق مفعمة نبراته بالرجاء:

- دعوت لك بعد صلاتي طويلاً والله سمع مجيب. ليس لدينا متّسع من الوقت فأصبر ليّ يا كامل بقلبك قبل أذنك. فلت ما فات. ما كنت أتصوّر ذلك على الإطلاق، ولكنّ أوساط الموقّنين أوساط غواية وفساد. إنّا زلّة شيطان فُتّب إلى الله عنها. هل من حاجة إلى تذكرك بمأساة أبيك وأنت من شهودها وأنتك من ضحاياها؟! ولكنّ قلبي مطمئن رغم ما حصل، لأنك مؤمن بخاف الله ولأنك ابن أمّك لا ابن أبيك، وخليق بمن يصلي بين يدي الله خمس مرّات في اليوم مثلك أن يحرس على المثل بين يديه نعيّاً طاهراً. لا تنس أنّ هفوة الأمل شرّ كبير، وأتأ ستظلّ سكيناً تقطع قلبي. لم يعد في وسعي والأسفا أن أستبقيك ليّ جانبي، فإذا

باب ودخلت، وجدت نفسي عند مدخل فناء واسع مستدير تفتح عليه أبواب كثيرة، وعلى محيط دائرته صفت الأرائك والكراسي يحلّها رجال ونساء، وفرشت أرضه برمل أصفر فاتح، وراحت ترقص عليه امرأة نصف عارية، وكأذّ الجسارة التي خلقها الحمر قد طارت فتسرّعت في مكاني لا أجأوزه ولم أدّر ما أنا فاعل. ثمّ ثبتت عينا في الراقصة في دهشة لأنّي كنت أشاهد الرقص أوّل مرّة، ألقيت على الجسد اللطيف، الشبه العاري نظرة اشمسراز وخوف، وأزعجتني حالة وجهها إذ أثقله الطلاء الفاضح، وانفجرت شفتها عن أسنان ذهبية فكانت بهرائس الحلوى أشبه. وفجأة لاح أمامي رجل ذو جليباب مقلم زاهي الألوان تنطق قسائمه بالدمامة والندامة ودعائي للجلوس، فترجعت مبتعداً عنه فاصطدمت بشخص ورائي. فدرت على أعقابها لأنفادى منه فرايت امرأة من جنس الراقصة ولا شكّ حالت بذراعها بيني وبين الذهاب. كانت تبسم ابتسامة كريمة، وتخشع لادناً مفرقة بأسنانها، فبردت أطرافني، وانقبض قلبي جفوّاً، وقرأت في وجهي الخوف والحجل فأطلقت ضحكة كالصغير، ومدّت يدها بسرعة فخطفت طربوشي، ووضعت على رأسها ومضت صوب باب قريب في خطوات سريعة. وقال لي الرجل وهو ما يزال بموقفه:

- اتبعها بلا تردّد، هذه زوزو المنبهجة، لا مثل لها ولا في المذبح!

ولم أطلق الوقوف أكثر من ذلك فغادرت البيت لا أروي على شيء، غير مكثرت لفقدان طربوشي، وركت أوّل عربة صادفتني وقلت للحوشتيّ «إلى المنزل». عدت إلى البيت قبل منتصف الليل مهيض الجناح، يميّز الشعور بالهزيمة والإخفاق والحية. لم أكن أتصوّر أن يتمخّض الحلم المرموق عن هذه البشاعة الفظيعة. وكانت النشوة الساحرة قد طارت خلفه وراءها خائراً ثقيلًا باسخت له روحي، ولم أدّر كيف أيقظت أمتي وأنا أخلع ملابسني، فجلست في فراشها ونظرت في «الليلة» وهي تنعم متشاببة:

تَلَوَّيْهَا وتَعَقَّدْهَا وظَلَّالَهَا الكاذب وشَقَائِهَا الدفين فلماذا
إِذْ أَقَامُوا إِغْرَاءَ النشوة الساحرة؟

ودعني أُمِّي عصر ذلَّكَ اليوم إلى زيارة «أُمِّ هاشم»
فخرجنا ممَّا بعد أن انقطعت عن الخروج في صحتها
أعوامًا، وركبنا عربة، فجلستنا ملتصقين جلسة أعادت
لنفسنا ذكريات «الخطورة» القديم، فحفقت رَقَّتْها من
قلق النفس المستحوذ عَلَيَّ. كانت أُمِّي ترتدي معطفًا
صيفيًّا رقيقًا تقمصه جسمها النحيل في رشاقة لطيفة.
وبدا وجهها اللامع هادئًا مستسلمًا وعينها الخضراوان
صافيتين تلوح فيها نظرة حائلة يشوبها شيء من
الحزن. وقد تَلَفَعَ رأسها بخيار أسود أحاط وجهها
بوقار لم يَحُلْ من أثر للأربعة والخمسين عامًا التي
قطعتها فيها قَسَمَ لها من حياة. وحَنَ قلبي لها فوددت
لو أستطيع تقبيلها، وتفكرت في تقدِّم عمرها نحو
الشيخوخة بأسى عميق، ثُمَّ ذكرت الخواطر الخائنة
التي دارت برأسي هل فراش مرضها، فعظمت هل
شفتي بقسوة وحتى. يا لها من خواطر مقبلة! إني من
صميم الألم الذي التمس في الحرب مه أيَّ سبيل،
وهُوَنٌ من وجدي ما كان يَحِيلُ إِلَيَّ من أُنْهَا سترت عمر
جَدِّي الذي يهدف إلى التسعين.

كبر عَلَيَّ في تلك اللحظة عصيانها، بيد أنني شعرت
في أعماق نفسي بأنِّي ذاهب إلى توبة كاذبة لا يسعني إلَّا
الإذهان لها. وسامني ذلَّكَ وأحزني. كيف ألقى أُمِّ
هاشم بهذا القلب الحائِث وهي التي لا تخفى عليها
خافية؟ كيف انقلبت بين عشية وضحاها من وِرع
طَيِّب إلى شيطان مولع بالمعصية؟! وانتبهنا إلى الجامع.
ودخلنا ونحن نقرأ الفاتحة، وقصدنا الضريح يتروَّع
قلبي الحب والإيمان والخوف. ونَسَمْتُ عسل قلبي
ذكريات الأيَّام الخوالي حين كنت أنفذ للجامع الطاهر
بقلب سعيد لم يعانِ بعد الشعور بالذنب وعذاب
الضمير. وتقدَّمتني أُمِّي إلى المقام وهي تهمس بحرارة:
«جئتك يا أُمِّ هاشم بكامل، ليتوب عن هفوته بين
يديك فياركبه وسُدِّي خطاه». ثُمَّ دفعتني نحو باب
المقام فبسطت راحتي عليه، وشعرت ببرودة تسري إلى

خروجت إلى الدنيا فلاقها بقلب التغيُّن المؤمن. ستلعب
اليوم إلى السيدة أُمِّ هاشم لتقدِّم توبتك على يديها.
لم تلتق عينيًا بعينيها ذاك الصبح. ومضيت إلى
الوزارة محزونًا، استعيد قولها كلمة كلمة، وأنعم فيه
الفكر. هالتي افتضاح أمري، وقُدِّرَتْ عنف الصلعة
التي تَلَقَّتْها أُمِّي البائسة. وذكرت الحبية التي منيت بها
في فناء البيت الغريب، فتلَوَّتْ شفتاي تَعَزُّزًا. على أُمِّي
لم أنس نشوة الخمر. لم أنسا رغم ما أعقبها من حمار
وتعب وفضيحة. ولم يفلح مقبعتها إلى قلبي حتى بعد
صلاة الصبح التي أدبته في صدق وإيمان. ولم يكن
ضميري مستريحًا، ومضى كان مستريحًا؟! ولكن أحلام
النشوة الساحرة هجمت عَلَيَّ فاجتاحت في سبيلها
ضميري وآلامي وأُمِّي. هي النشوة التي تظَلُّ معاني
السعادة والطرب مغلفة حتى تجري في الدم فتفتح
أبوابها السايوة. إنيًا مطلي. رَآه كيف أهدجها
وأثوب عنها؟ وما عسى أن يبقى لي بعدها غير اللهفة
الكظيمة والحسرة الفاتلة والقلق الذي يمزِّق حبالِي
إرْبا؟! وحتى لو استسلمت لإغرائها الشيطاني،
فهيهات أن أخلص لي صافية، بل ستضيف إلى
ضميري نزاعًا جديدًا ما كان أغناه عنه، كنت وما
أزال في جذب ودَفْع متواصلين، بين اقتحام الدنيا
والجفول منها، بين حبيبي وأُمِّي، بين إيمان العادة
الجهنميَّة ورغبة الإقلاع عنها، فجاءني نزاع جديد بين
الميل إلى الخمر والتوبة عنها زاذني رهقًا، حتى انقلبت
أرجوحة تدفعها الشياطين وتجلبها للملائكة، ولا تكف
عن التارجح لحظة واحدة. وبلغ بي القلق غايته
فتأوَّمت متسائلًا في حيرة بالغة: لماذا لم يخلق الله الحياة
نشوة خالصة تدوم جيلًا فجيلًا؟! لماذا لا نفوز بالسعادة
بلا هناء ولا قنوط؟! لماذا يفتنُّ الحبُّ في قلوبنا بأَسَا،
والحبيب يغدو ويروح على مرمى قبلة منَّا؟!

ليكن ما يكون، الخمر مفتاح الفرج. هي العزاء
هي كلمة السرِّ التي تفتح لي باب حبيبي الموصد. لا
أريد الدنيا ما دامت تأتي أن تغترَّ ما بنفسها. إنَّ مقتي
للواقع ليس دون مقتي لتلك الراقصة المخيفة. الدنيا
نفسها تتكشَّف لي عن صورة شبيهة بتلك الراقصة في

فؤادي، فوقفت صامتاً ملياً، حيال جلال تخشع له القلوب، وخلت الجلدت الطاهر يرمقي بعينين متألفتين لم يغيرهما الموت فدعوت بقلبي «أم هاشم» أن تلهمني الصواب وأن تنقلني من حبرتي وشقاوتي، وأن تنوب عني. وتردّدت لحظة ثم سألتها أن ترعى حبي التمس بعين الرحمة!

وغادرنا المشوى الطاهر وأمّي تحفّف عينيها، ثم سألتني:

- هل تبت إلى الله؟

فأجبته دون أن أحوّل إليها عيني:

- نعم.

فتمتعت برجاء:

- توبة صادقة إن شاء الله.

٢٤

لم يسعني مقاومة النزوة الجديدة. ولم يغن عني شيئاً لا ضميري ولا توبيخي، ولا ما مجّلت عليه من مخافة الله. كنت من حياتي في قنوط، فعصلي جدّ بغض، وحتي حيرة طويلة، وإنّ الأيّام لتمرّ ثقيلة بلا عزاء وبلا أمل، فنظرت عيناوي وخفقت فؤادي، وبمعي إرادتي العجز والخوف، فلم أجد من سلوى إلّا نشوة الخمر وتهاكت عليها! على أنّ ذلك العزاء التمس لم يخلص لي طويلاً، ولم تمل الأقدار لي في الاستمتاع به، ففي مطلع الحريف من ذاك العام، وفي يوم من أيام الجمع - وكنت جالساً مع أمّي نتحدث كماداتنا - دقّ جرس الشقة، وفتح الخادم الباب ثم جاء يدعوني لمقابلة واحد «بك». وذهبت من فوري فوجدت رجلاً مهيباً في الستين أو السبعين، فحيّيته بأدب والفتيت عليه نظرة متسائلة، لبادرتي متسائلاً:

- حضرتك كامل أفندي؟

فقلت وأنا أنفّرس في وجهه:

- كامل رؤية. هذا بيت الأميرالاي عبد الله بك

حسن.

فأخذني من يدي إلى الخارج ثم مال نحوي قائلاً:

- لكم طول البقاء، لقد توفّي جدّك يا بنيّ. . .

هتفت بصوت مبجوح:

- وأين هو يا سيدي؟

فتمتم الرجل:

- أحضرناه معنا في سيّارة.

وما كاد الرجل يتمّ قوله حتّى رأيت في أسفل السلم رجلاً أربعة يحملون جدّي ويرتقون السلم على مهل وحذر، فسارعت إليهم ذاهلاً، وشاركتهم في حمله وأطرافي ترتعد جيماً، ثم دخلنا الشقة وهو بين أيدينا، رأيت أمّي في نهاية الصلاة، وقد نكتت عنها صرخة فزع، وأقبلت نحونا لا تبالي بالأغراب، وسألتنا بجزع:

- ما له! ماذا به!

ولكنّها لم تسمح جواباً، أو وجدت في الصمت جواباً فصرخت صرخة مدوّية، وولولت في توجّع «أبي... أبي». وأثمتها على الفراش، ثم أقبل الرجال عليه يقبلون جبينه واحداً في إثر آخر، وعزّوا أمّي، وخرجوا من الحجرة صامتين، وسألني بعضهم عمّا إذا كنت في حاجة إلى شيء فشكرت لهم، وتطرّقت البك الذي قابله أوّل فدلّني على الإجراءات المتبعة، وأخبرني بأنّه سيقيم بإبلاغ وزارة الحربية؛ وأنّه يستحسن أن تشيّع الجنائز في العاشرة من صباح الغد. ورجعت إلى حجرة جدّي مهرولاً فوجدت أمّي تبكي بكاء مرّاً فلم أتحلّك أن أجهدت في البكاء، ولكنّها لم تسمح لي بالبقاء في الحجرة، ولكي تشغلني عن الحزن أمرتني أن أبقى بالخبر إلى خالتي وأخي وأن أذهب إلى أختي لأزنها بموت جدّها. وغادرت البيت لأداء هذه الواجبات، وعدت إليه مرّة أخرى ومعني أختي راضية

ورفاقه عليه، وأدركت - إن كان فاتني ذلك - أنه كان من الذين يألفون ويؤلفون، تلك الهبة الربانية التي حُرمتها وذهبت نفسي حسرة عليها مدى عمري. وقد تفرّرت تشيع جنازته في الماشاة صباحاً، ولما حَمَّ الوداع امتلأت الشقة بالبكايات وأطلقت المدافع تحية لجذته، وحلّ نغمه على مدفع سارت بين يديه فرقة من الجيش. وألقيت حلّ جثمانه نظرة الوداع - وهو يحنّ في القبر - وأنا أنتحب كالأطفال.

٢٥

قالت لي في حزن بالغ:

- ليس لنا إلا الله.

قلقت وقلبي يستشعر خوفاً لا يدره:

- هو يثم المولى والنصير.

ومضت تتكشّف لي الحقائق، فعلمت أنّ معاش جديّ قد انقطع بوفاته. وأصبحت تركته فوجدت أنّه ترك بالمصرف أربعماية جنيه، ولما كانت أمي وخالتي وريثته الوحيدتين فقد حصّص الواحدة منها مائتي جنيه صارت كلّ ما لنا عدا مائتي الصغيرة! صرت إذن رب أسرة، وقد لفت عمي نظري لهذه الحقيقة وهو يودّعني، فكّر لي العزاء، ووضّاني بأني قائلاً:

- أكرم أمك ما وسعك، فانت رب البيت، وأنت خلف جدك!

وتلقّيت قوله بخوف وتشاؤم، ونظرت إلى المستقبل المجهول بوجوم وامتناع، وآماني أن أجند نفسي مسئولاً عن غيري أنا الذي أيفُت أن توكل مسئولتي بغيري! ولما خلا البيت من المعزّين ورحل كلّ إلى طيّته، وجلسْتُ وأمي مفتردين تتبادل الرأي قالت بلهجة أسيفة:

- اللهم عونك.

ورفعت إليها بصري الحائر في خوف وكآبة، سألتها بإشفاق:

- ماذا ترين يا أمّاه.

فقلت بأسى:

- لن نضي الحياة في يسر كما عهدناها. هذا أمر الله

وزوجها. ووجدت في الشاب خير عون في القيام بالإجراءات المتبعة، أو بالأحرى فقد قام بها وحده واكتفيت بأن أأمره دون وعي. وما كاد يجيئ المساء حتى امتلأ البيت بالأهل، فحضرت خالتي وزوجها وأخي مدحت وزوجه وعمي، ولم يتخلّف إلا أبي، وقد قال لمدحت وهو ينعي إليه جديّ والبقية في حياتك، أرجو أن تمرّز أمك وأخاك وأختك، لأنّي لا أحضر لا جنازات ولا أعراساً، وكانت أمي أشدّ الأهل فجيعة وحزناً لأنّها لم تفارقه طوال عمرها اللهم إلا ثلاثة أشهر قضتها على مضض في بيت أبي... هكذا مات جديّ. وقد تمتّع بحياة طويلة فلم يعجزه الكبر، ولم يقعده المرض. وفارق الحياة في مجلسه الأخير بالمقهى بين صحبه المخلصين، في يسر قلّ أن يحظى به المحضرون... وكنت لا أزال كلّما خطر على فكري حينئذ الراس إجلالاً لذكره، واستمطرت الرحمة والنعو روحه الكبير. كان جديّ، وكان أبي، وكان جناح العطف الذي أظلّني فتمعت في ظله بالعيش الرفيد والحياة الرهيفة الطيبة. ولا أنسى أنّي انتهجت في الساعات السود التي كثرت صفو حياتي بآثاء أساء تربيتي، أو أنّه تركني لأمي تفسد حياتي بتبليها ولكنّي إذ تدبّرت الأمر لم يسمعي إلا إقامة العذر له، لأنّي رأيت نور الدنيا وهو يتخطى الستين. وإنّه لمن أشقّ الأمور أن يعرف الإنسان حقيقة جدّه، لأنّه غالباً ما يبدو في حالة من التبرّج والقداسة، لأنّ مؤرّخيه من الأهل يكونون عادة من يبجلونه ويقدّسونه. فإذا ركنت إلى ما لمسته بنفسي من حياته أمكنتني اللثام عليه في غير تحفظ. وطالما كانت صحبته وجّه النظام ودقته العسكرية التي لم تبلغ قط الصرامة أو القسوة مثار إعجابي الشديد. وكان حذبه علينا لما نهون إلى جانبه مصائب الحياة، وبحسبي أنّي لم أعرف مرارة الحياة الحقة حتّى ودّعناه إلى مشواه الأخير. ومها يطل بي العمر فلن تمحي من تخيلتي صورته في أيّامه الأخيرة وقد كلّت الشيخوخة هامته بتاج ناصع البياض وأضفت عليه وقاراً وجالاً، وأذكت في عينيه الخضر اوبن بريق دعاية وعطف. فلم أدهش لحزن

واكتشف، فتقبّض قلبي جفولاً من هذه الحياة السخيفة التي لا معنى لها. ألم أكن أنفق مرتبي كله في الشراب والطعام والعريات؟ ألم أكن مع ذلك شاكياً متبرّماً تميّساً؟ ربّه، كان الماضي عهداً غير منكور النعيم؟ ولكنّي لم أظن إلى نعيمه إلّا الآن حيث لم يبق منه إلّا ذكريات، إنّني أعمى ما في ذلك من شك، تعمّني الأحلام الطائشة عينا بين يديّ، وقرن كان مثلي قفص عليه بالآ يدوق للسعادة طعماً في هذه الحياة. تحمّهم لي وجه الدنيا، وشارت عزمي، وامتلات نفسي تشاؤماً حتّى توقّعت شراً وراء كلّ خطوة أخطوها. أجل ألا يجوز أن تستغني عني الحكومة لسبب أو لآخر فأحرم حتّى هذا المرتّب الضئيل؟... ألا يُحتمل أن يصادفني حادث في الطريق يقضي عليّ بعاة تغلّدي عن السعي من أجل الحياة؟! لماذا وجدنا على الأرض؟ ولعلّ هذه الأفكار السود التي جعلتني أسأل أمّي قائلاً:

- ماذا يُتظر أن أرث عن أبي بعد وفاته؟

ولم ترتجّ أمّي لمجرّد أفكارني وقالت بامتيا:

- لا تبين أمالك في الحياة على موت إنسان. الأعباء بيد الله. وإنّي أستحلفك بالله إلّا ما طردت عن رأسك هذه الخواطر.

بيد أنّي استخففت بمخاوفها وألححت عليها أن تحبّيني على ما سألت، فقالت مدعنة لإلحاحي:

- لأبيك أوقاف تدّر عليه أربعين جنيهاً كلّ شهر، غير البيت الذي يسكنه...

وقدّرت بعملية حسابية ما يصيبي من هذا الميراث، فوجدته سنّة عشر جنيهاً نصيبني من البيت، إذا أضيفت إلى مرتبي الصغير صار كبيراً بلا شك. واستسلمت للأحلام كالمتعاد، ولكنّها لم تغير من الواقع شيئاً. وسألته مرّة أخرى:

- ما عمر أبي؟

وأجابني على كره:

- لا يقلّ عن السبعين.

ترى هل يعمر كجديّ مثلاً؟ ماذا يكون حالي لو عمّر طويلاً وحرمني ميراثي عشرة أعوام أو عشرين؟! وتذكّرت ما قيل لي من أنّه انتظر يوماً على مضض

وعليّ أن نذهي ونصبر ونشكر، وإنّه ليسوءني أن أكون حلاً ثقيلاً عليك. ولكن ما باليد حيلة.

فقلت بحرارة:

- لا تقولي هذا. أنت كلّ ما تبقى لي في الحياة، ولولاك ما عرفت لنفسي ماوي آوي إليه.

فأفترّثها عن ابتسامة حزينة، ودعت لي طويلاً. ثمّ قالت:

- سيكون ما ورثته من مال قليل رهن إشارتك نستعين به عند الحاجة، حتّى يكبر مرتبك!

ولدت بالصمت متفكّراً، وعيناهما الحزيتان لا تفارقان وجهي، ثمّ استدركت بصوت مهلّج:

- لم بعد هذا البيت بالسكن المناسب لنا، فهو كما ترى كبير، وأجرته تعادل مرتبك، ولعلنا نجد شقّة صغيرة بما لا يزيد على مائة وخمسين قرشاً في حينها هذا.

وساد الصمت مرّة أخرى، ورحت أَسْأَلُ عَمّا أعباني من هذا المصير الذي كان متوقّعا من قبل، حتّى عادت أمّي تقول بصوت منخفض:

- وينبغي أن نستغني عن الخدم، وإنّ نحتاج في المستقبل إلّا لخدم صغير.

يا له من ضيق لا أدري كيف يتحمّله صدري! لست أعلم شيئاً على الإطلاق عن الكفاح الذي يشقى به الناس في سبيل الحياة، فلذلك حدثت أمّي بنظرة ناطقة بالاستغاثة وسألته:

- بماذا تقدّرين تكاليف المعيشة بما فيها من سكن وطعام وخدام وغيرها؟

ونفّثت أمّي طويلاً، ثمّ قالت بصوت منخفض:

- بما لا يقلّ عن سنّة جنيهاً!

ثمّ استدركت كأنّها لتخفّف من وقع كلامها:

- سأرصد مالي لكساننا وللحوائج الضرورية فيها يخرج عن المصروفات اليومية...

ولكنّي لم ألقي بالآ إلى قولها، ومضيت أفكر فيها يتبقّى لي من مرتبي بعد تكاليف المعيشة، في الجنيه والنصف، وما ينفق منه على المواصلات، وما يبقى بعد ذلك للترفيه عن نفسي. ففكرت بامتعاض

مأرب.

وتجسّرت هذه الحياة الجديدة قطرة قطرة، وقد أضلّلت إلى حسرائي القديمة حسرة جديدة، هي حسرتي على العيش الرغيد والشراب خاصّة، وأجعت على أن أقترّ على نفسي كي تنهّي لي ولو سكرة واحدة في الشهر، ولا عجب فلم تكن الخمر بالنسبة إليّ هوىً وعيشاً، ولكن حياة وهميّة أفرّ إلى أحضانها من الآم الواقع البغيض.

ويوماً قالت لي أمّي وقد أنست من استنامة إلى حديثها:

- لملكّ لست الحكمة التي أملت علىّ أن أرفض أيّ زواج لا يليق بك!

وأدركت ما تعني لتويّ، فكأنّما تقول لي: وماذا كنت تصنع بحياتك لو كنت ربّ أسرة؟ ولم يداخلني شكّ في صدق ملاحظتها، ولو كنت ربّ أسرة لشقيت بالعيش أضعاف الشقاء الراهن، ومع ذلك لم أرتح لقولها، ووقع من نفسي المبهضة موقع الشاة المريرة، فلفني الحزن والغضب، وكابدت مشقّة في كظم عواطفني.

٢٦

وهلّ الخريف. ذلك الفصل الذي أحببته لأنّه البشير بافتتاح المدارس، واستعود حبيبي إلى الملثقى الممهود على طوار المحطّة. حبيبي هي الزهرة الوحيدة التي تتفتح في الخريف حين تعرى الأشجار وتذبل الأزهار. ولاحظت أنّ مواعيد خروجها لم تعد منتظمة كما كانت، ترى هل بدأت حبيبي حياتها كاستاذة؟ ولذّني ذاك الخاطر فاهتزّ عطفاني سرواً. بيد أنّي لا يمكن أن أنسى أنّ مجرى حياتي قد تغيّر، وأنّي أروح تحت ورق الفقر والقنوط، فحبيبي ميثوس منها، ولكن ما كان اليأس إلّا ليزيدني هياماً وولعاً، ويشبّ في قلبي أشواقاً وأحزناً. ما أسرع أن ينقلب الحبّ اليأس ثورة على الحياة. ليس من الهزء بنا أن نخلق حياة ثمّ نحال بيننا وبينها؟ وزاد من لوعتي أنّه كان يحلّ إليّ في

موت أبيه، وكيف ساقه الخزع إلى الشروع في الجريمة التي قضت عليه بالحرمان من ثروة واسعة! إلّا أعاني نفس المشاعر التي عاناها قبل ثلاثين عاماً، ولعلّه لو كان لي بعض قوّته لسلكت الطريق الذي سلك!

ثمّ استدعت أمّي الطاهي المعجوز وأمّ زينب وأخبرتهما في استحياء ولم بأننا سننتقل إلى بيت شقيقي وأنّرت الكذب على الاعتراف بالفقره، وأنّها مضطّرة إلى الاستغناء عنها، وذكرت عهد خدمتها الطويل بالأسف، وأنّنت عليها النساء الجميل، ودعت لها بالتوفيق، ثمّ نفعتني بما يستعنيان به حتّى يجدا عملاً جديداً. وقد انتجت المرأة باكية، ودعمت عينا الرجل المعجوز ودعا بلجدي بالرحمة والعفو، وقال بصدق وإخلاص:

- ددنت يا سيدي لو متّ قبل أن يخلق هذا البيت الكريم أبوايه...

ولم تتألمك أمّي نفسها فبكيت، وانتقلت العدوى إليّ فبكيت، ومرّت بي ساعة سود كابدت فيها ألماً وخزياً لم أشعر بمثلها من قبل. وانتقلت قبل ختام الشهر إلى شقة صغيرة في الدور الأوسط من بيت قديم ذي أدوار ثلاثة بشارع القاسم المتفرّع من شارع المنيل. وكان البيت يقع في وسط الطريق ما بين شارع المنيل والمنيل، أمّا الشقة فتكوّن من ثلاث حجرات صغيرة فرشناها ببعض أثاثنا القديم، وبنا بقية بثمان بخص. وساءلت نفسي في وجوم: هل تستطيع أمّي النهوض بأعباء الخدمة المنزليّة بعد ذاك العمر الطويل من الراحة والدعة؟ إنّها تهدف إلى منتصف الحلقة السادسة ولم يعد لها من معين إلّا خادم صغير فكيف تتحمّل هذه الحياة؟ وزادت حياتي تنغيصاً وداخلي سحقاً شامل على الوجود كلّ. على أنّ أمّي أقبلت على العمل بروح عالية فيها مرح كثير فنجحت في إلهامي بأنّها مسروقة بالحياة الجديدة، وكأنّما كانت تكبت طوال عمرها رغبة حارّة في الخدمة والعمل. وقالت لي بارتياح لسمته في نبرات صوتهما وابتسامة عينيها:

- إنّ خدعة بيتك في السعادة التي ليس لي وراءها

أواني للخمر من نوع جديد هي الدواقر، فلورق الكونتياك بعشرة قروش، وهو ثمن بخس أستطيع معه أن أعاود الحانة مرتين أو أكثر في الشهر. وشربت واستسلمت لشوارد الأحلام في لذة وشوق. وأمتدتي المصادفة بزاد جديد للأحلام فأقبل عليّ بالنعيم ولوح لي بورقة وهو يتف «ألف جنيه» فمدت يدي وتناولتها منه ونقدته ثمنها، ثم طويتها ودمستها في جيبي. زاد جديد للأحلام يضاهي نشوة الخمر. رياء! ماذا كانت تكون الدنيا بغير الأحلام! إنني أملك ألف جنيه بلا شريك! الأرض ثابتة تحت قدمي لا يززعها الخوف والفقر، والدنيا تتبسم، ولسوف تفقه ضاحكة إذا انتهى أهب! لا يجوز أن أتردّد بعد اليوم، سأقابل الرجل الوقور والد حبيبي وأقول له بصراحة: «إنني أبتغي شرف مصاهرتك!» وأقدّم له بطاقتي، ومنذ الذي لا يعرف أسرة لآظ! أجل إن الوظيفة صغيرة ولكنني أملك ثروة لا بأس بها وسارت ثروة أخرى، فلا يسع الرجل إلّا أن يتخلّطني قبولاً حسنًا. ورايتي أرتّب وسط الشموع وعروسي تنهّض كالقمر. ولم أطق البقاء بعد أن أفرغت الدورق في جوفي فنادت الحانة، وهمت في الطرق على وجهي متفربّحًا حالًا، مسرورًا بنفسي وبالدنيا. ولم أكن لأرجع إلى البيت حتّى أفيق، ولكنني وجدت نفسي أمام بيت الحبيبة والبراس فيّة من نشوة فلم أنعطف إلى النيل. كانت الساعة تقرب من الثانية صباحًا، والطريق مغفّرًا، والظلمة شديدة شاملة، والصمت عميقًا يكاد لعمق أن يسمع ديب الخواطر بالنفس. ووقفت على الطوار متطلّعة إلى البيت النائم، واستقرّ بصري على نافذة هدهدها، وتسَلّت روشي خلالها فخلتني أحسّ تتركّد أنفاسها العطرة. إنني إيماني بالروح لا حدّ له. ألم تجلبد رأسها نحوي فيها مضى؟ فيمكنها الآن أن تندسّ في أحلامها فتراني، بل وأن تسمعني إذا ناجيتها! ويادربها قاتلاً:

«إنني أحبك يا حياتي، أحبك حبًا هو من أعاجيب الكون كدوران الأفلاك سواء بسواء، ولشدّ ما أتمنى أن أقول لك (أحبك) في يقظتي ولكنني لا أستطيع، إنني الخجل أبكم يا حياتي، والفقر سجن شاق الجدران،

أحارين كثيرة أن عينها تتروان إليّ بنظرة فيها حياة. آية حياة؟ لست أدري، ولكنها كافية لبعث الجنون في خيالي، فيمثل بنشوة سحرية لا أفيق منها حتّى تصدمني حقيقة مرّة من حقائق حياتي. واشتدّ تطلع أهل البيت نحوي، وبت وكأني أسمعهم يتساءلون: ماذا تريد؟ لماذا تلتمها بعينيك؟ أيّ رجل أنت؟ ألم يكفك علم ونصف عام؟ صدقتم والله، والحق معكم، ولكن ما حياتي أنا؟ ضعوا أنفسكم في مكاني وخبروني ماذا تفعلون؟ هل لديكم علاج للعجز والفقر؟

ولم يتركني الرجلان للعجز بفناني في راحة، فلم يزلأ يهومان حولها، حتّى بتّ أعانفها خولي العجز والفقر، وأكرهها كرهني للشقاء الذي يضيق عليّ الخناق، مثل هذه الحياة ألدّ ما فيها الحرب منها لذلك تلمست السبيل إلى الحانة مهياكلّني الأمر من العناء. ولم يعد شارع الألفي بك بالمتراد المناسب لخالي، فلجأت إلى حوفيّ - مشيري في الدنيا بعد أمي - وطلبت إليه أن يعملني إلى حانة متواضعة، وسأقني الرجل إلى سوق الخضرا وكان هو نفسه - كما أخبرني - يرتادها من آن لآن، وقال لي مدللًا على حسن اختياره:

- الحانات الكبيرة مظاهر كاذبة لا يبرز الأموال، والخمر هي الخمر، وخبرها ما أسكر بأبخس الأثمان! وأنصت إلى محاضرتي في خجل أليم تجاوب صدهاء أسمى عميقًا في نفسي، فتهمّني لي حينًا أنّه يرثي نهائي ويمرّبطني عمًا سلف من زسائي. وضادته متمجّلاً، وسرت صوب حانة صغيرة في مطلع بحر من الممرّات المفضية إلى السوق. وسأورني شعور محزون باقي أنحلدر إلى الهاوية التي ابتلعت أهب من قبل، ولكنني لم يكن هذا ولا غيره بمانعي من المقدور، وكانت الحانة صغيرة مرّبة الشكل بها موائد معلودات، تبدو رنة باهتة نادها يونانيّ عجوز أعمش، وروادها من الشعب الأدنى أو بعض الموظفين البائسين. ولكن الخمر هي الخمر كما قال الحوفيّ. ولا أنكر أنّي فرحت بمنظر القوارير على الرف الطويل، وسرت بها سرورًا إنسانيّ آلام الضعة التي شدّني ضيق ذات اليد إليها. ورايت

الكبير ذو السور تلوح وراءه رموس الأشجار الضخمة. ورأيت البواب العجوز جالساً أمام الباب وقد طعن في السن حتى صار هيكلًا أسود. وخاتني شجاعتي إذ غدت منه كل بعد خطوتين، فلم أتوقف عن السير، وجاوزته، وقد تملكني شعور اليأس فحدثني نفسي بالعودة من حيث أتيت. وما جدوى بدل محاولة فاشلة حتّى! ولكنّي لم أمعن في الحرب ولعلّ اليأس نفسه أمّدتني بقوة غير منتظرة، فرجعت إلى البواب مستعجراً عزمًا جليدًا، مستنكرًا الخور الذي يباعد بيني وبين بيت في فيه حقّ غير منكور. حيّيت البواب فرّة تحيّي جالسًا، فقلت له بلهجة لم تحل من كبرياء:

- كامل رؤية لاط، خبرك بك من فضلك!

وبعض البواب مبتسمًا، ودعاني إلى دخول الحديقة، ومضى ليخبر البك. هي الحديقة نفسها، لا تزال تسطع جنباتها بشدا الليمون، تمتلئ سبائكها برءوس النخيل، وتسرّب منها إلى النفس كآبة ووحشة. وأرسلت بيصري إلى الفراندا في نهاية الحديقة فرايت البواب يدعوني، فتقدّمت وأنا أطرد عن قلبي شعورًا بعدم الارتباك. وارقت السّلم، فطالمني المنظر القديم، الرجل والخوان المزركش والقارورة والكاس، مدّ لي يده وعلّ فمه شبه ابتسامة فسلمت عليه، ثمّ دعاني للجلوس فجلست حلّ مقعد إلى يمين الخوان. وألقيت عليه نظرة سريعة فرايت الجسم المكتنز وقد ترهّل. واشتدّ احتقان الدم بالوجه المشتمل، وغابت العينان في نظرة ذاهلة، وبان للكبّر في صفحة وجهه غضون في الجبين وحول العينين، وفُيول الخفّين. لم أرتجع لمنظره، ولكنّي حرصت على ألاّ يبدو في وجهي أثر غما في نفسي... ولاحت منّي نظرة إلى القارورة المثلثة للنصف فرمقتها بنظرة غريبة، وذكرت كيف تراءت لعينيّ في الزورة الأولى فقلت لنفسي: لشّد ما يسارع الفساد للإنسان! وكان يتلّفع بروب حريريّ وقاية من رطوبة الحريف في تلك الساعة من الأصيل. ولم يداخلي ريب في أنّه مفعم خمرًا حتّى قمّته، فساورني القلق، وتساءلت عمّا دهاني من جنون حتّى

ولا حقّ لامرئ لا يملك من مرتبه إلّا جنبتيها ونصفًا أن يبوّج بعبّه لملك كريم مثلك، ولكنّي احتكّ بالرغم من هذا كلّهُ، ولا أطيق أن تعرضني عن حيّ، واكاد أجحّ حين أرى تطلّع السرجلين التّيلين إليك، فشجّعيني يا حيّاتي، أشيري إليّ، ابتسمي في وجهي، ما في ذلك من بأس ما دمت عبًّا صادقًا كما لا بدّ تعلمين، وما دمت حاجزًا ميثوسًا منه كما لا بدّ تدركين... آه... وقتت طويلًا دون أن تتحوّل عينيّ عن النافذة الموصدة، فطلعت جفوني وداخلي إحساس خفيف بالدوران والتعب من مشقّة المشي وخمار السراب. ثمّ قرع سمعي وقع أقدام ثقيلة فالتفت صوبها في توجّس فرايت شيخ الشرطيّ مقبلًا، فتحوّلت عن موقعي وحشتت خطاي.

٢٧

ماذا يحول بيني وبينك؟ الفكرة هكذا كان الجواب، ولم أجاوزهُ إلى غيره من الأسباب، لأنّه كان العائق الوحيد الذي لا أعدّ عنه مسؤولًا، أو هذا ما اعتدته. كيف أحصل حلّ المال إذن؟ وتفتّرت مغنّيًا، ثمّ مال بي الفكر إلى أبيّ ذلك الذي تمثّيت موته طويلًا ولكن لم يغن عنيّ التمثي شَيْئًا، فلماذا لا أزوره؟... لماذا لا أستوهِبه المال الذي أريد؟. وبدا الخاطر غريبًا لا يصدّق، وخاصّة بالقياس إليّ أنا الذي أخافه أكثر من الجميع، ولم أوثقه قطّ، بيد أنّ الجزع كان بلغ منّي منتهاه في تلك الآلام، وجرى الحبّ منّي بجرى الدم، واشتدّ إحساسي بقوات العمر لدرجة تستحقّ الرثاء، فداخلي شعور بأنّي إذا بلغت الثلاثين فقد انتهت. أمضتني هذه المخاوف، وكانت النظرات الحلوة التي تجود عليّ بها الحبيبة توسعني في أثناء ذلك معادة وتأنّيًا صامتًا. فلم أرْ بدًّا في النهاية من أن أفكر جدّيًا في زيارة أبي.

ودعيت دون أن أعلن ما في ضميري لأمّي، واهتديت إلى الحليميّة مسترشدًا بكمساري الترام، ولما بلغت شارع عليّ مبارك ذكرت لتويّ الطريق الذي قطعته مع جدّي منذ تسعة أعوام، وتراءى لعينيّ البيت

التعاسة أن تنجب بنات، هذا عار كبير منها قالوا إن الزواج نصف الدين!! إلا إذا كان النصف الآخر هو الطلاق!... وثم غيّر لهجته... لماذا لا تطلب يد إحدى بنات عمك؟ إلا تعلم بأن ميراث الواحدة منهم لا يقلّ عن مائة جنيه كلّ شهر؟ ولكن دعنا من هذا كلّه واسمح لي أن أنظر في وجهك قليلاً فأني لا أكاد أعرفك. ما شاء الله، أنت رجل لا يتعصبك إلا

الشارب، لماذا لم ترسل شاربك؟... ثم إنك رجل جميل، ولكنك نحيل مهزول كآك لا تأخذ كفايتك من الطعام؟ عار أن يكون شاب في مثل سنك نحيلًا. ومع ذلك فيا لها من سعادة أن يرى الأب ابنه رجلاً، خصوصاً إذا كان براه لأزل أو لثاني مرّة! ألا ترى أنّي أب عجيب؟ لقد أنجبت ثلاثة ولكني وحيد مهجور. ولست سائحاً على حقلي، لأنّه من السعادة أن تبقى وحيداً، وما من مرّة خلوت بإنسان قط إلا وافترقنا خصمين، وهم يقولون عادة إنّي غشّيت، وأنا أقول إنهم لمخطفون، فالله يفصل بيننا يوم القيامة. لا تدهش إذا سمعتني أقتبس من القرآن! فإنما الفضل في ذلك إلى الراديو، ولقد باعدت بيني وبين الدنيا ولكنّ الدنيا تأي إلا أن تقتحم عليّ داري في الراديو. أهلاً أهلاً. أنت ولد باّز كامل، ولكنّ ينبغي أن تعتنى بصحتك، وتأخذ كفايتك من الطعام حتّى تسمن. ألم يترك جدك ثروة؟

كنت جزءاً يائساً لا أدري كيف أطرق الموضوع الذي جئت من أجله في ضوضاء تلك الثروة التي لا ضابط لها، واشتدّ جزعي وباسي حين رأيته - في أثناء ثروته - يملأ كاساً جديدة، ولكني انتهزت فرصة طرحه السؤال الأخير وقلت بلهجة لا يشوبها شك:

- لم يترك جدّي شيئاً على الإطلاق...
فهزّ رأسه الأصلح الأحمر كأنه يقول «هذا ما توقّعت» ثم قال:

- مرتّب عال، ذرّة قليلة، معاش ضخم، ثم لا يترك شيئاً، كان رحمه الله مقامراً، والمقامر يفضّل أن يخسر نفوقه على المائدة على أن يكهنزها في المصرف، وما هو إلا طفل قد تمكّن من قلبه حبّ اللعب، ولست

تعت بهذه الزيارة التي لا رجاء منها. وجعل ينظر صوبي بآهاتهم، أو لعلّه حبّ استطلاع، فعجبت لذلك اللقاء الغريب بين أب وابنه بعد افتراق عمر كامل، وتساءلت في نفسي في دهشة وعدم تصديق عمّا يقال عن الحبّ بين الآباء والأبناء. ولم أدِر بطبيعة الحال كيف أبدا الحديث، ولكنّه أخذ يتكلّم فأنقذني من حيرتي. وقال بصوت غليظ:

- كيف حالكم؟ مات جدك! كان رجلاً لطيفاً، واحفظ له ذكريات لا بأس بها على رغم ما كان، ولكنّي لم أشهد جنازته وهو ما لا يفرّقه كثيرون، على أنّ الإنسان في مثل سنّي ينبغي أن يعفى من الواجبات، والشيخ والطفل سيّان في ذلك، ولا تنس من ناحية أخرى أنّ جنازتي لا يُنتظر أن يشيّعها أحد اللهمّ إلا عمّ آدم البوّاب، ولا يبعد أن يُشغل عنها عمّ آدم نفسه بتفتيش جيوب وسرقة ما يملكه بها من نفود. هل تشيّع أنت نعمتي؟

دهمني سؤاله بعد قلبي استحوذ عليّ بتأثير لهجته الثملة، فأيّقت أنّ مهنتي ستكون شاقّة خفيفة، ولكنّي بادرت قائلاً:

- أطال الله بقاءك!

فقهقه ضاحكاً، ورأيت أنّه فقد ضروره، فسادني منظره وضحكه واستدرك قائلاً:

- يا لك من ولد باّز، فجميل جدّاً أن تحبّ أباك وتدعو له بطول العمر! والبّز بالأب سحيّة فاضلة لم يكن لي منها نصيب وأسفاه، ولو أوتيت قدرًا من الرياء أو حقًا من الصبر لكنت الآن من أغنياء البلد المعروفين، مثل عمك قاتله الله، ألم تر إليه كيف لم يفتح بما ورت من مال لا تغنيه النار حتّى استأثر بأخيك مدحت - ذلك الثور - فزوّجه ابنته؟ ولقد ظننته يومًا سيعتق مذهب الطلاق كآبيه ولكنّه يسو خانمًا كالنساء، وانقلب فلاحًا مزارعًا يشارك القطعان معيشتها، ولعلّه يجلّم بثروة عريضة بعد موت عمّه، ولكنّ خاب فآله، فلزوجه أخوات ست كلّهنّ مطعم الفحول من عشاق المال والنساء! ولذلك أقول إنّه من

الخمر، ولو أحب الناس جميعًا الخمر كما أحبها، واستهانوا بالمال، لأمكن حلّ مشكلة الدنيا بكلمة واحدة. تصوّر معي بلدًا سعيدًا، يشطرونه شطرين فيشكّون المساكن على البمين والحانات على اليسار والحكومة في الوسط، ولا يكون للناس من واجب إلا أن يشربوا، هذا بلد يبيع ويشتري، ألا تشرب يا بني؟ كلا!، فإذا تعنتق من الشرور؟ إن قيمة المراء الحقيقة فيها بعمل من شرّ، هبني متّ غداً ولم أكن سكيراً، لما عسى أن يقول عني الناس؟ لا شيء! أما وأنا شرب فيقولون حقاً: «كان شرباً سكيراً». بل ولو كنت أتصنّع بمالي هذا على الفقراء لما ذكرني أحد بكلمة. الناس ينسون الخير بسرعة ولو كانوا من صنائعه، فالشيء الوحيد الذي يخلّد ذكرك هو الشرّ... ما رأيك في كلامي هذا؟

ولم أجد من الإجابة مغراً، فقلت:

- يجب أن نخاف الله ونطيعه...

فأمن على قولي بهرّة من رأسه المستدير بدت هزليّة واستدرك قائلاً:

- صدقت!، هذا سرّ الوجود. أمّا والله لو كان حقاً ما يقولون عن الله فإنّ مصيرنا أسود! بيد أنّي عظيم الثقة والاطمئنان، وما أفقد ثقّي وطمأنيني إلا إذا ساء هضمي، هنالك تبدو الدنيا عابسة كالحة! وذلك لأنّي أومن بأنّ الله لا يعدّب عباده. كيف أصبّق أنّ إنّما عظيمًا سبحانه يحرق مخلوقاً مثل لأنّ أحبّ الخمر؟! ألا يعجبك كلامي؟ أنت أنتسنا، أرى الملل في وجهك. ترى ما الذي دعاك إلى تدكّر أيبك بعد نسيان العمر كلّ؟

وخفق قلبي، ولم أعد أطيق السكوت. ولعلّ لم يكن من الفطنة أن أطرق موضوعي أثر ذلك السؤال، لكنّي قلت في عدم تبصّر:

- أراني في ضيق شديد، وإذا كانت الظروف السيئة قد قرّرت بيتنا فإنّك أبي على رغم هذه الظروف السيئة.

وقهقه ضاحكاً فكهرت منظرو للمرّة الثانية. ثمّ قال بلهجة الهاذية التي تنزع من سامعه آية ثقة فينا يقول:

الوجه لأنّي بدوري شرب سكير، والفرق بين المقامر والسكير، أنّ الأوّل عملي يضارب ويخادع ويكسب ويخسر، أمّا الآخر فنظري يحلم ويحلم ويحلم. إذا طمع المقامر في الثراء فامر بثروته في اللعب فيخسرهما على الغالب، ويعني نفسه بتعويض خسارته فما يزداد إلا خساراً حتى إذا مات لم يترك شيئاً، يترك ديناً ثقيلاً، والغريب في الأمر أنّ المقامرين جميعاً يخسرون ولا أدري من يربح إنذا! أمّا الشرب إذا طمع في الثراء وجده مضراً بين يديه دون أن يكلفه ذلك أكثر من ثلاثين قرشاً ثمن قارورة كهنه. أتقول إنّ ذلك بعض وهم؟! لكن، وهل ثمة شيء في الدنيا إلا وهو وهم وخيال؟! أين جدّك... كان جدّك حقيقة ملموسة فأين هو الآن؟ شمرّ للبحث عنه فلن تجد له أثراً. فتش عنه في البيت، وفي المقهى، وفي الناحي، بل انظر في القبر نفسه، وهالك رقبتي إن وجدت له أثراً، فكيف يكون حقيقة! رحمه الله! وماذا فعلتم بعده؟ أمّا زلت طالبا؟

فقلت وأنا أداري حقني وجزيي بابتسامة باهتة:

- تعيّن موظفًا بوزارة الحرية!

فرفع كاسه ضاحكاً وقال:

- نحب مستقبلك! ما شاء الله! أسرتنا عجيبة ولكن ليس بها من موظف واحد، فأنت الذي تشقّ طريقها إلى الحكومة!

ولم أملك أن قلت بضيق:

- لست إلا موظفًا صغيراً، وليس لي مرتّب يذكر! فومضني بنظرة توتّس من تحت حاجبيه الأشيبين وقال بغير مبالاة:

- لا تجزع، الصغير يكرّ حتى. قضت حكمة الدنيا بأنّ الصغير يكرّ والكبير يصغر... والطاهر أنّ الله خلق ثروة محدودة واحدة، لا يتغير مقدارها، ويتغير حقد الناس منها، وإلا فلماذا لا يثرى الناس جميعاً؟ فاصبر يا بني ولا تشغل نفسك بالتفكير في المال. التفكير في المال مهلكة كادت تورديني في يوم من الأيام، إنّي أعجب لماذا يحبّ الناس المال هذا الحبّ الكبير! لست في حاضري من عبي المال، أنا لا أحبّ إلا

شهريّ مقداره أربعون جنيهاً غير أجرة الطباخ العلويّ، ولكن لا تغيب عنك نفقاتي، إليك الطباخ مثلاً فهو يسلمني عشرين جنيهاً كلّ شهر، وإذا خطر لي أن أراجعه مرّة دَوِّخ دماغي بحساب طويل لا أفقه عنه شيئاً. وإليك الحمر أيضاً فإنه يلزمي منها زجاجتان في اليوم أو ما يزيد على خمسة عشر جنيهاً في الشهر، وما يبقى بعد ذلك لا يكاد يفي بالضرورات الأخرى كالكساء والتدخين ورواتب الطباخ والبواب والخادم وأجرة العربة التي تجوب بي بعض الشوارع القريبة كلّما سئمت طول المكث في البيت. ليس لي من رصيد في المصرف، حتّى إنّ أعالج سوء المضم بالوصفات البلدية. لا تسألني مالاً يا بنيّ، وإني أقول هذا أسفاً علم الله، ولكن لما لا تتزوّج كما تزوّج أخوك من غير أن يبذل مليّاً واحداً؟! وإن احترمت نصيحتي فلا تتزوّج على الإطلاق!

وحدجني بصره الزائع، فبدا لي فظيماً كريماً. ثمّ استخرج علبه سجاثره، وأخذ سيجارة وأشعلها وراح يدخنها بتلذذ. وجعل يراقب دخان السيجارة بعينه الخائيتين، فخيّل إليه أنّه نسبي. ثمّ وقع في نفسي أنّه يعذبني! وملاني الحق، ولكّني بقيت على جهودي، وازددت إحساساً باليأس والحيرة. وساد الصمت مليّاً، ثمّ التفّت نحوي، وألقى عليّ نظرة لا معنى لها، ثمّ ارتسمت على فمه الواسع ابتسامة وسألني:

- ألا تدخّن؟

- كلّاً...

وعدنا إلى الصمت. ألا يجسر بي أن أذهب؟ وتوثّبت للنبوض لولا أن لاح في وجهه ما جعلني أنظر إليه بدهشة وانزعاج. بدا متعباً وتفصّد جبينه عرقاً ودارت عينه في أنحاء المكان وكأنّها لا تريان شيئاً. ورأيت خدّه الأيمن فيما يتّصل بفمه يرتعش ارتعاشة عصبية. ثمّ دعت عينه اليمني... آ... توقعت شيئاً خيفاً لا أدرى كتهه، ولكن لم تطل به تلك الحال، انبسط وجهه وعادت إلى عينيه الحياة الطفيفة التي تبدو فيها: ونظر صوبي مرّة أخرى، زابلي الخوف الغامض، وعادوتني أحاسيس اليأس والحيرة

- مذك حقّ. الويسكي هذا حكمة غالية، إنّه كالدينا في مرارته، ولكنّ الحكيم الحكيم من يستطيعه ويألفه كما يستطيع الحكماء الدنيا والآخرة، ويل لمن يزعرون لمرارته أو يقيثون، لن يصبروا إذن مع الحياة. قلت يا بنيّ إنّ مذك حقاً. يعجبني والله حسن تمهيدك ولياقتك. تقاطعني على الخطأ لأنّ الحساب لا وزن له هذا، لا تؤاخذني على الخطأ لأنّ الحساب لا واحد واحد عند الشرب فليس حتّى أن يساوي واحد واحد اثنين، وعسى واحداً يساوي عشرة، قلت إنّك تقاطعني عمراً ثمّ تخيّنني معتدلاً بجملته لطيفة. على أنّي أقبل العذر، ولم لا؟ الحق لا أسف على مقاطعة الناس لي. أمّا الضيق الذي تشكو فأمر عيّنني جدّاً. فما يضايق ابني يضايقني بالتالي، فماذا تعني يا بنيّ؟

حدّثني نفسي بالذهاب لأنّ لم أجد في ذلك الهديان فائدة ترحي. بيد أنّي لبذت الفكرة في احتجاج وغضب. وعزّ عليّ أن أنكص على عقبي بعد أن أقدمت على ما أقدمت عليه. واستجمعت قواي، وبلذت فوق ما أحتمل عادة في مقاومة الحجل والارتباك وقلت بصوت منخفض:

- أريد أن أتزوّج!

وعاد الرجل السكران إلى قهقهته الكريهة، ثمّ قال بدهشة:

- ما بال أسرنا لا تنجو أبداً من هذا الداء الويل؟! إنّ أختك لم تطلق صيراً حتّى أختار لها بعلّاً كما ينبغي فهربت مع رجل غريب وتزوّجته. وهذا أخوك ما كاد يشبّ عن الطوق حتّى كان راقداً في حضن عروسه. ولا أبرئ نفسي فقد حاولت أن أكون زوجاً مرّة وأخرى وثالثة، أغضبّ بها من أسرة ولعلّك تحتاج مالاً ليتمّ لك ما تريد من زواج؟! لا أستبعد هذا فالزواج وإن كان داء كما قلت إلّا أنّنا نتفق عليه أمراً طائلاً، وفي هذا وحده الدليل الساطق على جنون الإنسان! ولعلّك جتني وحتلت نفسك ما لا تؤدّ من رؤيتي لتسألني مالاً تزوّج به إلى عروسك... لا أستبعد هذا، ولكن من أين لي بالمال الذي تريد؟ هل «قلاء» لك إنّ غيّي مسور؟ لا أنكر أنّي أتمت بدخل

خلصت إلى الطريق عظم النفس والقلب والأمل .
وقطعت الطريق إلى المحطة وأنا أسب واللعن وأغترز
غيطًا وحققًا : لم أحتمله أكثر من ليلة واحدة» .

ربّاه... لو أنّ ألف صفة الحب قفاني في ميدان
عموميّ لما أدّنتي كما أدّنتي تلك العبارة ! وبلغ منّي التأثير
مداه فازدحت الدموع بعينيّ ، واستسلمت للملكاء
مستخفيًا بالظلمة التي تنشئ الكون . ليس ثمّة فائدة

ترجى منه . موته وحده يده أن يغيّر وجه حياتي ! أجل
لا أمل البتّة إلّا في موته . واستقللت الترام وشروعي
المعهود ينقّس عن كربى بأحلامه الثالثة ، فرأيت نفسي
جالسًا مع مدحت وشقيقتي راضية تنقسم ميراث أبي
بعد وفاته ! واقترحت عليها أن يبيع البيت الكبير
فوافقتني في الحال وأصبحت في غمضة عين مالكا لألف
جنيه ! ولم يكن في الحلم أثر لأمّي ! فقابلت والد حبيبي
وفاتحته بشجاعة عن رغبتى في مصاهرته وتمّ كل شيء .
دون عراقيل ! وشمرت بارتياح خفّ من توتر أعصابي
الذي أورتني تلك الزيارة المخيفة الفاشلة ، بيد أنّي
تذكّرت بسرعة كيف أنّ الحلم لم يحمّل لأمّي وجودًا ،
وسرت في بدلي رعدة خوف وتقرّز ، وتقلّص قلبي
امتصاصًا ونمّا ، كيف سمعت لهذا الخاطر الشيطانيّ
بأن يلوّث نفسي مرّة ثانية ؟ لا لزمني الامتنعاص
والغضب طسوال الطريق . وجعلت أرده في نفسي :
«اللهمّ بارك لي في عمره» ، ولم يغن عنيّ ذلك شيئًا
فعلت إلى البيت مؤرّع النفس مشئت الببال ، ولم يرتع
لي جانب حتّى طبع على جبينها قبة طويلة حارة ...

٢٨

وفي عصر اليوم التالي ذهبت إلى محطة الترام لأفوز
بدقائق السعادة التي لا يجود اليوم إلّا بها . لم يعد لقاء
الصباح بالمتاح إلّا فيها ندر ، وفلّك منذ غدت حبيبي
جالسة في الشرفة تحادث شقيقتها ، فوقفت متطلّعا ،
منتظرًا زادي من نظرة عينيه الذي يمدني بجاء الحياة ،
وانعطف الرأس المحبوب نحوي ، ولكنّه ما كاد يراني
حتّى تحوّل عنيّ فيها يشبه الحدة . ثمّ نهضت قائمة
وغادرت الشرفة . خفضت بصري ذاهلا وقد خبا

والكراهية . ثمّ تأملت بعين الاستغراب الحقيقة الماثلة
أمامي ، وهي أنّ هذا الرجل هو أبي الذي أوجدني في
هذه الدنيا ودعت هذه الحقيقة حقائق أخرى بما يتصل
بها ، بدت في صور محسوسة ؛ فسادني منظرها ، وألمني
وأحزنتني . وليبت هتية من الألم في شبه ذهول ، ثمّ
تهدّدت على غير وعي منّي بصوت مسموع ، وتنبّه ليّ
وسألني للمرّة الثانية :

- ألا تدخّن ؟

فهزّزت رأسي سلبيًا ، فقال في تهكم :

- يتمّ العنى أنت ! لا عيب فيك إلّا أنّك ترغب في
الزواج ! حدّثني عن زواجك أهو رغبة عامّة ؟ أم هو
رغبة خاصّة في بنت من بنات حمّاه ؟ وهنا خفق قلبي
بعتف وكادت الدموع تسارع إلى عينيّ ، هذا ما يبدو
لي ، ترى كيف الحبّ هذه الأيام ؟ لا شك أنّه لا يزال
محفوظًا بخطورته وقوته في خداع البشر ! ومع ذلك أكثّر
عليك النصيحة بالآ تزوّج على الإطلاق . هذه نصيحة
رجل مجرب . الزواج سخرة . تصوّر أنّ امرأة تملكك
ومع ما يقال من أنّك أنت الذي تملكها فهو كذب
سمج ، تهك قواك وتسلبك مالك وتستبدّ بحرّتك ثمّ
تستدرجك لاستبعاد روحك وما تملك لرعاية شخصها
وإنّاتها فإذا متّ سمعت إلى رجل غريك قبل أن تحبّ
دموعها ، الزواج شيء سخيف لم أحتمله أكثر من ليلة
واحدة !

ترنّح قلبي تحت وقع الطلعة التي نفلت إلى
صميمه ، ونبتت عنيّ على رغي أمّة من الأعصاب ،
نظرت ليّ في شبه بلاهة . ورمقت بنظرة نارية حتّى
حدّثني نفسي بأن أقدفه بالقارورة في وجهه ، ولكنّي لم
أكن الرجل الذي ينقذ مثل ذلك الخاطر ، وشمرت
بالقهر لعجزتي ، وبربعة في البكاء قاومتها ما وسعي
الجهد . وسألني في دهشة :

- هل أملك يا بنيّ ؟

فنهضت قائمًا في حتق وصحت به :

- السلام عليكم ...

ثمّ نمت على إفلات هذا السلام منّي في اللحظة
التالية ، وغادرت المكان لا ألوي على شيء ، ثمّ

يجعلني أصول وأجول في البيت بلا داع حتى إذا اصطدم بأحقر موطن في الدولة انقلب دلاً وسنوعاً، استسلمت لذلك التفكير الحزين طويلاً حتى بدت لي نفسي قطعة من البشاعة والهموان، إنني شخص لا يستحق أن يعيش، إن أنفه الأفعال بملأني ذعراً وجفولاً، حتى تمتيت أن يكون لزيادة الماهية طريق غير الترقية كي لا أجند نفسي أبداً مسئولاً عن عمل كبير، ولن أنسى أنني بذلت قصارى جهدي حتى وكُلوا بي في إدارة المخازن الآلة الكاتبة فتأدياً لأعمال حقيرة لا تعدو الضرب والجمع والطرح، لست إلا مخلوقاً غريباً شذ على قافلة الحياة الحقة، ومن أي ذلك أني لا أحفل بشيء في الدنيا إلا نفسي وما يتصل بها من قريب، ومن أي ذلك أيضاً أني لا أقرأ الجرائد على الإطلاق! ولشد ما كانت دهشة زملائي من الموظفين عظيمة حين تبين لهم اتفاقاً أني أجهل اسم رئيس الوزارة وتذاك بعد أن مضت أشهر على توليه الحكم وراحوا يتندرون بجهلي كثيراً وأنا صامت كظلم، وكأنني لست من هذا المجتمع، فلا أدري شيئاً عن آماله وآلامه، فادته وزعماته، أحزابه وريثاته. ولكم طرقت أذني أحاديث الموظفين عن الأزمة الاقتصادية وهبوط أسعار الفطن وتغيير الدستور فلم أكن أفقه لها معنى أو أجدها في نفسي صدى، لا وطن لي ولا مجتمع، لا لأنني أسبق الوطنية ولكن لأنني لم أدركها بعداً ولعلني أشعر أحياناً بأنني أحب الناس جميعاً، الناس كشيء معنوي عام، ولكن ما كان أحد من هؤلاء الناس - إذا اتصلت أسبابه بأسبابي - إلا ليثير في نفسي الجفاء والنفور. وحتى إيماني العميق لم يستطع أن يستقلني من هذه الوحشية المخيفة، فضلاً عن أنه أثقل ضميري بالقلق والتأنيب، وأوسعي إحساساً حاداً بالحطية من جزاء العادة للمجنونة التي استبنت بي...

لذلك إذا كان جاء يوم الأحلام انطلقت إلى حانتي الجديدة بسوق الخضرا لا ألوي على شيء، وطلبت الدورق الجهمي الذي لم يعد لي عزاء سواه...

حمامي وفتر. ما الذي أغضبها؟ ألم تحتمل جمودي؟ هل يقضى عليّ بالحمران من نظراتها الحلوة؟ هل قررت أن تقابل جمودي بالإعراض والتجاهل؟ وتولاني الحزن والفتوط والحجل. كان موقفني مخجلاً بلا ريب، ثم خطر لي خاطر بردت له أطرافي، وتساءلت في خوف أكون لأحد الرجلين اللذين يتافسان في الإعجاب بها شأن بهذا التحول الجديد؟ لئن صح هذا، فهذا يبقى لي في الحياة؟! ختريني يا حبيبي بحق شبابك الريان، أهي جفوة عطف خانة الصبر أم أعراض قلب ظفر مبتغاه في ناحية أخرى؟ لن أنسى بؤس ذلك اليوم، ولا الأيام التي تلت. اخضت حبيبي من أفق حياتي، وتحامت الظهور بالشرقة حين أكون في المحطة، وفي مرآت التلاقي النادرة في الصباح حرصت ألا يقع بصرها عليّ. رحت أكل الشرقة والتافلة بعينين جانتين أضناها التطلع. وكنت أرى الأم أحياناً وهي ترميني بنظراتها المتفحصة، والأخ وهو يلقي عليّ نظرة غريبة، والشفيفة الصغرى وهي ترميني بنظرة اهتمام، أما حبيبي فقد توارت، تاركة وراءها شجرة الحياة عارية، تشرب صفراء وعروقاً ذابلة، رياء ليس هذا بعدم أكثر، لو كان عدم أكثر ثراً حقاً لما أوجب هذا الحذر كله، ولوقع عليّ بصرها كما يقع اتفاقاً على المخلوقات والأشياء بالطريق. إنني تتجني عاصمة قاصدة، إنني غضبي برمة، ولا شك أن قصة الفتي الذي يبدو محباً قد ملأت البيت. ولا شك أن جموده الغريب كان موضع تعليق ونقد واستفهام! كيف فاتني أن أقدر حرج حبيبي وحيرتها؟ وتبكت من الأعاق، وتندى جيني خجلاً، وامتلأت سخطاً على حظي التعس، وامتدأت السنة سخطي إلى أنني المتوارية وراء كل شيء! وانطويت على كدر كأنها سفت ريح الخمسين خبارها على نفسي، فلم أجده ذاتي هدفاً لسخطي وكدري وغضبي، وهي عادة قديمة لي إذا ضاقت بي الدنيا أن أوسع نفسي نقداً وهجاء وكشفاً عن عيوبها ومنافستها، فعدلت إلى التنديد معجزي المطلق، وخوفي الشامل من الدنيا والناس وكافة المخلوقات الأخرى، وذلك الكرياء الكاذب الذي

الوجه، دقيق القسيات صغيرها، وكان يحلّي أصبعه بخاتم ذي فصّ ماسّي، ويضع على عينيه نظّارة سمكية أحدثت من نظّارة عينه، وبعثت بسلسلة ساعته الذهبية اللدلة من عروة صدّارته. سألني بأدب عتّا أفضّله من المشروبات، ولما لم أحر جواباً طلب شيئاً، ثمّ قال:

- اعدّني عن تطفلي هذا، ولكنك ستقدّر موقعي بلا شكّ إذا علمت بما حدّاني إلى دعوتك. واسمح لي قبل كلّ شيء أن أقدم لك نفسي. . محمد جودت مدير أحوال بوزارة الأشغال.

وقعت كلمة «مدير» من نفسي موقعاً مروّعاً، فقلت:

- تشرفنا يا بك. . . أنا كامل رؤية لآظ موظّف بوزارة الحرّية.

وجاء النادل بالقداح الشاي، ولكنّي كنت أفكر في الفرق الكبير الذي يفصل بيننا كموظّفين. هو مدير أحوال، وأنا كاتب على الآلة الكاتبة بإدارة المخازن. ولحمت وراعه مرّة مشبّعة في الجدار، ورايت صورتي معكوسة على صفحتها، فنظرت إلى وجهي المستطيل وعيني الخضراوين، وسرعان ما سرى عني شعور بالارتياح والإعجاب! أمّا صاحبي فقال لي:

- يا أستاذ كامل، إنّي دعوتك لمشاورة أخويّة، وأرجو أن تقدّر رغبة رجل مثلي - اعتبره أخاك الأكبر - في التفاهم الصريح. لست بالمتجنّي على أحد، ولكنّي أرجو أن نكون صرحاء!

واصطنعت الدهشة وقلت:

- أرجو أن تقصص يا سيّدي عتّا تريد وستجدني رهن إشارتك. . .

فضحك ضحكة قصيرة خالصة، ثمّ قال بعد تردّد قليل:

- أتصفّح عتّا إذا سألتك سؤالاً ليس لي حقّ في توجيهه؟

ربّاه إنّي أتلهّف على سماعه: أجل إنّي أوقن بأنّه لن يعمل لي نأ ساراً ومع ذلك بدا لي كاشهي المني. قلت

كنت واقفاً في المحطة قبيل المغرب، لم أَلْ أن أتطلّع إلى الشرفة والنافذة، ولكنّ حبيبي لم ترق لي منذ جفتني، قاطعتني مقاطعة قاسية، وأضنت حياتي كمداً، وكان الشتاء في إنباته: وفي السهاء صحاب جون انعكس ظلّه الثقيل على الأرض، وهبّت ريح باردة، وقفت ملتأّ في معطفي الأسود، أرفع للبيت المحبوب من آن لآخر بصراً مشوّقاً يائساً، وهل حين فجأة سمعت صوتاً رقيقاً يقول:

- من فضلك يا أستاذ. . .

فالتفت ورائي بدهشة، ولكنّ دهشتي تضاعفت ومازجها خوف كثير حين رأيت أمامي أحد الرجلين اللذين أتهمتهما بحبّ حبيبي، ذلك الرجل الوقور الذي يقطن في عمارتها وغمغمت بارتباك:

- أفندم؟

فقال بصوته الهادئ الرقيق، وبلهجة تنمّ على الرقار:

- تسمع ثمّني قليلاً ممّا. . .

فتساءلت بحيرة وإن حدّس قلبي الخبر:

- لماذا؟

فقال مبتسماً:

- لديّ أمر أوّد أن أحدثك عنه. . .

فلم أجد مناصاً من أن أقول:

- بكلّ سرور.

فقال وهو يرفّص بصره إلى السهّاء:

- الجوّ بارد جدّاً، فهلاً وافقت على أن نستغلّ الترام إلى ميدان إسحاق، وهناك نجلس في مشرب الشاي فأحدّثك دقيقين؟ أليدك مانع؟

وركبنا ونزلنا، وجلسنا. حدّثني نفسي سلفاً بموضوع الحديث، وداعاني إحساس بالخوف، بيد أنّ شعوري بأنّ الحديث سيؤدّ حول حبيبي حملي على الذهب معه بلا تردّد، بل ورغبة لا تقاوم، ولكنّي تساءلت طويلاً عتّا هو قاتل، وعتّا يرمي إليه من وراء حديثه، والقيت عليه أوّل نظرة من قريب ونحن جالسان حول مائدة صغيرة، كان في الأربعين، معروف

مبتسماً في ارتباك:

- بكل سرور يا بك. . .

فارتفق المائدة شابكاً أصابع يديه، وقال:

- لاحظت أنك تبدي اهتماماً خاصاً بشخص ماء، ولعلك أدركت من أعني «هنا خفي قلبي خفة عذبة» فلا تؤاخذني إذا سألتك عن حقيقة اهتمامك هذا، هل هناك رغبة أو نية أو صلة؟

أوشكت أن أمتظاهر بالدعشة، وأعلن تجاهلي، ولكنني عدلت عن ذلك في اللحظة التالية. طالما التقت عيناك في المحطة، وطالما رأيته يراقبني وأنا أتطلع إلى الشرفة، كما رأي أراقبه وهو يسند عينيه لنفس الهدف، فهو يعرف كل شيء، ويعرف أنني أعرف، فإني جدوى التجاهر إلا أن يكشف عن كذبي؟ فقلت متكلماً بإنسامة كاذبة:

- حضرتك أخطأت الفهم، فقدّرت أنني أبدي اهتماماً بشخص ماء على حين أنني أنظر إليه كما أنظر إلى سواه. إننا نحض عادة سيئة!

وضحكت متظاهراً بالاستهانة، فابتسم لي، وقرأت في عينيه عدم التصديق ثم بادرني قائلاً:

- إنك جتيلان كما قدّرت، فأرجو أن تخبرني صراحة هل لك بالأنسة علاقة ما؟ إذا أجبتني بالإيجاب شددت على ذلك مهتناً وانصرفت إلى حال سبيلي.

فقلت وقلبي يتقطع ألماً.

- ليس لي بها أية علاقة. . .

فتردد لحظات ثم مال في حرج غير قليل:

- ألم تفكر في طلب يدها؟

تناوبتني أحاسيس متباينة. شعرت أول الأمر بعداب لا يوصف، ثم داخلي سرور خفي لأنني أيقنت أن الرجل الذي يجاذبني رعديد مثلي وإلا لشرّق طريقه إلى بيت حبيبي دون أن يعبأ بي، بل أيقنت أنه يجاذبي، فأرضى ذلك غروري إرضاء خفيف عني بعض ألمي. ثم وجدتي مدفوعاً إلى الادعاء والكذب بقوة لا تقاوم فقلت بيقين:

- لو فكرت فيها تقول لما منعتني مانع من طلب يدها

من زمن طويل!

ومصاد صمت. ومضى يتفرّس في وجهي وقد تألّفت في عينيه نظرة ارتياح. أي مانع يمنعني؟ يا للسخرية! إن كل شيء يبدو كسلم غريب، هل حقاً نحن نتكلم عن حبيبي، وهل حقاً أنني لم أفكر في طلب يدها وليس لي من رغبة في ذلك. ربّاه ما أشدّ عذاباً! وتلكني شعور باليأس لم أشعر بمثله طول حياتي الحافلة باليأس. وأخيراً خرج «البك» من صمته قائلاً:

- أكرّر المَعذرة عن تطعّل. الحق أن نتقي قد صدقت أخيراً على طلب يد الأنسة بعد أن زالت من طريقي أسباب صدّتي طويلًا عن التفكير في الزواج، وبدا لي أن أحذّك به حتى لا أضع رجلي في غير موضعيها، والألآن لا يسعي إلا لشركي.

إنّه من فصيلة العجزة - هكذا حدّثني قلبي - إلا أنه صادف من هو أعجز منه، فهو سعيد الحظ بلا ريب. فلم يعد لبقائي من مسوّج، فنبضت مستأذناً في الانصراف وأنا أقول:

- مبارك يا سيدي.

فنبض في أدب، وبسط لي راحته، وشدّ على يدي بامتنان فخلته يشدّ على عتي، وشعرت نحو السرور الضاحك في عينيه بحقد ناري، ثم ودّعته وغادرت المشرب. ومساقتي قدامي على غير هدى فاستسلمت لها، لأنه لم يكن لي غاية أنقصدها، وأخذت نفساً عميقاً وقلت لنفسي: «الحمد لله»، وأعدت القول بصوت مسموع كأنني أهق نفسي! ولعلني كنت أهق نفسي حقاً على اليأس، وأمتيها بالخلاص من القلق والعذاب واللهفة التي لازمتني منذ أشهر طوال، أو منذ سكن الحب قلبي. وقلت لنفسي أيضاً: «إني سعيد، وليس أحقّ مني بالسرور أحد، انتهت الآلام إلى الأبد!» وخيّل لي أنني لو ألقيت بنفسي من جسر الملك الصالح - كما كان ينبغي أن أفعل في يوم مضى - لحلّقت بدل أن أهوي من شدة السرور! ذقت لذة اليأس في سرور هذيان غريب، ومرّت بي لحظات جنونية. والآن علمت لماذا توارت عن عيني؟ فأخذت أفيق من بشوتي الجنونية الكاذبة. ثم نشبت في قلبي

العاشرة بقليل فوقك في عمّ آدم احتراماً، فحيثه ودخلت بلا طلب استئذان، إنّما لأنّي تناسيت ذلك في دخول بيت أعدّه بيقي، وإنّا لأنّي تناسيت ذلك في قلقي وغمي. ومضيت إلى الغرانداء وارقتي السلم متحنّخاً، ولكنّي وجدتها خالية، فوقفت مرتبكاً. وأدركني آدم فدفع باباً يقضي إلى الداخل وسبقني وهو يقول:

- كامل بك حضر.

وتنحّى لي، فاجترت العتبة مقدمين ثابتين. وجدت نفسي في حجرة كبيرة مستطيلة تنتهي ببابين في الجدار المقابل علّقت بينهما صورة بالحجم الطبيعي لأيّ في عزّ شبابه. وقد علّقت أرضها ببساط نفيس منمنم، وضّعت على جانبيها الكنبات، وأسدلت الستائر على نوافذها وأبوابها. ورأيت أبي مرتباً على كنية تتوسط الجناح الأيسر للحجرة، وأدوات الشراب أمامه على منضدة أنيقة كأنّها - لعدم انفصالها عنه - عضو من أعضائه. ولم يكن بمفرده، كان الحلاق على كنب منه يجمع أدواته في حقيبته، ثمّ حيّاه بأدب وذهب، وعلى اثر ذهابه تراجع عمّ آدم ورّة الباب. وأنّه بصري وأنا اقترب منه صوب القارورة فوجدتها لم تفس، وداخلني لذلك ارتياح وأمل. ومددت له يدي فتناولها بكفه الغليظة، وجرت على شفتيه ابتسامة باهتة وهو يقول:

- أهلاً بك، أنت في إجازة؟

لم أرتجع إلى استقباله، ولكنّي غضضت عن ذلك، والحق أنّ آلام الليلة الماضية، والصداق الناشب في رأسي وباسي المرير، تغلّبت على ما طبعْتُ عليه من خجل وخوف وتحاذل، فقلت:

- نعم في إجازة خاصة كي أقابلك في الحال. فرمقني بنظرة لم يحاول إخفاء ما لاح فيها من قلق ممّا أثار حنفي وغيطي، وتساءل باقتضاب:

- أمر هام؟!

تناسيت كلّ شيء إلاّ ألمي المبرّح وألمي الباقي فقلت بانفعال تمّت عنه نبرات صوتي:

- هامٌ جدّاً، أو بالأحرى هو حياتي ومستقبلي.

انياب الغيرة السافّة، أيّمكن أن يتمّ هذا حقّاً! لم أستطع أن أصدّق هذا. لماذا؟... ربّما كان مرجع هذا إلى نقّي التي لا تتزعزع في الله الرحيم ورعايته، ولكن من كان يصدّق أن ينتهي بنا الحظّ إلى الحال التي نعيش عليها! وتنهّدت من الأعياق في بأس مرير، ثمّ سرت في جسمي رعدة من البرد الفارص الذي تنهّدت إليه لأوّل مرّة بعد مغادرتي للشرب فأحكمت المعطف حول نفسي خوف البرد لكثرة ما يتهدّدي الزكام في الشتاء. وألصّمت بي رغبة غريبة، هي أن أجد نفسي طريح الفراش... وتخلّلت بارتياح وقادي تحوط به العناية والحنان! وعلى حين فجأة انهارت أعصابي تحت الضغط الشديد الذي تحمّله، فوجدت ميلاً لا يقاوم إلى البكاء، فاستسلمت له متشبّحاً بالظلمة التي تلغّني وبكيت، ثمّ ازدادت استسلاماً فأجهشت في البكاء حتّى انتحبت وشهقت كالأطفال.

٣٠

في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي كنت في طريقي إلى الحلمية، إلى أبي، كيف انتهت إلى هذا، خاصّة وأنّه لم يكد يمضي شهر على الزيارة المخيعة! إنّه اليأس... قضيت ليلة سهّلة معدّبة لم يغمض لي فيها جفن، وتفكّرت في أمري طويلاً حتّى تجسّمت لي الأفكار شخوصاً تصرّخ بي أنّ اذهب إلى أبيك، مهما كلّفك الأمر، وليكن ما يكون. ولم يكن التردّد بممكن في مثل حالتي، لقد فقدت رشدي، وأذهلني الألم عن مشاعري الطبيعية بالتردّد والجلجل والخوف فكان أبي - على رغم كلّ شيء - الأمل الوحيد الباقي لي.

واخترت أن أزوره في الصباح لأنّي أملت أن أجده قبل سكره في حال خير من تلك التي وحدته عليها في الزيارة السابقة المشؤومة، وفضلاً عن هذا كلّهُ فلم يكن بي من صبر أستطيع أن أنتظر به حتّى الأصيل، فنلتفت إلى إدارة المخازن معتزراً ومضيت لطريقي. وكان الصداق يدقّ غلاف رأسي بمطرقة، بعد ليلة سهاد وهمّ، بيد أنّي تماسكت، واستمددت من رأسي قوّة لم أعدها في نفسي من قبل. وبلغت البيت بعد

والحق فقلت بصوت مرتفع ما الحجر الكبيرة:
- إنك لم تنق عليّ ملياً واحداً، فإذا يضريك لو

تنازلت لي عن بضع مئات من الجنيهات؟
ونفخ الرجل عابساً، واشتد احمرار وجهه، ثم قال
بصوت غليظ:

- يبدو لي أنك لا تفهم ما يقال، ولا تعي ما
تقول، قلت لك ليس عندي مال... ليس عندي
مال... ليس عندي مال!

وأملت متى زمام نفسي فكوّرت قبضي وضربت
فخذي وصحت به:

- أليس ثمة رحمة في قلبك؟
فحدجني بنظرة كأنها يقول لي: «لقد أهياي
إقناعك»، وقال باقتضاب وعدم مبالاة:
- كلا.

فرمقته بنظرة جامدة وشت بلا شك بأحاسيس
الكرامية والحق التي تغور بصدري حتى رأته يعبس
ويتجهّم وجهه، ثم صاح بصوت كالخوار:
- ألا تريحوني كي أعيش البقية الباقية من حياتي في
هدوء؟

فصحت به كمن فقد وعيه:
- متى أزعجتنا حياتك؟ أنت الذي أزعجت حياتنا.
إنّي في حاجة لبعض المال الذي تنفقه على الخمر وغير
حساب ولا بدّ أن آخذ ما أحتاج إليه.
فقبض على الكأس الفارغة بأصابع متشنّجة وزعق
قائلاً:

- هذا كلام مجانين! أتسبّي في وجهي؟ أتهدّدي؟
اغربّ عن وجهي ولا تعد إلى هذا البيت ما دمّت
حيّاً!

فاشتدّ بي الغضب وصحت بانفعال شديد:
- هذا بيتي، وما به من مال فهو مالي، ولن تمنعني
قوّة عيّاً أريد، أفاهم أنت؟ أفاهم أنت؟
فنهض قائلاً والشر يتطاير من عينيه، وصقّ بقوة
جنونيّة وصرخ فيّ قائلاً:

- اغربّ يا ولد عن وجهي وإناك أن تعود إلى هذا
البيت آدم... آدم...

فردّد قولي دون أن يخرج من جوده، وذهوله الذي
استحال طبيعة أخرى له:

- حياتك ومستقبلك!
فقلت يرجاء وإشفاق:

- زواجي الذي حدّثتك عنه! إن رجلاً يوشك أن
يطلب يد الفتاة التي أريد أن أتزوجها، فإذا لم أتقدّم
في التوّ والساعة أفلتت الفرصة من يدي، وضاعت
حياتي...

أترأه قاذفي إجابة ساخرة كعادته؟ وانقبض قلبي في
فزع. ولكنّه لم يكن هادئاً ولا معربداً، ومع ذلك بدا
جامداً سقيماً ذاهلاً، بل ميتاً. كان كلّ شيء يسوّج لي
الياس، بيد أنّي أبيت أن أياس، وثبت ذهني المكثود
على فكرة واحدة عصيت عيّاً عداها في السباق الجنونيّ
الذي أكابده. انتظرت على جزع حتى قال:

- اطمئنّ فإنّ حياة الإنسان لا تضيق لضيق امرأة.
فهفت بحرارة:
- إنّي أعلم الناس بحياتي!
فقال بعدم اكترات:
- أنت وشأنك يا بنيّ، لن أندخل فيما لا يعني!

فقلت بمناد:
- إنّي في حاجة قصوى إلى المال، سبق أن أخبرت
حضرتك بذلك.
فسألني بلهجة ثمت عن الملل:

- وماذا قلت لك؟
فتملكني الحقن. وبدا لي في صحوه أظفح منه في
سكره، وقلت مدافعاً عن نفسي بإصرار وقنوط:
- لا بدّ أن أحصل على المال الذي أريد. أرجو أن
تقدّر حرجي وشدّتي، فإذا ضاعت منّي هذه الفرصة
انعدم أملّي في الحياة.

والقي نظرة على القارورة، ثمّ قطّب قليلاً وقال:
- أنت تطلب مالاً وليس عندي مال!
- هذا غير معقول...

- هو الحق الذي لا شك فيه!
وأبغضت من لهجته واستهائه وتبرّيه أنّ السماء أقرب
إلى إثارة اهتمامه وعطفه، وتألّب عليّ القنوط والصداع

وفتح الباب ودخل عمّ آدم كآته في الانتظار،
واقرب منا وهو يقول:

- أقدم يا بك... خير إن شاء الله.

وبردت فجأة كأن «دشاً» انبال عليّ. سكّت عني الغضب، وخد الحياح، ودلّ قلبي فراثاً. وقبضت يد الخوف الباردة على عني فتسوّرت في مكاني مرتبكاً ذاهلاً زانغ البصر. ذهب كامل الذي اصطنعه الغضب والياس، وبقي كامل الآخر كما خلقته الطبيعة. ولم يرحم الرجل المالح ضعفي فصاح بالربّ قائلاً:

- أوصل هذا إلى الباب ولا تسمح له بالدخول مرّة أخرى. إنّه يتهدّدني بالقتل.
وحلفت في وجهه بلهول وانزعاج لا أكاد أصدّق أذنّي، فلاح لي في مياحه الجنونيّ كشيطان رجيم. وصرخ في وجهي:

- اغرب عن وجهي.

ولكنّي لم أبدر حراكاً، أو بالأحرى لم أستطع أن أبدي حراكاً، تمثّيت لو نتشّق الأرض وتبتلمي، ومثّ خوفاً وكمداً وعجلاً. وانتظر الرجل عابساً، فلما رأي لا تحرك ولاي ظهره وغادر المحبرة إلى الداخل على حين تفهقر البواب إلى الفراندا. وجذبت نفسي وحيداً معضض على شفتي، واستعدت وهي فاستطعت أن أمض قائلاً في وجع، ثم غادرت المحبرة متحامياً النظر ناحية البواب. وحسنت خطاي في الحديقة والبواب يتعني مغمماً بالاعتذار والتأسّف، متعلّلاً ليلك الأضرار قائلاً: «إنّه دائماً هكذا».

وابتعدت عن البيت دون أن أنبس بكلمة...

٣٦

قطعت نصف النهار الأوّل مسكّماً في الطرق غشتت الأنفاس من اليأس والحنق والقهقر والحزني والحجل... وعدت إلى البيت في الموعد المتأخّر لا تسال أمي عا جاي بي قبله. وعليني النوم بعد الغداء فاستقرت فيه حتّى أوّل المساء، ثم غادرت البيت مثل النفس كالما أحمل الأرض على رامي، وتساءلت

أين اذهب، فما وجدت إلّا جواباً واحداً. ناديت الحانة نداء مغرباً، واستصرختي قلبي أن التي وأطيع. بيد أنّي لم أخفل عن الحقيقة الرهانة وهي أنّ ميزانتي- ذلك الشهر- ستختلّ حتّى بعد السكره المشتهة فلا أجد ما أنفقه حتّى قبض المرتّب الجديده... هل أنّ النداء ظلّ عنيلاً لا يقاوم، وبدا لي في تلك اللحظة التحية أنّ نشوة ساعة خير من حياة لا خير فيها... وتحسّست يدي ساعتي الذهبية فقفز إلى خاطري أنّ أبيها إذا أهوّنني للمال، وداخلي ارتياح فاستمعت لأوّل مرّة في يومي. هل أنّي تساءلت في اللحظة التالية عا أقول لأمي إذا اختلّت ساعتي، ولا بدّ أن تفتقدتها يوماً؟ ولكنّي نفخت ضجراً وفتحت حافلاً: وأمّي، أمّي، دائماً! سافعل ما أشاء. واستقلت الترام بلا تردد. وفي الطريق هتّت على نفسي ذكرى جدّي لغير ما سبب وأضح، فذكرت أيام الرغد والمناة التي فقلتها بفعله ثمّ وجدتي أنّي لو كان قبض يده الكريمة عنيّ ونشأني على البخل والتفكير، أما كنت أكون أقدر على تحمّل حياتي الرهانة! وقرأت الفاشعة على روحه المحبوبة. ثمّ غادرت الترام في العتية وقصدت سوق الحضر حيث توجد حانتي للتواضعة وما انتهت من مزع معطفي والجلوس إلى مائدة حالية حتّى جاء النادل اليونانيّ بالدورق. حانتي شعبية بلا ريب، ولكنّها محترمة للدرجة ما، فإلى جانب المحرّفة والمجلبين تجددت من المولفّين الكهول الذين لا تسمح لهم ظروف المعيشة وأعياء الأسر بارتداء الحائات الغالية. ومن هؤلاء موفّك عجوز مغرم بالفناء والطرب. ما يكاد يسكر حتّى يسترسل في تروديد الأدوار القديمة مثل: «في العشق يا ما كنت أنوح» و«يا ما أنت واحشني»، ولم يكن صوته يخلو من تطريب وأداء ييش له الجلوس ويتطوّع نفر منهم لترديد المذهب في انسجام لليد. اخذت في الشرب، وكالعادة تولّاني الشعور بالارتياح والمرح، ذلك الشعور الذي لا أجده إلّا بين السكرى في الحانة، المكان الأوحده الذي أخفّف فيه من وقار الحجل والعيّ والحضر والفلق والمخاوف ونعمت بطمأنينة وسرور كافّي أزد إلى أملي وعشيري

ساقني عليه في جلسة سلطنة وأتية غير شاعر بهرودة
الجو وداخلي ارتياح لحركة العربة الحائلة، وسرعان ما
خامسري ميل إلى العتب فقلت للحوذني في حذر
كاذب:

- إن امرأة تنتظري في الطريق وسأخذها معي...
فقال الرجل:
- رهن أمرك يا بك...

فقلت لنصبي في سخرية إن كل شيء حل ما يرام،
عربة مريحة وحوذني طيع وليل ستار فلا ينقصنا إلا
المرأة. ثم قلت مستسلمًا لداعي الكلب:
- هي سيئة من الطبقة الراقية فهلاً وجدت لنا
طريقاً آمناً؟

فقال ضاحكاً:

- أظن جاردن ستي آمن طريق قريب!
فهتفت به:

- خاب فالك، إن قصرها بجاردن ستي؟
فقال ناهتيم:

- أماننا جزيرة الروضة وإن كان الجو بارداً وأنا
رجل عجوز لا أحتمل البرد!
فقلت مشجعاً:

- سأعطيك جنيتها كاملاً!

وشكر الرجل لي بحماسة وقد تبها له آله عثر على
كنزه وجمعت أضبعك في سري وأتمسك بأصابعي
الريال الذي لم يبق لي غيره حتى نهاية الشهر. ومزمن
ثم رأيت العسارة المحبوبة - حارة حبيبي - تقترب،
ودبت في قلبي بقطة غريبة وعلقت بها عيني. لم أعد
أملك حرية النظر إليها - وكان كل عزائي - بعد ما
كان بيني وبين خطيبي المرتقب! لم يعد بوسعي أن
أنطلق إلى الشرفة أو النافذة. ترى هل خاطب سعادة
مدير الأعمال أباه؟ هل صارت حبيبي مخطوبة حقاً،
ألم تذكر المحب القديم - الصامت العاجز - وهي تنتقل
إلى دنياها الجديدة؟ ألم تجد نحوه شيئاً من الأسف؟
وشعرت برغبة في الانتقام من الدنيا جميعاً، وتولاني
إحساس بالذهول والانتفاض فلبثت جامداً حتى بلغت
العربة شارعنا، فأمرت الحوذني بالوقوف وغادرت

بعد اغتراب ثقيل، وغثيت لو كان في الإمكان ألا
أبرحهم مدى الحياة. وما لبثت أن غمرتني النشوة
الساحرة، وأغمم وجداني طرباً. ولم يكن الموكف
الفنان قد بدأ الغناء بعد، وكان يحدث رفاقه بصوت
مرتفع يسمعه الجالسون جميعاً، ولا بأس من أن
يشتركوا فيه كما يشتركون في الغناء. قال:

- تصوروا يا هوه أن الطبيب ينصحني بالكف عن
الخمر!

- لماذا كفى الله الشر؟

- وجد عندي ضغط دم وتصلباً في الشرايين.

- اشرب حلبة على الريق تضمن صحتك طول
العمر.

- وقال لي إذا واصلت الشراب ستهلك لا محالة.

- العمر بيد الله!

- فقلت: وإذا لم أوصل الشراب فساهلك يوماً لا
محالة.

- إجابة تستاهل عليها دورق كونياك على شرط أن
تدفع ثمنه.

- هل تصدقون أنني رأيت هذا الطبيب ذات مساء
جالساً في سانت جيمس يشرب ويسكي؟!

- وهكذا الأتباء جميعاً! يتش أحدهم جنهيك
ويقول لك «إنيك والخمر»، ويغني به إلى سانت
جيمس ويشرب قارورين...

واعتمد الموكف المعجوز في جلسته قليلاً، وراح
ينفر على المائدة ويترأسه، ثم غنى قائلاً: «أنصف
محبك يا جيل»، وأجهت نحوه الأبطال، وأخذت
الجوقة أهبتهما للترديد. وكنت أشرب، وأجاذب من
يجاذبي الحديث، وأضحك ملء قلبي ودار رأسي
كالعادة بسرعة، ورقت النشوة في قلبي، وطرت إلى
سياه السرور واللامبالاة. ومكنت على ذلك زمناً طويلاً
أو قصيراً لا أدري لأن السكران يفقد حساسة الزمن،
ثم ودعت الصحاب وغادرت الحانة ورنين الطرب
يلاحقني. وضربت على وجهي زمناً آخر، ثم ناديت
عربة وركبت دون مبالاة باليزانية للمتحررة، وأمرته أن
يلذهب إلى المنزل. وسويت المقعد الخلفي ومسددت

العربة، ونقلته ثانية قروش فتناولها في دهشة وتمتم
متسائلاً:

- والمشوار الآخر؟

وانطلقت مني ضحكة خافتة على رغمي ومضيت
إلى حال سبيلي. وارتقت السلم في تشاقل وتعب،
وفتحت الباب بمفتاح في جيبي وودته بلا حذر، ثم
سرت إلى حجرة النوم وأثرت الكهرباء فوقع بصري
على أمي وهي مستسلمة لنوم عميق ينم عمقه على
الجهد الذي تبذله في يومها الشاق الطويل، فوفقت
لحظة أنفَرس في وجهها، ثم هفت بها قائلاً:

- نينة!

وفتحت عينيها وهي تغمغم:

- من! ... كامل!

فقلت بدهوء واستهانة:

- إني سكران..

فحملتني في وجهي بسانزعاج، ثم جلست في
الفراش باضطراب وقالت:

- إنك ترميني بدعابتك.

فقلت بغير مبالاة:

- ليس في الأمر دعابة على الإطلاق، لقد شربت
دورقي كونيك أوتار.

وانزلتني من الفراش، واقرتني مني بارتياح وعيناها
لا تتحولان عن عيني حتى شعرت بأنفاسها تتردد على
وجهي، ثم امتنع لونها وقالت بصوت متهدج:

- لم فعلت هذا بنفسك؟.. كيف تطيع الشيطان
بعد أن تبت إلى الله؟

فلم أنبس بكلمة، وانتدبني الدهول، واستدركت
هي تقول:

- اخلع ملابسك... دهني أساعدك...

وراحت تنزع عني ملابسها وأنا صامت ذاهل. لماذا
فضحت نفسي على ذلك النحو الغريب؟.. لم أكن في
حالة سكر يتعذر معها ضبط نفسي، بل من المؤكد أنني
رجعت في ليال سابقة في حالة أشد سكرًا فما أحدثت
مسكرًا، وما تهاونت في حذري كي لا تستيقظ من
نومها، فما الذي دهاني تلك الليلة؟ والأعجب من هذا

وذاك أنني كنت خالي الذهن حتى بعد أن دخلت
الشقة، ولم يلب إلى خاطري أن أوقظها إلا عندما وقع
بصري عليها، فلما أن لبثت ندائي قلت ما قلت بلا
تردد وربما بلا إدراك ولكني كنت مدفوعًا بقوة لا
تقاوم!... ولم أشعر ندمًا وقتذاك، وجعلت أنفَرس
في وجهها المتألم وهي تنزع ملابسها جامد الإحساس
متحجّر الشعور. ثم ابتعدت عنها صوب المشجب
فتناولت البيجاما وارتديتها صامتًا، وصعدت إلى
فراشي واندمست تحت الغطاء... واقرتني مني،
ووضعت راسها على جيبي، وسألني بصوت مرهف
النبات:

- أتشكو شيئًا. هل أصنع لك قهوة تسند رأسك؟

فقلت لها:

- شكرًا. لا أريد شيئًا على الإطلاق.

٣٢

مضى على تلك الليلة وما حلقت من شجن
أسبوع، أو أكثر لا أذكر وكنت قد انتهيت من عملي
اليومي وجلست أنتظر موعود الانصراف في ملل
وتعب، وقبيل الساعة الثانية بقليل استدعيت إلى
التليفون فانتقلت إليه في دهشة لأنه لم يحدث قبل هذه
المرة أن طلبني أحد بالتليفون ولأنني لم أكن أنتظر أية
مكالمة تليفونية إطلاقًا. ووجدت المتحدث شقيقي
مدحمت وقد قال لي باقتضاب:

- والدنا توفي، احضر إلى الحلمية...

وعقدت الدهشة لساني فلم أزد أن قلت:

- سأحضر في الحال.

وأعدت السيارة إلى موضعها ولبت واقفا في
مكاني. وأنجّمت نحوي الأبصار وسألني الزملاء عما
هناك؟ فقلت في ذهول:

- مات أبي...

وتلقت التعازي كالعتاد، وما لبثت دهشتي أن
استحالحت خوفًا، لأن الموت يخيفني دائمًا، وغادرت
الوزارة وانطلقت صوب المحطة. مات أبي إذن! هذه
حقيقة لا شك فيها. وأخذت أفئق من وقع الدهشة،

لم يعد على خلاف عادته، وانتظره الرجل قلقاً حتى قبيل الفجر ثم أرسل لنا البرقية في الصباح الباكر، وأنا أعلم أنّ والدنا كان يحلو له الخروج من آن لأن عند الأصائل، وهو تمل- كما تعلم- فيسر قليلاً على قدميه ثم يستقلّ عربة تطلق به حيناً اتفق ثم يعود إلى البيت بعد ساعة أو ساعتين، ولكنّه لم يحدث أبداً أن قضى الليل خارج بيته، ولذلك آثار غيابها قلق الرجل وأوقعتنا في حيرة شديدة. ولم تكن نعلم له من صديق أو جهة، ولكن وقع في ظننا أنّه ربّما يكون ذهب إلى راضية فمضينا إليها ولكنّها لم تكن رآته منذ مفارقتها البيت، ولم نشأ أن نضع الوقت سنّى فاتفقنا أن نذهب هي إلى أمّنا من باب التقضي، وأن نستفسر- أنا وعمك- عنه في قسم الخليفة، وهناك أخبرنا الباشجوش أنّ حوذيّاً جاء إلى القسم أمس يحمل رجلاً له أوصاف أبنينا وقد فارق الحياة، وقال الحوذيّ أنّه استقلّ عربته في ميدان باب الخلق وسار به كرشته في اتجاه الأمام، وليّا أراد أن يستفسر منه عن وجهته بالتحديد في أثناء الطريق وجده كالتائم، وناداه يوقظه فلم يفهم عنه النداء، فأوقف العربّة وانتقل إليه ومزّه يرفق، ثم تبين أنّه فارق الحياة، فلم يَزْ بدأ من أن يحمله إلى القسم، وقد قبضوا على الحوذيّ على سبيل الاحتياط، وحمل أبي إلى القصر العيني حيث أنضج موته مئة طبيعّة بالسكنة القلبية، وانتقلنا إلى القصر العيني فادخلونا إلى بهو الجثث المشرّحة...

وسكت مدحت وقد لاحت في عينيه أي الألم والتضجّع، ثم استدرك في شبه ثورة مكتومة:
- يا له من منظراً... لا أدري كيف عرفنا أبي!... كان شيئاً آخر!

واغرورقت عيناه بالدموع، ولم أكن رأيت له إلا ضاحكاً فاشتدّ بي التأثير وطفرت الدموع إلى عينيّ. ولزم الصمت حتى استعاد رباطة جأشه، ثم أخبرني بما نمّ الاتفاق عليه من تشجيع الجنّازة في الساعة الرابعة، ثم قال لي:

- إنّ رافد الآن في مخدعه فاذهب لتلقي عليه النظرة الأخيرة...

وأستشعر نسائم ارتياح عميق تفوق على نفسي! بيد أنّ صورته تثلّت لعينيّ في وضوح يصلعته المستديرة ونظرتة الغائبة، وخيل لي لحظة أنّي أستمع إلى صوته الأجشّ وضحكته الساخرة. ترى متى مات؟ وكيف مات؟ ألا ما أغرب الموت! إنّ الموت لا يتخلّ عيّاً له من خواصّ المأساة حتى في حال رجل كأي عاش جثّ عمره عيشة الأموات بعيداً عن الدنيا والناس، فعيشة الأموات شيء والموت نفسه شيء آخر. وطرحته على نفسي هذا السؤال: من عسى أن يحزن لموت أبي؟... مدحت؟ راضية؟ بدا لي أنّه سينادى الدنيا غير مؤدّع بحزن أو أسمى، وبدا لي ذاك مأساة أقطع من مأساة الموت نفسها. ليس مستنكراً أن يحيا إنسان في هذه الدنيا أكثر من سبعين عاماً ثم لا يترك وراءه وراثياً وجدت عند ذاك عطفاً وحزناً! وإنّها لعاطفة غريبة لم تخنلج له في صدري من قبل، ولعلّها كانت وليدة الارتياح لا الأسى، لأنّه في مثل حالتي قد تجود النفس بالحزن لتداري سرورها، أو لتعبر عن هذا السرور بطريق ملتوي، ولعلّها عاطفة صادقة أفصحت عن نفسها بعد أن ذهبت - بموته - العواطف التي كانت تمنعها. مضيت إلى الخليفة، وليّا أقبلت على البيت القديم رأيت نفساً من الأسرة يجلسون صفّاً على الكراسي الخيزران، يتوسّطهم رجل وقعت عليه عيناي أوّل مرّة وعلمت أنّه حمّي بعد ذلك، وكان مدحت يجلس إلى يمينه ويليّه زوج أختي. وسكّمت واجمّاً مرتبكاً حتى غصّ شقيقي ومضي بي إلى الحديقة وقال لي:

- كان يونا شاعراً مريضاً، ولكن انتهى كلّ شيء... فسألك:

- لماذا لم تستدعي قبل ذلك؟
فتنهد مدحت وقال:

- كنت في شغل شاغل، ولولا أنّ راضية ذهبت بنفسها إلى أمّنا فجاهت ممّا لما علمت حتى الآن بالخبر. ألا تدري ماذا حصل؟ لقد تلقّيت برقية في الصباح الباكر من عمّ آدم يطلب إليّ الحضور تويلاً لأنّ والذي لم يعد إلى البيت منذ ليلة أمس، فحضرنا جميعاً، وأخبرتنا عمّ آدم بأنّ والدنا غادر البيت قبيل غروب الأمس وأنّه

أفضل، حال الصباح أم حال المساء؟ ولم أستطع مقاومة موجة رقيقة من الارتياح والسرور! على أن شعوري الديني العميق احتجج احتجاجاً صارخاً وبث في حناي الخوف والقلق فتعذرت بالله من الشيطان الرجيم. ورحت أترب من إحساس السرور والارتياح الذي يلاحقني، فطبت متجهياً وأنا لا أدري، ولكن دون جدوى، فسرعان ما هزأ عقلي بهذه المحاولات الصبيانية وانطلق يفكر في الثروة المنتظرة. وذكرت ما سبق أن حلمت به من بيع البيت، فتساءلت: ترى هل يتحقق الحلم؟ هل أصبح مالكا لألف من الجنيهات ويتب؟ ولكن هل تلجأ منافسي في اتخاذ الخطوة الخامسة أم قضي الأمر وليس ثمة أمل! أتكون الثروة المنتظرة وسيلي للسعادة المرموقة، أم تكون أداة جديدة من أدوات القدر التي يستعملها في السخرية من المخلوقات الضعيفة! لقد سخر من فسري وعجزتي، وأنه لقادر على أن يسخر من ثرائي وقوتي، ليريني آتياً على الحالتين مقضي علي بالحرية والتعاسة! وفتر حماسي وخد، وهراني وجوم وقلق، ودعوت الله في رجاء وإشفاق أن يجعل فتاتي من قسمتي ونصيمي... وانتهت من أفكارتي على توقف سير الجنازة أمام الجامع. وأدخل النمش للصلاة عليه، على حين انفصل عتا المعزون مشكورين. ثم أودع النمش سيارة السوق، وانطلقت بنا وبه إلى الأمام، وانتهى المطاف...

واجتمعت الأسرة ليلاً في الحجرة الكبيرة التي قابلت فيها أبي لأخر مرة، فجلست وعمتي وشقيقي وزوج אחتي في جانب منها وجلست أمي وأختي وزوجنا عمي وأخي في الجانب الآخر. وكان عمي رجلاً عملياً - وقد ذكرني مظهره بأبي - فتحدث عن الإجراءات الواجبة لإثبات الوراثة واقترح أن يقدمنا إلى صديق له في وزارة الأوقاف ليعسر لنا قبض مرتباتنا الشهرية. وتحدث أخني مدحت فقال إنه يرى أن ينبع البيت ما دام أجدنا لا يرغب في سكنه، ووقع رأيه من نفسي موثقاً حسناً لم أحلم به، فوافقت عليه

ونضقت قلبي خفقة عنيفة، وغلكني خوف شديد، ولكني لم أستطع رفع بصري إليه، ولم أجد مناصاً من التظاهر بالترحيب بفكرته، فأنجذمت صوب الفراندا متعرجاً في خوئي وارتباكتي، وارتقيت السلم مزدرداً ريفي فلمحت شقيقتي ولمحتني في وقت واحد، والظاهر أنها أخبرت أمي بحضوري فجاءت على عجل وقابلتني في الفراندا وسألتي في قلق عن وجهتي، فقلت:

- أريد أن أرى أبي...

فقال بجرأ وإشفاق:

- هلاً عدلت عن هذا يا كامل؟... إن قلبك أضعف من أن يحتمل مشهد المتفلين إلى رحمة الله... وتنبئت في ارتياح، وارتفع عن عاتقي حمل ثقيل. لم يكن ما بي شيء غير الخوف، وهل يستطيع أن يواجه الموت في أبشع حالاته وأفظمها قلب تتولأ الرجفة حيال فار أو إخفاء؟! ورجعت إلى الخارج وجلست بين عمي وأختي صامئاً، وقبل الموعد المحدد لسير الجنازة بنصف ساعة أخذ المشيعون يتوافدون علينا، فجاء بعض الجيران وموظفو إدارة المخازن بالحرية، ولماً لم يكن لأبي معارف، لم يكن لعمي أصدقاء في القاهرة، فلم يزد عدد المشيعين على عشرين. وقال عمي متأثراً أنه سيحيي ليلة الماتم في بيته بالفيوم. ثم أذفت اللحظة الأخيرة، وارتفع صوت אחتي راضية بمزق الصمت الثقيل فاهتز قلبي تأثراً ودمعت عيني.

ولم نلبث أن انتظمنا الجنازة، وغشيتني بادئ الأمر كآبة ثقيلة استأراها في نفسي منظر النمش، وظل للموت، وما عاودني من ذكريات جدتي ووفاته. ثم جعلت الغشاوة تنفث والسكينة تعاودني، واسترقت النظر إلى من يحيطون بي فأريت وجوهاً هائلة، وأخرى باسمه لسبب أو لآخر، فشري عني وثابت إلي نفسي. وذكرت بغتة كيف كنت أسير في الصباح صوب الوزارة خالي الدهن مما يترصدني من أحداث اليوم، وكيف أسير الآن وراء النمش فعمجت لحياتنا الغريبة، وخبث إلي في تلك اللحظة أن الحياة تبرز لسانها في شطارة وتهكم مغرقة في الضحك! ثم ساءلت نفسي عن أي الخالين

في المقت لأبي، لكن لم يخطر لي على بال أن أذكرها بهذه الحقيقة العجيبة. ثم عدنا إلى بيتنا دون أن ينبس أحدنا بكلمة...

٣٣

لم أعد الفقير المعوز الذي كنت، رفع عن كاهلي عبء الحاجة والحرمان، غدت ذا دخل لا بأس به غير الثروة التي ستوافيني في خلال شهر أو شهرين، ولكن سئني جنون لم يكن لي به عهد، جنون محب لا يقعه الفقر! كان لي من الفقر راحة يحد من طموحي، ويجعل من حبي حيرة طويلة منطوية في ذات نفسي، ولذلك سلمت بالمزجة حيال منافي محمد جودت دون مكابرة، وانطلقت في الطريق أنشج كالأطفال، فلما قُتل الفقر غدا الحب مطمئناً غير محال. فتناست العوائق الأخرى، وركبتي جنون جديد، جنون من تبدل له السعادة ممكنة، ولا يحول بينه وبينها إلا أن يتقلب على خجله فيفتح سبيله ويحرب حظه، لزممت المحطة طويلاً في عصر اليوم التالي للوفاة، وجعلت انتقل إلى النافذة المحبوبة برغبة جنونية، ما عدت أرى حبيبي، وما أدري إن كان الذي أخشى قد وقع، ولكن كان فلن أجي من ثروتي إلا السم الزعاف، ولكن ههنا لاحت وراء النافذة فما عسى أن اصنع! هل تواتني الشجاعة على أن أومي لها بطرف خفي... لشد ما يتقيض قلبي خوفاً وجسواً... لست من ذلك في شيء... لو كان بي ذرة من شجاعة لاحتجمت باب العارة دون تردد ولا استأذنت في مقابلة البك وعرضت عليه ما يحول بخاطري. هل يُمد هذا من الخطورة بحيث يستعدي كل هذا الخوف؟ وههنا على أسوأ فرص قد اعتذر من عدم القبول، فلماذا أعد هذا الرفض أشد من الموت وأقتل من القتل... لماذا لا يكاد يحول بخاطري حتى أتصيب عرقاً وتتزي قلبي في صدري! يا لله... أما يتزوج الناس كل يوم بالعشرات والمئات... كيف يملس الأزواج الوسائل ويقترحون السبل! ليس بيني وبين مبتغاي إلا أن أطرق هذا الباب. فلما سعادة الأمل أو راحة

بحسب نسيت أن أداريه، ولم تمنع راضية، وقال عني:

- إنه بيت قديم ضخم لا يفري إلا شارباً مثيراً، يهدد ويشيد مكانه عبارة كبيرة على طراز حديث، على أنه لا يمكن أن يباع بأقل من أربعة آلاف جنيه.

أربعة آلاف، أه لو يكون منافي تأخر! وكبر على أن أتصور أن يجب الله رجائي بعد أن حقق أحلامي على هذه الصورة الباهرة، إن تقني بالله لا حد لها وهو الحبير المطلع. ولأحت مقي التفاتة نحو أمي فوجدتها صامعة غارقة في أفكارها وقد ارتفع حاجبها الخفيفان وانفرت شفتاه عن أسنانها الصغيرة اللامعة، ترى فيهم تحمل! وما حقيقة مشاعرهما حيال الترقى؟... هل أعادها هذا البيت القديم إلى عهد حياتها المنطوية! وشمرت نموها بعطف وحب، ثم ذكرت الأفكار التي تملكني فدخلني إحساس بالقلق والخوف...

ولما اقترب الليل من منتصفه اقترح أخي أن نبيت ليلتنا بالبيت، لكن أمي أثرت أن نعود إلى بيتنا على أن نرجع مع الصباح، وبذلك غادرنا البيت القديم وسرنا جنباً إلى جنب صوب المحطة، وحلقتني في الطريق قائلة:

- أما كان الأفضل أن تُبقوا على البيت.

فقلت بدهشة:

- وماذا نصنع به؟. إنني في أشد الحاجة إلى نصبي من ثمنه...

فقلت:

- حسبك راتبك الشهري، أما هذا القدر الكبير فما أدري والله ما حاجتك إليه!

ترى هل استشعر قلبها خوفاً وساورني القلق والاستياء، واختلست منها نظرة ولكني لم أتبين في الظلمة ما يبدو على وجهها، وواصلت حديثها قائلة في لهجة تنم عن الإشفاق:

- إياك وأن تفرح لموت أحدا لا تذكر أبك من الآن فصاعداً إلا دعوت له بالرحمة، فما أحب لك أن تسر لموت إنسان مهما كان هذا الإنسان!

عجبت هذا الكلام يلقي علي من الفم الذي بث

عن كل شيء في الوجود إلا هذا المنظر البهيج الذي ارتعدت له جوارحي فرحاً وخوفاً، ورفعت إلى وجهي عينها عرساً فالتقت عينانا لحظة قصيرة، وبدا لي أنها تركت قليلاً على عتبة المقصورة، ولكن لم يكن وراءها موضع لقدم فغادرت المقصورة على رغمها، والتمس بصرها فيما ورائي مكاناً تقف فيه ولكن كان تكتل الواقفين متاسكاً، فاضطرت أن تحتل الموضع الذي كنت تشاغله وأسندت ظهرها إلى الباب، ووقفت أمامها عسكاً بمقبض الباب، على مرمى الأنفاس منها، هي هي دون غيرها، جادت بها السياء لتبذل جوارحي . من الحقائق ما هو أعجب من الأحلام، وهذه أعجب الحقائق . ماذا بي؟ . . . ترى لهذا مرور أم خوف أم وقعة نار؟ لولا دقة الموقف وشدة حيالي لطاب لي أن أبكي! غبت عن كل شيء، فلم أجد أحسن للناس وجوداً على تكتلهم، وحتى حبيتي نفسها لا أذكر لون فستانها ولا ماذا كان يدها، يبدو لي أن القلب بصرها إذا اشتد تفرسه غطى على بصر الأيمن فيقلب الإنسان أعمى وهو بصير - ولا أدري كيف واتني الشجاعة فاسترقت إليها النظر، ورأيتها فلفخ قلبي بغير رحمة وهين لي أن وجودي هو الباعث على هذا التودد الفائن وذاك الارتباك المليح، وتهددت على رضي فتمزجت خصلة من شعرها لوقع أنفاسي، ورفعت إلي عينها ثم خفضتها بسرعة فرائاً من عيني، أه . . . عثرت أخيراً على من يفر مني! . . . وشاعت في رأسي نشوة اللذ من نشوة الحمر وأحى، وركبني جنون لا عهد لي به فثبت على وجهها عيني في جسارة خارقة، بل هي بالنسبة إليّ جنونية، ثم وثبت إلى شعوري رغبة عريية أن أنطلق وأن أبوح بما يضمنط أنفاسي، وازدردت ريفي في تسوّر عصبي عنيف، وجعلت أتحفز وأتوذب في قلق وهياج نفسي مرّج، وأبدني الجنون الذي يضطرب في روحي، ودفعني ما عانيت في الأيام الماضية من لغة قلق وقنوط ثم تمككتي إحساس يشبه إحساس المتحرر إذا تجمع للوثبة الأخيرة، وتحركت شفاتي بصوت خرج همساً قافلاً:

- أريد أن أقول لك كلمة . . .

الياس، بالإم أتردد وأحجم؟ إنّه بيت وليس بحصن، وإنّي طالب زواج ولست بملء، فلياذ أخاف كل هذا الخوف! ليست غايقي أن أغزو قاعة ولا حتى أن أخوض معركة، ليس المطلوب أن أكون نابليون أو هانيبال، لا يعدو الأمر أن أقسم نفسي، وأن أعرض سؤالي، وأنا محوط بالرعاية التي يتلقاها ضيف من مضيف كرم، ثم ليكن الجواب ما يكون فما يجاوز على أسوأ حال الاعتذار الرقيق . . . قلت هذا لنفسي في يسر وثائب: ولكن ما إن تجسم لي الخيال حتى التهاب منّي الجبين واشتدّت ضربت قلبي وأحسست رعدة تسري في أطرافي، وحضرتني بئنة ذكرى ساعة الخطابة المشتومة بكلمة الحقوقي التي طوّحت بي بعيداً عن الجامعة، فتهدّت من الأعياق لي قنوط قاتل. إنّ الإقدام فوق طاقتي، وربما كان بوسعي أن أقضي العمر على هذا الطوارء باكياً، أما عبور الطريق وطرق الباب فما لا أستطيع، وبلغ منّي الملع أن انقلب القلق الذي يساورني حتى تحرق القلب والرأس، ثم انقضت أيام فلال عشتها فيها يشبه المليونان، نسيت الثروة التي وقعت عليّ، لقد حاسي للحيلة والأمل، وتركت تفكيرني في شيء واحد لا يتحوّل عنه، جعلت أدور حوله دون أن أحرز على الدئومته، أو أستطيع الابتعاد عنه، ووجدت على أمتي وجداً لم أحاول إخفاءه، فقلت لنفسي في حق بالغ: لو لم أخشها لبعثتها تخطب لي وتكفي شرّ الحمى التي تسمر في كباني.

مضى تتشعب هذه العمّة؟ لم أكن لأرى لها من نهاية لولا حادث عارض! كنت عائداً من الحلمية، فنزلت في العتبة حين الغروب، وصعدت إلى ترام الجيزة الذاهب عن طريق الروضة كالعادة. وكانت القاطرة مكتظة بالجالسين والسوقوف، فمرحت أترشح حتى أسندت ظهري إلى باب مقصورة الدرجة الأولى. ولما غادر الترام الميدان بقليل سمعت نغراً على الباب فادركت أنّ أحد الراكبين يستأذن لفتحه فابتعدت عنه قليلاً دائراً على عيني لأفسح للقدام طريقاً، وفتح الباب عن وجه أعرفه، رأيت أمامي حبيتي دون غيرها! وثب قلبي وثبة عنيفة زلزل لها صلري، وغبت

فحزني الإشفاق من إفلات الفرصة إلى الدنو منها،
متشجعاً بالظلام، ثم قلت بصوت متهيج:

- معذرة... لا تؤاخذيني على تهجمي...

- ماذا تريد؟... وما هذا الذي فعلته أمام الناس؟
واشتد بي الارتباك، وكنت أسمع صوتها لأول مرة
فهزنتي به غثة لطيفة على حذته وغضبه، وقلت:

- أسألك المغفرة. إنني أود أن أقول لك كلمة من
زمن طويل ولم تنهيا لي الفرصة إلا اليوم!

وشعرت بصعوبة شديدة في التعبير والكلام، وبأن
إحساساتي الحارة يخونها الإفصاح، ووجدت قهراً
وضيقاً. وزاد من ضيقي أنها ولتني ظهرها بغير إكتراث
وعبرت الطريق إلى الطوار عجلة، فقيعتها بسرعة
مندفعاً، وقلت:

- أرجوك... لحظة واحدة، أصغي إليّ، كلمة
واحدة ثم يذهب كلانا إلى حال سبيله...

فقال دون أن تنظر إليّ أو تكف عن السير:

- بلّغي حقّ تكلمي يا هذا؟

فهتفت بدون وعي منّي:

- إنني أعرفك منذ أكثر من عامين...

فقالت بلهجة تنم عن الانزعاج:

- ما هذا الافتراء؟!

أمكن ألا تكون عرفتني؟ يا لي من غمي!... ألم
تدعن لإرادتي حتى نزلنا في هذه المحطة؟ يدلّ هذا
على أنها ترغب في مساع كلمي... إن الفرصة
سائحة ولكنّي أفسدها بالعي والحصر والارتباك.
واستجمعت قواي وقلت بصوتي المتهدج المضطرب
النرات:

- إنني أتلف على قول كلمة منذ أشهر وأشهر...

ماذا يضريك لو أصغيت إليّ؟!

لماذا لم اتكلم بدل أن أسوق هذه المقدمات؟ اللهم
إنني أستعينك على حلّ عقدة لساني! وبدا لي أنّ حبيبي
فلطنت لحجلي المبيت. لم أدرك البواصت التي حملتها
على التوقّف، ولكنّي رايتها تتحوّل نحووي وترمقي
بعينها الجميلتين اللتين أحبيها أكثر من نور البصر، ثم
تسألني بحدة:

ربّاه... ترى هل بلغ سمعها؟... أجل،...
رمقتي بعين دشمة وقد تورد وجهها ورمشت عيناها!

وسرّ وقت قاسر غليظ. جفّ حلقي وتوالت
ضربات قلبي في سرعة عصف، آية هاوية أوردني

جنوني! لقد هوى المتجرّج وجاء دور الاستغاثّة. مع
ذلك داخلني ارتياح عميق لأنّي زحزحت أضخم سدّ

اعترض حياتي. تكلمت، نطق الحجر ولو بعد حين،
لن أموت على آية حال وسرّي دفين صدري. ولكنّ

الترام لا يمهلي طويلاً، وإنه وشيك الوصول إلى محطة
حبيبي، وما هي ترمي بنظرها خلل النافذة، وما هي

يدها تلمس مقبض الباب لتفتحه، مستهية كلّ شيء! وركبي
الجنون تارة أخرى فشددت على مقبض الباب

أمنع فتحه! من أين لي بهذه الجراءة؟! وبدا في الوجه
الجميل الاستياء، ورمقتي غاضبة، فهمست برجاء

كأنه البكاء:

- كلمة واحدة...

وتوقّعت لحظات قاسية أن تنقّض الصاعقة على
رأسي! أن تزجرني أو تنهري فتستثير غضب

الحاضرين... ثم على السلام! ما هي قوّة لاحتال مثل
هذا الموقف، ولئن وقع لاموتنّ حيث أنا! ووقف الترام

ويدي قابضة على الباب، ثم تحرك ثانية وهي يمكنها
مقطبة مستاءة ولكن دون أن تبدي اعتراضاً جذباً أو

ثورة علنيّة! وسرت في جسدي رعدة السرور والظفر
والجنون وخيل إليّ أنّي أشوّل إلى عملاق جبار يخرّ له

الموت نفسه صريعاً بضرّة واحدة. وانتظرت حتى
ابتعد الترام محطتين ثم فتحت الباب وأنا أحمس

«تفضلي» فدارت على عقيبها بحركة عصيّة وصارت
تشق لها طريقاً وسط الزحام وأنا أبعها، واعترض

نشوتي خاطراً، ألا يكون استسلامها حياء وارتباكاً
وتفادياً من الفضيحة؟! ألا محتمل أن تكون قد كلظمت

غضبها حتى تصبّه علىّ في الطريق بعيداً عن أعين
النظاره؟ وأوشكت قواي أن تمخّذني، وغادرت الترام

وراءها وأنا قلق مضطرب، كانت الظلمة غاشية
والطريق كالمقفر إلا من سيّارات تذهب ونجي، و

وابتعدت عني بسرعة وهمت بعبور الطريق إلى الطوار،

- ماذا تريد؟

- إني أدرك هذا، بيد أنني خفت أن يكون أحد قد سبقني...

فقالت بصوت لا يكاد يُسمع:

- هب هذا حصل...

فهضت في إشفاق وحسرة:

- أأفلت الفرصة من يدي؟

فنضخت قائلة:

- لا تتبعني إلى أكثر من هذا لأنني أقترّب من

البيت...

فسألتها وقلبي يفرح بكلّ قواه إلى التملّص من

قبضة اليأس:

- أليس ثمة رجاء؟

فقالت وهي تحبّ خطاها:

- لست أنا الذي أخاطب في هذا الشأن...

وتوقّفت عن السير، ولبثت هنيهة جامداً ذاهلاً، ثمّ صمّحت وأنا أفرقع بأصابعي: يا لي من غيبي! لو أنّها أرادت الرفض لما أوعزها الجواب القاطع! ألم تدعن لي في الترام؟ ألم تصغري إليّ منذ دقائق؟ ألم تقل لي إنّها ليست هي التي تخاطب في هذا الشأن؟ ففهم أطمع وراء ذلك؟ إنّها دحوة متوارية لطيفة. وشاع في نفسي سرور كالخمر، وتخيل إليّ أنني أترنّع كالتمل...

٣٤

وعدت إلى البيت وذكريات الساعة الماضية تسجّع في قلبي أغلب الأحيان. تملّكني شعور بالقوّة لا حدّ له، وإزدهائي الفرور والرهو، وحييت في الدقيقة الواحدة دهرًا طويلًا من السعادة الصافية. وقلت وأنا أرتقي السلم: «سأفانح أمّي بالأمر كلّها». قلتها بلا خوف ولا تردّد، ربّما بلا رحمة أيضًا، وطرقت الباب، فتفتحت لي بنفسها وهي تتمتم مبسمّة كعادتها:

- أهلاً بنور العين...

وجدتها على الأناقة التي أحبّ أن تلقاني بها، وقرّمت في وجهها الوديع الوقور المشرق بابتسامة الترحيب، فبدلت لي خطورة ما أنا مقدم عليه،

ماذا أريد؟ لم يتيسّر لي القول بعد؟! ها هي تنتظر الكلمة التي أتمنّيتها في استبذان قولها، ألم أكن أعددتها؟ وجدت رأسي فراغًا وكأني فقدت النطق. ماذا ينبغي أن يقال؟ وازدردت ريفي الجلف في شبه قنوط، ثمّ بدا منها ما يدلّ على نفاذ الصبر، والتحفّز للسير، فمخرجت عن صمّتي هاتفاً:

- صبرًا، أرجوك،... أنا أريد أن أقول... إني راغب في... (وقفت عبارة «طلب يدك» في زوري)... إنّك تفهمين بلا شكّ، أليس كذلك؟ فهل يمكن هذا؟!

فناقشت وقالت:

- لا بدّ أن أعود إلى البيت فلا تتبعني من فضلك...

وتولّاني الملع فقلت مندفعًا بلا تردّد هذه المرّة:

- إني أفكر... أعني أنّي أرغب في طلب يدك إذا سمحت لي...

وتنهلت بصوت مسموع، وغمرني ارتياح واستسلام، تكلمت أخيرًا ونفّست عن صدري وليكن ما يكون...

ومضت ثانية من الصمت العميق مثل الهدوء الذي يعقب عاصفة هوجاء، ثمّ أخذت تسير في خطوات قصيرة دون أن تبسّ فعاودني الجزع وتبعثها وأنا أقول كمن يستجلدي الجواب:

- هذه كلمتي...

فقالت بصوت منخفض خيّل إليّ أنّه بلغ أذنيّ هادئًا لا أثر فيه لحدة أو غضب:

- لا يليق بك أن تتبعني هكذا.

فقلت بمججلة وهوجة:

- إني استأذنتك فلا تتركيني بغير جواب...

فقالت بضيق:

- لست أنا الذي أخاطب في هذا الشأن!

فخفّق قلبي بعفّ وفاض به سرور لا يوصف وقلت:

- ما أسعدني بذلك! هذه هي السعادة حقًا. ترى هل جاءتك هذه النية اليوم؟ الآن؟ لماذا لم تخبرني قبل اليوم؟ مبارك، مبارك، يا بني.
وأزعجني تهديج صوته، واضطراب نبراتها، وانفعالها الظاهر، فقلت:
- إني أستاذك لأني أحب دائمًا أن تكوني راضية عني.

فهتفت في لهجة:
- وهل تتصور أن أبخل عليك ساعة واحدة برضاي؟ يا الله، أتعد هذا الحب كله أجرى عنه بالتشكك في إخلاصي؟... ستجدي راضية عنك ولو قتلتني، اتنى أن حياتي كلها لك؟
فازددت ربي وقلت وأنا أختلس منها نظرة فلق:
- إني أعلم هذا وأكثر يا أمه
فلاح في وجهها وجوم شديد وبدا عليها أنها تحاول عبثًا أن تضبط عواطفها:

- هذا ما يعلمه القاضي والداني وآية أم لا نفرح لزواج ابنها ولو كانت وحيدة ليس لها سواء! هذه حكمة الحياة، أن احتضنك العمر كله ثم أسلمك شابًا رائعًا لعروسك، إني أبكي من الفرح.
اغرورت عينها وهي تتكلم، ونظرت إليّ خلال دموعها وكأنها ارتاعت لوجومي، فقالت معتذرة:

- معذرة يا كامل، ليست هذه بدموع... إنها دموع الفرح، بيد أنك فجأتني مفاجأة، ولم تتلف في إخباري، ولكن لا داعي للتلف، ألا ترى أنني اعتبرت بما هو أقيح من الذنب؟ ليغفر في ذنبي حبي الكبير وحسن نيتي وقلبي الذي وهبتك إياه وإن لم تعد بك حاجة إليه... وأنتك تعلم بأنني إذا انفعلت أقلت زمام لساني من يدي. إني أعنتك بن احترت لنفسك، ولكن هل نبت هذه الرغبة الآن فحسب؟ إني لا أطيق أن أتصور أنك رغبت في الزواج من قبل ولم تسعفك الوسيلة. أكنت ترغب في الزواج من زمن طويل؟
فقلت وأنا أداري نابسة ميتة:

- كلاً يا أمه ما فغرت في ذلك إلا من زمن قصير حين بدا لي أنني كبرت...

واعتراني وجوم وخوف، وقلت لها في تردد غابت عنها أسبابه وبعائه:
- لننتقل عما قريب إلى مسكن لائق، لأعيدن إليك خدمك وحشمتك!
فاستمت وقالت:
- هذه أسعد أيام حياتي لأني أقوم فيها على خدمتك.

وخلعت ملابسي، وعدت إلى الصلاة فجلست على كتبة متجاورين وأنا أقول بقلبي: «اللهم عونك ورحمتك». واستحوذ عليّ القلق والحياء، إنها مهمة شاقة، محزنة، ولكن ما منها بد. واسترقت إليها نظرة فوجدتها آمنة مطمئنة، خافلة عما أضمره لها، فوخزني الندم، وكادت تتخلّى عني قوة التصميم. بيد أنني أشفقت من عواقب التردد والاستسلام لدواعي الخلق، فرميت بنفسي في الهاوية قائلاً:
- أمه أريد أن أحدثك بأمر هام...

ورمقتني بنظرة غريبة، خلتها مريبة متوجسة، حتى حسبها قد كشفت حقيقة الأمر كله بقسوة إلهام خارقة... أثمت نبرات صوتي على ما يدور بنفسي؟! أم فضحتني نظرة عيني؟! أم لم يكن هناك شيء مما حسبت وشبه لي الوهم ما لا حقيقة له؟! أمه هي فقلت بهدوء وتساؤل:
- خير إن شاء الله...

وصممت أن أجوز منطقة الخطر دفعة واحدة فقلت مستشعرًا خوفًا لا مراء فيه:

- سأتركك على الله وأترجج...
رئت كلمة «أترجج» في أذني ريشًا غريبًا، أنكرته، وأخجلني كأنها تهرّفت بلفظة جارحة معيبة! رفعت هي عينيها إليّ في دهشة، وأستمت حدتتها، ولاح فيها ذهول وغيباء كأنها لم تفهم شيئًا، ثم تساءلت:
- تزوج؟

وكنت قد تحطّيت أكبر عقبة فأمكنني أن أقول:
- أجل... هذا ما اتوحيته.

ونذت عنها ضحكة متقلعة بالاضطراب والارتباك أشبه، وقالت بصوت مهتج:

فندت عنها ضحكة هسترية، وصاحت:

- اسمعوا يا هوه، كامل بيدو اته كبر! وأنا؟! لا بدّ

آني عشت أكثر مما بيني!

فتأهت قائلاً:

- أمّاه، إنك تحزينيني.

- لا عاش من يحزنك. الأمّ التي تحزن وليدها لا

تستاهل نعمة الحياة... ولكنك تقول على نفسك

بالباطل وتزعم أنك كبيرت. يا لك من طفل

مكابر!... لكائي أراك عجوب، وأنت تركب منكبي،

ثم وأنت تمثال في برّة الضابط وضيفرتك تتهدّل على

كتفك، فكيف تدعي الكبر؟!

فقلت منبّأ:

- ألس على عتبة الثامنة والعشرين!

- اصغر أبنائي على عتبة الثامنة والعشرين! يا بي

من امرأة عجوز! لكن ميثسك، ومها يكن من

عمرك فستكون أصغر الأزواج، وسأفرح بك فرحاً

ليس وراءه مقعب لفرحان. ولكن ما مالك واجماً...

أساءك كلامي؟ يعلم الله أنّي لا أحسن الكلام، ولكنّ

الموت أحبّ إليّ من الإساءة إليك...

فقلت بقلب ثقيل:

- ساعك الله يا أمّاه...

فابتسمت: أي والله ابتسمت وقالت مصطنعة

للمرح:

- لندع هذا جانباً، ولنقدّم الأهمّ على المهمّ. أصغ

إليّ يا كامل، تزوّج بالهنا والسرور، وسأعطب لك

إذا أمرتي.

فتردّت لحظة ثمّ تملّكي الضيق فقلت:

- ليس ثمة اختيار، فقد وقع اختياري.

فمرت إليّ بدعشة، ولاخت بالصمت ملياً، ثمّ

تساءلت:

- متى تمّ ذلك؟

- منذ زمن يسير...

فلاحت في عينيها نظرة لوم وعتب كأنما عزّ عليها

أن أكتمها هذا الأمر الخطير، ثمّ خفضت عينيها في

استسلام، وسالت بصوت هادئ، بل هادئ جداً:

- من؟

- لا أدري بالضبط، الراجح أنّها مدرّسة، وهي

تقطن العمارة البرتغاليّة أمام القصر المني.

فعاودتها الدعشة، وتساءلت:

- ألم تحدّث بأمرها أحداً؟

- مطلقاً!

فتفكرت ملياً ثمّ واصلت حديثها:

- أليس من المحتمل أن تكون غطوبة، «وهنا خفق

قلبي بعنف»... ثمّ ألا تدري عن أهلها شيئاً!...

من أبوها؟

- لا أدري...

- ألم أقل لك إنّك طفل... الزواج أخطر ممّا

نظنّ. لعلّ وجهها أعجبك، وهذا شيء لا وزن له.

المهمّ أن تعلم أنّ فتاة هي وأنّي قوم أهلها، وما

مكائنها، وما أخلاقهم. الشابّ في الواقع يتزوّج من

أسرة لا من فرد، وينبغي أن يطمئنّ قبل أن يخطو

الخطوة الأخيرة إلى من ستغدو أمّاً لأبنائه ومن يكونون

أحوالاً لهم.

وتولّاني الارتباك، وأحسست بحقن لأوّل مرّة فقلت

بيقين.

- أسرعها كريمة... لا يداخلني في هذا شكّ.

- ومن أدراك؟

فقلت بلهجة من لا يحتمل في ذلك جدلاً:

- أنّي واثق.

فبدا في وجهها الاستياء وقالت:

- مدرّسة! إنّ بنات الأسر الطيّبة لا يشغلن

مدرّسات! والمدرّسة إمّا أن تكون عادة دميمة أو

مستهترّة مسترجلة.

فوخزي ألم في صميم العزاد وهنت بحدّة:

- يا لها من آراء فاسدة!... أنت لا تدريين شيئاً

عن الدنيا التي نعيش فيها، لقد تغيّر كلّ شيء، ولا

شكّ أنّها فتاة كاملة ومن أسرة عالية!

وغلبها الانفعال على هدوئها المصطنع فقلات

ببرفزة:

مرة أجمع الرأي فيها على قرار حتى أجد همه ينت في عضدي وينتص صفوي... بيد أن سعادتي هذه المرة كانت أجل من أن يؤثر فيها مؤثر.

٣٥

وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى المحطة وبني أمل جديد مسكر. وكأنها كانت تنتظري، رأيتها وراء زجاج النافذة معصوبة الرأس بمنديل أبيض. واستخفي الفرح فابتسم مني الفم والعينان والقلب، وتسامت إليها عيني في شجاعة غير معهودة. وما كان أشد سروري وسعادتي حين رأيت الوجه الصباحي يجمود بابتسامة. انتهى عهد التعاسة والحرمان، وانقضت ظلمة النفس، ولاحت طلعة حبيبي بعد اختفاء طويل معذب، وصرنا أصدقاء تتبادل الانتماء! يا لها من حقيقة لا تصدق! حتى هذا الصباح كنت أخاف أن يكون لكلام الأمل معنى غير الذي فهمته. أما بعد هذا الانتظار الطير وهذه الابتسامة للشرقة فاستطيع أن استسلم لنداء السعادة في صفاء لا يشوبه شك. ذهبت إلى الوزارة كالثلج. ما أغربك يا دنيا! إن من يتعمس الحظ بروية تجهل ما يتصور أنك تجودين بمثل هذه الابتسامة. وتليت الحقيقة التي لا تصدق، ابتسامة حبيبي، فقلت لنفسي إن معنى هذا أن أبواب السماء مفتحة تسع على قلبي هناك، ولكن لا يجوز أن أجد أو أن أصمت بعد اليوم، وفزت بابتسامة أخرى عند الأصيل، وثالثة في صباح اليوم التالي، وشعرت بأنه ينبغي أن أقطع الجمود بالعمل الحاسم. وجاء صباح الجمعة بعد ذلك اليوم، فنادت البيت في معطفي الأسود باذي الأناقة، متملئاً تصميمياً وعزمًا. ووجدت حبيبي في الشرفة تتشمس. فتبادلنا تحية الابتسام ثم أقيت على ما حولي نظرة حذرة. وأومات إليها أن تنزل لمصاهلي، يا لها من جراءة! من كان يصدق هذا؟ وثبت نظري عليها في إشفاق وخوف، ورننت لي بهود، ثم جرت على شفيتها ابتسامة لطيفة وتراجعت إلى الداخل، هل تحيي لمقابلي... رباه لقد قضيت ليلة الأمل كلها في عمل «البروقات» هذه

- لا داعي لإهاتني من أجل فتاة مدرسة لا تعرف عنها شيئاً وما قصدني إلا إرشاداً لما فيه خيرك... اشتد بي الحق، ولو أنني استسلمت له لتفترعت بما أندم عليه، ولكنني ضطت نفسي وقلت برجاء: - معاذ الله أن أقصد إهانتك، فأرحو أن تمسكي

عن كلام يسووني...

فدارت انفعالها بابتسامة، واستعادت هدوءها مرة أخرى، وقالت بتسليم:

- إن ما يسووك يسووني، وما يسعدك يسعدني، ونصحيني إليك إذا شئت أن تتقبلها أن تعرف لرجلك قبل الخطر موضعها، وفقك الله لما فيه الخير والسعادة. فضغطت على يدها برقة، وقلت بصوت ملوّه التردد:

- إن رضاك عني بالدنيا وما فيها...

فابتسمت قائلة:

- سيدعو لك قلبي آتاء الليل وأطراف النهار...

وساد الصمت ملياً حتى حسبت الأمر انتهى عند هذا الحد، ولكنها بدت مهتمة متفكرمة كأن خاطراً يلح عليها أن تفحص عنه، وخالستني نظرة قلقة أكثر من مرة، ثم خرجت عن الصمت والتردد بأن قالت في حذر وإشفاق:

- ألا يحسن بك أن تؤجل الشروع في الخطبة حتى يحول الحول على موت أبيك؟ إن أخوف ما أخافه أن يقال عنك إنك خطبت ولساً يتنه الحداد على أبيك كأنك كنت ترصد موته على لفة؟!

ولم أكد أصتق أذن!... وبدا لي قولها نوعاً من المكر المكشوف لا أحبه ولا أطيقه، وعادوني الحق والفيظ، وكذبت انفجر غاضباً، ولكنني استمسكت بالصمت حتى ولت العاصفة، ثم قلت:

- لن يتم الزواج على آية حال قبل مضي عام...

وانتهى الحديث عند ذلك كما تمثيت، وشعرت بأنني تحطيت أكبر عقبة في سبيلي. وكان ينبغي أن أكون سعيداً، وقد كنت سعيداً بلا شك، ولكن شاب سعادتي إحساس بالقلق طالما عدتني في حياتي. إنه لا يفتأ يطاردي حتى في أحفل ساعاتي بالسرور، وما من

- صباح الخير ..

وغمرني ردة التحية بسرور، فسرنا جنبًا إلى جنب وأنا أقول في نفسي بحرارة: «يا سيدة يا أم هاشم نظرة!» كنت خائفًا حقًا شديد الارتباك والحجل. وحاولت أن أتذكر «بروفات» أمس، ولكن الاضطراب غلبني على أمري فوجدت رأسي خاويًا ولساني منعقدًا، وقطعنا مسافة غير يسيرة دون أن أنبس بكلمة. كيف أبدًا الحديث؟ ما عسى أن أقول؟ وتولّاني ضيق شديد لأنني أدركت بطبيعة الحال أنه ينبغي أن أتكلّم، وأنه لا يليق بي أن أصمت هكذا، ومع ذلك فلم يفتح الله عليّ بكلمة واحدة، وبدا كأنّ الكلام وظيفة لم أمارسها قط. وكأنّما أدركت سرّ ارتياكي، فنظرت إليّ وعلمت شفهيًا ابتسامة رقيقة، فابتسمت في حياء شديد، ولم أجد ما أقوله إلا أن أعيد التحية قائلاً:

- صباح الخير.

فازدادت ابتسامتها أنشاعًا وقالت:

- صباح الخير.

ربّاه! أأفلس معجمي، وعذت إلى العذاب مرّة أخرى؟ إليّ أشعر كأنّ يدين حديديتين تشدّان على عنقي. ولن المحمل هذا الموقف المزري أكثر من هذا. وتغلّكني اليأس فغلّبت في نفسي الحجل واستغثت بها قائلاً:

- أعذّري! ... لا أدري ماذا أقول. ... هله أؤلّ

مرّة أخطأ فتاة. ...

ولم تتألك نفسها فنلت عنها ضحكة قصيرة، ولعلّها تشجّعت بحيائي نفسه، فتغلّبت على حيائها، وقالت في دعابة:

- بل هله ثاني مرّة إن صدقت ...

أه! إنّا تشير إلى مطاردتي لها منذ ثلاثة أيّام! وذكرتها بدشّة، كأنّني لم أكن بطلها الجزائري. مهسا يكن من أمر فقد شجّعتني دعابتها وخفّفت عني الارتباك والحياء، وأمكنتني أن أقول:

- لا تسيئي بي الظنّ. فوالله لو أسعفني لسانيّ لما

وسعتني الدنيا كلامًا. ...

المقابلة المأمولة. ولاحت الشقيقة الصغرى في الشرفة، ثمّ تبعتها الأمّ بعد قليل، وجعلتا تنظران نحوي، هل تعلمان؟ هذا ما أمّناه حتّى آمن خطر محمّد جودت. وبلدت حبيبي وراء النافذة وهي ترتدي معطفها، فحفق فؤادي خفقة عنيّة، وانتظرت كمن في حلم. ومن عجب أنّ إحساسي بالسعادة تغيّر فجأة، فتر، كأنّه صوت جيل اعترضته سعة، وساورني قلق لم أدر سببه، وحيرة مؤلّة كأنّني أحاول أن أتذكر أمرًا هامًا بضرب به النسيان، ثمّ شعرت بخطورة الخطوة التي أرفع رجلي لأخطوها، فاستحوذ عليّ التردّد والحوف، ونازعتني نفسي إلى الهروب. أ. بيد أنّها كانت لحظة عابرة، ولت عني بسرعة، فاستعدت الثقة والسرور، وتبلّدت في ارتياح عميق، ورحلت أقطع الطوار محيورة سعيدًا في انتظار حبيبة القلب المشوّق. ... ثمّ رأيتها تبرز من باب العمارة في معطف سنجابيّ فارعة أنيقة مليحة، وجاءت المحطّة تحطّر في خطواتها الوقور ووقفت بعيدًا عنيّ. وكانت الأمّ في الشرفة كأنّها تبارك اللقاء وتضفي عليه شرفًا، فشعرت - إلى سعادتي - بالمسؤوليّة. وجاء الترام الذي سيقلّنا، فنظرت إليه بامتنان ودعوت له بالسلامة والسائقة بالسعادة وزيادة الأجور! وصعدنا معًا، ورأيتها تتجّه على غير عادتها إلى مقصورة الدرجة الأولى فتيبتها على الأثر، ولم يكن بالمقصورة إلّا رجل وامرأة، فجلست فتاتي موزّدة الوجه من الحياء، ولعلّها انتظرت أن أجلس إلى جانبها، وأن أسلم عليها، ولكن خاتمتي الشجاعة فجلست على المقعد المقابل في ارتباك وحياء وسخط على نفسي. وسار الترام يطوي الطريق، وأنا أخالها النظر في صمت وصبر، حتّى عبر الترام جسر عباس. فنهضت قائمة وغادرت المقصورة وأنا في أثرها، ونزلنا في المحطّة التالية. وسارت صوب شارع يمتدّ وشاطئ النيل، فتيبتها، وتداينت منها بقلب خائف، متعترّ في خجل قهّار وقلت بصوت لا يكاد يسمع:

- صباح الخير. ...

فابتسمت دون أن تلتفت إليّ وغمغمت في مثل

حيائي:

- ماذا أعلم ترى!

فللت بالصمت لحظات أستجمع قواي، وقلت:

- ما تعلمين من أي...

ورسعت شفتلي «أحبك» دون أن تنطق بها،
ولكنها رأت وفهمت بلا أدنى شك. وخفضت بصري
حياء، ودق قلبي بعنف. وانتزعتني من الوجود غيبوبة
عابرة غيّبتني عني حولي. واسترقت إليها النظر فالفيتها
صامتة زينة موزدة الوجه. هذه لحظة مقدسة. أجل
إن الزمن لينوء بما يحمل من جلال اللحظات التي
مرت بالإنسانية في تاريخها، ولكن هذه اللحظة من
أجل ما عرف الزمن رغم هذا كله. ولن ينقص منها
أثنا معادة وأثنا تحدث كل يوم آلاف المرات في بضع
الأرض الواسعة، فهي الشيء الوحيد المعاد الذي لا
يُحِلُّ، وما ينبغي أن يُحِلُّ وهو يتضمّن سرّ الوجود
الاعظم، ألا وهو الحب. لم يكن بوسعي أن أضيقها
إلى صدري. لا لمرور قافلة جمال تحمل برتقالاً. ولكن
لأنه لم يكن بوسعي أن ألسها على الإطلاق، وقطعنا
شوطاً صامتين، وحال حائي دون مواصلة الحديث في
هذه النقطة بالذات، وعاودت التفكير في المسألة من
وجوهها الأخرى فقلت متبسّية:

- وماذا تمّ من أمر محمد جودت؟

وحديثي بدهشة عظيمة، وسألني:

- من أدراك به؟

فقصصت عليها نبأ المواجهة التي تمت بين محمد
جودت وبينني وهي تصغي إليّ باهتمام شديد، ثم
قالت:

- إنه رجل فاضل محترم، وموظف كبير، وقد رحّب
به أبي، أمّا أمي فقابلت عرضه بفقر لأنه يكبرني
كثيراً، ولأنه سبق أن تزوّج وله بنت في الخامسة
عشرة. وقد حادثت أمي عن لغائنا في الطريق منذ
ثلاثة أيام... فاشتريت أن يعرفوا عنك كلّ شيء قبل
أن تعلن عن رأيها.

وخفت قلبي في مزيج من سرور وقلق، وسألها وإن
لم أكن في حاجة إلى السؤال:

- وهل تعلم بمقابلتنا هذه؟

وضحكت وهي تصمّد في نظرها وتصوّب ثم
قالت:

- ألا ترى أننا لم نتعارف بعد؟

استطيع أن أجيب عن هذا السؤال. ليت الحديث
يكون أسئلة من ناحيتها وأجوبة من ناحيتي! وقلت
بارتياح:

- كامل رؤية لآل بوزارة الحرية.

وقمت لو كان في الإمكان أن أخبرها بإسراي
الشهري وثروتي المنتظرة، أمّا هي فقلت:

- رباب جبر مدرّسة بروضة الأطفال بالعباسية.

وأعجبني الاسم، فأحبته كما أحبّ صاحبته،
وغضبت كأنما لاستبعاد وقعه في أذني:

- رباب!...

ووجدت أنسا وشجاعة فقلت ببساطة:

- تصوّري... إليّ أداوم على اختلاس النظرات
من وجهك من عامين حتّى اسمك لا أعرفه!

فلاحت الدهشة في وجهها الجميل وقالت:

- عامين!

فسرّني دهشتي وقلت بحاسة:

- أجل من قرابة عامين، ألم تقضي إلى هذا؟

فقالت ضاحكة وأنا أجمع انتباهي في أذني لأتملّ
الصوت الذي شافني استيعاه طويلاً:

- منذ أشهر فقط! ما أجل صبرك!

هذه وخزة بلا ريب! كأنها تقول لي: وما الذي
أسكتك حتّى أوشكت الفرصة أن تغتلب من بين
يديك! وانتهزت الفرصة لأصرّح بما وددت لو كنت
صرّحت به، فقلت وقد أصبح الكلام ممكناً:

- قبل منعتي ظروف قاسية، لم يكن بوسعي أن
أتقدّم وأنا غير كفء لك، ثمّ تغيّرت الظروف
وتحسنّت الحالة فلم أتردد عن اعتراض سبيلك في
الترام في جنون أشجعني عن وعيي، فالحقّ إنّي لم أنتظر
وأنا قادر إلاّ أياً ما معدودات وإن كنت... (كدت
أقول: «وإن كنت أحبيبتك منذ عامين» ولكنّي
عجزت)... وإن كان ما تعلمين منذ عامين.

ونظرت فيها أمامها مبتسمة ابتسامة خفيفة وقالت:

فابتسمت ولم تخر جواباً، وذكرت «وظيفتي» بعلم
ارتياح وخجل، ولكن لم يخطر لي على بال أن أكذب أو
أبدل من الواقع فقلت:

- إنّي كما قلت لك موظف بالحرية، ولكن لي دخلًا
مئة عشر جنيهًا من أوقاف، وأملك إلى ذلك قدرًا من
المال يجاوز الألف الجنيه، وليس في سرتي ما يشين،
وسترين إذا ما تحروا عني أنّي التزمت الصديق حقًا...

فابتسمت قائلة في إخلاص:

- لا شك في هذا مطلقًا.

ورنوت إليها بامتنان عميق، وذكرت في تلك
اللحظة الآلمي وما عانيت من تشوّق إليها وحسرة
عليها فهزّني سرور يعلّ عن الوصف. بيد أنّي
تساءلت في خوف: ترى هل أروق في عيني الأم؟...
ألا تستصغر وظيفتي، أو لا تحبلي أهلاً لهذه الأستاذة
المحبوبة؟... وانقبض قلبي ذعرًا، وحذّثني نفسي
بأن أفاطمها فيها يكتر صفوي، ولكنّ عقلي الحياء. ثمّ
خطر لي خاطر جديد فسألته على الفور:

- هل تواصلين العمل في وظيفتك إذا تمّ الأمر كما
أرجو؟

- ولم لا؟ إنّي أحبّ عملي حبًّا جمًّا، وكثيرات من
زميلاتي...

وأدرت ما كانت على وشك قوله فخفق قلبي
بخطئة ونظرت إليها نظرة حبيّة ملؤها الحبّ والأمل،
ثمّ قلت برضا:

- هذا حسن...

ساد الصمت قليلًا فعلا وقع أقدامنا على أرض
الطريق المروشة بأشعة الشمس، ولاحت منّي الفتاة
إلى النيل فرأيت صفحته السمراء تترقق تحت لؤلؤ
النور المنتثر، وأخذت أتصفّع وجوه المائة الضالّة
الذين يمرّون بنا في حياه وارتباك. وقد لظقت الشمس
من برودة الجو وبثّت في حنايانا نشاطًا وحيورًا فشعرت
بطيب الحياة كما لم أشعر به من قبل، وامتلاّت امتنانًا
حقّي وددت لو ألتهم الثرى شكرًا. بيد أنّي لم أنس ما
بشغلي من خطر الأمور، أو ما يبدو لي من خطيرها،
فلذلك سألتها:

- أُرشدني الآن إلى ما ينبغي فعله.

فسألني في دهشة قائلة:

- ماذا تعني؟

فقلت بحيرة:

- ينبغي أن أتقدّم لطلب يدك.

فنظرت فيا أمامها بحيرة ولم تنبس. وكنت في حيرة
من أمري فسألته:

- كيف... كيف يخطب الناس عادة؟

فندّت عنها ضحكة رقيقة، وقالت برقة:

- بواسطة السيّدات أو بالاتّصال الشخصي، ألم تدبّر
شيئًا عن هذا؟

وذكرني قولها «وساطة السيّدات» بآثمي فانقبض
قلبي فيا يشبه الذعر. ثمّ تساءلت ترى هل أستطيع
أن أقوم بما يطلبه الاتّصال الشخصي من لباقة
وشجاعة؟ وذكرت عند ذلك أنّي لا أعرف شيئًا عن
أبيها فسألته:

- هلّا تكلمت وأخبرني عن والدك؟

فحدّثني بنظرة ملؤها الشكّ وغمغمت:

- ألا تعرف عنه شيئًا؟

فقلت ببساطة وصدق:

- كلًّا وأسفاه...

وأدرت أنّها كانت تظنني نشطت لمعرفة ما ينبغي
معرفته عن الأسرة التي أطمح للانتماج فيها؟ وعجبت
كيف أنّي لم أحرك ساكنًا طوال عهد حبيّ قائمًا بالنظر
واللهفة والياس. وقالت رباب بلهجة لا تخلو من
زهو:

- جبر بك السيّد مفتش ربيّ بالأشغال...

فقلت بإجلال:

- تشرفت.

واستشعرت ثقل التبعة الملقاة على عاتقي، ولكّني لم
أجد بدًّا من أن أقول:

- سأقابله بنفسي، متى يحسن أن أقابله؟

- في بحر الأسبوع القادم لأنّه مسافر بعد ذلك في
رحلة تفتيشيّة كعادته، وهو لا يكاد يغادر البيت عقب
عودته من الوزارة...

بسطة لأعمالك انفاصي. حتى طالعي باب الشقة الخلق
فمازت قواي، ووسوست لي نفسي أن أعود، أن أفر
بنفسي، أن أؤجل الزيارة الخطيرة ليوم آخر. ولكنني
نفيت عني فكرة التاجيل بغضب، وبدا لي أن أنزل
وأن أخفق عن توتر أعصابي بلشي ومعاودة ترتيب
أفكاري. وهمت بالتراجع، ولكنني تساملت في
اللحظة التالية ألا يرتاب البواب في أمري إذا رأي
نازلًا بعد دقيقة من مغابته ثم رأي بعد دقائق عائدًا
إلى المهارة؟... وعدلت عن فكرة النزول، ووقفت
مع ذلك ساكنًا لا أبدي حراكًا. وجد بصري على
الباب حتى خلت ثيبه عينا تحلق في وجهي بسخريه.
وانتقلت عينا إلى زر الجرس وثبتت عليه بخوف
وهلع. ما عسى أن يحدث لي لو فُتح الباب فجأة عن
وجه من الوجوه التي أعرفها وترفني! وثمنت في تلك
اللحظة لو كانت حياتي واصلت مسيرها الوثيد دون أن
تصطدم بهذا الحب الذي قلبها رأسًا على عقب!
وجاءني بفتة صوت رفيع من الداخل يصيح: «التحي
الرايو يا صباح» فارتعدت أوصالي وأرهفت السمع في
خوف متزايد. وتلى منك يا أمه، أما كان الأفضل أن
تكوني في مكاني هكذا؟ ثم قرع أذني وقع قدمين
صاعدتين فتضايف اضطرابي ولم أجد من التقدم
مناصًا، وتدانيت من الباب، ودفعت يدي إلى زر
الجرس، وترتلت لحظة في اضطراب، ثم ضغطت
عليه فرن رنينًا مزعجًا، وتنحيت جانبًا، منتظرًا في
حالة يرثي لها. وفتح الباب وبرز وجه أسود كالفتح
لجارية في الخمسين، فحدجتي بعينين برآقتين وقالت:

- أفندم؟

وقلت وأنا أتمنى أن يكون البك خارج البيت لسبب
أو لآخر:

- جبر بك موجود؟

ولكنها أجابت قائلة:

- نعم يا سيدي... مين حضرتك؟

فاستخرجت من عفتي بطاقة وقدمتها لها قائلاً:

- أرجو أن يأذن لي البك بمقابلة قصيرة...

ومضت الجارية بالطاقة وانتظرت حافق الفؤاد

وكنّا قد توغلنا في الطريق طويلاً فاقترحت أن
نعود، ودنا على عقبيننا عائدين. ولم يتبادل في عودتنا
إلا كلمات قلائل، وكنت من السعادة في حلم، ولكنني
لم أغفل لحظة عما أنا مقبل عليه من جلائل الأمور...

٣٦

واستحوذ عليّ الخوف والقلق، وعادني ذلك
الإحساس الحائق الذي قهرني يوم دعائي أستاذي بكلية
الحقوق إلى منصة الخطابة. هل تستطيع قدمي أن
تحملاني إلى بيت جبر بك؟ هل أستطيع مكاشفة
الرجل بما في صدري؟ اللهم أدركني برحمتك فإنّ الحب
يركبي مركباً صعباً لا يُبَلّ لي به، ولما ضقت بالواقع
المخيف روحت عن نفسي بالأحلام، فرايتني في جزيرة
مهجورة، وليس بها حيّ إلّاي وحيبيتي، حيث الحب
لا يسمي المحب خطبة ولا كلاماً ولا اتصالاً بأحد،
وهنت نفسي في همتي إلى تلك الجزيرة المهجورة.

ومضى السبت والأحد في عذاب نفسي عنيف،
فصمت على أن أستجير من عذاب الفكر بقاء الخطر
وجهاً لوجه. وغادرت البيت عصرًا بعد أن أخذت
زيتي، وقطعت الطريق واجف القلب وأنا أتلو آية
الكرسي. ولما عبرت الجسر ولاح لي عن بُعد جانب
من العمارة ثقلت قدمي وكنت أرجع من حيث
أنيبت، ولكن كان تصميمي راسخًا، وكان إشفائي من
أن تستبطئ حبيبي قدومي لا يدع لي فرصة للتردد.
وجعلت أشجع نفسي قائلاً إنه لو لم يكن ثمة أمل لما
رضيت حبيبي بأن تلقاني يوم الجمعة، ولما مهدت
السيبل لمقابلة أبيها، ودفعت قدمي الثقيلتين فأخلفت
أقرب رويدًا من المهارة. ولم يكن بالنافذة ولا الشرفة
أحد فارحمت لذلك لأنني اضطرب في سيري تحت وقع
الاعين، ثم وجدتني مقبلًا نحو البواب، فوقف الرجل
مستأفلاً فقلت:

- جبر بك السيد.

فقال:

- الدور الثاني...

وارتقت السلم في رهبة وخوف، متوقفاً عند كل

- إني تشرفت بمعرفتك يا أستاذ كامل! ... ترى أحضرتك من حيناً هذا؟
فقلت وقد سررت بما هيأ لي من سبب للحدث:
- نعم يا بك، إني من سكان منزل الروضة!
- حي هادئ لطيف.
فقلت وقد أنست إليه:

- وإني من مواليدته أيضاً، وقد أنام به جلي
الأميرالاي عبد الله بك حسن منذ أكثر من سبعين عاماً!
فقال متفكراً:

- عبد الله بك حسن! ... أظني سمعت بهذا الاسم! أهو جدك لوالدك؟
فقلت مضطرباً:
- كلاً، إنه جدي لامي، أما أبي فمن أسرة لاظ...

- وهل كان ضابطاً أيضاً؟
فقلت وقد تزايد قلقي:
- كلاً... كان أبي رحمه الله من الأعيان...
فابتسم قائلاً:

- حسبته كذلك لأن أهل المهنة الواحدة كثيراً ما يرتبطون بالزواج فيما بينهم...
وأمست على قوله، وسكت الرجل فلم أجد ما أقوله، وعدت إلى تذكر محفوظاتي فحضرني الجملة الخطيرة التي يتوقف عليها حظي في الحياة، ولكن خائني لساني، فلذت بالصمت، وما لبث أن عاودني الاضطراب والملع، والتهب رأسي حياءً وارتباكاً، وفي تلك اللحظة جاءت الخادم الصغيرة - التي تعرفني حق المعرفة - تحمل صينية الشاي، فوضعتها على منضدة مكشفت سطحها بمرآة مصقولة، وترجمعت وهي تداري ابتسامة خفيفة! ورحت بدخولها وبالشاي الذي حملته لأنها استغفاني من حرج الصمت الذي ثقلت وطأته عليّ. وملا البك قدحين ودعاني للشرب، فتناولت قدحي شاكرًا ورحبت أرتشفه منهلاً وعقلي لا يبي عن التفكير. وفرغت منه على رغي، ووجدتني مرة أخرى حيال جبر بك وابتسامته اللطيفة الغامضة التي

مضطرب النفس. وتحملت البك وهو يقرأ البطاقة بصوت مرتفع فيبادل الجميع النظرات والابتسامات، ويصرعون إلى مكان آمن يروني منه حين دخولي، فالتهب وجهي حياءً وازدادت اضطراباً، ويسر رأس الجارية مرة أخرى وهي تقول:
- تفضل.

ودخلت خافض الرأس، فأرشدتني إلى باب على يمين الداخل مباشرة، فدخلت حجرة الاستقبال، وهي حجرة أنيقة ذات أثاث كحلي، فالتجيت إلى مقعد يفصل بين كتيبتين وجلست، بعيداً عن سمت الباب. لم أكد أصدق أنني بلغت حقاً جلوسي هذا من البيت. وجعلت أرهف السمع في خوف وقلق وطلع. وفتيت لو يتأخر البك ريثاً أسترده أنفاسي، ثم دفعني العذاب إلى تمحي حضوره سريعاً لوضع حد لآلامي. ولا أدري كم انتظرت حتى سمعت وقع أقدام تقترب. دخل البك فهضت قائلاً، ثم سلم عليّ في أدب وترحيب وأوماً إلى المقعد وهو يقول:
- تفضل بالجلوس...

وجلس على الكنب غير بعيد. كان طويلاً نحيلًا، في الخمسين من عمره، له قامة حييتي وعيناها، فسرعان ما أحببته، وكان يتلفع بعباءة فضفاضة ضاربة للحمرة، ويسطع من راحتيه عطر زكي، ونظر إليّ مبتسماً وقال مرحباً:
- شرفتنا يا أستاذ كامل... أهلاً وسهلاً...

فقلت بامتنان:

- شكراً لك يا بك...

ترى هل علم بالغرض من الزيارة؟... هل سمع قبل الآن بهذا الاسم الذي قراه في البطاقة؟
على أنه مهما يكن أمره فلا مناص من مفاغته في الموضوع كما لو كان يجهله. وكنت قد كتبت صورة مما ينبغي قوله كما تصوره، وقرأتها مراراً حتى حفظتها قبل مغادرة البيت، فقلت بصوت منخفض:

- إني أسف على إزعاجي سعادتك بهذه الزيارة على غير سابق معرفة...
فقال والابتسامة اللطيفة لا تفارق شفثيه الرقيقتين:

ولست من ذلك كله في شيء، ولكن رباب لا تودّه، ولو كان بها من رغبة فيه لما قابلتني وشجعتني على مقابلة أبيها، وركب هذا الخطر قلبي المحترق وردني إلى نشوتي، ولكنّه لم يستطع أن يستأصل الشكّ والفلق من قروّة نفسي. وتتابعت أيام الانتظار وما ازداد إلا كآبة وتشاؤماً، ولذلك أخفيت سرّي عن أمي حتّى لا تعلم بإخفاقي إذا كان مقدوراً، وكابدت الانتظار ومرارة الشكّ في وحدة خيفة، ومن عجب أنّنا لم نعد إلى موضوع الزواج منذ ذلك المساء العنيف. وقد اعتور سلوكها شيء من التحفّظ والتعقّب لم يخفيا عن إحساسي الدقيق. وبدت في أحايين كثيرة كالطفل الغاضب وانطوت على نفسها. وكنت إذا أقبلت عليها محدّثاً تلقّيتي برية لا تزيالها حتّى تطمئنّ إلى نوع الحديث. واحتفني تغيّرها ولكنّي لزممت معها الأدب والنود. وفي أثناء ذلك أسرّ إليّ زميل من المولّفين بأنّ «بعضهم» يتحرّى عني كما أخبره مولّف بإدارة المستخدمين، وسرعان ما ذاع بين مولّفي إدارة المخازن أنّ شارع في الزواج، وجعلوا يعرضون لي بما في أنفسهم مدهشين فأزداد امتعاضاً وحقّاً، ولما انقضت فترة الانتظار مضيت إلى مقابلة جبر بك السيّد، ولكنّي لم أذهب إلى بيته - حال دون ذلك خوفي من الخللان - فقابلته في وزارة الأشغال، ورحّب بي الرجل ترحيباً جيلاً وأعلن لي موافقته! هكذا انتهى عداي وزدت إليّ الروح. وفي تلك المقابلة اتّفقنا على يوم الخطبة. وإذا كانت حياة الإنسان خليطاً من الشقاء والسعادة فقد بدا لي أنّ أيام شقائي قد ولّت، وأنّي سأجزى عن صبري وتماسقي وخلاوتي سعادة صافية فيها بقي لي من عمر. ورجعت إلى البيت ودعوت أمي وأخبرتها بما تمّ، وقد استمعت إليّ في استسلام ودشة وقالت لي متسائلة:

- ولماذا أخفيت عني الأمر كلّ؟

فقلت متضاحكاً في ارتباك:

- لم أكن أقدر أن ينتهي مساعي إلى ما انتهى إليه...

فقلت بحدّة:

- يا الله! أكنت تتصوّر أن يرفضوا بك؟ يا لك

تستحقّني في صمت على الكلام، لا بدّ ممّا ليس منه بدّ، وآلاً انقلبت الجلسة إلى مهزلة تستثير السخرية. لاصطعناً شيئاً من الرجولة أمام الرجل الذي أروم مصاهرته أن أصغر في عينيّه. ولمست أطراف شجاعتي وقلت وإن تهذّب صوتي وتخلخلت نبراته:

- سيدي، أردت... أعني... الحقّ أنّي أرجو التشرف بمصاهرتك...

ولم تكن الجملة التي كتبتها وحفظتها لتفترق عني قلت كثيراً، وقد اعتراني الاضطراب بعد أن فتحت فيّ بالكلام ولكنّ الله سلّم وأفصحت عن رأيي بعبارة لا بأس بها ونظرت إلى الرجل فوجدته ما يرال مبتسماً، وترتّب لحظات استغلّظ وقعها في نفسي المروّعة، ثمّ قال بأدب جمل:

- أشكر لك حسن ظنّك بنا...

وصمت لحظات أخرى متفكّراً ثمّ واصل حديثه قائلاً:

- ولكن أرجو أن تمهلي أسبوعين لمشاورة أصحاب الشأن الآخرين.

فبادرته قائلاً:

- طبعاً... طبعاً... ولا يسمي إلّا شكرك على كرم أخلاقك وحسن ضيافتك؟

وبهضت قائلاً مستأذناً في الانصراف، ولكنّه دهاني للبقاء فترة أخرى، فاعتلّوت شاكراً له جميل أدبه، وسلّمت وذهبت. وتنهّدت في الخارج من الأضياع وشعرت كأنّ حملاً ثقيلاً رفع عن عاتقي. ويذا لي الأمر هيئاً لا يستدعي بعض ما عاتيت من خوف وقلق وهلع، فابتمست في ارتياح، ثمّ استرسلت ضاحكاً...

٣٧

تميّت نشوة الارتياح والظفر حتّى المساء، ثمّ عاودني الفلق ذلك الرقيق القديم الذي لا يملّ عشري... أيرضى جبر بك بمولّف صغير مثلي زوجاً لابنته؟... ألا ترجح كفة عمّد جسودت رغم دخلي من الأوقاف؟... إنّه مهندس كبير بك، وجار وصادق،

- ينبغي أن نجد علاجًا لحجلك، فوالله ما رأيت مثلك رجلًا.
ولم آبه لانتقاده وسخريته. كنت سعيدًا...

٣٨

... ثم هان عليّ عناء الزيارات، اعتدتها وآنتست إليها. أمكنتني أن أضغط على زر الجرس دون أن ينخلع قلبي، وأن أمضي إلى حجرة الاستقبال دون أن أعثر بطرف سجادة أو قطعة أثاث، وأن ألقى آلي الجلد غير خافض الرأس ولا ملهوج الحديث، بل أمكنتني أن ألتحدّ أيضًا وأن أضحك إذا دعى الداعي للضحك، في حدود طائفي. وأسرني الجديدة أسرة لطيفة حقيقة بالمودة، حبيبي عنوانها، وحسبها هذا شهادة وثناء، وقد توقّعت الأسباب بيني وبين جبر بك السيّد فصرنا صديقين، وقُرِبت الألفة بيني وبين نازلي هاتم فكانتا ابن وأمّ. وأسرني الصغيران عمّد وروحته بظرفهما، حتّى الخادم الصغيرة والجارية السوداء حظيتا بنصيب من وقي، فأحببتهم جميعًا حبًّا دلّ على ما يقلي من هيام بحبيبي وشوق مكبوت للمعايشة والتودّد.

وكان جبر بك السيّد من أولئك الرجال الذين لا يرحلون ببوتهم إلّا للضرورة القصوى، فإن لم يكن في الوزارة أو في رحلة تفتيشية بالأقاليم فهو في بيته وبين زوجته وأبنائه، يدا لي من أوّل يوم إيتارُفنا مهذبًا رقيق الحاشية، ولم يخفّ عن عينيّ - على ضعف ملاحظتي - أنّه من الأزواج المطيعين وأنّ زوجه هي الأمرة الناهية في البيت، ولكنّ ذلك لم يضعف من منزلته، ولعلّه حظي من حبّ أبنائه بما لم تحط به الأمّ نفسها، ولم يخُلّ من ميل للفخر واللباهة على تجاوزه الخمسين، وما أسهل أن تلاحظ ذلك إذا سمعته محدّثًا عن عمله ومركزه وصلاته بأقرانه ومرموسيه، أو متّوّهًا برحلاته التفتيشية وملاحظاته، وما أكثر ما يتقدّم المهندسين الشبان ممّن تلقّوا علومهم في إنجلترا والمانيا، فيقول إنّ علم الهندسة في مصر هو علم الهندسة في أوروبا، وإنّ القدم لا ترسخ في العلم إلّا بالتجربة والممارسة، الأمر

من طفل غريب! ألا تعلم أنّ الفتيات لا حصر لهنّ، وخيرًا من فتاتك ألف مرّة، يرضين بك عن طيب خاطر!

فقلت بلهجة تمّت عن عدم رغبتي الاسترسال في النقاش:

- إنّي أنتظر عتيك يا أمّاه...

فهائت نحوي حتّى لثمت خلّتي وتمتّت:

- إنّي أحقّ منك بالنهاي...

ودعت لي طربلاً، وكان وجهها كالصفحة المصقولة لا تخفى بها خافية، ولم تكن تحسن مداراة ما يعتلّ في نفسها، فلمست في نظرة عينها خيبة عميقة نقصت عليّ صفوي، بيد أنّي تجاهلتها وتظاهرت بتصديق كلامها، وسرعان ما شغلت عنها بسماعتي، وكتبت في نفس اليوم لأخي خطابًا أخبرته بما كان ودعوته لشهود الخطبة، وزرت أختي راضية ودعوتها كذلك، وذهبتا جميعًا في اليوم الموعد. ولست أدري كيف وانتهى شجاعتي ذلك اليوم. لقد شبكت ذراعي بلدراع شقيقي مدحت ورجوته أن يكون مرشدي، ولشدّ ما أتعبت بجمودي وارتيابي وخجلي.

لم أنبس بكلمة طوال السهرة، ولم أرفع عينيّ عن الأرض، ولبثت محاصرةً بأعين المستطلعين رجالاً ونساء، ولم تزاليني الرهبة حتّى بعد انصراف الأقارب واقتصار الموجودين على الأهل. وقد ضحكتم حرم جبر بك وقالت لي:

- أنت خجول يا سيّ كامل... وقد أدركت الآن السرّ في أنّك كنت تحوم حول عروسك أشهرًا طووالًا كالخائف...

وخفق قلبي لقولها، واختلست من آمني نظرة لأرى وقعه في نفسها فوجدتها مشتبكة مع جبر بك في حديث. وجلست طوال الوقت بجانب رباب دون أن أستطيع إرواء قلبي الطامش لرؤيتها. وما ألفتيت عليها إلّا نظرة سريعة حيّة حين دخولها الحجرة في حالة من نور وياه ثمّ غبت في حيائي وارتيابي، ولمّا انتفض الحفل العائليّ وغادروا البيت ضحك أحي مدحت في الطريق مقهقهًا وقال لي بدمشة:

أخلو إليها، وأن أتمل بإدامة النظر إلى وجهها الصبح في أمن من الرقابة، على أنني لم أخل من خوف من مثل هذه الخطوة المأمولة وما أنا حري بأن أعانيه فيها من عي وحصر وحرج واضطراب، فقتعت بالبدول لي في حظيرة الأسرة، راضياً أمناً، مكتئباً إلى حين بالنظرة الحافظة والمحاور المقتضية، سعيماً بالنشوة التي يبتها وجودها في قلبي وروحي، ووجدت حديثها لطيفاً طبعياً، لا أثر فيه لشهادتها العالية - وهو ما كنت أحاذره وأشفق منه - فلا تغلس ولا ادعاء ولا حذقة.

وتم الاتفاق فيما بيننا على أن يكون الزواج في العطلة الصيفية، ولم يالوا جهداً في إعداد الجهاز، واقتربت نازلي هانم أن يتقلا إلى شقة كبيرة على أن انضم إليهم، ولكن الاقتراح أزعجني وذكري بأمي، فاعتذرت من عدم استطاعتي قبوله قائلاً: لا يمكنني التخلي عن أمي، وعند ذلك قالت نازلي هانم: - والذات سيدة عترمة ولطيفة ولكن يبدو لي أنها لا تميل إلى المعاشرة!

وفهمت ما تعنيه، والحق أن أمي لم تنز بيت خطيبي منذ إعلان الخطبة إلا مرة واحدة تحت ضغط والحي، فقلت في ارتباك غير قليل: - لقد اعتادت أمي الوحدة... ولم تألف الزيارات فك... .

وقصصت عليهم جانباً من حياتي متحابياً الفجوات التي لا تطب ذكراها. ولا أنكر أن ملاحظة نازلي هانم أزعجتني، وذكريتي بأمور أخفاها، فدعوت الله غلباً أن يقيي معية الشاقي في حاضري ومستقبلي. وفي مرة، وكنت جالساً إلى فتاتي وأنها فقط، واتتني الشجاعة فذكرت عهد تطلي الصامت إلى «رباب»، وعجبت كيف انتهت إلى هذا الختام السعيد وهو ما لم أكن لأحلم به! وضحكت حبيبي وقالت:

- ومع ذلك فلم تك تدخط خطوة واحدة حتى تم كل شيء في غمضة عين! وقالت نازلي هانم: طمنا نساءنا ماذا يريد هذا الشاب؟! ولشد ما

الذي يتجاهله الشبان. وكان في تلك الأيام قلماً على مركزه بالوزارة، ولا يفتأ شاكياً ما يلقي من اضطهاد سياسي مره في رايه إلى صلته بالوزير الوفدي السابق، حتى أنه صرح مرة بأنه يفكر في طلب تحويله إلى الماش والاشتراك في النشاط السياسي، ولكنه لم يستطع الاسترسال في شرح رايه لتصدي زوجته له بالمعارضة الحاسمة التي لا تحتمل مناقشة. وكنت أجد حياله شعورين متضادين: شعوراً بالضالة لشجاعة مركزي في الحكومة وقلة حكي من الثقافة، وشعوراً بالزهو لانتسابي لرجل مثله عظيم في قدره ومركزه وعلمه. أما نازلي هانم فعل نقيضه ميالة للقصر مفرطة في السمنة، وكانت على اقترابها من الخمسين ذات وسامة لا بأس بها تدل بلا ريب على ما كانت تتمتع به من جمال في صباها. وكانت على سميتها المفرطة بالغة في نشاطها ويقلتها وسهرها على رعاية بيتها وأبنائها وزوجها، وقد شكا زوجها مرة إلى حرصها الزائد عن الحد على تنسيق البيت وتنظيفه ومراقبة الخادم والطاهية، وإفراطها في ذلك إفراطاً هراذلي إلى الوسوسة والإرهاق، ولكنه لم يجل في شكواه عما يشي بإعجابه ورضاه.

وبدت لي ظريفة في غير ما تكلف، ولشد ما ضحكتم من ذكريات تطلي الصامت إلى الشرفة والنافذة، وقارنت بين حياتي وبين وقاحة الشبان، وعلفت على ذلك قائلة:

- فمن حسن الحظ أن تكون لرباب، ومن حسن الحظ أن تكون رباب لك، فهي ليست كفتيات اليوم أيضاً.

هذا حق، حبيبي ليس كمثله شيء، هي الحياة والذكاء والجمال، وإن الأيام لثريدي بها تعلقاً وحيماً وإعجاباً، ما أرخم صوبها، وما أرشق إيمانها، وما أجمل رزانتها، وكانت إلى هذا كله أنسوة ناضجة كاملة، وإن عينها لسطع الساني بالإخلاص والمودة والصدق من غير ما حاجة إلى حفة مصطنعة أو تكلف غير بري. ولم أكن أفوز بها في خلوة أبداً، ولم تنهني لي فرصة للانفراد بها منذ إعلان خطبنا. وشاقي كثيراً أن

- أترين ضرورة في إحياء ليلة الزفاف؟
فرمقتني بنظرة استنكار كأن تساؤلي أدهشها وقالت:

- طيبًا!

فغمضت في ذمور:

- قيان وزفاف ورقص وغناء!

- ينبغي أن تكون ليلة فريدة غناء...

وتغلكني الخوف، ورفعت إليها عينين ملؤهما الرجاء والاستعطاف، ثم قلت بياس:

- لا يمكنني أن أؤف بين المدعوين! هذا فوق ما أستطيع.

فلاحت في وجهها الدهشة والانزعاج وقالت بغرابة:

- لست أفهم شيئًا!... هل يعجزك الحياء لهذا الحد؟

فقلت بضراعة، وبحرارة من يدافع عن نفسه حيال الموت:

- لا أستطيع... لا أستطيع... صدّقيني يا سيدي إن الموت أهون عليّ من الزفاف بين المدعوين والقيان...

- هذا شيء عجيب، إنك تكون أول رجل يهرب من الزفاف!

فقلت بأشئ وقد شعرت بالسنة الحجل تلهب جيبتي وخديّ:

- ريمًا، ولكن ما باليد حيلة، إنّي استحلفك بالله أن ترجميني...

فتساءلت في إنكار:

- وما عسى أن نفعل؟

فقلت بلهفة وقد عاودني الرجاء:

- نكتب العقد في جمع من الأهل فحسب، ثم أمضي بالعروس إلى بيتنا!

- وكيف يكون هذا فرحًا!

لو كان الأمر غير ما يتّصل بالفجل لسلمت دون عناء، والحقّ أنّي سريع للمطوعة مهما كلّفني الأمر من تضحية إلا إذا كنت بموقف الدائد عن حياتي، هناك انقلب إلى الاستهانة والتنبّث. وقد استمددت من

حدّرت ورباب، أن تكون من الشبان الذين يطاردون الفتيات في الطريق! وقدّرنا في وقت ما أنك مشغول بالتحريّ عتّا كما يفعل طلاب الزواج. فلما طال تردّدك بعد ذلك داخلي استياء وتساءلت عتّا لم يعجبك فينا؟!

فقلت مرتبكًا متألّفًا:

- ما فعلت شيئًا من هذا، وحتى الاسماء ظلمت على جهلي بها حتى اللحظة الأخيرة...

وكان لديّ من المال ما يُعَدُّ بالقياس إلى ثروة، فأغدقت على حبيبي الهدايا، وجعلت من شقيقتي راضية مشيرتي في هذه الأمور التي أخفيها عن أمي فمحضتي المشورة وأرشدتني إلى «الواجب» وخاصة في المواسم كعيد الفطر وعيد الأضحى، فأصبحت بفضل رأيها خطيبًا مشرقًا؟

وظلّت العلاقة بيني وبين أمي على ما يرام، على الأقلّ في الظاهر، وحرصت على أن أشركها في مهمة الإعداد للحياة الجديدة لتبدو وكأنّها تباركها، فكلفتها بأن تبحث لنا عن شقّة جديدة، ووقع اختيارها على عمارة في شارع قصر العيني على بعد عطلات ثلاث من عمارة حبيبي، ولم يلد منها ما يعجز صفوي، ولكنّها بدت كشخص مغلوب على أمره، تزحج على رغبته إلى هامش الحياة، فانطوت على نفسها انطواء لم أجد في معالجته حيلة، وقطّع قلبي. ولكن لم يكن في وسع شيء في الوجود أن يعناق تيّار السعادة المتدفّق الذي يسكنني ليل نهار. والواقع أنّ تلك الفترة من حياتي هي أسمع ما لقيت في الدنيا من أيام...

٣٩

وقالت لي نازلي هانم يومًا، وكانت الأسرة قد أعدت عتّا للزواج:

- إنّ رباب أول عهدنا بالأفراح لينبغي أن تكون لينتها بالغة المرأة.

ووتّى قلبي فرازًا، ولم يعد بدّ من مواجهة الأمر الخطير الذي طالما تحاميته إشفاقًا وجبنًا. وتساءلت في قلق:

وتنقضي نصفه الأول في مبهتي، فمضي بي شقيقي
مدحت إلى حلاق مشهور عدت من لذه على أحسن
حال، حتى قالت لي أختي في دعابة:
- أنت أجهل من عروسك!... أليس كذلك يا
أُمّاه؟

وهمت أُمّي بالكلام، ولكنّها أطبقت شفيتها دون أن
تنبس، وجعلت أُنْصَلِّدُ عَمَّا أرادت قوله. وارتدبت
بدلة العرس السوداء على حرارة الجو، ثمّ ذهبت إلى
بيت العروس قبيل العصر بقليل ومعني أُمّي وأخي
وأختي وزوجها وعمّي وبعض بناته ونحالي وأسرهم.
ولمّا اقتربنا من مدخل العمارة رأيت الأرض قد فُرِشت
رملًا فاقع اللون، وتلّلت مصابيح كهربائية كبيرة من
عمد ملوّنة، فداخني اضطراب وقلت لنفسي: «هذا
خروج عن الاتفاق!» وارتقينا السلم وقد أبيت إلّا أن
أسير في المؤخّرة شابًا ذراعي بلذراع مدحت... وما
كاد أولنا يدخل الشقّة حتى استقبلتنا عاصفة من
الزغاريد المجلجلة، فشددت على ذراع أخي وشعرت
بسرعة في التساوي، ولكن أين؟ وخفضت عيني،
وسرت، بل جرّني أخي، إلى حجرة الاستقبال، دون
أن أرى شيئًا ممّا يحيط بي وإن أحسست بأذني وأنها أنّ
البيت مكتظّ برؤود السرو!... وأجلست وأنا
متشبّث بلذراع مدحت وقد همست في أذنه:
- أرجو ألا تفارقني...
فرّدت عليّ هامسًا:

- تشجّع ولا بدت عروسك دونك عجبًا!
ولم أكبد أُنْفَس الصعداء لسرور لحظة الاستقبال
المفرزة حتى جاني جبر بك السيّد ليضمّني لصفوة
المدعوين، فوقفت مرتبكًا كالعادة، وراحت يدي
تسلم، ولساني يردّد كالألة «تشرفنا... تشرفنا» ثمّ
جلست مرّة أخرى دون أن أحفظ اسمًا واحدًا. ودار
حديث طويل، لم يفرغ عقلي لفهمه فصلًا عن
الاشترار فيه، ولم يغب عني حرجي، فتضايف
ارتباك، وتخلّل لي أنّ الجميع يتغاسزون بي، أو
يتمزجون بي في سرانهم. ومزّ الوقت قاسيًا حتى دُعيت
إلى كتابة العقد، وخُفّ عني أن تمّ ذلك في حجرة

باسي وخوفي قوّة فنوّلت وضمرت وألحفت حتى كُتبت
السيدة عن المناقشة وهي تمزّ رأسها عجبًا، ولم يكن بي
خوف أن يظنوا بي تمزّيًا من تكاليف الزفاف لما أبلّيت
من سخاء كخطيب كان حديث الجميع، هل أنّ جبر
بك السيّد أخبرني بعد ذلك بأنّه مصمّم على دعوة نفر
من خاصّة أصدقائه، وأنّه سيولم للجميع وليمة عشاء
فاخرة، ثمّ أخبرني بعد حين بأنّ أحد أصدقائه من
هواة الغناء والموسيقى تطوّر بإحياء الليلة في حدودها
الضيقة، وقال خفّفًا عني وقع الخبر:
- وهكذا يحبي ليلتك موقفك كبير...
فقلت عزّونًا:

- يؤسفني والله ألا أحقق رغبتكم في إحياء ليلة
زفاف باهرة ولكنّي لا أحتمل أن أُرّف!
فهزّ كتفي في عدم اكترار وقال مبسبًا:
- لا أحبّ أن أضايقك فلك ما تشاء...

وحمل الجهاز إلى الشقّة الجديدة، وفُرِشت حجرة
خاصة لأُمّي، وانتقلنا من المنزل إلى الشقّة الجديدة قبل
الليلة الموعودة بأسبوع. وأشرفت شقيقي على فرش
شقّة العروس بنفسها. وبهرت شقّة العروس عينيّ
فجعلت أنتقل بين الحجرات في غبطة وفرح ساوويّ.
ولمّا جاء دور المدخل اجتزت بابه بعد تردّد، وفي حياة
شديد وروية. يا له من منظر خلّيق بأنّ يهرّ الفؤاد
هزًّا! جعلت ألقب ناظريّ فيها حولي وأنا بين مستيقظ
وحالم. فراش كالذهب، وأغطية حريرية في لون الورد
الزاهر، ومراة مصقولة رقيقة. دبت الحياة في قطع
الأثاث فلم تعد جامدة ولا صلبة، وحالت ألوانها
الجذابة تورد الحدود والتابع الأعين، وتلّلت عن
حواشيها المسدولة هسات خافتة منومة خفق لها الفؤاد
خفقانًا متتابعًا.

وفي صباح اليوم الهميب ساءلت نفسي متى أعود
بعروسي وقد خلّفت ورائي الناس والضيوف؟ ليت
التقاليد كانت تقضي بأن ينتظر الرجل عروسه في بيته
من غير هذا العناية كلّ! بدا لي يومًا عسيرًا لم يُخلّق
لأمثالي، فلم يفارق قلبي الشعور بالرهبة والخوف.

تكاد تكون خالية، ولكن انفجرت الزغاريد في تسابق عنيف، وعادوني مرة أخرى رغبتي في التواري، وعدت إلى مجلسي الصامت، ومرّ الوقت، ولم يكن بالنسبة إليّ إلا صمتاً وفكراً عتراً وهفة على الفرار. ثمّ ذهينا إلى سباط أبعاد على سطح العمار في الهواء الطلق. والعشاء عشاء جليل لثلي، ولكنّه محتمل بخلاف الحديث، لأنّ المدعوين يشتغلون بالطعام عماً عداه فيجد من كان مثلي فسحة للطائنية والسكينة... وعدنا إلى مجالسنا، شابكاً ذراعي يذراع أخي، ثمّ بدأ الغناء. وكان المغني الهادي وفرقة - من الهواة كذلك - يتصدرون حجرة الاستقبال وقد غنى ويا ما انت وحشني، بصوت لا بأس به، فاق في نظري صوت فتان حانة سوق الخضف. وجاء جبر بك للجوقة بفقيتين من الموسيقي، وقُتّمت كشوس مترعة الآخرين، وقد همس مدحت في أذني:

- ألا تشرب كأساً أو كأسين؟

ف نظرت إليه نظرة لم يفهم معناها وقلت بإنكار:

- محال...

قلتها بلهجة تتمّ عن الاستفطاع، ثمّ خلوت إلى ذكرها بي في صمت. لشّد ما همّت بنشوة الخمر أفلس عجباً أنّي لم أذفها منذ الساعة التي اجترأت فيها على مخاطبة حبيبتي؟... هجرتها في غير ما عشاء كانتا لم تكن، ولم تنازعي النفس إليها ولا مرّة واحدة! وتتابع الغناء والحديث وعلا الضحك. وكنت حرياً بأن آنس الجوّ، وأن يذهب عني الضيق وتوتر الأعصاب، لولا شعوري بخطورة الساعة التي ترصّص بي... متى أتلقى عروسي؟ وأين... وهل يحدث هذا في خفية عن الأبصار؟ ومرّ الوقت. ثمّ انتهت بفتة على جبر بك السيّد وهو يقف حياي ويضع يده على كتفي قائلاً بصوت منخفض:

- هلّم يا سيّ كامل أرف الوقت.

ورلعت إليه بصري في ارتياح وغمغمت:

- آن وقت الذهاب!

فقال ضاحكاً:

- ليس في الحال ولكن بعد رة بسيطة؟

فسرت في جسدي رعدة وهفت في هلع:

- كلاً... كلاً... اتفقنا على ألا تكون رة!

- ليس الأمر كما تتصوّر، فقد أقمنا في الصالة الكبيرة منصّة للعروسين، فتجيء بعروسك وتجلسان عليها، الجميع يريدون أن يروا العروسين لها ذني أنا؟!

كان كلامه ينقلب في مخيلتي صوراً، فرائيتي أمشي وسط الجميع إلى حجرة العروس وأعد بها والمدعوون يحيطون بنا مهللين، ثمّ نجلس فريسة للأعين... ربّه... ساقع ممّعي عليّ.

وقلت بحرارة:

- ولكن هذه الرّة!... ليس في مقدوري!...

أرجو يا بك أن تعفني... لا أستطيع...

- الأمر أسهل ممّا تتصوّر، ولا بدّ ممّا ليس منه بدّ، وإلاّ ماذا يقول المدعوون؟!

فهفت في فزع:

- دعهم يقولوا ما يقولون. لا أستطيع... سأنتظر العروس على بسطة السّم ثمّ نذهب إلى بيتنا... ولم يتالك الرجل نفسه فضحك وصاح بي حتّى علا صوته على صوت المغني:

- بسطة السّم... يا لك من عريس عجيب!

وكان مدحت يصغي إلينا صامتاً، فضنط على ذراعي وقال لي بحزم:

- ما هذه الأفكار الصبيانية؟... ألا تريد أن تحيى بعروسك؟ ألا تستطيع أن تشق طريقك بين نخبة من السيّدات الفضليات؟ أتريد البك على أن يحتدر عن علم ظهورك بأنك خجول لا تستطيع الظهور أمام المدعوّات؟ وإضحيته!

وتشجّع جبر بك بكلام شقيقي، أمّا أنا فحدجت أخي بعينين غير مصدّتين، لم أكن أتصوّر أن تحييني الطعنة القاتلة من اليد التي أعتمد عليها، وضحك أخي لفزعي وذهولي، وأراد أن يتكلّم، ولكنّي قاطعته عزوئاً قائلاً:

- كيف تدفعني إلى ما لا قيل لي به؟... أتريد أن

تجعلني أضحكة المدعوّات؟

- ارفع رأسك، حلق في وجوه الحسان حتى يغبضن حياء!

ولكنني تقدمت على مهل خافض الرأس. لم أشك في أن منظري استثار الضحك المكتوم. وبلغ مسمعي صوت نسائي يتساءل: «أيها العروس؟» فأجابت أخرى: «الطويل!». كان المكان مكتظاً، وقد رأيت عديداً من السيقان والأحذية البيض على جانبي الطريق الذي أفسح لنا. ثم سمعت صوت أخي يهيم في أذني:

- بلغنا المنصة، اصعد إليها، وحي عروسك واجلس.

ارتقيت درجتين، ورفعت عيني في حذر وإشفاق فرايت حبيبتي جالسة تحت ظل من الأزهار، في ثوب العرس الأبيض وعلى رأسها هالة من الفل والياسين تسدل منها على الظهر ذيول من الحرير. وكانت بهاء ونورا وفلاً وياسميناً، وقد غُضت بصرها ولاحت على ثغرها ابتسامة خفيفة. وصرت منها على قيد خطوة، وتذكرت قول أخي: «حي عروسك واجلس». كيف أحبيها؟. أأسلم باليد؟. أم أوجه إليها تحية المساء؟ وترددت مرتبكا، ورأيت في ابتسامتها الخفيفة الحجلة ما ينم عن انتظار تحيي، ثم شعرت بما غاب عني لحظات قصار، أو عاودني الشعور بالأعين المحدقة به تكاد تحرق ظهري، ففقدت جناني، وجلس على المقعد الخالي دون أن أنبس بكلمة أو أحرك يدي.

أخطأت بلا شك؟ ماذا تقول النسوة؟. ماذا تظن حبيبتي؟. أه يا له من موقف؟. لو عرفت هذا من قبل ما فكرت في الزواج أبداً... الموسيقى تعزف، والزغاريد تجلجل، وأريج الروائح الزكية يتطاير في الجو. الموت أهون من الزواج! هل أطل الدهر ضحية للمنصات؟ بالأمس قضت منصة الخطابة بكليّة الحقوق على مستقبلتي، والليله تكاد تقضي منصة العروس على حياتي! ترى ماذا يلقن عن عيني اللتين لم تزاخلا الأرض؟! وذكرت بغتة أمي، ترى أين تجلس؟ إنها تراني في هذه اللحظة بلا ريب، وتضاعف حيائي، وتولاني شعور من يضبط وهو يقترب عينا. ووجدت

وتأثر جبر بك للمهجتي الحزينة البائسة، فقال برقة: - المدعوّات جميعاً من الأهل. وقد تعرّفت إليهن يوم الخطبة، وسرتي صدق قولي...

لم يزل الفزع يتملكني، وتسامى بي الضيق فقلت بتوسّل:

- نشدتكما الله أن ترحماني!

وكان أخي أدرك أن الكلام لا يجدي، فوجه خطابه لجبر بك قائلاً:

- يمكن أن تنقّ على حلّ وسط فتجيء العروس إلى المنصة بين صوحيحاتها، وأذهب مع أخي إليها، فيجلسان معاً بين الأهل ردحاً من الزمن قبل الذهاب...

وأومأ إلى البك ألا يعارض، فلذهب الرجل، والتفت إلى أخي مغيظاً عنقاً وقلت له:

- يا لك من أخ خائن!... كيف تسبّي هذا حالاً وسطاً وما هو إلا التنكيل بي...

فندت عنه ضحكة مجلجلة ذكرتني بأبينا وقال لي:

- إنك تعرّ بلداً، فدح النضال، وستلعب معاً... ليتني أجد كل يوم زفة فاشق سبيلاً طرياً بين النساء! وصمت لحظة قصيرة، ثم لكزني في كتفي وعاد يقول:

- إذا حدثتك نفسك بالنكوص فاهرب واستغن عن العروس!

واستسلمت إلى الواقع في يأس وضيق وهلع. وعرفت الفرقه نشيد الزفة فنفخت قلبي بارتياح وشعرت بدنو الخطر. وقرعت أذني الزغاريد الآتية من الصالة فاهارت قواي، والتفت إلى مدحت قائلاً:

- أما من حيلة؟ أما من طريق؟

فشدّ على ذراعي ونهض وهو يقول:

- طريق واحد يفضي إلى المنصة كأنك طفل يساق

إلى الختان!

وسار، فتحرّكت قدمي وقلي يخصوص في صدري...

وقال لي همساً ونحن نجتاز الباب:

صورها المعكوسة على مراياه التي ترسم حولها نصف دائرة، وراحت تنزع إكليل الفل والياسمين، بينما وقفت في وسط الحجرة مرتفعًا حافة الفراش الخشبي، مركّذا بصري بين ظهرها الرشيق وصورها المتنافسة في الحسن. هذه الحجرة هي دنيائي، وحسي بها من دنيا، وهذه الفتاة هي نصيبي من الكون وحسي بها من نصيب، هي حبي وسعادتي وأمل، ولئن أسأل الدنيا مطمعا بعد اليوم.

انتهت حبيبي من نزع إكليها، وأخلت تسوي ما بعثر من خصلات شعرها الكستنائي في تمهل من يرغب في اكتساب أقصى ما يسعه من وقت. ولكن سنتهي حثا فترة الانتظار لما العمل؟

رباه إن قلبي يقظ متوَّكب، وإني لأجد رعدة ترعش ركبتي، وإني لأتساءل في حيرة عن الخطوة التالية بنفس هَيَّابة وحياة شديد يدور مع دمي. وأدركت رغم اضطرابي أنه ينبغي أن نبذل ملابسنا، ولكنني لم أدر كيف يتم هذا وكلانا في حجرة واحدة مغلقة وبدت لي وكأننا نتنظر متي شيئا، فقد انتهت من تسوية خصلاتنا وإن تظاهرت بالعكس، ولاح في وجهها الارتباك والحرج. وإني أعلم أمورا ولكن فاتني التفاصيل، وأعوزتني الحيلة والعزيمة. ليني استخبرت أخي مدحت، أوليته كان لي أصدقاء أرجع إليهم في أمثال هذه الأسرار، ولكن قاتل الله الحياء الذي يقيم بيني وبين أخي والناس سدا، ثبا له! لماذا لا يزايلي وقد صرنا وحدنا!!

وبلغ ضيقي بصمتي وجسودي متهاة، وثار بي الغضب على نفسي، فصمتت لأتكلّمَن - وهو أضعف الإيمان - وقلت بصوت غريب أنكرته أذناي:

.. ما أجملك!

هذه أوّل كلمة غزل أقوم بها في حياتي... وقد سددت بصرها نحو صورتني المثلثة في المرآة وابتسمت، ثم غفقت بصرها، وشبكت ذراعها على صدرها. لم يعد يجدي التظاهر بتسوية الشعر فشبت ذراعها في استسلام المتطر. وازدحت حرجا، وعصفت على شفتي قهراً وغيطا. وبدا لي تغيير ملابسنا كأكبر مشكلة

إحساسا لا يقبل لي بمقاومته يدفعني إلى البحث عن موضعها، وارتفعت عينا في رفق وحذر، ولكنّها كانت أقرب عما أتصور، كانت تجلس في الصفّ الأوّل الذي يمدّق بالمنصة، فالتقت عينا، وتبادلنا ابتسامة رقيقة. وطار خيالي إلى صورة من الماضي البعيد، فزأني أقف وراء سور المدرسة الأوّليّة وهي بموقفها على الطوار المقابل للسور، ترون إليّ بعين التشجيع والتوديع، فشرعت بغمز على قلبي.

وتنفست الصعداء حين أقبلت نازلي هائم نحونا وقالت مبتسمة:

- الآن إلى بيتكما مصحوبين بالسلامة.

ثم خاطبتي هاسمة:

- سنذهب الجارية صباح مع سيدتها الصغيرة لأنّها لا تحتمل مفارقتها... وإني أوصيك بها خيرا، وستجد فيها خير طامحة.

وتنحت المرأة جانباً مغرورة العينين، وبهضنا من مجلسنا، وأخلت بيد عروسي وغادرتا المكان في سير وليد والزغاريد والأناغام تودّعنا حتى باب العارة. وكان أحد أصدقائه جبر بك قد وضع سيّارته تحت تصرّفنا حتى نبلغ دارنا. واحتوتنا السيّارة مشاء، ثم انطلقت بنا. والتفتُ نحوها متنبّداً فكأنّي أراها لأوّل مرّة.

وقلت بارتياح:

- يا له من موقف قاس!

- يا لك من خجول!... اهكذا الخد؟!

فندت حتّى ضحكة أداري بها ارتباك، وجعلت أتملّ غبطة تملأ القلب والعين والروح.

٤٠

أغلقت باب المخدع بيد مضطربة. كان هذا الجناح من الشقة خائبا صامتا، تفصله صالتان صغيرتان متداخلتان عن الجناح الآخر حيث توجد حجرتا أمي والاستقبال... وكان خدعا مربعا يتوسّطه الفراش، وعلى يمين الداخل مباشرة مقعد طويل ذو لون وردي، وفي الجدار المقابل التواليت والمشجب. مضت رباب إلى آخر الحجرة وجلست على مقعد التواليت بين

يضمتها إليه، فإذا يخلني؟! إن هي إلا خطوة أقطعها، فهل تكلف خطوة واحدة كل هذا العناء؟ كان قلبي مثلهما متعلّقا، وكان خجلي حارّا محرّقا، أمّا جسمي فكان ميتا لا حراك به! أأظنّ هكذا أبداً؟... لماذا لا أداري موتي بالحديث؟... ولكن ما عسى أن أقول... لقد عقد الاضطراب لساني، وكلّ دقيقة تمرّ تركني أشدّ ضعفاً واضطراباً. وهل حين بغتة انصرف ذهبي إلى حجرة أمي دون داع، وتساءلت ترى هل نامت؟ هل تتخيل ماذا أفعل الآن؟ وتضاعف اضطراب الحجل بنفسي، وشعرت بما يشبه الاختناق. سلّمت من جانبي باليأس والعجز، وتساءلت هل يبقى على هذا الوضع المضحك حتّى الصباح؟ ووجدت في أعماقي نزوعاً إلى الحرب، ولفظاً عليه، وكلمت أمتي لو لم يكن ما كانا... وأفقت من أشجاني على صوت حبيبي وهي تقول:

- الجوّ حارّ... -

وتحوّلت صوب النافذة لتفتحها، ووجدت فرصة مواتية فلذغت نفسي وراءها وأكملت عنها فتح المصراعين وهمت بحبيبي بالعودة فقلت كالسنثين:

- هلا وقفنا في النافذة قليلاً... -

ولبت حبيبي نداء الاستغاثة. فوقفنا جنباً لجنب لا يفصل بيننا إلّا قيراط. وكانت النافذة تطلّ على الناحية الخلفيّة للمعارة، وتقع تحتها مباشرة حديقة كنيسة تقوم بجنياتها أشجار عالية تتصاعد همسات حفيفها في صمت الليل. وفقت على وجهينا نسمة رطبية أنطلق إليها كما يتطلّع الطفل إلى القمر؟ ها هي ذي لا يفصلنا إلّا قيراط. وملت بجسمي في تودة وحذر، فتماسّت ملايسنا. ثم شعرت رويداً بجلوس طري، والتصق الجنبان. ونذت عني تهنّدة مسموعة أيقظت حيائي فتريت قليلاً. وخفت أن تصدني أو تبعد عني حياة فأغلب على أمري ولا يسود ثمة أمل، ولكنّها لبثت بمكانها وارتفعت حافة النافذة.

ودفعت ييسري إلى الوراء قليلاً، ووجهتها وراءها حتّى رسمت خلف خاصرتها نصف دائرة، وجعلت

في الوجود، فهل يبقى على هذه الحال الأليم حتّى مطلع الصبح؟... لماذا لا أمضي نحوها فأضمّها إلى صدري حتّى تحلّ المسألة نفسها بنفسها؟... ولكن كيف أقدم على هذه الخطوة العظيمة؟! إنّي أستطيع أن أتخيّل، وأن أأحدث نفسي، أمّا الإقدام على عمل فهو المحال. وامتلا قلبي غيظاً والكآ، وازددت إحساساً بالعجز والخزي، فصمّمت أن أخرج من صمّي على الأقلّ، فقلت:

- هالاً بدلت ملابسك يا عزيزتي؟

فقلت بعد تردّد:

- ليس أمامك!

لعلّها توقّعت دعابة أو مغازلة ردّاً على قولها، ولكنّي لم أنكر في شيء من هذا، وترنّرت تفكيري في إيجاد مكان أتوارى فيه ريثما تخلع هي فستان العرس. وتراجعت قليلاً جاعلاً الفراش بيني وبينها، ثم جلست على أرض الغرفة غتخياً عن عينيها وأنا أقول:

- بدلي ملابسك يا عزيزتي... -

وحسبتي قد ظفرت بالحلّ السعيد. وانتهزت الفرصة لمضيت أخلع ملايسي في هدوء عازداً أن يبدو منّي شيء، ووضعت البدلة على الفراش، وتناولت البيجاما وكانت ملقاة على المقعد السطويل، وحشرت فيها نفسي وأنا لا أزال ملازماً موضعي على الأرض. وانتظرت ملياً ثم سألتها برقة:

- هل انتهيت يا عزيزتي؟

فأجابني بصوت مهموس:

- أجل... -

فهبست قائماً وهنا وقع بصري على صورتني في المرآة فرأيت الطربوش ما يزال على رأسي فنزعته مبسّساً! ونظرت صوبها في حياء فوجدتها بمجلسها السابق وقد التفت في روب من الحرير الأبيض، وأدارت المقعد مستقبلة به الحجرة. وعدت إلى موقعي مرتفعاً حافة الفراش، راناً إليها في غبطة وهيام، وكلّما رفعت إليّ عينيها غضضت بصري في حياء. انتهينا من تغيير ملايسنا، لكن ليس هذا كلّ شيء!... بدلت الليلة وكان لا نهاية لمشاكلها... بيد أنّ قلبي يرغب أن

وذكرت في التوأمي، وتساءلت عما تظن بهذا الاستيقاظ المتأخر، وشعرت بحياء اليم، زاد من الله أنه لم يحدث ما يستدعي التأخير فقط، وأحسست بضيقة نقص عليّ معادتي، وكأنني أدرك لأول مرة أنّ الليلة الماضية لم تحلّ من فشل وإخفاق. على أنني قاومت هذا الإحساس الخائن، ورغبت من الأفراد به فسادت الحجرة. وقابلني في الصالة الجارية صباح - التي انصبت إلى أسرتنا - فهتأنتي «بالصباحية» وأخبرتني بأن العروس تنتظري في حجرة السفرة فمضيت إليها، ووجدتها جالسة كالوردة الياقوتة فأنشرو صدي بمنظرها وأقبلت نحوها منهلاً وقيلت خذها. وتناولنا إفطارنا ممّا المكّن من اللبن والشاي والبيض والجاتوه. وتبادلنا على المائدة حديثاً عادياً، فسألنا متى استيقظت، وأجابني بأنها استيقظت في الثامنة، وباتت تستيقظ في العادة مبكرة منها تأخر بها وقت المنام. ثم جاءت أمي فهتأنتنا ممّا، وجالستنا بعض الوقت. وانتقلنا إلى حجرتنا، وقضينا النهار في حديث عذب لا يمل. وذهبت عني الوحشة فأنست بها وقصصت عليها قصة حبي من البداية إلى النهاية، وكنا نفضل حديثنا بالليل السعيدة المتبادلة. وسألنا متى أحسّت بوجودي في دنياها، فقالت إنها فطنت لجوواني حولها وتطعني إلى الشرفة منذ عام أو أكثر قليلاً، وإن أمها لاحظت ذلك في نفس الوقت تقريباً، ثم صرت بعد ذلك حديث البيت فكانت الخادمة الصغيرة إذا لمحتني من النافذة أتيتني من طريق المئبل قالت لهم ضاحكة وعريس ست رباب، وكانوا يزجرونها بشدة، ولما طال بي المطال دون أن أقدم خطوة ظنوا بي الظنون، ونهنا أمها عن الظهور بالنافذة أو الشرفة في الأوقات التي أكون فيها بالحطة. وسألنا بلهفة:

- ألم تشعرني نحوي بعاطفة ما؟

فابتسمت ابتسامة رقيقة، فتحت فاهها لتتكلم، ولكنها أبقت شفتيها دون أن تنبس. وكان بي مهم شديد لسبب ما يبيل جوانحي فالحجت عليها أن تتكلم، فقالت بصوت لا يكاد يسمع:

- لا أدري... لا أدري متى أحيتك.

أصيحها على مهل وحذر وخوف حتى مسّت ثياب الروب الحريري، فست من مسها لقلبي رجفة ونذت عني للمرة الثانية تنهدة مسموعة. ثم توتبت بمجامع قلبي وأحطت خاضعتها بذراعي... ولم تبدي حبيتي لا معارضة ولا حراكاً. ونفضت عني أفكار التردد والمزمنة، وشددتها نحوي مستعيناً بذراعي اليم، وتلقيتها في حضني وأسندت جبينها إلى صدري، فهاوت بشفتي على مفرق شعرها، وغمنمت وأنا لا أدري:

- أحبك.

ولبنا في عنقنا، والله أعلم بما لبنا ثم تراجعنا متساكين إلى الفراش، وصعدنا إليه وذراعاي لا تتخيلان عنها. وأسندنا منكبنا إلى عمودتين عاليتين، وحبيتي وما عليها من روب على صدري وبين ذراعي، ومن عجب أنّ بصري لم يتفعل عليها فأنجمه إلى السماء خلال النافذة. وامتلأت نفسي حياة لا عهد لي بها. أمّا جسمي فظل جامداً بارداً لا ينض ولا تدب به حياة، كأن نفسي استأثرت بكل قطرة من حياتي. أسكرتني نشوة روحية باهرة غشاء طروب سامية، وظللت على حالي حتى مطلع الفجر، ولم أدر كيف استرق النوم خطاه إلى جفني...

٤١

استيقظت ونور الشمس يملأ نصف الحجرة تحت النافذة المفتوحة، فوقع بصري على المرأة، وعادتي ذكريات الليلة الماضية في لمح البصر. ودارت عيني في الحجرة فوجدتها خالية، وأدركت أنّ حبيتي غادرتها وأنا أعط في نومي، فتدّيت قلبي حناناً وبعثت لها بنية ودعاء. وقلت لنفسي إنّ متاعب الحطبة والزواج والزفاف قد انتهت، ولن يضمّر في المستقبل إلا صفاء لا يكدره مكتر. وراجعت ذكريات الأمس فساحت نفسي في متاهة النشوة والسعادة. بيد أنه لم يغب عني أنني لم أبداً بعد، وأنني لم أكتب حرفاً واحداً في كتاب الزواج الضخم. وغادرت الفراش ونظرت في الساعة فوجدتها قد جاوزت العاشرة، فهالني تأخيري،

مرت هذه الخواطر برأسي وحيثي ما تزال بين يديّ. فانتقلت غثالاً جامداً من شرّ الفكر، وضاعت سعادة السعادة هباءً. وتبدلت، ولعلها ضاقت بالوقفة، فوضعتني تبتدئها من أمد أطيع جودي. ورفعتها بين يديّ، وسرت بحملي المحبوب إلى الفراش، وأتمتها في رفق ثم اضطجعت إلى حانها. ودفعني الشوق إلى تقبيل شفيتها وخذلتها بعنقا بسرعة وغزارة، فذاخلتها رقة وأحاطت عنقي بلبراعها البيضاء والتصقنا طويلاً وتنامى بها العطف والحنان، واصططعت بقلبي أحاسيس الحب والياس واللذة والخوف فكأنني في مناهة حتى يذهب بي هلياناً ويحيي بين أخيلة السرور وأشباح المخاوف. إنني في حلم سعيد ولكنّ الخوف لا يزالني والياس يثير في وجهي غباراً، وكيف لي بالنجاة وجسمي ميت لا حياة فيه؟ وأحرق جفاف الخوف حلقي، ووقفت حيال عجزتي وياسي حائراً أتساءل، ولكنني لم أفكر لحظة واحدة في التفهقر، وأين المفر؟... بل دفعني اليأس إلى أن أنزع الروب عنها، فجرت يديّ إلى عقدة زناره وحللتها، وشعرت بصدرها يترعّف تحت صدري، فأزحت جانبها عن صدرها فبدا جسمها الرشيق في قميص من الحرير الأبيض لا يكاد يستر شيئاً، ويادرت تُرجع طرف الروب تستر فأتاحت مرة أخرى فأنحسر عن القميص الشفاف، ورنوت إلى هيئة الجسم الغائنة بعينين لم يترك لها الاضطراب إلا قليلاً من الإبصار. كان حالي كما يري له. ولم يكن عذاب محض يجاهد يائساً للاستمسك بحياة جسده بأسوأ من عذابي. ورغم هذا كله ثابت على عنادي، واستمدت من يأسى وعذابي قوة وإن لم تكن تجدي. إنّ الخبوع لا يفرّ إلاّ أن الحركة لأنّ الفرار نجعل حيال الغريم. أجل إنه يتحلمى المعركة، ويفرّ منها بعيداً عن الأعين، فإذا ولج ميدانها وغدا عطفاً للانظار بات القرار - كالعراك سواء بسواء - فوق احتمال. لذلك اجلست حبيبي ونزعت الروب من خراصيعها وتركتها قميصاً شفافاً وجسداً بافياً. وأدارت عنّي رأسها، وأخففته في الوسادة. ولم تكن تعلم بأنّ نفسي تحترق يائساً، وبأنّ

وشعرت بتخدير عميق وددت لو أنام به دهرًا. وجعلت وجهها بين راحتيّ متملّناً شفيتها اللتين برزتا تحت ضغط يديّ، ثم وضعت عليها شفتي، وذبت في قبلة طويلة، وجددت حبيبي فتنة، حذبها عذب، وبديتها حاضرة، وذكاؤها باهر حتى بدا حديثي على ضوء حديثها فائراً باهتاً. وودت لي لطيفة خفيفة الروح فلم يكن وقارها إلاّ تأذّباً واحتشاشاً. ولا أدري لماذا كنت أعجبها مثلاً لضبط النفس، بل وللبرود أيضاً، ولكنني لمست في قبلاها حرارة تذيب القلب، وفي نظرة عينيها عاطفة عميقة وإحساساً مرهفًا. وانطلقت على سجيّتها بأسرع مما توقّعت، وربما شجّعها على ذلك ما رأت من شدّة حيائي.

ولما جاء الليل وأغلقت الباب ورائنا قلت لنفسي وهي رهبة زحفت عليّ مع الظلام «الليلة يتم الأمر بإذن الله. لم تكن لي تجارب على الإطلاق، ولم أعرف من الحياة الجنسية إلاّ العادة الجهنميّة التي لم أكد أنجو منها، ولكنني عرفت أموراً بالسراخ عفواً - في الوزارة - لا أدري إن كانت تنفي عني شيئاً. ورأيت حبيبي واقفة حيال المرأة تمشط شعرها فرائني منظر قامتها الرشيق الفارصة، وتذائبت منها، ولففت ذراعيّ حولها، فاستدارت حتى شعرت بتمسّ صدرها على قلبي. وضممتها إلى صدري في حنان وهيام إنّه الحب، ولكنني أدركت بغريزي أنّه ينبغي أن أستنزله من النساء كثيراً كي أقوم بسواجبي... ولكن كيف؟. إنها تسكن إلى صدري كأنها طيف من نسج السحاب الطاهر. وإنّي أبدو كروح خالصة لا يحيط بها جسد فكيف أجد جسدي؟ وسرعان ما انسربت إلى نفسي مشاعر قلق وخوف وتوتر أذكنتها جميعاً تجرّبة الأمس الفاشلة. ولم تكن تراعت لي كتجربة فاشلة إلاّ في هذا الصباح، وكذبت رأبي أو كدت في أثناء النهار، ولكنني عدت إليه في تلك اللحظة بتسليم وفيّين وياس. ثم استحوذ عليّ الحياء القاتل فألتجّ دمي وأوهن عزيمتي. وركبني خوف شديد من الفراش الذي لا أجد لنفسي عدداً عليه بينا أجد شبه عدو بعيداً عنه.

اليس هو الجسم الذي يلتهم نارًا في العادة الجهنمية!!
والآلم يدوم هذا اليأس... ظل رأسي كقطعة عملة
من الحديد يتطاير عنها شرر الأفكار.

٤٢

حبيبي عطف ورحمة. وقد طالعتني في الصباح
بالابتسامة المشرقة. وثوبت هنا وهناك ببشر وسرور
ومرح، فلم يداخلي شك في أنها عروس سعيدة. ولو
بدا لي أنها تتظاهر بالبهجة لتخفف عني الحرج لما
وسمتني الدنيا شقاء، ولكنها كانت تصدر في مرحها
عن وحي فطرة بسيطة سليمة لا تعرف التصنع ولا
التمثيل. وشعرت بصدق وحق بأن فتاتي تحبني، وبأنها
قلب كبير مليء بالحنان والعطف والأمانة، فعاودني
الأمل. وقلت لنفسي إننا ما زلنا في البداية وإن
مسرّت لا حصر لها تنتظرنا إذا عبرنا الخطوة الأولى
الشاقة، وقضينا النهار معًا، بعضه في الحديث وبعضه
الأخر في مشاهدة الرسوم والألعاب التي مهّرت في
إبداعها لأطفال الروصة. وحين المساء زارتنا أسرتها،
وجلسنا جميعًا في حجرة الاستقبال ومعنا أمي أيضًا.
وتحدّثنا طويلاً، والتهنأنا بلذة الشيكولاتة والمثلّس.
وحاولوا أن يجرّوا أمي إلى الحديث، ولكنها - مني - لم
تكن محدّثة ماهرة، فبذت متحفظة، وخيل إليّ أن
محضرها لم يترك أثرًا حسنًا في نفوسهم، وأن رباب
شاركتهم نفس الشعور، وما لبثت أن سرت العدوى
إليّ، وكنت أجد نحوها إحساسين متناقضين. إحساسًا
بالرغبة في وجودها معي وهو ما ألقته وطُبع عليه،
وآخر بالحنين إلى وجودها في بيت الزوجية. والحقّ
آتي ما كنت أذكرها حتّى يتنوّى جيني خجلًا. وليّا
انفضّ السامر وأقبل الليل استقبلته بكآبة وخوف، وما
كاد باب حجرتنا يغلّق وراءنا حتّى نصب معين السرور
والبشر من قلبي، وغاض منه الأمل الذي ابتعته مرح
النهار، وبدا لي أن فتاتي تعاني بعض ما أعاني، وأنها
تداري قلقلًا لم تنفع لباقتها في مداراته. تولّدت عني الثقة
في أقلّ من ثانية، وتحايّلت ليعني ذكريات الليلة
الماضية، وتمتّعت لو كان في الإمكان أن ننام دون أن

هذا المشهد ما هو إلّا مهزلة، فتضاعف إلي وخجلي.
ومع ذلك مددت يدي مرّة أخرى كائنًا ما زلت أطمع
في أمل لا أدره. مددتها وهي ترنّح من اليأس
والبرودة فتدّ عن حبيبي صوت يمس:

- إنّي خائفة...

واخجلناه... ممّ تخاف؟!... لغد الحبتي
همستها كسوط تحلّت أطرافه بالرصاص، ومع ذلك لم
أتوقّف... لم تثني لا للمقاومة ولا الصلود... حتّى
بلغ النظر غايته ماذا دهاني؟ ليس الموت فحسب ما
بي. إنّه شيء جديد مفزع مزعج، ماذا دهاني؟! ربّاه
حبيبي جميلة لطيفة ولكنّه الجهل والخيال الأعمى!
كنت غرًا أعمى لم تر عيني نور الحياة، فتخيّلت عنه
خيالات صبيانية غليّا أن رات النور الحقيقي أنكرته!
إنّها مأساة. ولعلّه لولا موتي لما كانت مأساة عمل
الإطلاق. وقد علّمتني تلك التجربة القاسية أنّ الحبّ
يخلق الجبال كما يخلق الجبال الحبّ... ومهما يكن من
أمر فقد ركبني الفزع فوق ما بي من يأس وخجل ولم
يعد ثمة أمل. ولبّثت جامدًا وحبيبي دافئة وجهها في
السوادة، مستسلمة تحت رحمة جلاّدها... لبّثت
جامدًا لا أدري ماذا أفعل ولا كيف أترّاجع ووجدت
في لحظة رهبة قوّة عصبية متوتّرة تدفعني إلى الضحك
لولا أن تهاستك وشعرت في اللحظة الثانية برغبة في
البكاء، ولولا أنّ البكاء غجّل لسوّحت بالدمع عن
نفسي المتشاعة... ثمّ استنقلت الجمود كما خفته
فضممتها إلى صدرى وقبّلتها ومشاعسر العطف
والحنن - علينا معًا - تسيل من شفقي، كان رشاء
بالقيل. ومرّ الوقت كأنّ دقائقه وتوابعه أسنان منشار
يحرّ عني، ومزّت دقائق ورويًا ساعات. ثمّ انقلب
الحال عملاً مضيقًا، وفي حركة لطيفة تخلّصت من
ذراعي... وتغطّت بشبابها وبدا لي النوم نهاية مضحكة
ولكن ما حيلني؟! رقدت حبيبي دون أن تلتقي عيناتنا
لنم أدر متى رنّ الكرى يجفّنها. ولبّثت مسهّدًا متعبًا
لا أدري بأيّ وجه ألقاها في الصباح. أيّ شيطان
أغراني بالزواج... ألم يكن عذاب الحسرة القديم
خيرًا من هذا العذاب... كيف خاتني جسمي؟

فكابدت عذابي وحيداً صامتاً يائساً. وكان هاراً
محتلاً، بل بهيجاً بفضل حبيبي التي تذيب روحها
راكد الهَمِّ، حتّى إذا جاء الليل غشيتا كآبة لم تنفع
حيلة في تبديدها: كان كلانا يشعر بالخرج والضيق
والخوف. ولم تواتني الشجاعة على معلومة التجربة بعد
إخفاق الليلتين المتعاقبتين، فكننت أفتع بأن نضطجع
جنباً إلى جنب، وأضمتها إلى صدري، منتظراً الرحمة
في خوف وقلق وهلع، حتّى يتشلي النوم من عذابي،
ولئلك لم يزل الحياء حجاباً بيبي وبينها، ولو أتبع لنا
الامتزاج لرفع الحجاب رويداً رويداً، فلم استطع أن
أشكو إليها بَني وهَمّي، وطلما نالزعني نفسي إلى
الترويع عنها بالكلام، فما أكاد أفتح شفهي حتّى أطبقها
في ارتباك وشغل. وفي إحدى هذه المرات قالت لي
بصوت مهموس:

- هل ترغب أن تقول شيئاً؟ ..

ووجدت وراء تساؤلها دعوة إلى الكلام، ففحق
قلي بمنف وقلت في اضطراب أخطيه بجهد شديد:

- أرغب دائماً أن أقول إنّي أحبّك!

هذا حقّ في ذاته، ولكنّي كنت أرغب بلا ريب أن
أقول شيئاً آخر، وأحسست بأنّها تقراً صفحة أفكار
الخطيّة، فجثمت الكذب على صدري كالكابوس،
وغمغمت بعد أن جاهدت حياتي جهاداً مريراً:

- إنّ ما مضى من حياتنا المشتركة لا يقاس إلى ما
ينتظرنا من عمر طويل.

وخيل إنّي أنّ وجهها فترجّ بالاحمرار وإن كنت أراه
على ضوء المصباح الساهر الخافت، وادبعث شعري
بأناملها، ثمّ قبّلتني قبلة عذبة على شفهي، وسألني في
أذني:

- أيضاً بك شيء؟

فالتفت جسمي خجلاً والّها. وقلت بإخلاص:

- معاذ الله . . .

وصمّت على رغبتي ملياً، وقلبي يخفق بشدّة
وعنف، ثمّ قلت وبوتوي لو أتوارى عن ناظرتي:

- إنّها مسألة وقت . . .

هكذا تعاقبت الأيام، ومرة أخرى أقول إنّهُ لولا

نجرّب محاولة جديدة، وأيقنت بالإخفاق قبل البدء.
على أنّي لم أجد بداً مما ليس منه بدّ. وأعدت التجربة
بحدافيرها من قبل وعناق وإخفاق! أجل إخفاق
وإخفاق وإخفاق. مسكينة حبيبي، لقد استسلمت
بادئ الأمر فيها يشبه الخوف. ثمّ انتهت بأنّ لثمت نفسها
في حياء وارتيك. انتهينا في ساعة متأخرة كما انتهينا
أمس، فنامت هي، وبقيت مسهّداً متفكّراً. ماذا
بي. . . . إنّني أحبّها بكلّ قوة نفسي، بل إنّني أحبّها
عبادة ولئن يغلو بقي منها بعد اليوم لاهلكنّ لا محالة،
أتكنم المأساة فيها دهاني به النظر من انزعاج لم أتوقّعه!
ولكن هذا محض افتراء لأنّ موتي سابق للنظر فليس
فيها رأيت دخل فيه، بل إنّني ألفت الحقيقة التي غابت
عني سريعاً وتكاد تنهزم خيالات الوهم الصبيانيّة حيال
الواقع الحقيقي، ولم يتغيّر مَنّي شيء. . . . وقد أثر فيّ
حياتها وارتيكها - وهي ترتدي ثيابها - تأثيراً عميقاً
فانقسمت لا أقربين ليها حتّى يغيّر الله ما بي!

ومضت بنا الأيام في حبّ طاهر، فامتزج روحانا،
حتّى صارا روحاً واحداً في جسمين غير متصلين. ولولا
حبّها العميق، ومرحها الطليق، وبساطة قلبها الكبير،
لث غيّا وكمدًا. . .

وإنّما لاّيام عجيبة، وإنّه شهر عسل غريب! وكانت
حبيبي مثلاً للشعور الحيّ والرفقة البالغة والحبّ
الصادق. وكثيراً ما كنت أسترق إليها نظرات متخصّصة
مستريّة فلم أجد منها إلّا الصفاء والوداعة والرضا،
فكاد يقع في روعي أنّه لا يعوزنا شيء، واستطيع أن
أقول إنّني لم أنعم بالراحة إلّا في تلك اللحظات. وفيها
عدا ذلك كانت حياتي جيّداً مستعراً لا يدري به
أحد، لم تعد سمادي إلّا أوقات طارئة كأنّها إفاقلت
منّ بعالي سكرات الموت. وشعرت بشدّة حلجتي إلى
المشير. ولكنّ حياتي وقف في طريقي سداً منيماً
كالجبل الراسخ فاستحالت عليّ المشورة حتّى محرّد
تخيّلها كان يشبّ فيّ ناراً ويبعث في نفسي إحساساً
قاهراً للفرار والاختفاء. وفضلاً عن هذا وذاك فلم
يكن لي صديق، وكانت لتي - وهي صديقي الوحيد
في دنياي - أبعد من أن أذكرها في هذا الأمر خاصّة،

حبها العميق ومرحها الطليق وبساطة قلبها الكبير لم تُغَيَّرْ وكَمَدًا

وذات مساء - وكان مضي على زواجنا ثلاثة أسابيع - لاحظت أنها تخالسي نظرات تنم عن الحيرة، وأن لديها ما تقوله، فقلت لها مدفوعاً برغبة قوية في استدراجها إلى الكلام:

- في عينيك كلام...

فقلت مبتسمة في ارتباك:

- أجل...

فمضيت إليها وكانت جالسة على المقعد الطويل وجلست لصقها، وقلت مستسلمًا للشعور الطارئ نفسه:

- هاني ما عندك...

- أمي...

وانفجر الاسم في أذني كالقنبلة، إنه لفظ واحد ولكنه يتضمن كتاباً، وإني على رغم غيابي أفهم ما يعنيه. ولعل الأم تتوابعها بهذا السؤال الطبيعي المعروف فتسمع ردًا على سؤالها جوابًا واحدًا لا يتغير «كلاً بعد...» ولما طال السكوت قالت حبيبي بركة:

- إنها لا تفنأ تسألني، ولا أدري ماذا أنفد صبرها...

وقتلني الحجل، وتيزرت غيظاً، ثم قلت بهدوء:

- هذه شؤوننا الخاصة، اليس كذلك؟

فقلت كمن تمتلئ:

- طبعاً... إنني لآ تريد أن تطمئن علينا. هذا كل ما هنالك...

فسألتها عزوباً مني:

- وماذا قلت لها؟

فقلت باهتمام وعجلة:

- لم أقل «شيئاً» مطلقاً... فقط صارحتها بأن لا داعي للعجلة.

- وماذا قالت؟!

فتفكرت ملياً كأنما لترن كلماتها، ثم قالت:

- قالت لي إن للموقف رهبة، وخاصة بالنسبة لشاب طاهر عجول، وإنه إذا دعا الحال فلدينا صباح الجارية...

فأنتسعت عياني دهشة وقلت بهذول:

- صباح!

فأومأت برأسها بالإيجاب في ارتباك، فتساءلت بدهوة:

- وماذا تستطيع صباح؟

وترددت لحظة، ثم أنشأت تشرح لي ما غمض عليّ أوّل وهلة، وأنصت إليها باهتمام حتى أدركت كل شيء، وأخذت أفق من ذهولي رويداً رويداً. ولست أخفي أنني شعرت بارتياح إلى اقتراح الأم، فهو يزيل عقبة من سبيلي، ويخففني من بعض المسؤولية، ويعفني من مراقبة الأم، ولا أظنها تسأل بعد ذلك عن شيء... وسألت زوجي بحياء:

- وكيف نخبر صباح؟

فقلت ببساطة:

- لقد حضرت صباح جانباً من حديث أمي...

فهتفت بحياء وانزعاج:

- كيف؟... كيف بالله!

فقلت مبتسمة:

- لا عليك من هذا، إنها أمي أيضاً ولا نخفي عنها شيئاً.

وتبادلنا نظراً طويلاً صامتاً... ثم سألت في إشفاق:

- وهل علم أحد من الآخرين؟

قالت بلهجة لا تدع مجالاً للشك:

- مطلقاً...

فداخلتني ارتياح، ولكن شعرت بحاجة إلى مزيد من الاطمئنان، فقلت بلهجة ذات معنى:

- أرجو ألا تخرج «أسرارنا» من هذا الباب!

فحدجنتني بنظرة عتاب وتساءلت:

- أبدأخلك في هذا الشك؟!

وعدت وأنا لا أدري إلى أمر العادة الجهنمية التي لم يعرفها زوج قبلي.. ألا ما أشد حيرتي وقهري! كيف يقع لي هذا قلبي بعد عبادته!... بل كيف ونظرة إلى وجهها أنفاس عندي من الدنيا وأنعمها!.. إنها حياتي وسعادتي ودنياي جميلاً.

وجدتها يوماً وكأنتها تعاني رغبة الإنصاح عن شيء، يمتلج بنفسها، ففحق قلبي قللاً وخوفاً، ولكن لم يسعني أن أنجاهل ما رأيت مفضلاً أن ألقى الخطر وجهاً لوجه على أن أضيق جديداً إلى ما أكنتمه في نفسي من القلق والواسوس، فسألته:

- ماذا وراءك يا عزيزتي؟

فلاح في وجهها التردد والضيق ولائت بالصمت، فتضاعف قلقي وقلت بفؤاد منقبض:

- هاتي ما عنك لا تخفي عني شيئاً...

نفضت قائلة:

- أمي...

وقع قولها من نفسي موقع الفزع والملع، ما بال هذه المرأة لا تريح ولا تستريح! ولشد ما أبغضتها في تلك اللحظة، على أنني تساءلت متظاهراً بقلة المبالاة:

- ما لها يا رباب؟

فقال بصوت منخفض وهي تنظر فيها بين قدميها:

- لا تفتأ تسألني هل جدٌ جديد في الطريق!

ومن عجب أنني فهمت المراد من هذا المجاز! فهمته بغريزتي، أو بالخوف الكامن في نفسي وبلا أدنى تردد، ولكنني تساءلت متجاهلاً:

- ماذا تعنين يا رباب؟

فاومأت إلى بطنها وهستت قائلة:

- تعني هل جدٌ جديد هنا؟!

تولاني فزع شديد، فأطرقت مرتبكاً محزوناً، عمّ تسأل المرأة؟ لعلها تريد أن تعرف شيئاً أخرى ضماً، وحنقت عليها حقاً فظيماً. واختلست من رباب نظرة فوجدتها ساهمة الطرف، صامتة... أحشاً يضايقها تساؤل أمها لم هي تبالغني وفي نفسها غرض؟ أبانت بدورها تشارك أمها قلقها وجزعها؟... ولذا تنواري

ولكن ليس هذا كل شيء في الزواج. وكيف يكون كل شيء وهو «واجب» قامت به صباح؟! وتساءلت في سذاجة مضحكة عما ينقص حياتي الزوجية، وهل هو ضروري لهذه الحياة! ومن عجب أنني ترددت عن الجزم! وتساءلت ألسنا سعداء! نحن نعيش في هناء وغبطة، ويجب كلانا صاحبه حباً لا حد له ولا يدخل أحداً شكاً في سعادتنا، فلماذا تزعجني الأوهام؟! ولكن الإنسان موكل دائماً بالتفكير فيما ينقصه، حتى لينسى ما بين يديه بما هو بعيد عن يديه، فلم تزيلايني الوساوس، ولم أستقم لحياتي. وفي ليلة من الليالي، وكنت مضطجعا على ظهري أراود النوم وقد رنق الكرى بجفني حبيبي، طاف بي الفكر مسارح بعيدة حتى نسيت ما حو لي أو كدت، فساورني شعور بالوحدة، قوّاه في نفسي ما يحيط بي من ظلمة، ورويداً وجدت حياة تدب في جسدي، كذلك الحياة التي كان يستثيرها الظلام والوحدة.

وسرعان ما استخفني الفرح فكدت أصبح من فرط سروري. ثم أثقلت على حبيبي النائمة أيقظها بالأقبل حتى فتحت عينيها في انزعاج استحالة دهشة، ومزّت ثوان قبل أن تستفيق من دهشتها، ثم مدّت ذراعها إلى عنقي فضممتها إلى صدري بلهفة وشرق، ولكنني ما كدت أفعل حتى عاد كل شيء إلى أصله، وزحف الموت البارد على جسدي حتى شملته في أقل من ثانية، وانقلبت إلى حيرة خرساء وشغل غزاً وتبادلنا نظرة غريبة على ضوء المصباح الخافت، وبدأ في وجهها أنها لا تفهم شيئاً فسألته:

- أكنت تحلم؟

ما أصدقها من كلمة وإن قيلت اعتباراً، ولشد ما زلزلتني تلك الحادثة زلزلة عنيفة قضت قضاء مبرماً على ما كان يترامى لي أحياناً من أمل وإيم، وعرضت لي خلوات أخرى في ظلام الليل وحبيبي غارقة في نومها، وعساووني ديب الحياة الشريب، ولكن لم تواتني الشجاعة مرة أخرى على إيقاظها، ووجدتني أتردى من جديد في الهاوية التي انتشلتني الزواج منها قرابة شهر،

تعتري حبيبي الطاهرة المحتشمة هذه الشهوة الوحشية؟ إنَّ هذا لايفض عما أتصورا

وانتهت إجازتي فعدت إلى إدارة المحازن بالوزارة، واستقبلي الموظفين استقبالا حافلا، لم يكن لي بينهم صديق، ولكن المناسبة - عودة عروس من شهر العسل - أنستهم تحفظهم فأقبلوا عليّ بين مهق ومداعب وتلقّيتهم في صمت وأرتباك وخجل، وتكلّموا كثيرا. وتطرّع أحدهم بتحذيري من الإطراط، واستفصالح الحديث حتّى ألهاهم عني، ونحاضوا في طبيعة الرجل وطبيعة المرأة، واستشهدوا بالأمثال والحوادث والحكايات. أنصت إليهم خفية وأنا أتناظر بفحص الآلة الكتابة، بقلب مكلوم ونفس معدّبة، وكمت قمت أن يشهد أحدهم بحالة «كحالي»، ولكنّ حالتي لم تقع لأحدهم في حساب، وامتلأت نفسي بما سمعت حتّى دارت بي الأرض، إنَّ رباب امرأة فهل يصدق عليها ما يصدق على النساء إن صحّ ما يقوله هؤلاء الموظفون؟ أمكن أن تضيق بحياتها أو تحمل عثري؟! ولكنها سعيدة؟ ما رأيت وجهها إلّا متألقا بنور السعادة، وما رنت عيناها إلّا بالحب والإخلاص، إنَّ وجهها لا يعرف الرياء، وإنّه نصفحة نقيّة ومرتاد طاهر لا يكتم كدبا ولا يداري إثما. كذب هؤلاء الموظفون! إنهم حيوانات فلا يرون الناس إلّا حيوانات مثلهم. بيد أنّي غير مطمئن، ولن أذوق الطمانينة مهما أقنعت نفسي بها، لقد نبت دُمْل الشك. ولما خلوت إلى حبيبي ذلك اليوم جعلت أنظر إليها طويلا متفكرا دون أن أنبس، حتّى ضحكت وقالت لي:

- هل عاودك الحنين إلى النظر الصامت القديم؟ وهفّت على فؤادي نسمة لطيفة من قديم الذكريات حين فؤادي مضطرم وأسلي مشرق رغبته البلوى لا تدور لي في خلد. وتعلّيت الذكرى ملأ، ثمّ سالتني في إشفاق:

- رباب... آنت سعيدة؟

خلف أمتها؟ إنَّ المكر لا يجمل بمن كانت في مثل جهالها وطهارتها، وما كان أضاما عن اللث والدوران! هكذا حملني الفزع على عدم تقدير موقف فشائي المظلومة. واشتدّ بي الحرج حتّى أرهقت وأعياني، ثمّ تركّز اهتمامي في شيء واحد، وهو أن أسبرمدى ما تعرف نازلي هائم من أسرارنا، فسألتها قائلاً:

- وماذا قلت لها؟

فقلت ببساطة:

- قلت لها الحقيقة!

فنشّج قلبي تشنجة حادة وصحت بفزع:

- الحقيقة!

فحدجني بدشه وتساءلت:

- ما لك؟!؟

فهتفت في انزعاج:

- أحمًا قلت لها الحقيقة؟!؟

فقلت بعجلة ولهجة:

- أجل قلت لها إنّ لم يجد شيء بعدا

وتنفس الصعداء! إثّا تعني حقيقة غير التي تشغل بالي. عل أنّه بقي في النفس شيء. فقلت بحرارة:

- «رباب» أهذا كلّ ما قالت؟ لا تخفي عني شيئا وأنست قلبي وحياتي.

فقلت بارتباك وقد قرأت البراءة في عينيها:

- عمّ تساءل يا كامل؟ إنّي لم أقل لها كلمة واحدة زيادة عّا قلت لك. لقد سألتني عن هذا الأمر فلم يسعني إلّا أن أجيب بالحق والصدق، وهو أمر كما تعلم لا ينفع فيه الكذب، فهل تراني أخطأت؟ أم كنت تريدي عل أن أتناظر بالحب...؟

فقلت في ارتياح نسبي:

- كلّ يا عزيزتي... لقد أحسنت بصراحتك...

لن أذوق طعم الأمان ما دامت هذه المرأة على مقربة منّا... ربّاه، إنّي أحضن همّي وحدي لا صديق ولا مشير. ولقد ضقت ذرعا بأمّها وبأمّي وبنفسى! وعاونني السؤال القديم: هل ما ينقصنا ضروري للحياة الزوجية؟ هل تمجّد حبيبي مثل هذا الإحساس الحيواني الذي دفعتني إلى اعتناق العادة الأثمة؟! أمكن أن

بالخط الكبير: «الدكتور أمين رضا، أخصائي في الأمراض التناسلية من جامعة دبلن» ولم أكن رأيتها من قبل، فحدثني نفسي فجأة بالجوهر إلى الطبيب. ومع ذلك لم أستسلم للفكرة بغير تردد. ثار خجلي وخوفي، وكادا يشيانني عثا خطري لي ولكن تلهفي على النجاة كان أقوى من خجلي هذه المرة، فصممت على الذهاب ذات مساء، وذهبت...

كان الطبيب مشغولاً بفحص مريض. فجلست في حجرة الانتظار، وكانت الحجرة خالية فداخلني ارتياح عميق، وإن شعرت بالاستهانة بالطبيب. ولم يطل بي الانتظار، فدُعيت بعد دقائق إلى حجرة الكشف ووجدتها آية في فخامتها وأناقته، كاملة العدد، وبها من أدوات الرهبة ما رآه إلى المارِب من نقى. وإلى بين الدخول مباشرة جلس الطبيب إلى مكتب كبير مزدحم بالكتب والكراست. كان شاماً في الثلاثين على أكثر تقدير، نحيف القوام، طويل القامة، مجعد الشعر، ذا بشرة سمراء وقسمات دقيقة واضحة، وعينين حادتين تلتصقان وراء نظارة أنيقة. وكان مما يلفت النظر إليه شارب كثيف فاحم غطى فمه وأكسبه وقاراً ليس من سنه، حبيته فرد تحني باقتصاب، وحجني بنظرة مستهمة قرأت فيها الترفع والكبرياء، وثقة بالنفس تبلغ حد الغرور، فلم ارتع إليه. وكان منظره عامة حبيياً لأملي، لاني توقعت أن أرى شيئاً مهيئاً بساماً كطبيب ذهبت بي أمي إليه مرة منذ أعوام طوال، فاستأنت ووددت لو لم أكن قدت نفسي إلى هذا الشرك. وقال لي يهدوء:

- تفضل بالجلوس.

فأذعنت وأنا أرمقه بقلق. وجعل ينظر إلي منتظراً أن أبدأ بالكلام. ولكن فكري تشتت وجف حلقي وليش ملازماً الصمت حتى قال مستأثلاً:

- أفنم؟

فاستجمعت قواي، ولكني لم أزد عل أن قلت:

- جئت للكشف.

فسألني بدهشة:

- ماذا تشكو على وجه التحديد؟

فنظرت إلي باستغراب وقالت بصوت ينم عن الصدق:

- سعيدة جداً...

فتساءلت وعيناي تطرقان من فرط الحياة:

- المحبيني؟

وكانت على بعد شبر مني فترجحت حتى التصقت بي ورفعت إلي وجهها موزداً وغمغمت:

- أجل أحبك...

فأطعت خاصرتها بذراعي وقبّلت شفيتها وخدّها، وتناولت يدها الصنبرية الجميلة وجعلت أقبل أناملها أغلة أغلة في حنان وهيام، وكنت في الواقع أمهد بما قلت لما أرطب في الإفصاح عنه عما ضقت بكلماته، وليّا هممت بالكلام خاتني شجاعتي واتمعد لساني. أردت أن أبثها همّي، وأن أعترف لها بأن ما يعتري حيالها طارئ غريب لا أدري كتبه، وأني لم أكن كذلك بل إنني لست كذلك إذا خلوت إلى نفسي، وأن أسألهما المشورة والمعونة، لهذا ما كنت أريد البوح به، ولكن خاتني العزمية فنكمت مغلوياً هل امري. ثم سلمت بالهزيمة كعادتي، وجعلت أسوئها لنفسي قائللاً: إن البوح بهذه الأسرار حري بأن يسيء إليها ويغضبها، وربما قضى على سعادتها قضاء مبرماً.

وعندما أويانا إلى الفراش حدثني نفسي بأن أعاود التجربة، ولكنني ترددت، وترددت طويلاً حتى غلّكتني الخوف فوراً قلبي فرازاً، لقد بت أخاف جسمها بقدر ما أحبها، وثأملت حياتي في صمت الليل وظلمته، فبدت لي غريبة متنافرة، وضاق صدري فلم أجد من متنفس له غير البكاء فبكيت طويلاً...

وخطرت لي أن أشتير طبيباً، وجاء الحاطر فجأة، بل لعل كان محض مصادفة، ولم أكن فكرت في استشارة طبيب لحلي الشديد من ناحية، ولا اعتقادي بأن حالتي لا شأن لها بالطبيب من ناحية أخرى، ولكن بصري قد وقع يوماً وأنا في طريقي إلى الوزارة على لافتة كبيرة مثبتة على شرفة بشوارع قصر العيني قد كُتب عليها

وعانيت عذاباً شديداً قبل أن أقول:

- إني رجل متزوج.

ثم سكّ، أو بالأحرى انعقد لسالي، ولكنّي استقلت السكوت، على حين استحثّني عينا الطبيب الحاذقان فاعتزّلت بكلّ شيء! تكلمت بادئ الأمر باضطراب وتعثر، ثم تشجعت بما لاح في وجهه من أمارات الجذّة والزناة فتدلّقت بلا توقّف، وشعرت كأنما أقيمت عن عاتقي حملاً ثقيلاً، وكأنما بات هو المسئول من الآن فصاعداً عن الشقاء الذي نغص عليّ صقوي. وسألني الطبيب:

- متى تزوّجت؟

فقلت:

- منذ قرابة شهر ونصف.

- متى وجدت هذه الحال؟

قلت باعتماض:

- من أوّل ليلة.

- هل انتابتك قبل الزواج؟

- لم يكن لي تجارب مطلقاً...

وسألني عن الأخرى فتردّدت لحظة ثم أجبت بالصدق. وسألني عن بعض التفاصيل فأجبت بصراحة، ولم أخف عنه إنسراطي المخيف. وعاد يسألني.

- ألم تمارس عادتك بعد الزواج؟

وأعجبت به لسؤاله الذي بدا لي فراسة شاقبة فقلت:

- بلى...

فقال متفكراً:

- كأن طبيعتك لا تتغيّر إلّا بحيال زوجك.

فقلت بحيرة وأسى:

- أجل...

فسكت ملياً ثم قال:

- سأطرح عليك أسئلة صريحة وأرجو أن تجيبني

بالصدق. هل تحبّ زوجك؟

- جداً...

- أيتها شذوذ من أيّ نوع كان، أو بروفة في الطبيعة؟

- أبداً...

- هل نشأتما نشأة واحدة منذ الصغر؟

- إنهما ليست من ذوات قرباي...

والقى عليّ بعد ذلك أسئلة استغفلتها، ولكن لم يكن بي شيء منها، فأجبت بصدق وصراحة. ورفض قائلاً، ثم أجرى عليّ فحصه في أناة وعناية، فاحتملته بقلب واجب ونفس يصطرع بها الأمل والياس. وعدنا إلى جلستنا السابقة، فراح يقفد في كراسه ما يمنّ له ثم اعتدل في جلسته وقال لي:

- جسمك سليم. أجل إنك أسأت إلى نفسك

بعادتك المرفولة فتركت بك أثرًا يحتاج لغسيل خاص، ولكن لا علاقة لحالتك الأخرى بهذا فيما أعتقد، فليس عمزك بنائئ عن سبب فيزيقي، ولعلك تعاني أزمة نفسية، أليس في بلادكم عيادات نفسية؟

فلم أفقه معنى للشطر الأخير من كلامه، وعجبت لقوله «بلادكم» كأنه أجبتني عن هذه البلاد. وقلت له بدشة:

- أنت أعلم مني بما تسأل عنه يا دكتوراً

فقال مبتسماً:

- الحقّ إنّي حديث عهد بالوطن، ولم أفتح عيادتي

هذه إلّا منذ أيام...

فادرّكت لماذا وجدت عيادته مقفرة، ولماذا لم أر لافتته من قبل. بيد أنّي بتّ أدرك كذلك أنّ هذه المرمطة التي اجتليت بها قد انتهت إلى لا شيء، فعاودني القنوط والكمد. واستطرد هو قائلاً:

- ليس بك من نقص مطلقاً، وإنك تستطيع أن تقوم بالواجبات الزوجية، وستقوم بها يوماً ما فلا تدع اللباس سبباً إلى نفسك. كثيراً ما يحدث هذا لبعض الشبان ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى حالتهم الطبيعية بعد فترات متفاوتة، فانتظر يومك بثقة لا شك فيها. وانصحك أن تمرّ صليّ للغسيل حتّى تزول حالة الاحتقان الخفيفة.

أصغيت إليه باهتمام وبكلّ جوارحي، وتنازعني

مخلصة، ولم تعد إلى ذكر أمها، فلم أدر إن كانت المرأة انقطعت عن تساؤلها أم كانت حبيتي تخفي عني ما يدور بينها من حديث. لشد ما أحبها يا ربي، إن امتزاجنا في حياة واحدة لم يذهب عني سحرها، بل أسكنها أعرق مكان في قلبي. وإني لأهمي بها وهي لصقي على المقعد أو الفراش كما كنت أهمي بها وهي تلوح في الشرفة أو وراء زجاج النافذة. وإنه لمن الثعاسة حقاً أن ينقص عليّ سوء الحظ تلك الأيام الخافلة بأشهى فرص السعادة والمناه.

وكان سوء الحظ لم يقنع بما رماني به في نفسي، فرماني بأمني أيضاً...

وأني على تأديتها لم تكن لتصلح أبداً في مداراة عواطفها، فإن لم يمنحها لسانها خائنتها عيناها، وإن لم تحتجب عيناها تحت عليها ما التزمت من حال عربية سليبة. انطوت على نفسها، وجعلت من حجرتها سجنًا لا تكاد تغادره، وكأنها فرغت للعبادة والصلاة، ولم تحف على رباب هذه الجفوة الطويلة، وكانت على دعائها ورفقتها تنقلب حيال أمني كاتبة امرأة من النساء انفعالاً وغضباً، فكانت لا تفتأ تقول لي: ولشد ما تكرهي أمك. ولم تقبل أمني أن تثير من سلوكها، معتلةً بأنّها لم تعد صالحة للمجاملة والاختلاط. وكنّت إذا ذهبت للجلوس معها لتقتني برقةً وابتسام، وحديثي بخضوع واستسلام، فسرعان ما أشعر بغربة الجوّ، ويأبى حجاباً ثقيلاً يقوم بين نفسيها، ويأتي حيال شخص آخر غير الأم التي عرفتها طوال تلك الأعوام. وما أكاد أفاقمها بأن زوجي تضيق بتحفظها حتى تقول لي بحدة: «إنّ زوجك تكرهي، هذا كل ما هنالك». كنت أجهلّد وأتصبر والألم يحض نفسي والكآبة تغشى روحي...

وذهبت مرةً إلى أختي راضية لقضاء يومين، وكان المكان أعجبها فمكنت اليوم الثالث وأوشكت أن يلحق بها اليوم الرابع. كان أول أيام نفرتي في حياتنا المشتركة، ففعل على قلبي فراقها، ووجدت وحشة لا تطلق في خلوّ البيت منها، وذهبت إلى شقيقتي لأعود بها فلم تحبّ رجائي وعدنا معاً.

البأس والأمل بعنف وقسوة. متى يأتي هذا اليوم! وهل يأتي حقاً! انتهى الطبيب من عمله وقوله، ولكتني لم أبدأ حراكاً وظللت متشبّثاً بمكاني، وثبتت عيناها عليه في استغاثة وضراعة. ثم سألت:

- ماذا عانيت بالعبادة النفسية؟
- أوه... إنها عيادات من نوع حديث ولا أحسبها توجد في بلادنا. ولكن لا تلق بالآلام قلت، ولا أظنك في حاجة إليها.
- قلت إنني ربما كنت أعاني أزمة نفسية. فما معنى هذا؟

- قلت لك لا تلقي بالآلام قلت قد غلبت في تقديري، ولست على آية حال طبيياً نفسياً فلا أخوض بك أموراً عسى أن تضّر أكثر مما تنفع. إن علاجك بيدك فلا تيأس ولا تفقد تفنك بنفسك واقهر الخوف والقلق، وانتظر الشفاء بثقة لا شك فيها.

وسألته سؤالاً آخر:
- أرايك هذا حاسم لا شك فيه؟
فجابني بثقة:
- أجل...

وغادرت العيادة حزيناً مما دخلتها. عدت وبني أمل ورجاء. وقلت لنفسي. إنّ الطبيب لا يكذب ولا يخطن فاستخفي السرور، وقطعت الطريق إلى البيت مشياً على الأقدام. ومررت في طريقي بالصيارة التي تقطنها أسرة زوجي، عمارة الذكريات، فحلّق بي الخيال بعيداً، وعلى حين فجأة فتر حماسي واستحوذ عليّ القلق، ولم ألبث أن انقلبت إلى التجهّم، بيد أنني رحت أردد على مسمعي ما أكده لي الطبيب متلصّساً الثقة بأيّ سبيل.

وبالرغم من قلبي السدائم كنت أعكّل النفس بالشقاء. وواصلنا حياتنا البرية بمدوني هذا الأمل. وكنّت أسترّق إليها النظر إذا اشتدّ بي القلق وأسأل نفسي ترى أهي سعيدة حقاً كما تبدو لي؟ أما تزال تحبني؟ أمّا هي فكانت تبدو سعيدة راضية، عجة

وقلت لها في الطريق متوقّداً:

- لم أحتمل البيت بغير وجودك...

فافتّر فخرها عن ابتسامته صافية، وكانت تتألّف بالكلمة الطيبة تأثّر الأطفال ولكنها قالت لي:

- يَئِجِلْ إليّ أنّ وجودي في بيتك لا معنى له، وإنّه يضايقكم.

فاحتقني قولها، وقلت باستياء:

- سابعك الله على ما تمريننا من تهمة باطلة. لقد تغيّرت يا نينة بلا موجب فتغيّرت الحقائق في نظرك، ولا يسمي إلا أنّ أقول مرّة أخرى سابعك الله.

فنظرت نحوي بغرابة وقالت يهدوء ويقين:

- إنّ زوجك تكرهني، وبالتالي فهي لا تؤدّ بقالي في البيت، وقد ظننت أنّ ما تؤدّه زوجك ينبغي أن تؤدّه أنت.

وشعرت بأنّها لا تسترقّ بي متعمّدة فكاد ينفجر غضبي لولا رغبي الصادقة في المسألة والمصالحة فكلمت نفسي وقلت وأجماً:

- إنّ زوجي لا تكركه، وهي على العكس من هذا تظنّ أنّها موضع كرهك لما تبدين نحوها من تحفّظ وجفاء ومقاطعة. حرام عليك أن تقول قولاً ينقص عليّ حياتي..

فيدا على وجهها الارتباك ولم تنبس بكلمة. رثاه. لشدّ ما تغيّرت!... ألا يمكن أن تمنحي ابتسامتها المشرقة بدلاً من هذه الابتسامة الباهتة؟... ألا تعود إلى فتح صدرها لي في ثقة وطمأنينة؟ ترى هل ينبغي أن أكشفها بآلامي لتعلم بأنّي لم أتزوّج في الواقع وأنّي أشقى إنسان في الوجود تصفح عني وتعود إلى سابق عهدها؟...

ورجعت من الوزارة يوماً فوجدت زوجي باكياً، فهالني الأمر، وأقبلت نحوها في جزع ولم وانزعاج. وكانت صباح حاضرة فأخبرتني أنّها - صباح - كانت تبأشر عملها في المطبخ حين دخلت عليها أمّي وجرحتها بانتقاد مرّة فتدخلت زوجي لتصلح الأمر فما كان من أمّي إلا أن رمتها بكلام قارص غادرت المكان على أثره باكياً...

وذهبت من فوري إلى حجرة أمّي ثائر الأعصاب، فما روّعي إلا أن أجدّها عمرة العينين من البكاء.

ولمحت عبوس وجهي نهفت في توجّع:

- هل أرسلتكَ لتؤدّيني!

فرفعت رأسي إلى الساء وقلت من الأعياق: وبأ ربّ الساء خذني وأرحني من الدنيا ومن عليها.

ولكنّها صاحت بي:

- بل يأخذني أنا، إنّ عجز لا خير فيها. أما كان يعمل بزواجك أن تؤدّ شكوها حتى تحلّ ثيابك وتساكن لقمته؟... ولكن هيهات أن تدلن لغير عاندا وتجبرها..

فقلت في استياء وغيظ:

- إنّها تبكي بكاء مرّاً..

فصاحت بي وكأنّها فقدت أعصابها:

- لقد صيّتي وشمتني حتّى شعبت، وهما هي تستبطنك بدموعها الكاذبة لتوغر صدرك وقد أفلحت...

ما أضيق الحقّ بين النساء! لقد أعياني الكلام والنضال ولم أنته إلى شيء. وأعجزني أن أصلح بينها فنكد عيشنا طويلاً وساد البيت جوّ خصام. وكففت يدي يائساً تاركاً للأيام أن توفّق بأناسها فيها أخفقت فيه.

وبدأت أشعر في حياتي الزوجية بفراغ! ولم يداخلني شكّ في أنّ زوجتي تشاركني هذا الشعور. ولم يعد الليل وحده الذي يقفل على أعصابنا، فما كان انفرادنا الطويل نهائياً ممّا يمكن أن نفيقه على وثيرة واحدة إلى الأبد. لذلك اقترحت عليها أن نقفل الوقت بأسباب التسلية حتّى يمين موعد افتتاح الدراسة ونجد ما يشغلها. وتقبّلت اقتراحي بسرور ودعني لزيارة أهما الكثيرين، فتقلنا من بيت لبيت وزارونا بدورهم، ثمّ اقترحت على أن نذهب إلى السينما يومين في الأسبوع فقبلت، ولا أدري إن كنت أروم التسلية حقاً أم أهرب من حياتي الضائعة! ووجدت في السينما راحة وإن كنت بطبعي أؤثر الوحلة والعزلة، ولكنّي ضقت

القلب، ونصحها باتِّباع إرشاداته دوماً لتتفادى من الترويات في المستقبل.

وطال رقادها بالرغم من أنَّ الطبيب أكد لنا عدم خطورة الحال، ولكن بدا لي أنَّها تعين المرض على نفسها، وأنَّ روحها توشك أن تنهار. ووقع في نفسي أنَّ المسئول من مرضها فعانيت مرارة التائب والندم في حزن وصمت، وكأنيَّ أردت أن أكثر عن ذنبي فسهرت بنفسي على رعايتها وتعاهدتها بالخدمة والدواء، ولم تأل ريب في القيام بواجبها. لقد آلتني حقاً ولكن من حسن نية، أمّا أنا فقد آلتها عامداً تحت تأثير غضب عفيف. ومزّت بي أيام قاسية مظلمة، كنت أرنو إلى وجهها الداليل الشاحب بفؤاد كبير، وراحتها بين يديّ، ولساني يلهج بالدعاء. وكانت متعبة خائبة، ولكن قرأت في عينيها نظرة راضية سعيلة، كأنها نسيت بمعطني وحيي جميع الآلهة.

٤٦

وقلَّ الحريف بجزءه اللطيف وصحابه الرقيق، واستقبلت المدارس علماً جديداً، وكنت وزوجي نخرج معاً في الصباح، ونستقلّ تراكماً واحداً. وكانت الذكريات تنثال على قلبي في وجد وحزن، حتّى قلت مرة:

- في مثل هذه الأيام كنت أهرع إلى المحفلة أكاد أموت شوقاً إلى اجتلاء عيالك...

فابتسمت رقيقة وقالت:

- وكنت أنتظر مثل هذا الشوق...

الله عجبوني!... ما وجدت مثلها محبة راضية مسرورة.

كانت حبيبي سعيمة غلصة في غير ما تكلف أو رياء. أكانت تجد آلاماً ثمّ تتكلم عليها بما طُبِّحت عليه من مونة وطهر؟ ومن أدراي بما كان يتلجج في أعماق صدرها؟ وما كان يدور في خاطرها عني وعن حياتها؟ ولكنها كانت سعيمة صادقة محبة وهل من داع يدعوها إلى ذلك النظاهر المتواصل بالسعادة إذا كانت تيسية أو كارهة؟! بيد أنه لم يداخلني شك كذلك في نضج

على عجل بالزيارات التي أفقد فيها نفسي وأقع فريسة للحياء والارتباك والحي والحصر، وما لبثت أن تخلفت عنها تاركاً زوجي وحدها تقوم بها.

وكان يوسعي أن أحملها على العدول عنها أسوة بي، ولكنّي لم أرد أن أحرّمها سبباً من أسباب التسلية وتزجية الفراغ، ولعلّني بثّ أخاف في أعماقي أن تضيق بالوقت كما أضيق به. كنت أود بكلّ قلبي أن أهيئ لها جميع أسباب الراحة والسرور، وما كنت أتردد لحظة عن بذل جميع ما أملك في سبيل مرضاتها، لقد صارت رباب كلّ شيء، ولم أعد شيئاً مذكوراً.

ولكن بدا لي أنَّ أمي لا تترتاح لحياتنا هذه. وقد قالت لي يوماً:

- لا يجمّل بك أن تسمح لزوجك بقضاء كلّ هذا الوقت خارج البيت...

وضاق صدري بملاحظاتها فقلت باقتضاب:

- أنسيت أنَّ زوجي موفّق؟

فقلت بلهجتها الانتقادية:

- وإن كانت...

وأشفقت من أن يتأذى بنا الجدل إلى ما لا نحمد عبقاه فقلت بجرأة:

- انسيها يا أمّاه تسرعني وترجيحي!

فغلغها الانفعال وقالت:

- لو كنت لسان دفاع لي كما أنت لها لما احترقني وسبّني...

ولدت بالصمت لعلّها تمسك، ولكنها استطردت تقول:

- إنّه تيه بلا موجب، فكيف لو كانت أمّا!

فقاطعتها صائحة كالروحش وقد هوى كلامها على رأسي كالطرفة:

- اسكتي... لا تنبسي بكلمة أخرى.

وحججتي بارتضاع دون أن تنبس، ثمّ أطرقت. ولكنّي لم أرت لها ولم أرحمها إذ أقعدني الغضب والألم وعيي.

وحدث عقب ذلك بأنّام أن شعرت بتعب ألزمتها الفراش، وقال لنا الطبيب الذي استدعينا أنه

راح يدق بعنف تابعا. تملكني الملح ونجمل قاتل،
ونقل على صدري ضيق غليظ كأنما هويت إلى أعناق
بشر سحيقة. وإذا بنازني هائم تقمعي له، ثم تقمعي لي
قائلة:

- هذا قريب لم تسعدنا الظروف بتقدمه إليك، لأنه
عاد من أوروبا حديثا، ولأنه يندر أن يتفضل علينا
بزيارة: الدكتور أمين رضا ابن عتي.

وتصافحنا كالمألوف. التقت عينانا لحظة قصيرة،
فلم أقرأ في عينيه إلا نظرة ترحيب باسمه، لم تشر
عيناه بأنه تدكرني، وظل ملازما سمة المترفع المتحصن
ضد الانفعالات. ولما انتهى من مصافحة الجالسين،
جلس إلى جوار جيريك وراحا يتحدثان، وبمت أنا في
أفكاري الفزعة الشاردة، ترى هل تدكرنا!... لعله
نسي في شأن الأطباء الذين يلقون وجوهاً بعدد
الدقائق!... ولكنه طيب جديد قليل الرؤا...
ومسح ذلك فلم يبد في عينيه أنه عرفني على
الإطلاق... أم يكون عرفني وتجاهلني رافة بها!...
ليتي أجد وسيلة للتحقق من هذه النقطة! وقبه
عرفني فهل يمكن أن يبرح بسري لقريشه نازلي
هائم... ما أبعد هذا عن التصور، ولكن ما أعدني
عن الطمأنينة كذلك! وجلتني عريفاً في بحر لحي من
السوساوس والمخاوف فهل كنت في حاجة إلى
مزيد!...

ودعينا إلى الطعام فخرجت من أفكاري وإن علقت
بي آثارها، كالخارج من نار. وجلسنا حول المائدة،
وعند ذلك التفتت نازلي هائم وقالت مبتسمة:
- أنت خجول يا سي كامل ولكن حذار فلولا لم لا
ترحم الخجولين.

وعلق بعضهم على قولها فسخطت عليها واشتد بي
الضيق، على أنهم لم يلبثوا أن شغلوا عني بما بين
أيديهم من لذائذ المأكول. ولم أكد أشعر بالارتباك الذي
يركبن في أمثال هذه المجتمعات لشروط ذهني فيها هو
أجل وأخطر، فلا يقل الارتباك إلا الارتباك! ثم عدنا
إلى حجرة الاستقبال ودارت علينا القهوة. وتناولت
الفنجان، وقربتني إلى فمي، وعلى حين بغتة طار خيالي

أزولتها وعمق عواطفها. كانت أبعد ما تكون عن
التزق والطيش، ولكنها كانت عمرة القلب بالحوية
والحرارة والعطف. لعلها كانت تحيا حياة يملؤها الأمل
نفسه الذي انتلح إليه صابرا متصبرا. على أن الحق
الذي لا يزيغ فيه أنني كنت مشغولا بهومي على حال لم
تدع لي إلا قليلا للانفعال بهوم غيري. ربما رجع
ذلك قبل كل شيء إلى أناثتي الفطرية، وكان لجهلي
كذلك نصيبه. ولمعني كنت أحسب أنني الضحية
الأولى - إن لم تكن الوحيدة - في تلك المأساة.

وفي أوائل ذلك الحريف دعانا جيريك ونازلي هائم
إلى وليمة غداء أقامها للأهل والأقارب المناسبة شفاء
محمد - شقيق زوجي - من مرض ألم به.

وهبت وزوجي على حين تحلفت أمتي معتدرة
بالنظام الجديد الذي تتبعه في غذائها منذ أشار عليها
الطبيب بذلك. مضيت مرتبجا كالعادة، لأن وليمة
غداء أشد على نفسي من المرض، ولأنها - هي وأمثالها
من المجتمعات - تميد إلى ذهني ذكرى منفضة الخطابة
بكتبة الحقوق. وقد تمددت أن نذهب مبكرين لنسبق
المدعوين جيما فلا أتمرض لنظرات أعينهم حين
دخولي حجرة الاستقبال. ونجحت خطتي فوجدنا
البيت قاصرا على أهله. هم أهلي أيضا، وإن أحبهم
جيما وإن بئ أخاف نازلي هائم خوفا شديدا يثر في
نفسي أشد الألم. وأخذ المدعوون يتوافدون. فجاء
أعيام رباب الثلاثة وأعوأها الأربعة مصحوبين
بزوجاتهم وأبنائهم وحضرت كذلك خاللتها، واحدة
مصطحبة زوجها، والأخرى - وهي أرملة - برفقة
كبرى بناتها. ومضت نازلي هائم لتستقبل قادمًا جديدا
فسمعتها تقول له: فلماذا تأخرت يا سي أمين؟ فرد
القادم عليها معتذرا بصوت خيل إلى أنني سمعته قبل
ذلك، فتطلعت إلى الباب باهتمام... ودخل المدعو
الجديد فصرفته من أول نظرة. رأيت أمامي ذلك
الدكتور الذي زرته منذ شهرين وبعث له برس شقائي
كله، ثبتت عينايا عليه في ارتباع بدائي الأمر، ثم
تمالكت نفسي بسرعة وقوة، وإنني على إخفاء ما يعتلج
بصدري لقادر، ولكني لم أجد حيلة مع قلبي الذي

- إنك مغرم بتحميل نفسك المصير على اختلافها
كأنك المسئول عن الدنيا ومَن عليها. ركّز اهتمامك في
عبادتك وحياتك ومسألة زواجك على وجه الخصوص،
ألا ترى أنك في الثلاثين وهي من فاصلة؟!

وهنا قالت إحدى خالتي رباب:

- اطمئني يا أختي فلهلك أن تسمعي أخبارًا ساءة
قبل استدارة هذا العام.

ودار الحديث حول كريمة أحد كبار الأطباء...
وقالت لي رباب همساً - وكانت تجلس إلى جانبي - إن
هذه الفتاة التي يتحدثون عنها حسنة مفرطة في الحسن
والورثة المنتظرة لثروة طائلة، وإنها زاملتها عهدًا في
الدراسة. والظاهر أنّ أحد أحوال رباب كان مَن
تجلبهم أحاديث السياسة، فما كاد حديث الزواج
يتمهي حتى قال غاطبًا الدكتور:

- لا داعي للتشاؤم فكل شيء مصيره إلى الصلاح
وإن طال الزمن. وهما نحن على أبواب انتخابات
جديدة، ولعلّ الرياح أن تهب هوائًا ورخاء.

فاشتكت عينا الدكتور وقال بحدة:

- من الخير لهذا البلد أن تحكمه حكومة فاسدة،
ذلك أنّ الحكومة الصالحة لا تستطيع أن تفعل شيئًا ذا
بال في حدود الأوضاع القائمة، فالخير أن تستبدّ
الحكومة الفاسدة حتى تعجلّ بالنهاية... النهاية
المحتومة!

فضحك جبر بك وقال:

- ما زلت ساخنًا متبرّمًا. ألا نجد في مصر ما
يستحقّ إعجابك وتقديرك؟

فدار الدكتور عينيه البرّاقين في الحاضرين وقال
مبتسمًا:

- بلى... أم كلثوم...

وضجوا جميعًا بالضحك. وجعلت أصغي إليه
باهتمام واستغراب، ولكنّي لم أكد أفقه معنى لما يقول.
وعجبت لمن يشغلون أنفسهم بهذه الأمور وأمثالها،
أليس في حياتهم هموم تشغلهم عنها؟ وتقتل لي في
حديثه رجل علم وراي وثورة، بسادي الضرور
والمعجزة. وكما كانت دهشة كبيرة حين ذكر أنّ كلثوم

إلى الحانة القديمة بشارع الألفي وتراعى لعيني قدح
الخمر... كيف جاءتني هذه الذكرى، ما الباعث
عليها؟... لقد وجدت دهشة صادقة، ولكنّي شعرت
كذلك بارتياح عجيب، كسرور الحبيب بالحبيب،
الخمر... النشوة... السرور... ألا ما أشدّ حاجتي
إلى مهرّب. كان خاطرًا مفاجئًا غريبًا ولكنه كان قويًا
لا يقاوم... وعدت بانتباهي إلى ما حولي في حذر
ونخوف. وأنجّمت عيناى إلى الطبيب فوجدته منهمكًا في
الحديث، يلقي أقواله بثقة وفصاحة وترفع، وكثيرًا من
الحاضرين يتوثّنون للنقاش في اهتمام وسرور. وجزّ
الحديث إلى الحياة في بلاد الإنجليز فقال الدكتور: إنّ
دراسته شغلت جلّ وقته فلم يتمتّع بحياته هناك
كسائر إلّا فيها ندر، على أنّه استطاع رغم ذلك أن
يُخبر عن كتب مائة الأسس التي ينهض عليها بنيان
الحياة السياسية، وما يتمتّع به الشعب من مستوى
عاليّ للمعيشة، وحرية شاملة تتناول كل شيء، قال له
جبر بك:

- كأنك واضطت في إنجلترا على الاهتمام بما كنت
تتمتّه به في مصر قبل بعثك.

وقال أحد المدعوين ضاحكًا:

- أجل يا جبر بك، ذكرّه بمعهد كآبة الطب والثورة
الوطنية.

وقال آخر:

- مَن كان يظنّ أنّه سينتهي بك المطاف إلى بلاد
العدوّ وأنك ستعود منها حاملًا له هذا الإعجاب كله؟

فقال الدكتور مبتسمًا:

- العداوة لا تنافض الإعجاب...

فعاد جبر بك يسأله:

- ألم تزل كما كنت، وفديًا متطرّفًا؟... لقد
سُجنت يومًا بسبب الوفد!

فقال الشاب وقد مطّ بوزّه برمًا:

- أرى الآن المصريّين جميعًا يعيشون في سجن كبير،
والحقّ يا سيدي أنّ الأخبار الوحيدة التي كانت تسوّفنا
ونحن في إنجلترا هي أخبار مصر...

وقالت نازلي هانم مبتسمة:

- أين كنت من زمان؟
فأجبتته مبتسماً وقد سررت لتعنيته:
- الدنيا. . .

ثم أريته خاتم الزواج فقال:

- مبارك. . . مبارك. . . وهل أنجبت طفلاً؟

وشعرت بامتصاص وألم، وهزئت رأسي سلماً، ثم طلبت كأساً من الكونياك وشربت في اعتدال، حتى شعرت بدبيب النشوة في القلب والرأس، وارتسمت على فمي ابتسامة سخرت من جميع الآلام فقلت لنفسني: «أهلاً وسهلاً ومرحباً»، وحرصت على ألا أجاوز الحد، ثم غادرت الحانة زهاء الساعة، ولم أكد أنتهي إلى شارع عماد الدين حتى تذكرت حانة سوق الخضرا وكان رأسي بحالة تستهين بالعقبات فتساءلت في شبه تائبين: أأنسى في رغدي الحانة التي أوتيت في فقري؟ وأوقفت تاكسي وركبته وانطلق بها إلى حانة للموظفين المفلسين والحدودية. ووجدتها في حالة غناء وعريضة كما توقعت. وكان الموظف المعجوز يغني «يا ما بكره نعرف» فيردد الجميع «وبعده نشوف»، ولما لمحتني قادماً توقفت عن الغناء وصاح:

- هس يا أولاد الحلال.

وعرفني الرفاق القدماء فتصافحتنا في حرارة، وما كدت أطمئن إلى مقعدي حتى سألني المعجوز متفتناً:

- كنت فين يا حلو غايب؟

فقهقهت ضاحكاً وقلت:

- الدنيا. . .

فقال أحد الصحاب:

- فلنعلن الدنيا التي ترغم الحبيب على نسيان

أحبابه. . .

فلعلتها معهم عن طيب خاطر. وحدث أن رأى أحدهم خاتم الزواج في إصبعي فهتف:

- دخلت دنيا يا بك.

وكان لإعلان الخبر أثر شامل فسألني الموظف الفتان:

- كيف وجدت هذه الدنيا؟

وأفزعني تحول الحديث إلى هذا الموضوع الخطير،

كالثيء الوحيد الذي يستحق إعجابه في البلد، وتساءلت في حيرة: أيعشق الغناء حقاً من كان ذا جَدٍّ وصرامة وحقّة كهذا الدكتور المجنون؟! ولما كنت أحب الغناء فقد ارتحت لهذه المشاركة الوجدانية، بعد أن أعياني أن أجد صلة شبه بيني وبينه! وكان الدكتور أول المصرنين، فقام الحاضرون جميعاً لمصافحته، وصافحته بدوري وأنا أنفخص عينيه بخوف واهتمام فلم أجد فيها وراء نظراتها المترقمة ما يرييني. ثم غادرنا نحن البيت في نحو الخامسة. عدنا مشياً على الأقدام ولم تكف حبيبي عن التعليق على المسألة والمدعوين طوال الطريق ولكني لم أستطع أن ألقى إليها انتباهي، واستسلمت لتيار أفكار الزاخر المضطرب، كيف ألقى الخطأ العائر في طريقي بهذا الدكتور المجنون؟ وكيف قافني القدر إلى الاعتراف له بسرّي الذي أخاف عليه أذان الحيطان!

٤٧

أوصلت رباب إلى باب العمارة ثم عدت أدراجي إلى المحطة معتزلاً بعض أعمال خيالية! استقلت الترام إلى النعبة، ثم مضيت إلى شارع الألفي بك. كان قلبي ينفق في خوف ووهبة كما خفق أول مرة حملتي قدامي إلى هذا الشارع، وترأى لميّي خيال الكأس مفرّة الشر عن إغراء عنيف. كنت نسيها فلم تحظر لي على بال منذ بلغ قلبي مناه حتى رأيتها اليوم في فنجان القهوة فحرك أعماق الفؤاد. أمّي + زوجي + الدكتور أمين رضا = الخمر، هذه هي المعادلة التي استقرت في نفسي. على أنني ترددت حين أصبحت من حائتي القديمة على قيد خطوة، وتساءلت في حزن وقلق ألا يُمدّ إقدامي هذا خيانة لزوجي؟. ولكني أنكرت على نفسي هذا الملتحق الغريب وشقت طريقي إلى الداخل. وترأى لي فجأة خيال أبي، وانثالت على ذهني صور من ذكرياته، فاستعرضتها في هدوء، وفي غير ما شائعة أو كراهية، ثم جلست إلى المائدة وأنا أغمضهم، «رحم الله وغفر له».

وجاء النادل مسرعاً فحياي وهو يقول لي:

ولكني لم أجد بداً من أن أقول:

- حلو!... ألس متزوجاً يا سيدي؟

فضحك الرجل حتى باتت أسنانه الممتمة وقال:

- المرأة إذا جاوزت الشباب لم تعد امرأة...

فقال آخر مؤثماً على قوله:

- صدقت. المرأة أقصر المخلوقات عمراً وإن هومت.

وقال غيره:

- إن زوجي تدبر لي شجاراً نظير كل سهره في الحانة، وقد قلت لها: إني على أهمية الاستعداد لأن أهجر الحانة تحت شرط واحد وهو أن تهجر هي الدنيا!!

وبدوا جميعاً ساخطين على حياتهم فداخلي عزاء لم أجد من قبل، وعجبت هذه الأسباب الغريبة التي تؤاخي بين السكّيرين. ثم لاحظت تغيب «فران» شرباً اشتهر بيننا بإيمانه وصمته. فسألت عنه؟ فاجابني العجوز الفنان:

- لم تعد الخمر لتؤثر فيه، فهو يغي مساء كل يوم إلى البذال ويشرب كحولاً صرفاً...

وواصلوا ما انقطع من الغناء ورحلت أشراب كالآيام الماضية. ما أعجب قدرتي على الشرب! إني ضعيف رعديد حيال كل أمر، ولا ثقة بي في عقلي ولا في قلبي. أما معدتي فقادرة على ابتلاع حانة! وغادرت الحانة في العاشرة مؤدماً باطبيب الصحيات، وتقلت من طريق لطريق لا تسعني الأرض من فرط النشوة والسلطنة، ثم هفا عليّ طيف حبيبي فتخيلتها بعين السكران: وقد طال بها انتظاري فاستسلمت للرقاد، فانتشيت نشوتي، وخفق فؤادي خفقان الوله، وهضت بنفسي الأشواق، وبحثت عيني الزائغتان عن تاكسي ثم مضيت إليه لا ألوي على شيء وطلبت إلى السائق أن يسرع بأقصى ما لديه من سرعة، فطار بي بطوي الأرض طياً، وغادرت عند العجاءة، وارتقيت السلم في عجلة، ثم دخلت الشقة وسرت إلى حجرتي بلا تردد، وأدريت مفتاح الكهرياء فوقع بصري على حبيبي وقد استغرقت في نوم هادئ. وقد تحرك رأسها لدى سطوع

النور وغمغمت «من؟» ثم واصلت نومها دون أن تستيقظ، وخلعت ملابسي في عجلة واضطراب ويدي ترتعشان، وأنفاسي ترتد في دهشة وسرور وجزع، وهرعت إلى الفراش، وانسدست تحت الغطاء، ضممتها إلى صدري ووضعت شفتي على شفتيها حتى فتحت عينيها، وأمطرتها قبلاً بنهم ورفقة وسرور حتى أفأقت وبادلتني القبل، وبدا ما بيننا كأنه حلم سعيد يرضى به المنام، حلم لا يصدق بيد أنه كان حلاً قصيراً لم يستغرق ثانيين من الدقيقة. وأفقت من سحره في طمأنينة وسلام، وبني من السعادة نشوة أضعاف ما بي من الحمر، واضطجعت في حبور، وأخضعت جفني مستسلمة لامتع الخواطر والأحلام. على أن إسلامي لم تنسج وشيها هذه المرة من مادة الحيال، ولكننا استمذنت من الواقع، من صميم حياتي، ولأد العيش ما كان حلمه السعيد صدى للواقع الراهن! لا تلقيت السعادة بامتنان العابد، وأبقت أن همومي انجلت إلى الأبد. وفي صباح اليوم التالي جعلت أرر إلى حبيبي بقية وسرور، وشعرت حقاً بأن زوجي وبأن رجل... ولم تزيالي أحاسيس السعادة والفخار طوال اليوم، وعندما أتى المساء ذهبت إلى شارع الأنفي بك، ثم عدت إلى حبيبي طائراً على جناحي نشوتي، وعللت من الكأس المترعة، بالسرور نفسه والسرعة نفسها، ثم اضطجعت ضجعة المطمئن، ما كان لثلي أن ينسي ما تجرّع من غصص العذاب، ولكن السعادة الحقة تستثير عطفنا حتى على ذكريات العذاب.

٤٨

وتقصّت أصابع - لعلها لم تجاوز الشهرين - في سعادة وطمأنينة. وإني إذ أعود إلى ذكرى تلك الأيام يضي شعور بالآلم والأسى، لا حسرة على سعادة ذهبت، ولكن أسفاً على أكبر خدعة ابتليت بها في حياتي. لم يكن هنالك ما يستوجب سعادة على الإطلاق. وإذا كنت قد غنمت بالسعادة زمناً رغداً، فما ذلك إلا لأنني كنت غراً جاهلاً أعمى. وما من بأس أن يتمتع الأعمى بسعادة وهمية على شرط أن يواصل

سعدت به! أعجب بها من حقيقة غميري، ولكن لأم أكذب نفسي! إنها تبلى كأنها تخاف الليل وتتحمأ، ولا تكاد نخلو إلى نفسيها حتى يعثورها قلق تفصحه عنها الصافيتان، ثم نقتأ - في هذه الأيام الأخيرة خاصة - نعتلر بشق الأعدار، فحين نعب إلى نونك إلى رغبة ملحة في النوم. وإذا أذعن في فلقنا ندعن في تسليم لا سرور فيه، ثم نتتر جسمها من جسمي في شبه استياء وغضب! وأقر إلى هذا كله بأننا لم تعد فتاتي الضاحكة المستبشرة الصافية. شاب ضحكها التكلف، ودب في سعادتها الفتور، وانقلب ودها تودًا. حاشاي أن أقول إنها أعلنت سخطًا أو أسادت أدبًا، حبيبي فوق هذا كله، ولكنني أحسن قلقها بقلبي، وأدرك حيرتها بغريزي. رباه إن الدنيا جيمًا لا تساوي خردة إذا تأملت حبيبي؟ فهاذا بها؟... إني افتقد حبيبي فلا أجدها، ولا بد أن أجدها، أو أموت كمدًا...

ويلغ شقائي غايته إذ ترك نفورها في نفسي أثرًا عميقًا، تغلغل في حناياها، فحرك الداء القديم، وول الشفاء الساحر، ولم تنفع فيه الحمر. وتناهى بي الحزن حتى أشفيت على الجنون. أيعاودني المعجز؟ وهل أرذ إلى ذلك اليبس الميت؟. وقلت لها مرة في قنوط:

- رباب... ماذا بك؟... لست المحببة التي عهدتها.

فلافت بالصمت، وغضت بصرها حيرة وارتيابًا، فقلت بتضرع متسائلًا:

- إن قلبي لا يكذبني فخبريني ماذا غيرك؟
فهمست قائلة وقد لاحت في عينيها نظرة ساهرة:

- لا شيء... .

فهمت من الأعماق:

- بل شيء وأشياء، إني زوجك يا رباب وحياي كلها لك، فلا تخفي عني شيئًا. أه يا رباب إني أبكي أيامنا الماضية.

فتنتدت ولاح في وجهها الارتباك والألم، ثم غمغت في حلق وإشفاق:

- وإني أبكي أيامنا أيضًا... .

عياه، أما إذا رُدَّ إليه البصر ورأى سعادته مرابًا فويل يجني من ذكريات سعادته إلا حيرة مضاعفة ومها مقبًا؟! وهذه هي حالي بلا زيادة ولا نقصان، وما فطنت إليها إلا في بطء شديد يوافق جهلي وبلادي.

لاحظت أن «رباب» تخفي النهار كله وشطرًا من الليل خارج البيت، بين مدرستها وبيت أهلهما وأقاربها، وقد رافقتها بادئ الأمر رغم طبعي النفور، ثم شق علي الأمر فنكتصت على عقي، ولم أعد أصحبها إلا فيما ندر من الزيارات. وعادت أمي تعلن عن ملاحظاتها في مرارة وأسى وأنا أدافع عن زوجي بلا نفور وإن تجاوب لانتقادها في نفسي صديق عميق، وكنت فيها مضى أشجع زوجي على هذه الزيارات لتسلي بها عها أشعر به من نقص حياتنا المشتركة، أما الآن فلم يعد من موجب في نظري للإفراط فيها. ولملت أطراف شجاعتي يومًا وقلت لها:

- كائنك قاطعين بيتنا يا عزيزي، فهلا أقللت من هذه الزيارات المتواصلة؟

وحججتي بنظرة مريبة وسألني بحدة لم أعهد لها من قبل:

- أما زالت تشغل نفسها بانتقادي؟
وفهمت أنها تعني أمي، وسألتني أن تضم لها هذا النفور، فأجبته منطلقًا:

- إن أمي لا تتدخل فيما لا يعنها. وهذا رجائي أنا دون غيري، والحق أني لا أطيق بيتنا إذا كنت خارجة...

فقالته وقد استردت هدوءها: هلم نخرج معًا.
لماذا تضيق بالناس؟...
فقلت برقة: هكذا أنا... .

ولا أدري ماذا غيرها أثر كلمتي تلك فقالت بحدة:

- إن الحياة لا تحتمل على غير هذا الوجه.

آه يا حبيبي، لم تكن رقتك لتسمح بمثل هذا الضيق، فما الذي حدث؟ وليس هذا كل ما في الأمر، فإن قلبي أحيانًا يرى ما لا تراه عيني. ينبغي أن أشتق مسار المعنى وأن ألقى الحقيقة على مراتبها وجهًا لوجه... . يجئ لي أن «رباب» لم تسعد بشغالي كما

لا أدري لماذا آلتني رقتها. ثم تذكرت بعض ما سمعت في إدارة المخازن فقلت:

- ولكن لا يمكن أن تتم سعادة المرأة إلا بهذا...

فتورد وجهها وقالت بسرعة ويقين:

- كلاً... كلاً... أنت غطلي في هذا.

ورنوت إليها في حيرة! ترى حقاً تصدقي القول؟ ولكن ما عسى أن يجعلها على الكذب؟ لم أكن إلا غراً جاهلاً، ولن تجد كالفرّ الجاهل صيداً سهلاً للهجة التأكيد، فأثر في قوها تأثيراً عميقاً...

هل أكذب حبيبي وأصدق سخطه الموقنين؟ ألم يمرّ قوماً هذا عن رأي قديم اعتفته قبل أن يمرّ عليّ عنه عيون الزملاء بإدارة المخازن؟... وفضلاً عن هذا، وذلك فليس يوسعي وصلها بعد أن باحت، وبعد أن عاودني من المعجز ما عاودني، لذلك كله تظاهرت بالارتياح، واصطنعت ابتسامة. ثم قلت بتسلم:

- ليس لي وراء سعدائك مطلب يا رباب!

وسرّي عنها، ولاح في عينها نظرة ارتياح، وتلدأت مني حتى التصقت بي وقبلتني!

عدنا كما كنا. عدت زوجاً عذراً ذا علة ذميمة، ورحت أقول لنفسي: إنه لا ذنب لي فيها انتهينا إليه. إنني رجل كامل ولولا طبعها هي ما انتابني هذه النكسة! بل إنني التحمل هذه الحياة الغريبة إكراماً لها! يا له من عزاء كنت في ميسس الحاجة إليه! ولكن هل حقاً صدقت نفسي؟! ومهما يكن من أمر فإن ذكرى عهد السعادة لم تنب عن ذهني لحظة واحدة، كيف انقضى ذاك العهد بتلك السرعة التي لم أتوقعها؟ وكيف أذي حبيبي حتى خرجت عن صمتها بهله الشكوى السافرة؟ أليس معنى هذا أنّ شقيّ ولا حيلة لي في شقائي؟ آه... لشدة ما نازعتني النفس إلى الحزنة والفرار وعادوني ذكريات تشرّدي في الطرق بحنان ولهفة..

هل عاد كلّ شيء إلى أصله؟!

وما زال الحبّ يجمعنا في عناق وعطف، وعادت حبيبي إلى مرحها وجوهرها وهي تقضي يومها ما بين مدرستها وبيوت الأهل والأقارب، وبحسبي أن أراها

فتراني الذهول والانعراج ومآلتها في حيرة شديدة: - كيف يا رباب؟... إنّي لا أفهم شيئاً. أما كان

ينبغي لحياتنا أن تكون أوفر سعادة!

ثم وجهها على أنها تعاني من ضروب الحيرة مثلاً أعاني، فازدبت ذهولاً وانزعاجاً وانتظرت أن تحيط اللثام عني يحيرها فتجلو لي ما يحيرني بالتالي. وانتظرت في قلق وإن بات قلبي يحدس أموراً يفرق لها رعباً ويأساً وخزياً. ولما طال بي الانتظار قلت:

- لماذا لا تكاشفيني بذات نفسك!

إنها ترغب في البوح بما ينوء به صدرها الرقيق ولكنها لا تجد سبيلاً إلى الإفصاح أو لا تواتيها الشجاعة عليه، وإنّي أزداد خوفاً وقنوطاً حتى تناهى بي الجزع فقلت:

- رباب... إنك لا تترحين لما جدّ في حياتنا!

فحدجتي بنظرة غريبة، ثم خفضت بصرها وراحت تقضم ظفرها في حيرة وارتباك. برح الخفاء. بيد أن صمتها أخذ يضايقي فتسألت فيها يشبه الضجر:

- اليس الأمر كذلك؟

ورنت إليّ بنظرة توسّل واستعطاف وقالت بصوت لا يكاد يُسمع:

- لنعد كما كنا؟... كانت حياة طيبة!

وكانّ لطمّة هوت على وجهي ففضضت عينيّ حياءً وقنوطاً. ومع أنّ رغبتي هذه حقيقة بأنّ تبين لي علزاً أداري به ما عاودني من عجز إلا أنّي تلقّيتها بخزي عميت. ولعلّها قرأت ما لاح في وجهي من أمارات الألم فقلت برقة:

- لست أعني شيئاً يمكن أن يكدّرك، ولكنّي أهفو لحياتنا الماضية. كانت حياة طاهرة سعيدة!

فقلت كالتي أكمل حديثها:

- ولم يكن بها ما ينقص صفوك؟

فطرفت عنها، وتجلّت فيها نظرة عطف وقالت برقة:

- كنا سعداء اليس كذلك؟... ولم يكن ينقصنا شيء على الإطلاق...

نهضت مستأذناً وغادرت الحجرة. ولاحث مني التفاتة إلى حجرتنا - وكان بابها مفتوحاً كما تركته - فرأيت رباب جالسة على حافة الفراش تقرأ خطاباً. وأدركت لزوي أنّ ساعي البريد جاء به حين كنت منفرداً بألمي وألا علمت به وقت وصوله، وظننته رسلاً إليّ من أخي لأنّ رباب لم تكن تتلقّى خطابات، فعدت إلى حجرتي مستطعمًا، وشارفت بابها ورباب مغرقة في القراءة لم تنتبه لي حتّى قلت لها:

- أهذا الخطاب لي؟

ورفعت رأسها نحوي في دهشة، وطوت يدها الخطاب بحركة آلية سريعة، وسألني في اضطراب ظاهري:

- هل نسيت شيئاً؟

فقلت وقد تولّاني قلق لا أدريه:

- كنت في حجرة أمي، ورأيتك عند مغادرتي لها تقرئين هذا الخطاب فظننت لي.

فنهضت من مجلسها وتراجعت صوب التوابيت، وكانت بلا ريب تحاول أن تضبط عواطفها، ولكنّ عينيها وشتا بما تركه حضوري المفاجئ في نفسها من وقع عميق لم تتوقّعه، وقالت وقد نلّدت عنها ضحكة مقتنضة جالقة لم تجب في مداراة اضطرابها:

- ليس خطاباً كما تظنّ، إن هي إلا وريقة سجلت بها بعض ملاحظات تتعلّق بعمل المدرسي...

وداخلني خوف غمّي في مفاصلي. لعلّها لم تجاوز الصديق ولكنّ عدوى اضطرابها انتقلت إلى نفسي فشعرت بذلك الخوف الغريب، كأنه نذير شرّ محمول يتجمّع في أفقي المكفهر. ما الذي يدعوها إلى الكذب؟ ولكنّي رأيت في يدها خطاباً بلا ريب! وقد خفت أن أتمادى في إظهار الشكّ أن يكون الحقّ معها فأتع في حرج ما أغاني عنه. على أنّي لم أملك أن قلت:

- ولكنّي رأيت خطاباً بيدك..

ووقع قولي من أدنّى موقفاً سيئاً، فخيّل إليّ أنّي لم أحسن اختياره، وأتّه يفصح عن شكّ واضح، ورمقتها في إشلّاق. وانتظرت أن تبسط لي الوريقة في حركة

سعيدة مسرورة. ولعلّ طبعها اعتراه تغير طفيف يبدو في سهومها الحين بعد الحين كما يبدو في سرعة غضبها لأقلّ همّة تصدر من أمي.

هل كنت سعيداً؟

كانت حبيبتني سعيدة يبدو لي، فكان طبيعيّاً أن أعد نفسي سعيداً. حقّاً لم تنقطع بي الوسواس ولكنّي متى عرفت الحياة بلا وساوس؟... وأكرد تيار الحياة تتقاذفي أمواجه، يسمدني سرور حبيبتني، ويشفي حزن أمي، أقضي وقتاً ثميناً في الوزارة، وأفق ساعات حلّة في الحانة على فترات متباعدة. وحتى ضميري الذي عانيت طويلاً من شعوره بالخطية لم أل أن أغضى عليّ آثامه وتآوّهاته بضحكات السرور والبريدة، وكنت كلّما ألحّ عليّ ورُخّره أقول لنفسي بصوت مرتفع إنّي سعيد، وكلّ شيء حسن!

ومضى الشتاء فالربيع ثمّ الصيف. وعدنا نستقبل الخريف والعام الدراسي الجديد بما يتبدلنا من عزيز الذكريات.

٤٩

وعرض لي أمر بدا ناهياً ولكنّه كاد يقلب حياتي رأساً على عقب، ومن عجب أنّه تكشّف لي عقب مصادفة، فحقّق لي أن اتساءل: أكانت حياتي تستهلف وجهة أخرى لو لم تعرض لي تلك المصادفة؟ ولكنّ ما هي المصادفة؟ ألا تبدو الحياة أحياناً سلسلة متصلة من المصادفات؟ ماذا ألقي برباب في طريقي غير المصادفة؟ وهل كان يتاح لي الزواج منها لو تأخّر موت أبي شهراً واحداً؟ بل لماذا كان يحدث لي لو أمرّ أبي على استرداد كما فعل براضية ومدحت؟ على هذا المنوال أتساءل: ألم يكن من الممكن أن تطرد حياتي على وثيرة واحدة حتّى الموت لو لم يطل اللقاء بيني وبين أمي دقائق معدودات ذلك اليوم الذي لا ينسى؟!

كنا في أواخر الخريف، وكان الوقت عصراً، وقد ودّعت رباب وغادرت الحجرة لقضاء سهري المسائية. وانقبت بألمي في الصلاة وكانت متزعجة فمضيت معها إلى حجرها ولبّثت معها نتحدث فظال بنا الحديث، ثمّ

- إنّه خطاب، ولن أرجع حتّى تعترف لي بكلّ شيء...

تراجعت متأوّهة حتّى استندت إلى مرآة الصوان وقالت بصوت غزقة الشكوى:

- بالله لا تسوّى الظنّ! لا شيء ألبتّة يستوجب غضبك أو ارتياك، آواه لا تنظر إلّى هكذا...

ولكنّي لبثت أرمقها بنظرة صارمة قاسية ونفسي تلهّف على الحقيقة، فإنّما النجاة وإما الهلاك. ربّاه إنّي لفي كابوس طاعن. وهل كان يقع في ظنّي أن أقف منها هذا الموقف إلّا في كابوس؟! واستدرت تقول بصوت متقطع الأنفاس:

- لا تنظر إلّى هكذا! لقد انحطت حقّاً ولكنك أنت المسئول عن خطئي! لقد فاجأني فركبي الاضطراب، فتورّطت في كذب لا داعي له...

ربّاه ما أحوجني إلى النجاة، ما أشدّ تلهّفني على قطرة غيث تبلّ جوانحي... وقلت في حيرة:

- كان خطاباً...

فبادرتي قائلة:

- أجل! وكان يبدو لي أمره نافعاً حتّى وقع في نفسك الارتياح. وتجهّم وجهك فتحيّلت الأمر النافه جلاً خطيراً! فالتمسست خرجاً في الكذب، وكان ما كان.

فسألته وما أزداد إلّا حيرة:

- إذا كان خطاباً، فمن أرسله؟

فقال وبها مثلياً بي من الحيرة:

- لا أدري...

فنفخت قائلاً:

- ما هذه العميّمات؟!

تولّى عنها الذعر رويداً، وتشجّعت بانفشاء غضبي

فقلت بصوت ملؤه الأمل:

- دعني أقصّ عليك قصّة هذا الخطاب المشوم بالحرف الواحد: لقد تلقّيته صباح اليوم بالمدرسة، ففضضته بدعشة لأنّي لم أعتد تلقّي الخطابات، ووجدته غفلاً من الإغماء، ولم يكن به سوى سخب وقبح، خطّه قلم شخص سبّح! وملكني الحقن بادئ

عصيّة وأن ترميني بطرف ساخر مؤثّب، ولكنّها كانت تمانى أحاسيس أخرى. وكألّما قهرتها عاطفة مجهولة فقلت وهي توليني ظهرها:

- قلت لك إنّه وريقة خاصّة بملاحظات مدرسيّة. ثمّ رأيتها تمزّقها بحركة مباغتة، وتحولت صوب النافذة ورمت بها! كانت حركة مباغتة أبعد من أن أتوقّعها فتسرّعت في مكاني كأنّما حلّ بي شلل. واستقبلتني بوجهها متظاهرة بعدم المبالاة فتملكني حتى وغضب وبأس، وشعرت بأنّ جداراً هائلاً قد انقضّ على حياتي لدنّها تحت ركامه، وأنّ عينيّ تتفحّمان - بعد أوهام العمى - على حقائق بشعة. وهل غير الحقائق البشعة ما يستثير هذا الاضطراب وذلك الخداع الماكر؟ وصحّت بلا وعي:

- كاذبة... لم تكن وريقة ملاحظات كما قلت كليّاً وخداعاً. ولكنّه خطاب كما رأيت، وقد مرّفته لتواري عنيّ سواء...

وغاص الدم في وجهها فترك صفحته شاحبة كوجه الموت، ولكن بدا أنّها لا تريد أن تسلم بغير دفاع المستبشّش فتمخّمت:

- أنت غلط... وظالم... لم يكن خطاباً!

فهفت بها مغنيلاً محمّلاً والألم والبأس يطرقان رأسي بعنف:

- لماذا مرّفته؟... لماذا تولّك اللعسر؟... تكلمي... لا بدّ أن أعرف الحقيقة... سأنزل إلى الطريق ألنقط القصاصات.

وانجھت نحو النافذة في عجلة واضطراب وأطللت على الطريق فرأيت المطفة الشبيقة التي تفصل مؤخّرة العمارة عن حديقة الكنيسة، فداخلي يأس وأيقنت أنّ المساء قد حمل القصاصات إلى حديقة الكنيسة. واسودّت الدنيا في عينيّ، وخيل إلّى أنّها تتمخّض عن عالم من الشياطين الراقصة في تيّار من لهيب. كيف أنزع الحقيقة من بين شفتيها؟ ودرت على عينيّ فوجدتها بموقفها، يماكي وجهها وجوه الموتى، وتلوح في عينيها نظرة ذعر وارتابك، فاشتدّت قسوة قلبي، ورميتها بنظرة طويلة رهيبة، وقلت بإصرار وحتى:

وكانني فقلت وعي:

- لماذا أمزقته... لماذا أمزقته؟

فنفخت فيها يشبه الياس، ولزمت الصمت ملياً، ثم قالت بهدوء واستسلام:

- لقد تسلمت هذا الخطاب المشوم في المدرسة، ولا اظنك تشك في هذا لأنه من الجنون أن يرسله إلى البيت. والان اطرح على نفسك هذا السؤال: ما الذي يدعوني إلى الاحتفاظ بالخطاب وحمله إلى البيت إذا كان به ما يريب؟ لماذا لم أمزقه في المدرسة بعد قراءته!

وعقد الصمت لساني حيال وجاعة الحجة ولعلني أسفت على ما بدر مني من صياح كاسر. أمّا «رباب» فعادت تقول:

- لو كنت مدنية لما وجدتني بهذا الموقف السيئ، ولما علمت بشيء وهيأت أن أغفر لك سوء ظنك بي... قالني قولها، وداخلي شعور اليم بالحجل فخفضت بصري أن ترى به أي الهزيمة. عل أن ألي لم يُنسى ما أحب أن أجعله من غامض الأمور فقلت بصوت منخفض:

- إن قولك مصدق... ولكن لعل صاحب الخطاب لم يوقع بإمضائه لظنه أنه من السهل الاستدلال عليه، كان يكون بمن يسترضون سبيلك مثلاً...

ولم يخفّف لين نبراتي من لها، بل لعلّه جعلها تنهأي فيه، وقالت بامتصاص:

- من عادي أن أسير فلا لوي على شيء ولا ألقى بالألّ لإنسان.

لم أكن في حاجة إلى قولها وقد خبرته بنفسي، ولكن لاح لمعني شبحا الرجلين اللذين قاسماني الإعجاب بها فيما مضى. فقلت متسائلاً:

- ألا يجتمل أن يكون جارك الذي شرع في طلب

بلك... أعني عمّد جودت؟

فقلت بلا تردد:

- هذا رجل وقور لا ينزل هذه الأساليب الوقحة،

وفضلاً عن ذلك فهو وشيك الزواج كما علمت منذ

الأمر، ثم لم أمد أباليه. وصممت على الاحتفاظ به لأطلعك عليه وفي ظني أنّي أعدّ لك مفاجأة تضحك منها طويلاً. ولكنني غيّرت رأيي عقب عودتك وخفت أن يثير بنفسك ما لا داعي له من الاستياء. وأخفيت عنك أمره حتى ظننتك غادرت البيت فاستخرجته من حقيبتي وأعدت تلاوته وفي تنبي أن أمزقه ولكنك فاجأتني وقت تلاوته، ولم ينب عني حرج مركزي، ولم يعد بوسعي الاعتراف بالحقيقة، فتزوّطت كما قلت لك في الكذب، وجنيت من كلي ما جنيت ممّا لا أستحقّ.

أصغيت إليها وكلّي آذان. ولمّا انتهت من قصتها لبثت بموقفي جاهلاً متحيّراً. خفت وطأة الجنون الذي ركبني ولكنني وقفت بباب التصديق والطمأنينة متردّداً. وجدت نفسي في حيرة قاتلة دعوت الله أن يكشفها عني، وأن يبني بصيرة نيرة أنفض بها إلى أصياق هذا الصرصر الجليل الذي كانها خلقت لتعذيبني. وأرهقني التفكير والتردد فقلت وكانني أمائل نفسي:

- من مُرسله؟!

وكانّ السؤال ألهماً، فغضّت بصرها مقطّبة وقالت:

- قلت كان غفلاً من الإماء.

فانفلت لساني يقول:

- هذا غير معقول.

فصريت الأرض بقدمها وقالت وقد لاح في وجهها

الأم والتعسة:

- أتكذّبي يا كامل بعد أن صارحتك الحقيقة؟ إنّي لا أحتمل هذا...

فاستطردت قائلاً وقد نال مني تألها:

- أعني ماذا يفيد الخطاب إذا لم يترك به إشارة تدلّ عليه؟ ألم يرسل لك خطاباً قبله؟

- ... هذا أوّل خطاب أتلّقه...

- وماذا كان به؟

فغضّت بصرها وهي تقول بضيق:

- كلام سخيف عن الإعجاب والجلال...

ووثب إلى خيالي منظر يديها وهما تمرّضان الخطاب فلسعني الشكّ وانتفض جسمي في ملح فصحت بها

أعترف نفسي جيتًا، ولّني لأغار من الوهم ومن لا شيء! فأين مَنّي جزيرة نائية لم تطأها قدم رجل!

وطار الخيال بفتة إلى حجرة أتّي فسرت في جسدي قشعريرة وغللتها تقول لي «ألم أتل لك؟» فنفتحت كمن يزيع عن صدره كابوسًا، ولاحت مَنّي التفاتة نحو «رياب» فوجدتها تحمّل في وجهي بدمشة، فخطر لي خاطر جديد لم أتوانّ عن الإنصاح عنه فقلت برقة:

- رياب، لماذا تواصلين خدمتك في الحكومة! لماذا تتجشّمين هذه المشقة بلا ضرورة؟ لماذا لا تقنعين ببيتك كغيرك من الأزواج؟

ففتّرت في وجهي بإيمان وأناة، ثمّ قالت بهلوه:
- ألا تتقّي؟

فابتدتها قائلاً: معاذ الله ولكنّي...
وقاطعتني قائلة:

- إذا كنت لا تتقّي فالأولى لي أن أغادر بيتك!
- رياب!

فلم تبال جزهي وقالت:

- إذا كنت ما تزال تتقّي في سابقي في وظيفتي.
فقلت بتسليم:

- لك ما تشائين!

فقالته باللهجة نفسها:

- لا أحبّ أن أسمع كلمة أخرى عن هذا الموضوع.

وقد كان. وغادرت البيت، وأخذت أضرب في الأرض على غير هدى حتّى تنأى بي الإعياء، فرجعت إلى البيت، وتلاقينا وكأنّ لم يكن بيننا شيء وتناولنا العشاء ممّا، ثمّ أوتينا إلى حجرتنا والتقت أعيننا في نظرات ذات معنى.

ولم تسالك أن انفجرنا صاحكين، ومضينا إلى الفراش فاضطجعنا وقبّلنا قبل النوم. ولا أدري لماذا نازعتني نفسي إلى معاودة ما تعاودنا على اجتنابه. والأعجب من هذا أنّه لم تكن بي ذرة من ثقة، ومع ذلك كدت أهمّ... لولا أن ركني الخوف إلى وعيي! ثمّ خطر لي أن أسألهما عَمّا يجعلهما تقضي على نفسها بالحرمان؟ وانفجرت شفتائي ولفظ صدرتي القول،

قراءة شهر في بيت أبي...

فتفكرت قليلاً ثمّ قلت متحيرًا:

- كان يوجد رجل سمين يواظب على التهامك بعينيه في ذلك العهد الذي كنت أحوم فيه حولك، أفلا يجوز أن يكون هو؟
فروت ما بين حاجبيها مستذكرة، ثمّ قالت وهي تمزّ رأسها:

- لا أعلم عنه شيئًا...

وحاولت أن أذكّرها به ولكنها بدت وكأَنَّها لم تحسّ له وجودًا، فقلت بيأس وغيظ:

- أريد أن أعرفه كي أؤذبه.

فقالته بصوت دلّت نبراته على التعب:

- ولكن من يكون! لو لم يدفعني الارتباك إلى تمزيقه لكنا نقرأه الآن صاحكين، فهلّا نسيته وحسبنا ما نالنا من كدرا

فعضضت على شفتي، وجنحت إلى الصمت مغنيًا مفعولًا، فاستطردت قائلة:

- إنّه أمر تافه، بل أنّه من أن يستحقّ كلّ هذا الاهتمام...

فتبدّلت قائلاً وأنا لا أدري:

- لبيتك لم تمزّبه!

والتمعت في عينيها نظرة غاضبة وتساءلت بحدة:

- ألا زال يساورك الشك؟

فقلت بمججلة:

- كلّ... ولكنّي لن أهدأ حتّى أؤذبه!

فقالته بضجر:

- ولكنّا لا نعرفه فما العمل؟

وأحتفني قولها، ولكنّي تحاميت الإنصاح عن حفي أن أشتير غضبها. وكانّ الوقوف أرهقها فمضت إلى كرسيّ التواليت وجلست عليه، وشعرت عند ذلك بأنّ في ظهري، فدلقت من الفراش واقتمدت حافته. إنّا صادقة بريئة، والأمر جدّ تافه، فليتي أستطيع أن أحو من غيظي صورة يديها وهما تمزّقان الخطّاب! لعلّ المجرم أحد أولئك الفضوليين الذين يراقبوننا في ذهابنا وإيابنا! فليتي لم أخلق فريسة سهلة لأنياب الغيرة. إنّي

ولكنه جمد على طرف لساني! إنه الحرف أيضاً.

٥٠

وعندما فتحت عيني في الصباح الباكر عاودتني ذكريات الأمس، فتأملتها في دهشة، وقد خيل إليّ أنه لم يكن هنالك ما يستحق كل ذلك العناء والألم. وقلت لنفسي: لو أنّها مرّقت الخطاب في الروضة لما علمت به أبداً، وفي هذا آية صدقها، ثمّ تمثّلت لعيني وهي تمرّق الخطاب وترمي به من النافذة، فكأنّها هي تمرّق قلبي وتشر شظاياه في الهواء، وسرت في جسدي رعدة عتيفة. وهزّزت رأسي غاضباً كأنّي أنفض الأوهام وغادرت الفراش. ولما فرغنا من فطورنا جلسنا على المقعد الطويل نحسي الشاي. استرقت إليها نظرة فראيت وجهها المصسوب هادئاً باسماً يتمّ عن جمال وسلام، فغضّني الندم على ما فرط منّي في حقّها وقلت لنفسي: «حقاً إنّ الشيطان غوى رجيم». وفي اللحظة التالية لاح لي خاطر كالبرق، أليس من الجائز أن تكون قد تسلّمت الخطاب في البيت وأنّه لم يكن بوسعها أن تمرّقه في مكان آخر؟ ولكنّي سرعان ما نبذته، إذ إنّّه غير معقول - كما قالت بحقّ - أن تبلغ الحياقة من شخص أن يرسل خطاباً غرامياً إلى بيت الزوج! ألاّ سحقاً للأوهام، إنّ حبيبي أهل لكلّ نفقة، والثقة هي كلّ شيء، ولولاها ما حال دون الشرّ حائل.

وخرجنا معاً، وركبنا الترام. لعلّ كثيرين يرمقونا بعين الحسد، فهل يتصوّرون كيف نحيا معاً؟ ألاّ ما أعجب العوالم التي تنطوي عليها النفوس. وأعجب من هذا أمر رباب، فكيف ترغّب عن المباشرة الزوجيّة بهذا الإصرار العريب؟ لشّدّ ما يشوقني أن أغوص في أعماقها. عند ذلك شعرت بحاجتي إلى مرشد أقصّ عليه وأصني إليه. لم أشعر من قبل بمثل ما شعرت به وقتها من الوحدة والعزلة وقلة الحيلة. وكان طبيعياً أن أذكر مرشدي الوحيد في الحياة، أمّي، ولكنّ سرعان ما تمكّنتي إحساس قويّ بالحجل والغيظ، حتّى لكأنّ نشر همومي على الملا أهون عليّ

من أن أسار أمّي بها.

هل استطيع أن أجلو السرّ بنفسي؟ أليكون الله قد خلّقه خلْقاً طاهرًا لا تطيب له الحياة إلّا بالعفة؟! هذا فرض محتمل يؤيّدله الواقع. ولست آسى عليه، فلولاه لكنت في مأزق حرج. والحق أنّ أنصالي بها - حقّ في أسعد أوقاته - لم يجلّ من قلق وخوف غامضين. وقد عاودني العجز في إبان جنوحها إلى النفور، ولكنّي كنت أرى إلّا أن أصور نفسي في صورة الضحيّة لشذوذ حبيبي، والفداء لسعادتها. . . ولما بلغت هذا الحدّ من التفكير - وكنت أشرف الوزارة - اضطرب ذهني وشعرت بقلق طافح لم أدركه. بدا لي الأمر وكأنّه يستدعي الطمأنينة التامة، ومع ذلك لفّنتي حيرة معذّبة فدخلت الوزارة ذاهلاً. . . من عسى أن يكون الوجد الذي كتب الخطاب؟ معقول جداً ألاّ يكون الرجل الوقور عمّد جودت، فمن يكون؟ لماذا لا يكون الفتي الآخر ذا الجسم البدين والنظرة المنظرسة؟ وليس هذا ببعيد. إنّّه في تناول يدي، وإني لأعرف موقفه الذي ينتظر به كلّ صباح. . . ترى هل حقاً جهلته أم كانت تتجاهله؟ على أنّي تمثّنت بقلبي ألاّ يكونه، إذ لم يخفّ عني لحظة أنّه قادر على أن يبطش بي بضربة واحدة؟ وقلت لنفسي ساحكاً: لو أنّها أبقت على الخطاب لأمكّنتي كلّ شيء. أيّ شيء أعني؟ لا أدري على وجه التحقيق، لكنّي وجدت عليها مرّة أخرى بعد أن عُدّ الأمر منتهياً. والله ما مرّفته إلّا خوفاً من اتّلاعي عليه. ويأه هل أترقى ثانية في الجحيم؟ حذار أن تتساقى! إنّ من يسمح لنفسه بالشكّ في رباب لا يستحقّ أن يكون إنساناً. ألاّ يحسن بي أن أسأله في التليفون عتاً إذا كانت تلقّت خطاباً جديداً؟ نازعتني إلى ذلك رغبة ساحرة ولكنّ حال دون تنفيذها الخوف. . . ودعاني صوت من الأعمق إلى الحرب! ولكنّ بمنّ أهرب؟ وإلى أين؟ إمّا أن أكون مجنوناً أو سخيفاً. إنّنا زوجان سعيدين في الواقع، ولكنّ عقلي شقيّ، فاه لو استطيع حلف الأمس من الأبتام: آه لو تمحى ذكرى تمزيق الخطاب من خيالي. وإليك خاطراً جديداً: إذا كانت قرأت الخطاب في المدرسة فلماذا

فرائض الدين حتى لم أعد أوأظب إلا على الصوم في حينه، أَلَسْتُ حَقِيقًا إِذَا عَدْتُ إِلَى هَدْيِ الصَّلَاةِ أَنْ يَطْمِئَنَ قَلْبِي وَيَخَفَّ عَنْ ظَهْرِي وَفَرِّقَ الْقَلْقُ وَالْمَخَافُف. وكان قلبي على الله يتعاضد ظلَّ النَّبَةِ الطَّيْلِ، ويعب من غير صافٍ مثلوج، ويغمره سكون عميق يدعوني إلى الاستزادة من صفاء الساعة الهنيء. وفي نشوة من نشوات السلام تراءت لي الآملي كخيوط رقيق من نسج الفضاء المهيمن على كل شيء فنزعت إلى الرضوى والتسليم. ودَوَّمَ بفضي صفاء روحي سماء بي ذروة من البهجة فوق المني فكأنَّ القلب يعلو غصنًا من أغصان الجنة تبدل عليه حامة السلام. ولبثت في نشوتي زمنًا لا أدري كم لبثت حتى اندس إلى خيالي على حين غرة صورة رباب وهي تمزق الخطاب وقد تمككها الملح فأفقت بقسوة وعنف كمن يفوق من نوم على زلزال عنيف، وتهدت من قلب مكلوم ثم نهضت قائمًا، وتلوت الفاتحة مرة أخرى وغادرت الجامع، وقد وقع بصري لدى خروجي من الباب على زَمَال مَن يستظلون الغيب، إني أؤمن بهؤلاء الناس إيمان أمي بهم. وقد انتظرت حتى انفض من حوله جماعة من السائلين واقتربت منه على حياء، وسألته أن يقرأ لي الطالع. وراح الرجل ينكت بإبهامه في نقرات الرمل وينقل فيا بينها قواقعه. كان نحيلًا كالمومياء، شاحب اللون، متلفعًا بكساء أبيض، فقال من لم تق فيه إلا نيتاه العلييان:

- كثير المم والفكر.

فقلت لنفسي: لقد صدق، وأرهفت السمع بانتباه، فاستطرد قائلاً:

- ولك عدو مكر.

فحفظ قلبي! أليس هو صاحب الخطاب؟! وواصل الرجل حديثه قائلاً:

- إنه يكر مكره وسيرد الله كيده إلى نحره...

ألا يعني هذا أنَّ «رباب» بريئة؟

- وستجيبك ورقة تسر بها طويلًا...

- أتعني خطابًا؟

- ربما، إني أرى أمامي ورقة...

أعادت قراءته في حجرتنا؟... أَلَمْ أَهْأَنْ تَعِيدَ تَلَاوِثَهُ أَمْ كَانَتْ تَسْتَوِثُكَ مِنَ الْمِعَادِ؟ أَوْشَكُ جِيفِي أَنْ يَتَفَجَّرَ مِنْ حَيِّ الْفَكْرِ...

ولمَّا غادرت الوزارة أسعفتني هواء الطريق اللطيف بروح من عنده فتفتت نفسًا عميقًا، وأحسست انتماشًا ردي إلى السكينة. وجعلت أردد: ما أحقني! وفي البيت لأقني رباب بابتسامة وضامة فانبسخت أساري، وسألته ضاحكًا:

- هل من جديد؟

- أتعني خطابًا جديدًا؟

فقلت وما أزال ضاحكًا:

- نعم.

فقال متبسمة:

- كَلَّا انقطع البريد...

وغادرت البيت عصرًا وليس لي غاية، وما كدت أَسْتَفِرَّ بِمَكَانِي فِي التَّزَامِ حَتَّى نَشَأَتْ فِي صَدْرِي رَغْبَةٌ جَمِيلَةٌ، هِيَ أَنَّ أَزُورَ «السَّيِّدَةَ» طَالَمَا كَانَتْ مَلْجَئِي وَمَلَاذِي، وَلَمْ أَتَرَدَّدْ عَنْ تَنْفِيلِ هَذِهِ الرِّغْبَةِ الَّتِي مَلَكَتْ نَفْسِي. وعندما عريت عتبة المسجد سرت إلى صدري نسمة ارتياح سعيدة، وطافت براسي ذكريات محبة إلى قلبي. رأيته بعين الخيال أسير ممسكًا بيدي أمي إلى الضريح الطاهر. وذكرت يوم جاءت بي لأتوب عن الذنب الذي أكاد آلفه وأعتاده. يا لها من ذكرى أعقبت ندما وخجلًا حتى شعرت برغبة في التواري والفرار، ولكنني واصلت السير، فطفت بالضريح قارئًا الفاتحة، وتشنجت إدلالًا بمنزلتي منذ الصغر عند صاحبته الطاهرة، فوضعت راحتي على الباب وغصمت في ضراعة: «يا أم هاشم، أنت أعلم بقلبي وطيته، وبأني لم أضمر في حياتي أذى لإنسان فاجعلني جزائي من جنس عملي. هذا دعائي يا سيِّد». وانتبذت ركنًا وتربعت على الأرض. سطعت أنفي رائحة ذكية لعلها كانت رذاذًا يرشهُ أحد المتجولين، ونجاوت في الأركان أصوات الدعاء يرددها اللطائفون، على حين مضى شيخ غير بعيد يرتل بصوت مهموس آيات من الذكر الحكيم، وذكرت كيف انقطعت عن

ما معنى هذا؟! كان الأمر يزداد غموضاً، وسألته:
- هل تأتي من قبيل العنق؟
- كلاً... كلاً... ناحية أخرى فتتجلى بها
همومك.
- أية ناحية؟

- يأتيك الخبر من حيث لا تدري.
فتولني الحيرة وتثبت لو يزيد بيأساً، ولكنه عاد
يقول:

- إذا جئت صعباً فسيذلها هذا الحجاب بإذن
الله.
وأعطاني لافافة صغيرة جداً من الورق مربوطة بخيط
رفيق ثم قال:
- ضعه على القلب، وتوكل على الله...

ذكرت في طريق العودة ما عانيت من ألم منذ عصر
الأمس فأيقنت أن سعادة عام لا تزن شقاء يوم واحد،
لم أهدأ إلى مرمى وما أزداد إلا حيرة وتبليلاً. إنَّ ما
يظلمني أحياناً من طمأنينة ما هو إلا سحابة صيف،
ولن يهدأ لي جانب حتى ألقي الحقيقة وجهاً لوجه، ما
كنت أحب أن تلوث نفسي بالشك في الوجه الصبيح
الطاهر، ولكن بكرة الشك قد ألقيت في أعماقها ولن
تزال تنمو وتثمر شوكة الجهنمي. لقد شددت بقوة
اليأس على أهداب الطمأنينة فهتكت وتحرق، وما
أطيق أن أحتمل الحياة متردداً بين ساعة سلام خادعة
وساعات عذاب طويل، فما من محيد عن أن أرى وراء
الحجب، قد يكون في ذلك هلاكه ولكن الحياة تقضي
عليها في أحيان كثيرة بأن نجري وراء هلاكنا كأنه اللذ
الحق. إني أحبك يا حبيبي ولعل القدر قد رماني بهذا
الحب ليقضي به عليّ، ولكن هل أملك ردّ قضائه؟
لملئ أدرك الآن لماذا لم يكن يزابلني القلق حتى في
أصغى ساعتي سعادي، أكان قلبي يشهد لمحات من
المقدور وراء ستار الغيب؟... على أنني لا أحب أن
أقنأ في التشاؤم، فقد يكون المخبوء على غير ما توقع
قلبي، وقد أجد به ما أتلهف عليه من طمأنينة
وسلام.

٥١

فما العمل إذن؟ الصواب أن التمس إجازة من
الوزارة، ثم أفرغ للمراقبة في خفاء لا يدري به أحد.
أيون عليّ أن ألتجسّس على «رباب» إلا ما أشقّ هذا
على نفسي، ولكن كسل شيء يسون إلا عذاب
الشك...

توثبت للعمل وبني من الألم ما لا يعلمه إلا الله،
فخرجنا معاً كعادتنا كل صباح وركبنا الترام معاً، ثم
نزلت في محطة الوزارة وناذيت «تاكسي» وأمرت السائق
بالذهاب إلى العباسية. سبقتها إلى مكان عملها لأهني
لنفسى موضعاً يصلح للمراقبة. وكانت الروضة تقع
بشارع كمال - المتفرع من الطريق العام إلى اليسار -
على يمين الداخل بعد فوات بيتين من مدخله، وقفت
في المحطة أتفحص ما حولي فأريت شارعاً فرعياً يقابل
شارع كمال على الناحية اليمنى من الطريق تقوم على
ناصيته قهوة صغيرة، بدا لي أن أجلس في هذه القهوة
حيث يسهل رؤية المدرسة من بعيد، ومراقبة زوجي
حين دخولها وحين خروجها. وأجهت إليها - وكان بابها
يفتح على الشارع الجانبى - واخترت مجلساً على عتبة
الملخل يمكنني أن أرى منه ما أريد رؤيته، وأن أتوارى
إذا دعا الحال بمرححة الكرسي قليلاً إلى الوراء.
وأدركت من نظرة واحدة مقدار حقارة القهوة، فكانت
موائدها قديمة وكراسيها باهتة رثة ورؤاها من
النوبيين، ولكن لم أبال هذا، بل وجدت به مدعاة
لطمأنينة. جلست وعيناي لا تتحولان عن شارع
كمال، وكلما جاء ترام من المدينة أشدّ انتباهي
ويقظني. ولم يطل بي الانتظار فما لبثت أن رأيت زوجي
وهي تعبر الطريق متلعة بمسة ويسرة لتفادى من
المركبات حتى بلغت «الطوار» الأمين لشارع كمال، ثم
سارت بمعطفها الرصاصي المنتم، بطولها الفارع
الرشيّ ومشيئها اللطيفة المهذبة، في احتشائها المهود
ووقارها المحبوب ثم انعطفت إلى مدخل المدرسة وقد
وقف لها البواب احتراماً، غلبني الحجل والألم لموقعي
ذاك، وترطب قلبي المحترق بالمعطف والحب وأنا أذكر

وارتفعت في القهوة ضجة ضحك فانتشلتني من الأحلام، فعدت إلى وعيي متعباً كالمرضى، وألقيت نظرة على الوجوه السود الدالة على شريرة لا تنقطع بأصوات عربية مكهربة، ونطرت بين يدي فإذا بفنجان القهوة لم يمس، فرفعتني إلى فمي ورشفت منه رشقات باردة، وعدت بصري إلى الطريق حتى استقرت على باب الروضة. إن «باب» تبائر الآن عملها في طمأنينة، ومن يدرى فلعل هذا الرعب كله أن يتمحض عن لا شيء، ولعل أن أذكر موقعي هذا يومًا فلا أداري خجلي. أتكلب هاتان العينان الصافيتان؟ أيتدر هذا القلب الطاهر؟ وتباينت الدقائق في تفكير متواصل، حتى انتهيت على طليقة نافذة وهي تفتح، فأنجى بصري بحركة عكسية إلى الجانب الآخر من الطريق، فرأيت النافذة في الطابق الثاني من عمارة كبيرة وقد أطلت منها امرأة، ولعلها عجبت جلوس أفندي مثلي في قهوة النويين، فنظرت صوبي باهتمام، كان في عينيها جراءة، فارتدت بصري في حياء. ومع أن عيني لم تثبتا عليها إلا لحظات إلا أنني عادت منها بصورة واضحة لوجهها الغليظ وصدرها المكتنز، ودخلي إحساس بالقلق، لأن النافذة تطل على مجلسي مباشرة، وقد رفعت عيني في حذر شديد فأرأيتها تدخن سيجارة وتنظر إلى شيء بين يديها على حافة النافذة، فتشجعت بتحول عينيها عني وأمدت إليها النظر. كانت فوق الأربعين إن صدق نظري - وقُل أن يصدق في تقدير الأعمار - وكانت على رغم تألقها وتزيّنها أقرب للدمامة منها للحسن، ذات وجه مستدير غليظ، وعينين بارزتين ثقيلي الجفنين، وأنف قصير أنفوس، وشفتين ممتلئتين، ووجنتين متكورتين منتفختين، وشعر جعد لامع. وما لبثت أن غابت من النافذة فكاد يذهب عني القلق، ولكن باب شرفة تجاور النافذة فُتح على مضراعي وبرزت المرأة منه تجر كرسياً، ثم وقفت قليلاً مرتفعة حافة الشرفة، فأرأيت جسمها المكتنز المائل إلى القصر، ثم جلست على الكرسي وأضمت رجلًا على رجل. كانت الشرفة أقرب إلى الطريق العام من النافذة، فلمكنتني أن الحظ من فيها دون حاجة إلى

كيف بهرني هذا الجمال الوقور أول مرة، اللهم إذا كانت حبيبي ملائكا فلتحرفني بنقمتك وإذا كانت شيطاناً فلتحرقنا جميعاً، ولتحرق الدنيا معنا فما يكون بها شيء يستحق الرحمة، وارتفعت عيني إلى السماء وغصمت: «ربّي! إذا شامت حكمتك أن تلذّر سموم الغدر في حنايا هذا الجبال فلتغفر لي الجنون والثورة!».

وتفحصت الطريق أمامي متسائلاً في رهبة: ترى هل أرى بعد ساعات من يقف منتظراً بموضع من هذا الطريق؟ هل أراها وهما يتبادلان إيماءة أو ابتسامة أو يلحق أحدهما بالآخر؟ ما عسى أن أصنع لو انقضت هذه الصاعقة على رأسي! وانتفض جسمي غضباً وروعاً! وتجلت الكارثة كما لو كانت قد وقعت، فجلتها حتى تحسنت لناظري، ثم تساءلت مرة أخرى عما عسى أن أفعل! ليس أسهل من البطولة والنصر والبطش في أحلام اليقظة، ومع ذلك فلم يسعني الخيال بنفحة منها، ولعلّه تخرج لأن الخطر الذي تهددني لم يكن بعيداً بحيث يسمح له بالاستمتاع بأحلامه، كان على العكس قريباً محتملاً، فشكمت الأحلام، وتمثل في الموقف البشع في حدود الواقع، فتصورته بقلب هباب ونفس غلخلة القوائم، تمثل لي العدو شخصاً حقيقياً في طريق مزحوم بالملازة فما أسعني الخيال على التصدي له جهازاً ونشر فضيحي على الملأ، أو خوض معركة لا أشك أنني سأكون فيها من الخاسرين! تصوّر زوجاً مخدوعاً صريعاً بلكمة من خادعه! ثبّا لي! لكم حنقت في تلك اللحظة على ضمعي! غضبت غضب من يروم ذلك الجبال، وتهدت تهدت من يمجز عن رفع حصاة، ولكن ما من الإقدام بدأ أأرى «باب» مع صاحب الخطاب ثم أقف مكتوف اليدين؟! حال... لا هجم إذن على غربي وليكن ما يكون، أو أفنق بمشاهدة الجرعة الساعية في الأرض، ثم انتظرها في البيت حتى تعود وأقول لها بهدوء واستهانة: «لقد رأيت كل شيء ببيني، عودي إلى بيتك بسلام!». لماذا أقدمت على هذه الخطوة الجنونية؟ لماذا تزوجت؟ ما كان ينبغي لمثلي أن يتزوج.

عطف رأسي، فاختلست نظرات من ساقها المرتويتين السماوين، وشبهها الأحمر الفاقع، وأنفذي وجودها من تيار أمكاري الجهنمي وإن استحوذ عليّ ذلك الغلق الطارئ، وراحت تنفخ الدخان من شفيتها الغليظتين وتقلب عينها فيما حولها، وكلما التقيا بي تفحصتني بجرأة منقطعة النظر حتى شعرت بحرارة الحجل تلهب وجهي، وتساءلت في ارتباك: متى تحضي؟ فلقد أربكي تفرسها في وجهي، ولمعه ترك في نفسي انزاعاً آخر غريباً لا يخلو من ارتياح حلو وانفعال جنسي لم أعرف له سبباً. وكنت كلياً رفعت إليها عينيّ حولت رأسها نحوي وحدجتي بنظرة وقحة ثابتة كأنها ترى بأذنيها، أو أنها تمتنع بحساسية خارقة تغلق إليها النظرات التي تصوب نحوها من أي مكان كان، فركبني الخوف والحذر، وحرصت على ألا أوقع بصري الغلق إليها. ترى هل يطول بي هذا الحذر والتوتر؟ وهل حين فجأة رنّ صوتها - صوت عنق رنّان - وهي تقول وكأنها تخاطب أحداً في الطريق: «إني قادمة يا ماما» ثم مضت قائمة ومضت إلى الداخل! ولم أتمكن أن ابتسمت في استغراب واستنكار، فقد هالني أن تقول «ماما» وهي المرأة التي جاوزت سنّ الشباب، كما أدهشتني أن تستجيب لنداء أمها بهذا الصوت الذي رنّ في الطريق بلا داع، وكان يوسعها أن تذهب إليها دون أن تنبس بكلمة، أو أن تخاطبها عقب دخولها إلى الحجرة، فبدت لي - إلى جرائها - غريبة الأطوار، عجة للظهور ولقت الأنظار، متجاهلة لسنن العقل الذي تعني ذروته. على أنني سررت للدهابها، ولتخلعي من سطوة نظراتها، وعدت إلى نفسي، وإلى الطريق الذي عليّ أن أرفقه حتى ينطوي البهار. وتتابع الوقت فأتعبني ثقافته، واستحوذ عليّ الضجر. ألا يحسن بي أن أمضي هنا وهناك حتى يقترب موعد انصراف الروضة؟ ولكن من يضمن لي ألا تحدث أمور في أثناء تجوالي؟ فلا ظلّ رهين جلوسي هذا حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً! ولبثت بمكاني متجرّعاً الصبر دقيقة ف دقيقة، وجاءني صوت من الشرفة، فرفعت عينيّ، فرايت المرأة وهي تنقل الكرسيّ إلى موضع من الشرفة تملأ أشعة

الشمس ثم تستقرّ عليه... ولاحظت منها نظرة إلى القهوة، فلما وقعت عليّ لاح بعينها الاهتمام والدهشة وكأنها تتساءل: لأن عيّا دعاني إلى ملازمة مكاني بهذه القهوة الحفيرة طوال هذا الوقت، وتعمّدت أن تظهر لي دهشتها بغير ما حياء فلم يبق إلا أن تسألني عيّا بقيتي في مجلسي ذاك؟ وأشعلت سيجارة، وراحت تدخن بتلذذ، وتتسلّى بالنظر إليّ من وقت لآخر. وصممت على أن أركّز انتباهي في هدي، فأرسلت بناظريّ إلى الطريق، ولكن ظلّ شعوري في شغل شاغل! وتبدّدت قوّة إرادتي في مقاومة ما يبلّغني إلى رفع بصري، وغلبني الحياء والارتباك إذ تبيّأ لي - لضيق الشارع - أنني والمرأة في حجرة واحدة. ولم أضلّ من إحساس بالارتياح منشؤه أنني أجد نفسي عكّ نظرة امرأة لأوّل مرّة في حياتي، ولم يعد يخفى عليّ ذلك الانفعال الجنسي الذي يعنه في أعصابي وجهها الغليظ وساقها المرتويتان، ولئن كانت جرائها قد أزعجتني فلم تعدم في نفسي إشارة من ارتياح هامض، لعلّه نوع من الإعجاب الذي لا يريد أن يفصح عن نفسه، وتساءلت في دهشة: ترى لو كان لجميع النساء ما لهذه المرأة من جرأة أكنت أقطع ما خلا من زماني مروحاً بغير رفيق؟! وانسقت وأنا لا أدري إلى مقارنة هذه الجرأة الجذّابة بذاك الاحتشام الجميل الذي تتحلّى به زوجي المحبوبة، ولكنّي سرعان ما انكثرت المقارنة الوقحة، فامتلات سخطاً وتقزّزاً، ولبثت المرأة بمجلسها ساعة ثم عادت إلى الداخل وأغلقت باب الشرفة، فتهدّدت في ارتياح صميم وغمغمت: «لا أرجعها الله»، وانفرد بي الانتظار، ومزّ الوقت في إعياه وسأم، فجعلت أتسلّى بمراقبة سنّة أو سبعة من النوبيّين هم كلّ من بقي بالقهوة من الزبائن، وقد واصل ثلاثة منهم الترتة على حين جمد الآخرون على مقاعدهم كتائب من البروز. وحيناً أرمي بنظري إلى الطريق العامّ أحصي المائة نساء ورجالاً، وأشاهد مركبات الترام الداهية الآتية، أو أتساءل كلما قرع اذنّي أزيز ترام أتّ من بعيد أن يكون رقم ٣ أم رقم ٢٢، وهل يجرّ مركبة مكشوفة أو مغلقة ثمّ أحصي مرّات الصواب

فأخبرتها بأنّ العمل يستدعي بقائي في الوزارة لهذه الساعة مدّة أسبوعٍ على الأقلّ، وحين الأصيل أخذت «رباب» في ارتداء ثيابها وقالت لي إنّها ستزور أمّها، ودعّتي - كعادتها كلّما خرجت - إلى مرافقتها، وتساءلت كيف يمكنني مراقبتها في المساء؟ ليس الأمر سهلاً كما في الصباح، فالبيوت التي ترتدّد عليها في أحياء مقاربة، وهي تقصدها مشياً على الأقدام، فيما نلدر، فلا أستطيع أن آمن على نفسي - إذا تبعنا - من الانفضاح، ولكنّي إذا لزمتهما في نحوهما أمّنت المساء، ولم أَدع لها فرصة لأمر، ممّا يضطرّها إلى مقارفة الإثم - إن كان ثمة إثم - في نصف النهار الأوّل فتضع في شباكها من حيث لا تلدري... لذلك تقبّلت دعوتها بسرور وقلت لها ضاحكاً:

- سأذهب معك تقادياً من الملل الذي يقتلني في غيابك.

فُسّرت لقبولي دعوتها وقالت برجاء:

- ليتك تخرج معي دائماً فليس أحبّ إليّ من أن نذهب ونجى معاً...

٥٢

وفي صباح اليوم الثاني خرجنا ممّا كعادتنا، وأعدت ما صنعت بالأمس، فاستقللت التاكسي إلى قهوة النويّين وأنجلت مجلسي بمدخلها، وجاءت رباب في موعد الأمس ومضت إلى الروضة، وخطر لي وأنا أتبعها عينيّ أنّه لو كان لها حساسية المرأة الغريبة - لم أذكرها منذ غادرت العباسية بالتاكسي أمس حتّى ونب لذهني هذا الحاطر - فالتفتت صوب وقع بصرها عليّ فدارت على عقبيه وجاءت إليّ في دهشة تسألني عيّا أنّ بي إلى هذه القهوة؟! تصوّرت هذا المنظر في فزع، فانكمشت في مجلسي هلماً، وعصّني الندم والألم، ولكنّ زوجي مالت إلى المدرسة أمة مطمئة، غافلة عن العينين اللتين تراقبانه في حذر وارتياب، حتّى غيّبها الباب عن ناظريّ، فذهب عنيّ التوتر والخوف، وشعرت برهبة حيال الانتظار الذي كان عليّ أن أعانيه في تصوّر وتحلّل نهاريّ آخر، والقيت نظرة دائريّة شجرة

والخفا. ولما آن وقت انصراف الروضة عاودتني البقطة، ثمّ اشتدّ بي القلق والجزع، وجالت عينيّ في جنبات الطريق ثمّ استقرّنا على باب المدرسة، ولشّد ما خفق قلبي حين رأيت جماعة من المدرّسات يغادرن الروضة، وعلى أثرهنّ خرجت «رباب» بصحبة فتاة من زميلاتنا، وأنجھتا نحو شارع العباسية وهما تتحدّثان وتضحكان. واخرتنا في الطريق العامّ فأنجھت الفتاة إلى اليسار، وسارت زوجي إلى المحطة، ولما كانت وقتها بحيث يتّجه وجهها صوب شارع القهوة الجانيّ فقد تراجمت بالكُرسيّ إلى الوراء متتحيّاً عن مرمى بصرها، وتخصّصت الطوار بعناية وقلبي يكاد يثب من موضعه من شدّة الخفقان فقد حدّثتني نفسي بأنّي سأتلقّى الضربة القاصمة بعد لحظات. وكان على وطواره المحطّة شيت من الرجال والنساء، ولكنّ زوجي انتبذت طرف الطوار البعيد ووقفت وقتها المحتشمة لا تميل برأسها نحو أحد، وتنتظر من أنّي لأخر من وراء كنفها صوب الجهة التي يأتي منها الترام، لم أر ما يرييني، ولم تتحوّل عنها عينيّ لحظة واحدة حتّى جاء الترام وصعدت إليه، ويارحت مكاني متعجّلاً وناديت تاكسي وركبته وطلبت من السائق أن يتبع الترام عن بُعد وجلست لصق النافذة اليسرى وعينيّ إلى مقصورة السيّدات، حتّى بلغنا العتبة، ونزلت زوجي من الترام واخترقت الميدان إلى محطّة الترام رقم ١٥ الذاهب عن طريق الروضة، فدرت بالتاكسي حتّى وقف بي على كتف من قسم الموسيقى، رأيته تقف في زحمة من الحلق فجعل بصري يدور في الحلقة التي تحيط بها ويثبت عليها في سرعة وجنون، وجاء الترام فصعدت إليه، ومضى بها، فتبعته محطّة بعد محطّة حتّى طوى الطريق إلى محطّة حارثا ورأيته تغادره وتعتبر الطريق صوب البيت! وانطلق بي التاكسي محطّة أخرى، ثمّ غادرته وصعدت إلى البيت مشياً على الأقدام، وشعرت في طريق عودتي براحة مشوبة بخجل، وتساءلت في حيرة: ترى هل فتاتي بريئة أم ينطوي الغد على ما لم أعثر به في يومي؟ ولما انتهت إلى الشقة وجدت أمّي قلقة لتأخري، وكذلك «رباب»

الشرقة الخشبي وجهًا لوجه، وليس بالشارع الجانبي دكان، ولا يكاد يمر به أحد إلا فيها ندر، وأما زبائن القهوة فعاكفون على ثرثرتهم في الداخل لا يرون شيئاً، ومائلتي بموضعها من المدخل وحيدة، فخلتني مفردتين على نحو ما. وشعرت في اللحظة التالية بالارتباك والحرج، ولم أدر كيف يمكنني البقاء هكذا تحت رحمة عينها الوقحتين، فتمنيت لو لم تحقق رغبتي الخفية، وجعلت أنظر إلى الطريق البعيد تارة، أو أعطف بصري من فوق كتفي إلى داخل القهوة تارة أخرى، شاعرًا في أثناء هذا وذاك بوقوع عينها الثقيلتين على وجهي. إني راغب في وجودها ما في هذا من شلّ، ولكنني لم أحتمله، وما من مرة استرق إليها نظرة إلا وأجدها متفرسة في وجهي في هدوء وإمعان وبلا حياة أو تردد، وإنّ هذا اليماني سرورًا وخفة ولكنّه يسومني ما لا طاقة لي به من حجب وارتباك. إنّ عينها تنظران طويلًا ولكنّها لا تنظران فحسب، إنّها تتحدّثان بأجل لسان، كلياً التقت عينانا خلعتنا تخاطبني فأغض الطرف وكأني أفر فرازًا. ونظرت نحوها مرة فوجدتها تشعل سيجارة، وأطفأت عود الثياب سهريّين ثم رمت به نحوي لولا أن أرجعه الهواء، وأخذت نفسًا عميقًا وقد ابتسمت عينها، ففحق قلبي بعنف وازددت ربيقي بصعوبة... ماذا تريد هذه المرأة؟.. كيف تواتيها الجراة على هذا النظر العارم الوقح؟ بل كيف تطاردني هذه المطاردة الصامتة وهي لم تسبق لها بي معرفة، ولم ترني إلا مرة بالأمس ومرة أخرى اليوم. واستحوذ عليّ الاضطراب، وشغلت بالشرقة انشغالا تامًا فلم أعد ألقى على باب الروضة إلا نظرات سريعة لا تكاد ترى شيئاً. ورأيتني أنظر نحوها فوضعت رجلًا على رجل جاذبةً عينيّ قهراً إلى جانب عريض من فخذها أحدث التناؤما واشتباكها طيات سمراء مثيرة فشعرت بمثل سورة الحمر وجفّ حلقي وطلعت عواطفني على حياتي فذاب كما يذوب الثلج تحت أشعة الشمس النارية فحملت فيها بلا حجل ولا تردد، وما لبثت أن نهضت قائمة وغادرت الشرقة! تركتني في ثورة جامحة. وقلت لنفسي سائطاً: آية هاوية تنفجر تحت قدمي! ثم

على شارع القهوة الجانبي وما يبدو لي من شارع العباسية والقهوة بزبائنها السود، تلك الأماكن التي قضى عليّ بأن أمكث بينها كالسجين المجنون أقبط في دبابير الأفكار وشوارد الأضيلة الجهمة... ولكنني كنت ذكرت المرأة الغربية وأنا أراقب زوجي في ذهابها إلى المدرسة، فرفعت عينيّ إلى العارة على الجانب المواجه للقهوة، فرأيت النافذة والشرقة مغلفتين، وتساءلت كيف لي بتحمّل الانتظار هنا كاملاً بلا تسليّة أقتل بها الوقت؟ وكان تساؤلاً مريباً أدري به رغبة في رؤيتها كرهت الاعتراف بها، ولكن ماذا بدعوني إلى إنكار هذه الرغبة؟ وهل هي رغبة في التسليّة وقتل الفراغ؟ أجل إنّ المرأة قد أهاجت في صدري انفعالاً جنسياً، ولكن ليس في هذا جديد، فقد كنت ولا زلت أتلقى هذه الانفعالات الجنسية من أقبح الأدعيّات، وأقدهرن. ولم يغيّر الزواج من حالتي، ولم يشفي من دائي، فرددت إلى عاداتي القديمة جيئاً، وعادوت النظر إلى النافذة مرة أخرى، وكأني أعاني انتظاري! فلأحاول فهم نفسي أكثر من هذا، لست طالب تسليّة فحسب، إني أرغب في رؤيتها مرة أخرى، لتلثمني بنظرانها كما فعلت بالأمس فيعادوني ذلك الشعور العميق بالارتياح والرهو، وأسترد بعض الثقة المسلوبة، ولم أكد أستغرق في أفكارني حتى قرع أذنيّ لقطعة النافذة، فرفعت عينيّ، فرأيتها وهي تفتح على مصراعها، ولاحت وراءها المرأة، والتقت عينانا، ولم تكن تتوقع رؤيتي بطبيعة الحال. فتجلّت في عينها دهشة واضحة، وليثت دقيقة أو نحوها وهي ترنو إليّ ثم تحوّلت عني واختفت، وداخلني سرور لا يتناسب مع شقاء المهمة التي بحثت من أجلها إلى هذا المكان، وأنّجه بصري صوب الشرقة المغلقة منتظراً أن تفتح. وقد كان. فدفت يد مصراعها حتى اصطلما بعنف بالحائط على الجانبين، ثم دخلت المرأة تجرّ الكرسيّ بجسمها القصير المكتنز، وقد بدت لي في الربوب الورديّ كبريلٍ إلا أنّه مفصّل نصصيّلاً بيهمياً، ووضعت الكرسيّ في ركن الشرقة البعيد. وجلست عليه مستقبلة القهوة بوجهها ومثّت ذراعها على حافة

إلا إحساساً عابراً، ولم يبق منه أثر في اللحظة التالية. وغشيتني بعد ذلك كآبة وامتناع، ولم تلبث المرأة أن غادرت الشرفة تلبية لنداء من الداخل كما دلت عليه استجابتها فلم تعد للظهور. وانتظرت طويلاً تتناوبني الأفكار والأخيلة المزعجة حتى انطوى يوم الانتظار ورأيت رباب - كالأس - قادمة نحو المحطة. ولم يبدُ جديد فرجعنا، هي في الترام وأنا في التاكسي. وعند المساء اقترحت عليّ أن نذهب معاً إلى سينا ورويال فقبلت بلا تردد، وذهبنا معاً.

٥٣

وفي صباح اليوم الثالث حملني التاكسي إلى نفس الهدف، وكررت في الطريق المرأة الغربية فتملتت لعيني بوجهها الغليظ وجسمها القصير المكتنز. ولم أكن أذكرها لأول مرة ذلك الصباح، فقد لاحظت لحظاري في البيت وأنا أخذ زيتني أمام المرأة فكانت داعياً لمضاعفة العناية بتمشيط شعري ومقد رباط رقبتي، وتولاني إحساس بالخجل والذنب والقلق، وألقيت تبعه هذه الورطة على رباب وسوء تصرفها الذي سافني إلى هذه المراقبة الحمقاء! ولكن هل أستطيع أن اغتنق عدم ظهورها في الشرفة صادقاً؟ هل يمكنني احتفال يوم الانتظار الطويل بغير وجودها، وبغير وقاحتها الممتعة؟ واتخذت مجلسي من القهوة فجاءني النادل ذو الجلباب الباهت، والطاقيّة المائلة إلى قدالة كاشفة عن ذؤابة متصلبة، والنمل المنجرد، وحياتي تحية لعله لا يلقيها إلا للزبائن القدماء، فطلبت القهوة التي أحسوها بتقرّز واستكراه، وتساءلت متمسكة ماذا وراء هذا التجسّس المقيت؟ ألا يجعل بي أن أقلع عني أخلخت نفسي به ظلياً وسوء ظن؟ لقد عاشت زوجي يومين كاملين في تناول بصري فهل وقفت منها على ما يريب؟ هل لاحظت عليها ضيقاً أو تبرزماً؟ أليس كالمعهد بها صفاء ومودة وسعادة؟ وطباب لي الفكر فداخلي شعور بالطمأنينة والارتياح، ومرّ وقت فسارع إليّ الملل، ونظرت في الساعة، ترى هل أستخيرها عني فأت من زمن أم أسأها متى تفتح النافذة؟ ومهما يكن من أمر

ثبت إلى الهدوء وريداً فأمضيتي الأسف والحجل وألقيت على الشرفة نظرة غاضبة وغمغت كما غمغت بالأمس: ولا أرجعها الله. قد يكون الانتظار مؤلماً ولكنّه خير من هذا الشر الذي يتهتدي ولم يكن يساورني شك في أنها ستعود، وكان بوسعي أن أغادر القهوة إلى غير عودة، وأن أبحث عن مكان جديد يصلح للمراقبة والانتظار، ولكنّي اقتنعت نفسي بأنّ هذه القهوة المتوارية هي أصلح الأماكن قاطبة لمهتني، ولم تطل غيبة المرأة فعادت إلى مجلسها وفي عينيها نظرة باسمة، ومثلكني الغضب لا لسودتها ولكن للسور الذي استخفي. وقلت امرأة وقحة ما رأيت أغلظ ولا أقيح منها، ولكنّي عدت أخالسها النظر وأتقى لو تأخذ راحتها وتضع رجلاً على رجل. وعدت أتملّ إثارها لي بالنظر والاهتمام فازدهاني طعنها وشعرت بنهم الجائع إلى الاستزادة منه، وهل كان هذا الاهتمام إلا لجبال وجهي ورشاقة قوامي! وقلت لنفسي في غرور صبيانيّ لعلها معجبة بالأعين المخضر والبشرة البيضاء والقامة الفارعة. وهل حين يغتنق أنسل إلى خاطري صوت هامس يتسائل في سخرية، وهل أغنى عنك جمالك شيئاً؟! وتمثلت لعيني تعاسي الزوجيّة فكانت قطعة كبيرة من الثلج وقعت على فورة حماسي فأخذتها وخنقت أنفاسي. فترت نشوتي وحلّ عملها شعور بالغ بالشقاء والحياة، وتناست الشرفة، وهرعت أفكارني إلى الروضة فتتميت لو تنكشف لي الحقيقة مهما كانت بشعة قاسية لأنتهي من الأمر كله. غمّيت - إذا لم يكن من الأمر بد - أن أرى صاحب الخطاب يلاقي رباب ويغادئها اليوم لا غداً ولا بعد غد، بل كان في ذهني شيء آخر - في تلك اللحظة - لا أدري كيف أعبر عنه. كأنني غمّيت أن يصدق سوء ظني! لست غلطاً، كان هذا هو الواقع، ولكن كيف أفسره؟ هل نقل عليّ الشك فرغيت أن أتجو منه ولو بهذا الثمن الفادح؟ أو ضقت بهذا المعجز الغريب الذي جعل من حياتي الزوجيّة مهزلة فتتميت أن أجد في جريمة زوجي مهزباً من حياتي؟ أو كان ضميري الرارح تحت وطأة الشعور بالإثم يلتصم عقاباً وتكفيراً؟ أو أنه لم يكن

آتساعاً. وغلبتني ابتسامة فابتسمت وأنا أطرق في خجل لا يوصف. وأطلقت هذه الابتسامة شحنة حبسية من ارتباكِي فسرِّي عني قليلاً، واستطعت أن أحس بما يستحقني من سرور. وشعرت شعوراً قوياً بالفارق بين صبرنا فلذني هذا الشعور، وتمتيت لو يتقهقر بي العمر إلى العشرين أو ما دونها. رباه... إلى أهوي بلا وازع. ولكني لم أجد أبالي شيئاً. ولاحقته التفتاة إلى شارع كمال فصادفت عند ناصيته شيخ فتاة تنعطف إلى اليسار فحال بيني وبينها جدار القهوة. خلعتي رأيت معطفاً رصاصياً كمعطف رباب لفحق قلبي خفقة عتيقة كاد يتخلع لها. ما الذي دعاها إلى مغادرة المدرسة في هذه اللحظة؟ وما الذي جعلها تتجه إلى اليسار على حين أن طريق المحطة إلى اليمين فيها لو فرض أن عذراً دعاها للعودة؟... وانفضت قائماً وهولت مسرعاً إلى الطريق العام بلا تبصر ولا احتراس، ثم نظرت صوب المتعطف الذي سارت إليه ذات المعطف الرصاصي، فرائتها: كانت امرأة في الخمسين تحت الخطى على الطوارق وتهتد من الأحياق وغمغت كمادتي كليا نجوت من مازق وأعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وعدت إلى مقعدي وبني ما يشبه الإعياء والخور. لن أنسى هذه الحففة التي كاد يتصدع لها صدري، فماذا يكون أمري لو وقع المحذور! ورفعت رأسي صوب الشرفة فرائت المرأة تمحلق في وجهي دهشة وعياها تتسائلان عما حل بي؟! وارتسمت على شفطي ابتسامة! أجل أنساني الانزعاج خجلي فابتسمت. لم يعد يخفى ما بيننا من ابتسام، وحديث صامت يعبر تارة بالعين وتارة بال حاجب! ولم يعد يخفى علي ما يتلجج في صدري من عاطفة جهنمية. ولو كان ما بي حباً لركبتي الحفر وقدرت العواقب، ولكن بدا لي الأمر واضحاً لا ليس فيه فلم تزيالي الثقة. وليست ساعة أو أكثر أنالقي هذا الغزل في صمت وحياء وسرور جنسي عجيب، ثم نهضت المرأة قائمة وهي تتمطى فانفج الروب عن صدر ريان متفخ يكاد يتفكك من ضغطة القميص الوردية الشفاف، ثم ألقت علي نظرة وداع باسمة، وغمرت

فقد فتحت النافذة ولاحق وراءها المرأة بغلاظتها وتبصرها. اتسعت عيناها البارزتان دهشة ورفعت حاجبها المزججتين كأنها تقول: «أما زلت ملازماً مكانك؟! ثم خفضت رأسها لتساري عن عيني ابتسامتها وخفت قلبي خفقاناً سريعاً في سرور، وعادوني الخجل من نفسي فجعلت أقول لضميري بأنني لا أتطلع لإثم، وإن مثلي حقيق بأن يسر إذا ما وجد من امرأة اهتماماً، أجل إلي بريء، وما جئت هذه القهوة إلا لغرض لا شأن له بهذه المرأة، وسأنقطع بعد يوم أو يومين عن هذا الحي كفه فلا أعود أذكرها بخبر أو بشر. أما المرأة فقد اختفت من النافذة، ثم فتحت الشرفة ودخلت بكرسيها، وجلست في الركن المواجه لي، وفي عينيها ابتسامة من لم يعد بحاجة إلى تعارف. بت اليوم أقدر على احتمال هذا الموقف، ولكنني ما زلت أظنهم بالنظر إلى الطريق العام ختلساً من أن لأن نظرة إلى الساقين المملجتين خلال قضبان الشرفة الحديدية، ولم يفارقني الارتباك بل لعلها تضاعف بهذه الابتسامة التي تلوح في عينيها كلما التقت ميناء، يا لها من امرأة جسور، بوسعها أن تفعل ما تشاء بلا خوف، أما أنا فليس لدي إلا غرض البصر! أيدور لها بجلد أنني متزوج؟ وأتني ما جئت إلى هذه القهوة إلا كي أضبط زوجي مثبسة بجريمة الخيانة؟! ترى هل تبقى على اهتمامها بي إذا عرفت هذا كله؟ شعرت عند ذاك بخزي أليم. ثم ساءلت نفسي عنها من تكون. أهي زوجة أم أرملة؟! وماذا تريد؟! وحدث أن ارتفعت المنضدة يساري واقتربت ظاهر يدي بلذني، فما كان منها إلا أن ارتفعت حافة الشرفة يسراها واقتربت يدها بلذني وهي ترنو إلي في دعابة. وتلفتت الدعابة بخجل جعلني لا أرى شيئاً، وأرسل قلبي ضربات عتيقة طقت في أذني. إنها تغالزني صراحة، وأشعر بأن «الرجولة» تقضي بأن أخرج من هذا الجمود ولكني لا أبلدي حراكاً، واشتد بي الارتباك فبت في حال يرثي لها. وسحبت يسراي، وشبكتها بينناي على صدري فما أسرع أن سحبت يدها وشبكته بالأخرى على صدرها وقد ازدادت ابتسامتها

أيسر بما أتصور. ما أقطع هذا، ولكن ما أروحه لي كذلك، فإذا لم يكن من الكارثة بدّ فمن الرحمة أن تقع سريعاً، واستحوذ عليّ القلق والجزع، وأيقنت أنني لن أستطيع مع اليوم صبراً. ولاحت مني الفتاة إلى النافذة المغلقة فتعلّق بها بصري فيما يشبه الاستئانة، وتملّكني إحساس عنيف بالضغطة الذي ينصرني وتلهّفت نفسي على منفذ تسرب منه بعض الأبخرة المزججة في أعياقها. أتّي تنفيس ولو جرّ وراءه الإثم والحزني. وعند العاشرة تحت النافذة وطالعي الوجه الغليظ بابسامة مشرقة. وتحوّل انتباهي إليها فأنقلني من نفسي، وثبتت عيني عليها في جراحة لا عهد لي بها، وانبسطت أساوريري وأنا لا أدري فرددت التحية عثلاثا. وانخفضت من النافذة فسبقته عيني إلى الشرفة ولكن طبال الانتظار عن المعتاد، ثم بدت مرّة أخرى في النافذة، فإذا بها قد ارتدت معطفاً وأخذت أهبتها للخروج. وخطر لي خاطر كالبرق، هل تدعوني إلى مرافقتها إلى مكان ما؟ وغصرتني موجة من السرور والحيرة والحوف. ما أحوجني إلى هذه الدعوة، ولكن هل أترك رباب في هذا اليوم الخامس؟ إنّه بالعمر كله، وإنّ مصري معلق بمصر الجديدة فكيف أقاوم دعوة المرأة إذا دعيت؟ وفرغت المرأة من زينتها، ثم وقفت تنظر إليّ في هدوء وابتسام. ونظرت إلى شيء بين يديها فتبّعها بصري فإذا بأناملها تطوي ورقة صغيرة، ثم تثنيها من الطرفين، وتفحص الطريق بنظرة شاملة ثم رمت بها فسقطت على كتب من قديمي... وتناولتها بعجلة وبسطتها وقد سطع منها شذا طيب غدّر لوجدت بها هذين السطرين «انتظرنني اليوم في تمام السابعة مساء عند الجسر في نهاية خطّ الترام». وداخلني ارتياح إذ إنّه منحني مهلة عن غير قصد، ولكن ترى هل يسعني إنجاز الوعد إذا ارتبطت به؟ ألا يقع في مصر الجديدة ما يوفيني عنه؟ ولم أجد فسحة للتفكير والاختيار فقد حدثني بنظرة متسائلة وهزّت رأسها مستفسرة، فلم املك أن حثيت رأسي بالإيجاب. وابتسمت إليّ ابتسامة حلوة وحسنيّة بإيماءة من رأسها ثم أغلقت النافذة، فأدركت أنّها ذاهبة إلى

بعينها قبل أن تغيب وراء الباب، تركتني في صعب التهمت ناره ساعات الانتظار الباقية، وفي ميعاد الانصراف غادرت رباب المدرسة واتجهت كالعادة إلى المحطة. وعدنا إلى البيت كلّ على طريقته. ولم نخرج مساء إذ زارتنا أختي راضية وزوجها قضييّا سهرة عائليّة ممتعة

٥٤

اليوم الرابع، قالت لي رباب ونحن ننتظر الترام على طوار المحطة:

- سأتاخر اليوم عن ميعاد عودتي لأنّي سأعود زميلة مريضة تغيب عن المدرسة من يومين.

والقيت عليها نظرة مريّة لو رأتها لسامت العاقبة. ثم خفضت بصري بسرعة، كأنّني عواقلي، وسألتها بصوت ينم عن عدم الاكتراث:

- أين بيتها؟

- في مصر الجديدة.

- متى تعودين؟

- وقت الزيارة ومسافة الطريق... لن أتاخر عن السابعة.

بدأت تتعلّص من ظلي الثقيل! واختلست منها نظرة فبدت لي جميلة رائحة، ثم ركبتني نزوة طارئة فتمنّيت لو أهوي عليها بفأس فأشققها نصفين. وجاء الترام فصعدنا إليه وأنا في أسوأ حال، وغادرتني عند محطة الوزارة وناديت التاكسي، فطار بي إلى قهوة النوبيين. واستقبلت النافذة المغلقة بنظرة طويلة، ثم عدت إلى أفكاري. تلك الزيارة في مصر الجديدة! لن أدعها تذهب وحدها. كان تصميمي لا رجعة فيه ولكن هل ينجح مساعي؟ هبني تأثرتني إلى مصر الجديدة ثم رأيتها وهي تدخل بيتاً أو عمارة فمن يدريني بما يقع وراء الجدران؟ قد تكون في عيادة زميلة حقاً، وقد تكون في أحضان عشيق! وانتفضت انتفاضة قاسية، وعضضت على أسناني حتى سمعت صريره كالطقطقة. ولكنّي أبيت أن أبطع عزمي. لاتبعتها فلعلّي أراها معاً في الطريق، ولعلّي أحد ضبط الجريّة

من هذه الحياة المرة الطافحة بالحياة والشك. سينتهي كل شيء بعد دقائق معدودات، فلا يبقى داعٍ لأن أسأل نفسي أمي بريئة أم مذنب، ولا يسوقني وسواس لتجسّم أهوال المراقبة والتجسس، وسبخلو البيت إلا من الوجوه القديسة الآمنة، والحياة الهادئة الوادعة. أجل وددت لو أحطكم الرأس الذي حطكم قلبي، ولكنني أضرت بنفسي عن أن تضيق بسبب امرأة آثمة. كان غضبي قوياً وحشياً، ولكن حبي السلامة كان أقوى وأعمق. ألم يكن غريباً أن تدور أفكارني حول محور الحوف والسلامة حتى في تلك اللحظة المخيفة؟! وقراءت لي العتبة فسماحت مرة أخرى أين تغادر الترام؟ ورأيتها في محطة الميدان شامخاً كل يوم، فنزلت من التاكسي أن ألقدها في الميدان المكشّط. ثم رأيتها تخترقه إلى المحطة الأخرى التي تنتظر بها عادة، فلدت مع محيط الميدان ووقفت عند جدار القسم. وما أحسنتي إلا أن تقف في احتشامها المألوف هادئة ساكنة كأنني لا أشتغل من أجلها نازلاً... واستبعدت أن تقابل أحداً في هذه الزحمة فتطلّعت إلى رؤية الترام الذي تصعد إليه، وتتابع المركبات بأرقامها المختلفة حتى جاء ترام الروضة فسارعت إليه واستكنّت في مقصورة السيدات. وتولّفتي الدخشة، أليكون الأمر في حيناً؟! وهرعت إلى تاكسي وتبعته الترام. وجعل قلبي يدق في عنف، وتشدّ ضرباته كلياً مرزناً بمحطة... ثم دخلنا شارع قصر العيني، وقطعنا محطة وثانية وثالثة ورابعة حتى بلغنا محطة بيتنا، فما راهني إلا أن أراها تغادر الترام. ونظرت من نافذة التاكسي الخلفية فرأيتها تعبر الطريق وتدخل باب عيارتنا وتوسدت مسند المقعد وأغمضت عيني في إعياه وذهول. ماذا وراء هذا كله؟ هل فقدت عقلي؟ أما من هبابة هذا العذاب؟ وعدت إلى البيت فوجدتها لم تكذب تغرق من ارتداد الروب بعد أن خلعت ملابسها، وبادرتها قائلاً في دهشة:

- حسبتك في زيارة زميلتك!

فافتّر ثغرها عن ابتسامة وقالت:

- لم يكن بها إلا وعكة خفيفة وقد عادت اليوم إلى عملها دون أن تجسّم أحداً مشقة عيادتها.

زيارة أو نحوها. هكذا ارتبطت بالموعد مدفوعاً بضغفي الذي يجهل المقاومة وإن كنت لا أدري أين أكون وقت أزوفه، وهكذا سقطت في نفس الخطيئة التي أتهم بها زوجي! أغلقت بي أن أسرّ بهذه الخطوة الجسور أم أندم عليها؟ وهل ينتهي اليوم بحب أو بمأساة؟ لشدّ ما كرهت الحياة في تلك اللحظة. واندججت في تيار شعوري ألوان من المشاعر المتناقضة من سرود إلى خوف، ومن أمل إلى يأس، ومن حماس إلى فتور، ثم هلته موجة طافية من التلهّف على الغامرة لولاء من المهّم الذي ينبغ عليّ فيكاد يجرم بي الأرض. وطويت الورقة بعد أن تلوتها عشرات المرات ثم دسستها في جيبي. وانفرد بي الانتظار حتى فتحت الروضة أبوابها ولاحت لي رباب قادمة من بعيد. هذه هي الساعة التي أترتص بها منذ أربعة أيّام هي أشقى أيّام حياتي. سأبتغيها ما في ذلك شك تاركاً الموعد للظروف وحدها. وتوقّعت أن تميل إلى اليسار، صوب محطة الترام الصاعد إلى مصر الجديدة، ولكنّها عدلت إلى اليمين، إلى المحطة المعتادة التي تنتظر بها كل يوم! وأدركت لتوي أنّها اختلقت قصة الزميلة المريضة لتنتحل عذراً لغيابها، واضطرب صدري اضطراباً لم أدري كيف أمالك أنفاسي. هل أن لي أن أنتهي من هذا العذاب؟ ورمقتها بموقفها من الطوار بنظرة نارية وأنا أعجب لهذا الاحتشام الزائف الذي يطوي في أحياه شراً فظيماً وفسقاً ضجلاً. ثم جاء دور المطاردة التي أرجو أن تكون عميدة هذه المرة. فصحلت إلى الترام، وناذرت التاكسي، وجعلت ناصطري إلى مقصورتها لا تتحوّلان عنها. ترى أين تغادر الترام؟ أين تفصل فعلتها؟ لشدّ ما يكبر عليّ أن أتصورها في أمثال هذه المواقف المريبة! ولئن تكذّبت الحقيقة الواقعة وتكشف لي عن وجهها الشالاه النديم فما يشيعني ويطغى غليّ أن أدك رأسها بأحجار هذه المدينة الهائلة، ماذا يدفعها إلى هذا الانزلاق الآثم هي التي تمعّت عن علاقة الزوجية المشروعة أم إنّها لا تبغيها إلا عرجاً؟ لشدّ ما مرّفتني الحيرة، لشدّ ما عذبني الغضب والحقد. على أنني منيت نفسي بالراحة من هذا العذاب كله، والخلاص

المسأةة... آ... لا يزال أمامي متسع للهروب. ولكني لم أبدأ حراكاً. إن هذه المرأة هي فرصتي الوحيدة لاسترداد الثقة الضائعة. وملكتني روح مغامرة لا عهد لي بها قالت لي: جرب، لن نخسر شيئاً، وعلى أسوأ الفروض فلن نخسر شيئاً جديداً... واستيقظت من أفكاري على سيارة متوسطة الحجم تقف أمامي بحذاء العلوار، ثم انخفض زجلج نافلتها الجانبية وبرز منه وجه المرأة الغريبة وهي تجلس أمام عجلة القيادة. ابتسمت إليّ، ودعنتي إلى الالتصاف حول السيارة لأجلس إلى جانبها من الباب الأخر، فأطمت في اضطراب وفي أقل من ثانية كنت إلى جانبها، فجلبت الباب والتصقت به وأنا لا أكاد أشعر بما حولي من فرط الخياء. وأحسست بعينها على خدي اليسرى، فلازمت النظر إلى الأمام، حتى ضحكتم ملء فيها بصوت يُعَدُّ إلى غلظة وجهها وجسمها رقيقاً وقالت بلهجة تنم عن التحريض:

- لم يعد من داع للحياء!

وانطلقت بالسيارة في مهارة وبشر وهي تقول:

- لنذهب إلى طريق الأهرام...

اندفعت بسرعة فائقة فولى قلبي خوفاً، وجعلت كلاً احتاقها عن الاندفاع زحام أو إشارة المرور أنتفس الصعداء... والأعجب من هذا أنها حققت من سرعتها الجنونية حين تركت وراءها الطريق المزحومة. واسترددت أنفاسي، واسترقت إليها النظر، فرأيت جانباً من وجهها الغليظ عن كسب، وذاك الصدر المكتنز، وتخل لميني صورة ساقها البرونزية المرتوية، وذكررت أن قبراكاً واحداً يفصلها عن ساقى، فاضطرب دمي. وأدهشني هدوؤهما وطماننتها فكأتهما تصاحب زوجها أو أخاه لا رجلاً غريباً لا يتالك نفسه من الحياء والارتباك. سألتني دون أن تحوّل عينيها عن الطريق:

- ماذا أدعوك؟

قلقت في انقباض:

- كامل رؤية...

واكتفيت بذلك عن ذكر اللقب الذي كثيراً ما يثير

تري هل تنتهي وسامسي جيئاً إلى قبضة من الريح؟ ولا أتمنى على الله من شيء إلا أن أسكن إليها في طمأنينة وسلام. وقالت لي وأنا أبذل ثيابي:

- دعني خالتي بالتليفون إلى زيارتها مساء اليوم وكلفنتي أن أنوب عنها في دعوتك...

فقلت لها وأنا لا أدري ماذا أقول:

- إن شاء الله.

وأدركت في اللحظة التالية أنني تسرعت بإجابتي تلك إذ ذكرت الموعد عند جسر العباسية. ولكن هل أروم حقاً أن أذهب إليه؟ إلى الآن بعيد عن النافذة والشفرة وتأثيرهما أفلا أزال أفكر في المرأة تفكيراً جدياً؟... أي شيطان يغر بي؟ إن قلبي لحبيبي دون سواها، فما بال نداء المرأة الغريبة قهراً لا يقاوم؟ وتفكرت طويلاً وما أزداد إلا استسلاماً للنداء الشيطاني، حتى لم يعد يحول بيني وبينه إلا ما انحلت به نفسي من ملازمة زوجي مساة. ولكن أكأنت تدعوني إلى زيارة خالتيها لو كانت تضم سواها؟ وعادوت التفكير في جهد لأنه ليس أشق عليّ من الاختيار بين امرين. وترددت طويلاً قبل أن أقول:

- أوه لقد نسيت... إلي مرتبط بموعد هام...

فتساءلت فيها يشبه الكدر:

- أتعني أنك لا تستطيع الذهاب معي؟

فقلت وأنا أشعر بأن قلبي تنزلق إلى هاوية ما لها من قرار:

- اعتذري عني لست خالك...

٥٥

بلغت جسر العباسية قبل الميعاد بعثاقت... كان الجبل لطيفاً والظلام شاملاً فاخترت موقفاً تحت مصباح غازي... ذهبت إلى الموعد بحال من القلق والتوتر ذكرتي بحالي يوم حملتي العربة إلى حانة شارع الألفي لأول مرة... كل هذا من أجل امرأة لا جمال لها ولا رشاقة، ينجلي والله أن أظهر معها أمام الناس! ولما اقترب الميعاد ركمني الخوف الذي تناوبني كثيراً في فترة الانتظار منذ العصر، ماذا يحدث لو تكرّر وقوع

الضحك، فتمتعت قائلة وعاشت الأساءه، وشعرت بأنه ينبغي أن أسأله كذلك عن اسمها. وتغيرت عبارة مناسبة، واستجمعت قواي للفظها، ولكنها لم تنتظر، وقالت ببساطة:

- ادعي عنايت إذا شئت.

وغفغمت في خجل «عاشت الأساءه» ولكنها لم تسمع إلا همسا، والتفتت نحوي فجأة وقالت مبتسمة:

- يا له من حياء غريب! ألم تعلم بأن الحياء موضبة قديمة؟ وأن العذارى أنفسهن نبلهن بلا أسف؟ ففيم تستمسك به أنت؟

فندت عني ضحكة مرتبكة ولم أنس بكلمة، فاستطردت قائلة:

- ولكن دعنا من هذا الآن فالدواء الناجح لا ينفع إلا في حياه، وتغيرني بالله عليك ما الذي دعاك إلى مخالطة النوبيين في تلك القهوة القذرة؟!

وتفكرت قليلاً متحيرة حتى وجدت في الكذب منجى فقلت:

- كنت يوماً راجعاً من مشوار طويل فلم أجد من مكان أستريح فيه إلا هذه القهوة.

- هذا عن أول يوم، وما قولك عن اليوم الثاني والثالث؟

وجاهني على البدهة جواب حسن، فتغلبت على الحياء وقلت بصوت منخفض:

- إنك المسئولة عن بقية الأيام...

فلحظتني ضاحكة وقالت بمكر:

- أسحاً تقول أم أرتدت التهرب بالفرزل؟

فغمغمت:

- بل قلت الحق...

فرمت بنظرها إلى الطريق في دلال وقالت:

- فلماذا إذن تلتصق بالباب مبتعداً عني كأنك تكره

لحي!

وتولاني الاضطراب، ولم أدر ماذا أفعل، ثم قلت كالمعتذر:

- ولكننا في الطريق...

وأغرقت في الضحك ثم قالت:

- نحن في السيارة لا في الطريق. إلا أن الطريق نفسه لا يمنع أمثالك من الالتصاق إذا شاءوا. لا تتوآز وراء الأعدار الكاذبة. تخبرني ما عمرك؟!

- في الثامنة والعشرين من عمري.

- يا للعار!... وكم امرأة عشقت؟

وللت بالصمت شاعراً بأنه لا قيل لي بها. وكأنها صعبت لصمتي فقالت بإنكار:

- أتريد أن تقول إنك لم تمسك امرأة من قبل؟! وهل أنا أول امرأة في حياتك؟... رياء وعيونك الخضر ألم تجلب أحداً؟! لا شك أنني أدركتك وأنت مشرف على الغرق، فليجزي الله على صنيعي خير الجزاء... رياء من يهتق هذا؟ كيف تعيش وماذا تصنع بحياتك؟

ولم أحر جواباً، وأثر في قولها تأثيراً موجعاً لم تدرك كنهه. ولعلها قرأت في وجهي الارتباك فسرحتني بالصمت ملهاً. ثم سألني عن عملي فأجبته بأنني موكلف... واستدركت قائلاً أنني في إجازة قصيرة.

وساد الصمت مرة أخرى، وفي أثناء ذلك ترحزحت قليلاً صوبي حتى مس متكبها منكبي في رفق، فبعثت في قلبي المنكسر حياة وبقطة فتابع وجبهه على خوفي وخجلي ولما لازمت جودي والتصافي بالباب قالت باقتضاب وهي تكتم ضحكة:

- متى خطوة ومنك خطوة. ألا زلت هيئاً؟!

ولاحني متي النداء نفساً راقية وقلماً خائفاً، ولكن جالدت الحواف مجالدة وتزحزحت في حذر وإشفاق حتى مس جانبي - من أسفل الساق إلى أعلى المنكب - لحماً طرياً يتطاير منه عرف طيب ساحر، ولبثت هنيهة متمكناً منه اللذيذ وكل جوارحي تنتفض، حتى التفتت نحوي وشعرت بأنفسها تتردد على خدي، وهمست في أذني:

- أما زلت هيئاً؟!

كلأ، لقد أسكرتني العاطفة. وكانت أنفسها لا تزال تتردد على خدي فلما رأسها نحوي حتى غاص فمي في شفيتها الرابتين وسرعان ما حولت رأسها عني

ها. إني بين يديها أتمرغ في التراب، ولكنت تراب طيب حنون يجود بالثقة والسعادة. وأدركت أخطاء الحياة الماضية، وذكّرت زوجتي المحبوبة في حزن وقنوط أوشكا أن يقصفا بعمر الساعة الساحرة، ولم أتردد عن تحميلها تبعه تعاسي كلها... هكذا بدا لي الأمر. عل أن قلبي هنا إليها حتى في تلك اللحظة وفي ذلك المكان! أما المرأة فقد ضربت أنفي بأغلثها وسألني:

- مبسوط؟...

فقلت من قلبي:

- جدًا.

وأخذت يسري بين راحتيها ورنّت إليّ طويلًا ثم غمغمت:

- يا لك من طفل رائع!

فتضاحكت قائلًا في حياء:

- طفل في الحلقة الثالثة!

ولاحت في عينيها نظرة جدّ واهتمام، وانتهت إلى أصابعها وهي تتحسّس خاتم الزواج، ثم ألقت عليه نظرة ذائلة وهفت بي:

- أأنت متزوج؟! لم يتدّر لي هذا بخلد!

واستحوذ عليّ الحوف ونظرت إليها صامتًا. وعادت تفهقه ضاحكة ثم قالت:

- كيف لم يخطر لي هذا على بال؟! ولكن كيف أصدّق هذا؟! ربّاه لماذا جريت ورائي؟... ألا تعجبك زوجك؟! يا لك من فاسق!

فخفقت عيني في حيرة وارباك ولم أنبس بكلمة، فسألني باهتمام:

- ألا تحب زوجك؟

وضايفني السؤال، وتردّدت لحظة لا أدري ماذا أقول، ثم أرغمني حرج الموقف على أن أقول بصوت لا يكاد يسمع:

- إنها ستّ طيبة!

فقلت بعجلة:

- إني أسألك ألا تحبّها؟

وشعرت بأنّ الكذب ينقلب فضيلة في حضرة

إلى الطريق أمامها، فأحطت خاصرتها الغليظة بيسري وانعلت على جانب عنقها تقبيلًا. وانحرفت بالسيّارة إلى جانب الطريق وهي تنمغم ضاحكة «رويدك» ثم أوقفتها وهي تقول:

- لنسترح هنا قليلًا فهذا مكان آمن...

والقيت نظرة على الخارج فوجدتها اختارت موقفًا وسيطًا في المسافة بين مصباحين من مصابيح الطريق، تشملها الظلمة ويكتنفه الخلاء من الجانبين، وفيها عدا أزيز السيّارات التي كانت تمّ بنا مرور البرق كان الصمت عميقًا محيطًا، سألتها هامسًا:

- ليس ثمة خطر؟

فقلت وهي تلفّ عنقي بينماها:

- إنه آمن من بيتك؟

واستدارت في جلستها حتى مسّ منكبها المسند، وثنت ساقيها اليمنى تحت فخذها اليسرى، فصرنا وجهًا لوجه، وانبرى لي صدرها العالي ينحسر عنه عنق الفستان ومال وجهي نحو صدرها فتوسّده في حنان وذهول، وأسكرتني رائحة جسم آدميٍّ أشهى من العرف الذكيّ. وسكنت إليه ما طاب لي السكون ويدها تبعث بشعر رأسي. ثم رفعت إليها وجهي والتهمت شفتيها، والتهمت شفتي، وكانّ كلينا يأكل صاحبه ويزدده، وولّى الحوف إذ لم يعد له مسوّغ! وامتلائت حياة وجنونا وثقة لا حدّ لها، لا أدري كيف واتّني الثقة، كانت المرأة سيّلة الموقف فوجدت فيها المرشد الذي ضللت حياتي كلها، أعادت إليّ الثقة والطمأنينة لأنّها اخلعتني من كلّ مسؤوليّة وأخلعتني بالموادّة الرفق، أدركت في تلك اللحظة - أكثر من أيّ وقت مضى - أنّ لقاء آية ثمة عليّ خليك بأن يفقدني نفسي، وأنّي لا أجبد هذه النفس المهافنة إلّا بين يدين ثابتتين قويتين. ذابت الدنيا في نشوة جنونيّة ساحرة خرجت منها سكران بخمر الظفر والارتياح العميق. وشعرت من الأعماق رغبة إلى هذه المرأة ليست دون الرغبة إلى الحياة، بل هي الحياة نفسها والكرامة والرجولة والثقة والسعادة. افتّر نفري عن ابتسامة ظفر وسعادة، ورمقتها بنظرة امتنان لم تترك عمقه وهيئات

النساء فقلت باستياء أخفيته بإبتسامة:

- كلاً...

فانبسطت أساريرها وسألت باهتمام:

- كم مضى على زواجك؟

فقلت وقد أهاجت سيرة الزواج أشجاني:

- قرابة عامين!

- ألم تكن تحبها قبل؟

- كلاً...

- زواجك منها بغير سابق معرفة؟

- نعم...

لهفتت بغضب:

- يا له من إثم لا يُغتفر، وهي ألا تحبك؟!!

فقلت صادقاً لأول مرة:

- إنَّها لا تحب الحب!

وأسمعت عيناها دهشة، وفتحت فاهما - رأيت في جانب فمها ستين ذهبيتين لأول مرة - وقالت: آه! (بصوت مخطوط)... فهمت كل شيء. توجد نساء على هذه الشاكلة، لم لا، ليس كل النساء بالكاملات... وتبادلن نظرة طويلة في ابتسام وصمت، ثم سألتها ضاحكاً:

- وأنت، ألسنت متزوجة؟

فقلت وهي لا تحوّل عينها عني:

- لست إلا أرملة، كان زوجي لواء عظيمًا يدهي عليّ بأشياء سلام، تزوجني على كبر وتزوجته على صغر، ثم مات من بضعة سنين فعدلت إلى أمي نعيش معاً، والله وحده يعلم مع من أعيش غداً!!

جعلت تصفر بفمها وهي تيسم إلي. ثم تناولت حقيبتها واستخرجت منها فرشاة بودرة ومسحت على وجهها وعنفها وصففت خصلات شعرها المبعثرة، وراحت تلقي نظرة على وجهها في مرآة صغيرة مثبتة في جانب السيارة وهي تسألني:

- متى تنتهي إجازتك؟

- بعد أيام قلائل...

فقلت بهدوء:

- سنلتقي كثيراً، كل يوم إن أمكن، ولنا في السيارة

متسع حتى نجد مكاناً صالحاً...

واستوت جالسة أمام عجلة القيادة، ولكني أمسكت بمصمها، ثم أحطت عنقها بلذاعي، وضحكنت ضحكة قصيرة، وضمتني إلى صدرها الرابي وهي تقول:

- لماذا تركتني أستهين زيتي يا شاطر؟!

٥٦

عدت إلى البيت في غمام العاشرة، ولم أسأل نفسي عما إذا كنت قد أعطت لأن ما استرشدته من السعادة والثقة كان فوق الخطأ والصواب، وكانت أمي قد نامت، أما رباب فقد جلست في الفراش تتطلع جلة. ما إن رأيت وجهها الصبيح حتى أشرق بروحي نور بهيج وأحسست بأنني انتقل من دنيا إلى دنيا أخرى. وآلني تقزز مفاجئ لما صنعت بنفسي، ولكنه لم يتمكن مني، فأنسانيه ذلك الحجاب الكثيف الذي يحول بيني وبين زوجي... واستقبلتني بإبتسامة وأبلغني سلام خالتها وعاتها، ثم أخبرني بأن عشائي جاهز على السفرة فمضيت إليه والنهته بهم متعب جائع. وعدت إلى مخدعنا وأنا أتسادل عما تفعل رباب لو علمت بذنبي؟! وأخبرتني بأنّها دعيت إلى إعطاء درس خاصّ لابنة قاضٍ كبير بالسنة الأولى الابتدائية وسألتني عن رأيي. ومع أنني لم ألق منها على ما يربب إلا أنني لم أوتج للاقتراح وقلت:

- حسبك ما تتجشمن من مشقة طول النهار!

فقلت بغير اكتراث:

- صدقت...

وسرت لموافقتها السريعة، وقلت لنفسي في شبه ندم: «هيهات أن أقع على شبهة شك؟». واضطجعت إلى جانبها، ففتحت المجلة جانباً، وأطفاة النور واضطجعت بسلام. كان النوم حرباً بأن يسارع إلى جفني، لكن حالت دونه بقطة غريبة في النفس، طار خيالي إلى عنایات، والسيارة في طريق الحرم، إني خائف! أعجب بها من حقيقة! فمن يصدق أن يتخذ الزوج العاجز عشيقه؟! غمّيت في تلك اللحظة لو تعلم

صباحًا بيد أنني لم أتردد فناديت النادل ودفعت له الحساب ومضيت من فوري إلى الجسر، ونَحِلَ إليّ - في طريقي القصير - أنني أدركت حقيقة من حقائق الحياة، هي أنه لا توجد ثمة حركة بين الرجال إلا ووراءها امرأة! المرأة تلعب في حياتنا الدور الذي تلعبه قوّة الجاذبيّة بين الأجرام والنجوم. فما من رجل «حي» إلا وفي خياله امرأة، حاضرة أو غائبة، ممكنة أو مستحيلة، محبة أو كارهة، غلصنة أو خائنة. وفهمت فهُما جليداً، كأنه لقوّته بكر جديد، معنى قولهم: إِنَّ الحبّ الحياة والحياة الحبّ: لم تكن حياة ثمّ كان حبّ، ولكن كان حبّ فكانت حياة، وأقسمت في تلك اللحظة ألاّ أعرض عن الحبّ ما حييت!

وجاءت السيّارة فالتحّلت مكاني كالأمس. وتساءلت المرأة ضاحكة:

- ما الذي جاء بك الآن؟ أَمْ يكن موعدنا المساء؟

فقلت مبتسماً:

- أنت أنت السبب...

فابتسمت في سرور وقالت:

- يجب أن نلتقّي بالغا فلا ننصرف أبداً...

وتصاعد أزيز المحرّك ينلر بانطلاق السيّارة فقلت

برجاء:

- الدنيا نهار فهلأ عدلت عن الطرق المزدحمة!

- الخاف أن يراك أحد؟

فقلت بخجل:

- نعم.

- أه! نسيت أنك متزوج!... لا تؤاخذني يا

حضرة الزوج لنذهب إلى مصر الجديدة!

وانطلقت السيّارة بالسرعة الجنونية، وسألني في

الطريق قائلة:

- ماذا فعلت بزواجك الأس؟

ففقّبت وأنا لا أدري، ولم أحر جواباً، فقالت:

- لهذا الحدّ لا تحبّ ذكرها؟

ثمّ تساءلت متجاهلة صمّي وإرباكي:

- ألا تنامان في فراش واحد؟

وحاولت أن اغتصب ضحكة ولكنّي عجزت،

زوجي بهذه الحقيقة العجيبة، على أنّها لم تكن إلا لحظة عابرة، وسرعان ما تنبّض قلبي خوفاً وخجلاً. لقد تعمّقت زوجي وبى شكّ في خيانتها فعادت خائناً لا شكّ فيه، أمّا هي فما وقفت منها على غير الاستقامة والاحتشام. كيف كان نصيبي منها العجز والإخفاق على حين أنني نعمت بين يدي المرأة الغليظة بهله السعادة الجنونية؟! لفّتي حيرة شديدة، تلهّفت نفسي على بصيص من النور.

وزاد من حيرتي أنني شعرت شعوراً عميقاً بأنّي لا غنى لي عنها ممّا. بل لم أجد سبيلاً إلى المفاضلة بينهما، فهذه زوجي وتلك جسدي، وما عذابيّ إلا عذاب ممّن لا يستطيع أن يزاوج بين روحه وجسده. ماذا تكون قيمة الدنيا بغير هذا الوجه الجميل المتم بطهر والكمال؟ ولكن ماذا يبقى لي من لذة ورجولة إذا فقدت المرأة الأخرى؟ وأفرقت في التفكير إضرافاً لم يَدُحْ للنوم سبيلاً إليّ، ومضت تتراعى لعينيّ رباب ثمّ عنابات، وانحرف الخيال بغتة إلى أمّي بلا دأع. فالتحّلت مكانها في شريط هذه الصور المتلاحقة! وتساءلت بي الحيرة حتّى شملتني حال من الحزن والكآبة...

بيد أنّ أحاسيس الليل قلّ أن تعيش في ضوء النهار. إنّها في الليل تندمج في تيّار لحن غامض ينطلق في جوّ أثريّ يكتنفه الضباب، فإذا طلع عليه النهار لم يبق منه إلاّ أصداء خفيفة لا تمنعنا من أن نلتمس سبلها في الحياة. جاء صباح اليوم الخامس فانطلقت كالعادة إلى الباسيّة، ترى أقتفي أثر رباب حتّى أمّ التي ذاك النداء المطاع؟ إنّ سيرة زوجي لا تدع مجالاً للشكّ، يرّها كجهرها، فلا شكّ أنّها صدقت ليما قالت عن الخطاب المشوم، وإذا كان ثمة خائن فهو أنا.

ودهبّت إلى قهوة النوبيين، فما أوقفها رمزاً لحبي الجديد. وانتظرت حتّى فتّحت النافذة فتبادلنا التحيّة بانسامة لطيفة. وغابت برهة ثمّ بدت لي مرّة أخرى وقد أخذت أهبتها للخروج، وأشارت إليّ إشارة ذات معنى أن أنتظرها في مكان الأس. لم أتوقّع أن نتقابل

وشعرت بامتصاص كثر علي صغوي، ففقهته صاحكة وقالت:

- لشد ما أُرغب في رؤيتها..

وأرادت أن تسري عني بطريقتها فداعبت شفتي بأصبعها وقالت بحاكاة الأم التي تداعب طفلها:

- كتكوتي... .

ووقفت السيارة أمام مشرب شاي... فجلسنا معاً نلقب الحديث ظهراً لبطن في لغة سرور. واختبرني أن اختيارها قد وقع على بيت الحياطة ليكون مهبطاً لغرامنا. وعند الظهور غادرنا المكان، وقد أرادت أن تدفع الحساب ولكنني آبيت عليها ذلك، وافترقنا بعد أن تذاكرنا موعد المساء. وتكرر اللقاء. ولما انتهت الإجازة بعد ذلك بيومين واصلنا لغامنا في الأمانس. واقتعني التجربة الناجحة بأن الحب صحة وعافية. ولم يخف على أحد دأبي على السهر، ومع أن رباب كانت تفضل - على حد قولها - أن أمضي سهراتي معها في زيارتها التي لا تنقطع، إلا أنها تحاشت مضايقتي، فبأشر كلانا حياته بالسبيل الذي يرضاه. ولم يخف ذلك عن أمي أيضاً، وقد قالت لي: لاحظت يا بني أنك لم تكن على حالك الطبيعية في هذه الأيام الأخيرة، وقد خمت أن أعلن لك ملاحظتي أن تغضب، فإذا وجدت في السهر راحة فاسهر، هكذا الرجال جيئاً!!

٥٧

وانقضى شهر أو أكثر على حياة سعيدة لا يشوب صفاءها كدر. حل السلام مكان الشك وعادت علاقتي برباب إلى أقصى ما كانت عليه من الودة الطاهر والحب البريء، أما من الناحية الأخرى فقد أسلمت نفسي لعنايت في حب مضطرب وسرور ظافر. إنها امرأة موفورة الثروة. وما من مرة نذهب إلى مهذا المحبوب بيت الحياطة إلا وتتفحها برمال وأحياناً نصف جنبه، وأبت علي كرامتي إلا أن أكون كريماً كذلك، ولو في حدود طاقتي. وهيت لي - وهي لا تدرى - معاودة الشراب على حال لا تنقطع، فكانت

الحياطة تحفظ لنا بقوارير الويسكي والصودا دواماً، بل أوشكت أن تعودني التدخين، وكان لها مزاياء وأي مزاياء. كانت كاملة الأثوة والحيوية، فهي متعة للمشاق على كهولتها ودمايتها المحبوبة، بيد أنها كانت كذلك على استئثار وجسرة يقشعر لها البدن. عندها الحب كل شيء، وفي سبيله تستطيع أي شيء. ولعلها لم تكن من النوع الملوك، ولعلها لم تكن إلا امرأة هالعة، تشعر دواماً بإدبار الحياة الزاهرة، وذبول الشباب اليانع، فلا تطيق أن يخفي يوم بلا حب. وكان أعجب ما في حبي لها أنني فنتت منها بما هو حري أن يُتد من التفاصيل في نظر الغير، بكهولتها ودمايتها وجسارتها، وكانت تملؤني لغة لا حد لها، فلم أكن أحل لشيء مما. ولولا ما كان يتناهي من قلق، منشؤه ذلك الانفصال المخيف بين روحي وجسدي، لتملكت الحياة صفاء خالصاً، على أنها كانت حياة سعيدة.

وفي ذات يوم، وبعد فراغي من الغداء مباشرة، ذهبت إلى حجرة أمي لأشرب فنجائاً من القهوة وأجاذبها الحديث كعادتي كل يوم، وسرعان ما لاحظت أنها ترد في وجهي عينها الصافيتين في قلق وتفكر، ففترست في وجهها الذابل الذي فقد مرحه وسعادته، فأدركت لتوي أنها تريد أن تقول شيئاً، ودخلني القلق، ولكنني قلت مبشراً:

- ماذا وراك: هاني ما عندك!

فلاح التردد في عينها لحظت ثم قالت:

- بالأمس سمعت أموراً أدهشتني، فهلاً خبرتني عما بين رباب والسب والدنيا؟

كل شيء توقعته إلا هذا. وغامت عيناي بسحب ذكريات سود، وتساءل قلبي الخافق: هل عادت المرأة إلى بلجبتها القديمة؟! ولم تكن رباب قد أخبرتني شيئاً عن زيارة أمها لها بالأمس إلا أن أقر أنني سلامها.

وعدت إلى أمي أقول لها بصوت هادئ أو جعلته هادئاً:

- ليس بينها إلا كل خير..

فهزت أمي رأسها في ارتياب وقالت:

- لعلّه غابت عنك أشياء، أمّا أنا فلم أستطع استقبال نازلي هائم لأنني كنت متعبة، ولما جاءت صباح لتخبرني بقدومها تصنّعت النوم. وطالت الزيارة، فانسلت من الحجرة لقضاء حاجة، ودنوت من باب حجرة الاستقبال، فما راعني إلّا أن أسمع السّت وهي تقول في انفعال وغضب: «هذا شيء لا يُحتمل» فتردّ عليها رباب بعنف قائلة: «لا تتدخّل في شئني!» فما ملكت أن تراجعت إلى حجرتي...

التهب جيبني حياء، ثمّ ركبتني الغضب، فشمعت بمقت شديد نحو هذه المرأة الفضوليّة. واقتحمت أمي عليّ أفكاراً متسائلة:

- ألم تعلم عنها شيئاً؟

فقلت بحزم:

- لا شأن لنا بها.

وعدت بعد ذلك إلى مخدعي فوجدت رباب مستلقية على المقعد الطويل، فلما رأيته الصقت ساقها بمسندته لتفصح لي مكاناً فجلست متفكّراً، كيف أخفت عني ذلك النزاع؟ هل أشفت من إزعاجي؟ ولعلّها لم تلاحظ تغبّر حالي فراحت تقول لي: إنّ اليوم الجمعة، وإنّها تقترح عليّ أن نذهب ممّا إلى السينما، فتركها تتحدّث حتّى انتهت فسألتها قائلاً:

- كيف حال والدتك؟

فأجابني بأنّها على ما يرام، فنظرت إلى عينيها وتساءلت:

- هل مرّت زيارة الأمس بسلام؟

فلاحت في عينيها نظرة ارتباك وقالت:

- ماذا تعني؟

فقلت بحزن وكآبة:

- رباب، لا تخفي عني شيئاً. أعادت والدتك إلى ذلك الموضوع القديم؟

فلاذت بالصمت ملياً وقد تجهم وجهها، ثمّ تساءلت بحدّة:

- من أدراك بذلك؟ أريد أن أعرف كلّ شيء!

فأخبرتها بما قالت لي أمي، وكانت تصغي إليّ

باهتمام ثمّ انفجرت قائلة:

- أمك... أمك... ودائماً أمك!

ووعزني الالم الذي يجزّ في نفسي كلّما لاحت لي أي الكراهية المتبادلة بينهما، وقلت:

- لا داعي للغضب، لقد سمعتُ ما سمعتُ اتّفاقاً، ونقلته إليّ بقصد حسن كما هو ظاهر. بالله لا تستسلمي للغضب، وخبريني هل عدت أمك إلى ذلك الموضوع القديم؟

وسحبت ساقها من ورائي، وألقتها على الأرض، وأطرقت في تجهم وغيظ وقالت:

- الأمر الذي لم أشأ تعكير صفوك به إنّها اقترحت عليّ أن أعرض نفسي على طبيب ليرى أسباب علم الحمل، فرفضت اقتراحها بطبيعة الحال فتشاجرنا!

وواصلنا الحديث البهيس ملياً حتّى طلبت إليّ أن أمسك، وأن أقبل طلباً للراحة من تعب اليوم، فلذعنت لمشيئتها ومضيت إلى الفراش واستلقيت عليه عززناً مكتئباً. ومضى وقت ليس بالقصير قبل أن أغفو، ولا أدري كم غفوت، ولكنّي استيقظت على شيء أطار عن عينيّ النوم. وفتحت عينيّ في انزعاج فسكّت مسامعي ضوضاء آتية من الصالة، فأرغفت السمع، ولم ألبث أن أدركت أنّ رباب وأمّي يتبادلان أقسى الكلمات في ضجّة وصياح. وقفزت من الفراش في هلع ووثبت إلى الباب ثمّ مرقت منه إلى الصالة فإذا برباب تصيح وقد تظاير الشرر من عينيها:

- هذا تجسّس لا يليق بسيّدة محترمة.

ووقع بصر أمي عليّ فخفضت بصرها وهي تقول:

- لا يعني أن أجاريك في قلّة أدبك!

وهتفتُ برباب قائلاً: «رباب...» ولكنّها تحامتني ورجعت إلى حجرتنا في غضب جنونٍ. ودارت أمي على عقيبها وسارت إلى حجرتها بخطوات ثقيلة فأنجّهت نحورها صامتاً متألّلاً. رأيتهَا تمسكُ بأكوة الباب ثمّ تقف دون أن تضغط عليها كأنّها عدلت عن الدخول. ورأيتهَا تضع راحتها على جبينها فخيّل إليّ أنّها تتحنن رويداً، وأسرعَتْ نحوها، فما كادت ألمسها حتّى سقطت على يديّ فتلقّيتها بها في رعب وفزع.

قواها؟ فهالني الاقتراح وقلت بازدياع:

- هذا مستحيل.

فابتسمت إليّ ملطفة واستطردت قائلة:

- ألا ترى أنّها تحتاج لخدمة وعناية في كل حين، فمنّ ذا الذي يقوم بخدمتها هنا؟ وأنت مشغول بعملك، وزوجك مشغولة بعملها، وصباح تقوم على خدمة المنزل، فلأي من تكبّل أمر أمتنا؟

ولكنّي استفظعت اقتراحها، وثرت على ما قدّمت من حجج قويّة، وقلت بإصرار صادر من أعماق قلبي:

- لن يطول رقادها بإذن الله، ولن تحتاج إلى من يلازمها إلّا في الأسبوع الأول كما قال لي الدكتور، ولأجلدّن خادماً خاصّة تتولّى العناية بها.

وحاولت راضية أن تثني عن إصراري ولكن لم تجد محاولتها، وانتهى النقاش بأن قرّرت الإقامة في بيتي حتّى أوفّق لإيجاد خادم. وفي اليوم الثالث لمرض أمي حضر أخي مدحت - وكنت أخبرته بمرضها في خطاب مستعجل - وجاءت معه زوجته. وقد اشتدّت وطأة المرض على أمي في الأيام الأولى لمرضها، لم تكن تبدي حراكاً، ولا تكاد تنبس بكلمة، كانت إذا فتحت عينيها المتعبتين لاحت فيها نظرة ذابلة غائمة تغلبها بيننا في صمت وتسليم فتمزّق قلبي إرباء، ولم تكن نفارقها، وكانت إذا عاودتها بقطة خفيفة تردّد عينيها بيننا، وترسم على شفتيها الجائفتين إسمامة، أو تبسط راسحتها وترفع بصرها إلى أعلى وتغمغم داعية لنا بصوت منخفض وإن. ولكن لم تطل بها الغيبوبة، فتحسّنت حالها قليلاً في نهاية الأسبوع الأول من الأزمة. واستطاعت أن تترك بوضوح أنّ أبناءها جميعاً يحيطون بها، ولعلّها رأتهم كذلك لأول مرّة في حياتها. وقد جمعنا الفراش مرّة فجلست راضية تنظر إلينا في صمت طويل، ثم طفع وجهها بالبشر، وهمت بصوت ضعيف:

- ما أسعدني بكم! الحمد لله والشكر له.

ولاحت في عينيها نظرة رقيقة تنمّ عن الحنان

وناديتها فلم تجب، وتدلّى رأسها وذراعها. وصرخت منادياً صباح فجاءت تجري، فحملناها معاً وأغناها على فراشها. وجئت بزجاجة كولونيا ورششت منها على وجهها وعنقها، ودلّكت بها أطرافها، وجعلت أنادها بصوت متهدّج مبحرج دون توقّف، وغشيتها الإغواء دقائق مرّين بي كالساعات، ثم فتحت جفنيها عن حينين غائمتين، فهفت بها وأنا أزدرد ريقى:

- أمّاه...

فشخصت بصرها إليّ، وأشارت بيدها إلى قلبها دون أن تنبس بكلمة، وانطلقت مغادراً الشقّة إلى البldال في أسفل العمارة، وتلفتت إلى طبيها أن يحضر، ثمّ صعدت إلى الشقّة وجلست إلى جانبها في حال من الضعف والحزن لا توصف. لم تفارقها عيناى لحظة واحدة حتّى امتلأت نظرة عينيها الغائمة دمي الحبيس. شعرت بأنّي أشقى إنسان في الوجود، وأقممت نفسي كتابة وامتناساً. ثمّ جاء الطبيب وفحصها، وقال إنّها نوبة قلبيّة، تستلزم رقاداً طويلاً وعناية كبيرة، ووصفّ الدواء كالعادة. وكنت قد قصصت على الطبيب كيف أغمي عليها عقب شجار مع الخادم! فقال لي: إنّ الشجار سبب طارئ ولكنّ الداء قديم. وقضينا ليلة عويّساً. أمّا رباب فقد توارت في حجرتنا في شقاء بالغ وقد ناعت بظل تبعثها، وما زالت تبكي حتّى انفطر قلبها من البكاء فلم يسمعي إلّا أن أطبّ خاطرها وأرّبت على منكبها قائلاً:

- حسبك بكاء، هذا قضاء الله، وربّنا يعمل العواقب سليمة...

٥٨

وامتلاً البيت بالعواد، فزارتنا أسرة رباب وجمّع من أقاربها، وجاءتنا أخي راضية وأمرتها، وعادت رباب المريضة وقبّلت يدها واستوهبتها العفو بعين باكية حتّى رجوت أن نبدل - بسبب هذا الحادث - حياة جديدة خالية من كدر القلوب. وتحمّيت راضية فرصة خلوّ الحجرة من الأغراب وقالت لي:

- إليّ استأذكرك في أن أخذ أمي إلى بيتي حتّى تستردّ

والتأثر، ثم استدرت قائلة:

- إذا كان المرض يجمعنا هكدا فكم أتمنى ألا يزول.

وبدت - على مرضها - سعيدة، فانتقلت سعادتها إلى قلوبنا. التأت أمرتنا التي قضى الله على عقدها بأن يفرط منذ البداية: بننا تحت سفوف واحد، وأكلنا وشربنا معاً، وانتظمت قلوبنا خفقة واحدة. يا لها من أيام ركدت أنفاسنا فيها الإخفاق والحنان والسعادة. بيد أنها كانت أياماً قلائل. فقد تقدمت صحة أمي تقدماً حسناً، وزال الخطر عنها وإن حتم الطبيب عليها بالآ ترح الفراش شهراً كاملاً على أقل تقدير. وعند ذاك وقفنا مدحت وعادت بأسرها إلى الفتيوم واعدت بالزيارة من آن لأن. وعادت راضية كذلك إلى بيتها. وكنت قد وُفقت إلى اختيار خادم لأمي - على أن تعود أمها كل يوم. انفض السامر، وتفرق الشمل، وعاد كل شيء إلى أصله. ولم يكدهم أسبوعان حتى أخذت أمي تسترد حيورتها ويقظتها، وأمكنتها أن تجلس إلى الفراش مستتدة إلى وسادة منكسرة. ولشد ما سررت أن تقوم رباب بواجبها نحو حماتها، ولئن أنسى ما عانت من مرارة الألم والفهر في الأيام الأولى للمرض.

ولسأ عاودتنا الطمأنينة، ولم يعد أمام أمي إلا رقاد وإن يكن طويلاً إلا أنه مأمون، عدنا إلى سيرتنا المألوفة في الحياة. عادت رباب تروح عن نفسها بزياراتها المسائية، وانطلقت على سبيلي القديم. وقد استأذنتها في الخروج بضع ساعات ترويحاً عن النفس، فأذنت لي بحماس، وأفصحت لي عما كان يساورها من ألم لبقائي إلى جانبها كالسجين. وغادرت البيت متفجراً، متسائلاً ترى لو كنت أنا المريض أكانت تستأذن هي في مغادرة الحجرة ترويحاً عن النفس؟ وبدا لي منطق الحياة قاسياً ولكن لا حيلة لنا فيه!

وطرت إلى عنايت. وكانت تلفن لي كل صباح بالوزارة فبينت لها الأسباب التي حالت دون لقائنا. وعدنا كما كنا لتلقي في مهندنا فنسكر ونحب. كانت حياة غريبة، وأخوف ما أحافه أن تكون الذاكرة قد

خانتني ولو في القليل من تفاصيلها. أكنت سعيداً حقاً؟ كان قلبي موزعاً بين أمي وزوجي وعنايت، وبين الذكريات الممقة والميام السامي والحب العارم. وحسبتي قد آويت من زوايع الحياة إلى مرفأ هادئ، ولكن القلق القديم عاد يطرق بابي في حذر وتردد كما يمنعه الخجل من اقتحامه بلا سبب ظاهر. أجل كنت أمضي في طريقي، ثم أتوقف حيناً بعد حين في تردد كائنني أتساءل عن شيء أنسيته، هل أجد في السير أم يحسن بي أن ألقى نظرة إلى ما حولي، ثم يتبين لي أنه ليس ثمة ما يستوجب التردد فأمضي على وجهي...

ويوماً وجدت رباب حل غير ما عهدتها من المرح والنشاط لسألنها عما بها؟ فقالت لي: إنها قضت نهاراً متعباً بالمدرسة، وإنها ترجح أن تكون مصابة بإنفلونزا. وعدلت ذلك المساء عن الخروج. وفي صباح اليوم التالي، وعقب استيقاظها بقليل بقيت بغتة، واستلقت في إعياء ووهن، فاقرحت عليها أن استدعي لها الطبيب، ولكنها لم توافق قائلة: إنه برد خفيف وستعالجه بغير معونة الطبيب. وجاءت أمها تزورها فلبثت النهار كله بحجرتها. على أن رباب أصررت في صباح اليوم الثالث على استئناف عملها وقالت لي: إنها تشعر بأنها استردت صحتها تماماً، ومضت بالفعل إلى الروضة على رغم نصحي لها بالبقاء في البيت يوماً أو يومين آخرين. وعادت من الروضة في معادها فوجدتها أسوأ مما كانت في الصباح، ولكنها أصررت على أنها متمتعة بكامل صحتها، ولم تنزع بهذا فارتدت ملابسها وغادرت البيت يوماً أو يومين آخرين. وعادت من الروضة في معادها وكنت في بيت الخياطة ولسأ عدت إلى البيت في منتصف الحادية عشرة لم أجد رباب في حجرتنا. وكان صباح كانت تنتظر عودتي فجاءتني على عجل وقالت لي:

- ستيتي ست رباب عند والدتها وقد أرسلوا الخادم لتخبرنا بذلك...

ووقع الخبر من نفسي موقع الدهشة والانعراج، فسألت صباح قتلاً:

- وما الذي دعاه إلى ذلك؟

فقال الجارية بلهجة تنم عن الإشفاق:

- إنَّها بخير يا سيدي. ولقد زرعنا ورايتها بنفسى،
إلا أنَّ حرارتها مرتفعة قليلاً فلم توافق الست الكبيرة
على تعريضها للهواء، وآثرت أن أبيت عندها حتى
تنخفض الحرارة.

وغادرت الحجرة بلا تردد وأنا أقول في حق:

- لقد حذرتهما من هذا ورجوتها مراعاة ألا تخرج
البيت.

وقابلني في الصالة نفيسة «خادم أمي» وأخبرتني بأنَّ
أمي ترجو أن أذهب إليها، فمضيت إلى حجرتها
فأفصحت لي عن أسفها وكلفتني بأن أحمل دعاءها إلى
«رباب» فشكرت لها، وغادرت البيت حائفاً قلقاً.

٥٩

كان البيت نائلاً تشمله ظلمة إلا نوراً ينبعث من
حجرة الأم، ففصدتها لا ألوي على شيء، ووجدت
«رباب» مضطجعة في الفراش، والأم جالسة في فراش
يقابلها بالناحية الأخرى من الحجرة، فقابلني بابتسامة،
وانزلت الأم من فراشها وأقبلت عليّ وهي تقول:

- هذا ما قَدَّرناه! قلنا سينزعج ويحيى من توه،
والامر لا يدور أن يكون إنفلونزا.

وألمحمت صوب فراش «رباب»، وتناولت يدها،
وقلت لها معاناً:

- ألم أنصحك بعدم مبارحة البيت؟... ماذا
بك؟... لماذا لم تعودي إلى بيتك؟

فابتسمت إليّ وقالت وهي تشير بأصبعها إلى أمها:

- أردت أن أعود ولكنَّ «علما» لم توافق.

فابتدرتني نازلي هانم قائلة:

- إنَّ حالها لا تدعو للقلق مطلقاً، بيد أنَّ تعرّضها

للوهاء أمر شديد الخطورة.

فقلت بحزم:

- سأدعو الطبيب بلا إبطاء.

فقال الأم:

- لم يفتنا هذا، والطبيب نفسه الذي نصح بعدم

تعريضها للهواء، ليس في الأمر خطورة البتة، وستمرد

إلى بيتها بعد أسبوع أو عشرة أيّام على الأكثر.

وغلبت على أمري فجلست على كنبه وثيرة تتوسّط
الفراشين، بيد أنَّ هدوء الأم الظاهر انتقل إليّ رويداً،
وجعلت الأم تقول: إنَّ الإنفلونزا بسيطة في ذاتها
ولكن ينبغي أن ننقي نكستها.

فأصغيت إليها بغير وعي على حين رنوت إلى
عجبوتي بعينيّ وروحي، وتطلعت إلى رباب مبتسمة
ابتسامة فاترة، يلوح في عينيها الإعياء وقد رانت على
نظرتها العذبة اللامعة غشاوة. وساد الصمت حيناً، ثمَّ
نذكرت جبر بك فجأة فسالت عنه، فأجابني الأم بأنَّه
في رحلة تفتيشية يعود منها في نهاية الأسبوع، ولتأ
دقّت الساعة منتصف الثانية عشرة استأذنت في
الانصراف، وقيلت جبين زوجي، وغادرت البيت.

وفي صباح اليوم التالي تركت البيت قبل ميّاد
خروجي المعتاد بثلاث ساعة، وكانت «صباح» قد
استأذنتني في زيارة رباب، فعهدينا بشؤون البيت إلى
نفيسة، ومضيت من توي إلى بيت جبر بك، فقابلت
على السلم محمد وروحية، فسلمت عليهما وسألتهما
عن رباب؟ فأجابني الأخت الصغيرة بأنَّها بخير،
ودخلت الشقة وذهبت إلى الحجرة فوجدتها في
الفراش، والأم جالسة على الكسة، وردّت تحيّي برقة
وابتسام، ولكني رايت في عينيها ذبولاً شديداً كأنها لم
تتم ساعة واحدة في ليثتها المأصية، وساورني القلق
واستحوذ عليّ الانقباض. ولكنني أخفيت ما قام بفسى
أن أخفيها، وقلت متمسداً الكذب:

- أراك أحسن حالاً؟!

فقال باستسلام أوجع قلبي.

- الحمد لله...

وجلسْتُ على طرف الكنبه قريباً منها، وتبيّث على
وجهها عينيّ، كانت عاصبة وجهها بتبدل بتيّ، يبدو
وجهها تحته شديد الشحوب، وتلوح في عينيها
الذابتين نظرة ساهمة، ففشت صدري كآبة، وضافت
بي الدنيا وبدا لي وجهها قبيحاً كالخا، ولاحتظت نازلي

دخلته فيها يشبه الملح، ودققت الجرس، وفتح الباب بعد قليل، ولشدة ما كانت دهشتي حين رأيت أمامي الدكتور أمين رضا، وكان هو الذي فتح الباب، وكانت الصالة الصغرى التي يفتح الباب عليها مغلقة الأبواب وليس بها سواء، ولم أكن رأيته منذ اجتمعنا في مأدبة الغداء بهذا البيت. ترى ما الذي جاء به في هذه الساعة المبكرة؟ وما الذي أيقظه وحده في هذه الصالة المغلقة؟ ومددت له يدي وأنا أقول:

- السلام عليكم!

فمد لي يده قائلاً: «وعليكم السلام»، وكأني لاحظت أنه يجدني بنظرة غريبة من وراء عويناته، فقلت له:

- ألا تفضل بالدخول؟ ...

فتحول عني وهو يقول:

- إنني منتظر في حجرة الاستقبال.

وأنتجه بالفعل نحو باب الحجرة، وفتحه، ودخل، ومضيت إلى باب الصالة الكبرى وفتحته ودخلت، وسرت نحو حجرة نازلي هانم، ولكنني ما قطعت خطوتين حتى قرع أذن صوت غريب لا أدري كيف أصفه، أكان تنهيداً طويلاً؟ أكان صراخاً مكتوماً؟ ولكنه كان آتياً بلا ريب من وراء باب الحجرة المغلقة، حجرة رباب، واندفعت نحو الباب، وأدبرت الأكرة وفتحته، ودخلت خائف الفؤاد من الملح، وأنتجه بصري إلى الفراش فرأيت رباب نائمة، مغطاة إلى عنقه، وقد التفت منديلها حول وجهها من قمة الرأس إلى أسفل الذقن ماراً بالأذنين، كانت عينها مغمضتين، وبشرة وجهها شاحبة باهتة، يشوبها بياض خفيف. لقد بعث الوجه المصوب في نفسي ذكريات غامضة لم أجد وقتاً لتوضيحها ولكنه حرك رعباً كامناً في أعماقي، ثم تبين لي في اللحظة التالية أن نازلي هانم جالسة على طرف الكتبة دافئة وجهها في وسادة الفراش، مفرقة في نحيب موجه، وأن «صباح» واقفة عند أسفل الفراش تولول باكياً فلم تنبني لدخولي. ...

رباه! ... هل حقاً ماتت رباب؟!

هانم كآتبي فقلت بدهشة:
- ألم تحزب وعكة البرد قبل اليوم؟ إنك تدللها يا سي كامل أكثر مما ينبغي. ...

وسرّي عني قليلاً بأن التي تستوين بالحال هي أمها، ولو كان بزوجي ما يدعو للقلق لما ملكت الأم نفسها. وملت نحو الفراش قليلاً، ووضعت راحتي على خدّها فوجدته ساخناً، ولكنها ابتسمت إليّ وقالت:

- إذا كان بي تعب فالمشول عنه أرق ألم في الليلة الماضية، وسأسترة انتعاشي إذا ما نمت ولسو ساعتين. ...

فقلت لها براجح:

- حاولي أن تنامي معها كلفك الأمر. ...

ونظرت في عينيها طويلاً، فرنت إليّ دقيقة ثم خفضت عينيها بلطف، ولم أجد بداً من الانصراف، فهضمت وأعدا بالزيارة عقب عودتي من الديوان وذهبت.

بلغت الديوان بعد الثامنة بعشر دقائق، وعكفت على عملي، ولكن العمل لم يستطع أن يخفي عني نفسي، وعدت بفكري إلى رباب فتملت في نظرة عينيها الساممة واستشعرت وحشة لم أدر لها سبباً، وحاولت أن أفنى في العمل ولكنني لم أفر بباطل، وغلبتني على أمري نفسي التي تخلق المخاوف من لا شيء، فاشتد بي القلق وجعلت أقول لنفسي: إن رباب عجزت عن العودة إلى بيتها، وهي تبدو مهزولة متضعضة فكيف أطمن؟ ... كيف أتركها؟ ولم يكن تهافت قلبي حيال اخف المآلات بجديد عليّ، وطالما جافاني النوم لعكة خفيفة تساب أمي، فلمل ذلك الخوف كان أثراً من هذا التهافت المقيم. أفلطح بها من كآبة ثقيلة! إن قلبي ينقبض في خوف وألم، وكأنه يكاتم صرخة استغاثة تحاول أن تنطلق. لماذا أعذب نفسي بتجرع غصص انتظار لا موجب له؟ وعند ذلك طويت الأوراق واستأنست في الانصراف معتذراً بمرض زوجي. وغادرت الوزارة في منتصف العاشرة، فبلغت البيت قبل العاشرة بدقائق. ... وكنت كلما اقتربت من البيت ازداد قلبي وحشة، حتى

٦٠

هفتت كالمجنون:

- خبّراني ماذا حدث؟

والتفتت نحوي صباح وصاحت وهي تنسج:

- سيدي... سيدي...

ورفعت المرأة وجهها في فزع ظاهر، وحملت في وجهي بعينين محمّرتين، ولبثت لحظة جامدة لا تتكلم ولا تبكي، كأنّ عضري كان عليها أشدّ من الموت، ثمّ شبهت وألحمت في البكاء. رددت بصري بين المرائين في ذهول ثمّ استقرّ بصري على الوجه المعصوب. كيف أذعن لحكم هذا الواقع المخيف! وناعزني قلبي التفتت إلى أن أرمي على زوجي، وإن أبكي وأصرخ حتى أموت. بيد أنني لم ألبّ حراغاً، سترتني قوّة غريبة في مكاني، وملأتني قسوة وحزنًا... واجتاحتني ثورة عارمة تتحدى قوّة الموت نفسه وبطش القضاء. أبيت أن أصنق حينئذٍ، واستعصى عليّ الاقتناع. ما معنى هذا؟ ولوّحت بيدي للألم وسألته بصوت كنت أسمعه لأول مرّة:

- كيف... كيف...؟

فسطت ذراعها في قنوط وقد خثفتها العبرات، ولكنّ صباح أقبلت نحوي في حال من الهذيان مرعبة وصاحت بصوت مبحوح:

- العملية المشنومة!... لعن الله العملية.

وتحوّلت إلى الجارية في ذهول وصحت بها:

- عملية؟... آية عملية؟!!

وأدركت عند ذلك أنني أشمّ رائحة غريبة، فأدرت بصري في الحجرة حتى وقع على خوان في ركن منها صُنّت عليه أدوات طبّيّة وأوعية وزجاجات وقطن. اقتربت من الخوان وتفحصته بعينين زائفتين، متى جاءوا بهذا كله؟ ومتى استقرّ الرأي عليه؟ كيف حدث هذا؟!... ونظرت إلى المرأة فوجدتها ترمق الجارية بنظرة قاسية غريبة، فازداد ذهولي وحيرتي، ثمّ تحجّر قلبي قسوة وحزنًا، فألقيت عليها هذا السؤال بصوت رهيب:

- آية عملية التي تتحدّث عنها صباح؟

ونظرت المرأة إليّ بارتباك ثمّ قالت بصوت مختنق بالعبرات:

- اشتدّ حال ابنتي فجأة فاستدعيت الطبيب فأشار بإجراء عملية في الحال...

فسألته وقد استلحت شخصاً جديداً غيغاً غير الشخص الذي عرفه العالم قرابة ثلاثين عاماً:

- في أيّ عضو؟

فقالت المرأة:

- قال الدكتور إنه البروتون...

وكنت أسمع الاسم لأول مرّة، ولكنّي لم أبال. ذلك، وسألت بالصوت الرهيب نفسه:

- هل أجرى العملية؟

فقالت وهي تبكي:

- نعم... وانتهت بما ترى!

فضربت الأرض بقدم حائقة وصحت بها:

- ولكنّي كنت هنا منذ ساعتين ولم يكن بها شيء! ألم تؤكدي لي أنّ الحال أبسط من أن أجزع لها؟

فقالت بصوت تخنقه الدموع:

- اشتدّت وطأة الألم فجأة!... ما حيلتي؟... ما حيلتي!

فسألته دون أن تأخذني بها رحمة:

- ومن عسى أن يكون الدكتور القاتل؟!

فرمقتني بنظرة كسيرة خلال دموعها وغمنمت:

- لقد بذل ما في وسعه، ولكنّ قضاء الله سبق!

- من عسى أن يكون؟

فصمت لحظة كأنّها تأخذ نفسها، ثمّ قالت:

- الدكتور أمين رضا...

فسرّرت في جسدي رعدة شديدة، ركدت قولها في ذهول: «أمين رضا!»، ثمّ هفتت بها في غضب وازدراء:

- الدكتور أمين رضا؟!... إنه شاب مبتدئ!...

إنّه أخصائيّ في الأمراض التناسليّة!

فتولّأها الارتباك، وراحت تقول: إنه كان أقرب طبيب إليها، وإنّها ظنّت أنّ الطبيب يفهم الأمراض كافةً منها كان اختصاصه، وإنّ الوقت لم يكن يسمح

الجارية بقبضة يدها ضربة هائلة فتراجعت الجارية في فزع، ثم التفتت نحونا ممسكة عن اللطم وصرخت في وجهينا - أنا والطبيب - بصوت كالزئير:

- أُنْتِما اللذان قتلْتِها... اغربا عن وجهي.

وانفلت الطبيب من الباب، ولبثت وحدي أحدها بنظرة قاسية لا تأبه لثورتها. «أُنْتِما اللذان قتلْتِها». إنَّ المرأة تهذي، ولن تأخذني بها رحمة، ولن يهدأ خاطري حتَّى أعمل عملاً ترتج له القلوب. إنِّي حيال جريمة، إلَّا تكن جريمة جهل وغباء، ولا بدَّ أن يؤدِّي الثمن غالبًا. لقد تمخَّص خضوع العمر في عن نورة جائحة وغضب نارِي وشرَّ مستطير. نسبت الجُنَّة والحزن ونجالتِ الشياطين لعمري. لتتفصَّ الدواهي على رؤوس المجرمين.

وكانت المرأة تعول بصوت مزعج، وصباح تنتحب انتحابًا متواصلًا، فتحوَّلت عنهما بحركة مفاجئة، وغادرت الحجرة لا أوري على شيء، ثمَّ سرقت إلى الخارج مهرولاً كأنِّي أفرُّ فرارًا.

٦١

بلدت الدنيا لعيني حراء قانية. وركبني عناد جهنمي دفعني دفْعًا لا يُقْبَل لي به إلى ارتكاب أيِّ شرِّ أنفَس به عن صدري. وكنت في شكٍّ من بلوغ أُنَّة نتيجة تشغي غليلي ولكنتي لم أتردَّد لحظة واحدة، وناديت تاكسي وأمرته أن يذهب بي إلى النيابة. ودخلت دار النيابة وليس في ذهني خطة معينة أو نعمة صريحة. وجدنتني في زحمة خانقة وصكَّت مسامي ضوضاء غير مميزة كهدير البحر، فلبثت حائرًا لحظات حتَّى رأيت شرطيا فتقدَّمت منه وسألته أن يبدلني على حجرة وكيل النائب، فقال لي بخشونة، «في الطابق الثاني»، فسارتقت السلم واسترشدت بموظف إليها، ثمَّ استأذنت ودخلت، رأيت مكتبي في مواجهة الداخل جلس وراءه وشابَّ قصير نحيل، مكبًا على أوراق بين يديه، فرقم رأسه حين دخولي، وتفحصني بنظرة ثاقبة، ثمَّ سألني:

- ماذا تريد؟

بالتردّد الخ ألتخ... فانتظرت حتَّى انتهت وأنا أنتفض غضبًا وحفًا، ثمَّ انطلقت متي ضحكة باردة كرتين النحاس وصحت:

- طيب تناسلي ويجري عملية في البروتون!... لا عجب إذا كنتم تلتتموها... .

ودرت على عقي وانددت إلى الباب وصحت بصوت كالرعد:

- يا دكتور... .

وكرّرت النداء، حتَّى جاء من ألقى البيت محتق الوجه، ودخل الحجرة في خشوع لا يوائم كبرياه المهود، فشمرت نحوه بحق وكراهية تضيق عنهما الأرض، وبادرته قائلًا:

- أخبرني الهائم أنك أجريت العملية التي قتلت زوجي، فهلأ دللني على ما جعلك تأخذ على عاتقك إجراء عملية جراحية خطيرة على رغم أنّ الجراحة ليست من اختصاصك؟!

وبدا في وجهه الانزعاج، وحلج نازلي هائم بنظرة غريبة أعادت إلى عيني نظرة المرأة إلى صباح لطفح بي الحقن، ودخلني شعور غامض بأنهم يدارون عني أمرًا خطيرًا، وصحت به بوحشية:

- أجبني!

فالتفت نحوي مغطيًا، وصمت لحظة كأنما يشاور كبرياه الضالع، ثمَّ قال بصوت منخفض:

- كانت في حاجة إلى عملية عاجلة... .

فقلت وأنا أضرب كفًا بكف:

- لماذا لم تدعوني?... لماذا لم تستدعوا طبيبًا جراحًا؟!

فقالت الأم بجزع:

- لم يكن في الوقت متسع!

فزعت بها:

- ولكن كان فيه متسع لقتلها... .

وحملت المرأة في وجهي بجنون وجعلت تتردّد: «قتلها... قتلها...» ثمَّ انفجرت بفتنة ففقدت صوابها، وانالت على خديا لطمًا، وقد أرادت صباح أن تحول بين كفيها وخديا، ولكنّها ضربت وجه

صدمني هذا السؤال البسيط فاستحال عقلي خواء،
ووقفت ذاهلاً كأنني لا أدري عل وجه التحديد لماذا
جئت. ولاح التنازل على وجه الشاب فأعاد سؤاله
قائلاً:

- ماذا تريد؟

ينبغي أن أتكلّم معها كلّفني الأمر، فقلت تاركاً
مفودي للساني:

- زوجي... (كدت أقول قُلت ولكنّي عدلت عن
ذلك خوفاً)... ماتت...

فقطّب الوكيل فيها يشبه الدهشة وقال:

- وما شأن النياية في ذلك؟ ولكن من حضرتك؟
وتنفست تنفساً عميقاً، ووجدت رهبة الخوف
تزايدني، وعرفته بنفي ثم قلت:

- إليك قصّي يا سعادة الوكيل: تركت زوجي
متوقّعة في بيت أمّها صباح اليوم، وعدت إلى البيت
بعد مغادرتي لّيّاه بساعتين فوجدتها ميتة. وقالوا لي إنّ
وطأة التعب اشتدت عليها فجأة فاستدعوا طبيباً قريباً
من أقرّباة أمّها، فرأى أنّ حالها تتطلب إجراء عملية
عاجلة فقام بها وماتت على الأثر...

وازدردت ريفي وأنا أرقق الرجل بنظرة طويلة،
ولمّا وجدته غير قانع بما سمع استطردت قائلاً:

- الواقع أنّ هذا الطبيب أخصّائيّ في الأمراض
التناسليّة، فهل يجوز أن يجري عملية جراحية؟ وإذا
انتهت هذه العمليّة بالوفاة ألا يُعَدُّ مسؤولاً عنها فيجب
أن ينال جزاءه؟

فصمت الرجل لحظة ثمّ سألني:

- هل نُفّلت إلى مستشفى؟

- كلّاً... أُجريت العمليّة في البيت حيث ترقد
ميتة الآن.

- من الذي استدعى الطبيب؟

- حماتي...

- وكيف استدعت طبيباً تناسلياً لا شأن له بمرض
زوجك؟

- لقد سألتها نفس السؤال فقالت لي إنّهُ أقرب
الاطّباء إليها، وإنّها تظنّ أنّ الطبيب، مهما كان

اختصاصه، فهو يفهم الأمراض جيّداً..

- وهل هو الذي أشار بإجراء العمليّة؟

- نعم.

- وهو الذي أجازها؟

- نعم! وقد سألته كيف يجري عمليّة جراحية على

حين أنّه ليس جراحاً؟ فقال لي إنّ الحال كانت
تستدعي عمليّة عاجلة...

فتفكّر الرجل مليّاً، ثمّ سألني:

- هل تتهم هذا الطبيب اتهاماً معيّناً؟

فلم أفهم ما يعنيه، ورنوت إليه في حيرة دون أن
أنبس بكلمة، فسألني:

- هل لديك من الأسباب ما يملكك على اتهامه
بقتلها عمداً؟

فخفقت قلبي، وهزّزت رأسي سلّياً، فقال متسائلاً:
- هل تشكّ في حدوث خطأ أثناء العمليّة أدّى إلى
الوفاة؟

- هذا جائز جدّاً يا سعادة البك، ولن يكون مجرّد
خطأ، ولكنّه خطأ رجل ليس له خبرة بالجراحة،
فمستورّيته لا شكّ فيها.

فعادو التفكير مرّة أخرى ثمّ قال:

- لا أستطيع أن أضيّ برأي قبل أن يفحص
الطبيب الشرعيّ الجثة، ويوضح أسباب الوفاة...

فاستحوذ عليّ خوف وكأبة، ولم أطلق تصوّر عبث
الطبيب بالجثة، وفاض بي الألم فقلت:

- هلّا استدعيت الطبيب للتحقيق معه أوّلاً؟

فلم يحفل باعتراضي، وأمّسك بسجّاعة التليفون
وطلب رقمّاً، ثمّ سمعته يحدث الطبيب الشرعيّ، ثمّ
سألني عن عنوان البيت، وطلب إليه أن ينتقل إليه
ليفحص الجثة ويكتب تقريراً عن سبب الوفاة، وأنهي
الحديث ثمّ التفت نحوي قائلاً:

- إذا كان ثمة مسئولية جنائية فساذهب
للتحقيق...

وغادرت دار النياية بعد إتمام الإجراءات الرسميّة
وقد فقدت تهورّي، فاستشعرت خطورة ما أقدمت
عليه. ليس الأمر لمباً، إنّهُ نياية وطبيب شرعيّ

فاستثار منظرها وسؤالها خوفاً وشعور الحزي الذي
ركبني منذ فارقت دار النياية ولم أعد أطيق حبس السرِّ
الرهيب في صديري. نازعتني نفسي إلى الاعتراف،
وإلى لقاء الخطر وجهاً لوجه، فقلت بهدوء:

- ذهبت إلى النياية وطلبت لإجراء التحقيق!

فاتسعت حدقتها وفغرت فاهها، وجعلت لمحمق في
وجهي كأنها لا تصدِّق ما سمعت أذناها، ثم غمخت
بذهول:

- النياية...!

فقلت بهدوء رهيب، وبصوت مرتفع لأسمع من في
حجرة الاستقبال:

- أجل ذهبت إلى النياية وسيجيء الطبيب الشرعي
إلى هنا عمّا قليل.

وسرعان ما بدا الدكتور خارجاً من الثوى، فوقف
غير بعيد ممثّق اللون ساوهم الطرف، وعادت المرأة
الذاهلة تسأل:

- آية تمة وجّهتها إلينا؟

فقلت وأنا أقلّ الحقد والتشفي بوحشية:

- ليس تمة تمة، ولكن أجزم بوجود خطأ خطير
نجمت عنه الوفاة، خطأ خلّيق بأن يقع فيه من ليس
له خبرة بالجراحة وهو يتصدّى للعبث بأرواح
العباد...!

وساد صمت متوتّر أليم تلاقى فيه الأعين
وافترقت. ثم شهقت المرأة شهقة عصبية وهنت بي:

- كيف هان عليك أن تسلّم جثة زوجك للنياية؟
ووخزني ألم عميق فكادت تنهار قواي، ولكنّي
غطيت على الألم بغضب مفتعل وصمحت بنفث قائلاً:

- يهوّن عليّ ذلك ألا تضع حياتها هدراً!!

وفغر الطبيب فاه ليقول شيئاً ولكنّ الجرس دقّ بقوة
هلمت لها القلوب، فمضيت إلى الباب وفتحته، فبدا
شرطيّ ابتدرني قائلاً:

- هل توجد في هذه الشقة المرحومة حرم كامل
أفندي رؤية الموكّف بالحربية؟

فأجبت بالإيجاب، فتنحّى الرجل جانباً وهو يقول
«سعادة الطبيب الشرعيّ»، ودخل رجل ربعة يحمل

ويوليس وفضيحة وقيل وقال، وقد يتمخّص التحقيق
عن لا شيء فلا يبقى لنا إلّا الفضيحة والقيل والقال،
بأيّ وجه ألقى الناس بعد ذلك؟ كيف ألقى أهلها
وأهلي والناس جميعاً؟! ولم يكفّ زوجي ما قدّر لها من
مصير تيمس حتّى أجعلها معرضاً للأطبّاء الشرعيّين
ومضغة للأفواه؟ وأحرّ قلبها! هكذا عدت صوب
البيت مثقل النفس بالهمّ والفكر، ولست طالعتني العارة
توقّفت مرتدداً وقد أهّاب بي نداء أن أنكص هارباً!
ولكن لم يكن لي مهروب، ولم يكن بدّ من أن أتجرّع
مرارة الكأس حتّى الثالثة...
ودققت الجرس، ثم دخلت واجماً مستخزياً...

٦٢

كانت الأبواب مغلقة إلّا باب حجرة الاستقبال كان
موارباً، ولم يكن بالبيت أثر من الضيعة التي تشمل
البيوت حين الموت، فتولّني دهشة عفت على
اضطراب نفسي. لقد جاوزت الساعة الحادية عشرة
فكيف لم يطبّروا أخير المتجعجّع إلى بيوت الأهل
والأقارب! وعاودني شعور بالارتباب والحنق...

فنظرت إلى الخادم الصغيرة التي فتحت لي - وكانت
ملتحية العينين من البكاء - وسألته ألم يحضر أحد؟
فهزّت رأسها سلّياً في صمت وحزن، فأشرت لي
باب حجرة الاستقبال الموارب وسألته:

- هل تمة أحد هنا؟

فغمخت قائلة «الدكتور أمين» فانتفض جسمي
غضباً ومعتاً. ثم مضيت الخادم إلى باب الصالة الكبيرة
فدفعته ودخلت وذهبت إلى الحججرة التي ترقد فيها
رباب في أقصى البيت. لبثت وحيداً في الصالة
الصغرى لا أدري ماذا أنا فاعل، تتابني مشاعر الرهبة
بما أقدمت عليه وأحاسيس الغضب والقلق التي يثيرها
في نفسي الجوّ المحيط بي. ثم سمعت وقع أقدام آتية
من الداخل، وظهرت من باب الصالة الكبيرة نازلي
هانم مكلّلة في السواد، فألقت عليّ نظرة باردة وسألته
بأنفعال قائلة:

- أين كنت يا سيدي؟

بذفنها في الوقت المناسب، لا تفزعني يا سيدتي
فسيتهيئ كل شيء في دقائق...

وارتحت المرأة على مقعد مغلوبة على أمرها وراحت
تنسج باكية، على حين سرت أنا بين يدي الطبيب إلى
حجرة رباب! ولما بلغت الباب جاهدني نحيب صباح
من الداخل، فلدغت الباب وناديتها دون أن تواتني
الشجاعة على النظر صوب القراش، ولبت الجارية
ندائي ففتحتها جانباً موسماً للطبيب الذي دخل
الحجرة بلا تردد، ثم رددت الباب وراءه، وسألني
الجارية عن الرجل الذي جثت به فنهرتها في جزع
ودفعته خارج الصالة. ورحلت أذرع المكان جثة
وفهاً في اضطراب شمل أعصابي جميعاً، ورائت على
صدري كآبة قاتلة، فتصوّرت جثة زوجي الحبيبة بين
يدي هذا الطبيب الغريب، ينزع عنها الأستار،
ويعبث بها في برود لا يعرف الرحمة.

لقد ندّ عني أنين مومع، وشعرت بألم حادّ يمزّق
قلبي إرباً، ومزّت بي لحظات ذهول فخيّل إليّ أنّي
فريسة كابوس شيطاني، وتلّقت فيها حولي كأنما أتلفس
منفذاً للنجاة. ولكن هل نسيت الوجه الشاحب
المصوب يئثم على جبينه شبح الموت الرهيب؟
رباه... إنّني أثوب إلى نفسي رويداً رويداً، تاركاً دينا
الجنون الذي ركبني إلى عالم الفجيعة الواقع، غمّلت لي
الحقيقة المرؤعة في شيء من الهدوء المحزن فكأنّني أدرك
لأوّل مرّة أنّ رباب قد ماتت حقّاً. لم تعد من الأحياء.
وخلت منها حياتي إلى الأبد. لن تعود إلى بيتي كما
قالت أمّها، ولن أصبحها صباحاً إلى الترام، ولن
أستقبلها مساء عقب عودتها من المدرسة وهي تغالب
الثعبان بابتسامة حلوة، انتهى الشباب الرّيان، وانطفأ
الحبّ الباهر، وصوّحت آمال وآمال. أين مَنّي ذاك
التاريخ السعيد الذي بدا على طوار المحطّة، فسنعج
ذكرياته من مائة الحبّ الأثريّة، وطاف بي في وديان
السعادة، ثمّ خلقتني خلقاً جديداً، أين مَنّي هذا
التاريخ الساحر؟ هل انتهى حقّاً في دقيقة من الزّمان
بخطأ طبيب أحمق؟... وما ذنبي أنا؟... الموت
كارثة فظيعة بيد أنّه غير مقنع!... ألم يكن أحدّها

حقيبة طبيّة وتبعه الشرطيّ على الأثر، وصادف الطبيب
الشرعيّ الدكتور أمين في مواجهته فسأله:

- هل حضرتك الزوج الذي بلغ النّياحة؟
فقلت له وأنا أغلق الباب:

- أنا الزوج يا بك، وهذا هو الدكتور الذي أجرى
العملية...

وردد الطبيب عنيّه بيننا في دهشة، وجرت على
شفته ابتسامة خفيفة، ثمّ سأل الدكتور أمين قائلاً:

- أيّ عملية كانت؟

فقال الدكتور أمين بصوت منخفض:

- عملية في البروتون...

- وما سبب الوفاة؟

- حدث ثقب في البروتون نتيجة خطأ خارج عن
إرادتي...

وقلت عند ذاك في انفعال شديد موجّهاً خطأي
للطبيب الشرعيّ:

- أسأله يا سعادة الطبيب عمّا جعله يجري عملية
جراحية وهو ليس جراحاً...

فتردد الرجل لحظات ثمّ قال بصوت مرتفع:

- لقد جثت لمهمة أخرى. أين الجثة من فضلكم؟
وكانت نازلي هانم واقفة بمكانها على كتب من باب
الصالة الكبرى تردّد عنيها المحمّرتين في وجوهنا في
صمت وذهول، فلما أن سمعت الطبيب يسأل عن
مكان الجثة ندّت عنها أمّة وهضت بلا وعي قائلة:

- هذا لن يكون أبداً...

فرمقها الطبيب بنظرة سريعة ثمّ قال لها برقّة:

- تجبلي بالصبر يا سيّدي...

والفتت على المرأة نظرة مشتتة بالفصص ثمّ عادت
إلى الطبيب تقول بجرأة:

- إنّ المتوفاة كريمة رجل من كبار موظفي الدولة،
جبر بك السيّد، كبير مفتشي الوجه البحريّ، لملكك
تمرله يا سيّدي، فاراحم ضعف امرأة مثلي وانتظر
عودته، لقد أبرقت له بالفاجعة.

فقال الطبيب برقّة:

- ينبغي فحص الجثة بلا إبطاء حتّى يمكن التصريح

بالتحفة. وسأل وكيل النائب عن حجرة المتوفاة، ثم مضى إليها توتاً يتبعه الكاتب، ولم أجد الشجاعة للحاق بها، فانتظرت خارجاً. ولم يطل غيابها فعاد مرة أخرى، ونظر الرجل فيها حوله ثم سار إلى حجرة الاستقبال وأنا في أثره، وجلس على كنية، واقعد الكاتب كرمياً قريباً باسطاً أوراقه على نضد. ووجه إليّ أسئلة عن اسمي وعمري ووظيفتي وطلب إليّ أن أروي معلوماتي عن الحادث. فصعدت بأمره والكاتب يستجل كل كلمة أقولها. ثم استدعى الدكتور أمين رضا فجاء الدكتور جامد الوجه شاحب اللون، وسمع له بالجلوس أمامه، ثم وجه إليّ الخطاب قائلاً:

- بوسمك أن تبقى معنا إذا شئت!

وخيل إليّ أنّي وجدت في لهجته ما يشبه الأمر، وكانت رغبتي في حضور التحقيق لا توصف، فجلست على مقعد ملاصق للكتابة التي جلس عليها المحقق وقد ملكنتي الرهبة والتأثر. وبدأ الرجل يلقي عليه أسئلة عامة عن الاسم والعمر والمهنة، ثم قال له:

- أخبرني كيف اتصلت بهذا الحادث من بادئ الأمر؟

فقال الدكتور أمين بلا تردد:

- استدعيتُ إلى عيادة المريضة زهاء التاسعة صباحاً فوجدتها في حال سيئة من الألم، ففحصتها فتبين لي أنّ البروتون ملتهب وأنه يستوجب عملية عاجلة فقررت إجرامها إنقاذاً لحياة المريضة، وأعلنت رأيي لأمتها فوافقت، وفي الحال أجريتها، ولكن حدث أن ثقب الغشاء ثقباً خطيراً، وذهبت مجهوداتي في إنقاذها سدى، فتوقّعت...

- هل سبق لك أن عاجلت المتوفاة؟

- كلاً...

- ولا في هذا المرض الأخير؟

- كلاً، وقد علمت أنّها رقدت ليلة واحدة وكانوا يظنونها مصابة بنوبة برد.

- هل من عادة هذه الأسرة أن تستدعيك فيها يلم بها من أمراض؟...

- لم يحصل هذا، إلى أنّي لم أزل مهنتي إلا منذ

منذ ساعتين؟ ألم تكن كالوردة اليانعة منذ يوم أو يومين؟ فكيف أصدّق أنّها صارت وأول ميت منذ ملايين السنين سواء. ثم إنّها حية في نفسي، إنّني أراها رؤية العين، وأسمعها، وألمسها، وأنسها، إنّها ملء النفس والقلب، فهل من سبيل إلى إصلاح خطأ بسيط؟!

وحدثت حركة - لا أدري إن كانت جاءت من الصالة الخارجية أو من الحجرة المحزونة - ولكنها أعادتني إلى عصي فلق خاطري بالطبيب وما يفعله. عاودني اضطرابي وقلقي وخاوتي، ماذا أفعل لو لم يعثر الطبيب بشيء ذي بال؟ كيف ألقى القوم فيها بعد؟ لشّد ما غمّيت أن يُزل الله عقابه بالقاتل؟ بيد أنّي لبثت على حال من الاضطراب لم تترك لي سبيلاً إلى نفسي أو عقلي. وطال الزمن واستطال حقّي خُيّل إليّ أنّي شغف وهرمت وأنّي أموت. ثم فتح باب الحجرة ولاح وراءه الطبيب بوجه جامد لا يبين عن شيء، وتقدّم خطوات فصار في منتصف الصالة، فوقفت حياله فاغر الفم شاخص البصر، ومسح بأنامله على جبينه ثم قال ببرات واضحة:

- لقد انتهيت من كتابة تقريري، وسأحوّله إلى النيابة في الحال، وأظنّه يستوجب تحقيقاً عاجلاً...

٦٣

كان ينبغي أن أشعر بارتياح وتشفّف، ولكن خارت قواي فجاءة فلزعتني على أقرب مقعد وسلدت ساقني واستسلمت لما يشبه النوم. ولم يحدث في فترة الانتظار التي أعقبت خروج الطبيب إلا اندفاع نازلي هائم وصباح إلى حجرة المتوفاة، وتصادم النواح والبكاء. ولاحث متّي نظرة إلى الصالة الصغرى فرأيت الدكتور أمين رضا يذرعهما في بطء وتناقل، وقد جلس الشرطي على كرسيّ عند باب حجرة الاستقبال.

وعند منتصف الساعة الواحدة دقّ الجرس، فنهض الشرطي وفتح الباب، ودخل وكيل النائب يتبعه كاتب وشرطيّ، وخفق قلبي في ارتياح لرؤية رجال الحكومة، وبهضت قائماً وانجذبت صوب الرجل، ثم رفعت يدي

ولأول مرة تردّد الدكتور قبل الإجابة، ثم قال:

- كلاً!...

- كيف أتيت بها؟

- من زميل.

- جراح؟

- أجل...

- ولماذا لم تحضره؟

- كان مرتبطاً بعمل في نفس الوقت...

- من عسى أن يكون هذا الدكتور؟

فتردّد مرة أخرى، ثمّ تورّد وجهه الشاحب وقال بصوت منخفض:

- الحقّ آتٍ أحضرها من المستشفى، مستشفى فؤاد الأول.

- بصرف النظر عمّا إذا كان هذا التصرف سليماً أم لا من الناحية الإدارية، ألم يكن الأخلق بك وقد رأيت أنّك لا بدّ منقّى وقشاً غير قصير في إحضار الأدوات بطريقة غير مشروعة، ألم يكن الأخلق بك أن تستدعي جراحاً خصوصاً وأنّ استدعاه لم يكن يستند من الوقت أكثر ممّا يستنفده إحضار الأدوات؟

فتفكّر ملياً ثمّ بارتباك ظاهراً:

- كنت متأثراً بحال المريضة فلم أفكر في هذا...

- الأقرب إلى المنطق أنّه كان ينبغي أن تفكّر في هذا بسبب هذا التأثير نفسه. وهب الحقّ كما تقول، فلماذا لم تنقل المريضة إلى المستشفى حيث يوجد الاختصاصيون بوفرة؟

- لم توافق أمّها على نقلها...

- ألم يكن هذا أقلّ خطورة من تسليمها ليد غير

خبرة؟ ولكن لننح هذا الآن...

وبسط المحقّق صحيفة بين يديه، جرى بصره على سطورها، ثمّ قال وهو يعتدل في جلسته:

- ما رأيك في هذا، إنّي أراجع الآن تقرير الطبيب الشرعيّ فإذا به يؤكّد أنّ التهاب البروتون لا يستوجب هذه السرعة التي تتحدث عنها كما تستوجب بعض حالات الزائفة الدودية مثلاً، فما رأيك في هذا؟

فلاذّ الدكتور بصمت عميق، ونمّ لمعان عينيه عن

شهور لا تجاوز العام، ولا أذكر أنّ أحداً من الأسرة قد مرض في هذه الفترة...

- هل تظنّهم كانوا يستدعونك في مثل هذه الحال؟

- الواقع أنّهم استدعوني في أوّل حال عرضت لهم.

- ألا يعرفون اختصاصك؟

- بلى ولكن شلّة الحال جعلت الّأمّ تستنجد بي،

لقرب عيادتي من ناحية، وللقرابة التي تربطني بها من ناحية أخرى.

- لا أرى في هذه الظروف ما يمكن أن يؤثّر في اختيار الطبيب، ثمّ أنت كيف توافق على تلبية دعاه لحال مرضيّة تعلم أنّها ليست من اختصاصك؟ ألا يشير الأطباء في أمثال هذه الظروف باستدعاء الطبيب المناسب؟

- رأيت اللياقة تقضي بأنّ آتني الدعوة على الفور، فذهبت وفي ظنيّ أنّها حال إغواء أو مفصّ شديد أو ما شاكل ذلك ممّا لا يُعجز طبيباً على الإطلاق، واطنّ هذا ما دار بخلد الذين استدعوني.

- ولكنك وجدت الأمر أخطر ممّا تصوّرت فكيف كان تصرفك؟

فأمسك الدكتور عن الإجابة وخفض بصره في ارتباك وتروّ، بادره المحقّق قائلاً:

- لماذا لم تُشرّ باستدعاء جراح؟

- كانت الحاجة ماسّة إلى عمليّة عاجلة.

- هل مارست الجراحة قبل ذلك؟

- في الكلّيّة طبّاً!

- أعني بعد ذلك؟

- كلاً...

- يدعيني أن أتصوّر إقدامك على إجراء هذه العمليّة الخطيرة.

فقال الدكتور أمين وقد تغيّرت نبرات صوته قليلاً واعتبرها حدة عصبيّة:

- قلت إنّ الحال كانت خطيرة وتستدعي إجراء سريعاً!

- وكيف أحضرت الأدوات الطبيّة اللازمة لهذه

العمليّة! هل كانت توجد بعيادتك؟

- سأزيد لك المسألة بياناً، يقرّر الطبيب الشرعي أنّ البروتون قد ثقب حقاً ولكن يؤكد أنّه لا يوجد به شيء على الإطلاق من مرض أو التهاب، وأنّ حاله لم تكن لتستدعي علاجاً على الإطلاق فضلاً عن عملية جراحية!

- ولكنّي أجريت العملية بنفسِي.

- لم تُجرِ عملية على الإطلاق فبماذا عدا ثقب البروتون.

فقال الدكتور بصوت متهدّج وبحلّة غاضبة:

- أتريد القول بأنّي ثقت البروتون بلا داعٍ... ما معنى هذا؟...

- أنت ثقت البروتون ففتلتها!

- في أثناء إجراء العملية...

- أوكد لك أنّك لم تُجرِ عملية البروتون...

فصاح الدكتور في غضب:

- اتّهمني بأنّي تظاهرت بإجراء العملية كي أقتلها؟... اتّهمني بالقتل يا حضرة المحقّق؟

فقال المحقّق بهدوء:

- إنني اتّهمك بالقتل حقاً، وستوافقي علماً قليل على رأيي. وسترى بنفسك - بغير حاجة إلى نصيحتي - أنّه لن يبيّ لك بعض النجاة إلّا الصدق والصراحة.

انكفأ وجه الدكتور وازداد تجهّماً، وركبته حال نعمة من القهر. أمّا المحقّق فقد ألقى نظرة أخيرة على تقرير الطبيب الشرعي، ثمّ استطرد قائلاً:

- لماذا أحدثت هذا الثقب القاتل بالبروتون؟

فقال الطبيب في تجهّم، وفيما يشبه اليأس:

- لقد أجبت على هذا من قبل!

- يجدر بك ألا تتناهى وأنت بلا شكّ شابّ ذكيّ، لقد أحدثت هذا الثقب لتخلّق سبباً ظاهراً «مشروءاً» للوفاة التي ظننتها لا محالة واقعة...

أطرق الدكتور صامتاً وبدأ كشخص يعترف مستسلماً، واستطرد المحقّق قائلاً:

- كنت تجري عملية حقاً ولكن في موضع آخر من الجسم، ثمّ حدث ثقب خطأ في هذا الموضع الآخر فظننت لقلة خبرتك بالجراحة أنّه سيفضي على المريضة

تفكيره وقلقه. وعاد المحقّق يقول:

- ويقول أيضاً إنّ العملية تستدعي بضع ساعات للتأهب لها يتناول المريض في أثنائها شربة عادة، ألم تعلم بهذه المبادئ الأولى في فنّ الجراحة؟

- علمت أنّ المريضة تناولت شربة مساء أمس ولم تذق بعدها طعاماً...

- هل أخذتها استعداداً للعملية؟

- كلّاً... أخذتها بسبب ما ظنّ بها من برد، أمّا فكرة العملية فلم تنشأ إلّا بعد حضوري اليوم.

واشتدّ انتباهي عند ذلك، وعجبت كيف لم يذكر لي أحد أنّ زوجي تناولت شربة. وذكرت كيف أبقيت بهذا البيت مع أنّه كان بوسعها أن تعود إلى بيتنا ولو في تاكسي، وداخلني شعور ثقيل بالغموض والحيرة.

وعاد المحقّق يقول:

- إنّي حيال عملية أجريت بسرعة جنونية لغير ما سبب فنيّ يستدعي ذلك، ويُنيد طبيب فير جراح كان بوسعه ولا شكّ أن يدعو جراحاً مختصّاً... فما معنى هذا؟

والقى المحقّق على الدكتور نظرة نافذة باردة، فتردّد بصري بينهما في قلق متزايد وخوف غريب. وبعث الاضطراب في نفسي توتراً حاداً. ثمّ سمعت المحقّق يقول:

- إنّي أتناول عن الضرورة التي حتمت أن تكون أنت الجراح، وفي هذا الوقت بالذات؟

وسكت ملياً ثمّ استردك متسائلاً:

- وما سبب الوفاة؟

- ثقب البروتون...

فقال المحقّق ببرود:

- يقرّر الطبيب الشرعي غير هذا.

فتساءل الدكتور أمين رضا مستنكراً:

- فما عسى أن يكون السبب إذن؟

- هذا ما يخلّق بك أن تدلّني عليه بنفسك!

فقال الدكتور وقد احتور نبرات صوته ذلك التوتّر العصبيّ:

- لا أفهم ماذا تعني...

حتماً فيما عسى أن تفعل؟ لو عُرف سبب الوفاة الحقيقي لكشف الغطاء عن العملية الجراحية وهي غير مشروعة، وهنا هداك عقلك المضطرب إلى حيلة جنونية، وهي أن تنقب البروتون فيُنقب أنه سبب الوفاة، ثم تدعي كذباً بأنك كنت تجري عملية في البروتون، بذلك تحكم السشار على جريمة العملية غير المشروعة، أما قتلك مريضاً خطأ فلا يقع تحت طائلة القانون، ولكنك أخطأت، فالمریضة لم تمت من النقب الأول ولكنك قتلها وأنت تنقب البروتون.

انتفض الدكتور انتفاضة عصبية عنيفة، وهتف بالمحقق وكأنه فقد وعيه:

- كلاً... كلاً... لقد توقّعت عماداً قبل أن أُنقب البروتون...!

وجرت على شفهي المحقق ابتسامة خفيفة، ألقي على الدكتور نظرة ظافرة، على حزن أطبق الآخر شفثيه في صمت ودخول، ورفع عينيه مرتين إلى وجه المحقق في حق وقنوط بدا في وكأنه قد صُرع تحت وقع ضربة قاضية فُلب على أمره. بيد أنني لم ألتج بالألإ إليه. كان عقلي ينتفض حرارة حركة ومهاجاً، عملية غير مشروعة! عملية البروتون ما هي إلا خدعة زائفة للتستر على جريمة! إما أن أكون مجنوناً أو يكون الرجلان مجنونين!... توقّعت تماماً قبل أن ينقب البروتون!... ربّاه! أكاد أخرج عن طوري فينفلت لساني هادياً رغم وجود هذا المحقق المخيف. على أن المحقق خرق الصمت التّجمل قاتلاً في هدوء:

- اتّفننا، وأظن أنه أن أن تعترف بأنّه وقع الاختيار عليك بالذات دون أطيّاه مصر جيّماً لإجراء عملية إجهاض!

لم يتوقّف عند هذا الحدّ، ولكنّه واصل حديثه، ولعلّه ذكر فيما قال البنيج وأثره أو شيئاً من هذا القبيل، ولعلّ الآخر نطق بضع كلمات كذلك، ولكنّي لم أعد أعي شيئاً ممّا يقال. تعلّق ذهني بقوله: «عملية إجهاض» وامتنع عن السير. لقد وقعت على هذه العبارة فشطرتني شطرين، ثم مرّقتني إرباً، ودوّت في رأسي حتّى ذهلت بها عن كلّ شيء، غاب الرجال

الثلاثة عن ناظرّي، وغابت الحجرة، ورأيت فراغاً غيفاً تُمزج فيه الحمرة بالسواد، وتراقص فيه أشباح مرسعة من الذكريات والحواسر... عملية إجهاض... كانت رباب حبل! الخطاب. هذا الطبيب الشاب... يستطيع الشيطان ولا شك أن يؤلّف من هذه الحقائق المتناثرة جريمة مروعة، ساخراً من شكّي الذي دفعني إلى التّجسس حيناً، هازئاً بالعلمانية التي آويت إليها سادراً حيناً آخر... إنّ المحقّق يسعى جاهداً وراء جريمة طبيّة، وسيعرّ في طريقه الشالك بجريمة أدهى وأمرّ. ألم يجلس قلبي الكارثة من بادئ الأمر! أليكون الطبيب هو صاحب الخطاب؟ أم إنهم استشفعوا بقرابته على التّستر والكتبان؟ ولكن لا شك أن الأم كانت تعلم كلّ شيء... كلّ شيء عن حياتي الزوجية، وزلّة ابنتها، ولعلّها أرادت أن تلمس آثار الفضيحة بالعمليّة لولا أن هتك الموت تديبرها. آه يا رباب! إنّ كلّ عذاب تُصاب به في هذه الدنيا حقّ وعدل لأننا نغاني في حبّها على حين أنّها لا تستحقّ إلاّ القتل.

واستيقظت على صوت المحقّق وهو يهتف بي: «هو... اصبح!» فرطعت إليه عينيّ مرتجفاً وعدت رويداً رويداً إلى الشعور بما حولي. قال الرجل:

- إنّي أسألك ألم تصارحك زوجك بكَراهيتها للمخيل؟ ألم تنفض إليك برغبتها في إجهاض نفسها؟ واسترقت من الدكتور أمين نظرة سريعة، وقلت لنفسي إنّه يعلم السرّ كلّ من بادئ الأمر، ولعلّه يعلم أضعاف ما أعلم، فعزّ عليّ أن أكذب وأن أعرض نفسي لإهانة جديدة، وتمتص قاتلاً:

- كلاً...

- أكنت تراها مسرورة بحبلها؟

فقلت في غير مبالاة وقنوط:

- لم أعلم أنّها كانت حبل إلاّ هذه الساعة!

فارتفع حاجبا المحقّق فوق عويناته، وثبته على عينيه وهو يقدر فكره ثمّ سألني:

- كيف تعلّق إخفاها الأمر عنك؟

لشدّ ما زلزلني هذا السؤال! إنّها كلمة واحدة ثمّ

انتفض واقفاً غاضباً، وألقى بالحقيقة من بين شفتيه في غطرسه وكبرياء: «لا تسأله عما لا يدري، إنها لم تكن زوجة إلا رسمياً فحسب». وبأه، لماذا لم أدق عقته؟ لماذا لم أرم نفسي عليه وأنشأ ظاهري في قلبه؟ لتلهبني هذه الذكرى حتى الموت بمثل السوط اشتعلت أطرافه بالنار. ولكن ما الذي جعله يرمي بنفسه إلى الهلاك؟

هل حمله اليأس من تهرئة نفسه من إحدى التهمتين على الاعتراف بالأخرى؟ أو أنه راعه ما جرى الحبيب على حبيبته فنازعه نفسه في ساعة بأس إلى أن يشاطرها المصير الأليم؟ أمي ثورة ضمير أم ثورة قلب أم الاثنين معاً؟ من لي بأن أكلع على سر هذا القلب المتفطرس؟ بيد أنني ازدادت حيرة وجعلت أتساءل: كيف هان عليه أن يرسلها إلى القبر مكينة بالفضيحة؟ ألم يكن الأخلاق به أن يتنزه الفرصة البلولة فينبذ نفسه، ويستر شرف المرأة التي أحبها... وأحبته... أتراه نادماً الآن على ما بدر منه أم لا يزال منتصب القامة غطرسه وعجرفة... إنه لغزو وسيظل لغزاً بالنسبة لي إلى الأبد، وكان قلبي متورماً من الحقد والغضب فوجدت في المصير الذي قضى عليها به - هي في القبر وهو في السجن - راحة وغبطة.

وكانت قلماي قد حملتني إلى ميدان الإسماعيلية، فلم أجد مهرجاً خيراً من حدائق قصر النيل فانجهمت صوب الجسر... أه لو أستطيع أن أغيب عن القاهرة عاماً! ولم يدركني بخلد أن أشتع جنازة المرأة التي كانت زوجتي، إذ لم يعد بوسي أن أبعد أمام أحد من يعلمون بحقيقة المأساة. ولكن هل تزوجت حقاً؟ لم تكن إلا مهزلة طويلة، أو مأساة على الأصغ، ولشد ما تملكت الدهشة أهلي اليوم أو غداً إذا علموا بأن زوجي ماتت ودفنت دون أن يدعى أحد منهم لتشيع الجنازة، ولكن سرعان ما تذهب دهشتهم إذا عرفوا الحقيقة وسرعان ما يلهمهم التندر بها عما علاه، وبها لها من أحذوثة حقيقة بأن تحمي مخاف السرما وتقنص قلبي وشعرت ببرودة تسري في أطرافني. لشد ما تعاونني

يصبح سرّي نادرة المنتزين. إن مشاعر الحقد والانتقام تستغزلي جميعاً إلى نشر هذا السرّ الدفين كي أهلك سرّ الأمانة وأزل انتقامي بالجرم. أريد أن أقول إنه لم يكن في حياتنا ما يدعو إلى الحيل ليضع المحقق يده القاسية على الفاسق. ولشد ما نازعتني نفسي إلى ذلك، وأوشكت الكليات أن تثب إلى طرف لساني. بيد أنني لم أنيس بكلمة، وحلّ بي شلل عام لا أدري ما كنهه. هل يمكن أن يكون للخجل أثر حتى في مثل هذا الحال... هل يمكن أن تفوق رغبتي في التستر على عجزتي تحرّمي إلى الانتقام؟ لم أستطع التفرّج بالكلمة الفاصلة، وكلما مرّت ثانية ازدادت عجزاً ونكوصاً، ثم تحممت قاتلاً وأنا ألهث: - لا أدري...

وما أدري إلا والدكتور ينتفض واقفاً ثم يتراجع خطوتين شائباً ذراعيه على صدره في تحد وكبرياء وغطرسه! ويقول للمحقق بثبات وعجرفة: - تسأله عما لا يدري، إنها لم تكن زوجته إلا رسمياً فحسب، وإني أنا المسئول عن كلّ شيء من البداية إلى النهاية...

٦٤

خادرت البيت دون أن أرى أحداً من أهله، فلم يعد البيت بيتي ولا الأهل أهلي. ووقفت عند باب العمارة فجرى بصري إلى المحطة، محطّة الذكريات، وطالب لي أن أركده بينها وبين الثرثرة، ثم أغمض عيني لأرى موكب الذكريات يمرّ كلعج البصر، صورة صادقة من الحياة، جامعا بين طرفي ملهاتها ومأساتها. ثم انطلقت في الطريق بلا غاية كأنما أجد في الهروب، استحالة قلبي جرة من نار يتطاير عنها شرر الغضب والشفاء والمقت. وقد خيّل لي أنّ هذه الدنيا العاكفة على همومها ستتناهى شجونها غداً وتفرق في الحديث عن فضيحتي، على أنني لم أكن قد أفتت من دهشتي ولم أزل أتساءل عما حلّ الدكتور المجرم على الاعتراف بالحقيقة المائلة! لقد هاضني الجبن فكتمت الحقيقة، ووهبته بذلك فرصة للهروب لو أراد هرباً، ولكنّه

صوبها لا يغمض وقد تقلص قلبي وتوالت ضرباته
فرايت النور يشع من الشرفة والنوافذ. أما أمام مدخل
المهارة فقد أقيم عمودان طويلان يتدلّ منها مصباحان
كبيران مضاءان. قضي الأمر...

٦٥

ذكرت وأنا ارتقي سلم بيتنا أتمى فارتعدت فرائصي
واستحوذ عليّ حلق فطيع كأنه شيطان، ترى ماذا
احتقني؟... وسألت نفسي في حيرة عبا عسى أن أقول
لها... ربّاه! ما الذي جاء بي إلى البيت؟ هل ظننت
أنه يسعني أن أقضي هذه الليلة في حجرة «رباب» وعلى
فراشها؟ على أنني واصلت ارتقاء السلم كأنه قضاء
محتوم، ودخلت الشقة بصدر منقبض ووجه مكفهّر،
وجاءني صوت أُمّي وهي تتساءل في لفة وجزع قائلة:
«من؟» فجمدت في مكاني غاضباً حائساً ثم قلت
بخشونة: «أنا» فهتفت بي بصوت باكٍ:

- كامل. تعال يا بني...

فخفق قلبي بعنف، وأبقت أنها علمت بمصير
«رباب» وذهبت إلى حجرتها وكانت جالسة في
الفراش، فمدّت إليّ يديا وهي تشجج باكياً وقالت
بصوت تحفّض العبرات:

- ليتي كنت فداءها!.. كان ينبغي أن تبقى هي
لك...

فوقفت في وسط الحجرة متجاهلاً يديا الممدودتين،
وسألتهما في جود وغلظة:

- كيف علمت بالخبر؟

فهتفت بصوتها المختنق:

- كيف نسي يا بني أن تخبرني؟ إنّي أدرك من هذا
شدة حزنك. وقد تفتت قلبي رثاء لك... ليتني كنت
الفداء لك ولها، أنا العجوز المريضة، ولكنك قضاء
ربّنا.

لم ينل تأثيرها جود نفسي، فلم أستجب لها،
وسألتهما وكأني لم أسمع كلامها:

- كيف علمت بالخبر؟

- لقد انتظرت عودتك اليوم في قلق، ولما إن جاء

تلك الرغبة القديمة في الهرب! أين مَنّي بلد بعيد لم
يطرق أبوابه طارق، من لي بأن أقطع كل صلة تربطني
بماضيّ الشيفض! أه لو يمكنني أن أولد من جديد في
عالم جديد لا تظالعي فيه ذكرى من ذكريات هذا
العالم، أجل لن أستطيع أن أوصل حياتي على حين
يتبعني هذا الماضي كالظّل الثقيل... وقضيت بقية
النهار متخبطاً في الطرق أو جالساً شاردًا في الحدائق،
لا أشعر بحرّ ولا برّد ولا بظلمة، حتى أذنت الشمس
بالمغرب وانتشرت سمرة المساء فوق رؤوس الشجر،
فعدت من حيث أتيت في خطو ثقيل، وبلغت ميدان
الإسماعيلية وقد هبط الظلام على الكون فملكني الحيرة
ولم أعرف لنفسي ملجأ، ثم وثبتت إلى ذهني صورة
الحانة فجاءت فتتهّدت من الأعماق، ونذت عن أعصابي
الموترة المكلمة آهة ارتياح كأنها حظيت بفرحة بعد
طول احتناق. وفي اللحظة التالية كان التاكسي ينطلق
بي إلى شارع الأنفي. بيد أنّ ارتياحي ولّى سريعاً،
وحلّ محله قلق وانقباض وتردد، وجعلت أتساءل: ألا
يجمل بي أن أولي وجهي وجهة أخرى! وصادرت
التاكسي حوال الحانة ولكنّي لم أمض إليها، ورجعت
أتمشّي على الطوار في خطى بطيئة مثقل الرأس
والقلب، وغلبني اليأس، فانسقت معه إلى داخل
الحانة وانتبلت ركنًا منفردًا، وشربت كأسًا وأخرى،
وعللت، وما تكاد رأسي تستجيب للخمر، ولكنّي
شعرت بالجوع بفتة فأكلت بنهم وشهوة عجيبة وما
كدت أفرغ حتى حلّ بي تعب شمل معدتي ورأسي
وأعصابي جميعاً فكان جهد اليوم المبرّح قد وجد غزّة
فرزح عليّ بجحافله وناخ عليّ بكلّكله، ونهضت
مترنّحاً، وصادرت الحانة إلى تاكسي واقف غير بعيد،
فانطلق بي صوب قصر العيني، علائي التعب والجهد،
وسرى في جسدي تخدير، وتولّاني شعور طارئ يعلم
المبالاة، فرمقت مأساتي بعين ساخرة، فبلدت لي لحظة
كأنها مأساة شخص غريب، أو كأنها انتزعت من حياتي
الخاصّة واحتلت موضعها من موكب المأساة الإنسانية
العامة. وجعل التاكسي يطوي الطريق حتى شارف
موقع المهارة التي امتحتني بها الدنيا، وانطلق بصري

يخلو منه بيت...

ولكنّي لم أرحمها، ولم أفهم في الوقت نفسه كنه القوّة التي دفعتني إلى تذكيرها بالماضي الأسيف كأنّما آسي حقاً على «رباب»، بل غاليت في الحقن عليها كما لو كانت السبب فيها حلّ بي من كارثة، وضاعف من حنفي ما وقع في نفسي من أنّها تداري بهذا الحزن فرحاً وشيئة، فأردفت في غضب قائلاً:

- الحقّ أنّ الدنيا لا تسعك من الفرح!... إنّ أعرفك حقّ المعرفة كما أعرف نفسي سواء بسواء، فلا تحاولي خداعي، إنّك تدارين فحركك بهذه الدموع الكراذب.

فتأوّت هاتفة:

- كامل لا تقسّ على أمك، لا تقل هذا، لم أكرهها علم الله، يجزني ما يجزئك...

فبلدت منّي ضحكة باردة كقرقرة السوط في الهواء وقلت:

- لايزيك فرحاً فاعلمي أنّها لم تمت ولكن قُلت! فحملت في وجهي في فزع ولعلها خافت عليّ الجنون وغمغمت:

- اللّهم لطفك.

فصحت باستهانة وجنون:

- قُلت حين كان الطبيب يجبهضها.

فضربت صدرها بيدها وهتفت:

- يجبهضها! وهل كانت حبل؟ ربّاه لم أكن أعلم هذا.

- ولا أنسا!... أخفّته عني لأنني لم أكن أبا الجنين... وصرخت أنّي في فزع:

- كامل، رحمة بنفسك، رحمة بي، أنت لا تدري ماذا تقول.

- بل أدري أكثر ممّا تتوقّعين، لقد عرفت في يوم ما لا يعرفه مثلي في جبل، قلت لك أنخت الأمر عني وذهبت إلى والد الجنين ليجبهضها فإخطأ وقتلها...

- اللّهم لطفك يا أرحم الراحمين.

- ألا يزال أرحم الراحمين؟ وداعاً، فلن أعبد بعد اليوم! أمّا أنت فلعلّك تقولين لنفسك في سرور

المساء ولم تحضر بلغ منّي الخوف، فوصفت للخادم موقع العيادة وأرسلتها إلى هناك، فعادت إليّ بالخر الأسود...

ورمقتها بنظرة مسترية وسألتها بصوت منخفض:

- هل علمت كيف ماتت؟

فعاودها البكاء وهي تقول:

- كلّاً يا بني! ولا زلت في حيرتي وذهولي، أسفي على الشاة المسكين، كيف وافاها الأجل على غير ميعة؟

وداخلني ارتياح سرعان ما فتر ومحمد... فقيم اخدع نفسي براحة كاذبة وما من قوّة في الأرض تستطيع أن تورّي فضيحتي؟ وأضجرتي بكأؤها، ووقر في نفسي أنّه أمانة حزن كاذب ممّا يصطنعه النساء فقلت بفظاظة:

- ماتت كما يموت الناس آناء الليل وأطراف النهار، وكما مات جدّي وأبي وكما ستموت جميعاً...

وضغطت على «جميعاً» في حقن، ثمّ بادرتها متسائلة في سأم:

- لماذا تبكين؟

فرنت إليّ خلال دموعها بوجوم وكأبة وغتمت:

- وددت لو كنت فداها...

فغلبني الانفعال وقلت بحلّة:

- كذب؟!... محال أن يرضى إنسان بأن يقتدي

آخر من الموت... أكنت تقولين هذا لو كانت ما تزال على قيد الحياة؟!

وأحدثت في وجهي بارتياع، ثمّ غصّت بصرها في وجوم وآلم، وساد الصمت ملياً، حتّى خرّفته متمتة:

- أسأل الله أن يُنزّل سكينته على قلبك.

فقلت بجفاء:

- لا حاجة بي إلى الدعاء. بيد أنّي أكره الرياء، ولا يمكن أن أنسى أنّك أبغضتها حتّى قبل أن تقع عليها عينك.

فرفعت إليّ وجهها في استعطاف وآلم وقالت:

- كامل! رحمة بأمّك... يعلم الله أنّي لا أخادعك، ولكن مثل ما كان بيننا من نقار لا يكاد

غريب: ولقد نالت الأكمة بعض ما تستحق من جزاء، لقد حثّني قلبي بذلك من أول يوم ولكنتك لم تصغ إليّ!.

فزفرت أمي في شقاء وتعااسة وقالت بصوت كالآنين:

- لشدّ ما يجزني كلامك، إنك تقتلني بلا رحمة.

فصحت بها كالجنون:

- اسمعي ما شاعت لك الشبهة، ولكن إياك وإن تصوّري أننا نعيش معاً. انتهى الماضي بغيره وشتره ولن أعود إليه ما حيت. سأفرد بنفسي انفراداً أبدياً. لن أعيش معك تحت سقف واحد، وسأطلب من الوزارة نقلني إلى مكان قصي أقضي فيه البقية من عمري.

أشرق الدمع بعينها وعقد الألم لسانها ولبّث تنو إليّ في فزع ووجوم. وكأنه لم يكفي ما قلت فأردفت مرغياً مزيداً:

- اذهبي إلى أخوتي أو إلى أخي واحسييني منذ اليوم في عداد الأموات.

وولّبتها ظهري وغادرت الحجرة ونحيبها يفرع أذنيّ.

٦٦

لم يحط لي لحظة واحدة أن أذهب إلى حجرتي، كان ذلك أبعد شيء عن تصوّري، حتّى النظر إليها نعامتي، ومضيت إلى حجرة الاستقبال وارتويت على الكنية في إسياء وقنوط، ومضى الليل ثقيلاً مضجراً فلم يعد نصيبي من النوم إغشاءات مقطّعات تتخلّلها أحلام مزعجة. ثمّ أخذ خصاص النوافل ينضج بنور خافت إذباناً يطلّع الصبح فتتّسعت الصدءاء وتغطّت متعباً، ثمّ نهضت قائماً وغادرت الحجرة مدفوعاً برغبة في الهروب والاختفاء. واقتربت من الباب الخارجي في خطو خفيف حذر حتّى وضعت يدي على مقبضه، ولكّني جمدت متردداً دون أن أبدي حراكاً، ثمّ تراجعت في سكون نحو حجرة أمي، ودفعت بابها الموارب في حذر بالغ وأدخلت رأسي. كان شخير

الخدم يتصاعد في انتظام، وعمل الفراش رقدت أمي في سكون عميق لا يكاد يرى من وجهها إلّا نصفه الأعلى. ألقيت عليها نظرة قصيرة، ثمّ تراجعت إلى الخارج، وانجّهت نحو الباب الخارجي مرّة أخرى ومرقت منه ثمّ أغلقتها دون أن أحدث صوتاً، وتراعى إلى أذنيّ، أو خيل إليّ أنّ صوتاً يتف به، فظننتها استيقظت على حذري وحرصي وأنها تناديني. وتوقّفت ويدي على الدرابزين على حين تراخي قلبي ورق، ولكّني كنت على حال من القنوط لم أحسن معها التدبير فهازت منكمّي استهانة ونزلت. واستقبلت الصباح الباكر في طريق مقفر أو يكاد فهفا على وجهي نسيم رطيب بارد، وتلبّثت متحيّراً لا أدري أين أذهب ثمّ قصدت محطة البترول حيث موقف التاكسي واستقللت واحداً إلى ميدان الإسماعيلية. ومال بصري إلى العمارة الأخرى في الطريق فرايت نوافل مغلقة وسكوناً مطبّقاً والمصباحين المعلقين وقد انطفأ نورهما. وانتهيت إلى الميدان فمضيت إلى لّبان وجلست إلى مائدة في أقصى المحلّ، وتناولت فطوراً بسيطاً، وعلاّني تعب مباغت فمددت ساقيّ، ثمّ زحف على جوارحي ناعس قهّار لم أجد أملك معه رأسي فاستسلمت لسلطانه. وسرعان ما رحت في سبات عميق. وعادتنّي اليقظة فوجدتنّي منكفئة على المائدة وقد توسّدت ساعديّ، فرفعت رأسي ناظراً فيما حولي في دهشة وارتباك، وسرعان ما استحوذ عليّ حياء شديد.

وغادرت المكان مغوضاً عيني عن الجلوس وما كان أشدّ دهشتي حين رأيت ساعة الميدان تجاوز الثانية عشرة! ثمّ دهرت طويلاً غائبة عن دنياي المتجهمة فما ألدّ أن أنام إلى الأبد! وانجّهت صوب حدائق قصر النيل وأنا أشعر شعوراً أليماً برائحة هيتي وفبول منظرني! وساءلت نفسي وأنا أجهد في السير عمّا عسى أن أصنع بحياتي، ولكن وسوست لي النفس أن أوّجّل البتّ في هذه المسألة جرّأ مع طبيعتي التي تنكص عادة عن مواجهة المشكلات الخطيرة. ثمّ وجدتنّي أفكر في رباب! إنّ بنفسي غضباً عليها لا يزول كأنه عاكة مستديرة، ولشدّ ما اتّقي لو تبيّعت حيّة ولو دقيقة واحدة

هل يعني هجرها! طالما رقت على خاطري الرغبة في هجرها في صور أحلام غامضة، ولكن هل يعني حقاً أن أهجرها؟ يا لها من خطوة خطيرة ما أخلقني أن أفهم منها موقف المتفكر المتردد. لماذا أقسو عليها؟ فيم أنتقم منها! وإني لأعلم أن خطرة منها تخطر على الفؤاد حقيقة بأن تركني إلى أحضانها ناعماً باكياً، يا له من حب بغض لا أجد إلى الخلاص منه مبيلاً.

ورجعت إلى الميدان بعد الساعة الثانية بقليل، ووجدتني أذكر شارع الألفي بلهفة معهودة. وعلى كتب من عطة الترام لحت زميلاً لي من الوزارة فتجاهلته، ولكنّه لمحني أيضاً وأقبل نحوي في اهتمام ووجوم ووسط لي يده قائلاً:

- البقية في حياتك يا كامل أفندي.

فسرت في جسدي رعدة ونسألت في قلبي كيف علم بالخبر وماذا علم عنه، وتمتمت في ارتباك:

- حياتك البالية.

فقال الرجل وهو يضغط على يدي:

- عن إذنك ريثاً أتناول لقمة ثم أعود للاشتراك في تشييع الجنازة.

ريّاه، كنت أظن أن الجنازة شُيعت أمس أو صباح اليوم وانتهى المأزق الحرج، ولكنّها لا تزال تنتظر مقلبي وقد أذاعوا النعي في الصحف! أيّ مأزق يترتب بي!... وسألت بصوت منخفض:

- هل قرأت النعي في الأهرام؟

فقال لي بدهشة:

- كلا، لا أظنّه ظهر في الأهرام وإلاّ لكنا علمنا به في الوزارة، ولكنّي أكلت عليه في البلاغ.

واستخرج الجريدة من تحت إبطه وفتحها ثم أشار إلى عمود وهو يقول: «هاك النعي» وتناولت الجريدة في ارتباك وخجل وجرى بصري على السطور الغلائل الآتية: «انتقلت إلى رحمة سولاه كريمة المرحوم الأميرالاي عبدالله بك حسن، والدة مدحت بك رؤية لاه من أعيان القوم وكامل أفندي رؤية لاه الموظف بالحريّة وحرم صابر أفندي أمين...»

حملت في وجه صاحبي كالمجنون، ثم أعدت تلاوة

ريثاً أبصق على وجهها! وهل أنسى أنني فرحت لموتها فرح حاد شامت؟... هكذا أنا ولا داعي للخفاء! بيد أنني على حال من السكينة أستطيع معها أن أفرّ وأن أأمل. ومن عجب أنني على أنانيتي المفرطة لا أبخل على خصمي بالإنصاف والعدل. لا حباً في الإنصاف والعدالة ولكن لأنني ألفت أن أقيم الأعداء للخصم مداراة لعجزني عن الانتقام منه! لذلك تلمّست الأعداء لرباب في مأساتها، وقلت لنفسي: إنني أخطأت في تصديق ما أذعت من أنها تكره الحب الجنسي، وإنّ عجزني حيالها هو الذي رمى بها إلى أحضان الغواية، وكيف يمكن أن أشك في أنها احتيتني بإخلاص؟ وهبت على خيالي الذكريات كما تنفخ نسائم عطرة على نار مؤججة، ذكريات النظرات المتبادلة، واللقاء الخالد في الترام، وصدودها عن خطيئها الأولى وميلها إليّ في سحر هو أبهج ما اقتنيت من تحف السعادة المولّية. كان حباً صادقاً، ولكن عرضت له ربح للجيّة فاقتلعت جلوره وأغاضت منها ماء الحياة. ألسنت شريكاً في قتلها؟! ودعوت الله في تلك اللحظة أن يختصر الطريق ليقيم القيامة ويرحم العباد من محنة الحياة، كان حبي سروراً إلهياً ثم مضى غلغلاً وراءه مقتاً وغضباً. ولكن هل مضى حقاً؟ هب ما حلّ بي قد تمخّض بمعجزة عن حلم مزعج ولا شيء غير هذا ألا يعود حبي أقوى ممّا كان؟ بلى، فهو موجود إذن تحت ركام البغض والقتل، إنّ العضو الذي ينفصل عن الجسد لا يعود إليه أبداً فهو غير موجود حقاً، أمّا الحب الذي يعود فلا يمكن أن يكون قد ذهب حقاً. ولكن ما جدوى هذا التفكير الاليم؟! وقطبت كأنما لأخفيف الذكريات التي تتال على. وصمّمت على الهرب منها ولو بمواجهة المشكلة الخطيرة التي تهربت منها منذ حين قصير ألا وهي مشكلة حياتي وماذا أصنع بها. لا ينبغي أن أترك أموري للمقادير. سأجد طريقة للتخلص من أثاث رباب ثم أنتقل إلى حيّ جديد. أأسمى حقاً إلى الانتقال لبلد بعيد؟ لشدّ ما تنازعني نفسي إلى الفرار، بيد أنني أعجز من أن أهجر القاهرة. هذا شعوري ويقيني. فهل أهجر آتي حقاً؟

النعي، وجميع جسمي يتنفّض، وصرخت بلا وعي:
- هذا عال... هذا كذب...

ركضت لا أروي على شيء نحو تاكسي غير بعيد
وارتفعت داخله وأنا أحدث السائق على السرعة. إنه
لكذب واقتراء، ولأعلمن جليّة الخبر وعندها أعرف
كيف أؤدّب من رامي بهذا العبث السخيف. وانطلق
التاكسي يطوي الأرض وعشفي مشرّتب صسوب
الطريق، حتّى تراهي لعميّ سراقق مقام أمام بيتنا،
وتنزّري قلبي في صدري وارتعشت أطرافني جميعاً،
وتوقّف التاكسي فغادرته زائع البصر، لم أكن حزينة أو
متألّماً وإنما كنت مجنوناً، ها هو عمّي جالساً عند
مدخل السراقق، وهذا أخي مدحت قادماً نحوي.
وقد هربت إليه فاقد الوعي وقبضت على رباط رقبته
وصرخت في وجهه:

- كيف تحفون عمّي الخيرا

وتخلّص أخي من قبضة يدي بجهد وهو يرمقي
بقلق وانزعاج، على حين تداءي متاً عمّي وهو يقول:
- أين كنت يا كامل؟ لقد بحثنا عنك في كلّ مكان
فلم نعثّر على أثر...

فردّدت بصري بينهما، ثمّ ألقيت على السراقق نظرة
غريبة وعمّمت.
- أحمّ هذا؟

فقال لي عمّي:

- تمالك نفسك وكن رجلاً.

فسألت أخي في همس وإشفاق:

- ماتت حقّاً؟... كيف؟ متى علمتم؟

فقال مدحت في كآبة:

- تلقّيت برقية في التاسعة صباحاً. هذا قضاء ربّنا.
أين كنت؟ لشدّ ما أزعجني أنا نضطرّ إلى الخروج
بالجنازة في غيابك.

فصحت به في غضب:

- فيم هذه العجلة؟ لماذا لم تؤجّلوا الجنازة إلى غد؟
فقال أخي معترضاً:

- أكّد الطبيب أنّ الوفاة حصلت عند منتصف

الليلة البارحة فقرّر رأينا على أن نخرج الجنازة
اليوم...

وارتعد جسمي المحموم وتمتّت في ذهول:
- منتصف الليلة البارحة؟ ولكنّي رأيتها نائمة في
فراشها هذا الصباح...

ولاحت في عيني مدحت نظرة حزينة وقال برثاء:

- لم تكن نائمة. إنه القلب يا كامل.

تخيّلت صورة ما بدا لي في وجهها من قنوط،
وأطرافني ترتعش، وأعملت ذاكرتي لاستحضّر الصورة
كما رأيتها، وساملت نفسي أكان وجه ميت حقّاً...

وخارت قواي، ثمّ قلت بصوت ضعيف:

- أريد أن ألقى عليها نظرة الدواع...

فوضع أخي يده على منكبي وقال:

- أصبر حتّى تهلك قواك. ثمّ إنّ الحجرة ملأى
بالنساء.

ولكنّي نحيّته عن سبيلي وانسدفت إلى داخل
العمارة، وجرى أخي ورائي، فارتقينا السلم وثبّا، ثمّ
مرقت إلى الشقّة وأصوات البكاء غلّا أذني، فما راهني
إلا أن أجده نفسي محاطاً بالنساء من جميع الجهات.
وزاغ بصري وحلّ بي إعياء وارتباك، ولكن أدركني
أخني ففصص على ذراعي وألّجه بي إلى حجرة النوم وهو
يقول:

- لا تقاوم... ينبغي أن تخلو إلى نفسك قليلاً...

وأجلسني على المقعد الطويل، وأغلق الباب، ثمّ

جلس على حافة الفراش أمامي وقال بحزن:

- ثب إلى رشدك. لا ينبغي أن يغلبنا الحزن

كالنساء، أليست هي أمّي أيضاً؟ ولكنّنا رجال...

وراح عقلي يتردّد، كبندول الساعة، بين أمرين في
تركيز جنونيّ بين شجار الألسن المشتم وبين رؤيتي لها
هذا الصباح، وعلى حين بغتة وثبت إلى ذهني ذكرى
فهمتت بأخي:

- كذب الطبيب!... لم تمت عند منتصف

الليل... لقد سمعتها تناديني وأنا أغادر الشقّة...

فلاحت الدهشة في وجهه وسألني:

- وهل ليّيت نداءها؟... هل تحدّثت إليها؟

- صدّق يا أخي، إنَّك إذا لم تولد نفسك على
تصدق هذه الماسي وأماها خرجت من الدنيا كما
دخلتها غراً جاهلاً. لقد قتلت زوجي أيضاً ولكن كان
معي شريك هذه المزة هو عتيقها.
وضرب مدحت كماً بكفت وهتف بي:
- لا يمكن أن تغادر الحجرة وأنت على هذه
الحال...

فهزئت رأسي في غضب ونهضت قائماً وأنا أقول:
- هلم بنا.
ولم أكد أنم هذه الجملة حتى غبت عن الوجود...

٦٧

لا علم لي بالساعات الطوال التي قضيتها في غيبوبة
تامة، ولكن ثمة أوقات أخريات كنت أخط في
ظلمات بين العبيرو والبقطة. إنَّها دنيا غريبة معتمة،
تنورعها الأحلام، فكان بداخلي شعور أنني حي،
ولكن حي كميث رقنا وعجزاً، وكمن من مرة جهدت
في شقاء وناس كي أحرّك عضواً من أعضائي فأعاني
الجهد وسلمت للضغط الخائق والحروف المبهمة، ولي
أحوال أخرى عاشني الوهم فخلّ إليّ آلي غير بعيد من
البقطة، وآلي أكاد أميز أصوراً مالوفة وأرى وجوهاً
أعرفها حتى المعرفة فاستصرختها أن تبرع إلى نجدتي،
وناديت أبي كثيراً حتى أحنفني فعاهدنا عني وعجبت
له عجباً شديداً، وطافت برأسي المحموم أحلام
غريبة، فرايت فيما يرى النائم أنني تمطّ منكب أبي
وأبنا نذهب بي ونحيي كما كانت تفعل على عهد
طفولتي، ورأيتني حيناً آخر ممسكاً بشلايب أخي
مدحت في نضال عنيف في جوّ صاخب وهو يصيح
بي: لا تقتلني، وخیل إليّ أنني رأيت أحلاماً كثيرة ولكن
أبتلعها الظلمة. وطالت غيبوتي حتى ظننتها لا
تنهي، ثم تفتّحت عيني، وعدت إلى نور الدنيا،
وتنهلت من الأعماق. ووقع بصري على امرأة تمكس
صورتي، وشعرت بوجود شخص عند رأسي فحرّكت
عيني نحوه فرايت أختي راضية جالسة على الفراش
ويدها على رأسي، والتفت عيناها فابتسمت أساريرها

فتنهلت من الأعماق في شقاء محيت وقلت:
- لم ألبّ نداءها لأنني كنت نائماً عليها!... لشّد
ما كنت فظاً غليظاً معها...
وسادنا صمت وحزن. وكان رأسي يكاد يتفجر من
الآلم والحمى. ثم قلت وكأنني أحدث نفسي:
- لقد قتلتها ما في ذلك ريب. رياء. كيف هان
عليّ أن أقول لها ما قلت!
فرمقي أخي بوجوم، وقال بلهجة تنم عن تحذير:
- إنَّك وأن تستسلم لهذه الأفكار...
فقلت بعناد ورأسي يدور جنوناً:
- لم أعصُ الحق في قولي. لقد قتلتها، ألا
تفهم؟... إذا أردت أن تستوثق من صحة قولي فادعُ
النيابة والطبيب الشرعي...
فتأوّه مدحت قائلاً فيها يشبه الخوف:
- أنت تهذي بلا ريب، وألا تتهاك نفسك فلن
أسمع لك بالسير في الجنازة.
فندت متي ضحكة باردة وقلت:
- إنَّ أسرتنا مصابة بدهاء قتل والدين، ولقد حاول
والدنا أن يقتل جدنا فافسق، وأعدت الكرة على أتنا
فنجحت، وهكذا ترى أنني كنت أعظم توفيقاً من
أبي.
فلاح القلق في وجه الشاب ونهض قائلاً. ثم ثبت
عينيه في وجهي وتساءل:
- ماذا تنوي أن تصنع بنفسك؟... لم يبق إلا
ساعة على تشييع الجنازة.
فقلت في دهشة:
- أسمع بتشيع الجنازة دون تحقيق؟ يا لك من أخ
رحيم! ولكنّ الواجب فوق الأخوة. ادعُ النيابة،
وسأدلك على الطريق إليها فقد عرّفته بنفسه أمس،
وقل لوكيل النيابة إنَّك تدعوه للتحقيق مع الشخص
الذي دعاه أمس للتحقيق في مقتل زوجته.
ويدها أخي كأنه تذكر أمراً مزعجاً فصاح:
- يا له من حدث أليم!... كيف لم تترك إليّ يا
كامل؟ لقد أخبرتني الحامد اليوم فلم أكد أصدق...
فقلت فيها يشبه الهديان:

ولاحت في عينيها نظرة إشفاق وغمغمت بصوت حنون:

- كامل...

وحاولت أن أتبسم. ونَدَّت عنها تنهدة حارة وغمتمت:

- أشهد أن لا إله إلا الله.

تَشَدَّت بصوت ينم عَمَّا بَرَحَ بها من خوف وعذاب، ووجدتها لا ترفع يدها عن رأسي، ثم شعرت في اللحظة التالية بوجود شيء تحت راحتها، فسالتها بصوت ضعيف وقع في أذني كالصغير المكتوم:

- ما هذا الشيء على رأسي؟

فجاءني صوت آخر يقول:

- كيس نلج يا سيدي.

فالتفتُ إلى الناحية التي جاء منها الصوت فرايت أخي ممدت جالساً على المقعد الطويل، وأدركت في تلك اللحظة أين أكون، وهجمت على اللكريات التي فررت منها بهذه الغيبوبة الثقيلة، وطالعتني الحياة بوجهها الكالح مرة أخرى، ووقع بصري على المنية فإذا بعفري قد جاوز العاشرة بقليل، العاشرة صباحاً كما يدُلُّ عليه ضوء النهار. وإذن فقد انقضت الليلة الكئيبة وأنا في نوم عميق! ونظرت إلى أخي بطرف كبير وتساءلت:

- هل سُيِّمت الجنائز؟

فألقي عليّ نظرة طويلة ثم قال باقتضاب:

- طبعاً...

وصمت ملياً ثم استترك قائلاً:

- لعلك لا تدري أنك غبت عن الوجود ثلاثة أيام كاملة.

ورنوت إليه بدهشة، ثم أغمضت جفني في دهرول، وغمتمت في حزن بالغ:

- قضى الله بالآل أن أصبح لا أتي ولا زوجي إلى

مرقدهما الأخير.

وتحوَّل بصري إلى أختي فرايت عينيها مغروقتين بالدموع، فنشيتني كتابة موحشة بدت الحياة خلالها كالموت. لشئاً ما بدت لي الحياة في تلك اللحظة

الرهبة غريبة خالية. وشعرت بفراغ خفيف جداً. فقد خلا البيت، وخلت حياتي، وخلت الدنيا جميعاً. وكنت في حياتها أجد طمأنينة راسخة، وأشعر في أعماق قلبي بأنه مها نكدت الدنيا علي فيها حجرة دائمة الإشراف بالابتسام والحنان، أما الآن فما أشبهني بقارب تمزقت حبال مرصاته في بحر هائج عاصف وحق شقيقي التي تحنو علي في مرضي فما أسرع أن تعتذر لي غداً أو بعد غد بيئتها وأولادها وتركني وحيداً. وبأن هل خلقت - أنا الطفل المدلل - مثل هذه الحياة؟!

ونظرت إلى أختي طويلاً في حبِّ وامتنان، وأنعمت النظر في وجهها بشوق لا تدريه مجذوباً إلى مشابه فيه من وجه أمي، فاهتزَّ صدري ودرَّ حناناً وحرناً عميقاً. وألقيت على ما حولي نظرة حائرة فوجدت أثاث رباب يجذيني بنظرات غريبة، فقلت في ضيق:

- هيهات أن تطيب لي الإقامة في هذا البيت.

سأقيم عندك يا أختاه...

فأقلت أختي بصديق وإخلاص:

- هذا ما كنت عقلت العزم عليه... أهلاً بك

وسهلاً!

وسالتها أن تقرب أذنها مني ثم قلت لها بحزن:

- خليني إلى حجرتي لألقي عليها نظرة...

فاظلمت عيناها واغرورتها بالدمع، وقالت لي همساً:

- لا يمكن أن تفارق الفراش الآن، ثم إنه لم يعد

بالحجرة شيء.

تخيلت الحجرة الخالية، أربعة جدران وسقفاً وأرضاً. ما أشبهها بحياتي. وتنهَّدت عجزناً وغمتمت:

- ما أشقائي!

فأقلت راضية برجاء وضراعة:

- هلاً أجلت الحزن حتى تبرا!!

ولازمتُ الفراش زهاء شهر، وأقلت راضية عندي أسبوعاً ثم عادت إلى بيتها مضطربة ولكنّها دأبت على زيارتي كلَّ يوم عصراً، ولم تكن تفارقني قبل أن

في أذني، وتلك طمانينة السلام تفرّ في قلبي! كان خيالي نشيطاً ولكّنه كان غادراً في كثير من الأحيان، فلم يكن يصعد بي إلى ذاك المرتقى حتّى يتخلّل عني بفتة فاهوي من علّ، ثمّ أعود إلى قلبي القديم وخوفي المقيم...

وفي ذات صباح من أيام النقااة الأخيرة جاءتني الخادم المعجوز وقالت لي:

- جاءت سيّدة تريد مقابلتك وقد أدخلتها حجرة الاستقبال.

فرفعت إليها عينيّ في دهشة وسألتها:

- ألا تعرفينها؟

فهزّت المرأة رأسها قائلة:

- لم أرها يا سيّدي قبل اليوم.

ووثب إلى خاطري طيف فانتفض قلبي الضعيف واشتدّت ضرباته حتّى انهبرت أنفاسي. ربّاه أتكون هي حقّاً؟ وهل وانتهت الجراة على اقتحام البيت؟ ألم تقدّر العواقب؟ ونظرت إلى الخادم في حيرة شديدة ثمّ تمنت:

- ادعِها إلى حجرتي...

والقيت على المرأة نظرة متفحّصة، ثمّ تناولت المشط وزجّلت شعري على عجل، وفي حياء شديد ألجّه بصري نحو الباب. ترى هل يصدق ظنيّ؟ وكيف غابت عن ذاكرتي طوال العهد كلّها كانت كامنة في دم الصّحة الذي نضب؟ ثمّ سمعت وقع أقدام تقترب، وأطلّ عليّ وجه القادم يبتسم في شوق وإشفاق، فهتفت فيها يشبه الاستغاثة وقد وثى صوتي بما شاع في

صدري من الانفعال:

- أنتِ!...

يُغمض النوم جفني... وعاد ملدحت كلّك إلى الغيوم، ولكّنه كان يمضي عندي نهاية الأسبوع.

ولمّا دخلت طور النقااة كانت الحمتى قد عزّقتني وخلّقتني جلدّاً على عظم. ولم تكذب بقى ثمة حياة إلّا في خيالي، فازدهرت حيويته وامتلأ قوّه ونشاطاً فكاد يبلغ حدّ الهوس. ولم يكن شعور الوحشة والخوف ليفارقني ساعة من ساعات اليقظة. فبدلت في الحياة شاقّة مرعبة لا يقبل لي بها، وامتلأت أذناي بذلك النداء القديم الذي ييب بي - عند الشدائد - أن أوكّي فراثاً.

ولكن أين المفر؟ ليتني أخلق شخصاً جديداً، سليم الجسم والروح، لا يمشّ بأركان نفسه الخوف والخجاف، فألقي بنصي في خضمّ الحياة الإنسانيّة بلا خجل ولا نفور، أحبّ الناس ويحبّوني، وأعنيهم ويمينوني، وألفهم ويألفوني، وأندمج في كالمهم الكبير عضواً عاملاً نافعا! ولكن أين متي هذه السعادة؟! وفيهم أعلّل النفس بالأمان الكاذبة؟ لم أخلق لشيء من هذا، وإنّما خلّقت للتصوّف، ومن عجب أن وردت هذه الكلمة على ذهني بغير قصد، لكن سرعان ما تشبّثت بها بدهشة وحيرة... التصوّف؟ لست أدري ما هو على وجه التحقيق! ولكّنه وحلة وعزوف وتفكير

وما أحوجي للوحدة والعزوف والتفكير عجباّ لم أكن أشكر الوحدة طوال رفاذي؟ الحقّ أنّي لم أشكّ الوحدة التي إلّفتها العمر كلّه ولكنني استرحشت الوحدة التي خلّفتها أمّي. أمّا الوحدة المهودة فما أشدّ لفتني إليها؟ ينبغي قبل ذلك أن أظهر جسمي ظاهره وباطنه، ثمّ أكرس قلبي للسبّاء. لقد خلّقت في الواقع متصوّفاً ولكن أضلّيت نوازع الحياة، وتصورت نفسي في طهر عجب، يستحمّ جسدي بماء غيّر، وتتسامى روحي في صفاء ونقاء، فلا مشهد أرنو إليه إلّا السبّاء ولا خاطر ينبثق في نفسي إلّا الله، وفهذه بلابل الجلّة تسجّع

بِذَلَالَةٍ وَنَهَائَةٍ

- ١ -

وعاد الضابط يتبعه الفتى واجماً، وما إن وقعت عيناه

على شقيقه حتى غمغم في دهشة:

- وأنت أيضاً؟! . ماذا حدث؟!

وتبادلا نظرة حائرة، ثم تبع الضابط الذي مضى
متسماً بحجرة الناظر. وساله حسين في لهجة رقيقة
مؤذبة:

- ما الذي أوجب استدعائنا من الفصل؟

فأجاب الضابط بعد تردد قاتلاً:

- متقابلان حضرة الناظر.

وقطعوا بقية الردة دون أن ينسى أحدهم كلمة.
وكان الشقيقان متشابين لدرجة كبيرة، فكلاهما له هذا
الوجه المستطيل، وعينان عسلتان واسعتان، وبشرة
سمراء ضاربة إلى الحمق، إلا أن حسين في التاسعة
عشرة، يكبر أخاه بعامين ودونه طولاً، على حين يمتاز
حسين بدقة في قسفات وجهه أكسته وضاعة ووسامة.
ومضى قلقهما يتزايد وهما يقتربان من حجرة الناظر،
وتخايل لعينيهما منظره الصارم في رهبة وخوف. وژرر
الضابط سترته، ونقر على الباب، ثم دفعه برقة ودخل
وهو يوميئ إليهما أن يتبعاه. ودخلا وهما ينظران إلى
الرجل وقد انكب على مكتبه في صدر الحجرة يقرأ
رسالة بعناية دون أن يرفع بصره نحو القادمين كأنه لم
يشعر بحضورهم. وحيّاه الضابط بأدب جَمّ وقال:

- التلميذان حسين كامل علي وحسين كامل علي.

فرقع الناظر رأسه وهو يطوي الرسالة بيديه، وأطفا
عقب سيجارة في النافذة، وجعل يرتد بصره بينهما،
ثم تسامل:

- في أيّ سنة أنتما؟

فقال حسين بصوت متهدج:

- رابعة رابع.

الغى الضابط نظرة كئيبة على الردة الطويلة التي
تفتح عليها فصول المستين الثالثة والرابعة، وقد شمل
المدرسة - التوفيقيّة - سكoon عميق، ثم مضى إلى فصل
من فصول السنة الثالثة، ونقر على الباب مستأذناً،
ودخل متجهاً صوب المدرّس وأسرّ في أذنه بضغ
كلمات، فسدد المدرّس بصره صوب تلميذ يجلس في
الصف الثاني وناداه قاتلاً:

- حسين كامل علي.

فقام التلميذ وهو يرتد بين المدرّس والضابط نظرة
ملينة بالترقب والقلق، وغمغم:

- أفندم؟

فقال المدرّس:

- اذهب مع حضرة الضابط.

فخرج التلميذ عن قِمطوره، وتبع الضابط الذي
غادر الفصل في خطوات بطيئة. ولم يطمئن قلبه لهذه
الدعوة، وراح يسائل نفسه: ترى أجاءت بسبب
المظاهرات الأخيرة؟ وكان قد اشترك في المظاهرات،
وهتف مع المئات: «ليسقط تصريح هور» و«ليسقط
هور ابن الثورة»، وقد ظنّ أنه نجا من الرصاص
والعصيّ والمقويات المدرسيّة جيّماً، فهل كان مغالياً في
ظنّه؟ وسار وراء الضابط في الردة الطويلة متفكراً،
يتوقّع بين لحظة وأخرى أن يجبهه بما عنده من هم،
ولكن قطع عليه تفكيره وقوف الرجل حيال فصل من
فصول السنة الرابعة ودخوله مستأذناً، ثم بلغ مسامعه
صوت المدرّس وهو ينادي قاتلاً:

- حسين كامل علي.

شقيقه أيضاً؟! ولكن كيف يمكن أن توجّه إليه تهمة
من هذه التهم وهو لا يشترك في المظاهرات بتأثاً؟!

وقال حسنين:

- ثلاثة ثالث.

فنظر إليهما ملياً ثم قال:

- أرجو أن تكونا رَجُلَيْنِ كما ينبغي. لقد توفي والدكما كما أبلغني أخوكما الأكبر والبقية في حياتكما..

ووجها في ذهول وانزعاج، وهتف حسنين وهو لا يدري قائلاً:

- توفي أب!..! مستحيل!

وغمغم حسين وكأته يحدت نفسه؟

- كيف؟ لقد تركناه منذ ساعتين في صحة جيدة وهو يتأهب للخروج إلى الوزارة..

فصمت الناظر قليلاً ثم سأله بركة:

- ماذا يعمل أخوكما الأكبر؟

فقال حسين بعقل غائب:

- لا شيء..

فتساءل الرجل:

- أليس لكما أخ آخر مولف أو شيء من هذا القبيل؟

فهز حسين رأسه قائلاً:

- كلاً.

فقال الرجل:

- أرجو أن تتحملاً الصدمة بقلوب الرجال، واذعبا الآن إلى البيت كان الله في عونكما..

= ٢ =

وغادرا المدرسة إلى شارع شبرا يلتصمان طريقهما خلل الدموع. وكان حسنين أسرها إلى البكاء فأراد حسين أن ينهره في حال عصبي ولكن أفحمه البكاء واحتقن صوته فلم ينبس بكلمة. وصبرا الطريق إلى الجانب الآخر، وحثا خطواتهما قاصدين عطفة نصرالله على مسيرة دقائق من المدرسة. وتساءل حسنين وهو ينظر إلى شقيقه كالستيف:

- كيف مات؟

فهز حسين رأسه واجماً وتمتم:

- لا أدري. لا أستطيع أن أتصور. لقد تناول

فطوره معنا، وتركناه في صحة جيدة. لا أدري كيف وقع هذا..

وحاول حسنين أن يتذكر الصباح القريب بتفاصيله فذكر أنه رأى أباه أول ما رآه وهو عائد من المرافق فحيّاه كعادته قائلاً «صباح الخير يا بابا» فاجابه مبتسماً: «صباح الخير، ألم يستيقظ أخوك؟» واجتمعا بعد ذلك حول المائدة، فدعا الرجل الأم إلى مشاركتهم الطعام فاعتذرت بأن نفسها مصدودة، فتذر الرجل قائلاً:

«إذا جلست معنا افتحت نفسك» ولكنها أصرت على الاعتذار، فقال بعدم اكتراث وهو يقشر بيضة: «عل كيفك». لا يذكر أنه سمعه يتكلم بعد ذلك، اللهم إلا نحنة مقتضبة. وكان آخر ما رآه منه ظهره وهو يدخل حجرته نجفياً يديه في منشفته. ثم انتهى، انتهى، أبشع بها من كلمة! واسترق إلى حسين نظرة مروعة فوجده عزوئاً واجماً كالما كبر وشاخ، وعاد إلى ذكرياته وهو يكابد لوعة حارة: لا أصدق أنه مات، لا

أستطيع أن أصدق. ما هو الموت؟ لا أستطيع أن أصدقه. انتهى؟ لو كنت أعلم أن هذا آخر ما بقي لنا من عمره ما غادرت البيت. من أين لي أن أعلم؟ أهوت الإنسان وهو يأكل ويضحك؟ لا أصدق. لا أستطيع أن أصدق. وانتبه على أخيه وهو يجذبه من ذراعه إلى عطفة نصرالله التي كاد يفوتها في ذهوله.

وسارا في طريقها الضيق تصطف على جانبيه البيوت القديمة والخوانيت الصغيرة إلى ما يعترضها من عربات الغاز والحضر والفاكهة. وسبقهما البصر إلى عبارتهما ذات الأدوار الثلاثة والفتاة المستطيل القرب، ثم ترامي إلى أذنيهما الصوت فتبينتا صوتي أمهما وأختها الكبرى وهزما حق الأعباء فاجهشا في البكاء، وجريا لا بلويان على شيء، وارتقيا السلم مهولتين إلى الدور الثاني فوجدتا باب الشقة مفتوحاً فتدافعا إلى الداخل، وقطعا الصالة إلى حجرة الأب في نهايتها ثم دخلا وهما يلهتان. وثبتت عيناهما على الفراش وقد وشى الغطاء بالجسم الممدد تحته، ثم اقتريا من حافته وارتقيا عليها وأغرقتا في نسيج حار. وكفت الأم والأخت عن الصوت على حين غادرت الحجرة امرأتان غريبتان.

تغيرًا شاملًا لا يدريانه، ولكنها وجدتاهما كالعهد بها لم يتغير منها شيء. هذا الفراش على يمين الداخل، والصوان في الصدر يليه المشجب، وإلى اليسار الكتبة التي ارتمت عليها الأخت وقد أسندت إلى حائطها عود انغرس ريشته بين أوتارها، وثبتت عنهما على العود في دهشة ممزوجة بالخزن. ظلًا لعبت أنامل الراحل بهذه الأوتار، وظلًا التفت حولها الأصدقاء مُطَّربين يستعيدون ويعيد، فما أعجب ما بين الطرب والخزن من خيط رقيق، أرق من هذا الوتر. ثم مرَّ بصرفها الحائر بساعة الراحل على خوان غير بعيد من الفراش، لا تزال تدور باعثة دقاتها الهامسة، ولعلَّ الراحل قرأ فيها آخر تاريخ له في الدنيا وأزَلَّ عهدهما باليمن. وهذا قميصه على المشجب وقد لاح آثار عرقه بينقته، فزنوا إليها بحتان عميق، وقد بدا لها في تلك اللحظة أن عَزَقَ الإنسان أشدَّ ثباتًا من حياته العظيمة. ولبت الأم تنظر إليها في صمت. لم تحب لها خواطرها على بال، ولكنها كانت تدرك من هول الكارثة ما لم يَدُرَّ بخلد. ونذت من حسنين تنهدة حارة لفتت إليه شقيقه فوضع يده على كتفه وهمس في أذنه:

- هلم بنا.

والتى الشابتان نظرة أحيرة على الجثمان المسجى وهما يعتقدان - بحكم العادة المتوارثة - أن عيني أبيهما تريائهما رغم الموت فلم يولياه ظهرهما أن يسيء إعراضهما إلى شعوره، ويعتا إليه بتحيةٍ قلبيةٍ وتقيرا إلى الباب ثم غادرا الحجرة. ولاحق من حسنين نظرة إلى أخيه فطالع في وجهه حزنًا عميقًا مؤثرًا فنفخ قلبه وأحسَّ نحوه بالعطف، كما أحسَّ بحاجته الشديدة إلى عطفه.

- ٣ -

وغادر الشقيقتان الشقة إلى باب العمارة حيث اصطفت بعض الكراسي فوجدا أخاهما الأكبر - حسن - جالسًا في صمت وكآبة. وجلسا إلى جانبه يشاركانه صمته وكآبته. لم يكن لديهما فكرة عما ينبغي عمله، أما حسن فكان ذا تجارب كثيرة. وكان يشبه أخويه إلى حد كبير بيد أنه اختلف عنها في نظرة عينيه التي تنم

وأرادت الأم أن تتركها يتنَّسان عن صدرهما فتهاست وأقفى في جلبابها الأسود وقد اجتمعت عنياها وانتفخ خذاها وأنفها، أما الأخت فقد ارتجت على كتبة وأخفت وجهها في مسندها وراح جسمها ينتفض من البكاء. وكان حسين يبكي ولسانه يتلو بطريقة آلية بعض السور الصغيرة امتتازًا للرحمة. وكان حسنين يبكي في جوٍّ من الخوف والذهول والإنكار. وقب حبال الموت محتجًا نائرا ولكن في نفس الوقت خائفًا يائسًا. وليس هذا بأبي. لا يمكن أن يسمع أبي هذا البكاء كله دون أن يتحرك. ربَّما لماذا يجمد هكذا؟ إنهم يكونون ولكن في تسليم من لا حيلة له. لم أكن لاتصور هذا، ولا أتصوره. ألم أزه يمشي في هذه الحجرة منذ ساعتين؟ ليس هذا أبي. وليس هله حياة. وبدأ الانتظار وكأن لا نهاية له، فاقتربت الأم من الشابتين ومالت نحوهما قائلة:

- حُسْبِكَا. قم يا حسين خذ أخاك خارجًا.

وأعادت القول حتى قام حسين وأنفض أخاه ولكنهما لم يغادرا الحجرة، وقفا يلتقيان على الجذث المسجى نظرة طويلة غائمة بالدموع. ولم يستطع حسين أن يقاوم رهبة حارة غامضة فانحنى على الجثتان وكشف الغطاء عن وجهه دون مبالاة بالحركة التي بدت من أمه، فطالعه الوجه الغريب موسومًا بميمس الفناء، تشوبه زرقه مروعة، ويرين على صفحته سكون غير دنيوي، في عمق العدم ولاعنايته، فسرت رجفة في أوصاله. لم يكن أحد منها قد رأى ميتًا قبل هذه المرة فركبها الخوف والأسى. ونفذ إلى أعماقهما حزن قهَّار إلى حيث لم تنفذ عاطفة من قبل. ومال حسين نحو الميت ولثم جبينه فعاودته الرجفة. ومال حسنين نحوه كذلك ولثم جبينه في شبه غيبوبة. وأعادت الأم الغطاء على الرأس الغالي، وحالت بينهما وبين الفراش، ثم قالت لهما بلهجة حازمة:

- اخرججا.

فتراجعا خطوتين، وتولَّى حسنين عناد طارئ فتوقف، وتشجع به حسين فتوقف كذلك. وجال بصرفهما بالحجرة فيها يشبه الذهول، وكأنتها كانا يتوقعان

وقعت من هذين الطفلين الكبيرين فكيف تنقصه
دواعي الحزن والأسف؟ واختلس من الوجهين
المحزونين نظرة سريعة من عينيه البراققتين ثم عض
شفتيه. كان يجيها على رغم الظروف التي تدعو إلى
الحقد عليها وفي مقدمتها جيئاً بنجاح حياتها المدرسية
وتقمعها بعطف أبيه. ولكنه لم يكن يرى في المدرسة
ميزة يجسد عليها أحد، ومن ناحية أخرى كان مقتنماً
بأن أباه يجيئه كشيء حقيقي وإن ران على حبه السخط
والغضب، وأهم من هذا كله أن الشعور برابطة
الأسرة كان ولا يزال قوياً في آل كامل بفضل الأم قبل
كل شيء.

وعند الضحى أقبل عليهم رجل وامرأة في ثياب
ريفة فعرفوا فيها خالهم وزوجها عم فرج سليمان،
وقد عزاهم الرجل وشاركهم جلستهم، على حين
هرولت الحالة إلى الداخل وهي تصرخ دياً خراب
بيتك يا اختي، فدوت العبارة في آذانهم دوتاً مفاجئاً
وعاود الشائين البكاء. وراح عم فرج سليمان يتحدث
حسن بينا خلا الشقيقتين إلى نفسيهما في صمت طويل.
والتقت أفكارهما وهما لا يدريان في مصير أبيهما بعد
الموت. وكان حسين راسخ العقيدة عن وراثة وبعض
العلم فلم يداخله شك في النهاية، وسأل الله بقلبه أن
يلقى أباه في ذلك اليوم البعيد وهما على أحسن حال
من رضوان الله. وأما حسنين فكان في حيرة من كرب
الموت لا يدع للعقل راحة للتأمل والتفكير. وكان يسلم
بالإيمان تسلياً وراثياً لا شأن فيه للفكر، وقد حملته أمه
يوماً على أداء الفرائض فأذاها دون وهي، ثم هجرها
في شيء من التردد دون تكذيب أو زيغ. ولم تسلط
العقيدة على فكره. ولم تشغل باله كثيراً، ولكنه لم يجد
نفسه خارجاً على حقائقها قط. وقد دفعه الموت إلى
التفكير ولكنه لم يطل به، وسرعان ما عاوده التسليم
تؤيده هذه المرة عاطفة حادة: وهل الموت هو النهاية؟
ألا يبقى من أبي إلا التراب ولا شيء وراء هذا؟ معاذ
الله. لن يكون هذا. إن كلام الله لا يكذب. ولبت
حسن وحده لا يشغله شيء من هذه الأفكار ولم يستطع
الموت نفسه أن يدعوها إلى رأسه، كأنه كان وثيقاً

عن جرأة واستهتار، فضلاً عن أن طريقته في ترجيل
شعره الكثيف المنفوخ، وليس البذلة، دلت على عنائته
بنفسه من ناحية، وعلى قدر غير قليل من الابتذال من
ناحية أخرى. كان حسن يعلم بما ينبغي عمله ولكنه لم
يبد حراً لأنه كان ينتظر مقدم شخص هام. وقد
سأله حسين بتأثر:

.. كيف مات والدنا؟

فأجاب قائلاً وهو يقطب:

.. مات فجأة فأذهلنا جميعاً. كان يرتدي ملابس
وكنت جالساً في الصلاة فما أدري إلا والدنا تناديني
بفرع، فهرعت إلى الحجرة، فوجدته ملقى على الكنية
وهديره يملو وينخفض. وجعل يومئذ في ألم إلى صدره
وقلبه فحملناه إلى الفراش، وقدمنا له كوب ماء ولكنه
لم يستطع أن يشرب. ثم غادرت الحجرة مسرعاً
لاستدعاء طبيب، ولكني لم أكد أبلغ الفناء حتى صك
مسمعي صوات حاد فعدت فرعاً، ووجدت أن كل
شيء انتهى ..

ورأى وجهي شقيقته يتقاصص من الألم فازداد وجهه
كآبة. كان يشعر بحرج شديد جعله يتوجس خيفة من
شقيقته أن يظن بحزنه الظنون. كانا يعلمان بطبيعة
الحال بما كان يقع بينه وبين والديه من شقاق وملاحاة
بسبب حياته المضطربة المستهترة؛ فخاف أن يحسبها
دونها حزنًا وأسفاً. والحق أنه يجد لوعة الحزن
والأسى. والحق أنه لم يبغض أباه قط على رغم ما
كان. وإذا لم يكن حزنه كحزنها فمرجع هذا إلى تقدمه
عنها في السن. كان في الخامسة والعشرين. وإلى
تمرسه بالحياة حلوها وممرها، وممرها على الأكثر، الأمر
الذي يلطف عادة من مرارة الموت. حقاً كان قلبه
يبدئه بأنه لن يجد بعد اليوم من يصرخ في وجهه
قائلاً: ولا أستطيع أن أعول رجلاً خائباً مثلك إلى
الأبد، فيما دمت قد نبذت الحياة المدرسية فشئت سبيلك
بفسك ولا تلق بنفسك عليّ. حقاً لن يجد من يقول
له هذا بعد اليوم، ولكنه لن يجد كذلك من يؤويه إذا
ضالقت به السبل وكثيراً ما تضيق به حتى لا يوجد بها
منفذ لأمل. إنه أعظم إدراكاً لحقيقة الكارثة التي

عَمَّ جابر سليمان البَقَال بخير منه، وإخلاق أدعى وأمر، ونفر غيرهم غياهم أشرف من حضورهم. وانقبض صدره وغشي كدر عميق. ولكنَّهُ كان قليل الصبر فما وافت الساعة الرابعة حتَّى تدفقت جماعات المولَّفين حتَّى سُدُّوا عطفة نصرالله سُدًّا. ودنَّت إليه الروح فعاد إلى حزنه خالصًا من الفلق. ثُمَّ حدث ما لم يدرْ له في حسبان، فجاءت سيَّارة فخمة تنطق بالعزَّ والجلاء، ووقفت على بعد يسير من البيت وغادرتها ساعٍ ففتح بابها ثُمَّ نزل منها رجل ينمُّ مظهره على الألقاب والرتب. وتقدَّم بجسمه الطويل العريض الذي عقدت عليه الخمسون هالة من وقار فروع إليه الإخوة بأدب، واندسَّ بينهم فريد أفندي محمَّد ليحظى باستقبال الشخصية الممتازة التي ينبغي أن يقدرها - كمؤكلف - أكثر من سواء، وتساءل القادم في صوت منخفض:

- أليس هذا بيت المرحوم كامل أفندي علي؟

فبادره فريد أفندي قائلاً باحترام:

- بل يا سعادة البك .

ولم يجدوا ما يقفُّونه له إلَّا كرسياً خيزراناً على قارعة الطريق فجلسوا بهرج غير قليل. وكان حسين قد امتلأ ارتياحاً لمقدمه ولكنَّهُ وجد ضيقاً لسؤاله عن بيت المرحوم ممَّا دلَّ على أنَّه لم يعرف البيت، واقترب من أخيه حسن يسأله:

- مَن يكون هذا الرجل؟

فقال حسن:

- أحمد بك يسري، مفتش عظيم بالداخلية،

وصديق حميم للمرحوم ..

فسأله بقرابة:

- لماذا سأل عن البيت كأنه لا يعرفه؟

فحدسه حسن بنظرة غريبة وقال:

- كان والدنا كثير التردد على بيته، أمَّا هو . . إنَّه رجل عظيم كما ترى . . ١

وصمت الشاب لحظة ثُمَّ استدار قائلاً:

- كان المرحوم يحبُّه ويعتدُّ أعزَّ صديق.

وتناسى حسين هذا، ولم يشأ أن يفسد على نفسه

بالفطرة. والحقيقة أنَّه لم يتأثَّر بأيِّ نوع من التربية أو التهذيب. كان ابن الشارع كما كان يدعو أبوه في ساعات الغضب. وقد طُبع على العيث فلم يعد قلبه تربة صالحة ليدور العقيدة، وما انفكَّ يتخذ منها مادة لمزاحه ودعابته، وحتَّى الأثر الخفيف الذي علَّق بقلبه من وحي أمِّه ضاع في خضمِّ الحياة التي اكوى بناورها. لذلك تاه به الفكر في وديان بعيدة عن الأبدية تتركز حول هذه الحياة وحطَّ أسرته منها. بيد أنَّه لم يطل به المكث مع شقيقه وزوج خالته فقد تراءى عن بُعد رجل يهول قادمًا ما إن وقع بصر حسن عليه حتَّى قال بارتياح كأنَّه كان ينتظره:

- فريد أفندي محمَّد!

وكان القادم يحفِّف جبينه بمندبل على رغم لطافة الجُز الخفيفي، ولكنَّهُ كان بديئاً مغرماً في البدانة، ذا كرش عظيمة، ووجه مستدير مكتنز لاحت فيه قسياه دقيقة صغيرة، على أنَّ بدانته وكهولته وأناقته أيضًا أضفت عليه وقاراً ممَّا يعزِّز به مؤكلفو الحكومة والكتبه منهم خاصَّة. وعلقت به أعين الإخوة برجاء يستحقُّه مَن كان جازاً مثله وصديقاً قديماً لأبيهم، وأقبل الرجل عليهم معزِّياً، ثُمَّ خاطب حسن قائلاً:

- طلبت إجازة اليوم من الوزارة. هلُمَّ بنا إلى ديوان المرحوم لصرف الدفنة ثُمَّ لاتباع اللوازم الضرورية. وجعل يسأل عيًّا كان وصَّاه به قبل ذهابه إلى الوزارة من إجراءات تستدعيها الوفاة، ثُمَّ تابَّط ذراعه وذهبا ممًا .

- ٤ -

وعند اقتراب موعد الجنائزة بلغ الاضطراب بحسين مداه، اضطراب من نوع جديد كان يشغله عن الحزن نفسه. كان يرجو لأبيه جنازة رائعة تليق بمقامه وبمكانته هو التي يجب أن يظهر بها أمام الناس. لم يكن أخواه ليكثرنا كثيراً لهذا الأمر، أمَّا هو فكان يعدُّ إحقاق الجنائزة كارثة كالوت نفسة، غضباً لأبيه الذي يحبُّه، ولنفسه هو. وقلَّب عينيه فيمن تجمَّع من المشيعين فلم يرَ أحداً يملأ العين إلَّا جوارهم الكريم فريد أفندي محمَّد، أمَّا زوج خالته فكان في حكم الحمال، وليس

يلنكار وأسف. ثم نظرت الأم إلى الأبناء وقالت:

- قوموا للنوم .

وأذعنوا لمشيئها بلا اعتراض بعد يوم شاقّ اليم، ومضوا إلى حجرتهم. وكان بالحجرة ثلاثة أسرة صغيرة فدخلوا واحداً لزوج خالتهم الذي لحق بهم على الأثر، وشارك حسين حسين في فراشه. ولكنهم لم يستسلموا للنوم، أو تأتى النوم عليهم، فراحوا يتحدثون عن أبيهم بحزن وحنان، ويذكرون أيامه الأخيرة، وميته المفاجئة. ثم قال حسين:

- كانت جنازته تليق بمقامه حقاً .

فقال عم فرج سليمان مؤثماً على قوله:

- كان رحمه الله رحمة واسعة رجلاً عظيماً، فلا عجب أن تكون جنازته عظيمة مثله. ولقد امتلأت عطفة نصرالله بالمشتعين من البيت إلى شارع شبرا . ولم يرتع حسنين لصوت الرجل، وكان يشعر لوجوده بضيق، ثم ذكر حاتقاً أنه رأى القبر العاري، فقال:

- المعجب أن والدنا وقد أفنى مالا كثيراً لم يفكر في بناء مقبرة تليق بالأسرة.

- هل كان يظن أنه سيهلك في مثل هذه السن؟ إن والدك في الخمسين. وعندنا في الريف كثيرون يتزوجون للمرة الثانية أو الثالثة في هذه السن.

وصمت الرجل ملياً ثم استدار قائلاً:

- ولا تنس أن والدك قد هاجر مع جلته من دمياط إلى القاهرة وهو في مثل سنك يا سي حسنين، فلستم من أهل القاهرة الذين يتوارثون المقابر جيلاً بعد جيل.

فقال حسنين بامتعاض:

- حقاً لسنا من أهل القاهرة وإن كانت أسبانيا بالنا في دمياط قد انقطعت.

وذكر في حزن أنه لا يعرف لنفسه أقارب غير خالته هذه، ويسبقه هذا القبر المغصور في العراء رمزاً لضيايعهم المخجل في هذه المدينة الكبيرة. وازداد ضيقاً بوجود هذا الرجل الذي احتل فراشه. فآثر الصمت حتى يقطع عليه سبيل الكلام. وساد الصمت حتى

زهوها، وودّ لو يراه - ذلك الفتش - المشتعين جميعاً. ثم حلت اللحظة المفعجة فخرج النعش من البيت وعلا الصوات من الشرفة والنواذل. انتظمت الجنازة بالمشتعين جميعاً يتقدمهم النعش. وعلقت أصين الشقيقين بالنعش في ذمول وإنكار، وتساقط جمعها طوال الطريق. وبلغوا المسجد وأدخلوا في تدبيع المشتعين وشكرهم. وأظهر البعض استعداداً لمرافقة النعش حتى مستقره الأخير، ولكن حسنين همس في أذن أخيه الأكبر قائلاً:

- لا تسمح لأحد بالذهاب معها كلفك الأمر.

كان حرصاً على ألا تقع عين على القبر حفلاً لكرامة الأسرة. ووفقوا إلى صرف المشتعين، وركبوا سيارة الموتى وليس في ركابهم إلا عم فرج سليمان وفريد أفندي محمد الذي أبى الرجوع إياه لم ينفع فيه الرجاء. وانطلقت السيارة بهم إلى باب النصر، ووقفت بهم ناحية قامت بها القبور في العراء ثم وري جثمان كامل أفندي في قبر غير بعيد من الطريق المتوي الذي يشق للدفان كأنه من قبور الصدقة. ووقف حسنين غارقاً في الحزن والبكاء، ولكنّه على حزنه كان يسترق النظرات إلى فريد أفندي محمد في خجل واستياء ولم علم التلاميذ بالولادة لجاءوا ممزّين، ولراحتي بعضهم حتى إلى هذا القبر. الحمد لله الذي لا يحمّد على مكروه سواء. لا مقبرة ولا يجوزون. لماذا لم يبن والدنا مقبرة تليق بأسرتنا؟

- - -

انصف الليل أو كاد، وخلت الشقة إلّا من أهلها. وأوت الأسرة إلى الصلاة ومعهم الحالة وزوجها. وراحت الأم تعيد قصة الوفاة للمرة العشرين في ذلك اليوم الحزين، وأنصت إليها حسين وحسين باهتمام، على حين وجع حسن متفكراً.

وتحدث حسين عن أحمد بك يسري متحاشياً مسألة جهله للبيت لوجود خالته وزوجها من ناحية، ولأنه لم يكن يحب أن يذكرها من ناحية أخرى. وكان شعور العطف نحو والده يملأ عليه نفسه فجعل يرون إلى باب حجرته للخلقة بطرف حزين، ويتخيل فراشه الخالي

وجدت في عطفه جنين وسبعين قرشاً هي كل ما تملك من نقود حتى تنظم الأمور؟ وزنا بصرها إلى حجرة الأبناء في سهوم. اثنان في المدرسة، معقاران من المصاريف حقاً، ولكن هيهات أن يفي هذا عنها شيئاً. أما الثالث ففي حكم الصعاليك! وتهدت من الأعناق. ثم حوَّلت عينها إلى نفيسة فتقطع قلبها ألياً. فتاة في الثالثة والعشرين من عمرها بلا مال ولا جمال ولا أب. وهذه هي الأسرة التي باتت مسئولة عنها بلا معين. بيد أنها لم تكن من النساء اللاتي يفضضن همومهن بالدموع. وإن حياتها الماضية وإن أمست حلاً سعيًا موكياً إلا أنها لم تكن بسيرة خصوصاً في مطلعها حين كان المرحوم موثقاً صغيراً ذا جنيناه معدودات، وقد علمتها الصبر والجلد والكفاح. كانت دائماً قوية، وكانت محور البيت الأول، بل كانت على الأرجح تقوم بدور الأب، على حين كان المرحوم أدنى إلى حنان الأمهات وضعفهن. والأبناء أنفسهم مثال حي على التباين بين الأب والأم، فكان حسن شاهداً تعيش على رخاوة الأب وتذليله، وكان حسين وحسين شاهدين على حزم الأم وحسن تربيتها. أجل كانت أرملة قوية، ولكنّها لم تملك في تلك اللحظة من الليل إلا اجترار الحزن والقلق..

- ٦ -

في مساء اليوم التالي لم يبق في الدار أحد غير أهلها. وقد كُوم أثاث حجرة الراحلي في ركن منها وأغلق بابها. واجتمع الأبناء حول أمهم وهم يشعرون بأنه أن لهم أن يسمعوها. وكانت الأم تعلم بأنه ينبغي لها أن تتكلم. ولم يخلط عليها الأمر فيها يجب قوله، فقد كانت فگرت فاطمات التكبير، ولعلّه لم يكن يحيرها شيء مثل هذا التناقض بين ظاهرها الدال على الحزم والقوة، وباطنها الذي يندى رحمة وعطفاً على أسرتها البائسة. وخففت عينها متحابية النظرات المصونة نحوها وقالت:

- مصيبتنا فادحة، ليس لنا إلا الله، والله لا ينسى عباده.

لم يكن بوسعها أن تتساءل وما عني أن نفعل؟،

رُتق النوم بأجفانهم. وفي الصلاة لم تبارح الأم واختها وابنتها مجلسهن، ولم يتمتعن من الحديث عن الفقيده العزيز. وكان الشعور بالفاجعة هنا أعمق من الحجرة الأخرى. وقد ارتسست أماراته على وجه الأم النحيل البضاوي وعينها الملهتين. وكانت بأنفها القصير الغليظ وذقنها المدبب وجسمها النحيل القصير توحى بأنّها وهبت الأسرة خير ما فيها، فلم يبق من حيوتها إلا نظرة قوية تنم عن الصبر والعزم.

وكان التغير الطارئ عليها من العمق بحيث يتعدّر تصور ما كانت عليه أيام شبابها، إلا أن ابنتها نفيسة كانت تعيد حياتها وصورتها بدقة كبيرة. كان لها هذا الوجه البضاوي النحيل والأنف القصير الغليظ والذقن المدبب، إلى شعوب في البشرة، وأحديداب قليل في أهل الظهر، فلم تكن تختلف عن أمّها إلا في طولها المائل لطول شقيقها حسين. كانت بعيدة عن الوسامة وأدنى إلى النعامة، وكان من سوء الحظ أن خلقت على مثال أمّها، على حين ورث الإخوة خلقة أبيهم. وكان الحزن قد أتى عليها فبلدت في صورة بشعة واستغرقت فكرها ذكريات والدها الحبيب. أما الأم فعل حزنها الشديد دارت برأسها خواطر أخرى.

كان يداخلها نحو أختها شعور بعدم الارتياح. ولم تستطع أن تنسى أنّها كانت تنقص عليها حياتها، وأنّها كان يملو لها كثيراً أن تقارن بين حقيقتها فتقول: إن أختها تزوجت من موثق أما زوجها هي فعامل في صلح قطن، وإن أختها تقيم في القاهرة وهي مقضي عليها بالحياة في الريف، وإن أبناء أختها تلاميذ وأبناءها هي لا حظ لهم إلا حظ العتال، وإن كرار أختها لا ينضب معينه أما بيتها فلا يعرف السعة إلا في المواسم. لعلّها لا تجد الآن ما تحسدها عليه. وامتلأت نفسها امتعاضاً إلى ما بها من حزن. إنّها تدرك من هول الكارثة ما لا يدرك أحد. انتهى زوجها، وإنّها لتلتفت بمنة ويسرة فلا تجد أحداً تعرفه إلا هذه الأخت التي لا يُعقد بها رجاء. لا قريب ولا نسيب. ولم يخلف الراحل شيئاً. وهيهات أن تأمل في معاش مناسب وقد كان مرتبه كله يُستغنى في ضرورات الأسرة. وقد

معتزاً، وبلا وعي تقريباً:

- كل المصروف؟! ولا مليم؟!!

فحدجته أمه بنظرة طويلة ثم قالت بحزم:

- ولا مليم..

أحزنها اعتراضه، ولكنها رُحبت به لأنه أتاح لها أن تؤكد قولها بما لا يدع سبيلاً إلى الشك فيه، ولكي يسمعه شخص آخر تخشى متاعبه أكثر من شقيقه. وفتح حسنين شففيه، ومهمهم دون أن يبين، ثم قال بصوت منخفض:

- سنكون التلاميذ الوحيدين اللذين نخلو جيوبهما من مصروف..

فقالته أمه بحدّة:

- إنك واهم، المصائب كثيرة، والتلاميذ المصابون لا حصر لهم.. ولو أنك فُتشت جيوب التلاميذ جميعاً لوجدت أكثرها فارغاً. وبهيكما الوحيدين الفقيرين فما في هذا من عيب، ولست للمشولة عيًّا وقع..

ولاذ حسنين بالصمت متذكراً أنه يخاطب أمه. كان دائماً يجد عند أبيه من التسامح ما لا يجده عندها، وكان الرجل يحبه كثيراً فلم ينزل من نفسه هذه المنزلة إلا ابنته نفيسة. أمّا الأم فلم تكن تتخل عن حزمها قط. ولما فرغت من الرّة علل اعتراضه استطردت قائلة:

- كذلك أحدركما من ترك نصيبكما من الغداء المدرسيّ كما تعملان عادة.

وكان الشقيقان يفتمان من غداتهما المدرسيّ بلقها معدودات كي يتناولوا وجبتهما الرئيسية في البيت. وكان التلاميذ الذين يأكولون في المدرسة حتى الشبع موضع غمز عادة. فتساءل حسنين برقة:

- لماذا لا نأكل في بيتنا كما ننت؟

فقالته الأم بامتعاض:

- من يدري فلعلّه لن يتاح للمبيت الطعام الذي تحب!

وارتسمت عسل شفقي حسن - الذي أصغى إلى الحديث كله في صمت عميق - شبه ابتسامة، أخفاها بتغطية مصطنعة، ولكنها لم تخف على الأم، فصمتت

وهيات أن تنتظر جواباً من أحد من المحيطين بها، حتى كبرهم حسن. وليس في الدنيا أحد تستطيع أن تلقى إليه نبذه الاستماعة فتشركه في بعض مهمها.

شعرت بالحالة يكتنفها، ولكنها أبت أن تستسلم للئاس، واستدارت تقول:

- ليس لنا من قريب نعتد عليه. وقد رحل العزيز الغالي دون أن يترك شيئاً إلا معاشه، ولا شك أنه دون المرتب الذي كان لا يكاد يكفي. فالحياة تبدو كالحالة الوجه، ولكن الله لا ينسى عباده. وكم من أسرة مثلنا صبرت حتى أخذ الله بيدها فشتت طريقها إلى برّ الأمان..

واختن صوت نفيسة بالكاء وهي تقول:

- لا لأحد يموت جوعاً في هذه الدنيا، وسيأخذ الله بيدنا، أمّا المصيبة التي تحمل عن المراء فهي موته هو. أسفي عليك يا بابا.

ولم تحدث هذه الدموع أثراً عميقاً لأن كلام الأم أنذر بأمر خطيرة استأثرت بجعل اهتمامهم، فثبت أعيانهم على أمهم التي عادت تقول:

- لا يجوز إذن أن نياس من رحمة الله، ولكن ينبغي أن نعرف راسنا من قدمنا وألا هلكناء، وأن نوطن نفوسنا على تحمل ما قدّر لنا من حطّ بصبر وكرامة، وربّنا معنا.

واحسنت بأن الكلام العام قد نفذ، وأنه ينبغي أن تخاطب الأبناء، كل بما يعنيه، ورأت عن حكمة أن تبدأ من هو أقل خطورة، فتهد به لمن هو أشد خطورة، فنظرت صوب حسين وحسين، وقالت بصوت هادئ أن تكشف عيّا لحق قلبها من تأثر:

- لن يكون في الإمكان إعطائكم أيّ مصروف يوميّ، ومن حسن الحظّ أن المصروف ينفق عادة في وجوه نافهة..

وجوه نافهة! اشتراك نادي الكرة، السنيما، الروايات. أهدته وجوه نافهة؟! وقد تلقى حسين الحكم في وجوم، وتاه عقله متخيلاً الحياة بلا مصروف، ولكن دون أن ينس بكلمة. أمّا حسنين فقد انقض الحكم عليه كالصاعقة، وسرعان ما قال

مؤدبة، وشعور ممتلئ عطفًا وتقديرًا للمسئولية، ثم قال:

- إني أدرك كل شيء..

فقال المرأة في ضيق متسائلة:

- ما عسى أن يجدي الإدراك وحده؟

- لا بد من عمل شيء.

فقال في انفعال:

- هذا ما نسمعه كثيرًا.

- الآن تغير الحال.

- أليس ثمة أمل أن تتغير أنت؟

فقال حسن في نبرات قوية:

- مثلي لا يضع في الحياة، إلى أستطيع أن أشق

سبيل. والفرص كثيرة والأسلحة في يدي لا حصر لها.

أصبح لي يا أمه لن أطلبك بغير المأوى واللحمة..

هذا أسلوبه! يبدأ وكأنه يسلم بكل شيء، ثم

ينتهي وكأنه يطلب بحقوق جديدة. المأوى واللحمة،

وماذا يبقى بعد ذلك؟ رافقه باستاءه وقالت:

- إن حالنا لا يحتمل هذا المذلل.

- الملهو؟

- أجل. نحن في حاجة إلى من يطعمنا فكيف نهيئ

لك اللحمة؟ لماذا تضطرنني إلى مصارحتك بهذا؟

فابتسم ابتسامة باهتة وقال:

- أعني إلى حين. حتى تفرج. لن يضيق البيت بي،

أم تريد أن تطردني؟ وسوف انتظرك رزقي ما

وجدت إليه سبيلًا. ولكن هي آياتنا انقضت دون أن

أجد عملاً فلا أحسبك ترضين أن أموت جوعاً. وعلى

آية حال سأفاسمك رغيفك حتى أجد عملاً

وتنهت في يأس. إنها حيال مشكلة حثا ولا تدري

ماذا تفعل. وأخوف ما تخاف أن يستسلم لحياة البطالة

والكسل والتسكع خاصة إذا فتر تأثره بموت أبيه ففالت

برجاء:

- أرجو أن تبحث بجد وإخلاص عن عمل..

فقال بلهجة تنم عن الصدق:

- أعفك بهذا، وأقسم لك بغير والدنا.

وأثار قسمه عاصفة حزن في الصدور لموقعه

على أن تواجهه بالحقيقة - إن كان حقاً في حاجة إلى ذلك - بعد هذا التمهد الطويل فتساءلت بلهجة

حزينة:

- وأنت يا حسن؟

هذا أكبر الأبناء، أول من أيقظ أمومتها، الحبيب

الأول، ولكنه دليل ملموس على أن الأمومة قد تتأثر

بأمور لا تمت للضرورة بسبب. لا يعني هذا بطبيعة

الحال أنها كرهته. إنها أبعد ما يكون عن هذا. ولكنها

أسقطته من حسابها فتوارى من مرمى آماله في حيرة

بالغة. انزوى في ركن مظلم، ولم يعد حبه يتحرك في

فؤاده إلا مصحوباً بالأسف والحزن وقاتم الذكريات.

وقد كان ولا يزال المشكلة المستعصية لهذه الأسرة.

كان في البدء ضحية لغفر أبيه وتذليله، فلم يبعث إلى

المدرسة إلا في سن متأخرة. وسرعان ما ظهر عجزه على

الحياة المدرسية، وتكرر هروبه من المدرسة، وتوالى

سقوطه عاماً بعد عام، حتى انقطع عنها ولم يجاوز السنة

الثالثة. واستحال ما بينه وبين أبيه إلى نفار وشجار ثم

إلى ما يشبه العداوة الحقة، فكان يطرده أحياناً من

البيت فيفضي آياتاً متسككاً ثم يعود إلى البيت وقد

اكتسب شرواً جديدة من غفلة الأشقياء والفوضى في

الإثم والإدمان وهو دون العشرين. ولما بلغ اليأس

من أبيه مداه الحقة بحانوت بقال فمكث به شهراً ثم

طرده صاحبه بعد معركة كاد يذهب الحانوت ضحية

لها. ثم عمل في شركة سيارات وكرد منها أثر عراك

أيضاً. ولم يعد يابه لا بغضب أبيه ولا بحزم أمه

ففرض نفسه على البيت فرشاً، يلقي مسخطهم

باستهانة أو بدعابة أو بشجار ولكنه لا يترشح ولا

يبحث جاداً عن عمل. وبدا وكأنه لا يعمل للمستقبل

حساباً، وظل سادراً مستهتراً حتى فاجأه موت الأب.

إنه يدرك خطورة الحال، فهو الوحيد الذي عرف

مرتب أبيه، وقدر على وجه التقريب معاشه. وفهم ما

تعني الأم بتساؤلها «وأنت يا حسن». «وأنت تقولين إن

الله لا ينسى عباده، وأنا عبد من عباده. فلننظر كيف

يذكرنا. لماذا أخذ والدنا؟ ولماذا يعلن عن حكمته على

حساب أمثالنا من الضحايا؟ ولكنه طالعهما بابتسامة

تألم كثيراً لمصير أخته ولكنه استسخر الاعتراض على اقتراح أوحى به الضرورة. وشعر في الله بأنه تعلم في هذين اليومين ما لم يتعلم في حياته كلها. أمّا نفيسة فسكنت مغلوقة على أمرها. ولم تكن تسمح الاقتراح لأول مرة فقد أقنعتها أنها بضرورته ووجاهته معاً. وكانت الحياطة هوايتها وملهاها، فلم يبق إلا أن توطن النفس لقبول الأجر. لهذا كله تضاعف حزنها على أبيها الذي لم تعد بعده شيئاً. ثم قطع حسن الصمت قائلاً بلهجة تنم عن الحسرة:

.. من المؤسف حقاً أنّ المرحوم أبى على نفيسة أن تواصل تعلمها في المدرسة. تصوّروا لو كانت أختنا مدرسة الآن!

وحلجوه بغرابة فأدرك أنه تورط فيها يشبه الدعابة وهو لا يدري. أقلم يكن الأولى به أن يعرف للتعلم قيمته فيواصل حياته للدراسة؟! وقطب مغضباً وقال:

.. التعليم ينفع أمثاله ممن لا حيلة لهم. .

- ٧ -

وفي صباح اليوم التالي مضت الأم إلى وزارة المعارف مصطحبة معها حسن أكبر الأبناء. ولما علم هناك أنها أرملة المرحوم كامل عليّ أفتندي أظهر كثير من زملائه استعدادهم لأن يكونوا في خدمتها. وطلبت المرأة صرف المستحق من مرتبه فدفّعها بعضهم على إجراءات إثبات الوراثة. وسألت عن معاشه فذهب معها أحد الزملاء إلى إدارة المستخدمين. وتبيّن أنّ المرحوم خدم الحكومة حوالي الثلاثين عاماً فبلغ مرتبه ١٧ جنيهاً واستحقّ معاشاً قدره خمسة جنيهات لورثته. لم تكن المرأة تتصوّر هذا، ولا كانت تعلم شيئاً عن نصيب الحكومة في معاش المتوفى، ولكن الذي أفرعها حقاً هو ما قيل عن الإجراءات الطويلة التي تسبق صرف المعاش، والتي تستغرق أشهراً طوالاً. هالما الأمر فلم تملك أن قالت:

.. وكيف يتيسر لنا الانتظار طوال فترة الانتظار؟

وقال حسن مسوَّعاً قلقاً أمه:

.. نحن لا نملك إلا هذا المعاش المنتظر؟

وتدّم حسن على قوله عقب إلقائه مباشرة لأنه بدا

الأمي.. . وهزّهم «قبر والدنا» هزّة عنيفة. فاجهشت نفيسة في البكاء، وغاص قلب حسين في صدره، على حين رمق حسين أخاه بنظرة حيرة وعتاب. ولبثت الأم صامتة ملياً تكابد جرحاً عميقاً، ولكنها لم تنس - حقاً في هذه اللحظة - أنها لم تفرغ بعد من قول ما تريد قوله، فردّدت عينيها اللتين انتفخ جفناهما واحمرت أشفاههما بين أبنائها ثم قالت:

.. أمّا نفيسة فتحسن الحياطة. وهي تحيط كثيراً لجاراتنا محبة وبجالة، ولست أرى بأساً في أن تتقاضى على تعيها مكافأة.

وهتف حسن بحماس:

.. عين الصواب.. .

ولكنّ حسين صاح بغضب وقد اصفر وجهه غضباً:

.. خياطة؟!؟

فأنجاه حسن معترضاً:

.. ما عيب إلا العيب، فلتكن.. .

فقال حسين بحدة:

.. لن تكون أختي خياطة، كلا، ولن أكون أختاً لخياطة.

وقطبت الأم في غضب وصاحت به:

.. أنت ثور، تأكل وتنام، ولا تلدي عن الدنيا شيئاً، وهيئات أن يفهم عقلك الخبيّ حقيقة حالنا! وفتح فاه ليعترض ولكنها صاحت به:

.. اخرس.. .

فنفخ دون أن ينبس بكلمة. وراّت الأم أنها فزعت من معارضة فتلفت إلى حسين، فالتفت عيناها برهة قصيرة، ثم خفض الفم عينيّه وقمّم على مضض:

.. إذا لم يكن من هذا بدّ فالأمر لله.. !

فقال الأم بتأثر:

.. ما عيب إلا العيب كما يقول حسن. لست أحب لأحد منكم المهانة ولكن للضرورة أحكام، ولا حيلة لي.. .

وساد صمت مؤلم. وكان حسين أشبه الأبناء بأخلاق أمه في صبرها وعقلها وإخلاصها للأسرة. وقد

أمامها بالحب والفرار، وطالما لست بنفسها أنعم هذه الصداقة في أقداس الحب والمناجاة تلهي إليهم في المواسم. وكان المرحوم يقضي أكثر سهراته في هذه الفيلا، وربما في هذا الموضع منها حيث تجلس الآن - وقد ألفت على ما حولها نظرة حزينة - يلعب بأوتار عوده، ويسمر هزيمًا طويلًا من الليل. فليس بعيدًا أن تغادر هذه الفيلا مجبرة الحاطر. وإنها لخرقة في أنكارها إذ فُتح الباب الداخلي للبهو وجاء البك بجسمه الطويل العريض، وشاربه الفتول بعناية بالغة، فقامت المرأة في أدب، وسلم عليها البك وهو يقول برقة:

- تفضلي يا ستّ بالجلوس. شرفتنا. رحمة الله على زوجك. كان صديقًا عزيزًا أحزنني فقده. وسوف يجزني طوال العمر..

فاستشرت المرأة خيرًا بهذا اللقاء، وشكرت له عطفه. وراح البك يحذّثها عن الفقد حتى اغرورقت حينها بالدموع، وزادها الموقف استفادة فلم تحاول منعه مدفوعة برغبة غريزية في استئثاره عطفه. ثم ساد الصمت حينًا فأدركت رغم حزنها واضطرابها أنّ شارب البك وسوالفه مصبوغه، وأنه يغازي في العناية بمظهره، إلى ما تطّبع به من روائح زكية عميقة الأثر. وليّا تكرم بسؤالها عن طلبتها قالت:

- جئت مستشفعة بسعادتك لاستعجال صرف معاش المرحوم. قالوا لي يا سعادة البك إنّ إجراءات صرفه تستند أشهرًا.

فتفكر الرجل مليًا، ثم قال:

- لن أدخر وسيلة في سبيل ذلك، وسأقابل وكيل المالية بنفسني.

فأتلج صدرها ارتياحًا، وشكرته، ثم تردت لحظات وقالت:

- الحال يا بك تستدعي السرعة، والله المطلع.

فقال الرجل باهتمام:

- طبعًا، طبعًا. إنّي فاهم كلّ شيء. هل أنت في حاجة إلى مساعدة؟!

يا له من سؤال! إنّا لا نملك إلاّ جنهين هما ما

غريبًا من شخص في مثل طوله ورجولته، ولكنّ المؤلف قال دون أن يلقي بالآ إلى هذا:

- أعدك يا سيّدتي بالآ نضيق دقيقة واحدة بلا عمل. أمّا إجراءات وزارة المالية فلا حيلة لنا فيها.. ما جدوى هذا الكلام الطيّب؟ ولكن آية فائنة تنتظرها من التلمز والشكوى؟ وغادرا الوزارة في شبه ظلام من القلق واليأس. وهتفت المرأة:

- كيف نلقى الحياة هذه الأشهر؟ وكيف نعيش بخمسة جنيهات بعد ذلك؟!

وخفض الشاب بصره في وجوم وضيق. ولاح لعيني المرأة المكدودتين بصيص من نور فقالت:

- سأزور أحمد بك يسري. إنّه مفتش عظيم نافذ الكلمة، وكان صديقًا عزيزًا لأبيك..

فقال حسن بأمل:

- رأي حسن. إنّ الكلمة منه تغبّر إجراءات الحكومة.

ف نظرت إليه باهتمام وقالت:

- لا تضيق وقتك معي. لعلك تدرك حالنا على حقيقتها فاذهب وابحث لك عن عمل مهمّا كلّفك الأمر..

وعادت إلى شبرا مفردتها، وليت في البيت حتى العصر ثم قصدت شارع طاهر أو حيّ الأعيان كما

يسمونه. وكان يقع شمال عطفه نصرالله بثلاث محطات، متفرّعًا من الطريق العام. تقوم على جانبيه

الفيلاّات الأنيقة والمباني الحديثة. واسترشدت ببعض السابلة حتى استدلّت على فيلاّ البك. وكانت بناء

جميلًا مكونًا من دورين تحيط به حديقة مؤنقة. وذكّرت للبوّاب صفحتها «حرم المرحوم كامل أفندي عليّ» فعاد

إليها مسرعًا وقادها إلى بهو استقبال فاخر موصل بفراندة كبيرة، ثم أخبرها أنّ البك قادم بعد ارتداء

ملابسه. وخيّل إليها أنّ فترة الانتظار قد طالّت، ولكنها لبثت بمكانها دون أن ترفع النقاب الأسود عن

وجهها. وقد شغلت بأفكارها المضطربة عن رؤية المنظر النفيس الذي يكتنفها. بيد أنّها كانت كبيرة

الرجاء في هذا الصديق العظيم. طالما ذكره المرحوم

الأسرة فلم يكن غريباً أن يبحث لمشكلاته عن حلول عند الآخرين. وضاق صدره بصمت أخيه فسأله:

- ما رأيك؟

فتساءل حسين متجاهلاً:

- فيم؟

- فيها قالت! اتحسب حقاً أن حالتنا بهذا السوء؟

فهز منكبيه قائلاً:

- ولماذا تكذبنا؟

فتألفت عينا الفتى ببريق أمل وقال:

- كي تكسر من حذتنا. كي نخاف وننتد. وليس هذا عجيباً فالشدة مرعبة في طبيعها، ولولا المرحوم

والدنا ما عرفنا المرح!

فقال حسين بحزن:

- ليتنا ما عرفناه قط!

- ماذا تقول؟

- أقول ليتنا ما عرفنا التذلل أدناً، إذن لكانت علينا الحياة الجديدة المضي علينا بها

فقال حسين وقد ساوره الخوف:

- إذن فانت تصدق ما قالت! أحقاً لم يترك والدنا شيئاً؟ ألا يسدّ المعاش نفقاتنا؟

فتنهد حين قائلاً:

- إني مؤمن بكلمة نطق بها. هذه هي الحقيقة.

فتساءل حسين في جزع:

- كيف نطبق هذه الحياة؟

فارتسمت على شفهي حسين ابتسامة حزينة. كان يشارك أخاه حزنه وقلقه لكنه رأى من الحكمة أن يقف منه موقف المعارضة فقال:

- كما يطبقها الكثيرون. أم حسبت الناس جميعاً يحظون باب كريم ورزق موفور؟! ومع ذلك فهم يعيشون ولا ينتحرون.

فامتلاً حسين غيظاً وهو يحدق في وجه أخيه وهتف به:

- لشدة ما يحبطني برؤدك..

فقال حسين مبتسماً:

تبقياً من المبلغ الذي وجدته بحفظه المرحوم، ولن نجد سواهما حتى يُصرف لهما ما يستحق من مرتبه حتى تاريخ الوفاة. ولكن كيف تفصح له عن هذه الحقيقة؟ لم تتمرّض لئلا هذا الموقف من قبل، وإنه لموقف يستوجب أن تألفه، وعقل الحياء لسانها فسكت قليلاً ثم قالت بصوت منخفض:

- أحمد الله على السر. بوسعي أن أنتظر قليلاً..

وارتاحت البك للجواب. لقد انزلت إلى السؤال متأثراً بالحياء والقلق. ولم يكن ارتياحه لبخل مرتب في طبعه، ولا لأنه يكره أن يد يد المساعدة إلى أرملة صديقه، ولكن لأنه كان على ثرائه لا يكاد يقي على شيء لكثرة نفقاته على نفسه وأفراد أسرته. كان يضايقه أن يأخذ بيد هذه الأسرة حتى تبلغ بر السلامة. ولكنه كان على استعداد للبلل لو سأله المرأة إياه. وقد غاب عن المرأة أن زوجها لم يكن صديقاً للبك بالمعنى الذي يفهمه البك من الصداقة. ولعله كان صديقاً من أصدقاء الدرجة الثالثة. كان يحبّه ويقرّبه ويودّ سمره وفنه دون أن يعدّه ندّاً له، أو صديقاً كسائر البكوات والباشوات. ولكنّ نيته صدقت على السعي لخدمة هذه المرأة حتى يُصرف لها المعاش، إكراماً للذكرى الراحل، وتقديراً من التورّط في مساعدتها، وبهتت المرأة مستأذنة في الانصراف فودّعه بالاحترام. ولما خلصت إلى الطريق تنهدت في أمل، ولكتّبا قالت لنفسها في شبه ندم: ولو آتيت قدراً من الشجاعة لمتّ ضيّعت على نفسي موعة أنا في أمسّ حاجة إليها. ع.

- ٨ -

وخلا حسين وحسين لنفسيهما أوّل مرّة بعد الوفاة. كانت نفيسة في المطبخ والأمّ في وزارة المعارف سعيّاً وراء همومها الجديدة، وحسن لا يعلم مكانه إلا الله، وكان حسين متربّطاً على فرائشه، والآخر جالساً إلى مكتب الذاكرة بركن الحجرة يربح بين أصابعه قلماً في نرفزة ويقول:

- يبدو أن الحياة لم تعد تطاق..

وانتظر أن يتكلّم حسين، ولكنه تجاهل ملاحظته فرفع إليه بصره في حق. كان حسين آخر عقود هذه

- لو جارتك في عواطفك لركبك الياس وأجهشت باكياً.

فقال حسنين بسخط:

- إن من يستسلم للأقدار يشجعها على التهادي في طغيانها!

فابتسم الآخر ابتسامة ساخرة وقال في شبه دعاية:
- هذم نثر عليها. دعنا نعتف لتسقط الأقدار كما هتفنا ليسقط هور.

- ألم تفدنا ليسقط هور؟!

- هيهات أن تفيدنا الأخرى.

وقطب حسنين في كدر وتسامل:

- من لنا الآن؟

فابتسم حسنين ابتسامة عريضة فرطحت أنفه الذي بدا في تلك اللحظة شيئاً نائف أمه الغليظ. وقال باقتضاب:

- الله . . .

وزاد الجواب من حقنه! إنه لا يشك في هذا ولكنه لا يقنع به. الله للجميع حقاً ولكن كم في الدنيا من جائع ومصاب! لم يتنكر يوماً لعقيدته ولكنه يتلهف في خوفه على سبيل محسوس للطمانية. وتوهم أن أخاه يخرج به ليتخلص منه فتشبت بعناده وقال:

- لقد شاء أن يأخذ والدنا ويرتنا بلا معين!

فقال حسنين وكأته يحمن في إثارته:

- هو المعين . . .

فانفجر حسنين قائلاً:

- إن هدوء الكاذب لا يجوز عليّ. . . أنت مطمئن حقاً؟

فأصغى حسنين إليه في امتعاض وألم، ثم قال ولعلّه كان يداري عواطفه:

- المؤمن لا تخونه طمأنيته . . .

- إني مؤمن وقلق ممّا!

فقال حسنين في غير إيمان بما يقول:

- هذا من ضعف الإيمان.

فقال حسنين بحق:

- أوه، ليكن. . . إني أعرف تلاميذ يماهرون

بالشك!

- أعلم هذا.

- هم أذكيا ومكلمون.

- أحب أن تفعل مثلهم؟

فقال في خوف:

- كلاً. لست من هواة الاطلاع. أنت نفسك تقرأ كثيراً؟

فقال حسنين مبتسماً:

- هذا حق ولكني لم أُنزع الله من قلبي. والحق أننا نغالي في تحميل الله مسئولية مصائبنا الكثيرة. ألا ترى أن الله إذا كان مسئولاً عن موت والدنا فليس مسئولاً بحال عن قلة المعاش الذي تركه . . .

وشعر حسنين أن تطوّر الحديث نأى به عن مخاوفه الحقيقية فقال بضيق:

- دعنا من هذا وخترني كيف نعيش بلا مصروف؟ أي بلا سنيّا ولا كرة. والأدعى من هذا كله أني كنت شارباً في تعلّم الملاكمة!

فقطب حسنين قائلاً:

- نحام ما يؤلم أُنساء، إذا لم يكن في وسعنا أن نساعدوا فلا أقل من أن نريحها من منقصات لا داعي لها. واذكر أنّها وحيدة فلا أحماء لنا ولا أخوال!

- لا أحماء ولا أخوال! كان هذا يهون لو لم تصبح أختنا خيطة! ربّاه ما عسى أن يقول الناس عنّا!

وضاق صدر حسنين، وغلبه الحزن، وقمت لفظة و«خيطة» من نفسه موقظاً مؤلماً، فقال بغضب:

- نستطيع أن نعيش دون مبالاة بما يقول الناس.

وأراد أن يقطع الحديث فنهض قائلاً وغادر الحجرة.

- ٩ -

شعرا بحرج وهما يدخلان فناء المدرسة لأوّل مرّة بعد الوفاة. لن يستطيعا مواصلة الحياة الأولى وسيتميّز كلّ شيء، هيهات أن تخفى خافية على أعين التلاميذ. وكانا يمانيان من هذا شعوراً مؤلماً وإن تباينت درجة ألماً. ولم يكن قد علم بالوفاة إلاّ قليل فسرعا ما ذاع الخبر بين الأصدقاء وأقبلوا عليها معزين. وقال أحدهم غدراً:

- يحمل بذويكما أن يحسنا اختيار الوصي عليكما، فلنّي لم أدرك حقيقة الفاجعة يموت أبي حتى ابتليت بوصاية عمّي!
- الوصي! وتظاهر حسين بالإصغاء إلى نفر يتحدثون عن المظاهرات الأخيرة والمساعي المبذولة لضمّ الصفوف، ولكنه سمع حسين يجيب صاحبه قائلاً:
- نحن مطمئنون إلى الوصي كلّ الاطمئنان..
- فقال محدثه:
- إني أغبطك على حطّك، بيد أنّ الأمر يتوقّف على نوع التركة، فإذا كانت أراضى زراعية تيسّرت سبل الخداع، وإذا كانت عقاراً ضاقت السبل على الوصي بعض الشيء، أو هذا ما نقول أمي..
- فقال حسين يهدو:
- من حسن الحظّ أنّ تركتنا عقاراً!
- وأصغى إليه حسين في غيظ. لم يحفه الكذب فحسب ولكنه اشتق من عواقبه. وكيف نواجه الحال الجديدة إذا ظلّ بنا الإخوان اليسار؟ ماذا نفعل وماذا نقول؟.. إنه يكذب بلا مبالاة. سحقاً له! وصوبّ عينيه نحو أخيه علّماً فتعاشاه الفتى في تلبّس. ثمّ تسامل تلميذ كيف مات والدهما فأجاب حسين في تأثّر قائلاً:
- قيل لنا إنّه مات فجأة. ومن عجب أنّه لمّا رأي خارجاً إلى المدرسة صباح اليوم الذي توفّي فيه، وقبل أن يتوقّى بساعة واحدة، وضع يده على منكبي وزنا إليّ في حنان وقال لي بلا داعٍ ظاهر ومع السلامة.. مع السلامة!..
- لمن كان يدريني أنّه يودّعني؟!
- لم يكن شيء من هذا قد حصل، ولا يدري كيف قاله، والأعجب من هذا كله أنّه قاله بتأثّر صادق كما لو كان وقع حقاً. وقد نطق به ارتجافاً مدفوعاً برغبة غامضة في تبجيل والده. وعجب حسين لوصفه ثمّ دهش لتأثّره فكاد يغلّبه الانسجام، ونسى وجهه جانباً فرأى هن بعد قريب رئيس فرقة كرة القدم فأراد أن ينقّس عن ضيقه بمواجهة الحقائق فمضى إليه وحيّاه ثمّ قال:
- أرجو أن تعفني وأخي من الإشتراك في نادي شبرا..
- ولاحت الدهشة في وجه الرئيس، وأزعجه الطلب خاصة فيما يتعلق بحسين - جناح الفريق الأمين - فقال معترضاً:
- لعلّ أمراً ضابكاً!
- فقال حسين بتأثّر:
- توفّي والدنا!
- فوجم الرئيس ملياً، ثمّ عزّاه برقّة، وصمت لحظات ثمّ قال:
- ألا ترى أنّ هذا لا يدعو إلى حرمان النادي من عضوين بارعين مثلكما؟
- فقال حسين بلهجة خاطفة:
- إنّ الحداد يقضي بهذا!
- فقال الفتى بانساً:
- إنّ ظروفنا تقضي بهذا. إليّ أسف!
- ثمّ حيّاه مرة أخرى وغادره متحاملاً النظر إلى عينيه، وانضمّ إلى أصدقائه. ووجدهم يتحدثون في السياسة، وكان أحدهم يقول:
- رحمة الله على شهداء الآداب والزراعة ودار العلوم!
- فقال آخر:
- لا بدّ من التضحية فالدم هو اللغة الوحيدة التي يفهمها الإنجليز..
- فقال ثالث:
- لمّ يفسح الدم الطاهر عبثاً، ألم تسمعوا هن الدعوة إلى الاتحاد؟
- وهذه التمسّح تلّمح إلى المفاوضة..
- ودقّ الجرس فالتجّهوا إلى الفصول وهم يتناقشون..
- ١٠ -
- قطعا فناء البيت في صمت حاملين كتبها، ثمّ قال حسين وهما يرتقيان السلم:
- حبّاً قليل يبدأ فريق نادي شبرا في التمرين استعداداً للمباراة القادمة!
- فلاذ حسين بالصمت. وجعل يتخيّل الملعب

من حالنا، فأظهرت روحًا طيبة ووافقت بلا تردد.
 فقال حسين في استياء:
 - لو كانت ذات روح طيب حقًا لنزلت لنا عن فرق الإيجار مع إيفانتا في شقتنا!
 فقالت الأم في حدة:
 - للناس أعمال أخرى غير العناية برفاهيتك!
 - وكيف ننام ليلتنا؟
 فقالت نفيسة بصوت كسير دُلّ على أنها لم تفق بعد من صدمة الوفاة:
 - ستنام في الشقة الجديدة.
 وخرج في تلك اللحظة حسن من حجرة المرحوم حاملًا بين يديه المشجب وهي آخر ما بقي من الأثاث في الحجرات وقال بسرعة:
 - كفاسم تقارًا وعلسوا نرفع الأثاث إلى الدور التحتاني فليس بيننا وبين الليل إلا ساعتان. . . وأراد أن يضرب لهم مثالًا عمليًا فرفع كبة من جانب وخاطب حسين قائلاً:
 - ارفع. . .
 وفتحت نفيسة الباب على مصراعيه وسار الشقيقان بحملهما الثقيل، وجعل حسين يسأله وهو يهبط في السلم بحذر: ترى هل يراها أحد من أسرة فريد أفندي عمّد جوارهم الكريم بالدور الثالث؟ وليس الفراق شرًا ما في الموت. إنَّ الفراق حزن المطمئن. متاعبنا تتلاحق بحيث لا ندع لنا وقتًا للتفكير في الحزن. لشدّ ما تتغير وتتدهور، ولكن ينبغي أن نصبر أو في الأقل أن نتظاهر بالصبر. أكبر جريمة في نظري أن نضاعف بجزعنا شقاء أمتنا. سأخاطب حسين بحزم أكثر، ثم تبعتها الأم والأخت يميلان ما يقدران على حمله من قطع الأثاث. ولم يستطع حسين أن يقف متفرجًا فانضمَّ للماملين. وما زالت الأسرة في نزول وصعود والأثاث يتحوّل من فوق لتحت. وكانت صاحبة البيت قد أخلعت الشقة وجمع أثاثها في الفناء إلى جانب الحمالين اللذين وقفوا ينتظرون دورهم في العمل. وكانت الأسرة جيئًا - انصامت منهم والساخط - سواء في الحزن والألم. ولم يكن وجه الأم

واللاعبين، فكأنه يسمع الرئيس وهو ينهض الآخرين بانفصالحها «لظروف الأسرة الجديدة» لا لعب ولا مسرة ولا رحمة من شكوى حسين المتواصلة. وطرقا الباب ثم دخل. وتسمرت أقدامها وراء الباب لمنظر غريب لم يتوقعها. رآيا أثاث البيت مكوّمًا في الصالة في اضطراب شامل وقد رُصّت المقاعد فوق الكنبات ولقّت الأبسطه وتُحُت الدواليب، ولاحت الأم ونفيسة مشتمرين يعلوها التراب وتتصببان عرقًا على لطفافة الجوّ. وهتف حسين:
 - ماذا حصل؟
 فقالت الأم:
 - سترتك الشقة.
 - إلى أين؟
 - إلى الدور التحتاني. سبتبادل السكن مع صاحبة البيت.
 شقة أرضية بمستوى الفناء الترتب، لا شقة لها، ونوافذها مغلقة على عطفة جانبية تكاد تبدو منها رؤوس المازة، وطبعا محرومة من الشمس والهواء، وتساءل حسين في امتعاض ولو أنه كان يعرف الجواب مقتما:
 - لماذا؟
 فقالت الأم بصوت واضح:
 - لأن إيجارها ١٥٠ قرشًا!
 فقال الشاب متذمّرًا:
 - فرّق الإيجار أقل من ٥٠ قرشًا لا يتناسب مع الفرق بين الشقتين!
 فسألته الأم ساخطة:
 - هل تتعهد بدفع الفرق التافه؟
 - لماذا رضينا إذن بأن تشتغل نفيسة خياطة؟
 فالتهمته الأم بنظرة من نار وصاحت به:
 - كي نأكل، كيلا تموتوا جوعًا!
 وحافظ حسين على طلاقة وجهه أن يقتضح امتعاضه وسأل أمه بلهجة لا أثر فيها للاعتراض:
 - متى تمّ هذا يا أمّاه؟
 فقالت المرأة وهي تمسح جبينها بكمّ ثوبها الأسود:
 - عرضت الأمر على صاحبة البيت غير مخفية شيئًا

فما تسهل قراءته، أمّا نفيسة فابتلّت عيناها بالدموع. واشتغل حسن بهمة كأنه يملأ يجهده أمّه فلا تلحف في تأنيبه على تعطله. وكان أقلّ الإخوة تأثراً للتغير الذي قلب الأسرة كما ينبغي لرجل ذاق التشريد وألف التسكّع. وممس حسنين في أذن حسين وهو يلهث من الجهد:

- ألا ترى أنّ خسارتنا بموت أبينا لا تعوّض أبداً؟
وانسابت من عينيه دمعتان.

- ١١ -

صادر حسن البيت مبكراً، عقب خروج شقيقه للمدرسة. لم يكن ثمة داعٍ ضروريّ لهذا الخروج المبكر، ولكنه أراد أن يتقاضي من الاصطدام بوالدته أن يصحبها بنقار هي في غنى عنه بما تكابد من تغير الزمن وتجهّم الحظ. انطلق من عطفة نصرالله بلا غاية ولا أمل. «ابحث عن عمل! لا تفتأ تردّد على مسممي هذه الجملة. أين يوجد هذا العمل؟ صبيّ يقال؟! هذا معناه الإسعاف ثمّ البوليس.» ولكنه لم يكن يائساً للحظ الذي توجه به حاله. كان كبير الثقة بنفسه، وكان في طبعه تفاؤل لا يدري من أين يأتيه. ولكنه لم يستطع أن يتجاهل دقّة موقفه وراح يخطب نفسه قائلاً: «يا أبا عليّ، مات الوالد رحمه الله ففقدت الركن الذي كنت تأوي إليه. حقاً كنت تلتصق برزقك بالشجار والنفار، وتتحمّل في سبيله السبّ واللعن، ولكنه كان على أيّ حال رزقاً مضموناً. هذه البدلة التي تجعل منك أفندياً لا يأس به من نقوده رحمة الله عليه. أجل أي أن يتعاضد لك بادئ الأمر ولكنتك مدّته بأن تمشي في الطرق باللباس والفانلة وأن تفتحهم عليه مجلسه بقصر أحد بك يسري شبه عاري، فاذن على مضض وكلف الحياظ بأن يفضلها لك. الآن لو مشيت عارياً بلا لباس ولا فانلة فلن تجد من يسأل عن صحتك إلا الشرطيّ!». كانت البدلة حسنة وإن لم تخل من بقع باهتة عند ثنية الركبة. وكان يربط رقبته ببايتون فيدا القميص في حال لا يحسد عليها. وكان شعره أصعب ما فيه: فقد تركه حتى غزر واسترمل، وتصادع في جموده جعلت منه رأساً مستقلاً فوق

الرأس الأصليّ. أمّا وجهه فكان حسن كشيقيقه إلى جسم طويل مقنول العضلات عريض العظام. سار متفكراً فيما خاطب به نفسه، ثمّ واثته ثقته بنفسه فجاء فقال: «يا سيدي لا تسمع لهم بأن يركبك فما يجوز أن يركب إلا البهائم من عباد الله. سوف تعيش طويلاً وتلقى الحيلة بخيرها وشرّها. لم أسمع عن إنسان مات جوعاً. الأغذية تسدّ الطرق سدّاً. ولست طمأناً فيما تريد إلا اللقمة والسترة وكم كأمّاً من الكونيك، وكم نفساً من الحشيش، وكم امرأة من النساء، وكلّ أولئك متوقّرة بكثرة، أكثر من همّ على القلب. توكلّ على الله ولا تحمل همّاً. ولم يكن خلو الجيب فقد أشرف على جنازة أبيه، وخرج منها بأربعين قرشاً لم يعلم بها أحد وقد تساءل ألم يكن الأخلق به أن يعطيها لوالدته؟ وكلّ لو نزلت عنها ما أفادت أمّي منها نفعاً مذكوراً، ولكن ضياعها يضري ضرراً لا شك فيه. لا أدري متى يتاح لي الحصول على مثلهاء وأغلنت قهوة الجبال تلوح لمنيّين الحاقطين فحثّ خطاه حتى انتهى إليها. هي قهوة صغيرة لم تؤت من ميزة إلا وجودها على الطريق العام. ولم يوجد بها في هذه الساعة المبحرة إلا زبونان جلسا إلى مائدة على الطوار يتشمان ويتحسان بالقهوة، على حين قيع في ركن بالداخل شأن ثلاثة يدلّ مظهرهم ونظرات أعينهم الحائرة على الفراغ واليأس، فلم يكن عجيباً أن يقصدهم الشاب وينضمّ إلى مجلسهم. وما لبث أن طلب أحدهم الورق فهتئوا للعب الكومي. وكان كلّ منهم بمخيّ نفسه بأن يربح رزق يومه - خمسة قروش فوق الكفاية - من رلفاته. بيد أنّ حسن كثيراً ما يكون الصائد لمهارته من ناحية ولحفة يده وعينه من ناحية أخرى. لهذا قال أحدهم قبل البدء في اللعب:

- لا نريد غشاً.

فقال حسن:

- طبعاً.

فقال الشاب:

- فلنقرأ الفاتحة..

وقرأوا الفاتحة جيّماً بصوت مسموع، ولعلّ حسن

- نحن رجالك، وفي الخدمة دائماً ..
فهو الأستاذ رأسه في رضى لأنه لم يكن يشعر بالمرّة
إلا إذا خاطبه أحد أفراد تحتته المتسجّمين، خصوصاً
حسن، ذلك الشرس الجبار، الذي يقلب بين يديه
وديماً متلفاً، ثم قال:

- طبّما. إنك تردّد تردّداً حسناً، وصوتك لا بأس
به.

فانطلقت أسارير حسن في بشر وقال:

- ولقد حفظت كثيراً من الطفاطين...

- مثل ماذا؟!

- إلى حيّك، ظالماني، لئلا انكوت بالنار.

فهو الأستاذ منكيه استهانة وقال:

- إن محكّ الفنّ الدور والليالي. ماذا يُسمع الآن في
الراديو؟ لا شيء. هذا زعيم فارغ وليس بفناء. ولو
كانت المحطة تراعي وجه الفنّ وحده لكنت المذيع
الأول بعد أم كلثوم وعبد الوهاب. وعبد الوهاب
نفسه، يخاف كثيراً أن تحفونه حنجرته فتراه يتحامي
النفس الطويل، ويشطره أجزاء قصيرة متوارية وراء ما
يسميه بالتجديد، ثم يغطي ضعفه بضجيج الآلات.
إليك كيف غنى «يا ليل» في الحلقة الأخيرة...

وتنحّج ثم راح يغني يا ليل مقلّداً عبد الوهاب.
وجاء النادل بالنارجيلة والقهوة وهو يغني فنناول
الخرطوم دون أن يمسه عن الغناء حتى انتهى.
وحينذاك هتف رفاق حسن والله... الله... فآخذ نفّسا
من النارجيلة دون أن يلتفت إليهم، ثم قال لحسن
همساً:

- هذا إعجاب بالصوت لا بالفنّ. اسمع هذه
الليالي في نفس واحد كما ينبغي أن تُفنى...

وأُنشد بصوت ملأ القهوة الصغيرة حتى رفع
صاحب القهوة رأسه عن صندوق الماركات وأسارير
وجهه تراوح بين الابتسام والاعتراض. وانتهى الأستاذ
على صبري، وعاد إلى النارجيلة وفي نيته أن يشكر في
هذه المرّة للرفاق استحسانهم إذا أبدوه، ولكن ساد
الصمت فلم يُسمع إلا قرقرة الماء في قنينة النارجيلة،
وقطب الأستاذ وقال في ثقة:

تعلّم حفظها حول هذه المائدة، ثم لعبوا مقدار ساعة
فريح أحدهم دوراً، وريح حسن دورين. كان صافي
ريشه أربعة قروش ونصف بعد خصم نصف قرش
ثمن فنجان القهوة، واقترح بعضهم أن يملّوا وقت
اللعب، ولكن دَخَلَ القهوة شاب ما إن رآه حسن حتى
نهض قائماً، وأقبل نحوه في احترام وسرور وهو يقول:
- صباح الخير يا أستاذ علي صبري.

فمدّ له القدام يده في حركة تشي بشعوره بقدر
ذاته، وقال:

- صباح الخير...

وجلسا إلى مائدة متقابلين. واجتاحت نفس حسن
موجة كرم عاتية فنادى النادل وطلب للأستاذ صبري
قهوة، ثم قال الأستاذ للنادل قبل أن يذهب:

- ونارجيلة...

وغاص قلب حسن في صدره أن يلزم بدلع ثمن
النارجيلة أيضاً فيضيق عليه ما ربح باللعب والحظ
واليد والعين. ولكنّه سرعان ما تناسى قلقه ليفرغ إلى
استطلاع وجه الأستاذ. وكان علي صبري في منتصف
عقله الثالث، متوسط القامة نحيل العمود، صغير
القصات، أما شعره فاشبه ما يكون بشعر حسن، إلى
سوالف تزحف حتى منتصف خده، وكان مظهره بوجه
عام يدلّ على سوء الحال ولكنّه يغطيه بنفخة كاذبة
وغرور غير محدود. قال حسن بأسف وهو يستطلع
وجهه:

- لم نسمع صوتك من زمان!

وكان أذاع مرّات من المحطّات الأهلية ويذاً وكانّ
الحظّ يتسم له، فلما ألغيت المحطّات الأهلية وأُنشئت
محطة الإذاعة الرسميّة حل بينه وبين إحياء الحفلات،
وضاعت مساعيهِ وراء هذا الأمل هباء. وكان حسن
أحد أفراد تحتته المعطل، وطبيعي أن العمل لم يكن يدرّ
عليه أكثر من قروش في الحلقة، ولكنّه كان يحبّه ويؤثّر
على العمل الجذبي الذي لم يصادف فيه توفيقاً على
مشقّته وحقارته! وقال الأستاذ:

- سأبدأ نشاطاً جديداً عمّا قريب.

فخفق قلب حسن وقال برجاء:

اجمعت على بيع الفراش ولوازمه لما يشيره وجوده من
الاحزان، ولأنها باتت في ميسس الحاجة إلى نقود.
وكانت ترجو له نمسا أكثر من هذا لعله يسد بعض
عوزها الملح إلى النقود، ولكنها لم تجد بدا من الإذعان
فقالت للتاجر:

- غلبتنا ساعك الله ولكنني مضطرة للقبول..

ودفع الرجل إليها بالجنيهات الثلاثة وهو يشهد الله
أنه للغلوب، ثم أمر تابعين بحمل الفراش.
واجتمعت الأسرة في الصلاة تلقي نظرة الوداع على
فراش فقيدها المحبوب، وقُتل الراحل لهم فكأنهم
يروونه رؤية العين، وغلب الحزن نفيسة فأجهشت في
البكاء وأطبقت الأم شفيتها كاتمة الآلامها. كانت تحرم
على نفسها البكاء أمام أبنائها أن تعاودهم حدة الحزن.
لم يكن لهم من أحد يعتمد عليه سواها فوجب أن
تظهر بمظهر الرجولة. لو وجد هذا الشخص للاذات
بالدموع كسائر النساء ولكن لم يكن لها محمد عن
التصبر والتجمل. ولطبا عن هذا كله فلم تواتبها فرصة
للتفتيش عن حزمها بما جبهها من هموم العيش وأقاله،
ووجدت نفسها في الغالب مضطرة إلى تناسي أحزان
القلب لتناضل ما يتهدد أسرهما من الضراء. «يمر في
نفسه ألا أجد فراغا للحزن عليك يا سيدي وفقيدي.
ولكن ما الحيلة؟ حتى الحزن نفسه عجز على أمثالنا من
الفقراء». ولم يكن حسين يتصور أن يفرضوا في
مخلفات أبيه ولكنه لم يفكر في الاعتراض. والواقع أن
حال الأسرة لم تمد تخفى على أحد. ومضى التاجر
بالفراش وأغلق الباب فساد الوجوم حيثما، وأرادت
الأم أن تبذل سحابة الحزن التي أظلمت فقالت مخاطبة
حسين وحسني:

- هيا إلى حجرتكما للمذاكرة..

وقبل أن تبدأ حركة قالت نفيسة بانفعال:

- لن أسمع لمخلوق بأن يمسه ثياب أبي..

فقال حسن مؤمنا على قولها:

- وما من فائدة ترجى من بيعها..

وساد الصمت حيثما، ثم قال حسن مستدركا وكأنه
يوصل حديثه:

- هذه أصول الفن..

فقال حسن بحماس:

- لا شك في هذا..

فقال بلهجة الناصح:

- مرن صوتك، لا تكف عن التمرين. أكبر من

الليالي. ولا تن عن مص السكر النبات..

- يا سلام!

- مفيد جدًا.. ويا حيدا لو استيقظت حين الفجر

وأذنت للصلاة فهو خير مران للحنجرة، وهو ما كان

يفعله سلامة حجازي..

فضحك حسن وقال:

- ولكني أنام علة قبيل الفجر..

- إذن قبل النوم.

- في مسجد؟!

- المهم الأذان نفسه في هذه الساعة المبكرة. في

مسجد، في حانة، كيفما أتفق!

- وإذا كان الإنسان من غير مؤاخذه سكران أو

مسطولا؟!

- يكون أفضل. فما تستطيعه وأنت غائب عن

وعيك أضعاف ما تستطيعه وأنت صاح..

- ينبغي أن نقابل كثيرا حتى يفتح الله علينا..

ثم التفت صوب الرفلق الثلاثة وسألهم:

- ماذا كنتم تفعلون؟

- كنا نلعب الكومي..

فقال الأستاذ على صبري باهتمام:

- هلتم نجرّب حظنا..

ونفض الرفاق وأقبلوا نحوها بلا تردد، ثم تحلقوا

المائدة والطعم يلعب بقلوبهم جيما، بيد أن حسن كان

قلقا مشفقا من مغبة هذا اللعب. وما عسى أن أصنع

مع ابن القديمة هذا؟ إذا كسبت أغضبه وإذا خسرت

ضاع اليوم هدرا؟!

- ١٢ -

- لا أدفع مليا واحدا أكثر من الثلاثة الجنيهات.

قالها تاجر الأثاث وهو يلقي نظرة على فراش

المرحوم. ولم تعد تجدي مساومة الأم. وكانت قد

خبرها لم يخلُ من نكد، وبذا التفكير في تجاويد وجهها وهي تقول:

- هديةٌ مشكورة ولكن الواجب أن نهدى ما يائلها عقب العودة من القراءة، فما العمل؟!

وجد الإخوة غيبة، وأراد حسين أن يخفف عن أمه فقال:

- فلنُهدي الهدية إلى أصحابها شاكرين!

فقالت الأم في حيرة:

- بعد مثل هذا العمل معيًّا لا أثر للعودة فيه. . .

فقال حسن متحمسًا لقول أمه:

- بل يُعدّ سلوكًا عاديًّا. . .

وتناول فطيرة، وشتمها ثم قال باستهانة:

- لا تحملوا همًّا. إنَّما تَرَدُّ هذه الهدايا في أوقاتها،

فإذا مات فريد أفندي بعد عمر طويل أهدينا إلى أسرته سلة فطائر، ولن يعجزنا صنمه وقتل بإذن الله.

وراح يلتهم الفطيرة. وتبادل الشقيقان نظرة ثم مدًّا يديهما إلى السلة، حتى نفيسة سمعت ممطعهم فلم تعد تقاوم. . .

- ١٣ -

جلست نفيسة على الكتبة في الحجرة التي تنام فيها مع أمها مكتبة على ماكينة الخياطة، وقد نثرت على أرض الحجرة قصاصات من الأقمشة. كانت الأم في المطبخ، والشقيقان في المدرسة، أما حسن فحيث لا يدري أحد. وقد باتت الفتاة تضمر لشقيقها الأكبر مرَّ اللوم، فلو أنه وجد نفسه عملاً لما وجدت نفسها في الوضع التي هي فيه. لا يؤمن أحد بأنه جاد - كما يقول - في البحث عن عمل، ولكنه يغبى النهار ونصف الليل ثم يعود كما خرج صفر اليدين. ولم تعد الأيام تطالهم إلا بما يسوء، فالיום اضطرت الأم إلى الاستغناء عن الخادم الصغيرة لتوفر أجرها فأصبح عليها هي وإجبان يوتيان: أن تتابع حوائج البيت من الطريق لتسدَّ الفراغ الذي تركته الخادم وأن تعكف سحابة يومها بعد ذلك على ماكينة الخياطة. وقد مهّدت لها الأم سبيل العمل بنفسها منذ يومين فقالت لصاحبة البيت حين جاءت بقطعة من القماش

- وفضلاً عن هذا فلن ينقضي وقت طويل حتى تشتدَّ حاجتنا إلى الملابس!

فساءلت نفيسة في ارتباك:

- أيمكن أن تستعملوا ملابس أبي؟

ولم يجرؤ أحد على الاعتراض، ولكن الرقة مسّت قلب الأم فقالت:

- ما في ذلك من ذنب. وليس فيه ما يسيء إلى المرحوم، بل لعلَّه ممَّا يطيب ثراه. ولكني سأحفظ بها بنفسى حتى تمسَّ الحاجة إليها حقًّا.

وتشجّع حسن بقولها فقال في ارتباك:

- نطقن عن حكمة. وإنِّي أذكرك بأنِّي الوحيد الذي لا أكاد أختلف طولاً أو عرضاً عن المرحوم أبي.

وتناسى الشقيقان الحزن الذي ران على صدرهما فقال حسين محتجاً:

- إني وإن كنت أطول منك قليلاً إلا أنه يمكن مدّ ثنية البنتلون!

وقال حسين بلهجة ذات معنى:

- أو ثنيها مرّة أخرى. . .

فقالت الأم في ضيق:

- لا داعي للنزاع. توجد أكثر من بدلة في حال لا بأس بها وسأورّعها تيمناً للحاجة إليها. . .

ثم بلغ المسامح طرّق على الباب فقطع عليهم الحديث، وخفّت نفيسة إليه ففتحته، فدخلت خادم فريد أفندي حاملة سلة مغطاة بغطاء أبيض وضمتها على السفرة وهي تقول:

- سَتِي تسلّم عليك يا سَتِي وتقول إنَّ هذا فطير القرفة.

فحملتها الأم السلام والشكر وذهبت الخادم من حيث أتت. واقترب حسن من السلة وحسر عنها الغطاء، فبدت الفطائر بألوانها الوردية وطار عرقها الشهوي إلى الأنوف. ولم يكن تيمناً للأسرة طوال الأسبوعين المنصرمين طعام شهوي لما أدخلت به الأم نفسها من الخلد والتفتير. ولاحث الرغبة في عين الإخوة. ولكنَّ الأم كانت تتجهّم لها الخواطر، والحقيقة أنَّ تلك الأيام لم تكن تضمر لها خيراً، وحتى

لتفصيلها:

- هل عندك مائع من مكافأة نفيسة على عملها؟

فقال المرأة بلا تردّد:

- أبداً يا ست أم حسن. هذا حقّ وعدل. وهيئات

أن نوفي ما علينا من دين لست نفيسة.

ما زال سمعها يرجع هاتين الجملتين. وما تذكر أنّها وجدت نفسها في مثل هذا الموقف طوال عمرها. لقد تصاعد الدم إلى وجهها الشاحب فكاد ينضج به، وشمرت بأنّها تموي من حل، وأنّها أمست فتاة أخرى. ليس بين الكرامة والضمة إلا كلمة. كانت فتاة محترمة فانقلبت غيّاطة. وأعجب شيء أنّه لم يستجدّ جليد بالنسبة إلى العمل نفسه، فطالما خاطت ثياب صاحبة البيت، وإسراة فريد أفندي وابتها وغيرهم من الجيران. فللغيطة هوياتها، ولها فيها من البراعة ما يجعلها قبله الجيران والصدقات، لشدّ ما تغبّر شعورها. أحسّت بالفرز والموافاة والضمة، وتضاعف حزنها على أبيها، فبكته بكاء حاراً، وبكت نفسها فيه. مات الفقيد المحبوب فبات يموت أعزّ ما فيها.

كانت تحيط منقبضة الصدر، لا ضاحكة الثغر ولا مترنمة كعادتها فيها وإلى من أيام. وكانت تنتظر حضور صاحبة البيت بين أوتة وأخرى لتفصل لها بعض ثياب داخلية بعثت بها إليها هذا الصباح. أجل بعثت بها هذا الصباح فحسب، عقب حديث أنّها بيومين، ممّا جعلها تظنّ أنّها أرسلتها على سبيل الإحسان! وقد أفضت بأفكارها إلى أنّها فانتهرتها قائلة:

- لا تسلّطي هذه الأوامر على نفسك وإلاّ خاب

سمعاناً جيئاً.

ولم تكن تمحور على معارضة أنّها إلى ما باتت تكته لها من الرثاء في هذه الأيام الأخيرة. وما أغباني. هل حسبتها راضية عن حالي؟ إنّها تكابد حيرة قاتلة وهي أحقنا بالعطف. إنّ النعاسة تنفذ في لحنا كما تنفذ هذه الإبرة في قطعة القماش. ما كان أبي لسمع بشيء من هذا ولكن أين هو؟ إنّ حزني عليه يتضاعف يوماً بعد يوم لا للضرّ الذي مسّنا بعده فحسب ولكن لأنّ هذا الضرّ نزل من عينيهم ويجب لهم الخير. إلى أم

لله. لا بدّ أنّه مثلك لنا، لشدّ ما كان يحبني. كأنه يجلس ما يرصدني من شقاء. اضحك، ما أحبّ ضحكك إلى نفسي، هكذا كان يقول لي كلّما تعالت ضحكتي الرثاة. وكان يقول لي أيضاً الحقة أنفس من الجمال كأنه يعزّيني على دماغي. لله ما اللطف وما أعذبه، لم يكن مثله أحد في الرجال. مات. مات. لن أنسى ما حييت إيماءته إلى صدره وهو ملقى على الكتبة: أبي يستغيث ولا مغني. لتندك الجبال على الأرض. حياة بغضة مفاجئة لا خير فيها. أبي ميت وأنا غيّاطة. عيّاً قليل نجيء صاحبة البيت لا ضيفة كما كانت ولكن زينة. كيف ألهاها؟ بأيّ عين ننظر إلى؟ حسبي، حسبي، داخ رأسي. وسمعت أنّها تخاطب شخصاً في الصالة فكفّت يدها عن الماكينة وأرهفت السمع فقرع أذنها صوت تاجر الأثاث وهو أخذ في مساوماته التي لا تنتهي وأنّها تحاوره بصوت ملؤه الإشفاق واللوم. وليست أنّي بلها، وما كانت لتغلب في مثل هذا الموقف، ولكنّها الحاجة القاسية التي تركبها، متى يصرف لنا المعاش؟ لا أدري، ولا أحمّد يسري يدري. هيئات أن يكفيني المعاش. خمسة جنيهات؟! كلوثة. جاء الرجل ليحمل المرأة الكبيرة بحجرة الاستقبال وليّا يمض أسبوعان على بيع الفراش المزير. وسباني غداً ويعدّ حدّ حقّي يترك الشقة أرضاً عارية. لذا خلقتنا أسرى أذلاء للغذاء والكساء والسكن؟ هذا سرّ متاعبنا. وتحتّ إلى باب الحجرة ففتحت وراة التاجر ومعاونيه يحملون المرأة الطويلة إلى الخارج وقد فتّح باب حجرة الاستقبال على مصراعيه ووقفت أنّها على عتبتها. وكان الرجل الذي يحمل مؤخّرة المرأة قصيراً فحملت المرأة في وضع مائل وراة سطحها يعكس عليه ركن سقف الصالة متأرجحاً بحركة الرجلين كأنهما سرى بأوصال البيت زلزأل. وذكّرت وهي لا تدري نعل أبيها. واشتدّ انقباض صدرها وهي تلقي نظرة الروداع على المرأة التي عاشرتها منذ رأت النور. وعادت إلى مجلسها: وينبغي أن تكون المرأة آخر ما أحزن عليه. لن تعكس لي وجهها أسرّ به. الحقة أنفس من الجمال! هذا قولك يا

- ١٤ -

ومضت أسابيع. وكان الليل قد أرخى سدوله وشملت الشقة كآبة وما يشبه الصمت. وكان الشقيقان يجلسان إلى المكتب متقابلين، منهيكين في المذاكرة، على حين جلست الأم ونفيسة في الصالة في شبه ظلام قانتين من النور - على سبيل الاقتصاد - بما ينبعث من حجرة الأبناء. وتناجيا في صوت منخفض شأنها كل مساء، وكانت هموم العيش أكثر ما يستأثر بحديثها. لم تزل الحاجة ههنا الأكبر، وما انفك الخوف يقض مضجع الأم ويجعلها ترمق للمستقبل بقلق وحزن عميق. بيد أن العادة كانت تحدث أثرها اللطيف في تهوين الخطب وإساعته، فلم يعد التشكف في الغذاء مزعجاً كما كان بلدى الأمر، وأخذت نفيسة تألف مهنتها الجديدة، وتسلط إلى زبائن جدد، في شيء من الانكسار وكثير من الرجاء. حتى الشقيقتان، تعودا أن يعملتا من غدا المدرسة وجنيتها الرئيسية، وأن يبيتا بلا عشاء في صبر وجلد. كانت العادة تحدث أثرها، وكان حزم الأم يسيطر على ضبط أعصاب الأسرة المنكوبة. وفي ذلك المساء جاء فريد أفندي محمد وزوجته يزوران الأسرة فاستقبلتهما الأم ونفيسة بترحاب وقادتهما إلى حجرة الاستقبال.

وكان فريد أفندي يرتدي جلباباً ومغطاً، أما حرمه فقد التفت بالروب، وكأتهما في شقتها بغير ما كلفة. وجلس الرجل على الكنبه ليفسح المجال لجسمه المكتنز وراح يحدث حديث الودود في لطف وإيناس. وكانت زوجته - ست أم بهية - بدينة مثله مع ميل إلى القصر، إلا أنها كانت تتمدأ أجل امرأة في العبرة لبياض بشرتها وزرقة عينيها. وقد قالت تخاطب أم حسن متسائلة في لهجة تتم عن العتاب:

- لماذا تزلمان البيت هكذا؟ لماذا لا تروحان عن

نفسكما بزيارتنا كما كنتم تفعلان؟

فقلت الأم:

- هجم برد الشتاء وما يأتي المساء حتى يركبنا

الكسل، أما تبارنا فلا يخلو ساعة من هموم البيت. . .

فقال فريد أفندي:

أبي وحذك، ولولاي ما قلته أبداً. لا جمال ولا مال ولا أب. كان يوجد قليلان يساورهما القلق على مستقبل، مات أحدهما، وشغلته هموم الآخر. وحيدة، وحيدة، وحيدة في يأسى وألني، ثلاثة وعشرون عاماً! ما أبشع هذا! لم يأت الزوج بالأمس والدنيا دنيا فكيف يأتي اليوم أو غداً؟! وبه جاء راضياً بالزواج من خياطة فمن عسى أن يقوم بنفقات الزواج؟ لماذا أفكر في هذا؟ لا فائدة، لا فائدة. سوف أظل هكذا ما حييت.

ودق الباب، ثم جاءت صاحبة البيت مهتلة كعادتها، واحتضنتها وقبلتها. ثم جلستا جنباً إلى جنب وتحذت المرأة برقة وموثة، ولعلها حرصت على الرقة والمودة أكثر من ذي قبل. وتظاهرت نفيسة بالرضا والارتياح تداري بها ارتباكها وخجلها. ولكن من المؤكد أن مبالغة المرأة في إظهار مودتها ألبها وأذاها وضاعف من ارتباكها وخجلها. وقد جرّبت المرأة الفستان الذي انتهت نفيسة من خياطه، وقاست الثياب الداخلية، ثم جلست لصقها وغمرت يدها بنفود فضية وهي تقول:

- هيهات أن نوحي دينك السابق.

ومكثت معها ردحاً من الزمن ثم ودعتها وانصرفت. وبسطت نفيسة يدها فرأت قطعتين من ذوات العشرة القروش. وثبتت عيناها عليها وصدرها جياش وقلعها خافق. ثم قهرها الحياء والهوأن شيء مؤلم، ولكن ينبغي أن أفكر في هذا، ما جدوى وجع الدماغ؟ رؤي نفسي على قبول ما لا بد منه. هذه حياتي ولا حياة في غيرها. . . وجاءت الأم وهي لا تزال تنظر إلى النفود فأخذهما من يدها وسألتهما:

- أجرة الثياب كلها أم الفستان وحده؟

فمغمت الفتاة:

- لا أدري. . .

فقلت الأم وهي تردود ريقها بصموية:

- أجرة حسنة على آية حال.

ونحاشت الأم أن ينم وجهها على شيء مما يقوم في نفسها. . .

كل يوم أو يومًا بعد يوم، هذا رجائي يا ست أم حسن.

وأدركت المرأة أنّ الرجل يفتن سبيلًا غير ماس بالكرامة لنفع ابنها بمصروف شهري يرقه عندها. هذا واضح كالنهار ويتفق مع ما طمّح الرجل عليه من مائة ورقة. وقالت برقة وحياء:

- إنّ حسين وحسين ابنك، وهما طوع أمرك..!

فقال الرجل بسرور:

- فليصفاني بسرعة إذن، وليبدأ يوم الجمعة القادم..

وعادوا إلى حديثهم الطويل، ثمّ غادر الرجل وزوجه الشقة حوالي التاسعة. وهرعت نفيسة إلى حجرة أخويها حاملّة خيرًا سائرًا لأوّل مرّة منذ عهد ليس بالقصير، وقالت بمرح وقد استرذت شيئًا من طبيعتها الأولى:

- مفاجأة!

فرعها رأسيهما إليها في استطلاع فقالت:

- فريد أفندي راغب في اختيار مدرّس لسالم..

- وما شأننا في ذلك؟

- منكميا.

- لآي مائة؟

- الإنجليزي..

فصاح حسين:

- أنا طبيبًا!

- والحساب أيضًا.

فقال حسين وهو يتبسّد:

- أنا..

فقالت في مكر:

- يريدكميا معًا، وطبيبًا بالمجان!

فهتفا معًا في سرور وقد أدركا ما وراء كلامها:

- طبيبًا!

- ١٥ -

لم يكن ثمة ما يدعو إلى ارتداء البدلة في ذهابها إلى شقة في نفس العمارة فارتديا معطفيهما على البيجامتين. وإلى هذا كانت أمهما تحرمّ عليها ارتداء البدلة - أن

- نحن أسرة واحدة، وينبغي أن نخفي جلّ فراغنا معًا.

كان فريد أفندي ممّن لا يرحون بيوتهم بغير داعٍ فها، ويرى طيلة فراغه متربّثًا على الكتبة ومن حوله زوجة وبنته ابنته وسالم ابنه الصغير، يسمرون، ويمضون القصب أو يشوون أبا فروة. وكانت الأمّ تكنّ مودة صادقة لعطفه ومروءته، ولا تنسى له ما تحسّم من تعب يوم وفاة زوجها. وفضلاً عن هذا كله فقد أقرضها بعض المال حين صرف المعاش، ولم يكن يفي عن الذهاب إلى وزارة المالية للاستعلام والاستعجال.

بيد أنّه كان موكّفاً تافه الشأن وهو ما غاب عن تقدير المرأة. ولم يرقّ إلى الدرجة السادسة إلّا حديثًا على بلوغه الخمسين. وكانت جبرته للأسرة ترجع إلى عهد بعيد. وتوثقت أواصر الصداقة بينها لطيف معشرهما وقرب أسباب العيشة بين الأسرتين. وكانت حياة لا بأس بها، ولا تخلو من ألوان الترفيه. ثمّ نعمت أسرة كامل أفندي برفاحية جديدة حين زوّج المرحوم إلى الدرجة السادسة قبل وفاته بخمسة أعوام. واستقبل فريد أفندي عهدًا جديدًا منبذ عامين، فورث يثًا بالسيدة زينب يدرّ إيجاره عشرة جنيهات شهريًا، وبلغ به دخله ثمانية وعشرين جنيهًا، ممّا يعدّ ثروة في عام ١٩٣٣. وبات فريد أفندي سيّد عطفة نصرالله، وزاد ترهّلًا على ترهّل، ولولا حرص زوجته على الاقتصاد لمواجهة مستقبل فتاتها وابنها الصغير لنفد الرجل ما أرادته يومًا من الانتقال إلى شقة بشارع شبرا.

وتنقلّ بهم الحديث من وإد لواء، ثمّ قال فريد أفندي مفصّلًا عن رغبة لعلّها كانت أوّل ما بعثه إلى هذه الزيادة:

- يا ست أم حسن، إنّني قاصدك في رجاء..

فقالت الأمّ:

- مرّ يا سيدي..

- إني سالم، وهو في السنة الثالثة الابتدائية،

ضعيف في الإنجليزي والحساب. وقد رأيت على سبيل الاقتصاد - لأنّ المدرّسين طماعون كما تعلمين - أن أعهد إلى حسين وحسين بالقيام بهذه المهمة، ساعة

وهو يتصقح وجهيها باهتمام وترحيب، ثم نادى سالم، فجاء الغلام ووقف في حياء وارتياب، فقال فريد أفندي:

- سلم على أستاذك. أنت تعرفها طبعا ولكنهما من الآن فصاعدا شخصان جديدان. هما أستاذك فتأدب في محضرهما كما تتأدب أمام معلمك... فاقترب منهما الغلام في أدب وهو يغالب ابتسامة حيال الشابين اللذين لم يألّف احترامهما بعد، وأشار الأب إلى حجرة إلى يسار الداخل وقال:

- حجرة الاستقبال أرقف حجرة للدرس، وبها الشرفة إذا أراد أحدكم أن يتشمس..

ومضى الأستاذان إلى الحجرة يستقبلهما التلميذ، وبادر الغلام إلى الشرفة ففتح بابها، ثم أغلق باب الحجرة. وكانا يدخلان الشقة لأول مرة لأنه لم يكن لفريد أفندي ابن في سنّها فتدعوها صداقته إلى التردد عليها. ووجدوا حجرة الاستقبال بمنزلة حجرتهما بوجه عام فهي مكوّنة من طاقم قديم ذي كتبتي إرنجيتين وستة كراسي، ورمّة كبيرة ذات حوض مذنب عيوي وردّا اصطناعيا بيد أنّ حجرتهما بقيت على قديمها وبيعت مرآتها، أمّا هله فيلو أنّ يد النجاد قد جدّدت حشوها وكساءها. وجلس حسين على كنبه فجاء سالم بكرسي وجلس قبالة واضمّا بينهما خوانا صُفّت عليه الكتب والكراسات، على حين خرج حسنين إلى الشرفة في انتظار دوره. وجعل حسين يتصفّح كراسات الغلام وكتبه، ثم قال له:

- سأعيد الدروس من الأوّل شارحا ما يعض عليك على أن نبدأ في الدرس التالي بسميع ما تم شرحه.

وبدا الدرس في اهتمام جدّي. ووقف حسنين في الشرفة مرتفعا حافظها كما كان يفعل آباء كان لهم شرفة. وكان المنظر الذي أثاره لا يزال ناشئا في تحيّلته. الساقان البديتان، والوجه البدريّ ذو العينين الزرقاوين. نظرة هادئة رزينة توحى بالثبات لا بالحققة. جمال يبهّر وإن شابه شيء من نفل الدم ولكنه لم يترك أثرا سيئا في نفسه. لا يزال دمه

يلبها طول الاستعمال - إلّا للضرورة القصوى. وكان الضحى بسام الشمس فلطفت حرارتها من برودة الجو. وارتقى السلم مملأهما السرور والأمل. ومزا في صمودهما بباب شفتها القديمة فالتقى عليها نظرة صامتة، وانتهيا إلى الشقة العليا فوجدوا الباب مواربا ووقفا لحظات مترددين. ثم اقترب حسنين من الباب ورفع يده لينقر عليه ولكنّ يده جدت في الهواء وزنت عيناه إلى الداخل على رغبته. رأى فتاة مولية الباب ظهرها ومنحنية على شيء بين يديها - لعلها تبحث في درج من أدرج البوفيه - وقد برز ردفاها اللطيفان، وانحسر الفستان عن ساقها وباطن ركنيتها، ساقان مديجتان يكسوهما بياض ضاحك تكاد العين تحس طراوتها. وثبتت عيناه على المنظر فلم يبد حراكا. وعجب حسين لموقفه فدنا منه في اهتمام وألقى ببصره من فوق كتفه وهو يشرّب بمنقه فغمرت دهشة، ولكن سرعان ما ارتدّ عن فرجة الباب كالمارب وجذب أخاه من ذراعه وهو يرميه بنظرة حائلة كأنما يقول له وأجئون أنت؟. وليشا حيناً وقد ركعها ما يشبه الشهور بالذنب، وكان المنظر ذرّ في شقوق صدرها الشقة. ومال حسنين على أذن حسين وهمس:

- بيته..

فغمغم الآخر متظاهرا بعدم الاكتراث:

- لعلها..

فتردّد حسنين وفي عينيه بسمه شيطانية ثم قال:

- ألا نسرق نظرة أخرى؟

فلكزه في كتفه ونحاه جانبا ثم اقترب من الباب وطرقة. وسمعا وقع أقدام آتية، وفتح الباب عن وجه جميل، مستدير، مثليّ، أبيض مشوب بشحوب خفيف، تزينة عينا زرقاوان صافيتان. وما إن رأت القادمين حتّى تراجعتهما في خفر. ثم جاء من بعيد صوت فريد أفندي وهو يهتف:

- تفضّلا يا حضرتي الأستاذين الكبيرين!

ودخلا إلى الصالة - حجرة السفرة أيضا - فرايا فريد أفندي جالسا على كنبه في مواجهة البوفيه، في جلباب فضفاض، جعل منه كهية المنطاد. وسلّا عليه

المقابلة لحجرتها، أما حسين فقد غَضَّ بصره في وقاره اليهود. وأما هو فقد رنا إليها بنظرة قوية فخفضت عينها في حياء.

- ١٦ -

- كم تظن أن يكون أجرنا؟

فقال حسين متظاهراً بعدم الاكتراث:

- لا تكن شحاذاً ثقيلاً..

فقال حسين بأمل:

- نحن ندرّس لسالم يوماً بعد يوم وقد مضى زمن لا بأس به فلعلّه يتقدنا أجرنا أول الشهر، نية لا تستبعد أن يعطي كلّا منّا نصف جنيه وهو مصروف عالٍ مستعدو آيام الكرة والسينما وشيكولاتة المصنف في الفسحة..

كانا يرتقيان السلم وقد غاب نهار الشتاء القصير في ظلمة المساء المبكر. وطرقا الباب كعادتهما وانتظرا أن يجيء من يفتحه وهما يطويان في صدرهما أملاً يتجدد مساء بعد مساء دون أن يتحقق. وجاءت الخادم وقادتهما إلى حجرة الاستقبال. كانت الصالة خالية والضوء ينبعث من حجرة نوم الوالدين في نهاية الصالة فسار حسنين وهو يلحظ المكان بجانب عينيه دون جدوى ثم جاء سالم وأغلق وراءه الباب وجلس أمام حسين وبدأ الدرس. وشعر حسنين بخيبة وملل. وكان احضر معه كتاباً يذاكره حتى يجيء موعد درسه فراح ينظر فيه بعينين غابتين. وجعل يرفع بصره إلى الباب المعلق بحثاً شديداً، ثم تساءل:

- ألا يحسن بنا أن نغلق الشرفة أثناء الليل ونفتح الباب؟

وهمّ سالم بالنهوض ولكنّ حسين أشار له بالجلوس وقال:

- أغلق الشرفة إذا أردت على أن يبقى باب الحجرة مغلقاً.

ورمقه بنظرة ذات معنى فتلقّاهما حسنين باستياء مكتوم. وضاق بمجلسه فقام إلى الشرفة متناسياً أنه كان يقترح إغلاقها منذ لحظات. ووجد حيال الظلمة كابة مثل تلك السحب التي كانت مرترقة بصفحة

يتدفق حاراً في عروقه، وقلبه يخفق بنشوة المنظر، ورأسه لا يمسك عن خلق الصور والأحلام. هُله أسطح البيوت المكددة به وهذه عطفة نصرالله في أسفل، وهؤلاء خلق كثيرون ذاهبون آتيون، كل أولئك يلوح وراء غلالة حراء نشرها خياله المحتضن الدم، متى تعود السكينة إلى نفسه؟ إنه يذكر بهيمة. كان يراها كثيراً وهي صغيرة تحجل في فناء العمارة. ولكنها اختفت منذ الثالثة عشرة، وانقطعت عن المدرسة أيضاً قبل أن تلتحق بالمدرسة الثانوية. ولعلها في الخامسة عشرة، ولكن كان كأنه يراها لأول مرة. وإلى بحاجة إلى مثل هذه الفتاة. نذهب إلى السينما معاً، ونلعب معاً، وتحدث كثيراً. وما من بأس في أن أقبلها وأعانقها. ليس في حياتي وجه جميل يجلبني إليه. وحسي ما صادقت من فتیان المدرسة ونادي شبرا. أريد فتاة. أريد هذه الفتاة. في أوروبا وأمريكا ينشأ الفتيان والفتيات معاً كما نرى في السينما. هذه هي الحياة. أما هذه فما إن رأنا حتى توارت عن الباب كأننا وحوش نروم التهامها. وكان أجدادنا يقتنون الجوارى. لو نشأت في بيت مليء بالجوارى لعرفت حياة أخرى على رشم أمي وإنداراتها ولكياتها. حتى الخادمة الصغيرة طرحت لفقرنا. ما يجيئ لنا المستقبل، أظن أكبر ذنب يؤخذ به في الآخرة هو أن نترك هذه الدنيا دون أن نستمتع بحلاوتها. أجل منظر حقاً هو بطن ركبته. في وسطه عضلة رقيقة مشدودة تشفت بشربها عن زرقاء العروق. لو انحسر الفستان قليلاً لرأيت مطلع الفخذ. أجل منظر في الدنيا منظر امرأة تحلق ثيابها. أجل من المرأة العارية نفسها. يقولون إن مدرس التاريخ زير نساء. متى أجد نفسي رجلاً حرّاً؟! عندنا غداً حصّة تاريخ ويجب أن أحفظ هذه الليلة القبائل الجرمانية. انكحوا ما طاب لكم من النساء، هذا أمرك يا رب ولكنّ هذا البلد لم يعد يحترم الإسلام. وتابع أحلامه في نشاط حتى ترامى إليه صوت حسين يدعوه إلى درس الإنجليزي فنادر موقفه..

وعند انصرافها بدت لها الفتاة جالسة في الحجرة

عياً يعاني من إغراء. «جسم لندن. عياناً جذاباً. هيهات أن يخفي هذا الفستان الطويل ما انطبع في حسي من صورة الساقين. ويطن الركبة خاصة. لا الفستان ولا الباب ولا الظلام. أعظم واجب في هذه الدنيا أن نلعب فتاة جميلة نجيباً. إني أعجب كيف أن فتاة يمنحها الحياة من التحديق في وجه حبيبها تستطيع يوماً أن تنزع ثيابها بين يديه دون مبالاة! هذا التطور خاصة خلقي بأن يبعث بهيج الأمل في موات النفوس. أو لعلها العادة؟! يجوز. هذه العادة التي جعلتنا نألف المبيت على الطوى! كيف يحق لي أن أفكر في الحب على ما تكلم من قسوة الحياة! شكراً، الشاي به الكفاية! أحسنت بشكرها صنفاً. لا يجب طبعي الجبن والتردد. وبذلك يمكن أن أقتنص فرص الحب وسط برودة الفقر. الفقرا لو كان الفقر رجلاً لقتلته ولكنك امرأة. نقتلنا ونحن راضون. ترى هل يتألم أبي لحالنا؟ ترى ما هيته الآن؟ هفي عليك يا أبي. حقاً إن الحياة أكلوبة ضخمة. ولكنك جاءت بنفسها بالسكروية! جاءت لي أنا في الواقع. أريد أن أكون شارلمان عصري. لو عدت يوماً إلى عطفة نصرالله حاطاً بعظمة فروسيته لألقت بنفسها عليّ من الشرفة. وما يدري إلا وحسين يقول له:

- دورك..

اللغة الإنجليزية! وحلّ محلّ أخيه، وألقى درساً ممتلئاً عطفاً وجباً للغلام الذي يجري في عروقه الدم الذي يجري في عروقها. ذلك الدم الذي استشفّه في بطن ركبته. وانتهى بعد زمن لم يدرك له طويلاً، ثم غادرا الشقة ممّا إلى السلم المظلم. ولم يعد يطيق صبراً فقال:

- كان ظهورها اليوم مفاجأة بديعة!
- فقال حسين بلهجة تنم عن الاندفاع:
- حاصر لا تكن وقحاً. هذا بيت محرم!
- ماذا فعلت فاستحقّ هذا التأييب؟
- لا تفعل شيئاً تدم على فعله إذا كان فريد أُنديني معنا.

وغلبه السرور فقال وكأنه يناجي نفسه:

الساء تزيد الظلمة عمقاً ووحشة، لم يكن بالأفلاك نجم واحد، ولاحت أضواء المصابيح خافتة تحت غاشية من الضباب، وخيم على الكون سكوت ثقيل وبرودة صامتة كأنما كتمت أنفاسه. «حنبل، حنبل». يجب أن يكون رجلاً وقوراً قبل الأوان. ولا يبدو أنه يريد أن يعاونني. من يدري لعلها لو كانت لها أعت لتغير سلوكه. إنه كأنه جاذ صارم. ينبغي أن أفضّ هذه المشكلة بالحلّ الموقّع وراح يتفكر باهتمام حتى سمع صوت سالم يناديه فغادر موقفه إلى الحجرة. وقال له الغلام:

- تفضّل شيئاً.

ورأى قدحين من الشاي على الخوان فتناول أحدهما وقد خفف منظر الشاي من توتر أعصابه. وقبل مضي دقيقة سمعا صرير الأكرّة فنظرا صوب الباب ففتح قليلاً وبدت بهيمة! كانت تحمل السكروية فأعطتها لسالم وهي تقول:

- خذ هذه فربما لم يكف ما بالشاي من سكر.. كانت ترتدي فستاناً بيّناً تكاد تحسّ أهذابه أهل القدم فأضفى طولها على قائمتها المائلة للقصر ملاحظة. وحلق الشيقان في وجهها وهي لا تحوّل عينها عن الغلام. ثم غشّ حسين بصره وليّاً يفتق من وقع المفاجأة بينا ظلّ حسنين يميلق في وجهها كأنه عجز عن استرداد بصره. رأى الغلام يميء بالسكروية، وأخذت الفتاة تردّ الباب لعلها الجزع قلبه الخافق، وعزّ عليه أن تخفي وهو غارق في ذهوله وجسوده، وطفرت من أعماقه رغبة في الإفصاح لا تقاوم، فقال بعجلة:

- شكراً. الشاي به الكفاية..!

وتحوّلت حينها إليه في ارتباك، ثم اختصت دون أن تنبس بكلمة، ولعلّ عينها تمتا عن ابتسامة مكتومة. وتحاشى النظر صوب أخيه فحصر بصره في قدح الشاي. ومفاجأة لم أكن أنتظرها. حلم سعيد. على الرغم من الباب المغلق! ورشف رشفة كبيرة من السائل الساخن فلمست لسانه وسقف حلقه وجعلته ينفخ في جزع. ولكنّ سخونة الشاي لم تنفّيه طويلاً

- جاءت بنفسها، لله ما ألقها!

- ليس في هذا ما يعجب...

- ترى أكلفها أبوها يحضار السكرية؟

فقال حسين بملل:

- من أدراي بذلك!

- أم جاءت من تلقاء نفسها؟

- ليكن هذا أو ذاك.

- وإذا كان من تلقاء نفسها فهل جاءت تحت بصر

والديها؟

فلم يجبه الآخر وإن ظلّ منتبها لما يقول لما اهتمام

شديد، فعاد حسنين يتساءل:

- أو جاءت خفية؟!

فهتف حسين:

- خفية؟!

فضغط الشاب على ذراع أخيه وقال وهما يغادران

آخر درجات السلم:

- ألا يقولون ومن القلب للقلب لرسول؟!.

- ١٧ -

- جئت الآن وحدي، وسيجيء حسين بعدي،

حتى لا يضيع وقتنا بلا ضرورة!

فقال سالم بأدب:

- هذا أفضل..

وأخذ كلاهما مجلسه، ولكن حسنين قال قبل أن

يبدأ درسه: الأولي أن تغلق الشرفة وتفتح الباب!

وبعض سالم فحقق رغبة استأذنه. ورأى الصلاة

مظلمة صامتة ولكن لم يفرأ أمله، فلا يزال في الوقت

منسج للشاي، ثم للسكرية! وأراد سالم أن يتوعد إلى

مدرسه بأن يفضي إليه بما في نفسه فقال:

- بابا وعاما عند ستي..

فحقق قلبه بعنف، ونظر إلى الغلام طويلاً، ثم

سأله:

- متى ذهباً؟

- بعد العصر..

وساوره الفلق أن تكون قد ذهبت معها فتساءل:

- وكيف تبقى وحلك في البيت؟

فقال الغلام:

- معي أبله بيهية..

وابتدر صدره بلذة الارتياح والأمل: «الشاي

والسكر. السكر خاصة، بل السكرية. سأحقق اليوم

عما إذا كانت تعتمد الظهور أمامي!». وأمر الغلام أن

يطلع ويبدأ الدرس، وأصغى إليه دقائق ثم مضى

يغيب عنه. وهل أطلب شيئاً؟ قلّة ذوق! ولكن إذا

تأخر الشاي فلا بدّ من طلبه. إنّي مضطرب أكثر عما

ينبغي. إننا وحيدان في الشقة أنا وهي. لا يخش هذه

الوحدة سالم أو الخادم الصغير، فنحن وحيدان.

فلأنعم طويلاً بهذه الوحدة الخيالية. لو كانت الدنيا

بسيطة كبساطتها الحارة الأولى لقمّت إليها وأخذتها بين

ذراعي، وسألتها باطمئنان كامل أن تكشف لي عن

ساقها. ما الذي يجعلني أحجم عن رغبة كهذه؟ هذا

سخف الدنيا الذي قتل أبي وأزول بنا ما نحن فيه.

وانته إلى سالم وهو يسأله عن معنى كلمة فذكر له

معناها، وأمره أن يواصل المطالعة. وقبل أن يغيب عنه

صوت الغلام سمع وقع أقدام تقترب فأنهض بصره

ناحية الباب المفتوح، ثم رأى صينية الشاي تتنم

حاملها، ووقع بصره على الساعدين اللتين تحمّلانها

فخفق قلبه خفقة عنيفة ونهض قائلاً كمن به مس،

وجاءه صوت رقيق وهو يخط نحو الباب يقول بصوت

كاهن:

- سالم..

فظهر حيالها وهو يتخصّص بنظرة عارمة ثم همس:

- ألف شكر..

وتورّد الوجه الأبيض المائل للشحوب ولملمه لم يتوقع

ظهوره، ثم غصّت بصرها في ارتباك. ومدّ حسنين

يديه فتناول الصينية، فأطبقت يده اليمنى على أصابع

يسراها، وسرى مسّها في يده، وذراعه، وجسمه،

وروحه، في أقلّ من الثانية. ولم تقف به جراته عند

حدّ فضغط على أصابعها ضخطة غير خافية،

فاستخلصت يدها في استياء، وفي وجهها عبوسة،

وتحوّلت عن الباب في حدّة الغضب. وعاد إلى اخوان

بالصينية شديد التأثر، ثم جلس على مقعده وهو يقول

للغلام في ارتباك:

- استمر .

وترى هل تعجلت الأمر قبل أن ينضج؟ ما أقل صبري، هكذا أنا دائماً. يا لها من عبوسة! عبست وتولت. إن يكن حياه فهو عز الحى، وإن يكن حنقاً فلعله الحتام. هيهات أن أراجع. هيهات أن يطيب لي التردد أبداً، لماذا جاءت بنفسها؟ لماذا لم تكلف الخادم بحمل الصينية؟ جاءت لي أنا. هذا واضح. لا داعي للخوف. وكان ينتبه إلى سالم في أوقات متقطعة، وعلمي عليه بعض الأسئلة، ثم يغيب عنه في قلق يراوح بين الإشفاق والسرور. ولما أن انتهى الدرس خطرت له فكرة فصم على تنفيذها دون تردد. ونهض قائماً، وغادر سالم الحجرة ليوسع له الطريق فأخرج منديله من جيب معطفه وتركه على المقعد، ثم غادر الشقة. ولكنه لم يرح مكانه بعد إغلاق الباب. وقف يهرف السمع إلى خطوات الغلام حتى ضاعت، وترت لحظة ثم نقر على الباب. وانتظر وقلبه يذب وثباً من شدة الحفقد. وإذا جاءت الخادم ضاع تدبري هباء، ولكن من المحتمل أن تأتي هي. أمرى الله. وأضاء نور الصلاة وسمع وقع أقدام قائمة ثم فُتح الباب. هي. ولم يبال ما ارتسم على وجهها من أي الدهشة، ولم يضيغ وقته سدى فتساءل في رقة وإشفاق:

- أعاف أن أكون أغضبتك!

فتراجعت خطوة دون أن تفتح فهاها فقال بمجلة:

- لا أطيق أن تغضبي أبداً...

فغمغمت في استنكار كأنها لا تحتمل أن يوجه إليها خطاباً:

- لا، لا، لا، هذا كثيراً

ولم يستطع أن يتكلم لأن سالم ظهر على عتبة الغرفة اليسرى وهو يتساءل:

- جاءت ماما؟

فقال حسنين بصوت مرتفع:

- نسيت منديلي في الحجرة!

وجرى سالم إلى الحجرة، وسارعت الفتاة بالمودة

إلى الداخل، ثم جاءه الغلام بالمندبل فتناولوه ومضى وقد نسي أن يشكره.

- ١٨ -

ورفع حسين رأسه عن المكتب وتفحصه بهدشة ثم سأل:

- ما لك؟

لفضحك حسنين ضحكة قصيرة دون أن يجيب، فسأل الآخر بلهجة ذات معنى:

- أعطيت درسك؟

فارتى حسنين على فراشه وتساءل:

- هل أبلى متفجراً؟

- بلا ريب.

فتنهّد الشاب قائلاً:

- يحق لي أن أحمّد الله على أن أتنا مجلس فيها يشبه الظلام.

- ماذا حدث؟

هل يجبره بما حدث؟ ولكن هل يلقى منه إلا زجراً؟ قال:

- لم يحدث شيء؟

- واضطربك؟ إنك إذا اضطربت تورّ أنفك كالخار.

قال حسين ذلك ثم تساءل في نفسه هل يتورّ أنف الحمار حقاً، كيف اختار هذا التشبيه؟ ولكن الآخر تضاحك قائلاً:

- هيجان شعور، هذا كلّ ما هنالك...

- ويعد؟

- ولا قبل!

فقال حسين بجذّ واهتمام:

- أريد أن أعرف مقصدك.

- لا أفهم ما تقول.

- لا تتجاهل ما أعني أنت تفهم كلّ شيء. لماذا لا تركها وشأنها؟ ألا تخاف أن يظن فريد أفندي إلى عبثك أو أن يبلغه أسرك عن طريق الفتاة نفسها؟

سترمي بنا إلى مركز حرج...

فقال حسنين مبتسماً:

الحجرة لا يخلد فيه شيء إلا خشخشة أوراق الكرّاسة إذا قلبها حسين، ولكن أخذت أذناه تستبين صوت راديو يتسلّل من النافذة المغلقة وانيًا من بيت من بيوت العطفة. وتقطّب متظاهراً بالضجر ولكنّه ارتاح إلى سماعه هرباً من حيرة أفكاره. وأصغى إلى «عادت ليالي الهناء فسلم سريماً بمجامع نفسه وجاش صدره بالحنان وتندى بالعطف وهفا قلبه نشوة للحبّ والحياة. وغمرته موجة حماس فامتلاً نشاطاً وتمثّى لو يتنطلق إلى الخلاء مثقّقاً بالظلام. وجعل يغيب عن النغم رويداً بعد أن فتح لروحه أبواب جنة عامرة بالأحلام والرؤى. ويجب أن أكتب كلمتين. جملتين فحسب، حتى لا أسود إلا ورقة صغيرة إذا رميت بها عند قلبيها لم يستبها أحد». وحرك القلم كاتباً: عزيزي بهية إني أسف جداً لأنني أغضبتك. «أليس الأفضل أن أقول: لا تنفسي يا عزيزتي؟». سيان. ثم ماذا ينبغي أن أعترف لها بحبي. أريد جملة غير مبتلة. اللهم عونك.» وقطع حسين عليه تفكيره متسائلاً:

- ماذا تكتب؟

- موضوع إنشاء.

- ما هو؟

فقال بلا تردد:

- أثر الموسيقى في نبضة الأمم...

عزيزتي بهية، إني أسف جداً لأنني أغضبتك. أبحث لك الغضب لأنني أحبك؟ ويكفي هذا فخير الكلام ما قلّ ودلّ. كلّاً لا يكفي. النعمة ناقصة. استشهد ببيت من الشعر. كلّاً فهذا يشير الضحك عادة. وضحكة واحدة خفيفة بأن تقوّت عليّ الغرض. جملة أخرى مؤثرة. يا ربّ يا معين! ووثبت إلى ذهنه عبارة لا بأس بها فشرح يكتب: والله ما فعلت ما فعلت... ولكن حسين قاطعه مرة أخرى قائلاً:

- هل انتهيت من نقط الموضوع؟

فانزعج حسين في غيظ مكتوم:

- تقريباً. عن إذنك لحظة واحدة!

وعاد إلى الخطاب في تصميم من يريد الفراغ منه فكتب: والله ما فعلت ما فعلت إلا لأنني أحبك.

- والله يا اخي لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أتركها ما تركتها أو أهلك دونها... فضحك حسين على رغبته، ثم قال وهو يستعيد مظهر الجذّ والرزاقية:

- ماذا تريد منها؟

يا له من سؤال! يبدو غاية في البساطة ولكن من له بأن يجيب عليه، ولم يكن طرح على نفسه هذا السؤال فلم يدّر له جواباً. كان اندفاعه بوحى من عواطفه وغرائزه دون حاجة إلى تفكير. ثم قال في حيرة:

- في مثل حالتي لا تفرّق بين الباعث والغاية.

- لا اللهم ما تقول.

- ولا أنا بفاهم!

- إذن دعها وشأنها كما قلت لك.

- لن أزال وراءها حتى...

فتخصّصه حسين بنظرة كثيفة وقتم متسائلاً:

- حتى ماذا؟

- حتى تقع كما وقعت.

- ثم؟!

فقال الشاب الخائر:

- حسبي هذا!

فهزّ حسين رأسه في حنة وقال:

- أنت غطّيت. إنّها فتاة مهذّبة، ومن أسرة طيبة،

ولن ترضى عن سلوكك...

- هي ما قلت وأكثر ولكيّن لن أنخلّ عن أملي...

وقام إلى المكتب فأخذ كتبه وكرّاساته وعاد إلى الفراش ثم وضعها على حافة النافذة المغلقة التي نزل فراشه مباشرة، وجلس متربّطاً حيالها كأنه جالس إلى مكتب، فسأله حسين متعجباً:

- لم لا تجلس إلى المكتب؟

- أريد أن أنزع لادّي سائقي.

وكان يفكر في أمر ذي بال ففتح كرّاسة واقطع منها صفحة وأمسك بالقلم وراح يعمل ذهنه في اهتمام ووجد واضطراب. «سأكتب لها كلمة. لن نتاح لي فرصة لمخاطبتها فلا حيلة لي إلا هذه. ولكن ماذا أكتب؟». وركّز فكره مستعيناً بالسكون الذي ينشئ

تقول:

- ستّ زينب تشي عليك جميل الشتاء. وإني أنوسم فيك الخير. . .

فابتسمت نفيسة ابتسامة باهتة وانفجرت شفتاهما دون أن تنبس بكلمة. ولعلّها قالت إني خياطة ماهرة. هذا حسن. أمّتح أمّ ذمّ؟ لا أدري. ترى هل قصّت عليك نبأ أسرتنا؟ كان أبي كأيبيك. وكنت سيّدة مثلك. وظلما انتظرت العريس ولكنّه لم يأت. ولن يأت. وسألت العروس في رقّة وهي تعلم الجواب:

- لماذا ترتدين السواد؟

- فأجابتها في حزن:

- توفيّ والدني منذ شهرين. وكان رحمه الله مولفًا في وزارة المعارف.

- حدّثتنا بذلك ستّ زينب. البقيّة في حياتك.

- حياتك الباقية. نحن من بنها، وخالي تقيم هناك مع زوجها الذي يملك محلّجًا للقطن.

ودخلت عند ذاك خادم حاملة بقبضة فوضعتها إلى جانب سيّدتها وذهبت. وحلّت العروس عقدتها فانحسرت عن كوم من الحرائر مختلفة ألوانها. وأدركت نفيسة من النظرة الأولى أنّها أقمشة للثياب الداخلية. ولعلّها أرسلت بالفساتين إلى خياطة كبيرة، وارتاحت لهذا لأنّها كانت تشفق من أن تعرّض سمعتها لتجربة شاقّة لا يقيّل لها بها، عمل في حدود طاقتها وريح مضمون. وقامت إلى مجلس العروس وراحت تتفحص الأقمشة وتتحسّنها قائلة:

- مبارك عليك. يا له من حرير نفيس.

- فافتّخر العروس عن ابتسامة سعيدة وقالت:

- نبدأ الآن بالقياس. وعلى فكرة أعنيك مانع من مباشرة العمل هنا في بيتنا؟ عندنا ما تحتاجين إليه من الأدوات كلّها، وليس ثمة أطفال في البيت، وفضلاً عن هذا كلّه فيتنا غير بعيد من عطفكم فتستطيعين الحضور كلّ يوم في غير مشقّة.

ولم ترّ نفيسة بداً من أن تقول:

- لك ما تشائين يا هانم. . .

وقامت الفتاة ووقفت أمامها، وجعلت نفيسة تقيس

وسأحكّك ما حييت، ولا حياة لي إلّا برضاك عتي. وأعاد قراءتها بعناية، ثمّ تنهد في ارتياح عميق، وطرأها وفي طرفها ثمّ أودعها جيّبه. «سأنتهز فرصة اقترابها من الباب، أو مروري بها في الصلاة، ثمّ أرمي بها إليها، ولكن ما يكون». . .

- ١٩ -

وجدت نفيسة نفسها في حجرة متوسطة الحجم، قامت على جانبيها كبتان كبيرتان وبضعة مقاعد، أمّا أرضها ففرشت ببساط أسبوطيّ، وفي جدارها المواجه لمدخلها شرفة تطلّ من الدور الرابع على شارع شبرا. كان الأثاث قديمًا والظاهر أنّ الحجرة كانت معدّة لجلوس الأسرة في أوقات الفراغ كما يمكن أن يُستدلّ عليه من وجود الراديو بداخلها على كتب من الباب. وقد لاحظت الفتاة مذ وطئت قدمها الشقّة أنّها على قدر وافر من الجاه ببدو في الصلاة الصفري التي أثّرت كمداخل للبيت، والصلاة الكبرى الفاخرة المعدّة للسفرة، لحضّ لها أن تصدّق صاحبة بيتهم بمعطفة نصرالله حين قالت لها «جئت لك بزيونة ملائنة، عروس ومن أسرة كريمة، فأرجو أن تخيطي ثيابها بما تستحقّ من عناية علّها تفتح لك مغلق الأبواب». وكانت نفيسة مضطربة لدخولها بيتًا غريبًا للعمل أوّل مرّة. وجلست على مقعد قريب من الباب تنتظر. وكانت ترتدي ثوب الحداد وقد أرسلت شعرها الأسود في ضفيرة قصيرة لبدا وجهها العاطل من الزواق والحسن شاحبًا بانسًا. «بيت غريب وأناس غريباء. خطوة جديدة في سبيل المهنة. لست إلّا خياطة. ليست كرامتي التي تمزّ عليّ ولكن كرامتك أنت يا أبي». ولم يطل بها الانتظار إذ جاءت من الحجرة فتاة في العشرين على حسن ورشاقة، فقامت تستقبلها، وسلمت عليها القامة وهي تلقي نظرة متفحّصة ثمّ قالت:

- أهلاً وسهلاً. حضرتك السّت نفيسة التي

أرسلتك ستّ زينب؟

فكانت الفتاة في حياء:

- نعم يا هانم. وحضرتك العروس؟

فأرومات بالإيجاب مبتسمة، ثمّ جلست، وهي

- ٢٠ -

وغادرت بيت العروس قبيل الأصيل متمبة. وكانت عطفة نصرالله تبعد عن البيت عطفين فشقت طريقها بين السابلة على مهل وترتخ. وأنعشها الهواء البارد فحكت خطاها. ووجدت ذكريات ممتًا مر بها في بيت العروس تنثال على مخيلتها في لذة وألم معًا: كانت تجلس على كنية وقد جلس الخطيبان على الكنية المقابلة. كانا ملتصقين. وكانا يتحدثان في صوت مسموع حينًا، وينخفض حينًا فيصير مناجاة وهمسًا. وكم ودت وتذلل أن ترفع رأسها عن الماكينة إليها ولكنها خافت وعقلها الحياء أن تلتقي عيناها بعينيها. ومرة رفعت عينها من تحت رأسها المنحني فوقع نظرها على سائقين ملتصقين، ثم انتهت على العروس وهي تضربه على يده قائلة في لهجة تنم عن الدلال والوعيد:

- حدار!

استغرقها الخيال حتى كادت تصطدم بالمائة، ثم دخلها إحساس هم بالتحرق إلى الحب. لم تحط طوال حياتها بقلب يجنح ويعطف عليها، ولم تجد من متفهم عن توتر أعصابها إلا في الضحك والسخرية من نفسها وإخوتها والناس فاشتغرت بالبحث الضاحك الذي تترارى خلفه مرارة في الأعيان. ولم تكن لها حيلة في إحساسها فالواقع أن غريزتها الانشوية كانت الشيء الوحيد بها الذي سلم من النقص والضعف واستوى ناضجًا حارًا، فلم يخل صدرها من عذاب سجين وقفت له تريبتها وكرامتها وأمرتها بالمرصاد. ولكن منظرًا كالذي رآته اليوم ببيت العروس كان خليقًا بأن يبرزها هزة عنيفة قاسية. ولما تخالبت لعينها عطفة نصرالله عابثها أمل جديد داعبها كثيرًا في الأيام الأخيرة. هنالك بقالة عم جابر سليمان التي تقع قبل عيارتهم بقليل، أو هناك سليمان جابر سليمان ابن عم جابر وصييه. ولقد اعتادت التردد على البقالة بعد طرد الخادم لابتغاع ما يلزمهم فعرفت الفتى معرفة أخذت تزداد بمرور الأيام. واستحضرت صورة الفتى بقمته الطويلة المائلة للامتلاء ووجهه البضاوي الأسمر،

الأقمشة عليها. امتلأ أنفها الغليظ برائحة الحرير الجليد، وشعرت لمسه وهو ينزلق بين أصابعها بإحساس غريب، فيه اشتها وفيه ألم. بيد أنها أحسّت كذلك، حيال استسلام الفتاة وما تعقده على مهارة يديها من رجاء ينوع من السيادة. فكأنها ظفرت بأمل في العزاء، ولكنه سرعان ما فتر وأخلف وراءه يأسًا قائمًا وعروس وحرير أحفًا أخيط هذه الثياب لهذه العروس؟. كلاً هذه الثياب الداخلية تيبًا للعريس قبل العروس!.. ستداعب أنامله أهدابها الناعمة ومادتها اللطيفة. إلى أشارك في هذا الزواج. وسأشارك في زيجات كثيرة دون أن أتزوج، قاتعة من هذا كله بأحلامي المحرقة. يا لها من فتاة مليحة وسعيدة. تكاد السعادة تنوِّج في عينيها، اليوم تجهز الحرير، وغداً تنتظر الحبيب، وتتشم أنفاس الأمومة الحارة تهبو عليها من أفق ودي. طالما حلمت بهذا وأبي يقول لي إن الحق أنفس من الجبال، ثم بلغت الثالثة والعشرين بين الإشفاق والرجاء، ويموته مات الرجاء. لماذا خلقت هكذا دمية؟ لماذا لم أخلق كإخوتي الذكور؟ ما أجل حسنين، وحسين، حتى حسن، إلى ميتة كئي، وهو في باب النصر وأنا في شبرا وسمت العروس تسألها:

- أتحين أن تسلمي بعض أجرك مقدّمًا؟

فقلت بمجلة:

- لا داعي لذلك مطلقًا.

ثم عطفها الندم على ما قالت فتضاعف حنقها وبأسها. وسمعت أطيط حذاء يقترب فرفعت رأسها نحو الباب فرائت شابًا يدخل الحجره هائلاً، وأقبل على العروس فالتحمت يداها، وتبادلا ابتسامة سعيدة، ثم سألهما:

- أين والدتك؟

- في حجرتها.

ثم التفتت إلى نفيسة وقالت تقدّم لها الشاب:

- حسن خطيب.

ثم عطف رأسها إليه قائلة:

- ست نفيسة الخطّابة..

الوحيد الذي يمكن أن يتصف بالجمال في وجهه. وإن
إلا أن يياورها بالكلام فقال:

- أيّ خلعة يا ستّ ففيسة؟

فقال الفتاة وهي ترمش ارتباكاً:

- حلاوة طحينيّة بقرش.

فتناول السكين وقطع لها قطعة وافية، ثم قشط
قطعة صغيرة وهو يقول بصوت منخفض:

- هذه الزيادة إكراماً لك يا ستّ نفيسة.

ولفّ الحلاوة في ورقة وقلمها لها، ثم أخذ القرش
وهو يلحظ أباه بطرف خفي، ولمّا وجده مكباً على
الدفر، تشبّع وقال همساً:

- سأحفظ بقرشك بركة!

فابتسمت ابتسامة خفيفة وذهبت. ابتسمت عمداً
كأنها تشجّع وترحب به. وقد كلفها هذا جهداً كبيراً.
«لم يعد يقنع بلغة الميرون فتكلم، وحسناً فعل». وعمل
رغم ضالة شأنه ومنظره اهتز قلبها سروراً، وجاش
صدرها بالانفعال. وكانت تحبّ هذا الموقف - قبل
أن يحدث - وهي عاكفة على عملها بيت العروس فلم
يقترق الواقع عن الخيال إلا قليلاً. تحبّت نفسها واقفة
أمامه لتبتاع الحلاوة فجعل يلتهمها بعينه ثم قال لها
وهو يتناول القرش «أنت أحلى من الحلاوة». حقاً لم.
يقبل هذا ولكنه قال قولاً يضاهيه. وتهدّت بارتياح ثم
طار خيالها إلى ذكريات عشاقها الغابرين! كان أولهم
وزيراً وقد رآته في صفحة مجلّة المصور ثم راحت تنسج
حول صورته شيئاً من أحلامها حتى أنجبت له غلاماً
فريداً وكان فريد أفندي محمّد نفسه العاشق الثاني،
وبسببه خاصمت في الخيال زوجته وأسرته. أمّا سليمان
فهو أسوأهم حالاً ولكنه العاشق الوحيد الحقيقي.
ولمّا بلغت منتصف الغناء خافت أن تلومها أمها على
قضاء النهار خارج البيت فضاق صدرها وقالت كأنها
تردّ عليها:

- كفيّ عن لومك فما عدت أحمل أكثر مما بي.

وعلا صوتهما ورناً في بئر السلم فنظرت فيها حولماً
بحلر، وكتمت بأصابعها ضحكة كادت تغلت من
شفقتها!!

وعينه الضيّقتين، وتساءلت ترى هل حقاً يبدي نحوها
اهتماماً أو أنّها واهمة؟ غيّل إليها كثيراً أنّه يتسم إليها
في تردّد ولعلّه لم يستطع أن ينسى بعد أنّها كريمة كامل
أفندي عليّ. وكانت على جفوة طلعتها تحظى بمظهر
الفتيات المحترمات، أمّا سليمان فما هو إلا ابن بئس
بسيط، ولا تعلق منزلته في دكان أبيه عن صبيّ.
وكانت تعلم بهذا كله ولكن لم يكن يوسعها أن تنفر
من إنسان أباً كان إذا أبدى نحوها ميلاً. لا يسعها إلا
أن تحبّ من يحبّها. بيد أنّها رذّت فجأة إلى فتور
وامتناع وأطبق عليها شبح اليأس القديم؟ وكان
قلبها يقول لها: لا تنفري بنفسك ولا تسمعي
لكواذب الآمال أن تعبت بمقلك. ارفضي اليأس،
واقنعي منه بالراحة وهي السلوى الوحيدة لفتاة مثلك
لا مال ولا جمال ولا أب لها. ولكنّها كانت تعلم أنّها
لن تطيع قلبها أو - على الأصح - صوت غاؤها.
وكانت تزدد استسلاماً كلّما قربت من عطفة نصراالله
وعاودها الأمل والحنان. الله قادر على كلّ شيء. وكما
يقضي عليها بالأحزان يبب إذا شاء الأمل والعزاء، ما
لي من رجاء سواه. ولن يجيب عنده رجاء. لم أجنّ ذنباً
استحقّ عليه الموان. ولم تجني أسترنا ذنباً. فلا بدّ أن
تكشف هذه الغمة. ولكنّ من سليمان؟ هل يرضى به
حسنين؟ إنهم جميعاً ذوو كبرياء ولا اظنّ الفقر يغالب
على كبريائهم. وحسن ليس له من الأمر شيء.
حسن!! ليت يغير من طبعه ويتشكّلنا نحن فيه. لا
معاش أبي ولا عملي بكافين فلماذا صنع هو؟ لن يرضى
أحد بسليمان ولن يأتي من هو خير منه. ومن أدراني أنّه
يفكر في حقاً؟! ومالت إلى العطفة تسبقها عينها إلى
بقالة عمّ جابر سليمان حتى بلغتها. وخطر لها أن تخفي
إليها لتبتاع شيئاً، أيّ شيء، ومضت إليها دون تردّد.
كان عمّ جابر سليمان المعجوز جالساً إلى مكتبه الصغير
عائداً على دفتر الحسابات، بينا وقف ابنه الشاب
سليمان جابر وراء الطاولة التي تتعرض مدخل الدكان.
وانتبه الفتى إليها حال وقوفها أمامه فنظر إليها متهلّك
الوجه وقد لمت عيناه الضيّقتان. كانت قسائته تشي
بالبلاء والحيرانية والجبن، وكان شاربه الصغير الشيء

- ٢١ -

وأغلقت الباب، وابتعدت عن موقفه متجهة إلى الباب. ولم يسمح لها بالإفلات فوثب خطوتين ووقف مترصاً سبيلها، فحذجته بنظرة غضبي واستقام رأسها في حلة وقالت مستنكرة:

- هذا كثير!

فقال الشاب بجرأة ورقة معاً:

- دائماً غضبي! إنني أعجب لحظي فما أجد منك غير الغضب!

فلاح في وجهها الضجر وقالت باستياء:

- دعني أمر من فضلك. . .

فبسط ذراعيه كأنه يريد سد الفراغ كله وقال:

- هذه فرصة لم يكن بوسعي أن أحلم بها فلا يكن أن أدعها تفلت من يدي. ويحتمل لي أن أستجيبك بعض الوقت بعد اختفائك المتعمد الذي عذبني أشد العذاب، لماذا تختفين؟ أو دعيني أسألك ماذا وجدت برسالي؟

ففتكت في استياء وقالت بحلة:

- أتذكر هذه الوريقة! يا لها من جرأة غير محمودة لا أوافق عليها. . .!

وكان يرنو إليها بين الأمل والخوف. «هل أصنق هذا الغضب الظاهر؟. . . قلبي يحتملني بأنه مبالغ فيه. لعله عرض من أعراض الحياة. إنه كذلك حقاً. لو أردت أن تشق طريقها ما وسعني منها. لا أريد أن أصنق. ولكن لماذا أصرت على الاختفاء؟» وقال باستعطاف:

- جرأة محملت عليها بعد أن أعياني الصبرا

فهزرت رأسها متبرية وتمتمت:

- الصبرا لا تعبت بهذه الألفاظ، ودعني أذهب من فضلك.

فقال في صدق وحرارة:

- ما قلت إلا الصدق. والصدق وحده كان محرّضي على كتابة رسالتي الصغيرة، فكل ما بها صدق. وإنه ليسومي كل الإساءة ألا تلقى عواطفي منك إلا الغضب والنفورا

وازدرد ريقه وهو يلهث ثم استدرك قائلاً بصوت

غادر حسين شقة فريد أفندي محمد، وأغلق الباب وراءه. كان من الكتابة في غاية، وانجحه نحو السلم طأوتاً صدره على اليأس والفقر ولكنّه توقّف ويده على الدرابزين، ورفع رأسه متنبّهاً خفيف ثوب. فرأى طرف لفتان أو معطف وقد عبر صاحبه بسطة السلم الأخيرة المفضية إلى سطح العبارة. من؟ من عسى أن يرتدي هذا اللون الأحمر من سكتان العبارة الذين يعرفهم حق المعرفة؟ ودق قلبه بعنف وشعر بقوة تدفقه إلى أعلى فالتقى على الباب المغلق نظرة حذر وانصت في انتباه وقلق ثم تحوّل عن موقعه وقطع الردهة أمام الشقة على أطراف مشطه متجهاً صوب السلم الأخير الصاعد إلى السطح: لعلها هي. لم يعد يراها منذ ألقي برسالته المطوية تحت قدميها، لا في الحجرة ولا في الصلاة. انحطت غاضبة ولا شك غير عابئة برسالته وعواطفه، ولم تعد ساعات الدرس بعدلها إلا صلاباً وضجراً. وقد ارتقى السلم دون أن يجلث صوتاً حتى بلغ البسطة الأخيرة فرأى شعاع الشمس المسائلة للغروب في مستوى عينيه، ونسجت على جبينه موجات لطيفة من الهواء، وألقى على السطح نظرة شاملة ما بين سور المائل على عطفة نصرالله وسوره الخلفي فلم يجد أثراً للإنسان، ولم يكن به من قائم إلا حجرتان خشبيتان للدجاج، إحداهما في مواجهة باب السطح، والأخرى في ركن السطح عند طرف السور الخلفي وهي الخاصة بأسرة فريد أفندي، واقترب من الحجرة البعيدة في سكون ووقف قريباً من بابها مرهف السمع ولم يسمع بادئ الأمر إلا قوقلة الدجاج، ثم سمع صوتاً يدعو الدجاج كك ك ك ك فلم يستطع أن يتبين حقيقة صاحبه، وخاف أن تكون الأم التي بالداخل فتراجع خطوة مضطرباً، وهمّ بالهروب، ولكن فُتح الباب وبيدت على عتبة بيّنة في معطف أحر. واتسعت عيناهم الزرقاوان دهشة، وثبت بصرها عليه في ذمول، ثم تضرّج وجهها بحمرة شديدة كأن صفحته استحال رقة من غمّل المعطف. ولكن لم يدم هذا إلا لحظات، ثم عمالكت نفسها فجاوزت العتبة

وتفتّح وجهها المورّد في سمرة الغيب المأدنة
فاستغرته عاطفة هيام جامعة فشر بأنّ الملاك أهون من
التراجع وقال باستعطاف منبعث من الأحقاد:
- كلمة واحدة! إذا لم تستطيعي فإيماءة... وإذا
تعلّر هذا فحسبي صمت أستشف منه الرضا!
فتحرّكت شفتاه دون أن تنبس، ثمّ التصقتا، ثمّ
عطفت عنه وجهها وقد اشتدّت نورده عمقاً. وثبّ قلبه
في صدره من حرارة النشوة، وهتف في طمع مزايد:
- ألهذا الصمت الذي أريدته؟! إني أحبك،
وأعاهدك أن أكون لك حقّ الموت..

ومال وجهها إلى الوءاء أكثر دون أن تخرج عن
صمتها المحبوب فسرت في جسده هزّة سرور طافية
حقّ سكر بصره، وما يدري إلّا وهو يغمر إليها،
ولكنّها تراجعت في جفول كمن يستيقظ من حلم
عميق على هزّة عنيفة، وتقاتلت منه فيها شبه الوثب،
ثمّ ولّت مسرعة. وتسرّف في مكانه مرسلًا وراءها بصراً
هائلاً حوثلاً حقّ غيبتها الباب. وتبدّد من القلب وأطلق
بصره بعيداً في سمرة الغيب، والأفاق أطراف وشياش،
فاحسّ بروحه تلدّب في الكون وتفقّ في بهائه. ثمّ
تحركّ في بطء مخموراً متوهّجاً حقّ شارف الباب،
ولكنّه شعر وهو يرمّ بالحجرة الخشبيّة الأخرى بشيء
يجلب إحساسه فلاحته منه التفاتة إلى يساره فرأى
أخاه حسين واقفاً وراء جدار الحجر..

- ٢٢ -

وقال بدهشة:

- حسين!

وسرعان ما لاحظ تغيّر لونه. كان الشاب غاضباً
مكفهراً الوجه. وكان يبلل غاية جهده ليضبط أعصابه
وينالك نفسه. وتساءل حسين عيّا جاء به إلى السطح
ورجّح أن يكون - حين صعد لإعطاء درسه - لمح وهو
يرتقي السلم محاذراً إلى السطح فشكّ في الأمر وتبعه!
هذا هو التفسير المعقول. بيد أنّ التواري وراء الجدران
لاستراق النظر والسمع ليس من شيمه! ولم يدنّ له
بخلد أن يسأله عيّا جعله يقف هذا الموقف، وعل
العكس من هذا تولّاه الحياء والارتباك. ولم يكن الآخر

متنهّج:

- أجل إني أحبك... .

وأدارت وجهها جانباً، وهي لا تزال مقبّلة كما بدا
من انقباض حاجبها وزمّة شفتيها، ولكنّها لاذت
بالصمت قليلاً - بما بعث فيه روحاً جديداً من الأمل -
ثمّ قالت بصوت بدا اللطف موقفاً عما سبقه:
- دعني أذهب. ألا تخشى أن يقتحم السطح علينا
أحد؟!
ربّاه! ألم يعدّ يضايقها شيء إلّا أن يقتحم السطح
عليها أحد؟! وتمشّت في جوارحه نشوة سرور، فقال
بحاس وعيناه العسلتان نضبان بنور بهيج:

- دعيني أفصح لك عن شعوري. إني أحبك.
أحبك أكثر من الحياة نفسها. بل ليس في الحياة من
خير إلّا أنّي أحبك. لهذا ما كتبت. وما أقوله وما
أعيده. صدّقني ولا تلزمي السكوت فما أطيق هذا
السكوت..

فعلطت وجهها نحوه فطالع في صفحته النقيّة
الرزانة والجذّ ولكن خيّل إليه أنّه يرى نوعاً من التأثير
لعلّها بالغت في كتمانها. ثمّ سمعها تقول بصوت
منخفض كالهمس:

- حسبك!.. هلاً تركّني أذهب!

ثاب أن تجلّو هذا القناع! لشّد ما تستكين لحياتها.
وتنبّد بصوت مسموع وتمتم:

- لا أريد أن أعود لمدّاهي بغير نعمة أمل. لقد
فتحت لك صدري وأريتك قلبي ولا أطمع في أكثر من
كلمة طيّبة تردّ إليّ روحي...

ولكنّها بدت أعجز من أن تقول هذه الكلمة،
واشتدّت عليها وطأة الارتباك فتنبّت عنها هذه العبارة:
- ربّاه!.. كيف أغادر هذا المكان!
فغلبه التأثير، ولكن زاده التعلّق بالأصل عناداً
والخاشا فقال بحرارة:

- لا تجزعي هكذا! إني أحبك. ألا يشير هذا
الاعتراف في نفسك إلّا الضيق؟! لن أعود يائساً إلى
العذاب. لن.. لن..
- ويعدّه!

- على تغيره - بأقل منه حياءً وارتباكًا. لعلّه أراد أن يداري حياءه وارتبائه بالتادي في الغضب فقال:

- رأيت أمورًا ساءتني كثيرًا. كيف تطارد الفتاة هذه المطاردة الوقحة؟! هذا سلوك شائن لا يليق بجار يحترم واجبات الجيرة!

ورجد حسين في لهجة أخيه الغاسية ما أنقذه من حياته وارتبائه فقال عابسًا:

- ما أتيت منكرا!! ولعلك سمعت ما قالت!

فأغضى حسين عن ملاحظته الأخيرة وقال بحمّة أشد:

- وهل من منكر وراء اعتراضك لسييلها على هذا النحو غير اللائق؟

- لا أحسبها تعدّه كذلك!

فقال حسين:

- متخير أباهًا...

- لن نخبره...!

فتناهى الحق بحسين وقال بحمّة:

- لشدّ ما خفت أن تهجّم عليها، ولو فعلت لأدبتك ناديبًا قاسيًا...

ودعش حسين لهذا الوعيد المتأخر فكاد يطليح الغضب برأسه، ووثبت كلمات شديدة إلى طرف لسانه ولكنه نجح بأعجوبة في القبض عليها. وصمت مليًا حتى ذهبت عنه وقدة الغضب ثم قال:

- ما كان لك أن تخاف حدوث شيء كهذا...

فتفكر حسين قليلاً ثم قال متراجعا:

- يسيّر على أيّ حال أن أسمع هذا القول. وإذا حقّ لي أن أنصحك فنصيحتي إليك أن تلتزم دائيًا جادة الشرف.

فقال الآخر ببرود:

- لست في حاجة إلى مثل هذه النصيحة..

وغادر موقفه فتبعه حسين، ونزلا معًا دون أن ينبس أحدهما بكلمة. ولم يذهب حسين إلى شقة فريد أفندي ولاحظ حسين هذا دون تعليق. أمّا الأمّ فقالت لحسين متسائلة:

- ما الذي عاد بك سريعًا!

فقال حسين:

- لم يحفظ سالم درسه السابق وسأعود إليه غدًا...

ونذبا إلى حجرتهما فجلس حسين إلى كرسيه من المكتب، ومضى حسين إلى النافذة ففتحها وجلس على حافة الفراش. وأسوأ نهاية لأحسن بداية: ما أحقه! كيف سوّلت له نفسه التجسّس على.. أفسد على شاعريّة الموقف السعيد. كلّ لا يمكن أن يفسدها شيء. سيزول كلّ شيء ويبقى هي وضيئة سميحة باهرة. هيهات أن أنسى لحظة الصمت الناطق. قالت كلّ شيء دون أن تنبس بكلمة...

- أغلق النافذة هل أنت مجنون؟

أفزعت صبيحة أخيه، ثم ركبته الحق والعناد فقال:

- الجرّ محتمل ولطيف...

فصاح به حسين:

- أغلق النافذة بلا مكابرة...

فحملته لهجة أخيه على التادي في العناد فقال:

- انتقل إلى الكرسي الآخر تبعد عن ثيار الهواء إن كان ثمة ثيارا

فنفخ حسين متغيّثًا وقام إلى النافذة فأغلقها بشدّة ففرقت في السكون طقطقة مزعجة وتطمّم لوح من الزجاج. وساد صمت ورعب، وسرعان ما أعماه الغضب فلطم حسين صارخًا:

- أنت السبب!

وجنّ جنون حسين فضربه بقبضة يده في رأسه، ثم اشتبك في عراك. وما لبثت الأمّ ونفيسة أن هرولتا إلى الداخل، ويحضر الأمّ كتّ كلامها وهو يدمم ويبيس. ووقفت الأمّ حالها تردّد بينهما بصرا غاضبا، ثم استقرت حينها على الزجاج المحطم. وتساءلت في هدوء ينذر بالعاصفة:

- ما خطبك؟

فقال حسين بعجلة ولهجة:

- كان يخلق النافذة بقوة فتحكم الزجاج ثم لطمني...

وقال حسين بصوت متهجّج:

- فتح النافذة في هذا الجو البارد فطلبت إليه أن

يشترج بينها وبين الآخرين من عراك، خصوصاً وأنها
كانا يتحاذيان من الاستعانة بحسن إذا اشتدَّ الخصم
عليها أن يتحول النزاع من عراك بين تلاميذ
متخصصين إلى معركة حقيقة دامية وخيمة العواقب،
ببد أنه أصبح من النادر جداً أن يتشاجرا في الأوامر
الآخيرة، ونذر بالتالي أن تؤذنها الأم بالضرب، وقد
سُبقت المعركة الأخيرة بفترة سلام طويلة كادت تقارب
العام. ومهما يكن من أمر فلم يكن أثر الحصار ليحول
بينها أكثر من يوم، ثم يبدأ المعتدي بمخاطبة أخيه في
شيء قليل من الارتباك، ولا يلبث أن يتناسا العراك
كأنه لم يكن. شخص آخر كان يعاني من شجارهما
أكثر مما يعانيان، هي الأم، فكان يترك في نفسها ألماً
عميقاً وتكدلاً متغلغلاً. ولم نجد من وسيلة لتأديبها غيراً
من الضرب لعله يصلح ما أفسد الأب بتدليله لها. ولم
يكن أبغض لنفسها من أن يشدَّ أحد أبنائها عن
حدوده، أو أن يبدو منه ما يعدُّ الفتاك على رابطة
الأسرة المقدسة. وكان لها من حسن عربة بدل الحياة
أهون عليها من أن تتكرر. وحسن نفسه لم ينج من
لكسائها ولكن بعد فوات الأوان وضيع الفرصة.
وكانت لا تفتأ تلوم نفسها وأباه على تطفه، ويعذبها
أشدَّ العذاب أنه كان ضحية للتهاون والفقر. ومز
شطر من الليل والشقيقتان صامتان جامدان، واشتدَّ
السكون بعد أن آوت الأم ونفسي إلى حجرتهما. ثم
بدأ حسين يطالع في كتاب يحاول أن يركز انتباهه
للمشتت. وراح حسين يراقبه اختلاشاً وهو يتسامل
تري ماذا يجد نحوه؟ وكان يحظى بذكريات جميلة
خليفة بأن تعزبه عما أصابه وبأن تثبي إلى طمأنينته.
وسرعان ما رفقت على شفتيه ابتسامة. «كل شيء
حسن. لا ذت بالصمت، ومعناه أنها تحبني. حقاً؟
لشدَّ ما يشوقني أن أسمعها قولاً تتحرك به الشفتان
الشهيان. رويذك. كل آت قريب. الصمت بداية أما
النهاية؟» ولاحت منه الفتاة نحو أخيه فعادوه
الابتسام. «ما كان ضررني لو أغلقت النافذة؟» يبدو أنه
لا يستطيع متابعة القراءة. لو رُعب مثل حظي السعيد
لما أعياه النسيان؟ ودخله نحوه شيء من العطف.

يغلغلقها فأب بوقاحة فقامت لأغلقها بنفسي وحصل ما
حصل...

فزفرت الأم قائلة:

- ربحك يا ربي ألا يكفني ما بي!

وقبضت يديها على منكبيها وجذبتهما إلى وسط
الحجرة، وصاحت في وجه حسين قائلة:

- ألا تخجل من نفسك وأنت في سن الرجال.

ودفعته في صدره بقبضة يدها مرتين، ثم لطمته،
وانفضت على حنين الذي تراجع وهو يصيح:

- هو البائد بالضرب، وهو الذي حكلم

الزجاج...

ولكنها هوت بكفها على فمها، ثم كملت له
الضربات على رأسه ووجهه حتى حالت بينها نفيسة.

وصاحت المرأة:

- حذار أن أسمع لأحدكما صوتاً: أما النافذة

فستبقى مكسورة حتى تصلحها بنفسك!..

وغادرت الحجرة مكشوفة الوجه عملاًها تعاسة لا حد
لها. ولبثت نفيسة بينها برهة عجزت ثم تهمت:

- زمن العراك انتهى. أننا رجال الآن!

ثم خاطبت حسين مبتسمة:

- ضقت بالهواء لحظة فيأذا أنت فاعل الآن وقد

فتحتها إلى الأبد؟! الصفا جريدة مكان الزجاج وألا
فعليه العوض فيكما...

ولما لم نجد لقولها الأثر الذي انتظرت غادرت

الحجرة. وعاد حسين إلى كرسيه صامتاً على حين ارتمى

حسين على الفراش متغلاً. كثيراً ما ينتهي الشجار

بينها بتدنل الأم على هذا النحو. ولم تكن حياتها تملو

من ملاحة وشجار على صداقتها الوطينة؛ وصحبتهما

التي لا غنى لأحدهما عنها. وكانت الغيرة كثيراً ما تمكّر

عليها صفوها ولكنها ظلاً رغم هذا صديقين يتبادلان

الأخوة والحب ولا يستغني أحدهما عن صاحبه. وكان

حسين أعقل الأخوين وحسين أقوامها، فكان الأول

يقوم بمهمة الإرشاد والتوجيه فيما يعرض لها من

مشكلات تتعلق أغلبها باللعب والمسائل الاقتصادية

الصغيرة، وكان الآخر يعمل عبه الدفاع الأكبر فيما

- ٢٣ -

عادت نفيسة إلى عطفة نصرالله عند الغروب، كعادتها في هذه الأيام الأخيرة. وكان يبدو عليها أنها أخذت تغير نفسها اهتمامًا وعناية، وهو ما أملهه طويلًا حدادًا على وفاة والدها، فكحلت عينيها وصبغت خديها وشغفيتها بحمرة خفيفة. شيء خير من لا شيء بل إن دأبه على التردد إليها ومغازلتها خلق بها بعض الثقة بنفسها، والطمانينة والأمل. ولم تعد تذكر أنه ابن بقال وأنها ابنة مؤقف فاهتمامه بها أنزله من نفسها منزلة أثيرة رفعت فوق مقام أفضل الناس في نظرها. وانسألت إلى تشجيعه بدافع من عواطفها المشبوبة المكبوتة، وبأسها الخائق، والرغبة في الحياة التي لا تموت إلا بالموت. وبات مع الأيام صورة مألوفة، بل محبوبة، أثبتت لها في جذب الحياة زهرة مترعة بالأمل، فلم تعد تستقبل يومها بعين خابية لا تنتظر جديدًا. وما هي تنقل خطاها في عطفة نصرالله بعد نهار حافل بالعمل فيها سرور حار دافق يسري من القلب ويتشرب مع دمها في الأعصاب والأعضاء. قال لها مرة «تريدين حلوة؟» ما الحلوة إلا أنت!». وغزا قوله نفسها فانبثقت في بهجة ومرح. وقد حدثتها نفسها أن تقول له «لا تكذب، لست من الحلوة في شيء» ولكنها أمسكت في حيرة وشك، وذكّرت نفسها بقول القائل «لكل فولة كِبال» من يدري فلعلها ليست بالقبح الذي تظن. وجعلت تطوي الطريق وعيناها إلى الدكان حتى وقفت أمامه وجهًا لوجه. ولاح السرور في وجه سلمان فقال:

- أهلاً وسهلاً كنت أنساك متى تأتئين؟

ومرّت بنظرة إلى مقعد الأب فوجدته خاليًا، ثم لمحتة يصلي وراء العمود القائم وسط الدكان حُملاً بالعلب والبطرمسات فدخلتها طمانينة وقالت في دلال:

- ولماذا تنسأ؟

فضيق عينيه الضمئيتين وقال مبتسمًا:

- حُزري... أسألي قلبي...

فرفعت حاجبها المزججين وقالت:

- أسأل قلبك؟.. ماذا وراءك يا قلبه؟

فقال الشاب همسًا:

- يقول قلبي إنه شُرُّ رؤيك واستظروه على لفه!

- حقًا؟

فاستدرك في جد أكثر من ذي قبل:

- ويقول أيضًا أنه يرغب في أن يلقاك الآن في

الشارع ليفضي إليك بأشياء هائلة...

والتفت إلى أبيه فسمعه يقرأ التحيات فقال لها بمجلة:

- في وسعي أن أغيب عن الدكان فاسبقني إلى الشارع العام!

ونظرت إليه في اضطراب وحيرة. وجدت في نفسها رغبة إلى ملاقاته، ولكنها أبت أن تدع دون ممانعة من جانبها وإلحاح من جانبه فقالت:

- أخاف أن أتأخر...

فقال بجزع وهو يومئ صوب أبيه حملاً:

- دقائق معدودات. اسبقني قبل أن يحتم الرجل صلاته.

ولم تجد في الوقت مسعًا للتمتع والدلال فتحوّلت عن موقفها وقلها يدي ثم انجذبت بعد لحظة تردّد إلى شارع شبرا. ركبتها الاضطراب والقلق والخوف، ولكنها أمنت في السير دون أن تفكر في العدول. خطوة جديدة هوّن من وقها طول ما حلمت بها. وما لبثت أن تغلّبت على الخوف فارغة للأمل الحلو الذي يتخايل لعينيها في نهاية الطريق. ولما انتهت إلى الشارع نظرت وراءها فرائته يحدّ خطاه وقد ارتدى جاكته على جلبابه، فالتفت إلى اليمين وأوسعت خطاها مبتعدة عن حيّها. ولحق بها مهرولًا فقال بسرور:

- استأذنت من أبي دقائق...

والتفت على زيه نظرة لم يخف عنه معناها فقال كالمعتز:

- لا يمكن أن أرتدي البدلة إلا ساعات المظلة!

وكان يبدو فرحًا سرورًا. لم تكن عينه العاشقة من المعنى بحيث تراها جميلة ولكنها كان من أبيه المستبدّ في ضيق وحرمان فرح به هذه الفرصة التي تتيح له الممكن

الكلمة التي تلتفت على سماعها ويربح قلبها؟ وعاد وهو يسأل:

- هل نتقابل إذن يوم الجمعة القادم؟
فترددت قليلاً ثم غمضت:
- إن شاء الله.

وعادت إلى البيت كثيرة الفكر. لهذا بدء الحب الذي طالما تلتفت عليه. نفث قلبها الغبار عن جوهرة وذبت فيه حياة مفعمة بالشوة والحرارة والأمل. كل هذا حق، بيد أنها قلقة متحيرة لا تدري شيئاً عما يمكن أن يتمكّن عنه، ولا عما يمكن أن يقابل به نبأه في أسرتها!

- ٢٤ -

انتهى حسنين إلى باب السطح ثم تنهد بصوت مسموع ليبلغها صوته ولكنها تجاهلته وسارت متمهلة صوب الحجره الخشبية، فتفتح، ثم اندفع نحوها بجسارة والشمس تلقي عليها أشعة الوداع، فدارت على عقبها وطالعت بهرجة كنوم بأى أن يعلن عن غضب أو رضى، ثم غمضت:

- أما لهذا من آخر؟

فضحك ضحكة قصيرة وقال:

- إنك تؤذيني أدباً لن أنساه.

فقال وهي تحافظ على سكوت وجهها:

- ليتك تزدجر.

ففرق بإصبعه وهنق:

- هيهات!

ثم تنهد بصوت مسموع وكان يطير من الفرح لما أنه من رغبته في محادثته.

- هيهات أن أنثني عن حبك.

فتورد وجهها، وعيست قائلة:

- لا تردّد هذه الكلمة.

فقال بعناد وهنق وتوكيد:

- أحبك!

- أتروم إغاظي!

- لا أروم إلا حبك.

فقال بحدّة:

من الحب، ففى في مثل حالها من اليأس والدمعة والعجز، ووجد فيها - مهما تكن - أنثى تستسب للجنس المحبوب العزيز النال. وخاف أن تمضي الدقائق دون أن يقول لها ما يريد فقال بعجلة:

- الدكان يغلق عادة عقب ظهر الجمعة، فقابلني عصر الجمعة ومن ثمّ نذهب معاً إلى روض الفرج.

فقال باستنكار:

- نذهب معاً؟ هذه طريقة لا أرضاها.

- ماذا علينا لو فعلنا؟

- لست من أولئك الفتيات!

- حاشائي أن أظن بك السوء. ولكن ينبغي أن

نجد مكاناً آمناً للحديث.

- أخاف أن يرانا أحد من إخوتي.

- من السهل أن نضاهى هذا!

فهزت رأسها وقالت في حيرة:

- لا أحب هذه الحياة المليئة بالخوف.

- ولكن ينبغي أن نتقابل.

فتفكرت ملياً ثم تساءلت:

- لماذا؟

فنظر إليها في دهشة ثم قال:

- كي . . كي نتقابل!

فقال بقلق:

- لا . لا . لا . لست لهذا!

- ليس لدينا ما نقوله؟

- لا أدري.

- لديّ الكثير.

- فما هو؟

- ستعلمينه في حينه. ليس لديّ الآن متسع من

الوقت . . .

فساورها الشكّ حيناً ثم قالت وقد تورد وجهها:

- قلت لك إنّي لست من أولئك الفتيات!

فقال الشاب بلهجة تتمّ عن الأسف:

- يا سلام يا ستّ نفيسة! أنا رجل سوق وأفهم

الناس!

فدخلها الارتياح، وإن تساءلت لماذا لا يقول

رشاده. وفهم ما فاته فهمه، وأدرك أن الأمر جد لا هو ولمب. ولم يأسف على هذا بل زاد سروراً ولكن غشيته غاشية خوف وقلق لم تخف عليه دواعيها.

وخرج من حيرته بأن قال:
- إني أدرك وجماعة رأيك، وأوافق عليه، ولكن ليس هذا كل شيء. إني أسأل قلبك أولاً... ؟
ولانت ملاحظها ولكنها لم تفقد السيطرة على إرادتها، فقالت:

- أرجو ألا تستلجني لحديث لا أحبه!
- لا تخيبي!
ولم تكن تعي ما قالت بالضبط ولكنها لم تزل بدا من أن تمنم قائلة بصوت ضعيف:
- أجل... .

فقال حسنين بارتياح:
- هذه طعنة دامية في قلبي!
فقالت بحيرة وارتباك وحياء:
- لا أحب أن أسلك سلوكاً أو أقول قولاً يستوجب الإخفاء!
فلم يملك أن يتنسم قائلاً:
- ولكن هذه ضرورة لا بد منها، وما فيها من عيب!

فلم ترتج لقوله ولا لابتسامته واشتد تورد وجهها فقالت بشيء من الحدة:
- كلّا. لا أحب المداعبات ولا الغزل!
- ولكني أحبك حباً صادقاً... .
- أف. لا تقسري على سماع ما لا أطيق سماعه!
فتساءل مبتسماً:

- هل أقتل نفسي؟
فابتسمت أفكارها دون أن يبدو شيء على وجهها وقالت:
- لا داعي مطلقاً لقتل نفسك. لقد قلت ما عندي!

وأعادته العبارة الأخيرة إلى حيرته وخوفه، فقال بعد تردد:
- لست إلا شاباً في السابعة عشرة، وتلميذ بالسنة

- ساصمٌ أدني.
فرجع صوته قليلاً قائلاً:
- أحبك. أحبك. أحبك!
فلانث بالصمت، وجعل يلتهم وجهها بعينه في شوق وانجذاب حتى لم تعد تحتل وقع نظراته فولته ظهرها مبتعدة ولكن اندفع وراءها فالتفت نحوه مقطبة، وقالت:
- أرجو أن تدعي وتذهب.

فقال بدهشة:
- لا عمل لهذا القول الآن. مضى زمنه ويات قديماً.
نحن الآن في «أحبك»!
- وماذا تريد؟
- أن أحبك؟

ومضت بانتباهه فغلها الابتسام الذي أعياها كتابته، ثم ضحكت ضحكة مقتضبة مكتومة خرجت من أنفها نفخة لطيفة، ولم تملك أن خفضت رأسها حياء. وهزته هذه الحركة فهاجت صبوته وأقبل نحوها متشجعاً طامعاً ومد يده ليمسك يدها، ولكنها تراجمت فيها يشبه الرعب، وخاطبته بلهجة جادة لا تترك ريبة في جذبتها:
- لا تمسني!

فغاضت ابتسامه الظفر في شفتيه ولكنها لم تبالي واستطردت قائلة بنفس اللهجة الجذبة:
- لا تحاول أن تمسني أبداً. لا أسمح بهذا ولا أتصوره!

فوجم قليلاً ثم قال بدهشة:
- إني أسف. ما قصدت سوءاً. إني أحبك بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى صحيح... .
فقالت وهي تنظر إلى قدميها وقد نمت مظهرها على شعورها بخطورة ما تقدم على قوله:
- إني شاكرة لك هذا، ولكن ليس «أنا» الذي أملك الرد عليه!!

ووقع قولها من نفسه موقع المفاجأة والدهشة. كان يجري وراء عاطفته مستغرقاً فيها دون أن يفتكر فيها عداها. كان يحب ولا يرى إلا الحب، فأعاده قولها إلى

الثالثة الثانوية، فكيف أفتح هذا الحديث؟

فنتحت عنه وجهها قائلة ببرود:

- انظر حتى يصير رجلاً

فقال في دهشة مزروجة بالاستنكار:

- هيه!

فقلت في هدوء:

- ما من سبيل إلا هذا...

شعر بنغيظ، وضاق بما تلقاه به من حزم، ولكنه أحس في الوقت نفسه بحبها يغلبه على أمره ويمطيح بخوفه وقلقه، فقال باستسلام:

- لك ما تشائين. سأحدثن من يدهم الأمر...

لرفعت إليه عينها لحظة ثم خفضتها، وبدت حينئذ كأنها تمهم بالكلام ولكن غلبها الصمت فقال:

- سأحدثن فريد أفندي.

- أنت!

- نعم.

فلاح في وجهها الاعتراض دون أن تنبس، فتساءل:

- هل من الضروري أن تقوم أمي بهذه المهمة؟
فترددت قليلاً ثم قالت بصعوبة ووجهها يتضرج بالاحمرار:

- أظن هذا!

وضاق صدره بهذا القول الصريح الذي يساوره الاعتراف في قلعه. تخالبت لعينيه صورة أمه الحزينة وهي قابضة في الصالة التي لا يضاء مصباحها توفيراً للنفقات فاضطرب صدره، وقال بصوت منخفض:

- سأحدثه وأقنعه بفاعلة أمي في الأمر.

فتساءلت الفتاة في دهشة:

- ولماذا لا يتحدثها بنفسك؟

أوشك أن يقول ولا أستطيع ولكنه أطبق فاه، ثم قال متجاهلاً سؤالها:

- لشد ما أخاف أن يسخر مني، أو أن يعترض على استقباليك في الانتظار حتى أتم مرحلة التعليم الطويلة.

وقالت بصبر نافذ وبلا وهي تقريباً:

- سيوافق على الانتظار ما دمت أوافق عليه!

وعصت على شفتيها في حياء ولم تقطع إليهما في لفظة وشغف، ومد إليهما ذراعيه وقلبه يضطرم اضطراماً، ولكنهما تراجعت عنه، مقبلة لتخفي تأثرهما، وتتمتم:

- كلاً، كلاً، أنسيت ما قلت لك؟!

- ٢٥ -

كان الشقيقان يجلسان حول المكتب كعادتهما كل مساء. وكان حسنين يعتمد وجهه بيده غائياً في أفكاره تنم نظراته وقصمه لأظافره من أن لأخر على قلعه وتوتر أعصابه. وحسين نفسه لم يدع عليه أنه يجني ثمرة تذكر من نظره في كتاب مفتوح أمامه، وكان يجلس من وجه أخيه نظرات متقطعة فلا يتهاك نفسه من التيسم، وعواطف شتى تتناوب قلبه، وضاق بالصمت فقال بلهجة ذات معنى:

- طالت المفاوضات!

فانتبه إليه حسنين في فزع ثم تنهد قائلاً:

- مرّت ساعة، بل أكثر. ترى ماذا هناك؟

فقال حسين ساخراً:

- انقلبت الآية، فالشبح أن يذهب آل الشاب لطلب يد الفتاة، ولكن في حالتك يجيء والد الفتاة لطلب يد الفتي!

فقال حسنين بنرفزة وحسن:

- يحق لك أن تسخر مني فلا خوف عليك. ترى ماذا يقال الآن في حجرة الاستقبال؟ ماذا تقول أمي؟!

فقال حسين في هدوء:

- عيّا قليل ستعلم بكل شيء!

- أتنظها ترفض رجاء رجل كفر يد أفندي؟

- من يدري؟ الذي أعلمه علم اليقين أننا سنخسر - في حالة الرفض - مرتبتنا الشهري الذي لم نحلم به! فرماه حسنين بطرف حائر ثم تساءل:

- لآتم يطول هذا الانتظار المزعج!

وعادا إلى الصمت وكانا قلباً للمسألة على جميع وجوهها، وطال حديثهما عنها في أوقات متقطعة منذ أفضى حسنين إلى شقيقه بما كان من حديث بينه وبين

وسألته في هدوء:

- ألا تدري قيم كان مجادني فريد أفندي وزوجه؟
فارتبك الشاب الذي لم يكن يتوقع استجواباً وظنَّ
أنه - بالنسبة للمسألة كلها - من المتفجرين، فلم يمر
جواباً، حتى قالت الأم بخشونة:

- أجب...

فتحوّل بصره صوب حسنين في حيرة واستغاثه،
فاقتنعت الأم بهذه الحركة وسألته:

- متى علمت؟

قال في إشفاق:

- أول أمس!

- ولماذا أخفيت عني؟

فلاذ بالصمت لاحقاً أخاه وحفظه اللذين أروطاه في
المسئولية بلا ذنب جهه، وتهددت عند ذاك وقالت
بأسى:

- الأمر لله فإن شقائي بكما فلق ما آلاقي من زمان
الأسود!

وكانت نفيسة تكره جرّ الشقاق يطبعها فأرادت أن
تلطف من حديثه. ولا يعني هذا أنها كانت تشجع
أخاها على رغبته، ولعلها كانت أشد غضباً من أمها،
بل إنها عدت الأمر كله تدبيراً دينياً لاختطاف شقيقها،
ولكنها رغبته صادقة في تخامي نزاع لم يعد يجدي،
فقالته مخاطبة أمها:

- لا تبيحي دمك. ما كان كان، فارهونا من وجع

الدماع.

فانتهرت أمها بحدة قائلة:

- اخبرني!

والفتحت إلى حسنين قائلة بازدياد:

- لملك ملهوف على معرفة ما انتهى إليه مسعاك
الذي دبرته بلبل؟...

وهزت رأسها في أسى ثم قالت:

- لك قلب محسد عليه، فإنه يستطيع رغم فجيعتنا
ونعاستنا أن يعشق، وأن يستهين بنا جميعاً في سبيل
سعادته، والحق آتي ذهلت حين حديثي فريد أفندي
عن آمالك الواسعة، وهيامك العجيب. ولكنني حديثه

فريد أفندي محمد. وقد رحب الرجل بطلب الشاب
ترحباً وقع من نفسه موقع الدهشة، فلم يكن ينتظره،
ولم يكن ينتظر بعضه، ثم وعد بمخاطبة الأم، وتلليل
آية عفة مهما تكن خطورتها! وسُحّ حسين - تفسيراً
لهذا - إلى أزمة الزواج من ناحية، وطيبة فريد أفندي
وحبه الماثور لاسرهم من ناحية أخرى. ولم يبق الآن
إلا أن ينتظر النتيجة الوشيكة الظهوراً وجعل قلق
حسين يترابّد بمرور الوقت. وبعد دقائق أعلم كل
شيء. هل تكون هيئة لي أو أدفن هذا الأمل الوليد؟ لا
سبيل إليها إلا بهذا. إني أريدها ولا غنى لي عنها.
تري ليم تفكر هي في هذه اللحظة؟ ألا يتوزعها القلق
على مصيرنا؟ إننا نحتمي بلا ريب. حسبي هذا من
الدنيا جميعاً. ثبأ له إنه يطالع في هدوء، ويستمتع
بمراقبة المعركة من بعيد لا حب ولا قلق. لشد ما
توسمنا هذه العاطفة الطاغية من عناء. من قال إننا
نقيم في القلب؟ الأرجح أننا نتمش في العقل! وهذا
سر الجنون! واستيفظ على صوت حسين وهو يقول:

- إننا خارجان!

وأرهف حسنين السمع فبلغه ما يتبادل الرجل
وزوجه وأتمه من عبارات المجاملة المألوفة. ومضوا إلى
الباب الخارجي إلا نفيسة قد جاءت إلى باب الحجرة
ووقفت تنظر إلى أخيها بغرابة ثم قالت:

- يا ما تحت الساهي دواهي! أتريد حقاً أن
تنزّوج؟

وغمغم حسين:

- أول الغيث قطرا

وانتقل حسنين مدلولها بغريزة اللغاع عن النفس
من كرسية إلى فراشه في أقصى الحجرة لصق النافذة
التي حل ورق الصحف محل زجاجها المفقود. ثم
سمعوا وقع أقدام الأم وهي قادمة، ودخلت تسير في
خطا ثقيلة صلبة الفلسات جامدة النظرة، وبحث
عينها عن حسنين حتى استقرتا عليه في آخر الحجرة
ولبت تنظر إليه حيناً ثم مضت إلى الكرسي الذي تركه
وجلس عليه في شبه إعياه. ساد الصمت ملياً فلم
يجرؤ أحد على خرقه حتى نظرت المرأة إلى حسين

فأنصتت نفيسة باهتمام وقلبيها يتابع ضرباته، لم يعد جديداً أن تسير متأبطة ذراعه في شارع من الشوارع المتفرعة عن شارع شبرا حيث يغلب الظلام على جنباتها ويقل المارة. وكان يبلو لها دائماً، على دمعته وحسارته، ففى رائحة حرارة عاطفته وشدة انكبابه عليها، وكانت لهذا محبة من أعياقها، بل باتت مجنونة به.

واعتقدت أنه الحبيب الأول والأخير. ليس لها سواء، ولن يكون لها سواء، فتملقت به بقوة الأمل، وبسرة اليأس، وأحجته بأعصابها ولحمها ودمها، ووجدت فيه غرائزها المشبوبة العارمة أداة نجاة تنشلها من الأعياق.

كان أول رجل بعث فيها الثقة، وطمانها إلى أنها امرأة كريمة النساء. وكان إذا قال لها «أحبك» تخلق خلقاً جديداً فترى الدنيا - على كثافة الظلام المحيط - نوراً وبهاء. بيد أنها لم تقنع بكلمات الحب، تلهفت إلى شيء آخر ليس دون الحب منزلة، أو لعلها شيء واحد في نظرها. فلم تتأ تأتدسدرجه حتى قال ما قال ثم تشجعت بالظلمة وتساءلت:

- وماذا أنت فاعل؟

فقال بلا تردد:

- كان من الطبيعي أن أعلن أبي برأيي ثم نذهب معاً إلى والدتك لنطلب يدك، اليس كذلك؟
- اطمن هذا...

فنهذه بصوت مسموع وقال:

- يسا لي! هذا أصل بعيد المنال في الوقت الراهن...

فانقبض قلبها وتساءلت في انزعاج:

- لماذا؟

فقال بغيظ:

- أيها... لعنة الله عليه. رجل عجوز أحق عنيد، ويطمح أن يزوجه من ابنة جبران التوني البقال عند تقاطع شبرا بشارع الوليد. وليست في حاجة إلى أن أقول لك أنني لم أوافق، ولن أوافق، ولكنني لا أستطيع أن أقترح عليه الزواج من أخرى في الوقت

بدوري عن كفاحنا وتعامتنا. حدثته عن أثنائها الذي نبيعه قطعة قطعة لنحصل على الضروري من القوت وعن شقاء أختك التي تمتهن الخياطة وتقطع النهار بين هذا البيت وذاك، ثم صارحته بأن أحداً من أبنائي لن يتزوج حتى ينهض بأسرته المنهارة.

وسكنت المرأة وعينها لا تتحولان عن وجهه وهو خافض العينين تملوه كآبة وقنوط، ثم استطرحت قائلة بحزن:

- ومهما يكن من أمر فلا يسعني إلا أن أشكر لك عطفك وإنسانيتك!

وقامت المرأة وغادرت الحجر لا تكاد ترى ما بين يديها من الغضب والحزن وتخلعت وراءها صمماً ثقيلاً. وبلغ التأثير من نفيسة فتناست غضبها الدفين واقتربت من حسنين وقالت متظاهرة بالمرح:

- نينة لم تقل كل شيء. وأؤكد لك أن ثمة ما يدعو حقاً لحزنك. وما كان يوسعها إلا أن تبقى على صداقة فريد أفندي وموخته، ومن ذا يستطيع أن ينسى جميله ومروته؟! قالت له إنها تعد موافقة على طلبك شرفاً كبيراً بيد أنها ذكرت له حالنا الذي يعرفه حتى المعرفة وسألته أن ينتظر حتى تنهض أسرنا من عزتها مكتئباً بكلمتها على أن تملن الخطبة إذ أنت رجل مسئول. وقالت له أيضاً إنه يسعدنا أن تختار بنية زوجاً لابنها، فلا داعي للحزن على الإطلاق...

ونظرت الفتاة إلى وجه أخيها والاشراق يعاوده فدخلها غيظ مفاجئ ولكنها أحسنت كتمانها وقالت بلهجة لم تخل من حدة:

- اسعد نينة فهي مسكينة حزينة، ومما يحزنها ولا شك أن نشاركتها همومها أما إذا وجدت متاء... ما علينا، لا أحب أن أعود إلى هذا. وحسي أن أقول لك إن الأمور تسير كما تحب (ثم ضاحكة) لعنة الله عليك وعلى الحب معاً..!

- ٢٦ -

قال سليمان جابر سليمان:

- فلا بد أخلك شك في هذا. ستزوجه كما قلت لك. وهذا عهد مني أمام الله.

الحاضر، وإلا كان جزائي الطرد...

وأحسّت جفافاً في حلقها، ورفقته بازدياد، ثم نساءلت في قلق:

- والعمل؟!!

- نصبر، ثم نصبر. ولن نحولني قوّة في الأرض عن غايي، بيد أنّه يجب أن نأخذ حذرنا أن يفتن الرجل إلى علاقتنا...

- وإلام نصبر؟

فتردّد في حيرة ثمّ تمتم:

- حتّى يموت!

فهتفت بالزعاج:

- يموت؟! هبنا متنا قبله!

فضحك ضحكة جافّة في ارتباك وقال:

- دعي هذا لي ولزمن. لم تقضي بنا الحبل بعد!

كلام عائم لا يروي غلّة. ولا أستطيع أن أقول له إنّني أخاف أن يتقدّم في أحد في أثناء الانتظار لطلب يدي. هذه حيّة وجبهة في يد غيري عنّ يحظن بقسط

من الجبال أو المال. أمّا أنا فمن عسى أن يتقدّم لي في هذه الأيام التي لا يتزوّج فيها أحد. وضيت بالمهم ولكنّ المهم لا يرضي بي. ابن بقال: إنّ البذلة تبلو على جسمه قلقة نابية. وشعرت بيد القهر تقبض على

عنفها. وزادها الخوف تملّقا به فلو وزن في هذه اللحظة بالدنيا كلّها لرجح بها في قلبها. إنّها لا تدري

على وجه الوضوح كيف يمكن أن تتزوّج منه حتّى ولو ذلّل ما يعترضه من عقبات، فإنّ أنّها لا تستطيع أن تقدّم لها شيئاً، فضلاً عن أنّ الأسرة باتت لا تستغني

عن القروش التي تريحها لها، ولكنّها تريد، تريد من الاعراق، ويأتّي ثمن. وتجهّم وجهها، وفتحت فاهها لتتكلّم ولكن لاحظت منها التفاتة إلى شبح قادم فجمد

الدم في عروقها؛ وشهقت شهقة فزعاً وكادت تطلق ساقيها هاربة لولا أن مرّ القادم تحت المصباح فتنوّر وجهه وتهتكت تهتد الأمان بعد الرعب، وعجب سليمان

لشأنها فساءها:

- ما لك؟

فقالت وهي تلهث:

- حسبته أنني حسن!

وانتهز الشاب الفرصة ليفصح عن رغبة طال احتضانه لها فقال:

- لن نأمن الخوف ما دمنا نخط على وجوهنا في هذه الطرق. أصبني إليّ، لاسخا لا نذهب إلى بيتنا فتمكث فيه قليلاً بعيداً عن الأنظار؟

فصاحت به في دهشة:

- بيتك؟!!

- نعم أبي يقضي مساء الجمعة حتّى منتصف الليل عند شيخ الطريقة الشاذليّة، وأتي في الزقاق عند أنني التي جاءها المخاض اليوم، ليس في البيت أحد!

فقال في ذهول وقلوبها يدق بعنف:

- كيف أذهب معك إلى بيتك؟! .. أجننت يا هذا؟!!

فقال بضراعة حارّة:

- إنّني أتمسك مكاناً آمناً. يبقى آمن ودعوتي بريئة. أريد أن أدخل إليك في أمان فنعالج همومنا في روية بعيداً عن المخاوف والعيون...

كان يتكلّم وكانت تصغي مقلّبة. وكانت تتخيّل على رغمها البيت الحالي في قلق وخوف، وحاولت أن تلمس خياله بالتناهي في الغضب ولكنّه ظلّ قائماً في رأسها. وقالت في حدّة:

- ليس في بيتك...

فقال الشاب باستعطاف وهو يشدّ على راحتها:

- لم لا؟! ظننتك ترشّين بدعوي. أليس لك ثقة في؟ أليس لك ثقة في نفسك؟ أريد أن نخلو لذاتنا، وأن نتحدّث، وأن أطلعك على مدى حيّي وآمالي وخططي. ليس فيما أدعوك إليه من عيب ولن يدرى

بنا أحد.

فهزّت رأسها في عناء وقلوبها يوالي ضرباته الشديدة. وقتت لو تستطيع أن تخلو إلى نفسها لتتفكر طويلاً، وشعرت برغبة في الهروب. ولكنّها لم تبد

حراكاً، وسارت إلى جنبه وراحتها في يده وعيشاً حاولت أن تبعد خيالها عن البيت الحالي المنتظر. ثمّ جاءت لحظة فشعرت بأنّ باطنها يتقلب رأساً على عقب

وأثّرت تنووس في أعناق ما لها من قرار. وازدادت

اضطرابًا وقلًا فقلت في ضيق:

- ليس في بيتك!

فشد على يدها بيد مرعفة وقال:

- بل في بيتي. فغري قليلاً. ماذا تخافين؟ إنّي أحبك وأنت تحبيني ونريد أن نتحدث عن حبنا ومستقبلنا في أمن عن العيون. هذه فرصة وهيأت أن نجد البيت خاليًا مرة أخرى. إنّي أعجب لترددك...

وأنا تشاركه عجيبة من ناحية أخرى. إننا نتردد حقًا. ولو أرادت أن ترفض رفضًا حاسمًا لما أعياها اليان. ولكنها يبدو أنها تدأب على الرفض المتردد الذي لا يحكم إغلاق الباب. إننا في الغالب خائفة وخجولة ولكن لم تعد تستطيع تجاهل الانقلاب الذي حدث في باطنها. وفاضت نفسها بالقلق والاضطراب والتوتر، ثم قالت بصوت ضعيف:

- الأفضل أن نواصل المشي...

فجذبها بإغراء وهو يقول:

- قد ننشئ الأرض في أيّ موضع وفي أيّ لحظة عن أخيك حسن!

فوجدت نفسها تجاريه في تخوفه في استسلام:

- إنّي أخاف هذا!

فقال وهو يتهدد في ارتياح زافرًا من صدره شواغلًا

من نار:

- لنذهب إلى البيت...

فقاومت يده في وهن وهي تقول:

- كلاً. لن أذهب.

- دقائق معدودات. عطفنا معتمة ولن يروانا أحد.

وسار بها وهي تتبعه في تناقل قاتلة:

- كلاً...

وكان قلبها يلقي بعنف يكاد تصدع له الضلوع...

- ٢٧ -

وفتح الباب بمفتاح معه وهس في أذنها «نفّسلي»

فالتفت بتوسّل:

- لنعد...

فدفعها برقة وهو يقول:

- لا بدّ أن تشرّفي البيت...

ودخل وراءها وأغلق الباب فوجدت نفسها في ظلام دامس، وارتفع وجهها إلى السقف في انتظار النور، ولكنها شعرت بيده تتحسّس منكبها فمرت بها قشعريرة وهمست في خوف:

- النور.

فقال معتزلاً:

- مصباح الصالة تالف...

فالتفت في ضيق:

- أشعل أيّ مصباح نستغيه بنوره.

فأحاط خاضعها بلزاعه وجذبها معه وهو يقول:

- إنّي أعرف الطريق إلى حجرتي...

وحاولت أن تتخلّص من ذراعها ولكنه شدّ على خاضعها فلم يتخلّ عنها وسار بها ببطء وجنباهما ملتصقان، فجثم على صدرها ضيق خائق وجعلت تتساءل في نفسها «ماذا فعلت بنفسي؟» ثم أخذت تآلف الظلمة رويدًا فلاحت لها في الظلام أشباح كراسي وصوان وأشياء أخرى لم تتبينها. وقطعا الصالة في بطنه وحلده، ثم مدّ يده الأخرى ففتح بابًا مرّق صريره الصمت المخيف، ودفعها أمامه من خاضعها ثم ردّ الباب بقدمه، سرعان ما تخلّصت من يديه وقالت بحلّة:

- أشعل المصباح فقد ضقت بالظلمة...

فجاءها صوته يقول برقة وحلده في لهفة تنمّ عن الاعتذار:

- آسف يا سقي فإن شقّة عمّي ملاصقة لشقّتنا ولا آمن إذا راوا نورًا بها أن يترك أحد منهم بابنا!

فسأله في دهشة واستكثار:

- هل نبقى في الظلام؟

فقال متوقّدًا:

- في نورك الكفاية...

فالتفت في توسّل:

- دعني أخرج...

فتلمّس يدها في الظلام حتّى عثر بها ورفعها إلى فمه فقبلها مرةً ومرةً ثمّ قال بصوت مضطرب:

- بل تجلسين لتستريحي، وستألفين الظلمة فلا تزعجك.

ومال نحوها - فيها يشبه الانقراض - فرفعها بين يديه، وسار بها إلى نهاية الحجرة وأجلسها على كنبه وجلس لصقها وهي مستسلمة من شدة الاضطراب والذهول، ثم قال:

- دعينا من الأخذ والرد. ينبغي أن نجلس في هدوء وأن نتحدث. لقد نجّمنا مشقة كبيرة في سبيل المحبة إلى هنا وسنأن أن نمكث في الظلام أو النور. ليس هذا بلني بال ولا يصح أن يكثّر صفونا...

وتناول ساعدها وأطره قبلا من شفّته الغليظتين وهي ترحف وتحاول عينا أن تجمع شتات أفكارها. ثم تزحزحت بعيداً عن جنبه الملتصق بها لتسترد أنفاسها فيال نحوها ولكّتها حالات دونه يبدوها وهي تقول لاهة:

- دعني وحدي، إني تعب...

فاسترد أنفاسه وقال ضاحكاً:

- تشجعي. ما لك خائفة مرهقة!.. أنت في بيتك في بيت زوجك.

وكانت نبضات قلبها تنق في أذنيها وتقرع رأسها، فتنفست من الأعياق. وشعرت بيده تتناول يدها فهتت بجذبيها ولكّتها عدلت عنه وكأّتها استسختفت نفسها، فأبقاها بين يديه وقال بصوت تغتريت نبراته:

- كلّ شيء هادئ ولطيف. إني أرى جمالك رغم هذه الظلمة.

فقالت بلا وعي تقريباً:

- لست جميلة...

فذلك يدها براحيته وقال:

- دعي تقدير هذا لي، إني لا أجنّ للاشم...

وساد الصمت ملياً فتركز انتباهها وهي لا تلوي في راحتها التي تلتهمها كقاه، وسرت فيها دغدغة بتت في ساعديها وذراعيها وصدرها تحديراً فاقشعرّ بدننا وهمست:

- حبيبك...

فقال بصوت منهجج:

- أعطيني شفّتك أقبلها، سأقبلها كثيراً مائة قبله أو ألفاً، سأقبلها حتى أموت...

واندلق عليها وقبّل شفّتها قبله طويلة شرهة حتى مال رأسها إلى مسند الكنبه ثم أمطرها قبلاً نهمة حامية، ورفع وجهه عن وجهها اغلّة وهمس:

- قبّلي... أريد أن أشعر بشفّتك تاكلان شفّتي... هه.

وكانت بحال من الإعياء لم تدلّ لها قدرة على العصيان فرفعت وجهها قليلاً وقبّلتها، ثم غمغمت:

- لم نجح هنا لهذا...

- إذن لماذا؟

- لنجلس ونتحدث!

فأطبق شفّته على شفّتها، ثم عطف وجهه فجعل يده على فيها وهمس في أذنها:

- هذا أفضل. لقد تكلمنا كثيراً. وأعيد عليك أنك زوجي. زوجي ولوناصبتي الدنيا العدا. هي مسألة وقت لن يطول...

لعلّه يظن أنها جزعة متعجّلة. فلتدعه في وهمه. ولعلّ الانتظار أوفق لحال أسرنا التي لا ترهب بزواجها الآن، ولا تستطيع أن تعدّ العدة له. ليس في الانتظار ضرر ولكّتها لن تعلن عينا في ضميرها. وعاد سليمان يقول:

- مسألة وقت. ولكن ما أحوالنا في فترة الانتظار إلى الترفيه!

ومدّ يسراه وراء ظهرها، وعناه حول صدرها، فشرع بتبديها تحت ساعده ناهدين صليبين فغلّ دمه وضمّها إليه بوحشية، وانهمرت أنفاسه على خدّها وعنفها. وعادوها الذهول والتخدير والرغبة والخوف، وامترج في صدرها القلق واللذة والياس، ثم اشتدت الظلمة، ظلمة عميقة غريبة، كأنها تنشر أجنحتها على فضاء لا نهائي، فلا مكان ولا زمان...

قالت لها أمها:

- تأخّرت أكثر من كلّ يوم.

فقالت واجبة:

هي بالخشيفة، ولكن هيهات أن يقلل هذا من قيمتها. إنه يجيها بعقله وجسمه، أو لعل إحساسه غالب عا عداه. أتعني حقاً ألا حق له؟ عجباً، لقد حسب أن الخطبة ستملكه حقوفاً؟ وحقوفاً؟ قال بدهشة:

- يجئ لي في بعض الأحيان أنه لا قلب لك!

فتورّد وجهها، وخفضت عينيها في حياء، ثم رفعتها قائلة في خشونة:

- ما دليل القلب عندك؟

فقال في حماس:

- أن تصرّحي لي بأنك تحبيني، ... وأن ...

- وأن ...

- وأن تتبادل قبلة ...

فقالت بحمّة:

- إذن حقاً لا قلب لي.

- يا عجباً ألا تحبيني يا هبة!

فلافت بالصمت في ارتباك وضيق.

- ألا تحبيني؟

فتنهّدت قائلة:

- إذن لماذا تمّ ما تمّ؟

فابتل صدره المحترق وهتف برجاء:

- أحب أن أسمعها بأذن ...

- لا تكلفني ما لا أطيق!

فتنهّد بدوره في شبه يأس، ثمّ قال بلبن:

- إن أحيك الكلام فلن تعييك قبلة.

- يا خير اسود ...

- يا خير وردّي كالشهدا من غير هذه القبلة أموت

كمداً.

- إذن فليحرك الله!

- لا تطيقها أيضاً؟ لن تكلفك شيئاً. ابقي كما

أنت ثمّ اتقدّم خطوة وأضع شفّي على شفّيك فتكون الحياة التي ما بعدها حياة ...

- أو الفراق الذي ليس بعده تلاق!

- هبة!

- أفتندم!

- أنت لا تعنين ما تقولين ...

- أردت أن أنتهي من عملي وقد انتهيت ... ثمّ وضعت في يد الأم خمسة وسبعين قرشاً واستطردت قائلة:

- أعطوني الحساب كلّه وساحفظ لنفسي ببقية الجنيه.

وسكتت الأم فعضت الفتاة إلى حجرتها وأخذت تخلع ملابسها. وفي السكون الشامل تراسى إليها صوت حسنين وهو يطالع فترك في نفسها أثراً عجبياً لم تند إن كان خوفاً أم حزناً خالصاً ...

- ٢٨ -

- هبة ولطافة الغيب هما شيء واحد في نفسي ... قالها وهو يرمي إلى الشمس الغاربة، رائياً إلى وجهها الأبيض البدرى، وقد افترّ ثغرها عن درّ، فقالت:

- لن نفتأ نحبيني إلى هنا حتى يرانا أحدا!

فقال حسنين بزهر:

- إني خطيبك، ولي الحق في كلّ شيء!

- لا حق لك على الإطلاق!

لفضحك من قلب جدل ضحكة من لا يصدّق قولها، وملاً عينيها العاشقتين من منظرها. كانت ملتفة في معطفها الأحمر، ينحسر جيبه في أعلى الصدر عن فستان رماديّ، وتهدل على ظهره صغيرتان مكتنزتان. وكان عمق حرمة يضفي على بشرتها البيضاء وعينيها الزرقاوين نقاء وبهاء. وهي ميّالة إلى القصر، فلو التفتتُ بها لمس مفرق شعرها قضي. ولكنّها بضّة ريانة فتبا للمعطف الذي يخفي قساوت هذا الجسم وثناياه، حريصة محافظة. تعجبني بقدر ما تغيظني، وقال متعجباً:

- لا حق لي على الإطلاق!

فقالت في هدوء ينمّ عن القوة:

- طبياً ...

أتعني ما تقول حقاً؟ يا لها من جميلة. لقد سبها بها هذا السطح عن الدنيا وجعل من أفاق السماء إطاراً لصورتها. وما من شيء يشابهها كهذا الإطار في هدوئه وحشمته وتنايه. تقول نفيسة عنها إنّها ثقيلة الدم، وما

انقضاضه فتقهقرت فزعة وتلفتته براحتها ثم هفت به
لاهة:

- حسنين، إياك...

لمح في عينها غضباً يتقد فخذت حلتته، وارتد
خجلاً مرتبكاً، فغمضت:

- احذر أن أغر رأيي فيك...

ثم استدركت في جزع:

- أظن أن لك أن تعود...

ودارى ارتباكها بضحكة قصيرة وتتم:

- على شرط ألا تكوني غاضبة؟

فسكتت هنية قبل أن تقول بلهجة رقيقة:

- وعلى شرط ألا تعود لهذا مرة أخرى...

وتحوّل في خطوات ثقيلة، يلوح في مظهره الارتباك
والياس فرق قلبها له وقالت وهي لا تدري:

- إن سعادتي في أن أصون لك...

وكانما تنبّهت إلى نفسها فعضّت على شفتيها ولم
تنبس بكلمة.

- ٢٩ -

وجاء عيد الأضحى فجذب أفكار الأسرة وعواطفها
إلى وإد واحد تلتقي فيه ذكريات الأسس واليوم،
واجتمعت الأسرة ليلة الوقفة في الصلاة حتى حسن
كان بينهم، واستعرت في الصدر رغبة كظيمة في
الاحتفال بالعيد. وطافت برؤوسهم ذكريات الأعياد
الماضية في حين دافق لم تعلن عنه ألسنتهم. كان
الخروف.. في مثل هذه الليلة.. مجرّطه في شرفة شقّتهم
الأولى يشرب بعقه بين قضبانه نائجا، مذبذباً بنواجه
في عطفة نضالته احتفال الأسرة بالعيد. ولم يكن
الشقيقان ليفارقانه، فهما إما يعلفانه ويسقيانه، أو
يناطحانه أو يجلبان بالغد الغريب في أمل وفرح.

وفي الصباح وعقب ذبح الضحية يبدأ سباق إلى شيء
اللحوم والتهامها، والآن مشغولة بهذا ويشوزيع
الصدقات على بعض الفقراء كالكناس وصبي الفران
وغيرهما، أما الأب فيتناول فطوره من الشواء على
السفرة ثم يلوّى إلى حجرته في انبساط فيضمّ عوده إلى
صدره ويضي في مداعبة أوتاره. وهناك - غير هذا -

- أعي ما أقول تماماً.

- ولكنّها قبلة وليست جريمة!

- جريمة في نظري...

- ما سمعت هذا قبل الآن...

فتفكرت قليلاً ثم تمتمت:

- ولكنّي سمعته كثيراً...

- أين؟

فعاودها التفكير، ترددت ملياً، ثم قالت بصراحة
وسداجة:

- ألم تقرأ ما نشره الصباح عن فتيات مهجورات
لا يستهانهنّ؟ ألا تسمع الراديو؟

ففرغ فاه، وتلّت عنه ضحكة، ثم صاح:

- من يقول إن القبلة استهانة؟ ألم تقرّي ما قال
المنفلوطي في القبلة وهو الشيخ للعمم؟ إنك تحرمين

على نفسك ما أحلّ الحب الطاهر لنا. الصباح؟...

الراديو؟... كلام فارغ!

فرمقته بريبة وحذر وقالت:

- لا تفصحك منّي. هو الحقّ. قالت أمي في مرة
«إنّ الغداة التي تشبّ بالعناق كما يظهر في السينما
فناة ساقطة خائبة الأمل»...

بنت الكلب!... أمي التي قالت لك هذا؟...

القصرية الماكرة، أفسدت عليّ وأفسدت حياتنا. إنّ
الغيط يقتلي. ماذا أفدت من الخطبة التي تجرّعت

بسببها تقرّياً ولوّثاً مرّاً؟ لا شيء. فتاتي عنيده

مجنونة. السبب أمها بنت الكلب «حالة الحطب»

وتساءل في يأس:

- تأخذين نفسك بهذا التشفّ حقاً؟

- طبعاً.

- إذن هو حبّ اسمي فحسب؟

- ليكن.

وتفحصها بنظرة طويلة فأراها ثابتة عتيقة قويّة.

وجرى بصره مع عتقها الرقيق، وتجلّ أصله المتوارى
تحت القستان، والمنكين، والصدر الناهد، فركبته
عاطفة جاعّة حارّة، وألفت زمامه من يله، فانقضّ
عليها وهو يسدّ ثغره صوب شفتيها. ولم تكن تتوقّع

- لحناً طيباً. هذا أمر ربنا لا حيلة لنا فيه!
ونلت عن نفيسة ضحكة ولكنتها لم تسترسل خشية
أن تنهم بتشجيعه وقالت الأم بحزن:
- هذا أمر ربنا حقاً ولكن كيف لنا بتحقيقه؟
فقال حسن في ملق بارع:
- نحققه بفضلك أنت. أنت الخير والبركة. أنت
الحزم والتدبير. ثم إنك أعظم طاهية في العالم. كيف
يمضي العيد دون أن نشبع من المشويّ والمسلوق
والمحمّر والكفتة والكستانية والمبار والموزة؟ سفرة
الست أم حسن، أنعم بها وأكرم...
وسرى في الجوّ القاتم نسيم مرح لطيف، وجرت
على فم الأم الجفاف بسمة خفيفة، ولكنتها قالت
بأسف:

- طاهية ماهرة ولكنتها مقطوعة اليدين!
ونظرت نفيسة إلى أمها نظرات ذات معنى ثم قالت
لإخوتها:
- اسمعوا، علمنا أنّ فريد أفندي سيهدي إلينا
نصف خروف!
وتطلّعت إليها الأبصار في دهشة ووجوم. ولم يعد
في وسع المرأة السكوت فقصّت عليهم كيف حادثها
فريد أفندي في الأمر بلباقة وكيف رفضت شاكراً فتأثر
الرجل لحّد الغضب وذكّرها بأنهم أسرة واحدة. الخ.
وكانت تلوح في عيني حسين نظرة كئيبة، وبدا حسين
وهو يزود ريقه بصموية أما حسن فقال:

- يا له من رجل فاضل وفي!
فهتف حسين في ضيق والم:
- مستحيل... لن يقع هذا...
فبادره حسن قائلاً:
- ليس في الأمر ما يحسّ الكرامة، إن هي إلا تقاليد
مرعية، وليس فريد أفندي بالرجل الغريب...
وخافت نفيسة أن يفضي تصريحها إلى فتنة فقالت:
- لا داعي للنزاع، فإذا أبيت قبول الهدية فلنشتري
بضعة أرطال من الضأن.
فتساءل حسن في حدة:
- كم رطلاً؟

العيدية والملابس الجديدة ونزعة الصباح في الخلوات
وفسحة الليل في السينا وما بين هذا وذاك من ألوان
الخلوى واللعب والمفرقات. وما هي الأسرة مجتمعة
ولكن بلا أب. وإثم لينظرون فيما حولهم فلا يجدون
بشيراً بمقدم العيد ولا أملاً في بهجته، ثم يسترقون
النظر إلى أمهم المتطلعة بالسواد بأعين مستطلعة والسنة
قلقة مشفقة. كلاً، لا عيد، ولا بشيراً به. وتساءل
حسين في سرّه «ترى هل يمكن أن يمضي العيد كما كان
يمضي غيره من الأيام؟». وقال حسين لنفسه «لا
عيد. إنّي أعلم ذلك. انتهى، انتهى». حسن وحده
كان أدناهم إلى التنازل. ولعلّ كثرة تغنيّه عن البيت
جعلته يئس بعض الشيء عن نوع الحياة التي يحياها
أهله. وكان إلى هذا - شأنه شأن بقيّة الإخوة - يعدّ
أتمه قادرة على كل شيء، وكثيراً ما يتعزّى عن كسله
وتلفه فيقول لنفسه «ولديهم معاش وأرباح نفيسة!» وقد
اعتاد دائماً إذا رجع إلى البيت أن يخلو إلى نفيسة
فيسألها «كيف الحال؟» فكانت تجيبه بالشكوى المُرّة
ولكنّ قلبها لم يكن يطاوعها على تجاهل يده إذا مدّها
لها طامناً في بضعة قروش. كان متضالاً رغم ما يمدق
به من تجهّم، ومثته نفسه بنصيب هائل من اللحم
يعوّض عليه أيّاماً طويلاً انقضت دون أن يلدق اللحم
طعماً، وضائق بالجوّ الكثيب الصامت فمال على أذن
نفيسة وسألهامساً:

- ماذا أعددت للعيد؟
وفطنت الأم إلى هسه فعاجلته متسائلة:
- ماذا أعددت للعيد يا رجل الأسرة؟
فضحك قائلاً:
- لنا أمّ تُحسد عليها! خفيفة الروح وبنت نكتة
ولطيفة. ما أقول يا أمّاه؟ لم يأمر الله بالرزق بعد.
وحسبك أنّي كنتيكم شرقي فلم أكل لقمة في بيتكم
منذ وفاة أبي إلّا مرّات معدودات...
وكانت يشت من نصحه ولومه معاً فتتهدت
صامتة، وتشجّع حسين بفتح باب الكلام فتساءل:
- ماذا سنأكل في العيد؟
فقطّوع حسن بالإجابة قائلاً:

- ما سمعنا شراؤه. عشرة مثلاً

فصاح حسن في الانزعاج:

- عشرة أرطال على أربعة أيام! إنكم أن ترفضوا الهدية. النبي قَبِلَ الهدية يا هوه. لم تريدون أن تُفضبوا أسرة تودّ مصاهرتكم!

فصاح به حسنين:

- هذه شحاذة!

فقال حسن يقين:

- كلاً. الشحاذة شيء آخر اسألني أنا عنه. أمّا هذه فهديّة، هديّة، هدية.

وتكلم حسين لأول مرة فقال:

- هديّة من النوع الذي كنّا نهديه في الأعياد إلى الكتّاس وصبيّ القرآن...

وطغىب حسن لأنه كان يطمع أن يضمّ حسين إلى رايه أو أن يبقى على الحياذ على الأقل، وقال عتداً:

- لا تخلط بين الهدية والصدقة، إذا أعطيت الكتّاس فهي صدقة، أمّا إذا أعطيت صديقاً فهي هدية...

وكان حسنين يعلم بأن مناقشة حسن هلز غير مجد فحفض عينيه وقال في حياءٍ وألم:

- الواجب أن يكون الهدي هو الخطيب لا الخطيبة...

فقال حسن ساخراً:

- هذا إذا كان هو الذي طلب يد الخطيبة، أمّا إذا كانت هي التي طلبت يده...

- حسن...

- أربخا من الفلسفة التي لا تشبع من جوع. لا عيب في قبول هذه الهدية. كانت هدايا أحمد بك يسري تحمل إلينا في المواسم، على فكرة ما باله نسينا هذا العام ابن الكلب؟ هذا رجل غير وئ. فريد أفندي رجل الوفاء حقاً. من حسن الخلق أن تقبل هديته. نتي بالله إذا كان في القبول ما يمس الكرامة لكننت أول الرافضين.

فقال حسين بكتابة:

- تصوّر ماذا يقولون عنّا!

- تصوّر الشواء وأنت تقلّبه على النار والرائحة الشهية عملاً البيت.

والنت حسنين إلى أمه وسألها:

- علام نويت؟

فقالت المرأة دون أن تنظر إليه:

- لم يسعني إلا القبول...

وساد الصمت، لا لأن أحداً لم يجرؤ على الاحتجاج فحسب ولكن لأن هذا القبول أنقذهم من النزاع القائم في صدورهم بين غصبة ضيائهم ورغبتهم في الاستمتاع بهجة العيد ولذائله. وهم إلى هذا كله يؤمنون بأنهم إمناً كبيراً، كأنها لا يمكن أن تخطئ، فإذا كانت قد ارتضت قبول الهدية فلا ضير من قبولها. هذا ما قالوه لأنفسهم، أو هذا ما قاله لنفسه الخائر منهم لينجو من حيرته. وكانت الأم أسوأ حالاً منهم. ولم تجد من عزاء إلا في هذه الحقيقة وهي أن فريد أفندي اضطرّها إلى القبول بإلحاحه وحرارة صداقته وقد رُحبت بإثارة نفيسة للموضوع لعلها تجد في قبول الأبناء عزاء، فلما أنست من الابن المهتمّ معارضة تضاعف ألمها وصرحت بالحقيقة فيما يشبه الاعتراف بالذنب، وضاعف من آلامها أنهم باتوا لا يشبهون إلا في الأعياد شأن المساكين الذين كانوا يقصدونهم فيمن يقصدون من أهل الخير. انحدار يقبه انحدار ولا تلزي أين يقف. أمّا حسن فقد اطمأن. ولم ير بأساً من أن يتفلسف فقال بلهجة الوعظ:

- قَبِلَ النبيّ مرةً هديةً أهداها إليه يهوديّ فهل يكون فريد أفندي شراً من اليهود؟

فتساءل حسنين في دهشة:

- من قال هذا؟

- التاريخ!

- أيّ تاريخ!

فصاح به حسن: أحسبت أنهم يقولون لك كل شيء في المدرسة؟

فقال حسنين بحمّة:

- حدثنا عن التاريخ الذي تعلّمه الشوارع!

فظاهر حسن بالغضب وقال:

ثم قال مستطردًا بعد تردّد:

- أو اخذي إذا شئت به حلاوة أو جبنًا.

فتساءلت مدفوعة بغريزة الخرص:

- ألا تخاف أن يلاحظ أبوك أنني لا أدفع ثمن ما آخذ؟

فضحك قائلاً:

- إنّه لا يرى أبعد من موضع قلّمي...

وجاء ترام روض الفرج فصعدا إليه وجلسا متجاورين. «كيف أبذل نقودي على هذا النحر؟ البيت في شديدة الحاجة إلى كل ما يمدّ أجلي من عملي الطويل. أمّي لا تفتأ تبني قطع الأثاث. حتى أخي حسن أحنّ بهذا الشغل من هذا المفلس. ماذا أفعل بنفسي؟ إنّي أبصر نقود أخرى لا يتباع البودرة والأحمر. أوّاه. إنّه ليس رجلاً. لو كان رجلاً لما تعلّق بأبيه هذا التعلّق المضحك، ولما خافه هذا الخوف. حرمة الرجل يومئذ كما يحرم الطفل مصروقه. بيد أنّي أحبه وأريده. إنّي له نفساً وجسداً. ليس لي سواء. من أين لي هذه النفس التي تسميني هذا كلّ؟!» وسمعتهم يحسن في أذنيها:

- من المؤسف حقاً أنّ أمّي عادت من بلدة أختي فلم يعد البيت خاليًا...

ليست بحاجة إلى من يذكرها بهذا، فهي تعلمه حقّ العلم. بيد أنّها سرّت في أعماقها بفتحها لهذا الباب. ونبّت في جسمها يقظة فنشط خيالها وتذكّرت الظلمة الشاملة والأصوات الهامسة، تذكّرت هذا في حرارة مشوبة بخوف. ولم تشأ أن تعلّق على قوله فتجاهلته عن حياء، وتورّد وجهها الذي جعله الزواجر مثيلاً للنظر. أمّي عادت، وأبي لا يرضى! متى ينتهي هذا كلّ؟... متى تملكه بلا خوف، ويشرع الله؟ أه ثمّ أه، لنشأ ما يركبها الخوف أحياناً فتورّد الموت نفسه والراحة من الحياة جيّماً. وحاد صوته الهامس يقول:

- ولكيّ سألحك الفرص بنفسي. لا بدّ أن تعاد الفرصة. وأن يخلو البيت...

فقال بصوت بارد:

- لا... لا... لا داعي لهذا...

- الله يساعذك... أنسي؟... أنسي حقاً؟ لا

- قسماً بربّ العزّة لولا أنّك سبب هذه الهدية لكسرت رأسك.

ثم استدرك قائلاً:

- رعل هذا كلّ كان الواجب يقضي بأن يهدوا إلينا خروفاً كاملاً لا نصف خروف (ثمّ ملتفتاً إلى نفسه) احذري أن تقبلي الهدية إلّا إذا كان فيها نصف الكبد أيضاً...

- ٣٠ -

وقفا متقابلين يتخبران الترام. هي في معطفها القديم الذي تورّد أن تستبدل به أحسن منه ولو نصف عمر، وهو في البذلة التي تبدو عليه قلقة جافية. وكان يلوح في وجهه التردّد، والرغبة المعبّدة في الإنصاح عن شيء ينقل عليه الإنصاح عنه، ثمّ خاف أن يميء الترام قبل أن يتكلّم فقال لي أرتباك:

- نفيسة... ينجاني جلاً أن أصرّح لك بأمر... فتساءلت الفتاة:

- ماذا بك؟

فقال همساً:

- أمرني أبي أن أصحبه اليوم إلى حضرة شيخ الشاذليّة فرفضت حتى أثرت غضبه...

وشعرت بخوف لم تدر كنهه، لمعلّ ذكر أبيه الذي هيّجه، وتوقّعت خيراً غير سائر، فرمته بعين متسائلة دون أن تنبس، فقال بصوته الهامس:

- ثار غضبه لعنادي وحرمني أجرة يومي!

وحلّت الدهشة على الخوف وسألته:

- أليس معك نقود؟

- كلّاً. أبي رجل جيّار، ربّنا يأخذله...

فقال لنفسها «أمين» ثمّ تمتمت:

- معي بعض النقود...

فسكت لحظات في قلنّ ثمّ سأله في عجل:

- هل تدفعين ثمن التذكريّين أمام الجالسين؟

وفطنت إلى ما يريد، فرقت له، وفتحت حقبيتها وتناولت شيئاً وأعطته إيّاه فأخذله وهو يلحظ الواقفين

بحذر ثمّ قال:

- شكراً لك. سأردّه إليك في اللقاء الآتي.

يجوز أن نموت في فترة الانتظار. لا أحب الانتظار... ليس الانتظار خيراً مما فعلت بنفسها؟ بل. كلا. بل. كلا. بل. بل. كلا. كلا. كلا. وتبدت في حيرة، وعادها شعور اليأس الذي ألفته، ولكنها قالت:

- لا أحب الانتظار مثلك، ولكني لا أحب هذا أيضاً...

فقال بمر:

- كسادية. تحببته وتحببته. هل نسيت...؟ حال...

- لا أذكر شيئاً...

- لن أنسى ما حببته... أنت غاية في الحرارة والحياة كأن حرارة لا تزال تلصقي...

- هس. أنت جنون ولا شك!

- مهما يكن من أمر فسنجد حتماً طرقات خالية مظلمة...

- حذار. بصرك ضعيف كأيك، وقد تحسب الطريق خالياً والشرطي أمامك!

- الركبة في عينك أنت...

ثم قال مبتدئاً بعد لحظة صمت:

- حق يتاح لنا الزواج؟!

فألما تساؤله وأغاطها، وأغاطها في الوقت نفسه، ولأزمها فتور ووجوم بقية الطريق.

- ٣١ -

انصرف الليل ولم يكد يبقى في قهوة الجبال إلا نفر قليل، وكان حسن يجلس إلى مائدة خالية بعد أن فارقه أصحابه تاركين في جيبه ما استطاع أن يظفر به من قروشهم. كان يجلس كالمتفكر ملقياً على المقهى نظرة جامدة من عينيه المتعبتين. هذا صاحب القهوة وقد أخذ يراجع حساب اليوم مكرّماً المراكات في طبق صاج كبير، على حين وقف النادل مستنداً إلى إحدى ضلف الباب واضماً إحدى يديه في جيب المريلة يعبث بالقروش فيتصاعد وسواسها في إغراق شهيق: «رحمك الله يا أبي، ألا تعلم بأنني تميت كثيراً بعد موتك؟ كان نزاعنا لا بهذا، وكنت أشعر أحياناً بأنني أميتك، ولكن

أين أتأمل؟ فبدا أيام العيد لم أتناول لقمة في بيتنا. وماذا يأكلون؟ الفول غذائي الوحيد، فول، فول. الحمر تمجد شيئاً من التنوع.» لماذا لا يبحث جاداً عن عمل؟ جرب حظه مرتين فأنتهى في كل مرة بمعركة كادت تؤدي به إلى السجن: كلا ليست هذه الأعمال الشاقة بمبتغاه. ولا يزال يؤثر عليها حياة التسكع والمقاهرة الحفيرة. الواقع أنه يتعيش من السرقة، إنه ورفاقه يعلمون ذلك حق العلم. إنهم يتصيدون الزبائن الأغراب ويومنونهم بأنهم يلاعبونهم على حين أنهم يسرقونهم. حياة شاقة محفوفة بالمخاطر في سبيل قروش، كيف يستقيم إلى هذه الحياة! لم يكن لا سعيًا ولا راضيًا، وكأنه كان ينتظر معجزة تنشله من هدمته إلى حلم من الأحلام. كانت حياته عادة ضاربة كالخدر المهلك، اعتاد أن يعيش بلا عمل حقيقي حائزاً - رغم هذا - مركزاً مرموقاً مرجعه الرهبة والخوف فلم يحتمل أن يبدأ من جديد صائناً بسيطاً أو عاملاً مطيعاً ولم يكن ينبغي عنه مدى حاجة أمه إلى جده، ولا تزال تطفئ في أفنیه شكائهما المكروية، تطارده كلما أفاق إلى نفسه. إنه يحب أمه ويحب أسرته، ولكنه ينتظر، وينتظر، دون أن يحرك ساكناً. لا أزال في البداية. عمل حيواني طويل بقروش. حماقة خير منها...

- مساء الخير يا سي حسن.

ورفع رأسه مفتحلاً من محادثات أفكاره فراهى الأستاذ علي صبري يجلس قبلته في هدوء وكبرياء فاهتز صدره فرحاً وعتف به:

- مساء الخير يا أستاذ.

ونادى الأستاذ النادل وطلب نارجيلة ثم التفت إلى حسن وقال دون تريث:

- قررت أن نعمل معاً... أعني أن أضمتك إلى نخي...

وأتسعت عينا حسن ولاح فيها بريق خاطف. إن التخت هو العمل الوحيد الذي يحبه، لا ليل فتي مرغب في طبعه، ولكن لأنه يسير ولذيذ وينسم جوّه عادة بأريج الحمر والمخدرات والنساء. ومع أن أمه في

بالنارجيلة واستمتع الأستاذ بالأنفاس الأولى، وتفتح
ثم سأل الأستاذ:

- ما رأيك في موال: يا عيني ليه بتبكي؟
- عال... عال.

وراح حسن ينشد الموال في صوت غير مرتفع.
مُجيدًا ما وسعته الإجابة، والآخر يذهب معه برأسه
ويجيء متظاهرًا بالاستغراق، حتى انتهى حسن،
فقال:

- هذا فوق الكفاية بالنسبة لستيد. أحب أن أسمعك
في المنك أيضًا، هل تحفظه في البعد يا ما كنت
أنوح؟

فتفتح الشاب مرة أخرى وقدم حيث حنجرته
واشتمل حماسه وأندفع يغني الدور حتى أن عليه، فقال
الأستاذ:

- عال، عال، هل تعرف أصول النغم، السيكال
والبياتي والحجاز وغيرها.
وكان لا يدانخله شك في جهل الأستاذ بهذه
الأصول فقال بجرأة نذر أن توجد في غيره:

- طبما.
- أسمعني ليالي رست...
فأنشد بعض الليالي كيفما اتفق، فهو علي صبري
رأسه قائلاً:

- برافو... أخرى مهاوند...
وانطلق يغني وهو يغالب سحرته القلقة في صدره
والآخر يتابعه باهتمام ظاهري، ثم لاح في وجهه
التفكر فجأة وبدا كأنه يريد الإفصاح عن شيء هام.
وكان حسن ينتظر هذه اللحظة بغريزته فتساءل متحيرًا
تري هل يريد أن يندبني إلى معركة؟... ماذا يريد
على وجه التحقيق؟... وقال الأستاذ:

- صوتك حسن. بيد أن العمل في التخت يتطلب
مهارة أخرى. ينبغي أن نتفاهم تمامًا. وهل سبيل
المثال أقول لك إنك يجب أن تأخذ بقسط وافر من
أساليب الدعاية...
- الدعاية؟

- نعم. كان تنوّه بغني في المناسبات. أن تسعى

علي صبري كان دائمًا عددًا إلا أنه كان يراه شيئًا خيرًا
من لا شيء، ولعلّه عتبة لما بعده، أجل من يدري؟
قال:

- حقًا يا أستاذ؟
- بدون شك.
- هل نعمل في صالة أو قهوة؟
فتخلّل الأستاذ شعره التأثير بأصابعه الطويلة النحيلة
وقال:

- سترمي إلى هذا يومًا قريبًا. وربما غزونا الراديو
نفسه. ولكننا سنقتصر بادئ الأمر على الأفراح...

وسرعان ما ملأ الحياض. ولو كان علي صبري
شخصًا لا يعقد به رجاء ولو شيئًا لصعقه بضربة
تجعل عاليه سافله. لقد عمل معه بالفعل في بعض
الحفلات العائلية نظير ريك والمشاء، وما كان هذا
ليحدث إلا مرّات في العام، فما الجديد في هذا؟
وشعر بأن هذه الدعوة أمرًا وداعبه أمل جديد، فظاهر
بالسرور وقال:

- ستحتل المكانة التي تليق بك يومًا بلا شك. أنت
لك بحّة ليست لعبد الوهاب نفسه.
فانيسطت أسارير وجهه، ثم سأله:
- ماذا تختار من آلات التخت؟... كنت حداثي
عن المرحوم والدك كمؤاد بارع؟

- لم أتعلم آلة على الإطلاق...
- ولا الدف؟
فقال حسن بقلق:
- سبق أن جرّبتني كستيد، أظنني أنفسع
وسنيّا...
فهو الأستاذ رأسه قائلاً:

- كما تشاء. هل تحفظ أدوارًا كثيرة؟
- مواويل وأدوار وطلايق...
- أحب أن أسمعك منفردًا...
وشعر حسن في أعماقه بسخرية. نفخة كذّابة
وامتحان لحساب أمل ضعيف! ولكنه كان مصممًا على
مجارته إلى النهاية. كان يعلم بأن يغني لحسابه الخاص
يومًا ولو في المقاهي البلدية. وانتظر حتى جاء النادل

- خفت ماذا؟

فضحك علي صبري ضحكة قصيرة كشفت عن أسنانه الصفراء وقال:

- أكره الناس إليّ من يقول «أخلاقى لا تسمع في بكيت وكيته» أو من يقول «أنت الله» أو من يتساءل في خوف «والبوليس؟!». . . فهل أنت أحد هؤلاء؟

فقال حسن مبتسمًا وهو يُشعره بأن صبره الطويل يوشك أن يظفر بحسن الجزاء:

- إني أعيش في هذه الدنيا على افتراض أنه لا يوجد بها أخلاق ولا ربّ ولا بوليس. . .

فضحك علي صبري بقوة زلزلت القهوة كفنائه وقال:

- فلنقتصر ببقية الليل في بقي فما زال في الحديث ببقية. . .

ولبت حسن متفكرًا دون أن تخونه ففته بنفسه لحظة واحدة. كان قليل الثقة في عهده ولكنه لم يكن يائسًا منه كلّ اليأس. كان يشعر في أعماقه بأن ثمة انتظارًا طويلًا لا يزال أمامه قبل أن تثبت الأرض القلقة تحت قدميه.

- ٣٢ -

كانت الأم ونفيسة جالستين بالصالة قانعتين من النور بما يشع من حجرة الإخوة حين زارهما صديقتها صاحبة البيت. ورحتا بها ترحبًا يلقي بأيديها البيض على نفيسة. وجلست المرأة بينهما على الكنب. أبت حتى أن تضيئا مصباح الصالة. وجعلت هي والأم تسليان بالحديث على حين ذهبت نفيسة إلى المطبخ لإعداد القهوة. وكانت الأم تنتظر دائيًا من وراء زيارة صديقتهما عملاً مريحاً لنفيسة، وقُل أن غيّبت لها رجاء. لم يكن عقلها يخلو أبداً من هموم العيش، خاصة بعد أن استدار العام واقترت العلة المدرسية، ويات من التوقع قريباً أن يضاف إلى واجباتها واجب جديد هو تغذية ابنتها بدلاً من المدرسة. كانت تشكو إلى صاحبتهما ما عانت من حياتها في الأشهر المتقضية والمرأة تواسيها وتشجّعها، حتى عادت نفيسة بالقهوة. وأرادت المرأة أن تعلن عمداً دعائها إلى هذه الزيارة

لإغراء البعض بطلبي لإحياء الأفراح ولكل جزءاً طبعاً. أن تكون في حفلة يجيها منى ما فعلت تفنك لصوته وتقول لمن حولك أه لو كان علي صبري في مكان هذا المخبى. وهكذا. . .

فاتبسم حسن قائلاً:

- هذا هي، وأكثر منه. . .

فقال علي صبري بعد فترة تفكر:

- ثم إنك شاب قوي وجريء وينبغي أن تستغل مواهبك إلى أقصى حد. ولكن دعني أسالك سؤالاً قبل كل شيء: أي المخدرات أحب إليك؟

ما الذي يدهو إلى هذا التحقيق؟ أريد أن ينفضه بهديّة؟ إنه يجيد قبول الهدايا، أمّا الجود بها فهذه عادة لم يمارسها. أم يرمي إلى إشراكه في عمل هام؟ وفق قلبه لهذا الحائط. طاملاً حلم بتجارة المخدرات. على أنه أثر الحرص والحذر فقال بمر:

- أظن المخدرات تؤذي الخنجر. . .

فضحك علي صبري، ثم انطلق يفتي من الليالي ما شاء في صوت كالعرد وفي نفس طويل قوي، ثم تساءل:

- ما رأيك في هذا؟

- لم أسمع له مثيلاً

فقال سانحاً:

- هذا نتيجة خمسة عشر عامًا من تعاطي الحشيش والأفيون والمنزل، منها خمسة أعوام أدمنت فيها الكوكايين. . .

- يا سلام!

- المخدرات دم الفناء، وما من مغزٍ يستحق هذا الاسم إلا وقد تعاطى من المخدرات مثلها القهَم من الملوخية والفول للمسلم.

فضحك حسن وقال بلهجة تتم عن التسليم:

- هذا لو تيسرت. . .

- صدقت، وهذا ما تحته. إنك لا تكو المخدرات ولكنتك لا تستطيعها. وإذن فاعلم أنه من اليسر أن نجعل الأغار خوراً والجبال حشيشاً. إنك جريء قوي ولكني لا أخفي عليك بأن خفت كثيراً. . .

في دهشة. وظلّت الضيفة آتة كبر على الفتاة أن يحظى بمثل هذه العروس شاب تافه كسلان فقالت:

- نعم سلان. والظاهر أنّ عمّ جبران لم يمانع لصدقاته لعمّ جابر سلان. وريّك يعطي الأرزاق بلا حساب...

أدركت رغم هول الصدمة أنّها كانت تفضح نفسها فتأسكت في جهد شديد. لقد انفجرت الصرخة في صدرها بلا وهي وانطلقت من فيها دامية. ولم تعد تستطيع أن تتابع حديث المرأتين وشعرت بأنّها تموت موتاً سريعاً متفضّلاً. وساعدتها الظلمة على إخفاء معالم وجهها فشلت على أصابعها حتّى لا تصرخ مرّة أخرى. ماذا قالت المرأة ليس ما بها كابوس أو جنون، إنّها حقيقة بلا ريب، سلان جابر سلان، دون غيره، وعادتها ذكرى مخلوف قديمة كانت تنتسبها من حين لآخر في ساعات انفرادها، يخاف غامضة أحياناً كقلق ينشب أظفاره في صدرها، أو واضحة أحياناً أخرى تتبيّن في صور بشعة يقشعر لها البدن. وخالّت في ذهابها لحظة أنّ ما بها ليس إلّا حالة مرعبة من هذه الحالات، ولكن لم تكن إلّا لحظة واحدة ثمّ عاودها هذا الشعور الثقيل الريب بأنّها تموت. لقد ذاقت قساوة الدنيا مع أسرعتها جيئاً ولكنّها لم تصدّق أنّها قاسية إلى هذا الحدّ، وعضّت على شفتيها وهي لا تدري كيف تقاوم هذا الانحلال والتهدّم، السارين في روحها وجسدها. ما هي بخيبة الحبّ، هي خيبة الحياة كلّها، ولكن يجب أن تتمالك نفسها، وعسى أن تدعوها الضيفة إلى الحديث لآية مناسبة فلا يصحّ أن ترتعش نبرات صوتها، أو تخشع من شدّة التأثّر. ولعلّه من الخير أن تلوذ بالفرار إلى حين. ولم تن عن تحقيق نيّتها فتناولت قدح القهوة ومضت إلى المطبخ. هنالك زفرت من الأعياق، وشدّت بيلبها على ضميريتها القصيرتين بشدّة وهي تحملي في مقف المطبخ الملوّث بالهباب وقد عسّش النكبوب بآركانه، ولبثت في جمود كالذاهلة. ولم يكن أملاً، ولكن خدعة، كذبة مفزعة، ضريبة قاضية، سرقة، لطخة، جرحاً لا يندمل، وحلاً، لقد انتهت. انتهت بلا أدل ريب. لا يمكن أن

فقال وهي تبسم ابتسامة حلوة تتمّ عن طيبة قلبها: - جشك بعموس جديدة...

فضحكت نفيسة ضحكة سرور وقالت:

- يحقّ لي أن أطلق على نفسي خياطة العرائس! - أسأل الله أن تعدي ثياب عرسك بنفسك قريباً. فتمتعت الأم قائلة:

- أمين.

وأمنت نفيسة على الدعاء بقلبها، على ما أثار في نفسها من قائم الذكريات. وهي يمكن أن أكون عروساً؟ ليس قبل أن يموت عمّ جابر سلان. يا للسخرية! أمل كلّفني نفسي وجسدي. هل يدور هذا لأمني في خلدي؟ إنّها تحسب أنّ هموم المعيشة أكبر الرزايا. يا لها من جاهلة بالآسة! وتساءلت الأم:

- من تكون الزبونة الجديدة؟

- العروس الجديدة هي كريمة عمّ جبران التوني البقال...

وتنبّهت حواسّ نفيسة لهذا الاسم الذي لا يمكن أن تنساه فدقّ قلبها بعنف وقالت متسائلة:

- دكانه عند تقاطع شارعي شبرا والوليد؟ - بالضبط.

وضحكت الأم قائلة:

- أصبحت جوّالة يا نفيسة كشيخ الحارة...

فضحكت الفتاة ضحكة آليّة وقالت لنفسها وهي دون غيرها. هي الفتاة التي كان عمّ جابر سلان يرغب في أن يزوّجها لسلان كما قال لها الفتى. فلتزوّج ولترفع عن صدرها كابوس ذكراها. وتساءلت الأم:

- وهل جبران التوني هذا غني؟

- على جانب من اليسار لا بأس به...

- ومن العريس؟

فضحكت المرأة وقالت:

- إنّهُ أقرب ممّا تتصوّرين. هو سلان ابن عمّ جابر سلان البقال.

- سلان!

نذت عن نفيسة كالصرخة، فالتفتت المرأتان صوبها

الربيع. وسارت إلى الباب الخارجيّ ثم عرّجت غير هيّابة إلى دكان عمّ جابر. كان الرجل العجوز عاكفًا على مراجعة الحساب الختاميّ لليوم، على حين وقف سلمان مرتفعًا الطلوة ناطقًا فيها بين يديه في شroud. واقتربت منه وهي تلقي عليه نظرة حادة ملتصقة بفرع إليها عينيه الصغيرتين ولم تلبث أن لاحظ فيها نظرة جفول وأرتباك ثم قال ببلاهة:

- أيّ خدمة يا مسّ نفيسة؟

فقال بعزم وثبات:

- الحقّ بي في الحال...

فاوما لها بالإيجاب وهو يظهر بأنّه يقدّم لها شيئًا من الدكان. ومضت إلى الشارع ووقفت تنتظر عند رأس عطفة نصرالله وهي تتفحص ما حولها بعناية وحذر. وطابت نفسها بما فعلت، فما كان في سمعها أن تصير دون حراك حتّى مطلع الصباح. وجعلت تنظر داخل العطفة حتّى رآته قادمًا بجلبابه وجاكته مسرّعًا في خطاه الملهوّة. حفر تائه، شيء تصافه النفس، مخادع مخاتل كذّاب. ما أسقر هذا! ماذا هي فاعلة به؟ أنزعي على قدميه باكية مستعطفة؟ هل تضرع إليه أن يظنّ لها وحدها؟ بدا أنّ هذا كلّ شيء فطبع مستنكر، وهل هذا فقد وشى بمشاعر عميقة صادقة لا تسدري كيف تفصح عن نفسها، فقبل ساعة واحدة كانت تعدّه رجُلها وتعدّ نفسها امرأته، والملاك أهون من أن تنضمّ هذه العروة بين يديها. كانت شيئًا وليست الآن شيئًا على الإطلاق. علم خيف ويأس قاتل. واقترب منها في حذر وعزم دون أن يلتفت إليها:

- خير؟

وأثار صوته حنقها ولكنّها كظمت نفسها وقالت

وهي تسير:

- اتبعني إلى شارع الألفي.

ومضت إلى الشارع الجانيّ بعيدًا عن الأعين المستطلعة، ثم أبطلت الخطر حتّى لحق بها، وبادرت

قائلة وقد نفذ صبرها:

- أليس عندك ما ترى إخباري به؟

فتساءل متجاهلًا في قلق وخوف:

تختلّ أمّها هذا، أمّا حسين وحسين فبهيات. ربّاه كيف استطاع خداعها إلى هذا الحدّ؟ كانا معًا يوم الجمعة الماضي فأنيّ بجرم هذا وأنيّ لإجرام. ماذا يجدي الغضب أو الحقد، أو الكراهية؟ شعرت نحوه بالكراهية تقتل أيّ أثر للخير في النفس. ما أشدّ حاجتها إلى التفكير والتدبّر، إنّها تتلّوه على مكان قصيّ خالٍ ينأى بها عن هذا المحيط الذي باتت تضمّر له البغض أشدّ البغض، مكان تستطيع أن تسأل فيه نفسها كيف موت بمثل هذه السهولة، وبمثل هذه السرعة، وبمثل هذا الموان...

- نفيسة!

بلغ نداء أمّها مسامعها فانتفضت في ذعر، ثمّ حنّقت عليها حنقًا شديدًا كأنه للمقت، ولم تأتِ حراكًا فأعدت الأمّ النداء فذهبت وهي تعضّ على نواجذها، ووجدت الضيفة متأهبة للذهاب وأنها تؤدّعها عند الباب الخارجيّ. وقالت لها وهي تسلم عليها:

- تعالي إليّ بعد غد فنسلب معًا إلى بيت العروس...

فاومات برأسها بدلالة الإيجاب دون أن تنبس، وليّا أخلق الباب قالت الأمّ:

- سلمان! والله ما يستاهل هذا الحقد...

فشعرت بخنجر يفرس في شغاف قلبها، ولم تعلق بكلمة. وضاق صدرها باللكان والجحّ وأيقنت بأنّها أصحز من أن تحمّل المكث إلى جانب أمّها، وخطر لها خاطر كلسان من لب انشقّ عنه صدرها فمضت بقدم ثابتة إلى حجرة، ثمّ صادت وقد ارتدت معطفها فسالها أمّها بعدة:

- أذهابه إلى الخارج؟

فقال وهي تتوجّه صوب الباب:

- نعم سائرتي شيئًا للعشاء ربّما ذهبت إلى شقّة

فريد أفندي ساعة...

- ٣٣ -

ومالت نحو فناء البيت وأنفاسها تتردّد في ثقل وصعوبة، كانت السماء صافية مرصّعة بالنجوم، والجو باردًا بعض الشيء. تتخلّله نسيات لطيفة من طلائع

- عَمَّا تَسْأَلِينَ؟

فغاضها لدرجة الجنون وقالت بحدّة خفيفة:

- أَلَا تُدْرِي حَقًّا عَمَّا أَسْأَلُ؟ هَاتِ مَا عِنْدَكَ وَكُفَّاكَ خِدَاعًا!

فتمتدّ في تسليم وغمغم في خوف:

- تقصدين مسألة الزواج...

فقالت في سخرية مريرة:

- أَطْنُ هَذَا. أَلَا تَرَاهَا مُسَالَّةٌ تَسْتَحِقُّ السُّؤَالَ؟

فقال بصوت شاك:

- أَيْ؟

فصاحت بحدّة وجسمها ينتفض غضبًا وهياجًا:

- أَيْ، أَيْ، أَرْجُلُ أَنْتِ لَمْ أَمْرَأَةً؟

فقال بذلّ وخنوع وتسليم:

- رَجُلٌ وَلَكِنْ كَعَمَلِهِ!

- بِعَيْنِي أَمْرَأَةً!

- سَامَحْكَ اللهُ. لَا أَسْمَعُ إِلَّا نَهْرًا وَتَقْرِيمًا سِوَاكَ مِنْكَ

أَوْ مِنْهُ. مَاذَا أَصْنَعُ؟

ورمت بنظرة حامية وصدورها يستمر حننًا وغيظًا.

امْرَأَةً، جَبَانٌ، حَقِيرٌ، كَيْفَ أَحْبَبْتِهِ، كَيْفَ هَانَتْ عَلَيْهَا

نَفْسُهَا فَسَلَّمْتُ لَهُ! إِنَّ سَعْيَهَا إِلَيْهِ، وَتَعَلُّقُهَا بِالْأَنْسِ

بِهِ، وَحِرْصُهَا الدَّلِيلَ عَلَى اسْتِرْجَاعِهِ، هِيَ شَرُّ مَا

تَسِيُمُهُ الدُّنْيَا مِنْ بُؤْسٍ وَعَذَابٍ. وَصَاحَتْ بِهِ:

- يَا لَكَ مِنْ شَاكٍ بِأَنَّكَ حَقِيرٌ. كَيْفَ سَوَّلَتْ لَكَ

نَفْسُكَ الْخُلْدَ بَعْدَ مَا كَانَ. كَيْفَ أَحْبَبْتِ عَيْنِي الْأَمْرَ؟

أَجِبْ...

فنفخ قائلاً:

- مَضَى أَيْ إِلَى هَدَفِهِ عِلْمٌ رَضِي، غَيْرُ مَقِيمٍ لِرَأْيِي

وَرَبَّنَا حَقٌّ وَجَدْتُ نَفْسِي بَيْنَ أَمْرَيْنِ لَا ثَالِثَ لِهَذَا: فَمِمَّا

الزُّوْلُ عِنْدَ إِرَادَتِهِ، وَمِمَّا الْمَوْتُ جَوْعًا.

- لِمَاذَا لَا تَبْتَهِ عَنْ عَمَلٍ فِي غَيْرِ دِكَاغٍ أَيْبِكَ؟

فتمتمت في نبرات يائسة:

- لَا أَسْتَطِيعُ، لَا أَسْتَطِيعُ...

فاحتدم الغيظ في صدرها وقالت:

- يَا لَكَ مِنْ جَبَانٍ حَقِيرٍ. أَلَا تَعْرِفُ مَاذَا بِعَيْنِي هَذَا

بِالنِّسْبَةِ إِلَيَّ؟!

فقال بلهجة تقطر أسفًا وحرزًا:

- أَعْرِفُ وَالْأَسْفَاءُ. اللهُ وَحْدَهُ يَمْلِكُ بِحُزْنِي

وَأَسْفِي...

فألقت عليه نظرة حامية وقد أثارتها لهجته الأسيفة

لِحَذِّ الْكَرَاهِيَةِ الْقَاتِلَةِ وَقَالَتْ بِصَوْتٍ مَرْتَعَشٍ:

- حَزِينٌ وَأَسْفَى، يَا لَكَ مِنْ مَسْكِينٍ! وَمَاذَا تَنْظُنِّي

صَانِعَةً بِحُزْنِكَ وَأَسْفَكَ؟ إِنَّ الْحُزْنَ وَحْدَهُ لَا يَصْلُحُ

الْخَطَأَ، فَمَاذَا تَنْظُنِّي صَانِعَةً بِحُزْنِكَ؟ لَقَدْ أَوْقَعْتَنِي فِي

وَرُطْلَةٍ قَاتِلَةٍ فَلَا يَبُورُ أَنْ تَدْعَنِي وَحْدِي وَبِهَرَبٍ: أَلَا

تَفْهَمُ هَذَا؟

وبدا وكأنّ الحيرة تمسك لسانه، ونظر صوبها في

خوف دون أن يحرج جوابًا. وأثارها صمته كما أثارها

تظاهره - كانت متأكدة من هذا - بالأسف، فقالت

بحدّة:

- مَا عَسَى أَنْ أَصْنَعُ؟!

فازدد ريقه وقال بصوت متقطع منخفض:

- وَالْأَسْفَاءُ... إِنْ أَدْرَكَتُ حَرْجَ مَوْفَقِكَ... لَشُدُّ مَا

يُؤْلِي هَذَا... وَلَكِنْ... أَهْنِي... مَا عَسَى أَنْ

أَصْنَعُ أَنَا؟!

فقالت بحقد وهي تكظم عواطفها النائرة:

- أَرْفُضُ هَذَا الزَّوْجَ. لَا نَجَاةَ لِي إِلَّا بِهَذَا...

- أَرْفُضُهُ؟! ... فَاتِ الْوَقْتُ...

- يَجِبُ أَنْ تَرْفُضَهُ. لَمْ يَفُتِ الْوَقْتُ بَعْدَ. يَجِبُ أَنْ

تَفْكَرِي... لَا نَجَاةَ لِي إِلَّا بِأَنْ تَرْفُضَهُ...

وقال بلهجة اليائس وهو يشمر بخوف:

- لَيْسَ فِي وَسْعِي هَذَا...

، وَتَوَلَّاهَا الْقَنُوطُ، وَلَمْ يَرَحْ لَهَا الشَّخْصَ الْخَائِرَ الْمَائِلَ

أَمَامَهَا بِأَقْلٍ رَجَاءٍ. وَصَاحَتْ بِانْفِعَالٍ:

- كَانَ فِي وَسْعِكَ أَنْ تَفْعَلَ مَا فَعَلْتُ. وَكَانَ بَوْسَعُكَ

أَنْ تَقْبَلَ الزَّوْجَ مِنْ هَذِهِ الْفَتَاةِ. وَلَكِنْ لَيْسَ بَوْسَعُكَ

أَنْ تَصْلُحَ الْخَطَأَ، لَيْسَ بَوْسَعُكَ أَنْ تَمُدَّ يَدًا

لِلْإِنْقَادِ...

- مَا أَشَدُّ ضَيْقِي! إِنَّ أَسْفِي لَا حَدَّ لَهُ...

- مَاذَا يَفِيدُنِي هَذَا الْأَسْفَى؟

وَلَمَّا وَجَلَّتْهُ صَامِتًا صَرَخَتْ فِي وَجْهِهِ:

الشرطي!

وواصل تراجعه حتى ابتعد عنها مسافة غير قصيرة ثم دار على عقبه وبغض مهزولاً كأنه يفترقاً...
وتسمرت في مكانها وجسمها ينتفض انتفاضاً.
فقدت سلطان الإرادة على جسدها وروحها وعواطفها.
وبدا لها الأمر كحكم، أو هليان مَرَض، أو حال لا تمت بصلة إلى عالم الحقيقة. هذا شارع وهذه شجرة وهذا مصباح وفؤلاء بعض السابلة، أشياء هذه أم أشباح؟! إنها لا تدري. بدا كل شيء بعيداً عن السواقع والحقيقة. ولعلها لم تثب إلى وعيها إلا حين انفجرت باكياً بدموع حارة ملتصبة صاعدة من أعياق صدرها...

- ٣٤ -

كان سليمان يحس الطاولة حين رأى ظل شخص ينمكس عليها فرفع رأسه فرأى حسن واقفاً حياه. وسرت في جسده قشعريرة رعب فكان صاعقة انقضت على رأسه. وكان حسن يقف بفاحته الطويلة، منفوش الشعر، وقد حال لون بدلتته من كثرة الاستعمال، ينبعث من عينيه نور حاد ينم عن العنف والجرأة. وقال سليمان لنفسه «إني هالك. إذا كانت نفسي قد أفضت إليه بسرّها فساحتي قد دنت ولا شك» ونظر إليه كما ينظر الفأر إلى القط دون أن ينبس. وقال حسن بصوت مرتفع رن في أذنيه رنيناً مؤلماً غريباً:
- السلام عليكم...

وردّ عمّ جابر سليمان من وراء مكتبته قائلاً:
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. كيف حالك يا سي حسن؟...
وفعل سليمان في خوف عن ردة التحية وقال لنفسه «ما هذه بتحية، هي نذير. رآه كيف تمرّضت لفناة لما مثل هذا الأخ؟»
وقال حسن:

- الحمد لله لقد جئكم لأحدثكم في أمر هام جدّاً...

إنه يعلم بهذا الأمر. عمّ قليل يعلم أبوه بالفضيحة ما هو الشيطان يقترب. لقد رفع طرف الطاولة ومرق

- ما يفيدني أسفك؟

فنعنم:

- ماذا عسى أن أصنع؟

وركبها شيطان الغضب واليأس فالتفت نحوه، وانقضت عليه بسرعة البرق وأمسكت بتلابيه وهي لا تدري ماذا تفعل، وصاحت في وجهه:

- أنساني عمّا تصنع! هل حسبتني لعبة تلهو بها حين تشاء وتحكمها حين تشاء؟!

فقال وهو يحاول عبثاً أن يخلص سترته من يديها:

- نفسي، اعقل، نحن في شارع...

فصاحت به وقد فقدت وعيها:

- جبان، سافل، وغد، غادر...

وسحبت يدها بسرعة وهوت بقبضتها على وجهه بقسوة جنونية، مرّة، وأخرى، حتى رأت الدم يسيل من أنفه، وجعلت تلهث وصدرها يضطرب في عنف وعدم انتظام، وتحسّس سليمان أنفه بيده ويسطها أمام نظريه في صمت، ثم أخرج منديله من جيبه ووضعته على فمه وأنفه. وبدا هادئاً ساكناً على غير ما كانت تتظر. شعر بلدى الأمر بخوف، ثم حلّ عمل الخوف ارتياح غريب، كأنه جاز منطقة الخطر، ولم يعد ثمة ما يخافه. انفجرت الأزمة، وزال الخطر، وسقط ما كان لها من شبه حتى عليه بعد هذا الدم المسفوح، وقال في هدوء وصبر:

- سامحك الله يا نفسي، أنا عاذرك.

وهيجه حديثه فجأة فساودها الجنون، وانقضت عليه مرّة أخرى بدافع غريزي، ثم أمسكت بتلابيه كشي يريد الإفلات وثأى عليه - بكلّ قواها - أن يفلت. وركبه اللعن فانتحلّ تماسكه، ونش سترته فجأة فخلصها من يدها وتراجع صارخاً:

- إياك وأن تلمسيني. ابعدني عني. ابعدني لا حتى لك عليّ.

وهجمت عليه وكأنه دفعها في صدرها وصاح بها في هياج أحدثه اللعن:

- لا تلمسيني. لم أجربك على شيء. لقد ذهبت معي إلى البيت راضية. لا تلمسيني وإلا ناديت

بالفوائد التي تقتزن بإحيائي ليلة الفرح. وأهمّ هذه الفوائد في نظري أنّ شخصاً مهما بلغ من القوّة والشرّ لن تحمّله نفسه بالاعتداء على الحفلة كما يحدث كثيراً. فلاح الاهتمام في وجه الرجل المعجوز، وأدرك بسهولة ما وراء هذا الكلام الطيّب من الوعيد، ونظر في وجه الشابّ المخيف مبسّماً وتساءل في لين ورقة وابنه يتابعه غافراً فاه:

- لا تخلو ليلة من حفلة فرح تمرّ بأمن وسلام.
فضحك حسن ضحكة غريبة وقال:
- يوجد كثيرون لا همّ لهم إلّا الشرّ والاعتداء،
وهم يتصيدون الأفراح عادة للنهب والاعتداء...
فقال المعجوز بحلحله:
- كان هذا في الزمن الغابر، أما الآن فلمعلمهم
ينحافون الشرطة.

فقال حسن وهو يهزّ رأسه مبسّماً:
- إنهم لا يحبسون للشرطة حساباً، ويتنهون من عدوانهم عادة قبل حضور الشرطة. وما أبسر عملهم الذي يتوجّه بادئ الأمر إلى تعظيم المصاييح، فإذا انقلب الفرح ظلاماً وركب الخوف النفوس أتمّ المدعوّون عملهم وهم يتخبّطون في الظلام لا يدرون أين تقع أرجلهم، فتتهار الزينات وتقلب المقاعد وينسلق الطعام وتُسرَق الملابس ويصاب أهل العروسين بجروح خطيرة. وإذا انجابت موجة الشرّ يجد القوم أنفسهم أشدّ حاجة إلى رجال الإسعاف منهم إلى رجال الشرطة. وأين الفاعل؟... مجهول... وإذا أُرشد إليه أحد عرض نفسه لخطر أكبر يحوّل القضية من حكمة الجنيح إلى حكمة الجنائيات. وأعطاني عقلك ما جلوى العقاب على فرض نزوله بالجاني بعد ضياع الأنفس والأموال؟!

وانصت عمّ جابر بانتباه، وفي تشاؤم ثقيل، وشعر ببعجزه حيال الشرّ المائل أمامه الذي يعرف من سيرته ما يعرف الجميع. ولم يدر كيف يدفعه فتعزّى قائلاً إنّّه على أيّة حال يحسن الغناء لدرجة لا بأس بها، وابتسم الرجل ابتسامة باهتة وقال:

- مهما يكن من أمر هؤلاء الأشرار فلن تسوّل لهم

إلى الدكان. لا يفصله عن قبضة يده شبر. أيّة حماقة جعلته يعتدي على نفسه؟! إنه يتهلمه حتّى يرفض الزواج ويصلح خطاه. ومال حسن على المكتب معتمداً حافته بكلتا يديه، وردّد بصره بين الأب والابن، وسليمان مُطَرِّق في توقُّع مرقّع للضربة المجتمعة. وقال حسن:

- علمت أنّ زواج سليمان قريب؟
فقال عمّ جابر:
- إن شاء الله. العقبى لك...
- وليلة الفرح؟
- قريباً جداً إن شاء الله.
فتقرّ حسن بأصبعه على المكتب وقال بجرأة:
- نحن جبران يا عمّ جابر واحسبني خير من يجي
هذه الليلة!

واتسعت حيناً سليمان الصغيرتين. إنّه لا يصدّق أذنيه... لهذا الغرض جاء؟! كيف غاب عنه أنّ نفيسة تفضّل الموت نفسه على البرح بسرّها لهذا الأخ الجبّار! ونذت عنه ضحكة. وأردفها بانعزى. ثمّ انفجر ضاحكاً ضحكاً عصبياً لم يتأكل معه نفسه حتّى التفت حسن وأبوه نحوه في دهشة وإنكار، وسرعان ما أمسك. ثمّ خاطب حسن قائلاً في أرميّة وسرور:

- لا كانت الليلة إن لم تحبها أنت...
وابتسم حسن في رضا وخاف الأب عواقب هذا الوعد الأحمق فقال:

- حل العين والراس يا سي حسن. لا يمكن أن يوجد مانع من ناحيتنا، ولكنني أخشى أن يكون لوالد العروس رأي آخر...

فرمقه حسن بريية ثمّ قال:
- الرأي رأي والد العريس.
فقال عمّ جابر برقة:

- أنت من تفضّل يا سي حسن، ولكن إمهلي حتّى أشاور عمّ جبران التوي...

فتفكّر حسن ملياً وقد أخذ دم الغيظ يجرى في عروقه ثمّ قال بلهجة ذات معنى:

- شكراً لك يا عمّ جابر. ولكنّي أحبّ أن أذكرك

نفوسهم الاعتداء علينا وأنت مطرب ليلتنا!

فايتسم حسن في ارتياح وقال:

- إنيك رجل كريم يا عمّ جابر، ولعلّ الأيّام
تسعدني بإحياء فرحك أنت إذا نويت الزواج مرّة
أخرى.

فضحك سليمان ضحكة من ينعم بلذة النجاة بعد
الخطر المحقّق. أمّا الأب فابتسم ابتسامة صفراء
وغمغم:

- عفا الله عنك...

وسعل حسن سعالاً مصطنعاً وقال بلهجة جديدة
ودون تعلّم:

- لا أحبّ أن أطيل عليك. أنّ لي أن أذهب شاكرًا
بعد قبض مقمّم الأثواب...

فقال العجوز بجزع:

- الآن؟!

- خير البرّ عاجله. لست إلّا مقمّياً متواضعاً لا
تتمدّى أثمانه - هو ويخته - الخمسة جنيهات، وأقنع
الآن بجنيته واحد...

وصمت الرجل متحيّراً حيناً. ثمّ قال لنفسه والأمر
له من قبل ومن بعده، وفتح درج المكتب وتناول جنيتها
ووضعه على المكتب فأخذه حسن وذهب وهو يقول:

- ربّنا يتّم بالخير...

- ٣٥ -

جاء الترام فركبت نفيسة وتبعته على الأثر صاحبة
البيت. أرادت المرأة أن تصحبها إلى بيت عمّ جابر
التوي لتقدّمها إلى آله بنسها وقد أخذت نفيسة زيتها
وصنعت من وجهها خير ما يمكن أن يصنع منه
وارتدت أحسن ما عندها من الثياب. ولم يكن يغيب
عن شعورها لحظة واحدة ما في رحلتها من غرابة. وقد
قالت لنفسها كثيراً إنّه من الجنون أن تذهب إلى هذا
البيت ولكنّها لم تنل كيف تنبّه هذه الفرصة السعيدة
التي فرحت بها أمّها أيّما فرح. والحقّ الذي لا مريّة فيه
أنّ حديثها لنفسها هذا لم يعمّر عن حقيقة رغباتها، أو
أنّه دأري هذه الرغبات مداراة لم تخف عنها. كانت تودّ
رؤية العروس معها كلّها هذا من عناء، وكانت رغبتها

من القوّة والتغلغل بحيث لا يمكن مقاومتها. وليس
يمكن القول بأنّها كانت تريد أن تقيس جمالها بجمالها،
فهي تعلم بالبداهة أنّها - العروس - أجل منها، وليس
في هذا من جديد، ولكن على رغم وضوح هذه
الحقيقة ظلّت رغبتها في رؤية الفتاة مشتتة لا تقاوم،
وكأنّ رباطاً وثيقاً يصل أسبابها بأسبابها، ويقرن
مصريها بمصريها. ولم تكن أفانقت من أثر الصلعة
العنيفة التي هربت نفسها وجسدها هرساً، ولكنّ
انقضاب آيّام أحمّد الثورة الهائجة، في ظاهرها على
الأقلّ، وأحلّ عليها مرارة سامة وياساً مميّناً، وشعوراً
معلّياً بالوحشة، كأنّها غريبة بين أهلها، شاذّة عن
المخلوقات، إلى إحساس بالظلم طاغٍ يبعث في نفسها
رغبتين متناقضتين تناوبتاها تناوباً متواصلًا، رغبة في
التمرّد والجمرح ورغبة في الاستزادة من الظلم
والتعذيب حتّى الموت، وقد ركبت الترام وهي على
هذه الحال، وتلخّفت على اللقاء القريب وهاتان
الرغبتان المتناقضتان تعالوانها. وغادرتا الترام بعد
عطّات أربع، وأنجبتها إلى شارع الوليد، ثمّ مالتا إلى
عمارة كبيرة تقوم في أسفلها بقالة عمّ جبران التوي.
وصعدتا إلى الدور الثاني ودخلا شقّة به. واستقبلتها
سيّدة في الخمسين متوسّطة القامة مفرطة في السمنة،
يضيء البشرة، فدخلن جميعاً حجرة الاستقبال، وما إن
استقرّ بهنّ المجلس حتّى قالت السيّدة زينب صاحبة
بيت نفيسة:

- هله سيّ نفيسة، وستشهيدين لها بسلامة
والدوق.

فقالت السيّدة:

- حدّثتنا سيّ زينب عنك كثيراً، أهلاً وسهلاً...
وألها التناء كأنّه سبّ وهجاء، وأغاطها وأحفظها
لسبب لا تدريه، وزعزعت ثقفا في أعصابها أن يفلت
زمامها من يدها. أمّا السيّدة فبالتّ نحو باب الحجرّة
ونادت بصوت مرتفع وعذيلة ودقّ قلب نفيسة،
ورجّحت أنّها تنادي العروس وخيّل إليها أنّها تسمع
سليمان وهو يغيث بهذا الاسم، وحنائيه يضمّها إلى
صدره وقد أذهلته حرارة العاطفة وراح يقول لها بصوته

يتجمع في أمهاتها لم تعبأ معه بالحقيقة والواقع.
وصمتت العروس نهيته ثم عادت تسألها قائلة:

- هل تسكنين في عمارة ست زينب؟

فقالته مدفوعة بالإحساس نفسه:

- نعم. منذ أعوام طويلة. كان المرحوم أبي موظفًا
بوزارة المعارف...

- أخبرتنا بهذا ست زينب. ألا تعرفين أن بقالة
العريس قريبة من عمارتكم؟

ووجدت شكّة دامية في قلبها، وخففت عينها أن
تري الأخرى ما ارتسم فيها، ثم تمحمت:

- تعين عم جابر سليمان؟

- هو نفسه. العريس ابنه. ألا تعرفونه؟

وأعرفه أكثر منك!.. لن تعرفيه مثلي قبل
أشهر!.. وستجدينه حيوانًا وغذاء. قالت:

- نعرفه حق المعرفة. ألم تريه؟

- قابلته هنا مرة واحدة...

وسألته بدافع لم تستطع مغالبته:

- هل أعجبك؟

فضحكت ضحكة كرهتها حل أثر ساعها أضعافًا،
وقالت:

- كانت الحجرة مزدحمة بالمدعّرين، وأنت تعرفين
هذا الموقف طبعًا

فقالته بلهجة باردة:

- لست أعرفه.

فضحكت العروس قائلة:

- دهيني أسالك أنت التي تعرفينه حق المعرفة، ما
رأيتك فيه؟

ودمها السؤال. لم تكن تتوقّعه. وانهارت القوة التي
تغلب بها أعصابها. انهارت بثقة كأنما انفجرت فيها
قنبلة خفية. واجتاحتها موجة طاعية من التمرّد
والجموح والجنون، فقامت بصوت غريب:

- ليس هو من النوع الذي يهيجني...

وغاضت آثار الضحكة في عيني العروس، وأتسعت
عينها في دهشة وإنكار، وجعلت تنظر إلى نفسها لحظة
سلامة واجبة كأنها لا تصدّق أذنيها، ثم تساءلت

المتهدّج وعذيلة... أحبك، أحبك أكثر من الدنيا
والأخرة مئة، فهذا قوله عادة إذا أذهلت حرارة
الإحساس. وهو قول كاذب أو هكذا كان بالنسبة
إليها، والغالب أن الدنيا كذبة كبيرة. وتوجّه رأسها
نحو الباب، مثالة قانطة حائقة، وعندما سمعت وقع
أقدام آتية داخلها إحساس آخر بالخوف فودت لو كان
بوسمها أن تخفي، ولعلّه كان إحساسًا عارضًا
سطحيًا. وجاءت فتاة في مقتبل العمر، متوسطة القامة
كأنها بيضاء البشرة، بضاوية الوجه، كبيرة القسبات
ولكن في تناسق حسن، بيد أنها سميكة لحدّ الإفراط.
وتساءلت لنفسه في نفسها كيف تصير إذن إذا تزوّجت!
واضطربت في أمهاتها ضحكة ساخنة متوقّرة، لم يتع
لها التنفّس. وذهب عنها الخوف العارض وشمرت
باضطراب عصبيّ بذلت جهدًا شديدًا للتعلّب عليه.
وتمّ التعارف وتبادل السلام دون أن تبسّ خشية أن
تخونها بترأت صوتها. ولدغتها الغيرة بفتة فمزّقت قلبها
شرّ ممزّق. هذه التي سلبتها زجلها، رجلها دون غيرها
بعد ما كان، فلا توجد امرأة لها مثل ما لها عليه من
حقوق، فكيف تكون هذه الجاموسة عروسة وتكون
هي الحياطة التي تعدّ لها ثياب العروس؟! من أجل
هذا تستحقّ الدنيا أن تكون طعمة للثيران، ولن تكون
أهمى من الثيران التي تلتهم قلبها. ربّاه كيف تستطيع
العمل بهذه الأعصاب المريضة؟! وغادرت المراتان
الحجرة تاركين الفتاتين معًا. وجاءت خادم بالأقمشة
ووضعتها إلى جانب نفسه على الكنبه فوجدت فيها
مهرقًا من أفكارها وراحت تنفّسها باهتمام ظاهريّ
وعيناها المنكسرة تسترقان النظر إلى قلبي العروس.
وسألها العروس قائلة:

- هل سبق أن خطت ثياب عرائس؟

ورفعت إليها عينها فيما يشبه الدهشة كأنها لم تكن
تتوقّع أن توجّه إليها خطابًا وقالت باستهانة:

- كثير جدًّا...

- أظنّ هذا يجعل العمل يسيرًا عليك.

- لا أجد فيه أثرًا لصعوبة...

كانت إجابتها تعبيرًا عن إحساس بالتمرّد والثورة

بغربة:

- حقاً! ترى ما النوع الذي يعجبك؟

فكانت ببرود دون أن تفارقها هذه الروح الجنوبية:

- دعك من هذا... المهم أن يعجبك أنت، ليس

كذلك؟

فكانت ولماً تفق من دهشتها:

- أظنّ هذا...

- مبارك عليك...

ولكنّ الفتاة لم تقبل أن ينتهي الحديث عند هذا الحد. أفاقت من دهشتها وكبر عليها قول الأخرى فتار بها الغيظ وقالت متسائلة في تهكم:

- وزيسوناتك الأخرى من العرائس ألم يكن

أزواجهم من النوع الذي يعجبك؟

وأدرت نفيسة ما في قولها من التهكم والتحدي فتبادت بها روح الشر التي ركبها واندفعت قائلة وكأنتا تلقي عبثاً ثقلها عن كاهلها:

- جيمهم جديرون بالإعجاب حقاً، فهم موثفون

عزيمون!

فاستنكرت العروس هذه الوقاحة التي لم تكن تنوّعها وتساءلت بغضب:

- ألا يكون الإنسان عزماً إلا إذا كان موثفاً؟

فكانت نفيسة بصوت مرتعش النبرات أعياها التحكم فيه:

- اعتقد هذا...

فصرخت العروس قائلة:

- وإذا كان خيطة؟

فكانت نفيسة بحقد وغضب:

- لا عليّ أن أكون خيطة. إحتوتي طلبة مثقفون،

وكان أبي موثفاً عزماً...

- حقاً لا يستاهل الرحمة كلّ المساكين ما دام يوجد

بينهم من هو في قلة أدبك!

- لا يدهشني هذا السباب من ابنة بقال...

فهبت العروس واقفة وهي تستفص غضباً وصاحت:

- يا مجرمة، يا قليلة الأدب، اغربي عن وجهي قبل

أن أدهو الخدم ليرموك خارجاً...

ونفضت نفيسة فاقدة الوعي، وتناوت بقجعة

الأقمشة وقذفها في وجهها فانتثرت الحرائر على كتفي

العروس وتحت قدميها، وتلّوت على الأرض في ألوانها

الزاهية، ثم غادرت الحجرة مهرولة وصراخ الفتاة

ينطلق وراءها بأقذع أنواع السباب، وتركت الشقة في

هوجة الفرار. وتراخت أعصابها المتوترة ودخلها ارتياح

غريب. وكاد يغلبها الضحك ولكن هذا لم يدم طويلاً

فسرعان ما انقلبت وإجمة متفجرة وبدا لها سلوكها على

حقيقتها. «ما هذا الذي فعلت؟ سيقتلون كل شيء

لست زينب وستقتول هذه بدورها كل شيء لأني. لا

بد أن تغضب أمي وستحزن كثيراً على الريح الذي

أضعت بحياقي. ولكنني أقول لها إن العروس خاطبتي

بمعجزة، وأهانتي بلا سبب حتى ثرت لكرامي. وإذا

لم تقبل علدي أبنت شكوي بصوت مرتفع ليلبلغ

مسمعي حسنين فيغضب لغضبي ويشر لكرامتنا

ويتهني كل شيء. هذا حسن. ولكن كيف اندفعت

إلى هذا! أي جنون! لم يكن في نيتي شيء من هذا

فكيف حدث؟ وضاع عمل مريح. ولكن لا داعي

للأسف. لديّ عمل لا بأس به في هذا الشارع نفسه.

لست أسفة على ما وقع». وانتهت إلى شارع شبرا ولم

يعد يرى من شعاع الشمس إلا أثر خفيف في أعلى

الدور. وسارت على الطوار في اتجاه المحطة فمرت في

طريقها بجراج لإصلاح السيارات، وكانت غالبة عمّا

حولها في تيار أفكارها، فما تدري إلا وشخص يعترض

سيبلها وهو يقول «أهلاً وسهلاً» ورفعت رأسها فرائت

شباباً ذا بنطلون وقميص خماكيين، مشتمراً عن

ساعديه، يذلّ مظهره على أنه من عمال الجراج، فالتقت

عليه نظرة شلداء وتنتحت عن موقفه، ولكنه عارض

مبيلها مرة أخرى وقال:

- حلمك يا سئ هانم، انظري إلى يسارك، هذه

السيارة ملك العبد لله. وهي على قدمها تستطيع أن

تحمّلنا إلى أيّ مكان شئت، محسوك محمد الغلّ

صاحب هذا الجراج ولا فخراً

فصاحت به:

البح. أمّا إخوته فالحقّ أنهم سرّوا برؤيته بعد احتضائه الطويل. كانوا يحبّونه كما كان يحبّهم، وسألته نفيسة:

- حدّثنا على السلامة. أين كنت طوال هذه الأسابيع؟

وخلع الشاب سترته وطرحها على المكتب، ثمّ جلس على الفراش وقال بأساً:

- أكل العيش يحبّ التعب! (ثمّ ملتفتاً إلى أمّه)...

أبشري يا ستّ أمّ حسن. أخذت تفرّج!

فرفعت الأمّ رأسها ونظرت صوبه بريّة واهتمام معاً، ثمّ تمتمت في شيء من الألم:

- حقّاً؟

فضحك سروراً بإثارته لاهتمامها بعد ما لاقى من تجاهلها وقال:

- سبق أن أخبرتكم بأنّ الأستاذ عليّ صبري ضنّي إلى محنته...

فتنهّلت الأمّ في جزع وقالت:

- لا اعتد أنّ هذا عمل جيّد...

- لقد دُعِيَ الأستاذ منذ أسبوع إلى إحياء ليلة فرح بيولاقي وذهبت معه لقاء ريال غير المشاء طيباً. إلّا أعلم أنّه مبلغ تافه ولكنّ الرزق دأبه التمتّع بادئ الأمر...

فقالَت الأمّ في ضيق:

- أنوسّل إليك للمرّة الالف أن تبحث لك عن عمل جيّدٍ لخير نفسك إن لم يكن لخيرنا نحن. ما عسى أن أقول يا حسن؟ ألا تعلم بأنّنا لا نكاد نشبع أبداً؟

وخفض عينيه في ارتباك. كان حبّ أسرته العاطفة الشريفة الوحيدة التي يخفق بها قلبه، ولعلّها الأثر الوحيد الذي تركته أمّه في خلقه. وغمغم قائلاً:

- صبرك، لم أفرغ من كلامي بعد...

وهنا قاطعه حسين قائلاً:

- أنظرن أنّ عليّ صبري هذا يمكن أن يكون يوماً معيّناً حقّاً؟

فرفع حسن حاجبيه الكثيفين في إنكار، وأراد أن يزيل أثر حديث أمّه في مرح:

- أبعد وإلّا ناديت العسكري...

فضحك الشاب وقال:

- لا داعي لذلك. أنا أحبّ النسوان ولا أحبّ المساكين...

- ٣٦ -

في الأسابيع التالية أدّى الشقيقان امتحان النقل في ختام العام الدراسي، وكُلّل اجتهدهما بالنجاح فانتقل حسين إلى السنة الخامسة، وحسين إلى السنة الرابعة. كانا يعلنان أنّه لا بدّ لها من النجاح، وأنّ حال الأسرة لم يعد يحتمل العثرات، فواصلوا العمل بعزيمة صادقة وجاهت النتيجة كما يحبّان. وبدأت المطلة الصيفيّة التي غنّت حوالى الخمسة الأشهر فاستجذبت متاعب جديدة للأمّ تتعلّق بغذاء الشابين. وكانت الأمّ وابتها تقنعان عادة بأبسط الطعام، وتتمتدان في الغالب على ما تجلبان من السوق من طعام جاهز اقتصاداً لنفقات اللحم والسمن والوقود، فوجدت المرأة نفسها مضطّرة إلى تعديل هذا النظام القاسي مهما كلّفتها الأمر من عناء وتعبير. وهكذا لم يُسرّ أحد بالنجاح إلّا قليلاً، وبدت الحياة وكأنّها تزدد مع الأيام تجعّلاً وتطالعههم بعبوس بعد عبوس. وفي ذات مساء جاء حسن بعد انقطاع دام ثلاثة أسابيع متواصلة، وأقبل على أسرته ضاحكاً، كمادته وكثيراً ما يداري بضحكته حرجه وارتيابه، وقال:

- مساء الخير يا أمّي، مساء الخير يا أولاد.

أوحشتموني كثيراً...

وردّ إخوته التحيّة وهم يرمقونه بلهشة، أمّا أمّه فلبثت تنظر فيها بين يديها معلنة على سخطها بالصمت والتجاهل. بيد أنّها عدلت عباّ كانت تلقاه به من التعنيف والحساب أو الحثّ على العمل. هيهات أن يجدي الكلام بعد ما كان. وألحّ عليها الحزن الذي يغشى نفسها كلّما فكّرت في أمره أو وقعت عليه عينها. حتّى السؤال عن غيابه الطويل لم يخطر لها على بال، وإنّما لتعلم سلفاً بما أعدّ - طبعاً - من جواب، سيقول بصوت مؤثّر أنّه يخفي حتّى يوفّر عليها نفقة إطلاعها وإسوائه، وإنّه لا يني عن البحث عن عمل

- سفخص على هذا البلد الذي لا يقدِّروا الأستاذ علي صبري فتان كبير. إنَّ «يا ليل» منه شفاء ودواء. هل سمعته وهو ينتقل من البياتي إلى الحجاز ثمَّ يعود إلى البياتي؟ لم يفعل هذا إلاَّ الحموي، وسلامة حجازي مرَّة أو مرَّتين. أما عمَّد عبد الوهاب فإذا خرج من البياتي فقلَّ أن يعود إليه إلاَّ في حفلة تالية. وليس يعيبه أنَّه أحياناً ليلةً بجنيهات معلودات فلا يزال في أوَّل الطريق، والتاريخ يحدِّثنا بأنَّ من كبار الفنَّانين من أحياناً أولى لياليه لقاء بضعة أرغفة! وضحك إخوته هلهله أمَّا الأمُّ فتهدَّت قاتلة:

- سلِّمت أمرك الله!

فألقي عليها نظرة من علٍّ وقال:

- لنذرع حديث الفنِّ جانباً. المهمُّ أن تعلمي أنَّي سأحبي حفلة عرس غداً..

- في تحت علي صبري؟

- وحدي! سأحبيها بنفسي!

ونظرت الأمُّ نحوه بإنكار، وسألته نفيسة:

- أمَّصِبت مطرباً حقاً؟

- يحدث أحياناً أن يُختار أحد أفراد التخت من المشهود لهم لإحياء حفلة كمطرب. خطوة لها ما بعدها..!

وسألته أمُّه بلهجة لا تخلو من عجب:

- ومن الذي دهاك لإحياء ليلته؟

- عمَّ جابر سليمان لإحياء ليلة زفاف ابنة سليمان.

ونخفضت نفيسة عينيها وقد خبا حماسها، وران على نفسها كدر خائف..

ودهشت الأمُّ وخاطبت حسن متسائلة وهي تومئ إلى نفيسة:

- بعدما حدث؟

فضحك حسن قاتلاً:

- تمَّ الاتفاق بيننا قبل معركة ستَّ نفيسة في بيت العروس، ولم يجرؤ الرجل على خرقه!

وساد الصمت قليلاً والأعين تحدَّق فيه في غير تصديق، كان في صوته حلاوة ولكن ليس للدرجة التي تجعل منه مطرباً. واختيراً سألته أمُّه في حيرة:

- أحطاً ما تقول؟

- نعم ورحمة أبي...

- أجز؟!

- خمسة جنيهات، لك منها جنيه كامل.

وسكت حتى تغلغل أثر كلامه في النفوس ثمَّ ردَّد عينيه بين شقيقه وتسأل:

- ما رأيكما في أن تعملنا معي سيَّدين في التخت وكلاكما ذو صوت لا بأس به؟!

وانفجر الشقيقان ضاحكين، وواصلوا ضحكهما، حتى قال:

- يا لكما من غيَّبين. هذه فرصة نادرة للاشتراك في البوفيه الخافل بما لَدَّ وطلب من الماكل والمشارب.

ولم يكفَّ الشابَّان عن الضحك في استهزاء، ولكن تمثَّل لعينيها منظر المائدة وقد صُفَّت عليها الأطباق، وراح خيالهما يتبَّ من طبق إلى طبق، في عجلة، وبلا رحمة، حتى صاحبت به نفيسة بحلَّة وغيظ:

- أتريد أن تجعل من شقيقك متسرِّلين في بيوت البقالين؟

فقهقه الشابُّ قاتلاً لاخته:

- إنِّي أدرك تغلُّبك يا ستَّ نفيسة فإنَّ اعتدائك على العروس حرمك حقَّ الدعوة إلى هذه الليلة، ولكن ما ذنب هذين المسكينين؟ ليس الأمر هوَّاً ولعباً ولكن طيوراً ولحزناً وطرائر وخضراً وفاكهة وحلوى... ففكراً ثمَّ فكراً...

ولم يبد لدعوته من صدى فهوَّ منكبيه استهانة ولم يعد الكثرة. كان حسن النية وأراد لأخويه خيراً ولكنَّ حماقتها ضيَّعت عليها هذا الخير، هكذا قال لنفيسة في أسف. ولم يشاركه الشقيقان أسفه ولكنَّ نفسيهما اهتزتا في حنان لذكر الطيور واللحوم والطرائر والحضر والفواكه والحلوى. ونشط خيالهما في حسرة وألم زاد من شدَّتها اقتراب وقت العشاء الذي يندر أن تعترف به أمُّهما. لم يكن للأسرة عشاء عادة، وكانوا يتحامون أن يجهرُوا بالجوع أن يضاعفوا من تعاسة أمَّهم وسخطها، فلاذ الشابَّان بالتخلُّل دون أن ينس أحدهما بكلمة، على حين عكفت نفيسة على أفكارها، وهي أبعد ما

الختام فكان عقب انتهاء الحفلة وقد التفت حوله أفراد التخت يطلونه بأجورهم فقال لهم ببساطة:

- أليس حسبكم ما التهمتم من طعام؟!

- والأجرة؟!

فقال بوحشية:

- خلّوها بالقوة إن استطعتم!

وانفصلوا عنه ساخطين غاضبين بالسين. شيء واحد أشف له أشدّ الأسف هو أنّ أسرته لم تشاركه طعامه الشهية، أمّه ونفسيه وحسين وحسين. وكان بؤده أن يعطي أمّه فوق ما أعطى ولكنّ نشرده الطويل علّمه الحرص. على الأقلّ ما دامت هذه الحال. وها هو يقصد كلوت بك، بل درب طياب بالذات حيث ينتظره عليّ صبري الذي مناه بضروب من العيش توافق مزاجه وتلهب حماسه. وكان عليّ صبري قد أخبره بأنّه ينتظره في قهوة وسط الدرب أمام بيت زينب الخنفاء، فارتقى السلم المضي إلى الدرب وحثّ خطاه بين بيوت مغلقة لم تستيقظ بعد. وجد الدرب كالقفقار حتى المقاهي الصغيرة كان عائلها ينفضون عنها رمد سهرة الأمس. وبلغ وسط الدرب ورأى الأستاذ عليّ صبري جالساً أمام باب القهوة فأنهه إليه وسلم وجلس على كرسيّ إلى جانبه. لم تعد قهوة كما كانت يوماً ما، ولكنها باتت مشروع قهوة جديدة إذا صدق ظنّه، فبعض العمّال يحفون على تبيض الجدران وإعدادها للحال الجديدة. قال عليّ صبري مزهواً:

- هنا حيث تراني جالساً سنبدا حياة جديدة. . .

فتولّت حسن الدهشة لأنّه لم يكن سمع عن هذا المشروع على كثرة ما سمع عن مشاريعه وتساءل:

- والتخت والأفراح؟

فبصق الأستاذ بصمّة أصابت جذران بيت زينب الخنفاء أمامها - وكان لا يزال مغلقاً - ثمّ قال:

- سيعمل التخت في هذه القهوة. أمّا الأفراح فربنا يجعلها ماتم. انتهى زمان الأفراح، ولا نسمع الآن إلّا عن «حفل عائليّ» اقتصر على آل العروسين» والراديو احتكرته أمّ كلثوم وعبد الوهاب وشرقة من المطربين المختصّين بالنشاز، وهيهات أن يكون لنا عيش في هذا

تكون عن لذة الطعام، ولذة الحياة عامة. ردها حديث حسن إلى أشجانها ويأسها وخاوفها، وتساءلت في دهشة أحقّاً بمجي حسن - شقيقها - ليلة الزفاف؟!

- ٣٧ -

وحوالى التاسعة من صباح اليوم التالي لليلة الزفاف كان حسن يسير في ميدان الخازندار متّجهاً إلى كلوت بك حيث دماه الأستاذ عليّ صبري إلى مقابلته. وكان متعباً عقب سهرة الأمس التي لا زالت ذكرياتها تدور برأسه. كانت ليلة وكان جريئاً ليس كمثّل جرائمه شيء. وقد شقّ طريقه في السراق الذي أقيم على سطح بيت عمّ جابر سلمان بقدمين ثابتتين حتى بلغ المنصّة بين أيّد تصقّق وحتاجر تهتف للمغنيّ الجديد، ورّد تحياتهم برزانة وجلس وسط تحته المكّون من عوادم وقانونجي وكمانجي عملوا معه كمازولين وسّيلة معاً. ثمّ غنى «قد ما أحبك زعلان منك» وما لبث أن لس بنفسه الفتور الذي استحوذ على الجميع، ولكنّه واصل الغناء دون مبالاة، وأكثر من الشراب. وعند بدء الوصلة الثانية تصايح كثيرون يطلون في الليل لسا خلّ، ولم يكن يحفظها فغنى «بستان جملك وسرعان ما انقطعت الأسباب بين المدعوّين والمطرب، هذا يذبح صوته بثناء لا غناء فيه وأولئك يشربون ويضحكون ثمّ بلغ الحرج غايته حين وقف سكران مترنّحاً وقال بلسان ثقيل موجّهاً خطابه للمطرب:

- والله لو لم تكن فتوةً لقلت لك اسكت. . .

وعرفه حسن، كان حدّاداً في أوّل عطفة نصرالله، وتوغّده شراً ولكنّه واصل غناؤه «والله زمان، زمان والله والله زمان، زمان والله» ذكر هذا صاحكاً وهو يحثّ خطاه ثمّ قال لنفسه: «وما كان كان. لا داعي للأسف ما دمت قد انتزعت الخمسة جنيهات». وليس هذا فحسب، وهل يمكن أن ينسى البوفيه؟ لشّد ما أبلى فيه بلاء حسناً وقد بلغ القمّة حين ازدرد حمامة بغضامها. لم يكن أكلاً ولكنّ كان التهاماً وخطفاً وسلّياً وعراكاً، وبلغت المعركة ذروتها حين فرغت صحيفة اللحم البقريّ فيا كان منه إلّا قبض على يد المدعوّ الذي يليه واستصفي ما فيها من شرائح. أمّا حسن

البلد .

فقال حسن متظاهراً بالامتناء :

- صدقت يا أستاذ (وسكت لحظة ثم تسأل) ولكن ماذا يفعل التخت هنا؟

فعدّ الأستاذ ساقيه فلبغنا منتصف الطريق الضيق وقال مشيراً إلى القهوة التي يعدّها العمّال :

- إليك قهوة بالنهار، وحانة بالليل وسيرقص فيها نسوان الستّ زينب الخنفاء - وهي على فكرة شريكتي - وبين ساعة وأخرى أغني، مجال العمل واسع، والرزق مضمون. ولكن عليك بحفظ أغاني عبد الوهاب يا حلو. . .

- لا أكاد أحفظ منها شيئاً!

- لا بدّ مما ليس منه بدّ. وطفاطيق أم كلثوم أيضاً، هذا حكم الزمان!

فقال حسن ضاحكاً:

- ربّنا معنا.

فقال عليّ صبري باطمئنان:

- إني متفائل خيراً. هذا المكان مبارك، وهو أصل ثروة عمّد العربي نفسه.

وتسأل حسن من أين للأستاذ الثروة التي يبدأ بها هذه الحياة الجديدة؟ زينب الخنفاء؟ هي فوق الأربعين على أحسن الفروض، وليس بها من جمال فيها عدا جسمها البقري، ولكنها لقية وذات ساعدين مثقلتين بالذهب. لا داعي للحمدا ما دام سيحظى بتصيبه من هذه الثروة. فُرجت، ولعلّ ليالي التسكّع والجموع قد غارت إلى غير رجعة. ثمّ سمع الأستاذ يقول:

- ولكنّ عملك كسّيد ثانوي بالقياس إلى ما يُنتظر منك!

- وماذا يُنتظر مني؟

ألقي سؤاله بقوّة وزهو كأنه عالم حقّاً بما يُنتظر منه، فقال الأستاذ:

- إنك أدرى الناس بهذه الأحياء، ففي كلّ متر مربعٍ بلطجي أو بريجي أو سكر عرييد فمن هؤلاء؟ أنت! وهناك المخدرات وتجارتها فنّ هائل يطلب مهارة

وقوّة وجراحة فمن لها؟ أنت!

وابتسم حسن ابتسامة عريضة، ظلّت مرتسمة على شفتيه طويلاً. ودخله مرور وحاس وفخار. هذه هي الحياة حقّاً، حياة تدبّ تحت مهاري النبايت ومساقط الكراميّ وفي دهاليز الغرز، حيث السّماء ذهب والأرض أشواك والطريق مسارب شقّ ينفذ بعضها إلى اللذّة والعزّة وبعضها إلى السجن والموت فها هنا وطنه ومراحه، وما هو بالغريب في هذا الدرب المتعرج للتلاطم الشرفات، حيث تختلط أهات الدلال بمواء العربية، وأريج البخور بعرف الحمور، وسباب المتماكرين بقيّة المخمورين، إلى غناء وعزف وقصص. بوسعه أن يقضي بين أحضانها أعماراً دون ملل، يأكل ويشرب ويربح ويسكر ويحشّش ويغني. وأشرق وجهه بنور الأمل والقي على ما حوله نظرة. كان السكون يتبدّد تحت وقع أقدام القادمين، فهذه ضحكات عطوطة، وأرداف متارججة، ونظرات فاجرة عارمة. وتُفتحت الأبواب وأُحرق البخور، وصُفّت المقاعد، وطفطقت ضحكة ولعلمت أخرى. . . صباح الخير. . .

- ٣٨ -

قال حسنين يتأثر:

- شكراً للصيف!

فتسألت في حياء وهي تلوي ما يعني:

- لماذا تشكر الصيف؟

- لأنّه جرّدك من معطفك السميك فتبدّيت في فستان يجلو محاسنك ومفاتنك. . .

فتورّد وجهها، وقطبّت تداري لمعة السرور الذي يبعثها النقاء، وقالت:

- ألم أنك من هؤلاء؟ لا تغفأ تسادي في ما يضايقي. . .

وأصغى إليها على شفتيه ابتسامة حائرة، وعيناها تلتهاجان جسمها البشّ بارتياج. فستان مؤدّب محتمم ولكنّه على تحفّظه يكشف عن الساعدين وأسفل الساقين والعنق الرقيق الشفاف، ويشي بقسبات الجسم اللدن المدملج. ثمّ علق بصره بالشرطيّة الدقيقة

- إني أعجب آلًا تودّين حقًا أن تطيع شفتاي على شفتيك؟

فتفتحت في غيظ قائلة:

- يُسرّك بلا شك أن تعطيني!

- وأن تستنمي إلى دقات قلبي وذراعي تشدّان على خاصرتك؟

فأعرضت عنه عابسة، فقال في ضيق:

- إذا لم يكن هذا هو الحبّ فما هو؟

فقمغمت في توسّل:

- كما كنّا طوال العهد الماضي...

- لقاء وحديث واحتراق؟!

- لقاء وحديث فحسب.

- تكليدين على نفسك.

- ساعك الله.

- أو تحيّن بلا قلب!

- ساعك الله.

فضرب الأرض مخيفًا محنًا وجعل يلعب ويحيى أمامها في حيرة وعبوس، فبدا في وجهها القلق وقالت:

- اعتقدت أنّك تناسيت طلباتك المزعجة وطبت نفسًا بحياتنا الوديمة اللطيفة فما الذي يزعج بك اليوم إلى إلحاحك المخيف القديم؟ كن طفلًا مهذبًا وأميك من الإلحاح والطمع. الحبّ الحقيقي لا يعرف هذا العبث...

فهزّ رأسه في قهر وياس وعجب. وما أدراكها بالحبّ الحقيقي؟! أيّ لغز؟! أحبّه حقًا؟ لا يسهو أن يشكّ في هذا، ولكنه حبّ لا يفهمه، أو أنّه لا يستطيع فهمها هي. يا لها من شاذّة رزينة هادئة. حينان زرقاوان صافيتان، ليس فيها ذرّة من شيطنة أو حقّة، ولا حرارة، باردتان. ومن عجب أن يكون هذا الجسم الفئان لصاحبة هاتين العينين الهادئتين الباردتين. إنّ نار الحبّ لا تُروى بلماه ولكن بنار مثلها أو أشدّ منها. وهكذا يمضي اليوم كما مضى الأمس وكما يمضي الغد، بلا أمل. وكثيرًا ما يبدو له أنّ حديث الحبّ يزعجها ويقلقها، وأنّها تستردّ طمأنينتها حين يشوسا إلى الصمت، أو إلى حديث آمالها البعيدة، وهي لا تمّل

المكسورة فوق الصدر صوّرتها الخياطة حقًا لشديين ناهدين يكادان لشدة غيوضها يطيران لولا ما يسكنها من صدر أبيض صافٍ، تحلّل أنّه يدغدغها بأنامله فانبتت في جسده قشعريرة الرغبة، وتحلّل أنّه يشدّ عليها وأنّها يقاومان الشدّ بصلابتهما فازدرد ريقه في ظمًا. ولكنها لا تريد ولا تستمع وتصرّ على عنادها بغير هودة. وكان يظنّها تلين مع الزمن ولكن لم يعد ثمة أمل وقال بحزن:

- بيّته، إنّك تتكلمين بقسوة شأن من لم يلق قلبه الحبّ...

ولاحت في عينيها نظرة اعتراض وقالت:

- إني أنكر الحبّ الذي تريد، وإنّك تسيء فهمي عمداً...

- ولكنّ الحبّ واحد لا يتجزأ...

فكانت بإصرار وحدة:

- كلاً، كلاً، لا أوافقك على هذا الرأي.

فتبتد في قهر والفس بظنّره إلى الأفق البعيد. كانت الشمس قد توارت خلفه وراها هالة حمراء مترامية، أقصاها حمرة دامية، تخفّ عند الوسط كأنّها تقطر من ورد مصفى، ثمّ تشعب عند أطرافها الدائبة حتّى تبتلعها زرقة عميقة صافية تنمنعها هنا وهناك سعائب رفاق كتبهذات وانية. وارتدّ بصره إلى وجهها وقال برجاه:

- إني أحبك، وإني خطيبك، وما أريد إلّا أن أعطي حبّنا بحقه من الحياة البريّة...

فتجلّت في عينيها الحيرة، وبدت حزينًا وكأنّها تتعلّب، ثمّ قالت:

- لا أستطيع ولا أريد...

فابتسم ابتسامة لا معنى لها وقال:

- إنّك تدفعيني إلى أحضان وحشة غريبة لا أطيقها. إني أحرّق إلى أن أطيع قبلة على شفتيك وأنّ أضمتك إلى قلبي. هذا حقّي، وحقّ حبّنا...

- كلاً، كلاً إنّك تخيفني...

- ألا تحيّنني؟

- لا تسأل عني تعلم...

الحديث عن هذه الآمال، وبه تنسى نفسها والزمان والمكان، فتشعّ عيناها نوراً بهيجاً، وتتدفّق في أطرافها حيوية جديدة. وفي هذه الساعة يجتمع قلبه بيد أنه حبّ لا يخلو من تكدر، أو من غيظ وحتى في بعض الأحيان، وينقلب متسائلاً لماذا لا ينشرح صدرها أيضاً بالحبّ نفسه؟ لماذا تخافه وتحفل من ذكره وإشارته؟ ولأنّ يبقى هذا الحجاب قائماً بينه وبينها؟ وتقرّس في وجهها طويلاً فيما يشبه الحقّ ثم تسأل:

- هل أكابد هذا الخمران إلى الأبد؟

وابتسمت - على رغمها - وقد زادت الابتسامة من حقه وقالت:

- ليس إلى الأبد!

وشعر برجفت في قلبه، رنا إليها لا يحول عنها عينه ثم قال بانقضاب:

- الزواج؟!

فخفضت عينيها حتى لم يعد يُسرى إلّا جفنين مسدّلين وخلفين موردين، وحينذاك شتّب بنفسه رغبة في الانتقام والإيذاء ولو باللسان فقال:

- وإذا تمّ الزواج بدلت لي ما تتمتعين عنه بنفس راضية أليس كذلك؟ مبهيني شفّيتك وصدرك وجسدك وتزعزعين عنك ثوبك فتبدلين عارية كالبلور...

ولكنّها كانت قد غادرته كأنّها تفرّ وحثّت خطاها نحو باب السطح. وكانت الكلمات تُقلّص من فيه بحرارة وحتى وتُشفّ.

- ٣٩ -

أصبحت قهوة عليّ صبري ملهى صغيراً بما تحفل به من غناء ورقص وخمر. وقد رُكّبت على هامتها لافتة كبيرة سُكّر عليها بالخطّ العريض وعليّ صبري، وأقيمت في نهايتها من الداخل منضّة للتخت، ونُصّدت الموائد والكراسي على الجانبين وبجدها مدخلها. وكان الأستاذ عليّ صبري قد انتهى من الرصيلة الأولى وأنس الجلوس بكتوسهم وسمرهم، حين جاء زنجي - طويل رشيق مفتول العضلات يتطاير الشرر من عينيه - فوقف على عتبة القهوة وصاح بصوت وقع مرتفع:

- أين صاحب القهوة؟

فجاءه الأستاذ عليّ صبري مدارياً دهشته بابتسامة باعثة وتساءل:

- أفندم؟

فقال الزنجي بتحدّ:

- سمعت أنّ لديك أفضل خمر توجد في، هذه الناحية، وليّا كانت الخمر الجليّة لم تعد تؤثّر في، فقد قصدتك لاسكر..!

وأزاحه عن سبيله بحركة غليظة وأجبه صوب مائدة يجلس إليها نفر من الأندليّة فألقى عليهم نظرة وحشية وقال بلهجة أمرة:

- اخلعوا هذه المائدة!

ولم يسعّر الأندليّة إلّا أن يهضوا صامتين وغادروا القهوة، فجلس الزنجي على كرسيّ وطرح ساقيه على كرسيّ آخر وهو يتفرّس في الوجوه بتحدّ وقحة. واقترب صبيّ القهوة من الأستاذ عليّ صبري وهمس في أذنه قائلاً:

- محروس الزنجي، فتوة رهيب يعرفه المحي كلّ...

فسأله الأستاذ بقلق:

- ترى هل يمكث طويلاً؟

- إنّه يرتاد ما يشاء من القهوةات فيأكل ويشرب دون أن يبرؤ أحد على مطالبة بشئ ممّا يلتهمه، ولعلّه جاء ليعرّفك بنفسه، أو لعلّ...

وتردّد الغلام قليلاً فحطّه الأستاذ قائلاً:

- تكلم...

- لعلّ أحد أصحاب المقاهي في الدرب اتّفق معه على تقريب قهوتنا!...

واختلس عليّ صبري نظرة من الزنجي فصرّاه كالثائم، أمناً مطمئناً كأنه في بيته، وقد أدخل الزبائن الموائد القريبة منه، فانقبض قلبه خوفاً وإشفافاً، ثمّ تراجع في سكّون إلى منضّة التخت حيث يجلس حسن مع بقية الأفراد، وأومأ إليه ثمّ اتحنى به وراء المقصف، وأسرّ إليه ما قال الغلام ثمّ سأله:

- ألا يحسن بنا أن نستدعي المعلّمة زينب الخنفاء

وصاح به:

- عليك وعلى آتلك اللعة، ماذا تريد؟
وحافظ حسن على هدوئه الظاهري، وقال بنبرات واضحة:
- سمعتك تهتف طالباً كونيكاً فرايت من واجبي أن أخبرك بأنّ الدفع هنا مقدّم...

فمسح محروس ساقيه من الكرسي أمامه وأغرق في ضحك طويل مفتعل وهو يضرب على ركبته من شدّة الانفعال، ثم أخذ يهذئ من انفعاله حتى ذهب عنه الضحك، ورعى يبصر هائزاً إلى الشاب، وتساءل ساخراً:

- حامي القهوة؟.. هه؟

فقال حسن بهدوء:

- وأحبّ أن أقول لك أيضاً إنّ هذه المعاملة خاصة بالزبائن غير المحترمين...

ومرّت ثواب، وفي اثناها كان الزبائن القريبون يتدافعون إلى خارج القهوة، وامتلا الطريق فيسا يلي مدخل القهوة بالمرّة والنسوة من كلّ لون وسرّ، على حين نشط عمال المصنف إلى إخفاء القوارير وما يخافون عليه من التلف من الأكواب والآلات الموسيقية وغيرها. وجد محروس وعلى شفّته الغليظتين بسمّة هائلة، ثم دفع قدمه بفتة بقوة فأصابت ساق حسن اليسرى فبال مترنحاً إلى الوراء. كان يراقبه ببطّة وحذر يهد أنّه ركّز انتباهه في يديه متوقفاً أن يقدفه بشيء أو يشهر عليه خنجرًا فلم يتنبّه إلى قدفيه قدمه حتى كانت منقبضة عليه، فانكمش متاسكاً، وتنادى بهذا من السقوط، ولكنّه مال إلى الوراء مترنحاً وهو يعصّ على نواجهه ليتغلّب على الألم الذي بعث جنون الغضب في دمه. ولم يده الزنجي ثانية واحدة فوثب عليه كمن ينب إلى الماء، وخاف حسن أن يؤخذ فريسة سهلة فأمسك عن مقاومة الميل إلى الوراء وقفز إلى الخلف بسرعة عجيبة فاصطدم بجدار القهوة زائغاً من خصمه الجبار. ولم يسمح له الزنجي بثانية يتألّك فيها توازنه فانقضّ عليه موجّهاً ضربة إلى بطنه فحال الآخر دونها بيديه، ولكنّها كانت ضربة خادعة قصد

لتعالج هذه المصيبة بحكمتها؟

فقال حسن وهو يتحصّن عن بُعد الزنجي محروس:

- لا أوافق على أن نستغيث بامرأة. لن نجدي هذه السيامسة في هذا الدرب، دع الأمر لي...

- يقولون إنّ فتوة شديد البأس.

فابتسم حسن قائلاً:

- هذا ما يقال عني أيضاً ولكنّ أهل الدرب لا يعلمون، دع الأمر لي...

وخطر له خاطر فقال لنفسه ساخراً «ليست أمي وحدها التي تكاد من حياتها المرّ في سبيل العيش» ثم قال للأستاذ:

- ستكون معركة شديدة، لكنّ هيات أن يكون لنا عيش هنا بلا معركة ظافرة!

- وإذا لم تكن ظافرة!

- اعتمد على الله وعليّ...

لن يفرّ من المعركة مهما تكن النتيجة، وهل من سبيل إلى رفع مكانته عند الأستاذ وفي الحيّ كلّ إذا تبادى من هذه المعركة؟ ولعلّ عليّ صبري على حقّ في تحوّل، فالقهوة قهوته والمال ماله، ولكن مستقبله هو يتوقف على نتيجة هذه المعركة، وفي سبيل هذا فليذهب عليّ صبري نفسه إلى الجحيم. ولا ينبغي أن ينسئ إلى هذا كلّ فتيات زينب الخنفاء في سبيل إلهنّ إلاّ بنصر إن أجلاً أو عاجلاً، فحفظه في الحياة، وربّما حقّق أسرته المنهارة - خطرت له هذه الحاضرة كالمعنى المتداخي - يتوقّان على خوض المعركة.

وتحرّك الزنجي محروس وهو يتمسك ويتجسّأ ثم صاح بوحشية:

- أين الكونيك القذر الذي حدّثونا عنه كثيراً؟!

وغادر حسن موقفه في ثبات وهدوء واقترب من الزنجي بخطو وثيد حتى وقف أمامه، ثم قال بهدوء:

- سلام عليكم!

فرغ الزنجي عينيه الملتهتين صوبه في تكبر، وتفحص جسمه الصلب وعينه البرّاقتين بريرة وشرّ، ثم عبس في حقّ فاستحال وجهه هيئة غير آدميّة

ثم أحسَّ ييد توضع على كتفه ورأى الأستاذ علي صبري يتشم إليه بوجه تعلوه صفرة الموت، وسمعه يمس في أذنه:

- تعال معي أقدم لك كأسًا من الكونياك...

فسار معه دون أن ينس، وجلس على كرسيه على منضبة التخت وجاءه الرجل بكأس مترعة فتجزّعها، وطلب أخرى فأحضرها له، ثم قال بإشفاق:

- لشدّ ما تعبت!

فقمغم حسن بقة:

- كانت معركة لا بدّ منها.

وجاء النادل يقول ضاحكًا:

- أطلق الناس عليك لقب «الرومي» لآثك صرعته برأسك!

وشعر حسن برغبة في تمأشي الانظار، فقال لعلي صبري:

- دعنا نلخ أثر المعركة فابدأ الوصلة الثانية...

- ٤٠ -

استعاد حسن توازنه بفضل قوّته وحيويّته واعتياده المراك يومًا بعد يوم. وكان الليل قد جاوز منتصفه ساعة أو أكثر، وأخذت قهوة «علي صبري» تلفظ آخر المترنحين من رّوداها. وأطفئت الأنوار الحارّجية في الدرب فساده شبه ظلام ومضت البيوت تغلق أبوابها مفتحة سهراتها الداخلية التي لا تنتهي عادة قبل الفجر، على حين مرّ شرطيان يهزّان الأرض بوقع أقدامها الثقيلة. وكان حسن يجلس على كتب من علي صبري في نهاية القهوة يعلّقان على إيراد الليلة حين قصدهما غلام يعمل نادلاً ببيت زينب الخنفاء فحيّاهما ثمّ مال على أذن حسن وهمس بأسياً:

- بعضهم يربلك...

وسمع علي صبري ما همس به الغلام فلاح الاهتمام في وجهه وتمتم:

- امرأة؟!

فقال حسن بعدم اكتراث:

- أظنّ هذا...

- ألا تفصل مثلي الحبّ الطيّاري؟

بها محروس أن يكشف خصمه عن عتقه، وبسرعة البرق قبض بيدين حديديّتين على رقبتة وضغط بوحشية ليكنم أنفاسه. وبدا للجميع أن المعركة في حكم المنتهية، ودارت الأرض بعلي صبري، وإبيضّت وجوه رجال التخت والعيال، وتبادلوا نظرات زائفة لا تخلو من دعوة إلى العمل. ولكنّ أحدًا منهم لم يحرك ساكنًا، أمّا الفتيات فشرعن في الصووات استقباليًا للجيّة التي ستقع. وتأكّد حسن بعد تمكّن خصمه من عتقه - وفي بدء غيوبته - بأنّه لا قبل له بفكّ الحصار القاتل، وأنّه مائل لا محالة إذا توان، فعضّ على نواجذه وشدّ على عضلات رقبتة ليركّز فيها قوّته، ثمّ ثنى ساقه اليمنى وطعن أسفل بطن خصمه بركبته بكلّ ما تبقى فيه من قوّة. وشعر في اللحظة التالية بترأخي قبضة الزنجي حول رقبتة فاستطاع أن يتنفّس وهو يرتجف حقّدًا وحفّا، ثمّ ثأها بطعنة أخرى، حدث هذا كله في نصف الدقيقة الأولى لمحاولة كنم أنفاسه، وانفكّ الحصار، وتراجع محروس بوجهه تنعقد في عبوسه الضغينة وعينين تغشي نظراتهما الحمرارة سحابة ذهول قاتمة. ولم يضع حسن وثأ مطعنته إلى سيطرته على الموقف فانقضّ على خصمه الذي بذل مجهودًا جيّارًا للتغلب على آله ونطحه بجبهته بقوّة خارقة في رأسه، مرّة أخرى، فكان لاصطدامها طقطقة تقشعر لها الأبدان، دون أن يثنيه عى هدفه ما كاله الآخر من لكيات مزالمة. وتنفّج الدم من رأس محروس وسال على وجهه كأنّه لب ينبعث من قطران، وبدا وكأنّه يرتجّ من دوار، وتغلّب حسن على آلام ساقه وعنته وصدره ووجهه لملق خصمه المكشوف ضربة من حافة كفه - كالسكين - فشقق الزنجي وسقط على الأرض غائبًا عن الوجود. وقف حسن عند رأس خصمه وصدره يعلو وينخفض، تهرّج نشوة الظفر، وهرس عظامه آلام قاسية أخذ صراخها الباطني يتعالى بعد زوال الخطر. ولعلّه لو غابت الأعين لارتضى أن يرغمي إلى جانب خصمه ولكن أقام ظهره الأبهار المتطلّعة إليه فتجلّد وقامس، وانتال على أذنيه صراخ وغوغاه وضجيج، وشعر بحركة غريبة تسري في القهوة كلّها،

الباب منتظرًا أن تآلف عيناه الظلام. وساد صمت شامل حينًا ثم مضت أذناه لتلقطان حَسَّ أنفاس تتردد، فصغى إليها مبتسما، وتوقع قولًا أو فعلًا ولكن لم يحدث شيء، وانجبه على مهل إلى يساره متسنيًا الأنفاس المترددة حتى مسّت ركبته شيئًا صلبًا، جسّه بيده، فأدرك أنّه حافة فراش خشبيّ، ووقف ينظر إلى أسفل بعينين برّاقتين حتى شقت الظلمة الشاملة عن كتلة مظلمة ممتدة لا تبيّن لها معالم. وهوى بإبهامه رويدًا رويدًا حتى انغرست أظفله في لحم طريّ ثمّ انبعثت تحت أصبعه رجفة ونذلت عن الظلمة ضحكة مكتومة...

ثمّ أضاء النور وأخذ يرتدي ثيابه. وأخرج من جيبه نصف ريال ووضع على الفرائش والمرّة تراقبه بعينين ضاحكتين، ثمّ وثبت إلى أرض الحججرة وسارت بجسمها العاري إلى صوان ففتحت وعادت بورقة مر ذات الخمسين قرشًا وحطنتها فوق نصف الريال دون أن تنبس بكلمة، فتسالم ضاحكًا:

- أهو الباقي؟

فقالت بهدوء:

- أجزك!

وأتمّ ارتداء ثيابه في هدوء متظاهرًا بعدم الاكتراث ضابطًا عواطفه حتى لا ينمّ وجهه عن فرحه، ثمّ تناول النقود ودسّها في جيبه. وسألته وهي ترمقه بنظرة عميقة:

- ترافق؟

فقال مستعينا بالكذب:

- لي رفيقة!

فتسالمت في اهتمام بدا في لمة عينيها:

- في هذا الدرب؟

- في الآخر.

- افرنجية؟

- بنت عرب!

وساد السكون دقيقة، ثمّ سألته:

- ألا تزال لك فيها رغبة؟

فابتسم حسن ابتسامة ذات معنى وقال:

- لكته حبّ لا نفع فيه. انتظر وسنرى...

وودّع الأستاذ وقام ثمّ تتبّع الغلام إلى البيت الذي يواجه القهوة، وطرق الغلام الباب ففتح عن شقّ في حذر فمرق منه الغلام وتبعه حسن، ثمّ أغلق الباب. ووجد حسن نفسه في مدخل البيت وقد انتثرت على الكنبات بأركانها فتيات، انتحت كلّ برجل تشاربه وقداعبه، وعلى كرسيّ في الصدر جلس رجل ضريب ينفخ في الناي، على حين اتخذت المعلمة زينب الخنفاء مجلسها على أريكة عالية ملثّقة بلاءتها السوداء وعلى وجهها برقع ذو عروس ذهبيّة كبيرة تحفي به أنفها المتاكل. وألقى حسن على الحاضرين نظرة متفحصة فلم ير فتاة خالية، ولكنّ الغلام مال إلى الستار المسدل على مدخل السلم وأزاحه ودخل فتبعه، وارتقيا الأدراج ممّا في سكّون حتى تسالم حسن:

- من هي؟

- الستّ سناء...

وذكرها لتوه، امرأة عُرِفَت بسمرتها العميقة وشعرها الجعد وجسمها المكتنز، واشتهرت بشتين غليظتين وعينين دجاجوين وكانت تجلس سحابة النهار على كرسيّ عند مدخل البيت واضعة ساقها على ركبته كاشفة من فخذها حتى السروال الحريريّ الأبيض. وانتهيا إلى الدور الثاني وسارا في دهليز طويل يقضي إلى صالة صغيرة تحلق بها أبواب ثلاثة، ومضى الغلام إلى الباب الأوسط وطرقه ثلاثًا فجاء صوت له رنين النحاس يبتف:

- ادخل...

ودفع الغلام الباب قليلًا وتنحى جانبًا فتقدّم حسن إلى الداخل وقبل أن يردّ الباب وراعه شعر بيد الغلام تربّت ظهره فالتفت صوبه فضحك الغلام وقال وهو يبتعد:

- اقرأ لنا الفاتحة...

وأغلق الباب فوجد نفسه في ظلام دامس. وحدّثته نفسه أن يتحسّن وضع الزرّ الكهربائيّ لبضيه الحجره ولكن سرعان ما عدل عن خاطره، ووقف مستندًا إلى

فلم يشأ أن يجيب بلا أو نعم، فثمتاً بابتسامة ذات معنى، فسأته ضاحكة:

- أين تقطن؟

- شبرا.

- ما أبعدنا عن مكان عملك، هل ثمة ما يضطرك إلى المبيت هناك؟

- كلاً...

- مسكني قريب في عطفة حنظل بكلوت بك. تعرفها؟

- سوف أعرفها من الآن فصاعداً...

- ٤٩ -

كانت الشمس تميل إلى الغروب حين غادرت نفيسة بيت إحدى زياتها بشارع الوليد، وكان يلوح في وجهها الضيق، وهي حال لا تفارقها إذا خلت إلى نفسها، ولكن زادها نغمة أنثى لا تحيي من عملها إلا مبالغ زهيدة بتلعبها حاجة أسرته الشديدة فلا تكاد تبقي لها على شيء. وكانت إلى هذا تبدو في مظهر جديد ينم عن تغير ذي بال، فترتبت في فستان برتقالي مزخرف بأزهار البنفسج أعلن عن جسمها الطويل النحيل، وأخذت زيتنها في غير تحفظ. وسارت وشارع الوليد حتى انتهت إلى شارع شبرا، وانعطفت مع الطوار وهي ترمي ببصرها إلى الجراج عن بعد فدبت في قلبها يقظة وحيوية. وأعادها منظر الجراج - وصاحبه محمد الفل - إلى ذكريات صراع عنيف نشب في نفسها في غير ما رحمة ولا هوانة طوال الأسابيع الماضية، وجعلت تقدم رجلاً وتؤخر أخرى حتى توقفت عن السير ثمناً، وعقل الخوف قدميهما، ومع أنها كانت قد انتهت من تركها الملعب إلى نهاية، إلا أن الخوف وكبها وهي تخطو الخطوات الأخيرة. وألا يحسن بي أن أستزيد من التفكير كلاً، كلاً، لن أجي من التفكير إلا ووجع الدماغ. سيعترض سبيل كما يفعل كل مساء. لا أستطيع أن أنكر أنني ابتسمت لدعائاته فيأذا بعد هذا؟ فلت أوان التراجع. وهو لا يخفي دواعيه ولا مقاصده، ولست أجهلها، إني أدرك كلاً شيء، أدرك لماذا يدعوني إلى سيارته، لا يحاول

خداعي كما فعل غيره، فالأمر واضح، فهل أقدم على هذا؟ لماذا يتعلق بي؟ لست جميلة، وهيهات أن يغير هذا الزواق من الحقيقة شيئاً. ولكن النعامة نفسها سلعة لا بأس بها في سوق الخلاعة، وعشاق اللذة - أو بعضهم - لا يرفعون عن مطلب. هذه هي الحقيقة. الزواج أمره مختلف أمّا اللذة فلا اختلاف عليها. هل أدع نفسي تهوي! ولماذا أمتنعها؟ لن أخسر شيئاً. ليس ثمة ما أخاف عليه. ولكن ألا يحسن أن أمد نفسي حبل التفكير؟ وعودتي ذكريات اليأس الذي أمرت غصصه ريقها، وكيف لم يعد ثمة أمل على الإطلاق. على أن الأمر لم يكن مجرد يأس فحسب، فهناك هذه الرغبة المشبوبة التي تشتعل في دماها ولا حيلة لها فيها. وكلما استنامت إلى قبضة اليأس شككتها في الأعناق كشوكة مستمرة. هذه الرغبة وحدها تلبس عليها أن تعزل الحياة وتواري حتى كرهتها فيما تكره من حياتها. بيد أنها لم تعترف بها أمام شعورها، وأنكرتها، وقالت لنفسها إنها ترضى «الهمان» في سبيل النقود التي تحس حاجة أسرته إليها. ولم تكن في هذا كاذبة، فإنه حتى لا شك فيه، ولكنها صارت نفسها بحقيقة ونجاعتها الأخرى، وشرها - إن كان ثمة سرور - أن تبدو لعينها شهيدة، وضحية لليأس والفقر، وبرز الفتى عند ذلك من الجراج ووقف يحدث بعض العمال فحلق قلبها ولم تتحول عنه عينها. وأدركت بغريزتها أنها لن تراجع سلمت - على البعد - وهو موليتها ظهره، سلمت تسليمًا نهائيًا، وانتهى في تلك اللحظة الصراع العنيف المحزن الذي نشب في قلبها منذ أسابيع. ورفرت في يأس وحرارة وغادرت موقعها. واقتربت منه في خطوات وثيدة متجاهلة إياه، حتى أحسّت به يعترض سبيلها قليلاً بجرائه المألوفة:

- الصخر نفسه يلين يا ست، هالك السيارة عند منعطف الطريق تنتظرك منذ أجيال.

ثم سار إلى جانبها متشجعاً بابتسامتها وهو يقول:

- كفالك تدكلاً، لو كان في صبر أيوب لنفد...

ما ألد الغزل ولو كذب، حال غزوة ولكنها ترد إليها اعتبارها وكرامتها كأنثى مهيضة الجناح. وليته

تخافه على نفسها. وسمعتة يقول ضاحكًا في زهو:
 - ما أطول نَفسك في التذلل! .. ولكن طالما قلت
 لنفسي مصير الحلو أن يقع، وما هو قد وقع...
 ورثبت بالكلام لتهرب من أفكارها واضطرابها،
 فارتسمت على شفيتها ابتسامة وتساءلت:
 - ومن أدراك أنني وقعت؟!
 فضحك ضحكة وقال:
 - سنرى ما يكون في صحراء المأظة...
 وتساءلت في قلبي:
 - صحراء المأظة؟.. هل نغيب طويلاً؟
 - حتى منتصف الليل!..
 فتملكها فزع شديد تراهي لما خلاله وجه أمها
 وشقيقها، وقالت بلهجة المستصرخ:
 - يا خير اسود، يجب أن أعود إلى البيت قبل
 العشاء!.. أوقف السيارة بربك...
 فقال بدشة وفتر:
 - حقًا؟ لا تخافي، سنعود قبل العشاء، ولكن ماذا
 تخافين؟
 - أهلي...
 فلحظها بارتباب ساخر وسألها بلهجة ذات معنى:
 - أهلك!.. ألا تعلمون؟
 ووخزها قوله حتى خرم قلبها كالطعنة الحادة. أهلها
 يعلمون؟ ماذا يظن بها؟! وانددت تقول:
 - كيف يعلم أهلي! إخوتي طلبة بالجامعة، وكان أبي
 موظفًا.

وهز رأسه متظاهرًا بالتصديق، وقال لنفسه ساخرًا:
 «لا أم غسالة إلا أمي، ولا إخوة صعايك إلا إخوتي،
 الأمر لله» وضاعف من سرعة السيارة لينبلغ هدفه في
 أقصر وقت، ومضى يستشعر حمى النيزد فطلب نفسه
 وسألها:

- ما اسمك؟

- نفيسة.

ولم يمجبه الاسم فسألها:

- لماذا لم تتقي اسمًا أرقش منه؟

- إنه يعجني!

يلدري من أنا، ومن كان أبي. ثم سمعتة يقول بلهجة
 تنم عن وعيد:

- هاك السيارة فإذا لم تصعدي إليها رفعتك بذراعي
 أمام الرائع والنادي.

وكانا بلغا موقف السيارة في العطفة الثانية فقبض
 على يدها وفتح بالأخرى باب السيارة، وأزدرجت ريقها
 وانددت إلى الداخل في حركة عصبية، وجلست،
 فأغلق الباب وراءها، ودار حول السيارة ودخل من
 الباب الآخر وهي لا تكاد تدري به، ومالت إلى الوراء
 لتباعد بين وجهها وبين النافذة المشرفة على الطريق،
 ثم غشيتها غرابة. بدا لها كل شيء غريبًا خياليًا لا
 يمت للواقع بسبب، الطريق الذي تساقط عليه ظلمات
 المساء وأشباح المآزة، والسيارة المهرمة المتلهله،
 ونفستها، وأصوات الناس، ودوي عجلات الترام،
 واستعدت إرادتها بقوة لتعود إلى وعيها واسترقت نحوه
 نظرة وهو جالس أمام عجلة القيادة بقوام فارغ ووجه
 معروق صلب وجنتين بارزتين وأنف ضخم صخري
 ولم عريض كتم البوليدج فأعادها منظره إلى عالم
 الحقيقة، والوعي والأعصاب، والدم والخسوف.
 واستخرج الرجل قارورة من تحت مقعده وفش
 سداتها ثم نظر فيها حوله في شيء من الحذر، ورفع
 فوهتها إلى فيه وأفرغ في جوفه جرعات غزيرة، والتفت
 إليها بوجه متقلص العضلات وسألها:

- ألا تشربين قليلًا من النبيذ؟

فألت بعجلة واضطراب:

- كلاً، لا أتعاطي الخمر...
 فرفع حاجبيه دشة وهو يغمصص، وأعاد القارورة
 إلى موضعها، وبدأت السيارة تتحرك وهو يقول:

- من الحكمة أن أشرب الآن حتى إذا بلغنا مقصدنا
 بلغتني سلطنة...
 وانطلقت السيارة مقرقرة تشق سبيلها بسرعة
 مستهترة. وعجبت نفيسة من جرأته وبدأ لها قويًا
 جسورًا، وفي الوقت نفسه غير أهل للثقة أو الشرف.
 ولكن ما حاجتها إلى الرجل الشريف؟ لم تعد أهلًا له،
 ولم يعد ضالعتها، ولا تخاف شيئًا في الوجود بقدر ما

- عاشت الأساء يا ست نفيسة. لا مؤاخلة. . .

وأخيراً مالت السيارة إلى الطريق الصحراويّ تنغوص في ظلمة شاملة، ولاحت المدينة عن بعد في أنوارها الموصولة كأنها مارد جبار ذو أعين نارية لا حصر لها، وأخذ يهتئ من سرعة السيارة حتى أوقفها، وأطفأ مصابيحها، وبغتة مدّ ذراعه حول خصرها وجذبها نحوه بنصف لم تتوقّعه. فاندلقت عليه متأوّهة، ففغر فاه المريض وأطبق على فمها حتى منتصف ذقنها، وضّعها إلى صدره بوحشية وأنفاسه ترتدّ في أنفه في نخير محسّج، فشعرت بادئ الأمر بالهم والقلق، ثم مضت ألامها تغيب في ظلمة باطنية غريبة كما غاب شبحها في الظلمة المحيطة الشاملة وأمنت بأنّها مدينة للظلام بالشئ الكثير، فقد شجّعها، وفي الوقت نفسه أنقص صبرها، وبذلت قصارى جهدها - مدفوعة بحافز فطريّ - لإرضائه. ولعلّها وجدت بادئ الأمر حياء إلى ما تجد من قلق وخوف ولكن سرعان ما شملتها حرارة جنونية تذيب الخوف والقلق والحياء.

ثم قال لها بإغراء:

- ألا يحسن بنا أن ننتظر ثمرة أخرى؟

فصالت بضراعة وهي تحفّف العرق المتصبّب من جبينها:

- لا أستطيع، أرجو أن تعود في الحال. . .

وتناول القارورة وأروى ظمأه بجراحات متتابعة، ثم انطلق بالسيارة بوجه جامد، وظلّ صامتاً حتى بلغا ميدان المحطة، وقال بملظة:

- توجد ثمرة دائية، ألا نعود؟

فصالت برجاء وجزع:

- كلا، كلا. . . لا أستطيع. . .

وقطب ساخطاً فجأة، وقال بغضاعة لم تتوقّعها:

- الله يقرّئك، هذه رحلة لا تستاهل البترول الذي احترق.

ووقع قوله من نفسها موقع السوط فاعتقد لسانها، وأغمم فؤادها خيبة ومرارة وخجلاً، ونظرت نحوه في ذهول، ولكنّه لم يلتفت إليها، ودفع السيارة صامتاً ساخطاً إلى شبرا. عسى أن تكون رغبته في المزيد عدلاً

ولكنّ أما كان يحمل به أن يرتقى بها أو في الأقلّ أن يسمح غشوته بكلمة رقيقة؟ وواصل انطلاقه صامتاً، ثمّ عرج إلى شارع جانبيّ لينزلها في أمن من الأعين. وأوقف السيارة إلى جانب الطوار. وتساءلت وهي تغادر موضعها عيّا تفعل إذا سمى لها موعداً آخر اتقبل رغم إهائته أم ترفض على رغمها؟ وجابقتها حيرة لم تستعدّ لها، بيد أنّه مدّ لها يده بنصف ريال وهو يقول:

- هذا يكفي لمرة واحدة. . .

ولمّا رأى جودها ترك القطعة الفضيّة عند قدميها وانطلق بالسيارة غلغلاً وراءه ذليلاً من دخان خائق، وقرقرة مزججة. وركبها جنون غضب أعمى فتسمرت في موقفها وجسمها يتفّض. وأتصل انتاضها وهي تمضّ على نواجذها، ثمّ مضت تزفر في عجلة كأنها تنفّس عن صدرها أن ينفجر. لم يتكلّف موعداً آخر. مرّة عابرة. كأنني. . . ربّاه، مرّة عابرة. ثمّ يرمي لي بنصف ريال! وخطر لها خاطر فباخ غضبها ووجد، وحلّ محلّه خجل وخيبة، أجل، ألا يجوز أنّها لم ترق له ولم تعجبه!؟ هذا محتمل. لهذا مرجّح. لهذا مؤكّد! وأمضها شعور ألم بالحنن والقهر، ثمّ تنهت لموقفها من الطوار فهتّت بمغادرته ولكنّها ذكرت القطعة الملقاة عند قدميها فنظرت إليها بغرابة دون أن تدري ما هي فاعلة، ثمّ ذكرت لتوها القطعة ذات الخمسة قروش التي اقترضها سلبان منها يوماً على محطّة الترام، ثمّ يوم قادها إلى مسكنه، والظلام الدامس وشجارها معه في الطريق، وتقرّز إليها بخفّة دمها، ثمّ عاد انتباهها إلى القطعة الفضيّة تحت عينيها، فرنت إليها طويلاً دون أن تتحوّل عنها. أيّ شيء ثمّة يدعوهما إلى تركها؟!؟

- ٤٢ -

وفي ذات ليلة زار حسن الأسرة زيارة غير متوقّعة بعد انقطاع غير قصير، وكانت الأسرة مجمعة بحجرة الإخوة التي تتخذ منها مجلساً عتّاً في شهر الصيف. جاء هذه المرّة ويده فقةً فوضعها وراء الباب وأقبل عليهم مسلّحاً صاحكاً فاستقبلوه بترحاب كالعادة، أعلنه الإخوة في غير تحفظ، أمّا الأمّ فرمقت الفقة بنظرة

- كان فيلسوفاً رحيماً، ومن أي رحمة أنه امتنع عن أكل اللحوم رحمة بالحيوان. . .

- إني أدرك الآن لماذا فتحت الحكومة المدارس، إنها تضع كي تبغض لكم اللحوم فتأكلها دون منافس. . .
ونفض حسن وذهب إلى حيث ترك القفّة وعاد بها ووضعها أمام أمه، ثم نزع عنها غطاء من الورق فبدت تحته فخذ خروف مكنتز تتصل على سطحها حمرة اللحم ببياض الدهن. وإلى جانبها علبه من الصفيح متوسطة الحجم. وصاح حسنين:

- لا أصليّ عيني، وما هذا داخل العلبه؟
- سمن!

ودبت في الإخوة حيوية ولمعت أعينهم، وسرت عدوى الفرح إلى قلب الأم فابتسمت وتمتمت:

- ضمنتاً للغد غداً فاختراً!

وهتف أكثر من صوت:

- بل عشاء فاختراً، الساعة.

- متى ينتهي طهيها؟

- ننتظر حتى الفجر. .

ونفضت نفيسة لحملت القفّة وسبقت أمها إلى المطبخ.

وكفّت الأم عن المعارضة وقامت أيضاً فنادرت الحجرة وهي تومئ إلى حسن أن يتبعها فتبعها على الأثر مبتسماً ابتسامة ذات معنى، فانتبذت به ركناً في الصالة وسألته بلهفة:

- هل تيسرت سبل الرزق حقاً؟

- بعض الشيء! لا أدري ما يأتي به الغد. . .

- هل أطعمتني إلى ألك ستتم لنا يد المونة؟

- كلياً واتاني الرزق. أرجو هذا. . .

وصمت لحظة ثم سألته:

- أين تقطن؟

وكان يعلم أنها تفهمه فهما لا يجدي معه الكذب

فقال:

- عطفة جندف بكلوت بك رقم ١٧.

فسألته بعد تردد:

- امرأة؟

مستائلة وزغممت ساخرة «إيش جاب الغراب لأمه؟» فقال ضاحكاً وهو يتخذ مجلسه بينهم.

- لا تتمعيلي. الصبر طيب. . .

بيد أنهم لم يلقوا بالآلفته. ولم يكن من عادتهم أن ينتظروا خيراً منه، قالت له نفيسة:

- لا تراك إلا كالزائر!

- أخوك سائح في أرض الله الواسعة، يلتقط رزقه في جهد ومشقة، ولكن لا تمعبي إذا لم تربيي إلا زائراً فقد وجدت لنفسك مسكناً

وتطلعت إليه الأوصار في اهتمام وسألته أمه:

- هل هناك الله أخيراً ووجدت عملاً؟

- تحت عليّ صبري ولا شيء غيره ولكن الله فتح عليه وعلينا.

فقال الأم بامتعاض:

- لا يدخل عقلي بحال أن هذا عمل بالمعنى الصحيح. . .

فقال حسن مستكبراً:

- لم يا أمه!! إني في التخت أغني بينا في المهنة الأخرى أنشاجر كما تعلمين. . .

وسأله حسين:

- وهل وجدت لنفسك مسكناً حقاً؟. . أين؟

فسكت ملياً ثم سأله:

- ولماذا تريد أن تعرف؟

- كي نزورك بدورنا!

- كلاً. ليس مسكني معداً للزيارة، وليس هو خاصاً بما إذ يقطنه أفراد التخت جميعاً، دعونا من هذا

وخبروني متى أكلتم اللحم آخر مرة؟

فقال حسنين ساخراً:

- الحق أنا نسيت، دعني أتذكر قليلاً. . . تتخيل لعيني شريحة لحم في ظلام الذكريات ولكن لا أدري أين ولا متى.

وضحك حسين قائلاً:

- نحن أسرة فلسفية على منعب المعري.

فتسائل حسن:

- ومن يكون المعري هذا؟. . أحد أجدادنا؟

فضحك ضحكة قصيرة وقال:

- نعم.

- زواج؟

فضحك مرة أخرى وفتح:

- كلا...

ولم يَز في الظلام ما ارتسم على وجهها من أمارات
الامتناع، ولكنها كانت قد پشت منه من زمن بعيد
فأعفت نفسها من لومه أو نصحه، بيد أنها سألته
باهتمام وحرارة:

- اليس رزقاً شريعياً؟

فقال بلهجة مطمئنة وتوكيد:

- بل، لا تشعني في هذا... إنا نحيا أفراساً
كثيرة ونغني في المقاهي والصالات...

- ٤٣ -

واقضى عام آخر. وواصلت الحياة سيرها لا تليق
على شيء، ومعنى كل فرد من أفراد الأسرة في سبيله
بما يلقي من خير وشر. ولو أتبع للأب أن يعود إلى
الحياة لأزعجه الدهشة لما طرا من تغير على أسرته
شمل الأرواح والأصدا والصحة ونظرات الأعين،
ولكن كان حيناً سيرهم، سيرهم أن المرأة هي زوجة
وأن الأبناء أبنائه، أما الذي كان ينكره، ولا يعرفه مهما
أجهد ذاكرته فهو البيت. اختفى الأثاث أو كاد، فلم
يبق بحجرة الاستقبال إلا كنية ويساط باهت ناعل
كان مفروضاً بحجرة نوم الأم ثم وضعوه بحجرة
الاستقبال بعد بيع سجادتها، واقتصرت غرفة الأم على
كنتين تستعملان نمازاً للجلوس وليلاً للنوم، وخلت
الصالاة - حجرة السفرة قديماً - ببيع البوفيه والمائدة
والكراسي، وانتهى بهم الحال إلى تناول طعامهم على
صينية مفتعلين الأرض، بل بيع فراش حسن. ولولا
الضرورة القصوى لباع الفراشان البقيان. كانت حياة
شاقة صعبة، ولولا حزم الأم، وحسن تدبيرها، لما
نفض المعاش وكسب نفيسة القليل بضرورة المسكن
والمأكول. أما حسن فلم تتعد معونته لأسرته زيارات
متباعدة كانت للأسرة بمثابة المواسم يطيب لها فيها
الطعام والامل، وربما ابتاع لأمه من آن لآخر جلباباً أو

منديلاً أو بعض الثياب الداخلية، وفيها عدا هذه
الأوقات فلم يكن يراه أو يسمع به أحد. وكان يعتذر
لأنه بمشاق الكفاح وقلة الرزق، ولم يكن في اعتذاره
غلو ذاتياً. والحق أنه وجد الحياة أشق مما كان يتصور.
كان يغني في تحت علي صبري، وينبهي للعراك إذا دعا
الداعي، ويتجر بالخفريات في حدود ضيقة، وفي
حوزته امرأة لا بأس بجالها ونفودها، ولكن ظل كسبه
دون ما كان يحلم به بكثير فضلاً عما أوجبه حياته عليه
من الإنفاق السخي ليظفر بقلوب أعوانه، وليظفر
بالمظهر اللائق به... وكان النزاع بين ضروريات
حياته وأمانته من ناحية وحبه لأسرته من ناحية أخرى
لا يبدأ بنفسه، يتقلب ذاك حيناً، ويتقلب هذا في
أغلب الأحيان، يحسك يده مستمسكاً لتيار حياته
الجارف، ثم يعود بما في طوقه، ويتحقق كثيراً لو يرد
أسرته إلى سابق عهدها بالحياة، ثم ينسى أسرته في
خضم مغامراته، ثم يعود إلى تذكرها في ندم وألم،
وهكذا إلى غير نهاية. ومهما يكن من أمره فلم تجد فيه
الأسرة الرجل الذي يقبل عثرتها أو يأخذ بيدها وإن
تسمت في زيارته نساء الترفيه والراحة. الأم وحدها
كانت عصب حياة الأسرة، وفي سبيل الأسرة اهتز
حليها وهرمت في عامين كما لم تهرم خلال نصف قرن
من الزمان، فنهلت وهزلت حتى استحالت جلدًا
وعظاماً، بيد أنها لم تستسلم للمحنة، ولم تعرف
الشكوى، ولم تتخل عن سجاياها الجوهريّة من الصبر
والحزم والقوة. وكانت تعمل النهار كله، تطبخ وتغسل
وتكس وتمسح وترتق وترفو، وترعى ابنها خاصة،
تراقب لومها، وتحثها على العمل، وتفرض نزاعها
الثقة، وتكبح من نزواتها، خصوصاً طفلها المتقلب
حسين. وبين هذا وذاك تعكف على التفكير في
الحاضر والمستقبل، وتجتر كثيراً من الآلام التي تبعثها في
نفسها ابتها نفيسة في تجوالها الدائم بين بيت وبيت،
تعمل كثيراً وتربح قليلاً وتواصل سعيها في مشقة
ويأس. لشد ما تتجرّع غصص الألم في سكوت متجمل
بصبر لا يتين، لائلة يمان لا يتزعزع، مثبته بأهداب
أمل لا بد أن يتحقق وإن طال انتظاره. وبفضلها

- هيهات أن يعرض شيء عن هلاك روح شابة.
فقال حسين ضاحكاً:
- لقد عشت يا أمّاه نصف قرن في ظلّ الاحتلال
فلندعُ الله أن يمدّ لنا في عمرك نصف قرن آخر في
كنف الاستقلال...

فقال الأمّ متمتعة:
- احتلال، استقلال، لا أدري أيّ فرق بينهما. خير
لنا أن ندعو الله أن يكشف عنا الغمّة وأن يبدّلنا من
عسرنا يسراً...

فقال حسين بحسّ وإيمان:
- لو لم يكن الاحتلال لما تركت أمّرتنا بعد موت أبي
بلا معين! «ثمّ محاطباً حسين» اليس كذلك؟
فقال حسين بأمل:
- أعتقد هذا!

وردّت الأمّ نظرها بينهما في شكّ كبير. لم تكن
تحفل بهذه الأحاديث العامّة التي تساق إليها أحياناً من
حيث لا تدري، أمر واحد يميّهما، وتنسى من أجله
الدنيا وما فيها، هو أن تبلغ ببلدين الشائين اللذين
تحميها أكثر من الحياة نفسها برّ الأمان، وأن تراهما
زُجّلين ناجحين سعيدين قد أمنا شرّ الحياة، وأوتِ
الأسرة منها إلى ركن ركين...

- ٤٤ -

وفي نهاية العام حصل حسين على البكالوريا. وقد
ذاقت الأسرة في فترة الانتظار السابقة لظهور النتيجة
مرارة الإشفاق والشكّ. ولم يكن أحد يجرؤ على أن
يتكهّن بما يحدّ فيها لو أخفق حسين وحرّم من المجانيّة.
ولم تكن الأمّ تتصوّر أن ينتهي صبرها هذه النهاية، ولا
أن تنكشف آملها عن مثل هذا القنوط. وعندما تناول
حسين الجريدة من البائع وأجرى بصره الزايع في
صفحاتها باحثاً عن ثمرته، التفت به أخوه وأخته وأمّه
بقلوب خائفة ينضّ في أعناقها الأمل ويظّلّها الخوف
والعذاب. فأنطابت اللحظة الرهيبة على نفوسهم إلى
الأبد. ثمّ كان يوم سعيد، أوّل يوم سعيد منذ عامين
كثيرين، فطابت النفوس، ولهجت الألسن بالشكر لله،
وراحوا يقصّصون عن سعادتهم بالحديث اللطيف

عرف الشقيقان سبيلهما. فلم يجد أُنّهما عن جادته،
وأمكنهما - على ما يكتنفها من تقشّف وحرمان - أن
يواصلا اجتهدهما في مثابة تدعو للإعجاب. وكان
حسّين يعدّ ما يلقاه من ظروف العيش أهون ممّا يحد
في حبّه من حرمان، ولكنّ فتاته لم تكن دون أمّه
عناداً. فأرغمته على الرضى بحبّ ظاهر متشّف لا
يستسيغه طبعه الحامي. وأوشكت الحياة الخاصّة أن
تلهي الشقيقين عمّا انتاب حياة الوطن في تلك الفترة
من التطوّرات الهامة. والحقّ أنّ حسين لم يبد اهتماماً
يستحقّ الذكر بالسياسة العامّة ولملّ حسين كان أكثر
اهتماماً بالسياسة من أخيه، ولكن ليس إلى الغدر
الذي يجعل منه تلميذاً سياسياً، واقتصر اهتمامه في
الغالب على النقاش الحزبيّ أو الاشتراك في المظاهرات
السلميّة. وكانت الأمّ أيضاً الحائل بين ابنها وبين
الاشتراك في الحياة السياسيّة، فلم تكن لتفقه حرفاً في
السياسة، واستغرقت الأسرة مشاغلها فلم تترك نصيباً
للوطنيّة. ولمّا ذاعت الأخبار الحزينة عن ضحايا
المظاهرات من الطلبة أصابها الفزع وراحت تقول
مخاطبة الشابين:
- قتلوا يا ولداه فهل تغني عنهم السياسة أو
المظاهرات؟! فجعلوا أهلهم وخربوا بيوتهم وضاعوا
هباء...

وقال لها حسّين متفكّراً عن شعور مكبوت لتخلّفه
عن الثائرين:

- إنّ الأوطان تحيا بموت الأبطال...

فرمته بنظرة صارمة فخفض عينيه وقد عدل عن
مواصلة حديثه الحماسي. ثمّ جدّت أحداث فتكرّنت
الجبهة الوطنيّة، وشرع في المفاوضات، وانتهت
المفاوضات إلى الاتفاق، وسرى في البلد ارتياح عامّ،
وحينذاك عاد حسّين إلى حديثه، وكان أجراً على أمّه
من أخيه، فقال لها يوماً:

- أرايت أنّ الأرواح التي زهقت لم تلعب تضحياتها
عبثاً.

ولم تغضب هذه المرّة لشعورها بأنّ الخطر قد زال
وحلّ محلّه السلام ولكنّها لم تنثر عن رأيها فقالت:

كلامه فقال بإشفاق:

- إني أقرّر مبدأ عامًا يجوز عليك اليوم وعلى غدا.

- تعني أنه يجب أن أجد وظيفة؟

فزاغ عن الجواب الصريح وتساءل:

- ما رأيك أنت؟

فالتفت حسين صوب أمّه وسألها مبتسماً:

- ما رأيك يا أمّاه؟

وأثرت ابتسامته في نفسها تأثيراً عميقاً، وأدركت أنه يضع مصيره بين يديها. وأنه يحملها وحدها مسؤولية مستقبله. ولكنّها لن تقضي عليه بما لا يحبّ، لن تفعل ولو ذاقوا الهوان أربعة سنوات أخرى. إنّه الوحيد الذي يذعن لمشيئتها بلا تردد أو تلسر فهل يكون جزاءه الفداء؟! وقالت الأم بوضوح:

- رأيي رأيك يا حسين...

فابتسم حسين ابتسامة غامضة وقال مدفوعاً برغبة عابثة في مضايقة حسين:

- أرى أن أكمل مرحلة التعليم العالي...

فقال نفيسة بسرور:

- أحسنت...

وقال حسين بعد تردد:

- أماننا أربعة أعوام عجاف أخرى...

فقال حسين مبتسماً:

- عام واحد فحسب ثمّ تتولّف أنت في نهايته إن شاء الله!

فضحك حسين مغلوباً على أمره وقال بلهجة المعتدل:

- لعلّك تظنّ أنني أريدك هل أن تتولّف لتتيح لي فرصة أكمل فيها تعليمي العالي في هدوء وطمأنينة، ولكنّ الحقيقة أنني أودّ أن أرحم أسرّتنا عمّا تعانیه، وفضلاً عن هذا وذاك فإذا كان على أحدا أن يضحي بذاته - إذا اعتبرنا التولّف بالكالوريا تضحية - فانت الذي يجب أن تبذل هذه التضحية، لا لأنّي أريد لك ما لا أريد لنفسي، ولكن لأنّ أسرّتنا تستطيع أن تتنفع بتضحيتك الآن على حين يجب أن تنتظر عاماً آخر حتّى يمكنها الانتفاع بتضحيتي أنا.

حيثاً، وبالصمت المطمئنّ الباسم حيثاً آخر. ثمّ وجدوا أنفسهم يطرقون باب المستقبل، ويفتخرون في الغد القريب والبعيد معاً، فتنسوا سعادتهم وهم لا يشعرون، وتحايلت لأعينهم مرّة أخرى الصعاب التي تكنتف حيايتهم، فحلّ التفكير وهوومه محلّ السعادة الصافية العابرة، عرف حسين حقيقة جديدة في حياته وهي أنّ السعادة قصيرة الأجل وأنها لا تعمّر في النفس طويلاً كالحزن أو الحسرة. ولم يكن التفكير في مستقبله بالأمر الجديّد عليه، كان بطبيعة الحال ذا آمال واحلام، ولكنّ الحقائق لم تكن لتغيّب عنه كذلك، وكأنّه أراد أن يستدرجهم إلى إعلان آرائهم فتساءل:

- ماذا لديكم عن الخطوة التالية؟

وكان للأمر رغبة، فهي تودّ أن تنتهي الحال التي يكابدونها بأيّ ثمن. وكانت تعلم - قد خلا البيت عمّا يمكن الانتفاع بثمن بيعه - أنهم لن يستطيعوا مواصلة هذه الحياة بعد الآن. بيد أنّها لم ترتع إلى إملاء رغبتها عليه، ونفرت من التحكّم في مستقبله كما تتحكّم في حياته. أجل لم يعد طفلاً، فإذا وافق على رأيها غتاراً فيها وإلاّ فليقبض في أمر نفسه بما هو قاضٍ، وليملأ هم في حبال التصبّر والتجلّد، بل والجوع حتّى يأمر الله بالفرج. لذلك قالت باقتضاب:

- فلنتدبّر الأمر طويلاً.

ولكنّ حسين كان يفكر بسرعة مدفوعاً بهواطفه كعادته، وكانت أنانيّته تتوارى خلف ما يظنّه الصالح العامّ، فقال:

- لم تعد الحياة تطلق. غداؤنا سيّء ونحن في حُكم الجوع وثيابنا متداعة ممزّقة أو مرقّوة، وبيتنا عار، فلا يصحّ أن نطيل أمد العذاب. لا سبيل إلّا أن نبدأ حياتنا العمليّة...

وكان حسين يفهم أخاه خير الفهم، فأدرك لتوّه ما يرمي إليه، وكان مقتنعاً بما يريد أن يذهب إليه ولكنّ ساءه مكره تفتيظ عليه وقال:

- لماذا نقول ونبدأ؟... لماذا تستعمل صيغة الجمع بينا الأمر يتعلّق بي وحدي؟

وأدرك حسين أنّ أخاه نفذ كعادته إلى ما وراء

شَقَّ الأزهار التي كست الأرض بألوان هيبجة بدهشة،
ثُمَّ صعدا إلى السلامك، ثُمَّ إلى يسو الاستقبال
الكبير، واتَّخذا مجلسهما بارتباك على كُتب من الباب
بالموضع الذي اختارته أُمُّهما قبل ذلك بعامين. وجرى
بصرهما سريعاً على البساط الغزير الذي يغطي أرض
الحجرة الواسعة، والمقاعد الكثيرة الأنيقة، والطنافس
والوسائد، والستائر التي تنهض على الجدران كالعالمقة،
والنخفة المتدلّية في حالة للألاءة من سقف عال انتشرت
بجوانبه المصابيح الكهربائية. وأشار حسنين إلى النخفة
وقال بسلاجة:

- مثل نخفة سيّدنا الحسين!
وكان حسين يفكر في أمور أخرى فقال:
- نعم... دعنا من النخفة، ما عسى أن نقول؟..
ينبغي أن تساعدنا بلسانك!

فقال حسنين هازئاً:
- انظُرْ! آنك ستحدّث شيطاناً؟.. تكلم بشجاعة،
وسأنتكلم أنا أيضاً. ملعون أبونا!
ونذت عنه اللعنة - لا لحق - ولكن ليشجع
أخاه، وليشجع هو نفسه. وألقى نظرة ذاهلة على ما
يحيط به من أي الثراء ثُمَّ تساءل بصوت منخفض:
- هل يثير موت رجل كأحمد بك حزناً في نفوس
ورثته؟

فقال حسين بنصف وعي:
- أما كنّا نحزن لوفاة والدنا لو كان غنياً؟
فقطب الشاب متفكراً ثُمَّ قال:
- أعتقد هذا. ولكن لعلّ الحزن أنواع ودرجات.
آه... لماذا لم يكن أبونا غنياً...
- هذه مسألة أخرى...
- ولكنّها كلّ شيء. خبرني كيف صار هذا البك
غنياً؟

- لعلّه وجد نفسه غنياً...
فالتمعت عينا حسنين العسليّين وقال:
- يجب أن نكون جيماً أغنياء...
- وإذا لم يكن هذا؟
- إذن يجب أن نكون جيماً فقراء...

فضحك حسين قائلاً:

- منطق زائف. إنّي أعلم علم اليقين أنّك لن
ترضى بالتضحكة لا العام القادم ولا الذي بعده...

وقالت الأمّ حسناً للمجلد:

- افعل ما تشاء يا حسين، ولا اعتراض لنا...

فابتسم إليها في صفاء وقال:

- لم أعني ممّا قلت حرفاً واحداً ولكنّي أردت أن
يعرف حسنين أنّي أحسن فهمه. ولست أومه أيضاً
على تفكيره فله عذره. ينبغي أن يضحي أحدنا ويرضى
بالتوقف الآن، ولهذا هو واجبي أنا، أنا أخوه الأكبر،
وأنا صاحب البكالوريا. إنّي أدرك الحال على حقيقتها،
وأعلم أنّه من القسوة الشريفة أن أفكر في تكملة
تعليمي، فلأرض بحظي، ولندعُ الله جيماً أن يوفّقنا
إلى ما نريد...

وقرأ الارتياح في أعينهم جيماً رغم ما تنطق به
الستهم من عبارات الأسف، فدخله شعور طيّب
بالسرور والارتياح على حزنه وأسفه. وأسرّتنا كادت
تنسى معاني الارتياح والطمانينة. ها أنا أعيد إلى
نفوسها بعض هذه الماني. علام أسف! مدرّس أو
كاتب سيّان. لو كنّا نتفقد في أحلامنا، أو كنّا نستلهم
الواقع في خلق هذه الأحلام، لما ذقنا طعم الأسف أو
الحيرة.

- ٤٥ -

وقالت الأمّ:

- لدينا أحمد بك يسري صديق المرحوم والدكم،
وهو يستطيع أن يوفّقك في شغضة عين...
وتفكرت الأمّ ملياً ثُمَّ واصلت حديثها قائلة:

- لن أستطيع الذهاب إليه بنفسي لأنّ معطفي لم
يعد لائقاً للظهور أمام الناس المحترمين، فامضِ إليه
أنت، وخذ معك أخاك تتشجع به. وما عليك إلا أن
تقولا للبوّاب إنكم ابنا المرحوم كامل أفندي عليّ...

وذهب الشقيقان عصرًا إلى شارع طاهر وقصدا
بيت البك وطلبا مقابلته كما أوصىهما أمُّهما فغاب
البوّاب دقائق ثُمَّ جاء ليدعوهما إلى حجرة الاستقبال.
ودخلا يسيران في ممشي الحديقة الوسط وهما ينظران إلى

- وإذا لم يكن هذا؟!

فقال بحق:

- إذن ثور ونقتل ونسرق...

فاقتسم حسين قائلًا:

- هذا ما نفعله منذ آلاف السنين...

- يهز عليّ أن أتصور أن تحمي حياتنا في عناه وقذارة

إلى الموت...

فقال حسين مبسّلاً:

- لا قدر الله...

وقيل أن يفتح حسين فمه سمعا وقع أقدام آتية من الفراندا، ثم دخل اليك بجسمه الطويل العريض في بدلة بيضاء حريرية، وسلم عليها مرحبًا وهو يقرّس في وجهيها بعينين ضاحكتين، ثم سألها وهو يجلس:

- أهلاً بابتي الحبيب المرحوم، كيف حال والدتك؟

فشكرا له بلسان واحد، وقد نسي حسين في طيب اللقاء حقه على حين عاود حسين ارتبائه. وتوجّس أحد بك خيفة من هذا اللقاء الذي لا بد أن يسفر عن بذل وعطاء، وكان يسلم سلفًا بأنه لن يستطيع أن يرفض لها رجاء إذا سألها. والحق أنه لم يكن بخيلاً، بل كان جوادًا، ولكن لا عن طيب خاطر، كان يجود في برم وشيق دون أن يستطيع أن يقول «لا»، وتغلب حسين على ارتبائه وقال بصوت رقيق مؤدّب تنفي نبراته عن الفاظ الرجاء والضراعة:

- حصلت يا بك على البكالوريا، وظروف أمرتنا تضطرني إلى البحث عن وظيفة، لذلك رأت والدتي أن ترسلني إلى سماعتك لما لنا جيّد فيك من عظيم الرجاء...

فجعل اليك يعبت بشاوبه الغزير المصبوغ، ثم قال:

- وظيفة؟!.. باب الحكومة ضيق في أيامنا هذه، ولكنّي سأبذل ما في وسعي يا بني. لا أعتقد أنّي سأجد لك وظيفة في الداخلية ولكنّي صديق لوكيل المعارف، وكذلك وكيل الحرية، جهّز طلب استخدام وسأكتب لك توصية قوية...

وشكرا له كرم أخلاقه ثم سلّمها وغادرا الفيلا، وألقى حسين على الفيلا نظرة توديع وهما يتبعان عنها، وعاد بعصره إلى وجه أخيه فوجده راضياً حالماً فساءل نفسه في دهشة: ترى هل يفرح الآن بما عهده بالأمس تضحية؟ ثم قال:

- أيقنت الآن فحسب، وبعد أن تنسّمت هبيرة الحياة الحقة في هذه الفيلا، أنه من الظلم أن نعدّ أنفسنا بين الأحياء...

وكان حسين مشغولاً بالتفكير في طلب الاستخدام والتوصية القوية فلم يعن بالردّ على أخيه، فقال حسين حانقًا:

- إني أعجب لما تتحلّ به من رضى وهود! ولكنّه تظأفر لا يمكن أن يقدعي... فغمغم حسين مبسّلاً:

- وما جدوى الحق؟.. لن نغيّر الدنيا!
- يجب أن تتفكر. من حقنا ولا شك أن ننعّم بالسكن النظيف والمأكل الصحيّ والمركز المرموق. ولكنّي أراجع حياتنا جملة فلا أجد بها خيرًا أبدًا... فحدجده حسين بنظرة غريبة لم يفهم معناها وقال له:

- ولكنّك تتمنّع بالحب، وستكمل تعليمك. أليس هذا خيرًا؟

ونظر إليه ثم نظر في ما أمامه، ترى ماذا يعني؟ وشعر بعدم ارتياح، وتضاعف ضيقه. ثم روج عن صدره متسائلًا:

- ألم يكلفك هذا التضحية بنفسك؟ إن لنا حقوقًا بديئية ولا يجوز أن يضيع شيء منها، فإن نحن من هذا؟.. كيف نعيش؟.. ماذا تكابد أئنا؟.. أين أخونا حسن؟.. كيف انقلبت أختنا خيطة؟...

وقطّب حسين وقد تنعّص عليه صفوه، وتنامى جوهر الموضوع ووقف عند الصفة الأخيرة حانقًا، وصاح بأخيه في لهجة تنمّ على العتاب:

- خيطة...

فقال حسين في هياج وانفعال:

- نعم خيطة، هل تكره هذا حقًا؟ أتمنّى حقًا لو

وتبذلها حالاً بعد حال، فجاء السفر مخيباً لهذا الرجاء، وتحيرت الأم بين فرحها وحسرتها، وأيقنت أنَّ الوظيفة لن ترقه عن الأسرة إلا قليلاً، وإن خيراتها ستبتد ما بين طنطا والقاهرة. وإلى هذا كله فقد لاح في أفق الأسرة شبح فراق جليل لم تألفه، فتوجعت قلوبها، وعجبت الأم لهذا الحظ الذي يأتي أن يمنحها ابتسامة إلا تحت عبوسة متجهمة، والذي يحد يد النوى بينها وبين الابن الوحيد الذي لا يخلق لها المتعصب. كانت ترى في حسين صورة من نفسها الهادئة الصابرة، وكانت تجد عنده من الأنس والراحة ما لا تظهر به عند غيره. أجل لم يكن أحب الجميع إلى قلبها، إذ كان حسين الطفل المشاكس الذي يحطل بهذه المنزلة، ولكنه بدا لينيها وقد نكس ما تملك في حياتها. ووقع الفراق من نفس حسين موقعاً سيئاً، وحزن له حزن رجل لم يبتعد عن بيته يوماً واحداً في حياته، وضاعف أثره في نفسه تعلقه الشديد بأمه وأخوته وما كان يأمل من الترفيه عنهم بوجوده بينهم. وكان يقول لنفسه كثيراً «سأعيد نفسي إلى بيتها سيّدة محترمة حال تسلمي أول مرتب من الحكومة» ولكنه رأى حلمه يتبدد، وغداً يذهب إلى بعيد غلغلاً أسرته المحبوبة وراءه على حال ليست أفضل كثيراً مما كانت عليه. ولعل هذا ما جعله يضي إلى أحمد بك يسري مستشفعاً بنفوذه على إبقائه في القاهرة ولكن البك - وكان قد ضاق به - أخبره بأن رغبته بعيدة عن التحقيق في الوقت الحاضر. ثم اعترضته مشكلة جديدة تتعلق بالنقود التي يجب أن تتوافر له ليقم بها أسباب معيشته في طنطا حتى يتسلم أول مرتب له في نهاية الشهر، من أين له بهذه النقود، وألجأه نحو أخته نعيمة ولكن الفتاة كانت تنزل لآلتها عن جلّ أربابها المحدودة ولا تكاد تبقي لنفسها على شيء إلا ما يلزم لكسائها، وإلى هذا فما تبقى من أثاث البيت لا يفي ثمنه - إذا بيع جميعه - بمطلبه، فلم يجد من ملاذ أمامه إلا أخاه حسن وخاطب أمه فيها تزاماً له فوافقت عليه ولم يداخلها شك في نجدة ابنها الأكبر إذا وسع ذلك، وأطلعت على عنوان أخيه لأول مرة فمضى من توه إلى شارع كلوت

كانت تزوجت كأنها من الفتيات؟ كذب. لو كانت تزوجت، بل لو لم تكن خياطة لاضطرر كلانا إلى الانقطاع عن المدرسة والبحث عن مهنة حقيرة. هذه هي الحقيقة...

واشتد الغضب بحسين، لا لأنه لا يسلم بما قال أخوه، ولكن لأنه يسلم به في أعماقه، ولأنه ما كان يرحب حقاً بزواج الفتاة وسعادتها. «إننا نأكل بعضنا بعضاً، ينبغي أن نسرّ بهريج حسن وعبيته ما دام يعيشنا كل شهر بفخذ خروف. وينبغي أن نسرّ بأختنا الخياطة ما دامت تعد لنا لقمتنا الجافة. وهذا الشاب المتلصص ينبغي أن يسرّ بانقطاعي عن التعليم ما دام سيتم تعليمه هو. يأكل بعضنا البعض. أيّ وحشية. أيّ حياة لعلّي لا أجد إلا عزاء واحداً وهو أنّ قوة أكبر منا جميعاً تطحننا طحناً وتكهننا النهاية وأتينا نصمد ونقاتل.» وتركز تفكيره في الحاضر الأخير، فيها سيّاه العزاء الوحيد، فسكنت نفسه، وسكت عنه الغضب وقال وكأنه يخاطب نفسه:

«نحن لا نأكل بعضنا البعض. لا نقتل هذا (لم تكن هذه العبارة من قول شقيقه ولكنه لم يفعل هذا)... لا نقتل هذا أبداً. نحن أسرة بائسة ولنا نظائر وأشباه لا يحيط بهم حصر. وواجب كلّ واحد منا أن يجود بما يقدر عليه من البذل والتضحية...! ثم طلب إلى أخيه في حزم أن يسك عن الجدل، وكانا بلغا عطف الترام...»

- ٤٦ -

وتبين لحسين أنَّ الوظيفة - أو التضحية التي رضي ببلدنا عن طيب خاطر - لم تكن منألاً يسيراً، فقد انصرفت ثلاثة أشهر وهو يتردد في هم وبأس ما بين فيلاً أحمد بك يسري ووزاري المعارف والحريّة، وأخيراً أخبره البيك بأنه يمكن إلحاقه بوظيفة كاتب بمدرسة طنطا الثانوية، وحسّه على تقديم نفسه للقومسيون والاستعداد للسفر لتسلم عمله في أول أكتوبر. وسرّ الفتى. وسرت الأسرة، ولكنه سرور لم يكن خالصاً، وشابته مرارة. كانت الأم تنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر كي تتشغل الأميرة من هدهتها

رائحة السلم، ووجد نفسه في دهليز شبه مظلم تكتنفه حجرتان واحدة إلى يمين الداخل والأخرى في مواجهته وإلى اليسار المرافق. وابتسم حسين إلى أخيه وقال كالمعتذر:

- هل أتيت مبكرًا؟ . . الساعة الحادية عشرة!

فتأهب حسن طويلًا ثم قال ضاحكًا:

- إني أستيقظ عادة حوالي العصر. المغشون ليلهم نهار ونهارهم ليل. ولكن خبرني قبل كل شيء كيف حالكم؟

- بخير والحمد لله. . . وكيف أنت؟

فقال وهو يسير به إلى الحجرة التي إلى يمينه:

- نحمده. . .

دخلوا حجرة صغيرة تكاد تقسم مناصفة بين فراش وصوان بينهما إلى الجدار الداخل كنية غُلقت فوقها على الحائط صورة كبيرة تجمع بين حسن وامرأة حليلة عميقة السمرة قد اعتمدت منكبه بساعديها المشتبكين، فثبتت عينها حين عليها في دهشة لفتت نظر أخيه فتسأل ضاحكًا:

- ماذا يدور برأسك؟

فسأله حسين بسذاجة:

- هل تزوجت يا أخي؟

فاجلسه على الكنية ووثب إلى الفراش وترنّع عليه وهو يقول:

- تقريبًا. . .

- خطبت؟

- الثالثة. . .

- الثالثة؟

- أعني الفرض الثالث!

ففرغ الشاب إليه عينين داهشتين في وجوم ثم ابتسم ابتسامة آليّة على الرغم منه ولاح في وجهه ما يشي الحياة فضحك حسن عاليًا وقال باستهانة:

- هي زوجة في كل شيء إلا العقد. . .

فسأله حسن في خوف:

- أأنت وحدك الآن؟

فحنى رأسه دلالة الإيجاب، ثم تشاب بصوت

بك وراح يبحث عن عطفة جندف. وكان غادر البيت كبير الأمل ثم تسأل القلق إلى نفسه رويدًا رويدًا حتى تسأل في النهاية ترى هل يعطيني حسن ما أريد حقًا؟ وإذا لم يفعل فهل تضيق الوظيفة من أجل بضعة جنيهات لا يجدها؟ ثم اهتدى إلى عطفة جندف وهو على حال من التثاؤم مؤلمة، ووجدما عطفة ضيقة متعرجة، تقوم على جانبيها بيوت متداعية، وتسطع في هوائها الفاسد رائحة السمك المقلّب، وتكتظ بالمازّة وعربات اليد، وتتجاوب في جوّها نداءات الباعة ثم تتخللها شائلم ونحناحات عسجرة وبصقات غليظة، ثم تأخذ أرضها المغطاة بالأثربة ونفايات الحضر وروث الدواب في الصعود تدريجيًا حتى يخيل إليه في النهاية أنّها مقامة على سفح تلّ. ومضى الشاب إلى البيت رقم ١٧ وهو بيت قديم من دورين بلغت الأنظار بضيقه فكأنه عمود ضخم، وقد جلست غير بعيد من مدخله بائعة دوم ولبّ وفول سودانيّ فدخل كالترّد وارتقى سلّمًا حلزونيًا بغير درابزين وقد زحمت أنفه رائحة ننتة صاعدة من بشر السلم، حتى انتهى إلى النور الثاني وطرق الباب. كانت الساعة حوالي الحادية عشرة صباحًا، وكان أخوف ما يخافه ألا يجد أخاه في الشقّة، وزاد من خوفه أنّ أحدًا لم يلبّ الطارق. وعاد الطارق بشدّة وبأس حتى كادت يده، ثم وقف يالسًا لا يدري ماذا يصنع، وقبل أن يتحوّل عن موقفه جاءه صوت غليظ من الداخل يصف بصوت:

- من ابن الكلب الذي يطرّق الباب في هذه الساعة المبكرة؟!

- أنا حسين يا حسن. . .

وقال الصوت بدهشة «حسين»، ثم سمع خشخشة المزلاج وهو يُرفع، وفُتح الباب، فرأى أخاه بشعر هائج مشعث وعينين محمرّتين منتفختين فمدّ له يده وهو يصف بدهشة:

- حسين! . . أهلاً وسهلاً، ادخل، خيرًا إن شاء

الله. ماذا وراكم؟

فدخل حسين في شيء من الارتباك، وسرعان ما تطاير إلى أنفه عرف بخور طيّب بدا عذبًا مريحًا عقب

مرتفع كالنبيق، ثم قال محذراً:

- طبعاً لن نخبر أحداً؟

- طبعاً. . .

فضحك حسن وقال:

- لا أحب إهداء مشاعرهم، هذا كل ما هنالك.

وبهذه المناسبة لم تجزّب النساء؟

فهز الشاب رأسه سلماً في حياء فسأله مستطرداً:

- وحسين؟

فارتج قلبه في خوف وألم لم يدرك لها سبباً، ثم قال:

- ولا حسين. . .

فتفكر حسن ملياً ثم قال:

- هذا الفضل بالنسبة لكساً. . (ثم ضاحكاً) إذا

نويت الزواج يوماً فاقصدي أزودك بصلائح عظيمة.

فقال حسين بهدوء:

- لست أفكر في الزواج كما تعلم. . .

- أمن الممكن أن يتزوج حسين قبلك؟

فخفق قلبه، ولكنه قال بهدوء:

- هذا مؤكد لأنه مرتبط بوعد قديم. . .

فقال حسن بتأثر:

- على أية حال إذا انتهى حسين من دراسته فليس

ثمة عائق. آه، على فكرة، ماذا جدّ من أبناء الوظيفة

التي تبحث عنها؟

وسرّ حسين بما هيأ له من فرصة يلج بها موضوعه

فقال:

- لقد جئتكم لأخبركم بأنني تعيّنت كاتباً بمدرسة

طنطا الثانوية، وبأنني سأتسلم عملي في أول

أكتوبر. . .

فقال حسن بدهشة:

- هل تسافر إلى طنطا؟ وما الفائدة التي تجنيها

أنتك إذا فتحت بيتاً جديداً في طنطا؟

- فائدة قليلة، ولكن ما الخيلة؟

- هذا سوء حظ قارح، وهذه هي نتيجة المدرسة!

فابتسم حسين يخالف ارتباك، ولم أطراف شجاعته

وقال:

- سأسافر في نهاية سبتمبر، وأنت تعلم أنّ الحكومة

تصرف المرتبات مؤخرًا!

وأدرك حسن ما يعنيه قبل أن يتمّ كلامه، فتفكر

دون أن يبدو على وجهه شيء مما يدور في نفسه. ثم

سأله:

- وما المرتب الذي تنتظره؟

- سبعة جنيهات.

- يا خبيثتها يوم أرسلتك إلى المدرسة! . . وطبعاً لا

تملك من نفقات السفر ومعيشة شهر أكتوبر ملياً؟

فابتسم حسين في تسليم وهو يعجب لما شعر به نحو

أخيه - في هذا الموقف - من الارتباك والحياء كأنه يسأل

رجلاً غريباً. وجعل حسن ينظر إليه صامتاً وعقله لا

يبي عن التفكير. «جاء حسين في ظرف غير مناسب.

إني أنتظر نقوداً لا أدري متى تأتي ولكنّ يدي الآن

فارغة. موصلة لا يبقى فيها شيء. تبّاً لها! لا يمكن أن

أصارحك بالحقيقة، لنتمّ القيامة قبل ذلك. إنه في

حاجة ملحة إلى النقود، ولا بدّ أن يحصل عليها.

مستقبل الأسرة يتوقف على هذه الجنيهات، وليست في

الواقع بالكثير، ثمن أوقيات حشيش، ويتفق مثلها أيّ

فق أرهن في أسبوع بدرب طياب. سناء مفلسة أيضاً،

لم أعد أبقي لها عل شيء. ولكن لا بدّ أن أعينه،

كيف؟ ولماذا لم يحضر إلّا اليوم؟ إلّاّ تبقى أسرنا شوكة

في جنبي؟!». وظلّ ينظر إلى أخيه صامتاً حتّى امتلأ

حسين قلقاً وخوفاً. ثمّ غادر حسن الفراش فجأة

وذهب إلى الصوان ففتح درجاً وعكف عليه دقائق ثمّ

عاد إلى مجلسه ومدّ يده إلى أخيه فإذا فيها أربع أساور

ذهبيّة، وقال بسرعة:

- خذ هذه الأساور، ويعها في الحال وانتفع

بشمنها. . .

وجدّت يد حسين قلم تتحرّك، وأتسعت عيناه

انزعاجاً وإنكاراً، وهض وهو لا يدري:

- ما هذا؟! أساور من هذه؟

فقال حسن ببساطة وقد ضابقه انزعاج الآخر:

- أساور سناء، أرماني!

- وبأيّ حقّ أخذها؟

- إنّ أخذك يعطيك ليّاسها. لا شأن لك

وكانت الأساور ما تزال في يده. فخفض عينيه وقال
بخجل:

- إني أشكر لك كرمك، وأقبله على العين والرأس،
وأرجو أن تعلمه دينًا أقضيه عند الميرة بإذن الله...
- أقبله هدية إذا شئت، ولا تنس أن تحبر أملك بأنني
اقتضيت النقود من الأستاذ صبري...

وأثار ذكر أمه ألمًا حادًا في نفسه فوجد امتعاضًا،
وتضاعف هذا الامتعاض وهو يتناول الأساور ويدسها
في جيبه، ثم قال:

- يوسفني أنني أزعجتك، وأظن أنه ينبغي أن
أذهب كي تواصل نومك...
فمد حسن له يده بالسلام، وضغط على يده بأسفًا،
ثم قال:

- مع سلامة الله. بلغ تحياتي للجميع، وقل لأمك
بأنني سأزورها قريبًا...

وغادر الشقة شاعرًا بفرابة وإنكار. وهبط السلم
الذي لا درابزين له في حדר، ولكنه لم ينتبه للرائحة
النتنة من شدة إغراقه في تيار أفكاره...
= ٤٧ =

كانوا يجلسون بحجرة الأخوة التي ستصبح من الآن
فصاعدًا حجرة حسين وحده. ورتت نفيسة إلى وجه
حسين ففهم الألم قلبها وهفت:

- رباه. هله آخر ليلة نجمعنا مئًا
أحسّت الأم بطعنة تصيب فؤادها الذي علمه
الدهر من الصبر فنونًا، ولكنها أبست، أو رسمت
إبتسامة على شفتيها الجافقتين، وقالت بعطف:

- حسين رجل كامل، وسيعرف كيف يعيش وحده
دون ارتباك أو اضطراب. وإني مطمئنة كل الاطمئنان
إلى أنه لن ينسانا، فيذكرنا دائمًا كما سنذكره دائمًا.
وهذه هي الحياة يا عبيطة، ومصير كل أسرة إلى التفرق
السعيد - على ما به من حزن - حيث ينهض كل بدوره
الجديد...

وكان حسن يعرف أمه جيدًا فأدرك أنها تداري
حزنها بالحكمة والحزم كما دأبت دائمًا، فصمم على أن
يعالج وحشة قلبه بالحزم كذلك. لقد بكى مرة

بصاحتها...
واشتد انزعاجه وتساءل في امتعاض كيف يعيش
أخوه؟ ثم غتم:

- لست مرتاحًا إلى أخذها، أما من سبيل آخر؟
وحقق حسن على هذا والتعقّف فقال بجفاء:
- إذا كنت حزينًا حقًا فما عليك إلا أن ترفضها،
وليس عندي غيرها...

فرفقه بارتباب، ولكنه قرأ في وجهه الصلوق فأحسن
بضيق وقهر. «أساور امرأة... وإني امرأة... حال.
شيء لا يصدق ولا يمكن أن يدور لي بخلد، ولم أعلم
- ولو في كابوس - بأنه وقع لي. كيف يمكن أن أحترم
نفسي بعد ذلك؟ أرفض؟ والعمل؟ ليس لديه نقود
أخرى، ينبغي أن أصدقه. ولكن حال أيضًا أن أصيغ
الوظيفة، وما عسى أن أصنع لو أفلتت الفرصة؟ كلا
لا يمكن أن أرفض. لا يمكن أن أقبل. لا يمكن أن
أرفض. لا يمكن أن أقبل. أرفض. أقبل. أرفض.
أرفض. أقبل. أقبل. شيء واحد يستحق اللعنة، هو
الحياة، الحياة والحظ... والوالدان اللذان أتيا بنا إلى
هذه الدنيا. كان يلعب بأوتار العود ولا يبالي شيئًا!
سحقًا لي، كيف أفكر؟ مبهات أن أذهب من مخيلتي
صورة جثائه. رحمة الله عليه، ليس الذنب ذنبه.
كالدجاج نلنقط رزقنا بين الفاذورات. حجرة الدجاج
على السطح ملقئ حسين وبهية. شيء تشمئز منه
النفس! فلا أرفض. ولكن لا حياة إلا بالإذعان. لن
يدري أحد. ولكني سأذكرها ما حييت، وسأعجل منه
ما حييت. إنه ينتظر الجواب علمًا بالإذعان ولمّا الموت.
فلاخذها كدين ثم أقضيه عند الميرة. إنك تخادع
نفسك. بل إني صادق ولاقضي ديني. أرفض أو لا
تزعج بعد الآن أنك رجل شريف. إني جائع. شريف
وجائع. ولن أرفض. تبًا للحياة. إني أدرك الآن ماذا
ساق أخني إلى هذا الزكر. أسرة ضائعة وحياة قاسية.
يجب أن أبست في الأمر وإلا تفسجّر رأسي

كالدجاج...
- ماذا قلت؟
ورفع عينيه في ذهول وقد أثر فيه صوته تأثيرًا غيظًا.

سيرتك الحميدة في بلدك الجديد، وأن تملو صحبة
السوء...

فابتسم حسين قائلاً:

- اطمئني كل الاطمئنان يا أمّاه...

على أنّ عبارة «صحبة سوء» استدعت إلى مخيلته
صورة عطفة جنذب والبيت الذي لا درابزين له
والأساور الذهبية فشر بفنور أغاض الإشراف الذي
رسمته الابتسامة على وجهه فانحنى على الحقيبة ليواري
وجومه عن الأعين، أمّا الأمّ فاستطردت قائلة باهتمام:
- ولا تنس أسرتك. حقاً ليس ثمة حاجة إلى
تنبيهك لهذا، ولكنني أحب أن أدركك بأننا سنظل في
حاجة إلى رعايتك حتى يتوكلف حسين وتتزوج نفيسة!
- ما توقفت إلا لهذا.

وسرّحت في نفس نفيسة تشعبيرة رعب، وفلذت
كلمة «تتزوج» إلى أفعالها وخالتها تبتش ما استمر من
خبيثتها. ألا يزال هذا الأمل يداعب أمّاه؟.. ألا
تلري أنّ الموت أحب إليها منه؟ ونظرت إلى وجه
حسين بغرابة، إنّه لا يلدي، وهيها أن ينظر لهم
هذا على بال. ميهات ميهات. وغابت الحجره عن
عينها فخيّل إليها أنّها تراهم وقد أهدقوا بها في ثورة
جنونية وقد جحطت أعينهم ملتصبة بنار الغضب ثمّ
انفضوا عليها كالوحوش. وهزّت رأسها لتطرد عنها
أشباح هذه الأوهام للرعب فعدت إلى حاضرها، ولكن
سرعان ما وجدت نفسها تتذكّر على الرغم منها
ساعات ضعفها تلك الساعات التي تذهل فيها عينا
يدفعها إلى تسليم نفسها من دواعي اليأس والفقر،
هنالك تنسى كلّ شيء إلا الرغبة المحرومة الجائعة
فتمثّل بنفسها أظنع تمثيل. تذكّرت ساعات الضعف
هذه وهي بينهم صامته فعلاها بحبل اليأس وخوف لا
يُتّى لها به، وعادت تردّد بصرها بين أمّها وشقيقها
بغربة. ما يزال أمامها فرصة للتراجع، لا لرأب
الصدع طبعاً فقد وئى أوانه، ولكن... ريتاه لا
تلدي ماذا تقول، ما الفائدة؟ أيّ أمل قد بقي في
الحياة؟.. لقد قضى عليها بأن تقضي على نفسها...
واصلت الأمّ حديثها قائلة:

كالأطفال ولكنّه لن يبكي مرّة أخرى. ونتمم مقلداً أمّه
في ابتسامتها:

- سوف نلتقي في الإجازات، ولعلّي أنقل يوماً إلى
القاهرة. فقال حسين بأمل:

- لا بدّ أن يحدث هذا يوماً ما...

وكان حسين يجد كتابة وحزناً. لم يفتقر عن شقيقه
مد رأى نور الدنيا فلم يدب كيف يلغى الحياة بدونه.
كان شقيقه وصديقه ممّا، أجل كثيراً ما نشب النزاع
بينهما، ويلغ الشجار أحياناً ولكن لم يكن لاحدهما غنى
عن الآخر. لو كانت هبة أقلّ عناداً لما شكا الوحدة
قط، بيد أنّه بوسعه أن يتمزّي عن الفراق بالرسائل
يحجزها له من أن لأن فصل ما ينقطع بينهما من أسباب
الشرة والحديث، ولعله يستطيع أن يسافر إليه في
المعطلة. ترى هل يمكنه أن يجري عليه راتباً شهرياً؟
خسوس قرشاً أو ثلاثون خصوصاً وهو يعلم بأنّ راتب
الدروس الخصوصية ينقطع بانتهاء السنة المدرسية!
ليت شجاعته تؤايبه الآن فيحدثه بأسانيه... ولكن
صبراً، ولربّما هذا إلى فرصة أوفق.

وكانت الأمّ تواصل التفكير بلا توقّف. لقد وُفّقت
إلى الظهور بالظهور الذي تحب أن تظهر به، أو الذي
اعتادت أن تظهر به، ولكنها كانت تعاني آلاماً عميقاً
بلغت شدّته ذروتها عند المساء، كانت تكابد تأنيباً خفياً
لشعورها بأنّها تؤثّر حسين بأكبر جهاد، والآن ماذا
ترى؟.. ترى الأمل الوديع يضمّني بمستقبله ويرمي
بنفسه بين أحضان النوى في سبيل الأمرة، بل في
سبيل حسين بالذات. وضاعف من آلامها أنّها كانت
ترى الواجب يحتم عليها خوض حديث أبعد ما يكون
عن العواطف، حديث إن دلّ ظاهره على الحذب على
الفتى المسافر فباطنه يرمي إلى الدفاع عن الأسرة قبل
كل شيء. وجعلت تؤبّله وهو يلبّغ عليها حتّى اقتنعت
بأنّها إذا لم تسقه الآن فقد فقلت منها الفرصة إلى
الأبد، ونظرت إلى حسين بإنشاق وحنان - وكان يرتّب
ثيابه في حقيبته أبيه - وقالت:

- إنك رجل عاقل، وهذا ما يجعلني جديرة
بالاطمئنان ولست أطمع في شيء أكثر من أن تواصل

كبيراً، ووجد نحو الأسرة التي يحبها - الأب والأم والفتاة وتلميذه السابق - امتناناً عميقاً، وجرى الحديث بين ذكريات الماضي وأمال الحاضر لطيفاً صادقاً، مباركة عليك الوظيفة، تسافر مصحوباً بالسلامة، مشترك وراك وحشة، لقد خسر سالم أسناناً لا يعوّض، إلخ وبهية نفسها على حيالها وتحفظها قالت بركة «نعود بالسلامة قريباً إن شاء الله فشكر لها تلطفها بلسانه وقلبه وفتاة حسناء حقاً، مهذبة محتشمة، وحسين شاب رائع وسيكون زوجاً رائعاً. ترى ألم يقبل هذا الثغر؟ طالما شكاً تحصنها متملّناً فيا لها من فتاة نادرة حقاً! ساسافر غداً وتحسن صُوراً وذكريات، وستجتمعون كاجتماعكم هذا، وربما لا تذكروني إلا قليلاً، أو لا تذكروني بنائاً، ولكن كيف أكون؟ وأين؟ وهل أملك مع وحلتي إلا أن أذكركم؟ كلها اشتدّ الدهر ازدادت قوّة وصبراً، ولاظننّ هكذا إلى الأبداء...»

- ٤٨ -

غاب وجه حسين في زحمة المودعين، وتراجع سقف عظمة مصر الهرمي حتّى بدا من الداخل مظلماً، كلّ شيء يتراجع بسرعة متزايدة، وداعاً يا مصر. وعاد حسين برأسه إلى الداخل واعتدل في جلسته وهو يغمض عينيه ليخفي دموعاً رقيقة غابّت إرادته طويلاً ورمش سريعاً لينفض نداماً عن أهلبه. وكان إلى يساره أفنديّ يتصفّح جريدة على حين جلس قبائله قرويان يتجادبان الحديث ومع أنّ العربية كانت نصف متلثة إلا أنّ ضجة الراكيين كادت تعمل على صلصلة عجلات القطار، وذكر في حزن مرطب بسرور أنّه رأى دموعاً في عينيّ حسين، أجل لقد تجلّداً وهما يتحادثان على طوار المحطة، ولكن حين تحرّك القطار وأخذ الفتي يلوح له بيده اغرورقت عيناه بالدموع. وفي البيت كانت نفيسة تبكي صراحة حتّى التهبّت عيناهما، لشدّ ما يذكر وجهها - الذي حرمه الله نعمة الحسن - بعطف ورواء وحنان. أمّا أمّه - وقد ابتسم على رضعه - فقد ضمّته إلى صدرها وقبّلت خديّه، ولعلّها فعلت هذا لأول مرة، أو في الأقلّ فهو لا يذكر أنّها قبّلته قبل

- أنظر ماذا يلزمك من نفوذ كي تنفض بغرورات المعيشة وأرسل إلينا الفاتن من مرتبك. لا بدّ من هذا يا حسين لأنّه لم يعد يبق لنا ما يستحقّ البيع. - سابلل قصارى جهدي.

وتبدّد أمل حسين - أو كاد - من الفوز براتب شهريّ من أخيه بعد أن طالبت الأمّ بالفاتن من مرتبه. أجل لا يبعد أن تحسّ الأسرة بشيء من الترفيه ولكنّه لن يروي جفاف يده، خاصّة في العطلة الصيفية الطويلة. ترى هل تطلبه أمّه إذا وُكِّف يوماً ما بما تطلب به حسين؟ غير معقول. إذا انتهى هو من دراسته فستخفّف أمّه من أنثى وإجابت الأسرة، ويسمعه وتذكّر أنّ يتزوج وأن يعنى بأمر نفسه. إنّ نفيسة وحسين يتصدّيان للزوجة في إلتانها، وقد وجد نحوهما عطفًا ورواء دون أن يمنعه هذا من الفرح بحقّه.

ولم تفرغ الأمّ من الإفصاح عمّا يدور بنفسها كلّه، فوفت لو تحلّره من أن يستلججه أحد إلى الزواج. ولم تكن تجهل أنّ كثيراً من الآباء والأهماء يتصيّدون العزّاب أمثاله في غربتهم بسهولة. ولكنّها لم تدرك كيف توجّه إليه هذا التحدير وعن يمينه أخوه الأصغر قد خطب وغنّى للزواج وهو ما يزال تلميذاً... عللت عن رغبتها كارهة، ولكن مطمئنة في الوقت نفسه إلى رجاحة عقله وحسن تقديره. وتحذّروا طويلاً ما شاء لهم الحديث. ثمّ جاء فريد أفنديّ عمّد وأصرته لتوديع حسين. واستقبلوهما ما يستقبلونهم عادة بالترحيب والسرور، فليس ثمة أحد إلا ويقدر موتهم وكرمهم وحسن جريتهم. أجل لعله طرأ على بعض النفوس تغرّباً باطنياً منذ تمت خطبة حسين لبهية غير الرسمية، فالأمّ مثلاً آمنت بأنهم رموا شبابهم حول الفتى قبل أن ينهض، وأنهم راموا باستائرتهم شدّاً آمالاً تالفاً، أمّا نفيسة فلم يكن يوسعها أن تحبّ شخصاً يطمح إلى امتلاك حسين خاصّة. ولكنّ هذه المشاعر الصامتة لم تكن لتؤثّر في رابطة الوء والإخاء التي تجمع بين الأسرتين، ولم يكن من الهين أن تنسى الأمّ أيادي فريد أفندي ومروته. وقد سرّ حسين بزيارة التوديع سروراً

إنَّ مصر تأكل بنينا بلا رحمة. مع هذا يقال عَنَّا إِنَّا شعب راضٍ. هذا لعمري منتهى البؤس. أجل غاية البؤس أن تكون بائساً وراضياً. هو الموت نفسه. لولا الفقر لوصلت تعليمي هل في ذلك من شك؟ اجلاء والحظ والمهن المحترمة في بلدنا هذا وراثية. لست حاقداً ولكني حزين. حزين على نفسي وعلى الملايين. لست فرداً ولكني أمة مظلومة، وهذا ما يولد في روح المقاومة ويعزِّي بنوع من السعادة لا أدري كيف أسميه. كلاً لست حاقداً ولا يائساً أيضاً، وإذا كانت فرصة التعليم العالي قد أفلتت من يدي، فلن تغفل من يد حسين، وربما وجدت نفيسة الزوج المناسب. سوف ترد الروح إلى أَسْرَتنا فذكر آيائنا السود بالفخار ولاحت منه التفاتة إلى يساره فوجد الأفندي الذي كان يتصنَّع الجريدة قد طواها ونظر إليه نظرة من ضاق بالوحدة وألصقت، وكأنه كان ينتظر هذه الالتفاتة العارضة فقال بلا داعٍ ولا تمهيد وهو يلوح بالجريدة المطوية:

- لولا الطلبة ما اتلف الزعماء، من كان يتصرَّر أن يجلس صديقي مع النحاس على مائدة واحدة؟
ورحَّب حسين بالحديث ليريح رأسه من أفكاره وقال:

- هذا حقٌّ يا سيدي.
- ومن كان يصدِّق أن يعترف الإنجليز بأنَّ مصر دولة مستقلة ذات سيادة، وأن ينزلوا عن التحفظات الأربعة؟.. أَظُنُّ أن تلغى الامتيازات حقاً؟
- أعتقد هذا.

فقال الرجل بسرور:
- سيحكم النحاس إلى الأبد. انتهى عهد الانقلابات. حضرتك وفدي.

- نعم...
- قرأت هذا في ساحة وجهك. الوطني هو الوفدي، وما الأحرار الدستوريون إلا إنجليز بطرايش بصرف النظر عَنَّا يقال عن الائتلاف وفوائده.

- هذا حقٌّ لا شك فيه...
- حضرتك مسافر إلى الإسكندرية؟

هذه المرأة! لشدَّ ما تأخذ نفسها بالحزم حيالهم، هذا طبعها، ولكن مهبها أن يطمس حناها العميق. ولم نشأ أن تبكي وهي تودعه إذ أنها تشام من دموع التوديع، ولكنه قرأ في تغلُّص جفניה نديراً بالبكاء لا يلبث أن يستفيض دموعاً إذا وراه الباب عن عينيها. قال لنفسه لعلها بكت طويلاً، ولعلها لا تزال تبكي، وشعر هذا بكاءة وحزن. ولم يكن رآها تبكي قبل وفاة والده فاشتدَّ تأثره، وبأها من امرأة عظيمة. شاء الله أن يبتلي أَسْرَتنا بحصبة قاصمة ولكن سبق لطفه ففكر أن تكون هذه المرأة أمنا. ماذا يكون مصيرنا لولاه؟ كيف غلَّبتنا وكسنتنا؟ كيف سيطرت على توجيها؟ كيف نهضت بضرورات أَسْرَتنا في هذه الظروف القاسية؟ يا لها من معجزة تحيِّر العقول. حتَّى حسن أخي فني ظنِّي أنه لولا المرحوم أبي لأمكن أن نجعل منه رجلاً غير الرجل. أه... لاقتصدن في الكلام عن حسن. لولاه ما عرلت سبيلي إلى وطني، نقوده هي كلُّ مالي حتَّى آخر الشهر. الأساور؟ يا للذكرا! انس، ينبغي أن أنسى كي أعيش. سأقضي الدين يومًا وأسدل الستار على أسوأ الذكريات. وأرسل بصره من النافذة فلأرا من أفكاره فرأى الحقول تتراعى حتَّى الأفق، والحضرة يانعة ناضرة بهجة تحيل ردوسها مع الهواء في موجات متصلة، وهنا وهناك فلاحون وثيران تلوح كالسهم تكاد تبلمها الأرض، وسوائم ترعى، وفوق هذا كله ساء الحريف متلفعة ببياض شاحب تنحسر في أكثر من موضع عن بحيرات من زرقة صافية. ومَرَّ القطار بجدول صافٍ ذابت أشعة الشمس على سطحه زيثقاً يبهز الأعين. ورأى أسلاك البرق في أسواقها المتواصلة تشملها حركة منتظمة كأنها تسبح في الفضاء على وقع طفطة الفاطرة الرتية. ثم مدَّ بصره كَرَّةً أخرى إلى الأرض المنبسطة، الصامتة الصابرة، الخيرة، فذكر دون دعي أمه... كهذه الأرض الخضراء صبراً وجوداً والدهر يمرُّها بسنانه! لم يعد بوسعه أن تقوم بزيارة محترمة لأنَّها لا تجيد الثياب اللاتقة! وتغيَّمت عيناه فغابت عن ناظره بهجة المنظر ودعا الله أن يرزقه حتَّى يرقه عن أمه المتصِّرة وأسرته المتجلدة. وبأ للمعجب.

من نسختين، وجميعها قديمة عملت بها يد الرفو والترقيع، وعلى سبيل الاطمئنان دسّ يده في جيب الحياكة وأخرج رزمة الجنيهاات وعدّها ثم أعادها إلى مكانها وقد عاودته ذكرياتها الاليمية، ثم ذهب إلى الفراش وتربّع عليه. لا يدرى ماذا يفعل في بقية النهار، ولما لم يجد أحدًا يجادلّه ولا عملاً يعملّه فقد استسلم بكلّيته إلى التأمّلات والأحلام. وشعر بالوحدة والدهشة، وأدرك أنّه سيعاني مرّة العناء من فراغه. أجل إنّهُ يحبّ القراءة ولكن حتّى إذا أمكنه ابتغاء ما يريده من الكتب فيسفلّ لديه من الفراغ ما يضيّق به. لم يألّف الحليّة في هذا الصمت الثقيل، وشعر في وحدته الصامتة بأنّه شيء ضائع ناله لا يحفل به أحد ولا يابه له أحد. أين صوت حسنين الحادّ الصبيّ الذي لا يفتأ يضحّ بالضحك أو بالشكوى، أين صوت نغمة الرفيع وتعليقاتها اليومية الساخرة على الجيران والحوادث. ولكنّه لم يشأ الاستسلام لشعوره، وآثر أن يبحث شئون ميزانيّته التي سينظّم معيشته على أساسها. مرّتبه سبعة جنيهات، مبلغ لا بأس به في ذاته لولا ما يعلّق به من ظروف. منه أجرة سكن ١٥٠ قرشاً، و٢٠٠ قرش للأكل لا يجوز له أن يتعدّاها بحال، فiol للفطور، وطبق خضر باللحم وأرز ورغيف للعداء، وحلاوة طحينيّة أو جبن للعشاء، وإذا دعا الأمر أقلع عن العشاء كما اعتادوا أن يفعلوا طوال العامين المنصرمين، ومهما يكن من أمر فلن يسمح لمعدته بأن تكون مصدرًا للتناعب والارتباك، إنّهُ أعظم من هذا ويوسعه أن يقرّر هذه الحقيقة الآن، وهو في مأمن من معارضة حسنين، وإنّ تحمّل المضايقة في سبيل الحياة التي يرضى فيها عن نفسه لأنّه من شهوة الطعام. ثمّ ٢٠٠ قرش لأهله، وهو قدر زهيد، وكان بوّده لو يضاعفه ولكن لا حيلة له فلم يبقّ لنفقاته الشريّة وكسائه إلّا ١٥٠ قرشاً فيما عدا الضرائب التي تخصم عادة من المرتب. ثمّ تسامح فيها يشبه الحيرة ألاّ يمكنه أن يقتصد ولو مبلغاً قليلاً في صندوق التوفير؟ إنّهُ لا يطيق الحياة بلا اقتصاد من أيّ قدر كان، ولا يظنّ أنّ إنساناً احتضنته أمّ كلّته يستطيع أن يمارس

- إلى طنطا فقط.
- شي الله يا سيّد يا بدوي، لقد عشت في طنطا أحوالاً...
ولاح الاهتمام في وجه حسين فسأل:
- إنّ مرّفتك جديد، فهلاًّ دلّنتي على فندق معتدل الأسعار يصلح للإقامة؟
فجعل الرجل يدعك ذقنه بيده متفكّراً ثمّ قال:
- عليك بفندق بريطانيا بشوارع الأمير فاروق لصاحبه ميشيل قسطندي.
يمكن أن تقيم في حجرة نظير جنّيه ونصف شهرتها...
ثمّ تحدّث طويلاً عن الإقامة في الفنادق وسكنى الشقق والمناضلة بينها...
- ٤٩ -

كانت حجّرتّه بالفندق صغيرة، ذات فراش لشخص واحد وصران ومقعد خشبيّ ومشجّب، وكان جوّها يشي بالرطوبة الكائنة، إذ كان بها نافذة واحدة تفتح على عطفة جانبية ضيّقة ويحول بينها وبين الفضاء جدار بيت قديم، فلم نجد الشمس سبيلاً إليها. وكان يوجد بالفندق حجرات تطلّ على شارع الأمير فاروق ولكنها مرتفعة الإيجار فعُدل عنها إلى هذه الحجرة البسيطة قاللاً لنفسه: «من المعدل أن أعيش كما يعيشون في عطفة نصرالله». وكان لؤلّ ما فعل أن فتح النافذة وأطلّ منها مدفوعاً بحبّ الاستطلاع فوقع بصره على عطفة حقيرة تقوم على جانبيتها بيوت قديمة فمجب للفرار الكبير بينها وبين الشارع الذي تتفرّع منه، ثمّ رأى جدار البيت الذي يحجب عنه الفضاء فدخله ضيق وأيقن بأنّه لن يظفر في وحدته بتسليّة. وتحوّل عن النافذة إلى امرأة الصوان فطالع صورته في هيئة غريبة، بدا وجهه طويلاً وقسماته شائخة إلى ما تاتلر على صفحتها الباهتة من إفرازات الذباب، فتضاحك وقال غاطباً صورته «إنّي أجل منك بفضل الله ورحمته» ثمّ مضى يخلع ثيابه، وارتدى جلبابه، وربّ ملابسه القليلة في الصوان الذي بدا على صدره فارغاً، والواقع أنّه لم يكن يملك غير بدلة وجلبابين وملابس داخلية

اليوم الأول للفرار ثم يهون الأمر ويبدأ ويبدأ. ويجيز ماذا يفعل، هل يقضي سحابة اليوم في هذه الحجرة أو ينطلق إلى الخارج ليجول جولة في المدينة الجديدة، ثم خطر له خاطر هبط على نفسه كما تهبب أداة النجاة على التخطيط بين الامواج، وهو أن يكتب رسالة ل أخيه. وجاء بخطاب وبدأ يكتب بلا توان فوصف رحلته والفندق وصاحبه قسطندي وحجرته وأشواقه ثم حمّله تحياته إلى أمّه ونفيسة ثم توقف متسائلاً هل يهدي تحية إلى بيته؟ هل يذكرها بالاسم، أو يصفها بخطيبة أخيه أو يقنع بتحية عامة لأسرة فريد أفندي؟ ثم أثر الأخير بعد تردد طال أكثر مما ينبغي...

- ٥٠ -

وغادر حجرته في الصباح الباكر، ولكنه وجد الحوارجا ميشيل قسطندي جالسا إلى مكتبه البالي عند أسفل السلم. وقد سأله الرجل عما إذا كان يحتفظ بشيء ثمين في حجرته، فابتسم حسين على رغبته وقال له «الأشياء الثمينة في جيبي». وانطلق إلى الطريق. ثم قصد إلى مطعم فول في نهايته كان عرف موقعه في أثناء جولته أمس بالمدينة، وتناول فطوره، ولفت نظره بصفة خاصة سلطة حمص لم يعرف لها نظيراً في القاهرة. وتمشى في المدينة حتى التاسعة ثم ذهب إلى المدرسة الثانوية ليقدم نفسه إلى الباشكاتب ويتسلم عمله رسمياً. وقد اهتزت نفسه لمراى المدرسة، وعاودته ذكريات قريبة لاحت في عينيه كالطمع. وعزف البواب بشخصيته فعضى به إلى حجرة الباشكاتب وطلب إليه أن ينتظر حتى يحضر الرجل عما قليل. وجلس حسين على كرسي قريباً من المكتب وجعل ينظر خلل الباب المقترح إلى فناء المدرسة في جو يثقل عليه الصمت. بعد أسبوع يبدأ العام الدراسي وتعتل هذه المدرسة بحياء حارة. وذكر كيف كان - منذ أشهر - يقضي أسعد أوقاته بالمدرسة في مثل هذا الفناء، وكيف كان يمثل خضوعاً حيال أي مؤلف من مؤلفيها. إنه الآن أحد هؤلاء المؤلفين، بيد أنه لم يستسلم للزهو. إن التلميذ حلم أما المؤلف فحقيقة، التلميذ مشروع مستشار أو وزير أما المؤلف فدرجة

الحياة بلا اقتصاد. والحق أن أمّه بين النساء كألانيا بين الدول قادرة على الاستفادة من كل شيء ولو كان زبالة كانت ترفع البنطلون حتى إذا بلغ اليأس قلبته، فإذا أدركه اليأس مرة أخرى قصّت أطرافه وجعلت منه سروراً داخلياً، ثم تصنع من بعضه طاقية وتستعمل بقيته مسحة. ولا يلفظه البيت إلا فتية. لا يد من الاقتصاد مهما كلفه الأمر، وإن قسوة الحياة التي عشتهم بلا رحمة حرّية بأن تجعل من الاقتصاد عقيدة لهم. وعندما بلغ هذا الحد من التفكير تداعت إلى نفسه مشاعر الخوف التي كانت تعذب أسرته بسبب وبلا سبب والتي لم يكن من باعث لها إلا الفقر. أجل كانوا في خوف دائم من أن تزيد النفقات الضرورية على الإيراد المحدود، كان يتعرض أحدهم للمرض، أو يجد من ناحية المدرسة طلب، أو تعطل نفيسة عن الكسب ردحاً من الزمن أو أو أو، فما لا يقف عند حد، أواء لشد ما يشعر بغمز الألم في صميم قلبه وهو يجتر هذه الذكريات، ومن خلالها يترأى لعينيه وجه أمّه المروق الجاف كمثل حيّ للصبر والألم، أحب الوجوه إلى قلبه على رؤس دعامته، ومن عجب أن نفذت إلى نفسه - وقتذاك - نسمة مطلولة بغتة لشعوره بأنه بات قادراً على التخفيف عنها مما يثقل كاهلها. أجل إنه من الغد مؤلف من مؤلفي الدولة، وبعد أعوام قصيرة أو طويلة يصبح حسين مؤلفاً أيضاً من درجة أعلى، وسيفاخر هو مدى الحياة بأنه قنع بشهادة متوسطة لييسر لأخيه الحصول على شهادة عليا. ترى هل يذكر حسين هذه العبر؟ إنه يبدو مشغولاً بأمر نفسه عما عداها، ذكي بلا ريب، وبمجهتد، بيد أنه... أه فليمسك عن نفسه في غريته. فما أشدّ حنينه إليه، وما أكبر شوقه حتى إلى عتاده وملاحاته. ومزق الصمت صفير قطار قطع عليه أفكاره وخفق قلبه. وكان الفندق غير بعيد من اللحظة، فلم يكن بدّ من أن تذكره القطر بين آن وأن بالقاهرة وأهلها. وعاودته ذكريات الدواع فنهشت قلبه حتى سحّ حيناً دافقاً. ثم غشيت قلبه سحابة مظلمة من الوحشة والكآبة فقال لنفسه يصبرها ويعزّيها. لعلها ضريبة

ثامنة لا أكثر. ولم يطل به الانتظار فما عَثم أن صكت أذنيه سعة غليظة ونحنحة عميقة ثم أزيز بصقة، ورأى على الأثر رجلاً يقتحم الحجرة مهرولاً، قصير القامة، رقيق الجسم، كروي الوجه، أعمش العينين، تعلوه صلعة ناصعة البياض، وقد قبض على طربوشه بيد وراح يحقّف صلعته بمبدال باليد الأخرى، وما إن وقعت عيناه على الشاب حتى صاح به:

- بسم الله الرحمن الرحيم، كيف طلعت هنا؟ .. هل بت لي لك في حجرتي؟ .. تعليم مستجد؟ فوقف حسين مرتبكاً وقال:

- أنا يا بك الكاتب الجديد حسين كامل علي... فقهقه الرجل ضاحكاً. ولكن أدركه السعال وعاودته النحنحة فاستلأ فيه مرة أخرى ونظر حوله في حيرة، ثم جرى إلى الخارج، وغاب نصف دقيقة ثم عاد أحسن حالاً وهو يقول كالمعلم:

- لعن الله البرد، أصاب به كل مطلع فصل من فصول السنة فتجديني في حيرة دائمة ما بين فصول السنة وفصول المدرسة، لا مؤاخلة يا حسين أفندي السلام عليكم أولاً...

لمدّ حسين يده مبتسماً وهو يردّ تحيته بأحسن منها، ثم جلس الرجل إلى مكتبه ودعاه إلى الجلوس فجلس، وأنشأ الباشكاتب يقول:

- إسمي حسن حسن حسن. العادة في أسرنا أن يتسمى الابن الأكبر باسم أبيه، ألم تسمع بأسرة حسن بالبحيرة؟ كلا... كلا كلا يا سيدي، الله الغني، التلاميذ الكلاب يدعونني بحسان أس^٣.

فضحك حسين ملء قلبه، ولكن الرجل حدّجه بنظرة انتقاد من بصره الأعمش وقال:

- علام تضحك؟ ألم تتخلص بعد من عقلية التلاميذ؟ وبهذه المناسبة أقول لك إنّي رجل عصبي جداً ولكن قلبي طيب. وكثيراً ما لعن أبنا أحسن واحد، بلا قصد سيئ ومع الاحترام الكلي للشخص الملعون! فافهمني ولا تنس آتي في سنّ والدك! فقال حسين في ارتباك شديد:

- لن يحصل بيننا ما يثير الغضب إن شاء الله.

- إن شاء الله. أحببت أن أعرفك بنفسي، هذا كلّما هنالك. إنّي ألعن نفسي كثيراً. اللعن مريح في أحيان لا حصر لها، ولولا مات كثيرون كمذا. ستعلم عمّا قريب معنى العمل في مدرسة (ثمّ متهاذلاً) وصل الكتاب الخاصّ بتعيينك من الوزارة (ويبحث عنه في أوراقه حتى وجده) وهو الرقيم ١١٧٥ بتاريخ ٢٦ من سبتمبر سنة ١٩٣٦. وقد جئنا ونحن في أشدّ الحاجة إليك، وستبدأ الآن في مراجعة كشوف الأسماء والمصروفات. لقد تزوّج الكتاب السابق من كريمة مفتش بالوزارة فنقله فجأة إلى القاهرة. حضرتك متزوّج يا حسين أفندي؟

فقال حسين مبتسماً:

- كنت تلميذاً حتى الربيع الماضي

- وهل تظنّ أنّ التلمذة مانعة من الزواج؟ لقد تزوّجت وأنا تلميذ بالثانوي، وهذه أيضاً من عادات أسرنا كتسمية الابن الأكبر باسم أبيه، وكان لنا عادات أخرى عظيمة أبطلها صديقي باشا لا سامحه الله...

فنظر حسين متسائلاً، فاستطرد الرجل في حزن قائلاً:

- والذي حسن بك وفدي كبير واحد أعضاء الهيئة الوفدية. وقد طالبه صديقي باشا أثناء حكمه المشغوم بالانفصال عن الوفد ولما أبى كما ينتظر منه حرمه معونة بنك التليف في عزّ الأزمة فبيعت الأرض وضاعت الثروة.

فقال حسين:

- ولكنّ النحاس قد عاد إلى الوزارة؟

- ولكنّ الأرض ضاعت. والأدهى من هذا كلّهُ أنّ صديقي انضمّ إلى الوطنيين وقد خطب أول هذا العام في مستقبله بدسوق فيلهم تحيات «زعيمي النحاس» يا خسارتك يا حسن حسن حسن!

فتظاهر حسين بالتأثر وغمغم:

- ربّنا يعوّضكم عن خسارتكم خيراً...

فهزّ الرجل رأسه، وسكت دقيقة، ثمّ قال:

- حطّك سعيد إذ عيّنت في المدرسة بعد أن ولّي

وفرش الأخرى بالأثاث الجديد وكان للحجرة نافذة تطلُّ على شارع ولِيَ الله - حيث يوجد مدخل البيت - وينسرح أمامها الفضاء بلا عائق لارتفاعها عِما حولها، فـشعر الفقى - بعد ضيق - براحة الفضاء وطلاقة الجو، وسُرَّ لذلك كثيراً. وكان يوم انتقاله إلى الشقة الجديدة يوماً سعيداً حقاً، إذ إنَّه وجد نفسه - لأول مرة في حياته - صاحب بيت وأثاث ومرتب. ولم يكن نسي ذلك الإحساس اللطيف بالارتياح والسرور الذي اتبع في نفسه وهو يتسلَّم مرتبة صباح ذلك اليوم، ولا كيف دارى ابتسامة انطلقت من قلبه إلى شفتيه حياه أن يطلع الصراف على فرحه، ولكنَّ هذا السرور كله لا يعدُّ شيئاً إلى السرور الذي امتلأ به قلبه وهو يبحث بالجنينيين إلى أمه، كانت لحظة عظيمة عرف أثنائها أنَّ صبره الطويل لم يذهب سدى. وما كاد يستقرَّ به المقام حتَّى زاره حسان أفندي مهتئاً وقال له «لن تكون غريباً ما دمت بيتنا» فشكره لفضله وحفظ له في نفسه من الامتنان ما هو خالٍ بقلبه الشكور، وغفر له ما يلقي منه في المدرسة من حدة الطبع وسوء التصرف والارتباك في العمل، والحقَّ أنَّه قد ألف هوسه متعزِّياً بطيبة قلبه وخفة روحه، ولم يرشَّ حسان أفندي أن يتركه منفرداً ودعاه إلى قضاء سهرة بشرفة شقته فذهب معه مغتبطاً وجلساً معاً وحسان أفندي يقول:

- يبدو لي أنَّك لا تحبُّ المقاهي فاجمل من هذه الشرفة ناديك الليلي...
وكانت الشرفة مهتأة للجلسة الطيبة فهي جانبها الأيمن كرسيان كبيران من القش يبيها خوان وفي الجانب الآخر شلثة كبيرة تقوم ورامها وسادة، وعلى خوان في ركن من الشرفة وضعت صينية صُنَّت بها قُلْتان وإبريق وقد عام على الماء المتجمّع في وسطها الليمون البنزهر. وراح حسان أفندي يتحدث بلا توقّف تقريباً وكيفاش اتفق، وقد بدا في جلجلبه القضااض أصغر منه في البدة فلم يكن شيئاً لمكر، لو كان لساناً فحسب. ورُحِب حسين بالجلسة لما عناه من الفراغ في الأسابيع الماضية، فلم يكن يدري ماذا

عهد الإضراب، كادوا يحرقون بنا المدرسة أثناء المظاهرات الأخيرة لمن الله المظاهرات والطلبة وصدقي باشا. أين تقيم يا حسين أفندي؟

- في فندق بريطاني.
- فندق؟! حَيَّك الله، معذرة، أعني ساعك الله. الفنادق مقام غير صالح للإقامة الطويلة ويجب أن تبحث فوراً عن شقة صغيرة.

- ولكنِّي لم أحلّ ممي أثنائاً؟
فتفكّر حسان أفندي وهو يقرض أظافره باهتمام طارئ ثم قال:

- فرش حجرة لن يكلفك كثيراً ويمكن أن تؤدّي ثمنه مقدّماً بضائني إذا شئت...
وعاود التفكير وهو يقرّس وجه الشاب واستطرد:
- توجد شقة مكوّنة من حجرتين على سطح البيت الذي أقيم فيه لن تزيد أجرتها عن جنيه واحد فما رأيك؟

ثار اهتمام حسين لأول مرة بعد سماع قيمة الإيجار فقال:

- سألكر في الأمر جيئاً...
- الأمر واضح مثل $1 + 1 = 2$ والآن هلّم إلى العمل فإنَّ الأوراق أكوام ملّ تزوّج ابن القديّة ونُقِل إلى القاهرة...

- ٥١ -

وقرّر حسين أفندي أن يبقى في الفندق حتَّى يتسلَّم مرتبة أول الشهر الجديد، وأخذ يقتنع بمرور الأيام بوجوب الانتقال إلى شقة خاصّة ينهتج له فيها الشعور بالاستقرار والطمأنينة على وجه أفضل. وكان حسان أفندي دائماً على تزوين فضائل الإقامة في شقة له، حتَّى هلَّ الشهر الجديد فابتاع له فراشاً وصوئاً صغيراً ومعدّماً بحوالي الجنينيين تمَّ الاتفاق على أدايتها على أربعة أقساط بضمان حسان أفندي، ولمّا كان إيجار الشقة جنينها فلم تزد نفقاته شيئاً. وكانت الشقة الجديدة تشغل نصف سطح البيت الذي يقيم حسان أفندي بطبقته الوسطى، وكانت مكوّنة من حجرتين غير المرافق. فأغلق الشاب حجرة لعدم الحاجة إليها

اللعب والكلام معاً، وكان اللعب نفسه يهين له فرضاً لا تنتهي للثرثرة فكان يعلق على آية نقلة للقطع مزهواً بلعبه ساخرًا من لعب الشاب، ثم صاح به بعد أن غلبه أوّل عشرة:

- العن سوء الحظ الذي رمى بك بين يديّ،
وهيهات أن تذوق الفوز ما دمت حيًّا...

وعادوا للعب بحماس وتحفّز، وانهمك فيه حسين انهماكاً شديداً فلم يبق حتى طرق سمعه صوت أقدام خفيفة تقترب من الشرفة، والتفت نحو الباب بحركة عكسيّة فرأى فتاة تحمل بين يديها صينيّة شاي، وسرعان ما استردّ بصره في حياه وارتابك لآته أدرك من أوّل نظرة أنّ الفتاة لا يمكن أن تكون خادمة. وأحسّ بشخصها إحساساً غامضاً وهو ينحني قليلاً لبضع الصينيّة على كرسيّ خيزران، ثمّ به وهو يذهب مبتعداً. ولم يكن بصره قد ارتدّ عنها فارغاً، أجل علق به صورة وجه عتلىّ يميل إلى البياض، وعين سوداوين - أو لعلّها عسليّتان؟ - ذواتيّ نظرة مليحة. ولبت في ارتياكه مؤرّد الوجه على حين أمسك حسان أفندي عن ثرثرته بفتة، ثمّ عاد يقول بصوت منخفض:

- مله ابنتي إحسان، لم أو بأساً في أن تقدّم لنا الشاي ما دمت أعدك كحدّ أبنائي...

وحرك حسين شفتيه كأنه يتكلّم ولكنّه لم ينبس بكلمة، وقال حسان أفندي وهو يصبّ الشاي في القدحين:

- البيت في البيت نعمة كبرى، لقد تزوّج أخواتها واحدة في القاهرة واثنان في دمهور ولم يبقَ غيرها!

تتم حسين في ارتباك:

- ربّنا يفرّحك بها...

ومضيا يحسبان الشاي في صمت. وأخذ الارتباك يذهب عن حسين خفلاً وراءه شعوراً بالخرج لم يدّر له سبباً واضحاً، أو لعله تهرب من السبب ومجاهله. ووجد إلى هذا أنّه لا يزال متأثراً بما علق في مخيلته من صورة الفتاة على غموضها، تأثراً يعرفه في نفسه حيال آية فتاة ولا دلالة خاصّة له سوى أنّه انفعال مكتوب

يفعل بالوقت، ولم تنفع القراءة في تزجية فراغه إلّا قليلاً، لا لآته كان يضيق بها ولكن لأنّ نفوده لم تسعفه بشراء ما يحبّ من الكتب فاكثى مضطراً بكتاب غير الجريدة اليومية. وجرب الاختلاف إلى المقهى ولكنّه لم يهشّ له وخاف أن يجرّه إلى بعثرة نفوده المحدودة فيها لا يجدي وكان طبعه حريصاً، لهذا كلّه رحب بدعوة حسان أفندي وصدقت نيّته على أن يجعل منها تسليّة محبوبية مها كلفه هذا. وتأكّد الحديث إلى الشقة الجديدة فقال حسان أفندي:

- لا يبيّك تنظيف شقّتك فقد أمرت الخادم بأن يتمهّدا بالتنظيف كلّ صباح، وسوف أوصي غشّالة تعرفها «الجماعة» بأن تذهب إليك كلّ يوم جمعة.

فشكر حسين صنيعة في حياه وتأثّر، ولكنّه تضايق بعض المضايقة لآته كان يستطيع أن ينقلّ حجرته بنفسه، ولأنّ قيام الخادم بهذه الخدمة اليوميّة يرجب عليه أن ينفحه ببعض النقود بين آني وآخر الأمر الذي لا يمكن أن يتقبّله بارتياح. وضحك حسان أفندي بسرور ثمّ قال:

- أأنا مفاجأة المفاجآت التي أعدّها لك فهي الرد... هل تحبّ لعبها؟

فقال حسين بسرور:

- بعض الأداة...

فغادر الرجل الشرفة في حماس ثمّ عاد بالنرد ووضعها على الخوان وهو يقول بفخار صيانيّ:

- أنا بحمد الله خير من يلعبها بالوجه البحريّ، وربّما بالقليّ أيضاً...

سرّ حسين حقاً بهذه التسليّة التي لم يكن يتوقّعها وتساءل:

- عادة أم حبس؟

فقال حسان أفندي بثقة:

- اختر لنفسك ما تشاء، إنّاك على الحالين مغلوب...

وبدأ يلعبان. وقد اتّضح لحسين أنّ حسان أفندي يرشّ وجه المستمع إليه عن قرب يرذاذ ريقه إذا حادثه فأمل أن يلعبه اللعب عن الكلام، ولكنّه كان يواصل

بأنَّ أمه قرَّرت أن ترصد النفود التي يرسلها لضرورات الكساء وحده، وأنه ظفر منها بجاكته جديدة يرتديها مع البنطلون القديم، وأنها ابتاعت لنفسها رويًا ترتديه فوق فساتينها الخفيفة فيكسيها دفئًا تستغي به عن الملابس الصوفية، وكان من نتائج ذلك - رصد نفوده لضرورات الكساء - أنهم لم يستطيعوا الاندفاع بها في تحسين حالهم الغذائيَّة التي ظنَّ كلُّ ما يعلم من التفاهة والسوء. وحذَّته عن نفيسة فقال إنها تطفر من أن لا ينقذهم يسر وإنَّ الأم لم تعد تستولي على جلِّ كسبها كما كانت تفعل قبل ورود نفوده، فتوقَّر لديها مال قليل تنفقه على ثيابها كي تظهر أمام الناس بالظهور اللائق بهم. أمَّا حسن فيبدو أنَّ حياته الجديدة تستأثر به استئثارًا شغله عنهم، أو لعلَّه ظنَّ بعد توظيفه - حسين - أنهم لم يهودوا بحاجة إليه فانقطع عنهم انقطاعًا كليًّا. وواصل موافاته بأنباء استمداده لامتحان البكالوريا في نهاية العام قائلًا إنَّه يستبسل في مذكراته لأنَّه يعلم ما يعنيه سقوطه. وفي آخر رسالة وردت منه توفِّد إلى أخيه توفدًا كبيرًا ثمَّ سأل في ختامها هل يطعم أن يملكه بشمن بنطلون متنجِّس على أشهر ثلاثة نظرًا لأنَّ الجاكته الجديدة قد فقدت بهامها فوق البنطلون القديم الناحل؟ ووقف حسين عند هذا الرجاء متفكرًا، لا يدري إن كان يستطيع أن يحمق له رغبته دون مساس بالقدر الذي يودعه صندوق التوفير. لكنَّ فيه يفكر وهو يعلم بأنَّه لن يجيب لحسين رجاء؟ ريمًا كان يوسعه أن يزجره لو لم يفرِّق بينهما هذا البعاد، ولكنَّ البعاد رقق قلبه وجعل حنينه إلى أهله قوَّة لا تقاوم. أجل إنَّه حريص لا يرحب بتأثُّرًا ببعثرة النفود. لكنَّ حرصه يتخلل عنه بلا عناء كبير إذا كان البذل لأهله. لن يضيره التقدير على نفسه ثلاثة أشهر كثيرًا في سبيل إرضاء حسين. إنَّه يعرفه حقَّ المعرفة، ويعلم بأنَّه يعدُّ ما يقدم من غير واجبًا على الآخرين، فإذا لم يسعفه بالبنطلون نسي في حقه صنع الجاكته. ووجد إلى هذا شعورًا غريبًا يلغعه إلى أن يغفر بجيميله الفتي الذي يؤمن بأنَّه سيكون له مستقبل باهر غدًا. لقد ضحى مستقبله في سبيله ويتبني أن تكون التضحية كاملة.

على كلِّ شابِّ بصفة عامَّة، وكلِّ شابِّ بكر بصفة خاصَّة، ولعلَّ انتمائه هذه المَرَّة في بيت - لا في الطريق ولا في الترام - هو الذي أشاعه في جوِّ من الحيرة والبهجة والعمق. وكان حتَّى أن يفكر في أمور أخرى بعيدة عنه بعد القاهرة فتساوره مشاعر خوف وحذر، ولبث حسان أفندي يراقبه صامتًا، ثمَّ ضاق بالصمت فقال:

- اشرب شايبك وتأهَّب للعشرة الآتية، وقعت في غلامي ولا نجاة لك.

- ٥٢ -

كانت على درجة من الحسن تسوِّغ تألُّه، وقد صدق ظنه فيها تلا من أيام وأسابيع فأراها في الطريق بصحبة أمها، ولحها في البيت أكثر من مَرَّة. ومن حسن الحظ أنَّها لم تثر من هيئة أبيها إلاَّ خَلَّيه المتفخفين، ولكنَّها جعلها طابعًا خاصًّا ولم يفتحها وجهها. وأدرك بسهولة أنَّ شقَّة حسان أفندي باتت تجذبه إليها بقوَّة لا يبرِّها نشدان التسلية وحده. وكان يخلُّ شبابًا وحيويَّة، فكان قلبه كان ينتظر أوَّل طارق، وسرعان ما ترعرعت بين جنبيه عاطفة يضطرم فيها الليل والرغبة والاعجاب، فرأها أنسا لوحشته رويًا لظلمته، ولكنَّ لم تدب عنه دقَّة موقفه لحظة واحدة من بادئ الأمر، فلم يكن يفغل عن متاعبه ولم يُنرِّ له بخلد أن يترأس في القيام بواجبه، بيد أنَّه لم يعالج أمره بالحزم، وكان هذا فوق طاقته، وكان عليه أن يختار بين الاغضاء من ناحية وبين الانزواء في حيلة جافَّة موحشة لا نسمة فيها ولا أمل. واشتدَّت به الحيرة، وفكر مرارًا في العودة إلى الفندق متتعلِّعًا عذرا من الأعذار، ولكنَّه لم يفعل، ثمَّ وجد نفسه يسلم للاقدار تاركًا لها الأمر كلَّه تفضي فيه بقضائها. وتواصلت الأيام دون أن يحدَّ جديد، وكان نادرا ما يرى الفتاة ولكنها لم تدب عن خاطره قطَّ، أمَّا حسان أفندي فلم يخرج عن مألوف ثرثرته وتجاهل الأمر كلَّه. وفي أثناء ذلك لم تنقطع عنه أخبار أسرته بفضل رسائل حسين التي لا تترك كبيرة ولا صغيرة، فكانت يواصل حياته بينهم، ويشاركهم عواطفهم جميعًا. وقد أخبره

حال تولّف أخيك، أمّا إذا أصرّ على تكملة تعليمه ووافقت والدتك على هذا فلا يحقّ لها أن تعارض في زواجك، أجل لا يحقّ لها أن تدلّ واحداً على حساب حرمان الآخر من حقّه الأوّل في الحياة.

ورجد حسين حديث الرجل مؤثراً أكثر منه مقتناً، ولكنّه لم يشأ أن يقطع بالرفض أن تنفصم ما بينه وبين الرجل من أسباب المودة، فقال:

- أعتقد أنّه من الممكن أن أحقّق آمالي دون أن أقضي على آمالي أخي.

وكان حديث الزواج يدور دون هدف معيّن في الظاهر ولكنّ التضام الصامت عن الهدف كان تاماً بينهما، وميقت إليه إشارات فيما ينشأ بينهما من أحاديث كلّ مساء، وكانّ حسين لم يشأ أن يفتح بهذا القدر من التضام فقال في حياء شديد:

- وأظنّ أنسة إحسان لم تفسدّ أولى خطي الشباب...

فضحك الرجل عالياً وقال:

- إحسان صغيرة طيِّبا ولكنّ الزواج لم يخلق للكبّار...

لم يتقدّم الموقف عن هذا الحدّ فيها تلاً ذلك من أيّام حتّى اقترح حسن أفندي أن يتقدّم لبعض أقاربه في حفل عائلي فلم يسعّ حسين إلّا القبول. وخجل أن يظهر أمام الأقارب مظهره الذي لا يسرّ حبيّبا، وركبه فجأة ما يشبه الجنون - هكذا وصفه فيما بعد - ففصل بدلة جليلة على أقساط وابتاع حذاء وطربوشا مدفوعا إلى هذا كلّه بعواطفه وزوته الطارئة حتّى إذا جاء أوّل الشهر أدرك أنّه من المستحيل أن يرسل النقود إلى أمّه، وأرسل بدلا منها خطاب اعتذار كاذب يقول فيه إنّ مرضا ألم به وإنّه أنفق في العلاج ما نادت به ماهيته المحدودة. وقد كتب الرسالة بيد باردة ونفس متفضّة مقتنعا في أعماقه بأنّه هوى من خطأ إلى خطأ، وأنّ تعاقب الأخطاء قد أفقده أثّرا التذكير وصداد الرأي فلم يحسن حتّى اختلاق العذر...

- ٥٣ -

ثمّ كان يوم الخميس، وكان حسين مستلقيا على

وعاوده ذلك الشعور السعيد الحزين بأنّه الضحية الصابرة على الأقدار التي تجهمت لهم، وإنّه الدرع الذي يتلقّى ضربات دون أن يتحطّم، إنّه عزاء يستمدّ منه قوّة وسرورا، ويضفي على حياته معنى خلفيا باهرا.

ثمّ حدث ما لم يقع له في حساب - هكذا قال لنفسه وإن لم يكن صادقا إذ كان يوما يجالس حسن أفندي ويتنازعان الحديث كالعادة، فسأله الرجل:

- ألم تفكر في الزواج؟

فاضطرب الشاب، وشعر بما يشبه الدعر، ثمّ غمغم قائلاً:

- كلّ...

فرفع الرجل حاجبيه مستكبرا وقال:

- وفيمن تفكر إذن؟ ولماذا تعيش؟ هل تظنّ للرجل من غاية، خاصّة إذا اطمأنّ جانبك بالوظيفة، سوى الزواج؟

وتردّد حسين قليلا ثمّ قال:

- عليّ واجبات خفيفة بالتقديم عيّا عداها.

ثمّ صارحه بما يكتنف أسرته من متاعب مستعينا بالمبالغة أحيانا حتّى يقوّ مركزه حياه. وأصغى الرجل إليه ناهتمام حتّى انتهى من قصّته، ولكنّه لم يبذّ عليه الاقتناع، ولم يكن على استعداد للاقتناع بما يحول بينه وبين أمانه، ثمّ هرّ رأسه الأصعب باستهانة وقال:

- أراك تبالي في تقدير خطورة الحال. حسبك الصبر حتّى يحصل أخوك على البكالوريا، ثمّ تكون في حلّ من التحرّج من مسؤوليتك، وعليه هو أن يتولّف بدوره. النخاس باشا نفسه تزوّج فهل ترى نفسك أكبر مسؤوليّة منه؟

فضحك حسين في ارتباك وقال:

- ولكنّ أخي مصمّم على استكمال تعليمه...

فعاد الرجل يقول هانئا:

- اسمع إذا كانت لك أهداف في الحياة كإعادة دستور سنة ١٩٢٣ مثلاً فالأخلق بك أن تؤجّل زواجك، ولكنّ دستور سنة ١٩٢٣ قد عاد والحمد لله فلماذا لا تتزوّج؟ يجب أن تتزوّج في نهاية هذا العام

- لشدّ ما انزعجتنا جميعًا خصوصًا وأنت طمأننا على صحتك في خطاباتك الأسبق...
ثم استلكرت بعد وقفة قصيرة:
- وتوهمنا في الأمر خطورة، والعياذ بالله، لها رأينا من اضطرارك قُطع نفود هذا الشهر عتًا...
وشعر بمثل شُكة الابرة في نفسه، وقال بعجلة مبتسبًا ابتسامة باهتة:
- اضطررت إلى استدعاء طبيب وشراء أدوية فأنفقت أكثر من جنيهن، وأنت تعلمين بأنّه ليس لديّ احتياطيّ للطوارئ!
- لا عليك من هذا إنّني مسرورة لأنّي وجدتكَ في صحّة جيّدة، ويحسن بك أن تبعث برسالة في الحال إلى أخيك لتطمئنه هو ونفيسة اللذين تركتهما في أشدّ حالات القلق...
ثم ألقت نظرة متفحّصة على حجرته، فعلق بعصرها بالبدلة الجديدة على المشجب في خوف وقلق وتبنيًا عقله لاختلاق كذبة جديدة، ولكنّها قالت:
- حجرتك نظيفة وأثاثها جيّد، هلّم أرنى شُقتك...
فضحك حسين قائلاً:
- ليست شُقتي إلّا هذه الحجرة، وتوجد حجرة أخرى مغلقة لعدم الحاجة إليها.
- كأنك تستاجر حجرة بإيجار شُقة!... ألم يكن الفندق أفضل؟...
- على العكس فإنّ إيجارها ينقص عن الفندق خمسين قرشًا.
- أخبرتنا بأنك لم تحتاج إلى خادم أملا يتعبك تنظيفها؟
- كلّاه، هذا عليّ هيّن كما تعلمين!
فابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت:
- يبدو لي أنك مرتاح ومسرور يا بنيّ، ولذا فإنا سعيّلة...
وخيل إليه أنّ الأزمة قد مرّت بسلام فقال بارتياح صادق:
- أنا السعيد يا أمّاه، وسأستأجر بك شهرًا كاملًا.

فراشه يقرأ جريدة الصباح التي يحتفظ بها عادة لوقت العصر، فسمع دقًا على الباب فطّنه خادم حسان أفندي ومضى إلى الباب وفتحته وإذا به يرى أمّه أمامه. أجل أمّه دون غيرها، فففر فاه دهشة ثم أخذ يدها بين يديه هاتفًا:
- أمّاه... في طنطا؟! لا أكاد أصدّق عيني!
وشدّ على يدها، ثم قبل خديها أو تبادلًا بالأحرى قبلتين، وفي طريقها إلى حجرته سالها بدهشة:
- لماذا لم يُخبرني حسنين بحضورك كي أنظرك في المحلّة؟ فجلست المرأة على الكرسيّ الذي قلّعه لها وهي تقول مبتسمة:
- لم أجد صعوبة تذكر في الاعداء إلى مسكنك، إنّ الاعداء إلى مسكن في شبرا أشدّ من هذا بكثير.
وقد اقترح حسنين أن تنتظر حتّى يُخبرك عن حضوري برسالة خاصّة ولكنّي لم أجد داعيًا لإزعاجك وأنت مريض كما لم أحتمل البقاء في القاهرة وأنا أعلم أنّك هنا وحيد ومريض...
مريض! أبغضته هذه الكلمة من نشوة اللقاء فحضر بالخوف يقبض قلبه، ولكنّه قاوم الخوف بقوة الخوف نفسه فضحك وقال:
- يؤسفني أنّي أزعجتك يا أمّاه، ولكنّي ما كنت أطمح في هذه النتيجة السارّة وهي حضورك بنفسك!...
وجعلت تنفّسه بعناية بوجه يتمّ عن إشفاق ورحمة ثمّ قالت:
- ماذا بك يا بنيّ؟ كيف حالك؟... حدثني عن مرضك؟!
وداخله ارتباك بلذ قصاره كي لا تلوح أماراته في وجهه. وكان وثاقًا من أنّ مظهره لا يخيّر مرض، بل لم يكن يخبئ عليه أنّ صحته تقدّمت تقدّمًا ملموسًا منذ تولّفه لتحسّن حالته الغذائيّة بصفة عامّة، قال ببساطة:
- لا شيء ذي بال. أصبت بنزلة معويّة حادة ولكنّها لم تُلَازمني أكثر من يوم ويضع يوم...
فقال وعينها لا تتحوّلان عنه:

فما غالكت أن ضحككت وقالت:

- بل هله الليلة فحصب. ليس لي مكان أنام فيه، وساكفك أكثر مما تحتمل ما دمت نحيء بطعامك من السوق.

وقبل أن يتكلم دق الباب فقام إليه، وسمعت الأم صوتاً يقول بلهجة ريفية «سيدي حسن يسأل عيا أخوك اليوم» ثم سمعت حسين يعتذر بحضور والدته من القاهرة، وأغلق الباب وعاد الشاب إلى مجلسه من الفراش فوجد أمه تنظر إليه بعينين متسائلتين فقال:

- خادم جاري حسن أفندي باشكاتب المدرسة... وكانت تعلم من رسائله أنه الرجل الذي أقمته بالانتقال إلى الشقة وعاونته على ذلك بضباتته لئلا يلهو الجليد فقالت:

- يبدو من قول الخادم أنك غمضي عنده فراخك.

وتوهم لحظة أنها مظلومة على سره كله فقال دون أن ينظر إليها وهو يشعر بلسعة الخوف تجبري في لعبه وتعرض زوره:

- كثيراً ما أفضل. إنه رجل طيب وهو إلى هذا رئيسي وقد وجدت في صحبته ما أغنانني عن المقاهي ومفاصلها... لا بد للإنسان من تسلية يزيجي بها فراغه...

ثم قامت الأم إلى الحمام فسلت وجهها، وخلعت معطفها فتناولته حسين ونفض عنه الغبار بفرشاته وهو يدعو الله أن تمر الزيارة بسلام. أجل قد تولاه القلق وخاف على سره الانفضاح واضطرب لوجودها في موطن هذا السر فلمن الظروف السخيفة التي أجبرته على منع النقود عنها. وعادت المرأة إلى مجلسها وأخلت تسائله عن أحواله وحياته، ولكن لم يمتد حبل الحديث طويلاً لأن الباب دق مرة أخرى فذهب حسين ليفتحه فيها يشبه الحق وكان القادم هو الخادم نفسه وقد قال بصوت بلغ سمعها:

- الست الكبيرة ترغب في أن تحيي الست والدتك. ونهضت الأم بسرعة وخرجت إلى الردهة وقالت للخادم:

- لا يوجد مكان هنا لاستقبالها، سأزورها

بنفسى...

وذهب الخادم فعاداً إلى الحجرة وحسين يقول:

- لا داعي لهذه الزيارة، ولا يجوز أن نفرق دقيقة واحدة في المدة القصيرة التي تمكث فيها هنا.

فتحدثت قائلة:

- مجاملات لا بد منها، ولا ينبغي عليك أنه يهمني أن أجمال أسرة رئيسك...

وعادوا حديثها ردحاً من الزمن حتى خفت حدة النور وأقبل الأصيل فهضت الأم لترتدي معطفها فائلة «أن لي أن أزور حرم جارك» وراقبها الفتى بعينين كثيتين حتى غادرت الشقة، ثم تنهد من الأعيان وتساءل «ترى هل يساورها شك؟». كيف تنتهي هذه الرحلة ١٩.

- ٥٤ -

ولبت وحده مغثاً قلماً، وتزايد قلقه بمرور الوقت، ثم لم يعد يشك في انفضاح سره، ثم تساءل مدافماً عن نفسه فيم هذا الوهم كله؟ عسى أن يمر كل شيء في سلام، لا يمكن أن يلحقوا إلى شيء، هذا مؤكد، ولكن هل تنيب عنها الحقيقة إذا رأت إحساناً؟ وتنبه إلى زحف الظلام فقام وأشعل المصباح الغازي، ثم سمع الباب يلق دق قلبه معه في عنف ومضى إليه ففتحه فدخلت أمه وهي تقول:

- لا أظنني غبت كثيراً.

وعادا إلى الحجرة فوقه هو مستنداً إلى حافة النافذة وراحت هي تتلع معطفها وحذاءها في صمت، وجعل يقول لنفسه «وراء هذا الوجه شيء، بل أشياء، إني أعرف هذا. أراهن على أنها لم تتجشم السفر لتطمئن على صحتي. ليست أمي بالأم الضعيفة، إنها حنونة حقاً ولكنها قوية ما في هذا من شك. ما أظن هذا الصمت، متى ينقطع؟» وسأله متظاهراً بعدم الاكتراث:

- كيف وجدتهم؟

فارتقت فراشه وتربعت عليه ثم قالت بانتضاب:

- لا أدري لماذا لم يروح قلبي إليهم!

إنه يدري لماذا، برح الخفاء، ووقع المحلور.

وقال:

- الحق أن حسان أُندي رجل طيب...

- ريمًا. لم أقابله بطبيعة الحال...

لن يسألها عما لم ترتع إليه منهم، فلينجاهل المسألة، ولن يطول هذا طويلاً على آية حال. ووجدتها تنظر إلى يديها اللتين شبكتها على حجرها. إنها تفكر فيما ينبغي قوله. لشدة ما أخطأ ما كان ينبغي أن يستسلم لإغراء الظروف التي انتهت بمنع إرسال نفوده لهذا الشهر. كيف ضلّ عائل الأسرة؟! وداى أمّه ترنو إليه بطرف واجم ثم تقول:

- أمّا وقد اطمانت عليك فلا أظن أن يجلبني أن أصارك بأن منع النفود عنا قد أخافني. اعدني يا بني إذا اعترفت لك بأنّه ساوري بعض الظنّ بأن يكون المرض مجرد اعتذارا

فصاح وهو لا يدرى:

- أمّاه!

- معذرة يا بني إنّ بعض الظنّ لثم، ولكنّي كنت أظنّ طويلاً فيما يمكن أن يلقى شابٌ وحيد في بلد غريب. أجل إنّ أومن بعقلك ولكنّ الشيطان شاطر فخلت أن يكون أصلك، ولا تسل عن حزني وأنت تعلم بأنّي أعتمد بعد الله عليك. أخوك حسن لم يعد مثلاً، ونفيسة فتاة نجسة الحظ، وحسين تلميذ وسيظلّ تلميذاً طويلاً، وأنت أدري به! وإنّا لنشقى ونجوع في مغالبة حقلنا، وقد عسرنا نصيبك من المداش وسنخسر عما قريب نصيب أخيك منه.

فقال حسين بانفعال:

- لست في حاجة إلى من يذكّرني بهذا يا أمّاه، لقد أخطأت... اضطررت إلى منع النفود اضطراراً لا حيلة لي فيه. إنّ جدّ حزين يا أمّاه.

فقال برفقة ركايتها تحدّث نفسها:

- أنا الحزينة...

ثمّ استطردت بعد لحظة صمت:

- أنا الحزينة لأنّي أبكو كثيراً وكأني أحول بين أبنائي

ورين سعادتهم!

فقال بقلق:

- لشدة ما تظلمين نفسك، أنت أمّ رحيمة كاحسن

ما تكون الأمّ رحة...

- يسرني أنّك تفهمي يا بني.

وتنهت وهي تنظر في عينيه ثمّ قالت:

- لا يقلقي شيء في حياتي كما يقلقي مستقبل اخنك نفيسة. أودّ لو اغمض عينيّ ثمّ انتحيتها فأجدها في بيت زوجها. ولكن كيف؟! لسنا نملك لتجهيزها ملبساً، وأخوف ما أخاف أن أمتوت قبل أن أطمئنّ عليها. أنتم رجال أمّا هي فمن الولايا اللالي لا نصير لمن.

فصاح حسين مستكثراً:

- لن تكون بلا نصير ونحن على قيد الحياة...

فتنهت مرّة أخرى قائلة:

- مدّ الله في أعماركم، ولكنّ الفتاة لا تضمن

سعادتها في بيت أخيها المتزوّج!

ولاحت في عينيه نظرة ذات معنى. إنّهم ما يقال. إذا كانت الفتاة لا تضمن سعادتها في بيت أخيها المتزوّج، وما دام حسين في حكم المتزوّجين، فلا يجوز له أن يتزوّج! منطوق معقول! ورحيم أيضاً! بيد أنّه ينطوي على حكم بالإعدام. ما عسى أن يقول؟ لم يعد يخاف أن تهال عليه ضرباً كما كانت تفعل أحياناً، ولكنّه لن يتخذ من هذا الأمان مسوّغاً لإغضاها، وعلى العكس سيّخذ منه دائماً بريئاً للمبالغة في إكراهها، وقال يهدو:

- اطمئني يا أمّاه. أرجو ألاّ تنجد نفيسة نفسها يوماً

في هذا المازي!

فهزّت رأسها هرّة كأنّها تقول له لندع المداواة جانباً ولنتكاشف ثمّ قالت:

- الحقّ لقد ألتحت على بعض الخواطر فلم أجد فرجة إلّا في أن أسافر إليك على مشقة السفر وكثرة النفقات.

فابتسم بلا وهي تقرّيباً:

- إذن لم تحضري كي تطمئني على صحّي!

وندم في اللحظة التالية على إملات هذا القول منه،

ولكنّها ابتسمت إليه ابتسامة حزينة وقالت:

الإيجار كما تعلمين...

فكان جوابها أن دعت له بالتوفيق والسداد، ثم جاء القطار فودّعته وصعدت إلى عربة من عربات الدرجة الثالثة وانحشرت بين جمع حافل من القرويين والقرويين، وغشيت كابة ثقيلة، لأنه كان يقف منها موقف التوديع لأول مرة في حياته، فغمز القطار الذاهب قلبه غمزة قويّة، ولأنه عزّ عليه أن يراها منزوية في العربة الحفيرة وسط البؤس والبائسين، وعاد إلى البيت كثير الهمّ والفكر. وأنا المولود. إني أدفع ثمن حماقتي. أيّ شيطان يخصني بعنايته؟ هذه هي المرة الثانية، الحبية تلاحقني دائماً، لا مفرّ. وجاءه خادم حسّان أفندي يدعو والدته إلى الغداء فأخبره بأنّها سافرت إلى القاهرة. وجاءه مرة أخرى في المساء يدعوّه إلى السهرة المعتادة فلم يسمعه إلا الذهاب.

وجلسا حول خوان الرّد في الحجر بعد أن أحكم الشتاء إغلاق الشرفة. وسأله حسّان أفندي:

كيف عادت والدتك بهذه السرعة؟

فأجاب حسين مبتسماً:

لا يمكن أن يستغني عنها بيتنا أكثر من يوم...

نحني الخميس ونذهب الجمعة؟! .. رحلة لا

تستحقّ مشقة القطار!

ولكنّها حقّقت لها ما تريد فاطمأنت عليّ وتبرّكت

بزيارة السيّد...

وأشار الرجل إلى داخل الشقة قائلاً:

قالوا لي إنّها ستّ طيبة جدّاً.

بعض ما عندكم...

فتسأل الرجل وهو يرمش بعينه العمشاون:

كنا نودّ لو زارتنا قبل الرجل!

كانت متعجّلة، وقد حاولت أن أوخّر سفرها إلى

العصر ولكنّها اعتلّرت بحاجة بيتنا إليها...

فقال الرجل بأسف:

وأعدنا لها غداء طيّباً فاخترت لها بنفسها ثلاث

دجاجات مسنّنة...

فابتسم حسين في ارتباك وتحم:

بالحنا والشفا لكم...

أصغ إليّ يا حسين، أترغب في أن تتزوّج؟

فتظاهر بالانزعاج ليخفي اضطرابه وقال:

إني أعجب لما يدعوك إلى هذا الظنّ!

ليس أحبّ إليّ من أن أراكم أزواجاً سعداء،

ولكن هل ترغب في أن تعجّل بالزواج حتّى قبل أن

تنهض أسرتك من كبوتها؟

لم أنكر في هذا مطلقاً...

ألا يضايقتك تطلّقي هذا؟

مطلقاً!

وإذا اقترحت عليك أن تؤجّل التفكير في الزواج،

ألا تجد في اقتراعي ظمّاً؟

هو عين العدل والرحمة...

فخفضت عينها قائلة في حزن:

ليس شقائي الحقّ فيما نزل بنا ولكن فيما أراه

واجباً عمّا يبدو لعين المتعجّل قسوة وأنيّة...

لست هذا المتعجّل على أيّة حال!

فتردّت لحظة ثم قالت:

إنّ ما أراه من حسن تقبّل لكلامي يشجّعني على

أن أنصحبك بأن تترك هذه الشقة وتعود إلى حجرتك

بالفندق.

مرح الحفاه! وأصيب بدهول، ثم غمغم متسائلاً:

الفندق؟!

فقالت بحزم:

أنت لا تدري من أمر الناس شيئاً. ولعلّ جيرانك

أناس طيّبون ولكنهم لا يحفلون إلا بمصلحتهم. وإذا

حافظت على جرتهم كرهتنا وأنت لا تدري؟

- ٥٥ -

ولم يعودوا إلى هذا الحديث مرة أخرى فلم تكن

الثرثرة من طبيعها شأن الكثيرات من النساء. وقد قضيا

صباح الجمعة في سعادة شاملة، حيناً في البيت، ثم

انطلقا في المدينة لزيارة السيّد البديوي، ولكنّها صمّمت

على الذهاب إلى المحطة مع الضحى فلم يسمعه إلا

الإذعان لها مرعّباً. وذهبا ممّا وقطع لها تذكرة، وفي

أثناء انتظار القطار قال لها:

سأبقى في البيت حتّى نهاية الشهر لأنّي دفعت

تدرك متاعب أسرة كأميرتنا...
ونذت عن الرجل ابتسامة خيلاء دارها بعبوسة
مصطعنة وتحم:

- عالج أمورك كما تشاء ولكن لا تنس نفسك. قال
تعالى: «ولا تنس نصيبك من الدنيا». وكل آت
قريب، ما هي إلا أشهر معدودات ثم يحصل أمورك
على البكالوريا فيتنير الموقف. أرم الزهر لنرى من
يكون البادئ باللعب...
- ٥٦ -

وبعد مضي أسبوعين جاءته رسالة من حسين ينبئه
فيها بأنه أدى رسوم الامتحان وأنه يذاكر ليل غبار
لضمان النجاح. وكان عظيم الثقة بذلك أخيه ومقدرة
فلم يداخله شك في النتيجة المأمولة. وزعت به نفس
إلى الأحلام مع أنه لم يكن من الذين يستسلمون
لسحرها عادة، إلى أنه كان يؤمن بكذب هذه الأحلام
بالذات. ورغم هذا كله تخيل أثناء قد فاز بشهادته.
واقنع بأنه ينبغي أن يتوقف ليحمل العبء عنه، ثم
تخيل نفسه يبدأ حياة سعيدة بضمير مطمئن! إنه لا
يطمح إلى أكثر من حياة مطمئنة هانئة في ظل
الزوجية. وقد علمته هذه الحياة التي حملها منفرداً في
شقة الفقيرة معنى الأسرة فحن إلى حضنها الدافئ حين
المقروء تحت مطر منهمر إلى المأوى. لم يعد يطيق
الاختلاف إلى المطاعم العامة لتناول غذائه، وبات
وكأنه يخاف الانفراد بنفسه في حجرته ولو إلى حين
قصير، وأتعبه لحد السقم ما تتطلبه حياة الأعزب من
رعاية متواصلة لشقته وأثاثه وملابسه، وكل هذا يهون
إلى جانب ما يعاني من جوع قلبه وأشواقه. ولم يكن
يحب الفتاة بالذات بقدر ما أحب فيها المرأة والحياة
الزوجية، ولكنها كانت المثال المحسوس لأحلامه فهفا
إليها قلبه وحينه. وزاد من تعلقه بها أنه لم يكن يراها
إلا في القليل التادر عما تجود به المصادفات السعيدة،
وحسب حسين أنهم يتعمدون إغفائها، ولكن تبين له
أن حسان أفندي رجل محافظ حقاً وأنه قد يتسامح
ولكن بالقدر الذي لا يتغشح حياء ولا يجاوز حداً، ولو
أن حسين رضي بالوظيفة لمضي من توه إلى فئاته

وضحك الرجل، ثم فتح علبة الترد ولكنه بدلاً من
أن يشرع في إعداد القطع للعب سألها باهتمام:

- ألم تفتأها بما «اتفقنا» عليه؟

فشعر حسين بحرج ولكنه قال:

- كلا...

- له؟

- إنها تعذني رجل بيتها فكيف أفاتها بهذا؟

فتناول الرجل زهر الترد في قبضته وهزه ورماله، ثم
قال:

- أنت رجل خوّاف. كانت أمك خليقة بأن تفرح
لهذا النبا.

- إنه خليق بالفرح إذا جاء في حينه...

فضحك الرجل ضحكة عالية ثم قال ببطء:

- لي فلسفتي الخاصة في الحياة، التي بنفسك في
عبائها ولا تخش شيئاً. هل سمعت عن شخص واحد
بمصر مات جوعاً؟

فقال حسين مبتسماً:

- أصل شعبنا اعتاد الجوع!

فضحك حسان أفندي واستطرد قائلاً:

- كل الناس يعيشون. أغمض عينيك ثم افتحها
تجد الصغير كبيراً والتلميذ موكلاً والأعزب متزوجاً ولا
تجد خاسراً إلا من كان خوّافاً مثلك. فلهذه هي
الحياة...

خوّاف؟ وضايقته هذه الصفة فثار عليها ثورة
باطنية. ليس الخوف ولكنه أدرك الموقف على حقيقته.
أكان يكون شجاعاً حقاً لو تخيل عن المرأة وتركها تعود
مهيضة الجناح خالبة الأمل؟ ليس الخوف. الرجل
الأحق يسمي فهمه. إنه مصاب في أماله ولا يجد من
يرحمه ولا من يفهمه. وعندما بلغ هذه النقطة من
أفكاره وجد راحة غريبة مفاجئة، أجل وجد سروراً
في أن يكون على حق وإن أساء الناس فهمه، بل أكثر
من هذا تركّز السرور في أن يسمي الناس فهمه وهو
على حق، سرور غامض كذلك السرور الذي يخامره
وهو يستسلم لعنت القضاء. وقال مبتسماً:

- أنت يا حسان أفندي من أسرة كبيرة فلا يمكن أن

يتهرَّب الفأر وراء رجل كرمي لن تغني عنه شيئاً:
- يوسعي أن أعلن الخطوبة فوراً على أن أنتظر بعد ذلك...

فصالح حسن أفندي بفتور:

- كم علماً؟

آه إنَّ الرجل يظنُّه لا يجب حساباً إلَّا لأخيه، ولا يكاد يدري شيئاً عن نفيسة ومشكلتها المستعصية، لئنه كان يومعه حقاً أن يصارحه بالحقيقة كلها بغير خفاء... وأجابه قائلاً في إشفاق شديد:

- أربعة أعوام... ١٤

ونظر إليه ليرى وقع تصريحه من نفسه ثم بادر قائلاً:

- لن يضيرنا الانتظار شيئاً، ألا نثق في؟
ومع الرجل بوزء وهو يهزُّ رأسه ثم قال بهدوء غفيف:

- أربعة أعوام! يا ترى من يعيش... أتريدني على أن أقول لأمها إني رفضت ابن عمها الذي يرغب في الزواج منها الآن كي تنتظر أربعة أعوام؟... يبدو لي يا حسين أفندي أنك لم تكن جاداً فيما أظهرت من رغبة!

وانتفض حسين في ألم بالغ وهتف:

- ساعدك الله يا حسن أفندي! إني رجل خلص ولا زلت عند رغبتني الصادقة، ولا أدري سبباً وجهياً يحول بيني وبينها.

فقال الرجل بفتور:

- لست أباً ولا أمّاً فلا عجب ألا ترى وجاعة السبب، والآن فلندع النقاش جانباً وأجيب باختصار ألا تستطيع الإقدام على الزواج في هذا العام؟

وساد الصمت، وطال دون أن ينس حسين بكلمة. لم يجد شيئاً يقوله، وتفكَّر طويلاً في حيرة، ثم أطبق شفثيه في رأس وقهر. وابتم حسن أفندي ابتسامة باهتة، وأطبق شفثيه بدوره وقد نمَّ وجهه البيضاوي الصغير على الجمود والكدر. وطال الصمت والجمود وفاحت رائحة الخضم كالغبار في يوم خماسي فلم تعد تحتملها الأعصاب. ومع ذلك لم يحتمل

وصمها إلى نفسه وحبي الحياة الحقَّة. هذا حلمه، ولكنَّه مجرد حلم، ولا يدري متى يتحقَّق. وسيواصل حسنين تعليمه وما ينبغي له أن يحقِّق لهذا، أجل فليدع الأمور تجري كما يشاء الله ولينتظر. ولكن نيَّز له ذات مساء أنه لن ينعم بالانتظار في هدوء وطمأنينة، إذ قال له حسن أفندي عقب فراغهما من احتساء الشاي مباشرة:

- جدَّ أمر هام يستحقُّ أن أشاورك فيه.

رفع إليه حسين عينيه متسائلاً فقال الرجل باهتمام:
- الأمر أنَّ ابن عمِّ إحسان - وهو تاجر ومزارع بالبحيرة - يرغب في طلب يدها، وقد رأيت أن أسألك عن رأيك قبل البتِّ في الموضوع برأيي!

وكانت مفاجأة سيِّئة وجم لها الشاب في قهر وحريرة كأنه لا يصدِّق. والحقُّ أنَّ بعض الشكِّ ساوره ولكنَّه وجد نفسه في مأزق لا يخرجُه منه تشكُّكه. وشعر بحقنَّ إنسان وضعته ظروف قاسية بين لا ونعم وهو عاجز عن الكلام، فما عسى أن يقول؟ إذا قال نعم خان أسرته، وإذا قال لا قطع ما بينه وبين حسن أفندي. وتراعى لعينه على اضطرابه وحيرته وجه الفتاة التي تعلقت بها آماله فشر بقبضة اليأس تشدُّ على عقه، ورمى الرجل الذي يملأه بنظرة باردة تخفي وراءها حقناً مترايئداً. وكان الآخر يتفرَّس في وجهه صابراً فلما طال الصمت غمغم متسائلاً:

- ما قولك يا حسين أفندي؟

ولم يجد بداً من الكلام فقال بلهجة تتَمَّ عن الرضاء:

- لقد فضلت لك ظروفنا بما لا يحتاج إلى مزيد.

فقال الرجل فيما يشبه الضجر:

- سيفرخ أخوك من دراسته في أوائل الصيف القادم.

- ولكنَّه فيما أرى مصمَّم على مواصلة تعليمه...

فقال الرجل بضيق:

- فكرة سخيفة لا يصحُّ أن تدعن لها وتحتمل

مسئوليتها.

وأراد أن يتفادى من الخطر المائل فقال متهمزاً كما

أن يستسلم للحزن، أجل إنه يعلم أنه سيجزن طويلاً ما دام الشعور لا ينضج للعقل، ولكنه يؤمن أيضاً بأن لكل شيء نهاية، حتى هذا الحزن الخائن لا بد أن يدركه العزاء. وانتظر هذا العزاء كما ينتظر فريسة الكابوس صبحوة النجاة. إنه أتى لا ريب فيه كما علمته المحن، وهناك لن يجد ما ينلم عليه وسيجد ما يفخر به ويطمئن ضميره. إن شعوره بالواجب يفوق مشاعره الأخرى، ولشد ما أخطأ الرجل حين اتهمه بالخوف، وحسبه أن أمه تفهمه وأنها تعدله الأمل والعزاء، واقتَرع نوره عن ابتسامة لهذا الأمل المنتظر وهو يعاني مرارة الحزن الراهن...

- ٥٧ -

وحوالى منتصف الصيف استقبلت الأسرة - بعبقة نصرالله - يوماً سعيداً حين نجح حسين في امتحان البكالوريا. وجلسوا ثلاثتهم جلسة هناء وصفاء، فغزت ساعة لا يشوبها كدر، ولتت النبضة قلوب نهكها التعب. وجاء فريد أفندي محمد وأمرته للتهنئة فشمر حسين حيال خطيبته بشعور سعيد بخيلاء ساذجة كأن البكالوريا قد أضفت عليه رجولة جديدة خليقة باحترامها وعطفها. كان كعادته مرشحاً لطيفاً فتحلّت طويلاً متشّياً بالفوز والضحكات تنطلق من فيه تباعاً، وكان منظر هبة مما يستثير سعادته وألمه ممّا كان يسعده أن تلتقي عينهما خفية فيقرأ في نظراتها الصافية المحبة العميقة المهذّبة، ولكنه لم يكن يحظى بالصفاء تحت نظرتها إلا قليلاً ثم يتدلج في قلبه لسان هب، ثم يذكر حرماته الطويل فيثور حقه، ويرمق العامين المنطوين بحسرة وأسف. واسترق إليها النظر خلال الحديث فانصهر بصره على وجهها البدرى وجسمها البض، وتغلبها - كما كان يطيب له أن يتغلبها كثيراً - متجذّدة إلا من شعورها المتسدد ببلغ ريقه درجة الغليان. وجعل يتساءل صامتاً ألا يمكن أن تغرّر من سياستها بعد حصوله على البكالوريا؟ أليس من العدل أن تمبه قبلة على سبيل التهنة؟... وظلّ وعيه منتقلاً بينها وبين أخيلته وبين الحاضرين، وكان السرور شاملاً بيد أنه لم يخل من عذاب لا يكاد يرحمه

حسين أن تحيي القطيعة من ناحيته فتساءل بصوت حزين كأنه كان يتبأ الجواب سلفاً:

- ألا يمكن الانتظار؟

فقال الرجل بنرفزة:

- كلا!

ومكث حسين قليلاً في خجل وألم ثم نهض مستأذناً في الانصراف فاذن له. وغادر الشقة لا يكاد يرى ما أمامه من شدة الحزن واليأس، غادرها وهو يعلم أنه لن يعود إليها مرة أخرى. وذهب إلى حجرته فأوقد المصباح الغازي وارمى على الفراش. وألقى على ما حوله نظرة مسخط وعداوة، عداوة لكل شيء، كان في تلك اللحظة عدواً لنفسه وللبرش جميعاً وأضعيف أنا أم قوي؟ وما صنعت بنفسي أهو إقدام أم فرار؟ كل شيء بغيض مقبى، هذه الحجرة التي أودعها وحجرة الفندق التي تنتظرنى بالوحشة نفسها وحسان أفندي وطنطا وحسين وأمي وأنا. ربما تصوّر الرجل أنه يستطيع أن يضايقي في صلي بالمدرسة!... ثبأ له، سيجدني أصلب مما يتصوّر. ولكن ما قيمة هذا كله! الموت أرحم من الأمل. لست أعجب لهذا فالوت من صنع الله والأمل وليد حماقتنا. الأولى غيبة والثانية غيبة فهل قضي علي أن أمي بالحياة مرة بعد أخرى؟ لماذا لا يتولّف بالبكالوريا؟ لماذا لا يحبّ نفسه ما أحبّ في؟ وتناهى به الضيق فلم يعد يحتمل وحدته فقام إلى المشجب وارتدى بدلته وغادر البيت، وجعل يخط على وجهه من شارع إلى شارع في ليل بارد حتى أعياء المشي فمضى إلى مقهى. وأنعشه المشي والبرد من حيث لا يدري فاتفق بمجلسه وهو أهدأ نفساً. وراح يتسلّى بمنظر الجلوس ويستمع إلى ما يتطايّر من سرهم فلم يزل من كلمة أو لفظة تدعو إلى الابتسام. وخبت فورة الغضب الجنوني وانحسرت موجتها الصارخة عن حزن عميق كأنه هادئ وصامت. ولا يخلو في الوقت نفسه من ندم. أكان يؤثر حقاً أن يوافق الرجل على واه؟ هل يسره أن يترك أسرته تحت رحمة الأقدار؟ يا له من أحمق! من حقّه أن يحزن، ولكن ليس من حقّه أن يغضب هذا الغضب الجنوني. وليس من الحكمة

في محضرها.

هذا الأمل. فقالت:

- حدثني فريد أفندي عمّدت عن معهد التربية الابتدائيّ فوجدت فيه ميزات تستحقّ التقدير، فمئة دراسته ثلاثة سنوات بالمجان تضمن بعدها وظيفة مدرّس.

فقال الشاب بامتعاض:

- إني أكره أن أعمل مدرّسًا، وأكره أكثر أن التحق بمعهد بالمجان.

- ولكنك لا ترى مانعًا من دخول الحرية بالمجان.

- ثمّة فرق كبير يقوم بين معهد يقوم على المجانيّة ومعهد قد يعطيني من مصروفاته كلّها أو نصفها. سيقول الناس عن الحال الأولى إني تعلّمت بالمجان أمّا في الأخرى فهيهات أن يعلم بها أحد غير كاتب المدرسة!

فهزّت الأمّ رأسها غير مقتنعة وتمتعت:

- المسألة أخطر من هذا!

- لا يوجد ما هو أخطر من هذا، أنا أكره الفقر ومسيرته، ولا أحبّ أن أخفض رأسي بين أناس مرفوعي الروس!

ولم يكن هذا فحسب دافعه الحقيقيّ إلى هذا الاختيار، والواقع أنّه طمع إلى المدرسة الحريةّة مدفوعًا بنفسه الظمأى إلى السيادة والقوّة والمظهر الخلاب، بيد أنّ أمّه ظلّت على قلقها وعدم اقتناعها فساءلت:

- وإذا لم يتيسّر إعفاؤك من المصروفات؟

ففكر متجهّيًا ثمّ قال:

- سأحتاج بإحدى الأمر إلى الدفعة الأولى من المصروفات وفي مرجوّي أن أناهلها من أخي حسن! لا أظنّه يتخلّ عني كما لم يتخلّ عن حسين، أمّا الباقي فليس بمعتلّز توفيره إذا نزلت لي عن نقود حسين، إلى ما يمكن أن تجود به نفيسة (ناظرًا إلى أخته) ولا أظنّها تبخل عليّ خاصّة وأنّ عملها يميّتها بكسب لا بأس به...

ونقلّ بصره بين أمّه وأخته ليسرّ وقع كلامه ولكنّه لم يحظ بما يشجّعهُ فاستطرد يقول برقة:

- عاين شتّة يمرّان كما مرّ غيرهما ويعدهما الراحة

ثمّ خلت الأسرة إلى نفسها مرّة أخرى فداخِلها إحساس جديد - غير السرور الصافي - بالمسؤوليّة، لأنهم تعلّموا أنّ الظفر بالبكالوريا سعادة يعقبها تفكير ومتاعب. وكان إتمام تعليمه العالي أمرًا مفروغًا منه فيها بينهم ولكنّ الرأي لم يستقرّ على اختيار بعينه. وقد قالت نفيسة:

- عليك الآن أن تختار المهنة التي تريدها.

فقال حسنين الذي كان قد قتل الأمر بحثًا:

- التعليم العالي مرحلة طويلة شاقّة، ومستقبله مجهول.

فنظرت إليه المرأتان في دهشة فاستطرد قائلاً:

- لقد تكثرت في الأمر طويلاً، وانتهيت من تفكيري إلى أنّه يجب أن أختار مدرسة من مدرستين البوليس أو الحرية!

وهتفت نفيسة بسرور:

- ما أجل هذا!

ولم يغفل بسروها لأنّه كان يفكر في الصعاب التي تعترض آماله فقال:

- دراسة عامين فحسب ثمّ أصبح ضابطًا؛ والنجاح مضمون تقريبًا لأنّها دراسة باللعب أشبه، والوظيفة في النهاية لا شكّ فيها. هذه ميزات لا يستهان بها! فهتفت نفيسة بالحسّاس نفسه:

- دراسة عامين ثمّ نصير ضابطًا!.. ما أشبه هذا بالأحلام!

وتساءلت الأمّ بإشفاق:

- والمصروفات!

ونظر إليها طويلًا كالخائر ثمّ قال:

- البوليس غالية جدًا، ولكنّ الحريةّ معقولة... مصروفاتها سبعة وثلاثون جنيهًا.

فتعلّمت إليه المرأتان بوجوم ودهشة فبادرهما قائلاً:

- ليس الأمل في المجانيّة معدومًا أو على الأقلّ في نصف المصروفات، ولنا في أحمد بك يسري شفيع عظيم القدر في هذه الحال..

ولم يذهب الوجوم من نظرة الأمّ ويدت قلقة حيال

والهناه!

وشابر عل ترديد بصره بينها في رجاء، ثم قال بإغراء:

- أم ضابط وأخت ضابطا .. تصوّرا هذا! تصوّرا مفادرتنا هذه العطفة إلى شقة محترمة بالشارع العام!

ورقت نفيسة لنظرته المتوسّلة فاجتاحها موجة إثارة وكرم فقالت:

- لا تحمل ههنا من ناحيتي، سأهبك أقصى ما يمكنني أن أهيا!

فتجلّست في عيني نظرة امتنان وغمغم:

- شكراً لك يا نفيسة، ولن تكون أمي دونك كرمًا، وسيمضي كل شيء على الوجه الذي نحبّ جميعاً ..

ودعت له الأم بالتوفيق، لم تكن ترجو من ورائه خيراً كثيراً. وكان أقصى ما تطمح إليه أن يؤثّر زواجه - بعد توطئه - عامين حتّى ترثم ما تهدّم من أسرتهما، ولكن لم يسمعها إلّا أن تنزل له عن نقود الانقاذ التي يرسلها حسين وأن تدعو له بالتوفيق من أعيان قلبها. وتأثرت نفيسة بما غمرها من إثارة وكرم ارتقيا بها إلى منزلة عالية من الصفاء والسرور والحماس، ونعمت بهذه السعادة لحظات غالية. ولكنّها لم تدم طويلاً، اصطدم تيارها الدافق بعقبة كثود من الذكريات السود فتوقّف عن الجريان الساجع وتجمّع وتطّبع، وفتر الحواس فخفّضت عينيها في خود، ليس الفرح الصافي من حقّها، وما عسى أن يصنع السرور بنفس ملوّنة منطوية على البشاعة والشقاء؟

- ٥٨ -

قال حسين لنفسه وهو يغادر ميدان الحازندار إلى شارع كلوت بك «يقول حسن إنّنا لا نسعى إليه إلّا إذا طمعنا في نفوذه!» وتأمّل هذا الخطر، ولكنّه خفّف من وقعه قائلاً إنّّه هو - حسن - الذي لم يشأ أن يتردّد أحد منهم على بيته. وجعل يتسامل في حبّ استطلاع عيّاً سيجد في هذا السكن المحرّم! ثمة شيء «غير طبيعي»، ولكنّه لا يستغرب من حسن!.

ثمّ ذكر النقود التي يريدها فهاله الأمر، ماذا لو عجز حسن عن أن يمدّ له يد المعونة؟ وشعر بإصبع باردة تقبض على قلبه وتوشك أن تعصف بأماله. واهتدى أخيراً إلى عطفة جندف وأخذ يرتقي أرضها القذرة باحثاً عن البيت رقم ١٧ حتّى انتهى إليه، ورأى غير بعيد بائع بطاطة جالساً القرفصاء على الأرض أمام عربته فسأله مشيراً إلى البيت:

- هل يقيم هنا حسن أفندي كامل؟

فسأله الرجل بدوره:

- تعني حسن الرومي؟

فقال حسنين بلهشة:

- حسن كامل عليّ المغني؟

فقال الرجل:

- هذا بيت حسن الرومي الذي يعمل بقهوة عليّ صبري يدرب طياب ..

وأغضى حسنين في حياء منزعجاً انزعاجاً فظيماً، لم يعد يشكّ في أنّه حيال بيت أخيه وقد توكّد ذلك بذكرى عليّ صبري، ولكنّه لم يتصوّر أنّه يعمل بهذا الدرب الذي فرّق اسمه في أذنه كالقنبلة. وهذا اللقب: الروميّ ما معناه؟ ودخل البيت وكأنّه يفرّ فزكمته رائحة بثر السلم التنتة وارتنى السلم الحلوونيّ وهو يشعر بأنّه يهبط إلى هاوية ما لها من قرار. وطرق الباب فجاءه صوت امرأة يصيح في ابتدال «من؟» ثمّ فُتح الباب عن امرأة قصيرة بدنية عميقة السمرة تنطق سحتتها بجمل وقع. حدثته بنظرة نافذة وسألته!

- ماذا تريد؟

فقال حسنين بصوت منخفض من الاضطراب:

- حسن كامل ..

- من أنت؟

- أخوه ..

فانبسطت أسارير المرأة وتنتحت جانباً وهي تقول:

- مي حسين؟

فتمتمت في ذهن:

- حسنين!

ودخل في تمهيب وحياه. من تكون هذه المرأة؟

من إخبار حسين ثم قال بلهجة تنم عن العتاب:
- انقطعت عنا كأنك لست منا ولسنا منك، وباتت
أمتنا في حزن شديد..

وهو حسن راسه في كابة وقال:

- إني غارق في حياتي حتى قمت راسي، ولكن
توظيف حسين طمأنني عليكم..

وتسامل حسين متأثراً بما طرأ على أخيه من تغير في
مظهره ترى هل بقي على حبه القديم لهم؟ وانساق
بغيريته إلى التوحد إليه قبل أن يتطرق إلى مهمته
وتسامل في قلق:

- ما هذا يا أخي؟!

فقال حسن ضاحكاً:

- غلقت معارك. لم تكن حياتي لتخلو من حراك
وقد أصبح المعارك من أهم واجباتي في الحياة
الجديدة..

وود لو يسأله عن هذه الحياة الجديدة ولكنته نحامى
ذلك بغيريته أيضاً، لقد قصد هذا البيت المحرم في
سبيل الحياة، وحسن يتخذ من المعارك واجباً في سبيل
الحياة أيضاً، فما أظن ما تسبنا الحياة من خسف!
ومن كان يحلم بهذا المصير ونحن صغار نلعب! كان
حسن طفلاً حائفاً شاطراً، وكان أبي يحبه أكثر من أي
شيء في الوجود، ثم بدا وكأنه انقلب له عدواً، ولكن
لم يكن يتصور أحد أن ينتهي به المطاف إلى هذا
البيت! لا شك أن حسين أدرك الحقيقة في زيارته لهذا
البيت في سبتمبر الماضي، ولكن ترى هل تعلم أمي
بكل شيء؟! لم تواته شجاعة على السؤال الصريح
ولكنه تسامل في مكر:

- ما العلاقة بين الغناء والمعارك؟

ففقده حسن ضاحكاً ثم قال:

- هما شيء واحد في عرف الكثيرين..

وهنا جاءهما صوت المرأة من خارج وهي تقول:

- إني ذاهبة، هل تريد شيئاً؟

فقال لها باقتضاب:

- مع السلامة..

ولم يستطع حسين أن يقاوم حب استطلاعها فسأله

وكيف عرفت أسماءهم؟ هل تزوج حسن؟ وشعر
بقشعريرة باردة. أيمن أن يقال عن هذه المرأة إنها
زوجة أخيه؟ وإن أمه حاتها؟! ونفى من أعياق قلبه أن
تكون مجرد رفيقة. ومضت المرأة إلى باب في نهاية
الدلهيز ونقرت عليه ففتح بعد قليل وظهر حسن على
العتبة، وكأنه شعر بوجوده فأخيه بصره إليه ثم هف
بدهشة وسرور:

- حسنين..

وهرع نحوه وشد على يده بترحيب وشوق، وقيل
أن يتكلم أحدهما تسكلاً من الحجرة نفر من الرجال
متتابعين، ألفوا على حسنين نظرة عابرة وقال بعضهم
غاطباً حسن:

- سنسافر عصر اليوم إلى السويس بلندن الله،
وتلتحق بنا غداً..

ثم غادروا الشقة. كانوا من ذوي الجلال، تلفت
سحتهم النظر بغريبتها ولا يكاد يخلو وجه أحدهم من
تشويه. ودخل حسنين شعور بالقلق، من يكون
هؤلاء الرجال؟. أفراد التخت؟. ما أبعد هذا عن
التصور! لقد ذكرهم منظرهم ببرجال العصابت كما
يظهرون على الشاشة وطراوت عليه فكرة مرعبة بأن
شقة أخيه تناسب القانون العداة، وألقى على حسن
نظرة متوجسة فراه يرتدي جلباباً مقلداً فضفاضا،
ويبدو في صحة وقوة ولكن يلوح فوق حاجبيه الأيسر
وفي صفحة عنقه اليسرى ندبان كبيران كأنهما أثرا
طعنتين شديتين، ربّه. إن أخاه لا يخلو من تشويه
إجرامي أيضاً ولغله الآن يستطيع أن يدرك حقيقة
الأسباب التي حجته عن عالمهم. وأوما حسن إلى
الحجرة في نهاية الدلهيز وقال للمرأة:

- رتبي الحجرة واجمعي الأشياء..

وشبك ذراعه بلراع حسنين وأخيه إلى حجرة النوم،
ثم أغلق الباب وراءهما وأجلسه إلى جانبه على الكنية
وهو يقول:

- كيف حالكم؟.. كيف والدة؟.. ونفيسة؟..

وما إخبار حسين؟

وحذته عن الأسرة بعقل شارد وروى له ما يعلم

قال بحزن:

- ثمة أناس يكسبون دون أن يعرق لهم جبيناً
ويدا حسن وكأنه لم يفهم قوله على حقيقته فقال

بحماس:

- هذه غاية الشطارة... أن تكسب بعرق جباه
الآخرين! وبشم حسنين هذا الحديث الذي يجري بلا
ضابط فصم على أن يطرق الموضوع الذي جاء من
أجله. وصمت قليلاً ثم قال بصوت منخفض:
- أظن يترك أن تعلم بأنني نجحت في امتحان

البكالوريا...؟

فهتف حسن بسرود:

- مبارك. أسر طيباً بسرورك وسرور أمتنا
تفرس في وجه الشاب ثم استطرد في هجة لا تخلو

من إشفاق وسخرية:

- وظيفة، ثم نطفا أو الزقاقين، أليس كذلك؟
فقال الشاب متتهراً هذه الفرصة التي هيأها الآخر
كي يتقدم خطوة جديدة في سبيل غرضه:
- كلاً، في ثني أن التحق بالكليّة الحربيّة!
- الحربيّة... عظيم جدّاً... الحمد لله على أنك لم
تختر مدرسة البوليس!
- مصروفاتها كبيرة...

- لا أعني هذا ولكنّي لا أستلطف ضباط البوليس!
فحدج الشاب نظرة تساؤل فقال حسن مبتسماً:
- ضباط الجيش رجال أفرار، نراهم أمام المحمل
وفي الاحتفالات الكبرى أمّا ضباط البوليس فلا نراهم
إلا عادين وراء خراب البيوت!..

وساد الصمت وراحا يتبادلان النظرات، حسنين في
قلق وحياء وحسن في ابتسام له معناه، ولينا كذلك
طويلاً حتّى انفجر حسن ضاحكاً فضحك الآخر وهو
يغضّ بصره حياء، وواصل الضحك حتّى تعب، ثمّ
سأله حسن بلهجة ذات مغزى:

- كم؟

فضحك حسنين مرّة أخرى وقد احمرّ وجهه من
الحياء. ثمّ قال:

- الدفعة الأولى من المصروفات. يؤسفني أن أقول

بقلق:

- هل تزوجت يا أخي؟
- كلاً...

فلاح الارتباك في وجه حسنين غير خافٍ فتساءل
حسن:

- أسرُك هذا؟

- نعم...

- لماذا؟

فقال الشاب بسداجة:

- أفضل أن تختار زوجك من وسط كوستنا...

فقطب حسن كالمساء وقال:

- إنّا أفضل من سيّدات كثيرات، تحبّي وتخلص لي
ولا تضنّ عليّ بما...

وأوشك أن يقول له «ومن مالها الخاصّ أعطيت
حسين ما احتاجه من نفقات» ولكنّه أمسك رحمة بأخيه
«لم يستطع التغيّر الذي لحق بطبعه أن يؤثّر في عواطفه
نحو أخيه حتّى حين امتيائه - وإليّ رأى القلق والندم
يلوحان في عيني الشابّ قال برقة:
- إنّ إخلاص الزوجة لزوجها لا يخلو من منفعة
وراءه أمّا هذه المرأة فإخلاصها غير مشوب. سوف
تعلمك الحياة أموراً كثيرة تجهلها...

فهزّ حسنين رأسه متظاهراً بالانتعاش، وابتسم إلى
أخيه ابتسامة رقيقة متوقّداً. ثمّ ذكر أسراً كاد ينساه
فرحّب به نظماً منه أنّه خليلي بأن يضيقي على الجنو الذي
كاد يتورّط روحاً من المرح فسأل أخاه ضاحكاً:
- علمت وأنا أسأل عن بيتك أتهم يدعونك الروميّ
لما معنى هذا؟

فضحك حسن ضحكة عالية أعادت الطمأنينة إلى
نفس الآخر وهو يشير إلى رأسه:

- نسبة إلى هذا... إني أكسب بعرق جبينني على
نحو ما (ويسطر يده ونطحتها برأسه ثمّ نظر إلى أخيه
نظرة ذات معنى ضاحكاً) أو بالأحرى بدم جبينني. لا
بدّ من العرق كي تعيش ولكنّه يختلف العضو الذي
يعرق بين فرد وآخر.

وشعر حسنين بغربة نحو أخيه، وفكّر مليّاً، ثمّ

إنّما مبلغ لا يستهان به ولكنّي سأدبر الدفعة الأخرى
ومعروفات العام التالي من نقود حسين وما وعدتني به
نفيسة!

وذكر حسن كيف كان يُعَدّ فيسا مضى الخائب
الفاضل في الأسرة جميعاً: الآن يرويه ملاذعهم في
الملمات! وأحسن زهواً ولكنّ هذا لم يغيّر من شعوره
الطبيب المتأصل في نفسه نحو أسرته بل لعلّه ضاعف.
وسأله أخاه مبتسماً:

- كم هذا المبلغ الذي لا يستهان به؟

فقال حسين في خوف:

- عشرون جنيهاً!

ولاح الانزعاج في عيني حسن وقال وهو لا يدري:

- عشرون جنيهاً؟.. إنّ جيشنا كلّه لا يساوي هذا

المبلغ!.. هل تنوي الالتحاق بمدرسة اللواءات؟

وانتظر حسين في اضطراب وقلق ولم ينس بكلمة
حقّى عاد الآخر يقول بجذّ وأهتام:

- هذا مبلغ جسيم حقّاً، ولا يمكنني أن أعطيك -

اليوم على الأقلّ - أكثر من عشرة جنيهات!

وسادت فترة من صمت أليم، ثمّ نفخ حسن في
ضيق وقال:

- لو جشني قبل أسبوعاً... وعلى أيّة حال سأسافر
غداً إلى السويس ولعلّي أعود بما يكفيك!

وتفكّر ملياً على حين قال حسين بصوت منخفض:

- يؤسفني أنّي أزعجتك!

فقرصه في أنفه ضاحكاً وقال:

- كيف تعلمت هذا الأدب وعهدي بك طويل

اللسان! لا تنزعج سأتيك بما تريد ولو قتلت قتيلاً
وتنسلت عطفته.

ثمّ أعطاه عشرة جنيهات، وحمله السلام إلى أمّه
وأخته، وطلب إليه أن يستمك بالحقمة إذا تحدّث
عباً رآه في بيته. وشدّ حسين على يده شاكراً وغادر
الشقة. وما إن انفرد بنفسه حقّى قال بصوت ثقيل
كثيب «حياة حسن فضيحة يجب التسرّع عليها، ولعلّ
ما خفي منها أدهى وأظلم». وقطع الطريق متفكّراً
مغتنيّاً بقلّة إحساس بالاشمئزاز والخوف. لم يكن بوسعه

أن ينسى جميله ولا ما أبداه نحوه من عطف أخويّ،
ولكنّه لم يستطع كذلك نسيان المرأة والرجال المشوهين
والندين الخطيرين، نقش هذا كلّه على صفحة قلبه
بمداد التفوّز والرهيب. ربّاه، لقد انقلب حسن إلى نوع
آخر من الأدميين، لم يعد من الأسرة ولا من المجتمع
الذي يعرفه. إنّه يترنّع كأنما ضربة قد هوت على رأسه
فأفقدته وعيه، وكلّما جدّ في السير امتلأ شعوره بفداحة
الخطب. وذكر حاجته إليه التي جعلته يستوبه نقوداً
لا يدري من أين أتت، فاشتدّ اشمئزازه وحنقه، ولعن
هذه الحاجة من أعناق قلبه في يأس وقهر. وأمر من
هذا كلّه أنّ حاجته لم تنته، فسيعود إليه بعد أيام ومكّد
إليه يده سائلاً: ترى من أيّ سبيل تأتيه النقود من
السويس! إنّ قلبه لا يكبّله، وفيها رأى بعينه الكفاية
لمن ينشد الدليل، ورغم هذا كلّه سيعود إليه ويسأله
أن يتمّ صنيعه له! هل يستطيع أن يغضب لكرامته
حقّاً؟ هل يستطيع أن يردّ هذه الجنيهات إلى أخيه
ويصيح في وجهه إنّ لا أرضى عن حياتك القسوة؟
ونلت عنه ضحكة مبحورة مرّة... إنّه يعلم أنّه
يخلي هليئاً سخيّاً. سيعود إليه راضياً ويأخذ النقود
- إذا تفضّل بها - شاكراً تمثّلاً. ولو علم أنّه ذاهب إلى
السويس ليسرقها ما وسعه إلّا أن يدعو له بالتوفيق.
وقال وكأنّه يجاور ضميره المتوجّع «مهما يكن من أمر
فهو بالنسبة لنا أخ فاضل كريم».

- ٥٩ -

وفي عصر اليوم نفسه مضى إلى فيلاً أحمد بك
يسري بشارع طاهر. والواقع أنّه كان يندفع بحويّة
هائلة نحو الأمل الذي ركّز فيه حياته جميعاً، فأما
الحريّة أو الموت. وجلس في السلامك يستظر البك
مسرّحاً طرفه في أطراف الحديقة أو في الشطر الأماميّ
منها على الأصحّ. وكان مشغولاً باللّب فرأها رؤية
غامضة، وتنقّل بصره الشارد بين نخيلها الرشيق
المنغرس وسط دوائر من الحشائش المنسقة سوّرت
بنبت الشيع وانتشرت في رقاعها شجيرات الورد على
هيئة أبلّة. وارتاح لحظة من أفكاره فاستقرّ ناظره على
دائرة حشائش كبيرة تتوسط المكان ما بين مدخل الفيلا

فوجد فيها من فتاة الدراجة أنثى يشبه الأثر الذي تركته الحديقة والفيلا ونجفة جو الاستقبال، طموحاً ونورة وسخطاً! وما أجل أن أملك هذه الفيلا وأنام فوق هذه الفتاة. ليست شهوة فحسب ولكننا قوة وعزة. فتاة تجد تتجرد من ثيابها وترقد بين يدي في تسليم مسيلة الجفون وكأن كل عضو من جسدها الساخن يتدفق في قفلاً وسيدني. هذه هي الحياة. إذا ركبته ركبنا طبقة بأسرها! ثم عاودته ذكرى بهيمة تضاعف ألمه وأمزج به ما يشبه الندم والحجل. وهنا سمع وقع أقدام آتية من ناحية السلم فالتفت صوبها منقطعاً عن تيار أفكاره فرأى أحمد بك قادماً في بدلة بيضاء من الحرير وقد رشق في عذرة الجاكيت وردة حمراء فانفض قائلاً وأقبل نحوه في أدب وانحنى على يده مسلماً في إجلال وإتسم اليك مرتحياً وسأله ومهما مجلسان:

١٠٠ كيف حال الأسرة يا بني؟

فَقَالَ حَسَنٌ يَتَوَدَّدُ:

يقبلون يدك الكريمة ويذكرون حسناتك.

فغمر اليك:

— أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ .

وأيضاً البك أنه سيتلقى عملاً قليل ورجاء بتزليف هذا الشاب أو نقل أخيه إلى القاهرة الخ... لم يكن يومه يخلو من مثل هذا، وكان يضيق بالرجاوات ولكنه كان في قرارة نفسه يحبها كذلك ولا يطين أن يخلو به يوماً من أصحاب حاجة. وقال:

- خبر یا ہن؟

فقَالَ حَسَنِينَ بِحَرَارَةِ:

- جئتُك يا معادة الهُك مستنجدًا بشفاعتِك في
الحاقِي بالكلِيَّة الحربيَّة . . .

ودهش البك وكأنه كان يتوقع كل شيء إلا هذا
الطلب الأرستقراطي وتساءل دون أن يخفى دهشته:

ولماذا اخترت هذا الباب الضيق؟!

وتألم الشاب لما لاح في وجه الرجل من دهشة
وكرمه لحظتها كراهية عمياء، بيد أنه قال بنفس
اللهجة المتوقدة المهذبة:

يبدو لي يا سعادة البك أنه توجد فرصة ذهبية لهذا

والسلامك فاستسلم إليها فلأنا من قلفه. وكانت تنبت
من وسطها نخلة قصيرة ذات جذع أبيض ترتفع عليها
روح الطفولة وتنفث سطوحها شجيرات الورد بوفرة
حتى تلمست أغصانها وتعانقت أزهارها فاستزجت في
هالة كبيرة انثالت عليها الحمرة والخضرة والصفرة في
وئام واتلاف وسلام. وابتمس وهو لا يدري. وكان
الظل قد زحف على أرض الحديقة وما وراءها من
الطريق ولاحت آثار الشمس المائلة في أعلى الدور على
الجانب الآخر للطريق ولكن الهواء هنا مقللاً للسخونة
مفعماً بعرف الياسمين الجمال على سور الفيلا. وورد
على خاطره هذا السؤال وهل يمكن أن أقتني يوماً فيلاً
كهنده؟ وتخلل الحياة فيها ما بين الملعخ والحديقة وما
يتبعها عادة من سيّارة وأسرة محترمة. هذه هي المرة
الثانية التي يزور فيها فيلأ أحمد بك يسري، وفي كلتا
المرتين انفجر في صدره بركان من الطموح والسخط
والتلذّث على متع الحياة النظيفّة المحترمة. وكان أخوف
ما يخافه أن ينحصر في حياة كحياة حسين فيقطع عمر
ما بين الدرجتين الثامنة والسادسة بلا أمل ناضر. في
الحياة متع عالية وهواء نقيّ وينبغي أن يأخذ نصيبه
منها كاملاً. وتوقّف عن التفكير فجأة حين لمح دراجة
تغرق من الجانب الأيسر للحديقة وعليها فتاة. وكانت
الفتاة توجّه الدراجة في حذر على ممشى السفيّساء بين
دوائر الزهور فاستقرها الحذر عن النظر فيها حولها.
كانت في السادسة عشرة، ترتدي فستاناً أبيض مهفأً
وتعصب رأسها ببلّشابرب منمنم، ذات قامة نحيلة
وصدر ناهد وبشرة نقيّة. وقد أعجله النظر إلى ساقها
الدملمجيتين اللتين تتناوبان الارتفاع والانخفاض فلم
يكد يتبيّن وجهها، واختفت وراء جناح الفيلا الأيمن
قبل أن يستدرك ما فاتته منها. وثار في عينيه احتياّم
وبقظة. إذا لم تكن هذه الفتاة كريمة أحمد بك فمن
تكون؟ وابتدرت تخيلته تستدعي صورة بهيّة بحسبها
اللدن الممثلّ ووجهها البديع، شهية جميلة ولكنّها
ليست من هذه الرشاقة في شيء! ثم ذكر أخته نفيسة
فغجب للاختلاف البين بين خلوقات من جنس
واحد، ثم شعر في قلبه بغمز إلى أعطف وعاد إلى نفسه

البياض. وثار في أعقابها حبّ استطلاع وطمع ولذلك لم تغادر موقفها حين انقطع تيار السيّارات، وحولت نحوه عينها فوجدته ما يزال يحدّق فيها، وكأنّه تشجّع بنظرها فتقلّم منها في خطوات ثقيلة وهمس وهو يمرّ بها:

- اتبعني إلى سيّارتي ...

ثمّ واصل سيره إلى سيّارة واقفة لصق الطوار مثله في الحرم والوقار، يكاد يعلو سلمها على الطوار شبرين ويقف عند بابها سائق كالتمثال. وصعد إليها دون أن يغلّق الباب وراءه وأمر سائقه فأخذ مكانه خلف عجلة القيادة. ماذا يريد الشيخ؟ وابتسمت خواطرها في تشوّف، ثمّ عادت تنصت إلى همس الطمع. وكأنّه استبطأها فخلع نظارته ثمّ أوما لها بيده فما تمالكت أن ابتسمت، وألقت على ما حولها نظرة متفحصة ثمّ اتجهت نحو السيّارة، يحدوها الطمع وحده لأوّل مرّة. وأوسع لها فجلست إلى جانبه وما عتمت أن سطعت أنفها رائحة الحمر الفاتحة من فيه، فاستحوذ عليها الفلق، وقالت:

- لا أستطيع أن أأخّر.

فقال بلسان ثقيل:

- ولا أنا أيضًا!

وأمر السائق بالسير فانطلقت السيّارة. ولم يفارقها شعورها بالغربة في أثناء الطريق، ثمّ غشيتها سحابة حزن وخوف لإحساسها بأنّها تدهور إلى ما لا نهاية. لم يسبق لها قبل هذه المرّة أن ذهبت مع رجل قبل تعارف طويل أو قصير، ولو بعد رؤيته مرتين أو ثلاثاً، إلى أنّها لم تكن تخلو من رغبة. أمّا هذه المرّة فما هي تستسلم لعابر سبيل، مدفوعة بالطمع وحده، وبلا أدنى رغبة. أيّ تدهور وأيّ خباية! ترى كيف عرف أنّها ضالّته! هل انقلب وجهها - على دمامته - بشي بتدهورها؟ وتقبّض قلبها فرقاً، وجهتها حيرة قديمة جديدة ممّا، بين أن تتزيّن فتبدو في هذه الهيئة البتلة أو أن تتعطل فتكشف عن دمامتها الثقاب؟! ووضع الرجل كمّه على يدها وقال بصوت ملثم:

- جميلة كالقمر!

العام لم يوجد مثله في السنين الماضية لما تعزّبه الحكومة من زيادة عدد الجيش، ومهما يكن من أمر فشاعتك أهمّ من كلّ شيء!

وتسادل البك بالقتصاب:

- والمصرفات؟!

وكبره مرّة أخرى. وسرعان ما تناسى رجاء المجانيّة أو صمّم على أن يؤجّله لفرصة أخرى وقال بضقة وعلمانيّة:

- إنّي على استعداد لأداء المصروفات كاملة!

ففكر البك ملياً ثمّ قال:

- إنّ وكيل الحريّة صديق قديم وسأحدّثه بشأنك ...

فكان جواب حسنين أن أقبل على يده يحاول تقبيلها فسحبها الرجل ونهض قائلاً - ربّما إنهاء للزيارة - فقع حسنين بالانحناء على يده مسلماً وكبّر الشكر وغادر السلامك مرح الصدر بالأمل. وذكر وهو يقطع الحديقة فتاة الدراجة وتقلّت صورتي وهو يرنو إلى أثر العجلتين في المشي، ولكن لم يدم ههنا إلّا لحظة قصيرة، ثمّ استأثر بوجهه كلّ مستقبله وآماله ...

- ٦٠ -

في نفس الساعة كانت نفيسة في ميدان المحطة ... كانت السماء تتخشّع ليطو المساء على حين واصل الميدان في حياته الصاخبة يستبق على أديمه الانسان والحيوان والترام والسيّارات. وكانت الفتاة واقفة على طوار مثال غمضة مصر تنتظر انقطاع تيار السيّارات لتبصر الطريق إلى محطة الترام فلاحظت أنّ رجلاً واقفاً على بعد أذرع منها ينظر إليها نظرة غريبة باتت مع الأيام تفهمها حتّى فهمها. وتولّتها دهشة وتساءلت: حتّى هذا؟! كان رجلاً في السنين؟! يجمع في جسمه بين ترهل العمر ووقاره، مرتدياً بدلة صوفيّة على حرارة الجوّ ويقبض بيده على مدبّة أنيقة عاجيّة المقبض، ويضع على عينيه نظارة زرقاء. وقد انصر طربوشه المائل إلى الورا عن جبهة عريضة لفحت الشمس أسفلها ويدا أعلاها لامع البياض فيها فوق حرّ الطربوش، أمّا سوائفه وما لاح من قداله فشديد

بالغربة ومغالبة الضحك. وأخيراً ارتقى غموراً وقال بصوت غليظ:

- ملّني يلك إلى مقعد السائق وناوليني الزجاجه.
ورفع سدّادها وعُلّ منها ثمّ أسلم ظهره إلى المسند
وراح يتنّس تنفّساً ثقيلاً غليظاً. ولم تعد تحتمل ثقل
الانتظار فقالت برجاء مشيع بالتسوّد لأنّها تعلّمت أن
تخاف هذه الأونة أكثر من أيّ شيء آخر:
- أن لنا أن نعود.

فقال وكأنّه يخاطب نفسه:
- ليتني لا أعود أبداً...

ولم تدرك ما يعني ولكنها استجمعت شجاعته
وغمخت:

- تسمح!
ودسّ يده في جيبه وأخرجها في تكاسل ثمّ ترك
ريالاً يسقط في حجرها فتناوله في دهشة وانزعاج
وحذجه باستنكار وتساءل وهي تتميّر غيظاً:
- ما هذا؟

فقال بجفاء مبالغت وعيناه تمكسان بريق الحمر:
- نعمة كبرى! إذا لم ترضي به عاد إلى موضعه
السابق إلى الأبد...
فقال بحق:

- أظنّ مقامك أعلى من هذا بكثير...
فصبّ في فيه جرعة كبيرة ومصمص بشفتيه مقطباً
وقال:

- هذا حقّ، ولكنّ الريال أعلى من مقامك بكثير!
أراهن على أنّه لا توجد امرأة لها مثل هذا الأنف
وتطمح في مثله!

وجرحت الاهانة صدرها فاضطرب وقالت وهي
تغالب الغضب بالحلوف:

- لماذا تحدّثني بهذه اللهجة؟
- لأنك طماع... ولأنك السبب فيما يقع لي.
اعلمي أنّي لا أحصل معي إلاّ الفكة، وحتىّ هذه
تحاسبني زوجي عليها عقب عودتي إلى البيت، وأهون
عليّ أن أضربك من أن تضربني هي.
ولأنّك بالصمت وهي تتفضّض غضباً وغيظاً فعاد هو

ولم يفتّر ثغرها عن ابتسامة كما كانت تفعل قديماً
وتغتمت:

- لست من الجبال في شيء...
فقال مستنكراً:
- لا تخلو امرأة من جمال!
كاذب أو مخادع فلشّد ما يعمي الفسق العيون،
وقالت ببساطة:

- إلّا أيّ...
فقرر بأصبعه على ثديها وقال:

- لولا جالك ما وجدت هذه الرغبة!
وذت لو تستطيع أن تصنّف قوله، ولكن هيهات،
فلم يظهر بأحد يمينها أكثر من ساحات. لمعه يعربد أو
يخرّف أو يعاني مرارة اليأس مثلها سواء بسواء. لقد
كابدت من الرجال ما جعلها تحقد عليهم ولكن دون
أن تحمد لهذا رغبة جسدها الذي يسيماها الهوان
فكرهته كما تكره الفقر. ما هي إلاّ أسيرة للجسد
والفقر ولا تدري كيف تستغلّ نفسها منها. جرّفها
النّيار وجرحتها الصخّور فلم تعد ترى من خير في أن
تأوي إلى الشاطئ عارية مشخة بالجراح وبلا نصير أو
رحيم، ثمّ سمعت صوته يقول متتهبداً ووصلناه
فالتفتت إلى الخارج فترات السيّارة تدور مع طريق
دائريّ تقوم على جانب منه الأشجار الضخمة كأشباح
عالقة وعلى الجانب الآخر يجري النيل في رقعة عظيمة
من الظلمة إلاّ ما انغرس في جناحه البعيد من رمال
الأنوار المثالة من المصابيح، وقالت كالمتسائلة:

- الجزيرة؟
فضحك ضحكة فاجرة وقال بلهجة ذات مغزى:
- تعرفينها طبعاً...

وترتّب ريشاً غادر السائق موضعه واختفى في
الظلام فخلع نظّارته وهو يقول:

- أريني شطارتك فكلّ شيء يتوقّف عليها...
كان هرماً مجنوناً، يكاد ينزّ غرماً. وانهاه عليها
بمداعبة غليظة فعصها بحوشية وراح يقرصها حتّى
أوشكت أن تصرخ. ولاحت في الجوّ نلدر هزء
وسمفرة، ثمّ تبع حتّى اليأس، انفرج عن إحسان

يقول:

- ضايقتني امرأة ذات مرة في مثل موقفنا هذا فصرعتها وقلدت بها خارج السيارة نصف عارية، ماذا فعلت فيما تظنين؟ .. لا شيء! كانت تعلم بلا ريب أن الشرطي أخطر عليها مني. ومع ذلك فهي مظلومة وأنت مظلومة وأنا مظلوم أيضًا، والظالم الحقيقي هي زوجي ...

فزفرت زفرة غيظ وتمتمت:

- نمود من فضلك ...

فقال وهو يتألم:

- لك هذا، افتحي النافذة ونادي السائق ...

وانطلقت السيارة في طريق العودة فترجحت حتى نهاية المقعد، وسهمت إلى الظلمة بعين خابية.

- ٦١ -

يعترف لوساطة أحمد بك بالدور الخطير الأول الذي لعبته في قبوله فقال لأمه إن الفضل الأول لمزايده الجسميّة وتفوّقه في الرياضة. وقال لنفسه في زهو واستطیع أن أعد نفسي من الضباط منذ الآن» وراح خياله المختال يستعرض الأدميين الذين ستؤثر فيهم بذلته الرسميّة تأثيرها السحريّ - الجنود والفتيات وعامة الشعب بل واحد بك يسري نفسه وهو مرح نشوان. وحمل الخبر السار بنفسه إلى أسرة فريد أفندي محمّد فاستقبلته بفرحة تجلّ عن الوصف. وقال له فريد أفندي صاحكًا وشرّفتنا يا حضرة الضابط. وقال الشاب على مسمع من هيئة لغرض في نفسه «سأعيب عنكم أربعين يومًا قبل أن يُسمح لنا بالخروج مرة كلّ أسبوع» وكان يطعم أن يحظى تلك الساعة بما حرّم عليه عامين ولكنّه لا يتح له أن يخلو إلى الفتاة إلا دقائق، ولم تكن الدقائق لتمنعه من نبيل مشهاته لو أرادت الفتاة أن تجرد له به ولكنّها لم تترجّح عن تعقّفها حتّى في هذه اللحظة. وغلبها الحياء كعادتها، فانكشمت وقلبها يخفق بالعطف والألم تأثّرًا بالوداع. وقال لها بعجلة في صوت لا يكاد يسمع «أريد قبلة حارّة من شفّتك، ولست أرى حياهما وجودها قال بجزع وأتأين على هذا حتّى في هذه اللحظة! .. لا يمكن أن أتصوّر أنّك تحبّيني!» وخرجت الفتاة عن صمتها قائلة في قلق «بل هذا أرفض أن أذن لك!» وتساءل في إنكار «لا ألهم ما تعنين» فقالت بشجاعة مؤثّرة «أرفض لأنّي أحبّك» وكان يسمع هذا الاعتراف الصريح البسيط لأول مرة فبلغ به التأثّر حدّ السكر وهمّ بالاقتراب منها ولكنّها أشارت إليه محدّرة وهي تومئ برأسها ناحية باب الحجرة المفتوح، وما لبث أن عاد فريد أفندي وزوجه ففضى بقية الوقت ممزّجًا بين نشوة السكر وقلق الشوق وحسن الغيظ، ثمّ ودّعهم ونزل إلى شقّته وهو يقول لنفسه «هذا حبّ عاقل! حبّ يسيطر عليه الحزم والتدبير. كلّتا رسمت خطة حكيمّة كي تضمن زواجي بها. ولكن هل يعرف الحبّ الحقيقيّ هذا المنطق البارد؟!» وكان حديثه لنفسه في الواقع خاضعًا لما استحوذ عليه من غيظ

وكان يوم قبول حسين طالبًا بالكلية الحربية أسعد الأيام جميعًا. وكان يحسبه مطلبًا غير عسير كشأنه حيال مطالبه، ثمّ أخذ يتبيّن عسره وعناده حتّى اقتنع آخر الأمر بأنّ تدبيره للندوة الأولى من المصروفات كان أخفّ متاعبه. وقد طال تردّد له إلى فيلّا أحمد بك يسري وكاد الرجل يئس من قبوله فصصحه بالعدول عن اختياره ولكنّ تصميم الشابّ وتقدير تربيته وحسن هيئته وتفوّقه في الكرة والمدوّمة شفاعاة أحمد بك قبل كلّ شيء، كلّ أولئك ساعد على إحداث المعجزة - على حدّ تعبيره بعد اليأس - وتمّ القبول وكاد يمين من الفرح، والحقّ أنّه علّق آماله كلّها على هذا القبول بحيث لم يكن يدرى ماذا يفعل أو كيف يولي وجهه وجهة أخرى لو أخفق سماعه. كان طموحه إلى الحربية يتفجّر من صميم روحه الملهوفة على السيادة الثائرة على تماسك حياته وضيقها، وريدت الكلية لعينيه كمصنّع سحريّ قادر على تحويله من إنسان مهزول مغمر إلى ضابط مرموق في ظرف عشرين، وبأقلّ جهد، وكان سمع مرة صاحبًا له يصف ضباط الجيش بقوله «الضباط مرتبات عالية ونفخة كاذبة وعمل كاللعب لا خير فيه» فهامت بالحريّة نفسه وقوي حلمها في روحه. ولست أعلم بقوله في الكلية أب أن

الكليّة فجري بصره مع الفناء الشاسع وأبينها الفخمة المثرية، ثمّ ثبته طويلاً على تمثال المدفعين المقامين عند مدخلها فهاله المنظر وبّت في نفسه إعجاباً وبخلاء. وكان بادئ الأمر مطمئناً إلى مزايه الجسديّة من طول قامته ورشاقته قدّه ووسلته ولكنّه تخلّ عن كثير من إعجابه بنفسه حين تفحص الآخرين ورأى بينهم شباباً غصّاً وفتوة ناضرة وجمالاً رائحاً، إلى ما لاحظ على بعض الأفراد من غايل الأستقراطية. ثمّ وقعت عيناه على شابّ قادمًا من حجرة نطلّ على الفناء عرف فيه زميلًا قديمًا في التوفيقيّة سبقه إلى الالتحاق بالكليّة بعام أو يزيد وكان يرتدي قميصاً وينطوئاً قصيراً من الخفاكي وعلى ذراعه اليسرى أربعة شرائط. لم يكن من أصدقائه ولكنّه تعرّف به في فناء المدرسة، ومع أنّه لم يكن يذكر من اسمه إلّا «عرفان» ولم تكن هذه العلاقة الواهمة لتفريه بالإقبال عليه في غير هذا الظرف، إلّا أنّه رحّب بالتسليم عليه ليعلم صدقته بهذا الطالب القديم أمام الطلبة المستجدين. ونفد فكرته فمضى إليه حتّى واجهه ومدّ إليه يده مبتسماً وهو يقول في اللفة:

- كيف أنت يا عرفان؟

وسرعان ما سالت الانسامة على شفثيه للنظرة الجامدة التي رماه بها الآخر في تجهّم وهلف، وقد أطال تفحصه في تكبر وما يشبه الغضب، ثمّ لس يده بيده وأستردها بسرعة كأنّه يخاف عليها علوى خبيثة دون أن ينس بكلمة! وشعر حسنين بانيار شامل وذهول قاتل، وظلّه نسيه أو أساء فهمه فقال كالمتغيث:

- ألا تذكرني؟ .. أنا حسنين كامل عليّ...

فلم يؤثر الاسم في الآخر أيّ تأثير ولم يطرأ على صلاته أيّ لين، ولكنه خرج عن صمته وقال بخشونة وجفاء:

- لا صداقة هنا. أنت طالب مستجدّ وأنا باشجاويش...

نطق بهذه الكلمات ثمّ ذهب. ووجد حسنين نفسه في موقف خزي لم يفتقه في حياته فأتلفت أطرانه

وحسرة، وعدّ وداعه لها أسوأ وداع ممّي به عاشق. ثمّ أمضى شطراً من الليل بين أمّه وأخته. ولم تستطع نفيسة - كعادتها - مغالبة مشاعرها فدمعت عينها وقالت في حزن وقضي علينا بأن نعيش وحدنا! ولم يخلّ هو من كآبة خليقة بمن يفارق أهله لأول مرّة ولكن هوّن من وقعها أنّ روحه كانت تغفو كثيراً إلى الحياة المستقلة، في بيت غير البيت ووسط غير الوسط. أمّا الأمّ فحافظت على هدوئها الظاهريّ، ولم تشجّع نفيسة على الاسترسال في حزنها وقالت لها بحسنة ولا تبكي كالأطفال، سناها كثيراً، وحسبنا سروراً أنّه نال ما تمّنى. بيد أنّ قلبها كان في وادٍ آخر، حرّك الفراق الشوك أشجانه فرجعت أوتاره الأحزان المنطوية، فلذكرت وداع حسين، وتخلّلت خلوّ البيت من أبنائها جيماً، وتذاعت إلى ذهنها - على كره - ذكرى رحيل زوجها، فعجبت لحيناتها التي لا تجرد لها بسعادة إلّا مصحوبة بوداع وفراق. فهل قلّر لها أن تمضي البقيّة الباقية من حياتها وحيدة؟ وهي في سبيل هذه البهاية تصبّرت وتجلّدت وعانت ما عانت من مرارة الكفاح؟! ولكنها لم تستسلم لحزنها إلّا بمقدار يسير، ونادت قوّةها الكامنة، وذكرت ما صادف ابنها من أيّ التوفيق لتستعين به على تبديد كآبتها. مهما يكن من أمر فلنّها تؤمن الآن بأنّ ما بذلت من عبر وكفاح لم يضع سدى، وأنّ سفيتها الضالّة في سبيل الهداية إلى مرفأ آمن. ويحقّ لها أن تفرح لها من ثمرة نجح في هذه الأسيرة إلّا وهي غرس يلبها وعصارة قلبها.

وفي الصباح الباكر ودّع حسنين أمّه وأخته ومضى في سبيله إلى الكليّة الجديدة...

- ٦٢ -

ثمّ وجد نفسه في فناء الكليّة بين جماعة المستجدين من الطلبة وبحث عيناه فيها بينهم لعله يجد صاحباً قديماً في التوفيقيّة فيلوذ من وحشته ولكنّه لم يظفر بوجهه قديم. وضايقه هذا وإنّ أحسنّ زهواً لكونه الطالب الوحيد من مدرسته الذي قبل في الحرية. وتمتّى كثيراً أن يبدأ أحد بالكلام، وطال انتظاره. ولكن أبى كبرياؤه أن يكون هو البادئ. ثمّ مضى يتسلّ بمشاهدة

وتوترت شفتاه، وانتبد موضباً بعيداً متجنباً النظر إلى أحد أقرانه وإن تخيلهم وهم يتغامزون ويتضاحكون. ماذا دهله الأحمق! ترى هل أماته لضغينة اضطعنها عليه أو فقد رشاده؟ أمّن الممكن أن يكون هذا هو النظام المتبع في هذه الكلية؟! ولبت مستغرقاً في أفكاره لا يرى مما حوله شيئاً حتى نودي على الطلبة المستجدين ودُعوا إلى أوّل طابور لهم باللباس المدنيّة. ووقفوا صفّين متوازيين بإرشاد الباشجاويش محمد عرفان وبعض الجنود، وقد تجنّب النظر إلى صاحبه القديم الذي وجده معلّقاً فوق رأسه كالسيف وكظم عواطفه المستعرة أن يلوح منها أثر في وجهه. ثمّ جاء ضابط عظيم محاطاً ببعض الضباط من رتب أقلّ، وألقى عليهم نظرة ثاقبة ثمّ راح يخطبهم عن الحياة العسكريّة التي أثروها. وكان يخطب باللغة العاميّة بصوت أجشّ يوافق ما ارتسم على أساريره من الصلابة والعنف، وكان يفصل بين كثير من جملة هذه العبارة والمعقاب الصادم حتى صارت كضربات الإيقاع وملا القلوب رهبة وحلّزاً. وما إن انتهى من خطبته حتى بدأ أوّل يوم في الحياة العسكريّة الجليدة. واستقبل به حسين حياة جديدة لم يسيّق له بها عهد. وبدأ اليوم - والأيام جميعاً - شاتئاً طويلاً، يتبدّى بالنشّ البارد في الصباح الباكر، ويتنقّى بالطابور، ثمّ الدروس، جهد متواصل، وخشونة في المأكّل والملبس والمعاملة حتى إذا جاء وقت النوم استلقوا كالقتل. وكانت خشونة المعاملة أفظع ما يلاقونه، كان الرؤساء يرونها فرضاً واجباً، ويكفي أن يحظى طالب بشريط لأدنيته حتى يمارسها كحق من حقوقه، وهو يمارسها في غير رافة وبسطة تبلغ في أكثر الأحيان إهانة صريحة ومجرماً متعمّداً. ولم يكن ثمة مجال للاعتراض أو الاحتجاج إذ لم يكن للكليّة من شعار محرص عليه كالطاعة العمياء الحرساء البكاه. ولم يجد حسين من عزاء في ذلك الجوّ الرهيب إلاّ أنّه سيصير يوماً أوباشياً ثمّ باشجاويشاً. وهناك يقضي ديوونه دفعة واحدة! وقد ذكر عهد التوقيّة - الذي وصفه يوماً بالإرهاب - بالترسّم والرشاء. ويلغ منه الضيق أحياناً أن ندم على اختياره لهذه الكلية الجهنميّة

وتحقّى لو تواتبه الشجاعة على التخلص منها. وكان يشاركه إحساسه هذا كثيرون في الأيام الأولى على وجه الخصوص. وقد عصرتهم قساوة الحياة فسارع إليهم الهزال، ولعلّ حسين كان الطالب الوحيد الذي لم يخضع لهذا القانون الطبيعي، بل لعلّ جسمه اكتسب ارتواء غير منتظر لأنّ غذاء الكلية - على خشونته - هيّا له وجبات منتظمة لم يعتدها في أعوام الشدّة الأخيرة. بيد أنّه تعرّض لآلام نفسية غير متوقّعة في أيّام الجمع الخارجيّ ممثلاً بالأباء والأمهات والأقارب فيحظى الطلبة جميعاً بنهار تمتع ويمدون إلى حجارهم مقلّين بالهدايا من حلوى وفاكهة ودمسم الطعام، حتى الطلبة الريفّيون لم يُعندوا أقارب من القاهرة، فلم يكن ثمة طالب يقضي هذا اليوم السعيد وحيداً إلاّ، لم يزره أحد ولم ينتظر أحداً. وكانت أمّه قد أخبرتّه - قبل رحيله - بأنّها لن تستطيع زيارته لأنّها - كما يعلم - لم تتمكن من ابتاع معطف جديد يليق بالظهور أمام أقرانه، أمّا نفسيّة فقد قالت له بمزاحها المألوف ولا أظنّ أنّه ممّا يشرفك أن أبداً أمام زملائك بهذا الوجه، ولم يكن ثمة أمل في أن تزوره بيّمة لحياها وعدم اعتيادها الظهور في مجتمع من الأعراب، فلم يبقَ إلّا فريد أفندي وكان بطبعه كسولاً لا يكاد يفارق بيته إلّا لضرورة قصوى، ومع هذا فقد زاره مرّة وحمل إليه هدية من البسكوت. واعتاد في أيّام الزيارات أن يختار موقعاً عند مدخل الفناء الداخليّ يراقب منه الزوّار بعينين كئيتين ويتملّ بمشاهدة النساء والفتيات مأخوذاً بجملهنّ وأناتهنّ وآنيّ النعيم البادية في وجوههنّ وثيابهنّ. وعجب لهله الفوارق التي تباعد بين الأميين، ويدت لعينيه عثمرة بقدر ما هي مرعجة. وثارت بنفسه انفجالات السخط والغضب والتمرد فلم يجد من متنفس إلّا في أن يناقش ربّه الحساب، متسائلاً - فيها يشبه التحلّي - عن أسرار حكمته التي جعلت من الدنيا ما هو كائن! وسأله مرّة زميل له عن سرّ عزله فقال بلا تردد:

- أبي متوقّى. وأخي مدرّس بطنطا. أمّا الأسرة

بلدت لعينيه غريبة لُكَّتْها على غرابتها استلارت حنانه
وذكرياته. ووقفوا ثلاثتهم والمرأتان ترنوانا إليه
بإعجاب وحب، ثُمَّ دعت له الأم وأفصحت عن
سرورها بعبارات مقتضية. ثُمَّ لاذت بالصمت، أمّا
نفسه فلم يسكن لسانها لحظة ولشدّ ما أوحشتها...
«البيت من غيركم كالقبر».. «اضطرتني وجهي»..
ولم يتمكن حسين من القيام بإجازته هذا العام لمرض
زميله وقد كدنا نجح من الحزن»... «هل حقاً كتبنا
تراسلان؟».. لقد أخبرني بهذا منذ عشرة أيام»..
«ماذا تعلّمت؟ هل تستطيع الآن أن تطلق بندقيّة؟»

وكان يجيب على أسئلتها في دعابة، ثُمَّ خلع طربوشه
ووضع عصاه وقفّاه على المكتب ولبث واقفاً وهو ينظر
إلى سترته ليرى ما فعل العناق بها. وجلست أمّه على
الفراش وهي تقول:

- اجلس يا بنيّ..

لتردّد لحظة ثُمَّ قال:

- أعاف أن ينكسر البطلون!...

فتساءلت المرأة بدهشة:

- هل تظنّ واقفاً طالما أنت لابس البلة؟!!

وابتسم في ارتباك ثُمَّ جلس على الكرسيّ في حذر
ومدّ ساقيه وهو يفحص بنطلونه باهتمام، وقال:

- إنّ كسرة واحدة بالبنطلون خليفة بأن توقع عليّ
عقاباً صارماً لا يقلّ عن حبس شهر بالكليّة.

ونظر في وجه أمّه ليرى أثر هذه الكذبة في نفسها
فقرأ في صفحته الانزعاج فاستطرد قائلاً بصوت بنمّ
عن التفسّج:

- حياتنا شاقّة لا يمكن أن تصوّرها إنسان، فلهارنا
كله وشر من الليل نقضيها في الحلال بين المدافع
والقتال والرصاص، وقد تودي هفوة بسيطة بحياة
فرد!

فأصغت عينا نفيسة في فزع، وتساءلت الأم في
اضطراب:

- كيف يُلقون بأبناء الناس إلى الهلاك؟!!

وهفت نفيسة في انفعال:

- لماذا اخترت هذه المدرسة؟

فمحافظة لم تالف الظهور بين الناس على هذا النحو!
بيد أنّ الأفكار السوداء لم تجد من نفسه مرتعاً
خصيباً إذ إنّ الحياة العسكرية لا تمهل الأفكار حتى
يستفحل خطيئها، وقد علّمت أن ينسى باطنه أكثر
وقته. ثُمَّ مرور الأيام، أخذ يالّف شدتها وجوها
الخائقة فمضت تحفّ وطائها وتحتمل، إلى ما ظفر به من
صدقات جديدة ابتلّ بها صدره الموحش فاستطاع أن
يضحك ملء قلبه - رغم كلّ شيء - كمهده القديم.
وهكذا انقضت الأربعون يوماً..

- ٦٣ -

وخيل إليه - لدى خروجه من الكليّة بالملايس
الرسمية - أنّه حقّق حلماً بديعاً بتصديّه للعالم بالبدة
الملوّنة... كان ينطلق كالعاصود في استقامته،
كالطاروس في خياله، ملقياً على صورته التي تمكسها
مرايا الخواثيث والمقاهي نظرات ارتياح تشمل الشريط
الأحمر والطربوش الطويل والحذاء اللامع، ملوّحاً
بمعصاة القصيرة ذات الرأس النعقيّ، قابضاً على قفّاه
كأنّه يتحدثى العالم. ولبّا تراعت لعينه عطفة نصرالله
جاش صدره بمشاعر متنازعة من المطف والنفور، ثُمَّ
مضى إليها مطمئناً إلى أنّ أحداً لن يراه من يودّ ألاّ
يروه. لم يُطلع أحداً من أقرانه على عنوانه - راجياً أن
يراه جميع الذين يودّ أن يروه، وأحدثت به الأعين
ولوحت له الأيدي من رقّاع الأحذية إلى الحدّاد ومن
بائع السجائر إلى جابر سلان البقال. وتطلّع رأسه إلى
شرفة فريد أفندي فوجد لها مخلقة فسّر لما تبيّأ له من
مفاجأة سعيّلة غير مسبوقة بتنبيه، ثُمَّ قطع فناء البيت
إلى الشقّة وطرق الباب وانتظر مبتسماً. وجاءه صوت
نفيسة وهي تزعم «من؟» وفتح الباب فما إن رآته حتى
هتفت كالمجنونة:

- حسين!

وشدّت على يده في انفعال وجعلت تمزّرها بقوة
وفرح، وجاءت الأم مهرولة على صوت ابنتها فاستسلم
للدراعيها التحلّيتين وهي تضمه إلى صدرها وقبل
جبينها في سرور شائب شيء من القلق على سترته التي
طوّنتها ذراعها، ثُمَّ سار بيتهما إلى حجرته القديمة التي

لو كنت وقحاً لسألتك أن تحشيها بالفسق

والبنق!

ولكنك لست وقحاً والحمد لله . . .

هكذا تهرت بالمزاح وأدركت حسنين أنه لم يعد
بوسعها أن تسخر أكثر مما سخرت فقال ضاحكاً:

« آه لو رأيتم الهدايا التي كانت تُحمل إلى الطلبة! . .
وفي مرة أهدى إليّ صديق قطعة من حلوى اسمها
«بودنج»! ».

« بودنج! »

« نعم بودنج . . . »

فضحكت نفيسة قائلة:

« لولا اللامة لقلت إنها سلاح لضرب النار! »

ثم سأله أمه:

« لماذا لا تحمل ملابسك؟ »

فقال في شيء من الحجل:

« سأذهب إلى السينا! »

ولاح التلمز في عيني الأم فاستدرك قائلاً:

« وسأعود مبكراً لنسهر معاً، ومنمضي الغد معاً
كذلك! »

وعادوا إلى الحديث والذكريات طويلاً، ولكنه لم
يعد يسهه أن يملك خياله الذي يتنازع إلى الشقة
العليا! وكان يجد صعوبة في قُطْع الحديث والإنفصاح
عن رغبته في زيارة جارهم فريد أفندي، وأخيراً قال
بعدم اكتراث:

« آه لي أن أترككم! للذهاب إلى السينا ولعلي أجِد
بعض الوقت لزيارة فريد أفندي! »

« ٦٤ »

مَنّته نفسه بالانفراد بفتاته على وجه من الوجوه
ولكنه لم يدر كيف، فقد اجتمع في حجرة الاستقبال
بالوالدين، واستفاض الحديث العادي وهو ينظر
حضورها بصبر نافذ. ثم جاءت تسير على استحياء
وقد لفها روب وردتي لم يبد منه غير أطرافها فسَلَمَتْ
عليه سلاماً رسمياً والذها يتفحصها بنظرة ضاحكة
تتم عن إعجاب. وجلست إلى جانب أمها، وأقبل
الحديث كما كان ولكنّ محضرها استأثر بأعناق وعيه

فهرز رأسه بفتة وقال:

« لا تخافي عليّ! إلىّ اللعب بالنار بمهارة استحققت
إعجاب الضباط جميعاً! »

فقالت الأم بصوت متهدج:

« ما عسى أن تصنع بإعجابهم إذا أصابك سوء لا
فقر الله؟! »

فقال حسنين في سرور خفي:

« وماذا تصنعين إذا دُعينا إلى الحرب؟ . . ألم تسمعا
بأن هتلر بعد عدته لإشغال نار الحرب؟ وإذا نشبت
الحرب هجم موسوليني على مصر فتُدعى جميعاً للقتال! »
وحديثه الأم بارتياح، ثم سأله بجدة واحتياض:

« أحقاً ما تقول يا بني؟ »

وتراجع قليلاً . . .

« هذا ما يقوله بعض الناس! »

« وما رأيك أنت فيما يقوله هؤلاء الناس؟ »

وقبل أن يجيب صاحبت به نفيسة:

« إذا صحّ ما يقولون فاترك المدرسة بلا تردد. »

فضحك الشاب ملء فيه وقال مشفقاً من إلساد
سرور اللعاب:

« ما أردت إلا إخافتكم! . . (ثم غيّر لهجته
متسائلاً) . . فلندع الملهز جانباً وخبريني يا ست
نفيسة ماذا تعدين لي غداء للغد؟! »

فابتسمت الفتاة وأدركت أنّ أخاها «ضيفها» نصف
نهار الخميس ونهار الجمعة وأنّ إكرامه واجب عليها
قبل أيّ إنسان آخر. فقالت:

« سأشتري لك دجاجتين تطبخهما نينة في ملوخية! »

« عال! . . والحلوى؟ »

« يرتقال. »

« نفسي في الكثافة. فظالماً رأيت هداياها تُحمل إلى
الطلبة أيام الجمع فيتحلب ربيقي من بعيد! »
ولم تنمّ الفتاة للكثافة فلو ما اهتمت للسمن اللازم
لها ولكنها لم تراجع في نشوة الكرم التي غمرتها
فقالت:

« وستحل بالكثافة كما تشتهي! »

فقال الشاب بعد تردد:

- كذبت على أمي يقول إنك استأذنت والدتك،
وستغضب نفسي لأنك لم تدعها معنا
فأشار إليها بالسكوت وأخذها من يدها إلى الفناء
ثم إلى المعطة، وسارا معاً والوالدان يطلآن عليها من
الشرفة. وكانت بيبة ترثي المعطف الأحمر الذي يملو
نقاء بشرتها فبلت كالقطعة الجميلة. بيد أن القلق لم
يذهب عنها وقالت له في لوم:

- متعلم أسرتك يرحلنا إن عاجلاً أو آجلاً...
ولم يدع له سروره بالظفر مكاناً لهم فقال ضاحكاً:
- لم ترتكب إثماً، ولن تحرق الدنيا!
- ألم يكن الأخلق بك أن تدعو نفسي معنا؟
- ولكني أريد أن أتفرد بك!
فقال بقل، وكانت تخاف نفسي أكثر من أي
مخلوق آخر:

- أنت لا تبالي شيئاً وأسفاه...
ولم يكن لديه من وسيلة للانتقام من تحفظها
ويرودها سوى الكلمات الصريحة وأحياناً النابية فقال:
- وددت لو كنت ارتكبت معصية معك حتى
استأهل هذا الوصف من جدارة...
لتضرج وجهها بالاحمرار وحبست في استياء دون أن
تنبس بكلمة لأنها كانا قد اتدسا بين الواقفين على
طوار المحطة، وجعل ينظر إلى وجهها الساخط في
سرور باطني، ثم همس مبتسماً:

- أعني معصية خفيفة!
فأعرضت عنه حتى جاء الترام فصعدا إلى الدرجة
الأولى ولم يكن بها إلا سيدة أجنبية فشمع بارتياح،
وجلس لصقها، ثم سألها في دعابة:
- كيف كان شوقك إليّ في غيابي؟

فقات في شبه غضب:
- لم تخاطبني على بالك قط...
فهز رأسه كالخزين وقال:
- ما ألتني شيء كما ألتني إحسامي بتشوّك إليّ.
فقات بهرود وهي تخفي ابتسامة:
- أصارحك بأنّ الكليّة الجديدة قد زادت دمك

ثقلًا

فوجد مشقة في تتبع الكلام التافه ومشقة أكبر في
الاشتراك فيه. ثم أخذ يستشعر بالملل والضيق، وكلما
استرق إليها نظرة وتحمل قوامها البضّ ثار دمه وحقد
على الجلسة وشهدها. ورأى في عينيها هدأة وطمأنينة
كأنه لا يكثر صفوها مكثر، وإنهيا لذلك دائماً كأنما
لا يجري في عروقها دم، وليس أحب إليها من أن
تجلس بين والديها تصني حديثه وهي في مأمن من
نزواته... لذلك يحنّ عليها أحياناً، ولكنّه لا يستطيع
أن يتجاهل ما بثته في حناياه من طمأنينة وثقة فكان
يشعر بأنه يلقي من حياها إلى ركن وركن وعاطفة عميقة
ثابتة لا تزعزعها الحداثا. واستمر الحديث فلم يجد
من نفسها شجاعة على الاشتراك فيه فأنهت بجزء من
رأسها أو ابتسامة من شفيتها فبلغ منه الضيق نهايته،
ونفّر في خرج فخطرت له فكرة جريئة لم يقعد عن
تنفيذها مدفوعاً بجسارته، فقال موجّهاً خطابه إلى فريد
أفندي:

- هل تأذن لي في أن أصحب بيبة معي إلى السينما؟
وتبادل الزوجان النظر على حين خفضت بيبة عينيها
موردة الوجه، ثم قال فريد:
- أطلق العلام الحديث يستسيغ هذا السلوك بين
خطيين...

ولكنّ زوجته قالت بلهجة للمعارضة:
- أخاف ألا يروق هذا للسّ والديك.
ولم يتورّع حسنين عن الكذب إنقاذاً لمشروعه
فقال:

- لقد استأذنتها فوافقت بسرور.
فابتسمت أسارير المرأة وقالت وهي تنظر صوب
زوجها:

- ما دام والدها موافقاً فلا مانع عندي.
وطلب إليها فريد أفندي أن تأخذ أميتها للذهاب
مع الشاب فضمت متمرّدة في خطوات الحجل، وما
هي إلّا دقائق حتى كانا ينادران الشقة معاً. ولاحظت
بيبة أنّه جعل يسير في حذر عندما اقتربا من شقة
الأسرة كأنه يخاف أن يتبه إليها أحد من الداخل
فساورها قلبي وهمست في أذنه:

المشتهة... .

فرمته بنظرة وعيد ثم نظرت فيها أمامها. وحاول في الظلام أن يعاينها بكوعه أو يقدمه ولكنها لم تشجعه، ثم اضطرت تحت ضغطه وإلحاحه أن تترك راحتها في راحته على الذراع التي تفصل بين كرسييهما، ومضى الوقت في معادة شاملة... .

- ٦٥ -

وفي مساء الجمعة كان يقف بميدان الملكة فريدة ينتظر الأتوبيس رقم ١٠ ليحمله إلى الكلية. وكان أمضى نهارًا سعيدًا في أسرته وتناول غذاءه للبدن، وبلدت نفيسة في مرحها المألوف ولكنها - على ذلك - قالت له على مسمع من أمها وبلهجة ساخنة:

- وددت لو رأيتك وأنت ذاهب مع والهانم إلى السينا!

وادرِك أنَّ سره افُضح وأنَّ الحرب أعلنت فضحك عاليًا ونظر صوب أمه فرأها صامتة وعلى شفيتها ما يشبه الابتسامة، وشكر في نفسه بلدته العسكرية التي أنقذته من لكايتها إلى الأبد. وعادت نفيسة تقول بنفس اللهجة:

- ما أجلكم من زوجين! حضرك في طول العمود والهانم طول الشر. ودمها الثقيل يوسع لكما الطريق!

فنهزتها أمها قائلة:

- لا تكولي عيابة وفيك كلَّ العبرا!

فقال الفتاة ضاحكة:

- أنا على الأقلَّ خفيفة، ولكن لك حقٌّ يا سي حسنين فوجهي لم يخفق للسينا!

واعتذر لها ما وسعه الاعتذار ولكنه شعر بندم كما يشعر الآن، وما ضره لو كان دعاها للذهاب معه؟! كان يستعيد ذكريات اليوم وهو واقف ينتظر، وما لبث أن انضمَّ إليه كثيرون من زملائه، ثم جاء الأتوبيس فصعدوا إليه متراحين ولحق بهم آخرون رأى بينهم بعض من قابلهم أمس في السينا فترجَّع لديه أنهم سيملقون على فتاته شأنهم في هذه الأحوال، وسرَّ لذلك سرورًا كبيرًا وانتظر على لفحة الحديث الذي سيكون دون جوابه. ولم يطل به إلى انتظار لأنَّ أكثر من

وذكر وهو لا يدري ما تعرَّض به نفيسة من ثقل دم فتاته فرنا إليها متأثلاً فوجدها جبلة فوق ما يشتهي، ولكنها لا تخلو من هذه الصفة! وما غاب عنه أنه يجب هذه الصفة كما يجب العاشق نقائص معشوقه. وعدل فجأة عن معاينتها فقال بحرارة:

- لم تنبني عن نفسي لحظة واحدة طوال ذلك الفراق، وقد تعلمت جليدًا وهو أنَّ الحبَّ في القرب - على طموحه المملَّب - جيَّة أمَّا على البعد فهو مأساة كاملة.

وخففت عينيها دون أن تنبس ولكنها شمَّت في استسلامها وما اعترافها من سهوم رائحة الوجد الصامت وامتلأت رثاءه بارتيح عميق... . وتحدثت كيفًا اتَّفقت حتى بلغ الترام ميدان المحطة فغادره وبمضيا صوب عهد الدين. وطلب إليها أن تتأبط ذراعه ففعلت بعد تردد، ولما كانت تسير شخصًا - غير أمها - لأول مرة فقد تولَّاهما ارتياك وحياه. وشعرت بكوعه وهو يمسُّ - عفرًا أو قصْدًا - ثديها فسحبت ذراعها من ذراعه، وتساءل عجبًا:

- ماذا فعلت!

- هذا أروح في... .

فتنَّيظ لإفلات الفرصة وقال:

- سيكون من المعجزات تحريكك إلى زوجة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة، أيَّ امرأة حبة تعانق وتقبل ألح ألح!

وبعد حين قصير كانا يجلسان جنبًا لجنب في السينا، وعادوه شعور بالزهو والإجلال، غير أنه امتأثر هذه المرَّة بميزين بلدته العسكرية وحبيته. ومَرَّ به كثيرون من زملائه الطلبة وخطفت أعينهم من فتاته نظرات متفحصة فتزايد شعوره بالسرور، ومال نحوها وهمس:

- ألا ترين أنَّ جمالك يجلب الأنظار من المقاعد والألواح؟

فافتت ثغرها عن ابتسامة حيَّة فاطلق مرحه وهمس مرة أخرى:

- قلبي يحسُّني بأنِّي مسأَلال الليلة القبلية

وضحكوا جميعاً، ثم غثروا مجرى الحديث. وانظروا على نفسه في غمٍّ وهمٍّ يماني سكرات الهزيمة. تبرا من فاته وهو لا يدري. أه لو علموا أنها خطيئة وأنه استعصى عليه نيل قبلة منها بعد مثابة عامين! طابع بلديّ، ممثلة أكثر مما ينبغي، قصيرة أكثر مما يُستحب، دم ثقيل من رتبة لواء، أهله بيّنة حقاً! وهي إلى هذا كله دقة قديعة! لا يخلو هذا القول من حقٍّ فهي لا تسدري كيف تصحبه في الطريق ولا كيف تحسن الحديث والدعابة، ولا يكاد يذكر من قوها إلا التأنيب والتلثم. كيف يسهه إذا تزوّجها أن يظهر بها أمام الناس؟ سيقولون هذا وأكثر منه. وشعر بكرب وامتعاض، وغاب عتاً حوله غارفاً في أفكاره فلم ينتبه إلى وقوف الأتوبيس أمام عكّة الكليّة حتّى نهض الطلبة قائمين...

- ٦٦ -

وفي الأسبوع التالي صعد في الوقت المعتاد لزيارة فريد أفندي، وكان الأب وسالم الصغير في مشوار فجلس مع الأم وبيّنة، واستمتع بقدر من الحرية لا يتاح له بمحضر الأب. وبدت بيّنة في لسان بئٍ تسيطر على أهل صدره شبه مروحة من الحرير المزركش ينخرز مقبضها أسفل البيقة وتنتشر أهدابها فوق الثديين، فلم يكن ينقصها إلا المعطف وتصبح متأهبة للذهاب معه إلى السينا إذا دعاها. ولكنّه كان أبعد ما يكون عن التفكير في هذا، وكان صوت نفسه لا يزال يعلن في أذنيه وهي تقول له بعد أن أعطته نصف ريال لسهرته:

.. هذا لفسحك أنت وحدك!

ولكن لم تكن نفيسة كلّ شيء، كان في الواقع لا يجد الشجاعة للظهور معها مرّة أخرى أمام زملائه، ويات ينجل منها وهو لا يدري. كان يحسها أجل فتاة، ولكنّه لم يكن فتح عينيه بعد وجادات ملاحظات زملائه الساخرة آية على عهده! ورنا إليها فالتقت حينئذ، وهناك نسي أفكاره، وانبعثت حرارة دمه واضطربت به الرغبة مستهينة بكلّ شيء، مليحة شهية، لا يستطيع أن يماري في هذا ولكن كيف

واحد منهم بدأ متحفزاً، فقال قائل منهم وهو يشير إليه:

.. أما علمتم؟ .. رُفّي الصنديد أمس ولي يده فتاة! وودّ أن يسمع الجميع وأن يخلصوا لحديثه وحده. وتساءل البعض:

- من أي نوع؟

- النوع البيّتي...

- جميلة؟

وتركز انتباه حسنين واشتدّ وعيه أمّا المتحدث فقال:

.. ها عيتان زرقاوان ولكن يغلب عليها الطابع البلدي!

وتصاعد الدم إلى وجهه وشعر بفتور قضى في الحال على حماسه ونشوته، على حين واصل الآخرون حديثهم في ضحك وصخب:

.. ممثلة أكثر مما ينبغي قصيرة أكثر مما يُستحب!

.. ودعها ثقيل من رتبة لواء!

.. دقة قديعة على وجه الموم، أين وجدتها؟

وأدرك أنّ السؤال الأخير موجه إليه ولكنّه لم ينس بكلمة وجعل يضحك متظاهراً بالاستهانة وهو يمالي شعوراً جارحاً بالجل والقهو. وقال شابٌ بلهجة تنم على الإشفاق:

.. احذر أن تكون خطيئتك!

واندفع قائلاً بلا وعي تقريباً:

.. كلّاً طبعاً!

.. حبيبة؟

فقال مدفوها بمشاعر الألم والخذلان التي تصطرع في نفسه:

.. نوع من التسلية ليس إلّا!

.. إذن فلا بأس بها. عذراء؟

وأجاب باضطراب شديد: نعم...

.. خيبت الله أمك! لماذا تتفق وقتك عبتاً؟ ألم تدبر بأنّ التقاليد تقضي بأن تكون ليلة الخميس للعشيق ويوم الجمعة للخطيبة أو من يقوم مقامها؟

فتكلف الشاب ضحكة وقال:

.. سأصطحب جدول النساء في المستقبل!

- ماذا أحدث ذهابنا معًا إلى السينا في بيتك؟
ووجد فيها تعنيه بسؤالها عذرًا ينقعه في تجبّب ما
يريد تجبّيه فقال:

- لا شيء ذا بال إلا أنّ والدتي ساءها أن ادعوك إلى
غخالفة تقاليد أسرته المحترمة!

فقلت بهود:

- ليس عمّا يسيء إلى الأسر المحترمة أن تذهب فتياها
إلى السينا!

- كما لا يسيء إليها العناق والقبل ولكنك - مثل
أمي - لا تصدّقين!

فتجاهلت إشارته وتساءلت:

- هل متّكّ من العودة إلى تلك المخالفة؟

- كلًّا . . ولكنّها تخاف أن أسيء من غير قصد إلى
أسرتك الكريمة.

- ألم تخبرها بموافقة والديّ؟

- أخبرتها ولكنّها اعتقدت أنّها وافقا متورّطين.

- هل أفهم من هذا أنّنا لن نخرج معًا بعد اليوم؟
ولم يستطع أن يجابها بما يبطن فقال:

- بل نخرج حين نشاء.

وندم على قوله أثر التفوّ به، أمّا هي فابستمت في
حياء وقالت بصوت منخفض:

- ظننت أنّنا سنذهب اليوم إلى السينا!

وعجب هذه الدعوة فجّيء من ناحيتها هي، ومع
أنّه رقى لها إلا أنّه لم يستسلم لمعطفه فقال:

- لولا أنّي مرتبط بموعد كما قلت لك.

- أه . . هذا أهمّ من ذهابي معك!

- ليس الأمر كذلك لكن سبق متي وهذا . . ثم . .
ثمّ لا يجعل بنا أن نعود ما تظنّه أمي خالفة للتقاليد

بهذه السرعة!

فهزّت رأسها في ابتسامة حزينة وقالت:

- إذن فليس الموعد الذي يمنعك!

فقال بتسليم:

- كيلا الأمرين معًا . . لا تؤاخذني أمي على
عقليتها القديمة.

فخرجت عن ضبط عواطفها لأول مرة قائلة:

ينعاسي عن هذه الحقيقة المرعبة وهي أنّه يتحاشى
الظهور معها أمام الناس؟! وكانت الأمّ لا تمسك عن
الحديث وهو يحاورها باقتضاب وشرود حتّى قالت له:

- ما لك يا سيّ حسين كاتك مشغول البال!
فأفاق إلى نفسه مضطربًا وقال كالعلندر:

- كان الأسير الماضي حافلًا بالتمرينات القاسية
حقّ غادرنا الكلّيّة كالأموات!

وواصل الحديث وهو أشدّ انتباهًا له حتّى استأذنت
الأمّ لاداء الصلاة فخلا لها الجوّ، وبادرته الفتاة قائلة:

- ما لك؟

فقال مبتسمًا ليذهب عنها الشكّ:

- لا شيء!

- لست كمادتك!

وخطر له خاطر ساكر بمشه في نفسه خلوّ المكان
وعواطفه الثائرة فقال متظاهرًا بالجزن:

- لا أنسى تحفّظك معي!

- أعود إلى هذا؟

- طبعًا . . هذا حقّي ولا أنزل عنه ما حييت.
فقالت الفتاة برباه:

- حسبت أنّا انتهينا من هذا؟

- إنّ في حيرة من أمرك، جميع زملائي لهم خطيبات
مثلك ولكنّهنّ لا يحرمهنّ حقوقهم من العناق والقبل.

وغمضت موزّعة الوجه:

- لسن مثلي ولست مثلهنّ! . . .

هذا حقّ، ولعلّ زملاء لم يقتصدوا في توكيد هذا
ولكنّها لا تلوي ماذا تقولوا وتفكر فيها ينطوي عليه

قولها من سخرية لم تُشّر لها بخلد، وقيل أن يتكلم
عجلّت هي بتغيير مجرى الحديث فسألته:

- أذهب أنت إلى السينا؟

وأدرك أنّها تمبّى له فرصة ليدعوها للذهاب معه،
وساوره إحساس بالضيق ولكنّ إشفاقه كان أكبر من

حرجه فقال:

- كلًّا سأوافي بعض الزملاء إلى موعد سابق!

وخفضت عينها في خجل، ثمّ ساد صمت اليم،
وأخيرًا سلّته بلهجة ذات معنى:

بشجاعة الرجل الذي يستصحب هذه المرأة دون مبالاة بأحد. ولاحقاً منه الفتاة إلى يساره فرائى في الكرسي الذي يليه فتاة حسنة مرتدية جاكته ومادية وتأثيراً، وخيل إليه لحظة أنه لا يرى هذا الوجه لأول مرة. وراح ينقب في طوايا ذاكرته، وفي أثناء ذلك انتقل بصره إلى امرأة تليها ثم إلى رجل ما إن رآه حتى دق قلبه بعنف ونفض قائلاً ومد له يده بأدب وهو يقول:

- مساء الخير يا مساعدة البك.

فالتفت الرجل صوبه - كان أحمد بك يسري - وابتسم إليه مسلماً، ثم قدّمه إلى زوجته وكريمته وعقب على التعرّف به قائلاً وابن المرحوم كامل أفندي عليّ؟ فسلم عليها في غاية من الأدب وعاد إلى جلسته وبش يده الفتاة يسري في جسده، وسأله البك عن حاله في الكلية فاجابه ساكراً ثم فرغ كل لحاله. ونظر إلى أمامه وهو يشعر بارتياح لأنه جاز فترة التعارف وهو ثابت متمالك لأعصابه مع أنه كان يقدّم إلى عضوين في هذا الجنس اللطيف العالية لأول مرة في حياته. ومضى ذاك نادل يحمل ألواناً من الشيكولاتة والمشروبات لو كان يملك من النغوم ما يسعفه بتقديم بعض منه.

الأسرة، ولكن لم يكن في جيبه إلا قروش، فحقن هر إفلات هذه الفرصة منه، وحقد على فقره كما لم يحقد عليه من قبل! ثم أطفأت الأنوار وعادت الحياة إلى الشاشة، ولكنّه لم يندمج فيها ووجد من وعيه ونخاله إياه وجوحاً. تأكد لديه الآن أنه لم يكن يرى هذا الوجه البديع لأول مرة، وذكر الساق العارية التي كشفت عنها حركة الدراجة بحديقة الغيال. ترى أي أثر قد تركه في نفسها؟ وأي أثر أخلفه قول أحمد بك من أنه «ابن المرحوم كامل أفندي عليّ»؟ كان والده موثقاً صغيراً، وفضلاً عن هذا فلا شك أنّ المرأتين تعلمان بما بذل البك لأسرته من شفاعات تارة ليوظف حسين، وتارة ليُلحقه بالكلية الحربية، وبهيات أن يغيب عنها حقيقة مستواه الاجتماعي. ولعلّ الفتاة لم تَرِ فيه إلا صنيعة لمعروف والدها، ولعلّها قالت لنفسها إنه لولا يد أبيها ما ارتدى - هو - بذلته ذات الشريط الأحمر! كلّ هذا محتمل، بل هو مؤكّد، وقد النهب

- فكيف تسمح لنفسه بالخروج كلّ يوم! ولم تعجبه هجتها، وساءه ما تضمّنته فقال بلهجة لم تخل من حدة:

- لولا العمل لما غادرت نفيسة البيت أبداً ويادرتة قاتلة بلين وإشفاق وأسف:

- لم أقصد سوءاً بأحد. أردت أن أقول إنّ الخروج لا يعيب إنساناً. .

وساد الصمت قليلاً ثم سمعا وقع أقدام الأم وهي راجعة ففسادت هيئة في لهفة وإشفاق:

- حسنين أنت غاضب؟

ولم يستطع أن يجيبها بسبب ظهور الأم فابتسم لها ابتسامة رقيقة أثابت إليها طمأنينتها. . . ومكث معها ساعة ثم ودّعها وانصرف.

- ٦٧ -

لم يكن ثمة موعد كما زعم وقد ذهب إلى السينما بمفرده ودخلها بعد بده العرض بدقائق فأرشد إلى كرسيه في الظلام. وجعل يشاهد الجريدة بنصف انتباه والنصف الآخر هائم في البيت الذي غادره معتزلاً بأكلوبة. وذكر كيف ضغطت على يده بحزن وهي تودّعه، ضغطة لذيذة أرعشت قلبه وغفرت لها ما تقدّم وما تأخر من إساءة! «أمنيتي الآن أدل إلى التحقيق، لو مارست ضبط النفس بدل التهالك والتوسل لفزت بما أشتقي من زمن. لو عيست في وجهها مرتين لما أصرت على قول «لا». ما أحفني! لن أقنع بقبلة. لاضمتها إلى صدرى حتّى يطفئ عظمها تحت ذراعي، بعيداً عن أعين النقاد التي لا تمجّجها إلا الملاحاة والرشاقة والموضة. ولكن هل أصرّ على إخطائها من الأعين بعد أن أتزوج منها؟ لماذا لا أستعين بالناس والمستهم؟ يا له من شرّ لا يَبُلّ في بالتعالي عنه! هكذا أثناء وارتناح من أفكاره بتركيز وعيه على الشاشة فرائى هتلر وهو يستقبل سفراء الدول بمناسبة عيد ميلاده، ثم شاهد فصلاً من الصور المتحركة وأصيقت الأنوار. ودار برأسه فيها حوله متفرّساً في الوجه فاستوقف نظره امرأة هائلة مفرطة في السمّة لحذ مُزّرّ تجلس لصق زوجها وتنازعه الحديث، ولم يسمعه إلا الإعجاب

تركيز انتباهه في الشاشة، ولكنه كان قد استنفذ حيوية كبيرة فبدأ المنظر متعباً غملاً، وتصبر عليه في جهد حتى انتهى وأضيت الأنوار. والتفت العين فحى رأسه تحية ثم انخرط في تيار الخارجين. انفلت من الزحام فتمشى في الطرق ساعة ثم استقل الترام إلى شبرا. وأقبل على حبه فبدت له عطفة نصرالله أشد كابة من عهدا، وزكمت أنفه راحتها التي يختلط بها التراب بالدخان بمواد شمعية كثيرة فقطعها نيراً خابي العينين.

- ٦٨ -

وتواصلت الآيام حتى أوشك العام الدراسي على الختام. وفي تلك الأيام علم أن وزارة الحرية قررت تخريج دفعة الشاب مكتفية بعام دراسي واحد على أن يتم الخريجون تدريبهم في الفرق التي يلحقون بها، وذلك لتواجه زيادة عدد الجيش بعد إقرار المعاهدة. وضعف العمل للطلبة ولكنهم أقبلوا عليه مستبشرين متحمسين، والواقع أنها كانت حقيقة أقرب ما تكون إلى الخيال فلم يكن ثمة واحد منهم يصدق أنه سيكون ضابطاً بعد عام دراسي واحد، وكان آخر هؤلاء جيعاً حسنين نفسه. ثم انتهى العام وتخرج الشاب واستخف الطرب الأم وكانت أشبه بملح تائه تمزق شراعه ونفذ طعانه إذ تكشف الضباب لعينيه فجأت عن مرفأ آمن، ولهج لسانها بحمد الله وجعلت تقول في حرارة وإيمان عميق «أنت وحدك يا ربّي الذي أخلت يدي، ومن كان يرى حالنا بالأمس ونحن نتخبط في ظلمات اليأس ويران اليوم وكل شيء من حولنا يدعو للأمل يقر من صميم قلبه بعذلك ورحمتك». وغبطت نفسها على سعادتها لأول مرة في حياتها وأخذت محبتها الطويلة تترامى لعينها الدالبتين في هالة من الفخار والسرور وكأنها لم تكن سوى عبوسة مصطنعة على جبين الاقدار الرحيمة، فابتلّت عينها بدموع الفرح والشكر. وكانت تقتصد من نفود حسين ونفيسة ما تمهّل لسداد مصروفات السنة التالية فأنخله حسين ليهيئ به ملابس الضابط الكاملة وشغل بذلك طول المهلة التي تمنح للخريجين قبل توزيعهم على الفرق المختلفة. ولما كان ترتيبه بين الأوائل فقد

جيبته خجلاً وسخطاً. ولقد رأيت سائقك على الدراجة، عابية جذابة ولكنّها ليست بمعجزة. لا توجد معجزات في هذه الدنيا. ألسنت تسلمين كأي فتاة، وتبين عن الوجود كأي امرأة، وتحيلين كما تحيل الخادمة التي طرفناها، لفرقنا، وتعين حين المخاض كأي كلبة! وحك أنفه بسبائته فجأة فتسّم شداً لطيفاً مما علّق براحته عند السلام، فيه إثارة للأعصاب ونفاذ إلى القلب كأنه السحر، فاسكره عرفه ويث في نفسه رضى وسلاماً مسحاً عن صدره أدراج الحقن والألم. ولحظ طيفها اللطيف فحدس أنها شابة ذرايعها على صدرها، وتمّ لو تربع ساعداً على يد المقعد فتمسّ ساعده غفواً. ثم تحلّ صورة وجهها الذي ألقى عليه نظرة خاطفة وهو يسلم عليها، بطوله المتلّ وعينها السوداوين اللتين تنيان عن حيوية وغفّة، وهالة شعرها الأسود العميق السود، ويشربها النقيّة التي تزيّن وجنتها اليسرى شامة، ثم راح يستحضر صورة بيّنة، ويعرض الصورتين جنباً إلى جنب حيال تخيلته حتى اقتنع بأن هذه الفتاة ليست أجمل من فتاته، ولكنه شعر في الوقت نفسه بأن بيّنة جمال جامد وفله جمال متحرك، كأنها بيث في النفس حرارة ويشع في الخيال حيصة. وليس شداً فحسب فليتها تمثّلت لعينيه الطموحتين كرمز حيّ للعالم الراقية التي يتطلّع إليها بشغف جنونيّ. لم تكن فتاة بقدر ما كانت طبقة وحياء. ويرغم نشوته الراحنة لم يذدع عن حقيقة شعوره، ولم يتوهم أنها تغفلت في قلبه حيث استكنت بيّنة. فلهذا على سلبيتها المطلقة - تقبّض على جذور غرائزه وأعصابه، ولكن الأخرى تخاطب مباشرة طموحه الذي لا يقف عند حدّ، ولعلّه عرف على ضوء عينها جانباً من نفسه كان غامضاً وهو أنه يؤثر في أعماقه الطموح على السعادة والسلامة! ثم هبطت عليه نوبة فتور مفاجئ فقال لنفسه «إني أحلم أحلاماً سخيفة. ولكن ألا يحقّ لي أن أروّح عن صدري بالأحلام؟ أليست الأحلام نفسها حليماً؟ بل، إنها حلم، ولا يكثر صفوها إلا شعورنا الوهمي بأننا حقيقة!». وانقضى زمن لا يدريه قبل أن يتمكن من

- كلام يقال ولكنه لن يغني عنا شيئاً وأنت أخبر بالنفوس!

- لا أحب لك يا بني أن تنقص عليك صنفك بأمثال هذه التخيّلات!...

فاستترك قائلاً وكأنه لم يسمع قولها:

- هذه العطفة الحفيرة تعرفنا على حقيقتنا، فلماذا لا أطيق البقاء فيها...

وأشفقت الأم من تكدير سعادتها الشاملة فقالت بتوسّل:

- ستسوّى هذه الأمور مع الزمن فلا تتعبّج بحمل ههنا!

وحدها بنظرة غريبة وغبطة في نفسه على قوّة أعصابها، ولكنه سرعان ما تغيّط لعدم اكترائها بالاضطراب التي تنهول في رأسه وقال بحلّة:

- قد تسوّى هذه الأمور مع الزمن حقاً ولكن بعد أن تكون قد قضت عليّ!

فلاحت في عيني المرأة نظرة ارتباك وقالت له في عتاب:

- أراك كعادتك نافذ الصبر متعبجاً للمتاعب، ونصيحتي لك ألا تخلط أفراحك الحقيقية بأفراح وهميّة لا أهميّة لها.

فقال باستنكار:

- لا أهميّة لها!

ماضي نفيسة وما يعرفه هذا الحرفي عنّا لا أهميّة له؟

- إذا لم تأخذ نفسك بالاهتمام بهذا فلن نتمتع بالسعادة أبداً.

فتنهّد حسنين قائلاً:

- أودّ أن أسدل على الماضي ستاراً كثيفاً.

- تجمل بالصبر وسيكون لك هذا.

فالتبّ الشابّ غيظاً وقال كمن ضاق صدره:

- لا أخاف شيئاً كخوفي الصبر الذي تدعيني إليه.

انظري إلى هذه العطفة الحفيرة وبهذا البيت العماري هل أستطيع أن انضميها إلى الأبد عن أعين زملائي؟! وشعرت المرأة بتعاسة وأدركت أنّ حياتها لن تخلو من همّ وكدر. وقالت له بجرارة:

ألق سلاح الفرسان بالقاهرة وتبيّنا للأسرة من حسن التوفيق ما لم تكن تحلم به، وارتندي حسنين ببلدة الضابط فتحقّق حلمه القديم وجعلت أمّه تنظر إليه بعينين أذهلها الفرح حتّى سلّدت عن المألوف من صمتها ووزانها، فهذا هو الابن المحبوب، زهرة حياتها وأملها المنشود. وقد قال لها مرّة:

- إذا حان موعد الاحتفال بالحمل فستباح لك ولنغيبه فرصة باهرة لشاهداني على صهوة جوادي على رأس فرقة الفرسان!

فلم تنالك أن قالت له:

- هذا إذا ابتعت لي معطفاً يلبق بالظهور في الطريق الفاسّ بالمفرّجين!

فضحك الشابّ قائلاً:

- صبرك حتّى أقبض مرثيّا!

كانت أمّها سعيدة صفت لهم فيها الدنيا وطابت. بيد أنّ الشابّ كان يفكر في أمور كثيرة، وكان يروم أن يقدم سعادته المتاحة على أسس ثابتة لا يتطرّق إليها الفساد، فانتهاز فرصة انفراد أمّه مرّة - كانت نفيسة في الخارج - وقال لها بصوت ينمّ عن الاهتمام الشديد:

- أمّه، يجب أن تنقطع نفيسة عن عملها المزري في الحال لأنّه لا يجوز لأخت الضابط أن تكون خيّاطة.

فابتسمت الأمّ وقالت في بساطة:

- سترحب بهذا مجامع قلبها يا بنيّ...

كان ينتظر هذا القول بلا ريب بيد أنّه لم يمح من نفسه ما يعتلج بها من مثار الفكر فاستطرد متنهّداً في كتابة:

- ليتنا نستطيع أن نحو الماضي من صفحة الوجود!.. أخاف أن يعترينا قوم بما كان. وأنت أعلم بنفوس الناس، وأكره ما أكره أن يترامى شيء من هذا إلى أحد من زملائي، فأفقد كرامتي بين أقراني...

فسرى إليها بعض همّه ولكنّها ربت على كتفه مبتسمة وقالت باستهانة:

- كنّا فقراء، وأكثر الناس فقراء ولا عيب في هذا...

فهرّ رأسه معترضاً وقال في أمي:

- خطوة خطوة! كنا لا نجد الطعام فانظر أين نحن الآن!!

فهرّ رأسه في حزن وقال:

- ما أردت إغضابك يا أمّاه ولكني أفكر في هذه الأيام كثيرًا في المتاعب التي تتهدّدنا. وقد ذكرت لك بعضها، ولعلّ ما بقي أدهى وأمرّ. فانظري مثلاً إلى أخي حسن وسيرته في الحياة! كيف نستقبل الحياة في هدوء وحولنا هذه المتاعب؟!

وتفرّست في وجهه بدهشة وكأنتها تعجب لقدرته على اصطصاد الهموم، وتمتد فيها يشبه اليأس:

- دع الحلقى للحالق. كنّا هكذا دائماً فلم نهلك ولم يقض علينا.

فقال الشاب بإنكار:

- لم أكن ضابطاً أمّا الآن فقد أصبحت سمعي مهذّدة!

ولجّهم وجه الأم ولاذت بالصمت في كرب شديد فتهدّ حسنين قائلاً:

- ينبغي أن يتغيّر كلّ شيء، حتّى قبر والدينا المكشوف بين قبور الصدقة. تصوّري ماذا يظنّ بنا زملائي لو علموا بمكاننا!

ودارت الأم مشاعرها بابتهامة وقالت برجاء:

- إلّٰي أحبّ لنا ما نحبّ ولكني أوصيك بالصبر وأحذرك عواقب ثورة لن نجهدي الآن إلا الحزن. تريد أن تحو الماضي وتغيّر البيت وتنشئ مقبرة وتبدّل أحوالك من حال إلى حال، ولكن هيهات أن يتمّ لك ما تريد قبل زمن طويل فكيف يكون العمل؟ طالما تمّنت أن تسعدنا وأن تسعد معنا فإذا لم ترَوْض نفسك على التسليم بالواقع وتأخذها بالصبر شقيت وشقينا!

وضاق بالكلام ضيقه متابعه فأسك عنه. ولم يقع قولها من نفسه الشائرة موقع الانتعاش أو القبول فخيّل إليه أنّها لا تشاركه آماله وعواطفه، وآته وحيد في معركة الحياة أو الموت. إنّ نفسه تهفو لحياة أفضل وأنظف، ولن ينجح عن هدفه، ولیدافن عن سعادته وآماله بكلّ ما أوتي من قوّة ورغبة في الحياة. ودقّ الباب عند ذاك، وكان المساء يمدّ رواقه، فحسّ أنّها

نفسه عائلة من عملها، فهرع إلى الباب في تصميم جديد.

- ٦٩ -

ودخلت الفتاة مبتسمة وكانت لا ترى تلك الأيام إلا مبتسمة مستبشرة. واستبابت في وجه أمّها سهوًا فاقتربت منها وقالت مداعبة:

- تخيّل يا أمّاه عن هذا الجدّ الذي لا داعي له فقد انتهت متاعبنا.

ورقد حسنين قولها في نفسه محزونًا، هل حقًا انتهت متاعبهم؟ إنّ ميزانيسة الجيش كلّ لا تكفي لإخفاء متاعبهم! ثمّ رفع بصره إليها وقال بلهجة ذات معنى:

- أن لك أن تسترعي...

فتساءلت ضاحكة:

- أتعني أن أترك مهنتي؟

- نعم...

- أتركها غير أسفة، وسألزم بيتي ككاهنات، ألسنت شقيقة ضابط؟!...

ولم يتمالك أن قال ساخرًا:

- وشقيقة سي حسن أيضًا!

فرددت عينيها بينه وبين أمّها في دهشة وتساءلت عيًا جعله يقحم أخاه بهذه اللهجة المرّة، أمّا هو فسألها متهمكًا:

- ألا يسرك هذا؟

وقالت الفتاة برقة وعطف:

- مهما يكن من أمر أختينا حسن فضله لا يمكن أن ينكر.

وتدارك الشاب قائلاً:

- لست في حاجة إلى من يذكرني بهذا، وعلم الله أنّي أحبّه، ولكن لا حيلة لي إذا قلت إنّ سلوكه في الحياة ليس ممّا يشرف.

وثقت العبارة الأخيرة قلبها فلاحث في عينيها نظرة زائغة، وتخلّلت أمورًا فبردت أطرافها رعبًا، ثمّ خيّل إليها أنّه يعنيه بالذات، ولم تعد ترتاح للصمت فتمغمت في فتور:

- وآله أسرة تخلو من شيء من هذا القبيل!

بدأت الحياة لها عابئة قاسية، تعبت في قسوة. وتقسو في عبث. فتساءلت (لماذا خلقتي الله؟). ومع ذلك كانت تحب الحياة، ولم يكن يسأها وعذابها وخوفها إلا آيات على هذا الحب، وكانت إلى هذا كله تنتظر مع الغد موعداً لم تضمر النكوص عنه.

وحملت الصنيئة بخرقه بالية وعادت إلى الحجرة فوضعتها على المكتب وهي تقول في مرح وكأنا نسيت أفكارها وخافوها:

- أقدم لك آخر كنانة من عرق جيبني، وعليك وحلك منذ الآن أن تحمي ألسنتنا!

وأقبلوا على الكنانة بشهوة وقد تطهرت الأنفس من همومها، وقالت الأم وهي تغرز أصابعها في الصنيئة: - ليت حسين كان معنا.

ولوَّح لها حسنين بإصبعه حتى ابتلع ما في فيه ثم قال:

- أن لنا أن نسعى إلى نقله إلى القاهرة. كان أحمد بك يسري قد وعد بنقله بعد مرور عام أو نحوه وما قد أوشك أن يمضي عامان على تعيينه في طنطا.

كان يرغب في معايشة أخيه كهمدهما القديم، وكان يأمل أن يجد فيه عوناً على متاعبه، وقد رُحِبَ إلى هذا وذاك بفرصة تتيح له زيارة أحمد بك في قصره.

- ٧٠ -

ذهب مع أصيل الغد إلى فيلاً أحمد بك يسري وفي نيته أن يقدم له فروض الشكر المناسبة فخرَّجه ثم يستشفعه لنقل أخيه إلى مدرسة من مدارس القاهرة. وقد وقف البواب احتراضاً للضابط ثم قاده إلى السلامك ومضى إلى الداخل لاتباع البك بحضوره.

وجلس حسنين إلى الكرسي الذي جلس عليه أكثر من مرة في أوقات متباعدة وظروف مختلفة، وراح يسرح طرفه في الحليقة. وجرى بصره في المشى الطويل المتعرج الذي رأى الدراجة تقطعه في مهل وحذر منذ أكثر من عام وتساءل ترى ألا تزال تلهو بهذه الرياضة؟ وإبتسم للذكرى حيناً ثم تسأل مرة أخرى أخطأ جاء للشكر والشفاعة وحدهما؟ وعادوه الإبتسام. بيد أنه كان في حيرة من أهدافه قلقاً حيال البواعث التي

فقال حسنين بامتصاص:

- ولكنَّه لا يوجد في الأوساط المحترمة.

وركبها الضيق والقلق فرغبت في الاختفاء وتظاهرت بالضحك وقالت في مرح متكلف:

- لا يستحيل أن يوجد شقيقان أحدهما وزير والآخر لص، بالله لا تكذّر صفونا، واعلم أنني صنعت لك صنيئة كنانة فدعني أسكنها ولناكل في سلام!

وغادرت الحجرة إلى المطبخ بوجه مكفهز ونفس حائرة يشيع في قلبها خوف وقلق. إنه يدعوها إلى القبول في البيت أسوة بالنساء المحترمات، وإنها ترحب بهذا ولكن ما كان كان ولا سبيل إلى إصلاحه. وهي تستطيع إذا شامت أن تتحلل لسلوكها الأعداء وأن تقول لنفسها إنها إنما ارضعت تلك الحياة للحصول على النقود التي أقامت بها أود أسرتها في أكلح ساعات حياتها، ولهذا حتى ولكنَّه ليس الحقُّ كله فهناك أيضاً

الرغبة الملعوبة واليأس القاتل، وكم ودت في ساعات يأس لو تموت هذه الرغبة ولو تموت هي بموتها ولكنَّها كانت تزداد رغبة وإنحداراً ويأساً ثم تمرداً واستسلاماً. وعانت كثيراً شقاء الذنب وكان عزاءها الوحيد - إن كان عزاء على الإطلاق - أن الأقدار لا يمكن أن تتخر لها حياة أفضل. وكم تمزقها الحيرة الآن بين ماضٍ

تعييس ورغبة لا تسكت عنها. وحتى هذه الحياة الجديدة الموعودة لا تدري إن كانت تستطيع حقاً أن تخلص لها بعد ما كان، فلن تغيض رغبتها ولن يتخلى عنها اليأس، وفيه تأخذ نفسها بصبر لا مطعم لامل وراءه وليس لديها ما يصحح المحافظة عليه؟ هل يمكن أن تنقع من الحياة بانتظار طويل عمل للموت؟ لا تدري إن كان يوسعها حقاً أن تخلص للحياة الجديدة، وأن تتعذب عذاباً طويلاً متصلاً بعد أن خسرت كل شيء.

إنها تمقت الماضي وتخافه ولكنها تشدُّ إليه بقوة شيطانية فلا تستطيع منه فكاً، ولن تقف تبعه يائسة مثقلة بالذنب مرتعبة، كمن يسلم للسلطان من علو شاهق في كابوس بعد أن أيس من اليقظة. وجعلت تنظر في سهوم إلى صفحة الكنانة الموردة حتى تحملت نفسها في الصنيئة تحترق وقد أسودت بشرتها، وفي تلك اللحظة

الارتباك حيال البك وأنداده من عليّة الغوم . وذهب
البواب لاحضار الليمون أما البك فسأله بركة :

- أين كان تعينتك؟

فقال حسين بزهو مكتوم :

- سلاح الفرسان بالقاهرة .

- كنت من المتقدمين؟

- الثامن . . .

وهتاه الرجل ، ثم ساد الصمت . وكان في عزمه -
لو قابل البك منفردًا - أن يعدّد آيابه على أسرته وما
بذل من شفاعه محمودة له ولأخيه على أن يتدرّج من
الثناء إلى عرض مسألة أخيه حسين ، ولكنّه عدل عن
هذا مصمّمًا على الاحتفاظ بكبريائه أمام المرأتين ، وأمام
الفتاة خاصّة ، ولم يرَ ضيرًا في تأجيل مسألة شقيقه إلى
غد أو بعد غد على أن يحدث البك عنها في مكتبه
بالوزارة . وجاء خادم نوبّي بأقداح الليمون دار بها
عليهم . وانتهاز حسين فرصة رفعه للقحح إلى فمه
فاسترق إلى الفتاة نظرة من فوق حافة القحح فراها
وهي تحسّو شرابها في رفق ولطافة ، فلم يند عن زورها
هذه الحركات العصبية التي يبعثها الازدراء العنيف ،
ومرّزت السائل في رقة فلانسكب في هواة وحياه ، وقد
اكتسى وجهها بهدوء بديع واسترخاء حالم كأنها تستنيم
للمسات النماس ، وأعاد القحح إلى الصبيّة ثملًا بنشوة
افتتان تبعثها الأناقة والرشاقة وأمارات الأرستقراطية .
وتخلّلتها فجأة بين ذراعيه مستكنة مستنمية فأصرّ على
أسنانه . « ما هذا الجنون الذي ينبعث في دمي . ليس
شهوة فحسب ، بل ليس شهوة على الإطلاق ، هبة
أشهى منها وإن كان يصحّجلي الظهور معها أمام الناس ،
ليس ركوب هذه الفتاة بعمل جنسيّ ولكنّه غزو كامل
وفتح مظفر . هذه . » وانتبه من أفكاره على صوت
أحمد بك وهو يسأل :

- كيف حال الأسرة؟؟

فخطر له خاطر ظنّ أنّه يرفع من كبريائه ، وكانت
الأكاذيب تبعث في نفسه أحيانًا بوحى البديهة فقال بلا
تردد :

- الحمد لله . انقضت متاعبنا بعد أن كسبنا

تحركه ، مشفقًا من الاساءة إلى خطيئته ، ثم ذكر زيارته
الأخيرة - التي أعقبت تحرّجه - لبيت فريد أفندي
وكيف مرّت في أحاديث ملولة وشعور اليم بالحرمان .
حقّ إنّّه لم ينظر بجلسة منفردة واحدة بفنائه ، ذكر هذا
فوجد من التفرّج ما هوّن عليه إحساس التائب الذي
دبّ في أمهاته لسورره بذكريات فيلًا أحمد بك . ونفض
عن رأسه أفكاره واستسلم لمشاعر الطموح التي تنوّهج
في قلبه في محيط هذه الفيلا الرائعة فانتالت على غيخته
الأحلام ، ماضٍ جليد وبيت جديد وقبر جديد وأهل
جدد ومال موفور وحياة وضاعة لامعة . ومع أنّه صار
ضابطًا ، ولملّ كثيرين يرمقونه بعين الحسد لذلك ، إلّا
أنّه أدرى الناس بقلبه الذي يسترق لفة على الحياة
السامية النظيفة ، هذا القلب الذي أوردته الجزع موارد
القلق والسخط والشقاء ، ولبت على استسلامه
للأحلام حتّى عاد البواب من الداخل وتنحى عن
الباب في أدب وهمس وسعادة البك قادمًا . ونفض
حسнин ، ثمّ ظهر البك في بدلته البيضاء والوردة
الحمرات تزين عروته ، ولما رأى الشابّ ألقى على بدلته
العسكرية نظرة شاملة ثمّ قال ضاحكًا :

- أهلاً بالضابط .

وانحنى الشابّ على يده مسلّمًا ومهمّ بالكلام ولكنّه
رأى حرم البك تتبعه قادمة من الداخل وفي أثرها
الفتاة . وأدرك أنّه جاء في وقت غير مناسب لغرضه لأنّ
الأسرة متاقبة للخروج ، وقد توكّد هذا لديه حين لمح
السّيارة تدور في المشى الواسع وتقف عند أسفل
السلاملك منتظرة الداهيين ، فما كان منه إلّا أن سلّم
على المرأتين وتأخّر خطوتين قائلاً :

- جئت لأقدّم لسماعتك فروض الشكر المناسبة
تحرّجي ، وأرى أن أسأذن في الانصراف الآن حتّى لا
أؤخركم .

ولكنّ البك قال :

- بل نجلس لنشرب ليمونًا معًا ، ما يزال أماننا
فسحة من الوقت . . .

وجلسوا فجلس وهو يزيل قصاراه ليفسط أعصابه . تردّد :

فلم يكن أبغض إليه من أن يتولّاه الاضطراب أو

القضية!

فتساءل البك:

- أي قضية؟

فقال بلبث وثقة:

- قضية قديمة بين أمتي وأحوالي على أوقاف وقد حكم لأمتي بتصبيها كاملاً!

فقال الرجل:

- مبارك... مبارك...

وشعر حسنين بارتياح وزهو، ثم وهو يقول:

- لقد أخرتكم وأنا أسف يا سعادة البك.

ونهبوا جيئاً وهبطوا إلى موقف السيارة، وتحقّق لو يدعوه الرجل إلى الركوب معهم، ولكنّه مدّ له يده مودّعاً فسلم عليه وحسّى رأسه تحيةً لأسرته ومضى إلى الباب مسرعاً. كانت الزيارة تبدو غففة لأنّه لم يحسّ الموضوع الذي جاء من أجله ولكنّه كان يرى توقيفه بهذا اللقاء غير المنتظر وهذه الكذبة التي جادت بها البديهة السعيدة أخطر من غرضه الأوّل الذي لن يؤثّر فيه تأجيل يوم أو يومين...

- ٧١ -

وقلب وجهه في الساء ولما يروح شارع طاهر فطالع في صفحتها نظرة الغروب الشاحبة فتساءل ترى هل يجد أخاه حسن في بيته إذا جازف بزيارته؟ كان مصمماً على مجابته برأيه وإن كان ضعيف الأمل في إصلاح ما فسد من أمره، ولكنّ تركيز أفكاره في مستقبله ومستقبل أسرته جعله يستهين بكلّ شيء حتى مناقضه حسن نفسه. ومضى يشقّ طريقه بعزيمة لا تتثنى ولكنّه كان يحمل قلباً أثقله الهمّ والشكّ. واستقلّ الترام حتى ميدان الحانذار ثمّ اتجه إلى شارع كلوت بك وقد تحوّل انتباهه إلى بدلته العسكرية التي فرضت عليه الظروف - كانت أمّه قد استغلت ملباسه القديمة في أغراض جديدة كعادتها - أن يخرق بها طوقاً مربية! لم يكن الاختيار يبيده، وكان يرى في حسن مشكلة الأسرة المقلّدة الأولى. لقد تحلّت نفيسة عن مهنتها، وسوف يهجر قريباً عطفة نصرالله بل وشبرا جيئاً، وزبّما أسدل ستار النسيان على الماضي البغيض كلّ،

فلم يبقَ إلّا حسن وهيهات أن يطعن له جانب ما دام شقيقه مقارناً حياته الأكمة. وطالعت عطفة جندف فعرج إليها متجنباً الانظار التي تطلّعت إليه في دهشة وقطعها مسرعاً إلى بيت أخيه ورمى إليه كالهارب مستقبلاً الرائحة التنتية، وارتقى السلم الحلوّفيّ ممتمصّاً، ذاكرةً في صيق وخجل زيارته الأولى لهذا البيت منذ عام، حتّى وقف أمام باب الشقة في شبه ظلام وطرق الباب. وفتح الباب عن وجه رجل غريب - وجه شائه من الرجوه التي لم ترح ذاكتره منذ زيارته الأولى - وما إن وقع بصره عليه حتّى دفع الباب فأغلقه في وجهه بسرعة غريبة وقد نذت عن فيه صرخة قائلة: «بوليس!» دهش الشاب، ثمّ حدث ما هنالك فانزعج وأحسّ بخزي وألم لم يحسّ بمثلها من قبل. ولبث متمسّراً في مكانه لا يلدرى ماذا يفعل. وفكر في العدول عن الزيارة، ولكنّه لم يبرح مكانه ووجد من نفسه تصميمًا عتيقاً على إنجاز مهمّته مهما كلّفه الأمر. ليست المسألة لهُواً وعيئاً؛ هي حياة أو موت، ولن يستطيع السر في حياته قدماً ووراءه هذا البيت. وطرق الباب مرّة أخرى، وانتظر وهو يعلم بعث الانتظار، ثمّ أعاد الطرق بشدّة. ترى هل يمكن أن يكونوا قد هربوا من الشقة من إحدى النوافذ؟ وأراد أن ينادي أخاه بصوت مرتفع فيتعرّف عليه بصوته ولكنّه خاف أن يعرّفه كما يريد ثمّ يعلن شخصيته لصاحبه المدعور ليطمئنه فتذاع الصلة التي يتحقّق ألا تُعرف أبداً، ومع هذا فمن أفرأه أنّ حسن لم يخبر أحداً بحقيقة شقيقه ولو على سبيل الفصاحة! وأصرّ على أسنانه في خزي ويأس، ولكنّ اليأس أمده بقوة عند جنينة فطرق الباب بقبضة يده بعنف وصاح «يا حسن، يا حسن، أنا حسنين!». ولم يطل انتظاره بعد النداء لفتح الباب وبدا حسن خلفه يطالع بعينين ذاهلتين. وبدا كمن يفتق من صدمته، وثبت بصره لحظات دون أن يتحرّك، ثمّ دبّت في عينيه بغضة، وشاع في نظرتها الابتسام وهف:

.. حسنين!.. ضابطاً.. لا أصدق عيني!

وشدّ على يده. وربّت بالأخرى على ذراعه، وجذبه

ونقل المهمة التي جاء من أجلها. ومع هذا فلم يخطر له لحظة واحدة أن يعدل عما يراه واجبه، وعزم على أن يتسلل إلى هدفه برفق فابتسم وقال:

- أخاف أن أكون قد أزعجتك بزيارتي!

- ابصق هذه العبارة من فيك! .. ما هذا القول يا حضرة الضابط؟

فأشار حسين ناحية الخارج وقال متصنفاً الدهشة: - لقد فتح الباب لي رجل غريب ثم صرخ مرتعباً «بوليس» وأغلق الباب في وجهي! ففهمه حسن عائلاً وقال:

- حصل سوء تفاهم نادر ولكنني عرفت صوتك فأنتهى الأمر بخير. . .

فوجد حسين صعوبة قبل أن يقول متسائلاً:

- وما الذي أخافه؟

فالتقى عليه نظرة كأنها تسائله أب جهل حقاً أم يتجاهل! ثم قال بعدم اكتراث:

- يوجد أناس كما تعلم يخافون البوليس!

فتساءل الشاب بإشفاق:

- أليس من الخطر أن تفتح أبواب بيتك لثلث هؤلاء؟

فصمت حسن قليلاً ثم قال:

- بل ولكن الإنسان ليس حراً في اختيار أصحابه! فقال بدهشة:

- كيف هذا يا أخي؟! .. الإنسان حرّ بلا شك في اختيار أصحابه. . .

فقال حسن بلهجة من يرغب في تغيير مجرى الحديث:

- فلندع هذا جانباً ولنختر حديثاً لطف!

- لا أستطيع أن أدعه حتى أطمئن عليك. . .

فقال حسن ضاحكاً:

- لا خوف عليّ، اطمئن!

- إني أعجب لما يدعوك إلى مصادفة هؤلاء الأشرار. . . أنت فتان محترم وتستطيع أن تختار من بين زملائك أحسن الأصدقاء.

وخفض حسن عينيه ليخفي نظرة التجهّم التي

إلى الداخل وهو يضحك ضحكة عصبية عالية. ثم سار به إلى حجرة النوم وهو يقول:

- ضابط. . . يا لها من مفاجأة! .. مبارك مبارك. . . هذا يوم سعيد. . .

وجلس حسين على الكنية، وأغلق حسن الباب ثم جاء فجلس إلى جانبه. وكان الشاب يبذل جهداً جبّاراً ليتغلب على اضطرابه ويتمالك أعصابه، ونظر إلى أخيه مبتسماً وقال:

- إني أحقّ الناس بالتهنئة ولكنك أنت أحقهم بالشكر.

فضحك حسن بسرور ولعلّ شعوره بالسرور كان مضاعفاً بعد ما كان من انزعاجه وقال:

- علامَ استحقّ الشكر؟ ما أتيت إليك إلّا بعض حقك عندي. دعنا من هذا وختبرني عن حال الأسرة، وكيف أمّا ونفسي وما أخبار حسين؟

وراح يمدّحه عما يريد بباطن فاطر وظاهر متكلّف الاهتمام. وكاد الحديث يسوقه وهو لا يدري إلى سؤاله عما قطعه عنهم، ولكنه أمسك عن السؤال في اللحظة الأخيرة ذاكرةً أن انقطاعه هذا خير غير مقصود وأن وصاله شرّ ما يتولّد به وهو على هذا الحال، ولمّا فرغ من حديثه قال حسن:

- الحقّ أنّي أحقّ إليهم كثيراً ولكنّ حياتي لم تعد تسمح لي بإشباع هذا الحنين. نحن في بلد واحد ولكنّ في الواقع كأنّ في بلد بعيد منقطع عن العالم، وربما خفف عني الألم أحياناً أنهم لم يمودوا بحاجة إليّ وأنّي أتيت بعض الواجب عليّ. وفضلاً عن هذا فلست تجدني في يسر متّصل، فقد يمثّل جيبني بالنقد ألباناً ثم يفرغ أسابيع. وفي حالة امتلائه تجدني مضطراً للإنفاق بغير وعي. لا عليك من هذا، لقد أصبحت ضابطاً فمبارك عليك حفاك ولا يصحّ أن أخلط بفرحي شيئاً آخر. . . مبارك يا حضرة الضابط!

وجعل حسين يصغي إليه وهو يتفرّس في وجهه فهاله ما يرى من تغرّ وتشويه وغرابة كأنه يستهلك في العام الواحد من حياته المحفوظة بالمهلك أعواماً طويلاً. لقد انتهى حسن، وشعر بانقباض وتشاؤم،

- هما شيء واحد...
 - حقاً؟! لا أرى رأيك أودعي أسألك لماذا لم توجه
 إلي هذه النصيحة من قبل؟.. منذ عام مثلاً؟
 لا يسعه - بعد أن قال له، وهو لا يدري، إنه إنما
 جاء لهذا الأمر - أن يدعي أنه كان يجهله، وركبه
 الضيق، ولكنه تهرب من سؤال أخيه قائلاً:
 - ألا ترى وجه الخير لك فيها أريد؟
 فتجاهل حسن سؤاله وقال بنفس اللهجة الساخرة:
 - كنت قبل عام في حاجة جنوبية إلى النضود فلم
 تهتم بالنصح والإرشاد أما الآن وقد أصبحت ضابطاً
 فلا يملك إلا الدفاع عن هذه النجمة اللامعة!
 ومع أن وجه حسين لم يتغير إلا أن قلبه ماج بالغبط
 والحنق وكأنما أهاجه أن يقرأ الآخر أعماله بهذه السهولة
 الساخرة ولكنه قال بلهجة لينة:
 - أخي...
 وأشار إليه الآخر أن يسكت فسكت، ثم قال
 باستهانة:
 - ساكون معك صريحاً إلى أبعد حد، وإذا كنت
 تسائل نفسك حقاً عن عملي فلني أقول لك إنني فتوة
 قهوة بدرب طياب (ثم مشيراً إلى الصورة فوق رأسه)
 وعشيق هذه المرأة، ويأت عذرات.
 وهتف حسين في انزعاج:
 - لا أصلق هذا!
 فقال الرجل مبتسماً في هدوء:
 - بل تصدقه كل التصديق، ولعلك تحته فيها
 مضى، وما قد صحّ تخمينك، فلماذا ترى؟!
 فرنا الشاب إليه صامتاً في إشفاق وألم، حتى ضاق
 بصمته فقال محزوناً:
 - ليس أحب إلي من أن تبدأ حياة جديدة شريفة!
 فضحك حسن عالياً ثم قال بسخرية:
 - بفضل حياتي غير الشريفة أمكنني أن أدفع عن
 أسرتنا غائلة الجوع، وأن أزود أخلاك حسين بما كان في
 حاجة إليه كي يباشر عمله الحكومي، وأن أهنئ لك
 قسط المصروفات الذي جعلك ضابطاً والحمد لله.
 ووخزه كلامه بمثل شك الإبر فترأت له الحياة

لاحت فيها. غضب الرجل، ولو ثار غضبه حيال
 شخص آخر غير حسين لانسجر، ولكنه كظمه وعالجه
 بالحنس. أغضب شعوره بأن أخاه يعلم من أمره أكثر
 مما يتظاهر به، وأنه يعامله معاملة الأطفال. ولو أنه
 صارحه بذات نفسه، بل لو أنه وصفه بالشر كما
 وصف أصحابه لما غضب كما يغضب الآن. وعزم على
 أن يكشف القناع عن الحديث الكاذب فقال باقتضاب
 وبصوت - رغم كظمه غضبه - غير الذي تكلم به من
 قبل:

- إني واحد من هؤلاء الأشرارا
 وفخر حسين فاه دهشة فقال الآخر بجفاء:
 - حسين إنك والتظاهر بالدهشة. لست غيباً
 ولست غيباً فيحسن بك أن تحدّثني بالصراحة التي
 تعودت أن تحدّثني بها دائماً. ما وجه الغرابة في أن
 أكون شريراً؟ ألم أكن طوال عمري هكذا؟
 وخفض الشاب عينيه في وجوم وخجل وتشتت
 منطقه فانهقد لسانه، وارتاح الآخر لارتياكه فعادوه
 مرحة وأراد أن ينهي هذا الحديث المؤلم فقال:
 - لا عليك من هذا، ولعن الله الرجل الرعيد
 فلولا فزعه الصبيان ما جرى الحديث بيننا هذا المجري
 السخيف، ولعد الآن إلى الأهم (ثم ضاحكاً) لا شك
 أنك جئتني لحديث آخر!
 فجمع الشاب ما تشتت أفكاره وقال متنبّهاً:
 - الحقيقة أنني ما جئت إلا لهذا الأمر!
 فلاح الاستنكار في وجه حسن وقال متهمكاً:
 - حسبك جئت تطلب نقوداً!
 وشمر الشاب بغضب أخيه ولكن لم ينش عن عزيمته
 فقال بلهجة رقيقة متودّداً إليه:
 - بفضلك السابق لم أعد في حاجة إلى نقود ولكن
 مهتمّ الآن أجل من النقود، إني أريد أن أطمئن
 عليك...
 فحذجه بنظرة ثابتة وقال بسخرية:
 - لا زلت أطالبك بالمزيد من الصراحة!.. إنك يا
 حضرة الضابط تريد أن تطمئن على نفسك لا عليّ أنا!
 فقال حسين وهو يشعر بقهر وغضب:

رغم كلام الناس..

وتنهّد حسنين في ضيق وقنوط، وحقن عليه في تلك اللحظة حنقاً أسود غمّي معه لو كان شيئاً لم يكن حقاً، ولكنه كائن، ومسلط على رأسه كالسيف القاتل، فما عسى أن يفعل؟ وتنهّد مرّة أخرى وتساءل:
- أليس ثمة أمل في أن تعود إلى الحياة الشريفة؟..
أهذه كلمتك النهائية؟!

وغضب حسن، وكأنه أشفق على أخيه من غضبه فانتفض قائلاً وقطع الحجرة الصغيرة ذهاباً وإياباً مرتين مفرغاً بخار غضبه في حركاته العنيفة، ثم استند إلى حافة السرير، وشبك ذراعيه على صدره، وقال بلهجة من نقد صبره:

- حياة شريفة، حياة شريفة! لا تعد هذه العبارة على مسمعي فقد أسقمتني. ميكانيكيّ بسرّوش معلودات في اليوم، أهذه هي الحياة الشريفة؟!.. السجن أحب إليّ منها! ولو أنني استمسكت بها طوال حياتي لما حلّيت كنتك بهذه النجمة، اتحسب أن حياتي وحدها غير الشريفة؟.. يا لك من ضابط واهم!.. حياتك أنت أيضاً غير شريفة، فهله من تلك، ولقد جعلت منك ضابطاً بنقود محرّمة مصدرها تجارة المخدرات وأموال هذه المرأة (وأشار إلى الصورة)، فانت مدين ببذلتك لهذه المومس والمخدرات، ومن العدل إذا كنت ترغب حقاً في أن أفلح عن حياتي الملوّنة أن تهجر أنت أيضاً حياتك الملوّنة، فاخلع هذه البذلة ولتبدأ حياة شريفة معاً!

واصفرّ وجه حسنين وغضّ بصره في ذهول ويأس وقد امتلا صدره غيظاً وحقدًا. وانفجرت شفاه أكثر من مرّة كأنه يهيم بالكلام ولكنه كان يطبقها في تسليم اليأس. ولم يرمحه حسن على ما بدا من قهره ووجومه فقال:

- أرايت أنك تؤثّر النجمة على الحياة الشريفة؟!.. ولست المومك فأنا مثلك أوثّر رزقي على الحياة الشريفة (ثمّ ضاحكاً).. نحن شقيقان ويجري في عروقنا دم واحد!

وغض حسنين عابساً وهو يقول:

ضيقة خائفة، ولكنّ رغبته الخاطئة في الدفاع عن نفسه أبت عليه أن يسلم بالخزيمة فقال:

- كان هذا بفضل نبلك ولا فضل لهذه الحياة الخطيرة في ذاتها!

- لا تتألم نفسك. إنهم يدهونني بالرومي لا بالنبيل. ثمّ ما هي الحياة غير الشريفة؟ ليس ثمة إلا حياة فحسب، وكلنا يسعى للرزق..

- توجد حياة آمنة، وحياة يفرعها مجرّد ترومهم البوليس..

- هذا من عسف البوليس، ولا ذنب لنا، بالله خبّري ماذا تريد عليّ أن أصعل؟

فقال حسنين بحماس وقد لاحظ له بارقة أمل:
- اهجر هذه الحياة واختر لنفسك عملاً شريفاً كسابق عهدك.

وانضرّ الرجل ضاحكاً وتساءل في دهشة:

- صبيّ ميكانيكيّ؟!.. هذا كمن يطلب إليك أن تستقيل من الجيش لتبدأ من جديد بالتوفيقيّة! وعلى حق الشاب في أمعائه مرّة أخرى، ولكنه تسام في هدوء وإبتسام:

- ألا تدري ما النهاية المحتومة لحياتك؟

فقال متهكّئ في بساطة:

- أن أسجن أو أقتل!.. وإذا قُدر عليّ أن أقتل أوّلًا نجوت بطبيعة الحال من السجن!

فتظاهر بالضحك وما يزداد إلا حنقاً، واشتدّ حنقه خاصّة لاستهائته، ومع أنّه يش منه أو كاد إلا أنّه استطرد قائلاً:

- أرى أنّ خطورة حياتك لا تغيب عن فطنتك، فلست في حاجة إلى أن أبصرك بمواقفها الوخيمة، وإنّي أستحلفك بالله أن ترعى نفسك بالحكمة..

فألقي عليه نظرة طويلة باسمّة كأنه يقول له ولا تحاول خداعي بتوتكك وقال:

- لا تخف عليّ، أستغفر الله أعني لا تخف على نفسك أو سمعتك، لا تحمّل نفسك همومًا فارغة، هبني كشيء لم يكن، لا تكثّر لما يقول الناس عنكم بسببي فإنّك تستطيع أن تحيا الحياة التي تروق لك على

بقوة عتيقة ولكن يرغب به عنها ما يرغب به عن عطفة
نصرالله وعطفة جنلب. لم تمد الأمل الذي يرون إليه،
وما هي إلا لوتة في دمه يبغي منها شفاء. وأدام النظر
إليها حتى خال وجهها الهادئ المهذب عقاباً مجسماً
فوجد ونزاً في قلبه، وطرد أفكاره دون أن يبت فيها
برأي وسمعها تقول له:

- لا تحملني في هكذا. . .

ما ألد أن يضمها إلى صدره ويمطرها قُبلاً! إنه لا
يذري ما هو فاعل بها غداً ولكنه يأسى على طول
حرماته.

وقال مبتسماً:

- إني أفكر في تقيلك قبله حارة نبداً بها حياة
جديدة.

- لا يحملوك إلا هذا الكلام!

- هل ثمة ما هو أحل؟

فتركت قليلاً ثم خفضت عينها قائلة:

- يوجد ما هو أهم!

وحلس ما تعنيه بلا تردد. وساوره قلق. ولكنه
تجاهل ظنه متسائلاً:

- أهم من القيلة؟!

- أحب أن تحذني جاداً ولو مرة. . .

- ولكني أود أن أقبلك جاداً!

فتضجرت فيها يشبه الحيرة، كأنها تغالب خطرة ثم بدا
كأنها تغلبت على حيرتها فقالت:

- ألا تلدي ماذا قالت أمي؟

صدق حدسه! لا بدّ مما ليس منه بد! وتساءل
متبهاً:

- ماذا قالت؟

فقالت بصوت منخفض وفي عناء من حياة:

- قالت لي لقد طال الانتظارك، وما قد صار ضابطاً!
وأحسن في أمهاته بحق حاتم كأنه سمع تحديقاً،
ومع أنه كان يعلم بأنه ليس له حق في حقّه إلا أنه
كره الالم في تلك اللحظة. ثم تساءل:

- هل تتعجل الزواج؟

فتضج وجهها بالاحمرار وغمغمت:

- لا تسخر مني جزءاً ما أولئك من نصيحة!

ثم انجهم نحو باب الحجرة وهو يقول:

- أستودعك الله. . .

ولمّا وضع يده على أكرة الباب سأله الآخر برقة
مفاجئة:

- ألا تريد أن تسلم علي؟

فتحوّل إليه ومدّ له يده، فشدّ عليها الآخر وأبقاها
في يده وهو يقول ضاحكاً:

- يؤسفني أنني أغضبتك. انس ما كان ولنبق كما كنّا
ولو على البعد، ستجدني دائماً «الرومي» الذي عهدته.
ولا تنس أن تهدي سلامي إلى أمنا ونفيسة. مع ألف
سلامة. . .

- ٧٢ -

وأطلع أمه على صورة واضحة من سيرة حسن فقد
كان صدره أضيق من أن يتسع لها وحده. واستمع لما
جاء به لسانها من شروب العزاء والنصح بقلب
مغلق، كان في الحقيقة متجهماً متسائلاً حاقداً. ولمّا
كان لديه بضعة أيام من الفراغ قبل أن يبدأ عمله
بالفرقة فقد خطر له أن يسافر إلى طنطا للقاء حسين،
وعاوده شعوره القديم بالحاجة إلى مشاورة أخيه فيها
يلتم به من أحداث. بيد أنه لم يقدم على تنفيذ فكرته
ويداً كالمتردد، وفيها بين هذا وذلك لم يجد من سلوى
إلا في شقة فريد أفندي. ولكنه كان يذهب إليها
ناشداً عزاء لا ملجأ شوقاً، ولم تغب عنه حقيقة مشاعره
فحمل كتابته العامة مسئولية تفرّره، ثم أخذ يستين أن
تفرّره أعمق من أن يكون أثرًا عارضاً وقتياً، وتساءل في
حيرة ألم يعد مجيئها؟ عرض له هذا التساؤل أول ما
عرض في ضحى اليوم الذي جاء بعد زيارته لحسن
بيومين، وكان يجالس بهبة على انفراد بحجرة الاستقبال
على حين شغلت الالم بالمطبخ، فجعل ينظر إلى الفتاة
متسائلاً ألم يعد مجيئها؟ هي فتاته بجسمها وروحها،
ولم تزل مثار رغبة جاعة ولكن كأنه يرغب في أن يولي
عنها فيها يرغب أن يولي عنه من ماضيه جميعاً. وتغير
بين رغبته فيها وما يتساءل عنه من انتهاء حبّه لها!
أمكن أن يرغب فيها ولا يجيئها في أن؟ إنه يُجذب إليها

- كلا ولكنك ترى أنه أن تعلن الخطبة.

- ألم يتم هذا؟

فنجسست بنصر يمانها في حياء وغمغمت:

- ثمة أمور لم تزل ناقصة. . .

وفهم ما تشير إليه في استياء لم يدر سببه. لم يكن ثمة شيء مستغرب فيها يطلبون ومع ذلك حتى عليهم جيئاً وركبه شعور المظارذ إذا تمهده خطر، وتفرس في وجهها وهو يدر ما قال زملاؤه عنها في الأتوبيس وقال لنفسه وثانة طيبة ولكنك ليست أهلاً لأن تكون زوج ضابط مثلي، ولو تم هذا الزواج لكان الأول من نوعه! ثم قال لها في هدوء باسم:

- هذه أمور لا وزن لها.

- ولكنك هاتئة جداً في نظر الناس فطلما تسامل أقاربنا عن الخاتم. . .

وعجب لحساسها، وفقى لو كانت تعلن عن بعض هذا الحساس في الحب. ولكنك تريد أن تتزوجي لا أن تحبي. هذا سرّ برودها وتحفظها. وإذا لم يكن حب، بل وحب قهار جنوني، فما الذي يبريني بالزواج منها؟! وقال:

- لا داعي للمجلة، ستحقق آمالنا في السوق المناسب.

- ومتى يكون هذا الوقت المناسب؟

فقرّب ما بين حاجبيه كأنه يفكر وقال:

- أطلق إذا رُيت إلى رتبة الملازم أول أصبح في وسعي أن أفتح بيتاً مع معاونتي أهلي الذين لا يستغنون عني كما تعلمين.

وبدا في وجهها الوجوم وجعلت تقرض ظفرها حانية الرأس خابية العينين. ومع أنه ارتاح لتصرّيه الذي مدّ له في حرّيته إلا أنه رأى لشظفها، وجرى بصره على جسمها فنقّ قلبه وتنامى أفكاره وغاؤه وحققه فنبض إليها وجلس إلى جانبها على الكتبة، ولكنك تباعدت إلى نهاية المقعد وحالت دونه بساعديها قبل أن تذهب روح المقاومة الطارئة مسحة الحزن من عينيها. وقبض على ساعديها وهوى على كفّهما يقبلهما، حتى قامت مبتعدة عنه وهي تحفف:

- دعني. . . دعني. . . لم تعد كما كنت.

وقام في أعقابها مدفوعاً بفورة إحساسه وجنونه أعصابه وطوقها بذراعيه وأطرافه ترتعش، ودافعت بقوة فهوى بفيه إلى شفتيها فألمأت رأسها إلى الوراء فمسّت شفتاه طرف ذقنها، ثم تملّصت من ذراعيه ووفقاً وجهها لوجه وهما يلتهان، وصاحت به بصوت متهذج:

- لا هجم عليّ غصبا!

وانقلبت شهوته غضباً فحدثته نفسه بهجر الحجرة، وصار خطوتين صوب الباب، ثم تحوّل إليها بفتة وقد انقلب غضبه شهوة جنونية فأنقضّ عليها مصمماً على إرواء عواطفه، وطوقها بذراعيه رغم مدافعة يديها، وضمّها إلى صدره بمنف ووحشية، ثم طبع شفتيه على شفتيها، وكلّمها مالت بوجهها عنه أتبعها وجهه لأزناً فاه بغيرها، ملائياً دفعات مقاومتها بقوة وحشية، حتى سكنت بين ذراعيه في شبه إغياه. ولم يبال خورها فراح يضمّها إلى صدره حتى استشر طراوة جسمها اللدن على بطنه ولغذبه فتسرّب إلى إحساسه في ارتياح عميق كأنه كشف جديد عن لثة الحياة. ونذت عنها مقاومة طارئة ضعيفة كصحوة الموت ولكنه قضى عليها بوحيثيته. وجنّ انفعلاً وتطلّعاً واستزادة، وانصهر قلبه وسرى ذويه في أعصابه باعثاً للذة خيالية، ثم انهارا في تسليم متوقّع مفاجئ معاً. وأفاق كمن يفيق من حلم فوجدما بين ذراعيه وشفتيه على خدّهما، ولما شعرت بذراعيه تترانحيان عنها دفعتها في صدره متراجعة وقالت وهي تنهّد في صوت ضعيف:

- لن أصفح عنك. . .

ولم يترك قولها في نفسه أثراً، لا حسناً ولا سيئاً، فلم يأبه لها وكأنّ إحساسه تجاهل وجودها. شعر بظفر وارتياح ثم غلبه عليها فتور فتراجع إلى مقعده الأول وجلس عليه في دهشة. ولبت هي بموقفها كالتردّد ثم عادت إلى مجلسها في استياء وراحت تعاتبه وتعتقه دون أن يلقي إليها بالاً. وزنا إليها بغربة وسامل نفسه: أهذه هي؟ أهذا أنا، أين هي وأين أنا؟ ثم ران عليه فتور ثقيل أكثر ممّا يحتمل.

وجعل يصغي إليها دون أن يحتمل نفسه مشقة

- لقد خُلِّقت لتكون أبًا بارًا...
فابتسم حسين على ما أثار قوله في نفسه من
ذكريات حمزة ولكنه لم يعلق عليها بكلمة وقال مشيرًا
إلى نجمة الضابط:
- إني فخور بك...
فقال حسين بنائر:
- إني ملين بها لنيل تضحيتك.
وهبط قوله على قلبه بردًا وسلامًا، وتتم:
- لا تبألغ! أنت رجل جدير بكل خير...
وقال حسين لنفسه «هذا شقيق لا يشين، ولولا
ماضي نفسي وحاضر حسن وماضي ما وُجد إنسان على
الأرض أسعد مني» ثم قال لأخيه بسرور:
- أبشر لقد رجوت أحمد بك يسري أن يسعى
لنقلك إلى القاهرة فوعدي خيرًا...
- عفارم! وبهذا المناسبة أخبرك أنني سأعود معك
إلى القاهرة قائمًا بإجازتي السنوية...
ثم غادر الفراش وهو يقول:
- اغسل وجهك ونفّس بدلتك من وعاء السفر
وهلمّ ننطلق إلى المدينة فلا خير في البقاء في هلهة
الحجرة الضيقة...
وارتدى بلبسته ثم خرجا معًا يتمشيان في طرقات
المدينة، ثم مضى به إلى قهوة السمر وجلسا معًا
يواسلان حديثها. وتكلم حسين عن حياته في طنطا
كثيرًا، وشكا إلى أخيه وحدته وكيف عوّده على غشيان
المقهى كلّ مساء فيمضي ساعتين على الأقلّ مع نفر من
الموظفين يلعبون الزرد حينًا ويسمرون حينًا آخر، ثم
يعود إلى الفندق فيطالع ساعة أو أكثر قبل النوم،
وحديثه عن آخر كتاب ابتاعه وهو الاشتراكية لكدونالد
الترجم عن الإنجليزية وكيف أنّ النظام الاشتراكي لا
يتعارض مع الدين ولا الأسرة ولا الأخلاق. كان في
وحده وضيقه يسعد بأحلام الإصلاح ويتخيل مجتمعا
خيرًا من المجتمع الذي يعيش بين أعضائه، وحالًا
خيرًا من الحال المقدورة له، وأسمعه الأمل في إمكان
تحقيق خياله دون الاعتداء على العقائد التي أشرب
حبها والإيمان بها منذ طفولته.

الاعتذار، وانتهاز فرصة حضور أمها فجالسها دقائق ثم
قام مستأذنًا في الانصراف. ولمّا غادر الشقة شعر
برغبة في الهرب، وحينذاك عاودته فكرة السفر إلى
طنطا فابتسم لها في ترحاب وحماس.
- ٧٣ -

عندما انتهى إلى فندق بريطانيا بشارع الأمير فاروق
بطنطا كانت الساعة حوالي الخامسة مساء وقاده غلام
إلى حجرة أخيه فنظر على الباب ووقف مبتسمًا انتظرًا
للمفاجأة السارة وفتح الباب وظهر حسين في جلبابه،
وسرعان ما اتّسمت عيناه دهشة فاقبل على القادم وهو
يبتف:

- حسين! لا أصدّق عينًا!
وتعانقا عناقًا حارًا، ثم دخلا الحجرة الصغيرة
وحسين يلقي عليه نظرة متفحّصة في حبّ وإعجاب ثم
قال بصوت متهدّج من التأثر والسرور:
- يا لها من مفاجأة سعيدة. ألهكذا هجم
العسكريون بلا إنذار؟ مبارك. لقد أرسلت برقية
تهنئة...

- وصليتي ورأيت أن أجيتك بنفسى شاكرًا!
- وكيف حال نيتة ونفيسة؟
- على خير حال. وجدت لديّ بضعة أيّام إجازة
قبل بدء العمل فقبلت أن أمضيها معك...
- أحسنت صنعًا. وحسن؟ أما من جديد عنه؟
وغاض البشر من وجه حسين ولكنه أبى أن يخلط
باللقاء كدرا فقال:
- دعنا منه الآن على الأقلّ...

وحسد حسين ما أحزنه ولكنه لم يكن أقلّ رغبة
منه في تأجيل التكد إلى وقت آخر فدعاه إلى الجلوس
على الكرسي الوحيد وثوب هو إلى الفراش. وتبادلوا
نظرات مشوّقة متفحّصة فلمس كلّ منهما ما طرا على
الأخر من أمارات الصحة والعافية وإن كان وزن
حسين قد زاد أكثر مما يتصوره أخوه، كذلك وجدته قد
رَبّ شاربه بطول شفّته وعرضها ممّا أكسبه مظهر
رجولة وقور وجعله يبدو أكبر من سنّه، وقد داعبه
قائلًا:

- وأسفاه، كان حسن ضحيةً للمرحوم والدنا،
وكان والدنا ضحيةً لضيق ذات اليد!

فقال حسين بجزع:

- ألا تستطيع إقناعه بالإقلاع عن أسلوب حياته؟

فقال الآخر متنبِّهاً:

- لن يقلع عنها مهما قلنا أو فعلنا، شيء واحد
يستطيع أن يعدل به عن حياته وهو أن نغيث له رأس
مال مناسب كي يبدأ حياة جديدة، فهل يسعنا هذا؟
وتبادلا نظرة يائسة لأن السؤال لم يكن في حاجة إلى
جواب، ثم قال حسين بحذّة:

- أنتركه في غيّه كي يقضي على آمالنا!

- لقد قضى على نفسه.

- وعلينا! كيف تواجه العالم ولك مثل هذا الأخ؟
سوف تظهر أسوأنا يوماً في الجبال بين أصدقاء
الحوادث والجنابات!

فتنبّذ حسين عزوئاً متفكّراً في كلام أخيه الذي
رجّع أصدقاء أفكار طالما أكرهته في وحدته، ولكنه قال
معارضاً أخاه ونفسه معاً:

- لا ذنب لنا، ولا يصح أن ندع الحظوظ يتهوّل في
قلوبنا. قد يصيبنا رشاش من السنة الناس، الآن أو
فيما بعد، ولكننا لن يمكننا مواجهة الحياة إذا لم نُدّرع
بقدر من عدم المبالاة...

بدا له حسين كأنه لا يمي ما يقول، أو كأنه لا
يبالي السمعة الطيبة التي هي أمّ كل أمل في الحياة بيد
أنه مهما يكن من أمره فهو ليس ذا أصدقاء كأصدقائه
يشفق من أن يظلموا على أسرار أسرته، كذلك لا
تنازعه نفسه إلى المجد والطموح فليس في أماله ما
يخاف عليه السنة الناس. أجل أخطأ تقديره ولن يجد
من أشبهه مشاركة وجدانيّة، وحتى عليه في تلك
اللحظة كثيراً. واحترق استسلامه وهدهوه. واندفع
قللاً وكأنه لا يروم إلا الترويح عن حلقه:

- هل نعدّ أنفسنا شرفاء؟

فقال حسين بهدشة:

- ولم لا؟

- ولكننا استعنا على تقويم حياتنا بنفوذ ملوثة!

ثم تساءل في نفسه ترى هل أفضت آتاه للشباب
بالسر الذي دفعها إلى زيارته منذ عام ونصف؟ ولما لم
يشر حسين إلى الموضوع بكلمة اطمأنّ إلى أنها كتمت
الأمر كله وهو ما ترجّح لديه من بادئ الأمر. وذكره
هذا الخطر بالآله الماضية ولكنه ذكرها بقلب خالٍ
هادئ لولا حنينه العامّ إلى الرفيق والحبّ ما تشجّى
قط، ثم وجد نفسه وهو لا يدري يسأل حسين عن
خطيبته! وأجاب الشاب إجابة عامّة قائلاً: وبخير
والحمد لله، وسأدل نفسه هل يصارع أخاه بما طرأ في
نفسه من تغير وتطور؟ ولكنه جفل من هذا، وأجمله
إلى المستقبل إذا جدّ جديد من الأمر، وكان يعلم سلفاً
بأن حسين لا يمكن أن يوافق على نوابه أو يرضى عن
منازعه. وتواصل الحديث بينهما طويلاً حتى عزم
حسين على غرض الموضوع الخطير الذي يشغله فقال
متنبِّهاً:

- تصوّر كم كانت الحياة جميلة لولا ماضينا وأخونا
حسن...

وأحسن حسين بما وراء هذا التنبّذ من حزن وسخط
فقال ببساطة:

- أعتقد أنّ الأمان قد انتهت، أمّا ماضينا فليس فيه
ما يُجْجل، وأمّا حسن فلن يضرّ وأسفاه إلا نفسه...

فهو رأسه دلالة على عدم الموافقة وقال في حزن:
- أنا علمت أنّ حسن قد انقلب مع الزمن بلطجياً
وتاجر مخدرات؟!

ومع أنّ حسن كان يتخلّل شقيقه الأكبر على أسوأ
حال إلا أنه لم يكن يظنّ أنه تدرّج إلى هذا القرار،
فهتف في ارتياح:

- لا تقل هذا..!

فكان جواب حسين على ارتياحه أن قصّ عليه ما
شاهدته في زيارته الأخيرة لحسن وما سمع، وأصغى
إليه أخوه في صمت ووجوم. ولما طال صمته سأله
حسين:

- ما رأيك؟

فبسط له راحته كأنه يقول له: وما حيلتنا؟ ثم
غمغم:

مكان اللوح الزجاجي المحطم، كل أولئك ذكريات عزيزة. أما سريره فلم يعد له أثر، بيع في الوقت المناسب كالقشع، ولحق بسرير حسن، وكأنه لم يعد من أهل البيت! ومع أنه كان يمدح هذا بالبداهة إلا أنه شعر بحزن وكآبة. وهنا شعر بنفيسة وهي تغادر الحجرة قائلة:

- أمهاتي ساعتين أعد لكما غداء طيبًا

وابتسم ارتياحًا. إنه لم يبق طعامًا طيبًا منذ عهد بعيد، رُبما منذ وفاة والده. أجل كان طعامه طيبًا وهو موظف أفضل من طعامه وهو تلميذ كما يشهد بذلك ارتواء جسمه، ولكنه لم يطلق لشهوته العنان قط. على أنه كان مشغولًا بما هو أخطر من لذة الطعام وهو تذوق

عودته السعيدة إلى منته الأول وجوهر الأصل. كان حنانه كالغنوة الخلوة يتردد في حواسه جميعًا، حتى هواء عطفة نصرالله الفاسد وحده له ميل ألفة ورقة وموكة فكأنه الصحة والعافية. وجعل يتحدث أنه وعيناه تترددان في أنحاء الحجرة الصغيرة حتى استقرتا على جاكete حسين المعلقة بالشجب فنظر إلى النجمة طويلاً. سبرق حسين عاصاً بعد عام حتى يصير ضابطاً عظيمًا على حين يبقى هو كاتباً في الدرجة السابعة - أو السادسة على أحسن فرض - طوال مدة خدمته. على أنه لم يجد أي أثر لشعور الحسد أو الحق، كان أبعد ما يكون عن هذا، بل كان سروره بأخيه لا يداني، ولكنه وجد نفسه يتأمل في صمت حزين الفوارق الطاغية التي تميز بين الموظفين، وامتد خياله وهو لا يدري إلى الفوارق الطاغية التي تفصل بين الناس عامة. ترى ألا يمكنه إذا نُقل إلى القاهرة أن يلتحق بمعهد ليبي عسى أن يتغير من حال إلى حال؟ وابتم قلبه لهذا الخطر السعيد وأودعه صدره كامل احتياطي يلجأ إليه في حينه فينتجيه من مصير كمصير حسن أفندي حسن! وحتى حسن أفندي نفسه لم يكن ليرقى إلى الدرجة السادسة لولا الوزير الوفدي؟ وذكر عند ذاك أموراً سمع بها في طنطا فساد أشاع: - هل حقاً ما يقال عن احتلال سقوط الوزارة؟ فضحك حسين قائلاً:

تطائر الشر بنته من عيني حسين، وحلق في وجه أخيه وهو صامت، وكأن الآمه الدفينة قد طفت على سطح قلبه داعية معها من الأعماق أسوأ الذكريات، ثم قال بحدة:

- كنا في موقف دفاع عن النفس، والدفاع عن النفس يُجَلِّ القتل...

وشعر حسين بارتياح خفي لغضب أخيه، وجعل يتساءل في حيرة عما دفعه إلى مجابته بهذا التصريح الليم. ثم استطال الصمت حتى سئما الموضوع فخاضا في غيره، غير أنه مضى زمن غير قصير قبل أن يطيب لهما الحديث...

- ٧٤ -

وبعد بضعة أيام عاد الشقيقان إلى القاهرة فكان يوم في حياة الأسرة لا ينسى. وقبِلَت الأم حسين طويلاً ثم عانقت نفيسة عناقاً حاراً، وأضفى الشات ساعة طويلة من الظهر وهو يتحدث عن طنطا وحياته بها والمرأتان مصتتان. وجعلت نفيسة تفرس في شاربهِ ويدانته الأخذة في النمّ فهاها تغتره وقالت بامتكار:

- فيم تبدو كالرجال وأنت طفل!

فقال حسين مبتسماً:

- لم أعد طفلاً.

وقال حسين ضاحكاً:

- نحن رجال وأنت أخذتنا «الكبرى»!

فقال الفتاة بحدة:

- كنت أكبركم فيها مضى أما من الآن فصاعداً فانتما تكبرانني، هل تفهمان؟!

ثم التفتت إلى أمها وسألتها في اعتراض:

- هل يعجبك هذا الشارب الذي يكبر نفسه

ويكبرنا معه بلا داع؟!

وكان الوقت ظهراً فراح حسين يخلع ملابسه، وقد بدا البيت لعينه غريباً، بيد أن حبه العميق لأسرته ولبيته استيقظ ودر حنائاً فملكه ارتياح شامل، ارتياح من اهتدى إلى مأواه بعد أن تحيط ضبالاً طويلاً، وأجال طرفه في حجرة المذاكرة، هذا المكتب القديم، وهذين الكرسيين، وهذه النافذة التي تقوم صفحة الجريدة منها

- غير مسموح للضابط بالاشتغال بالسياسة.

فضحك الشاب، ثم قال:

- كيف تسقط بعد أن نقض الإنجليز أيديهم من سياستنا؟

وتساءلت الأم:

- أنعمد مرة أخرى إلى المظاهرات؟

- من يدري؟

فعادت تقول بقلبي:

- لا شأن للجيش مع المظاهرات؟

فقال حسين بمكر:

- إذا قامت ثورة فلا بد من تدخل الجيش!

وضحك حسين، وأدركت الأم ما تعنيه ضحكته

فرمت حسين بنظرة شذراء وهزت منكبيها استهانة.

وعادت نفيسة لتقول لهم إن الغداء ينتهي على أحسن

حال، ثم سألتهم عن السلطة المفضلة لديهم،

وغادرت الحجرة مشفرة من ساعديها والعرق يتصبب

من جبينها، وماد الصمت فساد حسين إلى أفكاره

وفكر هذه المرة في الإجازة وكيف يمضيها. كان

الموظفون في طعنا يدعونه باليهودي لأنه لا يقامر ولا

يسكر ولا ينفق أكثر من قرش واحد في القهوة،

ولكنهم جهلوا حقيقة حاله. أجل إنه مَيَّال بطيئه إلى

الاقتصاد ولكن هل تركت مسؤولياته له شيئاً يقتصد؟!

ولم تذهُ أمه لأفكاره طويلاً فعادت تنازعه الحديث،

وخيل إليها أنها ترنو إليه بحنو نادراً ما تعلنه، ترى هل

ذكرت كيف قست عليه يوماً؟! لقد قست عليه حقاً،

ولكن قسوة الدهر عليهم جميعاً كانت أعظم. ترى

ماذا هي فاعلة مع حسين؟.. ولكن لماذا لا ييلو

الفنى متحمساً لزواجه! لماذا لم يحمله عنه؟! وحوالي

الساعة الثانية جاءت نفيسة حاملة صينية الغداء،

فوضعتها على المكتب وهي تقول:

- نأكل اليوم على المكتب لأن الموظفين لا يصح أن

يأكلوا على الأرض.

جمعتهم المائدة لأول مرة منذ عامين، ثم عادوا إلى

جلستهم على الفراش الصغير وواصلوا الحديث في

أنس وسرور، وحوالي منتصف الرابعة دق الباب

الخارجي فغادرت نفيسة الحجرة لتفتح للقدام. ووثب

لرأس حسين خاطر عجيب، أتكون أسرة فريد أفندي

قد جاءت لتتفنى العائد؟! وفي هذه الساعة؟

وعادت نفيسة جريئاً ووقفت على عتبة الحجرة وهي

تنظر إليهم بعينين مشعيتين تلوح فيهما السدسة

والانزعاج، ثم هفت قائلة:

- ضابط وعساكر...

- ٧٥ -

ووقف الشقيقان في دهشة وحسين يتناول جاكته

ويرتديها بسرعة متسائلاً:

- ماذا يريدون؟

وكانت نفيسة تردد بصرها بينهم وبين القادمين

فقالت فجأة بدهر:

- رياه... لقد دخلوا الصلاة.

واندفع الشابان خارج الحجرة فوجدوا ضابطاً

وشرطيَّين ورجلاً آخر يبدو من مظهره أنه غنبر، فتقدم

حسين من الضابط متسائلاً:

- ماذا تريد حضرتك؟

فقال له الضابط:

- لا مؤاخذه، لدي أمر بتفتيش هذه الشقة!

وأطلعه على أمر كتابي فنظر فيه حسين بعينين لا

تريان شيئاً، على حين سأل حسين:

- لعلك أخطأت الشقة. ماذا يدعوا لتفتيش بيتنا؟

فقال الضابط:

- نحن نبث عن حسن كامل عليّ الشهير

بالروسي!

وجم الشابان وهما ينظران إلى الضابط في انزعاج

وقنوط، وكانت المراتان تقفان على عتبة الحجرة فركبها

الدهر وتسمرتا في مكابها. وعاد الضابط يقول:

- لقد قبض على بعض شركائه ولكنه اختفى قبل

القبض عليه، ودلنا بعضهم على مسكنه الأول وثقفنا

من هذا بواسطة شيخ الحارة...

فقال حسين بصوت متهدج:

- ولكنه لا يقيم هنا. لقد غادر بيتنا منذ أعوام ولا

ندري عنه شيئاً.

- بؤدي لو أقتل...! لن يروح عن صدري أقل من القتل.

وضاقت الأم بعنفه بنفسه فمضمت قاتلة:

- هتئى من روعك يا بني، ماذا يجدي ضربك نفسك هكذا؟

فصاح في غضب:

- دعيني أقتل نفسي ما دمت لا أجد من أقتله!

وخرج حسين عن صمته فقال بصوت غريب:

- يجب أن نتدبر أمرنا في هدوء.

فرماه بنظرة من عيني محمومين وقال:

- أي أمر نتدبره...؟ لقد انتفضحت وانتهينا!

- هذه مصيبة لا حيلة لنا فيها ولكننا لم نشه، فلتدبر أمرنا.

لم يكن صدره ليحتمل المناقشة فمضى إلى حجرته وارغى على فراشه، وكان الخزي يجثقه والغضب يحرقه فمقت أخاه المذنب مقتاً قاتلاً ود معه لو يجفبه عنه الموت إلى الأبد. واستسلم لخواطر دموية جنونية راح يجترها في ذهول وهليان، ولحق به حسين فجلس على الكرسي صامتاً متحاباً لإثارته، وكان هو نفسه في حالة تستحق الرثاء. لم يبلغ منه الحزن يوماً ما بلغه في تلك الساعة، فلم يقب عنه ما أصاب سمعته من طعنة قاتلة، وما يتهددهم من لالال في الحاضر والمستقبل وما نزل بأخيه الأكبر من قضاء لا قائلة له بعده. ماذا جنت أسرته حتى تستحق هذا كله؟ وأخذت تنجتمع في ذاكرته ذكريات من آلام الماضي ويربطها بالآلام الحاضر فبلدت له كلشل خطير يتكشف فجأة عن مضاعفات سامة في الوقت الذي يظن به الاندمال والشفاء. وكعادته قرن آلام أسرته بالآلام الناس فوجد نفسه يتأمل حزناً شاملاً، وكان يلقي على تأمله هذا كآبة لا شك فيها ولكنها كثيراً ما توحى بشيء من الصبر والعزاء. ثم نزعته به نفسه إلى تلمس بصيص نور في ظلامه المحيط، وجعل يسترق النظر إلى وجه أخيه المكفهر متحيراً فرصة لمحاذاته.

ولبثت الأم وابتهنا بموقفها ونفيسة لا تمسك عن النجيب. لم يعد بوسع المرأة المحزنة أن تحسن التفكير

فهز الضابط رأسه وقال:

- على أي حال سأقوم بتفتيش الشقة تنفيذاً للأمر...

وبدا التفتيش فترجع أحد الجنديين إلى الباب واقتحم الضابط والأخيران الحجرات، وقد جمد الشقيقان في موقفها كأنهما استحالا حجرين. وقال حسين لنفسه وسأذكر هذه الساعة ما حيت، وتبع خياله الضابط وهو ينتقل من حجرة إلى حجرة، وكأنه يرى معه الحجرات الحالية العارية ويقلب أثاثها البالي الحفير ظهراً لبطن. لم يكن تفتيشاً عن حسن فحسب، لأن حسن لا يمكن أن يجنث في درج المكتب أو تحت حشية الفراش، فالفضيحة أظفح مما يتصور. وحق في تلك اللحظة الهيبه لم يستطع أحد أن ينتزع من نفسه الحجل الجوارح الذي عفى عزة نفسه والضابط يتك بعينه المتفحصتين حفارة البيت وفقره، وبلغ سمعه - على ذهوله - صوت بكاء مكتوم فارتفع بصره إلى نفيسة وصاح بها بحدثة جنونية:

- اكتمي أنفاسك!

وانتهى التفتيش فامر الضابط رجاله بمغادرة الشقة ثم اقترب من حسين وقال برقة:

- أكرر الأسف. وإنه ليسرني أني لم أعر على شيء

كان حزيناً بأن يسبب لكم المتاعب!

ورفع يده إلى جبينه بالتحية وغادر الشقة غلغلاً وراه سكوتاً عزناً، وتبادل الشقيقان نظرة ذاهلة دون أن ينسبا بكلمة، وأقبلت المراتان نحوهما بوجهين ميتين. وانتبه حسين من ذهوله بغته متوكمًا فوثب إلى الباب وأبرز رأسه رامياً بظفره إلى فناء البيت فرأى رجال البوليس في نهاية الفناء يشقون طريقهم وسط لمة من الرجال والصبية بينهم البقال والحذاد ورائع السجائر فترجع وهو يضرب صدره بقبضته صائتاً:

- الجميع يتفرج على فضيحتنا. انتفضحتا وانتهينا.

وعاودت نفيسة البكاء ونظرت الأم إلى حسين كأنها تستغث به ولكن الشاب لم يدري ماذا يقول، وبدا كأنه يقاوم طعنة قاسية. وجعل حسين يذرع الصلاة وهو يواصل ضرب صدره بعنف ويقول:

والتدبير، غلبت على أمرها. وقهرها الحزن والأسى. وكان قلبها يعاني الآلام التي تتوزع قلوب أبنائها جميعاً يضاف إليها ألم خاصّ دفين يجيئها بقدر ما يعلّجها، وتشفق إشفافاً شديداً من ذبوعه واقتضاحه، هو ألمها لحسن نفسه. أين ذهب؟ ماذا يفعلون به لو قبضوا عليه؟؟ أيّ مصير يرصده؟ لا ينبغي أن تذكر له إلا عطفه وحنانه، وأنه جاذ لهم بخير ما في نفسه، وأنه كان ملاذهم في الملمات. يا له من طريد لا نصير له ولا حبيب! حتى أهله ينكرونه ويمقتونه. عين حسود أصابتهم، نفسوا عليها الموكلف والضابط ونسوا الآلام التي تركتها حطاماً، وتهدّت في عصية لأثام لم تعد تحتمل نحيب نفيسة وانتهزتها قائلة:

- كفك بكاء ارحمني قلّي لا أجد من يرحمني!

ولكنّ نفيسة لم تكن تلكم من نفسها شيئاً، حتى آلام الموقف الحقيقية غابت عنها في حالتها العصبية. غلبها خوف غريب ترتعد منه الضرائص. ولم تكن تبكي حزناً أو أسفاً أو غضباً ولكن بكاء هستيرياً تغالب به خوفاً لا يُغلب خيل إليها معه أنها هي المطاردة. وتوقع قلبها شراً عظيماً، انقطع عما وقع، فتلفتت فيها حوها في دهر كأنها تحشى أن ينقض عليها فجأة. وسمعت أنها تقول بصوت ضعيف «هلّمي بنا إليها» فرحبت بالدعوة لتفرّ من مشاعرها وسارت وراء أمها إلى الحجرة في خطوات ثقيلة، ثم خفق قلبها وهي تجوز العتبة كأنها تجفل من لقاء أخوتها. . .

- ٧٦ -

ثم التفت حسنين إلى حسين وسأله بوحشية:

- أين نظّنه هرب؟

وكانت مرّت فترة من الوقت ثاب فيها حسين إلى بعض نفسه فلم يورث لهجة الشاب القاسية وقال:

- من لي بأن أعلم! (ثم بلهجة لا تخلو من تأنيب) تذكر أنه أخونا!

- بعد هذا كله!

- نعم، بعد هذا كله. . .

نطقها بصوت حميق ليعزّي قلباً يعلم أنه - على سمته - في أمسّ حاجة إلى العزاء، ولكن ثارت ثائرة

الأخر وصاح به:

- لقد قضى علينا. . .

فقال حسين بصوت متعب:

- لا تبالغ ولا تصح. ينبغي أن تفكر في هدوء.

- إنّ الحّي كلّهُ يتحدّث عن فضيحتنا. .

فقال حسين في هدوء:

- في وسعنا أن نهجر الحّي كلّهُ. .

فتطلع إليه حسنين بعينين حائرتين انشقت ظلمتها

عن بصيص أمل. هذا دعاء تفو له نفسه مليّة وكأنها

هي التي تتكلّم، وضمهم قائلاً:

- ماذا قلت؟

- لمّ لا؟ القاهرة واسعة لا تُحَدّ، وسيطوي النسيان

قصتنا في أقلّ من أسبوع!

فتهدّ حسنين في شبه ارتياح، ولكنّه قال في حذر:

- لن نحمو الماضي.

- فلنفكر في المستقبل. . .

- ولكنّ الماضي سيطارده المستقبل إلى الأبد. . .

فقال حسين بجل:

- فلنفكر جدّياً في الانتقال إلى مكان آخر. ويجب

أن يتمّ هذا قبل انتهاء إجازتي.

وقالت الأم برجاء:

- أجدر بنا أن نفكر في هذا حقاً.

وردّد حسنين نظره بينهما حائرّاً. قد يُقبض على

أخيه وقد لا يُقبض عليه ولكنّه سيظلّ على الحائتين

يطاردهم ويتهدّهم. ان يطمئنّ لهم جانب وهو على

قيد الحيلة. ثمّ تسأل في فتور:

- أين نذهب؟

فقالت الأم في أمل:

- إلى شارع شبرا بعيداً عن هنا.

فتنتّ عنه حركة تنمّ عن الجزع والسخط وقال:

- أبعد من هذا، أبعد من هذا. . . إلى مصر

الجديدة!

فقال حسين في شيء من الارتياح:

- كما نشاء. . .

فلاح في وجهه تردّد طارئ، ثمّ قال متهدّداً:

الجديدة إلى مكراتهم السابقة. سحقاً لهم، لشذ ما يضيق صدره بالمكرات قديمها وحديثها، وإنه ليتطلع إلى قوم جدد لا تحول بينه وبينهم المكرات ولا يربط الماضي البغيض أسبابه بأسبابهم. «انظري بحزن وحيرة كيف شئت، لست لك، لست لك. ينبغي أن يتغير كل شيء». ماذا فتني في هذا الجسم؟! الآله لحم طري؟ الأسواق ملأى بهذه اللحوم. جؤ بغيض. لو طال المقام بي هنا أكثر من ذلك سأبغض أسرتي نفسها. وطالت الزيارة فجعل يتحملها في صبر حتى انصرفت الأسرة قبيل المغرب بقليل. وقد دسّت الفتاة في يده ورقة مطوية وهي تسلم عليه، ولما أن خلا إلى نفسه ووسطها وجد بها هذه العبارة «قابلي فوق السطح». كانت أول رسالة توجهها إليه، وتفحص الخط بعناية وغرابة فوجده بخط الأطفال أشبه، وذكر لثوره تعليمها الابتدائي! بيد أنها كانت على إيجازها عميقة الدلالة حتى لكأنها صرخة استغاثة. ولا شك أنها كتبتها خلسة في شقتها قبل الزيارة عما يندل على أن قلبها توجس خيفة من أن يواصل فراره منها الذي بداه بالرحيل إلى طنطا. وأحسن بفهم في قلبه وشمله عدم ارتياح لسخط كما يسخط على كل شيء حوله. ولكن فيم يسخط؟ أليس من الخير أن تلّم بما طرأ على نفسه؟ وهل كان يظن أن الارتياح لن يشرّب إلى نفسها بعد سفره المفاجئ؟ ولكن. لن يرضخ لضغط الظروف حتى يدمر نفسه بنفسه، ولن يغامر بسعادته ومستقبله من أجل عاطفة طفلية قديمة ووعد صياني. وخاف أن يخلو إلى نفسه أكثر عما خلا فمضى إلى حجرته وقال غاملاً أخاه:

«هلم بنا لنخرج.

ونضض حين موافقاً على دعوته وغادرا الحجره ممّا. ووجد ما يشبه النعم، وفقى لو كان حسين قد تكاسل عن تلبية دعوته بهذه السرعة ليعاود التفكير ولم تكن الفرصة قد ضاعت غمّاً، فلم يزل يوسعه أن يرجع نفسه، ولكنّه لم ينبس بكلمة، وواصل سيره إلى جانب أخيه. لعلّها تنتظر الآن أمام حجره الدجاج! وتنفق قلبه خفة شديدة. تنتظر بلا أمل؟ وما أقب

«ولكنّا في حاجة ماسّة إلى أثاث جديد! فقالت الأمّ بضيق: لا تزد الأمور تعقيداً، ماذا يثمّ الأثاث إذا لم تقع عليه الأعين! لا أستطيع أن أخفي بيتنا عن أصدقائي إلى الأبد! فقال حسين:

«هذه مسألة أخرى، ويوسمك أن تتنازع كنبه وكرسين كبيرين وساطكاً أميوطياً فتجعل منها حجره استقبال مؤقتة. وإذا شئت خرجنا معاً اليوم أو غداً للبحث عن شقة؟ وبذلك خفت التوتر قليلاً وإن غشيت جؤ المكان كآبة استسلموا لها جميعاً في صمت حتى دق الباب وجاء فريد أفندي وأسرته. كانت زيارة منتظرة ولكنّها جاءت في أسوأ حال، وذكر حسين في عجب كيف حلم بها منذ ساعات، وكيف تلقّاهم الآن بمؤاد كسير ونفس فائرة. أمّا حسين فقد ثار غضبه بلا سبب ظاهر، ولو لم يره فريد أفندي ونفسي تقدّمه إلى حجره الاستقبال، لمهي هارباً إلى الخارج. واجتمعوا في حجره الاستقبال، ولقي حسين من الأسرة تحية حارة ثم استفاض الحديث عن الماضي والحاضر. وكانوا يترقّعون أن يثير الزوار مسألة التفشيش والبوليس ولكنّ آل فريد أفندي تجاهلوا الأمر كلّية كأنهم ما علموا به. ولم يلقّف هذا التجاهل من حقّ حسين، أو بالحريّ زاد من ثورته الباطنة وشعر بجرح عميق في كرامته. والتقت عيناه بعيني بهيّة أكثر من مرّة فوجدتها ترمقه بحزن وحيرة لم تخفّ عنه بواعثها منذ سفره المفاجئ إلى طنطا. ليكن، لقد ضاق صدره بهذا كله. الآن، وفي وقدة حنقه وضيقه، يستطيع أن يواجه خواطره الباطنة بصراحة وشجاعة. لن تكون هذه المرأة حماته، ولا هذا الرجل حماه... ولا هذه الفتاة زوجة! كلّ أولئك هم عطفة نصرالله بلا زيادة، عطفة نصرالله بذكرياتها السود وحاضرها الأشقر. إنهم يعلمون بما جاء بالبوليس كما يعلم الجيران جميعاً ولكنّهم يتكرّمون عليهم بتجاهل الأمر، ولعلّهم يضيفون هذه المكرومة

- أمران لا يمكن تأجيلهما وهما النور الكهربائي وخادم صغير فيغير هذين لا يصح أن يبقى هنا يوماً واحداً.

ولم يعترض على قوله أحد إذ كان مفهومًا أنه هو الذي سيُدخل النور الكهربائي ويستحضر الخادم. ثم فكر في الوسط الجديد من زاوية جديدة فتساءل في نفسه ترى هل تصلح أمه وأخته لمخالطة هؤلاء القوم؟ وخيّل إليه أنه سمع تعليقات السيّدات والموانم عقب زيارة ليته فتصاعد دمه إلى رأسه وقال غاطبًا أمه في لهجة تنم عن التحليل:

- لا ينبغي أن نعرف أحدًا في حينا الجديد ولا يعرفنا أحد فلا نزر ولا نزار.
فقلت أمه بعدم اكتراث:
- لا رغبة لي في معرفة أحد...
وقالت نقيصة:

- لا صديق لنا هنا نأسف على قطعه!
فقال لها الشاب بقلق:
- يا حبيبا لو أحملت صديقاتك الأخريات أيضا فاضطربت نفس الفتاة، ومع أنّ الانقطاع عن العالم والخارجي كان من أمانيتها إلا أنه كان أمنية تعجز عن تحقيقها دائما، ولا فتأ تساق إليه بقوة بغضه أسرة، فتساءلت في إشفاق:

- وهل أبقي حياتي سجيئة؟!
وتدخل حسين للدفاع عن أخته فقال:
- لا تغال يا أخي في طلبك...
فقال الشاب في حدة:
- لا أريد أن يزورنا أحد من حينا القديم.
- لن يتجسّم أحد زيارتنا فيا عددا فريد أفندي وأسرته.

وصمت حسين طويلا سخطه. وفكر زيارة التوديع التي قامت بها أسرة فريد أفندي أمس، وكيف عرفوا العنوان الجديد وكيف تمّى وقتذاك لو يغمض عينيه ثم يفتحها فلا يجد أثرًا للباقي كنه، خيره وشربه... ترى هل أفضت الفتاة لوالدتها بما تجد من نفوره... ترى هل بقلت من هذه العلاقة بيسر أم تشب به متاعب لا

هذا! وفي نفس المكان الذي لمس حرارته وسمع به وشكواه؟ ما أعجب هذا! وحاول أن يطرد هله الصورة عن مخيلته بتصميم عنيف، ثم سمع أخاه وهو يخاطبه قائلا:

- لن نصيّع وقتنا، ولن ينقضي هذا الشهر حتى نكون قد انتقلنا إلى البيت الجديد.

- ٧٧ -

وانقضت الأيام في البحث عن مسكن جديد حتى اعتدوا إلى بيت بشارع الزقازيق بمصر الجديدة، ذي موقع ساحر وإيجار مستطاع على حدّ قول حسين، وفي اليوم المحدّد للانتقال اجتمعت كلمتهم على حمل الاثاث مساء على غير المألوف لإخضائه عن أعين المستطلعين، وتقدّ ذلك، ولبت حسين في الشقة مع الاثاث المكوّم على حين عاد حسين إلى عطفة نصرالله ليصحب أمه وأخته إلى المقام الجديد. وودّعوا حيّهم ليلا غير آسفين، بل مستبشرين خيرا، ولما بلغوا الحيّ الجديد تولّتهم دهشة مزوجة بإكبار لما شاهدوا من اتساعه وهيمته ومناظر العمارات والفيلات المقامة على جانبيه وهوائه الجافّ النقي فلم تتهاك نفيسة نفسها من أن تقول باسمه على رغم أنّ الموقف لم يخل من ذكريات حزينة ولقد صرنا من الطبقة العالية حقًا.

وكانت الشقة الجديدة في بيت مكوّن من دورين تحيط به حديقة بسيطة فارتقوا إليها مسكًا ذا سبع درجات وهناك وجدوا حسين في انتظارهم وقد أشعل المصباح الغازيّ، ونشطت المراتان إلى فرش الحجرات الثلاث الصغيرة وعاونها الشباين فلم يستغرق تجهيز الشقة الجديدة بالاثاث البسيط أكثر من ساعة تخلّلتها فترة راحة. وبدت الكراميّ والكنبتان والفرش غريبة نافرة وسط الحجرات الأنيقة، ولم يفت حسين التأمّل على هذا يتلمّز كالعادة ولكنّه وجد بعض العزاء في حجرة الاستقبال التي كانت تفتح على الخارج فلا يضطرّ القادم إلى عبور الصالة الداخلية إليها. وتحذّثوا غير قليل عن الوسط الجديد والعمارات والشوارع وما يتخيّلونه عن الجيران، وتحدّث حسين عن ضرورات الحياة الجديدة كما يراها حتى قال:

حياته قد دنت، فلما النجاة ولما الحلاك. وتبدلا نظرة طويلا، هي في إنكار وتساؤل وهو بابتسامة باهنة لا معنى لها. ولم تلبث أن سأله مستكثرة:

- لماذا لا تزورنا؟

فقال وأجبا:

- أسباب لا تخفى عليك تمنعي من الظهور في حيننا

القديم!

ولكنها لم يد عليها الاقتناع وعادت تسأله:

- لم لم تقابلني فوق السطح بعد أن تركت الورقة في

يدك!

- كنت وأخي مرتبطين بمودة هام.

فتساءلت بلهجة وشت بحزنها:

- وسفرك المفاجئ إلى طنطا دون أن تخبرني؟

فقال وهو يتحاشى عينيها:

- اضبطرت إلى السفر فجأة...

فهتفت في انفعال:

- لم تعد تبالي حتى باختلاق الأعداء المعقولة!

إن الموقف دقيق حقاً، بل أليم، ولكن التخاذل معناه الموت بالنسبة إليه، ولن يتهاون في حق حرمة ومستقبله. وتندد متظاهراً بالخزن وضمغم قائلاً:

- إن ظروفنا أعقد من أن نقدرها.

- أفصح عما تريد قوله. لا أفهم شيئاً إلا أنك تغيرت. لم تعد كما كنت. لست غيبه ولا حمقاء، أنت لا تريد أن تراهي.

- سامحك الله.

ولعل ضيق الوقت حل عقد لسابها فقالت في تألم ظاهر:

- لا تلي إلي بهذه العبارات البهية. أريد أن أفهم كل شيء. ماذا بك؟ لماذا تغيرت هكذا؟ صارحتي بما في ضميرك كله.

وحال تشبهه بالنجاة والفرار دون إحساسه بما في كلماتها من يأس وعذاب فقال:

- لم أتعثر ولكن ظروفنا تغيرت.

فقالت باستغراب:

- تغيرت ظروفك حقاً ولكن إلى أحسن!

يحمل بها! ليصمد معها كان الأمر، الحرية والمجد فوق المتاعب جميعاً. أجل لو تغلب على الماضي فاستمتع بأشرف ما في الحياة من طمأنينة وسلام.

ثم انتحى حسنين بالشاب ليوازن معه ميزانيتها لما جذ عليها من تكاليف النقل وشراء ما سموه «حجرة الاستقبال» إلى ما يتسطر من نفقات جديدة للنور والحداد. وقامت نفيسة للفرجة من نوافذ الشقة واستطلاع الدنيا الجديدة. وعلت الأم إلى نفسها فاستجمعت ما مر بها من حوادث في الأيام الأخيرة حتى انتهى بها المطاف إلى هذا الحلي الجديد، فلم يستقر وعيها إلا على شيء واحد، هو حسن! ترى أين يقيم الفقي؟ ماذا صنع الله به؟ لم تكن تخلو إلى أفكارها حتى يطالعها من ثيابها فيستدير دفين الحسرة والام... هكذا باتوا أولى ليالهم بمصر الجديدة.

- ٧٨ -

- جئنا نهيء بالبيت الجديد جعله الله مقاسماً سعيداً...

قالتهم أم بيهة ثم جلست هي والفتاة على الكنية الجديدة. كان الوقت عصراً وكانت الأسرة مجتمعة ما عدا نفيسة التي غادرت البيت قبل وصول الأم وابتنتها بنصف ساعة.

وأنت أم بيهة نداء جيلاً على المسكن الجديد وحيه الباهر، وشكت الوحشة التي شعروا بها بعد فراقهم، واعتذرت عن تعيب فريد أفندي بانهاكه في العمل بالوزارة بعد الظهر مناسبة موسم الإجازات. ثم جرى الحديث المؤلف واشترك حسنين كلماته ولكنه كابد قلقاً لم تحف عنه بواعثه وشعوراً مؤلماً بالخرج.

وجعلت بيهة تخالسه نظرات حزينة، فصبيحة بغير بيان، فازدادت حاله توتراً، ثم أعربت أم بيهة فجأة عن رغبته في الانفراد بالأم، الأمر الذي زاده قلقاً وتوتراً، وما لبث أن غادرتا حجرة الاستقبال معاً. ووجد حسنين نفسه غريباً بين خطييين فغادر الحجرة متحلاً ببعض الأعداء، وخلا الجوى، وهو ما لم يكن يتوقعه حسنين بمحال. وكان يعرف بداهة ما دعا أم بيهة إلى الانفراد بأمه، فادرك أن الساعة الفاصلة في

- هذا في الظاهر فقط أما في الحقيقة فهي أنني بت أدرك مسئولياتي الشاقة.

فقلت بلهجة لا تخلو من غيظ:

- ألم تكن تدرك مسئولياتك من قبل؟ .. إن مسئولياتك جميعاً لا تحول بينك وبين ما تريد إذا كنت تريده حقاً!

- أريد ولا أستطيع.

فرنت إليه شاحبة الوجه وغمغمت:

- بل تستطيع ولا تريد.

ولم يجد ما يقوله، وتضاعف إحساسه بمذابح الموقف، ومع ذلك ازداد تصلباً وتشبباً فتتم:

- أنت مخطئة.

وكانت تنفخه في جزع ويأس وكانت تريد أن تنفذ إلى أعماقه، وابتلعت ريقها بمشقة ثم قالت:

- كلام، لست مخطئة. لو كنت تريد حقاً لما قلت لا أستطيع. إن هي إلا معاذير (ثم متبذلة على رضعها) لم تعد تحبني وتريد أن تتخلص مني. هل ثمة سبب آخر!

ومع أن هذا ما كان يؤمن به في أعماقه إلا أن سماعه حاله وأكرهه فرفع حاجبيه منكراً وقال:

- لشد ما تظلميني!

ولم تسكن لهجته خاطرها، أو بالحرى مكنت لقرينة اليأس من عنقها. وزاد إحساسها بضيق الوقت من جزعها فتناست حياءها المطبوع وهتفت:

- أنت الظالم، لقد خطبتني ثلاثة أعوام ثم بدا لك أن تتخلص مني...

ونحسب عينها فغطر إلى الأرض. كان متحرجاً مثالماً ولكن تصميمه على عدم التراجع كان أعظم فقال:

- إن ظروفي أقسى من أن تدركها على حقيقتها.

أمامي صبر طويل.

ورقت لهجتها فجأة وقد تورّد وجهها وقالت برجاء:

- إذا لم يكن ثمة سبب آخر فيوصي أن أشاركك

الصبرا

فتوجس خيفة من تغير لهجتها وقال:

- إنه صبر طويل.

فقلت باللهجة نفسها:

- لا بأس، إلا أنني أرجو أن تعلن خطبتنا بالطرق الممهد.

وذهب حيال انقلاب الحديث إلى هذا المجرى بعد أن أوّشك أن ينقطع، وركبه الخوف والضيق والجزع فهتف وهو لا يدري:

- كلّا!

وجعلت تمحلق في وجهه في ذهول، ثم خفضت عينها في يأس، واهتزّ وجهها خجلاً. وحزّت شفيتها مرة ومرة كأنها تريد الكلام ولا تستطيعه ثم غمغمت:

- أرايت أنني كنت حل حقّ ليا قلت لك إنك تريد أن تتخلص مني؟ ..

وبلغ منه الارتباك مبلغاً لم يمهده من قبل، ولاذ بالصمت ملياً، ثم قال كالمتملّز:

- إني جدّ حزين، ربّما أقمت في العذر يوماً.

فقلت في أعياه وقهر:

- حسبك، لا أريد سماع كلمة أخرى.

وساد صمت ثقيل الوطأة كالمرض صلاً الحجره بأنفاس اليأس الخافتة، ولكن وجد الشاب على حرجه وألمه لوّناً من الراحة، فمهما يكلّ هذا العذاب فلا بد أن ينتهي، وهناك يجد نفسه حرّاً طليقاً. وتساءل وهو يسترق إليها نظرة ترى ماذا يدور في رأسها؟ ألا زالت تريد؟ أم كرهته؟ أم تتمنى الانتقام منه؟ لشد ما أحبها عهداً طويلاً، ولكن هكذا انتهى كل شيء.

وتساءل ترى فيم تتحدث الأمان؟ وعلام انتهى الحديث الذي طال؟ ثم قال لنفسه «إن مصري يتقرّر بيدي لا بيد أخرى». ثم تراسل إليه صوت المرأتين وهما تتكلمان قادمتين فحفق قلبه واستحوذ عليه قلق

مفاجئ. وعادتا إلى مجلسها بوجهين يلوح فيها الرضا - بما ضاعف قلقه - ثم دق الباب وكانت القادمة

نفسه، ورجع حسين إلى الحجره، فوجد حسين في المحيطين به ما انتزع من أفكاره وردّ إليه شيئاً من

هدوئه. ومع أن بيته بدت على حال من الوجوم لا

تخفى إلا أن الحديث لم يشدّ عن المألوف حتى انتهت

يكون لديك من الأسباب ما يبرّر الإقدام على هذا الخطوة الفظيعة.

وقالت الأم المنزعجة:

- يا للفضيحة!... لقد تمّ الاتفاق بيني وبين الأم في نفس الوقت الذي كنت تهلم فيه ما نبني، فما عسى أن تظنّ بي المرأة؟ ألا يمكن أن تشكّ في أنني كنت أخدعها وأنا أعلم بنواياك؟... ماذا فعلت يا بني؟... ما سبب هذا كلّ... وماذا يعيب الشابة؟!

وضاقت نفيسة بالتكلمين فصاحت بحدة:

- دعونا نسمع صاحب الشأن.

وقال حسنين غاطباً أمه:

- بية شابة لا غبار عليها، ولكن تبين لي بوضوح أنّها ليست الزوجة التي أطمح إليها.

فقالت الأم:

- لقد خطبتها ثلاث سنوات فكيف يليق أن نهجرها بلا سبب مقنع؟

وهزّ حسنين رأسه مؤمناً على قول أمه ثم قال:

- هذا حقّ. إنّ فسخ خطبة أمر فظيع. ولا يجوز أن يقع بلا سبب مقنع!

وتساءلت نفيسة باهتمام:

- كيف تبين لك أنّها ليست الزوجة التي تطمح إليها؟ دعوه يتكلّم...

فقال حسنين بضيق:

- لا ريب أنّ بية لا تصلح زوجة لي. حقاً لقد خطبتها بنفسني ولكنني لم أكن أدري هذه الحقيقة وتلك...

فقالت الأم بقلق:

- بية فتاة جميلة ومؤدبة، ولأبيها فضل علينا لا ينسى...

وقال حسين بلهجة تنم عن استياء:

- إنّ أعجب الحكمك هذا، ما هي الزوجة الصالحة في نظرك؟ فصمت حسنين قليلاً ثم قال:

- أريد زوجة من وسط أرقى، مثقفة، وعلى شيء من الثراء...

فتساءل حسين بنفس اللهجة:

- أهذه هي الأسباب التي جعلتك تنكح بهذه؟!

الزيارة.

- ٧٩ -

ونظر حسنين صوب أمه في قلق متسائلاً فأدركت أنّه يسأل عمّا دار بينها وبين أم بية، ونظرت إليه نظرة لا تخلو من فتور وقالت:

- حدثتني ستم أم بية عن وجوب إعلان الخطبة بصفة رسمية، ووافقتها في النهاية على رأيها.

وقطب الشاب في حنق وضرب يداً بالأخرى وهتف بها:

- تسرعت يا أمّاه!

وشعر بما أحدثه قوله من دهشة فعاد يقول:

- لا لرم عليك بطبيعة الحال ولكنني فسخت الخطبة!

وحذّقت به العين التي تأبى تصديق ما سمعت وتساءلت الأم:

- ماذا تقول؟

فقال ضاحكاً على مخارج الألفاظ:

- لقد فسخت الخطبة اليوم، الآن، وغادرتنا بية وهي تعلم أنّ كلّ شيء بيننا قد انتهى.

وصاح حسين مزهجاً:

- لا!

وقالت الأم:

- إنّك تخبرني بتصرّحك هذا، ولست أفهم شيئاً هل وقع بينكما خلاف بغتة؟... متى؟ وكيف؟

وكانت نفيسة آخذة في خلخلة هذاها فاستسكت وقالت:

- تكلم يا حسنين. هذا خبر لم يتوقّعه أحد!

فقال الشاب بروجوم:

- الواقع أنّي عقدت العزم على فسخ الخطبة من زمن غير قصير ولكنني لم أشأ أن أخبر أحداً، واليوم حين انفردت بها في هذه الحجرة لم أجد معذري عن إعلان نيتي فأنتهى كلّ شيء. أرجو ألا يسألني أحد عمّا قلت أو عمّا قالت فهذا لا يعني أحداً سواي.

فقال حسين باهتمام وأسف:

- كان موقفاً قاسياً على الفتاة بلا شكّ، وأرجو أن

فقال حسنين متنبِّهاً:

- نحن فقراء، وبهيبة في حكم الفقراء كذلك،
وأخاف إذا متَّ قبل نهاية المرحلة - كوالدنا - أن أترك
أبنائي لقساوة الحاجة كما تركنا...
وهتفت نفيسة قائلة بحماس:

- صدقت!!

فغضب حسين لحساس اخته وسأله:

- هل قدَّرت خطورة الخطوة التي أقدمتَ عليها؟

فقال حسنين بحزن:

- لشدَّ ما حَزَّ في نفسي الأسف ولكيَّ لم أوافق على
ضياح حياتي...!

- وتوافق على ضياح حياتها؟!

- لن تضيق حياتها، لا زالت في عتفوان الشباب،
والمستقبل أمامها باهر.

فتساءل حسين في حق:

- هل تسمح لي بأن أصف لك سلوكك؟

فنظر إليه في وجوه ولم ينبس بكلمة فهزَّ حسين
رأسه في الانزعاج وتساءل:

- إني أعجب كيف تسخط على سلوك حسن وله من
الاعذار ما ليس لك!

وامتقع الشاب وقال بحمَّة:

- لا شك أنَّ سلوكي لم يخل من قسوة ولكنَّه
سينتهي بخير بالنسبة لي ولها، وهو على أيَّة حال أفضل
من زواج غير موفق.

وأعرض الشاب عنه يائساً، وضربت الأمُّ كفًّا بكفت
وهي تنتم:

- يا لها من إساعة شديدة لأطيب الناس طرّاً، ربَّاه
كيف أخفي وجهي!

ومع أنَّها كانت صادقة فيما تقول إلا أنَّ أفعالها لم

تخل من ارتياح خفي. وقد كانت تشفق من أن يبادر
حسين إلى الزواج فتعود الأسرة إلى الترنُّج والقلق،

وكانت ترمق نفيسة دائماً بعين الخوف متسائلة في حزن
عن المستقبل القريب والبعيد. ولكن إذا كان هذا حقّاً

لا شكَّ فيه فحقَّ كذلك ما تمجد حيال أسرة فريد
أفندي من أسباب الخجل والألم. أمَّا نفيسة فلم تكن

تحمس إخفاء عواطفها فقالت:

- لا خوف على بيَّته، مستزَّج اليوم أو غداً.

فقال حسين بامتصاص:

- هذا كلام يصدق على كلِّ فتاة ولكنَّه لا يصلح
دفاعاً عن خطئنا...

فقالت نفيسة متهمَّة:

- لا يصدق على كلِّ فتاة!.. والدليل على ذلك أنَّه

لا يصدق على أخت حضرتك!

وخفَّ تهكمها من التوتُّر العام، وانتهر حسين
الفرصة فقال بلهجة دبَّ فيها الحساس:

- اليس الأفضل أن أختار زوجة من نوع خاصّ
كزكريا أحمد بك يسري مثلاً!

وقالت نفيسة بمرح:

- وما هذا على الله بكثير. من يدري لعنَّا نراك
يوماً في فيلاً محترمة وتتدفَّق علينا خيراتك يوماً بعد

يوم...

ولم يلقَ حسين إليها بالاً، وقالت الأمُّ وكأنَّها تحدَّث
نفسها:

- سيعلم فريد أفندي بالخبر هذا المساء، ما عسى
أن يقول عتاً؟! ليتني أجد الشجاعة لأزورهم وأعتذر

إليهم!

ففكر حسين طويلاً ثمَّ تجم بهدوء وحزم:

- لا تنقصني أنا هذه الشجاعة.

ووقع قوله من نفوسهم موقع الاهتمام، وسألته
نفيسة:

- أأذهب حقّاً؟.. وما عسى أن تقول لهم؟

فقال الشاب مقبلاً:

- أقول ما يفتح الله به عليّ. ربَّاه لا شكَّ أنَّ في
دعنا شيئاً نجساً...

ومضى يرتدي ملبسه، ثمَّ غادر الشقة...

- ٨٠ -

لم يقصد غايته رأساً ولكنَّه مضى إلى مشرب شاي
بمصر الجديدة فجلس ساعة يقَلِّب الأمر على وجوهه

ويحدِّث له عدته. سرَّح خياله بين ذكريات الماضي
وحوادث الحاضر، وساءل عقله طويلاً وساءل قلبه،

حسب بنات الناس العوية يلهو بها على هواه، يخطب حين تحلوه الخطبة، ويفسخ حين يطيب له الفسخ؟! لقد عاملته كابني ولم يُنْذِرْ لي بخلد آتِه يطوي صدره على قلب بهذا الخبث والغدر... .
وزاد شعور حسين بالحرج وطأة فقال بتتحلل الأعدار كيفما اتفق:

- أخي فتي طائش وقد أصابعت حادثة حسن صوابه.

فتساءل الرجل في إنكار:

- وما ذنبنا نحن؟.. هذا حذر غير مفهوم!

- أقصد أنَّ المصيبة أثارت أعصابه وأفسدت حكمه فضاق صدره بالدنيا جميعاً.

فلوَّح الرجل يده في عuf وقال ساعطاً:

- كلام غير مقنع. إني رجل مجرب وأعلم أنَّ الرجل لا يغير بخطيئته لئلا هذا السبب. قل غير هذا الكلام إذا شئت أن أصدقك. قل إنَّه صار ضابطاً وبات يطمع في نوع آخر من النساء.

فقال حسين بلهجة حزينة:

- وددت بحياتي لو أصلح الأمر.

- فسد الأمر ولا صلاح له. إنَّه عبث لا يليق بالشرفاء، ولو كنت غير الرجل لفاضيته وأذبتة، ولكني أحمده الله على ما كشف لي من حقيقة نفسه بعد أن خُذعت به طويلاً. ما هو إلَّا شابٌ نذل جبان، ولا تؤاخذني على قول الحق...

ووقعت هذه الأقوال من نفس الشاب موقناً اليأس فخفض بصره ملياً ثم قال بصوت ضعيف:

- إني جدٌ آسف، بل كلُّنا آسفون، ولا مطمع لنا

الآن إلَّا الإبقاء على الودِّ القديم...

وساد الصمت برهة ثم تمتم الرجل بفنور:

- ما عهدنا منكم شراً...

وشعر حسين بقلق وتوتر، وذكر ما انتهى إليه رأيه قبل حضوره بقلب خائف مضطرب وتساءل فيما بينه وبين نفسه ترى هل من المناسب الآن الإقدام على الإفصاح؟!... ومع أنَّه لم يجد من الجواب مشجعاً إلَّا أنَّه لبي التراجع أو التأجيل، ونظر إلى الرجل بعينين

ثم قرَّ فكره على رأي. وكان في تفكيره جريئاً حازماً قاطعاً على غير عاداته، فلم تعترضه الصعوبات ولم تشغله المخاوف، حتَّى عجب للسرعة التي بتَّ بها في الأمر وتساءل في دهشة وترى أمي من وحي الساعة أم أثر لما تجتمع في نفسي خلال ثلاث سنوات؟!.

واستحوذ عليه شيء من الاضطراب، وعاد يسأل نفسه، ويستعرض الظروف المختلفة ولكن لم تكن قوَّة لثنيهِ عمَّا عقد العزم عليه. وقام من مجلسه تعالج في صدره انفعالات شتَّى من بسطة السرور وقبضة القلق وأرجحية المغامرة، ثم اتخذ سبيله إلى عطفة نصراؤه فبلغها في أوَّل الليل. ومضى يقرب من البيت القديم وهو يشعر بنقل المهمة وحرج الموقف، ولكنَّه أقدم بخطى ثابتة وعزيمة لا تشي. ثم طرق الباب بقلب خافق ففتحت له الخدام، وحدهجته بدهشة أثارت أعصابه، ثم قادته إلى حجرة الاستقبال. وما عَظُمَ أن جاء فريد أفندي بجسمه المترهل فراه لأوَّل مرَّة مكفهراً الوجه، يتوهج الغضب في نظرة عينيه. وما كاد يفرغ الرجل من مجاملات السلام ويستقرَّ على مجلسه حتَّى قال بانفعال وتأثر شديدتين:

- عشرة العمر كلُّه، وجيرة العمرة كلُّه، وصداقة العمر كلُّه، تمزقونها جميعاً في دقيقة واحدة! فنظر حسين إلى الحنوان أمامه في ارتباك وقتم بصوت منخفض:

- إنَّ ما بيننا منه ودٌ قديم لا يمكن أن يتغير، وإن نس لا ننسى فضلك ونبل أخلاقك ما حيناً...

فلم يهره الرجل التفاتاً وضرب كفّاً على كفِّ وهو يقول:

- لم أدر حين خبروني كيف أصدق أذنِّي. إنَّ طبيعة قلبي تأبى أن تصبَّق هذا الغدر الشائن...

- إني عازدك يا سيدي. وصدَّقني أنَّنا لم نكن أدنى لتصديقه منك، حتَّى أتني تركت أمتي في حال يرثى لها...

- كنت الاحظ أنَّه يتناقل عن زيارتنا، وقيل لي في تفسير ذلك أعداء صبيانية زادتني تشاؤماً، حتَّى علمت هذا المساء بأنَّه جاهر بكث عهد، ما شاء الله، هل

حذرتين وتساءل:

- هل أستطيع أن أتأبل الأنسة بهية؟

فقال الرجل بجزع وهو يلطم الهواء بظاهر كفّه:

- ما الداعي لهذا؟ .. فلندعها وحدها، هذا خير ما

يفعل!

وغلب التأثير الشاب. ترى ماذا تفعل المسكينة؟ وماذا أحدثت الصدعة بنفسها الرقيقة؟ وماذا هو فاعل أيقدم أم ينكص؟ ألا يقع كلامه من هذا الجسو المكهرب موقشاً مضحكاً! ولكنه شعر شعوراً خفياً بأنه إذا تراجع هذه اللحظة فلن يقدم أبداً، وتتهد تهدئة عميقة أزاح بها التردد عن صدره وقال بسكينة ظاهرة يداري بها اضطرابه:

- سيدي، لا ادري كيف أعرب عتاً في نفسي، ولست أزعج أنني اخترت وقتاً مناسباً، ولكنني لا أستطيع أن أتألم ما يدفني إلى قول كلمة أخيرة وهي أنني أرجو أن تبارك يوماً رغبي الصداقة في طلب يد الأنسة بهية!

واقسمت عينا الرجل دهشة وبدا أنه كان يتوقع كل شيء إلا هذا، ولعله أراد أن يتكلم ولكن أرتج عليه، أمّا حسين فكان قد عبر قمة أزمته فقال مسترداً بعض هدوئه:

- لا تحسبن أن ما يدلّمني إلى هذا الرجاء هو ما أشعر به حيال تصرف أخي من خجل، أو ما عسى أن تنصّره عطفاً على حال الأنسة. كلا، وأقسم على هذا. إنها رغبة قائمة بذاتها، منبثقة أولاً وآخرها من تقديري لكميمتكم ولكم.

وواصل فريد أفندي دهشته الصامتة على حين استمذّ حسين من انطلاقة لسانه وضمت الرجل شجاعة وحرارة فاستطرد قائلاً:

- شيء واحد يجرّني في هذا المسعى كله وهو ما أشعر به من أنني غير كفء لها.

فخرج الرجل عن صمته لأول مرة متمتياً:

- لا تغلّل من شائك يا حسين أفندي، أنت عندي

بمنزلة الإبن...

فقال حسين وقد تورّد وجهه:

- شكراً...

وتفكر الرجل قليلاً كالحائر ثم قال:

- لا يسمعي إلا شكرك على رغبتك هذه، ويسرّي -

علم الله - أن تتحقّق ولكنك تدرك طبعاً أنّ وقت التحدّث بشأنها لم يثن بعد؟!...

- هذا طبعاً جدّاً يا سيدي، ويوسعي أن أمدّ..

أعني أن أنتظر حتّى يجيء الوقت المناسب...

وانتهى الحديث عند هذا الحدّ...

- ٨٩ -

وعاد إلى مصر الجديدة غارقاً في أفكاره فلم يكد يرى شيئاً من الطريق، ولكنه استعرض صفحة مطوية طويلة من حياته كما فعل في مشرب الشاي قبل أن يتّجه إلى بيت فريد أفندي. وكان على حيرته يشعر بسرور وأمل لم يشعر بمثلها طيلة حياته. لقد أحبّ الفتاة فيها مضى ولكنّ حبّه مات قبل أن يتصرّع ويزدهر، ولم يبقَ منها في قلبه الحكميم الرائي إلا اللال الذي يحلم به للزوجة الصالحة، وأنه يذكر أنّه تألم كثيراً وصبر كثيراً، فتعلّم أنّه بشيء من الحكمة يمكن أن يعثر في دنيا الآلم على مسرات عالية، ويخرج من التجربة ساكن القلب بسم الثغر، وكان يقول لنفسه متعزّياً إنّ مواجهة سوء الحظّ بالصبر والتسامح، سرور ينبغي أن يمدّ من حسن الحظّ... وهكذا تعزّى ونسي من زمن طويل. ولما أن فُتح له باب الأمل المغلق على حين غفلة نسي أنّه كاد ينسى وأزهر الحبّ في قلبه كأنّ ثالوته لم تبدأ لحظة واحدة من الزمان. وانطلق في سرور لا تشوبه شائبة حتّى بلغ البيت. ووجد الجميع في انتظاره فما إن وقعت أعينهم عليه حتّى صاحوا به:

- ماذا لقيت؟!

ورأى أن يمهّد للخبر العجيب الذي يحمله بأن يهول من خطر الأمور فقال وهو يهزّ رأسه أسفاً:

- وجدتهم على حال من التأثير انزويت معها خجلاً

وخزناً، ولأول مرة في حياتي رأيت فريد أفندي الرجل

الوديع ثائراً غاضباً كاسراً...

وسألته الأمّ بحسرة:

- خبّرني عتاً حصل كله. ألم تقابلك أم بهية؟

٣٠٣ بداية ومهابة

- لا يخلو الأمر من هذه الرغبة، بيد أنّي أكنّ للفتاة تقديرًا كبيرًا، واعتقد أنّه إذا لم يكن بدّ من الزواج فالأفضل أن يكون من فتاة مثلها...
فتساءلت نفيسة في لهجة ساخرة:
- ومن قال إنّ لا بدّ من الزواج؟!
وتدخلت الأمّ متسائلة:
- وماذا قال لك فريد أفندي؟
فاجابت نفيسة بالنباية عنه قائلة:
- قال على العين والرأس طبعًا...
وأجاب حسين دون أن يعبا بها:
- شكر لي طليبي ولكنّه اعتذر بأنّه لا يستطيع أن يخاطب الفتاة الآن بهذا الشأن وطلب إليّ أن أمهله إلى حين...

وعاد حسين يسأل باهتمام:
- أكنت تضمّر هذه النية حين غادرتنا؟
فأجاب حسين بفضة:
- كلّ...
فقال الآخر بإشفاق:
- أخاف أن تستين بعد حين أنّك غير راغب في الزواج حقًا!
فقالت نفيسة متنبّدة:
- ربّنا يسمع منك...
فصاحت بها أمّها غاضبة:
- نفيسة!
أمّا حسين فقال عيبًا أخاه:
- إليّ أحبّ بطبعي الحيلة المستقرّة...
فقال حسين بارتياح:
- ليس أحبّ إليّ من سعادتك وسعادتها...
وصمت قليلًا ثمّ استدرك قائلاً بصوت منخفض:
- ولي أنا أيضًا آمالي، كان أتزوّج من كريمة أحمد بك يسري. أنظّنه يا أخي أملًا أخرق؟!
فقال حسين مبتسّمًا:
- لمّ لا... إنك كفه لها...

وهتفت نفيسة ضاحكة في شيء من الاضطراب:
- لنّا الله. أردنا أن نسرّد واحدًا والغالب أنّنا

- كلّنا، قابلي الرجل وحده وقبل أن اتّسع فمي بكلمة انحال علينا تائبًا وتقريعًا...
وأعاد عليهم كلام الرجل - فيها عدا الكليات القارصة - مضيقًا عليها من عنده ألوانًا من التأثر والحزن ليستثير لهم ويستدرّ عطفهم حتّى ملأهم الوجوم والحجل، إلّا نفيسة فقد قالت:
- ما كان ينبغي أن تلقاه الليلة. وعلى أيّة حال فالحظ الأوّل ينصبّ على من يقبل تلميذًا صغيرًا كخطيب لابنته فضلًا عن أن يكون هو السامي بحيله إلى عقد الخطبة. ولا أجد حسين مستحقًا للوم فقد كان تلميذًا كما قلت لا يعرف ما يضرّه ممّا ينفعه، فليّ أن بلغ طور الرجولة تبيّن أنّ الفتاة لا تصلح زوجة له فإذا عليه إذا تركها؟!
وصمّ حسين على أن يشقّ طريقه إلى هدفه فقال بهدوء غاطبًا أخته:
- تكلمي عن الفتاة برفق من فضلك فقد تصيح خطيبة أخيك الآخر

ومحلت في الأعراب بهدشة. ونكت عن نفيسة آهة سريعة، وتساءل حسين:
- ماذا تقول؟
فقال حسين وهو يتخلّب على ارتياكه بقوة إرادته:
- يجوز أن تصيح خطيبة لي...
- لك أنت!
- لي أنا...
وهتفت نفيسة:
- كلام لا يدخل الخلق!
- ولكنّه الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان.
وسألته الأمّ وهي تتفرّس في وجهه:
- هل خطبتها حقًا؟
فقال الشابّ خافضًا عينيه:
- نعم، قلت له إنّه يسرّي إذا وافق على أن أطلب إليه يد الفتاة...

فسأله حسين بقلق:
- أفعلت هذا رغبة في إصلاح الأمور؟
فتردّد حسين قليلًا ثمّ قال:

سنخسر الاثنين، وهذه إصابة عين حامية. . .

وغنمت الآم يهدوء:

- على بركة الله، إني مطمئنة إلى أنَّ أبنائي لن ينسوني. . .

فقال لها بنفسية:

- ما أجهلك بالزواج وأسراوه، سلمي أنا عليه.

ضحك حسين قائلاً:

- أمنا أعرف بنا منك. . .

وساد الصمت فراح حسين يتسائل في نفسه وهو يسترق النظر إلى أميه: ترى أكانت خطيبته بنت ساعتها حقاً؟!

- ٨٢ -

«ربما كان الانتظار حكمة، ولكن ماذا يجدي الانتظار إذا طار الطائر؟!»، هكذا تسأل حسين فيها يشبه الغضب، وبعد انقضاء قرابة شهر لم ين فيه عن التفكير والتدبر ساعة واحدة. قالوا له - خاصة حسين - إنه ينبغي أن ينتظر حتى يكون ثروة صغيرة ثم يتقدم لطلب يد الفتاة، وليكن رايهم صواباً، ولكن من ضمن له أن تنتظره الفتاة حتى تتكون هذه الثروة؟ وما شجبه على نبل هذا الرأي «الحكيم» أنَّ أحد بك يسري على علو مقامه قريب إليه بحكم العلاقات القديمة، فطمع في أن يوسع له صدره. أما إذا أفلتت من يده الفرصة السعيدة فليس لديه إلا أن ينتظر أعواماً طويلاً قبل أن تفتح له الأبواب أسرة كهذه. إلا يمكن أن يطلب يد الفتاة ثم يستمهل البك حتى يستكمل استعداده؟. . . يمكن بلا ريب، وإذا لم يمكن فإن احتمال الرفض لا يجب أن يقعه عن المسعى، إنه أجزأ من أن يقعه شيء من غاية، ثم إنه لا يطيق هذه الفضيلة التي يدعوها بالصبر. الآن، ودون خوف أو تردد، وليكن ما يكون. كان الشاب يدير هذه الأفكار في رأسه وهو يقترب من فيلاً أهد بك يسري بشوارع طاهر. صمّم وشرع في التنفيذ بلا مبالاة. هذه هي الحياة التي يتلّف عليها بكلّ قوّة نفسه. وليس ثمّة ما يزعجه فقد اختفى حسن وصارت نفيسة آنسة محترمة الماضي في طور الاحتضار، وما يريد إلا الحياة

النظيفة السعيدة لنفسه وذويه. وكان قد أخذ زيتته وتبدّى في منظر حسن يجمع إلى رشاقة الشباب فحولة الرجولة. وما انتهى إلى الفيلاً حتى أدخل إلى السلامك فجلس ينتظر بقلب خائف ونفس قلقلة، وأليس عجباً أن أتقدم لطلب يد فتاة هذه فيلتها وأنا لا أملك إلا ما تبقى من مرتبي! وهناك قضية الوقف الوهيبة التي حدثت البك عنها ولكن هيهات أن تنفي عني شيئاً. لماذا لم يكن لأمي وقف؟ ولكن هذه مسألة أخرى، فلو كنّا من أصحاب الوقف لكان الماضي غير الماضي والحاضر غير الحاضر، ليكن ما يكون، لن أراجع، ومهما يكن من أمر فلن يقطع رأسي، إذا ربحت ربحت الدنيا جيمّاً وإذا خسرت لم أخسر شيئاً يذكر. إني أسف يا بني، سلام عليكم يا سعادة البك، هذا ألقطع ما يتوقع. إني كضه لها بغير جدال. ما عسى أن تريد مما ليس لدي؟ المال؟ عندها المال بالقطار. ما أحقكم يا أهل هذا البيت إذا رفضتم بني! في هذا الموضع رأيته أوّل مرة على دراجتها، ساق تستاهل ثقلها ذهباً وفخذه سبحانه الخالق. مسكينة نفسة. ترى أين حسن الآن؟ ليته يفرّ إلى بلد غريب فيختفي إلى الأبد. لا تكاد ذكره المزعجة تغارني فمق أرتاح من الماضي كلّهُ. لن أراجع. في هذا الموضع كادت تهوي بها الدراجة. أقدام البك؟ وأنصت في اهتمام ثم غص قائلاً في احترام حين رأى البك قادماً نحوه وسلم في إجلال والآخر يقول:

- أهلاً بحضرة الضابط، كيف حالك؟

وأجاب الشاب وهو يبدل أقصى جهده للسيطرة على انتباهه وإرادته:

- شكراً لك يا سعادة البك.

وتسائل البك ضاحكاً بلهجة ذات معنى:

- ألا يزال أخوك في طنطا؟

ورحب حسين بأنّي حليت يطيل له مهلة الاستعداد فقال باهتمام ظاهري:

- بلى يا سيدي!

وكانا قد اطمأنّا إلى مجلسيها فقال البك:

- ليس في الإمكان نقله هذه العطلة ولكنّي أخذت

المحارب المخرج بهذنة آمنة وقال:

- هذا طيعي يا سعادة البك ولكني أرجو حفاً ألا
أكون قد جاوزت حدّي.

فابتسم البك قائلاً:

- لا تُعِدّ على سمعي هذا القول.

ونفض الشابّ مستأذناً في الانصراف ثم غادر
القبلاً. واستعاد في الطريق كلّ كلمة قيلت وما
صاحبها من حركات وإشارات ولحاحات. وحاول أن
يستشفّ ما وراءها من معانٍ ومقاصد، ومع أنّه كان
يؤوّل كلّ شيء بخيال جريء طموح متفائل إلا أنّه
وجد انقباضاً وقللاً، وفي النهاية قال لنفسه وهو يهزّ
كتفيه استهانة: «إذا ربح ربح الدنيا جميعاً وإذا
خسرت لم أخسر شيئاً يذكر».

- ٨٣ -

لم يفكر حسين في معاودة زيارة فريد أفندي حتّى
أوفت إجازته على نهايتها، كأنما أراد أن يحدّ للرجل في
مهلة تفكيره حتّى يستخلص منه رأياً قاطعاً. ولم يكن
يكفّ في أثناء ذلك عن مشاورة والدته، ولم تبد المرأة
اعتراضاً ولكنها نصحت أن يؤجل زواجه عاماً حتّى
يستكمل استعداده. ومن عجب أنّها لم تفلح في إسداء
مثل هذه النصيحة للشابّ الآخر المتعجل ولكنّ حسين
نفسه لم يكن ليوافق أخاه على تعجيله الذي وصفه
«بالتهور» ولم ينفذ عليه أنّه إذا وُفق حسين إلى هذه
الزيجة الخياليّة، وتمّ زواجه هو بعد عام، فستجد أمّه
وأخته نفسيهما وحيدتين بلا عائل، ولهذا طمان والدته
إلى أنّه مصمّم أن يضمّ زوجه إلى البيت في كنف
معيشة واحدة، واطمأن قلبه وفكره فمضى إلى بيت
فريد أفندي، واستقبله الرجل بترحاب أنش أماله،
ومع أنّه لم يكن للزيارة إلا معنى واحد لا يخفى على
أحد إلا أنّه خاطب الرجل قائلاً في شيء من الارتباك:
- جئت أستودعكم الله قبل عودتي إلى طنطا
غداً...

فابتسم فريد أفندي ابتسامته الرقيقة وقال:

- مع سلامة الله، وإن شاء الله نسعى قريباً عن
نقلك إلى القاهرة...

وعداً صادقاً ينقله في العجلة القادمة...

وكان حسين يعلم بهذا ولكنّه قال بامتنان:

- هذه مأثرة جديدة تضاف إلى مآثرك السابقة.

وساد صمت، وشعر الشابّ بأنّه يقتحم لحظة وهيبة
من حياته، وإنّه لم يعد وراءه ثمة مجال لتردّد أو
تراجع، فالقى بعزمه قائلاً بصوت لم يخل من
اضطراب في نبراته:

- الواقع أنّي قصدتك يا بك في شأن يخصني أنا...

رفرع إليه الرجل عينيه متسائلاً:

- خير إن شاء الله...

فاعتدل الشابّ في جلسته كأنه يستمدّد من اعتداله
قوّة وقال:

- إليّ أستشفع بسعادتك لغاية بعيدة أراها فوق

مطمحي.

فتسامل البك مبتسماً وهو يدلّل بأصابعه شاربه
الغليظ المصبرغ:

- أتريد أن ترقى لواء؟

فضحك الشابّ ضحكة عصبية سرعان ما غاضت
من أساريه وقال بصوت منخفض:

- أعزّ من هذا. إليّ طامح إلى شرف

مصاهرتك...

وحلّ اهتمام مفاجئ محلّ النظرة الباسمة، وتخيّل
إليه أنّ الرجل استحوذت عليه دهشة رغم ما يتظاهر
به من الرزانة وضبط النفس، ولكن آية دهشة يا
تري؟ دهشة المفاجأة أم الانزعاج؟ ودقّ قلبه بقوة
وشعر شعوراً عميقاً بخطورة اللحظة التي يكادها. أمّا
الرجل فقال بعد صمت وتفكير:

- لا يعني إلا أن أشكر لك حسن ظنك...

ونأثر للقول الرقيق تأثراً لم يخل من ألم غامض وقال
بتوكيد:

- أرجو ألا أكون قد جاوزت حدّي...

فقال البك مبتسماً:

- حاشا الله. إليّ أكرّر الشكر بيد أنّي أوّجّل

الجواب حتّى أأشور أصحاب الشأن.

فارتاح حسين لهذه المهلة التي رحب بها ترحيب

فقال حسين برجاء:

- أرجو أن يتم هذا في العطلة القادمة. . .

وسأمل نفسه ترى هل يفتح «الموضوع» أو ينتظر حتى يتكلم الرجل؟.. لقد شاور أمه في الأمر كأنه أصبح حقيقة مفروغاً منها، ومع هذا فمن يعلم بما دار في نفوس أهل هذا البيت؟! وساوره قلق، أخذ يزايد كلما طال انتظاره للكلمة التي يؤد سماعها، حتى جاءت السبت أم بهية فنهض لاستقبالها في أدب وشدة على يدها في حرارة، وتعامل بمقدماتها خيراً. وقد قالت وهما يجلسان:

- إني سعيدة برؤيتك يا بني، كيف حال والدتك؟

فقال حسين بحرارة:

- بخير يا سيدي. وهي تقرئك السلام.

ثم نظر فريد أفندي إلى زوجته وقال لها:

- حسين أفندي جاء يومهنا لأنه مسافر غداً وأظن من المناسب أن نخبره بما قرأ الرأي عليه (ثم محوّلًا رأسه إلى الشاب) بخصوص ما حدثني عنه يا حسين أفندي يسرني أن أقول لك «إننا موافقون.

وتتبع لؤاده كلام الرجل في خفقتان متواصل، استحال ألهاً خالصاً عند بعض المقاطع، ثم انتهى بوثية فرح فقال بصوت متهلج:

- شكراً لك يا سيدي ألف شكر، إني سعيد حقاً.

فابتسم الرجل وقال غاطباً زوجته:

- وسينقل إلى القاهرة في العطلة القادمة.

فضحكت المرأة قائلة:

- خير سار، نحن نود بطبيعة الحال «أن تكونوا» على مقربة منا.

فتورد وجه الشاب وقال بصوت وشى بسروره:

- سينتقل هذا بإذن الله.

ثم قال فريد أفندي:

- ولكن يحسن بنا أن نتنظر فترة معقولة قبل إعلان الخطبة.

ثم ضحك ضحكة لم تخلُ من الابتكاح واستطرد قائلاً:

- حتى ينقضي وقت مناسب بين الخطبتين.

فخض حسين عيني وهو يتمتم:

- إني وهن إبتارتكم.

وقام فريد أفندي وغادر الحجرة، وغاب دقائق، ثم عاد تتبعه بهية. ومع أن حسين حلس الأمر إلا أنه وقع من نفسه موقع المفاجأة البكر فنهض باذلاً مكنون قوته لتلك نفسه. ثم مد لها يده في صمت، فتلاقت يدهما، وشعر بيدها على يده ناعمة الملمس رقيقة الموقع، باردة الملمس، فاهتز صدره وحز رقّة وشكراً. وشعر بأنه ينبغي أن يقول كلمة، وألح عليه هذا الشعور، ولكنه وجد رأسه فارغاً، ولم يسعفه الموقف بالتفكير فجلس دون أن ينس بكلمة. وسرعان ما تناسى مشاعر الأسف للبيعة من خسرته في موجة السرور والرضا التي غمرت حواسه جميعاً فنزلت عليه سكونة لطيفة أشبه بالشفا الذي يعقب نوبة ألم. ما أجملها! كيف يعمى بعض الناس عن هذه المزايا المكتملة؟! إنها الوداعة والفضيلة اللتان ترويان الحنان الظالم إلى حياة البيت السعيد. لا تثير استغراباً من أي نوع كان ولكنها تبث سلاماً وطمانينة. لماذا جاء أبوها؟ ليس لهذا إلا معنى سعيد واحد، قال إننا موافقون ثم جاء بيقية «إننا شاهداً ملموساً بوجه لو يسهه أن يستخير أفكارها هل أفاقت من الصدمة؟ هل برئ الفؤاد؟ أبدات حقاً تستشعر ميلاً إليه؟ ولم يتركه الوالدان لتأملاته فعاودا حديثهما الذي بدا الآن تافهاً متطفلاً. ألا يمكن أن تحدث معجزة فينادرا الحجرة؟ وقد التفت عيناه بعينيهما مرة فناه في صفاء وزرقة لحظة بهيجة. عنده ما يقوله ولديها ما يقال بلا ريب. ومهما يكن من أمر فالآيات آتية، وسيصبح عماً في ضميره، عن كل كبيرة وصغيرة. وفي أوقات ما بين الحديث كان يتجمع في إحساس رقيق سعيد أغمته بأن في الدنيا سروراً خليفاً بأن يُكثّر عن جميع أكدارها. سرور يقطر صفاء. ليهد طويلاً، لتهد هذه الجلسة، هذه الحال، هذا المنظر، هذا الإحساس، ليهدم عمراً، ليشمل الحياة جميعاً. . .

وتواصل الحديث ولكنها لم تشترك فيه اللهم إلا بإيماءة أو غمغمة، حتى وجب الذهاب فنهض

مستأذناً، وسلم عليها، وغادر الشقة وهو يشعر لأول مرة بأنه مقبل من حياته على وقت حصاد...

- ٨٤ -

وسافر حسين، وانقضت أيام من فترة الانتظار التي دعاها حسين بمدة «تحت الاختبار». والتي عاناها في تجلّد اضطراحيّ والأمل والبأس يتجاذبان. وقد أسف على سفر أخيه لأنه كان يفضل بلا شك أن يتلقى ردّ أهد بك يسري وهو غير بعيد عن مشورته، كان في الحقيقة يأنس إلى مشاورته وإن غلب عليه الاستبداد برأيه والانديفاع وراه؛ على أنّ إقدام حسين على الشروع في الزواج كان قد ترك في صدره راحة لأنه كان في أعماقه متعباً لسبقه إلى استكمال حياته بالزواج والآخر منزوٍ تحت الأسماء كأنه عروم من الانتفاع بحياته. ولا يعني هذا أنه لم يكن مشغولاً بمستقبل أسرته فالحنّ أنّه كان يرجو من وراء زيجته النفيسة خيراً كبيراً لنفسه ولأسرته على البواء. هكذا سوى متاعبه الداخلية بهذا المنطق ليفرض للاقاة حظه بقلب مطمئن. وإنه لعل تلك الحال إذ دعاه أحد الأصدقاء من زملائه إلى موافاته في كازينو لونابارك بمصر الجديدة، وكان هذا الصديق - ويدعى عليّ البرديسي - أقرب زملائه مودة إلى قلبه، نشأت صداقتها وتوثقت بالكلية، ثم حافظت على حرارتها رغم تعيينه هو بسلاح الفرسان والتحاق الآخر بالطيران، ومضى إلى موعدة فوجده في انتظاره، وجلسا معاً في حديقة الكازينو، ثم طلب الصديق قديح من البجعة. وأدرك حسين من اللحظة الأولى أنّ صاحبه قد دعاه لأمر، لأنه على غير عادته - وبالرغم من مرحلة الظاهر - بدا جاداً متفكراً، وما لبث أن سأله:

- أتذكر الملازم أحمد رأفت؟

فقال حسين بعدم اكتراث:

- طبعاً، إنه من دفعتنا، وأظنه ضابطاً بالطوبجية ليس كذلك؟..

فأوما الصديق دلالة على المرافقة وقال بضيق ومراة:

- سمعته بالأمس يتحدث عنك في جمع من

الإخوان بما أغصني وساءني.

فحملق حسين في وجهه بدهشة. كان يتوقع أي شيء إلا هذا. وتساءل في استنكار:

- ماذا قال؟

فقال عليّ البرديسي بوجوم:

- كنت، أنا وبعض الأصدقاء، نلعب الورق في بيته بالمعادي.

- وبعد؟

- لا أذكر المناسبة التي أشرت الحديث. كنتا سكارى. ولكني سمعته يخوض في أمور غسك. خبرني أولاً هل سمعت حقاً إلى طلب يد كريمة رجل يدعى أحمد بك يسري؟

وفجّر الاسم زلزالاً في صدر الشاب فلحق قلبه دقة عنيفة، وذكر لثوّ أنّ أحمد رأفت هذا على صلة وثيقة ببعض أقارب أحمد بك يسري. وبلد جهداً صادقاً ليتأكد أعضابه، ثم قال باقتضاب وهو يكابد شعوراً غليظاً بالتشاؤم والحوف:

- ربّما...

- أعلم أنّ أحمد رأفت صديق لهذه الأسرة؟

- هذا جائز، ولكن خبرني ماذا قال؟

فصمت البرديسي كالترنّد حيناً ثم تمم بصوت منخفض والخرج بإذٍ في أسأريه:

- فهمت من حديثه أنّ الأسرة لم توافق. يؤسفني أنّ أبلغك هذا...

وشعر بالحرج يضغطه كحمل ثقيل فتضامل تحته وأحسّ بانبار في كرامته ورجلته، ثم فار غضبه حتى أوشك أن يستسلم لثرائه ولكنه ثار على الاستسلام في اللحظة الأخيرة، وأبى إلا أن يتظاهر بعدم الاكتراث، بل نلت عنه ضحكة وتساءل:

- أمذا ما أساءك يا صديقي؟

فقال الصديق بوجوم ولحق:

- هذا أمر عاديّ، يحدث كلّ يوم، ولكنه ذكر في غير لياقة الأسباب التي تبرّر عدم موافقة الأسرة، ومع أنّها أسباب تافهة لا يمكن أن تحطّ من قدر إنسان إلا أنّه ساءني جداً أن يردّها في جمع حافل من السكارى.

فهو حسنين رأسه في حرارة ورّد قول صاحبه في سخرية أليمة:

.. إن الفقر ليس جريمة... ١. بديع... وماذا قال أيضًا؟
- لا شيء.

- حسب! أتع قاطع طريق وأخت خد... عاملة، هه؟ ويريد بعد هذا أن يتزوج من كريمة بك قد الدنيا!

قال البرديسي:
- أعتقد أنّ حسن الخيار قد أخطأك في التقدّم من هذه الأسرة العيابة.

فابتسم حسنين ابتسامة مريضة وتتمم:
- صدقت...

ثمّ راح يقول لنفسه وإني غائص في الطين حتى قمتُ رأسي، ليس لهذه الحال من علاج إلّا أن أدقّ عنق هذا الأحمق رافحت. ولكن هل يغيّر هذا من الواقع شيئًا؟ كلاًّ أنّه دفاع غير مجدٍ بيد أنّه لا يجوز أن تغيب عنّي حقيقة هامّة وهي أنّ اللكمة القويّة تستطيع أن تنتزع الاحترام انتزاعًا وتقرضه فرضًا. إني قادر على هذا والحمد لله فلا تنقصني الشجاعة أو القوّة. كان حسن أحقرنا شأنًا ولكنه كان على ذلك أعظمنا احترامًا. هذا درس يتنفع به. ثمّ سمع صديقه يقول في عزاء:

- لا تكثر أكثر ممّا ينبغي.
فقال وهو يبرز منكبّه مظاهرًا بالاستهانة:
- نصيحة ممقولة. ليس في أمرتنا ما يشين. كنّا أغنياء في يوم ما ثمّ دهمنا أيّام شداد فلا تبايناها بشجاعة حتى تغلبنا عليها. ليس في هذا ما يشين.
- بل فيه من دواعي الفخار ما فيه.

فضرب الأرض فجأةً بقدمه وقال مستعر العينين من الغضب:
- ولكنّي اعصرف كيف أوّدت من تحدّثه نفسه بإهانتني.

- هذا حتى لا شكّ فيه.
وساد صمت مرهق بالتعب والألم فلم يجد البرديسي خيرًا من أن يطلب قدحين آخرين من البجعة، ثمّ تتمم

كان يشعر دائبًا بأنّ مطرقة ثقيلة من ماضيه معلّقة فوق رأسه تهلّده في كلّ حين، وما هي قد أهوت على يافوخه ونثرته هشيئًا. ليس الأمر بحاجة إلى إيضاح أو سؤال، ولكن أمن الممكن حقًا أن يتجاهل كلّ شيء؟! ورفع بصره إلى وجه صديقه الواجم وسأله بلهجة أليّة:

- خبرني عمّا قال.
فعبس الشاب في ضيق وتبرّم ثمّ استطرد:
- أنّه حقيق بالإهمال ولكن من الإنصاف أن تعلم بما يقال عنك ولست في حاجة لأن أقول لك إني غضبت لك غضبة صادقة أجمعت للسنة الهاذين...
إذن اتخذوا منه مائة هذيانهم! وإني مائة! كان ينبغي أن يفكر في هذا كلّ يوم أقدم على تلك الخطبة المشؤومة. وابتسم إلى صديقه ابتسامة باهتة وقال:
- لا يجالني شكّ في شهادتك. إني أقدر إخلاصك حتى قدره، ولكن أرجو أن تعيد هل مسمعي كلّ كلمة قيت. كلمة كلمة.

وبدا الشاب متأفّفًا، واكتفى بأن يقول في امتعاض شديد:

- قال كلامًا كثيرًا من أعج لك... حتى قلت له محدّدًا إني أعرف قاطع طريق في بلدتنا أحقره وزير في القاهرة! فامتنع وجه حسنين، وتأذّى لدفاع صاحبه كأنه يسمع التهمة نفسها، بيد أنّه ضحك في يأس وقال:
- العادة أنّ عين الرضا لا ترى إلّا الوزير أمّا عين الغضب... ما علينا، وماذا أيضًا؟

فقال الشاب في عترب:
- وكلام سخيف من هذا القبيل.
ولكنّ حسنين هتف به في ضيق غلبه على أمره فجأةً:

- أرجوك، أرجوك، لا تخفي عني شيئًا...
فقال الشاب عابسًا من التهرّج:
- أكره أن أخوض في الحرومات.
- انحنى؟!

- قال إنّها كانت تعمل لترزق؟ وقلت له غاضبًا إنّ العمل الشريف لا يعيب أحدًا وإنّ الفقر ليس جريمة.

مبتسماً:

- ستجد إذا شئت من هي خير منها...

فقال حسنين باستهانة:

- أوه، البنات في البلد أكثر من الهواء وأرخص من

التراب!

وعلى من الجعة في ظمأ، وشغل الصديق بقدره أيضاً فماد الصمت. «أه لو كان في وسع الإنسان أن يخلق حياته من جديد، فيولد في أسرة جديدة، ويشق ماضياً جديداً. ولكن ما بالي أعذب نفسي بالأماني الكاذبة. هذا أنا، وهذه حياتي، ولن أسمح بأن أتحطم. لم تنته المعركة بعد!».

- ٨٥ -

ولمّا غادر الكازينو مودعاً من صديقه كانت الصدمة والجملة تكادان تذهبان بعقله. وكان ينبغي أن ينفس عن صدره قبل كلّ شيء ومهما كلّفه الأمر بيد أنّه استسحف فكرة مواجهة الضابط أحد رافقت وأغراه شعوره المنطوي على التحدي والغضب بما هو أجل وأخطر. وإنّ غضبي على هذا الشاب المغرور غير عادل. لقد سمع قولاً بذتاً فرددته. ليس لي عليه حق ولا أستطيع الزعم بأننا كنا أصدقاء. إذا سحنت فرصة للتحرش به في المستقبل فلن أدهما تغلبت بسلام، ولكن لندع ثأدي به حتى سنوح هذه الفرصة. هدي الحقيقي هو اليك نفسه ذو الشارب المصيرغ. سأقول له إنّ أقل ما يستحقّه رجل تقمّ لطلب كرمك هو أن تحافظ على كرامته خصوصاً إذا كان ابن صديق قديم، إذا تنصّل من التهمة قلته بالدليل القاطع وقلت له إنّ الفقر ليس عيب بخلاف التشيع على الناس فهو عيب حقير. إذا غضب ولا بدّ أن يغضب كما يحتم مركزه الكبير فلن أقتصد في إظهار غضبي حتى أفرغ بخار صدري المكتوم. «وبهذا الشعور المتفجر وما ينبثق حوله من إشعاعات الجعة ألقى بنفسه في أول ترام صادفه فحمّله إلى ميدان المحطة، ثم استقلّ الترام إلى شارع طاهر، وعندما ترامت له فيلاً أحد بك يسري تتأملت قدما كأنه يهول نفسه لمعاودة التفكير. وتردّدت في أعماقه هوائت مهيب به إلى التراجع ولكنّها ذابت في

تبار الحصى المستعر في رأسه فثّلغ إلى الفيلاً دفعا حتى وجد نفسه حيال البوّاب الذي وقف له احتراماً. وشق طريقه إلى الداخل دون استئذان وهو يشعر بغرابة سلوكه وسخافته ولكن دون أن يشي. كانت الشمس قد مالت نحو الأفق فلاحت شجيرات الورد والشيع الناعسة في ظلّ اللغيب، وإرتست على أرض المشي الوسيط آثار عجلات السيّارة في هيئة خطّين عريضين منحنيين، فأغى نحو السلامك، تشي نظرة الحيرة والتردد التي تنتاب تصميمه من حين إلى حين بأنّه لم يقتنع كلّ الاقتناع بوجاعة البواعث التي تدفعه إلى هذا التحدي. ومع هذا ارتقى السلم بسرعة غير متوقّعة، وما كاد يبلغ الفراخا حتى وقف متمسّراً تحت صدمة دهشة مفاجئة لم تدّر له يخاطر في هذيانه الطويل المتصل. رأى الفتاة - نفسها - جالسة على كرسي كبير وقد رفعت رأسها عن كتاب أو نحوه وتعلّمت إلى القادم بعينين متسائلتين. وثبت عينا عليها في جمود ذاهل وقد صلح صدره من الاعياح إحساس بالخزي أذابه ذوباناً. ثم أدرك أنّه حيال موقف لو استسلم فيه لضغفه لباه بخزي جديد فاق ما تعرّض له من ألوان الإهانة، فاستمدّ قوّة جديدة من خوفه مصمّماً على الخروج من وورطه بكرامة واستهانة. وأفاده التصميم فتهاك نفسه، وحتى رأسه باحترام وقال مبتسماً في لطف:

- مساء الخير يا آنسة. معذرة عن إزعاجي غير المقصود لك. هل أستطيع أن أقابلك البك؟
فقلت برقة - وكان يسمع صوتها لأوّل مرّة - دون أن يمتورها أدن ارتباك:
- والذي معتكف اليوم لوعكة خفيفة.
وحى رأسه مرّة أخرى، ولمعه وجد ارتياحاً إلى هذا الخلاص الذي جاء من حيث لا ينتظر، وقال وهو يهيم بالذهاب:
- أستودعك الله...

ودار على عقبه وسار خطوة، وخطوة أخرى، ثم توقّف في تصميم مباغت. اخشى منطق السلام وحلّ عله غضب واستهتار وتلبّست الحال الغريبة التي دفعته

- كنت أودّ أن أسمع رأيك، ولكن حسبي هذا،
إني آسف، وأرجو أن ترفعي تحياتي إلى البك.
ودار على عقبيه مسرعًا وهبط السلم ثم سار نحو
الباب. ومزّت بخاطرهم مناظر متباعدة في سرعة
وتلقّف. كموقفه مع بيّنة في بيتهم الجديد، وحديث
البرديسي في الكازينو. وهذا الحديث القريب ولست
عاشقًا خائبًا والحمد لله. كنت على وشك أن أكونه
ولكن الله سلّم. بيد أنني رجل خائب وهذا أقطع.
أحبّ أن أفكر طويلًا في هذه الأمور المعقّدة. إنّي أشعر
بمرض من نوع جديد، أين الداء؟ أين الخطأ؟ أين
العلاج؟
ولسّا خلص إلى الطريق كان مقتنعًا بأنّه ارتكب
سخافة لا معنى لها.

- ٨٦ -

قالت الأم مبتسمة وإن ثمت نظرة عنها عن أمي:
- من عجب أنك ترمي بنفسك في أمور خطيرة دون
أن تأخذ العنة لها. هبهم وافقوا على الزواج فإذا كنت
تفعل؟ ألم تفكر في هذا؟ ألم تحذرك جيئًا من عاقبه؟
كان قد مضى على حديث صاحبه البرديسي حوالي
عشرة أيّام ومع هذا لم تغب هذه المسألة عن أذهانهم،
وكانوا كلّها مجتمعهم جلسة في الشرفة المطلّة على الطريق
في أوقات العاصري ولاح في وجهه الشروء أو التفكير
اتبرت الأم للحديث ترجو أن تبلغ به موضع التعرّي
من قلبه وانضمت إليها نفيسة مازجة الجلد بالمزاح.
وقال حسنين في ضجرج:
- لا ييلو لي الغد خيرًا من اليوم.
فقالت نفيسة:
- كلام فارغ.
وصدّقت الأم على كلامها قائلة:
- وستبيد لك الأيام أنّه كلام فارغ، وستزوّج من
خير منها. . .

وتساءل في نفسه لماذا ييلو المشائم الوحيد في هذه
الأسرة؟ أهي أسرة بلهاء أم هو الأبله؟ أليس الدور
الذي يلعبه الشيطان في هذه الدنيا أخطر من أدوار
الملائكة مجتمعين؟ بلى، فلماذا لا يرونه كذلك! ولقد

من مصر الجديدة إلى شبرا.
ودار حول نفسه مرّة أخرى وواجه الفتاة في جراحة
غير مبالٍ بنظرها الترفّعة المتسائلة ثم قال بصوت أعلى
نمّا يستدعي الموقف:
- معذرة، تعرّ عليّ أن أودّع هذا البيت الوداع
الآخر دون أن أعرب عن أفكاره.
فطلّعت على تساؤلها الصامت دون أن تنبس بكلمة
فاستنرد متسائلًا:
- أظنّ بلغك أنني طلبت يدك؟
فقال وهي تفصّ بصورها:
- لم تجر العادة بأنّ يحذّني أحد من زوّار أبي.
فقال فيها يشبه الدهشة:
- طنتها عادة غير مستنكرة في الأوساط الراقية!
- ليس في جميع الأحوال.
فتبادى في الاستهانة قائلًا:
- اسمحي لي أن أتكلّم رغم هذا، إنّي قصدت
البك لمصادفته في الأمر نفسه لأنّه نمّا إليّ أنّ طلبي عدّ
وقاحة لا تغفر.
فقال دون أن ترفع بصورها:
- يحسن بك أن تؤجّل حديثك لحين لقاء البك.
فقال وعيناه لا تتحوّلان عن وجهها:
- ولكن ما يعني به الحظّ من لغالك - وأنت
صاحبة الشأن الأوّل - يحتمّ عليّ أن أتكلّم، يهمني أن
أعرف رأيك، هل يعدّ طلبي وقاحة حقًا؟
فقال بما ينمّ عن الضجرج:
- أرجو أن تؤجّل حديثك لحينه.
ومع أنّ ضجرجها كان شيئًا منتظرًا إلّا أنّه ألمه واحتفه
فقال:
- إنّ الذي يسعى إلى يد فتاة يتقدّم عادة بخير ما
فيه ولكن يحدث أحيانًا لسوء الحظّ ألا يروا إلّا شرّ ما
فيه، كبعض مساوئ تعلّق بأسرته مثلاً.
فنبضت قائمة عابسة، وهي تقول:
- لا مفرّ من اللعاب.
وأجمعت نحو مدخل البهو فلاحها بصوت مرتفع
قائلًا:

معهما حتى السَّيَّارة وأعطى الرجل النقود وصرفه
مستقيماً الآخر، ثم سألَه في اضطراب وجزع:

- ماذا حدث؟

فقال الرجل:

- سي حسن أخي وصديقي، ولعلَّك تعلم أنَّه كان
هاريّاً من وجه البوليس فانتَهز بعض أعدائه هذه
الفرصة وترئّصوا له في بعض الأماكن التي يقطعها
مستخفياً وانقضُّوا عليه غدراً وسلبوه ماله ولاذوا
بالفرار، وقد تحامَل المسكين على نفسه حتى بلغ
مُسْكَنِي ورجائي أن أذهب به إلى أهله فأخذنا التاكسي
إلى عطفة نصرالله حيث أخبرنا الجيران أنكم انتقلتُم
إلى هذا البيت فجئنا من توتنا.

وكان حَسَنِين يصني إلى الرجل في شبه ذهول،
ومع أنَّ إحساسات شقِّي تعاورت قلبه إلَّا أنَّ إحساس
الخوف والقلق غلبها جميعاً، ولَمَّا انتهى الرجل من
حكايته غمغم الشاب:

- شكراً لك يا سيدي على مروءتك، هَلَّا تفضَّلت
بالبقاء ساحة حتى تستريح . . .

ولكن الرجل رفع يده إلى رأسه شاكراً وقال:

- إنِّي ذاهب في الحال، ولي كلمة قبل الذهاب وهي
أنَّه يجب الإسراع إلى علاج الجرح الخطير ولكن حذار
من استدعاء الإسعاف أو حمله إلى القصر وإلَّا أدَّى
الأمر إلى التحقيق ثمَّ إلى البوليس؟

وحياهُ الرجل ومضى إلى حال سبيله، فعاد الشاب
إلى الحجرة كمن يشق سبيله في ظلمة حالكة والأرض
تُميد به. ووجد أمه كما تركه راقداً وكأنَّه اطمأنَّ إلى
الجو الجليد فأسلم إلى غيبوبة تامَّة، وانكبَّت عليه
المرأتان في جزع بائٍ، ولَمَّا أحسَّنا بالقادم تطلَّعنا إليه
بنظرة استغاثة. ورنا إلى الرائد طويلاً ثمَّ تساءل
بصوت غريب:

- ألم يتكلَّم؟

فقالَت الأمُّ وهي تزدد ريقها الجاف:

- غمغم كلمات لا تعني شيئاً ثمَّ راح في غيبوبة.

أغثنا بدكتور.

ولكن الجريح حرَّك يده بجهد، وبدا كأنَّه يستطيع

أرسل إلى حسين كتاباً بآخِر أنباء زواجه فهاذا كان
جوابه؟ لم يكد يزيد شيئاً عَمَّا تقول أمَّه أو أخته! أمانوا
وهم أحياء؟ ألم تعد تستهويهم الحياة الرفيعة الشريفة؟
وقطع عليه أفكاره جرس الباب الخارجي الذي رنَّ
رنيناً متواصلاً، ثمَّ صوت الخادم وهي تصبح بحالة
مزعجة بعد أن فتحت الباب «سيدي . . . سقِّي» فهرع
إلى الصالة مستطعماً بتبعه أمَّه وانشته فرأى عند باب
الشقة المفتوح رجلين غربيين يسندان ثالثاً بينهما، جريحاً
فيها يبدو من عصاوبة قلرة تطوق رأسه وتنزّ دماً، وقد
مال عنقه إلى كتف أحد الرجلين. واقترب حَسَنِين من
القادمين مهوَّناً منزعجاً لا يدرك شيئاً ولا يفهم شيئاً
حتى صار على قيد خطوات منهم وعيناه لا تتحوَّلان عَمَّا
انحصرت عنه العصابة من وجه الجريح. بشرة شاحبة
تشوبها زرقة تثير من الأعماق ذكرى الموت، وتملؤها
فوضى غميَّة من شعر نابت وآثار التهاب، ولكنَّ
العينين المغمضتين رمشتا في إعفاء فلاححت خلال
أهدابها نظرة واهنة غير غريبة سرعان ما انتقلت
حركاتها الضميَّة إلى ذاكرته وانفجرت بها كالقنبلة.
وقبل أن يتحرَّك لسانه جاء صوت أمَّه من الخلف
مؤكِّداً ما انفجر في رأسه هاتفاً في نبرات يمزِّقها الخوف
والإشفاق:

- حسن . . . هذا حسن . . .

فصاح حَسَنِين مرَّداً قول أمَّه في ذهول:

- حسن . . .

وهنا قال الرجل الذي يسند عنقه بكفه ويشترك مع
الآخر في حمله:

- يجب أن نيمه في الحال . . .

وتقدَّم الشاب في ذهول منهم وانحنى فوق قلعي
أخيه وبسط ذراعيه تحت ساقيه ورفعها في رفق وساروا
مُعًا متعاونين في حمله إلى حجرة نومه، وأناموه على
الفراش في جزع لا يوصف. وفي الصالة أشار الرجل
الذي تكلم أوَّل مرَّة - وكان يرتدي جلباباً وطاقية - إلى
الآخر - الذي كان يتزيَّأ بزِّي الأندليَّة - وقال:

- لا مؤاخذه، هذا سائق التاكسي.

فأدرك حَسَنِين أنَّه يلمَح إلى أجرة التاكسي فسار

أن يغالب غيبوبته عند الضرورة فقال بصوت باهت ضعيف تجرد من فحولته المبهودة:

- لا دكتور... الدكتور... يبلغ.. البوليس.

والقى عليه نظرة متفحصاً فرأى العصابة المخضبة بالدم تخفي رأسه وجبهته وجانباً من صفحتي وجهه فلا تبدو إلا عيناه المقلتان بالإعياء والذبول وذقنه النابتة الشعر، وقد فغر فماً ترتد فيهِ أنفاس ثقيلة عسكرة، على حين تمرّق رباط رقبته وجيب الجاكته وانتثرت خيوط الأزرار، وراحت يمينه تنقبض وتنسبط، ويشّ بين آونة وأخرى. وقف حسنين حيال هذا المنظر ذاهلاً فتنامى عذابه وتركز شعوره في إحساس عميق بالآلم والإشفاق. نسي برهة كلّ شيء إلا أنّه حيال أخيه الجريح، وأنّه ينبغي إنقاذه بأيّ ثمن. ثمّ جعلت تطفو من أحيائه مشاعر خوف وقلق طالما طارده في الأيام الأخيرة في هيئة تُدرّ تهديد سمعته ومستقبله، فانتقبض قلبه، وداخله ألم جارح لهذه المشاعر ذاتها من ناحية، ولتأنيب الضمير على إحساسه بها في مثل هذا الموقف من ناحية أخرى. وكأنّه فزع إلى الحرب من باطنه بالكلام فقال مخاطباً الجريح برقة:

- دعني أحضر طبيباً. حيالك أمّهم من أيّ شيء آخر.

وقالت الأم ونفيسه برجاء ممّا:

- نعم يا حسن، دعنا نحضر الطبيب.

ولكنّه رفع جفنيه الثقيلتين وقال نبرات المصغوظة المتعبة:

- كلّاً، لا تخافوا. هله ضربة تافهة...

ثمّ حاول أن يأخذ نفساً عميقاً واستراح لحظة، ثمّ استدرك قائلاً مغمض العينين:

- غدروا بي. الوليل لهم. إن كان لي عمر فالويل لهم. ولكن لا تستدعوا طبيباً. الطبيب يبلغ البوليس...

فقال حسنين وكان لا يزال فريسة للزراع الناشب من باطنه:

- لا بدّ من إحضار طبيب، وليس عسيراً أن نقنعه بتكتّم الخبر.

وتوسّلت إليه الأم قائلة:

- ارحمني يا حسن واقبل هذا...

فتفخ الرجل مغتمّاً في صجر:

- ارحموني أنتم ودعوني في سلام... أف

وجعلت الأم ترتدّ بصرها بينه وبين حسنين ولكنّ الشاب كان من العناية في بلوى. برح الخفاء وتبين حقيقة مشاعره، فليس نأله لأخيه بشيء يذكر إلى جانب الخوف الذي يلقي عليه ظلاً ثقيلاً من شبهه الجاثم. «قضي علينا، قلبي لا يكذبني على الأقلّ في الشرّ، قضي علينا في مصر الجديدة كما قضي علينا في شبرا وسيطاردنا البوليس جميعاً كالجرمين. أكاد أرى بحيثٍ رأسي المحموم الضابط وهو يفشّ الحجرات ويلقي القبض على المجرم المهرب. هل شدّت منافذ الحياة؟! اتقول أنّه أخي؟ أجل أنّه أخي، ولكنّها حياتي التي تتحكّم تحت قدميه في طريقه الوحرة. أف، لشدّ ما ضاق صدري!» ثمّ سمع أمّه وهي تنفّس به في يأس:

- اخشي يا حسنين! ألا ترى أنّه يموت بين أيدينا!

«كلّاً لن يموت، أمّا أنا فلاي أموت موتاً بطيئاً فاسياً.

إنّ كرامتي تحضر. وبه مات حيث هو الآن فسيأتي طبيب للكشف عليه ثمّ يلحق به البوليس والنيابة ولن يكون لهم سبيل على الجثة ولكن ستفوح التناثرة من البيت في هيئة فضيحة رائعة!» ثمّ حانت منه التناثرة إلى أمّه وكانت ترتدّ بين الراقدة وبينه نظرة حائرة زائغة فزعاً، ومع أنّها كانت مطبقة الفم إلا أنّه سمع لنظرتها تلك صرخة مدوّية تمرّق نياط القلب. وعجب لنفسه فقد حقد عليها بادئ الأمر ثمّ خيل إليه أنّ ذكريات غامضة سريعة تطرق قلبه في لمح البصر فتخاذل وضعف وعاد يرتكز بصره في العصابة الملوّنة بالدم، واستردّ قوّة تفكيره فخطر له خاطر باهر غتم على أثره بلا وهي «كيف نسيت هذا؟!» ثمّ قال مخاطباً أمّه في عجلة:

- سأحضر طبيباً صديقاً من مستشفى الجيش،

انتظري قليلاً فلان أعيب طويلاً.

وهرع إلى بدلته فلبسها متعجّلاً وغادر البيت لا

وقف حسنين مستنذاً إلى حافة النافذة يراقب الطبيب وهو مكبٌ على عمله الدقيق وقد غادرت الأم والأخت الحجره ولبشا وراء الباب المغلق يكاد يسمع تردد أنفاسها. كان عابساً شديد التأثر، وتولاه الفزع، ثم أخذ يهدأ، ويغيب في أعماق نفسه. وكان قد أخبر الطبيب لدى مقابلته أنَّ أخاه أصيب بجرح في رأسه عقب معركة مع أحد أفراد الأسرة ورجاه أن يسعف مبدئاً له رغبته الخاطئة في تكتم الخبر حتى لا تخدش كرامة الأسرة بفضيحة عائمة ومضى الطبيب معه في تحفظ، ولمَّا أجرى الكشف الابتدائي على رأس الجريح قال:

- كسر عميق، إلى ما استنزف من دم غزير. لا أدري ما وجه الحكمة في عدم إبلاغ البوليس! فقال حسنين بتوسل:

- فلتحاش هذا بأيّ ثمن! فقال الطبيب وهو يتعمق للعمل:

- الظاهر أنك لا تدري خطورة الأمر!.. وعلم أيّ فلتؤجل هذا إلى حينه!

وتركه طوال العملية الجراحية غير مستقر ولا مطمئن، بل قضى حديثه الأخير على نوازع عطف كانت تتحرك في أعماقه. كان في ذهابه إلى المستشفى وعودته بالطبيب مجال حسن هيأ له جوّاً طيباً تنمو فيه إحساسات العطف وتزكو فتزعت به الذكريات إلى الآثام الخوالي التي كان حسن فيها المرفق الوحيد عن بأسائهم، واليد البسولة التي تجود فتحقق لهم الآمال. ولكن سرعان ما استثار القلق الخوف فتحجر قلبه ونضب معين العطف ولم يعد يرى في الرجل الجريح إلا نذير الشر الذي يتهدد سمعته ومستقبله. ها هو يرقد في غيبوبة شاملة لا يشعر بالأسلحة الدقيقة التي تعبت بلحمه وعظمه، وهكذا كانت حياته دائياً جرحاً عميقاً يبتلي سواه بالآلام. أمّا هو فلم يفق من غيبوبته قط: أو لم يشأ أن يفق منها. ألم يضرع إليه بالعموم أن يغير حياته؟ بل، وكان جزاؤه السخرية الاليمية،

فلو أنه مات في أرض بعيدة.

ثم ثبت عينيه على الوجه الذي أخذ يخبئ تحت الأريطة فسرت في جسده رعدة، وامتلاً يأساً وانقباضاً وأخيراً سمع الطبيب يخاطبه قائلاً:

- انتهيت من الممكن عمله الآن، هلمّ معي إلى الخارج...

وانتظر حتى غسل الرجل يديه وارتدى جاكته ثم سار بين يديه إلى حجره الاستقبال ولم يجلس الرجل ويداً متفكراً، ثم قال بدهود غير منتظر:

- لا أظنّ الحال خطيرة جداً ولكنّه سيحتاج إلى علاج طويل. يا له من اعتداء وحشي، لماذا لا تبلغ البوليس؟

فقال حسنين بجزع وإن رقه قول الطبيب إلى بعض رشاده:

- إني أنفادي من الفضيحة، ومهما يكن من أمر فنحن أسرة واحدة!..

فهزّ الطبيب رأسه فيها يشبه التلمّع ثم قال بشيء من الحزم:

- سأعود لرؤيته صباحاً فإذا وجدته على ما يرام فيها ولأنا ساجدي مضطراً للتبلغ.

وساوره القلق فقال برجاء وكأنه يخاطب نفسه:

- أرجو ألا يحدث هذا.

ثم خاطب الطبيب قائلاً:

- إني أشكر لك ما تجتهدت من جهد وتعب.

وأنهجه الرجل إلى الخارج فوصله إلى الباب الخارجي وهو يشدّ على يده بامتنان، ولم يشأ الطبيب أن يذهب قبل أن يكرّر على مسمعه قائلاً في تأكيد:

- سأعود صباحاً...

ووقف يتابعه بنظره وهو يستقل سيارته حتى انطلقت به مزجعة في طريقها فتهدّ كأنه يزيع ثقلاً لا يتزعزع ثم عاد إلى الحجره ينقل خطواته في كآبة، وما كاد يلج الباب حتى هرعته إليه أمّه وسألته في لهفة وجزع:

- ماذا قال الطبيب؟

وكره لهفتها وجزعها من أعماق صدره ولكنّه لم يجحد

بدأ من أن يقول في هدوء:

- إنه معطين إلى الحالة وسيعود صباحاً، كيف حاله الآن؟

فقالت نفيسة:

- لم يفق بعد.

وارتمى على الكرسي الوحيد بالحجرة وأغمض عينيه... وأنا الجريح حقاً، إنه ينام نوماً عميقاً في غيبوبة سعيدة فمن لي بمثل هذه الغيبوبة. لا أظنّ الحال خطيرة جداً، هكذا يقول الطبيب الغافل. كلّاً إنها خطيرة جداً. وإللا أخطر من موته. إذا ساءت الحال أبلغ الخبر إلى البوليس، وإذا تحسّنت جثم على صدري حتى يبلغ أعداؤه البوليس عنه، فالفضيحة آتية لا ريب فيها... أين المهرب من هذه الآلام جيماً. إنّي أمقت هذا الجريح وأمقت نفسي وأمقت الحياة جيماً. أما من حياة غير هذه الحياة، ومخلوقات غير هذه المخلوقات؟ والظاهر أنّ أفكاره انعكست على صفحة وجهه فتقبّست أساريره في امتعاض وإلم، ولاحت من أمة التفاتة إليه فاشتدّ بها التأثر وقالت له برقة:

- هوّن عليك، أخوك بخير، والله حافظه وحافظنا...

وفتح عينيه في دهشة، ورمقها بنظرة غريبة دون أن ينبس بكلمة...

- ٨٨ -

وجاء الطبيب في صباح اليوم الثاني ثم غادر البيت معلناً اطمئنانه، وبذلك نجا حسين من الخطر القريب الداهم ليفرغ لقلق متصل وعذاب بطيء وأوهام لا تفارقه ليلاً ولا نهاراً. وانقضت أيام والأسرة في هدوء نسبي، ومضى الرجل الجريح بيقين ويسترة حيويته شيئاً فشيئاً، ويعودته إلى الحياة ساورته أفكار قديمة لم تلبث عدواها أن سرت إلى النفوس المحيطة به. وقد انتمس في باني الأمر ابتسامة حزينة يشوبها تسليم لم تألفه طبيعته وقال كلمته:

- أنجبكم كثيراً، والظاهر أنّ الله لم يخلعني إلا للتعب... فليساغني الله!

والتمعت فيها حوله بسبات المجاملة والتودّد فلم ينخدع بها، أو لم ينخدع بها جميعاً، فمالّت عيناه نحو حسين وقال:

- لا شك في أنّك غاضب ولعلّك تودّ أن تدنّري بمواعظك السالفة!...

فغمض الشاب قائلاً:

- لا أودّ إلا سلامتك...

فابتسم الرجل ابتسامة غامضة، ثم ما عثم أن تجهّم وجهه، وتكاثبت عليه الأفكار، فقال في لهجة مضطربة غير التي تكلم بها أوّل الأمر:

- سلوبي تقودي، الويل لهم، كنت عازماً على الحرب، ولا بدّ من الحرب.

وتحسّ رأسه بيده وأغمض عينيه، ثم غتم وتأنّه يحدث نفسه:

- ماذا فعل الله بسنا؟... هل يكفون عنها؟... لن تستسلم لعدو من أعدائي، ولكتبها لن تستطيع الحرب معي، فات الوقت وفقدنا تقودنا...

وأنصت حسين صامخاً، جافلاً من ملاقاته هذا الملبان بغير الصمت، واختلس من أمة وشقيقة نظرة فوجدما تبادلاً نظرة حائرة ثم عاد حسن يقول في نبراته المضطربة:

- يجب أن أخفي. إنّ الصديق الذي حملني إلى هنا رجل غلص ولكنه أجهل من أن يحفظ سرّاً، وليس أحبّ إليه من أن يروي قصّة مروءته لرفيقته، فنتقلها هذه لجارتها، حتى تبلغ أحداً ممن يتربصون بي، فلا ندري إلا والبوليس يقتحم علينا البيت.

وتنهّد حسين في يأس، وحانت منه التفاتة صوب أمة فالتقت عينهما لحظة قصيرة قبل أن تغضّ بصرها، وامتلأ حقناً فحاطبها في سرّه... لماذا آتيت بنا إلى الدنيا؟... لماذا اقترعت هذا الجرم الشنيع؟... ثم سمع أخاه يجف بنصف:

- يجب أن أخفي. سأغادر البيت حالاً أقدر على المشي، وريماً غادرت القطر كله...

واستروح حسين نسمة باردة كالأمل لأول مرة مذ جاء الرجل محمولاً كالفقراء والقدر. «هل يمكن أن

- ٨٩ -

تاثرت نفوسهم كالشظايا: فوثب حسين قائماً وهو يحثّق في وجه الحادم، ورمى حسن بقدمه من على الفراش إلى أرض الحجرة وهو ينظر إلى النافذة في عبوس متمتّعاً «الحرب»، على حين رقدت الأمّ بينهما عينيّن زائغتين وكان حلقها من الجفاف بحيث لم يسمح لكلمة بالخروج. وجد حسين في مكانه دقيقة، ثمّ استسحف جموده فهزّ منكيه في يأس وغادر الحجرة إلى الباب الخارجي حيث وجد الشرطي واقفاً وتبادلا بحيّة آليّة ثمّ سأله الشابّ في استسلام:

- أفنتم؟!

فقال الرجل بصوت أجشّ:

- هل حضرتك الضابط حسين كامل عليّ؟

- نعم...

- حضرة ضابط نقطة السكاكيني يرغب في مقابلتك في الحال.

ونظر حسين فيها وراء الرجل حتّى الطريق فلم يرَ غيره ثمّ كان يتوسّع رؤيتهم، وداخله شيء من الطمأنينة، ولكنّه تساءل في حيرة:

- ماذا يريد حضرته؟

- أمرني أن أبلّغك رغبته دون أن يزيد.

وتردّد الشابّ قليلاً ثمّ استطرد ريشاً يرتدي ملبسه وعاد إلى الحجرة، ووجد أخاه وراء بابها ينتصّت فما إن رآه حتّى سأله في لفة وهل جاءوا؟، وكثرت الأمّ السؤال في صوت مريض، فأعاد على مسميها ما دار بينه وبين الشرطي وهو يرتدي ملبسه، وما كاد ينتهي حتّى قال حسن:

- لعلّ الضابط من معارفك فأراد أن يبيّحك قبل أن يكيس البيت. هذا واضح. أصغر إليّ، إذا سألك عنيّ، فقلّ له إنك لم ترني منذ أعوام. لا تتردّد ولا تمش عاقبة الكلب فلن يفقوا لي على أثر. سأحتفي عقب ذهابك مباشرة فقلّها ولا تخف وربّنا معكم...

فتساءل حسين وهو يخفي عنه عينيّه حتّى لا يقرأ فيها ما تنفّس في أعماقه من أمل جديد:

- وهل لديك من القوّة ما يعينك على الحرب؟

يحدث هذا قبل أن تقع الواقعة!.. هل يخفي حقّاً فلا تقع عليه عين ولا يعرف له أثر؟! فليتنمّ حيث هو، يجب أن أحيّا حياة مطشّة!.

ثمّ مرّ يوم ويوم ويوم حتّى غدا جرّ البيت على كآبته معهوداً مألوفاً، فلامس حسن الشفاء أو كساد وأخذ يفكر جدّياً في مغادرة البيت ثمّ في الحرب من الوطن كلّه ويرسم لذلك الخطط في صمت وتفكير متواصل، ولم تعد نفيسة تلزم نفسها القبوع في البيت فعادت إلى زيارعها التي لم تكن تنقطع يوماً، وكذلك عاود حسين حياته العاديّة ما بين عمله وبيته والنادي ولكنّ رأسه لم يتوقّف عن التفكير في أخيه والخطر الذي يتهدّد سمعته بسبب إقامته بينهم. وقد دار بينه وبين أمّه مرّة حول هذه النقطة الحسّاسة فقال لها بعد إشفاق وتردّد:

- إذا كان البوليس لم يبتدِ إلى عمل إقامة حتّى الآن فبمعجزة من الله لا يمكن أن تستمرّ طويلاً...

ونظرت إليه المرأة نظرة غريبة احتار في تفسيرها بادئ الأمر، أمّ عتاب صامت، أم تسليم بالقضاء من العجز عن ملاقاته، أم استنكار يداريه الخوف من الإفصاح، كلّ أولئك بدا راجحاً حيثاً لولا أن برح الخفاء فتهتك دعة تفرقت في محجريها في بطنه كالخياض وفي تردّد هو العذاب، هنالك ملاء الانزعاج لأنّه لم يكذّ يذكر أنّ رأى أمّه باكية على كثرة المحنّ والمثبات، وتراجع فيها يشبه الفرار وضّور من خزّنها وعزّمتها تنثال على مخيلته في دهشة وألم، فكأنّه يشهد احتضار أسد هصور. على أنّه حين خلا إلى نفسه تناسى آلام الآخرين وانفرد بالألم هو وخافوه، فاشتدّ به الاستياء والحقن، ولعن نفسه وأمه معاً...

وفي عصر اليوم التالي مباشرة أرادت هذه المخاوف أن تخطو خطوة جديدة. كان يجلس وأمه وأخوه على الفراش يتجادلون الحديث، وكانت نفيسة في الخارج. وردّ جرس الباب فجأة فذهبت الخادم لتفتح، ثمّ عادت في ارتباك ظاهر وقالت للشابّ:

- سيدي. عسكريّ بوليس يرغب في مقابلتك...

فقال حسن وهو يجذب بدلته من على المشجب:

- إني على خير عافية... مع سلامة الله.

وغادر حسين الشقة ومضى في صحبة الشرطي، وكان أول ما بدا له أن يسأله عن اسم الضابط لعله يكون حقاً من معارفه ولكن الشرطي ذكر له اسماً غريباً لم يسمع به من قبل فعادته الحيرة. وبدا له الأمر شديد التعقيد. بيد أن عزم حسن على الاختفاء بث في نفسه طمأنينة لا حد لها. وبلغا نقطة البوليس قبل المغرب بقليل، وقاده الشرطي إلى حجرة الضابط ثم أدى التحية قائلاً:

- حضرة الملازم حسين كامل عليّ.

كان الضابط جالساً إلى مكتبه، وعلى بعد ذراع من المكتب وقف رجلان وامرأة من أهل البلد تلوح في وجوههم آثار معركة حديثة العهد، ولكن الرجل بهض لاستقبال حسين ومد له يده وهو يقول: «أهلاً وسهلاً» ثم أمر الشرطي بإخلاء الحجرة وإغلاق الباب. وطلب إلى الشاب أن يجلس على كرسي أمام المكتب فجلس وهو يقول لنفسه فترى ما معنى هذا كله؟. فترحاب وعجالة ثم ماذا؟!.

وخرج الضابط من مجلسه ووقف في مواجهته مستنداً يمينه إلى حافة المكتب، وجعل يتفحصه بنظرة غريبة تلوح فيها حيرة من لا يدري كيف يبدأ حديثه أو من يجد في ذلك قدرًا من الصعوبة لا يخفى. وشعر بفترة السكوت على قصرها غليظة لا تحتمل، واشتد به إحساس كربه استحوذ عليه منذ اللحظة التي وطأت قدماء فيها أرض نقطة البوليس، إحساس بالرهبة والقلق والضيق وضابط مهذب يتحرج من إلقاء التهمة في وجهي، هذا غريب في ذاته، تكلم وأرحي فطلما تراءى لخيالي كابوس هذه اللحظة. إني أعلم سلفاً ما تريد قوله. نكلم... .

ونفذ صبره فقال:

- دعاني الشرطي لمقابلة حضرتك!

فقال الضابط:

- إني أسف لإزعاجك. كنت أود أن ألتاك في ظرف خير من هذا، ولكنك أدرى بما يتطلبه الواجب

أحياناً.

وزفر حسين آخر نسمة من أصل ضعيف في السلامة وقال في وجوم:

- إني أشكر لك كرم أخلاقك، وما أنا مصغر إليك...

فقال الضابط باهتمام ورقة معاً:

- أرجو أن تتلقى ما سأقول بشجاعة، وأن تسلك سلوكاً جديرًا بضابط يقدر القانون...

فقال الشاب وهو يعاني ما يشبه الهزال والخور:

- هذا طبيعي جداً.

فمض الضابط على أسنانه كما بدا من تقبض

صديقه ثم قال باقتضاب:

- الأمر يتعلق بأختك...

ورفع حسين حاجبيه في استنكار ثم قال:

- تعني أخي؟

- الست أختك، ولكن معذرة أحب أن أسألك

أولاً هل لك أخت تدعى نفسها؟

فقال حسين في ذخور:

- نعم، هل وقع لها حادث؟

فمض الرجل طرفه وهو يقول:

- يؤسفني أن أخبرك بأنها ضُبطت في بيت

بالسكاكيني...

وفزع حسين واقفاً، متصلاً بالجسم، مصفر الوجه

عملياً في وجه محدته، وهو يلهم قائلاً:

- ماذا تقول؟

فربت الرجل على كتفه متأثراً وقال:

- ادع كل قوة في نفسك كي تضبط أعصابك.

الموقف يستلزم الحكمة لا الغضب. أرجو أن تساعدي

على القيام بواجبي ولا تجعلني أندم على ما أملت من

إجراءات راعيت فيها المحافظة على كرامتك قبل كل

شيء.

أنصت إليه وهو لا يزال يحمل في وجهه، فتسلل

عيناه بوجهه تارة فلا يرى سواه، ويغيب عنها أخرى

فيسمع الصوت ولا يرى شيئاً، وثالثة لا يرى إلا

شغتين تنطبان وتفرجان فيشال من بينهما كلام هو

- تركناها في هذه الحجرة لأنه أغشى عليها حين علمت بأنني أرسلت في طلبك بدل أن أطلق سراحها. اسلك سلوك رجل يحترم القانون واذكر أنني مسئول عن الأرواح. إنك رجل محترم ومهذب فمالج الأمر بالحكمة. لا يصح أن يعلم أحد من في النقطة شيئاً ولكن هذا يتوقف على سلوكك أنت، تذكر هذا جيداً...

فكرت قوله بنفس الصوت الميت:

- دعني أراها من فضلك...

مضى الضابط إلى الباب المغلق متشاقلاً وفنتحه، واقترب حسنين منه كمن يمشي في حلم، وألقى بنظرة من فوق كتفه كمن ينظر ليتعرف على جهة في المشرحة، فرأى لصق الجدار المواجه للباب أريكة ارتمت عليها فتاة قد ألقت برأسها إلى الحائط، عيناها نصف مفتوحتين ولكنها مظلمتان لا تريان شيئاً مئة أو مئتين عليها أو لعلها في دخول الإنفاة الأول، وقد التصقت بجبهتها شعيرات مبتلة وعلت بشرتها صفرة الموت. لكنها نفيسة دون غيرها. «قلبي لا يكذبني في المصائب أبداً لو كانت مئة لأعيت آلي لا أعرفها بلا تردده ولم تبدي حراكاً كأنها لم تحس للقادمين وجوداً، أو أنها لم تستطع أن تبدي حراكاً. ونظر الضابط صوبه متسائلاً ولكن عينيه لم تتحولاً عنها، جمد بصره وتحجر وغشيه ذهول وجد فيه مهرماً مؤقتاً كما كان وما سيكون ونعيم عليهم سكوت الموت، وانقضت فترة طويلة أو قصيرة، ثم شق الصمت صسوت باطني بصرخ في أذنه وانتهى...» وتحالفت لعينيه صورة أمه كما أراها منذ ساعة وافقة بينه وبين حسن في حيرة يأسه والرجل يتوكل للفرار. ود تلك اللحظة لو يقتحم تجارب الكفر والقسوة والموت وماذا ينتظر هذا الضابط أن يفعل؟.. ماذا ينبغي أن أفعل؟ رآه كيف أغادر هذا المكان؟!.. ثم سمع الرجل يقول:

- لقد قدمت ما عندي من واجب نحوك فهات ما عندك من حكمة...

فسأله بدوره وهو يتحامي بعينه:

- أين الآخر؟!

الفرع واليأس والغربة، وبين هذا وذاك ترمش عيناه في حركة عصبية فتلتقطان منظرًا غريباً هنا وهناك، بندقيته مثبتة في جدار أو صفاً من البنادق أو محبرة، وربما امتلا أنفه برائحة دخان محبوس أو رائحة جلود غريبة، ثم ينحلّ وعيه ويتراجع فجأة إلى ذكرى بعيدة لا صلة لها بالحاضر فيلوح لذاكرته منظر عطفة نصرالله وهو صبي يلاعب حسين البلب «ضبطت في بيت! أي بيت؟! إن أحدنا فاقد العقل ولا شك ولكن من هو؟ ينبغي أن اتحقق من آلي عاقل أولاً...» وتتهدد في وحن، ثم سأله في استسلام:

- ماذا تقول يا سيدي؟

- يوجد في هذا الحي بيت تستأجره ست رومية وتؤجر حجراته بالساعة للعشاق. كسنا البيت عصر اليوم فوجدنا الست... وجدناها مع شاب، واعتقلناها طبعاً وشرعنا في اتخاذ الإجراءات القاسية التي تعرفها فاضطرت تحت تأثير الحرف أن تعترف لي بأنها شقيقة ضابط على أمل أن أطلق سراحها... - أختي أنا؟... أأنت متأكد؟... دهني أراها...

- اضبط نفسك، أروك، لو كنت متأكداً من أنها أختك لأطلقت سراحها. ولكنني خفت أن يكون اعتزالها خدعة، قد عرضت المسألة على المأمور فوافق على وقف الإجراءات على شرط التأكد من صدق قولها...

ومن عجب أنه لم يعد يداخله أدنى شك في حقيقة الواقعة فسرعان ما آمن بها قلبه المشائم، ووجد في فظاعتها ترجيحاً لأصداه خوف قديم طلالا نلوش قلبه وعذبه. أجل لم تخن هذه الواقعة إلا لحظه ولأمرته، إنه يعلم هذا علماً لا يتطرق إليه الشك. أهذه هي نهاية المطاف؟! ثم غلبه ذهول شعر معه بأنه أثر من آثار ماضٍ منطو انقطعت صلته بالحاضر فضلاً عن المستقبل، كان، هذا هو، ولكنه لا يكون ولن يكون.

ثم انهيمت منه لفة على النهاية فقال بصوت ميت:

- أين هي؟... دعني أراها من فضلك...

فأشار الضابط إلى باب مغلق وقال:

وأدرك الضابط ما يعنيه فقال بلهجة لا تخلو من حزم:

- تَلَيْتُ عليه الإجراءات وأطلق سراحه.

فغمغم قائلاً:

- لنترك هذا المكان شاكرين.

- ٩٠ -

في الخارج لفتح هواء بارد وكان الظلام قد خيم فابتعد عن نقطة البوليس في خطوات ثقيلة تتبعه هي على بعد ذراع منكسة الوجه، سارا مع قضبان الترام ولم يكن يدري أين ينتهي به السير لأنه لم يسبق له المضي لهذا الحي، ومع أن الليل كان في أوله إلا أن الطريق بدا مقفراً، وتساءل في نفسه ترى أين ينتهي الطريق؟.. ثم بدا له تساؤه آية في الغرابة، فلم يكن المهم أن يعرف أين ينتهي الطريق ولكن الجدير

بالمعرفة حقاً أن يعلم ما هو صانع وبها. كان يحسب أنه سيبدأ بالتنفيذ فوراً بعد خروجه من النقطة، وكانت هي تتوقع هذا، ولكن أقدامها تقدمت بها دون أن يفعل شيئاً، وكان يشعر بوجودها وراءه في ضيق لا يحتمل، ويسمع وقع قدميها كأنه رصاص في ظهره، ويحس أول فأول آية رغبة في أن ينظر إلى الخلف، ومع أنه بدا في صمته - ذلك الصمت الهائل الذي وقف حائلاً بينهما - وكأنه يفكر تفكيراً متواصلاً إلا أنه في الحقيقة كان فارغ الرأس. كان فارغ الرأس بحال مزعجة، لم يردّها إرادة، ولكنها فرضت عليه قسراً وبثت في نفسه إحساساً بالقلق، إحساس من يتلّهب على السيطرة على إرادته سيطرة غاشمة فلا يجد إلى ذلك سبيلاً. واصطلمت قدمه بحجر صغير اعترض سبيله فانطلقت في صدره شرارة حتى، وكأنها جذبت إليها أفكاره الحاربة في الظلام، وسرعان ما وجد نفسه يتساءل في صمت أين أنت؟.. أين همكم رأسها بهذا؟.. لا بدّ لصدوره من متفكّر. وظل الصمت الجهنمي سائداً، وبينما كان يجمع عزمه لرحضة هذا الصمت تطوّعت هي - وهو ما عجب له - لرحضته.

فسمعها تغمغم في نبرات مرتعشة منهجّة قائلة:

- لقد أجمعت. إني أعلم هذا.. ولن أسالك

غفراً لست جديرة به.

هل حقاً وانتها قواها على الكلام! يا للشيطان! وأحدث صوتها - على ضعفه - زوينة من الهياج في صدره، زوينة عمياء طاغية صبّت الغضب في أطرافه صباً فتوقّف عن السير والتفت نحوها في سرعة غريبة وارتفع ذراعها في الهواء وهوى على وجهها كالقذيفة فتراجعت مترنحة دون أن تنبس ثم سقطت على ظهرها واصطدم مؤخر رأسها بالأرض. لم تنبس بكلمة ولا ندّ عنها أيّ صوت، ولكنها جلست على الأرض بسرعة ثم لمت نفسها ووقفت وأخذت في التراجع حتى ارتكنت إلى جدار بيت. واقرب منها فترأى لعينيها تصميمه رغم الظلمة التي تطلّ وجهه فلزحت له بيدها كأنها تسأله أن يقف ثم اندفعت قائلة في عجلة وتوسّل:

- قف، لا تفعل، لست أخاف على نفسي ولكنني أخاف عليك، لا أريد أن يمكّ سوء بسبي.

وزادته رقة كلامها هياجاً على هياج فصاح بها بصوت كالخوار:

- لا تريد أن يمسي السوء بسببك؟!.. يا عاهرة لقد صيبت السوء عليّ صباً.

فأهلت بتوسّل حار:

- ولكني لا أطيق أن يسيئوا إليك ولو كان السبب هلاكى.

- هذا مكر حقير لن ينفعك في إنقاذ حياتك الحقيمة، هيهات، لن يتألى سوء بقتلك.

فهتفت في حرارة:

- لا ينبغي أن يمكّ عقاب وإن هان، ثم ماذا نجيب إذا سُئلت عمّا فعلك إلى قتي؟! دعني أقم أنا بهذه المهمة فلا يكثر منك مكر ولا يدري أحد.

فتساءل فيها يشبه الدهول:

- تقتلين نفسك؟!!

فقال وهي تلهث:

- نعم...

شمر فجأة - قبل أن يتألك نفسه - بأن حملاً ثقيلًا تزحزح عن عاتقه وهوى بعيداً. كان مدفوعاً بغضب

فسرت في جسدها رعدة وقالت بلذ:
 - لا تملّج نفسك ولا تعلّجني، سيتهي كل شيء
 في لحظات.
 - أكان يعرفني؟
 فقالت بمجلة وتوكيد:
 - كلا...
 فتردّد مرة أخرى وقد تضاعف عذابه ثم تساءل:
 - أوّل مرّة؟
 فعادتها الرعدة بيد أنّها قالت بتوكيد أيضًا:
 - نعم...
 فضرب الأرض بقدمه وصاح بها:
 - كيف استسلمت للغواية؟
 - أمر الشيطان.
 - أنت الشيطان... لقد قضيت علينا.
 فهتفت في رجاء:
 - كلا... كلا... سيتهي كل شيء الآن ولن
 يدري أحد.
 - أتمنين ما تقولين؟
 - طبعًا...
 - وإذا ساورك الخوف؟
 - كلا، إنّ ما ورائي في الحياة أفلح من الموت.
 وعادا إلى الصمت وكلاهما يشعر بهجد ونصب،
 ومضى يمدّ البصر مع قضبان التّرام في حيرة، ثمّ سأها
 بلهجة ساخرة:
 - إلى أين نحن ذاهبان، فلعلّك أدري بهذا الحيث
 متى؟
 ولم تجب، ولكن تقيّضت أساريرها من الألم. ثمّ
 لاح لها ميدان الظاهر فترأت لعينها آثار الحياة
 والعمران وترامت لأذنيها أصوات لأحياء، وجعل
 ينظر في قلق حتّى ثبتت عيناه على صفّ من التاكسيات
 فمضى إلى مقعدها وفتح لها الباب فدخلت ثمّ دخل
 ورامها. وفكّر قليلاً والسائق ينتظر أوامره، ثمّ قال له
 بصوت منخفض:
 - جسر الزمالك من فضلك.

مستعر وإحساس معذّب بالواجب ولكنّ العواقب -
 كذئوع الفضيحة والعقاب - ما فتئت تتخايل لعينيه،
 فالآن بعد هذا الحكم الذي قضت به على نفسه يسمعه
 أن يستردّ أنفاسه وأن يستبين بصيصاً من النور في هذه
 الظلمة الخائفة. وغمغم متسائلاً وهو لا يزال مستغرقاً
 في أفكاره:
 - كيف؟
 فقالت وهي تردّد ريقها:
 - بأيّ وسيلة كانت.
 فتفكّر قليلاً متجنّهم الوجه ثمّ قال وهو يرمقها
 بقسوة:
 - النيل...
 فقالت بهدوء:
 - ليكن.
 فنفض حقناً وضيّقاً ثمّ تراجع في ثقائل وهو يغمغم
 «هلّمي» فغادرت الجدار وتقلّمت في خطو ثقيل، ثمّ
 دار حول نفسه وواصل السير فتبعته كبا كانا. أحسّ
 هذه المرّة شيئاً من الطمأنينة ولكنّ غضبه فقد عنصرًا
 كان يعتزّ به وهو لا يدري. فقد شعورًا بالكرامة كان
 يلازمه وهو مصبّم على قتلها بنفسه، فاستحال من
 شخص يتدفع وراء الكرامة إلى آخر ينشد السلامة.
 وغصّ حينًا بفهر خائق، ولكنّه لم يكن من القوّة بحيث
 يعدل به عمّا تراهى له من سبيل النجاة، ولم يكن من
 الضعيف بحيث يتركه في سلام، ونقّس عن صدره
 قائلاً في خشونة:
 - كيف فعلت هذا؟... أنت؟... من كان يتصوّر
 هذا؟
 فتبتّدت قائلة في استسلام اليأس:
 - أمر ربّنا.
 فصاح مزعجاً:
 - بل أمر الشيطان.
 فقالت بنفس الصوت المتنبّذ:
 - نعم...
 فتردّد لحظة ثمّ تساءل:
 - من هو؟

انطلقت السيّارة بسرعة إلى شارع فاروق في طريقها إلى العتبة ثم إلى أمية.

كانا بيلسان كفريين، أمّا هو فقد ألقي بصره إلى الطريق خلال النافذة مولياً إيّاها نصف ظهره وأمّا هي فقد خفضت رأسها وغابت في ذهول عميق. لم يكن في رأسها شيء، أو شيء ذو بال، كأنه السكون الذي يعقب عاصفة هوجاء أو جود الموت بعد نزع اليم. وقد بلغ بها الهياج ذروة الجنون قبل أن تسقط مغنى عليها ويهونها إلى الوعي تكالبت عليها الأفكار المفزعة، واستعرضت عينها شريط حياتها في رعب جهنميّ حتّى أثقلت المهوم رأسها فاتحني على صدرها كما ينحني رأس من سُدّت في وجهه منافذ الحياة تحت جدار منهار. وبعد ما كان من الانهيار الكامل وظهور حسنين، وما كان بينهما في الطريق، شعرت بأن كلّ شيء قد انتهى، وانخل الهول مكانه من رأسها، تاركاً وراءه فراغاً صامتاً، فلم يعد به شيء، أو شيء ذو بال إلاّ أن تكون ذكرى بعيدة من ذكريات الصبا أو منظرًا ثمّا ينعكس على عينيها من أرض السيّارة. بيد أنّها كانت تكابد تجربة جديدة لا عهد لها من قبل، إذ هانت عليها الحياة حقاً، بالفعل لا بالقول، هانت الهوان الذي يجعل من الموت نجاة. أجل طالما تلمّرت فيها مضى من حياتها وسخطت، حتّى تمثّت الموت أحياناً، ولكنّها لم تسع إليه مع ذلك لأنّه كان ثمة أمل في الحياة يدبّ متواكباً في أعماقها. الآن تقطّعت بها عن الدنيا الأسباب، واقتلعت الجلود التي تشدّها للبقاء، ووجدت مع هذا اليأس العميق راحة زحزحت عن كاهلها الأعباء، فلم تعد تفكر في شيء ذي بال، ورمقت الموت الذي تهب الأرض إليه باستسلام كأنه التخلص. وقد دارت السيّارة حول منعطف وهي مطلقة في سرعتها فارجت الفتاة في مجلسها وتنبّت إلى ما حولها فيما يشبه الفرع، ومع أنّها ظلّت متّسكة الرأس إلى أنّها أحسّت بوجوده إلى جانبيها وترأى شبحه الجاثم عن يمينها إلحظتها في غموض فتقبّض قلبها أنّها وخزيّاً «ترى فيم يفكر؟ ألا يجد غير

البفض والغضب؟ متى يسي كلّ شيء وقد انقضى؟ هذه هي النهاية الوحيدة. ترى هل تحمّس أنّي الحقيقة؟ لا داعي للتفكير. إنّني ميتة».

ولبت حسنين مضطرباً متوتر الأعصاب يتجاذبه الغضب واليأس والرغبة. وكيف تنتهي هذه المحنة؟ وكيف أخرج منها؟.. أيمكن حقاً أن يسدّل عليها الستار دون أن تفوح منها رائحة حريّة بأن تجعل من هذا العناء كلّ عبئاً لا طائل تحته؟ إنّني اختنق. إنّ الماضي لا ينمحي ولكنّه يسابق مستقبل. لماذا لا نعيش بلا مبالاة؟ قضي الأمر ولا داعي للتفكير في هذا. لا داعي للتفكير مطلقاً. ما أشدّ عذابي، كيف أتغلب على هذه التماسّة كلّها مهلاً، إنّني أسوقها إلى الموت، وهي تعلم أنّها تُساق إلى الموت، ترى هل تواتبها القدرة؟ لا شك أنّها تفكر الآن تفكيراً متواصلًا، ولكن فيها تفكير؟ لا ينبغي أن أفكر فيها. الموت خير نهاية لها. لا يمكن أن تلتقي عيننا فهو فوق ما احتمل وفوق ما تحتمل هي. الأمر يتعلّق باختك، أه قاتل الله هذا الضابط، يؤسفني أن أعبرك أنّها ضُبطت في بيت بالسكّاني، من يتصوّر هذا وليس الموت بنهاية ولكنّه بداية لتعاسة أخرى تنتظري في البيت. حتّى متى أوصل هذا التفكير؟ أيّة مدخنة هذه؟ لعله مصنع، نحن نقترّب من جسر أبي العلاء، هذه المدخنة تنفث دخاناً أسود كثيفاً، لو تحترق أفكارني وتلذّب في أنفاسي لزغرت أفقر منه. لا أريد أن يمسك سواه بسبي، صديقت، يجب أن علكي وحلك. متى يطوى الطريق!.

وعبرت السيّارة جسر أبي العلاء فاندفعت إلى داخلها موجات غامرة من هواء بارد رطب مشبع بأريج النيل فاستقبله الشاب برحاب من يُضِل ناراً حامية على حين سرت في أطرافها رعدة بثّت في حناياها خوفاً غامضاً، ودام لحظات ثمّ ارتدت بعده لحالها الأولى من الاستسلام والجمود واليأس. وضاعت السيّارة من سرعتها حتّى شارفت جسر أمية فخفضت قوّة اندفاعها وريداً، ثمّ التفت السائق نحو حسنين متسائلاً فقال له هذا بصوت منخفض «قف»، ودفع له حسابه وغادر

سبات. رآها في وضوح تام تحت الأضواء المشرقة فثبتت عيناه على جانب وجهها المنعكس وهي تتسطع الأرض قَدَمًا قَدَمًا حَتَّى بلغت المنتصف فتوقفت عن المسير، ورفعت رأسها، وأجالته فيها حولها، ثم استدارت نحو السور وألقت ببصرها إلى المساء المصطبخ الجاري. وجعل يكتف أنفاسه ويزدرد في تشنج ريقه الجاف وهو يترقب، ولكن ظهر في تلك اللحظة عند الطرف الآخر من الجسر زُجْجَان ومضيا يقطعان الجسر في سرعة وهما يتحدثان، ثم لاح الترام القادم من أمبابة وهو يعطف نحو الجسر ممزقًا الصمت بعجيجه، فاسترد الشاب أنفاسه ولكن إلى حين قليل، وسرعان ما ركب القلق والضيق، وكان قلبه ينفق بعنف حتى خيل إليه من شدّة وقع النبض في أذنيه أن العالم الخارجي يسمع دقات قلبه. ثم مرّت به لحظات فتوهم أنّه يشهد منظرًا غريبًا عنه لا شأن له به، ولكنّها كانت لحظات ثم انفضت وغلبت الرهبة على ما في نفسه جميعًا فلم يعد يستشعر حقدًا ولا غضبًا، ثمّ اعتزكت الأفكار في رأسه في ثوانٍ فشرع في حيرته بأنّه يروم حلّ مسألة معقّدة غامضة، ولكن لا قدرة له على حلّها أو ليس لديه فسحة من الوقت للتفكير فيها، فهو منها في حيرة أيّ حيرة. وفي أثناء ذلك كان الرجلان قد عبّرا الجسر، وسبقها الترام إلى الطريق، وما زالت الفتاة تَحْمَلُ في الماء. ونظر هنا وهناك فلم ير أثرًا للإنسان. وتجمّعت نفسه في لحظة ترتّب مليئة بالفرع والربح. رآها تعطف رأسها يمينًا وشمالًا. وبغته، وفي حركة سريعة يالسة تسوّرت السور. وزلزل قلبه وهو يتابع حركاتها وجعلت عيناه، لا يمكن... ليس هذا... أنا هي فألقت بنفسها، أو تركت نفسها تهوي، وقد انطلقت من حنجرتها صرخة طويلة كالعواء مثّل لعيني المتبلي بساعها وجه الموت، فجاوبها بصرخة فرع ولكنها ضاعت في صرختها. وشعر وهي ترمي بنفسها أن يوسعه أن يبيد للمسألة المعقّدة التي تحيرته حلًّا، ولم يكن الحلّ فيها فعلت بنفسها، كان يمكن أن تكون نهاية أخرى، وكأنّما حاول أن يستدرك الخطأ بصرخته ولكنّها ضاعت، ثمّ صكّ مسمعيه

السيّارة فغادرتها أيضًا من الباب الآخر، وما لبث التاكسي أن عاد من حيث أتى فوجدنا نفسيهما وحيدين على كعب من مدخل الجسر. وكانت المصاييح المغلقة على جانبي الجسر تشعّ نورًا قويًّا أمّال ظلمته نورًا، بينا أطبق الظلام على ضفاف النيل بطول امتداده شمالًا وجنوبًا - رغم المصاييح المتباعدة الخافتة - فلبثت الأشجار المترامّة على جانبيه كأشباح عيالة، وكان المكان مقفرًا إلا من مأزٍ مسرع هنا أو هناك وقد تناوحت الغصون بأنين ريح باردة كلّما كفّ هبوبها تعالى هسيس النبات كالمس. لازما موقفها في جمود كالدهول، ثمّ استرق إليها النظر فرأها مقوّسة الظهر قليلًا متكّسة الرأس غير أنّ منظرها لم يلق من صدره إلا قلبًا متعجّرًا ونفسًا خنق الحُمّ فيه كلّ رحمة. وثار حنقه على جموده فجأة فقال بخلطة:

- أنت مستعّدة؟

فتمخّمت بصوت غريب لا عهد له به:

- نعم...

ونفذ الجواب على بساطته إلى أحياقه فلم يعد يطيق موقفه، وتزحزح عنه في خطو ثقيل، وقبل أن يتعد عنها ذراعين سمعها تقول بتوسّل:

- لا تذكر إساءتي:

فنبذ عنه صوت غليظ وهو يوسع خطاه كالمسارب قائلا:

- فليرحمنا الله جميعًا...

تركها وحدها حيال الجسر، وهدف إلى الطوار الممتد إلى يمين الجسر على شاطئ النيل، ثمّ جدّ في المسير. حدّثته نفسه بالمهرب ولكن قوّة غشومًا جعلت تجذبه إلى الرءاء، وخارت مقاومته عند شجرة صفصاف ضخمة الجذع على بعد ثلاثين مترًا من مبدأ الطور فتوارى وراءها في إعياه وأرسل الطرف نحو الجسر. ولاح له الجسر كتلة صيّا متوهّجة بأنوار المصاييح تمسك من طرفيها بالشاطئين في عناد وتصميم كأنّه وحش يفرز أتياه في فريسته، وعند رأس الجسر، وعلى الجانبين المواجه له، رآها تتحرك في خطو ثقيل خافضة الرأس، يعولها جمود غريب كأنّها تمثني في

اصطدامها بالماء فنُذت عنه صرخة أخرى...
- ٩٢ -

وثب إلى منحدر الشاطئ وعينه تحملقان في المكان الذي ابتلعها تحت الجسر، ثم جمد في موقفه يكاد يحجره أن يلفظا عينيه من شدّة الحملة. وتوقع مرّات أن تطفو على ظهر الماء ثم أدرك أنّ النبل المتدفع إلى ما تحت الجسر لا بدّ أن يكون قد جرفها معه فلعلّها تتخطّط في جوف الجسر أو تغوص فيها يليه من النهر. ومَرَّ بخاطرهِ أن ينزع سترته ويقلّب بنفسه ورامعا لعلّه يتشلّها ولكنّه لم يجرّك ساكنًا، ووجد هذه الحاطرة ما يشبه السخوية المريعة فلزّاد جودًا وشعر بأنّه لم يعد لعقله سيطرة عليه. وما يدري إلّا وصوت من وراء يسأله باهتمام محسوس:

- أسمعت صرخة؟

فالتفت إلى الوراء فرأى شرطياً تنمّ حركاته على الاهتمام فقال له في ذهول:

- نعم، لعلّه غريق...

وجعل الجنديّ يحدّق في الظلام فوق النهر ثمّ حتّ خطاه نحو الجسر. وأعاد الجنديّ إلى شيء من وعيه فتراجع إلى موقفه الأوّل ولم يعد في طاقته أن يضبط نفسه فاندفع عدوًّا صوب الجسر ثمّ عبره إلى سوره المطلّ على الناحية الأخرى من النهر وألقى ببصره إلى التيّار المتدفّق. وما لبث أن رأى آثارًا للحادثة لا تخفيها العين، رأى قاربًا يشقّ الماء بسرعة قادمًا من الشاطئ الأيسر نحو وسط النهر، وسمع أصوات استغاثة وصراخًا آتية من الشاطئ البعيد. وكان سطح النهر يلبا إلى الجسر مضاء بما ينعكس عليه من أنوار المصابيح فتصعّخته عيناه هنا وهناك، ولكنّه لم يثر على ضالّته. ثمّ تبعت عيناه القارب الذي أخذ يقترب من الوسط شاقًّا سبيله في الرقعة اللضائة، ثمّ اندفع مع التيّار حتّى خرج عنها إلى الظلام. ووجد نفسه يتساءل «تري هل يفوز القارب في سباق الموت هذا؟». ولم يستين حقيقة مشاعره، أو لعلّه هرب من باطنه بتركيز حواسّه في القارب فتابعه حتّى رآه يتوقّف عن التجديف ثمّ رأى شخصًا يقفز منه إلى الماء، على حين

نعالّت أصوات الباقيين بالقارب. هُله هي اللحظة الفاصلة، وتتابع خفقان قلبه حتّى جفّ حلقه، وحاول عبثًا أن يرى شيئًا خلال الظلمة التي لُتّت القارب أو أن يميّز كلمة معبّرة في هدير الأصوات المختلفة، ثمّ كُفّ منه البصر فلم يعد يرى شيئًا وكانه عمي. وأخذ ينتبه - دون التفات - إلى تجمهر خلق كثيرين حوله، ثمّ سمع أحدهم يقول:

- القارب يسعود إلى الشاطئ فلعلّه انتشل الغريق...

وتحمّست في أوصاله رجفة وتساءل «تري أنجت أم هلكت؟ أذهب أم أفر؟» ولكنّه تحوّل عن موقفه وسار في اتجاه الشاطئ الذي يقصده القارب مدفوعًا برغبة لا تقاوم في تعلّيب نفسه إلى أقصى حدّ، ولم يعد السير ليسفّ جزعه فأطلق ساقيه للريح وعينه تسبقه إلى بقعة من الشاطئ تجمهر عندها كثيرون. وبلغها والقارب يرسو إلى الشاطئ فلنا من التجمهرين بساقيين متخالطين واندسّ بينهما وأطرافه ترتجف على رغبته ثمّ ألقى بعينين متجسّرين إلى القارب الذي اكتشف ستار خفيف من الظلمة. وكان يقف غير بعيد منه ضابط النقطة المواجهة للشاطئ ونفر من الشرطة. ثمّ بدت أشياخ الرجال وهي تتشّل من القارب إلى الشاطئ حاملة بينها الغريق فصاح بعض المتجمهرين:

- هل نجا من الغرق؟

وأرفع السمع ليتلقّى الجواب ولكن لم ينس أحدهم بكلمة ومضوا يرتقون منحدر الشاطئ في شيء من الجهد والاهين عمدة ييم حتّى ميّزت حقيقة الحمل فصاح بعضهم في ارتياح:

- إنّها امرأة يا ولدا!

وتساءل آخر:

- كيف غرقت؟

فصاح غلام:

- رمت بنفسها من فوق الجسر فزاعها زوج النوبي واستصرخت زوجها لإنقاذها...

وجعل حسنين يُثبهم ناظره في طائف من الغرابة والذهول فلم يدر كيف يصلّي أنّ هذه هي اخته وأنّ

النحل صلعة الماء الغليظ، وصاذا دار بنهنا وهي تتخبط بين أمواجه، وأني جهد وجدت والطمي يكتم أنفاسها، وأني عذاب ذاقت ورغبة الحياة تثب بها إلى سطحه فيشدها باطنه إلى الأعالي. إن محاولة الغريق اليائسة للنجاة أشبه بالحلم الشقي بالسعادة، كلتاها أمنية ضائعة. أترامنا نراي الآن من علمها الآخر؟ أراضية هي أم غاضبة أم ساخنة؟! ماذا ترى في موقفها هذا؟ لماذا وقع هذا كله؟. وذكر بفتة أنه فحجبت صورتها الجثة عن عينيه، وهز رأسه كأنها ليطردها من غيخته، وصمم بقوة على أن يتحلى التفكير فيها، وعاد بانتباهه المحموم إلى الجثة. وهل رغبه وجد نفسه يتذكر أبادي الفتاة عليه، ما كانت تكن له من حب وما جادت به من كرم، فما كان يحظر لها ببال أن تكون نهايتها على يديه، وشعر بإعياه وقنوط وتساءل في جزع ولماذا هذا كله؟. وأغمض عينيه لأنه لم يعد يطيق النظر إليها. كان رأسه مغموماً، وغُيِضَ الهم كل رغبة في الحياة في قلبه، وانقلب وجه الدنيا في عينيه كهذا الوجه الأزرق الناطق بالمعلم، وقال لنفسه، وهو يتنهد من الأحياق ورياء، لقد قضى عليّ. وسمع عند ذلك صوت الضابط وهو يأسر الشهود بالذهاب معه إلى النقطة، ثم رأى الجثة تحمل ورأى القوم يمشون بها إلى الجهة الأخرى من الطريق فاتبعهم طرفه حتى حال الظلام بينه وبينهم. وفي أقل من دقيقتين وجد نفسه وحيداً يكتشف خفيف الأشجار التي تكاد تطبق أغصانها الغليظة المترتبة على البقعة كلها. وتراجع في تراجع وترنح حتى أسند ظهره إلى جذع شجرة وراح فيها يشبه السبات وكأنه يتردى في هاوية معتمة ليس بها بارقة أمل. واقفي عليّ. كنا جميعاً فريسة للشقاء فما كان ينبغي لأحدنا أن يعين الشقاء على أخيه. ماذا فعلت؟ إنه اليأس الذي فعل، ولكني قضيت عليها بالعقاب الصارم. أتني حتى أفلدت لنفسي! أحق أتني الناظر لشرف أسرتنا؟! إني شر الأساة جميعاً. حقيقة يعرفها الجميع، وإذا كانت الدنيا تبيح نفسي أقيح ما فيها. ما وجدت في نفسي يوماً إلا مخيلات الدمار لمن حولي فكيف أبحث لنفسي أن أكون

أحدًا لا يعلم بهذه الحقيقة وأنه لا يفعل شيئاً إلا أن يقف بينهم كالغريب المستطلع. وبلغ الرجال طوار الطريق وسرعان ما نشطوا إلى عملية الإسعاف ليفرغوا ما في جوفها من ماء. وقد أمر الضابط المسافر بنشيت المتجهمين ولكن أحدًا منهم لم يتعرض لحسين فلبث بمكانه جامداً لا يطفرف لا تتحول عيناه عن الجسم المقوس الذي تعبت به أيدي الرجال الغليظة. وانتبه الضابط إليه فاقرب منه وحياء بإملاء من رأسه وسأله:

.. أشهدت الحادث!

لمخرج الشاب عن ذهوله في انزعاج ولكنه أجاب بعجلة:

.. كلا..

وأنام الرجل الفتاة على الأرض وجنا أحدهم إلى جانبها ثم جس نبضها والصق أذنه بصدورها فوق القلب، ثم رفع رأسه قائلاً:

.. صعد السر الإلهي إلى بارقه، لا حول ولا قوة إلا بالله..

وعاد الشاب إحساسه بالغربة، وغلبه الإحساس على ما عداه، فلم يشعر لا بحزن ولا بارتياح، ولم يتحرك فكره لا إلى الأمام ولا إلى الوراء، وكأنه لم يطق هذا الفراغ المخيف فركز انتباهه في الجثة الرافقة غير بعيد عن قدميه. جرى بصره عليها وقد تبعثر شعرها والتصقت خصلات منه بخنّها وجبينها، وراح على الوجه جود صامت لا يترى ببقطة وعلة زرقة مرّوعة، وخيل إليه أنه يرى أخايد دقيقة حول الفم الفاسر والعينين كأنها تقصصات العذاب الذي كان آخر عهده بالدنيا، أما الفستان المشيع بللم فقد لرق بالجسد وتلوثت أهدابه بتراب الأرض تقطنت، وبدت قدم ما تزال مسكة بغرفة خدائهما والأخرى في جوربها. ورجع بصره إلى وجهها فجاش صدره وامتلأ فراغه باضطراب وثوران ولماذا اضطرب هكذا؟ ألم أقتنع حقاً بأن هذه هي خير نهاية! ألم أشقها إلى الموت بنفسي؟ ينبغي أن تطمئن نفسي. بيد أنني أسألم عما داخلها من شعور وهي تهوي إلى الماء، وكيف تلقى جسمها

حافظًا جديدًا، وابتعد عن الشجرة وهو يلقي نظرة الوداع على نقطة البوليس ما في شعوره إلا السلام والنزوع إلى الحرب. «لا أريد أن يمسك سوء بسبي. أمر ربنا. أمر الشيطان. النيل. ليكن. وإذا ساورك خوف. كلّا، إنّ ما ورائي في الحياة أظف من الموت. أنت مستعدّة؟ لماذا تغيب الملائم حسنين، ألم يرسل خطف اعتذار؟ وأيت صاحب هذا الوجه عقب انتشار الجثة وسألته هل شاهدت الحادثة وكان مذهولاً.» ويلغ الموضوع نفسه من الجسر فارفق السور وألقى ببصره إلى الماء تتدافع أمواجه في هياج واصطخاب. وأخل رأسه من الفكرة. «إذا أردت هلمّ. لن أصرخ. فلأكن شجاعاً ولو مرّة واحدة. ليرحمنا الله...»

قاضيًا وأنا رأس المجرمين! لقد قضي عليّ.» وألقى نظرة على ما حوله في حيرة وخوف «أين أذهب؟ أيمكن أن أمرق من هذه المحنة كما مرقت من غيرها من قبل؟.. لشدّ ما تمزأ بي الأمان. لا تبال، حسن.. ولكن هل يسمعك هذا؟ احمل نفسك بشرّها وأنشدها النسيان ثمّ السعادة، هاها. إنّ أعيت بنفسي بلا رحمة. طالما أحببت أن أحو الماضي، ولكنّ الماضي التهمّ الحاضر، ولم يكن الماضي المخيف إلّا نفسي، لماذا لا أواصل الحياة بهذه الأعباء؟ لا أستطيع. كان ينبغي أن أحبّ الحياة إلى النهاية، ومهما يكن من أمر، ولكنّ في طبيعتنا خطأ جوهريّ لا أدريه. لقد قضي عليّ...»

واستوى وألقا إمّا لأته ضائق بمسئله وإمّا لأته وجد

بَيْنَ الْقَصَرَيْنِ

وعادت به إلى الحجرة وهو يمسك على السقف من
قوة زجاجته دائرة مهترئة من الضوء الشاحب تحف به
حاشية من الظلال، ثم وضعت على خزان قائم يزاء
الكتبة. وأضاء المصباح الحجرة فبدت برقعتهما المربعة
الواسعة وجدرانها العالية وسقفها بعمده الأفقية
الموازية، إلا أنها لاحت كريمة الأثاث ببساطها
الشيرازي وفراشها الكبير ذي الممد النحاسية الأربعة
والصوان الضخم والكتبة الطويلة المغطاة بسجاد صغير
المقطع مختلف النقوش والألوان. وانجذبت المرأة إلى
المرأة وألقت على صورتها نظرة فرائت منديل رأسها
البيتي منكمسا متراجسا وقد تشتت خصلات من
شعرها الكستنائي فوق الجبين، فمدت أصابعها إلى
عقدته فحلته وسوّه على شعرها وعقدت طرفيه في
أناة وعناية، ومسحت براسيتها على صفحتي وجهها
كأنها لتزيل عنه ما علق به من آثار النوم. كانت في
الأربعين متوسطة القامة، تبدو كالنحيفة ولكن جسمها
بغير عتل في حدوده الضيقة لطيف التنسيق والتبويب.
أما وجهها فبالل إلى الطول مرتفع الجبين دقيق
الخصات، ذو عينين صغيرتين جميلتين تلوح فيها نظرة
عسلىة حاملة، وأنف صغير دقيق يتسع قليلا عند
فتحتيه، وفم رقيق الشفتين ينحدر تحتها ذقن مدبب،
وبشرة قمحية صافية تلوح عند موضع الوجنة منها
شامة سوداها عميق نقي. وقد بدت وهي تتلفع
بخمارها كالمتمجلة. وانجذبت صوب باب المشربية
ففتحتته ودخلت، ثم وقفت في قصصها المعلق تردد
وجهها يمنة ويسرة ملقية نظراتها من القلوب المستديرة
الدقيقة التي غلا أضلاعها المعلقة إلى الطريق.

كانت المشربية تقع أمام سبيل بين القصرين،
ويلتقي تحتها شارع النحاسين الذي ينحدر إلى الجنوب

عند منتصف الليل استيقظت، كما اعتادت أن
تستيقظ في هذا الوقت من كل ليلة بلا استعانة من
منبه أو غيره ولكن بإيقاظ الرضة التي تبيت عليها
فتواظب على إيقاظها في دقة وأمانة. وظلت لحظات
على شك من استيقاظها فاختلطت عليها رؤى الأحلام
ومحسات الإحساس، حتى بادرها القلق الذي يلهم بها
قبل أن تفتح جفنيها من خشية أن يكون النوم خائبا
فهزرت رأسها هزة خفيفة فتحت عينيها على ظلام
الحجرة الدامس. لم يكن ثمة علامة تستدل بها على
الوقت، فالتطرق تحت حجرتها إلى ينام حتى مطلع
الفجر، والأصوات المتقطعة التي تترامى إليها أول
الليل من سمار المقاهي وأصحاب الحوانيت هي التي
ترامى عند منتصفه وإلى ما قبيل الفجر، فلا دليل
تطمئن إليه إلا إحساسها بالباطن - كأنه عقرب ساعة
واع - وما يشمل البيت من صمت ينم عن أن بعلمها لم
يطرق بابه بعد ولم تضرب طرف عصاه على درجات
سلمه.

هي العادة التي توقظها في هذه الساعة، عادة قديمة
صاحبت شبابها منذ مطلع ولا تزال تستأثر بكهولتها،
تلقتها فيها تلقت من آداب الحياة الزوجية، أن
تستيقظ في منتصف الليل لتتظرب بعلمها حين عودته من
سهرته فتقوم على خلعته حتى ينام. وجلست في
الفرش بلا تردد لتتغلب على إغراء النوم الدافئ
وتسلمات ثم انزلت من تحت الغطاء إلى أرض
الحجرة، وضمت تتلمس الطريق على هدي عمود
السرير وضلعة الشباك حتى بلغت الباب ففتحتته،
فانساب إلى الداخل شعاع خافت ينبعث من مصباح
قائم على الكونصور في الصالة، فدلقت منه وحلته

وحدها في البيت الكبير، وأن الشياطين لا يمكن أن
تضلّ طويلاً عن هذه الحجرات القديمة الواسعة
الخالية، ولعلها أوت إليها قبل أن تُحمل هي إلى
البيت، بل قبل أن ترى نور الدنيا، فكم دبّ إلى
أذنيها همساتهم! وكم استيقظت على لفحات من
أنفاسهم، وما من مغث إلا أن تتلو الفاتحة والصمديّة
أو أن تبرع إلى المشرية فتمدّ بصرها الزائف من ثقبها
إلى أنوار العربات والمقاهي وترعف السمع لالتقاط
ضحكة أو سعلة تسترّ بها أنفاسها.

ثمّ جاء الأبناء بشاهاً ولكنهم كانوا أوّل عهدهم
بالدنيا لحماً طرياً لا يبذل خوفاً ولا يطمئن جانباً، وحل
العكس ضاعف من خوفها بما أثار في نفسها التهافتة
من إشناق عليهم وجزع أن يمسهم سوء، فكانت
تحويم بذراعيها وتغمرهم بأنفاس العطف وتحيطهم في
البقطة والنام بدرع من السور والأحجية والرفق
والتماويل، أما الطمأنينة الحقّة فلم تكن لتلوقها حتّى
يعود الغائب من سهرته. ولم يكن غريباً وهي منفردة
بطفلتها تنوّم وتلاطفه، أن تضمّه إلى صدرها فجأة ثمّ
تنصّت في وجل والزجاج ثمّ يعلو صوتها هائفة وكأنّها
تخاطب شخصاً حاضراً: «أبعد هنا، ليس هذا
مقامك، نحن قوم مسلمون موحدون» ثمّ تتلو
الصمديّة في عجلة ولهوجة. وعندما طالت بها معاشره
الأرواح بتقدّم الزمن تخفّت من غوافها كثيراً
واطمانت لدرجة إلى دعاياتهم التي لم تجرّ عليها سوءاً
فقط فكانت إذا ترامى إليها حسّ طائف منهم قالت في
نبرات لا تخلو من دالة: «ألا تحترم عباد الرحمن! الله
بيننا وبينك فاذبح عتاً مكرماء». ولكنّها لم تكن تعرف
الطمأنينة الحقّة حتّى يعود الغائب، أجل كان مجرد
وجوده بالبيت - صاحباً أو نائلاً - كفيلاً ببيت السلام في
نفسها، فتحت الأبواب أم أغلقت، اشتمل المصباح أم
خمد. وقد خطر لها مرّة، في العام الأوّل من معاشرته،
أنّ تملن نوعاً من الاعتراض المؤدّب على سهره
المتواصل فيما كان منه إلا أن أسلك باذنيها وقال لها
بصوته الجهوريّ في لهجة حازمة: «أنا رجل، الأمر
الناهي، لا أقبل على سلوكي آية ملاحظة، وما عليك

وبين القصرين الذي يصعد إلى الشال، فبذا الطريق
إلى يسارها ضيقاً ملتوياً متلفاً بظلمة تكثف في أعاليه
حيث تطلّ نوافذ البيوت النائمة، وتخفّ في أسافله ممّا
يُلقى إليه من أضواء مصابيح عربات اليد وكلوّيات
المقاهي وبعض الحوانيت التي تواصل السهر حتّى
مطلع الفجر، وإلى يمينها الثقب الطريق بالظلام حيث
يخلو من المقاهي، وحيث توجد المتاجر الكبيرة التي
تغلق أبوابها مبكراً، فلا يلفت النظر به إلا ماذن
قلارون ويرقوق لاحت كاطيف من المرّة ساهرة تحت
ضوء النجوم الزاهرة. منظر إلفته منها المينان ربع قرن
من الزمان ولكنّها لم تسأمه، ولعلها لم تدّر ما السأم
طوال حياتها على رتابتها، وعلى العكس وجدت فيه
أنياساً لوحشتها وأليفاً لوحدها عهداً طويلاً عاشته وكأنّها
لا أنيس ولا أليف لها.

كان ذلك قبل أن يأتي الأبناء إلى هذا الوجود، فلم
يكن يحوي هذا البيت الكبير - بفنائنه الثرى وبشره
العميقة وطابقيه وحجراته الواسعة العالية الأسقف -
سواها، أكثر النبار والليل. وكانت حين زواجها فتاة
صغيرة دون الرابعة عشرة من عمرها، فسرعان ما
وجدت نفسها، عقب وفاة حماتها وسيدتها الكبير ربة
للبيت الكبير، تتولوا على أمره امرأة عجوز تغادرها
عند جنوم الليل لتنام في حجرة الفرن بالفناء تاركة
إياها وحيدة في دنيا الليل الحافلة بالأرواح والأشباح،
تغفو ساعة وتأرق أخرى حتّى يعود الزوج العتيد من
سهرة طويلة.

ولكي يطمئن قلبها اعتادت أن تطوف بالحجرات
مصطحبة خدامتها مائة بعدها بالمصباح أمامها تلتقي في
أركانها نظرات متفحصة خائفة ثمّ تغلفها بإحكام،
واحدة بعد أخرى، مبتدئة بالطابق الأوّل مُشّية بالطابق
الأعلى، وهي تتلو ما تحفظ من سور القرآن دفعاً
للسياطين، ثمّ تنتهي إلى حجرتها تغلق بابها وتندسّ
في الفراش ولسانها لا يمسك عن التلاوة حتّى يذهبها
النوم، ولشّد ما كانت تخاف الليل في عهدها الأوّل
بهذا البيت، فلم يغيب عنها - هي التي عرفت عن عالم
الجنّ أضعاف ما تعرفه عن عالم الإنس - أنّها لا تعيش

الذي تحبه. هذا الطريق الذي تنام الطرق والبحاري والأزقة ويبقى ساهراً حتى مطلع الفجر، فكم سأل أرقها وأنس وحشتها وبدء غاؤها لا يغير الليل منه إلا أن يغشى ما يحيط به من أحياء بالصمت العميق فيهمن لأصواته جواً تملو فيه وتوضح كأنه الظلال التي تملأ أركان اللوحة فتضفي على الصورة عمقاً وجلاءً، لهذا ترن الضحكة فيه فكأنها تنطلق في حجرها، ويسمع الكلام المادي فتميزه كلمة كلمة، ويمتد السعال ويخشوشن فيتراس لها منه حتى خافته التي تشبه الأنين، ويرتفع صوت النادل وهو ينادي: «تعميرة نادية» كهتاف المؤذن فتقول لنفسها في سرور: «الله هؤلاء الناس... حتى هذه الساعة يطلبون مزيداً من التعميرة»، ثم تذكر بهم زوجها الغائب فتقول: «أرى أين يكون سيدي الآن؟... وماذا يفعل؟... فلتصحبني السلامة في الجبل والترحال». أجل قيل لها مرة إن رجلاً كالسيد أحمد عبد الجواد في بشاره وقوته وجماله - مع سهره المتواصل - لا يمكن أن تخلو حياته من نساء. يومها تسمت بالغيرة وربكها حزن شديد، ولما لم تراتها شجاعتها على مشافهته بما قيل أفضت بحزنها إلى أمها، فجعلت الأم تسكن من خاطرها بما وسعها من حلو الكلام، ثم قالت لها: «لقد تزوجك بعد أن طلق زوجته الأولى، وكان يرسمه أن يستردّها لو شاء، أو أن يتزوج ثانية وثالثة ورابعة، وقد كان أبوه مزواجاً، فلهمني ريتاً على أنه إبقاك زوجة وحيدة». ولو أن حديث أمها لم ينجذ مع حزنها وقت اشتدادها إلا أنها مع الأيام سلّمت بما فيه من حقّ ووجاهة، فليكن ما قيل لها حقاً فلعلّ من صفات الرجولة كالسهر والاستبدا، وشرّ على أيّ حال غير من شرو كثيرة، وليس من الهين أن تسمح لوسواس بأن يفسد عليها حياتها الطيبة المليئة بالهناء والرغد، ثم لعلّ ما قيل بعد هذا كلّه أن يكون وهماً أو كذباً. ووجدت أنّ موقفها من الغيرة، شأنها حيال الشاعب التي تمترض سبيل حياتها، لا يعدو التسليم بها كقضاء نافذ لا تمكك حياله شيئاً، فلم تبتدئ إلى وسيلة في مقاومتها إلا أن تنادي الصبر وتستعدي مناعتها

إلا الطاعة، فحاذري أن تدفعيني إلى تناديك»، فتعلّمت من هذا الدرس وغيره عمّا لحق به أنها تطيق كلّ شيء - حتى معاشره العفريت - إلا أن يحمر لها عين الغضب، فعلها الطاعة بلا قيد ولا شرط، وقد أطاعت، وتقاتت في الطاعة حتى كرهت أن تلومه على سهره ولو في سرّها، ووقر في نفسها أنّ الرجولة الحقّة والاستبدا والسهر إلى ما بعد منتصف الليل صفات متلازمة لجوهر واحد، ثم انقلبت مع الأيام تناهي بما يصدر عنه سواء ما يسرّها أو يخرّها، وظلّت على جميع الأحوال الزوجة المحبة الطيعة المستسلمة، ولم تأسف يوماً على ما ارتضت لنفسها من السلامة والتسليم، وإنها لتستعيد ذكريات حياتها في أيّ وقت تشاء فلا يطالها إلا الخير والغبطة، على حين تلوح لها المخاوف والأحزان كالأشباح الحಾಯية فلا تستحقّ إلا ابتسامة رثاء. ألم تعاشر هذا الزوج بعلاّه ربع قرن من الزمان فنجنت من معاشرته أبناء هم قوّة عينيها وبيتاً مترعاً بالخير والبركة وحياتة ناضجة سميكة... بل، أنا غاطلة العفريت فقد مزلت كما تحرّ كلّ ليلة بسلام وما امتدّت يد أحدهم إليها أو إلى أحد من أبنائها بسوء اللّهم إلا ما هو بالمزاح والمداعبات أشبه، فلا وجه للشكوى، ولكن الحمد كلّ الحمد لله الذي بكلامه أطمأن قلبها وبرحمته استقامت حياتها.

حتى ساعة الانتظار هذه، على ما تقطع عليها من اللذيل المتنام وما تستادياها من خلعمة كانت خليفة بأن تنتهي بزوال النهار، أحبتها من أحبا قلبها، فضلاً عن أنها استحالحت جزءاً لا يتجزأ من حياتها، ومازجت الكثير من ذكرياتها، فلأنها كانت ولم تزل الرمز الحيّ لحبها على بعلمها وتقانيها في إسماعها، وإشعاره ليلة بعد أخرى بهذا التفاني وذاك الحذب. لهذا امتلأت ارتياحاً وهي واقفة في الشريفة، وراحت تنقل بصرها خلال ثوبها مرة إلى سبيل بين القصرين ومرة إلى منعطف الحرفش وأخرى إلى بوابة حاتم السلطان ورابعة إلى الماذن، أو تسرحه بين البيوت المتكاكئة على جانبي الطريق في غير تناسق كأنها طابور من الجند في وقفة راحة تحفّف فيها من قسوة النظام. وابتسمت للمنظر

هيته ووقاره، خالفاً مزاحه الذي لولا استراق السمع لظننته من مستحيل المستحيلات، ثم سمعت وقع طرف عصاه على درجات السلم فمدت يدها بالمصباح من فوق الدرابزين لتشير له سيوله .

٢

وانتهى الرجل إلى موقفها فراحت تتقدمه رافعة المصباح، فتبعها وهو يتمتم :
- مساء الخير يا أمينة .
فقال بصوت خفيض ينم عن الأدب والخضوع :
- مساء الخير يا سيدي .

وفي ثوانٍ احتوتها الحجرة، فالتفت أمينة إلى الحوان لتضع المصباح عليه، في حين علن السيد عصاه بحافة شبك السرير وخلع الطربوش ووضعه على الوسادة التي تتوسط الكتبة، ثم اقتربت المرأة منه لتتزع عنه ملابسه، وبدا في وقفته طويل القامة عريض النكين ضخم الجسم ذا كرش كبيرة مكتنزة اشتملت عليها جميعاً جبّة وقفطان في أناقة وبسجة دلّتا على رفاهية ذوق وسخاء، ولم يكن شعره الأسود المنبسط من مفرقه على صفحتي رأسه في عناية بالغة، وخافه ذو الفص الماسي الكبير، وساعته اللعينة، ألا لتؤكد رفاة ذوقه وسخاءه. أما وجهه فمستطيل الهيئة مكتنز الأديم قوي التعبير واضح الملامح، يدلّ في جملته على بروز الشخصية والجلال بعينه الزرقاوين الواسعتين، وأنفه الكبير الأشم المتناسق على كبره مع بسطة الوجه، وفمه الواسع يشفيه الممتلئين، وشاربه الفاحم الغليظ المقنول طرفاه بدقة لا مزيد عليها. ولما تدانست المرأة منه بسط ذراعيه فخلعت الجبّة عنه وأطبقتها بعناية ثم وضعتها على الكتبة، وعادت إليه ففكّت حزام القفطان وزعته وجعلت تدرّجه بالعناية نفسها لتضعه فوق الجبّة، على حين تناول السيد جلبابه فارتداه ثم طابقته البيضاء فلبسها، وعطى وهو يشاهد وجلس على الكتبة ومدّ ساقيه مسنداً ذناله إلى الحائط. وانتهت المرأة من ترتيب ملابسه فعدت عند قدميه

الشخصية، ملاذها الأوحى في مضالفة ما تكره، فانقلبت الغيرة وأسيابها، كطباع زوجها الأخرى وكمعاشرة العفريت، مما تحتمل .

جعلت تنظر إلى الطريق وتنتصت إلى السهل حتى ترمى إليها وقع سنايك جواد فعطفت رأسها صوب النحاسين فصرّت (حنطوراً) يقترب ويذّأ ومصباحه يسطمان في الظلام، فتهدّت في ارتياح وغمغت وأخيراً... ها هو وحنطوره أحد أصدقائه يوصله بعد السهرة إلى باب البيت الكبير ثم يمضي كالعادة إلى الحرفش حاملاً صاحبه ونفراً من الأصدقاء الذين يقطنون هذا الحي، ووقف وحنطوره أمام البيت، وارتفع صوت زوجها وهو يقول في نبرات ضاحكة :
- أستودعكم الله...

وكانت تنصت إلى صوت زوجها وهو يودّع أصحابه بشغف ودهشة، ولولا أنّها تسمعه كلّ ليلة في مثل هذه الساعة لانكرته، فما عهدت منه - هي وأبنائها - إلا الحزم والوقار والترتّب، فمن أين له بهذه النبرات الطربوية الضحكة التي تسيل بشاشة ورقّة؟ وكان صاحب وحنطوره أراد أن يمازحه فقال له :

- أما سمعت ماذا قال الجواد لنفسه بعد نزولك من العربة؟ قال إنّه من المؤسف أن أوصل هذا الرجل كلّ ليلة إلى بيته وهو لا يستحق أن يركب إلّا حملاً...
وانفجر الرجال بالعربة ضاحكين فانتظر السيد حتى عادوا إلى السكون ثم قال بحبيبه :

- أما سمعت بماذا أجاوبته نفسه؟ قالت إذا لم توصله أنت فسيركب البك صاحبنا...
وضجّ الرجال ضاحكين مرّة أخرى. ثم قال صاحب العربة :

- فلنؤجل الباقي إل سهرة الغد...

ومحروكت العربة إلى شارع بين القصرين وألحبه السيد نحو الباب فغادرت المرأة المشربية إلى الحجرة، وتناولت المصباح ومضت إلى الصالة، ومنها إلى الدهليز الخارجي حتى وقفت في رأس السلم، وترامت إليها صفقة الباب الخارجي وهو يغلق، وانزلاق المزلاج، وتحلّته وهو يقطع الفناء بقماته اللدينة مسترداً

الساعة إقبالاً منه في الحديث وتبسُّكاً في فؤده قلُّ أن تظهر بمثله في أوقات إفاقته الكاملة. وإنَّها لتذكر كم ارتعبت يوم أدركت أنه يعود من سهرته ثملًا، واستدعت الخمر إلى ذهنها ما يقترن بها من وحشية وجنون ومخالفة الدين وهي الألفظ، فتقرَّزت نفسها وركبها اللعور وعانت لدى هودته كلُّها عاد الآثام لا يَبَلُّ لها بها. وبعضُ الأيام واليالي ثبت لها أنه حين عودته من سهرته يكون الطُف منه في جميع الأوقات، فيخفف من صرامته، وترقُّ ملاحظته، ويسترسل في الحديث، فاستأنست إليه واطمأنت وإن لم تُشعر أن تضرع إلى الله أن يغفر له معصيته ويتوب عليه. ولكم ثمَّت لو يتطَّلع بنفس اللين النسبي وهو صالح متبها، وكم عجبت لهُ المعصية التي تترقُّ حواشيه، وتُحيرت طويلاً بين ما تجد نحوها من كراهية دينية موروثة وبين ما تحيي منها من راحة وسلام، ولكنَّها دفنت أفكارها في أعماق نفسها، وداربها مداراة من لا يطيق أن يعترف بها ولو فيها بينه وبين نفسه. أمَّا السَّيد فكان أحرص ما يكون على وقاره وحزمه، وما يصدر عنه من لطف فخلصة يصدر، ورعًا جرت على شفثيه ابتسامة عريضة - في جلسته هذه - لذكرى طافات به من ذكريات سهرته السعيدة فسرعان ما يته إلى نفسه، ويطبق شفثيه، ويسترق إلى زوجه نظرة فيجدها كعادتها بين يديه خائفة العينين، فيطمئن ويعود إلى ذكرياته. والحقُّ أنَّ سهرته لم تكن تنتهي بعودته إلى بيته، ولكنَّها تواصل حياتها في ذكرياته، وفي قلبه الذي يجذبها إليه بقوة هم إلى سررات الحياة لا يروى، وكأنَّه لا يزال يرى مجلس الأتس تزينه النخبة المختارة من أصدقائه وأصفيائه، ويتوسطه بدر من البدور التي تطلع في سماء حياته حينًا من بعد حين، وما برحت تطرُّ في أذنيه الدعابات واللطايف والكلمات التي تجود فريحتها بدورها إذا هزَّ السكر والطرب، وهذه المُلح خاصة يراجعها في عناية واهتمام ينضحان بالمعجب والزهو، ويتلذَّذ أثرها في النفوس وما لات من نجاح وابتهاج جملاء الحبيب الأوَّل لكل نفس، ولا عجب فإنَّه كثيرًا ما يشعر بأنَّ الدور الذي يلعبه في سهرته من

الممدودتين وراحت تخلع حذاءه وجوريه، ولما كشف قدمه اليمنى بدا أوَّل عيب في هذا الجسم المائل الجميل في خصره الذي تناكل من توالي الكشط بالموسى في موضع كاللؤلؤ مزمن. وغادرت أمانة الحجره فغابت دقائق ثمَّ عادت بطلست وإبريق، فوضعت الطست عند قلعي الرجل ووقفت والإبريق في يدها على أهبة الاستعداد، فاستوى السَّيد في جلسته ومدَّ لها يديه فصَبَّت له الماء فغسل وجهه ومسح على رأسه وتغمض طويلاً، ثم تناول المنشفة من فوق مسند الكنية ومضى يجفف رأسه ووجهه ويديه بينما حملت المرأة الطست وزهبت به إلى الحُمام. كانت هذه الخدمة آخر ما تؤدِّي من خدمات في البيت الكبير، وقد واطبت عليها ربع قرن من الزمان بهمة لا يعترها الكلال، بل في سرور وانشراح، وينس الحامس الذي يستغفرها إلى النهوض بواجبات البيت الأخرى من قبيل مطلع الشمس حتى مغيبها، فاستحقت من أجله أن يطلق عليها جازعاً اسم «النحلة» لدأبها ونشاطها المتواصلين.

وعادت إلى الحجره فأغلقت الباب وصحبت من تحت السرير شلثة فوضعتها أمام الكنية وترتعت عليها إذ لم تكن ترى لنفسها الحقَّ أن تجلس إلى جانبه تأدِّباً. ومضى الوقت وهي ملازمة الصمت حتى يدعوها إلى الكلام فتتكلم، وتراخى ظهر السَّيد إلى مسند الكنية، وبدا عقب سهرته الطويلة متعباً فتقل جفناه اللذان جرى في أطرافها احمرار طارئ من أثر الشرب، وجعل يزفر أنفاساً ثقيلة ضمورة. ومع أنه كان يعاقر الخمر كلَّ ليلة، إلى إفراط في الشرب حتى السكر، إلَّا أنه لم يكن ليقرَّر العودة إلى بيته حتى تزياله سورة الخمر ويستعيد سيطرته على نفسه حرصاً منه على وقاره والمظهر الذي يجب أن يبدو به في بيته. وكانت زوجه الشخص الوحيد من آل بيته الذي يلقاه في أعقاب سهرته، ولكنَّها لم تلمس من آثار الشرب إلَّا رائحته، ولم تلاحظ على سلوكه شلوداً مريباً، إلَّا ما كان يبدو منه أوَّل عهده بزواجها وقد تناسته، وعلى العكس من المنتظر جنت من مصاحبتها له في هذه

تجته في أعقابها لأسلوب طيب من الحياة هو الذي تتلَهف عليه زوجة المطيعة المستسلمة حين تحب نفسها بين يدي رجل حلو العشر يتسبط معها في الحديث ويفضي إليها بما في طويته على نحو يشعرها ولو إلى حين بأنها ليست جارية فحسب ولكنها شريكة حياته أيضاً. وهكذا راح يحدّثها عن شئون البيت فأنبأها بأنه أوصى بعض التجّار من معارفه على شراء خزين البيت من السمن والقمح والحب، وجعل يعمل على ارتفاع الأسعار واختفاء الموادّ الضرورية بسبب هذه الحرب التي تطحن العالم منذ ثلاثة أعوام، وكما تدّكر الحرب اندفع يلعن الجنود الأسرائيليين الذين ينتشرون في المدينة كالجراد ويعيثون في الأرض الفساد. والحقّ أنّه كان يحنّ على الأسرائيليين لسبب خاصّ به وهو أنّهم يجبرونهم حالوا بينه وبين مجالي اللهو والطرب في الأزيكّة فارتدّ عنها مغلوباً على أمره - إلاّ في القليل النادر من غنّاس الفرس - لأنّه لم يكن يسهه أن يعرّض نفسه للجنود الذين يسلبون الناس متاعهم جهاراً ويسلبون بصمّ ألوان الاعتداء والإهانة عليهم بغير رادع. ثمّ مضى يسأل عن حال «الأولاد» كما يدعّوهم بلا تفرقة بين كبيرهم الكاتب بمدرسة التخاسين وصغيرهم التلميذ بمدرسة خليل أغا ثمّ تساءل بلهجة ذات معنى:

- وكيال؟! إيّاك وأنّ تسترّي على شيطنته!

فذكرت المرأة ابنها الصغير الذي تسترّ عليه حقاً لما لا خطر له من اللعب البريء، وإن كان السيّد لا يعترف ببراءة أيّ لون من ألوان اللعب واللهو، وقالت بصوتها الخاضع:

- إنّه يلتزم أوامر أبيه.

وصمت السيّد قليلاً فبدأ كالشارد، وعاد يقطف من ذكريات ليلته السعيدة، ثمّ تراجع مؤثّر ذاكرته إلى ما سبق سهرته من أحداث يومه فذكر فجأة أنّه كان يوماً حافلاً، وليسا كان في حال لا يستحبّ معها كتاب شيء مما يطفو على سطح الوعي فقد قال وكأنّه يخاطب نفسه:

- يا له من رجل كريم الأمير كيال الدين حسين!

الخطورة كانت أملي الحياة المنشودة، وكانّ حياته العملية بجمالها ضرورة يؤدّيها في سبيل الفوز بساعات مترعة بالشراب والضحك والغناء والمشي بقضيها بين صحبه وتخلّصاته، وبين هذا وذلك تسجّع في باطنه أنغام حلوة لطيفة ممّا تردّد في المجلس السعيد فذهب معها وجاء وهتف وراءها من أحبال قلبه: «آه... الله أكبر، هذا الغناء الذي يعبّ ما يعبّ الشراب والضحك والصحاب والبلدور، فلا يطيق أن يخلو منه مجلسه، ولا يابه للشقة البعيدة يقطعها إلى أطراف القاهرة ليسمع الحامولي أو عثمان أو المتلاوي حبشاً تكون مغانيهم، حتّى آوت أنغامهم إلى نفسه السخية ما تاوي اللابل إلى شجرة مورقة، فالتكسب دراية بالنغم والمذاهب وتوجّح حبّة في السمع والطرب، وكان يعبّ الغناء بروحه وجسمه، أمّا روحه فتطرب وتغمرها الأريحية، وأمّا جسمه فتحتاج حواشيه وترقص أطرافه خاصّة الرأس واليدان، ولهذا احتفظت نفسه لبعض المقاطع الغنائية بذكريات روحية وجسدية لا تنسى، مثل: «وليه بقي تلاويك وهجرأك أو «يا ما بكره نعرف... وبعده نشوف» أو «اسمع بقي وتعالى لسا أقول لك» وكان حسبه أن تنفّس إليه نغمة من هذه النغمات معانقة حواشيه من الذكريات كي يهيج موطن السكر من نفسه فيهبّ رأسه طرباً وترّف على شفّته ابتسامة أشواق ويفرق بأصابعه وقد يشدو مترنماً إذا كان إلى نفسه خالياً، ومع هذا فلم يكن الغناء هو منفرداً يجذبه لذاته فحسب، ولكنه كان زهرة في طاقه يملؤها وتغلو به ومرحباً بين الصديقين الصافي والحبيب الوفي والشراب المعقّى والملحة العذبة، أمّا أن يصفو له وحده - كما يثلّقي في البيوت عن الفونوغراف - فهو جميل حبيب بلا شك، ولكنه غاب عن جوه ويبيته وملابساته، وهيها أن يقنع به القلب، إنّه يتوق إلى أن يفصل بين النغمة والنغمة بنكتة تهمز لها النفوس، وأن يسابق التريديد بالثلّ من كأس مترعة، ويرى أثر التطريب في وجه الصديق وعين الحبيب، ثمّ يتعاونون جميعاً على التلهيل والتكثير. يبيد أنّ السهرة لم يقتصر أثرها على بعث الذكريات، فمن مزاياها أيضاً أنّها

سمعت السيد وهو يتجشأ فتمتعت:
- صَحَّةٌ وعافية...

٣

وفي هدوء الصباح الباكر، وفيول الفجر لا تزال ناشبة في أسهم الفياء، تعلى صوت العجين من حجرة الفرن بالقناء في ضربات متتابعة كدويّ الطبل، وكانت أمينة قد غادرت الفراش قبل هذا بنحو نصف ساعة. فتوضأت وصَلَّتْ ثم نزلت إلى حجرة الفرن فأيقظت أم حنفي - امرأة في الأربعين خدعت وهي صبيّة بالبيت وفارقت للزواج ثم عادت إليه بعد طلاق - وبينما غضبت الخادم لتعجن عكفت أمينة على إعداد الفطور. وكان للبيت فناء متسع، في أقصاه إلى اليمين بئر سَلَّتْ فَوْهَتها بعارض خشبيّ مذبَّتْ أقدام الصغار على الأرض وما تبع هذا من إدخال مواسير المياه، ولي أقصى اليسار حل كُثب من مدخل الحرم حجرتان كبيرتان أقيمت الفرن في إحداها واستعملت بالتالي مطبخاً، وأعدت الأخرى خزاناً. وكان لحجرة الفرن حل عزلتها علاقة بقلبيها لا تَجن، فلو حسب الزمن الذي قضته بين جدرانها لكان عمراً، إلى ما تنزّين به الحجرة من مباحج المواسم عند حلولها حين تتطلّع إليها القلوب الهائجة لأفراح الحياة، وتتخلّب الأفواه لألوان الطعام الشهية التي تقدّمها موسّاً بعد موسم كخشاف رمضان وقطائفه، وكملك عيد الفطر وفظائره، وخروف عيد الأضحى الذي يستمن ويدلّل ثم يلبح على مشهد من الأبناء فلا يقدم دعة رشاء وسط هبة شاملة، هنالك تبدو عين القرن المقرّسة يلوح في أعماقها وهج النار كجدولة السرور المشتعلة في السرائر وكأنتها زينة العيد ويشأته. وإذا كانت أمينة تشعر بأنّها في أعلى البيت سيّدة بالنيابة ومثّلة لسلطان لا يملك منه شيئاً، فهي في هذا المكان ملكة لا شريك لها في ملكها، فهذه القرن غمت وتحيا بأمرها، وهذا الوقود من فحم وحطب في الركن الأيمن يتوقّف مصيره على كلمة منها، والكانون الذي يحلّ الركن المقابل تحت رفوف الحلل والأطباق والصينيّة النحاسية ينم أو

أما علمت بما فعل؟.. أي أن يعتلي عرش أبيه المتوفى في ظلّ الإنجليز.

ومع أنّ المرأة علمت بوفاة السلطان حسين كامل أمس إلا أنّها كانت تسمع اسم ابنه لأوّل مرّة، ولم تجد ما تقول ولكتّها - مدفوعة بعواطف الإجلال للمتكلّم - كانت تحاف ألا تملّك على كلّ كلمة يقولها بما يرضيه فقالت:

- رحم الله السلطان وأكرم ابنه.

فاستطرد السيد قائلاً:

- وقبل العرش الأمير أحمد فؤاد أو السلطان أحمد فؤاد كما سيّدعى من الآن فصاعداً، وقد تمّ الاحتفال بتوليته اليوم فانتقل في مركبه من قصر البستان إلى سراي عابدين.. وسبحان من له الدوام.

واصغت أمينة إليه باهتمام وسرور، اهتمام يستثيره في نفسها أيّ نبأ يبيح من العالم الخارجي الذي تكاد لا تعرف عنه شيئاً، وسرور يبعث ما تجد في حديث بعلمها معها عن هذه الشؤون الخطيرة من لفّة عطف تزدهيها، إلى ما في الحديث نفسه من ثقافة يلدّها أن تعيدها على مسمع من أبنائها وخاصّة فئاتها اللتين تجهلان مثلها العالم الخارجي جهلاً تأساً، ولم تجد لتجزية عن كرم عطفه خيراً من أن ترقد على مسمعيه دعاه تعلم مقدّمًا بمقدار ارتياحه إليه كما ترتاح إليه هي من أعيانها فقالت:

- ربّنا قادر على أن يعيد إلينا أفندينا عباس.

فهزّ الرجل رأسه وتمتم قائلاً:

- متى؟.. متى؟.. علم هذا عند ربّي.. ما نقرأ في الجرائد إلّا عن انتصارات الإنجليز، فهل ينتصرون حقاً أو ينتصر الألمان والترك في النهاية؟ اللهم استجب..

واغمض الرجل عينيه إعياه، وتشابه، ثم عملى وهو يقول:

- أخرجني المصباح إلى الصلاة.

ونفضت المرأة قائمة وزهبت إلى الخوان فتناولت المصباح ومضت إلى الباب، وقيل أن تجرّ العتبة

استيقاظه أسوأ أوقات يومه جيماً، يغادر الفراش مترنحاً من الإعياء والدوار، ويستقبل حياة عاطلة من حلول الذكريات ولطيف المشاعر وكثافتها تستحيل دقاً في الدماغ والجفون.

وتوالت دقات العجين على ردوس النائمين بالدور الأول فلستيقظ فهمي، وكان استيقاظه يسيراً على رغم سهره عاكفاً على كتب القانون، فإذا استيقظ فأول إحساس يبادره صورة وجه مستدير تنوشت صفحاته العاجية عينان سوداوان فيهمس باطنه قائلاً: «مرحباً، ولو أذعن لسلطان الإغراء للبت تحت الغطاء طويلاً، خالياً إلى الخيال الزائر الذي جاء يصحبه بالطف الهوى، فيروني إليه ما دعاه الشوق ويبدله الحديث ويوح له بأسرار وأسرار، ويتدنى إليه بجساره لا تتأق في غير هذا الرقاد الدافئ في مطلع الصباح، ولكنه كعادته أجمل نجواه إلى صباح الجمعة وجلس في فراشه، ثم مَدَّ بصره إلى أخيه النائم في الفراش الذي يليه وهتف:

- ياسين... ياسين... أضح.

انقطع شخير الشاب، ونفع فيما يشبه الضيق وتمتم من أنفه:

- صلح... استيقظت قبلك.

فانظر فهمي مبتسماً حتى عاود الآخر شخيره فصاح به:

- أضح...

فتقلب ياسين في فراشه متمترماً فانهصر الغطاء عن جانب من جسمه الذي يضاهي جسم والده ضخامة ويدانة، ثم فتح عينين محمرتين تلوح فيها نظرة غائبة ارتسمت فوقها تقطعية تنطق بالتلمر: «أف... كيف طلع الصباح بهذه السرعة!... لماذا لا ننام حتى نشبع... النظام... دائي النظام... كأننا عساكر»، ونهض معتمداً على يديه وركبتيه وهو يحرك رأسه ليقتض عنه النعاس فلاحته منه الثفانة إلى الفراش الثالث حيث يفك كمال في نومه الذي لن ينزعه منه أحد قبل نصف ساعة فطبع عليه «يا له من غلام سعيداً». ولما أفاق قليلاً ترتب على الفراش وأسد

يزغرد بالسنة الذهب بلشارة منها. وهي هنا الأم والزوجة والأستاذة والثفانة التي يترقب الجميع والثقة ملء قلوبهم ما تقدم يدها، وآية ذلك أنها لا تفوز بإطراء سيدها إذا تفضل بإطرائها إلا من لون من الطعام أحسكت صنعه وطهيها، وأم حنفي كانت اليد اليمنى في هذه المملكة الصغيرة، سواء تصدّت للإدارة والعمل أم تحلّت عن مكانها لإحدى فئاتها لتتمرس بفنّها تحت إشرافها، وهي امرأة بدنية في غير تنسيق ولا تفصيل، ثما لحما غواً سخياً فراعى في نموه السمنة فحسب وأعمل اعتبارات الجمال، بيد أنها رضىت عنه كلّ الرضا لأنها كانت تمدّ السمنة في ذاتها الجمال كلّ الجمال، ولا عجب فقد كان كلّ عمل لها في البيت يكاد يعدّ ثانوياً بالقياس إلى واجبه الأول وهو تسمين الأسرة - أو بالأحرى إنقاذها - بما تُمدّ لهنّ من «بلايع» سحرية هي رثية الجمال وسره المكتون، ومع أنّ أثر البلايع لم يكن ناجحاً دائماً إلا أنّه برهن على جدارته في أكثر من مرّة فاستحق ما يناط به من آمال وأحلام. فليس عجيباً بعد هذا أن تسمن أم حنفي، عل أنّ سميتها لم تقلّ من نشاطها، فما إن أيقظتها سيدها حتى نهضت بنفس متفتحة للعمل، وخضت إلى «ماجورة» العجين. وتعالى صوت العجين الذي يؤدي وظيفة جرس المنبه في هذا البيت، فترامى إلى الأبناء في الدور الأول، ثم تصاعد إلى الأب في الدور الأعلى، منذراً الجميع بأنّ وقت الاستيقاظ قد أذف. وتقلب السيد أحمد عبد الجواد على جنبه ثم فتح عينه، وسرعان ما قلب حائفاً على الصوت الذي أزعج منامه، ولكنه كظم حنقه لأنه كان يعلم أنّه يجب أن يستيقظ، وتلقى أول إحساس يتلقاه عسادة عقب استيقاظه وهو ثقل الرأس فقاومه بقوة إرادته وجلس في فراشه وإن كانت تخليه الرغبة في معاودة النوم. ولم تكن لياليه الصاخبة لتنسبه واجب النهار. فهو يستيقظ في هذه الساعة الباكرة مهما تأخر به وقت النوم حتى ينسقى له الذهاب إلى متجره قبيل الثامنة، ثمّ له في القبلولة فسحة من وقت يعتاض بها عما فاتته من نوم، ويستعيد نشاطه للسهرة الجديدة. لهذا كان وقت

أصحابه، وغير الوجه الحازم الصارم الذي يواجه به آل بيته، هذا وجه خافض الجناح تقطر التقرى والحب والرجاء من قسيته المتراخية التي ألانها التزلّف والتؤدّد والاستغفار. لم يكن يصلي صلاة آليّة قوامها التلاوة والقيام والسجود، ولكن صلاة عاطفة وشعور وإحساس يؤدّيها بنفس الحساس الذي ينفضه على ألوان الحياة التي يتقلب فيها جميعاً، كما يعمل فيفتان في عمله، ويصادق فيفرط في مودّته، ويمشق فيلدوب في عشقه، ويسكر فيغرق في سكره، يخلط صادقاً في كلّ حال. هكذا كانت الفريضة حجّة رويحها يطوف فيها برحاب المولى، حتى إذا انفلت من صلاته ترعب ويسط راحته وراح يدعو الله أن يكلاه برعايته ويغفر له ويبارك في قرّته وتجارته.

وفرغت الأم من تجهيز الفطور فتركت للفتاتين إعداد الصبيّة وطلعت إلى حجرة الإخوة حيث وجدت كمالاً ما زال يغطّ في نومه، فأقبلت عليه باسمه وحطّت راحتها على جبينه وتلت الفاشحة، وجعلت تناديه وتبرّه برفق حتى فتح عينيه، ولم تدعه حتى يفرق الفراش. ودخل فهمي الحجرة قائلاً راحاً يستمسك إليها وحيّاهم تحية الصباح فدرت عليه قائلة ونظرة الحب تترقرق في عينها:

- صباح النور يا نور العين.

وبنفس الرقة صبيحت على ياسين «ابن» زوجها فردّ عليها بموتة خليقة بالمرأة التي تنزل من نفسه منزلة الأم الجديرة بهذا الاسم. وليت عادت خديجة من حجرة القرن تلقّاه فهمي وياسين - وياسين خاصة - بما يغرمان به عادة من دعابة. وكانت مثار دعابة سواء بصورتها المتنافرة أو بلسانها الحاد رغم ما لها من نفوذ على الآخرين بما تتمهّد من شؤونها بمهارة فائقة ينذر أن تجود بمثلها عائشة التي تلوح وسط الأسرة كالرمز الجميل رواء وجاذبية وعدم فائدة. ويادها ياسين قائلاً:

- كذا نتحدّث عنك يا خديجة، وكذا نقول إنّه لو كان النساء جميعاً على شاكلتك لارتاح الرجال من متاعب القلوب.

رأسه إلى يديه، ورغب في معاناة الحواطر اللديلة التي تحلوها بأحلام اليقظة ولكنّه كان يستيقظ - كأيّه - على حال من ثقل الرأس تتعطل معها الأحلام، ولاحت لمخيلته زبوة العوادة فلم تترك في حساسيته أثراً ممّا ترك في صحوه وإن اقترت شفته عن ابتسامه.

وفي الحجرة المجاورة كانت خديجة قد ضاشرت الفراش دون حاجة إلى منبه العجيين. كانت أشبه الأسرة بأنّها في نشاطها ويقظتها، أمّا عائشة فتستيقظ عادة على الحركة التي كانت تنبعث في السرير من نبوض شقيقتها وانزلاقها إلى أرض الحجرة في عصف متعّد يجر وراءه جدلاً وملاحاة انقلباً مع التكرار نوعاً من الدعابة الغلظة، فإذا استيقظت وفزعت من التّقالم تبض، ولكنّها تستسلم لحلم طويل من أحلام اليقظة السعيدة قبل أن تغادر فراشها.

ثمّ دبّت الحياة فشمّلت الدور الأوّل كلّهُ، فُتحت النوافذ وتدفّق النور إلى الداخل وصل أثره هفا الهواء حاملاً صلصلة عجلات سوارس وأصوات العمّال ونداء بائع البلبلة، وتواصلت الحركة ما بين غرفتي النوم والحمام وبدا ياسين في جلبابه الفضفاض يلحمه التكتّل، وفهمي بطوله الفارع وقُدّه النحيف وكان - فيما عدا نحافته - صورة من أيّه. وهبطت الفتاتان إلى الفناء لتلحقا بأُمّهما في حجرة الفرن، وكان في صورتيهما اختلاف قلّ أن يوجد مثله في الأسرة الواحدة، خديجة سمراء وفي قسيات وجهها تنافر ملحوظ، وعائشة شقراء تشعّ حالة من حسن ورواء.

مع أنّ السيّد أحمد كان في الدور الأعلى بمفرده إلّا أنّ أُمّهم لم تدعه في حاجة إلى إنسان. وجد على الخوان طبق فنجان مملوءاً حلبة ليتمّز ريقه عليها، وذهب إلى الحمام فطّابّر إلى أنفه عرف البخور الطيّب، والفي على الكرسيّ ثياباً نظيفة مرتّبة في عناية، فاستحمّ بالماء البارد كعادته كلّ صباح - عادة لا ينقطع عنها صبيّاً أو شتاء - ثمّ عاد إلى حجرته مستجلاً حيويّة ونشاطاً، ثمّ جاء بسجادة الصلاة - وكانت مطوية على مسند الكتبة - فبسطها وأدّى فريضة الصبح، صلّى بوجه خاشع، وهو غير الوجه البسام المشرق الذي يلقي به

فأقلت على البداهة:

- ولو كان الرجال على شاكلتك لارتاحوا جميعًا من متاعب الرسوم...

عند ذلك هفت الأم قائلة:

- أعد القطور يا سادة.

||

كانت حجرة الطعام بالدور الأعلى حيث توجد حجرة نوم الوالدين، وكان يغس الدور غير هاتين الحجرتين أخرى للجلوس وأربع خالية إلا من بعض أدوات اللعب التي يلهو بها كمال في أوقات فراغه. وكان السباط قد أعد وصُفّت حوله الشلت، ثم جاء السيد فتصوّره متربعا، ودخل الإخوة الثلاثة تباغا فجلس ياسين إلى يمين أبيه، وفهمي إلى يساره، وكمال قبائله. جلس الإخوة في أدب وخشوع، خافضي الرسوم كأنهم في صلاة جامعة، يسوي في هذا كاتب مدونة النجاسين وطالب مدرسة الحقوق وتلميذ خليل آغا. فلم يكن أحد منهم ليجزئ على التحديق في وجه أبيه. وأكثر من هذا كانوا يتجنبون في محضره تبادل النظر أن يغلب أحدهم الإلتزام لسبب أو لآخر فيعرض نفسه لزجرة خفيفة لا يُقِلُّ له بها. ولم يكن يجمعهم بأيهم إلا مجلس القطور لأنهم يمسودون إلى البيت عصرًا بعد أن يكون السيد قد غادره إلى دكانه عقب تناول الغداء والقبولة، ثم لا يعود إليه إلا بعد منتصف الليل، وكانت الجلسة على قصر مدتها شديدة الوطأة على نفوسهم بما يلتمزون فيها من أدب عسكري إلى ما يركبهم من رهبة تضاعف من حساسيتهم وتجهلهم عرضة للهفوات بطول تفكيرهم في تحاميلها، فضلا عن أن القطور نفسه يتم في جو يفسد عليهم تذوقه واستلذذه، ولم يكن غريبا أن يقطع السيد الفترة القصيرة التي تسبق مجيء الأم بصينينة الطعام في تفحص أبنائه بعين ناقدة حتى إذا عثر على خلل ولو ناه في هيئة أحدهم أو بقعة في ثوبه انهار عليه نبرا وثائبا، وربما سأل كمال بغلظة: «غسلت يديك؟» فإذا أجابه بالإيجاب قال له أمرا: «ارنبيها» فيسقط الغلام

تفويه وهو يزدرد ريقه فرقا، وبدلا من أن يشتمعه على نظافته يقول له مهذبا: «إذا نسيت مرة أن تغسلها قبل الأكل قطعتها وأرحكت منها». أو يسأل فهمي قائلا: «أبذكر ابن الكلب دروسه أم لا؟» ويعرف فهمي بالبداهة من يعني لأن «ابن الكلب» عند السيد كناية عن كمال فيجب بأنه يحفظ دروسه جيذا. والحق أن شطارة الغلام - التي استوجب عليها حتى أبيه - لم تقعد به عند الجذ والاجتهاد كما يدل عليها نجاحه وتفوقه، ولكن السيد كان يطالب أبنائه بالطاعة العمياء الأمر الذي لا يطيقه غلام اللب أحب إليه من الطعام، ولهذا يعلق على إجابة فهمي قائلا بامتراض: «الأدب مفضل على العلم»، ثم يلتفت إلى كمال ويستطرد بحدة: «سامع يا بن الكلب».

وجاءت الأم حاملة صينية الطعام الكبيرة فوضعتها فوق السباط وتقهقرت إلى جدار الحجرة على كتب من عنوان وضعت عليه وقلة، ووقفت متأنية لتلبية آية إشارة. وكان يتوسط الصينية النحاسية اللامعة طبق كبير بيضاوي امتلأ باللبن المثلج باللبن والبيض، وفي أحد طرفيها تراكت الأرفغة الساخنة، وفي الطرف الآخر صفت أطباق صغيرة بالجبين، والليمون والفلفل المخللين، والشطة والملح والفلفل الأسود، فهاجت بطون الإخوة بشهوة الطعام، ولكنهم حافظوا على جودهم متجاهلين المنظر البهيج الذي أنزل عليهم كأنه لم يحرك فيهم ساكنا، حتى مد السيد يده إلى رغيف فتناولوه ثم شطوه وهو يتمتع: «كلوا»، فامتدت الأيدي إلى الأرفغة في ترتيب يتبع السر، ياسين فهمي ثم كمال وأقبلوا على الطعام ملتزمين أدهم وحياءهم. ومع أن السيد كان يلتهم طعامه في وفرة وعجلة وكان فكه شطرا آلة قاطعة تعمل في سرعة وبلا توقف، ومع أنه كان يجمع في لقمة كبيرة واحدة من شئ الألوان المتباعدة - الفول والبيض والجبين والفلفل والليمون المخللين - ثم يأخذ في طحنه بقوة وسرعة وأصابه ثمذ اللقمة التالية، إلا أنهم كانوا يأكلون متمهلين في أناة بالرغم مما يحتملهم قهقههم من صبر لا يتفق وطبيعتهم الحامية، فلم يكن لينيب عن

الحقيقة بل والعادية ولعباء وتضيق وقت لا يجملان مثله. وقد وُصف له الحشيش كفاتح للشهية - إلى فولته الأخرى - فجربه ولكنه لم يالفه وانصرف عنه غير آسف وقد ساء به ظنه لما يورث من ذمول وقور مشيع بالهدوء مَيَّال للصمت مشعر بالانفراد ولو بين الصفاة من الأصدقاء، فنفر من أعراضه تلك التي تتجافى مع سجيته المولمة بصبوات المرح ونشوات الهياج ولذات الانسجام في النفوس ووثبات المزاج والقهقهة، ولكيلا يفقد مزايده الضرورية لفحول العشاق اعتاض عنه بنوع نفيس من المنزلول اشتهر به محمد العمجي بائع الكسكي عند مطلع الصالحية بالصاغة، وكان يمتد خاصة لصفوة زبائنه من التجار والأعيان، ولم يكن السيد من مدعي المنزلول ولكنه كان يلتم به بين حين وآخر كلمًا استقبل هوًى جليلاً خاصة إذا كانت المعشوقة امرأة خيرة بالرجال وأحواهم. فرغ السيد من حسو قهوته ثم نهض إلى المرأة وداح يرئدي ملاسه التي قلتمنا إليه أمانة قطعة قطعة، والى على صورة هندامه نظرة متفحصّة، وشط شعره الأسود المرسل على صفحتي رأسه، ثم سوى شاربه وقلته، وتفرّس في هيئة وجهه ثم عطفه رويدًا إلى اليمين ليرى جانبه الأيسر، ثم إلى اليسار ليرى جانبه الأيمن، حتى إذا ارتاح إلى منظره مدّ يده إلى زوجه فنالوته زجاجة الكولونيا التي عبّأها له عمّ حسين الحلاق فغسل يديه ووجهه ونضح صدر قفطانته ومنديلته، ثم وضع الطربوش على رأسه وأخذ عصاه وغادر الهجرة ناهراً بين يديه ومن خلفه غرقاً طيباً. فُلك العرف المقطر من شقّ الأزهار يعرفه أهل البيت جيّهاً، وإذا تشّقه أحدهم تثلّ لعينيه السيد بوجهه الوقور الحازم، فينبعث في قلبه - مع الحب - الإجلال والخوف. إلا أن انتشاره في هذه الساعة من الصباح كان إيذاناً بنهاج السيد، فالتفوس تتلّقا بارتياح غير منكور على براءته، كارتياح الأسير إلى صليل السلاسل وهي تنفك عن يديه وقدميه، ويعلم كلّ بائه سيسترّد حرّيته عمّا قليل في الكلام والضحك والغناء والحركة دون قمة خطر. كان ياسين وفهمي قد فرغا من ارتداء ملابسها، أما

أحدهم ما قد يتعرّض له من ملاحظة شديدة أو نظرة قاسية إذا تهاون أو ضفّ فني نفسه وغفل بالتالي عمّا يأخذها به من التآني والأدب. وكان كمال أشمهم تبرّماً لأنّه كان اعظمهم تحوّلاً من أبيه، وإذا كان أكثر ما يتعرّض له أحد أخويه نهره أو زجرة فأقلّ ما يتعرّض له هو ركلة أو لكمة، فلذلك كان يتناول طعامه في حذر وضيق، مسترقاً النظر بين آونة وأخرى إلى المتبقي من الطعام الذي يتناقص سريعاً، وكلّما تناقص اشتدّ قلقه، وانتظر في جزع أن يصدر عن أبيه ما يدلّ على فراغه من طعامه فيخلو له الجو ليلا بطنه. وعلى رغم سرعة أبيه في الالتهماض وضخامة لقمته وتشبّعها بشقّ الأصناف كان يعلم بالتجربة أنّ ما يتهدّد الطعام - وما يتهدّد هو بالتالي - من ناسية أخويه أشدّ وأنكى، لأنّ السيد كان سريع الأكل سريع الشبع، أمّا أخواه فكانا يبدآن المعركة حقاً عقب جلاء السيد عن السفرة، ثم لا يتخلّيان عنها حتى تغلّ الأطباق من كلّ شيء يؤكل، ولهذا فيا كاد السيد ينهض قائماً ويفارق الحجره حتى شمر عن ساعديه وهجم على الطبق كالجنون مستغلاً يديه اللاتنين، يدًا للطبق الكبير، ويدًا للأطباق الصغيرة، يبدّ أنّ اجتهداه بدا قليل الجدوى فيا انبث من نشاط الأخوين فلجأ إلى الحيلة التي يستغيث بها كلّها هدد سلامته مهتدي في مثل هذه الحال، وهي أن يعطس في الطبق عامداً متعمّداً، وعطس، فتراجع الأخوان، ونظرا إليه حانقين، ثم غادرا المائدة وهما غارقين في الضحك، فتحقّق له حلم الصباح وهو أن يجد نفسه وحيداً في الميدان.

وعاد السيد إلى حجرته بعد أن غسل يديه فلحقت به أمانة ويدها قدح مزجت به ثلاث بيضات نيئات بقليل من اللبن وقدمته له فتجرّعه ثم جلس ليحسو قهوة الصباح، وهذا القدح الدسم خائفة فطوره، وهو ووصفة من وصفات يداوم عليها بعد الوجبات أو فيا بينها - كزيت السمك، والجوز واللوز والبندق المسكّر - رعاية لصحة بدنه الضخم، وتعميقاً له عمّا تستهلكه منه الأهواء، إلى اقتصاره على اللحوم بأنواعها والأغذية المشهورة بدسمها حتى ليعدّ الأكلة

تلکات عاتشة حتى خلا لها الجو فانتقلت إلى جانب المشربة المطل على بين القصرين ومدت بصرها من نقوب الشباك في اهتمام ولهفة. بدا من لمة عينها وعرضها على شفتيها آتيا تنتظر. ولم يطل بها الانتظار فقد مرق من عطفلة الحرنفش ضابط بوليس شاب ومضى مقبلاً متمهلاً في طريقه إلى قسم الجالية، عند ذلك غادرت الفتاة المشربة في عجلة إلى حجرة الاستقبال، واتجهت إلى نافذتها الجانبية وأدارت أكرتها ففرجت مصراعها عن زيق ووقفت وراءه وقلبا بيعت ضربات بالغة العنف من العاطفة والخوف معاً، ولما اقترب الضابط من البيت رفع عينه في حذر دون أن يرفع رأسه - فلم يكن أحد يرفع رأسه في مصر وقتذاك - فأضادت أساريره بنور ابتسامة متوارية انعكست على وجه الفتاة إشراقاً موزةً بالحياء فتهدت... ثم أغلقت النافذة وهي تشد عليها بعصبية - كأنها تخفي آثار جريمة دامية - وتراجعت عنها مخمضة العينين من شدة الانفعال، فأسلمت نفسها إلى مقعد وأسندت رأسها إلى يدها وساحت في جو مشايرها اللانهائي. لم تكن سعادة خالصة، ولم يكن خوفاً خالصاً، كان قلبها موزعاً بين هذا وتلك فهما يتجاذبان بلا رحمة، إذا استنامت إلى نشوة الفرح وسحره قرعت قلبها مطرقة الخوف محدرة متوعدة فلا تلدي أبيضل بها أن تقلع عن مغامرتها أم تتناهى في مطاوعة قلبها. كلا الحب والخوف شديد، ولبت في تهويها كثيراً أو قليلاً، فاستكتت هواتف الخوف والتائب، ومضت تنتم بسكرة الحلم في ظل سلام، وذكرت - كما يلد لها أن تذكر دائماً - كيف كانت تنفض الستارة المسدلة على النافذة يوماً فلاح منها نظرة إلى الطريق من النافذة التي فتحت نصف فتحة لطرد الغبار فوقعت عليه وهو يتطلع إلى وجهها في دهشة مقرونة بالإعجاب، فتراجعت فيها شبه الدهر، ولكنه لم يذهب قبل أن يترك في مخيلتها أثراً باقياً من منظر نجمته الذهبية وشرطه الأحمر، منظر يغلب اللب ويسرق الخيال، فظل يتخيل لعينها طويلاً، وفي نفس الساعة من اليوم التالي - والأيام التالية - راحت تقف

كبال فقد هرع إلى الحجرة عقب خروج أبيه مباشرة ليشبع رغبته في محاكاة حركاته التي يغتسل النظر إليها من زيق الباب الماروب، فوقف أمام المرأة ينظر إلى صورته بإيمان وإرتياح ثم قال خاطباً أمه بلهجة أمة وهو يعلظ نبرات صوته: «زجاجة الكولونيا يا أمانة»، وكان يعلم أنها لا تلتقي هذا النداء ولكنه جعل يسمح على وجهه وجاكتيه وينطلونه القصير بيديه كأنه يبلها بالكولونيا، ومع أن أمه كانت تغالب الضحك إلا أنه ثابر على التظاهر بالجد والصرامة، وراح يستعرض وجهه في المرأة من جانبه الأيمن إلى الأيسر، ثم مضى يسوي شاربه الوهمي ويقل طرفيه، ثم تحول عن المرأة وتجهت، ونظر صوب أمه، ولما لم يجد منها إلا الضحك قال لها محتجاً: «لماذا لا تقولين لي صحة وعافية؟» فغمضت المرأة ضاحكة: «صحة وعافية يا سيدي»، هنالك غادر الحجرة مقلداً مشية أبيه عرجاً بمناه كأنه يتوكأ على عصاه..

وبادرت الأم والفتاتان إلى المشربة ووقفن وراء شباكها المطل على النخاسين ليرئ من قفوه رجال الأسرة في الطريق، وبدا السيد وهو يسير في تودة ووقار يحث به الجلال والجمال رافعاً يديه بالتحية بين حين وآخر وقد وقف له عم حسين الحلاق والحاج درويش بائع الفول والفول البان ويومي الشربلي، فأتبعنه أعياناً مترعة بالحب والزهر، وتلاه فهمي في مشيته المتعجلة، ثم ياسين في جسم الثور وأناق الطاووس، وأخيراً ظهر كمال فلم يكدهم بخطو خطوتين حتى استدار ورفع بصره إلى الشباك الذي يعلم أن أمه وشقيقته مستحفيات وراءه، وابتسم، ثم واصل سيره متابعاً حقيقة كتبه منقاً في الأرض عن زلطة يركلها.

كانت هذه الساعة من أسعد أوقات الأم، بيد أن إشفاقها من شر الأعين على رجالها لم يقف عند حد، فلم تكن تمسك عن تلاوة: «ومن شر حاسد إذا حسده حتى يضيوا عن عينها...»



وغادرت الأم المشربة، وتبعها خديجة، على حين

القلق الطارئ وأجابتها بضحكة مقتضبة، ثم جرت إلى حجرة الطعام فوجدت السباط معداً حثاً وأنها مقبلة بالصينية، وقالت لها خديجة بحدة حال دخولها: - تتلكنين بعيداً حتى أعد كل شيء وحدي... كفاية لنا الغناء...

ومع أنها كانت تلتطف معها في الحديث تفادياً من حدة لسانها إلا أن إصرار الأخرى على قرصها بلسانها كلياً سحنت فرصة جعلها تتعلق أحياناً بإغاضتها فقالت مصطنعة الجدة:

- ألم تنق على تقسيم العمل بيننا في البيت؟ فعليك هذا الواجب وعلي الغناء...

فظفرت خديجة إلى أمها وقالت متهكمة وهي تعني الأخرى:

- يمكن نأوية نكون عائلة
ولم تنضب عائشة، وبالعكس قالت باهتمام مصطنع أيضاً:

- وماله!... أنا صوتي كالكروان.
ومع أن قولها السابق لم يستر غيظها لأنه كان يزن الدعابة إلا أن كلامها الأخير استثاره لأنه كان واضح الحق، ولأنها تنفس عليها جمال صوتها فيما تنفس عليها من مزايها فقالت في تهجم:

- اسمعي يا ست هانم... لهذا بيت رجل شريف لا يعيب بناته أن تكون أصواتهن كصوت الحمير ولكن يميهن أن يكن كالصورة لا فائدة منهن ولا نفع.

- لو كان صوتك جيلاً كصوتي ما قلت هذا!
- طبعاً!... كنت تغنين وأرة عليك، تقولين يا أبو الشريط الأحمر يا لبي... فاقول لك أسرتي أرحم ذئي، وترك للسّ ومشيرة إلى أمها الكنس والمسح والطبخ.

وكانت الأم - التي ألفت هذا النكار - قد اتخذت مجلسها فقالت برجاء:

- أمسكا بالله واجلسا نأكل فطورنا بسلام.
وأقبلتا على السباط وجلستا وخديجة تقول:
- أنت يا نينة لا تصلحين لتربية أحد...
فتمتعت الأم في هدوء:

وراء الخصاص دون أن يراها، ولست في فرحة ظافرة كيف يتطلع بعيني إلى النافذة المغلقة باهتمام وتشوق، ثم كيف أخذ يستين شبحها وراء الخصاص فتشع أساريره ضياء الهجة، وقلبي المشوب - الذي يتمنى مستيقظاً لأول مرة - ينتظر هذه اللحظة في لهفة ويلذونها في سماعة ويودعها فيها يشبه الحلم، حتى دار الشهر دورته وعاد يوم التفتيش مرة أخرى فأنبرت إلى الستارة تنفضها وراء النافذة الموارية متعمدة - هذه المرة - أن ترى، وهكذا يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، حتى غلب التشعلش للمزيد من الحب الخوف الجاثم فخطت خطوة - جنوبية - وفرجت مصراعي النافذة ووقفت وراءها وقلبي يبيت شربات بالغة العنف من العاطفة والخوف معاً، كأنها تعلن حبها له، بل كانت كمن يقلب نفسه من علو ساحق ليأتي نازلاً مستعرة تحيط به.

استكنت عواطف الخوف والتأنيب ومضت تنعم بسكرة الحلم في ظل سلام، ثم أفافت من حلمها، وصممت على أن تتحاشى الخوف الذي ينقص عليها صوغها فجعلت تقول لنفسها استدراكاً للطمأنينة: «لم تزلزل الأرض ومز كل شيء بسلام، لم يرن أحد ولن يرائ أحد، ثم إلي لم أقترف إيذاء ونهضت قائمة، ولكي توهم نفسها بخلو البال ترنمت - وهي تضاد الحجرة - بصوت عذب: «يا أبو الشريط الأحمر يا لبي أسرتي أرحم ذئي»، وودعتها مرة ومرة حتى جاءها صوت أختها خديجة من حجرة الطعام وهي تزحف في تهجم:

- يا ست منيرة يا مهدية، تفضلي، أعدت لك خادمتك السفرة.

وأثابها صوت أختها إلى نفسها غاماً فيها يشبه الرجفة فهوت من عالم اللال إلى عالم الواقع مرتعبة بعض الشيء لسبب غير ظاهر - ما دام كل شيء قد مر بسلام كما قالت لنفسها - ولكن اعتراض صوت أختها بالذات - لغنائها وخوارطها أرضها، ربما لأن خديجة كانت نقف منها موقف المنتقد، بيد أنها طاردت هذا

- ساعلك الله، سأترك لك أمر التربة على ألا تنسي نفسك... «ثم مدت يدها إلى الطبق»... بسم الله الرحمن الرحيم...

كانت خديجة في العشرين من عمرها، فهي كبرى إخوتها فيها عدا ياسين - إناها من الأب - الذي ناهز عامه الواحد والعشرين، وكانت قوية مثثة - والفضل لأم حنفي - مع ميل إلى القصر، أما وجهها فقد قس من قسيت الولدين على نيج لم يُراعَ فيه الانسجام، ورثت عن أمها عينيها الصغيرتين الجميلتين، وعن أبيها أنفه العظيم، أو صورة مصغرة منه ولكن ليس إلى القدر الذي يفتر له، ومها يكن من شأن هذا الأنف في وجه الأب الذي يناسبه ويكسبه جلالاً ملحوظاً فقد لبس في وجه الفتاة دوراً مختلفاً.

أما عائشة فكانت في السادسة عشرة من ربيعها، صورة من بديع الحسن، رشيقة القُد والقوام - وإن عدّ هذا في عيط أسرها من العيوب المتروكة علاجها لأم حنفي - ووجهه بدريّ تزينة بشرة بياض مشربة بحمرة، وعينان زرقاوان أحسنت اختيارهما من الأب مع أنف الأم الصغير، إلى شعر ذهبيّ دلّله به قانون الوراثة فضخصها به وحدها من ميراث جدتها لأبيها. وطبيعيّ أن تدرك خديجة ما يقوم بينها وبين شقيقتها من فوارق، ولم تكن براعتها الفائقة في التدبير المنزليّ والتطريز ولا نشاطها الدائب الذي لا يكَل ولا يَمَلّ يُمغنين عنها شيئاً، فوجدت على الغالب نحوها غيرة لم تراخ إخطاءها مما حمل الفتاة الحسنة على البرّ بها في كثير من الأحيان. ولكن من سوء الحظ أنّ هذه الغيرة الطبيعية لم تترك رواسب سوداء في النفس، وكفها أن تروّج عن حديثها بسخرية اللسان وسلاطته، وأكثر من هذا أن كانت الفتاة رغم مشكلتها الطبيعية أمّا بالفتوة عامرة القلب بالحنوّ نحو الأسرة التي لا تنفي أفرادها من مرارة تهكمها، فلم تكن غيبتها إلا نويات تطول أو تقصر ولكتبتها لم تتحرف بسجيتها إلى الحقد أو البغضاء، بيد أنّ دأبها على السخرية - الذي اقتصر في الأسرة على الدعابة - خلق منها فيما وراء ذلك من الجبران والمعارف عيانية من الدرجة الأولى، لا تصح

عينها من الناس إلا على مناقضهم كمقرب البوصلة المتجذب إلى القطب أبداً، وإذا توارت المناقص تخلت في الكشف عنها وتكبيرها، ثم راحت تطلق على ضحاياها أوصافاً تناسب عيوبهم كادت تغلب عليهم في عيط أسرتها، فلهذه حرم المرحوم شوكت أقدم صديقة لوالديها تدعوها «المدفع الرشاش» لتناثر ريقها أثناء الحديث، وهذه السّت أمّ مريم جارهم بالبيت الملاصق لبيتهم تسميها «الله يا أسبادي» لاستعارتها بعض الأدوات المنزلية من بيتهم بين حين وآخر، كما تدعو شيخ كتّاب بين القصرين «شُرّ ما خلق» لترديده هذه الآية ضمن سورتها كثيراً بحكم وظيفته مع قبح وجهه، وبائع الفول «الأقرع» لصلعه، واللبّان «الأعور» لضعف بصره، إلى تسميات خفّة بعض الشيء خصّت بها أسرتها، فسأها «المؤذن» لتكبيرها في الاستيقاظ، وفهحي وعمود السرير» لنحافتها، وعائشة «البوصة» للسبب نفسه، وياسين «حبة كشر» لسمته وأناقته. ولم تكن سلاطة لسانها من وحي السخرية فحسب، فالحق أنّها لم تخلّ من قسوة على من عدا أهلها من الخلق وفكدا اتّسم نقدتها للناس بالنعف، ونجاني عن التسامح والعفو، كما غلب عليها عدم الاكتراث للأحزان التي تلّم بالناس يوماً بعد يوم، وتبثّت هذه الغلظة في البيت في معاملة أم حنفي معاملة لا تلقاها من أحد سواها، بل في معاملة الحيوان الأليف كالقطط التي تحظى من عائشة بإعزاز يفوق الوصف. وكانت معاملتها لأم حنفي مثار خلاف بينها وبين أمها، فالأمّ تعامل الخدم كما تعامل أهل بيتها سواء بسواء، وكان ظنّها بالناس أنّهم ملائكة فلم تدب كيف تسي الظنّ بأحد، على حين دأبت خديجة على سوء الظنّ بالمرأة تمثيلاً مع طبيعتها التي تسيء الظنّ بالناس جميعاً، ولم تحفّ تحوّلها مع بيّانها غير بعيد من غرفة الخزين فقالت لأمها: «ومن أين غيبتها هذه السمينة المفرطة؟... من الوصفات التي تصنعها! كلنا نحتاج صفاتها فلا نسمن سميتها، ولكنّه السمن والمسل اللذان تطعم منها بغير حساب ونحن نيام».

الأكل فقالت بصوت هادئ يختلف كل الاختلاف عن الصوت الذي كانت تزعق به منذ حين قصير:

- نينة... حملت حلاًماً غريباً...

فقالت الأم قبل أن تزدرد لغمتها مبالغاً في إكرام ابنتها المخيفة:

- خير يا بنتي إن شاء الله.

فقالت خديجة باهتمام مضاعف:

- رأيت كائنات أمثلي على سور سطح، ربما كان سطح بيتنا أو غيره، وإذا بشخص مجهول يدفعني فأهوي صارخة.

وأمسكت أمينة عن تناول طعامها في اهتمام جديّ فلازمت الفتاة الصمت قليلاً لتستأثر بأكبر قدر من

الاهتمام حتى تتمتم الأم:

- اللهم اجعله خيراً.

وقالت عائشة وهي تغالب ابتسامة:

- لم أكن أنا الشخص المجهول الذي دفعك... ليس كذلك؟

وخافت خديجة أن يفقد الجوهر المزاح فصاحت بها: - إنه حلم وليس لعباً فكفني عن هذلك ثم مخاطبة أمها... هويت صارخة ولكني لم أرتطم بالأرض كما توقعت بل وقمت على جواد، حملني وطار.

وتهدت أمينة في ارتياح كأنها أدركت ما وراء الحلم واطمأنت إليه، وعادت إلى طعامها مبتسمة، ثم قالت:

- من يدري يا خديجة؟... لعله العريس!...

لم يكن يباح الكلام عن «العريس» إلا في هذه الجلسة، وفي إيجاز الإشارة أشبه، ووجب قلب الفتاة الذي لم يكره شيء كما أكره أمر الزواج، وكانت على إيمان بالحلم وتأويله بحيث وجدت لكلام أمها سرواً عميقاً، بيد أنها أرادت أن تداري حيائها بالسخرية كعادتها - ولو من نفسها - فقالت:

- أنتظين الجواد عريساً؟... لن يكون عريساً إلا حماراً.

فضحكت عائشة حتى تطاير نثار الطعام من فيها، ثم خافت أن تسيء خديجة فهم ضحكها فقالت:

لكن الأم دافعت عن أم حنفي ما وسعها الدفاع، ولساً صاغت بإلحاح ابتها قالت: «فلتأكل ما تشاء، الخير كثير، ويطعها له حد لا يتعداه فلن نجوع على أي حال». ولم يعجبها قولها وراحت تفحص صفائح السمسم ولبلايص العسل كل صباح وأم حنفي ترى هذا باسمه لأنها كانت تحب الأسرة كلها إكراماً لستها الطيبة. وعلى التقيض من هذا كان حنان الفتاة حيال أهلها جيماً فلم يكن يبدا لها بال إذا أصابت أحدهم وعكة، ولساً مرض كمال بالحصبة أبت إلا أن تشاركه فراشه، حتى عائشة نفسها لم تكن تطيق أن يلتم بها أهون سوء، فلم يكن مثل قلبها لا في بروده ولا في رحمته.

وبأنحاذها جلسها من السباط تناست ما نشب بينها وبين عائشة من نقار وأقبلت على القول والبيض بشهية كانت مضرب الأمثال في الأسرة. وكان للطعام بينهما - إلى فائدة الغذائية - غاية جمالية عليها بصفته الدهامة الطيحية للسمنة، فكان يتناولونه في تروء واهتمام، ويبالغن في سحقه وطحنه، فإذا شبعن لم يمسن ولكن يستردن منه حتى يمتلئن، على تفاوت لطاقاتهن، فكانت الأم أسرعهن إلى الانتهاء، تليها عائشة، ثم تنفرد خديجة ببقايا المائدة فلا تتخلى عنها إلا وهي أطباق مخسولة. ولم تكن نحافة عائشة لتناسب مع اجتهادها في الأكل فضلاً عن عصيانها لسحر البلايع، مما دعا خديجة للسخرية منها والقول بأن المكر السيئ هو الذي يجعلها تربة غير صالحة للبذور الطيبة التي تلقى فيها، كما كان يطبع لها أن تعمل نحافتها بضعف دينها فتقول لها: «كلنا نصوم رمضان إلا أنت، تتظاهرين بالصوم، وتندسرين في حجرة الحزين كالغارة وتملئين بطنك بالجوز واللوز والبنديق، ثم تطعنين معنا بنهم بمسلك عليه الصائمون ولكن الله لا يبارك لك». وكانت ساعة الفطور من الأوقات السادة التي يختلن فيها إلى أنفسهم، فكانت أخلق الأوقات بالكاشفة ونفض السائر خاصة في الأمور التي يدعو إلى كتبائها عادة الحياء البالغ الذي تتسم به مجالس الأسرة الحاسوبية للنجنين، وكان لدى خديجة ما تقوله رغم انهماكها في

على سبيل الاستعلاء أو على سبيل المشاكسة، فلهذا قالت:

- أنزل لك عن التنظيف إذا كنت تستقلين
الغسيل، لَمَّا التَّمَحَّكَ بالغسيل للبقاء في الحَمَامِ حتَّى
يتتهي العمل في المطبخ فلعن مرفوض مقدَّمًا.
وتجاهلت الفتاة ملحوظتها ومضت إلى الحَمَامِ وهي
تندندن فقالت خديجة متهمَّة:

- يا بختك بالحَمَامِ يرَنّ فيه الصوت كما يرَنّ في نغير
الفونوغراف فغنيّ وسَمَّي الجيران.

وشادت الأُمّ الحجرة إلى الدهلِيز ثمّ إلى السَلَمِ
ورَقَّتْهُ إلى السطح لتجول فوقه جولتها الصباحية قبل
أن تنزل إلى حجرة الفرن. لم يكن التشاحن بين
الفتاتين بالجديد عليها بعد أن انقلب مع الأيام عادة
مألوفة في غير الأوقات التي يوجد فيها الأب في البيت،
أو التي يطيب فيها السمر بين أفراد الأسرة، وجعلت
تعالجه بالرجاء والدعابة والرقة البالغة، وهي السياسة
الوحيدة التي تنتهجها إزاء أبنائها لأنّها صادرة عن طبع
لا يطبق سواها، أمّا ما تقتضيه التربية أحيانًا من الخزم
فشيء لم تعرفه، رَجَمًا فتمتته دون أن تقدر عليه. ورَجَمًا
حاولت تجربته فغلبيها التأثير والضعف، وكأنّها لا تحتمل
أن يقوم بينها وبين أبنائها غير أسباب المودة والحبّ،
تأزّكة للآب - أو لشخصيته التي تسيطر من بعيد -
تقوم المحوَجّ وإلزام كلّ حدوده. لهذا لم يضعف النفاذ

السخيف من إعجابها بفناتها ورضائها عنها، حتّى
عائشة المولمة لحَدّ المحوس بالغناء والوقوف أمام المرأة،
لم تكن دون خديجة مهارة وتدبيرًا بالرغم من تكاسلها.
وكان هذا حريًا بأن يحدّ لها في أوقات الراحة لولا ما
طبعت عليه من وسوسة بالداء أشبه، فهي تأتي إلّا أن
تشرف على كلّ صغيرة وكبيرة بالبيت، وإذا فرغت
الفتاتان من عملها نشطت هي بالمكنسة في يد
والمفوضة في يد وراحت تتفقد الحجرات والصالات
والدهاليز، متفحصة الأركان والجدران والستائر وسائر
العفش عسى أن تزيل نقطة غبار منسية، واجدة لذّة
وإرتياحًا كأنّها تزيل قلبي من عينها، ومن وسوستها
تلك أنّها كانت تفرّص الثياب الممّعة للغسيل قبل

- لَسَدُ ما تظلمين نفسك يا خديجة!.. ما فيك من
شيء يعاب.

فحجبتها خديجة بنظرة تنمّ عن الحذر والشكّ على
حين راحت الأُمّ تقول:

- أنت فتاة نادرة المثال، من يضاربك في مهارتك
أو نشاطك؟... وروحك الخفيفة ووجهك اللطيف؟
ماذا تريدن أكثر من هذا؟

فمست الفتاة بسببائها أرنبة أنفها وتساءلت
ضاحكة:

- ألا يسدّ هذا طريق الأزواج؟!

فقالت الأُمّ مبتسمة:

- كلام فارغ... ما زلت صغيرة يا بنتي.

وتضايقت لذكر الصغر لأنّها لم تكن تعدّ نفسها
صغيرة بالقياس إلى سنّ الزواج، وخاطبت أمّها قائلة:

- لقد تزوّجت يا بنتي وأنت دون الرابعة عشرة.

فقالت الأُمّ التي لم تكن في الحقّ دون ابنتها قلقلًا:

- لا يتقدّم امرؤ أو يأنظر إلّا بإذن الله..

وقالت عائشة في صدق:

- ربّنا يفرّجنا بك قريبًا يا خديجة.

فلحظتها خديجة برية وذكّرت كيف طلبت إحدى
جارايم يدها لابنها فرفض الأب أن تزوّج الصغرى
قبل الكبرى، وتساءلت:

- أتودّين حقًا أن أتزوّج أم تمتّنين أن يخلو لك
السبيل فتزوّجي؟!

فقالت عائشة ضاحكة:

- لا الانين ممّا..

٦

ولسّا فرغن من الفطور قالت الأُمّ:

- عليك يا عائشة الغسيل اليوم، وعمل خديجة

تنظيف البيت، ثمّ تلحقان بي في حجرة الفرن.

كانت أُمينة تزوّج بينهما العمل عقب الفطور
مباشرة، ومع أنّها ترضيان بحكمها، وترضى به عائشة
بلا مناقشة، إلّا أنّ خديجة تكلف بتوجيه الملاحظات

تَحْتَرَّت الدجاج أو الحمام فيما يشبه الضيق، ثم تَسْتَمِيها وترتسم عليها وتبسم وتستغفر، وتذبذبها وعزواها أُنْثَى تستمتع بحق منحه الله الشان وأوسع به على عباده. أمّا أعجب ما في السطح فكان نصفه الجنوبي المشرف على النحاسين حيث غرست يداها في الأعرام الخالية حديقة فريدة لا نظير لها في أسطح المحي كُله التي تغطى عادة بطبقة من قاذورات الدواجن، بدأت أول ما بدأت بعدد قليل من أصص القرنفل والورد، وراحت تستكثر منها عاماً بعد عام حتى نُقِدَتْ صفوفاً بعداء أجنحة السور وثمت ثمراً بهيجاً، وخطر لحياها أن تقيم فوق حديقتها سقيفة، فاستدعت نجاراً فأكلمها، ثم غرست شجرتي ياسمين ولبلاب ثم أنشبت سيقانها في السقيفة وحول قوائمها، فاستطالت وانتشرت حتى استحال المكان بستاناً معروفاً ذا سماء خضراء ينبثق منها الياسمين ويتفرع في أرجائها غرف طيب سباحر. هذا السطح يسكنانه من الدجاج والحمام، ويستأنه المروض، هو دنياها الجميلة المحبوبة، وملهاها الأثير في هذا العالم الكبير الذي لا تعرف عنه شيئاً، وكشأنها في مثل هذه الساعة مضت تتمهده برحابتها فكنتسه، وسقت زرعها، وأطعمت الدجاج والحمام، ثم تَمَلَّت طويلاً المنظر المحيط بها بشعر باسم وعينين حائلتين، ثم ذهبت إلى نهاية البستان ووقفت وراء السيقان اللطيفة المتشابكة ثمَّ بصرها من ثغراتها إلى ما يليها من فضاء لا تحده حدود.

كم تروعهما المآذن التي تنطلق انطلاقاً ذا إيحاء عميق، تارة عن قرب حتى لترى مصابيحها وهلالها في وضوح كَمَاذَن فُلاوون وبيروق، وتارة عن بعد غير بعيد فتبدو لها جملة بلا تفصيل كَمَاذَن الحسين والغوري والأزهر، وثالثة من أفق مسحيق فتراعى أطيافاً كَمَاذَن القلعة والرفاعي، وتقلب وجهها فيها بولاء واقتنان، وحب وإيمان، وشكر ورجاء، وتحلق روحها فوق ذراها أقرب ما تكون إلى السماء، ثم تستقر منها العيتان على مثلثة الحسين، أحبها - حب صابحها - إلى نفسها، تنفض نظرها حائناً وأشواقاً، مشوبة بحزن يطوف بها كلما ذكرت حرمانها من زيارة

غسلها، فإذا عثرت على قطعة منها قد عرقت قذارتها المألوف لم تترك صاحبها دون أن تلتطف في تنبيهه إلى واجبه، من كمال الذي يناهز العاشرة إلى ياسين الذي كان ذا ذوقين متناقضين في العناية بنفسه يتجلبان في تألقه المفرط في مظهره من البدة والطربوش والقميص ورباط الرقبة والخذاء، وإهماله المريب لثيابه الداخلية. ومن الطبيعي ألا تغفل هذه العناية الشاملة السطح وسكانه من الحمام والدجاج، بل كانت ساعة السطح حافلة بالحب والسرور، فيها من أغراض العمل ما فيها، إلى ما تحده من فرحة اللهو والمرح. ولا عجب فالسطح هو الدنيا الجديدة التي لم يكن للبيت الكبير بها عهد قبل انضمامها إليه، خلقتها بروحها خلقاً جديداً على حين ظل البيت محافظاً على الهيئة التي شُيِّد عليها منذ عهد مسحيق. هذه الأقفاس المثبتة في بعض جدرانها العالية يبدل عليها الحمام من وضعها، وهذه الأكواخ الخشبية يقروق الدجاج في مسارجها من تركيبها، وكما يملكها الفرح وهي ترمي الحب أو تضع على الأرض آنية السقيا فيستبق إليها الدجاج وراء ديكها، وتبذل مناقيرها على الحب في سرعة وانتظام كابر آلة الحياطة، تخلف في الأرض التربة بعد حين ثغرات دقيقات كآثار الرذاذ. وكما ينشرح صدرها إذ تنظر فتراها رانية إليها بأعين دقيقة صافية، مستطلعة منسائلة، ناقة مقوفة، في مودة متبادلة ينز لها قلبها الخنون. أحببت الدجاج والحمام كما تحب مخلوقات الله جيماً، فهي تناغيها مناداة رقيقة تحسب أنها تفهمها وتتأثر لها، ذلك أن خيالها يخلج الحياة الشاعرة العاقلة على الحيوان، وأحياناً الجساد نفسه. وهذا بمنزلة اليقين أن هذه الكائنات تسبح بحمد ربها وتتصل بعالم الروح بأسباب، فعملها بأرضه وسياقه، حيوانه ونباته، عالم حي عاقل. ثم لا تقتصر مزايدها على نعمة الحياة فيكملها بالعبادة. لم يكن غريباً بعد هذا أن تكثر معانيها من الديوك والدجاج معتلة بسبب أو بأخر، هذا لأنها معمرة وتلك لأنها يتأبى وهذا لأنها تستيقظ على صياحه، ولعلها لو تركت وشأنها ما ارتقت أن تعمل سكينها في رقابها، وإذا دعته الظروف إلى الذبح

الصدقة. والحق لم يكن السيد مرهوباً خوفاً إلا بين أهله، أما بين سائر الناس من أصدقاء ومعارف وعملاء فهو شخص آخر، له حقله الموفور من المهابة والاحترام، ولكنه شخصية محبوبة قبل كل شيء، ومحبوبة لظرفها قبل أي من سجايها الحميدة الكثيرة، فلا الناس يعرفون السيد الذي يقيم في بيته، ولا أهل البيت يعرفون السيد الذي يعيش بين الناس. وكان دكانه متوسط الحجم، مكسوة وفوه وجنباته بجوالات البن والأرز والثقل والصابون، وعند ركنه الأيسر في قبالة المدخل يقوم مكتب السيد بدفائره وأوراقه وتليفونه، وإلى اليمين من مجلسه تقوم الخزانة الخشبية داخل الجدار يوحى منظرها بالصلابة ويذكر لونها بالأوراق المائلة. وفي منتصف الجدار فوق المكتب على إطار من الأبنوس نقشت بداخله البسمة المؤهبة بالذهب. ولم تكن حجلة الدكان تلود قبل الضحى. فجعل السيد يراجع حسابات اليوم السابق بمشاهدة ورثها عن أبيه وحافظ عليها بحيوته الموفورة، على حين وقف الحمزاوي عند المدخل شابكاً ذراعيه على صدره مواصلاً تلاوة ما تيسر من الآيات في صوت باطني غير مسموع دلت عليه حركة شفثية المستمرة، ووسوسة خافتة تنبذ من آن لآن عن أحرف السين والصاد، ولم يتوقف عن تلاوته حتى جاء شيخ ضرير ربّه السيد كل صباح. وكان السيد يرفع رأسه من الدفتر في فترات متباعدة فيستمع إلى التلاوة أو يمدّ بصره إلى الطريق حيث لا يتقطع تيار المارة وهربات اليد والكارو، وسوارس التي تكاد ترتج من كثرتها وثقلها، والباحة المثنون وهم يرتجفون بطفافين الطلطم والمللوخية والبامية كل على مذهبه، ولم تكن الضوضاء لتحول بينه وبين تركيز ذهنه بعدما اعتادها وألفها أكثر من ثلاثين عاماً فاستقام إليها حتى ليزعجه سكوتها. ثم جاء زبون فشغل الحمزاوي به، وأقبل نفر من أصحاب السيد وجيرانه من التجار بمن يجبّون أن يقضوا معه وقتاً طيباً ولو لزم وجيز يتبادلون فيه التحية ويذثرون ريقهم - على حدّ تعبيرهم - على دعابة من دعاباته أو نكتة من نكته، الأمر الذي جعله يفاخر

ابن بنت رسول الله وهي على مسير دقائق من مشواه. وتنهدت نبلة مسموعة، استرقتا من استغراقها فثابت إلى نفسها وراحت تتسلل بالنظر إلى الأسطح والطرقات فلم تزالها الأشواق، ثم استدبرت السور وقد فاض بها التطلع إلى المجهول، المجهول بالنسبة إلى الناس جيمعاً وهو عالم الغيب، والمجهول بالمقاييس إليها وحدها وهو القاهرة. بل الأحياء المتاخة التي تترامى إليها أصواتها. ترى ما هذه الدنيا التي لم تر منها إلا المآذن والأسطح القريبة؟ ريع قرن من الزمان خلا وهي حبيسة هذا البيت لا تفارقه إلا مرّات متباعدة لزيارة أمها بالخرنفش. وعند كل زيارة يصطحبها السيد في حطوره لأنه لا يحتمل أن تقع عين على حرمه سواء وحدها أو بصحبته، لم تكن سائطة ولا متفجرة، إنها أبعد ما تكون عن هذا. يبد أنها ما تكاد تنفذ ببصرها من ثغرات الباسمين واللبلاب إلى الفضاء والمآذن والأسطح حتى تملو شفثها الرقيقتين ابتسامة حنان وأحلام. ترى أين تقع مدرسة الحقوق حيث يجلس فهمي في هذه اللحظة؟ وأين مدرسة خليل آغا التي يؤكد كمال أنها على مسير دقيقة من الحسين؟... وقبل أن تغادر السطح بسطت كفيها ودعت ربّها قائلة: واللهم أسألك الرعاية لسدي وأبنائي، وأمي ويس، والناس جميعاً مسلمين ونصارى، حتى الإنجليز يا ربّي وأن تخرجهم من ديارنا إكراماً لفهمي الذي لا يجيهم؟.

٧

عندما بلغ السيد أحمد عبد الجواد دكانه الذي يقع أمام جامع برفوق بالتحسين كان جميل الحمزاوي وكيله قد فتحه وهيأه للعمل، فحياء السيد تحية رقيقة وهو يستمسك ابتسامة وضيفة وألمحه إلى مكتبه. وكان الحمزاوي في الخمسين من عمره، انفق منها ثلاثون عاماً في هذا الدكان، وكبلاً لشئته الحاج عبد الجواد ثم وكبلاً للسيد بعد وفاة أبيه، وظلّ على الوفاء للسيد بدائع من العمل والحب ممّا، فهو يجلّه ويحبّه كما يجلّه ويحبّه جميع من يتصل به بسبب من أسباب العمل أو

الحسين في منامه وهو يباركه فيبث فيها خيراً لا يبل، وكان إلى كراماته في قراءة الغيب والدعوات الشافية وعمل الأُحجية معروفاً بالصرامة والظرف، وبه منسج للدعابة والمزاح مما زاد من قدره عند السيد خاصة، ومع أنه كان من سكان الحلي إلا أنه لم ينقل على أحد من مريدته بالزيارات، وربما توالى الأشهر وهو غائب لا يعلم له مكان، فإذا ألمّ بزيارة بعد انقطاع لافى ترحاباً وأشواقاً وهدايا. وقد أشار السيد إلى وكيله ليعدّ للشيخ الهدية المعتادة من الأرز والبن والصابون، ثم قال للشيخ مرحباً:

- أوحشتنا يا شيخ متولي... منذ عاشوراء لم نستمتع برؤيتك.

فقال الرجل ببساطة وبغير مبالاة:

- أغيب كما يحلو لي، وأحضر كما يحلو لي، ولا أسأل عن السبب...

فابتسم السيد الذي ألف أسلوبه وتحم قائلاً:

- إذا غبت أنت فإن بركتك لا تغيب...

فلم يبدُ على الشيخ أنه تأثر لإطراره، وعلى العكس حرك رأسه حركة تدلّ على فناد الصبر وقال بخشونة:

- ألم أتبه عليك أكثر من مرة بالآ تفاخي بالحديث، وأن تلزم الصمت حتى أتكلم أنا؟!

فقال السيد وبه رغبة في التحكك به:

- معذرة يا شيخ عبد الصمد، لكن كنت نسيت

تنبيهك فلم يري أنني أنسيت لطول غيابك.

فغضب الشيخ كفاً بكف وهتف:

- عذر أقبح من ذنب... (ثم منلراً بسبائه) إذا تماديت في مخالفتي امتنعت عن قبول هديتك!

فأطبق السيد شفثته بإسماً راحته استسلاماً حاملاً نفسه على الصمت هذه المرة، فترثب الشيخ متولي ليتأكد من دخوله طاعته، وتنتج ثم قال:

- أبدأ بالصلاة على سيد الخلق الحبيب.

فقال السيد من الأعماق:

- عليه الصلاة والسلام.

- وأثنى على أبيك بما هو أهله، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته، كأني به متخذاً مجلسك

بنفسه كمحدث فائق البراعة، لا يخلو حديثه من لمعات غير مقطوعة الصلة بالثقافة العامة التي اكتسبها، لا من التعليم حيث توقّف فيه دون الابتدائية، ولكن من قراءة الصحف ومصادقة نخبة من الأعيان والمؤلفين والمحامين الذين أهله لمخالطتهم - مخالطة النّد للنّد - حضور بديته ولطفه وظرفه ومنزلته كناجر موفور الرزق، فاستجدّ لنفسه عقلية غير العقلية التجارية المحدودة ضاعف من اعتزازه بها ما حباه أولئك المتنازون من حبّ واحترام وتكريم، ولما قال له أحدهم مرة في صدق وإخلاص: «لو أتيت لك يا سيد أحمد أن تدرس القانون لكنت عامياً موفوفاً نادر المثال» نفخ قوله في خياله الذي يحسن مداراته بظرفه وتواضعه وحلو معاشرته. ولم يطل بأحد من الوافدين الجُلوس فلدهبوا تباغياً، وتزايدت حركة العمل بالدكان، ثم فجأة دخل رجل مهزولاً كأنها دلفته يد قوية، ووقف في منتصف الدكان وهو يضيق عينيه الضيقتين ليحدّ بصره، وسدّهما صوب مكتب السيد، ومع أنه لم يكن يفصله عنه أكثر من ثلاثة أمتار إلا أنه أجهده في معاينته بلا طائل ثم هتف متسائلاً:

- السيد أحمد عبد الجواد موجود؟

فقال السيد بأسياً:

- أهلاً وسهلاً بالشيخ متولي عبد الصمد، تفضل، حلّت البركة...

وعطف الرجل رأسه فصادف اقتراب الحمزاوي منه ليسلم عليه ولكنه لم ينتبه ليداه الممدودة وعطس على غير انتظار فتراجع الحمزاوي وهو يخرج منديلته وقد التفت في صفحة وجهه ابتسامة وتقضية، واندفع الشيخ إلى المكتب وهو يتمتم والحمد لله رب العالمين، ثم رفع طرف عيانه ومسح به على وجهه، وجلس على الكرسي الذي قدّمه السيد له، وبدأ الشيخ في صخّة يحسد عليها على منته التي جاوزت الخامسة والسبعين، ولولا عيانه الكليتان الملتهبتا الأشفار، وفوه المنذر، ما وجد ما يشكو، وكان يتلقّع بعبادة بالية ناصلة وإن أمكنه أن يستبدل بها خيراً منها بما يجود به المحسنون، ولكنه استمسك بها لأته - فيما يقول - رأى

هَذَا، لَا فَارِقَ بَيْنَ الْأَبِ وَابْنِهِ إِلَّا أَنَّ الرَّاحِلَ حَافِظَ
عَلِ الْعَامَةِ وَاسْتَبَدَلَتْ بِهَا هَذَا الطَّرْبُوشَ . . .

فَتَمْتَمُ السَّيِّدُ مَبْنِيًّا:

- فَلْيُفَرِّغِ اللَّهُ لَنَا . . .

فَتَشَابَهَ الشَّيْخُ حَتَّى جَمَعَتْ عَيْنَاهُ ثُمَّ اسْتَطَرَدَ قَائِلًا:
- وَادَعُو اللَّهَ أَنْ يَمُنَّ عَلَى أُنْبَاءِكَ بِالْفَلَاحِ وَالنَّفَاقِ،
يَاسِينَ وَخُدَيْجِيَّةٍ وَفَهْمِي وَعَائِشَةَ وَكَيْلَ وَأَمَّهُمْ آمِينَ . . .
وَوَقَعَ نَظَرُ الشَّيْخِ بِاسْمِي خُدَيْجِيَّةٍ وَعَائِشَةَ مِنْ أَذُنِي
السَّيِّدِ مَوْقِعًا غَرِيبًا عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَوْنِهِ هُوَ الَّذِي أَفْضَى
إِلَيْهِ بِاسْمِيهَا مِنْذُ عَهْدٍ طَوِيلٍ لِيَكْتُبَ لَهَا حِجَابَيْنِ،
وَلَيْسَتْ أَوَّلَ مَرَّةٍ يَنْطِقُ الشَّيْخُ بِاسْمِيهَا، وَلَا آخِرَ مَرَّةٍ،
وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ يَتَذَكَّرُ اسْمَ وَاحِدَةٍ مِنْ حَرَمِيهِ بَعِيدًا عَنْ
الْحِجَرَاتِ - وَلَوْ عَلَى لِسَانِ الشَّيْخِ مَتَوَلِّيٍّ - حَتَّى يَقَعَ مِنْ
نَفْسِهِ مَوْقِعًا غَرِيبًا يَنْكَرُهُ وَلَوْ إِلَى حِينٍ. يَبْدَأُ أَنَّهُ غَمَمَ
قَائِلًا:

- آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ . . .

فَتَبَدَّدَ الشَّيْخُ قَائِلًا:

- ثُمَّ أَسْأَلَ اللَّهَ الثَّانِ أَنْ يَعِدَ إِلَيْنَا أَفْنَدِينَا هَبَّاسَ
مُؤَيَّدًا بِجَيْشٍ مِنْ جِيُوشِ الْخُلَفَاءِ لَا يَعْرِفُ لَهُ أَوَّلَ مِنْ
آخِرٍ . . .

- نَسْأَلُهُ وَلَيْسَ شَيْءٌ عَلَيْهِ بِكَثِيرٍ . . .

فَعَلَا صَوْتُ الشَّيْخِ وَهُوَ يَقُولُ غَاضِبًا:

- وَأَنْ تُقَيِّمَ الْإِنْجِلِيزُ وَأَهْوَانُهُمْ بِهَزِيمَةِ مَنَكْرَةٍ فَلَا تَقُومُ
لَهُمْ بَعْدَهَا قَائِمَةٌ.

- رَبَّنَا يَاخُذْهُمْ جَمِيعًا . . .

فَحَرَّكَ الشَّيْخُ رَأْسَهُ فِي أَمْنَى وَقَالَ بِحَسْرَةٍ:

- كُنْتُ بِالْأَمْسِ سَائِرًا فِي الْمَوْسِكِيِّ فَاعْتَرَضَ سَبِيلِي
جَنْدِيَانِ أَسْتَرَالِيَّانِ وَطَلَبَانِي بَمَا مَعِيَ فَمَا كَانَ مَتَى إِلَّا أَنْ
نَفَضْتُ لَهَا جِيُوبِي وَأَخْرَجْتُ الشَّيْءَ الْوَحِيدَ الَّذِي كَانَ
مَعِيَ وَهُوَ كَوْزُ ذُرَّةٍ فَتَنَاقَلَهُ أَحَدُهُمَا وَرَكَلَهُ كَالْكِرَّةِ
وَحُطِفَ الْآخَرُ عَهْمِي وَحُلَّ الشَّالُ وَمَزَقَهُ وَرَمَى بِهِ فِي
وَجْهِ.

وَتَابَعَهُ السَّيِّدُ وَهُوَ يَغَالِبُ ابْتِسَامَةً تَرَاوَدَ فِي لَبِثِ أَنْ
دَارَاهَا بِالْبَالِغَةِ فِي إِظْهَارِ اسْتِثْنَاءِ صَالِحَاتٍ فِي اسْتِنكَارٍ:

- قَاتَلْتُمُ اللَّهَ وَأَهْلَكْتُمُ . . .

فَاتَمَّ الرَّجُلُ حَدِيثَهُ قَائِلًا:

- رَفَعْتُ يَدِي إِلَى السَّمَاءِ وَصَحْتُ: يَا جِبَارَ مَرْقُ

أَتَمَّتْهُمْ كَمَا مَرْقُوا شَالَ عَهْمِي . .

- دَعَا مُسْتَجَابَةً بِإِذْنِ اللَّهِ . .

وَسَالَ الشَّيْخُ إِلَى الدَّوَاءِ وَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ لِيَسْتَرِيحَ
قَلِيلًا، وَلَبِثَ عَلَى حَالِهِ وَالسَّيِّدُ يَنْفَرَسُ فِي وَجْهِهِ
مَبْنِيًّا، ثُمَّ فَتَحَ عَيْنَيْهِ وَخَاطَبَ السَّيِّدَ بِصَوْتٍ هَادِئٍ
وَنَبْرَاتٍ تَنْتَدِرُ بِمَوْضُوعٍ جَدِيدٍ، قَائِلًا:

- يَا لَكَ مِنْ رَجُلٍ شَهْمٍ جَمِيلٍ الْمَرْوَةِ يَا أَحْمَدُ يَا بِنَ

عَبْدَ الْجَوَادِ! . . .

فَابْتَسَمَ السَّيِّدُ فِي رَحَى وَقَالَ بِصَوْتٍ خَفِيفٍ:

- أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ يَا شَيْخَ عَبْدِ الصَّمَدِ . . .

فَبَادَرَهُ الشَّيْخُ قَائِلًا:

- لَا تَتَعَجَّلْ، إِنَّ مِثْلِي لَا يُلْقَى الشَّاءَ إِلَّا مُجْهِدًا

لِقَوْلِ الْحَقِّ، عَلَى سَبِيلِ التَّشْجِيعِ يَا بِنَ عَبْدَ الْجَوَادِ . . .

فَلَاحَ الْإِهْتِمَامُ وَالْحَذَرُ فِي عَيْنِي السَّيِّدِ وَتَمَّتْ قَائِلًا:

- رَبَّنَا يَاخُذْهُمْ جَمِيعًا . . .

فَأَشَارَ إِلَيْهِ بِسَبَابَتِهِ الْعَجْرَاءِ وَتَسَاءَلَ فِيهَا يَشَبَهُ
الْوَعِيدَ:

- مَاذَا تَقُولُ، وَأَنْتَ الْمُؤْمِنُ الْوَرُوعُ، فِي وَلَعِكَ

بِالنِّسَاءِ؟

كَانَ السَّيِّدُ مَعْتَادًا لَصِرَاحَتِهِ فَلَمْ يَنْزِعْ لَانْقِضَاؤِهِ،

وَضَحِكَ ضَحِكَةً مُقْتَضِبَةً ثُمَّ قَالَ:

- مَا عَلَيَّ مِنْ ذَلِكَ، أَلَا يُحَدِّثُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ

حَبِّهِ لِلطَّيِّبِ وَالنِّسَاءِ؟

فَقَطَّبَ الشَّيْخُ وَمَكَ بَوْرَهُ عَتَجًا عَلَى مَنْطِقِ السَّيِّدِ

الَّذِي لَمْ يَعْجِبِهِ وَقَالَ:

- الْحَلَالُ غَيْرُ الْحَرَامِ يَا بِنَ عَبْدَ الْجَوَادِ، وَالزَّوْجُ غَيْرُ

الْجَرِيِّ وَرَأَى الْفَاجِرَاتِ . . .

فَعَدَّ السَّيِّدُ بِصَرِهِ لِلْأَنْثَى وَقَالَ بِلَهْجَةٍ جَدِّيَّةٍ:

- مَا ارْتَضَيْتُ نَفْسِي يَوْمًا أَنْ تَعْتَدِي عَلَى عَرَضٍ أَوْ

كَرَامَةٍ فَقَدْ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ . .

فَضْرَبَ الشَّيْخُ رُكْبَتَيْهِ بِيَدَيْهِ وَقَالَ بِغَرَابَةِ وَاسْتِنْكَارٍ:

- حَذَرُ ضَعِيفٍ لَا يَتَحَدَّى إِلَّا ضَعِيفًا، وَالْفَسَقُ لَعْنَةٌ

وَلَوْ يَكُنْ بِفَاجِرَةٍ، كَانَ أَبُوكَ رَحِمَهُ اللَّهُ مَوْلًَا بِالنِّسَاءِ

بالتفكير الذاتي أو التأمل الباطني. شأنه في ذلك شأن الذين لا يكادون يحفلون إلى أنفسهم، ففكروه لا يعمل حتى يبعثه إلى العمل شيء خارجي، رجل أو امرأة أو سبب من أسباب حياته العملية، وقد استسلم لتيار حياته الزاخر مستغرقاً فيه بكلية، فلم ير من نفسه إلا صورتها المنعكسة على سطح التيار ثم لم يتراخ توبّيه للحياة مع تقدّم العمر لأنه بلغ الخامسة والأربعين ولم يزل يتمتّع بحياة قيّامة مشبوبة لا يتأثر بها إلا الشاب اليافع، لذلك جمعت حياته شقّي المتناقضات التي تراوح بين العبادة والفساد، وحازت جميعاً رضاه على تناقضها دون أن يدعّم هذا التناقض بسند من فلسفة ذاتية أو تدبير عمّا يصطنع الناس من الزان الرياء، ولكنه كان يصدر في سلوكه عن طبيعته الخاصة بقلب طيب وسريّة نقيّة وإخلاص في كلّ ما يفعل، فلم تصف يصدره عواصف الحيرة، ويات تقرير العين. وكان إيمانه عميقاً. أجل كان إيماناً موروثاً لا دخل للاجتهاد فيه، بيد أنّ رقة مشاعره ولطافة وجدانه وإخلاصه أضفت عليه إحساساً رقيقاً سامياً نأى به عن أن يكون تقليدًا أصم، أو طقوساً مبعثها الرغبة أو الرهبة فحسب، وبالجملّة كان أبرز ما يميّز به إيمانه بالحُب الحبيب النقي. بهذا الإيمان الحبيب النقي أقبل يؤدّي فرائض الله جميعاً، من صلاة وصيام وزكاة في حبّ ويسر وسرور، إلى سريرة صافية وقلب عامر بحبّ الناس ونفس تسخو بالمروءة والنجدة جعلت منه صديقاً عزيزاً يستقي القوم إلى الرئ من منتهى العذب، ويملك الحيوية القيّامة المشبوبة فتح صدره لمسرّات الحياة ولذائلها، يبتشّر للمساكين الفاسخ، ويطرب للشراب المعتق، ويهيم بالوجه القسيم، فيهل منها جميعاً في فرح وبهجة وولع، غير مثقل الضمير بإحساس خطيئة أو وسواس قلبي، فهو يمارس حقاً منحة إله الحياة، وكأنّما لا تعارض بين حقّ الحياة على قلبه وحقّ الله على ضميره، فلم يشعر في ساعة من حياته بأنّه بعيد عن الله أو عرضة لنقمته، وآخاه في السلام. أكان شخصين منفصلين في شخصيّة واحدة؟ أم كان في اعتقاده في الساحة الإلهية

فتزوّج عشرين مرّة فلماذا لا تتنهج سبيله وتتنبّج طريق المعاصي؟

فصمكت السيّد ضحكة عالية وقال:

- أأنت وليّ من أولياء الله أم مأفون شرعي؟ كان أبي شبه عقيم فأكثرت من التزوّج، وبالرغم من أنّه لم ينجب سواي إلا أنّ عقاره تبنّى بيني وبين زوجات أربع مات عنهنّ، إلى ما ضاع على الثغقات الشرعيّة في حياته، أمّا أنا فأب لثلاثة ذكور وأثنين، وما يجوز لي أن أنزلق إلى الإكثار من الزوجات فأبّد ما يسر الله علينا من رزق، ولا تشنّ يا شيخ متولي أنّ غواني اليوم هنّ جوارى الآمن واللّاتي أحلّهنّ الله بالبيع والشراء، والله من قبل ومن بعد غفور رحيم...

فناقوه الشيخ وقال وهو يبرّ نصفه الأعلى بمنّة ويسرة: - ما أبرعكم يا بني آدم في تحمين الشرّ، والله يا بن عبد الجواد لولا حبّي لك ما باليت أن تحدّثني وأنت قاعد حل فاجرة...

فبسط السيّد راحتيه وقال بأسياً:

- اللّهم استجب...

فنفخ الشيخ متبرّماً وهنّف قائلاً:

- لولا مزاحك لكنت أكمل الناس...

- الكمال لله وحده...

فالتفت إليه وهو يشير بيده كأنه يقول ولقدنّغ هذا جانباً ثمّ ساءله بلهجة المحقّق الذي ضيق عليه الخناق:

- والخمر؟... ماذا تقول فيها؟

وسرعان ما فترت روح السيّد ولاح في عينيه الضيق ولزم الصمت ملياً، وأنس الشيخ من صمته تسليماً فصاح بظفر:

- أليست حرماً لا يقاربه من يجرس على طاعة الله وعبّته؟

فباده السيّد قائلاً في حاس من يدفع بلاء عمقاً:

- لشدّ ما أحرص على طاعة الله وعبّته!

- باللسان أم بالعمل؟

ومع أنّ الجواب كان حاضراً إلا أنّه تمهل متفكّراً قبل أن ينطق به. لم يكن من عادته أن يشغل نفسه

الشيخ وهو يقول ضاحكاً:
- في صحتك...
فتناولها الشيخ وهو يقول:
- رزقك الله رزقاً واسعاً وغفر لك...
فضمغم السيد «أمين» ثم ساله باسمًا:
- ألم تكن يوماً من أهل ذلك يا سيدنا الشيخ؟
فضحك الشيخ قائلًا:
- ساعذك الله، أنت رجل كريم طيب القلب،
وبهذه المناسبة أذكركم من التهادي في الكرم فإنه لا
يتفق وما يطالب به التاجر من القصد...
فتساءل السيد دهشًا:
- اتفرغني باسترداد الهدية؟
فنهض الرجل وهو يقول:
- هديتي لا تجاوز القصد فأبدأ بفريها يا بن عبد
الجنود والسلام عليكم ورحمة الله...
وغادر الشيخ الدكان مهرولاً وغاب عن الأنظار.
ولبت السيد مفكرًا، ومضى يدير في نفسه ما لار من
جدل بينه وبين الشيخ ثم بسط راحتيه في ضراعة وتقمم
«اللهم اغفر لي ما تقدم وما تأخر من ذنب، اللهم
إنك أنت الغفور الرحيم».

٨

عند العصر غادر كمال مدرسة خليل آغا مضطرب
في تيار زاهر من التلاميذ الذين يسكنون الطريق
بزحمتهم ثم يأخذون في التفرق، بعضهم إلى الدراسة،
وبعضهم إلى السكّة الجديدة، وآخرون إلى طريق
الحسين، على حين تتحلّق جماعات منهم حول الباعة
المتجولين الذين يعترضون تياراتهم عند رموس
الطرق المتفرقة عن المدرسة بما تحمل سلالهم من
اللّب والفول السودانيّ والدوم والحلوى، وإلى هذا فلا
يخلو الطريق في هذه الساعة من معارك تنشب هنا
وهناك بين تلاميذ اضطروا إلى كتمان خلافاتهم في أثناء
النهار تفاديًا من العقوبات المدرسية. وكانت المرات
التي سبق فيها إلى الاشتباك في معركة نادرة جدًا،
ولعلّها لم تعدّ المراتين طوال العامين اللذين قضاهما في

بحيث لا يصدق أنها تحرّم هاتيك المرات حقًا، وحقّ
في حال تحريمها فهي حرة بأن تغفو عن اللذنين ما لم
يؤذوا أحدًا؟ الأرجح أنه كان يتلقّى الحيلة بقلبه
وإحساسه دون ثمة تفكير أو تأمل، وجدد بنفسه غرائز
قويّة، يطمح بعضها لله فراضها بالعبادة، ويتحفّر
بعضها الآخر للذات فأرواها باللّهو، وخلطها بنفسه
جميعًا آمنًا مطمئنًا دون أن يشقّ على نفسه بالتوفيق
بينها. لم يكن يضطرّ إلى تبريرها بفكره إلّا تحت ضغط
انتقاد كالذي جابهه الشيخ متولّي عبد الصمد، وفي
هذه الحال يبعد نفسه أصعب بالتفكير منه بالهمة
نفسها، لا لأنه يهون عليه أن يكون متهمًا أمام الله،
ولكن لأنه لا يصدق أبدًا أنه متهم، أو أنّ الله يغضب
حقًا أن يلهو لهوًا لا يصيب أحدًا بأنّى، أمّا التفكير
فكان يتعبه من ناحية ويكشف عن تفاعله علمه بدينه
من ناحية أخرى، لذلك تجهّز للسؤال الذي الفاه
الرجل عليه متحدثًا وهو «باللسان أم بالعمل» وأجابه
بلهجة لا يخفى فيها الضيق:
- باللسان والعمل معًا، بالصلاة والصيام والزكاة،
بذكر الله قائمًا وقاعدًا، وما حلّ بعد ذلك إذا رُوحت
عن نفسي بشيء من اللّهو الذي لا يؤذي أحدًا أو
يفقل فريضة، وهل حرم محرّم إلّا لهذا أو ذاك؟
فرجع الشيخ حاجبيه وأغمض عينيه معلنًا عن عدم
اقتناعه ثم نتم:

- يا له من دفاع في سبيل الباطل!
وتحوّل السيد فجأة من الضيق إلى المرح كصاحته
فقال بأرجميّة:
- الله غفور رحيم يا شيخ عبد الصمد، إلّا لا
أنتصره عزّ وجلّ غاضبًا أو متجهّمًا أبدًا، حقّ انتقامه
رحمة خافية، وإلّا أقدم بين يديه الحبّ والطاعة والبرّ،
والحسنة بعشر أمثالها...
- أمّا في حساب الحسنات فأنت رابع...
فاشار السيد إلى جميل الحمزوي ليأتي بهديّة الشيخ
وهو يقول مسرورًا:
- حبّنا الله ويغمّ الوكيل.
وجاءه الوكيل باللقّة فأتاحتها السيد وقمّتها إلى

عرف عنه من سباحة نفس ورقّة شائل حتى الآن عربكهم فأصدروا عن الغلام عقوبهم بل وتمهدوا بعينيه كأحد أبنائهم، ولم ينته اليوم حتى بعث السيد بن يحمل إليهم نفحة من هداياه، ونجما كمال من عصي الفتوات ولكّنه كان كالمستجير من الرمضاء بالنار، لأنّ عصا أبيه فعلت بقلبه ما لم تكن لتفعله عشرات العصي.

غادر الغلام المدرسة، ومع أنّه كان لرلين الجرس المؤذن بانتهاء اليوم الدراسي فرحة في نفسه لا تماثلها فرحة في تلك الأيام إلا أنّ نسائم الحرية التي تنشقها خارج بوابة المدرسة يصدر رحب لم تفتح أصداء الدرس الأخير الحبيب - درس الديانة - من قلبه. وقد قرأ عليهم الشيخ ذلك اليوم سورة «قل أوحى إليّ أنّه استمع نقر من الجنّ» وشرحها لهم، فتركز فيه بوعيه، ورفع أصبعه أكثر من مرّة سائلاً ممّا أغلق عليه، ولمّا كان الأستاذ يعطف عليه لإقباله على الاستماع لدرسه باهتمام بارز، إلى حفظه للسور حفظاً جيّداً، فقد أوسع صدره لاستلته بحال يندر أن يحظى بها أحد التلاميذ، وراح الشيخ يحدّثه عن الجنّ وطوائفهم، وعن المسلمين منهم خاصة الذين سيظفرون بالجنة في النهاية أسوة بإخوانهم من البشر، وحفظ الغلام عن ظهر قلب كلّ كلمة نطق بها، ولم يزل يديرها في نفسه حتى هذه اللحظة التي يعبر فيها الطريق قاصداً دكان البسيوسة على الجانب الآخر، فلمّا شغفه بالديانة كان يعلم أنّه لا يتلقاها لنفسه فحسب، وأنّ عليه أن يعيد ما وعى منها في البيت على أمّه - كما اعتاد أن يفعل مذ كان في الكتاب - فيلقي إليها معلوماته ونستعيد هي على ضوئها ما عندها من معلومات عرفتها عن أبيها الذي كان شيخاً أزهرياً، ويتذكران معارفها طويلاً ثمّ يُحفظها الجديد من السور التي لم يسبق لها حفظها. وانتهى إلى دكان البسيوسة فمدّ يده الصغيرة بالملايم التي احتفظ بها منذ الصباح، ثمّ تناول القطعة في ارتياح شامل لا يشعر به إلاّ في مثل هذا الموقف اللذيذ، ممّا جعله يعلم كثيراً بأن يكون يوماً صاحب دكان حلوى ليأكلها لا لبيعهها، ثمّ واصل سيره في

المدرسة، لا لندرة خلافاته التي لم تكن نادرة في الواقع، ولا لكرامية للعراك فقد أورهت اضطرابه إلى تحبّبه أسفاً عميقاً، ولكن لتقدّم الكثرة الغالبة من التلاميذ عليه في السنّ ممّا جعله هو وقلة من أترابه غرباء في المدرسة يتعرّون في بنطلوناتهم القصيرة بين تلاميذ طعنوا فيها بعد الخامسة عشرة وكثير منهم ناهزوا العشرين، فشقوا طريقهم في صلف وكبرياء وقد طرّدت شواربهم. من هؤلاء من كان يتعرّض له في فناء المدرسة بلا سبب فيخطف الكتاب من يده ويقذفه بعيداً كالكرة، أو من يسلبه قطعة من الحلوى فيدسّها في فمه بغير استئذان مواصل ما كان فيه من حديث، فلم تكن الرغبة في العراك لتتقصه ولكّنه كظمها تقديراً للعواقب، وما لبّثها حتى دعاه إليها أحد أقرانه الصغار، فوجد الهجوم عليه متفتّساً لعواطفه الشائرة المكبوتة واسترداه لفتته بقوّته ونفسه. وليس العراك، أو العجز عنه، بأساً ما لاقى من وقاحة المعتدين، فلمّا هذا ما كان يترامى إلى أذنيه، سواء كان المقصود به أم غيره، من الشتم والنسب، منه ما فطن لعنايه فحذره، ومنه ما جهله فركّده في البيت بحسن نيّة فأنار به عاصفة من الثورة والفرع اتصلت أنباؤها في صورة شكوى لضابط المدرسة الذي كان صديقاً لأبيه، ولكنّ سوء الحظ وحده هو الذي قضى بأن يكون أحد غريميه في المرتكبين الوحيدتين اللتين خاضهما من أسرة فتوات معروفة بالمدرسة، فلمّا كان عصر اليوم التالي للمعركة وجد الغلام في انتظاره عند باب المدرسة عصابة من الثبّان مدجّجين بالعصي في حالة من شرّ مستطير، ولمّا أشار إليه غريمه ليدلّ عليه تتبّه حركته وأدرك ما يترصّص به من خطر فتراجع هارباً إلى المدرسة وهو يستغيث بالضابط، وعيماً حاول الرجل أن يصرف العصابة عن مقصدها، وأغلظوا له القول حتى اضطّر إلى استدعاه شرطياً ليوصل الغلام إلى داره، وزار الضابط السيد في دكانه وأنباها بما يتهدّد ابنه من شرّ ناصباً إليه بمعالجة الأمر بالحلم والكرامة، ولمّا السيد إلى بعض معارفه من تجّار الدراسة فمضوا إلى بيت الفتوات مستغيثين له، وهنالك استعان السيد بما

مؤكدة له أنَّ كبر الرأس من كبر العقل، وأنَّ النبي عليه السلام كان كبير الرأس، وأنه ليس وراء التشابه بين الرسول وبينه من مطعم لطامع. ولما انتزع نفسه من صورة اللدخنة وأصل سيره رائيًا هذه المرة إلى جامع الحسين الذي قضت نشأته بأن يكون لقلبه مطار أخيلة وعواطف لا تنضب. ومع أنَّ المكانة التي نزلها الحسين من نفسه - تبعًا لخزنته من نفس أمه خاصة والأسرة عامة كانت وليدة قرابته من النبي - إلا أنَّ معرفته للنبي وسيرته لم تكن شفيعًا إلى معرفته بالحسين وسيرته، وما تنفرد نفسه دائمًا إليه من استعادة هذه السيرة والتزود منها بأبلى القصص وأعمق الإيمان. حتى لقد وجدت منه على مرَّ القرون مستمًا مشغولًا ومحبًا مؤمنًا وأسيقًا بكناه، فلم ييؤن من بلواه إلا ما قيل من أنَّ رأس الشهيد بعد فصله عن جسده الطاهر لم يرض من الأرض مسكنًا إلا في مصر فجاء طاهرًا مسيحًا ثم نوى حيث يقوم ضريحه. وكم وقف حيال الضريح حاليًا مفكرًا، يؤدُّ لرويتهم بصيرة إلى الأحياق ليطلع على الوجه الجميل الذي أكدت له أمه أنه قاوم غير الدهر بسرَّه الإلهي فاحتفظ بنصائره ورويقه حيث يضيء ظلمة المشوى بنور غرته، ولما لم يجد إلى تحقيق أميته سبيلًا قنع بمناجاته في وقفات طويلة، مفصصًا عن حبه، شاكيا إليه متاعبه الناشئة من تصوراته عن العفاريث وخوفه من تهديد أبيه مستجداً به على الامتحانات التي تلاحقه كلُّ ثلاثة أشهر، ثم خائفًا مناجاته عادة بالتوسل إليه أن يكرمه بالزيارة في منامه. ومع أنَّ عادة مروره بالجامع صباحًا ومساءً خفقت بعض الشيء من شدَّة تأثره به إلا أنه لم تكن تقع عليه عيناه حتى يقرأ له الفاتحة ولو تكرَّر ذلك منه مرَّات في اليوم الواحد، أجل لم تستطع العادة أن تقتلع من صدره بهجة الأحلام، فلم يزل ينظر الجدران السامقة تجلوها مع قلبه، ولم يزل لثنته العالية نداء ما أسرع أن تلييه نفسه. قطع طريق الحسين وهو يقرأ الفاتحة ثم انصطف إلى خان جعفر، ومنها اتجه إلى بيت القاضي، ولكنَّه بدلاً من أن يمضي إلى البيت مخترقًا النحاسين عبر الميدان إلى درب قرمز على وحشته

شارع الحسين وهو يقضم منها مسرورًا مترنماً. نسي وتذاك أنه كان سجينًا النهار كله، وأنه كان عرويًا من الحركة فضلاً عن اللُّب والمرح، وأنه كان عرضة في آية لحظة لعصا المدرِّس السُّلطة على الرعوس، بيد أنه رغم هذا كله لم يكره المدرسة كراهية مطلقة لأنه كان يظفر بين جذرائها بأسباب من التقدير والتشجيع - بسبب تفوقه الذي يرجع كثير من الفضل فيه إلى شقيقه فهمي - لا يحظى بعشر معشارها عند أبيه. ومرَّ في طريقه بـدكان ماتوسيان لبيع السجائر فوقف كعادته كلَّ يوم في مثل هذه الساعة تحت لافتتها يصعد عينيه الصغيرتين إلى الإعلان الملَّون الذي يصوِّر امرأة مضطجعة على ديوان وبين شففتها القرمزيَّتين سيجارة يتطاير منها دخان مترنِّج، معتملة يساعدنها على حافة نافذة بلوح وراء ستارها المنحصرة منظر يجمع بين حقل نخيل ويجرى من مجريات النيل، وكان يدعوها فيها بينه وبين نفسه «أبلة عائشة» لما بين الاثنين من شبه يتمثل في الشعر الذهبي والعينين الزرقاوين، ومع أنه كان يناهز العاشرة إلا أنَّ إعجابه بصاحبة الصورة فاق كلَّ تقدير، فكم تخيلها متمتعة بالحية في أروع مناظرها، وكم تخيل نفسه وهو يقاسمها حياتها الرضيدة بين حجرة ناعمة، ومنظر ريفي متاح لها - لرضه ونخيله وماؤه وسياؤه، يسبح في الوادي الأخضر أو يعبر النهر في قارب بدا في نهاية الصورة كالطيف، أو يهرُّ النخيل فيساقط عليه الرطب، أو يجلس بين يدي الحسناء طامح الطرف إلى عينيها الخاليتين. على أنه لم يكن جميلًا كاخوته، ولعله كان أشبه الأسرة بأخته خديجة، فمثلها قد جمع في وجهه بين عيني أمه الصغيرتين وأنف أبيه الضخم ولكن يكامل هيئته لا مهلبًا بعض التهذيب كما ورثته خديجة، إلى رأس كبير يبرز عند الجبهة بروزًا واضحًا جعل عينيه تبدوان غائرتين أكثر مما هما في الواقع، وكان من سوء الحظ أن ثبَّه إلى غرابة صورته بحال مثيرة للسخرية حين دعاه أحد الرفاق بأبي «راسين» فأهاج غضبه وأورطه في إحدى المعركتين اللتين خاضهما، ولم يسكن خاطره الانتقام فشكا في البيت حزنه إلى أمه التي تكررت لكدره وراحته تمرَّبه

القوي، ومهابته التي تعن لها الهام، وأناقة ملبسه، وما يعتقده فيه من قدرة على كل شيء، ولعل حديث الأم عن سيدها هو الذي هوله عنده فلم يتصور أنه يوجد في الدنيا رجل يضارعه في قوته أو إجلاله أو ثروته. أما عن الحب فقد كان كل من في البيت يحب الرجل لحذّ العبادة فانسرب حبه إلى قلبه الصغير بإيحاء البيت، يئذ أنه ظلّ جوهرة مكنونة في حُجٍّ مغلق من الخوف والرجب. مضى يقترب من قبو درب قريز المظلم الذي تتخلله العنابر مسرّحاً لألعابها الليلية، والذي آثره نفسه طريقاً عن المرور بدكان أبيه، وعندما دخل في جوفه راح يقرأ «قل هو الله أحد» بصوت مرتفع رنّ في السظلمة تحت السقف المنحني، وسبقته عيناه إلى نوهة القبو البعيدة حيث يشع نور الطريق، ثم حثّ خطاه وهو يردّد السورة لطرد من تحدّثه نفسه بالظهور من العنابر، فالعنابر لا سبيل لها على من يندرج بأيات الله، أما أبوه فلن يدرأ غضبه عنه إذا ثار أن يتلو كتاب الله كله. وخرج من القبو إلى الشطر الآخر من الدرب، وعند نهايته طالع سبيل بين القصرين ومدخل حُجَم السلطان، ثم لاحت لعينه مشربيات بيته بلونها الأخضر القاتم، والباب الكبير بمطرقته البرنزية فاقتّر ثغره عن ابتسامة فرح لما يندخره له هذا المكان من أفانين المرح، فعما قليل يبرع الغلمان إليه من جميع البيوت المجاورة إلى فناءه الواسع الذي يجوي عدّة حجرات تتوسّطها الفرن فيكون لعب وهو وبطاطة. وفي تلك اللحظة رأى سوارس وهي تقطع الطريق على مهل متجهّة إلى بين القصرين فوثب قلبه وشاع فيه سرور ماطر، وما لبس أن دسّ حقيبة كتبه تحت إبطه الأيسر وجري وراءها حتى أدركها ثم وثب إلى سلّمها الخلفي، ولكنّ الكماري لم يتركه في سروره طويلاً فجاءه يطلبه بشمن التذكّرة وهو يرمقه بنظرة تنم عن رية وتحذّ فقال له متوقّداً أنه سيخادها حالما تقف لأنّه لا يسمعه النزول وهي سائرة، فتحوّل الرجل عنه إلى السائق وهض به أن يوقف العربية وهو يزجر غاضباً فانتهز الغلام فرصة تحوّل عنه وشبّ على أسباط قلمييه وصمقه ثم وثب إلى الأرض وانطلق

وإثارته لمخاوفه ليضادى من المرور بدكان أبيه. كان يرتعد فزعاً من أبيه ولا يتصوّر أنّه يخاف العفريت لو طلع له أكثر منه إذا زقّ به غاضباً، وضاعف من كربه أنّه لم يقتنع يوماً بالأوامر الصارمة التي يلاحقه بها للحيولة بينه وبين ما تصبو إليه نفسه من اللعب والمرح، فلو أنّه أذعن لمشيته غلصاً لقضى وقت فراغه كله متربّطاً مكتوف اليدين لذلك لم يسمعه أن يطيع تلك المشيئة الجبّارة العاتية واختلس اللهو من وراء ظهره كلّما حلا له، في البيت أو في الطريق، وظلّ الرجل على جهل بامرّه إلا أن يبلغه شيء بوشاية من أهل البيت إذا ضاقوا بخلقه وإفراطه، من ذلك أنّه جاء يوماً بسلم واررقاه إلى عرش اللباب والياسمين فوق السلطوح، ورائه أمّه وهو على تلك الحال بين السياه والأرض فصرخت فزعاً حتى أجبرته على النزول، ثم هلب إشفافها من مغبة لعبة خطيرة كتلك على خوفها عليه من شدّة أبيه فصرحت للسيد بما كان منه، وسرعان ما دعا به وامره أن يحدّ قلمييه وإنهال عليها بعصاه غير مبالٍ بصراخه الذي ملأ البيت، وغادر الغلام الحجرية وهو يظلم ليجد إسخوته في الصالة وهم يخالون ضحكهم إلا أخذيجة التي حلتته بين يديها هامة في أذنه وتساهل... كيف تعلق اللباب وتناطح السياه! أحسبت نفسك زبلن؟! هل أنّه ليا عدا الألعاب الخطرة كانت أمّه تتسرّ عليه وتبيح له ما يشاء من اللعب البريء. ولشدّ ما يجب كلّما ذكر كيف كان هذا الأب نفسه ظريفاً لطيفاً معه على عهد طفولته القريبة، وكيف كان يتسلّى بمذاعبه وكيف كان ينفحه من أن لاخر بالوان شقّ من الحلوى، وكيف هوّن عليه يوم الختان - على فظاعته - فعلا جبره بالشيكولاتة والمليّس وشمله بعطفه ورعايته، ثم ما أسرع أن تغرّ كل شيء فتبدّل عطفه صرامة، ومناغاته زعقاً، ومذاعباته ضرباً، حتى الختان نفسه أنجذه أداة لإرهابه حتى اختلط عليه الأمر ردحاً من الزمن فظنّ أنّه من الممكن حقاً أن يلحقوا ما تبقى به بما ذهب! وليس الخوف وحده الذي شعر به نحو أبيه فيجلّاله له لم يكن دون خوفه منه، كان يعجب بمظهره العظيم

الشهواريين، ونمّ بجملته - رغم حداثة سنّه الذي لا يجاوز الواحدة والعشرين - على رجولة مفعمة بالفحولة. ولبد كمال لصقه للبليغ ما يرمي إليه بين أونة وأخرى من نوادر القصص وهو لا يكتف عن الاستزادة منها غير مكترث لما يجلده إلحاحه على أخيه

من الضيق كي يشيع أشواقاً تشتعل بخياله في مثل هذه الساعة من كل يوم، ولكن ما أسرع أن يشغل عنه ياسين بالحديث أو بالاستغراق في المطالعة متفضلاً عليه بين حين وآخر - كلّما اشتدّ إلحاحه بكلّيات مقتضبة إن وجد بها الجواب على بعض أسئلته لها أخرى أن تستثير أسئلة جديدة لا جواب لها عنده، ثمّ لا يفتأ يرمق أخاه وهو أخذ في المطالعة التي تبيح له مفتاح العالم السحريّ بعين الحسد والحزن، فكهم حزّ في نفسه عجزه عن قراءة القصة بنفسه، وكهم أحرّنه أن يجدها بين يديه بحيث يقلّبها كيف شاء دون أن يسمعه حلّ رموزها فالولوج منها إلى دنيا الرؤى والأحلام، فقد وجد في هذا الجانب من ياسين مثلاً خياله حيّاً له من ألوان المسرة ما حيّاً، وهيجّ من أسباب الظمأ وعذابه ما هيجّ، وكثيراً ما كان يرفع عينيه إلى أخيه ويسأله في لهفة: «وماذا حدث بعد ذلك؟» فينفخ الشاب قائلاً: «لا تضيق عليّ بأسئلتك ولا تتعجّل حظّك فإن لم أقصّ عليك اليوم فغداه، ولم يكن يجزئه شيء كاستنظاره للمغد حتّى اقترنت لفظة الغد في ذهنه بالخسرة، ولم يكن نادراً أن يتحوّل إلى أمّه بعد تفرّق المجلس وبه أمل أن تقصّ عليه ما «حدث بعد ذلك» ولكنّ المرأة كانت تجهل قصة اليتيمتين وغيرها بما يقرأ ياسين إلّا أنّها يعزّ عليها أن ترثه خائباً فتروي له ما تحفظ من حكايات اللصوص والمفاريق فيروي خياله إليها رويداً ظافراً بزاد من العزاء. في جلس القهوة ذلك لم يكن عجباً أن يشعر بأنّه ضائع مهمل بين أهله، لا يكاد يلتفت إليه أحد، وأنهم مشغولون عنه بأحاديثهم التي لا تنتهي. فلم يتروّع عن الاختلاق في سبيل الاستئثار باهتمامهم ولو إلى حين، ولذلك رمى بنفسه في مجرى الحديث معترضاً بآراءه بجرأة وقال بلهجة حادة فجائية كانطلاق القليقة كأنما تذكّر أمراً

هارباً وشتائم الكمساري تلاحقه أشدّ من الأحجار الطينة!... لم تكن خطة مدبّرة، ولا هي من غتار شطارته، ولكنّه رأى غلاماً يفعلها في الصباح فراقت له، ثمّ وجدها سائحة لإعادتها بنفسه ففعل.

٩

واجتمعت الأسرة - ما عدا الأب - قبيل المغيب فيها يعرف بينها بمجلس القهوة. وكانت الصالة بالدور الأول مكانه المخار حيث تحيط بها حجرات نوم الإخوة والاستقبال ورابعة صغيرة أعدت للدرس وقد قرّشت الصالة بالحُصُر المُرّنة وقامت في أركانها الكنبات ذوات المساند والوسائد. وتدلّى من سقفها فانوس كبير يشمله مصباح غازي في مثل حجمه. وكانت الأمّ تجلس على كنية وسيطة وبين يديها مدفأة كبيرة دفنت كنجة القهوة حتّى النصف في جمرتها التي يعلوها الرماد، وإلى يمينها خوان وضعت عليه صينية صفراء صبّغت عليها الفناجين، يجلس الأبناء حيالها سواء من يؤذن له باحتساء القهوة معها كياسين وفهمي ومن لا يؤذن له بحكم التقاليد والآداب فيقعن بالسر كالشقيقتين وكحال تلك ساعة عيية إلى النضوس يستأنسون فيها إلى رابطتهم العائلية، وينعمون بلذّة السم، وينضوون جميعاً تحت جناح الأمومة في حبّ صاف ومودة شاملة. ويدت في جلساتهم راحة الفراغ وتحرّره فكانوا بين مترنّج ومضطجع، وبينما جعلت خديجة وصائفة تستحقّان الشارين على الفراغ من شربهم لتقرأ لهم الطالع في فناجينهم راح ياسين يتحدث حيناً ويقرأ في قصّة اليتيمتين من مجموعة مسامرات الشعب حيناً آخر. كان من عادة الشاب أن يهب بعض فراخه لمطالعة القصص والأشعار لا لإحساسه بنقص تعليمه - فالابتدائية وقصداً لم تكن مطلباً صغيراً - ولكن غراماً بالتسلية وولعاً بالشعر والأساليب الجزلة. وقد بدا بجسمه المكتنز في جلبابه الفضفاض كقربة هائلة إلّا أنّ مظهره لم يتعارض - بحكم الزمن - مع قسامة في وجهه الأسمر الممتلئ بعينه السوداوين الجذابتين وحاجبيه القروين وشفتيه

خطيراً بنّته :

- يا له من منظر لا ينسى الذي رأيته اليوم وأنا عائداً... رأيت غلاماً يثب إلى سلم سوارس ثم صفع الكمساري وركض باكبر سرعة فما كان من الرجل إلا أن عدا وراءه حتى أدركه ثم ركله في بطنه بكل قوته...

وقلّب عينيه في الوجوه ليرى أثر حديثه فلم يجد ثمة اهتمام وليس إعرافاً عن غيره المشير وتصميماً على مواصلة الحديث، بل رأى يد عائشة تمتد إلى ذقن أمّه وتحملها عنه بعد أن همت بالإصغاء إليه، ولبح إلى هذا ابتسامة هازئة ترسم على شفتي ياسين الذي لم يرفع رأسه عن الكتاب، فركبه العناد وقال بصوت مرتفع: - وسقط الغلام يتلوى وازدحم حوله الناس فإذا به قد فارق الحياة...

وأبعدت الأمّ الفئجان عن فمها وهضت:

- يا ولداها... أتقول إنه مات؟!

وسرّ باهتمامها وركز قوّته فيها كيما يركز المهاجم اليأس قوّته في نقطة ضعيفة من سور منيع فقال: - أجل مات، ورأيت بعينيّ دمه وهو يسيل بغزارة...

وحدجه فهمي بنظرة ساعرة كأنها تقول له «إني أذكر لك أكثر من قصّة من هذا النوع» وقال متساقلاً في همهم:

- قلت إنّ الكمساري ركله في بطنه؟... فمن أين سال الدم؟!

وانطفأت شعلة الظفر التي تلالأت في عينيه منذ جذب أمّه إليه، وحل محلّها سهوم الارتباك والحفيظ، ولكن أسعفه الخيال فاستردّت نظرة عينيه حيويّتها وقال:

- ليس ركله في بطنه سقط على وجهه فشجّ رأسه! وهنا قال ياسين دون أن يرفع عينيه عن اليتيمين: - أو إنّ الدم سال من فيه، فالدم قد يسيل من الفم دون حاجة إلى جرح ظاهريّ، هنالك أكثر من تفسير لحرب المكروب... كالعادة... فلا تحف... واحتجّ كمال على تكذيب أخيه وراح يحلف بأغلظ

الأيمان على صدقه ولكنّ احتجابه ضاع في ضبّة من الضحك جمعت الغليظ والرفيع من حناجر الرجال والنساء في هارموني واحدة، وتحركت طبيعة خديجة الساخوة فقالت:

- ما أكثر ضحكائك، لو صدقت فيما تروي من أخبار لما أبقيت على أحد من أهل النحاسين حيّاً... ماذا تقول لربّنا لو حاسبك على أخبارك هذه؟!

ووجد في خديجة مهاجماً يقدر عليه، وكعاده كلياً ارتطم بسخرتها راح يمزّض بأنفها قائلاً:

- أقول له إنّ الحقّ على منخور أخني...!

فقالت الفتاة وهي تضحك:

- من بعض ما عندكم. ألسنا في البلوى سواء!

وهنا قال ياسين مرّة أخرى:

- صدقت يا اختاه.

وتحوّلت إليه متحفّزة للالتقاطاض فبادرها قائلاً:

- هل أغضبتك!... لماذا!... ليس إلا أنّي

جاهرت بالوافقة على رأيك...

فقال له حاتئة:

- اذكر حيويك قبل أن تعرّض بعبوب الناس...

فرفع عينيه متظاهراً بالخيبة ثمّ تمتم:

- والله إنّ أكبر حيب ليهون إلى جانب هذا

الأنف...

وتظاهر فهمي بالاستنكار ثمّ تساءل في نبرات

وشت بانضمامه إلى المهاجرين:

- ماذا قلت يا أخي، أهو أنف أم جريمة؟

ولسّا كان فهمي لا يشترك في مثل هذا النضال إلا

نادراً فقد رعب ياسين بقوله في حماس وقال:

- هي الاثنان معاً، فُكر في المسؤولية الجنائية التي سيتحمّلها من يقمّ هذه المروس إلى عريشها المنكود.

وفقهه كمال ضاحكاً بصوت كالصفيح المتكعّع ولم

ترجع الأمّ إلى وقوع ابتها بين كثرة من المهاجرين

فأرادت أن ترجع الحديث إلى أصله وقالت بهدوء:

- خرج بكّم الكلام الفارغ عن موضوع الحديث،

كان حديثاً عن السيّد كمال أصمّيق في أخباره أم لم

يصدق، ولكنّ أظنّ أنّه لا داعي إلى الشكّ في صدقه

بعد أن حلف... أجل كمال لا يحلف كذباً أبداً...
وياخ سرور الغلام الانتقامي لتوبه، ومع أنّ إخوته
واصلوا المزاح حيناً آخر إلا أنه انقطع عنهم بروحه،
متبادلاً مع أمّه نظرات ذات معنى، ثمّ خالطاً بنفسه
متفكراً في قلبي وكدر. كان يدرك خطورة الحلف
الكاذب فيما يثير من سخط الله وأوليائه، ويحزّ عليه
جدّاً أن يحلف كذباً بالחסين خاصة لولمه به، ولكنّه
كثيراً ما وجد نفسه في مأزق حرج - كما وجد اليوم - لا
يخرج منه في نظره إلا بالخلف الكاذب، فيساق وهو لا
يدري إلى التورط فيه. بيد أنّه لم يكن ينجو، خاصة
إذا دُكر بحجراته، من ألم والقلق، ويودّ لو يقتلع
الماضي السيئ من جذوره، وأن يبدأ صفحة جديدة
نظيفة، وذكر الحسين، وموقفه عند أصل مذلته حيث
ترامى وكأنّ هامتها تتصلّ بالساء، وسأله في ضراعة
أن يعفو عن زلته وهو يشعر بغضاضة من اجترأ على
حبيب بإساءة لا تغفر. وغرق في توسلاته ملياً ثمّ أخذ
يقف إلى ما حوله ويفتح أذنيه إلى ما يدور من حديث
فيه ألكاد وفيه الجلد، وقليل منه ما يسترعي انتباهه،
ولكنّه لا يكاد يخلو من ترديد ذكريات متزعة من ماضي
الأسرة البعيد أو القريب، وأنباء عما يجري عن مسرات
الجيران وأحزائهم، ومواقف حرجة للأخوين أمام أبيهما
الجبار، تنبئ خديجة إلى استعادة وصفها وتحليلها على
سبيل الفكاهة أو الشائنة، ومن هذه تلك غمت للغلام
معرفة تبلورت في مخيلته على صورة غريبة تأثّر تكوينها
غاية التأثير بما تجاذب طرفيه من روح خديجة التهجّمية
وروح أمّه السمحة العفوة. وانتهى أخيراً إلى فهمي وهو
يقول مخاطباً ياسين:

- إنّ هجوم هذينج الأخير شديد الخطورة ولا
يبعد أن يكون الهجوم الفاصل في هذه الحرب.
وكان ياسين يعطف على آمال أخيه ولكن في هدوء
متّسم بقلة الاسترات، ثمّ مثله أن ينتصر الألمان
ويالتالي الترك وأن تستردّ الخلافة سابق عزّتها، وأن
يعود عباس ومحمد فريد إلى الوطن ولكن أمنية من
هذه الأماني لم تكن تشغل قلبه في غير أوقات الحديث
عنها، وقد قال وهو يبرّ رأسه:

- مضي أربع سنوات ونحن نركد هذا الكلام...
فقال فهمي برجاء وإشفاق:
- لكلّ حرب نهاية، ولا بدّ أن تنتهي هذه الحرب،
ولا أظنّ الألمان يهزمون!...
- هذا ما ندعو الله أن يتحقّق، ولكن ماذا يكون
رأيك لو وجدنا الألمان كما يفهمهم الإنجليز؟
ولمّا كانت المعارضة تشعل حدّته فقد علا صوته
وهو يقول:

- المهمّ أن نتخلّص من كابوس الإنجليز، وأن تعود
الخلافة إلى سابق عظمتها فنجد طريقنا ممهداً...
وتدخّلت خديجة في الحديث متسائلة:
- ولماذا تحبّون الألمان وهم الذين أرسلوا زبلن ليلقي
قنابله علينا؟

وراح فهمي يؤكّد - كما دت - أنّ الألمان قصصوا
الإنجليز بقتالهم لا المصريين، فانتقل الحديث إلى
مناطيد زبلن وما يقال عن ضخامتها وسرعتها
وخطورتها، حتّى استوى ياسين في جلسته ونهض إلى
حجرته ليرتدي ملابسه تمهيداً لمغادرة البيت إلى سهرته
المتأدّة، وعاد بعد فترة وجيزة وقد تبنّياً وأخذ زيتته،
فترامى أتيقّ اللبس، جميل المظهر، وبدأ بجسمه
الضخم وفحولته الناضجة وشاربه النابت أكبر من مثّه
كثيراً، ثمّ حيّاهم وانصرف وشبهه كمال بنظرة تنمّ عنّا
يغبطه عليه من التمتع بحريته في انطلاق ساحر، فلم
يغب عنه أنّ أخاه لم يعد ممّحاسب - منذ تعيينه كاتباً
بمدرسة النحاسين - على ذهابه وإيابه، وإنّه يسهر كما
يشاء ويعود حين يشاء، ما أجلّ هذا وأسمده، وكم
يكون إنساناً سعيّداً لو ذهب وجاء كما يحبّ، ومذّ
سهرته إلى حيث يشاء، وقصر القراءة - حين تنمّ له
أداتها - على الروايات والأشعار، ثمّ سأل أمّه فجأة:
- أيمكنني إذا وكلفت أن أسهر في الخارج كياسين؟
وابتسمت الأمّ قائلة:

- ليس السهر في الخارج بالغاية التي يصحّ أن تحلم
بها من الآن!
فصاح عمتجاً:
- ولكن ألي يسهر، وياسين يسهر كذلك.

فرغت الأم حاجيها ارتبأًا وتمتعت:
.. شدّ حيكك أولًا حتى تصير رجلًا ثم موقوفًا،
ووقتها يفرجها ربنا!
ولكن كمال بدا متعبلاً فسادل:
- ولماذا لا أتوقف بالابتدائية بعد ثلاثة أعوام؟
وصاحت خديجة في سخرية:
- تتوقف دون الرابعة عشرة! .. وماذا تصنع إذا
بلت على نفسك في الوظيفة؟!
وقبل أن يعلن ثورته على أخته قال له فهمي
بازدراء:
- يا لك من حمار... لماذا لا تفكر في دخول
الحقوق مثلي؟... إن ظروف ياسين القاهرة هي التي
جعلته يأخذ الابتدائية في العشرين من عمره، ولولاها
لأتم تعليمه... ألا تدري كيف تمتع يا كسول!

٩٠

عندما صعد فهمي وكمال إلى سطح البيت كانت
الشمس على وشك الاختفاء، فلاحت قرصًا أبيض
مسائبًا تولّت عنه حيويته وبردت حرارته وانطفأ
توهجه، وقد بدا بستان السطح المسقوف بالليلاب
والياسمين في ظلمة وانية، ولكنّ الشاب والغلام مضيا
إلى شطر السطح الآخر حيث لا يحجب فلول النور
حجاب، ثمّ مالا إلى السور الملاصق لسور السطح
المجاور، سطح الجيران. وكان فهمي يرقى بكمال إلى
هذا الوضع كلّ مغيب بحجة مراجعة دروسه في الهواء
الطلق على الرغم من أنّ جو نوفمبر أخذ يميل إلى
البرودة في هذه الساعة من اليوم، وأوقف الغلام
بـحيث جعل ظهره إلى السور، وقف هو لقاءه بحيث
أمكنه أن يمدّ بصره إلى سطح الجيران الملاصق دون
تلوّث كلّما بدا له. وهناك بين حبال الغسيل لاح
فتاة - شابة في العشرين أو نحو ذلك - وقد انهمكت في
جمع قطع الثياب الجافة وتكديسها في سلّة كبيرة. ومع
أنّ كمال راح يتكلّم بصوت مرتفع كعادته إلّا أنّها
واصلت عملها وكأنّها لم تنب إلى عجيء الطارين. أمل
كان يجيء به دومًا في مثل هذه الساعة لعله يفوز منها

بنظرة إذا اتّفق ودعاها إلى السطح بعض شأنها، ولم
يكن تحقيقه يسيرًا كما حلّ تورّد وجهه الناطق بصرط
سروره، وخفقان قلبه المتابع بيهجة مفاجئة، فجعل
ينصت إلى أخيه الصغير بعقل ناثه وعينين أقلههما
استراق النظر، وهي تترامى نارة وتحتجب أخرى، أو
يلو بعضها ويغيب بعضها، كيها اتّفق موقفها من
الثياب والملاءات المنشورة... كانت فتاة متوسطة
القامة صافية البشرة مع ميل إلى البياض، سوداء
العينين، تنطق مقلتها بنظرة تضئ حياة وخبّة
وحارة، إلّا أنّ جملها وعاطفته المتوتّبة وإحساسه
بالظفر لرويتها لم تستطع أن تحو القلق الذي يدبّ
وراء قلبه - وانيًا حين حضورها ثمّ قويًا إذا خلا إلى
نفسه - لجراها على التمرّض لعينه كأنه ليس بالرجل
الذي ينبغي أن تتوارى فتاة مثلها عن عينيه، أو كأنّها
فتاة لا تبالي التمرّض للرجال، وظلما ساءل نفسه ما
بالها لا تفرغ موليّة كخديجة أو عائشة لو وجدت
إحداها نفسها في مثل موقفها أيّ روح عجب يشدّ
بها عن التقاليد المرميّة والأداب المقدّسة، وألا يكون
أهدأ جانبًا لو بدا منها ذلك الاحتشام المقتد ولو على
حساب سروره الذي يفوق الوصف برقيتها؟...
بيد أنّه دأب على انتحال الأعداء لها من قدّم الجوار
ووحدة النشأة، وربما الوداد أيضًا، ثمّ لا يفتأ وراء
نفسه يحاورها ويجادلها حتى تشجع وترضى. وليّا لم
يكن جريئًا كجراتها فقد جعل يخلّس من الأسطح
المجاورة النظر ليطمئنّ إلى خلوها من الرقيب لأنّه لم
يكن ممّا يُغضّ الطرف عنه أن يجرح شابّ في الثامنة
عشرة حرمة الجيران، وخاصة من كان منهم في طبقة
جارهم السيّد عمّد رضوان ولهذا أقلقه دائمًا شعوره
بخطورة فعلته، وخوفه من أن يترامى نبؤها إلى أبيه
فتكون الطاعة. ولكنّ استهانة الحبّ بالمخاوف عجب
قديم فلم يقدر شيء منها على إفساد نشوته أو انتزاعه
من حلم ساعته، فمضى يراقبها وهي تبلو أوتخفي
حتى خلا ما بينه وبينها وباتت تواجهه ويداعها
الصغريتان ترتفعان وتنفضان وأصابعها تنقبض
وتتسبط على مهل وتؤدّه كأنّها تتعمّد إطالة عملها.

إلى موقفه هذا مساء بعد مساء؟... وكيف يلقى قلبها هذه الخطى الجريئة من ناحيته؟... وتخيل نفسه متخطياً سور السطوح إلى مكانها في الظلام، وتخيلها على أطوار شتى تارة تنتظره على ميعاد، وتارة تباعدت بمقدمه حتى تهتم بالفرار، ثم تصور ما يكون بعد ذلك وما يند عنه من بوح وشكوى وعتاب، ثم ما قد يستتبعه هذا أو ذاك من عناق وقُبُل، بيد أنها كانت تحض تحيزات وأوهام، وكان أدرى الناس - بما جبل عليه من دين وأداب - ببطانها ومخاها. وبدا الموقف صامتاً إلا أنه كان صمتاً مكهرباً يكاد ينطق بغير لسان، وحتى كمال لاحت في عينيه الصغيرتين نظرة حائرة كأنه يسأل نفسه عن معنى هذا الجذب الغريب الذي يثير استطلاع له غير جردى، ثم نفذ صبره فرفع صوته قائلاً:

- لقد حفظت الكلمات، ألا تسمعهن في؟

وأفاق فهمي على صوته فتناول الكرّاسة منه ومضى يسأله عن معاني الكلمات والأمر يجيب حتى وقعت عيناه على كلمة عزيزة وجد بينها وبين ما كان فيه سبباً ولكي سبب فرفع صوته عمداً وهو يسأله عن معناها قائلاً:

- قلب...؟

وأجاب الغلام وتهنئ الآخر يتلمس أثر موقع الكلمة من وجهها، ثم رفع صوته مرة أخرى متسائلاً:

- حب...؟

وارتبك كمال قليلاً ثم قال بصوت يدل على الاعتراض:

- ليست هذه الكلمة في الكرّاسة...

قال فهمي بأساً:

- ولكني ذكرتها لسك مراراً، وكان يجب أن تحفظها...

وقبّط الغلام كأنه يشد قوس حاجبيه لاصطباد الكلمة الهاربة ولكن أخاه لم ينتظر نتيجة محاولته وواصل امتحانه بنفس الصوت المرتفع قائلاً:

- زواج...

وحسب قلبه ذاك التعمّد وهو بين الشكّ والتأمّن ولكنّه لم يقتصد في الانطلاق مع فرحته إلى أبعد الآفاق حتى استحال باطنه رقصاً وأنغاماً، ومع أنها لم ترفع عينها إليه فقد إلا أن هبتها وتورد وجنتيها وتحامياها النظر إليه ثمّت جيئاً عن شدّة إحساسها بوجوده أو انعكاس وجوده على إحساسها. وبذت في هدوئها وصمتها موفورة الرزاة كأنها ليست هي التي تشيع الفرحه والبهجة في بيته إذا زارت شقيقته، أو ليست هي التي يعلو صوته في جنبات الدار وترنّ ضحكاتها، هنالك يقبع وراء باب حجرته وكتابه في يده استعداداً للنظائر بالاستدكار إذا طرقة طارق، ويروح يستقبل بوعيه المركّز أنفاسها الناطقة والضاحكة بمد استخلاصها من أصوات الآخرين الملبسة لها التي لا يكاد يشعر بها كأنها وعيه مغناطيس يجذب إليه الصלב وحده من بين أخلاط شتى، وربما لحظ بعضاً منها وهو يعبر الصالة، وربما التفت عيناها في لحظة خاطفة ولكنّها كافية لإسكاره وإذهاله كأنه تلقى بها رسالة خطيرة دار رأسه بخطورتها، وملاً بنظراته المسترقة من وجهها عينيه وروحه، على الرغم من أنها كانت مسترقة خاطفة إلا أنها مستأثرة بروحه وإحساسه فكانت شديدة النفاذ والقوة التي تألي النظرة منها بما لا يستطيعه النظر الطويل والسبر العميق، كأنها انبثاق البرق الذي يتوهج لحظة قصيرة فضيء شرارته الراحاب وتحطف الأبصار، وتمل قلبه بسرور مسكر عجيب ولكنّه لم يُقَلْ - كحالة أبداً - من ظلّ أمي يتبعه كما تتبع رياح القمسين مشرق الربيع، لأنه لم يكن يكفّ عن التفكير في الأربعة الأعمام التي يتمّ تعليمه فيها، والتي لا يدري كم من يد قد تمتد في أثناها إلى الثمرة الناضجة لتقطّعها. ولو كان جور البيت غير هذا الجور الخائق الذي تشدّ حل عقبة قبضة أبيه الحديدية لأمكنه أن يلتبس إلى سلام قلبه أقصر السبل، ولكنّه خاف دائماً أن يتّس عن أماله فيحزنها لجزرة من أبيه قاسية تطيرها وتبددها. وتساءل وهو يمدّ بصره فوق رأس أخيه ترى أيّ أفكار تدور برأسها؟ ألا يشغله حقاً إلا ما تجمع من قطع الملابس؟... ألم تشعر بعد بما يجنيه

كمعادين متلاصقات كائِنْ جسم واحد ذو رموس ثلاثة في حين تَرَبَّع كِمال على كنية أخرى قِبَالَتَهُنَّ فَأَتَمَّ كِتَابَهُ فِي حَجَرِهِ يَقْرَأُ فِيهِ حَيًّا، وَيَقْضِي عَيْنَهُ لِيَحْفَظَ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ حَيًّا آخَرَ، وَيَسْتَلِمْ بَيْنَ هَذَا وَذَلِكَ بِالْإِنْظَارِ إِلَيْهِنَّ وَالْإِصْفَاءِ لِحَدِيثَهُنَّ، وَلَمْ يَكُنْ فَهَمِي يَوَافِقُ عَلَى اسْتِذْكَارِهِ لِلدَّرُوسَةِ بَعْدًا عَنْ مِرَاقَبَتِهِ إِلَّا عَلَى كَرِهٍ وَلَكِنْ تَفُوقُ الْغَلَامَ فِي الْمَدْرَسَةِ شَفْعٌ لَهُ فِي اخْتِيَارِ الْمَكَانِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَسْتِذْكَرَ فِيهِ. وَالْحَقُّ كَانَ اجْتِهَادَهُ فَضِيلَتَهُ الْوَحِيدَةَ الَّتِي تَحْمَدُ لَهُ، وَلَوْلَا شَقَاوَتُهُ لَاسْتَحَقَّ عَلَيْهَا تَشْجِيعُ أَبِيهِ نَفْسَهُ، وَلَكِنَّهُ عَلَى اجْتِهَادِهِ وَتَفَوُّقِهِ كَانَتْ تَلْمُّهُ بِهِ سَاعَاتٍ مَلِلَ فَيُضِيقُ بِالْعَمَلِ وَالنِّظَامِ حَتَّى لَيُغِيطَ أُمُّهُ وَأَخِيَّتُهُ عَلَى خَلْقِ الْهَالِكِ وَمَا يَعْظِيْنُ بِهِ مِنْ رَاحَةٍ وَمِسْلَامٍ، وَرَبَّمَا عَنَى فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ لَوْ كَانَ حَقُّ الذِّكْرِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا كَحَقِّ النِّسَاءِ. إِلَّا أَنَّهُ كَانَتْ سَاعَاتٌ عَابِرَةٌ فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَنْسِيَهُ مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ مَزَايَا دَعَتِهِ فِي أَحْيَائِهِ كَثِيرَةً إِلَى التَّطَوُّلِ عَلَيْهِنَّ بِالْفَخْرِ وَالْمِبَاهَاةِ لِدَاعٍ وَلَعِبَرٍ مَا دَاعٍ فَلَمْ يَكُنْ مِنَ النَّادِرِ أَنْ يَسْأَلُنَّ فِي صَوْتِهِ رَيْتُ مِنَ التَّحَدِّيِّ وَمَنْ مَتَكُنْ تَعْرِفُ عَاصِمَةَ الْكَأَبِ؟» أَوْ «مَا مَعْنَى شَابَّ بِالْإِنْجِلِيزَةِ؟» فَيُجِدُ مِنْ عَائِلَتِهِ صَمْتًا لَطِيفًا عَلَى حِينِ تَفَرُّقِهِ لَخُدَيْجَةٍ بِجَهْلِهَا ثُمَّ تَعْرِضُ بِهِ قَائِلَةً: «وَلَيْسَ لِهَذِهِ الطَّلَاسِمِ إِلَّا مِنْ كَانَ لَهُ رَأْسُ كِرَاسِك!» أَمَّا أُمُّهُ فَتَقُولُ لَهُ فِي إِيمَانٍ سَازِحٍ: «لَوْ عَلِمْتَنِي هَذِهِ الْأَشْيَاءَ كَمَا تَعَلَّمُنِي الدُّنْيَا لَمَا قَصَّرْتُ فِيهَا دُونَكَ». ذَلِكَ أَنَّ أُمُّهُ - عَلَى اسْتِكَانَتِهَا وَرَقَّتِهَا - كَانَتْ شَدِيدَةً الْإِعْتَزَازَ بِتَقَالُفَاتِهَا الشَّعْبِيَّةِ الْمُتَوَارِثَةِ عَنْ أَجْيَالٍ مُتَعَابِقَةٍ مِنْذُ الْقَدِيمِ، وَلَمْ تَكُنْ تَنْظُرُ أَنَّهَا بِحَاجَةٍ إِلَى مَزِيدٍ مِنَ الْعِلْمِ أَوْ أَنَّهُ اسْتَجِدَّ مِنَ الْعِلْمِ مَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُضَافَ إِلَى مَا لَدَيْهَا مِنْ مَعَارِفٍ دِينِيَّةٍ وَتَارِيخِيَّةٍ وَطَبِيبِيَّةٍ، وَضَاعَفَ مِنْ إِيمَانِهَا بِهَا أَنَّهَا تَلَقَّتُهُ عَنْ أَبِيهَا أَوْ فِي بَيْتِهِ الَّذِي نَشَأَتْ فِيهِ، وَكَانَ الْأَبُ شَيْخًا مِنَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ فَضَّلَهُمُ اللَّهُ - لِحَفَظِهِمُ الْقُرْآنَ - عَلَى الْعَالَمِينَ. فَلَمْ يَكُنْ مَعْقُولًا أَنْ تَعْدَلَ بِعِلْمِهِ عَالِمًا وَلَوْ لَمْ تَحْجِرْ بِرَأْيِهَا إِتِنَارًا لِلسَّلَامَةِ، وَلِهَذَا كَثِيرًا مَا أَسَاءَتْ الظَّنَّ بِبَعْضِ مَا يُقَالُ يَقَالُ لِلْأَبْنَاءِ فِي الْمَدَارِسِ وَوُجِدَتْ ثَمَّةٌ حَيْرَةٌ شَدِيدَةٌ سِوَاةٍ فِي تَفْسِيرِهِ أَوْ فِي السَّيَاحِ بِتَلْقِينِهِ لِلنَّاشِئِينَ،

وَيَحْتَئِلُ إِلَيْهِ عِنْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَحْضُرْ عَلَى شَفِيفَتِهَا شَبِهُ ابْتِسَامَةٍ فَتَوَالَتْ ضَرْبَاتُ قَلْبِهِ فِي سُرْعَةٍ وَحَرَارَةٍ، وَمَلَأَهُ شُعُورٌ بِالظُّفْرِ لِأَنَّهُ أَمَكَنَهُ أَخِيرًا أَنْ يَنْقِلَ إِلَيْهَا شَحْنَةً مِنْ الْكَهْرِبَاءِ الَّتِي تَسْتَعِرُ فِي صَدْرِهِ، يَتَيَّدُ أَنَّهُ تَسَاءَلُ لِمَاذَا يَا تَرَى لَمْ تَفْصَحْ عَنْ تَأَثُّرِهَا إِلَّا عِنْدَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، الْأَتَمَّا اسْتَنْكَرَتْ سَابِقَتَهَا أَمْ أَنَّ الْأَخِيرَةَ كَانَ أَوَّلَ مَا وَعَتْ أَذْنَهَا؟... وما يدري إِلَّا وَكِيَالٌ يَقُولُ عَجَبًا بَعْدَ أَنْ أَعْيَاهُ التَّذَكُّرُ:
- هَذِهِ الْكَلِمَاتُ صَعْبَةٌ جَدًّا...

وَأَمِنْ قَلْبِهِ بِقَوْلَةِ أَخِيهِ الْهَرِيتَةِ، وَذَكَرَ عَلَى ضَوْفِهَا حَالَهُ فَفَرَّتْ فُورَةً سُرُورُهُ أَوْ كَلَدَتْ. وَهَمَّ بِالْكَلامِ وَلَكِنَّهُ رَأَاهَا انْحَنَتْ عَلَى السَّلَاسَةِ ثُمَّ حَمَلَتْهَا وَأَلْجَهَتْ نَحْوَ السُّورِ الْمَلِاسِقِ لِسَطْحِ بَيْتِهِ وَوَضَعَتْهَا عَلَيْهِ وَرَاحَتْ تَضِغُطُ الْغَنَسِيلَ بِرَاحَتَيْهَا، قَرِيبَةً مِنْ مَوْقِعِهِ لَا يَفْصِلُهَا عَنْهُ إِلَّا ذُرَاعَانِ، وَلَوْ شَاءَتْ لَخَارَتِ مَوْضِعًا آخَرَ مِنْ السُّورِ وَلَكِنْ كَانَتْ تَعْتَمِدُ أَنْ تَتَصَدَّى لَهُ وَجْهًا لَوَجْهِهِ، فَبَدَتْ فِي هَجُومِهَا جَرِيئَةً حَلَدَ أَخَاهُ وَأَرِيكَه، وَإِنْ عَادَ قَلْبُهُ الْخَفِيفَانِ السَّرِيعِ الْحَاظِّ حَتَّى شَعَرَ بِأَنَّ الْحَيَاةَ تَبِيعَ لَهُ مِنْ كُنُوزِهَا لَوْثًا جَدِيدًا لَمْ يَذْوَهِ، لَطِيفًا بِجِيئِهَا مَغْفِعًا بِحَيَوِيَّتِهَا وَأَفْرَاحًا. وَلَكِنْ وَقَفَتْهَا الْقَرِيبَةُ لَمْ تَكُنْ لَهَا لَبِثٌ أَنْ زَفَعَتْ السَّلَاسَةَ بَيْنَ يَدَيْهَا وَاسْتَدَارَتْ مَوَلِيَّةً صَوْبَ بَابِ السَّطْحِ حَتَّى مَرَقَتْ مِنْهُ وَغَابَتْ عَنْ نَظَرِهِ. وَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى الْبَابِ مَلِيًّا دُونَ مِبَالَاةِ بَسَائِيهِ الَّذِي عَادَ التَّشَكُّيْ مِنْ صَعُوبَةِ الْكَلِمَةِ ثُمَّ شَعَرَ بِرَغْبَةٍ فِي الْإِنْفِرَادِ لَتَمَلِّي مَا اسْتَجِدَّ مِنْ تَحَارِبِ الْهَوَى فَنَلَّبَ عَيْنَهُ فِي الْفَضَاءِ فِي تَطَاوُرٍ بِالْبَهْشَةِ كَأَنَّهَا يَتَنَبَّهُ إِلَى الظِّلْمَةِ الزَّاحِقَةِ فِي الْآفَاقِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، وَتَمْتَّ قَائِلًا:
- لَنَا أَنْ نَعُودَ...

وَكَانَ كِيَالٌ يَسْتِذْكَرُ دُرُوسَهُ فِي الصَّلَاةِ، تَارِكًا حِجْرَةَ الاسْتِذْكَارِ لِفَهْمِي وَجَدَهُ، لِيَكُونَ غَيْرَ بَعِيدٍ عَنِ الْجُلُوسِ أُمُّهُ وَأَخِيَّتُهُ: وَكَانَ ذَلِكَ الْمَجْلِسَ امْتِدَادًا لِمَجْلِسِ الْقَهْوَةِ إِلَّا أَنَّهُ يَقْتَصِرُ عَلَى النِّسْوَةِ وَحَدِيثَهُنَّ الْخَاصَّ الَّذِي يَجِدْنَ فِيهِ عَلَى تَفَاهُتِهِ مَتْعَةً لَا تَدَانِيهَا مَتْعَةٌ، وَقَدْ جُلَسْنَ

كان لا يشرب جرعة الله من القلّة إلا إذا دعاهما للشرب قبله ليضع شفتيه موضع شفتيهما المبتل بريقها. ومضت الجلسة كما تمضي كلّ ليلة حتى قاربت الساعة الثامنة فقامت الفتاتان وودّعتا أمهما وذهبتا إلى حجرة نومهما، وعند ذلك عجّل الغلام بقرأة درسه حتى فرغ منه ثم تناول كتاب الديانة وانتقل إلى جانب أمه على الكنبه المقابلة له وهو يقول لها بصوت ينم عن الإغراء:

- استمعنا اليوم إلى تفسير سورة عظيمة ستعجبك جدًا.

فاستوت المرأة في جلستها وهي تقول باحترام وإجلال:

- كلام ربنا عظيم كلّ... .

وسرّه احتيلها وهزّه شعور بالغبطة والمزّة لا يجده إلا حين هذا الدرس الأخير من اليوم. أجل كان يجد في هذا الدرس الديني أكثر من سبب للسعادة، فإنه يقوم في أثناء نصفه على الأقلّ بدور المدرّس، ويحاول ما استطاع أن يستعيد ما يعلق بذاكرته من هيئة مدرّسه وحركاته وما يتمثّله فيه من إحساس بالاستعلاء والقوّة، وإنه يستمتع في نصفه الآخر بما تلقّيه عليه أمه من ذكريات وأساطير، وإنه يستأثر وحده في شطريه بأمه دون شريك. ونظر كمال في الكتاب فيها يشبه الإدلال ثمّ قرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم. قل أوحى إليّ أنّه استمع نقر من الجنّ فقالوا إنا سمعنا قرآنًا عجيبًا، يهدي إلى الرشد فأمتنا به ولن نشرك بربنا أحدًا... .» حتى أتمّ السورة ولاح في صيني الأمّ التردّد والحيرة، إذ كانت تتحدّث من التثوّء باسمي المغرّبت والجنّ درءًا لشرور تذكر بعضها على سبيل التخويف وتحسك عن البعض إشفاقًا ومبالغة في الحيلة، فلم تدرّ كيف تتصرّف وهو يتلو أحد الاسمين الخطيرين في سورة شريفة، بل لم تدرّ كيف تحول بينه وبين حفظها أو ماذا تفعل لو دعاهما كالمتعاد إلى حفظها معه. وقرأ الغلام في وجهها هذه الحيرة فداخله سرور مأكّر، وجعل يبدأ ويبيد ضاغطًا على خمارج الاسم الخطير وهو يلحظ حيرتها متوقّفًا أن تنفصص أخيرًا عن إشفاقها

بيد أنّها لم تعثر باختلاف يذكر بين ما يقال للغلام في المدرسة عن أمور الدين وبين ما لديها منها، ولما كان المدرس للمدرسي لا يكاد يتّسع إلا لقرأة السور وتفسيرها وتبيين المبادئ الدينية الأولى فقد وجدت متسّمًا لقصّ ما عندها من أساطير لا تتفصل في اعتقادها عن حقيقة الدين وجوهره بل لعلّها رأت فيها دائمًا حقيقة الدين وجوهره، وجلّها معجزات وكرامات عن النبيّ والصحابه والأولياء، وتعاوّد شقّي للوقاية من المفاريت والزواحف والأمراض فصنّفها الغلام وأمن بها، لأنّها صادرة عن أمه من ناحية، ولأنّها جديدة في موضوعها فلم تتعارض مع معارفه الدينية المدرسيّة من ناحية أخرى، وفضلاً عن هذا وذاك فلم تكن عقليّة مدرّس الديانة كما تتكشف في تبسّطه في الحديث أحيانًا. لتختلف عن عقليّة أمه كثيرًا أو قليلًا، ثمّ إنّه شغف بالأساطير شغفًا لم يظفر بمثله في الدروس الجافّة وكان درس أمه من أسعد ساعات اليوم وأحفلها بالثمة والخيال. أمّا فيما عدا الدين فلم يكن النزاع نادرًا إذا تبيّنت أسبابه، من ذلك أنّها اختلفت مرّة عن الأرض وهل هي تتور حول نفسها في الفضاء أو تنبض على رأس ثور، ولما وجدت من الغلام إصرارًا تراجعت متظاهرة بالسليم، ولكنّها تسألّت إلى حجرة فهمي وسألته عن حقيقة الثور الذي يعمل الأرض وهل ما زال على عهده يحملها. ورأى الشاب أن يترقّق بها ويبيها باللغة التي تحبّها فقال لها إنّ الأرض مرفوعة بقدره الله وحكمته. وعادت المرأة قانعة بهذا الجواب الذي سرّها وإن لم يتّجّع من مخيلتها ذاك الثور الكبير. على أنّ كمال لم يؤثّر هذا المجلس لاستكداره رغبة منه في الضخ بعلمه أو حيّا في النزاع الفكريّ، كان في الحقّ يجب بكلّ قلبه ألا يفارقه ولو في وقت عمله، وكان يجد لمرأته سرورًا لا يعادله سرور، فهذه الأمّ يحبّها أكثر من أيّ شيء في الدنيا ولا يحتمل تصوّر الوجود بدونها لحظة واحدة، وهذه خديجة وهي تلعب في حياته دور أمّ أخرى رغم سلاطة لسانها ووخز مزاحها، وهذه عائشة التي وإن لم تتحمّس يومًا لخدمة إنسان إلا أنّها أحبتّه حبًّا عظيمًا فبأنها حبًّا بحبّ حتى

بتأثير الضياء، وساءل نفسه متى يرى الله، وفي أي صورة يتبدى، وإذا به يسأل أمه مغتبراً مجرى الحديث فجأة مرة أخرى:

- أجناف أبي الله؟!

فتولتها الدهشة وقالت في إنكار:

- يا له من سؤال غريب!... أبوك رجل مؤمن يا بني، والمؤمن يخاف ربه.

فهز رأسه في حيرة وقال بصوت خفيض:

- لا أتصور أن أبي يخاف شيئاً.

فنهفت المرأة في عتاب:

- ساعك الله... ساعك الله...

واعتذر عن قوله بابتسامة رقيقة، ثم دعاها إلى حفظ السورة الجديدة، وراحا يتلوانها آية آية ويميدان. ولياً استغرغا جهدهما غرض الغلام ليذهب إلى حجرة النوم فتبعته حتى اندس في فراشه الصغير، ثم وضعت راحتها على جبينه وتلت آية الكرسي، وانحنت فوقه وطبعت قبلة على خدّه فأحاط عطفها بذراعه وردّ بقبلة طويلة صادرة من أحشائ قلبه الصغير. وكانت تلقى دائماً صعوبة في التخلص منه عند توديعه مساء لأنه كان يذلل كلّ حيلة ليستيقظها إلى جانبه أطول مدة ممكنة إن لم يغز باستبقائها حتى يغيب في نومه وهو بين ذراعيها، ولم يجد وسيلة لبلوغ غايته خيراً من أن يطلب إليها أن تتلو على رأسه - إذا ختمت آية الكرسي - سورة ثانية ثم ثالثة، حتى إذا آنس منها ابتسامة اعتذار توصل إليها معتلاً بخوفه من وحدته في الحجرة أو بما يترامى له به من أحلام مزعجة لا تدفعها إلا تلاوة طويلة للسور الشريفة، وريحاً تهادى في تشبّه بها إلى حدّ تصعّب المرض، غير واجد في تحايله هذا جوراً، بل راه عن يقين ممارسة مقنوعة لحقّ من حرقوه المقدّسة التي هضمت القطع هضم يوم فُصل عن أمّه ظلماً وعدواناً وحيه به إلى هذا الفراش المفرد بحجرة أخويه. كم يذكر مع الحسرة عهداً غير بعيد من ماضيه حين مضجعهما كان واحداً، وحين ينام متوسّداً ذراعيها وهي تسكب في أذنه بصوتها الرقيق قصص الأنبياء والأولياء، وحين النوم يشاه قبل رجوع

في لون من ألوان الاعتذار، ولكنّها على شديد حيرتها لاذت بالصمت فمضى يعيد عليها التفسير كما سمعه حتى قال:

- ها أنت ترين أنّ من الجنّ من استمع إلى القرآن وآمن به، فلملّ سكّان بيتنا من هؤلاء الجنّ المسلمين وإلا ما أبغوا علينا طوال هذا العمر.

فقالت المرأة في شيء من الضيق:

- لعلمهم... ولكن من الجالس أن يكون بينهم غيرهم، فيحسن بنا ألا نرتد أسياهم! لا أخوف من ترديد الاسم... هكذا قال مدرّسنا.

فحدثته المرأة بنظرة عتاب وقالت:

- المدرّس لا يعرف كلّ شيء!..

- وإن كان الاسم ضمن آية شريفة؟

وشمرت جبال تساؤله بقهر ولكنّها لم تجد بداً من أن تقول:

- كلام ربنا بركة كلّ.

واقنع كمال بهذا القدر ثمّ واصل حديثه عن التفسير قائلاً:

- ويقول شيخنا أيضاً إنّ أجسامهم من نار!

وبلغ بها القلق غايته فاستماذت بالله وبسملت علة مرّات، أمّا كمال فاستطرد قائلاً:

- وسألت الشيخ هل يدخل المسلمون منهم الجنة فقال نعم فسألته مرة أخرى كيف يدخلونها بأجسام من نار، فاجابني بحدة قائلاً إنّ الله قادر على كلّ شيء.

فرنا إليها باهتمام ثمّ تساءل:

- وإذا التقينا بهم في الجنة ألا تحرقنا نارهم؟!

فابتسمت المرأة وقالت في ثقة وإيمان:

- ليس فيها أدنى أو خوف.

وسرح الغلام بعينه حالماً وإذا به يسأل مغتبراً مجرى الحديث فجأة:

- أنرى الله في الآخرة بأعيننا؟

قالت المرأة بنفس الثقة والإيمان:

- هذا حقّ لا ريب فيه.

فلاحث في نظرتها الحاملة أشواق كما تلوح في الغلس

- ما سمع أحد في شخيراً فقه، ولكنّها لا تدعي
أنام بثرثرتها المتواصلة.

فقالت الأم في عتاب:

- أين وصيتي لكما بأن تكفّا عن هذركما وقت النوم؟
ورقت الباب وسارت إلى حجرة الاستدكار فطرفت
بأسها بخفّة ثم فتحة وأدخلت رأسها وهي تقول
باسمة:

- ألي حاجة إلى خدمة يا سيدي الصغير؟

فرجع فهمي رأسه عن الكتاب وشكرها مشرق
الوجه بانسامة لطيفة، فرقت الباب وابتعدت عنه
وهي تدعو لفتها بالفلاح وطول العمر، ثم صبرت
الصالة إلى الدهاليز الخارجيّة وارتقت السلم إلى الدور
الأعلى حيث توجد حجرة نوم السيّد وصوتها يسبقها
ناليّ الآيات.

١٢

لما غادر ياسين البيت كان يدرى بطبيعة الحال
وجهته التي يقصد مساء بعد مساء ولكنه بدا - كعادته
دائماً إذا مشى في الطريق - وكأنّه لا وجهة له. كان
شأنه إذا سار أن يسير متمهلاً في هواة ورقف، مختالاً
في عجب وزهو، كأنّه لا يفغل لحظة واحدة عن أنّه
صاحب هذا الجسم العظيم وهذا الوجه الفاضل
حيويّة وفحولة، وهذه الملابس الأنيقة الأخلّة حفظها -
وأكثر - من العناية، إلى منشة عابيّة لا تفارق يده
صيفاً أو شتاء، وطربوش طويل مائل يمنة حتّى يكاد
يمسّ حاجبه، ومن عادته أيضاً إذا سار أنّه كان يرفع
عينيه - دون رأسه - مستطعلاً ما وراء النوافذ لعلّ
وهى، فلم يكن يقطع طريقاً حتّى يشعر في نهايته بما
يشبه الدوار من كثرة تحريك عينيه، إذ كان ولعه
بالتهام النسوة اللاتي يصادفنه داه لا شفاء منه، فهو
يتحصّن مقبلات ويتبع عينيه أردافهنّ مدبرات،
ويظنّ في قلقه كثور هائج حتّى ينسى نفسه فلا يعود
يتنبّر مداراة مقاصده، الأمر الذي تنبّه له مع الزمن
عمّ حسين الحلاق والحاجّ درويش بائع الفول والفولج
اللبان ويومي الشربتي وأبو سريع صاحب المقل

أبيه من سهرته، وينحسر عنه بعد نهوض الرجل إلى
الحمام، فلم يكن يرى مع أمّه ثالثاً، وكانت الدنيا له
بلا شريك. ثمّ بقضاء أعمى لم يلبّ له حكمة فزقوا
بينها، وتطلّع إليها ليرى أثر نفيه في نفسها فما عجب
إلا بتشجيعها الموحى بموافقتها ومبعتها له قائلة: «الآن
صرت رجلاً فمن حقك أن يفرد لك فراش خاصّ»،
من قال إنّه يسره أن يكون رجلاً أو أنّه يطمح إلى أن
يفرد له فراش خاصّ؟! ومع أنّه بلّل أوّل وسادة
خاصة له بدعمه، ومع أنّه أنذر أمّه بأنّه لن يعفوها
مدى الحياة، إلا أنّه لم يجرؤ على التسلّل إلى مضجعه
القديم لأنّه كان يعلم أنّ وراء تلك الحركة الجائرة
الغادرة تجمّع إرادة أبيه التي لا تردّ، ولشّدّ ما حزن حتّى
رسبت عكازة الحزن في أحلامه، ولشّدّ ما حنّ على
أمّه - لا لأنه لم يسمع أن يحنّ على أبيه فحسب - ولكن
لأنّها كانت آخر من يتصوّر أن يخيب عنده الأمل، بيدّ
أنّها عرفت كيف تسترضيه وترقه إلى الصفاء وويّداً
ودابت على ألا تفارقه بادئ الأمر حتّى يوافيه النوم،
وجعلت تقول له: «لم نفرق كما تزعم، ألسنت ترانا
معاً؟ وسيتبيّ دأباً معاً، لن يفرق بيننا إلاّ النوم الذي
كان يفرّق بيننا ونحن في فراش واحد». والآن لم تعد
تطفو على شعوره حسرة ممّا تخلف عن تلك الذكري،
واستنام إلى حياته الجديدة، بيدّ أنّه لم يكن يدعها
تذهب حتّى يستنفد الحبل لاستيقاظها إلى جانبها أطول
مدّة ممكنة، وقد قبض على راحتها في حرص شديد كما
يقبض الطفل على لعبته بين أطفال يتخاطفونها.
وراحت هي تلوّ الآيات على رأسه حتّى غافله
الكرى، فودّعته بانسامة رقيقة وغادرت الحجرة
وانجذبت إلى الحجرة التالية ففتحت بأسها في خفّة
ونظرت صوب فراش لاح شجّه في جانبيها الأيمن
وتسائلت في رقة: «ثمّ؟» فجاءها صوت خديجة وهي
تقول:

- كيف يتألّ في النوم وشخير ستّ عائشة يملاً علىّ

الحجرة ١٩

ثمّ سُمع صوت عائشة وهي تقول في نبرات
ناعسة:

الأرائك. واتخذ مجلسه على أريكة تحت الكوة - مجلسه المختار منذ أسابيع - وطلب الشاي. جلس بحيث يوجه بصره في يسر ودون إثارة ظن إلى الكوة، ومنها يصعد كليا يشاء إلى نافذة صغيرة في بيت على الجانب الآخر للطريق، لعلها كانت الوحيدة بين النوافذ المعلقة التي لم يمن بإحكام إغلاق خصوصها، ولا عجب فقد كانت تابعة لمسكن زبيدة «العالة» ولم تكن «العالة» مطمحة فدون هذا مراحل من المجون عليه أن يجتازها في صبر وأناة، ولكنه راح يرصد ظهور زئوبة العودة ربيبة «العالة» ونجمة تحتها السلامة. وكانت فترة توفقه بالحكومة عهدًا حافلًا بالذكريات جاءه بعد طول تقشف إجباري عثائه محاذًا في ظل أبيه الرهيب، فانطلق من ثمة كالشلال ينحدر في مهاوي الأريكة على ما لاقى من مضايقات الجنود الذين قذفهم عجلة الحرب إلى القاهرة، ثم ظهر في الميدان الاستراتيجي فاضطر إلى التخلي عن معاني الحب فرأى من وحشيتهم وضالته به السبل فسقى يتقلب في أزقة حيّ كالمجنون وأقصى ما يطعم فيه من لذة بائنة يرتقل أو شجرة من بقران الطالع، حتى رأى يومًا زئوبة فتبعها مذهولًا إلى موطنها، ثم تعرض لها مرة بعد مرة ولا يكاد يظفر منها بما يبيل صدره. كانت امرأة وكل امرأة عنده رغبة، يبذل أتمها كانت إلى هذا ذات حسن فهوسته، وليس الحب لديه إلا تلك الشهوة العمياء أو هذه الشهوة المبصرة وهي أسمى ما عرف من ألوانه، وجعل يمد بصره خلال القضبان إلى النافذة الخالية في جزع وقلق أنسياء نفسه فحسا الشاي دون أن يتبته إلى سخونته إلا وهو يزدوده وراح ينفع متلها، ثم أعاد القلح إلى الصبيبة الصفراء مسترقًا النظر إلى السيار الذين أزعجته أصواتهم المرتفعة كأنها هي المسئولة عن لسعته أو أتمها السبب في عدم ظهور زئوبة بالنافذة. . . ورأى أين الملعونة؟ . . . اتعمد الاختفاء . . . من المحقق أتمها تعلم بوجدي هنا. . . ولعلها رآني قدامًا . . . فإذا اصطنعت التدلل إلى النهاية ألحقت هذا اليوم بأيامي المحرقة. وعادوا استراق النظر إلى الجلوس ليرى هل يلاحظ أحد منهم ولكنه وجدهم

وغيرهم فمعهم من حمله يحمل الدعابة ومعهم من أخذ مأخذ الانتقاد لولا أن الجيرة ومنزلة السيد أحمد عيد الجواد شغلتا له بالإغفاء والتسامح. كانت حيويته من العنف بحيث ملكت عليه فراغه كله، فلم تدع له وقتًا يستريح فيه من استغزائها، وشعر دائمًا بالاستنها تلهب حواسه ووجدانه، وكأنها عفريت يركبه ويوجهه حيث يشاء، يبد أنه عفريت لم يخفه أو يضيق به، ولم يؤذ الخلاص منه، بل لعله رام منه المزيد. ولكن سرعان ما توارى عفريته واستحال ملاكًا لطيفًا حين اقترب الشاب من دكان أبيه، هناك أغضى طرفه واستقامت مشيته، وتحل بأدب وحياء، وحث خطاه لا يلوي على شيء، ولما مرّ بباب الدكان التفت إلى داخله فرأى خلقًا كثيرين ولكنه التقى بعيني أبيه وهو جالس وراء مكتبه فاتحنى في إجلال رافعًا يده إلى رأسه في أدب، فردّ الرجل تحيته مبتسمًا، ثم استأنف مسيره مسرورًا بهذه الانتماسة كأنها حظي بنعمة نادرة المثال. والحق أن عنف أبيه المعهود، ولو أنه اعتوره تغير ملموس منذ أن انخرط الفتى في سلك موظفي الدولة إلا أنه لم يزل في نظره نورًا من العنف الملطف بالكناسة، فلم يزيال الموظف خوفه القديم الذي ملا قلبه وهو تلميذ، ولم يفارقه شعوره بأنه ابن وأن الآخر الأب، وما فئق يتضاهل بمحضه على ضخامته كأنها يستحيل عصفورة يرعشها وقع الحصاة، وما إن ابتعد عن دكان أبيه وصار يمنح من عينيه حتى استردّ خياله وعادت عيناه إلى اللذبة غير مفرقة بين المواطن وبائعات الدوم أو البرتقال، إذ كان العفريت الذي يركبه مولعًا بالنساء كافة، متواضعًا يستوي عنده الرفيع والوضيع منهن، فبائعات الدوم والبرتقال - على سبيل المثال - وإن شابهن الأرض التي يقتعدنها لوثًا وقذارة لا يخلين أحيانًا من ميزة حسن، كتدلين ناهدين أو عينين مكحولتين. وماذا يروم غير هذا؟ . . . ثم أجه صوب الصباغة ومنها إلى الغورية، ومال إلى قوة سي على ناصية الصناديق، وكانت شبه دكان متوسطة الحجم يفتح بابها على الصناديق وتطل بكوة ذات قضبان على الغورية وقد اصطف بآركانها

اتحسر طرف ملامتها عند أعلى الرأس عن منديل
 قرمزي ذي أهداب متممة، لمحت تحته عينا سوداوان
 ضاحكتان تنثف نظرتيما لعباً وشيطنة. واقتربت من
 العربة ومدّت يدها بالعود فتناولته امرأة، ثم رفعت
 قلماً إلى أعلى العجلة فاشترأب ياسين بعنقه وهو يزدرد
 ريقه فلمح ثنية الجيوب معقودة فوق الركبة على أديم
 بدا منه صفاء عذب خلال أهداب لستان يرتقائي...
 «أه لسو تخصوص بي الأريكة في الأرض مستراً...
 ربّاه... إن وجهها أسمر ولكنّ لحمها المكسّون
 أبيض... أو شديد الميل للبياض... فكيف يكون
 السوركا... وكيف يكون البطن... البطن يا
 هوه...» وثبتت زؤنية راحتيها على سطح العربة
 وتحاملت عليها حتى حطّت ركبتيها على حافة العربة
 ثم مضت تتحرك رويداً على أربع... «يا لطيف...
 أه لو كنت على باب البيت... أو حتى في دكان عمّد
 الطرابيشي... انظر إلى ابن الكلب كيف يميلق في
 الطابيّة بعينه... ما أجدر أن يسمّي نفسه منذ اليوم
 عمّد الفاتح... يا لطيف... يا منذل... وأخذ
 ظهرها يستقيم حتى نهضت واقفة على سطح العربة،
 وفتحت الملاءة وقبضت على طرفيها وجعلت تمهّزها
 بيديها هزّات متتابعات كأنّها طائر يخفق بجناحيه، ثم
 لفّتها حول جسمها لفّة محكمة وشت بدقائق تقاطعيه
 وتفاصيله وأبرزت - خاصة - عجيذة مُدْمَلِجة رفرقة،
 ثم جلست عند مؤشّرة العربة فتكسّر ردفيها تحت
 الضغط متبلوراً ذات اليمين وذات اليسار فنبعث
 الرسادة... وبهض ياسين وغادر القهوة فوجد العربة
 قد تحرّكت فتبعها متمهلاً وهو يلهث ويصرّ على أسنانه
 من شدّة الانفعال. وراحت العربة تسير سيرتها
 للمهله المتأيلة والنسوة على سطحها يتأرجحن معها
 يمنة ويسرة فركّز الشابّ عينيه في وسادة العرّادة،
 يلذهب معها ويحيى حتى خالها بعد حين ترقص.
 وكانت الظلمة قد بدأت تغشي الطريق الضيّق وأخذت
 كثرة من الدكاكين تغلق أبوابها، إلى أن غالبيت المازة
 كانت من جمهور العاملين العائدين إلى بيوتهم منهوكي
 القوى فوجد ياسين بين الظلمة والجمهور المتشب

جيثاً منهمكين في أحاديثهم التي لا تنتهي، فدخله
 ارتياح وأرجع بصره إلى المهدف المرموق، يبدّ أنه
 اعترضت تيّار أفكاره ذكريات عن متاعب اليوم التي
 صالفته في المدرسة إذ شكّ الناظر في أمانة متعهد
 اللحوم فقام بتحقيق اشتراك هو فيه بوصفه كاتب
 المدرسة، ثم بدا منه شيء من التراخي في عمله حل
 الناظر على نهره مما نقّص عليه صفوه بقيّة اليوم وجعله
 يفكر في أن يشكو الناظر إلى أبيه - وهما صديقان
 قديمان - لولا خوفه أن يعيد أباه أشدّ عليه من
 الناظر... «اطرح عنك هذه الأفكار السخيفة...
 انتهينا من المدرسة والناظر عليها اللعنة... حسبي
 الآن ما الآتي من القارعة بنت القارعة التي تبخل
 علينا بنظرة وإذا بأحلام عارية تنشال على خياله،
 أحلام كثيراً ما تمثّل على مسرح أوعامه وهو يرنو إلى
 امرأة أو يستمد ذكراها، تخلفها عاطفة هوجاء تنزع
 عن الأجساد أغليتها وتخلوها عارية كما خلقها الله غير
 مستتية جسده هو، ثم تمضي في فنون من العبت لا
 عاصم لها، ولكنّه ما كاد يستقيم إلى هذه الأحلام حتى
 انتبه على صوت حوذيّ وهو يصيح على حمّاره «يس»
 فرمى ببصره ناحية الصوت فرأى عربة كارو تقف أمام
 بيت العالمة. وتسامل ترى أجهات العربة لتحمل أفراد
 التخت إلى فرح من الأفراح؟... ونادى صبيّ القهوة
 ودفع إليه الحساب متأهباً لمغادرة المكان في آية لحظة إذا
 دعا داع. ومضت فترة انتظار وترقّب ثم فتح باب
 البيت وبرزت امرأة من نسوة التخت وهي تجرّ رجلاً
 أعمى مرتدياً جلباباً ومغطّاً وموينات سوداء ومتأبطاً
 القانون، وصعدت المرأة إلى العربة وتناولت القانون
 ثم أخذت بيد الأعمى، وأصانه الحوذنيّ من ناحية
 أخرى حتى لحق بالمرأة وجلسا متجاورين في مقدّمة
 العربة، وتبعتهما على الأثر امرأة ثانية تحمل دفاً، ثم
 ثالثة متأبطة صرّة، وقد تبدّين في ملاءاتهنّ اللّف
 سافرات، كاسيات - بدلاً من البراقع - بأقنعة من زواقي
 فاقع الألوان جعلهنّ بعرائس المولود أشبه. ثم ما
 هذا؟... رأى بصر شيق وقلب خفاق العود وهو يبرز
 من الباب في جرابه الأحمر... وأخيراً بدت زؤنية وقد

حانوت كبير ظاهره بدالة وباطنه حانة يفصل بينها باب صغير- ووقف عند مدخلها غمطاً بالزبان ريشا يتضح الطريق أن يكون أباه هنا أو هناك، ثم اتجه صوب الباب الصغير الداخلي ولكن ما كاد يتقدم خطوة حتى لمح في طريقه رجلاً واقفاً أمام الميزان والحواجة كستكي نفسه يزن له لفة كبيرة، فاجتذب رأسه إليه بلا إرادة، وسرعان ما اكتمل وجهه وسرت في بدنه رجفة قاسية تقبض لها قلبه خوفاً واشمئزازاً. لم يكن في مظهر الرجل ما يسبغ هذه العواطف العدائية. كان في الحلقة السادسة، مرتدياً جلباباً فضفاضاً وعمامة، وقد ابيض شاربوه وعلاه الكبر والرداعة، إلا أن يأسين وأصل سيره مضطرباً كأنما يفترق بل أن تطلع عليه عين الرجل، ودفع باب الحانة بشيء من القوة ثم دخل تكاد تعيد به الأرض...

١٣

ارتمى حل أول مقعد صادفه غير بعيد من الباب وقد بدا خائر القوى صاهماً، ثم دعا النادل وطلب دُورق كونيكا بنبرات نمت على نفاذ صبره. وكانت الحانة بالحجرة أشبه، تدلّ من مقفها فانوس كبير، وصُفّت بجنباتها موائد خشبية وكراسي خيزران جلس إليها نفر من أهل البلد والعَمال والأفندية، وتوسط المكان تحت الفانوس مباشرة مجموعة من أخصص القرنفل. من عجيب آله لم يثن الرجل، وأنه عرفه من النظرة الأولى، متى وآه آخر مرّة؟... لا يستطيع أن يجزم، ولكن من المحقق أنه لم تقع عليه عيابه في مدى اثني عشرة سنة إلا مرتين إحداها التي زلزلته الآن. وقد تغرّر الرجل ما في ذلك من شك فغدا شيئاً هادئاً وقوراً!... ألا سحق الله المصادفة العمياء التي ألقت به في سبيله. والتفت شفتاه تفرّزاً وامتصاصاً وشعر بمرارة الهوان الجبري في ريقه. يا له من هوان ملدّ ما يكاد يفيق من دواره القديم بالعناء والعناد كالتّي ترّكه إليه ذكرى من الذكريات الممتعة أو مصادفة لعينة كالتّي حدثت اليوم فيقلب ذليلاً منكسراً... ضائعاً. وعلى رغمه حملت عيناه في الماضي البغيض،

متسماً للإنعام النظر والأحلام في أمن ودعة... واللهم لا تجعل لهذا الطريق من نهاية، ولا لهذه الحركة الراقصة من ختام... يا لها من عجيبة سلطانية جمعت بين المجرفة واللفف يكاد البالس مثلي يحس بطاوتها وشذبتها معاً بالنظر المجرد... ولهذا الفرق العجيب الذي يشطرها تكاد تنطق للملاء عنده... وما عفي كان أعظم... إني أدرك الآن لماذا يصلي بعض الناس ركعتين قبل أن يبي بحروسه... أليست هذه قبة؟... بل وعت القبة شيخ... وإني لجلوب من مجانب هذا الشيخ... يا هوه... يا عدوى... وتحنن والعربة تقرب من بوابة المتوي فالتفت زنوبة وراها ورأته. ثم خيل إليه، وهي تعيد رأسها، أنه لمح حل شفتها بشير ابتسامة فدق قلبه في عصف وسرت في وجدانه سكرة سرور ملتهب، ومرت العربة من بوابة المتوي ثم مالت إلى اليسار، وهناك اضطر الشاب إلى التوقف عن متابعتها لأنه رأى عن كتب معالم زينات وأنوار وجهوراً مهلاً فتراجع قليلاً وبصره لا يفارق العودة، وجعل يراقبها بنهم وهي تنزل على الأرض، وهي ترمي ناحيته بنظرة عابثة، ثم وهي تتجه إلى بيت العروس حتى واراها الباب في ضجة من الزغاريد. ويتهّد تهدة حامية، ولقته حيرة حانقة فيدا قللاً كأنه لا يدري أيّ وجهة يقصد... ولعنة الله على الاسترثين!... أين أنت يا أزيكية لايتك همّي وأشجاني وأترود منك بشيء من الصبر... ثم دار على عقبه وهو يتمتم إلى العزاء الباقي... إلى كستكي»، وما كاد ينطق باسم البدال اليوناني حتى تنشأ رأسه حنيناً إلى حمى الشراب... كانت المرأة والحمر في حياته متلازمين متكاملين، ففي مجلس المرأة عاقر الحمر لأول مرّة، ثم صارت بحكم العادة من مقومات لذته وبواعثها، بيد أنه لم يتخ لها- المرأة والحمر- أن يتلازما دائماً، وخلت ليلال كثيرات من النساء، فلم يجد بداً من أن يخفف لوعته بالشراب، ولكرور الأيام واستحكام العادة بات وكأنه المولع بالحمر لذاته. وعاد من نفس الطريق الذي جاء منه، وقصد بدالة كستكي عند رأس السكة الجديدة-

في قلبه الريبة الغامضة، وفيه رمى إلى صدره بالبلور الأولى لنفوره غريب- نفور ابن من أمّه- التي قدّر لها أن تنمو وتستفحل حتى انتقلت مع الزمن كراهية كالداء العضال، وكثيراً ما قال لنفسه إنه ربما كان في وسع الإرادة القويّة أن تتبيح لنا أكثر من مستقبل واحد ولكننا لن يكون لنا- مهما أوتينا من إرادة- إلّا ماضٍ واحد لا مفرّ منه ولا مهرب. والآن يتساءل- كما تسأل من قبل كثيراً- متى فطن إلى أنّ أمّه لم تكن الشخص الوحيد في حياته؟... بعيد جداً أن يعرف هذا على وجه اليقين، وما يذكر إلّا أنّه في فترة ما من طفولته وعت حوائثه شخصاً جديداً كان يطأ على البيت من حين لآخر، ولعله- ياسين- كان يتطلّع إليه بغرابة وشيء من الخوف، ولعلّ الآخر بذل ما في وسعه لإيناسه وإرضائه، إنه يخلق في الماضي على استكراه ونفور شديدين، ولكنه وجد المقاومة لا تجدي، كأنما ذاك الماضي فُكّل يودّ لو يتجاهله على حين لا تمسك يده عن جسّ من آنٍ لآخر. ثم إنّ هناك أموراً لا يمكن أن تنسى... ففي مكان ما ووقت بين النور والظلمة وتحت أعل نافذة أو باب مطعم ممكّلت من الزجاج الأزرق والأحمر... في ذاك المكان كان يذكر أنّه أطلّع فجأة- في ظروف فرضها النسيان- على ذلك الشخص الطارئ وهو كأنه يفرّس أمّه، فما تمالك أن صرخ من أحياء قلبه ولولول بالكّيا حتى أقبلت المرأة عليه في اضطراب بإذٍ وراحت تطيب خاطره وتسكّن نائره. وانقطعت من شدّة الامتناع عند ذاك سلسلة خاطره فقلّب عينيه فيها حوله واجهاً، ثم صبّ من الدُّورق في القدح وشرب، وقد لمح وهو بعيد القدح إلى موضعه نقطة من سائل منادحة فوق طرف جاكته. فظنّها خيراً وأخرج منديله وأنشأ بذلكها، ثم خطر له خاطر فتخصّص ظاهر القدم فرأى قطرات من الماء عالقة بأسفله فرجع عنده أنّ ما سقط على سترته ماء لا خير واستردّ طمأنينته... ولكن أيّ طمأنينة خادعة! لقد رجعت عيناه إلى مرآة الماضي البغيض. لا يذكر متى وقعت الواقعة السالفة، ولا كم كان عمره حين وقوعها، ولكنه يذكر بلا ريب أنّ الشخص المفترس لم

بقوّة الهياج المثار في رأسه وقلبه، فانشقّ الظلام عن أشباح شائثة طالما ناولته كرموز للعذاب والكراهية، فميّز من بينها دكاناً فاكهة يقوم على رأس عطفة قصر الشوق، وطالعت صورة غامضة المعالم، هي صورته وهو صبيّ، فرأه وهو يحثّ خطواته المتقاربة إلى ذلك الدكان حيث استقبله ذلك الرجل ثمّ حمّله قرطاساً مليئاً بالبرتقال والتفاح فتناوله مسروراً وعاد به إلى المرأة التي بعثه وانتظرت، إلى أمّه دون غيرها وأسفاه! وانعكست الذكرى على جبينه عبوسة حق وضيع، ثم استعادت غمليته صورة الرجل فتساءل جزعاً أكان يعرفه لو وقعت عليه حينه؟... أكان يذكر فيه الصبيّ الصغير الذي عرفه قديماً ابناً لتلك المرأة؟... وقرصته قشعريرة فزع فتخالّد جسمه البادن الفارع وتضامل في جسّه حتى استحال لا شيء. وجيء عند ذلك بالدُّورق والقدح فصبّ وبهّل في نهم وعصبية متعجلاً حظّ الشارين من الانتعاش والنسيان. ولكن فجأة تراءى له من أحياء الماضي وجه أمّه فلم يتمالك من أن يبعص. أتيا يلحن: الحظّ الذي جعلها أمّه أم جعلها الذي شغف كثيرين حباً واحاطه بالكوارث؟... والحقّ أنّه لم يكن بوسعه أن يخيّر أمراً ممّا قدّر عليه، ولم يكن بوسعه إلّا أن يذعن للقضاء الذي هرس عزّة نفسه، أفليس من الظلم أن يكفّر بعد ذلك عن حكم القضاء كأنّه هو الجاني الأثيم؟... ولم يدر لم استحقّ اللعنة، فلأطفال الذين استقبلوا الدنيا في حضانة أمّهات مطلّقات مثله غير قليلين، وعلى خلاف أكثرهم وجد من أمّه حناناً غير مشوب وحباً لا يعرف الحدود وتديلاً سابغاً لا تشكمه رقابة أب فتتمتّع بطفولة سعيدة قوامها الحبّ واللين والدماثة. ولا تزال ذاكرته تحتفظ بالكثير من ذكريات البيت القديم بقصر الشوق، كسطحه الذي يشرف على أسطح لا عداد لها ويرى مآذن وقبائلاً من نواحيه الأربع، ومشريّته التي تطلّ على الجبالية حيث تمرّ ليلة بعد أخرى مواكب الزفاف تضيئها الشموع ويكتنفها الفتوّات فينجلي أكثرها عن معارك تشجر فيها التبايت وتسيل الدماء. في ذاك البيت أحبّ أمّه حباً لا مزيد عليه وفيه شاعت

ينقطع عن البيت القديم، وأنه كثيراً ما تودّد إليه بما لَدَّ وطاب من ألوان الفاكهة، ثمّ كان يراه بعد ذلك في دكان الفاكهة عند رأس العطفة إذا استصحبته أمّه معها في مشوار، ويسدّاجة الأطفال كان يلقّت نظرها إليه فكانت تجذبه في عنف بعيداً عنه وتمنعه من الإيحاء إليه حتّى تعلّم أن يتجاهله وهو في صحبته بالطريقين، وازداد الشخص في نظره إبهاماً وغموضاً، ثمّ حلّته من أن يعود إلى ذكره أمام خاله عجزوز كان وقتذاك على قيد الحياة ويزورهم من حين لآخر فاتّبع تحذيرها وما يزداد إلا حيرة. ولم يفتح الحظّ منه بذلك القدر فكانت أمّه - إذا غاب الرجل عن البيت أليّماً - يكون مبعوثاً إليه ليدعوه إلى أن يحضر «الليلة»! وكان الرجل يستقبله بلطف وعلاّ قرطاشاً من التفّاح والملوز، ويحمّله موافقته أو اعتذاره كنيّاً اتفق، ثمّ بلغ به الحال أنّه إذا اشتاق إلى لذيذ الفاكهة استاذن أمّه في أن يذهب إلى الرجل ليدعوه «الليلة»، ذكر هذا وجيبه يندى خزيّاً ثمّ نفخ في قهر، ثمّ صبّ وجع، ورويداً انبعث الحميماً في دمه، ويدأت تلعب دورها الساحر في معاونته على حمل متاعبه. . . . «قلت ألف مرّة أنّه يجب أن ادع الماضي مدفوناً في قبره. . . لا فائدة. . . لا أمّ لي وحسي امرأة أبي الرقيقة الطيّبة. . . كلّ شيء طيّب ما عدا ذكرى قديمة بيدي أن أميتوا. . . ترى لم أجاري إلخافها عليّ فأبعثها من قبرها حيّاً بعد حين. . . ؟! . . .»

سواء الطالع وحده الذي رمى بالرجل في طريقي اليوم ولكنّ مصيره أن يموت يوماً. . . أوّذ أن يموت كثيرون. . . لم يكن الرجل الوحيد. . . يبدأن خياله الشائر واصل إسراره في ظلمات الماضي رغم مقاومته النظرية ولكن على حال أخفّ توقّراً، أجل لم يعد في تلك القصة بالذات من بقية طويلة، ولعلّها - هذه البقيّة - تتناج بما يضيئها من نور نسبيّ بعد عبور طور الطفولة المعتم. كان هذا في السنوات القلائل التي سبقت انتقاله إلى حضنة أبيه، وقد وجدت أمّه الشجاعة لتصارحه بأنّ ذلك «الفكهاني» يتربّد عليها طلباً ليدها، وأنها متردّدة في قبوله، وأنها غالباً سترفض إكراماً له! ترى أصبّق ما قيل له؟. . . هيهات أن

يستوتق من تفاصيل ذكرياته، ولكنّه كان بلا ريب يشرّب للإدراك والفهم، ويعاني نوعاً من الريبة الغامضة التي تنكشف للقلب دون العقل، ويكابّد ألواناً من القلق أطار عن هامته حمامة السلام، فتهيئت في نفسه تربة لتلقى بادرة النور التي صارت مع الأيام إلى ما صارت إليه. ثمّ انتقل في التاسعة من عمره إلى حضنة أبيه الذي لم يكن رآه إلاّ مرّات معدودة تحامياً للاحتكاك بأمّه. انتقل إليه غلاماً على الفطرة لم يتلقّن من مبادئ العلم كلمة واحدة، ومضى يكفّر عن سيئات التذليل الذي علّته به أمّه لتلقى العلم بنفس كارهة وإرادة خائفة، ولولا شدة السيّد وطيبة جوّ البيت الجديد ما دُع إلى النجاح في الابتدائية بعد أن نيف على التاسعة عشرة من عمره. ويتمزّ عمره وإدراكه حقائق الأشياء، استعرض حياته الماضية في بيت أمّه وقلبيها على وجوها، ملفّياً عليها من خبرته الجديدة أنواراً فاضحة فتكشفت له الحقائق ببشاعتها ومرارتها، وكلّما تقدّم في الحياة خطوة بدا له الماضي سلاحاً مسموماً متفرّساً في صميم نفسه وكرامته، وقد دأب أبوه بادئ الأمر على أن يسأله عن حياته في بيت أمّه ولكنه على حداثة سنّه، نحاشي نبش الذكريات المحزنة وغلّب كبريائه الجريح على الرغبة في استئثار اهتمام أبيه وحبّ الثروة الذي يستهوي أمثاله من الغليان، ولزم الصمت حتّى تراسى إليه نأ غريب عن زواج أمّه من تاجر لحم بالمبيضة فبكى الغلام طويلاً، واشتدّ ضغط السخط على صدره حتّى فضض فانطلق يحدّث أباه عن «الفكهاني» الذي زعمت يوماً أنّها رفضت الزواج منه إكراماً له! . . . وانقطعت صلته بها من ذاك العهد. منذ إحدى عشرة سنة - فلم يعد يدري عنها شيئاً إلاّ ما ينقله إليه أبوه من حين لآخر كطلاقها من الفخام بعد انقضاء عامين على زواجها منه، ثمّ زواجها من باشجوريش في العام التالي لطلاقها، ثمّ طلاقها مرّة أخرى بعد حوالي عامين إلخ. . . إلخ. . . وفي فترة قطيعتها الطويلة سمعت المرأة كثيراً إلى روقته، فكانت ترسل إلى أبيه من يستأذنه في السباح بالذهب إليها، ولكن ياسين صدّ

قبل اليوم أنْ بطنك بهذا اللون الرائق... أف ينبغي أن أعو الفكر من رأسي... الحق أنْ أمي كالضرس الثائر، لا يسكن حتى ينخلع...».

١٤

جلس السيد أحمد عبد الجواد وراء مكتبه بالدكان تعبت أنامل يسراه بشاربه الأنيق كشأنه كلما جرفته تيار غواطره، ويرنو إلى لا شيء بوجه تتم معالنه عن ارتياح ورضى. إنه يرضيه بلا ريب أن يشعر بما يكنه له الناس من حب ومودة، ولو عرض له من حبه دليل كل يوم لأوجد له كل يوم سرورًا مشرقًا لا يليه التكرار، وقد أتاه اليوم دليل جديد بسبب اضطرابه إلى التخلّف ليلة الأسس عن شهود حفلة أنس دعاه إليها أحد الأصدقاء، فها استقر به مجلسه بالدكان هذا الصباح حتى وافاه الداعي وبعض الإخوان من المدعوين وأوسعوه عتابة لتخلّفه وحملوه تبعه ما ضاع عليهم من بهجة وطرب، ثم قالوا - فيها قالوا - إنهم لم يضحكوا من قلوبهم كما تعودوا أن يضحكوا معه، ولم يجهدوا للشراب لأنّه التي يجودون في منادمتهم، وأن مجلسهم خلا - على حدّ تعبيرهم - من روحه. وها هو يستعيد أقوالهم في سرور وزهو لطفًا كثيرًا ممّا لاقى من حدة الملام من ناحيتهم وحرارة الاعتذار من ناحيته، يئد أنّه لم يخل من تأنيب ضمير حريص بطبعه على إرضاء الحفّان، بذار إلى النهل من موارد الصداقة والمودة في إخلاص وإيثار، فكان يكثر صفوه لولا ما اشاعت ثورة الأحباب الناطقة بحبهم في نفسه من أرمية الرضا والمعجب، أجل طاملا كان الحب الذي يجذبه إلى الناس ويجلبهم إليه معينًا لقلبه يفتق عليه ما يشاء من فرح بهيج وزهو بريء وكأنّه خلق للصداقة قبل كل شيء. وثمة آية أخرى على هذا الحب - والأصق أن يقال إنه حب من نوع آخر - تجلّت له ضحى اليوم حين أُلّمت به أمّ علي الحاطية وقالت له بعد حديث دارت فيه حول غرضها ما شاء لها الدوران: «ألا تعلم أن مسّ نفوس أرملة الحاج علي الدسوقي تملك سبعة دكاكين في المغربلين؟» وابتسم

عن دعوتها بإياه ونفور شديدتين رغم نصيح أبيه له بالتسامح والمغفو. والحق أنّه وجد عليها موجلة حامية نابعة من صميم قلب جريح، فأغلق دونها باب المغفو والغفران وأقام وراءه متاريس حتى وكراهية مؤتمًا إلى هذا بأنّه لم يظلمها ولكن أنزلها بحيث أنزلتها لفعالها. «امرأة. أجل ما هي إلا امرأة... وكل امرأة لعنة قدرة... لا تدري امرأة ما العفة إلا حين تنتفي أسباب الزنا... حتى امرأة أبي الطيّبة، الله وحده يعلم ماذا كان يمكن أن تكون لولا أبي!» وقطع عليه أنكره صوت رجل علا قائلًا: «الحمر كلها فرائد، ومن يقل غير هذا أقطع رأسه... الحشيش والمنزول والأفيون كثيرة الضرر... أمّا الحمر فكأنها فوائد... فتسأل صاحبه: «وما فوائدهما؟» فقال الرجل مستنكرًا: «وما فوائدها! ما أصعب سؤالك!... كلها فوائد كما قلت... وأنت تعلم هذا وتؤمن به...» فقال صاحبه: «ولكن الحشيش والأفيون والمنزول مفيدة كذلك فيجب أن تعلم هذا وتؤمن به...» الناس جميعًا يقولون هذا فهل تختلف الإجماع؟! وترث الرجل قليلًا ثم قال: «كلها مفيدة إذن، الكسل، الحمر والحشيش والأفيون والمنزول وما يستجده» فعاد صاحبه يقول بلهجة تتم عن ظفر: «ولكن الحمر حرام!» فقال الرجل عتدًا: «وهل ضلقت السبيل، زُكَّ... حُجَّ... أطعمم المساكين... أبواب التكفير واسعة والحسنة بعشر أمثالها...».

وابتسم ياسين في شيء من الارتياح، أجل أمكنه أخيرًا أن يتبسم في شيء من الارتياح: ولتذهب إلى الجحيم، ولتأخذ الماضي معها... لست عن شيء مسئول... كل إنسان ملوث في هذه الحياة ومن يزح الستائر عجبًا... شيء واحد عيني جسدًا هو عفارها. دكان الحمازوي وبيع النورية والبيت القديم بقصر الشوق... وإلى أعيد أمام الله إذا ورثته كاملًا يومًا أن أترحم عليها بلا أسف... آه... زُتوية... كدت أنساك وما أنساك إلا الشيطان. امرأة عذبتني وامرأة أنس عندها العزاء... آه يا زُتوية ما علمت

السيد، وفطن بالفرصة إلى ما توهم إليه المرأة وحديثه قلبه بأنها ليست خاطبة فحسب هذه المرة ولكنّها رسول موصى بالكتمان، ألم يتخلّل إليه في أكثر من مناسبة أنّ السّت نفوسة تكاد تعلن عن ودّها أثناء تردّدها على دكانه لابتياح حوائجها؟.. يبيّن أنّه أراد استدراج المرأة ولو على سبيل التّفكّه فقال باهتمام ظاهر: «صليكِ باختيار زوج صالح لها، فما أعزّ للمطلوب»، وظنّت أمّ علي أنّها بلغت الغاية فقالت: «قد اخترتك من دون الرجال، فما قولك؟»، وضحك السيد ضحكة مجلجلة وشت بسرويه وثقته بنفسه ولكنّه قال بلهجة قاطعة: «لقد تزوّجت مرّتين، أخفقت في الأولى ووفّقي الله في الأخرى، ولن أبطر بنعمة الله». والحقّ أنّه طالما تغلّب على مغريات الزواج على كثرة ما تمبّيا له من فرص مواتية، بقوة إرادة لا تنتهي، وكأنّه لم ينس مثل أبيه الذي أنزلن إلى زيجات متلاحقة بلا وهي، بنّدت ثروته وجعّرت عليه للتصاب، ولم تبق له هو - عقبه الوحيد - إلّا على شيء من المال لا يفي، ثمّ إنّ من ربحه ودخله في بسطة من العيش هيّأت لأسرته هناك ورغداً واتاحت له ما يشاء للإنتفاق في مسرّاته وملاهيهِ فكيف يقدم على ما يتخلّل بهذا الوضع البديع المتناسق الذي يكفل له الكرامة والحريّة؟! أجل لم يجمع السيد ثروة، لا لقصور في وسائلها عن تجميعها ولكن لما طبع عليه من جود جعل إنفاقها والاستمتاع بآثارها المعنى الوحيد لها الذي يؤمن به، إلى إيمان عميق بالله وفضائله ملأ نفسه طمأنينة وثقة وأمنه من الخوف الذي يساور كثيرين عن أزواقهم ومستقبلهم. على أنّ صلّه عن مغريات الزواج لم يمنه من السرور والزهو كلياً رامت فرصة طيبة، وبالتالي لم يستطع أن يتناسى أنّ سيّدة جميلة كالسّت نفوسة تودّه بعلاها. وغلبت هذه الذكري على خواطره فراح يراقب وكيله والزبائن بعينين غائبين وأساير حائلة باسمه، وذكر - باسمها أيضاً - ما قال له صاحب من صحبه صباح اليوم وهو يعابه معرّضاً بأنافته وتعلّوه: «حسبك. حسبك يا عجزوا!... عجزوا!...» إنّّه في الخامسة والأربعين حقاً، ولكن ما قول العادل في هذه القوّة العارمة

والصّحة الدافقة والشعر السبط اللامع السوداء لم يين إحساسه بالشباب ولا تراخي، وكانّ قوّته ما تزداد مع الأيام إلّا قوّته، إلى أنّ مزايه لم تكن لتتعبه، بل كان على تواضعه وسياحة نفسه شديد الشعور بها، منطقياً في أعماقه على زهو وعجب. يحبّ النساء حبّاً جبّاً، وكأنّه يتواضعه ولطفه يستريد منه ويحثّ الرفاق بمكر حسن عليه، ولكن مع أنّ ثقته بنفسه بلغت حدّ الاعتقاد بأنّه خير الرجال قوّة وبيهاً وظرّاً وكياسة إلّا أنّه لم يتخلّ أبداً على أحد من الناس، لأنّ تواضعه كان طبعاً وسجيّة كذلك، ولأنّه نبع من فطرة تسيل بشاشة وإخلاصاً وجبّاً. والحقّ أنّه كان ينزع بفطرته إلى أن يحبّ كما يحبّ، ولا يحسك عن نشدان المزيد من الحبّ، فأنجّبت طبيعته بوحى من غريزته الظامّة للحبّ إلى الإخلاص والوفاء والصفاء والتواضع، تلك السجايا التي تجلب الحبّ والرضا كما تجلب الزهو الفرائش، ومن هنا استوى أن يقال إنّ تواضعه كياسة أو طبيعة والأصحّ أن يقال إنّّه طبيعة تستمدّ كياستها من وحي الغريزة لا تدبير الإرادة فجعلت طبعاً بسيطاً لا تكلف فيه ولا تمعّل، ولذلك كان السكوت عن فضائله ومواراة مزايه بل والتنذّر بعيوبه وهناته التماساً للعطف والحبّ أحبّ إليه من نشرها والمباهاة بها اللذين يجرّان عادة إلى الاستفزاز والحسد، وهي كياسة سديدة دفعت المحيّن إلى التنبؤ بما ينبغي عنه حكمة وحياء، وأذاخت سجاياه على نحو لم يكن ليقدر عليه بنفسه دون التضحية بأجل جوانب شخصيته، وبما يحظى من جاذبيّة وحبّ لا تشوبها شائبة. وبهذا الوحي الغريزيّ نفسه استهدى حقّ في جانب حياته للماجن، في مجالس أنسه وطربه، فلم يتخلّ فيها - مهما لعب الشراب برأسه - عن لباقة وكياسته، ولو شاء بما أوتي من خفة الروح وحضور البلية وحلاوة الفكاهة وحذّة السخرية، لاكتصح السّار بلا عناء، ولكنّه كان يدير مجلس الأنس بمهارة وأريحية تفصح المجال لكلّ ساهر، وشجع أهل الدعاية وإن خالفهم التوفيق بضحكاته المجلجلة، إلى حرصه الشديد على ألاّ يخلف مزاحه في نفس جرّحاً، فإن اضطرّه الموقف إلى الحملة

ناحية الدَّكان تحت ضغط امرأة هائلة مضت تغادرها في ببطء شديد على قدر ما تسمح به طَيَّات لحمها وشحمها وقد سبقتها إلى الأرض جارية سوداء فعدت لها يدها لتعتمد عليها في أثناء نزولها. وكلحمَل وقفت ملياً وهي تتنهد كأنها تتجَمَّع من عناء النزول، وكلحمَل راحت تتبَّاهل وتخطُر إلى ناحية الدَّكان بينما علا صوت الجارية في لهجة شبه خطائية لتعلن عن مولاتها:

- وسَمع يا جَدع أنت وهو للسَّ زبيدة ملكة العوالم.

ونذت عن السَّ زبيدة ضحكة مسجوعة وقالت تقاطب الجارية بلهجة تنم عن زجر كاذب:

- الله يساعك يا جلدل... ملكة العوالم مرَّة واحدة... هَلْ عرفت فضيلة التواضع!

وهرع إليها جبل الحمزاوي مفترِّ الثغر هن ابتسامة عريضة وهو يقول:

- أهلاً وسهلاً، كان حقاً علينا أن نفرش الأرض بالرمل.

ونفض السيد وهو يتفحصها بنظرة تنم عن دهشة وتفكير ثم قال متممًا تحية وكيله:

- بل بالثناء والورد ولكن ما حيلتنا والحظ يقبل إذا أقبل غير مسبوق ببشير...

ورأى السيد وكيله وهو يتجه إلى كرسي لِسَاني به فسبقه إليه بخطوة واسعة بدت كالوثبة فتنحى الرجل جانباً وهو يداري ابتسامة، وقَمَّ السيد لها الكرسي بنفسه وهو يرمي براسته مرشحاً كأنه يقول لها «تفضلي» يَيدُ أنَّ راحته انبسطت - رُكَّما بلا شعور منه - لآخر طاقته وانفرج ما بين أصابعه حتى صارت يده كالروحة، ولعلَّه تأثَّر في بسطها بما تركه في خياله منظر العجيبة الهائلة التي ستملأ مقعد الكرسي وتفيض على جوانبه حتَّى. وشكرته المرأة بابتسامة من وجهها الذي أسفر حسنه بغير حجاب، وجلست وهي تشعُّ بزواقيها وخَلَّيها نوراً، ثم التفت إلى جارتها وخاطبتها قائلة وهي تعني بالخطاب غيرها:

- ألم أقُل لك يا جلدل أنَّه ليس ثَمَّة ما يدعوننا

على قربين دأوى عراقب حملته بتسجيعة والتزوَّد إليه ولو بالسخرية من نفسه. فلا ينفِضُ المجلس إلَّا وقد حظي كلُّ سامر من أطايب ذكرياته بما يشرح الصدر ويستأثر الفؤاد. على أنَّ كِبَاسته الفطرية أو فطرته الكيسية، لم تقتصر آثارها الطيبة على حياته الضاحكة فحسب، ولكنَّها امتدَّت إلى جوانب هامة من حياته الاجتماعية، فأعلنت عن نفسها أروع إعلان في كرمه المأثور - سواء ما يتجلَّى منه في الولايم التي يدعو إليها من حين لآخر في البيت الكبير أو في الهبات التي ينفع بها المحتاجين ثمَّ يتصلون بعمله أو بشخصه - وفي شهامته وبروته ونجلته التي فُرِست له على أصلقاته ومعارفه نوعاً من الوصاية المشربة بالحُب والوفاء يقيئون إليها إذا همت الضرورة إلى المشورة أو الشفاعة أو الخدمة فيها يعرض لهم من هموم العمل والمال أو شئون المسائل الشخصية والعائلية كالخطبة والزواج والطلاق، أجل ارتضى لنفسه وظائف يؤدِّيها بلا أجر - غير الحُب - فكان سمساراً ومأذوناً وعكَّاماً، ثمَّ وجد دائماً في أداها - على مشقته - حياة مليئة بالبهجة والنبظة. مثل هذا الرجل الذي تجرد نفسه بفضائل اجتماعية كثيرة ثمَّ يطويها كأنَّ في نشرها أدنى وأدنى، مثل هذا الرجل يكون خليقاً - إذا خلا إلى خواطره وانقشع عنه الحياء الذي يتولاه حيال الناس - بأن يتملَّ مزاياء طويلًا ويستسلم لزهوه وعجبه. لذلك راح يستعيد عتاب أصدقائه المحيِّين ودعوة أمَّ علي الخاطبة بلذَّة وسرور وإنشراح تعانقت في قلبه عن نشوة خالصة حتَّى تطلَّعت على خلوته لدعة أسف لمضى يحدث نفسه...

«نقومة هائم سيِّدة ذات مزاياء لا يستهان بها... يتمناها كثيرون ولكنَّها رُغبت فيَّ أنا... يَيدُ أنني لن أنزَّج». هذا أمر مفروغ منه، وليست هي بالمرأة التي تفعل أن تعاشر رجلاً بغير زواج... هذا أنا وفذه هي فكيف يمكن أن نلتقي... ولو صادفتني في غير هذه الأيام التي سذ فيها الاسترايون علينا المتأخذ هان الأمر ولكنَّها تصدَّت لنا ونحن في حاجة إليها فوالسَّفة.

وقطع عليه أفكاره وقوف حنطور أمام مدخل الدَّكان فمدَّ بصره مستظلاً فرأى العربة وهي تميل

للتخطيط هنا وهناك لاجتياح حوائجنا وعندنا هذا الدكان الفاخر؟

فأتمت الجارية على قول سيديتها قائلة:

- صدقت كعادتك يا سلطنة، لماذا نذهب بعيداً وعندنا السيد الكريم أحمد عبد الجواد!

فترجع رأس الست كأنها هالها ما صرحت به جلجل وألقت عليها نظرة استنكار ثم رددت عينيها بين السيد والجارية لتشاهده على استنكارها وقالت وهي تداري ابتسامة:

- واخجلنا!... حدثك عن الدكان يا جلجل لا عن السيد أحمد!...

وشعر فؤاد السيد الذكي بالجو الروقي الذي ينشئه حديث المرأة فاندمج فيه بغريزة المتوكلية وتمتم بأسياً:

- الدكان والسيد أحمد شيء واحد يا سلطنة.

فرفعت حاجبيها في دلال وقالت بعناد لطيف:

- ولكننا نريد الدكان لا السيد أحمد.

ويدأ أن السيد أحمد لم يكن الشخص الوحيد الذي شعر بالجو الطيب الذي خلفته السلطنة، فهذا جميل الحمزاوي براوح بين مساومة الزبائن واستراق النظر إلى ما تيسر من جسم العلة، وهؤلاء الزبائن جعلوا يجلبون أبصارهم بين البضائع لتمر في الذهاب والإياب بالست، بل بدا أن الزيارة الماركة قد لفتت بعض الأنظار في الطريق فرأى السيد أن يقترب من السلطنة وأن يولي الباب والقوم ظهوره العريض ليحول بينها وبين تطفل المتطفلين، بيد أن هذا لم يثنيه ما كان فيه من أسباب الحديث فقال يصل منه ما انتقطع:

- قضى الله جلّت حكمته أن يكون الجياد أحياناً أسعد من الإنسان.

فكانت بلهجة ذات معنى:

- أراك تعاني. لن يكون الجياد أسعد حقاً من الإنسان، ولكنه كثيراً ما يكون أجمل فائدة.

فتضها السيد بعينه الزرقاوين متظاهراً بالدهشة:

- أجل فائدة!... (ثم مشيراً إلى الأرض)... هذا الدكان!

فوهبت ضحكة قصيرة عذبة ولكنها قالت بلهجة لا

تحلو من خشونة مدبرة:

- أريد سكرّاً وبنّاً وأرزّاً فهل يغني الإنسان فيها عن

الدكان شيئاً!... (وينبرات اختلط فيها عدم الاكتراث بالدلال)... ثم إن الرجال أكثر من الهم على القلب.

وكان السيد قد فتفتحت له من الطمع أبواب، وشعر بأنه مقبل على شيء أجل خطراً من البيع والشراء، فقال محتجاً:

- ليست كلّ الرجال سواء يا سلطنة، فمن قال لك إن الإنسان لا يغني عن الأرز والسكر والبن شيئاً! الإنسان حقاً من يجدين فيه الغذاء والحلاوة والكيف! فسأله ضاحكة:

- إنسان أم مطبخ هذا؟

فقال السيد بلهجة تدلّ على الظفر:

- لو نظرت من قريب لوجدت تشابهاً عجيباً بين الرجل والمطبخ... كلاهما حياة للبطن!...

وغضت المرأة بصرها ملياً، وانتظر السيد أن ترفعه إليه موسوماً بابتسامتها المشرقة، ولكنها واجهته بنظرة رزينة فاحص لثوره أنها غيّرت «السياسة» أو لعلمها لم ترتع كل الارتياح لانزلاقها فعدلت عنه ثم سمعها تقول في هدوء:

- أفادك الله!... ولكن حسبتا اليوم الأرز والبن والسكر.

وتحوّل السيد عنها متظاهراً بالجدّ ودعا إليه وكيهه ثم وضاء بصوت مرتفع بطلبات الست فأوحى مظهره بأنه قرّر أيضاً الحلول عن «التورّد» والعودة إلى «العمل»، ولكنها لم تكن إلا مناوره استعداد على أثرها ابتسامته الهجومية وتمتم مخاطباً السلطنة:

- الدكان وصاحبها تحت أمرك!

وكان للمناورة أثرها فكانت المرأة في دهابة:

- أريد الدكان وتأيي إلا أن تعود بنفسك!

- نفسي بلا ريب خير من دكانك، أو خير ما في دكانك.

فأشرق وجهها بابتسامة مأكرة وهي تقول:

- هذا يخالف ما سمعناه عن جودة مضاعتك!

فقهه السيد قائلاً:

« ما حاجتك إلى السكر وفي لسانك هذه الحلاوة كلها؟ »

وأعقب هذه المعلقة الكلامية فترة سكون بدا فيها كلاهما راضياً عن نفسه، ثم فتحت العالمة حقيقتها وأخرجت امرأة صغيرة ذات مقبض فضي وراحت تنظر في صورتها فمضى السيد إلى مكتبه ووقف مستنداً إلى حافته وهو يتفكر في وجهها باهتمام. والحق لقد حدثه قلبه حين وقعت عليها عيناه بأنها جادت بالزيارة لأمر غير الشراء والبيع، ثم جاء حديثها باستجاباته الحارة مؤكداً لظنه، فلم يدع أمامه إلا أن يقرر من الآن هل يوصلها بتأريخه أو يؤدعها الوداع الأخير. ولم يكن رأها لأول مرة، فقد رأها مرات في أفراح بعض الأصدقاء، وعرف عن الرواة أن السيد خليل البنان المخلص خلية دهرًا حتى انفصلا منذ عهد غير بعيد، ولعل هذا ما جعلها تستبضع من دكان جديد... وهي موفورة الحسن وإن لم تعد منزلتها كعائلة المرتبة الثانية بين العوالم، بيد أن المرأة تهتم أكثر من العالمة، وإثباتاً لشهية لطيفة وبها من طيات اللحم والدهن ما يلقى المقرور في زمهرير الشتاء الذي غدا على الأبواب، واعترض أفكاره جميع الحمزاوي حاملاً ثلاث لفات، فتناولتها الجارية، ودست الست يدها في الحقيبة لتخرج النقود فيها بدا، ولكن السيد أشار إليها عتلاً وهو يقول:

« يا له من عيب! »

وتظاهرت المرأة بالدهشة وقالت:

« أي عيب يا سي السيد... ليس في الحق عيب. »

« هذه زيارة ميمونة يحق علينا أن نحيتها بما هي أهل من الإكرام، وهيهات أن نوقها حقها. »

وكانت قد نهضت وهو يتكلم فلم تبيد مقاومة جديّة لكرمها ولكنها قالت:

« ولكن كرمك هذا سيجعلني أتردد مرة ومرتين قبل أن أقصدك مرة أخرى. »

فقهه السيد قائلاً:

« لا تخافي، إني أكرم الزبون في المرة الأولى ثم

أعرض خساري في المرات اللاحقة ولو بالسرقة! هذا شعارنا نحن التجّار! »

فابتسمت الست، ومدّت له يدها قائلة:

« الكريم مثلك يسرق ولا يسرق... أشكرك يا سيد أحمد. »

فقال من كلّ قلبه:

« العفو يا سلطنة. »

ووقف ينظر إليها وهي تتبخر صوب الباب حتى صعدت إلى العربة وأخذت مجلسها، وجلست جلجل على المقعد الصغير قبالتها، وتحركت العربة بحملها النفيس، ثم غابت عن نظريه، هنالك قال الحمزاوي وهو يقلب صفحة من دفتر الحساب:

« كيف يمكن أن يستد هذا الحساب!؟ »

فالتفت السيد على وكيله نظرة باسمه وقال:

« اكتب مكان الأرقام «بضائع أنفلهما الهوى». »

ثم غمغم وهو يمضي إلى مكتبه «الله جميل يحب الجيال». »

١٥

وحين المساء أغلق السيد الدكان وغادره مخفّ به المهابة ويتضرّع منه عرّف طيّب ثم مضى صوب الصباغة، ومنها إلى الغورية حتى قهوة سي علي فلحظ في مروره بها بيت العالمة وما يكتنفه فرأى الدكاكين التي تمتد على جانبيه لا تزال مفتوحة وتثار السابلة في تدفقه، فواصل السير إلى بيت أحد الأصدقاء حيث قضى ساعة ثم استأذن عائداً إلى الغورية وقد غشيتها ظلمة فانقلبت كالقفرة، وجعل يقرب من البيت أمّا مطمئناً، ثم طرق الباب وانتظر وهو يبدّق النظر فيما حوله ولم يكن ثمة نور إلا ما تراسى من كوة قهوة سي علي، ومصباح غازي على عربة يد عند منطفئ السكّة الجبلية. وفتح الباب وبدا شبح خدام صغيرة فبادرها متسائلاً بصوت قوي غير متردد ليوحى بما يودّ من الصدق والثقة:

« الستّ زبيدة موجودة؟ »

فرفعت إليه الخادم رأسها وسألته بدورها في تحفظ

أملت عليها ظروف وظيئتها:

- من أنت يا سيدي؟

فقال بصوته القوي:

- شخص يروم الاتفاق معها على إحياء ليلة.

وغابت الحسام دقائق ثم عادت وهي تقول:

«تفضل»، وأوسعت له فدخل ورقي ورامها في سلم

متقارب الدرجات انتهى به إلى دهليز ثم فتحت له باباً

في مواجهته انتقل منه إلى حجرة مظلمة فظّل واقفاً على

كتب من المدخل وهو ينصت إلى أقدام الحادم وهي

تجري، ثم وهي تمود حاملة مصباحاً، وتبعتها بعينه

وهي تضعه على خوان ويحيه بكريمي إلى وسط الحجرة

وتقف عليه لتشعل المصباح الكبير المدلى من السقف

ثم تعيد الكرسي إلى موضعه وتحمل المصباح الصغير

وتغادر الحجرة قاتلة في أدب: «تفضل بالجلوس يا

سيدي»، وانجبه السيد إلى كنية في صدر الحجرة وجلس

في ثقة وهدوء دلاً على اعتياد هذا الموقف وأمثاله،

وطمأنينة إلى الخروج منه بما يرضي ويطيب، ثم خلع

الطربوش وحطه على ثمرة تتوسط الكنية ومدّ ساقه في

ارتياح. رأى حجرة متوسطة الحجم نصّدت بجنباتها

الكتبات والمقاعد وفرشت أرضها بسجادة فارسية وقام

حيال كل كنية من كبائنها الثلاث الكبرى خوان مطعم

بالصدف، وقد أسدلت الستائر على نافلتها وبابها

فحسبت في جوها شذاً بخور سرّ به متسلّكاً بالنظر إلى

فراشة راحت ترفّ على المصباح في نشاط عصبيّ،

وانتظر بعض وقت جاءت في أثنائه الحادم بالقهوة،

حقّ ترامى إلى أذنيه وقع شبيب منغوم ذي دقّتات

مدغدغة فتنبّئت أعصابه وحلّق إلى الباب الذي

سرحان ما امتلأ فراغه بالجسم المفصّل المائل وقد لفّ

لفّة شهوانيّة في فستان أزرق، وما كادت عينا المرأة

تقعان عليه حتّى توقّفت دهشة وهتفت:

- بسم الله الرحمن الرحيم... أنت...!

فجري بصره على جسمها في عجلة ونهم كما يجري

الفار على جوال أرزّ ليجد لنفسه منفذاً، وقال

يلعجاب:

- باسم الله ما شاء الله...!

فواصلت تلقّعها بعد التوقّف وهي تقول في خوف

مصطنع:

- عنك!... أعوذ بالله...!

فنبض السيد مستقبلاً يدها الممدودة بترحاب

وتشّم شذا البخور بأنفه العظيم وقال:

- الخافين الحسد وعندك هذا البخور؟!

فاستخلصت يدها من يده وتراجعت إلى كنية

جانبيّة وجلست وهي تقول:

- بخوري خير وبركة، إنّه أخلاط من أنواع شتّى

بعضها عربيّ وبعضها هنديّ أوّلّف بينها بنفسي، فهو

جدير بأن يخلص الجسد من ألف عفريت

وعفريت...

فعاود السيد الجلوس قائلاً وهو يلوّح يديه في

يأس:

- إلّا جسدي...! بجسدي عفريت من نوع آخر

لا يجدي معها البخور، الأمر أجمل وأخطر...

فضربت المرأة صدرها ناهضاً كالقرية وهتفت:

- ولكيّ أحبي حفلات أفراس لا حفلات زار!

فقال السيد برباع:

- سنرى إن كان لدائي عندكم شفاء!

وساد الصمت قليلاً فجعلت السلطانة تنظر إليه فيها

يشبه التفكير وكأنّها تستخيره عن سرّ حضوره وهل جاء

حقاً للاتفاق على إحياء ليلة كما قال للمخادم؟...

وغلبيتها الرغبة في الاستطلاع فسألته:

- فرح أم ختان؟

فقال السيد بأسياً:

- لك ما تشائين!

- عندك ختون أم عروس؟

- عندي كلّ شيء...

فأنذرتة بنظرة كأنّها تقول له «وكم أنت متعب!» ثمّ

تمتعت في تهكم:

- نحن في خدمتك على أيّ حال...

فرفع السيد يديه إلى قمّة رأسه في هيئة تمّ عن

الشكر وقال بوقار يناقص نواياه:

- علكم الله قدرك... بيد أنّي ما زلت مصراً على

- يا لك من رجل مظهره الوقار والتفوى وبساطه
الخلاعة والفجور، الآن صَدَّقْتَ حقًا ما قيل لي
عنتك...

واستوى السيد في جلسته في اهتمام وتساءل:
- وماذا قيل؟ .. اللَّهُمَّ اكفنا شرَّ القيل والقال...
- قالوا لي إِنَّكَ زير نساء وعبد شراب...
فتنَّهَد بصوت مسموع يلدغ به ارتياحه وقال:
- حسبيته ذمًا والعياذ بالله...
- ألم أقل لك إِنَّكَ رجل قارح فاجر؟
- هي الشهادة لي بأنِّي حرَّزْتُ القبول إن شاء
الله...

فرفعت المرأة رأسها في غطرسة وقالت:
- بُهْدُكَ! ... لست كمن عرفت من النساء...
إنَّ زبيدة معروفة ولا فخر بمسرة النفس ودقة
الاختيار...
فبسط السيد راحته على صدره ونظر إليها في تحدُّ
مُشْرَبٍ باللطف وقال بطمأنينة:
- عند الامتحان يَكْرَمُ المرءُ أو يهان...
- من أين لك بهذه الثقة وأنت لم تختن بعد
بشهادتك؟

ففقه السيد طويلًا حتى قال:
- لا تصدِّقني يا ختونة... وإن كنت في شك...
ولكمته في منكبه قبل أن يتمَّ جملة فأسسك ثمَّ أغرقا
في الضحك ممَّا، وسرَّ بمشاركتها إتياء في ضحكها،
وحسد وراء ذلك - بعد ما جرى بينهما من تلبيع
وتصريح - لوفاء من الجهر بالرضا ثبتته في وعيه بسمه
دلال سالت بطرفها الكحول، وراح يفكر في أن يجيئ
هَذَا الدلال بتحيةٍ تليق به لولا أن قالت له محذرة:
- لا تحملني على مضاعفة سوء الظنِّ بك...
فأعاده قولها إلى تذكُّر ما ركدته عن القيل والقال،
وسألهما بهتمام:

- من الذي حدَّثكَ عني؟
فقالَتْ باقتضاب وهي تلحظه بنظرة اتهام:
- جليلة...!
وفجأه الاسم كأنه عاذل يطرق مجلسها فابتسم

أن أترك لك الاختياراً
فتنَّهَدت بنظ بالدهابة أشبه وقالت:
- إني أَفْضَلُ أفراح العرايس بطبيعة الحال!
- ولكنِّي رجل متزوِّج ولا حاجة بي إلى زُفَّة من
جديد...!
فصاحت به:
- يا لك من رجل مهذار... إذن ليكن ختناً...
- ليكن...
وتساءلت وهي تحاذر:
- وليدك؟
فقال ببساطة وهو يفتل شاربه:
- أنا!...

فأطلقت السلطنة ضحكة مائعة وقررت المدلول
عن التفكير في مسألة إحياء الليلة التي خُنت خبيثتها
وهضت به:
- يا لك من رجل قارح، لو طالتك يدي لقصمت
ظهرك...
فنهض السيد وأقبل عليها قائلاً:
- لا أحرمتك رغبة فُكَّت...
وجلس جانباها فهَمَّت بهربه ولكنها تردَّدت ثمَّ
أمسكت، فسألهما بقلق:

- لماذا لم تتكرَّمي بضربٍ؟
فهزَّت رأسها وقالت ساخرة:
- أخاف أن أنقض وضوئي...
فتساءل في لهفة:
- أأطعم في أن نصلي ممَّا؟!
واستغفر الله في سرِّه عقب النطق بدعائه مباشرة
لأنَّ هلهله وإن كان لا يقف به في سكرة المجون عند
حدٍّ إلاَّ أن قلبه لم يكن ليطمئن ويواصل ابتهاجه حتى
يستغفر في باطنه صادقاً ممَّا يعيث به لسانه مازحاً. أمَّا
المرأة فتساءلت في دلال ساخر:

- أنعي، يا صاحب الفضيلة، الصلاة التي هي
خير من النوم؟
- بل الصلاة التي هي والنوم سواء...
ولم تتهاك إلاَّ أن تقول ضاحكة:

- إني من صلب رجال يتزوجون في السنين ...
 - بدافع العشق أم بدافع الحرف؟
 فقهه السيد قائلاً:
 - يا وليّ اتقي الله ودعنا نتكلم في الجدل ...
 - الجدل؟ ... اتعني إحياء الليلة التي جئت تتفق عليها؟
 - أعني إحياء العمر كله ...
 - كله أم نصفه؟
 - ربنا يقدرنا على ما فيه الخير ...
 - ربنا يقدرنا على الطيب ...
 واستغفر الله في سرّه مقدّمًا ثم تساهل:
 - نقرأ الفاتحة؟
 ولكنها نهضت بغتة متجاهلة دعوته وهفت متظاهرة بالجزع:
 - رباه ... سرفني الوقت ولديّ الليلة عمل هام ...
 ونهض السيد بدوره، ومدّ يده فتناول يدها ثم بسط راحتها المخضبة بالحناء، ورونا إليها بشوق وافتان، وأصرّ على احتفاظها بها رغم جذبها إليها مرّة ومرتين، حتى قرصته في أصبعه وولعت يده إلى شاربه مهتدة:
 - دعني أخرج من بيتي بفرقة شارب واحدة ...
 ورأى ساعدها قريبًا من فيه فزهّد في النقاش وقرب منه شفتيه رويدًا حتى غاصت في لحمه الطري فتطابروا منه إلى أنفه رائحة قرنفلية ذات طعم حلو، ثم تنهّد مغمغماً:
 - إلى الغد؟
 فتخلّصت من يده مقاومة من ناحيته هذه المرّة، وحلّقت إليه طويلًا ثم ابتسمت وثمتت:
 عصفوري يا أمه عصفوري
 لالسب وأوّرّي لأمسوري
 وجعلت تردّد «عصفوري يا أمه» مرّات وهي تودّعه، وغادر السيد الحجرة وهو يرّد مطلع الأغنية بصوت منخفض ملؤه الوقار والرزانة كأنّما يستخير الالفاظ حيًا وراهما من معانٍ ...

ابتسامة دلّت على حرجه. جلييلة، تلك العالمة المشهورة التي عشقها دهرًا حتى فصل بينها الشبح ثم عاشا وما زالوا على مودة متبادلة على البعد، يبدّ أنه كخير بالنساء لم يَزْ بدأ من أن يقول في لهجة صادقة:
 - لعنة الله على وجهها وصوتها معًا! ... (ثم متهمزًا) ... دعينا من هذا كله ولنتكلم في الجدل ...
 فتساءلت متهمكة:
 - ألا تستحقّ جلييلة كلمة أرقّ والطف؟ ... أم هذا شأنك عند ذكر من قطعتهنّ من النساء؟
 ودخل السيد شيء من الحرج ألا أنّه ذاب في موجة الزهو الجنسي التي اثّارها في نفسه حديث عشيقته جديدة عن عشيقته ولّت، وأخذ مليًا بنشوة ظفر حلوة ثم قال بلهجة معهوده:
 - لا يسعني وأنا محضر من هذا البهاء أن أخادعه إلى ذكريات طويت ونسيت ...
 وبالرغم من أنّ السلطانة حافظت على نظرتها التهكميّة إلاّ أنّها استجابت للشئاء كما بدا في رفع حاجبها ومدارعاها لابتسامة خفيفة اندمست إلى شفتيها، ولكنها خاطبته بازدراء قائلة:
 - لسان تاجر يسغو بالحلاوة حتى ينال غرضه ...
 - لنا اللجنة نحن التجار بما يظلمنا الناس ...
 وهزّت كتفيها استهانة ثمّ سألت في اهتمام غير خاف:
 - متى رافقتها؟
 فلوح السيد بذراعه كأنه يقول «ما أبعد من زمن!» ثمّ تحتم:
 - منذ أزمان وأزمان ...
 فضحكت في تهكم وقالت بنبرات تنمّ عن التشفي:
 - في أيام الشباب الذي مضى ...
 فرنا السيد إليها معانيًا ثمّ قال:
 - بوذي أن أمصّ من لسانك الأذى.
 ولكنها واصلت حديثها بنفس اللهجة قائلة:
 - أخذتك لحماً وتركك عظامًا ...
 فأومأ إليها محذّرًا وقال:

كان ما يُطلق عليه هو الحفلات بيت العائلة زيدة يتوسط الدار كالمصالة، أو كأنَّ المصالة بالفعل استجذبت لها أغراض أخرى. ولعلَّ أهمَّ أغراضه أنها كانت تقام فيه - هي وجوقتها - بالتجارب الغنائية وحفظ الأغاني الجديدة، وقد اختارته لبعده عن الطريق العام بما يفصل بينها من حجرات النوم والاستقبال. وجعله أساسه - إلى هذا - صالحاً لإحياء الحفلات الخاصة التي تتراوح عادة بين الزار والغناء، والتي تدعو إليها الخاصة من أصدقائها ومعارفهم المقربين. ولم يكن الباحث على هذه الحفلات ارمية كرم فحسب - إن كان ثمة كرم على الإطلاق فإنه غالباً ما ينهض بأعبائها الأصدقاء أنفسهم - ولكنها رمت من ورائها إلى الإكثار من الأصدقاء المتوازين الخلفين بأن يدعوها لإحياء الحفلات أو يقوموا لها بالدعاية النافعة في الأساط التي يتقالبون فيها، ومن بينهم - إلى هذا كله - تنتفي الخليل بعد الخليل. وجاء دور السيد أحمد عبد الجواد ليُشرف البهو السعيد عماكاً بالخاصة من معارفه. والحقَّ أنه تبسَّى على نشاط جَمَّ عقب المقابلة الجريئة التي ثمت بينه وبين زيدة في بيتها فسرعان ما حلَّ رسله كريم الهدايا من النقل والجلوى والهدايا... إلى مدفاة أوصى على صنعها ونقشها وطلبيها بالفقصة لتكون - جيمًا - عربوناً للمودة المقبلة. فقي لقاؤه هذا دعت السلطنة، تاركة له الخيار في دعوة من يشاء من أصدقائه، إلى حفلة تعارف تكريمًا للحبَّ الجديد - ولشدَّ ما كان البهو موسومًا بطابع بلديٍّ جذاب يكتبيته المتلاصقة المزركشة الناعمة الموحية بالفاسة والخلاعة، المعتقة على الجانبين حتى المصدر حيث يقوم ديوان الست تكتنفه الشلت والوسائد المعتة للجوقة، أما أرضه المستعيلة فمفروشة بسجاد متعدد الألوان والشكول، وعلى كونهصول يتوسط الجناح الأيمن - كالشامة رواء وصفاء - وأُقيدت الشموع منسوسة في القناير، غير مصباح ضخم يتدلَّى من قَمَّةٍ مثَّور يتوسط سقف الحجر ذي منافذ على سطح الدار تفتح في الليالي الدافئة وتغلن بأضلاف زجاجية في ليالي البرد.

جلست زيدة مرتبة على الديوان وإلى يمينها زُونة المودة ربيبتها، وإلى يسارها عبده عازف القانون الضريع، واستوت النسوة جلوساً عن يمين وشمال ما بين عمسكة بالدف أو ماسحة على الدريجة أو عابشة بالصنوج. وأثرت السلطنة السيد أحمد بأول مجلس في الجناح الأيمن، وأخذ الباقون من صحبه مجالسهم بلا كلفة كأنهم أصحاب الدار، ولا عجب فلم يكن الجو بالجديد عليهم، ولا السلطنة بالتي يرونها لأول مرة، وقَّم السيد أحمد أصحابه إلى العائلة مبتدئاً بالسيد علي بالغ الدقيق فضبحت زيدة قائلة:

- ليس السيد علي بالغريد فقد أحيت فرح كرمته في العام الماضي...

ثمَّ نفى بالسيد الفار تاجر النحاس، ولما رماه أحدهم بأنه من رُواد بجة كثر بادر الرجل قائلًا:

- وجئت تائباً يا ست.

وتتابع التعارف حتى ثمَّ، ثمَّ جاءت الجارية جليلج بأقنوح الشراب ودارت على المدعوين، ومضت النفوس تستشعر حيوية مشبعة بالارمجة والمرح، وبدا السيد هريس الحفلة بلا منازع، بهذا دعاه الأصدقاء، وبهذا شعر في أحياقه، وقد وجد لذلك بادئ الأمر لوناً من الارتباك قلَّ أن يلمَّ به، فداراه بالإسراف في الضحك والمرح، حتى إذا أخذ في الشراب زايله بلا عناء، فاستعاد طمأنينته واندمج في الطرب بكلِّ قلبه. وجعل كلُّها ليج به الشوق والأشواق في مغاني الطرب تثار - يمدَّ بهره إلى سلطنة المجلس بهم فيتلجأ ناظره عند طيات جسمها المكتنز، فطاب قلباً بما آفاه عليه الحظ من نعمة، وهنأ نفسه على ما يترقبها من ليلد المرات، هذه الليلة والليالي الأخرى: «وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان»، هذا التصريح الذي تحميتها به، يجب أن أكون عند كلمتي، أمة امرأة هي يا ترى، وأبَّي مدنى مداه، سأعرف الحقيقة في الساعة المناسبة ثمَّ ليس لكلِّ حال لبوسها، لكي تضمن الانتصار على غريم ينبغي أن تفترض فيه الغاية من المناعة والبأس. لن أحمي عن شعاري القديم وهو أن أجعل من لقي أنا مطلباً ثانوياً ومن لذتها هي الهدف

- كيف ترون صاحبكم؟
فقالوا في نفس واحد:
- مملو!!
وهنا حرك عازف القانون الضرب رأسه بمئة ويسرة
وقد تلكت شفته السفلى وقتنم:
- قد أعلر من أنلر.
ومع أن حكمته لاقت ترحيباً إلا أن الست التفتت
نحوه كالغاضبة ولكنزته في صدره هاتفة:
- اسكت أنت وسد فاك الذي يلع المحيط...
وتلقى الضرب الضربة ضاحكاً ثم فزع فاع كائما
ليتكلم ولكنه أغلقه مرة أخرى مؤثراً السلامة فوجهت
للرأة رأسها صوب السيد وقالت بلهجة تنم عن
الوعد:
- هذا جزء من يجاوز حله.
فقال السيد مظاهراً بالانزعاج:
- ولكنني جئت لامتلم فلة الأدب.
فلتت المرأة صدرها بيدها وصاحت:
- يا خبر!... أسمعتم قوله!...
فقال أكثر من واحد منهم في وقت واحد:
- إنه خير ما سمعنا حتى الآن.
وأضاف إلى هذا أحد الرفقاء قائلاً:
- بل عليك بضربه إذا جاوز حدود فلة الأدب.
وقال آخر مؤثراً على قوله:
- الزمي طاعته ما قل أدبه.
فتساملت المرأة وهي ترفع حاجبها لتعلن عن
دهشة لا أثر لها في نفسها:
- لحد هذا تحيون فلة الأدب!
فتهد السيد قائلاً:
- ربنا يديها علينا.
فيا كان من العلة إلا أن تناولت الدف وهي تقول:
- ساسمكم شيئاً أفضل.
وتقرت عليه فيما يشبه العيث، ولكن علا النقر في
حومة اللغو كالنير حتى أسكته، وداعب الأذان متوذكاً
فبدل القوم حالاً بعد حال، تحفر أفراد الجوقة للعلم،
وفرغ السادة الكتوس ثم مدوا رءوسهم نحو السلطنة

والهابة، وبذلك تتحقق لذتي على أكمل وجه. ومع
أن السيد لم يغير من ألوان الحب - على وفرة مغامراته -
إلا الحب العضوي وحب اللحم والدم، إلا أنه تدرج
في اعتناقه إلى أرق صورة وأنفاها، فلم يكن حيواناً
بحراً ولكنه إلى حيوانيته وهب لطافة إحساس ودهافة
شعور وولع مغفل بالفناء والطرب، فسأ بالشهوة إلى
أسمى ما يمكن أن تسمو إليه في مجالها العضوي. بهذه
البواعث العضوية وحدها تزوج أول مرة ثم ثاني مرة،
أجل أنزئت عاطفته الزوجية - بمرور الأيام - بعناصر
جديدة هادئة من المودة والألفة ولكنها ظلت في جوهرها
جسدية شهوانية، ولما كانت عاطفة من هذا النوع -
خاصة إذا أوليت قوة متجددة وحيوية دافقة - لا يمكن
أن تستقيم إلى لون واحد فقد انطلق في مذاهب العشق
والهوى كالثور الهائج، كلما دعت صبرة استجاب لها في
نشوة وحماس. لم ير في آية امرأة إلا جسداً، ولكنه لم
يكن ينجي هامته لهذا الجسد حتى يجده خليفاً حقاً بأن
يرى ويلبس ويشم ويداق ويسمع، شهوة نعم ولكنها
ليست وحشية ولا عمية، بل هذبتها صنعة، ووجهها
فر فأنجلت لها من الطرب والفكاهة والباشاعة جرأ
وطائراً. فلم يكن أشبه بشهوته من جسمه، فهو مثلاً
في الضخامة والقوة اللتين توحيان بالقسوة والوحشية
ولكنه - مثلاً أيضاً - فيما ينطوي عليه في أصابعه من
لطف ورقة ومرونة على ما يتسرل به أحياناً - متممداً
من الصرامة والشدّة. ولذلك فلم يتركز خياله
النشط - وهو يلتهم السلطنة بنظرته - في المضاجعة
ونحوها ولكنه تاه - إلى هذا - في أفانين من أحلام
اللهو واللعب والفناء والسم. وأحسّت زبيدة بحرارة
حينه فقالت تخاطبه وهي تقلب عينها في وجوه
المدعوين بعجب ودلال:
- حبسك يا عريس، هلاً استحييت حيال رفاقك!
فقال السيد متعجباً:
- وما انتفاعي بإحياء حيال قنطار من اللحم
والدهن!
فاطلقت العالة ضحكة رثانة وتساءلت في غاية من
الانبساط:

وساد المكان صمت يكاد ينطق من سِلَّةِ النهيِّ للطرب. وأومات العالة إلى الجوقة فانطلقت تعزف بشرف عثان بك، وراحت الرموس نذهب مع الأنغام ونغمي، وسَمَّ السيد نفسه لرنين القانون الذي جعل يلدغ قلبه فيشعل فيه أصداء الأنغام المختلفة من عهد طويل حافل بليلالي الطرب كأنها ذَرَاتُ نَفْطٍ تساقط على جمر مكنون، أجل كان القانون أَحَبَّ آلاتِ الطرب إلى نفسه - لا لمهارة العَقاد وحدها - ولكن لَسَرِّ مستلهم من طبيعة أوثاره، ومع أنه كان يعلم أنه يستمع إلى العَقاد أو مِمي عبيد إلا أن قلبه العاشق دارى بعشقه ما قُضِرَ دونه الفن. وما إن فرغت الجوقة من عزف البُشْرِفِ حتَّى انطلقت العالة تنشد والذلي أسكر من عذب اللها فلحقت بها الجوقة في حاس، وكان أجمل ما يطرب فيها صوتان متجاوبان، أحدهما غليظ عريض للمازف الضمير والآخر رقيق يندى بالطفولة لزُنُوبِ العوافة، فحُجَّش صدر السيد بالانفعال فابتدر الكأس الذي بين يديه فأفرغه في جوفه واندفع يشارك في إنشاد التوشيح وقد وشت نبرات صوته - عند مطلع الغناء - يَشْرِقُ في حلقه لاندفاعه إلى الإنشاد قبل أن يتم بلع ريقه، وما لبث أن تشجَّع بقبَّةِ الرفاق فحلوا حلوه وسرعان ما انقلب البهو جوقاً تنشد هن صوت واحد. وليَّما ختم التوشيح بمِيمات روح السيد.. بحكم العادة - لاستيعاب التقاسيم والليالي ولكنَّ العالة ذَلَّتْ الختام بضحكة من ضحكاتها الرئانة معلنة عن سرورها وجهها، ومضت تبتُّ أفراد الجوقة المستجذبن مداعبة وتسالم عن الدور الذي يؤتون ساعاه، وانزعج السيد في باطنه ومَرَّتْ به لحظة كدر امتحن فيها ولعه بالغناء امتحاناً قاسياً لم يفظن إليه كثيرون مَن حوله، ولكنَّه أدرك في اللحظة التالية أنَّ زبيدة ليست كفتاً لتقاسيم الليالي شأن جميع العوام بما فيهنَّ وبِية كثره نفسها، فتصنَّى لو تختار المرأة طفقوفة خفيفة مَما تغني للسيدات في الأفراح، مفضلاً هذا عن محاولة غناء دور من أدوار الفحول ستمعز حتماً عن إجادة ترجيعه، وصمَّم على أن يتغاضى من المتاعب التي تخافها أذنه بأن يقترح أغنية خفيفة تناسب حنجرة الست فقال:

- ما راكُم في عصفوري يا أمه؟
وحججها بنظرة ذات معنى كأنما لثير في نفسها إيماء هذه الطفقوفة التي توجَّت بها حوار تعارفها في حجرة الاستقبال منذ أيام لالال، ولكن جاء صوت من أقصى البهو بصيح سائحاً:

- الأوَّلُ أن تطلبها من أمك! . . .

وسرعان ما ضاع الاقتراح فيما تنفجر من فقهات أفسدت على السيد خطته، وقيل أن يكرِّر المحاولة طلب نفر «يا مسلمين يا أهل الله» وطلب آخرون «سلامتك يا قلبي» ولكنَّ زبيدة التي تحاشت أن ترضي نقمة على حساب أخرى أعلنت أنها ستغنيهم «على رويحي أنا الجاني» فاستقبلت بترحاب حار. ولم يجيد السيد بلداً من توطين النفس على الانبساط مستعيناً بالشراب، وباحلام ليلته الواعدة، فتألَّى فخره بانتسامة وضيفة أدرك بها ركب الشاوي بلا كدر، بل وجد عطفاً على رغبة المرأة في محاكاة الفحول إرضاء لستمعها الراسخين في السماع وإن لم يُقَلَّ حلماً من غرور تألفه الغواني. وفيها تنهت الجوقة للغناء بمض أحد الرفاق وهتف بحماس:

- دعوا الدف للسيد أحمد فهو به خيريا
فهزَّت زبيدة رأسها عجباً وتساملت:

- حقاً؟!

فحرك السيد أصابعه في سرعة ورشاقة كأنما يعرض عليها مثلاً من صنعه فقالت زبيدة باسمه:

- فيمَّ المعجب وأنت تعلمي جليلة؟
وضحك السادة في غير ما تحمَّط، وتواصل الضحك حتَّى علا صوت السيد الفار وهو يسأل السلطانة قائلاً:

- وماذا تنوين أن تعلِّمي أنت؟
فقالت بلهجة ذات معنى:

- سأعلِّمه القانون. . . ألا يروك هذا؟
فقال السيد باستعطاف:

- علِّمني الهنك إن شئت.

وحثَّ كثيرون السيد على الانضمام إلى التخت وأخذ الدف فيا كان منه إلا أن نهض وخلع الجبَّة فيدا بطوله وعرضه في القفطان الكموني كجواد يقف

بلغت الخمر بالضرب عهايته ونثرت الشهوات نثرًا
فتركهم كأدواح راقصة في حومة عاصفة هوجاء.

ورويًا رويًا شارف الدور الحتام وراحت زبيدة
لحتمه مرقد نفس المطلع الذي افتتحت به وهو وعلى
روحي أنا الجاني، ولكن بروح يوحى بالدعة والتذكير
والوداع والنهاية، وغابت الأنغام كما تغيب طيارة
بحبيب وراء الأفق. ومع أن الحتام قويل بمصافه من
التهليل والتصفيق إلا أنه سرعان ما ساد القاعة صمت
ذل على همود أنفاس أعيائها الجهد والانفعال، وضمت
فترة لم يسمع فيها إلا سعلة أو نحنة أو حكة عود
ثقاب أو كلمة لا تستحق المراجعة، وقال لسان الحال
للمدعوين «تفضلوا بإسلام» فلاحت من بعضهم
نظرات إلى قطع الثياب التي تحفّفوا منها في فورة
الطرب فوضعوها وراءهم على مساند، ولكن البعض
الأخر ممن تملكت نفوسهم بحلاوة السهرة أبوا أن
يفادروها حتى يرشقوا آخر قطرة متاحة من الرحيق،
فصاح أحدهم:

- لا نبرح حتى نرّف السلطنة إلى السيد أحمد.

وقويل الاقتراح بترحاب وثايد، هل حين أغرق
السيد والعالمة في الضحك غير مصدّقين، وما يديران
إلا ونفس من الصحاب يمحيطون بها ويهضونها ثم
يشيرون إلى الجوقة لتشرع في النشيد السعيد.

وقفا جنبًا لجنب، هي كالحيل وهو كالجمل،
عملاقين ملقّنين بالحسن، ثم تأهّلت في دلال ذراعهم
وأشارت إلى المحدثين بها ليفسحوا الطريق. ونفرت
الدقاقة على الدفّ فانطلقت الجوقة وكثرة من المدوّين
يرقدون نشيد الرقة «انظر بينك يا جميل» ومضى
العروسان في خطو وثيد يتبختران طربًا وسكرًا فلم
تتملك زنوبة مع هذا المنظر إلا أن تمسك عن اللعب
بأوتار العود ريثا تطلق زغرودة مججلة طويلة النفس
لوحسدت ليلت لسانًا متعرجًا من لب يشقّ الفضاء
كالشهاب. وتسايق الأصدقاء يزجون النهائي تباغًا:

- بالوفاء والبنين.

- فزّة صالحة من الراقصات والمغنيات.

وصاح به أحدهم عكّزًا:

مستوفزًا على رجلبيه الخلفيتين، ثم شمر عن ساعديه
ومضى إلى الديوان ليخّذ مجلسه إلى جانب الست،
ولكي تنفس له قامت نصف قومة مترحّلة إلى اليسار
فانحسر الفستان الأحمر عن ساق لحية مرتوية بيضاء
مشرية بلون وردّي من أثر الحفّ والتفّ عجل أسفلها
بخلخال ذهبي أعيا ضمّها ذراعيه، ورأى بعضهم ذاك
المنظر فصاح بصوت كالرعد:

- نحيا الخلافة!

وكان السيد ينمز ثديي المرأة بعينه فهتف وراءه:

- قل ليما الصدر الأعظم.

فصاحت العلة عكّزة:

- خفّضوا أصواتكم أو يبيّنا الإنجليز في السجن.

فهتف السيد الذي لعبت الخمر برأسه:

- أذهب معك مؤيّدًا مع الشغل.

وعلا أكثر من صوت يقول:

- لا عاش من يترككما تلهبان وحدكما.

وأرادت المرأة أن تحسم النزاع الذي أثاره منظر
ساقها فمدّت يدها بالدفّ إلى السيد وهي تقول:

- أربي شطارتك.

وتناول السيد الدفّ، ومسح عليه براحته مبتسمًا،
وبدأت أصابعه تنقر عليه في مهارة على حين انطلقت
آلات الطرب عازفة، ثم عثّت زبيدة وهي ترنو إلى
الأعين المحدقة إليها:

على روحي أنا الجاني

ونجّلي في الهوى رماني
ووجد السيد نفسه في موقف عجيب، تنفّر إليه
أنفاس السلطنة بين اللقطة واللقطة فتلتقي بإشعاعات
الخمر المتطايرة من يافوخه بين الحسوة والحسوة، فما
أسرع أن غابت عن وعيه أصداء الحامولي وعشّان
والمنيلوي، وعاش في لحظة الراهنة قائمًا سعيدًا، ثم
سرى إليه من نبرات صوتها ما حرّك أوتار قلبه فاستمر
نشاطه ولعب بالدفّ لعبًا لا يدانيه المحترفون، وما
بلغت المرأة في الغناء قولها «أمانة يا رايح بمه تبوس لي
الحلو من فمه» حتى كان من النشوة في سكرة عاتية
ملهمة مدغدغة عميقة، ولحق به الرفاق أو سبقوه إذ

- لا تؤجل عمل اليوم إلى غد.

ولم تزل الجوقة تواصل الإنشاد، والأصدقاء يلوحون بأيديهم مودعين، حتى توارى السيد والمرأة وراء الباب القضي إلى داخل الدار.

١٧

كان السيد أحمد جالساً إلى مكتبه بالدكان حين دخل ياسين على غير انتظار، ولم تكن زيارة غير منتظرة فحسب، ولكنها كانت قبل كل شيء غير مألوفة، إذ لم يكن من الطبيعي أن يزور القى أباه في دكانه على حين يتحاشاه على قدر استطاعته في بيته، وإلى هذا بدا شاردا للب ساهم النظرة... وأقبل على أبيه مكتفياً برفع يده إلى رأسه بطريقة آلية دون أن يلتزم ما يلتزم عادة بمحضه من أدب بالغ وخضوع كأنما نسي نفسه، ثم قال بلهجة شتت عن شلبد تأثره:

- السلام عليكم يا أبي، جئت لأحدثك في أمر هام...

ورفع السيد إليه عينيه متسائلاً وقد ساوره قلق استعان على إخفائه بقوة إرادته ثم قال بملء:

- خير إن شاء الله...

وجاء جميل الحمزاوي بكرسي وهو يرحب بمُعلمه فأمره والده بالجولس فقرأ الشاب الكرسي من مكان أبيه وجلس، وبدأ لحظات كالتردد، ثم زفر شائراً بتردده وقال بنبرات منهذجة وفي اقتضاب مؤثر:

- المسألة أن أمي شارعة في الزواج...

ومع أن السيد توقع خبراً سيئاً إلا أن خياله لم يجنح في جولته التشاؤمية إلى تلك الناحية التي أودعها ركناً مهجوراً من ماضيه، لذلك لقيت منه المفاجأة صيداً غافلاً، وسرعان ما قطب كما يقطب كلياً عرض له عارض من ذكريات زوجه الأولى، وتولاه لذلك ضيق، ثم انزعاج لما يمس ابنه مباشرة في مصم كرامته، وكشأن السائلين الذين يلغون السؤال لا ليعرفوا جديداً ولكن ليلتمسوا منفذاً للنتيجة من الواقع وهم ياتسون، أو ليهيئوا لأنفسهم مهلة للتروي وممالك الأعصاب، ومساءً:

- ومن أدراك بهذا؟

- قريباها الشيخ حلي، زارني اليوم بمدرسة التحاسين وألقى علي الخبر مؤكداً بأنه سيتم في ظرف شهر...

الخبر حق لا ريب فيه، وما هو بالأول من نوعه في حياتها، ولن يكون الأخير إذا اتخذ الماضي مقياساً للمستقبل، ولكن أي ذنب جناه هذا الشاب ليلقى هذا الجزاء الصارم المتجدد الأذى؟! ووجد الرجل نحو ابنه رثاء وعطفاً، وعز عليه أن يقف من آلامه موقف المعجز وهو الذي يقصده الناس في الملتات، وتساءل فيما بينه وبين نفسه ماذا تكون حاله لو كان هو المبطل بهذه الأم... فأتقه صدره وتضاعف رثاؤه وعطفه نحو ابنه، ثم شعر برغبة تدفعه إلى السؤال عن ذلك الزوج المنتظر، ولكنه لم يستسلم لها، إنما لأنه أشفق من أن يزيد جرح ابنه عمقاً وأثماً وإما لأنه أنكرها على نفسه لما أنس بها من حب استطلاع، لا يليق بالمرأة الراحنة، موجه إلى المرأة التي كانت زوجاً له، بيد أن ياسين قال متفعلاً من تلقاء نفسه وكأنه يجيب خاطرته:

- ونحن نتزوج!... من شخص يدعى بعقوب زينهم صاحب مخبز في الدراسة... في الثلاثين من عمره!

واشتد انفعاله وهدج صوته وهو ينطق العبارة الأخيرة كأنما لفظ شطية، فانتقل إحساسه إلى أبيه تفرزاً واشمئزازاً، وجعل يردد في سره: في الثلاثين من عمره... يا له من عمل فاضح... إنه فسق في ثياب زواج... غضب الرجل لغضب ابنه، وغضب لحساب نفسه هو كما اعتاد أن يغضب كلياً ترامي إليه نبأ من مباحها كأنما يتجدد شعوره بتمتته في اعتبارها يوماً زوجة له، أو كأنما يعز عليه - ولو بعد مرور ذاك الزمن الطويل - أنها أفلتت من تأديبه والإذعان لسنته! وأنه ليلذكر أيام معاشرته لها - على قصرها - كما يذكر الإنسان حفي هاضته، وزمناً كان مغالياً في تصوره، ولكن رجلاً في مثل اعتدائه بنفسه جدير بأن يرى في مجرد الرغبة عن الإذعان لمشيته جريمة لا تغتفر ومزمنة

فقال ياسين في حزن وقنوط:

- ولكنّها شيء كائن يا أبي!... ومهما يكن من أمر
تعاملنا فلن نزال أتّي إلى ما شاء الله، سواء في نظري
أم في نظر الناس جميعاً... لا مقرّ ولا خلاص...
ونفخ الشاب من الأصبغ، ورنّا إلى أبيه بعينه
السوداوين الجميلتين - اللتين ورثهما عنها - في استغاة
صارخة وكأنّه يقول له: «إنّك أبي الجبار القادر فمُدّ لي
يدك»، فيلج التائر بالسيد غايته ولكنّه وأصل تظاهره
بالملوءه القرون بالاستهانة قائلاً:

- لا أنكر عليك تلك ولكنّي أنكر عليك أن تغالي
فيه، كذلك يطب لي أن أعزّك على غضبك ولكنّ
قليلاً من العقل حريّ بأن يركك بلا هناء، سائل
نفسك في هدوء ماذا عليك من زواجها؟... امرأة
تتزوّج، كما تتزوّج النساء كل يوم وكل ساعة، وليست
هي بالتي تحاسب على مثل هذا الزواج لما سلف من
سلوكها، بل لعلّها خليقة بأن تشكر عليه، وكما قلت
لك مراراً لن يرتاح لك بال حتّى تسقطها من حسابك
كأنّها لم تكن، فافعل بالله وأرح نفسك، وتعرّض
مها من أمر القيل والقال - بأنّ الزواج علاقة
مشروعة... شريفة...

قال السيد هذا بلسانه فحسب - إذ كان يناقض كل
للمناقضة ما طبع عليه من غيرة متطرّفة ليسا يتصل
بالآداب المطلقة للأسرة - ولكنّه قال بحرارة كالصديق،
منشؤها ما مارسه من لباقة أهله لأن يكون الحكم
الحكيم ووسيط الخير الذي لا يعجزه فضّ نزاع بين
الناس، ومع أنّ كلامه لم يضع هباء - حيث أنّه من
المستحيل أن يضع كلام للسيد هباء حيال أحد من
أبنائه - إلّا أنّ غضب الفتى كان أعصم من أن يشتر
بنفخة واحدة فوقع منه موقع قدح بارد من إبريق بللاء
المغلّي، وما ليث أن خاطب أباه قائلاً:

- هو علاقة مشروعة حقّاً يا أبي ولكنّها تبدو أحياناً
أبعد ما تكون عن الشرع، إنّي أسألك نفسي عمّا يدفع
هذا الرجل إلى الزواج منها؟!

وبالرغم من خطورة الحال قال السيد لنفسه في
شيء من السخريّة «أولى بك أن تسأل عمّا يدفعها

قائلة. ثمّ إنّها كانت - ولعلّها لا تزال - جميلة مترعة
أنونة وجلديّة فيصم بمجاشرتها أشهراً حتّى بدا منها شيء
من المقاومة لإرادته التي نزع إلى فرضها على المتصلين
به من آله، ولم ترّ بأشاً في الاستمتاع بالحرّيّة ولو بالقدر
الذي يتّيح لها زيارة أبيها من أنّ لأنّ، فغضب السيد
وحاول منعها بالزجر أوّلًا ثمّ بالضرب المبرّح أخيراً، فما
كان من المرأة المدلّلة إلّا أنّ فرّت إلى والدتها وأعمى
الغضب الرجل المتصجرف فظنّ أنّ خير سبيل إلى
تأديبها وإرجاع عقلها إلى رأسها هو أن يطلقها إلى
حين - إلى حين طبعاً لأنّه شديد التعلّق بها - فطلقها،
وتظاهر بإسلامها أيّاماً وأسابيع وهو ينتظر أملاً أن يعييه
وسيط خير من أمّها، فلمّا لم يطرق بابها أحد داس
كبرياءه ويحثّ هو عن يمسّ النبض تمهيداً للصالح فعاد
الرسول يقول إنهم يرحّبون به على شرط ألاّ يسجنها أو
يضرها... ولكنّه كان ينتظر موافقته بلا قيد ولا
شرط فنار غضبه ثورة عاتية وأقسم فيها بينه وبين نفسه
ألاّ يضمّنها رباط إلى الأبد. وهكذا ذهب كلاهما إلى
حال سبيله، وهكذا قضى على ياسين أن يولد بعيداً
عن أبيه وأن يلقى من حياته في بيت أمّه ما لقي من
ضروب الملّة والألم...

ومع أنّ المرأة تزوّجت أكثر من مرّة، ومع أنّ الزواج
كان - في نظر ابنها - أشرف مسقطاتها، إلّا أنّ هذا
الزواج الجديد للتوقّع بدا أظلم من سوابقه وأعمى في
الإيلاج، لأنّ المرأة استوت على الأربعين من ناحية،
ولأنّ ياسين اكتمل شاباً مدركاً بوسمه إذا شاء أن يدفع
عن كرامته الإساءة والهاون من ناحية أخرى، فقد
جاوز إذن موقفه القديم الذي ألزمه إياه حدائنه سنّه
حين كان يتلقّى الأبناء المشيرة عن أمّه باللمش
والانزعاج والبكاء إلى موقف جديد بدا فيه أمام نفسه
رجلاً مسلولاً، لا يصحّ له أن يلقى الإساءة مكتوف
اليدنين. دارت هذه الحواطر بذهن السيد، وقدر
خطورتها بقلوب، ولكنّه صمّم على التهوّن من شأنها ما
وسمته الحيلة ابتعاداً بابه الأكبر عن المتاعب، فهزّ
كتفيه العريضين مظاهراً بالاستهانة وقال:

- ألم تعاهد على اعتبارها كشيء لم يكن!؟...

نفسها!... ولست أجهل ما حشرت بينك وبينها من قطعة كانت بها - ولا تزاك - خليقة، بل الحق أتي لا ارتياح إلى أن تصل ما تقطع بينك وبينها لولا ما استجذ من أعداء قهرية، فلضرورة أحكام، ومهما يشق عليك الرجوع فهو رجوع إلى أمك، ومن يدري فلعل ظهورك المفاجيء في أفقها يردّها إلى شيء من الصواب...

وبدا ياسين أمام أبيه، كالوسيط أمام المنوم المغناطيسي في اللحظات التي تسبق ما يوحى به إليه، ذاهلاً صامتاً، فوشى حاله بنفاذ تأثير الرجل إلى نفسه، أو لعله دلّ على أنه لم يفتأ بهذا الاقتراح، وأنه يحتمل أن يكون ممّا دار بنفسه قبل مجيئه، بيد أنه تمتم قائلاً:

- أليس ثمة حل أوفى...؟

فقال السيد بقوة ووضوح:

- أراه أوفى الحلول...

فقال ياسين وكأنه يحدّث نفسه:

- كيف أرجع إليها؟!... كيف أزجّ بنفسي في ماضٍ فررت منه وليس أحبّ إليّ من أن أيسر من حياتي بترّاً... لا أمّ لي... لا أمّ لي... ولكن بالرغم من مظاهر قوله شعر السيد بأنّه وفّق إلى جذبته إلى رأيهِ فقال بلباقة:

- هذا حقّ، ولكن لا اظنّ أنّ ظهورك أمامها فجأة بعد ذلك الغياب الطويل يغيي بلا أثّر، لعلّها إذا رأتك بين يديها شائِباً ناضجاً أن تتحرّك أُمومتها فتجفّل ممّا عساه يسيء إلى كرامتك وتعذلّ عن سيرتها... من يدري؟! فطامن ياسين رأسه خارقاً في أفكاره، غير مبالي بما دلّ عليه من ضيق وبأس، كان يرتعد خوفاً من وقوع الفضيحة، ولعلّ هذا كان انطباع ما يكرّبه ولكنّ خوفه على ضياع الثروة التي ينتظر أن يرثها يوماً لم يكن دون ذلك، وما عسى أن يفعل؟!... مهما يقلّب أوجه الرأي فلن يجد حلاً أوفى ممّا ارتأى أبوه، بل إن صدور الرأي عن أبيه البسه في نظره - على تقلّل حاله - وجاهة وأخفاء هو من مهموم كثيرة. ليكن... هكذا قال في نفسه، ثمّ قال مخاطباً أباه:

- كما ترى يا أبي...

هي!»، وقبل أن يحاور ابنه واصل ياسين حديثه قائلاً:

- إنّه الطمع... ولا شيء غيره!

- أو لعلّها رغبة صادقة في الزواج منها...

ولكنّ الشابّ حاج ناثره وهتف في حقّ وألم ممّا:

- بل الطمع وحده...

وبالرغم من خطورة الموقف لم تخفّ على السيد حدّة اللهجة التي خاطبه بها ابنه، بل لم يتخلّ الرجل من ضيق إلى تقديره لحاله وحزنه أن يعود إلى تأكيد قوله السابق، فلمّا لم يفعل استطرد قائلاً في هدوء نسبي:

- إنّ ما يدفعه إلى الزواج من امرأة تكبره بعشرة أعمار هو الطمع في مالها وعقارها...

وجد السيد في تحوّل النقاش إلى هذه النقطة فائدة لم تغب عن ألميته، فهو ينزع الفخ من تركيز تفكيره في أمور أشدّ حساسية وأبعث للألم ويحسبه أن يصرفه عن النظر فيما يدفع أمّه إلى الزواج إلى ما يدفع الرجل، وإلى هذا كلّهُ لم تخفّ عليه ما في رأي ابنه من وجاهة لها يمتلئ بالزواج فسرّحان ما اقتنع به وشاركه خاؤه فيه. أجل إنّ هيبة - أمّ ياسين - شنيعة لدرجة لا بأس بها، وقد سلمت لها ثروتها من العقار على ما خاضعت من تجارب الزواج والهووى، بيد أنّها كانت فيما مضى شابةً حسنة ذات سحر وسلطان، يخاف منها ولا يخاف عليها، أمّا الآن فبعيد عن الاحتمال أن تملك نفسها - فضلاً عن أنفس الآخرين - ما ملكت، وإذن فثروتها خليقة بأن تبيدّ في معركة الغرام التي لم تعد من زمامها، وإنّة لحرام وأيّ حرام أن يخرج ياسين من جعبهم هذه الماسة جريح الكرامة وصفر اليدين، وقال السيد مخاطباً ابنه وكأنّه يحاور نفسه ويستلهمها الرأي:

- أراك على حقّ يا بنيّ فيما نقول، إنّ امرأة في سنّها صبيد يسير خليق بأن يغري الطامعين من البشر، فما عسى أن تفعل؟ انتلّس سبيلاً إلى ذاك الرجل لنحمله على العدول عن منسراته؟!... إنّ الحملة عليه بالوعد والتهديد سلوك لا ترتضيه آدابنا وما عرفنا به بين الناس، كذلك التوسّل إليه بالرجاء والافتناع مهانة لا تهنّمها كرامتنا... فلم يبق أمامنا إلّا المرأة

صاحبها ويقول «نية تطلب منك أن تحضر الليلة»، أو كأنه يراه وهو عائد بقرطاس الفاكهة ضاحك الأساير، أو وهو يلتفت نظر أمه في الطريق إلى الرجل فتجذبه من ذراعه بعيداً أن يلتفت إليها الأنظار، أو وهو ينشج باكياً أمام منظر الافتراس الوحشي الذي يخلقه خلقاً جديداً - كلياً ورد على ذهنه - على ضوء تجاربه الراهنة فينقلب البشاعة نفسها، طفتت الصور الملتهبة تطارده وهو يجتهد في الفرار منها، ولكنه ما إن يتملّص من قبضة إحداهما حتى يقع في قبضة الأخرى، مطاردة عنيفة وحشية أثارت في أعماقه بركان الحق والحقد فواصل السير إلى غايته وهو على أسوأ حال «كيف أمرق إلى العطفة وعلى رأسها هذا الدكان... وهذا الرجل. أتراه بموقفه القديم منه...؟ لن ألفت نحوه، أيّ قوة مأكرة تغريفي بالنظر، أيعرفني إذا التقت عينانا؟... إذا بدا منه أنه عرفني قتلت. ولكن كيف له أن يعرفني؟... لا هو ولا أحد من الحي، أحد عشر عاماً، تركته غلاماً وأعود إليه ثوراً ذا قرنين! ثم لا تواتينا القوة على إبادة الحشرات السامة التي لا تنفك تلدغنا...؟»

ومال إلى العطفة مسرعاً بعض الشيء، متخيلاً القوم وهم يستطلعونه بأنظارهم متسائلين «أين ومي رأينا هذا الوجه!»، ورفي في الطريق للتصاعد في غير استواء، جامعاً عزمه على نقض الغبار الخائق عن وجهه ورأسه ولو إلى حين، وتشجيعاً لعزمه فر بنفسه بعيداً وراح يتأمل ما حوله ويحدث نفسه قائلًا: «ولا تضيق بالطريق المحب فكم كنت تفرح به صغيراً وانت تترحلن على منحدره فوق لوح من الخشب!» بيد أنه صاد يقول حين تراه له جدار البيت: «إلى أين أسير؟... إلى أمي!... يا للعجب! لا أصق، كيف ألقاها وكيف تلتقي؟... وددت لو...» ومال يميناً إلى عطفة مسدودة ثم أنجهم إلى أول باب في جانبها الأيسر. هو البيت القديم بلا أدنى شك، قطع الطريق إليه كما كان يقطعه وهو صغير، بلا تردد أو تساؤل وكأنه ما تركه إلا أمس القريب، ولكنه اتحمم بابه هذه المرة باضطراب غير مهود، ورفي في السرج

لما بلغت به قدماء طريق الجليّة انقبض صدره حتى شعر بأنه يخنق. لقد غاب عنه أحد عشر عاماً. أحد عشر عاماً تصرّمت فلم ينازعه القلب إليه مرة واحدة، أو ترف عليه ذكرى من ذكرياته إلا في حالة فائمة مقبضة نسج وشيها من مادة الكابوس، والحق أنه لم يكن غادره ولكن واثته فرصة ففر منه فراهاً، ثم ولّاه ظهره غاضباً بالأساء، ثم تجتبه بكل قوة فلم يعرفه بعد ذلك كخاية في نفسه أو معبراً إلى سواء من الأحياء بيد أنه هو الحي كما عهده في طفولته وصباه، ولم يتغير منه شيء، ما زال ضيقاً تكاد تسدّه عربة يد إذا اعترضت سبيله، وها هي بيوتة تكاد لتتماش مشربياتها، ودكاكينه الصغرية في تلافيفها وزحمتها والطين الصادر عنها كخلايا النحل، وأرضه التربة بفجواتها المفعمة وحلّاء وغلمايه الذين ينشون جوانبه وطبعون على أديمه آثار أقدامهم الخافية، وسابله الذين لا ينقطع لهم تيار، ومقل عمّ حسن ومطعم عمّ سليمان، كل أولئك باقي كما عهده فتكاد ترف على شفتيه ابتسامة حنان يريد نثر طفولته أن يفتّر عليها لولا مراوة الماضي وسقم الحاضر...

وترأت لعينيه عطفة قصر الشوق فحنق قلبه بقوة حتى كاد يصمّ أذنيه، ثم لاحظ على رأس منعطفها الأيمن سلال البرتقال والتفاح منصبة على الطوار أمام دكان الفاكهة فعصّ شفتيه وغضّ طرفه في حزني. الماضي ملئع بالعار، مدفون الرأس في الطين من الخجل، دائم الجار بالشكوى من الحزني والألم، ولكنه كله في كفة وهذا الدكان في كفة وحده، بل أنه يرجع به، إذ أنه رمزه الحيّ الباقي على الزمن. جمعت في صاحبه وسلاله وفاكهته وموقعه وذكرياته الحزني متبجحاً، والألم ناطقاً بالهزيمة مولولة. وإذا كان الماضي أحداثاً وذكريات هي بطعمها عرصة للتخلخل أو النسيان فهذا الدكان يقوم شاهداً جسدياً يكشف غلخله ويفضح منسيه. وكان كلما تقمّ من المنصطف خطوة تفهقر عن الحاضر خطوات طاولاً الزمن على رغم إرادته وكأنه يرى في الدكان «غلاماً» يرفع رأسه إلى

والباشجوش. وركبه توتّر وضيق فأدرك أنّه لم يعطرك باب البيت القديم فحسب ولكنّه نكأ جرحاً متورّماً وغاص في قيحه. ولم يطل انتظاره، ولعلّه جاء أقصر ممّا يتصوّر، إذ ابتدر أدنيه وقع أقدام متتابعة متدافعة، وصوت يتردّد عاوراً نفسه بكلام علا جرسه ولم يستين ألفاظه، ثمّ أحسّ بها - وهو لم يزل مولّي الباب ظهوره - وضلّفة الباب المغلقة تطلق تحت صدمة منكبها، ثمّ جاءه هتافها وهي تقول بأنّفسا مبهورة:

- ياسين!... ابني!... كيف أصلّقت عيني؟!... ربي... صار رجلاً!...

وتدافع الدم إلى وجهه المكتنز، واستدار نحوها في ارتباك وهو لا يدري كيف يلقاها ولا كيف يكون اللقاء، ولكنّ المرأة أصفته من تدير أمره فهرعت إليه واحتوته بذراعيها وضمت إليه بشدة عصبية وراحت تقبّل صدره - وهو غايه ما وسع شفتها أن تبلغه من جسمه المنتصب - ثمّ اختفت نبراتها واغرقت عيناها فدفنت وجهها في صدره مستسلمة ملياً ريثما تستردّ أنفاسها. لم يكن حتّى تلك اللحظة قد أتى حركة أو نظير بكلمة، ومع أنّه شعر شعوراً عميقاً بأنّ جهوده أشدّ من أن يجتمل إلا أنّه لم يلد منه ما ينم عن حياة: أيّ حياة، فلازم جهوده وخروسه، بيد أنّه كان متأثراً غاية التأثير وإن لم يتضح له نوع التأثير بادئ الأمر بحال يطمئنّ إليها، ولكنّه، على حرارة استقبالها، لم يجد رغبة للارتقاء في حضنها أو تقبيلها، لعلّه لم يستطع أن ينزع الذكريات المحزنة الناشئة في نفسه كعرض مزمن رافقه منذ الصبا، ومع أنّه وجّه إرادته بعزم وتصميم إلى إخملاء المسرح من الماضي في اللحظة الراهنة ليملك فكره وحكمته، إلا أنّ الماضي المطرود انمكس على صفحة قلبه ظلالاً قاتمة كلبادية نشت عن الفم بعد أن خلّفت وراءها جثوة تسمي، فأدرك في ذلك الموقف الرهيب أكثر ممّا أدرك في ماضيه كلّ الحقيقة المحزنة التي طالما أدمت فؤاده وهي أنّ أمّه قد اقتلعت من صدره. ورفعت المرأة رأسها إليه وهي تدعوه إلى تقريب وجهه فلم يستطع الإباء وأذن وجهه منها فقبّلت في خديّه وجبينه، التقت أثناء العناق عيناها

بخطوات ثقيلة بطيئة. وبالرغم من قلقه وجد نفسه يتضمّنه باهتمام مطابقاً بينه وبين صورته المحفوظة في خياله فألفاه أضيق قليلاً ممّا في ذاكرته وقد تاكلت بعض جوانبه وتهدّمت أجزاء صغيرة من أطراف درجاته المطلّة على بشر السلم، وسرعان ما حجبت الذكريات الحاضر كلّ. ومزّ وهو على تلك الحال بالدورين المأجورين حتّى انتهى إلى الدور الأخير، ووقف لحظات يتضمّن صدره يعلو وينخفض، ثمّ هزّ منكبيه كالسنتين ونقر على الباب، وبعد دقيقة أو نحوها فُتح الباب عن وجه خادم متوسطة العمر ما إن تبيّنت فيه رجلاً غريباً حتّى توارت وراء الباب وهي تسأله في أدب عيّا يريد. وثارت أعصابه فجأة وبلا داعٍ معقول لما بدا من الخادم من جهل بشخصه فدخل بأقدام ثابتة وانحى نحو حجرة الاستقبال وهو يقول بلهجة امرأة:

- قولي لسكّ ياسين هنا...

وترى ماذا نظنّ الخادم بي؟!... والتفت ورامها فوجدتها مسرعة إلى الداخل، إمّا لأنّ فجأة الأميرة غلبتها على أمرها، وإمّا... وعضّ على شفتيه وهو يمرق إلى داخل الحجرة. إمّا حجرة الضيوف كما قدّر بلا وعي في هوجته وحذته ولكنّ ذاكرته كانت تعرف أركان البيت بلا دليل، ولو وجد في طرف غير الظرف لطاف مسترجعاً ذكرياته من الخُلم الذي كان يُجمل إليه وهو يبكى إلى المشرّبة التي كان ينظر من وراء نقوبها إلى موكب الزّفة مساء وراء مساء. ترى أأنّك الحجرة الراهن هو أنثى الماضي البعيد؟

إنّه لا يذكر من الأثاث القديم إلا امرأة طويلة جثت في حوض ملتبّ تنبثق من ثغرات في سطحه ورود صناعيّة بخلفه الألوان، وتكرّر في زاويتي التّباعدين فناير تتدنّى من اعتناقها أهلة بلورية طالما ولع بالعبث بها والنظر خلالها إلى المكان فيلوح في حلق غريبة يذكر إغرامها وإن غاب عنه منظرها، ولكن لا داعي للتساؤل، فأنثى اليوم غير أنثى الأمس، لا بلجته فحسب، ولكن لأنّ حجرة امرأة مزواج خليفة بأن تغتبر أو تتجذّد، كما تغتبر أبوه، وتاجر الفهم،

فلثم جبينها تأثراً بارتباه وحياله لا لعاطفة أخرى، ثم سمعها تنغم:

- قالت لي ياسين هنا، قلت ياسين! من يكون هذا؟! ولكن من يكون غيره؟ ليس لي إلا ياسين واحد، ذاك الذي حَرَمَ بقي على نفسه وحَرَمَ نفسه عليّ، فهاذا حدث؟ وكيف استجيب الدعاء آخر الدهر؟! وجئت عدوًّا كالجنونة لا أصدّق أذني، وما أنت، أنت دون غيرك والحمد لله، تركتني غلامًا وعدت إليّ رجلًا، كم قتلي الشوق إليك وأنت لا تحسن لي وجودًا...

وأخذته من ذراعه إلى الكتبة فمضى معها وهو يسائل نفسه متى تنحسر هذه الموجة الطاغية من الاستقبال الحارّ حتى يبتين الطريق إلى هدفه، وجعل يسترق إليها النظر في استطلاع مقرون بالدهشة والقلق... كأنها لم تتغير إلا أن يكون جسمها قد زاد امتلاءً ولكنّه لا يزال محافظًا على حسن تقطيعه، أما الوجه القمحيّ المستدير والعيان السوداء المكوّلتان فعل سابق عهدهما تقريبًا من الفسامة الباردة. ولم يرتح إلى ما رآه على صفحة الوجه والعتق من زوايا كأنه كان ينتظر أن تتغير أحوال القطيعة من دأبها القديم على العناية بنفسها ولعمها بالتبرّج لداعٍ ولغير ما داعٍ أي حقّ في تلك الأوقات التي تخلو فيها إلى نفسها.

وجلسا جنبًا إلى جنب وهي تحلّق إلى وجهه بحنان ثارة وتقيس طول وعرضه بعينين معجبتين تارة أخرى ثم تمتمت بصوت متهذّب:

- آه يا ربّي لا أكاد أصدّق عينيّ، أنا في حلم، هذا ياسين! أيّ عمر ذهب هباء، كم دعوتك ورجوتك، وبعثت إليك الرسول تلو الرسول، ماذا أقول?... دعني أسألك كيف قسا قلبك عليّ لهذا الحدّ?... كيف اعرضت عن دعواتي الحارّة؟ كيف تصامت عن نداء قلبي المكروب?... كيف... كيف... كيف نسيت أنّ لك أمًا مزوجة هنا؟

ووقف انتباهه عند الجملة الأخيرة فوجدتها غريبة تدعو إلى السخرية والرائء ممّا، وكأنّها أفلتت منها في دھول الانفعال، أجل يوجد شيء وأشياء، تذكره

صباح مساء بأنّ له أمًا، ولكن أيّ شيء وأيّ أشياء؟! ورفع إليها عينيّه في حيرة دون أن ينس فالتفت عيناها لحظة، وابتدرته المرأة قائلة:

- لماذا لا تتكلّم؟

فخرج ياسين من حيرته بتندّة مسموعة ثم قال وكأنّه لم يجد بدًّا ممّا قال:

- ذكرتك كثيرًا، ولكنّ الأمي كانت أظف من أن تطلق.

وقبل أن يتمّ كلامه كان السور الذي ينبعث من نظرتها قد خد، واحتلّت الحديثين غيمة خبيّة وفور ساقته رياح تهبّ من جوف الماضي الأسيف، فلم تعد تطيق التحديق في عينيّه وخففت جفניה وهي تقول بلهجة حزينة:

- ظننتك برئت من أحزان الماضي، وإثّا علّم الله لا تستحقّ بعض ما أوليتها من غضب حلك على هجري أحد عشر عامًا.

وعجب لعتابها عجبًا أحقّه، واستنكره استنكارًا ذرّ على غضبه المكتوم فلفلاً فافعل انفعالاً لولا القصد الذي جاء من أجله لئلا يركانه، أتعني المرأة حقًا ما تقول؟ أهان عليها ما فعلت لهذا الحدّ؟ أم تظنّ به الجهل بما كان؟! يبدّ أنّه ضبط أعصابه بقوة إرادته التي لم تفعل عن هدفها وقال:

- تقولين إثّا لا تستحقّ غضبي?... أراها تستحقّ الغضب كلّ الغضب وأكثر.

فتركت ظهرها يسقط على مسند الكتبة كشيء تهلم، ورمته بنظرة بين العتاب والاستعطاف قائلة:

- ما وجه العيب في أن تتزوّج امرأة بعد طلاقها؟ فشعر بنيران الغضب تتلجج في عروقه وإن لم تبدّ منها آثار إلا في انطباع شفّيته ثمّ التصاهق، لا زالت تتكلّم ببساطة كأنّها مقتعة على يقين ببراءتها!...

وتسأله عن وجه العيب في أن تتزوّج امرأة بعد طلاقها، حسن، لا عيب في أن تتزوّج امرأة بعد طلاقها، أمّا أن تكون المرأة أمّه فهذا شيء آخر، شيء آخر جدًّا، وأيّ زواج الذي تعنيه?... إنّه زواج وطلاق ثمّ زواج وطلاق ثمّ زواج وطلاق... هناك

ما هو أدهى وأمر، ذلك «الفكهاني»...! أبدعها به؟... أبصعها بما في نفسه من مر ذكرياته؟ أبصارها بالله لم يعد جاهلاً كما نظن؟ وأرغمته حنة الذكريات على الخروج عن اعتداله هذه المرة فقال بامتعاض شديد:

- زواج وطلاق، زواج وطلاق، هذه أمور شائعة لم تكن لتليق بك، ولشد ما مرقت نياط قلبي بلا رحمة...

فشبكت ذراعها على صدرها في استسلام اليباس وقالت بإشفاق حزين:

- إنه سوء الحظ ولا شيء غيره، إني سيئة الحظ، هذا كل ما هنالك.

فبادرها قائلاً، وقد تقلصت أساريره وانتفض لغده لفظ الكلمات كأنها يلفظ مستحيثاً تعافه النفس:

- لا تحاولي أن تترثي ساحتك فيما يزيدني هذا إلّا ألساً على ألم، من الخير أن نسدل على آلامنا ستاراً يخفيها ما دنا لا نستطيع أن نمحوها من الوجود عوّاً. ولاذت بالصبم على كرهه والقلب يشفق إشفافاً شديداً من هاليج الذكريات على طيب اللقاء وما بهته في نفسها من آمال، وجعلت تلحظه بقلبي كأنها تستخبر عيّا يطوي عليه صدره، فلما نقل عليها صمته قالت متشجّية:

- لا تلجّ في تعديبي وأنت وحيدتي.

ووقع الكلام من نفسه موقعاً غريباً كأنما يكشف له لأول مرة، بيد أنه وجد فيه باعثاً جليداً للهِياج والتوتر، إنه ابنها حقاً، إنها أمه الوحيدة كذلك، ولكن كم رجلاً!... وأشاح عنها بوجهه ليخفي ما ارتسم على صفحته من آي التقرّر والفضب ثم أغمض عينيه فزأراً من ذكريات مناظر بشعة، عند ذلك سمعها تقول برقة وتوسّل:

- دعني أعتقد بأن سعادتي الراضية حقيقة لا وهم، أجل حقيقة لا وهم، وبأنك جيتني منقضاً عن قلبك أحزان الماضي كله إلى الأبد...

فنظر إليها نظرة طويلة مركزة وشت بخطورة أفكاره إلى حين، ولم يكن شيء في تلك اللحظة يستطيع أن

يعدل به عن النفاذ إلى غرضه ولو بتأجيله، فقال بصوت يدلّ على أنّ الفاظه التي يتفوه بها أقل بكثير من المعاني التي يوحى بها:

- هذا يتوقّف عليك أنت، فإن شئت كان لك ما تحبّين...

فتجلّت في عيني المرأة نظرة قلق شت عيّا تعاني من إجماء الخوف وقالت:

- إني أرغب في مودتك من أصياق قلبي، وطالما تمّيتها، وكم سميت إليها فردّفتي بلا رحمة. ولكنّه كان مشغولاً عن كلامها الحارّ بما يضطرب في ذهنه فقال:

- بيدك ما تتمنين، بيدك أنت وحدك، إذا جعلت من الحكمة رادك.

فتساءلت المرأة في انزعاج:

- ماذا تعني؟

فاحتقه تجاهلها وقال بتلنّر:

- مضمون كلامي واضح، هو أن تعدلي عيّا لو صحّ ما بلغني عنه لكان فيه الضربة القاضية عليّ! فأتسمعت عيناها ونجهّم وجهها في بأس غير خاف، ونجتمت وهي لا تدري:

- ماذا تعني؟

بيد أنه ظلّ أنّها تصرّ على التجاهل فقال بغيط:

- أعني أن تلغي مشروع الزواج الجديد، وإلّا تسمحي لنفسك بمعاودة التفكير في شيء من هذا القبيل، لم أعد طفلاً، وليس بصبري متّسع لطعنة جديدة.

أطرقت في حزن بالغ، ولازمت الإطراف كأنها أخلعها بينة من اليوم، ثم رفعت رأسها في بطة فلاح الحزن في وجهها أعمق ممّا قدّر، ثم قالت بصوت ضعيف وكلّتا تحاطب نفسها:

- إذن جئت من أجل هذا؟

ودون تفكير فيها يقول قال:

- نعم!

فوقع جوابه كطلفة نارّة فإذا بكلّ شيء حوله يتنّثر ويتبدّل سريعاً، ويكفهر الجوّ. وقد استرجع فيها بعد -

هذه الفضيحة بأيّ ثمن.
ومن شدة اليأس والحزن خرج صوته متلفعاً
بالبرودة وهي تقول:
- وماذا يَمَكّ منها؟
فصاح في دهش:

- كيف لا يَمَكّي فضيحة أمي؟
فقالت في حزن مشوب بما تيسر من التهكم:
- أنت في الحق لا تَعْنِي أمك لك.
- ماذا تعنين؟

فغمضت في يأس متجاهلة تساؤلها:
- ما دمّت قد خلعتني من نفسك فيجدر بك أن
تدعني وشأني.
فهبط غاضباً:
- حسي ما كان، لن أسمع لك بتلويث سمعي
من جديد.

فقالت وهي تزدد ريقها:
- لا شيء هنالك ممّا يلوّث السمعة، والله شهيد.
فسألها مستكراً:

- أنصّرني على هذا الزواج؟
فصمت ملياً، مطرقة عذونة غارقة في اليأس، ثم
نكت عنها تهيدة عقيمة، ثم قالت بصوت لا يكاد
يسمع:

- قضي الأمر، وكتب العقد، ولم يعد بوسعي متع!
فانتفض ياسين قائلاً وقد تصلّب جسمه البدين
وعلت وجهه صفرة وركّز بصره في رأسها المطرق وهو
يغلي غضباً، ثم صاح بها بصوت كالزئير:
- يا لك من امرأة... مجرمة!...

فغمضت بصوت مغموس يدلّ على الاستسلام
المطلق:
- ساعك الله.

عند ذلك خطر له أن يلطمها بما يعرف... ممّا نظّر أنّه
يجهله... من ماضي سريرتها، بحدث «الفكّهاني»
الأسود، قلبية يصبها على رأسها بفتة فتثّر إرثاً ويثّر
بها أقطع الثائر، وتوهج في عينيه بريق خفيف تطاير من
تحت جبهة عابسة مكفّهة تجمّعت في اخاديدها نُذُر

وهو خالٍ إلى نفسه - ما دار من حديث بينه وبين أمّه
في هذه المواجهة فأقرّ أقواله جميعاً حتّى بلغ هذا الجواب
الآخر فتردّد حواله لا يدري أخطأ أم أصاب، وظلّ
على تردّده طويلاً. أمّا المرأة فقد غمضت وهي تنظر
فيها أمامها:
- لشّد ما أتمنى أن أكذب أذني.

وأدرك أنّه تمعّج بعد فوات الفرصة، وسخط على
نفسه حانقاً، ثمّ صبّ سخطه على ما حوله. فاندفع
قائلاً بلا وعي مدارياً خطاه بما هو أعمى في الخطأ:

- إنك تفعلين ما تشائين دون تقدير للعواقب،
وكنت أنا دائماً الضحية التي تتلقّى الإساءة بلا ذنب
جته، وقد ظننت العمر راكك إلى شيء من العقل فها
أعجب إلا لقائل يقول إنك شائعة في الزواج من
جديداً... يا لها من فضيحة تتجدّد كلّ بضعة أحوام
كان لا نهاية لها...

من شدة اليأس راحت تصغي إليه فيما يشبه
اللامبالاة، ثمّ قالت بأني:
- أنت ضحية، وأنا ضحية، كلانا ضحية لما
يوسوس به إليك أبوك وتلك المرأة التي تميش في
كنها!

وعجب لهذا الانحراف في مجرى الحديث الذي بدا
له مضحكاً، بيّد أنّه لم يضحك، ولعلّه ازداد غضباً
وهو يقول:

- ما دخل أبي وزوجه في هذا الشأن!... لا
تتملّصني من فإكالك بإلقاء التهم في وجهه الأبرياء.
فهضت بصوت يشبه الرنين:

- ما رأيت ابناً أقسى منك!... أهذا خطابك لي
بعد فراق أحد عشر عاماً!

فلوّج بيده في احتجاج غاضب وقال بحدة وسخط:
- الأمّ الحافظة خليقة بأن تلد ابناً قاسياً.

- لست خاطئة... لست خاطئة... ولكنك
قاسٍ غليظ القلب كأيّك.

فنفخ في ملل وصاح بها:
- رجعنا إلى أبي!... حبسنا ما نحن فيه... أتقي
الله وتراجعني عن الفضيحة الجديدة... أريد أن أمتع

والمال فلم يطرقه بكلمة واحدة، أنسيه كأنما لم يكن هو
الباعث الأول لهذه الزيارة...

١٩

فتحت الستّ أمانة الباب وأدخلت رأسها وهي
تقول برقتها المهودة:

- أي حاجة إلى خدمة يا سيدي الصغير؟

فجاءها صوت فهمي قائلاً:

- تعالي يا نينة، خمس دقائق فقط...

فدخلت المرأة مسرورة بتلبية الدعوة فرائته واقفاً أمام
مكتبه يلوح في وجهه الجلد والاهتمام فأخذها من يدها
إلى كنية غير بعيدة من الباب وأجلسها ثم جلس إلى
جانباها وهو يتسائل:

- ناموا جميعاً؟

وأدركت المرأة أنها لم تُدعَ لتقديم خدمة عابرة ولأن
ما كان هذا الاهتمام وهذه الخلوة فانتقل الاهتمام
بسرعة إلى نفسها المطوعة للإجماع وقالت تجيبه:

- ذهبت خديجة وعائشة إلى حجرتهما في معاد كلّ
ليلة، أما كمال فقد تركته الآن في فراشه.

كان فهمي يترقب هذه اللحظة منذ أوى إلى حجرة
المذاكرة عند أول المساء فلم يستطع كعادته تركيز
انتباهه في الكتاب الذي بين يديه، وجعل يتابع، بين
أونة وأخرى، أحاديث أمّه وشقيقته في جزع لا يدرى
مضى يتنهين، ثم إلى أمّه وكمال وهما يحفظان ممّا جملة
من سورة هم. حتى ساد الصمت ثم جاءت أمّه
لتحبيه تحية المساء فدعاهما إليه وقد تناسى به توتر
الانتظار. ومع أنّ أمّه بدت كالحمامة الوديعه، ومع أنّه
لم يشعر حالها فكّه بتحفظ أو خوف، إلّا أنّه وجد
عسراً في التعبير عما يريد الإفصاح عنه، فعلاه ارتبك
الحياء، ومضت فترة صمت ليست بالقصيرة قبل أن
يقول مختلج الجفنتين:

- دهوتك يا نينة في أمر يحمي جدّاً.

واشتد الاهتمام بالمرأة حتى تمثله قلبها الرقيق خوفاً
أو شيبها بالخوف وقالت:

- إني مصغية إليك يا بني...

الشرّ والوعيد، وفقر فاه ليطلق قذيفته، ولكنّ لسانه لم
يتحرك، التصق بسفوف حلقه كأنما جذبته إليه حجة الذي
لم يُعْهِمَ العناء عن البلاء، ومزّت اللحظة الرهيبة في
سرعة الزلزال الحاطف الذي يشعر فيه الإنسان
بأنفاس الموت تتردّد على وجهه لحظات ثم يعود كلّ
شيء إلى مستقرّه، وزفر وهو كظيم، وتراجع غير آسف
وجبينه يسبح عرقاً بارداً. وقد ذكر موقفه هذا - فيها
بعد - فيما ذكر من مواقف هذه المقاتلة الغريبة فارتاح
لتراجعه كلّ الارتياح وإن عجب له أشدّ العجب،
وكان أعجب ما عجبه شعوره بأنّه إنّما تراجع رحمة
بنفسه لا رحمة بها وكأنّه تسرّع على كرامته لا على
كرامتها وإن لم يكن ثمة ما يجهله من الأمور

وافرغ غضبه في كفيه فجعل يضرب واحدة على
الأخرى ويقول:

- جرمه!... فضيحة عجيبة!... كم سأضحك
من غيالي كلّما أذكر أنّي أملت خيراً من هذه
الزيارة!... (ثمّ بلهجة تهكميّة)... إني أعجب
كيف طمعت بعد هذا في موتي؟!

فجاءه صوته وهو يقول في انكسار وحسرة:

- متّني نفسي أن نعيش على موكبة رغم كلّ
شيء!... ويعتد زيارتك المقابلة في قلبي أملاً حارّة
تحوّل إليّ معها أنّي أستطيع أن أهيك أسى ما في قلبي
من حبّ... بلا كلر.

وابتعد عنها متفهقاً كأنما يفرّ من لبن كلامها الذي
لم يعد شيء يورث غضبه مثلما يؤرّثه. وشعر حائقاً
بالشأ بأنّه لم تعد ثمة فائدة من بقاءه في هذا الجو
الكريه فقال وهو يستدير ليأخذ ستمته إلى الخارج:

- وددت لو أستطيع قتلك...

فغضّت بصرها وقالت في حزن بالغ:

- لو فعلت لأرحتي من حياتي...

وبلغ به الضيق النهاية فألقى عليها نظرة أخيرة
مظلمة بالمت ثم غادر المكان وأرض الحجرة ترتجّ
تحت وقع قدميه. وعندما انتهى إلى الطريق، ولأخذ
يثوب إلى نفسه، ذكر لأول مرة أنّه نسي حديث العقار

- فتنفس تنفساً عميقاً ليخفف عن أعصابه وقال:
 - ما رايك فيها لو... أعني اليس من الممكن أن...
 وتوقف متردداً، ثم غير هجته قائلاً برقة وتردد وارتيابك:
 - ليس لي من أفضي إليه بدخيلة نفسي إلا أنت...
 - طبعاً طبعاً يا بني.
 فقال متشجعاً عيّا قبل:
 - ما رايك إذا اقترحت عليك أن تعطي لي مريم بنت جابرنا السيد عمّد رضوان...؟
 وتلفت أمانة كليته بدهشة أولاً، فأجابته أولاً ما أجابت بابتسامة تدلّ على الحيرة أكثر من الفرح ثم انقشع الخوف الذي قبض صدرها حيناً وهي تترقب إقصاحه عيّا يريد، ثم اتسعت ابتسامتها وأشرقت معلنة عن سرور صالٍ، وتردّدت لحظات لا تدري ماذا تقول، ثم اندفعت قائلة:
 - أهله ورغبتك حقاً... سأقول لك رأيي صراحة... إن يومًا أمضي فيه لأخطب لك بنت الحلال كمو أسعد أيام حياتي...
 فتورّد وجه الشاب وقال بامتنان:
 - شكراً لك يا أمّاه...
 ورنّت إليه ببسمة لطيفة وقالت برجاء:
 - يا له من يوم سعيد، لقد تعبت كثيراً وصبرت كثيراً، وليس بالكثير على الله أن يجزييني على تعمي وصبري بمثل هذا اليوم المرجى، بل بالآم مثله كثيرة ليُفرّح عيني بك، وبأخيك خديجة وعائشة...
 وغابت عيناها في رؤى الأحلام السعيدة التي بدا لها ما أيفظها فجأة فتراجع رأسها في قلق كفضلة أقبل نحوها كلب، وتعمّت في إشفاق:
 - ولكن... أبوك؟
 وابتسم فهمي تمعضاً وقال:
 - من أجل هذا دعوتك للمشاورة...
 ففكرت المرأة قليلاً ثم قالت وكأني تخاطب نفسها:
 - لا أدري ماذا يكون موقفه من هذا الرجاء؟ أبوك شخص غريب، غير الناس جيئاً، وقد يرى جريمة فيها
- يراه الغير شيئاً عادياً...
 ففطّب فهمي قائلاً:
 - ليس في الأمر ما يدعو إلى الغضب أو الاعتراض.
 - هذا رأيي...!
 - وغني عن البيان أنّ الزواج سيؤجل حتى أنتم دراسي وأجد نفسي صملاً...
 - طبعاً... طبعاً...
 - فيم يكون الاعتراض إذن؟!
 فنظرت إليه نظرة كأنما تقول له: «ومن ذا يحاسب أباك إذا أراد أن يبدد المنطق جانباً؟» هي التي لم تعرف حياله إلا الطاعة العمياء أصاب أم أخطأ، عدل أم ظلم، يتبدّ أنها قالت:
 - أرجو أن يبارك رجاءك بالقبول...
 فقال الشاب بحلم:
 - لقد تزوّج أبي وهو في سنيّ مله. ولست أقصد شيئاً من هذا، ولكنني سأنتظر حتى يكون الزواج طبيعياً لا اعتراض عليه من أيّ ناحية...
 - ربّنا يحقّق رجاءنا...
 وسكنا إلى الصمت ملياً وهما يتبادلان النظرات، مجتمعين في فكرة واحدة وهما عن بدهة يدريان إذ كان كلاهما يفهم صاحبه خير فهم، ويقرأ ما يدور بخاطره في غير ما عسر. ثم قال فهمي مفصّحاً عيّا يشغلها معاً:
 - بقي أن نفكر فيمن يفانحه بالموضوع...!
 وابتسمت المرأة ابتسامة أفندها التفكير والقلق روحها، وأدركت أنّ ابنتها الأريب يذكرها بالواجب الذي لا يستطيع أن يؤتبه أحد سواها بالأسرة، ولم تعترض على هذا لانه لا سبيل غيره، إلّا أنها قبلته على كره كما تقبل أموراً كثيرة وهي تسأل الله حسن العاقبة، وقالت برقة وعطف:
 - ومن غيري يفانحه؟... ربّنا معنا...
 - إني آسف... لو كان بوسي أن أفانحه لفعلت.
 - سأحذله، وسوافق بإذن الله. مريم فتاة جميلة، مؤدّبة، من أسرة كريمة...
 وسكنت لحظة ثم استدركت متسائلة كأنما خطر لها

الحفاط لأول مرة:

- ولكن أليست هي في مثل سكك أو تزيد؟!

فقال الفتي جزعاً:

- لا يهني هذا بتناً!

فقال مبتسماً:

- على بركة الله، ربنا معنا... «ثم وهي تبهض»
أدعك الآن لعناية المولى، وإلى الغد...

ومالت نحوه وقيلته ثم غادرت الحجرة وأغلقت
الباب وراءها. لكن كم أدهشها أن ترى كمال جالساً
على الكتبة مكباً على كراسية بين يديه فهتفت به:

- ما الذي عاد بك إلى هنا؟

فنهض الغلام مبتسماً في ارتباك وقال:

- تذكرت أنني نسيت كراسية الإنجليزي فعدت
لأخذها ثم بدا لي أن استعيد الكليات مرة أخيرة.

ودفعت معه مرة أخرى إلى حجرة النوم ولم تتركه
حتى تمتد تحت الغطاء، ولكنه لم يزم. وكان النوم
أعجز من أن يغلب اليقظة الماكرة التي تنبعث في
شعوره، فلم يلبث أن وثب من السرير ومضى إلى
سمعه وقع أقدام أمه وهي ترقى السلم إلى الدور
الأعلى، ثم فتح الباب وجرى إلى حجرة شقيقته ودفع
بابها ودخل دون أن يخلعه ليوسع للمصباح المعلق
بالصالة منقلاً يضيء منه جانباً من الظلمة الغاشية في
الداخل، وهرع إلى الفراش وهو يمس «أبله»
خديجة! فجلست الفتاة في الفراش دهشة فوثب إلى
جانباها وهو يلهث من الانفعال، وكأنه لم يقنع بمستمعة
واحدة ليستودعها السر الذي أطار النوم من عينيه فمد
يده إلى جسم عائشة وهزه، ولكن الفتاة كانت قد
تنهت إلى القادم وأزاحت عنها الغطاء ثم رفعت
رأسها بين الاستطلاع والاحتجاج متسائلة:

- ماذا جاء بك الآن؟

لم يابه للهمة الاحتجاج لأنه كان على يقين من أن
كلمة واحدة يشير بها إلى سره خليفة بأن تغلبها وأما
على عقب، وقرر لهذا قلبه بهجة وسروراً، ثم قال
هامساً كأنه يخامر أن يسمعه رابع:

- عندي سر غريب...

فسأله خديجة:

- أي سر هذا؟... هات ما عندك وأرنا
شطارتك...

ولم يعد باستطاعته الكتمان فقال:

- أخي فهمي يريد أن يخطف مريم...

عند ذلك جلست عائشة في الفراش بدورها في
حركة آلية سريعة كأنها التصريح ورشة ماء بارد ألقيت
في وجهه وسنان، وتقاربت الأشباح الثلاثة في شكل
هرمي كما بدا على الضوء الخافت النافذ إلى الحجرة
والمتعكس على أرضها فيها يلي الباب المفتوح على هيئة
متوازي الأضلاع مليلب الأضلاع تيمناً للذبذبة ذبالة
المصباح الذي تعرض - بترك الباب مفتوحاً - إلى تيار
وإن نسّم من خصائص النافذة إلى الصالة في لطف
هسات تليع سرا، ثم تساءلت خديجة في اهتمام:

- كيف عرفت هذا؟

- تركت فراشي لأحضر كراسية الإنجليزي، وعند
باب أخي جاني صوته وهو يتكلم فلبدت في
الكتبة...

ثم أعاد على مسمعيها ما تسرب إليه من وراء
الباب الموارب وهما تنصتان إليه في اهتمام ملك عليها
الأنفاس حتى فرغ من حديثه، وهنا تساءلت عائشة
كأن بها حاجة إلى المزيد من الاقتناع:

- أتصدّقين هذا؟

فقال خديجة بصوت كأنه ينبعث من تليفون بمدينة
بعيدة:

- أنتصوّرين أن يترج هذا «مشيرة إلى كمال» حكاية
طويلة عريضة كهذه؟

- لك حقّ «ثم صاحكة لتخفف من حدة اهتمامها»
اختلاق موت غلام في الطريق شيء، أما هذه الحكاية
فشئء آخر.

فتساءلت خديجة دون أن تلقي بالاً إلى احتجاج
كمال الذي اعترض على التعريض به:

- كيف وقع هذا يا ترى؟!

فضحكت عائشة قائلة:

- ألم أقل لك مرة إني أشك في أن اللباب هو الذي

جملة من العيوب والنقصان، بيد أنها لم تتأكل نفسها -
حيال وصفها بطول اللسان تلك الصفة التي لخديجة
منها أكبر نصيب - من أن تبسم مستترية بالظلمة،
وتحاشت إثارتها فقالت بتسليم:
- لنذع الأمر لله...

فقالت خديجة بقة وإيمان:
- الأمر لله في السياء ولأبي في الأرض وسوف نرى
ماذا يكون رأيه غداً... «لَمْ مَوْجِبُهُ الْخُطَابُ إِلَى
كَيْلِ...» آتٍ لك أن تعود إلى سريرك بسلام.
عاد كَيْلُ إلى حجرتها وهو يقول لنفسه «لَمْ يَبْقَ إِلَّا
ياسين، وساخبره غداً»...

٢٠

جلست خديجة وعائشة القرفصاء متواجهتين لصق
الضلفة المخلقة من باب حجرة الوالدين بالدور الأعلى
وهما تكتبان أنفاسهما في حبل وتحدان آذانهما إلى الداخل
في اهتمام وتلقف. كان الوقت قبل العصر بقليل،
وكان السيد قد نهض من قيلولته فوضاً وجلس كعادته
يحتسي القهوة منتظراً الأذان ليصلي قبل عودته إلى
الدكان، فتوقعت الأختان أن تفتاح الأم أباهما في الأمر
الذي أتاهما عنه كَيْلُ، إذ لم يكن أنسب لذلك
الغرض من هذا الوقت. وتناهى إليهما من الداخل
صوت أبيهما الجمهوري وهو يتحدث عن أمور البيت
العادية فانصتا في جزع وترقب وهما تبادلان النظر
متسائلتين حتى سمعتا أخيراً الأم وهي تقول في أدب
بالغ ولهجة خاشعة:

- سيدي، إذا أدت لي حديثك عن شأن رجائي
فهني أن أبلغك إياه.

عند ذلك أومأت عائشة بلقبها إلى الداخل كأنها
تقول «هَذَا هُوَ الْحَدِيثُ» على حين راحت خديجة
تتخيل حال أمها وهي تنهال للكلام الخطير فرق قلبها
لها وعظمت على شفتها في إشفاق شديد، ثم جاءها
صوت السيد وهو يتساءل:

- ماذا يريد؟

وساد الصمت قليلاً، أو طويلاً بالقياس إلى اللتين

يدعو فهني إلى السطح كل يوم؟
- إنه اللباب الآخر الذي التفت حول ساقه هو.
فترنمت عائشة بصوت خفيض:
- لا ملام عليك يا عبوتي في حبه.
فنهبتها خديجة قائلة:

- هس... ليس هذا وقت الغناء... مريم في
العشرين وفهني في الثامنة عشرة... كيف توافق نية
عل هذا؟
- نية؟... نية حامية وديعة لا تدري كيف تقول
لا، ولكن صبراً، أليس من الحق أن أقول إن مريم
جميلة وطيبة؟... ثم إن بيتنا هو البيت الوحيد في
الحلي الذي لم يعرف الأفراح بعد...

كانت خديجة - كعائشة - تحب مريم، ولكن الحب
لم يستطع أبداً أن يخفي عن عينيها مواضع الانتقاد في
المحبوب أيما كان شأنه، فلم يكن يمجزها - عند
الضرورة - الوقوف عند مواضع الانتقاد فحسب، ولما
كانت سيرة الزواج تثير خافوها الكامنة، وغريتها، فقد
انقلبت على صديقتها دون مشقة، وأبى قلبها أن يقبلها
زوجة لأخيها، ومضت تقول:

- مجنونة أنت؟... مريم جميلة ولكنها دون فهني
بمراحل بعيدة... فهني يا حماره طالب بالعمالي،
وسيكون قاضياً يوماً ما، فهل تتصورين مريم زوجاً
لقاضٍ كبير المقام؟... إنها مثلنا على أكثر تقدير،
بل هي دوننا في أكثر من ناحية ولن تتزوج إحدانا
بقاضٍ...

وتساءلت عائشة في نفسها: «من قال القاضي
أحسن من الضابط؟» ثم سألتها محتجة:
- لم لا؟

فواصلت الأخرى حديثها دون اهتمام باعتراضها:
- يستطيع فهني أن يتزوج بفتاة أجمل من مريم
مائة مرة، وفي نفس الوقت تكون متململة وغنية وبنات
بسك أو حتى بنت باشاء، فلماذا يتسرع بخبطة
مريم؟... ما هي إلا أمة طويلة اللسان، أتت لا
تترفينا كما أعرفها...

وأدركت عائشة أن مريم انقلبت في نظر خديجة إلى

تسترقان السمع، ثم قالت المرأة برقة:

- فهني يا سيدي شاب طيب، حاز رضاك بجته وتفوقه وأديه، حماه الله من شر الأعين، ولعله بلغني رجاءه إدلالاً بمنزلته عند والده...
فقال الأب بلهجة تحيّلناه معها راضياً:
- ماذا يريد؟... تكلمي.

ومال رأسها نحو الباب وكلّ منها يحملق في الأخرى ولا تكاد تراها فجاهها الصوت المتهاافت وهو يقول:

- سيدي يعرف جازنا الطيب السيد محمد رضوان...؟
- طبعاً...

- رجل فاضل مثل سيدي وأسرّة كريمة وجيران ولا كلّ الجيران...
- نعم...
واستطردت بعد تردد:

- فهني يسأل يا سيدي هل يميز له والده أن...
يخطب مريم كريمة جازنا الطيب لتبقى على ذمته حتى يصير أهلاً للزواج؟

وهنا علا صوت السيد وقد غلظت نبراته بالغضب والاستنكار:

- يخطب؟... ماذا تقولين يا وليّة؟... هذا الغلام... ما شاء الله... أعيدي على سمعي ما قلت...

فقالّت الأم بصوت متهدّج وقد تحيّلته خديجة وهي تنكمش في ذعر:

- ليس إلاّ أنه يتسائل، مجرّد تساؤل يا سيدي والأمر لك...

فقال الصوت المتفجّر بالغضب:

- لا عهد لي ولا له بهذا التخلّل المائع، ولا أدري ما الذي أثلث تلميذاً حتى يتشادي في مطالبه إلى هذا الحد؟... ولكنّ أمّا مثلك خليقة بأن تفسد أبناءها، فلو كنت أمّاً كما ينبغي لما جسر على مفاتحتك بمثل هذا الهدر الوقح...

ركب الفتاتين خوف ووجوم خالطهما في قلب

خديجة ارتياح، ثم سمعا صوت الأم المستخلي وهي تقول:

- لا تحشم نفسك مشقة الغضب يا سيدي، كلّ شيء يهون إلا غضبك، ما قصدت من ناحيتي إساءة فعدّ، ولا تحيّلها ابني وهو يعملني رغبته ببراءة، ولكنّه رجائي بحسن نيّة فرايت أن أعرض الأمر عليك، وما دام هذا هو رأيك فسابلغه إياه، وسيدعن له بكلّ خضوع كما يدعن لأمرك دائماً...

- سيدعن أراد أم لم يرد، ولكنّي أريد أن أقول لك إنّك أمّ ضعيفة لا يرجى منها خير...
- إلى اتعهدهم بما توصي به...

- خبّري عمّا دعاه إلى التفكير في هذا الرجاء؟ وأرهفت الفتاتان السمع في اهتمام وانزعاج وقد فاجأهما هذا السؤال الذي لم تتوقّعا، ولكنّها لم تسمعا لأمتها جواً وتصورتاها وهي ترمش في ارتباك وخوف فغطف قلبهما في إشفاق شديد:

- ماذا أخرسك؟... خبّري هل رأيها؟
- كلا يا سيدي، إنّ ابني لا يرفع عينيه إلى جارة ولا إلى غيرها...

- كيف رغب في خطبتها دون أن يراها؟... ما كنت أحسب أنّ لي أبناء يسترقون النظر إلى حرّمات الجيران!

- معاذ الله يا سيدي معاذ الله... إنّ ابني إذا سار في الطريق لا يلتفت يمنة ولا يسرة، وهو في البيت لا يكاد يغادر حجرته إلّا لضرورة...

- ما الذي دعاه إلى جلابها إذن؟
- لعله يا سيدي سمع شقيقته وهما تتحدّثان عنها...

وسرت في بدن الفتاتين رعدة شديدة ففغرنا ثغريهما في فزع وهما تنصتان...

- متى كانت شقيقته خاطبتين... يا سبحان الله أبنغي أن أهجر دكاني وعملي وأقع في البيت لأضبطه وأدفع عنه الفساد!

فهضمت الأم في نبرات باكية:

- بيتك أشرف البيوت، بالله يا سيدي إلّا ما هوّنت

عليك الغضب، انتهى الأمر وكأنَّ ما كان لم يكن...
فصاح الرجل بصوت ملؤه الوعيد:

- قولي له أن يتأدَّب ويستحي ويلزم حدوده، وأنَّ من الأخير أن يتفرَّغ لدروسه...

وسمعت الفتاتان حركة في الداخل فقلعتا في حذر وابتعدتا عن الباب على أطراف أصابعهما...

رأت الست أمينة أن تغادر الحجرة كشأنها إذا ندَّ عنها عفوًا ما يثير غضبه فلا تعود إليها بعد ذلك إلا إذا دعاها، إذ علَّمتها التجربة أنَّ مكثها بين يديه حال الغضب ثمَّ سعيها إلى تسكينه برقيق الكلام لا يزيد النار إلا استعثارًا. ووجد السيد نفسه وحيدًا فزابلته آثار الغضب المحسوسة التي تثور عادة في عينيه وبشرة وجهه وحركات يديه وكلامه، ولكن بقي الغضب في أحياء صدره كالمكارة في قعر القدر.

من المحقَّق أنه كان يغضب في البيت لأتفه الأسباب لا أتباعًا لحظَّة الموضوعية في سياسة بيته فحسب، ولكن مدفوعًا كذلك بحدَّة طبعه التي لا تشكُّمها بين آله فرملة الكياسة التي يتقن استعمالها خارج البيت، وربما ترويضًا عيًا يعالي بين الناس كثيرًا من ضبط النفس والتسامح واللفظ ومراعاة الحاطر واكتساب القلوب بأيِّ ثمن، وليس بالنادر أن يتضح له أنه استسلم للغضب في غير موجب ولكنَّه حقَّ في تلك الحال لا ينم على ما فرط منه لاعتقاده بأنَّ غضبته للثأله من الأمر عسيَّة بأن تمنع وقوع الخطير منه ممَّا يستحقُّ الغضب عن جدارة، بيدَّ أنه لم يعد ما بلغه عن فهمي ذلك اليوم هفوة ناهية بل رأى فيها نزوة قبيحة لا يجوز أن تعتلج في نفس تلميذ بل آل بيته، وما كان يتصوَّر أن تسرَّب «العواطف» إلى بنان البيت الذي يحرص على أن يشبَّ في جوِّ النقاء الصارم والسطهارة المنقشة، ثمَّ جاءت صلاة العصر فرصة طيِّبة لرياضة النفس خرج منها أهدأ قلبًا وأزوح بالاً، فوسعه أن يرتفع على سجادة الصلاة ويسيطر راحتيه ويسأل الله أن يبارك له في ذرْبته وماله، وأن يدعو خاصَّةً لفخر أبنته بالمهدى والرشاد والتوفيق. فلمَّا أن غادر البيت كان نجمه مظاهره يراد بها التخويف لا أكثر. وفي الدكان

التقى ببعض الأصدقاء فقصَّ عليهم «نادرة اليوم» لا كفاجة لأنَّه يكره أن يلقى أحدًا بالفاجعات، ولكن كدعاية سخيفة، فملَّقوا عليها بما حلا لهم من المزاح، فلم يلبث أن شاركهم مزاحهم، فغادروه وهو يفقه في غير تحفُّظ... بدت له «النادرة» في الدكان على غير ما بدت في حجرته بالبيت. وأمكنته أن يضحك منها، بل وأن يعطف عليها، حقَّ قال لنفسه أنتيرًا بأسيرًا راضيًا «من شأبة أباه فيما ظلم»...

٢١

حين مرق كمال من باب البيت كان المساء يزحف في خطوات حاسمة غاشيًا الطرقات والأزقة والمآذن والقباب، ولعلَّه لم يعدل بسروره بهذه المخرجة المفاجئة التي قلَّ أن تُتاح له في مثل ذلك الوقت المتأخَّر إلَّا زهوهِ بالرسالة الشفوية التي حلَّه إيَّاهَا فهمي، فلم يقب عنه أنه عهد بها إليه وحده دون غيره، في جوِّ من السريَّة والتكتم الأمر الذي أضفى عليها - وعليه بالتالي - أهمية خاصة أسَّسها قلبه الصغير ورقص لها طربًا وفخارًا. وتساءل في عجب عيًا زلزل فهمي حقَّ ركبته حال من القلق والحزن بدا في لباسها القاتم شخصًا غريبًا لم يره ولم يسمعه من قبل، هو مثال وحده، إنَّ أباه يشور كالبركان لأتفه الأسباب، وإنَّ ياسين على حلالة حديثه قابل للالتهاب، حقَّ خديجة وعائشة لا تحلوان من نوبات عفرته، هو مثال وحده، ضحكك انشمام وغضبه تقطيب، وهذوه عميق على صلق عواطفه وأصالة حماسه، فلم يذكر أنه رآه على الحال التي رآه عليها اليوم. لن ينسى كيف خلا إليه في حجرة المذاكرة، بصر زائع وصوت متهدِّج، ولا كيف خاطبه لأوَّل مرَّة في حياته بلهجة توسِّل حازة عجب لها أشدَّ العجب حقَّ استوجب حفظ الرسالة التي حملها أن تركز عليه مرَّات ومرَّات. وقد أدرك من فحوى الرسالة نفسها أنَّ للأمر صلة وثيقة بالحدث الغريب الذي استرق السمع إليه من وراء الباب، والذي نقله إلى شقيقته فائزًا بينها جدلاً ونزاعًا، وباجملة أنه يتعلَّق بريم، تلك الفتاة التي كثيرًا ما تعابته وبمايشها، ويأسس إليها

مستأثراً عن «حكايته» فنقص عليه مريم من أنبائها ما تعلم وما لا تعلم بزلالة لسان تستهويه وتستأنوه. لم يكن البيت بالغريب عليه إذن، فشق مسيله إلى الصلاة عابرة فلمح السيد عمّد رضوان راقداً في فراشه كما اعتاد أن يراه منذ سنوات. كان يعلم أنّ الشيخ مريض، وقد سمع عنه كثيراً أنّه مشلول، حتّى سأل أمّه مرّة عن معنى الشلل... فجزعت وراحت تستعيز بالله من شرّ الاسم الذي نطق به فانكمش متراجعاً، ومنذ ذاك اليوم والسيد يستير رثاه واستطاعه المقرون بالخوف. ثمّ مرّ بالحجرة التالية فرأى أمّ مريم واقفة أمام المرأة ويدها ما يشبه المعجن تمكّله فوق خدّها وعنتها وتجذبه جذبات سريعة متتابعة ثمّ تتحسّس موضعه من بشرتها بأناملها لتعرف منه وتطمئنّ إلى نعمته. ومع أنّها كانت فوق الأربعين إلّا أنّها كانت بارعة الحسن كابتها، شغوفة بالضحك والدعابة، فما تلقاه حتّى تقبل عليه في مرح فتقبّله ثمّ تسأله فيما يشبه نفاذ الصبر «حقّ تبلغ رشكك لأثروّجك؟» فيعلوه الحياء والارتباك وإن استلذّ مداعباتها وودّ الإكثار منها. وكم أثارت فضوله هذه العمليّة التي تمكّف عليها من حين لآخر أمام المرأة، وقد سأل أمّه عنها مرّة فنهرت - والنهر أقصى ما غارس من ضروب التأديب - مؤبّة إيّاه على سؤاله عتاً لا يعنيه، بيد أنّ أمّ مريم أكبر سباحة ورقّة فلما لحظته مرّة يرمقها بدهشة أوقفته على مقعد امامها ولزقت بأناملها ما حسبه أوّل الأمر عجيبة وبسطة له صفحة وجهها وقالت ضاحكة «اشتغل وأرني شطارتك» فمضى يقلّد حركاتها حتّى أثبت لها شطارته بخفّة غيظته عليها، ولكنّه لم يقنع بلدّة التجربة فسأله «لماذا تفعلين هذا؟» فقهقهت «هلاً انتظرت عشرة أعوام أخرى حتّى تعرف بنفسك؟! ولكن لا داعي للحشة... هذه هي؟...» وقد مرّ بابها بخفّة حتّى لا يشعرها بنفسه لأنّ رسالته كانت أخطر من أن تسمح له بمقابلة أحد إلّا مريم وحدها التي وجدها في الحجرّة الأخيرة مترنّمة على فراشها تفرّق لباً وبين يديها

حيناً ويضجر منها حيناً آخر، دون أن يعرف لها هذه الخطورة التي أحاطت بصدوه أخيه وسلالته، مريم!... لما استطاعت دون سائر البشر أن تفعل هذا كله بأخيه العزيز الرائع! ووجد في الجوّ ضموماً، كذلك الغموض الذي يكتف حياة الأرواح والأشباح، والذي ظلّ استثار حبّ استطلاعه وخوفه، فتوتّب قلبه للنفاذ إلى مكنون سرّه في تطلّع وحيرة، ولكنّ حيرته لم تصرفه عن تسميع الرسالة لنفسه كما سمعها لأخيه من قبل حتّى يضمن ألا يضيع منه حرف واحد من مضمونها، فمرّ تحت بيت آل رضوان وهو يستعيدها، ثمّ مال إلى أوّل عطفة تليه حيث يوجد باب البيت. لم يكن البيت بالغريب عنه، فطالما تسلّل إلى فناءه الصغير حيث تنزوي في ركن منه عربة يد مندثرة العجلات كان يركبها مستعيناً بخياله على إصلاح عجلاتها وتحرّيكها حيث شاء، وطلّما تردّد بين حجراته بغير استئذان فقول بالترحيب والمداعبة من ربة البيت وابتهاج اللّين يمدّها وعلى حداثة سنّه صديقتين قديمتين، فكان يألّف البيت بحجراته الثلاث التي تتوسّطها صالة صغيرة وضعت بها ماكينة خياطة وراء النافذة التي تطلّ على حمام السلطان مباشرة كما يألّف بيته بحجراته الواسعة وبصالته الكبيرة حيث يجتمع مجلس القهوة مساء بعد مساء. وإلى هذا خلّفت بعض متعلّقات البيت أثراً في نفسه استجابت له عهداً طويلاً من صباه، كمشّ يمامة في أعلى المشربية المتصلة بحجرة مريم الذي تبدل حائله فوق ركن المشربية الملتصق بالجدار كقطع من محيط دائرة يشبك حوله القشّ والريش ولوح منه أحياناً ذيل اليازمة الأمّ أو منقارها كفيها اتفق وضعا فيتطلّع إليه تتنازع رغبتان، إحداها - وهي المتبعة من نفسه - تدعوه إلى العيب به واختطاف الصغار والأخرى - وهي المكتسبة عن أمّه - توقّفه عند حدّ التطلّع والعطف والمشاركة الخياليّة في حياة اليازمة وأسرتها، وكصورة للسفيرة عزيزة معلقة بحجرة مريم أيضاً زاهية الألوان رقراقة البشرة وسيمة القسائم فاقت بجعلها الحسناء التي تطلّاه صورتها عصر كلّ يوم بدكان متوسيان فكان يديم النظر إليها

فَتَأْتِي مِنَ اللَّبِّ الْمُسْرَبِ مِنْ زَاوِيَةٍ قَدْ تَصَوَّرَ بِخَدِّهَا
فَأَزَالَهُ بِأَنَامِلِهِ فِي حَيَاءٍ، أَمَّا مَرِيَمُ فَتَنَازَلَتْ ذَقْنَهُ بِأَنَامِلِ
مِثْلِهَا وَقَبِلَتْ شَفَتَيْهِ مَرَّةً وَمَرَّةً، ثُمَّ سَأَلَتْهُ فِيهَا يَشْبِهُ
الْإِعْجَابِ:

- كَيْفَ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَقْلُتَ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ فِي هَذِهِ
السَّاعَةِ؟... لِمَلَّ تِيزَةُ تَبْحَثُ عَنْكَ الْآنَ فِي كُلِّ
حِجَرَاتِ الْبَيْتِ.

أَهْ لَقَدْ اسْتَنَامَ إِلَى الْحَدِيثِ وَاللَّعِبِ حَتَّى أَوْشَكَ أَنْ
يَنْسِيَ الرِّسَالَةَ الَّتِي جَاءَ مِنْ أَجْلِهَا، وَلَكِنْ تَسَاوَلَهَا ذَكَرَهُ
بِمَهْمَتِهِ فَرَنَا إِلَيْهَا بِعَيْنٍ أُخْرَى، الْعَيْنُ الَّتِي تَوَدُّ أَنْ تَنْقُبَ
فِي ذَاتِهَا عَنْ السَّرِّ الَّذِي زَلَزَلَ أَحْشَاءَ الرِّزِينَ الطَّيِّبِ. إِلَّا
أَنْ تَشَوُّفُهُ تَهَالَتْ حَيَالُ شَعُورِهِ بِأَنَّهُ يَحْمِلُ أَنْبَاءَ غَيْرِ
سَائِرَةٍ، فَقَالَ بِوَجْهِهِ:

- فَهِيَ الَّتِي أَرْسَلَنِي.

ارْتَسَمَتْ فِي عَيْنَيْهَا نَظَرَةُ جَمْدِيْدَةٍ تَقْبِضُ جَدًّا،
وَتَفْرَسَتْ فِي وَجْهِهِ بِاهْتِمَامٍ لَتَرَى مَا وَرَاءَهُ فَشَعْرٌ بِأَنَّ
الْجَوَّ قَدْ تَغَيَّرَ كَأَنَّمَا انْتَقَلَ مِنْ فِصْلٍ إِلَى فِصْلٍ، ثُمَّ
سَمِعَهَا تَسْأَلُ بِصَوْتِ خَافَتِ:

- كَيْه؟

فَقَالَ لَهَا بِصَرَاحَةٍ دَلَّتْ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى طُورَةٍ
الْأَنْبَاءِ الَّتِي يَحْمِلُهَا رَغْمَ شَعُورِهِ الْفَطْرِيِّ بِخَطُورَتِهَا:
- قَالَ لِي بِأَلْفَا حَيَّاتِي وَقُلْ لَهَا إِنَّهُ اسْتَأْذَنَ وَاللَّهِ فِي
خَطْبَتِهَا وَلَكِنَّهُ لَمْ يُوَافِقْ عَلَى أَنْ يَمْلَأَ خَطْبَتَهُ وَهُوَ
تَلْمِذٌ، وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَنْتَظِرَ حَتَّى يَتِمَّ دِرَاسَتُهُ.

كَانَتْ تَحْتَقِقُ إِلَى وَجْهِهِ بِاهْتِمَامٍ شَدِيدٍ فَلَمَّا بَلَغَ
السَّكُوتَ خَفَضَتْ عَيْنَيْهَا دُونَ أَنْ تَنْبِسَ بِكَلِمَةٍ،
فَغَشِيَتْ الْجُلُوسَةَ صَمْتَةٌ وَاحِدَةٌ ضَاقَ بِهَا قَلْبُهُ الصَّغِيرُ،
وَتَلَهَّفَ عَلَى كَشْفِهَا مَهْلًا كُلَّمَا الْأَمْرُ فَقَالَ:

- إِنَّهُ يُؤَكِّدُ لَكَ أَنَّ الرِّفْضَ جَاءَ عَلَى رِغْمِهِ وَأَنَّهُ
يَتَعَجَّلُ السَّنِينَ حَتَّى يَحَقِّقَ مَا يَشَاءُ.

وَلَمَّا لَمْ يَجِدْ لِكَلَامِهِ أَثَرًا فِي إِخْرَاجِهَا مِنْ غَشَاوَةِ
الصَّمْتِ أَزْدَادَ تَلَهُّفَهُ عَلَى إِعَادَتِهَا إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ
بَهْجَةٍ وَمَرَحٍ فَقَالَ بِالْإِعْرَافِ:

- هَلْ أَحَدُكُمْ عَمَّا دَارَ بَيْنَ فَهْمِي وَبَيْنَ نِيَّتِي مِنْ
حَدِيثِ عَنْكَ؟

طَبِيقُ فَنْجَانٍ قَدْ امْتَلَأَ بِالْقَشْرِ فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ بِدَهْشَةٍ:
- كَيْه!... وَكَادَتْ تَسْأَلُهُ عَمَّا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ
السَّاعَةِ وَلَكِنَّهَا عَدَلَتْ عَمَّا هَمَّتْ بِهِ أَنْ تَحْفِيهِ أَوْ
تَحْجِلَهُ... شَرَفَتْ الْبَيْتِ... تَعَالَى أَجْلَسَ إِلَى
جَانِبِي...

فَمَدَّ لَهَا يَدَهُ بِالسَّلَامِ. ثُمَّ فَكَّ أَزْوَارَ حِلَاثِهِ ذِي
الرَّقِيْعَةِ الطَّوِيلَةِ وَخَلَعَهُ، وَوَثَبَ إِلَى الْفِرَاشِ فِي جَلِيْبِ
مَقْلَمٍ وَطَاقَةٍ زُرْقَاءَ مَتَمَنِّةٍ بِخَطُوطٍ حَمْرَاءَ. وَضَحِكَتْ
مَرِيَمُ ضَحِكَاتِهَا الرَّقِيْعَةَ وَدَسَّتْ فِي يَدِهِ شَوْيَةً لَبَّ وَهِيَ
تَقُولُ:

- تَرَقَّرَ بِهَا عَصْفُورٌ وَحَرَّكَ أَسْنَانُكَ اللَّوْلُؤِيَّةَ...
أَتَذْكُرُ يَوْمَ عَضَضْتَ مَعْصَمِي وَأَنَا أَدْعُدُّكَ...
هَكَذَا...

وَمَدَّتْ يَدَهَا صَوْبَ إِبْطِهِ وَلَكِنَّهُ - بِحَرَكَةٍ عَكْسِيَّةٍ -
شَبَكَ ذِرَاعِيهِ عَلَى صَدْرِهِ لِيَحْمِيَ إِبْطِيهِ، وَنَلَّتْ عَنْهُ
ضَحِكَةٌ عَصِيْبَةٌ كَمَا لو كَانَتْ أَتَانِمَلُهَا دَغْدَغَتْهُ بِالْفِعْلِ،
ثُمَّ هَتَفَتْ بِهَا:

- فِي عَرَضِكَ يَا أَبَلَةُ مَرِيَمُ...

فَامْسَكَتْ عَنْهُ وَهِيَ تَتَعَجَّبُ مِنْ خَوْفِهِ قَائِلَةً:

- لِمَاذَا يَفْشَعُ بِدَنْكٍ مِنَ الدَّغْدَغَةِ؟ أَنْظُرْ كَيْفَ لَا
أَبَالِي بِهَا.

وَرَأَحَتْ تَدْعُلُغُ نَفْسَهَا بِاسْتِهَانَةٍ وَهِيَ تَرْمِيهِ بِنَظَرَةٍ
أَزْدَرَاءَ فَلَمْ يَمْلِكْ أَنْ قَالَ لَهَا مُتَحَدِّثًا:
- دَعِينِي أَدْعُدُّكَ أَنَا وَسِرِّي!

فَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَّا أَنْ رَفَعَتْ ذِرَاعِيهَا فَوْقَ رَأْسِهَا
فَفَرَسَ أَصَابِعَهُ تَحْتَ إِبْطِهَا وَرَاحَ يَدْعُدُّهَا بِمَا وَسِعَهُ
مِنْ خَفَّةٍ وَسُرْعَةٍ، مِثْلًا عَيْنِيهِ فِي عَيْنَيْهَا السُّودَاوِينَ
الْجَمِيْلَتَيْنِ لِيَتَلَقَّفَ أَوَّلَ بَادِرَةٍ تَضَعُضُّعُ عَنْهَا، حَتَّى
اضْطَرَّ أَنْ يَسْتَرِدَّ يَدَيْهِ مَتَهَدِّدًا فِي يَاسٍ وَخَجَلٍ فَشَبَعَتْهُ
بِضَحِكَةٍ رَقِيْعَةٍ سَاخِرَةٍ وَقَالَتْ:

- أَرَأَيْتَ أَيْتَا الرَّجُلِ الصَّغِيرِ الْعَاجِزَا... لَا تَزْعُمُ
أَنَّكَ رَجُلٌ بَعْدَ الْيَوْمِ وَتَمَّ بِلَهْجَةٍ مِنْ تَذَكُّرِ أَمْرًا هَامًّا
بِغْتَةٍ... يَا دَاهِيِي... نَسِيتَ أَنْ تَقْلُبَنِي!... أَلَمْ
أَنْبِئْكَ عَلَيْكَ مَرَارًا بِأَنْ تَكُونَ تَحِيَّةً لِقَائِنَا قَبْلَهُ؟

وَأَدْنَتْ وَجْهَهَا مِنْهُ فَمَدَّ شَفَتَيْهِ وَلَتَمَّ خَدَّهَا، ثُمَّ رَأَى

ففساهلت بلهجة بين الاكثرات وعلمه:

- ماذا قال وماذا قالت؟

فانشرح صدره بهذا النجاح الجزئي وقصّ عليها ما ترامى إليه من حديث من وراء الباب حتى أتى عليه، فخيّل إليه أنها تتنهد، ثم قالت بترّم:

- إن والدك رجل شديد غيف، الكلّ يعرفه هكذا.

فقال وهو لا يدري:

- نعم... أبي كذلك.

ورفع رأسه إليها في خوف وحذر ولكّنه وجددها كالعالية، فسألها متذكراً ما وصّاه به أخوه:

- ماذا أقول له؟

لفضحكت من أنفها وهي عمّر كضيقها، وهمت بالكلام، ولكنها أمسكت متفكرة ملياً، ثم قالت وقد التمتت في عينيها نظرة مأكرة:

- قل له إنّي لا تدري ماذا تفعل لو تقدّم لها خاطب في أثناء هذه المدة الطويلة من الانتظار!

وعني كيال بحفظ الرسالة الجديدة أكثر ممّا عني بفهمها، وسرهان ما شعر بأن مهنته قد انتهت فأودع بقية اللب جيب جلبابه، ومدّ لها يده بالسلام، ثم انزلت إلى أرض الحجر خارجاً.

٢٢

بلدت عائشة وهي تنظر في المرأة شديدة الإعجاب بنفسها، دون الأسرة اللامعة، بل أيّ فتاة في الحيّ كلّهُ تتحلّى بمثل هذه الخصال اللهيّة وهاتين العينين الزرقاوين؟! إنّ ياسين يتغزل بها جهازاً، وفيهي لا يغلو إذا تحدّث إليها لأمر أو لآخر من نظرات تنم عن الإعجاب، حتى كيال الصغير لا يحلو له الشراب من قلّة إلا من الموضع المبلّل بريقها، وهذه أمّها تدلّكها فتدعوها وقمره وإن لم تحفّ قلبها نحو نحافتها ورقنتها الأمر الذي جعلها تحمّ أم حنفي على تركيب وصفة لتسليمها. أمّا عائشة فلعلّها كانت أعرف الجميع بحسبنا البارح كما تدلّ عليه عنايتها الشديدة به واستئناسها إليه، على أنّ هذه العناية المقرطة لم تمرّ

بخديجة دون تعليق، بل مؤاخلة وتقريع، لا لأنّها تستنيم إلى الإهمال فالحق أنّ خديجة هي الوريثة الأولى لأنّها في الواقع بالنظافة والاناقة، ولكن لأنّها رأت الفتاة تستقبل النهار عادة بتمشيط شعرها وإصلاح هندامها حتى قبل القيام بواجبات المنزل كأنّها لا تطيق أن يبقى جمالها ساعة من العمر غير محاط بالعناية والرعاية، ولكن لم تكن العناية بالجمال وحدها هي الباعث على هذا التجمّل الباكر، فعند ذهاب الرجال كلّ إلى عمله - تأوي إلى حجرة الاستقبال وتفرّج بين ضلّفتي الشبّاك المطلّ على بين القصرين زيقاً رقيقاً فتقف وراءه مائة بصرها إلى الطريق يعلوها قلق الانتظار واضطراب الخوف. هكذا وقفت ذاك الصباح فظّل طرفها حائراً ما بين حثام السلطان وسبيل بين القصرين وفؤادها الغنيّ يواصل خفقاته حتى تراهي عن بُعد ولتتظّره وهو ينعطف قادماً من الحرفش خاطراً في بلدته العسكرية والنجمتان تلمعان على كتفه، وجعل كلياً اقترّب من البيت يرفع في حذر عينيه دون رأسه، حتى تدان من البيت فهفت في أساريه ابتسامة خفيفة آية في الخفة - تُدرّك بالقلب أكثر ممّا تدرك بالحواس - كأنّها الهلال في ليلته الأولى، ثم اختفى تحت المشرّبة فاستدارت في عجلة لتتابع مشاهدته من النافذة الأخرى المطلّة على النحاسين فإراعها إلا أن ترى خديجة منتصبّة على الكنية بين النافذتين ملقبة بنظرها على الطريق من فوق رأسها...!

فرّت منها أمة، وأشعت عيناها في رعب فاضح، فتسمّرت في موقفها... متى وكيف جاءت! كيف علت الكنية دون أن تشعر بها؟!... وماذا رأت؟!... متى وكيف وماذا؟ أمّا خديجة فقد ثبتت بصرها وهي تضيقّ عينها وريداً صامتة، مطيلة الصمت كأنّها لتطيل تعذيبها، ثم تماثلت عائشة بعض نفسها فخفضت عينها في جهد شديد ومالت نحو الفراش متظاهرة - عبثاً - بضبط الأعصاب وهي تنغمم:

- أرحمتي يا شبيخة!

لم تُبد خديجة اكتراثاً، ظلّت بموقفها على الكنية

اضطراب زلزل أركان نفسها فكادت تُشَرِّقُ بالبكاء،
إلاَّ أنَّ اليأس نفسه دفعها إلى الاستماتة في اللود عن
نفسها فهتفت بصوت طمس اضطراب نبراته معانيه:

.. ما هذا الكلام غير المهوم؟

ولكن لم يَسُدَّ على خديجة أنها سمعت كلامها
فواصلت مخاطبة نفسها قائلة:

.. ولهذا أيضًا تتزيّن في الصباح الباكر! طالما ساءلت
نفسى أيعقل أن تتبرّج بنت قبل الكس والمسح
والتنفيض؟! ولكن أيّ كس وأيّ تنفيض يا خديجة يا
مسكينة، يا من ستحيين بلهاء، وتومنين بلهاء، اكتسي
أنت ونفسي أنت، ولا تتزيّني لا قبل العمل ولا حقّ
بعده، ولماذا تتزيّنين يا تميّسة؟! انظري من زيق
الشباك من اليوم إلى الغد فإن احتقن بك عسكري
دورية أقطع ذراعي!

فهتفت عائشة في اضطراب وعصية:

.. حرام عليك... حرام.

.. لما حقّ يا خديجة، هذه فنون لا تستطيعين فهمها
بعقلك المظلم، صيون زرق، وشعر من سبائك
الذهب، شريط أحر ونجمة لامعة، شيء مفهوم،
شيء مفهوم ومعقول.

.. خديجة، أنت غخطنة، كنت أنظر إلى الطريق
فحسب، لا لأرى أحدًا ولا ليراني أحد.

فالتفت خديجة إليها كأنما تنبّه إلى اعتراضها لأوّل
مرة وتساءلت كالمعترة:

.. هل تخاطبيني يا شوشو؟! لا مؤاخلة إليّ أفكر في

بعض الأمور الهامة فأجّلي حديثك إلى حين...

وعادت تمزّ رأسها في تفكير وتخطّبت نفسها قائلة:

.. شيء مفهوم ومعقول، ولكن ما ذنبك أنت يا سيّد
أحمد عيد الجواد؟! أسفي عليك يا سيّد يا شريف يا
كريم، تعال شوف حرمك يا سيدتي وتاج راسي!

وقف شعر الفتاة عند سماع اسم أبيها، فدار
رأسها، ورد على ذهنها قول السيد لأمها وهو يحمل
على رغبة فهمي في خطبة مريم: «أخبريني هل
راها؟!». «ما كنت أحسب أنّي ابناء يسترقون
النظر إلى حرمات الجيران»، هذا رايه في الابن فكيف

وعيناها إلى السطريق غُكّل الزيق... ثمّ تحمّمت
ساخرة:

.. أُرعبتك؟!... اسم الله عليك!... أصلي
بمع...!

وعصّت عائشة على نواجذها في غيظ وحنق ويأس
بعد أن تراجعت قليلًا إلى مأمن من عينها، إلاَّ أنها
قالت بصوت هادئ:

.. رايتك فجأة فوق رأسي دون أن أشعر بدخولك،
لماذا تسترقين الخطو؟

فوثبت خديجة إلى الأرض، ثمّ جلست على الكتبة
في استرخاء ساخر وهي تقول:

.. أسفة يا أختي، في المرّة القادمة سأعلّق جرسًا في
عنقي مثل عربة المظائق لتتنبهي إلى حضوري فلا
ترتعي.

فغالت عائشة في ضيق والرعب لم يفارقها:

.. لا لزوم لتعليق الجرس، حسبك أن تسيري
كالناس الذين خلقهم ربّنا...

فغالت الأخرى بنفس اللهجة الساخرة وهي ترميها
بنظرة ذات معنى:

.. ربّنا يعلم أنّي أسير كالناس الذين خلقهم، ولكن
الظاهر أنّك إذا وقفت وراء النافذة - أقصد وراء هذا
الزيق - استغرقت فيما أمامك بحيث تفقدن الوعي بما
حولك فلا تبقين كالناس الذين خلقهم ربّنا.

ففنخت عائشة مغممة:

.. هكذا أنت دائئًا.

وعادت خديجة إلى الصمت قليلًا، ثمّ حوّلت
عينها عن فريستها، ورفعت حاجبها كأنما تفكر في
مشكل عسير، ثمّ تظاهرت بالسرور كأنما اعتدت
للحلّ للموق، وقالت مخاطبة نفسها هذه المرّة دون أن
تنظر إلى الأخرى:

.. إذن لهذا فهي تغني كثيرًا! يا بو الشريط الأحمر يا
لي! أسرتني ترحم ذلي!...! وكم حسبه بسلامة نيتي
غناء بريثًا لمجرد التسلية!

وخفق قلب الفتاة خفقة قاسية، وقع المحلور ولم
يعد ينفع التعلّق بأوهام الأمانيّ الكاذبة، وركبها

يكون في البنت! وهضفت بصوت غنوق النبرات:

- خديجة... لا يليق هذا... أنت غشقة...
أنت غشقة...

ولكنّ خديجة تابعت حديثها دون التفات إليها:

- ترى أهدأ هو الحب؟ يمكن! ألم يقولوا عنه:
والحبّ كيش في قلبي... قرّبت أروح منه طوكره.

ترى أين طوكر هذه؟ لغلّها في النحاسين، بل
لعلّها في بيت السيّد أحمد عبد الجواد.

- لم أعد أحتمل كلامك، ارحمني من لسانك،
رباه... لماذا تصلّيتني؟!

- تدبري امرئ يا خديجة ليس ما نحن فيه لعباً،

وأنت الأخت الكبرى، والواجب هو الواجب مهما بدا
مراً، يجب أن يعلم أولو الشأن، هل تفضين بالسّر إلى

والدك؟ احضري آلي لأدري كيف أخاصبه في مثل هذا
السّر الخطير، ياسين؟ ولكنّه كدمنه وغاية ما يرجى

منه أن يترنّم بكلام غير مفهوم، فهمي؟ ولكنّه يعطف
بدوره على الشعر اللذيذ أصل البلوى كلّها، أظنّ من

الأفضل أن أخبر نبتة، وأترك لها التصرف بما ترى.

ونذت عنها حركة كأنّها تنمّ بالقيام فهرعت عائشة
إليها كدجاجة مذبحرة وامسكت بكتفها صائحة

بصدر يعلو وينخفض:

- ماذا تريدن؟

فتساءلت خديجة:

- أتهدّديني؟!

همت عائشة بالكلام فخنقتها العبرات بغتة وهيمت
بكلام مرّقه البكاء شرّ مرّق، وجعلت خديجة تحلق

إليها صامتة متنگرة، ثمّ زابل أساورها عبث السخرية
حتى تحبّب وجهها وهي تصغي في غير ارتياح إلى نشيج

الفتاة، ثمّ قالت بلهجة جذّية لأوّل مرّة:

- لقد أخطأت يا عائشة.

وامسكت ووجهها يشتدّ تحبّهم، وكأنّ أنفها ازداد
بروزاً، وبدا عليها التآثر واضحاً فاستطردت قائلة:

- يجب أن تقرّري بخطئك، خبريني كيف سرّلت
لك نفسك هذا اللعب يا مجنونة؟

فغمغمت عائشة وهي تحفّف عينيها:

- أنت تسيئين الظنّ بي.

فنفخت خديجة مقبلة كأنّها ضالّات بهذه المكابرة
الضائعة، بيد أنّها عدلت نهائياً عن نيّة الاعتداء أو

حقّ المعالبة، إنّها تعرف دائماً أين ومتى تقف فلا تجاوز
الحّد، وقد أضيفت السخرية ميولها العدوانيّة القاسية

ففتعت بها كما تقنع بها عادة، ولكن بقيت لديها ميول
من نوع آخر- أبعد ما تكون عن العدوان والقسوة- لم

تشيع بعد، ميول تنبعت من عاطفة الأخت الكبرى،
بل من عاطفة أمومة لا يخطئها فيها أحد من الأسرة

مهما اشتدّت حملتها عليه، ولحت تأثير الرغبة في إشباع
هذه الميول الوثّيقة قالت:

- لا تكابري، لقد رأيت كلّ شيء بعيني، لست
الآن أهزل ولكنّي أريد أن أصارحك بأنك أخطأت

خطأ كبيراً، هذا عبث لم يعرفه هذا البيت في الماضي
ولا يردّ أن يعرفه في حاضره أو مستقبله، إنّهُ العليش

وحده هو الذي أوقعك فيه، أصغني إلّي واعقلي
نصيحتي، لا تعودني إلى هذا أبداً، لا يغبني شيء وإن

طال كتياته، فتصوّري ماذا يكون أمرنا جيّداً لو لمحك
أحد من الجيران، وأنت أدري بالسنّة الناس، تصوّري

ماذا يكون لو غمى الخبر إلى أبي والعياذ بالله!

فكنست عائشة رأسها تاركة الصمت يعبرّ عن
اعترافها، وقد تضرّج وجهها بحمصرة الحجل، ذلك

الدم الذي ينزفه الضمير في الداخل إذا جرحته
خطيئة، وعند ذاك نهّدت خديجة قائلة:

- حذار، حذار، فاحمة؟... وثمّ نسمت عليها
نسمة سخرية فغيّرت لهجتها شيئاً ما، ألم يركّ؟ فإذا

يقعده عن أن يتقدّم لك مثل الرجال الشرفاء؟ وقتها
تقول لك مع ألف سلامة، بل في ستّين داهية يا

سقي...

استردّت عائشة أنفاسها، فافتّر ثغرها عن ابتسامة
لاحت كلمة اليقظة الأولى في العين عقب غيبوبة

طويلة، وكأنّ خديجة عزّ عليها- برؤية هذه الابتسامة-
أن تفلت الفتاة من قبضتها بعد أن نعمت بامتلاكها

فترة طويلة فصاحت بها:

- لا تطغّي أنّك بلغت برّ الأمان، إنّ لساني لا

ولبثت دون حراك ثواني، مستغرقة في خوارطرها الجديدة، في الحلم السعيد الذي تفتّحت لها دنياه الغناء فجأة وإن بدا شغلها الشاغل طول الأوام الأخيرة، ثم أفادت إلى نفسها فنادت خديجة بلهجة لا تحتمل التأجيل فجاءت الفتاة على الأثر، وما إن التقت عيناهما حتى غلبها الابتسام وقالت وهي لا تملك نفسها من الفرح:

- ثلاث سيّدات غريبات في حجرة الاستقبال... ارتدي خير ملابسك... واستعدي...

ولما تورّد وجه خديجة تورّد وجهها أبشاً كأنها انتقلت إليه عدوى الحياء، ثم غادرت الصالة إلى حجرتها في الدور الأعلى لتستعدّ بدورها لاستقبال الزائرات، وجعلت خديجة تنظر إلى الباب حيث اختضت أمها، غالبة الطرف، وقلها يخفق لحذّ الألم متسائلة وما وراء هذه الزيارة؟ ثم نزعَتْ نفسها من موقفها، وسرعان ما استردّ عقلها نشاطه الفائق فنادت كيال الذي جاءها من حجرة فهمي فبادرته قائلة:

- اذهب إلى أبلة مريم وقل لها إنّ خديجة تترك السلام وترجوكم أن ترسلي لها معي علبة البودرة والكحل والأحر... وتلقّف الغلام الأمر وهو يعدو إلى الخارج، أمّا خديجة فأسرعت إلى حجرتها ومضت تخلع جلبابها وهي تقول لعائشة التي لحظتها بعين متسائلة.

- اختاري لي أحسن فستان... أحسن فستان بلا استثناء...

فتساءلت عائشة:

- ما الداعي إلى هذا الاهتمام؟... زائرة؟ من؟
فقالت خديجة بصوت خافت:
- ثلاث سيّدات... «ثم وهي تضغط على مخارج اللفظ... غريبات...»

فراجع رأس عائشة في دهش، ثم أَسْمَعَتْ عيناها الجعيلتان سروراً، وهتكت:

- آه... هل يُفهم من هذا أنّ... يا له من خبر!
- لا تسرّعي في الحكم... فمن يدري عمّا هناك...
فأعجبت عائشة نحو صوان الملابس لتنتقي الفستان

يسكت إذا لم تحسني مشاغله... فتساءلت الأخرى في ارتياح:

- ماذا تعنين؟

- لا تتركه وحده حتى لا تعاوده نزعة الشرّ، ألمبه بشيء من الحلوى ليشغل بها عنك، علبة ملابس مثلاً من شنجرلي... لك ما تشتهين وأكثر.

وساد الصمت فشغلت كلتاها بأفكارها. عل أنّ قلب خديجة كان... كما كان من بادئ الأمر - مرتعساً لضروب من المشاعر متباينة... غيرة وحقد وإشفاق وحنان...

٢٣

كانت ستّ أمينة مشغولة بإعداد أدوات القهوة استعداداً لجلسة العصر التقليدية فجاءتها أمّ حنفي مهزولة، يتكرّر لسان عينيها بآنياء مسارة، ثم قالت بلهجة موحية:

- ستي ثلاث سيّدات غريبات يسرّغن في زيارتك...

أُخِلت الأمّ يديها من كلّ شيء، وانتصبت قائمتها في عجلة دلّت على تأثير الخبر في نفسها، وحدجت الخادم بنظرة اهتمام شديدة كأنّه من المحتمل أن تكون الزائرات من البيت المالك أو من السباه نفسها، ثمّ تمتمت استزادة من التوكيد:

- غريبات؟

فقالت أمّ حنفي بلهجة تنمّ عن فرحة الظفر:

- نعم يا ستي، طرقت الباب ففتحت لمنّ فقلن لي «أليس هذا بيت السيّد أحمد عبد الجواد؟» فقلت لمنّ «بلى» فقلن «الموانم فوق؟» فقلت «نعم» فقلن «نريد أن نتشرف بالزيارة» فسألتهنّ «أقول من الزائرات؟» فقالت لي إحداهنّ ضاحكة «هي هذا لنا، وما على الرسول إلّا البلاغ» فنبئت يا ستي طائرة وأنا أقول لنفسي «يا ربّ حقّق لنا الأحلام»...

فقالت الأمّ بعجلة دون أن يزايل الاهتمام عينيها: - ادعيهنّ إلى حجرة الاستقبال... أسرعي...

المناسب وهي تقول ضاحكة:

- في الجوّ شيء... إنّ الفرح يُشَمُّ كالروائح الزكية...

فضحكت خديجة لتخفي اضطرابها، واقتربت من المرأة ونظرت إلى صورتها بإمعان، ثمّ أخضت أنفها براحتها وقالت بتهكم:

- لا بأس بوجهي الآن، وجه مقبول، وشمّ رائحة راحتها... أمّا عل هذه الحال فرُبّنا وحده المتّجّي! فقالت عائشة ضاحكة وهي تساعدنا في نفس الوقت على ارتداء فستان أبيض موهّج بأزهار بنفسجية:

- لا تخفسي نفسك... ألاّ يسلم شيء من لسانك!... ليست العروس أنفًا فحسب، هناك العنان والشعر الطويل، والدم الحفيف! فلوّت خديجة بوزها قائلة:

- الناس لا ترى إلّا العيوب...

- هذا صحيح بالقياس إلى من على شاكلتك من الناس، ولكن ليس كلّ الناس على شاكلتك والحمد لله...

- سوف أجيئك حين أفرغ لك... فرُبّت الأخرى على خاضعتها وهي تسوّي الفستان قائلة:

- ولا تنسي هذا الجسم البهّض الممتلئ... يا له من جسم!

فضحكت خديجة في سرور وقالت:

- لو كان العريس أسمى ما عملت حسابًا لشيء... ولأنّ أرضي به في تلك الحال ولو كان شيئًا من شيوخ الأزهر...

- وماذا يعيب شيوخ الأزهر!... أليس منهم من خيراته كالبحر؟!

ولمّا فرغت من الفستان ندّت عن عائشة نغمة تأفف فسألها خديجة:

- ماذا بك؟ فقالت بتلذّ:

- ليس في بيتنا كلّ نقطة بوردرة أو كحل أو أحر كان

ليس به نساء...!

- من الأفضل أن تبليّ هذا الاحتجاج لوالدنا... أليست نينة سيّدة ومن حقّها أن تتزيّن؟

- إنّها جميلة هكذا بلا زينة!

- وحضرتك؟ هل تلقين الزائرات هكذا؟ فقالت خديجة ضاحكة:

- أرسلت كمال إلى مريم ليعود بالبودرة والكحل والأحر، وهل وجهي وجه أقبال به الحاطبات عاطلاً؟! ولمّا كان الوقت لا يحتمل تبديد دقيقة بلا عمل فقد نزعّت خديجة منديل رأسها وأخذت تحمّل صغيرتها الغليظتين الطويلتين، على حين جاءت عائشة بالمشط وراحت تمشط شعرها المسترسل وهي تقول:

- يا له من شعر بسيط طويل... ما رأيك؟ سأجده في صغيرة واحدة، ألا يكون ذلك أروع؟

- بل صغيرتين... ولكن خيريني هل أبقى الجراب في قلعيّ أو أدخل عليهنّ عارية الساقين؟

- إنّ الوقت شتاء يستوجب ليس الجراب ولكنّي أعشى إذا أبقيت أن يحسبنّ بساقل حيّبا تتعمدين إخفاه...!

- صليت، إنّ المحكمة أرحم من الحجرمة التي تنتظرنني الآن...

- قوّي قلبك، ربّنا يوعدنا... وهنا دخلت الحجرة كمال مسرّحاً وهو يلهث فقدّم إلى اخته أدوات الزينة وهو يقول:

- قطعت السّم والطريق جرياً... فقالت له خديجة باسمه:

- عفارم، عفارم... ماذا قالت لك مريم؟ - سألتني هل عندنا صيوف... ومن هنّ، فاجتبتها بأنّي لا أدري...

فتجلّت في عيني خديجة نظرة اهتمام وهي تسأله:

- وهل نعمت بهذه الإجابة؟ - حلّفتني بالحسين أن أصرّح لها بما عندي فحلّفتها بأنّه ليس عندي غير ما قلت...

فضحكت عائشة قائلة ويداعها لا تكفّان عن العمل:

- ستخمن ما هنالك...

فقالت عائشة ضاحكة:

فقلت خديجة وهي تدرّ البودرة على وجهها:

- طيباً أنا...

- إنها بنت هرمسة، وهيهات أن يضربها شيء، وأراهنك على أنها سوف تزورنا غداً على الأكثر لإجراء تحقيق شامل...

فلكنها بكوعها، ثم تنهدت قائلة:

- لو تعيريني أنفك كما أعارتني مريم علة بودرتها!
- تناسي أنفك ولو الليلة على الأقل، إن الأنف -

كالدمل - يعضخ بالدباب على التفكير فيه!...

أوشكتنا عند ذاك على الفراغ من عملية التجميل، فتراخى انتباه خديجة عن التركيز في مظهرها وأتجه في رهبة إلى موقف الامتحان الذي يتظرها فشعرت بخوف لم تشعر بمثله من قبل، لا بالمقاس إلى جذته فحسب ولكن - قبل كل شيء - بالمقاس إلى خطورة عواقبه، وما لبثت أن قالت متشكية:

- آية جلسة هذه التي قضي علي بها!... تصوّري

ولم يشأ كيال أن يغادر الحجرة كما كان المنتظر، أو لعله لم يستطع مغادرتها تحت إغراء المشهد الذي يمثل أمام عينيه، والذي يراه لأول مرة في حياته فلم يسبق له أن رأى وجه أخيه وهو يلقي هذا التغير الذي استحال معه وجهاً جديداً، البشرة تبيض والوجتان تتوردان والعيان تصطبغ أشغارها بسواد لطيف يرسم لها حدوداً جذابة ويضفي على حذقيتها صفاء بهيجاً، وجهه جديد هش له قلبه فطرب هائفاً:

- أنت يا أبله الآن كالمرس التي يشتريها بابا في مولد النبي...

فصحكت الفتاتان، وسألت خديجة:

- هل أصبحك الآن؟

فالتفت منها مسرعة ومدّ يده صوب أرنبة أنفها وهو يقول:

- لو تزول هذه!

فتفادت من يده، ثم قالت لأختها:

- إخرجي هذا التّام.

أجلس بينهن في أدب واستسلام ألتقى نظراتهن من اليمين والشمال، ومن الأمام والخلف، وأصدع بأمرهن بلا أدنى تردد، إذا طلبن قياماً قمت، أو مشياً مشيت أو كلاماً تكلمت حتى لا يفوتهن شيء من جلوسي وقلامي وصمتي وكلامي وأعضائي وقسائي، وعلينا بعد هذه «البهلة» كلها أن نتوّد إليهن ونطري لطفهن، وكرمهن، ثم لا ندرى بعد ذلك أنفوز بالرضى أو نفوز بالغضب، أف... أف... ملعون الذي أرسلهن! فعاجلتها عائشة قائلة بلهجة ذات معنى:

- بعد الشرّ عنه!

فقالت خديجة ضاحكة أيضاً:

- لا تدعي له حتى نتأكد أنه من نصيبنا... آه يا ربّي كم أن قلبي يلقأ!

فتراجعت عائشة خطوة خطوة عن مرمى كوعها وقالت:

- صبرك... ستجدني في المستقبل فرصاً كثيرة للانتقام من مجلس اليوم الريب، فكم سيُملون من

فقبضت عائشة على يده وجذبه إلى الخارج رغم مقاومته حتى أخرجه وأغلقت الباب، ثم عادت إلى استئناف عملها الجليل، فواصلنا نشاطها في صمت وجهد. ومع أنه كان من المتفق عليه في الأسرة أن تقتصر مقابلة الحاطيات على خديجة وحدها إلا أن الفتاة قالت لعائشة على سبيل المكر:

- ينبغي أن تنأني أنت أيضاً لاستقبال الزائرات.

فقالت عائشة بمنزلة مكر أختها:

- لن يكون هذا قبل أن تزوّي ابن عريسك!

ثم استدركت قائلة قبل أن تتكلم خديجة:

- أما الآن فكيف للنجوم أن تطلع مع القمر؟!

فرمتها أختها بنظرة مستريية وتسألت:

- من يكون القمر؟

- الخبر هو أنّ حسن أفندي إبراهيم ضابط قسم الجيالة - وهو من معارفى كما تعلمون - قابلي ورجاني أن أبلغ والذي رغبته في خطبة عائشة . !

وأحدث الخبر - كما قدّر فهمي من قبل ما دعاه إلى التردد وطول التفكير - آثاراً جدّ متباينة، ففتلعت الأمّ إليه باهتمام شديد، على حين صفر ياسين وهو يرمق عائشة بنظرة مداعبة ويبرّز رأسه، وخفضت الفتاة الصغيرة رأسها حياءً ولتخفي وجهها من الأعين أن تفحصها أسارىها فتعلم للناظرين ما يضطرب في قلبها الخافق، أمّا خديجة فقد تلقت الخبر بهشة بادئ الأمر لم تلبث أن انقلبت حقوفاً وتشاؤماً لم تدّر لها سبباً واضحاً ولكنها كانت كتلميذ يتوقّع بين آونة وأخرى ظهور نتيجة الامتحان - إذا تنأى إليه نجاح زميل له بلغته النتيجة من مصدر خاص، وتساءلت الأمّ في ارتباك لا يتناسب ومناسبة الفرح الراهنة :

- أهذا كلّ ما قال؟

فقال فهمي وهو يتحاشى النظر ناحية خديجة :

- بدأي بقوله أنّه يودّ أن يشرف بطلب يد شقيقتي الصغرى .

- وماذا قلت له؟

- شكرت له حسن ظنه بطبيعة الحال . . .

لم تطرح عليه السؤال تلو السؤال في رغبة استطلاع شيء تؤدّ معرفته، ولكن لتداري ارتباكها وتتزعّج من المفاجأة مهلة للتروّي . ثمّ راحت تتساءل ترى هل لهذا الطلب علاقة بالزائرات اللاتي جثتا منذ أيام؟ وذكّرت عند ذلك كيف قالت إحداهنّ - قبل ظهور خديجة - وهي بمعرض الحديث عن أسرة السيّد أحمد أنّهن سمعن أنّ للسيّد كرميتين فأدركت وقتها أنّهنّ جئن لرؤية الفتاتين ولكنّها تصابّت عن الإشارة، وقد انتسبت الزائرات إلى أسرة تاجر بالدرب الأحمر - غير والد الضابط الذي قال فهمي عنه مرّة أنّه موظّف بوزارة الأشغال - ولكن هذا لا يضيّ نفعاً قاطعاً العلاقة بين الأسرتين لآله المألوف أن تبعث الأمر بخاطبات من بعض فروعها دون الأصل على سبيل الحرص، وكم ودّت أن تسأل فهمي عن هذه النقطة بالذات

نار لسانك وأنت ست البيت . . . ولعلّهنّ يذكرن امتحان اليوم وهنّ يقطن لأنفسهنّ يا لبت الذي جرى ما كان . . .

وقعت خديجة بالاجتماع . لم يكن في الوقت متسع لرّد الهجوم، ولم تجد في الهجوم - الذي تجد فيه عادة سروراً شافياً - لذّة على الإطلاق لنغلة الرهبة على نفسها وحيرتها بين الخوف والرجاء، وليّا فرغت من مهمتها وفقت تلقى على صورتها نظرة شاملة، وعائشة - إلى الوراء خطوتين - تردّد نظرها بعناية بين الصورة والأصل، وجعلت خديجة تتمتع :

- أحسنت يدلك، منظر حسن أليس كذلك؟ . . . هذه خديجة حقّاً . . . لا بأس بأنّي الآن . . . جلّت حكمتك يا ربّ، بقليل من الجهد صار كلّ شيء مقبولاً فلماذا (ثمّ مستدركة) استغفر الله العظيم، لك في كلّ شيء حكمة . . .

وتراجعت خطوات وهي تفحص صورتها بعناية ثمّ فرأت الفاتحة في سرّها، والتفتت نحو عائشة قائلة :

- ادهي لي يا بنت . . .

وغادرت الحجرة . . .

٢٤

اكتسب مجلس القهوة بحلول الشتاء ميزة جديدة تمثّلت في المدفأة الكبيرة التي توسّطت الصالة فتكاكأت حولها الأسرة، الذكور في معاقفهم والنساء ملتصقات بخيارتهنّ، فهبّا لهم للمجلس إلى لذّة الشراب وحلو السمر متعة اللذّة. وقد بدا فهمي - على حزنه الصامت الطويل في الأيام الأخيرة - كمن يتحفّز لمواصلة أهله بخبر هامّ، ولم يكن تردده وطول تفكيره إلاّ دليلاً على خطورة الخبر واهميته، بيدّ أنّه انتهى من تفكيره وترقده إلى التصميم على إبلاغه ملقياً عيه بعد ذلك على والديه والأقارب، فلذلك قال :

- عندي خبر هامّ لكم فاسمعوا . . .

فتطلّعت إليه الأعين باهتمام لن يشدّ عنه أحد، لأنّ ما عُرف به الشاب من اتزان جعل الجميع ينتظرون خبراً هامّاً حقّاً كما قال، أمّا فهمي فاستطرد قائلاً :

تسألت:

- ألا يحسن بنا أن نفكر فيما عسى أن أجيب أباك إذا سألتني عما دعا الضابط إلى طلب عائشة بالذات، ولماذا لم يطلب يد خديجة، ما دام لم يَرْ هذه ولا تلك؟...

وانتهت الفتاتان إلى ملاحظة أمهما معاً، ولعلهما ذكرتا موقفها وراء النافذة في وقت واحد، بيد أن خديجة تلقت الذكرى بامتعاض ضاعف من امتعاضها الراهن، واحتج قلبها على الخطأ الأعمى الذي يأتى ألا أن يجزي النزع والاحتشار بالإحسان، أمّا عائشة فقد اعترضت تيار سرورها ملاحظة أمها كما تعترض الحلق - وهو نشوان بازرداد أكلة لليلة شهية - شوكة حافة مدسوسة في الطعام، وسرعان ما امتص الحرف حرارة الفرح التي كان يتففس بها روحها. فعمي وحده الذي ثار على قول أمه، لا دافعاً كما بدا من عائشة - فإنه ما كان يميز الدفاع عن عائشة تحت سمع خديجة في هذه النقطة الحساسة بالذات - ولكن غضباً لحزنه العظيم الذي لم يسهه الجهر بالدفاع عنه حيال أبيه، فقال محتدّاً مخاطب أباه في شخص أمه، وهو لا يدري:

- هذا تصفّ ظالم ما مبرّر له، من عقل أو حكمة ألا يعرف الرجال أشياء كثيرة عن نساء غُفّرات عن طريق الفضليات من قريباتهم اللاتي لا يقصدن بمحدثهنّ إلا الجمع بين رجل وامرأة في الحلال. ولكنّ الأمّ لم تقصد باعتراضها إلا توارياً وراء أبيه حتى تجد غرضاً من المأزق الذي وجدت فيه نفسها بين عائشة وخديجة. فلما صارحها فعمي باحتجاجه لم تجد بداً من مصارحته بما يدور:

- ألا ترى أنه من الأفضل أن ننظر حتى باتينا بنا الزائرات؟!

ولم تعد خديجة تطيق الصمت مدفوعة بكبرياتها التي أبت عليها إلا أن تعلن عدم المبالاة بالأمر كله بالرغم مما يصططع داخلها من القلق والتشاؤم. فقالت:

- هذا شيء وذاك شيء آخر وليس ثمة داعٍ لتأجيل

وكأنها أشفقت من أن يجيء الجواب مصداقاً لمخاوفها فيفضي على آمال ابنتها الكبرى ويسمها خيبة جديدة، بيد أن خديجة نابت عن أمها - اتفاقاً - بطرح ما يعتلج في صدرها خارجاً حين دارت هيوطها بضحكة فاترة وقالت متسائلة:

- لعلّه هو الذي يمت بالزائرات اللاتي زرننا منذ أيام.

ولكنّ فعمي بادر قالاً:

- كلاً، فقد قال لي إنه سيرسل أمه إلينا في حالة الموافقة على طلبه...

ولكنّه بخلاف لجهته الموحية بالصدق، لم يكن صادقاً فيما قال، فقد فهم من حديث الضابط أن السيدات اللاتي زرن والدته قرياته، بيد أنه أشفق من إسلام شقيقته الكبرى التي كان - على حبه عائشة - واقتناعه بجداره صديقه الضابط - يعطف عليها عطفاً أخوياً، وبأن أشدّ الألم لسوء حقلها، ولعلّه كان لا مهي به من خيبة أثر قويّ في البلوغ بهذا المعطف ذروته. وضحك ياسين ضحكة غليظة وقال بجذل صبياني:

- يبدو أننا سنجمع قريباً بين فرحين...

فهتفت الأمّ في فرح صادق:

- ربّنا يسمع منك...

- هل لمخاطبين أبي نيابة عني؟...

نذ عنه السؤال وهو مشغول بمسألة الخطبة عتياً عداها، ولكنّه - عقب النطق به - وقع من أذنيه موقعاً غريباً، فكأنه ألقي عليه من حافظة ذكرياته لا من طرف لسانه، أو كأنه حين ألقي على سمعه لم يقف عند أذنيه ولكنه غاص إلى أعماقه ثمّ طفا عالقاً به ما علق به من ذكرياته، وللدحال ذكر سؤالاً مماثلاً لهذا السؤال توجّه به إلى أمه في ظروف مشابهة فانقبض قلبه، وهاجت الآلام، وعاوده إحساسه بالظلم الذي وأد أمه، وجعل يقول لنفسه كما قال لها مراراً في الأيام الأخيرة، كم كان يكون سعيداً بيومه مستبشراً بغده راضياً عن الحياة كلها لولا إرادة أبيه القاسية، وانزعته الذكرى من الاهتمام بشئون غيره، فاستسلم للحزن الذي يقرض شغاف قلبه، أمّا الأمّ فنغجرت ملياً ثمّ

هذا من أجل ذلك...

فقالت الأم بهدوء مؤثر:

- كلنا متفقون على تأجيل زواج عائشة حتى تتزوج

خديجة.

ولم يسمع عائشة إلا أن تقول برقة وتسليم:

- هذا أمر مفروغ منه...

امتلاً صدر خديجة حقاً لدى سماع التبرات الرقيقة التي تتكلم، ولمل رقتها نفسها كانت أشد ما احتقها، ربما لأنها أوحش بعطف آتته كل الإباء، أو لأنها وددت لو تعلن الفتاة معارضتها صريحة لتتبع لها فرصة لمهاجمتها بما يشفي حنقها على حين قام ذلك المطف الكاذب البغيض دوماً يدفع عنها الأذى ويضاعف من حنق التريص المتحفر، وأخيراً لم يسمعها إلا أن تقول بلهجة لم تُخل من حدة:

- لا أوافق على أن هذا أمر مفروغ منه، فليس من العادل أن يمسلكم حقد عائل على كسر حقد سعيداً...

وثبت فهمي إلى ما ينطوي عليه كلام خديجة من حزن غاضب بالرغم من ظاهره الموحى بالإثارة فانتزع نفسه من قبضة أحزانه الشخصية نادماً على ما صدر منه من قول في غضبته مما قد تحسبه خديجة ميلاً صريحاً منه إلى قضية أختها فقال موجهاً خطابها إليها:

- إن مفاتحة بابا عن رغبة حسن أفندي لا تعني التسليم بتقديم زواج عائشة على زواجك، وما علينا من بأس إذا نلنا موافقته على الخطبة، أن نؤجل إعلانها لوقت مناسب...

ولم يكن ياسين مقتنعاً بوجهة الرأي التي يسمّ تقديم زواج على زواج، ولكنه لم يجد الشجاعة الكافية للإفصاح عن رأيه إلا أنه رُوِّع عنه بكلام يفهم منه من يشاء ما يشاء فقال:

- الزواج مصير كل حي، ومن لم تتزوج اليوم فستتزوج غداً.

وهنا انطلق صوت كمال الرفيع الذي كان يتابع الحديث باهتمام متسائلاً على غير انتظار:

- نينة... لماذا كان الزواج مصير كل حي؟

ولكنها لم تُعَرّ بالالتفات إليه، فلم يحدث تساؤله من أثر إلا عند ياسين الذي تقفع بضحكة غليظة دون أن ينبس بكلمة، على حين قالت الأم:

- اعلم أن كل فتاة ستتزوج اليوم أو غداً، ولكن هناك اعتبارات لا ينبغي إغفالها...

وعاد كمال يسألها:

- وهل ستتزوجين أنت أيضاً يا نينة؟

وضج الجميع ضحكاً فحقف هذا من حدة التوتر، وانتهر ياسين هذه الفرصة السانحة فتشجّع قائلاً:

- اعرضي الأمر على أبي، فالكلمة كلمته على أي حال...

وقالت خديجة بإصرار غريب:

- لا بدّ من هذا... لا بدّ من هذا...

كانت تعني ما تقول: لأنها من ناحية تعلم باستحالة إخفاء مثل هذا الأمر عن أبيها، ولأنها من ناحية أخرى تعتقد بأن والدها لا يمكن أن يقبل تقديم زواج عائشة عليها، ولأنها - إلى هذا وذلك - ما زالت تصرّ على التظاهر باللامبالاة، ومع أنها لم تكن تعلم بما بين الضابط والزائرات من سبب... إلا أن القلق والتشاؤم اللذين شعرت بهما من بادئ الأمر لم يتخلّيا عنها لحظة واحدة...

٢٥

مع أن السيّدة أمينة جرّمت في حياتها أكثر من سبب من الأسباب التي تكثّر الصفو إلا أنها لم تكن قديمة عهد بنوع طرائق من هذه الأسباب، امتاز بطابع خاصّ به، إذ بدا في ذاته - على خلاف سابقه - ممّا يجمع الناس على اعتباره من أسس السعادة الجوهرية في الدنيا، ومع هذا انقلب في بينها، بل في قلبها خاصّة، باعثاً هائلاً من بواعث القلق والكدر، وكم كانت صادقة وهي تسائل نفسها: من كان يظنّ أنّ مقبّم عريس، الأمر الذي تلهّف النفوس على استقباله، يحير علينا هذا التعب كله... ولكن هكذا جرى الحال، فتنازع قلبها أكثر من رأي دون أن تطعن إلى واحد منها، رأت حيناً أنّ الموافقة على زواج

أجل، علمت بهذه العالقة، وهي مفردة بفهمي، وقد اقترح عليها الشاب أن تخفي أمرها عن والده عند مفارقتها بالخبر فوعدهته بالتفكير في المسألة طويلاً، وترددت بين قبولها ورفضها، ثم مالت أخيراً إلى كتمانها كما اقترح فهمي، ولكنها حين جوبت بسؤال السيد وهي تشعر بنظرة عينيه بكضوء الشمس الوهاج تشتت عزيمتها وتبدد رأيها فقالت بلا تردد:

- نعم يا سيدي، علم فهمي أنهن قريسات صديقه...

فعبس السيد غاضباً وكعدهه إذا غضب امتلأت صفحة وجهه البيضاء بالدم وتطاير الشر من عينيه. من يستهن بخديجة فكأنما استهان بشخصه، ومن يمس كرامتها فكأنما طعنه في صميم كرامته، ولكنه لم يدبر كيف يعلن غضبه إلا عن طريق صوته الذي علا وغلظ وهو يتسامل بحق وازدراء:

- من هو هذا الصديق؟

فقالت وهي تجهد للتلقي بالاسم قللاً لا تدري له من سبب:

- حسن إبراهيم ضابط قسم الجبلية.

فقال السيد متسائلاً في انفعال:

- قلت إنك أدخلت خديجة وحدها على السيدات؟...

- نعم يا سيدي...

- هل زرتك مرة أخرى؟

- كلا يا سيدي وألا كنت أخبرتك.

فسأله متهمراً كأنها هي المشوالة عن هذه الغرابة:

- أرسل قريباته فرأين خديجة، وإذا به يطلب

عائشة!... ما معنى هذا؟...

فازدردت الأم رقيقاً الذي جف بين الأخذ والرد وتمتمت:

- في مثل هذا الحال لا تدخل الحاطبات البيت المقصود إلا بعد أن يزور كثيراً من بيوت الجيران متحيزات عما يحسن، وبالفعل قد أشرن في حديثهن معي إلى أنهن سمعن بأن للسيد كريمة، ولعل تقديم واحدة دون الأخرى...

عائشة قبل بخديجة كفيفة أن تقضي على مستقبل ابنتها الكبرى، ورأت حيناً آخر أن الإلحاح في معارضة الأقدار موقف شديد الخطورة قد يصود على الفتاتين بأروحم العواقب، وإلى هذا وذلك - شق عليها أكثر أن توصل الباب في وجه عريس رائع كالضابط الشاب ليس من اليسر أن يهود الحظ بمثله مرة أخرى. ولكن ما عسى أن يكون موقف خديجة إذا تمت الموافقة وما عسى أن يكون حظها ومستقبلها؟... لم تدر لنفسها مستقراً، خاصة وأن ما طبعته عليه من سلبية شاملة جعلها أصغر من أن تجد حلاً موقفاً لمشكل من المشاكل، ولهذا وجدت راحة وهي تتحضر للإلقاء العبد كله على عاتق السيد، بل وجدت هذه الراحة بالرغم مما يخامرها من خوف كلما أقدمت على مفارقتها بأمر ترتب في حسن تقبله له، وقد انتظرت حتى فرغ من احتساء قهوته ثم قالت بصوتها المهموس الناطق بالأدب والخضوع:

- سيدي... حدثني فهمي قال إن صديقاً له رجاء أن يعرض عليك رغبته في خطبة عائشة...

سددت العينان الزرقاوان نظرة اهتمام ودهشة من فوق الكنية إلى حيث تجلس المرأة على شلثة غير بعيدة من قدميه، كأنها يقول لها: وكيف تحدثيني عن عائشة وأنا في انتظار أخبار عن خديجة بعد ما كان من نبأ الزائرات الثلاث... ثم تسامل ليستوثق مما سمع:

- عائشة؟...

- نعم يا سيدي...

ونظر السيد أمامه في ضيق، ثم قال وكأنه يحث نفسه:

- قررت من زمن بعيد أن هذا سابق لأوانه...

فقالت المرأة في عجلة أن يظن بها معارضة لرايه:

- إنني أعلم رأيك يا سيدي، ولكن يجب أن أطلعك على كل شيء يدور بيننا...

تفحصها الرجل بعصر حاذ كأنه يسبر ما في قولها من صدق وإخلاص ولكن لمعت عيناه بخاطر طارئ حال بينه وبين تفحصها، ففساد في اهتمام وقلق:

- نرى لهذا علاقة بالسيدات اللاتي زرتك؟

- كيف يطلب هذا الضابط يد عائشة بالرغم من
أن أحداً لم يرها؟
فغالت بحرارة وقلبها يرتجف:
- قلت يا سيدي لمهلون سمعن عنها.
- ولكنه يعمل في قسم الجبائية أي في حينا، وكأله
من أهله.

فغالت الأم في تأثر شديد:
- إن عين رجل لم تقع على إحدى ابنتي منذ
انقطاعها عن المدرسة في سن الطفولة.
فضرب كفًا بكف وصاح بها:
- مهلاً... مهلاً... هل حسبتني أشك في هذا يا
وليّة؟! لو شككت فيه ما أشبهني القتل!...

إنما أتحدث حيا يجرى في عقول بعض الناس من لا
يعرفوننا، وإن عين رجل لم تقع على إحدى ابنتي...
ما شاء الله، وهل كنت تريدين أن تقع عين رجل
عليها؟... يا لك من مجنونة مهذارة، إنّي أردت ما
قد تشيع به الكسنة السفهاء من الناس، أجل... إنّه
ضابط الحيا، يسير في شوارعنا صباح مساء فلا يبعد
أن يقوم عند البض ظنّ احتمال رؤيته لإحدى الفتيات
إذا علموا بزواجه منها... لا أحب، لا أريد أن
أعطي ابنتي لأحد ليشير الشبهات حول سمعتي، بل لن
نتنقل ابنتي إلى بيت رجل إلا إذا ثبت لديّ أنّ دافعه
الأول إلى الزواج منها هو رغبته المخافضة في مصاهرتي
أنا... أنا... أنا... ولم تقع عين رجل على إحدى
ابنتي... مبارك... مبارك يا ست أمينة.

وأصغت الأم دون أن تنبس بكلمة فساد الصمت
الحجرة، ثمّ مضى الرجل فأذنها عومسه بالله سيشرح في
ارتداء ملابسه استعداداً للعودة إلى الدكان فبادرت
بالقيام، ونزع السيّد فراحيه من الجلباب ورفعته
ليخلعه، ولكنه توقّف قبل أن تجاوز طاقة الجلباب
ذقته، وقال للجلباب مكمّ فوق منكبه كلبسة الأسد:
- ألم يقدّر سي فهمي خطورة الطلب الذي تقدّم به
صديقه؟...

(ثمّ محرّكا راسه في أسف)... يحسدني الناس عل

أرادت أن تقول ولعلّ تقديم واحدة دون الأخرى
وتحدّ لديهنّ ما سمعن عن جمال الصغرى، ولكنّها
أمسكت خوفاً من مضاعفة غضبه من ناحية، وإشفاقاً
من الجهر بهذه الحقيقة التي ترتبط في ذهنها باللون قائمة
من الفلق والأسمى من ناحية أخرى، فأمسكت مكتفية
بإتمام الحديث بإشارة من يدها كأنما تقول «البح النخ»
وحذج السيّد إليها بنظر حادّ حتّى غطّت الطرف
استخدام، وانقلب إلى حال من الامتناع والحزن
كتنقّت الغضب في صدره فمضى يقرع أضلعه يروم
متنفّساً أو ينشد صحبة، ثمّ صلب بصوت عاصف:
- عرفنا كلّ شيء، ها هو ذا عريس يتقدّم طالباً يد
ابنتك فاسمعيني رأيك؟...

شعرت بسؤاله يستلججها إلى حضرة لا قرار لها
فغالت بلا تردد وهي تبسط راحتها في تسليم:
- رأيي رأيك يا سيدي ولا رأي لي غيره...
فصاح في زعجرة:
- لو كان الأمر كما تقولين ما فلتعتني في الأمر.
فغالت في لهجة ملهوجة وإشفاق:
- ما حدثك يا سيدي إلا لأعبرك حيا جدّ في
الأمر، لأنّ واجبي يقضي عليّ بأن أطلعك على كلّ ما
يتّصل ببيتك من قريب أو بعيد...
فهزّ راسه في حقن قائلاً:

- من يدري. إي والله من يدري... ما أنت إلا
امرأة، وكلّ امرأة ناقصة عقل، والزواج خاصّة يفتنك
عن الرشاد، فملكك...
فقاطعت بصوت متعجّج:

- سيدي أعوذ بالله ممّا تظنّ بي، إنّ خديجة ابنتي
ومن حمي ودمي كما هي ابنتك... وإنّ حقلها ليفت
كبدني، أمّا عائشة لما تزال في أوّل ربيعها ولن يضرّ بها
أن تنتظر حتّى يأخذ الله بيد شقيقتها.
فراح يمسح براحته على شاربه الغليظ بحركة
عصيّة حتّى توقّف فجأة، كأنما تذكر أمراً وتساءل:

- هل علمت خديجة؟

- نعم يا سيدي.

فلوح بيده غاضباً وهو يصيح:

تقار بيريء، وإلى هذا وذاك كان إحساسه الباطني بأنه نصف أخ فقط يفعله عند مواجهة الخطير من شئون الأسرة الحساسة عن إبداء الرأي الخلق بجرى أحد من أفرادها... ولم تكن عائشة قد نسبت بكلمة ففكرت نفسها على الكلام قسراً أن ينفي صحتها بألامها التي صممت على إخفائها والتظاهر بعدم الاكتراث لها معها سامها ذلك من عذاب وتوتر، بل أجمعت على إعلان الارتياح بجارة لجو البيت الذي لا يعترف للعواطف بحق من حقوقها... والذي تدارى فيه أهواء القلوب بأقنعة الزهد والرياء، فقالت:

- لا يصح أن أتزوج قبل خديجة، والحرج كل الحرج فيسا يسرى أبى (ثم مبتسمة)... لحذا تتهجّلون الزواج... ومن أدراكم بأننا منحنى في بيوت الأزواج بحياة سعيدة كالتي نحظى بها في بيت أبينا؟! ولما تواصل الحديث كشأن كل مساء حول المدافاة لم تمسك عن الاشتراك فيه بما وسعها قوله بالرغم من شرد ذهنها وتشتت نفسها، وكم في الواقع شابهت الدجاجة المذبوحة التي تندفع مبسوطة الجناحين - كأنها تنفض حيويته ونشاطها - على حين يندلق الدم من عنقها مستهفياً آخر قطرات الحياة.

على أنها توقعت هذه النتيجة قبل عرض الأمر على أبيها، أن لا ثمة غامض دأب أحلامها كما يداعبنا الأمل في كسب النمرة الأولى في اليانصيب الكبير... وقد تطوّعت أول الأمر للمعارضة في زواجها مدفوعة بأريحية الظفر والسعادة، وبالمطف على شقيقتها السيئة الحظ، الآن لحلت الأريحية ونضب المطف، فلم يبق إلا الامتناع والسخط والياس. ليس لها من الأمر شيء. فله إرادة الأب ولا معقب لها، وما عليها إلا الإذعان والاستسلام، بل عليها أكثر من هذا الرضى والارتياح، لأنّ عض الوجوم ذنب لا يغتفر، أما الاحتجاج فإثم لا يطيقه أدبها وحيائها. أفادت من سكرة السعادة الغامرة التي انتشت بها يوماً وليلة على بأس مظلم، ما أكتف الظلمة نحيء عنب النور الباهر، في تلك الحال لا يقتصر الألم على الظلمة الراهنة، ولكنّه يضاضف مرّات ومرّات بالحسرة على

إنجاب ثلاثة ذكور، والحق أنّي لم أنجب إلا إنثاء... .
خس إنثاء...

٢٦

على أثر مغادرة السيد للبيت ذاع رايه في خطبة عائشة، ومع أنّه قول بتسليم عام - تسليم من لا حيلة لهم سوى التسليم - إلا أنّه كان متباين الصدى في النفوس، أسف فهمي للخبر، وساءه أن تفقد عائشة زوجياً صالحاً مثل صديقه حسن إبراهيم، أجل كان قبل أن يبت أبوه في الأمر متردداً بين التحمس للمريس المتقنم وبين العطف على موقف خديجة الدقيق، فلما أن قضي الأمر واستراح جانبه المشفق على خديجة أسف جانبه الآخر الرأغب في معادة عائشة وأمكنه أن يجهز براهيه فقال:

- لا شك أنّ مستقبل خديجة يمتنا جيئاً ولكنني لا أوافق على الإصرار على حرمان عائشة من الفرص الحسنة التي تتاح لها، الخطأ غيب لا يعلمه إلا الله، ولعلّ الله يذخر للمتأخّر حظاً أوفر من المتقنم.

ولعلّ خديجة كانت أشدّ الجميع شعوراً بالحرج لوقوفها للمرة الثانية عثرة في سبيل اختيارها، لم تكن تفكر في الحرج وهي تحت المطرقة، ولكن حين ثما إليها رأي أبيها الحاسم، وتفقه الخطر الذي يتهددها، زابلها الحزن والألم وحلّ محلّها شعور الهم بالخجل والحرج، ومع أنّ حديث فهمي لم يترك في نفسها أثراً حسناً لأنّها طمعت في أحقادها أن تجد من الجميع حامساً لرأي أبيها وأن تبقى هي الوحيدة المعارضة له، إلا أنّها قالت معلقة عليه:

- صدق فهمي فيما قال، وكان هذا رأيي دائماً...

فعاد ياسين يؤكّد رايه السابق قائلاً:

- الزواج مصير كلّ حي... لا نخافوا... ولا تحزّعوا...

فتح هذه المرة بالكلام على ولعه بعائشة وشدة استيائه لما حاق بها من ظلم، ولكنّه يخاف أن يعلن رايه صراحة أن تسيء خديجة فهمه أو تظنّ أنّ ثمة علاقة بين هذا الرأي وبين ما ينشب بينها كثيراً من

وارتضى لها هذا العذاب كله، ومع أنها كانت مثقلة حائقة ساعطة إلا أن ألما وحقتها وسخطها وقفت عند شخص أبيها وارتدت عنه خائبة ارتداد الوحش الماصع إذا اعترضه مروضه الذي يجبه ويغافه، لم يسمها أن تحمل عليه، ولو في أعياق سريرتها، وظل قلبها على ولائه وحبه فلم تضمر له إلا الإخلاص والوفاء كأنه إله لا يجوز أن تقابل قضاؤه إلا بالتسليم والحب والوفاء.

شدت الصغيرة ذاك المساء حبلى اليأس حول عنقها الرقيق فأمّن قلبها المتفتح بأنه نصب وأجذب إلى الأبد، وضاعف من تورّث أعصابها الدور الذي صمّعت على أن تمثله بينهم، دور البشر واللامبالاة وما سامته نفسها من المشاركة في سمرهم حتى نادت هامتها اللهيّة بحمله، وانقلبت الأصوات في أذنيها وقرا، فلما جاء وقت الانسحاب إلى حجرة النوم حتى مضت في إعياء كالرصى، وهناك في أمن من ظلمة الحجرة نجّهم وجهها لأوّل مرّة وعكس صورة صادقة من قلبها.

تبدّ آه لحق بها وقيب - خديجة - أيقنت من بادئ الأمر أن تصنعها لن يجدي معها شيئا وقد تحامت في المجلس نظراتها أما الآن - إذ جلست إليها - فلا مهرب منها ولا مغرّ. وتوقّعت أن تهجم الفتاة على الموضوع بعنادها المعروف، وانتظرت تسأل صوتها إلى أذنيها بين لحظة وأخرى، ورحب قلبها بالحديث، لا لأنه سيبيح رجاء جديدا، ولكن لأنها ألمت براء الاعتذار والخرج اللذين متعلّمتها الفتاة صادقة حتّى شيئا من العزاء. ولم يطل الانتظار فلما لبث أن جادها الصوت يشقّ الظلمة قائلاً:

- عائشة، إني حزينة أسفة، ولكن علم الله لا حيلة لي، وكم وددت لو تواتني الشجاعة فأرجو أبي أن يعدل عن رأيه.

وتساءلت عما وراء هذا الكلام من صلق أو رياء متغلة بثورة حتى ثارت بها لدى سماع النبرات الأسيفة مباشرة، ولكنّها اضطّرت إلى العودة إلى استعادة النبرات التي ظنّت تتحدّث بها في مجلس أمّها فقالت:

- فيم الحزن والأسف، ما أعطأ أبي وما ظلم ولا

النور الذاهب وتساءل نفسها إذا كان ثمة نور أمكن أن يضيء ملياً فليذا لم يواصل الضياء، لماذا يجنب، لماذا خبا، فتكون حصرة جديدة تنضمّ إلى بقية الحصرات التي ينسجها الحزن حول قلبها متزججاً ليأبها من ذكريات الماضي وواقع الحال وأحلام المستقبل، وعلى إغراقها في التفكير في هذا كله وحضوره - نبهاً لذلك - في شعورها فلنّتها تعود تتساءل وكانت تتساءل لأوّل مرّة، وكان الحقيقة ألزّة ترتطم بشعورها للمرّة الأولى: هل حقاً خبا النور؟

هل تمزّقت الأسباب بينها وبين الشاب الذي ملا قلبها وغياها؟

سؤال جليلد رغم تكراره، وصدمة جديدة رغم نفاذها إلى العظام، ذلك أن الحصرة الكاوية لا تنفك ينتازعها اليأس المستقر في الأعياق والأمال المتطائرة في الهواء كلياً تطاير منها شمع الأمل المتطاير، ثم تعود فتستقر في الأعياق، ثم تطوف مرّة أخرى، وثالثة، حتى ثاوي إلى مستقرها - وقد وقعت النفس آخر أمالها - فلا تغادره إلى الأبد، انتهى كان لم يكن، لا سبيل إليه أبداً، ما أهون الأمر عليهم، عاجزوه كما يعالجون أمور يومهم العادية مثل ماذا تأكل غداً، أو حلمت ليلة أمس حلماً غريباً، أو راحة الياسمين تملاً جو السطح، كلمة من هنا... كلمة من هناك...

واقترح يعلن ورأي ييسط، في هدوء وحلم خريبين، ثم تمزيق باسمة، وتشجيع كأنه الدعاية. ثم تغير الحديث وتشبّع، انتهى كلّ شيء، وأدرج في التاريخ الذي تنزل عليه الأسرة النسيان. أين قلبها من هذا كله؟! ... لا قلب لها، لا يتصوّر وجوده أحد، لا وجود له في الواقع، ما أشدّ غريبتها، ضائعة مفقودة، ليسوا منها وليست منهم، وصيدة منبوبة مقطوعة الصلات، ولكن كيف تنسى أن كلمة واحدة لو جاد بها لسان أبيها، كانت تكفي لتغيير وجه الدنيا وخلقها خلقاً جديداً؟! ... كلمة واحدة لا أكثر، لا تزيد عن لفظة «نعم» ثم تحدث المعجزة، لم تكن لتكلمه إلا عشر ما تكلف من جهد في المناقشة الطويلة التي انتهت إلى الرفض. ولكن لم تحجر بذلك مشيئته،

داعي للعجلة!

- هذه ثاني مرة يؤجل زواجك بسببي!

- لست آسفة مطلقاً.

فقلت خديجة بلهجة ذات مغزى:

- ولكن هذه المرة غير المرة الأولى.

أدركت الفتاة ما وراء هذه الكلمات بسرعة البرق، فخفق قلبها خفقان اللوعة والحسرة، ويكى ودًا وجبًا، ذلك الحب الكامن يثار بالإشارة تحيته من الخارج عفواً أو قصداً كما يثار الجرح أو الدمل باللمس والشك، وهمت بالكلام ولكنها أمسكت مضطرة لأن أنفاسها لم تسعها فخافت أن تفضحها نبرات، وعند ذلك تنهدت خديجة قائلة:

- لهذا تجدني في غاية الحزن والأسف، ولكن ربنا كريم، وما شدة إلا وبعدها الفرج، فعسى أن ينتظر ويصبر ويكون من نصيبك بالزعم مما بدا.

وهفت جوارحها: «يا ليت». أمّا لسانها فقال:

- سيّان عندي، الأمر أبسط مما تظنّين.

- أرجو أن يكون كذلك... إلى جدّ حزينة وآسفة يا عائشة.

وفتح الباب فجأة وبدا شبح كمال في الشعاع الخافت الذي تسلّل من فرجة الباب فصاحت به خديجة في ضيق:

- لماذا جئت؟ وماذا تريد؟

فقال الغلام بصوت يشي باحتجاجة على سوء مقابلتها له:

- لا تهربي... وأفسحي لي...

ووثب إلى الفراش وركع بينهما، ثم دس يداً إلى واحدة ويداً إلى الأخرى، وراح يدغدغهما ليهنئ لحديثه جواً طيماً غير الجوّ الذي أنذرت به نبرة خديجة، ولكنها نترتا يده، وقالتا بصوتين متتابعين:

- أن لك أن تنام، فاذهب ونم.

ولكنه هتف في غيظ:

- لن أذهب حتّى أعرف ما جئت أسأل عنه!

- عمّ تسأل في هذه الساعة من الليل؟

فقال مغترّاً لهجته حتّى تستجيباً له:

- أريد أن أعرف هل تتركان بيتنا إذا تزوّجنا؟

فصاحت به خديجة:

- انتظر حتّى يحجّ الزواج!

فتساءل في عناد:

- ولكن ما هو الزواج؟

- كيف أجيبك وأنا لم أتزوج... اذهب ونمّ الله لا يسيئك...

- لن أذهب حتّى أعرف.

- يا حبيبي توكل على الله وفارقنا.

قال بصوت حزين:

- أريد أن أعرف هل تغادran البيت إذا تزوّجنا؟

فقال في صجر:

- نعم يا سيدي... ماذا تريد أيضاً؟

فقال في جزع:

- إذن لا تتزوّجا... هذا ما أريد...

- سمعاً وطاعة...

فعاد يقول في احتجاج ثائر:

- أنا لا أطيق أن تذهب بعيداً عنا وسأدعو الله ألا يزوّجكيا...

فهفت:

- من فمك لباب السبا... حال... حال...

ربّنا يكرمك. تفضّل فاروقنا مع السلامة...

سرى في البيت شعور بأنّه يستقبل من حياته المرحفة بالتزوّت يوم راحة يستطيع - إذا شاء - أن يستروح فيها نسمة من الحرّية البريّة في أمن من الرقيب. فظنّ كمال أنّه غداً في حلّ من أن يقطع اليوم كله في اللعب داخل البيت أو خارجه، وتساءلت خديجة وعائشة ألا يمكن أن تسلا مساء إلى بيت مريم لقضاء ساعة في هو ومرح؟ لم تحي. هذه الراحة نتيجة لانقضاء شهور الشتاء الكالغ وحلول بشار الربيع ملوّحة بالدفء والبشاشة، إذ ليس من شأن الربيع أن ييب هذه الأسرة حرّية يحرمها ليأها الشتاء، ولكنها جاءت نتيجة طبيعيّة لسفر السيّد أحمد إلى بور سعيد في مهمّة تجارية تدعوه كلّ

استجاب قلبها للنداء، ولا كيف تطلع بصرها إلى ما وراء الحدود المحرمة، ولا كيف تراءت المغامرة ممكنة بل مغرية بل طامعة، أجل بلد زيارة الحسين عذراً قوياً - له صفة القداسة - للطفرة اليسارية التي نزعته إليها لإرادتها، ولكنها لم تكن وحدها التي تمحضت عنها نفسها إذ لبثت دعاءها في الأعناق تيارات حبيسة متلهفة على الانطلاق كما تليها الغرائز المتعطشة للقتال نداء الدعاء إلى الحرب بحجة الدفاع عن الحرية والسلام. ولم تدر كيف تعلن عن استسلامها الخطير، ولكنها نظرت إلى ياسين وسألته بصوت منهجج:

- زيارة الحسين منية قلبي وحيالي... ولكن...

أبوك؟

فضحك ياسين قائلاً:

- أبي في طريقه إلى بور سعيد ولبي يعود قبل ضحي الغد، وبوسعك - زيادة في الحيلة - أن تستعيري ملاءة أم حنفي ألفاً حتى إذا اتفق أن وآك أحد وأنت تغادرين البيت أو وأنت تعودين إليه ظنك زائرة... ورددت عينيها بين الأبناء في حجل وتيبب كأنها تشهد المزيد من التشجيع، فتحمست خديجة وعالشة للاقتراح، وكأنها تعبران بحماسها عن رغبتها الحبيسة في الانطلاق، وفرحتها بزيارة مريم التي باتت - بعد هذا الانقلاب - في حكم المقرّر، وهتف كمال من أعناق قلبه:

- سأذهب معك يا نينة لأدلك على الطريق...

وحدها فهي بنظرة عطف آثاره في نفسه ما طالعه في وجهها البريء من سرور حائر كسرور الطفل إذا مُني بلعبة جديدة فقال لها في تشجيع واستهانة:

- ألقني نظرة على الدنيا، لا عليك من هذا فياني أخاف أن تنسي المشي من طول لزومك للبيت...

وفي فورة الحماس جرت خديجة إلى أم حنفي ثم عادت بملاءتها، وتزامت الأصوات بالضحك والتعليق، فعدا اليوم عيداً سعيداً لا عهد لأحد به، واشترك الجميع - وهم لا يدرون - في الثورة على إرادة الأب الغالب. والتفت السّت أمينة في الملاءة وأسدتل البرقع الأسود على وجهها، ثم نظرت في المرأة فلم

صدّة أعوام إلى السفر يوماً أو بعض يوم، وأتفق أن سافر الرجل صلب الجمعة فجمعت العطلة الرسمية بين أفراد الأسرة... ومجاوبت رغبتهم الظمأى إلى الحرية في الجسّ الطليق الأمن الذي خلقه على غير انتظار رحيل الأب عن القامرة كلها، بيد أن الأم وقفت من رغبة الفتاتين وجماع الغلام وقفة المتردد، لأنها كانت تمحوس على أن تواظب الأسرة على سيرتها المألوفة، وأن تلتزم - في غياب الأب - بالحدود التي تلتزمها في حضوره خوفاً من عقابته أكثر منها اقتناعاً بوجاهة شدته وصرامته، ولكنها ما تدري إلا ويأسين يقول لها:

- لا تعارضي بالله... إننا نحيا حياة لا يحياها أحد من الناس، بل أريد أن أقول شيئاً جديداً... لماذا لا تروحين عن نفسك أنت؟... ما رأيكم في هذا الاقتراح؟!

وتطلعت إليه الأعين في دهشة ولكن أحداً لم ينبس بكلمة، ولعلهم - كأنهم التي رمته بنظرة تأنيب - لم يحملوا قوله عمل الجد، إلا أنه استطرد قائلاً:

- لماذا تنظرين إليّ هكذا؟... لم أخطئ في البخاري، وليس ثمة جريمة والحمد لله، ما هو إلا مشوار قصير ترجعين منه وقد ألقيت نظرة على جزء صغير من الحى الذي عشت فيه أربعين عاماً دون أن تري منه شيئاً...

فتنهبت المرأة متممة:

- سأعك الله...

ففقهه الشاب قائلاً:

- غلام يساعي؟... هل اقتربت ذنباً لا يُغتفر والله لو كنت مكانك لضيت من توي إلى سيدنا الحسين ألا تسمعين؟... حبيبك الذي تبيمين به على البعد وهو قريب، قومي إنّه يدعوك إليه...

وخفق قلبها خفقاناً لاح آتاره في احمرار وجهها فخفضت رأسها لتخفي تأثيرها الشديد، انجذب قلبها إلى الدعاء بقوّة تفجرت في نفسها فجأة على غير انتظار لا منها ولا من أحد من حولها حتى ياسين نفسه، كأنها زلزال قد وقع بأرض لم تعرف الزلازل، فلم تدبر كيف

تسالك من أن تضحك طويلاً حتى اهتز جذعها،
وارتدى كمال بذلك وطربوشه وسبقها إلى فناء البيت،
ولكنها لم تتبعه، ركبها شعور الرهبة الذي يلازم
المواقف الفاصلة، فرفعت عنها إلى فهمي وتساءلت:
- ما رأيكم. هل أذهب حقاً؟
فصاح بها ياسين:
- توكلّي على الله...
وتقدّمت منها خديجة ووضعت يدها على منكبيها
ودفعتنا برفق وهي تقول:
- الفاتحة أمانة...
ولم تزل تدفعا حتى أوصلتنا إلى السلم، ثم رفعت
يدها فنزلت المرأة والجميع في أعقابها... ووجدت أم
حنفي في انتظارها، فألقت الحادى على سيّدها - أو
بالأحرى على الملامة اللقطة بها - نظرة فاحصة، ثم
هزّت رأسها هزّة انتقادية، وتقدّمت منها وأعدت لفّ
الملاءة حول جسمها وعلمتها كيف تمسك بطرفها في
الوضع المناسب، فانقضت لها سيّدها التي كانت
ترتدي الملاءة اللقطة لأول مرّة، وعند ذلك ارتسمت
ملامح قاتمة وقدّما في تفصيل وسيم، تخفيه عادة
جلابيبها الفضفاضة، فألقت خديجة عليها نظرة
إعجاب باسمّة وغمرت بعينها لعائشة وأغرقتا في
الضحك...
ولاقَت وهي تعبر عتبة الباب الخارجي إلى الطريق
لحظة دقيقة جفّت لها ريقها فضاء السرور في نوبة القلق
ووطأة الإحساس بالذنب، وتحركت في بطء وهي
قابضة على يد كمال بحال عصبيّة، وبدت مشيتها
مضطربة غلخلة كأنها عاجزة عن مبادئ المشي الأولى،
إلى ما اعتراها من حياء شديد، وهي تتعرّض لأعين
الناس الذين عرفتهم من عهد بعيد من وراء خصاص
المشربّة - همّ حسنين الخلاق ودوريش باتح القول
والقوليّ اللبّان ويومي الشربلي وأبو سريع صاحب
الملق - حتى تهرمت أنّهم سيعرفونها كما تعرفهم - أو
لأنّها تعرفهم - ووجدت مشقة في تثبيت حقيقة بدنيّة
في رأسها وهي أنّ عيّناً منهم لم تقع عليها مدى الحياة،
وعلى تلك الحال عبرا الطريق إلى درب قرمز لأنّه وإن

يكن أقصر الطرق إلى جامع الحسين إلّا أنّه كان لا
يمرّ - كطريق النحاسين - بدكان السيّد فضلاً عن خلوه
من الدكاكين وانقطاع المآلة عنه إلّا فيما ندر، وتوقّفت
لحظة قبل أن توغل فيه، والفتت صوب المشربّة
فرأت شبّحي ابتيها وراء ضلفة منها وبيننا رفعت ضلفة
أخرى عن وجهي ياسين وفهمي الباسمين، فاستمدّت
من منظرهما شجاعة استعانت بها على ارتباكها، ثمّ
جذّت في السير - هي وغلامها - يقطعان الدرب المقفر
في شيء من السطمانينة، لم يغب عنها القلق ولا
الإحساس بالذنب ولكنّها ترجعا إلى حاشية الشعور
الذي احتلت مركزه عاطفة استطلاع حساسيّة نحو
الدنيا التي يترأى لها درب من دروبها وميدان من
مياطينها وغرائب من مبانيها وعديد من أناسها،
ووجدت سروراً ساذجاً لمشاركة الأحياء في الحركة
والانطلاق، سرور من قضيت ربع قرن سجيّة
الجلودان ما عدا زيارات معدودات لأنّها في الحرفش -
بضع مرّات في العام - تقوم بها داخل حطوط بصحبة
السيّد فلا تسعفها الشجاعة حتى لاستراق النظر إلى
الطريق... وجعلت تسأل كمال عيّا يصادفها في
طريقها من مشاهد وأبنية وأماكن، والغلام يجفّ في
إسهاب مزهواً بدور المرشد الذي يقيم به، فهذا هو
قبور رمز المشهور الذي يجب - قبل الدخول فيه - تلاوة
الفاتحة، وقاية من العفارب التي تسكنه، وهذا ميدان
بيت القاضي بأشجاره الباسقة وكان يسمّى ميدان
«ذقن الباشا» مطلقاً عليه اسم الزهر الذي يعلو
أشجاره، أو يسمّى أحياناً أخرى «ميدان شنجري»
ساحياً عليه اسم باتح الشيكولاتة التركي، أمّا هذا
البناء الكبير فهو قسم الجماليّة، ومع أنّ الغلام لم يجد
به ما يستحقّ اهتمامه سوى السيف اللدني من وسط
الديديبان إلّا أنّ الآم ألقت عليه نظرة مليّة بحبّ
الاستطلاع الخليق يمكن أن يقيم به الرجل الذي سعى
إلى طلب يد عائشة، حتى بلغا مدرسة خان جعفر
الأوّل، التي تقف بها عائماً قبل التحاقه بمدرسة خليل
آغا الابتدائية، فأشار إلى شرفتها الأثرية وهو يقول «في
هذه الشرفة كان الشيخ مهدي يلصق وجوهنا بالجدار

لا تُلْ هفوة، ويركلنا بحدائه خَسًا أو مَتًا أو عَشْرًا كما يحلو له» ثُمَّ أَمَّا إِلَى دَكَّانٍ يَقَعُ تَحْتَ الشَّرْفَةِ مِباشِرَةً وَقَالَ بِلَهْجَةٍ لَمْ يَنْبَغِ عَنْهَا مَقْزَاهَا هُوَ يَتَوَقَّفُ عَنِ السَّيْرِ «وَهَذَا عَمَّ صَادِقٌ بِاتِّعَاطِ الْحُلُوبِ»، ثُمَّ لَمْ يَقْبَلِ التَّزَجُّجَ عَنْ مَوْضِعِهِ حَتَّى أَخَذَ قَرْنًا وَابْتَنَعَ بِهِ مَلْبَأً أَحْمَرَ، انْعَطَفَا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى طَرِيقِ خَانَ جَعْفَرٍ فَلَاحَ لَهَا عَنْ بَعْدِ جَانِبٍ مِنَ الْمَنْظَرِ الْحَارِجِيِّ جُلَامِعَ الْحُسَيْنِ، يَتَوَسَّطُهُ شَبْكٌ عَظِيمٌ الرِّقْعَةِ عُلَى بِالزُّخَارِفِ الْعَرَبِيَّةِ، وَتَعْمَلُوهُ فَوْقَ سَوْرِ السُّطْحِ شُرَفَاتٌ مَتَرَاصَةً كَأَسْتَةِ الرِّمَاحِ فَتَسَامَلَتْ وَالْجُثْرُ يَسْجَعُ فِي صَدْرِهَا «سَيِّدَنَا الْحُسَيْنُ؟» وَلَمَّا أَجَابَهَا بِالْإِيجَابِ مَضَتْ تَقَارَنُ بَيْنَ الْمَنْظَرِ الَّذِي تَقَرَّبَتْ مِنْهُ - وَفَدَّ حَسَّتْ خَطَايَا أَوَّلَ مَرَّةٍ مِنْذُ غَادَرَتْ الْبَيْتَ - وَبَيْنَ الصُّورَةِ الَّتِي خَلَقَهَا خَيَالُهَا لَهُ مُسْتَعَيَّنًا فِي خَلْفِهِ بِنَائِجٍ مِنَ الْجُوامِعِ الَّتِي فِي مَتَانِ بَصَرِهَا كَجَامِعِ قَلَارُونٍ فَوَجَدَتْ الْحَقِيقَةَ دُونَ الْخَيَالِ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَتَفَنَّى فِي الصُّورَةِ طَوْلًا وَعَرْضًا عَلَى قَدَرٍ يَنْسَبُ مَنَزَلُهُ صَاحِبِ الْجَامِعِ مِنْ نَفْسِهَا يَتَبَدَّى أَنَّ هَذَا الْإِخْتِلَافَ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْخَيَالِ لَمْ يَكُنْ لِيُؤْثِرَ شَيْئًا فِي فَرَحَةِ الْفَقَاءِ الَّتِي ثَمَلَتْ بِهَا جَوَانِحُهَا. وَدَارَا حَوْلَ الْجَامِعِ حَتَّى الْبَابَ الْأَخْضَرَ وَدَخَلَا فِي زُجْمَةِ الدَّخَائِلِ. وَلَمَّا وَطَّئَتْ قَدَمَا الْمَرَاةِ أَرْضَ الْمَسْجِدِ شَعُرَتْ بِأَنَّ بَدَنَهَا يَنْزُوبُ رَقَّةً وَعِطْفًا وَحَنَانًا، وَأَنَّهَا تَسْتَحِيلُ رَوْحًا طَائِرًا يَرْفَرُ بِجَنَاحِهِ فِي سَهَاءٍ يَسْطَعُ بِجَنَابَاتِهَا عَرَفَ النُّبُوَّةَ وَالْوَحْيَ فَاهْرَوْرَكَتْ عَيْنَاهَا بِاللِّدْمَعِ الَّذِي أَسْعَفَهَا لِلتَّرَوُّيْعِ عَنْ جِيْشَانِ صَدْرِهَا وَحَرَارَةِ حُبِّهَا وَإِيمَانِهَا وَرِجْيَةِ امْتِنَانِهَا وَفِرْعَاحِهَا وَرَاحَتِ ثَلَاثِهِمْ بِأَعْيُنٍ شَيْئَةً مُسْتَطْلِمَةً، جِدْرَانَهُ وَسَفْفَهُ وَغُشْمَهُ وَأَبْسَلَتَهُ وَنَجْفَهُ وَمَنْبَرَهُ وَعِمَارِيَهُ، وَلَمَّا جَانِبَاهُ كَانَ كَيْلًا يَنْظُرُ إِلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى خَاصَّةً بِهِ تَرَى أَنَّ الْجَامِعَ يَكُونُ مَزَالًا لِلنَّاسِ فِي النَّهَارِ وَالْمَرْجِعِ الْأَوَّلِ مِنَ اللَّيْلِ، وَيَبْتَئُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لِصَاحِبِهِ الشَّهِيدِ يَذْهَبُ فِيهِ وَيَجِيءُ مُسْتَعْمَلًا مَا فِيهِ مِنْ أَثَلٍ عَلَى نَحْوِ مَا يَسْتَعْمَلُ الْمَالِكُ مَلِكُهُ، فَيُطَوِّفُ بِأَرْجَائِهِ وَيَصْعَلُ فِي الْحَرَابِ وَيُرْتَقِي النَّبْرَ وَيَعْمَلُو النَّوَاظِدَ لِيُشْرِفَ عَلَى حَيِّهِ الْمُحِيطِ، وَكَمْ تَمَحَّى حَالًا لَوْ يَنْسُونَهُ فِي الْجَامِعِ بَعْدَ أَنْ يَغْلِقَ أَبْوَابَهُ فَيَمَكِّنُهُ أَنْ يُلْقَى الْحُسَيْنَ وَبِجَهِّ لُوجِهِ وَأَنْ

يَمْضِي فِي حَضْرَتِهِ لَيْلَةً كَامِلَةً حَتَّى الصَّبَاحِ، وَتَحْتَلُّ مَا يَخْلُقُ بِهِ أَنْ يَلْتَمِسَهُ لَهُ عِنْدَ الْلِقَاءِ مِنْ أَيْ الْحَبِّ وَالْخُضُوعِ وَمَا يَجِدُّ بِهِ أَنْ يُلْقِيَهُ عِنْدَ قَدَمَيْهِ مِنْ أَمَانِيهِ وَرَغْبَانِهِ وَمَا يَرْجُوهُ بَعْدَ ذَلِكَ عِنْدَهُ مِنَ الْعَقْفِ وَالْبَرَكَةِ، تَحْتَلُّ نَفْسُهُ وَهُوَ يَقْتَرِبُ مِنْهُ خَافِضُ الرِّاسِ فَيَسَالُهُ الشَّهِيدُ بَرَقَّةً «مَنْ أَنْتَ؟» فَيَجِيبُهُ وَهُوَ يَقْبَلُ يَدَهُ «كَيْلٌ أَحْمَدُ عَبْدُ الْجَوَادِ» وَيَسْأَلُهُ عَنْ عَمَلِهِ فَيَقُولُ لَهُ «تَلْعِيدُ - وَلَنْ يَنْسَى التَّنْوِيهِ بِغَوْقِهِ - بِمَدْرَسَةِ خَلِيلِ آخَاهُ وَيَسْأَلُهُ عَمَّا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ مِنَ اللَّيْلِ، فَيَجِيبُهُ بِأَنَّهُ حَبَّ آلِ الْبَيْتِ عَامَّةً وَالْحُسَيْنِ خَاصَّةً، فَيَسِمُ إِلَيْهِ عِطْفًا، وَيَدْعُوهُ إِلَى مُرَافَقَتِهِ فِي تَجَمُّلِ اللَّيْلِ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَبُوحُ لَهُ بِأَمَانِيهِ جُمْلَةً قَائِلًا: «أَضْمَنْ لِي أَنْ أَلْبَسَ كَمَا أَشَاءُ دَاخِلَ الْبَيْتِ وَخَارِجَهُ، وَأَنْ يَبْقَى عَائِشَةً وَخَدِيجَةً فِي بَيْتِنَا إِلَى الْأَبَدِ، وَأَنْ تَغْيَرَ طَبِيعَ أَبِي، وَأَنْ تَمُدَّ فِي عَمْرِ أُمِّي إِلَى مَا لَا نَهَايَةَ، وَأَنْ أَخُذَ مِنَ الْمَصْرُوفِ قَدْرٌ كَفَائِي، وَأَنْ نَدْخُلَ الْجَنَّةَ جَمِيعًا بِغَيْرِ حِسَابٍ... هَذَا وَتَبَارَكَ الْأَثَرَاتُ الزَّاحِفُ فِي بَطْنِهِ يَدْفَعُهَا رِيْدًا حَتَّى وَجَدَا نَفْسِيهَا فِي مَثْوَى الضَّرِيحِ، طَالَمَا تَلَهَّفَتْ أَشْوَاقُهَا عَلَى زِيَارَةِ هَذَا الْمَثْوَى كَمَا تَلَهَّفُ عَلَى حُلْمِ يَسْتَحِيلِ تَحْقِيقُهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، هَا هِيَ تَقِفُ بَيْنَ أَرْكَانِهِ، بَلْ هَا هِيَ لَصَقَتْ جِدْرَانِ الضَّرِيحِ نَفْسَهُ، تَشْرَفُ نَفْسُهَا عَلَيْهِ خِلَالِ الدَّمُوعِ، وَتَوَدُّ لَوْ تَتَرَيَّثُ لَتَتَمَلَّكَ مَذَاقُ السَّعَادَةِ لَوْلَا شِدَّةُ ضَغْطِ الزُّحَامِ، وَمَلَّتْ يَدَاهُ إِلَى الْجِدْرَانِ الْخَشْيَةِ، وَاقْتَدَى كَيْلًا بِهَا، ثُمَّ قَرَأَ الْفَاتِحَةَ، وَمَسَحَتْ بِالْجِدْرَانِ وَقِيلَتْهَا وَلِسَانُهَا لَا يَفِي عَنْ الدَّعَاءِ وَالتَّوَسُّلِ، وَبُتَتْ لَوْ تَقِفُ طَوِيلًا أَوْ تَجْلِسُ فِي رُكْنٍ مِنَ الْأَرْكَانِ لَتَعْمِدَ النَّظَرُ وَالتَّأَثُّلُ ثُمَّ لَتَعْمِدَ الطَّوْفَ، وَلَكِنْ خَادِمُ الْمَسْجِدِ وَقَفَ لِلْجَمِيعِ بِالْمَرْصَادِ، لَا يَسْمَعُ لَوَاحِدَةٍ بِالتَّلَكُّزِ وَيَحْتُمِ الْمُبَاطَلَاتِ، وَيُلَوِّحُ مَنَذَرًا بِعَصَاهُ الطَّوِيلَةِ، وَهُوَ يَدْعُو الْجَمِيعَ إِلَى إِقَامِ الزِّيَارَةِ قَبْلَ حُلُولِ مِحَادِ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ. ارْتَوَتْ مِنَ الْمَهْلِ الْعَلْبُ وَلَكِنَّهَا لَمْ تَطْفُرْ ظَمَأُهَا، وَهِيَ هَاتِفَةٌ أَنْ يَرْوَى لَهَا ظَمَأُ، لَقَدْ أَهَاجَ الطَّوْفَ حَتِيثًا فَتَضَجَّرَتْ عَيْنُهُ وَمَالَ وَزَخَرَ وَلَنْ يَزَالَ يَنْشُدُ الْمَزِيدَ مِنَ الْقَرْبِ وَالِابْتِهَاجِ، وَلَمَّا وَجَدَتْ نَفْسُهَا مَرْغَمَةً عَلَى مَغَادِرَةِ الْمَسْجِدِ انْتَزَعَتْ نَفْسُهَا مِنْهُ

بكلام اختلطت أمثلته بأجوبته، وأفاق كمال من الصلعة بعض الشيء فراح يردد عينيه بين أمه الملقاة عند قدميه وبين الناس في حال ناطقة بالخوف والاستفائة ثم ارمى على ركبتيه إلى جانبها ووضع كفه على منكبيه ونداهها بصوت تفتت نبراته بحرارة الزجاء ولكنّها لم تستجب له فرفع رأسه مقلّباً عينيه في وجوه الناس، ثم صرخ باكياً في نحيب حارّ علا على الضجّة التي تكتنفه حتى كاد يسكنها وتطوّع البعض لمواساته بكلمات لا معنى لها، وانشق آخرون فزق أمه مستظلمين بنظرات كمنت وراءها رغبتان: تنشّد إحداها السلامة للضحية، وتنزع الأخرى- في حال اليأس من السلامة- إلى أن ترى الموت- ذلك الحتم المؤجّل- وهو يطرّق باباً غير بابهم، وينزع روحاً غير روحهم كأنهم يودّون أن يقوموا بشبه يروها آمنة لأخطر دور قضى عليهم جميعاً أن ينضموا للحياة بلعبة، وصاح أحدهم قائلاً وصددها باب السيّارة الأيسر في ظهرها، وقال السائق الذي غادر السيّارة ووقف غتفناً بجوّ الاتّهام الذي يطبق عليه ولقد انحرقت عن الطوار بنته فلم أستطع أن أنفّذني من صدمتها، ولكنّي فرملت بسرعة فجاءت الصلعة خفيفة، ولولا رعاية الله لدستها... وجاء صوت من المحبّنين إليها قائلاً وما زالت تنفّس... أعني عليها لفظه، وهاد السائق يقول وقد لح الشرطيّ قادماً يترنّع سيفه بجنبه الأيسر «إنّها صدمة خفيفة... لم تتكسّر منها أبداً. إنّه بخير... بخير يا جماعة والله...» ثم انصبّت قامة أوّل رجل تقدّم لفحصها وقال كأنّها باقيا خطبة «ابتعدوا ولا تمنصوا الهواء... فتحت حينها... بخير... بخير والحمد لله...» كان يتكلّم بابتهاج لا يخلو من زهو كأنّه هو الذي رآه إليها الحياه، ثم تحوّل إلى كمال الذي غلبه بكاء عصبيّ فاسترسل فيه في انفعال لم يجد معه مواساة المواسين، تحوّل إليه وربّت على خدّه بحنان وقال له «حسبك يا بني... أمك بخير... انتظر... هلّمّ ساعدني على إقامتها... ولكنّ كمال لم يمكسك عن البكاء حتى رأى أمه تتحرك فيال نحوها ووضع يراها على كتفه، وعاون الرجل

انزاعاً، وأودعته قلبها وهي توليه ظهرها، ثم مضت حصرى يعضّها شعورها بأنّها تودّعه الوداع الأخير، بيد أنّ ما طبعت عليه من قناعة واستسلام أخضعها على ما استسلمت له من الحزن فرفّها إلى تحلّي ما ظفرت به من سعادة طارت بها هواجس الفراق، ودعاها كمال إلى مشاهدة مدرسته مضمياً إليها في نهاية شارع الحسين. ووقفاً عندها ملياً. وسأرا أرادت الرجوع من حيث أتت أئذره ذكر العودة بانتهاج الرحلة السعيدة مع أمه التي لم يعلم بثقلها من قبل فأبى التشرّط فيها واستأثرت في الدفاع عنها لماقترح عليها أن يسيرا في السكّة الجديدة حتى الغوريّة، ولكي يقضي على المقاومة التي بدت في صورة تقطيع باسمه من وراء البرقع حلّفها بالحسين فتهدّت. واستسلمت ليهده الصغيرة، ومضيا يشقان طريقها في زحمة شديدة وبين تيارات متلاحمة من السائرين في جميع الجهات كما لم تجد عُشر معشاره في الطريق الهادئ الذي جاءته منه فعلاها الارتباك، وأخذت تفقد نفسها في اضطراب شامل، ولم تلبث أن شكت إليه ما تلقى من عناء وإحباط، ولكنّ تمالكه على إتمام الرحلة السعيدة جعله يصمّ أذنيه عن شكائهما ويشجّعهما على مواصلة السير ويلهبهما عن متاعبهما بلقت نظرهما إلى الدكاكين والعربات والملاّزة، وهما يقتريان في بطن شديد صوب منعطف الغوريّة، وعند ذاك المنعطف لاح لناظره دكان فطائر فسال لعابه وثبتت عيناه عليها لا تتحوّلان وراح يفكر في وسيلة الإقناع أمّه بالدخول إلى الدكان وابتاع فطيرة، ولبغا الدكان وهو لا يزال يفكر، ولكنّه ما يدري إلّا وأمّه تفلت من يده فالتفت نحوها في ذهول ورعب دون أن يبيّن حراكاً ولكنّه حلّ ذهوله ورعبه رأى بجانب عينه- في نفس الوقت تقريباً- سيّارة تمرّمل محمّلة صوتاً عنيّفاً ومرسلة وراءها ذيلاً من الدخان والغبار فكادت تدوس الملقاة لولا أن انحرقت عنها مقدار شبر، وتعالى صياح وحدت ضجّة وهرج الناس إلى المكان من جميع نواحي الطريق كما تهرع الصبيّة إلى صفّارة الحايو ففرضوا حولها حلقة غليظة بدت أعيناً مستطلعة ورءوساً مشرّبة وألسنة تهف

الطريق حتى شققت من الأحقاد وخاطبت كمال وكأنما تخاطب نفسها «يا ربّي ماذا حدث؟ ماذا رأيت يا كمال؟ كأنه حلم مفرع، خيّل إليّ آتِي أموري من علّ إلى هاوية مظلمة، وأنّ الأرض تدور تحت قدمي، ثمّ غبت عن كلّ شيء حتى فتحت عينيّ على ذلك المنظر المخيف، ربّاه... هل أراد حقّاً أن يذهب بي إلى القسم؟ يا لطيف يا ربّ... يا منجّي يا ربّ، متى نبلغ بيتنا؟» بكيت كثيراً يا كمال لا دمت عينيك أبداً... جفّفت عينيك بهذا المنديل حتى تغسل وجهك في البيت... آه.

وتوقّفت عن السير بعد أن أوشكا أن يطويها طريق الصاغة، واعتمدت بيدها على منكب الغلام وقد تفلّص وجهها، فرجع كمال وجهه إليها مزعجاً وسألها: - ماذا بك؟

فأغمضت عينها وهي تقول بصوت ضعيف: - إنّي تعبة، تعباً جدّاً، لا تكاد تحملي قدمي، ادعُ أوّل عربة تصادفك يا كمال.

ونظر كمال فيها حوله فلم يرَ إلّا عربة كارو واقفة عند باب مستشفى قلاوون فنادى الحوذيّ الذي يادر إلى سوق العربة حتى وقف بها أمامها واقتربت الأمّ منها متكلّفة على كتف كمال ثمّ صعدت إلى سطحها بموئنته واعتماداً على منكب الحوذيّ الذي وطّاه لها حتى تربّعت وهي تنتهّد في إعياء شديد، وجلس كمال إلى جانبها ثمّ وثب الحوذيّ إلى المقدّمة ونخس الحجار بقبضة سوطه فمشى مشيته الوليدة والعربة ترتعّج وراءه مقطّعة... وثأوت المرأة متمتعة «ما أشدّ ألمي، عظام كتفي تنفّك» هذا وكمال يرمقها في جزع وقلق... ومزّت العربة في طريقها بدكان السيّد دون أن يعيرها التفاتاً، ومضى كمال يتطلّع إلى الأمام حتى لاحت لعينيه مشربيات البيت... لم يعد يذكر من الرحلة السعيدة إلّا نهايتها الحزنة...

على إقامتها حتى أمكن بجهد شديد أن تقف بينها في إعياء وتخوّر وقد سقطت عنها الملاءة التي امتدّت بعض الأيدي لتعنيها إلى موضعها - بقدر الإمكان - حول كتفها، ثمّ قلّم لها الطائر الذي وقعت الحادثة أمام دكانه مقعداً فاقعدوها عليه وجاءها بقدح من الماء فتجرّعت جرعة سال نصفها على عنقها وصدرها فمستحت بيدها على صدرها بحركة عكسيّة وهي تزفر زفرة عميقة. وجعلت تردّد أنفاساً مضطربة بصعوبة وتنتظر في وجوه المحذّقين بها في ذهول وهي تتساءل «ماذا جرى؟... ماذا جرى؟... ربّاه لماذا تبكي يا كمال؟» وعند ذلك اقترب الشرطيّ منها وسألها «هل بك سوء يا سيّدي؟ وهل تستطيعين السير إلى القسم؟» فسلم اسم «القسم» عقلها فرجّها من الأحقاد وفتفت بفزع «لماذا أذهب إلى القسم؟... لا أذهب إلى القسم أبداً» فقال لها الشرطيّ «لقد صدمتك السيّارة فلوغفكت، فإذا كان بك سوء وجب أن تلذهبي أنت وهذا السائق إلى القسم لتحرير المحضر» ولكنّها قالت وهي تلهث «كلّاً... كلّاً... لن أذهب... أنا بخير» فقال لها الشرطيّ «توكّدي ممّا تقولين، انصبي وامشي لئلاّ إن كان أصابك سوء»، ولم تتردّد عن النبوض - مدفوعة بالفزع الذي أثاره ذكر القسم - فنهضت وأصلحت ملاءتها ثمّ سارت تحت الأعين المستطلعة وكيال إلى جانبها ينفّض عن الملاءة ما علق بها من تراب، ثمّ قالت للشرطيّ «وهي ترجو أن تنتهي هذه الحال المؤلمة بأيّ ثمن «إنّي بخير... (ثمّ مشيرة إلى السائق)... دعوه... لا شيء بي» لم تعد تشعر بخوّر فيها ركبها من خوف، هالها منظر الناس المحذّقين بها، خاصّة الشرطيّ الذي يتقدّمهم، وارتعدت تحت وقع النظرات المصوّبة نحوها من كلّ مكان متحمّية باستهانة بالغة تارحاً طويلاً من التسرّ والتخفيّ فتخاليّت لعينها فوق هذا الجمع صرورة السيّد وكأنّها تفرّس في وجهها بعينين باردتين متحرّجتين منذرتين بما لا تطيق تصوّره من الشرّ، فلم تألّ أن قبضت على يد الغلام وأقمّته به صوب الصاغة فلم يعترض سبيلها أحد وما غيَّها منطف

فتحت أمّ حنفي الباب فأنزلها أن ترى سيّدتها متربّعة على عربة كارو، وقد ظنّت لأوّل وهلة أنّه ربّها

يلج عليها من أسئلة إلى حين، وحمل الأم إلى حجرة الفتاتين وأجلسها على الكتبة، ثم سالها فهمي قلنا معذبا:

- شيريني عيا بك يا نينة، أريد أن أعرف كل شيء.

ولكنها مالت برأسها إلى الوراء ولم تنبس بكلمة ريثما تسترد أنفاسها على حين علا بكاء خديجة وعائشة وأم حنفي وكمال حتى فقد فهمي أعصابه فثار بين وهرهن حتى أمسكن، ثم جذب كمال إليه ليستجوبه عيا يريد، كيف وقع الحادث، وماذا فعل الناس بالسائق، وهل أخذوك إلى القسم، وكيف كان حال الأم في أثناء ذلك كله، هذا وكمال يجيبه على أسئلة بلا ترد وفي إسهاب، وعن أكثر التفاصيل، وكانت الأم تتابع الحديث بالرغم من وهنها فلما سكنت الغلام استجمعت قواها وقالت:

- إلي بخير يا فهمي، لا نزعج نفسك، كانوا يريدون أن أذهب إلى القسم فرفضت، ثم واصلت السير حتى نهاية الصاعقة وهناك خارت قواي فجاء، لا تنزعج، سأسترد قواي بعد راحة قصيرة.

إلا أن ياسين عان - إلى انزعاجه للحادث - حرجا شديدا لأنه كان المسئول الأول عن الرحلة المشؤمة - بهذا وصفت بعد الحادث - فاقترح عليهم أن يستدعوا طبيبا، وغادر الحجرة لتنفيذ اقتراحه دون انتظار لمعرفة رأي الآخرين، وارتعدت الأم لذكر الطبيب كما ارتعدت من قبل للذكر القسم فرجت فهمي أن يلحق بأخيه وأن يشبهه عن عزمه مؤكدة له بأنها ستدأ دون حاجة إلى طبيب ولكن الشاب رفض الإذعان لرجائها مبيئا لها أوجه الفائلة المنوطة بمجيئه، وفي أثناء ذلك تعاونت الفتاتان على نزع اللادة عنها، وجاءها أم حنفي بقدح ماء ثم أحاطوا بها جميعا وهم يتفحصون بقلق وجهها الذي علاه الشحوب ويسألونها مرارا وتكرارا عما تمجد، وهي تحاول ما استطاعت أن تظهر بالهدوء أو أن تقتنع بأن تقول إذا ألح عليها الألم وثمة ألم خفيف في كفي اليمنى ثم تستدرك قائلة ولكن لم يكن من داع لاستدعاء طبيب، والحق أنها لم ترحب

بكون قد خطر لها أن تختم رحلتها بجولة في العربية على سبيل اللهو فلاححت حل وجهها ابتسامة ولكن إلى لحظة قصيرة إذ ما لبثت أن رأت عيني كمال المحمرتين من البكاء فارتدت عينها إلى سيدتها في انزعاج واستطاعت هذه المرة أن تلمس ما تعاني من إعياء فنذت عنها آهة وهرعت إلى العربية هائفة وستی، مالك، بُعد الشر عنك، فقال الحوذني وتعبد بسيط إن شاء الله، عاونيني على إنزالها وتلقها المرأة بين ذراعيها، وسارت بها إلى الداخل وتبعها كمال واجتا محزونا، وكانت خديجة وعائشة قد غادرتا المطبخ وانتظرتا في الفناء وكلتاهما تفكر في دعاية تلقى بها القادمين في راعيها إلا أن تطلع عليها أم حنفي من الدهليز الخارجي وهي تكاد تحمل الأم حلا فنذت عنها صرخة، وهرعتا إليها فزعتين وهما تبتغان:

- نينة... نينة... مالك!

وتعاونوا جميعا على حملها، ولم تكف خديجة في أثناء ذلك عن أن تسأل كمال عما حدث حتى اضططر الغلام إلى أن يغمغم في خوف بالغ:

- سيارة!

- سيارة...

هكذا هفت الفتاتان معا مرددين الاسم الذي وقع من نفسيهما موقعا مفرعا فاق الاحتمال. فولولت خديجة هائفة ويا خبر أسود... بُعد الشر عنك يا نينة أما عائشة فانمقد لسانها والحمى في البكاء، ولم تكن الأم غائبة عن الوجود وإن كانت من الإعياء في نهاية فهمست على إعيائها برغبة في تسكين اضطرابها:

- إلي بخير، لم يحدث سوء، ما بي إلا تعب.

وتناهت الضمجة إلى ياسين وفهمي فخرجا إلى رأس السلم، وأطلا من فوق الدرابزين وما لبثا أن نزلا مهرولين منزعجين وهما يتساءلان عما حدث، ولم تملك خديجة إلا أن تشير إلى كمال ليجيب بنفسه مشفقة من ترديد الاسم الرهيب فأغلب الشابان إلى الغلام الذي عاد يتمغم بحزن وارتباك:

- سيارة!

ثم انتحب باكيا، وتحول الشابان عنه مؤجلين ما

للخوف مطلقاً... والآن دعوني أعمل...

ومعها يكن من أمر فقد استروحوا نسمة سلام بعد أن جفت منهم الحناجر، وبدا هذا الأثر واضحاً بين الجماعة خارج الحجر فتعتمت خديجة:

- فلتحل بها بركة سيدنا الحسين الذي ما خرجت إلا لزيارته.

وكأنما تدكر كمال بقولها أمراً هاماً أنسيه طويلاً فقال بدеше:

- كيف أمكن أن يقع لها هذا الحادث بعد تبركها بزيارة سيدنا الحسين؟

ولكن أم حنفي قالت ببساطة:

- ومن أدرانا بما كان يحدث لها - والعياذ بالله - لو لم

تتبرك بزيارة سيدنا سيدها؟

ولم تكن عائشة قد أفادت من أثر الصدمة فضاقة صدرها بالحديث وهتفت برجاء حار:

- آه يا ربّي متى ينتهي كل شيء كأنه لم يكن!

وعادت خديجة تقول بأسف وحسرة:

- ما الذي ذهب بها إلى الغربة؟! لو رجعت بعد

الزيارة إلى البيت مباشرة لما حدث لها الذي حدث!

فلنق قلب كمال خوفاً وانزعاجاً ونجسم ذنبه لعينه جرمية نكراه ولكنّه حاول التملّص من الشبهات فقال بلهجة تنم عن لوم:

- أريدت أن تتمسّي في الطريق وعبثاً حاولت أن

أثنيها عن إرادتها.

فحدجته خديجة بنظرة اتهام وهمت بالرد عليه ولكنها أمسكت إشفافاً وعطفاً على وجهه الذي علاه الاصفرار، ثم قالت لنفسها وحسناً ما نحن فيه الآن.

وفتح الباب وغادر الطبيب الحجره وهو يقول للشايبين اللذين تيماء:

- ينبغي أن أعودها يوماً بعد يوم حتى يجبر الكسر، وكما قلت لكم لا داعي للخوف مطلقاً.

واقترح الجميع الحجره فراءوا أنهم قاعدة في الفراش، مسندة الظهر إلى وسادة مكسورة وراها ولم يكن ثمة تغيير إلا ارتفاع في كتف الفستان فوق منكباها

لاستعدائه أبداً، لأنها من ناحية لم تلق طبيباً قط - لا لحصانة صحتها فحسب - ولكن لأنها نجحت دائماً في مداواة ما يلزم بها من توعك أو انحراف بطلبها الخاص فلم تؤمن بالطب الرسمي، إلى أنه اقترن في ذهنها بالحوادث الخطيرة والخطوب الفادحة، ومن ناحية أخرى فقد شعرت بأن استدعاء الطبيب من شأنه أن يهزل الأمر الذي تود له السر والطمع قبل عودة السيد... ولم تأل أن أفصحت لابنائها من مخاوفها، ولكنهم لم يمتصوا في تلك اللحظة الدقيقة إلا بشيء واحد، هو سلامتها.

ولم يغب ياسين أكثر من ربع ساعة لأن عيادة الطبيب كانت في ميدان بيت القاضي، ثم عاد يتقدم الرجل الذي أدخل على الأم حال حضوره، وأخلت الغرفة فلم يبق بها معه إلا ياسين وفهمي، وسال الطبيب الأم ما تشكو فأشارت إلى كضها اليمنى وقالت وهي تزدد ريقها الذي جفت من الخوف:

- أشعر هنا بألم.

وحل هذني إشارتها، إلى ما حدث به ياسين في الطريق عن الحادث جملة، تقدم للحصا، وطال وقت الفحص في شعور الشايبين المنتظرين في الداخل، وشعور المنتظرات وراء الباب مرهفات السمع خافقات القلب، وتحول الطبيب عن المصاية إلى ياسين قائلاً:

- كسر في الترقوة اليمنى، هذا كل ما هنالك.

وأحدثت ولفتة الكسر ارتباكاً في الداخل والخارج، وعجب الجميع لقوله وهذا كل ما هنالك! كأن وراء الكسر شيئاً يتسع له احتياهم، حل أنهم وجدوا في ذات التعبير، واللهجة التي ألقى بها ما يخري بالطمأنينة فستاء فهمي وهو بين الخوف والأمل:

- وهل هو شيء خطير؟

- كلا أليته، سأعيد العظم إلى سابق موضعه وأشدّه ولكن عليها أن تنام بضع ليالٍ وهي قاعدة مسندة الظهر إلى وسادة لأنه سيتعذر عليها أن تنام على الظهر أو الجنبين، وسوف يجبر الكسر ويعود إلى ما كانت عليه في ظرف أسبوعين أو ثلاثة على الأكثر، لا داعي

- خصوصاً إذا قلنا له إن خروجنا كان لزيارة سيدنا الحسين.

وردت المرأة عندها الخابيتين بين ياسين وفهمي وتساءلت:

- ما عسى أن أقول له؟

فقال ياسين الذي هاضته شدة مسئولية:

- أيّ شيطان أضلّني حين نصحت لك بالخروج، كلمة جرت على لساني ولقيتها ما تجرت، ولكن هكذا شاعت الأقدار لترمي بنا في هذا المأزق الأليم، صل آتني أقول لك بأننا سنجد ما نقوله، وأبنا كان الأمر فلا ينبغي أن تشغلي ففكر كما سيكون. دعي الأمر الله، وحشبك ما قاسيت في يومك من الآم وغلوف.

تكلم ياسين بحس وعطف معاً، فصب سخطه على نفسه، وعطف على الأم عطف المثلّم لحالها، ومع أن كلامه لم يقدم ولم يؤخر إلا أنه رُوح عن شعوره الضيق بالخروج، وأصبح به في نفس الوقت عِسا يدور في عقول بعض - أو كل - من يقفون إلى جانبه فأغناهم عن الإفصاح عنه بأنفسهم إذ أن التجربة علمته بأنه أحياناً ما يكون السبيل غير السبيل للدفاع عن النفس هو الهجوم عليها وإن الاعتراف بالذنب يغري بالصنع بقدر ما يغري الدفاع عنه بالنصب، وكان أخوف ما يخاف أن تنتهز خديعة الفرصة السانحة لتحمله جهازاً مسئولية ما أدّت إليه مشورته وتخلّصها سبيلاً إلى مهاجمة فسبها إلى غرضها قاطعاً عليها الطريق، ولم يكذب ظنه فالحق أن خديعة كانت على وشك أن تطالبه - بصفتها المسئول الأول عما وقع - بأن يجد لها مخرجاً، فلما ألقى خطابه استحي من مهاجمة خاصّة وأبنا لا تتجاه عادة إلا على سبيل النكار لا الكراهة، بذلك تحسّن موقفه بعض الشيء ولكن الموقف العام بقي على سوءه، وظلّ كذلك حتى خرجت خديعة من صحتها قائلة:

- لماذا لا ندعي أنّها سقطت من السّم؟

فتطلّمت إليها أمّها بوجه يتلّهب على النجاة من أيّ سبيل، وقلّبت بين فهمي وياسين وقد لاحت بعينها لعة أمل، بيد أن فهمي تساءل في حمرة:

الأمن وشي بالرباط الذي تحته، فهرعوا إليها وهتفوا: الحمد لله.

وكم اشتد بها الألم والطبيب يعالج الكسر فأنت أنبأ متواصلاً، ولولا ما طبعت عليه من حياء لصرخت عالياً، ولكن زايلا الآن الألم، أو هكذا بدا، وشعرت براحة نسبية وسكينة، بيد أن زوال حدة الألم مكّنت لعقلها من استئناف نشاطه فاستطاعت أن تفكر في الموقف من مختلف نواحيه وما لبث أن ركبها الحروف فقالت متسائلة وهي تردّد بينهم بصراً زائفاً:

- ما عسى أن أقول لأبيكم إذا رجع؟

اعترض هذا السؤال - ساخرًا متحديًا - نسيات الطمانينة التي سكنوا إليها كما تعترض الصخور النائية سبيل سفينة آمنة، هل أنه لم يحن مفاجئة لوحيهم، بل لعله اندس في زحمة المشاعر الاليمية التي ورت بها قلوبهم لدى ارتطامها بالحجر ولكّته ضاع في زحمتها فتأجل حسابه إلى حين، الآن قد عاد ليحلّ الصدارة من نفوسهم، فلم يجدوا مهرباً من مواجهته، ودأوا بحق أنه أشدّ عليهم وعلى أمهم من الإصابة التي خرجت منها وشيكة الشفاء. وشعرت الأم - للصمت الذي قوبل به سؤالها - بعزلة المذنب إذا تخلّ عنه رفاقه حين انكشف تهمة فتتمتت بنبرات شاكية:

- سيعلم حتّى بالحادث، وسيعلم أكثر من هذا بخروبي الذي أدّى إليه.

ومع أن أم حنفي لم تكن دون أفراد الأسرة قلقاً ولا أقل إدراكاً لخطورة الموقف إلا أنها أرادت أن تقول كلمة طيبة، تليقاً للجر من ناحية، ولأنها كانت تشعر من ناحية أخرى بأنّ الواجب يقضي عليها - كخادم الأسرة القديمة الأمانة - بالآ تلوذ عند الشدائد بالصمت أن يظنّ بها عدم اكتراث، فقالت وهي أدري بهد قولها عن الواقع:

- إذا علم سيدي بما وقع لك فلن يسهه إلا أن يتناسى هفوتك حامداً الله على نجاتك.

وقوبل قولها بالإهمال الذي يستحقّه عند قوم لا تخفى عليهم من حقيقة الموقف خافية، إلا أن كمال آمن به، وقال متحمساً وكأنه يتمّ كلام أم حنفي:

- والطبيب؟... سيعودها يومًا بعد يوم وسيقابل أبي بالضرورة.

ولكن ياسين أين أن يخلق الباب الذي تسلك منه نسمة أمل حرة بأن تستقذه من الآلهة وخافوه فقال:

- تنق مع الطبيب على ما ينبغي أن يقال لأي؟

وتبدلت النظرات بين التصديق والتكذيب، ثم شاع في الوجوه البشر للإحساس المشترك بالنجاة وتغير الجو القائم إلى جو بهيج كما تبدو وسط السحاب المكفهز فجوة زرقاء على غير انتظار فتنداح بمعجزة عجيبة حتى تشمل القبة السماوية في دقائق معدودات ثم نضي الشمس، قال ياسين وهو يتنهد:

- نجونا والحمد لله.

فقالت خديجة بعد أن استعادت في الجوّ الجديد نشاطها المألوف:

- بل نجوت أنت يا صاحب المشورة...

فقهقه ياسين حتى اهتز جسمه الضخم وقال:

- أجل نجوت من عقرب لسانك، طمنا توقعت أن تمتد لي بين حين وآخر لتلسني...

- ولكنّها هي التي أنقذتك، ومن أجل الورد يسقى العليق...

كادوا ينسون من فرحة النجاة أنّ أمهم طريجة الفرائش مكسورة الترقوة، ولكنّها هي نفسها كادت أن تنسى...

٢٩

فتحت عينها فوقع بصرها على خديجة وعائشة جالستين على الفرائش عند قدميها رابيتين إليها بيمينين يتنازعها الخوف والرجاء، فتتهدت ثم التفت صوب النافذة فראت خصاصها ينضج بشواء الضحى فتتممت كالمتغربة:

- تحت طويلاً...

فقالت عائشة:

- ساعات معدودة بعد أن طلع عليك الفجر دون أن يغمض لك جفن... يا لها من ليلة لن أنساها معها امتدّ بي العمر...

وعاودتها ذكريات الليلة الماضية من الأرق والألم فتطقت عينها بالرائحة... لنفسها وللغتاين اللتين سهرتا إلى جانبها طول الليل يبدلانا الألم والأرق... وتحركت شفتاها وهي تستعيد بالله بصوت غير مسموع ثم همت قائلة فيها يشبه الحياة:

- شدّ ما أتعبتكما...

فقالت خديجة بلهجة توشي بالدعابة:

- تعبك راحة، ولكن إياك وأن تعودني إلى إرعابنا... (ثم بنبرات غليظة التأثر)... كيف هاجبك ذاك الألم المخيف؟... لقد حسبك استغرقت في النوم وأنت على أحسن حال، واستلقيت لأنام بدوري، وإذا بي أستيقظ على أنفك، ثم لم تمسكني عن آه... آه حتى مطلع الفجر...

وتبلّل وجه عائشة بالتأؤل وهي تقول:

- على أيّ حال أبشري، لقد أخبرت فمعي عن حالك حين سألني عن صحتك في الصباح لقال لي إنّ الألم الذي انتابك دليل على أنّ العظم المكسور كان أخذًا في الالتئام...

وجلبها اسم فمعي من جهة أفكارها فتساءلت:

- ذهبوا بسلامة الله؟

فقالت خديجة:

- طبعًا، كانوا يودّون عمادتك ليطمئنوا عليك بأنفسهم ولكنّي لم أسمح لأحد بأن يوقظك من النوم الذي لم تدخليه حتى شيتنا...

فتتهدت الأم في استسلام:

- الحمد لله على كلّ حال، ربّنا يجعل العواقب سليمة... في أيّ وقت نحن الآن؟...

فقالت خديجة:

- كلّها ساعة ويؤذن الظهر...

ودعاها تأخّر الوقت إلى أن تخفض عينها متفكرة ثم رفعتها فإذا بها تمسكان نظرة قلق، وتمتمت:

- لعلّه الآن في الطريق إلى البيت...

وأدركتا من تعني، ومع أنّها شعرتا بديب الخوف في قلبيهما إلّا أنّ عائشة قالت بثقة:

- أهلاً به وسهلاً، لا داعي للقلق، أتفقنا على ما

ينبغي أن يقال وانتهى الأمر...

ولكن اقتراب عودته أشاع في نفسها للهزولة القلق فتساءلت:

- ترى هل يمكن السَّترُ على ما وقع؟

فأقلت خديجة بصوت ارتفعت حدته بنسبة قلقها المتزايد:

- ولم لا؟... سنخبره بما تم الاتفاق عليه فيمَر الأمر بسلام...

ثمَّت في تلك الساعة لربقي ياسين وفهمي إلى جانبها لبشجاءها، تقول خديجة سنخبره بما تم الاتفاق عليه فيمَر الأمر بسلام، ولكن هل يظَلُّ ما وقع سرًّا

مغلَّقًا إلى الأبد... ألا تجد الحقيقة فرجة تنفذ منها إلى الرجل؟... كم تخاف الكذب بقدر ما تخاف الحقيقة، ولا تدري أي مصير يترتبُ بها...

وركدت عينها بعطف بين الفتاتين وفتحت فاهَا لتكلم حين دخلت أم حنفي مهولة وهي تقول بصوت مهموس كأنها تخاف أن يسمع خارج الحجرة:

- سيدي جاء يا سي...

ونخفضت قلوبهن في اضطراب. وجلت الفتاتان عن الفراش في وثبة واحدة ثم وقفنا حيال أمهما يتبادلن جويًّا النظر صامتات حتى غمغمت الأم:

- لا تتكلَّما أنتما فلاي أخاف عليكما معبَّة غادعت، اتركا في القول والله أَلَسْتُمَا...

وساد صمت مشحون بالتوتر كالصمت الذي يركب أطنالًا في الظلام إذا قرع آذانهم وقع أقدام من يظنونهم غفاريث يجوسون في الخارج، حتى تراسي إليهن وقع أقدام السيِّد على السَّلم وهي تقترب فأزاحت الأم كابوس الصمت بمشقة وغمغمت...

- إذا تركناه صعد إلى حجراته لم يجد أحدًا؟!... ثم التفتت صوب أم حنفي قائلة:

- أخبريه بأنني هنا، مريضة، ولا تزيدني... وإزدردت ريقها الجاف، أمَّا الفتاتان فمرقتا من الحجرة مستيقظتين وغادرتاهما وحيدة، ووجدت نفسها وكأنها في عزلة عن العالم كله فاستسلمت للمقادير، وكثيرًا ما يبدو هذا الاستسلام في سلوكها - الأهل من

كُلِّ سلاح - كاسلوب من أساليب الشجاعة السلبية، واستجمعت فكرها لتتذكر ما يجب قوله بيد أن الشك في سلامة تدبيرها لم يزيلها قط وكَتَنَ في أعماق شعورها معلنًا عن ذاته بحال من القلق والتوتر وتبدد الثقة وجاءها وقع طرف عصاه على أرض الصالة فغمغمت «رحمتك يا رب وعونك» ثم تطلَّع بصرها إلى الباب حتى اعترضه جسمه الطويل العريض، ورأته وهو يدخل مقتربًا ملفيًا عليها نظرة متفحصة من عينه الواسعتين حتى وقف في منتصف الحجرة وهو يتسامل بصوت خالته رقيقًا على غير عادته:

- مالك؟...

فأقلت وهي تفحص بصرها:

- حمدًا لله على سلامتك يا سيدي، بخير ما دمت بخير...

- لكن أم حنفي قالت لي إنك مريضة... فأشارت بيدها إلى كنفها وقالت:

- أصيب كتفي يا سيدي لا أراك الله سوءًا... فتسامل الرجل وهو يفرس في كنفها باهتمام وقلق:

- ماذا أصابها؟

حمَّ الأمر، وجاءت الدقيقة الفاصلة، ما عليها ألا أن تتكلم، أن تنطق بكلمة النجاة، فتمرَّ الأزمة بسلام وتستزيد من العطف المتناح، ورفعت عينها وهي تتوَّكَّب، فالتقت عينها بعيني، أو بالأحرى عينها في عيني، فاشتدَّ وجب قلبها، ويتابع بلا رحمة، هناك تبكر ما جمعت في رأسها من رأي، وانثر ما كتلته في إرادتها من عزم، ورمشت عينها في اضطراب وفحور، ثم رنت إليه بطرف حائر دون أن تنبس بكلمة، وعجب السيِّد لاضطرابها فتمجَّلهَا متسائلًا:

- ماذا حدث يا أمينة؟

لا تدري ماذا تقول، كأنه ليس لديها ما تقوله ولكن بات في حكم اليقين أنه لم يعد بوسمها أن تكذب، أفلتت الفرصة دون أن تدري كيف، ولو أنها أعادت المحاولة لخرجت من صدرها متورة مكتشوفة، كانت كمن يسير وهو منوم تنومًا مغناطيسيًّا على حبل إذا دُعي إلى إعادة خاطرتة وهو صابر، وكلَّما مرَّت الثواني

جَوَّهَ المتنبِّض نُذْرَ الخوفِ والوعيد، وتَحَيَّرَتْ من أمره لا تُلْزِي عن أيِّ قضاء يتمخِّض ولا إلى أيِّ مصير يقدِّف بها، حتَّى جامعها صوته وهو يقول في هدوء غريب:

- وماذا قال الطيب؟ ... هل ثَمَّة خطر على الكسر؟!

فالتفت رأسها صوبه بدهول... أجل توقَّعت كلَّ شيء إلَّا أن يجود بهذا القول اللطيف، ولولا رغبة الموقف لاستعاضته لتزوَّج من صَبَّة ما سمعت، وغلبها التأثير فطفرت من عينها دمعتان غزيرتان فشَدَّت على شفتيها أن تفحم في البكاء، ثُمَّ غمغمت في ذلَّة وانكسار:

- قال الطيب إنَّه لا داعي للخوف مطلقاً، نجاكَ الله من كلِّ سوء يا سيدي... ووقف الرجل بعض الوقت وهو يقاوم رغبة تدعوه إلى المزيد من السؤال حتَّى تغلَّب عليها فتحوَّل عن موقعه ليغادر الحجرة وهو يقول:

- الزمي فراشك حتَّى يأخذ الله بيدك...

٣٠

هرعت خديجة وعائشة إلى الحجرة بعد ذهاب والدهما، ووقفتا حيال أمَّهما تنظران إليها بعينين مستظلمتين تنطق نظراتهما بالاهتمام والقلق، ثُمَّ لاحظتا احمرار عينيها من أثر البكاء، فوجتا وتساءلت خديجة وقد استشعر قلبها الخوف والتشاؤم:

- خير إن شاء الله؟...

فلم تمضُ الأمُّ أن قالت باقتضاب وهي ترمش بعينيها ارتباكاً:

- اعترفت له بالحقيقة...

- الحقيقة!...

فقالت باستسلام:

- لم يسمعي إلَّا الاعتراف، فما كان من الممكن أن يخفي الأمر عليه إلى الأبد، وحسناً فعلت...

فلتَّت خديجة صدرها بيدها وهضت:

- يا نازنا الأسود...

على حين بهتت عائشة فحملت في وجه أمَّها دون

غاضبة في الارتباك والمزعجة حتَّى أَشَقَّت على اليأس...

- لماذا لا تتكلمين؟...

ها هي لحنه بدأت تنم عن نفاذ صبر ولا يبعد أن تقعقع قريباً بالغضب، ربَّاه لشدَّ ما هي في حاجة إلى العون، أيَّ شيطان اغواها بتلك الخرجة المشثومة... عجباً ألا تريدان أن تتكلمي؟!

وبسات السموت فوق طاقها فتتمت بصوت متهدج مدنوعة باليأس والقهر:

- أخطأت خطأ كبيراً يا سيدي... صدمتني سيّارة...

وأتسعت عينا السيّد دهشة ولاح فيها انزعاج مقرون بالإنكار... وكأنه بات يشك في صَبَّة قواها العقلية، ولم تعد المرأة تحتمل التردّد وصمَّت على أن تبوح باعتبارها كاملاً معها تكن العواقب، كمن يقدم - مخافاً بحياته - على إجراء عملية جراحية خطيرة ليتخلص من الآم داء لا يَبُل له به، وتضاعف عند ذلك شعورها بفداحة الذنب وخطورة الاعتراف فدمعت عيناها وقالت بصوت لم تُعْرَ بِإرضاء نبراته الباكية إمَّا لأنه خلبها على صوته أو لأنَّها أرادت أن تبذل محاولة يائسة لاستردار العطف...

- ظننت أن سيّدنا الحسين يدعوني إلى زيارته فلييت... ذهبت للزيارة... وفي طريق العودة صدمتني سيّارة... قضاء الله يا سيدي... ولقد نهضت من سقطني دون معاونة أحد (قالت العبارة الأخيرة بوضوح) ولم أشعر بادئ الأمر بأيِّ ألم فحسبتي بخير وواصلت السير حتَّى عدلت إلى البيت، وهنا تحوَّك الألم فأحضروا لي الطبيب ففحص كتفي وقرَّر أنَّ به كسراً ووعد بأن يعودي يوماً بعدد يوم حتَّى يجبر الكسر، لقد أخطأت خطأ كبيراً يا سيدي وجوزيت عليه بما أستحق... والله غفور رحيم...

أنصت السيّد إليها صامتاً جامداً، لم تتحوَّل عنها عيناه، ولم يَبْدُ في وجهه أثر ممَّا يتلجج في صدره على حين نكست هي رأسها في تخشُّع بحال من ينتظر النطق بالحكم، وطال الصمت، واشتدَّ، وشاعت في

أن تنيس بكلمة، ولكن الأم ابتسمت فيما يشبه الزهو
للقرون بالحياة، وتورد وجهها الشاحب وهي تستعيد
ذكرى العطف الذي شملها به حين لم تكن تتوقع منه
إلا غضبًا كاسحًا يصفب بها ويستقبلها... أجل
شعرت بزهو وحياة وهي تنهت للحديث عن عطف
السيد عليها في عنتها وكيف نسي غضبه فيما اعتراه من
تأثر وإشفاق، ثم ضعفت بصوت لا يكاد يسمع:
- كان بي رحيًا أطال الله عمره، أنصت إلى قصتي
صامتًا، ثم سألتني عن رأي الطبيب في خطورة الكسر
وغدارني وهو يشير عليّ أن ألزم الفراش حتى يأخذ الله
بيدي.
وتبادلت الفتاتان النظرات في دهشة وعدم تصديق
ولكن زابلهما الخوف سريعًا فتحدثتا في ارتجاع حديق
وأضواء وجههما بالبشر، وهفت خديجة:
- أرايت بركة الحسين؟
وقالت عائشة بخيلاء:
- لكل شيء حدود حتى غضب بابا، ما كان يسمعه
أن يغضب وهو يراها على هذه الحال، الآن صرفنا
قيمتها عنده... (ثم غاطبة أمها في دعابة)... يا
لك من أم محظوظة، هنيا لك التكريم والعطف!
لعاود وجه الأم التردد وقالت بتلعثم وحياة:
- أطال الله عمره... (ثم متبذرة) والحمد لله على
النجاة
وتذفرت أمرًا فالتفت إلى خديجة وقالت باهتمام:
- يجب أن تلحقني به لأنه سيحتاج إلى خدمتك
حتى...
وشعرت الفتاة - لما يركبها في محضر أبيها من
الارتباك والاضطراب - كأنها وقعت في شرك، فقالت
محتدة:
- ولماذا لا تذهب عائشة؟
ولكن الأم قالت في حناب:
- أنت أقدر على خدمته، لا تتلغني يا شابة إذ رُما
يكون في حاجة إليك الآن...
وكانت تعلم أن احتجاجها لن يغني عنها شيئًا كما لا
يغني عنها عادة كلمها دعيت إلى أداء واجب ترى الأم

أنها أقدر عليه من أختها، ولكنّها أصرت على إعلانه
كما تصرّ عادة على إعلانه في أمثاله من المواقف،
مدفوعة بأعصابها السريعة اللاتهاب، وجرئًا مع نزعتها
العذوانيّة التي تجهد من لسانها أطوع أداة وأحداها، ثم
لتحمل أمها على إعادة القول بأنّها «أقندر على كيت
وكيت من عائشة» كإقرار من أمها وإنذار لشقيقتها
وعزاء لها هي نفسها، والحق أنّه لو حدث أن عهدت
بواجب من هذه الواجبات والخطيرة لعائشة دونها
لثارت ثورة أشدّ وحالات بينها وبينه، ما دامت تجد - في
أحياق قلبها - أنّ القيام بهذه الواجبات حقّ من حقوقها
وامتياز لها كامرأة جديرة بالمكانة التالية لأُمّها في البيت،
ولكنّها أبت في الوقت نفسه أن تعترف جهارًا بأنّها
تمارس - بالقيام بها - حقًا من حقوقها ولكنّ واجبًا قليلًا
تقبله مضطّرة، حتى تُدعى إليه - إذا دُعيت - في حرج
من الداعي، ولتحتجّ عليه - إذا احتجّت - في غضب
يرفّح عن نفسها، ولتسمع بالمناسبة التعليق الذي
تودّ، ثمّ ليحسب لها بعد ذلك كلّ جيلًا تستحقّ من
أجله الشكر!... ولذلك غادرت الحجرة وهي تقول:
- في كلّ مازق ننادين خديجة، كأنه لا يوجد أمامك
غير خديجة، ماذا تصنعين لو لم أكن موجودة!
ولكنّ خيلاءها تخلّ عنها بمجرد مغادرتها للحجرة
وحلّت محلّه رهبة واضطراب فعجبت كيف يتأتّى لها أن
تقتل بين يدي الرجل، وكيف تقوم على خدمته، وماذا
تلقى منه إذا تلجلجت أو أخطأت! على أنّ السيد كان
قد خلع ملابسه وارتدى جلبابه بنفسه، ولمّا وفقت
بالباب تسأله عنها هو في حاجة إليه أمرها بأن تصنع له
فنجان قهوة، فبادرت تملأها ثمّ قدّمتها له خافضة
العينين خفيفة الخطى من الخوف والحياة... ورجعت
إلى الصلاة فمكثت بها لتكون رهن إشارة إذا دعاها
فلم يفارقها إحساس الرهبة حتى تسامت كيف يا ترى
يمكنها أن تواصل خدمته طوال الساعات التي يقضيها
في البيت يومًا بعد يوم حتى تنفسي الأسابيع
الثلاثة!... وبدا لها الأمر شاقًا حقًا وأدركت لأول
مرة خطورة الفراغ الذي تسبّب أمها في البيت فدعت
ها بالشفاء، حبًا فيها من ناحية ورحمة بنفسها من

ناحية أخرى...

السؤال وكأنه لم يعبا بسباع الجواب الذي استنتجه مقيّمًا، أو لعله أراد أن يسجل عليها الخطأ بلا اكترات بإقرارها به... ولم يزد بعد ذلك على أن يشير إلى باب الحجرة أدنًا لها بالانصراف، وعندما مضى إلى الخارج سمعاه يقول مخاطبًا نفسه:

- ما دام الله لم يرزقني رجالاً فليهبني الصبر.

ومع أنّ الظواهر دلّت على أنّ الحادث قد هزّ نفس السيّد حتى غير المألوف من سلوكه تعبيرًا دهش له الجميع إلا أنّه لم يستطع أن يثني إرادته عن قضاء سهرته الليلية التقليدية... فاجاء المساء حتى ارتدى ملابسه وغادر حجرته ناشرًا بين يديه شذاً طيبًا، إلا أنّه مرّ في طريقه إلى الخارج بحجرة الأمّ وسأل عنها فدعت له طويلاً بمحنة شاكرة... لم ترّ في ذهابه إلى سهرته - وهي طريحة الفراش - تحافًا للعطف، ولعلّها وجدت في مروره بها وسؤاله عنها تكرّمًا فلق ما كانت تنتظر، بل ليس مجرد امتناعه عن صبّ غضبه عليها منه لم تكن تحمل بها؟... وكان الاخوة - قبل مبارحته حجرته - قد تساءلوا «أترى هل يسدل الليلة عن سهرته؟» ولكنّ الأمّ أجابت قائلة «ولماذا يبقى بعد أن علم أنّ الحال مطمئنة؟» ولعلّها تمثّنت فيها بينها وبين نفسها لو يتمّ نعمته عليها فيعدل عن سهرته كما يليق بزواج أصيبت زوجه بما أصيبت هي به، ولكنّها كانت أدرى بطبعه فسبقت به انتحال العذر له حتى إذا انطلق إلى سهرته كما تتوقّع أمكنها - مدارة لموقفها - أن تتوسّع انطلاقه بالعذر الذي انتحلت لا بقلة الاكترات. ولكنّ خديجة قالت «كيف يطيق السهر وهو يراك على هذه الحال؟» فاجابا ياسين ولا عليه إذا فعل ما دام قد اطمأنّ عليها، حزن الرجال غير حزن النساء، وذهب الرجل إلى سهرته لا يتناقى مع حزنه، بل لعلّ التفرّج عن نفسه واجب عليه ليستسّى له مواصلة حياته الشاقّة. ولم يكن ياسين يدافع عن أبيه بقدر ما كان يدافع عن رغبته في الانطلاق التي بدأت تتحرّك في أصابعه، إلا أنّ مكروه لم يجرّ على خديجة فسألته: «هل تطيق أنت مثلاً أن تسهر في كهوتك الليلة؟» فبادرها قائلاً وهو يلعن في سرّه:

ومن سوء حظّها أنّ السيّد شعر برغبة في الراحة عقب تعب السفر فلم يذهب إلى الدكان كما كانت تأمل، واضطّرتّ تبعًا لذلك أن تبقى في الصالة كالسجّنة، وفي أثناء ذلك صعدت عائشة إلى الدور الأعلى وتسلّلت إلى الصالة حيث تجلس أختها، دون أن تحدث صوتًا لتربها نفسها وتغمر لها بعينها على سبيل التنديد بحالها ثمّ تعود إلى أمّها تاركة إياها وهي تغلي من الغيظ إذ كان ممّا يخفيها أشدّ الحق أن يعاينها أحد بالمزاج وإن لدّها ما هي أن تعاتب الجميع، ولم تسترّ حزنها - إلى حين طبعًا - إلا عندما أسلم السيّد جنبه للنوم فطارت إلى أمّها وأنشأت تحدّثها عنيًا قدّمت لآبها من خدمات حقيقيّة ووهيّة وتصف لها ما قرأت في عييه من آبي العطف والتقدير لخدماتها... ولم تنس أن تعرّج على عائشة تنهال عليها بالزجر والتوبيخ على ما بدا منها من تصرف صبيانيّ، ثمّ عدلت إلى الأب بعد استيقاظه قدّمت له الغداء، ولتّا فرغ الرجل من غدائه جلس يراجع بعض الأوراق وقتًا غير قصير ثمّ دعاها إليه وطلب إليها أن تبعث له ياسين وفهمي بمجرّد رجوعهما إلى البيت...

وقلقت الأمّ للطلب وخافت أن يكون قد حرّ في نفس الرجل غضب مكظوم وأنّه يروم الآن - في الشايفين - متنقّسًا عن غضبه، ولتّا جاء ياسين وفهمي وعليها بما كان، ثمّ بلّغا أمر أبيهما بمقابلته، دار بخاطرهما ما دار بخاطر المرأة من قبل وذهبا إلى حجرته وهما يتوسّسان خيفة، ولكنّ الرجل خيّب ظنّيهما فقد لا قاما بهدوء غير معهود وسألها عن الحادث وظروفه وتقرير الطبيب. فحدّثته طويلاً بما يعلمان وهو يصغي إليها باهتمام، وفي النهاية سألهما:

- أكتنبا في البيت حين خرجوكم؟

ومع أنّ هذا السؤال كان متوقّفًا من بادئ الأمر إلاّ أنّه وقع من نفسيهما - بعد الهدوء العجيب غير المنتظر - موقع الانزعاج لعلّما أن يكون مقدّمة لتغيير طبقة النعمة التي ارتاحا إليها ارتياح النجاة، ولم يسمعا الكلام فلاذا بالصمت... بيد أنّ السيّد لم يلحف في

«طيبًا لا، ولكن أنا شيء وبابا شيء آخر!». وليًا فارق السيد الحجرة عاودها الشعور بالراحة الذي يعقب النجاة من خطر عقق فتألق عيهاها باسامة وقالت:

- لعل رأى أن جزائي كفاف ذنبي فعفا عني، عفا الله عنه وعنا جميعًا...

فضرب ياسين كفًا بكف وهو يقول محتجًا:

- إن رجالًا غيورين مثله، منهم أصدقاء له، لا يرون بأسًا في السماح لنسائهم بالخروج كلًا دعت ضرورة أو عجالة، فما باله يقيم لكن من البيت سجنًا مؤبدًا؟!

فلحظته خديجة بهزه وسألته:

- لم لم تأتي بدفاعك هذا وأنت بين يديه؟!

فانقلب الشاب مقهقها حتى أرتجت كرشه ثم أجابها قائلاً:

- يلزمي مثل أنفك أولًا كي أدافع به عن نضي عند الضرورة...

وتتابعت أيام الرقاد، فلم يصاودها الألم الذي هصرها أول ليلة وإن تبدد جلدعها وكشفها الوجع لأقل حركة تأتيها، ثم تقدمت نحو الشفاء بخطوات سريعة بفضل بينتها القويّة وحيويّتها الدافقة التي تكره بطبعها السكون والقعود ممّا جعل الإذعان لأوامر الطبيب مهمة شاقّة غطى عذابها حلّ آلام الكسر إبان احتدامها، ولعلّها لولا تشدّد الأبناء في مراقبتها لخرقت وصايا الطبيب ونهضت عجلى لأموها... حلّ أنّ رقادها لم يمنحها من نشر الرقابة على شئون البيت من فراشها، ومراجعة الفتاتين بدقّة متعبة فيها يعهد إليها به... خاصة عن دقائق الواجبات التي تخاف عليها الإهمال أو النسيان، فتسال وتلجّ في السؤال «هل نفضت أعلّ الستائر؟... وخصاص الشبايبك؟... هل بخرت الحمار لأبيك؟... هل سقيت اللبلاب والياسمون؟» الأمر الذي أحقت خديجة مرّة فقلت لها «اعلمي أنّك إذا كنت تعنين بالبيت قيراطًا فإني أعني به أربعة وعشرين... وإلى هذا كلّه أودتها تخليها الإيجاريّ عن مركزها المرموق شعورًا معقدًا عانت منه كثيرًا،

فربما تسامت ترى كم يفقد البيت - أو أحد من أهله - بتخليها عنه شيئًا من نظامه أو راحته؟! وأيًا ما ترى أحبّ إليها، أن يبقى كلّ شيء كما كان بفضل فتاتيه - غرس يديها - أم أن يبتذل شيء من توازنه يكون خليقًا أن يذكّر الجميع بالفراغ الذي خلّفته وراءها؟! وهب السيد بالذات استشعر هذا الفراغ فهل يكون ذلك مدعاة لتقديره لأهميتها أو لسطخه على ذنبا الذي جرّ هذا كلّ؟! تحيرت المرأة طويلًا بين عاطفتها المستجيبة نحو نفسها وعاطفتها الصريحة نحو فتاتيه، ولكنّ المحقّق أنّه لو اختلّ شيء من النظام لأحدث لها كربًا شديدًا، كما أنّه لو حافظ على كماله كان لم يطرا نقص لما خلت من ضيق...

أما الواقع فهو أنّ فراغها لم يسدّه أحد، وأثبت البيت أنّه أكبر من الفتاتين على نشاطيهما وإخلاصيهما... ولم تسر الأم لهذا لا في الظاهر ولا في الباطن، توارى شعورها نحو ذاتها، ودافعت عن خديجة وعائشة دفاعًا حائرًا صادقًا، ثم ركبها الجزع والألم فلم تعد تطيق صبرًا على انزوائها...

٣١

وفي فجر اليوم الموعد الذي انتظرت طويلًا هبت من الفراش في حقّة صبيانية من الفرح كأنها ملك يعود إلى عرشه بعد نفي... ونزلت إلى حجرة الفرن متداركة عاديها التي انقطعت عنها ثلاثة أسابيع فنادت أم حنفي، واستيقظت المرأة وهي لا تصلّق أذنيه، ثم نهضت إلى سيدتها فعانقتها ودعت لها، ثم باشرت عمل الصباح في سرور لا يوصف، وعند شروق أول شعاع للشمس صعدت إلى السور الأول فتلقاها الأبناء بالتهاني والتقبل، ثم مضت إلى حيث ينام كمال فأيقظته، وما فتح الغلام عينيه حتى بيت دهشة وفرحًا، ثم تعلّق بحنفها ولكتها بادرت إلى التخلّص من ذراعيه برقّة وهي تقول:

- ألا تخاف أن تردّ كنتي إلى ما كانت عليه؟... فامطرها قبلًا ثم ضحك متسائلًا في خبث:

- متى يا عزيزي نخرج ممّا مرّة أخرى؟!

فاجابته بلهجة لا تخلو من عتاب باسم :

- عندما يهديك الله فلا تسوقي رغم إرادتي إلى الطريق الذي كدت أهلك فيه . . . !

وأدرك أنها تشير إلى عناده الذي كان السبب المباشر فيها وقع لها فضحك ملء فيه ضحك مذهب واتته النجاة بعد أن ظلّ ذنبه معلقاً فوق رأسه ثلاثة أسابيع، أجل لشدة ما خاف أن يمرّ التحقيق الذي بشره إخوته إلى معرفة الجاني المستر، وقد أوشكت الريبة التي سلّطتها عليه خديجة حيناً وياسين حيناً آخر تكشفه في الركن المنزوي فيه لولا صمود أمّه في الدفاع عنه وتصديها لتحمل مسؤولية الحادث وحدها، فلما انتقل التحقيق إلى بني والده تناهى به الخوف وتوقع بين لحظة وأخرى أن يدعى إلى مقابلته، هذا إلى عذابه - طوال الأسابيع الثلاثة - وهو يرى أمّه المحبوبة طريحة الفراش، شديدة العناء، عاجزة عن الاستلقاء والنهوض ممّا . . . الآن مضى الحادث، ومضت في أثره عقابله، وانتهى التحقيق، وعادت أمّه توقظه في الصباح، وسوف تيمه في المساء، رجع كلّ شيء إلى أصله، ونشر الأمان ألويته، فعنّ له أن يضحك ملء فيه وأن يبتوّض ضميره على الراحة المتاحة . . .

وغادرت الأمّ الحجرة فصعدت إلى الدور الأعلى، ولما تداينت من باب حجرة السيّد تراسى إليها صوته وهو يردد في صلاته وسبحان ربّي العظيم فمخّق قلبها ووقفت على قيد خطوة من الباب كالتردّد، ثمّ وجدت نفسها تتساءل وتدخل لتصبح أو الأجدر أن تمدّ مائدة الفطور أولاً؟ لا على سبيل التساؤل حقاً ولكن فراؤا ممّا شاع في نفسها من الخوف والوجل، أو كليهما ممّا كما يقع للإنسان أحياناً أن يخلق مشكلة وهمية يلوذ بها من مشكلة راحنة يشقّ عليه فتحها . . . ومضت إلى حجرة المائدة فاقبلت على العمل بعناية مضاعفة، إلا أنّ قلقها تزايد، فلم تنصنع بمهلة التفكير التي اقتنصتها، ولم تجدها راحة كما أمّلت ولكن عنة انتظار أشدّ عناء من الموقف الذي نكصت عن مواجهته . . . وعجبت كيف جفّلت من دخول وحجرتها كأنها كانت تهمّ بدخولها لأوّل مرّة، خاصّة وأنّ السيّد لم يقطع عن

زيارتها يوماً بعد يوم في أثناء رقادها، ولكن الحقّ أنّ برعها رفع عنها الحسيّة التي ضربها حولها المرض فشعرت بأنّها ستلقاه بفردها لأوّل مرّة مذ كشفت خطيئتها . . . ولما جاء الأبناء تباغاً غفّت وحشتها قليلاً، وما لبث أن دخل السيّد الحججرة في جلبابه الفضفاض ولكن لم يتبدّ في وجهه أثر لمدى رؤيتها، وقال بهلوه وهو يتّجه إلى مكانه في المائدة :

- جئت؟ (ثمّ مخاطباً الأبناء وهو يتخذ مجلسه) . . . اجلسوا . . .

وأخلوا في تناول فطورهم على حين وقفت هي بمكانها المعتاد، ومع أنّ الخوف تناهى بها حال دخوله إلا أنّها مضت تسترّ أنفاسها بعد ذلك، أي بعد أن تمّ أوّل لقاء بعد الشفاء ومرّ بسلام، وشعرت عند ذاك بأنّها لن تجد مشقّة في الانفراد به في حجرته عمّا قليل . . . وانقضت المائدة فعاد السيّد إلى حجرته، ولحقت به بعد دقائق حاملة صينيّة القهوة التي وضعتها على الحوان وتنمّت جانباً في انتظار فراغه من احتساؤها لتساعده على ارتداء ملابسه. وحسا السيّد قهوته في صمت عميق، لا ذاك الصمت الذي يقع عفواً أو كالراحة عقب التعب أو كغطاء لصدور فارغ من شئون الحديث، ولكنّه صمت صامت مسرّب بالتمنّد، ولم تكن تعدم أملاً - ولو ضئيلاً - في أن يتعطف عليها بكلمة رقيقة، أو في الأقلّ أن يلّم بشأن من شئون حديثه المعتاد في مثل هذه الساعة من الصباح، فحيرها صمته المتمنّد وعادت تسائل نفسها تترى ألا يزال بنفسه شيء، وأخذ الفلق ينشب إبرسه في قلبها مرّة أخرى، حل أنّ الصمت الغليظ لم يمتدّ طويلاً . . . كان الرجل يفكر في سرعة وتركيز لم يلق معها طمأناً، لا ذاك التفكير الذي ينبعث من وحي الساعة، ولكن آخر عنيذاً قديماً لم يزايل نفسه طوال الأيام المتفضية . . . وأخيراً تسامد دون أن يرفع رأسه عن فنجان القهوة الفارغ :

- استرددت صحتك؟

فقالت أمينة بصوت خفيض :

- الحمد لله يا سيدي .

فاستطرد الرجل قائلاً بمزارة:

- إني أعجب - وهيهات أن ينتهي لي عجب - كيف أقدمت على فعلتك!

فدق قلبها بعنف وأطرقت في وجوه... لم تكن تطيق غضبه وهي تدافع عن خطي ارتكبه غيرها فكيف بها الآن وهي المذنب!... وعقل الخوف لسانها ولكنه بانتظار الجواب واصل حديثه متسائلاً في استنكار:

- أكنت غمدوفاً بك طوال هذه السنين وأنا لا أدري؟! عند ذاك بسطت راحتها في جزع والم وهمت

بأنفاس مضطربة:

- أعوذ بالله يا سيدي، إن خطي كبير حقاً ولكني لا أستحق هذا القول.

ولكن الرجل واصل حديثه بهنوئه الرهيب الذي يهون إلى جانبه الزعيق قائلاً:

- كيف اقترفت هذا الخطأ الكبير!... ألاي ابتعلت عن البلد يوماً واحداً؟! فقات بصوت متهدج وشت نبراته بالرجفة التي

ملككت جسمها:

- أخطأت يا سيدي، وعندك العفو، كانت نفسي تتوق إلى زيارة سيدنا الحسين، وحسبت أن زيارته المباركة تشفع لي في الخروج ولو مرة واحدة.

فهز رأسه في شيء من الحدة قائماً يقول ولا فائدة تُرجى من الجندال! ثم رفع إليها عينيه متجهماً ساخطاً وقال بلهجة لا تقبل المراجعة:

- ليس عندي إلا كلمة واحدة! غادري بقي بلا توابن.

هوى أمره على رأسها كالضربة القاضية فهتت لا تنبس بكلمة ولا تستطيع حراكاً، طالما توقعت في أشد أوقات محبتها - وهي تنتظر عودته من رحلة بور سعيد - الرأى من المخاوف، كان يصب عليها غضبه أو يصمتها بزعمه وسبابه، حتى الضرب لم تستعبده، أما الطرد من البيت فلم يزعج لها خاطراً، لا لشيء إلا أنها سكنت إلى معاشته خساً وعشرين عاماً فلم تتصور أن ثمة سبباً يمكن أن يفرق بينها أو ينزعها من البيت

الذي صارت جزءاً منه لا يتجزأ... أما السيد فقد تخلص - بكلمته الأخيرة - من عبء فكر دؤخ دماغه طوال الأسابيع الثلاثة المنقضية... وقد بدأ الصراع في اللحظة التي اعترفت فيها المرأة بخطئها باكية وهي طريحة الفراش، لم يصدق أذنيه لأول وهلة، ثم أخذ يفيق إلى نفسه وإلى الحقيقة البغيضة التي نطالعه متحدثاً كبريائه وصلفه، بيد أنه أجل حقه ريثاً يرى ما أصابها، أو أنه - وهو الأصديق - لم يسه أن يفكر فيها تحدى كبريائه وصلفه لما اعتراه من قلق عميق بلغ حد الخوف والجزع على المرأة التي يأنفها ويمعجب بجزاهاها لعطف عليها عطفاً أنساه خطاها وسأل الله لها السلامة، انكمش جبروته حيال الخطر المحدث بها واستيقظ ما تنطوي عليه نفسه من حنان مولود فعاد - يومذاك - إلى حجرته عززناً مكتئباً وإن لم يفصح وجهه... إلا أنه مضى يستعيد طمأنينته وهو يراها تتألل للشفاة بخطي سريعة ثابتة، ومضى بالتالي بعيد النظر إلى الحادث كله - أسبابه ونتائجه - بعين جديدة أو بالأحرى بالعين القديمة التي اعتاد أن ينظر بها في بيته، فكان من سوء حظ - حظ الأم طيباً - أن يعيد النظر في هدوء وهو خال إلى نفسه، وأن يقتنع بأنه إذا غلب العفو ولجئ نداء العطف - وهو ما نزعت إليه نفسه - فقد أضاع هيته وكرامته وتاريخه وتقاليده جميعاً وأفلت منه الزمام وانتثر عقد الأسرة التي باى إلا أن يسوسها بالحزم والصرامة، وبالجملعة لن يكون في تلك الحال أحد عبد الجواد ولكن شخصاً آخر لن يرتضي أن يكون أبداً... أجل كان من سوء الحظ أن يعيد النظر في هدوء وهو خال إلى نفسه، إذ لو أتبع له أن يتقش عن غضبه حين اعترافها لانفشا حنقه ومز الحادث دون أن يسحب وراءه عواقب خطيرة، ولكنه لم يسه الغضب في وقته كما لم يكن مما يرضي كبريائه أن يعلن غضبه عقب شفاها - بعد هدوء دام ثلاثة أسابيع - إذ أن هذا الغضب يكون أقرب إلى الزجر للمتعمد منه إلى الغضب الحقيقي، ولما كانت حساسيته الغضبية تستمر عادة من طبع وتعمد معاً، ولما كان الجانب الطبيعي منها لم يجد متنفساً في حينه

بيئاً أو يكسر قلباً أو ينزع أثماً من بين أبنائها. وجعلت تدبر هذه الأفكار في رأسها كأنها لتدخل بها بعض الطمأنينة إلى نفسها المزعومة، وأحت في هذا إلخاً إن دل على شيء فعل أن الطمأنينة لا تريد أن تستقر بنفسها كبعض المرضى الذين يزدنون تغنياً بقوتهم كلما ازدادوا إحساساً بضعفهم إذ كانت لا تدري ماذا تصنع بحياتها أو ماذا يمكن أن تفني الحياة لها لو خاب الرجاء ووقع المحذور. وترامى إلى أذنيها وقع عصاه على أرض الصالة وهو يضيء خارجاً فاطار أفكارها وانصبت باهتمام تتابعه حتى غاب وشمرت عند ذلك بألم جارح لحالها وسخطها على الإرادة المتحجرة التي لم تُرغ لضعفها حقاً، ثم نبضت فيها يشبه الإعياء وغادرت الحجرة لتتزل إلى الدور الأول فجاءتها عند رأس السلم أصوات الأبناء وهم ينزلون تباعاً فمدت رأسها من فوق الدرابزين فلمحت فهمي وكيال وهما يتابعان يأسين إلى الباب المقضي إلى الفناء، هنالك غمرت خطرة من الحنان قلبها فاذمته، وعجبت لنفسها كيف تركتها يذهبان دون أن تودعهما، أليست قد تحرم عليها رؤيتهما... ألياً أو أسابع؟ وربما لا تراهما مدى العمر إلا لأمساً كالغرباء... وعادوها غمز الحنان متتابعاً وهي بموقفها من السلم لا تريم، بيد أن قلبها - على امتلائه - كبر عليه أن يصدق أن يكون هذا المصير الأسود نصيبها المقدور، لإيمانها اللاهوائي بالله الذي حفظها في وحدتها الغابرة من الغفارت نفسها، ولتقتها برجلها التي تألى أن تنهار، ولأنها لم يصيبها في حياتها الماضية شرٌ خطير خلى بأن يسلبها الطمأنينة إلى الحياة الوادعة فمالَت نفسها إلى اعتبار محبتها تجربة قاسية ستمر بها دون أن تنشب فيها، ووجدت خديجة وعائشة مشبكتين في جدال كعادتها ولكنّها نزعتا عما كانتا فيه حين رأتا وجوهها ونظرة عينيهما الخابية، ولملها خافتا أن تكون قد برحت الفراش قبل أن تسترد كامل صحتها فسألتهما خديجة في قلق:

- ماذا بك يا نينة؟

- لا أدري والله ماذا أقول... إلني ذاهبة...

ومع أن العبارة الأخيرة جاءت مقتضبة غير محدودة

فقد وجب على الجانب المتعمد - وقد أتاحت له فرصة من الهدوء لمعاودة التفكير - أن يجد وسيلة فعالة لتحقيق ذاته على صورة تتناسب وخطورة الذنب، وهكذا انقلب الخطر الذي تهدد حياتها حيناً والذي أمّنها من غضبه بما أثار من عطفه أداة عقاب بعيدة المدى بما أتاح له من وقت للتدبير والتفكير... ونهض مقطباً فوّلأها ظهره مستقبلاً ملابسه على الكنية ثم قال بجفاء:

- سأرتدي ملاسي بنفسى.

كانت لم تزل مستمرة في مكانها ذاهلة عما حولها فالتفت على صوته، وسرعان ما أدركت من قوله ووقفت أنه يأمرها بالانصراف فالتجهت نحو الباب في حصى لا وقع لها، وقبل أن تجاوزه أدركها صوته وهو يقول:

- لا أحب أن أجلك هنا إذا عدت ظهرًا.

٣٢

خارت نواها في الصالة فارتمت على طرف كتبة وكتلته القاسية الحامسة ترددت في باطنها، ليس الرجل هازلًا، ومتى كان هازلًا؟! ولم تستطع مباحرة مكانها - على رغبته في الفرار - أن يثير نزولها قبل مغادرته البيت على خلاف المألوف رغبة الأبناء الذين لا تحب لهم أن يستقبلوا يومهم أو يذهبوا إلى أعمالهم متجزعين خبر طردها، وثمة إحساس آخر - لعله الحياء - أتمدها عن أن تلقاهم في ذلك الطرود وقررت أن تبقى حيث هي حتى يغادر البيت، أو أن تأوي إلى حجرة المائدة وهو الأفضل حتى لا تقع عليها عيناه إذا مضى إلى الخارج فتسللت إلى الحجرة كسيرة الفؤاد وقعدت على شلّة سامية واجبة. ترى ماذا يعني؟ أيطردها إلى حين أم إلى الأبد؟ إنّا لا تصدق أنه ينوي تطليقها، هو أكرم من هذا وأنبى، أجل إنه غضوب جبار ولكن من الإسراف في التشاؤم أن تغيب عنها أي شهامته ومروءته ورحمته. وهل تنسى كيف حزن لحالها حين الرقاد؟... وكيف عادها يومًا بعد يوم مستفسراً عن صحتها؟... مثل هذا الرجل لا يهون عليه أن يخرب

الهدف إلا أنها اكتسبت من نظرتها الياقة ونبراتها الشاكية معنى حالكا ربما له فهنتنا معاً:

- إلى أين؟!

فقلت بانكسار وهي تشفق سلفاً من وقع كلامها من أذنيها بل ومن أذنيها هي نفسها:

- إلى أمي.

فهرعنا إليها مذعورتين وهما تقولان:

- ماذا تقولين؟... لا تعيدي هذا القول... ماذا جرى؟!

وجدت في فزع فتاتها عزاء ولكنّه كشأنه في مثل هذا الموقف فحُرّ أشجانها فقلت بصوت متهدج وهي تمنع دموعها:

- لم يَنْسَ شيئاً ولم يَنْقُ (رَدَدَتْ هَذَا بَأْسَى دَلَّ عَلَى عَمَقِ حُزْنِهَا)... كان يضرر لي الغضب ويؤجله ريثاً أبرأ، ثم قال لي غادري بيتي بلا ثَوَانٍ... وقال لي أيضاً لا أَحِبُّ أن أجلك هنا إذا عدت ظهراً (ثم بلهجة تنم عن عتاب أسيف وخيبة أمل) سمماً وطاعة... سمماً وطاعة...

فصاحت خديجة بحال عصبية:

- لا أصدّق. لا أصدّق، قولي قولاً آخر... ماذا جرى للدنيا؟!

وصاحت عائشة بصوت متهدج:

- لن يكون هذا أبداً، أهانت عليه سعادتنا جميعاً هذا الحد؟!

وعادت خديجة تتسالم في حدة وحتى:

- ماذا يقصد... ماذا يقصد يا نينة؟

- لا أدري، هذا قوله بلا زيادة ولا نقصان.

اكتفت أوّل وهلة بهذا القول، ولعلّما رغبت بالانصرار عليه أن تستزيد من عطفها وتتمرّى بجزعها، ولكن عليها الإشفاق من ناحية والرغبة في طمأننة نفسها من ناحية أخرى فاستطردت قائلة:

- لا أظنّه يقصد أكثر من إبعادي عنكم أيّاماً عقاباً لي على ما فرط مني.

فتساءلت عائشة محتجة:

- أما كفاه ما وقع لك؟!

فتنهكت الأمّ محزونة وغمغمت قائلة:

- الأمر لله... يجب الآن أن أذهب.

ولكن خديجة اعترضت سبيلها وهي تقول بصوت غنتي بالبكاء:

- لن ندعك تذهين، لا تتركي بيتك، فلا أظنّه يصرّ على غضبه إذا عاد ووجدك بيننا.

وقالت عائشة برجاء:

- انتظري حتى يعود فهمي ويأسون، ولن يرضى أبي أن ينتزعك من بيننا جميعاً.

ولكنّها قالت فيها يشبه التحذير:

- ليس من الحكمة في شيء أن نتحدّى غضبه، فمثله من يلين بالطاعة ويشتدّ بالعصيان.

وهمتا بالاعتراض مرّة أخرى ولكنّها أسكتتهما بإشارة من يدها واستطردت قائلة:

- لا جلوسى من الكلام، لا بدّ من الذهاب، سأجمع ثيابي وأرحل، لا نجزعا، لن يطول انقراضنا، ومنسجم مرّة أخرى إن شاء الله.

وانتقلت المرأة إلى حجرتها بالدور الثاني والفتاتان في أعقابها وهما تبتكيان كالأطفال، وأخذت تخرج ملابسها من الصوان حتى أسكتت خديجة بيدها وسألتهما بانفعال:

- ماذا تفعلين؟

وشعرت الأمّ بدموعها تغالبها فامتنت عن الكلام أن تفضحها نبراتها، أن تتسلم للبكاء الذي صمّمت على مقاومته ما دامت برأى من ابتيها، فأشارت بيدها كأنها تقول «الحال يوجب أن أجمع ملايبي».

ولكنّ خديجة قالت بحدة:

- لن تأخذني معك إلا تغيرة واحدة... واحدة فقط.

فندّت عنها تنهدة. وثّقت تلك اللحظة لو يكون الأمر كله حظاً مزعجاً، ثمّ قالت:

- أخاف أن تنور ثائرتي إذا رأى ملايبي بمكانها!

- سنحفظها عندنا.

وجمعت عائشة الثياب إلا تغيرة واحدة كما اقترحت اختها فلذعنّت الأمّ لها في ارتياح عميق كأنّ بقاء

ملابسها في البيت عما يثبت لها حقاً في العودة إليه، ثم جاءت ببجعة وصررت فيها للملابس التي سمح لها بها، وجلست على الكتبة لتليس جوربها وحذاءها والفتاتان حياهما لتظنران في حزن ذاهل حتى رنق قلبها لما فقالت متكلّفة الهدوء:

- سيعود كلّ شيء إلى أصله، تشجّعوا حتى لا تستفروا غضبه، إني أعهد إليكما بالبيت وآله ولي كلّ الثقة في كفامتكما، ولا شكّ عندي في أنّك مستجدّين من عائشة كلّ معاونته، قوما بما كنّا نقوم به ممّا كما لو كنت معكما، لكننا كاشياً شائبة خليقة بأن تفتح بيتنا وتعمّره.

ونضمت إلى ملاعبها فارتدتها وأسدلت على وجهها الرُبْع الأبيض في غمّل متعمّد لتؤجّل ما استطاعت اللحظة الأخيرة الملعّبة المحيرة ووقفن حيال بعض لا يدرين كيف تكون الخطوة التالية. لم يسعفها صوتها على النطق بكلمة الوداع، ولم تُواتر إحداهما الشجاعة على الانزواء في حضنها كما تودّ ومزّت الشواني عملة بالعذاب والقلق بيد أنّ المرأة المتجذّلة خافت أن يخونها قهلهما فخطت خطوة نحوهما ومالت إليهما فقبلتهما بالتابع وهي همس:

- نشجّعاً، ربّنا معنا جيّماً.

هناك تعلّقنا بها وأفعمتنا في البكاء.

وقد غادرت الأم البيت بهمين ذارفين تراهي الطريق خلال دمعها وهو يتّبع...

٣٣

طرت باب البيت القديم وهي تفكر - بالأم وحياه ممّا - فيما سيحلّه عجيبها مفضوئاً عليها من الانزعاج والكدر، وكان الباب يفتح على عطفة مسدودة متفرّعة من شارع الخرنفش تنتهي بزواية أقيمت بها الصلاة عهداً طويلاً ثمّ هجرت من أعوام لقدعها ولكن بقيت آثارها المنهزمة لتذكّرها - كلّما زارت أمّها - بطفولتها حين كانت تنتظر بابها أباهما حتى يفرغ من صلاته ويعود إليها، وحين تمّد رأسها داخلها في أويقات الصلاة لتلهو بمنظر الرُكع السجود، أو حين تتفرّج على

بعض أهل الطرق الذين كانوا يجتمعون فيها يليها من العطفة فيضيتون المصاييح ويفرشون الحصر وينشدون الأذكار. وليّما فتح الباب أطلّ منه رأس جارية سوداء في العقد الخامس، ما إن رأت القادمة حتى تهلّل وجهها وهضت مرّحبة بها، ثمّ تنتخت جانباً لتوسع لها فدخلت أمينة، ولبّثت الخادم بموقفها كأنها تنتظر دخول قادم آخر فأدركت أمينة ما تعنيه وقتعتها فهمست بامتعاض:

- أغلّقي الباب يا صديقة...

فتساءلت الجارية بدّهشة:

- ألم يأت السيد معك؟

فهزّت رأسها بالنفي متجاهلة دهشتها ومضت - عابرة فناء البيت الذي تنصّره حجرة الفرن وتقع البئر في ركنه الأيسر - إلى سلم ضيق فرقته إلى الدور الأوّل والأخير. ثمّ اجتازت دهليزاً إلى حجرة أمّها ودخلت، رأت أمّها مترّعة على كتبه في صدر الحجرة الصغيرة قابضة بكلتا راحتيها على مسبحة طويلة متدلّية في حجرها، متّجهة المينين صوب الباب في تطعّن آثاره بلا ريب طرق الباب ثمّ وقع القدمين المغترتين، وليّما تدانست أمينة منها تساءلت:

- من...؟

وافترّ ثغرها وهي تتسائل عن ابتسامه خفيفة تنمّ عن البشّر والترحاب، كأنها خدمت هويّة القادم، فأجابتها أمينة قائلة بصوت منخفض من الانقباض والحزن:

- أنا أمينة يا أمّي...

فالتفت العجوز بساقها إلى الأرض وتحمّست بقدميها موضع الثيش حتى عثرت عليه فدفنتها فيه ووقفت باسطة ذراعيها منتظرة في شوق فرمت أمينة بالبجعة إلى طرف الكتبة وانطوت بين ذراعي أمّها وهي تقبل جبينها وغداها والأخرى تلثم ما يتّفق وقوع شفيتها عليه من الرأس والخذ والعنق، وليّما انتهى المناق ربّثت العجوز على ظهورها بحثان ثمّ لبّث بموقفها متعلّمة صوب الباب وحلّ شفيتها ابتسامه تعلن عن ترحيب جديد، كما فعلت صليقة من قبل

فأدرت أمانة للمرة الثانية ما تعنيه هذه الوقفة وقالت

بامتاض واستسلام:

- جئت وحدي يا أمي...

فتحول الرأس إليها كالمسائل، وتغتمت المرأة:

- وحيدك؟... (ثم مبسمة ابتسامة متكلفة لتطرد

ما انتابها من قلق) سبحان الذي لا يتغيرا

وتراجعت إلى الكنية فجلمت وهي تساءل بلهجة

أفصحت هذه المرة عن قلقها:

- كيف الحال؟... لماذا لم يحضر معك كعادته؟

فجلست أمانة إلى جانبها وهي تقول بلهجة التلميد

الذي يعترف برداء إجاباته في الامتحان:

- إنه غاضب علي يا أمي...

ورمشت الأم واجمة ثم تغتمت بنبرات حزينة:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، قلبي لا يكذبني

أبدأ، وقد انقبض وأنت تقولين لي «جئت وحدي يا

أمي» ترى ماذا هيّج غضبه على ملاك كريم مثلك لم

يُحَقِّد رجل به قبله؟... ختريني يا بنتي...

فالت أمانة متبعدة:

- زرت سيدنا الحسين في أثناء سفره إلى بور

سعيد...

فتفكرت الأم في حزن وكآبة ثم تساءلت:

- وكيف علم بأمر الزيارة؟

حرصت أمانة من بادئ الأمر على ألا تشير إلى

حادث السيارة رحمة بالعجوز من ناحية وتحفظًا من

المسؤولية من ناحية أخرى، ولهذا أجابتها بما اعتدته

سلفًا لهذا السؤال قائلة:

- لعل أحدًا رأي فوشي بي عنده...

فالت العجوز بحدّة:

- لا يعرفك أحد من البشر إلا من اختلط بك

داخل بيتك، ألم تشعري في أحد؟... هذه المرأة أم

حنفي؟ أو ابنه من المرأة الأخرى؟

فبادرها أمانة قائلة بثقة ويعين:

- لعل جارة رائتي فأخبرت زوجها بحسن نيّة فاعاد

الرجل الخبر على مسمع السيد غير مقدّر لخطورة

عواقبه، ظني ما تشافين إلا الشك في أحد من أهل

بنتي...

فهرّزت العجوز رأسها في حيرة وشكّ وأنشأت

تقول:

- طول عمرك سليمة الطوية، الله وحده هو المُلْك

وهو الكفيل برّد كيد الكالدة، ولكن زوجك؟...

الرجل العاقل... الدناخل على الخمسين... ألم يجد

وسيلة لإعلان غضبه إلّا طرد عشرة العمر من بين

أولاده؟... سبحانك يا ربّ... الناس تكبر تعقل

ونحن تكبر نتهور، هل من الكفر أن تزور امرأة فاضلة

سيدنا الحسين! ألا يسمع أصدقاؤه، وهم لا يقولون

عنه غيرة ورجولة، لزوجاتهم بالخروج لمختلف

الأغراض؟... أبوك نفسه الذي كان شيخًا من حلة

كتاب الله كان يأذن لي في الذهاب إلى بيوت الجيران

للتّرجع على المحمل.

وغلب الصمت والكآبة مليًا حتّى التفت العجوز

ناحية ابنتها وهل شفتها ابتسامة عتاب حائرة ثمّ

تساءلت:

- أي شيء أفراك بمعيته بعد ذلك العمر الطويل

من الطاعة العمياء؟... لشّد ما يجزني هذا... إذ

مها يكن من حيّة طبعه فهو زوجك ومن السلامة

الحرص على طاعته من أجل راحتك وسعادة الأولاد،

أليس كذلك يا ابنتي؟... أعجب شيء أتني لم أجذك

يومًا في حاجة إلى نصيح ناصح...!!

فندّبت عن أمانة ابتسامة ارتسمت على زاوية ثغرها

على صورة انحراف خفيف من الارتباك والحياء،

وغتمت:

- تحكّم الشيطان!

- عليه لعنة الله، أيزنّ اللعين قلميك بعد خمسة

وعشرين عامًا من الوثام والسلام!... ولكنّه هو

الذي أخرج أبانا آدم وأثنا حواء من الجنة!... لشّد ما

يجزني يا ابنتي، ولكنّها سحابة صيف ثمّ تنفّس ويعود

كلّ شيء إلى أصله... (ثمّ وهي كأنّها تحدث نفسها)

ماذا كان عليه لو استوصى بالحلم؟... ولكنّه رجل،

ولن يخلو رجل من عيوب تحفي عين الشمس... (ثمّ

بلهجة ترحيب ورور متكلفة) اخلمي ملايسك

عرفتها بخيرها وشرها، فرمّا قالت لها على أثر مشاةة نما ينشب بينها «يا سقّ البيت العبادة أولى بوقتك من الشجار والتقار على التافّة من الأمور؟» فتجيبها عمّة «يا لثيمة إنك لا توصيني بالعبادة حبّاً فيها ولكن كي يخلو لك مجال العبث والإمصال والقدارة والسلب والتهب، إنّ الله يأسر بالنظافة والأمانة فمراقبتك ومحاسبتك عبادة وثواب!» ولأنّ الدين قد شغل من حياتها تلك المكانة العالية فقد ساء أبوها ومن بعده زوجها إلى مكانة رفيعة من نفسها فوق ما كان لها بحكم القرابة، وظلما غبطلها على ما شرفا به من حيازة كلمات الله ورسوله في صدرها، ولعلها ذكرت

هكذا حين خاطبت أمينة مواسية ومشجّمة قالت:

- ما أراد السيّد بإخراجك من بيتك إلّا إصلاّن غضبه على مخالفتك لأمره ولكنّه لن يماور حدود التاديب، أجل لن يحرق سوء بمن كان لها أب كأيك أو جدّ كجثك. . .

وابتّل صدر أمينة بذكر أبيها وجدّها كما يتبّل صدر المتقطع به الطريق في الظلمات إذا تراسى إليه صوت الغفير وهو عيّف وهرة فامن قلبها بقول أمها لا لتلّفها على الطمأنينة فحسب، ولكن لإيمانها قبل كلّ شيء ببركة الشيوخ الراحلين، فلم تكن إلّا صورة من أمها في حبّها وإيمانها وجنّ طابعها. وانثالت على وجدانها في تلك اللحظة ذكريات أبيها الذي أغمى قلبها وليلة بالحبّ والإيمان-فدعت الله أن يتنشلها من ورطتها إكراماً لبركتها. وعادت المعجوز إلى مواساتها فقالت وعلى شفعتها الجافّتين إنسامة رقيقة:

- إن الله يركك دائماً برحمته، اذكرني عهد الوفاء لا أرجعه الله وكيف نجّك الله من شرّه ففضى أخواتك ولم يمسك سوء!

غلبها الإيثار على كآبتها فانتسمت، وتفرّست في غيبش من الماضي كاد يحوّه النسيان فوضحت- بعض الوضوح- من خليط الذكريات صورة أحييت في نفسها أصداء من عهد الرعب، وهي صبيّة تمجّج خارج أبواب غلقت على أخوات مستلقيات على أسرّة المرض والموت، وهي وراء النافذة تنظر إلى سيل من النعوش

إلى اختيار أمر من اثنين: فإنّما أن تسمح للغرباء بأن يسكنوه وهو أعزّ شيء لديها بعد ابتها وأحفاها، وإنّما أن تتركه مهجوراً فتتخلّده المغاريت ملعباً بعد أن ظلّ طوال عمره مقاماً لشيخ من حلة كتب الله هو زوجها، إلّا أنّ انتقالها إلى بيت السيّد كان خليقاً بأن يخلق لها مشاكل معقّدة لا تفنّ في نظرها بميسور الحلول لأنّها ما انفكت تُسائل نفسها وتذكّر أنّ قبل ضيافته بدون مقابل وهو ما لا ترتاح إليه بحال، أم تنزل له عن معاشها لقاء إقامتها في بيته وهو ما يقلق غريزتها في الامتلاك التي أضحت- مع الكبر- عنصراً جوهرياً من عناصر ووسوستها العامة؟!

بل قد توهّمت أحياناً عند إلحاحها عليها في الانتقال إلى بيته أنّه يضمّر نيّة استغلاليّة نحو معاشها وبيتها الذي سيخلو بعد انتقالها ففزعت إلى الرفض لحّد العناد الأعمى وليّما نزل السيّد عند إرادتها قالت له بارتياح ولا تؤاخذني بإصراري يا ابني، ربّنا يكرمك بما أوليني من عطف، ألا ترى أنّه لا يسعى أن أهجر بيّتي؟. . . وما أجدرك أن تجاري عجوزاً مثلي على علّتها يبدّ أنّي استحلفك بالله إلّا ما سمحت لأميّة والأولاد بزيارتي الحين بعد الحين بعد أن أسيّ خروجي من البيت متمدّراً وهكذا بقيت في بيتها كما أرادت متمتعة بسيادتها وحرّيتها وكثير من عادات الماضي العزيز. وإذا كان بعض هذه العادات، كالمغالة الشاذّة في الاهتمام بشؤون البيت والمال، ممّا يتنافى مع هدوء الشيوخوخة الحكيمة وتسامحها، وبالتالي ممّا يبدو كمعارض من أعراض الهرم الانتكاسيّة، فثمة عادة أخرى ممّا حافظت عليه جذيرة بأن تزجّين الشباب، وبأن تضفي على الشيوخوخة جلالاً، تلك هي العبادة. كانت ولم تزول مطعم حياتها ومشرق آمالها وسعادتها، رضعتها صغيرة في كنف أب شيخ من شيوخ الدين، وتغلّغت في أحباتها بزواجها من شيخ آخر لم يكن دون أبيها ورعاً وتقوى. وظلّت تمارس بحبّ وإخلاص غير مفرقة في إخلاصها بين ما هو دين حقّاً وما هو خرافة خالصة حتّى عرفت بين جاراتها بالشيوخة المباركة، صديقة الجارية وحدها هي التي

واسترخي، لا تجرعي، ماذا يضربك من قضاء عطلة قصيرة مع أمك في الحجرة التي ولدت فيها؟

فجرتي بصرها في غير اكتراث على الفراش القديم الذي حال لون عمله، والسجادة البالية التي انجرد وبرها ونسلت أطرافها وإن بقيت رسوم ورودها حافظة لحرمتها وخضرتها، ولكن صدرها - لما ران عليه من فرقة الأحباب - لم يكن مهتياً لتلقي موجبات الذكريات، فلم تهب دعوة أمها في قلبها الحنان الذي تهيجه عادة ذكريات متباعدة لهذه الحجرة وهي قرية العين، ولم يسمعها إلا أن تتهدد قائلة:

- ما بي إلا قلق على الأولاد يا أمي ...

- إنهم في رعاية الله، ولن يطول بُعدك عنهم يراذن الرحمن الرحيم ...

قامت أمية لتخلع ملامها على حين انسحبت صديقة - حزينة أسيفة لما سمعت - من موقفها عند مدخل الحجرة الذي لزمته أثناء الحديث، ثم عادت المرأة إلى مجلسها جنب أمها وما لبثتا أن قلبتا الحديث ظهراً لبطن وهما تبدآن وتعيدان وكان في تقابلهما جنباً لجنب ما يدعو إلى تأمل قوانين الوراثة العجيبة وقانون الزمن الصارم، كأنهما شخص واحد وصورته المنعكسة في مرآة المستقبل أو نفس الشخص وصورته المنعكسة في مرآة الماضي وبين الأصل والصورة على الحالين ما يشير إلى الصراع الرهيب الناشب بين قوانين الوراثة التي تعمل على الشباب والبقاء من ناحية وبين قانون الزمن الذي يدفع إلى التغير والنهية من ناحية أخرى، ذلك الصراع الذي ينجلي عادة عن سلسلة من الهزائم تلحق تلاحاً بقوانين الوراثة حتى يغدو قصارها أن تؤذي وظيفة مواضعة في نطاق قانون الزمن الصارم.

في نطاق ذلك القانون استحالَت الأم المعجوز جسماً نحيلًا ووجهاً ذابلاً وعينين لا تبصران إلى تطورات باطنية لا تنالها الحواس، حتى لم يبق لها من بهجة الحياة إلا ما يدعونه بهجاء الشيخوخة أي السمات الهائت والوقار المكتسب الحزين والرأس المروّص بالبياض. بيد أنها كانت تنحدر من جبل معمر عرف بصلاية المقاومة فلم يكن طعنها فيها بعد الخامسة

والسبعين بمقعدها عن أن تنهض في الصباح كعادتها منذ نصف قرن فتتحسّن سبيلها - بدون إرشاد الجارية - إلى الحمام فتوضّأ ثم تعود إلى حصرتها فتصلي، أما بقية النهار فتقطعها في التسبيح والتأمل الصامت الذي لا يدرى به أحد طالما كانت الجارية مشغولة بأعمال البيت، أو مستأنسة إلى حديث المرأة إذا فرغت لمجالستها، حتى الصفات التي تلازم عادة وفرة النشاط للعمل وحدة الحواس للحياة لم تزايلها بحال، مثال هذا شدة حماسيتها للجارية على كل صغيرة وكبيرة فيها يتعلّق بالمصروفات، وتنظيف البيت وترتيبه وتلغؤها إذا تلكت في مهمة، وتأخرها إذا تأخّرت في مشوار، ولم يكن بالنادر أن تحلفها على المصحف لتطعن إلى صفة تقاربها على غسل الحمام والأواني وتنفيض النوافذ، دقة بالوموسة أشبه، ومن الجائز أن تكون مثابرتها عليها استمراراً لعادة تأصلت في صدر الشباب، كما أنه من الجائز أن تكون تكلمة مما يعثرى الشيخوخة ويلحق بطباعها المتطرفة استمساكها بالبقاء في بيتها في شبه وحلة كاملة بعد وفاة أهلها، ثم إصرارها على البقاء فيه حتى بعد فقدانها لبصرها، متصائمة عن دعوات السيد المتكررة لها بالانتقال إلى بيت لتعيش في رعاية ابنتها وأحفادها، مما عرضها لتهمة الخرف وجعل السيد يعرض عن دعوتها نهائياً، ولكن الحق أنها كرهت هجر بيتها لتعلقها الشديد به، ولتحاميتها ما عسى أن تلقى في البيت الجديد من إهمال غير مقصود أو ما يستوجب وجودها من إلقاء أعباء جديدة على عاتق ابنتها المثلث بالواجبات، ولغورها من الزج بنفسها في بيت اشتهر صاحبه بين آله بالشراسة والغضب أن تنزلق وهي لا تدري إلى ملاحظاته الأمر الذي تشفق من عواقبه على سعادة ابنتها، وأخيراً لما تطوى عليه في قرارة نفسها من حياة وكبرياء حباً إليها الحياة في البيت الذي تملك معتمدة - بعد الله - على المعاش الذي تركه لها زوجها الراحل، على أنّ فمة أسباباً أخرى لإصرارها على البقاء في بيتها لا يمكن تبريرها برهافة الحساسية أو سداد البصيرة، كخوفها - إذا أخلت البيت - من أن تجد نفسها مضطرة

ابتها أزلًا وجامك رقيب ليكشف عن سرقائك؟» ولكن أمانة لم يكن يثق بها وقتذاك أن تسرق المرأة أو تلتزم الامانة، ولم تردّ الجارية على سيديتها إكرامًا للضيقة من ناحية ولأنها من ناحية أخرى ألقت مرارة سيديتها وحلاوتها فلم يعد لها غناء عن الائتئين. وباستدارة النهار اشتدّ تعلق فكرها ببيتها وتهالك عليه لأنه في ذلك الوقت يعود السيد إلى البيت للغداء والقبولة، ثم يرجع الأبناء تباها عقب خروج الرجل إلى الدكان، فرأت بخيالها الذي استمدّ من الألم والحنين قوة خارقة، البيت وآله كأنهم شهود. رأت السيد وهو يخلع جيّته وقفطانة دون مساعدتها التي تخاف أن يكون قد ألّف الاستغناء عنها منذ رقادها الطويل. وحاولت أن تقرّ ما يدور وراء جبينه من أفكار ونوايا، هل يستشعر الفراغ الذي خلّفته ورماها، وكيف كان إحساسه حين لم يجد لها من أثر في البيت، ألم يرد لها ذكر على لسانه لسبب أو لآخر؟... وما هم الأبناء عائدون، وما هم يهرعون إلى الصلاة بعد طول اشتياق إلى مجلس القهوة فيلقون مجلسها شاغرا، ويسألون عنها فتجيبهم نظرات أخيمهم المتجهمة الدامعة، ترى كيف يتلقّى فهمي الحب، وهل يدرك كمال - وهنا خفق قلبها خفقة جارحة - معنى غيابها؟ أينشاورون طويلا؟... ماذا يتتظرون؟... لعلمهم في الطريق يستيقنون إليها... يجب أن يكونوا في الطريق، أم يكون قد أصدر أمرا بعدم زيارتها؟ يجب أن يكونوا في الحزن نفس... سترى عما قليل...

- احدثيني يا أمانة؟

بهذا السؤال قاطعت المعجوز خيالها فانتبهت إليها في دهشة عجزية بالحياه، إذ فطنت إلى أن كلمات - من حديثها الباطن مع نفسها - قد تسلّلت في غفلة منها إلى طرف لسانها محلقة الحس الذي التفتته أذن أمها المرهفة فلم ترّ يدا من أن يجيبها قائلة:

- إني أتساءل يا أمي ألا يحببني الأولاد لزيارتي؟

- أظنهم جاءوا...!

قالت المعجوز وهي ترفه السمع مائة رأسها إلى الأمام فأصبحت أمانة صامئة قترامى إليها صوت مطرقة

لا ينقطع والناس تترّ من طريقها، أو وهي تسمع إلى جواهر من الشعب التقت في ذعرها وبأسها برجل من رجال الدين - كما كان يتفق لأبيها - وراحت تجأر بالشكوى وترسل الدعوات إلى ربّ السماء، وعلى رغم استفحال الشرّ وهلاك أخواتها جميعا فقد أفلتت من براثن الوفاء سالمة أمنة لم يكدر صفوها إلّا عصير الليمون والبصل الذي كانت تجبر على تجرعه مرّة أو مرّتين في اليوم. واستطردت الألم بصوت ثمت رفته وحانته على الاسترسال في الأحلام كأنها قد رقدت التذخّر إلى العهد الخالي فاستعادت حيائه وذكرياته - العزيزة الغالية لاقتربا بالشباب - خالصة من شوائب الألم المشوي، فقالت:

- ولم يفتح حطّك السعيد بإنتفاذك من الوفاء لكنته أبفاك وحيدة الأسرة وكلّ ما لها في الدنيا من أمل وعزاء وسعادة فترعرعت في صميم قلوبنا.

لم تعد أمانة ترى المعجزة - بعد هذا الخطاب - كما كانت تراها قبله، بمث جلة الشباب في كلّ شيء، في الجدران والسجادة والسريّر، في أمّها وفيها هي نفسها، ورّد أبوا إلى الحياة وأخذ مجلسه الممهود، وعادت تصني إلى مناضلة الحب والتدليل وتحلم بقصص الأنبياء والمعجزات، وتستعيد نوادر السابقين من الصحابة والكفّار إلى عرابي باشا والإنجليز، بمث الحياة الماضية بأحلامها السحرية وآمالها الواعدة وسعادتها المرجوة ثم قالت المعجوز بلهجة من يقرّر النتيجة النهائية لما مهّد به من مقدمات منطقية:

- أليس الله حافظك وراعيك؟!...

بيد أن القول نفسه تضمّن عزاء موحيا ذكرها بحالها الراهنة فاستيقظت من حلم الماضي السعيد عائنة إلى كاتبها كما يعود السالي إلى اجترار أحزانه بكلمة موامسة تكلّي إليه بحسن نيّة، وليثت إلى جانب أمها في حال من الفراغ الصارم لم تمهد لها إلّا حين مرضها فأثكرتا وضافت بها ولم يشغل حديثها المتواصل مع أمها إلّا نصف انتباهها على حين بقي النصف الآخر مرعى للضيق والقلق، ولما جاءت صديقة ظهرا بصبيئة الغداء قالت لها المعجوز بقصد تسلية

وتردّد طويلاً بين معاودة الاعتذار عن اقتراحه، على مسمع من الجلسة أن تعاتبه أو تضمر له حقاً، وبين السكوت على ما به من رغبة في التنفيس عن محرّجه، ثمّ خرج من تردّد بشأن ترجم كلام فهمي إلى لغة أخرى قائلاً:

- أجل نحن اللذنون وأنت المتهمّة، (ثمّ ضاحكاً على غارج الكلمات كأنّها يسفط على عناد أبيه وصلابته) ولكنك ستعودين، وسوف تنفّس السحابة التي تظللنا جميعاً.

ولفت كمال وجهها إليه من ذقنها، وانبال عليها بسيل من الأسئلة، عن معنى مغادرتها البيت، وكَم تطول إقامتها في بيت جدّته، وعيّا يحدث لو صادت معهم، وغير ذلك من الأسئلة التي لم يسمع عنها جواباً واحداً حقّقاً بأن يسكن خاطره الذي لم ينفع في تسكينه عزمه على أن يبقى مع أمّه حيث هي، ذلك العزم الذي كان أوّل من يرتاب في قدرته على تحقيقه، وتغيّرت وجهة الحديث بعد أن فرغ كلّ منهم من التعبير عن عواطفه، فأخذوا يعالجون الموقف معالجة جدّيّة لأنّه - كما قال فهمي - «لا يجدي التكلّم فيها كان ولكن ينبغي أن نتساءل عيّا سيكون» وقد أجابه ياسين على تساؤله قائلاً وإن رجلاً كأيّنا لا يرضى بأن يمرّ بحادث كخروج أمّا مرّاً كريماً، فلم يكن بدّ من أن يعلن غضبه بطريقة لا يسهل نسيانها، ولكنّه لن يجاوز حدود ما فعل» بدا هذا الرأي مقتناً لما صادف من ارتياح النفوس إليه فقال فهمي مفسّحاً عن اقتناعه ومرجّوّه ممّا والدليل على صعّة رأيك أنّه لم يقدم على فعل شيء آخر، ومثله لا يؤجّل عزمه لو صحت نيّته عليه. وتكلّموا كثيراً عن «قلب» أبيهم فانقذت كلمتهم على أنّه قلب غير رضم ثورته وحده وإنّ أبعد شيء عن تصوّرهم هو أن يقدم على عمل من شأنه أن يسيء إلى السمعة أو يؤذي أحداً وهذا ذاك قالت الجلسة على سبيل الدعاية وهي تعلم باستحالة ما تدعو إليه: - لو كنتم رجالاً حقّاً لالتصمت الوسيلة إلى قلب أبيكم ليتحوّل عن عناده. . .

فتبادل ياسين وفهمي نظرات ساخرة من هذه

الباب وهي ترسل ضربات سريعة متلاحقة كأنّها صوت بيعت في لغة بصرخات استغاثة حارّة فغرقت وراء هذه الضربات العصيّة قبضة كمال الصغيرة كما كانت تعرفها وهي تلقّى عليها باب حجرة الفرن، وسرعان ما هصرعت إلى رأس السّلم وهي تنادي صديقة لفتّح الباب، ثمّ اطّلت من فوق الدرابزين فرأت الغلام وهو يثب فوق درجات السّلم وفي أثره فهمي وياسين وتعلّق كمال بمنقها فماتها قليلاً عن عناق الآخرين، ثمّ دخلوا الحجرة وهم، من جيّشان النفس وتبلبل الخاطر، يتكلّمون في وقت واحد لا يبالي أحدهم ما يقول الآخرون، وليّا رأوا الجلسة واقفة مبسوطة الذراعين مشرقة الوجه بابتسامة ترحاب مقعّمة بالحلبّ أمسكوا عن الكلام إلى حين وأقبلوا عليها تباعاً فساد صمت نسبيّ تحلّته همسات اللّيل المتبادلة وأخيراً هتف ياسين بصوت ينمّ عن الاحتجاج والحزن:

- نحن الآن لا بيت لنا، ولن يكون لنا بيت حتّى تعودى إليه.

وأوى كمال إلى حجرها كالحارب وهو يقول مفصّحاً لأوّل مرّة عن نيّته التي طوى صدره عليها في البيت وفي الطريق:

- سأبقى هنا مع نينة. . . ولن أعود معكم. . . أمّا فهمي فقد رنا إليها طويلاً صامتاً، كشأنه إذا أراد أن يحدّثها بالنظر، فوجدت في نظراته الصامتة خير معرّي عيّا يعتليج في صدرها ممّا. هذا الحبيب الذي لا يفوق حبّه لها حبّاً لها، والذي يندر أن يشير في أحاديثه معها إلى عواطفه ولكن تشي به خطرات نفسه وكليّاته وفعاله، وقد قرأ الفتى في عينيها نظرة تدلّ على الألم والخجل فاشتدّ تأثّر وقال بحزن وتأمّل:

- نحن الذين اقترحنا عليك الخروج، وشجعناك عليه، ولكن ها أنت وحدك تتلقّين العقاب. . . فابتسمت الأمّ في ارتباك وقالت:

- لست طفلة يا فهمي، وما كان ينبغي لي أن أنفل. . .

فتأثّر ياسين بهذا الحوار المتبادل، واشتدّ كربه لغرط إحساسه بالخارج بصفتها صاحب الاقتراح المشؤم،

وعادت قلما أمينة الخفيفتان فمضت المعجوز
تنتصت في قلق حتى هتفت بها:
- أتبكين؟ يا لك من عبيطة! كأنك لا تطيقين أن
تبقى ليلتين في حضن أمك!

٣٤

بلدت خديجة وعائشة أصبى الجميع بغياب الأم،
فإلى حزنهما الذي يشاركهما فيه الإخوة حملتا وحدهما
أعباء البيت وخدمة الأب بيد أن أعباء البيت لم تكن
لتنوء بهما، أمّا خدمة الأب فهي التي عملتا لها ألف
حساب ونزعت عائشة إلى الحرب من منطقة أبيها معتلة
بأن خديجة سبق لها أن تدرّبت على خدمته في أثناء
رقاد الأم فوجدت خديجة نفسها مرغمة على العودة إلى
تلك المواقف الدقيقة الرهيبة التي تكابدها وهي على
كعب من السيّد أو وهي تقضي له حاجة من حاجاته.
ومنذ الساعة الأولى للذهاب الأم قالت خديجة «ينبغي
ألا تطول هذه الحال، إن الحياة بلونها في هذا البيت
عناء لا يطلقه فأثمت عائشة على قولها ولكنها لم تجد
من حيلة في وسعها غير الدموع فلذرفتها، وانتظرت
عودة إخوتها من بيت الجدة حتى جاءوا وقبل أن تلفظ
كلمة بما يدور في نفسها راحوا يمحّثون عن حال أمهم
في «منفاها» فوقع الحديث من نفسها موقع الغرابة
والاستنكار لأنها كانت تسمع عن قوم غرباء لا يتاح لها
لقاؤهم فغلّبتها الانفعال وقالت بحدة:

- إذا قنع كلّ منا بالسكوت والانتظار فربما نلاحقت
الأيام والأسابيع وهي مبتعدة عن بيتها حتى يرضيها
الحزن، أجل إن مخاطبة بابا في هذا الشأن مهمة شاقة
ولكنّها ليست أشق من السكوت الذي لا يليق بنا،
ينبغي أن نجد طريقة... ينبغي أن نتكلم...

ومع أنّ صيغة «نتكلم» التي ختمت بها جملتها
جاءت شاملة لجميع الحاضرين إلا أنه قصد بها - كما
فهم بالبداهة - شخص أو شخصان شعر كلاهما لدى
سماحها بارتباك لم تحفّ بوعائه على أحد، بيد أن
خديجة واصلت حديثها قائلة:

- لم تكن مهمة مخاطبته فيها يعرض من أمور بأمر

«الرجولة» المزعومة التي تلذّب لدى ذكر أبيهم،
وخالف الأم من ناحيتها أن يتطوّر الحديث بين الشابين
والجدة إلى ذكر حادث السيّارة فأفهمتها بالإشارة -
وهي تردّد بينها بين كتبها وأنها - أنّها أخفت عنها
الأمر، ثمّ قالت تخاطب أمّها وكأنّها تنبهي للدفاع عن
رجولة الشابين:

- لا أحب أن تعرّض أحدهما لغضبه فلنتركه نفسه
حتى يعفو...
وهنا تسامع كمال:

- ومتى يعفو؟

فاشارت الأم بسبابتها إلى فوق وهي تغتمض «ربنا
عنده العفو». وكالمألوف في مثل هذه الحال دار
الحديث حول نفسه فأعاد كلّ ما سبق له قوله بنفس
الألفاظ أو بالألفاظ جنليدة من إثار متواصل للظنون
الوردية فطال الحديث دون أن يستجدّ به جديد، حتى
غيّم الظلام ووجب الرحيل. وحين وجب الرحيل
وشفيت كآبته القلوب كالضباب شغل به الفكر عن
الكلام فساد سكوت كالسكون الذي سبق العاصفة،
الهمّ إلا كلمات لا يراد بها إلا التخفيف من وطأة
الصمت أو التهزّب من الاعتراف بجثوم الوداع وكأنّ
كلّهم منهم يلقي تيمة إصلاّته على عائق غيره رحمة
بالجانب الآخر، هنالك حلس قلب المعجوز ما
تضطرم به النفوس حولها فرمشت عنها المظلمتان
ولعبت أصابعها بخصيات السحبة في عجلة ولموجة،
ومضت بها دقائق بلدت على قصرها كاتمة للأنفاس
كالحلظات التي يترقّب فيها الحالم في كابوس سقطته من
علوّ شاهق، حتى جاءها صوت ياسين وهو يقول «أظنّ
أن لنا أن نذهب، وسنعود لناخذك معنا قريباً إن شاء
الله» وتسمّعت المعجوز تلمّز كيف تنهّج نبرات ابتنتها
عند الكلام، ولكنها لم تسمع كلاماً بل سمعت حركة
دالّة على نبوض الجلوس، وأصوات قبل وهممة
توديع، واحتجاج كمال على انتزاعه بالقوّة فبكاه، ثمّ
جاء دورها في التسليم في جوّ مشيع بالحزن والفتور،
وأخيراً أخذت الأقدام تتباعد تاركة إياها في حدة
وشجن.

فرغ حاجيه في ارتباك متطلماً إليها بنظرة كأنها يقول لها «أنت أدري بالمواقب» حقاً كان يتمتع بمزايا لا يتمتع ببعضها أحد في الأسرة فهو طالب بمدرسة الحقوق، وهو أكبرهم عقلاً وأفضلهم رأياً، وله من ضبط النفس في المواقف الحرجة ما يدل على الشجاعة والرجولة ولكنه سرعان ما يفقد جملة مزاياه إذا مثل بين يدي أبيه فلا يعرف غير الطاعة العمياء. وبدا وكأنه لا يدري ماذا يقول فحسنته على الكلام بإيماءة من رأسها فقال متحيراً:

- هل ترينه يقبل رجائي؟ ... كلاً... ولكنه سيبري قاتلاً: «لا تتدخل فيها لا عنيك». هذا إذا لم يثر غضبه فيوجه إليّ كلاماً أشد وأقسى
وارتاح ياسين إلى هذا الكلام «الحكيم» الذي وجد فيه دفافاً عن موقفه أيضاً فقال وكأنه يكمل رأي أخيه:

- ورَبِّمَا جَرَّ تدخلنا إلى محاسبتنا من جديد هل موقفنا يوم خروجها لنفتح على أنفسنا فتحة لا ندري كيف نسدّها!

فالتفت الفتاة نحوه مغلفة بحفنة وقالت بمبرارة وسخرية:

- لا منك ولا كفاية شرك!
فقال فهمي الذي استمدّ من غريزة «حبّ البقاء» قوّة جديدة للدفاع عن نفسه:

- فلنفكر في الأمر بعناية شاملة... لا أظنه يقبل لي أو لياسين رجاء ما دام يعتبرنا شريكين في الخطأ، وعليه فالقضية خاسرة إذا تقدّم أحدنا للدفاع عنها، أمّا إذا حدثت واحدة منكنا فلعلّها تنجح في استعطافه أو لعلّها نجد - على أسوأ الظنون - إعرافاً هادئاً لا يبلغ حدّ العنف، فلماذا لا نحذّره إحداكيا؟... أنت مثلاً يا خديجة؟

فالتقيض قلب الفتاة التي وقعت في الشرك وحلّجت ياسين وفهمي بنظرة غيظ وهي تقول:

- ظننت هذه المهمة أخلق بالرجال!
فقال فهمي موابلاً هجومه السلمي:

- العكس هو الصحيح ما دمنا نتوسّع نجاح

على نية نأما هي علينا ومع ذلك لم تكن تتردّد عن مخاطبته إكراماً لأيّ واحد منّا، فمن الإنصاف أن نتحمّل نفس التضحية من أجل خاطرها.

تبادل ياسين وفهمي نظرة فضحت إحساسهما بالخفاق الذي أخذ يضيّق حولهما سريعاً ولكنّ واحداً منهما لم يجرؤ على فتح فيه أن ينتهي به الكلام إلى أن يقع عليه الاختيار ليكون كبش الفداء فاستسلبا لانتظار ما يبيح به النقاش كما يستسلم الفار للهرة، وتركّت خديجة التعموم إلى التخصيص فالتفتت إلى ياسين قائلة:

- أنت أخونا الأكبر وإلى هذا سأنت مؤلف، أي رجل كامل. فأنت أجدرنا بهذا الواجب.

ملاً ياسين صدره بالهواء ثم نفخ وهو يعبث بأنامله في ارتباك ظاهر وتحمّ قائلاً:

- والدنا رجل ناريّ الغضب لا يقبل مراجعة لرايه، وأنا من ناحيتي لم أجد خلاصاً بل صرت رجلاً وموقفاً كما تقولين، وأخوف ما أخاف أن يفجر فيّ غاضباً فبلغت متى زمام نفسي ويثر غضبي بدوره!

وغلّهم الابتسام على أعصابهم المتوتّرة المحزونة فابتسموا، وأوشكت عائشة أن تضحك فأخفت وجهها في كفّهما، ولعلّ حالهم المتوتّرة نفسها نأما هيّاهم لقبول الابتسام كمسكن وقتي للتوتّر والألم كما يحدث للنفوس أحياناً عند اشتداد الحزن من الاستسلام للطرب لأتفه الأسباب على سبيل التخفيف عن حال بأشدادها،

ذلك أنّهم عدّوا قوله نوعاً من الدهابة الجديدة بالضحك والسخرية، وكان هو أوّل من يعلم بمجزئه التأمّ عن مجرّد التفكير في الغضب أو المقاومة حيال والده أوّل من يعلم أنّه قال ما قال فزأراً من مواجهة أبيه وأتقاء لسطفه، فلما رأى هزهم لم يسعه إلا أن يتبسم بدوره وهو يبرز منكبّه كأنما يقول لهم «دعوني وشائي». فهمي وحده بدا متحفّظاً في ابتسامه لشعوره أنّ الفرقة ستسيبه قبل أن تغيب ابتسامته، وصدق شعوره إذ أعرضت خديجة عن ياسين في ازدياد ويأس

وخاطبته قائلة برجاء وإشفاق:
- فهمي... أنت رجلنا...!

المسعى، ولا تنسى أنكما لم تتعرضا لفضبه طول حياتكما إلا في النادر الذي لا يقاس عليه، فهو يالف الرفق بكما كما يالف البطش بنا!

فاطرت خديجة متفكرة في قلق غير خافٍ، وكأنها خافت إن طال صمتها أن تشتت عليها الجملة تستقر المهمة الخطيرة في قرعها فرفعت رأسها قائلة:

- إذا كان الأمر كما تقول فعاشئة أخلق متى

بالكلام!

- أنا... كده ١٩

- ما دعنا نعجز جيمًا عن مخاطبة بابا فلنستعن بجارتنا الست أم مريم.

وما إن نطقت باسم «مريم» حتى لحظت فهمي بحركة عكسية فالنقت عينها لحظة قصيرة في نظرة لم يرتج لها الشاب لإيجائها فأشاح عنها بوجهه متظاهراً بعدم الاكتراث، ذلك أن اسم مريم لم يجرّ على لسان أمام فهمي منذ نبئت فكرة خطبتها، إنما مراعاة لعواطفه، وإنما لأن مريم اكتسبت معنى جديداً بعد اعتراقه بحبها سلكها في زمرة المحترحات التي لا تتسامح تقاليد البيت بلوكها علانية حيال صاحب الشأن، وبالرغم من أن مريم نفسها لم تقطع عن زيارة الأسرة متظاهرة بهجول ما دار بشأنها وراء الأبواب... ولم تفت ياسين لحظة الارتباك المتبادل بين فهمي وخديجة فأراد أن يفكّي على أثرهما المحتمل بتوجيه الانتباه إلى وجهة جديدة فوضع يده على كتف كمال وقال بلهجة بين التهكم والتعريض:

- هذا رجلنا الحق، هو وحده الذي يستطيع أن يرجو والده ليعيد إليه أمه!

لم يحمل كلامه حمل الجسد أحد، وأولم كمال نفسه، بيد أن قول ياسين وثب إلى ذاكرته في اليوم التالي وهو يقطع ميدان بيت القاضي عائداً من المدرسة، بعد نهار مضى أكثره في التفكير في أمه النقية، فتوقّف عن السير صوب درب قرمز، والفت إلى طريق النحاسين متردداً وقلبه المحزون يتابع خفقاته في كابة وثألم، ثم غيّر طريقه متجهاً نحو النحاسين في خطوات متباطئة دون أن يجمع عزمه على رأي، يسوقه العذاب الذي يعاني لفقد أمه، ويرجعه الخوف الذي يركبه لمجرد ذكر أبيه، فضلاً عن غنايته أو التوسل

نظمت بها عاشئة في فرع من وجد نفسه في رمي الخطر بعد أن اطمأن طويلاً إلى موقف المترج الذي ليس له من الأمر شيء خاصة وإثنا - لحداثة سنّها وغلبة إحساس الطفولة المدللة عليها - لم تكن تتدب لشيء هام فضلاً عن انخطر مهمة يمكن أن تعرض لأحد منهم، إلا أن خديجة نفسها لم تجد فكرة واضحة لتبرير اقتراحها بيد أنها أصرت عليه في عناد مشيع بالمرارة والتهكم فقالت نجيب شقيقتها:

- لأنه ينبغي الانتفاع بصفرة شعرك وزرقة عينيك في إنجاح مسعانا!

- وما دخل شعري وعيني في مواجهة أبي؟

لم تكن خديجة تنتم في تلك اللحظة بالإقناع بقدر ما تالكت على إيجاد خرج لها ولو بتحويل الأذنان إلى أمور هي بالمعابة أشبه تمهيداً للتقهقر، فالفرار من أسلم السبل الممكنة كمن يقع في مأزق حرج ويعوزه الحجة في الدفاع عنه ليلجأ إلى المزاح ليمهّد لنفسه مفراً في ضجة من السرور بدلاً من الشلّة والازدراء لذلك قالت:

- أحرف لها تأثيراً ساحراً في كلّ من يتصل بك، ياسين... فهمي... حتى كمال، فليإذا لا يكون لها نفس التأثير عند أبي؟

فتورد وجه عاشئة وقالت بانزعاج:

- كيف أخاطبه في هذا الشأن وأنا لا تقع على عيناه حتى يطير ما في رأسي؟

عند ذلك - وبعد أن تهرّبوا تبارعا من المهمة الخطيرة - لم يعد يشعر أحد منهم بتهديد مباشر ولكن النجاة لم

الأب ضيقًا وهضب بحلة:

- تكلم... هل فقدت النطق؟

وتجمعت قوته كلها في إرادة واحدة وهي أن يخرج من صمته يأتي لمن اتقاء غضب أبيه ففتح فاه قائلًا كيفًا اتفق له:

- كنت عائدًا من المدرسة إلى البيت...

- وماذا أوقفك هنا كالمترو؟

- رأيت... رأيت حضرتك فأردت أن أقبل يدك...

فتجلت في عيني السيد نظرة استريبة، وقال بجفاء وتهمك:

- أهذا كل ما هنالك... أوحشتك لهذا الحد؟ ألم تستطع أن تنتظر إلى الصباح لتقبل يدي إذا أردت؟... اسمع... إنك وأن تكون قد عملت عملة في المدرسة... ساعر كل شيء...

فقال كمال بسرعة واضطراب:

- لم أعمل شيئًا وحياة رثنا...

فقال الرجل بنفاذ صبر:

- إذن تفضل... ضيعت وقتي بلا مناسبة... غُر من وجهي...

فغادر كمال موقفه لا يكاد يرى موضع قدمه من الاضطراب، وتحرك السيد عن مكانه ليدخل ولكن عاودت الغلام الحياة بمجرد تحول عيني أبيه عن عينيه، وصاح بلا شعور قبل أن يغيب الرجل وتضيع الفرصة:

- رجع نية الله غليلك...

وأطلق ساقيه للريح...

٣٥

كان السيد يجتني قهوة العصر في حجرته حين دخلت خديجة وقالت بصوت كاد من التشنج ألا يسمع:

- جارتنا ست أم مريم تريد مقابلة حضرتك...

فضامل السيد متمحجًا:

- حرم السيد محمد رضوان؟ ماذا تريد؟

إليه، لم يكن يتصور أنه يستطيع أن يقف بين يديه محذًا في هذا الأمر، ولم تنب عن شعوره المخاوف العسية بأن تحقيق به لو فعل، ولم يصمم على شيء إلا أنه رغم كل هذا واصل السير البطيء حتى لاح لعينه باب الدكان كأنما ينزع إلى إرضاء قلبه المعذب ولو إرضاء عميقًا - كالحداثة التي تحوم حول خاطف صغارها دون أن تجد الشجاعة على مهاجمته - وتداعى من الباب حتى وقف على بُعد أمتار منه وطال الوقوف وهو لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يستقر على رأي، وفجأة خرج من الدكان رجل وهو يقهقه عاليًا وإذا بأبيه يتبعه حتى عتبة الباب مودعًا وهو يفرق في الضحك كذلك، فذهله المفاجأة، فتستمر في مكانه مستشرقًا وجهه أبيه الضاحك الطليقي في إنكار ودهشة لا توصفان، لم يصدق عينيه وخيل إليه أن شخصية جديدة قد حلت في جسم أبيه، أو أن هذا الرجل الضاحك - حل ما به من شبه بأبيه - شخص آخر يراه لأول مرة، شخص يضحك، ويفرق في الضحك، وينطلق البشر من وجهه كما ينطلق الضوء من الشمس، واستدار السيد ليدخل فوقع بصره على الغلام المتطلع إليه بدهول فاختله الدهشة لموقفه وهيته على حين استرقت أساريره بسرعة مظهر الجذ والرزانة، ثم سألوه وهو يتفرد في وجهه:

- ماذا جاء بك؟

وللحال دبّت في أحياق الغلام غريزة الدفاع عن النفس - رغم ذهوله - فتقدم من أبيه ومدّ يده الصغيرة إلى يده وتطامن عليها حتى لثمها في أذن وخشوع دون أن ينس بكلمة. فسأله السيد مرة أخرى:

- أتريد شيئًا؟

فازدرد كمال ريقه وهو لا يجد ما يتلفظ به إلا أن يقول مؤثرًا السلامة وإنه لا يريد شيئًا وإنه كان في طريقه إلى البيت؛ ولكن السيد استعلاه فلاح في وجهه الضيق وقال بخشونة:

- لا تقف كالصنم وقل ماذا تريد...

ونفذت خشونة الصوت إلى قلبه فارتعد، وانعقد لسانه فكان الكلام قد الترق بسقف حلقه، فازداد

فقلت خديجة:

- لا أعرف يا بابا...

فأمرها بإدخالها وهو يمسك عن التمتع. ومع أن عجيء بعض الفضليات من الجارات لمقابلته - لسان يتعلق بتجارته أو لصلح يسعى به بينهما وبين أزواجهن من أصدقائه لم يكن مع ندرته بالجديد عليه إلا أنه استبعد أن يكون ما دعا هذه السيدة إلى مقابله واحد من هذه الأسباب. وخطرت على ذهنه، وهو يتساءل، مريم وما دار من خطبتها بينه وبين زوجها، ولكن أي علاقة ثمة بين هذا السر الذي لا يمكن أن يتعدى دائرة أسرته وبين هذه الزيارة؟ ثم ذكر السيد محمد رضوان لاحتمال أن تكون الزيارة لسبب يمت إليه بيد أنه كان ولم يزل مجرد جبار، لا تربطه به إلا صلة الجيرة التي لم ترتفع يوماً لمرتبة الصداقة، فالتصير تزاورهما قديماً على المناسبات الضرورية حتى شل الرجل فعله مراً، ثم لم يعد يطرق بابه إلا في الأعياد. على أن ست أم مريم ليست بالفريبة عليه، فإنه ليذكر أنها قصصت ذلك مرة لإتياع بعض الحوائج وهناك عرفت نفسها استرعاه لاحتياجه فيلذ لها من كرمه ما رآه جديراً بحسن الجوار، ومرة أخرى التقى بها عند باب بيته إذ صادف خروجه قدامها للزيارة مصطحبة كرمها وعند ذلك أدهشته بجسارتها حين حثته قائلة «مساه الخير يا سي السيد»، أجل علمه اختلاطه بالأصدقاء أن بينهم من يتسامح فيها يتشدد فيه متطرفاً من التزام الآداب المتوارثة للأسرة، فلا يرون بأساً من أن تخرج نساؤهم للزيارة أو للامتضام، ولا يجدون حرجاً في توجيه تحية بريئة كالتي وجهتها أم مريم إليه، ولم يكن - رغم حبيته - بالذي يطلعن فيها يرتضون لأنفسهم ولنسائهم، بل لم يكن يسيء الظن حتى ببعض الأعيان من أصدقائه الذين يصطحبون زوجاتهم وبناتهم في العربات للتنزه في الحدائق أو لغشيان الملاهي البريقة مكتفياً في مثل هذه الحال بترديد قوله «لكم دينكم ولي دين»، أي أنه لا ينزع إلى تعيين آرائه على الناس تطبيقاً أعمى، إلى أنه يحسن التمييز حقاً بين ما هو خير وما هو شر، إلا أنه لا يفتح

صدره لكل ما هو خير ضالماً في ذلك مع طبيعته التقليدية الصارمة حتى أنه عد زيارة زوجته للحسين جريمة قضى فيها بأقصى عقوبة أصددها في حياته الزوجية الثانية، ولهذا كله لاقت تحية أم مريم له من نفسه دهشة مقرونة بما يشبه الانزعاج دون أن يسيء بأخلاقها الظن. وسمع خارج باب الحجر نحنة فأدرك أن القاعة تنلره بالدخول، ثم دخلت ملتفة في ملاءتها، مستورة الوجه ببرقع أسود تتوسط عروسه الذهبية عينين مكحولتين دعجائين وقدانت منه بجسم جسم لحيم مترنح الأرداف، فنهض السيد لاستقبالها وهو يمد يده قائلاً:

- أهلاً وسهلاً، شرفت البيت وأهله.

فمدت له يدها بعد أن لففتها في طرف الملاءة أن تنفض وضوءه وقالت:

- ربنا يشرف قدرك يا سي السيد...

ودعاهما للجلوس فجلست، ثم جلس وهو يسألها بجملة:

- كيف حال السيد محمد؟...

فأقلت متتهمة بصوت مسموع كأن السؤال حرك أشجانها:

- الحمد لله الذي لا يحمده على مكروهه سواء، ربنا يطلع بنا جميعاً...

فهر السيد رأسه كالأسف وتتم:

- ربنا يأخذ بيده ويمتنحه الصبر والعافية...

وأعقب حديث المجاملات صمت قصير فأدخلت السيدة تنهياً للحديث الجدي الذي جاءت من أجله كما تنهياً المطرب للغناء بعد الفراغ من عزف المقدمة الموسيقية على حين غص السيد بصره تحملاً تاركاً على شفثيه ابتسامة لتعلن ترحيبه بالحديث المنتظر:

- يا سيد أحمد، أنت في المرومة مثل يضرب في الحني كله، فلن يجيب رجاء لمن يقصدك مستشفئاً مروءتك.

فتعتم السيد بصوت حيي وهو يتساءل في نفسه وتري ما وراء هذا كله؟...

- استغفر الله...

وعذب، فلما قالت «بل أعز من الأخ، جهر الصوت بحتان دافئ نشر في الجو المحشم نفضة طيبة، فتعجب وتساءل، ولم يعد يطيق غض بصره على الشك فرفعه مستائياً. . واسترق إلى وجهها النظر - فوجدنا - على غير ما توقع - تتطلع إليه بعينيها الدعجائين، فجاش صدره ونفض بصره مستعجلاً بين الدهشة والحرج ثم قال مواصلاً الحديث كي يغطي على تأثيره:

- أشكرك على ما أوليتني من أخوة. . .

وعاد يتساءل ثرى أكانت تتطلع هكذا طوال الحديث أم صادف رفع بصره إليها تطلعاً إليه؟ وما القول في أنها لم تغض بصرها عند التقاء العينين؟ ولكنه سرعان ما هزأ بأفكاره قائلاً لنفسه إنه ولله بالنساء وخبرته بمعاشرتهن أرفها حاسة سوء الظن عنده، وأن الحقيقة بلا ريب أبعد ما تكون عن تصوّره، أو لعل المرأة من النساء اللاتي يفضن الخنان طيباً وسجية فيظنه من لا يعرفهن غزلاً وما هو بالغزل، ولكني يتحقق من صدق رأيه - لأنه لم تزل ثمة حاجة إلى التحقيق - رفع بصره مرة أخرى فما هاله إلا أن يراها رائية إليه، فتشجع هذه المرة وبّت عليها عينيه قليلاً فلم تزل تنزوي إليه باستسلام جسور حتى غضّ بصره في حيرة شاملة، وعند ذلك لاحقه صوتها الناعم وهو يقول:

- سأري بعد هذا الرجاء إذا كنت حقاً أثيرة عندك. . .

أثيرة؟ لو قيلت هذه الكلمة في غير هذا الجو المشبع بالحساسية المكهرب بالشك والحيرة، لمرت دون أن تترك أثراً، أما الآن؟ وهادو النظر في غير قليل من الحرج فقرأ في عينها بعض المعاني التي عابث ظنونه، هل يصدق إحساسه؟ وهل يمكن هذا حال استشفاعها لزوجها؟ ولكن كيف يحبب من كان في مثل خبرته بالنساء؟ سيّدة لعوب ذات بصل مشلول. وسرت في وجدانه وثبات يبيح ملاءة حرارة وزهو، ولكن متى نشأت هذه العاطفة؟ أهي قديمة وكانت تتحين الفرص؟ ألم تزد دكانه مرة فلم يند عنها ما يريب. . . ولكن الدكان ليس بالمكان الذي تطمئن إليه مثلها في

- المسألة أنني جئت الساعة لأزور أختي ست أم فهي فيها هالتي إلا أن أعلم بأنّها ليست في البيت وأنتك غاضب عليها! . . .

وامسكت المرأة لتسبر أثر كلامها ولتسمع رأي السيد فيه، ولكنه لا بالصمت كأنه لا يجد ما يقوله ومع أنّه شعر بعدم ارتياح إلى فتح هذا الموضوع إلا أنّ ابتسامة الترحيب ظلت معلقة بشفتيه. . .

- هل توجد ست أكمل من ست أم فهي؟ ست العقل والحياء، جارة عشرين عاماً وأكثر، لم تسمع خلخالها منها إلا ما يسرّ الحاضر، فما عسى يمكن أن تعجب مما تستحقّ عليه غضب رجل عادل مثلك؟

فثابر السيد على صمته متجاهلاً تسألها، ثم دارت برأسه خواطر زادت من عدم ارتياحه. . . ثرى أجهات زيارة المرأة للبيت اتفاقاً أم أنها استدعت بتدبير مدبر؟ خديجة؟ عائشة؟ أمينة نفسها؟ إنهم لا يؤمن الدفاع عن أمهم، هل ينسى كيف تمزّج كمال على الصراخ في وجهه مطالباً بعودة أمه، الأمر الذي مرّضه فيها بعد لعلقة ساخنة تطاير بخارها من يافوخه؟

- ياها من سيّدة طيبة لا تتساهل عقاباً. . . ويا لك من سيّد كريم لا يلبق به العنف، ولكنه الشيطان اللعين أخزاه الله وما أجدر نبلك بإفساد كيد. . . وشعر عند ذلك بأنّ الصمت غدا أفضل من أن يحتمل جمالة للزيارة فتعتمد قائلاً بالقتضاب متعمّداً:

- ربّنا يصلح الحال. . .

فغالت أم مريم بحاس متشجعة بما أصابت من نجاح في استدراجه إلى الكلام:

- لشّد ما يعزّ عنك أن تترك جاريتنا الطيبة بيتها بعد ذلك العمر الطويل من السر والكرامة. . .

- ستعود المياه إلى مجاريها، ولكن لكسل شيء ميعاد. . .

- أنت أختي، بل أعز من الأخ، ولن أزيد على هذا كلمة واحدة. . .

جدّ جديد من الأمر لم يغب عن وعيه اليقظ فسجله كما يسجل المرصد الزلازل البعيد مها تلقى حركته. خيّل إليه وهي تقول «أنت أختي» أنّ صوتها رنّ

والصديق و قد دائم والعشيقه هوى عابره، ولهذا قنع بانتقاله خليلاته ممن يجدهن بلا خليل، أو ينتظر حتى تنقطع علاقه فينبض لانتهاز فرصته، وأحياناً يستأذن الخليل القديم قبل أن يتوكد إلى من كانت خليلته، مواصلاً العشق في سرور لا يشوبه الندم ولا تكدر صفوه إحن النفوس. بمعنى آخر أنه نجح في التوفيق بين «الحيوان» للمتهالك على اللذات وبين «الإنسان» المتطلع إلى المبادئ العالية توفيقاً اثباتياً يجمعها في وحدة منسجمة لا يطغى أحد طرفيها على الآخر ويستقل كل منهما بحياته الخاصه في سر وارتياح، كما وفق من قبل في الجمع بين التدبّر والغواية في وحدة خالية من الإحساس بالذنب والكبت ممّا، غير أنه لم يكن يصدر في وفائه عن إخلاص مجرد للأخلاق ولكن - إلى هذا أو قبل هذا - من رغبته التليدة في أن يظلّ حائزاً للحبّ متمتّعاً بالسمعة العطرة، إلى أن غزواته المظفّرة في العشق هوّنت عليه الإعراض عن الحبّ الموسوم بالخيانة أو النذالة، وفضلاً عن هذا وذاك فإنّه لم يعرف الحبّ الحقيقي الذي كان خليقاً بأن يدفعه إلى إحدى اثنتين: فلما الإذعان للعاطفة القويّة دون مبالاة بالمبادئ، ولما الوقوع في أزمة عاطفيّة خلقيّة حادة لم يقدر عليه الاكتواء بناورها. فلم يكن في أمّ مريم إلّا صنف للذنب من الطعام لن يضره - إذ مكّده تناوله بسوء الهضم - أن يعدل عنه إلى غيره من الأصناف المأمونة الشهية التي تحفل بها المائدة، لذلك أجابها برقة قائلًا:

- شفاعتك مقبولة إن شاء الله وتستمعين ما يسرك
عنا قريب...

فقامت المرأة وهي تقول:

- ربّنا يكرمك يا سيّد...

ومدّت له يداً بهّة فمدّ لها يده وهو ينفذ بصره فخيّل إليه - وهي تسلّم - أنّها ضغطت قليلاً على يده، وجعل يتساءل أهذه طريقتها في التسليم أم أنّها تعمّلت الضنط على يده، وحاول أن يتذكّر كيفيّة تسليمها عند استقبالها ولكن الذاكرة لم تسعفه، وقضى

بثّ هوى مكتمّ غير مسبوق بتمهيد كما فعلت زبيدة العالة، أم هي عاطفة بنت ساعتها وجدت مع الفرصة السانحة في الفرقة الخالية؟ لو صخّ هذا فهي «زبيدة» أخرى في لباس سيّلة مصونة، وليس غريباً أن يجهل أمرها - وهو العليم ببنات الهوى - ما دام يحرص الحرص كلّ على احترام الجيران احتراماً مثاليّاً، وأيّما كان الأمر فكيف يبيها؟ «أنت أتر عندي ممّا تظنّين؟» قول جميل ولكنّها حرّية بأن ترى فيه تحيّة استجابة لدعائها، كلّاً أنّه لا يريد هذا، إنه يباهه كلّ الإباه، لا لأنه لم يشبع بعد من زبيدة، ولكن لأنه لا يقبل أن يجحد عن مبادئه في تقديس الأعراس علّة، وما ممّ الأصدقاء والجيران منهم خاصّة. لهذا لم تسود صفحته نقطة واحدة يمكن أن يغزى بها أمام صديق أو جار أو أحد من الأطهار على إفراطه في العشق والصبوات، ولم يزل دابه أن يخاف الله في هوه كما يخافه في جدّه فلا يبيع نفسه إلّا ما يراه مباحاً أو في حدود الغفوات. لا يعني هذا أنّه أوتي إرادة خارقة تعصمه من الأهواء، ولكنّه لمع بالهوى البلبول، وصان طرفه عن الحرمات حتى أنّه لم يتعمّد النظر إلى وجه امرأة من حيّه طوال عمره، حل أنّها ممّا يذكر له أنّه صدّ مرّة عن هوى متاح رحمة بأحد معارفه، إذ جاءه يوماً رسول يدعو إلى لقاء اخحت ذلك الرجل - أرملة نصف - في ليلة سيّها فتلقّى السيّد الدعوة صلباً وصرف الرسول متلفّعاً كمادته ثمّ قاطع الطريق الذي يوجد به البيت أحوالاً متواصلة. ولعلّ أمّ مريم كانت أوّل تحريرة - عرضت لمبادئه - يكابدها بعينه، ومع أنّها أصعبته إلّا أنّه لم يستجب لنوازع الهوى، وغلب صوت الحكمة والوقار، صابئاً سمعته التي يتحدث بها الناس عن موطن المؤاخلة، كأنّ هذه السمعة الطيبة أثر عنده من اقتناص لذة مواتية، متزوّجاً في نفس الوقت بما يتاح له من حين لآخر من غراميات مأمونة العواقب، وهذه الروح الراحية للعهد المخلص للإخوان لا تزياله حتى في مناني اللهو والشهوة، فلم يؤخذ عليه أبداً أنّه سطا على محطّة صاحب أو طمع بطرف إلى خليله صديق، مؤثراً الصداقة على الأهواء، لأنّه كما اعتاد أن يقول

على البيت من حين لآخر، حرم المرحوم شوكت، والمرحوم شوكت من قبل، أسرة ارتبطت مع أسرته بأصرة الود الخالص من عهد الجنود، كان للراحل منزلة الأب من نفسه، ولم تزل أورمته عنده - وعند أسرته بالتبعية - بمنزلة الأم، هي التي خطبت له أمينة بنفسها، وتلقت أبناءه بيديها وهم يستقبلون نور الدنيا، وإلى هذا كله قال شوكت أناس صدقهم شرف، لا لأصلهم التركي فحسب، ولكن لمرتبتهم الاجتماعية وعقاراتهم الكثيرة ما بين الحزراوي وبين الصوريين، وإذا كان السيد من أوساط الطبقة الوسطى فهم من أهل القمة فيها بلا جدال، ولعل الأمومة التي تشعر بها المرأة له ويشعر بها لها هي التي جعلته يقف من شفاعتها المنتظرة موقف التهيب والخرج، فليست هي بالتي تلتزم الاحترام في غابطة، ولا بالتي تنحب في استعطافه، فضلاً عما عرفت به من صراحة جارحة لها ميراثها من شيخوختها ومكانتها معاً، أجل ليست هي...

وأمسك عن أفكاره لدى سماعه وقع خطواتها، ثم نهض وهو يقول بترحيب:

- أهلاً وسهلاً، زارنا النبي...

اقتربت منه سيّدة طاعنة في السن، تدب على مظلة وهي ترفع إليه وجهها ناصع البياض كثير التجاعيد لم يكده يحجب منه شيئاً برقعها الأبيض الشفاف، وتلقت تحيته بابتسامة جلّت عن أسنانها الذهبية، وسلّمت، ثم انحلت مجلسها إلى جانبه بلا كلفة وهي تقول:

- من يبيش يزّ، حتى أنت يا زين الرجال...
وحقّ هذا البيت تحدث فيه هذه الأمور التي لا يطيب التحدّث عنها... شجّعت وربّ الحسين وبادرك الحرف...

واسترسلت في الكلام مطلقاً العنان لسانها يقول ويعيد غير تاركة للسيد من فرصة لمقاطعتها أو التعقيب عليها، حدّثته كيف جاءت للزيارة، وكيف اكتشفت غياب زوجها وظننت بادئ الأمر أنها خرجت في زيارة فدققت صديري بيدي دحشة وقلت ماذا حدث للدنيا؟!... وكيف سمع لها السيد بالخروج مستهيناً

أكثر الوقت الذي سبق عودته إلى الدكان وهو يفكر في المرأة، حديثها، ولينها، وتسليمها...

٣٦

- تيزة حرم المرحوم شوكت تريد مقابلة حضرتك.

رمى السيد خديجة بنظرة حمراء وصاح بها:

- لماذا؟

ولكن أعلنت نبراته الغاضبة ونظراته الثائرة على أنه لم يقصد الوقوف عند مدلول ولماذا، وكأنه أراد أن يقول لها «لم أكد أفرغ من وسط الأمس حتى جئتني بوسط جديد اليوم، من قال لك إن هذه الحيل تجوز علي؟... كيف تجهرين أنت وإخوتك على المكر بها؟».

واصفّر وجه خديجة وهي تقول بصوت متهذّب:

- لا أدري والله...

لحرك رأسه حركة كأنها تقول لها «هل تدريين وأدري أننا أيضاً ولن يبرك مكرك إلا إلى أوتهم العواقب» ثم قال ساخطاً:

- خاليتها تنفضّل، لن أشرب قهوتي براحة بال بعد الآن، أصل حجرتي محكمة وقضاة وشهود، وهذه هي الراحة التي أجدها في بيتي، لعنة الله عليكم أجمعين!...

اختفت خديجة قبل أن يتمّ كلامه كما يختفي الفأر إذا قرعت سمعه قرعة، وظلّ السيد لحظات متجهماً حائفاً، حتى خطرت على ذهنه خديجة وهي تنسحب خائفة فعثرت قدمها ببقايه وكاد رأسها يصطدم بالباب، فارتسمت على شفثيه ابتسامة إشفاق مسحت غضبته المتعسّفة وقطرت على صدره عطفاً، يا لهم من أطفال يابون أن ينسوا أمهم ولو دقيقة واحدة، وألجّه بصره إلى الباب وهو يتهيأ لاستقبال الزائرة بوجه انبسطت أساريره كأنه لم يصب غضبه منذ فوان على فكرة زيارتها، ولكن لم يجد له حيلة فيما يركبه من غضب - وهو في بيته - لأنفه الأسباب أو بلا سبب على الإطلاق، وفضلاً من هذا كله كان للصادمة منزلة خاصّة لا يرتقي إليها أحد من النساء اللاتي يتردّدن

يزوج الصغرى حتى تزوج الكبرى سيرتظم هذه المرة برغبة عزيزة لا يسمعه إمامها... رغبة عالته بها من لا يجهل تصميمه ذاك مما دلّ على أنها ترفضه سلفاً وتأتى أن تنزل عند حكمه...

- ما لك صامتاً كآئك لم تسمعي؟!

وابتسم السيد ارتباكاً وحياء، ثم قال على سبيل الملاحظة والمجاملة ريثما يقبّل الأمر على وجوهه:
- هذا شرف عظيم لنا...

فرمته السيّدة بنظرة كأنما تقول له «ابحث لك عن طريقة أخرى غير معسول الكلام» وقالت بلهجة هجوميّة:

- لا حاجة بي إلى الضحك على بأجوف الكلام، لن أرضى بغير الموافقة التامة، لقد نذيت خليل لاختيار زوجة له فقلت له هندي عروس هي خير ما يمكن أن تنظر به فسرّ لاختياري ولم يعدل بمصاهرتك شيئاً... فهل جاء زمن تقابل فيه مثل هذه الرغبة، مّي أنا، بالصمت والتهرب؟! الله... الله...

الإلم يقع في هذه المشكلة المعقّدة التي لا يمكن أن يخرج منها دون أن يصيب إحدى ابنتيه بصدمة قاسية؟!... ونظر إليها كما يستجدي عطفها على موقفه، وغمغم:

- ليس الأمر كما تتصورين، رغبتك فوق العين والرأس، ولكن...

- آه من لكن!... لا تقل إنك قرّرت ألا تزوج الصغرى حتى تزوج الكبرى، من أنت حتى تقرّ هذا أو ذاك؟... دع ما لله وهو أرحم الراحمين. إن شئت ضربت لك عشرات الأمثال عن أخوات صغار تزوجن قبل الكبر فلم يحلّ زواجهنّ دون زواج أخواتهنّ بأحسن الأزواج، وخديجة شابة ممتازة ولن تعدم زوجاً صالحاً عندما يشاء الله... الإلم تقف حائلاً بين عائشة وبين حظها؟... أليست هي الأخرى جذيرة بعطفك ورحمتك؟!

قال لنفسه: إذا كانت خديجة شابة ممتازة فلماذا لا تختارينها؟!... وهمّ بإحراجها كما أحرجته ولكنّه خاف أن ترميه بإجابة تنفّس إساءة - ولو بحسن نية -

بالشرائع الإلغية والقوانين البشرية والفرمانات العثائية!... بيد أنّها سرعان ما عرفت الحقيقة كلّها وفئيت إلى رشدي وقلت الحمد لله الدنيا بخير، هذا حقاً هو السيد، وهذا أقل ما ينتظر منه، ثم غيّرت لهجتها الساخرة وراحت تؤنّب على قسوته، ولم تقتصد في الرثاء لزوجها التي تعلّما آخر امرأة تستحقّ عقاباً، وجعلت كلّها همّ بمقاطعتها تصبح به «هس، ولا كلمة... دع حديثك الحلّ الذي تحسن تنميّه فلن أخدع به، إلّا أريد عملاً صالحاً لا مزوّناً وصارحته بأنّه يضلّ في المحافظة على أسرته مثلاً خرفت المألوف، وأنه يجمل به أن يأخذ نفسه بشيء من الهواة والرفق، استمع السيد إليها طويلاً، وليّا سمحت له بالكلام - بعد أن أعياها الكلام، شرح لها وجهة نظره المعروفة ولم يمنعه دفاعها الحارّ، ولا مكانتها عنده من أن يؤكّد لها بأنّ سياسته مع أسرته عقيدة لا يتحوّل عنها وإن وعدها في النهاية - كما وعد أم مريم من قبل - خيراً، وظنّ أن أن للجلسة أن تنفّس ولكنّه ما يدري إلّا وهي تقول:

- غياب أمينة هائم مفاجأة غير سارة لي لأنّي كنت أريدها لأمر هامّ جدّاً، ولأنّ الخروج لم يعد بالمهمّة البسيرة على صحّتي، ولا أدري الآن إن كان يحسن بي أن أتكلّم فيها أردت الكلام فيه أم أنتظر عودتها؟! فقال السيد مبشّراً:

- كلنا تحت امرك...

- وددت لو كانت هي أوّل من يسمعي وإن كنت لم تترك لها من الأمر شيئاً، ولكنّ لئن فاتني هذا فعزائي لها فرصة سميّدة للعودة...

فاحتار السيد في فهم حديثها وحلج إليها متسائلاً:
- ما وراء هذا؟

فقال وهي تنكث السجادة بسنّ مظلمتها:
- لا أطميل عليك، لقد وقع اختياري على عائشة لتكون زوجاً لخليل ابني...

ودعش السيد دهش من أخذ على غرة من حيث لم يتوقّع فركبه الارتباك، بل الانزعاج، لبواعث غير خافية، أدرك من أوّل وهلة أنّ تصميمه القديم على ألا

الجديفة وبالتالي له هو، وقال بصوت ملؤه الجند والاهتمام:

- ليس إلا أنني أضيق على خديجة.

فقلت بحدة كأنما هي المطالبة لا هو:

- كل يوم تقع أمور كهذه دون أن تترك أحدًا، إن الله يكره من عبده العناد والمكابرة، اقبل رجائي وتوكل على الله، لا ترفض يدي فإني ما ملدتها إلى أحد قبلك...

فدارى السيد انفعاله باستمالة وقال:

- هذا شرف عظيم كما قلت لك منذ لحظة...

فقط أهملني قليلاً ريثاً أراجع نفسي وأرتب أمورِي، ومستجدين رأيي عند حسن ظنك إن شاء الله...

فقلت بلهجة من يجهز على الحديث:

- لا يجوز أن آخذ من وقتك أكثر مما أخذت، ثم إنه كلما طال الأخذ والرد خيل لي أنك لا تتقبل رغبتي بقبول حسن، ومثل من تطعم إذا قالت لك أريد أن تبادرنا بنعم دون لث وعجن، فلن أزيد عيًّا قلت إلا كلمة واحدة: خليل ابني وابنك وعاشقة بنتك وبنتي...

وقامت فقام السيد ليودعها، لم يكن يتوقع إلا كلمة توديع وتحية، ولكنها أبت إلا أن تذكره بوصاياها جملة. كأنما خافت أن يفوته شيء منها فأعادت تفصيلًا، وما يدري - أو تدري - إلا وهي ترجع لتأييد بعض آرائها وتوكيد البعض الآخر، ثم عليها تداعي الأفكار فاسترسلت فيه بلا ممانعة حتى أعادت على مسمعه جل ما قالت عن الخطبة، وإلى هذا كله لم نشأ أن تنهي ذاك الحديث دون أن تودع حديث الأم المبعدة بكلمة أو كلمتين أو ثلاث وإذا بتداعي الأفكار يغلبها مرة أخرى فسترسل فيه حتى كاد الرجل يفقد أعصابه، ثم أوشك أن يضحك في النهاية وهي تقول له: «لا يجوز أن آخذ منك أكثر مما أخذت» وأوصلها إلى الباب مشفقًا في كل خطوة من أن تتوقف عن السير وتتشبك في الكلام كرة أخرى، ثم عاد أخيرًا إلى مجلسه وهو يتنفس من الأحراق. عاد مغتنيًا مكتئبًا، قلب رقيق، أرق مما يظن الكثيرون، بل أرق مما ينبغي، فكيف

يصدق هذا من لا يروونه إلا مكترًا أو صائبًا أو ضاحكًا ساخرًا!... إن مسحة حزن تلذع فلفة من كبده خليقة بأن تنقص العيش كله وتطعن وجه الحياة في عينيه، ولكم يسعد أنه يجد بكل غالٍ في سبيل إسماع فتاتيه سواء هذه التي يرى في وجهها الجميل وجه أمه أو تلك التي لم تُصيب من الحسن إلا لونها شاحبًا، كلتاهما من نبض قلبه وعصارة روحه، بيد أن الزوج الذي تقلمه حرم المرحوم شوكت لقيّة بكل ما في هذه الكلمة من معنى، فحق في الخامسة والعشرين، ذو دخل شهري لا يقل عن الثلاثين جنبها، حقًا إنه كثير من الأعيان لا عمل له، وحقًا إن حطه من التعليم ضئيل لا يتعمق معرفة القراءة والكتابة، ولكنه يتصف بجملة من خلال أبيه الطيبة وكرم الأخلاق، ما عسى أن يفعل...؟ يجب أن يحسم أمره لأنه لم يألف التردد ولا الشورى ولا يقلل أن يبدو أمام أهله - ولو لحظة قصيرة - كمن لا رأي قاطعًا له، ألا يتشاور خاصته المقرّبين؟ إنه لا يرى غضاضة في مشاورتهم كلما جد أمر، والواقع أن سرهم يبدأ عادة بمناقشة المصوم والمشاكل قبل أن تطير بهم الحفر إلى الدنيا التي لا تعترف بالمصوم والمشاكل، ولكنه قدر ما يستبد في باطنه برأيه فلا يجيد عنه، فهو من الذين يلتصقون في الشورى ما يؤيد رأيهم لا ما يعدل بهم عنه، ولكنها حق في هذه الحال عزاء ومتنفس، ولست ضاق الرجل بأفكاره هف فائقًا:

- من يصدق أن ما بي من هم لا يحتمل ما هو إلا نتيجة لخير أكرمني به الله!...

٣٧

لم يكن لأمنية من عمل في أيام مناضها إلا الجلوس إلى جانب أمها والاسترسال في الحديث، في كل ما يخطر على البال من أحداث تهمزها الماضي البعيد والماضي القريب والحاضر، ما بين الذكريات العزيرة والمأساة الراحنة ولولا غلاب الفراق وشبح الطلاق لاطمأنت إلى حياتها الجديفة كعطلة للاستجمام من عناء الواجبات أو كرحلة خيالية في عالم الذكريات.

كبيرة ولا صغيرة مما في أعماقها إلا سيجلته، تُسبِّد ما وُثِّت أن تتلقَّى النِّبأ السعيد يهدوء خليق بأمرومتها، ولكنَّ الفرح استخفها فضحكت أساريرها ونطقت بابتهاج صبياني، وفي نفس الوقت تولَّاه حياه لم تُنْزِر له سبباً، وطال جودها في مكانها فنفد صبر كمال فشدها من يدها رامياً بقله إلى الوراء حتَّى طاولته ناهضة، ووقفت قليلاً في ارتباك غريب وما تدري إلا وهي تلتفت إلى أمها متسائلة:

- أذهب يا أمي؟

بدا السؤال الذي ندَّ عنها - في نعمة الارتباك والحياه - غريباً، فابتسم فهمي ياسين، ودهش كمال وحله فيها يشبه الانزعاج وراح يؤكِّد لها نبأ العفو الذي جساموا به، أمَّا الجِدَّة فقد شعرت بشعورها كله وحذست باطنها فرق قلبها ونحاشت أن تظهر الإنكار لسؤالها ولو بابتسامة خفيفة، وقالت بلهجة جدِّية:

- إلى بيتك مصحوبة بسلامة الله . . .

فلهبت أمينة لترتدي ملابها وتصرَّ ثيابها وكيال في أعقابها، وهنا خاطبت الجِدَّة الشايبين متسائلة بلهجة خففتها بابتسامة رقيقة:

- أما كان الأخلق بأبيكما أن يأتي بنفسه . . . ؟!

فأجابها فهمي كالمعتلر قائلًا:

- أنت أدري يا جدتي بطبع أبينا . . .

على حين قال ياسين ضاحكًا:

- فلنحمد الله على ما كان . . . !

فهممت الجِدَّة بأصوات غير مفهومة ثمَّ تهادت قائلة كأنما تَرَدَّ على مهمتها:

- على أيِّ حال السيِّد أحمد رجل ولا كلَّ الرجال. وغادروا البيت ودعاء الجِدَّة لهم بالبركة يتردَّد في آذانهم، وقطعوا الطريق لأول مرة في حياتهم حتَّى بدا المنظر في أعينهم بالثَّأ في غرابته فتبادل فهمي وياسين نظرات باسمه. وتذكَّر كمال يوم سار - كما يسر الآن - ممسكاً بيد أمه يقودها من عطفة إلى عطفة، ثمَّ ما تلا ذلك من الآم وخاوف لا يحيط بها الكابوس نفسه فتعجَّب طويلاً، بيِّد آله تناسي سريعاً أحزان الماضي في فرحة الساعة، ووجد من نفسه ميلاً للدعابة فقال لأمه

بيد أن مرور الأيام دون وقوع الشيء الذي تخاف وما بلغها من شفاعة أم مريم وحرم المرحوم شوكت لدى السيِّد، كلَّ أولئك ثبت قلبها وروح عن نفسها، إلا أن زيارات الأبناء المسائية التي لم تنقطع يوماً واحداً طلَّت جوى صدرها بنفحات أمل متجدِّدة. ومع أن الزمن الذي يتغيَّونه عنها في البيت الجديد لم يزد كثيراً عن نظيره في البيت القديم - في كلتا الحالتين لم تكن تجتمع بهم إلا حين فراغهم في جلسة المساء - إلا أنَّها باتت تشتاق إليهم اشتياق المغترب في بلد بعيد إلى أحباب فرَّق الدهر بينه وبينهم، اشتياق من حرَّم عليه تنسُّ جرَّهم والعيش بين ذكرياتهم، والإشراف على مواطن جدِّهم وفهمهم، كأنَّ الجسم كلاً قطع في طريق الفراق قيراعاً كابده القلب أميالاً، ودأبت المجوز على أن تقول لها كلماً وجدت منها صمناً أو أنست في حديثها الشroud:

- الصبر يا أمينة، إنِّي أرثي لحالك، الأمَّ غريبة ما ابتعدت عن أبنائها، غريبة ولو حلَّت في البيت الذي ولدت فيه.

أجل إنَّها غريبة، كأنَّه ليس البيت الذي لم تعرف حياتها الأولى سواء موطنًا، وكأنَّها ليست الأم التي لم تكن تطيق البعد عنها لحظة واحدة، لم يعد وبيتها ما هو إلا منقَى تنتظر بين جذرائه على هُف العفو من السياه. وجاء العفو بعد طول انتظار، حله الأبناء ذات مساء، دخلوا عليها وفي أعينهم لمة كسنا البرق خفق لها فؤادها خفقة اهتز لها الصدر كله حتَّى أشفقت من أن تكون ذهبت في تأويلها إلى أبعد ممَّا تحتمل، ولكنَّ كمال جرى نحوها وتعلَّق بمنقها ثمَّ هض بها وهو لا يتمالك نفسه من الفرح:

- البسي ملاتك وهيا بنا . . .

وقيقه ياسين قائلًا:

- جاء الفرج (ثمَّ هو وفهمي ممَّا) دعانا أبي وقال لنا اذهبا فعودا بأنكما . . .

وغضت بصرها لتدري فرحتها الغامرة. ما أعجزها عن كتمان ما يضرطرب في نفسها من شقِّ المواطف، كأنَّ وجهها مرآة شديدة الحساسية لا تترك

ضاحكاً:

- تعالي نخطف أرجلنا إلى سيدنا الحسين...!

فضحك ياسين بلهجة ذات معنى:

- رضي الله عنه، إنه شهيد يجب الشهاد...!

ولاحت لهم المشربية وشبحان يتحركان وراء خصاصها فهفا قلب الأم إليهما في حنو واشتياق، ثم وجدت وراء الباب أم حنفي في استقبالتها فغمرت يدي سيدتها بالقُبْل، والتفت في فناء الدار بخديجة وعائشة اللتين تملّقتا بها كالأطفال، وروقا السلم في مظاهرة صابغة، ونشوة من الفرح مطربة حتى استقرّوا جميعاً في حجرتها فبادروا إلى نزع ملابسها - رمز الفراق البغيض - وهم يضحكون بالضحك، فلما جلست بينهم كانت تلهث من الانفعال والتأثر. وأراد كمال أن يعبر عن فرحه فلم يجد خيراً من أن يقول لها:

- هذا اليوم أعزّ عندي من المحمل نفسه!

واجتمع شمل الأسرة لأول مرة منذ زمن غير يسير في مجلس القهوة، فعادوا إلى السرور في جرّ من المسرة ضافس من بهجة ما سبقه من أيام فراق وكآبة تزداد لذة اليوم الذي يحييه في أعقاب أسبوع من الزمهرير، ولم تنس الأم - التي استيقظت غرائزها رغم فرحة اللقيا - أن تسأل الفتاتين هن شئون البيت متدرّجة من حجرة الفرن حتى الليلاب والياسمين، كما سألت كثيراً عن الأب، وكما سرّها أن تعلم أنّه لم يسمح لأحد بمعاوته عند خلع ملابسه أو عند ارتدائها، فمهما يكن من أمر الراحة التي تهيأت له في غيابها فثمة تغيير قد طرأ على نظام حياته حمله بلا ريب عناء سيزول بعودتها التي تكفل له - وحدها - الحياة التي يألفها ويرتاح إليها... الشيء الوحيد الذي لم يخطر لامية على بال أن تكون بعض القلوب السعيدة بعودتها قد وجدت في هذه العودة بالذات ميّزًا لاجترار الحزن والاسمى! ولكن هكذا كان، فهذه القلوب التي شغلت بحزن الأم عن أحزانها عادت إلى التفكير في أشجانها بعد أن اطمأنت على سلامة الأم، كالنفس الشديد الطائرئ نسي به رمدًا زمناً حتى إذا ذهب عادتنا آلام الجفون، عاد فهمي يقول لنفسه «كلّك حزن» - فيها

يبدو - نهاية، هُله أُمّي قد رفع عنها الهمّ، ولكن حزني يبدو كأن لا نهاية له»، ورجعت عائشة إلى أفكارها التي لا يتخلل على سرّها أحد، تترامى لها الأحلام وتلّم بها الذكريات وإن عدّت بالقياس إلى أمها أهدأ حالاً وأسرع إلى النسيان خطوة، ولكنّ أمينة لا تكن تقرأ الأفكار فلم ينقص عليها صفوها منقص، ولما آوت إلى حجرتها ليلاً تبيّن لها أنّ النوم لا يجيد متسعاً في نفسها التي افعمها الفرح فلم تذقه إلاّ للمسا حتى انتصف الليل فغادرت الفراش إلى المشربية تنتظر كمندها مسرحية البصر من خصائص النوازل إلى الطريق الساحر حتى جاءت العربة تنهّاد حاملة بعلمها إلى بيته، خفق قلبها بشدة، وتورد وجهها حياء وارتياباً، كأنها ستلقاه لأول مرة، وكأنها لم تفكر طويلاً في هذه اللحظة... لحظة اللقاء المنتظر، كيف تقابله؟ كيف يعاملها بعد هذه الغيبة الطويلة؟... ما عسى أن تقول له أو يقول لها؟ لا يسمها أن تصنع النوم! ولكنّها لا تحيد التمثيل فقد ولا تطيق أن يدخل عليها وهي مستلقية، بل لا يسمها أن يحمل واجب الخروج إلى السلم بالمصباح لتضيء له، وأكثر من هذا كلّها أنّها بعد فُقرها بالعودة وزوال السطح عنها - شاعت أريجّة الرضا في قلبها ففعت عمّا سلف بل وحلت نفسها الذنب كلّ حتى رأت بعلمها - بالرغم من أنّه لم يُعزّن بالذهاب إلى بيت أمّها لمصالحتها - حقيقةً بالاسترضاء، فتناولت المصباح ومضت إلى السلم ومدّت ذراعها من فوق الدوابزين ووقفت تتابع وقع القدمين المقتربتين بفؤاد خافق حتى صعد إليها، لقيته برأس مطأطأ فلم ترّ وجهه عند اللقاء، ولم تدّر أيّ تغرّ طرأ عليه حين مرّأها، حتى سمعته يقول بلهجة طبيعية لا أثر فيها من الماضي القريب الأسيف:

- مساء الخير.

فغمغمت:

- مساء الخير يا سيدي...

وذهب إلى الحجرة وهي في أثره رافعة يدها بالمصباح، وبدأ يخلع ملابسه صامتاً فتقلّمت منه لمعاوته وياشرت عملها وقلبها يردّد أنفاس الراحة.

ومع أنّها ذكرت صباح القطيعة المشتم حين نهض لارتداء ملابسه وقال لها ببغضاء «سأرتدي ملابسني بنفسني» إلّا أنّ ذكره خطرت عارية عن أحاسيس الألم والياس التي غشيتها وقتذاك، وشعرت وهي تتعمّده بهذه الخفّة التي لم يسمح بها لسواها بأنّها تستردّ أعزّ ما تملك في الوجود. واتّخذ مجلسه على الكتبة فترجعت على الشلّة عند قدميه دون أن ينبس أحدهما بكلمة، وكانت تتوقّع أن يشيع «الماضي الأسيف»، بكلمة، نصيحة أو تحذير أو ما شابه ذلك، وعملت لذلك ألف حساب ولكنّه سألها ببساطة:

- كيف حال أمك؟

فأجابته وهي تتنهد بارتياح:

- بخير يا سيدي وتبدلك التحية والدعاء.

ومضت فترة صمت أخرى قبل أن يقول فيها يشبه علم الاكتراث:

- حرم المرحوم شوكت فاتحتني برغبته في اختيار عائشة زوجًا لحليل.

فرفعت إليه أمانة عينيه في دهشة ناطقة بأثر المفاجأة، ولكنّه هزّ كتفيه استهانة، وكأنّما خاف أن تدلي برأي يتفق أن يكون موافقًا لقراره الذي لم يعلم به أحد فنقوم عندها شبهة ظنّ بأنّه أخذ برأيها فسبق قائلًا:

- ففكرت في الأمر طويلاً فانتهتني بي التفكير إلى الموافقة، لا أريد أن أصترض حظّ البنت أكثر ممّا فعلت، والله الأمر من قبل ومن بعد.

٣٨

تلقت عائشة البشرى بفرح جدير بفئة تستشرف حلم الزواج منذ الصبا الباكر لا يشغلها عنه شاغل، وكادت لا تصدّق إذنيها حين زفّ إليها الخبر، هل حقًا وافق أبوها؟ هل بات الزواج حقيقة قريبة لا حلمًا ذا دعايات قاسية؟... لم يكن قد فلت على الحية التي منيت بها إلّا قرابة أشهر ثلاثة، ومع أنّ وقعها في نفسها كان شديدًا قاسيًا إلّا أنّه مضى ويهون حتّى أمسى ذكرى شاحبة تستثير - إذا استثيرت - حزنًا رقيقًا

غير ذي خطورة، كلّ شيء في هذا البيت يخضع خضوعًا أعمى لإرادة عليا ذات سيطرة لا حدّ لها هي بالسيطرة الدنيئة أشبه، حتّى الحب نفسه - بين جدرايه - يسترقّ خطاه إلى القلوب في حياء وتردد وعدم ثقة بالنفس، فلا يتمتّع بما يتمتّع به عادة من سطوة واستبداد، إذ لا استبداد هنا إلّا لتلك الإرادة العليا، ولذلك فعندما قال الأب «لأه استقرّ قوله في أعماق نفسها وأمنت الفتاة إيمانًا راسخًا أنّ كلّ شيء قد انتهى حقًا، لا مهروب ولا مراجعة ولا رجاء نافع، كأنّ «لأه» هذه حركة كونية كاختلاف الليل والنهار، غير مجرّد أيّ اعتراض عليها، ولا عيب من اتّخاذ موقف موافق لها، وعمل هذا الإيمان من ناحيته - بشعور وبغير شعور منها - على إنهاء كلّ شيء فانتهت، هل أنّها تسامحت فيها بينها وبين نفسها: إذا كانت الموافقة على زواجها قد تمّت ولمّا ينقض على الرضخ السابق ثلاثة أشهر فلم تكن من نصيب الشاب الذي هفا فؤادهما إليه؟... ألا ينطوي حظّها السعيد نفسه - تبعًا لذلك - على معاكسة غير مفهومة؟ بيد أنّه تساؤل ظلّ في طيّ الكتمان، لم يتكلّم عليه أحد ولا أمّها نفسها، لأنّ إعلان الفرح بالعريس - كشخصيّة معنويّة فحسب - عذّ استهتارًا بجاني الحياة، فما بالك بإظهار الرغبة في رجل بالذات! ولكن بالرغم من هذا كلّهُ، وبالرغم من أنّ العريس الجديد كان مجهولًا لديها إلّا فيها حدّثت عنه أمّه في جملة حديثها عن أسرته فقد سعدت بالبشرى إجماع سعادة، ووجدت عواطفها الظلمة قطبًا تنجذب إليه في هيئتها، كأنّ حيّتها نوع من «القابلية» أكثر منه تعلقًا برجل بالذات، فإذا استبعد رجل وحصل عمّله آخر ظفرت قابليّتها بما يشيعها، ومضى كلّ شيء في سبيله، وقد يكون رجل آثر عندها من آخر ولكن ليس إلى الحدّ الذي يفسد معه طعم الحياة أو يدفع إلى التمرد والعصيان، ولسّا طابت نفسًا ورقّ قلبها رفيف الغبطة انبعث منها نحو اختها - كشأنها في مثل هذه الحال - عطف ورحمة غير مشويين، فوفّدت لو أنّها سبقتها إلى الزواج، وقالت لها بين الاعتذار والتشجيع:

فيا يتعلّق بالعواطف - عادة متأصلة وضرورة أخلاقية طبعت عليه في ظلّ الإرهاب الأبويّ، وبين الحق والامتناع من ناحية والكتان والنظاير بالرضى من ناحية أخرى لاقت من حياتها عذاباً متصلاً وجهذاً مطوّداً. وأبوها؟ ماذا عدل به عن رايه القديم؟ أهانت عليه بعد إعزاز؟ هل نفذ صبره في انتظار زواجها ففّرّ التضحية بها وتركها للأقدار؟ لشّد ما تعجب لتخلّهم عنها كأنها شيء لا يكون، نسيت في ثورتها مواقفهم السابقة في الدفاع عنها فلم تذكر إلاّ وخيانتهم الأخيرة، عل أنّ غضبيتها العاتية هذه لم تكن شيئاً بالقياس إلى ما تجمّع في صدرها نحو عائشة من مشاعر الغيرة والحقد! كرهت سماعتها، وكرهت أكثر مداراتها لهذه السعادة، وكرهت جمالها الذي بدا في عينها أداة تنكيل وتعذيب كما يبدو البدر الساطع في عين المطارد، ثم كرهت الحياة التي لم تعد تدخّر لها إلاّ اليأس، وتتابعت الأيام لتزيدها حزناً على حزن بما حملت إلى البيت من هدايا العريس ونفحاته وما نشرت في الجوّ كلّهُ من بواشع الغبطة والفرح فوجدت نفسها في غربة موحشة تتوالد فيها الأشجان كما تتوالد الحشرات في البركة الأسنة، ثمّ شرع السيّد في تجهيز العروس فاستأثّر حديث الجهاز بجلّسات الأسرة المسائيّة، تعرّض عليها أنواع من الأثاث والسيّارات فططري شيئاً وتعرّض عن شيء، توازن بين لون ولون، في اهتمام نسوا فيه الشقيقة الكبرى وما يجب لها من عزاء ومجاملة، وحقّ هي نفسها اضطّرت - مجازاة لما تتظاهر به من رضى - إلى المشاركة في نشاطهم وحماهم ومناقشتهم التي لا تنتهي. بيد أنّ هذا الموقف العاطفيّ المقدّ، الذي يبدو لعين الغريب عن الأمرة كندير شرّ لا تحمد عواقبه، تغرّ فجأة حين أنّهم التفكير إلى تفصيل ثياب العروس وبالتالي حين تعلّقت الأبصار بخديجة وتركّز فيها الاهتمام كلّهُ والأمل كلّهُ. وقد توقّعت هذا الواجب كاملاً لا مفرّ منه، بمنحها قبوله أشدّ الحق ولا يسمها رفضه وإلاّ فضحت خبيثتها، ولكنّها حين تطلّعت إليها الأبصار فأوصعتها أنّها بائنة خيراً ورنّت إليها شقيقتها بعين ملوّهة الحياء والرجاء

- وددت لو تقدّمتني إلى بيت الزوجيّة!... ولكنّها القسمة والنصيب، وكلّ أت قريب.

ولكنّ خديجة - التي تضيق عند المزجّة بعزاء العطف - تلقت قولها بامتناع شديد لم تحفّ عليها. وقبل ذلك اعتدلت لها أمّها قائلة برقتها وحيثانها المهودين:

- تخيّنا جيماً أن يكون دورك السابق - وعملنا على هذا أكثر من مرّة، ولكن لعلّ عنادنا فيها ليس لنا فيه من حيلة هو الذي عاق حقلّك إلى اليوم، فلندع الأمور تسير كما يشاء الله، وكلّ تأخيرة فيها خيرة.

ووجدت من ياسين وفهمي نفس العطف يدياناه تارة بالكلام المباشر، ويصدوان عنه تارة أخرى فيها يحيطانها به من جملة حلت - ولو إلى حين - عمل المزاج الغارص الذي كان مألوفاً بينها وبينها وبين ياسين خاصّة، الحقّ أنّه لم يعدل حزنها على سوء حظّها إلاّ نرفزتها من العطف الشائع في جوّها لا لتغور من العطف مرّكب في طبعها، ولكن لأنّ مثلها مثل المصاب بالأنفلونزا يضار بالتعرّض للهواء الطلق الذي ينعشه عادة وهو صحيح، فما كانت تأبه لعطف تعلم أنّه بديل غير مجرّد لأمل ضائع، ولعلّها ارتابت - إلى هذا كلّهُ - في البواشع التي تدفعهم إلى إغداق العطف عليها، ألم تكن أمّها الواسطة دائي بين الخاطبات وبين أبيها؟ فمن يديها أنّها كانت تقوم بالوساطة أداء لواجب ربة البيت لا سعيّاً وراء رغبة خفية في تزويج عائشة؟ أوّليس فهمي هو الذي حل رسالة ضابط قسم الجليّة؟... ألم يكن بوسعه أن يعدل به عن رايه من وراء وراء؟!

أوّليس ياسين... ولكنّ بائي وجه تلوم ياسين وقد خائنا من هو أقرب منه إليها؟... فائي عطف هذا؟ بل أيّ رياء وأيّ كذب! لذلك برمت بالعطف، وذكرته به الإسماء لا الإحسان، فامتلات حقّاً وامتعاضاً ولكنّها طوتها في الأعناق أن تظهر بمظهر الكاره لسعادة أختها أو تعرّض نفسها - هكذا صوّرها - سوء ظنّها. لشاشة الشامتين، على أنّه لم يكن لها عيد عن كتان عواطفها لأنّ الكتان في هذه الأسرة - خاصّة

وقال فهمي لعائشة على مسمع منها: «لن تكوني عروساً حقاً حتى تحيك لك خديجة ثياب العرس»، وقال ياسين معلّفاً على قوله: «صدقت... هذه الحقيقة فوق الجدل»، حين حدث هذا كله فترحتها وغفل ثورتها الحياء فظفت عواطفها الطيبة المطمورة، كما يستخرج الماء الملبب الأخضر من البلور الكامنة تحت الطين، ولم ترتّب في بواعث هذا الاهتمام كما ارتابت من قبل في بواعث المطف «والزائف» لشعورها بصدقها من ناحية ولأنه أنجه إلى براعتها التي لا شك فيها من ناحية أخرى. فكانه اعتراف بجمع باهيتها وخطورة شأنها، ويأن هذه السعادة - التي أبت أن تكون من نصيبها - لن تستكمل عناصرها حتى تسهم هي فيها، فاستقبلت العمل الجديد بنفس تحفّفت إلى أقصى حدّ ممكن من انفعالاتها السوداء، إنّ الانفعالات السوداء تلمّ بهذه الأسرة كما تلمّ بغالبية البشر ولكنها لا تظهر منها بقلب أسود فترسب فيه وتستقرّ. منهم من قابليته للغضب كقابلية الكحول للاشتعال، ولكن سرعان ما يسكت عنهم الغضب فتصفو نفوسهم وتعفو قلوبهم كمايام من شتاء مصر يطلقهم سحابيا حتى تمطر رذاذاً، وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى تنفث السحب عن زرقة صافية وشمس ضاحكة. لا يعني هذا أنّ خديجة نسيت أحزانها ولكن الساحة صفّتها من الضخينة والحقد، ويوماً فيوماً لم تعد تعتب على عائشة ولا على أحد من أهلها بقدر ما عتبت على بختها حتى نصمت في النهاية هذا لامتعاضها وتلعّرها، ذلك البخت الذي فوّت عليها في الحسن وأجل زواجها حتى جاوزت العشرين وكثر غداها بالقلق والمخاوف، واستسلمت أخيراً - كماها - للمقادير. عجز جانبها الخامي الموروث عن أبيها، كما عجز جانبها المعقد المكتسب من موقفها حيال بيتها، عن معالجة حفلها العائر، فوجدت السلامة في أن تلوذ بالجانب السلمي الموروث عن أمها فاستسلمت للمقادير؛ كالفائد الذي تبييه الحيل عن بلوغ الهدف فيختار موقفاً ذا حصانة طبيعية ليشت فيه فوله، أو يدعو إلى الصلح والسلام. وراحت تشكو بنّها في الصلاة ومناجاة الرحمن. والحق

أنّها كانت - منذ صباها - تجاري أمّها في تدينها وعافلتها على الفرائض بمثابة دلت على بقطة عاطفتها الدينية، لا كعائشة التي تلمّ بالعبادة في نويات حساسة متباعدة ولا تطيق المداومة عليها، وطالما تعجّبت خديجة - وهي بمعرض المقارنة بين حفلها وبين حقل اختها - من سوء الجزء الذي تثاب على إخلاصها، وحسن الجزء الذي تثاب به الأخرى على تنهاؤها... «إنّي أحافظ على الصلاة أمّا هي فلم تطلق المحافظة عليها يومين متتاليين، وإنّي أصوم رمضان كله وأمّا هي فتصوم يوماً أو يومين ثمّ تظاهر بالصوم على حين تنسلّ غفياً إلى المخزن فتملأ بطنها بالثقل حتى إذا أطلق مدفع الإنطار هرعت إلى المائدة قبل الصائمين!... وحتى من ناحية الجسار لم تسلم لعائشة بدون قيد ولا شرط، نعم إنّا لم نجهر برأيها لأحد، بل لعلها توتر كثيراً أن نتجاهم نفسها بنفسها لتقطع الطريق على المتحمّزين ولكنها كانت تطيل النظر إلى وجهها في المرآة وتناجي نفسها قائلة: «عائشة جميلة بلا شك ولكنها نحيلة، السمعة نصف الجبال، أنا سميّة، واكتناز وجهي يكاد يغطي على كبر أنفي، لم يبق إلّا أن يشدّ بخي حيله». على أنّها فقدت لفتها بنفسها في الأزمة الأخيرة، ومع أنّها عاودت كثيراً تلك المناجاة عن الجبال والسمعة والبخت إلّا أنّها عاودتها هذه المرّة لتدري - أمام نفسها - إحساسها المقلق بعدم الثقة كما تلجأ أحياناً إلى المنطق لنستمد منه الطمأنينة على أمور - كالصحة والمرض والسعادة والشقاء والحب والكراهية - لا تمتّ إلى المنطق بسبب... ولم تنس أمينة - رغم كثرة مشاغلها كأمّ العروس - خديجة، أو أنّ فرحها للعروس كان يذكرها بحزنها على اختها كما تذكّرنا الراحة التي نحظى بها بفعل غشّر بالألم الذي سيعودنا بعد حين، وكان زواج عائشة قد أثار مخاوفها القديمة عن خديجة فأرسلت - التماساً للطمأنينة من أيّ سبيل - أمّ حنفي إلى الشيخ رءوف بالباب الأخضر حاملة مندبل خديجة ليقرا طالعها. وعادت المرأة بنوع من البشري فقالت لسيّدتها إنّ الشيخ قال لها «مستحلمين إليّ رطلين من السكر عمّا

العَوادة مغازلة خرج بها من دور التحضير - ملازمة قهوة سي علي مساء والنظر والسير وراء عربة الكارو والابتسام وقتل الشارب وتلعيب الحالب - إلى دور المفاوضة والتأهب للعمل - حدث ذلك في عطفة التريعة الطويلة الضيقة المسقوفة بالخيش الملتوية ذات الدكاكين الصغيرة المتلاصقة على الجانبين كخلايا النحل - ولم تكن التريعة بالجديدة عليه، كيف وهي سوق النسوان من جميع الطبقات يتقاطرون عليها لابتياح ما خف حمله وجلت فوائده من مختلف صنوف العطارة ذوات البهجة والجلال والشفع، فهي هذه كلها خلا طريقه من هدف يجده إليه، وهي مراحم صباح الجمعة يقطعها متمهلاً - بحكم الزحمة والرغبة معاً - من طرف إلى طرف كأنها يستعرض الدكاكين لانتقاء حاجته وهو في الحقيقة يتفحص الوجوه والأجسام وما تنحسر عنه البراقع وما تفتيق به الملاءات، ما يرى جملة وما يرى تفصيلاً، ما يسلمع هنا وهناك من روائح زكية، ما يندّ من حين لآخر من أصوات أو يوسوس من ضحكات، ملتزماً حادثة حلود الأدب لغلبة العناصر الطيبة على الزائرات، قائماً بالمشاهدة والموازنة والتنفذ، لافطاً من السرثيات صورا مئازة يزين بها متحف ذاكرته، لا يفوق سعادته إذا غفر بلون بشرة صافي لم يره من قبل، أو يلمحظ عين لم يتعرض لثله، أو للذي عجيب في عبوده، أو لعجيزة خرقت المألوف في ضخامتها أو حسن تكوينها فيرجع مرة وهو يقول «فاز بالسبق اليوم نهد السّت التي كانت واقفة أمام الدكان القلائي» أو «هَذَا يوم الكفّل الراي رقم ٥٥» أو «يا لها من حقبة ويا لها من حقبة... هَذَا يوم الحفّالِبِ المشرقة» إذ تآلى به مزاجه إلى التهاكل على جسم المرأة متجاهلاً شخصيتها ثم إلى تركيز العناية في أجزاء من الجسم متجاهلاً مجلته، وكأنه في هذا كله ينعش آماله ويحدها أبداً كرجل لا يقمّ على النسوان غاية في دنياه - عند الفرس المحتملة المخرّعة ليوم أو لغد، إلى ما يسمح له في هذه الجولات الجنسية من صيد طيّب في أسواق نادرة، ففي ذات أصيل - وهو يجلسه تحت الكوة بقهوة سي علي - رأى العَوادة تغادر

قريبه ومع أنّها لم تكن أوّل بشرى من هذا النوع نزف إليها من خديجة إلا أنّها أمّلتها خيراً ورحبت بها كمسكن للغلق الذي لا يزِيلها...

٣٩

«ألم يشن الأوان يا بنت المركوب؟» دُبتْ يا مسلمين، دبت كالصابونة ولم يبق منها إلا رغوة، هي تعلم بهذا ولا تريد أن تفتح النافذة، تدلّك... تدلّك يا بنت المركوب، ألم تنقّ على هذا الميعاد؟ ولكن لك حق... فسرّة لثدي من صدرك تكفي لحسراب مألطة... وفردة تالية تطلّز معّ هندنبرج، عندك كنز، ربّنا يلفف بي، ربّنا يلفف بي ويكفل مسكين مثلي يؤرّقه اللثدي الناهد والعجيزة المسلمجة والعين المكحولة، العين المكحولة في الآخر، إذ رُبّ ضرورة ربّ الروافد كاحب اللثدين خير ألف مرة من عصفاء مسحاء مكحولة العينين، يا بنت العالة وجارة التريعة... تلك لفتك أصول الدلال وهذه تمسّك بأسرار الجبال، لهذا يندب لثديك من كثرة مَنْ عبث بها من العشاق، اتّفقتنا على الميعاد لست أحلم، افتحي النافذة، افتحي يا بنت المركوب، افتحي يا أجل من اقشعرّت له سرتي، ومضّ الشفة ورضع الحلمة لانتظرن حتى مطلع الفجر، ستجدني طوع بنانك، إن أردت أن أكون مؤخّر عربة الكارو التي تتأرجحين عليه أكنّه، إن أردت أن أكون الحمار الذي يجرّ العربة أكنّه، يا وقعتك يا ياسين، يا خراب بيتك يا بن عبد الجواد، يا شاة الأسترلّين فيك... يا أنا يا طريد الأزبكية وحبيس الجليّة، الحرف يا هو، شتّها غليوم في أوربا ورحت ضحيتها أنا في النحاسين، افتحي النافذة يا روح أمك، افتحي يا روحي أنا... هكذا جعل ياسين يحادث نفسه وهو جالس على الأريكة بقهوة سي علي، وعيناه تنظّمان إلى بيت زبيدة العالة خلل الكوة المطلّة على الغوريّة، كلّما شكّه الجزع غرق في أحلامه وخوابه فترقه جزعه وتبيّج أشواقه معاً، كبعض النّموات الطيبة التي تعالج الأرق وتنعّب القلب، كان قد تقدّم خطوة في مغازلة زئوبة

هل للعشق لوازم أيضًا؟ فقال وهو يقالب الضحك
 «هي ولوازم اللقاء شيء واحد» «بلا زيادة ولا
 نقصان؟» «بلا زيادة ولا نقصان» «ولا واحدة طالعة
 ولا واحدة نازلة؟» «...» «لا واحدة طالعة ولا واحدة
 نازلة» «ولعلها التي يسقونها الزنا؟» «ويلحمة وعظمه»
 فندت عنها ضحكة، قالت «أثقفنا... انتظر حيث
 تنتظر كل مساء بقهوة سي عليّ وعندما أفتح النافذة قم
 إلى البيت». انتظر مساء ومساء ومساء، مساء خرجت
 مع الجوقة على الكارو، ومساء ذهبت مع العالمة في
 حنطور، ومساء لم يتدّ على البيت أثر للحياء، وما هو
 ينتظر وقد أعيا أعصاب رأسه طول النظر إلى الشباك.
 ومَرَّ مؤبين من الليل فأغلقت الدكاكين وأقفر الطريق
 وشمل الغورية ظلام، ووجد - كما يقع له كثيرًا في
 إقفار الطريق وإظلامه مثارًا غريبًا لمكمن الشهوة في
 جسده فازداد جزعًا على جزع، بدّ أنه لكل شيء نهاية
 حتّى الانتظار الذي يبدو وكأن لا نهاية له فتراس إلى
 من ناحية الشباك المارق في الظلمة طقطقة نفخت في
 حواشيه روح أمل جديد كما تبتعث روح الأمل في نفس
 التائه في القطب إذا تراسى إلى سمعه أزيز الطيّارة التي
 يحس أنها جاءت للبحث عنه بين النلوج، ولاحظ
 فرجة يشع منها ضوء، ثم تنوّر شبح العوادة وسط
 الفرجة فقام من فورهِ وغادر القهوة عابِرًا الطريق إلى
 بيت العالمة ودفع الباب دون أن يطرّفه فانفتح كأن يدا
 رفعت مزلاجه فمرق إلى الداخل ليجد نفسه في ظلمة
 دامية لم يتّيد معها إلى موقع السّم فلزم موقفه ليامن
 الاصطدام أو العثار ووثب إلى رأسه سؤال لا يخلو من
 قلق: ترى أدمته زنوبة على غير علم من العالمة؟ وهل
 تبج لها العالمة الاجتياح بمشاقها في بيتها؟ ولكنه أبرز
 لسانه استهانة لأن رادعًا لم يكن ليعنيه عن مغامرة،
 ولأن ضبط عاشق في بيت تقوم جدرانها على مهج
 العاشقين ليس ممّا تحاذر عواقبه وانقطع عن التفكير
 حين لاح لعينيه ضوء شاحب يهبط من أعلى، ثم لمح
 يرتجّع على الجدران التي وضعت رويدًا فتبيّن موقفه
 على بعد ذراع من أولى درجات السّم عن يمينه، وما
 عَمَّ أن رأى زنوبة قادمة ويدها مصباح قمضى نحوها

البيت بمفردهما فنبض من توه وتبعها، وبالت إلى عطفة
 الترتيبة فيال وراءها، ثم وقفت أمام دكان فوقف إلى
 جانبها، وانتظرت حتّى يفرغ المطّار من بعض الزبائن
 فانتظرت ولم تلتفت ناحيته فاستدّت بذلك «التجاهل» على
 أنها فطنت لوجوده - كما لا بدّ أن تكون حدثت
 متابعته لها من بادئ الأمر - فهمس قريبًا من أذنها
 «مساء الخير» فواصلت النظر إلى الأمام إلّا أنه لمح
 بجانبها فيها انحراف ابتسامة ردًا لتحيته، أو مكافأة له
 على طول متابعته لها مساء بعد مساء، فتتهدّدت تهدّد
 الراحة والظفر مطعنتًا إلى جني ثمرة صبره فسأل لعاب
 شهوته كما يتحلب ريق الجائع ألهم إذا تطايرت إلى
 أنفه رائحة الشواء الذي يتيّأ له ورأى عن حكمة أن
 يتظاهر بأنّها جاد ممّا فلتى ثمن مشترياتها من الحنّاء
 والمخات عن طيب خاطر خليق برجل يؤمن بأنّه - بأداء
 هذا الواجب اللذيذ - يكتسب حقًا اللذّ وامتّع، غير
 مكترث لما بدا منها من الميل إلى الإكثار من المشتريات
 حين اطمانت إلى أنّه سيدفع الثمن. وفي طريق العودة
 قال لها بعجلة من يخاف وشك انتهاء الطريق «يا ستّ
 الحسن والجبال قميت العمر كما تشهدين ورامك،
 وجزاء المحب اللقاء فقط؟» فلحظته بنظرة شيطنة
 متسائلة في نهيم «اللقاء فقط؟» فكاد يضحك بروحه
 وجسمه كحالهِ إذا أخلته نشوة فرح ولكنه يبادر إلى
 إحكام إغلاق فيه أن يحدث ضجّة تلفت الأنظار
 وأجابه هامسًا «اللقاء ولوازمه» فقالت بلهجة انتقادية
 «الواحد منكم يطلب بكلّ بساطة (اللقاء)... كلمة
 صغيرة... ولكنه يعني بها عملاً ضخمًا لا ينال عند
 بعض الناس إلّا بالأسواق والشفاعاة وقراءة الفاتحة
 والمكهر والجهاز والمأذون، أليس كذلك يا حضرة
 الأنثدي الذي يضاهي الجمل طولًا وعرضًا؟» فتزوّد
 وجهه فيما يشبه الارتباك وقال «يا له من تأديب منها
 يكن من قسوته فإنه من شفتيك كالشهد، أليس هكذا
 العشق يا ستّ الحسن مد خلق الله الأرض ومن
 عليها؟» فقالت وهي ترفع حاجبها حتّى حاذيا طرف
 عروس البرقع فبلت كعسوب باسط جناحيه «ومن
 أدراي بالعشق يا جملي؟... لست إلّا عوادة، ترى

لثحت ومن تحت لفوق، ولكنه قبل أن يتخذ نية من عشرات النوايا التي اعتلجت في صدره قالت زئوبة كأنما تصل ما انقطع من حديثها:

- رجل لا نظير له في لطفه وطربه، أما كرمه فحدثت عنه من اليوم إلى الغد... فكذا يكون العشق والآ فلا...

لم يقب عنه ما في إشارتها إلى «كرم» عشيق العالة من معانٍ، ومع أنه سلم من بادئ الأمر بأن غرامه الجديد سيفرض عليه ضرائب باهظة إلا أن تلميحها - الذي بدا له مبتدلاً - ضابقه، فلم يسمعه إلا أن يقول مدفوعاً بغريزة الدفاع عن النفس:

- لعله رجل واسع الثراء!

فقللت وكأنتا تحببه على مناورته:

- الثراء شيء والكرم شيء آخر... رُبَّ ثريٍّ بخيل...

فتساءل لا عن رغبة في المعرفة ولكن نفاقاً من الصمت الذي خاف أن يفضح استيائه:

- ثرى من يكون هذا الرجل الكريم؟

فقللت وهي تدبر عجلة للمصباح لترفع فتيلته:

- إنه من حيناً ولا بد أنك تسمع عنه... السيد أحمد عبد الجواد...

- من...!

فالتفت نحوه ديشة ل ترى ما أفرعه فالتفت منتصباً القامة جاحظ العينين فسألته مستكراً:

- ما لك؟

كان تلقى الاسم الذي نطقت به كأنه مطرقة هوت بمنصف على يافوخه فندّ عنه التساؤل في نبرات صارخة من الفزع وهو لا يدري، وغاب حيناً حوله لحظات مليئة بالذهول، ثم تراءى له وجه زئوبة في حالة من الدهشة والإنكار فخاف افتضاح أمره وركز إرادته كلها في الدفاع عن موقفه فعمد إلى التمثيل يداري به فزعه ففرب كماً بكف كأنما لا يصدق ما قيل عن الرجل لظنه الوار به وتتم مستغرباً:

- السيد أحمد عبد الجواد... صاحب دكان

التحاسين؟

في سكرة من الشوق وضغط في حنان على ساعدها امتناً ورغبة حتى ضحككت ضحكة رقيقة أوحى على رقتها بأنها لا تحاذر، وتساءلت بمكر:

- طال انتظارك؟

فمسّ سوائفه بأنامله وهو يقول بصوت شاكٍ:

- شاب شعري الله يساعك (ثم بصوت خافت) الست هنا؟

فحاكت صوته الخافت على سبيل المزاح وقالت:

- نعم... في خلوة مع رفيق قد الدنيا...

- ألا تغضب إذا علمت بحضوري في هذه الساعة؟ فاستدارت وهي تمزّ منكبيها استهانة وريقيت الدرج وهي تقول:

- وهل أنسب من هذه الساعة لحضور عاشق مثلك؟

- إذا لا ترى بأشأ في اجتباينا بيتها؟

فحرّكت رأسها حركة راقصة وقالت:

- لعلها ترى كلّ البأس في عدم اجتباينا...

- عاشت... عاشت...

فاستطردت في لهجة تتمّ عن الفخار قائلة:

- لست عوادة فحسب، أنا بنت أختها، وهي لا تضمن عليّ بفال... تقدّم بسلام...

ولمّا بلغ الدهليز جاءها من الداخل صوت غناه لطيف يصاحبه عود ودقّ فأنصت ياسين قليلاً ثم تساءل:

- خلوة أم حفلة؟

فهمست في أذنه:

- خلوة وحفلة معاً، عشيق السلطنة رجل صاحب طرب ومزاج، لا يطلق أن يجلو مجلسه ساعة من العود والدفّ والكأس والضحك... عسى لك...

ومالت إلى باب ففتحه ودخلت وهو وراءها، ووضعت المصباح على كرنصول ثم وقفت أمام المرأة لتلقي نظرة فاحصة على صورتها فتناسى ياسين زبيدة وعشيقها الطروب وسدّد عينيه المنهومتين إلى الجسم المشتته الذي بدا لناظريه متجرّداً عن الملاءة لأوّل مرّة سدّدها بقوة وتركيز وحركتها في أناء وتلذذ من فوق

فحدجته بنظرة انتقاد مَرَّ لإزعاجها بلا سبب وسألته مستهزئة:

- نعم هو... فإذا استصرخك كأنك عذراء تُفَضُّ بكارتها؟

فضحك ضحكة آليَّة وقال كالداهش وهو يحمده الله في سرِّه على أنه لم يذكر لها اسمه كاملاً يوم التعارف:

- من يصدِّق عن هذا الرجل الوقور الورع؟ فرمته بنظرة ارتياب وقالت سائخة:

- أهذا ما أفرعك حقاً؟... ولا شيء غيره؟ أظننته من المعصومين؟... وماذا عليه من هذا؟...

هل يكمل الرجل إلا بالعشق؟... وقال بلهجة المعتل:

- صدقت... لا شيء يستحقّ الدهش في هذه الدنيا (ثم ضاحكاً في عصبيَّة) تصوّري هذا الرجل الوقور وهو يطارح السلطنة الغرام ويشرب الخمر ويطرب للغناء!...

فقلت وكأنّها تكمل حديثه بنفس لهجتها السائخة:

- ويلعب بالدفّ بيد ولا يد عبّوشة الدقّافة وينثر النكات كالدرر فيقتل من حوله ضحكاً، وليس عجيباً - بعد هذا تكلّم - أن يرى في دكانه مثلاً للجبّة والوقار... فالجبّة جدّ واللّهو، وساعة لربّك، وساعة لقلبك...

يلعب بالدفّ بيد ولا يد عبّوشة الدقّافة!... ينثر النكات فيقتل من حوله ضحكاً!... من عسى أن يكون هذا الرجل؟

أبوه السيّد أحمد عبد الجواد؟ الصارم الجبّار الرهيب الثقفي الورع؟ الذي يقتل من حوله رعباً؟ كيف يصدِّق ما سمعت أُنساء؟ كيف، كيف؟... ألا يكون ثمة تشابه في الأسماء والآ علاقة بين أبيه وبين هذا العاشق الدقّاف؟ ولكنّ زنوبة وافقت على أنه صاحب دكان والنّحاسين، وليس في النّحاسين من دكان تحمل هذا الاسم إلا دكان أبيه!... ربّاه هل ما سمعه حقيقة أو أنّه يهني؟ لشدّ ما يؤدّ أن يطالع على الحقيقة بنفسه، أن يرى بعينه دون وسيط، رغبة تملكته لحظّتها فبدأ تحقيقها

كأخطر شيء في الحياة ولم يستطع لها مقاومة فابتسم إلى الفتاة وهو يبرّ رأسه هزّة حكيم كأنّما يقول ويا لها من آيام كلّها عجائب! ثمّ سألها بلهجة من يلدغه حبّ الاستطلاع وحده:

- ألا تستطيع أن أراه من حيث لا يراي؟ فقالت معترضة:

- أمرك عجيب، وما الداعي إلى هذا التّجسّس؟ فقال يرجاه:

- منظر يستحقّ المشاهدة فلا حرمتني منه!... فضحكك باستهانة وقالت:

- عقل طفل في جسم جمل، أليس كذلك يا جلي؟... ولكن لا عاش من يثيب لك رجاء... أنزّو في الدهليز وسادخل عليها بطبق من الفاكهة تاركاً الباب مفتوحاً حتّى أرجع...

وغادرت الحجرة فتبعها على الأثر بفؤاد خائف وانزوى في ركن من الدهليز المظلم على حين تابعت العوادة سيرها إلى المطبخ، وبعد قليل عادت حاملة طبقاً من العنب فألجّبت إلى الباب الذي ينبعث منه الغناء ففترت عليه، وانتظرت دقيقة ثمّ دخلته ودخلت دون أن تغلقه وراءها، هناك بدا مجلس الطرب في صدر الحجرة تتوسّطه زبيدة محضنة العود وهي تلعب بالأوتار بأناملها وهي تغنيّ ويا مسلمين يا أهل الله وعلى كتب منها جلس «أبوه» دون غيره - وقد اشتدّ خفقان قلبه لدى رؤيته - متجرّداً من جيّته مشمّراً عن ساعديه راحشاً الدفّ بين يديه متطلّعاً إلى العالمة بوجهه يقطر بشاشة ويشرّأ. لم يلبث الباب مفتوحاً إذ رشا رجعت زنوبة، دقيقة أو دقيقتين، ولكنّه رأى فيها منظرًا عجيباً، حياة غامضة، قصّة طويلة عريضة، استيقظ في أعقابها الكاذبي يستيقظ من نوم طويل عميق على لقلعة زلزال عنيف، رأى في دقيقتين عمراً كاملاً ملخّصاً في صورة كمن يرى في حلم هنيهة صورة جامعة لأحداث شيء يستغرق وقوعها في عالم الحقيقة أعواماً طويلة، رأى أباه حقاً، أباه دون غيره من البشر، ولكن لا كما تعود أن يراه، فلم يسبق له أن رآه متجرّداً من جيّته في جلسة مريحة مناسبة مع

لوقوع شيء باعتباره بعيداً عن التصديق ما دمت المسه واقفاً! إنه هناك فمن السخف أن أتساءل ذاهلاً هل يمكن تصديق هذا. فلا صدق ولا تصيب... وماذا عليه من هذا! ولم يشعر إلى تفكيره بارتياح فحسب ولكنه فرح فرحة فاقت كل تقدير، لا لأنه كان بحاجة إلى مشجع ليواصل حياته الشهوية، ولكن لأنه - كأثرية الفارقين في الشهوات المحرمة - يستأنس إلى الشبيه، فكيف إن وجد في شخص أبيه - القدوة التقليدية - الذي طالما أعزجه، بشعور وبلا شعور منه، أن يجد نفسه وإياه على طرفي نقيض، تناسى كل شيء إلا فرحته، كأنها أعز ما ظفر به في حياته، وشعر نحو أبيه بحب وأعجاب جديدين - غير الحب والإعجاب اللذين اكتسبهما قديماً تحت ستار كثيف من الإجلال وال خوف. حب وأعجاب ينمان من أصياق النفس ويتطلعان بجسورهما الأولى، بل كأنها حب الذات والإعجاب بها شيء واحد، لم يعد الرجل بعيداً عزيز المنزل مغلق الأبواب ولكن دانياً قريباً، قطعة من نفسه وقلبه، أباً وابناً، روحاً واحداً، ليس الرجل الذي يعرش الدف في الداخل السيد أحمد عبد الجواد ولكنه ياسين نفسه، كما يكون وكما يجب أن يكون، وكما ينبغي أن يكون، لا يفرق بينهما إلا اعتبارات ثانوية من العمر والتجربة «هنيئاً لك يا والذي، اليوم اكتشفتك، اليوم عيد ميلادك في نفسي، يا له من يوم ويا لك من أب، لم أكن قبل الليلة إلا يتيماً، أشرب والعب بالدف لعباً، ولا يد عيشة الدفلة، إني فخور بك، هل تغني أيضاً يا ثري؟...»

- ألا يغني السيد أحمد عبد الجواد أحياناً...؟
- ألا زال فكرك مشغولاً به؟ يا ويل الناس من الناس!... بل يغني أحياناً يا جلي... يشترك في الهنك إذا سكر...
- وكيف صوته؟...
- غليظ جميل كعنته...

«إلى هذا الأصل ترجع الأصوات التي تغني في بيتنا، الجميع يفتنون، أسرة عريقة في الطرب، ليتني أسمعك ولو مرة، لا أحفظ لك في ذاكري إلا الزرع

سجيتها، ولا رأى شعره الفاحم ثائر الأطراف كأنما جاء يعدو حاسر الرأس، ولا رأى ساقه العارية كما لاحت على حافة الديوان تحت ذيل القفطان المنحصر، ولا رأى - إي والله - الدف بين يديه يعرش باعساً شخصته الراقصة المتفطع بالقر الرشيق، ولا رأى - ولعله أعجب ما رأى - هذا الوجه الضاحك المتألق الريان بالود والصفاء الذي أدخله كما دخل كمال من قبل حين رآه يضحك أمام الدكان يوم قصده مدفوعاً برغبته في الإفراج عن أمه، رأى هذا كله في دقيقتين، ولساً أغلقت زئوبة الباب وعادت إلى حجرها ليك بموقعه يستمع إلى الغناء وخشخشة الدف برأس دائر، نفس الصوت الذي استمع إليه حال دخوله البيت، ولكن أيّ تأثير اعتور الأثر الذي ينطق منه على نفسه، أيّ معاني وصور جديدة ينقلها الآن إلى وجدانه كرنين جرس المدرسة يشل له الطفل إذا سمعه وهو غريب عنها ويتقلب في أذنيه نليراً متاعب جمّة إذا سمعه وهو ضمن تلاميذها. وفرت زئوبة على الحجرة كأنما تدعوه ليلحق بها فافاق من غيبوته ومضى إليها وهو يحاول أن يتالك نفسه كيلا يبدو أمامها مضطرباً أو ذاهلاً فدخل وعلى شفته ابتسامة عريضة:

- هل أنساك نفسك ما رأيت؟!

فقال بلهجة تشي بالرضا والارتياح:

- منظر نادر، وغناء بديع...

- إنحب أن نفعل مثلها؟

- في ليلتنا الأولى؟... كلا... لا أحب أن

أخلط بك شيئاً آخر ولو كان الغناء نفسه!...

ولئن تكلم بادئ الأمر الحديث ليدو أمامها - وأمام نفسه على السواء - هادئاً طبيعياً فقد انتهى إلى الانهك فيه بلا تكلف ثم إلى استرداد حاله الطبيعية بأسرع مما قدر، كالذي يتصنع هيئة الباكي في مأثم فينخرط في البكاء. على أنه ربما عاودته الدهشة فجأة فيقول لنفسه «أعجب بها من حال من تحطّر لي على بال من قبل، أنا هنا مع زئوبة وإي في الحجرة القريبة مع زبيدة، كلانا في بيت واحد» ولكنه سرعان ما يبرّ كفيه ويستطرد في حديثه مع نفسه «كيف أحل نفسي مشقة العجب

والنهر، غنوك الوحيدة المشهورة بيننا ويا ولد- يا ثور- يا بن الكلب» أريد أن أسمع منك «الوداد في الملاح صُنّف» أو «حيّيت يا جميل» كيف تسكر يا أبي؟ كيف تعريد؟ ينبغي أن أعرف لأحتفي مثلك وأحيي تقاليدك، كيف تعشق؟ كيف تعانق؟... .

وانتبه إلى زُنوبة فراها أمام المرأة وهي تسوّي أهداب شعرها بأناملها وقد لاح ليطها من فرجة الفستان أمس ناصعاً يتصل منحدره بأصل عهد كقرصة العجين فسرت في بدنه سكرة الهياج وانقضّ عليها كأنه قبل ينقضّ على غزال... .

٤٠

وقفت ثلاث سيّارات سطوّح بتقديهما بعض الأصدقاء أمام بيت السيّد أحمد في انتظار العروس وحاشيتها لخمّلن إلى بيت آل شوكت بالسكّرية، كان الوقت أصيلاً وقد انصهرت أشعة شمس الصيف المائلة عن الطريق واستقرت على البيوت المواجهة لبيت العروس. ولم تكن ثمة مظاهر تدلّ على عرس، اللهمّ إلا الورد التي أزيّنت بها أولى السيّارات الثلاث فلفتت أنظار أصحاب الدكاكين القريبة وكثير من المارّة، ومن قبل ذلك اليوم ثمت لحظة ووردت الهدايا ونُقل الجهاز وعُقد القران فلم تنطلق من البيت زغردة أو تعلق ببابه زينة أو تشي بما يدور داخله علامة من علامات الأفراح المألوفة التي تفاخر الأسر بإعلانها في أمثال هذه المناسبات، وتتملّك بسوانحها لتضخّ عن مكنون حنينها للمسرة بالغناء والرقص والزغاريد، ثمّ كلّ شيء في صمت وهلهو فلم يلبّ به إلا الأقارب والأصدقاء وخاصّة الجيران، وأبى السيّد أن يتزحزح عن تزوّته أو أن يسمح لأحد من آل بيته بأن يتزحزح عنه ولو ساعة واحدة، وفي ظلّ هذا الجوّ الصامت غلادت العروس والمدعوّات البيت رغم احتجاج ألم حنفي على الحرجة الصامتة، فمرفت عاتشة إلى السيّارة في سرعة خاطفة كأنها تخاف أن يشتمل فستان العرس أو قناعه الحريري الأبيض الموكّي بالفلّ والياسمين تحت نظرات المتطلّعين، وتبعنها

خديجة ومريم وبعض الفتيات، واستقلّت الأم وبعض النسوة من الأهل والجارات السيّارتين الأخريين، على حين أخذ كمال يجلسه إلى جانب سائق سيّارة العروس، ورغبت الأم في أن يمضي الراكب إلى السكّرية عن طريق الحسين لتلقي نظرة جديدة على مقامه الذي كلّفها الشوق إليه قبل ذلك غاليها ولتستريح صاحب المقام البركة لعرسها الحسناء، فاخترقت السيّارات الطرق التي قطعتها هي ذلك اليوم مع كمال، ثمّ مالت إلى العنبرية عند المنطف الذي كادت تلتقي فيه حفها حتى وقفت بهنّ عند بوابة التوتلي أمام مدخل السكّرية الذي يضيق عن دخول السيّارات، وترجلن جميعاً ودخلن المظفة فطالعتن معالم الزينات وهرج واليهنّ غلمان الحارة هاتفين وتعالن الزغاريد من بين آل شوكت، أوّل بيت إلى يمين الداخل- حيث ازدحت نوافله بروس المظلات المزغردات، ووقف عند مدخله العرس لخليل شوكت وشقيقه إبراهيم شوكت ياسين وفهمي، وتقدّم خليل مبتسماً من العروس ومنحها ساعده فارتبكت ولم تبيد حراكاً حتى بادرت مريم إلى يدها فشبكها بساعده، ثمّ سار بها إلى الداخل مارّاً بهذاه الفناء المزدهم والورد والمليّس ينال على أقدامها وعلى أقدام من تبعها من حاشية العروس حتى وارهّن باب الحرم، ومع أنّ قران عاتشة لخليل تمّ قبل ذلك اليوم بشهر أو أكثر إلا أنّ منظر اشتباكها وسيرهما معاً لاقى من ياسين وفهمي- والأخير خاصّة- دهشة مقرونة بالحياء وشعوراً بالإنكار أشبه كأنّ جوّ أسرته لا يهضم حتى طقوس حفلات الزفاف المشروعة، وبدا هذا الأثر بصورة أوضح عند كمال الذي جعل يجلب أمّه من يدها في انزعاج وهو يشير إلى العروسين اللذين يتقدّمان الجميع على السلم كأنه يستعديهما على دفع شرّ فطيع، وخطر للثابّين أن يسرقا النظر إلى وجه أبيهما ليريا أيّ أثر تركه ذاك المنظر الفريد، فشملاً المكان بنظرة سريعة ولكنّها لم يبقا له على أثر، لم يوجد عند المدخل، ولا فيما يلي هذا من فناء البيت الذي اصطبقت به الأرائك والمقاعد وأقيمت في صدره منضّة

إلى الجلوس بين أفراد تحتها، وبهذا وغيره جذب الأنظار إليه فأخذت المدعوّات في مداعبته، ولكن أمّه لم ترتع إلى الضجّة التي أثارها، وآثرت على كره منها - إشفاقاً على البعض من عبثه وإشفاقاً عليه من أمين المعجبات - أن تحمله على مغادرة المكان، انضمّ إلى مجلس الرجال، وتردّد بين الصنفوف، ثمّ وقف بين فهمي ويامين حتّى ختم صابر دور بس له تعشق يا جميله واستأنف تجواله حتّى مرّ بالمنظرة فأغراه حبّ الاستطلاع بالنظر إلى داخلها فمدّ رأسه وما يدري إلاّ وعينه تلقيان بعيني والده فتستمرّ في مكانه وعجز عن استردادهما، ورأه أحد أصدقاء أبيه - السيّد محمّد عفت - فناداه فلم يجد بداً من تلبية النداء ليتنادى من إغضاب أبيه فتدان من الرجل على كره وخوف حتّى وقف أمامه منتصب القامة مضوم اللراعين إلى جانبيه كأنّه عسكريّ في طابور، وصافحه الرجل قائلاً:

- ما شاء الله... في أيّ سنة يا عمّ؟

- سنة ثالثة رابع...

- هال... هال... سمعت صابر؟

ومع أنّه كان يجب على أسئلة محمّد عفت إلاّ أنّه راضى من بادئ الأمر أن تكون إجاباته بحيث ترضي أباه... فلم يُلز كيف يجب على السؤال الأخير أو أنّه تردّد قبل أن يعدّ الإجابة ولكنّ الرجل بادره متلفظاً:

- ألا تحبّ الغناء؟

فقال الغلام بتوكيد:

- كلّ...

ويدا من بعض الحاضرين ما يدلّ على أنّهم سيملقون على هذه الإجابة - آخر ما ينتظر من شخص ينتمي إلى عبد الجواد - مازحين، ولكنّ السيّد حلّهم بعينه فأمسكوا، أمّا السيّد محمّد عفت فعاد يسأله:

- ألا تحبّ أن تسمع شيئاً؟

فقال كمال وهو يلحظ أباه:

- القرآن الشريف.

فتعالت أصوات الاستحسان وسمح للغلام بالانصراف فلم يتألّ له أن يسمع ما قيل عنه ورأه ظهره حين فقهه السيّد الفار قائلاً:

الغناء. والواقع أنّ السيّد خلا إلى نفر من خاصّة أصدقائه بمنظرة الغناء فلم يفارقها مذ حلّ بالبيت مصبّاً على الآ يفارقها حتّى ختام الليلة مبتعداً بنفسه عن والجمهوره الصاحب خارجها، لم يكن أشدّ إحراجاً لنفسه من الظهور بين آله في ليلة زفاف، إذ لا يرضى أن ينشر فوقهم رقابته في يوم خالص السرور، ولا يطيق من ناحية أخرى أن يشهد عن كتب انطلاقهم مع دواعي الفرح، وفضلاً عن هذا وذاك لم يكن أكره لديه من أن يرى - بينهم - على غير ما عهدوا من وقار صارم، ولو كان الأمر بيده لتمّ الزفاف في صمت شامل ولكنّ حرم المرحوم شوكت وقفت من اقتراحه في هذا الشأن موقف معارض لا تلين صلابته، وأبّت إلاّ أن تحبّها ليلة حافلة فاتفقت على إحيائها مع العالة جليّة والمغنيّ صابر، وبدا كمال لفرط ابتهاجه عما أتيح له من حرّة وسرور كأنّه عريس الليلة، وكان أحد أفراد قلائل أبيض لهم التنقل كيفشا شاعوا بين الحريم في الداخل وبين مجلس الطرب في فناء الدار، لبث طويلاً مع أمّه بين النساء منقلاً طوّفه بين زيتن وحليهن مصنّياً إلى دحابهنّ وأحاديثهنّ التي يستأثر الزواج بخلصتها، أو منصّاً معها إلى العالة جليّة التي تصدّرت البهر كالمحمل ضخامة وزينة وراحت تنشد الطفاطيق وتعاقر الشراب جهازاً، فاستأنس إلى الجوّ الضاحك لغرابته وجاذبيّته - والأهمّ من هذا كلّ -

لوجود عائشة على حال من التبرّج لم يعلم بها من قبل، وشبّهته أمّه على البقاء ليظّل تحت رعايتها، بيّد أنّها عدلت عن موقفها بعد حين واضطّرت إلى أن تحفّه همساً على الانتقال إلى مجلس أخويه لأمور لم تتوقّع حلولها، من ذلك ما بدا من اهتمامه بمائشة، بفستانها حيناً وبزوايقها حيناً آخر، فخيف منه على هندامها، أو ما بدر منه من ملاحظات صبيانيّة صريحة نحو بعض السيّدات كما هتف بأمره مرّة وهو يشير إلى امرأة من آل العريس قائلاً: «انظري يا نينة إلى أنف هسله السّت... أليس أكبر من أنف أبله خديجة أو ما فاجأ به الجميع وجليّة تغني من الاشتراك مع التخت في ترديد «يمامة حلوة... ومنين أجيبها» حتّى دعت العالة

الراهن ينسى أشياء ما كان يتصور أن ينساها لحظة
ولكن خاسطرة الأسمى تفتش فؤاده الجليل كما تفتش
السحابة الصغيرة وجه القمر في ليلة صافية السماء،
ومن عجب أنه سروره بالغناء في تلك الليلة فائق أي
سرور عداه، كاللعب مع الغليان أو مشاهدة النساء
والرجال في مسرحهم المطلق أو حتى عيش السراي
والأمطية على مائدة العشاء، ولئن أدهش اهتمامه
الجذبي يسامح جليلة وصابر - الذي لا يتفق مع منه -
كل من لاحظ من النساء والرجال، فلم يدهش أحدًا
من أسرته التي تعرف سوابقه في الغناء مع معلمته
عائشة كما تعرف حُسن صوته الذي تعلمه أحسن
أصواتها بعد عائشة وإن كان صوت الأب - الذي لا
يسمعونه إلا مزجراً - أحسنها جميعاً، وقد استمع كمال
طويلاً إلى جليلة وصابر ولكنه على غير المتظر وجد
غناء الرجل وعزف تحته أحب إلى قلبه وأخذ لنفسه،
فرسخت منه في ذاكرته جمل غنائية مثل «تمشق
ليه... عشان كده» جمل يرتداه بعد ليلة الزفاف
طويلاً في سقفة اللبلاب والياسمين فوق سطح بيتهم،
وشاركت أمية وخديجة كمال في بعض ما أتبع له من
أسباب السرور والحرية، فلم يسبق لها - مثله - أن
شهدنا ليلة كذلك الليلة بما حفلت من أنس وطرب
ومرح، وأصبح أمينة خاصة ما لاقت من الرعاية
والمجاملة بصفتها أم الصروس، هي التي لم تنعم في
حياتها برعاية أو مجاملة، حتى خديجة اختفى همها في
أنوار الفرح كما تختفي الظلمة عند إشرق الصباح،
نسيت أحزانها بين الضحكات الناعمة والأنغام العذبة
والأحاديث الطليّة، وازدادت لها نسياناً بفضل حزن
جليد خالص الطوّة منشؤه شعورها بفراق عائشة
والشيخ، شعور أثمر حباً وعطفاً خالصين فتواترت
الأحزان القديمة أمام الحزن الجديد كما تتوارى الأحقاد
أمام الأرمية، أو كما يقع لشخص حيال آخر يحب منه
جانياً ويكره جانياً أن تتوارى - ساعة الفراق مثلاً -
الكرامية بجانب أم الحزن على الجانب الآخر، هذا
إلى ما شاع في نفسها من ثقة حين تبدّت في زينة
أضقت حل جسمها ووجهها سواء لغت إليها أنظار

- إن صبح هذا فالغلام ابن زنا
فضحك السيد أحمد عبد الجواد وقال وهو يشير إلى
حيث كان يقف كمال:
- هل رايتم أمكر من ابن الكلب يدعي التقوى
أمامي... رجعت مرة إلى البيت فترامى صوته وهو
يغني «يا طير يا لي على الشجرة».
فقال السيد علي:
- آه لو رأيته وهو ينصت بين أخويه إلى صابر
وشفته تتحركان مع الغنلة في انسجام تام ولا انسجام
أحمد عبد الجواد نفسه.
على حين خاطب محمد عفت السيد أحمد متسائلاً:
- المهم أن تخبرنا هل أعجبك صوته في دور «يا طير
يا لي على الشجرة»؟
فضحك السيد قائلاً وهو يشير إلى نفسه:
- ذاك الشبل من هذا الأسد.
فهتف الفار قائلاً:
- الله يرحم البلوة الكبيرة التي أنجبتكم.
غادر كمال النظرة إلى الحارة وكأنه يفيق من كابوس
ووقف بين الغليان الذين ازدحم بهم الطريق، وما
لبث أن استعاد ارتياحه فتعشى مزهواً بمجالبسه
الجديدة، مغتبطاً بحرفته التي جعلت من المكان كله -
فيها عدا المنظرة المخيفة - مجالاً مباشراً لتقديمه دون
معتز أو رقيب، فأتى ليلة هذه في الزمان! شيء
واحد جعل ينقص عليه صفوه كلها خطر على فؤاده هو
انتقال عائشة إلى هذا البيت الذي باتوا يدعونه «بيتها»
هذا الانتقال الذي نفذ على رغمه دون أن يستطيع
أحد إقناعه بوجاهته أو فائدته، تسامد طويلاً كيف
سمح أبوه به وهو الذي لا يسمح لظُل امرأة من آله
بأن يلوح وراء خصاص النافذة فتلقى الجواب ضحكاً
عالياً، وسأله أنه في عتاب، كيف تفرط في عائشة لحذ
الزول عنها للغير فأجابته بالله سيكر يوماً ويأخذ مثلها
من بيت أبيها فتشج إليه بالزغاريد، وسأل عائشة هل
يسرها حقاً أن تهجرهم فأجابته أن لا، ولكن الجهاز
حمل إلى بيت الرجل الغريب ولحقت به عائشة التي لا
يطيب له الرئي إلا من موقع شفتيها، حقاً أن الفرح

واراها باب الحريم، ثم عاد إلى مجلسه مزلول النفس كأنه قارب تعرض بئته لإعصار، بيد أنه كان قبل رؤيتها هادئ النفس لاهياً بشجون السم شأن السالي الناسي، والحق تمرّ به أوقات فيجد نفسه على هذه الحال من السلو والنسيان كأن قلبه يستجمّ من العناء، ولكن ما إن تخطر خطرة أو تغفو ذكرى، أو يجري اسمها على لسان، أو... أو، حتى يخفق فؤاده ألياً، ويفرز الحسرة تلو الحسرة كالفرس المسوس الملتهب تجهي عليه فترة فيسكن الله حتى إذا هرس لقمة أو مسّ جسداً صلباً انفجر به الألم، وهناك يقرع الحب أضلعه من الداخل كأنما يروم متنفّساً، صالِحاً باعل صوته أنه لا زال حبيساً لم يطلق سراحه العزاء أو النسيان. طالما غنى لو يعمى عنها الراغبون حتى يستوي على قلعيه رجلاً حرّ التصرف في تقرير مصيره، وقرب أمنته كسر الآثام والأسابيع والأشهر دون أن يتقدّم لها مخاطب، ولكنّه لم ينعم بالطمأنينة الحقّة، ولم يزل عرضة للقلق والخوف يتلوانه الحين بعد الحين ينقصان صفوه ويكثران أعلامه ويغلقان له ضروباً من الألم والغيرة إن تكن وهمية فليست دون الواقع - فيها لو تحققت - ضراوة وقساوة، حتى بات التمني نفسه وتأثر وقوع البلاء من بواعث تجدد القلق والخوف وبالتالي الألم والغيرة فودّ كلياً اشتدّ به العذاب أن يقع البلاء ليلقى نصيبه من الحزن دفعة واحدة لعلّه بعد ذلك يبلغ باليأس ما لم يبلغ بالأسامي العابضة من الراحة والسلام، ولكنّه لم يستسلم للشجن في مجلس طرب تكتنفه أنظار الأصدقاء والأقرباء، إلا أنه كان تلقى من منظر مريم وهي تسير وراء أخته «أثراً» لا يمكن أن يمضي بلا ردّ فعل محسوس، ولما لم يسعه أن يجيّر به أحزانه وأن يجلو المستور من نفسه فقد استهلكه - بطريقة عكسية - بالإغراق في الحديث والضحك والتظاهر بالغبطة والسعادة، عل أنه كلياً خلا إلى نفسه ولو لحظات شعر في أعماقه بعزلة قلبية عسا حوله، وأدرك مع مرور الوقت أنّ رؤيته مريم وهي تخطو في معية العروس قد هيّجت حبّه كما تهيّج ضوضاء مفاجئة مهموماً ذا قابلية للأرق، وأنه لم ينعم على الأقلّ هذه

بعض النساء فلهجن بالثناء عليها ثناء ملاها أملاً وأحلاماً عاشت بها زمناً رغداً.

وجلس ياسين وفهمي جنباً لجنب - يراوحان بين السم والسباع، وجلس خليل شوكت - العريس - ينضمّ إليهما بين ساعة وأخرى وكلّما وجد فرجة بين اشغال ليلته الشاقة المتعة، وبالرغم من الجوّ المشيع بالبهجة والطرب انطوى ياسين على قلق فارتسمت في عينيه نظرة شرد مزمنة وراح يسائل نفسه بين حين وآخر تُرى هل يتاح له أن يروي ظمأه ولو بكأس أو بكاسين؟ لذلك مال مرّة على أذن خليل شوكت - وكان صديقاً للأخوين وهمس قائلاً:

- أدركني قبل أن تضيع الليلة.

فقال له الشاب وهو يغمز بعينه معلمتاً:

- أفردت مائدة في حجرة خاصّة لأمشالك من الأصدقاء.

عند ذاك اطمأنّ بآله وعادته حيويته للسم والدهابة والسباع، لم يكن في نيته أن يسكو، ففي مثل هذا المكان الحافل بالأهل والمعارف يعدّ القليل من الخمر فؤاداً كبيراً، خاصّة وأنّ والده وإن انزوى في المنظرة - غير بعيد - فلم يكن وقوفه على أسرار حياته يزعزعه عن مكانته التقليدية من نفسه، لم يزل قائماً بحصنه الحصين من المهابة والإجلال، ولم يزل هو بموقف الطاعة والعبودية، حتى السرّ الذي اطلع عليه خفية لم يفكر في البوح به لإنسان ولا لفهمي نفسه أقرب المقربين إليه، لهذا كلّه قنع من بدائ الأمر بكأس أو بكاسين يتملّق بهما رغبته الجائعة، ويتهيأ بها لتلقّق المرح والسم والطرب وغيرها من اللسرات التي لم يعد لها عنده طعم يغير شراب. فهمي - بخلاف ياسين - لم يجحد، أو لم يطمئنّ إلى أنه مسجوداً لظمئه، ثار شجنه من حيث لا ينتظر عند مجيء العروس، ذهب مع العريس وياسين لاستقبالها بقلب خالي فوقم بصره على مريم وهي تسير وراء العروس مباشرة ومثاقفة الثغر بابتسامة تخيية للمكان كلّ، لاهية بالزغاريد والورود عنه، وقد شفت قناعها الحريزي عن دياجها وجهها الصافي، فتبها نظره بقلب خائف حتى

الليلة - بصدر مستقر، وأن شيئاً مما يدور حوله لن يستطيع أن يتنزع من غيخته صورته أو الابتسامة التي حثت بها جُز الاستقبال الحارّ المشيع بالزغاريد والورد، ابتسامة عذبة صافية وبشت بقلب خليّ متشوّق للهدوء والسرو، ابتسامة لا يوحي رواؤها بأنه يمكن أن ترتسم على موضعها من الشفتين تقلصات الألم، فهو منظرها قلبه وكاشفه بأنه يكابد الألم مفرداً ويعمل متابعه وحده، ولكن ألا يفقه هو الآن عاليًا، بجُزك رأسه مع الأنغام كالتبسط الطروب؟... ألا يجوز أن يذوق الناظر بحاله ويظنّ به ما ظنّ هو بها؟... وجد في تفكيره شيئاً من العزاء ولكن ليس أؤكد من عزاء المصاب بالتفرد حين يسائل نفسه «ألا يحتمل أن أشفى كما يشفى فلان الذي أصيب به قبلي»، وما لبث أن ذكر رسالتها التي عاد بها كإل إليه منذ أشهر وهي: قل له إنَّها لا تدري ماذا تفعل لو تقدّم لها خاطب أثناء هذه المدة الطويلة من الانتظار... وتسأل كما تسأل عشرات المرات من قبل هل ثمة عاطفة وراء هذه الكلمات؟... أجل لا يستطيع إنسان مهما بلغ به التعتّن أن يؤاخذها على كلمة منها، بل لا يستطيع أن يتجاهل ما تضمّنته من عقل وحكمة ولكنّ هذا نفسه ما أشعره بالمعجز حيالها وما أحقّه بالتألّي عليها، إذ يندر أن يرضي العقل والحكمة طموح عاطفة لا تعرف بطبيعتها الحدود، وعاد إلى الحاضر، إلى مجلس الطرب، إلى الحبّ الهائج. ليست رؤيته لها وحدها التي رجّته هذه الرجّة العنيفة، فلملّ ذلك لأنه رآها لأول مرة، في مكان جديد - فناء بيت آل شوكت - بعيداً عن داره التي لم يرها خارج نطاقها من قبل، كان وجودها الدائم في المقام القديم قد سلّكها في آلية العادة اليومية على حين بعث ظهورها المفاجئ في المكان الجديد - ذاك الظهور الذي خلقها في عينيه خلقاً جديداً - حياة جديدة في وجدانه، أيقظت الحياة الأصليّة الكامنة، ثمّ تعاونتا معاً على إحداث هذه الرجّة العنيفة، ولملّ ذلك أيضاً لأن وجودها بعيداً عن بيته وما يقرّن به من تقاليد صارمة أقامت بينه وبينها سدّاً من اليأس، وجودها في جُز من

الحريّة والانطلاق، وعلى حال لم يعدها من التبرّج والحركة، وجودها في بيئة الزفاف وما توحى من خواطر الحبّ والوصال، كلّ أولئك أطلقها من قمقمها إلى حيث يراها القلب أملاً غير عسير، وكأنّها تقول له «انظر أين تراهي الآن، ما هي إلا خطوات أخرى فتجذني بين ذراعيك» ولكن ما لبث هذا الأمل أن ارتطم بالواقع الشائك مسهماً في إحداث الرجّة العنيفة، ولملّ ذلك أيضاً لأن رؤيتها والمكان الجديد زادتا رسوخاً في نفسه وتغلغلاً في حياته - ونشوبا في ذكرياته، فإنّ الصور تتعمّق في أنفوسنا بالاندماج في مختلف الأماكن التي تمتدّ إليها تجاربنا، وكما اقترنت مريم قديماً بسطح البيت ويستنان الليلاب والياسمين وكما وتسميع الكلمات الإنجليزيّة ومجلس القهوة وحديثه مع أمّه في حجرة المذاكرة والرسالة التي عاد بها كإل فستقرن منذ الليلة بالسكّرة وفناء آل شوكت ومجلس الطرب وغناء صابر وزفاف عائشة وغير ذلك ممّا يشال على سمعه ويصره وكافّة حواسّه، ومثل هذه العملية... لا يمكن أن تتمّ دون أن تشارك في إحداث الرجّة العنيفة التي دوّخته... وحدث في فترة الاستراحة أن تراسى صوت العاملة إلى مجلس الرجال من النوافذ المطلّة على الفناء وهي تغني «حبيبي غاب» فنشط إلى الساع باهتمام شديد وجمع حواسّه كلّها في النغبات، لا لأنّ صوت جليّة أعجبه ولكن لظنّه أنّ مريم تنصت إليها في تلك اللحظة، لأنّ الجملة الغنائية تخاطب أذنيها في وقت واحد ممّا، لأنّها ألّفت بينهما على حال واحدة من الإنصات وربّما من الإحساس، لأنّها خلقت لها موعداً يلتقيان فيه بروجيهما، وحمله هذا كلّ على احترام الصوت وحبّ النغبات كي يجمع بها في إحساس واحد. وحاول طويلاً أن ينفذ إلى نفسها بالرجوع إلى نفسه، أن يتلمّس ذبذبات تأثرها بممتامة ذبذبات تأثره، ليعيش في ذاتها لحظات بلا حجاب على بعد المسافة وكثافة الجدران، وحاول إلى هذا أن يستنبر الجمل الغنائية على آثارها في النفس المحبوبة، ماذا تركت في قلبها جملة «حبيبي غاب» أو «بقى له زمان ما بعثت جواب»، تُسرى هل غابيت في بلجج

لم يكن أشبه بذهبي في عزلته الباطنية - وإن اختلفت الأسباب - من أبيه الذي لزم النظرة بين نفر من خاصة خلّائه، حتى الأصدقاء الذين لم يطبقوا التوقّر، والغناء يجلجل في الخارج، انفضّوا من حوله وتفرّقوا بين المستمعين يطربون ويلهون، فلم يبق معه إلا النفر الذين جلسوا أحب إليهم من اللهو نفسه فلبثوا جيّماً في رزاة غير معهودة كأنما يؤفون واجباً أو يشهدون مأثماً، هذا ما قدروه من قبل، حين دعاهم السيّد إلى ليلة الزفاف، لما خبروه من طبيعته المزوجة التي عرف بجانب منها بين أصدقائه وبالجانب الآخر بين آل بيته، ولم يفهم وجهه من وجوه التناقض بين مجلسهم الوقور هذا الذي يحتفلون فيه «بليلة زفاف» وبين مجالسهم المسائيّة المربدة التي لا يحتفلون فيها بشيء! وما حقّوا أن جعلوا من توقّره موضوعاً للمزاح الخفيف الهادئ فما إلا علا صوت السيّد فعثت مرة وهو يضحك حتى يبادره السيّد الفار واضحاً سبّابه على شفتيه كأنما يأمّره بخفض صوته ومسه في أذنه عدّلاً زاجراً: نحن في فرح با رجل! . . . ومرة أخرى وكان الصمت قد غلبهم ملياً فإذا بالسيّد على قلب عينيه في وجوههم ثم يقول رافئاً يده إلى رأسه كالشاك: «شكر الله سميكم» وعند ذلك دعاهم السيّد إلى اللحاق بصاحبه في الخارج ومشاركتهم طوبى ولكن السيّد عثت خاطبه بلهجة تنم عن شديد العتاب قائلاً: نتركك في مثل هذه الليلة! وهل يعرف الصديق إلا عند الضيق! فما تمالك السيّد أن ضحك قائلاً: ما هي إلا عدّة ليالي زفاف أخرى حتى يتوب الله علينا جيّماً . . . على أن ليلة الزفاف تفضّمت في نظر السيّد أحد معاني أخرى غير التوقّر الإجباري في مجلس أنس وطرب، معاني تخصّه وحده كآب ذي طبيعة خورت المألوف من الطابع، فلم يزل يجد لفكرة زواج كرمته إحساساً غريباً لا يرتاح إليه وإن لم يفقه عقله أو دينه. لا يعني هذا أنه ودّ ألا تتزوج كرمته، فالحقّ أنّه كسائر الآباء جيّماً رجا الستر لغنائه، ولكن لعلّه حقّ كثيراً لو لم يكن الزواج الوسيلة الوحيدة لهذا «الستر» ولعلّه حقّ لو كان الله قد خلق البنات على

الذكريات... أو لم تنحصر موجة منه عن وجهه... ألم ينقض قلبها لشكّة ألم أو لحزّة حسرة؟ أم لها سادراً طوال الوقت لا يجد في النعمة إلا فرحة الطرب... وتصورها وهي عيب انتباهها للنغم سافرة متبرجة الحيويّة أو وفورها يفتر عن ابتسامه كذلك التي لمحا على شفتيها عند مجيئها فآله لأنه توسّم فيها رمز السلو والنسيان، أو وهي تحدث إحدى أختيه كما يحلو لها كثيراً وهو ما يحسدها عليه على حين لا تجدان فيه الأمر الذي يدهشه لحدّ الانزعاج إلا حديثاً عادياً كسائر الأحاديث التي تشيكان فيها مع غيرها من فتيات الجيران، أجل طلالا عجب لموقف أختيه منها، لا لأنها لا تكثران لها فالحقّ أنّها تحبّها، ولكن لأنها تحبّها كما تحبّها غيرها من فتيات الجيران كأنها مجرد «فتاة» من فتيات الجيران، وكيف تلقيناها بترحيب عاديّ دون أن يضطرب لها نفس كما يلقى هو فتاة عابرة أو أياً من أقرانه طلبة مدرسة الحقوق، وكيف تتحدّثان عنها فتقولان «مريم قالت أو مريم فعلت» وتتطغان بالاسم كما تنطقان بأيّ اسم . . . أم حنفي مثلاً كأنه ليس الاسم الذي لم ينطق به على مسمع من غيره إلا مرة أو مرتين وهو يوجب لموقعه من أذنه أو كأنه ليس الاسم الذي لا ينطق به في وحدته إلا كما ينطق بالأسماء المبجلة المنقوشة في خياله بتهاويل الأحلام التي لا ينطق بأحدها حتى يردف «رضي الله عنه» أو «عليه السلام» . . . وكيف إذن عقل الاسم - بل الشخص نفسه - عندهما من سحره وقديسيته؟! وعندما انتهت جليلة من الأغنية تعالى الحنايف والتصفيق فرجّ في انتباهه باهتمام لم تحظّ الأغنية نفسها بمثلها لأنّ حنجره مريم وديها اشتركت فيه، وحقّ لو كان بوسعهم أن يغيّر صوتهما من تلك الأصوات وأن يفزّز تصنيفهما من ذلك التصفيق ولكن لم يكن ذلك بأسهل من تمييز صوت موجة بالذات من هدير الأمواج المتلاطمة على الشاطئ، على أنّه وهب حبّه للحنان كلّهُ وللصفيق كلّهُ بلا تمييز كالآلَم التي يترامى إلى سمعها أصوات التلاميذ من المدرسة التي يتبعها ابنها فتدعو لهم جيّماً بالبركة والسلامة.

أخيراً إلا منطقاً عاطفياً يعكس ما يكمن في نفسه من رغبة في تزويج الفتاة ونفوره من فكرة الزواج، فالاعتراف مُهد إلى تحقيق الزواج والخص من العيوب نفس عن العاطفة العدائية، كمدمن الأفيون الذي تستدله لذكه وترجه خطورته فيشده بكل سبيل وهو يلعنه، بيد أنه تناسى مشاعره الغريبة وهو بين أصدقاؤه الحميمين يتسلل بالحدث حيناً وبالساع حيناً آخر، ففتح صدره للرضى والغبطة ودعا لفتاته بالسعادة والحياة المطمئنة، حتى نظرت الانتقادية لخليل شوكت استحالحت إحساساً ساخراً غير مشوب بالحق. وعلمنا دهي المدعوون إلى الموالد افترق فهمي وياسن لأول مرة ففاد خليل شوكت الأخير إلى المائدة الخاصة حيث بذل الشراب بغير حساب ولكن ياصون بدا حذرًا مقدراً للعواقب فأعلن قناعته بكأسين وقلام بشجاعة - أو بجهن - تبار الشراب المتدق حتى إذا ما لستح النشوة فهيجت ذكرياته عن لذة النشوات ووهنت إرادته فرغب في الاستزادة من النشوة إلى القدر الذي لا يخرجه عن حدود الأمان فتناول كأساً ثالثة ثم فر بنفسه عن المائدة إلا أنه - على سبيل الاحتياط أو لأنه لم يزل حيناً في الجفنة وحيناً في النار - أخفى زجاجة مملوءة حتى النصف في مكان خفي للرجوع إليها عند الضرورة القصوى، وعادوا إلى مجلسهم بأرواح جديدة راقصة انطلق منها إلى الجؤ المحيط سرور حرر من القيود...

وفي الحريم كان السكر قد بلغ بالعالة جلييلة حد السلطة، وإذا بها تقلب عينيها في وجوه المدعووات وتتأمل:

- من منكن حرم السيد أحمد عبد الجواد؟
فجلب تسألها الأنظار وأثار اهتماماً شاملاً حتى غلب الحياء أمينة فلم تبس بكلمة وجعلت تحملي في وجه العالة بحيرة وإنكار، ولما أعادت العالة السؤال تطوأت حرم المرحوم شوكت بالإشارة إلى أمينة وهي تقول:

- ها هي حرم السيد أحمد فقيم يا ترى التساؤل؟
فتفحصتها العالة بعينين ثابتتين ثم أطلقت ضحكة

طبيعة لا تحتم الزواج. أو لعلّه حق في الأقل لو لم يكن أنجب إناثاً فقد، أما وتلك أمان لم تتحقق ولا سبيل إلى تحقيقها فلم يكن بد من أن يرجو الزواج لفتاته ولو كما يرجو الإنسان أحياناً - لباسه من دوام العمر - مئة شريفة أو مئة مربعة! طالما أفصح عن نفوره هذا بسبل متباعدة سواء عن شعور أو لا شعور، فربما حدث بعض خلصاته قائلاً: «تسألني عن إنجاب الإناث؟ إنه شر لا حيلة لنا فيه ولكن الشكر إلى الله واجب على أي حال. لا يعني هذا أنني لا أحب ابنتي فالحق أنني أحبها كما أحب ياسين وفهمي وكما أحب بسواهم ولكن كيف يطمئن خاطري وأنا أعلم بأنني سأحلمها يوماً إلى رجل غريب مهما يبدو لي من مظاهر فائه وحده الملق على يائه؟... ما حيلة البنت الضعيفة حيال رجل غريب وهي بعيدة عن رعاية أبيها؟... وكيف يكون مصيرها لو طلقها يوماً وقد مات أبوها فليأت إلى بيت أخيها لتعيش عيشة المتبذرين؟! لست أخاف على أحد من ابنائي لأنه مهما يحدث لأقيم من أمر فهو رجل قادر على أن يواجه الحياة، أما البنت... اللهم احفظنا!» أو يقول فيها يشبه الصراحة: «والبنت مشكلة حقاً... ألا ترى أننا لا نالوا أن نؤتيها ونهذبها ونحفظها ونصونها؟... ولكن ألا ترى أننا بعد هذا كله نحملها بأنفسنا إلى رجل غريب لينعل بها ما يشاء... الحمد لله الذي لا يحمده على مكروهه سواء...» وتحمس هذا الإحساس القلق الغريب في النظرة الانتقادية التي وإلى بها خليل شوكت «العريس» نظرة متعسفة عيابة أبت أن ترجع قبل أن تظهر يعيب يرضي تعنتها، كأنه ليس من آل شوكت الذين ألفت بينه وبينهم أسباب المودة والولاء من قديم الزمان، أو كأنه ليس الشاب الذي شهد له كل من رآه بالرجولة والحيال والرجاحة، لم يسه أن ينكر مزية من مزياه، ولكنه وقف طويلاً عند وجهه الرئان ونظرة عينيه الهادئة القليلة الموجية بالكسل فطاب له أن يستدل بها على ما تركه الفراغ في حياته من حيوانية قائلاً لنفسه «ها هو إلا نور يعيش ليكال وينام!» لم يكن اعترافه بمزياه أولاً ثم فحصة عن أي عيب ليلصقه به

رثانة وقالت بلهجة تنم عن الرضى:

- حسناء وحق بيت الله، إن ذوق السيد لا يُجارى...

قدّرت عليها فنون العشق والطرب والدلال!... ضاع التأديب هباء، ومضى الرجل إلى الجنة ونعيمها، وقُفي عليّ بأن المُدَّ نَمّا رساني به من شرّ الصفات شعاريّ في الحيلة... هي الدنيا... رثنا يطعمكن خيرها ويكيّفكن شرّها... ولا حرمنا الله شيئاً من الرجال سواء في الحلال أو في الحرام...

وبدت أمينة كالعذراء في حيائها، بيد أنّ الحياء لم يكن كلّ ما تعانيه، ساءلت نفسها في حيرة وانزعاجٍ عيّا يعنيه حديث العالة عن حرم «السيد أحمد عبد الجواد» وعن إطرانها ذوق السيد بلهجة لا يدعيها لنفسه إلا الخبير به، وشاركتها شعورها عائشة وتذمّية التي رددت عنيتها بين العلة وبين بعض الفتيات من صديقاتها كأنّها تسألنّ رأينّ في «هذه المرأة السكّيرة»، ولكنّ جليلة لم تأبه لما أثاره كلامها من انزعاج فحوّلت عنيها إلى العروس وتخصّصتها كبا تفحصت أمّها من قبل ثمّ أرعشت حاجبها وهي تقول بإعجاب:

- فمر ورسول الله، أنت بنت أبيك حقاً، ومن يرّ هاتين العنيتين يذكر من توّه عنيّه... (ثمّ مقهقهة)... أراكنّ تساملن من أين هذه المرأة معرفة السيد أحمد؟!... إلّا أعرفه من قبل أن تعرفه وزوجه نفسها، إلّا ربيب حينا وقرين صباي، وكان والدانا صديقين، أم تحسبين العالة؟ لا أبها؟... كان أبي شيخ كتاب من أهل البركة... ما رأيك يا زينة السئات؟!...

وجتّ السؤل الأخير إلى أمينة فدفعها الخوف وما طبع عليه من لين وتودّد إلى أن تحببها - وهي تقول ما ركبها من ارتباك - قائلة:

- رحمه الله، كلنا أبناء حواء وآدم.

فجعلت جليلة تحرك رأسها بمتة وبسرة وهي تضيّق عينيها كأنّها بلغ تأثرها بالذكوى وموعظتها نهايته، أو لعلّ رأسها السكران وجد في هذه الحركة رياضة التندّب بها، ثمّ استطردت قائلة:

- وكان رجلاً غيوراً، ولكّني نشأت بفطرتي لعوا لا أبالي كأنّها رضعت الفنج في المهد، كنت أضحك الضحكة في الدور الأعلى فتضطرب لها جوانح الرجال في الشارع، فما يبلغه صوقي حتّى ينهال عليّ ضرباً ويرميني بشرّ الصفات، ولكن ما حيلة التأديب فيمن

وعزف الضحك في جنبات الحجر حتّى غفّى على تأوهات الدهش التي نذت هنا وهناك، ولعلّ ما استثاره قبل أيّ شيء آخر هو وجه التناقض بين الدهاء الإباحي الأخير وبين ما سبقه من عبارات توحى - في ظاهرها على الأقلّ - بالجدّ والتأسي، أو بين ما تقنّعت به المرأة من ستار الجدّ والزناة وما جهرت به أخيراً من مزاح مكشوف، حتّى أمينة نفسها - وعمل رغم ارتباطها - ما غالكت أن ابتسمت وإن نكست وجهها لتوازي ابتسامتها، على أنّ النساء كنّ يستجنّ - في مثل هذا المجلس - لدهابات مهرجات العوام ويرخّن بزاحجنّ وإن خدش الحياء أحياناً كأنّها يتّسن به على طول تزقّقنّ، وواصلت العالة السكرانة حديثها قائلة:

- وكان جعل الله الجنة مثواه سليم الطرقة، وآي ذلك أنّه جاعلي يوماً برجل طيّب مثله وأراد أن يزوّجني منه (وكررت ضاحكة)... أيّ زواج يا عمر؟! وماذا بقي للزوج بعد ما كان نَمّا كان؟!... وقلت لنفسني انتفضحت يا جليلة وواقعتك كحل...

وأسكت مليّاً لتستزيد من التشويق، أو لتتمنّع أكثر بصمت الانتباه المركّز فيها الذي لا تحظى بمثله حين الغناء نفسه، ثمّ عادت تقول:

- ولكنّ الله سلّم فادركتني النجاة قبل الفضيحة المتوقّعة باليأم إذ هربت مع المرحوم حسونة الببل تاجر المنزول، وكان للمرحوم أخ عوّاد عند العالة نيزك فعلمني العود، ثمّ طاب له صوقي فعلمني الغناء، وأخذ بيدي حتّى ضمّني إلى تحت نيزك التي حللت عملها بعد وفاتها، ومارست الغناء دهرًا عرفت فيه من العشاق مائة... (وقطبت وهي تتذكّر بقية العدد ثمّ التفتت إلى الحفّافة ومألّتها) وكم يا فينر؟

فيادرتها الدّافئة قائلة:

- وخمسة في عين من لم يصلّ على النّبيّ...

وتعالى الضحك منّة أخرى فجعلت بعض المشغوفات بالحديث يستكن الضاحكات ليصفو الجوّ للعلامة ولكنّها خضعت بغتة وانجذبت نحو باب الحجرة غير ملقية بالألّ إلى اللّاتي تساهلن عن وجهتها دون أن يحظين بجواب، ولكنّ أحدًا لم يلبّ عليها في السّؤال لما اشتهرت به عند الناس من أنّها صاحبة نزوة إذا نادتها لبثت دون مراجعة، وهبطت السّلم إلى باب الحريم ثمّ مرتت منه إلى فناء الدار، وليّا جلد ظهورها المفاجئ بعض الأنظار القرية تلبّثت بإمكانها لتتج لنفسها أن ترى من الجميع تستمتع بما يحدّثه منظرها فيهم من اهتمام طمعت في أن تتحدّى به صابراً وهو في ذروة التطريب، وتحمّقت رغبتها إذ سرت عدوى الالتفات نحوها - كالنتاؤب - من فرد إلى فرد وتردّد اسمها على الألسن، ثمّ شعر صابر نفسه - رغم انهماك في الغناء - بالفجوة الفجائية التي فصلت بينه وبين جمهوره فعذّ بصره إلى الهدف الذي استشرفته الأعين حتّى استقرّ على العالمة وهي تنظر إليه من بعيد برأس مائل إلى الوراء من سلطنة السكر والخيلاء فاضطرّ إلى الإمساك عن الغناء وأشار إلى مخمّته فتوقّف عن العزف، ثمّ رفع يديه إلى رأسه تحيّة لها... كان صابر خبيراً بنزوات جليّة - وعلى خلاف الكثيرين - عالماً بطبيّة قلبها، ومقدّراً في الوقت نفسه لخطر معاندتها، فأظهر لها التودّد بلا تحفّظ، ونجحت حيلته فانطلقت أسارير المرأة بالبشر وهضت به وواصل غناك يا مي صابر فما جثت إلّا لساعه فصنّ المدعوّون وعادوا إلى صابر مهلّين على حين اقترّب منها إبراهيم شوكت شقيق العريس الأكبر وسألها بلطف عن حاجتها فذكرت بسؤاله السبب الحقيقي الذي دعاه إلى المجيء وسألته بدورها بصوت تراسي إلى الكثيرين ومنهم - وهو الأهمّ - ياسين وفهمي:

- ما لي لا أرى السيّد أحمد عبد الجواد؟!... أين

يخفي الرجل؟

فأخذ إبراهيم شوكت بيدها وسار بها إلى المنطرة

باسمًا، على حين تبادل فهمي وياسين نظرة ملئت دهشًا واستغرابًا وشيخامهما بعينين متساثلتين حتّى واراها الباب، ولم يكن السيّد دون ابنه دهشًا لدى رؤيتها مقبلة نحوه تحظر فحدها بنظرة انزعاج وتساؤل بينما تبادل صحبه نظرات باسمّة ذات معانٍ، وشملت جليّة الجميع بنظرة عابرة قائلة:

- مساء الأتس يا رجال...

وركّزت عينها في السيّد فما غمّلكت أن أغربت في الضحك وهي تتساول ساهرة:

- هل أخافك مجيئي يا سيّد أحمد؟!

فأشار السيّد إلى الخارج عذراً وهو يقول لها جاداً:

- اعطلي يا جليّة، ماذا حلك على المجيء إلى هنا تحت أنظار الناس جميعاً؟!

فقالت كالمعتدّة وإن لم تزالها بسمّة ساهرة:

- عزّ عليّ ألا أهتلك على زواج كرمك!...

فقال السيّد في ضيق:

- لك الشكر يا سنيّ، ولكنّ أما فكرت فيها بيثرة عيئك لدى من يشهد من ظنون؟

فضربت جليّة كفّاً بكفت وقالت فيها يشبه العتاب:

- هذا أحسن ما عندك لي من استقبال!... (ثمّ موجّهة الخطاب إلى صحبه)... أشهدكم يا رجال على الرجل الذي لم يكن يتألّ صدره حتّى يغرز فردة شاربته في سرّي، انظروا إليه كيف لا يطيق الآن رؤيتي...

فلوّح السيّد لها بيده كأنما يقول لها ولا تزيد الطين بلّة وقال برجاء:

- علم الله ما بي استياء لرؤيتك ولكنّه الحرج كما ترين...

هنا قال السيّد عليّ كأنما ليذكرها بما لا ينبغي لها أن تنساه:

- لقد عشقنا حبيبين وافتقنا صديقين، وليس بينكما ثار، ولكنّ أهله فوق وأبنائه في الخارج...

فقالت متباديّة في إغاطة السيّد:

- لماذا تتظاهر بالتقوى بين أهلك وأنت بركة فسق! فرماها بنظرة احتجاج قاتلاً:

- جليلة...! لا حول ولا قوة إلا بالله.

- جليلة أم زبيدة يا ولي الله؟!

- حسيبي الله ونعم الوكيل..

فأرعثت له حاجبها كما أرعثتها لعائشة من قبل ولكن على سبيل التهكم لا الإعجاب هذه المرة وقالت بصوت هادئ جاذ كالفاضي ينطق بالحكم:

- سيان عندي أن تمسق زبيدة أم غيرها من النساء ولكن يؤسفني ورأس أمي أن تتمرغ في التراب بعد أن غرقت حتى أذنك (مشرية إلى نفسها) في القشدة..

عند ذلك نهض السيد محمد عفت - وكان من أقرب المقربين إليها - وقد خاف أن يتأذى بها السكر إلى ما لا محمد عقابه فتناول يدها وجذبها برفق صوب الباب هامساً في أذنها:

- حلقتك بالحسين إلا ما رجعت إلى مستمعائك المنتظرات على نار..

فطاوعته بعد ممانعة ولكنها التفتت نحو السيد وهي تبعد رويداً وقالت:

- لا تنس أن تبلغ تحياتي إلى القارحة، ونصيحتي إليك - بحق الأخوة - أن تغتسل بعدها بالكحول لآذ عرقها مضاعف للدماء.

شبهها السيد بنظرة ساخطة وهو يلحن الحظ الذي قضى بأن ينكشف أمام كثيرين خاصة أهله - ممن عرفوه مثلاً للجد والراثة، أجل لم يزل ثمة أمل في ألا يبلغ الحوادث أحداً من آله ولكنه أمل ضعيف، ولم يزل ثمة رجاء في ألا يفهموه إذا بلغهم - بما طبعوا عليه من برادة - على حقيقته ولكنه رجاء غير مضمون لأكثر من سبب بيد أنه على أسوأ الفروض لا يحق له أن يجزع لأن خضوعهم له من ناحية وسيطرته عليهم من ناحية أخرى أثبت من أن يزعزعها مزعزع ولا هذه الفضيحة نفسها، وفضلًا عن هذا فإن احتيال انكشاف أمره لدى أحد من أبنائه أو لديم جيمًا لم يكن عنده يومًا بالفرض المستحيل، ولكنه لم يلقئ لذلك أكثر مما ينبغي، لثقتة بقرته، ولأنه لم يعتمد في تربيته على القدرة والإقناع فيخاف انحرافهم عن الجادة تبعًا لما قد يظهر لهم من انحرافه عنها، ولأنه استبعد أن يطلعوا

على شيء من أمره قبل أن يخلعوا أشدهم أي حين لا يحتم كثيرًا أن ينكشف لهم سره، ولكن شيئًا من هذا لم يستطع أن يطلع من أسفه على ما وقع. حقا لم تجل من سرور ومن تيه جنسي، إذ أن عجي امرأة كجليلة بنفسها إلى جلسته لتهتك أو لتعابسه أو حتى لتهتك بعشقه الجديد «حدث» له مفزاه الهام في الأوساط التي تشهد لياليه، وظاهرة لها دلالتها البعيدة لرجل مثله لا يعدل بالهوى والطرب والأنس شيئًا، ولكن كم كانت تكون مساعده صافية لو وقع الحادث الجميل بعيدًا عن هذه البيئة العائلية!

أما ياسين وفهمي فلم تتحول حينئذ عن باب المنظرة منذ ولجته جليلة حتى خرجت منه مصحوبة بالسيد محمد عفت. دهش فهمي دهشة بكرا دار لها رأسه كياسين حين سمع زئوبة وهي تحميه قائلة: وإله من حينًا ولا بد أنك تسمع عنه.. السيد أحمد عبد الجواد...، على حين ركب ياسين حب استطلاع نهم فادرك - في سعادة - أيقظت في قلبه نشوة الإعجاب والمشاركة الوجدانية التي شعر بها نحو أبيه في حجرة زئوبة - أن جليلة مغامرة أخرى في حياة أبيه التي بات يؤمن بأنها سلسلة ذهبية من المغامرات، وأن الرجل لاقى كل ما تصوّره خياله عنه، ولبت فهمي بأمل ويرجو أن يعلم بين حين وآخر بأن العائلة إنما أرادت مقابلة والده لسبب أو لآخر يتعلق بدعوتها إلى إحياء فرح عائشة حتى جاء خليل شوكت وأخبرها ضاحكًا بأن جليلة «تداعب السيد» ويلتها «تودد إليه تودد الصديق للصديق» وعند ذلك لم يطق ياسين صبرا على كتمان ما عنده من سرّ ووثبت نشوة الشراب به إلى الإدلاء بمعلوماته فانتظر حتى غادر خليل ثم مال على إذن أخيه قائلًا وهو يغالب ضحك «كتمت عنك أشياء تخرجت من البوح بها في حينها، أما وقد رأيت ما رأيت وسمعت ما سمعت فسأبوح لك بها» ومضى يقصّ عليه ما سمع وما رأى في بيت زبيدة العالة، وفهمي يقاطعه من أونة لأخرى قائلًا في ذهول ولا تقبل هذا... «هل فقدت وعيك»، وكيف تريدني على أن أصدّك» حتى أن الشاب على قصته بكل تفاصيلها.

الأكل، ويعشق والعشق كان ملهه الخلفاء، أقرأ ديوان الحياصة والأخبار التي بهامشه، ليس على أبنا حرج، اهتف معي ليخني السيد أحمد عبد الجواد، ليخني أبسونا، سأتترك لحظة ريشا أزور- لهذه المناسبة- الزجاجة التي أخفيها تحت الكرسي.

بعودة العالة إلى التخت شاع في الحريم نبأ مقابلتها للسيد أحمد عبد الجواد فانتقل من لسان إلى لسان حتى تناهى إلى الأم وخديجة وعائشة ومع أنهن كن يسمعن شيئاً كهذا لأول مرة إلا أن سيدات كثيرات- ممن بين بعولهن وبين السيد سبب من أسباب المودة- تلقين أنبا في غير ما دهش وعجزن بأعينهن بأسيات شأن الذي يعرف أكثر مما يقال، ولكن واحدة منهن لم تسؤل لها نفسها الخوض في الموضوع إنما لأن الخوض فيه جهاراً أمر لا يجمل بين أمام كريماتهن وإنما لأن دواعي المجاملة أملت عليهن بأن يسكن عنه حيال أمانة وكرمتها، غير أن حرم المرحوم شوكت قالت لأمانة مداعبة «حذار يا أمانة هائم فالظاهر أن عين جلييلة زاغت إلى السيد أهدأ» فابتسمت أمانة متظاهرة بعدم الاكتراث ودم الحياء والارتباك يفضب وجهها، لأول مرة تلمس دليلاً محسوساً على ما قام بنفسها قديماً من شكوك، ومع أنها ألفت الصبر والتسليم بما قدر عليها إلا أن ارتطامها بدليل محسوس حز في قلبها فأحسّت عذاباً لا عهد لها به وجرحاً دامياً في صميم كبريائها، وأرادت امرأة أن تعلق على قول حرم المرحوم شوكت بكلمة مجاملة تليق بأن العروس فقلت «من يكن له وجه كوجه ست أم فهمي قسامة فلا يحق لها أن تخشى زيفاً عين زوجها إلى امرأة أخرى» فاهتزت جوانحها للثناء وعادتها ابتسامتها الحبيبة ووجدت- على أي حال- بعض المزاء مما تعانیه من ألم صامت، إلا أنه لسا بدأت جلييلة أغنية جديدة فملأ صوتها مسمعيها ثار بها غضب مفاجئ وشعرت ثواني بأن زمام نفسها سيفلت من قبضتها ولكنّها سرعان ما كظمته بقرّة خليقة بامرأة لم تعترف لنفسها قط بحق الغضب. هذا على حين تلقّت خديجة وعائشة النبأ بهدش فتبادلتا نظرة حائرة وتساءلتا بعينيها عما يعنيه الأمر كله، بيد

لم يكن فهمي، بما نشأ عليه من عقيدة ومثالية، على استعداد لفهم- بله هضم- السيرة الخفية التي تنكشف له لأول مرة خاصة وأن والده نفسه كان من أركان عقيدته ودعائمه مثاليته، ولعل ثمة وجهاً من التشابه بين شعوره وهو يعاني هذا الكشف لأول وهلة وبين شعور الجنين- إن صدق الخيال- وهو ينتقل من مستقر الرحم إلى مضطرب الحياة، ولعلّه لو كان قبل له إن جامع قلاوون انكمس وضمعه فصار المثلثة أسفل بناته والضرع عاليه، أو كان قبل له إن عمّد فريد خان رسالة مصبغى كامل يباع نفسه للإنجليز لما كان هذا أو ذاك بأدعى إلى إنكاره وانزعاجه. «أبي يذهب إلى بيت زبيدة ليشرّب ويغني ويضرب الدف»... أبي يدعن لمداعبة جلييلة وتودّدها... أبي يقترب السكر والزنا، كيف اجتمعت الثلاث... إذن هو غير الأب الذي عرفته في البيت مثلاً للورع والقوة... أيتها الصحيح?... كاتي أسمعته الآن وهو يردّد: الله أكبر... الله أكبر، فكيف تردده للفناء... حياة تمثيل ورياء! ولكنّه صادق، صادق إذا رفع رأسه للدعاء، صادق إذا غضب... أياكون أبي رذيلة أم يكون الفسق فضيلة!...

- ذهلت!؟... دخلت أنا أيضاً عندما نطقت زئوبة باسمه، ولكن سرعان ما استحضت نفسي وسألته ماذا عليه من هذا!؟... كفرا هكذا الرجال جيماً أو هكذا يجب أن يكونوا...

«هذا القول جدير بإسبن حقاً... ياسبن شيء وأبي شيء آخر... ياسبن!... ما ياسبن!؟... ولكن كيف يحق لي أن أرتد هذا الآن وأبي، أبي نفسه، لا يختلف عنه في شيء إن لم يثقّ تدهوراً... كلاً ليس تدهوراً... ثمة أمر أجهله... أبي لا يخطئ... غير قابل للخطأ. فوق الشبهات... وعلى أي حال فوق الاحترار.

- ما زلت ذاهلاً؟

- لا أتصور شيئاً مما قلت!

- لماذا!؟... اضحك وافهم الدنيا، يغني وماذا في الغناء من عيب؟ ويسكر وصنّغي أن السكر اللذ من

فأشارت بيدها إلى الأمام، في اتجاه السيد الذي كادت تبتهله الظلمة «هس»، ولكنه كان مشغولاً باستحضار صوراً مرّ به في بيت العروس إلى مخيلته، رأى أنها متناهية في غرابتها وفيها بعثه في نفسه من حيرة فجلب يدها إليه ليتبعدها عن حديقته وأم حنفي ثم هس متسائلاً وهو يشير إلى الوراء:

- أما علمت بما يدور هناك؟

- ماذا تقصد؟

- نظرت من ثقب الباب.

فانقبض قلب الأمّ جزعاً لأنها حدثت أيّ باب يعني ولكنها سألته مكدّبة نفسها:

- أيّ باب؟

- باب غرفة العروس!

فقالَت المرأة بانزعاج:

- يا له من عيب أن ينظر الإنسان من ثقب الأبواب!

فهمس من فوره:

- ما رأيته أعجب!

- انخرس...

- رأيت أيلة عائشة وهي تحيل على المجلس على الشيزلنج... وهو...

فلكرته في كتفه بشدة حتى أمسك ثم همست في أذنه:

- يجب أن تتجسس على أمك، لو سمعتك أبوك لقتلك.

ولكنه قال بإصرار ويلهجة من يشعر بأنه يكشف لها عن حقيقة لا يمكن أن تتصوّر هي وقومها:

- كان يتناول دفتها بيده ويقولها.

ولكرته مرة أخرى بقسوة لم يعهدها من قبل فادرك أنّه أخطأ حقاً وهو لا يدري وسكت خائفاً، ولكنه عندما كانا يقطعان فناء البيت المظلم متأخرين عن بقية

الأسرة - وقد تخلّفت عنها أم حنفي لتسكّ الباب وتضيّبه وترثمه - ألحّ عليه ما يكابد من حيرة ورغبة في الاستطلاع فخرج من صمته وخوفه وسألها برجاء:

- لماذا يقبلها يا نينة؟!

أنّ دهشها لم يقترن بانزعاج كما حدث لفهمي ولا بآلم كما حدث لأمّتها، ولعلّها وجدنا في قيام امرأة كجيلة من تحتها وتكبدها مشقة النزول إلى مجلس أبيها لتحتيته وعاداته شيئاً مثيراً للإعجاب حقاً، ثم شعرت خديجة برغبة غريزية في استطلاع وجه أمّها فاستترقت إليها النظر ومع أنّها رأيتها تتسم إلا أنّها تكابد السّيا وارتباكاً يتغصان عليها صفوها وأحسّت بضيق وما لبثت أن حثقت على العالمة وحرم المرحوم شوكت والمجلس كله.

ولسّا أنزلت ساعة الرقّة نسي كلّ همّه. أسابيع مضت لشهور وصورة عائشة في ثوب الزفاف لا ترحب الأذهان.

بذت الفورية متلفعة بالظلام والصمت حينما غادرت الأسرة بيت العروس عائدة إلى النحاسين. سار السيد أحمد في المظلمة وحده، وتبعه على بعد أمتار فهمي ويسان الذي أفرغ ما في وسعه كما يتألك نفسه ويتحمّس في مشيته أن يخوننه وصيه الزائغ من فرط الشراب، ثم جاءت في المؤخرة أمينة وخديجة وكيال وأم حنفي، انصمّ كيال إلى الغافلة على رغبته فلولاً الحادي الذي يتقدمها لوجد سبيلاً إلى عصيان يد والدته وانقلب راجعاً إلى حيث غادروا عائشة، وجعل لهذا يتلفّت بين خطواته وأخرى صوب بوابة المتويّ ليوذع أسبقاً محزوناً آخر ما لاح من مظاهر الفرح، ذلك المصباح المضيء الذي رقي عامل في سلّم خشبيّ إليه ليقلعته من مربطه فوق مدخل السكّرية، لشدّ ما يقطع قلبه أن ينظر إلى أسرته فيجدها قد تخلّلت هن أحبّ أفرادها إليه بعد أمّه، ورفع بصره إلى والدته وسألها هامساً:

- متى تعود أيلة عائشة إلينا؟

فاجابته بمثل صوته:

- لا تكرر هذا وادع لها بالسعادة، سترورنا كثيراً ونزورها كثيراً.

فهمس مرة أخرى حقناً:

- ضحكتم عليّ!

فقلت له بحزم:

- إذا عدت إلى هذا أخبرت والدك!

٤١

أوى ياسين إلى حجرة النوم وهو على حال من السكر شديدة، ما كاد يخلو إلى فهمي ويأمن الرقباء - سرعان ما غطّ كمال في نومه عقب وضع رأسه على المخدّة مباشرة - حتّى جمحت به رغبة في العريضة كردّ فعل للجد العنصريّ الذي بذله طوال السهرة، خاصّة في طريق العودة، كيما يضبط نفسه ويسطر على سلوكه، ولكنّه وجد الحجرة أضيق من أن تتسع لعريته فمال إلى التنفّس عن صدره بالكلام فنظر نحو فهمي وهو ينزع ملابسه وقال ساخراً:

- قارن بين خبيثنا وبين براءة أبينا!... حقاً إنّه لرجل...

وعلى رغم ما حرّك هذا الكلام من ألم فهمي وحيرته إلّا أنّه قنع بأن يقول وهو يرسم على شفّته المتعصّبين شبه ابتسامة:

- البركة فيك فأنت نعم الخلف.

- أيجزك أن يكون والدنا من كبار القناصة؟

- وددت لو تمتد يد التغيير إلى صورته المائلة في نفي.

فقال ياسين وهو يفرك راحتيه في سرور:

- الصورة الحقيقيّة أبهى وأمتع، أعظم به من أب هو المثل الأعلى، آه لو رأيته وهو قابض على الدفّ والكأس بين يديه تزهراً عصاراً... عصار يا سيّد أحد!

فتساءل فهمي في حيرة:

- وحزمه وتقواه؟!

فقطّب ياسين ليركّز فكره في المسألة ولكنّه وجد نفسه في حال الجمع بين الأضداد أروح لها من التوفيق بينها فقال مدفوعاً بالإعجاب وحده:

- ليس ثمة مشكلة على الإطلاق، عقلك الرعديد وحده الذي يخلّق المشكلة من العدم، أي حازم ومؤمن ومحبّ النسون، شيء بسيط واضح ١ + ١ = ٢،

ولعلّي أشبه الناس به على وجه التقريب لأنّي مؤمن وأحبّ النسون وإن قلّ نصيبني من الحزم، أنت نفسك مؤمن وحازم ومحبّ النسون، ولكنّ بينا تحقّق إيمانك وحزمك إذا بك تنكص عن الشائنة (ثمّ ضاحكاً) والثالثة هي الثابتة!

لعلّه نسي عند آخر كلامه باحث الإعجاب الذي دفعه إلى الاسترسال فيه، فجاء قوله دفاعاً عن أبيه في الظاهر فقط، أمّا في الحقيقة فلم يكن إلّا تعبيراً عن شعور وهاج هاج به دمه المخمور، عن نشوة جامحة ركّبتها عقب اختفاء الرقباء الذين يملّدهم، شهرة أثارها خيال مكهور بالشراب، فرغب جسده في الحبّ رغبة جنونيّة عجزت إرادته عن شكّمها أو ملاحظتها، ولكن أين يجد مطلبه؟ هل يتّسع له الوقت؟!... زُتوبة؟!... ماذا يحول بينه وبينها؟!... طريق قصير، ضجعة قصيرة، ثمّ يعود فينام نومًا صميحًا هادئًا، هشّ للأخيلة المغرية هشاشة شخص لا عقل له يراجمه فاندفع إلى تحقيقها بلا تردّد، وما لبث أن قال لأخيه:

- الجسّ حارّ، سأصعد إلى السطح لانتشم هواء الليل الرطيب.

وغادر الحجرة إلى الدهليز الخارجي، ومضى يهبط متلمّساً طريقه في ظلمة غاشية، محاذراً غاية الحذر أن يندّ عنه صوت. تروى كيف يستطيع الوصول إلى زُتوبة في هذه الساعة من الليل؟ هل يترك الباب؟ ومن عسى أن يجيء لفتحه؟ ويومّ يجميه إذا سألته عن مقصده؟ وإذا لم يستيقظ أحد لفتح الباب؟ أو إذا جاء الخفير ليراقبه بتطفّله المعروف؟ عامت هذه الخواطر على سطح مخّه كالفتاقيع ثمّ انداحت غارقة في تيّار الحمر الجارف فلم يشجّه لها كمواقف ينبغي تقدير عواقبها ولكنّه ابتسم لها كدعابات ممّا قد يؤنس وحشة مغامرته، ثمّ جاوزها خياله طائرًا إلى حجرة زُتوبة المطلّة على مفرق الغوريّة والصنادقيّة فتخلّجها في قميص النوم الأبيض الشفاف الذي يتقرّس مطاوعاً فوق التهدين وحول الردفين وتحتجر حاشيته عن ساقين مدملجتين خريتين فجرت جنونه وودّ لو يرب فوق

لها التي بدأت مع صباه، لم يلتفت إليها قط. بيد أنه كان وقتذاك على حال من الحينجان فقدّ معها أية قدرة على التمييز فأعتمته الشهوة، وأيّ شهوة؟ شهوة مولعة بالمرأة لذاتها لا لمعانيها ولا لألوانها، تمتعن الحسن ولا تمزق عن القبح، والكلّ عنهما في «الأزمات» سواء كالكلب يلتهم بلا تردّد ما يصادفه في القمامة، عند ذاك بدت له مغامرته الأولى - زنوبة - مخوفة بالتلاعب بمجسولة العواقب، ولم يعد «الوصول إليها» في هذه الساعة من الليل، وطرق الباب، وما يقول لفاتحه، والخفير دعابته يسم لها، ولكن عواقق يجدر به أن يتغاضى منها. تقدّم في خفة وجذر فاعترّاه، ذاهلاً عن كلّ شيء إلا قنطار اللحم المنطرح عند قدميه الذي بدا لعينيه اللمتين وكأنّه أخذ أهتبه لاستقباله. حتّى توقّف بين الساق القائمة والأخرى الممدودة، ثمّ انحنى عليها قليلاً قليلاً بلا وهي تقريباً، وبإغراء شديد من الداخل والخارج ممّا، وما يدري إلا وهو ينطبع فوقها. لعلّه لم يتعمّد الذهاب إلى هذا الحدّ دفعة واحدة، ولعلّه همّ بشيء من التمهيد كان لا ينبغي أن يسبق الحركة العنيفة الأخيرة، ولكنّ الجسم الذي انبسط عليه اضطرب اضطراباً فزع شديدة ونلت عنه صرخة مدوئية - سبقت يده التي رامت كتمها - فمزقت السكون الشامل ولطمت نحوه لطمعة قويّة رنت إليه وعيه فاطبق راحته على فمها وهو يمسس في أذنها بقلق وخوف بالغين:

- أنا ياسين، أنا ياسين يا أمّ حنفي، لا تخافي... وطفق يكرّر قوله حتّى اطمأنّ إلى وعيها إيّاه فاستردّ راحته، ولكنّ المرأة - التي لم تمسك عن المقاومة قط - تمكّنت أخيراً من تحتية عنها، فاستوت جالسة وهي تلهث من الجهد والانفعال ثمّ سألته بصوت أزعجه أيّا إزعاج:

- ماذا تريد يا سي ياسين؟

فقال لها بلهجة هاسية ملؤها الرجاء:

- لا ترفعي صوتك هكذا، قلت لك لا تخافي، ليس ثمة ما يدعو إلى الخوف بتاتاً...

فعدلت تسالّه بجفاه وإن خفضت من صوتها قليلاً:

الدرجات لولا الظلمة الغاشية. خرج - بخروجه إلى الفناء - إلى ظلمة أخفّ قليلاً بما نفثته النجوم عليها من أضواء خافتة يبدّ أنّها بدت لعينيه اللتين كابدتا ظلمة السكّن طويلاً نوراً أو كالتور. وعندما خطا خطوتين متّجهاً إلى الباب الخارجيّ في آخر الفناء جذب عينيه نور ضئيل ينبعث من سراج حلّ وضمّ أمام حجرته الفرن فالتقى عليه نظرة لا تخلو من استغراب حتّى عثر قريباً على جسم منطرح على الأرض فتدوّره على ضوء السراج فعرف أمّ حنفي التي بدت وكأنّها استحيّت النوم في الهواء الطلق فرأى من جوّ حجرته الفرن الخلق. وهمّ بمواصلة السير ولكن ثمة شيء استوقفه فمطع رأسه مرّة أخرى صوب النائمة فلم يكن أن يتيّنها من موقفه، الذي لم يفصله عنها إلا بضعة أمتار، بوضوح غير منتظر، رآها مستلقية على ظهرها ثانية ساقها اليمنى التي رسمت في الهواء بحافّة الجلباب الملتصقة بالركبة هرمّاً قائماً وكشفت في نفس الوقت عن فخذها اليسرى التي لاحت عارية فيها يلي الركبة ثمّ غرقت في ظلمة الفرجة التي انحسر عنها الجلباب بين الساق القائمة والأخرى الممدودة مع أنّ إحساسه بضيق الوقت ووجوب البدار إلى غايته لم يبيّن إلا أنّه لم يستردّ بصره عن الجسم الملقى غير بعيد منه، أو لعلّه لم يستطع استرداده وإنساق وهو لا يدري إلى تفرّسه بإمعان بدا في بقعة عينيه المحمّرتين وانفراج شفّيته الممتلئتين، فاستحالت بقعة العين - وهي تنفّخص الجسم اللحم الذي شغل فراغاً كبيراً كأنه جاموسة مسنّنة - رغبة مريبة حتّى استقرّ البصر على الفرجة الملتزمة ما بين الساق القائمة والساق الممدودة، ثمّ تحوّل التيّار المضطرب في شرايينه من التطلّع صوب باب الخروج إلى حجرته الفرن، وكأنّه يكتشف لأول مرّة المرأة التي خالطها أعواماً طويلة بغير مبالاة. حلّ أنّ أمّ حنفي لم تحظّ ببسمة واحدة من سيات الحسن، وبدا وجهها أكبر من سنّها الحقيقيّة التي لم تكد تجاوز الأربعين، حتّى اكتنازها باللحم والدهن كان - لتنافره وسوء تنسيقه - بالانتفاخ الغليظ أشبه، ولذلك، ورعاً أيضاً لطول انزوائها في حجرته الفرن وقديم معاشرته

- ماذا جاء بك؟

فجعل يرتع على يدها متوتدًا وهو يتهد في شبه ارتياح لم يتخل من عصبيته كأنها رأى في خفضها لصوتها أمانة مشجعة وقال لها:

- ماذا أغضبك؟ لم أُرِدْ بك سوءًا (مبتسمًا ابتسامة وشت بها نبراته) هلُمّي إلى حجرة الفرن...

فقالت المرأة بصوت مضطرب ولكنّه ذو دلالة حازمة:

- كلا يا سيدي، اذهب إلى حجرتك، اذهب، الله يلعن الشيطان...

لم تزن أم حنفي كلماتها بميزان ولكنها نددت عنها كما اقتضى الحال. لمعلمها لم تعبر أصدق التعبير عن رغباتها، ولكنها عبرت عنها ويغير شعور منها على شدة المفاجأة، مفاجأة لم تسبق يومًا بتهميد من أي نوع كان، التي انقضت عليها في نومها كما تنفض الحلدة على الفرخ، فصددت الشاب وزجرته بلا أدنى تفكير حقيقي في الصدد أو الزجر، بيد أنه أساء فهمها فامتدحًا حنفاً وثارت برأسه الخواطر... وما العمل مع بنت الكلب هذه! لا يمكن أن أتراجع بعد أن كشفت نفسي وتحدت إلى حدّ القضية، لا بدّ مما أريد ولو بلغت إلى القوة وفكر بعجلة في أنجع وسيلة للتغلب على ما تراهي له من مقاومة ولكنّه - قبل أن يتخذ قرارًا - سمع حركة غريبة، لمعلمها أقدام، آتية من باب السلم، فوثب قائمًا وهو من الفرع في نهاية، مزدردًا شهوته كما يسزرد اللصّ فصرّ المساس المسروق إذا بسوغت في مكمنه، واستدار صوب الباب ليعاين ما هنالك فرأى والده وهو يجتاز العتبة ماذًا ذراعه بالمصباح. تسرّ في مكانه تحتفظ الدم مستمسكًا ذاهلًا يائسًا. أدرك من نوره أن صرخة أم حنفي لم تضع هباء، وأن النافذة الخلفيّة لحجرة الأب كانت له بالمصاد، ولكن ما جدوى الإدراك المتأخر؟... لقد وقع في فخّ القضاء والقدر. وجعل السيد يتفرّس في وجهه بقسوة صامتة، مطيلًا الصمت، وهو يتنفض غضبًا، ودون أن يحول عينيه القاسيتين أشار بيده إلى الباب بأمره بالدخول، ومع أن الاختفاء كان أحبّ إليه في تلك اللحظة من الحياة

نفسها إلا أنه من الخوف والارتباك لم يستطع أن يحرك ساكنًا، فضاقت صدر الأب ولاحت في عيونه برؤوس الانفجار ثم زجر صائحًا وعينه - اللتان انعكس عليهما ضوء المصباح المرتعش بارتعاش اليد القابضة عليه - ترسلان شرورًا...

- اطلع يا مجرم يا بن الكلب...

فما ازداد إلا استمسكًا بجموه حتى هجم عليه السيد فقبض على ذراعه يمينه وشدّ عليها بغلظة ثم جذب به بشدة نحو الباب فاندفع بقوة الجذبة الحارقة فكاد يقع على وجهه، وتماك توازنه وهو يلتفت وراءه فرمًا، وفرّ بنفسه وثبًا وهو لا يبالي ظلمة.

٤٢

علم بفضيحة ياسين شخصان - غير أبيه وأم حنفي - هما ست أمينة وفهمي، سمعا صرخة أم حنفي، فشاهدا من نافطتها ما دار بين الشاب وبين السيد، ثم حلسا ما هنالك دون حاجة إلى كبير ذكاء، على أن السيد كاشف زوجه بزلة ابنه وسأله مدققًا عما تعلم من أخلاق «أم حنفي» فدألت أمينة من خلعتها بما علمت من طبيعتها واستقامتها وذُكرت السيد بأنه لولا «صرختها» ما درى أحد بما كان، ففضى الرجل ساعة وهو يسب ويلعن، سب ياسين، وسب نفسه لأنه وما كان ينبغي أن ينجب أطفالًا ليكثروا صفوه بأهوائهم الشريرة واستفاض به الغضب فسب البيت وأهله جميعًا... وظلّت أمينة صامته كما واصلت صمتها فيما بعد كأنها لم تدبر شيئًا، كذلك تجاهل فهمي الأمر كله، تظاهر بالاستغراق في النوم حين عاد أخوه إلى الحجرة لاهلًا عقب الموقعة الحاسرة، ولم يتدّ منه فيها بعد ما ينم من علمه بشيء، كره أن يعلم الآخر بوقوفه على ما نزل به من ذلّ ومهانة إكرامًا لاحترام يكنّه له بصفته أخاه الأكبر، احترام لم يُدعيه كلّ ما تكشف له من استهتاره ومجونه أو ما تقدّم هو به عليه من علم وثقافة، أو ما يبدو من ياسين نفسه من علم مبالاة بالزمام أحد من إخوته باحترامه بما يعابهم من مزاح ودعابة، أجل لم يزل

تعرّضت لهبة هواء عنيفة، وراح يقول لنفسه وهو شاعر بخداعه ولو طاعت الشيطان وهجرت البيت لاحتلت تقليدًا خبيثًا لا يليق بأمرتنا، مهما يقل أبي أو يفعل فهو أبي وهيئات أن نضام حيال تأنيبه، ثم قال بصراحته التي يصطنعها إذا غلبته روح الدعابة وشيئا من التواضع يا ياسين بك، دعنا من الكرامة وحياة أنك، أيها أحب إليك كرامة سيادتك أو كونيك كوستاكي وسرة زنيوة. هكذا عدل عن التفكير في مغادرة البيت ولبث ينتظر الدهوة المتوقعة حتى وقعت فجمع نفسه ومضى كارهًا متوجسًا، دخل الحجرة خافض الرأس خفيف القدم ووقف بعيدًا عن مجلس أبيه من غير أن يمرّ على التسليم عليه، وانتظر. وألقى السيد عليه نظرة طويلة ثم هز رأسه كالمتعجب وهو يقول:

- ما شاء الله... طول وعرض، شارب وقفا، إذا رآك الرائي في الطريق قال لنفسه بإعجاب يزم الرجل ونعم الابن، فليت القاتل يميء إلى البيت ليرك على حقيقتك!...

ازداد الشاب ارتباكًا وحياء ولكنّه لم ينس بكلمة ومضى السيد يتخصّص بسخط ثم قال بانقباض وبلهجة جالقة امرأة:

- قُورْتُ أن تزوّج...!

ودعش ياسين دهشة لم يكذب يصنق معها أذنيه، كان يتوقّع سبًا ولعنًا فحسب ولكن لم يخطر له على بال أنّه سيسمع قرأًا خطيرًا يفتّر يجري حياته كلها فما تمالك أن رفع عينيه إلى وجه أبيه حتى إذا ما التفتا بعيني الزرقاوين الحادّتين خفضهما متورّد الوجه لائداً بالصمت، وفطن السيد إلى أن ابنه بوغت بهذا القرار «السعيد» بدلًا من المعاملة الفظة التي كان يتوقّعها نثار حنقه على الظروف التي أمّلت عليه أن يلقاه بجانب دمث خليف يتكلم به بجزيرة المعروف فبث حنقه في نبرات صوته، وهو يقول عابثًا:

- الوقت ضيّق وأريد أن أسمع جوابك...

ما دام الرجل قد قرّر أن يزوجه فهو يأي إلا أن يسمع جوابًا واحدًا، ولا مانع من أن يُسمعه الجواب

يكن له احترامًا لعل حرصه على الإبقاء عليه راجع إلى ما يأخذ به نفسه من تأديب وجدّ ورزاة أكسبته مظهرًا أكبر من سنّه، بيد أن خديجة لم يفتّحها أن تلاحظ - غداة الواقعة - أن ياسين لم يتناول فطوره على مائدة أبيه فسائه باستغراب عن المانع فأجابها بأنّه لم يضمّ عشاء الفرج، وشمرت الفتاة - بسوء ظنّها الطبيعي المرهف - بأنّ ثمة علة لتخلّفه غير عصر المضمّ فسألت أمّها ولكنّها لم تجد جوابًا شافيًا، ثمّ رجع كمال من حجرة الطعام وهو يتساءل أيضًا، لا بدافع من حبّ الاستطلاع أو الأسف، ولكن أملًا أن يجد في الجواب ما يشرّه بفترة أخرى يخلو الميدان فيها من منافس خطير كياسين، وكاد الأمر ينسحب لولا أنّ ياسين غادر البيت مساء من غير أن يشترك في مجلس القهوة الملهود، ومع أنّه اعتدل لفهمي والآن بارتباطه بجماد إلا أن خديجة قالت بصراحة وفي الأمر شيء، لست عبيطة... أقطع ذراعي إن لم يكن ياسين متفيرًا. وعند ذلك اضطرت الأم أن تعلن غضب السيد على ياسين لسبب لم تعلمه... وانقضت ساعة وهم يفتّنون السبب حتى أمّية وفهمي اشتركا مع الآخرين مداراة للواقع. وظلّ ياسين على تجنّبه لمائدة أبيه حتى دُعي ذات صباح إلى مقابلته قبل الفطور. لم تفجأ الدهوة، وإن أزعجته رغم ذلك - فكم توقّعها يومًا بعد يوم لاستيثاقه من أنّ أباه لا يمكن أن يقنع من زلته بتلك الجذبة العنيفة التي كادت أن تلقيه على وجهه، وأنّه لا بدّ حائد إليها بطريق أو بآخر ولعلّه توقّع أيضًا معاملة لن تليق بحال بمؤكّلف مثله بما حله حينًا على التفكير في مغادرة البيت إلى حين أو إلى الأبد. أجل لا يجمّل بأبيه - أبيه كما عرفه في بيت زبيدة خاصّة - أن يلقي زلته بهذا العنت كلّ، كما لا يجمّل به هو أن يمرّض نفسه للمعاملة لا تليق ببرجلته فالأكرم له أن يفارقه، ولكن إلى أين؟... ليس إلا أن يعيش عيشة مستقلة بمفرده، ولن يعجزه هذا، بيد أنّه قلب الأمر على مختلف وجوهه، فقرأ التفات وتساءل حيّا يبقى له بعدها الملاذ: لقهوة سي علي وحنانة كوستاكي وزنيوة. هنالك فتر حماسه حتى انطفأ كما تنطفئ شمعة سراج

الذي يريد، لا طاعة لأمره فحسب، ولكن تلبية لرغبته هو أفضل. أجل ما كان والده يعلمه بقراره حتى انطلق خياله يصوره له «عروسًا» حسنة، امرأة تكون ملك يمينه وهرن إشارته حين يشاء فأبهج الخيال قلبه حتى أوشك أن يفضحه صوته وهو يقول:

- الرأي رأيك يا بابا...

- تريد أن تتزوج أو لا؟ ... انطق...

فقال الشاب بحذر من يرغب الزواج وهو غير مستعد له ماليًا:

- ما دامت هذه إرادتك فإني موافق على العين والراس.

فخفف السيد من خشونة هجته وهو يقول:

- سأطلب لك كريمة صديقي السيد محمد عفت تاجر الأقمشة بالحمزاوي، لقية ظفرها برقبة ثور منلك.

فابتسم ياسين ابتسامة خفيفة وقال مداهنًا:

- ولكنني بفضلك أصبح كفتًا لها.

فرمقه بنظرة حادة كأنها لينفذ بها إلى أعماق مداهته وقال:

- من يسمح لكلامك لا يتصور فعالك يا منافق...

أغرب عن وجهي...

وهم ياسين بالتحرك ولكنه أوقفه بإشارة من يده ثم تسادل مستنكرًا كأنما عرض التساؤل له أخفًا:

- أظنك حوّشت المهر؟

لم يجر جوابًا وعلاه الارتباك فاغتاز السيد وتسادل مستنكرًا:

- ولكنك عشت رغم تولّفتك في كفاتي كما كنت تمش وأنت تلميذ فإذا صنعت بمرئيك؟

فلم يزد على أن حرك شفتيه دون أن ينبس فحرك الأب رأسه متعمّضًا وذكر قوله له منذ عام ونصف وهو يوصيه لمناسبة تولّفته وهو طالبك الآن بأن تتمهّد بنفقات نفسك بوصفك رجلًا مسئولًا ما خرقت المألوف بين الآباء والأبناء ولكني لن أطلبك بمليم واحد كي أهنيّ لك فرصة لاقتصاد مقدار من المال تجمله بين يديك إذا دعت الحاجة إليه. ودلّ ذلك

التصرف من جانبته على ثقته بابنه، والحقّ أنّه لم يتصور أن يخرج أحد من أبنائه - بعدما ناك من تأديبه وتعليمه الصغامين - إلى هوّى من الأهواء الجساعة التي تبدّد المال، لم يتصور أن ينقلب ابنه «الصغير» سكرًا ماجنًا، فالخمر والنساء التي يراها في حياته هو لوّنًا من اللهو لا يمس رجولة ولا يؤذي إنما تنقلب إذا «لوّنت» أحدًا من أبنائه جريمة لا تغتفر، ولذلك فإنّ زلّة الشاب التي كشفها في فناء البيت طمأنته بقدر ما أغضبته لأنّ أمّ حتفي في نظره لا يمكن أن تغري شابًا إن لم يكن تحمّل ما فاق طاقته من الاستقامة والمقّة... أجل لم يشكّ في براءة ابنه بيد أنّه ذكر ما لاحظته كثيرًا من ولعه بالأناقة وتخيّره النفيس من البديل والقمصان وأربطة الرقبة وكيف لم يربح إلى ذلك وحذره الإسراف ولكن تحديقًا هيّئًا، إمّا لأنّه لم يَز في الأنافة جريمة، وإمّا لأنّ تشبّه ابنه به وتكراره بصورة من صور سلوكه - الذي لا يرى بأسًا في أن يكرّره أبناؤه - حرّكا في صدره العطف والتسامح، ولكن كيف كانت نتيجة ذلك التسامح؟ وهي ما وضع له الآن من تبذيره نقوده في التافه من الكياليّات. ونفخ الرجل منيظًا عنقًا وقال له عتدًا:

- أهرب عن وجهي...

غادر ياسين الحجرة مغضوبًا عليه بسبب تبذيره لا بسبب زلّته كما توقّع وهو ذاهب إلى الحجرة، تبذيره الذي لم يكرهه من قبل فلمنّ إليه نفسه بلا تفكير ولا تدبّر، ينفق ما في جيبه حتى يفرغ غارقًا في ساعته، متعميًا عمّا يسمّونه «الاستقبال» كأنه شيء لا وجود له، ومع أنّه غادر الحجرة مرتبًا وجلًا لرهة أبيه إلّا أنّه لم يُقلّ من ارتياح عميق إذ أدرك أنّ تلك النهرة لا تعني طرده فحسب ولكن أيضًا أنّ السيد سيتكفل بنفقات زواجه، ومضى كالطفل الذي يضيق أبوه بالحاحه في طلب قرش فينقله إياه ويدفنه خارجًا فينسى شدّة الدفعة في فرحة الظفر، ولبت الأب ساهطًا راح يردّد «يا له من حيوان، جسم طويل عريض ولكن بلا مخ» أغضبه إسرافه كأنّه لم يتخذ هو من الإسراف شعارًا في الحياة - ولكنه لا يرى بأسًا في إسرافه كسائر أهوائه - ما

دام لا يفقره وينسيه وإجابه أو يدهور شخصيته، ولكن كيف يضمن أن يصمد أمامه ياسين؟... فلم يكن يحرم عليه ما يجعل نفسه من استبداد وأنانية فحسب ولكن شغفًا عليه وإن دلَّ شغفه هذا على ثقة بالنفس وعدم ثقة بالآخر لا يخلوان من غرور. وزايله الغضب كعادته، بنفس السرعة التي ركبها، فصفته نفسه وانيسطت أساريه وأخذت الأمور تتبدل له بوجه جديد لطيف مسباح... «تريد أن تشبه بأبيك يا ثور... إذن لا تأخذ جانبًا وعمل الجوانب الأخرى، كن أحمد عبد الجواد كله إن استطعت أو فالزم حدوك، أحسبتي حقًا سخطت على تبليك لآتي كنت أرجو أن أزوجك بنقودك؟ خشت... إنما رجوت أن أجذك مقتصدًا كي أزوجك بنقودي على وفرة النقود لديك، هذا هو الرجاء الذي خيبت. وهل حسبتي لم أفكر في اختيار زوجة لك إلا بعد ضبطك مثلثًا بالزنا، وإني زنا... زنا حقير كحقارة ذوقك وذوق أمك؟ كلًا يا بطل إني أفكر في سعادتك منذ تولقت، كيف لا وأنت أول من جعلني أبا... وأنت شريك في العذاب الذي أضلننا إياه أنك اللعينة!... ثم أليس من حقِّي أن أفرح بك خصوصًا وأنه عليّ أن أنتظر طويلًا حتى أفرح بالثور الآخر أخيك أسير العشق وما تُرى من يعيش!...» في اللحظة التالية استرجع ذكرى ذات صيب وثيق بموقفه الراهن ذكر كيف قصَّ على السيد محمد عفت وجرعة ياسين وما كان من زجه وجذبه تلك الجذبة التي كادت تلقى على وجهه وهو بصدد طلب يد كريمة للشاب - الواقع أنَّ الموافقة على ذلك تمت بين الرجلين من قبل مفاتحة ياسين - وكيف قال له الرجل «ألا ترى أنه يجعل بك أن تتغير من معاملتك لابنك كلًا قارب سنَّ الرشيد خاصة إذا تولقت وصار رجلًا مسؤولًا؟ (ثم ضاحكًا) الظاهر أنَّك من الآباء الذين لا يرتدحون حتى يجهز أبناؤهم بالثورة عليهم». وكيف أجابه بطفة قائلاً: «ديهات أن تمرض الرابطة بيني وبين أبنائي لتغير الزمن» صدرت عنه الإجابة الأخيرة بمباهاة وثقة لا حد لها، على أنه اعترض له بعد ذلك أنَّ معاملته

تتغير في الواقع بتغير الأحوال وإن عمل من جانبه على ألا يفطن أحد إلى تية التغير الباطنة ثم قال: «الحقَّ آتي لا أقبل أن أمدَّ يدي الآن على ياسين ولا حتى على فهمي، والحقَّ آتي جذبت ياسين تلك الجذبة تحت تأثير غضب ثار ومن غير أن أقدر المدى الذي ذهبت إليه» ثم استطرد قائلاً وهو يكرُّ إلى فترة من الماضي البعيد وكان أبي رحمة الله عليه يلتمز في تربيتي شدَّةً تهون لي جانبها شلتي مع أبنائي ولكنه سرعان ما غير من معاملته لي منذ أن دعاني إلى معاونته في الدكان، ثم استحالت معاملته صداقة أبنوة منذ تزوجت أم ياسين، وقد بلغ بي الاعتزاز بالنفس أن عارضت في زواجه الأخير لكبره من ناحية وحداثة سنَّ العروس من ناحية أخرى فلم يزد على أن قال لي «أناضني يا ثور... وما دخلك في هذا الشأن؟ إني أقدر منك على إرضاء أمة امرأة» فما تماكنت أن ضحكت وطبخت خاطره معتزلاً ذكر هذا كله فورد على ذهنه المثل الغائل «إذا كبر ابنك آخيه» فشرع - ريثما لأول مرة في حياته - بتعقد مهمة الأبنوة كما لم يشعر بها من قبل. في نفس الأسبوع أذاعت الأم خطبة ياسين في مجلس الفهوة، كان فهمي قد علم بها عن طريق ياسين نفسه، أمَّا خديجة فما تماكنت أن ربطت بين الخطبة وبين ما عرف من قبيل عن غضب الأب على ياسين فلما منها أنَّ الغضب إنما وقع نتيجة لرغبة ياسين في الزواج قياساً على ما كان بين الأب وفهمي للسبب نفسه فصرحت برأيها كالمسائلة فقال ياسين ضاحكاً وهو يحطف من الأم نظرة لا تخلو من حياء وارتباك:

- الحقَّ أنَّ ثمة علاقة قوية بين الغضب وبين الخطبة...

فقال خديجة متظاهرة بالاستنكار على سبيل السخرية والمزاح:

- بابا معذوري في غضبه لأنَّ حضرتك لا يمكن أن تشرِّفه أمام صديق كبير مثل السيد محمد عفت...

فجارها ياسين في سخريتها قائلاً:

- وسوف يزداد موقف أبي حرجاً إذا ما علم السيد الكبير المذكور أنَّ للعرس أختاً مثل حضرتك!

عند ذاك تسامد كمال :

- هل سيتركنا ياسين كما تركتنا أبله عائشة؟

فقال له إنه باسمه :

- كلاً ولكن سننضم إلى بيتنا أخت جديدة هي

العروس...

ارتاح كمال إلى هذه الإجابة التي لم يكن يتوقعها،

ارتاح إلى بقاء «رواية» الذي يمتعه بحكاياته ونوادره

ومؤانسته ولكنه عاد يتساءل لماذا لم تبق عائشة أيضاً؟

فأجابته أمه بأن العادة قضت بأن العروس تنقل إلى

بيت العريس وليس العكس، لم يَدُر من سنّ هذه

العادة وكم غنى لو كان العكس هو القبح ولو يضحي

بباسين ولطائفه. بيد أنه لم يستطع أن يجهر برغبته

فأفصح عنها بنظرة ناطقة رنا بها إلى أمه، فهمي وحله

الذي أثار الحير أشجانه لا لأنه لم يشارك ياسين فرحته

ولكن لأن سيرة الزواج غداً شابها أن توقف عاطفته

وتستثير حزنه كما تستثير سيرة النصر حزن أم فقدت

ابنها... في موقعة ظافرة...

٤٣

تحرك الحنطور مقلاً الأم وخديجة وكال في طريقه

إلى السكّرية. أياكون زواج عائشة إيداًناً بعهد جديد

من الحرّية؟ أيقدر لهم أخيراً أن يكلموا على نور الدنيا

من حين لآخر وإن يتنقّسوا هوامها الطليق؟ بيد أن

أمنية لم تستسلم للتناؤل أو تسبق الحوادث، فاللي

حرّم عليها زيارة أمها فيها ندر قادر على أن يحرم عليها

زيارة ابنتها كذلك. ولم تنس أمه مضت أيام كثيرة على

زواج الفتاة زارها خلالها الأب وياسين وفهمي وحتى

أم حنفي دون أن يؤذن لها هي بزيارتها أو تواتبها

شجاعتهما على الاستئذان للزيارة، تحرّرت من تذكيره

بأن لها ابنة في السكّرية يجب أن تراها، ولازمت

الصمت وإن لم تريح صورة الصغيرة غيّلتها، على أنه

لما ضلّق صدرها بالأم التصمّر استجمعت إرادتها

وسأله :

- إن شاء الله يكون سيدي عازماً على زيارة عائشة

قريباً لنطمئن عليها...

فطن السيد إلى ما وراء السؤال من رغبة خفية

فحنق عليها، لا لأنه كان قرّر أن يحول بينها وبين

زيارة عائشة، ولكن لأنه ودّ كشانه في مثل هذه

الحالة - أن يصدر السباح منه منحة غير مسبقة يطلب

أن تقوم بنفسها بشبه بأن طلبها ذو أثر في استصدار

السباح، فكرة أن تسعى إلى تذكيره بهذا السؤال

المكرر، ومن قبل فكر في الأمر بضيق فأحس أنه يحده

ضرورة لا يحصى منها، ولذلك هتف بها حانقاً :

- عائشة في بيت زوجها ولا حاجة بها إلى أحد منا،

على أنني زرتها كما زارها أخوها فإذا يفلتلك عليها؟!

غاص قلبها في صدرها وجفّ ريقها يأساً وقهراً،

أما السيد فقد تعمّد أن يلزم الصمت كأنه انتهى من

الأمر كلّ معاقبة لها على ما عدّه مكراً منها لا يغفر،

ثم أمهلها طوال الوقت وهو يخلّص النظر إلى ما غشي

أساريرها من كمد، حتّى حان وقت انصرافه إلى عمله

فقال لها بجفاف واقتضاب :

- اذهبي غداً إلى زيارتها...!

تدافع دم الانسراح إلى الوجه الذي لا تغشى

بصفحته خافية فبلدت في سرور الطفل فما حتم أن

عاوده حنقه فصاح بها :

- لن تريباً بعد ذلك إلا إذا سمح لها زوجها

بزيارتنا...!

فلم تعلق على قوله بكلمة ولكنها لم تنس عهداً

حملته وهي تشاور خديجة في مفاعته فقالت بعد تردد

واشفاق :

- هل يسمح سيدي بأن آخذ معي خديجة؟

فهزّ رأسه كأنما يقول وما شاء الله... ما شاء

الله... ثم قال لها عتداً :

- طبعاً... طبعاً... ما دمت قد قبلت أن أزوّج

ابنتي فيجب أن تنضمّ أسرّي إلى أبناء الشوارع...!

خليها، ربّنا يأخذكم جميعاً...

تمّ لها فوق ما تطمح من السرور فلم تُلقي بالاً إلى

الدعاء الأخير الذي ألقت سماعه... وأكثر... في أوقات

غضبه أو تظاهره بالقبض على السواء - كانت تعلم

بأنه من طرف لسانه وأنه أبعد ما يكون من قلبه، مثله

كمثل القطة تبدو، حين تحمل صغارها، وكأنها تلتهبها. تحقّق الرجا وانطلقت العربية بهم في طريقها إلى السكّرية. بدا كمال، لزيارة عائشة وخروجه بصحبة أمّه وأخته وركوبه الحنطور، أوفر الثلاثة سرورًا، وكأنه لم يستطع كتمان فرحه أو أنّه رغب في إعلانه على الملأ أو لعله أراد لفت الأنظار إلى شخصه وهو يتخذ جلسه في الحنطور بين أمّه وأخته فيها اقتربت العربية من دكان عمّ حسين الحلاق حتّى وقف بغتة هاتفاً وبا عمّ حسين... انظروا! فنظر الرجل إليه ولياً لم يعبده وحده غصن بعصره في عجلة ميسّراً فدايت الأمّ حجاباً وارتباجاً وجذبت من طرف جاكته أن يعيد الكثرة أمام الدكاكين التالية وراحت تؤنّبه على فعلته والجنونيّة. بدا بيت السكّرية - وليس كذلك بدا في حلّة الأنوار ليلة الفرح - عتيقاً هرمّاً ولكن دلّ عطفه نفسه فضلاً عن ضخامة بنيانه ونفاسه أثالة على السؤدد والجاه، قال شوكت أسرة «قديمّة» وإن لم يبن لهم من عزّة القدم - خاصة بعد توزيع الثروة بالتوارث والاستكبار على التعليم - إلّا الاسم، وقد أقامت العروس بالدور الثاني حل حين نزلت حرم المرحوم شوكت - ومعها ابنتها الأكبر إبراهيم - الدور الأوّل لتعجزها مع الكبر عن ارتقاء السلم فبقي دور ثالث شاغراً لم يسعهم أن يشغلوه وأبوا أن يسكنوه. وكما أدخلوا شقّة عائشة همّ كمال، منطلقاً مع سجيّته كما لو كان في بيته، ييوس خلافاً كي يمرّ بنفسه على أخته مستمتّاً بلذّة المفاجأة التي تخفيها وهو يرقى في السلم ولكنّ أمّه لم تدعه يقلت من يدها رغم مقاومته وما يدرى إلّا والحلمد تقودهم إلى حجرة الاستقبال ثمّ تركهم وحدهم! شعر بأنهم يعاملون معاملة «الغرياء» أو «الضيوف» فانقبض صدره وانكسرت نفسه وجعل يردد في جرع «أين عائشة؟... لماذا تبقى هنا؟» فلا يسمح إلّا كلمة «هس» وتخلّياً من منعه من الزيارة مرّة أخرى إذا علا صوته!... ولكنّه سرعان ما زايّله الألم حين جاءت عائشة مهرولة مشرقة الوجه بإبتسامة غطى سناها على أضواء حلّتها الزاهية وزيتها الباهرة فجرى نحوها وتعلّق بعنقها، فتبدل التسليم بينها وبين

أمّها وأختها وهو على ذلك الرضخ! بدت عائشة سعيدة كلّ السعادة بنفسها وبحياتها الجديدة وزيارة أهلها، حدّتهم عن زيارات أبيها ويساين وفهمي، وكيف غلبها الشوق إليهم على خوفها من أبيها فواتها الجرة على أن ترجوه بالسباح لهم بزيارتها... قالت «لا أدري كيف طاوحي لسانى حتّى تكلمت! لعلّ مظهره الجديد الذي لم يترأّ في به من قبل هو الذي شجّعني، بدا لطيفاً وديماً باسماً، إي والله باسماً، حل أنّي تردّدت رغم ذلك طويلاً، خفت أن يتقلب فجسّة فيتهرني، ثمّ تروكّلت على الله ونطقت!» فسألها أمّها عن رثه كيف كان لفات قالت «قال لي بالقتضاب: إن شاء الله، ثمّ استطرّد مسرعاً بلهجة جدّية تنمّ عن تحذير: ولكن لا نلظني المسألة لعباً فكلّ شيء بحساب. فخفق قلبي ورحمت أذعوه طويلاً توقّداً واسترضاه» ثمّ رجعت إلى الوراء قليلاً فوصفت حالها عندما قيل لها «السيد الكبير في حجرة الاستقبال» قالت «ركضت إلى الحماهم فغسلت وجهي لأزيل كلّ أثر للمساحيق حتّى تسامد سي خليل عيّ يدعو إلى ذلك كلّه ولكنّي قلت له: أدركني، لا أستطيع أن ألقاه بفستان صيفي يكشف عن ذراعي! ولم أبرح موضعي حتّى تلقّعت بشال كشميريّ!» ثمّ قالت «وليّما علمت نية... (ضاحكة) أعني نية الجديدة... كما قصّ عليها سي خليل ما جرى ضحككت وقالت له: إليّ أعرف السيد أحمد تمام المعرفة... هو هذا وأكثر (ثمّ ملتفتة إليّ) ولكن اعلمي يا شوشو أنّك لم تعودي من آل عبد الجواد، أنت الآن شوكتيّة فلا تسالي الآخرين...». أصاب منظرها البهيج وحديثها من نفوسهم موضع الحبّ والإعجاب فحملن كمال فيها كما فعل في ليلة الزفاف وتساءل عتّجاً لماذا لم تكوني تبدلين هكذا وأنت في بيتنا؟! فاجابته على الفور ضاحكة ولم أكن وقت ذاك شوكتيّة حتّى خديعة رمتها بعين الحبّ. انقطعت بزواج الفتاة دواعي الملاحاة التي كانت تنشب بينها بسبب الاختلاط، ومن ناحية أخرى لم يبنّ من الإحساس بالحق الذي ركبها عند السباح بزواج الفتاة قبلها إلّا أثر باهت حلّته «بختها» من دون

وإذا بخليل شوكت يدخل ضاحكاً وهو يرسل بجسمه الريبة في جلباب حرير أبيض. كان ذا وجه بيضاويّ مثقّل، أبيض البشرة في عنيه جحوظ خفيف وفي شفاه غلظة، أما رأسه الكبير فينتهي بجبين ضيق يفتق عند قمته شعر أسود كثيف يشبه في لونه وترचितه شعر السيد، تلوح في عنيه نظرة طيبة وخول لعلها أثر للراحة والفراغ والرضى. انحنى على يد الأم ليقبلها فجلبتها بسرعة في خجل وارتباك وهي تتمتم شاكراً ثم سلم على خديجة وكيال وجلس وكأنه - على حدّ تعبير كيال فيما بعد - واحد منهم. وانتهاز الغلام فرصة تشاغل العريس بتحديثهم وتفرّس في وجهه طويلاً، ذاك الوجه الغريب أصلاً الذي برز في محيط حياتهم ليحتل مكاناً مرموقاً يؤهله لأن يكون أقرب الأقرباء أو بالأحرى أن يكون قريباً لوجه عائشة، كلّما خطر هذا على باله جرّ وراءه ذاك كما يجزّ الأبيض الأسود. تفرّس فيه طويلاً وهو يردّد في نفسه قوله المثلّثة «لن تعود إليكم يا سي كيال» فوجد نحوه إنكاراً ونفوراً وحقدًا وكادت تتمكّن من قلبه لولا أن قام الرجل فجأة ومضى إلى الخارج ثم عاد حاملاً صبيّة فضيّة ملثت حلوى من مختلف الألوان تقدّم له بأساساً. وإن كشف الاستقرار نغره عن مبشرين ركبت إحداها الأخرى - نخبة من أشهى الأصناف، وجاءت حرم المرحوم شوكت معتمدة على ذراع رجل استدلّوا بمشابهة خليل على أنه أخوه الأكبر، ثم وكّد استدلالهم تقديم الأرملة بقولها «إبراهيم ابني... ألم تعرفوه بعد؟» وعندما لاحظت ارتباك أُمينة وخديجة حال التسليم قالت باسمه «نحن كالأمرة الواحدة من قديم الزمان ولكن بعضنا يرى البعض الآخر الساعة لأول مرّة... لا بأس... فطنت أُمينة إلى أن المرأة تشبهها وتحوّل عليها الأمر قابضت، ولكن ساورها شيء من القلق وتساءلت: ترى هل يوافق السيد على مقابلتها لهذا الرجل - وإن عدّ عضواً جديداً في الأسرة كخليل سواء بسواء - بغير نقاب... وهل تكاشفه بالمقابلة أو نتحاشى ذكرها إيثاراً للسلامة...؟ كان إبراهيم وخليل أشبه بالتواأمين لولا غارق

الفتاة، فلم يعد ينطوي قلبها إلّا على الحبّ والشوق، لشدّ ما تفقدها كلّما أنتست من نفسها حاجة إلى أنيس تقضي إليه بذات نفسها. ثم تحلّثت عائشة عن البيت الجديد، عن المشربية التي تطلّ على بوابة المتعلّي، والمآذن التي تنطلق من قرب، وتثار السابلة الذي لا ينقطع. كلّ شيء حولها يذكّرها بالبيت القديم وما يكتنفه من سبل وأبنية فلا اختلاف فيها عدا الأساء وبعض المعالم الثانويّة ولكن على فكرة البوابة العظيمة لا نظير لها عندكم (ثمّ شيء من الفتور) وإن كان المحمل لا يحرّ تمّتها كما أخبرني سي خليل! وواصلت حديثها ونمت المشربية مباشرة مجلس يضمّ ثلاثة لا يفارقونه قبل جثوم الليل: شخّاذ كسيح وبائع مراكيب وضارب رمل، أولئك جبراني الجند، إلّا أنّ ضارب الرمل أسعدهم حقّاً، لا تسألوا عن أفواج النساء والرجال الذين يخلصون القرفصاء أمامه مستخبرين عن طواعيهم، كم ودعت لو كانت مشربتي أوطأ كيما أسمع ما يقول لهم، وألذّ منظر، منظر سوارس القادمة من الدوب الأحمر إذا تقابلت مع عربة حجارة قادمة من النورية فضايق عنها مدخل البوابة وركب كلّ سائق رأسه متحدّياً الآخر أن يتراجع ليفسح السبيل، يبدأ الكلام ليبدأ بعض الذين فيحتدّ، ثمّ ينجشوشن، ثمّ يهدر الحناجر بالسباب والشتم، ونحيي في أثناء ذلك عربات كلرو وعربات يد فيخضّ بها الطريق ولا يدرى أحد كيف يعود الحال إلى ما كان عليه، هنالك أقف وراء الحصاص أكثمت الضحك وأتأكل الوجوه والمناظره وما أشبه فناء البيت الجديد بفناء بيتهم، حجرة القرن والمخزن وحمامات سيّدة الفناء والجارية سويدان ولا أجد لي عملاً فلا أذكر المطبخ حتّى تحمل إليّ صبيّة الطعام وعند ذلك لم تتأكل خديجة نفسها من أن تصبح قاتلة وملت ما طاماً فتمتته! لم يجد كيال في الحديث شيئاً ذا بال إلّا أنه أحسن في نغمته العامّة بما يوحي «باستقرار» المتحدّثة فدخله الانزعاج وسأله:

- ألن تمودي إلينا؟

فملا الحجرة صوت يقول:

- لن تعود إليكم يا سي كيال...

فانتقل إلى جوار العروس وأبلى لها إشارة فهمت منها أنه يريد أن يخلو بها فقامت وأخذته من يده وغادرا الحجرة، ظنته قائماً بمجالستها في الصالة ولكنّه جذبها من يدها إلى حجرة النوم وردّ الباب وراءها حتى ارتج. انطلقت أساريه ولبعت عيناه، وتطلّع إليها طويلاً ثم تصفّح الحجرة ركنًا ركنًا وهو يشمّ رائحة الأثاث الجديد مازجها أريج زكيّ لعله بقيّة ما انتشر من أيدي المتطهّرين وصدورهم، ثمّ رنا إلى الفراش الوثير، إلى النمرقتين الورديتين المتجاورتين على الغطاء فوق الوسائد وسألها «ما هما؟» فأجابته ووسادتان صغيرتان» فسألها «أتوسدينهما؟» قالت باسمه «كلاهما» للزينة فقط» فأشار إلى الفراش متسألًا «أين تنامين؟» فأجابت باسمه أيضًا «في الداخل» فسألها كأنه متأكد من أنه ينام معها «وسي خليل؟» فأجابته وهي تقرص خدّه برقّة «في الخارج...» عند ذاك التفت صوب «الشيزليج» بغرابة، وسار إليه وجلس، ودعاها إلى الجلوس جنبه فجلست، وما لبث أن غاب في الذكريات غاصًّا بصره ليخفي نظرة مريبة وصمّما بالريبة اشتداد أمّه بالحملة عليه مساء ليلة الزفاف وهو يصرّ إليها بما رأى من ثقب الباب، راودته نفسه على أن يبرح لها بسرّه، أن يسألها عنه، تحت ضغط إغراء لا يخلو من قسوة، ولكنّ الخجل الناجم عن الشعور بالريبة عقله فشكّم رغبته على رفعه، ثمّ رفع إليها عينين صافيتين وابتمس إليها، فابتسمت إليه ومالت نحوه فقبلته، ثمّ نهضت لثالثة وملء وجهها ابتسامة حلوة:

.. لاملأَنَّ جويوك بالشيكلانة..

تصايح الغلمان التجمهرون أمام البيت وعلى طوار سبيل بين القصرين مهلّكين، تميّز صوت كبال وهو يتف «هلّت سيّارة العروس» وردّعا ثلاثًا فخرج ياسين - وهو في كامل زيتته وأبنته - من بين البلياعة الواقعة عند مدخل القناء ومضى إلى الطريق فوقف أمام البيت متّجهًا صوب النحاسين فرأى مركب

السّن، على أنّ اختلافها بدا أقلّ من القليل بالقياس إلى اختلاف صمعيها، والحقّ أنّه لولا قصر شعر إبراهيم، ولولا شاربته المفتول، لما كان ثمة ما يميّزه عن خليل، كأنّه لم يبلغ الأربعين، أو كأنّ شبابه ومظهره لا يتأثّران بكمور الأعوام، لذلك ذكرت أمينة ما حدثها به السيّد مرّة عن المرحوم شوكت من أنّه «وكان يبدو أقلّ من عمره الحقيقيّ بعشرين عامًا أو يزيد» أو قوله عنه «إنّه رغم طبيته ونبله كان كالحَيوان لا يسمح لفكره أبدًا بأن ينقص عليه صفوه»، ليس عجيبيّ أن يبدو إبراهيم في الثلاثين مع أنّه تزوّج في صدر شبابه وأنجب طفلين ثمّ ماتت زوجته وطفلاه؟! ولكنّه مرق من تجرّبه القاسية سالماً لم يمتّ، ثمّ عاود الحياة مع أمّه في حلول ودعة وفراخ شأن آل شوكت جميعًا، راق خديجة أن تسترق النظر - كلّما أمنت عين الرقباء إلى الشقيقتين، إلى أوجه الشبه العجيبة بينهما، ببضاويّة الوجه وامتلائه، جحوظ العينين الواسعتين، البدانة الخمول، فحرّك كلّ أولئك السخرية الكامنة في نفسها حتّى ضحكّت أفكارها ومضت تدخّر في ذاكرتها من الصوّر ما تعود إليه إذا صمّما مجلس القهوة ومالت جريًا على سنّها في التهجّم إلى العبث والإضحك، وإلى هذا فُكرت باهتمام في اختيار اسم وصنّف عيّاب لها على مثال الأسماء الوصفية التي تطلقها على ضحاياها من الناس أو بالأحرى أسوة بأنّها التي تطلق عليها «المدفع الرقّاش» لتناثر ريقها عند الحديث. واسترقت مرّة نظرة إلى إبراهيم لما راعها إلّا أن تلتقي عينها بعيني الواسعتين وهما تنفّسان في وجهها باهتمام من تحت حاجبيه الكثيفين ففضّبت بصرها في حياء وارتباك، وتساءلت في خوف المريب عيّا على أن يظنّه بنظرها، ثمّ وجدت نفسها تفكّر بقلق في منظرها وما يمكن أن يتركه في نفسه من أثر. تُرى أيسخر من أنفها كما سخرت من بدانته وحملوه؟!... واستترقها التأمّل والقلق...

سُمّ كمال الجلسة التي وإن تكن جمعت بمأثمة إلّا أنّها جمعت بها على نحو ما تجمع بين الضيوف فلم تتحقّق - عدا ما منحت من حلوى - شيئًا من رغبته،

فقطعا الفناء بين صفين من المنتظرين يتبعهما المدحوات من ألها اللواتي تعالت زغاريدهن كأنهن لا يباليين السيد أحمد وقيامه على ذراع منهن، هكذا لعلت الزغاريد في البيت الصامت لأول مرة وعلى مسمع من سيده الجبار فلعلمها وقعت من أذان أهله موقع الدهشة، بيد أنها دهشة مزجت بالفرح ولم تخل من شئاة بريئة مرحة روت بها القلوب عن قرار الخطر الصارم الذي قضى بالألا تكون زغاريد ولا غناء ولا هو، وبأن تخفي ليلة زفاف الابن البكر كما تخفي غيرها من الليالي. وتبادلت أمنية وخديجة وعائشة النظرات متساثلات بأسيات وتكاثكان على خصائص نافذة مطلة على الفناء ليشهدن أثر الزغاريد في نفس السيد فأبانه يحدث السيد محمد عفت ضاحكا فتمتعت أمينة قائلة: «لن يسهه الليلة إلا أن يضحك معها يبدو مما لا يروقه!» وانتهزت أم حنفي الفرصة السانحة فاندست بين المزغردات كالربيل وأطلقت زغرودة قوية مججلة غطت على الزغاريد كلها وعوضت بها ما ضيعت. في ظل الإرهاب. من فرص المرح والسرة على عهد عيطي عائشة وياسين، وأقبلت على سيداتها الثلاث وهي تزغرد حتى استغرقن في الضحك، ثم قالت هن «زغردن ولو مرة في العمر. . . إنه لن يدري الليلة من المزغردات»، رجع ياسين بعد إصباح العروس إلى باب الحرم فالتقى بفهمي الذي لاحظ على شفثيه إهتامة موحية بالخرج والإشفاق لعلها أثر مما خلفته في نفسه هذه الضجة البهيجة «المحرمة»، وكان يجالس أباه النظر ثم يردّه إلى وجه أمه ضاحكا ضحكة مقتضية مغضوضة، فما كان من ياسين إلا أن قال له بلهجة لا تخلو من استياء:

- أي استنكار في أن نحبي ليلة الزفاف بالفرح والزغاريد؟ . . . وماذا كان عليه لو وافق على استدعاء علة أو من؟!

تلك كانت رغبة الأسرة التي لم تجد إلى الانفصاح عنها من سبيل إلا أن تحرّض ياسين على الاستشفاع بالسيد محمد عفت على أبيه، ولكن السيد اعتذر وأبى إلا أن تكون ليلة زفاف صامتة وأن تقتصر مسراتها على

العروس وهو يتقدم على مهل كأنه يتبختر. في تلك الساعة الحافلة بالسعادة والرهبة على رغم الأعين المحمقة فيه من داخل البيت وخارجه ومن فوق ومن تحت، بدا ثابثا غير هيّاب مقفيا رجولة وفحولة، لعل مما أبده في ثباته إحساسه بأنّه محك الأنظار فغالب بشجاعة ما يخفق بين جوانحه من اضطراب أن يبدو للناظرين في حال تمجّل منها الرجولة، ولعله أيضا علم بأن أباه منكمش في مؤخرة الجماعة المنتظرة عند مدخل الفناء. التي تضم آل العروسين من الذكور. بحيث لا تمتد إليه عيناه، فوسعه أن يتألك نفسه وهو يرنو إلى السيارة الموشاة بالورود التي تحمل إليه عروسه بل زوجه منذ أكثر من شهر وإن لم تقع عيناه عليها بعد، أو الأمل الذي صاغه بأحلامه الظامّة لسعادة لا تقعن بما دون اللوام. وتوقفت السيارة أمام البيت على رأس ذيل طويل من السيارات فأخذ أهبة للاستقبال السعيد وقد استجدت عنده الرغبة في أن يستشف النقاب الحريري ليرى وجه عروسه لأول مرة، ثم فتح باب السيارة وترجلت جارية سوداء في الأربعين قوية البنية لسهامة البشرة نجلها العينين فاستندل بما يلوح على حركاتها من الثقة والإدلال على أنها الجارية التي تقرّر إلحاقها بخدمة العروس في بيتها الجديد، نتحت جابتا ووقفت منتصبّة القامة كاللدليبان ثم خاطبته بصوت كزين النحاس وهي تبسم عن أسنان ناصعة البياض قائلة:

- تفضل خذ عروسك. . .

فتقدم ياسين من باب السيارة ومال إلى الداخل قليلا فرأى العروس في حلتها البيضاء بين غادتين على حين استقبله عرف طيب مفتنة للجوارح فتاه في جو الحسن منبهرا، ومد لها ذراعه لا يكاد يرى شيئا كما بكلّ بصر طالع نوراً ساطعا، وعقل الحياء العروس فلم تجب حراكا فتطوّعت التي إلى يمينها فتناولت يدها وطرحتها على ذراعه حاسمة بنية ضاحكة:

- تشجعي يا زينب. . .

دخلا جنبًا جنب وهي من الحياء تحول بينه وبينها بمروحة كبيرة من ريش النعام وارت بها رأسها وعقنها

العشاء الفاخر. وعاد ياسين يقول أسفاً:

- هات ما عندك ولا تحف!

- لن أجد من تزفني هذه الليلة التي لن تتكرر أبد الدهر! ... سادخل حجرة العروس غير مشيع بالأنشيد والدفوف كآثني راقص يهز جذعه دون إيقاع.

- رأيتها تخرج منديلاً ثم تمتخط!

والتوت شفتاه تقززا كأنها كبر عليه أن تند الفعله عن عروس في ريق قفتها، فما تمالك ياسين أن ضحك قائلاً:

ثم لاحظ في عينيه ابتسامة مرحة مأكرة فقال:

- الذي لا شك فيه أن أبانا لا يطيق والمواالم إلا في بيوتنا!

- لحد هنا عال، ربنا يجمل العواقب سليمة!

ألقى نظرة كثيفة على الفناء الخالي إلا من الطاهي وصبيانه، وبعض الأولاد والبنات فتخيل ما كان ينبغي أن يوجد من معالم الزينة وسراقط الطرق ومجلس المدعوين، من قضى بهذا؟ ... أبوه! ... الرجل الذي يفوح عرقه بالمجون والعريضة والطرب ... أعجب به من رجل يحل لنفسه اللهو الحرام ويحرم على بيته اللهو الحلال، وراح يتخيل مجلس السيد كما رآه في حجرة زبيدة بين الكاس والعود فما يدري إلا وقد وثبت إلى ذهنه فكرة غريبة لم تحظر له من قبل على شدة وضوحها فيما رأى، تلك هي التشابه بين طبيعي أبيه وأمه طيبة واحدة في شهواتها وجريها وراه اللذة في استهتار لا يقيم وزناً للتقاليد، ولعل أمه لو كانت رجلاً لما قصرت عن أبيه في اللهج بالشراب والطرب أيضاً! لذلك انقطع ما بينها - أبيه وأمه -

مكث كمال في الدور الأعلى الذي أعد لجلوس المدعوين ساعة ثم نزل باحثاً عن ياسين في الدور الأول الذي قُسم لاستقبال المدعوين ولكنه وجدته في فناء البيت يتفقد المطبخ المنتقل الذي أقامه الطاهي فأقبل نحوه مسروراً إذلاً بأداء المهمة التي عهد بها إليه وقال له:

- فعلت كما أمرتني فتبعت العروس حتى حجرتها وتخصتها بعد أن حسرت النقاب عن وجهها ... فانتحي به جانباً وهو يسأله بأسياً:

- لحد هنا عال، ربنا يجمل العواقب سليمة!

سريعاً، فما كان لعله أن يطبق مثلها وما كان لملها أن تطبق مثله، بل ما كانت الحيلة الزوجية لتستقيم له لولا وقوعه على زوجته الراحنة! ثم ضاحكاً ضحكة لم يتج لها روعه من هذه «الفكرة الغريبة» روحاً من السرور «عرفت الآن من أكون، لست إلا ابن هذين الشهوأتين، وما كان لي أن أكون غير ما كنت!» في اللحظة التالية تساءل ثرى ألم يخطئه الصواب عند إغفال دعوة أمه إلى زفافه؟ تساءل رغم إصراره على الاعتقاد بأنه لم يتكذب عن الصواب، لعل أباه رام إراحة ضميره حيناً قال له قبل ليلة الزفاف بعدة ليالٍ «أرى أن تبلغ أمك، ولك إن شئت أن تدعوما إلى شهود زفافك» ذاك قوله بلسانه لا بقلبه فيما يعتقد، فما يتصور أن يرضى أبوه له بأن يذهب إلى حيث يقيم ذلك الرجل الحقير الذي أهذته أمه زوجاً لها من بعد أزواج كثيرين، وأن يتروك إليها على مرأى منه بأن

- هه ... كيف عودها؟
- في عود أبله خديجة ...
ضاحكاً:

- في هذه الناحية لا بأس؟ ... أتسبجك كمائشة؟
- كلا ... أبله عيشة أجل كثيراً ...
- يغرب بيتك أتريد أن تقول إنها كخديجة؟
- كلا إنها أجل من أبله خديجة ...
- كثيراً؟

فهز رأسه مفكراً فسأله الشاب بلهفة:

- حدثني عما أعجبك فيها؟ ...

- أمها صغير كأنف نينة ... وعيناها كمعيني نينة أيضاً ...

- ثم؟ ...

- لونها أبيض وشعرها أسود ورائحتها حلوة جداً ...

- نحمدله ... وثنا ييسرك بخير ...

وخيل إليه أن الغلام يغالب رغبة في معاودة الكلام فسأله في شيء من القلق:

المهذبة وغير قليل من الأسى. وجاء كمال الذي كان يتراءى في أي مكان فجأة وشاطب ياسين والبشر يتألق في وجهه:

«الطاهي قال لي إن الحلوى تزيد على حاجة المدعوين والمدعوآت وأنه سيتبقى منها مقدار وفير..»

٤٥

زاد مجلس القهوة وجهًا جديدًا بانضمام زينب إليه، وجهًا زكاه بريق الشباب وفرحة العرس، وفيها عدا هذا، وفيها عدا فرش الحُجُرات الثلاث المجاورة لحجرة الوالدين في الدور الأعلى بجهاز العروس، فلم يحدث زواج ياسين تغييرًا يذكر في النظام العام للبيت سواء من الناحية السياسية التي ظلت خاضعة بكل معاني الكلمة لسلطان السيد وإرادته أو من الناحية الإدارية الداخلية التي ظلت وحدة تابعة ليمينه الأم كما كان الحال قبل الزواج. التغيير الجوهرى حقا كان الذي طرأ على النفوس ودار مع الخواطر فذقت رؤيته على الخواص، إذ لم يكن من اليسر أن تشغل زينب مكانة الزوجة لابن البكر وأن يجمعها ببقية أفراد الأسرة بيت واحد دون أن يطرأ على المواقف والمشاعر تطوّر ذو شأن، رمقتها الأم بنظرة امتزج فيها الرجاء بالحذر، هذه الفتاة التي قضى عليها بأن تعاشرها دهرًا طويلًا ربما امتدّ حتى نهاية العمر، أيّ إنسان تكون؟ ماذا تخشى وراء ابتسامها الرقيقة؟ بالجملة استقبلتها كما يستقبل مالك البيت ساكنًا جديدًا فيؤمله ويحاذره، أمّا خديجة فعل رغم المعاملات التي تبودلت بينها جعلت تسدّ نحوها عيتين نافذتين مغفلتين على السخرية وسوء الظنّ، متقبّة عن العيوب والمآخذ بحرص ساخط لم يلق من انضمامها إلى البيت وفوزها بالزواج من أخيهما إلّا ضيقًا خفيًا، فلما اعتكفت الفتاة في حجراتها الأيام الأولى من الزواج ساءلت خديجة أمها وهما في حجرة القرن «ترى هل حجرة القرن مكان غير لائق (بها)؟» ومع أنّ الأم وجدت في تهجمها ترويضًا عن حيرة ظنونها إلّا أنّها اتّخذت موقف الدفاع عن الفتاة وأجابتها قائلة: «صبرك، لم تزل عروسًا في بدء

يدعوا إلى شهود زفافه، لا كان الزفاف، ولا كانت أيّ سعادة في هذه الدنيا إن حملته يومًا على أن يصل ما انقطع بينه وبين تلك المرأة... تلك الفضيحة... تلك الذكرى المخزية! وما كان منه إلّا أن أجلب أباه وقدك قائلًا: «لو كان لي أمّ حقًا لكانت أوّل من أدعو إلى زفائي» انتبه فجأة إلى الأولاد والبنات وهم يرنون إليه ويتهايمسون فخصّ البنات بنظره وسألهنّ بصوت جهوريّ ضاحك «هل تحلمن بالزواج من الآن يا بنات؟» وألجّه نحو باب الحرم وهو يذكر قول خديجة الساخر له بالأمس «إليك وإن تستسلم غدًا للحياه بين المدعوين وإلّا عرفوا الحقيقة المؤرّة وهي أنّ أباك الذي زوّجك وتقد مهرك وجملة تكاليف ليلتك، ولكن تحرك بلا توقّف، تنقل بين حجرات المدعوين، ضليحك هذا وتكلم ذلك، اطلع وانزل، تفقد المطبخ، امتهق وازعق، لعلك توهم الناس بأنك حقًا رجل الليلة وسيّها!» لغضى ضاحكًا وفي نيّته أن يمثل النصيحة الساخرة فخطر بين المدعوين بجسمه الطويل الجسيم في أنيقة بدعيّة وسامدة جذّابة وشباب ريق، ذهب وجاء، ونزل وطلع، وإن لم يفعل شيئًا، بيد أنّ الحركة نفخت عن نفسه طوارئ الفكر فقصبت نفسه لمفاتيح الليلة. ولمّا خطرت العروس على قلبه سرت في بدنه قشعريرة بهيمية، ثمّ ذكر آخر ليلة قضاهما عند زُتوية العودة من شهر، كيف أنبأها بزواجه الوشيك وهو يودّعها وكيف هتفت به بلهجة اصطنعت الغيظ «يا بن الكلب!... كتمت الخبر حتى نلت وطسرك!... مع (المركب التي توفّي أحسن من التي تحجب)... مع ألف شيشب يا بن المركوب»، لم يعد لزُتوية من أثر في نفسه، ولا لغيرها، أسدل الستار على هذا الجانب من حياته إلى الأبد، ربما عاود الشراب فيما يظنّ أن تموت رغبته فيه، أمّا النساء فلم يتصوّر أن تزيج عينه إلى امرأة عابرة وبين يديه حسنة طوع بناته، عروسه لئلاّ متجنّدة، ربيّ للظلم الوحشيّ الذي طلما قلقل كيانه، ثمّ راح يتملّ حياته المقبلة، الليلة، والليالي الآتيات، الشهر والعالم فالعمر كله، ووجهه يسطع بهجة ناطقة لحظها فهمي بعين مليئة بحبّ الاستطلاع والغبطة

شاهدت من رحلات في جنطور والدعا وبصحبته إلى الملاهي البرينة والحدائق فوق الحدائق كله من نفس الأم موقعا أدعشها إلى حد الانزعاج. عجبت لتلك الحياة التي تسمع عنها لأول مرة، وأكرهتها، واستكرت فيها بينها وبين نفسها هذه الحرية الغريبة استنكارًا جاوز كل تقدير، إلى أن المياهاة بالأصل التركي - وإن لظفت بالأدب والبراءة - ساءتها كثيرًا لأنها كانت - على تحشعها وانطوائها - شديدة الاعتزاز بأبيها وعلها فترى أنها بها في مكانة لا تدان، إلا أنها كظمت ما قام بنفسها فلم تلق زينب منها إلا اهتمام الإصغاء وإتسامة المجاملة، ولولا حرص الأم الشديد على السلام لانفجرت خديجة حقًا ولساءت العاقبة، على أنها نفست عن غيظها بطرق ملتوية ليس من شأنها أن تعجز صفو السلام كتعليقها على أبناء الرحلات مثلاً - وهي التي لم يسمها أن تعجز فيها برأيها - بالمبالغة في إظهار الدهشة، أو بالهتاف وهي تعلق في وجهه عذبتها «يا خيرا» أو بأن تقرب براحتها على صدرها وهي تقول: «ويراك السابلة وأنت تمشين في الحديقة»، أو بقولها: «ما كنت أتصور إمكان هذا يا ربي» وغير ذلك من العبارات التي وإن لم تفصح ألفاظها عن إسائة إلا أن هجتها المبطونة التمثيلية تضمنت أكثر من معنى كلهجة الزجر التي يصطنعها الأب وهو يتلو القرآن إذا ما أنس من ابنه غير البعيد عنه إخلالًا بالنظام أو الأدب وعز عليه لزعجه صراحة أن يخرج من الصلاة، لذلك لم تكن تقبل إلى ياسين حتى تبادره مروحة عن غيظها الذي عز عليه المتنفس «يا سلام يا سلام على عروسك الزهية». فيقول لها ضاحكًا «وله هي الموضة التركية التي تسمو على إدراكك!» فلذلكها صفة «التركية» بالمياهاة الثقيلة على قلبها فتقول «على فكرة، ست الدار تباهي كثيرًا بأصلها التركي، لماذا؟... لأن جد جد جد جد جد جد تركي؟... حذار يا اخي فإن خاتمة التركيات الجبنون» ولكنه يقول لها مجازيًا سخرتها «الجبنون أحب إلي من وجه أنفسه يمين ذاك الذوق السليم» تراهي لأعين المتنبئين التقار المتوقع بين

عهدا الجديداء فتساءلت الأخرى بلهجة نثي بالاستنكار «ومن ذا الذي قضى بأن تكون خلدما للعرائس؟» فسألتهما أمها وكأنما تطرح السؤال على نفسها هي «ألفضل أن تستقل بمطبخها؟» فهتفت خديجة معترضة ولو كان المال مال أبيها لا مال أبي لحاز هذا! ولكنني أعني أنها يجب أن تعمل معنا» على أنه لها قررت زينب، بعد انقضاء أسبوع على الزواج، أن تحمل بعض الأعباء في حجرة الفن لم يرحب قلب خديجة بهذه الخطوة التعاونية ومضت تلاحظ عمل العروس بدقة انتقادية وتقول لأمها: «لم تجئي لتعاونك ولكن لتأمرنا ما نلعلها تذهب لنفسها من حق»، أو تقول ساخرة «طالما سمعنا عن آل عفت أنهم من الصفوة وأتهم يأكلون ما لا يأكل الناس... فهل وجدت في طهيها شيئًا عجيبًا لم نسمع به؟» بيد أن زينب اقترحت يومًا أن تصنع «الشركسية» باعتبارها الصنف الأثير على مائدة أبيها - وهي المرة الأولى لدخول الشركسية في بيت السيد - فحازت لدى تناولها إعجابًا شاملًا بلغ أقصاه عند ياسين حتى أن الأم نفسها لم تبرا من لسعة خيرة، أما خديجة ففجرت جثونا وجعلت تمزج بالصنف قائلة «قالوا شركسية فلنا يعيش المعلم يتعلم ولكن ماذا رأينا؟ أرأى وصلصة في هيئة بوليتيكا، طعمها لا هنا ولا هناك، كالعروس تزف إلى عريسها في حلة خلابة وحلي للاء حتى إذا زعزت عنها ثياب العرس بدت فتاة عادية من نفس الخلطة المعروفة من قبل أي اللحم والعظم والدم» ثم ما كاد يمضي على الزواج أسبوعان حتى قالت على مسمع من أمها وكحال إن العروس وإن كانت بيضاء البشرة وذات حقف «معتدل من الجبال إلا أن دمها ثقيل كالشركسية سواء بسواء، قالت هذا في نفس الوقت الذي أكتبت فيه على استظهار دقائق صنع الشركسية بحذقها المعترف به» على أن ثمة أحاديث صلدت عن زينب بحسن نية - في الأكل لأن وقت سوء النية لم يثن بعد - فأنارت الخواطر وألقت عليها ظلاً من الشك إذ طاب لها كلياً تبيات مناسبة أن تنوء بأصلها التركي وإن التزمت الأدب واللفظ كما لئ لها أن تروي لهم بعض ما

تدري أنّ زواج عائشة هو الذي قُدِّر له أن يفتح لها أبواب الحظّ المغلقة.

- ما أجل أن تكون السلفة هي الشقيقة فيزول سبب جوهرى من أسباب وجع الدماغ في الأمر (ثم ضاحكة) فلا تبقى إلا حاتمها وأظنّ أمرها هيّا!
- إن تكن سلفتها هي شقيقته فحياتها هي أمها بلا نقصان.

لم تزل الأمان تتجاملان. لقد أحببت المعجوز وهي تزوّجت إليها البشرى بقدر ما أبغضتها يوم خطبت عائشة! يجب أن تعلم مريم بالخبر اليوم، لا تطيق أن تؤجله إلى الغد، لا تدري ما الدافع إلى هذه الرهبة الملحة، لعله قول مريم لها خدعة خطبت عائشة «ماذا كان عليهم لو أنّهم انتظروا حتّى تتمّ خطبتك أنت؟!» فأغراها وقتذاك سوء ظنّها المطبوع باتّهام براءته الظاهرة. وليّما انصرفت أسرة شوكت قال ياسين بقصد التحرّش والدعابة:

- الحقّ آتّى مد رأيت إبراهيم شوكت قلت لنفسى ما أجدر هذا الرجل الثور الذي لا يبدو أنّه يفرّق بين الأبيض والأسود أن يقع اختياره يوماً على زوجة مثل خديجة.

فابتسمت خديجة ابتسامة خفيفة ولم تنس بكلمة ففضّ بدعشة:

- هل عرفت الأدب والحياء أخيراً!
يبد أنّ وجهه نطق وهو يمازحها بالرضا والخبطة فلم يمتكر صفوهم إلا حين تسال كمال في قلق:
- أتتركنا خديجة أيضاً؟
فقالت الأمّ تعزّي وتعزّي نفسها:
- ليست السكّرة بعيدة.

على أنّ كمال لم يستطع أن يلدي بما عنده في حرّية كاملة إلا حين انفرد بأمّه ليلاً فترجّع قبالتها على الكنبه وسأها بصوت ينم عن الاحتجاج واللوم:

- ماذا جرى لعقلك يا نينة؟... أنصّرطين في خديجة كما فرّطت في عائشة؟
فأفهمته أنّها لم تفرّط فيها ولكنها ترضى بما يسعدّها.

خديجة وزينب في أفق الأسرة فتبّهما فهمي إلى ضبط لسانها أن يبلغ الفتاة شيء من هنرها، وأشار عذراً إشارة خفية إلى كمال الذي دأب على التنقل بينهم وبين العروس تتخلّل القراشة - حاملة اللقاح - بين الأزهار! ولكن غاب عنه - كما غاب عن الأسرة جيّهاً - أنّ القدر كان يعمل من جانبته على الخيلولة بين الفتاتين، إذ زارت البيت حرم المرحوم شوكت وعائشة زيارة لم يحلم أحد من قبل بأن تتوجّج بالنهاية التي توجّجت بها، قالت المعجوز مخاطب الأمّ على مسمع من خديجة:
- يا أمانة هائم جيتك اليوم خاصّة لأخطب خديجة لابني إبراهيم...

فرحة بلا عهد وإن طال انتظارها حتّى شقّ، فلذلك سجع صوت المرأة في أفق الأمّ سجّجاً جيّلاً حتّى إنّها لم تذكر أنّ قولاً - قبله - بل صدرها بندى الطمأنينة والسلام كما بلّه فكاد يستحقّقها الفرح وهي تقول بصوت متهدّج:

- ليس لي في خديجة أكثر ممّا لك، هي ابتستك ولتجدنّ في جاك أضعاف ما تجد في بيت أبيها من السعادة...

استرسل الحديث السعيد إلا أنّ خديجة جعلت تغيب عنه فيما يشبه الدهول، خبطت عنها في حياء وارتيك وقد زایلها روح السخريّة التي طالما توقّعت في حدقتها، فشملتها وداعة غير معهودة ثمّ جرت مع ثيار خواطرها، حاء الطلب مفاجأة، فكما بدا عسيراً في غيابه بدا غير مصبّق في حدوثة حتّى لقد غشيت فرحتها موجة ثقيلة من الدهول... «لاخطب خديجة لابني إبراهيم»... ماذا دهاه؟... إنّهُ على خموله الذي أثار هزماً حسن المحيّا وجهه في الرجال، فإذا دهاه؟!

- ومن حسن الطالع أن يجمع بين الأختين في بيت واحد.

صوت حرم المرحوم شوكت يؤكّد الحقيقة ويترّكي وجوهاً... ليس ثمة شك... إبراهيم مثل خليل مألّ وجاناً فائٍ حظّ آخرته لها الأقدار، لشّد ما أسفت على أنّ عائشة سبقتها إلى الزواج إذ لم تكن

ونادراً ما يعلنه - أكثر من نصف دقيقة؟ ... وتمت
في قلق:

.. أمه ...

فقاطعها عتداً:

- هل أتبع لإبراهيم أن يراها؟!

فقلت وقد ولّى عنها السرور لأول مرة في تلك
الليلة:

- دخل علينا مرة في شقة عائشة باعتباره فرداً من
الأسرة فلم أر في ذلك من بأس.

فتسامل مزججاً:

- ولكني لم أعلم بذلك.

كل شيء يتدرج بالشرف، ترى هل يبوي على مستقبل
الفتاة بضربة قاضية؟ ... على رغمها اغرورت عينها
بالدمع وما تدري إلا وهي تقول مستهينة بغضبته
المكفّرة:

- سيدي، حياة خديجة وديعة بين يديك، هيهات
أن يتسم لها الخطم مرتين.

فرماها بنظرة قاسية وراح يندردمدمماً مهمباً
كأنها رده الغضب إلى حالة من حالات التعبير
بالأصوات التي مرّ بها أسلافه الأولون، ولكنه لم يزد
على ذلك شيئاً، لعله أضمر الموافقة من أول الأمر
ولكنه أي أن يسلم بها قبل أن يسجل سخطه -
كالسياسي الذي يهاجم خصمه وإن التنع بالغاية التي
يستهدفها - ذوداً عن مبادله.

٤٦

مضى شهر العسل ويسير متفرّج بكليته لحياهه
الزوجية الجديدة، لا يصره عنها عمل في النهار حيث
وافق زواجه أواسط العطلة الصيفية، ولا سهر بالليل
خارج البيت لأنه لم يكن يفاديه إلا للضرورة القصري
كاتباع زجاجة كونيكا مثلاً، وفيها عدا هذا لم يجد
لنفسه عملاً أو معنى أو صفة خارج نطاق الزوجية
فاندلق عليها بقرة وحاس وتفاؤل خليفة برجل ظن أنه
يتخذ الخطوات الأولى في برنامج ضخم من المتعة
الجسدية سيمتد يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر وعاماً

فقال عتداً كأنما يتبها إلى شيء فاتما ويوشك أن
يقفها مرة أخرى:

- ستذهب هي الأخرى، ربما ظننت أنها ستعود كما
ظننت بعائشة، ولكنها لن تعود، وستزورك إذا زارتك
كالضيفة فما إن تشرب القهوة حتى تقول لك السلام
عليكم، إنني أقولها في صراحة إننا لن تعود.
ثم عتداً وواعظاً في آن:

- ستجدين نفسك وحلك بلا رفيق، من حينك
على الكنس والتنفيس؟ ... من حينك في حجرة
الفرن؟ من عيالسا في جلسة المساء؟ ... من
يضحكن؟ ... لن تعجدي إلا أم حنفي التي سيخلو لها
الميدان لسرقة طعامنا كله.

فأهمت مرة أخرى أن في الزواج سعادة؟ ...
- أؤكد لك أنه لا سعادة مطلقاً في الزواج. كيف
يحظى أحد بالسعادة بعيداً عن نينة؟

ومردفاً بحماس:

- ثم إننا لا نترقب في الزواج كما لم نترقب فيه
عائشة من قبل... لقد صارحتي بذلك ذات ليلة في
فراشها!

ولكنها قالت له إنه لا بد للفتاة من أن تزوج، فلم
يتالك من أن يقول:

- من قال بأنه لا بد للفتاة من أن تذهب إلى بيوت
الغرباء! ... ثم ماذا تفعلين لو أجلسها الآخر على
الشيزليج وتناول قهظها هي الأخرى و...
عند ذاك زجرته وأمرته بالآ يتكلم فيها لا يعنيه

فصرب كفاً بكفّ وهو يقول منلراً:

- أنت حرة... وسترين!

في تلك الليلة لم يغمض لأمنية من بقطة الضرب
جفن كأنها السماء القمر لا تفشاهما الظلّاء، فظلت
مستيقظة حتى جاء السيد بعد منتصف الليل، ثم زقت
إليه البشري فلقها ببضلة أطارت عن رأسه الحمار
بالرغم مما في هذا الرأس من نظريات غريبة عن زواج
البنات، إلا أنه نهجهم بغتة متسافلاً:

- هل أتبع لإبراهيم أن يراها؟

ساءلت المرأة نفسها ألا يمكن أن يلوم ابتهاجه -

المراة، ليس يلوي كيف يخلص حقاً للنوايا الحسنة التي فرش بها طريق الزواج، يبدو جانب - على الأقل - من أحلامه الساذجة عسير التحقيق وهو ظنه بأنه سيستغني بأحضان زوجته عن العالم الخارجي، وأنه سيليد بكتفها العمر كله، ذلك حلم من أحلام الشهوة في سذاجتها، وسيجد من الآن فصاعداً أنَّ الانقطاع عن عاله وعاداته ممَّا يشقُّ عليه وليس ثمة ضرورة تدعو إليه، وأنه ينبغي أن يتلمس وسيلة أو أخرى - الوقت بعد الوقت - ليحسن الهرب من نفسه وأفكاره وخيبته، حتى الغفني المجيد إذا طال في تقاسيم الليالي انبعث في نفس السامع الشوق إلى الدخول في الدور، ثم آتته في الانطلاق من محبسه فرصة للاختلاط بالأصحاب المتزوجين لعله يظفر عندهم بأجوبة مسجلة للأسئلة الحيرى التي تلحُّ عليه، ولن يتأخَّر له من وراء ذلك الدواء الشافي لكل داء... وكيف يؤمن بعد اليوم بوجود دواء شافي لكل داء؟ يحسن به من الآن ألا يرسم برامج بعيدة المدى، لا تلبث أن تنهار ساخرة من قدرته على التخيل. ليقتنع من تنسيق حياته بالخطوة تلو الخطوة حتى يرى أين يرسو، وليبدأ بتنفيذ اقتراح اقترحه هي - زوجته - عليه بأن يخرجاً معاً.

ما تلوي الأسرة ذات مساء إلا ويأسين وزوجه يغادران البيت من دون أن يطلعا أحداً على مقصدهما بالرغم من أنها قضيا معهم سهرة المساء. بدا الخروج بالنظر إلى وقته المتأخَّر من ناحية وإلى وقوعه في بيت السيد من ناحية أخرى حادثاً غريباً أثار شقَّ الظنون فما عتَمَت خديجة أن استدعت نور جارية العروس ومألثتها. عمَّا تعلم من خروج سيدتها فاجأت الجارية بصوتها الرئان في بساطة متناهية:

- ذهب يا ستي إلى كشكش بك.

فهضت خديجة وأثما في نفس واحد:

- كشكش بك!

ليس الاسم غريباً عليهم، اقتحم ذكره الدور وتغنَّى بأغانيه كلٌّ من هبَّ وذبَّ ولكنه على ذلك يبدو بعيداً كأيصال الخرافات أو كتريلان إليس السهاء. أن يذهب ياسين بزوجه إليه أمر مختلف جداً ليس دونه أن

بعد عام. ولكنه أدرك في الثلث الأخير من الشهر أنَّ تفاؤله لا بد أن يكون مبالغاً فيه على نحو ما أو أنَّ خللاً لا يلوي كنهه قد طرأ على حياته. كان يعاني في حيرة بالغة ولأوَّل مرَّة في حياته ذاك المرض المتوطن في نفس الإنسان الملل. لم يعرفه من قبل عند زُتوبة ولا حتى عند بائمة الدوم لأنه لم يملك هذه أو تلك كسباً يملك زينب الآن يمينه ويموزها تحت سقف بيته، فأَيَّ فسور يتبخر من تلك والملكيَّة والأمنة المطمئنة... الملكيَّة ذات الظاهر الخلاب المخزي لدرجة الموت والباطن الرزين الثقيل لحدِّ اللامبالاة أو التفَرُّز كأنها الشيكولاتة المزيَّفة التي تُهدى في أوَّل إبريل بقشرة من الحلو وحشر من الثوم، وأَيَّ مأساة في أن تندمج نشوة القلب والجسد في آليَّة العادة المنظَّمة العاقلة الباردة المتكرِّرة القاتلة للشعور والجدَّة كأنها رؤية روحانيَّة رفيقة تجسدت في صلاة لفظيَّة ترددها الذاكرة بلا وعي... وراح الفتي يتساءل عمَّا دعى ثورته، عمَّا هدى شياطينه، عن ذاك الشيع وأين جاء، عن تلك الفتنة أين ذهبت، أين ياسين وأين زينب، أين الأحلام، أمَّاذا شأن الزواج أم شأنه هو، وكيف إذا تنابت الشهور في أعقاب الشهور ليس أنه لم يعد له رغبة فيها، ولكنها لم تعد رغبة الصائم في لبيد المأكَل، هاله أن يدرِكها الملهو حيث انتظر لها الازدهار، وضاعف من حيرته أنه لم يبد على الفتاة عارض من عوارض ردِّ الفعل أو بالأحرى أنها تزيد حيويَّة ورغبة فحينما يظنُّ أنَّ النوم بات واجباً بعد طول التنب لا يلوي إلا وساقها تطرح على ساقه كأنما طرحت عفواً حتى قال لنفسه «يا عجباً... أحلامي عن الزواج تحققت عندها هي! إلى هذا كله وجد في عفتها نوعاً من الاحتشام وإن طلب له أوَّل الأمر أنه جعله ييم آخراً في وديان الذكريات التي ظنَّ أنه ودَّعها إلى الأبد، طفت على رأسه من الأحياق «زُتوبة» وأغريات كما تطغى ودائع البحر عند هدوء العاصفة لا لشرَّ بيت فالحقُّ أنه مرق في عشِّ الزوجيَّة عامر القلب بالنيَّة الحسنة، ولكن للموازنة والمقارنة والتأمل، وليقتنع أخيراً أنَّ «العروس» ليست المفتاح السحريِّ لعنينا

وذاك الكرب كله، أليس كشكش هذا صاحب التمثال الصغير الذي يباع في الأسواق بجسم متوثب في دعاية ووجه ضاحك ذي لحية عريضة ورجية فضفاضة وعمامة مقلوطة؟ أليس هو من تُنسب إليه الأغاني المرحية التي استظهر بعضاً منها بنشده مع صديقه فؤاد بن جميل الحمزاوي وكيل أبيه؟ فبأي شر يتهمون هذه الشخصية اللطيفة التي ارتبطت في خياله بالفكاهة والمرح... لعل مصدر هذا الكدر إلى اصطحاب ياسين لزوجه لا لكشكش بك نفسه، فإن كان ذلك كذلك فهو يتفق معهم في الانزعاج من جرأة ياسين خصوصاً وأن زيارة أمه للحسين وما أعقبها من أحداث لا يمكن أن تريح مخيلته، أجل كان الأجدر بياسين أن يذهب وحده أو أن يأخذله (هو) إن كان يريد رفيقاً لا سبياً وأنه في عطلة الصيف فضلاً عن نجاحه المتفوق في المدرسة، وما يدري إلا وهو يقول مثلاً بأفكاره:

- ألم يكن من الأفضل أن يأخذني أنا... ١٩...

اندس تساؤل في الحديث كما تندس نغمة غريبة مقبسة في لحن شرقي صميم، فقالت خديجة:

- من الآن فصاعداً يحق علينا أن نلصق بك قلة عقلك...!

فندت عن فهمي ضحكة قائلاً:

- ابن الور عوام...

بيد أن اللثل رد في أذنيه رنيناً جافاً وكُد أثره السني تحديق أمه وأخته خديجة في عيني باستغراب فانتبه إلى خطئه غير المقصود وتداركه قائلاً وقد دخله امتعاض وخجل:

- أخو الور عوام!... هذا ما قصدت أ قوله...

دل الحديث في جملته على تحمل خديجة حل زينب من ناحية، وخوف الأم من الصواب من ناحية أخرى، بيد أن أمانة لم تعلن ما في نفسها كله. في تلك الليلة عرفت في نفسها أموراً لم تكن تعرفها من قبل. أجل كثيراً ما وجدت نحو زينب إنكاراً وضيقاً ولكنه لم يبلغ أن يكون نفوراً أو كراهية فعزته إلى خيلاء الفتاة بداعٍ وبغير داعٍ، ولكن هالما اليوم أن تحرق الآداب والتقاليد، وأن تحل لنفسها ما لا يحل -

يقال ذهباً إلى محكمة الجنابات. ركدت الأم عينيها بين خديجة وفهمي وتساءلت فيما يشبه الخوف:

- متى يعودان...

فأجابها فهمي وإسامة لا معنى لما تفهم على شفثيه:

- بعد منتصف الليل، وربما قبيل الفجر.

صرفت الأم الجارية وانتظرت حتى غاب وقع أقدامها ثم قالت في لهجة وانفعال:

- ماذا دهي ياسين؟ كان جالساً بيننا في كامل عقله... ألم يعد يعمل حساباً لأبيه؟

فقالت خديجة في حق:

- ياسين أعقل من أن يدبر رحلة كهذه، ليست قلة العقل عيبه ولكن به خنوع لا يليق بالرجال، أطلع ذراعي إن لم تكن هي حرزته.

فقال فهمي مدفوعاً برغبة في تلطيف الجو التوتّر وإن نفر بطبعه الموروث من جرأة أخيه:

- ياسين ذو ميل قديم إلى الملاهي.

فضاعف دفاعه من حق خديجة التي اندلعت قائلة:

- لسا بصد الحديث عن ياسين وميله، له أن يحب الملاهي كما يحلو له، أو أن يواصل السهر في الخارج حتى مطلع الفجر كلها شاء، ولكن اصطحاب زوجته المصون معه فكرة لا يمكن أن تصدر عن ذاته فلعلها جاءت عن إيحاء عجز عن مقاومته خصوصاً وأنه يبدو مستكيناً بين يديها كالقطعة الأليفة، ثم إننا فيما أرى لا نتورّع عن رغبة كهذه. ألم تسمعها وهي تروي قصص الرحلات التي شاهدتها بصحبة والدها؟ لولا إيحاءها ما أحدها معه إلى كشكش بك - يا للفضيحة! - في هذه الأيام التي ينجر فيها الرجال في البيوت كالقيران رهباً من الأسرّاتين.

لم يقف التعليق على الحادث عند حدّ لما أثاره في النفوس - سواء المهاجمة أو المدافعة أو المحايدة - من امتعاض، كمال وحده تابع النقاش المحتدم في صمت يقظ من دون أن يفسن إلى السرّ الذي جعل من كشكش بك جريمة نكراه استوجبت ذلك النقاش كله

بصوت خافت مضطرب كأنها تناجي نفسها:
- تأخر الوقت ولستأ بعد ياسين وزوجها!
فحملت السيد في وجهها وتساءل في عجب:
- وزوجها؟... أين ذهب؟
ازدردت المرأة ريقها وقد ركبتها الخوف، من السيد
ومن نفسها معاً، ولكن لم تجد بداً من أن تقول:
- سمعت الجارية تقول إنَّها ذهباً إلى كشكش بك!
- كشكش!

عزف الصوت حالاً في شراسة وتطايير الشرر من
العينين اللتين ألهبها الكحول، وراح يطرح عليها
السؤال تلو السؤال مزيجاً مدمداً حتى طار النوم عن
رأسه فأبى أن يراىل جلسه حتى يعود «الضالان» فانتظر
وهو يغلي من الحقد، ولما كان غضبه ينعكس على
نفسها رعباً فقد ارتعت كماً لو كانت هي المذنب، ثم
غصت بالندم على ما بدر منها، ندم عاجلها مبادراً
عقب البرح بسرّها مباشرة كأنها لم تبح إلا كي تندم،
فلم تكن تبخل بغالٍ منها غلا ساعدت لو تستطيع أن
تصلح خطأها، وقست على نفسها بلا تحفظ فأنهت
بالواقعة والشر، ألم يكن الأجدر بها أن تستر عليها
على أن تنهتها إلى خطئها غداً إن كانت تريد
الإصلاح حقاً لا الانتقام؟... ولكنها أذعنت لعاطفة
شريرة، عن عمد وسوء نية، فهيأت للمنى وعروسه
نكدًا لم يدر لها بخلد وجرت على نفسها ندمًا بات
يحرق نفسها الملعبة حرقاً بلا رحمة، وراحت تدهو
الله - عجل من ذكره - أن يلعن بهم جميعاً، مضى
الوقت تفرع دقائقه قلبها بالألم حتى انتهت على صوت
السيد وهو يقول متعجلاً بمرارة:

- جاء سي كشكش...

فأرهفت السمع وهي تتطلع بانظريها إلى النافذة
المفتوحة المطلّة على الفناء فترامى إليها صرير الباب
الكبير وهو يغلن، وقام السيد وفادراً الحجر فقامت
بطريقة آتية ولكنها تسمرت في مكانها جثّاً وخزناً
وضربات قلبها تتدافع حتى سمعت صوته الجهر وهو
يخاطب القادمين قائلاً «تبعاني إلى حجرتي» فتناهى بها
الخوف فتسللت من الحجرة هاربة... عاد السيد إلى

في نظرها هي - إلا للرجال، عابت هذا السلوك بعين
امرأة قضت عمرها حبيسة وراء الجدران، امرأة دفعت
صحتها وسلامتها ثمناً لزيارة بريئة لزين آل البيت لا
لكشكش بك، فيأرج انتقادها الصامت شعور طافح
بالمرارة والغضب كأن منطقها غدا يردّ فيها وبين
نفسها «إنما أن تنال الأخرى الجزاء أو فلتذهب الحياة
هباء». هكذا تلوّث بالحقن والموجدة - في الشهر الأوّل
من معاشرته لاسراً جليدة - القلب الطاهر الورع
الذي لم يعرف طول حياته المحفوفة بالحب والصرامة
والتعبد إلا الطاعة والعفو والصفاء. ولما آوت إلى
حجرتها لم تدر إن كانت تودّ - كما دعت بلسانها أمام
أبنائها - أن يستر الله على وجنائة ياسين أم أنها ترجو
أن ينال أو بالأحرى أن تنال زوجها جزاءها من الزجر
والثأنيب؟ بدت تلك الليلة وكأنها لا يعنها من أمر
الدنيا شيئاً إلا أن تُصان تقاليد الأسرة من كلّ عث
وأن يدلع عنها ما يتحرّش بها من عدوان، بدت غيرة
على الآداب إلى حدّ القسوة فطمعت عواطفها الرقيقة
للماروفة في الأعيان باسم الإخلاص والفضيلة والدين
متعلّلة بها فراها من ضميرها المتألم كالحلم الذي ينفس
عن غرائز مكتوبة باسم الحرّة أو غيرها من المبادئ
السامية. جاء السيد وهي على تلك الحال من
التصميم إلا أن نظره بثّ الخوف في حناياها فانهقد
لسانها، راحت تتابع حديثه وتحيب من أسئلته بذهن
شارد وفؤاد خافق لا تدري كيف تنفس عمّا احتدم
بخاطرهما، وكلّما مرّ الوقت واقترب ميعاد النوم ألحت
عليها رغبة عصبية في الكلام، كم وقّت لو تتكشف
الحقيقة بنفسها كأن يبيح ياسين وزوجه مثلاً قبل
إخلاء أبيه إلى النوم فينتبه السيد بنفسه إلى فعلته
النكراء فيجبه العروس الرعناء براهي في سلوكها بغير
تدخل منها هي - الأم - لا شك أنّه يحزنها بقدر ما
يريمها... انتظرت طويلاً في لفظة وقلن أن يطرق
الباب الكبير، انتظرت دقيقة بعد أخرى حتى تناوب
السيد وقال بصوت متراخ:

- أطفئي المصباح...

حاققت بها الهزيمة فانهكّت عقدة لسانها فقالت

ياسين الذي أخفى عينيه في الأرض، ثم قال وهو يرفع رأسه في أسف شديد:

- الأمر جدّ خطير ولكن ما حيلتي؟... لم تعد طفلاً ولأنا كسرت رأسك، ولكنك وألفاءك رجل وموكلّف وزوج أيضاً وإن كنت لا تتورّع عن العبث برباط الزوجية، فما عسى أن أصنع بك؟ أهذه نهاية تربيتي لك؟... (ثم بصوت أذهب في التأسف)... ماذا دهلك؟... أين الرجولة؟... أين الكرامة؟... يعزّ عليّ والله إن أصلّك ما وقع.

لم يرفع ياسين رأسه ولم يتكلّم فظنّ صمته خوفاً وشعوراً بالخطأ - إذ لم يتصور أن يكون ما به سكر - ولكنّه لم يجد في ذلك عزاء، بدا الخطأ اقطع من أن يترك بلا علاج حاسم، فإذ لم يكن من سبيل إلى العلاج القديم - العصا - فلا أقلّ من الحزم ولأنا انتشر سلك الأسرة جميعاً، قال:

- ألم تعلم بأنّ أحرم على زوجي الخروج ولو لزيارة الحسين؟ كيف إذن سؤلت لك نفسك أن تأخذ زوجك إلى ملهى داهر لتظهر فيه إلى ما بعد منتصف الليل؟... يا أحمق أنت تدفع بنفسك ويزوجك إلى الهلوة فأيّ شيطان ركبك؟

وجد ياسين في الصمت آمن ملاذ أن تفضحه نبراته أو أن يسترسل في الحديث بطلاقة مرية تنمّ في النهاية على سكره، لا سيّما وأنّ خياله أصرّ على التسلّل - هائلاً بالموقف الخطير - من الحجرة فانتقل إلى آفاق بعيدة بدت لرأسه التمل راقصة تارة ومترنّجة أخرى، ولم يستطع صوت أبيه على ما اهتمت في نفسه من الرهبة أن يسكت الانغماس التي غناها المهرجون في المسرح فكانت تثب إلى ذهنه - على رغمه - بين لحظة وأخرى كالأشباح في ليل المرهوب هامة:

أبيح هدومي عشان بوسة

من خحكك القشدة يا ملبين

يا حلوة زيّ البسبوسة

يا مهلبية كيان واحسن

تغيب تحت تأثير الخوف ثمّ تطفر راجعة، ولكن أباه ضاق بالصمت فصاح به غاضباً:

جلسه يتبعه على الأثر ياسين وزينب، فحلج الفتاة بنظرة عميقة متجاهلاً ياسين ثمّ قال بحزم وإن نقى نبراته من الغلظة والجفاء:

- اصغي لي يا بنية جيّداً، أبوك أخي أو أوثق صلة ومودة، فأنت ابنتي كخديجة وعائشة على السواء، ما قصدت أبداً أن أكدر صفوك ولكن ثمة أمور أصدّ السكوت عنها جريمة لا تغتفر، من ذلك أن تبقى فتاة مثلك خارج بيتها حتّى هذه الساعة من الليل، لا تحسبي أنّ في وجود زوجك معك عزلًا عن هذا السلوك الشاذّ فإنّ الزوج الذي يستهين بكرامته على هذا النحو غير خليق بأن يقل من العثرات التي هو للأسف أول دافع إليها، ولما كنت على يقين من براعتك أو بالأحرى من أنّه لا ذنب لك إلّا أنك جاريته على هواه فراجائي إليك أن تعاونيني على إصلاح أمره بالأنا تستسلمي لي غواياته مرّة أخرى...

وجت الفتاة واستحوذ عليها الدهول، وهمل أنّها كانت تحظى في كنف أبيها بقسط من الحرّة إلّا أنّها لم تجد في نفسها شجاعة على مناقشة الرجل به معارضة، كأنّ إقامتها في بيته شهراً أعدت شخصيتها بعدوى الخضوع لإرادته التي يفرّق حياها كلّ حيّ في البيت. احتجّ باطنها بأنّ أباها نفسه استساغ أكثر من مرّة أن يصطحبها إلى السنيّا، وأنّه لا يحقّ له منعها من شيء سمح به زوجها، إلى اقتناعها بأنّها لم تحرق أدباً أو تمتك حرمة، قال باطنها لهذا وأكثر يبدّ أنّها لم تستطع أن تنطق بكلمة واحدة حيال عينيه المزمّتين بالطاعة والاحترام وأنفّه الكبير الذي بدا - وهو يرفع رأسه - كأنّه مسدّس مصوّب نحوها، فانتكمت حديثها الباطنيّ تحت مظهر من الرضى والأدب كما تنكّم الأمواج الصوتية في جهاز الاستقبال بالمذياع بإغلاق مفتاحه، ثمّ ما تدري إلّا وهو يسأله وكأنّه يتنادى في تحدّيه لها:

- ألك اعتراض على قولي؟

فهزّت رأسها بالفي ورسمت شفتها حرف ولاه دون أن تنطق به فقال لها:

- اتفقنا. تفصلي إلى حجرتك بسلام...

غادرت الحجرة شاحبة الوجه فالتفت السيّد صوب

- انطق حدثني من راك فإني مصمم على ألا يمر الحادث بسلام! ...

خاف عاقبة الصمت فخرج عنه متهيئاً مضطرباً ثم قال وهو يبذل قصارى جهده ليتالك نفسه:

- كان والدها يعاملها بشيء من التسامح... (ثم متعجباً) ولكني أقر بأنني أخطأت... .

فصاح السيد مغضباً ومتجاهلاً الجملة الأخيرة:

- لم تعد في بيت أبيهما، عليها أن تحترم آداب الأسرة التي صارت عضواً فيها، أنت زوجها وسيدتها ويبدك وحلك أن تصورها في أي صورة تشاء، خبرني عن المستول عن ذهابها معك أنت أم هي؟

شعر على سكره بالغضب المنسوب له ولكن الخوف دفعه إلى التوازي فغمغم:

- لئلا علمت بشيء في الخروج توسلت إلي أن أصطحبها... .

فغضب السيد كغضب بكفت وهو يقول:

- أي رجل في الرجال أنت؟... كان الجواب الخلق بها لطمعة... إنه لا يفسد النساء إلا الرجال وليس كل الرجال جليلاً بالقيام على النساء... وتذهب بها إلى مكان ترقص فيه النساء نصف عرايا... ؟

تخالفت لعينيه الصور التي أسدها تعرض أبيه له على رأس السلم وعادت الأنعام تتجاوب في رأسه وأبيح هلموي... ولكن ما يدري إلا والرجل يقول له متوعداً:

- لهذا البيت قانون أنت تعرفه فوطن نفسك على احترامه ما رغبت في البقاء فيه... .

٤٧

يعود إلى مسانتها هي قبل كل شيء! على أن وجاهها لم يعد مثار وسواسها مذ طلب يدها رجل اتفق له أن رآها بعينه، بيد أن جميع مظاهر السعادة التي أحاطت بها لم تستطع أن تحو من نفسها خفقات الحنين الذي دب في أعماقها لوشك البين، حين خلق بفتاة مثلها لم يخفق قلبها بحب شيء في الوجود كحبها لآلها وبيتها جميعاً من الوالدين المعبودين إلى الدجاج واللبلاب والياسمين، حتى الزواج نفسه الذي طلما تحرق في انتظاره بجزع الملهوف لم يكن ليهون عليها مرارة الفراق، من قبل أن تطلب يدها بدت كاللاعبة من حب البيت وإعزازها، وربما غلب عليها الضجر في مضطرب الحياة فوارى عواطفها العميقة الصادقة لأن الحب كالصخرة، يهون في الوصال ويعزّ عند الفراق، فلما أن اطمانت على مستقبلها أبى قلبها أن ينتقل من حياة إلى حياة دون جزع شديد كأنما يكفر من إثم أو يضر بقال، تطلع كحال إليها صامتاً، لم يعد يتساءل هل تعودين، بعد أن عرف أن التي تزوج لا تعود إلا أنه خاطب شقيقته مغمضاً (سوف أزوجك كثيراً عقب الخروج من المدرسة) فرحبتا به مفاً بيد أنه لم تعد تغفر به الآمال الكاذبة، كثيراً ما زار عائشة فلم يظفر بمأثته القديمة. يجد مكانها أخرى متبرجة تلقاه بتودد بالغ يشعره بالغربة ثم لا يكاد يغلو إليها حتى يدركها زوجها الذي لا يغادر البيت قائماً من ألوان التسلية بسجائره وغليونه وعود يهت بأوتاره بين حين وآخر، لن تكون خديجة خيراً من عائشة، فليس من رفيق في البيت إلا زينب، وهي لا تتوعد إليه كما يجب إلا بمشهد من أمه كأنما تتوعد إليها هي فإذا غابت الأم نهالته كأنه لا يكون! ومع أن زينب لم تشعر بأنها ستفقد عزيزاً بذهاب خديجة إلا أنها استنكرت الجور الرزين الصامت الذي يغشى يوم الزفاف، فتعللت بذلك لتفصح عما تكنه لروح السيد المسيطرة من حقن وغيظ فراحت تقول متهمّة وما رأينا بيتاً يحرم فيه الحلال كيبتكم هذا... حكم! غير أنها لم تشأ أن تتوقع خديجة من غير كلمة مجاملة فنوّهت كثيراً بمقلدتها، وأنها «ست بيت» خليقة بأن شيئاً عليها

قامت عائشة بترتين خديجة خير قيام بهمة لا تجارى ومهارة فائقة كأنّ التزين خير مهمة تؤتيها في الحياة على أكمل الوجوه، فبلدت خديجة عروساً حقاً تأخذ أهبتها للانتقال إلى بيت العريس وإن ادعت - جرماً على عادتها في التليل من شأن الخدمات التي يؤدّيها لها الغير - أن أكبر الفضل في إظهارها بالمظهر اللائق إنما

- أي السيد رضوان أن يبقى في الدنيا بعد رحيلك
عن جوارحه...

فردت عليه بإسماة شاحبة غاب عنه ما وراءها
فمضى يتفحصها بعناية وهو يبرز رأسه متظاهراً بالرضى
ثم قال متتهماً:

- صدق من قال «ليس البوصة تبقى عروسة»...
فقطعت معلنة عدم استمداها لمجاراته ثم نهزته
قائلة:

- اسكت، إني متطيرة من موت السيد رضوان في
يوم زفاني.

فقال ضاحكاً:

- لا أدري أيكما جنى على صاحبه؟

ثم وهو يواصل الضحك:

- لا أخوف عليك من موت الرجل، لا تشغلي
فكرك به، ولكني أخاف عليك من لسانك فهو الآخر
بأن تطغري منه، ونصحي التي لا تأمل تردبها أن
تقيبه في شراب مشبع بالسكّر حتى يخلو ويصلح
لمخاطبة العريس...

عند ذلك قال فمهي متلفاً:

- مهيا يكن من أمر السيد رضوان فيوم زفالك لم
يقل من بركة طال انتظار الأرض لها: ألم تعلمي أن
الهدنة قد أعلنت؟

فهض ياسين:

- كدت أنسى هذا! ليس زفالك المعجزة الوحيدة في
يومنا هذا. حصل ما لم يحصل منذ أعوام فانهت
الحرب وسلم غلبوم.

فتساءلت الأم:

- هل يذهب الغلاء والأستراتيون؟

فقال ياسين ضاحكاً:

- طبعاً... طبعاً... الغلاء والأستراتيون ولسان
خديجة هانم.

لاح التفكير في هيني فمهي، ثم قال وكأنه يخاطب
نفسه:

- غلب الألمان!... من كان يتصور هذا؟!... لا
أمل بعد اليوم في أن يعود عباس أو محمد فريد،

بعلمها، فأمنت عائشة على قولها وأردفت قائلة:

- لا عيب فيها إلا لسانها!... ألم تحريه يا زينب؟
فما تلكت أن ضحكك قائلة:

- لم أجربه والحمد لله ولكني سمعته وشيري يجرّبه.
وتعالى الضحك، وخديجة أولى الضاحكات، حتى
رأين الأم ترهف السمع بفتة هائلة «هس» فأمسكن
مرة واحدة، فترامى إليهن صوات من الخارج فصاحت
خديجة من فورها منزوعة:

- مات السيد رضوان!

كانت مريم وأنها قد اعتذرتا عن عدم شهود
الزفاف لاشتداد المرض على السيد محمد رضوان فلم
يكن غريباً أن تستدل خديجة بالصوات على موت
الرجل، وغادرت الأم الحجرة مهولة فغابت دقائق ثم
عادت وهي تقول بأسف شديد:

- مات الشيخ محمد رضوان حقاً... يا له من
موقف حرج!

فالتت زينب:

- عذرنا واضح كالشمس، لم يعد في وسعنا تأجيل
الزفاف أو منع العريس من الاحتفال بليته في بيته وهو
بحمد الله بعيد، أما أنتم فهل تطالبون بأصق من هذا
الصمت البليغ؟

لكن خديجة شردت في خواطر أخرى انقبض لها
قلبها خوفاً فتطيرت من النبا للحزن وغمغت كأنها
تخاطب نفسها:

- يا لطيف يا رب...

فقرأت الأم أفكارها فانقبض صدرها بدورها ولكنّها
أبت أن تستكين لهذا الشعور الطارئ أو أن ابنتها
تستكين له فقالت باستهانة متصمّة:

- لا شأن لنا بقضاء الله فالخياة والموت بيده،
والشواوم من عند الشيطان...

انضم ياسين وفمهي إلى المجتمعات بحجرة
العروس بعد أن فرغا من ارتداء ملابسها فآخبرا الأم
بأن السيد ناب عن الأسرة - بالنظر إلى ضيق الوقت -
في تقديم واجب العزاء إلى آل السيد رضوان، ثم
حج ياسين إلى خديجة وقال ضاحكاً:

وعينين مرتعتين «ألا يعني هذا أنه يراك القدوة الصالحة للزوجة الصالحة؟ (ثم ضاحكة) يا لك من امرأة سعيدة الحظ! ولكن من عسى أن يصطق هذا كله؟ كأي كنت في حلم سعيد! أين كان يدخر هذا العطف الجميل؟» ثم دعت له طويلاً حتى اغروقت عينها بالدموع...

وجاءت أم حنفي تعلمهم بوصول السيارات...

٤٨

خلا مجلس القهوة من وجه خديجة كما خلا من وجه عائشة من قبل، على أن خديجة تركت فراغاً ما يسد فكاكتها استلّت روحه ولسبته حيويته وحرمة مزايلا لا يستهان بها من الفكاهة والمرح والنقار، أو كما قال ياسين لنفسه «كانت في مجلسنا كالملح في الطعام، ليس الملح في ذاته للذيذ ولكن ما للذة الطعام من دونه؟» بيد أنه لم يجرح برأيه عجملة لزوجيه إذ أنه لم يزل - على خيبة أمه في الزواج التي لم يعد لها من دواء في البيت - يشفق من جرح مشاعرها على الأقل كيلا تسيء الظن بسهره المتواصل ليلة بعد أخرى في «القهوة» كما يصرع لها، ولكن كان مزاحه يفوق جدّه، إن كان ثمة جد، إلا أنه فقد التنديم الذي طالما طارحه الدعابة وهيّا له دواعيها فلم يبق له إلا أن يتنقح بالقليل في هذه الجلسة التقليدية، ها هو يتربّع على الكنب، يحسو القهوة، ويمدّ بصره إلى الكنبه المضاللة له فيرى الأم وزوجيه وكيال مستغرقين في أحاديث لا طائل منها، ولعلّه يتعجب للمرة المائة من رزانة زينب الممتعة فيذكر ما رمتها به خديجة من «قتل السلم» ويسلم برمجته نظراً... ثم يفتح ديوان الحماة أو غادة كربلاء ويقرأ، أو يقصّ على كمال شيئاً مما قرأ، ويلتفت إلى يمينه فيرى فهمي متوجّهاً للحديث، عن أي شيء يا ترى، محمد فريد، مصطفى كامل، ... لا يدرى ولكنه سيتكلم بلا ريب، بل يبدو اليوم منذ عودته من المدرسة كالسياه المنذرة بالخطر، هل ينكته؟ ... كلا، لا حاجة به إلى ذلك، ها هو يستقبله باهتمام شديد، ويحدّجه بنظرة موحية ناطقة ثم يسأله:

كذلك آمال الخلافة قد ضاعت، لا يزال نجم الإنجليز في صعود ونجماً في أقول فله الأمر... فقال ياسين:

- اثنان كسبا الحرب هما الإنجليز والسُلطان فؤاد، فلا أولئك كانوا يملكون بالقضاء على الألمان ولا هذا كان يحلم بالعرش...

وسكت لحظة ثم استطرد ضاحكاً:
- وثالث لا يقل حُكْمه عن السابقين هو عروستنا التي ما كانت تحلم بالعريس...

فرمته خديجة بنظرة وعيد وقالت:
- تأي أن أغادر البيت من غير أن ألذك... فترجع وهو يقول:

- من الخير أن أطلب الهدنة فلست أعظم شأنًا من غليوم أو هنديرج...

ثم نظر إلى فهمي الذي لاح في وجهه التفكير بحال لا يتفق مع المناسبة السعيدة فقال له:

- اطرح السياسة وراء ظهرك وتبيّنا للطرب وللذيل الماكل والمشارب...

ومع أن خديجة تناوبتها أفكار كثيرة وشطرت حل قلبها أحلام وأحلام إلا أن ذكرى قريبة - من ذكريات الصباح فحسب - ألحت عليها من شدة تأثرها بها حتى كادت تحجب غيرها من الشجون، تلك دعوة أبيها لها على انفراد لمناسبة اليوم الذي يعدّ مبدأ حياة جديدة في حياتها، قابليها بلطف ورحمة كانا بلساً شافياً من وعكة الحياة والرهبة التي اعترتها حتى تَعَثَّرَتْ في مشيتها، ثم قال لها برقة وقعت من نفسها موقفاً غريباً لا عهد لها به:

- رُشاً يسدّ خطاك ويصنّ لك التوفيق وراحة البال، وما من نصيحة تُسدى إليك خيراً من أن أقول: اقتدي بأمك في كل كبيرة وصغيرة...

وأعطاهما يده فقبلتها ثم غادرت الحجرة لا تكاد ترى ما بين يديها من الانفعال والتأثر، وجعلت تردّد طول الوقت «كم أنه لطيف رقيق رحيم» ثم تذكر بقلب ملؤه السعادة قوله «اقتدي بأمك في كل كبيرة وصغيرة» وتقول لأمها التي أصغت إليها بوجه متورّد

- ألم تبلغك أنباء جديدة...؟

يسأله هو عن أنباء جديدة! عندي أنباء لا عدّ لها... الزواج أكبر خدعة، الزوجة تنقلب بعد أشهر شربة زيت خروع، لا تحزن على ما فاتك من مريم أنها السياسي الغرّ، أتريد أنباء أخرى؟ لديّ منها الكثير لكنّها على وجه اليقين لا تنمك البتّة، ثم إنّ الشجاعة تخونني إذا سوّلت لي نفسي إذاعتها على مسمع من زوجي، وما يدري إلا وهو يستشهد - في سرّه طبعاً - بقول الشريف:

عندي رسائل شوق لست أذكرها

لولا «الرتب» لقد بلغتها فاك

ثمّ تسأل بدوّه:

- أيّ أنباء جديدة تعني؟...

فقال فهمي بهاتم شديد:

- ذاع بين الطلبة نبأ عجيب كان حديثنا اليوم كلّهُ وهو أنّ وفداً مصرياً مكوناً من سعد زغلول باشا وعبد العزيز فهمي بك وعليّ شعراوي باشا توجه أمس إلى دار الحماية وقابل نائب الملك للمطالبة برفع الحماية وإعلان الاستقلال...

ورفع ياسين حاجبيه في اهتمام ولاحث في عينيه نظرة شكّ مقرونة بالدشّة، لم يكن اسم سعد زغلول بالجديد عليه وإن لم يجد وراء الاسم في نفسه شيئاً ذا بال اللّه! إلاّ ذكريات غامضة اقترنت بحوادث أتى عليها النسيان من زمن دون أن تترك في قلبه - الذي لا يكاد يعا بالأمور العامة - أثراً عاطفياً يدلّ عليها ولو من بعيد، إلاّ أنّ الاسمين الآخرين كانا يقعان في أفئدة لأول مرة، يبيد أنّ غرابة الأسماء ليست شيئاً يذكر إلى جانب الحركة التي قام بها أصحابها إن صحّ ما يقول فهمي، إذ كيف يتصوّر أن يطالب الإنجليز غداة انتصارهم على الألمان والخلافة باستقلال مصر؟ وسأله:

- ماذا تعرف عن هؤلاء السادة؟

فقال فهمي بلهجة لا تخلو من امتعاض خليق بمن يودّ لو كان هؤلاء السادة من أعضاء الحزب الوطنيّ: - سعد زغلول وكيل الجمعية التشريعيّة، وعبد

العزيز فهمي وعليّ شعراوي عضوان بها، الحقّ أنّي لا أعرف شيئاً عن الآخرين أمّا سعد فأكد أنّ عنده فكرة لا بأس بها ممّا ترمى إليّ عن كثيرين من زملائي الطلبة الوطنيّين الذين يختلفون فيه كثيراً، منهم من يعدّه ذنباً من أذناب الإنجليز ولا شيء أكثر من هذا ومنهم من يقرّ له جزايا عظيمة جدية بأن ترفعه إلى مصافّ رجال الحزب الوطنيّ أنفسهم. ومهما يكن من شأن الفلخطة التي أقدم عليها مع زميله - ويقال إنّّه كان الداعي إليها كذلك - عمل مجيد لعلّه لا يوجد الآن من ينهض به مثله بعد نفي المبرّزين من الوطنيّين وعلى رأسهم زعيمهم عمّد فريد...

بدأ ياسين جاداً أن يظنّ به الآخر استهانة بحماسة وردّد قائلاً وكأنّه يسائل نفسه:

- المطالبة برفع الحماية وإعلان الاستقلال...

- وسمعنا أيضاً أنّهم طالبوا بالسفر إلى لندن للسعي إلى الاستقلال، وأنّهم لهذا القصد قابلوا السير ريجنالد ونجت، نائب الملك...

لم يستطع ياسين أن يواصل مداراة حيرته فأعلنها بأسايره وهو يسأله بصوت مرتفع بعض الشيء:

- الاستقلال!... أتعني هذا حقّاً؟... ماذا تعني؟...

فقال فهمي بلهجة عصبيّة:

- أعني إخراج الإنجليز من مصر، أو الجلاء كما عبّر عنه مصطلحيّ كامل ودعا إليه...

يا له من أصل!... لم يكن السعي إلى تحديث السياسة من طبعه ولكنّه يقبل دعوة فهمي كلّها دها إليه، اتّقاءً لتكديره، وطبعاً لنوع طريف من التسلية، ورثاً ثار اهتمامه بين الحين والحين وإن لم يبلغ درجة الحساس، بل ربّما شاركة أمانته بطريقة سليمة هادئة، ولكنّه أثبت طوال حياته أنّه قليل الاكتراث بهذه الجانب من الحياة العامة، كأنّه لا غاية له وراء التمتع بطيبيّات الحياة ولذاتها، لذلك لم يجد في نفسه استعداداً

للاخذ بهذه الأقوال مأخذ الجدّ وتساءل مرّة أخرى:

- هل يقع هذا في حدود الإمكان حقّاً؟

فقال فهمي بحماس لا تخلو من لوم:

- لا بأس مع الحياة يا أخي...
فأثارت هذه الجملة في نفسه ما تثيره أمثالها من ميل إلى السخرية بيد أنه تساهل مظاهرًا بالجد:
- وكيف لنا بأن نخرجهم؟
ففكر ففهم قليلًا ثم قال عابسًا:
- لهذا طلب سعد وزميلاه السفر إلى لندن
تابعت الأم الحديث باهتمام مركزة فيه وصيها كله كي تفهم أقصى ما يسمعه ففهم منه كدأها كلها ثار حديث في الشئون العامة البعيدة كل البعد عن اللغو المنزلي، تلك الأمور تشوقها، وتدعي القدرة على فهمها، ولا تردد إذا سنحت فرصة عن المشاركة فيها غير مبالية بما تحده أراؤها في أحايين كثيرة من الاستهانة المثيرة بالعطف، ولكن لم يكن شيء ليحطم مجاديفها أو يصدها عن الاهتمام بهذه الشئون «الكبيرة» التي يبدو أنها تبجها مدفوعة بنفس البواعث التي تدفعها إلى التعلق بدروس كمال الدينية أو مناقشة ما يلقي عليها من معلوماته الجغرافية والتاريخية على ضوء معارفها الدينية أو الأسطورية، وقد أكسبها هذا الجذ شئًا من الإلمام بما يقال عن مصطفى كامل وعبد فريد وأفتدنا المبدع، أولئك الرجال الذين ضاعف من حبها لهم إخلاصهم للخلافة الأمر الذي قربهم في نظرها - كشخص يقدر الرجال بحسب منازلهم الدينية - من مراتب الأولياء الذين يهيم بهم، ولما أن ذكر فهمي أن سعدًا وزميليه يطلبان السفر إلى «لندن» خرجت عن صمتها فجأة منسائلة:
- أي بلاد الله لندن هذه؟
فبادرها كمال باللهجة المنغومة التي يسمع بها التلاميذ دروسهم:
- لندن هاصمة بريطانيا العظمى وباريس هاصمة فرنسا والكاب وعاصمتها الكاب...
ثم مال على أذنها هامسًا ولندن بلاد الإنجليز فتولت الأم الدهشة وقالت غاطبة فهمي:
- يذهبون إلى بلاد الإنجليز ليطالبوهم بأن يخرجوا من مصر؟... ليس هذا من اللوق في شيء...
كيف تزورني في بيتي وأنت تضم طردي من بيتك؟

أصجرت مقاطعتها الشاب فنظر إليها باسًا معاتبًا في آن ولكتها ظنت أنها بسبيل إقناعه فأردفت قائلة:
- وكيف يطلبون إخراجهم من ديارنا بعد إقناعه طالت هذا الدهر كله؟ لقد ولدنا وولدتم وهم في بلادنا فهل من «الإنسانية» أن تنصدي لهم بعد ذلك العمر الطويل من العشرة والجيرة لنقول لهم بصريح العبارة - وفي بلادهم أيضًا - اخرجوا؟
ابتسم فهمي كالإس على حين فهمه ياسين، أما زينب فقالت جادة:
- كيف تواتيهم الجرة على أن يقولوا لهم هذا في بلادهم؟... هب الإنجليز قتلهم هناك فمن ذا يدري بهم؟... ألم يجعل جنودهم المشي في الشوارع البعيدة من المخاطر غير المأمونة؟... فكيف عين تحمده نفسه باقتحام ديارهم؟
وه ياسين لو يسترسل مع المراتين في حديثها الساذج إرواء لمواطفه الظامنة إلى المزاح ولكته لس ضجر فهمي فاشفق من إغضابه، فتحوّل إليه مواصلًا ما انقطع من الحديث وهو يقول:
- في كلامها حتى لم تحسن التعبير عنه، خبرني يا أخي ما عسى أن يصنع سعد حيال دولة تعد الآن سيّدة العالم بلا منازع؟
فوافقت الأم على قوله بإيماء من رأسها كأن الحديث كان موجّهًا إليها وراحت تقول:
- كان عرابي باشا أعظم الرجال وأشجعهم، لا يقاس به سعد ولا غيره، وكان فارسًا وكان مقاتلاً، فإذا لقي من الإنجليز يا ولدهاء أسروه ثم فوه إلى بلاد وراء الشمس...
فلم يتكلم فهمي من أن يقول لها بلهجة جمعت بين الرجا والضيق:
- نية!... هلا تركتنا نتحدث؟
فابتسمت فيها يشبه الحياة مشفقة كل الإشفاق من إغضابه فغيرت لهجتها الحساسة كأنما هي بتغيير لهجتها تعلن تغير رأيها كله ثم قالت برقة واعتذار:
- يا سيدي لكل مجتهد نصيب، فليذهبوا في رعاية الله، وعسى أن يحظوا بعطف الملكة الكبيرة...

له ملايسه، فشيعه فهمي بنظرة لا تخلو من غضب، غضب من لم يظفر بمشاركة وجدانية تتجاوب مع نفسه المتأججة، لشد ما تثير أحداث الوطنية أكبر الأحلام في نفسه، في دنياه الساحرة تترامى لعينه دنيا جديدة، ووطن جديد وبيت جديد، وأهل جدد، ينتفضون جميعاً حيوة وحاسة ولكن ما إن يفيق على هذا الجو الخائق من الفتور والسذاجة وعدم المبالاة حتى تشب بين أضلعه نار الحسرة والألم فتروم في قهرها متنفساً - أيّ ما كان - تنطلق منه إلى السماء، ود في تلك اللحظة بكل قوته لو ينطوي الليل في غمضة عين ليجد نفسه مرة أخرى في مجمع الطلاب من إخوانه فيروي ظمأه إلى الحساس والحرية ويسمو في وقدة حماسه إلى ذلك العالم الكبير من الأحلام والمجد، لقد تسامد ياسين عن ماذا يصنع سعد حيال بلد تمدد اليوم بحق سيئة العالم، وهو نفسه لا يدري على وجه التحقيق ماذا سيصنع سعد، ولا يدري ماذا يمكن أن يصنع، ولكنه يشعر بكل ما في قلبه من قوة بأن ثمة ما يجب عمله، ربما لم يمهده مثلاً في عالم الواقع، ولكنه يشعر به كأنما في قلبه وجمه، فها أجدره أن يبرز إلى ضوء الحياة والواقع أو فلتتمش الحياة عبثاً من العبث وباطلاً من الأباطيل...

٤٩

بدا الطريق أمام دكان السيد أحمد - كعادته - مكتظاً بالسبالة والمركبات ورواد الدكاكين المترصّة على الجائنين إلا أنّ هامة ازدانت بشفافية مظفورة من جو نولمهر اللطيف الذي حجبت شمس وراء مسحاب رقاق لاحت رقاعها ناصعة البياض فوق مآذن قلاوون ويرفوق كأنها بحيرات من نور، لم يكن شيء في السماء ولا في الأرض قد خرق المألوف ممّا اعتاد السيد أن يراه كلّ يوم، ولكن نفس الرجل، والأنف الموصولة بنفسه وربما أنفاس الناس جميعاً تعرّضت لموجة عاتية من الانفعال والشعور خرجت بها عن طورها أو كادت حتى قال السيد إنه لم تمرّ به أيام كهذه الأيام اجتمع الناس فيها حول تبا واحد وخفت قلوبهم بإحساس

فما يدري الشاب إلا وهو يسألها في غرابة:
- أيّ ملكة تقصدين؟
- الملكة فيكتوريا يا بيتي، أليس هذا اسمها؟...
طلما سمعت أبي وهو يتحدث عنها، هي التي أموت بنفي عرابي ولكنها أعجبت بشجاعته كثيراً فيها قيل...
فقال ياسين ساخراً:
- إذا كانت قد نفت عرابي الفارس فهي أجدر أن تنفي سعداً العجوزاً...
فقلت الأم:
- مهما يكن من أمرها فهي لم تزل امرأة يعمل صدرها ولا شك قلباً رقيقاً فإذا أحسنوا خاطبتها وعرفوا كيف يتودّدون إليها جبرت بخاطرهم...
وجد ياسين سروراً كبيراً في منطق الأم التي جعلت تتحدّث عن الملكة التاريخية كما لو كانت تتحدّث عن أم مريم أو غيرها من الجارات، ولم يصد يرغب في مجارة فهمي، فسألها بإغراء:
- خبّرنا عماً يحسن أن يقولوه لها؟
فاعتدلت المرأة في جلستها مسرورة بهذا السؤال الذي أقرّ لها بالجدارة «السياسية» ومضت تفكر باهتمام لاح في تقارب حاجبها في صيغة مناسبة لأول «مفاوضة» يبد أنّ فهمي لم يمهلهما حتى تتم تفكيرها فقال لها باقتضاب واستياء:
- الملكة فيكتوريا ماتت من زمن بعيد، لا تتعبي نفسك بلا طائل!

انتبه ياسين عند ذلك إلى غاشية المساء الزاحفة من خلال خصائص النوافذ فأدرك أنه آن له أن يودّع المجلس ليمضي إلى سهرته، ولما كان يعلم حتى العلم بأنّ ظمأ فهمي لم يرو بعد فقد رغب في أن يقدم له اعتذاره عن ذهابه في صورة تأييد من نوع ما للنبأ الذي أخذ بلّيه فقال له وهو ينهض:
- إنهم رجال يدركون بلا شك خطورة ما أقدموا عليه فلمهم أعتلوا له الوسيلة الناجحة، فلنندخ لهم بالتوفيق.

وغادر المجلس وهو يشير إلى زينب لتلحق به فتجهّز

واحد. فهمي الذي يلوذ بالصمت بين يديه ما لم يبدأه هو بالحديث، نقل إليه في إسهاب ما أتصل بعلمه عن مقابلة سعد نائب الملك، وفي مساء اليوم نفسه، وفي مجلس الطرب، أكد نفر من الصحاب أن الخبر حقيقة لا يرتقي إليها الشك، وفي دكانه حدث أكثر من مرة أن خاض زياتن لا تربط بينهم صلة تعارف سابق في حديث المقابلة، بل ما يدري هذا الصباح إلا والشيخ متولي عبد الصمد يقتحم عليه الدكان بعد غيبة طويلة فلم يقنع بتلاوة الآيات وأخذ نصيبه من السكر والصابون وأبى إلا أن يعلن نبا الزيارة بلهجة من يزف البشرى لأول مرة وليأ سأل السيد - مدهاشاً - عما يظن أن تكون نتيجة الزيارة أعجاب الشيخ وعال... عال أن يخرج الإنجليز من مصر، اتحسبهم مجانين كي يحلوا من البلد بلا قتال... لا بد من قتال، ولا قتال لنا، فلا سبيل إلى إخراجهم، فلعن رجالتنا يوقفون ولو إلى إبعاد الاستراليين حتى يعود الأمن إلى سابق عهده، والسلام؟ أيام أنباء ومشاعر فياضة صادلت في السيد رجلاً ذا قابلية شديدة لعدوى الأشواق الوطنية والسياسية بات على حال من الانتظار والتوقع جعلته يقبل بالتفاعل على قراءة الجرائد التي بدت في الأغلب وكأنها تصدر في بلد غريب لا انفعال فيه ولا توتب، واستقبال الأصدقاء بنظرة استطلاع تلطف عينا وراهم من جديد، وعلى تلك الحال استقبل السيد محمد عفت حين دخل الدكان مهرولاً، ما تكن نظرة القادم الحاذقة ولا حركته الشيطانية مما يوحي بأنه مجرد زائر قد عرج إلى الدكان لاحتماء قهوة أو رواية ملحة، فوجد السيد في مظهره ما يجاوب مع نفسه القلقة المشوكة فبادره قافلاً والآخر يشق طريقه بين الزياتن الذين قام جميل الحمزاوي على قضاء حوائجهم:

- صباحنا ناي، ماذا وراك يا سبع؟

اتخذ السيد محمد عفت مجلسه لصق المكتب وهو يتشم ابتسامة وشت بالعجب كأن قول السيد - وماذا وراك - وهو نفس السؤال الذي يتكرر كلما لاقى أحداً من صحبه - إقرار بأهميته في هذه الأيام البالغة في أهميتها بالنظر لما يربطه ببعض الشخصيات المصرية

الهامة من صلات القرى. كان السيد عفت دائماً همزة الوصل بين جماعته الأصلية المكونة من تجار وبين من انضم إليها بمضي الزمن من موظفين ممتازين وعاميين وإن تفرد السيد أحد بمنزلة الإعزاز بفضل شخصيته وسجاياه، غير أن صلة القرى هذه التي لم تنفد شيئاً من خطورتها قط لدى أصدقائه التجار الذين يتطلعون إلى الموظفين وذوي الألقاب بنظرة ملؤها الإكبار، صلة القرى هذه قد زادت خطورة في هذه الأيام التي بات فيها والخبر الجديده أهم من الماء والغذاء... بسط السيد عفت صحيفة كانت مطوية يمينه ثم قال:

- خطوة جديدة... لم أعد ناقل أنباء فحسب ولكني بئ رسولاً أهل اليك وإلى غيرك من الأكرمين هذا التوكيل السعيد...

وأعطاه الصحيفة وهو يخمغم مبسبباً وأقرأ فتناولها السيد وقرا:

- نحن الموقعين على هذا قد أئبنا عنا حضرات سعد زغلول باشا وعلي شراوي باشا وعبد العزيز فهمي بك ومحمد علي علوية بك وعبد اللطيف المكباتي ومحمد محمود باشا وأحمد لطفي السيد بك، ولهم أن يضموا إليهم من يشارون، في أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعي سبيلاً في استقلال مصر استقلالاً تاماً...

فتهلل وجه السيد وهو يتلو أسماه أعضاء الوفد المصري الذين سمع بهم فيما سمع من أبناء الحياة الوطنية التي ترقدتها الألسن، وتساءل:

- ماذا تعني هذه الورقة؟

فقال الرجل بحماس:

- ألا ترى هذه الإضاءات؟... وقع تحتها بإمضائك وإدع جبل الحمزاوي ليقع بإمضائه أيضاً. هذا توكيل من التوكيلات التي طبعها الوفد ليسوقعها الشعب فيتخذ بها صفة الوكالة عن الأمة المصرية...

أمسك السيد بالقلم ووقع بإمضائه في سرور فحبل في تألئ حينه الزرقاوين وهو يتشم ابتسامة رقيقة تمت عن شعوره بالسعادة والحيلا إذ يوكل عن نفسه سعداً وزملاء، أولئك الرجال الذين ملكوا النفوس على

السيد فهمس في أذن صاحبه:

- كآتي لثقة سروري بهذا التوكيل الوطني ثوبل بعمل الكأس الثامنة بين فخلزي زبيلة...!

فحرك محمد عفت رأسه في ثائر كأن الصورة التي جسمها خياله عند ذكر الكأس وزبيلة قد أسكرته، وعغمهم:

- يا ما بكره نسمع...

ثم غادر الدكان والسيد في أعقابها مبشراً:

- ويعده نشوف...!

ثم عاد إلى مكتبه وأثر المزاج منبسط في أساريه وانفعال الحواس في قلبه لا يمتد، شأنه في كل ما يمرض له من مهام الحياة بعيداً عن داره، فهو يجد الجذب كله دعاً الداعي إلى الجذب ولكنه لا يتردد عن تلطيف جوهر المزاج والدعابة كلها لاحت له صادراً في ذاك عن طبع لا يملك معه حيلة وإن بدا قدرة عجيبة على التوفيق بينها، فلا جدّه بفاهر مزاحه ولا مزاحه يفسد جدّه، ولياً كانت دهايته ليست ترفاً مما يدور على هامش الحياة، ولكن ضرورة تنوعها كالجذب سواء بسواء، فلم يسعه يوماً الاقتصار على الجذب الخالص أو تركيز همهته فيه، وبالتالي قنع دائماً من «وطنيته» بالمعاطفة والمشاركة الوجدانية دون الإقدام على عمل يغير وجه الحياة الذي آس إليه فلا يرضى عنه بديلاً، لذلك لم يدركه بخلد أن ينضم إلى لجنة من لجان الحزب الوطني على شدة تعلقه بمبادئه، ولا حتى أن ييضم نفسه شهود اجتماع من اجتماعاته، اليس في ذلك إهدار لوقتته «الشمين»؟ ليس الوطن في حاجة إليه على حين يتلهف هو على كل دقيقة منه لينفثها في أسرته أو تجارته أو على الخصوص في شوه بين الأحباب والخلان؟! لكن إذن وقته خالصاً لحياته، وللوطن ما يشاء من قلبه وعواطفه، بل ماله كلها تيسر، إذ لم يكن يضرب به إذا وجب التبرع لغرض من الأغراض، وإلى ذلك فلم يشعر مطلقاً بأنه مقصر في واجبه على نحو ما، وعلى العكس عُرف بين صحبه بالوطنية، إنما لأن قلوبهم لم تسخّ بعواطفها كما سخا قلبه، وإنما لأن

حدائث شهرتهم حيث حركوا منها أهواء عميقة مكتونة كاللواء الجديد يستائر بأفكار المرضى بداء قديم استعصى علاجه بالرغم من استعماله لأول مرة، ودعا الحمازوي فوقع بإمضائه كذلك، ثم التفت إلى صاحبه وهو يقول باهتمام شديد:

- المسألة جدّ فيها يبدو...!

فضرب الرجل حافة المكتب بقبضة يده ثم قال:

- غاية الجذب، كل شيء يسير بقوة وتصميم، أما علمت بما دعا إلى طبع هذه التوكيلات؟ قيل إنّ «الرجل» الإنجليزي تساهل عن الصفة التي كلمه بها سعد وزبيله في صباح ١٣ نوفمبر الماضي فما كان من الولد إلا أن عمد إلى هذه التوكيلات ليثبت أنه يتكلم باسم الأمة...

فقال السيد بتأثر:

- لو كان محمد فريد بيننا ما عدا هذا.

- لقد انضم إلى الولد من رجال الحزب الوطني محمد عليّ علوية بك وعبد اللطيف المكباتي...

ثم هز منكبيه لينفض عنها الماضي كله ثم قال:

- كلنا نذكر سعداً بما كان يثير من ضجة عظيمة على عهد توليه نظارة المعارف ثم الحفانيّة، ما زلت أذكر ترحيب اللواء به منذ ترشيحه للوزارة وإن لم أنس حملاته عليه بعد ذلك، بل لا أنكر أنني ملئت مع انتقاد المنتقدين له لشدة تعلقني بالمغفور له مصطفى كامل، ولكن سعد أثبت دائماً أنه جدير بإعجاب المعجبين، أما حركته الأخيرة فهي خليقة بأن تحمله من القلوب في أعز مكان...

- صدقت... حركة مباركة، لنذبح الله أن يتولاهما بتوفيقه...

ثم باهتمام:

- ثرى أيؤذن لهم في السفر؟... وماذا تُراهم فاعلين إذا سافروا؟...

طوى السيد محمد عفت التوكيل ثم نهض وهو يقول:

- ما الغد ببعيد...

في طريقها إلى باب الدكان غلبت روح الدعابة

ومال الرجل نحوه ليفضي إليه كيف غنى إليه الخبر...

٥٠

في نفس الوقت الذي شغل فيه الوطن بحرته كان ياسين دائباً يحزم وعزم على الاستئثار بحرته هو كذلك، فإنَّ انطلاقه إلى مهراته الليلية - بعد امتناع موسوم بالاستقامة فيها أعقب الزواج من أساييع - لم يفز به بلا نضال، ثمة حقيقة كثيراً ما ردها لنفسه كاعتذار عن سلوكه الجديد. هي أنه لم يكن يتصوّر - وهو في سكرة حلم الزواج - أنه سيرتدّ إلى حياة التسكّع بين القهوة وحانة كوستاكي، اعتد غلظاً أنه ودّع ذلك إلى الأبد مضرباً لحياته الزوجية أحسن الثبات، حتّى دهمته الحيرة المستعصية في الزواج كلّها فجزعت أعصابه من تحمّل الملل أو الحياة الفارغة كما دعاها، وفزع بكلّ قوّة نفسه المدلّلة الحساسة إلى الترفيه والتسليّة والنسيان، إلى القهوة والحانة، لا كحياة هلو عابرة كما ظلّها في الماضي والزواج أمل مدّخر، ولكن كحياة هي كلّ ما تبقى له من متعة بعد أن غدا الزواج خيبة مريّة، كالذي تشركه الآمال من وطنه فيرقه الإخفاق إليه تائباً، يثبّد أنّ زينب التي عهدت عنده التودّد الحارّ والتملّق النهم، بل الإعزاز الذي بلغ به يوماً أن ذهب بها إلى مسرح كشكش بك مستهيناً بالسجاج المسلّح من الثقاليّد الصارمة الذي يضربه أبوه حول الأسرة... زينب هذه كابدت من انصرافه عنها إلى منتصف الليل ليله بعد أخرى وعودته ثملّاً يترنّع، صلمة عزّ عليها احتياها فما تمالكّت أن كاشفته بأحزانها، وكان يعلم بداعة أنّ طفرة مفاجئة في حياته الزوجية لا يمكن أن تمرّ بسلام فتوقّع من بادئ الأمر المعارضة على أيّ لون جاءت، عتاباً أو خصاماً وأعدّ العلّة المناسبة ليحسم موقفه بقول أبيه له ليلة ضبطه راجعاً من كشكش بك «إنّه لا يفسد النساء إلّا الرجال، وليس كلّ الرجال جيّداً بالقيام على النساء» فما تشكّكت حتّى قال لها: «لا داعي للحنن يا عزيزة، منذ القدم والبيوت للنساء والدنيا للرجال، هكذا

الذين سخت قلوبهم لم يذهبوا إلى حدّ التبرّع بالمال مثله، فتميّز بوطنيته، وعرف هو ذلك فاضافه إلى بقية مزاياه التي يباهي بها سرّاً في أعماق قلبه، ولم يتصوّر أنّ الوطنية يمكن أن تطالبه بأكثر مما يجود به، ذلك القلب المولع بالغرام والطرب والمزاج لم يفيض - على ازدحامه - بالمعاطفة القوميّة، وهي وإنّ قنعت بالقلب مجالاً لحيويّتها إلّا أنّها كانت قويّة عميقة تشغل النفس وتبهمها، لم تجته عرضاً ولكن نشأت مع صباه فيها تلقته أذناه من أحاديث البطولة التي رواها السلف عن عرابي، ثمّ اتقدت جلوتها بمحالات اللواء وخطبه، وكما كان منظراً فريداً - أهاج التائر والضحك ممّا - يوم دُفّي وهو يبيكي كالأطفال عند وفاة مصطفى كامل، تألّر صبحه لأنّ أحداً منهم لم يسلم من وعكة حزن ثمّ أغرقوا في الضحك في مجلس الطرب الليليّ حين تذكّروا المنظر إذ لم يكن من اليسر أن يُرى «ربّ الضحك» وهو يجيش بالبكاء اليوم، بعد سني الحرب الخامدة بعد موت الزعيم الشاب ونفي خليفته، بعد انقطاع الأمل من عودة أفندينا، بعد هزيمة تركيّاً، وانتصار الإنجليز، بعد هذا كلّ، أو بالرغم من هذا كلّ، تسري أنباء عجيبة حاملة حقائق كالأساطير... مواجهة الرجل الإنجليزيّ بمطالب الاستقلال، إمضاء التوكيدات الوطنيّة، التساؤل عن الخطوة التالية، قلوب تنفض عن جوهرها الغبار، أنفس تشرق بالآمال، ماذا وراء هذا كلّ؟... إنّ خياله السلميّ الذي ألف الاستكانة يتساءل دون جدوى، وإنّما ليتجملّ الليل ليهرع إلى مجلس الطرب حيث باتت الأحاديث السياسيّة «مزّة» الشراب والطرب فالتلفت مع جملة المغريات التي تجلب حنانه إلى سمّونه كزبيدة وحبّ الإخوان والشراب والطرب وإنّما لتبدو في ذلك الجوّ الخلّاب عذبة الروح لطيفة التناول تغني القلوب بشقّ عواطف الخيالات والحتّ من دون أن تستأديه ما لا طاقه له!... وإنّما ليفكر في هذا كلّ إذ اقترب منه جميل الحمزاوي وهو يقول:

- أما سمعت عن الاسم الجديد الذي أطلق على بيت سعد باشا...؟ إنّه يدعوّه «بيت الأمّة»...

مثال زوجها، فلم تَرِ في استمتاع ياسين بحريته عجباً ولكن شكوى زوجه بدلت هي العجب. ففهي وحده قلَّد أحزانها فتطوَّع لتزيدها على مسمع من ياسين ولو أنَّه أيقن من بادئ الأمر أنَّه يدافع عن قضية خاسرة، ولعلَّ ما شجَّعه على ذلك كان كثرة تلاقيها في قهوة أحمد عبده بخان الخليلي، تلك القهوة التي تقع تحت سطح الأرض كأنها كهف منحوت في جوف جبل، مسقوفة بربوع الحلي العتيق، منعزلة عن العالم بحجراتها الضيقة المتقابلة، وباحتها التي تنوسطها نافورة صامتة، ومصباحها التي توقد ليل نهار، وجوها المهادئ الحالم الرطيب. كان ياسين قد مال إلى هذه القهوة لدنوها من حانة كوستاكي من ناحية ولاضطراره إلى هجر قهوة سي علي بالغرورية بعد قطع زفوة من ناحية أخرى، ثمَّ لَمَّا خَصَّت به القهوة الجديدة من طابع أثري صادم هوَّى من نفسه الميالة للشعر، أمَّا ففهي فلم يعرف طريق المقاهي لخلل طرا على سلوكه كطالب مجتهد ولكن تلبية لداء تلك الأيام الذي دعا الطلبة وغيرهم إلى التجمُّع والتشاور، فاختار ونفر من زملائه قهوة أحمد عبده - لنفس ميزاتها الأثرية التي جعلتها بآمان من العيون - للاجتماع مساء بعد مساء للحديث والتشاور والتنزيُّ وانتظار الحوادث. كثيراً ما التقى الأخوان في حجرة من الحجرات الصغيرة ولو حين قليل أي حتَّى يصل زملاء ففهي أو يأزف ميعاد ياسين للانتقال إلى حانة كوستاكي، وفي مرَّة من هذه المرات أشار ففهي إلى كدر زينب مُبْدِيًا دهشة لسلوك اغيه الذي لا يتفق مع حياة زوجية ناشئة. ضحك ياسين ضحكة رجل يرى لنفسه الحق، كلَّ الحق، في أن يضحك من ساذجة الآخر الذي ارتضى بأن يخاطبه بلسان الناصح فيها يجهله، يبيد أنَّه لم يشأ أن يبرِّز سلوكه مباشرة مؤثراً أن ينقش عن صدره بما يَمَنُّ له من قول، قال مخاطباً الشاب:

- رغبت يوماً في الزواج من مريم، ولست أشك في أنَّك حزنت جدَّ الحزن لموقف أليك الذي منع تلك الرغبة من أن تتحقَّق... أقول لك، وأنا أدري بما أقول، إنَّك لو علمت وتقدَّك بما يخفي الزواج وراء

الرجال جميعاً، والزوج المخلص يحافظ على أمانته وهو بعيد عن زوجته كما يحافظ عليها وهو بين يديها، ثمَّ إنَّي أتزوَّد من السهرة ترويحاً عن النفس وبهجة يملآن من حياتنا متعة كاملة ولسَّا عرَّضت بسكرو عتجته بأنَّها وتحنف على صحنه ضحك وقال بنفس اللهجة الجامعة بين الرقة والحزم وكلَّ الرجال يسكرون، إنَّ صحنتي تتحسن بالسكرو (ثمَّ ضاحكاً مرَّة أخرى) سيلي أبي أو أباك! إلَّا أنَّها هَمَّت بالاسترسال في مناقشته جرياً وراء أمل كاذب فشَدَّ حبل الحزم متشجِّعاً بجلله الذي هوَّن عليه ما لم يكن يهون من إغصابها فراح يتوَّه بما للرجال من حقٍّ مطلق في أن يفعلوا ما يشاؤون، وما على النساء من واجب الطاعة وال التزام الحدود وانظري إلى امرأة أبي هل رايتي اعترضت يوماً على تصرف لأبي؟... على ذلك ففهي زوجان سعيدان وأسرّة مطمئنة، ينبغي ألاَّ نعود إلى هذا الموضوع... لعلَّ لو كان تُرك إلى شعوره وحده ما اصطنع في خطابه ما اصطنع من سياسة فلانٌ خبيثة في الزواج جعلته يحد نحوها أحياناً ما يشبه الرغبة في الانتقام، وأحياناً أخرى نوعاً من الكراهية المتقطعة وإن لم يكتف عن الرغبة فيها بين هذا وذاك، ولكنَّه راحي عواطفها إكراماً - أو خوفاً - من أبيه الذي علم بمعظم تعلقه بأبيها السيّد محمَّد عَفَت. والحق لم يكن يكرهه شيء كإشفاقه من أن تشكوه إلى أبيها فيشكوه هذا بدوره إلى أبيه، حتَّى لقد صمَّ جاذاً، إذا وقع شيء ممَّا يماذر، أن يستقلَّ بمسكن منها تكن العواقب ولكنَّ خوافه لم تتحقَّق، أثبتت الفتاة رغم حزنها أنَّها امرأة وعاقلة كأنها من طراز امرأة أبيه نفسها، قلَّدت موضعها حقَّ قدره ونزلت عند حكم الواقع، مطمئنة - لبعْلِها - بما يردُّه دائماً من إخلاصه وبرادة مهراته، قانعة من الألم والحزن بيئها في دائرة الأسرة الضيقة - مجلس القهوة - من دون أن تظهر بتأييد جذبي، وكيف لها بذلك في بيئة ترى الخضوع للرجال ديناً وعقيدة، بل لعلَّ السَّ أمانة استنكرت شكواها وسخطت على ما تطلع إليه من استئثار غريب ببعْلِها، لأنَّها لم يكن يسعها أن تتصوَّر النساء إلَّا على مثالها هي ولا الرجال إلَّا على

سطحه لحمدت الله على الفشل...

مباهجها الأحلام، وطالما ساءلت نفسي: هل يجمعني حقًا بيت واحد بشفاعة حسناء إلى الأبد؟ يا له من حلم!... ولكني أؤكد بأنه ليست ثمّة مصيبة أفدح من أن يجمعك بيت واحد بحسنة إلى الأبد... وعظم فهمي في حيرة رجل يعزّ عليه - فيها يكابد من أشواق الشباب - تصوّر الملل: - لعلّه بدت لعينك أشياء وراء الظاهر الذي لا يعاب!

فقال ياسين وهو يضحك بمرارة:

- لا أشكّر إلّا الظاهر الذي لا يعاب!... شكواي في الحقّ منصبة على الجبال نفسه... هو... هو الذي مللت لحدّ السقم، كاللفظ الجديد يهرك معناه لأوّل مرّة ثمّ لا تزال تردّده وتستعمله حتى يستوي عندك ألفاظ مثل «الكلب» و«الدودة» و«الدرس» و«سائر الأشياء المتبدّلة، يفقد جذّته وحلاوته، ورمّما نسيت معناه نفسه فعدا عرّذ لفظ غريب لا معنى له ولا وجه لاستعماله، ولعلّه لوعثر عليه الغير في إنشائك أخذهم العجب لبراعتك على حين يأخذك العجب لغفلتهم، ولا تسلّ عمّا في ملل الجبال من فجعية، إذ أنّه يبدو مللًا بلا عذر مقبول، وبالتالي قضاء عتوبًا... فيتعدّر التفادي من يأس ليس له من قرار. لا تعجب لقولي، إنّني عاذرك لأنك تنظر من بعيد، والجبال كالسراب لا يُرى إلّا من بعيد...

على مرارة اللهجة شكّ فهمي في حقيقة بواعثها إذ أنّه مال من بادئ الأمر إلى اتهام أخيه - لا الطبيعة البشرية - لما عرفه عنه من انحراف السلوك، ألا يجوز أن تُردّ شكواي في الحقّ إلى ما ليج به من مجون في حياته السابقة على الزواج؟... أصرّ على هذا الظنّ إصرار رجل يأبى أن يفسح في أعزّ آماله، وليّا كان ياسين لا يهتمّ بأرأه أخيه بقدر ما يهتمّ بالإفصاح عمّا في صدره هو، فقد واصل حديثه وهو يتبسّم لأوّل مرّة ابتسامه وضيئة:

- أصبحت أدرك موقف أبي حقّ الإدراك!... وأفهم ما جعل منه ذاك الرجل العريذ الراكض وراء العشق أبدًا!... كيف كان يتأقّل له أن يصير على

دهش فهمي لحدّ الانزعاج لأنّه لم يتوقّع أن يياغت في أوّل جلسة يخاطب بها بالفاظ تجمع بين «مريم» و«الزواج» و«الزفة»، أفكار لعبت على مسرح صدره أدرارًا لا تنسى ولا تمحي آثارها، فلعنّه بالغ في إظهار دهشته ليخفي ما أثارته الذكريات في نفسه من الشجن والتأثّر، ولعلّه لذلك لم يستطع أن ينسج بكلمة، فتابع ياسين حديثه وهو يلوّح بيده سأمًا ومللًا قائلاً:

- ما كنت أتصوّر أن ينجلي الزواج عن هذا الخواء، إنّّه في الحقّ لا يعلم أن يكون حلماً كاذبًا، وقاسيًا ككلّ شيء غييب الخداع!

بدا له قوله عسير المضمّن مثيرًا للرعب كما يخلق شبّابٌ تتدلّق ينابيع حياته الوجدانيّة نحو هدف واحد لا يتشكّل له إلّا في صورة «زوجة» وتحت مقولة «الزواج» فمزّ عليه أن يتناول أخوه المستهتر مقولته المقدّسة بهذه المرارة الساخرة، وتجمّع في دهشة بالغة: - ولكنّ زوجك سيّدة... كاملة! فهفّ ياسين ساخرًا:

- سيّدة كاملة! هو ذاك، أليست كريمة رجل فاضل؟... وربيبة أسرة كريمة؟... جميلة... مهذّبة... ولكن لا أدري أيّ شيطان موكل بالحياة الزوجيّة يجعل من جميع المزايا السالفة أعرافًا تالفهه لا يُلقى إليها ببال تحت ضغط الملل المُسقم كأنّها بعض ما تندلق على الفقر من صفات النبل والسعادة كلّها تراهي لنا أن نزعّي فقيرًا عن فقره...

فقال فهمي ببساطة وصدق:

- لا ألهم حرقًا ممّا تقول.

- انتظر حتى تعرف بنفسك...

- لماذا إذن يصّر الناس على الزواج منذ بدء الخليقة؟...

- لأنّ الزواج - كالملوث - لا ينقع معه التحدير ولا

الحذر...

ثمّ مستطرّدًا وكأنّه يخاطب نفسه:

- لنشدّ ما عبث بي الخيال فسبا بي إلى عوالم تفوق

بذلك، وبذلك وحده تراءت له الحياة الزوجية محتملة،
بل أثيرة ذات مزايها تفتقد. «فيم تطمح آية امرأة وراء
البيت الزوجي والارتواء الجنسي؟» . . لا شيء! . . .
إنّهن حيوانات اليفة كالحيوانات الأليفة أن تتطفل
يعاملن، أجل لا يجوز للحيوانات الأليفة أن تتطفل
على حياتنا الخاصة وإنّما عليها أن تنتظر في البيت حتى
نفرغ لمدايعتها، أن أكون زوجاً خالصاً للحياة الزوجية
هو الموت، منظر واحد وصوت واحد وطعم واحد لا
تزال تتكرر وتتكرر. . . حتى تنقلب الحركة والجمود
سجين، والصوت والصمت توأمين، كلاً كلاً، ما لهذا
تزوجت. . . إن قبل إنثا بيضاء، ألتست ذا مارب من
السمراء، بل والسوداء. . . وإن قبل إنثا مدملجة فما
عزائي عن النحيلة والجسيمة، أو إنثا مهذبة سليمة نبل
وكرم فهل عطلت من المزايا ربيبة العسريات
الكارور؟! . . . إلى الامام. . . إلى الامام. . .»

٥١

كان السيد مكباً على دفاتره حين طرقت عتبة
الدكان حذاء ذات كعب عال فرفع عينيه باهتمام
غريزي، فرأى امرأة تشتمل الملامه اللث منها على
جسم لحيم وتنحصر حافة البرقع الأسود على جبين
ناصع وعينين مكحولتين، فانبست أساريره في
ترحاب طال تشوقه إليه، وعرف من توه الست أم
مريم أو حرم المرحوم رضوان كما صارت تدعى أخيراً،
ولسّا كان جميل الحمزوي مشغولاً ببعض الزبائن فقد
دعاهما للجلوس على كتب من مكتبه، فأقبلت المرأة
تخطو وجلست على المقعد الصغير الذي فاضت عنه
أعطفها وهي تلقي إليه بحة الصباح، ومع أنّ
التحية من ناحيتها والترحاب من ناحيته جربا على
النحو المعهود الذي يتكرر كلّما جاءته «زبونة» تستحق
التكريم، فإنّ الجوّ الذي غشى ركن الدكان من حول
المكتب شحن بكهرياء تعمرها البراءة، لاحت أمارات
ها في الجفنين المسبلين حياء حول عروس البرقع من
ناحية، والنظرة التريفة فوق سفحي الأنف العظيم
من ناحية أخرى، كهرياء خفية صامتة إلا أنّ نورها

طعام واحد ربع قرن من الزمان وقد قتلتني الملل بعد
خسة أشهر؟!

فقال فهمي وقد قلق لإحجام أبيه في الحديث:

- حتى على افتراض أنّ شكوك صادرة عن تماشية
مرجبة في الطبيعة البشرية، فالخلل الذي تبهر به. . .
(هم بأن يقول: بعيد عن الطبيعة السوية ثم عدل عنه
ليكون أكثر منطقية فقال). . . بعيد عن الدين. . .

فقال ياسين الذي كان يقنع من الدين دون اكتراث
جديّ لأوامره ونواهيه:

- الدين يؤدّد رأيي، وآي ذلك أنّه سمح بالزواج
من أربع غير الجوّاري اللاتي كانت تحتفظ بهنّ قصور
الخلفاء والأغنياء، فقد لظن إذن إلى أنّ الجمال نفسه -
إذا ابتدلته العادة والألفة - ملّ وأسقم وقتل. . .

فقال فهمي بأسياً:

- كان لنا جدّ يسمي مع زوجة ويصبح مع أخرى
فلعلّك أن تكون وريثه. . فتعتم ياسين متنبّهاً:

- لمعلّ.

على أنّ ياسين - حتى ذاك الوقت - لم يكن أقدم على
تحقيق حلم من أحلامه المتمردة، حتى أنّه رجع إلى
القهوة الفاحشة ولكنّه تردّد قبل أن يضطو الخطوة
الأخيرة، قبل أن ينزل إلى زبونة أو إلى غيرها، وما
الذي جعله يفكر وتردّد؟ . . . ربّما لم يتخلّ من إحساس
بالمسؤولية حيال الحياة الزوجية، وربّما لم يتجنّب من تهيّب
لرأي الدين في «الزواج الفاسق» الذي تردّد لديه أنّه
غير رأيي في «الشابّ الفاسق» وربّما أيضاً أنّ خيبة أقوى
أمل تردّد في جوانبه صنتّ نفسه عن لذات الدنيا حتى
يفيق، على أنّ واحدة من أولاء لم تكن لتقيم في سبيله
عائقاً جدّياً خليفاً بأن يقف مجرى حياته، إلا أنّه وجد
إغراء لا يصمت في سيرة أبيه التي استحوذت عليه،
وما بدا من زوجه من «حكمة» قرنتها في ذهنه بامرة
أبيه فينشط خياله إلى رسم تخطيط لحياتها المستقبلية معه
على مثال حياة الست أمانة مع أبيه، أجل تمخّ كثيراً لو
تطشّن زينب إلى الحياة التي تقدّر عليها كما تطمئنّ
امراة أبيه إلى حياتها، فيشب هو مثل وثبات أبيه الموقوفة
لهيود آخر الليل فيحظى ببيت هادئ وزوجة مستتية.

الكامن كان متحفظاً في انتظار لمسة كي يسطع ويشمع ويستمر نازلاً... كانه كان ينتظر هذه الزيارة التي انتجبت عن آمال مهموسة وأحلام مكبوتة، ولكن لأن وفاة السيد عمد رضوان أثارت منه فكراً وميَّجت رغبات كما يبيح انطواء الشتاء شقى آمال الشباب في الطبيعة والأحياء، زال بموته الشجا الذي اعترض إحساسه بالرومة فأمكنه أن يذكر نفسه بأن للمرحوم لم يكن إلّا جازاً - لا صديقاً - ورحل، كما أمكن شعوره بهيال هذه المرأة الذي اعرض عنه قديماً حفاظاً على كرامته أن يعبر عن ذاته ويطلب نصيبه من المتعة والحياة، إلّا أن عاطفته نحو زبيدة، كان أدركها العطب كالفاكهة في نهاية موسمها، فلاتت المرأة منه - على خلاف الزيارة السابقة - ذكراً متوجّباً وعاشقاً متحزّزاً... على أن خاطرة ثقيلة - أن تكون الزيارة بريئة - مرّت به ولكنّه نفاها عن نفسه بقوة، مستشهداً بما بدا منها في الزيارة القديمة من رقيق الإشارات وبديع الريب، مؤكّداً ظنونه بهذه الزيارة نفسها التي ليس ثمة ما يوجبها إن لم يكن مثل ما يدور بنفسه، ثم صمّم أخيراً على أن يتلمّس سبيله كخبير قديم...

فقال لها برقةً باسماً:

- خطوة عزيزة!

فقال في شيء من الارتباك:

- الله يكرمك، كنت راجعة إلى البيت فمررت بالدكان فتراعى لي أن آخذ لوازم الشهر بنفسي.

فطن إلى «اعتذارها» عن المجيء ولكنّه أبى أن يصدّقها فإن يترامى لها أن تأخذ لوازم الشهر بنفسها ليس شيئاً إن لم يكن وراءه دافع، لا سيّما وأنها تدري بالبداهة والفرصة أن يجيئها بعد «مقدمات» الزيارة القديمة خليف بأن يثير في نفسه الريب، وإن يبلو ليعينه وتحمّكاً غير خافي الدلالة، فزادته مبادرتها إلى الاعتذار ثقة وقال:

- فرصة طيبة لأحييك ولاكون في خدمتك!

فسكرته في اقتضاب أصفى إليه بنصف انتباه إذ شغل بالتفكير في الكلمة التاليفية، لعلّه كان من الطبيعي أن يمرّج على ذكر الزوج الراحل مترحمّاً ولكنّه

تحمّاشي هذا الخاطر أن يفسد عليه الجوّ كلّ، ثمّ تساءل: هل يهاجم أو يمسك حتى يستدرجها إلى الهجوم؟ لكلّ طريقة لذاتها... يبدّ أنه لم يشأ أن ينسى أن يجيئها وحده خطوة كبيرة من جانبها تستحقّ حسن الاستقبال من جانب، فاستطرد قائلاً وكأنّه يتمم حديثه الأوّل:

- بل فرصة طيبة كي أراك!

تحرك الجلفان والحاجبان حركة ربّما دلّت على الحياء أو الارتباك أو كليهما معاً، ولكنها فضحت قبل كلّ شيء فطنتها إلى ما وراء مجاملتها الظاهرة من معانٍ خفية، على أنّه رأى في حياتها استجابة لشعورها الباطني الذي دفعها إلى زيارته أكثر منه استجابة لقوله، فازداد اطمئناناً إلى تخمينه الأوّل وراح يؤكّد ما عناءه في نعمة رقيقة قائلاً:

- أجل فرصة طيبة كي أراك.

عند ذاك قالت بلهجة تنمّ عن عتاب حبيس:

- لا أظنّ أنّك تعدّ رؤيتي فرصة طيبة!

فوقعت لهجة العتاب من صدره موقع الرضى والسرور، لكنّه قال كاللحجّ:

- صدق من قال إنّ بعض الظنّ إثم.

فهزّت رأسها هزّة كمن تقول له «هيهات أن يؤثّر فيّ مثل هذا الكلام» وقالت:

- ليس ظناً فحسب، إنّ أعني ما أقول، إنك رجل لا يعوزك الفهم، وأنا كذلك وإن توخّمت غيره... فلا يجوز لأحدنا أن يحاول خدع صاحبه.

ومع أنّ صلور هذا الكلام عن امرأة لم يغيّر على وفاة زوجها شهران أثار في نفسه شعوراً بالسخرية والمرارة، فإنّه تطرّع لانتحال الاعداد لها - الأمر الذي لم يكن ليفكر فيه في ظروف أخرى - قائلاً لنفسه: ما أخرى صبرها على مرضه الطويل بأن يشفع لها، ثمّ تخفّص من شعوره الطارئ بقوة وقال متصنّفاً الأمي:

- غاضبة عليّ! يا له من حظّ سيّئ لا استحقّه!

فقال في شيء من الاندفاع ربّما كان الباحث عليه ضيق المكان والزمان عن ملاعبات الأخذ والردّ:

- قلت لنفسي وأنا في الطريق إليك وما ينبغي أن

- العفو كثيراً ما يكون كلمة السر لولوج الجنة .
ثم وهو يرنو إلى ابتسامة عذبة لاحت في عينها:
- الجنة التي أعنيها تقع عند ملتقى بين القصرين
بالتحاسين، ومن جميل التوفيق أن بابها يفتح على
عطفة جانبية بعيداً عن أهين الرقباء، وألا حارس لها!
وفطن إلى أن حارس الجنة السيوية سمي «المروم»
الذي كان حارساً للجنة الأرضية التي يتلصص طريقه
إليها، فشاب خاطره ضيق وخاف أن تكون المرأة قد
فلطنت إلى نفس الحقيقة الساخرة ولكّنه وجدها مهومة
فيها يشبه الحلم فتتبدد وهو يستغفر الله في سره، وكان
جميل الحمزاوي قد فرغ من زبائنه، فاقبل على السيدة
ليقضي حوائجها فسمحت للسيد فرصة للتأمل، فراح
يلدرك كيف رغب ابنه فهمي يوماً في خطبة مريم ابنة
هذه المرأة، ثم كيف ألهمه الله الرفض، وقد اعتقد
وقتك أنك أنه إنما ينقذ مشيئة حرمه فحسب، فلم يدرك له
بخلد أنه جتّب ابنه شرّ مأساة يُكب بها زوج، وهل
يمكن أن تنهج فتاة إلا على مثال أمها؟ ... وأيّ
أم؟ ... امرأة خطيرة! ... قد تكون جوهرة ثمينة
عند أمثاله من الصيادين، ولكنّها في البيوت مأساة
دامية، تُرى لئى طريق سلكت طوال الأعوام التي
عاشها زوجها ميتاً حياً؟ ... كلّ القرائن تشير إلى
طريق واحد، ولعلّ كثيرين من الجيران يعرفون، بل
لعله لو كان في بيته من يحسن ملاحظة هذه الأمور لما
خفي عليه شيء، ولما بقيت زوجته على الولاء لها
والإيمان بها حتى هذه الساعة، وعساوته رغبة -
استحوذت عليه أول مرة عقب الزيارة المريبة القديمة،
ولم يجد عندئذ سبيلاً آمناً إلى تحقيقها دون إثارة
الريب - وهي أن يحول بين المرأة المستهتر وبين بيته
الطاهر، الآن يرى الظرف مهيباً - لتحقيق رغبته،
وذلك بأن يوجيها لقطع أسبابها يزوجه رويداً رويداً
متحلاً ما يعن له من أضرار حقيقة بلوغ الخلاف دون
مسلس بكرامتها، هذه المرأة التي باتت أقرب ما تكون
إلى فؤاده وأبعد ما تكون عن احترامه في لحظة واحدة!
وكما انتهى الحمزاوي من إعداد حوائجها نهضت مائة
يدها إلى السيد فسلم بأساً وهو يقول بصوت خافت:

تذهبي... فلا يحق لي الآن أن أرم إلا نفسي!
- بعض هذا الغضب يا ستاً... إني أسألك
نفسى عما جنت؟!
فتساءلت بلهجة ذات معنى:
- ما عسى أن تصنع إذا حيّيت إنساناً بتحية فلم يرد
بمثلها ولا حتى بأسوا منها؟!
فأدرك من توه أنها تشير إلى ما بدا منها في الزيارة
القديمة من توكّد قابله بالصمت، ولكّنه تجاهل
الإشارة... وقال بجارة لأسلوبها الرمزي:
- لعلّها لم تبلغ سمعه لسبب أو لآخر.
- إنه قويّ السمع والحواس جميعاً.
فجرت على فمه ابتسامة عُجّب لم يتألفها، قال
بلهجة المذنب إذا أنشأ يعترف:
- لعله لم يردّها حياة أو تقوى.
فقال بصراحة أصعبته وهزّت فؤاده:
- أما الأحياء فلا حياة له، وأما سائر الأعداء فمن
أين للغلوب الصادقة أن تبالها؟
فندّت عنه ضحكة ما لبث أن اختزلها وهو يسترق
النظر إلى جميل الحمزاوي الذي بدا منهجماً في العمل
بين نفر من الزبائن، ثم قال:
- لا أحب أن أعود إلى الملاحظات التي قست عليّ
وقتك، على أنه لا يجوز لي أن أياس ما دام ثمة ندم
ونوبة وعفو!
فتساءلت في إنكار:
- من يدرينا بالندم؟
فقال بلهجة حازة برع في تجويدها عائناً بعد عام:
- تجرّعه طويلاً والله شهيداً!
- والتوبة؟
فقال وهو يتفكر بنظرة متوجّبة:
- أن تردّ التحية بعشر أمثالها؟!
فتساءلت في دلال:
- ومن أدراك بأنّ ثمة عفواً؟
فقال بلباقة:
- أليس العفو من شيم الكرام؟
ثم في نشوة مسكرة:

- إلى اللقاء.

فغمغمت وهي تهم بالانصراف:

- نحن في الانتظار.

غادرته أوفر معادة، نشوان بالطفر والمُحجب، ولكنها خلقت له أيضًا هماً لم يكن، هماً جديراً بأن يحتل مكاناً بارزاً من مشاغله اليومية، سوف يتسامل من الآن فصاعداً عن أمن السبل للانسحاب من بيت زبيدة بنفس الاهتمام الذي يتسامل به عمّا فعلت السلطة العسكرية وعمّا يبيت الإنجليز وعمّا ينوي سعد، أجل جدّ جديد من السعادة يجرّ وراءه - كالعادة - ذليلاً من الفكر. لولا حرصه الشديد على حبّ الناس له، ذلك الحبّ الذي يحظى منه بأسعد سعادته، لكان عليه هجر العائلة بعد أن بلى حبّه وذوت أزمهره وأغرقه الشيع في مستنقع آسن، ولكنه يشفق دائماً من أن يترك وراءه قلباً حائفاً أو نفساً حاقة، وكم يؤدّ كلما ضيق الملل أنفاسه لو يبداه الحبيب بالمجر من ناحيته فيكون مهجوراً بل أن يكون هاجراً، وكم يؤدّ أن تنتهي علاقته بزبيدة كما انتهت أخوات لها من قبل، بكدر صابر تفسله هدايا الدواع المنقاة، ثم يستحيل إلى صداقة وطيدة، فهل تتقبل زبيدة - التي يظنّ أنّها ليست دونه شيئاً - اعتذاره بقبول حسن؟ وهل يطمع في أن تغفر له هداياه ما اعتزم من هجر؟... هل تثبت أنّها امرأة كبيرة القلب سخية النفس كزميلتها جليلة مثلاً؟ هذا ما ينبغي أن يفكر فيه طويلاً وإن يسيّر له أنجع الذرائع. وتنبّه تنبّه طويلاً كأنها يشكو ما جعل الحبّ قائماً لا يدوم لكي يفي القلب متاعب الأهواء ثم شرد به الخيال طاولاً النهار فترامى له وهو يدبّ في الظلمة متلمساً سبيله إلى البيت الموعود، والمرأة تنتظر بيدها سراج.

٥٢

وأعلنت إنجلترا حايثتها من تلقاء نفسها دون أن تطلبها أو تقبلها الأمة المصرية، فهي حامية باطلة لا وجود لها قانوناً بل هي ضرورة من ضرورات الحرب تنتهي بنهايتها. . . .

كان فهمي على الكليات، كلمة كلمة، في أناة وبصوت واضح الثبات والآن ياسين وزينب يتابعون باهتمام درس الإملاء الجديد الذي انكبّ كمال على كتابته، مركزاً وعيه في الفاظه من دون أن يفقه معنى كلمة ممّا كتب صواباً أو خطأ. لم يكن غريباً أن يلقي فهمي على شقيقه الصغير درساً في الإملاء أو غيرها في جلسة القهوة، ولكن موضوع الإملاء بدا جديداً حتّى للآم وزينب، أمّا ياسين فنظر إلى أخيه مبتسماً:

- أرى هذه المعالي قد ملكت عليك نفسك. . . فلم يفتح الله عليك بإملاء هذا الغلام المسكين إلا خطبة سياسية وطنية يفتح لها المغلق من أبواب السجون.

فبادر فهمي إلى تصحيح رأي أخيه قائلاً:

- هي من خطبة سعد أمام سلاطين الاحتلال في جمعية الاقتصاد والشرع.

فتسامل ياسين باهتمام ودهشة:

- وكيف كان رقمه عليه؟

فقال فهمي بانفعال:

- لم يحجّ ردهم بعد، والكلّ يتسامل عنه في حيرة وقلق، إنّها غضبة مزججة في وجه اسد لم يؤثّر عنه الحلم أو العدل.

ثمّ وهو يتنبّه مغيظاً محققاً:

- كان لا بدّ من غضبة بعد أن مُنح الوفد من السفر، ويعد أن استقال رشدي باشا من الوزارة فحسب السلطان المأمول بقبول استقالته.

ثمّ مضى إلى حجرته مسرعاً، وعاد وهو يمسح ورقة مطوية وقمّتها إلى أخيه وهو يقول:

- ليست الخطبة كلّ ما عتدي، اقرأ هذا المنشور الذي يورّع سرّاً متضمناً رسالة الوفد إلى السلطان. . . فتناول ياسين المنشور وراح يقرأ:

- يا صاحب العظمة. . .

يتشرّف الموقّعون على هذا أعضاء الوفد المصريّ أن يرفعوا إلى مقام عظمتكم بالنيابة عن الأمة ما يلي:

لنا اتّفق المحاربون على أن يجعلوا مبادئ الحرّيّة والعدل أساساً للصالح وأعلنوا أنّ الشعوب التي غيّرت

العمل لاستقلال بلادكم، غير أنَّ حلَّ المسألة بقبول استقالة الوزيرين اللذين أظهرنا احترامهما لإرادة الأمة لا يمكن أن يتحقق مع ما جُلِّتم عليه من حبِّ الخير لبلادكم، والاعتداد بمشيشة شعبكم، لذلك عجب الناس من مستشاريكم كيف اتَّهم لم يلتفتوا إلى الأمة في هذا الظرف العصيب وهي إنما تطلب منكم - يا أرشد أبناء عزمها الكبير محمد علي - أن تكونوا لها العون الأوَّل على نيل استقلالها، مهما كلفكم ذلك، فإنَّ همتكم أرفع من أن تتحدَّها الظروف. كيف فات مستشاريكم أنَّ عبارة استقالة رشدي باشا لا تسمح لرجل مصري ذي كرامة وطنية أن يتخلَّسه في مركزه؟... كيف فاتهم أنَّ وزارة تؤلَّف على برنامج مضادٍّ لمشيشة الشعب مقضيٌّ عليها بالفشل؟!

عفوًا مولانا قد تكون مداخلتنا في هذا الأمر وفي غير هذا الظرف غير لائقة... ولكنَّ الأمر قد جُلَّ الآن عن أن يُراعى فيه أيُّ اعتبار غير منفعة الوطن الذي أنت خادمه الأمين. إنَّ لمولانا أكبر مقام في البلاد فعليه أكبر مسئولية عنها، وفي أكبر رجاها لها، وإنَّا لا نكذِّبه النصيحة إذا تضرَّعنا إليه أن يتعرَّف رأي أُمَّته قبل أن يتخلَّ قرارًا نهائيًّا في أمر الأزمة الحالية، فإنَّا نؤكِّد لسدَّته العلية أنَّه لم يبقَ أحد في رعاياه من أقصى البلاد إلى أقصاها إلَّا وهو يطلب الاستقلال، فالخيلولة بين الأمة وبين طلبتها مسئولية لم يتحرَّ مستشارو مولانا أمرها بالدقَّة الواجبة، لذلك دفعنا واجب خدمة بلادنا وإخلاصنا لمولانا أن نرفع لسدَّته شعور أُمَّته التي هي الآن أشدُّ ما تكون رجاها في استقلالها وأشدُّ ما تكون من أن تلعب به أيدي حزب الاستعمار، والتي تطلب إليه بحقِّها عليه أن يقضب لغضبها ويقف في صفِّها فتتال بذلك غرضها... وإنَّه على ذلك قدير...»

رفع ياسين رأسه عن للتنشور وفي عينيه دموع وفي قلبه نبض جديد من التأثير، يبدُّ أنه هزَّ رأسه قائلاً:
- يا له من خطاب... لا أحسبني أستطيع أن أوجِّه مثله إلى ناظر مدرستي دون أن ينالني العقاب الرابع...!

فرغ فهمي منكبيه استهانة وقال:

الحرب مركزها يؤخذ رأياً في حكم نفسها، أخذنا على عاتقنا السعي في استقلال بلادنا والدفاع عن قضيتنا أمام مؤتمر السلام ما دام أنَّ الحقَّ للأقوى قد زال من ميدان السياسة، وما دامت بلادنا قد أصبحت بزوال السيادة التركية حرَّة من كلِّ حقٍّ عليها لأنَّ الحماية التي أعلنها الإنجليز بلا اتفاق بينهم وبين الأمة المصرية باطلة، ولم تكن في الواقع إلَّا ضرورة حربية تزول بزوال الحرب، اعتمادًا على هذه الظروف وعلى أنَّ مصر غرمت كلَّ ما قدرت عليه من المغارم في صفِّ الفائلين بحقِّ حرَّة الأمم الصغرى، لا يكون لدى مؤتمر السلام ما يمنع من الاعتراف بحريتنا السياسية جرياً على المبادئ التي أسس عليها.

عرضنا رغبتنا في السفر على رئيس وزرائكم صاحب الدولة حسين رشدي باشا، فوعد بمساعدتنا على السفر وثوقاً منه بأنَّنا إنما نعبِّر عن رأي الأمة كافة... فلما لم يُسمع لنا بالسفر وحسبنا داخل حدود بلادنا بقوة الاستبداد لا بقوة القانون، وحيل بيننا وبين الدفاع عن قضية هذه الأمة الأسفة، ولما لم يستطع دولته أن يتحمل مسئولية البقاء في منصبه في حين أنَّ الشعب يصادر في مشيخته، استقال هو وزميله صاحب المعالي عدلي يكن باشا استقالة نهائية قوبلت من الشعب بتكريم شخصيهما والاعتراف بصدق وطنيتهما. ولقد كان الناس يظنون أنه كان لها في وقفنها الشريفة دفاعاً عن الحرِّيَّة عضد قويٍّ من نفحات عظمتكم، لذلك لم يكن ليتوقَّع أحد في مصر أن يكون آخر حلٍّ لمسألة سفر الوفد قبول استقالة الوزيرين، لأنَّ في ذلك متابعة للطامعين في إذلالنا وتكثيف للعقبة التي ألقيت في سبيل الإدلاء بحجة الأمة إلى المؤتمر، وإبداناً بالرضى بحكم الأجنيب علينا إلى الأبد.

قد نعلم أنَّ عظمتكم ربَّما كنتم مفسطرين لاعتبارات عائلية أن تقبلوا عرش أبيكم العظيم الذي خلا بانتقال أميكم المغفور له السلطان حسين، ولكنَّ الأمة من جهة أخرى كانت تعتقد أنَّ قبولكم لهذا العرش في زمن الحماية الوقتية الباطلة رعاية لتلك الظروف العائلية ليس من شأنه أن يصرفكم عن

يائسًا: «لو كان سيّدنا عمّد حيًّا ما رضي أن يحكمه الإنجليز» فقالت بلهجة الحكيم: «هذا حقّ، ولكن أين نحن من الرسول عليه الصلاة والسلام...؟ كان الله يعينه بملأته...» فهتف بها حانقًا: «سيمحل سعد زغلول ما كانت الملائكة تعلمه ولكنها هتفت وهي ترفع ذراعيها كأنها تدفع بلاء لا دافع له: ولا تقل هذا يا بنيّ، استغفر ربّك، اللهم رحمتك وغفرانك!...» هذه هي، فكيف يبيها الآن وقد استشعرت في توزيع المنشور خطرًا يتهدّد؟... لم يسعه إلّا أن يمرّكن إلى الكلب فقال متصنّعًا الاستهانة:

- ما أردت إلّا المزاح فلا تنزعجي للآشيء...

فعاذت المرأة تقول بنبرات تنمّ عن ضراعة:

- هذا ما أومن به يا بنيّ، ميهات أن يجيب ظنيّ في أرشد الراشدين، ما لنا نحن وهذه الأمور إذا رأى باشواتنا أن يخرج الإنجليز من مصر فليخرجوهم بأنفسهم.

بدا كمال طوال الحديث وكأنه يحاول أن يتذكر أمرًا ذا بال، فما بلغ الحديث تلك النقطة حقّ صاح:

- مدرّس العربي قال لنا بالأمس إنّ الأمم تستقلّ بمزالم أبنائها!...

فهتفت الأم سائطة:

- لعلّه قصد بخطابه كبار التلاميذ، ألم تحذّثي يومًا بأنّ عندكم تلاميذ قد ظهرت شواربهم؟ فتساءل كمال بسداجة:

- وأخي فهمي اليس تلميذًا كبيرًا؟

فقالت الأم بحذّة على غير ما لوفها:

- كلًّا ليس أخوك كبيرًا، إلّا أعجب لذلك المدرّس كيف سوّلت له نفسه أن يتحدّث إليكم في غير الدرس!... إذا شاء أن يكون وطنيًّا فليؤجّه هذا الكلام إلى أبنائه في البيت لا إلى أبناء الناس!...

كاد الحديث يحسّ ويستمرّ لولا أن سحنت كلمة عابرة فغيّرت مجراها، أرادت زينب أن تتورّد إلى الأم بتأييدها في دفاعها فحملت على مدرّس العربي ونمته بأنّه «مجاور حقير عملت الحكومة منه رجلًا ذا شأن في

- الأمر قد جلّ الآن عن أن يراعى فيه أيّ اعتبار غير منفعة الوطن!...

رؤد المباراة عن ظهر قلب كما وردت في المنشور، فلم يتألك ياسين أن يقول ضاحكًا:

- أحفظت المنشور!... ولكنّي لا أعجب لهذا، كأنّك كنت ترصد طول حياتك لثل هذه الحركة كي تلقى إليها بكلّ قلبك، ولعلّي لا أدخل من مثل شعورك وآمالك، ولكنّي لا أقصرك على الاحتفاظ بهذا المنشور... خصوصًا بعد استقالة الوزارة ومحزّش الأحكام العرفيّة!...

فقال فهمي في فخار:

- إلّا لا أحفظ بها فحسب، ولكنّي أقوم بتوزيعها ما سمع الجهد!...

فأصحت عينا ياسين في قلق وهمّ بالكلام... ولكنّ الأم كانت أسبق إليه منه فقالت بانزعاج:

- لا أكاد أصدّق أذنيّ، كيف تعرّض نفسك للشّر وأنت سيّد العقلاء؟!

لم يلبّ فهمي كيف يبيها، ولكنّه شعر بما جرّه عليه تهوره من حرج، لم يكن أشفق عليه من عاداتها في هذا الأمر، كانت الساء أقرب إليه من إقناعها بأنّ تعريض نفسه للخطر في سبيل الوطن واجب ما دام الوطن كلّه لا يساوي في نظرها قلّامة ظفر، بل قد بدا له أنّ إخراج الإنجليز من مصر أيسر من حملها على الاقتناع بوجوب إخراجهم أو إغرائها ببغضهم، فما إن يدور الحديث حول ذلك حقّ تقول ببساطة ولذا تكرههم يا بنيّ!... اليسوا أناسًا مثلنا لهم أبناء وأمهات؟! فيقول لها بحذّة: «ولكنّهم يحتلون بلادنا!...» وتحمّس بحذّة الغضب في نبراته فتلوذ بالصمت وهي تداري نظرة إشفاق لو نظعت لقال له ولا عليك من هذا... ومرة قال لها وقد ضاق بمنطقها: «ولا حياة لقوم إذا حكمهم أجنيّة» فقالت له في استغراب: «ولكنّنا لا نزال أحياء رغم أنّهم يحكمونا من زمن بعيد، وقد أنجبناكم جميعًا في ظلّ حكمهم!...» إنهم يا بنيّ لا يقتلون ولا يتعرّضون للمساجد ولا نزال أمة عمّد بخيرا! فقال الشاب

- أما سمعتم ياخر الأنباء؟... مالطة!
وضرب يدا بيد وراح يقول:
- النفي إلى مالطة، لم يعد أحد منهم بيننا، نفوا
سعدًا وأصحابه إلى جزيرة مالطة...
وهفت الجميع في نفس واحد:
- نفوهم!...

أثار «النفي» في نفوسهم ما خامرهم منذ الصبا من
ذكريات قديمة أسيفة عن عرابي باشا ونهايته، فتناءلوا
وهم لا يملكون قلوبهم من الجزع: «يجري نفس المصير
على سعد زغلول وصحبه؟... أينقطع حقًا ما بينهم
وبين الوطن إلى الأبد؟... أموت هذه الآمال الكبار
وهي لا تزال في مهد الإزهار؟... وشعر السيد بحزن
لم يشعر بمثله من قبل، حزن ثقيل غليظ شاع في
صدره كما يشع الغنيان، عانى تحت وطائه مخودًا
وهودًا واختناقًا وجعلوا يتبادلون نظرات ساهمة واجبة،
ناطقة بغير لسان، صارخة بلا صوت، شائرة بلا
صخب، وفي الرق مرارة واحدة، ثم جاء في أثر الغار
صاحب وثانٍ وثالث مرعدين نفس النبا، أمالين في أن
يجلوا عند الآخرين مسكنًا لما يستمر في نفوسهم، فلا
يظفرون إلا بالحنن الصامت والوجع الكثيب والثوران
الكظيم.

- هل تضعي الآمال اليوم كما ضاعت بالأمس؟
فلم يجز أحد جوابًا، وليت التسائل يقلب حيينه في
الوجوه دون جدوى، لا جواب تأوي إليه النفس من
مضطربها وإن أبت أن تسلم جهازًا بما يجيئها خوفًا،
نفي سعد... هذا حق، ولكن هل يعود سعد ولو
بعد حين؟... وكيف يعود سعد؟... آية قوة تعيده؟
لن يعود سعد، فإين تذهب هذه الآمال العراض؟...
لقد انبثقت من الأمل الجديد حياة حارة عميقة بأى
استحواؤها عليهم أن يسلمهم للباس ولكتهم لا
يدرون كيف يعملون النفس ببحثها من جديد.
- ولكن أليس ثمة أمل في أن يكون الخبر شائمة
كاذبة؟

لم يُبر أحد القائل التفتًا في حين لم يحفل هو بهذا
التجاهل لأنه لم يقصد بقوله في الحق إلا تلمس

غفلة من الزمان... ولكن ما إن سمعت الأم هذه
الإهانة توجه إلى «المجاورة» حتى أفادت من انفعالها
وأبت أن تسكت عنها رغم أنها قبلت تأييدًا لها،
مدنوعة بكل ما تنطوي عليه نفسها من إجلال للذكرى
أبيها فتحوّلت إلى زنب وقالت يهدو:

- أنت يا ابنتي تحقرين أشرف ما فيه، الشيوخ
خلفاء الرسل، إنما يلام الرجل على خروجه عن حدود
وظيفته الشريفة، ألا ليته قنع بأن يكون مجاورًا
وشيعًا!...

ولم يفت ياسين سرّ تحوّل الأم المفاجئ، فبادر
بالتدخل لمحو الأثر الذي تركه دفاع زوجته
البريء...

٥٣

- انظر إلى الطريق، انظر إلى الناس، من يقول بعد
هذا إن الكارثة لم تقع؟!
ولكن السيد أحمد لم يكن في حاجة إلى مزيد من
النظر، الناس يتساءلون، ويرجعون، وأصحابه
يخوضون في الحديث خصوصًا حائرًا تجاوبت فيه الحسرة
مع الحزن مع الغضب، إلى أن أخبر قد تركد على
السنة كافة من مر به من الأصدقاء والزيائن، أجمع
الكل على أن سعد زغلول وصفوة أصحابه قد اعتقلوا
وسبقوا إلى مكان مجهول في القاهرة أو خارجها، قال
السيد غفّت وهو يحقن الوجه بدم الحنق:

- لا تشكوا في صحة الخبر فإن لأخبار السوء رائحة
تزكم الأنوف... ألم يكن هذا متوقعًا بعد خطابات
الوفد للسلطان؟... أو بعد رده على الإنذار البريطاني
بذلك الخطاب الجبار إلى الوزارة الإنجليزية؟...

فقال السيد بوجوم شديد:

- يتقنون الباشاوات الكبار... يا له من حدث
خفيف، ترى ما عسى أن يصنعوا بهم؟
- الله وحده يعلم، البلد يمتحن في ظل الحكم
العربي!...

ودخل عليهم السيد إبراهيم الفار تاجر النحاس
مهرولاً وهو يتف لاهاً:

مهرب - ولو وهمي - من اليأس الحائق .

- أسره الإنجليز . . . ومن ذا يغالب الإنجليز !

- رجل ولا كل الرجال، بحث لحظة من الحياة باهرة، ومضى .

- كالحلم . . . وسوف ينسى فلا يبقى منه إلا ما يبقى من حلم عند الضحى . . .

وهتف هاتف بصوت أبخه الألم :

- الله موجود . . .

فهتفوا بصوت واحد :

- نعم . . . وهو أرحم الراحمين . . .

ذكر اسم الله فكان كالقطب المنقط، جذب إليه شواردهم وجمع أفكارهم التي شتتها اليأس . وفي مساء ذلك اليوم - ولأول مرة منذ ربع قرن أو يزيد - بدا مجلس الإخوان مجامعاً للهو والطرب ينشاه الوجوم، وتجه أحاديثه جيمشاً إلى الزعيم المنفي . قهرهم الحزن، وإن يكن رُجد بينهم من تنازعه الحزن والرغبة في الشراب مثلاً، فقد غلب الأولى على الثانية استرماً للشعور العام وإجماعاً للموقف، بيد أنه لساً طال بهم مطال الحديث حتى استنفدوا أغراضه لاذوا بما يشبه الصمت، وما لبث أن ركبهم قلق خفي وشى بحكة الإدمان التي تننّ في أعماقهم فبدوا وكأنهم ينتظرون إشارة الجسور الذي يتقدم الصفوف، ولكن السيد محمد عنت قال فجأة :

- آ ن لنا أن نعود إلى بيوتنا . . .

لم يكن يعني ما يقول، ولكن كأنما أراد أن ينذرهم بأنهم إذا تركوا الوقت يمضي كما مضى فلن يبقى أمامهم إلا أن يعودوا إلى بيوتهم، وكانت المعاشرة الطويلة لفقتهم دقيق التفاهم بالإشارة فتشجع عليّ عبد الرحيم بائع الدقيق بهذا الإنذار الخفي وقال :

- أ نعود إلى البيت دون كاس تخفف من بلوى هذا اليوم !

فأحدث قوله في النفوس ما يحده الجراح في أهل المريض إذا خرج عليهم من حجرة الجراحة وهو يقول والحمد لله . . . نجحت العملية، إلا أن الذي تنازعه الحزن والرغبة في الشراب قال فيها يشبه الاحتجاج

متسرعاً على ما أطلع صدره من ارتياح :

- نشرب في مثل هذا اليوم !

فحدجه السيد أحمد بنظرة ذات معنى، ثم قال متهكناً :

- دعهم يشربوا وحدهم وهلم بنا إلى الخارج يا بن . . . الكلب .

نذت عنهم ضحكات لأول مرة ثم جاءوا بالقوارير وكأنما أراد السيد أن يعتز عن السلوك فقال :

- إن الله لا يغير ما بقلوب الرجال !

فأمثروا على قوله، كانت أول ليلة يتركدون طويلاً قبل الاستجابة إلى نداء الصبوات، وما لبث السيد أن قال متأثراً بمنظر القوارير :

- إنما ثار سعد لإسعاد المصيرين لا لتعذيبهم فلا تحجلوا عند الحزن عليه من معاقرة الشراب .
لم يكن الحزن يمنعه من المزاح، بيد أن الليلة لم تنأ بصفاء خال من الكدر، حتى وصفها السيد فيها بعد بأنها وليلة مريضة تداولوا فيها بجرعات من الحمراء

استقبلت الأسرة مجلسها التقليدي في جو من الوجوم لم تمده من قبل، انطلق فهمي في حديث ثوري والدموع في عينيه، واستمع ياسين أسفاً حزناً، وودت الأم أن تبتد الكتابة أو تخفف البلوى ولكنها أشفقت من انقلاب غرضها عليها، ثم ما لبث عدوى الحزن أن انتقلت إليها فرق قلبها للشيخ المعجوز الذي انتزعوه من بيته وزوجته إلى منفى بعيد، قال ياسين :

- أمر عزن، رجالنا جميعاً، عباساً ومحمد فريد وسعد زغلول . . . مشردون بعيداً عن الوطن . . .

فقال فهمي بانفعال شديد :

- يا لهم من أوغاد هؤلاء الإنجليز ! . . . نخطبهم باللغة التي كانوا يستمعون بها الناس في محنتهم فيجيئون بالإنذارات العسكرية والنفي والتشريد . . .

لم تُلقِ الأم أن ترى ابنها متفعلاً على تلك الحال فنسيت مأساة الزعيم وقالت برقة واستعطاف :

- أرحم نفسك يا بني، ربنا يلطف بنا . . . !

ولكن هذه اللهجة الرقيقة زادته هياجاً فصاح دون

أن يلتفت إليها:

.. إذا لم تقابل الإرهاب بالغضب الذي يستحقه فلا عاش الوطن بعد اليوم، لا يجوز أن نتمتع البلاد بالسلام وزعيمها الذي قدم نفسه فدية لما يماي عذاب الأسر...!

فقال ياسين متفكرًا:

.. من حسن الحظ أن الباسل باشا بين المتفنين، إنه شيخ قبيلة مرهوبة الجانب ولا أظن رجاله يستكون على نفيه...!

فقال فهمي بحلّة:

.. والأخرون؟ اليس وراهم رجال أيضًا؟... إنها ليست قضية قبيلة ولكنها قضية الأمة كلها...!

جری الحديث بلا توقّف وما يزداد إلّا حدةً وعنفًا ولكنّ المراتين لاذنا بالصمت إشفاقًا ووعيًا، لم تستطع زينب أن تدرك بواحث هذه الثورة العاطفيّة فلم تفهم لها معنىً، نفي سعد ورجاله معه، ومن المؤكّد أنّهم لو عاشوا كما يعيش «عبد الله» ما فكر أحد في نفهم، ولكنهم لم يريدوا ذلك، أرادوا أمورًا خطيرة مرادها وخيم العواقب دون ثمة ضرورة تدعو إليها، ومهما يكن من أمرهم فإذا بيعت فهمي على هذا الغضب الجنونيّ كأنّ سعدًا أبوه أو أخوه؟ بل ماذا بيعت ياسين - وهو الرجل الذي لا يأوي إلى فراشه إلّا مترنحًا من السكر - على هذا الأسف؟ أمّيزن حقًا من كان مثله على نفي سعد أو غيره من الناس؟ كأنّ حياتها في حاجة إلى مزيد من التفتيش حتّى يمسك فهمي عليها صفو الجلسة القصيرة بهذه الثورة التي لا معنى لها. جعلت تفكر في هذا كلّ شيء تلحظ زوجها من أبٍ لآخر متعجّبة ساخطة ولسان حالها يقول له: وإن كنت صادقًا حقًا في حزنك فلا تذهب هذا المساء - هذا المساء فقط إلى الحانة؟ ولكنّها لم تنس بكلمة، كانت أحكم من أن تلقي بأفكارها الباردة في هذا التيار الناريّ، في هذه الناحية الأخيرة شاجتها الأمّ التي سريعًا ما تفقد شجاعتها حيال الغضب وإن هان، لذلك لاذت بالصمت وانطوت على ضيق شديد وهي تتابع مشقة الحديث الثائر الهائج، ولكنّها كانت أعظم

من زوج ياسين إدراكًا لبواحت هذه العواصف فإنّ رأسها لم يتخلّ من ذكرى عراي كما أنّ قلبها لم يتخلّ من أسف على أفندينا، أجل لم تكن كلمة «النفي» عاطلة من المعاني في نفسها، بل لعلّها خلّت من الأمل الجدير بأن يداعب شخصًا كفهمي فقد اقترنت في ذهنها - كما اقترنت في ذهن زوجها وأصحابه - باليأس من العودة، وإلّا فإين أفندينا؟... ومن أجدر منه بالعودة إلى وطنه؟... ولكن أياظ فهمي على حزنه ما امتدّ النفي بسعد. تُرى أيّ تحس في هذه الأيّام يماي إلّا أن يبتهم نبأً ويصحبهم نبأً حتّى زلزل أمتهم وكثر صفوهم؟! كم تتمنّى أن يعود السلام إلى ربوعه، وأن تطيب هذه الجلسة كما طابت العمر كلّ، وأن تنبسط أسارير فهمي ويلدّ الحديث، كم تتمنّى...!

.. مألطة...! هذه هي مألطة!

هكذا صاح كيال فجأة وهو يرفع رأسه عن خريطة البحر الأبيض وقد ثبتّ أصبعه على رسم الجزيرة ونظر إلى أخيه بظفر وسرور كأنما عثر على سعد زغلول نفسه، ولكنّه وجد منه وجهًا متجهمًا كاشًا، لا استجاب إلى ندائه ولا أعاره أدنى اهتمام بباغ الغلام وأعاد بصره إلى رسم الجزيرة في ارتباك وحياء ومضى يشامله طويلًا وهو يقبس بصره للمسافة بينه وبين الإسكندرية وبينه وبين القاهرة ويتخيّل صورة مألطة الحقيقية ما شاء له الخيال، ومنظر أولئك الرجال الذين يتحدّثون عنهم وهم مسوقون إليها. ولسّا كان قد سمع فهمي وهو يقول عن سعد إنّ الإنجليزي قد انتزعه على أسنّة الرماح فإنّه لم يسعه أن يتصوّرهُ إلّا محمولًا على أسنّة الرماح، لا متألّجًا أو صارخًا كما يتوقّع في مثل تلك الحال ولكن «نابًا كالطود» كما وصفه أخوه أيضًا في مرحلة أخرى من الحديث، وكم وّد لو يستطيع أن يسأل أخاه عن كُنّه ذلك الرجل الساحر المحيّب الذي يثبت على أسنّة الرماح كالطود، ولكنّه حيال ثورة الغضب التي التهمت سلام المجلس كلّ أجل تحقيق رغبته إلى فرصة أنسب، وأخيرًا ضاق فهمي بمجلسه بعد أن أيقن أنّ ما بصدره من عاطفة أكبر من أن تروّج عنها محادثة أخيه في هذا المكان الذي يقف من

أنه انتزع نفسه من الفراش، أما أبوه فلعله الآن متصبب القامة تحت ماء الدش البارد، وها هو نور الصباح ذو البهاء والحياة تستأذن ملائحته في رقة بالغة، كل شيء يواصل حياته المعهودة كأن شيئاً لم يحدث، كأن مصر لم تنقلب رأساً على عقب، كأن الرصاص لا يعزف باحساً عن الصدور والرموس... كأن الدم الزكي لا ينجس الأرض والجدران. وأغمض الشاب عينيه وهو يتنهد مبتسماً إلى تيار مشاعره الزاخر بما يعمل في موجاته المتلاحقة من حماس وأمل وحزن وإيمان.

حقاً لقد حيي في الأيام الأربعة المتطوعة حياة عريضة لم يكن له بها عهد من قبل، أو أنه لم يعرفها إلا أطيافاً في أحلام اليقظة، حياة طاهرة رفيعة، حياة تجود بنفسها عن طيب خاطر في سبيل شيء باهر أضمن منها وأجل، تتمرّض للموت بلا مبالاة، وتستقبله بعناد، وبمجم عليه باستهانة، وإذا أفلتت خالبة مرة عادت إليه كزة أخرى منتجة عن ذكر العواقب جانباً، شائعة طوال الوقت إلى نور رائع عنه لا تحيد، مدفوعة بقوة لا يقبل لها بها، مسلمة مصبرها لله وهي تشعر بعينها بها كالهواء يغمرها من كل جانب. هانت الحياة كوسيلة حتى لم تعد تزن ذرة، وجلت كضاية حتى وسعت السهوات والأرض، تأخى الموت والحياة فكنا بدأ واحدة في خدمة أمل واحد، هذه تؤيده بالجهد وذاك

يؤيده بالفداء، لو أن الانفجار الرهيب لم يقع لمت غماً وكمداً، فما كان يحتمل أن تواصل الحياة سيرها الهادئ الوئيد على أطلال الرجال والأمال، كان لا بد من انفجار ينس عن صدر الوطن وصدوره كالتزلزال الذي ينس عن أبخرة باطن الأرض المتجمعة، فلما وقعت الواقعة وجدته على ميعاد فلقى بنفسه في بضيئها... متى حدث هذا؟ وكيف حدث؟... كان راكباً ترام الحيزة في طريقه إلى مدرسة الحقوق فوجد نفسه بين شرذمة من الطلاب يتناقشون ملوحيين بقضائهم: نفي سعد وهو يعبر عن قلوبنا فليماً أن يعود سعد ليواصل جهاده وإنا أن نفى معه، وانضم الركابون من الأهالي إليهم في الحديث والوعيد حتى الكمساري أحمل عمله ووقف ينصت ويتكلم، يا لها من

شعوره موقف المضرّج إن لم يكن موقف الإنكار، نازعته نفسه إلى الاجتماع بإخوانه في قهوة أحد عبده حيث يظهر بقلوب تستجيب لقلبه ونفوس تسابقه إلى الإعراب عينا يضطرم في قرارها من الإحساس والرأي، هناك يسمع أصداه الغضب المتقد في قلبه ويستأنس بإيماءاته الجسورة المنتهية في جو باهر من التعطش إلى الحرية الكاملة، مال إلى أذن ياسين وهمس:

— إلى قهوة أحد عبده...

فتنفس ياسين من الأعياق لأنه كان بدأ يشاهد وهو من المخرّج في غايته - عن وسيلة ليقة ينسحب بها من المجلس، ليمضي إلى سهرته، دون أن يزيد من غضب فهمي اشتعلاً، لم يكن ما به من أسف تصنعاً، أو لم يكن تصنعاً كله، هزّ النبا الخطير قلبه، ولكنه لو ترك إلى نفسه لتناساه بغير جهد كبير، ولما فرض على أصحابه ما فرض من تكلف مجاورة فهمي وبجملته له واحتراماً لغضبه الذي لم يسبق له أن رآه على مثله من ثقل، غادر الحجر وهو يقول لنفسه: «حسبي اليوم ما بذلت من جهد في سبيل الحركة الوطنية فإنّ لبدي عليّ حقاً».

٥٤

على ضربات العجن المتصاعدة من حجرة الفرن فتح فهمي عينيه، كانت الحجره مغلقة النوافذ، في شبه ظلام إلا ما لاح من نور يامت وراء خصاص النوافذ، ترامي إلى أذنيه همس أنفاس كمال المترددة فغطف رأسه إلى فراشه القريب، ثم انثالت عليه ذكريات الحياة، لهذا صباح جلديد، إنه يستيقظ من نوم عميق سلمه إلى تعب شمل النفس والجسم، وإنه لا يدري إن كان يستيقظ صباح الفد بهذا الفراش أم لا يستيقظ أبداً، لا يدري ولا أحد يدري، فالنوم يحسب شوارع القاهرة طويلاً وعرضاً ويرقص في أركانها، يا للعبج، ها هي آتة تمجن كمهددا منذ قدّم، وما هو كمال يظن في نومه ويتقلب في أحلامه، وذاك ياسين يذلّ وقع قدميه فوق سقف الحجره على

الحقانيّة يشقّ طريقه بين جموعهم فقابلوه بهتاف واحد ولتسقط الحماة... لتسقط الحماة» فلتلقاهم الرجل بمرود لم يفرق به حدّ اللطف ونصحهم بالعودة إلى دروسهم داعيًا إيّاهم إلى ترك السياسة إلى آباءهم، هناك تصدّى له أحدهم قائلاً:

- إنّ آباءنا قد سجنوا، ولن ندرس القانون في بلد يداس فيه القانون.

وتعالى الهتاف من أعياق القلوب كهزم الرعد فانسحب الرجل. ودّ الشاب مرّة ثانية لو كان هو القتال، لشدّ ما تنثال المعاني على روحه ولكن يسبقه السابقون إلى إعلانها فيشدّ حساسة ويتعزّى بأنّ فيها ينتظره عوضاً عمّا يفوته، وجرت الأمور سراعاً، دعا الداعي إلى الخروج فخرجوا متظاهرين وتوجهوا إلى مدرسة الهندسخانة فصرخا ما انضمت إليهم ثمّ إلى الزراعة فخرج طليعتها إليهم هاتين كاتهم على ميعاد، ثمّ إلى الطبّ فالتجارة وما بلغوا ميدان السيّدة زينب حتّى انتظمتهم مظاهرة كبيرة انضمت إليها جموع الأهالي وتعالى الهتاف لصر والاستقلال وسعد، وكلّما تقدّموا خطوة ازدادوا حساسة وثقة وإيماناً بما يلقون في كلّ مكان من مشاركة تلقائيّة واستجابة بدييّة، وما يصادفون من نفوس متحفزة تصدّت بالغضب حتّى وجدت في مظاهرتهم للتفكّس. تساءل - ودهشته لحدوث المظاهرة تكاد تغلب انفعاله بالتظاهر نفسه - وكيف حدث هذا كلّها؟! لم تكن مضت إلّا بضعة ساعات على الصباح الذي شهد قنوطه وإنهزامه، ها هو الآن، قبيل الظهر، يشترك في مظاهرة ثائرة يكشفه فيها كلّ قلب بأنّه صدّى لقلبه، ويردّد هتافه، ويناشده بإيمان لا يتزعزع أن يسير إلى النهاية، فأيّ سرور سروره، وأيّ حماس حماسه... لقد انطلقت روحه في سبّاه من الأمل لا تحمّاه الأساق، نادمة على ما اعتروها من قنوط، خجلة بما رمت به الأبرياء من ظنون، وفي ميدان السيّدة زينب بدا له منظر جديد من مناظر ذاك اليوم العجيب. رأى مع الرائيين جماعات من فرسان البوليس وعلى رأسها مفتش إنجليزيّ تتقدّم ساحة ورأها ذيولاً من الغبار، والأرض تضطرب

ساعة!... فيها أشرق بنفسه الأمل من جديد بعد ليلة من الحزن والياس قاتمة، فأيّظن أنّ هذه النار المقدّسة لن تبرد، ولما أقبلوا على فناء المدرسة وجدوه مكتظّاً صاخباً مرعداً فسيبتهم قلوبهم إليه، تمّ هرعوا إلى زملائهم تحذّثهم نفوسهم بحدث وشيك، وما لبث أن انبرى أحدهم نادياً بالإضراب!... شيء جديد لم يسمح من قبل، بيد أنّهم هتفوا بالإضراب وهم يتأبطون كتب القانون، وجاءهم ناظرهم المستر والتون في لطف غير معهود ونصحهم بالدخول إلى الفصول فكان الجواب أن صعد شابّ منهم إلى أعلى السلم المفضي إلى حجرة السكرتير وراح يحيط بحماسة فائقة فلم يسمع الناظر إلّا الانسحاب. وأنصت إلى الخطيب بجماع روحه وعينه شاختان إلى عينيه، وقلبه يتابع دقّاته في سرعة ونشاط، ثمّ ودّ لو يصعد إلى موقفه فيفيض من معين قلبه المستمر، ولكنّه لم يكن ذا استعداد قويّ للخطابة ففطن بأن يردّد غيره هواتف نفسه، وتابع الخطيب بانتباه حاسيّ حتّى وقف عند مقطع من خطابه فصاح مع زملائه جميعاً في نفس واحد «بمحا الاستقلال» ثمّ تابع الإنصات باهتمام بتّ الحشاف فيه حيويّة جديدة حتّى انتهى الخطيب إلى مقطع ثان هتفت مع الحاشدين «لتسقط الحماة» ووالى الإصغاء بجسم متصنّب من الانفعال وهو يعصّ على أسنانه ليحبس الدمع الذي زفره جيشان نفسه حتّى إذا بلغ الخطيب المقطع الثالث هتف مع الحاشدين «بمحا سعد»، هتاف جديد، وكلّ شيء جديداً بدا ذلك اليوم، بيّد أنّه هتاف مطرب رجّحه قلبه من الأعياق وظلّ يردّده مع دقّاته المتتابعة، كأنّه صدّى للسانه، بل هتاف لسانه كان صدّى لقلبه، فإنّه ليذكر كيف ردّد قلبه هذا الهتاف في صمت مكثوم طوال الليلة السابقة للانفجار التي بانها مغموماً محسوراً، كانت عواطفه المكبوتة، حبّه وحماسه وطموحه وتطلّعه إلى المثل الأعلى وأحلامه تأنّاه مبعثة حتّى انطلق صوت سعد ملوئاً فانبجست طائرة إليه كما ينبجلد الحما السابح في الفضاء إلى صغير صاحبه، ثمّ لا يدرّون إلّا والمستر إيموس نائب المستشار القضائيّ البريطانيّ لوزارة

متشابهات في أفراحها وأحزانها، مظاهرات فتيات فرصاص فضحايا، ألقى بنفسه في خضمها جميعاً بندفع بحماس، ويسمو إلى أفاق بعيدة من الإحساس النليل، ويضطرب بالحياة ويعشقه ندم على النجاة! ثم ضاعف من حماسه وأمله انتشار روح الغضب والثورة فيها لبث أن أضرب عمّال الترام وسائقو السيارات والكنايسون فبلدت العاصمة حزينة غاضبة موحشة. وتراحت الأخبار حاملة البشرى بقرب إضراب المحامين والموظفين. إن قلب البلاد يخفق حياً نائراً ولن تذهب الدماء هدراً ولن يُسقى المتفنيون في مفاهم، لقد زلزلت اليقظة الواعة أرض وادي النيل.

تقلّب الفتي في فراشه فاستردّ وعيه من لجة الذكريات وجعل يتابع دقائق العجن مرّة أخرى مقلّباً ناظره في أركان الحجرة التي أدخلت تسنين على النور المشرق رويداً وراء النوافذ المغلقة. أمّه تعجن! ولن تزال تعجن صباحاً بعد صباح، هيهات أن يشغلها حدث عن التفكير في إعداد الموائد وغسل الثياب وتنظيف الأثاث، إن كبار الحادثات لا يعطل صغار الأعمال، وسيتسع صدر المجتمع دائماً للجليل والثابه من الأمور فيرتبب بها جنباً إلى جنب، ولكن مهلاً، ليست الأم على هامش الحياة هي التي أنجبت والأبناء وقود الثورة، وهي التي تغذّي والغذاء وقود الأبناء، الحق أن ليس ثمة شيء تافه في الحياة... ولكن ألا يحییء يوم يبرز فيه الحادث الكبير المصريّ جميعاً فلا تنفرّق عنه القلوب كما تفرّق في مجلس القهوة منذ خمسة أيّام؟ ألا ما أبعد هذا اليوم! ثم جرت على شفّته ابتسامة إذ وثب إلى ذهنه هذا السؤال: «ما عسى أن يصنع والده إذا علم «بجهاده» المتواصل يوماً بعد يوم؟ ماذا يصنع أبوه الجبار المستبد وماذا تصنع أمّه الرقيقة الخنونة؟» ابتمس في حيرة وهو يعلم أن المتاعب التي قد تعترضه في تلك الحال ليست دون المتاعب التي قد تعترضه إذا غمى سرّه إلى السلطة العسكرية نفسها، ثم أزاح الغطاء عن صدره وجلس في الفراش وهو يغمغم: «سيّان أو أحياء أو أن أموت، الإيمان أقوى من الموت، والموت أشرف من الذلّ، فهنيئاً لنا الأمل

تحت وقع السنايك، إنّه ليذكر كيف مدّ بصره نحوهم في زهول من لم يسبق له أن وجد نفسه عرضة لمثل ذلك الخطر الداهم، وتلفت فيها حوله فرأى وجوهاً يلعب في محارها الحماس والغضب فتتبد في عصبية ولوح بيده هاتفاً، أحاط الفرسان مجموعهم ولم يعد يرى من الخضمّ الهائل الذي يضطرب فيه إلا رقعة محدودة يفرق في رموسها المشتّبة، ثم ترامي إليهم أن البوليس اعتقل طلاباً كثيرين عنّ تصلّوا لمخالفته أو كانوا على رأس المظاهرة فلمرّة الثالثة ذلك اليوم تمّ، وكان تمّيه أن يكون بين المعتقلين ولكن من دون أن يخرج من الدائرة التي يتحرّك فيها بجهد جهيد.

على أن ذلك اليوم كان يوم سلام بالقياس إلى اليوم الذي تلاه، بدا يوم الاثنين منذ مطلع الصباح يوم إضراب شامل اشتركت فيه جميع المدارس بأعلامها وحشود من الأهالي لا يحيط بها الحصر، بُعثت مصر بلداً جديداً يجرى إلى الاحتشاد في الميادين للحرب بغضب طال كتمان، وألقى هو بنفسه بين الجموع في نشوة فرح وحماس كأنه تائه ضالّ مثر على أهله بعد فراق طويل، وسارت المظاهرة مسيراً مشهوداً مازة بدور الممتنعين السياسيين معلنة احتجاجها بمختلف اللغات، حتّى بلغت شارع الدواوين وهناك سرت بين الجسموع موجة اضطراب عنيفة وصاح صائحهم: «الإنجليز! وما لبث أن فرّق الرصاص مغطّياً على أصوات الماتفين فسقط أوّل القتل، وواصل قوم تقدّمهم في حماس جنونيّ، وتسرّ آخرون، وتفرّق كثيرون يلؤذون بالبيوت والمقاهي، وكان هو ضمن الآخرين، اندس وراء باب وقلبه يبعث ضربات فزعة متناسياً كلّ شيء إلا حياته، ولبث على ذلك زمناً لا يدره حتّى شمل السكون الدنيا جميعها فمدّ رأسه، ثم قدّمه، ومضى إلى حال سبيله غير مصبّق بالنجاة وعاد إلى بيته فيها يشبه الذهول، وفي وحدته الحزينة تمّحى لو كان من الداهيين أو في الأقلّ من الثابتين، وفي وقته الحساب العسير وعد ضميره الفظ بالتكفير، ومن حسن الحظّ أن بدا ميدان التكفير مسّماً وقرياً.

وجاء الثلاثاء والأربعاء فكانا كالأحد والاثنين، أيّام

كلّما تدانست منه، وآله حُتْم عليها أن تتأخّر عنه مسيرة أمتار. عل تلك الحال فعنيا إلى مدرسة خليل أغا صبح الحميس وهو خامس أيام المظاهرات في القاهرة، ولسّا بلغا باب المدرسة اقتربت أم حنفي من البواب وسألته تنفيذاً للأمر اليوميّ الذي تلقّته في البيت:

- هل يوجد تلاميذ في المدرسة؟

فأجابها الرجل بغير اكتراث:

- منهم من يدخل، ومنهم من يذهب، والنّاظر لا يتعرّض لأحد!

كانت هذه الإجابة مفاجئة سيّئة لكيال، كان مهيباً النفس لسماح الإجابة التي باتت مألوفة منذ يوم الاثنين وهي «التلاميذ مضربون» فيعودان إلى البيت حيث يمضي سحابة النهار في حرّية حبّيت إلى قلبه الثورة من بعيد، وتازعته نفسه إلى الحرب تقادياً من عواقب الإجابة الجديدة فخطاب البواب قائلاً:

- أنا مَن يذهبون.

وابتعد عن المدرسة والمرأة في أثره، بيد أنّها سألته: لماذا لا يدخل مع الداخلين؟ فرجأها مرتدّداً لآول مرّة في حياته - أن تقول لأمّه أنّ التلاميذ مضربون، وزيادة في الرجاء والتوقّد دعاها - وهما بمزّان بجامع الحسين - بطول العمر والسعادة، إلّا أنّ أم حنفي لم تستطع إلّا أن تصارح الأمّ بالحقيقة كما سمعتها فأثّبت الأمّ على كسله وأمرت المرأة بأن تعود به إلى المدرسة فغادرا البيت وهو يسلفها بلسان حاد راميّاً لآئها بالخيانة والغدر، لم يجد في المدرسة إلّا إيداته. . . ذوي الأسنان الصغيرة، أمّا مَن عداهم، وهم الأغلبية الساحقة، فكانوا مضربين، وألّقى في فصله، الذي كان يتوافر له من صفار التلاميذ ما لم يتوافر لغيره من الفصول - نحواً من ثلث التلاميذ، بيد أنّ المدرّس أمرهم أن يراجعوا دروسهم السابقة وكتب هو على تصحيح بعض الكراسيات فتركهم في شبه إضراب في الواقع. فتح كيال كتاباً متظاهراً بالقراءة دون أن يعير أذن انتباه فقد ساهم البقاء في المدرسة بلا عمل فلا هو مع المضربين ولا هو في البيت يتمتّع بالفراغ الذي جادت

الذي هانت إلى جانب الحياة، أهلاً بصباح جديد من الحرية، وليقّض الله بما هو قاضٍ».

٥٥

لم يعد أحد يستطيع الادّعاء بأنّ الثورة لم تتغيّر ولو وجهاً من وجوه حياته، حتّى كيال نفسه عرض لحريّته التي غمّغ بها طويلاً في ذهابه إلى المدرسة وإيابه منها طارئ ثقل ضاق به كلّ الضيق وإن لم يستطع له دلفاً، ذلك أنّ الأمّ أمرت أم حنفي بأن تتبّع في ذهابه إلى المدرسة وعند إيابه منها، وآلاً تتخلّى عنه بحال كي تعود به إلى البيت إذا صادفتها مظاهرة دون أن تدع له فرصة للتلقؤ، أو مطاوعة نزوات الطيش، دار رأس الأمّ بأنباء المظاهرات والاضطرابات وارتجّ قلبها لحوادث الاعتداء الوحشيّ على الطلبة فعانت من ذلك الزمن آثاماً كالخيل ملاحها هلعاً وجزعاً فودّعت لو تستقي ابنها إلى جانبها حتّى تشوب الأسود إلى مستقرّها، ولكّنها لم تجد إلى تحقيق مرادها من سبيل خصوصاً بعد أن وعد فهمي - وهو من ثقتها في وعظه - لا تتزعزع - أنّه لا يشترك في الإضراب بتاتاً، وبعد أن رفض الأب فكرة استيقا كيال في البيت لعلمه بأنّ المدرسة تحول بين صفار التلاميذ وبين الاشتراك في الإضراب. سلّمت الأمّ بلهاب الأخوين إلى المدرسة على كره منها ولكّنها فرضت على كيال رقابة أم حنفي وهي تقول له: ولو كان بوسعي أن أخرج كما أشاء لتبعتك بنفسي» وقد عارضها كيال بما وسمه من قوّة لآئه أدرك بالبداهة أنّ هذه الرقابة التي لن تخفي هن أنّه خافية من شؤنه ستطغي قضاه مبرماً على كلّ ما يتمتّع به في الطريق من ألوان العبث والشطارة، وإلّاها ستلحق هذه الفترة القصيرة السعيدة من يومه بالسجنين اللذين يتردّد بينهما: البيت والمدرسة، إلى هذا امتعضت نفسه، أشدّ الامتعاض من السير في الطريق مصطحباً هذه المرأة التي ستلفت الأنظار حتّى بيدانتها المفرطة ومشيئها المتهاكّة، ولكّنه لم يسهه إلّا أن يذعن لرقابتها سيّياً بعد أن أمره أبوه بقبولها، قصارى ما استطاعه تنفيذاً عن صدره أنّه كان يتهرأ

فلم تجد مَنْ تصبّ عليه غضبها إلا سعد زغلول نفسه متهمه إتياء بأنه سبب هذا الشرّ كله، وآته دلو عاش كما يعيش عباد الله في دعة وسلام ما تعرّض له أحد بسوء ولا اشتعلت تلك النيران. لذلك كان حماس الغلام يستمر لفكرة الصراع نفسه، وحزنه يفيض بفكرة الموت في ذاته دون أن يكون لنفسه معني واضحاً لما يدور حوله من بعيد أو قريب، وكم أسف يوم دعا تلاميذ خليل آغا إلى الإضراب - لأول مرة - فسمحت له فرصة ليشهد مظاهرة عن كتب أو يشارك فيها ولو في فناء المدرسة، ولكن الناظر بادر إلى حجز صغار التلاميذ في فصولهم فأقلت الفرصة ووجد نفسه وراء الجدران نصت إلى الخناقات العالية في دهشة مزعوجة بسرور خفي، لعل مبعثه الفوضى التي نشبت في كلّ شيء فعصفت بالروتين اليومي الثقيل بلا رحمة. أفلتت ذلك اليوم فرصة الاشتراك في مظاهرة كما ضاعت اليوم فرصة الاستمتاع بالفراغ في البيت، وسببى مغلولاً في هذه الجلسة المملّة ينظر في الكتاب بعينين لا تريان شيئاً، ويسترقّ لمسات مع رفيقه على القمطر في حذر وخوف حتّى يدرك نهاية النهار الطويل، ولكن ثمة شيء استرعى انتباهه فجأة، قد يكون صوتاً خريياً بعيداً أو وُشاً في الأذن، ولكي يستوثق من حاسته نظر فيها حوله فرأى رموس التلاميذ مرفوعة وأعينهم تبادل النظرات ثمّ تشجّه ممّا صوب النوافذ المطلّة على الطريق، إنّه حقيقة وليس وهماً ما استرعى انتباههم، إنّه أصوات منديجة في صوت ضحك غير متمايز تسمع لبعدها كهدير الأمواج من بعيد، الآن وقد أخذت تشتدّ يمكن أن تسمّى ضوضاء، بل ضوضاء تقرب، وسرت في الفصل حركة وتمالي الحمس ثمّ ارتفع صوت قائلاً: «مظاهرة!» فنفق قلب الغلام وعلت عيناه لمة تجمع بين السرور والاضطراب، وجعلت الضوضاء تقترب وتقترب حتّى وضحت هتافاً يردد ويزجر في جميع الجهات المحيطة بالمدرسة، وعادت تفرح أذنيه الأسماء التي ملأت ذهنه طوال الأيّام الماضية. سعد... الاستقلال... الحباية، وتداني الغتاف وعلا حتّى أطبق على فناء المدرسة نفسها فوجعت

به هذه الأيتم العجيبة بلا حساب. ضاق بالمدرسة كما لم يضق من قبل، وهما خياله إلى أولئك المضربين في الخارج بدعشة واستطلاع، كثيراً ما تسامل عن حقيقة أمرهم، أهم كما تدعي أمّه «متهوّنون» لا يرحمون أنفسهم ولا أهلهم ملقّن بأرواحهم إلى التهلكة، أم هم كما يصفهم فهم أبطال فدائيون يجاهدون عدو الله وعدوهم؟! وكثيراً ما مال إلى رأي أمّه لحقته على التلاميذ الكبار - فئة المضربين - الذين خلّفوا في نفسه ونفوس أضرابه من التلاميذ الصغار أسوأ الآثار بما يناغم على أيديهم من غلظة واستكبار وهم يتحلّونهم في فناء المدرسة بضخامة أجسامهم وقحة شواربهم، يبدّ أنه لن يستسلم إلى هذا الرأي كلّ الاستسلام طالما كان لقول فهمي من الإقناع في نفسه ما لا يقبل له بالاستهانة به، لن يسهه أن يسلمهم ما يصفيه عليهم من ضروب البطولة حتّى لو يطّلع من مكان آمن على معاركهم الدامية، قامت قيامة الدنيا ما في ذلك من شلّ، أو فلياذ يضرب المصريون وينطلقون جماعات إلى الاشتباك بالجنود؟! وأي جنود؟! الإنجليزي؟ الإنجليزي الذين كان يكفي ذكر اسمهم لإحلاء الطرقات!... ماذا حدّثت للدنيا وللناس؟!... ذاك صراع عجيب قضى عنفه بأن تُنشع عناصره الجوهريّة في نفس الغلام بلا وعي أو قصد فتغدو أسماء سعد زغلول، الإنجليزي، الطلبة، الشهداء، المنشورات، المظاهرات، من القوى المؤثّرة الموحية في أفعاله وإن وقف من معانيها موقف المستطلع الحائر. وضاف من حيرته أنّ آله استجابوا للحوادث استجابة متباعدة وأحياناً متناقضة، فينابج فهمي ثائراً يعمل على الإنجليز بحق قاتل ويحجّ إلى سعد حيناً يفجّر الدمع، إذا يباسين يناشئ الأخبار في اهتمام رصين مشوب بأسف هادئ لا يمنعه من مواصلة حياته المتعاضدة بين السمر والضحك وتلاوة الأشعار والقصص، ثمّ السهر حتّى منتصف الليل، أمّا أمّه فلا تكفّ عن دعاء الله أن ينشر السلام ويعيد الأمان ويصقّي قلوب المصريين والإنجليز جميعاً، والأدهى من كلّ أولئك زينب زوجة أخيه التي أفرعتها الأحداث

فقال عمّ حمدان:

- لم تر شيئاً كهذا من قبل، ربّنا يجمعهم.

تفجّر الهتاف في الحناجر يزلزل الجو زلزلاً، حيناً عن قرب كأنه يدوي في الدكان، وحيناً عن بعد في ضوضاء شديدة غير متبايز كهزيم الريح، وتواصل بلا انقطاع، في حركة بطيئة مستمرة دلّ عليها تفاوت درجات الشلّة والارتفاع بين الأمواج القادمة والهابية، وكلّما ظلّ أنّه انقطع جاء غيره حتّى بدا وكأن لا نهاية له، تركزت حياة كمال في أذنيه وهو يرهف السمع في اضطراب وقلق، يبدّ أنّه ليس تابع الوقت دون وقوع مكروه استردّ أنفاسه ومضى يعاوده الشعور بالطمأنينة، ثمّ وسعه أخيراً أن يفكر فيما يدور حوله كطائر لا يلبث أن يزول فتساقط متى يجد نفسه في البيت ليروي لآفته ما وقع له؟. «افتحمت علينا الفصول مظاهرة لا أوّل لها ولا آخر، وما أدري إلّا وتيارها الزائر يحيط بي ويحرفني إلى الشارع، وهتفت مع من هتف: لبيحى سعد، لتسقط الحياية، لبيحى الاستقلال. وما زلت أنتقل من طريق إلى طريق حتّى هجم الإنجليز علينا وأطلقوا الرصاص». استفزع عند ذاك لحذّ البكاء ولا تكاد تصدّق أنّه حيّ يرزق ومستلّو آيات كثيرة وهي ترجف. «ومرت رصاصة جنب رأسي ما زال زعيقها يعلّ في أذني، وتقبّط الناس كالمجانين، وكنت أهلك مع المالكين لولا أن جذبني رجل إلى دكان...».

انقطع حبل أحلامه على صباح عالٍ غير منتظم ووقع أقدام متنافسة في اضطراب، فحفظ قلبه ونظر في وجوه من حوله فرآهم عطفين في الباب كمن يتوقّع ضربة على أّم رأسه، واقترب عمّ حمدان من الباب وانحنى حتّى نظر من الفرجة في أسفله ثمّ تراجع وأنزله حتّى ألصقه بالأرض بسرعة وهو يتمتم في اضطراب: - الإنجليز...!

وصاح كثيرون في الخسارج: «الإنجليز... الإنجليز» ونادى آخرون «الثبات... الثبات» وهتف غيرهم «غوت وغيا الوطن»... ثمّ سمع الغلام لأوّل مرّة في حياته الصغرة طلقات الرصاص عن بعد قريب

قلوب التلاميذ وأيقنوا أنّ الطوفان لا بدّ مغرقهم، ولكنهم قابلوا ذلك بسرور صياليّ تنكّب عن تقدير العواقب في حيّة نزوعه إلى الفوضى والانطلاق، ثمّ تراءى إليهم وقع أقدام مقبلة في سرعة وصخب، ثمّ فتح الباب على مصراعيه تحت وقع صلعة عنيفة واندفعت إلى الحجرة جماعات من الطلبة والأزهريين كما تندفع المياه من فوهة الخزّان وهم يصيحون: «إضراب... إضراب... لا ينبغي أن يبقى أحده»، وفي لحظات وجد نفسه غالقاً في موج مصطخب يدلعه أمامه دفقاً يحلّ كلّ مقاومة وهو من الاضطراب في غاية، تحرّك في بطء شديد تحرّك حبوب البرّ في فوهة الطاحونة لا يدري أين تقع عينه، ولا يرى من الدنيا إلّا أجساماً متلاصقة في ضجّة تصكّ الأذان حتّى استدلّ بظهور السماء فوق رأسه على بلوغ الطريق، واشتدّ الضغط عليه حتّى كادت تكتم أنفاسه فصرخ صراخاً حاداً عالياً متواصلًا من شلّة الفزع، وما يدري إلّا ويد تقبض على ذراعه وتحبذه بقوة وهي تشقّ بين الناس طريقاً حتّى ألصقته بجدار على الطوار، فراح يلهث ويتلّسّ فيما حوله منجّو حتّى عثر على دكان حمدان بائع السبوسة وقد أنزل بابها الحديد إلى ما فوق العتبة بقليل، فهرع إليه ودخل زحفاً على ركبتيه، ولما قام في الداخل رأى عمّ حمدان الذي كان يعرفه حتّى للمرفة وامرأتين وبعض صغار التلاميذ فأسند ظهره إلى جدار القائمة التي تحمل الصواني وصدره يعلو وينفخض بلا توازن وسمع عمّ حمدان وهو يقول:

- أزهريّون، طلبة، عمّال، أهالي... جميع الطرقات المؤدية إلى الحسين مكتظة بالبشر... ما كنت أحسب قبل اليوم أنّ الأرض تستطيع أن تحمل كلّ هؤلاء البشر.

إحدى المرأتين بدّهشة:

- كيف يصرون على التظاهر بعدما كان من إطلاق النار عليهم؟

المرأة الأخرى بحسرة:

- ربّنا الهادي، كلّهم أبناء ناس يا ولداه.

ودفعه حتى لا يدع له فرصة للمناقشة فاندفع الغلام راكضاً حتى بلغ منعطف خان جعفر، فرأى شيئاً واقفاً وسط الطريق يشير إلى الأرض ويضطرب نفراً من الرجال فنظر حيث يشير فرأى بقفاً حراء ملبسة بالتراب، وسمعه يقول بلهجة رئائية:

.. هذا الدم الزكي يستصرخنا إلى مواصلة الجهاد، وقد شاء الله أن يسفك في رحاب سيد الشهداء لنصل في الاستشهاد حاضرينا بماضيها، والله معنا... وأحسن فزحاً يركبه، فاستردت بصره من الأرض الدامية وانطلق يعدو كالمجنون.

٥٦

كانت أمينة تتلمس طريقها إلى باب الهجرة خلال ظلمة السحر، في حذر ومهمل أن توقف السيد، حين تراسى إلى أذنيها لفظ غريب صاعداً من الطريق يعطر طين النحل. لم يكن يطرق أذنيها في هذه الساعة التي اعتادت أن تستيقظ فيها إلا صلصلة عجلات عربات الدش وسعال العمال المهاجرين وهتاف رجل يحلو له عند مرجعه من صلاة الفجر أن يردد في الصمت الشامل صائحاتاً بين حين وآخر «وخذوه» أما هذا اللفظ الغريب فلم تسمعه من قبل، وحازت في تفسيره فتطلعت إلى معرفة مصدره فمضت بخطواتها الخفيفة إلى نافذة بالصالة مطلقة على الطريق ثم رفعت خصاصها وأخرجت رأسها فوجدت في الخارج ظلمة مخططة عند الأفق ببشائر ضياء ولكن ليس إلى الحد الذي تستطيع معه رؤية ما يجري تحتها، بيد أن اللفظ ازداد ارتفاعاً، وازداد في الوقت نفسه غموضاً، حتى تبينت فيه أصواتاً أدمية مجهولة النسب. دارت عينها في الظلام الذي أخذت تالفه شيئاً ما فرأت تحت سبيل بين القصرين وما يليه من تقاطع النحاسين مع درب قرمز أشباحاً أدمية غير واضحة المعالم، وأشياء على هيئة أهرامات صغريات، وأخرى كأنها الأشجار القصار، فارتدت في حيرة ونزلت قاصدة حجرة فهمي وكيال، ثم ترددت، أتوقظه ليرى ما هنالك ويحل لها تلك الألغاز أم توجل ذلك إلى حين استيقاظه؟ ثم

فعرها بالبداة وارتعدت أوصاله، وما إن نذت عن المراتين صرخة حتى أفحم في البكاء، وجعل عم حمدان يقول بصوت متهدج: «وخذوا الله... وخذوا الله ولكن الغلام شعر بالخوف، بارداً كاللوت يزحف على جسمه كله من قسديه إلى رأسه. وتوالت العلفات، وصبغت الأذان صلصلة عجلات وصهيل خيل، تابعت الأصوات والحركات في سرعة فائقة تلاحقها زجرات وصراخ وآتين، فترة اعتراك خاطفة بدت للعاين وراء الباب دهراً في حضرة الموت... ثم حلت صمت مخيف كالإغشاء الذي يعقب تبريع الألم، تساءل كمال بصوت متهدج مبجوح:

.. ذهبوا؟!...

فوضع عم حمدان سبائته على فيه وهو يغمغم «هس... وتلا آية الكرسي، فلا كمال في سره. إذ خائنته قدرته على الكلام. «وقل هو الله أخذه لعلها تطرد الإنجليز كما تطرد المغاريت في الغلام. على أن الباب لم يفتح إلا عند الظهر فانطلق الغلام إلى الطريق المغفر ثم أطلق للريح ساقيه، وفيها هو يمر بالسلم الهابط إلى قهوة أحمد عبده لمح شخصاً صاعداً عرف فيه أخاه فهمي فهرع إليه كثرين عثرت يده على أداة النجاة ويقض على ذراعها فالتفت الشاب نحوه فزحاً، ولست عرفه هتف به:

.. كمال؟ أين كنت أثناء الضرب؟

ولاحظ الغلام أن صوت أخيه مبجوح مطموس المخارج، بيد أنه أجابه بقره:

.. كنت في دكان عم حمدان وسمعت الرصاص وكل شيء... .

فقال له بمعجلته ولوجته:

.. اذهب إلى البيت ولا تقل لأحد أنك قابلتي... .

صانع؟

فسأله الغلام بارتباك:

.. ألا تعود معي؟

فقال باللهجة نفسها:

.. كلا... ليس الآن... سأعود في موعدي

المعتاد، لا تنس أنك لم تقابلني قط.

المظاهرات في منابها... .

وجعل يقطع الحجرة ذهاباً وإياباً وهو يقول في سره
حانقاً وهيها... هيها... حتى سمع أمه تقول:

.. ماوقف والدك لآخره بالأمر...

قالتا المرأة كآخر ما عندها من حيلة، كأن السيد...
الذي يحل لها جميع مشكلات حياتها.. فتقبل أيضاً بأن
يجد حلاً لهذا المشكل يبلغ به بر الأمان، ولكن الشاب
قال لها بأسى:

.. دعيه حتى يستيقظ في وقته...

فتساءلت المرأة في رهبة:

.. ماذا تفعل يا بني وهم مرابطون أمام مدخل بيتنا؟
فهو فهمي رأسه في حيرة قائلاً:

.. ماذا تفعل؟! (ثم بلهجة أكثر ثقة) لا داعي

للخوف، ليس إلا أنهم يرهبون المتظاهرين...

قالت وهي تزدد ريقاً جافاً:

.. أخاف أن يعتدوا على الأمين في بيوتهم...

ففكر قليلاً في قولها ثم تمت:

.. كلاً لو كان الاعتداء على البيوت مقصدهم ما
وقفوا ساكنين حتى الآن...

لم يكن مطمئناً إلى قوله كل الاطمئنان ولكنه وجدته
أوفى ما يقال، وعادت أمه تسأله:

.. وحتى متى يقيمون بيننا؟!

بطرف شارد أجابها:

.. من يدري؟!... إنهم ناصببون الخيام فلن
يرحلوا سريعاً...

تنبه إلى أنها تسأله كما لو كان قائد القوات
العسكرية فنظر إليها في عطف وهو يداري بسمه
ساخرة فرجت ما بين شفتيه المتمتعتين، وفكر لحظة في
مدايعها ولكن كآبة الموقف صلبت نفسه، فعاده الجذ
كما يقع له أحياناً إذا روى ياسين له «نادرة» من نوادر
والده تدعوه بطيبتها إلى الضحك ولكن يصده عنه
القلق الذي يعتريه كلما أكلع على جانب من شخصية
أبيه الخفية، وسما وقع أقدامهم على الأثر، وصاح
اقتحم الحجرة ياسين تبعه زينب على الأثر، وصاح
الشاب الذي بدا متفخ العينين مشعث الشعر:

أبت أن تزعجه طاولية رغبها حتى موعد استيقاظه عند
مطلع الشمس الوشيك، ثم صلبت، ثم صلدت
مدفوعة بحب الاستطلاع إلى النافذة فاطلّت منها. بدا
وشي الشروق ناشباً في غلالة السحر وأضواء الصباح
تسيل من ذرى المآذن والقباب، فامكنها أن ترى
الطريق في كثير من الوضوح وفشت عينها من
الأشباح التي راعتها في الظلام فتبنت حقيقتها ونذت
عنها أمة فزع وارتدت مهرولة إلى حجرة فهمي
فأيقظته بلا احتراس فانتفض الشاب جالساً في فراشه
وهو يتساءل مزعجاً:

.. ما لك يا أمه... ؟

فقات وهي تلث:

.. الإنجليز يملأون الطريق تحت بيتنا...

هب الشاب من فراشه واثباً إلى النافذة ورمى
ببصره فرأى تحت سبيل بين القصرين معسكراً صغيراً
يشرف على رموس الطرق التي تتفرع عنده، يتكون
من عدد من الخيام، وثلاث لوريات وشرازم متفرقة
من الجند، ولها يلي الخيام أقيمت البنادق أرباعاً،
كل مجموعة تتساند رموسها وتفرق قواعدا على هيئة
هرم، وقد وقف الخراس كالتيانيل أمام الخيام وتبشر
الأخرون وهم يتراخون ويتصاحكون، ورمى الشاب
ببصره ناحية النحاسين فرأى معسكراً ثانياً عند تقاطع
النحاسين بالصاغة كما رأى في الناحية الأخرى من بين
القصرين معسكراً ثالثاً عند منعطف الحرنفش، ابتدره
خاطر أهوج لأزل وهلة أن هؤلاء الجنود قد جاءوا
للقبض عليه!... ولكنه ما لبث أن استسخره معتدلاً
عنه بقمته المزعجة من النوم الذي لم يكذب يفيق منه،
وبهذا الإحساس بالمطاردة الذي لم يفارقه منذ شبت
الثورة، ثم وضعت له الحقيقة رويداً، وهي أن الحوي
الذي أتبم السلطة المحتلة بمظاهراته المتواصلة قد
احتل احتلالاً عسكرياً. لبث ينظر خلال الخصاص
متحفصاً الجنود والخيام والبنائق واللوريات وقلبه يخفق
في رهبة وحزن وحقي، حتى تحول عن النافذة شاحب
اللون وهو يتمتم غاطباً أمه:

.. إنهم الإنجليز كما تقولين، جاءوا للإرهاب ومنع

- أرايتم الإنجليز...؟
وهفت زينب:
- أنا التي سمعتم ثم اطللت من النافذة فرايتهم وأيقظت سي ياسين...
وواصل ياسين الحديث قائلاً:
- لقد نفرت على باب والدي حتى استيقظ وأخبرته ولما رآهم بنفسه أمر بالآ بغادر البيت أحد والآخر فزع مزلاج البيت، ولكن ماذا هم فاعلون؟... وما عسى أن نصنع؟... ألا توجد في البلد حكومة تحميها؟...
فقال له فهمي:
- لا أظنهم يتعرضون لغير المتظاهرين.
- ولكن حتى متى نظل محبوسين في بيوتنا؟... إن البيوت مملأى بالنساء والأطفال فكيف يمكثون تحتها؟
فغمغم فهمي في صبق:
- سييجري علينا ما يجري على غيرنا فلنصبر ولننتظر...
وهفت زينب في عصبية ظاهرة:
- لم نعد نسقم أو نرى إلا الرعب والحزن، ربنا على أولاد الحرم...
عند ذاك فتح كمال عينيه فتردهما دهساً في المجتمعين في حجرته على غير انتظار، ثم جلس في فراشه وتطلع إلى أمه بعينين متسائلتين فاقتريت من فراشه وريبت بيدها الباردة على رأسه الكبير ثم قرأت بصوت مهموس وعقل شارد الفاتحة، فسألها الغلام:
- ماذا جاء بكم إلى هنا؟
رأت أن تبغله الخبر في أحسن صورة ممكنة فقالت بركة:
- لن تذهب اليوم إلى المدرسة...
فتساءل بابتهاج:
- بسبب المظاهرات؟
فقال فهمي بشيء من الحدة:
- الإنجليز يسدون الطريق!
شعر كمال بأنه أدرك سرّ تجمّعهم فقلب عينيه في الوجوه مذهولاً، ثم وثب إلى النافذة ونظر من
- خصاصها طويلاً ثم عاد وهو يقول باضطراب:
- البنادق أربع أربع...
ونظر إلى فهمي كالمتغيث وتقم في خوف:
- سيقتلوننا...؟
- لن يقتلوا أحداً، جاءوا لمطاردة المتظاهرين...
ومضت فترة صمت قصيرة وإذا بالغلام يقول وكأنه يخاطب نفسه:
- ما أجمل وجوههم!...
فسأله فهمي ساخراً:
- هل أعجبوك حقاً؟...
فقال كمال بسداجة:
- جداً، كنت أتحلمهم كالشياطين...
فقال فهمي ببرارة:
- من يدري، لعلك لو رأيت الشياطين أعجبك منظرهم...!
لم يرفع مزلاج الباب في ذلك اليوم، ولم تفتح نافذة من النوافذ المطلة على الطريق ولو لتغيير الهواء وإدخال الشمس، ولأول مرة تبسط السيد أحمد في الحديث على مائدة الإفطار فقال بلهجة العليم الخبير إن الإنجليز يتشدّدون في منع المظاهرات ولأنهم لهذا احتلوا الأحياء التي تكثر بها المظاهرات وأنه رأى أن يكتسوا يومهم في البيت حتى تتضح الأمور. استطاع الرجل أن يتكلم بشفقة وأن يحافظ على مظهره المعهود من الجلال والألأ بدع منفذاً لأحد يتسرب منه إلى القلق الذي تشفى في باطنه مُدْهِبٌ من فراشه على نفر ياسين، ولأول مرة كذلك جسر فهمي على مناقشة رأي أبيه فقال بأدب:
- ولكن يا والدي قد تظنني المدوسة إذا مكثت في البيت من المضرين!
لم يكن السيد يعلم شيئاً طبعاً عن اشتراك ابنه في المظاهرات فقال:
- للضرورة أحكام، أخوك موكلف وموقفه أدق من موقفك ولكن العذر واضح...
لم تواته شجاعته على مراجعة أبيه خشية أن يغضبه من ناحية، ولأنه - من ناحية أخرى - وجد في أمره بمنع مغادرة البيت علناً يبرّز به أمام ضميره امتناعه عن

فلذا جهنَّ عَجَلَن من
سود الشيا ب شِعَارَه
نطلعن مثل كواكب
يسطعن في وسط الدجنه
وأعلن يبحرن الطريق
ودار سعلد قصدهنه
فاهزّت نفس ياسين وقال ضاحكاً:

- ما كان أجدرني أنا بحفظها...

وفكر فهمي في خاطر طارئ ثم تساهل بحزن:

- ترى أترامت أنباء ثورتنا إلى سعد في مفاه؟...

أعلم الشيخ الكبير بأنّ تصميته لم تذهب بهاء أم تراه
غارقاً في يأس المنفى؟...

٥٧

لبوا على السطح حقّ الضحي، وراق للأخوين أن
يراقبا المسكر البريطاني الصغير، فرأيا نفرًا من الجنود
قد أقاموا مطبخًا وراحوا يعدّون الغذاء، وتفرّق
كثيرون ما بين مدخل درب قمرز والنحاسين وبين
القصرين في خلاه من المازّة، وبين حين وآخر كان
يتجمّع كثيرون في طاوير على نداء التغير ثمّ يأخذون
بنادقهم ويركبون أحد اللوريات الذي ينطلق بهم
صوب بيت القاضي ثمّا حلّ على قيام مظاهرات في
الأحياء القريبة، وكان فهمي يراقب تجمّعهم وذهابهم
بقلب خائف وخيال متقد...

وأخيراً غادر الأخوان السطح تاركين كمال بلهو
كيف شاء وحده، وأبوا إلى حجرة المذاكرة، فاقبل
فهمي على كتبه يراجع ما فاتته في الأيام المتقصية،
وتناول ياسين «ديوان الحماة» و«غادة كربلاء» وخرج
إلى الصالة يستعين بهما على قتل الوقت الذي توافر
وراء جدران سجنه كما توافر الماء وراء السدود، كانت
الروايات - بوليسية وغيرها - أشدّ استحوادًا على قلبه
من الشعر، ولكنّه أحبّ الشعر كذلك. وعرفه من
أيسر سبله، يفهم ما يسهل فهمه، ويقنع من الصعب
بموسيقاه، فندر أن يلجأ إلى الهامش المشحون
بالشروح، وزيًا حفظ البيت وترنم به وهو لا يفقه من

الخروج إلى الطريق المحتلّ بالجنود المتعلّشين إلى دماء
أمثاله من الطلبة. انفضّت المائدة فأوى السيّد إلى
حجرته، وما لبثت الأمّ وزينب أن اشتغلنا بواجباتنا
اليومية، ولسّا كان اليوم مشمسًا، وهو يوم من أيام
مارس الأخيرة التي تكتنز في أعطافها نسائم دافئة من
أنفاس الربيع فقد صعد الإخوة الثلاثة وجلسوا تحت
عرش اللباب والياسمين. ووجد كمال في شخص
الدجاج تسليّة وأيّ تسليّة فانتقل إليها، وراح يذّر
للدجاج الحبّ ويطاردها مسرّوًا بدجديتها ويلتقط ما
يعثر عليه من البيض في حين راح الأخوان يتحدثان
بالأنباء المثيرة التي تتناقلها الألسنة عن الثورة المستمرة
في جنبات الوادي من أقصى شماله إلى أقصى جنوبه.

تكلم فهمي عنيّ يعلم من قطع السكك الحديدية
والتلفرات والتليفونات وقيام المظاهرات في شقّ
المديريات والمعارك التي تنشب بين الإنجليز والشوّار
والمذابح والشهداء والجنائز الوطنية التي تشيع فيها
النموش بالعرشات والمعاصمة المضربة طلبتها وعيّاها
ومحاموها والتي لم يعد بها من وسيلة للمواصلات إلّا
المريات الكارور، ثمّ قال الشابّ بحماسة:

- هذه الثورة حقًّا؟... فليقتلوا ما شاءت لهم
وحشيتهم فلن يزيدنا الموت إلّا حياة...

فقال ياسين وهو يميّز رأسه عجبًا:
- ما كنت أتصوّر أنّ في شعبنا هذه الروح
المكافحة...

فقال فهمي وكأنّه نسي كيف أشفى على اليأس قبيل
نشوب الثورة حتّى فاجأته بزلزائها وبهرته بنورها:

- بل إنّهُ ممثّلٌ بروح الكفاح الخالد التي تشتعل في
جسده الممتدّ من أسوان إلى البحر الأبيض، استثارها
الإنجليز حتّى ثارت ولن تحمد إلى الأبد.

فقال ياسين وعلى شفثته ابتسامة:
- حتّى النساء خرجن في مظاهرة...

فتمثّل فهمي أحيانًا من قصيلة حافظ في مظاهرة
السيدات:

خرج الخواني بمحتجج
من ورخت أرقب جمعهنه

ومعناه ألا أتله، أو يتصور له معنى لا يمت إلى حقيقته بسبب، أو لا يدرك له معنى على الإطلاق، ولكن رغم هذا كله رسب في عقله من صوره والفاظه ما يعد ثروة يتيها بها مثله حتى ذاب على استغلالها لمناسبة ولغير مناسبة وهو الأكثر، فإذا عرض له يوماً أن يكتب رسالة تتيها لها تهيؤ الكتاب وأقيم عليها من الالفاظ الرثانة ما يعلق بحافظته، وضمها ما فتح الله به عليه من ماثور الشعر حتى عُرف بين معارفه بالبلابة، لا لأنه كان بليغاً حقاً، ولكن لقصورهم عن مجاراته وارتياحهم حيال غريب محفوظاته. قبل اليوم لم يعهد مثل هذا الفراغ الطويل الذي قضى عليه بأن يكابده ساعة فساعة عروماً من أسباب الحركة والتسلي، وربما كانت القراءة خليفة بأن تسعف على تحمله لو كان به صبر عليها، ولكنه اعتاد أن يلتم بها في رفق، وفي الأوقات القصيرة التي تسبق خروجه إلى سهرته اليومية دون غيرها، وحتى في تلك الأوقات لم يكن يجد بأشأ في أن يقطع القراءة بالمشاركة في أحاديث مجلس القهوة، أو يطالع قليلاً ثم يدور كمال ليروي له ما قرأ مستلذاً بإقبال الغلام على الإصفاة بذلك الشغف الماثور عن الأطفال والغلمان. إذن لم يكن الشعر ولا الرواية بالتي تستطيع أن تؤنس وحشته يوماً كيومه هذا، وقد قرأ أحياناً من الشعر وفصولاً من «غادة كربلاء»، ومضى يتجرع الملل قطرة فقطرة، لاعتنا الإنجليز من أعاق قلبه، ضجرًا برماً ضيق الصدر، حتى حان وقت الغداء، جمعتهم المائدة مرة أخرى، وقمت لهم الأم حساء ودجاجات عمرة وأرزاً، وأثمت أطباقها - التي حرمت من الخضر بسبب الحصار المضروب حول البيت - ببجن وزيتون ومش، وأحضرت صلاً أسود بدلاً من الحلوى، ولكن لم يأكل بشهوة إلا كمال أما السيد والأخوان فلم يسمدوا بقبائبة قوية للطعام لقرعهم يومهم بلا عمل ولا حركة، بيد أن الطعام هيأ لهم فرصة للهروب من الفراغ بالتوهم وصل الخصوص السيد ياسين اللذين كان يسمها الظفر بالنوم وقتما شاءا وكيفما أحبّا. وغادر ياسين فراشه قبيل المغرب فنزل إلى الدور التحتاني لشهود جلسة القهوة

ولكنها كانت جلسة قصيرة إذ أن الأم لم يسمها أن تترك السيد وحده طويلاً فودعتهم وطلعت إليه، ولبت ياسين وزينب وفهمي وكمال يتسامرون في جو يغلب عليه الفتور حتى استأذن فهمي ومضى إلى حجرة المذاكرة ثم دعا إليه كمال فغود الزوجان منفردين. وما عسى أن أصنع من الآن إلى ما بعد منتصف الليل؟... أزعجه هذا السؤال الذي ألح عليه طويلاً ويذا له اليوم كتيلاً فنيماً متزعجاً بالقوة الغشوم من مجرى الزمان الذي يتدفق في الخارج حافلاً بالسرّات كما ينتزع الغصن من الشجرة فيستحيل حطباً. لولا الحصار العسكري لكان الآن بمجلسه المحبوب بقهوة أحمد عبده، يحمسو الشاي الأخضر، ويسامر معارفه من رؤاها ويتعمّش النفس بجوهر العتيق الذي يستهوي شعوره بمقدمه ويستائر خياله بحجراته المظمورة تحت أنقاض التاريخ. قهوة أحمد عبده أحبّ المقاهي إلى قلبه، ولولا الغرض - والغرض مرض كما يقولون - ما اختار غيرها، ولكنه الغرض الذي جلبه فيها مضى إلى الكلوب المصري لقربه من مقام بالعة الدوم وهو نفسه الذي أخراه بالانتقال بعد ذلك إلى قهوة سي علي بالغورية لوقوعها أمام بيت زبونة العودة. فهو يبدل المقاهي تبعاً لغرضه، بل إنه يبدل من تمرض له صداقتهم فيها تبعاً له، فقيماً وراء الغرض لا مقهى ولا أصدقاء له، أين الكلوب المصري وأصحابه؟... أين قهوة سي علي ومعارفها؟... بين حياته ذهبوا، وألغى لو صادفه أحدهم تجاهله أو تهرب منه، والدور الآن على قهوة أحمد عبده وسأرها، وآله وحده يعلم ما يجتبه الغد من مقاو وأصدقاء. على أنه لم يكن يمتك بقهوة أحمد عبده طويلاً فسرعان ما يسترق الخطى إلى بقالة كوستاكي أو بالأحرى إلى حاتته السرية ليحظى بالقارورة الحمراء أو «العادة» كما يحلو له أن يدعوها... أين منه «العادة» هذا المساء الكالح؟ وسرت في بذهن لتذكر حانة كوستاكي رعدة شهوة، ثم ما لبث أن لاحظت في عينه نظرة سام عميقة وتكلمل تكلمل السجين. بدا البقاء في البيت حصرة طويلة زاد من حدة ألمها ما طاف بمخيلته

لم يكن على حال يطبق معها حتى العتاب فوقع
تساؤلها التهمك من نفسه موقع الضربة الطائشة من
الدمل فاندفع قائلاً بصراحة مؤلة وإصرار:

- بل...

ومع أنها تحامت النغار من بادئ الأمر إلا أن هجته
آذنها أشد إيلاء فقالت بحدة:

- لا ذنب لي في هذا، أليس عجيباً ألا تطيق
التخلف عن سهرك ولو ليلة واحدة...

فقال متسخطاً:

- دليلى على شيء واحد يجعل البيت محتملاً...

فقامت غاضبة وهي تقول في نبرات منكرة بالبكاء:

- سأخلك لك المكان لعله يطيب لك...

وولت كالحارية وهو يتبعها بصراً جامداً، ثم قال
لنفسه «ها هنا من حقا لا تدري أن القدرة الإلهية
وحدها هي التي تبقى عليها في بيتي». ومع أن الشجار
نفس عن حقه قليلاً إلا أنه كان يفضل ألا يقع حتى
لا يضاعف من كآبة فراغه، ولم يكن يمحز عن
استرضائها لو أراده ولكن عقله الفتور الذي ران على
مشارعه جيماً. غير أنه لم تمض دقائق حتى شمله هدوه
نسي فرقة صدى عباراته القاسية التي وجهها إليها في
أذنيه فأقر بقسوتها، وبأنه لم يكن ثمة ما يدعو إليها،
وداخله شبه ندم، لا لمثوره فجأة على ثالة حب لها في
زوايا قلبه ولكن لحوصه على ألا يشد في معاملتها عن
حد الأدب - ربما إكراماً لآبيها أو خوفاً من أبيه - حتى
في فترة الانتقال العصبية التي أخذ على نفسه فيها
إخضاعها لسياسته بالصلاية والحزم، واعتذر عن
إسرافها بالغضب، ولم يكن الغضب بالانفعال
المستغرب في هذه الأسرة، فما يركبهم الحلم إلا حين
قيام الأب بينهم مستأثراً لنفسه من دونهم بكافة حقوق
الغضب.

بيد أن غضبهم كالبرق سريع الاشتعال سريع
الانطفاء ثم يردون إلى ألوان من الأسف والندم، إلى
هذا كله خص ياسين بالكابرة فلم يدفعه أسفه إلى
مصالحة زوجته بل قال لنفسه: «هي التي استشارت
غضبي... ألم يكن بوسعها أن تخاطبني بلهجة

من صور الهناء وذكرىات النشوة المقتربة بالحانة
والقارورة، فعدته الأحلام وضاعفت من وجده، وقد
جرت حينه المهوف على موسيقى الحمر الباطنية
ولعبها بالرأس ذلك اللعب المدغخ الحار السائل بهجة
وأفراحاً، فلم يدرك قبل ذلك المساء أنه أعجز من أن
يصبر على هجر الشراب يوماً واحداً ولم يحزن لما بدا له
من ضعفه وعيوديته، ولا لام نفسه على إسرافها الذي
جر عليه التعاسة لأهون الأسباب، كان أبعد ما يكون
عن لوم نفسه أو السخط عليها، ولم يذكر من بواعث
اله إلا الحصار الذي شنه الإنجليز حول البيت، وأنه
يمتد ظمناً ومورد النشوات غير بعيد، ثم لاحظ منه
الثبات إلى زينب فوجدها تنفّس في وجهه بنظرة كأنها
تقول له حانقة «ما لك شارباً، ما لك واجماً، أليس
لوجودي أثر في التسرية هناك... أدرك معناها
كله في لحظة خاطفة التقت فيها عيناها، ولكنّه لم
يستجب لعتابها الحائق الحزين، وبالعكس لعله أحسّه
وأثار ثأرته، أجل لم يحدد على شيء كما حقد على
اضطراره للبقاء معها طوال الليل، بلا رغبة، ولا
مسرة، وحتى محروماً من النشوة التي يستعين بها على
تحمل حياته الزوجية. جعل يسترق إليها النظر
ويتساءل في غرابة أليست هي هي... أليست هي
التي خلبت لي ليلة الزفاف؟... أليست هي التي
شغفتني هياماً ليلي وأسابيع؟ فما لها لا تحرك في
ساعات... أي شيء طرأ عليها ما لي أقمّل برماً
وساماً فلا أجد من حسنبا وأدبها ما يفتني عن سكرة
تأجلت! ومال - كما فعل مرّات من قبل - إلى رميها
بالنقص فيها برعت فيه زسوية وميلاتها من ضروب
الخدمة والبطارة، والحق أن زينب كانت أولى تجاربه
في المعاشرة الدائمة. فلم تطل به معاشرته المواد ولا
بائعة الدوم، ولم يكن تعلّقه بإحداها بمنعه من التنقل
إذا سنحت دواعيه، وقد ذكر لحظات حيرته هذه
وأفكاره عنها بعد مرور أعوام طوال فعرف من نفسه
ومن الحياة عاتمة ما لم يحز له في خاطر. وانتبه على
تساؤلها:

- لعلك غير مرتاح إلى البقاء إلى البيت؟...

ورقاً». إنه يجب دائماً أن تتحلّى بالصبر والحلم والعمق كيما ينطلق على هواه مطمئناً إلى خطوطه الخلفية. اشتدّ ضيقه بسجنه بعد غضبه وإنسحابها فغادر المكان إلى السطح. وجد الجوّ لطيفاً واللبلب ساجياً والظلمة شاملة إلا أنّها كثيفة تحت عرش اللبلاب والياسمين، رقيقة في نصف السطح الأحمر المسقوف بقبة السياه المرصعة بلألأ النجوم. وراح يقطع السطح ذهاباً ورجية ما بين السور المطلّ على بيت مريم ونهاية حديقة اللبلاب المشرفة على قلاوون، مستسلماً لحالات شقي، وفيها هو يسير الموهنا عند مدخل السقيفة تسلّل إلى أذنيه حفيف، أو لعلّ همس، بل أنفاس تتردّد بين لحظة وأخرى فحملق في الظلام متعجباً وهتف متسائلاً:

من هنا؟

فجاه صوت يعرفه حقّ المعرفة وهو يقول في نبرات نحاسية:

«أنا نور يا سيّدي...»

تذكر من توهّ أنّ نور جارية زوجها ثلوي ليلاً إلى حجرة خشبية لصق شخص الدجاج تحسوي بعض الكراكيب، نظر صوب السطح حتّى ميّز شبحها القائم على بعد خطوة منه كأنّه قطعة من الليل تكاثفت وتجمّدت، ثمّ تراءى له بياض عينيها الناصع كدائرتين مرسومتين بالطلاشير على سيّورة حالكة السواد، واصل سيره دون أن ينس وصورتها ترسم في خيّلتها بطريقة تلقائية، سوداء في الأربعين متينة البنيان، غليظة الأطراف، ناهدة الصدر، عبلة الأرداف، ذات وجه لامع، وعينين بترافيتين، وشفتين تمتلئتين، فيها قوّة وخشونة وغرابة، أو هكذا بدت له مد طرأت على بيته. ولجأة، وعل حين غرّة، تفجّرت في صدره نية الاعتداء كما تنفجر بعض المفرعات بلا سابق إنذار، ولكن قوّة ميطرة كأنّها تركّز فيها هدف حياته، فملكته كما ملكته على عتبة باب الفناء حيال أمّ حنفي ليلة زفاف عائشة، انبعثت في وجدانه الحامد حياة فوّارة، وانتشر الفلق في دمه حتّى تكهرّب، وحلّ محلّ الملل والسأم اهتمام حارّ ثائر جنونيّ، كلّ أولئك في لمح البصر، ودبّ النشاط في مشيته وفكره وخياله، وكفّ

وهو لا يدري عن قطع السطح من أوّلّه إلى آخره مقصراً خطّه ذهابه وإيابه إلى الثلثين ثمّ إلى النصف، وكلّما مرّ بها اضطرب جسمه برغبة عارمة. جارية سوداء؟... خادم؟... وإن كانت، له سوابق غير منكورة، ليس حتّى أن تقع بغيته على طراز زنيّة، ميزة حُسن واحدة تغني كما اغتت عينا بائعة الدم المكحولتان بحارة الطوايط اللتان شغعتا لتتنّ إبطيها وتلذّ الطين على ساقها. بل الدمامة نفسها - ما دامت قد رُكبت على امرأة - اعتذار مقبول عند شهوته العمياء كما تطلّع إليها عند أمّ حنفي أو عند ضاربة رمل عوراء خلا بها وراء بوابة النصر، نور على آية حال ذات جسم مكتنز صلب يوحى - لا شك - ملمسه بالفتوة والصراع، إلى أنّها جارية سوداء تعد بطرافة في الوصال وجدة في التجربة وتحقق للمأثور عن بنات جنسها من بعث الحرارة والدفء. وبدا الجوّ من حوله مهيباً أمناً مظليّاً فاستحوّرت رغبته وتوتّبت أعصابه واسترسل قلبه في دقّات متتابعة فرمى بنظرة شاقبة موضعها ومال في سيرة إليها بحيث «يتفق» له أن يمتدّ بها على نحو ما حين مروره بها موجّلاً الجهر برغبته حتّى يتاح له جسّ النبض في جوف من الحدر أن تكون - كما حنفي - بلهاء فتجاوب أركان البيت بفضيحة جديدة، تقدّم في خطوات وثيدة محمّلاً صوبها، يودّ بكلّ ما اضطرم في صدره من شهوة لو تنفد كليات عنيه - رغم الظلمة الفاشية - إلى نفسها، حتّى اقترب منها فاختلطت دقّات قلبه، ثمّ حاذها فمسّ كوعه أعلى جسمها ولكنّه واصل سيره كأنّ ما وقع كان عفواً، غير أنّ رعدة سرت في بدنه عند لمس الموضع الذي لم يتحقّق من هويّته في الغيبوبة التي تاه فيها عالمه فلم يبق منه عند الإفاتة النسبية في نهاية السطح إلاّ مسّ طريّ خزير الحنان وما ندّه من صاحبته من تراجع بريء أيّد ما رجّحه من عدم ارتيابها في أمره فاستدار مصمّياً على إعادة الكرة. أعاد نحوها ثانية ذراعاً حتّى مسّ كوعه إحدى يديها - لم يخطئه إحساسه هذه المرّة - ثمّ لم يسحبها كما كان ينتظر من شخص يدعي أنّه ضلّ السبيل، بل تركه يصافح الشدي الأخرى مصافحة

فجاه صوت يعرفه حقّ المعرفة وهو يقول في نبرات نحاسية:

«أنا نور يا سيّدي...»

تذكر من توهّ أنّ نور جارية زوجها ثلوي ليلاً إلى حجرة خشبية لصق شخص الدجاج تحسوي بعض الكراكيب، نظر صوب السطح حتّى ميّز شبحها القائم على بعد خطوة منه كأنّه قطعة من الليل تكاثفت وتجمّدت، ثمّ تراءى له بياض عينيها الناصع كدائرتين مرسومتين بالطلاشير على سيّورة حالكة السواد، واصل سيره دون أن ينس وصورتها ترسم في خيّلتها بطريقة تلقائية، سوداء في الأربعين متينة البنيان، غليظة الأطراف، ناهدة الصدر، عبلة الأرداف، ذات وجه لامع، وعينين بترافيتين، وشفتين تمتلئتين، فيها قوّة وخشونة وغرابة، أو هكذا بدت له مد طرأت على بيته. ولجأة، وعل حين غرّة، تفجّرت في صدره نية الاعتداء كما تنفجر بعض المفرعات بلا سابق إنذار، ولكن قوّة ميطرة كأنّها تركّز فيها هدف حياته، فملكته كما ملكته على عتبة باب الفناء حيال أمّ حنفي ليلة زفاف عائشة، انبعثت في وجدانه الحامد حياة فوّارة، وانتشر الفلق في دمه حتّى تكهرّب، وحلّ محلّ الملل والسأم اهتمام حارّ ثائر جنونيّ، كلّ أولئك في لمح البصر، ودبّ النشاط في مشيته وفكره وخياله، وكفّ

شهوته من ناحية والحلّو لاحتها من الاحتجاج الذي يستوحيه مدلول عبارتها، فجليلها بيله وهو يغمغم:
- تعالي يا حلوة.

فلسست ليله، ربّما عن رشى وربّما عن طاعة، وهو يشرّ خلتها وصفحة عنها بقبلاته مترنّحا من شدّة الانفعال، وفي نشوة السرور جعل يقول:

- ماذا غيّبك عني طول هذه الأشهر!

فأجابته بلهجتها العادية الحالية من أيّ احتجاج:

- عيب يا سيّدي.

فقال وهو يتسم:

- ما أرقّ عمامتك، زينيها منها...

ولكنّها أبعد شيئا من المقاومة عند مدخل الحجرة
قائلة:

- عيب يا سيّدي ... (ثمّ كالمحذّرة) ... الحجرة
ملأى باليق.

فدفنها وهو يمس في قفاها:

- أنام على العقارب من أجلك يا نور.

جارية، هكذا بدت بأفق ما تحمل هذه الكلمة من معاني، وقفت مستسلمة بين يديه في الظلام فوضع شفتيه على شفتيها وقبّلها بحركة وتشوّق وهي ساكنة مستسلمة كأنّها تشاهد منظرا لا دور لها فيه، حتّى قال لها بانفعال: «قبلي» ثمّ أعاد لصق شفتيه بشفتيها وقبّل لقبّله! ثمّ طلب إليها أن تجلس فردّدت قبولها «عيب يا سيّدي» الذي بدا مضحكا من ابتذاله على وتيرة واحدة فأجلسها بنفسه فاستجابت بلا ممانعة، وما لبث أن وجد لذة جديدة في تردّدها بين السلبية والإذعان فجذّ في طلب المزيد منه وتتابعت الممانعة اللفظيّة والإذعان الفعلّي ففسي الزمن، ثمّ خيل إليه أنّ الظلام من حوله يتحرّك أو أنّ غلوقات غريبة في طيّاته تتراقص، ربّما الجهد أصابه من طول ما لبث إن كان طال ليّه فإنّه على وجه اليقين لا يدرى كم لبث، أو لعلّها التيارات المتوقّدة المتلاطمة في رأسه تولّد من ارتطامها في بصره أنوار وهميّة، ولكن مهلا، إنّ جدران الحجرة تتهاوى، ناضحة بضوء خافت ذابت فيه الظلمة الداجنة ذوبانا يهتك الأسرار، ورفع رأسه

ريقة لا تبالي دفع الرب، ومضى وهو يقول لنفسه ستدرك غايي بلا شكّ، بل لعلّها أدركتها فنّد عنها ما يوحي بأنّها أرادت أن تنسحب جاثبا ولكنّها أبطلت، أو بوغت فلعلت، على أيّ حال لم تتغيّ باليد، ولم تحرك ساكنّا، فلن تصرخ فجأة كسا فعلت بنت المركوب، لنجرّب مرّة ثالثة. عاد هذه المرّة متعجّلا جزعا، فتناقل حيالها، ثمّ مدّ كوعه إلى الصدر الناهد كغربة صغيرة منتفخة، ثمّ حرّك ذراعه حركة ناطقة بالتردد والريبة معّا، وهمّ بمواصلة السير مدفوعا برغبة في الفرار لولا أن وجد منها استسلاما أو بلادة أغرقت ثياله وعيه في تيّار من الجنون فتوقّف متسائلا بصوت خرج من بخار الشهوة منصهرا متهدّجا:

- هذه أنت يا نور؟!

فقال الجارية وهي تتقهقر وهو يتبعها كيلا تفلت منه حتّى التصق ظهرها بالحائط وأوشك هو أن يلتصق بها:

- نعم يا سيّدي ...

أراد أن يقول أيّ كلام يمنّ له حتّى يتمكن من الجهر بما يضطرب في أعماقه كاللاك الذي يلوح بقبضته في الهواء متحيّنا الفرصة ليضرب ضربه القاضية فساها وأنفاسه تترامى على جيبيها:

- لمّ لمّ تذهبي إلى حجرتك؟

فقال الجارية التي تعثّرت في نطاق حصاره:

- كنت أشمّ الهواء قليلا ...

وكأنّها غلب الهم تردّده فمدّ راحته إلى خاصرتها ثمّ جلدتها برفق إلى صدره وهي تبدي ممانعة تحول بينه وبين ما يريد، ثمّ همس في أذنها وهو يلصق خدّه بخدّها:

- هلمّي إلى الحجرة.

فتمتمت في ارتباك:

- عيب يا سيّدي ...

وتنّت نبرات الناحية في الصمت ربّما أزعجه، لم تكن تتممّن أن ترفع صوتها ولكنّها - فيها بدا - لا يتأق لها الحمس أو أنّ من طبع همسها الرنين ولو في أخفض درجاته، على أنّه سرعان ما زايه الانزعاج لتوقّد

عملقاً فرأى نوراً خافتاً يتسلل من شقوق الجدار الخشبيّ مقتحماً عليه خلوته، ثم ارتفع صوت زوجة في الخارج وهي تنادي الجارية قائلة:

- نمت يا نور؟ ... نور. ألم تري مي ياسين؟

فانتفض قلبه فرغاً ووثب قائماً واندفع على عجل ولغة يتخلف ثيابه ويرتديها وهو يتخصّص الحجره ببصر زائف لعله يجد غيباً بين كراكيها، ولكن نظرة واحدة أسسته من الاحتفاء على حين صدك أذنيه وقع شئبب يقترب فلم تتالك الجارية من أن تقول بصوت بالي:

- أنت السبب يا سيدي، ماذا أفعل الآن؟

فلكزها في كتفها بقسوة حتى أمسكت، وحقق في الباب بفزع ويأس وهو يتقهقر - بدافع لا شعوري - إلى الركن البعيد عن المدخل حتى التصق بالجدار، وتجمّد في موقفه يرتقب. تتابع النداء ولا يجيب، ثم انفتح الباب ولاحت ذراع زين يتقدمها مصباح وهي تبثف:

- نور. ... نور. ...

فلم يسع الجارية إلا أن تخرج من صمتها مغمغة بصوت شاحب حزين:

- نعم يا سيّ.

فقال زين بصوت ينم عن الحنن والتعنيف:

- ما أسرع أن تنامي يا شيخه! ألم تري مي ياسين؟ ... سيدي الكبير أرسل في طلبه فبحث عنه في الدور التحتانيّ والفناء وما أنا إلا أجده فوق السطح، هل رأيته؟

وما أثقت كلامها حتى كان رأسها قد برز داخل الحجره وهو يطلّ على الجارية المرتبكة في جلستها باستغراب، ثم بحركة خريزة التفتت إلى يمينها فوق بصرها على زوجها المتصق بالخائط بجسم ضخم كأنما ترهل وتخاذل من الحزني والهوان، التفت عينها لحظة قبل أن يغضّ بصره، ومزّت لحظة أخرى في صمت قاتل، ثم نذت عن الفتاة صرخة كالغواء وتراجعت وهي تهتف ضاربة صدرها بيسرها:

- يا فضيحتك السوداء! ... أنت! ... أنت! ...

وجعلت ترتجف كما بدا من ارتجاف الصباح بيدها وارتعاش ضوئه المنعكس على الجدار المواجه للباب ثم ولّت هاربة وعويلها يمزّق الصمت. قال ياسين لنفسه وهو يزدرد ريقه وانفضحت وما كان كانه ولبت بموقفه ذاهلاً عما حوله حتى انتبه إلى نفسه فغادر الحجره إلى السطح دون أن يحظر له أن يتجاوزه. لم يذو ماذا يصنع ولا إلى أيّ مدى تذاق الفضيحة، اتنحصر في شقته أم تنتقل إلى الشقة الأخرى؟ ... ثم راح يوتغ نفسه على ذهوله وضعفه اللذين منعه من أن يلحق بها كي يحصر الفضيحة في أضيق حدود، ثم تساءل وهو في أشدّ حالات الضيق كيف يتلقّى هذه الفضيحة؟ هل يسعفه الحزم هنا أيضاً؟ ربّما لو لم تسرب نبؤها إلى أبيه. وسمع حركة آتية من ناحية الحجره المششومة فالتفت نحوها فرأى شيخ الجارية يغادرها ويده لفة كبيرة، ثم هزلت نحو باب السطح ومزقت منه، هرّ كتفيه استهانة، وفيها هو يتخسّس صدره بيده أدرك أنه نسي أن يرتدي القنّالة فعاد إلى الحجره مسرعاً.

٥٨

في الصباح الباكر طُرق الباب، وكان الطارق شيخ الحارة، فقابل السيّد أحمد وأخبره بأنه مكلف من لدن السلطات بإبلاغ سگان الأحياء المحتلة بأنّ الإنجليز لن يتعرّضوا إلا للمتظاهرين وأنّ عليه أن يفتح دكانه، وعلى التلميذ أن يلذهب إلى مدرسته والموقوف إلى وظيفته، وحذّره من حجز التلاميذ أن يظنّوا من المضربين لافتاً نظره إلى الأوامر المشدّدة بمنع المظاهرات والإضراب، بذلك استردّ البيت نشاطه الذي يستقبل به الصباح. وتنقّس رجاله الصعداء لإطلاق سراحهم بعد حبس البارحة، واستروحت النفوس شيئاً من الطمأنينة والسلام. قال ياسين لنفسه تعقياً على زورة شيخ الحارة: «الأحوال خارج البيت تتحسنّ أمّا داخله فهي طين ووحل»، أجل قضت أكثرية أهل البيت ليلة نكراء أحاطت بها الفضيحة ومزّق أوصالها النكد، زين لم يستطع الصبر الذي تغلق به صدرها على حزنها وتذمّرها أن يصمد للمنظر المروّع الذي رآه

عينها في حجرة جاريتها فضجّر صدرها قاذفاً بِشَواطئه كلّ سبيل، تعمّدت تعمّداً أن يقرع عويلها آذان السيّد فجاءها مهرولاً متسائلاً... وكانت الفضيحة... قصّت عليه كلّ شيء متشجّعة بانفعاها الجنوني الذي لعلها لولاه ما وانتهت شجاعته على مواجهته بما قصّت لما باتت تجد نحوه من جيّب لم تجد مثله حيال أحد من الناس، انتقمّت بذلك لكرامتها اللبّية، وللصبر الذي تجرّعته حيناً مختارة وحملت عليه في أكثر الأحيان: «جارية! خادمة! في من أمّه ولي بقي! ماذا عساه أن يفعل في الخارج إذن؟» لم تكن تبكي غيرة أو لعل الغيرة توارت إلى حين وراء حجب كثيفة من التقرّز والغضب كما تتوارى النار وراء سحب الدخان، وكأنّها غدت تزوّر الموت على أن تبقى معه تحت سقف واحد ولو يوماً واحداً بعد ما كان، أجل هجرت مخدعها فقصّت الليل في حجرة الاستقبال يقطر أكثره تهلّي هذين المحمومين ونالمة أقلّه نوماً ثقيلاً مريضاً مزعجاً، أصبحت وهي مصمّمة على هجر البيت. لعلّ هذا التصميم وحده الذي وجدت فيه مسكناً لأوجاعها. ماذا يوسع حبيبها نفسه أن يفعل؟... لن يستطيع أن يمنع الذكر بعد أن وقع، ولن يسمعه منها يكن جبروته أن ينزل بزواجها العقاب الذي يستحقّه حتى يستشفى صدرها، أقصى ما يراه أن يزجره، أن يصبّ عليه غضبه، وسينصت - الفاسق - خافض الرأس كي يواصل فيها بعد سيرته الخفيّة... هيهات. لقد رجّاه السيّد أن تدع الأمر بين يديه، ونصحها طويلاً أن تعرض عن زلته مستوصية بصبر الفضليات من مثالاتها، ولكنّها لم تعد تحتمل الصبر أو العفو. جارية سوداء فوق الأربعين... كلّاً. ستهجّره هذه المرّة بلا تردّد، ستفضي إلى أبيها بيئها كلّ، وستبقى في كتفه حتى يثوب إلى رشده، فإذا جاءها بعد ذلك نادماً، وغير من سلوكه أو فلتذهب هذه الحياة كلّها - بخيرها وشرّها - إلى الشيطان، أخطأ ياسين حين ظنّها قد طوت صدرها على كربها عقلاً وحكمة، الحقّ أنّه غلبها الجزع من بادئ الأمر فبثّت منها إلى أمّها، ولكنّ الأمّ أثبتت أنّها

امرأة حكيمة فلم تدع الشكوى تتسرّب إلى الأب، وأوصت ابنتها بالصبر قائلّة إنّ الرجال يسهرون - كوالدنا مثلاً - وإثمهم أيضاً يشربون، وإنّه حسبها أنّ بيتها عامر بالخير، وأنّ زوجها يعود إليها مهما سهر ومهما سكر. أصغت الفتاة إلى النصيحة على مضض، وجاهدت نفسها أمّا جهاد متحمّلة بالصبر ولم تألّ أن تحمل نفسها على الرضى بالواقع والقناعة من أحلامها العريضة بما سمحت به الحقيقة خصوصاً وقد دبّ الجنين في بطنها مبشّراً بالأسومة المرموقة. ربّما كمن التلّمز في أعماقه بيد أنّها راضت نفسها على التسليم متأسّبة بأنّها تارة وطوراً بامرأة سيّدها الكبير، ثمّ لم يخلّ الحال من ريبة تختلج في صدرها بين حين وآخر عمّا يمكن أن يفعل زوجها في سهراته الخمرية، وحدث أن أفضت إلى أمّها بمخاوفها، بل لم تحفّ عنها ما لحق بالرجل من فتور في عواطفه. ولكنّ الأمّ الحكيمة أفهمتها أنّ ذاك الفتور ليس حتّى نتيجة لما يقع في خاطرها، إنّّه «شيء طبيعي» وإنّ الرجال جميعاً لديهم سواء، وأنّها سوف تقتنع به بنفسها كلّما تقدّمت بها تجارب العمر... على أنّه لو صدقت وسأوسها فماذا تراها فاعلة؟... هل تراها تهجر بيتها لأنّ زوجها يأمّ بغيرها من النساء؟... كلّاً. وألف مرّة كلّاً، لو تحلّت امرأة عن مكانها لسبب كهذا لأقشرت البيوت من الفضليات، والرجل قد يطمع طرفه إلى امرأة أو أخرى ولكّنه يعود دائماً إلى بيته ما دامت زوجته خليقة بأن تبقى عنده المرجع الأخير والمأوى الثابت، والعاقبة للمصابرات. ومضت تذكّرها بالطلقات بلا ذنب واللائي يشركهنّ في أزواجهنّ أخريات، أليس طيش زوجها - إن صحّ - خطيئاً أخفّ من سلوك أولئك؟ ثمّ إنّّه لم يجاوز الثانية والعشرين من عمره، ومصره يعقل فيشوب إلى بيته ويشغل بذكرته عن الدنيا جميعاً، ومعنى هذا أنّه ينبغي لها الصبر حتى لو صلبت وسأوسها فما بالها والوساوس لم تصدّق؟ رددت المرأة هذا، وغيره ممّا يجري مجراه، حتّى سلس جراح الفتاة وأمنت بالصبر وراضت نفسها عليه. بيد أنّ واقعة السطح قضت على كلّ ما وكلّت النفس عليه فانهار البنيان جميعاً كان لم

يكن.

ومع أنَّ السَّيد لم يفسن إلى هذه الحقيقة المؤسفة فظنَّ الفتاة قد امتثلت لنصيحتة إلا أنَّ غضبه كانت أشدَّ من أن تُغرَّ بسلام، وقد أحسنت الجارية صنعا بفراقها، أمَّا ياسين فلم يبرح السطح، لبث يفكر منزعا في العاصفة التي تترصص به، حتى ترمى إلى أذنيه صوت أبيه وهو يتناديه بنبرات كثرقة السياط فلنق قلبه، ولكنَّه لم يجب ولم يستجب وتسرَّ يائسا في مكانه، وما يدري إلا والرجل يقتحم عليه السطح ثم يقف ملدما لحظاته وهو يتفحص المكان حتى يستر على شبحه فيتجه إليه ويقف على كعب منه شابكا ذراعيه على صدره مصوتا نحوه رأسا متعرجا، ملتزما الصمت ومطيله كي يطيل له به العذاب والإرهاب، كأنه أراد بصمته أن يعمر له عما يجد نحوه عما يحيي الألفاظ حله، أو أنه أراد أن يرمز به إلى ما كان يؤدُّ أن يؤدِّيه به من مُرح الركل واللكم فمنعه منه استواؤه رجلا وزوجا، ثم لم يعد يستطيع مع الصمت صبرا فانال عليه سبًا وتعنفاً وهو يتفقد غضبا وهيبا وأنت تتحداني تحت سمعي وبصري... فلتذهب أنت وبخزك إلى جهنم... دُست بيبي يا وغد، هيهات أن يتطهر هذا البيت ما دمت فيه... كان لك قبل الزواج صدر وإه فأيَّ صدر لك الآن؟!... «لو أصاب كلامي حيوانا لأذبه ولكنَّه ينصب على حجر... إنَّ يئسا يضملك خليك بأن تستزل عليه اللغات... نفس عن صدره المستمر بكلمات كالرصاص المنصهر ياسين بين يديه ساكن صامت خافض الرأس كأنه يوشك أن يلوب في الظلام، حتى أجهد الرجل الزعن فوَّاه ظهره وغادر المكان وهو يلمنه ويلعن أباه وأمه، ومضى إلى حجرته يغور بالغضب فوراً. في ثورة الغضب رأى زلة ياسين جريمة تستحق الإبداء، وفي ثورة الغضب لم يعد يذكر أنَّ ماضيه كله صورة مطوَّلة متكررة من ذلة ياسين، وأنه لا يزال دائبا على سلوكه وقد انتصف به العقد الخامس وشبَّ أبناؤه فصار منهم الأزواج والزوجات. لا لأنه في ثورة الغضب ينسى حقاً، ولكن لأنه يُحَلِّ

لنفسه ما لا يُحَلِّ لأحد من ذويه، له أن يفعل ما يشاء وعليه التزام الحدود التي يريدهم على أن يلتزموها فلعلَّ غضبه على ما في ذنب ياسين من «تحدُّ» لإرادته واستهانة بوجوده وتشيويه» للصورة التي يجب أن يتصوَّره بها أبناؤه، كان أضعاف غضبه على الذنب نفسه، على أنَّ غضبه - كما هي عادته - لم يستمر طويلاً، ما لبث أن خبا لظله وحده توقَّده فعاوده الهدوء رويداً وإن شاب مظهره - مظهره فقط - الوجوم والأسى، عند ذلك أمكنه أن ينظر إلى «جريمة» ياسين من أكثر من زاوية واحدة، أمكنه أن يتأملها بعقل مستقرَّ فانجل له قناعها عن مواضيع شتى ساعرة تسلُّ بها عن وحلته الاضطرابية. أوَّل ما ابتدر ذهنه أن يلتصق للمذنب علداً، لا جأ في التسامح فأنه يكره التسامح في بيته، ولكن ليتخذ من ذلك العذر المرجى «مبرراً» لخروجه عن إرادته، كأنما يقول لنفسه «إنَّ ابني لم يشق عصا الطاعة... هيهات، ولكن عذره كيت وكيت... ولكن هل يلتصق له العذر عند شيابه باعتباره عهد طيش ونزق؟... كلاً. إنَّ الشباب عذر عن الذنب وليس عذراً عن خروجه عن إرادته والَّا لجاز لفهمي بل لكيا أن يتبادي في الاستهانة بتعاليمه، ليلتمس العذر إذن عند رجولته، هذه الرجولة التي تحلُّ له أن يستقل بنفسه عن إرادته ولو شيئاً ما وتعفيه هو - السَّيد - من تحمُّل مسئولية فعله، كأنما يقول لنفسه: «إنَّه لم يخرج على إرادتي، هيهات، ولكنَّه بلغ السن التي لا يعد فيها ذنبه خروجا على إرادتي...» وغفَى عن القول إنَّه يأبى أن يعترف أمامه بهذا الحق وإن يعفو عنه لو يحاسر على المطالبة به، بل إنَّه لا يعترف له به فيها بينه وبين نفسه إلا في حال الوقوع في معصية تستوجب مبرراً للخروج عن إرادته، ولم ينس حتى في تلك الحال أن يذكر نفسه التماساً للمزيد من الطمأنينة - بأنه آتبه نادياً غليظاً نادراً قلَّ من يستبيحه من الآباء فقول بل بخسوع كامل قليل من يتحمَّله من الأبناء... وعرج خاطره إلى زينب متفكراً ولكنَّه لم يجد نحوها أيَّ عطف، لقد واساها إكراماً لابنهما العزيز الحبيب، ولكنَّه لا يظنُّ أنَّ الفتاة جديرة بابيها حقاً، ما

ورود الزارع الأخير على ذمته، وخيل إليه أنه يغبط ياسين على ريق شبابه وجنون زلته متآ... مها يكن من أمر فالطبعيتان مختلفتان، لم يكن السيد - كاتبه - مغرمًا بالمرأة بلا قيد ولا شرط، امتازت شهرته دائمًا بالرفاهية وحداها بالانتخاب الرفيع، بل أثرت في ميزاتها ميزات اجتماعية ضمت إلى الميزات الطبيعية المألوفة، كان مغرمًا بالجمال الأنثوي في لحمه وتبخرته وأناقته، فلم تغل جليلة أو زبيدة أو أم مريم وعشرات غيرهن من مينة أو أكثر من هذه الميزات، وفضلاً عن هذا كله فلم يكن مزاجه ليصفو ويطيب إلا بالنظر البهيج والمجلس الأنيس وما يتبعهما من شراب وسمر وغناء، فلا يكاد يمضي طويل وقت على عشيقة جديدة حتى تظفن إلى هواه فتنهله ما تنفر إليه نفسه من جرّ عذب يعبق فيه الورد والبخور والمسك، وكما كان يعشق الجمال مجرّداً كان يشقه كذلك في حالاته الاجتماعية اللاأمة. تجلده المكانة المرموقة والصيت الجيد، وليلذ له أن ينزه خاصته بمشقه ومعشوقاته إلا فيما ندر من أحوال توجب التستر والكتان كحال أم مريم، على أن هذا الحب والاجتماع لم يكن ليفرض عليه تضحية بالجمال، فالجمال والصيت - في هذا المجال - يسيران جنبًا جنب كالشيء وظلّه، وغالبًا ما يكون الجمال اليد الساحرة التي تشقّ السبيل إلى الصيت والمكانة المرموقة، وقد عشق أشهر عوالم عصره فلم تحبّ إحداهنّ نزوعه إلى الجمال وولعه بالحسن. هذا ما جعله يذكر نزوات ياسين بازدراره وهو يردد مستنكرًا وأمّ حنفي! نور... يا له من حيوان! إنه بريء من هذا الشلذوذ بيد أنه ليس في حاجة إلى أن يتسامح طويلًا عن مصدره فإنه لم ينس بعد ذلك المرأة التي أنجبت ياسين فأودعته طبيعتها المولعة بالقدارة، إنه مسئول عن قوة شهرته أمّا هي فمسئولة عن نوع هذه الشهرة النزاعة إلى الحضيض. وقد عاوده في الصباح التفكير «الجنسي» في المسألة فكاد يدعو الزوجين إليه كي يصنّفا بينهما - وما بينه وبين كليهما - من حساب، ولكن أرجأ ذلك إلى متسع من الوقت أنسب من الصباح.

كان يخلق بزوجة كريمة أن تفضح زوجها - مها تكن الظروف - على النحو الذي فضحت به ياسين... لشد ما أصولت!... لشد ما صرخت!... ماذا كان يصنع هو - السيد - لو أنّ أمينة فجّأته يومًا بمثل هذا التصرف؟! ولكن أين هي من أمينة؟! ثم كيف قضت عليه ما رأت دون حياء... أف...! أف! لو لم تكن هذه الفتاة كريمة محمد عفت لحقّ لياسين أن يؤذيها بل لما رضي هو أن تمرّ هذه الواقعة دون عقاب زاجر، لقد أخطأ ياسين ولكّنها أخطأت خطأ أكبر. ثم عاد إلى ياسين سريعًا فراح يفكر - بباطن مبسم - في الطبيعة الواحدة التي تجمع بينهما، تلك الطبيعة الموروثة عن الجدّ بلا ريب، ومن يدري لعلّها تضطرم الآن في صدر فهمي تحت قناع التهذيب والاستقامة، بل ألا يذكر كيف عاد يومًا إلى البيت على غير انتظار فترامى إلى سمعه صوت كمال وهو يغني «يا طير يا لي على الشجرة»... تأخّر لحظتها ذلك وراء الباب - لا ليتظاهر بأنّه وصل بعد انتهاء الغناء فحسب - ولكن ليتابع الصوت متوقّفًا معدنه سابّرًا طول نفسه، حتى إذا ما ختم الغلام النغمة صفق الباب بقوة وهو يسلم ومضى إلى الداخل طأويًا صدره على ابتهاج لم يغلظ عليه أحد، كم يلدّه أن يرى نفسه مترعرة من جديد في حياة ابنائه على الأقلّ في ساعات الهدوء والصفاء، ولكن رويّدًا... إنّ لياسين طبيعة خاصة به لا يشركه هو فيها، أو أنّه لا تجمع بينهما طبيعة واحدة إذا روعي للمعنى الدقيق لهذه الكلمة، ياسين حيوان أهمي... ينقضّ مرّة على أمّ حنفي ويضبط مرّة أخرى مع نور، يتسرّع في التراب دون مبالاة، وما هكذا هو! أجل إنه يدرك مقدار الضيق الذي ألّم بياسين لاضطراره إلى قضاء الليلة في شبه سجن، يدرك لأنّه كابده هو أيضًا كثيرًا عزوئًا كمن فقد عزيزًا، ولكن هبّه كان يتنزه في بستان السطح - كما فعل الفتى - فصادف جارية - ولنفترض أنّها تكون ملّية لندوة...! أكان يقدم على المغامرة?... كلا. مؤكّد كلاً، ولكن أيّ وازع كان يشكّه?... لعلّه المكان؟ الأسرة! ولعلّه العمر الرشيد. أه. لقد تضايقت عند

ولكنه لم يفعل بغير استعطافها. لم يتجاسر على أن يتحدثهم ولو بالنظر وهو يتلمس سبيله تحت رحمتهم، تخشى أن يتحرف بصره إلى أحدهم، ومضى إلى البيت متسائلاً في سخرية عما كانوا يفعلونه لو أنهم علموا بأنه راجع من مظاهرة اشتبكت مع جنودهم في شبه معركة، أو أنه وَّزَع في مطلع اليوم عشرات المنشورات التي تحرض على قتالهم، جلس يستعرض ما لاقاه في يومه مستحضرًا أقله كما وقع وأكثره كما كان يتمنى أن يكون. هكذا كان رأيهِ أن يعمل نهارًا وأن يحلم مساءً. تحدوه في الحالين أسمى العواطف وأفزعها، حبُّ قومه من ناحية والربة في التقيل والإبادة من ناحية أخرى، أحلام يسكر بها وقتًا يطول أو يقصر ثم يفيق منها على حسرة لاستحالتها وتورس لسخافة تصوراتها، أحلام تنسج لحمتها وسداها من معارك يتقدّم صفوفها كجأن دارك، واستيلاء على سلاح للعدوِّ ثم الهجوم عليه، هزيمة الإنجليز، خطبة خالدة في ميدان الأوبرا، اضطراب الإنجليز إلى إعلان استقلال مصر، عودة سعد من المنفى طافراً، لقاء بينه وبين الزعيم وكلمة الزعيم، مريم بين شهود الافتتاح التاريخي. أجل كانت أحلامه تتوَّج دائماً بصورة مريم رغم انزوائها - طوال تلك الأيام - في ركن قصي من قلبه الذي شغلته الشواغل كلها كما يزوي القمر وراء السحب إيان العاصفة. وما يدري إلا وأمه تقول له وهي تشدّ المنديل حول رأسها في ارتباك:

- ذهبت زينب إلى بيت أبيها غضبانه.

آه... كاد ينسى ما ألمّ بأخيه وأسرته في الصباح، الآن تأكد لديه ما حنسه حين علم باختفاء الجارية نور، وتخشى عيني أمه حياه أن تقرا ما يدور بخلده خصوصاً وأنه يقين بأسلطها على جليلة الأمر، ولم يستبعد أن تقطن إلى إدراكه له أو في الأقفل أن ترجحه، فلم يلبّ ما يقول لا سيّما أنه لم يعتد في عاداتها أن يبدي خلاف ما يبين، ولم يكن أبغض لديه من أن يقوم للمكر مقام الصراحة بينها، فقتن بأن يتمتم قاتلاً:

- ربنا يصلح الحال...

ولما سامل فهمي ياسين عما دعاه إلى التخلّف عن المائدة أجابه مقتضباً بشيء ثاقب سوف أحدثك عنه فيما بعده وظل فهمي جاهلاً سرّ غضب أبيه على أخيه حتى علم باختفاء الجارية نور فحلس الأمر كله. شهد الصباح الأسرة على غير مالوفها فقد غادر ياسين البيت مبكراً ولزمت زينب حجرتها ثم غادر الرجال البيت واجفين متحاشين أن يرفعوا بصرًا صوب الجنود والألم من وراء خصاص المشربة تدعو الله أن يثبهم من كل سوء. ولم تشأ أمينة أن تقحم نفسها في «واقعة» السطح فنزلت إلى حجرة الفرن وانتظرت بين حين وآخر أن تلحق بها زينب كالعادة. لم تكن تقرّها على غضبتها لكرامتها فتدعيها تدليلاً أثار استياءها، وجعلت تسامل وكيف تدعي لنفسها من المحقوق ما لم تدّعه امرأة قطاً؟...

لا ريب أن ياسين قد أخطأ فدنّس البيت الطاهر ولكنه أخطأ في حق أبيه وحرمة لا في حقها هي... ألسنت مكلّماً بالقياس إلى هذه الفتاة؟... ولكن لِمَا طال بها الانتظار لم تعد تستطيع تجاهلها وأقنعت نفسها بوجوب الذهاب إليها بواسطة فصعدت إلى شقتها وانداحت، ثم دخلت الحجرة فلم تعثر لها على أثر، ومضت من حجرة إلى حجرة وهي تنادي حتى فتّشت البيت ركنًا ركنًا، ثم ضربت كفاً بكفّ وهي تقول ورّبا... هل ارتفعت زينب أن تهجر بيتها؟!...

٥٩

لم تنجُ أمينة سحابة النهار من قلق، فإنّ احتمال تعرض الجنود لأحد من رجالها في ذهابه أو إصابه لم يكذب يفارق رأسها. وكان فهمي أَوَّل المائدين فتصفّحت لدى رؤيته من بعض آثار قلقها ولكنها راته متجهّياً فسأله:

- ماذا بك يا بني؟

فهتف فهمي متأقفاً:

- أكره أن أرى هؤلاء الجنود...

فقالت المرأة بإشفاق:

- لا تُبِد لهم الكراهية، إن كنت تحبني لا تفعل...

الموسكي، ملأه الامتان والزهو، تورد وجهه المكتنز وضحكت أسايريه وكأن عبارة «لأنك يوم نيشان سام» تقلده على الملأ، إلا أنها ضمنت له أن يذهب ويحيى أمام المعسكر أمناً، وما كاد الرجل يبيدي أول حركة للذهاب، حتى قال له متودداً من أعناق فؤاده:

- حظ سعيد يا سيدي.

ومضى إلى البيت كالمترنح من الفرح. أي حظ سعيد ظفر به هو!... إنجليزي! لا أستراي! ولا هندي! وابتسم له وشكره!... إنجليزي أي رجل يتمثل في خياله كالمثوذج لكلال الجلس البشري، ربما أبغضه كما يبغضه المصريون جميعاً، ولكنته في قرارة نفسه يحترمه ويحبه حتى ليخيل إليه كثيراً أنه من طينة غير طينة البشر، هذا الرجل ابتسم له وشكره!.. وقد أجابته إجابات صحيحة مقلداً ما وسعته مرونة شديقه طريقة النطق الإنجليزيتي فنجح نجاحاً باهراً استحق عليه الشكر... كيف يصنق ما ينسب إليهم من الأعمال الوحشية! لماذا نفوا سعد زغلول إذا كانوا على هذا الظرف كله؟ غير أن حماسه فزع بمجرد أن وقع بصره على الست الأمنية وفهم واستطاع أن يقرأ نظريتها، وسرعان ما أقبل ما كان انقطع من حين من حبل همومه، انتبه إلى أنه يواجه مرة أخرى المشكلة التي هرب منها مع الصباح الباكر. تسام! وهو يشير بأصبعه إلى فوق:

- لماذا لا تجلس معكم؟ ألا تزال غضبانية؟
فتبادلت أمنية مع فهمي نظرة ثم تمنت بارتياك:
- ذهبت إلى أبيها.
فرجع حاجبيه دهشة وإنزعاجاً ثم سألهما:
- لماذا تركتها تذهب؟
فقالت أمنية وهي تنهت:
- تسكنت دون أن يشعر بها أحد.
شعر بأنه يجب أن يقول قولاً يرضي كرامته أمام أخيه وأنه فقال باستهانة:
- إلى حيث...
وقرر فهمي أن يقاوم رغبته في اللواذ بالصمت كي يوهم أخاه بأنه لم يطلع على سره وبالتالي أن يغني

لم تنبس أمنية بكلمة كأن إخضاع زينب من التضاعة بحيث تكفي جملة إخبارية وأخرى دعائية في معالجته، وما لبث فهمي أن دأى ابتسامه كادت تفصح تحفته إذ أدرك أن أمه تكاد مثل شعوره وأنها تعاني ارتباكاً لعجزها الفطري عن التمثيل، لم تكن تحسن الكلب، وحتى إذا اضطرت إليه أحياناً كشفتها طبيعة لا تستقر على بساطتها الآتية، على أن ارتباكها لم يطل فما هي إلا دقائق حتى رأيا ياسين مقبلاً نحوهما. خيل إليها أنه يطالعها بوجه لا يقدر المشاهب التي ترصد في البيت وإن لم يعلم بعد يمدى ما بلغته، ولم يدهش فهمي لذلك كثيراً لما يعلمه من استهائه بالمشاهب التي تنوره بخبره من الناس، ولكن الحقيقة أن ياسين غلبه شعور باهر بأنه اجتاز مغامرة ظافرة أنسته إلى حين جل متاعبه. كان في طريقه إلى باب البيت حين اعترض سبيله جندي كأنما انشقت عنه الأرض فارتعدت مفاصله وتوقع شراً لا قبل له به أو في الأقل إهانة جارحة على مرأى من أصحاب الخوانيت والملازة، ولكنه لم يرتد في الدفاع عن نفسه، فقال برقة وتودد مخاطباً الجندي كأنما يستأذنه في المرور:

- من فضلك يا سيدي.

ولكن الجندي طلب عود ثقاب وهو يتبسم - أجل يتبسم - فذهل ياسين لابتسامته حتى استمعى عليه أن يفهم مراده حتى أعاده، لم يكن يتصور أن جندياً إنجليزياً يتبسم على هذا النحو، أو - إذا كان الجنود الإنجليز يتبسمون كسائر البشر - أن يتبسم له أحدهم فيما يشبه الأدب، فاستخفه سروراً أريكه حتى لبث جامداً لحظات لا يجري جواباً ولا يبيدي حراكاً، ثم توتب بكل ما فيه من قوة لأداه هذه الخدمة البسيطة لذلك الجندي العظيم المتبسم، ولما كان غير مدخن فلا يعمل ثقاباً فقد بادر إلى الحاج درويش بالغ الفول وإتباع علبة ثقاب وهرج إلى الجندي ماذا له يده بها فتناولها الجندي وهو يقول:

- أشكرك.

لم يكن أفان من أثر الابتسامه السحرية فجاء الشكر كقصد البيرة الذي يعمل به من استوفى طاقته من

شبهة إذاعته هذا السرّ عن أمّه فسأله ببساطة:

- ما الذي دعا إلى هذا النكد؟!

فحججه ياسين بنظرة متفحصة ثمّ لوح بيده الغليظة وهو يحيط بوزنه كأنما يقول له وليس ثمة ما يدعو إلى النكد، ثمّ قال:

- بنات اليوم لم تعد يهنّ طائفة على حسن المعاشرة.

ثمّ ناظرًا إلى ستّ أمينة:

- أين هنّ ستات الأمس؟!

نكّست أمينة رأسها حياء في الظاهر، وفي الخلق لتداري ابتسامه لم تستطع مغالبته حينما ربط ذهنها بين الصورة التي يتخلها ياسين الآن، صورة المتأسل الواعظ المجهنّ عليه، والصورة التي ضبط بها مساء أمس فوق السطح. حلّ أنّ انزعاج ياسين كان أعظم بكثير من القدر الذي سمح له الموقف بأنّ يتظاهر به، فإنّه حلّ فداحة الحيلة التي لمي بها في حياته الزوجيّة لم يتكرّر لحظة في قطع هذه الحياة، وجد فيها ملاذًا مستقرًا ورعاية إلى ما بشرت به من أبوة وشبكة رخب بها أتماّ ترحيب، ثمّى دائمًا أن يبقى وراء ظهره ليعود إليها من شئّ جولته كما يعود الرخالة في نهاية العام إلى وطنه، ولم يقب عنه ما سيجرّه عليه ذهاب زوجته من نزاع جديد بينه وبين أبيه وبين السيّد عفت، إلى ما يلبس هذا كله من فضيحة ستفوح رائحتها حتّى تتركّم الأنوف... بنت الكلب!... لشّد ما كان مصمّيًا على أن يستدرجها إلى الاعتراف بأنّها انحطت خطأ أكبر من خطئه، بل لعلّه اقتنع بذلك لدرجة تقرب من اليقين، فاقسم ليحملها على الاعتذار وليأخذ نفسه بتأديبها بمختلف الوسائل، ولكنّها ذهبت... قلبت خطئه رأسًا على عقب... وضعمته في مازق غير يسير. بنت الكلب!... وانتزع من تيار أفكاره على صوت صراخ يمزّق الصمت المحيط بالبيت فالتفت صوب فهمي وأتمّه فوجدهم يرهقان السمع باهتمام وقلق، وتواصل الصراخ فأدركوا بسهولة أنّه صادر عن امرأة، ولكنّ تساءلت أعينهم عن الناحية التي يترامى منها وعن سببه: أنسي ميت أم عراك أم استغاثة، وراحت أمينة تستعيد بالله من الشرور جيّما حتّى قال

فهمني:

- إنّه قريب... لعلّه في طريق بيتنا.

ونفض فجأة مقبلاً جيبيه وهو يتسامل:

- ألا يكون الإنجليز قد هاجموا امرأة مازّة بالطريق؟ وهرع إلى المشريّة والأحمران في أثره، بيد أنّ الصراخ انقطع غير تارك وراءه دليلًا على الناحية التي ترامى منها، فرمى ثلاثتهم بأنظارهم خلال الحصاص يتفحصون الطريق فاستقرّت على امرأة لفتت الأنظار بوقفته الغريبة وسط الطريق ومن أحاط بها من المازّة وأصحاب الخوانيت، حلّ أنّهم عرفوها لأوّل وهلة وهنّوا معًا:

- أمّ حنفي...!

وتساءلت أمينة التي كانت أرسلتها لتعود بكيال من المدرسة:

- ما لي لا أرى كيال معها؟! وماذا يوقفها هكذا كالجناد! كيال... ريثا... أين كيال؟
ثمّ مدفوعة بشعور غريزي:

- هي التي كانت تصرخ... عرفت الآن صوتها... أين كيال؟... أغشولي...

لم ينبس فهمي ولا ياسين بكلمة. استقرّهما فحص الطريق عامّة والمعسكر الإنجليزّي خاصّة حيث رأوا أنظار المتجمّعين - وفي مقدّمهم أمّ حنفي - تتجه. لم يكن ثمة شكّ لديها في أنّ أمّ حنفي هي التي صرخت حتّى جمّعت الناس حولها، بل شعرا بالبداهة أنّها كانت تستغيث لأنّ ثمة خطرًا تهدّد كيال، ثمّ تركّزت مخاوفها في الإنجليز. ولكن أيّ خطر هو؟... وإين كيال؟... ماذا حدث للغلام؟ إنّ الأمّ لا تكفّ عن الاستفائة بدورها وهما لا يدرسان كيف يسكنان خاطرها، لعلّهما في حاجة إلى من يسكن خاطرها... أين كيال؟... إنّ الجنود ما بين جالس وواقف وماضٍ لطيته، كلّ مشغول بشأنه كأنّ شيئًا لم يقع وكان أحدًا من الناس لم يتجمّع. وهتف ياسين بفتنة وهو يلكرز فهمي في كتفه:

- ألا ترى هؤلاء الجنود الواقفين على هيئة دائرة تحت سبيل بين القصرين؟... إنّ كسالم يقف

وإشارات يديه التي استعان بها على الإفصاح عن أفكاره قدلّ التفاهم بينه وبينهم على أنهم يستطيعون إلى حدّ ما استعمال اللغة العربية، ولكن ماذا يقول لهم أو ماذا يقولون له؟ .. هذا ما لم يستطع أحد أن يخمنه، بيد أنهم ثابروا إلى رشدهم، حتّى الأم نفسها استطاعت أخيراً أن تشاهد المنظر العجيب الذي يمثّل تحت نظريها بدهشة عمزوجة بقلق صامت دون حويل أو استغاثة، على حين جعل ياسين يضحك قائلاً:

- الظاهر أننا غالباً في التشاؤم حيناً ظناً أن احتلال هؤلاء الجنود لحيتنا سيكون مصدر متاعب لنا لا تنتهي.

ومع أن فهمي بدا يمثلاً لسلوك الجنود مع كمال، إلا أنه لم يرتح إلى ملاحظة ياسين فقال دون أن يتحوّل عيناه عن الغلام:

- ربّما اختلفت معاملتهم للرجال أو النساء عن معاملتهم للأطفال. لا تُفكّر في تفاؤلك.

وكاد ياسين يتدفّع متحدّثاً عن مغامرته السعيدة، ولكنّه أدرك لسانه في اللحظة المناسبة فأسكّ تغلّياً من إثارة أخيه، ثمّ قال على سبيل الملاحظة والتودّد:

- ربّنا يخلصنا منهم على خير.

وتساءلت أمينة في لهفة:

- ألم يشّ لهم أن يدعوهم مشكورين؟

ولكن بدا على دائرة كمال أن ثمة جنيداً ينتظر، فقد تراجع أحد الجنود الأريمة إلى خيمة قريبة ثمّ عاد بعد قليل بكرسيّ خشبيّ فوضعه أمام كمال، وما لبث الغلام أن وثب إلى الكرسيّ فوقف منتصب القامة مشدود الذراعين إلى أسفل، كأنها ينتظمه طابور القسم المخصوص، وقد انحدر طربوشه إلى قذالده - دون شعور منه في الغالب - كاشفاً عن مقدّم رأسه الكبير البارز. ما خطبه؟ ماذا وراء هذه الوقفة؟ لم يطل بأحد التساؤل إذ سرعان ما علا صوته الرفيع وهو ينشد:

يا عزيز عيبي بسّي أروّح بلدي
يا عزيز عيبي السلطة خلدت ولدي
غناها مقطّماً مقطّماً بصوته اللطيف والجنود يتطلّعون إليه فاغري الأفواه ضاحكي الأسارير تلاحق أكتفهم ترديده بالتصفيق، وكان أحدهم قد تأثر بما

بينهم... انظر.

فلم تلك الأم أن صرخت قائلة:

- كمال بين الجنود... ها هو يا ربّي... ربّاه... أغثوني.

أربعة جنود عايفة وقفوا على هيئة دائرة متساوي الأضلاع، وقد مرّت عيناهم في أكثر من مرّة دون أن تعثرا على ضالّتها، في هذه المرّة لمح كمال والفتاً وسط الدائرة كما لاح من فرجة انشقت عنها ساقا الجنديّ الذي يوليهم ظهره، خيّل إليه أنهم سيتقاذفونه بأرجلهم كالكرة حتّى يقضوا عليه، أنساه خوفه على أخيه نفسه فاستدار قائلاً بنبرات مضطربة:

- سأذهب إليه مهما تكن العواقب...

ولكنّ يد ياسين قبضت على منكبيه وهو يقول بصوت حازم «قف»... ثمّ خاطب الأم بصوت هائى باسم قائلاً:

- لا تخافي... لو أنهم أرادوا أن يصيبوه بسوء ما تردّوا... انظري إليه ألا يبدو منهمكاً في حديث طويل؟ ثمّ ما هذا الشيء الأحمر الذي بيده؟ أراهم على أنها قطعة من الشيكولاتة... هذلي روعك... إنهم يتسلّون به وومتهدّاء شدّ ما أفرعنا على لا شيء. سكن روع ياسين، وما لبث أن تذكّر مغامرته السعيدة مع الجنديّ فلم يستبعد أن يوجد له من زملائه نظائر في لطفه ورقيقته، ثمّ رأى أن يدهم قوله ويثبته في فؤاد الأم المتنازع فأشار إلى أمّ حنفي التي لم تزل في موقفها قائلاً:

- ألا تريان أن أمّ حنفي لم تكفّ عن الصراخ إلا حين لم تجد داعياً له. ها هم الناس ينفضّون من حولها تعلوهم الطمأنينة.

فغمضت أمينة بصوت مرتعش:

- لن يطمئنّ قلبي حتّى يعود إليّ...

وتركّزت أعينهم في الغلام، أو لبيا بلوح منه بين أونة وأخرى غير أنّ الجنود استردّوا أذرعهم للتشابكة وضمّوا سيقانهم المنفرجة كأنها اطمانوا إلى عدول كمال عن التفكير في الحرب، فبدا الغلام بكامل هيئته، بدا بأسماً يتكلّم كما استدلّوا عليه من حركة شفّيته

في الضحك وهو يضرب ركبتيه بكفيه، ثم قال وهو يغالب الضحك:

- أرايتوني حقاً... ١٩٠٠

عند ذلك جاء صوت أم حنفي وهي تقول بنبرات متشكية:

- كان الأفضل أن يروا تعاسي... سلاماً هذا الفرح كله بعد أن سيّمت مفاصلي؟... حادثة أخرى كهلله والله يرحمني...

لم تكن قد خلعت ملائمتها فلبت كزكية فحم متنفخة، يعلو وجهها الشحوب والإعياء وتلوح في عينها نظرة استسلام غريبة، فسألها أمينة:

- ماذا حدث؟... ماذا دعاك إلى الصراخ؟...
لقد لطف الله بنا فلم نشهد شيئاً مفرعاً...
فاسندت أم حنفي ظهرها إلى ضلفة الباب وأخذت تقول:

- حدث ما لن أنساه يا سق... كنتا عاتلين وإذا بشيطان من هؤلاء الجنود يقفز أماننا ويشير إلى سيدي كمال ليذهب إليه ففرع سيدي ويجري إلى درب قرعز، ولكن جندياً آخر اعترض سبيله فاندحرف إلى بين القصرين وهو يصرخ فغاص قلبي من الخوف وجعلت استغيث بأعلى صوتي وعياني لا تفارقانه وهو يجري من جندي إلى جندي حتى أحاطوا به... كدت أموت من شدة الخوف وزأغ بصري فلم أجد أرى شيئاً، وما أدري إلا والناس قد اجتمعوا حولي ولكني لم أكف عن الصراخ حتى قال لي عمّ حسين الحلاق: «ربنا يكفيه شر أولاد الحرام. وحدي الله... إنهم يلاطفونه...» أه يا سقّي لقد حضرنا سيدنا الحسين ودفع عنا الشر...

فقال كمال معترضاً:

- لم أصرخ أبداً...

فصريت أم حنفي صدرها بكفها قائلة:

- لقد ثقب صراخك أذني حتى جئتني...

فقال بصوت منخفض كالمعتذر:

- ظننتهم يريدون قتلي، ولكن أحلهم جعل يصفر لي ويرت كفي ثم أعطاني (وهنا جثّ جيبه)

أدركه من بعض معاني الأغنية فراح عتف وأروح بلدي... أروح بلدي... فتشجّع كمال بما حظي من سرور سامعيه وأقبل بجود من إنشاده ويحسن من ترمحه ويعلي من صوته، حتى ختمت الأغنية بين الصفيق والاستحسان الذي شاركت فيه الأسرة من وراء الحصاص بقلوب ملؤها السرور والإشفاق. أجل شاركت الأسرة في الاستحسان بعد أن شاركت بقلوبها أيضاً، في الغناء، تتيمه بإشفاق وقلق، دعوا له بالسلامة والإجادة، خافوا عليه الزلل أو النشاز كأنما يغني بالإنابة عنهم جميعاً، أو كأنهم هم الذين يغنون من حنجرته، وكأن كرامتهم - أفراداً ومجموعة - أمست متعلقة بنجاح الغناء، نسيت أمينة في لجة هذا الشعور غاؤها، حتى فهمي لم يكن يفكر في أثناء ذلك إلا في الغناء وما يرجو له من نجاح، فلما انتهى بخبر تنهدوا من الأعياق وودّوا أن يبادر كمال إلى العودة قبل أن يطرا طارئ يفسد عليهم مسك هذا الختام. والظاهر أن الحفلة أذنت بانتهاه فقد قفز كمال إلى الأرض فسلم على الجنود فرداً فرداً ودفع يده عنيّاً ثم انطلق يعلو صوب البيت. فهلوت الأسرة من المشرية إلى الصالة لتكون في استقباله. أقبل عليها لاحقاً موزّد الوجه مبتلّ الجبين تنطق عيناه وأسايريه وحركات أعضائه المرسله بلا إتران أو غاية بالفرح والفرور. أسرع قلبه الصغير سعادة غامرة ما كان يوسعه إلا أن يعلن عنها بكل سبيل يدعو الآخرين إلى الاشتراك فيها كالفيضان الزاخر يضيق عنه النهر فيغمر الحقول والوديان، وكانت نظرة واحدة تلقى بروية كافية لأن تريحه مغامرته معكوسة على صفحات الوجه... ولكن الفرح أحياه فنهت بهم:

- عندي خبر لن تصدّقوه ولن تصوّروه...

ففقّه ياسين متسأللاً في سخرية:

- أيّ خبر يا عزيز عيني؟!

كشفت هذه الجملة الغشاوة عن عينيه كأنها نور شمس فجأة في الظلام فرأى الوجوه على ضرونها مفعضة ناطقة، بيد أن علمه برويتهم لغامرته عوضه عما ضاع من فرصة إدهاشهم بحديثه العجيب فأغرق

شيكلولاة فذهب عني الخوف...

فقال كمال مسترًا ارتجاحه بضحك أخيه:
- أمسك أحدهم بأنفي وقال لي «سعد باشا
نو...».

فعاد ياسين يتسامل:

- وماذا قالوا أيضًا؟

فقال كمال ببراءة:

- سالوني... ألا يوجد بنات في بيتنا؟

فتبدلت نظرة جدنية بينهم لأول مرة منذ قديم كمال،
ثم سأله فهمي باهتمام:

- وماذا قلت لهم؟

- قلت لهم إن أبله عائشة وأبله خديجة تزوجتا،
ولكنهم لم يفهموا كلامي فقلت ليس في البيت إلا
نيّة، فسألوني عن معنى نيّة فقلت...

رمى فهمي أخاه ياسين بنظرة كأنما يقول: «أرايت
كيف أن سوء ظني في محله؟» ثم ساخرًا:

- لم يعطوه الشيكلولة لوجه الله...

فابتسم ياسين ابتسامة باهتة وغمغم قائلاً:

- ليس ثمة ما يدهو إلى القلق...

وأبى أن يترك هذه السحابة تغشى مجلسهم فسأل
كمال:

- وكيف دعوك إلى الفناء؟

فقال كمال ضاحكًا:

- في أثناء الحديث انطلق أحدهم يفتي بصوت
منخفض، فاستأذنتهم في أن أسمعهم صوتي...!
فقهقه ياسين قائلاً:

- يا لك من فتى جريء!... ألم يماودك الخوف

وأنت بين أرجلهم؟

فقال كمال في مباهة:

- أبداً... (ثم بتأثر)... ما أجملهم!... لم أر
أجمل منهم من قبل. عيون زرق... وشعر من
ذهب... وبشرة ناصعة البياض... كأنهم أبله
عائشة!

وجرى فجأة إلى حجرة المذاكرة ورفع رأسه إلى
صورة لسعد زغلول تجت في الجدار إلى جانب صورة
الحديو ومصطفى كامل وعبد فريد... ثم عاد وهو

زائيل أمينة السرور، لعله كان سرورًا زائلاً
متعجبًا، الحقيقة التي يجب ألا تغيب عنها هي أن
الفرع ركب كمال دقائق، وأنه يجب أن تدعو ريتا
طويلًا كي ينجيها من عواقبه، لم تكن ترى في الفرع
مجرد شعور عابر، كلاً... إنه شعور شاذ تكتنفه حالة
غامضة تأوي إليها المفاريت كما تأوي الحفافيش إلى
الظلام، فإذا أحاط بشخص - خصوصًا الصغار - منه
بصر سئى العاقبة، لذلك فهو يستوجب في نظرها
مزيداً من العناية والحيلة، تلاوة من القرآن كانت أم
بخوراً أم حجاباً، قالت بحزن:

- أزعرك! قتالهم الله...

وقرأ ياسين ما يدور في خاطرها... فقال مداعبًا:
- الشيكلولة رتيّة ناجعة للفرع... (وخطابًا
كمال)... هل دار الحديث بالعربي؟

رحب كمال بالسؤال لأنه فتح له مرة أخرى أبواب
الخيال والمغامرة، مشتلاً إياه من مضايقات الواقع،
فقال وقد استعادت أساريه انبساطها:

- كلّموني بعربي غريب!... ليترك سمعته بنفسك!
وراح يماكي طريقتهم في الكلام حتّى ضحك
الجميع، حتّى أمّه ابتسمت... فعاد ياسين يسأله
وكان ينيطه:

- ماذا قالوا لك؟

- كلامًا كثيرًا!... ما اسمك، أين بيتك، انحب
الإنجليز!

فهمي ساخرًا:

- ويم أجبتهم على هذا السؤال الفريد؟
فرمق أخاه كالتركد... ولكن ياسين أجاب عنه
قائلاً:

- طبقًا قال إنه يجيهم... ماذا كنت تريد أن
يقول...؟

على أن كمال استطرد يقول متحمسًا:

- ولكنّي قلت لهم أيضًا أن يعيدوا سعد باشا.

فلم يتألك فهمي أن ضحك عاليًا... وسأله:

- حقًا... وماذا قالوا لك؟

يقول:

لسانك...

- إتهم أجمل من سعد باشا كثيرًا...

فهو زهيم رأسه كالأسف وقال:

- يا لك من خالين...! اشتروك بقطعة من الشيكولاتة... لست صغيرًا ليغفر لك هذا القول، من مدرستك من يشهد كل يوم، خيبة الله عليك...

وكانت أم حنفي قد أحضرت الموقد والكنجة والفناجين وعلبة البِن... وأخذت أمينة تخبز القهوة للجلسة التقليدية، عاد كل شيء إلى أصله إلا ياسين فقد عادود التفكير في زوجه الغاضبة، عل حين انتحى كمال جانبا وأخرج الشيكولاتة من جيبه وراح ينزع عنها الغلاف المؤرد اللامع، بدا أن تعنيف فهمي ضاع في المساء إذ لم يكن في قلبه وقتذاك إلا الرضى والحب...

٦٠

تعقدت مشكلة ياسين الزوجية فبلغت درجة من الخطورة لم يتوقعها أحد، وما يدرى السيد أحمد إلا وعهد عفت قادم عليه في الدكان في اليوم التالي لالتجاء زينب إلى بيته، ثم قال قبل أن يسترد يده التي شد عليها السيد بالسلام:

- يا سيد أحمد... جنتك برجاه... يجب أن تطلق زينب اليوم قبل الغد إن أمكن...

بهت السيد، أجل قد سلمه سلوك ياسين أكبر إساءة، ولكنه لم يتصور أن يبعث رجلاً فاضلاً كالسيد محمد عفت إلى المطالبة بالطلاق، لم يتصور أن تدعو هذه المغفوات، إلى الطلاق مطلقاً، بل لم يجز له على بال أن تحيى المطالبة بالطلاق من ناحية الزوجة أبداً، فحيزل إليه أن الدنيا انقلبت رأساً على عقب، وأبى أن يصدق أن عمده جاذ في طلبه فقال بلهجه اللطيفة التي ظلها استأسرت قلوب أصدقائه:

- ليت الإخوان كانوا معنا ليشهدوا عليك وأنت تقذفني بهذه اللمجة الغاسية...! أصح إلي... باسم صداقتنا أمنك من أن تجري للطلاق ذكراً على

ثم تقرّس في وجهه ليسر أثر كلامه فيه، ولكنه وجدته متجهّجاً كالخفا يشد بالشر والتصميم، فبدأ يستشعر الخطورة والتشاؤم... دعاه إلى الجلوس فجلس وما تزداد صورته إلا ظلاماً... إنه يعرف حق المعرفة، عنيد شديد المراس إذا ركبته الغضب كفر بالمودة والمجاملة فتمزقت على سنان حدته أسباب القربى والعطف جميعاً، قال السيد:

- وحّد الله... ولتحدث في هدوء...

فقال محمد عفت وكأله يقبس لهجته من نار الغضب الذي توفّج به خداه:

- صداقتنا في حوز، فلندعها جانباً... ابنك ياسين لا يعاشر، تحققت من هذا بعد أن عرفت كل شيء، كم تصبّرت المسكينة...! حضنت همومها طويلاً، أخفت عني كل شيء، ثم بثها جملة حين تصدّع صدرها... يسهر طول الليل ويعود مع الفجر وهو يتلاطم مع الجدران سكرًا، أهانها ولفظها، ثم ماذا كانت عقي صبرها الطويل؟! أن تضبطه في بيته مع خادمتها! (ويصق على الأرض)... جارية سوداء...! ينقي لم تخلق لهذا...! كلاً وربّ السماوات، أنت أعرف الناس بمنزلتها عندي، كلاً... وربّ السماوات، لا كنت محمد عفت إذا سكّت على هذا...

قصة معادة، ولكن ثمة جديدًا صلحه حتى زلزل هو قوله إن ياسين يعود مع الفجر وهو يتلاطم مع الجدران سكرًا!...! أعرف طريق الحانة أيضاً!...! حق؟...! كيف...! آه ليس في الوقت متسع للتفكير أو الانزعاج، ليخفف انفعاله كله، الساعة تستطّلب هدوءاً وضبطاً للنفس، يجب أن يملك الموقف ليتفادى استفعال الشر... قال بنبرات أسيفة:

- إن ما يجزئك يجزني أضغافاً، ومن سوء الحظ أن سوءة من سوءات التي حدثني عنها لم تتصل لي بعلم أو تحيّر لي على بال، اللهم إلا الحادثة الأخيرة وقد أدبته عليها تأديباً لا يستبيحه لنفسه أب غيري، ما عسى أن أصنع؟...! لقد أخذته بالتأديب العنيف منذ كان

لا يتسامح من ذرة غبار إذا مسّت لها ظفراً؟...
لكنّه رغم هذا كلّ تعرّض عليه أن يقيس الأمور بغير
مقياسه، وكان يفاخر دائماً، بأنّ عمّد عثت على فضاة
غضبه إذا غضب، لم يحدّ عليه ولو مرّة واحدة طوال
معاشرتها المديدة!... قال مستأثراً:

- رويك، ألا ترى أنّ مبادنا واحدة وإن اختلفت
التفاصيل؟ جارية سوداء أو علة... أليست كلناهما
امراًة؟

فاتصّخت أوداج عمّد عثت وضرب حائله المكتب
بقبضته... وانفجر قائلاً:

- أنت لا تعني ما تقول! الخادمة خادمة والسيدة
سيدة، لماذا لا تمسّق الخادعات إذن؟ لم يشابه ياسين
أباه، إنّي أسف لكون ابنتي حبل، كم أكره أن يكون
لي حفيد تمجّري في دمه القذرة!...

وخزته الجملة الأخيرة بغضب، ولكنّه استطاع أن
يغلّق قلبه على غضبه بقوة حلمه الذي يحبره أصدقاؤه
وأحبابه، حلم بين الأصدقاء لا يعادله في قوّته إلا
غضبه بين آله... ثمّ قال يهدوء:

- اقترح عليك أن تزوّجك الحديث إلى وقت
آخر...

فقال عمّد عثت محدّاً:

- أرجو أن تحقّق رجائي الساعة...!

آه... لقد بلغ به الامتناع حدّاً لم يكن الطلاق
نفسه معه بالحلّ المستكره ولكنّه كان يشفق على صداقة
العمر من ناحية، وتمزّج عليه الهزيمة من ناحية أخرى،
أليس هو الرجل الذي يتشّفق به الناس ليفضّل
الخصوصيات وليصل ما انقطع من المسودّات
والزيجات؟... فكيف تحلّ به الهزيمة وهو يدافع عن
ابنه فيرضى بحكم الطلاق؟... أين حلمه؟...
أين كياسته؟... أين لبقته؟...

- لقد أصهّرت إليك لأوتق أسباب الصداقة
بيننا... فكيف أقبل أن أعرضها للوهن؟...

فقال الرجل بإنكار:

- صداقتنا في حرزنا... لسنا أطفالاً، ولكن
كرامتي لا يمكن أن تمسّ...

صبيّاً، ولكن وراء إرادتنا دنيا وشياطين تمزّج من
تصميمنا وتفسد علينا نوايانا الطيبة.

قال عمّد عثت وهو يتحاشى عيني السيّد بالنظر إلى
المكتب:

- لم أجد لأوجه إليك لوماً أو أحملك تقصيراً، أنت
كاتب مثالي يمتدّى ولا يجارى... ولكن هذا لن يغيّر
من الحقيقة المحزنة، وهي أنّ ياسين كان غير ما أردت
له أن يكون، وآثمه بحالته الراهنة لا يصلح للحياة
الزوجيّة.

فقال السيّد في عتاب:

- رويك يا سيّد محمّد!...

فقال الرجل مستدرجاً ولكن مصمّماً على رأيه:

- هل أيّ حال لن يصلح زوجاً لابنتي، سيجد من
تقبله على عائلته ولكن غيرها، لم تحلق ابنتي لهذا...
أنت أدري الناس بمنزلتها عندي...

أدلى السيّد رأسه من رأس الرجل وقال بصوت
منخفض... وكأنّما يداري ابتسامة:

- ليس ياسين بين الأزواج بادرة، فكّم منهم من
يسكر ويعريد ويعمل البذع!

فقطّب عمّد عثت لينفي عن نفسه شبهة الاستجابة
لهذا الكلام الموحى بالدعابة... وقال بجفاء:

- إن كنت تشير إلى جماعتنا أو إلّي أنا خاصة، فالحقّ
آلّي أسكر وأعريد، وأعشق، ولكنّي... بل نحن
جميعاً، لا نوحل في القاذورات!... جارية
سوداء!... ألهذه التي قضى على ابنتي بأن تتخلّصها
فمرة؟... كلّاً... كلّاً وربّ السهاوات... لن
تكون له ولن يكون لها...

أدرك السيّد أحمّد أنّ عمّد عثت - ربّما كابته سواء
بسواء - مستعدّ لأن يفرض من أمور كثيرة، إلا أن يخلط
ياسين بين كرميته وبين جاريته السوداء، إنّه يعرفه
تركياً في عناد البعل، ثمّ ورد على ذهنه قول صديقه
إبراهيم الفار يوم كاشفه ببنّته في خطبة زينب لابنه
ياسين، فقد قال له: «أصيلة بنت أصل، عمّد أنونا
وحبيبتنا، ابنته ابتنا، ولكن هل فُكرت رويداً في منزلة
الفتاة من نفس أبيها... هل فُكرت في أنّ عمّد عثت

فقال السيد بركة:

- ماذا عسى أن يقول الناس عن زيجة انتطعت ولما تتم عملها الأول؟

فقال محمد عفت بعجزة:

- لن يرجع عاقل العيب إلى ابنتي...

آه... مرة أخرى!... ولكنك تلقاها بنفس الحلم، بدا وكأن استيائه لمجزه عن التوفيق قد غطى استيائه من تمزج الرجل الغاضب فلم يهتم بالرماض المنطلق عليه اهتمامه بتحرير إخضاعه... راح يمزج نفسه بأن الطلاق بيده هو وحده، إذا شاء منحه وإذا شاء منعه، محمد عفت يعلم ذلك حق العلم، لذلك

جاء يستوجهه إليه باسم الصداقة التي لا شفيح له غيرها، فإذا قال لا فلا راد لكلمته، وسرّج الفتاة إلى ابنه طوعاً أو كرهاً... ولكن عسي الصداقة القديعة في خير كان، أما إذا قال نعم فيسحق الطلاق ولكن تصان الصداقة ويعترف له بالجليل، وليس من العسير أن يتلذذ بكل أولئك في المستقبل لوصول ما انقطع، وإذا فالطلاق وإن يكن هزيمة إلا أنه هزيمة مؤقتة تتضمن تساعاً ونبلًا غير منكرين وقد تنقلب فوراً بعد حين. وما إن اطمأن إلى سلامة موقفه ولو بعض الشيء حتى شعر بالرغبة في معاينته على ما فرط في حقه... فقال بلهجة ذات معنى:

- لن يكون السطّاق إلا بموافقتي... أليس كذلك؟... بيد أنني لن أنبل رجاءك ما دمت مصرّاً عليه، إكراماً لك، إكراماً للصداقة التي لم تَرُغ لها حقاً في خاطبي...

فتنهّد محمد عفت... إما ارتياحاً للنهاية المنشودة أو احتجاجاً على عتاب صديقه أو الإثنتين معاً، ثم قال بلهجة قاطعة خلت من حدة الغضب ولأول مرة:

- قلت ألف مرة إن صداقتك في حزم...! إنك لم تنس ليّ فقد، على العكس من ذلك فإنك تكرمني بتحقيق رجائي وإن كرهته...

فردد السيد قوله عزموا:

- نعم... وإن كرهته...

ثار حنقه حلماً غاب الرجل عن ناظره. انتحرج

الغيط المكبوت فالتهم نفسه ومحمد عفت وياسين، ياسين خاصة، ثم تسأل: ثرى هل يمكن أن تبقى الصداقة في حزم حقاً فلا يصيبها رشاش الحوادث المتوقعة؟... آه... لم يكن ليضرب بنفس في سبيل صون حياته عن مثل هذه الهزة القاسية... لكنه العناد التركي، لكنّه الشيطان، بل لكنّه ياسين، أجل ياسين دون غيره... قال له بغضب وازدراء:

- كذّرت صفو ودّ لم تكن الأيام لتكذّره ولو اجتمعت له...

ثم قال له بعد أن أعاد على مسمعيه حديث محمد عفت:

- خيّت أملي فيك فحسبي الله ونعم الوكيل، ريتك وأدبتك ودميتك... ثم انجل تعي كله عن ماذا؟... سكر صعلوك تسوّى له نفسه الاعتداء على أحقر الخادعات في بيت الزوجية، لا حول ولا قوة إلا بالله، ما كنت أتصور أن يخرج من حضناتي ابن على هذه الصورة فالأمر لله من قبل ومن بعد، ما عسى أن أصنع بك؟... لو كنت قاصراً لكسرت دماغك، ولكن لتكسّرتها الأيام، ها أنت تنال جزاءك الحق فتتبرأ منك الأسرة الكريمة وتباعدك بأبخص الأثمان!...

لعلّه وجد نحوه بعض الرثاء، بيّذ أنّ سخطه غلب ثم استحال شعوره كله ازدراء، لم يعد يملأ عينيه رضم فتوته وجماله وضخامته، يوحل في القذارة كما قال محمد عفت قاتله الله، وعجز عن كبج جماع امرأة، ما أصغره، سرعان ما لحقت به الهزيمة التي لم يتّجّع هو نفسه من هوانها من جزاء طيشه. ما أحقره، ليسكر ويعربد وليمشق تحت شرط أن يظل السيد المطاع، أما أن يهزم على تلك الصورة المخزية لما أحقره، لم يشابه أباه كما قال أيضاً محمد عفت قاتله الله، إني أفعل ما أشاء ولكنّي أظنّ السيد أحمد وكفى، حكمة رائدة تلك التي ألهمني أن أنشئ الأولاد على مثال فريد للاستقامة والطهارة، فإنّه لما يشق أن يهجموا نهجي ويخطوا في نفس الوقت بالكرامة والاستقرار، ولكن وأساف ضاع جهدي هباء مع ابن هتة!...

- أمرك يا أبي...

أيّ عيشة وأيّ بيت وأيّ أب، زجر وتأديب ونصائح، ازجر نفسك... أتب نفسك... انصح نفسك، أنسيت زبيدة؟... وجليدة؟... والغناء والشراب؟ ثمّ تطلعتنا بعمامة شيخ الإسلام وسيف أمير المؤمنين، لم أعد طفلاً، اغتنى بالقُصُر ودعي وشائي، تزوّج... أمرك يا قنبل... طلق... أمرك يا قنبل... ملعون أبوك.

٦١

خفّت حدّة المظاهرات شيئاً ما في حيّ الحسين بعد احتلال الجنود الإنجليز له فأمكن للسيد أحمد أن يستأنف عارسة عادة قديمة انقطع عنها مضطراً إلى حين، أمكنه أن يصطحب أبناءه إلى مسجد الحسين لتأدية صلاة الجمعة... عادة قديمة دأب عليها منذ عهد بعيد... كان يدعو ابنه إليها حالماً بيلغ صباه ليوثّه قلبه إلى العبادة ميّكراً، مستوهياً من رثائها البركة لنفسه ولأبنائه والأسرة جميعاً، ربّما كانت أمانة وحدها التي لا ترتاح إلى تحرّك الغافلة في نهاية كلّ أسبوع حاملة رجالها، ثلاثة رجال كالجبال طولاً وعرضاً إلى قفّرتهم وإشراقتهم، كانت تُبعمهم نظرياً من خصائص المشريّة فيخيل إليها أنهم ملئى الأنظار فتجنّز وتدعو الله أن يقيم شرّ العين، وما ملكت يوماً أن أفضت بمخاوفها إلى السيّد فبدا وكأنّه تأثّر لتحذيرها حيناً، بيّد أنّه لم يستسلم للخوف طويلاً وقال لها: «إنّ بركة الفريضة التي نذهب لتأديتها حقيقة بأن تحفظنا من كلّ شرّ».

وكان فهمي يلقي دعوة الجمعة ببشاشة قلب أولع بتأدية الفرائض منذ الصغر، مطلياً في ذلك... قبل إرادة أبيه - عاطفة دينيّة صادقة، تمّاز إلى صدقها بقدر من الاستشارة لا بأس به، استمدهمّا أطلع عليه من آراء محمّد عبده وتلاميذه... لذلك كان الوحيد في الأسرة الذي يقف من إيمانها بالتعاويذ والرقى والأحجية وكرامات الأولياء موقف المشكّك، وإن أبت عليه دماثة خلقه أن يجهر بتشكّكه أو يعلن استهائته،

- وهل وافقت يا أبي؟...

تردّد صوت ياسين كالخسفة... فأجابه بخشونة قاتلاً:

- نعم، إنقاة على صداقة قديمة ولأنه أوفى حلّ في الوقت الحاضر على الأقلّ.

جعلت يد ياسين تنقبض وتنسبط في حركة آليّة عصبية، كأنّها كانت تشفط الدم من وجهه حتّى انقلب شديد الشحوب، شعر بهوان لم يشعر بمثله إلّا فيما كابد من سلوك أمّه، حموه يطالب بالطلاق... أو بمعنى آخر زينب تطالب بالطلاق أو على الأقلّ توافق عليه... أيتها الرجل وأيتها المرأة! ليس عجيباً أن ينبذ الإنسان حدهاء أمّا أن ينبذ حدهاء صاحبه! كيف رضي أبوه له بهذا الحزّي الذي لم يسمع بمثله من قبل!... حذج أباه بنظرة حادة وإن عكست ما يعتلج في صدره من أثات الاستفالة، ثمّ قال بلهجة حرص الحرس كلّه على أن يتّقيها من أيّ أثر للاحتجاج أو الاعتراض، كأنّها يريد بها أن يذّكره بما عسى أن يكون أنسب:

- ثمة طريقة لمعالجة الزوج الناشز...

شعر السيّد بشعور ابنه فادركه التأثّر، ولذلك لم يبخل عليه ببعض ما يدور في نفسه... فقال له:

- أعلم ذلك... ولكنّي اخترت أن تكون من الكرماء. محمّد خفّت عقل تركي حجري ولكنّ قلبه من ذهب، هذه الخطوة ليست الأخيرة، ليست النهاية، لم أغفل مصلحتك وإن كنت لا تستأهل خيراً، دعني أنصرف كما أشاء...

كما نشاء... مقدّداً يردّ لك مشيئة! تزوّجني وتطلّعي... تحبيني وتجنّيني، لست هنا، خديجة عائشة فهمي ياسين... الكلّ واحد، الكلّ لا شيء، أنت كلّ شيء... كلّاً... كلّ شيء حدّ، لم أعد طفلاً، رجلاً مثلك سواء بسواء، أنا الذي أقرّر مصيري، أطلق أو أودعها بيت الطاعة، تراب حداثي بمحمّد عفت وزينب وصدائقهما...

.. ما لك لا تتكلّم؟...

فقال دون تردّد:

هكذا رآهم طريق النخاسين مرة أخرى وهم يحثون الخطي إلى بيت القاضي، السيد في القنطرة ويأسين وفهمي وكحال وراه صفاء، حتى اتحدوا مجالسهم في الجامع وراحوا ينصتون إلى خطبة الجمعة بين رؤوس مشرقة إلى المنبر في صمت شامل، لم يكن السيد على شدة إنصاته يكف عن الدعاء الباطني، وتوجه قلبه إلى ياسين خاصة، كأنما رآه بعدما لحق به من عثار الخطأ أحق بالرحمة، فدها الله طويلاً أن يصلح من شأنه ويقوم ما اعوج من أمره ويعوض عما فقد خيرًا... على أن الخطية جبهته بمحاسبه، انحلت ما بينه وبينها فطالما وجهها لوجهه في حالة مرعدة من صوت الواعظ الجمهوري الرئاس الناقد حتى تحيل إليه أنه يعنيه بالذات، وأنه يشد على أذنه صارخاً فيها بأهل صوته، وأنه لا يستبعد أن يضاطبه باسمه قائلاً: «ويا أحمد ازدجر... تطهر من الفسق واخسر وتب إلى الله ربك» فأنهم به قلق وضيق كما أنما به يوم ناقشه الشيخ متولي عبد الصمد الحساب، وهو ما يقع له كثيراً عند سماع الخطبة فيسترسل في طلب الغفران والعفو والرحمة، ولكنه - كاتبه ياسين - لم يكن يطلب التوبة وإن طلبها فبلسانه دون قلبه، يقول بلسانه «اللهم التوبة» على حين يقتصر قلبه على طلب الغفران والعفو والرحمة كأنها ألان موسيقتان تمزجان مآ إلى أوركسترا واحد فتصدر عنها نغمتان مختلفتان، لأنه لم يتصور أن يرى الحياة بغير العين التي يراها بها ولا أن تبسوله بغير الوجه الذي تبدو به، فإذا ألح عليه القلق والضميق المستوليان عليه نهض للدفاع عن نفسه... ولكنه يلقي دفاعه في صورة دعاء واستغفار فيقول «اللهم أنك أعلم بقلبي وإيماني وحيي، اللهم زلني استمسكاً بتأدية فرائضك وقدره على صنع الخير، اللهم إن الحسنه بعشر أمثالها، اللهم إنك أنت الغفور الرحيم»... وبهذا الدعاء تعوده الطمانينة رويداً، لم تكن لياسين مثل هذه القدرة على التوفيق أو أنه لم يشعر قط بحاجة إليها، لم تكن موضع تفكيره يوماً، يوم بالحياة كما يشتهي ويؤمن بالله كما يؤمن بوجوده هو، ثم يستسلم للتأثر دون مقاومة أو هانعة، قرعت

بل كان يتقبل حجاب الشيخ متولي عبد الصمد الذي يجيء به أبوه بين حين وآخر برضى ظاهري. أما ياسين فكان يلقي دعوة أبيه لأنه لم يكن من تلميذاته، لعله لو ترك لشأنه ما فكر يوماً في أن يمس جسمه الضخم في زحمة المصلين، لا عن ترعزع في العقيدة، ولكن استهانة وتكاسلاً... لذا كان ليوم الجمعة عنده هم يكابده مع مطلع الصباح، فإن حان وقت الذهاب إلى الجامع ارتدى بذلته في شيء من التلثم، ثم يسير وراء أبيه كالأسير، ولكن كلما اقترب من الجامع خطوة تحفف من تلثم رويداً، حتى يدخل الجامع متشرح الصدر فيؤدي الصلاة ويدعو الله أن يغفر له ويعفو عن ذنوبه، دون أن يسأل التوبة كأنما يشفق في أحياقه أن يستجاب دعائه فيقلب زاهداً في اللذات التي يحياها حباً لا يرى للحياة بدونه معنى. كان يعلم علم اليقين أن التوبة واجبة، وأن مغفرة لن تكتب له بدونها، ولكنه كان يرجو أن تحي في الوقت «المناسب» حتى لا يفسر الدائر، ولذا كان على تكاسله وتلثمه يحمي في النهاية الظروف التي تدفعه إلى تأدية فريضة هاشية كفريضة الجمعة يمكن - عند الحساب - أن تمحو بعضاً من سيئاته وتحقق من أوزاره، خصوصاً وأنه لا يكاد يؤدي غيرها فريضة.

أما كمال فلم توجه إليه الدعوة إلا حديثاً، مذ جاوز العاشرة، نهض إلى تلميذاته في زهو وخيلاء وفرح، شعر شعوراً غامضاً بأنها تتضمن اعترافاً بشخصه، وأنها تمنحه مساواة من نوع ما مع فهمي ويأسين وأبيه نفسه، ثم سره على وجه المحضوس أن يسير في ركاب أبيه أمناً دون أن يتوقع من ناحيته شرّاً، وأن يقف في الجامع إلى جانبه على قدم المساواة مؤثماً جيمعاً بإمام واحد. بيد أنه كان يستغرق في صلاته اليومية - في البيت - استغراقاً لا يظفر بمثله في صلاة الجمعة بالنظر إلى ما يعتريه من ارتباك لقيامه وسط خلق لا يحيط بهم حصر، ولإشفاقه أن تنذ عنه هفوة فتلتقطها إحدى حواسم أبيه، إلى أن شدة شعوره بالחסين - الذي يجبه أكثر من نفسه - وهو في مسجده كانت تحول بينه وبين التوجه الحاصل لله كما ينبغي للمصلي...

ذاك انتثر سلك النظام، استردت الحرية أنفاسها، نهض كل لوجهته، منهم من قصد الضريح للزيارة ومنهم من أتته نحو الأبواب للخروج ومنهم من تلثت للحديث أو ترثت حتى يخف الزحام... فاستطلعت تياراتهم أيما انتشار، أُرثت الساعة السعيدة التي مضي كالها بها... ساعة الزيارة ولثم الجدران وقراءة الفاتحة إصالة عن نفسه وإنابة عن أمه كما وعدنا، بدأ يتحرك ببطء في ركاب أبيه... وما يدري إلا وشاب أزهرى يبرز من الزحمة فجأة فيعترض سبيلهم في حركة عنيفة لافتة للأنظار، ثم بسط ذراعيه لينحي الناس جانبا ومضى يتقهقر أمامهم وهو يتنحصر ياسين بنظرات ثابتة مريبة وقد عبس وجهه وتطايرت نار الغضب من صفحته المكفهرة. عجب السيد له فجعل يردد بعصره بينه وبين ياسين، هل حين بدا ياسين أشد عجباً فراح بدوره يردد بعصره بينه وبين أبيه متسائلاً، ثم انتبه أناس إلى المشهد فركزوا فيه أنظارهم مترقبين في دهشة واستطلاع وعند ذلك لم يتالك السيد أن خاطبه متسائلاً في استيائه:

- ما لك يا أحمي تنظر إلينا هكذا؟!

فأشار الأزهرى إلى ياسين وصاح بصوت كالرعد:
- جاسوس!

نفذت الكلمة إلى صدر الأسرة كالرصاصة فدار رأسها وحلفت أعينها وجدت في أماكنها، هل حين جرت التهمة على الألسن فرقدتها في فزع وحلق وأخذ الناس يتجمعون حولهم وأذرعهم تشبكت في حذر لتحصرهم في دائرة ما لها من منفذ، وكان السيد أول من ثاب إلى وجهه، ومع أنه لم يفهم شيئاً مما يدور حوله... إلا أنه أدرك خطورة الصمت والانكماش فهف بالشاب غاضباً:

- ماذا تقول يا سيدنا الشيخ؟... أتج جاسوس تعني؟!

ولكن الشاب لم يابه للسيد، فأشار مرة أخرى إلى ياسين وصاح:

- حذار أيها الناس، هذا الشاب الخائن جاسوس من جواسيس الإنجليز اندس بينكم ليستقط الأنباء ثم

أذنيه كلمات الواعظ فتحرك صوته الباطني سائلاً الرحمة والمغفرة بطريقة آلية وفي طمأنينة شاملة دون أن يستشعر خطورة حقيقة، إن الله أرحم من أن يحرق مسلماً مثله بفوات عابرة لا تؤذي أحداً من عياده، ثم هنالك التوبة... سنأتي «وإساءة» فتمحو ما قبلها، واسترق نظره إلى أبيه وتساءل وهو بعض على شفثيه كأنما يكتنم ضحكة نائرة عما عسى أن يدور بخاطره وهو ينصت بهذا الاهتمام البادي إلى الخطيئة؟... أهو يعاني العذاب كل صلاة جمعة أم تراه ينافق ويضاد؟... كلا... لا هذا ولا ذاك... إنه مثله - ياسين - يؤمن برحمة الله الواسعة، لو أن الأمر بالخطورة التي يصفه بها الواعظ لاختار أبوه إحدى السبيلين، استرق إليه نظرة أخرى فراه كالجواد الكريم الجميل بين القاصدين المتطلعين إلى المنبر، شعر نحوه بإعجاب وحب خالصين، لم يعد للحق أثر في نفسه، ومع أن الغضب بلغ به مداه يوم الطلاق، حتى بث همه إلى فهمي قائلاً: ولقد خرب أبوك بيتي وجعلني أضحكة بين الناس» إلا أنه تناسى الآن حقته كما تناسى الطلاق والفضيحة وكل شيء، ثم هذا الواعظ نفسه ليس خيراً من أبيه... بل هو على وجه اليقين أضمن في الضلال، حدثه عنه مرة أحد الأصحاب في قهوة أحمد هبده فقال: «إنه يؤمن بشيئين... بالله في السه والغلجان في الأرض، إنه من طراز حساس ترف عينه وهو في الحسين إذا تأوه غلام في القلعة، بيد أنه لم يحقد عليه لذلك، وحل العكس وجد فيه كما وجد في أبيه ما يجد الجندي في الخنادق المحفورة في الحطوط الأمامية التي على العدو أن يقتحمها قبل أن يصل إليه.

ثم دعا الداعي إلى الصلاة فقام الرجال قومة واحدة، وقفوا صفوفاً متراصة ملأت صحن الجامع الكبير، صار المسجد أجساداً ونفوساً ذكر كمال احتشادها مشهد المحمل في النحاسين واتصلت الأزياء في خطوط طويلة متوازية وحدتها البذل والجلب والجلال، ثم انقلب الجمع جسماً واحداً تصدر عنه حركة واحدة مستشرفة قبلة واحدة، وتردّت التلاوات الملهمة في هممة شاملة حتى أذن بالسلام... عند

ينقلها إلى سادته المجرمين.

ركب الغضب السيد فتقدم من الشاب خطوة وصاح به غير متمالك نفسه:

- أنت تعرف بما لا تعرف، فلما أن تكون مجرمًا أو مجنونًا، هذا الشاب ابني لا خائن ولا جاسوس، كلنا وطنيون وهذا الحقي يعرفنا كما نعرف أنفسنا.

فهز الشاب منكبيه استهانة وصاح بصوته الخطابي:
- جاسوس إنجليزي حقير، رأيته بعيني رأسي مرًا وهو يتاجي الإنجليز عند بين القصرين، عندي شهود على ذلك، ولن يمرّ على تكليبي... إني أتمناه...
ليسقط الخائن...

وتهاوت في أركان الجاليع دلمة غاضبة، تعالي الخفاف هنا وهناك «ليسقط الجاسوس»، وصاح غيرهم «فليؤدّب الخائن».

ولاحت في أعين القريين نُذُر الوعيد ترصد بادرة أو إشارة كي تنقض على القريسة، لعله لم يؤخر إقدامها إلا منظر السيد المؤثر الذي وقف لصق ابنه كأنما يتلقى عنه ما يتهدّد من أذى، ودموع كمال الذي أغرق في الانتحاب، أمّا ياسين فقد وقف بين السيد وفهمي فائد الوحي من الاضطراب والوجل، وجعل يقول بصوت متهيج لم يسمعه أحد:

- لست جاسوسًا... لست جاسوسًا... الله على صدق قولي شهيد...

ولكنّ الغضب بلغ بالناس مداه، فتجمهروا حول الدائرة المحصورة وهم يتدافعون بالثآكب ويتوسّدون «الجاسوس شرًا»، على أنّ صوّثًا من وسط الزحام ارتفع هاتفًا:

- هُملوا يا سادة... لهذا ياسين أفندي كاتب مدرسة النحاسين...

فانطلقت أصوات كالحديد:

- مدرسة النحاسين أو الخذاين فليؤدّب الخائن.
وكان رجل يشق طريقه بين الأجسام بصموية ولكن بعزم لا يقهر، فما بلغ الصف الأمامي حتّى رفع يديه وهو يزعق: «اسمعوا... اسمعوا». ولسّا هدأت الأصوات قليلًا قال وهو يوميّ إلى السيد أحمد:

- هذا السيد أحمد عبد الجواد من أهل النحاسين المعروفين... ولا يمكن أن يضمّ بيته جاسوسًا، فترثوا حتّى تنجلي الحقيقة.

ولكنّ الأزهرّي صرخ حانفًا:

- لا شأن لي بالسيد أحمد أو السيد محمد، هذا الشاب جاسوس مهما يكن من أمر أبيه، رأيته يضاحك الجلّادين الذين زحوا القبور بأثناكم.

وما عثم أن صاح أناس لا حصر لهم:

- ليضرب بالأحذية...

وسرت في التجمهرين حركة عنيفة، فأقبل متحمّسون من كلّ صوب ملوّحين بالأحذية والمراكيب حتّى شعر ياسين بالانهياء واليأس، دارت عينه فيها حوله فلم تقعا إلا على وجه متحرّش يفور بالغضب واليفضاء، والتصق السيد وفهمي بجانب ياسين بحركة غريزية كأنما يدفعا عنه الأذى أو ليقاساه إيّاه، وهما على حال من اليأس والقهر لم تكن دون ما يأخذ بخنقه، على حين انقلب انتحاب كمال صراشا كاد ينفض على أصوات الثائرين. كان الأزهرّي أوّل المهاجمين فرمى بنفسه على ياسين قابضًا على بنية قميصه ثمّ جذب به بعنف لينزعه من المأوى الذي لاذ به بين أبيه وأخيه حتّى لا تخطئه الأحذية، ولكنّ ياسين قبض على معصميه مقاومًا ودخل السيد بينها، ورأى فهمي أباه في الموقف المشير لأوّل مرّة في حياته... فاستفزّه غضب شديد أدخله عيا يخلق بهم من خطر، دفع الأزهرّي في صدره دفعة قويّة رقته إلى الوراء فصاح به متوهّدًا:

- حذار أن تتقمّ خطوة واحدة!

فصرخ الأزهرّي وقد جثّ جنونه:

- أدبواهم جميعًا...

عند ذاك علا صوت قويّ يقول بلهجة أمرّة:

- انتظرو يا سيّدنا الشيخ... انتظرو جميعًا...

فالتجهت الأنظار إلى الصوت، فلذا بأنفندي شاب يبرز من بين الجموع إلى الدائرة المحصورة يتبهم ثلاثة في مثل سنّه وزنّه، تقدّموا في خطوات ثابتة تروحي بالثقة والعزم حتّى وقفوا بين الشيخ وفويه، تهامس

يألوا جهداً في الدفاع عنه فشكرهم، وإن كان لا يدري متى جاءوا ولا كيف دافعوا عنه، وعذّل عن الزيارة لما استحوذ عليه من انفعال فألقه صوب الباب مطبقاً الفم متجهّم الوجه ويصه الأبناء في صمت ثقيل.

٦٢

في الطريق استردّ أنفاسه، فداخله ارتياح لابتعاده عن الناس الذين شاركوا في «الحادث» ولو بمجرّد الرؤية. كره وتلقاك كلّ شيء وراءه وقلقه باللعنات، لم يكد يرى من الطريق الذي يسير فيه شيئاً، فتبادل التحية مرّتين مع اثنين من معارفه على نحو مقتضب متكلف لم يعهد فيه من قبل، تركّز شعوره في ذاته - ذاته الجريحة - وسرعان ما فار بالغضب... كان أحبّ إليّ أن تنتهي الحياة من أن أقف ذلك الموقف المزري، كالأسير بين طغمة من اللثام، ولهذا المجاور المقتل مدّعي الوطنية الجرحان يهجم عليّ بكلّ وقاحة، لم يزعجني في حرمة سرّي أو مهابة، لم أخلق لهذا، ليس وأنا الذي يبان بتلك الكيفية، وبين أنبائي... لا تعجب... أناؤك هم أصل البلاء... هذا الثور ابن المره لن يفيك من متاعبك أبداً. فقس الفضائح في بيتي وأوقع ببني وبين أعزّ الأصدقاء، ثمّ توجّع حامنا بالطلاق... لم يكفه هذا كلّهُ، كلا. ابن هنيّة لا بدّ أن يسلم الإنجليز جهازاً كي أدفع أنا الثمن للسفلة المتجهّمين، اذهب بهم إليها كي يكمل متحف عشاقها بالإنجليز والأمسترايين.

«يلو لي أنّي لن أخلص العمر من متاعبك؟» نذت عنه هذه الجملة بحمّة، بيد أنّه قاوم رغبته في تأديبه لأنّه رغم غضبه قدر حاله الذي يرثي لها، رآه ذاهلاً شاحباً مترعّكاً فلم تطاوعه نفسه في الهجوم عليه، حسبّه الآن ما حاق به، ليس وحده الذي يتحفه بالمتاعب، هنالك البطل، ولكن فلنؤجل همّه حتّى نفق من مشاعب الشور، تسور في البيت، في الحانة... ثور أمام أمّ حنفي ونور، أمّا في المعركة فهو رطل خرج لا فائدة منه ولا عائدة، يا أولاد الكلب!

كثيرون متسائلين «بوليس... بوليس؟» بيد أنّ التساؤل انقطع حينما مدّ الأزهري يده إلى يد قائد الجماعة وشدّ عليها بحرارة، ثمّ سال الأفندي الأزهري بنبرات حاسمة:

«أين هذا الجاسوس؟»

فأشار الشيخ إلى ياسين بازدرآه وتقرّز، فالتفت الشاب إليه وثبت عليه عينيه متحفّصاً إياه بدقّة وقسوة، وقبل أن ينبس بكلمة تقدّم فهمي خطوة إلى الأمام كأنّها ليستري انتباهه فلمحه الآخر... وسرعان ما اتّسمت عيناه دحشة وإنكاراً فغمغم قائلاً:

«أنت...»

فابتسم ابتسامة شاحبة وقال بلهجة لا تخلو من تهكم:

«هذا الجاسوس أخي!»

فالتفت الشاب إلى الأزهري متسائلاً:

«أأنت متأكد ممّا تقول؟»

فبادره فهمي قائلاً:

«ربّما صدق في قوله... إنّه رآه يحدث الإنجليز ولكن أسماء التفسير أيّما إساءة، إنّ الإنجليز ممسكرون أمام بيتنا وهم يتعرّضون لنا في الذهب والإياب فتتورّط أحياناً في معادنتهم على كره... هذا كلّ ما هنالك.

وهمّ الأزهري بالكلام ولكنّ الشابّ أسكته بإشارة من يده، ثمّ خاطب الجمع قائلاً وهو يضع يده على منكب فهمي:

«هذا الشابّ من الأصدقاء المجاهدين، كلانا يعمل في لجنة واحدة فكلامه عندي مصدّق... أدخلوا سيبلهم.

لم ينبس أحد بكلمة، انسحب الأزهري بلا تردّد ومضى الناس يتفرّقون، صافح الشاب فهمي ثمّ ذهب يتبعه رفاقه، ربّت فهمي على رأس كيال حتّى كفّ عن البكاء، ساد الصمت فأخذ كلّ يضمّد جراحه، انتبه السيّد إلى وجوه نفر من معارفه قد أحاطوا به وراحوا يواسونه ويمتدّون إليه عن الخطأ الكبير الذي وقع فيه الأزهري ومن ضلّ به من الناس، ويؤكدون له أنّهم لم

الله يقطع الأولاد والحلف والبيوت، آه... لماذا تسوقني قدامي إلى البيت؟!... لم لا أتناول لقمي بعيداً عن الجؤ المسموم؟! ستولول هي الأخرى إذا علمت بالخبر، لست في حاجة إلى مزيد من القرف، إلى الدغل... سأجد حتماً صديقاً أقصّ عليه رزقي وأشكوا إليه هتي... كلاً... لندي متاعب أخرى لا تقبل التأجيل أكثر من هذا. البطل، مصيبة جديدة يجب أن نجد لها علاجاً، إلى الغداء المسموم، ولولي... ولولي... ملعون أبوك أنت الأخرى.

لم يكذ فهمي بفتر ملايسه حتى دُعي إلى مقابلة والده، فلم يملك ياسين على حموده وكريه إلا أن يغمغم قائلاً:

- جاء دورك...

فتساءل فهمي متجاهلاً المعنى الكامن وراء ملاحظة أخيه:

- ماذا تعني؟

فضحك ياسين - أجل وسعه أخيراً أن يضحك -

وقال:

- انتهى دور الخونة وجاء دور المجاهدين!...

لشد ما نحى أن تغيب النعوت التي نمت بها صديقه في الجامع وراء ضيعة الثورة وذهول الانفعال، ولكنها لم تغيب، ها هو ياسين يركدها، ولا شك أن أباه يدعوه من أجل مناقشتها. تنهد فهمي من الأحايق ثم ذهب، وجد السيد مترقياً على الكنية يعجب بحجبات سبخته وفي عينه نظرة تنم عن تفكير كثيب، فحيه بأدب جم ووقف على بعد مترين من الكنية في خضوع وامتنال، ورز الرجل تحية بحركة خفيفة من رأسه تدل على الضيق أكثر مما تدل على التحية، وكأما تقول له: «إني أريد تحريك مرضاً كما تقضي اللياقة ولكن أدبك الزائف هذا لم يعد ينطلي عليّ». ثم حذبه بنظرة متجهمة ينبعث منها شعاع الارتباك كأنه مصباح كشاف يفتش عن مخترق بالظلام وقال بحزم:

- دعوتك لأعرف كل شيء، أريد أن أعرف كل شيء، ماذا قصد في لجنة واحدة؟ صارحتي بكل شيء

دون تركد.

ومع أن فهمي اعتاد في الأسابيع الأخيرة أن يواجه اضطراباً شديداً، حتى الطلقات النارية ألّف أزيزها، إلا أنه لاقى تحقيق أبيه بقلب ما قبل الثورة، ركبته الرهبة وشعر بأنه لا شيء، وتركز تفكيره في تحاشي غضبه ونشدان النجاة فقال برقة وأدب:

- الأمر بسيط جداً يا بابا، لعل صديقي بالغ في قوله كي يتشلنا من ورطتنا.

فقال السيد وقد نفذ صبره:

- الأمر بسيط جداً... عال... ولكن أي أمر هو؟... لا تحف عني أي شيء.

وكان فهمي يقلب الأمر على مختلف وجوهه في سرعة خاطفة ليختار ما يصحّ قوله وتؤمن مغبته... قال:

- سيّاه لجنة وهي لا تملو أن تكون جماعة من الأصدقاء يتحدثون كلياً اجتمعوا في الشؤون الوطنية.

فهتف السيد مغظاً عتقاً:

- ألهذا استحققت لقب المجاهد...!

نطق صوت الرجل بالاستنكار العنيف كأنما عرّ عليه أن يحاول ابنه اللعب به. وارتسم الوعيد في تعقيدات عبوسته. فسارع فهمي - دفاعاً عن النفس - إلى الاعتراف بشيء ذي بال ليقنع أباه بأنه امتثل لأمره كالمتهم الذي يتطوّل بالاعتراف طمعاً في الرأفة... قال فيها يشبه الحياة:

- يحدث أحياناً أن نقوم بتوزيع بعض الشهادات الحائلة على الوطنية...

فتساءل السيد بانزعاج:

- المنشورات!... هل تعني المنشورات؟!

ولكن فهمي هز رأسه سلماً، خاف أن يعترف بهذا الاسم الذي يقرن في البلاغات الرسمية بأقصى العقوبات، وقال بعد أن وجد صيغة مقبولة تحفّف من خطورة اعترافه:

- ليست إلا نداءات تحث على حب الوطن.

ترك الرجل السبحة تسقط من يده إلى حجره، وراح يضرب كتفاً على كتف ويقول وهو لا يتالك نفسه

منشورات... ١٩

من الانزعاج:

رغم خطورة الموقف وما يقتضيه من تركيز فكره فيه، أيقظ السؤال ذكرى قريبة اهتزت لها نفسه، ذكرى هذا السؤال نفسه بنضه ومعناه حينما طرحه عليه الرئيس الأعلى للجنة الطلبة التنفيذية - بين جملة أسئلة أخرى - وهو يصدد اختياره عضواً فيها، ثم ذكر بالتالي كيف أجابه وقتذاك بمزم وحاس «كلنا فداء للوطن» وقارن بين الظرفين اللذين ألقي فيها السؤال الواحد، فاعتراه شعور بالسخرية، يتبد أنه أجاب والده بركة وبصوت يوسي بالتهوين:

- إني أقوم بالتوزيع بين الأصدقاء من الزملاء فقط، ولا شأن لي بالتوزيع العام... فليس ثمة غاطرة أو خطر...

فهتف السيد بغلظة وكأنه يداري خوفه على ابنه بعبدة الغضب:

- إن الله لا يكتب السلامة لمن يعرض نفسه للهلاك، وقد أمرنا سبحانه بالألّا نعرض أنفسنا للتهلكة...

وذكر الرجل أن يستشهد بالآية التي تترجم هذا المعنى، ولكنه لم يكن يحفظ من القرآن إلّا السورة القصيرة التي يتلوها في صلواته، فخاف أن يسهو عن لفظ أو يحرفه فيحمل نفسه وزراً لا بغض، فاكتمى بترديد المعنى وكثره حتى بلغ مداه، ولكنه ما يدري إلّا وفهمي يقول بلهجه المهذبة:

- ولكن الله يحث المؤمنين على الجهاد كذلك يا بابا...

سأله فهمي نفسه فيها بعد متعجباً كيف واتته شجاعته على مجابهة السيد بهذا القول الذي فضح ما داراه من استمسك براه... لمعه احتفى بالقرآن فوقف وراء معنى من معانيه مطمئناً إلى أن أباه سيحجم في تلك الحال عن مهاجمته، وقد بوغت السيد مباغتة شديدة بجرأة ابنه وحجته معاً، ولكنه لم يستسلم للغضب لأن الغضب ركباً أسكت فهمي ولكنه لن يسكت حجته، فتنامى جراته إلى حين ريثما يقرع حجته بحجة مثلها من القرآن نفسه حتى تتم

- أنت من مؤدعي المنشورات! أنت!...

زأغ بصر السيد من شدة الانزعاج والغضب: مؤدع منشورات!... من الأصدقاء المجاهدين!... كلانا يعمل في لجنة واحدة!... هل بلغ الطوفان مرقده!... طمأنا راعه فهمي بأدبه ويزه وذكرته، لولا أن الثناء في نظره مفسدة وأن الفظاظة تهذيب وتقويم لأوسعه ثناء، كيف انجلى هذا كله عن مؤدع منشورات... مجاهد... كلانا يعمل في لجنة واحدة!... إنه لا يحقر المجاهدين، هو أبعد ما يكون عن ذلك، طمأنا تابع أنباهم بحاس ودعا لهم عقب كل صلااة بالتوفيق، طمأنا ملأته أخبار الإضراب والتخريب والمعارك أملاً وإعجاباً، ولكن الأمر يختلف كل الاختلاف إذا صدر عمل من هذه الأعمال عن ابن من أبنائه، كأنهم جنس قام بذاته خارج نطاق التاريخ، هو وحده الذي يرسم لهم الحدود لا الثورة ولا الزمن ولا الناس، الثورة وأعمالها فضائل لا شك فيها ما دامت بعيدة عن بيته... فإذا طرقت بابها وإذا تهددت أمته وسلامه وسلامة أبنائه، تغير طعمها ولونها ومزاجها، انقلبت هوساً وجنوناً وعقوباً وقلة أدب، فلتشتمل الثورة في الخارج وليشارك فيها هو بقلبه كله، وليبدل لها ما في وسعه من مال... وقد فعل ولكن البيت له وحده دون شريك، ومن تحدته نفسه - فيه - بالاشتراك في الثورة فهو ثائر عليه هو لا على الإنجليز، إنه يتحرم ليل نهار على الشهداء ويمحج كل الإعجاب بالشجاعة التي يتذرع بها أهم فيها يروي الرواة، ولكنه لن يسمع لابن من أبنائه بأن يفسم إلى الشهداء ولا تطيب نفسه بهذه الشجاعة التي يتذرع بها أهم، فكيف سؤلت نفس فهمي له بالإقدام على هذه الخطوة الجنونية؟... كيف ارتضى - وهو خير أبنائه - أن يعرض نفسه إلى الهلاك المين؟... انزعج الرجل انزعاجاً لم يشعر بمثله من قبل، فاق انزعاجه في مازق الجامع نفسه، فلم يتالك أن يسأله بصراحة ووعيد كأنه أحد مفتشي البوليس الإنجليزي:

- ألا تعلم ما جزء الذي يُضبط وهو يسوزع

المهادية للابن الضالّ، وله بعد ذلك أن يعود إلى عاصيته كيفما شاء، وفتح الله عليه فقال:

- ذاك كان جهادًا في سبيل الله...

اعتبر فهمي جواب أبيه قبولًا للمناقشة والمحاجة، فتشجّع مرة أخرى قائلاً:

- جهادنا في سبيل الله كذلك، كلّ جهاد شريف فهو في سبيل الله...

آمن السيّد بقوله في قلبه، ولكنّ هذا الإيمان نفسه وما خلقه من شعور بالضعف أمام عدّته، هو ما جعله يرتدّ إلى غضبه دون إبطاء... بيّد أنّه لم يكن غضبًا تكبريًّاته فحسب، ولكنّ أيضًا لإشفاقه من أن يتأذى الشاب في غيّه حتّى يودي بنفسه، فكفّ عن الجدل وتساءل مستكبرًا:

- أحسبني قد دعوتك لتناقشنا

انتبه فهمي إلى ما تنطوي عليه كلمات أبيه من نذير، فضاعت أحلامه وانعقد لسانه... أمّا السيّد أحمد فعاد يقول بحذو:

- لا جهاد في سبيل الله إلّا ما أريد به وجهه الله وحده - أي الجهاد الديني - لا جدال في هذا...

والآن أريد أن أعرف ألا يزال أمري مطاعًا؟ فبادره الشاب قائلاً:

- بكلّ تأكيد يا بابا...

- إذن اقطع كلّ صلة بينك وبين الثورة... ولو اقتصر دورك على توزيع المنشورات على خاصّة أصدقائك!

إنّ قوّة في الوجود لا يمكن أن تحوّل بينه وبين واجبه الوطني! لن يتراجع مطلقًا ولو خطوة واحدة، انتهى زمان ذلك إلى غير رجعة، إنّ هذه الحياة الحارّة الباهرة التي تنبعث من أعماق قلبه وتضفي جواذب نفسه لا يمكن أن تغيب وهيات أن يخفيها هو بيده، كلّ هذا حتّى لا شكّ فيه، ولكنّ لماذا لا يلتمس وسيلة إلى إرضاء أبيه وعلمي غضبه؟!... إنّهُ لا يستطيع أن يتحدّاه ولا أن يجهر بمخالفة أمره... أجل استطاع أن يثور على الإنجليز وأن يتحدّى رصاصهم كلّ يوم تقريبًا، ولكنّ الإنجليز عدوّ خفيّ ويغضب ممّا أمّا أبوه

فرجل خفيّ ومحبوب، وهو يعبد به بقدر ما يخافه فلن يهون عليه أن يصدمه بمصبيان، وثمة إحساس آخر لا سبيل إلى تجاهله هو أنّ وراء الثورة على الإنجليز مثاليّة نبيلة، أمّا وراء التمرد على أبيه فليس إلّا الخزي والتعاسة، وماذا يدعو إلى هذا كلّهُ؟!... لماذا لا يعنه بالطاعة ثمّ يفعل ما يشاء؟!... لم يكن الكذب في هذا البيت بالرديلة المخزية، ولم يكن في وسع أحد منهم أن يتمتّع بالسلاسة في ظلّ الأب دون حماية من الكذب، وهم يجهلون به فيما بينهم وبين أنفسهم، بل ويتفقون عليه في الموقف الحرج، وهل كان في نيّة الأمّ يوم تسكّلت في غيبة السيّد إلى زيارة الحسين أن تعترف بفعلتها؟ وهل كان في وسع ياسين أن يسكر، وهو أن يحبّ مريم، وكحال أن يتعفرت بين خان جعفر والحرنفش بلا حماية من الكذب؟!... ليس الكذب ممّا يتورّع عنه أحد منهم، ولو أنّهم التزموا الصدق مع أبيهم ما ذاقوا للحياة طعمًا، لهذا كلّ قال بهدوء:

- أمرك مطاع يا بابا...

وأعقب هذا التصريح صمت تنفّس فيه كلاهما من الراحة، فظنّ فهمي أنّ استجوابه قد انتهى بسلام، وظنّ السيّد أحمد أنّه انتشل ابنه من الهلوة، وبينما كان فهمي ينتظر أن يؤدّن له بالانصراف، قام الأب فجأة وأنجبه إلى صوان الملابس ففتحه ودمّ يده فيه والشابّ يراقبه بعينين لا تدركان شيئًا ثمّ عاد إلى مجلسه حاملاً القرآن، ونظر إلى فهمي مليًّا ثمّ مدّ يده بالكتاب إليه وهو يقول:

- أقيم لي على هذا الكتاب...

وتراجع فهمي بحركة عكسيّة ندّت عنه قبل أن يتدبّر أمره، كأنّما يفّر من لسان لب امتدّ إليه فجأة، وتستمرّ في موقفه وهو يحمل في وجهه أبيه مرتبًا مذمورًا يائسًا، فلبث السيّد ما ذأ يده بالكتاب وهو ينظر إليه في غرابة وإنكار، ثمّ احمرّ وجهه كأنه يلتهب وانبعث من عينيه بريق خفيّ، وتساءل في ذهنه وكأنه لا يصدّق عينيه:

- ألا تريد أن تقسم؟!

ولكنّ لسان فهمي انعقد فلم ينس بكلمة ولم يبد

ناحية أخرى، فاسترسل قائلاً في ضراعة ورجاء:
- ساعني يا بابا، أملك مطاع فوق العين والرأس
ولكني لا أستطيع، إننا نعمل يداً واحدة فلا أرضى ولا
ترضى لي أن أنكص وأتخلف على إخواني، مبهات أن
تعطى لي الحياة إن فعلت، ليس ثمة خطر وراء ما
نعمل، غيرنا يقوم بأعمال أجل كالأستراك في
المظاهرات وقد استشهد منهم كثيرون، لست خبيراً
منهم، إن الجنازات تشيع بالعثرات ممّا ولا هتاف
فيها إلا للوطن، حتّى أهل الضحايا يتنصرون ولا
يكون. فما حياتي؟... وما حياة أيّ إنسان؟... لا
تغضب يا بابا ولكر فنيا أقول... وأكرّر على مسمعك
بأنه ليس ثمة خطر وراء عملنا السلميّ الصغير...
وغلبه الانفعال فلم يعد يستطيع مواجهة أبيه ففرّ
من الحجرة هارباً، كاد يصطلم وراء الباب ياسين
وكيال اللذين وقفاً ينمتان وقد ارتسم على وجهيهما
الارتياح.

٦٣

كان ياسين ماضياً إلى قهوة أحمد عبده حينما التقى
في بيت القاضي بأحد أقرباء أمّه، فأقبل الرجل نحوه
باهتمام ثمّ صافحه وهو يقول:
- كنت ذاهباً إلى البيت لمقابلتك...
جلس ياسين وراء كلامه أبناء عن أمّه التي أورتته
الهموم، فأحسن ضيقاً وتساءل بفتور:
- خير إن شاء الله...؟
فقال الرجل باهتمام غير عاديّ:
- والدتك مريضة، مريضة جدّاً في الواقع، أصابها
المرض منذ شهر أو أكثر ولكنّي لم أعلم به إلّا في هذا
الأسبوع، وقد ظنّوه بادئ الأمر حالة عصبية فسكّرتوا
عنه حتّى استعجل ثمّ تبينّ بعد فحص الأطباء أنّه
ملاريا شديدة...
دهش ياسين للخبر الذي لم يكن يتوقّعه، كأنّه
يتوقّع حديثاً عن طلاق أو زواج أو شجار وما شاكل
ذلك، أمّا المرض فلم يقع له في حساب، تساءل وهو
لا يكاد يتبيّن مشاعره من شدّة اعتلاجها:

حراثكا، فتساءل الرجل بصوت هادئ تعلّته رعشة
متهذّجة أنذرت بما يفور تحت من غضب مستعر كما
ينذر البرق بقمقعة الرعد:

- أكنت تكذب عليّ؟...

لم يطرا على فهمي تغير إلّا أنّه غَضّ بصره فراراً من
عيني أبيه، ووضع السيّد الكتاب على الكتبة ثمّ انفجر
صاخاً بصوت مدوّ خاله فهمي كضوفاً تهوي على
خذيّه:

- أنت تكذب عليّ يا بن الكلب!... أنا لا أسمع
لخلق بأن يضلحك على ذقني، ماذا تظنّ بي وماذا
تظنّ بنفسك!... أنت حشرة خبيثة مجرمة، بنت
كلب خدعت بظاهرها طويلاً، لن أنقلب امرأة على
آخر الزمن، سامع! لن أنقلب امرأة على آخر
الزمن، حترقوني يا أولاد الكلب وجعلتموني أضحوكة
الناس، أنا أسلمك بنفسي إلى البوليس، فاهم!؟
بنفسني يا بن الكلب، الكلمة هنا كلمتي أنا، أنا أنا
أنا... (ثمّ متلألأ الكتاب مرّة أخرى) أقسم...
أمرك بأن أقسم...

بدا فهمي وكأنّه في غيبوبة، كانت عيناه مثبتتين على
بعض الصور الغربية المنقوشة على السجادة الفارسية
دون أن تريا شيئاً، وكأنّ تلك النقوش قد انطبعت
بدائمة النظر على صفحة عقله فاستحال شتيتاً من
الغوضي والحفوا، وكلّما مرّت ثانية أمعن في الصمت
والياس، لم يبق له إلّا أن يلوذ بهذه المقاومة السلبية
البائسة، ونهض السيّد والكتاب في يده فاقترب خطوة
منه ثمّ زعق:

- انوثمت ألك رجل!... انوثمت ألك تستطيع
أن تفعل ما تشاء!... لو أشاء أضربك حتّى أكسر
رأسك...

لم يملك فهمي عند ذلك إلّا أن يبكى، لا خوفاً من
التنهديد فما كان يبالي في موقفه وتأثيره بأيّ أذى يصيبه،
ولكن تنفيساً عن قهره وترويحاً عن الصراع الناشب في
صدره، ثمّ جعل بعض على شفطه ليكنم البكاء، ثمّ
اعتراه الحجل لما ركه من ضعف بيد أنّه وسعه أخيراً
أن يتكلّم لشدّة تأثره من ناحية ومداراة لحجله من

.. وكيف حالها الآن...؟

قال الرجل بصراحة لم يخف مغزاها على ياسين:
.. حالها خطيرة... امتد العلاج دون أن ييثر
بأذى تقدّم، وبالأحرى ازدادت الحال سوءاً، وقد
أرسلني إليك كي أصارك بأثنا تشعر بدنو أجلها،
وأثنا ترجو أن تراك دون تأخير...
ثم بلهجة ذات معنى:

.. يجب أن تلعب إليها بلا تردد، هذه نصيحة
ورجاء، والله غفور رحيم.

لعل كلام الرجل لم يخل من مبالغة أراد بها دفعه
إلى الذهاب ولكنه ليس اختلافاً كله، فليذهب ولو
بدافع الواجب وحده، ما هو يخرق مرة جديدة منحنى
الطريق المضي إلى الجالية بين بيت المال وحارة
الوطايط، إلى بينة عطفة التيه حيث تلبد بالمة الدوم
في ذكريات الظلام المرتعشة وإلى الأمام طريق الآلام،
سيرى عثاً قليل دكان الفاكهة يفيض البصر ويتسلّل
كاللصّ الهارب، كلما ظلّ أنّه لن يعود إليه عادت به
تعامته، ما من قوّة كانت تستطيع أن تعيده إليها...
إلا الموت؟... الموت... ترى هل تحمّت النهاية
حقاً؟... قلبي يخفق، ألمّا؟... حزناً؟... لا
أدري إلّا أنّي خائف، إذا ذهب فلن أعود إلى هذا
المكان مرة أخرى... سيفشى النسيان مسالف
الذكريات... ثم تردّ إليّ البقيّة الباقية من أملاكي،
ولكنّي خائف... وحائق على هذه الأفكار الخبيثة،
اللهم احفظنا...

حقّ إذا حظيت بعيشة أرغد وبأل أصفى فلن ينجو
قلبي من الآلام، حين الموت مسأوّدع أثماً بقلب
ابن... ثم وابن ليس كذلك؟... لست إلّا معدّياً
لا وحشاً ولا حجرًا، بيد أنّ الموت زائر جديد عليّ لم
أشهد عصره من قبل، وددت لو كانت النهاية بشيره،
سمنوت جيماً... حقاً؟... يجب ألاّ استسلم للخوف،
إنّ أنباء الموت لا تنقطع عثاً ليل نهار في هذه الأيام، في
شارع النواوين والمدارس والأزهر، وهناك في أسويط
كلّ يوم ضحايا، حتّى المسكين الفولي اللّبان فقد ابنه
أمس، ما عسى أن يصنع أهل الشهداء؟... أيقضون

العمر بكاء؟... إنهم سيكون ثمّ ينسون وهذا هو
الموت، أف... يجيل إليّ أنّه ليس ثمة مفرّ من
المتاعب الآن، ورأيت في البيت فهمي وعنده وأمامي
أمّي فما أبغض الحياة وإذا كان الأمر مكيدة وجديتها
في خير وعافية؟... ستدفع الثمن غالباً... يقيناً
لندفعن الثمن... لست لعبة أو أضحوكة، لن نجد
«الابن» إلّا حين الموت، ترى ماذا بقي لي من
ثروة؟... وإذا دخلت البيت التقي ببلّك (الرجل)
هناك؟... لا أدري كيف أقابله... ستلتقي عينانا
في لحظة رهيبية، الوليل له، أنجاهمه أو أطرده هذا هو
الحلّ، هناك ألوان من العنف لا تحطّر له ببال، ولكن
ستجتمعا الجنّازة حتّى... وهذا مضحك، تصرّو أن
يسير وراء النعش أقدم الأزواج وأحدثهم وبينهما الابن
دامع العينين... حتم وقتذاك أن تدمع عيناى...
أليس كذلك؟... لن يكون في وسعي أن أطرده من
الجنّازة فتلاحقني الفضيحة حتّى اللحظة الأخيرة...
ثم تدفن، أجل تدفن وينتهي كلّ شيء، ولكنّي خائف
ومتألم وعززون، إنّ الله وملائكته يصلّون... هذه هي
الدغان المجرّمة... وهذا هو... لن يعرفني،
هيهات، إنّنا نتنكر بالمعمر، يا عمّ... أمّي تقول
لك...

فتحت له الخادم الباب - نفس الخادم التي استقبلته
منذ عام فأنكرته - فتطلّعت إليه كالنساءلة لحظة،
وسرعان ما غلبت نظرة التساؤل وراء لمة كأنما تقول
له: «هه... أنت الذي تنتظر» ثمّ أفسحت له وهي
توميّ إلى حجرة على يمين الداخل قائلة:

.. تفضّل يا سيّدى... لا يوجد أحد...

جلبت العبارة الأخيرة انتباهه بقوّة كأنما جاءته
جواباً شافياً لبعض حيرته، فدارك أنّ أمّه أخلت له
الطريق، أنجّه إلى المحجرة، تنحّج، ثمّ دخل، وقعت
عيناه على عيني أمّه وهما ترفعان إليه من فراش على
يسار الداخل، عينين حجبت صفاهما المعهود غشاوة
باهتة فلاحت نظريها الواهنة كأنما تتطلّع إليه من
بعيد، وبالرغم من ذبولها وما أوحى به انطفاؤها من
عدم الاكتراث لشيء فقد لبّثت على وجهه ثبوت

جديدة استمدتها من محضره - تقول:

- في أول الأمر كانت تتابني رعدة غريبة فحسيتها طارثاً عصبياً، نصحوني بالطواف ببيوت الله وبالتبحر فزوت الحسين والسيدة وتبحرت بأنواع شتى من البخور الهندى والسودانى والعربى، ولكن لم تكن الحال تزداد إلا سوءاً... أحياناً كانت تملكني رجفة متواصلة لا تدعني حتى أكون قد أشفيت على الهلاك، وتقرّ بي أوقات أجد جسمي بارداً كالثلج، وأوقات أخرى تمتد النار في جسدي حتى أصرخ من شدة الحرارة أخيراً صمّ مس... (أسكت عن النطق بالفعل متبهاً في اللحظة الأخيرة إلى الخطأ الذي كانت ستع فيه). أخيراً استحضرت الطبيب، ولكن لم يتقدم به العلاج خطوة واحدة نحو الصحة إن لم يكن تأخر خطوات، لم تمد ثمة فائدة ترجى.

فقال ياسين وهو يضبط برقة على راحتها:

- لا تيايى من رحمة الله، إن رحمة واسعة.

فافتّر ثغرها المتع عن ابتسامة ضميقة وقالت:

- يسرني أن أسمع هذا، يسرني أن أسمع منك أنت قبل الناس جيماً، أنت عندي أغل من الدنيا ومن عليها، صدقت إن رحمة الله واسعة، طالما ساهي الحقد، لا أنكر المحفوات والأخطاء، العصمة لله وحده. آس - جزعاً - من حديثها ميلاً إلى ما يشبه الاعتراف، فانقبض صدره وجفل جفولاً حاداً من أن تردّد على مسمعيه أموراً لا يطيقها ولو على سبيل الندم والتكفير. فتوترت أعصابه حتى أوشك أن تبدّل حالاً بعد حال، قال بتوسّل:

- لا تعمي نفسك بالكلام.

رفعت إليه عينها باسمه وهي تقول:

- جيتك ردّ إليّ الروح، دعني أقلّ لك إليّ لم أقصد في حياتي سوءاً بإنسان، كنت أنشد كسائر الخلق راحة البال فيماندني الحقد العاثر، لم أمي إلى أحد ولكن كثيرين أساءوا إليّ.

شعر بأن رجاءه أن تعفي الساعسة بسلام سيخيّب... وأن عاطفته الصافية تعاني أزمة من التخصيص، فقال بلهجة التوسّل السالفة:

العرفان، وانفجرت شفتاهما عن ابتسامة خفيفة وشت بظفر وارتياح وامتنان، لم يكن يبدو منها إلا وجهها إذ اشتملت ببساطة حتى الذقن، وجه أدركه من التغير فوق ما أدرك العينين، جفّ بعد اكتناز واستطال بعد استدارة وشحب بعد تورّد وشفّت جلده الرقيق عن عظام الفك والوجنتين البارزة فبدا صورة للرشاء والفناء، وقف ذاهلاً منكراً كأنه لا يصدق أن ثمة قوة في الوجود تهرؤ على هذا العبث القاسي، فقبض قلبه فرعاً كأنه يرى الموت نفسه، تحلّت عنه كأنها ارتدّ طفلًا وانفقد أباه أيّما انفقاد، ثم دفعه تأثر لا يقاوم إلى الفراش حتى اتحن فوقها مغنماً في نبرات أسيفة:

- لا بأس عليك... كيف حالك؟

ملاء شعور صادق بالرحمة غابت في حرارته الآلهة المزمنة كما تغيب - في أحوال نادرة - ظاهرة مرضية ميثوس منها، كالتشلل، عند هجوم فزع هائل مفاجئ... كأنه يلقي أم طفولته التي أحبها قبل أن توارىيا عن قلبه الآلام، فتشبّث - وهيناه مرسلتان إلى الوجه الغالي - بهذا الشعور المستجذ الذي رده أحوالاً طويلة إلى السواء - إلى ما وراء الألم - كما يتشبّث المريض المتهالك بصحوة طارئة يخاف عليها إحساساً باطنياً بوشك الزوال، تشبّث به بشدة خليقة برجل يقدر القوى المضادة التي تهدده، وإن دلّ تشبّته نفسه على أن الآلهة لم تزل تضطرم في الأحياق مندرّة إليّ بما يترصّده من حزن إذا هو يماون فخلط بشعوره الصافي ما يفسده من مشاعر أخرى، وأخرجت المرأة من تحت الغطاء يداً محموصة معروقة اكتست بشرتها الجافّة بزيّج من سواد باهت وزرقة كأنها يد غمطت منذ آلاف السنين فتناولها بين يديه بتأثر شديد، وعند ذلك سمع صوتها الضعيف المبحوح وهو يجيبه قائلاً:

- كما ترى، صرت خيالاً.

فغمغم:

- ربّنا يدركك برحمته، ويردّك إلى خير ممّا كنت.

فلنّدت عن رأسها الممصوب بخيار أبيض حركة دعائية كأنها تقول: «ربّنا يسمع منك»، وأشارت إليه أن يجلس فجلس على الفراش ثم استرسلت - بقوة

- دعي الناس بخبرهم وشرهم، صَحَّتْكَ الآنَ أُمِّمٌ
من أيِّ شيءٍ آخر...

فَرَبِّتْ عَلَى يَدِهِ بِاسْتِعْطَافٍ كَأَنَّمَا تَسْأَلُهُ أَنْ يَتَرَفَّقَ
بِهَا، ثُمَّ هَمَسَتْ:

- فَاتْنِي أَشْيَاءَ، لَمْ أَوُذْ إِلَى اللَّهِ حَقَّهُ، وَدِدْتُ لَوْ طَالَ
عَمْرِي حَتَّى أَسْتَدْرِكَ بَعْضَ مَا فَاتَنِي، يَدُ أَنْ قَلْبِي كَانَ
دَائِمًا مَفْعَمًا بِالْإِيمَانِ وَاللَّهِ شَهِيدٌ.

فَقَالَ وَكَأَنَّهُ يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْهَا مَعًا:
- الْقَلْبُ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ، هُوَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْقَ الصَّوْمِ
وَالصَّلَاةِ.

فَشَدَّتْ عَلَى يَدِهِ بِامْتِنَانٍ ثُمَّ غَضِبَتْ بِجَرَى الْحَدِيثِ
قَائِلَةً بِتَرْحَابٍ:

- وَعَدْتُ لِيْ أَخِيرًا، لَمْ أَجْزُؤْ عَلَى دَعْوَتِكَ حَقَّ
انْتِهَى بِى الْمَرْضَى إِلَى مَا تَرَى، دَاخِلُنِي شُعُورُ بَاقِي أَوْدَعِ
الْحَيَاةِ فَلَمْ أَطُفْ أَنْ أَفَارِقَهَا قَبْلَ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنِي مِنْكَ،
فَارْسَلْتُ إِلَيْكَ وَبِى مِنَ الْخَوْفِ مِنْ رَفْضِكَ أَكْثَرَ ثَمًّا بِى
مِنْ خَوْفِ الْمَوْتِ نَفْسِهِ، وَلَكِنَّكَ رَحِمْتَ أَمَّكَ وَأَبْلَغْتَ
تَوْدَعِيَا فَلَكَ الشُّكْرُ وَدَعَا أَرْجُو اللَّهَ أَنْ يَقْبَلَهُ.

اشْتَدَّ التَّائِبُ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَلْزِمْ كَيْفَ يَمِيزُ عَنْ شُمُورِهِ،
تَنَاقَلَتْ الْكَلِمَاتُ الْخَرُونَةُ فِيهِ مَتَعَرَّةً فَبِهَا يَشَبْهُ الْحَيَاءَ
أَوْ الْغَرَابَةَ حَلَمًا أَرَادَ تَوْجِيهَهَا إِلَى الْمَرْأَةِ الَّتِي أَلْفَ عَمَالَمِهَا
وَبِنْدِهَا، بَدَأَ أَنَّهُ وَجَدَ فِي يَدِهِ أَدَاةَ تَعْبِيرٍ طَلِيعةَ حَسَّاسَةٍ،
فَضْطَبَطَ عَلَى رَاحَتِهَا مِمَّنْغَمًا:

- رُبُّنَا يَكْتُبُ لَكَ السَّلَامَةَ.

وَجَعَلَتْ تَلَدُّورَ حَوْلَ الْمَعْنَى الَّذِي أَفْصَحَتْ عَنْهُ
جَمْلَتِهَا الْأَخِيرَةَ، مَرْدَّةَ نَفْسِ الْأَلْفَاظِ تَارَةً أَوْ مُسْتَبَدِّلَةً بِهَا
غَيْرَهَا ثَمَّا يَدُلُّ عَلَى نَفْسٍ مَعْنَاهَا طَوْرًا آخَرَ، وَرَاحَتْ
تَفْضُّلُ الْحَدِيثِ بِإِزْدِرَادٍ رَيفِهَا بِجَهْدٍ مَلْحُوظٍ أَوْ
بِالْصَّمْتِ الْقَصِيرِ رِيثًا تَسْتَرِدُّ أَنْفَاسَهَا، ثَمَّا دَعَا مَرَّاتٍ
إِلَى أَنْ يَرْجُوَهَا بِالْكَفِّ عَنِ الْحَدِيثِ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ
تَبْتَسِمُ لِمَقَاطَعَتِهِ ثُمَّ تَعُودُ إِلَى مُوَاصَلَةِ الْحَدِيثِ، حَتَّى
تَوْفَّقَتْ وَقَدْ لَاحَ فِي وَجْهِهَا اِهْتِمَامٌ طَائِرٌ كَلِمًا تَذَكَّرَتْ
شَيْئًا ذَا بَالٍ... وَقَالَتْ:

- تَزَوَّجْتُ؟
فَرَفَعَ حَاجِبِيهِ فِي شَيْءٍ مِنَ الضِّيقِ وَتَوَرَّدَ وَجْهَهُ،

وَلَكِنَّهَا أَخْطَأَتْ فَهَمَهُ فَيَادِرَتُهُ كَأَنَّهَا لَعَنَتْ:
- لَا عِتَابَ... حَقًّا كُنْتُ أَوُذُ أَنْ أَرَى عَرُوسَكَ
وَفَزَيْتِكَ، وَلَكِنْ بِحَسْبِي أَنْ تَكُونَ سَعِيدًا.

فَبَا مَلِكُ أَنْ قَالَ بِاقْتَضَابٍ:
- لَسْتُ مَتَزَوِّجًا، طَلَّقْتُ مِنْهُ شَهْرَ تَقْرِيبًا.

لَاوَلْ مَرَّةً لَاحَتْ آيُ الْإِنْتِبَاهِ فِي عَيْنَيْهَا، لَوْ كَانَ فِي
الْإِمْكَانِ أَنْ يَلْتَمِعَا لِالْتِمَاعِ... وَلَكِنْ انْبَعَثَ مِنْهَا شَيْءٌ
ضَوْءٌ كَالضَّوْءِ الْخَالِمِ الَّذِي تَنْضَحُ بِهِ سِتَارَةُ كَثِيفَةٍ،
وَتَمَتَّتْ:

- طَلَّقْتُ يَا بَنِيَّ! مَا أَحْزَنُنِي!
فَابْتَدَرَهَا قَائِلًا:

- لَا تَحْزَنِي، لَسْتُ حَزِينًا وَلَا آسَفًا (ثُمَّ بَاسًا!)
أَخَذَتْ الشَّرَّ وَرَاحَتْ.

وَلَكِنَّهَا تَسَامَلَتْ بِنَفْسِ اللَّهْجَةِ:
- مِنَ الَّذِي اخْتَارَهَا لَكَ... هُوَ أَمْ هِيَ!!

فَقَالَ بِاللَّهْجَةِ ثَمَّتْ عَنْ رَغْبَتِهِ فِي قَفْلِ بَابِ هَذَا
الْحَدِيثِ:

- اخْتَارَهَا اللَّهُ، كُلُّ شَيْءٍ قِسْمَةٌ وَنَصِيبٌ!
- أَعْلَمُ هَذَا، وَلَكِنْ مِنَ الَّذِي اخْتَارَهَا لَكَ؟ أَمْرًا

أَيُّكَ؟
- كَلَّا أَيْ الَّذِي اخْتَارَهَا، وَلَا غَبَارَ عَلَى اخْتِيَارِهِ

فَهِىَ مِنْ أَسْرَةٍ كَرِيمَةٍ... وَلَكِنَّهَا الْقِسْمَةُ وَالنَّصِيبُ كَمَا
قُلْتُ.

فَقَالَتْ بِهَرُودٍ:
- الْقِسْمَةُ وَالنَّصِيبُ وَاخْتِيَارُ أَيُّكَ... هَلْهُ هِيَ!

ثُمَّ بَعْدَ وَقْفَةٍ قَصِيرَةٍ:
- حَبْلٌ...؟

- نَعَمْ...
وَهِيَ تَتَنَهَّدُ:

- اللَّهُ يَتَّكِدُ عَيْشَةَ أَيُّكَ!
تَعَمَّدُ أَلَا يَعْقُبُ عَلَيْهَا، كَمَا يَمْتَنِعُ عَنْ حَكِّ قَرْحَةٍ

تَأْكُلُهُ لَعْلَهَا تَسْكُنُ... فَشَمْلُهَا صَمْتُ، وَأَغْمَضَتْ
الْمَرْأَةَ عَيْنَيْهَا كَأَنَّمَا أَنْهَكَهَا التَّعَبُ، يَدُ أَنَّهَا فَتَحَتْهَا هَنِيئَةً

فَابْتَسَمَتْ إِلَيْهِ وَهِيَ تَسْأَلُهُ بِصَوْتٍ رَقِيقٍ لَا أَثَرَ فِيهِ
لِانْفِعَالٍ:

- ترى هل يمكن أن ننسى الماضي؟

فغضّ بصره مستغضباً وهو يشعر برغبة في الحرب لا تقاوم، ثم قال برجاء:

- لا تعودني إلى ذكره، فليذهب إلى غير رجعة.

لعلّ قلبه لم يُعَ ما يقول، ولكنّ لسانه قال ما ينبغي أن يقال... أو لعلّ ذلك القول كان تعبيراً صادقاً عن شعوره خظنته، تلك اللحظة التي استغرقه فيها بكلّيته الموقف المحيط به، ولعلّ قوله: «فليذهب إلى غير رجعة» قد وقع من مسمعه - ومن قلبه - موقفاً غريباً خلف وراءه قلقاً، ولكنّه أبى أن يجعله موضوعاً لثقله، فرّ من ذلك فراّء، وتشبّث بمواقفته الصافية التي عقد العزم على التشبّث بها من بادئ الأمر، أمّا أمّه فعاتت تسأله:

- وهل تحبّ أمك كما كنت تحبّها في الزمن السعيد؟

فقال وهو يريّت على راحتها:

- أحبّها وأدعو لها بالسّلامة.

سرعان ما وجد العزاء عن قلقه وجهاده الباطنيّ فيها انطبع على وجهها اللاذوي من روح السلام والارتياح العميق، ثمّ شعر براحتها تضغط على يده كأنّها تبته ما يكنّه صدرها من امتنان، وتبادلا نظرة طويلة هادئة باسمة حائلة أشاعت في الحجرة جرّاً من الطمأنينة والمودة والخزن، لم يعد يبدو منها ما يدلّ على رغبتها في الحديث أو لعلّ الجهد حال بينها وبين هذه الرغبة، ثمّ تراخت جفونها رويداً حتّى انطبقت، جعل نظر إليها كالمستائل ولكن لم تتدّ عنه حركة، ثمّ انفجرت شفتاها قليلاً وانبعث منها شخير خفيف متقطع. اعتدل في جلسته وهو يتوسّم وجهها ثمّ أغمض عينيه قليلاً ريثما يستحضر صورة الوجه الآخر الذي طالمت به منذ عام فانقبض صدره وعواده شعور الخوف الذي طارده طوال الطريق، ترى هل يتاح له أن يرى ذلك الوجه مرة أخرى؟ وبأيّ قلب يلقاه إن عاد؟ لا يدري، لا يجب أن يتصوّر المضمّر في علم الغيب، يودّ أن يقف عقله عن الحركة وأن يتبع الحوادث لا أن يسبقها، وأحاط به شعور الخوف والقلق، عجباً! لقد ركبته رغبة في الحرب وهو ينصت إلى حديثها حتّى خيل إليه

أنّه ارتاح إلى نومها كلّ الارتياح ولكنّه ما كاد يغرد بنفسه حتّى هاجمه الخوف... خوف لم يدرك له سبباً فتمتّع لو تصححو من سباتها وتعود إلى الحديث، حتّام ينتظر... هيها استغرقت في النوم حتّى الصباح!... لن يسعه أن يبقى طويلاً فريسة للخوف والقلق هكذا، يجب أن يضع حداً لآلامه... غداً أو بعد غد تكون تهيئة أو تعزية... تهيئة أو تعزية! أيّها أحبّ إلى نفسه! يجب أن يقف عن الحركة، تهيئة كانت أم تعزية لا ينبغي أن أسبق الحوادث، غاية ما يمكن قوله لو قدّر علينا أن نفرّق الآن لافترقا صديقين، تكون خير نهاية لأسوأ حياة، أمّا إذا مدّ الله في عمرها...

سرح طرفه وهو شارد فوقع على مرآة الصوان - في الجهة المقابلة - التي عكست صورة الفراش فرأى جسم أمّه مطروحاً تحت البطانية كما رأى نفسه يكاد يحجب نصفها الأعلى إلّا يدها التي أخرجتها عند استقباله فحملها برفق وأدخلها تحت الغطاء ثمّ ثبت حول عنقها بعناية، عاد ينظر إلى المرآة فخطر له هذا الخاطر ربّما عكست هذه المرآة غداً فراشاً خالياً عارياً... ليست حياتها - حياة أيّ إنسان... لم يأت - بأرسل دواماً من هذه الصور الوهمية!... فاشتدّ به شعور الخوف وهمس لنفسه ويجب أن أضع حداً لآلامي... يجب أن أذهب، بيد أنّ بصره تحرّك تاركاً المرأة فالتفتي بخوان وضعت عليه نارجلة التفّ خرطومها حول عنقها كالتيبان فثبت عليها في دهشة وإنكار سرعان ما حلّ مكانها شعور هائج بالترقّز والغضب، ذلك الرجل! هو بلا ريب صاحب هذه النارجيلة... تخيلته مترتّباً على الكبة القائمة بين الفراش والخوان وقد اندلق على النارجيلة يشقّ ويغرّز متلذّداً وأمّه تروح له على الجمرات... أه ترى أين هو الآن، في مكان بالبيت أم في الخارج؟ هل رأيته من حيث لم يره؟... لم يعد يحتمل البقاء مع النارجيلة أكثر ممّا بقي فالتفت نظرة على وجه أمّه التي وجدها مستغرقة في النوم ثمّ زابل مجلسه بخفة وسار إلى الباب، وثمّا التقى بالخادم في الردهة الخارجيّة قال لها:

- ستك ناعت، سأعود غداً صباحاً.

والتفت إليها مرة أخرى وهو يغادر الباب الخارجي قائلاً:

- غداً صباحاً.

كأنما بنى الرجل نفسه إلى موعد حضوره ليخفي من وجهه، مضى إلى حانة كستاكى رأساً. شرب كعادته ولكنه لم يطب بالشراب نفساً، أعياء أن يطرد عن قلبه الخوف والقلق، ومع أنَّ أحلام الثروة وراحة البال لم تلب عن ذهنه إلا أنها لم تستطع أن تمحو عن مخيلته صورة المريض وخواطر الفناء. ولما عاد إلى البيت عند منتصف الليل وجد امرأة أبيه في انتظاره بالدور الأول فنظر إليها متعجباً ثم تساءل خافق القلب:

- أمي؟

فأجبت أمينة رأسها وقالت بصوت خافت:

- جامنا رسول من قصر الشوق قبل مجيئك بساعة، العمر الطويل لك يا ابني. . .

٦٤

تطوّرت العلاقة بين كمال والجنود البريطانيين إلى صداقة متبادلة، وقد حاولت الأسرة أن تتلّزّع بماساة ياسين في جامع الحسين لتفنع الغلام بقطع علاقته مع أصدقائه ولكنه أجابهم بأنه «صغير»، أصغر من أن يتهم بالجاهلوسية، ولكي يضادى من منهم إياه بالقوة كان يمضي إلى المعسكر رأساً بعد عودته من المدرسة تاركاً حقيبة كتبه مع أم حنفي فلم تكن ثمة وسيلة إلى منعه إلا باستعمال القوة الأمر الذي لم يروا له موجباً لا سلباً وأنه يرحم في المعسكر تحت أعينهم متقبلاً في كلّ موضع بالترحيب والتكريم، حتى فهمي نفسه أغضى عنه ولم يكن يجد بأساً في التسلّي بمشاهدته وهو ينتقل بين الجنود «كقرد يلهو في غابة من الوحوش».

- قولوا لسيدي الكبير.

هكذا اقترحت أم حنفي وهي تشكو نهم الجنود عليها- بسبب الصداقة اللعينة - وعكاكة بعضهم لمشيئتها بطريقة «يستحقون عليها قطع رقيبتهم» ولكن أحداً لم يأخذ اقتراحها مأخذ الجد، لا رحمة الغلام

فحسب، ولكن رحمة بهم هم أنفسهم خشية أن يجزّ التحقيق إلى معرفة تسترهم الطويل على هذه الصداقة، فتركوا الغلام وشأنه، ولعلهم لم يخلوا من رجاء في أن يقوم الشعور الطيّب المتبادل بين الغلام والجنود حالاً بينهم وبين ما يحتمل أن يتعرضوا له من عبث وأذى في الذهاب والإياب! أسعد ساعات يومه كانت تلك التي يدخل فيها المعسكر، لم يكن جميع الجنود «أصدقاء» بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ولكن لم يعد أحد منهم يجهل شخصه، كان يصفح الأصدقاء ويشدّ على أيديهم بحرارة على حين يكتفي برفع يده، تحية للآخرين، وربما صادف عبثه قيام أحد الأصدقاء بنوبة الحراسة فيقبل الغلام عليه هائلاً باشاً وهو يمدّ يده لها يروعه إلا أن يلقي منه جوداً غريباً مثيراً كأنما يتجاهله أو كأنما تحوّل إلى صنم فلا يدرك أن ليس في الأمر تجاهل أو غضب إلا من إغراق الآخرين في الضحك. ولم يكن من النادر أن يباحث وهو بين الأصدقاء بصغير الإنذار، هنالك يهرعون إلى الحيام ثم يمسودون بعد قليل وقد ارتدوا ملابسهم وخوذاتهم وحلوا بنادقهم، ويتحرّك لوري من موقفه وراء سبيل بين القصرين إلى وسط الطريق فيمضون إليه ويقفزون إلى داخله حتى يكتنك بهم، بات يدرك من المنظر الذي أمامه أنَّ مظاهره قامت في جهة ما وأن الجنود ذاهبون لتفريقها وأنّ قتالاً سينشب بينهم وبين المتظاهرين، ولكن لم يكن عيّمه في تلك الأوقات إلا أن يتفقد الأصدقاء بصره حتى يثمر عليهم في زحمة اللوري وأن يلا منهم عينيه كأنما يؤدّعهم، وأن يسط كفيه واللوري يعتمد بهم صوب النحاسين داهياً لهم بالسلمة ثم تالياً الفاتحة... على أنه لم يكن يقضي في المعسكر أكثر من نصف ساعة كلّ أصيل وهو أقصى ما وسعه أن يتغيّب عن البيت عقب عودته من المدرسة، نصف ساعة لم تكد تغفو فيها حاسّة من حواسّه دقيقة واحدة، يدور حول الحيام، يسير بين اللوريات مستظلاً قطعها قطعة قطعة، يقف حيال أهرام التناقط طويلاً متفحصاً أجزاءها جزءاً جزءاً خاصة فوهة الماسورة التي يكمن فيها الموت... يقف على بعد لا

النتيجة مجهولة والاحتمال متارجحاً بين الطرفين على أن
المعركة لا تليث طويلاً حتى تستوجب نهاية تنهي
إليها، هنالك يجد نفسه في موقف حائر، أيّ جانب
يتنصر؟... في جانب أصدقائه الأربعة وعلى رأسهم
جوليون، وفي الجانب الآخر مصريون يخفّون معهم
قلب فهمي!... في اللحظة الأخيرة يقرّر النصر
للمتظاهرين فينسحب اللوري بقلة من الجنود بينهم
الأصدقاء الأربعة وإن كان قد ختم المعركة مرةً بصلح
شريف احتفل به المتحاربون من الطرفين بالغناء حول
مائدة حفلت بأنداح الشاي وخففت ألوان الحلوى...
وكان جوليون أعز أصدقائه، امتاز إلى جماله بلعانة
الخلق فضلاً عن براعته النسبية في التكلم بالعربية،
وهو الذي جعل دعوته إلى الشاي حقاً ثانياً كما بدا
أشدّ الجنود تأثراً بفنائه حتى كان يدعوه كلّ يوم تقريباً
إلى غناء «يا عزيز عيني» فيتابعه باهتمام ثمّ يغتمم في
نشوّق وحزين:

- أروّج بلدي... أروّج بلدي!

واتس كمال منه هذه الروح فازداد له ألفة واطمئناناً
حقّ قال له مرةً جاداً وكأنيما بدله عن خرج من كربه:
- أرجعوا سعد باشا وعودوا إلى بلادكم!...

ولكنّ جوليون لم يلقَ اقتراحه بالارتياح الذي كان
ينتظر وعلى المكس طلب إليه - كما فعل من قبل في
ظرف مشابه - ألا يعود إلى ذكر سعد باشا قاتلاً:
«سعد باشا... نواء وهكذا قتل - على حدّ تعبير
ياسين - أوّل مفاوض مصري!... ما يدري يوماً إلا
وأحد «الأصدقاء» يقدّم له صورة كاريكاتورية رسمها،
فنظر كمال إليها بدهشة وانزعاج وهو يقول لنفسه
«صوري!؟ ليست هذه صوري!»، ولكنّه شعر في قرارة
نفسه بأنّها صورته دون غيره ولو على وجه ما، ثمّ رفع
عينيه للواقفين فألفاهم فيسبحون فادرك أنّها نوع من
المزاح وأنّ عليه أن يتقبّله بسرو فجاراهم في
ضحكهم مدارياً بالضحك خجله، ولمّا أطلع عليها
فهمي نفّس هذا فيها بدهشة ثمّ قال:

- ربّاه... لم تترك عيلاً إلا أهرزته!... الجسم
النحيف الصغير، الرقبة الطويلة الحزيلة، الأنف

يسمح له بتجاوزه ونفبه ذاهبة حشرات على اللعب
بها أو على الأقلّ لمسها، ولمّا كانت زيارته توافق ميعاد
الشاي فكان يمضي مع أصدقائه إلى المطبخ القائم عند
مدخل درب قمرز ويأخذ مكانه في نهاية طابور
«الشاي» كما يدعونه ثمّ يعود وراهم حاملاً قح شاي
باللين وقطعة من الشيكولاتة فيجلسون على سور
السيبل يحسّون شرابهم وينشد الجنود أغاني جماعية وهو
ينصت لهم باهتمام منتظراً دوره في الغناء، تركت حياة
المعسكر في نفسه أثراً عميقاً بثّ في خياله وأحلامه
بقطة شاملة، أثراً نقش على صفحة قلبه إلى جانب
الأثار التي نقشتها حكايات أمينة عن عالم الغيب
والأساطير، وقصص ياسين الذي جذب روحه إلى
دنياها الساحرة، والأطياف والرؤى التي تتخيل له في
أحلام اليقظة وراء أغصان الياسمين واللباب وأصص
الزهور - فوق السطح - عن حياة النمل والعصافير
والدجاج، من ثمّ أنشأ عند سور السطح الملاصق
لسطح بيت أمّ مريم معسكراً كامل المّة والعدد، أقام
خيامه بالمناديل والأقلام، وأسلحته بعبدان الخشب،
ولورياته من القباقيب وجنوده من نوى النصر، وعلى
كتب من المعسكر مثل المتظاهرين بالحصى. يبدأ
التمثيل عادة بنشر النوى جماعات بعضها في الخيام
وعند مداخلها وبعضها حول البنادق غير أربع بينها
حصاة (يمثله هو) ينتحون جانباً، يأخذ في محاكاة الغناء
الإنجليزيّ ثمّ يميّه دور الحصاة لتغني «زوروني كلّ
سنة مرةً أو «يا عزيز عيني»، ينتقل إلى الحصى فيضدّه
صوفواً ويصف «يحميا الوطن... تسقط الحياة... يحيا
سعد»، يعود إلى المعسكر مصغراً فتنتظم النوى صوفواً
كذلك وعلى رأس كلّ صفّ قرعة، ثمّ يدفع قبقاباً وهو
ينفخ عماكياً أزيز اللوري، ويضع النوى على سطح
القباقيب ثمّ يدفعه مرةً أخرى صوب الحصى فتتشب
المعركة وتسقط الضحايا من الجانبين!... ولم يكن
يسمح لمواظفه الشخصية بأن تؤثر في سير المعركة،
على الأقلّ في بدنها ووسطها، كانت تتحكّم فيه رغبة
واحدة هي أن يجعلها معركة «صادقة مشوّقة» يتنازعها
الدفع والجذب من الجانبين وتتعادل الإصابات فتظلّ

الكبير، الرأس الضخم، العينان الصغيرتان...
ثم صاحبا:

- الشيء الوحيد الذي يبدو أنَّ «صديقك» يضمّر نحوه إعجابًا هو بذلتك الأنيقة المهندمة ولا فضل لك في ذلك وأما الفضل لينة التي لا تترك شيئًا في البيت إلا هندمته!

ورمى إليه بطرف شامت ثم قال:

- بان السرّ الذي حبّيك إليهم!... إنهم يتسلّون بالضحك على شكلك وأناقتك المفرطة، يعني بالعربي لست إلا «قره جوز» في نظرهم... ماذا كسبت من وراء حياتك؟!...

ولكنّ كلام فهمي لم يحدث أثرًا لأنّ الغلام كان يدرك مدى عداوته للإنجليز فظنّها مناورة يراد بها التفرقة بينه وبينهم!... وجاء يومًا المسكر كمادته فرأى جوليون عند أقصى جدار السبيل يتطلّع باهتمام إلى العطفة التي يفتح عليها بيت المرحوم السيّد محمّد رضوان فمضى نحوه ولكنّه رآه يلوح بيده محدثًا إشارات غامضة لم يفقه لها معنى بيّده توقّف عن التقدّم ملتبسًا إحسانًا غريزيًا غفي عنه معناه، ثمّ أغراه حبّ الاستطلاع بأن يدور حول الحياض المنصوبة أمام واجهة السبيل متسلّلاً إلى ما وراء جوليون وأن يحدّ بصره إلى الهدف الذي يتطلّع إليه، هنالك رأى كوة في جناح بيت آل رضوان الذي يسدّ العطفة القصيرة يلوح منها وجه مريم واضعًا بأساسًا مستجيبيًا وقف يردّد النظر بين الجنديين وبين الفتاة في ذهول كأنّها يابى أن يصنّق عينيه، كيف اقترفت مريم الظهور في الكوة؟!... كيف تصلّت لجوليون على هذا النحو الفاضح؟! هو يلوح بيده وهي تبسم!... أجل ها هي الابتسامة لا تزال مطبوعة على شفتيها!... وها هما عيناها يستقرّهما النظر إليه حتّى لثما لم تفلن بعد إلى وجوده وها ونذت عنه حركة لفتت إليه جوليون فما كاد يطلّع على موقفه حتّى أغرق في الضحك وهو يربطن على حين تراجع مريم بسرعة خاطفة في دهر يبيّن. راح يتطلّع إلى الجنديّ في ذهول وقد زاده فرار مريم ريبة على ريبة وإن بدا له الأمر كلّ غموضًا في

غموض.

سأله جوليون متودّدًا:

- تعرفها؟...

فاحتى رأسه بالإيجاب ولم ينس. غاب جوليون دقائق ثم عاد حاملًا لفافة كبيرة قدّمها إلى كمال قائلاً وهو يشير إلى بيت مريم:

- اذهب بها إليها!...

ولكنّ كمال تراجع جافلاً وهو يبرّز رأسه بمنّة ويسره في عناده، لم تبرح تلك الحادثة مخيلته، ومع أنّه شعر بخطورتها من بادئ الأمر إلّا أنّه لم يدرك مدى الخطورة على حقيقتها إلّا حين قصّ القصّة في مجلس القهوة مساء. استوت أمنيّة في جلستها وهي تتباعد وقد ظلّ فتجان القهوة معلّمًا بين أصبعيها لا هي تقرّبه من فيها ولا هي تضمه على الصبيّة على حين غادر فهمي وباسين الكنية المواجهة لمجلس الأمّ مهرولين إلى الكنية التي تجلس عليها هي وكيال وجعلنا يحدّقان إليه باهتمام ودهش وانزعاج فلق كلّ ما توقّع.

قالت أمنيّة وهي تزدد ريقها:

- رأيت هذا حقًا!... ألم تحدّك عيناك؟!...

وتألّف فهمي:

- مريم؟! مريم؟! أمّا أكّد أنّك عا تقول؟!...

وتساءل باسين:

- أكان يشير إليها وكانت تبسم إليه؟!... أرايتها تبسم حقًا!...

وأعادت أمنيّة الفئجان إلى الصبيّة فأسندت رأسها إلى راحتها قائلة بلهجة تنمّ عن الوحيد:

- كمال! الكلب في مثل هذا الأمر جريمة لا يفرها

الله... راجع نفسك يا ابني... ألم تعدّ الحقّ في شيء؟!...

وحلف كمال بأخلف الأمان فقال فهمي ببأس

ومرارة:

- إنّه لا يكذب، ليس في وسع عاقل أن يتهمه

بالكلب فيها قال، ألا تذكرون أنّ اختراع مثل هذه

القصّة هو أبعد ما يكون عن تصوّر واحد في

سنّه؟!...

فتساءلت الأم بصوت حزين:

- وكيف يسعى أن أضقه!

فقال فهمي وكأنه يحدث نفسه:

- أجل كيف يمكن تصديقه...! (ثم بصوت حاد)

ولكنه وقع... وقع...!

وقعت الكلمة الأخيرة من نفسه موقع الحنجر، كزرها وكأنها يكرر الطعن متعمداً، حقاً شغلته من مريم الشواغل فلم تعد ذكرها تلوح إلا في حاشية احلام يغلظه، ولكن الطعنة التي أصابت سمعتها نفدت إليها خلال قلبه. إنه ذاهل... ذاهل... ذاهل، لا يدري إن كان نسي أم لم ينس، يجب أم يكره، يغضب للكرامة أم للغيرة... ورقة شجر جافة في مهب زويدة متناوذة...

- كيف يسعى أن أضقه؟... طالما كانت ثقني في مريم كثفتي في خديجة أو عائشة، أمها من الفضليات، أبوها طيب الله ثراه كان من الأكرمين... جيران العمر ونعم الجيران...

قال ياسين - الذي بدا طول الوقت مستغرقاً بالتفكير - بلهجة لم تخل من سخرية:

- علام تعجبون؟... مثل القدم والله يخلق من صلب الأبرار أشراراً.

فقالت أمينة محتجة كأنها تأبى أن تصدق أنها خدعت طوال ذلك الدهر:

- يشهد الله أنني لم ألاحظ عليها ما يسوء فك...!

فقال ياسين بحذر:

- ولا أحد منا، حتى خديجة العمياء الكبرى، بل خدع بها من هو أفطن منك ومهيأ!

فهتف فهمي متألماً:

- من أين لي أن أطلع على الغيب؟! إنه أمر يشق تصوّره.

وحقق على ياسين للدرجة الغليان، ثم بدا له الخلق جيماً بغضه، الإنجليز والمصريون على السواء... الرجال والنساء - والنساء خاصة - إنه يهتق... هتف نفسه إلى الاختضاء لينتشق في وحدته نسمة راحة يتبد أنه لم يبرح مكانه كأنما شد إليه بحبال غلاظ...

أنه ياسين إلى كمال متسائلاً:

- متى رأتك؟

- عندما التفت إليّ جوليون...

- ثم قرأت من النافذة؟

- نعم...

- هل رأيت أنك رأيتها؟

- التفت عينانا لحظة...

ياسين ساخرًا:

- مسكينة!... إنها دون شك تتخيل الآن مجلسنا

هذا وحديثنا ذا الشجون!

- إنجليزي!...

هتف فهمي وهو يضرب كفًا على كف.

- بنت السيد عمّد رضوان!...

غمضت أمينة متنبهة وهي تحرّ رأسها عجباً...

فقال ياسين متفكرًا:

- مغالطة إنجليزي ليست بالمسألة الهينة حل فتاة،

هذه درجة من الفساد لا يمكن أن تظهر طفرة...

فسأله فهمي:

- ماذا تعني؟

- أعني أنه لا بد أن تسبقها درجات من الفساد!

فقالت أمينة برجاء:

- أستمحلفكم بالله أن تمسكوا عن هذا الحديث...

فواصل ياسين حديثه، كأنه لم يسمع رجاءها،

قائلاً:

- مريم بنت سيّدة لها في التبرّج فنون بشهادتك

أنت وخديجة وعائشة!...

فهتفت أمينة بصوت ملؤه العتاب والزجر:

- ياسين!...

فقال ياسين كالمتراجع:

- أريد أن أقول إننا أسرة نعيش في حق مطلق لا

تكاد تعلم شيئاً عما يدور حولنا، قساري جهننا أن

تصوّر الناس على مثالنا، اختلطت بنا مريم أعوامنا

طوالاً ولكننا لم نعرفها على حقيقتها حتى كشفها لنا

آخر من ينشد عنده كشف الحقائق!...

ورّدت على رأس كمال ضاحكاً، ولكن أمينة عادت

تقول بتوسّل حاز:

- استحلّفتكم بالله أن تغيروا مجرى الحديث...
ابتسم ياسين ولم ينبس، فاطبق الصمت، لم يعد
فهني يتحمّل البقاء بينهم فاستجاب إلى الصوت
الباطني الذي يستصرعه ملهوقاً على القرار... بعيداً
عن الانظار والأساع، هنالك يستطيع أن يغلو إلى
نفسه، أن يعيد إليها الحديث من ألفه إلى يائه، كلمة
كلمة، عبارة عبارة، جملة جملة، ليفهمه ويفهمه ثم
ينظر أين يكون وضعه...

٦٥

كان الليل قد جاوز منتصفه عندما غادر السيّد أحمد
عبد الجواد بيت أم مريم متلقّماً بظلمة المطفأة
المسدودة. بدا الحني كله - كما أمسى ييلو مع المزيج
الأوّل من الليل مذ عسكر الإنجليز فيه - غارقاً في
النوم متلثراً بالظلام، لا مقيس يسمر ولا بالغ يسرح
ولا دكان يسهر ولا ماز يدب، فلم يكن فيه أثر للحياة
أو النور إلّا ما انبعث من المسكر، ومع أنّ أحداً من
الجنود لم يتعرّض له بسوء في اللعاب أو الإياب إلّا أنّه
لم يكن يغلو قط في قلق وتوجّس كلّما اقترب من
المسكر في طريقه إلى البيت خاصّة وأنّه يعود - آخر
الليل - على حال من الإعياء والاسترخاء واللهول
يشقّ معها مجرّد التفكير في السير الآمن المطمئنّ،
انحدر إلى طريق النحاسين ثمّ انعطف يمنة متّجهاً إلى
البيت وهو يبتسّل النظر إلى الديبدبان حتّى دخل أشدّ
مناطق الطريق خطورة... تلك التي يتشر فيها النور
المنبعث من قلب المسكر، هنالك عاوده الإحساس
الذي يغامره كلّما دخلها وهو أنّه هدف يسير لأيّ
صائد، فحثّ خطاه ليخرج منها إلى الظلام المفضي إلى
مدخل بيته ولكنّه ما كاد يخطو خطوة حتّى صكّ أذنيه
صوت أجشّ غليظ يزعق ورواه راطماً فادرك على جهله
وطائنه - من عنف اللهجة واقتضابها - أنّه رماه بأمر لا
يقبل المناقشة فتوقّف عن السير والفت ورواه مرتاعاً
فرأى جندياً - غير الديبدبان - يتّجه نحوه بقوة شاسي
السلاح، ماذا جدّ حتّى دعا إلى هذه المعاملة؟...

أليكون الرجل ثملاً؟ أم لعله أذعن لنزوة اعتداء
طارئة؟ أم هو بيتني السلب والنهب؟ جعل يرقب
اقتربه بقلب خائف وحلق جافّ وقد طار الخبار من
رأسه. وقف الجنديّ على بعد خطوة منه ثمّ وجّه إليه
بلهجة أمرة كلاماً سريعاً قصيراً - لم يفهم منه بطبيعة
الحال كلمة واحدة - وهو يشير بيده الخالية صوب
شارع بين القصرين فحملق السيّد في وجهه بيسأس
واستعطف وهو يعاني مرارة العجز عن التفاهم معه
كي يقتنه ببراءته ممّا يتّهمه به أو كي يعرف على الأقلّ
ما يريد، ثمّ خطر له أنّه قصد بإشارته إلى بين
القصرين أن يأمره بالابتعاد ظلّاً منه أنّه غريب فراح
يشير إلى بيته بدوره ليفهمه أنّه من سكّانه وأنّه عائد
إليه ولكنّ الجنديّ تجاهل حركته وهو يمدغم ثمّ أصرّ
على إشارته وهو يبرّز رأسه في نفس الاتجاه كأنما يحثّه
على اللعاب، ثمّ بدا أنّه ضاق به فقبض على منكبيه
وأداره بقوة فدفعه في ظهره فوجد السيّد نفسه يتحرّك
متّجهاً نحو بين القصرين والأخر ورواه فاستسلم -
ومفاصله تكاد تسبب - إلى المفادير، جاوز في مسيره
المجهول المسكر ثمّ سبيل بين القصرين وهناك اختفى
آخر أثر للضوء المنبعث من المسكر فخاض أمواج
الظلام الداس والسمت الثقيل، لا منظر يرى إلّا
أشباج البيوت ولا صوت يسمع إلّا وقع القدمين
الغليظتين اللتين تتبعانه في نظام ميكانيكيّ كأنهما يعدّان
الدقائق الباقية له في الحياة، ولعلّها ثوان، أجل كان
يتوقّع في أيّة لحظة أن ينفضّ عليه بخبطة تهوي به إلى
النهاية فمضى يترقبها بعينين محمّلتين في الظلام وفم
مطبق من الجزع وحرقوة تتحرّك حركة عصبية من أنّ
لأنّ كلّما ازدرد ريقه الجافّ الملتهب حتّى بوغت بوميض
يجلب بصره إلى أسفل فكاد يصرخ كالأطفال من الملع
وقد تهاوى قلبه ولكنّه تبيّنه دائرة من الضوء تذهب
ونحيء فادرك أنّها شعاع من بقلارية أضواءها سائقة
ليتعرف على طريقه خلال الظلمات. استردّ أنفاسه بعد
أنّ تخفّف من الذعر المبالغ فيه ولكنّه لم يستشعر نسمة
راحة حتّى تلقّفه خوفه الأوّل، خوف الموت الذي
يساق إليه، فعاد يترقّب حشفه بين لحظة وأخرى كأنّه

غريق توهم في تحبّطه أنّه يرى تمساحاً يتربّع لمهاجته ثمّ يتبيّن له أنّ ما رأى أعشاب طافية ولكن فرحته للنجاة من الخطر الوهمي لم تكد تنقّس حتّى اخضعت تحت ضغط الخطر الحقيقي المحيط به، إلى أين يسوقه؟ لو يستطيع أن يراهنه فيسأله! يبدو أنّه سيواصل سوقه حتّى يدفع به إلى قفافة باب النصر، لا أثر لإنسان ولا حيوان، أين الغفير؟ وحيد تحت رحمة من لا يرحم، متى كان مثل هذا العذاب... هل يذكر؟ الكابوس... أجل إنه الكابوس. كابده أكثر من مرّة خلال نوم مريض، إنّ ظلمة الكابوس نفسها لا تخلو أحياناً من بارقة أمل قد يشرق بنفس النائم إحساس حنون بأنّ ما يعانيه حلم لا حقيقة وبأنّه سينجو من شرّه الآن أو بعد حين، هيهات أن يجود الدهر بمثل ذلك الأمل، إنّّه صباح لا نائم وهذا الجنديّ الشاكي السلاح حقيقة لا خيال وهذا الطريق الذي يشهد ذلّه وأسرّه شيء ملموس خيف لا وهم، عذابه حقيقة لا سبيل إلى الشكّ فيها، إنّ أقلّ حركة ممانعة تنذّ عنه خليقة بأنّ تطيح رأسه... لا سبيل إلى الشكّ في هذا أيضاً. قالت له أمّ مريم وهي تودّعه: «إلى الغد، الغد؟» هل يطلع ذلك الغد؟ سل القدمين الثقيلتين اللتين ترجّان الأرض وراء ظهره... سل البندقية ذات السنوكي الحاذّ المذبذب، قالت له أيضاً وهي تمّاحز وتكاد رائحة الحمر المتطايرة من فيك أن تسكري، الآن طارت الحمر وطار عقله، ولّت ساعة الصبوة، منذ دقائق معدودة... كانت الصبوة كلّ شيء في الحياة. الآن المذاب هو كلّ شيء... وليس بين هذا وذاك إلّا دقائق معدودة، دقائق معدودة!... عندما بلغ منعطف الحزن فش جلب عينيه شمعاً يومض في الظلام فلحظ الطريق فرأى بطاريّة تتحرك في يد جنديّ آخر يسوق بين يديه أشباحاً لا يتبيّن عهدهم... تساءل ترى هل صدرت إلى الجنود أوامر بالقبض على من يصادفون من الرجال ليلاً؟... وإلى أين يسوقونهم؟... وأيّ عقاب سيقتضونه عليهم؟ تساءل طويلاً وهو من الدهش والانزعاج في نهاية بيد أنّ رؤيته للضحايا الجدد

أدخلت على قلبه شيئاً من العزاء والارتياح، لم يعد على الأقلّ وحيداً كما كان يظنّ، وجد في بلواه أُنْداداً يؤنسون وحشته ويشاركونه المصير، كان يتقدّم قافلتهم بمسافة قصيرة فراح ينصت إلى وقع أقدامهم مستأنساً إليها كما يستأنس الضالّ في مغازة إلى أصوات آدميّة ترامت إليه مع الريح، ولم تكن أمنيّة أحرّ على نفسه أكثر من أن يلحقوا به لينضمّ إلى جماعتهم، سواء كانوا معارف أو غرباء، لتخفف قلوبهم ممّا وهم يحشّون الحظي نحو المصير المجهول. هؤلاء الرجال أبرياء وهو بريء ففيمّ القبض عليهم؟ فيمّ القبض عليه هو مثلاً؟ لا هو من الثّوار ولا من المشتغلين بالسياسة ولا حتّى من الشّبّان فهل يظلمون حل الأثمة ويحاسبون على المشاهر؟... أو تراهم يقتلون أفراد الشعب بعد أن فرغوا من اعتقال الزعماء؟ لو كان يعرف الإنجليزيّة فيسأل أسره؟... أين فهمي لبعاده نياحة عنه؟... ونخزّه الألم والحزين، أين فهمي وبأسين وكيال وخديعة وعائشة وأقهم؟ هل يمكن أن تتصوّر أسرته ما آل إليه حاله من هوان وهي التي لم تره إلّا جيّاراً جليلاً؟ هل تتصوّر أنّ جنديّاً دفعه بعنف حتّى أوْشك أن يطرحه أرضاً وأن يسوقه كما تساق السائمة؟ وجد الذكر آله السّابحاً وحنيئاً فكادت تدمع عيناه. كان يمرّ في طريقه بأشباح بيوت ودكاكين يعرف أصحابها، ومقام كان يوماً - خاصّة عهد الصبا والشباب - من سيّرها، فأحزنه أن يمضي بها سيراً دون أن تنهض لنجدته أو حتّى ترثي لحاله، شعر حقاً بأنّ أحزن صنوف الهوان ما حلق به في حياته، ثمّ رفع عينيه إلى السماء باحثاً بفكره إلى الله المطلق حلّ قلبه، بحث إليه بفكره دون أن يجري له ذكرٌ على لسانه ولو همساً مستحيّاً من أن ينطق باسمه وجسمه لم يتطهّر من أنفاس الشراب وهرق الغرام، وما لبث أن تضاعف خوفه من أن يبعد دنس بيته وبين النجاة، أو أن يلتقي مصيراً كفأه لما سلف من استهتاره، فغشي صدره تطرّف وكآبة، وأشفى على اليأس، حينئذ شارف سوق الليحون ترامى إلى الصمت الذي لا يؤنّسه إلّا وقع أقدام أصوات مبهمة فأرهف محمّلاً في الظلام - وهو يتقدّم بين

ويفرغونها فيها، الكلّ يعمل بهمة وسرعة والأعين تسترق النظر في خوف إلى الجنود الإنجليز الذين رابطوا عند مدخل البوابة. اقترب منه شرطيّ ورعى إليه بمقطف وهو يقول بصوت غليظ ينم عن وعيد:

- افعل كما يفعل الآخرون...
ثم همساً:

- أسرع حتى لا يصيبك أدّى...

كانت هذه الجملة أوّل تعبير «إنسانيّ» يلقاه في رحلته المخيفة فسرت في صدره سرى النسمة في حلق المختنق، انحنى على المقطف تتناوله من علاقته وهو يسأل الشرطيّ همساً:

- هل يطلق سراحنا إذا تمّ العمل؟

فأجابته بنفس الصوت:

- إن شاء الله.

تهدّ من الأعياق، رواوده نفسه على البكاء، شعر بأنّه يولد من جديد... رفع يسراه الجبّة من طرفها ودسّه في حزام القفطان كيلا تتعرقه عن العمل ومغى بالمقطف إلى طوار البوابة حيث تراكت الأتربة فوضعه بين قدميه وراح يملأ كفيه بالتراب ويفرغها في المقطف حتّى امتلأ ثمّ حمله بيده وذهب إلى الحفرة فأفرغه فيها وعاد إلى الطوار، واصل العمل بين جماعات مختلفة من الناس ضمتّ الأفندية والمعمّنين، الهرمين والشبان، يعملون جيّساً بهمة عالية مستمتدة من رغبتهم في الحياة، وإنّه ليملاً مقطفه إذ لكزه كوع فالنفت إلى مصدره فرأى صديقاً يدهى فنيهم حميدو صاحب معصرة زيتون بالجالية ثمّ يلمّون بمجالس لهوه بين حين وآخر ففرح به فرحة عظمى كما فرح به الآخر، وسرعان ما تهاصا:

- أنت وقعت أيضاً!..

- قبلك.. وصلت قبيل منتصف الليل ورائتك وأنت تسلمّ مقطفك فجعلت في ذهابي وإياي أتبع طريقاً يميل إليك رويداً رويداً حتّى جاورتك.

- أهلاً.. أهلاً، اليس ثمة أحد من أصدقائنا؟

- لم أعرّ على غيرك.

- قال لي الشرطيّ إنهم سيطلقون سراحنا حالما نتّم

الخوف والرجاء.. فتناعت إلى أذنيه بلّة لم يَلُوْ إن كان مصدرها إنسان أو حيوان، غير أنّه تبيّن بعد قليل لنظماً فلم يتالك أن قال لنفسه في لهفة «أصوات آدميّة!» ومال مع الطريق فلاحته لعينيه أضواء متحركة حسبها بادئ الأمر بقطاريّات جديدة ولكنها وضحت مشاغل رأى على نورها جانباً من بوابة الفتح يقف تحته جنود بريطانيّون، ثمّ تراءى له جنود من البوليس المصريّ ردّة منظرهم إلى صدره الدماء، سأعرف ما يُوادّ بي، لم يبق إلاّ مسيرة خطّوات، ماذا دعا إلى تجمهر الجنود الإنجليزيّ والمصريّين عند البوابة؟ ماذا يسوقون الأهالي من شقّ أنحاء الحيّ؟ عمّا قليل أعرف كلّ شيء، كلّ شيء؟ فلاستعمل بالله ولاستلمّ إليه أمري، سأذكر هذه الساعة الرهيبة مدى العمر إن كان في العمر بقية، الرصاص... المشنقة... فنشوي... أنضمّ إلى سجلّ الشهداء؟ أصبح نبأ من أبناء الثورة يتناقله عمّد عفت وعليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار كما كتّا تتناقل الأخبار في سهرات المساء؟ تصوّر السهرة ومكانك شافر؟ رحمة الله عليك... كان وكان... لشدّ ما يبكونك، وستذكرونك طويلاً، ثمّ تنسى، ما أشدّ اضطراب قلبي، سلمّ أمرك للذي خلّك، اللّهمّ حوالينا ولا علينا. ما إن اقترب من موقف الجنود حتّى ألجّحت الأنظار إليه باردة قاسية متوقّدة فخاصّ قلبه في الأعياق غلّفاً وراءه في الأضلع ألياً حادّاً، ثرى هل أن له أن يتوقّف؟ تناقلت قدماءه ولّنه التردّد والحيرة...

- ادخل...

هتف بها شرطيّ وهو يشير إلى داخل البوابة فنظر السيّد إليه نظرة ناطقة بالتساؤل والاستعطاف والاستغاثة، ثمّ مرّ بين الجنود لا يكاد يرى ما بين يديه من شدّة الفزع ويودّ لو يغطي رأسه بذرّاعيه استجابة لفريرة الخوف التي تنصهرحه. هنالك تحت قبة البوابة رأى منظراً عرفه بما يراه به بغير حاجة إلى سؤال، رأى حفرة عميقة كالخندق تتعرض الطريق، كما رأى جهوزاً من الأهالي يعملون بلا توقّف وتحت إشراف الشرطة لسدّ الحفرة بأن يعملوا الأتربة في مقاطف

العمل .

- قيل لي ذلك أيضًا، ربنا يسمع منك .

- سيبرو ركيي الله يخرّب بيوتهم .

- لم تعد لي ركب على ما أظنّ !

وتبادلا ابتسامة مقتضية . .

- ما أصل هذه الحفرة؟

- يقال إنّ فتوات الحسنيّة حفروها أوّل الليل

ليمنعوا مسير الموريّات ويقال أيضًا إنّ لوريّا وقع فيها!

- إن صحّ هذا فقل علينا السلام!

وعندما تجاوزا مرّة ثانية عند كوم الأثرية كانا قد ألفا

الموقف بعض الشيء فعادتهما الروح حتّى أنّها لم يتالكا

أن ابتسما وهما يملآن مقطعيها بالتراب كمّال البناء

فهمس غنيم:

- حبسنا الله ونعم الركيل على أولاد الكلب . .

فهمس السيّد بأسيا:

- أرجو أن يعطونا أجرًا مناسبًا .

- أين قبض عليك؟

- أمام البيت .

- طبعًا!

- وأنت؟

- كنت بالأمّ منزولة، ولكنّي أفقت فجأة، الإنجليز

أقوى من الكوكابين!

- أقوى من القيّة نفسه!

مضى الرجال يذهبون ويحيون عجلين ما بين طوار

الأثرية والحفرة على ضوء المشاعل، أثاروا التراب حتّى

انتشر في فراغ القبة خالقا جواً خائفاً فعلاهم البهر

وتصبّب منهم العرق من جباههم وأغرّبت وجوههم

وتتابع من انشاق الغبار سعالهم فكانتهم أشباح انشقت

عنهم الحفرة، على أيّ حال لم يعد وحده، هذا

الصديق وهؤلاء الرجال من حيّه، جنود البوليس

المصريّون معهم يقلوبهم، آتّى ذلك أنّهم جرّدوا من

سلاحهم . . لم يعد السيف ذو الغمد المعدنيّ يتلذدل

من أحزمتهم، اصبر . . اصبر لعلّ هذه الغمّة أن

تتكشف، هل كنت تتصوّر أنّك ستعمل حتّى مطلع

الصبح وربما حتّى الضحى، شدّ حيلك، ليس ثمة

أنّك ستحمل التراب وتُسجّر في سدّ الحفرة؟ لا تريد

الحفرة أن تمثّل، لا فائدة ترجى من الشكوى، ولن

تشكو؟ جسمك قويّ صلب العود يستطيع أن يتحمل

رغم سكرة الليلة وعيها. كم الساعة الآن؟ ليس من

الحيطة أن تنظر فيها، لو لم يقع لي هذا لكنت الآن

مستلقّيًا على الفراش منعمًا بلليذ المنام، كنت أستطيع

أن أغسل رأسي ووجهي وأشرب شربة رويّة من القلّة

المعطرة بالزهر، هنيئًا لنا هذه المشاركة في جميع

الثروة، لم لا؟ البلد ثائر . . كلّ يوم . . كلّ ساعة

ضحايا وشهداء، بيد أنّ قرارة الصحف وتناقل الأخبار

شيء أمّا حل التراب تحت تهديد البنادق فشيء آخر،

هنيئًا لكم أيّها النائمون في أسرّتكم، اللّهمّ احفظنا،

لست لها . . لست لها، اللّهمّ اهزم المشركين بقوّتك،

نحن ضعفاء . . لست لها، هل يتصوّر فهمي أيّ خطر

يتهدّد؟ إنّه يستذكر دروسه الآن غير عالم بما يجرى

بأبيه، قال لي: ولاه أوّل مرّة في حياته، قلنا بدموعه

ولكن سيّان عندي. المعنى واحد، لم أقلّ لأته، لن

أقول لها، أكتشف لها من حجري؟ آستعين بضعفها

بعد أن أخضعت بقوّتي؟ كلّ . . إنّني جاهلة بكلّ شيء،

يقول إنّه لا يعرّض نفسه للخطر، حقًا؟ اللّهمّ

استجب، لولا هذا ما رحته أبدًا، اللّهمّ احفظه،

اللّهمّ احفظنا جميعًا من شرّ هذه الأيام، كم الساعة

الآن؟ إن طلع علينا الصبح أمّا القتل، لن يقتلونا

أمام الحلق. الصبح؟

- بصقت على الأرض كي أتملّص من الغبار اللازق

بسقف حلقى فرماني أحد الأباسة بنظرة وقف لها شعر

رأسي!

- لا تبصق، تشبه بي، لقد بلعت من التراب قدرًا

يكفي لسدّ هذه الحفرة!

- لعلّ زبيدة دعت عليك!

- لعلّها . .

- ألم يكن سدّ حفرتها طيب من سدّ هذه الحفرة؟

- بل أشقّ!

تبادلا ابتسامة سريعة ثمّ قال غنيم متنبّها:

- انقصم ظهري يا هو!

- ملك، عزاؤنا أننا نشارك المجاهدين بعض الالهم.

- ما رايك في أن أرمي بالقنطف في وجه الجنود وأهتف بأهل صوتي «يحيى سعد»؟

- اشتغلت المنزلة من جديد؟

- يا للخسارة!.. كانت قطعة «قد فصّ المين» حركتها بالشاي مرّة ومرتين وثلاثاً، ثمّ ذهبت إلى الطمبكتيّة أسمع الشيخ علي محمود في بيت الحمزاوي، وعدت قبيل منتصف الليل وأنا أقول لنفسي «الولايّة الآن تنتظرك لا أفلع من ختّيب لها رجاء» حين طلع ابن القرد وسافقي من قفائي.

- ربّنا يعزّض عليك.

- آمين.

جاء الجنود برجال آخرين بعضهم من ناحية الحسينيّة والبعض الآخر من ناحية النحاسين وسرعان ما انفضّوا إلى «المال». ألقى على المكان نظرة فوجده ازدحم بالجمهور أو كاد وقد انتشروا حول الحفرة في جميع الجهات، يلهون إلى الطوار ويرجعون إليها في حركة لا تنقطع وأنوار المشاعل تضفيهم وجوهاً لاهته نال منها الإحياء والذّلّ والخوف كلّ منال. الكثرة بركة وأمان، لن يذهبوا هذا الجمع الفقير من الناس، لن يأخذوا البريء بالذنب، تُرى أين المذنبون؟ أين هؤلاء الفتوات؟ هل يعلمون الآن أنّ إخواناً لهم وقعوا في الحفرة التي حفروا؟ قاتلهم الله هل حسبوا أنّ حفر حفرة سيحميهم سداً أو يخرج الإنجليز من مصر! لأنقطع عن السهر إن كتب الله لي عمراً جليداً، أنقطع عن السهر؟ لم يعد السهر بامون، كيف يكون طعم الحياة، لا طعم للحياة في ظلّ الثورة، الثورة. أيّ جنديّ يقبض عليك.. تحمل التراب بكفّيك، فهمي يقول لك لا، متى تصود الدنيا إلى أصلها؟ صداع؟.. بل صداع وغثيان، دقاتك من الراحة.. لا أطمع في مزيد! هبيجة في سابع نومة، أمانة تنتظر كما تنتظر «وليّة» غنيم، هبهات أن يُنظر لكم ما حلق بأبيكم، ربّاه إنّ التراب يملأ أنفي وعيني، يا سيّدنا الحسين، امتلئي.. امتلئي.. أما كفّاك هذا التراب

كلّاه؟ يا بن بنت رسول الله، غزوة الخندق.. هكذا دعاها سيّدنا الواعظ، كان عليه الصلاة والسلام يعمل مع العاملين ويرفع التراب بيديه.. كافرون وكافرون لماذا يتنصر كافرو اليوم! فساد الزمن.. فسادي أنا، هل يسكرون أمام البيت حتّى تنتهي الثورة؟

- ألم تسمع الديكة؟

أرهف السيّد أذنيه ثمّ غمغم:

- الديكة تصيح! الفجر؟

- نعم.. ولكنّها لن تمثّل قبل الصباح.

- الصباح!

- المهّمّ آتي محصور، محصور جدّاً.

أنّبه ذهن السيّد إلى أسفل ف شعر بأنّه محصور أيضاً، ويأنّ جانباً من آلامه يعود بلا شكّ إلى ذلك، وسرعان ما اشتدّ ضغط المئات عليه كأنّها هيّجها تفكيره فيها، قال:

- وأنا كذلك.

- والعمل؟

- ما باليد حيلة!

- انظر هناك إلى ابن القرد الذي وقف يبول أمام دكان على الزجاج!

- آه..

- إخراج شويّة بول أهمّ الآن عندي من إخراج الإنجليز من مصر كلّها..

- إخراج الإنجليز من مصر كلّها؟! ليخرجوا أوّلًا من النحاسين.

- ربّاه.. انظر.. لا يزال الجنود يأتون بالناس!

رأى السيّد جماعة جديدة تشقّ طريقها صوب الحفرة.

استيقظ السيّد أحمد من نومه حوالى العصر وكان نبأ واقعه قد ذاع في الأهل والأصدقاء فوجدوا على البيت واجتمعوا به مهتئين بالسلامة فراح يقصّ القصّة ويعيدها بأسلوب لم يُقَلْ - رغم جدّيّة الأمر - من فكاهة وتهويل حتّى أثار شتّى التعليقات. كانت أمانة

لم تتكلم إحدى شقيقتيه - ولو مرة واحدة - بأن نجيه
قائلة مثلاً «اذهب أنت وسألتك بك غداً! يتد أنه
بمرور الزمن اعتاد الصلة العجيبة التي تربط بين
شقيتيه وزوجيهما وسلم بحكمهما وقنع بالزيارة
القصيرة التي بين الحين والحين فيسعد بها دون طمع في
مزيد. وبالرغم من هذا فلم يكن يتالك أحياناً إذا
رأهما مقبلتين من أن يقول متمنياً «لو تعودان إلى البيت
فتصيان فيه كما كنتم!» فبادره أمه قائلة «ربنا يكفيها
شرّ تمنياتك الطيبة!». بيد أنّ أعجب ما صادفه في
حياتها الزوجية كان ذلك التغير الذي طرأ على
الوطن.. وما صاحبه من أعراض بدت تارة مرعبة
كالمرض وطوراً غريبة كالأساطير، وفلتت عن حافظته
الفأطاة الجديدة كالخيل والرحم وما اكتنف الأخير من
قبح وتوَعَكَ والنهائم لحبات الطين الجافة.. ثم ما شأن
بطن عائشة؟. متى يقف عن النمو الذي جعله
كالقربة المنفوخة؟. وهذا بطن خديجة بدا - فيها يبدو -
ينطو نفس الخطوات، وإذا كانت عائشة ذات البشرية
العاجية والشعر الذهبي قد وجمت على الطين فعل أيّ
شيء توهم خديجة؟ غير أن خديجة لم تحقّق خوافه
فتوَحَّت على المخمل حتّى استثارته منه أسئلة لا حصر
لها لم يظفر أحدها بجواب مقنع!.. وتقول أمه إنّ
بطن عائشة - وبطن خديجة بالتالي - سيتمكّن من
طفل صغير سوف يكون قرّة عينه.. ولكن أين يقيم
هذا الطفل، وكيف يعيش، وهل يسمع ويرى، وماذا
يسمع وماذا يرى، وكيف وجد، ومن أين جاء؟!..
على أنّ هذه الأسئلة لم تهمل، ظفر عنها بأجوبة جديرة
حقاً بأن تلتحق بمعارفه عن الأولياء والمعارف والرفق
والتعاوض وغير ذلك من المواقف التي تزخر بها ذاكرة
معروف أمه.. لذلك سأل عائشة مستظلاً باهتمام:

- متى يخرج الطفل؟.

فأجابته ضاحكة:

- اصبر لم يبق إلا قليل.

فتساءل ياسين:

- أظنك في الشهر التاسع؟.

فأجابته:

أول من سمع القصة، ألقاها عليها وهو مشّت النفس
خائر القوى لا يكاد يصدّق حقاً أنّه نجا فتلقت وحدها
الجانب المفعج خالطاً، وما كادت تغادره نائماً حتّى
استرسلت في البكاء وجعلت تدعو الله أن يرعى أمرتها
بعتابه ورحمته، ودعت الله طويلاً حتّى كلّ لسانها.
ولكنّه حينها وجد نفسه عموماً بأصدقائه خاصّة المقرّين
منهم أمثال إبراهيم الفار وعلى عبد الرحيم وعصّد
عفت، استردّ الكثير من روحه المعنوية فتغلّدر عليه أن
يفعل الجانب الفكاهي من الحادث حتّى غلب على ما
عداه فأنثته الحديث إلى نوع من المزاح كأنما كان
يقصّ عليهم مغامرة من مغامراته. وبينما حفل الدور
الأعلى بالزائرين اجتمع شمل الأسرة بالدور التحتاني
فيها عدا الأمّ التي شملت مع أمّ حنفي بتهمة القهقهة
والأشربة، شهدت الصالة من جديد اجتياح ياسين
وفهمي وكيال وخديجة وعائشة في مجلس الأمّ
التقليدي، وقد انضمّ إليهم خليل شوكت وإبراهيم
شوكت سحابة النهار ولكنّهما صعدا إلى حجرة الأب
عقب استيقاظه بقليل فخلا الجو للإخوة، وكان الحزن
الذي غشيهم طوال النهار على ما أصاب والدهم قد
زایلهم بعودة الطمأنينة إلى نفوسهم فنبضت قلوبهم
بالمواطف الأخوية وتوثّروا للسمر والمرح كمهدمهم في
الأيام الخوالي. حلّ أنّ الطمأنينة لم تستقرّ بنفوسهم
حقّ رأوا والدهم بأعينهم، أقبلوا عليه واحداً في إثر
واحد فقبّلوا يده ودعوا له بطول العمر والسلامة ثمّ
غادروا الحجرة في نظام وأدب عسكريين. ومع أنّ
السيد اكفى بمذّ يده لياسين وفهمي وكيال بالتتابع
دون أن ينبس بكلمة إلا أنّه ابتسم إلى خديجة وعائشة
وسألهما في رقة عن الحال والصحة، رقة لم تحظيا بها إلا
بعد زواجهما، وكان كيال يلاحظهما بدهشة مقرونة
بسرور كأنما هو الذي يحظى بها. والحق أنّ كمال كان
أسعد الجميع بزيارات شقيقته كلّها هلّت.. كان نعم
في أثنائها بسعادة عميقة لا يمكّر عليه صفوها إلا
التفكير في النهاية المتوقّعة. ودائماً كان يجيء النذير بهذه
النهاية من أحد الرجلين - إبراهيم أو خليل - إذا تمكّل
أو تئاءب ثمّ قال «وأن لنا أن نذهب» أمر مطاع لا يردّ،

- نعم ولو أن حياي تصرّ على أنّي في الثامن!.

فقالت خديجة بحة:

- أصل حاتمك تصرّ دائما على أن يكون لها رأي خالف، هذا كلّ ما هنالك!.

ولما كان الجميع على علم بما ينشب كثيرا بين خديجة وحماتها من نزاع فقد تبادلوا النظرات ثمّ ضحكوا.

وقالت عائشة:

- أودّ أن أقترح عليكم أن تستقلوا إلى بيتنا فنبقوا معنا حتّى يهلو الإنجليز عن شارعكم.

فقالت خديجة بحاس:

- أجل، لم لا؟. إنّ البيت كبير وستنزلون على الرحب والسعة، فيقيم بابا وبنية عند عائشة لأنّها في الدور الأوسط، وتقيمون أنتم عندي.

وحبّ كمال بالافتراح فتساءل بلهجة تنمّ عن التحريض:

- من يقول لباها؟

ولكنّ فهمي قال وهو يبرّ منكيه:

- إنكيا تملان حتّى العلم أنّ بابا لا يمكن أن يوافق.

فقالت خديجة بأسف:

- ولكنّه يجب السهر فيكون عريضة لتحرش الجنود، يا لهم من مجرمين!.

ساقوه في الظلام وحلّوه التراب!... أه. رأسي بدور كلّما تصوّرت هذا.

فقالت عائشة:

- كنت أنتظر دوري لتقبل يده وأنا أنفخص جسمه جزءا جزءا لأطمئنّ عليه، كان قلبي يندقّ... وعيناي تغالبان الدمع... لعنة الله على الكلاب أولاد الكلاب!

فابتسم ياسين... وقال لعائشة عذرا وهو يلحظ كمال غافرا بعينه:

- لا تسمّي الإنجليز هكذا فإنّ لهم بيتنا أصدقاء! فقال فهمي متحمّجا:

- لعلّه ممّا يُسرّ له بابا أن يعلم أنّ الجنديّ الذي يقبض عليه ليلاً ما هو إلّا صديق من أصدقاء كمال.

فابتسمت عائشة إلى كمال متسائلة:

- ألا تزال تحبّهم بعد ما كان منهم؟

فغمغم كمال وقد تورّد وجهه حياء وارتباكاً:

- لو عرفوا أنّه أبي ما تعرضوا له بسوء!

فما تمالك ياسين إلّا أن يضطك ضحكة عالية حتّى أنّه غطى فمه بيده وهو ينظر في حذر إلى السقف كأنّما خاف أن يترامى صوت ضحكته إلى الدور الأعلى... ثمّ قال ساخرا:

- الأحرى بك أن تقول: إنهم لو عرفوا أنّك مصريّ ما صبّوا العذاب على مصر والمصريّين، ولكنّهم لا يعرفون؟

فقالت خديجة بلهجة لازعة:

- دع هذا الكلام لغريك أنت...! أنتكر أنّك من أصدقاؤهم كذلك؟!

ثمّ غاطبة كمال بلهجة لازعة:

- أتواتيك الشجاعة بعد ما عرف عن صداقتك لهم على أن تصلّي الجمعة في سيّدنا الحسين؟

فقطن ياسين إلى مرمى هجومها وقال مظهرّا الأسف:

- يحقّ لك أن تتطاولي عليّ ما دمت قد تزوّجت فاكسبت بعض حقوق الأدميين...

- ألم يكن لي هذا الحقّ من قبل؟!

- الله يرحم أيّام زمان... ولكنّه الزواج يعيد إلى البائسات الروح... اسجدي شكرا للأولياء...

ولتعاويد وأقراص أمّ حنفي.

فقالت خديجة وهي تغالب ضحكة:

- يحقّ لك أن تنهّبهم على الناس بالحقّ وبالباطل بعد أن ورثت المرحومة وصرت من عداد الملاك.

فقالت عائشة بفرح صبيانيّ كأنّما لم تلرّ من الأمر شيئا:

- أخمي في عداد الملاك!... ما أجل أن أسمع هذا!... ألأنت غنيّ حقّا يا سي ياسين؟!

فقالت خديجة:

- دهيني أصدّد لك لملأك، اسمعي يا سنيّ: دكان الحمزاوي وريع الغوريّة وبيت قصر الشوق...

فقال ياسين وهو يبرّ رأسه مغمضّا عينيه:

النساء.

فهزّت رأسها كأنها تقول «أفندني أفادك الله» ثم قالت متنبّهة:

- آه من حزن الرجال!... ولكن خبرني وحياتي عندك ألم يتقّف الدكان والريح والبيت من لوعة الحزن؟
فقال متأفّفًا:

- صدق من قال: إنّ قبح اللسان من قبح الوجه...

- من قاتل هذا؟...

أجابها بأسًا:

- حماك!

فضحكت عائشة، وضحك لهماي وهو يسأل خديجة:

- ألم تحسّن العلاقات بينكما؟

فأجابته عائشة بالنبابة عنها قائلة:

- سوف يتحسّن ما بين الإنجليز والمصريّين قبل أن يتحسّن ما بينهما...

فقالت خديجة بحق لأوّل مرّة:

- امرأة قويّة، ربّما عليها، والله أنا بريئة ومظلومة...

فقال ياسين متهمّكًا:

- تصدّق يا أخي بلا قسم، هذا شيء نشهد به أمام الله في يوم العذاب!

فعاد فلهي يسأل عائشة:

- وأنت كيف حالك معها؟

فقالت عائشة وهي تلحظ خديجة بإشفاق:

- على ما يرام...

فهتفت خديجة:

- آه من أختك عائشة... تعرف كيف تسوس وتطاطي الرأس... اتفوخخص...

فقال ياسين متصنّعًا الجذّة:

- على أيّ حال فلحسبك الرحمة ولك صادق التهنئة!

فقالت بسخرية:

- ومن شرّ حاسد إذا حسد...

فتابعت خديجة حديثها دون مبالاة بمقاطعته:

- وما خفي من الخي والنفرد المحبّاة أعظم...

فهف ياسين في أسف صادق:

- اخضت كلها وحياتك، سرت، سرقها ابن

الكلب، جعلت أبي يسأله عيّا إذا كانت تركت حليّا أو

نفوذًا فقال اللصّ «ايحسوا بأنفسكم، علم الله أنّي كنت

أنفق عليها في أثناء مرضها من جيبّي الخاصّ»...

اسمعوا يا هوه... جيبه الخاصّ ابن الغسالة!...

فقالت عائشة بتأثّر:

- يا ولداه!... مريضة طريجة الفرائش تحت رحمة

رجل طامع في مالها!... لا صديق ولا حبيب،

غادرت الدنيا من دون أن يحزن عليها أحد.

فتساءل ياسين:

- من دون أن يحزن عليها أحد؟!

فأشارت خديجة من خلال باب موارب إلى ملابس

ياسين المملّفة بالشجب وقالت محتجّة احتجاجًا

ساخرًا:

- وفلدا الباييون الأسود!... أليس آية على

الحزن؟!

فقال ياسين جادًا:

- لقد حزنت عليها حقًا، ربّما يرحمها ويغفر لها، ألم

نكنّ تصافينا في آخر لقاء؟ الله يرحمها ويغفر لها

ولنا...

فخفضت خديجة رأسها قليلًا رافعة حاجبيها ثم

نظرت إليه من أعلى كمن ينظر من فوق نظارته وهي

تقول:

- إحم... إحم... اسمعوا سيّدنا الواعظ (ثمّ

وهي ترميه بنظرة شكّ) ولكن لم يبد عليك فيا أظنّ

حزن شديد؟!

فرماها بنظرة مغيطة قاتلاً:

- ما قصّرت في واجبي ونحوها والحمد لله، أقمّت

لها مأثماً استمرّ ثلاث ليالٍ، وكلّ جمعة أزور الفراقة

محمّلاً بالرياحين والفواكه... أم تريدني ألطم وأعول

وأحسّر التراب على رأسي! إنّ للرجال حزناً غير حزن

- التهينة الحقة لك أنت قريباً إن شاء الله حين تزف إلى عروستك الثانية!... اليس كذلك؟

في ممالك إلا أن ضحك ثم قال:

- ريتنا نسمع منك...

فتساءلت عائشة باهتمام:

- حقاً؟...

ففكر قليلاً... ثم قال في شيء من الجذ:

- المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، ولكن من يعلم بما يأتي به الغد؟ ربما ثانية وثالثة ورابعة...

فنهفت خديجة:

- هذا ما أتوقّعه. الله يرحم جنك!

فضحكوا جميعاً حتى كمال، ثم عادت عائشة تقول بصوت أسيف:

- مسكونة زينب!... كانت فتاة لطيفة وطيبة...

- كانت... وكانت محضاً أيضاً، أبوها - مثل أبي - لا يطلق، لورضيت بمعاشرتي كما أحب ما فرطت فيها أبداً...

- لا تعترف بهذا، حافظ على كرامتك، لا تشمت بك خديجة...

قال باستهانة:

- نالت الجزء الذي تستحقّه، فلينقمها أبوها ويشرب مائه.

فغمغت عائشة:

- ولكنّها حبل يا ولده!... أترضى لوليدك بأن ينمو بعيداً عن رعايتك حتى تسترّده غلاماً؟...

آه، أصابت مقتلًا، ينمو في حضنة أمّه كما غا أبوه من قبل، ربما كابد تعاسة كتعاسه أو أشدّ... ريتنا نمت معه كراهية لأمّه أو لأبيه، تعاسة على أيّ حال. قال عائشة:

- ليكن حقله كحقل أبيه، ما باليد حيلة!

وساد الصمت قليلاً حتى سأل كمال خديجة:

- وأنت يا أبله متى يخرج الطفل...؟

فلجأته ضاحكة وهي تتحسّس بطنها:

- إنه لا يزال في سنة أولى.

فعاد يقول لها ببراعة وهو يتفرّس في وجهها:

- نحضت جدّاً يا أبله وصار وجهك قبيحاً...! ضحكوا جميعاً وهم يخطّون أفواههم بأيديهم، ضحكوا حتى شعر كمال بالحياء والارتباك، أمّا خديجة التي لم يكن الاستياء من كمال ممّا تستطيعه فقد مالت إلى أن تجاري التيار فقالت ضاحكة:

- أعتزف لكم بأنّي خسرت في أيام الرحم كلّ اللحم الذي تعبت أمّ حنفي أوعاماً في جمعه ولّمّه، نحضت ويسرز أنفي وغارت عيناها وخيل إلى أنّ «الرجل» يقلب عينيه مفتشاً عبثاً عن العروس التي زفّوها إليه؟...

ثمّ ضحكوا ثانية حين قال ياسين:

- الحقّ أنّ زوجك مظلوم لأنّه على غباوته البادية وسم الطلعة فسبحان من جمع الشاميّ على المغربيّ...

تجاهلته خديجة وخاطبت فهمي قائلة وهي تومئ إلى عائشة:

- كلامهما - زوجي وزوجها - في الغباء سواء! لا يكادان يرحان البيت ليل نهار، لا هم ولا عمل، أمّا زوجها فوقته كلّهُ صالغ بين التدخين وعزف العود كأنّه شحاذ من الشحاذين الذين يمزّون على البيوت في الأعياد، وأمّا زوجي فلا تراه إلّا مستلقياً يدخن ويثرثر حتى يدوّخ دماغه...

فقالت عائشة كالمعتلّة:

- الأعيان لا يحملون!

فقالت خديجة هازلة:

- العفو!... يحقّ لك أن تدافعي عن هذه الحياة، الحقّ أنّ الله لم يجمع بين متشابين كما جمع بينكما، كلاكما في الكسل والدعة والحمول شخص واحد، والنبيّ يا سيّ فهمي يمرّ اليوم كلّهُ وهو يدخن ويعزف وهي تزوّق نفسها وتذهب ونجيء أمام المرأة... نسأل ياسين:

- لم لا ما دامت ترى منظرًا حسنًا...؟

وقبل أن تفتح خديجة فاهها سالها مستعجلاً:

- خبّرني يا أختاه ماذا تصنعين لو جاء وليدك شبهاً

بك؟

كانت شبيت من مهاجته فاجابته جادة:

- سيجيء ياذن الله شيئا بآبيه أو جدته أو جدته أو خالته، أمّا... (ثم ضاحكة) أمّا إذا أبى إلّا أن يجيء شبيهاً بأمّه فالنفي يكون أحقّ به من سعد باشا! ولكن كمال قال بلهجة خبير عليهم:
- الإنجليز لا يحبّهم الجمال يا أبلاء، إنهم يحبون كثيراً براسي وأنفي...

فصرت خديجة صدها يدها هاتفة:
- يدعون صداقتك وهم يعيشون بك!... رئيساً يسلط عليهم زبلن من جديد.

ورمت عائشة فهمي بنظرة رقيقة وهي تقول:
- كم يسرّ دعاؤك بعض الناس...

فابتسم فهمي مغمماً:

- كيف أسرّ وهم في بيتنا أصدقاء مغفلون؟

- يا خسارة تريبتك له...

- من الناس من لا تنفع فيه التربية.

فتساءل كمال عجباً:

- ألم أزوج جوليون أن يعد سعد باشا؟

فقال خديجة ضاحكة:

- في المرّة القادمة حلّله برأسك الذي يعجب به.

شعر فهمي أكثر من مرّة بأنّ من حوله يسعون كلّما

بدت فرصة إلى استدراجه إلى الحديث والتسلية، بيد

أنّ ذلك لم يحيد شيئاً في التخفيف من الإحساس

بالغربة الذي غشيه طوال الوقت، هو إحساس كثيراً ما

يفصله عن آله وهو بينهم فيشعر بالغربة أو الوحدة

رغم زحمة المجلس، ينفرد بقلبه وحزنه وهامسه بين

أناس لا هين ضاحكين، حتّى نفي سعد يتخلّون منه

دعابة إذا لزم الأمر... إحتلس منهم النظرات تباحاً

فوجدهم راضين، عائشة... هانئة وإن تكن تبت

قليلاً بسبب الحمل ولكنها سعيدة بكلّ شيء حتّى

بتعبها، خديجة... متوتّبة ضاحكة، ياسين... صحّة

وعافية وغبطة، مرّ من هؤلاء يكثر لحواث هذه

الأيام! من منهم يحمّ بقي سعد أم نفي، جلا

الإنجليز أم مكثوا! إنّه غريب، أو غريب على الأقلّ

بين هؤلاء. ومع أنّ هذا الإحساس كان يلقي منه عادة

نفساً مسباحة فإنّه لم يلقّ هذه المرّة إلّا حقاً وامتصاصاً،

ربّما كان ذلك لما عناه في الأيام الأخيرة. كثيراً ما توقّع

أن يسمع عن زواج مريم، كان ذلك ممّ وكربه بيد

أنه سلّم به سلفاً تسليم اليأس، وكاد يأنف بركور

الأيام، إلّا أنّ حبه نفسه تراجع عن بؤرة شعوره الذي

شغلته الشواغل الكبرى، حتّى وقعت واقعة جوليون

فزّلزل زلزالاً. تفازل إنجليزياً لا مطمح لها في الزواج

منه فأيّ معنى تتضمّنه هذه المغالطة؟ هل تصدر إلّا عن

متهمّة؟ مريم متهمّة؟ وفيهم كانت أحلامه الماضية؟

ولم يكن يخلو بكامل حتّى يدعو إلى إعادة القصة من

جديد عجباً عليه أن يصف التفاصيل بدقّة، كيف

لاحظ ما يدور، وأين كان موقف الجندي، وأين كان

موقفه هو، وهل هو متأكد من أنّ مريم نفسها التي

كانت في الكوة؟ وأنها كانت تنتظر حقاً إلى الجندي؟

وهل رآها تبتسم إليه، وهل وهل وهل، ثم يسأله وهو

يعضّ على أسنانه كأنما عرس الشفاء الذي يعذّبه:

وهل تراجعبت في خوف حين وقعت عينها عليك؟ ثمّ

يعضي متخيلاً المواقف والمناظر، موقفاً موقفاً، ومنظراً

منظراً، ويتخيّل الإهتسام طويلاً حتّى كأنه يرى

الشفتين المتفتّحين كما رآهما يوم زفاف عائشة وصاحبتها

تتبع العروس في فناء بيت آل شوكت.

- يبدو أنّ نيتك لن نحالسا اليوم.

قالت عائشة بصوت يدلّ على الأسف.

فقال خديجة:

- الزوّار يلاون البيت.

ياسين ضاحكاً:

- أخاف أن يشبه الجنود في كثرة القادمين فيظنّ أنّ

اجتماعاً سياسياً انعقد في بيتنا.

خديجة في مباحة:

- إنّ أصدقاء بابا يجربون عين الشمس...

فقال عائشة:

- رأيت السيّد محمّد عفت نفسه على رأس

القادمين.

فأثنت خديجة على قولها قائلة:

- كان صديقاً حياً لبابا من قبل أن ترى نور

الدنيا.

فقال ياسين وهو يبرّ رأسه:

- أتمني بابا ظلمًا بأنّي قطعت ما بيتهما.

- ألا يفرّق الطلاق بين أعزّ الأصدقاء؟!

ياسين باستًا:

- إلا أصدقاء أهلك!

عائشة بفخار:

- من ذا تطاوعه نفسه على خاصمة بابا؟ والله ما في الدنيا كلّها نظير له...

ثم وهي تتندّب:

- كلّما تصوّرت ما وقع له أمس شاب شعر رأسي...

أحبرًا صافت خديجة بوجوم فهي فمزمت على أن تعالجه بطريقة مباشرة بعد أن أخفقت - فيها رأت -

الطرق غير المباشرة، فالتفتت إليه متسائلة:

- أرايت يا أخي كيف أنّ ربّنا أكرمك يوم لم يأذن

بتحقيق رغبتك نحو... مريم؟!

نظر فهي إليها بين الدهشة والحياء، سرعان ما تركّزت فيه الأبصار حتى كمال تطلّع إليه باهتمام، وساد

صمت ثم عمقه من شعور مكبوت طال في الصدر تجاهله أو إخفاؤه حتى أفصح عنه خديجة بجرأة

فتطلّعوا إلى الشاب في صمت المنتظر للجواب كأنّما هو نفسه الذي طرح السؤال، غير أنّ ياسين رأى أن ينهي

الصمت قبل أن يستفحل فيبحث على الألم فقال متظاهرًا بالسرور:

- أصل أحمك وليّ والله يحبّ أوليائه...

وكان فهي يكابد حرجًا وحياء فقال بالقتضاب:

- هُذه مسألة قديمة عفاها النسيان...

فقالّت عائشة بلهجة المعتذر:

- لم يكن سيّ فهي وحله الذي خدع بها، كلّنا خدعنا بها...

فقالّت خديجة مدافعة عن نفسها - بأقصى ما في وسعها - همة الغفلة:

- على أيّ حال أنا لم أقتنع لحظة واحدة فيما مضى، حتى مع اعتقادي ببرائتها، بأنّها جديرة به...

فعاد فهي يقول متظاهرًا بالاستهانة:

- هُذه مسألة قديمة عفاها النسيان، إنجليزي...

مصري... سيّان، دعونا من هذا كله...

وجد ياسين نفسه تعاود التفكير في «مسألة»

مريم... مريم؟!... لم يكن ينظر إليها فيما مضى -

إنّ مرّت في مجال بصره - إلا عابرًا، ثمّ زاده زهدًا فيها

تعلّق فهي بها، حتى ذاعت فضيحتها في الأسرة...

هناك ثلر اهتمامه، تسامح طويلًا أيّ فتاة هي؟ ودّ لو ملأ عينيه منها، ثمّ لو كان سبر الفتاة التي استرعت

تشوّق «إنجليزي»... «إنجليزي» جاء الحيّ مقاتلاً لا مغالًا، لم يبد سخطه عليها إلا مجازة للحديث كلّما

تناولها أمّا في الباطن فقد أطربه غاية الطرب وجود «مفضوحة» جريئة مثلها على كتب منه فلا يفصله عنها

إلا جدار، شاع في صدره العريض المكتنز ذلك الطرب البهيميّ الذي يدعوه إلى الصيد وإن وقف - احترامًا

لحزن فهي الذي يحبّه - عند حدّ الشعور واللذة السليبة المجرّدة، لم يعد في الحيّ من يستثير اهتمامه

كمريم.

- أن أوان الذهاب.

قالّت خديجة ذلك وهي تنهض على حين ترامي إليهم صوت إبراهيم وخليل وهما يتحدّثان قادمين من

الردهة الخارجية. قام الجميع، من يتمكّي ومن يجبك ملاسه، إلا كمال فقد لزم مجلسه وهو يتطلّع إلى باب

الصالة بحزن وقلب خائف...

جلس السيّد أحمد إلى مكتبه، مكبًا على دفاتره، يزاول عمله اليوميّ الذي يتنامى به - ولو إلى حين -

همومه الشخصية والهموم العامّة التي تتطّير بها الأبناء الدائمة. غدا يحبّ الدكان حبيّه مجالس الأناش والطرب

لأنّه على الحالين يظفر بما ينزعه من جحيم الفكر، إلا أنّ جرّ الدكان حافل بالمساومة والبيع والشراء والربح

وغير ذلك من شئون الحياة العادية، حياة كلّ يوم، فلا تخلو من أن تبيح في نفسه شيئًا من الثقة الموحية

بإمكان عودة كلّ شيء إلى أصله، إلى حالته الأولى من

بين الورا والامام كانه راكم جلاء فبال السيد فوق مكتبه ومد يده حتى التقت بيد الرجل وشد عليها متمتًا «الكرسي على يمينك، تفضل بالجلوس» فأسند الشيخ متوكي عصاه إلى المكتب وجلس على الكرسي ثم اعتمد يديه على ركبتيه وهو يقول:

- الله يحفظك ويصونك...

فقال السيد من قلبه:

- ما أطيب دعاءك وما أحوجني إليه!

ثم ملتفتًا صوب جميل الحمزاي الذي كان يزن أرزًا لزبون:

- لا تشن أن تهنئ لقة سيدنا الشيخ...

فجاء صوت جميل الحمزاي قائلاً:

- من ذا الذي ينسئ سيدنا الشيخ!

فبسط الشيخ راحتيه ورفع رأسه وهو يحرك شفتيه بالدعاء في هنية لم يسمع منها إلا وسوسة متقطعة، ثم عاد إلى وضعه الأول فصمت لحظة ثم قال بلهجة الافتتاح:

- أبدأ بالصلاة على نور الهدى.

فقال السيد بحرارة:

- عليه أزكى الصلاة والسلام...

- وأنتي بالترحم على أيبك طيب الذكر.

- رحمه الله رحمة واسعة.

- ثم أسأل الله أن يقر عينيك بأسرتك وذرّيتك وذرّية ذرّيتك وذرّية ذرّية ذرّيتك.

- آمين.

متمتًا:

- وأدعوه أن يعيد إلينا أفندينا عباس ومحمد فريد

وسعد زغلول...

- اللهم استجب.

- وأن يخرب بيت الإنجليز بما أئتموا وبما يائمون...

- سبحانه المنتقم الجبار.

عند ذلك تنحنح الشيخ ومسح على وجهه بكفه ثم قال:

قال:

- أما بعد فقد رأيك في منامي تلوح يديك فما

الاستقرار والسلام. السلام؟ أين ذهب ومضى يافئ بالعودة؟... حتى في هذا الدكان تجري أحاديث الدماء هماً مفجعاً، لم يعد الزبائن يقنعون بالمساومة والشراء فما تالو الستهم أن تتركذ الأنباء وتندب الأحداث، فوق ركائب الأرز والبر سمع من معركة بولاق ومدابح أسويط والجنازات التي تشح فيها النعوش بالعشرات والشباب الذي انتزع من العدو مدفعاً رشاشاً أراد أن يدخل به الأزهر لولا أن سبقتة المنيّة فانغمرت في جسمه عشرات المقدوفات، هذه الأنباء وغيرها مما يصطبغ بلونها القاني تقرر أذنيه بين حين وآخر في المكان الذي يلوذ به ناشداً النسيان. ما أنص الحياة في ظل الموت، هلاً عجالت الثورة بتحقيق غايتها من قبل أن تمتد أذاها إليه أو إلى أحد من ذويها... إنّه لا يبخل بمال ولا يضرّ بموافقة أما بذل الحياة فامر آخر، أيّ عذاب صبه الله على العباد فهانت النفوس وجرت الدماء! لم تعد الثورة «فرجة» حماسية، إنّها تهدأ أمنه في اللعاب والإياب، وتتوعد ابنه «العاصي». فترحمه شاء هي دون غايتها، يعلم بالاستقلال وبعودة سعد ولكن دون ثورة أو دماء، أو ذعر، يتنف مع الهاتفتين ويتحمس مع المحمسين ولكن عقله يقاوم التيار متعلّقاً بالحياة فمكث وحده في المجرى كاهل شجرة التلعت المواسف أغصانها، لن يومن شيء وإن جلّ من حبه للحياة، فلننق له إلى آخر العمر، ولؤوين فهمي إيمانه لتبقى له حياته إلى آخر العمر كذلك، فهمي العاق الذي رمى بنفسه إلى التيار بلا حزام نجاة...

- هل السيد أحمد موجود؟

سمع السيد صوت السائل وهو يشعر بالاندفاع شخص داخل الدكان كانه مقدوف آدمي فرفع رأسه عن مكتبه فرأى الشيخ متوكي عبد الصمد يتوسط المكان راشماً بعينييه اللتهيتين مدقّقاً النظر - عبثاً - صوب المكتب فهش قلبه وابستمت أساريره ثم هتف بالقادم:

- تفضل يا شيخ متوكي، حلّت البركة...

فلاح الاطمشان في وجه الشيخ وتقدّم بهزّ أعلاه ما

- فتحت عيني حتى صبح عزمي على زيارتك.
- فابتسم السيد ابتسامة لا تخلو من حزن وقال:
- لا أعجب لذلك فإني في ميسر الحاجة إلى بركتك، زائدك الله بركة على بركة...
- فقال وجه الشيخ نحو السيد في عطف وتساءل:
- أحتي ما بلغني عن حادث بوابة الفتوح؟
- فأجاب السيد مبتسماً:
- نعم... من أبلغك يا ترى؟
- كنت مائراً بمصره حينئذ غنيم فاستوقفني وقال لي وألم يبلغك ما فعل الإنجليز بحبيك السيد أحمد وبني؟
- فاستوضحته منزعياً فقص عليّ المعجب المعجب...
- فقص عليه السيد الحادث بتفاصيله، لم يكن يحل تردده، ولعل قصه في الأيام القلائل الأخيرة عشرات المرات.
- وأصغى الشيخ وهو يتلو همساً آية الكرسي: أفزعت يا بني؟ كيف كان فزعك... خربت... لا حول ولا قوة إلا بالله... ولكن هل قنعت بالسلامة؟...
- أنسيت أن الفزع لا يعني إلى حال سبيله؟... صليت طويلاً وسألت الله النجاة! هذا جميل ولكن يلزمك حجاب...
- كيف لا!... يزيدنا بركة يا شيخ متولي...
- والأولاد وأهمهم، ألم يدرهم الفزع؟
- طبعاً... قلوب ضعيفة لا عهد لها بالقسوة والإرهاب، الحجاب... الحجاب... وفيه الشفاء...
- أنت الخير والبركة يا شيخ متولي... فقد نجاتني الله من شر كبير، ولكن ثمة شر لا يزال يتهددني ويفض مضجعي.
- مال وجه الشيخ نحو السيد في عطف مرة أخرى وتساءل:
- ماذا بك يا بني عفا الله عنك؟
- فرنا السيد إليه بطرف واهم وغمغم في صجر:
- ابني فهمي...
- فرجع الشيخ حاجبيه الأشبيين متساكلاً أو منزحجاً ثم قال برجاء:
- محفوظ بإذن الرحمن...
- فهو السيد رأسه بأسي وقال:
- عفتي لأول مرة والأمر...
- نبت الشيخ متولي ذراعيه أمامه كأنها بقيت بها البلاء وهتف:
- معاذ الله، فهمي ابني، وأنا أعلم علم اليقين أنه طبع على البر...
- فقال السيد أحمد متسخطاً:
- يابى حضرته إلا أن يفعل كما يفعل الشبان في هذه الأيام الدامية...
- فقال الشيخ في دهش واستنكار:
- أنت أب حازم ما في ذلك شك، ما كنت أتصور أن ابناً من أبائك يمرّ على أن يرد لك أمراً...
- حز هذا القول في قلبه حتى أدماه وضاق به صدره، ثم وجد من نفسه نزوعاً إلى التهورين من عصيان ابنه لينفخ عن شخصه تهمة الضعف أمام الشيخ وأمام نفسه معاً فقال:
- لم يمرّ على هذا صراحة طبعاً ولكن دعوته إلى أن يحلف على المصحف بالألا يشترك في أي عمل من أعمال الثورة فبكي، بكى من دون أن يحسر على قول لا، ما عسى أن أصنع؟ لا أستطيع أن أحسه في البيت ولا يسعى أن أراقبه في المدرسة، وأخاف أن يكون تيار هذه الأيام أقوى من أن يقاومه شاب مثله، ماذا أصنع؟... ألهده بالضرب؟... أضربه؟... لكن ما عسى أن يجدي التهديد مع شخص لا يبالي تعريض نفسه للموت!
- فمسح الشيخ على وجهه وتساءل بقلق:
- وهل ألقى بنفسه في المظاهرات؟
- فقال السيد وهو يهز منكميه العريضين:
- كلا ولكنه يوزع المشورات، لسا صيقت عليه زعم أنه يكتب بالتوزيع على خاصة أصدقائه.
- ما له ولله الأعمال!... إنه الوديع ابن الوديع ولله الأعمال رجال من صنف آخر، ألم يعرف أن الإنجليز وحوش لا تتطرق الرحمة إلى قلوبهم الغليظة؟... وإتهم يتفنون صباح مساء بدماء

صغارها، بالأمس قال ابني فؤاد لأمته إنه ودّ لو يشترك في مظاهرة!

فقال السيّد بقلق:

- يعملها الصغار ويقع فيها الكبارا... ابنك فؤاد صديق ابني كمال وكلّهما في مدرسة واحدة، ألا تحبّه نفسه... ألا تحبّهما نفسها مرّة بأن يسيرا في مظاهرة!... هه... ما من عجيبة تعدّ الآن عجيبة!...

فقال الحمزاوي وقد ندم على ما فرط منه:

- ليس إلى هذا الحدّ يا سي السيّد، على أنّ أدبته بلا رحمة على تميّاته الساذجة، إنّ سي كمال لا يخرج إلّا مصحوبًا بأمّ حنفي حفظه الله وروحه...

ساد الصمت فلم يعد يسمح في الدغسان إلّا خشخشة الورقة التي يلفّ فيها الحمزاوي هدية الشيخ متوليّ عبد الصمد، ثمّ تنهّد الشيخ وقال:

- فهمي ولد عاقل، لا ينبغي أن يمتنّ الإنجليز من نفسه العريضة، الإنجليزا... حسبي الله... ألم تسمع بما فعلوا في العزيزية والبدرشين؟...

كان السيّد على حال من القلق لم يجد معها رغبة صادقة في التساؤل، إلّا أنّه لم يتوقّع جديدًا فوق ما يقرع سمعه هذه الأيام، فاكتمى بأن يرفع حاجبيه متظاهرًا بالاهتمام فأنشأ الشيخ يقول:

- كنت أوّل أمس في زيارة الحسيب النسب شذاد بك عبد الحميد يسرايه العامرة بالعباسية، دهاني إلى الغداء والعشاء فأنعمته بأحجية له ولآل بيته، وهناك حدّثني بحديث العزيزية والبدرشين... سكّنت الشيخ قليلًا فضداد السيّد أحمد:

- تاجر الأقطان المعروف؟

- شذاد بك عبد الحميد أكبر تاجر قطن، لعلّك عرفت ابنه عبد الحميد بك شذاد فقد كان يومًا على صلة وثيقة بالسيّد عمّد عتّ؟...

فقال السيّد ببطء ليملي لنفسه في التذكير:

- أذكر أنّ رايته مرّة في مجلس السيّد عمّد عتّ قبل نشوب الحرب، ثمّ سمعت عن إبعاده عن القطر عقب عزل أفندينا، أما من جديد عنه...؟

المصريّين المساكين؟... كلّهم بالحنسي، عظه، يرّ له النور من الظلام، قل له إنّك أبوه وإنّك تحبّه وتحاف عليه، أمّا أنا فساعمل من ناحيتي على إعداد حجاب من نوع خاصّ وأدعوه له في صلاتي وخاصّة صلاة الفجر، والله المستعان من قبل ومن بعد... قال السيّد بحزن:

- إنّ أبناء القتل تتواتر كلّ ساعة معلنة أي التحدير لمن يعتبر فيها الذي أصاب عقله؟ لقد ضاع ابن الفولي اللّبان في غمضة عين شهد مأتمه معي وعزّى والده المسكين، كان الشاب يورّع سلاطين اللّبن الزبادي فصادف في طريقه مظاهرة فأغراه القضاء بالاشتراك فيها بلا وعي، وما هي إلّا ساعة أو نحوها حتّى خرّ صريعًا في ساحة الأزهر، لا حول ولا قوة إلّا بالله... إنّ الله وإنّا إليه راجعون، لسيّا تأثر عن معاهد عودته قلق أبوه فمضى إلى زبائنه يسأل عنه، قال له بعضهم إنّ جوامهم بالزبادي وذهب وقال آخرون إنّ لم يمرّ عليهم كعادته، حتّى بلغ حروشا بالغ الكثافة فوجد عنده الصبيّة وما تبقي من السلاطين التي لم تدرّع وأخبره الرجل بأنّه تركها عنده واشترك في مظاهرة المساء، فجرت جنون المسكين وقصد من توهّ قسم الجباليّة فوجهوه إلى قصر العيني وهناك عثر على ابنه في المشرحة، لقد علم بالقصة بحداقها كما قصّها علينا الفولي ونحن في بيته نعتّيه، علم كيف فقد الشاب وكان لم يوجد ولس حزن أبيه المبرّج وسمع صوات أهله، هلك المسكين فلم يعد سعد ولم يخرج الإنجليز، لو كان حجرًا لعقل ولكنه غير أبناي قلّله الحمد والشكر...

فقال الشيخ متوليّ بصوت أسيف:

- أعرف ذلك الشاب المسكين، إنّ أكبر أبناء الفولي ليس كذلك؟... كان جدّه مكاريًا وكنت أكثرني حارة للذهاب إلى سيدي أبي السمود، إنّ للفولي أربعة أولاد ولكن الفقيه كان أحبّهم إلى قلبه.

هنا اشتراك جميل الحمزاوي لأوّل مرّة في الحديث قائلاً:

- إيماننا هذه مجنونة وقد تلفت عقول الناس حتّى

فقال الشيخ متولي بلهجة صريحة عابرة كأنما يضع كلامه بين قوسين ليعود إلى حديثه الأول:

- لا يزال مبعداً عن البلاد، وهو يقيم في بلاد فرنسا ومعه زوج وأولاده، أشد ما يخاف شذاد بك أن يموت قبل أن يرى ابنه في هذه الدنيا...

وسكت مرة أخرى، ثم مضى يهز رأسه مئة ويسرة ويقول بصوت منموم كأنما ينشد مطلع توشيح نبوي:

- بعد انتصاف الليل بساعتين أو ثلاث والناس نيام حاصر البلدين بضع مئات من الجنود البريطانيين مدججين بالسلاح...

انتهى السيد انتباهة قاسية... حاصروا البلدين والناس نيام... اليس أولئك المحاصرون من جنس هؤلاء السليدين يسكرون أمام البيت... يدموا بالاعتداء عليّ فأي خطوة تالية يضررون؟!...

ضرب الشيخ على ركبته كأنما لإنشاده ينزع من الإقناع ثم استطرد قائلاً:

- واقتحموا على العُمدتين دارجها فأمرهما بتسليم السلاح ثم مرقوا إلى الحرم فهبوا الحل وأهانوا النساء وجزّوهن من شعورهن إلى الخارج وهن يرسولن ويستغثن وما من مغيث، عطفك اللهم على المستضعفين من عبادك...

دار العمدتين!... العملة شخصية حكومية ليس كذلك؟... لست عملة ولا داري بلد عربي، ما أنا إلا رجل كسائر الناس، ما عسى أن يصنعوا بأمثالي. تصور أمانة مجروية من شعرها، أيقفي عليّ بأن أثقي الجنود!... الجنود؟...

واصل الشيخ حديثه وهو يهز رأسه قائلاً:

- وأجبروا العمدتين على أن يلدوها على بيوت مشايخ البلدين وأعيانها ثم اقتحموا البيوت محطمين الأبواب، نهروا كل ثمين، اعتدوا على النساء اعتداء إجرامياً بعد أن قتلوا اللاتي حاولن الدفاع عن أنفسهن، وضربوا الرجال ضرباً مبرحاً، ثم غادروها بعد أن لم يبقوا فيها على ثمين لم يسلب أو عرض لم ينلم...

ليذهب كل ثمين إلى الجحيم... وأعرض على

يسلم... أين رحمة الله؟... أين انتقامه؟... الطوفان... نوح... مصطفى كامل... تصور... كيف يمكن أن تبقى معه بعد ذلك تحت سقف واحد أيّ ذنب جنت!... وهو بائٍ وجهه... ١٩...

ضرب الشيخ بيده ثلاثاً على ركبته ثم عاد إلى الحديث وقد تهجد صوته فصار بالنواح أشبه، قال:

- وأضرموا النار في البلدين مستعيتين بما على أسقف الدور من حطب وقش وما صبروا عليها من بترول، استيقظت القرى في فرح رهيب وفر أهلها عن بيوتهم كالمجانين، وعلا الصراخ والأين، وامتدت السنة الذهب في كل مكان حتى استحات البلدتان شعلة من النيران...

هتف السيد بلا وعي:

- يا ربّ السواوات والارض!

فمضى الشيخ قائلاً:

- وضرب الجنود نفاقاً حول البلدين المشتعلتين من بعيد يترصدون بالأهالي البؤساء الذين انطلقوا هالعين على وجوههم تبعيم الأغنام والكلاب والقطط ويرومون سبيلاً للنجاة من النار، فما لبغوا مواقف الجنود حتى انهال هؤلاء على الذكور ضرباً وركلاً، ثم حجزوا النساء ليسلبوا حلينهن ويتكوا أعراضهن، فإذا قاومت إحداهن قتلت، وإذا نذت عن زوج أو أب أو أخ حركة دفاع رمي بالرصاص...

ثم التفت الشيخ متولي إلى السيد الداهل وضرب كفاً على كف وهو يهتف:

- وساقوا بقية الضحايا إلى معسكر قريب وهناك أجبروه على التوقيع على مکتوب يتضمن اعترافهم بجرائم لم يرتكبوها وإقراراً بأن ما أنزل الإنجليز بهم جزء حق على ما فعلوا، هذا ما حصل يا سيد أحمد للمزيّة والبدرشين، هذا مثل من أمثلة التنكيل التي نسلها بلا رحمة ولا شفقة، اللهم فاشهد...

وساد صمت كتيب أليم خلا فيه كل إلى أفكاره ونغلاته حتى قطعه جمل الحزاري وهو يهتف متأوهاً:

- ربنا موجود...

فهتف السيد مؤثناً على قوله:

بنفسها. ها هي عائشة تتأهب لاستقبال أول مولود تستهل به أمومتها، كما استهلّت هي أمومتها بخديجة، هكذا تجتذ الحياة التي انبثقت منها إلى غير نهاية، ومضت إلى الأب فزوّت إليه البشري بنبرات رقيقة مهلبّة، مبالغة هذه المرّة في حيائها وهلبيتها أن يستشفّ وراء صوتها رغبتهما الحارّة في الانطلاق إلى ابتها غير أنّ السيّد تلقى الحبر في هلدوه ثمّ أمرها بالذهاب دون إبطاء! ... راحت ترتدي ملابسها على عجل وقد شعرت بأنّ المزايا التي تكسبها امرأة ضعيفة مثلها بإنجاب الأطفال خليفة بصنع المعجزات أحياناً، وعلم الأخرى بالخبر عند استيقاظهم عقب ذهاب الأمّ قليلاً. علت وجوههم ابتسامة وتبادلوا نظرة متسائلة. عائشة أمّ! أليس ذلك غريباً؟ ما وجه الغرابة فيه. كانت نينة أصغر منها يوم ولدت بخديجة. هل ذهبت نينة لتخرج الطفل يديها؟ ابتسامتان. هذا نذر لي، حسّاً قليل تلد بنت الكلب أيضاً. ... من تعني؟! زينب. آه لو سمعتك بابا. عائشة أمّ، وأنا أب، وأنا خال وعمّ، ستكون أنت أيضاً خال وعمّ يا سيّ كمال، يجب أن تحلّف اليوم عن المدرسة لأنّهم إلى أبلا عائشة. جميل جداً، استأذن بابا إن استطعت على المائدة! ... أووه. نحن في حاجة إلى مزيد من المواليد لنسدّ المعجز الذي أوقعه الإنجليز بنا. ... لو تحلّفت عن المدرسة ما حدث شيء غير عاديّ، ثلاثة أرباع التلاميذ مضربون أكثر من شهر، قل هذا لبابا وسيفتنح حتّى بحجّتك فيضربك يطبق النول في وجهك. أووه. مولود جديد، بعد ساعة أو ساعتين يصير بابا جداً ونينة جنة ونحن أحوالاً. شيء خطير، كم مولوداً ما ترى يصرى نور الدنيا في هذه اللحظة! ... وكم إنساناً يقبض عنه هذا النور في هذه اللحظة! ... يجب أن نبليج جتنى. أستطيع أن أذهب إلى الخرنفش لإبلاغها إذا تحلّفت عن المدرسة! قلنا لك لا شأن لنا بمدركستك، قل لبابا وسيرحب بفكرتك. أووه. لعلّ عائشة تتأمّل الآن. مسكينة المحبوبة، إنّ الطلق لا يلين للشرّ النهمي والأعين الزرق ربّنا يقومها بالسلامة، عند ذاك نشرب المغات

- نعم! (ومشيّراً إلى الجهات الأربع) في كلّ مكان. ...

وخاطب الشيخ متوكّي السيّد قائلاً:

- قل لنهمي إنّ الشيخ متوكّي ينصح بالابتعاد عن موارد التهلكة، قل له سلّم إلى الله ربّك فهو القادر وحده على إهلاك الإنجليز كما أهلك من قبلهم من شقّوا عصا طاعته. ...

ثمّ مال الشيخ نحو عصاه ليتناولها فأشار السيّد إلى جميل الحمزاوي فجاءه بالهدية ووضعها في يده ثمّ ساعده على النهوض. صالّح الشيخ الرجلين ومضى وهو يقول:

- «غلبت الروم في أفنّ الأرض وهم من بعدد غلبهم سيفيلون» ... صدق الله العظيم. ...

٦٨

عند الغلس، ونور الصباح يولد رويداً من ظلمة الفجر، طرقت خادم من السكّرية بيت السيّد فأخبرت أمينة بأنّ عائشة قد جاءها المخاض. كانت أمينة في حجرة القرن فعمدت بالعمل إلى أمّ حنفي وهرعت إلى باب السلم. بدا على أمّ حنفي الاستياء ربّما لأوّل مرّة في تاريخ خدمتها الطويل بهذا البيت، أما كان يحقّ لها أن تشهد ولادة عائشة؟ لها كلّ الحق. ... كأمينة سواء بسواء، ففتحت عائشة عينها في حجرها، كلّ ابن في هذا البيت له أمّان: أمينة وأمّ حنفي، كيف يحال بينها وبين ابتها في هذه الساعة الرهيبة! ... هل تذكرين ولادتك؟ ... وربيع الطبكيّة، كان المعلم في الخارج كمادته وكانت وحيدة بعد منتصف الليل، وجدت في أمّ حنيفة صدييقة وقبالة ممّا! ... ترى أين أمّ حنيفة الآن؟ ... ألا زالت على قيد الحياة؟ ثمّ جاء حنفي بعد تأوهات الأمّ، ذهب بين تأوهات الأمّ أيضاً، وهو في المهدي، لو عاش لكان ابن عشرين الآن؟ ... سيدي الصغيرة تتأمّل وأنا هنا أمّهي الطعام. امتلا قلب أمينة بفرح موصول بإنشاق، هو الإحساس الذي حقق به قلبها أوّل مرّة يوم استقبلت التجربة

ونشعل الشموع، ذكر لم أنتهى؟... أيتها تفضل...
 الذكر طبعاً، ربما بدأت بأشئ كأثمها. لم لا تبدأ بذكر
 كآبيها؟ هاهنا، عندما يحين معاد انصراف المدرسة
 يكون الطفل قد خرج فلن أتمكن من مشاهدة
 خروجه. أتريد أن تراه وهو يخرج؟ طبعاً. أجل هذه
 الرغبة حتى يكون المولود ابنك أنت!... كان كمال
 أشد الجميع تأثراً بالخبر، شغل به عقلاً وقلباً وغياًلاً،
 لولا شعوره برقابة ضابط المدرسة عليه وأنه يحصى
 حركاته وسكناته ليبلغها أول فأول إلى أبيه لما كان في
 وسعه أن يقدم الإغراء الذي يناديه للذهاب إلى
 السكرية. ومكث في للمدرسة جسداً بلا روح، هامت
 روحه في السكرية تتسامل عن القادم الجديد الذي
 ترقب مقدمه أشهراً وهو يفتي النفس بالأطلاح على سره
 المكتون. شهد مرة ولادة قطعة وهو دون السادسة إذ
 استرحت انتباهه بوالها الحاد فخرج إليها تحت عرش
 اللباب فوق السطح فوجدتها تتلوى البيا وقد جمحت
 عينها، ثم رأى جسمها يتصدع عن فلة ملتصبة
 فتراجع متفرّداً وهو يصرخ بأهل صوته. طافت هذه
 الذكرى بمخيلته وألصقت عليه حتى عاوده تفرزه القديم
 وانتشرت حوله مضجرة مقلقة كالضباب غير أنه لم
 يستسلم للخوف، أبى أن يتصور أن ثمة علاقة بين
 القطعة وعائشة إلا ما يكون بين الحيوان والإنسان وهو-
 في إيمانه- أبعد مما بين الأرض والسماء، ولكن ماذا
 يحدث في السكرية إذن؟... ماذا طرأ على عائشة من
 غرائب الأمور؟... ثمة أسئلة حيارى لا تنعم
 بجواب... ما كاد يغادر المدرسة عصراً حتى اندفع
 يقطع الطريق عدواً إلى السكرية.

دخل فناء بيت آل شوكت وهو يلهث، ومضى إلى
 باب الحريم فلاحته منه الطاقة إلى النظرة في يدي
 إلا وعينا تلتفتان بعيني والده الذي جلس شاكياً
 راحته على مقبض عصاه القائمة بين رجليه. تسمر في
 مكانه جامداً محملاً كائناً نوماً مغناطيسياً، لم
 يطف ولم يد حراكاً، وكتبه شعور بالذنب لا يدره
 فلبث يترقب انقباض العقاب عليه وسرودة الخوف
 تسري في أطرافه حتى اشتبك السيد أحمد في حديث

مع شخص يجلس إلى جانبه فالتفت نحوه فاستردّ كمال
 عينيه وهو يزدرد ريقه، عند ذلك لمح في داخل النظرة
 إبراهيم شوكت وياسين وفهمي قبل أن يفرّ إلى
 الداخل، رقي في السلم وثباً حتى انتهى إلى دور
 عائشة فدفع باباً موارياً ودخل الفتى بخليل شوكت
 زوج أخته واقفاً في الصالة، ورأى باب حجرة النوم
 مغلقاً وقد تراسى من ورائه إلى سمعه أصوات تتحدث
 مزمز منها أمه وحرّم المرحوم شوكت وصوتاً ثالثاً لا
 يعرفه، سلم على زوج أخته ثم سألوه وهو يتطلع إليه
 بطرف باسم:

- أبلا عائشة ولدت؟

رفع الرجل سيّابته إلى شفتيه محذراً وهو يقول:

- هس...؟

أدرك كمال أنه لم يرحّب بالسؤال، بل أنه لم يرحّب
 بمقدمه كسالف عادته فخلج وعانى قللاً لم يدري له
 سبباً، وأراد أن يتقدم من الباب المغلق ولكن صوت
 خليل أوقفه وهو يتعف باقتضاب ينم عن الضجر:
 - لا...!

فتحوّل نحوه متسائلاً ولكن الرجل قال له في عجلة
 وهجوة:

- انزل يا شاطر والعيب تحت...!

انكسرت نفس الغلام فتقهقر متثاقلاً بائساً وقد عزّ
 عليه أن يجزى على عذاب انتظاره طوال اليوم هذا
 الجزاء البخس، ولما بلغ عتبة الصالة صكّ أذنيه
 صوت غريب أت من الحجرة المغلقة، بدأ رقيقاً حاداً
 عالياً، ثم غلظ وترهل حتى ببح، وانتهى بحشرجة
 طويلة قاسية، ثم غاب لحظة مقدارها تردّد النفس
 المقطوع، ثم بعث أمة عميقة شاكية، بدا له غريباً
 أول الأمر كأنه لم يعرف صاحبه، ولكن نبرة من نبراته
 المألوفة تميّزت وسط الحدة والغلظة والحشرجة فوشت
 بهوية مصدره، صوت عائشة بلا ريب، أو هو عائشة
 مذابة منصهرة، ثم تأكد من ظنه عند تردّد الأهة
 العميقة الشاكية، فارتعشت جوارحه، وخيل إليه أنه
 يراها تتلوى على حال من الألم دعت إلى تخيلته بصورة
 القطعة القديمة، وعطف رأسه صوب خليل فالفاه

ابني بدا اليوم خَوْفًا على غير عادته، على أنه لا ضرر
الكَبَّة من عجيء الطبيب (ثم مناجية نفسها بصوت
خفيض) الطبيب ربنا وربنا هو الطبيب...

لم يعد السيد يطبق ما يلتزم به عادة من وقار وبرود
أمام أبنائه فسألها في قلبي غير خاف:

- ماذا بها؟... ألا أستطيع أن أراها؟...

فابتسمت المرأة وقالت:

- سترأها عيًا قريب وهي بخير وعافية، الحق على
ابني المجنون هو الذي أزعجكم بغير موجب...

كان وراء الصدر المريض القوي والوقار الحنازم
المهيب قلب يتعذب أشد العذاب، كان وراء العينين
الواجبتين الرزيتتين دمع متجمد... ماذا دهم
الصغيرة؟ الطبيب؟! لماذا تحول العجوز بيني وبينها؟!
ابتسامة رقيقة أو كلمة حنونة مني أثناء مني أنا خاصة،
حقيقة بأن تخفف من آلامها، زواج وزوج والى، لم
تلق في بيتي مرارة الألم فقط، العزيرة الجميلة الصغيرة
رحمتك اللهم، فسد طعم الحياة، إنه ليفسد لأهون
أذى يتهذههم، فهمي... أراه واجيًا متألًا... هل
أدرك معنى الألم؟... من أين له أن يعرف قلب الأم
العجوز مطمئنة واثقة بما تقول، ابنتا أزعجتنا بغير
موجب، اللهم استجب، أنت أعلم بحالي بأن تنجيها
كما نجيتني من الإنجليز، قلبي لا يطيق هذا العذاب،
عند الله الرحمة، وهو قادر على حفظ أبنائي من كل
سوء، لا طعم للحياة بغير ذلك، لا طعم للسرو
والطرب واللهو إذا انفرست في جنبي شوكاة حادة،
قلبي يذوق لهم بالسلامة، لأنه قلب أب، ولأنه لا
تطيب المسرات إلا لحلي، هل ألقى سائر الليل بقلب
سعيد؟... أحب إذا ضحك أن تنطلق الضحكة
من أعماق قلبي صافية، القلب الفلق كالوتر المختل،
حسي فهمي، إنه يلح على كوجع الأسنان، ما أبغض
الألم، دنيا بلا ألم، لا شيء على الله بكثير، دنيا بلا ألم
ولو تكون قصيرة، دنيا تقر فيها عيني بهم جميعًا.
هناك أضحك وأغني وأهوى، يا أرحم الراحمين،
عائشة يا أرحم الراحمين!

بعد غيبة ثلث ساعة عاد خليل مصحوبًا بالطبيب
يقبض راحته ويسطها وهو يتمتم «يا لطيف يا رب»
فخيل إليه مرة أخرى أن جسم عائشة يقبض وينسبط
مثل راحة الرجل، لم يعد يملك من نفسه شيئًا فركض
إلى الخارج مفتحًا في البكاء، وعندما انتهى إلى باب
الحريم استرعى سمعه وقع أقدام هابطة وراءه فرفع
رأسه فرأى الجارية سويدان نازلة على عجل فمرت به
دون أن تنتبه إليه حتى وقفت على عتبة باب الحريم ثم
نادت سيدها إبراهيم فجاء الرجل مسرعًا فقالت له
والحمد لله يا سيدي، لم ترد على ذلك شيئًا ولم تنتظر
حتى تسمع ما يقول ولكنها دارت على عقيبتها وهرعت
إلى السلم فرقت فيه دون تردد، رجع إبراهيم إلى
المنظرة مهتلل الوجه فلبث كيال وحده لا يدري ما
يفعل ولكن لم تحضر دقيقة حتى عاد إبراهيم يتبعه
السيد أحمد فياسين ثم فهمي فتنتحي الغلام جانبًا حتى
مرّوا ثم صعد في أعقابهم خائف القلب، وقابل خليل
الأوين أمام مدخل الشقة فسمع أباه وهو يقول له:

- الحمد لله على السلامة...

فهمي خليل في وجع:

- الحمد لله على كافة الأحوال...

فسأله السيد باهتمام:

- مالك؟...

فقال بصوت منخفض:

- إني ذاهب لاستدعاء الطبيب...

فتمال السيد قلبي:

- المولود؟...

فأجاب به هوّ رأسه سلبيًا:

- عائشة... ليست على ما يرام، ساجيء

بالطبيب حالًا...

وهذب مخلفًا وراءه وجوسًا وقلبي واضحين، ثم
دعاهم إبراهيم شوكت إلى حجرة الاستقبال فمضوا
إليها صامتين. وجاءت حرم المرحوم شوكت بمد قليل
فسلمت وهي تتبسم لتدخل الطمانينة إلى قلوبهم ثم
جلست وهي تقول:

- قاست المسكنة طويلًا حتى انتهكت قواها، ولكنها
حال عارضة وستزول وشيئا، إني واثقة بما أقول ولكن

فدخلوا الحجره من فورهما ثم أغلق الباب وراءهما، وعلم السيد بمقدمهما فقام وأتجه إلى باب حجره الاستقبال ووقف على العتبة قليلاً وهو يمدّ البصر إلى الباب المغلق ثم عاد إلى مجلسه فجلس. قالت حرم المرحوم شوكت:

- لتُقلَّعنَّ صدق رأيي حالاً يتكلّم الطبيب...

فغمغم السيد وهو يرفع رأسه إلى أعلى:

- عنده الغف...

ولما ذهب الطبيب إلى طيّته التفت خليل نحو أمه وعلى شفثيه ابتسامة خفيفة تنم عن أسف وقال:

- كان في نيتي أن أسميها نعيمة باسمك...

فقال المرأة وهي تلوح بيدها مؤثبة:

- الطبيب نفسه قال: إن الأعيار بيد الله أفتكون أنت أضعف إيماناً منه، سُمها نعيمة، يجب أن نسبها نعيمة إكراماً لي، وسيكون عمرها بإذن الله مديداً كعمر جدتها!

كان السيد يحدث نفسه: دها الأحق الطبيب ليطلع على زوجة بغير موجب، بغير موجب... يا له من أحق. ولم يستطع أن يكتم غيظه فقال وهو يداريه بلهجة رقيقة:

- حقاً الخوف يفقد الرجال حسن الروية، أما كان يجهل بك أن تفكر قليلاً قبل أن تبادر إلى إحضار رجل غريب ليرى زوجك بجله حينه؟

لم يجب خليل، ولكنه نظر فيمن حوله وقال بجذ:

- لا يجوز أن تعلم عائشة بما قال الطبيب...

٦٩

- ماذا في الطريق؟...

تساءل السيد أحمد وهو ينهض في عجلة من وراء مكتبه، فذهب صوب باب الدكان يتبعه جميل الحمزاوي وبعض الزبائن. لم يكن طريق النحّاسين طريقاً هادئاً. كان أبعد ما يكون عن الهدوء، صوته الجهر لا يخفت من الفجر إلى ما قبل الفجر، حناجر عالية هتّافة بنداوات الباعة ومسلمات الشارين ودعوات المجذوبين ودعابات السابلة، يتحادثون وكأَنهم يخطبون، حتّى أخصّ الشئون تترامى إلى جوانبه وتطير حتّى مآذنه، إلى ضوضاء شاملة تصدر عن صليل سوارس حيناً ومقطعة الكارو حيناً آخر، لم

عماً قليل يعرف الحقيقة فيمرق من ضباب الشكّ مها تكن العواقب. إن قلبه يخفق خفقاناً سريعاً متواصل، فليصبر، لم يبق إلا القليل. إن إيمانه بالله قويّ عميق لا يتزعزع فليسلم إليه أمره، سيخرج الطبيب طال مكثه أم قصر وعند ذاك يسأله عماً وراءه، الطبيب؟... لم يفكر في ذلك من قبل، طبيب عند نفساء؟... مع الرحم وجهاً لوجه، أليس كذلك؟ ولكنه طبيب... ما الحيلة؟ المهم أن رينا يأخذ بيدها فلنسأله السلامة، وجد السيد إلى قلقه حياء وامتعاضاً. واستمرّ الفحص زهاء ثلث ساعة ثم فتح الباب فنهض السيد ومضى من توه إلى الصلاة، وتبعه الأبناء حتّى تجتمعوا حول الطبيب. كان الطبيب من معارف السيد فصافحه بأساً ثم قال:

- بخير وعافية...

ثم في شيء من الجذ:

- جامدا بي للوالدة ولكنّي وجدت أنّ التي في حاجة

إلى العناية حقاً هي المولودة...

تنصّ السيد بارتياح لأوّل مرّة منذ حوالي الساعة

فتساءل وجهه يشرق بابتسامة لطيفة:

- أأطمئنّ إذن على عهدتك؟

فقال الطبيب وهو يتظاهر بالدش:

- نعم، ولكن ألا تهكّ حفيدتك؟

فقال السيد بأساً:

- لا عهد لي بعد بواجبات الجدّ...

وتساءل خليل:

- أليس ثمة أمل في حياتها؟

فقال الرجل وهو يزوي ما بين حاجبيه:

التي تألفت اربحاً ما بين النحاسين والصلابة وبيت القاضي هاتفة قلبها لسعد، وسعد وسعد ثم سعد، في المآذن التي اعتل المؤذنون شرفاتها يشكرون ويدعون ويستغفون، في العريات الكارو التي تجمعت بالعشرات حاملة المثلث من النسوة للتلفعات بالملاءات اللف وهن يرقصن ويرددن الأغاني الوطنية، لم يعد يرى إلا آدميين أو بالآخرى هاتفين، اختفت الأرض وتوارت الجدران وتعالى الحثاف لسعد في كل مكان كأنها الجوف قد انقلب اسطوانة هائلة تدور بلا توقف مرردة اسمه.

وجرى نبأ فوق الرؤوس الحاشدة أن الإنجليز يجمعون معسكراتهم القائمة عند مفترق الطرق تأهباً للرحيل إلى العباسية فاستمر الجحاس وحمت النشوات. لم ير السيد أحمد منظرًا كهذا من قبل فراح يقلب عينين متألقتين وفؤاده يخفق وبشاً وياطنه يرتد مع النسوة الراقصات «يا حسين... حملة وإنشالت» حتى أدق جميل الحمزاوي رأسه من أذنه قائلاً:

- الدكاكين تفرغ الشربات وترفع الاعلام...
فقال له بحماس:

- اصنع كما يصنعون وأكثر، أرنى ههناك...
ثم بصوت متهدج:

- علق صورة سعد تحت البسمة...

فنظر إليه جميل الحمزاوي كالتردد ثم قال عذراً:

- هذا موضع ترى فيه الصورة من الخارج إلا

بحسن بنا أن نرتب حتى تستتب الأمور؟

فقال السيد باستهانة:

- مضى عهد الخوف والدعاء إلى غير وجهه، إلا

تري أن المظاهرات تمر تحت أعين الإنجليز دون أن

يتعرضوا لها بسوء؟ علق الصورة وتوكل على الله.

غار عهد الخوف والدعاء، أليس كذلك؟ سعد حرّ

طليق ولعله في طريقه الآن إلى أوروبا، لم يعد بيننا وبين

الاستقلال إلا خطوة أو كلمة، مظاهرات الزغاريد

بدلاً من مظاهرات الرصاص، الأحياء منا قوم

سعداء، اخترقوا النيران وخرجوا سالين، رحمة الله على

الشهداء، فهمي ١٩ نجا من خطر ما بقدره، والحمد لله

والشكر لله، أجل نجا فهمي، ماذا تنتظر؟... صلّ

يكن طريقاً هادئاً بحال ولكن تعالت ضجة فجائية وفدت من بعيد في بادئ الأمر كهدير الأمواج ثم غلظت واشتدّت حتى صارت بعزيف الريح أشبه وقد لفت الحيز كله قربه ويعيده، بدت غريبة شاذة حتى في هذا الطريق الصاخب، ظنّها السيد أحمد مظاهرة ثائرة كما ينبغي لرجل عاش في تلك الأيام، ولكن جلجلت في طياتها زغاريد مبشرة بالأفراح، فمضى الرجل متسائلاً إلى الباب ولم يكذب يبلغه حتى اصطلم بشيخ الحارة الذي أقبل مندفعاً وهو يهتف بوجه ظفر منه البشر:

- أبلغك الخبر؟

فقال السيد وعينه تلعمعان تفاولاً من قبل أن يسمع شيئاً:

- كلّ... ماذا وراعه؟

قال الرجل بحماس:

- سعد باشا أفرج عنه...

في تلك السيد أن تسامح صامحاً:

- حقاً؟

فقال شيخ الحارة بيقين:

- أذاع اللبني الساعة بياناً بهذه البشري...

في اللحظة التالية كانا يتماثلان، واشتد التأثر بالسيد أحمد فاغرورت عيناه ثم قال وهو يضحك مداراة لتأثره:

- كان العهد به دائماً أن يلجم الإنذارات لا

البشريات لماذا غيّر ابن الهرمة؟

فقال شيخ الحارة:

- سبحان الذي لا يتغير...

وصافع السيد ثم غادر الدكان وهو يصيح والله أكبر، الله أكبر، النصر للمؤمنين!

وقف السيد على عتبة الدكان مقلّباً عينيه في أنحاده الطريق بقلب ارتد إلى برامة الطفولة وبعجتها، طالع

أثر الخبر السعيد في كل مكان... في الدكاكين التي

سدّت مداخلها بأصحابها وزبائنهم وهم يتبادلون

التعاني، في التوافل التي تراجعت فيها الأحداث

وانطلقت الزغاريد من وراء خصاصها، في المظاهرات

إلى الله ربك.

لما اجتمعت الأسرة مساء وثبت الحناجر المبحوحة
ييوم مليء بالغتاف، كان مساء سعيداً، ثمت عن
سعادته الأعين والنور والحركة والكلام حتى أمانة نخل
قلبيها من نخب السعادة البينول مشاركة للأنباء
واستبشاراً بعودة السلام وفرحاً بالإفراج عن سعد:

- من المشيئة رأيت ما لم تَر عين من قبل، هل
قامت القيامة ونصب الميزان؟ وأولئك النسوة هل
جُيُن؟ لا يزال صدى ترويديهن يرنّ في أذني «يا
حسين... حمله وإنشلت».

قال ياسين ضاحكاً وهو يبعث بشعر كمال:

- تحية شيعوا بها الإنجليز الراحلين كما يشيع
الضيف الثقيل بكسر القلّة ورامه...

نظر إليه كمال من دون أن ينس على حين عادت
أمانة تتساءل:

- أرضي الله عنا أخيراً...؟

فاجابها ياسين قائلًا:

- بلا ريب (ثم خاطباً فهمي) ماذا تظن؟

قال فهمي الذي بدا في فرح الأطفال:

- لو لم يسلم الإنجليز بمطالبنا لما أفرجوا عن سعد،
سوف يسافر إلى أوروبا ثم يعود بالاستقلال، هذا ما
يؤكدّه الجميع، ومها يكن من أمر سيقتى يوم ٧ إبريل
سنة ١٩١٩ رمزاً لانتصار الثورة.

فعاد ياسين يقول:

- يا له من يوم! اشترك الموقظون في المظاهرات
علانية، ما كنت اظن أنّ بي هذه القدرة العظيمة على
السير المتواصل والفتاف العالي...!

فضحك فهمي قائلًا:

- وددت لو رأيتك وأنت تعنف متحمساً، ياسين
يتظاهر ويتحمس ويهتف... يا له من منظر فريدا
يوم عجيب في الأيام حقاً، اكتسحه سبله الزاخر
فحملة بين أمواجه العاتية كورقية لا وزن لها حتى طار
به كلّ مطار، لا يكاد يصدق أنّه ثابت إلى رشده وأنه
أوى إلى برج المراقبة المادئ يشاهد من منظاره
الحوادث في هدوء وعلم أكثر!... جعل يستحضر

الحال التي تلبّسته في المظاهرات على ضوء ملاحظة

فهمني حتى قال بغرابة:

- الواحد منا ينسى نفسه وهو بين الناس نسياناً
غريباً فكأنّه يبعث شخصاً جديداً...

مأله فهمي باهتمام:

- أكنت تشعر بحماس صادق؟

- هتفت لسعد حتى يَح صوي واغروقت عيني
مرة أو مرتين.

- كيف اشتركت في المظاهرة؟

- بلغنا نبا الإفراج عن سعد ونحن في المدرسة

ففرحت فرحاً عظيماً حقاً، أكنت تتوقّع غير هذا...

وإذا بالمدرسين يقترحون الانضمام إلى المظاهرة الكبيرة
في الخارج فلم أجده من نفسي مسألاً إلى مجاراتهم
وفكرت في التسلّل إلى البيت، غير أنّي اضطررت إلى
السير معهم حتى تسنح لي فرصة للزيغان، ماذا حصل
بعد ذلك! وجدت نفسي في بحر متلاطم من الناس
وجوّ مكهرب من الحساس فما ملكت أن ذهلت عن
نفسي واندجيت في التيار كأشدّ ما يكون المرء - صدقي
في هذا - حماساً وأملًا...

فهزّ فهمي رأسه وهو يغمغم:

- شيء عجيب...

ضحك ياسين عالياً ثم قال:

- أحسبني فاقده الوطنية؟ المسألة أنّي لا أحب
الزياط والمنصف، ولا أجده حرجاً في التوفيق بين حبّ
الوطن وحبّ السلامة...

- وإذا شقّ التوفيق بينهما...؟

فقال مبتسماً ولكن دون تردّد:

- قلّمت حبّ السلامة! نفسي أولاً... ألا يستطيع
الوطن أن يسعد إلا بالتهام حيائي؟! يفتح الله، أنا لا
أفرط في حيائي ولكنّي ساحبّ الوطن ما دمت «حيّاً».

قالت أمانة:

- هذا عين العقل (ثمّ متعلّمة إلى فهمي) هل عند

سيدي رأي آخر...؟

قال فهمي يهدوء:

- كلّاً طبعاً، إنّ عين العقل كما قلت...

- كنت كَلِّياً بلغني نبأ أسيف تقطّع قلبي حزناً وقلت
لنضي ويا ترى أكان يقع هذا لو لم يتم سعد قومه؟!
على أن رجلاً يجمع الكلّ على حبه لا بدّ أن الله يحبه
كذلك...

ثمّ متنبّه بصوت مسموع:
- أسفي على المالكسين، كم أُنْأ تبيكي الآن
بحرارة؟... كم أُنْأ لم تزدها فرحة اليوم إلا حسرة
على حسرة.

قال لها فهمي وهو يغمز ياسين بظرفه:
- الأمّ الوطنيّة حقّاً تزغرد لاستشهاد ابنها...
فوضعت أصبعيها في أذنيها وهتفت:
- اللّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عَلَى مَا يَقُولُ سَيِّدِي
الصغير!... أَمْ تَزْغُرُ لِمَشْهَدِ ابْنِهَا؟ أين؟ على
هذه الأرض؟ ولأ تحت الأرض في عالم الشياطين...
قهقهه فهمي عاليّاً ومضى يبتكر ملأ، ثمّ قال وعيناه
تلمعان باسميتين:

- نية... سأبوح لك بسرّ خطير أن له أن يلذع.
لقد اشتركت في المظاهرات وقابلت الموت وجهاً
لوجه...!

سهمت إليه غير مصدّقة ثمّ قالت وعلى شفتيها
ابتسامة باهتة:
- أنت؟!... محال... إنك من لحمي ودمي
وقلبك من قلبي، لست كالأخرين...
فقال يقين وهو يبتسم إليها:

- أقسم لك على ذلك بالله العظيم...
اختفت الابتسامة وآسست العينان في ذهول، ثمّ
ردّت بصرها بينه وبين ياسين الذي حدّجه بدوره
بنظرة متسائلة، ثمّ غمغمت وهي تزرد ريقها:

- ربّاه... كيف أصبّق أنفي!
ثمّ بعد أن هرّت رأسها في حيرة أليمة:
- أنت!...

كان يتوقّع انزعاجها ولكن ليس - بالنظر لمجيء
اعتراقه بعد زوال الخطر - إلى الحدّ الذي بدا عليها،
فأدارها قائلاً:

- ذاك تاريخ مضى وانتهى، لا داعي الآن

ولم يَزْ كمال أن يبقى مجزول عن الحديث لا سيّما أنّه
كان مقتنئاً بأنّه لعب في يومه دوراً خطيراً حقّاً فقال:
- وأمرنا نحن كذلك ولكنّ الناظر قال لنا: إننا ما
زلنا صغاراً، وإننا إذا خرجنا من المدرسة دانستنا
الأقدام، ثمّ سمح لنا بالتظاهر في فناء المدرسة
فتجمّعنا فيه وهنأنا (هنا هتف عاليّاً: يحيا سعد) طويلاً
جداً، ثمّ لم نعد إلى الفصول لأنّ المدرّسين كانوا قد
غادروا المدرسة منضمّين إلى المتظاهرين في
الخارج...!

رماء ياسين بنظرة ساخرة وقال:
- ولكنّ أصدقاؤك ذهبوا...!
- في داهية...!

نذت عنه هذه العبارة بلا تفكير وهي أبعد ما تكون
عن حقيقة شعوره، لأنّ الحال تقتضيها من ناحية،
ولأنّه أراد أن يداري بها هزيمة أمام سخرية ياسين من
ناحية أخرى، أمّا قلبه فكان يكابد دهشة وغمزاً، لم
ينس كيف وقف لدى عودته من المدرسة في المكان
المهجور الذي كان يحتلّه المعسكر يلقّب عينيه في أرجائه
في صمت أليم وعيناه مغرورتان. سوف يمضي وقت
طويل قبل أن ينسى مجلس الشاي على طوار سبيل بين
القصرين والإعجاب الذي كان يحظى به غناؤه،
والمودة التي كان يلقاها من الجنود خاصّة جوليون،
والصداقة التي ربطته بالسادة المتفوّقين الذين يعملون في
اعتقاده على سائر البشر! قالت أمانة:

- سعد باشا رجل سعيد الحظّ، الدنيا كلّها تهتف
باسمه، ولا أفندينا في زمانه... رجل مؤمن بلا ريب
لأنّ الله لا ينصر إلاّ المؤمنين. نصره على الإنجليز
الذين غلبوا زبلن نفسه، أيّ فوز وراه هذا؟!...
لقد ولد الرجل في ليلة القدر.

سألها فهمي باسماً:
- أعجبته...؟
- أحبّه ما دمت تحبّه...
بسط فهمي راحتيه ورفع حاجبيه مستنكراً ثمّ قال:
- لا يعني هذا شيئاً...!

فتنبّهت فيها يشبه الارتباك ثمّ قالت:

فقلت بإصرار ونرفزة:

- صه... أنت لا تحب... أمك، ساعحك الله...

فضحك فهمي في شيء من الارتباك. قال كمال لأنه وهو يتسم بمكر:

- أذكركم يوم دكان البسبوسة وضرب النار؟ رأيته وأنا عائد في الطريق المغفر فنبه عليّ بالأخبار أحدًا يأتي رأيته...

ثم نظر إلى فهمي وسأله باهتمام وتشوق:

- قص علينا يا سي فهمي ما لقيت في المظاهرات، كيف كانت تقع المارك؟ وكيف يصرخ القتل؟ ألم تطلق النار فكد؟...

فتدخل ياسين في الحديث قائلاً للأخ:

- ذاك تاريخ مضى وانتهى، اشكري الله على نجاته، هذا أولى بك من الانزعاج...

سأله بجفاء:

- أكنت تعلم بذلك...؟

فيادها قائلاً:

- لا حياة تربة أمي (ثم مستدركاً) وديني وإيماني وديني...

ثم نهض من مجلسه، منتقلاً إلى جوارها فوضع يده على منكبيه وقال بركة:

- أطمئنين حين كان يبنّي الانزعاج وتنزعجين حين يبنّي الاطمئنان! وسخدي الله، زال الخطر وعاد السلام، ها هو فهمي بين يديك... (وضاحكاً) ابتداء من الغد سيقطع القاهرة طولاً وعرضاً، ليلاً ونهاراً، بلا خوف أو قلق...

وقال فهمي جاداً:

- نيته، رجائي إليك ألا تكثري صفونا بحزن لا

موجب له...

تهدأت... فتحت فاهها لتتكلم ولكنها حركت شفتيها دون أن تبس، ابتسمت ابتسامة شاحبة لتعلن استجابتها لرجائه، ثم نكست وجهها لتخفي عينها المغرورتين...

بات فهمي تلك الليلة وهو عائد العزم على استرضاء أبيه كلها الأمر، وفي صباح اليوم التالي صمم على تنفيذ عزمه دون تردد، ومع أنه لم يضمم لأبيه - طول فترة العصيان - أي إحساس بالغضب أو التحدي فإن ضميره كابد شعوراً بالذنب ناه به قلبه الحساس المشرب بالطاعة والولاء. حقاً لم يتحدها بلسانه ولكنه خالف إرادته بالفعل، بل خالفها مراراً وتكراراً، فضلاً عن امتناعه عن القسم يوم دعاه إليه في حجرته وإعلانه بالكهانة بمسكه برأيه رغم إرادة الرجل، كل أولئك أحله - على حسن نيته - موقفاً عاقلاً شريفاً لا يرضاه لنفسه ولا يحتمله، ولم يكن سعى إلى استرضائه من قبل خشية أن ينكا الجرح دون أن يسمعه أن يلامه، لأنه قدر أن يدعو السيد إلى القسم تكفيراً عما بدر منه فيضطر مرة أخرى إلى الامتناع مؤكداً عصيانه من حيث أراد أن يعتذر عنه. الحال اليوم غيرها بالأمس، انتشى قلبه بالسرور والظفر، الوطن كله ثمل بخمر السعادة والفوز، فلا يطبق أن يكرم بينه وبين أبيه حجاب من سوء الظن ولو لحظة واحدة، الاسترضاء، فالعفو الذي يفيو إليه، ثم السعادة الحقة التي لا تشوبها شائبة، دخل حجرة أبيه قبل ميعاد الفطور بربع ساعة فوجده يطوي سجادة الصلاة مغتماً بالدعاء، لمح الرجل بلا ريب ولكنه تجاهله فمضى إلى الكنية دون أن يلتفت صوته وجلس. عند ذاك تراءى فهمي بموقفه عند الباب ملفوفاً بالارتباك والحياء فمدحجه بنظرة جافة مستنكرة كأنما تساءل ومن هذا الواقف وماذا جاء به؟! فتغلب فهمي على ارتبائه وتقدم من مجلس أبيه في خشى خفيفة حتى انحنى على يده فتناولها فلتشمها باحترام لا حد له، وصمت ملياً ثم قال بصوت لا يكاد يسمع:

- صباح الخير يا بابا.

واصل التحديق فيه صامتاً كأنه لم يسمع نجمة حتى غش الشاب بصره ارتباكاً وغمغم في نبرات فمت عن اليأس:

- إني أسف...

قال فهمي بحزن:

- كانت الدنيا في دم وكرب وكنت من الحزن في
شغل شاغل...

- شغلك عن طلب رضائي؟

قال بحرارة:

- شغلني عن نفسي لا عن طلب رضاك...

ثم بصوت منخفض:

- لن أستطيع أن أعيش بغير رضاك...

قطب السيد، لا غضبًا كما تظاهر، ولكن ليخفي
الأثر اللطيف الذي يبعث كلام الشاب في نفسه، هكذا
يكون الكلام والأفلا، يجيد صناعة الكلام حقًا، هذه
هي البلاغة اليس كذلك؟ ساعد أقواله حل سامع
الأصدقاء الليلة لامتحن أثره في نفوسهم، ترى ما

عسى أن يقولوا؟ الولد سرّ أبيه... هذا ما ينبغي أن
يقال، قديمًا قيل لي إنني لو أتممت مراحل التعليم
لكنت أبلغ المحامين، إنّي أبلغ الناس بغير التعليم
والمحاماة، الحديث اليومي كالقانون سواء بسواء في
الكشف عن موهبة البلاغة، كم من محامٍ أو من
موظف كبير ينكمش في المجلس أمامي كالعصفور! ولا
فهمي نفسه يستطيع أن يسد مكاني يومًا ما، سيقولون
لي وهم يضحكون حقًا الولد سرّ أبيه، امتناعه عن
القسم لا يزال يحزّ في نفسي، لكن أليس من دواعي
الفخر لي أنّه اشترك في الثورة ولو من بعيد؟ ليته
اشترك في الأعمال الكبيرة ما دام الله قد كتب له العمر
حقّ اليوم، سأقول من الآن فصاعدًا إنّه خاض غمار
الثورة، أنظفون أنّه اكتفى بتوزيع المنشورات كما كان
يؤكّد لي؟ لقد رمى ابن الكلب بنفسه في التّيار
الدّامي، يا سيّد أحد ينبغي أن نشهد لابنك بالوطنية
والشجاعة... لم نشأ أن نقول لك هذا في إبان الخطر
أمّا وقد استقرّ السلام فلا حرج من قوله... أتذكر
أنت شعورك الوطني؟... ألم يثن عليك جامعو
التبرّعات من مندوبي الوفد... والله لو كنت شابًا
لفعلت ما لم يفعله ابنك ولكنّه عصاني! عسى لسناك
وأطاع قلبك! الآن ما عسى أن أقول؟ يريد قلبي أن
يبه العفو ولكنّي أخاف أن يستهين بمخالفتي!

صمت وإصرار على الصمت...

- أمف جدًا، لم أدق طعم السكينة منذ...

وجد أنّ الكلام كاد يستدرجه إلى ذكر ما ودّ من
كلّ قلبه أن يتحاشاه فأمسك، وما يدري إلّا والسيد
يسأله بجهف وتبرّم:

- وماذا تريد؟...

رحّب بإقلاعه عن الصمت أيّما ترحيب فتنهّد
بارتياح كأنّه لم يستشعر جفاه وقال برجاء:

- أريد أن تكون راضيًا عني...

قال السيد بضمير:

- عُرّ من وجعي...

فقال فهمي وهو يشعر بقبضة اليأس تتراخي قليلًا
عن عنقه:

- عندما أنال رضاك...

تساءل السيد متحوّلًا فجأة إلى التهمك:

- رضائي...؟ لم لا؟... هل فعلت لا سمح الله

ما يستوجب السخط؟!

رحّب بالتهمك أضعاف ترحيبه بالإقلاع عن
الصمت، التهمك عند أبيه أوّل خطوة نحو الصفح،
غضبه الحقيقي صفع أو لكم أو ركل أو سب أو كلّ
أولئك جميعًا، التهمك أوّل بشرير بالتحوّل، انتهز
الفرصة وتكلّم، تكلم كما ينبغي لرجل قد يعمل في
المحاماة غدًا أو بعد غد، هذه فرصتك! وتكلّم،
الاستجابة لنداء الوطن لا تعدّ عصيًّا لإرادة
حضرتك، لم أفعل شيئًا يحسب بين الأعمال الوطنية
حقًا، توزيع منشورات على الأصدقاء... وما توزيع
المنشورات على الأصدقاء؟ أين أنا بمن بذلوا الحياة
رخيصه؟ فهمت من كلام حضرتك أنّك تخاف على
حياتي لا لأنك تستنكر حقًا الواجبات الوطنية، فغمت
بشيء من الواجب وأنا مطمئن إلى أنّي - في الواقع - لا
أخالفك إرادة... إلخ... إلخ...

- علم الله أنّه لم يضطرّ ببالي قطّ أن أعصي لك أمرًا.

قال السيد بحذّة:

- كلام فارغ، تتظاهر بالطاعة الآن لأنّه لم يعد ثمة

داع إلى العصيان، لم لم تطلب رضائي قبل اليوم؟...

- وأنا لن أستطيع أن أنسى أنك خالفت إرادتي، أحسبت أن الخطبة الفارغة التي صبحتي بها على غبار الرقيق يمكن أن تؤثر في؟
هم فهمي بالكلام ولكن أنه دخلت في تلك اللحظة وهي تقول:
- القصور جاهز يا سيدي.

وقد دمشت لوجود فهمي على غير انتظار فرحت عينيها بينها، وتلكت قليلاً لعلها تسمع شيئاً مما يدور ولكنها رأت في الصمت - الذي خافت أن يكون عيشها باعث - ما دعاها إلى مغادرة الحجرة على عجل - نهض السيد للانتقال إلى حجرة المائدة فتشع فهمي جانباً وقد علاه حزن شديد لم تحف أثره عن عيني الرجل فتردد لحظات ثم قال أخيراً بصوت سلمي:
- أريد مستقبلاً ألا تصرّ على حماقتك وأنت نحاطبي..

وسار فتبعه الشاب ممثلاً باسم الأساير، ثم سمعه يقول متهكئاً وهما يقطعان الصلاة:
- أفنك حاسب نفسك على رأس الدين أفرجوا عن سعد!

غادر فهمي البيت قزير العين فمضى من توه إلى الأزهر حيث اجتمع بزملائه أعضاء لجنة الطلبة العليا للنظر في تنظيم المظاهرات السلمية الكبرى التي سمحت السلطة بقيامها للإعراب عن ابتهاج الشعب والتي تقرر أن يشترك فيها ممثلو الأمة بكلفة طبقاتها، دام الاجتماع وقتاً غير قصير، ثم تفرق المجتمعون كل إلى وجهته فركب الشاب إلى ميدان المحطة بعد أن عرف الدور الذي عهد به إليه وهو الإشراف على تجمعات طلبة المدارس الثانوية. لئن كان يعد ما يعهد عادة إليه - بالقيام إلى غيره، من الأدوار الثانوية إلا أنه كان يقوم به بدقة وعناية وبغطة كأنما هو أسعد ما يحظى به في حياته غير أنه لم يكن يخلو في جهاده من تعاسة خفيفة لم يعلم بها أحد سواه، منشوها ما اقتنع به من أنه دون الكثيرين من أقرانه جراءة وإقداماً... أجل لم ينكسر عن مظاهرة من المظاهرات التي دعت إليها اللجنة ولكنه كان يفقد جنانه عند ظهور

اللوريات المحملة بالجنود وخاصة عند إطلاق الرصاص وتساقط الضحايا... فمرة لاذ بمقهى وهو يرتعد، ومرة أخرى جرى على وجهه شوكاً بعيداً حتى وجد نفسه في قفافة المجاورين، أين هو من حامل اللواء في مظاهرة بولاق، أو مذبحه بولاق كما غدت تسمى، الذي استشهد ويده قابضتان على اللواء وقدماء ثابتان في الطليعة وحجرتة تبتف بالثبات؟ أين هو من أقران ذلك الشهيد الذين تبادروا إلى اللواء ليرفعوه فسقطوا فوقه وقد تقلدت صدورهم نباشين الرصاص؟ أين هو من ذلك الشهيد الذي انتزع المدفع الرشاش من أيدي الجنود في الأزهر؟ أين هو من هؤلاء جيماً وغيرهم ممن تطير الأنباء بأي بطولتهم واستشهادهم؟ كانت أعمال البطولة تترامى لعينيه رائعة باهرة تخطف الأبصار، وطلما أنصت إلى نداء باطني ييب به إلى الإقدام والثبات بالأبطال، ولكن كانت تحذله أعصابه في اللحظة الحاسمة لما إن تنحسر موجة المعركة حتى يجد نفسه في المؤخرة إن لم يكن مختبئاً أو هارباً، ثم يعود إلى التصميم على مضاعفة البذل والكفاح والتهاك بضمير معدب وقلب حائر ورغبة في الكمال لا تحده، متعزياً أحياناً بقوله وما أنا إلا محارب أعزل، ولئن فاتني الرائع من أعمال البطولة فحسبي أنني لم أتردد مرة واحدة عن الإلقاء بنفسي في أتون المعركة. في طريقه إلى ميدان المحطة جعل يراقب الطرق والمركبات، كان الجميع يتوجهون - فيها بدا - وجهته، طلبة وعمالاً وموظفين وأهلين وراكبين ورجالين، تظلمهم جميعاً طمانينة خفيفة يقوم ذاهبين إلى مظاهرة سلمية مصرح بها، إنته مثلهم، يشمر بشعورهم، لا كعهده القديم حين كان يلتمس طريقه إلى موعد المظاهرة بنفس ثائرة وقلب تنقل ضرابه كلياً تحاليل لعينيه شبح الهلاك. ذاك عهد مضى، اليوم يغشي معظم الجناح باسم الثغر... انتهى الجهاد؟ خرج منه سليماً لا عليه ولا له. ولا له؟ ليته عان شيئاً مما تعرض له الآلاف كالسجن أو الضرب أو إصابة غير مميتة! ليس من المحزن أن تكون السلامة المطلقة جزاء من أوتي قلباً كقلبه وحاساً كحاسه!

الحادث بالحقيقة العارية. موزع منشورات وجندي من جنود المؤخرة! هذا هو بلا زيادة، اليوم يوكل به قيادة المدارس الثانوية فيواجه زعامة كبيرة. ترى هل يقدر الآخرون عمله أكثر مما يقدره هو؟ أشد ما يجيونه بالاحترام والمحبة، لم يعقد اجتماع إلا وكان له فيه رأي مسموع، والخطابة؟ ليس من الضروري أن تكون خطيباً... ليس كذلك؟ ليس محالاً أن تكون عظيمًا وأنت غير خطيب ولكن أي خسارة ستمنى بها يوم تمثل اللجنة العليا بين يدي الزعيم فيستيق الخطباء وتلوذ أنت بالصمت، كل أن الود بالصمت، سوف أتكلّم، سأطلق لقلبي العنان أجاد أم لم يجده، متى تقف بين يدي سعد؟ متى تراه لأول مرة فتعلا منه حينها؟ إن قلبي يخفق وهيناني تحنان للدموع، سيكون يومًا عظيمًا، ستخرج مصر كلها لاستقباله، لن يكون يومنا هذا إلى ذلك إلا كالقطرة إلى البحر، رباه! امتلا الميدان، امتلت الشوارع المفضية إليه. عباس نويار الفجالة، لم تسبق كهذه مظاهرة، مائة ألف، طرابيش صائم، طلبة... عمال... موقوفون... الشيوخ والنساء، القضاة... من كان يتصور هذا، لا يبالون الشمس... هذه مصر، لم أذغ بابا؟ صدق ياسين... الواحد منا ينسى بين الناس نفسه، يعلم على نفسه، أين همومي الشخصية؟... لا شيء، أشد ما يخفق قلبي، سأتحادث عن هذا طويلاً الليلة وما بعدها. ترى هل ترعد نية مرة أخرى؟ منظر جليل تتشع له القلوب وتطمئن، أريد أن ألس أثره في وجوه الشياطين! ها هي نكتاتهم تشرف على الميدان، الراية اللعينة ترفرف، هناك دموع في النوافذ... فيم تتهلل؟ اللديبدان تمثال لا يرى شيئاً، لم تقض رشاشاتكم على الثورة، افقهوا هذا، سترن عمًا قريب سعد في هذا الميدان عائداً مظفرًا تنفون بالسلاح وتعيده بغير سلاح، سوف ترون قبل الجلاء. تحرك الموكب العظيم فتدققت موجاته تابعاً مرددة الهتافات الوطنية، بدت مصر مظاهرة واحدة، بل رجلاً واحداً، بل هتافاً واحداً، تابعت طوابير الطوائف طويلاً، طويلاً جداً، حتى خيل إليه أن الطلائع

كطالب مجتهد لم ينع له أن يظفر بأية شهادة... أنكر سرورك بالنجاح؟ أكنت تفضل أن تكون من الشهداء؟ كلا، أكنت تتخى لو كنت من المصائب غير المالكين؟ نعم، كان ذلك في وسعك فلم تكلمت؟ لم تكن تضمن أن تقع الإصابة غير عمية أو أن يكون السجن عابراً، أنت لا تكره النجاة الراحنة ولكنك تتخى لو كان أصابك شيء دون أن يشتر من هذه النهاية الجميلة، ينبغي إذا جاهدت مرة أخرى أن أكلع على الغيب؟ أمضي إلى المظاهرة السلمية بقلب مطمئن وضمير قلق... بلغ الميدان زهاء الواحدة بعد الظهر، قبل الميعاد المحدد لقيام المظاهرة بساعتين فالتحذ مكانه في الموضع الذي حدّد له! باب المحطة. لم يكن بالميدان إلا المشرفون وجماعات متفرقة من شتى الطوائف، وكان الجو معتدلاً إلا أن شمس أبريل صبت حل من تعرض لأشعتها لقل، ولم يطل الانتظار فاختلت الجموع تتوافد على الميدان من مختلف الطرق المفضية إليه، ومضت كل جماعة صوب عملها، بذلك شرع فهمي في عمله بلذة ولذخ، بالرغم من بساطة العمل الذي لم يقد أن يكون ترتيباً للمدارس كل وراء علمها إلا أنه ملأ نفسه زهواً وخيلاء سباً وأنه كان يشرف على طلبة كثيرين ممن يكبرونه سباً حتى بدت التسعة عشر عاماً التي يجزها وراه ذيلًا قصيرًا في زحمة التلاميذ الذين ناهز كثير منهم الثانية والعشرين والرابعة والعشرين وفتلت شواربهم، ولاحظ أحياناً ترمقه باهتمام وشغافها تنهاس عليه كما سمع اسمه - مقروناً بصفته الشعبية - يجري على بعض الألسن وفهمي أحمد عبد الجواد مندوب اللجنة العليا فحرك أوتار قلبه حتى أطلق شفثه دون أن تتد عنها بسمة حياء أو ارتباك من «هأبته». أجل ينبغي أن يحافظ على منظر مندوب اللجنة العليا، على الجذ والصرامة الخليقتين بالرعيّل الأول من شباب المجاهدين كي ينفسح المجال لأخيلة المتطلعين لحلم ما ينبغي وراه من أفعال البطولة والكفاح، فلتتحقق تلك الأفعال الحارقة... التي عجز عن تحقيقها في الواقع في أخيلتهم، لن تفتر له رغبة في المزيد منها وإن وخز قلبه إحساسه

ستشارف عابدين قبل أن يترجح هو وجماعته أمام باب المحطة، أول مظاهرة تسير دون أن تقطع المدافع الرشاشة الطريق عليها، لا رصاص من ناحية ولا زلّط من الناحية الأخرى، وإفترّ ثفره عن ابتسامة، رأى الجماعة التي تتسكّر أمامه مباشرة تتحرك فدار على عقبيه كي يواجه مظاهرته «الخاصة» ورفع يديه فسرت في الصفوف حركة تأقّب وتوقّب، ثمّ هتف بأصلي صوته وهو يسير مقهقراً. وأصل مهمة القيادة والهاثف حتّى يدخل شارع نويار ثمّ تحلّ عن الثانية لغيره ممّن أساطوا به مترشدين دورهم بأنفاه قلقة متحركة كأنما قد جامها المخاض والطلق فلا تستريح حتّى تقلّف بهتافتها، دار على عقبيه مرّة أخرى سائراً بوجهه، يشرب بمنقه تارة ليشاهد ما تقدّم من جسم المظاهرة التي لم يعد يرى لها أوّلاً ويتلقّت بمنّة ويسرة تارة أخرى ليرى من اكتظت بهم الأرصعة والنوافذ والشرفات والأسطح من جموع المشاهدين الذين جعلوا يركدون الهاتفات. امتلات نفسه بمنظر الألوف الحاشدة قويّة إلى قويّة وطمانينة على طمأنينة، كأنها دروع منصوبة حواله، قويّة متأسكة لا ينفذ منها الرصاص، إنّ قوّات البوليس تتعمّد النظام بعد أن أعيها الطعان والهجوم، إنّ منظر هؤلاء الرجال الداهيين الجائنين على صهوات جياهم كأنهم حراس تابعون للمظاهرة قائمون على خدمتها، لأبلغ دليل على انتصار الثورة، الحكمدار؟! ليس هذا هو رسل بك... بل هو أنّه يعرفه حتّى المعرفة، ولهذا وكيل الحكمدار يحنّ وراءه ملقياً على الأفق نظرة جامدة مترقّنة كأنما تحنّ احتجاجاً صامتاً على السلام الذي احتضن المظاهرة، ما اسمه؟ هل يمكن أن ينسب الاسم الذي ملأ الأسعاس في الأيام السود الدامية؟! أوّل جيم اليس كذلك؟ جا... جو... جي... يأمّ أن يستجيب إلى الذكارة، جوليون! أو كيف تسكّل هذا الاسم البهيش إلى وعيه؟! هوى عليه كالتراب فاطفاً حامسه، كيف لنا أن نلّتي نداء الحماض والظفر ما دام الغلب ميّناً قلب ميت؟! لم يكن ميّناً منذ دقيقة، لا تستسلم للحزن، لا تلح قلبك يبتعد عن المظاهرة، ألم تعاهد نفسك على

النسيان؟ بل إنك نسيت بالفعل، مريم... من هي؟! ذلك التاريخ القديم؟! نحن نعيش للمستقبل لا للماضي... جيز... جيز... مستر جيز... مستر جيز... هذا هو اسم وكيل الحكمدار لعنة الله عليه، عد إلى الخفاف كي تنفض عن نفسك هذا الغبار الطارئ. مضت «مظاهرته» تقترب رويداً من حديقة الأزبكية التي لاحت أشجارها الباسقة فوق الأعلام المنتشرة بطول الطريق على حين بدا ميدان الأوبرا من بعيد رموساً متلاصقة كأنها تنبت من جسد واحد ملا الأرض طولاً وعرضاً. كان ينفّ بقبوّة وحماس والجمهور يركّد هتاله بصوت ملا الجوّ كهزيم الردد، وليّاً شارفوا سور الحديقة دوت - على حين بنف - فرقة حادة فشلت حنجرتهم وتلقّت فيها حواله متسانلاً في انزعاج، صوت معهود كثيراً ما صكّ أذنيه في الشهر المنصرم وكثيراً ما تردّد صدها في ذاكرته في هداة الليل بيد أنّه لم يستطع أن يألّفه فما يكاد يدري حتّى يخطف دمه ويوقف قلبه على الخفقان...

- رصاص؟! -

- غير معقول، ألم يصرّحوا بالمظاهرة؟...

- أسقطت من حسابك الغدر؟

- ولكن لا أرى جنوداً...؟! -

- حديقة الأزبكية معسكر هائل مكتظ بهم... -

- لعلها فرقة عجلة سيّارة... -

- لعلها... -

أرهف أذنيه لما يدور حوله من دون أن يثوب إلى السكينة، وما هي إلّا لحظات حتّى دوت لفرقة ثانية... آه... لم يعد ثمة شكّ، رصاصية كسابتها، أين ترى استقرّت؟ ليس يوم سلام؟! شعر بحركة اضطراب تسري بين المتظاهرين وافدة من الأمام كاللوجة الثقيلة التي تدفعها إلى الشاطئ باخرة تمخر وسط النهر، ثمّ تراجع الألوف وانتشروا باعثن في كلّ ناحية دفعات جامعة جنوبية من الاضطراب والارتباك والارتظام، تعلوها صيحات مفزعة من الغضب والخوف، وسرعان ما انتشرت الصفوف المتناسقة وانهدّ البيان المشيد. تلاحت جملة من

واللهجة الجذبة التي يتكلمون بها ثم الساعة جاوزت السابعة مساءً. ألا يرون الحمزاوي وهو يرفع الزكيات إلى الرفوف ليدأبوا بإغلاق الدكان؟ أيكسونون من جامعي التبرعات، لكن سعد قد أفرج عنه وانتهت الثورة، وأنا لم أعد صالِحاً الآن إلا للسهرة! يا هؤلاء اعلّموا أنّي لم أغسل رأسي ووجهي بالكولونيا وأمسط شعري وشاربي وأحسك جبتي وقسطاني كي ألقى وجوهكم! ماذا تريدون؟ غير أنّه خيل إليه وهو يرينو إلى محدّته أنّ وجهه ليس خريفاً عليه، رآه من قبل؟ أين؟ متى؟ تذكر، من المؤكّد أنّه لا يراه لأوّل مرّة، آه... قال باسماً وقد شاع الارتياح في وجهه:

- اليس حضرتك الشابّ النّيل الذي تقدّم لإنقاذنا في الوقت المناسب يوم حلّ الناس علينا في مسجد الحسين رضي الله عنه؟
فقال الشابّ بصوت خفيض:
- بل يا سيدي...

صلّق ظني، يقول البلهاء إنّ الحمر تنعف الذّاكرة؟ لكن ما بالهم ينظرون إلى هكذا؟ انظر، انظر؟ هذه النظرات لا تنبئ عن خير، اللهم اجعله خيراً، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. قلبي ينقبض لأمر ما، جاءوا لأمر يتعلّق ب... .

- فهمي؟! جستم تريدونه... لعلكم؟!
نكس الشابّ حينه ثمّ قال بصوت منهّدج:
- مهتّنا شاقّة يا سيدي ولكنها فرض واجب، ربّنا يلهمك الصبر... .

مال السيّد فجأة إلى الامام معتمداً على حائفة المكتب وهض:

- الصبر؟ علام؟... فهمي؟!...
قال الشابّ يحزن بالغ:
- يؤسفنا أن ننعي إليك أخانا المجاهد فهمي أحمد... .

صاح بلهجة منكّرة وإن لاحظت في عينيه نظرة فاطمة بالتصديق والياس:

- فهمي؟...
- استشهد في مظاهرة اليوم... .

الطلقات الحادة فعلى صراخ الغضب وأنين الألم، ماج بحر الحلق وهاج وتدافعت موجاته إلى جميع المنافذ لا تبقى على شيء في طريقها ولا تذر. اهرب، ما من اهرب، إن لم يقتلك الرصاص تقتلك الأفزع والأقدام، همّ بالحرب أو بالتراجع أو حتّى التحوّل عن موقفه ولكنّه لم يفعل شيئاً، ما وقوفك وقد تشبّت الجميع؟! في خلاء أنت، اهرب... صدرت عن ذراعيه وساقيه حركة بطيئة وأنيّة مترامية. ما أشدّ الضوضاء، ولكن بَمّ علا صراخها؟ هل تذكر؟ ما أسرع ما نفلت منك الذكريات. ماذا تريد؟ أن تهتف؟ أيّ هتاف؟ أو نداء فحسب... من؟ ما؟ في باطنك يتكلم، هل تسمع؟ هل ترى؟ ولكن أين؟ لا شيء، لا شيء، ظلام في ظلام، حركة لطيفة تطرد بانتظام كدقّات الساعة ينساب معها القلب... تصاحبها وشوشة. باب الحديقة. اليس كذلك؟ يتحرّك حركة تمزّجية سائلة، يلذب ويذد، الشجرة السامة ترقص في هواده، الساء... الساء؟ منبسطة عالية، لا شيء إلا الساء هادئة باسمه يقطر منها السلام.

٧١

سمع السيّد أحمد عبد الجواد وقع أقدام على مدخل الدكان فرفع رأسه عن مكتبه فرأى ثلاثة شبّان يتقدّمون نحوه تعلوهم سيّاه الجلد والرّزاة حتّى وقفوا لصق مكتبه وهم يقولون:

- السلام عليكم ورحمة الله...
فنهض السيّد قائلاً بأدبه اليهود:
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته (ثمّ مشياً إلى الكرسي) تفضّلوا... .

ولكنّهم لم يلبّوا الإشارة شاكرين وقال أوسطهم:
- حضرتك السيّد أحمد عبد الجواد؟

فقال السيّد باسماً وإن لاح في عينيه التساؤل:
- نعم يا سيدي...

ماذا يريدون يا ثري؟ الشراء مستبعد... ما للشراء والمشية العسكرية التي جاءوا عليها! ما للشراء

وقال الذي إلى يمينه:

- انتقل إلى جوار الله وطنياً وشهيداً كريماً. . .
تلقى كلياتهم بأذن أصمها الشقاء على حين ختم
الصمت شفتيه واسترسلت عيناه في نظرة شاردة غائبة.
مضت هنيهة خيم الصمت فيها عليهم أجمعين حتى
جبل الحمازوي تسمّر تحت الرفوف ذاهلاً يمدّ إلى
الرجل بصراً ملؤه الجزع، أخيراً عاد الشاب يغمغم:
- لشّد ما أحزننا فقده ولكن ليس لنا إلّا أن نتلقّى
قضاء الله بصبر المؤمنين، وأنك لمن المؤمنين يا
سيدي. . .

إنهم يعزّونك، لا يعلم هذا الشاب أنك أول من
يحسن إلغاء التمازي في مثل هذا الموقف! . . . ماذا
تعني هي للقلب المصاب؟ لا شيء! من أين للكلام أن
يطغى النار! . . . مهلاً. . . ألم تحطّر الرزية بقلبك قبل
أن يتكلّم قائلهم؟ بل. . . تخاليل لعينيّ شبح الموت،
الآن والموت حقيقة تلقى إلى سمعك تأي أن تصدّق،
أو تخوفك شجاعتك فلا تريد أن تصدّق، كيف أصدّق
أنّ فهمي مات حقاً، كيف تصدّق أنّ فهمي الذي
كان يطلب رضاك من ساعات فتناقلت عنه، فهمي
الذي تركنا هذا الصباح ممتلئاً صمّة وعافية وأملًا
وسروراً، مات. . . مات! لن أراه بعد اليوم لا في
البيت ولا في أيّ مكان من ظهر الأرض؟ كيف يكون
البيت من غيره؟ كيف أكون أنا بعده؟ أين تذهب
الأممال المعقودة عليه؟ لم يعد ثمة أمل إلّا في
الصبر. . . الصبر؟ آه. . . هل تشعر بوضوح الألم الحاد؟
هذا هو الألم حقاً. . . كنت تخدع أحياناً فتزعم أنك
متألّم. كلّاً لم تتألّم قبل اليوم، هذا هو الألم حقاً. . .
- سيدي، شدّ حيلك وسلم أمرك إلى الله. . .
رفع السيّد رأسه إلى الشاب، ثمّ قال بصوت
مريض:

- ظننت عهد القتل قد انتهى. . .

فقال الشاب بنبرات غاضبة:

- كانت مظاهرة اليوم سلميّة، وقد أذنت بها
السلطات فاشتراك فيها صفوة الرجال من شقّي
الحيثات، وسارت أوّل الأمر في أمان حتى بلغ منتصفها

حديقة الأزيكّة، وما ندري إلّا والرصا ص ينال علينا
من وراء السور بلا سبب، لم يتعرّض أحد للجنود لا
بخير ولا بشر حتى الهتاف بالإنجليزيّة امتننا عنه
تفادياً من الاستفزاز، ولكّتهم مشهم جنون القتل فجأة
فعمدوا إلى بنادقهم وأطلقوا النار، وقد انعقد الإجماع
على توجيه احتجاج شديد إلى دار الحماية، بل قيل: إنّ
اللنبي سوف يعلن أسفه عيّا بدر من الجنود. . .

قال السيّد بنفس اللهجة المريضة:

- ولكّنه لن يرّد حياة إلى ميت. . .

- وأسفاه! . . .

قال السيّد بتفجّع:

- لم يشترك في المظاهرات الخطرة، هذه أوّل مظاهرة
ينضمّ إليها! . . .

تبادل الشبان نظرة ذات معنى فلم ينس أحدهم
بكلمة. . . وكأنّما ضاق السيّد بالحصار المضروب حوله
فقال وهو يزفر:

- الأمر لصاحب الأمر، أين أجده الآن؟

قال الشاب:

- في قصر العينيّ دهم وهو يشير إلى السيّد متمهلاً
لنّ أراه يتعلّم اللهاب» ستنشع جنازته مع ثلاثة عشر
شهيداً من إخواننا في تمام الساعة الثالثة من مساء
الغد. . .

هذف السيّد في جزع:

- ألا يترك لي تشييع جنازته من يته! . . .

فقال الشاب بقوّة:

- بل تشييع جنازته مع إخوانه في احتفال شعبيّ. . .
ثمّ برجاء:

- القصر محاصر الآن بقوّات من البوليس، ولا بأس
من الانتظار ما دمنا نحرس على تمكّن أهالي الشهداء
من توديعهم قبل تشييع الجنازة، لا يليق أن يشييع
فهمي في جنازة عاديّة كمن قضوا في بيوتهم. . .
ثمّ مدّ له يده مودّعاً وهو يقول:

- اصبر وما صبرك إلّا بالله. . .

وصافحه الآخرين مكرّرين له العزاء، ثمّ ذهبوا
جعيماً. . . أسند رأسه إلى راحته وهو يغمض عينيه

فجاءه صوت جميل الحمزاوي وهو يعزّيه بنرات باكية، ولكنّه بدا ضيق الصدر بالتعزية، ولم يعد يحتمل البقاء فزأبيل موضعه يسير بخطى بطيئة ثقيلة حتّى غادر الدكان، ينبغي أن يخرج من حبرته، فإنّه لا يدري حتّى كيف يجز، يودّ لو يخلو إلى نفسه ولكن أين؟ سينقلب البيت جيحًا بعد دقيقة أو دقيقتين، وسيلحق به الأصدقاء فلا يدعون له فرصة للتفكير... متى يتأمّل الحسارة التي مني بها... متى ينتهيّ له أن يغيب فيها عن الدنيا جميعًا؟ يبدو هذا بعيدًا... ولكنّه أتى لا ريب فيه، وهذا قصارى ما يجيد من عزاء في راحته... أجل سيأتي وقت يخلو فيه إلى نفسه ويفرغ إلى حزنه بكلّ كيانه، هنالك لنعم النظر في موقفه على ضوء الماضي والحاضر والمستقبل، أطوار حياته كلّها من طفولته وصباه إلى ريق شبابه، ما أثار من آمال وما خلّف من ذكريات مطلقًا لدموعه العنان حتّى يستنفدها عن آخرها، حقًا أنّ أمامه فسحة من الوقت يحسد عليها فلا داعي للجزع، انظر إلى ذكرى الملاحاة التي نشبت بينها عقب صلاة الجمعة أو ذكرى ما دار بينهما هذا الصباح من استعطاف وعتاب، كم يستغرقان من وقته تأملًا وتذكّرًا وشجنًا؟ كم يستهلكان من قلبه؟ كم يبيجان دموعه؟ كيف يجز؟ الأيام تتأخّر له كلّ هذه

السعادة؟ رفع رأسه الثقيل بالفكر فلاحته لعينيه المظلمتين مشرّيات البيت فذكر أمينة لأول مرّة حتّى أوشتك أن تخونه قدامه... ما عسى أن يقول لها؟ كيف تتلقّى الخبر؟ الضعيفة الرقيقة التي تبكي لمصرع عصفورا! أتذكر كيف هملت دموعها لمقتل ابن الفولي اللّبان؟! ماذا تصنع لمقتل فهمي؟... مقتل فهمي!... أهله هي نهايتك حقًا يا بني؟... يا بنيّ العزيز التمس!... أمينة... ابننا قتل، فهمي قتل... يا له... أثار منج الصووات كما أمرت منج الزغاريد من قبل؟... أم تصوّت بنفسك أم تدعو النائحات؟... لعلّها تتوسّط الآن مجلس الفهوى بين ياسين وكيال متسائلة عمّا آخر فهمي، سوف يتأخّر طويلاً، لن تراه أبدًا... ولا جثته، ولا نعشه، يا للقسوة، سأراه أنا في القصر أمّا أنت فلن تراه، لن أسمع بهذا... قسوة أم رحمة؟ ما الفائدة؟... وجد نفسه أمام البيت فامتدّت يده إلى المطرقة ثمّ تدجّر أنّ المفتاح في جيبه فأخرجته وفتح الباب ثمّ دخل... تراسى عند ذلك إلى سمعه صوت كيال وهو يفتي بعدوبة:

زوروني كلّ سنة مرّة حرام المجر بالمرّة

قَصْرِ الشَّوْة

- ١ -

المشداختين في جواره، وأغمض عينيه وهو يحقّف
 بمنديله جبهته وتحذيه عنقه، على حين كانت أمينة
 تضع المصباح على الحفوان، ثم وقفت تترقب قيامه
 لتساعده في نزع ثيابه، وهي تنظر إليه باهتمام مشوب
 بقلق، وتوّد لو تواتيها شجاعته فتسأله أن يعفي نفسه
 من الدأب هل السهر الذي لم تعد تنهض به صحته
 بالاستخفاف المهود قديماً. ولكنها لم تدبر كيف تفصح
 عن أفكارها الأسيفة! تالتت دقائق قبل أن يفتح
 عينيه، ثم نزع الساعة الذهبية من قفطانة والخلاتم
 الماسي فأودعها داخل الطربوش، ثم هض ليخلع
 الجبة والقفطان بمعاونة أمينة، هناك بدا جسمه كالعهد
 به: طولاً، وعرضاً، وامتلأ... لولا شعيرات اغتصبتها
 المشيب من فوده، وعندما أدخل رأسه في طاقية
 الجلباب الأبيض غلبه الابتسام فجأة، إذ ذكر كيف
 تقياً السيد عليّ عبد الرحيم الليلة في مجلس الأنس،
 وكيف اعتذر عن ضعفه ببرد أصابع معدته. وكيف
 تعمّدوا أن يعيروه به زاعمين أنه لم يعد يجتعل
 الشراب، وأنه ليس كل الرجال من يستطيعون معاشرّة
 الخمر إلى نهاية العمر الخ الخ، وذكر كيف غضب
 السيد عليّ وجُدّ في دفع الرية عنه، يا عجبا... لهذا
 الحدّ يعير بعض الناس أهميّة هذه الأمور الترافه؟!
 ولكن إذا لم يكن ذلك كذلك فلم فاجر هو في صخب
 الحديث الضاحك بأنه يستطيع أن يشرب حانة دون أن
 تضطرب له معدة؟!

أغلق السيد أحمد عبد الجواد باب البيت وراءه،
 ومضى يقطع الفناء على ضوء النجوم الباهت في
 خطوات مترامية، وطرف عصاه ينغرز في الأرض
 الترية كلياً توكّناً عليها في مشيته المتأثبة. تشوّق وحواتبه
 تحمى بمثل الوهج إلى الماء البارد الذي ميسل به
 وجهه ورأسه وعنقه كي يلطّف - ولو إلى حين - من
 حرارة يوليه والثار المستعرة في جوفه ورأسه، فهشّ
 لفكرة الماء البارد حتّى انبسطت أساريره. ولما جاز
 باب السلم لاح له الغسوة الواني المهابط من أعلى
 يتحرّك على الجدران وأشيأً بحركة اليد القابضة على
 المصباح، فرقي على السلم يداً على الدرابزين ويذاً
 على عصاه التي بهت طرفها دقائق متتابعة اكتسبت من
 قديم إيقاعاً خاصاً غدا ينم عنه كما تنم عنه سلالته.
 وعند رأس السلم بدت أمينة والمصباح في يدها، حتّى
 إذا انتهى إليها توقّف وصدره يعلو وينخفض ريثما
 يسترد أنفاسه، ثم حيّاها تحيّة الليلية المألوفة قائلاً:
 - مساء الخير .

فغمغت أمينة وهي تتقدّمه بالمصباح:

- مساء الخير يا سيدي! .

في الحجره هرع إلى الكتبة فتهاك عليها، ثم
 تخلّص من عصاه وخلع طربوشه، وطرح قدّاله على
 المسند ماداً ساقيه إلى الأمام حتّى انحسر جناحا الجبة
 عن قفطانة، وكشف القفطان عن رجلي سرواله

لسان، وذو الصوت المبحوح الذي يعقب على حوادث اليوم بلا تعب أو ضجر، وذو الصوت العصبي الذي يتصيد بخته في «الكومي» و«الولد»، ووالد هنية الطفلة المصابة بالسعال الديكي الذي يُسال عنها فيجيب ليلة بعد أخرى «عند الله الشفاء»، أه.. كأن المشربية ركن من القهوة هي جليسته. كانت ذكريات الطريق ترسم على مخيلتها وراء عيني لا تفارقان الرأس المتوسد لمسند الكنية، فلما انقطع التجار تركنز انتباهها في الرجل فتبينت في صفحتي وجهه حمرة شديدة اعتادت أن تظلمها في أعقاب الليالي الأخيرة، ولم تكن ترتاح إليها فتساملت في إشفاق:

- سيدي بخير.. ؟

فاعتدل رأسه، وهو يتمتم:

.. بخير، والحمد لله (مستدركاً) ما أظلم الجو!!
الزبيب خير مُسْكِر في الصيف.. هكذا قالوا له وأعادوا، ولكنه لا يطيقه، فلَمَّا الويسكي وإلا فلا.
عليه إذن أن يعاني خمار سكرة صيف - وصيف شديد - كل ليلة. شد ما ضحك هذه الليلة.. ضحك حتى كلت عروق عنقه. ولكن فيم كان الضحك؟! لا يكاد يذكر شيئاً، وليس هناك شيء يروي أو يعاد، ولكن جو المجلس كان مشحوناً بكهرباء لطيفة بحيث إن أي لمسة كانت تحدث اشتعالاً، فما هو إلا أن قال السيد إبراهيم الفار: «أبحر الإسكندرية من سعد اليوم إلى باريس» وكان يقصد أن يقول: «أبحر سعد من الإسكندرية اليوم إلى باريس» حتى انفجروا ضاحكين، فقلت «نادرة» من نوادر الحمر اللسانية. وابتدروهم قائلين: «وسيمك في المفاوضة ريشاً يسترد صحتك، ثم يبحر إلى الدعوة لتلبية للندن التي تلقاها من» أو «وسيتال رامزاي مكلونالد من الاستقلال على الموافقة» وسيعود حاملاً مصر إلى الاستقلال، وجعلوا يتحدثون عن المفاوضة المنتظرة ويعلمون عليها بما يحلو لهم من المداعبات..

حقاً.. إن دنيا الأصدقاء على رحابتها تلتخص في ثلاثة: محمد عفت، وعليّ عبد الرحيم، وإبراهيم الفار.. فهل يستطيع أن يتصور للعالم وجوداً من دون

جلس على الكنية مرة أخرى ومد ساقيه للمرأة التي راحت تخلع الحذاء والجورب، وغابت عن الحجرة قليلاً، وعادت بالطلست والإبريق وجعلت تصب له الماء فينسل رأسه ووجهه وعنقه ويتمضمض، وأخيراً ترتب في جلسته مسترخياً نسمة الهواء التي تمفو في لطف ما بين المشربية والثافذة المطلّة على الفناء.

- يا له من صيف فطّيح صيف هذا العام!

فقالت أمينة وهي تسحب الشلّة من تحت السري، وترتب بدورها عليها على كتب من قديم:

- ربنا يلطّف بنا (ثم وهي تنهد) الدنيا كلّها كوم وحجرة القرن كوم! السطح هو المنتنّس الوحيد في الصيف بعد مغيب الشمس.

بدت في جلستها غيرها بالأمس، نحفت واستطال وجهها، أو لعلّه تراءى أطول ممّا هو لما حلّ بالخدين من رقة، وقد انتشر المشيب فيها انحسر عنه منديل رأسها من خصلات، فاضفى عليها روح كبر أكثر ممّا تستحق.. وغلظت الشامة في وجنتها قليلاً، على حين تمّت عيناها - إلى نظرة الخضوع القديمة - عن شرود مزج بالحنن، كما اشتقت حريصاً لما طرأ عليها من تغير. ولئن كانت قد رحت به بادئ الأمر على سبيل التعزّي إلا أنّها أخذت تتسائل في قلن: أليست هي في حاجة إلى صحتها ما دام في العمر بقية؟ بل! والآخرين في حاجة إلى صحتها أيضاً، ولكن كيف يعاد الشيء إلى أصله؟! ثم إنّها تقدّمت سنين، لعلّها لم تكن بالكثرة التي تبرّ هذا التغير ولكنها ممّا يترك أثراً ولا شك.

هكذا كانت تقف في المشربية الليالي المتعاقبة تراقب الطريق من وراء الخصاص، فترى طريفاً لا يتغير، والتغير يدب إليها غير متوانٍ. وعلا صوت النادل في القهوة فتطأير إلى الحجرة الصامتة كالصدى، فابتسمت وهي تسترق النظر إلى السيد.

ما أحبّ هذا الطريق الذي يسهر الليالي سامراً إلى قلبها، إنّهُ الصديق الغافل عن القلب الذي يجيه من وراء خصاص، معله ملء نفسها، سيّاره أصوات حيّة تعيش في مسامعها، هذا النادل الذي لا يستكنّ له

- نعم، أخبرني عمّد عَقَتَ بِذَلِكَ الليلة! .
 - مَنْ؟
 - موكّلف يسدعي عمّد حسن، رئيس إدارة المحفوظات بالمعارف.
 فتساءلت بوجودهم:
 - يبدو أنّه متقدّم في السن؟
 فقال للمعرض:
 - كلّاً، في الحلقة الرابعة، خمسة وثلاثين.. ستة وثلاثين.. أربعين عاماً على الأكثر!
 ثمّ بلهجة تهكميّة:
 - جرّبتَ حفلها مع الشباب فأنفقت، أعني الشباب الذين لا يرفعون رأساً، فلتجربَ حفلها مع الرجال العقلاء!
 فقالت أمينة بأسف:
 - كان ياسين أوّلِي بها، حلّ الأكل من أجل خاطر ابنها..
 كان هذا رأي السيّد، وهنه دافع طويلاً لدى عمّد عَقَتَ، بيد أنّه لم يعلن موافقته على رأيها مداراة لحية مسعاه، فقال متسخطاً:
 - لم يعد للرجل به من ثقة، والحقّ أنّه غير جدير بالثقة، لذلك لم ألحّ عليه، لم أقبل أن أستغلّ صداقتنا في حمله على ما لا خير فيه..
 فغمضت أمينة في شيء من الإشفاق:
 - هفوة شباب لا يضيّق عنها العفوا
 هان على السيّد أن يعترف بجانب من مسعاه الخائب، فقال:
 - لم أقصّر في حقّه ولكنّي لم أصادف ترحباً، وقال لي عمّد عَقَتَ يرجاه: «وإنّ السبب الأوّل في اعتذاري هو إشفائي من تعرض صداقتنا إلى الشقاق»، وقال لي أيضاً: «ولا أستطيع أن أرفض لك رجاءه، ولكنّ صداقتنا أعزّ لديّ من رجائه».. فأمسكت عن الكلام..
 قال عمّد عَقَتَ هذا حقّاً، ولكنّه لم يصرّح به إلّا مدافعة لإلحاحه. والحقّ أنّ السيّد كان شليد الرغبة في وصل ما انقطع من مصاهرة عمّد عَقَتَ لمكانته من

وجودهم! إنّ إشراق وجوههم بالبشر الصادق حين رؤيته، سعادة لا تدانيها سعادة. التقت عيناه الخلتان بعيني أمينة المستطلعتين، فقال وكأنّه يذكرها بأمر هامّ:
 - غداً..
 فقالت، وقد شاعت في وجهها ابتسامة:
 - كيف أنسى!
 فقال بشيء من الفخار لم يحاول مداراته:
 - قولي لي إنّ نتيجة البكالوريا كانت سيّئة هذا العام..
 فقالت وهي تشاركه فخاره بمعاودة الابتسام:
 - ربّنا ينتج مقاصده، ويمدّ في عمرنا حتّى نشهد نجاحه في الدبلوم..
 فتساءل:
 - هل ذهبتَ اليوم إلى السجّريّة؟
 - نعم، ودعوتهم جميعاً، وسوف يحضرون إلّا الستّ الكبيرة التي اعتذرت بتعبها، فقالت: إنّ ابنها سينوبان عنها في تمثنة كمال.
 فقال السيّد، وهو يومئ بلقنه صوب جيبته:
 - جاني اليوم الشيخ متوكّي عبد الصمد بأحجية لأولاد خديجة وعاشة، ودعا لي قاتلاً: «إن شاء الله أعمل لك أحجية لأولاد أحفادك».
 ثمّ وهو يبرّز رأسه بأسياً:
 - لا شيء على الله ببعيد، ها هو الشيخ متوكّي نفسه كالخيليد رغم الثمانين!..
 - ربّنا يمتك بالصحة والعافية!
 فتفكّر مليّاً، وهو يعدّ على أصابعه، ثمّ قال:
 - لو امتدّ العمر بأبي - رحمه الله - ما زاد على عمر الشيخ كثيراً..
 - رحم الله الراحلين..
 وتخيّم الصمت ربّما ذهب الأثر الذي تركه ذكر «الراحلين»، ثمّ قال الرجل بلهجة من تذكر أمراً هامّاً:
 - زينب خطبت!
 أنسعت عينا أمينة، وهي ترفع رأسها فائلة:
 - حقّاً!..
 - زينب خطبت!

- لو أنَّ الأمر أمر مقام ما عدل بابتك أحداً، على الأقلَّ من أجلك أنت .

فشعر باستياءه حتَّى لمن في سرِّه - على حبِّه - عمَّد عَقَّتْ، ولكِنَّه عاد يجرُّ خطّاً تحت النقطة التي يتعزَّى بها، فقال:

- لا تُنْسِيْ أَنَّهُ لَوْلا حرصه على أن يضع صداقتنا في حرز حريز ما ترَّدَدَ عن قبول رجائي . .

فقالَت أُمَيَّةُ معربة عن نفس الإحساس:

- طيِّعاً، طيِّعاً يا سيِّدي، إنَّها صداقة العمر، وليست لهواً ولعباً.

علاوة التَّأوُّبِ مرَّةً أخرى، فتمتَّع قائلاً:

- خذني المصباح خارجاً . .

قامت أُمَيَّةُ لتنفيذ أمره فأغضض عينيه قليلاً، ثمَّ نبض دفعة واحدة كأنَّها ليقيم الكسل وأنَّه نحو الفراش فاستلقى عليه . . . إنَّه الآن خير حالاً!! ما أهنأ الرقاد بعد التعب!! أجل، لا يخلو رأسه من نبض قارع، ولكنَّ رأسه لا يكاد يخلو من شيء ما، فليحمد الله على أيِّ حال! الصفاء الكامل ماضٍ مضى، ثمَّة شيء نفتقده كلياً خلونا إلى أنفسنا ولكِنَّه لا يعود، يلوح لنا من الماضي بذكرى شاحبة كهذا الضوء الخافت الذي تشفَّ عنه شُرَاعَةُ الباب. فليحمد الله على أيِّ حال!! ولينعم بحياة يغطه عليها الغابون!! الأجدى أن يقطع برأيٍ فيما إذا كان سيَّقبل الدعوة أم لا، أو فليدع ما للغد للغد، إلَّا ياسين . . فوالله مسألة الاسم واليوم والغد، ليس صغيراً من بلغ الثامنة والعشرين، وليس المشكل أن يبحث عن له زوجة أخرى، ولكنَّ الله لا يغيِّر ما يقوم حتَّى يغيِّروا ما بأنفسهم. حتَّى تسطع هداية الله فتملا الأرض حتَّى يبهج نورها الأعين؟ هنالك عيظ من الأعماق أن الحمد لله، ولكنَّ ماذا قال عمَّد عَقَّتْ؟ إنَّ ياسين يصول ويجول في الأزيكِيَّة حتَّى سراديبها . . . كانت الأزيكِيَّة مغنى آخر حينما كان هو يصول فيها ويجول، وهَرَمَ الحنين مرَّات إلى معاودة بعض مشاربها إحياء للذكريات، فليحمد الله على أنَّه علم بسرِّ ياسين قبل أن يُقْلِم، وإلَّا لضحك الشيطان من أعماق قلبه

نفسه ومكانة أسرته من المجتمع، ولم يكن يطعم في أن يجد لياسين زوجة خيراً من زينب، ولكِنَّه لم يسعه إلَّا التسليم بالهزيمة، خاصَّة بعد أن صارحه الرجل بما يعلم عن حياة ياسين الخاصة، حتَّى قال له: «لا تقل لي إننا نحن أنفسنا لا نختلف عن ياسين، فالحقُّ أننا نختلف بعض الشيء، والحقُّ أنَّي لا أرتضي لزينب ما ارتضيت لأمها!!».

تساءلت أُمَيَّة:

- هل علم ياسين بما كان؟

- سيعلم هذا أو بعد غد، هل تريه يكثر لذلك؟ إنَّه أبعد ما يكون عن تقدير الزِيَمَةِ المشرقة . . فهزَّت أُمَيَّةُ رأسها أسفاً، ثمَّ تساءلت:

- ورضوان؟

فقال السيِّد مفطناً:

- سيبي عند جدِّه، أو يلحق بأمِّه إن لم يصبر على فرأفها، الله يغيِّر من حيَّره . . !
- مسكين يا ربِّي، أمِّه في ناحية وأبوه في ناحية، أتطيع زينب فراقه . . ؟

فقال السيِّد فيما يشبه الازدراء:

- للضرورة أحكام (ثمَّ متسائلاً) متى يبلغ السنُّ؟ . . ألا تذكرين؟
فنفكرت أُمَيَّة قليلاً، ثمَّ قالت:

- إنَّه أصغر قليلاً من نعيمة بنت عائشة، وأكبر قليلاً من عبد النعم ابن خديجة، فيكون في الخامسة يا سيِّدي، سوف يسترِّدُّه أبوه بعد عامين، أليس كذلك يا سيِّدي؟

قال السيِّد، وهو يتأهب:

- يا ترى من يعيِّش (ثمَّ مستطوفاً) وكان متزوَّجاً، أعني الزوج الجديد!

- وله أولاد؟

- كلَّام لم يتجب من زوجة الأولى . .

- لعلَّ هذا ما حسَّنه في عيني السيِّد عمَّد عَقَّتْ . .

فقال السيِّد باعتراض:

- ولا تُنْسِيْ مقامه . .

فقالَت أُمَيَّة معترضة:

كيف تكون مسرة دون تأنيب أو توحش خيفة. قديماً استخبرت السنين فأجابت بأن تاريخ ابتدائية هذا سيوافق تاريخ لسانس ذلك، حصل لم يحج ونذر لم يوف. ١٩ .. ٢٠ .. ٢١ .. ٢٢ .. ٢٣ .. ٢٤ .. شباب العمر الياضع الذي حُرمت من احتضان نبعه، من قسمة التراب كان، يا انصداع القلب الذي يسمونه الحسرة.

- ستفرح ست عاتشة بالبقلاوة، وتذكر أيام زمان يا ستي...

ستفرح عاتشة وأم عاتشة ستفرح أيضاً، غبار وليل وشيع وجوع ويقظة ونوم، وكأن شيئاً لم يكن. سلي الزعيم الذي زعم بأنك لن تعيش بعده يوماً واحداً، عشت لتحلني بترته، إذا زلزل القلب فليس معناه أن تزلزل الدنيا، كأنه نسئ منسئ حتى تزار المقابر، كنت ملء العين والنفس يا بني ثم لا يذكرونك إلا في المواسم، أين أنتم يا هؤلاء؟ كل مشغول بشواغله، ألا أنت يا خلدية قلب أمك وروحها حتى وصيتك يوماً بالصبر، لم تكن كذلك عاتشة، مهلاً لا ينبغي أن أكون ظلة، حزنت حزناً كما ينبغي، كمال لا لوم عليه، وفقاً بالقلوب الغضة، بات الأول والأخير، شاب شعرك وصرت كالخيال، هكذا تقول أم حنفي، لا كانت الصحة ولا كان الشباب، تقاربين الحمسين وهو لم يتم العشرين، حبل ووحم وولادة ورضاعة وحب وآمال، ثم لا شيء... ترى هل خلا من الأفكار رأس سيدي؟ دعيه وشأنه! ليس حزن الرجال كحزن النساء، هكذا قولك يا أمي جصل الله الجنة مثواك، يحز في نفسي يا أمي أنه عاد إلى سيرته، كأنه لم يم، وكان ذكره قد تبعثرت، بل يلومي كلياً ليح بي الحزن، ليس هو أباه كما أنا أمه؟... يا أمانة يا مسكينة... لا تفتحي صدرك لهذه الأفكار... لو صح أن نحكم على القلوب بقلب الأم لبدت القلوب أحجازاً... إنه رجل وليس حزن الرجال كحزن النساء... لو استسلم الرجال للأحزان لنسات بها كواهلهم المنقلة بالأعباء، عليك إذا أنت منه حزناً أن تسري عنه... إنه ركنك يا ابنتي المسكينة. غاب

المازى. أوسيعوا الطريق للأبناء فقد شبوا، عنها صدك الاستراتيجيون أول الأمر، وأخيراً هذا البغسل الاستراتيجي...

- ٢ -

تتابعت دقات المعين من حجرة القرن في هذه السحر مع صياح الديكة، كانت أم حنفي مكبة على جرة المعين بحسمها اللحيم، يلوح وجهها ريان على ضوء المصباح المنبث من فوق سطح القرن، لم ينل الكبر من شعرها ولا شحمها ولكن شابت ملامحها جهامة واخشوشنت قسائمها، وإلى يمينها قعدت أمانة على كرسي المطبخ تفرش ألواح المعين بالركة استعداداً لاستقبال الأقراص، ثوابيل العمل - لي صمت - حتى توقفت أم حنفي عن المعين. فاستخرجت يدها من الجرة ومسحت على جبينها المبتل بالمرق ببطن مرفقها، ثم لوحت بقبضتها المخطلة بالمعين كفأز ملاكمة أبيض، وقالت:

- امامك يا ستي يوم شاق ولكته للبد، كثر الله من أيام السرور...

فغضمت أمانة دون أن ترفع رأسها عن عملها:

- علينا أن نقدم مائدة شهية...

فابستمت أم حنفي، وهي تومئ بدهنها إلى سيدتها، قائلة:

- البركة في المعلمة...

ثم غرست يديها في الجرة مرة أخرى، وعادت إلى ملاكمة المعين.

- ودعتا لوقعتنا بتوزيع الثريد على فقراء الحسين.

فقالت أم حنفي بلهجة معاتبة:

- لن يكون بيننا غريب.

فتمتعت أمانة بصوت لم يحل من ضيق:

- ولكتها وليمة وصجبة على أي حال، فؤاد ابن

جميل الحمزاوي ناك البكالوريا أيضاً، ولا من رأى ولا

من سمع!

ولكن أم حنفي أصرت على المعاتبة، قائلة:

- ما هي إلا فرصة نجتمع فيها عن نحب.

أنفسنا وراء من نحبهم إذا ذهبوا؟! في عام الحداد والتقصّف كاد الحزن يقتله قتلاً، عام طويل لم يلق فيه شرباً، ولم يسمع نغمًا، ولم تنذ عن فيه ملحّة حتّى شابت شعيراته... أجل لم يتسأل الشيب إلى شعره إلّا في ذلك العام، رغم أنّه عاد إلى الشراب والسباع راحة بالأصدقاء المقرّين الذين انقطعوا عن اللذات إكرامًا لحزنه، كذب وصدق، عاد إلى الشراب لنفاد صبره وراحة بالأصدقاء الثلاثة، لم يكونوا كالآخرين، وما عل الآخرين من ملام، حزنوا لحزنك، ثمّ جعلوا يراوحو بين مجلسك الجلباب ومجالسهم التديّة فأتى تزييب عليهم؟! بيد أنّ الثلاثة المحيّين أبوا أن ينالوا من الحياة نصيبًا أوفى ممّا أترضيت لنفسك، وعدتّ رويدًا إلى أشياء، إلّا المرأة وأيتها كبيرة فلم يخلّوا عليك أوّل الأمر، لشدّ ما تأبّيت وحزنت، لم يؤثّر فيك رسول زبيدة، وددت أمّ مريم بوقار حزين حازم وأنت تكابد آلامًا لا يُقَبَّل لك بها، ظننت أن لن تعود أبدًا، وخاطبت نفسك المرّة تلو المرّة... «أعود إلى أحضان الغواني وفهمي في قبضة التراب؟! آه... ما أحوّنا في ضمعنا وتعامتنا إلى الرحمة!! فلماذا لم يعلّمك على الحزن من يضمن ألا يموت غدًا، من قائل هذه الحكمة؟ واحد من اثنين: عليّ عبد الرحيم أو إبراهيم الفار. محمد عَقّت بك لا يهود بالحيكم. رفض رجائي، وزوّج البنت من رجل غريب، ثمّ ضحك عليّ بالقبل، لا ينكر غضبه ويشفق من أن يطالعني به كما وقع قديمًا، لله هو أيّ وفاء وأيّ ودّ أتذكر كيف استرجّ دمعهم بدمعك في الفراقة؟ ولكنّه القاتل فيها بعد «أخاف عليك الكبير إن لم تفعل... تعال إلى العوامة». ولست أَسْ أَسْ تردّدًا قال: «لتكن زيارة بريئة... لن يجرّدك أحد من ملابسك ويرميك على امرأة». لم أحزن قليلًا علم الله، بموته مات جزء جسيم منّي. مات أملي الأوّل في الدنيا، منذ يلومني على الصبر والعزاء؟ قلبي جريح وإن ضحك! ترى، كيف هنّ؟ ماذا فعل بهنّ الزمان في خمسة أعوام؟ خمسة أعوام طوال؟

كان شخير ياسين أوّل ما تلقى كسّال من عالم

ذلك الصوت الحنون وصادف قلوبًا مترعة بالحزن فلم يكذب بكبه أحد، وشهد شاهد حكمتها ليلة عاد في آخريات الليل نعلًا، ثمّ ارتقى على الكتبة مجهشًا في البكاء، وتغيّت ليلتيل له السلامة ولو بالنسيان الأبديّ، أنت نفسك ألا تنسين أحيانًا؟ ثمّة ما هو أفضح من ذلك، هو تتعلّق بالحياة وحركك عليها. هذه هي الدنيا. هكذا يقولون! فتردّدين ما يقولون وتؤمنين به. كيف جاز لك - يومًا - بعد هذا أن تحنّقي على ياسين بره ومواصلته مألوف الحياة! مهلّا، الإيمان والصبر... سلّمي إلى الله، فكلّ ما جاءك من عنده، «أمّ فهمي» إلى الأبد، سوف أظنّ ما حييت أمك يا بني وتظنّ أبي....

تتابعت دقّات المعجن، ففتح السيّد عينه على نور الصباح الباكر، وراح يمشي ويتأهب بصوت مرتفع محطوط، تصاعد كالتلّثر أو الاحتجاج، ثمّ جلس في الفراش مستندًا براحتيه على ساقيه المملوحتين، فبدأ ظهره مقوسًا وقد تضخّ أعلى الجلباب الأبيض بالعرق، وجعل يحرّك رأسه بمنّة ويسرة كأنّما ليغض عنه وطأة الوحش، ثمّ انزل إلى أرض الحجر، ومضى متهاديًا إلى الحِلّام إلى الدمشّ البارد... الدواء الوحيد الذي يغيّر عليه بدنه فيعيد إلى رأسه أثراته وإلى نفسه اعتدالها، تجرّد من ثيابه، ولست تعرّض لرشاش الماء ورددت ذهنه ذكرى الدعوة التي وُجّهت إليه أمس، فحفق فؤاده الذي تلقّى الذكرى والإحساس المنعش بالماء البارد معًا، عليّ عبد الرحيم قال: ونظرة إلى الوراء، إلى حبيبات رمان، لا يمكن أن تحفي الحياة هكذا إلى الأبد، إني أعرف الناس بك... أتقدّم على هذه الخطوة الأخيرة؟ خمس سنوات مضت وهو يأب أن يخطوها. أكان تاب إلى الله توبة مؤمن مصاب؟ أم أضمر التوبة وخاف أن يجهر بها؟ أم أطلقها نيّة صادقة دون توطّء في التوبة؟... لا يذكر، ولا يريد أن يذكر، ليس صغيرًا من يدنو من الخامسة والخمسين. ولكن ما لفكره قد تقلقل وتزلزل؟ كحاله يوم دُعي إلى السباع فلتى، هل يلتي النداء إلى حبيبات زمان بلّفل؟ متى يبعث الحزن ميتًا؟ هل أمرنا الله أن نُهلك

عابرة. صادفها بعد ذلك في الموسمي مع أمها، فالتقت العين على سهوة، ولكن سرعان ما لاح فيها العرفان، وثقت بسات لا تكاد تُرى بالعين المجردة عن عرفانها، فتحرّك قلبه، تحرّك للعرفان - فحسب - أول الأمر، ثم للطفيل الأثر الذي خلفه وجه عاجي مكحول العينين، وجسم نابض بالفتوة والحبيوة، ذكره بزينب في إبانها... فمضى إلى طيبته متذكراً هائجاً. غير أنه بعد خطوات، أو حال هبوطه إلى قهوة أحمد عبده، هفت عليه ذكرى محزنة بعثت في قلبه الشجن، بُعث فهمي في خياله بشقّ ذكرياته: صورته وأماراته وأسلوبه في الحديث والحركة ففتر وجهه وباح وغشيه حزن غليظ، يجب أن ينتهي كل شيء... لم؟...

عاد يتسائل بعد ساعة، أو بعد أيام، فكان الجواب: فهمي... أية علاقة بين الاثنين؟ ودّ يوماً أن يضطربها، ولمّ لم يفعل؟... أبوك لم يوافق، فقط؟... هذا في الأقل أصل المسألة. ثم؟ جاءت فضيحة الإنجليزي، فمحت ما بقي من أثر باهت... أثر باهت؟... أجل لأنه على الأرجح كان نسي. إذن نسي أولاً، ونبل أخيراً؟ نعم، فأيّة علاقة هنالك؟... لا علاقة؟ ولكن!... أعني شعور الأخوة، هل يمكن أن يرقى شكّ إلى شعورك؟... كلّاً وألف مرّة كلّاً. الفناء تستحقّ...؟ نعم، وجهاً وجسماً؟... وجهاً وجسماً فما انتظارك؟...

في النافذة كان يللمحها حيناً بعد حين، ثم فوق السطح... فوق السطح مرّات، ومرّات... لم طلقت؟... لسوء في خلق زوجها، فيكون الطلاق من حسن حظّها. أو لسوء في خلقها فيكون الطلاق من حسن حظك أنت.

- قم أولاً غلبك النوم.

فتتابب وهو يتخلّل شعره الملهوَج بأصابعه الغلاظ، ثم قال:

- يا بختك بعلطك المدرسية الطويلة!

- ألم استيقظ قلبك؟

- ولكن بوسعك أن تواصل النوم إذا شئت...

- لا إ شاء كما ترى...

البقطة، فلم يتالك أن يناديه وهو إلى معاكسته أرغب منه إلى إيظافه في ميعاده، ولاحقه بصوته غير متوانٍ حتى رَدّ عليه الآخر بصوت كالنزع تشكيّاً وتذمّراً، ثم تقلّب بجسمه الضخم فطفطن الفرائش فيما يشبه الأنين والتوتّع ثم فتح عينين حراوين وثاقه.

لم يكن ثمة - في رأيه - ما يدعو إلى هذه المعجلة ما دام أحد منها لن يذهب إلى الحَلَم قبل عودة الأب منه، لم يعد من اليسر استعمال حَلَم الدور الأول منذ قضى التنظيم الجديد للبيت - منذ خمسة أعوام - بنقل الحجرات إلى الدور الأعلى فيها عدا حجرة الاستقبال والصالّة المتصلة بها التي قرّشت بثلاث بسيط باعتبارها مدخلاً لها، ومع أنّ ياسين وكحال لم يرتجبا - قط - بالإقامة مع الأب في دور واحد، إلّا أنّها لم يجيدا بدأ من احترام الرغبة في مقاطعة الدور الأول الذي لم تعد تدخله قدم إلّا حين يلمّ بالبيت زائر. أغمض ياسين عينيه، ولكنّه لم ينام، لا لأنّ معاودة النوم كانت عيلاً فحسب، ولكن لأنّ صورة انبعثت في خياله فاشعلت إحساسه... وجه مستدير، تتوسط صفحته العاجية عينا سوداوان. مريم! فاستجاب لداهي الأحلام... واستسلم لتخدير اللذّن من تخدير المنام.

قبل أشهر معدودات، لم تكن بالنسبة إليه موجودة قط، وكأنّها لم تكن، حتى سمع لمّ حنفي تتحدّث - ذات مساء - إلى امرأة أبيه، فقول: «أما سمعت بالخبر يا سقّ؟... ستّ مريم طلّقت من زوجها وعادت إلى أمها هنالك عاوده ذكر مريم، وفهمي، والجنديّ الإنجليزي، صديق كمال وإن غاب عنه اسمه، ثم ذكر بالتالي اهتمامه القديم بشخصيتها الذي جاش بما صدره عقب ذبوع الفضيحة، ما يدري إلّا وقد أضاءت فجأة في نفسه لوحة معبّرة، كما تضيء الإعلانات الكهربائية في الليل، سُكّر عليها ومريم... جارتك... الجدار لصق الجدار... مطلق... ذات تاريخ وأيّ تاريخ... أبشره، ولكنّه ما لبث أن جفل من نفسه، لأنّ اقترانها بذكرى فهمي صدّه وآلمه وأهاب به أن يغلق هذا الباب وإن يُحكّم إغلاقه، وأن يندم - إن كان ثمة ندم - على فكرة خفيّة

ضحك يامين ضحكة لا معنى لها، ثم تساءل:

- ما اسم الجنديّ الإنجليزيّ صديقك القديم؟

- أوه... جوليون...

- أجل جوليون...

- ما الذي دعاك إلى السؤال عنه؟

- لا شيء!!

لا شيء؟ ما أسخف لساننا، اليس ياسين خيرًا من جوليون؟ في الأقلّ جوليون عابر ويامين مقيم، في وجهها شيء يتسم إليك دواءً، ألم تلاحظ مثابرتك على الظهور فوق السطح؟ بل وذكر جوليون، ليست تمن يفوتن معنى، ردت تحيتك... أول مرة أدارت رأسها باسمه، في المرة الثانية ضحكت، ما أجل ضحكتها! في الثالثة أشارت إلى أسطح البيوت مخدرة، ساعدو بعد الغروب. هكذا قلت في جراءة، ألم يرسل جوليون إشارته من الطريق العام؟

- لشّد ما أحببت الإنجليزيّ في صفري... انظر كيف أمقتهم الآن مقًا...

- سعد بظلك سافر ينشد صداقتهم!

هتف كمال بحدة:

- والله لأبضّتهم ولو وحدي...

وتبدلا نظرة أسمى صامتة، تناهى إليها وقع قبّاب السيّد وهو راجع إلى حجرته مبسلاً محوّلًا، فانزلق يامين إلى الأرض وغادر الحجرة وهو يتشاءم.

تقلّب كمال على جنبه ثم استلقى على ظهره مسترخيًا وثني ساعديه شابكًا راحته تحت رأسه، ومضى ينظر فيها أمامه بعينين لا تريان شيئًا... لتسعد بك رأس البرّ، لم تخلق بشرتك الملائكيّة لتصلّ حرّ القاهرة، فلتنطّب بموطئ قدميك الرمال، وليهنا بمشهدك الماء وأهواءه، سوف تشيدين بالمصيف، وعينك تنطقان بالسرّة والحنين، فأتطلع إليهما بقلب مشوق وعين تسأل الغيب - في حيرة - عن المكان الذي استهواك فاستحقّ عن جدارة رضاك... ولكن متى تعودين ومتى ينسكب في أذنّ تغريدك المسحور؟ كيف المصيف؟ ليتني أدري... قيل إنّه حرّية كالهواء، ولقاء بين أحضان الماء، وأهواء بعدد حبّات

الرمال... وخلق كثيرون يحظون بمحياك... أنا... أنا الذي غفقت قلبه تنن لشكائنا الجدران فأتلقى في سعي الانتظار. هيهات! أن تنسى وجهك المنطلق بالبرّ وأنت تغمغمين: «مسافر غدا... ما أجل رأس البرّ، ولا اكتئاب وأنا أتلقى نذير الفرق من ثغر يسمو بسنا السرود كمن يتلقى السّم مدسوسًا في طاقة من الزهر الفلّاح، ولا غيبي من الجباد الذي قدر على إسعادك حين عجزت وحظي بموتك حين حرمت. ألم تلحظي حين الوداع اكتئاب؟ كلّا لم تلحظي شيئًا، لا لأنّي كنت واحدًا بين كثيرين ولكن لأنك يا حبيبة لا تلحظين... كأنما كنت شيئًا لا يسترعي انتباهك... أو كأنما أنت مخلوق بديع غريب استوى فوق الحياة يطالعا من غلّ بعينين هائميتين في ملكوت لا ندره... هكذا وقفنا وجهًا لوجه... أنت شعلة من سعادة سادة، وأنا رماد من وجوم وكآبة... تحظين بحرّية مطلقة أو تذهنين لسن فوق مداركتنا، وأنا أدور في فلكك مجنونًا بقوة هائلة... كأنك الشمس، وكأنني الأرض، هل وجدت عند الشاطئ حرّية لم تنعمي بها في مغابي العباسيّة؟ كلًّا، وحقّ قدرك عندي... لست كالآخرين... في حديقة القصر والطريق، آثار عاطرات لقديمك... وفي قلب كلّ صديق ذكريات وآمال... آنسة سهلة ممتنعة، تطوف بنا على غير مثال، كأنّ الشرق قد استوهبها الغرب في ليلة القدر... أيّ جديد من الجود ترى عيّن إذا امتدّ الشاطئ وترامى الأفق واكتظّ الساحل بالمعجبين؟ أيّ جديد يا أمي وحسرتي؟ القاهرة في غيبتك خواء تنضح كآبة ووحشة، كأنها عجارة الحياة والأحياء... ثمة مناظر ومعالم، ولكنّها لا تخاطب وجدًا ولا تحرك قلبًا، كأنها عاديّات الدنيا وذكرائها في قبر فرعون لم يفصّ... ما من مكان بها يعدني بعزاء أو تسليه أو مسرة. إخالني حيّنا نخنقًا وحيّنا سجينًا وحيّنا مفقودًا ضالًا غير مفتقد. يا عجبا! أكان وجودك ينيل أملًا أفقدنيه البعاد؟ كلّا يا قضائي وقدري، ولكنك كالأمنية، الاستغلال بجناحها برّذ وسلام وإن

اعتصمت بالحال، هل يُقني المشتاق المتطّلع إلى ظلمة
السماء معرفته أنّ البلد يسطع فوق المكان الآخر من
الأرض؟ ... كذا وإن لم يدرك لبلد امتلاكاً. إنّما أطمع
إلى الحياة في صميمها ونشوتها وبفلاّح الألم، بل أنت
حالة في ما خلق الفؤاد والفضل لهذا المخلوق
الأسحري: الذاكرة. عن إعجازها غفلت حتى
عرفتك، اليوم أو غداً أو بعد دهر في العباسية أو رأس
السرّ أو في أقصى الأرض لن تبرح تخيلتي عينك
السوداوان الساجيتان، وحاجبك المقرونان، وأنفك
السويّ اللطيف، ووجهك الذريّ الخمرى، وجيدك
الطويل، وقامتك الهفاء، وما شئت من سحر يكتنفك
مزيّراً بكلّ وصف مسكراً كسرف الفلّ والياسمين،
لاملكن هذه الصورة ما ملكت الحياة، وبعد الحياة
لنقتوَضَ عوائل وموانع فيكون المصير إلى... إلى
وحدني بما أحببت هذا الحبّ كلّهُ... وإلاّ فخبريني
عن معنى لهذه الحياة ينشد أو عن طعم للمخلود يرام.
لا تزعم أنّك سبرت جوهر الحياة إلاّ أن تحبّ، السمع
والبصر والنزوق والجدّ واللّهو والمودة والظفر مسرات
تجوي عند من فعم الحبّ قلبه، من أوّل نظرة، يا
قلبي. ما ارتثت عنها عيناى حتى أمنت بأنّها زيارة
مقيم لا زيارة عابر، لحظة خاطفة حاسمة، ولكن في
مثلها تخلق الأرواح في الأرحام وتززلّ الأرض...
ربّاه لم أهد أنا... قلبي تلاطمه جدران الأضلع،
أسرار السحر تنفث معانيها، العقل يثادى حتى يمسّ
الجنون، اللذة تسطع حتى تعانق الألم، أوتار الوجود
والنفس تجود بالنغم المكنون، دمي يصرخ مستغيثاً لا
يدري ممّ يستغيث، الأعمى يبصر والكسح يسير
واليت يحيا، حلفتك بكلّ عزيز ألاّ تنهني أبداً، أنت
يا إلهي في السماء وهي في الأرض، أمنت بأنّ ما مضى
من حياتي كان تمهيداً لبشارة الحبّ، لم أمت صغيراً ولم
ألتحق بمدرسة غير فؤاد الأوّل ولم أصادق أوّل ما
صادقت من تلاميذها حسين ولم... ولم... كلّ
أولئك كي أدعى يوماً إلى قصر آل شدّاد، يا للذكرى
يكاد القلب من وقعها يقتلع، كنت وحسين وإسماعيل
وحسن منهمكين في شقّ الأحاديث حين ورد مسامعتنا

صوت رخيم محيّا، التفتُ وأنا من الذهول في
غاية... من تكون القادمة؟... كيف لفنة أن
تقتحم على غريباء مجلسهم؟... ثمّ سرعان ما
انقطعت عن التنازل... وتناست التقاليد جيّماً...
وجدتني حيال مخلوق لا يمكن أن يكون من هذه
الأرض جاء. بدت وكأنّها صديقة للجميع إلّاي،
فقال حسين يعارف بيننا: «صديقي كمال... أخوتي
عابده ليلتلت عرفت لم خلقت... لم لم أمت... لم
دفعني المضايير إلى العباسية، وحسين، وقصر آل
شدّاد، متى كان ذلك؟ كان الزمان نسيّاً منسياً
واسفاه إلاّ اليوم، كان يوم الأحد... عطلة
مدرستها الفرنسية الذي صادف عطلة رسمية لعلها
مولد النبيّ، وعلى اليقين كانت مولدي أنا، ما قيمة
التاريخ؟ سحر التقويم أنّه يوهنا بأنّ الذكرى تُبث
حيّة وتعود ولو أنّ شيئاً لا يعود، لن نفتأ نجحذ في
البحث عن التاريخ، ولن نفتأ تردّد: مطلع السنة
الثانية بالمدرسة... أكتوبر نوفمبر... حين زيارة
سعد للصعيد وقبل نفيه للمرة الثانية... مستغيثاً
الذاكرة والشواهد والأحداث وليس إلّا أنّك تشبّثت
تشبّث اليأس باستعادة سعادة مفقودة وعهد مضى إلى
الأبد. لو مددت يديك عند التعارف كما كنت
لصافحتك فعرفت مسها، وهو ما تتخيّل حيناً بعد
حين بشعور ملؤه الشكّ والهبام، كأنما هي مخلوق غير
جسائيّ لا ممّ له... وهكذا ضاعت فرصة كالحلم
كما ضاع الزمان، ثمّ أقبلت على صديقها تحادثها
ومحادثها - بغير كلفة - وأنت قابع في مقعدك تحت
الكشك تكاد حيرة التشبّع بتقاليد حيّ الحسين، حتى
عدت تتساءل: ترى، أهي تقاليد خاصة بالقصور، أم
نفحة من باريس التي نشأ المعبود بين أحضانها؟...
ثمّ تستغرق في رخامة الصوت وتستلهم نبراته وتشتفي
بتفريده وتقتلّ بكلّ حرف ينث عنه، ولعلك - يا
مسكين - لم تدرك وقتها أنّك تولد من جديد، وأنك
كالوليد سوف تستقبل دنياك الجديدة بالارتياح
والدموع. وقالت ذات الصوت الرخيم: وسندب
هذا المساء لمشاهدة الغنثورة. فسألها إسماعيل ياساً:

وأنحين منيرة المهديّة؟... فتركدت كما ينبغي لأنسة نصف باريصة، ثم أجابت: «ماما تحبها»، ثم اشتركت حسين وإسمايل وحسن في حديث عن منيرة وميّد درويش وصالح وعبد اللطيف البنا، ثم ما أدري إلا والصوت الرخيم يسأل: «وأنت يا كمال، ألا تحب منيرة؟»، أتذكر ذلك النداء الذي نزل على غير انتظار؟ أعني أتذكر النعمة الطيبة التي تحسّمها؟ لم يكن قولاً، ولكن نغماً وسحراً استقرّ في الأحشائى كي يفرد دوماً بصوت غير مسموع ينصبّ فؤادك إليه في سعادة ساهرة لا يدرها أحد سواك، كم روعك وأنت تتلقاه، كأنّ هاتفاً من السماء اصطفاك فردّ اسمك، سُقيت المجد كله والسعادة كلها والامتنان كله في نبلة واحدة وودت بعدها لسر عتف مستجداً: «هزملوني... دُفّروني»، ثم أجبت وإن كنت لا أذكر بماذا أجبت، لبثت دقائق ثم ودّعنا ومضت، في عينيها السوداوين نظرة أنيقة، تنمّ إلى جمالها الفاتن عن صراحة عجيبة وجرأة مصدرها الثقة - لا الاستهتار أو الفحة - وترفع مروع، كأنها تجلبك وتدفّك معاً... جمالها فتنة لا أدرك له كنفاً ولا أدري له شبيهاً، وكان يجئ إلى كثيراً أنه ليس إلا ظلّاً لسحر أعظم يكمن في شخصها... من أجل أيّ هذين أحبها؟... كلاهما لغز، ولغز ثالث هو حبي. يتراجع ذلك اليوم كل يوم يوماً إلا أنّ ذكرياته ناشبة في قلبي أبداً. لبناتها مكان وزمان واسمها وصحاب وأحاديث يتقبّل القلب في جنباتها نشوان حتى يجال أنها الحياة جيماً، فيتساءل فيها يشبه الشك: هل كانت ثمة وراء ذلك حياة؟... هل حقاً مضى زمن قبلها حلال من الحب قلبي وأفسرت من تلك الصورة الإلهية نفسي؟ ربما أسكرتك السعادة حتى تحزن على ما ضاع من ماضٍ جليل وريماً لسعلك الألم حتى تلوب حسرات على السلام الذي ولّى، وبين هذا وذاك لا يبعد قلبك إلى الاستقرار سبيلاً، فيمضي ملتصقاً الشفاء في شقّ العقاقير الروحية، يستمدّها من الطبيعة آنأً، ومن العلم آنأً، ومن الفنّ حيثاً، وفي العبادة أحياناً كثيرة... قلب استيقظ فانطلقت من صميمه شهوة مولعة بالمسرات الإلهية... أيها الناس

حيّوا أو موتوا... لسان حالك وأنت تسير مزهواً فخوراً بما تحمّل بين جنبيك من نور الحبّ وأسراره... يزدحمك علو فوق الحياة والأحياء، ويصل أسبابك بالسماوات جسر مفروش بورود السعادة، وأنت أنت الذي تخلو حيناً آخر إلى نفسك فتطغى عليك حساسية اليمة مريضة بإحشاء النقائص وتقصيها بلا رحمة في كائنك الصغير وذنيك المتواضعة وهنالك الأدمية... رياه، كيف تخلق نفسك من جديد؟ هذا الحبّ طاغية يتيه فوق كافة القيم وفي ركابه يتألّق معبودك، لا تكملّه الفضائل ولا تنقصه المثالب، النقصة تلوح في تاجه الدرّي حسناً يشغلك إعجاباً، هل أزرى بها في نظرك أن تخرج حلّ التقاليد المريّة؟ كلاً، بل إنّ خروجها بالتقاليد المريّة أزرى. يطيب لك أحياناً أن تسأل نفسك: ماذا تروم من حبّها؟ أجب بكلّ بساطة: أن أحبّها، أيّهوز أن تنيق في النفس هذه الحياة كلها ثم يتساءل عن شامة وراهها؟ لا شيء وراهها. العادة هي التي ربطت بين لفظي الحبّ والزواج، ليست فوارق السنّ والطبقة هي وحدها التي تجعل من الزواج غاية مستحيلة في مثل حالي، ولكنه الزواج نفسه، بما يستلزم الحبّ من سيالة إلى أرض العقود والعرق... ويسالك الذي يأنّ إلا أن يحاسبك، يتمّ جدت عليك لقاء التهلك في حبّها؟ أجيء بلا تردّد: ابتسامة فاتنة، وها كمال الغالية، وزيارتها للحديقة في الأوقات السعيدة النادرة، وترائها مع الصباح النديّ، وسيارة المدرسة تخفي بها، ومعابيتها الخيال في سجات البقطة وتبوم الأحلام. ثمّ تسالك النفس الطمّاعة المجنونة: أمن المحال أن يكون المعبود مشغولاً بأمر عابده؟... أجيء غير مستسلم لإغراء الآمال الكواذب: حسن أن يذكر عند العودة اسمنا... .

- بسرعة إلى الحظّ، هل تأخّرت؟!

مالت عينا كمال - وقد لاح فيها رجع المفاجأة - إلى ياسين الذي عاد إلى الحجرة وهو ينشف رأسه بالفوطة، ثمّ وثب إلى الأرض بقدا فرعه الطويل نحيفاً، وألقى نظرة طويلة على المرأة كأنها بتفحص

وأنحنين منيرة المهديّة؟... فتركدت كما ينبغي لأنسة نصف باريصة، ثم أجابت: «ماما تحبها»، ثم اشتركت حسين وإسمايل وحسن في حديث عن منيرة وميّد درويش وصالح وعبد اللطيف البنا، ثم ما أدري إلا والصوت الرخيم يسأل: «وأنت يا كمال، ألا تحب منيرة؟»، أتذكر ذلك النداء الذي نزل على غير انتظار؟ أعني أتذكر النعمة الطيبة التي تحسّمها؟ لم يكن قولاً، ولكن نغماً وسحراً استقرّ في الأحشائى كي يفرد دوماً بصوت غير مسموع ينصبّ فؤادك إليه في سعادة ساهرة لا يدرها أحد سواك، كم روعك وأنت تتلقاه، كأنّ هاتفاً من السماء اصطفاك فردّ اسمك، سُقيت المجد كله والسعادة كلها والامتنان كله في نبلة واحدة وودت بعدها لسر عتف مستجداً: «هزملوني... دُفّروني»، ثم أجبت وإن كنت لا أذكر بماذا أجبت، لبثت دقائق ثم ودّعنا ومضت، في عينيها السوداوين نظرة أنيقة، تنمّ إلى جمالها الفاتن عن صراحة عجيبة وجرأة مصدرها الثقة - لا الاستهتار أو الفحة - وترفع مروع، كأنها تجلبك وتدفّك معاً... جمالها فتنة لا أدرك له كنفاً ولا أدري له شبيهاً، وكان يجئ إلى كثيراً أنه ليس إلا ظلّاً لسحر أعظم يكمن في شخصها... من أجل أيّ هذين أحبها؟... كلاهما لغز، ولغز ثالث هو حبي. يتراجع ذلك اليوم كل يوم يوماً إلا أنّ ذكرياته ناشبة في قلبي أبداً. لبناتها مكان وزمان واسمها وصحاب وأحاديث يتقبّل القلب في جنباتها نشوان حتى يجال أنها الحياة جيماً، فيتساءل فيها يشبه الشك: هل كانت ثمة وراء ذلك حياة؟... هل حقاً مضى زمن قبلها حلال من الحب قلبي وأفسرت من تلك الصورة الإلهية نفسي؟ ربما أسكرتك السعادة حتى تحزن على ما ضاع من ماضٍ جليل وريماً لسعلك الألم حتى تلوب حسرات على السلام الذي ولّى، وبين هذا وذاك لا يبعد قلبك إلى الاستقرار سبيلاً، فيمضي ملتصقاً الشفاء في شقّ العقاقير الروحية، يستمدّها من الطبيعة آنأً، ومن العلم آنأً، ومن الفنّ حيثاً، وفي العبادة أحياناً كثيرة... قلب استيقظ فانطلقت من صميمه شهوة مولعة بالمسرات الإلهية... أيها الناس

أن يتزوّج على تأريخ آخر شتمه تلقأها من أبيه، حتى تذكر أنّه كان ذلك قبل عامين على وجه التقريب، أو بعد حبّه - الذي غدا يؤرّخ به - بعام، إذ شعر وتذكّر بأنّ مصادفته لشبان من طراز حسين شذاد وحسن سليم وإسماعيل لطيف تتطلب زيادة كبيرة في مصروفه كي يتأتّى له مجاراتهم في لوهوم البريء، فشكا أمره إلى أمّه راجياً لها أن تخاطب أباه في شأن الزيادة المأمولة، ومع أنّ مخاطبة الأب - في مثل هذا الأمر - لم تكن يسيرة على الأمّ، إلّا أنّها هانت بعض الشيء بتغيّر معاملته لها عقب وفاة فهمي، فحدثته منوّعة بمعلّقة جديدة مشرفة لابنها بأصدقائه من «الأكابر»، وعند ذلك دعا السيّد كيال، وصبّ عليه غضبه، حتّى صاح به: «هل ظننتني تحت أمرك أو أمر أصحابك!... ملعون أبوك وأبوهم»، فغادره كيال خائب الرجاء وقد ظلّ أنّ الأمر انتهى عند ذلك... ولكنّه ما يدري إلّا والرجل يسأله عن هويّة أصدقائه على مائدة إفطار اليوم التالي، وما إن سمع اسم حسين عبد الحميد شذاد، حتّى سأله باهتمام: «من العباسيّة صاحبك؟». فاجاب كيال بالإيجاب، وقلبه يثقف، فقال السيّد: «كنت أعرف جدّه شذاد بك، وأعرف أيضاً أنّ أباه عبد الحميد بك كان مبعداً في الخارج لسابق علاقته بالخديوي عباس... ليس كذلك؟»، فاجاب كيال بالإيجاب مرّة أخرى، وهو يغالب وجده الذي أمانجه الحديث عن والد معبودته وذكر توتّه ما علم عن الأعوام التي قضتها الأسرة في باريس، حيث تعرّعت معبودته في نور مدينة النور، فما تمالك أن شعر نحو أبيه بإجلال وإكبار جديدين وموقّة مضاعفة، وعدّ معرفته لجّد معبودته رقية سحرية تنسبه - ولو من بعيد - إلى منزل الوحي وبمعت السنا. ثمّ ما لبثت أمّه أن زكّت إليه بشرى موافقة والده على مضاعفة مصروفه.

منذ ذلك اليوم لم يتعرّض لشتمه جديدة، إمّا لأنّه لم يرتكب ما يستوجبها، وإمّا لأنّ أباه رأى أن يعفيه من الشتم إطلاقاً... وقف كيال إلى جانب أمّه في المشربية يشاهدان السيّد أحمد في الطريق، وهو يرّد - في وقار ولطف - تحيّات عمّ حسين الحلالّ والحاجّ

رأسه الضخم وجبينه البارز وأنفه الذي تراهى لكبره وقوّته كأنّه منحوت من الجرانيت، ثمّ تناول فوطته من على شبك السرير ومضى إلى الحمام.

وكان السيّد أحمد قد فرغ من الصلاة، فعلا صوته الغليظ بالدعاء المعتاد للأولاد ونفسه، سائلًا الله الهداية والستر في الدارين... وفي أثناء ذلك كانت أمينة تعدّ المائدة، ثمّ ذهبت إلى حجرة السيّد، فدعته - بصوتها الوديع - إلى تناول الفطور، وأنجّحت إلى حجرة ياسين وكيال فكرّرت الدعوة.

أخذ الثلاثة أمابهم حول الصنيّة، ويسمل الأب وهو يتناول رغيفاً معلّناً بدء الأكل، فتبعه ياسين ثمّ كيال، على حين وقفت الأمّ وقفتها التقليدية إلى جانب صنيّة القل. كان مظهر الأخوين يدلّ على الأدب والخشوع، ولكن خلا قلبهما - أو كادا - من الخوف الذي كان يركبها - قديماً - في حضرة الأب، ياسين: لأنّ بلوغه الثامنة والعشرين منحه امتيازاً من امتيازات الرجولة، وضماناً ضدّ الإهانات الجارحة والاعتداءات التعسّية، وكيال: لأنّ بلوغه السابعة عشرة، وتقّده في الدراسة وهياه نوعاً من الضمان أيضاً إلّا يكن بقوّة ضهان ياسين، فإنّه لم يخلّ من العفو والتسامح على الأقلّ في المفوات التافهة، إلى أنّه آس من أبيه في السنوات الأخيرة أسلوباً من المعاملة تخفّف من البطش والإرهاب بدرجة محسوسة، ولم يكن من النادر أن يدور حديث مقتضب بين الأكلين بعد أن كان الصمت يتحكّم في مجلسهم تحكّماً خفيّاً، إلّا أن يسأل الأب أحدهم فيجيب بعجلة ولهجة ولو بنمّ محمّل بالطعام. أجل لم يعد غريباً أن يخاطب ياسين أباه، فيقول مثلاً: «وزرت أمس رضوان في بيت جدّه، وهو يقرّكم السلام ويقتل بذكهم»، فلا يعدّ السيّد الخطّاب جراً غير محمودة، ولكنّه يقول له ببساطة: «وربّنا يحفظه ويرعاه... ولا يبعد عند ذلك أن يتساءل كيال بادب، محدثاً بذلك تطوّراً خطيراً في علاقته التاريخية بأبيه: «معي يستحقّ رضوان شرعاً لأبيه يا بابا؟». فيجيبه السيّد: «وعندما يبلغ السابعة»، بدلاً من أن يصيح به: «اعرض يا ابن الكلب». طلب لكيال يوماً

عرشه فوق النقاء!
- أنت اليوم عريس! اليوم عيد من أعيادك
الظافرة، اليس كذلك؟ لولا نحافتك ما وجدت ما
أؤاخذك عليه...

قال كيال مبتسماً:

- إني راضٍ عنها.

ألقى ياسين على صورته نظرة أخيرة، ثم وضع
الطربوش على رأسه وأماله يمنة بمنية حتى أوشك أن
يمس حاجبيه، ثم قال وهو يتجشأ:

- أنت حمار كبير يحمل البكالوريا، تمتع بالطعام
والراحة فهذه هي العطلة، كيف تسول لك نفسك أن
تقرأ في العطلة أضعاف ما تقرأ في عمامك الدراسي؟!
اللهم إني بريء من النحافة وأصحابها!

ثم، وهو يغادر الغرفة والمنشة العاجية في يده:

- لا تنس أن تختار لي قصة جيدة، مثل «باردليان»،
«فوستا»، ... هه... مضى زمن كنت تستجديني فصلاً
من رواية، هاك زمناً أخبر أشحكك فيه القصص!
ارتاح إلى الوحدة التي يخلو فيها إلى نفسه، فنهض
وهو يفهم: من أين له بالدانة والقلب لا ينام؟ لم
تكن تحلو له الصلاة إلا خائلاً، صلاة بالجهاد أشبه
ويشترك فيها القلب والعقل والروح، جهاد من لا
يضنّ بجهد للفرز بالضمير الطاهر النقي ولو لاحق
نفسه بالحساب تلو الحساب على الحفوة والخاطرة...
أنا الدعاء في أحقاب الصلاة، فلها، لها وحدها...

- ٣ -

عبد المنعم: الفناء أوسع من السطح، ولا بد أن
نزيح الغطاء عن البئر لنرى ما فيها...
نعيمه: مستغضب ماما وخالي وجدتي...
عثبان: لن يرانا أحد...
أحمد: البئر فطيمة، وموت من ينظر فيها.
عبد المنعم: نرفع الغطاء، ثم ننظر من بعيد... (ثم
بصوت مرتفع)... هيا بنا ننزل.

أم حنفي: (معتزة باب السطح) لم يبق في خيل
للنزول والطلوع، فلتنزع السطح فطلعتنا السطح،

درويش بائع الفول والفولج اللبان ويومي الشربلي،
وأبو سريع صاحب القل. ثم رجع إلى الحجرة حيث
وجد ياسين واقفاً أمام المرأة يتألق في عناية وصبر.
جلس على كنية بين السريرين، وراح يتأمل جسم
أخيه الطويل البدين ووجهه المورّد المكتنز بنظرة باسمه
غامضة، كان يكرّ له حباً أخوياً صادقاً، بيد أنه لم
يكن يستطيع - كلياً أنعم فيه الفكر أو النظر - أن يقاوم
شعوراً خفياً بأنه حيال «حيوان ألف جميل»، على رغم
أنه أول من هز أوتار أذنيه بأنغام الشعر ونفثات
القصص، ربما تسام، تساؤل من يرى في الحب
جوهر الحياة والروح، أمن الممكن أن يتصور ياسين
عاشقاً؟ فيتمثل الجواب ضحكة باطنية أو مطلقة،
أجل ما للحبّ وهذه الكرش المترعة! ما للحبّ وهذا
الجسم اللحم! ما للحبّ وهذه النظرة الشهوانية
الساخرة! ثم لا يتألك أن يجد نحوه إحساساً بالازدراء
المطّف بالمعطف والود، وإن لم يجلّ أحياناً - خاصة في
الأوقات التي تعتمري حبّ فيها نوبة من نوبات الألم
والخبط - من عاطفة إعجاب بل حسد، كذلك بدا
ياسين لعينيه أبعد ما يكون عن عرش الثقافة، الذي
بوّاه إياه قديماً حينما كان يظنه عالماً ساحراً مالئاً لغفون
الشعر والقصص، تكشف له قارئاً سطحياً يفتح من
وقت مجلس القهوة بضع ساعة يتنقل فيها بلا جهد أو
عناء بين الحماة وقصة من القصص قبل انطلاقه إلى
قهوة أحمد عبده، حياة عاطلة من بهاء الحبّ وأشواق
المعرفة الحقيقية وإن كرّ لصاحبها حباً أخوياً لا تشوبه
شائبة... لم يكن كذلك فهمي، كان مثله الأعلى في
الحبّ والعقل، ولكنه بدا أخيراً كالتخلف بعض
الشيء حياً يطعم إليه، أجل ساوره شك يقارب اليقين
في أن فتاة كمرهم يمكن أن تبعث في النفس حباً حقيقياً
كالحبّ الذي يضيء به نفسه، كما ارتاب في أن تضاهي
الثقافة القانونية التي نزع إليها أخوه الراحل المعرفة
الإنسانية التي يتشوّقها بكل قوة نفسه، كان يتأمل من
حوله بعين تفتتح على التأمل والتدق، وذهب في ذلك
كلّ مذهب، ألا أنه وقف عند عتبة أبيه لا يمرّ على
أن يرفع قدمًا، لاح الرجل لعينيه شيئاً هائلاً يترفع على

وقلتم تنزل الفناء فنزلنا إلى الفناء، نطلع السطح مرة ثانية فقلعنا السطح مرة ثانية، ماذا تريدون من الفناء؟... الجوّ حارّ تحت، أمّا هنا فالنسمة جارية، وعيّا قليل تغيب الشمس.

نعمة: سيرفون غطاء البئر لينظروا فيها...
 أمّ حنفي: سانادي ستّ خديجة وستّ عائشة.

عبد المنعم: نعمة كذّابة، لن نرفع الغطاء، ولن نقرب منه، سنلعب في الفناء قليلاً ثمّ نعود، ابقي هنا حتّى نعود.

أمّ حنفي: أبقي هنا؟! يرشلي على رجليكم، الله يسديكم... ليس في البيت كلّ مكان أجمل من السطح، انظروا إلى هذا البستان!

عمدّ: نامي لأركبك...
 أمّ حنفي: كفاية ركوب، اختر لنفسك لعبة أخرى، الله، الله... انظروا إلى الياسمين واللبّاب، انظروا إلى الحيام...
 عثمان: أنت قبيحة كالجاموسة، ورالحكك تنّة...
 أمّ حنفي: الله يساعلك، عرقي سال من الجري وراءكم.

عثمان: خلعنا نر البئر ولو شوية صغيرة.
 أمّ حنفي: البئر ملأى بالمفاريت، ولذلك سدّدناها.

عبد المنعم: كذّابة، لم تقل ماما ولا خالتي هذا...
 أمّ حنفي: الحقيقة عندي أنا، وأنا وسّتي الكبيرة، كُنا نراهم رؤية العين، فانتظرونا حتّى دخلوا، وألقينا على لوحة البئر الغطاء الخشبيّ وأقلّناه بالحجارة. لا تذكروا البشر، وقولوا مي: «باسم الله الرحمن الرحيم»...
 عمدّ: نامي لأركبك.

أمّ حنفي: انظروا إلى اللبّاب والياسمين! ليت عندكم مثلها، ليس في سطحكم إلّا الدجاج والخروغان اللذان تسنّونها للبعد.

أحمد: ماما... ماما... ماما...
 عبد المنعم: هاتي سلّكاً لنطلع عليها!

أمّ حنفي: يا ساتر يا ربّ، الولد خاله، العبوا في الأرض لا في السماء.

رضوان: في شرفة بيتنا وفي السلامك أصمّ ورد أحرّ وأبيض وقرنفل...
 عثمان: عندنا خروغان ودجاج...
 أحمد: ماما... ماما... ماما...
 عبد المنعم: أنا في الكتاب، من منكم في الكتاب؟
 رضوان: أنا حافظ «الحمد».

عبد المنعم: الحمد، كُبة ليه!
 رضوان: إخص، أنت كافر.

عبد المنعم: هذا ما يتفقّى به العريف في الطريق...
 نعمة: قلنا ألف مرة لا تردّد كلامه...
 عبد المنعم: (لرضوان) لماذا لا تعيش مع باباك خالي ياسين؟
 رضوان: أنا عند ماما.

أحمد: أين ماما؟
 رضوان: عند جدّي الآخر!

عثمان: أين جدّك الآخر؟
 رضوان: في الجبال... في بيت كبير وسلامك.

عبد المنعم: لماذا أمك في بيت، وأبوك في بيت؟
 رضوان: ماما عند جدّي هناك، وبابا عند جدّي هنا...
 عثمان: لمّ لا يوجدان في بيت واحد مثل بابا وبابا...؟

رضوان: القسمة والتصيب، هذا ما تقوله جدّي الأخرى!

أمّ حنفي: قرّرهو حتّى أقرّ، لا حول ولا قوّة إلّا بالله! ارحموه والبوا...
 أحمد: نامي لأركبك...
 رضوان: انظروا إلى العصفورة فوق عود اللبّاب...
 عبد المنعم: هاتوا سلّكاً، وأنا أقبض عليها...
 أحمد: لا ترفع صوتك، إنّها تنظر إلينا وتسمع كلّ كلمة نقولها...
 نعمة: ما أجملها، عرفتها! هي العصفورة التي رأيتها أمس فوق جبل الغسيل عندنا...
 أحمد: الأخرى في السكّرة، فكيف عرفت الطريق إلى بيت جدّي...؟

عبد المتعم : يا حمار، العصفورة تطير من السكّرية إلى هنا وتعود قبل المساء .

عشّان : أهلها هناك وأقاربها هنا... .

محمّد : نامي لأركبك، أو أبكي حتى تسمعي ماما... .

نعيمة : بلعب الحجلة؟

عبد المتعم : بل تتسابق... .

أمّ حفي : من غير شجار بين السابق والمسبوق .

عبد المتعم : اسكتي يا جاموسة... .

عشّان : ناععع... ناععع .

أحمد : ماء... ماء... ماء .

محمّد : سادخل السباق راكباً، نامي لأركبك... .

عبد المتعم : واحد . . . اثنان . . . ثلاثة... .

احتضى السيّد أحمد عبد الجواد بالمدهويّن فاحسل نفسه لهم النصف الأوّل من النهار كلّهُ، ثمّ توسّط مائدة الوليمة التي ضيّت: إبراهيم شوكت، وخليل شوكت، وباسين وكيال. ثمّ دعا بالرجلين إلى حجرة نومه في جلسة عائليّة، فمضوا يتسامرون في جوّ من المودة والمؤانسة وإن لم يخل من تحفظ من ناحية السيّد وثأب من ناحية صهره، مصدره ما يلتزمه الرجل في المعاملة مع آل بيته حتّى الوارد من الخارج معهم على رغم المقاربة في السنّ بينه وبين إبراهيم شوكت زوج خديجة .

ودعي الأطفال إلى حجرة الجلد ليقبّلوا يده ويتلقّوا هداياه النفيسة من الشيكولاطة والملمين، فتقدّموا إليه بترتيب أسنانهم: نعيمة بنت عائشة أوّلًا، فريضان بن ياسين، فعيد المتعم بن خديجة، فعشّان بن عائشة، فأحمد بن خديجة، ثمّ محمّد بن عائشة. راح السيّد المساواة المطلقة في توزيع عطفه وإبتساماته على أحفاده، متهمّاً فرصة خلق الحجرة من مراقبين - عدا إبراهيم وخليل - ليتخفّف بعض الشيء من تحفظه المأثور، فهوّ الأيدي الصغيرة بترحاب، وقصر الحدود المورّدة بحنان، ولثم الجباه وهو يداعب هذا ويمزح ذاك، وظلّ مراعيًا المساواة حرصًا عليها حتّى مع فريضان أحظى الصغار بمحبّته .

كان من عادته إذا خلا إلى أحد من أحفاده أن يتخصّصه بشغف، مدفوعًا بمواطف أصيلة كالأبوّة وأخرى دخيلة كحبّ الاستطلاع . وكان يجد لذّة كبيرة في تتبّع ملامح الأجداد والآباء والأهتاف في السلالات الجديدة الصاعدة التي لم تكد تلقّن احترامه فضلًا عن مخالفته، وقد أسره جمال نعيمة ذات الشعر الذهبيّ والعينين الزرقاوين التي فاقت أمّها نفسها حسنًا ورواءً، فسالتحت الأسرة بقسمات غنيّة من الحسن بعضها مشتقّ من أمّها والبعض الآخر متوارث عن آل شوكت، وعلى هذا المنهج من الجهال سار شقيقها عشّان ومحمّد مع ميل واضح إلى ملامح الأب - خليل شوكت - خاصّة في عينيّ الواسعتين البارزتين ذوات النظرة الماددة الحاملة، وعلى خلاف هذا تبدّى عبد المتعم وأحمد ابنا خديجة، فيشرتهما وإن تكن شوكتيّة، إلّا أنّ عينيها هما عينا الأمّ أو الجلّة الصغيرتان الجميلتان، أمّا الأنف فيندر بمشابهة أنف الأمّ أو الجدّ على الأصحّ، أمّا فريضان فما كان له إلّا أن يكون جهلًا حظي بعيني أبيه أو عينيّ السوداوين المكونتين وشرّة آل عمتّ العاجيّة، وأنف ياسين المستقيم . أجل ترقرقت الملاحه في وجهه أسرة . مضى زمن طويل مذ كان يتعلّق به أطفاله بلا خوف من ناحيتهم ولا تكلف من ناحيته كما يفعل الأطفال اليوم، يا لها من أيام! ويا لها من ذكريات! ياسين وخديجة وفهمي ثمّ عائشة وكيال، ما منهم إلّا وقد دغدغه تحت إبطه وأركبه منكبيه، ترى هل يتذكّرون؟ لقد كاد هو ينسى، على أنّ نعيمة تبدو رغم إبتسامتها الرضيّة متحلّية بالحياه والأدب، أمّا أحمد فلم يكتف عن المطالبة بالزيد من الشيكولاطة والملمين، على حين وقف عشّان ينتظر نتيجة المطالبة بفارغ الصبر، وأمّا محمّد فهوّل إلى الساعة اللهيّة وأخاتم الماسي في جوف الطربوش وكبشهما في استخلصهما خليل شوكت من يده إلّا بالقوّة . ومّرت لحظات توزّع السيّد الارتباك والخيرة، فلم يدر ماذا يفعل وهو محاط، بل مهذّب من كلّ جانب بالأحفاد الأعزّاء... . وقبيل العصر غادر السيّد البيت إلى الدكان، ويذهابه تمتّع الصلاة - حيث اجتمع بقيّة

خديجة، ولكن خليل شوكت بادر قائلاً:
- صدقت خديجة هائم، إن لطواجيناً فضلاً علينا
جميعاً، لا يمكن أن تنسى ذلك يا أخي...
فردد إبراهيم نظره بين زوجته وحاته، وهو يتبسم
كالمعتلر، ثم قال:

- معاذ الله أن أنكر هذا الفضل، ولكني بصدد
التحدث عن الملمعة الكبيرة (ثم وهو يضحك) وعلى
أي حال فأنا أنوه بفضل والدتك لا والدتي أنا!
وانتظر حتى خفت أصوات الضحك التي أثارها
قوله الأخير، ثم واصل تقريله مُتلفئاً نحو الأم، وهو
يقول:

- نعود إلى الطواجين، ولكن لم تقصر كلامنا على
الطواجين؟! الحق أن الصنف الأخرى لم تكن دون
الطواجين لذة وفخامة، خذوا مثلاً: البسطاطس
المحشو، الملوخية، الأرز المفلفل بالكبد والقوانص،
المحاشي المتنوعة، والله أكبر على الدجاج ولحمه
المكتنز... ختري أي غذاء تطعمينه يا حاتي؟
أجابته خديجة في تنهمج:

- من الطواجين تطعمه!
- سأكثر طويلاً عن إقاربي بالفضل لاهله، ولكن
الله غفور رحيم، مهما يكن من أمر فلندع الله أن يكثر
من أيام الأفراح... مبارك عليك البكالوريا يا سي
كيال، وعقبى للدبلوم إن شاء الله...
قالت أمينة بافتنان، وكانت موزدة الوجه من الحياء

والسرور:

- ربنا يفرحك بعد المنعم وأحد، ويفرح سي خليل
بنعيمة وعثان ومحمد، (ثم ملتفتة إلى ياسين) ويفرح
ياسين برضوان...

كان كيال يسترق النظر إلى إبراهيم حيناً وإلى خليل
آخر، وعلى شفثه ابتسامة ثابتة يداري بها عادة مله
من الحديث، الذي تعدد متعنه وتقضي اللياقة
بالاشتراك فيه ولو بحسن الإنصات. إن الرجل يتحدث
عن الطعام وكأنه لم يزل على المائدة سكران بشهوة
الأكل. الطعام... الطعام... الطعام... لم
استحق هذا التقديس كله؟ هذان الرجلان العجيبان

أفراد الأسرة - بكامل حرّيتها. ورثت صالة الدور
الأعلى أختها بالدور المهبور، ففُرت بحصيرها
وكنباتها، وعُلت بسقفها الفانوس الكبير، فخلدت مجلساً
ومقبى لمن تبقى من الأسرة في البيت القديم. وقد
حافظت طوال اليوم - رغم امتلائها - على هدوئها،
حتى إذا لم يعد يبقى من السيد إلا ما سطع في الجوّ من
عرف الكولونيا التي تطيب بها، استردت أنفاسها،
فتعالت بها الأصوات والضحكات، ودبت فيها
الحركة، وأخذ المجلس هيئته كالمعهد القديم، فتربعت
أمينة على كنبه أمام أدوات القهوة، وعلى الأخرى
المواجهة لها جلست خديجة وعائشة، وعلى ثالثة جانبية
قعد ياسين وكيال، وما لبث أن انضم إليهم إبراهيم
شوكت، وخليل شوكت - بعد ذهاب السيد - فجلس
إبراهيم إلى يمين حاته، وخليل إلى يسارها.

لم يكد إبراهيم يستقرّ على مجلسه، حتى خاطب
أمينة قائلاً بلهجة متوددة:

- بارك الله في اليد التي قلّمت لنا أشهى الطعام
واللّه (ثم وهو يردد عينه البارزتين الحاملتين في
الجلوس كائناً بلقي محاضرة) الطواجين...
الطواجين!... معجزة هذا البيت، ليس الطواجين بما
يحويه من المأكول - وإن لّد وطاب - ولكن بتسبيكه قبل
كل شيء. التسبيك هو كل شيء. هو الصنعة، وهو
المعجزة، دلّوني على طواجين كآلي التهنأها
اليوم!...

كانت خديجة تتابع كلامه باهتمام، وهي بين التأييد
له اعترافاً بمجاهرة أمها والاحتجاج عليه لتجاهله إياها،
فلما أسلك كي عين للمنصتين فرصة للإقرار برأيه، لم
تتألك من أن تقول:

- هذا حكم مسلم به وليس في حاجة إلى شهادة
شاهد، غير أنني أدكر - وأحب أن أفكر أيضاً - بأنك
ملأت بطنك في بيتك مراراً من طواجين لا تقل صنعة
عن طواجين اليوم!

ارتسمت ابتسامة - ذات معنى - على وجوه عائشة
وياسين وكيال، وبدا على الأم أنها تغالب حياءها،
لتقول كلمة تجمع بين الشكر لإبراهيم وإرضاء

لا يبدو أنها يتغيران مع الزمن، كأنها بمنأى عن تياره. وبينما عاد خليل إلى توكيد الشاء، أجهت عينا إبراهيم اليوم هو إبراهيم الأسس، لم يكد يطرأ عليه من إشرافه على الخفسين إلا أثر غير ملحوظ تحت العينين أو فيها حول طرفي الفم، ونظرة رزينة ثقيلة لم تكسبه وقاراً بقدر ما أكسبته مزيداً من الخمول، ولكن شعرة واحدة - سواء في رأسه أم في شاربته المفتول - لم تشب، وبدانته لم تزل مدجة قوية لم يعورها ترهل، إلى أن التشابه الذي جمع بين الشقيقتين إلا في أغراض لا يعتد بها: كالاختلاف بين شعر خليل السبط المرسل وشعر إبراهيم القصير المملوق، وتمائلهما في الصحة والنظرة الحاملة كان مما يبعث على الضحك والازدراء حقاً. وكانا يرتديان بذلتين من الحرير الأبيض وقد نزع كل منهما جاكته فلاح قميصه الحريري والأزوار الذهبية تلمع في عرا أكمامه. مظهر ينم عن وجاهة هي كل ما هنالك، في بحر السنوات السبع التي وصلت بين الأسترتين، كان يخلو إلى هذا أو ذاك منها كثيراً أو قليلاً، ولكن حديثاً واحداً ذا طعم لم يجر بينهم... فم الإنقاذ؟ ولولا ذاك ما كان هذا الانسجام الموقر بينهما وبين شقيقته؟ إنَّ الازدراء - من حسن الحظ - لا يناقض العطف والإيثار بالخير والمودة... أو... يبدو أن حديث الطواجن لم ينته بعد، ها هو سي خليل شوكت يتنهاى ليلقي كلمته:

- لم يُحدّ أخى إبراهيم الحقّ فيما قال، يَدّ لا عدمنها، ومائدة جدية بأن يناهى بها المنادون... كانت أمينة في أميها حبّ الشاء، وكثيراً ما تعانى مرارة الحرمان منه، لشعورها بالجدب الدائب الذي تبذله عن حبّ وطواعية في خدمة البيت وآله، وكثيراً ما نهت إلى سماع كلمة طيبة من السيد، ولكن السيد لم يكن من عادته أن يجود بالثناء عليها وإذا جاد ففي اقتضاب وفي أحوال نادرة لا تكاد تذكر، لذلك وجدت نفسها بين إبراهيم و خليل في موقف عَجَب غير مألوف مألها سروراً حقاً، ولكنه هيج لحدّ الارتباك حيها، فقالت تداري مشاعرها:

- لا تبلغ يا سي خليل، آت لك أم من يألّف طعنها يزهّد في أيّ طعام سواه... ها هو سي خليل شوكت يتنهاى ليلقي كلمته:

- لم يُحدّ أخى إبراهيم الحقّ فيما قال، يَدّ لا عدمنها، ومائدة جدية بأن يناهى بها المنادون... كانت أمينة في أميها حبّ الشاء، وكثيراً ما تعانى مرارة الحرمان منه، لشعورها بالجدب الدائب الذي تبذله عن حبّ وطواعية في خدمة البيت وآله، وكثيراً ما نهت إلى سماع كلمة طيبة من السيد، ولكن السيد لم يكن من عادته أن يجود بالثناء عليها وإذا جاد ففي اقتضاب وفي أحوال نادرة لا تكاد تذكر، لذلك وجدت نفسها بين إبراهيم و خليل في موقف عَجَب غير مألوف مألها سروراً حقاً، ولكنه هيج لحدّ الارتباك حيها، فقالت تداري مشاعرها:

- لا تبلغ يا سي خليل، آت لك أم من يألّف طعنها يزهّد في أيّ طعام سواه... ها هو سي خليل شوكت يتنهاى ليلقي كلمته:

- لم يُحدّ أخى إبراهيم الحقّ فيما قال، يَدّ لا عدمنها، ومائدة جدية بأن يناهى بها المنادون... كانت أمينة في أميها حبّ الشاء، وكثيراً ما تعانى مرارة الحرمان منه، لشعورها بالجدب الدائب الذي تبذله عن حبّ وطواعية في خدمة البيت وآله، وكثيراً ما نهت إلى سماع كلمة طيبة من السيد، ولكن السيد لم يكن من عادته أن يجود بالثناء عليها وإذا جاد ففي اقتضاب وفي أحوال نادرة لا تكاد تذكر، لذلك وجدت نفسها بين إبراهيم و خليل في موقف عَجَب غير مألوف مألها سروراً حقاً، ولكنه هيج لحدّ الارتباك حيها، فقالت تداري مشاعرها:

فوقفت عند التصميم على نيل ما تراه حلاً لها دون
الجوء إلى حدة لسانها الماثورة، لسابق منزلة المعجوز
من ناحية، وخطوبها من أن تشكوها إلى أبيها من ناحية
أخرى، ثم هداها مكرها إلى أن تحرض عائشة على
العصيان، ولكنها وجدت من الفتاة الكسول إعراضاً
وجنباً، لا حلاً في الحيلة ولكن إثارة للراحة والدعة
اللتين تمتعت بهما - بغير حساب - في ظل الحضانة
الإجبارية التي فرضتها حمايتها على الجميع، فصبت
غضبها عليها ورمتها بالضعف والتلبلة، ثم ركبها
العناد فواصلت «الجهاد» بلا تواني أو تردد حتى ضاق
صدر المعجوز فسلمت كارهة بحق كبتها «العجربة»
بالاستقلال بمطبخها وهي تقول لابنها الأكبر: «أنت
وشأنك. إنك رجل ضعيف لا قبل لك بتأديب
زوجك، وجزاؤك الحق أن تحرم من طعامي إلى
الأبد». ظفرت خديجة ببغيتها فاسترقت أدوات
جهازها النحاسية، وهبها لها إبراهيم المطبخ كما
رسمت، ولكنها خسرت حمايتها وثكت بأسباب المودة
التي ربطت بينها مذ درجت في المهذ، ولم تحتمل أمانة
فكرة الخصام فصبرت حتى هدأت النفوس ثم سمعت
سعيها عند السيدة المبجلة مستعينة بإبراهيم وتخليل
حتى تم صلح، ولكن أي صلح كان؟ .. كان
صلحاً لا يكاد يستقر حتى يصطلم بنقار، ثم يعقبه
صلح، فنقار من جديد، وهكذا... وكل واحدة منها
تلقي التبعة على الأخرى، وأمانة بينهما حاضرة،
وإبراهيم واقف موقف المحايد أو المتفرج، كأن الأمر
لا يعنيه، فإذا رأى أن يتدخل تدخل وأنياء وقنع بترديد
النصيحة في هدوء بل برود غير مبال بتوبيخ أمه أو
عتاب زوجها، ولولا إخلاص أمانة ودمائة خلفها
لسارت المعجوز بشكواها إلى السيد أحمد، ولكنها
عدلت عن ذلك كارهة ومضت تنفّس عن صدرها في
أحاديثها الطويلة مع كل من يلجأها من الأهل
والجيران، معلنة على رؤوس الأشهاد بأن اختيارها
خديجة زوجة لابنها كان أكبر غلطة ارتكبتها في حياتها
وأن عليها أن تتحمل الجزاء.

قال إبراهيم معقّباً على كلام خديجة، وهو يتسم،
كأنما ليخفف بإتسامته من وقع تعقبيه:
- ولكنك لم تكفي بالمطالبة بحقك، بل طعنت
بلسانك ما حلا لك الطعن، هذا إذا لم تكن خاتني
الذاكرة...
ورفعت خديجة رأسها المعصوب بمنديل بيّ في تحدّ،
وقالت وهي ترمق زوجها بنظرة تهكم وغيظ:
- ولم تحونك الذاكرة؟ هل من أفكار أو مشاغل
ترهقها حتى تحونك؟ ليت للناس جيهاً ذاكرة هادئة
مطمئنة خالية البال كذاكرتك! لم تحنك ذاكرتك يا سي
إبراهيم، ولكنها خاتنتي أنا! والحق أنّي لم أتمرّص
لمقدرة نيتك، ولم يكن لي بها شأن ولا حاجة إليها،
فإني أعرف بحمد الله كافة واجباتي وأعرف كيف أؤديها
على خير وجه، ولكني كرهت أن أتبع في بيتي وأن
يحيثني الطعام من الخارج كنزلاء الفنايق، وفضلاً عن
هذا كله فإنني لم أطق - كما يحلو لبعض الناس - أن
أضي نهارى نائمة أو لأهية وغيري يقوم بهمأم بيتي.
أدركت عائشة من توهها المقصود من بعض
الناس، فضحكت ولبّاً تكمل خديجة كلامها، ثم
قالت بلهجة لطيفة كأنما دافعها الإشفاق:
- أفعلي ما يحلو لك ودمي الناس - أو بعض
الناس - وشأنهم، لا شيء الآن يدعو إلى كدرك، فأنت
سيّدة مستقلة - عفى لمصر - وتعلمين من طلوع
الفجر إلى نزول الليل: في المطبخ، والحمام، وفوق
السطح، وتعنين في وقت واحد بالأثاث والدجاج
والأولاد، والجارية سويدان لا تحرّو على الاقتراب من
شفتك أو حمل ابن من أبنائك، ربّه... لم هذا العناء
وقليل منه يعني؟
أجابت خديجة بحركة من ذقنها، وهي تغالب
ابتسامة دلت على أنّها وجدت في كلام عائشة ما
استأنست إليه، وعند ذلك قال ياسين:
- بعض الناس يُخلّفون للسيدة، وبعضهم يُخلّفون
للمبودية...
فقال خليل شوكت، وهو يتسم كاشفاً عن نيتيه
المراكبتين:
- خديجة هاتم مثال صالح لست البيت، غير أنّها

تجاهل حقها من الراحة.

فقال إبراهيم شوكت مؤثماً على قوله:

- لهذا رأيي بالتألم، صارتها به مرأياً، ثم أثرت

السكوت نقادياً من وجع الدماغ. . .

نظر كمال إلى أمه، وكانت تملأ فنجان خليل للحرّة
الثانية واستحضر صورة أبيه مقرونة بذكريات جبروته،
فعلت شفثيه ابتسامة، ثم مدّ بصره إلى إبراهيم
مدهوشاً وهو يقول:

- كأنك تخافها!

فقال الرجل وهو يبرّز رأسه الكبير:

- أنا أضافى من النكد ما وجعلت سبيلاً إلى

السلامة، وأخطت تفادى من السلامة ما وجدت سبيلاً

إلى النكد!

هفت خديجة:

- اسمعوا الجحّم (ثم وهي تشير إليه كالمتحدّية)

أنت تفادى من البظفة ما وجدت سبيلاً إلى النوم

فقلت لها أمها، وهي تحاجبها بنظرة تحذير:

- خديجة!

فرّبت إبراهيم على مكتب حماته، قائلاً:

- عندنا من هذا كثيراً. . . ولكن اشهدي بنفسك!

وكان ياسين يردّد بصره بين خديجة القويّة الممتلئة،

وعائشة النحيبة الرقيقة بحركة متممّة للفت الأنظار،

ثم قال كلمتين:

- حدّثنونا عن تعب خديجة المتّصل من الفجر إلى

الليل، فأين أثر ذلك التعب؟. . . كأنها هي اللاهية

وكان عائشة هي العاملة. . .

فقالت خديجة، وهي تبسط راحة يدها في وجهه

مفرّجة بين أصابعها الخمس:

- ومن شرّ حاسد إذا حسد!

ولكنّ عائشة لم ترتع لمجرى الحديث الأخير،

فلاحت في عينها الزرقاوين الصافيتين نظرة اعتراض،

واندفعت للرد عن نحاتتها متجاهلة الغاية الواضحة

من ملاحظة ياسين، وهي تعالي شيئاً من الضيرة

فقالت:

- لم تعد السبانة موضة العصر (ثم مستدركة عندما

شعرت بأنّهم رأس خديجة نحوها)، أو على الأقلّ

فالنحافة موضة كذلك عند كثيرات. . .!

فقالت خديجة بتهمج:

- النحافة موضة العاجزات عن السبانة.

خفق قلب كمال عندما تاهت كلمة «النحافة» إلى

سمعه، فوثب من باطنه إلى مخيلته صورة القامة

الفارعة والقُدّ المشقوق، فقص قلبه بطرب روحانيّ

وانبثقت منه النشوات، ثم احتضنته فرحة صافية نسي

في حلمها الهادئ العميق نفسه ومكانه وزمانه. فلم

يدري كم فيها لبث حتّى انتبه على ظلّ سحابة من الأسى

تجيء كثيراً ذيلًا لحلمه، لا كما يجيء الغريب الدخيل

أو المنصر المتناثر، ولكنّها تسرب إلى الحلم الباهر

كأنّها خيط من نسجه أو نغمة من هارمونيته. تنفّس

تنفّساً عميقاً، ثم جال ببصره الحلم في الوجوه التي

يجيئها من قديم، والتي يبدو أنّها تتباهى على نحو أو

آخر بحسبها، خاصّة الوجه الأشقر الذي هام زمناً

باحساء الماء من موضع شفثيه. . . استرجع هذه

الذكرى في حياه. وما يشبه التألف - فحسّر بأنّ أيّ

تموذج من الجبال خلا النموذج المعبود خليق بأن يثير

تعصّب وإن حظي بمعلفه وجبّه.

- لن أرضى عن النحافة ولو في الرجال (واصطلت

خديجة حديثها). انظروا إلى كمال ما أجدره بأن يعنى

بزيادة وزنه، لا نظنّ يا بنيّ أنّ طلب العلم هو كلّ

شيء.

أصغى كمال إليها باسماً في استهانة وهو يتخصّص

جسمها الذي تراكم لحمه وشحمه، ووجهها الذي

توارت بالاكتناز هيويه، معجباً بروح السعادة والفرح

التي تكتنفها، غير أنّه لم يجد في نفسه الرغبة في مناقشة

رأيها، أمّا ياسين، فقال بتحدّ وسخرية ممّا:

- إذا فانت راضية عنيّ، لا تكابرني في هذا!

كان ثانيّاً ساقه اليمنى تحت طارحاً الأخرى على

الأرض، وقد فتح - من الحرّ - طوق جلبابه، فبدت

من فتحة فائلته الواسعة خصلات من شعر صدره

الأسود الأثيث، فألفت عليه نظرة نافذة، ثم قالت:

- لكحكّ زدتها حبيّتين، ثم إنّ شحمك وصل إلى

المنع، وهذا شيء آخر.

نفخ ياسين كالياس، ثم التفت إلى إبراهيم شوكت مستأفلاً في إشفاق وعطف:

- خيبري عمّا تصنع بين زوجك - وهذه حالها - وبين والدتك؟

أشعل إبراهيم سيجارة، وأخذ نفساً، ثم ففحه وهو يمسك بوزه مشاركاً أخاه خليل - الذي لم يكن ينزع غليونه من فيه إلا حين يتكلم - في تعفير جوف الصالة، ثم قال في عدم اكتراث:

- أذنّا من طين وأذنّا من عجين، هذا ما تعلمته من التجربة!

فالتت خديجة، غاطبة ياسين بصوت مرتفع ورشي بنظيرها:

- لا دخل للتجربة في ذلك، التجربة بريئة وحياتناك عندي. المسألة أنّ ربّنا أعطاه طبيعاً مثل دندورمة عمّ بدر التركي، ولو تحركت مثلثة الحسين ما اهتزّت له شعرة...!

رلمت أمانة رأسها، فرمقت خديجة بنظرة عتاب وتحذير حتى ابتسمت الابنة وخضفت عينها فيما يشبه الحياء، وإذا بخليل شوكت يقول في فخر لطيف:

- هذا طبع آل شوكت، وهو طبع سلطانيّ. أليس كذلك؟!

فالتت خديجة - بلهجة ذات مغزى - وهي تضحك لتخفّف من وقع كلامها:

- من سوء حظّي يا سيّ خليل أنّ والدتك لم تتطّيع بهذا الطبع السلطانيّ!

فبادرتها أمانة قاتلة وقد نفذ صبرها:

- حاتك لا نظير لها في النساء، سيّدة جليّة بكلّ معنى الكلمة!!

فبال رأس إبراهيم يسرة، وهو يمدج زوجه بنظرة من حُلّ التمتع بها عيانه البارزتان، ثمّ قال وهو يتنهد في ظفر:

- وشهد شاهد من أهلها، الله يكرمك يا حاتي... (ثمّ غاطباً الجميع) يا هو أمّي ستّ كبيرة، وليّ سنّ تستوجب الرعاية والحلم، وزوجي لا تعرف عن الحلم شيئاً...!

فانبرت خديجة للدفاع عن نفسها قائلة:

- أنا لا أغضب بلا سبب، ولم يكن الغضب من طبعي في يوم من الأيام، هناك أهلي فسلمهم عمّا تشاء! ساد الصمت. كان أهلها لا يدرّون ما يقولون، حتى نذت عن كمال ضحكة، فلفتت إليه الأنظار، فلم يتالك أن يقول:

- أبله خديجة أغضب حليلة عرفتها!

فتشجّع ياسين قائلاً:

- أو هي أحلم غضوب، والله أعلم...

انتظرت خديجة حتى هدأت لثارة الضحك التي أعقبت ذلك. ثمّ أوامت إلى كمال وهي تهرّ رأسها في حصرة، قائلة:

- خاتني الذي حملته على حجرني أكثر ممّا حملت أحد وعبد المنعم.

فقال كمال كالمعتل:

- لا أظنّي أفشيت سرّاً...

وسرعان ما انحلت أمانة موقفاً جديداً للدفاع عن خديجة التي بدلت في مركز لا تحسد عليه، فالتت باسمه:

- جُلّ منّ له الكيال...

وجارها إبراهيم شوكت في لباقة قاتلة:

- صدقت، إنّ لزوجي مزايلا يستهان بها، لعنة الله على الغضب الذي يصيب أوّل ما يصيب صاحبه،

لا شيء في الدنيا يستحقّ في نظري الغضب!

فالتت خديجة ضاحكة:

- يا بختك!... للّك تقضي الأيام - عيني عليك

باردة - وأنت من التغير في حصن!

بدا على أمانة الاستياء - أوّل مرّة - بصورة جدّيّة،

فالتت في عتاب:

- ربّنا يصون له شبابه، هو وأمثاله!

تساءل إبراهيم ضاحكاً، وهو لا يخفي سروره

بدعاء حماة:

- شبابه!؟

فقال خليل شوكت يمينه، وإنّ وجهه الحطّاب لأمانة:

يقول لها مداعباً: «الحق أنك لقيّة يا عجوبة!» رغم رأي أمّه في هذا النشاط الذي لم تردّد عن الجهر به في أوقات الخصام، وما أكثرها، فتقول لخديجة ساخرة: «هذه فضيلة الخدم لا الهوانم»، فتبادرها خديجة قائلة: «أنتم أناس لا عمل لكم إلا الأكل والشرب، سيّد البيت الحقيقي من يخدمه»، فتقول العجوز مواصلة تهكمها: «لَقْنُوكَ هذا الكلام في بيتك كي يغفوا عنك أنك لم تكوني تصلحين في نظركم إلا للخدمة!»، فتصبح خديجة: «أنا أعلم بسبب حنقك عليّ، أعلم به منذ لم أجعل لك وزناً في بيتي»، فتصرخ العجوز: «يا ربّي اشهد. السيّد أحمد عبد الجواد رجل طيّب، ولكنّه أنجب شيطانة، أنا استحقّ ضرب الشبشب جزاء اختياري لك». فتعطي خديجة وهي تنغمم، حتّى لا تبصّر المرأة كلامها: «أنت تستحقّين ضرب الشبشب... لا أجادلك في هذا».

نظر ياسين إلى عائشة، وقال وهو يبتسم في خيبت: «ما أسعدك بنفسك يا عائشة، علاقتك حسنة مع جميع الأحزاب!»

فأدركت خديجة ما وراء كلامه من التعريض بها، وقالت له وهي تمزّ كفيفها متظاهرة بالاستهانة:

- وقّاع يسمى بوقية بين أختين!
- أنا؟... حسبي الله، فهو المطلع على حسن نيتي!

وهي تمزّ رأسها كالأسفة:
- لم تكن يوماً ذا نيّة حسنة!
وقال خليل شوكت، معلقاً على كلام ياسين:
- نحن نعيش في سلام، وشعارنا: «عش ودع غيرك يعيش!»

فضحكت خديجة حتّى بدت أسنانها اللامعة الدقيقة، وقالت بلهجة لم تخلّ من تهكم:
- بيت سي خليل بيت أفراح، لا يزال هو يلعب بأوتار العود، والهانم تسمع أو تستعرض نفسها في المرآة أو تحادث هذه أو تلك من صوبيحاتها من النافذة أو المشرّبة، ونعيمة وعشيان ومحمد يلعبون بالمقاعد والوسائل، حتّى إنّ عبد المنعم وأحمد إذا ضاقت برقايتي فرّا إلى شقّة خالتهما فانضمّا إلى فرقة التخرّب...!

- إنّ التاسعة والأربعين في آل شوكت تُعدّ من مراحل الشباب!
فعاذت أمينة تقول في إشفاق:

- يا بيتي لا تتكلّم هكذا ودعونا من هذه السيرة...
ابستمت خديجة لما بدا من أمّها من إشفاق كانت هي على علم وإيمان بأسبابه وبواعثه، ذلك أنّ الإشادة بالصحة جهراً في البيت القديم - صراحة - مكروهة، لتجاهلها «العين» وشراً، وهي نفسها - خديجة - لم تكن لتعالن بقرّة صحة زوجها لو لم تكن قضت السنوات الست الأخيرة من حياتها بين آل شوكت، حيث لا تحظى عقائد كثيرة - كالحدس مثلاً - بإيمان عميق، وحيث ينجحون في أمور شتى بلا خوف - كبير الجبن والموت والمرضى - يحول الإشفاق والحذر دون الحوض فيها في البيت القديم، إلى هذا كلّه، كانت العلاقة بين الزوجين أرقّ ممّا تبدو في الظاهر، فلم يكن ثمة ما يمتدّهما من قول أو فعل، كانا زوجين موفقين، يشعر كلاهما في أعماقه بأنّه لا غنى له عن الآخر رغم شقّ المأخذ، وقد كان مرض إبراهيم يوماً فرصة غريبة جلتّ مكنون ما يعمر صدر خديجة من محبة ووفاء. أجل! لم يكن النقاد ليسكت بينهما، حل الأقلّ من ناحيتها هي، فلم تكن أمّه هدفها الوحيد، ورغم سياسة الرجل وسروده لم يُغيها أن تكتشف فيه موضعاً كلّ يوم لا تتفاد. مثل: كثرة نومه، قبوعه في البيت بلا عمل، تكبّره على مجرد فكرة أن يكون له عمل في الحياة، ثرثرته التي لا تنتهي، تجاهله لما ينشب بينها وبين أمّه من نزاع وملاحاة... حتّى مرّت أيام وإيام - على حدّ تعبير عائشة - لم يكن لها من حديث إلّا شكّه ولسمعه - ولكن رغم هذا كلّ - أو بفضل هذا، من يدرى؟! فالتقار نفسه يقوم أحياناً بوظيفة الشطّة في تبييض شهوة الطعام. ظلّت عواطفها قويّة ثابتة لا تتأثر بما يكدّر الظاهر، كأنّها التيارات المائية العميقة التي لا يتحوّل مجراها بغورات السطح وتشنّجاته، إلى ذلك لم يسع الرجل إلّا أن يفتّر نشاطها حتّى قدّره، بعد أن لس آثاره في رونق مسكنه ولذّة مطعمه وإنافة ملبسه وهندمة ابنيه. فكان

أغالط في عمرها كما يجدر بالآهات!
فساءل ياسين يعلم أكثرنا:
- لماذا يشترط الناس أن تكون العروس أحدث سنًا
من العريس؟

فلم يجبه أحد، حتى قالت أمينة:
- لن يطول انتظار نعيمة للعريس المناسب!
فعاذت خديجة تقول:
- ما أجملها يا ربّي! لم أرَ لجلها مثيلاً...
فساءلت عائشة ضاحكة:

- وأتمها؟... ألم تري أتمها؟
فقطبت خديجة لتضفي على كلامها صفة الجدّة،
وهي تقول:
- هي أجل منك يا عائشة، لن تستطيعي المكابرة
في هذا!

ثم ما لبثت أن عاودتها سخرتها فقالت:
- وأنا أجل منك ما!
«فؤلاء الناس يتحدثون عن الجبال! ماذا عرفوا من
كنه الجبال؟ تعجبهم ألوان: بياض العاج، وسبائك
الذهب. سلوي أنا عنه، ولن أحدثكم عن السمرة
الصفافة والأعين السود السواحي والقامة الهيفاء
والأناقة الباريسية. كلّاً كلّ أولئك جميل، ولكنّه
خطوط وشكوك وألوان تخضع في النهاية للحواس
والقياس. الجمال هرّة في القلب جارحة وحياة في
النفس عامرة وهتّيان تسبح الروح على أثيره حتى تعانق
السلوات... حدثوني عن هذا إن استطعتم...»
- لم يلمس نساء السكّريّة وذخيرة هانم...
ربّما كان لها مزايا - كما يشهد بذلك زوجها - ولكنّ
الناس عاتمة يستهويها الوجه الصبيح واللسان
الحلو...!

قال ياسين ذلك كي ينكش خديجة من جديد، بعد
أن رأى الحديث يتحوّل عنها في سلام، فرمته بنظرة
كأنّها تقول له: «تأبى أن أرحمك».

ثم قالت وهي تتهدّد بصوت مسموع:
- حسبي الله ونعم الوكيل، لم أكن أعلم أنّ لي هنا
حمة أخرى.

ساءلت عائشة باسمه:
- أهذا كلّ ما ترين في بيتنا السعيد؟
قالت خديجة بنفس اللهجة:
- أو تغنّين ونعيمة ترقص...!
عائشة بجهالة:
- حسبي أنّ جميع الجارات يجبنني، وأنّ حماتي تحبّني
كذلك...!

- لا أتصوّر أن أفتح صدرتي لإحدى أولئك النسوة
الثرلارات، أمّا حماتي فحبّ من يتملّقها ويسجد
لها...
يجب أن نحبّ الناس، وما أسعد أن يحبّنا الناس
كذلك، حقًا من القلب للقلب رسول، إنّهنّ جميعًا
يفشينك وكثيرًا ما قلن لي: «أنتك لا ترخّب بنا ولا
تعجب من تنقّصنا!»... (ثمّ غاطبته أتمها وهي
تضحك)... لا تزال تسمّي الناس بأساء هرليّة،
ثمّ تتنلّز بها في البيت، فيحفظها عبد المنعم واحد،
ويردّدها في الحارة بين الغلمان فتدلع!

عاود الضحك الصامت أمينة، كذلك ضحكت
خديجة في شيء من الاتّباك، كأنّها طافت بها ذكريات
بعض مواقف محرّجة، هل حين راح خليل يقول في
ابتهاج غير خائف:
- بالجملة نحن تحت صغير، فيه العواد والمطربة
والراقصة! حقًا لا يزال ينقصنا جماعة المنشدين
والمردّدين، ولكنّي أتوسّم في أولادي خيرًا، والمسألة
مسألة وقت!

فقال إبراهيم شوكت، موجّهًا الخطاب إلى أمينة:
- أشهد أنّ بنت بنتك نعيمة راقصة بارعة!
ضحكت أمينة حتى تورّد وجهها الشاحب، ثمّ
قالت:

- رأيتها وهي ترقص، ما ألعفها!
قالت خديجة بحماس نفق بحنانها العائليّ المألوف:
- ما أجملها! كأنّها صورة من صور الإعلانات.
فقال ياسين:

- ما أجملها عروسًا لرضوان!
فقالت عائشة ضاحكة:
- ولكنّها بكريّة الأمرة!... آه... لم يمكنني أن

ثم إذا بها تعود من جديد إلى ذلك الموضوع، ولكن بلهجة جدية تاركة ياسين وشأنه على غير ما توقع، فنقول:

- ليس عندي متسع من الوقت كي أضيّعه في الزيارات، البيت والأولاد يلهمون وقتي كله، خاصة وأن زوجي لا يهتمّ بالبيت ولا بالأولاد
قال إبراهيم شوكت، مدافعاً عن نفسه:

- اتقي الله ولا تعالي شأنك في كل شيء، الأمر وما فيه أنه يبني لمن كان له زوجة كزوجتي أن يقف موقف الدفاع من حين لآخر، الدفاع عن قطع الأثاث التي تكاد تنهري من كثرة الغضب والمسح، والدفاع عن الأولاد الذين تحمّلهم فوق ما يطيقون... آخر العهد بذلك، ما علمت من دُفعها عبد المنعم إلى الكتاب ولما يبلغ الخامسة من عمره!

قالت خديجة بفخر:

- لو اتّمت رأيكم لاستبقته في البيت حتّى يبلغ سنّ الرشد! كأنّ بينكم وبين العلم عداوة، كلّ يا حبيبي، سينشأ أولادي على ما نشأ عليه أخوالم. لئن أذاكر عبد المنعم في دروسه بنفسي!

ياسين مستكزراً:

- أنت تذاكرينه؟

- لم لا؟! كما كانت نية تذاكر كمال، أجالسه كلّ مساء فيسمعي ما يحفظونه في الكتاب.

ثم وهي تفضح:

- وبذلك أيضاً استمكر مبادئ القراءة والكتابة التي أخاف أن أنساها بمرور الزمن...

توزد وجه أمينة حياءً وسروراً، فرنت إلى كمال كأنها تستجديه إشارة إلى ذكر الليالي الخوالي فابتسم إليها

ابتسامة ذكور ولتنشئ خديجة ابنيها على ما نشأ عليه أخوالها، ولكن منها من يتأثر كمال الذي يشقّ السيل إلى المدرسة العليا، ولكن منها من يتشبه به... آه

ما أضعف الصدر للتصدّعة عن تحمّل الخلفات الوالفة، لو امتدّ به العمر لكان اليوم قاضياً أو في الطريق إليها، كم حدّثك عن آماله أو آمالك! أين مضى كلّ ذلك؟ ليشه عاش ولو فرداً من غبار

الناس...٤٠٠

قال إبراهيم شوكت، غامطاً كمال:

- لسنا كما تتهمنا اختك. لقد دخلت امتحان الابتدائية سنة ١٨٩٥ ودخله خليل سنة ١٩١١، كانت الابتدائية على آياتنا شيئاً عظيماً على خلاف الحاصل الآن حيث لا يكاد يفتح بها أحد، لم نواصل التعليم، لأنّه لم يكن في نيّتنا أن نتولّف، أو بمعنى آخر لم تكن في حاجة إلى الوظيفة!...

أهجب كمال إعجاباً ساخراً بقوله ودخلت امتحان الابتدائية، ولكنّه قال مجاملاً:
- هذا أمر طبيعي...

كيف يكون للعلم قيمة ذاتية عند نسورين سعيدين؟، كلاهما تجربة ثمينة علمتني أنّه من الجائز أن أحبّ - أيّ حبّ كان - من أحقر... أو أن أتحقّق الخير - كلّ الخير - لشخص تثير مبادئه في الحياة نفوري وتقرّزي، لا أملك إلّا أن أكره الحيوانية من صميم قلبي، صار ذلك حقيقة وحقاً مذ هفت على القلب نسمة الساء!

هتف ياسين في حماس هزلي:

- لنحصى الابتدائية القديمة!

- نحن حزب الأغلبية على أيّ حال!

تضايق ياسين من إقحام خليل نفسه - وأخاه ضمناً - على حزب الابتدائية التي لم يتألاها، ولكنّه لم يجد بداً من التسليم، على حين راحت خديجة تقول:

- سيواصل عبد المنعم وأحمد التعليم حتّى ينالا الدبلوم العالي، سيكونان عهداً جديداً في آل شوكت، اسمعوا وقع هذين الاسمين جيّداً: عبد المنعم إبراهيم شوكت، أحمد إبراهيم شوكت... ألا يردّ الاسم زنين وسعد زغلول؟!

فصاح إبراهيم ضاحكاً:

- من أين لك هذا الطموح كلّ؟

- لم لا؟... ألم يكن سعد باشا مجاوراً بالأزهر؟ من الجارية إلى رئاسة الوزراء، وكلمة منه تقيم الدنيا وتقعدها، ليس شيء على الله بكثير!

تساءل ياسين متعجباً:

- هلّا قمعت بأن يكونا مثل عدلي أو ثروت؟

فصاحت كالمتعذبة بالله :

- الخونة؟! لن يكون من الذين يبتغى الناس بسقوطهم ليل نهار!

أخرج إبراهيم من جيب بظلولونه منديلًا، ومسح به وجهه الذي زادت حرته عمقًا بحرارة الجؤ ونضج عرقًا بما يشرب من ماء مثلوج وقهوة ساخنة، ثم قال وهو أخذ في تخفيفه :

- لو أن لشئ الأتھات فضلًا في خلق العظماء، فأبشري من الآن بما ينتظر ابنيك من مجد كبير!

- تريدني على أن أتكرمها وشأنها؟

قالت عائشة برقة :

- لا أذكر أن نية انتھرت أحدًا منّا فضلًا عن ضربه، ألا تذكرين؟

فقالت خديجة كالأسفة :

- لم تلجأ نية إلى الشئ، لأن بابا كان هناك! كان ذكره كافيًا لإلزام كلّ حده، أما عندي، أو عندك فالحال من بعضه، غالبًا غير موجود إلا بالاسم (اضطرت أن تضحك) ما عسى أن أفعل والخال كذلك؟ إذا كان الأب أمًا، فعمل الأم أن تكون أبًا...!

ياسين مبتهجمًا :

- يقيني أنك نجحت في ابوتك! أنت أب... هذا ما شمرت به طويلًا، ولكن كانت تنقصني معرفته! فتظاهرت بالرضى قائلة :

- أشكرك يا حبة كثر...

«خديجة وعائشة، صورتان متعارضتان... تأمل جيدًا، أيهما نظنّ الأجدر بأن تكون معبودتك على مثالها؟... استغفر الله! معبودي على غير مثال، لا أتصورها ربة بيت. ما أبعد هذا عن التصوّر معبودته في ثياب البيت تهنه طفلًا أو ترعى مطبخًا؟! يا للفرع وبيا للقرز، بل لاهية أو ساذرة أو رافلة في حلّة باهرة في حديقة أو سيارّة أو ملهى، ملاك في زيارة طارئة سعيدة للدنيا، جنس مفرد غير سائر الأجناس لا يعرفه إلا قلبي، لا يجمعها وخولاء النسوة إلا تسمية العاجز عن معرفة الاسم الحقيقيّ، لا يجمع جمالها وجمال

عائشة ومائر ألوان الجبال إلا تسمية العاجز عن معرفة الاسم الحقيقيّ، هاك حياتي أكرسها لمعرفتك، حل ثمة وراء ذلك ظمًا لعرقان؟».

- يا ترى ما أخبار مريم؟

تساءلت عائشة حال خطرت صديقتها القديمة ببالها، فأحدثت الاسم آثارًا متباينة في كثير من المجالسين، تغير وجه أمانة حتّى ثمت أسارىره عن الامتناع الشديد، تجاهل ياسين السؤال كأنه لم يسمعه متشاغلًا بتفحص أطرافه، وردت رأس كمال جملة من ذكريات هزت نفسه هزًا، أما خديجة فأجابتها بلهجة باردة :

- أيّ أخبار جديدة تتوقّعين؟ طلّقت وعادت إلى بيتها!

انتهت عائشة - بعد فوات الفرصة - إلى أنّها انزلقت سهوًا إلى ورطة، وأنّها أساءت إلى أنّها بهفوة لسان. ذلك أنّ أنّها آمنت منذ عهد بعيد بأنّ مريم وأمّ مريم لم تضدقا في حزنها على فهمي، إن لم تكونا شمتتا بهم من أجل ذلك، لما سبق من معارضة السيّد في خطبة مريم للفقيد. وكانت خديجة البائدة بتريد ذلك الظنّ، فتابعته الأمّ عليه بلا تردد أو تفكير، وسرعان ما تغيّرت عواطفها نحو جاريتها القديمة حتّى أوحى ذلك بالتنگر القلطية.

قالت عائشة بارتباك، محاولة الاعتذار عيًا بدر منها :

- لا أدري ماذا دعاني للسؤال عنها؟

فقالت أمانة بانفعال ظاهر :

- ما ينبغي لك أن تغفري فيها.

كانت عائشة قد أعلنت شغها - عند ذلك التاريخ - في واقعة التهمة التي ألصقت بصديقتها، محتلة بأنّ الخطبة وما دار حولها بقي طي الكتمان، فلم يمتدّ نوره إلى بيت مريم في حينه، ممّا ينبغي على الفتاة وألها دواعي الشائنة... ولكن أنّها لم تر رأيها عتجة بأنّ مسألة خطيرة كهذه المسألة ممّا يتعلّر منع تسرب خبرها إلى أصحاب الشأن فيها، فلم تلبث عائشة وراء رأيها طويلًا خشية أن تُتهم بحماية مريم أو بفنور حماسها لذكرى شقيقها، لكنّها بإزاء انفعال أنّها، وجدت

نفسها مسافة إلى تلطيف وقع هفتها، فقالت:

- لا يدري بالحقيقة يا نينة إلا الله... لعلها بريئة
نمّا ربيتها به.

فاشتمت امتعاض أمينة على خلاف ما توقّعت عائشة،
حتى لاحظت في وجهها بوادر غضب بلد غريبة عنها لما
عُرف عنها من حلم وهود، وقالت بصوت متهدّج:
- لا تحدّثني عن مريم يا عائشة.

وصاحت خديجة مشاركة أمّها في عواطفها:

- قطعت مريم وسيرتها!

فابتسمت عائشة في ارتباك دون أن تنبس. وقد
لبث ياسين متشاكلاً بأظفاره حتى انتهى ذاك الحديث
الخامس، وأوشك مرة أن يشترك فيه متشكّلاً بقول
عائشة «لا يدري بالحقيقة يا نينة إلا الله...» ولكنّ

اندفاع أمينة إلى الرّد عليها بذلك الصوت المتهدّج غير
المعهود أسكته. أجل أسكته وانطلق لسانه باطنياً
بالشكر على نعمة السكوت. وكان كيال يتابع الحديث
باهتمام وإن لم يبدُ أثره على وجهه، وقد أكسبه حل

الحبّ عهداً طويلاً - في ظروف حسّاسة غير مواتية -
قدرة على التمثيل تحمّم بها في كتمان عواطفه ومطالعة
الناس - إن دعت الضرورة - بمظهر على نقيض غيره،

فلذكر ما سمع قديماً من «شائعة» آل مريم، ومع أنّه لم
يأخذ التهمة مأخذ الجدّ إلا أنّه تذكّر عهد الرسالة
السريّة التي ذهب بها إلى مريم والرّد الذي عاد به إلى

فهمي، ذلك سرّ قديم صانه ولم يزل مستمسكاً بصونه
رعاية لمعهد أخيه واحتراماً لرغبته، وقد لذّ له أن
يحبّ كيف لم يفقه معنى الرسالة التي حملها إلا
أخيراً، حين انبثقت معانيها في نفسه خلقاً جديداً...

كان - على حدّ تعبيره - حجراً يحمل نقوشاً مبهمّة حتى
جاء الحبّ فحلّ رموزها، ولم يفته أن يلاحظ غضب
أمّه، وهو ظاهرة جديدة في حياته لم تكن تعرفها قبل

العهد المشؤم، لم تعد كما عهد، أجل لم تتغيّر تغيراً
خطيراً أو دائماً ولكنها غدت عرضة بين الحين والحين
لنوبات لم تكن تظنّ عليها ولم تكن إذا طرأت تستسلم

لها، ما عسى أن يقول في ذلك؟ إنّ قلب الأمّ الجريح
الذي لا يعرف منه إلا شذرات وقع عليها ضمن

مطالعاته، شدّ ما يتألم لها، ثمّ ما وراء عائشة وخديجة؟
هل يمكن أن تُرمى عائشة ببرود نحو ذكرى فهمي؟ لا
يتصوّر هذا ولا يطيقه، إنّها امرأة سليمة الطوية وفي

قلبي متّسع للمصادقة والمودة، تجلّ فيها يبدو - ولها
عندنا - إلى تربة مريم، ولعلّها تحنّ إلى عهدنا بهذا
القلب المفتوح للناس جميعاً، أمّا خديجة فقد ازددتها

الحياة الزوجيّة، لم تعد إلّا أمّاً وربة بيت، لا حاجة بها
إلى مريم أو غيرها، لم يبقَ لها من ماضيها إلّا عواطفها
الثابتة نحو أسرته، نحو أمّها خاصّة، فهي تدور حيث

تدور، ما أعجب هذا كله!

- وأنت يا سي ياسين إلّا م بقي أعزب؟

وجّه إبراهيم هذا السؤال إلى ياسين، مدفوعاً برغبة
صادقة في تنقية الجوّ ممّا شابّه، فأجابه ياسين مازحاً:

- غادري الشباب وقُضي الأمر!

فقال خليل شوكت بلهجة جدّية، دلّت على أنّه لم
يفطن إلى ما في قول ياسين من مزاح:

- لقد تزوّجت وأنا في مثل سنّك تقريباً، ألسنت في
الثامنة والعشرين؟

فتضايقت خديجة من ذكر سنّ ياسين الذي كشف
بطريقة غير مباشرة عن سنّها، فخاطبت ياسين قائلة

بلهجة حادّة:

- هلّا تزوّجت وأرحمت الناس من حديث
عزوبتك؟

فقال ياسين رامياً - قبل كلّ شيء - إلى التودّد إلى
أمينة:

- مرّت بنا أحوال أغست الإنسان رغبته!

ارتدّ رأس خديجة إلى الوراء، كأنّها دفعت قبضة يد،
ثمّ رمته بنظرة كأنّها تقول «غلبيت يا شيطان»، ثمّ

قالت وهي تتنهد:

- آه منك! قل إنّ الزواج لم يعد يروقك وهو
الأصدق!

فقالت أمينة محنّة لتودّده:

- ياسين رجل طبّ، والرجل الطيّب لا يتمتع عن
الزواج إلّا مضطراً، الحقّ أنّ لك أن تفكر في استكمال
دينك...

باب النصر وهي قريبة من بيت جدك، فخذها ولا تشاجرا

فقال رضوان، وهو يبرأ رأسه بإياه:

- فيها أموات لا كنوز، فليأخذها هوا

عند ذاك علا صوت عائشة، وهي تقول برجاء وإغراء:

- صلوا على النبي، أسألكم فرصة نادرة كي تسمعوا نعيمة وهي تغني، ما رأيكم في هذا الاقتراح...

فجاءها الاستحسان والتشجيع من أركان الصالة جميعاً، حتى رفع خليل نعيمة بين يديه ووضعها على حجره، وهو يقول لها وأسمعي هذا الجمهور صوتك. الله... الله... إيساك وانجبل، أنا لا أحب الخنجل، ولكن نعيمة غلب عليها الخنجل، لبدلت وجهها في حجر أبيها حتى لم يعد يبدو منه إلا هالة من نضار الذهب، وحانت من عائشة النفاقة، فرأت محمد وهو يحاول عبثاً أن ينزع الشامة من خد جدته، وقامت إليه وعادت به إلى مجلسها رغم مناعته، ثم واصلت تشجيع نعيمة على الغناء، وألحَّ معها خليل حتى همست الصغيرة في أذن أبيها بأنها لن تغني إلا إذا توارت عن الأنظار وراء ظهره، فسمع لها بما أرادت، فزحف على أربع حتى لبدت بين ظهره ومسند الكنية... وعند ذاك شمل الصالة سكون باسِم مترقب، وامتدَّت فترة السكوت فأوشك خليل أن يفقد صبره، ولكن صوتاً رقيقاً لطيفاً بدا يتكلم فيها يشبه الحمس، ثم أخذ يتشجع رويداً رويداً، حتى سرت في نبراته الحرارة فعلا مغنياً:

حود من هنا وتعال عندنا
يا اللي أنا وانت نحب بعضنا
وراحت الأيدي الصغيرة تصفق على إيقاعه.

- ٤ -

- آآ لك إن تخبرني عن المدرسة التي تنوي الالتحاق بها...

كان السيد أحمد عبد الجواد مترقباً على الكنية

يا طالما فكر في استكمال دينه، لا ليحزب حقله من جديد فحسب ولكن رغبة في رد الإهانة التي لحقت به يوم اضطر - بدافع من أبيه - إلى تطليق زينب إنفاذاً للمشيئة، أبيها محمد عفت! ثم كان مصرع فهمي فصرفه عن التفكير في الزواج حتى كاد يألّف هذه الحياة الطليقة ويعتادها، غير أنه قال لأميّة، وكان يؤمن بما يقول:

- لا بدّ مما ليس منه بدّ، وكلّ شيء رهن بوقته... قطع عليهم أفكارهم مفتة ضيّقة وصباح وضوضاء جاءت من ناحية السلم، مختلطة بوقع أقدام متدافعة، فالتجّمت الأبصار متسائلة نحو باب السلم، وما هي إلا لحظة حتى ظهرت أم حنفي على عتبة الباب عابسة لاهة، وهي تصيح:

- الأولاد يا سقّ، سي عبد المنعم وسي رضوان متشابكان، رمولي بالخصي وأنا أخلص بينهما...

قام ياسين وخديجة، فهرعا إلى الباب، ثم نفذا إلى السلم، ومضت دقيقة أو دقيقتان عادا بهلعا، ياسين قابضاً على يد رضوان، وخديجة دافعة أمامها عبد المنعم وهي تكلّمه برحة في ظهره، ثم تتابعت البقية مهلّة، فحزرت نعيمة إلى أبيها خليل، وعثمان إلى عائشة، ومحمد إلى جدته أُمينة، وأحمد إلى أبيه إبراهيم، ثم جعلت خديجة تنهر عبد المنعم وتنذره بأنّه لن يرى بيت جدّه مرّة أخرى، حتى صاح بصوت باكٍ، وهو يشير متّهماً إلى رضوان الذي جلس بين أبيه وكبال:

- قال إنهم أغنى منا...

فصاح رضوان محتجاً:

- هو الذي قال لي إنهم أغنى منا، وقال أيضاً: إنهم يملكون بوابة المتولي بكنوزها!

فطّيب ياسين خاطره، وهو يقول ضاحكاً:

- اعذره يا بني، إنّه مزاح مثل أمّه...

فقال خديجة لرضوان، وهي لا تتألك نفسها من الضحك:

- تشاجران على بوابة المتولي! عندك يا سيدي

بحجرة نومه، على حين جلس كمال على طرفها المواجه للباب شابكاً ذراعيه على حجره يكتنفه الأدب والطاعة. ودة السيد لو يبيحه الفتى قائلاً: «الراي رايك يا أبي». بيد أنه كان مسلماً بأن اختيار المدرسة ليس من الأمور التي يدهي لنفسه فيها حقاً مطلقاً، وأن موافقة الابن عامل جوهري في الاختيار، إلى أن مدى علمه بالموضوع كله كان محدوداً جداً، وقد استمدّ أكثره مما يثار أحياناً في بعض مجالسه بين أصحابه من المولفين والمحامين الذين أجمعوا على الإقرار بحق الابن في اختيار نوع دراسته تفادياً من الإخفاق والفشل، لهذا كله لم يستنكف أن يحمل الأمر شوري مسلماً أمره إلى الله...

نويت يا بابا بإذن الله، وبعد موافقة حضرتك طبياً، الالتحاق بمدرسة المعلمين العليا! نكت عن رأس السيد حركة موحية بالانزعاج، وأصمت عيناه الزرقاوان الواسعتان، وهو يحدج ابنه بغرابة، ثم قال بنبرات ناطقة بالاستنكار: - المعلمين العليا... مدرسة المجانية! أليس كذلك؟

فقال كمال بعد تردد: - ركباً، لا أدري شيئاً عن هذا الموضوع... فلوح السيد بيده مستهزئاً، قائماً أراد أن يقول له: «ينبغي أن تتجمل بالصبر قبل أن تقطع برأيي فيما ليس لك به علم»، ثم قال بازدراء: - هي كما قلت لك، ولذلك يندر أن تجذب أحداً من أولاد الناس الطيبين، ثم إن مهنة المعلم... أتدري شيئاً عن مهنة المعلم أم أن علمك بها لا يعدو علمك بمدرستها؟ هي مهنة تعيسة لا تحوز احترام أحد من الناس، إني أعلم بما يقال عن هذه الشئون، أما أنت فغر صغير لا تدري من أمور الدنيا شيئاً، هي مهنة يحنط فيها الأفندي بالجارور، خالية من كل معاني العظمة والجلال، ولقد عرفت أناساً من الأعيان والمولفين المحترمين يابون - الإباء كله - أن يزوجوا بناتهم من معلمٍ مها تكن مكانته...

ثم بعد أن نجشاً وتنفخ طويلاً: فقال بكبر: - فؤاد بن جبل الجمزوي، وهو من كنت تخلع عليه البالي من يذلّك سيلتحن بمدرسة الحقوق، ولد ذكي متفوق ولكنّه ليس أذكى منك، وقد وعدت أباه بالمعونة في تسديد مصروفاته حتى تتحقّق له المجانية، فكيف أنفق على أولاد الناس في المدارس المحترمة واني يتعلّم بالمجان في المدارس الخفية؟... كان هذا التقرير المخاطر عن «المعلم ورسالته» مفاجأة مزعجة لكمال. لم هذا التحامل كله؟ لا يمكن أن يرجع ذلك إلى علم المعلم الذي هو تلقين العلم، فهل يرجع إلى مجانية المدرسة التي تخزّجه؟ لم يكن يتصوّر أن يكون للفتى أو للفقر دخل في تقدير العلم أو أن يكون للعلم قيمة خارجة عن ذاته. كان يؤمن بذلك إيماناً عميقاً لا يمكن أن يتزعزع، كما يؤمن بكفالة الآراء السامية التي يطلع عليها في مؤلفات رجال يميّهم ويعتزّ بهم، مثل: المنفلوطي، والموليحي وغيرها. كان يعيش بكلّ قلبه في عالم «المشاة» كما ينعكس على صفحات الكتب، فلم يتردّد فيما بينه وبين نفسه عن تخطئة رأي أبيه رغم جلاله ومكانته من نفسه، معتزلاً عن ذلك بجناية المجتمع المتأثر عليه، وأثر «الجهلاء» من أصحابه فيه، وهو ما أسف له كلّ الأسف، بيد أنه لم يسعه إلا أن يقول ملتزمًا غاية ما يستطيع من الأدب والرقّة، وكان في الواقع يردّد نصّاً من مطالعته:

- العلم فوق الجاه والمال يا بابا...

ردّد السيد رأسه بين كمال وبين صوان الملابس، قائماً يشهد شخصاً غير منظور على خرق الرأي الذي سمع، ثم قال باستياء:

- حقاً! عشت حتى أسمع هذا الكلام الفارغ، كأنّ ثمة فرقاً بين الجاه والمعلم! لا علم حقيقي بلا جاه ومال. ثم ما لك تتكلّم عن العلم كأنّه علم واحد! ألم أقل لك إنك غر صغير؟ هنالك علوم لا علم واحد. للصعاليك علومهم، وللباشوات علومهم. افهم يا جاهل قبل أن تندم!

كان على يقين من احترام أبيه للدين ولأهله بالتالي، فقال بكبر:

- لا يحب! وما دخل الحب في العلم والمدارس؟! قل لي ماذا تحب في مدرسة المعلمين؟ أريد أن أعرف أمارات الحسن التي فتتك فيها، أم أنت ممن يحنون الرماة؟ تكلم ها أنا مصغر إليك...

نثت عنه حركة، كأنه يستجمع قواه لإيضاح ما غمض على آية من الرؤي، ولكنه كان مسلماً بصعوبة مهمته، ومقتناً في الوقت نفسه بأنما سحر عليه مزيداً من السخريات التي ذاق أمثلة منها فيما سلف من النقاش، وفضلاً عن هذا كله، فلم يكن يستين هدفاً واضحاً محدداً حتى يستطيع بدوره أن يوضحه لآبيه، فما عسى أن يقول؟ في وسعه إذا تأمل قليلاً أن يعرف ما لا يريد، فليس القانون ببغيت ولا الاقتصاد ولا الجغرافيا ولا التاريخ ولا اللغة الإنجليزية وإن كان يقر أهمية المادتين الأخيرتين لما يتطلع إليه، هذا ما لا يريد، فما الذي يريد؟ إن في نفسه أشواقاً محتاج إلى عناية وتأمل حتى تتضح أهدافها، ولعله غير متأكد من أنه سيظفر بها في مدرسة المعلمين، وإن رجع عنده أن تكون - هذه المدرسة - أقصر سبيل إليها. أشواق تهرها مطالعات شتى لا تكاد تجمعها صفة واحدة: مقالات أدبية، واجتماعية، ودينية، وملحمة عنتر، والف ليلة وليلة، والحاسة، والمتفولطي، ومبادئ الفلسفة، إلى أنها ربما لم تكن مقطوعة الصلة بالأحلام التي كاشفه بها ياسين قديماً، بل والأساطير التي سكبتها في روحه أمه من قبل ذلك... كان يجول على أن يطلق على هذا العالم الغامض اسم «الفكر»، وعلى نفسه اسم «الفكر»، فيؤمن بأن حياة الفكر أسمى غاية للإنسان تتعالى بطبعها التوراثي على المائة والجاه والألقاب وسائر ألوان العظمة الزائفة... هي كذلك!! وضحت معاملها أم لم تتضح، فاز بها في مدرسة المعلمين أم لم تكن هذه المدرسة إلا وسيلة إليها، لا يملك عقله أن يتحول عن هذه الغاية أبداً، ولكن من الحق كذلك أن يقر بأن ثمة صلة قوية تربطها بقلبه أو بالحرى ببعه! كيف كان ذلك؟ ليس بين «معبودته» وبين الفانون أو الاقتصاد من سبب، ولكن ثمة أسباب وإن دقت ونغيت بينها وبين الدين والروح والخلق والفلسفة وما

- إن الأزهرين يتعلمون كذلك بالمجان ويستغلون بالتدريس، ولكن أحداً لا يستطيع أن يحضر علومهم...

فأوما له بذهنه باحتقار، وهو يقول:

- الدين شيء، ورجال الدين شيء آخر! فقال مستمداً من اليأس قوة يستعين بها على مناقشة الرجل الذي لم يتعود إلا طاعته:

- ولكنك يا بابا تحترم علماء الدين وتحبهم!

فقال السيد بلهجة لم تخل من حدة:

- لا تخطئ بين الأمور، أنا احترم الشيخ متوياً عبد الصمد وأحب كذلك، ولكن أن أراك موقفاً عسرواً أحب إلي من أن أراك مثله، ولو سرت بالركة بين الناس ودفعت عنهم السوء بالاحبة والتعاويد... لكل زمان رجال، ولكنك لا تريد أن تفهم!

تفحص الرجل الشاب ليسر أثر كلامه فيه، فغض كمال بصره، وعض على شفته السفلى، وجعل يرمش، ويحرك زاوية فيه اليسرى في عصبية. يا عجباً! هذا الحاضر يصر الناس على ما فيه ضرر عمق لهم؟ وأوشك أن ينفجر غاضباً، ولكنه تذكر أنه إنما يعالج أمراً خارجاً عن نطاق سلطته المطلقة، فكظم غيظه، وسأله:

- ولكن ما الذي جعلك تتحمس لمدرسة المعلمين وحدها كأنها استأثرت بالعلم كله؟ ما الذي لا يروقك في مدرسة الحقوق مثلاً؟ أليست هي المدرسة التي تخرج الكبراء والوزراء؟ أليست هي المدرسة التي تنقذ بعلومها سعد باشا وأضرابه من الرجال؟ ثم بصوت منخفض، وقد عكست عيناه نظرة واجبة:

- وهي المدرسة التي وقع اختيار المرحوم فهمي عليها بعد روية وتفكير، ولو لم يعاجله الأجل لكان اليوم من رجال النيابة أو القضاء، اليس كذلك؟ قال كمال بتأثر:

- جميع قولك حتى يا بابا، ولكنني لا أحب دراسة القانون! ضرب الرجل كفاً بكف، وهو يقول:

التائبين للتائبين فيها!

حوّل السيّد وجهه عنه، ولسان حاله يقول: «اللهم طوّك يا روح»، بيد أنّه لم يكن غاضباً حقاً، ولعله رأى الأمر كلّ مفاجأة مضحكة لم تحظر له ببال، ثمّ أعاد إليه وجهه، وهو يقول:

– بصفتي والدك أريد أن أطمئنّ على مستقبلك،

أريد لك وظيفة محترمة، هل يختلف انسان في هذا؟ الذي يمتني حقاً أن أراك موكّفاً مهاتاً لا مدرّساً بانساً وإن أقاموا له غثاً لا كبراهيم باشا أبي أصبح! يا سبحانه الله! عشنا وشفتنا وسمعتنا المعجب! ما لنا نحن وأوروبا؟! أنت تعيش في هذا البلد، فهل هو يقيم التائبين للمعلمين؟... دأني على غمثال واحد للمعلم!؟ (ثمّ بلهجة استنكارية) تتبرّل يا بني! أتريد وظيفة أم غثاً لا؟

ولمّا لم يجد إلّا الصمت والارتباك، قال فيها يشبه الحزن:

– في رأسك أفكار لا أدري كيف اندسّت إليه، إنّ أدعوك إلى أن تكون واحداً من الرجال العظام الذين يهزّون الدنيا بجلالهم ومراكزهم، فهل عندك مثال تتطلّع إليه لا أدريه؟ صارحي بما في نفسك حتّى يرتاح بابي وأدرك غرضك، الحقّ أنّي في حيرة من امرك!!

فليتقدّم خطوة جديدة يفصح بها عن بعض ما في نفسه وأمره الله، قال:

– هل من العيب يا بابا أن أنتطلّع إلى أن أكون كالمغلوطي يوماً ما؟

قال السيّد بدهشة:

– الشيخ مصطفى لطفي المنفلوطي؟! رحمة الله عليه رأيته أكثر من مرّة في سيّدنا الحسين... لكنّه لم يكن معلّماً فيأ أعلم، كان أعظم من هذا بكثير، كان من جلساء سعد وكتابه، ثمّ إنّ كان من الأزهر لا من المعلمين، ولا شأن للأزهر نفسه بعظمته، كان هبة من الله... هكذا يقولون عنه!! نحن نبحث في مستقبلك وللدرسة التي ينبغي أن تدخلها ولتدع ما لله، فإن كنت أنت الآخر هبة من الله أيضاً، فستكون في عظمة المنفلوطي وأنت وكيل نيابة أو قاضٍ، لم لا؟

شاكل ذلك من المعارف التي يستهويه النهل من منابعها، على نحو يشبه ما بينها وبين الغناء والموسيقى من أسرار يتشوّق إليها في هرّة الطرب وأريج النشوة. إنّّه يجد هذا كلّ في نفسه ويؤمن به كلّ الإيمان، ولكن ما عسى أن يقول لأبيه؟ لجأ مرّة أخرى إلى المكر، وهو يقول:

– إنّ مدرسة المعلمين تدرّس علومًا جليلة، كتاريخ الإنسان الحافل بالعظمت، وكالغلة الإنجليزية!

كان السيّد يتخصّص وهو يتكلّم، وإذا بمشاعر الاستياء والحقن تراهله فجأة. تأمل – وكأنّه يراه لأوّل مرّة – نحافته وضخامة رأسه وكبر أنفه وطول عنقه، فوجد في منظره غرابية تضاهي ما في آرائه من شلوذ، وأوشكت روحه الساخرة أن تنفصك في باطنه، ولكنّ عطفه وحبه أيا عليه ذلك، غير أنّه تساهل فيها بينه وبين نفسه: النحافة ظاهرة مؤقتة، الأنف عندي مصدوره، ولكن من أين له هذا الرأس المعجيب؟

أليس من المحتمل أن يعرض له شخص – مثلي – تمّن يتقبّل من العيوب صيداً لراحهم؟ ضايقتة هذه الفكرة مضايقة ضاضت من عطفه عليه، فعندما تكلم جاء صوته أهدأ نبرة وأدل إلى الحلم والنصح، قال:

– العلم في ذاته لا شيء، والعبرة بالنتيجة، القانون يفهي بك إلى وظيفة القضاء، أمّا التاريخ والعظمت فمؤدّها أن تكون معلّماً بانساً، عند هذه النتيجة قف طويلاً وتأمل (ثمّ ونبرات صوته تعلو قليلاً في شيء من الحدة) لا حول ولا قوّة إلّا بالله، عظمت وتاريخ وسخام، هلا حدّثني بكلام معقول!؟

تورّد وجه كمال حياء والسّما وهو يستمع إلى رأي أبيه في المعارف والقيم السامية التي يقدّسها، وكيف استنزها إلى مستوى السخام وقرعها به، غير أنّه لم يُعذّم عزاء فيها ورد ذهنه – في لحظته تلك – جليل دون شكّ، إلّا أنّه ضحية زمان ومكان ورفاق. ترى هل يجدي معه النقاش؟ هل يجربّ حظّه مرّة أخرى مستعيناً بمكر جديد؟

– الواقع يا بابا أنّ هذه العلوم تحوز أكبر التقدير في الأمم الراقية؟ إنّ الأوروبيّين يقدّمونها، ويقيّمون

- اعلرتني يا بابا إذا لم أكن أحسنت التعبير عن رأيي، أريد أن أوصل دراساتي الأدبية التي بدأها بعد الكفاءة، أن أدرس التاريخ واللغات والأخلاق والشعر، أما المستقبل فأمره بيد الله!

فهفت السيد منهكًا حانقًا، وكأنما يتم سرد ما سكت كمال عنه:

- وادرس أيضًا فنَّ الحياة والفره جوز وفتح للمندل ونبين زين نبين. لمْ لا، اللهم غفرانك، أكنت حنًا تدخر لي هذه المفاجأة؟ ... لا حول ولا قوة إلا بالله! اقتنع السيد أحمد بأن الحال أخطر مما قدّر، فحار في أمره، وجعل يسأل نفسه: أخطأ فيا أياح لابنه من حرّية القول والرأي؟ كلّمَا مدّ له في حبل الصبر والتسامح ليح الآخر في العناد وتنادى في الجدل... وما ليث أن قام في نفسه صراع بين نزعة الاستبدادية وبين تسليمه بحق «اختيار المدرسة»، حرصًا على مستقبل كمال من ناحية وكراهية للإلزام من ناحية أخرى، ولكنّه انتهى على غير عادته - أو بالأحرى على غير عادته في الزمن القديم - بتغليب الحكمة، فعاد إلى النقاش وهو يقول:

- لا تكن غرًا، ثمة شيء في عقلك لا أدريه أسأل الله لك منه النجاة، ليس المستقبل هورًا ولعبًا، ولكنّه حياتك التي لن تكون لك حياة غيرها، فكر في الأمر طويلًا، الحقوق خير مدرسة لك، إنّي أفهم الدنيا خير منك، ولي أصدقاء من كافّة الطبقات ولا خلاف بينهم في ذلك، أنت طفل أحق، ألا تدري ما هي النبابة وما هو القضاء؟ هذه وظائف تبرز الأرض هورًا ولي وسعك أن تتبرأ واحدة منها، كيف تُعرض عنها بكلّ بساطة وتختار أن تكون... مملّكًا؟

شدّ ما يتألّم - لا غضبًا لكرامة المعلم فحسب - ولكن غضبًا لكرامة العلم أوّلًا وأخيرًا، العلم الحقيقي في نظره لم يكن حسن الظنّ بالوظائف التي يهرّز الأرض هورًا، فطالما وجد الكتاب المسيطرين على روجه يطلقون عليها العظمة الزائفة والمجد الزائل وغير ذلك من نعوت الاستهانة والاستخفاف، فاسم - تبعًا لأقوالهم - بآلًا عظيمة حقيقة إلا في حياة العلم

كمال، وهو يناضل في استيابة:

- لست أتطّلع إلى شخص المتقوطني فحسب ولكن إلى ثقافته أيضًا، ولا أجد مدرسة هي أقرب إلى تحقيق غرضي، أو في الأقلّ إلى تهديد السبيل إليه من مدرسة المعلمين، لذلك أنزعتها، ليس بي من رغبة خاصّة في أن أكون معلمًا، بل لعلي لم أقبل هذا إلا لآله السبيل المتاح إلى ثقافة الفكر...

الفكر؟! ... وردّه مقطع أغنية الحاموي «الفكر تاه اسعفني يا دموع العين» الذي طالما أحبه واستعاده فيها معنى من زمانه، أمّذا هو الفكر الذي يسعى وراءه ابنه؟ سألّه بدهشة:

- ما هي ثقافة الفكر؟

جلّث به الحيرة، فازدرد ريقه، وقال بصوت منخفض:

- لعلي لا أعرفها، (ثمّ يتسم متوقّدًا) لو كنت أعرفها لما كان بي حاجة إلى طلب تعلّمها!

فسألّه مستكبرًا:

- إذا كنت لا تعرفها فبأيّ حقّ اخترتها؟ ...

هه؟ ... هل تميم بالضمة لوجه الله؟

تغلب على ارتباكّه بجهد شديد، وقال مدوّنًا باستيابه في الدفاع عن سعادته:

- إنّه أكبر من أن يحاط بها، إنّه تبحث فيها تبحث عن أصل الحياة ومآلها!

تأثله مليًا في ذهول قبل أن يقول:

- أمن أجل هذا تريد أن تضخّي بمسقبلك؟ أصل الحياة ومآلها؟ أصل الحياة آدم، ومصيرنا إلى الجنة أو النار أم جدّ جديد في ذلك؟

- كلًّا، أعلم هذا، أريد أن أقول... فعامله قائلاً:

- هل جنتك؟ ... أسألك عن مستقبلك، فتجيبني بأنك تريد أن تعرف أصل الحياة ومآلها؟ ... وماذا تعمل بعد ذلك؟ ... فتضج دكّانًا لاستطلاع الغيب؟

خاف كمال إن هو استسلم للارتباك والصمت أن يُغلب على أمره أو يضطرّ إلى التسليم بوجهة نظر أبيه، فقال مستنجدًا شجاعته:

والحقيقة، واقتربت من ثم كل مظاهر السلطان والجاه في ذهنه بالزيف والتضاهة، غير أنه تحاشى الإفصاح عن إيمانه لهذا أن يستحصل غضب أبيه، وقال برقة وتودد:

- على أي حال مدرسة المعلمين مدرسة عليا!

تفكر السيد ملياً، ثم قال متبرماً بالناس:

- إذا لم تكن بك رغبة في الحقوق، ويعرض الناس بعشوق التماسه، فانخر مدرسة مختومة: الحربية، البوليس... وشيء خير من لا شيء!

فقال كمال منزعجاً:

- ادخل الحربية أو البوليس وقد نلت البكالوريا؟

- ما حيلتي إذا لم يكن لك في الطب نصيب!

عند ذلك شعر بضوء آت من ناحية المرأة أفلق عينه اليسرى، فمدّ بصره صوب الصوان، فرأى أشعة شمس العصر المائلة المتسربة إلى الحجرة من النافذة المطلّة على الفناء، وقد زحفت من الجدار المواجه للغراس حتى غيّبت جانب المرأة، مؤذنة باقتراب موعد انصرافه إلى الدكان، فترجّح قليلاً مبتعداً عن الضوء المنعكس، ثم نفخ نفخة وشت بضيقه وانلرت - أو بئرت - في الوقت نفسه بوشك انتهاء الحديث، وتساءل واهماً:

- ألا توجد مدرسة أخرى غير هذه المدارس المغضوب عليها؟

فقال كمال وهو يفضّ بصره حرجباً لمعجزه من إرضاء أبيه:

- لم يبقَ إلا مدرسة التجارة ولا أرب لي فيها!

وعم أنّ مبادرته إلى الرضف أسنفته، ألا أنه لم يجد من نفسه نحو المدرسة الجديدة إلا الفتور، لظفته أنّها إنما تخرج وتجّاراً، ولم يكن يرضى لابنه أن يكون تاجراً! لم يغب عن علمه أول الأمر أنّ متجرّاً كمستجره - وإن هيّا له حياة صالحة - فإنه أعزّ من أن يهين هله الحياة لمن يخلفه فيها من أبنائه إذا روعي ما سيفرق من دخله على بقية المستحقين، فلن يعمل على إعداد أحد منهم ليحصل عمله، على أنّ ذلك لم يكن السبب الجوهري لفتوره، كان في الحق يكبر الوظيفة والموظفين ويدرك خطرهم ومنزلتهم في الحياة العامة كما لمس ذلك

بنفسه، سواء في أصدقائه من الموظفين أو في بعض اتصالاته الحكومية المتعلقة بعمله، فأراد أبنائه على أن يكونوا موظفين وأعدّهم لذلك، كذلك لم يكن يحنى عليه أنّ التجارة لا تحظى بربح ما تحظى به الوظيفة من التقدير في نظر الناس وإن أخلفت أضعافها من المال.

وهو نفسه شارك الناس شعورهم وإن لم يعترف بذلك بلسانه، بل كان يعتزّ بإكبار الموظفين له فيعدّ نفسه من الناحية «العقلية» موظفاً أو نذاً للموظفين، ولكن من غيره يسمعه أن يكون تاجراً ونذاً للموظفين ممّا؟ ومن أين لأبنائه بشخصية مثل شخصيته؟ أه يا لها من خيبة أمل! كم حقّق قديماً أن يرى ابناً من أبنائه طبيياً، وكم ناط بفهمي أمنته حتى قيل له إنّ البكالوريا الآداب لا تؤدّي إلى مدرسة الطبّ فرضي بالحقوق واستبشر بما بعدها خيراً، ثم علّق أمه بكامل فاختار قسم الآداب فعاد الرجل يحمل بما بعد الحقوق، ولكنّه لم يتصور قطّ أن تنجلي المعركة بين آماله وبين الأقدار بوفاة «نابهة» الأسرة، وإصرار كمال على أن يكون معلماً! أيّ خيبة أمل! وبدا السيد حزينا حلقاً، وهو يقول:

- لقد أخلصت لك النصيحة وأنت حرّ فيها تختار لنفسك، ولكن ينبغي أن تذكر دائماً أنني لم أوافقك على رأيك، ففكر في الأمر طويلاً، لا تتعجل، فما يزال أمامك فسحة من الوقت وإلا ندمت على سوء اختيارك مدى الحياة، أعوذ بالله من الحقم والجهل والسخف! وطرح الرجل رجله على الأرض آتياً حركة دلّت على شروعه في القيام ليأخذ أمهته لمغادرة البيت، فنهض كمال في أدب وسجاء، وانصرف.

عاد إلى الصلاة فوجد أمه وباسين جالسين يتحدثان، وكان مؤرّع النفس كاييف البال لمعارضته لأبيه وإصراره على معارضته رغم ما أبدى الرجل من حلم ولين، ثم لما بدا عليه أخيراً من ضيق وحزن، فقصّ على ياسين خلاصة ما دار في الحجرة من نقاش، وأنصت إليه الشاب وصل جبهته علامة احتجاج وعلى شفثيه إبتسامة ساخرة، وسرعان ما صارحه بأنّه من رأي السيد وإنّه يعجب لجهله للقيم

- ولكنهم يقولون إنَّ المعلم لا حظَّ له في المناصب الرفيعة!

فلوَّحت بيدها باستهانة قاتلة:

- المعلم موفور الرزق. اليس كذلك؟ حسبك هذا، إنِّي أسأل الله لك الصِّحة وطول العمر وصالح العلم، كان جدُّك يقول: «إنَّ العلم أعزُّ من المال»!

اليس عجباً أن يكون رأي أمه خيراً من رأي أبيه؟ ولكنه ليس برأي، إنَّه شعور سليم، لم تنفسه عارسة الحياة الواقعية التي أفسدت رأي أبيه. ولعلَّ جهلها بشئون العالم هو الذي صان شعورها عن الفساد، ترى ما قيمة شعور - وإن سها - إذا كان مصدره الجهل؟ وألا يكون لهذا الجهل نفسه أثره في تكوين آرائه...؟

ثار حل هذا المنطق، وقال مجاوره: إنَّه عرف الدنيا خيرها وشرها في الكتب وآثر الخير عن إيمان وتفكير، وقد يلتقي الشعور الفطري الساذج بالرأي الحكيم دون أن تبوي سلجاجة الفطرة من أصالة الحكمة.

اجل! إنَّه لا يشك لحظة في صدق رأيه وجلاله، ولكن هل يدري ماذا يريد؟ ليست مهنة المعلم بالتي تجلبه، إنَّه يعلم أن يؤلِّف كتاباً، هلْه هي الحقيقة، أيُّ كتاب؟ لن يكون شعراً، إذا كانت كراسة أسرارهِ تحوي شعراً، فمرجع ذلك إلى أنَّ عابدة تحمِل النثر شعراً لا إلى شاعرية أصيلة فيه، فالكتاب سيكون نثراً، وسيكون مجلِّداً ضخماً في حجم القرآن الكريم وشكله، وستحرق بصفحاته هوامش الشرح والتفسير كذلك، ولكن عمَّ يكتب؟ ألم يحو القرآن كلَّ شيء؟ لا ينبغي أن يأس، ليجدَّ موضوعه يوماً ما، حسب الآن أنه عرف حجم الكتاب وشكله وهوامشه، اليس كتاب يترُّ الأرض خيراً من وظيفة وإن هزَّت الأرض؟ كلُّ المتعلِّمين يعرفون سقراط، ولكن من منهم يعرف القضاة الذين حاكموه؟!

- ٥ -

- مساء النور... -

لا تحبب! هذا ما قدرته وما أنا به عليم. هي البداية دائماً... منذ قديم وإلى الأبد، ها هي توليك

الجليلة في هذه الحياة، وتطلَّعه لأخرى وهمية أو سخيفة. تريد أن تجود بحياتك للمعلم؟ ما معنى هذا؟! إنَّه سلوك رائع كما يبدو في فصل من فصول المنطوطي أو في نظرة من نظراته، أمَّا في الحياة فما هو إلَّا عبث لا يقدم ولا يؤخر، وانت تعيش في الحياة لا في كتب المنطوطي... اليس كذلك؟ الكتب تقرَّر أموراً غريبة وخارقة، مثال ذلك، إنَّك تقرأ فيها أحياناً وكاد المعلم أن يكون رسولاً، ولكن هل صادفت مرَّة معلِّماً يكاد أن يكون رسولاً؟ تعال معي إلى مدرسة النخاسين أو تذكر من تشاء من معلِّميك، وقلني على واحد منهم يستحق أن يكون آدمياً لا رسولاً وما هذا العلم الذي تريد؟ أخلاق وتاريخ وشعر؟ كلُّ أولئك جميل للتسلية، حاذر من أن تغفل من يديك فرصة الحياة الرفيعة، كم اتَّحسّر أحياناً على معاكسة الظروف التي حالت بيني وبين مواصلة الدراسة!

تساءل عندما خلا إلى أمِّه على أثر ذهاب الأب ياسين، ترى ما رأيها؟... لم تكن تمُّ يؤخذ رأيهم في مثل هذا الأمر، بيد أنَّها تابعت أكثر حديثه مع ياسين، إلى أنَّها كانت على علم برغبة السيِّد في إلحاقه بمدرسة الحقوق، الأمر الذي باتت تتطوَّر منه فلم ترتع إليه، حل أنَّ كمال كان يعرف كيف يظهر بموافقتها من أقصر سبيل، قال لها:

- إنَّ المعلم الذي أرغب في دراسته وثيق الصلة بالدين، ومن فروعه: الحكمة والأخلاق، وتأمُّل صفات الله وكنه آياته ومخلوقاته فتطوَّر وجه أمانة، وقالت بحماس:

- هذا هو العلم حقاً، علم أبي، علم جدِّك، إنَّه أجل العلوم!

وفكرت قليلاً وهو ينظر إليها من طرف خفيٍّ بأساً، ثمَّ عادت تقول بنفس الحماس:

- منذاً الذي يحضر المعلم يا بني؟ ألم يقولوا في الأمثال ومن علَّمني حرفاً صرت له عبداً؟

فقال مرَّداً حجَّة أبيه الذي هاجم بها اختياره، وكأنَّما يستوهبها رأياً يؤكِّد به موقفه:

ظهرها، ابتعدت عن الحائط نحو جبل الغسيل، تحيك المشابك، ألم تحبكيها من قبل؟ ... بل ولكنتك تدارين موقفك، إني أفهم كلّ الفهم، عشرة أعوام في المجون ليست بالخبيرة القليلة، متع عينك بمنظرها قبل أن يستقرّ الظلام الزاحف فلا تبسو إلا شيجاً، سمئت واكتنزت، زادت حسناً عما كانت أيام صباها. كالغزال كانت ولكنتها لم تكن تملك هذه الأرواف العيلة، رويداً... لم يزل لها من رشاقة البكارة نصيب محترم، ما عمرك يا شاطرة؟ زعم أهلك قديماً أنك في سنّ خديجة. رأي خديجة أنك تكبرينها بسنوات وسنوات. امرأة أبي تركّد هذه الأيام أنك في الثلاثين مستشهدة بذكريات قديمة من نوع: أيام كنت حبل في خديجة كانت صبيبة في الخامسة الخ، ما قيمة العمر؟ هل أنت ستعاشرها حتى الكبر؟! في الأيام القصيرة تستوي الشابة والنصف، جميلة وجذابة ومشبعة دسمة، أه، نظرت صوب الطريق ولحظتلك، أرايت مقتلها وهي تلمحظ كاللدجاجة؟ لن أبرح موقفني يا مليحة، فحق تعرفين الشيء الكثير من جلاله وقوّته وماله، أليس هو خيراً من ذلك الإنجليزي القديم...؟

- هل التحية عندكم لا تستحقّ ردّاً ولو بملها؟
ولئك قذاها مرة أخرى، مهلاً... ألم تبسم؟ بل ومن سوى جمالها فجعله فتنة، لقد ابتسمت، مهّدت هذه الخطوة الأخيرة فأحسن التمهيد، لا شك أنّها تعلم بكلّ حركاتي ومناوراتي السابقة، أنّ... وأنّ لك... من حسن حظي أنّك لست من المصابيات بداء الحشمة، ذاك الإنجليزي... جوليون، الجواد الكريم الفاتم أمامك موطأ للثن، ألا تسمعين صممته؟

- أليس للجوار عندكم إكرام؟... إني أشعلك تحية هي من صميم حقوقي!
جاءه صوت رقيق خافت - بدا لتحول الوجه عنه كأنه أتى من بعيد - وهو يقول:
- ليست من حقك... هل هذا النحو!
أجيب الطارق. رُفعت سقاة الباب. لن تظفر ببالنساخة حتى تلعق الزجر. اثبت، الثبات...!

الثبات... كما جئت به المجاورون.
- إذا كان صدر مّي ما أغضبك فلن أغتفره لنفسي ما حيث؟

هي في عتاب:
- إنّ سطح بيت أم عليّ، الداية، في مستوى سطحنا وسطحكم، ما عسى أن يظنّ الناظر إذا رأى موقفك مّي وأنا أنشر الغسيل؟...

ثمّ في تساؤل هائز:
- أم تريد أن تجعل مّي أحمدة؟!
بُعْد الشرّ عنك؟ هل راعيت هذا الحذر في موقفك مع جوليون في الزمن القديم؟ لكن مهلاً، إنّ جمال عينيك وعجزيتك يغفر ما تقدّم وما تأخّر من ذنبك!
- لا أبقاني الله في الحياة لحظة واحدة إن كنت قصدتك بسوء، لقد تواريت تحت سقيفة الياسمين حتى غابت الشمس، ولم أقرب من السور حتى ثبت عندي خلوّ سطح أم عليّ الداية...!

ثمّ وهو يتنهد بصوت مسموع:
- وعلدي بعد ذلك أتت واليت صعود السطح أبداً كي أظفر بيّله الحلوة... فلما وجدتها الساعة استخفني السور، وعلى أيّ حال ربنا يستر...
- عجيبة!... لم هذا التنبّ كده؟
سؤال لا يبعث عليه الجهول، يسألنّ عما يعرفنّ، ارتضت أن تخاورك فاهناً بحوارها...!

- قلت لنفسي: أن تحببها وتردّ تحبّتك الدّ من الصّحة والعافية!

التفتت إليه برأس دلّت حركته في شبه الظلام على تكتم الضحك، وقالت:

- لسانك أطول من جسمك، ترى ماذا وراء كلامك؟

- وراءه؟... هلاً اقتريت من السور؟ عندي حديث طويل، منذ أيام وأنا أقادر البيت إلى الطريق، لاحت مّي التفاتة إلى الأرض فرايت ظلّ يد تتحرّك، فنظرت إلى فوق فرايتك مطلة من السور، رايت منظرًا جميلاً لا يمكن أن ينسى...!

دارت على عقيبتها ولكنتها لم تقترب خطوة، ثمّ قالت

في لهجة تنم عن الانحياز:

- ثم رأيتك أخيراً فرأيت شابة جميلة كالزهرة،
تطالع في ظلام الليل تنفوسه، فكأنما أراك لأول مرة،
سألت نفسي أكون هله جارتنا مريم التي كانت
تلعب مع خديجة وعاشقة؟ كلا... هذه فتاة اكتمل
لها الحسن ونضج، وشعرت بأن الدنيا تنضج من
حولها...

قالت، وقد عاود صوتها عبثه:

- في تلك الأيام لم تكن عينك تستبجحان التطلع إلى
أحد! كنت جازاً بمعنى الكلمة، ولكن ماذا بقي من
تلك الأيام؟ تغير كل شيء، عدنا كالغرباء، وكأنا لم
نتبادل كلمة، ولم ننشأ معاً نشأة الأسرة الواحدة. هذا
ما أراه أهلك.

- دعينا من هذا، لا تحمليني همًا إلى هم.

- اليوم تتطلع بعينيك... في النافذة، وفي
الطريق، وما أنت تقطع على السطح!
ماذا يمنعك من الذهاب إن كنت حقا تريدته؟
كلبك الآن من الشهد يا نور الظلام...

- هذا قليل من كثير، إنني أتطلع إليك أيضًا من
حيث لا تدرك، وأراك في الخيال أكثر مما تتصورين،
أقول لنفسي الآن وأنا على يثة عما أقول: إنما القرب
وإنما الموت!

هسيس ضحكة مكتومة اهتز لها قلبه، ثم تساءلت:

- من أين لك هذا الكلام؟

أشار إلى صدره، وهو يقول:

- من قلبي!

مسحت بقلمها على أرض السطح محدثة بالشبشب
حفيفًا ينلر بالتحرك ولكنها لم تزايل موضعها، وقالت:
- ما دام الأمر قد بلغ القلب، فينبغي أن أذهب!
بحاس علا به صوته أولاً حتى انتبه إلى نفسه
فمخضه:

- بسل يجب أن تأتي، أن تسألني إلى، الآن وإلى

الأبد... (ثم بمكر) إلى قلبي... هو لك وما يملك!

وبلهجة وعظيمة عابثة:

- لا تفرط في نفسك على هذا النحو، حرام علي أن

أحرمك قلبك وما يملك...

- كيف تنظر إلى فوق؟!... ولو كنت جازاً حقاً
كما تقول ما سمحت لنفسك بأن تجرح جارتك،
ولكنك سيئ النية فيها بدا منك باعتراكك فيها يبدو
منك الساعة!

حق أنه سيئ النية، ليس الفسق من سوء النية؟
سوء نية من النوع الذي تخيئه، آه من النسوان، بعد
ساعة ستطالبين به كحق من حقوقك، بعد ساعتين
سأهرب وتجدنين في أفري، هل أرى حال ليلتنا فل...
- ربنا يعلم بحسن نيتي، نظرت إلى فوق لأني لا
أستطيع أن امنع النظر عن مكان تكونين فيه، ألم
تدركي هذا؟ ألم تشعرني به؟ جارك القديم يتكلم وإن
تأخر به الزمن.

هازئة:

- تكلم، أطلق الحرية للسانك الطويل، ارفع
صوتك، ماذا تفعل لو اقتحمت عليك السطح امرأة
أبيك فرائك ورائتي؟

لا تزوغي يا بنت اللبوة، سيكون من المعجزات أن
اطوي عقلت، الخافين امرأة أبي حقاً؟ آه... إن ليلة
في حضنها تساوي العمر كله!

- ساسمع وقع الأقدام قبل مجيئها، خلبنا فيها نحن
فيه...

- ما هذا الذي نحن فيه؟

- إنه يجمل عن الوصف!

- لا أجد شيئاً عما تقول، لعل هذا ما أنت وحده
فيه!

- لعله، إنه لامر مؤسف حقاً، امر مؤسف أن
يتكلم قلب فلا يجد من يستجيب له، إنني أذكر أيام
زياراتك ليبتنا. تلك الأيام التي كنا فيها وكأنا أسرة
واحدة، والمتحسر...

غمغمت وهي تهر رأسها:

- تلك الأيام!

لم عدت إلى الماضي؟ أخطأت خطأ كبيراً، احذر أن
يفسد عليك الالم جهدك كله، ركز إرادتك كي تنسى
كل شيء، إلا الحاضر...

فقال بجراحة:
 - أمرك مطاع، ليس السطح بالمكان المأمون، ألم
 تعلمي بأنّ في بيتنا في قصر الشوق؟
 هتفت مستنكرة:
 - بيتك! أهلاً يا سيّتي!
 فسكت قليلاً، كأنّها يحاذر، ثمّ تساءل:
 - حُني فيم أفكر؟
 - لا شأن لي بهذا...
 صمت، ظلام، خلوة، ما أفلح تأثير الظلام في
 أعصابي...
 - إنّني أفكر في سوّري سطحنيا المتلاصقين، بهم
 يوحي منظرهما إليك؟
 - لا شيء...
 - منظر حبيبين متلاصقين...
 - لا أحبّ سماع هذا الكلام...
 - تلاصقها يدك أيضاً بأنّه ليس ثمة ما يفصل
 بينهما.
 - هيه!
 نذت عنها كاستدراج مليء بالوعيد، فقال ضاحكاً:
 - كأنّها يقولان لي: احبرا
 تراجعت خطوتين حتّى التصق ظهرها بعلامه
 منشورة، ثمّ همست في تحذير جدّي:
 - لا أسمع بهذا!
 - هذا... ما هذا؟
 - هذا الكلام.
 - والفعل؟
 - سأتركك غاضبة!
 كلّاً وحياتك الغالية... أتمنين ما تقولين؟ أنا
 أغنى عما أظنّ؟ أم أنت أمكر بما تصوّرون؟ لم تكلمت
 عن رضوان وأمه؟ هل تتلوّح بالزواج؟ ما أشدّ رغبتك
 إليها؟ رغبة جنونيّة...
 قالت مريم بفتة:
 - آه... ما الذي يدعوني إلى البقاء؟
 ودارت حول نفسها، ثمّ تطلعن رأسها لتصرّ من
 تحت الغسيل، فأرسل صوته وراءها قائلاً في جزع:

إلى أيّ مدى ذهب بك الفهم؟ إنّني أحاطب فيك
 اللبوة التي أحبّها، لست بلهاء وحقّ ذكرى جوليون،
 تعالي يا بنت القديمة، أخاف أن أضيء في الظلام من
 شلّة النار التي تستمر في جسدي...
 - هو وما يملك لك عن طيب خاطر، سمعته في أن
 تقبله وتملكه، وأن تكوني له وحده!
 قالت ضاحكة:
 - أرايت يا مكر؟... تريد أن تأخذ لا أن
 تعطى...
 من أين لك بهذا اللسان؟ ولا زنوبة في زمانها،
 ملعونة الدنيا من غيرك...
 - أريد أن تكوني لي كما أكون لك... أين الظلم
 في هذا؟
 صمت، ونظر متبادل بين الشبيين، حتّى قالت:
 - لعلهم يتساءلون الآن عمّا أحرّك!
 فقال مستعطفاً بمكر:
 - ليس ثمة في الدنيا من يهتمّ بأمرَي!
 عند ذلك غيّرت هجتها متسائلة بهجذ:
 - كيف ابتك؟... لا يزال عند جدّه؟
 ماذا وراء هذا السؤال الغريب؟
 - بل...
 - ما عمره الآن؟
 - خمس سنوات...
 - وما أخبار والدته؟
 - إنّها تزوّجت أو مستزوّج في القريب العاجل...
 - خسارة... لم ترّكها ولو إكراماً لرضوان؟
 يا بنت اللبوة... أفضحي عمّا ترومين...
 - ألهه رغبتك حقّاً؟
 وهي تضحك ضحكة خافتة:
 - يا بخت من ولّق رأسين في الحلال!
 وفي الحرام؟
 - لكنني لا أنظر إلى الوراء...
 ساد صمت بدا غريباً مليئاً بالفكر... حتّى قالت
 بصوت جمع بين التحليل واللين:
 - إنّك وأن تقطع عليّ السطح مرّة أخرى.

رجع ياسين من الحجرة وقد ارتدى ملابسه وأخذ زيشته، فحباها وانصرف، وبعد قليل سمعا نقر استئذان على باب الصالة فدعا كمال القادم - وهو على يقين من هويته - فدخل شابٌ مثاله في السن، قصير القامة، وسيم الطلعة، مرتدياً جلباباً وجاكته، فقصده أمانة وقبل يدها، ثم صافح كمال وجلس إلى جانبه... كان في سلوكه - رغم ما أخذ به نفسه من التقلب - ألفة كأنما كان واحداً من أهل البيت، وأكثر من هذا فقد أقيمت أمانة تحادثه وهي تدعوه بكل بساطة «يا فؤاد»، وتسأله عن صحة أبيه جميل الحمزاوي والدة، فيجيبها مستشعراً السرور، والامتنان في حسن استقبالها، وترك كمال صديقه مع والدة، ومضى إلى حجرته ليرتدي جاكته، ثم يعود إليه فينطلقاً معاً.

- ٦ -

سارا جنباً إلى جنب صوب درب قزمز، متجيبين طريق النحاسين، ليبتاعا من المرور بالدكان حيث يوجد والدهما... كمال بقمته الطويلة النحيلة، وفؤاد بقمته القصيرة، تكاد صورتاهما تلفتان الأنظار بتناقضهما. تسامل فؤاد بصوت هادئ:

- أين تذهب هذا المساء؟

فأجابه كمال بصوته الانفعالي:

- فهوة أحمد عبده...

كان كمال - عادة - يقر، وفؤاد يوافق رغم ما عرف عن الأخير من رجاحة العقل، ورغم نزوات كمال التي كانت تلبو مضحكة في عين رفيقه، مثل دعواته المتكررة له للعباب إلى جبل المقطم والقلمة والحمية لتسريح النظر - على حدّ تعبيره - في خلقات التاريخ وعجائب الحاضر، ولكن الحق أن العلاقة بين الصديقين لم تخل من تأثير بفرق طبقتيهما، وكون الأزل ابن صاحب الدكان والأخر ابن وكيله، وعشق هذا التأثير أن فؤاد اعتاد في صباه أن يؤدي ما يكلف به من شراء بعض حوائج لبيت السيد أحمد، وأن يكون صنيعة لكرم أمانة التي لم تكن ترضى عليه بأحسن ما

- تذهين دون تحية!

أشرب رأسها فوق حبل الغسيل، ثم قالت:

- البيوت من أبوابها، هذه تحتي...

وانجهت مسرعة نحو باب السطح فمرت منه.

عاد ياسين إلى الصالة فاعتذر لأمانة عن طول غيبته بحرارة الجز في الداخل، ثم ذهب إلى حجرته ليرتدي بلبلته. كان كمال يتبعه عينه في دهشة وتفكير. ونظر إلى أمه فالتفأها هادئة مطمئنة وكانت فرغت من احتساء قهوتها وقراءة الفنجان، فتساءل ترى ماذا يحدث لها لو علمت بما دار فوق السطح؟... هو نفسه لم يزايله القلق منذ أطلع مصادفة على منظر المتناجين حين مضى وراء أخيه مستطلعاً غيبته، فعل ياسين ذلك، هل هانت عليه ذكرى فهمي؟ لا يستطيع أن يتصور هذا، كان ياسين يحب فهمي حباً صادقاً، وقد حزن عليه حزناً شديداً، لا يجوز أن يرتب في إخلاصه، إلى أن هذه «الحوادث» كثيراً ما تقع، ثم إنه لم يدر لم يربطون دائماً بين فهمي ومريم؟! لقد علم المرحوم بواقعة جوليون في حينها، ثم مرّ زمن طويل بدا عليه أنه نسيها نسيّاً تاماً وشغل عنها بما هو أجمل وأخطر، وما كانت تستحق غير ذلك وما كانت يوماً كفتاً له. إنه مما يدعو إلى النظر حقاً أن يتساءل: هل يمكن أن ينسى الحب؟ الحب لا ينسى، هذا ما يؤمن به، ولكن من أدراه أن فهمي أحب مريم بالمعنى الذي يفهمه - أو يشعر به - هو من الحب؟ لعلها كانت رغبة قوية، كهذه الرغبة التي تستمدد الساعة على ياسين، بل كذلك الرغبة القديمة إلى مريم نفسها التي ناولته هو على عهد البلوغ وعاشت أحلامه، أجل وقع هذا أيضاً، وعانى منها اللين: ألم الرغبة وألم الندم، وكانا في الفترة متعادلين فلم ينقله من شرساً إلا زواج مريم واختناؤها. سيئه أن يعلم الآن هل تألم ياسين وهل ونزهه الندم؟ وإلى أي مدى؟ لا يتصور أن يكون الأمر جرى سهلاً مهما يكن غلظه بحيوانية ياسين وقصور حماسه للمثل العليا، وهل رغم نظراته المتساعفة للأمر كله شعر بامتاعش وقلق كما ينبغي للإنسان لا يعدل بمثلثاته شيئاً في الوجود.

عندها من مأكل - وكثيراً ما يصادف مجيء أوقات الغداء - وأصلح ما يمكن استغناء عنه من ملابس

كبال، فربط بينها منذ البدء شعور باستعلاء من ناحية وبالتبعية من ناحية أخرى... وهو وإن مضى يزول بحلول شعور الصداقة عمله، إلا أن أثره النفسي لم يُقتلع من الأعماق، وقد قضت ظروف بالآ يهد كمال من رفيق تقريباً طوال العطلة الصيفيّة إلا فؤاد الحمزاوي، ذلك أن رفاق صباه من أهل الحمي لم يواصلوا التعليم إلى النهاية: منهم من توظّف بالابتدائيّة أو الكفّاءة، ومنهم من اضطرّ إلى مزاوله عمل من الأعمال البسيطة مثل صبيّ قهوة بين الفصرين وصبيّ الكوّاء البلديّ بخان جعفر. كان كلاهما من أقرانه في الكتّاب، وما زال ثلاثتهم يتبادلون تحية الزمالة القديمة كلّما اتّفق لهم اللقاء، تحية مشربة بالاحترام من ناحيتهما لما يضيفه طلب العلم عليه من امتياز، مشبعة من ناحيته بالبورقة الصادرة عن نفس مطبوعة على التواضع والبساطة، أمّا أصدقائه الجدد الذين اكتسب صداقتهم في العباسية: حسن سليم، وإسماعيل لطيف، وحسين شذّاد فكانوا يقضون العطلة في الإسكندرية ورأس البر، فلم يبقَ له من رفيق إلا فؤاد.

بلغا مدخل قهوة أحمد عبده بعد مسيرة دقائق، فهبطا إلى مستقرّها الغربيّ في جوف الأرض تحت حيّ خان الحليلي، وانجھما إلى مقصورة خالية، وفيها هما يجلسان متقابلين حول المائدة تمتم فؤاد في شيء من الحياة:

- ظننتك ستذهب هذا المساء إلى السينما!

وشئ قوله برغبته في الذهاب إلى السينما، ولعلّها رادته قبل أن يذهب إلى مقابلة كمال في بيته ولكنته لم يفصح عنها، لا لأنه لا يستطيع أن يثني كمال عن رأيي فحسب، وإنّما لأن كمال هو الذي يقوم بتفقات السينما إذا ذهب إليها ممّا، فلم تواته شجاعته على التلميح إلى رغبته حتّى استقرّ بها المجلس بالقهوة حيث يمكن أن يؤخذ قوله مأخذ الملاحظة البريقة العابرة.

- سذهب يوم الخميس القادم إلى الكلوب المصريّ

لمشاهدة شارلي شابلن، فلنلعب الآن عشة دومينو...

خلعا طربوشيهما ووضعاهما على مقعد ثالث، ثم نادى كمال النادل، طلب شاباً أخضر ودومينو. بدا للمقهى المدفون كجوف حيوان من الحيوانات المنقرضة، طُمر تحت ركام التاريخ إلا رأسه الكبير، فقد تشبّث بسطح الأرض فاغراً فاه عن أنياب بارزة على هيئة مدخل ذي سكم طويل، وثمة في الداخل صحن واسع مربع الشكل مبلّط بالبلاط المعصرانيّ تتوسطه فسيفيّة رُصّت على حافتها أصص القرنفل، وأحدت بها من الجهات الأربع أرائك فُرشت بالحصير المزركش والوسائد، أمّا جدرانها فقد انتظمتها مقاصير صغيرة الحجم متجاورة، كأنّ الواحد منها كيف منحوت في الحائط، لا نافذة بها ولا باب لها، واقتصرت أثاثها على مائدة خشبيّة وأربعة مقاعد ومصباح صغير يشتعل ليل نهار في كوة بأعلى الجدار المواجه للمدخل. وكانّ القهوة اكتسبت من موقعها الغربيّ بعض صفاته، فهي تهوّم في هدوء غير مألوف لسائر المقاهي، وضوء غير باهر، وجوّ رطيب، وقد انطوت كلّ جماعة على نفسها في مقصورتها أو فوق أريكتها، تدخّن النارجيلة وتغسو الشاي وتهيم في دردشة لا نهاية لها، تكاد تشملها نغمة صبا وائية متصلة إلا أن تقطعها في فترات متباعدة سملة أو ضحكة أو قرقرة مدخّن منهم. كانت قهوة أحمد عبده في نظر كمال يجتلي للمتناهل وتحفه للحالم، أمّا فؤاد - وإن لم تغب عنه طرافتها أوّل عهده بها - فلم يعد يجد فيها إلا مجلساً كثيباً تغشاه الرطوبة والهواء الفاسد، ولكنته لم يكن يملك إلا أن يلثي كلّما دُعي إليها!

- أتذكر يوم أن رأنا أخوك سي يامسين ونحن في مجلسنا هذا؟

قال كمال باساً:

- نعم، سي يامسين متسامح ولطيف ولم يشعرني أبداً بأنّه أخي الأكبر، بيد أنّ رجوته يومذاك ألاّ يشير إلى مجلسنا في البيت لا خوفاً من أبي، فإنّ أحداً عندها لا يجزؤ على مكاشفته بمثل هذا الأمر، ولكن إشفافاً من

والسلبية، بل الحق لم يكن ثمة فارق - في اهتمامه وحساسه - بين جده ولوهو. على أن تفوق فؤاد في المدرسة لم يكن دون تفوقه في الدومينو، كان أول فرقته بينا كان هو في الخمسة الأوائل، فهل ثمة دور للحظ في ذلك أيضاً؟ كيف يعكس تفوق الشاب الذي ينطوي له في الأعمق على شعور بالاستعلاء ظن أنه ينبغي أن يمتد إلى المواهب العقلية على السواء؟ لم يُعدم رأياً يؤن به من تفوق صاحبه، فهو يقول إنه يكرس وقته كله للذاكرة وأنه لو كان عقله بالتفوق الذي يزعمون لأغنى عنه بعض هذا الوقت، ويقول أيضاً: إنه ينتجب الألعاب الرياضية وقد برز هو في أكثر من نوع منها، ويقول أخيراً: إن فؤاد يقتصر في مطالعته على الكتب المدرسية، وإذا تراءى له أن يقرأ كتاباً غير مدرسي في العطلة لاحظ في اختياره أن يكون مفيداً لدراسته اللاحقة، أما هو فلا يحد مطالعته حدود ولا توجهها منفعة، فما وجه الغرابة في ذلك في أن يسبقه الشاب في الترتيب؟ غير أن سطحه هذا لم يعرض صداقتها للوهن، كان يجبه ويحيد في رفقة مؤانسة ومسررة إلى أنه لم يضر - على الأقل فيما بينه وبين نفسه - بالإقرار بفضائله ومزاياه.

تواصل اللعب وانتهت العشرة - على غير ما أندر به مطلعها - بانتصار كمال! فتنطق وجهه، وضحك ضحكة عالية، ثم سأل غريمه: «عشرة أخرى؟» لكن فؤاد قال بأسياً: «حسبنا اليوم ما كان» لعله كان مل اللعب، أو لعله أشفق من أن يحجي نتيجة العشرة المقترحة تخيبة آمال كمال فيقلب سروره ثماً، فهو كمال رأسه كالمتعجب وقال:

- إنك كالمسك من ذوي الدم البارد
ثم بلهجة المنتقد، وهو يدللك أرتبة أنفه العظيم
بإبهامه وسبأته:

- إني أعجب لك، إذا غلبت من تأبه للأخذ بشارك،
وتحبت سعد ولكنت تنكص عن الاشتراك في مظاهرة
أريد بها تحيته يوم ولي الوزارة، وتبارك بسيدنا الحسين
ولكن لم يمتز لك شجرة يوم ثبت لنا من تاريخه أن
جثائه غير ثاو في ضريحه الغريب إني أعجب لك...

إزعاج والذيق، تصور أنها ترتعب إذا حلمت بشركتها على هذه الفهوه أو غيرها، وتظن أن أغلبية رواد المقاهي من الحشاشين وسيبي السمعة!

- وسي ياسين، ألم تعلم بأنه من رواد المقاهي؟
- إذا قلت لما هذا قالت لي: إن ياسين وكبير ولا خوف عليه، أما أنا فصغيرا الظاهر أني سأظل معدوداً في الصغار في بيتنا حتى يدركني المشيب!

جاء النادل بالدومينو، وقد حين من الشاي على صينية فاقعة الاصفرار، فكرتها جميعاً على المائدة وذهب، تناول كمال قدحه من فوره وراح يجتسه من قبل أن تحف حراته، ينفخ السائل ثم يتمرزه، وينفخ مرة أخرى ويصمص فشفيه كلياً لسمته الحرارة، ولكن ذلك لا يردعه فيعاود المحاولة في عناد وجزع كآته محكوم عليه بالفراق منه في دقيقة أو دقيقتين، على حين جعل فؤاد يراقبه صامتاً أو يمد بصره إلى لا شيء وهو مستند إلى ظهر مقعده في رزانة أكبر من سته، تلوح في عينيه الواسعتين الجميلتين نظرة عميقة هائلة، ولم يمد يده إلى قدحه حتى كان كمال قد فرغ من مغالبه قدحه، وعند ذاك أقبل يتحصى الشاي في تأن مستطعماً مذاقه مستلثاً نكهته، وهو يغمغم بعد كل حسوة والله... ما أطيبه، والآخر يحثه على الفراغ منه بصبر نافذ كي يأخذ في اللعب، وهو يقول منذراً:

- لأهزمتك اليوم. لن يخالفك الحظ أبداً الدهر...
فيستسم فؤاد مغمغماً:
- سنرى...
وأخذ يلعبان...

كان كمال يولي المباراة اهتماماً عصبياً، كآته يخوض معركة تتوقف على نتائجها حياته أو كرامته، بينا مضى فؤاد في نظم قطعه بهوده ومهارة فلم تفارق الابتسامة شففيه، أقبل الحظ أم أدير، هش كمال أم عيس، وقد خرج كمال - كماداته - من طوره، فهتف به: «لعب سخيف، وحظ سعيد». فلم يزد الآخر عن أن ضحك ضحكة مهذبة لا تثير حقاً ولا توشي بتحد. طلالاً قال كمال لنفسه وهو يتميز غيظاً ولن يبرح حظه راكباً حقيقي، ولم يكن يلقي اللعب بالتسامح الخلق باللهو

- شدّ ما يجنّقه البرود، إنّ ما يستّونه «العقل» لا يطقه، وكأنّه يحبّ الجنون ويحبّ به، أنّه يذكر يوم قبل لها في المدرسة: «إنّ صريح الحسين رمز له ولا شيء غير ذلك». عدا يومذاك ممّا وفّاد يردّد ما قاله مدرّس التاريخ الإسلاميّ، وكان كمال يتساءل متزعّجاً: كيف أوتيّ صاحبه تلك القوّة التي تمحّل بها الخبر كأنّه شأن لا يعني؟! أمّا هو فلم يستسلم لتفكير، لم يستطع أن يفكر البتّة، وكيف لثائر أن يفكر؟ صار كالترنّج من هول الطعنة التي نفلت إلى صميم قلبه، كان يبكي خيالاً نضب وحلّ تبدّد، لم يعد الحسين بجارهم، بل لم يكن بجارهم يوماً من الأيام، أين ذهبت القبلات التي طبعت حلّ باب الضريح في صدق وحرارة؟ أين يذهب الاعتزاز بالقرب والإدلال بالجار؟ لا شيء من هذا كلّ، ما بين إلّا رمز في الجامع ووحشة وخيبة في القلب، وبكى ليلتذاك حتّى بلّل وسادته، تلك كانت الصدمة التي لم تحرك في صديقه العاقل إلّا لسانه حين علّق عليها مرثداً أقوال مدرّس التاريخ، ألا ما أبشع العقل!
- هل علم والدك برغبتك في دخول مدرسة المعلمين؟
- قال كمال بحسنة جاءت معبّرة عن ضيقه ببرود صاحبه ولمه المتخلف عن مناقشة أبيه ممّا:
- نعم!...
- وماذا قال لك؟
- فقال يروّج عن صدره بمهاجمة محدّثه عن طريق غير مباشر:
- وأسفاه!... إلّا والدي كأكثر الناس تمنّ يهيمون بالمظاهر الزائفة، الوظيفة... النيابة... القضاء... هذا كلّ ما يهيمه، لم أدر كيف اتّقصه بجلال الفكر والقيم السامية الحقيقية بالنشدان في هذه الحياة! غير أنّه ترك لي حرّية التصرف...
- جعلت أصابع فؤاد تعبت بقطعة من الدومينو، وهو يقول في حذر وإشفاق:
- قيم جليّة بلا شك، ولكن أين البيت التي ترفعها الطويلة وهو حيس هذا الحيّ ولا رفيق له إلّا هذا «العاقل»؟ ثمّة حياة أخرى تعارض حياة الحيّ العتيق
- لا يمكن أن أبذل عقيدة سامية لا شيء إلّا أنّ من حولي لا يؤمنون بها...
فعاد يقول في هدوء مسكن:
- روح جديرة بالعجاب!... ولكن ألا يحسن بك أن تقدّر مستقبلك في ضوء الواقع؟
فتساءل كمال بازدياد:
- ترى لو كان زعيمنا قد أخذ بهذه النصيحة، أكان يفكر جليّاً في أن يذهب إلى دار الحماية للمطالبة بالاستقلال؟
- ابتسم فؤاد ابتسامة كأنّها تقول «رغم ما في حبّتك من وجهة فهي لا تصلح قاعدة عامّة في الحياة، ثمّ قال:
- ادخل الحقوق حتّى تضمن عملاً محترماً، ولك بعد ذلك أن تواصل ثقافتك كما تشاء!
- لم يجعل الله لمرءٍ من قلوبين في جوفه، ثمّ دعني أحجّج على ربطك العمل المحترم بالحقوق! كأنّ التدريس ليس عملاً محترماً!
- فبادر فؤاد يقول بتوكيد يدفع به عن نفسه الشبهة:
- لم أقصد هذا مطلقاً، ومنذا الذي يقول إنّ حفظ العلم ونشره ليس عملاً محترماً؟... لعليّ كنت أرؤد رأي الناس وأنا لا أدري، والناس كما أشرت إلّي شيء من هذا تبهّروهم أضواء القوّة والنفوذا!
- فهزّ كمال متكيّ استهانة، وقال بإصرار:
- إنّ حياة تكبّر للفكر هي أجلّ حياة...
هزّ فؤاد رأسه كالواقف دون أن ينبس، وظلّ لاثداً بالصمت حتّى سألّه كمال:
- ما الذي دعاك إلى اختيار الحقوق؟
ففكر قليلاً ثمّ أجابه:
- لم أكن مثلك واقفاً في غرام الفكر، فكان عليّ أن أختار دراسة عالية على ضوء المستقبل وحده، فاخترت الحقوق...
- أليس هذا هو صوت العقل؟ بل أنّه هو، شدّ ما يثير حقنه، تحرّده، أليس من الظلم أن يمضي العطلة الطويلة وهو حيس هذا الحيّ ولا رفيق له إلّا هذا «العاقل»؟ ثمّة حياة أخرى تعارض حياة الحيّ العتيق

- كلاً؟ ظننتك ترجب بلقاء تحت القيو أو في فناء البيت المهجور. نضج جسمها، وعيًا قليل تصيران امرأتين بكل معنى الكلمة، وعلى فكرة كانت قمر مرتدية للملاء اللث وكُنْها كانت سافرة فقلت لها ضاحكًا: لو لبست البرقع ما تجرأت على عادتتك!

قال كمال بإصرار:

- كلاً...

- لم؟

- آلم أعد أطيق القذارة!

ثم بحدة ثمت عن ألم دفين:

- لا أستطيع أن ألقى الله في صلاي وثيابي الداخلية ملوثة!

فقال فؤاد بسداجة:

- تطهر واغتسل قبل الصلاة!

فقال كمال، وهو يمز رأسه للاستعارة الضائعة:

- إن الماء لا يطهر من الدنس...

ذلك الصراع القديم، كان يخفي في لقاء قمر مضطربًا بالشهوة والقلق ويعود بضمير معذب وقلب باك، ثم عقب الصلاة يستغفر استغفارًا حارًا طويلاً، لكنه يخفي مرة أخرى مغلوبًا على أمره ثم يعود بالعذاب ليستغفر من جديد... يا لها من أيتها نضحت بالشهوة والمرارة والعذاب، ثم انبثق النور. هناك وسعه أن يحب وأن يصلي معًا، كيف لا؟ والحب من منبع الدين يقطر صافيًا! قال فؤاد في شيء من الحسرة:

- انطلقت علاقتي بنرجس منذ مُنِيت من اللعب في

الحارة!

فسأله كمال باهتمام:

- ألم تكن - وأنت المؤمن - تتعذب بتلك العلاقة؟

فقال فؤاد، وهو يقض البصر حياء:

- هنالك أمور ما منها بد...

ثم متسائلًا وكأنه يداري حياءه:

- أترفض حقًا انتهاز هذه الفرصة؟

- بكل تأكيد!

- لوجه الدين وحده؟

معارضة الضد للضد، وثمة رفاق آخرون يخالفون فؤاد غالبًا التقيض للتقيض، إلى تلك الحياة وإلى أولئك الرفاق تنفخ نفسه، إلى العباسية، إلى الطراز الطريف من الشباب، وقبل كل شيء إلى الأناقة الرفيعة والنخمة الباريسية والحلم البديع... إلى معبودته، آه... إن نفسه تنازعه إلى البيت، إلى حجرته كي يخلو إلى نفسه فيهدو كراسته، يراجع تاريخًا أو يستعيد ذكرى أو يسجل نفشة. ألم يئن له أن يقوِّض لهذا المجلس ويذهب؟

- قابلت أناشأ فسألوني عنك...

تساءل كمال، وهو ينزع نفسه بمشقة من تيار الوجد:

- من؟

فؤاد ضاحكًا:

- قمر ونرجس!

قمر ونرجس ابنتا أبو سريع صاحب المظلي، قيو قزم، الأزقة المظلمة بعد الغروب، الحبث المشوب بالسداجة الدنسة أو الدنس الساذج، المرافقة المحمومة، ألا يذكر هذا كله؟ ما لشفتيه تنقلصان تفرزًا؟ ذلك التاريخ قديم نسبيًا، قبل حلول الروح القدس، لا يذكره إلا ويثور قلبه سحقًا وألمًا ونجيلاً كما ينيخ لقلب أترع بشراب الحب الطهور.

- كيف قابلتهما؟

- في زمة مولد الحسين، فسرت إلى جانبهما دون تردد أو ارتباك، كأننا أسرة واحدة جاءت لتطوف بالمولد!

- يا لك من جري!

- أحيانًا، سلّمت فسلمتا، ومحادتنا مليًا، ثم سألني قمر عنك!

تورّد وجهه قليلًا، وهو يسأل:

- ثم؟

- اتفقنا مبدئيًا على أن أخبرك، ثم نتقابل جميعًا!

هز كمال رأسه في نفور، ثم قال بالتضباب:

- كلاً...

فقال فؤاد في دهش:

إلى كلياته عن الزواج والذرية، فصم على مداراة
هفوته وعلى تصحيح معناه ما أمكن، فقال:
- الذين يحبون ما فوق الحياة لا يتزوجون، هذا ما
عنيت.

ابتسم فؤاد ابتسامة خفيفة أو لعله كان يقاوم
ضحكة، غير أن عينه العميقتين لم تنبأ عيا وراءهما،
واكتفى بأن قال:
- هذه أمور خطيرة، والحديث عنها الآن سابق
لأوانه، فلندعها مروهنة بأوقاتها...
فرغ كمال منكبيه استهانة وثقة، وقال:
- فلندعها ولنتنظر...

فؤاد في وادٍ وهو في وادٍ، على ذلك فيها صديقان،
لا يسمعه أن ينكر أن الخلاف في نفسه يجذبه إليه على ما
في ذلك من جهد تمنائه أعصابه المرة بعد المرة، ألم يشق
له أن يعود إلى البيت؟ الوحدة ومناسجة النفس
تجاذبانه، الكرامة النائمة في درج مكتبه تبيح جيشان
صلوره، لا بدّ للمكدود في مكابدة الواقع من انتجاع
بعض الراحة في الانطواء...
آن أن نمود...

- ٧ -

كان الحنطور يتابع سيره على شاطئ النيل حتى
وقف أمام عوامة في نهاية المثلث الأول من طريق
ألمباية، وما لبث أن غادره السيد أحمد عبد الجواد ثم
تبعه على الأثر السيد علي عبد الرحيم.
كان الليل قد جثم في جشمه وغشيت الظلمة كل
شيء إلا أضواء متباعدة تطل من نوافذ العوامات
والذهبيات التي ينتظمها اللطائفان من جسر الزمالك
فهابطاً، وأنوار خافتة لاحت عند موقع القرية في نهاية
الطريق كالسحابة الناصحة بوهج الشمس في سياه
ملبّية بالغيوم الدكن.

كان السيد أحمد محبي للعوامة للمرة الأولى على
رغم اكتراه محمد عفت لها منذ أربع سنوات - ذلك أن
صاحبها خصصها لمجالس الغرام وقد حرّمها السيد
أحمد على نفسه منذ مصرع فهمي - فتقدم عليّ عبد

- ليس هذا كافياً؟
ابتسم فؤاد ابتسامة عريضة، وقال:
- كم تحمّل نفسك ما لا يحتمل...
فقال كمال بإصرار:

- إني لكذلك وما ينبغي لي أن أكون غير ذلك...
وتبادلا نظرة طويلة، أفضحت في عيني كمال عن
الإصرار والتحمّي، فانعكست في عيني فؤاد مهذنة
وابتسامة كاشفة الشمس الجهنمية التي تنعكس على
سطح الماء لآلاء ضاحكا، ثم واصل كمال حديثه:
- إني أرى الشهوة غريزة حقيرة، وأمقت فكرة
الاستسلام لها، لعلها لم تخلق فينا إلا كي تلهمنا
الشعور بالمقاومة والتسامي حتى نعلو عن جدارة إلى
مرتبة الإنسانية الحقة، إما أن أكون إنساناً وإما أن
أكون حيواناً...
فترتّب فؤاد قليلاً، ثم قال بهدوء:

- أظن أنها ليست شرّاً خالصاً، فهي المدافع إلى
الزواج، فالذرية!!

شفق قلب كمال خففة عتيفة لم تجر لفؤاد في خاطر،
أهذا هو الزواج في النهاية؟ لكنّه لم يكن يجهل هذه
الحقيقة في جملتها وإن كان في حيرة لا يدري كيف
يوفق الناس بين الحب والزواج، إنها مشكلة لم يرتطم
بها في حبّه، لأنّ الزواج بدا دائياً - ولاكثر من سبب -
فوق مرتقى أمانيه ولكن ذلك لم يمنع من قيامه مشكلة
تتطلب الحلّ. ما كان يتصوّر أن يكون اتصال سعيد
بينه وبين معبودته إلا عن طريق العطف الروحي من
ناحيتهما والتطلع المهيان من ناحيته، طريق العبادة
أشبه، بل هو لعبادة نفسها، فإني شأن للزواج في
هذا؟

- الذين يحبون حقاً لا يتزوجون.

تساءل فؤاد بدهش:

- ماذا قلت؟...

فطن حتى قبل تساؤل فؤاد إلى أن لسانه خان
إرادته، فبدأ عليه الارتباك لحظة حرجة، وراح يتذكّر
آخر أقوال فؤاد قبل ندود هذه الجملة الغريبة عنه حتى
اهتدى بشيء من الجهد - على حداثة العهد بساعها -

الرحيم ليندله على المنبر، حتى إذا قارب السلم، قال محذراً:

- السلم ضيقٌ ودرجاته مرتفعة ولا حرايزين له، ضع يدك على كتفي وانزل على مهل...

هبطا بحذر شديد، وخسرير الماء المتلاطم على الشاطئ ومقدم العوامة يداعب أذانها، وقد فغمت أنفها رائحة نباتية مازجها عرف الطمي الذي جاد به الفيضان في ذلك الوقت من أول سبتمبر، قال عليّ عبد الرحيم وهو يتحسّن زرّ الجرس على جدار المدخل:

- هذه ليلة تاريخية في حياتك وحياتنا، ينبغي أن نطلق عليها اسماً مناسباً احتفالاً بها، ليلة رجوع الشيخ...؟ ما رأيك؟...

قال السيد أحمد، وهو يشد قبضته على منكب: - لكنني لست شيخاً، الشيخ الحقيقي كان أبوك!...

عليّ عبد الرحيم وهو يضحك:

- سترى الآن وجوهاً لم ترها منذ خمس سنوات... قال السيد كالتردد:

- لا يعني هذا أنني أغترّ من سلوكي أو أحمّد عن خطئي (ثم بعد لحظة سكوت) قد... قد...

- تصوّر كلباً يمد بالاً يقرب اللحم إذا ترك في المطبخ!

- الكلب الحقيقي كان أبوك يا بن الكلب...

رَنّ الجرس، فتح الباب بعد نصف دقيقة عن وجه نوبّ عجوز، تنحى جانباً وهو يرفع يديه إلى رأسه تحيةً للقادمين، فدخل الرجلان ومالا إلى باب على يسار الداخل فجازاه إلى دهليز قصير مضام بمصباح كهربائي يتدلّى من السقف، وقد حُلّي جداراه المتقابلان بمرآتين قام تحت كلّ منهما مقعد جلديّ كبير وخوان، وكان في نهاية الدهليز المواجه للمدخل باب آخر موارب وشي بأصوات السّمار التي اهتز لها صدر أحمد عبد الجواد، فدفعه عليّ عبد الرحيم ودخل، فتبعه السيد، ولكنّه ما كاد يعبر عتبة حتى وجد نفسه حيال الحاضرين وهم وقوف، وقد أثبلوا نحوه مرتحين مهلّلين يكاد يطفّر البشر من وجوههم، وكان محمّد عفت أسرعهم إليه

فعانقه، وهو يقول:

- طلع البدر علينا...

ثمّ عانقه إبراهيم الفار، قائلاً:

- أتاني زماني بما أرتضي...

وتنحى الرجال جانباً، فرأى جلييلة، وزبيدة، وامرأة ثالثة وقفت متأخّرة عنها خطوتين ما لبث أن تذكر فيها زنوبة العوادة. آه... الماضي كلّ قد جمع في إطار واحد، وتطلّقت أساريره وإن بدا عليه شيء من الارتباك، ولكنّ جلييلة ضحكت ضحكة طويلة، ثمّ فتحت ذراعها وعانقته، وهي تقول ببررات غنائية:

- كنت فين يا حلو غايب...

ولمّا أطلّقت رأى زبيدة على بعد ذراع كالتريّدة وإن أضاء وجهها نور الترحيب والسرور، فمدّ نحوها ذراعه فشلت عليها، وعند ذاك زوّت ما بين حاجبيها المزجوجين في عتاب، قائلة بلهجة لم تخل من تهكم:

- من بعد تلتاشر سنة...

فيا غمّالك أن ضحك من أمياق صدره، وأخيراً رأى زنوبة بموقفها لم تبرحه، وقد ارتسمت على ثغرها ابتسامة حياء كأنها لم تجد من ماضيها ما يعطيها حقاً في رفع الكلفة بينها، فمدّ لها يده مصافحاً، وهو يقول مشجّعاً وبجاسلاً:

- أهلاً بأمية العوادات...

ورجعوا إلى مجالسهم، فشبك محمّد عفت ذراعه بذراع أحمد ومضى به إلى مجلسه، فأجلسه إلى جانبه، وهو يتسامل ضاحكاً:

- وقعت أم الهوى رماك؟

فغمغم السيد أحمد:

- رماني الهوى فوقعت...

أخذ المكان يستين لعينه اللتين غابتا عنه أوّل الأمر في حرارة اللقاء ومزاج المرّحين، فوجد نفسه في حجرة متوسّطة الحجم، طُليت جدرانها وسقفها بلون زمرديّ، تطلّ على النيل بنافلتين وعلى الطريق بنافلتين، وقد أغلق خصاص نوافذها وفتح زجاجها، يتدلّى من سقفها مصباح كهربائيّ ذو غطاء مخروطيّ من البلّور يركّز نوره على سطح خوان توسّط الحجرة

حاملًا الأقداح وقوارير الويسكي، وقد فُرشت الأرض
ببساط متجانس اللون مع الجدران والسقف، وقامت
في كلِّ جانب من الحجرة كتبة كبيرة شُطرت بنمرقة
ومُغشيت بغطاء مزركش، أما الزوايا فقد احتُلت
بشلت ووسائد. جلست جليلة وزبيدة وزُئوبة على
الكتبة المجاورة للنيل، واتعد الرجال الثلاثة الكتبة
المواجهة لها، بينما انتشرت على الشلت آلات الطرب
كالعود والدف والدربكة والصنج. أجال بصره في
المكان مليًا، ثم تنهد بارتياح، وقال بتلذذ:

- الله... الله، كلُّ شيء جميل، لمْ لا تفتحون
النافذتين المطلَّتين على النيل؟
فاجابه عمده عفت:

- يُفتنحان عندما ينقطع مرور السفن الشراعية،
وإذا بُليتُم فاستروا...
فبادره السيّد أحمد بأسيا:

- وإذا استترتم فابتلوا!
فهفت جليلة كاللتحية:
- أرنا شطارة زمان!
لم يقصد بقوله إلا المزاح، والحق أنَّ إقدامه على
هذه الخطوة الثورية - مجيئه إلى العمّامة - بعد طول
الإحجام أوروته قلقًا وترقبًا، لكنَّ ثمة شيء آخر، تغير
من نوع ما عليه أن يكتشفه بنفسه ولنفسه، فليست
بصره وليمن النظر، ماذا يرى؟ هاك جليلة وزبيدة،
كلتاها كالمحمل - كما كان يقول قديمًا - أو لعلهما
ازدادتا شحًا وخلقًا، ولكنَّ ثمة شيء يكتشفها، لعلّه إلى
متناول الشعور أقرب منه إلى متناول الحسِّ، إلّا أنّه

وجه من وجوه الكبر بلا مرأه، لعلَّ أصحابه لم يفتنوا
إليه لأنهم لم ينظموا عن المرأتين مثليًا انقطع، ترى
ألم يطرأ عليه هو أيضًا مثل الذي طرأ عليها؟ انقبض
قلبه وفتر حساه، الصديق العائد بعد غيبة طويلة هو
أفصح مرآة للإنسان، لكن كيف السبيل إلى هذا
التفكير حتّى يقبض عليه؟ ليست هنالك شعرة بيضاء
واحدة في رأسها... ولكن مما للشيب ورهوس
الغواي؟. وليس ثمة تعجّبات كذلك. هل غُلبت على
أمرك؟ كلا، إليك نظرة هاتين العينين، إنَّها تمكس

زبيدة، وهي تنفخه باهتمام:
- ما الذي غيَّبك عنا ذلك العمر كله؟ (ثمَّ
ضاحكة) كان بوسحك، لو كان فيك خير، أن تلقانا
لقاء بريئًا، ألا يكون لقاء بيتنا إلّا إذا كان الفرائش
تحتنا؟

قال السيّد إبراهيم الفار، وهو يوعش ذراعه في
المواء ليحسر كمّ القطن عنه:

- لا علم له ولا بانَّ ثمة لقاء بريئًا يمكن أن يجمع
بيتنا وبينكنا!

زيدة متأنفة:

- أعوذ بالله منكم يا رجال، لا تودّون المرأة إلّا مطيّة!

فقهت جليّة قائلة:

- يا ستّ أمك احدي ريتا على فُلك، أكتت تكتزين هذا الشحم كلّ لو لم تضمرني في نفسك أن تكوني مطيّة أو حشّية؟

فقال لها زيدة معاتبية:

- خلّي بيني وبين المتهم كي أحقق معه...

قال السيّد أحمد بأساً:

- كنت محكوماً عليّ بخمس سنوات بريرة ببلدون شغل...

فاعادت زيدة تجاهه قائلة في تهكم:

- يا ولدا! حرّمت على نفسك اللذات كلّها، كلّها يا ولدا، حقّ لم يبق لك منها إلّا الطعام والخمر والطرب والمزاح والسهر حتّى مطلع الفجر كلّ ليلة فقال السيّد كالمتملّح:

- هذه أشياء لا بدّ منها للقلب الحزين، أما الأخرى...

زيدة وهي تلوّح له بيدها كأنها تقول له وآه منك آه:

- علمت الآن أنّك تعدّنا شرّاً من كافّة الذنوب والخطايا...

محمّد عقت هاتفاً مقاطعاً، كأنها تذكّر أمراً هاماً كاد يفلت منه:

- هل جئنا من أقصى الأرض كي نتكلّم، هل حين تطلّ علينا الأقداح ولا نجد من يعنى بها! أملا الأقداح يا عليّ، اربطي الأوتار يا زُوية؟ اخلع ملابسك يا حضرة المحترم، أنت حاسب نفسك في مدرسة؟ انزع الجليّة والطربوش، لا تظنّ أنّك أعفيت من التحقيق، ولكن يجب أوّلاً أن تسكر المحكمة وأن تسكر النيابة ثمّ نعود إلى التحقيق، جليّة أصرت على تأجيل السكر حتّى يحضر سلطان الفرشة أو كما قالت، هذه الوليّة تمرّك إعزاز الشيطان للضالّ الزمن، بارك الله لك فيها وبارك لها فيك...

نفض السيّد أحمد ليخلع الجليّة، قام عليّ عبد الرحيم ليتوسّل - كمادته - مهمّة الساق، صدرت عن أوتار العود محسسات غير مؤتمّلة للاختبار، دندنت زيدة في غمغمة، سوّرت جليّة بأناملها خصللات شعرها وطوق الفستان فيها بين ثدييها، تابعت أمين بشوق يديّ عليّ عبد الرحيم وهو يملأ الأقداح، ترتع السيّد أحمد في مجلسه وهو يجيل بصره في المكان والناس حتّى التفت عيناه اتّفاقاً ببعني زُوية فابتسمت الأعين تحيّة، قدّم عليّ عبد الرحيم الدفعة الأولى من الكئوس. قال محمّد عقت: صحتكم وعيتكم، قالت جليّة: نخب العودة يا سيّ أحمد، قالت زيدة: نخب الهداية بعد الضلال، قال أحمد: نخب الأحباب الذين فرّق الحزن بيني وبينهم... شربوا عندما رفع السيّد أحمد كأسه إلى شفّيه، رأى من فوق سفح الكأس وجه زُوية مرفوعاً كذلك إلى كأسه فهزّته نضارته، قال محمّد عقت لعليّ عبد الرحيم: أملا الثاني، وقال له إبراهيم الفار: والثالث في أثره حتّى تثبت الأساس، قال عليّ عبد الرحيم وهو يشمرّ: خادّم القوم سيّدكم. وجد أحمد عبد الجواد نفسه يتابع أنامل زُوية وهي تربط الأوتار، فسامل عن عصرها ثمّ قدّره بين الخامسة والشرين وبين الثلاثين، سامل نفسه مرّة أخرى عاّ جاء بها... العود!... أم أنّ خالتها زيدة تبيّو لها سبيل الرزق؟ قال السيّد إبراهيم الفار: إنّ النظر إلى ماء النبل يدوّخه. فهتفت به جليّة: يا ابن الدايّة! سأل عليّ عبد الرحيم: إذا رميت امرأة في حجم جليّة أو زيدة إلى الماء فهل تغرق أم تطفو؟ فأجابه السيّد أحمد بأنّها تطفو إلّا إذا كان بها ثقب، سامل السيّد أحمد نفسه عاّ يحدث لو نزعته به نفسه إلى زُوية، فأجابته نفسه بأنّ ذلك يكون فضيحة لو أراّه الآن، أمّا بعد خمس كئوس فلن يخلو من حرج، وأمّا بعد زجاجة فيكون واجباً... اقترح محمّد عقت أن يشربوا كأساً في صحّة سعد زغلول ومصطفى النحاس اللذين سيسافران في جاية الشهر من باريس إلى لندن للمفاوضة، اقترح إبراهيم الفار أن يشربوا كأساً آخر في صحّة مكدونالد صديق المصريين، سامل عليّ عبد

قالت جلييلة بظفر وارتياح:

.. لست ممن ينجيب عندهم الرجاء.

همُّ بأن يقول «عند الامتحان يُكرم المرء أو يهان»،
ولكنه خاف أن يُدعى للامتحان أو أن يُفهم قوله عل
أنه تقديم في الامتحان، عل حين كان كُلياً أنعم النظر
تُمكن منه شعور بالنفور وبالزهد لم يُجِر له في خاطر قبل
المجيء.. أجل ثمة تغَيّر لا ينكر، مضى الأمل، وليس
اليوم كالأمس، لا زبيدة بزبيدة ولا جلييلة بجلييلة،
وليس ثمة ما يستحقّ المعامرة، ليُنقش بالأخوة التي
نوّعت بها جلييلة، وليُمدّها حقّ تظلل زبيدة نفسها،
قال برقة:

.. من أين للكبر أن يدرك آدمياً وهو بينكن!

تساءلت زبيدة وهي تقلّب عينيها في الرجال
الثلاثة:

.. أيكم الأكبر؟

فقال السيّد أحمد ببراءة:

.. أنا ولدت في أعقاب ثورة عرابي...!

فقال عمّده عفت محتجاً:

.. قل كلاماً غير هذا، لقد بلغني أنك كنت من

جنود عرابي...!

فقال السيّد أحمد:

.. كنت جندياً من بطونهم، كما يقال الآن: تلميذ

من منازلهم...

فتساءل عليّ عبد الرحيم كالداهش:

.. وماذا صنعت المرحومة والدتك وأنت داخل

خارج إلى المعركة؟!

صاحت زبيدة بعد أن أفرغت الكأس في فيها:

.. لا تمهروا بالهزار، إليّ أسألكم عن أعماركم...

قال إبراهيم الفار يتحدّ:

.. ثلاثنا بين الخمسين والخمسة والخمسين، فهل

تكاشفاننا بعمرك؟...

هزّت زبيدة كتفها استهانة، وقالت:

.. أنا ولدت...

ثم ضاقت عيناها المكوّلتان وهما تُرفعان إلى
المصباح في حال تذكّر، غير أنّ السيّد أحمد عاجلها

الرحيم عمّا عنده مكذونالد بقوله: «إنّه يستطيع أن يحلّ
الفضيّة المصريّة قبل أن يفرغ من فنجان القهوة الذي
كان بين يديه». فأجابته أحمد عبد الجواد بأنّ ذلك يعني
أنّ الإنجليزي يشرب فنجان القهوة - في المتوسط - في
نصف قرن، تذكّر السيّد أحمد كيف ثار عل الثورة
عقب مصرع فهمي وكيف شاب رويداً إلى مشاعره
الوطنيّة الأولى لما أسبغه الناس عليه من تقدير وإكبار
بصفته والد لشهيد نبيل، ثمّ كيف انقلبت مأساة
فهمي مع الزمن مفخرة يباهي بها وهو لا يدري!

رفعت جلييلة كأسها صوب السيّد أحمد وهي تقول:
.. صحتك يا جملي، طلالا كنت أسأل نفسي هل
نسبنا حقاً السيّد أحمد؟ ولكنّي علم الله علرتك
ودعوت الله أن يلمحك الصبر والعزاء، لا تعجب فأنا
أخنتك وأنت أخي...

فسألها عمّده عفت بخبث:

.. إذا كنت اخته وكان أخاك كما تدّعين، فهل يفعل

الأخوان ما فعلنا في زمانك؟

فاطلقت ضحكة أعادت إلى الأذهان ذكريات عام
١٩١٨ وما قبله، وقالت:

.. سل أخوالك يا روح أمك...

قالت زبيدة وهي تلحظ أحمد عبد الجواد بمكر:

.. بدا لي رأي آخر في تفسير غيبته الطويلة...

سألها أكثر من صوت عمّا بدا لها، عل حين تمتم
السيّد أحمد بصوت المستميد:

.. يا ساتر استر...

.. بدا لي أنّه ربّما كان حصل عنده ضعف عمّا يدرك

الكحول أمثاله، فاهتلّ بالحزن واخضى...

قالت جلييلة مترنّمة وهي تهزّ رأسها عل أسلوب
العالم:

.. إنّه آخر من يدركه الكبر!

فسأل السيّد عمّده عفت السيّد أحمد:

.. أيّ الرأيين أصحّ؟

فقال السيّد أحمد بلهجة ذات معنى:

.. الرأي الأوّل يعتبر عل الخوف والآخر يعتبر عل
الرجاء؟

متنّما ما توقّفت عن إقامه:

- عقب ثورة سعد باشا؟!

ضحكوا طويلاً حتى ألعبت لهم الوسطى، ولكنّ
جليلة لم ترخّب بالحدث فيها بدا، فصاحت بهم:

- دعونا من هذه السيرة المقترنة! ما لنا نحن
والأعبار! ليسال عنها صاحب الأمر في سبائاته، أمّا
نحن فالمرأة متنا شابة ما زجّدت من يرغب فيها،
والرجل منكم شاب ما وجد من ترغّب فيه...

هتف عليّ عبد الرحيم بغتة:

- هتوني!

وسئل عيّا بيتاً عليه، فواصل المتهافت قائلاً:

- سكرت...

قال أحمد عبد الجواد: إنهم ينبغي أن يلحقوا به قبل
أن يصلّ وحده في عالم السكر، حتّمهم جليلة على أن
يتركوه وحده جزاء تعجّله، أوى عليّ عبد الرحيم في
ركن وفي يده كأس مترعة وهو يقول لهم: ابشروا عن
ساقى غيري. قامت زبيدة إلى حيث تركت ملابسها
الخارجية وفحصت في حقيبتها عن حُقّ الكوكايين حتى
اطمأنت إلى أنّه في مكانه، اغتم إبراهيم الفار فرصة
خلوّ مكان زبيدة فجلس فيه ثمّ أسند رأسه إلى كتف
جليلة وهو يتنّهد بصوت مسموع، نهض محمّد عفت
إلى الناقلتين المظليّتين على التبل وأزاح الخصاص عنها
جانباً فلاح سطح الماء ظلّات متحرّكة عدا خطوط من
الضياء المادّي رسمتها على الأمواج الأشمّة المرسلّة من
مصاييح الذهبيات الساحرة، لعبت زتوية بأوتار العود
معدّنة نغمة راقصة فأعجّبت عنها السيّد إليها ملياً ثمّ قام
ليملا كأسه لنفسه، عادت زبيدة فجلست بين محمّد
عفت وأحمد عبد الجواد وهي تضرب الأخير على
سلسلة ظهره، علا صوت جليلة وهي تغني:

«يوم ما عصفني العصفه...»

هتف إبراهيم الفار بدوره: هتوني... اشترك
محمّد عفت وزبيدة في غناء جليلة عند جملة: «وجابولي
طاسة الحفصة»، اشتركت زتوية في الأغنية، فعاد
السيّد أحمد النظر إليها وما يدري إلّا وهو يتضمّن إلى
المغنيين. جاء صوت عليّ عبد الرحيم من ركن الحجر

مؤيّدًا. هتف إبراهيم الفار ورأسه لا يزال مستنداً إلى
كتف جليلة: مغتوّن سته وسمّيج واحد هو أنا. قال
السيّد أحمد لنفسه دون أن يتوقّف عن الغناء: سوف
تلتني وهي من الرضى والسرور في نهاية، ثمّ ساءل
نفسه أيضاً: إلّيلة صابرة أم معاشرّة طويلة؟ قام
إبراهيم الفار فجأة واندفع يرقص، جعل الجميع
يصنّفون على الواحدة ثمّ غنّوا ممّا:

«خلدي في جييك بقه... بين الحزام والمنطقة».

ساءل السيّد أحمد نفسه: ترى أقتبل زبيدة أن
يكون اللقاء في بيتها؟... انتهت الأغنية والرقص
فاستبقوا إلى الترائش بالدعابات دون توقّف، جعل
أحمد عبد الجواد كلياً أطلق دعابة يسترق النظر إلى وجه
زتوية ليري أثرها فيه، اشتدّ المرح والمرج، ومضى
الوقت منسرفاً...

- أن لي أن أذهب...

قال عليّ عبد الرحيم ذلك، وهو ينهض متّجّهاً إلى
ملايسه. فصاح به محمّد عفت ساعطاً:

- قلت لك أن أحضرها معك حتى لا نقطع
السهرة!

تساءلت زبيدة وهي ترفع حاجبيها:

- من هي المحروسة؟

فقال إبراهيم الفار:

- رفيقة جنيدة، معلّمة قذّ الدنيا وصاحبة بيت
بوجه البركة...

فسأله السيّد أحمد باهتمام:

- من...؟

أجاب عليّ عبد الرحيم، وهو يجهك الجبّة ضاحكاً:

- صاحبك القدّية سيّة القلي...

فأستعت عنها السيّد الزرقولان، وتجلّت فيها نظرة
حللة، ثمّ قال بأساً:

- اذكرني عندها وأقرئها السلام...

قال عليّ عبد الرحيم، وهو يقتل شاربه ويتأهب
للدهاب:

- سلّك عنك واقترحت عليّ أن أدعوك إلى قضاء
سهرة في بيتها بعد مواعيد العمل، فقلت لها إنّ بكره

اسم النبي حارسه قد بلغ السن التي تمدّ في أسرعهم موجبة للدخول في وجه الحركة وغيرها من وجوه الفسق، فلا يأمن أبوه إن جاء أن يلتقي به في إحدى جولاته... ١

وضحك الرجل ملء شديقه، ثم سلّم وغادر الحجرة إلى الدهلز، فبعه على الأثر عمّد عفت وأحد عبد الجواد ليوصله إلى الباب الخارجي واستمروا يتحدثون ويتباحثون حتى غادر السيد عليّ العوامة، وعند ذاك غمز عمّد عفت ذراع أحد عبد الجواد، وهو يتساءل:

- زبيدة أم جليلة؟

فقال السيد أحمد ببساطة:

- لا هذه ولا تلك

- لم؟ كفى الله الشر!

فقال بلهجة القانع:

- خطوة خطوة، سوف أكتفي ما بقي من هذه

الليلة بالشراب وسماح العود... ١

البح عليه أن يقدم رجله خطوة أخرى، ولكنّه اعتذر فلم يثقل عليه، عادا إلى الحجرة البعثة الفاقدة الوعي فاستردا مجلسهما. قام إبراهيم الفار مقام الساق، انفضحت أمارات السكر في وهج العيون ولسلس الحديث وتحرّر الأعضاء، غشوا جميعاً وراء زبيدة:

«البحر يبضحك ليه...»

لوحظ أنّ صوت السيد أحمد عبد الجواد علا حتى كاد يغطي على صوت زبيدة، روت جليلة تناتيش من مغمراتها. مذ وقع بصري عليك شعرت بأنّ الليلة لن تمرّ بلا مغامرة، ما أملح الصغيرة، الصغيرة؟ هي كذلك ما دمت تكبرها بربع قرن. تحسّر إبراهيم الفار على العصر اللهيّ للنحاس على أيام الحرب، فقال لهم بلسان ثقيل «كنتم تقتلون يدي من أجل رطل نحاس» فقال له السيد أحمد: «إن كان لك عند الكلب حاجة قل له يا سيدي». اشتكت زبيدة شدة السكر فقامت تمسّك ذهاباً وجيئة، وعند ذاك جعلوا يصفقون على إيقاع مشيتها المترنحة ويتفقون بها:

«تانا خطي العتية... تانا خطي العتية». الخمر تشلّ العضو الذي يفرز الحزن، غمغمت جليلة قائلة: «حسبنا»، ونهضت فغادرت الحجرة إلى ردهة تفضي إلى غدايين متقابلين، فالت إلى المخدع المجاور للنيل ودخلت، وما لبث أن ترامت إليهم طقطقة الفراش وهو يلتقي جسمها العظيم، راق زبيدة تصرّف جليلة فأتبعت أثرها إلى المخدع الآخر باعثة وراءها طقطقة أعنف، قال إبراهيم الفار: «إنّ لسان السرير قد نطق». تناهى إليهم من المخدع الأوّل صوت وإن يترنّم حكاً بحة منيرة: «يا حبيبي تعالى»، فقام عمّد عفت وهو يجيب مترنماً كذلك: «أدبني جي». نظر إبراهيم الفار إلى أحمد عبد الجواد متسائلاً، فقال له السيد: «إذا لم تستع فاصنع ما شئت»، فقام وهو يقول: «ولا حياء في العوامة!...» خلا الجوّ، ها هي الساعة التي رصدتها طويلاً، نحت الصغيرة العود جانباً وتربعت وهي تسيل حاشية الفستان على ساقها المشابكتين. ساد صمت وتبولد نظر ثم مدّت بصرها إلى لا شيء، تكهوب الصمت فلم يمدّ يجتمل، نهضت فجأة فسألت: إلى أين؟ فغمغمت وهي ترق من الباب: «الحمام»، قام بدوره إلى مجلسها فجلس وتناول العود وراح يعث بأوتاره، وهو يتساءل: «أليس ثمة حجرة ثالثة؟» لا ينبغي لقلبك أن يدقّ هكذا كأنما الجنديّ الإنجليزي يسوقك أمامه في الظلام، ليلة أمّ مريم هل تذكر؟ لا تعد إلى ذكراها فهي ألم، عادت من الحسّام... ما أنضرها!...

- أنضرب العود؟

أجاب باسمًا:

- علميني...

- حسبك الدفّ فإنك من رجاله

وهو يتندّد:

- تلك أيام خلعت، ما لطفها، كنت طفلة! ما لك

لا تهلسين؟

تكاد تلمسك، ما أحلى أوّل الصيد

- خلدي العود وأسمعيني...

الصامت حتى عجب الرجل لشأنها فباخ حمامه ووجد
وخزة في كبريائه، ثم جعل ينظر إليها وعلى شفثيه
ابتسامة متكلفة حتى سألتها:
- ماذا أغضبك؟

فلازمت الصمت ملياً، ثم شبكت ذراعها على
صدرها.

- إني أتساءل عما أغضبك؟

قالت باقتضاب:

- لا تسل عما تعلم...

ضحك فجأة ضحكة عالية معلناً بها عن استهائته
وعدم تصديقه، وقام بدوره فملاً الكأسين ثم قفم لها
كأسها، وهو يقول:

- روقي مزاجك...

فتناولت الكأس تأنباً ثم أعادتها إلى المائدة، وهي
تغمغم «أشكرك فتراجع إلى مجلسه وقعد، ثم رفع
كأسه إلى شفثيه ونحزها دفعة واحدة وفتحها ضاحكاً.
أكان في وسعك أن تتوقع هذه المفاجأة؟ لو أستطيع
أن أرجع في الزمن ريع ساعة إلى الوراء، زؤوبة...
زؤوبة... ولا شيء غير زؤوبة فهل تصدق ذلك؟ لا
تشئت حيال الصلدة، من يدري لعله دلال موضة
١٩٢٤ يا حصصاتي ١٩٠٠، ماذا تغير في؟... لا
شيء... لكنّها زؤوبة... اليس ذلك هو اسمها؟
لكلّ رجل حقاً من امرأة تعرض عنه، وما دامت زبيدة
وجلية وأمّ مريم يسعين إليك فمن غير زؤوبة - هذه
الخنفساء - تعرض عنك؟! تحمّل حتى تحتمل، ليس
الأمر على أيّ حال بكارثة، آه، انظر انظر، سأفها
مليحة مدمجة، أساسها متين، لم تظنّ أنّها اعرضت
عنك حقاً؟...

- اشربي يا حلوة...

قالت بصوت يجمع بين الأدب والحزم:

- عندما يروق لي الشراب...

فسدّ نحوها بصره، ثم تسامد بلهجة ذات معنى:

- ومتى يروق لك...؟

فقطعت معلنة عن مدنى فهمها لإشارته ولم
تجب...

- شبعنا غناء وعزفاً وضحكاً، عرفت الليلة أكثر من
ذي قبل لماذا يقتلدونك في كلّ سهرة!

فابتسم ابتسامة وشت بسروءه، ثم قال بمكر:

- ولكنك لم تشبعي شراباً؟

فأجابت بالإيجاب وهي تضحك، فوثب كالجراد إلى
المائدة، ثم عاد بزجاجة مملوءة حتى النصف، وكأسين،
وجلس وهو يقول: «لنشرب معاً. الشرمة اللذيذة
تنفث حينها شيطنة وسحرًا، سلها عن الحجرة
الثالثة... سئل نفسك: ليلة أم معاشرة... وعن
الواقب لا تسل، أحد عبد الجواد بجلالة قدره يفتح
ذراعيه لزؤوبة الموضة... بصحاف الناكهة كانت
تقف بين يديك... لكن لتحلّ بك السعادة جزاء
نضارتك، أما الكبر فلم يكن أبداً من شيمي... رأى
كفها الفايضة على الكأس قريبة من ركبته، فمدّ راحته
وربّت عليها بلطف، ولكنها صحتها في صمت إلى
حجرها دون أن تلتفت إليه، فساءل نفسه ترى هل
يملو التدلّل في هذا الوقت للتأخّر خاصّة إذا كان
الداعي مثله وكانت المدعوة مثلها؟ غير أنّه لم يجد من
سنن الملاينة والملاطفة، فسألتا بلهجة ذات معنى:

- أليس ثمة حجرة ثالثة في الموضة؟

قالت تجيب على ظاهر السؤال متجاهلة مغزاه وهي
تشير صوب باب الدهليز:

- في الناحية الأخرى...

تسامد وهو يفتل شاربه مبشراً:

- أليست تسع كليناً؟

فقالت بصوت لا أثر للدلال فيه، وإن لم يجاوز
حدود الأدب:

- تسعك وحلك إن طاب لك النوم

فسألتا كالداهش:

- وأنت؟

فقالت بنفس اللهجة:

- مستريحة كما أنا...

تزحزح قليلاً مقترباً منها، ولكنها قامت فوضعت
كأسها على المائدة، ثم مضت إلى الكنية المقابلة له،
فجلست راسمة على وجهها صورة الجند والاحتجاج

متدللة... اسلخها بلسانك... اركلها بقدمك...
ادفعها امامك إلى الحجرة قهراً. الأجير أن تشيع عنها
بوجهك وتضاد المكان فوراً، في أعيننا لعنة تذلل
الأعناق، ما ألطف جديدها، لا غمار في حلاوتها، طاش
الرأي ووجب الألم...
- لم أكن أتوقع هذا الجفاء...

وقطب مصمماً وقد غجم وجهه، فنهض رافعاً كتفيه
في استهانة، وهو يقول:
- ظننتك مثل خالتك لطافة ودقاً فخاب ظني، ولن
ألوم إلا نفسي...

سمع وسوسة شفتيها وهي تقتص ريقها مصّة
الاحتجاج والانتقاد. ولكنه مضى إلى ملابسه فأخذ
يلبسها على عجل حتى انتهى منها في أقل من نصف
المدة التي تتطلبها عادة أناقته. كان مصمماً غاضباً،
ولكنّ اليأس لم يبلغ به نهايته، ظلّ جزء من نفسه
متمرداً يأبى أن يصدق ما وقع أو يمرّ عليه أن يسلم
به، فتناول عصاه وهو يترقب بين لحظة وأخرى أن
يحدث شيء فيكذب ظنّه ويصدق أمانه كبريائه
الجريح، كان تضحك فجأة حاسرة عن وجهها قناع
الجدّ الزائف، أو أن يهرع إليه مستكرة غضبه، أو أن
تتب أمامه لتحول بينه وبين الذهاب، أجل كثيراً ما
تكون مصّة الرقيق التي نلّت عنها مناورة يعقبها
الاستسلام، غير أن شيئاً من ذلك لم يحدث.

ولبثت وهي يجلسها تنظر إلى لا شيء، متجاهلة
إياه كأنها لا تراه، فغادر الحجرة إلى الدهليز ومنه إلى
الباب الخارجي ثم إلى الطريق وهو يتنهد في حزن
وأسف وغيظ. قطع الطريق المظلم مشياً على الأقدام
حتى بلغ جسر الزمالك وجوّ الحريف الرطيب يتسلّل
في لطف إلى داخل ملابسه، ومن هناك استقلّ
ناكسي، فطوى به الأرض طياً وهو ذاهل من السكر
والفكر، حتى انته إلى ما حوله في ميدان الأوبرا
والسيارة تدور به في طريقها إلى العتبة الخضراء، في
أثناء دوراتها حانت منه الثغافة فلمسح على ضوئه
المصابيح سور حديقة الأزبكية فعلق به بصره حتى
غيبه عنه منعطف الطريق، ثم أغمض عينيه وهو يشعر

تسائل السيد، وكان يشعر في تلك اللحظة أنّه
يتدهور:

- ألم يصادف توّجدي القبول؟
فطامنت من رأسها لتخفي وجهها عن عينيه،
وقالت برجاه حازم:
- هلاً كففت عن هذا؟

تملكه غضب فجائي فجاء كردّ فعل لإحساسه
بالتدهور، فتساءل داهشاً:
- لم تحيين إلى هنا؟

قالت باحتجاج، وهي تشير إلى المود المستلقي على
الكتبة غير بعيد عنه:

- أجيء من أجل هذا...
- فقط؟... لا تناقض بين هذا وبين ما ادعوك
إليه...!

تساءلت باستياء:
- بالقرّة؟
فقال وهو يعاني سكرات الخيبة والحنق:
- كلا، ولكنّي لا أجد سبباً للرفض!

فقالته بمرود:
- لعلّ عندي أسباباً...
ضحك ضحكة عالية فاضية، ثمّ غلبه الحنق،
فقال هازئاً:

- لملك تخالون على بكارتك!
رنت إليه بنظرة طويلة قاسية، ثمّ قالت بحنق
وتشفّ:

- أنا لا أرضى إلا بمن أحبه...

هم بأن يضحك مرّة أخرى، ولكنه أمسك بعد أن
ضاق صدره بهذه الضحكات الآليّة المحزنة، ومدّ يده
إلى الفارورة فصبّ منها في كأسه بلا تدبّر حتى امتلأت
إلى النصف، ولكنه تركها على المائدة، وراح ينظر إلى
المرأة في حيرة لا يدري كيف يخرج من المأزق الذي
دفع نفسه إليه... الأفعى بنت الأفعى لا ترضى إلا
بمن تحبه، هل يعني هذا إلا أنّها تحبّ كلّ ليلة رجلاً؟
هيات أن تحمي من صفحتك فضيحة الليلة السادة
هناك في الداحل، وأنت هنا تحت رحمة عروادة

بشجة تنفذ إلى أعماق قلبه، ووجد في باطنه صوتاً كالآنين يصف في عائله الصامت داعياً بالرحمة للفقيد العزيز، فلم يجرؤ على ترديد الدعاء بلسانه أن يذكر اسم الله بلسان مشيع بالخمر، وعندما رفع جفنيه، ذرفت عيناه دمعتين غزيرتين...

- ٨ -

لم يدرك ماذا ركب!! شيطان رجيم أم داء وبيل؟ نام وهو يأمل أن يكون انتهى من سخب الليلة الماضية، بسخب السكر دهاء، وللسكر سخب لا ريب فيه يفسد لذاته ويقلب مسراته، وعندما ألقى عليه الصباح نوره وجدته من قلق يتقلب، ورشاش الدش يرتشش على جسده العاري تشبث فكره وخفق قلبه، تخايل لعينه وجهها وطقت في أذنيه وسوسة شفتيها ورجيع قلبه صدى الألم، ثم تجرأت أفكاره الظالمة كفتى مراهق والطريق من حولك يحبك تحية الإجلال. يحيون فيك الوفا والورع وحسن الجوار، ولو علموا أنك ترد تخيلاتهم في الآلة وفكرك عنهم غائب مهموم في حلم جارية عالة... عوادة... امرأة تعرض جسدها كل ليلة في سوق المضايح... لو علموا ذلك، لألوك بدل التحية ابتسامة هزء وثناء. فلتقل الأفعى «نعم» وعند ذلك أعرض عنها بكل أزدياء وإرتياح، ماذا دهاني وماذا أروم، هل أدركك الكبر؟ أتذكر ما ابتلى جلييلة وزبيدة من عادييات الزمن؟ تلك آثار بغضه يجدها القلب ولا يدركها الحس، لكن مهلاً، حذار أن تسلم لوههم فيسلمك الوهم لقمة سائفة للانهار... ما هي إلا شعرة بيضاء، لغبر ذلك من البواعث أعرضت عنك العوادة الحفيرة... الفظها كما تلفظ ذبابة اندست في فيك وأنت تتأهب، وأسفاه!! أنت تعلم أنك لن تلفظها، لأنها الرغبة في الانتقام ولا شيء سوى ذلك. رد اعتبار ليس إلّا. ينبغي أن تقول الجارية «نعم»، ولك أن تهجرها بعد ذلك قدير العين. لا شيء فيها يستحق النضال. أذكر ساقية وجيدها وشهوة عينها؟ لو داويت كبرياتك بلمعة من الصبر لفزت - من ليالك - بالتمعة والبهجة، ماذا وراء

هذا القلق كله؟ إني أنائم، أجل! إني أنائم، إني مكروب بما نزل بي من مهانة، أتوعدّها بالأزدياء ثم تحطّر منها على القلب خطرة فتستعر عروقي... استبق الحياة ولا تجعل من نفسك أضحوكة، إني استحلفك بالأولاد من بقي منهم ومن ذهب... هنية كانت المرأة الوحيدة التي هجرتك فجريت وراءها، ماذا لقيت منها؟ ألا تذكر!! فتوة الزفة يرقص ويسكر ويصول ويحول، ثم يعمل عصاه في المصابيح وطاقات الورد والمزامير والمدعوتين، حتى ينسكب الصلوات على الزغاريد... ذاك رجل!؟ كن فتوة العوامة واقتل أعداءك بالتجاهل والإعراض. ما أضعف أعداءك وما أقواهم، ساق مسترخية لا تكاد تقوى على المشي غير أنها تهد الجبال الرواسي، ما أقطع سبتمبر إذا ارتفعت حرارته المشيبة بالرطوبة، ما أطفأ أماسيه خاصة ما يكون منها في العوامة. إن بعد العصر يسراً... فكر في أمرك وانظر في أي اتجاه تسير، المكتوب لازم تشوفه العين، الإقدام مَر والنكوص مرعب، كم كنت تراها وهي في ميعه الصبا فلم توقف فيك نائماً ومررت بها كأنها شيء ما يكن، ماذا جد حتى زهدت فيمن أحببت وأحببت من كنت تزهد، ليست أجل من زبيدة ولا جلييلة ولو كان بها جمال ينافس جمال خالنها ما اصطحبتها، على ذلك فانت تريدها وتريدها بكل قوة نفسك... أه!! ما جدوى المكابرة!! لا أرضى إلا بمن أحبه!! أحبك برص يا بنت اللبؤة... تألم حتى تحترق، ما أذل الإنسان مثل نفسه، هل تذهب إلى العوامة؟ ليست خير مكان لإذاعة الفضائح، البيت؟ هناك زبيدة!! أهلاً أهلاً! أعدت أخيراً إلى هرينك؟ بم تحببها؟ لم أعد لذلك، ولكني أريد بنت أحسبك! يا له من سخب! دع الحذر. هل فقدت صوابك؟ استمن بالفار أو محمد عفت. السيد أحمد عبيد الجواد يبحث لنفسه عن شفيح إلى... زئوبة!... ليس من الأفضل أن تقصد نفسك حتى يتفقد الدم الخيث الذي يسمك الذئب! كان الليل قد غشي الغورية وأغلقت أبواب حوانيتها، حين أقبل أحمد عبد الجواد من دكانه عقب

كله؟ هل يسرك حقاً أن تراك من وراء الحصاص
لتهزأ من تدهورك؟ إنك لا تدري ماذا تصنع بنفسك،
أتعبت عينيك في معجزتها ودوّخت صماغك، لن تبو
لك، والأدهى من هذا أن تتفرّج عليك ساخرة من
وراء حصاص، ماذا جاء بك؟ تريد أن تملأ عينك
متناً. اعترف، تريد أن تقيس أبعاد جسمها اللدن...

أن ترى ابتسامتها وإغضاءها... أن تتابع أناملها
المخضبة، فيم هذا كله؟ لم يسلف لك شيء كهذا مع
من فُقمها حسناً ورواه وشهرة، أُنضي عليك أن تتعلّب
وتبوء في سبيل الشيء الحقير. لن تبو... تطلّع
كيفها ششت... الفث إليك الأنظار... السيد أحمد
عبد الجواد في قهوة سي عليّ يسترق النظر من الكوة،
لشّد ما تدهورت! من أدراك أنّها لم تفش سرّك؟
لعلّ التخت يدري، ولعلّ زبيدة نفسها تدري، ولعلّ
الجميع يدرون! مدّ يده المحلاة بالخالص المائيّ إلى
فصدهته ثمّ توسّل إلى فاصرت على صده... هذا
هو السيد أحمد عبد الجواد الذي تشيدون به!...

لشّد ما تدهورت! أقصى التدهور ما تتحدّر إليه، بل
ما قصر على الانحدار إليه وأنت أعلم الناس بما
ينطوي عليه فعلك المشين من مذلة وهوان، إذا عرف
السّر أصحابك وزبيدة وجلييلة، فإذا أنت صانع؟
حقاً أنت ماهر في مداراة الحرج بالنكتة، ولكن سوف
تنحسر موجبات الضحك والقهقهة عن الحفيضة
المرّة... هذا مؤلم وآلم منه أنّك تريدها. لا تكذب
على نفسك، فأنت تريدها حقّ المساء. ماذا
أرى؟... تسأل وهو ينظر إلى عربة كارو جاءت
فوقفت أمام بيت العلة، ثمّ ما لبث أن فُتح الباب
فخرجت عبّوسة الدكّانة ساجبة وراءها عبده
القانونجيّ، ثمّ تبعها بقية الجوقة، فأدرك أنّهم ذاهبون
إلى فرح من الأفراح. وشعر الرجل شعوراً غريباً
بخفان قلبه وهو يتطلّع إلى الباب في ترقب مشوق
محزن. اشرابٌ بمنقه في غير ما حيلة متجاهلاً ما حوله
من الناس، ثمّ رنّت ضحكة وراء الباب، ثمّ برز
العود في جراب عبيّ يسبق صاحبه التي خرجت في
نشاط ثوريّ ضاحكة ثمّ وضعت العود على مقنّم

إخلاها، يسير في خطوات وثيلة وعيناه تنفّخسان
الطريق والنواخذ، لاح وراء نافذتي زبيدة ضوء، ولكنّه
لم يدب ماذا كان يدور وراءهما، أوغل في الطريق وقتاً
ثمّ عاد من حيث أتى، فوصل مسيره إلى بيت محمّد
عفّت بالجلالّة حيث يلتقي الأصدقاء الأربعة قبل
انطلاقهم إلى السهرة معاً. قال السيد غاطباً محمّد
عفّت:

- ما أطفئ ليالي العوامة، لا يزال قلبي يحنّ إليها!
فقال محمّد عفّت ضاحكاً في ظفر:
- هي رهن إشارتك في أيّ وقت تشاء...
وعقب عليّ عبد الرحيم على ذلك بقوله:
- حننت إلى زبيدة، يا عكروت...
فبادر السيد قللاً في جدّ:
- كلّ...
- جلييلة؟
- العوامة ولا شيء عداها...
فسأله محمّد عفّت بمكر:

- أتريدها سهرة قاصرة علينا، أم ندهو إليها
صديقات الزمان الأوّل؟

فضحك السيد ضحكة أهلها هزيمته، ثمّ قال:
- بل تدعوهم يا بن الماكرة، ولكن ذلك مساء
الغد، لأنّ الوقت تأخّر بنا الليلة، ولكنني لن أجاوز
الاستمتاع بالجلالّة والمؤانسة...

قال إبراهيم الفار «إحسم»، وقال عليّ عبد الرحيم:
«علّ روجي أنا الجاني»، وقال محمّد عفّت ساخراً:
«سمّه كما تشاء، تعدّدت الأسماء والفعل واحد».

ثمّ كان اليوم التالي كأنّما اكتشف قهوة سي عليّ
لأوّل مرّة. انجذب إليها قبيل الأصيل، وجلس على
الأريكة تحت الكوة، فأنقلب عليه صاحب القهوة
مرحّباً، فقال له السيد وكأنّه يبرّج بيمينه إلى القهوة لأوّل
مرّة:

- كنت راجعاً من بعض الأعمال، فنازعني النفس
إلى احتساء شايب العلب.

زيارة لا يبدو أنّها من السهل أن تتكرّر... رويّداً
رويّداً! استغفح نفسك أمام الناس، ما جلودى هذا

نفسها بيد أنه ضبط نفسه فخرج من أزمته مصون السر والكرامة.

ولما قام عليّ عبد الرحيم عند منتصف الليل ليلهب إلى رفيقته بوجه البركة، قام معه على غير توقّع من أحد ليعود إلى بيته، وعبيّا حاولوا أن يشروا عن عزمه أو أن يستنظروه ساعة، فذهب غلغلا وراءه دهشة، وخيبة للذين حدسوا وراء مجيئه المرسوم ظنونًا لم تقع.

ثمّ كان يوم الجمعة فخرج إلى جامع الحسين نبيل الصلاة بقليل، وأثناء لسيّر في شارع خان جعفر، إذ رآها عابرة من حارة الوطواط في طريق الجامع... آه... لم يخفّ قلبه مثل تلك الخفقة من قبل، وأعقبها على الأثر جود شمل حركته النسبية كلّها، حتّى خيل إليه - فيها يشبه الغيبوبة، وغلافًا للواقع - أنّه توقّف عن السير، وأنّ العالم من حوله صمّت صمّت القبور، كمثل السيارات التي تتوقّف عرّكاتنا عن الدفع فيخرس أزيزها ولكنّها تسير بقوة القصور الذاتي في سكون شامل، وليّا أفاق إلى نفسه وجدها تتقدّمه بمسافة غير قصيرة، فتبها على الأثر دون تدبّر أو روية، فمرّ بالجامع دون أن يعرّج إليه، ثمّ مال وراءها عن بُعد إلى السكّة الجديدة. ماذا يبني؟. إنّه لا يدري!! كان يطيع ردّ الفعل طاعة عمياء، لم يكن سبق له أن تعمّق امرأة في الطريق ولا في أيام شبابه الأوّل فأخذ ينتابه الحرج والحلر، ثمّ دهشته فكرة ساخرة مغزوعة معًا: أن يتناك سرّ المطاردة الخفية، ياسين أو كمال! على أنّه حرص على ألاّ تقصر المسافة بينه وبينها عمّا كانت عليه منذ بدأت المطاردة، وراحت عيناه ترتويان من هيئة جسمها اللطيف بنهم وطما وهو يستقبل موجبات متتابعة من الأشواق والألام، حتّى رآها تعدل عن الطريق إلى دكان صانع من معارفه يدهي يعقوب، تباطات قفما كي يتيح لنفسه فرصة للتدبّر وتضاعف شعوره بالخروج والحذر: ألا يعود من حيث أتى؟ أم يمرّ بالدكان دون أن يلتفت نحوها؟ أم ينظر إلى الداخل وينتظر ما يحدث؟

كان يقترب من الدكان وويّداً، حتّى إذا لم يبق بينه

العربة، وصعدت إليها بمعونة عيّونة، وجلس في الوسط حتّى لم يعد يرى منها إلّا مكتبًا يبدو خلال زاوية انفرجت ما بين عيّونة وعبد الضير. أصرّ السيّد على أستانه حينًا وحقًا ممّا. أتبع العربة عينيه وهي تسایل ذات اليمين وذات الشمال موغلة في الطريق، مخلّقة في صدره إحساسًا عميقًا بالكآبة والهوان، وتساءل: هل يقوم فيتيها؟ غير أنّه لم يحرّك ساكنًا ولم يزد على أن قال لنفسه: وكان المهيء إلى هنا حافة جنوبيّة.

ذهب في المساء الموعود إلى العوّامة بإمابة، لم يكن استقرّر على رأي فيها ينبغي أن يفعل على كثرة ما أدار الأمر في ذهنه. ثمّ أخيرًا، رهن حتّى مشاكله بيد الظروف والفرص... حسب أنّه ضمن رؤيتها وجالسها والآنفراد بها في آخر الليل، سوف يحسّ النبض من جديد ويبدأ أعاد الكرة مستعينًا هذه المرّة بكافة ضروب الإغراء، دخل العوّامة كالوچل، وهلّ حال لو رآها على غيره وحلّس بواعثها لأغرقه ضحكًا وسخرية. هنالك وجد الإخوان وجلييلة وزبيدة ولكنّه لم يعثر للعوّامة على أثر!! وقد استقبل استقبالًا حارًا، وما كاد يخلع جيّته وطربوشه ويتخذ مجلسه حتّى انفجرت الفهفتات من حوله فاندماج في جوّها بقوة مرونته. حدثت ونكت ومازح وداعب مغالبًا قلقه محاورًا همّه، غير أنّ خاوفه كمنّت تحت تيار المرح دون أن تتبدّد كما يكمن الألم إلى حين تحت تأثير المخدر، وما برح يامل أن يفتضح باب فتاتي منه أو أن يشير إليها بكلمة تفسّر غيابها أو تبيّن بضرّ حضورها، وكلّما مضى الوقت متفألاً متثابلاً شحب أمله وفتّر حماسه وغيّم المأمول من صفوه.

ترى أنّها كان الطارئ: حضورها أوّل أمس، أم تخلفها اليوم؟ لن أسأل أحدًا، الظواهر تنمّ على أنّ سرّك لا يزال مصنوّا، لو علمت به زبيدة ما تورّعت أن تمجّل منه فضيحة وجرسه. ضحك كثيرًا وشرب أكثر، سال زبيدة أن تغني وأضحك من الفم وأبكي من صميم قلبي، أوشك مرّة أن يخلو بمحمّد عفت ليكاشفه بما يريد، أوشك مرّة أن يحسّ نبض زبيدة

وبينها إلا أقدام خطرت له خاطرة جريئة، فاندفع إلى تنفيذها بلا تردد متجاهلاً خطورتها، وهي أن ينتقل إلى الطوار ثم يسير متمهلاً أمام الدكان على أمل أن يراه صاحبه فيدعوه كعادته إلى الجلوس فيلتي دعوته! مضى متمهلاً فوق الطوار حتى بلغ الدكان، فنظر إلى الداخل كأنها ينظر عضوًا، فالتفت حينها بعيني يعقوب... وإذا بالخواجبا يهتف به:

- أهلاً بالسيد أحمد، تفضل...

ابتسم السيد متوذكاً ثم خرج إلى الداخل فتصافحا بحرارة ودعا الخواجبا إلى كوب خروب، فقبل الدعوة قبول الكرام، وجلس على طرف كنية جلدية من قبل الحوان المنصوب عليه الميزان. لم يبدُ عليه أنه لطن إلى وجود ثالث في الدكان حتى جلس فترأت أمام عيني زئوبة وهي واقفة حيال الخواجبا تقلب بين يديها قرصاً فنظاه بالدهش، والتفت حينها وهو على تلك الحال... ابستم فابتسم، ثم بسط راحته على صدره محيئاً وهو يقول:

- صباح الخير... كيف حالك؟

فقال وهي تعادو النظر إلى القرط:

- بخير ربنا يكرمك...

كان الخواجبا يعقوب يعرض استبدال القرط بأسورة مع دفع فرق اختلافاً عليه، فلانهز السيد فرصة انشغالها ليعمل عيني من صفحة خلفها، ولم يغيب عليه ما في المساومة والاستبدال من فرص تتيح له التدخل

بالخس، لعل وصى... غير أنها قطعت عليه سبيله وإن لم تدرب بما أصمير، فرقت القرط إلى صاحبه وهي تعلنه بأنها عدلت نهائياً من البادلة، وطلبت إليه إصلاح الأسورة، ثم حيت، وحيت السيد بإحانة من رأسها وغادرت الدكان! حدث هذا كله بسرعة لم يكن ثمة داعٍ إليها فيها بلد له، فاختد وانزعج واستحوذ عليه الفتور والضييق. ولبت مع الخواجبا يعقوب يتبادلان حديث المجاملات المألوف حتى شرب كوب الخروب، ثم استأذن في الانصراف وذهب.

ذكر - في خجل شديد - صلاة الجمعة التي أوشكت أن تنقته، ولكنه تردد في المهي إلى الجامع، لم تواته

الشجاعة على الانتقال المباشر من تعقب امرأة وقت الصلاة إلى الجامع، ألم يتفقد نزقه وضوعه؟ بل ألم يجعله غير أهل للوقوف بين يدي الرحمن؟ عدل عن الصلاة محزوناً متألماً فسار في الطرقات ساعة على غير هدئ، ثم عاد إلى البيت معالوا التفكير في ذنبه، على أن رأسه - حتى في تلك اللحظات الحساسة المليئة بالندم - لم يفلح بابه دون زئوبة! قال غاطياً عمده عفت، وكان قد سبق إلى بيته مساء ليخلو إليه قبل توافد الأصدقاء:

- أريد منك خدمة، أن تدعو مساء الغد زبيدة إلى الضيافة!

ضحك عمده عفت، وقال له:

- إن كنت تريدها فليهم هذا الفت والدوران! لو طلبتها أول ليلة لفتحت لك ذراعها على الرحب والسعة...

فقال أحمد عبد الجواد في شيء من الحرج:

- أريد أن تدعوها وحدها...!

- وحدها؟! يا لك من رجل أناني لا تفكر إلا في نفسك، والفار وأنا؟! بل لنجعلها ليلة من ليالي العمر، ولندع زبيدة وجيلة وزئوبة أيضاً...

تساءل أحمد عبد الجواد لها يشبه الاستنكار:

- زئوبة؟!!

- لم لا؟! إنها احتياطي لا بأس به، يرجع إليه عند الضرورة...

ما ألني! كيف تمتمت بنت القديمة ولم؟!!

- أنت لم تدرك بعد غائبي، الحق أني لا أنوي المجيء هذا!

قال عمده عفت في استغراب:

- تطلب أن ادعو زبيدة! وتقول إنك لن تجيء هذا! ما هذه الأنغاز!!

ضحك أحمد ضحكة عالية يداري بها ارتباكها، ثم لم يجد بداً من أن يقول كاليانس:

- لا تكن بخلاً، سألتك أن تدعو زبيدة وحدها، كي تبقى زئوبة في البيت وحدها!

- زئوبة يا بن أم أهدا؟!!

مضى إلى الحجرة ثم جلس في الموضع الذي كان يجلس فيه في العهد القديم على الكنية الوسطى، فنزع طربوشه وحطه على العنق التي تشطر الكنية، ومد ساقه وهو يلقي نظرة فاحصة على ما حوله... إنه يذكر المكان كما لو كان لم يفادته إلا أمس القريب، هذه الكنبات الثلاث، وهذه المقاعد، وهذا البساط الفارسي، وهذه الأخوة الثلاثة المطعمة بالصدف، كل شيء كان بصفة عامة كما كان! هل يذكر متى جلس آخر مرة في هذا المكان؟ إن ذكرياته عن بهو الطرب وحجرة النوم أوضح وأثبت، بيد أنه لا يمكن أن ينسى أول لقاء تم بينه وبين زبيدة في هذه الحجرة، في هذا الموضع بالذات! وجملة ما دار فيه، لم يكن أحد يومذاك مثله خلواً بال وثقة بالنفس؟ ترى متى تعود؟ ماذا أحدثت زيارته في نفسها؟ إلى أي درجة سيرتفع غرورها؟ وهل أدركت أنه جاء من أجلها هي لا من أجل خالتها؟ إن أخفق هذه المرة فقل عليه السلام! سمع وقع شيشب خفيف، ثم بدت زئوبة عند الباب في فستان أبيض منمنم بورد أحمر، ملتعة بوشاح مرصع بالترتر، أما رأسها فحاسر، وأما شعرها فمجدول في ضفيريّين غليظتين استرسلتا على ظهرها... استقبلها واقفاً باسماً متفائلاً بالزينة التي تبدت فيها، فحيته بابتسامة، وأشارت إليه أن يجلس، ثم جلست على الكنية التي تتوسط الجدار الذي إلى يمينه، وهي تقول بصوت لم يخل من دهش:

.. أهلاً وسهلاً، أيّ مفاجأة!

فابتسم السيد متسائلاً:

.. من أيّ نوع يا ترى هذه المفاجأة؟

قالت وهي ترفع حاجبها في حركة غامضة لم تنم عنها إذا كانت ستكلم جادة أم ساخرة:

.. سائرة طبعاً!

ما دمتا قد أعطتا أقدامنا حتى جاءت بنا إلى هنا فعلياً أن نتحمّل الدلال بكافة أنواعه: ثقيله وخفيفه. نفحص جسمها ووجهها - في هدوء - كأننا نقيب فيها عما لُوعه وعبت بوقاره، فساد الصمت حتى رفعت إليه وجهها دون أن تنبس، ولكن في حركة تمت

ثم وهو يسترسل في الضحك:

.. لم كلّ هذا التعب؟ لم لم تطلبها أول ليلة في العوامة؟ ولو أشرت إليها بأصبعك لطارت إليك، ولزقت فيك بالغراء!

ابتسم ابتسامة فارغة، رغم شعوره الآليم بالامتناع، ثم قال:

.. نقد ما أمرت به، هذا ما أريد...

قال محمد عفت وهو يفتل شاربه:

.. ضعف الطالب والمطلوب!

فقال أحمد عبد الجواد جاداً جداً:

.. ليكن هذا سرّاً بيننا...

طرق الباب في ظلام داس وفي خلاء من المازة، وكانت الساعة تدور في التاسعة، ففتح الباب بعد حين دون أن يبدو الفاتح، ثم جاء صوت ارتجّ له فؤاده ارتجاً يتسائل قائلاً: «من؟» فقال يلهو «أنا»، وهو يدخل بغير استئذان، ثم ردّ الباب وراءه فوجد نفسه قبالتها وهي واقفة على آخر درجة من السلم مائة ذراعها بالمصباح، حدى حافته بنظرة داهشة، ثم غمغمت:

.. أنت!

فوقف صامتاً ملياً، وعلى فيه ابتسامة خفيفة تنم عن الإنشفاق والقلق، ولما لم يأنس منها اعتراضاً أو غضباً تشبّع قائلاً:

.. أهذا هو استقبالك لصديق قديم؟

فولته كشعها، ومضت ترقى في الدرج، وهي تقول:

.. تفضل...

تبعتها صامتاً، وقد استنتج من فتحها الباب بنفسها أنها بمفردها في البيت، وأن مكان الجارية جلجل التي ماتت منذ عامين لا يزال شاغراً... تبعتها حتى دخلا إلى الدهليز، فملّكت المصباح بمسار في الجدار على كتب من الباب، ثم دخلت وحدها حجرة الاستقبال، فأوقدت المصباح الكبير المثلّي من السقف - زادته هذه الحركة اطمئناناً إلى استنتاجه - ثم خرجت فأولمت له بالدخول وذهبت...

- عن تساؤل مُشربٍ بأدبٍ، كأنما تقول له: «نحن في الخدمة».
- فتساءل السيد في مكر:
- هل يطول انتظاركنا للسلطنة؟ ألم تفرغ بعد من ارتداء ملابسها؟
- فحدجته بنظرة غريبة وهي تضيق عينها، ثم قالت:
- السلطنة ليست في البيت...
- فتساءل مظهرًا بالدهشة:
- أين هي يا ترى؟
- فكالت وهي تمز رأسها، راسمة على شفيتها ابتسامة غامضة:
- علمي علمك...
- فكر في إجابتها قليلًا، ثم قال:
- نظنتك تطلعك على خطك سيرها؟
- فلوحت بيدها كالستكره، وقالت:
- إنك حسن الظن بنا (ثم ضاحكة) السلطة العسكرية زمانها انتهت! وإن شئت فانت أحق مني بالأطلاح على خطك سيرها!
- أنا؟
- لم لا، ألسن صديقها القديم؟
- قال، وهو يجدجها بنظرة باسمية عميقة ناطقة:
- الصديق القديم والغريب سواء، ترى هل يطلع أصدقاؤك القدماء على خطك سيرك؟
- رفعت منكبها الأيمن وهي تمك بزوا، قائلة:
- ليس لي أصدقاء، لا أقدماء ولا حليثون...
- فراح يعبث بفرقة شاربه وهو يقول:
- هذا كلام لمن لا عقل له، أما من له ولو شيء من العقل فلا يتصور كيف يمكن أن تكوني بين قوم يبصرون ولا يستبقوا إلى صداقتك...
- إن هي إلا تصورات الكرماء أمثالك! ولكننا لا تعدو التصورات الخيالية، الدليل على هذا أنك صديق قديم لهذا البيت، فهل راق لك يومًا أن تهبي قسطًا من صداقتك؟
- فكّبت في ارتباك، ثم قال بعد تردد:
- كنت وقتذاك، أعني أنه كانت ثمة ظروف... ففرقت بأصابعها، وقالت ساخرة:
- لعلها نفس الظروف التي حالت بيني - يا عيني - وبين الآخرين!
- ألقي بظلمته إلى مسند الكنية في حركة سريعة تمثيلية ثم مدّ نظره إليها من فوق أنفه العظيم، وهو يمز رأسه كالاستعيل بالله منها، ثم قال:
- أنت عقدة، وها أنا اعترف بأنني لا قبّل لي بك! فدارت ابتسامة بعثها الثناء، ثم تظاهرت بالدهشة، وهي تقول:
- لا أفهم مما تعني شيئًا، الظاهر أنك في وادٍ وأني في وادٍ، المهم أنك قلت إنك جئت لمقابلة خاتلي، فهل من رسالة أبلغها إياها عند عودتها؟
- ضحك السيد ضحكة قصيرة، ثم قال:
- قولي لها إن أحمد عبد الجواد جاء ليشكوني إليك، فلم يجبك!
- تشكوني أنا! ماذا صنعت؟
- قولي لها إنني جئت أشكو إليها ما لقيت منك من قسوة ليست من شيم الحسان!
- يا له من قول خليق برجل يعمل من كلّ شيء مادة لمزاحه ودعابته!
- فاعتدل في جلسته، وقال جادًا:
- مصاد الله أن أجعل منكم مادة للمزاح أو الدعابة؟! إن شكواي صادقة، ويثبّل إليّ أنك واقفة على سرّها، ولكنّه دلال الحسان، وللحسان الحقّ كلّ الحقّ في التكلّل، ولكن عليهن مراعاة الرحمة أيضًا.
- فمصمصت بشفتيها قائلة:
- عجب...!
- لا عجب البتّة! أذكركين ما كان بالأمس في دكان يعقوب الصائغ؟ هل يستحقّ ذلك اللقاء الجاف من كان يعتزّ بمثل موثقي لكم وقدم عهدي بكم؟ وددت لو استعنت بي مثلاً فيما كان بينك وبين الصائغ، ووددت لو اتّحمت لي الفرصة كي أضع خبرتي في خدمتك، أو أن اتواضعي درجة أخرى فتسمحي لي بأن أنهض بالأمر كلّها لو كانت الأسورة أسوري

أو كانت صاحبها صاحبي!...

ابتسمت، وهي ترفع حاجبيها في شيء من الارتباك، ثم قالت بانقضاب:
- تشكر...

تنفس الرجل تنفساً عميقاً ملأ به صدره العريض، ثم قال بحماس:

- مثلي لا يقع بالشكر، ماذا يفيد الجائع إن أعرضت عنه، وأنت تقولين له: «على الله!»، الجائع يريد الطعام، الطعام الشعبي اللذيذ.

شبكت ذراعيها على صدرها وهي تستظاهر بالدعش، ثم قالت ساخرة:

- أنت جائع يا سي السيد؟ عندنا ملوخية وأرناب تستأهل فمك...

وهو يضحك عاليًا:

- حال، ألقنا، ملوخية وأرناب، تضاف إليها زجاجة ويسكي، ثم نحلّ بشيء من العود والرقص، ونتمدّد ساعة ممتًا حتى نهضم...

فلوحت له يديها كأنها تهتف به «إلى الورد»، وقالت:

- الله، الله، يمكننا له دخل يحاره... بُمُلك! ضمّ أصابع يمينه الخمس، حتى صارت كضم مزمووم، وجعل يرفعهما ويغفضهما بتؤدة، وهو يقول بلهجة وعظمية:

- يا بنت الحلال لا تضيّعي الوقت الغالي في الكلام...

وهي تبرز رأسها في زهو ودلال:

- بل قل لا تضيّعي الوقت الغالي مع الكهول...! مسح السيد صدره العريض بكفّه في حركة توجي بالتملّح الباسم، ولكنها هزّت منكبيها ضاحكة، وهي تقول:

- ولو...

- ولو؟ يا لك من طفلة، حرام على النوم إن لم أعلمك ما ينبغي أن تعلميه، ها هي الملوخية والأرناب والويسكي والعود وزنار الرقص، هيّا... هيّا...

ثنت سبابة يسراها والصقتها بحاجبيها الأيسر، ثم

أرعت حاجبيها الأيمن وهي تساءل:

- ألا تخاف أن تكبنا السلطنة على غفلة؟

- لا تخافي، لن تعود السلطنة الليلة...

فحدجته بنظرة حادة مريبة، وتسألت:

- من أدراك بذلك؟

انتبه إلى عثرة لسانه، فأوشك لحظة أن يغلبه الارتباك، ولكنه تخلّص منه قائلًا في لباقة:

- السلطنة لا تبقى في الخارج حتى هذه الساعة إلا لضرورة تستدعي بقاءه حتى الصباح!

جعلت تملّك في وجهه طويلاً دون أن تنبس، ثم هزّت رأسها في سخرية ظاهرة، ثم قالت بصوت مليء بالثقة:

- يا لمكر الكهول! يضعف فيهم كلّ شيء إلا مكرهم! هل حسبتني غفلة؟ كلّا وحياتك، إني أعلم كلّ شيء...

عاد إلى العتب بفرقة شاربته في شيء من الضيق، ثم سألها:

- ماذا تعلمين؟

- كلّ شيء!

وترنّنت قليلاً لتزد من ارتبائه، ثم استطردت:
- أتذكر يوم جلست على قهوة سي عليّ لتسترق النظر من نافذة القهوة؟ يومها حينك حفرت جدار بيتنا من شدة النظر! ولما ركبنا العربة الكارو مع أفراد التخت ساءلت نفسي: ترى هل يتبعنا مهلاً ورائنا كما يفعل الصبية؟ ولكنك غلبت وانتظرت فرصة أحسن! فقهقه الرجل حتى اشتدّت حمرة وجهه، ثم قال بتسليم:

- اللهم اعف عني...

- ولكنك نسيت عقلك أمس، عندما رأيته أمام خان جعفر فتبعته حتى دخلت ورائي دكان يعقوب...

- عرفت هذا أيضًا يا بنت أخت زبيدة؟

- نعم يا زين العشاق، بيد أنّي لم أكن أتصوّر أنّك ستدخل ورائي الدكان، ولكنني ما لبثت أن وجدتك جالسًا فوق الكنية ولا عفريت النسوان نفسه، ولما

- لم تسألني عما جعلني أغتلف عن الذهاب إلى العوامة - يوم دعانا محمد عفت - بناء على اقتراحك...

- كي تزدي النار اشتعالاً!!
ضحكت ثلاث ضحكات متقطعة، ثم صمتت ملياً، ثم قالت:

- فكرة لا بأس بها ولكنها قديمة، ليس كذلك يا زين الفساق؟... ستظل الحقيقة سرّاً حتى أرى أن أفضيه عندما يحلو لي...
- أقلم حياتي ثمناً له...

ابتسمت ابتسامة صافية لأول مرة، ولاحت في عينها نظرة رقيقة جاءت في أعقاب سخرياتها، كما يحب الهدوء في أعقاب زوابعه، ويشر حالها بسياسة جديدة ومعنى جديد، فاقتربت منه خطوة ومدّت يديها إلى شاربه برشاقة وراحت تحمله بعناية، ثم قالت بنبرات لم يسمعها من قبل:

- إذا قدّمت حياتك ثمناً لهذا، فماذا يبقى لي أنا؟
وجد راحة عميقة لم يجد مثلها منذ تلك الليلة الخاسرة في العوامة، وكأنما كان يفوز بامرأة لأول مرة في حياته، تناول يديها من فوق شاربه وأودعها بين راحتيه الكبيرتين، ثم قال بحتان وامتنان:

- أنا نشوان يا ست الكل، نشوان لحدّ يعجزني عن الوصف، دمت لي إلى الأبد، إلى الأبد، لا عاش من ردّ لك رجاء أو طلباً، أتمني نعمتك عليّ وهيّتي مجلسنا، الليلة ليست كالليالي الأخرى، وهي تستحقّ أن نحتفل بها حتى مطلع الفجر...

قالت وهي تلعب بأناملها بين راحتيه:
- ليست هذه الليلة كالليالي الأخرى حقاً، ولكن ينبغي أن نقنع منها بالقليل...

القليل! هل ثمة صدى بعد هذا اللطف كله؟ لم يعد بك صبر.

مضى يرتّب كفيها، ثم بسط راحتيها، ونظر بافتتان في لون الحناء الوردّي الذي يصبغها، وما يدرى إلا وهي تسأله بصوت ضاحك:

- هل تقرأ الكفّ يا سيدنا الشيخ؟

تظاهرت بالدهشة لرؤيتي كدت أطلق لساني فيك بما قسم، ولكنّ الموقف أملى عليّ الأدب...
تسأل ضاحكاً، وهو يضرب كفّاً بكفّ:

- ألم أقل إنك عقده؟
فواصلت الحديث وهي في نشوة من الفوز والسرور:

- وما أدري ليلة إلا والسلطانة تقول لي: استعدي، إننا ذاهبتان إلى عوامة محمد عفت، فمضيت لاستعدّ، ولكنّي سمعتها تقول بعد ذلك: إنّ السيّد أحمد هو الذي اقترح الدعوة! لعب في عيني القمار، وقلت لنفسني: السيّد أحمد لا يقترح شيئاً لوجه الله، وفهمت الفولة، فلم أذهب معتلةً بصداع!

- يا لي من مسكين! وقعت في خالط من لا يرحم، هل عندك مزيد؟...
- لو اطلعت على الغيب لاخترتم الواقع...

- ما أحلّ هذا الكلام! قلّد القاطط، يا أسق خلق الله!

وهو يضحك عاليّاً:
- الله يسامحك...
ثم متسائلاً في سرور غير خافٍ:

- فهمت الفولة هذه المرّة أيضاً، ولكنك بقيت، فلم تغادري البيت أو تخفي نفسك...

وفض قبل أن يتمّ جلسته فألقه نحوها، وجلس إلى جانبها، ثم تناول طرف الوشاح المرصّع بالترتر فقبّله، وهو يقول:

- اللهمّ إني أشهد بأنّ هذه المخلوقة الجميلة الّذ من أنغام عودها، لسانها سوط، وجيهاً نار، وعاشقها شهيد، وسوف يكون لهذه الليلة شأن في التاريخ كله...

أبعدته عنها بكفيها قائلة:
- لا تأخذني في دوكة، هوه، عد إلى مجلسك...
- لن يفصل بيتنا شيء بعد الآن...

جلبت وشاحها فجأة من يده ونهضت مبتعدة قليلاً، ثم وقفت على بعد ذراع منه تمنّ فيه نظراً صامتاً، وكأنما تراجع نفسها في أمور ذات شأن، ثم قالت:

النفقات الأخرى، آه، لا تعشقوا أولاد السفلة! ..

.. ماذا تختارين مكانًا بعيدًا عن العمران؟ ..

اقتريت منه حتى مسّت ركبتيها ركبتيه، وقالت:

.. لست دون محمد عنت جاسًا، ولست دون

السلطنة حطًا ما دمت تحبّي كما تقول، وفي وسعك أن

تسهر فيها أنت وأصحابك، إنّا حلمي فحققه

لي...!

أحاط وسطها بذراعيه، ولبت صامتًا ليستشعر في

هدوء مسّها ولينها، ثم قال:

.. لك ما تشائين يا أمي...!

فكان الشكر أن الصفت راحتيها بخديّه، ثم

قالت:

.. لا تظنّ أنك تعطي دون أن تأخذ، اذكر دائمًا أنّه

من أجلك سأفاد هذا البيت الذي عشت عمري فيه

إلى غير رجعة، واذكر أنّي إذ أطالبك بأن تجعلني سيّدة

فها ذلك إلّا لأته لا يليق بمن كانت صاحبة لك أن

تكون أقلّ من سيّدة...!

شدّ ذراعيه حول وسطها حتى التصق صدرها

بوجهه، ثم قال:

.. إلّي أدرك كلّ شيء يا نظري، سيكون لك ما

تحبّين وأكثر، أحبّ أن أراك كما تحبّين أن تري نفسك،

والآن هتني لنا مجلسنا، أريد أن أبدا حياتي من

الليلة...!

أمسكت بساعديه، ثم ابتسمت إليه ابتسامة

اعتذار، وقالت بركة:

.. عندما نجتمع في عوامتنا على النيل...!

قال لها محرّرا:

.. لا تشيري جنوبي، هل تستطيعين أن تقاومي

صراحتي؟

فتراجعت وهي تقول بلهجة تجمع بين التوسّل

والإصرار:

.. ليس في البيت الذي عملت فيه وصيفة، انتظر

حتى يجمعا المسكن الجديد، مسكنك ومسكني، عند

ذلك أكون لك إلى الأبد، ليس قبل ذلك وحياتك

عندي وحياتي عندك...!

ابتسم، وقال مداعبا:

.. أنا من المشهود لهم في قراءته، أتحيّن أن أقرأ لك

كفّك؟

أضحت رأسها بالإيجاب. فراح يتألّل راحتها اليمنى

متظاهرا بالتفكير، ثم قال باهتمام:

.. في طريقك رجل سيكون له شأن في حياتك...!

تساءلت ضاحكة:

.. في الحلال يا ترى؟

ارتفع حاجباه وهو يمين النظر في كفّها، ثم قال

دون أن يبدو على وجهه أثر ولو خفيف للمزاح:

.. بل في الحرام!

.. أعوذ بالله! ما عمره؟

نظر إليها من تحت حاجبيه، ثم قال:

.. غير واضح ولكن إذا قسته بمقياس مقدوته فهو في

عنوان الشباب...!

فتساءلت بكم:

.. أهو كريم يا ترى؟

آه، لم يكن الكرم مّا يزكّيك عندهنّ قديما.

.. لم يعرف البخل قلبه...!

فكرت قليلا ثم عادت تسأل:

.. هل يرضيه أن أبقى كالتابعة في هذا البيت؟

الحجل وقع هائوا السكاكين...!

.. بل سيجعلك سيّدة قد الدنيا...!

.. أين يا ترى سأقيم في كنفه؟

زبدت نفسها لم تكلفك شيئا من هذا، سيقولون

فيك ويميدون...!

.. شقة جميلة...!

.. شقة؟...!

صحب للهجتها المستنكرة، فسالها داهشا:

.. ألا يعجبك هذا؟

قالت وهي تشير إلى راحتها:

.. ألا ترى ماء يجري؟...! انظر جيّدا...!

.. ماء يجري...! أتودّين السكنى في حمام؟

.. ألا ترى النيل...! عوامة أو ذهبيّة...!؟

أربعة جنيتها أو خمسة شهريا دفعة واحدة، غير

- ٩٠ -

وخير إن شاء الله...

هذا ما رآه أحمد عبد الجواد في نفسه وهو يطلّح ياسين مقبلًا نحوه في الدكان... كانت زيارة غريبة وغير متوقعة، أعادت إلى ذاكرته زيارته القديمة للدكان، يوم جاءه ليشاوره فيها تراهي إليه من اعتراف المرحومة أمه الزواج للمرة الرابعة، والحق أنه أيقن أنه لم يجه لتبادل التحية والسلام ولا للحديث في شأن عائتي مما يمكن أن يحدث في البيت، أجل إن ياسين لا يجيء إلى مقابلته في الدكان إلا لثان خطير. صافحه، ثم دعاه إلى الجلوس، وهو يقول:

- خير إن شاء الله...

جلس ياسين على كرسي قريب من مجلس أبيه وراء مكتبه، مرئيًا بفتح الدكان ظهره حيث وقف جميل الحمزاوي أمام الميزان يزن بضاعة لبعض الزبائن، ونظر إلى أبيه في شيء من ارتباك وكذب حلسه، فأغلق الرجل دفترًا كان يسجل فيه أرقامًا واعتدل في جلسته متأهبًا لما يجيء، وقد بلغت إلى يمينه الحزنية نصف مفتوحة، وفوق رأسه صورة سعد زغلول في بدلة الرئاسة معلقة في الجدار تحت إطار البسطة القديم. ولم يكن قصد الدكان اعتبارًا ولكن عن تدبير وتفكير باعتباره آمن مكان لمقابلة أبيه بما جاءه من أجله، إذ أن وجود جميل الحمزاوي به ومن يتفق وجودهم من الزبائن خلوًا بأن يسهل له درعًا واقيًا من الغضب إذا جاءت دواعيه، وكان يحسب ألف حساب لغضب أبيه رغم الحصانة التي اكتسبها بتقدم العمر والمعاملة الطيبة التي يحظى بها بوجه عام...

قال ياسين بأدب بالغ:

- اسمح لي بقول من وقتك الغالي، لولا الضرورة ما تجرأت على إزعاجك، ولكني لا يمكن أن أخطو خطوة دون استشارة براك، واعتاد على رضاك...

ابتسم باطن السيد أحمد هائلاً من هذا الأدب الجم، وجميل يتأمل فاته الضخم الجميل الاتي في حذر، ملقياً عليه نظرة إجمالية شملت شاربه المجدول على طريقته - هو - وبللته الكحلية وقميصه ذا البنية

المنشئة والبايون الأزرق والمنشئة العاجية والحذاء الأسود اللامع، ولم يكن ياسين قد مس مظهره - تأدبًا في محضر أبيه - إلا في تقطين، فأغضى طرف منبيله الحبري الذي يطل من جيب جاكته الأعلى، وعذل طربوشه الذي يعوجه عادة إلى اليمين. يقول: إنه لا يمكن أن يخطو خطوة دون استشارة براك! مرحى... هل استنار به وهو يسكر؟ وهو يسبح على وجهه في وجه البركة الذي حرّمه عليه؟ هل استنار به ليلة وثب على الجارية فوق السطح؟ مرحى! مرحى! ماذا وراء هذه الخطية المنيرة؟

- طبعًا، هذا أقل ما يُتَظَر من رجل عاقل مثلك،

خير إن شاء الله؟

التفت ياسين الضفنة سريعة لحظ بها جميل الحمزاوي ومن معه، ثم قرب الكرسي من المكتب، واستجمع شجاعته، قائلاً:

- اعترمت - بعد موافقتك ورضاك - أن أكمل نصف ديني...

مفاجأة حقيقية! غير أنها مفاجأة سارة على غير ما توقع، ولكن مهلاً! لن تكون سارة حقًا إلا بشروط، فليتظر حتى يسمع الأهم من الحديث! أليس ثمة ما يدعو إلى القلق؟ بل! تلك المقدمة البالغة في الأدب والتؤدة، إشارته الدكان مكانًا للحديث لدواعٍ لا يمكن أن تخفى عن فطنة الفطن، أما الزواج في ذاته فطالما تحناه له، تحناه حين ألح على محمد عفت ليرد إليه زوجته، وتحناه حين دعا الله في أعقاب صلواته أن يهديه إلى الرشاد وينت الحلال، بل لعله لولا إشفاهه من أن يجرجه مع أصدقائه كما أخرجته من قبل مع محمد عفت لما تردد من تزويجه مرة أخرى، فليتظر! وعسى ألا يتحقق شيء من مخاوفه...

- اعتراف جميل أوافق عليه كل الموافقة، فهل وقع اختيارك على أسرة معينة؟

خضف ياسين عينيه لحظة، ثم رفعها قائلاً:

- وجدت بغيقي، بيت كريم خبرناه بطول الجوار، وكان ربه من معارفك الحمودين...

معلور ويبدو - وهذا طبيعي - أنه لا يدري شيئاً عن سيرة أم الفتاة التي يرومها زوجة، تلك سيرة يعرفها هو وحده معرفة الفاعل، ولعل آخرين سبقوه إليها أو لحقوا به، فما العمل؟ أجل قد تكون الفتاة مهذبّة، ولكن من المؤكّد أنّها لم تظهر بأحسن أم ولا بأحسن بيئة، ومن المؤسف أنّه لا يستطيع أن يجهر برأيه - ذلك - ما دام لا يسمعه أن يقرن القول بالدليل، خاصّة وأنّه رأي خليق بأن يقابل - فمن يسمعه لأوّل مرّة - بالإنكار والانزعاج، والأدهى من ذلك أنّه يخاف أن يلمّح إليه فيبلغ ياسين إلى البحث والاستقصاء فيعثر آخر الأمر على أثر بصماته هو - أيّه - فتكون الفضيحة التي ليس وراءها فضيحة.

المسألة إذن دقيقة حرجية، ثم إنّ ثمة شوكة حادة تكمن في تضاعفها - هي - تاريخ قديم يتّصل بفهمي، ألا يذكر ياسين ذلك؟ كيف هان عليه أن يرغب في فتاة تطلع إليها قدماً أخوه الراحل؟ أليس هذا سلوكاً بغيضاً؟ بل إنّ ذلك وإن كان لا يشكّ في إخلاص الشاب لأخيه الراحل، إنّ منطق الحياة القاسي يقيم عدلاً لامثاله، إنّ الرغبة طاغية أصمى لا يرحم وهو أخبر الناس بذلك!

فكّب الرجل ليشمره بتضايقه، ثم قال:

- إنّ قلبي لم يرتح لاختيارك، لا أدري لماذا، كان المرحوم السيّد محمّد رضوان رجلاً طيباً حقاً، ولكنّ الشلل حال بينه وبين رعاية بيته من زمن بعيد سابق لوفاته، لم أقصد بهذه الملاحظة إساءة الظنّ بأحد، كلّاً! ولكنّه كلام يقال، ربّما ردّه بعض الناس، هه؟ الأهمّ عندي أنّ الفتاة مطلقّة، لماذا علّققت؟ هذا سؤال من أسئلة كثيرة ينبغي أن تعلم جوابها، لا يصحّ أن تأمن مطلقّة حقّ تستعصي كلّ شيء عنها، لمّل هذا ما أرحمت قوله، والدنيا ملأى ببنات الناس الطيّبين.

قال ياسين متشجّعاً بأسلوب أبيه، الذي اقتصر على الغشاش والنصح:

- بحثت بنفسي وبواسطة آخرين، فتبيّن لي أنّ الحقّ كان على الزوج، إذ كان متزوّجاً وأخفى عنهم

رفع السيّد حاجبيه متسائلاً دون أن ينبس، فقال ياسين:

- المرحوم السيّد محمّد رضوان!
- لا...!

نذت عن السيّد أحمد قبل أن يتمالك نفسه، نذت عنه في تألّف واحتجاج حقّ شعر بأنّه ينبغي أن يبرّر تألّفه واحتجاجه بسبب وجيه يداري به حقيقة مشاعره، ولم يعوزه ذلك، فقال:

- ليست كرمته مطلقّة؟ فهل ضاقت الدنيا حقّ تزوّج من ثيب...!

لم يفاجأ ياسين بهذا الاعتراض، كان يتوقّعه منذ اللحظة التي عزم فيها على الزواج من مريم، غير أنّه كان قويّ الأمل في التغلّب على معارضة أبيه التي لم يتصوّر أن تكون إلّا صدى لتفضيل البكر على الثيب أو تحبّلاً لامرأة عسيّة بأن تذكره بمأساة ابنه الراحل، وكان يؤمن بحكمة أبيه ويرجو أن تستهين في النهاية بهذين المأخذين الواهين، بل كان يعتمد كلّ الاعتماد على موافقته في التغلّب على المعارضة الحقيقية التي يتوقّعه عند امرأة أبيه... تلك المعارضة التي وقف أمام التفكير فيها حائراً حتّى خطر له أن يغادر البيت مغادرة الهارب كي يتزوّج كما يحلو له مواجهها الجميع بالامر الواقع، ولولا أنّ إغضاب أبيه كان فوق طاقته لفعل، إلّا أنّه عزّ عليه أن يتجاهل عواطف أمّه الثانية - بل أمّه الأولى - قبل أن يبلّك قصاصه لاستئثارها واقتناعها برأيه، قال:

- لم تضق بي الدنيا، ولكنّها القسمة والنصيب... أنا لا أبحث عن المال أو الجاه، وحسي الأصل الطيّب والخلق القويم...

إنّ كان ثمة عزاء وسط هذه الأمور المعقّدة المؤسفة، فهو صدق رأيه الذي لا يكذب أبداً. هذا هو ياسين بلا زيادة ولا نقصان، إنسان - أو حيوان - تسير المتاعب بين يديه ومن خلفه، ولو جاء نبأ سعيد أو زفّ إليه بشرى سارة لما كان ياسين ولحاب تقديره ورأيه فيه، لعلّه ممّا لا يعيبه إلّا يبحث في الزوجة عن المال أو الجاه أمّا الخلق فمسألة أخرى، ولكنّ البغل

- إني على يقين مما أقول! خبرته بنفسه وسمعته بأذني، لا شك في ذلك مطلقاً! ...

في ظروف أخرى لم يكن هذا القول - ولا أبلغ منه - كافياً لإقناعه بصديق ياسين، لكنه كان في الحق متعلقاً إلى تصديقه، فصدق وأمن به، وامتلا قلبه نحوه بامتنان عميق وسلام شامل. لم تعد مسألة الزواج - في تلك اللحظة على الأقل - مما يكرهه، ولاذ بالصمت ملياً هائلاً بالسلام الذي غمر قلبه، ورويداً رويداً! ما مضى يسترد شعوره بالموقف ويرى ياسين بعد أن غيبه عن عينيه الانفعال، فماد يفكر في مريم وأم مريم وزواج ياسين وواجبه وما يستطيع قوله وما لا يستطيع قوله، قال:

- مهما يكن من أمر فلاني أود أن تولي المسألة تفكيراً أعمق، وحذراً أشد، لا تتعجل، مد لنفسك فسحة التدبر والمراجعة، إنها مسألة مستقبل وكرامة وسعادة، وإني على استعداد لأن أختار لك بنفسه مرة أخرى إذا وعدني وعد رجل صادق ألا أعملني أندم على تدخلني لما فيه صلاحك، هه؟ ما رأيك؟

صمت ياسين متفكراً، مستاء من تحول الحديث إلى مجرى ضيق محفوف بالخرج، حقاً أن الرجل يتحدث بحلم عجيب، ولكنه لم ينجف قلبه وعدم ارتياحه. فإذا أصر على رايه بعد ذلك فقد يجرهما النقاش إلى شقاق غير مستحب، ولكن هل ينكسر نقاشاً من هله الناقبة؟ كلاً لم يعد طفلاً! سيتزوج عن يشاء كما يشاء، ولكن فليعه الله على الاحتفاظ بمودة أبيه! قال:

- لا أريد أن أجسمك تباً جديداً، شكراً لك يا بابا، غاية ما ألقى أن أحظى بموافقتك ورضاك...
لوح السيد يده في نفاذ صبر، وقال بلهجة لم تحل من حدة:

- تأمل أن تفتح عينيك على ما في رأيي من

حكمة...

فقال ياسين برجاء حاز:

- لا تنضب يا بابا، استحملك الله ألا تغضب، إن رضاك بركة، ولا أطيق أن تضن عليّ بها، دعني أجرب حظي وادع لي بالتوفيق...

ذلك، فضلاً عن عجزه عن الإنفاق على ييتين في وقت واحد وسوء خلقه!

سوء خلقه! إنه يتكلم - بلا حياء - عن سوء الخلق، البغل يملك بمائة بكر لمزاج سهرة كاملة! قال:

- إذن فرغت من البحث والتفصي! فقال ياسين بحياء، وهو يتهرّب من عيني أبيه الحادّتين:

- تلك خطوة بدئية...

فسأله الرجل وهو يخفض عينه:

- ألم تترك أن تلك الفتاة تربط بذكريات الهمّة لنا؟

اعتراه الارتباك حتى اختطف لونه، وهو يقول:

- لم يكن من الممكن أن يغيب عني هذا، ولكنه وهم لا أصل له، فلاني أعرف عن يقين أن المرحوم لم يهتم بالأمر كله إلا إيماناً مصلوداً ثم نسيه نسياناً تاماً، وأكد أجزم بأنه ارتاح فيما بعد إلى فشل مساعده إذ اقتنع بأن الفتاة لم تكن طلبة كما توهم...

تري: أيقول ياسين الحق، أم يدافع عن موقفه؟ كان نجمي المرحوم ولعله الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يزعم أنه مطلع على ما لا علم للآخرين به من خاصة شونه، فليته كان صادقاً! أجل، ليته كان صادقاً إذن لأعفه من عذاب يؤزقه كلما ذكر أنه وقف يوماً عثرة في سبيل سعادة الفقيد أو كلما خطر بباله أنه ربّما مات تميس القلب أو ناقماً عليه استبداده وتعتته، تلك الآلام التي نهشت قلبه، هل يريد ياسين أن يعفيه منها؟

سال ياسين بلهفة لم يظن الشاب إلى عمقا:

- أأنت حقاً على يقين مما تقول؟ هل صارحك به؟ ولثاني مرة في حياته رأى ياسين أباه على حال من الانكسار لم يشهد مثلاً إلا يوم مصرع فهمي، وهو يقول له:

- كليشفي الحقيقة عارية عن كل تخفيف، الحقيقة الكاملة، هذا يعني فوق ما تصوّر، (وكاد يعترف له بآله، ولكنه أمسك الاعتراض وهو على طرف لسانه)... الحقيقة الكاملة يا ياسين!

فقال ياسين دون تردّد:

لا يعني أنه أضمر نحوه سوءاً أو أنه اتخذ ذريعة مؤنّية لقضاء ليلاته، فالحق أيضاً أن نفسه - رغم تقلّباتها التي لا تنفك عنها - كانت تنحو إلى حياة الزوجية والبيت المستقرّ...

مرّ هذا كله بخاطره وهو متّخذ مكانه - إلى جنب كمال - بمجلس القهوة، ذلك المجلس الذي يبدو أنه يشهد آخر أيامه فيه، ومضى يجيل طرفه بين كتباته وحصره الملوّنة والفانوس الكبير المدلّل من سقفه في كثير من الأمسي، وكانت أمينة مترنّعة كعادتها على الكنبه القائمة بين بالي حجرة نوم السيّد وحجرة المائدة، عاكفة على المجمره رغم دله الجوّ لتصنع قهقهات، وقد تلتفت بخيار أبيض فوق جلباب بنفسجيّ نمّ عن ضموها، واكتنفها هدوء يشاب عند الصمت بأمارات الحزن، كما الشاطئ إذا استكنّ شفت عيّاً في باطنه. شدّ ما شعر بالأسف والحرج وهو يأخذ أهبة للإفصاح عيّاً في ضميره، ولكن لم يكن من الإفصاح بدّ، فقال بعد أن فرغ من احتساء قهوته دون أن يدوق لها طعمًا: - والله يا نينة لندّي مسألة أريد أن أستميرك فيها...

وتبادل مع كمال نظرة حلّت على أن الأخير على علم سابق بموضوع الحديث، وأنه يترقّب عواقبه باهتمام لا يقلّ عن اهتمام ياسين نفسه. قالت أمينة:

- خير يا بنيّ...

قال ياسين باقتصاب:

- قرّرت أن أتزوّج...

فتجلّ في عينيها المسلمتين الصغيرتين اهتمام باسم، ثمّ قالت:

- خير ما قرّرت يا بنيّ، لا ينبغي أن يطول انتظارك أكثر ممّا طال.

ثمّ لاحت في عينيها نظرة متسائلة، ولكنّها بدلت أن تفصح عن تساؤلها، قالت وكأنّها تستدرجه إلى الاعتراف كأنّ ثمة سرّ:

- خاطب والدك أو دعني أخاطبه، ولن يعجزه أن يجد لك زوجة جديدة خيراً من الأولى...

قال ياسين في رزاة بدلت أكثر ممّا يستدعي الأمر:

اقتنع أحمد عبد الجواد بأنّ عليه أن يسلم بالأمر الواقع، فسلم به في حزن وياس... أجل! ربّما كانت مريم - رغم استنثار أمّها - فتاة شريفة وزوجة صالحة، ولكن لا شك كذلك في أن ياسين لم يوفق إلى اختيار أصالح الزوجات ولا أفضل البيوت.

الأمر لله، مضى الزمن الذي كان يملّي فيه إرادته إملاء فلا يجد راداً لها، ويأسين اليوم رجل مشلول ولن يجني من محاولة فرض رأيه عليه إلا العصيان... فليسلم بالأمر الواقع، ويسأل الله السلامة...

عاود الصبح والتصير فلجّ ياسين كزّ أخرى إلى الاعتذار والتودّد حتّى لم يعد ثمة زيادة لمستريد... غادر الدكان وهو يقنع نفسه بأنّه نال موافقة أبيه ورضاه، عل أنّه كان يعلم أنّ الأزمة الخطيرة حقاً هي التي تنتظره في البيت، وكان يعلم أيضاً أنّه سيرتك البيت حتّى، لأنّ مجرد التفكير في إمكان ضمّ مريم إلى الأسرة ضرب من الجنون، فربّما أن يتركه بسلام غير مخلف وراءه عداوة أو حقداً، إذ لم يكن من اليسير عليه أن يستهين بأمره أبيه أو يتنكر لعهدها وفضلها عليه، لم يكن يتصوّر أن تدفعه الأيام إلى وقوف هذا الموقف الغريب من البيت وآيك، ولكن تعقّدت الأمور وضاعت السبل حتّى لم يبق من منفذ إلا الزواج. والمعجب أنّه لم تغب عن فطنته السياسة النسائية التي رُسمت للإيقاع به، سياسة قديمة تتلخّص في كلمتين:

التودّد والتمنّع. ولكنّ الرغبة في الفتاة كانت قد تسرّبت إلى دمه ولم يعد بدّ من إروائها بأيّ سبيل ولو كان الزواج، وأعجب من ذلك أنّه كان يعلم من تاريخ مريم ما يعلمه أفراد أسرته جميعاً - عدا والده بطبيعة الحال - ولكنّ رغبته طغت فلم يصدّه ذلك عن فكرته أو يزهده فيها، وقال لنفسه: لم أكره قلبي على ماضٍ فات لست مسئولاً عنه، سنبداً معاً حياة جديدة، ومن هنا تبدأ مسئوليتي، وإنّ بقي بنفسه لا حدّ لها، وإذا حدث أن خيبت ظنيّ نبذتها كما نبذ الحذاء البالي...

والحقّ أنّه لم يستلهم فيها عزم فكره ولكنّه استخلمه في تبرير رغبته الجامعة التي لا تزدرج، فاقبل على الزواج هذه المرّة كبديل من غداة امتنعت عليه، غير أنّ ذلك

- خاطبت أبي بالفعل، وليس هناك حاجة إلى تكليفه عناء جديدًا لأنني اخترت بنفسي، وقد وافق أبي، فأرجو أن أحوز موافقتك أيضًا.

توزد وجهها حياءً وسرورًا بما أولاهها من أهمية، ف قالت:

- ربنا يوفقك إلى ما فيه الخير، عجل حتى تعمّر لنا الدور المهجور، ولكن من ينت الحلال التي قرّرت أن تتخذها زوجة؟

تبادل مع كمال نظرة أخرى، ثم قال في عناء:

- جيران تعرفينهم...

ارتسم بين حاجبيها تطعب التذكر وهي تحد نظرها إلى لا شيء، حركة سباتها كأنها تحصى من في غيبتها من الجيران، ثم قالت:

- إنك تحبني يا ياسين، هلّا تكلمت وأرحمني!

قال وهو يتسم ابتسامة شاحبة:

- جيراننا الأقربون!

- من... ١٩.

نذت عنها في إنكار وانزعاج وهي تحملق في وجهه، فحفض رأسه وأطبق شفاهه متجهّم الوجه، فمادت تقول بصوت متهتج، وهي تشير بإبهامها إلى الوراء:

- أولئك؟ مستحيل، هل تعني ما تقول يا ياسين؟

فاجاب بالصمت المتجهّم حتى زعقت:

- خبر أسود... أولئك الذين شتموا بنا في أجل مصاب!

فلم يتالك أن هتب بها:

- استحلفك بالله ألا تردّي هذا القول، إنّه وهم باطل، ولو اتقن به قلبي لحظة واحدة...

- طبعًا تدافع عنهم، ولكنّه دفاع لا ينطلي على أحد، لا تنب نفسك في إقناعي بالمحال، يا ربّي!

أيّ ضرورة تدعو إلى هله الفضيحة؟! كلهم نقائص وصيوب، فهل من فضيلة واحدة تبرّر هذا الاختيار الجائر؟ قلت إنك نلت موافقة أبيك، الرجل لا يعلم عن هذه الأمور شيئًا، قل إنك خدعته...

قال ياسين بتوسّل:

- نية!

- هلّني روعك، ليس أكره عندي من إغضابك، هلّني روعك ولنتكلم في هدوء...

- كيف أسمع لك وأنا أتلقّى منك هذه اللطمة القاسية؟! قل إن الأمر لا يعدو أن يكون مزاحًا سخيفًا، مريم؟! الفتاة المستهترّة التي تعرف من أمرها ما نعرف جميعًا؟... هل نسيت تاريخها الفاضح؟... هل نسيت حقًا؟ أريد أن نجيء بهذه الفتاة إلى بيتنا؟!

قال وهو يزفر كأنما يطرد من صدره الكرب والاضطراب:

- لم أقل هذا فكد، هذا أمر لا أهمية له، المهمّ عندي حقًا أن تنظري إلى المسألة كلها نظرة جديدة خالية من التحامل...

- أيّ تحامل يا هذا؟ هل ادّعت عليها بالباطل؟ تقول إن أباك وافق، فهل أخبرته عن عبثها الفاضح مع الجنود الإنجليز؟ ماذا جرى لأولاد الناس الطيبين يا ربّي؟!

- هلّني روعك، دعينا نتحدّث في هدوء، ماذا يجدي هذا الهياج؟!

صاحت بحدة لم تكن من طباعها في الزمن الأوّل:

- إنّ روحي لا يمكن أن يبدأ ما دام الأمر يتعلّق بالكرامة.

ثم بصوت باك:

- وأنت تسيء إلى ذكرى أخيك الخالي.

ياسين وهو يزدرد ريقه:

- أخي؟ رحمه الله وأسكنه فسيح جنّاته، إنّ هذا الأمر لا يمسّ ذكراه في أيّ شيء، صدّقي فإنّي أدرى بما أقول، لا تقلّقي مرقد!

- لست أنا التي ألقى مرقد، إنّما يلقى مرقدك حقًا أعوه الذي يتطلّع إلى هذه الفتاة، أنت تعلم هذا يا ياسين!! ولا تستطيع أن تنكره...

ثم في انفعال شديد:

- لعلك كنت تتطلّع إليها حتى في ذلك الزمن البعيد!

- نية!

بإسائة ساعة، إنها معلورة كما قلت، ولكن كيف أطالها بوجهي صباح مساء، وهذا ظنّها به؟

ثمّ بعد لحظات صمت مشحونة بالكآبة:

- لا تصدّق أنّ مريم أمت قلب المرحوم، لقد استأذن المرحوم يومًا أن يخطبها فرفض أبوك،

وتناسى المرحوم الأمر حتّى نسبه فأنهى كلّ شيء، فما ذنب الفتاة في ذلك، وما ذنبي أنا إذا أردت أن أتزوّجها بعد ست سنوات من ذلك التاريخ؟

قال كيال برجاء:

- لم تصدّق الحقّ فيما قلت، وسوف تقتنع نينة به عاجلاً، فأرجو أن يكون كلامك من عدم البقاء في البيت مجرد هفوة لسانية...

فقال ياسين وهو يبرّ رأسه في حزن:

- أنا أوّل من يعزّ عليه هجر هذا البيت، ولكنّي

سأتركه عاجلاً أو آجلاً ما دام انتقال مريم إليه مستحيلاً، فلا تنظر إلى مسألة ذهابي إلّا من هذه

الزاوية، سأنتقل إلى بيتي بقصر الشوق، ومن حسن الحظّ أنّ شقّة أمّي لا تزال خالية، وسأقابل والدي في

الدكان وأوضح له أسباب ذهابي متحاشياً كلّ ما يعرّج صفوه، لست غاضباً، سأترك البيت أسفّاً عليه كلّ

الأسف، أسفّاً على فراق أهله وأولهم نينة، لا تحزن ستعود المياه إلى مجاريها في وقت قريب، ليس في هذه

الأسرة قلب أسود، وقلب والدتك أنصعها بياضاً...

ومضى إلى صوان ملابسه ففتحها، وجعل ينظر إلى ملابسه ولوازمه، وتردّد قليلاً قبل أن يتخذ ما عقد

العزم عليه، فالتفت إلى كيال، وهو يقول:

- سأتزوّج من هذه الفتاة كما قضيت بذلك المقادير، ولكنّي - علم الله - مفتنع كلّ الاعتناع بأنّي لم أسئ إلى

ذكرى فهمي، أنت أعلم يا كيال بما كان من حبيّ له، كيف لا؟ إذا كان هناك من سيساء بهذا الزواج، فهو

أنا...

- ٩١ -

قادت خادم صغيرة ياسين إلى حجرة الاستقبال ثمّ انصرفت. كان يقوم بزيارة بيت المرحوم السيّد محمّد

رضوان الأوّل مرّة في حياته، وكانت الحجرة - على

- لم تعد لي ثقة في شيء، كيف تبقى لك ثقة في شيء بعد هذا الغدر؟ هل ضاقت الدنيا وأقترت حتّى

لم تحب من فتيتها زوجة إلّا الفتاة التي أدمت قلب أخيك؟ ألا تذكر ما أصابه من حزن وهو يستمع معنا

إلى قصّة الجنديّ الإنجليزي؟...

يسط ياسين ذراعيه في توسّل، قائلاً:

- فلنؤبّل هذا الحديث إلى وقت آخر، سأبقي لك فيها بعد أنّ المرحوم لم ينداء ربّه وليس في قلبه أيّ أثر

لهذه الفتاة، أمّا الآن فلم يعد الجوّ صالحاً للكلام... صاحبت به غاضبة:

- هيهات أن يصلح عندي جرّ لهذا الكلام، إنك لا ترعى ذكرى فهمي...

- لبتك تتصوّرين ما يجدهنّ في كلامك من حزن! صاحبت، وقد بلغ بها الغضب متهاه:

- أيّ حزن؟! إنك لم تحزن على أخيك! من الغروية من حزن عليه أكثر منك!

- نينة!...

وهمّ كيال بالتدخّل في الحديث، ولكنّها أسكتته بإشارة من يدها، وهتفت:

- لا تذهبي نينة، لقد كنت لك أمّاً حقّاً، ولكنك لم تكن لي ابناً ولم تكن لابني أمّاً!

لم يعد يشمل البقاء، فنهض عززوتاً مكتئباً، وغادر الصالة إلى حجرته، وما لبث كيال أن لحق به ولم يكن

دونه حزناً وكآبة فقال له:

- ألم أحذرك؟...

فقال ياسين مقطباً:

- لن أبقي في هذا البيت دقيقة واحدة بعد الآن...

فقال كيال بجزع:

- يجب أن تملوها، أنت تعلم أنّ والدتي لم تعد كما كانت، إنّ أبي نفسه يغضي عن بعض هفواتها أحياناً،

ما هي إلّا غصبة لا تلبث أن تسكت فلا تحاسبها على كلامها، هذا رجائي إليك...

قال ياسين، وهو يتنهد:

- لن أحاسبها يا كيال، لن أبيع جميل الأعوام

يحملها على السكوت... في قصر الشوق صادفتك
أول مفاجأة سعيدة في هذا الجوّ العاصف! هو موت
الفكهايّ وحلول ساعاتيّ عمله، إلى القبر...! سمع
نحتة عند الباب، فأفجّه بصره إليه وهو يبيض، وما
لبث أن رأى ستّ بيّجة وهي تدخل بجنتها، إذ أنّ
مصراع الباب المقترح لم يكن ليُفتح لها إذا دخلت
بعرضها، ولبّح عن غير قصد الخطوط التي تحدّ تفاصيل
جسمها الجسيم، فلم يتالك من العجب عندما مرّت
أمام عينيه عجيزتها التي كادت قمتها تبلغ منتصف
ظهرها ويبيض أسفلها على فخذليها، فكأّتأ كرة
منطاداً! وأقبلت نحوه في خسوطات متهمّلة نامت
بقناطير اللحم والشحم، ثم مدّت له يدًا بيضاء
برزت من كمّ فستانها الأبيض الفضفاض، وهي
تقول:

- أهلاً وسهلاً، شرفت وتوّرت...

فصالحها ياسين بأدب، ولبث واقفاً حتى جلست
على الكنية المجاورة لجلس... كان يراها عن كتب
لأول مرّة، إذ أنّ علاقتها القديمة بأسرته واكتسابها مع
الأيام منزلة أشبه بمنزلة الأمّ في السنّ والاحترام حملاه
على تحبّب تفحصها - كما يفعل مع غيرها من النساء -
كلّما لمحها عن بُعد في الطريق، لذلك خبّل إليه أنه عثر
على كشف جديد. وكانت ترتدي فستاناً قد غطّى على
جسمها من العنق إلى ما فوق القدمين، وحتى القدمان
وارتجيا في جورب أبيض رغم دفيء الجوّ، بينما امتدّ كُفّا
الفتنان على ذراعيها ومساعدتها حتى المعصمين، ولقّت
رأسها وعنتها بخيار أبيض طرح ذيله العريض على
أعلى الصدر والظهر فبدت في احتشام يناسب المقام
ويوافق العمر الذي قارب الخمسين - فيما علم - وإن
تبسّدت في صحّة ربّانة تنطق بصفاء المزاج وشباب
القلب. ولاحظ فيها لاحظاً أنّها تطالع بوجه طبيعيّ لم
يسه زعرف أو زواق رغم ما عُرف عنها من حبّ
التبرّج وإتقان التزيّن، الأمر الذي نصّبها من قديم
مرجعاً لكلّ ما يتعلّق باللّوق النسائيّ من ملابس
وزواقٍ والحليّ كلّها. وذكر بهذه المناسبة كيف كانت
أمية تدافع عن هذه المرأة كلّها عنّ لأحد أن يتقد

طرز الحجرات بيت أيبه - واسعة الأركان، مرتفعة
السقف، فيها مشربة تشرف على شارع بين القصرين
ونافذتان تطلّان على العطفة الجانبية التي يفتح عليها
مدخل البيت، وقد فُرشت أرضها ببسط صغيرة،
واصطفّت في جوانبها الكنبات والمقاعد، وأسدت على
الباب والمنافذ ستائر من غمّل رماديّ باهت من
القديم، وعلى الجدار المواجه للباب علّقت البسملة في
إطار أسود كبير، بينما توسّطت الجدار الأيمن - فوق
الكنبة الرئيسية - صورة للمرحوم السيّد محمّد رضوان
تعلّقه في أوسط المعمر...

اختار ياسين أول كنية صادفته إلى يمين المدخل،
فجلس وهو يتفحص المكان بعناية حتى ثبتت عيناه على
وجه السيّد محمّد رضوان الذي بدا وكأنّه يباده النظر
بعيني مريم! ابتسم ابتسامة راضية وراح ينشّ لا شيء
بمنشئه العاجية... ثمّة مشكلة قد واجهته مذ فُكر
في المجيء لحطبة مريم، هي خلوّ البيت من جنس
الرجال وعدم توفيقه إلى إنباة أحد من جنس النساء
عنه. فكانت النتيجة أن جاء وحده كأنّه مقطوع من
شجرة - على حدّ تعبيره - الأمر الذي أخجله بعض
الشيء كرجل ورث عن وسطه الاعتزاز بالأهل
والأسرة، غير أنّه كان مطمئناً من ناحية أخرى إلى أنّ
مريم لا بدّ وأن تكون قد مهّلت له السبيل عند أمّها،
بحيث أنّ مجرّد إعلانه زيارته سيثي بما جاء من أجله،
ومن ثمّ يبيّن له جواً طيّباً لإنجاز مهمّته.

عادت الخادم إلى الظهور حاملة صينية القهوة،
فوضعتها على المنضدة أمامه، وتراجعت وهي تحمّره بأنّ
ستّها الكبيرة في الطريق إليه... وستّها الصغيرة ترى
هل علمت بحضوره؟ وما صدق ذلك في نفسها
الريقية؟ سوف يحملها بحسنتها إلى قصر الشوق،
ولتعلن بنا الفوّة ما تشاء! من كان يظنّ لأمية هُله
القدرة على الغضب؟ كانت في وداعة الملاك. فأتى الله
الحرز! كذلك غضب أبوه وهو يعترف له في الدكان
بأنّه هجر البيت ولكن غضب رحيم كشف عن تأثّر
وحزنه. ترى: هل تُطلعه أمينة على تاريخ مريم؟
عُضّب الشكل شيء خفيف، ولكنّ كمال وعد بأنّ

أعود فأدعو لها بالصبر... المسكينة!
- جزاك الله كل خير على نبيل خلقك وطيبة قلبك،
حقاً إننا مسكينة وفي حاجة إلى الصبر!
- ولكن ما ذنبي أنا؟
- لا ذنب لك، إنه الشيطان لعنة الله عليه...

هزّت المرأة رأسها هزّة الضحية البريئة، وصمتت قليلاً، حتى حانت منها التفاتة إلى فنجان القهوة الذي بدا كالنسي على صينية القهوة، فقالت وهي تومئ إليه:

- ألم تشرب قهوتك بعد؟
فرفع ياسين الفنجال إلى فيه، وحسا الحسرة الأخيرة، ثم أعاده إلى الصينية، وتحنن قليلاً، ثم أنشأ يقول:

- شدّ ما سامني ما انتهت إليه صداقة الأستين،
ولكن ما باليد حيلة، على أيّ حال ينبغي أن نتنامى
ذلك تاركين أمره للزمن، والواقع أنني لم أكن أحب أن
أثير أسيف الذكريات، فما لهذا جئت، إنما جئت
لفرض آخر هو أبعد ما يكون عن الذكريات
الأسيفة...

هزّت المرأة رأسها هزّة كأنها تطرد الذكريات
الأسيفة، ثم ابتسمت ابتسامة استعداد لسراخ جديد،
كانت تهرّ رأسها وابتسامتها كالآلة الموسيقية المصاحبة
للمغني إذا غيّرت عزفها تمهيداً لدخول المغني في طبقة
جديدة من النغم، قال ياسين مستمداً من ابتسامتها
طلاقة:

- أنا نفسي لا تخلو حياتي من ذكريات أسيفة تتصل
بحياتي الماضية... أعني تجربتي الأولى في الزواج
الذي لم يوقفي الله فيه إلى بنت الحلال! ولكنني لا أريد
أن أرجع إلى ذلك، الواقع أنني جئت بعد أن عزمت -
متوكلاً على الله - على فتح صفحة جديدة مستبشراً
الحير كله فيما اعترمت...

التفت عيناها على الأثر فطالع فيها الترحيب
الجميل... ترى: هل كان موقفاً في الإشارة إلى
زواجه الأوّل؟ ترى ألم يتّام إلى سمع هذه المرأة شيء
عن الأسباب الحقيقية لفشل ذلك الزواج؟ لا تشغل

إفراطها في التبرّج، ثم كيف انقلبت تحمل عليها لأتفه
الأسباب في السنوات الأخيرة رامية إليها بقلة الحياء
وتجاهل ما يستوجبها عمرها من احتشام.
- خطورة عزيزة يا ياسين أفندي...
- الله يكرمك!!

كاد يختم جملة بقوله «يا تيزه» ولكن إحساساً
غريزياً خوفاً في اللحظة الأخيرة من النطق بها، خاصّة
وأنه لاحظ أنها لم تدّعه «ويا ابني» كما كان المنتظر،
وعادت المرأة تسأل:

- كيف حالكم؟ والدك وأمّ فهمي وخديجة وعائشة
وكيال؟
أجاب، وهو يشعر بحياء لسؤالها عن الذين
ناصبوها العداء بلا سبب وجيه:

- كلهم بخير، سألت عنك العافية...
لا شك أنها تفكر الآن في الجفاء الذي قوبلت به في
بيت أبيه عقب وفاة فهمي فاضطرّها إلى الانقطاع عن
أسرته بعد معايشة دامت العمر كله. يا له من جفاء!!
بل يا لها من عداوة صامتة!! لم يكن إلّا أن أعلنت
امراة أبيه يوماً أنّ «شعوراه» يحبّها بأنّ مريم وأنها لم
تصدق في حزمها على فهمي! لم تفتي الله الشر؟.
قالت إنه من غير المقبول أن يكون رفض السيّد خطبة
مريم لم يبلغها في حينه عن طريق أو آخر أو حتى
استنتاجاً، ومن غير المقبول أن تعلما به ولا تضغطناه
عليهما ورقدت كثيراً أنّا سمعت أنّ مريم تندب
فهمي في الماتم فتقول: «أسفني على شبابك الذي لم
تتمتع به» فترجمها إلى «أسفني على شبابك الذي وقف
أهلك في سبيله فلم تتمتع به!». وزادت على ذلك ما
شاء لها حزنها وقهرها، ولم تنف معهما حيلة في تحوّلها
عن «شعوراه»، وسرعان ما تغيّر سلوكها نحو مريم
وأنها حتى كانت القضيعة!... قال وهو لم يزل تحت
تأثير الحياء والخروج:

- لعن الله الشيطان!
فقالت بهيجة مؤنّنة على قوله:
- ألف لعنة!... طلالا سألت نفسي عمّا جئت
حتى الآن ما لاقيت من السّت أمّ فهمي، ولكنني

بالك، إن ملاحظها الجميلة توحى بالتسامح إلى غير حد، ملاحظها الجميلة!! اليس كذلك؟ بل، لولا فارق السن لكائن أجل من مريم، كانت بلا مرأه أجل من مريم في شبابه الزاهب... كلاً إنا أجل من مريم رغم فارق السن... إنا كذلك...!

- أظنك فطنت إلى مقصدي، أعني إلى أنني جثت طالباً يد كرمك مريم هائم...!

أضواء الوجه الرقيق ابتسامة بثت فيه حيوية جديدة، وقالت:

- لا يسعني إلا أن أقول أهلاً وسهلاً، نغم الأسرة ونغم الرجل، أمس أوقفنا سوء الحظ فيمن لا خلاق له، اليوم يسعي إلى مريم رجل جدير حقاً بإسعادها، وستكون بفضل الله جديدة بإسعاده، ونحن - معها فُرق بيتنا سوء التفاهم - أسرة واحدة من قديم الزمن...!

اغبط ياسين حتى راحت أصابعه تسوي البايون بلمسات سريعة غير مقصودة، ثم قال وقد تورّد وجهه الأسمر الجميل:

- أشكرك من صميم قلبي، جزى الله عني لسانك الحلو، نحن أسرة واحدة كما قلت رغم أي شيء، ومريم هائم فتاة يزdan بها حيناً كله أصلاً وخلقاً، أرجو أن يعوضها الله من صبرها خيراً وأن يعوضني بها من صبري خيراً.

غمغمت «آمين» وهي تنهض، ثم أقبلت بجسمها المفتخر نحو المنضدة، فتناولت صينية القهوة وهي تنادي باسمينة، ثم استدارت حاملة إياها فأعطتها الخادم التي جاءت على عجل، ولقنت عتقها فجأة لتقول له «أستنأ» فباغته وهو يحمل في ردفها

الفتيتين!! وشعر لثوّ باله «ضبط في حالة تلبس» فبادر بخفض عينيه ليوهمها بأنه كان ينظر إلى الأرض، ولكن بعد فوات الأوان...! وارتبك وجعل يسأل نفسه عما عسى أن تظن به، ثم اختلس منها نظرة بعد أن عادت إلى مجلسها فلمح على شفتيها ابتسامة خفيفة كأنها تقول له «رايتك». لمن عينه اللتين لا تعرفان الحياء، وتسأل عما يمكن أن يكون قد دار في رأسها... أجل إنا نحاول أن نبو كأنها لم تر شيئاً،

ولكن هيتها - بعد ابتسامتها - تقول له أيضاً «رايتك!». ليس المفوة فهذا خير حل، ولكن هل تصير مريم مثل أمها يوماً ما؟ متى يجيء هذا اليوم؟! للألم مزايلا لا يعود بها الزمان إلا في النادر، يا لها من امرأة!! إن خير وسيلة لتغيير أفكاره وتبديد سحابة الشك هي أن يمزق الصمت، قال:

- إذا حاز طلبي القبول، فستجديني رهن إشارتك لمناقشة التفاصيل الهامة...!

ضحكت ضحكة قصيرة، فبدا وجهها في إشرقتها لطيفاً شاباً، وقالت:

- كيف لا يجوز القبول يا ياسين أفندي؟! أصل وجوار على رأي المثل...!

قال، وقد تورّد وجهه:

- إنك تأسريني بلطفك!

- ما عدوت الحق، والله شهيد!

ثم متسائلة بعد فاصل صمت قصير:

- هل تمت موافقة البيت؟

تجلّت في عينيه نظرة جدّ لحظة، ثم ضحك ضحكة فائرة من أنفه، وقال:

- دعينا من البيت وصبرته!

- لم كفى الله الشر؟

- ليس البيت على ما يرام!

- ألم تشاور السيد أحمد؟

- أبي موافق...!

فصربت يداً على يد، وقالت:

- فهمت، أم فهمي؟! اليس كذلك؟! إنا أوّل من تبادر إلى ذهني وأنت فتأخذي بالموسوع، طبعا لم توافق، هه؟ سبحان الذي لا يتغير، امرأة أبوك امرأة غريبة!

هز كتفيه استهانة، وهو يقول:

- لا يقدم هذا ولا يؤخر...!

قالت متشكية:

- طالما ساءلت نفسي عما جئيت؟ أي إساءة أسأت بها إليها!

- لا أحب أن أقدم على حديثنا حديثاً آخر لا يجي

بخطورة الموقف. إما أن يكون مجنوناً وإما أن تكون - هي - المجنونة، أو فلا هذا ولا ذاك؟ من له بمن يتشله من حيرته! استقام جسمها المائل، فوقفت، ثم تحولت عن النافذة متجهة إلى مجلسها. فبادر إلى رفع عينه صوب البسملة - قبل تحولا - متظاهراً بالاستغراق في تفحصها، ولم يلفت رأسه نحوها حتى صدرت عن الكنية طقطقة تنبئ بجلسوها، وعند ذاك التفت عيناها، فرأى في عينيها نظرة باسمة مأكرة أشعرته بأنه لم تحف عنها خافية، وكأنا تقول له بأفصح لسان «رأيتك!». لبث حيناً مضطرب النفس والخطار، ولم يكن على بينة من شيء، فخاف أن يكون ظلمها أو أن يكون عرض نفسه أمامها للالتزام، وبدا له أنه سيحاسب على كل حركة تبدر منه، وأن أي هفوة قد تنقلب فضيحة.

- ما زال الجؤ مائلاً إلى الحرارة والرطوبة...
جاء صوته هادئاً طبيعياً، ودلّ - إلى ذلك - على رغبته في إزاحة الصمت، فقال بارتياح:
- أجل إنه كذلك...

عادته الطمأنينة، غير أنه ما لبث أن تخالط لعينه المنظر الذي رآه عند النافذة، وجد نفسه على رغبته يجتره ويتيه في جاذبيته، ويتمنى لو كان عثر على مثله في إحدى مغامراته. لو كان لريم مثل هذا الجسم! ألا في مثله فليتنافس المتنافسون. ولملها ظننه - لصمته - لا يزال مشغولاً بما أثارت من حديث خلافه مع امرأة أبيه، فقالت فيما يشبه الدعابة:

- لا تشغل بالك، لا شيء في هذه الدنيا يستحق شغلة البال!

ثم لوت بيديها ورأسها - واهتز جسمها فيما بين ذلك اهتزازة خاصة - كأنها لتجده على الاستهانة بالهموم، فابتسم مطاوعاً وهو يغمغم: «نطقت بالحق». غير أنه كان يبذل قصاره ليلكل نفسه. أجل فقد حدث أمر جليل. لم يكن في ظاهره إلا تلك الحركة الشاملة التي أرادت بها الإفصاح عن الاستهانة وحنه عليها، إلا أنها كانت حركة بالغة الخطورة من حيث دلالتها على الخلاعة والدلال والاستهتار، وقد

منه الإنسان إلا وجع الدماغ، لكن ظنّها ما يكون، المهمّ آتي ماضٍ إلى هديّ، ولا يعنيّ إلا موافقتك أنت...

- إذا لم يتسع لك بيتك فبيتنا تحت أمرك...
- شكراً... لديّ بقي بقصر الشوق بعيداً عن الحى كلّ، أما بيت أبي فقد غادرته من أيام...
ضربت صدرها بيدها هاتفة:

- طردتك...
قال ضاحكاً:

- كلّاً لم يبلغ الأمر إلى هذا الحدّ، المسألة وما فيها أن اختياري ألقا لأسباب قديمة لها صلة بالمرحوم أخي (هنا نظر إليها نظرة ذات معنى)، ومع أنّي لم أجد في معارضتها وجه حقّ مقنع، فإنّي رأيت من اللياقة أن أهدّ لزوجتي بيتاً جديداً...

سألته، وهي ترفع حاجبيها وتبرز رأسها فيما يشبه الشك:

- لم لم تنظر في بيتك حتّى يمين ميماد الزواج؟
فضحك ضحكة تسليم، وقال:
- أثرت الابتعاد خوفاً من تفاقم الخلاف!
فقال كالتهمّة:
- ربّنا يصلح الحال...

وقامت مرة أخرى قبل أن تتمّ جلستها، فأنجحت إلى النافذة المطلّة على المطفة الجانيّة وفتحها لفتح لنور الأصيل بعد أن بات باب المشربية غير كافٍ لإضاءة الغرفة، وجد نفسه على رغبته وحذره يسترق النظر إلى كنزها النفس وهو يطالعها كالقبة. رآها وهي تعتمد على الكنية بركبتها ثمّ تميل على حافة النافذة لتشبك مصراعها فرأى منظرًا عجيباً ترك في نفسه أثراً دائماً. تسامد وهو يشعر بجفاف حلقه: لم لم تدعّ الخادم لفتح النافذة؟ كيف ارتفعت أن تعرض أمام ناظره - اللذين باغتها منذ قليل في حالة «تلبّس»- هذا المنظر الذي لا يخفى عنها مغزاه؟ لم وكيف وكيف ولم؟ كان فيما يتصل بالنساء مرهف الحسّ مسيّئ الظنّ، فلاح له شيء كالشكّ يتردّد على عتبة إدراكه لا يريد أن يدخل ولا يريد أن يخفي، ولكنّه بادر فاعمض عينيه متأمّراً

نَدَّت عنها في لحظة نسيان فخرجت بها عَمَّا التزمته طوال الجلسة من تَأَدَّب واحشام وكشفت عن خبيثة طبيعتها وهي لا تدرى، أو وهي تدرى؟ لا يستطيع أن يقطع بهذا أو بذلك ولكِنَّه لم يعد به شك في أَنه حيال امرأة جديرة حقاً بأن تكون أُمّ مريم ذات التاريخ القديم! أب أن يتراجع عن رأيه مهما يكن من أمر، فهذه الحركة الراقصة المنعاج لا يمكن أن تصدر عن سيِّئة مصونة! ولم يكن إزعاجه إلا لحظة عابرة، فسرعان ما حلَّ عله إحساس بسرور شهوانيٍّ مأكراً، وراح يتذكَّر أين وقع رأى هذه الحركة من قبل، على زُئوبة؟ جليلة ليلة اتحتمت على أبيه المنظرة بيت آل شوكت؟ أه... هُله هي! وخيَّل إليه أَنها رغم سَهْبا أشهى من مريم والذَّ، وغلبته فطرته فحدَّثته نفسه بأن يجسَّ النبض وألا يفق إن أمكن عند حدٍّ! وشعر برغبة في الضحك من غرابة أفكاره، وبأنه سيسلك طريقاً رعوياً لم يطرُق من قبل، ولكِنَّه لم يعتد يوماً أن يزجر النفس عن هوى... أين يتأدَّى به هذا المسلك؟ هل يمكن أن يعدل عن مريم إلى أمِّها! تكلاً! إِنَّه لا يضرُّ ذلك فقد، ولكن تصوُّروا كلياً قد عثر على عظمة وهو في طريقه إلى المطبخ فهل يتحقَّق؟... بيد أمَّا مجرد أفكار وتخيُّلات وفروض! فلا تنظروا... وتبادلا ابتسامة في الصمت الذي عاد فسحِب ذيله بينهما، أمَّا ابتسامتها فكانت فيها بدا تحيَّة مضيء لضيف، وأمَّا ابتسامته فقد انقذت، على فم حائر بهمسات الاعتناء المختنق.

- نُورَت بيتنا يا ياسين أفندي...

- يا سَيِّ بيتك لا ينقصه النور، أنت تنورين البلد وما فيها...

ضحكت ضحكة مالت برأسها إلى السوراء، وهي تتعمق:

- الله يكرمك يا ياسين أفندي...

كان ينبغي أن يعود إلى الحديث عن طلبه أو أن يستأذن في الانصراف على أن يسمي موعداً آخر لمواصلة الحديث، ولكِنَّه لم يعد إلى الحديث ولم يستأذن في الانصراف... بل راح يحدِّدها بنظرات روية تطول

حيناً وتقصّر حيناً دون انقطاع وفي صمت مريب. النظرات معانٍ لا تخفى على ذي عينين! لا بدَّ من إيصال أفكاره إليها بالنظرات وحدها حتَّى يرى ردَّ الفعل... اعرف لقدمك قبل الخطو موضعها وليسقط اللثبي، خلدي هذه النظرة التارئة وتبرَّبي إن كنت صادقة عن أيِّ مجنون يسمه أن يتجاهل سوء مقصدها أو يذَّعي براءتها؟ انظر ها هي ترفع عينها وتخفِّضها كالشاردة وعلى حال بيئة من الفهم المريب، تستطيع الآن أن تقول إِنَّ الفضان وصل إلى أسوان وإنَّه لا مناص من فتح الخزَّان، وأنت تحطِّب إليها ابتها؟! مجنون من لا يؤمن بالجنون بعد اليوم، أنت الآن أشهى شيء إلى نفسي، وليكن بعد ذلك الطوفان... منظرِكَ لا يوحى بالياس أبداً!

- هل تقيم في قصر الشوق بمفردك؟

- نعم...

- قلبي عندك...

جملَةٌ قد تصدر عن شيطان، وقد تصدر عن ملاك، ترى هل تنتصت مريم الآن وراء الباب؟

- أنت جرَّبت الوحدة بنفسك في بيتك هذا، إنَّها شيء لا يُحتمل...

- حقاً لا يُحتمل!

وفجأة امتدَّت يدها إلى حمارها فنزعته من حول رأسها وعنفها وهي تقول كالمعتدلة ولا تؤاخذني الدنيا

حازة. فبدأ رأسها في مندبل برتقاليٍّ وأسفر عنقها الوضيء. رنا إلى عنقها ملياً في قلق متزايد، ثم لحظ

الباب كلئلسائل عَمَّن عسى أن يكون رابضاً وراءه...

أغشوا الذي جاء يخطب البنت فوق في الأم. وقال رداً على اعتذارها:

- خلدي راحتك، أنت في بيتك، ولا غريب في البيت...

- ليت أنَّ مريم كانت في البيت لأزَّت إليها الخبرا

خفق قلبه خفقة حادة كإشارة الهجوم، وتساءل:

- وأين هي؟

- عند جماعة من معارفنا في الدرب الأحمر.

وداعاً يا عقلي! خاطبك بتك يريدك وأنت تريدته،

لمريم ذكر بيئتها إلا حين قالت له مرة:
- لم أستطع أن أخفي عن مريم نبأ زيارتك، لأن
خادمتنا تعرفك، ولكني قلت لها: إنك فاتحتي برشتيك
في خطبتها بعد تذليل العقوبات التي تترتب سبيلك في
عجيت الأسرة!

ووجد نفسه مذهولاً عن مناقشتها، فأبدى موافقة
واستحسانه. واستقبلا ممّا حياة حافلة بالمتع، ووجد
ياسين ذات «الكنز» مليّة بين يديه، فانطلق انطلاق
الجواد الجامع، ولم تكن الحجرة التي أُنشئت هل عجل
واقترصاد بالمكان الصالح لمطارحة الغرام، ولكنّه لم يألُ
عن حبيّة الجوّ الحلاب بتوفير الطعام والشراب حتّى
يطيب له الوصول فيواصل صولاته بليلتك النهم
الغريزيّ الذي لا يعرف حدّاً أو اعتدالاً. وما لبث أن
أدركه الملل قبل أن يتمّ الأسبوع الأوّل دورته. هي
نفس الحلقة التي تدور فيها شهوته حتّى غدا اللذات
نوعاً من اللذات بيد أنّه لم يؤخذ على غفوة، كلاً ولم
يضمّر نحو تلك العلاقة الغريبة من بادئ الأمر أيّ نية
حسنة ولا قدّر لها أيّ دوام، بل لعلّه لم يبلغ من وراء
المغازلة في حجرة الاستقبال إلا ضجّة هابرة، غير أنّه
وجد من المرأة تعلّقاً به وحرصاً عليه وأملًا في أن يكون
قنع بها راضياً وعدل عن مشروع الزواج، فلم يزل بدأ
من مجاراتها كيلا يفسد على نفسه لذتها مؤمناً بأن الزمن
وحده كفيل بإرجاع كلّ شيء إلى أصله! وما أسرع أن
رجع كلّ شيء إلى أصله بالنسبة إليه هو، بل ربّما
أسرع ممّا قدّر، وكان جاراها وهو يظنّ أنّ جنة عاصمها
خليقة بأن تحتفظ بروقتها أسابيع أو شهرًا، ألا يا ربّما
كذب الظنّ!... أمّا عن مظهرها الشهيّ فحسبه أن
يجعله يرتكب أكبر حماقة في حياته العامرة بالمخافات،
ولكنّ الكهولة تكمن وراء ذلك كما تكمن الحمى وراء
تورّد الخلفين الكاذب، وإنّ القناطير المنقطرة من اللحم
البشريّ المتحبّكة تحت طيات الثياب - على حدّ قوله -

ليرحم الله من يحسّون الظنّ بالنساء، لا يمكن أن
يكون في رأس هذه المرأة عقل، جارة العمر ولا تعرفها
إلا اليوم!... مجنونة... مراقة في الخمسين!...

- متى تعود مريم هانم؟
- قبيل المساء ..

قال بخيخ:
- أشعر بأنّ زيارتي قد طالّت...

- لم تطل زيارتك، أنت في بيتك...
فسألها بخيخ أيضًا:

- ترى هل أطعم في أن ترعى في الزيارة؟
فانتمست ابتسامة عريضة، كأنما تقول له «إنّي أدرك
ما وراء هذه الدعوة، ثمّ أطرقت في حياء وإن لم يغب
عنه ما في حركتها من تمثيل، ولكنّه لم يبالها، وراح
يصف لها موقع بيته من الحارة وموضع شقّته من
البيت، وهي مطرقة صامتة باسمه. ترى ألم تشعر بأنّها
تسيء إلى ابنتها أبلغ إساءة، وأنّها تتعدي عليها أنكر
اعتداء؟!

- متى تنكّرين بالزيارة؟
غمغمت وهي ترفع وجهها:
- لا أدري ماذا أقول!
فقال بتوكيد وثقة:
- أقول أنا بالبابية عنك، مساء الغد، ستجدينني في
انتظارك!

- ثمة أمور يجب أن نعمل حسابها!
- سنعمل حسابها معًا... في بيتي!
وقام من فوره وهمّ بأن يتقدّم نحوها، فأشارت إليه
وهي تلتفت نحو الباب محمّلة، ثمّ قالت وكأنما لا
تفقد إلا التفادي من صولته:
- غداً مساء...!

- ١٢ -

وعرف بيت قصر الشوق هيجة زائرة مواظبة.
كانت إذا نشر الظلام ستاره، تلتفّع بملاءتها، وتقضي
إلى الجليّة، فإلى بيت هنيئة... وهناك تجد ياسين في
انتظارها بالحجرة الوحيدة المفروشة في الشقة. لم يجر

فقلت بغير مبالاة أدهشت:

- لن يضيرها ألا تقتنع، فليس كل كلام بمنهج إلى خطبة ولا كل خطبة بمنهجية إلى زواج، إنها تعلم علم اليقين...

ثم بصوت منخفض:

- ولن يضيرها أن تفقدك، إنها شابة في عز جمالها، ولن تُعدم ضابطاً اليوم أو غداً...

كأنها تعتذر عن أنانيتها، أو تلمح إلى أنها هي - لا ابنتها - التي يضيرها فقلده، فلم يزد قوبها إلا ضيقاً ومللاً، إلى أنه أخذ يتوَجَّس خيفة من معاشره امرأة تكبره بعشرين عاماً، متأثراً بما يتردد بين العامة من أنَّ غادنة الكهلات تدبل الشبان، حتى شحنت ساعات اللقاء - من ناحيته - بالتوتر والحذر فمقتها مقتها... وإنه لعل ذلك إذ صادف مريم يوساً في السكة

الجديدة، فتقدم منها دون تردد، وسلم عليها، وسار إلى جانبها كأنه من ذري قريها، كانت قلقة عابسة، فأخبرها بأنه كان يفتح والده بالموافقة حتى ظفر بها، وأنه يمد مسكنه بقصر الشوق ليكون صانعاً لها، واعتذر عن طول غيبته بكثرة مشاغله، ثم قال لها: وأخبرني والدك بأنني سأجيء غداً لمقابلتها للاتفاق على عقد القران! ومضى سميحاً بانتهاز الفرصة التي سئحت على غير ميعاد، غير عابئ - في غمرة السعادة - بما سيكون موقف بهيجة منه. وفي مساء ذلك اليوم جاءت بهيجة في ميعادها إلى قصر الشوق، ولكنها جاءت هذه المرة كسيرة النفس، بادوته هانفة قبل أن ترفع برقعها:

- بعثني غيلة وغدراً...

ثم انحطكت على الفراش، وهي تنزع برقعها في نرفزة، وتقول:

- لم يطف بخاطري أنك تضمير لي هذا الغدر كله، ولكنك جبان غادر كسائر الرجال...

قال ياسين برقة المعتذر:

- ليس الأمر كما تتصورين، الحق أي قابلتها صدقة...

فصاحت بوجه مكفهو:

«مرض»، وأن يجمع العزم على قطع علاقته بها. وعادت مريم - بعد اخمود النزوة الجنوبية - إلى سابق مكانتها من نفسه، كلاً، لم تكن يارحتها، ولكن النزوة الطارئة غشيتها كما تغشى السحابة العجل وجه القمر، عجباً! لم تعد رغبته في مريم مجرد استجابة لولمه الخلل بجنسها وإن غلب ذلك عليها، ولكنها أرضت من ناحية أخرى حنينه إلى تكوين الأسرة التي كان يمتثلها مصيراً محتوماً ومرغوباً فيه أيضاً. واستوصى بالصبر - كارعاً - على أن تثوب بهيجة إلى رسلها، أن تقول له يوماً «حسناً لعباً وهلم إلى عروسك» ولكنه لم يجد لامله صدى في نفسها، كانت تواظب على الزيارة ليلة بعد أخرى، وما تزداد إلا إغراقاً وتهالكاً، وشعر بأنها تمثّل مع الزمن إيماناً ببعثها عليه كأنه بات محور حياتها وملك ميمها.

أجل! لم تكن تنظر إلى الأمر بعين الاستهانة أو اللهو، وإلى هذا تكشف نفسها له عن خفة وطيش ونزق أقمته جميعاً بأن سلوكها الشاذ معه في أول مقابلة لم يكن أمراً مستغرباً، فاستهان بها وازدراها وتضخمت عيوبها في عينه الزاريتين حتى ضاقت بها كل الضيق وصمم على التخلص منها في أول فرصة تسنح، وإن حرص على تجنب الفظاظة أن تبهر العرائل في طريق مريم. قال لها مرة:

- ألا تتساءل مريم عن سر اختفائي؟

فكانت وهي تطمشه بحركة من رأسها:

- إنها على بيّنة من معارضة أسرتك.

فقال بعد تردد:

- أصارك بأننا كنا نتحدث أحياناً فوق السطح، وأني رُحِّت لها مرّات بأنني مصمّم على الزواج منها مهما يكن من معارضة المعارضين.

فحدجته بنظرة نافلة، وهي تتساءل:

- ماذا تريد؟

قال مظاهراً بالرامة:

- أريد أن أقول إنها سمعت مني ذلك التوكيد، وإنها علمت بعد ذلك بزيارتي لك، فينبغي أن تقتنع بسبب وجيه لاختفائي...

أدرك خطورة التسليم بذلك، فغض بصره ولاذ بالصمت، فقالت وهي تزفر من الغيظ:

- أرايت أنك كذاب كما قلت لك؟

ثم صارخة:

- أرايت؟ أرايت يا غادر يا ابن الغادر؟!

قال بعد تردد:

- إنَّ سرّاً لا يمكن أن يخفى إلى الأبد، تصوّري

ماذا يقول الناس لو كشفوا سرّ علاقتنا، بل تصوّري

ماذا تقول مريم؟

فصرت بأسنانها من الحق، وقالت:

- يا لك من خنزير! لم تذكر هذه الاعتبارات يوم

وقفت أمامي سائل اللعب كالكلب؟ آه يا جنس

الرجال، جهنّم الحمار عقوبة نافذة لكم!

ابتسم خفياً، وكان أوشك أن يضحك لولا فرملة

الجلين، ثم قال بتردد ورفّة:

- لقد قضينا وقتاً طيباً سوف أذكره دائماً بكلّ خير،

حسبك غضباً واستياء، ما مريم إلّا ابنتك، وإنّك أوّل

من يروم سعادتها...

وهي تمزّ رأسها بتهنّم:

- أأنت الذي ستسعدنا؟ اسمعي يا حيطان،

المسكينة لا تدري أيّ إبليس ستزوّج، أنت دائر ابن

دائرة، وربّنا يكفيننا شرّ ما وقعت فيه...

قال بهدوئه الذي التزمه من أوّل الأمر:

- عند ربّنا الصلاح، إنّي أرغب رغبة صادقة في

بيت مستقرّ، وزوجة بنت حلال!!

قالت هازئة:

- أقطع ذراعي إن صدقت، سوف نرى، لا نظنّ

بأمومي الظنون، إنّ سعادة ابنتي مقعّمة عندي على كلّ

اعتبار، ولولا أنّك خدعتني وغدرت بي ما كان يميّني

أن أهديك إليها على الحذاء!

سأله ياسين نفسه: ترى هل مرّت الأزمة بسلام؟

وانتظر أن تلبس برقها وتودّعه، ولكنّها لم تحرك

ساقها، ومضى الوقت - وهي بمجلسها من الفراش،

وهو بمجلسه على الكرسيّ قبالتها - لا يدرى كيف، ولا

مضى تتقرّض هذه الجلسة الغريبة المتوتّرة، واسترق

- كذاب! كذاب! وحقّ من هو قادر على أن يريني

فيك ما أشتهي. هل نظّنتي أصدّك ما حبيت بعد ما

كان (ثمّ وهي تحاكي محاكاة كاريكاتوريّة) الحقّ أنّي

قابلتها صدقة! أيّ صدقة يا عمر؟ وبها صدقة

حقّاً، فلمّ كلمتها في الطريق أمام الرائع والغادي؟

أليس هذا فعل الغادر السيّء النية؟ (ثمّ وهي تعود إلى

المحاكاة الكاريكاتوريّة) الحقّ أنّي قابلتها صدقة...!

فقال في شيء من الارتباك:

- وجدتني معها فجأة - وجهاً لوجه - فامتدت يدي

بالسلام عليها! ما كان بوسعي تجاهلها بعد ما كان من

تحدّثنا فوق السطح.

فصاحت به بوجه مصفرّ من الغضب:

- فامتدت يدي بالسلام عليها! اليد لا تمتدّ إلّا إذا

مدّها صاحبها، قطعت اليد وصاحبها، قل إنك

ملدت يدك إليها لتتخلّص مني...

- لم يكن من السلام يد، أنا إنسان وفي وجهي دم!

- دم؟ أين هو ذاك؟ دم يلمّشك يا غادر يا ابن

الغادر...

ثمّ بعد أن ازدردت ريقها:

- ووعدك ليّاهاً بالمجيء للاتفاق على عقد التران،

هل أفلت منك أيضاً كما أفلتت يدك؟... تكلم يا

سي دم...

قال بهدوء عجيب:

- إنّ كلّ الخفي يعلم الآن بأنّي هجرت بيت أبي

لأنزوّج من ابنتك، فلم يكن من المستطاع تجاهل ذلك

وأنا أحدها...

فصاحت بحدّة:

- كان بوسعك أن تتحلل من الأعداء ما تشاء لو

كانت بك رغبة إلى ذلك، لست بمن يسيهم الكذب،

ولكنك أردت التخلّص منّي، هذه هي الحقيقة...

قال وهو يتحاشى نظرتها:

- ربّنا يعلم بحسن نيتي!

فحدّثه بنظرة طويلة، ثمّ سالته في غمّة:

- أتعني أنّك توّطت في وعدها لها على غير رغبة

منك؟

- ١٣ -

- يا سيّد أحمد لا تؤاخذني إذا صارحتك بأنك تبذّر نقودك هذه الأيام بلا حساب...

قال جميل الحمزاوي ذلك بلهجة جمعت بين أدب المستخدم وإدلال الصديق. وكان الرجل لا يزال قويّ البنية جيّد الصحة على بلوغه السابعة والخمسين من عمره، أمّا رأسه فقد رصّعه المشيب، ولم تؤثر السنون في نشاطه شيئاً فلم يزل يومه ينقضي على حركة دائية في خدمة الدكانّ وعملياته كعهده منذ التحق به على أيام منشئه الأوّل. وقد اكتسب مع طول العهد حقوقاً ثابتة واحتراماً جديراً بنشاطه وأمانته، فزل من نفس أحمد عبد الجواد منزلة الصديق، ولم يكن عطف الرجل عليه الذي تمكّل أخيراً في معاونته على إلحاق ابنه فؤاد بمدرسة الحفروق إلا مضاعفاً لإخلاصه ومروجاً عليه بمصارحته عندما تحبّ المصارحة لدفع ضرر أو تحقيق منفعة. على أنّ أحمد قال بلهجة مطمئنة، ولعله كان يشير إلى الرواج الذي لم تزل تشل السوق بسكرته:

- الحال معدن، والحمد لله...

فقال جميل الحمزاوي بأساً:

- ربّنا يزيد وبارك، غير أنّي لا أزال أكثّر القول عليك بأنك لو كنت اتّخذت من التجار خلعهم كما اتّخذت حرفتهم، لكنت الآن من كبار الأغنياء...

ابتسم أحمد ابتسامة الرضى والفناعة وهو يبرّز منكبيه استهانة. ربح كثيراً وأنفق كثيراً، فكيف يأسف على ما جرى من لذات الميش؟ لم يفقد يوماً حاسة التوازن بين دخله ومنصرفه، ولم يخلّ رصيده من السرّ، وقد تزوّجت عائشة وتزوّجت خديجة، وطرق كمال باب المرحلة النهائية من حياته الدراسية، فإذا عليه لو تمّتع بعد ذلك بطيبات الحياة؟ على أنّ الحمزاوي لم يعد الحقّ في ملاحظته على تبذيره. فالحقّ أنّه يبدو - هذه الأيام - أبعد ما يكون عن الاعتدال والقيّد، تشعبت وجوه نفقاته: فالهدايا تستنزف مالاً لا يستهان به، والعمولة تستحلب دمه، ومخيلته تستأدي القرايين، وفي الجملة فإنّ زوّة تدفعه إلى الإسراف دفعا، وهو من ناحيته يدفع بلا مقاومة تذكّر، لم يكن كذلك في

النظر إليها، فوجدها تنزل إلى الأرض كالسارحة على حال من التسليم نزعته به إلى العطف عليها، هل تعود مرة أخرى إلى للمهارة؟ غير مستبعد! ولكنّها - فيما يبدو - تفكر في موقفها الدقيق بينه وبين ابنتها وتنحى أمام مقتضياته، وما يدري إلا وهي تنتزع الملاءة عن نصفها الأعلى وتغمغم «الجرّ حارّه» ثمّ تزحزحت حتى نهاية الفراش فاستندت إلى شبابه، ومدّت ساقيها غير عابئة بالخذاء الذي انفرز كعبه في طيّات اللحاف، ثمّ واصلت شرودها، ترى: ألا يزال لديها ما تقول؟ سألتها بلهجة بالغ في رقتها:

- هل تسمحين لي بأن أזורكم غداً؟

تجاهلت سؤاله دقيقة أو نحوها، ثمّ حدثته بنظرة كاللجنة، وقالت:

- على الرحب والسعة يا بن القديّة!

ابتسم قائماً وهو يشعر بنظراتها تلهب وجهه، وعادت هي تقول بعد هنيهة:

- لا تظنّني بلهاء، كنت موكلّة النفس على توقّع هذه النهاية عاجلاً أو آجلاً، ولولا أنك تمجّلتها بطريقة... (ثمّ بتسليم وازدراء مضاً)... ما علينا...

لم يصدّقها، ولكنّه تظاهر بتصديقها، ومضى يقول: إنّهُ كان واقعاً من ذلك، وإنّه يرجو أن تصفو عنه وتشمله برضاها، ولكنّها لم تمنّ بالإصغاء إليه، وتزحزحت - مرة أخرى - إلى حافة الفراش، فطرحت ساقيها على الأرض، وقامت فأخذت تحبّك ملاءها، وهي تقول: «استودعك الله»... فقام صامتا وتقدّمها إلى الباب وفتحته، ثمّ تقدّمها مرة أخرى إلى الخارج، وما يدري إلا وصفعة تهوي على قفاه، على حين مرقت المرأة من جانبه إلى السّم وتركت وراءها كاللادل وكفه منطرحة على موضع الصفعة، التفت نحوه ويدها على الدرابزين، وقالت:

- تعيش وتأخذ غيرها، آديتي أكثر من هذا، ألا يحقّ لي أن أشفي غييلي ولو بصفعة يا ابن الكلب...؟!

عينها، وذكر بها جليلة وزبيدة، شدا ما يستبسل
أولئك النسوة في معركة الحياة والشباب، أما أمينة
فسرعان ما هاتوت فريسة للحزن والذبول...
وقربت بهجة الكرمي من المكتب، ثم قالت بصوت
خافت:

- لا تؤاخذي يا سي السيد على هذه الزيارة،
فللضرورة أحكام...

فقال أحمد - من فوره - وقد كان يبدو رزيناً جاداً:
- أهلاً وسهلاً، إن زيارتك تشريف لنا
وتكريم...

فقالت باسمه، وقد تمت نبرات صوتها على
الامتنان:

- تشكر، والحمد لله على آتي وجدتك بخير
وعافية!

فشكرها بدوره، ودعا لها بالصحة والعافية، فعادت
تشكر له شكره ودعاه وتدعو له من جديد، ثم
سكتت لحظات، وقالت باهتمام:

- جيتك لأمر هام، قيل لي: إنه بلغ اليك في
حينه، وإنه نال موافقتك، وأعي طلب ياسين أفندي
ليد ابنتي مريم، فهل صحيح ما قيل لي؟ هذا ما جئت
من أجل التحقق منه...

خفص أحمد عبد الجواد عينه أن تقرأ فيها الحنق
الذي اشتملت به جوانحه وهو يتابع كلامها، ولم يخلد
بتظاهرها بالاهتمام بموافقتها، فلتحاول خداع غيره بمن
يجهلون خباياه، أما هو فيعلم علم اليقين أن موافقتها
وعندها عندها سواء، بل ألم تدرك ما وراء تخلفه عن
زيارتها مع ابنه؟... ولكنها جاءت لتحملة على
الإقرار بالموافقة، وربما لغرض آخر لا يلبث أن
يستبينه، رفع إليها عينين هادئتين، وقال:

- حدثني ياسين عن رغبته فدعوت له بالتوفيق،
كانت مريم ولم تزل ابنتنا...

- الله يبارك في في عمرك يا سي السيد. هذه
المصاهرة شترتنا بين الناس...

- أشكر حسن ظلك...

فقالت بحماس:

الأمم الحالية، حقاً كان ينق عن سعة! ولكن امرأة
لم تستطع أن تخرجه عن حد الاعتدال أو تضطره إلى
ركوب الإسراف. كان بالأس مستشراً قوته، ولم
يكن يبالي كثيراً أن تجاب كل مطالبه الحبيبة، ولم يكن
يبالي إن تدللت عليه أن يتسل عليها ثياباً بفتوته
وفحولته. اليوم أذل حرصه على حبيته عنقه فهان عليه
الغالي، وكأنه لم يعد يروم من مطلب في هذه الحياة
وراء استبقاء موته واستمالة قلبها، وبها ما من موته
متعزة، وبها له من قلب عصي!! ولم يكن في واقع
حاله ليغيب عن فطنته، شعر به شعور الألم والحزن،
وذكر به أيام عزته في لفة وأسى وإن لم يقر بأنها ذهبت
وتولت، ولكنّه لم يحرك إصبعا للمقاومة الجدية ولم يكن
ذلك في طوره! وقال خاطباً جيل الحمزاوي فيها يشبه
السخرية:

- لعله من الظلم أن تعني تاجراً... (ثم في
تسليم)... الله هو الغني...

وجاء نفر من الناس فشغل بهم الحمزاوي، وما كاد
أحمد يخلو إلى نفسه حتى رأى قادماً يزحم الباب على
سمته ويتجه إليه متبخراً. كانت مفاجأة وذكر لته أنه
لم تقع عيناه على القادم منذ أربع سنوات أو يزيد، ثم
نهض مرحباً مدفوعاً بأبديه وحده، وهو يقول:

- أهلاً وسهلاً، بجاتنا المكرمة...

فمدت له أم مريم يدها ملفوفة في طرف ملامتها
قائلة:

- أهلاً بك يا سيد أحمد...

ودعاهما إلى الجلوس فجلست هل الكرمي الذي
جلست عليه يوماً يُعتبر الآن من التاريخ، ثم قد وهو
يتساءل... لم يكن رآها منذ جاءت لمقابلته في هذا
الدكان بعد مرور عام على وفاة فهمي محاولة استدراجه
إلى بيتها مرة أخرى. عجب يومئذ لجرأتها - ولم يكن
أفانق من الحزن - فقابلها بجفاء وشيعة ببرود. ترى ما
الذي جاء بها اليوم؟! وألقى عليها نظرة شاملة
فوجدتها كالمهد بها: جسامه وأناقة، يفوح من أعطافها
الطيب، وتألل عيناها فوق البرقع. غير أن تبرجها لم
يجد في إخفاء ديب الزمن، فلاح أمارات الكبر تحت

- ويسرنى أن أصارحك بأنى أجتلت إعلان موافقتي
حتى أتأكد من موافقتك أنت!
قارحة! لعلها أعلنت موافقتها حتى قبل أن ترى

ياسين!
- أكرّر الشكر، يا ستّ أمّ مريم...
- لذلك كان أوّل ما قلت لياسين أفندي، دعني
أتأكد أوّلًا من موافقة والدك، فإنّ كلّ شيء يكون إلّا
سخطة!

الله... الله! لم تكذب تسرق البغل حتى نشطت
لرمي الأحابيل حول صاحبه...
- ليس بمستغرب أن يصدر عنك ذلك القول

النبيل!
فواصلت حديثها في حماس مظفر، قائلة:
- إنك يا سيّ السيد رجُلنا، وخير من يفخر به حيّنا
كلّه!

مكر النساء، ودلال النساء، ما أضيفه بهما معًا،
هل خطر ما بهال أنّه يتمرّع في التراب مناشدة لعطف
عزّادة زهد فيها السكاري؟!
قال في تواضع:
- أستغفر الله...

فقالت بلهجة حزينة علا بها صوتها قليلًا، حتى
خاف أن يبلغ الموجدوين بالناحية الأخرى من الدكان،
فحزّك رأسه نحوهم عذرًا:

- لشدّ ما حزنت عندما أنبأني بأنّه هاجر بيت
والده...

فبأدبها قائلاً وقد تجهم وجهه:
- الحقّ أنّ سلوكه أغضبني. فعجبت كيف تلقّ له
أن يرتكب تلك الخيانة، كان ينبغي أن يستشيرني
أوّلًا، ولكنّه حمل متاعه إلى قصر الشوق، ثمّ جاء

يحتدر إليّ!! عبث صبيانيّ يا ستّ أمّ مريم. وقد
وبخته ولم أكرّث لحالنه المزوم مع أمينة. فلكّ تعلّل
سخيف حاول به أن يبرّر حماقة أسخف منه!!

- هذا ما قلته له وحياتك، ولكنّ الشيطان شاطر،
وقلت له أيضًا: إنّ ستّ أمينة معلومة، ربّنا يصبرها
على ما ابتلاها به... وعلى أيّ حال فمتلك يرجى منه

الصفح يا سيّ السيد...
فأشار بيده إشارة قصيرة، كأنها تقول «وعينا من
هذه» فقالت متوكّدة:

- لكنّي لا أفنّع إلّا بالصفح والرضى...
أف، ليه يستطيع أن يصارحها بمدى اشمئزازها
منهم جميعًا، هي وابنتها والبغل الكبير...
- ياسين ابني عسى كلّ حال، وقّعه الله إلى
الهداية...

أملت رأسها إلى الوراء قليلًا، وأبقت على وضعه
مليًا ريشًا تستمتع بلذّة النجاح والارتياح، ثمّ عادت
تقول في نبرات لطيفة:

- ربّنا يجبر خاطرك يا سيّد أحد، ساملت نفسي وأنا
قادمة إليك؛ ترى: أليكسفي ويركّبي خاتبة، أم يعامل
جارته القديمة بما تعود أن يعاملها به في الأيام الخالية؟
الحمد لله فانت دائمًا عند حسن الظنّ بك، مدّ الله في
عمرك وتمتّع بالصحة والعافية!!

تظنّ أنّها ضحكت على ذهنه، يحقّ لها هذا، ما أنت
إلّا أب خائب مات خير أبنائه، وشباب الابن الثاني،
وركب الثالث رأسه، كلّ هذا عسى رضى يا
قارحة...

- إليّ عاجز عن شكر...
وهي تحفض رأسها:
- مهيا قلت فيك فهو دون ما تستحقّ، طالما أقررت

لك به فيها مضي...
آه، ذلك الماضي! أوصدي ذلك الباب وحيّة البغل
الذي جثت تسجّلين حقّ ملكيته! وبسط راحته على
صدره آية على الشكر، فراحت تقول بلهجة حاملة:
- كيف لا، لم أعزّك إعزازًا لم يحظّ به إنسان قبلك
ولا بعدك؟

هذا هو المطلوب، كيف لم يقطن إليه من أوّل
لحظة؟! لم تجيئي من أجل ياسين ولا من أجل مريم،
ولكن من أجلي أنا، بل من أجل نفسك! أنت أنت لم
تغيّر الزمن منك شيئًا، إلّا شبابه، ولكن رويدك!!
هل تستطيعين أن ترتقي الأسس الذي ولّى؟ مرّ بقوها
دون تعليق مكتفيًا بإبتسامة شكر، فابتسمت إبتسامة

قال بألم، ولكن بلهجة تعبر بلطف عن رغبته في إنهاء الحديث:

- اطمئني يا ست أم مريم إلى أنني لا أقتل نفسي حزناً، فأنتي أنتى عن ألمهم بشئ ضروب التسلية... تساءلت وقد فتر حماسها قليلاً:

- أيكفي هذا للترفيه عن رجل مثلك؟
فقال بقناعة:

- لا تتطلع النفس إلى شيء وراءه...
بدأ أنه تنقص صفوها، وإن تظاهرت بالارتياح وهي تقول:

- أحمد الله على أنني وجدتك على ما أحب لك من راحة البال وصفائه...

لم يعد ثمة قول يقال، فبهتت وهي قد له يدها ملفوفة في طرف الملاعة، فتصافحا، ثم قالت وهي تهم بالذهاب:

- فكك بعافية...

وذهبت وهي تحول عنه عينين لم يجدر التصنع في إخفاء ما غشيتها من خيبة...
- ١٤ -

طوت سوارس شارع الحسينية، ثم أخذ جوادها المهزولان يجتازان فوق أسفلت العباسية والسائق يلهو بها بسوطه الطويل. كان كمال جالساً في مقلمة العربى على طرف المقعد الطويل فيما يلي السائق، فأمكنه أن يرى بلفتة من رأسه - في غير جهد - شارع العباسية ممثداً أمام عينيه، في أتسع له لاهد للحي القديم به وطول لا يلوح له منتهى، أرضه مستوية ملساء، وبيوته على الجانبين ضخمة ذوات أفنية رحبية بعضها يزدان بحدائق غناء.

كان يضرر للعباسية إعجاباً كبيراً ويكن لها حباً وإجلالاً يبلغان حدّ التقديس، أما الإعجاب فمرته إلى نظافتها وهندستها والهدوء المريح المخيم على ربوعها، وكل أولئك سهلت لا يعرفها حبه العتيق الزباط. وأما الحب والإجلال فمرجعها إلى أنها وطن قلبه ومنزل وحي حبه ومثوى قصر معبودته.

هنا أعرام أربعة وهو يتردد عليها بقلب مرهف

عريضة كشفت عن أسنانها من تقوب البرقع، وقالت فيها يشبه العتاب:

- يبدو أنك لا تذكر شيئاً...
أراد أن يحتدر عن فتوره دون أن يحس إحساسها فقال:

- لم يبق في الرأس عقل أتذكر به...
فهتفت بإشفاق:

- لشدة ما أغرقت في الحزن، الحياة لا تحتل هذا ولا تسيفه، وأنت - ولا تؤاخذني على ما سأقول - رجل ألف الحياة المليسة، فالخزن إذا أثر في الإنسان العادي قبراكاً يؤثر فيك أربعة وعشرين قبراكاً...

مزعطة يراد بها منفعة الواضع، ليت أن ياسين كان يعتصم بمثل شبعي، لماذا أتقرز منك؟ أنت دون شك أطوع من زئونة وأقل نفقة بما لا يقاس، ولكن يبدو أن قلبي أصبح مولماً بالمناعب. قال بدهاء ومسكنة معاً:

- من أين للقلب المحزون أن يضحك؟

اندلعت تقول بحماس وكأها شامت برق أمل:

- اضحك يضحك قلبك، لا تنتظر حتى يضحك هو، هيهات أن يضحك وحده بعد ما عانى من طول الوجوم، عد إلى حياتك القديمة تعد إليك بهجتها الغافية، ابحث عن مسرات زمانك الأول وأحبابه، من أدراك أن ليس ثمة قلوب تنفجر إليك وتقيم على عهدك رغم إغراضك الطويل عنها؟

طرب الفؤاد على رغبته وياه هذا ما ينبغي أن يقال حقاً لأحمد حيد الجواد، وما كان يسكب في أذنيه على قرع الكؤوس في ليالي الطرب، أين المؤادة لتسمع هذا المديح عليها تحفف من غمها؟ لكن يردده من أنت عنه راغب! قال بصوت لا أثر فيه للطرب:

- ولى ذلك الزمان...

مال نصفها الأعلى إلى الوراء استكازاً، وقالت:

- لم تزل شاباً وربّ الحسين... (ثم وهي تبتسم في حياء) جل له طلعة البدر! لم يزل زمانك ولن يوزي أبداً، لا تكبر نفسك قبل الأوان، أو دع الحكم على ذلك للآخرين فلعلهم يرونك بغير العين التي ترى بها نفسك...

وحواس مشحونة حتى حفظها عن ظهر قلب، فحيثما مَدَّ بصره ارتدَّ إليه بصورة مألوفة كأنها وجه صديق قديم، وجميع معالمها ومناظرها ودروبها وعدد من أهلها قد اُقرن في ذهنه بأفكار وعواطف وأخيلة أمست - في جللتها - جوهر حياته ومعقد أحلامه، فحيثما ولى وجهه فثمة منادٍ يدعو القلب للِسجود.

وأخرج من جيبه خطاباً تلقاه من البريد أوَّل أمس، وكان مرسله حسين شَدَّاد ينثب فيه بعودته - وصديقه

حسن سليم وإسماعيل لطيف - من المصيف، ويدعوه إلى مقابلتهم جميعاً في بيته الذي تسير به سوارس إليه. . . نظر إلى الخطاب بعين حائلة شاكرة واطمئنة ساجدة عابدة متعبدة، لا لأنَّ مرسله شقيق محبوبته فحسب، ولكن لظنه أنَّ الخطاب كان مودعاً في مكان ما بالبيت قبل أن يكتب حسين عليه رسالته، وإنه والخال كذلك غير مستبعد أن تكون عينا الجميلة قد وقعت عليه في ذهابها أو عيبتها أو أن تكون أناملها قد لمست لسبب أو لآخر أو حتى عفواً، بل حسب أن يظنَّ أنه كان مودعاً في نفس المكان الذي يجلَّ فيه جسمها وتعمره روحها كي يستحيل الخطاب إلى رمز قديميَّ تنهر إليه روحه ويشاقق إليه قلبه. ومضى يقرأ الخطاب للمرة العاشرة حتى وقف عند هذه الجملة «عدنا إلى القاهرة مساء أوَّل أكتوبر» أي أنها شرُفت العاصمة منذ أربعة أيَّام وهو لا يدري، كيف لم يدري؟ كيف لم يفتن إلى وجودها سواء بالغريزة أو بالشعور أو بالبصيرة؟ كيف جاز للوحشة التي غشيت طوال الصيف أن تمُدَّ ظلمها الثقيل على هذه الأيام الأربعة المباركة؟ هل رأت الكتابة المتواصلة على حساميته بطبقة من البهالة والجمود؟ على أيِّ حال فالساعة يرف قلبه وتحلَّى روحه في أجواء من السرور والسعادة! الساعة يشرف على الدنيا من ذروة رفيعة تبدو منها معالمها في حالة من الشفافية والنورانية كأنها أطراف في دنيا الملائكة! الساعة يضطرم وجدانه بنشاط الحيوية ونشوة الجبور وسكرة الطرب! الساعة - أو حتى في هذه الساعة - يطوف به طائف الألام الذي يلازم مسرة الحب عنده ملازمة الصدى للصوت. قديمًا كانت

تحملة سوارس في هذا الطريق نفسه وقلبه من الحب خالٍ لم يمَسْ، ماذا كان يجد من مشاعر وآمال وخوف ورجاء؟ لا يذكر حياة ما قبل الحب إلا ذكرى مجردة، ينكرها ما عرف للحب قدره، ويحس إليها كَلِمًا نبا به أُم، ولكنَّها لشدة إحساسه بخاطره كادت تلتحق بالأساطير، لذلك بات يؤرِّخ بالحب حياته، فيقول: كان ذلك قبل الحب «ق. ح»، وحدث ذلك بعد الحب «ب. ح».

وقفت العربية عند الوايلية، فأعاد الخطاب إلى جيبه، وغادرها متجهًا إلى شارع السرايات وعيناه تتطلَّعان إلى أوَّل قصر على اليمين فيما يلي صحراء العليسية. بدا القصر بدوريه من الخارج بناء ضخمًا عالياً، يتصل مقدمه بشارع السرايات وينتهي مؤخره بحديقة رحيبة ترامت رموس أشجارها العالية من وراء سور رماديٍّ متوسط الارتفاع يحيط بالقصر والحديقة ممَّا يرسم مستطيلًا هائلًا ممتدًا في الصحراء التي تكتنف من الجنوب والشرق. كان منظره مطبوعًا على صفحة نفسه، يستأسره جلاله وفتنته أي فخامته، ويرى في عظمته تحية مزجبة عن جدارة بصاحبه، وتلوح لعينه نوافذ منلقة وأخرى مرخاة الستائر، فيلمح في تحفظها وانطوائها ما يرمز إلى عزَّة محبوبه وعصمته وامتناعه وغموضه، وهي معانٍ تؤكدها الحديقة المترامية والصحراء الغارقة في الأفق، وتعرض هنا أو هناك نخلة سامقة أو ليلاب متسلق جدارًا أو جدائل ياسمين مسترسلة فوق سور فتناوش قلبه بذكريات انعقدت فوق هاماتها كالكثير تساؤه بحديث الوجد والألم والعبادة وقد غدت طللًا للحبيب ونفحة من روحه وانكاسًا للمحبة، ناشرة بجماليتها. وبما عرف من أنَّ باريس كانت لأهل القصر منفى - جواً من الجمال والحلم توأم مع حبه في سمِّه وقداسته وبذخه وتطلَّعه إلى المجهول.

رأى وهو يقترب من مدخل القصر البواب والطاهي وسائق السيَّارة جالسَيْن فوق أريكة على كتب من الباب كعادتهم في العاصري، فلما بلغ مجلسهم وقف البواب، وقال له «حسين بك ينتظرك في الكشك»

فدخل مستقبلاً مزيجاً من عرف الفلّ والقرنفل والورد التي نُصِّدت أصصها على جانبي السلم المضي إلى الفراندا الكبيرة التي تطالع القدام على بعد سير من الباب، ثمّ مال يمينه إلى مَرّ جانبيّ يفصل القصر عن السور ويسير بينهما حتّى مشارف الحديقة فيها يلي الفراندا الخلفيّة للقصر.

ليس من الهين على قلبه الحقائق أن يعيش في هذا المحراب الكبير، ولا أن يطأ أدباً وطئته قدمها من قبل، إنه يكاد من إجلال يتوقّف، أو يؤدّ يده إلى جدار البيت تبرّكاً، كما كان يمدّها إلى ضريح الحسين من قبل أن يعلم أنّه لم يكن إلّا رمزاً، ترى: في أيّ مكان من القصر يرح عبويه الساعة؟ وما عسى أن يفعل إذا طالعت بلفتها الفاتنة؟ ليه يمجّدها في الكشك كي تجزي عين عن طول التصبّر والتشوّق والتسهّد!!

لقى على الحديقة نظرة شاملة حتّى سورها الخلفي الذي ترامت وراءه الصحراء، وكانت الشمس المائلة فوق القصر صوب الشارع تجلو منها أعالي الأشجار والنخيل وسقائف الياسين المبكّنة للسرور من كافّة نواحيه، ودوائر الأزهار والورود ومرّماتها وأهلّتها تكتنفها ممرّات الفسيفساء، ثمّ سار في ممشي وسيط يفضي إلى كشك قائم وسط الحديقة، وقد تراءى فيه عن بعد حسين شذّاد، وضيّافه: حسن سليم وإسماعيل لطيف جلوساً على كراسي خيزران حول مائدة مستديرة خشبيّة انتشرت عليها أكواب حول دورق ماء. سمع هتاف ترحيب صلد من حسين فأذنه بانتباههم إلى مقدمه، وما لبوا أن قاموا للقاءه فعاثهم واحداً واحداً بعد فراق دام الصيف كلّ، حدّ الله على السلامة، أنت أوحشتنا جدّاً، شدّ ما اسمرّت وجوهكم فلا خلاف الآن بينكما وبين إسماعيل، بل أنت بيتنا كأوروبّي بين ملوّنين، عمّا قليل يعود كلّ شيء إلى أصله، كنّا نتساءل لم لا تزلّنا شمس القاهرة؟ منذا يجزّو على التعرّض لشمس القاهرة إلّا من رام ضربة شمس! ولكنّ ما سرّ هذه السمرة المكتسبة؟... أذكر أنّنا تلقّينا تفسيراً لهذا في بعض دروسنا، أجل لعلمه في الكيمياء، لقد درّسنا الشمس

خلال علوم شقّ كالجغرافيا الفلكيّة والكيمياء والطبيعة، ففي أيّ من أولئك نجد تفسيراً لسمة المصيف! هذا سؤال متأخّر عن أوانه لأنّنا انتهينا من الدراسة الثانويّة! إلينا إذن باعتبار القاهرة، بل عليك أنت أن تحدّثنا عن رأس البرّ، وهل حسن وإسماعيل أن يحدّثنا بعلمك عن الإسكندريّة، انتظروا فلعلّ وقت حديثه...

لم يكن الكشك إلّا مظلة خشبيّة مستديرة تقوم على عمود ضخّم، وأرضه رمليّة تحقّق بها أصص الورد، ويقتصر أثاثه على المائدة الخشبيّة والكراسي الخيزران، وقد جلسوا وراء المائدة على هيئة نصف دائرة مولّين وجوههم شطر الحديقة. بدوا سعداء باللقاء وكان الصيف يفرّق بينهم فيها عدا حسن سليم وإسماعيل لطيف اللذين يصيّدان عادة في الإسكندريّة، ومضوا يتصاحكون لأكل سبب، وأحياناً لجرد تبادل النظر كأنّما يعبّون ذكريات مزاج ماضية. وكان الأصدقاء الثلاثة يرتدون قمصاناً حريريّة وبطلونات رماديّة. كيال وحده بدا في بدلة رصافيّة خفيفة، إذ كان يعتبر رحلة العبّاسيّة ذات صفة رسميّة على خلاف حيّه الذي يجول فيه مكثفياً بلبس الجانكة فوق الجلباب. كلّ شيء من حوله كان يخاطب قلبه فيهرّج من الأعياق. هذا الكشك الذي تلقّى فيه رسالة الحبّ، وهذه الحديقة التي خصّت وحدها بسرّه، وفؤلاء الأصدقاء اللذين يجيهم للمصادقة ويحبهم مرّة أخرى لاقترانهم بسيرة حبّه، كلّ شيء يخاطب حبّه وقلبه، يتساءل متى تجيء؟ وهل يمكن أن تمضي الجلسة دون أن تقع عليها عيناه المشوّقان؟ وهل سبيل التعويض راح يطل النظر إلى حسين شذّاد ما وسعه ذلك، ولم يكن ينظر إليه بعين الصديق فحسب، لأنّ أخوته لمبودته أضفت عليه سحرًا من السحر وسراً من السرّ، فبات يكرّ له - إلى الحبّ - إكباراً وتقديراً وهشّاً. وكان حسين يشبه شقيقته إلى حدّ كبير بعيني السودانين وقامته الطويلة الرشيقة وشعره البسيط العميق السودا ولفنته وسكناته الجامعة بين السموّ واللطافة، فلم يكن ثمة فارق جوهرّيّ بينهما إلّا في أنفه الأفقي الممتلئ وبشرته التي

ولاح في وجهه الحسن اللطيف القسيات التحفّز للنضال، ففساهل متحدّياً:

- من أين لي بما يجعلني أطمئن إلى رايك؟
وكان يعضّز باجتهاده وذكائه ويريد الجميع أن يفروا له بهما، ولم يكن أحد يماري في ذلك، ولكن لم يكن أحد كذلك ينسى أنّه نجل سليم بك صبري المستشار بحكمة الاستئناف، وأنّ عمّته بهذه الأبوّة ميزة يفوق أثرها كلّ ما للدكاء والاجتهاد من أثر، بيد أنّ حسين شدّاد تحاشى ما يبيحه، فقال:

- في تفوّك الضمان الذي تسأل عنه...
ولم يتركه إسماعيل لطيف كي يستمتع بإطراره حسين له، فقال:

- وهناك والدك، وهو فيها اعتقد أهمّ من التفوّق بكثير... ١٠

ولكنّ حسن قابل الهجوم باستيائه غير متوقّعة، إمّا لأنّه ملّ متاجزة إسماعيل الذي لم يكذب يفرق عنه يوماً طيلة اصطيفائها بالإسكندرية، وإمّا لأنّه بات يرى في صاحبه مشاكساً وعترقاً لا يصلح أن يأخذ أقواله دائماً مأخذ الجدّ. على أنّ رابطة الأصدقاء لم تكن تخلو من نفاق جدليّ يبلغ أحياناً حدّ الشغب دون أن يوهن من قوّتها. تساهل حسن سليم وهو يرمق إسماعيل متهمكاً:

- وأنت كيف انتهت سعي الساعين لك؟
ضحك إسماعيل ضحكة عالية، كشف عن أسنانه الحارقة المصفّرة من أثر التنخين الذي كان من أوائل رواده من تلاميذ الثانويّ، وقال:

- نتيجة لا تسرّ، لم تقبلي الطّب ولا الهندسة لنقص المجموع، فلم يبقّ أمامي إلّا التجارة والزراعة، فاخترت أولاهما...

لاحظ كمال في تأثر كيف تجاهل صاحبه مدرسة للمعلّمين كأنّما ليست في الحسبان، غير أنّه وجد في إثاره لها، مع قدرته على دخول الحقوق التي لا نزاع في مكانتها، وجد في ذلك مثالية تعزّي بها على حزنه ووحشته. ضحك حسين شدّاد ضحكة اللطيفة التي تجلو جمال ثغره وعينه، وقال:

- آه لو اخترت الزراعة! تصوّروا إسماعيل في حقل

غشيتها سمرة المصطاف. ولما كان كمال وحسين وإسماعيل من الناجحين في امتحان البكالوريا ذلك العام - مع ملاحظة أنّ الأولين كانا في السابعة عشرة والأخير في الحادية والعشرين - فقد تحدّثوا عن الامتحان وما تفرّغ عنه من شئون المستقبل، وكان البادئ بالحديث إسماعيل لطيف، وكان إذا تحدّث تطاول بعنقه كأنّما ليداري قصر قامته وضالّة حجمه - على الأقلّ - بالقياس إلى أصدقائه الثلاثة غير أنّه كان مدمج الخلق مفتول العضلات، وفي نظرة عينيه الضيّقتين الحادة الساخرة وأنفه المدبّب الحادّ وحاجبيه الكثيفين وفمه العريض القويّ ما يكفي لتحلير من تحدّته نفسه بالتهنّم عليه. قال:

- نتيجتنا هذا العام مائة في المائة، لم يحصل شيء كهذا من قبل - على الأقلّ - فيها يطمّني أنا. كان ينبغي أن أكون في السنة النهائية من التعليم العالي كحسن الذي دخل معي مدرسة فؤاد الأوّل في يوم واحد ومنّ واحدة، وقد سألني أبي ساخراً لما رأى رقمي في الجريدة بين الناجحين وترى هل مدّ الله في عمري حتّى أراك من حلة الدبلوم؟

قال حسين شدّاد:

- لست متسائراً إلى الحسد الذي يبرّر يأس والدك...

قال إسماعيل ساخراً:

- صدقت فقضاء علمين في كلّ فصل ليس بالثيء الكثير...

ثمّ موجّهاً الخطاب إلى حسن سليم:

- أمّا أنت فعلّمك مشغول منذ الآن بما بعد الليسانس؟

كان حسن سليم بالسنة النهائية بمدرسة الحقوق، فأدرك أنّ إسماعيل لطيف يدعوّه إلى إعلان رأيه فيما ينويه عقب الفراغ من الدراسة، غير أنّ حسين شدّاد سبقه إلى الردّ على إسماعيل قائلاً:

- لا داعي لأن يشغل نفسه، سوف يحصل حقاً على وظيفة في النيابة أو في السلك السياسي! نخرج حسن سليم عن هدوئه التمس بالكبرياء،

- أجل بصفة مؤقتة أتيها المشاكس، فمن غير المستبعد إذا سارت الأمور على ما أشتهي أن أقطع دراسي المحلي كي أسافر ولو بحجة دراسة القانون في معاهدنا، وهناك أنبل من منابع الثقافات بغير قيد، وهنالك أفكر وأرى وأسمع...

إسماعيل لطيف مصرًا على محاكاة لهجته وحركاته، وكلمها يتم ما ظن أن الآخر سكت عنه:

- وأذوق والمس وأشم...

واصل حسين شذاد حديثه بعد فاصل ضحك قائلاً:

- ثق بأن مقصدي غير ما تعلم به!

صدقه كمال بكل قلبه بلا حاجة إلى دليل لا لأنه يكرمه عن شبهة الكلب فحسب، ولكن لأنه يؤمن بأن الحياة التي يتطلع إلى الاستمتاع بها في فرنسا خليفة وحدها باستهواء النفوس، هيهات أن يدرك إسماعيل هذه الحقيقة على بساطتها، لا هو ولا أضرابه ممن لا يؤمنون إلا بالأرقام والمظاهر. طامنا أثار حسين أحلامه، هذا حلم معها يمتاز بالرحابة والجبال، حلم عامر بشار الروح والفكر والسمع والبصر! كم طاف بي في نومي أو في يقظتي، ثم بعد شدة التطلع وطول السعي انتهى اللطاف بي وبه إلى مدرسة المعلمين!! وسأل حسين:

- أتعني حقًا ما قلت من أنك لا تريد أن تعمل!!

فقال حسين شذاد وفي عينيه السوداوين الجميلتين نظرة حادة:

- لن أكون مضاربًا في البورصة كأي؛ لأن لا أطيع حياة: العمل المتواصل جوهرها والمال غايتها، ولن أكون موظفًا، لأن الوظيفة عبودية في سبيل الرزق، ورزقي موفور. أريد أن أحيي في الدنيا سائحًا، أقرأ وأرى وأسمع وأفكر، وانتقل من جبل إلى سهل ومن سهل إلى جبل...

قال حسن سليم معترضًا، وكان يرمقه طيلة الحديث بنظرة استخفاف دارها بتحفظه الأستقراطي:

- ليست الوظيفة وسيلة إلى الرزق دائمًا، إنَّ مثلًا

يقضي عمره بين الفلاحين...

قال إسماعيل بقناعة:

- لا عليّ من هذا لو كان الحقل في عهد الدين... عند ذاك نظر كمال إلى حسين شذاد متسائلًا: - وانت؟

مدّ حسين بصره إلى بعيد متفكرًا قبل أن يجيب، فأتاح لكمال فرصة كي يتوسمه، شدّ ما تفتته فكرة أنه شقيقها، أي أن بينها ما قام يومًا بينه وبين خديجة وعائشة من مخالطة وألفة، تصوّر يعزّ عليه أن يستنقه، لكنّه يبالها ويحادثها وينفرد بها ويلمسها، يلمسها؟! ويؤاكلها! ترى كيف تتناول طعامها؟ هل تتمطّق؟ هل تأكل الملوخية والمندس مثلًا؟ ما أبعد هذا عن التصوّر أيضًا! المهمّ أنّه شقيقها، وأنّه - كمال - يلمس يده التي تلمس يدها، لو أتيج له أن يشم أنفاسه التي تامل ولا شك أنفاسها؟! أجاب حسين شذاد:

- مدرسة الحقوق بصفة مؤقتة...

ألا يحتمل أن يتّخذ من فؤاد جميل الحمزاوي صديقًا؟ لم لا؟ لا شك أن الحقوق مدرسة جليلة الشأن حقًا ما دام حسين سيلتحق بها، من المجازفة أن نحاول إقناع الناس بقيمة مثال منوي...

قال إسماعيل لطيف ساخرًا:

- لم أكن أعلم أنّ من الطلاب من يلتحق بمدرسة ما بصفة مؤقتة! حدّثنا عن هذا من فضلك...

قال حسين شذاد جادًا:

- جميع المدارس عتيدي سواء، ليس في هذه المدرسة أو تلك ما يجذبني إليها، حقًا أريد أن أتعلّم، ولكنّي لا أريد أن أعمل، ولن أجِد في مدرسة من مدارسنا ما أبتغيه من علم لا يراد به عمل، ولكنّي لم أظفر في بيتنا بشخص يوافقي عل رأيي، ولا أرى مناصًا من أن أجارهم إلى حد ما، وساءلهم أيّ مدرسة تختارون؟ فأجاب أبي: وهل يوجد غير الحقوق؟ فقلت إذن لتكن الحقوق!

إسماعيل لطيف محاكيًا لهجته وحركاته:

- بصفة مؤقتة...

ضحك عام، ثم استطرد حسين شذاد قائلاً:

- وريّا تزوّجت هناك كي أقضي العمر سائحًا في عالمي الواقع والخيال!

لم يبدُ على وجه حسن سليم أنّه يولي الحديث اهتمامًا جدّيًّا، أمّا إساعيل لطيف فرفع حاجبيه الكثيفين، تاركًا عينيه تقصّصان عيًّا يضطرب في صدره من مكر وسخرية. كمال وحده الذي بدا متأثرًا متحمّسًا، أنّه يستشرف نفس الأمال مع شيء من تعديل لا يمسّ الجوهر، لا تهمّه السباحة ولا الزواج في فرنسا، ولكن من له هذه المعارف التي لا تتّقدّ بنظام أو امتحان؟ إنّها أجديّ بلا جدال من السراب الذي سيُشحن به رأسه في المُعلّمين كي يفوز في النهاية بلدّرات من التبر، باريس ١٩؟ غدت حلمًا جميلًا منذ غلِمَ بأنّها احتضنت عهدًا غصًّا من عمر معبودته، لا تزال تدعو حسين بسحرها، وتفتن خياله هو بشقّ وعودها، كيف الشفاء من لوعة الأمال؟ قال بعد تردّد وإشفاق:

- يجتَلِ إليّ أنّ أقرب المدارس في مصر إلى تحقيق ولو جزء يسير من رغبتك هي المُعلّمين العليا

تحوّل إساعيل لطيف نحوه فيها يشبه القلق، وسأله:

- ماذا اخترت أنت؟ لا تقل مدرسة المُعلّمين! رياء، نسيت أنّ بك لوعة قريبة الشبه بلوثة حسين! ابتسم كمال ابتسامة عريضة كشفت عن مرونة منخريه العظيمين، وقال:

- التحقت بالمُعلّمين للسبب الذي ذكرت!... فنظر حسين شذاد إليه باهتمام، ثم قال بأسًا:

- لا شك أنّ ماركس الثقافيّة اعتُبت كثيرًا قبل أن يقع اختيارك...

فقال له إساعيل لطيف بلهجة تمتّ عن الانتهام:

- إنّك مستولٍ لدرجة كبيرة عن تركيد ميوله هذه، بل الحقّ أنّك تتكلّم كثيرًا وتقرأ قليلًا، أمّا المسكين فيأخذ الأمر مأخذ الجدّ ويقرأ لحّد العمى، انظر إلى تأثيرك السيِّئ فيه كيف دفع به إلى المُعلّمين نهاية الأمر!...

استطرد حسين حديثه متجاهلًا مقاطعة إساعيل:

- هل ثبت لديك أنّ في المُعلّمين ما نودّ؟!

في غنى عن السعي إلى الرزق، ولكن يحمّي بلا شك أن أشغل وظيفة سامية، فإنّه يجب على الإنسان أن يعمل، وإنّ العمل السامي هدف يُراد لذاته.

وقال إساعيل لطيف، مصدّقًا على قول حسن:

- هذا حقّ، الأعمال الفضائيّة والديبلوماسية وظائف يتمنّاها أغني الأغنياء (ثمّ ملتفتًا إلى حسين شذاد) لم لا تختار لنفسك وظيفة من هذه الوظائف وهي في حدود طاقتك...؟

وقال كمال غاطبًا حسين أيضًا:

- السلك السياسيّ حقيق بأن يبيّن لك العمل السامي والسياسيّ مآلًا

ولكنّ حسن سليم قال بلهجة ذات معنى:

- إنّ باب ضيقًا

فقال حسين شذاد:

- للسلك السياسيّ مزاج راتمة بلا ريب، إلّا أنّه في الغالب وظيفة شرفيّة فلا يتعارض كثيرًا مع رغبتني عن عبوديّة العمل، وهو سيلة وفراخ يتيحان لي ما أحبّ من الحياة الروحيّة والجاليّة، ولكنني لا أظنني بالغة، لا لأنّه باب ضيق كما قال حسن، ولكن لأنّي أشكّ في أنّي سأواصل التعليم النظاميّ حتّى نهايته...

إساعيل لطيف، وهو يضحك متخاليًا:

- يغلب على ظني أنّك تريد فرنسا لأمور لا شأن لها بالثقافة، وحسنًا تفعل...

ضحك حسين شذاد وهو يبرّز رأسه سلبيًّا، ثمّ قال:

- كلاً، أنت تفكر بأموالك، إنّ لرغبتني عن التعليم المدرسيّ أسبابًا أخرى، أوّلها: أنّي غير مكثرت لدراسة القانون، ثانيًا: أنّه لا توجد مدرسة يمكن أن تخفّي بما أريد الإلمام به من شقّ المعارف والفنون، كالمرسح والتصوير والموسيقى والفلسفة. ما من مدرسة إلّا وستشحن رأسك بالترايب كي تعثر فيه - إن عثرت - على ذرات من التبر، في باريس يتاح لك أن تشهد محاضرات في شقّ الفنون والمعارف دون تقيّد بنظام أو امتحان، إلى ما يتهيأ لك من الحياة السامية الجميلة...

ثمّ مستطردًا بصوت خافت، وكأنّه يخاطب نفسه:

تخرجوا في المدرسة...

انقطع حديث المدرسة عند ذلك، فساد الصمت، وحاول كمال أن يلقي بروحه في أحضان الحديقة، غير أن الحديث ترك في رأسه حرارة كان عليه أن ينتظر حتى تبرد، ومنحت منه نظرة، فرأى دورق الماء المثلج على المائدة، فخطرت له خاطرة قديمة طالما منته بالسعادة في مثل ظرفه هذا، أن يملا كوبًا ويشربه لعله يلمس بشفتيه موضعًا منه يكون قد اتفق أن لسته شفاها وهي تشرب مرة، فقام إلى المائدة، وملا من الدورق كوبًا وشربه، ثم عاد إلى مجلسه مركزًا انتباهه في نفسه وهو يرتقب، كأنما كان ينتظر - فيها لو حالقه الحظ فاصاب الهدف - أن يتغير شأنه، أن تنبثق من روحه قوة سحرية لا عهد له بها، أن يشتبي بنشوة إلهية يرقى بها في معارج السلاوات السعيدة، ولكنه، أجل! ولكنه قنع في النهاية بلذة المغامرة وبهجة الأمل، ثم راح يتساءل في قلق: متى تهيء؟... هل يمكن أن تلحق هذه الفترة الواحدة بأشهر الفراغ الثلاثة الماضية؟... وعادت حينها إلى الدورق، فطافت به ذكرى حديث قديم دار بينه وبين إسمايل لطيف عن هذا الدورق أو بالحري عن الماء المثلج الذي لا يقدم شيء خلافة في سراي شذاد! وكان إسمايل قد أشار - وهو يصعد الحديث عن ذلك - إلى النظام الاقتصادي الدقيق الذي تخضع له السراي من السطح إلى البدر، وتساءل: أليس ذلك نوعًا من البخل؟، غير أن كمال أبى أن توصم أسرة معبودته بما يشين، فدفق عنها التهمة مستشهدها ببذخها وتخدمها وحشمها والسيارين اللتين تملكهما: المنيرا، والفنيات التي يكاد يختص بها حسين، فكيف تنتهم بعد ذلك بالبخل؟ هنالك قال إسمايل - ولم يكن يموزه طول اللسان - إن البخل أنواع، وإنه لما كان شذاد بك مليونيرًا بكل معنى الكلمة، فإنه رأى لزائمًا عليه أن يحيط نفسه بمظاهر الجاه، ولكنه اكتفى بما يمد في «بيته» من الضروريات، أما القاعدة المتبعة التي لا يجيد عنها فرد من الأسرة، فهي ألا يتسامح في إنفاق مليم واحد في غير موضعه وبلا موجب... الختدم

قال كمال بحماس، وقد انشرح صدره بأول صوت يتساءل عن مدرسته بلا احتقار أو استنكار:

- حسبي أن تتاح لي دراسة الإنجليزية لأتخذ منها وسيلة ناجعة للأطلاع غير المحدود، وإلى هذا فهناك فرصة طيبة - فيما أظن - للدراسة التاريخ والتربية وعلم النفس...

فكر حسين شذاد قليلاً، ثم قال:

- عرفت كثيرًا من المعلمين الذين خالطتهم عن كتب في دروسي الخصوصية، لم يكونوا مثلاً طيبًا للرجل المثقف، ولكن لعل النظام الدراسي العتيق هو المسئول عن ذلك...

فقال كمال بحماس لم يفت:

- حسبي الوسيلة، الثقافة الحققة تنوِّف على الإنسان لا المدرسة!

وتساءل حسن سليم:

- أثنوي أن تصير معلمًا؟

ومع أن حسن طرح سؤاله بأدب، فإن كمال لم يطمئن إليه كل الاطمئنان، إذ أن التزامه الأدب كان طبعًا مأثورًا عنه فلا يزاله إلا عند الضرورة القصوى أو حيث يشعر غيره في المراك، ولذلك نتيجة طبيعية لرزائته من ناحية، ولتربيته الأرستقراطية النبيلة من ناحية أخرى، فلم يكن من اليسير على كمال أن يعرف إن كان سؤال صاحبه يخلو حقًا من الاستنكار أو الازدراء، لذلك حرك منكمبه استهانة، وقال:

- لا مفر من ذلك ما دمت مصممًا على تعلم ما

أروم من العلم!

وكان إسمايل لطيف يفتحص كمال من طرف خفي... رأسه وأفقه، وعينه الطويل وقامته النحيلة، وكأنما كان يتخيل أثر هذه الصورة في التلاميذ عامة وفي أشتياهم خاصة، فما ملك أن غمغم:

- تلك لعمرى كارثة!

أما حسين شذاد، فعاد يقول في لطف وثي عياله

إلى كمال:

- الوظيفة شيء ثانوي عند ذوي الأهداف البعيدة، على أنه لا ينبغي أن ننسى أن نخبة من نابي مصر قد

لم يبدُ على حسن سليم أنه أكثر حليث العظمة، ولم يكن كمال يتوقع غير ذلك، فطالما صاوله حتى وقف على رأيه العنيد المتعجرف - ولعلّه رأي أبيه المستشار أيضًا - في سعد زغلول الذي يكاد هو من حب وإخلاص أن يقدمه. لم يكن سعد زغلول إلا مهرجًا شعبيًا في نظر حسن سليم، وكان يركّذ هذا الوصف في تفرّز وازدراء كثيرين خارقًا المعتاد من أدبه ودعائته، ثم يمضي في السخرية من سياسته ومأثوراته البلاغية، منوّهاً في الوقت نفسه بعظمة عدلي وثروت وعمد محمود وغيرهم من الأحرار الدستوريين الذين لم يكونوا في نظر كمال إلا «خونة» أو إنجليز مطرّبين! أجاب حسن سليم بهدوء:

- كنا نتحدّث عن المفاوضات التي لم تستمرّ إلا ثلاثة أيّام، ثم قُطعت!

فقال كمال بحماس:

- يا له من موقف وطنيّ جدير بسعد حقًا، طالب بحقوقنا الوطنيّة مترفعًا عن المساومة، ثمّ قطع المفاوضات حين وجب قطعها، وقال قوله الخالدة: ولقد دعونا إلى هنا لكي نتنحر، ولكننا رفضنا الانتحار، وهذا كلّ ما جرى».

قال إسمايل لطيف، وكان يجيد في السياسة مائة للعبث:

- لو قيل أن يتنحر لترّج حياته بأجل خدمة يمكن أن يؤدّيها إلى بلاده!

انتظر حسن سليم حتى فرغ إسمايل وحسين من الضحك، ثمّ قال:

- ماذا أفدنا من هذه المأثورة؟ ليست الوطنيّة عند سعد إلا نوحًا من البلاغة التي تستهوي العامة، ولقد دعونا إلى هنا لكي نتنحر ألخ ألخ»، «يعجبني الصديق في القول ألخ ألخ»... كلام في كلام، هنالك رجال لا يتكلمون ولكنهم يعملون في صمت، وقد حقّقوا للوطن الفائدة الوحيدة التي جناها في تاريخه الحديث...

احتلم الغيظ في قلب كمال، ولولا ما يكنّه لحسن من احترام لشخصيّة وسنّه لانفجر، وعجب كيف

يتناولون أدنى الأجور ويأكلون أقلّ الطعام، وإن كسر أحدهم طبقًا خصم ثمنه من مرتبه. حسين شدّاد نفسه في الأسرة الوحيد لا يعطي مصروفًا لأسوة بأمثاله من الأبناء أن يتعدّد بمثرة التقود بلا ضرورة، أجل ربّما ابتاع له أبوه كلّ عيد عددًا من الأسهم أو السندات، ولكنّه لا يعطيه قرشًا في يده... أمّا زوّار النجّل العزيز، فلا يقدم لهم إلا الماء المثلّوج!... أليس هذا بخلاف، وإن يكن بخلاف أرسطراطيّا؟ ذكر كمال ذلك الحديث وهو ينظر إلى الدوق، وتساءل كما تساءل قديمًا في ارتياح: أمن الممكن أن ترتقي إلى أسرة معبوده هنة من الهنات؟ أبي قلبه أن يصدّق هذا إياه من ينزّه الكمال عن المألّف وإن هانت بيد أنّه حوّل إليه أن ثمة شعورًا بما يشبه الارتياح يعابه هامسًا في أذنه ولا تفرغ... أليس هذا النقص إن صحّ ممّا ينزها ولو درجة إليك، أو يرفعك ولو درجة إليها؟! ومع أنّه وقف من أقوال إسمايل موقف التحفّظ والارتياح، فإنّه وجد نفسه يميل النظر وهو لا يدري في «رديلة» البخل، فيقسمها إلى نوع ذني وآخر ليس إلا سياسة حكيمّة تمثّل الحياة الاقتصاديّة بأسس بارعة من النظام والدفّة، فمن الإسراف كلّ الإسراف تسميته بخلاف أو اعتبره رديلة، كيف لا، وهو لا يتعارض مع تشييد القصور واقتناء السيّارات واتخاذ كافّة مظاهر البلخ والبلهنيّة؟ كيف لا، وهو يصدر عن نفوس سامية مطهّرة من الحباثت والضعف؟! استيقظ من أفكاره على يد إسمايل لطيف وهي تقبض على ذراعه وتنهّزه، ثمّ سمعه وهو يقول غاطبًا

حسن سليم:

- حذار، ما هو مندوب الوفد يردّ عليك!

أدرك من فوره أنهم طرّقوا حديث السياسة وهو عنهم ساو، حديث السياسة... ما أشقّه وما ألذّه،

دعاه إسمايل «مندوب الوفد» فلملّه يتهكم، فليتهكم ما شاء له أن يتهكم، الوفد عقيدة تلقّاها عن فهمي

واقترنت في قلبه باستشهاده وتضحيته. نظر إلى حسن

سليم، وقال بأسًا:

- أيّها الصديق الذي لا تبهره إلا العظمة، ماذا

قلت عن سعد؟

والقلب، ينبغي أن تعلق عليها حتى تراءى لك الحياة ميداناً لانهائية للحكمة والجمال والتسامح، لا معتزك صراع وكيد...

ارتاح إلى صوت حسين فسكنت فورته، كان يطرب لموافقته إذا وافقه على رأيي، ويتسع صدره لمعارضته إذا عارضه فيه، ومع أنه كان يشعر بأن تبريره للحياد ما هو إلا اعتذار عن ضعف وطنيته، فإنه لم يحنث عليه لذلك ولم ير فيه نقيصة ولكن وبقيته عفو وحلمه وتسامحه، قال بجاريه:

- الحياة هي هذا كله، هي الصراع والكيد والحكمة والجمال، فإني ربي تتجاهله من وجوها تفقد به فرصة لاستكمال فهمك لها وقدرتك على التأثير فيها بما يوجهها نحو الأحسن، لا تحقر السياسة أبداً، فالسياسة هي نصف الحياة، أو هي الحياة كلها إذا عدت الحكمة والجمال ثماً فوق الحياة...

حسين شذاد كالمتلذذ:

- فيها يتعلق بالسياسة، أصارحك بأنني لا أثق في جميع أولئك الرجال...
سأله كمال كالتودد:

- ماذا نزع ثقتك من سعد؟

- بل دعي أسألك عما يجعلني أضع ثقتي فيه!...
سعد وعدلي وعدلي وسعد، ما أسخف هذا كله، هل أنه إذا كان سعد وعدلي سيئين عندي في الناحية السياسية فإني لا أراهما كذلك كرجلين، إذ لا يمكن أن أتجاهل ما يمتاز به عدلي من كريم الأصل وعظيم الجاه والثقافة، أما سعد - وإني أن تغضب - فما هو إلا أزهرتي قديماً!...

آه، شد ما يمز في نفسه أن يتد عن حسين أحياناً ما يشي بتعاليه عن الشعب فيشعر وهو من الحزن في نهاية حياته يتعالى عنه هو أو - وهو الأدهى والأسوأ - كأنه ينطق بلسان الأسرة جيماً، أجل، إنه إذا حادته أشعره كأنما يتكلم عن شعب غريب وعنهما معاً، ولكن أكان ذلك عن خطأ في التصوير أم عن جمالة؟ ومن عجب أن موقف حسين لهذا لم يقضيه من ناحية دلالة العامة بقدر ما أحرزه من ناحية دلالة الخاصة به، فلم يستشر

يتابع «شاب» مثله أباه - وهو من جيل قديم على أي حال - في انحرافه السياسي!

- أنت تقلل من شأن الكلام كأنه لا شيء، الحق أن أخطر ما تمخض عنه تاريخ البشرية من جلائل الأمور يمكن إرجاعه في النهاية إلى كلمات، الكلمة العظيمة تتضمن الأمل والقوة والحقيقة، نحن نسير في الحياة على ضوء كلمات، على أن سعد ليس صانع كلمات فحسب، إن سجله حافل بالأعمال والمواقف! تخلل حسين شذاد شعره الفاحم بأنامله الطويلة الرشيقة وهو يقول:

- أوافق على ما قلت عن قيمة الكلمة بصرف النظر عن سعد...!

لم يعبا حسن بمقاطعة حسين شذاد، فقال مخاطباً كمال:

- إن الأمم تحيا وتتقدم بالقول والحكمة السياسية والسواعد، لا بالسخط والتهرج الشعبي الرخيص...

نظر إسماعيل لطيف إلى حسين شذاد، وهو يتسادل ساخراً:

- ألا ترى أن من يتعب نفسه في الكلام عن إصلاح هذا البلد كالتأفك في قرية مغلوبة؟

التفت كمال إلى إسماعيل ليخاطب من وراء حسن بما تركد عن مخاطبته وجهاً لوجه، قال متفصلاً عن غيظه:

- أنت لا تهتم السياسة في شيء، لكن مزاحك يفسح أحياناً عن موقف «قلعة» من المحسوبين على المصريين كالك ناطق بلسانهم، تراهم يائسين من نبوض الوطن، يأس الاحتقار والتعالي لا يأس الطموح والتطرف، ولولا أن السياسة معلية لأطباعهم لاعتزلوها كما تفعل أنت!

ضحك حسين شذاد ضحكته اللطيفة، ومد يده إلى ذراع كمال، فشد عليها قائلاً:

- أنت مجادل عنيد، يعجبني حماسك وإن لم أشارك الإيمان به، على أنني كما تعلم عايد، لا من الرافدين ولا من الدستوريين، لا استهانة كإسماعيل لطيف، ولكن لاعتقادي بأن السياسة تفسد الفكر

.. لم أسمع عن هذا الذكر إلا منكم، والحقّ الذي لا ريب فيه، أنّه لم يعد بين أبي وبين الخديو إلا الصداقة والوفاء، وفضلاً عن ذلك فليس ثمة حزب .. كما تعلمون .. يدعو اليوم إلى عودة الخديو ..

قال حسن سليم:

.. أمسى الرجل وعهده في ذمّة التاريخ، الحاضر يمكن تلخيصه في كلمتين، وهما، أنّ سعد يأبى أن يقوم في مصر من يتكلّم باسمها غيره ولو كان خير الرجال وأحكمهم!

لم يكد يتلقّى الضربة كمال حتّى جاوبه قائلاً:

.. الحاضر في كلمة واحدة، أن ليس في مصر من يتكلّم باسمها إلا سعد، وأنّ النفاق الأثمة حوله جدير في النهاية بأن يبلغ بها ما نرجو من الآمال ..

وشبك ذراعيه على صدره، ومدّ ساقيه حتّى مسّ طرف حدائه رجل المائدة، وهمّ بالاسترسال في حديثه لولا أن جاءهم من وراء صوت غير بعيد يتسائل «ألا تريدان يا بدور أن تحيّي أصدقاءك القدماء؟» فاعتقد لسانه، ووثب قلبه وثبة عنيفة رجّت صدره رجاً أفرزه أوّل الأمر وآله، وفي أسرع من لمعان البرق استفرقه سكرة طاغية من السعادة كاد يغمض لها عينيه من شدّة التأثر، ثمّ وجد أنّ كلّ خاطرة تنبض بها نفسه قد انجذبت صوب السماء، قام مع الأصدقاء كما قاموا، واستدار معهم إلى الورا، فرأى حل بعد خطوة من الكشك عابدة واقفة ممسكة بيد بدور شقيقتها الصغرى ذات الأعمار الثلاثة، وهما يتعلّمان إليهم بأعين هادئة باسمه .. ها هي ذي بعد انتظار ثلاثة أشهر أو يزيد، ها هو «الأصل» الذي تملا «صورته» روحه وجوارحه ويقظته، ونومه، ها هي قائلة أمام عينيه شاهداً على أنّ الألم الذي لا حدّ له والسرور الذي لا وصف له واليقظة المحرقة للنفس والحلم المدوم في السماء، إنّ كلّ أولئك ربّما رجعت في آخر الأمر إلى آدمي لطيف ترك قدما انطباعاتها على أرض الحديقة! ورنّا إليها فاجذب مغناطيسها شعوره كلّ حتّى سلبه الإحساس بالزمان والمكان والأنسي والنفس، فماد وكأنه روح مجرّدة تسبح في فراغ نحو معبودها .. على

عداوته الطبقيّة ولا إحساسه الوطني .. اعزمت هذه المشاعر حيال بشاشة وضيفة تنمّ عن الصراحة وحسن الطويّة، وتراجعت أمام حبّ لا تتال منه الآراء والأحداث، حلّ الضدّ من هذا كان شعوره حيال موقف حسين شّداد منه، فكان .. رغم صداقتها .. يبيح غضبه لوطئه، ولم يشفع له عنده تأذبه في الخطاب وتحفّظه في إظهار مشاعره، بل لعلّه آنس فيها وحكمة تضاعف من مسؤوليته وتؤكّد تعصّبه الأرستقراطي الموهّج ضدّ الشعب، قال غاطباً حسين:

.. أفي حاجة أنا أن أدّرك بأنّ العظيمة شيء غير العسامة والطربوش أو الفقر والغنى؟ يبدو لي أنّ السياسة تضلّونا أحياناً إلى مناقشة البديهيّات ..

قال إسحاق لطيف:

.. إنّ ما يجيني في الولدتين .. أمثال كمال .. هو شدّة تعصّبهم!

ثم وهو يبيل بصره في الجالسين:

.. أمّا ما يسوءني منهم، فهو شدّة تعصّبهم أيضاً!

قال حسين شّداد ضاحكاً:

.. أنت سعيد الحظّ، لأنّك مهما أبدت في السياسة من رأي، فلن يمتزّس سبيلك معقّب ..

هنا سأل حسن سليم حسين شّداد قائلاً:

.. نزع من أنّك ترباً بنفسك عن السياسة، فهل تصرّ على ذلك حتّى إذا تعلّق الأمر بالخديو السابق؟

انجذبت العين نحو حسين في تحدّ باسم لما هو معروف عن تشييع والده شّداد بك للخديو السابق، الأمر الذي أبعد من أجله أعرافاً قضاهما في باريس، ولكنّ حسين قال في غير مبالاة:

.. لا تعني هذه الأمور في كثير أو قليل، كان والذي ولا يزال من رجال الخديو، ولكنّي لست مطالباً باعتناق آرائه ..

سأله إسحاق لطيف، وفي عينيه الضيقتين بريق ضاحك:

.. أكان والدك من الذين يهتفون «الله حيّ» ..

عَبَسَ جبي؟

فقال حسين شّداد ضاحكاً:

سعيدًا فخورًا، ليست التي بين يديه إلا فلة من جسد الأسرة، فهو يضم الكلّ إذ يضمّ الجزء إلى صدره، هل أمكن اتصال العبد بمجوده إلا عن وساطة كهله الوساطة؟... والسحر كلّ السحر في هذا الشبه الغريب بين الطفلة وشقيقتها، كأنّ اللطيفة إلى صدره عابدة نفسها في طور من أطوار حياتها الماضية، كانت يومًا مثل بدور سنا وحبيبا وجودًا فتأمل... فليهنأ هذا الحبّ الطاهر... ليسعد بملق جسم تمانسه هي... ويتقبل وجنة تقبلها هي... وليحلم حقّ يشرد منه العقل والقلب، إنه بدري لم يحبّ بدور ولم يحبّ حسين ولم يحبّ القصر وحليقته وخدمه، إنه يحبّها جميعًا إكرامًا لعابدة، أمّا الذي لا يدريه فهو حبّ عابدة نفسها!... رقدت عابدة عينها بين حسن سليم وإسماعيل لطيف، ثمّ سألتها:

- كيف وجدتما الإسكندرية؟

فقال حسن:

- رائعة!...

على حين تساءل إسماعيل:

- ماذا يجذبكم إلى رأس البر دومًا؟

فصالت بصوت رخيخ مشربة نبراته بعذوبة

موسيقية:

- صيفنا مرّات في الإسكندرية، ولكنّ الاصطيف

لا يطيب لنا إلا في رأس البر، هنالك الهدوء والبساطة

والقّة لا تجدّها إلا في بيتك!

فقال إسماعيل ضاحكًا:

- من سوء الحظّ أنّ الهدوء لا يطيب لنا...

ما أسعده بهذا المنظر... هذا الحديث... هذا

الصوت، تأمل ليست هذه هي السعادة!؟ فراشة

كنسمة الفجر تقطر ألوانًا بهيجة وترشف رحيق

الأزاهر... هذا أنا، لو يدوم هذا الموقف إلى

الأبد!...

قالت عابدة:

- كانت رحلة ممّعة، أمّ يجذبكم حسين عنها؟

قال حسين بلهجة انتقادية:

- بل كانوا يتناقشون في السياسة!

أنّ إدراكه لها هي نفسها لم يكن حبًّا بقدر ما كان روحيا، تمثّل في نشوة ساحرة وغبطة شادية وسبحة عالية، بينا وهنت منه الرؤية أو تلاشت، كأنّ قوّة انفعاله الروحي استأثرت بكلّ حيويته فغودرت حواسّه وقواه العاقلة والمدرّكة والملاحظة في سبات أشرف به على نوع من الفناء، لذلك كانت دائيًا أطوع لذاكرته منها إلى حواسّه، لا يكاد يرى منها وهو في محضرها شيئًا، ولكنّها تترامى فيها بعد في ذاكرته بقاتها الهيفاء ووجهها البديري الخمرّي وشعر عميق السواد مقصوص وألا جرسون، ذي قصّة مسترّسلة على الجبين كأسنان المشط وعينين ساجيتين تلوح فيها نظرة لها هدوء الفجر ولطفه وعظمته، كان يرى هذه الصورة بذاكرته لا بحواسّه كالنغمة الساحرة نفث في سماعها فلا تذكر منها شيئًا حتى تفاجئنا مفاجأة سعيدة في اللحظات الأولى من الاستيقاظ أو في ساعة انسجام، فتتردّد في أصاق الشعور في لحن متكامل. وتساءلت أحلامه وأمانته: ترى هل تغيّر من طريقته المألوفة فتدبّر بها للمصافحة فيلسها ولو مرة في الحياة؟ لكنّها حينهم باتسامه ونحيمة من رأسها، وهي تتساءل بذلك الصوت الذي يزري بأحبّ الألمان إليه:

- كيف حالكم جميعًا؟

فاستبقت الأصوات إليها بالتحية والشكر والتهنئة

على سلامة العودة، عند ذاك عشت أناملها الرشيدة

برأس بدور وهي تقول لها:

- صافحي أصدقائك!

فتنت بدور شفيتها داخل فيها وعصّت عليها وهي

تردّد عينها بينهم في حياء حتى استقرّتا على كمال،

فابتسمت وابتمت! قال حسين شدّاد، وكان على علم

بما بين الطفلة وكمال من مودة:

- إنّها تبسم لمن تحبّها!

- المحبين هذا حقًّا؟ (ثمّ وهي تدفعها نحوه) إذن

سلمي عليه...

مدّ لها كمال يديه متورّد الوجه من السرور، فأقبلت

نحوه، فرفعه بين يديه حتى أقربها في حضنه، وراح

يقبّل خديها في حنان وتأثر شديد، كان بهذا الحبّ

فالتفت ناحية كيال قائلة:

- هنا شخص لا يحمله إلا حديثها...

- أنذا...

من عينها نظرة تلمح إليك كالرحمة، صفاؤها يجلو
روحا ملائكيًا، بعثت كما يبعث عبّاد الشمس في
ضوئها المشرق، لو يدوم هذا الموقف إلى الأبد...
- لم أكن المسئول عن إثارة المناقشة اليوم...
فقلت باسمه:

- لكنك اغتنت الفرصة...

ابتسم في تسليم، وعند ذلك حولت عنها إلى بدور
هائفة:

- أتستوين أن تنامي بين ذراعيه... كضالك
سلامًا...

غلب الحياء بدور، فلدت رأسها في صدره،
فجعل يرتب عل ظهرها في حثان، غير أنّ عابدة
توعّدها قائلة:

- إذن سأترك وأرجع وحدي...

فرغمت بدور رأسها ومدّت لها يدها وهي تغتمغ
ولاء، فقبلها كيال وأنزّلها إلى الأرض، فجرت إلى
عابدة وقبضت على يدها، ألقت عابدة عليهم نظرة
شاملة ثم لوّحت بيدها تحية وذهبت من حيث أتت.

عادوا إلى مقاعلهم فواصلوا الحديث كيفما اتفق.
هكذا كانت تقع زيارات عابدة في كشك الحديقة،
مفاجأة سعيدة قصيرة ولكنه بدا قاتمًا، وشعر بأنّ
تصّره طيلة أشهر الصيف لم يذهب هنّأ، لم لا يتحرر
الناس ضنًا بالمعادة كما يتحررون فرارًا من الشقاء؟
ليس من الضروري أن تسبح كما يودّ حسين أن يسبح
كما تلقى متع الحواس والعقل والروح، فمن الجائز أن
تفوز بكلّ أولئك في لحظة خاطفة دون أن تبرح
مكانك! من أين لبشر أن يؤثّر القدرة على إحداث هذا
كله؟! أين قوة السياسة وحرارة الجدل واستخدام
الخصام وتصادم الطبقات...؟ ذابت كلها وتوارت
تحت نظرة من عينيك يا محبوبتي، ما الفاصل بين
الحلم والحقيقة وفي أيّما تراني أهم الساعة؟

- موسم الكرة سيبدأ عمّا قريب...

- كان الموسم الماضي موسم الأهلي دون شريك!

رفع رأسه مسحورًا فرأى عابدة في إحدى نوافذ
الدور الأول، مجلّسة بدور على حافة النافذة بين يدها
وهي تشير لها إليه، وقف تحت النافذة مباشرة مرفوع
الرأس، يتطلّع بوجهه باسم إلى الطفلة التي لوّحت له
بيدها الصغيرة، ويلمح بين لحظة وأخرى إلى الوجه
الذي استقرّت في هيئته ورموزه آماله في الحياة وما بعد
الحياة، وقلبه يتلاطم بين الضلوع سكّارًا، لوّحت له
بدور بيدها مرّة أخرى، فسالتها عابدة:

- تذهين إليه؟

حنّت الصغيرة رأسها بالإيجاب، فضحكت عابدة
من هذه الرغبة التي لن تتحقّق، عل حين مضى هو
يتوسّمها متشجّعًا بضحكاتها - غارقًا بروحه في حور
عينها وملقى حاجبها مسترجعًا صدى ضحكاتها
المرّة ونبرات صوتها الدافئ حتّى اضطربت أنفاسه من
وجد وهيام، ولما كان الموقف يملّي عليه أن يتكلّم،
فقد سأل معبودته وهو يشير إلى محبوبته الصغيرة:

الفكر بأمر ذي بال.

آس من صوتها ما يشبه العتاب، فقال:

- العقل يبد دائما ما يشغله!

فرفعت إليه عينها الصغيرتين العسلتين كالنساء،

ثم قالت في شيء من الحياة:

- مضى زمن كنا لا نجد وقتا نُسع لحديثنا!

حقاً؟ ذلك ماضٍ مضى، عهد الدروس الدينية

وقصص الأنبياء والشياطين، عهد تعلقه بها لحد

الجنون، انقضى ذلك العهد، فهم يتحدثان اليوم؟ إلا

تكن درشة لا معنى لها فلا رجة للكلام على

الإطلاق، ابتسم كأنها يمتلئ بإبسامته عن صمته

السابق واللاحق معاً، ثم قال:

- نحن نتكلم كثيراً وجدنا للكلام موضوعاً.

فقالته بركة:

- ليس للكلام حدود لمن أراد أن يتكلم، ولكنك

تبدو غائياً دائماً أو كالغائب...

ثم بعد تفكير:

- أنت تقرأ كثيراً، في عطلتك تقرأ كما تقرأ في وقت

دراستك، لم تستوف يوماً حطك من الراحة، أخاف

أن تكون أتعبت نفسك أكثر مما ينبغي...

فقال كمال بلهجة دلت على أنه لم يرغب بهذا

التحقيق:

- اليوم طويل جداً، وقراءة ساعات لا يمكن أن

تُعب إنساناً، ليست إلا نوعاً من التسلية وإن تكن

تسلية مفيدة...

فقالته بعد تردد:

- أخاف أن تكون القراءة سبب ما يبدو عليك كثيراً

من الصمت والشروع...

كلاً ليست القراءة، القراءة ملاذ من التعب لو

تعلّمين، شيء آخر يشغل عقله طيلة الوقت ولا يسلم

منه وقت القراءة نفسه، شيء لا علاج له عندها ولا

عند غيرها من البشر، إنه مرض قلب يتبدد حائراً ولا

يدري ماذا وراء عنائه اليوم! قال بمكر:

- القراءة كالقهوة لا ضرر منها! ألا تخشى أن أصبر

«عاليًا» كجني؟

- هل دُكرتني في المصيف؟

قالت عابدة وهي تتراجع برأسها قليلاً:

- سلها هي، لا شأن لي بما بينك وبينها!

ثم مستدركة قبل أن ينس هو بكلمة:

- هل دُكرتني أنت؟

آه، موقفك فوق السطح بين مريم وفهمي، قال

بحرارة:

- لم تغب عن ذاكرتي يوماً واحداً...

نادى عند ذاك صوت من داخل القصر فاعتذلت

عابدة في وقتها ورفعت بلور بين يديها، ثم قالت

معلقة على كلامه وهي تهم بالذهاب:

- يا له من حب عجب!

وغابت عن النافذة...

- ١٥ -

لم يبق من رواد مجلس القهوة إلا أمانة وكمال،

وحق كمال كان يهرج عند الأصيل إلى الخارج فتلث

الأم بمفردها أو تدعو أم حنفي إلى مؤانستها حتى يمين

وقت النوم. وكان ياسين قد خلف وراءه فراغاً، ومع

أن أمانة حرصت دائماً على ألا تعود إلى ذكراه فإن كمال

شعر لغيا به يوحشة غاضت أبهج ما كان يجد في مجلس

القهوة من متعة. وكانت القهوة - قديماً - شراب

المجلس الذي يجتمع حوله الأبناء للسمير. فانقلب

اليوم - عند الأم - كل شيء فيه، فامرقت في حسوها

إسرافاً وهي لا تدري حتى صار صنع القهوة وحسوها

سلوة وحديثاً، فربما احتست خمسة أو ستة - وأحياناً

عشرة - فناجيل تباعاً، وكان كمال يتابع إفراطها بقلق

ويجذرها من عواقبه، فترد عليه بإبتسامة كأنها تقول له

وماذا أفعل إذا لم أشرب؟ ثم تقول له بلهجة الواثق

المطمئن: «لا ضرر من القهوة...» جلسا متقابلين،

هي على الكتبة الفاصلة بين حجرتي النوم والمائدة،

وهو على الكتبة المتوسطة لحجرتي نومه ومكتبه، وكانت

عاكفة على المجرمة التي دفنت الكتبة حتى نصفها في

جرائنها، وكان صامتاً شارد النظرة، وفجأة سألته:

- فم تفكر يا ترى؟ دائماً تُرى وكألك مشغول

فشاعت البهجة والفخار في الوجه المستطيل
الشاحب، وقالت:

- بل، إني أودُّ ذلك بكلِّ قلبي، ولكنني أحبُّ أن
أراك دائماً منشرح الصدر...
قال بأساً:

- إني منشرح الصدر كما تحبين، فلا تشغلي البال
بمحض أوهام.

كان يلاحظ أنَّ رعايتها له ازدادت في السنوات
الأخيرة أكثر مما ينبغي، وأكثر عما يودُّ، وأنَّ تعلُّقها به
وحدها عليه وإنشاقها عما يضرُّه - أو ممَّا تتوهم أنَّه
يضرُّه - باتت شغلها الشاغل إلى حدِّ ضايقه واستنزفه
للذود عن حُرِّيته وكرامته، بيد أنَّه لم تغب عنه أسباب
هذا التطور الذي بدأ عقب مصرع فهمي وابتلائها
بفقدته، فلم يجاوز أبداً في ذوده عن حُرِّيته حدود
اللطيف والأدب:

- يسرُّني أن أسمع بهذا منك وإن يكون حقًّا
وصدقًا، لست أبغى إلَّا سعادتك، ولقد دعوت لك
اليوم في سيِّدنا الحسين دعاء أرجو أن يقرَّ الله
باستجابته!
- آمين...
ونظر إليها وهي ترفع الكتفة لتملأ فنجانها للمرة
الرابعة، فانفرج ركنها فيه عن ابتسامة خفيفة... ذكر

كيف كانت زيارة الحسين لديها أمنية في حكم
المستحيل، ها هي اليوم تزوره كلياً زارت الفراغة أو
السُكْرِيَّة، ولكن ما أُلْدَح الثمن الذي دفعته نظير هذه
الحُرِّيَّة الضئيلة! هو نفسه له أمانيه التي في حكم
المستحيل فإني ثمن تقتضيه كي تتحقَّق؟ ألا إنَّ أيَّ
ثمن - وإنَّ جُلَّ - يوفِّي في سبيل ذلك، عاد يقول
ضاحكاً ضحكة مقتضبة:

- إنَّ لزيارة الحسين ذكريات لا تُنسى...
تحمَّست ترفوتها ببيتها، وهي تبسم قائلة:
- وأثر باقي لا يزول...
فقال كيال في شيء من الحلاس:

- لست اليوم حبيسة البيت كما كنت قديماً، أصبح
من حقِّك أن تزوري خديجة وعائشة أو سيِّدنا الحسين

كلياً أردت، تصوِّري أيَّ حرمان كنت غمتين به نفسك
لو لم يفكَّ أبي قيودك!

رفعت إليه عينها فيها يشبه الارتباك أو الحجل،
كأنما كبر عليها أن تدكَّر بامتياز نالته نتيجة لنكحها، ثمَّ
أطرقت في وجوم ولسان حالها يقول وإيتني بقيت كما
كنت وبقي في فقيدي، غير أنَّها تحاشت الإفصاح عمَّا
جاش به صدرها إشفاقاً من تكدير صفوه، وقنعت بأن
تقول وكأنَّها تعتدُّر عمَّا حظيت به من حُرِّيَّة:

- ليس خروجي بين حين وآخر فرجة أستمتع بها،
إني أزور الحسين لأدعو لك، وأزور أختيك لأطمئنَّ
عليها ولأحلَّ مشكلات لا أدري من كان غيري
بجلِّها!

فابتدته المشكلات التي تعني، وليأ كان يعلم أنَّها
زارت السُكْرِيَّة اليوم، فقد تساءل:

- هل من جديد في السُكْرِيَّة؟

قالت وهي تتنهد:

- العادة...!

هزَّ رأسه أسفًا، وهو يتبسَّم قائلاً:

- خلوة للنفار، هذه هي خديجة...

قالت أمينة بحزن:

- قالت لي حماتها: إنَّ أيَّ عادية معها خاطرة غير
عمودة المواقب...

- الظاهر أنَّ حماتها - نفسها - قد خرفت!

- لها من الكبر أعدار، ولكن ما عذر أختك؟

- ترى آثرتي على الحقِّ أم آثرت الحقَّ عليها؟

وضحك ضحكة ذات مغزى، فتتهدت أمينة مرة
أخرى، وقالت:

- أختك حامية الطبع، وسرهان ما تضيق حقِّي
بالنصيحة الخالصة، ويا ويلى إذا جاملت حماتها مراعاة
لسبِّها ومكانتها، هنالك تسالني وعيناها تحمَّزان وأنت
معي أم علي؟، لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله، معي أم
علي؟!... هل نحن في حرب يا ابني؟ ومن الغريب
أن يكون الحقَّ أحياناً على حماتها ولكنَّها تتدأى في
الخصام حقِّي يتقلب الحقُّ عليها هي...!

هيهات أن يسخطه عليها شيء، كانت ولا تزال أمه

الثانية ومورد حنان لا ينضب، أين منها عائشة الجمعية السادرة التي تشبعت بالشوكية حتى ذوابتها!

- وعمّ أسفر التحقيق؟

- بدأ الشجار بالزوج هذه المرة وعلى غير المألوف، دخلت الشقة وهما يتجادلان في عنف حتى عجزت لما أهاج الرجل الطيب، فتدخلت بينها بالسلام، ثم عرفت سبب هذا كله، كانت معتزلة أن تنفض الشقة، ولكنه ظل نائلاً حتى التاسعة فأصررت على إبقائه حتى استيقظ غاضباً، وركبه عناد مفاجئ فلم أن يغادر الفراش، وسمعت والدته الزعق، فجاءت على عجل، وما لبثت النار أن اشتعلت، ولم يكد هذا الشجار أن ينتهي حتى شب آخر بسبب أحمد الذي عاد من الطريق مطيئ الجلباب، فضرته وأرادت أن يستحم من جديد، فاستغاث الولد بأبيه، وتصدى الرجل لحايته، فكان الشجار الثاني في نصف نهاري وهو يضحك:

- وماذا فعلت؟

- بذلت ما في وسعي ولكني لم أسلم، فلامني طويلاً على وقوفي موقف الوسيط، وقالت لي: كان ينبغي أن تنضمي إليّ كما انضمت أمه إليه!

ثم وهي تتهدد لثالث مرة:

- قلت لخديجة: ألا تذكرين كيف كنت ترينني أمام والدك، فقالت بحدة: وهل تظنين أنه يوجد رجل مثل أبي في هذه الدنيا؟!.

وردت غيظته على غير ميعاد صورة عبد الحميد بك شداد وجرمه سيئة هائم، وهما يسيران جنباً إلى جنب، من الفراندا إلى السيارة المثيرة المنتظرة أمام باب القصر، لا سيد ولا مسود ولكن صديقين متساويين، يتحادثان في غير كلفة وهي تتأبط ذراعه، حتى إذا بلغا السيارة تنحى البك جانباً حتى تركب هي أولاً. هل يتأتى لك أن ترى والدك في مثل هذه الصورة؟! يا لها من خاطرة مضحكة! يتحركان في جلال خليق بالمعبودة التي أنجباها، ولو أن الهاتم لم تكن دون أمه كهولة إلا أنها كانت ترزدي معطفاً نفيساً آية في اللوق والأناقة والغندرة، وتنتقل سافرة الوجه، وجه مليح وإن يكن

دون الوجه الملائكي بما لا يقاس، وتنتشر فيها حولها شذى عطرًا وروعة امرأة، ود لو يعلم كيف يتحادثان وكيف يأكلان، وكيف يتخاصمان إن كانا يتخاصمان. شغفا بمعركة حياة تمت إلى حياة معبودته بأوثق الوثائق والصلوات، أتذكر كيف كنت تطلعهما بين المتعبد الرائي إلى كبار الكهنة والسيدة؟ قال بهدوء:

- لو طبعت خديجة ببعض طباعك لضمنت حياة سعيدة...

ابتسمت أساورها في سرور، غير أن سرورها ارتطم بالحقيقة المرة، وهي أن طباعها لم تستطع حل دمايتها أن تضمن لها السعادة دوماً، ثم قالت والابتسامة لا تفارق شففتها لتشاري بها أفكارها السوداء التي تشفق من إطلاعها عليها:

- هو وحده الهادي، ربنا يزيد طبعك حلوة حتى تكون من الذين يحبون الناس ويحبهم الناس...

فيادها متسائلاً:

- كيف تجديني؟

فألت بإيمان:

- أنت كذلك، وأكثر...

لكن كيف يتأتى لك أن تحبك الملائكة؟! ادع صورتها السعيدة وتأمل قليلاً، هل يمكن أن تتخيلها مسهدة طريحة حب وجوى؟ وما أبعد ذلك عن خوارق الظنون، إنها فوق الحب ما دام الحب نقصاً لا يدرك الكمال إلا بالحبيب، اصبر ولا تلي قلبك من الألم، حببك أن تحب، حببك منظرها الذي يشعشع بالنور روحك، وأنغام نسايمها التي تسكر بالتهطير جوارحك، من المعبودة يبتقي نور تبدئي فيه الكائنات خلقاً جديداً، الياسمين واللباب من بعد صمت ينتاجيان، والمآذن والقباب تطير فوق بساط الشفق صوب السه، معالم الحي العتيق تنطق عن حكمة الأجيال، أوركسترا الوجود تستأنف زفورات الصراير، الحنان يفيض من الجحور، الأناقة تزحف الأزقة والدروب، عصفائر البطة تزرق فوق القبور، الجادات تبه في صمت التائنات، قوس قزح يتجلى في الحصرة التي تطرح عليها قدميك، هذه دنيا معبودتي!

- كنت مائة بالأزهر في الطريق إلى الحسين،
فقابلتني مظاهرة كبيرة تنهف يتناقلت ذكرتني بالماضي،
هل جدّ جديد يا بني؟

قال:

- الإنجليز لا يريدون أن يذهبوا بسلام!
قالت بحدّة، وفي عينيها نظرة غضب تبرق:
- الإنجليز... الإنجليز... متى تنزل عليهم
نقمة الله العادل؟

انطلعت دهرًا لسعد نفسه عن مثل هذه الكراهية،
لولا أن انغمسها في النهاية بأنّه لا يجوز أن يخضوا
شخصًا أحبه فهمي! وعادت تتسادل في قلق ظاهر:
- ماذا تعني يا كمال؟ هل تعود إلى أيام البلاء؟

فقال بامتعاض:

- لا يعلم الغيب إلّا الله!
فاعترها ضيق بدا في تقلّصات وجهها الشاحب،
وقالت:

- اللهمّ إنا العذاب فلنتركهم لغضب القهار، هذه
هي الحظّة المثل، أمّا أن نلقي بأنفسنا إلى التهلكة فهو
الجنون والعياذ بالله!

- ههنا من روعك، لا عهد من الموت، الناس
يموتون بسبب أو بآخر، وبلا سبب على الإطلاق!
قالت في استياء:

- لا أنكر أنّ قولك حقّ، ولكنّ هجنتك لا تمجيني!
- كيف تريدني أن أتكلّم؟
قالت بصوت مؤثّر:

- أريد أن تعلن موافقتك على أنّه من الكفر أن
يعرض الإنسان نفسه للتهلكة...
قال في تسليم، وهو يداري ابتسامة:
- أوافق...

فرمقته بارتياح، وقالت بتوشل:
- وأن تقول ذلك بالقلب لا باللسان...
- بالقلب أتكلّم...

ما أعظم الفارق بين الواقع والمثالي، أنت تتطلّع
بحسب إلى المثل الأعلى في الدين والسياسة والفكر
والحبّ، الأمّهات لا يفكرن إلّا في السلامة، أيّ أمّ

ترضى أن تدفن ابنًا في كلّ خمسة أعوام، لا بدّ للحياة
للمثالية من قربان وشهداء... الجسم والعقل
والروح قرايبها، فهمي ضحى بحياة وأعدة في سبيل
ميتة رائعة، فهل تستطيع أن تلقى الموت كما لقته؟
قلبك لا يتردّد عن الاختيار ولو حطّم قلب هذه الأمّ
التيمة، ميتة تستنزف جرحًا وتضمد جروحًا، يا له
من حبّ... أجل، ولكنه ليس الذي يبني ويبن بدور
وأنت تعلمين، الحبّ العجيب حقًا هو حبّي لك، هو
شهادة للدنيا ضدّ المتشاكسين من خصومها، علمني أنّ
الموت ليس أظلم ما نخاف وأنّ الحياة ليست أبيض ما
نتبعي، وأنّ من الحياة ما يخلط ويفرّ حتى يلتصم
للموت، ومنها ما يرقّ ويشرى حتى ينفو إلى الخلود،
ومنادتها لك ما أطربها، بصوت لا تدري كيف تصفه،
لا رفيع النبرة ولا غليظها، مثل «فاء» السلم الموسيقيّ
المتباعدة من كيان، رنينه في صفاء النور، ولونه لو
تحتلّت له لونًا في زرقة السماء العميقة، دافئ الإيمان،
داعية إلى الساء...

- ١٦ -

- يوم الخميس القادم ساعقد زواجي متوكّلاً على
الله...

- ربّنا يوفّقك!

- سيكون التوفيق من نصيبي إذا رضي عني
أبائي...

- إنّه راض عنك، والحمد لله...

- سيقصر الحضور على الأهل، ولن تلقى هناك
ما يضايق حضرتك.

- عظيم عظيم!!

- وددت لو كانت نوبة في الحاضرين، ولكن...
- ما علينا، المهمّ أنّ تمرّ الليلة في هدوء...
- لم يغب عني هذا بطبيعة الحال، أنا أعرف الناس
بطبعك، ولن يعدو اليوم كتاباة العقد وشرب
الشربات...

- عظيم، ربّنا عنيك إلى سواء السبيل...
- كلّمت كمال أن يبلغ والدته تحيائي وأن يرجوها

عني ألا تحرميني من دعائها الطيب كما حودثني من
قديم، وأن تغفر عيّا كان...
- طيباً... طيباً!!
- أرجو أن تركز على سمعي أنك راضٍ عني.
- إنّي راضٍ عنك، والله أسأل أن يكتب لك
التوفيق والفلاح، إنه سمع الدعاء...
هكذا سارت الأمور ضدّ مشيئة السيّد أحمد،
واضطرّ إلى مجاراتها أن ينصدع ما بينه وبين ابنه، وكان
قلبه في الحقّ أرقّ من أن يتصدّى لياسين بخصام
جدّي فضلاً عن القطيعة، فقبل أن يسلم بيده ابنه
البكر إلى بنت بهيجة، وأن يبارك - بنفسه - العلاقة
التي ستضمّ خليلته السابقة إلى صميم أسرته! بل لم
يقبل تدخل أُمّية حين أهرت له عن رجالها في أن
يتمتع «إخوة فهمي» عن شهود زواج ياسين من مريم،
فقال لها بلهجة حاسمة «فكرة سخيفة، من الناس من
يتزوَّج من أرملة أخيه حل حبّه والوفاء له، ومريم لم
تكن زوجة فهمي ولا حقّ خطيبته، وذلك تاريخ قديم
مضى عليه سنّة أهوام، لست أنكر أنّه لم يوفّق في
اختياره ولكنّه حسن النية بقدر ما هو بغل، ولم يسوّ
إلى أحد كما أساء إلى نفسه، أسرة كان بوسمه أن
يصهر إلى خير منها، وفنّاة مطلقة، الأمر لله وذنبه على
جنبه... سكنت أُمّية كأنّها سلّمت بحجّته، فإنّها
وإن كانت اكتسبت مع الأيام السود بعض جرأة تعينها
على الإفصاح عن رأيها للسيّد إلا أنّها لم تكن من القوّة
بحيث تجملها تراجعها أو تجادله، ولذلك فعتما زارتها
خديجة لتخبرها بأنّ ياسين دعاهما إلى حضور زواجه،
وأثّرها تفكّر في إذعاء المرض لتتخلّف عن الذهاب لم
توافقها على رأيها ونصحتها بقبول دعوة أخيها.
وجاء يوم الخميس، فذهب السيّد أحمد عبد الجواد
إلى بيت المرحوم عمّد رضوان، حيث وجد ياسين
وكيال - الذي سبقه إليه - في استقباله، ثمّ لحق بهم
بعد قليل إبراهيم شوكت وخليل شوكت مصحوبين
بخديجة وعائشة، ولم يكن في البيت من آل مريم سوى
بضغ نساء، فاطمأن السيّد أحمد إلى مرور اليوم
بسلام! وكان في طريقه إلى حجرة الاستقبال قد رأى

معالم مألوفة في البيت، مرّ بها من قبل في ظروف جدّ
مختلفة، فهجمت عليه ذكريات الماضي محدّدة في نفسه
ألواناً من الاستياء والصبر لسخرتها الصامتة من
الدور الجليد الذي جاء يمثّله كوالد وقور للعريس،
وراح يلعن في سرّه ياسين الذي أوقعه - وأوقع نفسه
وهو لا يدري - في هذا المأزق، غير أنّ الأمر الواقع
حله عل أن يراجع نفسه ويعنيها قائلاً: إنّه ليس على
الله بكثير أن يخلق البنت على غير مثال الأمّ، وأن يجد
ياسين في مريم زوجاً صالحاً - بكلّ معنى الكلمة - وأن
يقبّه نزع أنّها، ثمّ سأل الله السرا!

وكان ياسين أخذاً زيته، ببادي السرور رغم
تواضع الحفل للمقام لزواجه، وسرّه - على وجه
الخصوص - أن لم يتخلّف أحد من إخصوته عن
الحضور، وكان يشفق من أن تؤثر الأمّ في بعضهم
فيتخلّف! أكان في وسعه أن يستغني عن مريم إكراماً
لهم؟ كلّاً، أحبّها، ولم يحمل هي من سبيل إليها إلا
الزواج فلم يكن من الزواج بسدّ، لم لا؟ ليست
اعتراضات والده أو زوجته بمصادلة أو ممّا يكثرث
لمواقبها، ثمّ إنّ مريم أوّل امرأة يرغب الزواج منها
عن معرفة ونظر، وهو إلى هذا متفائل جدّاً بزواجه
ويرجو أن تستقرّ به حياة زوجيّة دائمة، أليس كذلك؟
بلى وهو يشعر أنّه سيكون زوجاً طيباً وستكون زوجة
طيّة وسيجد رضوان في مقبل الأيام بيتاً سعيداً ينمو
فيه وينضج، لقد دار كثيراً وأنّ له أن يستكبر، في غير
الظروف التي اكتشفت زواجه لم يكن يتردّد عن أن
يحتفل به احتفالاً شاملاً لشقّ ألوان البهجة والسرور،
ليس كهلاً ولا فقيراً ولا هو ممّن «يدعون» كراهية
الليالي الملاح حتّى يرضى بهذا الحفل الموحش الصامت
الذي هو بالمآتم أشبه، ولكن مهلاً، فللضرورة
أحكام، وليزج تقشّفه لهذا تحيّة للذكرى فهمي.

وكان لقاء مريم بخديجة وعائشة - بعد فراق طلال
أعواماً - مؤثّراً على تحفّظه ولم يخجل من حرج بين.
تبادلن القبلات والتهاني، وتحدّثن طويلاً فشرقن
وغرّبن، ولكنّه تجنّب الماضي ما استطاع إلى ذلك
سبيلاً. وكانت اللحظات الأولى أحرجهما جيّماً.

فتوقعت كل واحدة منهم ترديدا للذكرى ماضية على نحو يثير عتابا أو ملاما، ماذا دعا إلى تقاطعهن أو لم تعمر الجوف، ولكنها مرت بسلام، ثم وجهت مريم الحديث بلباقة إلى ثياب خديجة ورشاقة عائشة التي لا زالت تحافظ عليها رغم إنجابها ثلاثة، ثم سألت مريم وأمتها عن «والدة»، فكان الجواب أنها بخير ولم يزدن حرفا. ونظرت عائشة إلى صديقتها القديمة بعين ملؤها المودة والحنان وقلب متعكش إلى حب الناس دواما، ولولا إحساس بالاشفاق لسألت الكلام إلى الذكريات الماضية ولضحكت ملء فيها، أما خديجة فجعلت تسترق إليها نظرات مفتحة، ومع أن مريم ظنّت سنوات لا تنظر لها على بال لأن أبناء زوجها من ياسين أطلقت لسانها بالملاحظات المرة، وراحت تذكر عائشة بواقعة «الإنجليز» وتتساءل عما أعمى ياسين وأصممه! هل أن شعور خديجة العالي المرفه الذي يتقمم سائر مزايها، لم يسمح لها بلؤك شيء من ذلك هل سمع من آل شوكت غير مستثية زوجها نفسه، حتى نبهت أنها إلى ذلك قائلة «سواء رضىنا أم لم نرض» فتصبح مريم من أمرتنا... ولا عجب، فما زالت خديجة حتى بعد إنجاب عبد المنعم شوكت وأحمد شوكت تعد آل شوكت «أغرابا» لدرجة ما.

وجاء المأذون في مطلع المساء، ثم عقد الزواج، ودارت أكواب الشربات، وانطلقت زغرودة واحدة، وتلقى ياسين التهاني والدعوات الصالحات، ودُعيت العروس إلى مقابلة «سيدتها الكبيرة» وآل زوجها، فجمادت حماة بأمتها وخديجة وعائشة وقبّلت يده وصافحت الآخرين وعند ذلك قدم السيد لها هدية الزواج، أسورة ذهبية ذات فصوص دقيقة من الماس والزمرّد، واستمرت الجلسة العائلية وقتا غير قصير، وحوال التاسعة أخذ الحاضرون في الانصراف تباعا، ثم جاء حظور فحمل العروسين إلى بيت ياسين بقصر الشوق الذي جهّز بدوره الثالث لاستقبال العروس، وظن الجميع أن الساتر قد أسدل على الزواج الثاني لياسين بخيره وشرة! ولكن حدث بعد مرور أسبوعين من تاريخ الزواج أن شهد بيت المرحوم محمد رضوان

حفلا آخر لزواج جديد، عُقد بحق مفاجأة غريبة في بيت السيد أحمد والسكينة وقصر الشوق بل في حيّ بين القصرين جميعا! فعل حين غرة - ودون سابق إنذار - لم يدر الناس إلا وبهجة تعقد زواجها على بيومي الشربتي!... عجب الناس لهذا الزواج كلّ العجب، وكأنما كانوا يفسطون - لأول مرة - إلى أن دكان بيومي الشربتي تقع على ناصية عطفة بيت آل رضوان تحت إحدى مشربيات البيت العتيدة مباشرة، فوقوا أمام هذه الحقيقة يتساءلون، وحق للناس أن يعجبوا، فالعروس أرملة رجل عُرف في حياته بينهم بالطيبة والتقوى، وهي معدودة من «سيدات» الحيّ المحترمت رغم ولعها بالتزويج، فضلا عن بلوغها الخمسين من عمرها، بينما كان الزوج من العائلة ذوي الجلايب يبيع الخروب والتمر هندي في دكان صغير، ولم يجاوز الأربعين من عمره إلى كونه زوجا رسخت قدمه في الحياة الزوجية عشرين عامًا، أنجب خلالها تسعا من الإناث والذكورا كل ذلك أثار القيل والقال! فخاض الناس - دون تزوّج - في مقدمات الزواج التي لم يشعر بها أحد، متى وكيف بدأت ثم كيف تضجّت حتى انتهت بالزواج! وأي الطرفين كان البادئ الداعي وأتتها كان المستجيب الملتزم...!

قال عمّ حسين الحلاق، وكان دكانه يقع في الجانب الآخر من الطريق لصق سبيل بين القصرين إنه كثيرا ما كان يرى ستّ بهيجة واقفة أمام دكان بيومي تشرب الخروب، رثما تبادل حديثا قصيرا، فلا يظن - حسن ليته - إلا خيرا!... وقال أبو سريع صاحب المقل، وكان دكانه يتأخر بمعد إخلاقه عن بقية الدكاكين: بأنه - استغفر الله - لاحظ مرّات أن قوما يتسلّلون ليليل إلى داخل البيت، ولكنّه لم يكن يعلم أن بيومي بينهم! وتكلّم درويش بائع الفول، وتكلّم الفولج اللبان، ومع أنهم تظاهروا بالزئاء للأب المليل وانتقلوا - بمرارة - الرجل الآخر الذي تزوّج امرأة في سنّ أمّه، فإتهم في قرارة النفس نفسوا عليه حقه ونقموا عليه ارتفاعه عن طبقتهم بهذه الحيلة «غير المناسبة»، ثم طال الحديث بعد ذلك عن تقدير

دفع بهجة إلى هذا الزواج الغريب، خاصة وهو يعلم علم اليقين أنه لم يكن يحرّ عليها إرضاء قلبها لو كان به رغبة إلى بيومي الشربتي دون حاجة إلى تعريض نفسها وأهلها لشقّ القلائل بالاقتران منه، لم أقدمت حلّ هذه الحفاقة غير مبالية بزواج الرجل وعياله ولا عابثة بعواطف ابنتها وأهلها الجلد كأنما قد أصابها مسّ؟ إلا يكون الإحساس المحزون بالكبر هو الذي جعلها تنزع إلى الزواج، بل والتضحية بكثير عما تملك جريماً وراء مساعدة كان يضمها لها الشباب الذي تحبّ عنها؟ تأمل هذه الفكرة في حزن واكتئاب، وذكر ملته بين يدي زبونة المودة التي أبنت أن تجرد عليه بنظرة عطف حتى حملها إلى المومة، تلك الملة التي عزعت ثقته بنفسه وحملته - حل طمأنينته الظاهرة - على التجهّم للزمان الذي سبق فتجهّمه.

على أيّ حال لم تتمتع بهجة بزواجها طويلاً! مع نهاية الأسبوع الثالث منه شكت دماً في ساقها، ثم تبين بالكشف الطيّب أنها مصابة بمرض السكر فقلّت إلى قصر العيني، وترامت الأخبار عن خطورة حالها آتياً، ثم وافعا الأجل المحترم.

- ١٧ -

اسم سراي آل شذاد وقف كمال متأبطاً حبيبة صغيرة، في بدلة رمادية أنيقة، وحذاء أسود لامع، وقد استقام طربوشه فوق رأسه الكبير. . . بدا طويلاً نحيفاً، ويرز عنه من فوق بنقطة القميص غير عابئ بعمل الرأس الكبير والألف العظيم. وكان الجو لطيفاً تتخلله نسائم باردة تؤذن باقتراب ديسمبر، وكان في السياه سحب متفرّق ناصع البياض يتحرّك وانياً فيحجب شمس الصباح حيناً بعد حين. وقف كمال وقفة المنتظر وعيناه متجهتان نحو الجراج، حتى خرجت منه الفيات يسوقها حسين شذاد ثم دارت في شارع السرايات ووقفت أمامه، وأخرج حسين شذاد رأسه من نافلتها وهو يسأل كمال:

- ألم تحبها بعد؟

تفخ في البوق ثلاثاً، ثم عاد يقول وهو يفتح الباب:

«ميرائه» المنتظر في البيت، وعن الغنائم المحتملة من نفوذ وحلي!

أما بيت السيّد وبيت السكرية بل وبيت قصر الشوق قد زلزلوا زلزلاً شديداً، يا للفضيحة! . . . هكذا هتفت الستهم، وغضب السيّد أحمد غضباً أروع آل بيته فتجنّبوا غاطيته آتياً متتابعات، ليس من حقّ بيومي الشربتي أن يذّهي قرايته من الآن فصاعداً؟ ملعون ياسين وملعون شهواته، بيومي الشربتي أصبح «عنه» وأنف الجميع في الرغام، وصاحت خديجة عندما تلقت النبا «يا خبر أسوده، ثم قالت لملائحة «هنا يلوم نينة بعد الآن؟ إن قلبها لا يكذبها أبداً»، وأقسم ياسين - بين يدي أبيه - حل أن الأمر وقع على غير علم منه ولا من زوجه، وأنه أحزن حزناً فاق كلّ تصوّر، ولكن ما حيلتها؟! ولم تغف الفضيحة عند هذا الحدّ، فإنّه ما كادت زوجة بيومي الأولى تعلم بالخبر حتى طاش عقلها، فعادرت بيعها كالمجنونة ساقفة أمامها ذريتها جيّداً، ثم انقضت على بيومي في دكانه، فنشب بينهما عراك عنيف استعمل فيه اللسان واليد والقدم والزعق والصراخ على مرأى وسمع من الأطفال الذين جعلوا يعللون ويستجلون بالمآزة حتى تجمهر الناس أمام الدكان السالبة وأصحاب الدكاكين والنساء والأطفال، فخلصوا بين الزوجين وجرّوا المرأة جرّاً إلى الطريق، فوفقت تحت مشرّبة بهجة مشقوقة الجلباب مزّقة الملاءة منقوشة الشعر دامية الأنف، ثم رفعت رأسها إلى النوافذ المغلقة وأطلقت لسانها كالسوط الحمّلة أطرافه بالرصاص المنقوع في السمّ، والأدهى من هذا كله أنها برحت موقفها رأساً إلى دكان السيّد أحمد بصفته والد زوج بنت زوجها، وتوسّلت إليه بلهجة خطافية باكية أن يستعمل نفوذه لإقناع زوجها في الرجوع عن عيّه، فاستمع السيّد إليها وهو يكظم غيظه وحزنه على ما آل إليه أمره، ثم أفهمها برقة - ما استطاع - أن هذا الأمر كله خارج عن دائرة نفوذه بخلاف ما تتصوّر، وما زال بها حتى صرفها عن الدكان وهو يغلي من الحقد، على أنه رغم حنقه فكر طويلاً وهو بين الحيرة والتساؤل فيما

- تعال اجلس إلى جانبي...

ولكن كيال اكتفى بإدخال الحقيبة وهو يغمض «صبراً». وتراعى إليه صوت يدور من ناحية الخديفة، فالتفت صوبه فرأها مقبلة تركض وفي أثرها عابدة... أجل، المعبودة تحط بقوامها البديع في فستان سنجابي قصير على أحدث موضه، توارى أعلاه تحت درّاعة من الحرير كحليّة اللون كشفت عن ساعديها الخمرتين الصافيتين، وكانت هالة شعرها الأسود تحديق بقذالتها وعارضيهما وتوس بحركة مشيتها نوسلاً غوّجياً، أما أسلاك قصّتها الحريرية فاستكثت على الجبين كاستنار المشط، وفي وسط هذه الهالة بدا الوجه البديع في طابع من الحسن أنيق ملائكي كأنه سفير سامٍ لدولة الأحلام السعيدة، تسرّ في موضعه تحت تأثير التّيار المغناطيسي، على حال بين اليقظة والنوم، ولم يبقَ من الدنيا في وعيه إلا عاطفة امتنان وجيشة وجدان، وجعلت هي تقرب في خفّة وتبخر كأنها نعمة حلوة مجسّمة حتى سلطه من أعطافها عبر باريقي، ولما التقت العين لمت في ناظرها وشفتيها المضمومتين ابتسامه موسومة بالباشاشة والهدوء والأرستقراطية معاً فردّ عليها كيال بابتسامه حائرة وسجدة من رأسه، عند ذلك خاطبها حسين قائلاً:

- اجلسي أنت ويدور في المقعد الخلفي.

تأخّر كيال خطوة ففتح باب السيّارة الخلفي ووقف متصبّ الغامة كأحد الحاشية، فكانت مكافأته ابتسامه وكلمة شكر بالفرنسيّة، وانتظر حتى دخلت يدور فالمعبودة، ثم أغلقه وانتمى إلى جانب حسين، ونفخ حسين مرّة أخرى وهو ينظر صوب القصر، لما لبث أن جاء البواب حاملاً سلّة صغيرة فوضعهما لصق حقيبتي كيال فيما بينه وبين حسين، فقال الأخير ضاحكاً وهو ينقر بأصبعه على السلّة والخفيّة:

- ما جدوى رحلة بلا طعام؟

وزجمرت السيّارة وهي تتحرّك، ثم انطلقت إلى شارع العبّاسيّة وحسين شدّاد يقول مخاطباً كيال:

- عرفت عنك أشياء كثيرة، اليوم يتاح لي أن أضيف إليها معلومات جديدة من معدتك، ويدلو لي

أنتك رغم نحافتك أكل، فهل تراني خطئاً؟

فقال كيال بأساً، وكان سعيداً منشرحاً فوق مطمح البشر:

- انتظر حتى تعرف بنفسك...

سيّارة واحدة تحملها معاً، مشاركة من نوع ما تمرّ فيها عدا الأحلام، همس الأمانى: لو جلست أنت في المقعد الخلفي وجلست هي في المقعد الأمامي للمأت عينيك منها طوال الطريق ولا رقيب، لا تكن طمّاعاً جعوداً واسجد حمداً وشكراً، استنقد رأسك من شقّ الفكر وتخلص نفسك من تيار الوجد وعش بكلّ وعيك في الساعة الزاهية، أليست ساعة بالمرء أو أكثر؟

- لم أستطع أن أدعو حسن وإسماعيل إلى رحلتنا هذه!

نظر كيال إليه كالتسائل دون أن ينس. بيد أن قلبه خفق في سرور وحياة لهذا الامتياز الذي حصّ به وحده، حل حين استرد حسين قائلاً بلهجة المعتل:

- السيّارة كما ترى لا يمكن أن تتسع للجميع...

فقال كيال بصوت خافت:

- هذا واضح...

فعاد الآخر يقول بأساً:

- وإذا لم يكن من الانتخاب بيدّ لسانتخب من

يشابهك، ولا شك أن ميلونا متقاربة في هذه الحياة، أليس كذلك؟

فقال كيال بوجه وشت أساريره بالفرحة التي غمرت قلبه:

- بلى...

ثم وهو يضحك:

- غير أنّي قانع بالرحلة الروحيّة، أما أنت فيبدو أنّك لن تقنع حتى تصل الرحلة الروحيّة بالرحلة حول الأرض...

- ألا نغفو نفسك إلى السياحة في جنات الأرض الواسعة؟

فكر كيال قليلاً، ثم قال:

- يميل إليّ أنّ مطبوع على حبّ الاستمرار وكأني

الزمالك في سرعة عدّها كمال جنوبيّة:
- في السّاء غيم، ولكنّا في حاجة إلى مزيد منه
لتضمن نهائاً سعيداً في سمنح الهرم.
وعلا الصوت البديع وهو يخاطب بدور فيما بدا
قائلاً:

- انتظري حتّى نصل إلى الهرم، وهناك اجلسي
معه كيفما يحلو لك. . .

فسالها حسين ضاحكاً:

- ماذا تريد بدور؟

- تريد يا سيدي أن تجلس مع صاحبك. . .

صاحبك! لم تقولي «كإل»؟ هلأً أسعدت الاسم
بما لا يطمح إليه صاحبه؟ وخاطبه حسين قائلاً:

- أمس سمعنا بابا وهي تسألني: هل يحبّ معنا
أنكل كمال إلى الهرم؟ فسألني من يكون كمال؟ ولستأ
أجبه سألها: «أتحبّين أن تزوّجي أنكل كمال؟» فأجابته
بكلّ بساطة «نعم».

فالتفت كمال إلى الوراء، ولكنها ترجعت حتّى
التصقت بمسند المجدد وأخضت وجهها في كتف أختها،
فتزوّد كمال من الوجه البديع بنظرة خاطفة ثمّ أعاد
رأسه، وهو يقول بلهجة الرجاء:

- لعلّها عند الجدّ لا تنسى كلمتها!

ولستأ بلغت السّيارة طريق الجزيرة ضاعف حسين من
سرعتها فعلا أزيها وساد الصمت، رحّب كمال
بالصمت ليفرغ إلى نفسه ويتملّ سعادته، كان أمس
حديث الأميرة فاختراة ربّها زوّجا للصغيرة، يا أغاريد
الزهور والسعادة، اسقط عن ظهر قلب كلّ كلمة
تقال. . . املاّ نفسك ببشير باريس، زوّد أنك
بالهديل والبنام، علّك تعود إليها إذا صادت ليالي
السهاد، كليات المعبودة عاطلة عن حكمة الحكماء
ودر الأدباء، فما بالها تمزّك حتّى الأحيق وفي فؤادك
تفجّر ينباع السعادة! هذا الذي جمل السعادة سرّاً
تبه فيه العقول والأفهام، أيّما المجتوّن اللاهوتون وراء
السعادة إنّ وجدتها في الكلمة الفارغة والرسالة
الغامضة والصمت أيضًا وفي لا شيء، ربّاه ما أعظم
هذه الأشجار الباسقة على الجانبين تمنعان أعاليها فوق

أجسل من فكرة السرحلات، أعني من الحسركة
والاضطراب لا من الرؤية والاستطلاع، وددت لو كان
من المسور أن يطوف بي العالم حيث أنا!
ضحك حسين شدّاد ضحكته اللطيفة المتبعتة من
القلب، وقال:

- قف في منطاد ثابت إن استطعت، وانظر إلى
الأرض وهي تدور من تحتك!

تملّ كمال ضحكة حسين اللطيفة الجذابة ملياً،
فوددت ذهنة صورة حسن سليم وراح يقارن بين
هذين اللونين من الأرستقراطية: أحدهما يتنازل باللفظ
والباشاشة، والآخر يتسم بالتحفظ والكبرياء، وكلاهما
بعد ذلك جليل. وقال كمال:

- من حسن الحظّ أنّ الرحلات الفكرية لا تقتضي
التنقل حتّى. . .

فرجع حسين شدّاد حاجبيه فيها يشبه الشكّ، غير
أنّه عدل عن متابعة الموضوع قائلاً بانهاج:

- المهمّ الآن أنّا نقوم برحلة قصيرة معاً، وأنّ ميولنا
متقاربة في هذه الحياة. . .

وما يدرى إلّا والصوت العذب يحبّ من الورا
قائلاً:

- وبالاختصار فإنّ حسين يحبّك كما تحبّك
بدور. . .

تفدّت هذه الجملة المعطرة بالحبّ الممّنة بالصوت
الملكوتي في قلبه فطيرته نشوة وطرباً، كالنغمة الساحرة
التي تنذ فجأة في تضاعيف أخفية فوق المنتظر والمألوف
ولتخيّل من الأنغام، فترك السامع بين العقل
والجنون. المجدد يبعث بالفاظ الحبّ سادراً، يلقيها
عليك خافلاً من أنّه يلقي مغسوساً على قلب يحترق،
استرجع صداها لتستعيد رنين الحبّ في أوتار ثغره،
والحبّ لمن قدّم غير أنّه يضحي جديداً عجباً في
ترنيمة خائفة، يا إلّهي! أنّي أفنى من فرط السعادة.
قال حسين معلّقاً على قول أخته:

- عابدة ترجيم أفكارك بلغتها التسائية الخاصة. . .
انطلقت السّيارة إلى السكاكيني فإلى شارع الملكة
نازلي ثمّ إلى شارع فؤاد الأوّل، ومنه مرقت إلى

حال من الأمر.

وقفت السيّارة غير بعيد من سفح الهرم الأكبر منضمة إلى صفّ طويل من السيّارات الفارغة، ولاح خلق كثيرون هنا وهناك، تفرّقوا جماعات صغيرة، ومنهم من امتطى حماراً أو جبلاً أو تسكّن الهرم، غير باعة ومكاريين وجلّالين، أرض واسعة لا تحُدّ إلا أنّ الهرم انطلق في وسطها كإرّاد خرافيّ، أمّا تحت المنحدر من الناحية الأخرى فقد ترامت المدينة، رموس أشجار وخضّ مياه وأسطح عيارات، ترى أين يقع بين القصرين من هذا كلّها؟ والبيت القديم؟ أين أمّه وهي تسقي الدجاج تحت سقيفة الياسين؟

- فلنترك كلّ شيء في السيّارة لننتجّل أحراراً...
غادروا السيّارة، ومضوا صفّاً واحداً بدأ من السيّارة بعليّة فحسين ثم بدور، وأخيراً كمال الذي أمسك بيد صديقته الصغيرة، وطارفوا بالهرم الأكبر منضخّسين أركانه ثمّ أوغلوا في الصحراء. وكانت الرمال تتسامم أقدامهم فتعرجل انطلاقهم، غير أنّ الهواء هفا لطيفاً منعشاً، وراوحت الشمس بين الظهور والاختفاء، وانتشرت تجمّعات السحب في أفلاك السماء ترسم في اللوحة العليّة صوتاً تلقائيّ تعبت بها يد الهواء كيفاً اتّفق. قال حسين وهو يملأ رتيه بالهواء:

- جميل... جميل...

ورطنت عايذة بالفرنسيّة، فأدرك كمال بمعلوماته المحدودة في تلك اللغة أنّها تترجم قول أخيها، وكانت الرطانة عادة مألوفة لديها، فخففت من غلوائه في التنصّب للغة القوميّة من ناحية، وفرضت على ذوقه كالمارة من أمارات الحسن النسائيّ من ناحية أخرى. قال كمال بتأثّر، وهو يتأمّل ما حوله:

- جميل حقّاً، سبحانه الله العظيم!

فقال حسين ضاحكاً:

- إنك تعبد دائليّاً وراء الأمور وإنّما الله وإنّما سعد

زغلول...

- أظنّ أنّه لا خلاف بيننا فيما يتعلّق بالوّل!

- ولكنّ دابك هل ذكره يضيف عليك مسحة دينيّة خاصّة كأنك من رجال الدين، (ثمّ بلهجة تسليم) فيم

الطريق فتتشرب سياه من الحضرة البانمة، ولهذا النيل الجاري مكتسباً من وضي الشمس غلالة من اللالئ، متى رأيت هذا الطريق آخر مرّة؟ في رحلة إلى الهرم وأنا في السنة الثالثة، في كلّ رحلة عاهدت نفسي بالعودة إليه منفرداً، ورامك تجلس من ترى بوجيها كلّ شيء جديداً وجيلاً حتّى يجري الحياة الأثريّة في الحثيّ العتيق، هل لك أمنيّة فوق ما أنت فيه؟... نعم: أن تواصل السيّارة انطلاقها على هذه الحال التي نحن عليها إلى الأبد، ربّاه أهذا هو الجانب الذي ظلنا أعياك وأنت تتساءل عيّا تريد من هذا الحبّ؟ هبط عليك من وحي الساعة يكتفنه المحال، اسعد بالساعة المتاحّة، ها هو الهرم يلوح من بعيد صغيراً، وعيّا قليل تقف عند قدميه كأنملة عند أصل الشجرة الفارعة...

- نحن ذاهبون إلى زيارة قرافة جدّنا الأوّل!

فقال كمال ضاحكاً:

- لنقرأ الفاتحة بالهيوغوليفيّة...

فقال حسين ساخرًا:

- وطن أجمل خلفاته قبور وجثث!... (وهو يشير

صوب الهرم) انظر إلى الجهد الضائع...

قال كمال بحماس:

- ذلك المخلود!...

- أوه... سوف تنشط كمادتك للدفاع، أنت وطنيّ

لحدّ المرض، لن نختلف في هذا، ربّما كان أحبّ إليّ أن أكون في فرنسا من أن أكون في مصر...

فقال كمال وهو يوراري ألمه تحت ابتسامة رقيقة:

- ستجد هنالك الفرنسيّين أعظم أمم الأرض

وطنيّة!...

- نعم، الوطنيّة مرض عالميّ، لكنّي أحبّ فرنسا

نفسها، وأحبّ في الفرنسيّين مزايّا لا تمتّ إلى الوطنيّة

بسبب...

هذا عزم مؤسف حقّاً بيد أنّه لا يثير حفيظته، لأنّه

صادر عن حسين شدّد... إسماعيل لطيف يحنّقه

أحياناً باستهانتة... حسن سليم يغضبه أحياناً

بتكبره... أمّا حسين شدّد فيحظى برضاه على أيّ

- هذا هو رأي الإنجليز، ألم تقرأ برقيات الأهرام؟
فليس عجيباً أن يرقده الأحرار الدستوريون، إنَّ من
مفاسد سعاد أن يثير العداوة ضدَّ الإنجليز...
تدخلت عابدة متسائلة، وفي عينيها نظرة عتاب أو
تعديل مازجتها ابتسامة جذابة:

- رحلة أم سياسة؟

فأشار كمال إلى حسين، وهو يقول معتدلاً:

- إليك المسئول عن فتح هذا الموضوع...

فقال حسين ضاحكاً، وهو يتخلل شعره الحريري
الأسود بأصابعه الرشيقة:

- رأيت أن أقدم تعزيتي في استقالة الزعيم، لهذا
كلَّ ما هنالك!

ثم متسائلاً بلهجة جدية:

- ألم تشترك في المظاهرات الخطيرة التي كانت تقوم

في حركم حل عهد الثورة؟

- كنت دون السن القانونية!

فقال حسين بلهجة لم تغفل من سخرية لطيفة:

- على أي حال تُعدُّ واقعة دكان البسبوسة اشتراكاً

في الثورة!

وضحكوا جميعاً، حتى بدور اشتركت في الضحك
محاكاة لهم، فصدر عنهم أوركسترا رباعيٌّ مكوَّن من
بوقين وكيان وصفارة، وبعد هنيهة صمت، قالت
عابدة كأنها لتدافع عنه:

- كفاية آه فقد أعماه...

فقال كمال مدفوعاً بشعور الغضار الذي دبَّ في
قلبه، واستزادة من عطفها:

- أجل، فقلنا خير أسرتنا...

فعادت تسائله باهتمام:

- كان في الحقوق... أليس كذلك؟ كم كان يكون

عمره لو عاش حتى الآن؟

- كان يكون في الخامسة والعشرين... (ثم بلهجة

أسيفة)... كان نابغة بكلِّ معنى الكلمة...

فقال حسين، وهو يفرق بأصبعيه:

- كان... هذه هي الوطنية، كيف تتعلَّق بها بعد

ذلك؟!

العجيب وأنت من حيِّ الدين؟!

أتكمن وراء هذه الجملة مخفية ما؟ وهل يمكن أن
تشاركه عابدة في سخريته؟ ترى ما رأيها في الحيِّ
القديم؟ وبأيِّ عين تنظر العباسية إلى بين القصرين
والنخاسين؟ هل منك الحجل؟ مهلاً إنَّ حسين لا
يكاد يدي أيَّ اهتمام بالدين، المعبودة فيها يبدو أقلَّ
اهتماماً منه، ألم تقلَّ يوماً إنَّها تحضر دروس الدين
المسيحيِّ في المبردي ديه وإنَّها تشهد الصلاة وترتِّم
بأناشيدها؟ ولكنَّها مسلمة! مسلمة رغم أنَّها لا تعرف
عن الإسلام شيئاً يذكر ما رأيك في هذا؟ أحبَّها،
أحبَّها لحدة العبادة، وأحبَّ دينها رغم وخز الضمير،
اعترف بهذا مستغفراً ربِّي!

أشار حسين بيده إلى ما يحيط بهم من أيَّ الجبال
والجلال، ثم قال:

- هذا ما يستهوي حفاً، أمّا أنت فمجنون
بالوطنية، قارن بين هذه الطبيعة الجليّة وبين
المظاهرات وسعد وهدي واللوريات المحمَّلة بالجنود!
فقال كمال باسماً:

- الطبيعة والسياسة كلتاها شيء جليل...

تساءل حسين فجأة كأنَّما قد تذكر بتداعي المعاني
أمراً هاماً:

- كدت أنسى، لقد استقال زعيمك!

فابتسم كمال ابتسامة حزينة ولم يجب، فقال الآخر
بقصد إغاضته:

- استقال بعد أن ضيَّع السودان والدستور، هه؟
قال كمال بهدوء لم يكن يُنتظر منه في غير هذه
الظروف:

- كان قتل سير لي ستاك ضربة موجَّهة إلى وزارة
سعد...

- دعني أكرِّر على سمعك ما قاله حسن سليم،
قال: إنَّ هذا الاعتداء مظهر للكرامية التي يضرها
البعض - ومنهم القتلة - للإنجليز، وسعد زغلول هو
المسئول الأوَّل عن تهييج هذه الكرامية!

كظم كمال الغيظ الذي أثاره «رأي» حسن سليم في
نفسه، وقال بالهدوء الواجب في حضرة المعبودة:

فقال كمال بأسياً:

- سوف تكون جيمًا في خبر كان، ولكن شتان بين مئة ومئة!

فرح حسين بأصبعيه مرة أخرى دون تعليق، يبدو أنه لا يرى في قوله معنى، ماذا أقحم حديث السياسة عليهم؟ لم يعد به ما يسرّ، شغل الشعب بعداونه الحزبية عن الإنجليز، سحقًا لهذا كله، يخلق بمن يتنسم الفردوس ألا يكرب صدره بهوم الأرض، ولو إلى حين، أنت ثماني في مئة عابدة في صحراء الهرم، تأمل هذه الحقيقة الرائعة واحضّر بها حتى تسمع بناة الهرم، معبود وعابده يسيران معًا فوق الرمال، العابد من شدة الوله يكاد يلدوه الهواء والمعبود يتسلّ بعدد الحصى، لو كان مرض الحب معديًا، ما باليت بالامه، الهواء ينفو بأهذاب قستائها ويتخلّل هالة شعرها ويسري في أحياق صدرها... ألا ما أسعد الهواء! أرواح العاشقين فوق الهرم تبارك القافلة معجبة بالمعبود رائية للعابد مرودة بلسان الزمان: ليس أقوى من الموت إلا الهوى، تراها على بعد أشبار منك ولكتبتها في الحق كالألق تحاله منطقًا على الأرض وهو في ذروة الساء يخلق... كم منيت النفس بأن تمسّ في هذه الرحلة راحتها، ولكن يبدو أنك سترحل عن هذه الدنيا قبل أن تعرف منها، لم لا تكون شجاعًا فتعوي إلى انطباعة قدمها فتلتنها؟... أو تأخذ منها حفنة فتجعلها حجابًا بقي من آلام الحب في ليالي الفكر؟ وأسفاه! كل الدلائل تشير إلى أنه لا اتصال بالمعبود إلا بالتراتبيل أو الجنون، فترل أو جئن...

شعر باليد الصغيرة تجلب يده، فنظر إليها، فرفعت نحوه ذراعها داعية إياه إلى حملها، فانتحي فوقها ثم رفعها بين يديه غير أن عابدة قالت معترضة:

- كلا، بدأ التيب يساورنا، فلنسترح قليلًا...

على صخرة عند رأس المنحدر المقضي إلى أبي الهول جلسوا على نفس الترتيب الذي ساروا عليه، مدّ حسين مناقبه غارًا كسيه في الرمال، جلس كمال واضعًا رجلًا على رجل ضامًا بطنه إلى جنبه، على حين تعدت عابدة إلى يسار أخيها فتناولت مشطها وراحت

تسرح شعرها وترتّب خصلاته بأناملها.

وحانت من حسين نظرة إلى طربوش كمال، فسأله منتقدًا:

- لماذا تلبس الطربوش في هذه الرحلة؟
فتزع كمال طربوشه ووضعه في حجره قائلاً:
- ليس من المألوف عندي أن أسير بدون...
فضحك حسين قائلاً:

- إنك مثال طيب للرجل المحافظ!

تساءل كمال: ترى هل يعني بقوله مدحًا أم ذمًا؟ وأراد أن يستدرجه للإيضاح، ولكنّ عابدة مالت إلى الأمام قليلًا ملتفتة نحوه لتلقي نظرة على رأسه فتسي ما كان بسبيله، وتحول انتباهه إلى منطقة الرأس في قلق، إن رأسه يبدو الآن حاسرًا فيكشف عن ضخامته ويعرض شعره الأجود العاطل عن الزينة، وها هما العيان الجميلتان ترنوان إليه، فأي أثر يعكسه عليهما؟ تساءل الصوت الموسيقي:

- لماذا لا ترتي شعر رأسك؟

سؤال لم يخطر له على بال من قبل، هكذا رأس فؤاد جميل الحمزاوي وجميع الرفاق بالحلي العتيق، ياسين لم يُر يطلق شعره وشاربه حتى توقّف، هل يتصوّر أن يلقى أباه كل صباح على مائدة الفطور بشعر مصفّف؟

- ولم أرتيه؟

فتساءل حسين مفكرًا:

- ألا يكون أجمل؟

- ليس هذا بلني بال...

حسين ضاحكًا:

- يجئني إلى أنك خلقت لتكون معنًا.

مدح أم ذم، على أي حال ليها رأسك بالراية السامية.

- أنا خلقت لآكون طالبًا...

- جواب جميل... (ثم رفع طبقه صوته متسائلًا)... أم تحمّني عن مدرسة المعلمين حديثًا شافيا، كيف وجدتها بعد مرور ما يقرب من الشهرين؟
- أرجو أن تكون مدخلًا لا بأس به للدنيا التي

اتطلع إليها، وتراني أحاول الآن أن أعرف عن سبيل
الأساتذة الإنجليز معاني للكلمات المحيرة مثل «أدب»
وفلسفة» و«فكر»...

- هذه هي الثقافة الإنسانية التي نتطلع إليها...

فقال كمال بحيرة:

- ولكنها خضم مضطرب فيها يبلو، ينبغي أن
نعرف الحدود، ينبغي أن نعرف ما نريد على نحو
أوضح، إنها مشكلة...

لاح الاهتمام في صبي حسين الجميلتين وهو يقول:

- الأمر بالنسبة إلي لا يمتد مشكلة، إلي أقرأ قصصًا

ومسرحيات فرنسية مستعينا بمعايدة على فهم الصعب
من نصوصها، واستمع منها أيضًا إلى مختارات من
الموسيقى الغربية تعزف هي بعضها بمهارة على البيانو،
وقد طالعت أخيرًا كتابًا يلخص الفلسفة الإغريقية في
يسر وسهولة، لست أبني إلا السباحة للعقل
والجسم، أما أنت فتريد أيضًا أن تكتب، ولهذا
يفترضك أن تعرف الحدود والأهداف...

- الأدهى من ذلك أنني لا أدري فيم أكتب على

وجه التحديد!

تساءلت عائدة بلهجة باسمة:

- أتريد أن تكون مؤلفًا؟

فقال وهو يتلقى موجة عالية من السعادة التي عزت
على البشر:

- رُبما...

- شاعرًا أم ناثراً... (وهي تميل إلى الأمام لتتمكن

من رؤيته)... دعي أحمق بفراستي...

استنفدت الشعر في مناجاة طيفك، الشعر لفتك
المقدسة فلا أمهته، غاضبت دموعي ينابيعه في سواد
الليالي، ما أسعدني في مرمر ناظريك وما أتعسني، إلي
أحيا تحت ظنرك كما تحيا اليابسة بمقلة الشمس...

- شاعر، أجل أنت شاعر...

- حقًا؟ كيف عرفت هذا؟

اعتذلت في جلستها، فنذت عنها ضحكة خافتة
كانها وسوسة الأمان، ثم قالت:

- الغرسة بداهة، فكيف تطالب بتفسير لها؟

- إنها تعبت!

قال حسين ذلك وهو يضحك، فبادرت تقول:

- كلاً، إذا كان الشاعر لا يعجبك فلا تكتبه...

النحلة فطرتها الطبيعية ملكة، البستان مغناها،

رحيق الزهر شرابها، الشهد نفثها، وجزاء الأدمي

الطائف بعرشها... لسعة... لكتبا قالت وكلاً.

عادت تسأله:

- هل قرأت من القصص الفرنسية شيئًا؟

- بعض ما تُرجم عن ميشيل زيفاكو، لا أستطيع

أن أقرأ الفرنسية كما تعلمين...

فقالت بحماس:

- لن تكون مؤلفًا حتى تتقن الفرنسية، اقرأ بلزاك

وجورج صاند، ومدام دي ستال ولوتي، واكتب بعد

ذلك قصة...

فقال كمال باستنكار:

- قصة؟! إنها فنّ على المعاش، إنما أتطلع إلى عمل

جديّ...

فقال حسين جادًا:

- القصة في أوروبا عمل جديّ، ثمة كتاب يفرغون

لها دون غيرها من فنون الكتابة فترفعهم إلى درجة

الحالدين، لست أحرف بما لا أعرف، ولكن أستاذ

اللغة الفرنسية أكّد لي ذلك...

هزّ كمال رأسه الكبير في شك، فاستطرد حسين

قائلًا:

- حافظ أن تُغضب عائدة، إنها قارئة معجبة بالقصة

الفرنسية، بل إنها بطلة من بطلاتها!

فقال كمال إلى الأمام قليلًا، ومدّ إليها بصره ليقرا

أثر قول حسين فيها مختبئًا الفرصة المتاحة ليملا عينيه

من منظرها البهيج، ثم تسأل:

- كيف كان ذلك؟

- إن القصة تستغرقها استغرقًا غريبًا، فرأسها

مفعم بحياة خيالية، مرة رأيتهما تحتال أمام المرأة،

فأسألها عني؟ فأجابتي «وكذا كانت تسير أفروديت

على ساحل البحر بالإسكندرية».

قالت عائدة وهي تقطب تقطية باسمة:

- لا تصدّقه، إنّه أغرق مقي في الخيال، ولكنّه لا يرتاح حتّى يرميني بما ليس فيّ...
قال كالساخر:

- شيء مؤسف حقاً...
- ألم تكن تعرف هذا؟ يبدو أنّك لم تحرّب الغرام بعد...
قال بإخلاص:

- لا عليك من هذا، إنّ أبطال المفلوطي وريدر هجارد يستأثرون بخيالي...
فضحك حسين ضحكة رائعة، وهو يهتف:

- ما أسرى أن يجمعنا كتاب واحد! لماذا نبغى على الأرض ما دنا بنفوسنا هكذا إلى الخيال؟ عليك أنت أن تحقّق هذا الحلم، لست كاتباً ولا أريد أن أكون كاتباً، ولكن في وسعك أنت أن تجمعنا إذا شئت في كتاب واحد.

عابدة في كتاب تكون أنت مؤلّفه! صلاة أم تصوّف أم جنون؟
- وأنا؟

علا صوت بلور فجأة متسائلاً في احتجاج فضج ثلاثتهم بالضحك، وقال حسين في لهجة تنبيه:

- لا تنس أن تحجز مكاناً لبلور فقال كيال وهو يضمّ الصغرى بساعده في حنان: - ستكونين في الصفحة الأولى...
تساءلت عابدة وهي ترمي بناظرها إلى الأفق: - ماذا نكتب عنّا؟

لم يدر ماذا يقول، فدارى ارتباكها بضحكة وانية، ولكنّ حسين أجاب عنه قاتلاً:

- كما يكتب المؤلفون، قصّة هرايمية عنيفة تنتهي بالموت أو الانتحار!

يقذفون كرة قلبك بالأقدام وهم يلعبون. - أرجو أن تكون هذه النهاية من نصيب البطل وحده؟

قالت عابدة ذلك ضاحكة. البطل أعجز من أن يتصوّر معبوده فاتياً، وتساءل:

- هل حُتم أن تنتهي بالموت أو الانتحار؟ فأجبت حسين ضاحكاً:

- هي النهاية الطبيعيّة لقصّة غرام عنيف!

فأجابته عابدة قائلة: - لا بأس، فها هو البطل يندفع نحو الموت، وهو يعلم أن الموت هو النهاية الطبيعيّة لقصّة غرام عنيف!

فأجابته عابدة قائلة: - لا بأس، فها هو البطل يندفع نحو الموت، وهو يعلم أن الموت هو النهاية الطبيعيّة لقصّة غرام عنيف!

فأجابته عابدة قائلة: - لا بأس، فها هو البطل يندفع نحو الموت، وهو يعلم أن الموت هو النهاية الطبيعيّة لقصّة غرام عنيف!

فأجابته عابدة قائلة: - لا بأس، فها هو البطل يندفع نحو الموت، وهو يعلم أن الموت هو النهاية الطبيعيّة لقصّة غرام عنيف!

فأجابته عابدة قائلة: - لا بأس، فها هو البطل يندفع نحو الموت، وهو يعلم أن الموت هو النهاية الطبيعيّة لقصّة غرام عنيف!

- شدّ ما يسخر أبي من أحلامه، أنّه يتمنّى أن يراه قضائيًا أو عاملًا معه في دنيا المال...
 - القضاء... المال! لن أكون قضائيًا، حتّى إذا نلت الليسانس وفكرت جدّيًا في اختيار وظيفة فسيكون السلك السياسيّ وجهتي، أمّا المال فهل تطعمون في مزيد منه؟ إنّنا أغنى ممّا يطيق الإنسان...
 ما أعجب أن تكون ثروة الإنسان أعظم ممّا يطيق، قدّمًا تخيلت أن تكون تاجرًا كأيّك وأن تملك خزانة كخزانته، لم تعد الثروة من أحلامك، ولكن ألاّ تتمنّى أن تكون قادرًا على تجريد نفسك للمغامرات الروحيّة؟ ما أتمس حياة تستغرقها مطالب الرزق.
 - إنّ أسري جيّملًا لا تفهم آمالي، يروني طفلًا مدللًا، قال خالي مرّة متهمّكًا على مسمع منّي ولا ينتظر أن يكون الذكر الوحيد في الأسرة خيرًا من هذا، لم هذا كله؟ لأني لا أعبد المال ولأني أوفر الحياة عليه، أراهم؟ إنّ أسرتنا تؤمن بأنّ أيّ نشاط لا يؤدّي إلى أيّ زيادة في الثروة ضرب من البعث الباطل، وتراهم يعملون بالألقاب كأنّهم الفردوس المفقود، أتدري لم يحبّون الحاديون طالما قالت لي ماما: «لو بقي أفندينا على العرش لنال أبوك الباشوّة من زمن بعيد»، والمال العزيز يون ويُنفق بلا حساب في استقبال أمير إذا شرفنا بزيارته... (ثمّ وهو يضحك)... لا تنس أن تسجّل هذه الغرائب إذا فرغت يومًا لتأليف الكتاب الذي اقترحت عليه.
 لم يكده يفرغ من حديثه حتّى بادرت عايده بتأطّب كمال قائلة:
 - أرجو ألاّ تتأثّر في تأليفك بتحمّل هذا الأخ العاق حتّى لا تظلم أسرتنا!
 فقال كمال بلهجة ساجدة:
 - معاذ الله أن ينال أسرتك ظلم على يديّ! وفضلاً عن ذلك فليس فيها قال ما يشين...
 فضحكت عايده في ظفر، على حين ارتسمت على شفهي حزين ابتسامة ارتياح رغم ارتضاع حاجبيه كالداهش. وكان الأثر الذي تركه حديث حسين في نفسه أنّه لم يكن صادقًا كلّ الصدق في حملته على أسرته، أجل لم يشكّ في قوله أنّه لا يعبد المال وآثمه يؤثر الحياة عليه، وأبى - إلى ذلك - أن يُرجع هذا الخلق إلى وفرة المال وحدها ولكن إلى اتساع أفق صاحبه أوّلًا ما دام الغراء لا يجوز دون عبادة المال عند الكثيرين ولكنّه حَيَّل إليه أنّ ما ورد في حديثه عن الحديدي والألقاب واستقبال الأمراء إنّما ورد على سبيل الفخر المدغم في الانتقاد، لا الفخر وحده ولا الانتقاد وحده، كأنّما كان يفاخر بها بقلبه وينتقدتها بعقله، أو لعنه كان يسخر منها حقًا، ولكنّه لم يجد غضاضة في التشهير بها أمام شخص لا يشكّ في أنّها تبهره وتفتنه مهسا يكن من مجاراته له في انتقادهما. عاد حسين يتسامل في هدوء باسم:
 - آتينا سيكون بطل الكتاب، أنا أم عايده أم بدور؟ هتفت بدور «أنا!»، فقال لها كمال وهو يشدّ عليها «أتفقنا»... ثمّ أجاب حسين:
 - سيبقى هذا سرًّا حتّى يولد الكتاب!
 - وأيّ عنوان ستختار له؟
 - حسين حول العالم!
 فضجّ ثلاثتهم بالضحك بما ذكرهم هذا العنوان المفتوح باسم تمثيليّة «البريري» حول العالم التي كانت تمثّل في الماجستيك، وسأله حسين بالمناصفة قائلاً:
 - ألم تعرف الطريق إلى المسرح بعد؟
 - كلاً، في السينا الكفائية الآن...
 قال حسين مخاطبًا عايده:
 - إنّ مؤلّف كتابنا غير مسموح له بالسهر خارج البيت إلى ما بعد التاسعة مساءً!
 فقالت له عايده متهمّكة:
 - على أيّ حال فهو خير من الذين يُسمع لهم بالطواف حول العالم!
 ثمّ التفتت صوب كمال، وسألته برقة خليقة بجذبه إلى رأيها سلفًا:
 - أمن العيب حقًا أن يتمنّى أب أن ينشأ ابنه على مثاله في النشاط والجاه؟ أمن العيب أن يسعى في الحياة إلى المال والجاه والألقاب والقيم العاليه؟
 ابقى حيث أنت يسعى إليك المال والجاه والألقاب

والقيم العالية كي تسمو جميعًا بلثم موطن قديمك،
كيف أجب وفي الجواب الذي تودّين انتحاري؟ يا
ويع قلبك من مرام لا يُرام!
- لا عيب في هذا أبدًا... (ثم بعد انقطاع قصير)
على شرط أن يوافق مزاج الشخص
فاستطردت قائلة:

- وأي مزاج لا يوافقه هذا؟! والعجب أنّ حسين
لا يزهّد في هذه الحياة الرغبية طموحًا إلى ما هو أرفع
منها، كلًّا يا سيدي، إنّه يعلم بأن يحيا بلا عمل، في
فراغ وبطالة! أليس هذا يعجبك؟!...
تسأل حسين ضاحكًا في سخرية:

- ألا يعيش هكذا الأمراء الذين تعبدونهم؟
- لأنه ليس فوق حياتهم حياة يتسلّع إليها، أين
أنت من أولئك يا تبتل؟
التفت حسين ناحية كمال قائلاً بصوت لم يخلُ من
أثر للغيظ:

- القاعدة المثبتة في أسرنا هي العمل على زيادة
الثروة ومصادقة ذوي النفوذ فأمل من وراء ذلك في
رتبة البكوية، وعليك بعد ذلك مضاعفة الجهد لإخماء
الثروة ومصادقة النخبة المتأززة حتّى تنال الباشوية،
وأخيرًا أن تجعل غايتك العليا في الحياة التزوّد إلى
الأمراء والقبائل بذلك ما دامت الإمارة لا تُنال بالعمل
أو اللباقة، أتدري كم كلّفتنا زيارة الأمير الأخيرة؟...
عشرات الألوف من الجنيهات ضاعت في ابتغاء أثاث
جديد ونحف نادرة من باريس!

فعارضته عابدة قائلة:
- لم يُنفق ذلك المال تودّدًا لأمر من حيث هو أمير
فحسب، ولكن لكونه شقيق الخديوي، فالدافع إلى
المجاملة كان الوفاء والصدقة لا التودّد والزلفى، وهو
بعد شرف لا يماري فيه عاقل.

ولكنّ حسين غمّاه في عناده قائلاً:
- ولكنّ بابا لا يفتأ يوعده علاقته بعدي وثروت
ورشدي وغيرهم غنّ لا يمكن أن يتّهموا بالإخلاص
للخديوي... أليس في ذلك تسليم بالحكمة القاتلة بأنّ

الغاية تبرّر الوسيلة؟...

- حسين؟!...
هتفت به بصوت لم يسمعه من قبل، بصوت نَمّ
عن الكبرياء والاستياء والتأنيب، كأنّها أرادت أن تنبيهه
إلى أنّ هذا الكلام لا يجوز أن يقال أو في الأقل أن
يجهر به عل مسمع من «غريب» فاحرّ وجهه خجلًا
والسّيا وفترت السعادة التي حلّت في أجوائها ساعة
بالاندماج في هذه الأسرة الحبيبة. وكانت هامتها
مرفوعة وشفتاها مضومتين ولي عينيها نظرة موحية
بالتعطيل وإن لم يلمح له أثر في جبينها، كانت بالجملة
غضبي ولكن كما يخلّق بالملكة العريقة أن تغضب، ولم
يكن رأيها من قبل منفعة، ولم يكن يتصوّر أنّها
تفعل، فرنا إلى وجهها في دهش وارتياح، وامتلأ
إحساسًا بالخرج حتّى ودّ لو يتحتل عذرًا يتنحّى به عن
متابعة الحديث، ولكن لم يحضر على ذلك ثوان حتّى
أفاق من غشيته وراح يتملّ جمال الغضب الملكي في
الوجه الملائكي، ويتلوّق لفحة الكبرياء واستلامه
الإباء وتجمُّه الساء، ثمّ عادت كأنّها لم تسمع هو:
- إنّ صداقة بابا لمن ذكرت تعود إلى تاريخ قديم
سابق على خلع الخديوي...
عند ذلك رغب كمال صادقًا أن يصدّد هذه
السحابة، فسامع حسين مداهيًا:
- إذا كان هذا رأيك فكيف تحقر سعد لأنه كان
أزهرًا؟
فضحك حسين ضحكته الصافية وهو يقول:
- إني أكره التودّد إلى الكبراء، ولكن لا يعني هذا
أن أحترم العامة... إني أحبّ الجمال وأزدرى القبح،
ومن المؤسف أنّ الجمال قلّ أن يوجد في العامة!...
ولكنّ عابدة تسلّطت في الحديث قائلة بصوت
معتدل:
- ماذا تعني بالتودّد إلى الكبراء؟ إنّه سلوك يُعاب
على من ليس منهم، ولكن أظننا من الكبراء أيضًا،
وليس تودّدنا إليهم دون تودّدكم إلينا...
فتطوّر كمال للإجابة عن حسين قائلاً بلّغان:
- هذا حتّى لا مرأ فيه...
وما لبث أن غضّ حسين وهو يقول:

القديمين اللطيفين مطبوعة فوق الرمال، فاعلم أنها
تقيم معالم للطريق المجهول يهتدي بها السالكون إلى
سبحات الوجد وإشراقات السعادة، في زيارتك
السالفة هذه الصحراء كان نهارك ينقضي في اللعب
والوثب سادراً عن فصحات المعاني لأن برعمة قلبك لم
تكن تفتحت... أمّا اليوم فأوراقها نديّة برضاب
الموى تقطر بهجة وتزّأ النّيا فإن تكن سلبت طمأنينة
الجهالة فقد وهبت القلق السامي... حياة القلب
وأنشودة النور...
- جعّت... -

ندّت الشكوى عن ثغر بدور، فقال حسين:
- آآ لنا أن نعود، ما رأيكم؟ على أيّ حال أماننا
مسافة طويلة سيجوع في هباتها من لم يجمع...
ولسّا بلغوا السيّارة أخرج حسين الحقيبة والسّلة
الملوءتين بالطعام، فوضعهما على مقدّمة السيّارة وراح
يزيح الغطاء عن سلكته، غير أنّ عابدة اقترحت أن
يتناولوا الطعام على درجة من درجات الهرم، ففضوا
إليه وارتقوا درجة من درجات الأساس فحطّوا الحقيبة
والسّلة في وسطها، وجلسوا على حافتها تاركين
أرجلهم تتدلّى. بسط كمال جريدة كانت في حقيقته
وطرح عليها الطعام الذي جاء به، دجاجتين وبطاطس
وجبنًا وموزًا وبرتقالاً، ثمّ تابع يتنّى حسين وهو
يستخرج من السّلة طعام «الملائكة»، فلإذا به:
سندوتشات أنيقة، وأكواب أربع، وترموت... ومع
أنّ طعامه كان آدمس فإنّه بدا - في ناظره على الأقلّ -
عاطلاً عن حلية الأناقة فساوره قلق وحياء، وتساءل
حسين وهو يرمق الدجاجتين بنظرة ترحاب عمّا إذا كان
صاحبه قد أحضر أدوات مائدة، فأخرج كمال من
الحقيبة سكاكين وشوكًا وشرع يقطع الدجاجتين
شرائح، وهنا نزع عابدة سدّاة الترموت وراحت
تملأ الأكواب الأربع، فإذا بها تمتلئ بسائل أصفر
كالدهب، فلم يملك كمال أن يسأل داهشًا:
- ما هذا؟

فضحكت عابدة ولم تهجّب، أمّا حسين فقلّ ببساطة
وهو يغمز أخته بعينه:

- حسبنا جلوسًا، هلّموا نواصل السير...
فهمضوا فاستأنفوا السير متّجهين نحو أبي الهول في
جرّ ظليل انتشرت تجمّعات السحب في آفاقه حتّى
تعاظمت وحجبت الشمس بستار شفاف فاكتسب منها
لونًا أبيض ناصعًا يقطر صفاء وملاحة، والتقوا في
طريقهم بجماعات من الطلبة والأوربيين نساء ورجالًا،
فقال حسين مخاطبًا عابدة، ولعله أراد أن يسترضيها
بطريق غير مباشر:
- إنّ الأوربيّات يتغرّسن في فمّسناك باهتمام،
مبسوطة؟

فافتّر ثغرها عن ابتسامة عجب وارتيلح، وقالت
بلهجة تنمّ عن ثقة مكينة بالنفس وهي ترفع رأسها في
كبرياء لطيف:
- طبيعي...!
فضحك حسين وابتسم كمال، ثمّ قال الأوّل
مخاطب الآخر:
- عابدة تفضّل مرجعًا للدوق الباريسي في حيننا
جميعه...
فقال كمال وهو لا يزال يتسم:
- طبيعي...!

فكافاته عابدة بضحكة رقيقة خالفة كسجع الحمام،
مسحت عن قلبه الأثر الخفيف الذي تركه النزاع
الارستقراطيّ البديع... العاقل من يعرف لقلبه
قبل الخطو موضعها. فاعرف أين أنت من هؤلاء
للملائكة، المعبود الذي يشرف عليك من فوق السحاب
يتعالى حتّى على أهله المفضّزين، فما وجه العجب في
هذا؟ ما كان ينبغي أن يكون له أهل أو أسرة، فلعله
أنجذهم ليكونوا وسطاء بين ذاته وبين عابده، أعجب
به في هدوئه وحدته وتواضعه وتكبره وإقباله وإدباره
ورضاه وغبضه، كلّ أولئك صفاته فارو بالعشق قلبك
الظالم. انظر إليها، إنّ الرمال تعوم مشيتها فتواتر
خفتها وأتسمت خطواتها وتمايل أعلاها كالغصن الثمل
بالنسيم الواني ولكنّها وهبت الأبصار صورة جديدة من
عماسن المشي تضارع في جمالها مشيتها المعروفة فوق
فسيفساء الحديقة، وإذا التفتّ إلى الوراء قرأبت آثار

- بيرة... ١
- بيرة؟
- هتف كمال كالتخالف، فقال حسين بتحدٍ وهو يشير إلى السندوتشات:
- ولحم خنزير!...
- أنت تعبت بي! لا أصدق هذا...
- بل صدق وكُل، يا لك من جحود! جشاك بأنفس ما يؤكل والد ما يشرب!
- أفصح عينا كمال عن دهش وانزعاج، وانعقد لسانه فلم يدر ماذا يقول، وكان أشد ما يزعجه أنَّ هذا الطعام والشراب جهَّز في البيت، وبالتالي عن علم أهله ورضاهم!
- ألم تلتق شيئاً من هذا من قبل؟
- سؤال في غير حاجة إلى جواب.
- إذن ستلوه لأول مرة، والفضل لنا!
- هذا محال...
- له؟
- له! ١٩. سؤال في غير حاجة إلى جواب أيضاً...
- رفع حسين وعابدة ويدور أكوابهم وشربوا جرعات ثم أعادوها، ونظر الأولان إلى كمال مبتسمين كأنهما يقولان له «أرأيت أنه لم يحدث لنا شيء!»، ثم قال حسين:
- الدين! هه؟ كوب البيرة لا يُسكر، ولحم الخنزير كله لذَّة وفوائد، لست أدري ما حكمة الدين في شئون الطعام!
- تقلَّص قلب كمال لوقع هذا الكلام، بيد أنه لم يخرج عن رفقته وهو يقول معاتباً:
- حسين، لا تحذف...
- ولأول مرة منذ افتتحت المسابقة تكلمت عابدة فقالت:
- لا تسب بنا الظنَّ، نحن نشرب البيرة لفتح النفس ليس إلَّا، ولعلَّ مشاركة بدور لنا تقنعك بحسن نيَّتنا، أمَّا لحم الخنزير فللذبة جيِّداً، جرِّبه ولا تكن حنبليًّا، لا تزال أمامك فرصة كبيرة كي تطيع الدين فيها هو أهم من هذا كله...
- ومع أنَّ كلامها لم يخلِّف في جوهره عن كلام حسين، فإنَّه نزل على قلبه المثالي برِّداً وسلماً، وإلى هذا فقد صادف منه نفساً حريصة كلَّ الحرص على ألاَّ تكثر لهم صفواً أو تحلِّش لهم شعوراً، فابتسم في تسمع رفيق، ومضى يتناول طعامه وهو يقول:
- دعوني أكل الطعام الذي آلفه، وأكرموني بالمشاركة فيه.
- ضحك حسين، ثم قال مخاطباً كمال وهو يشير إلى أخته:
- اتَّقنا في البيت على أن تقاطع طعامك إذا قاطعت طعامنا، ولكنَّ يَمِيلُ إلَيَّ أننا لم نحسن تقدير ظروفيك، على هذا فإنَّني سأعجل من ذلك الاتفاق إكراماً لك، ولعلَّ عابدة أن تقندي بي...
- فنظر كمال نحوها براء، فقالت باسمه:
- إذا عدلتني بالأمر تسب الظنَّ بنا... ١٠٠
- فقال كمال بابتهاج:
- لا عاش من أساء بكم الظنَّ...
- أكلوا بشهوة عظيمة، حسين وعابدة أولاً ثم تشبَّع كمال بهما فتابعهما، وكان يقمِّد الطعام بنفسه إلى بدور التي اكتفت بسندوتش وقطعة من صدر الدجاجة ثم أقبلت على الفاكهة، ولم يستطع كمال أن يقاوم الرغبة في استراق النظر إلى حسين وعابدة وهما ياكلان ليري كيف يتناولان طعامهما، أمَّا حسين فكان يلتهم الطعام دون مبالاة كأنه منفرد، غير أنه لم يفقد طابعه الممتاز الذي يمثِّل في عيني كمال الأستقراطية المحبوبة المطلقة على سجيَّتها، ولما عابدة فقد كشفت عن أسلوب جديد من الرشاقة والأناقة والتهديب في طبيعتها الملائكية سواء في قطع اللحم أو القبض بأطراف الأنامل على السندوتش أو حركات الشفر عند المضغ، ومضى هذا كله يسيراً هيَّلاً لا أثر للتكلف أو القلق فيه، الحقُّ أنَّه انتظر هذه الساعة بشوِّف وإنكار كأنما كان في شكٍّ من أيَّها تأكل الطعام كسائر البشر...
- ومع أنَّ معرفته لنوع الطعام أزعجت ضميره الدينيَّ أيَّما إزعاج فإنَّه وجد في «غرابته» وخبرجه عن مألوف ما يتاوله الناس الذين عهدهم مشابهة تربطه بأكمله،

يكن عند بابا وماما معلومات تستحق الذكر، وكانت مرييتا يونانيّة، وعابدة تعرف عن المسيحيّة وطقوسها أكثر ممّا تعرف عن الإسلام، نحن بالقياس إليك في حكم الوثنيين... (ثم مخاطبة عابدة)... إنّه يقرأ القرآن والسيرة...!

فقلت بلهجة رثما دلت على شيء من الإعجاب:
- حقّا؟ برافو، ولكن أرجو ألاّ تسيء به الظنّ أكثر ممّا ينبغي، فإنّي أحفظ أكثر من سورة...
فغمغم كمال كالحالم:

- بديع، بديع جدّاً، مثل ماذا؟
فكفّت عن الأكل حتّى تذكّر، ثمّ قالت باسمه:
- أهي أنّي كنت أحفظ بعض السور، لا أدري ماذا تبقى منها... (ثمّ رفعت صوتها فجأة شأن من تذكّر شيئاً أحياه طلابه) مثل السورة التي يقول فيها إنّ ربّنا واحد الخ...!

ابتسم كمال، وقدم لها شريحة من صدر الدجاجة فتناولتها شاكراً، ولكنها اعترفت بأنّها أكلت أكثر ممّا تأكل عادة، ثمّ قالت:
- لو كان الناس يتناولون الطعام عادة كما في الرحلات لاختفت الرشاقة من الوجود...
فقال كمال بعد تردّد:
- إنّ نسامنا لا تستهوينّ النحافة...
فوافقه حسين على رأيه قائلاً:
- ماما نفسها من هذا الرأي، ولكنّ عابدة تعدّ نفسها باريّة...!

عفا الله عن استهانة مبعودي، شدّ ما أزعجت نفسك المؤمّة، كما أزعجتنا من قبل خطرات الشكّ التي صادفتها في مطالعتك، هل تستطيع أن تلقى استهانة المعبود بما لقيت به من خطرات الشكّ من نقد وغضب؟ هيها، نفسك لا تطوي لها إلّا على الحبّ الخالص، حتّى عيوبها فانت تمجّها، عيوبها؟ لا عيب لها ولو كان ما بها حقّة في الدين واجترأ على المحرّمات، تلك عيوب لو وُجدت في غيرها، أخشى ما أخشاه ألاّ تروق في عيني حسناء بعد اليوم إذا لم يكن بها حقّة في الدين واجترأ على المحرّمات، هل مسك القلق؟

فارتاح لها خياله الخاطر المتسائل، وتناوبه شعوران متناقضان، قلق يادئ الأمر وهو يراها تقوم بهذه الوظيفة التي يشترك فيها الإنسان والحيوان، ثمّ داخله شيء من الارتياح لما قرّبت هذه الوظيفة بينه وبينها ولو درجة واحدة! على أنّ نفسه لم تعف من علامات الاستفهام عند هذا الحدّ، فوجدتها تدفعه إلى التساؤل: ممّا إذا كانت تؤدّي سائر الوظائف الطبيعيّة الأخرى؟ لم يسمعه أن يقول لا، ولم يبين عليه أن يقول نعم، فأضرب عن الإجابة وهو يعاني إحساساً لم يعرفه من قبل تضمّن - فيها تضمّن - احتجاجاً صامتاً على نواويس الطبيعة!

- إلّا معجب بشمورك اللبنيّ ومثاليّتك الأخلاقيّة...
نظر كمال إليه في حذر المرتاب، فقال حسين بتوكيد:

- من صدق تكلمت لا عن دعابة...
ابتسم كمال في حياء، ثمّ أشار إلى ما تبقى من السندويشات والبيرة قائلاً:
- بالرغم من هذا، فإنّ احتفالكم بشهر رمضان يفوق كلّ وصف، أنوار تضاء، قرآن يتل في بهو الاستقبال، المؤدّنون يؤدّنون في السلامك، هه؟
- إنّ أبي يحيي ليالي رمضان حبّاً وكرامة واستمسكاً بالتقاليد التي اتّبعتها جدّي، وإلى هذا فهو وماما يراظبان على الصوم...
قالت عابدة باسمه:

- وأنا...
فقال حسين بجدّ أريد به السخرية:
- عابدة تصوم يوماً واحداً من الشهر، وربّما أفلست قبيل العصر!
فقلت عابدة على سبيل الانتقام:

- وحسين يأكل في رمضان أربع وجبات يوميّاً، الوجبات الثلاث المعتادة ووجبة السحورا
فقال حسين ضاحكاً، وقد كاد الطعام يسقط من فيه لولا أن رفع رأسه بحركة سريعة:
- أليس غريباً ألاّ تعرف عن ديننا شيئاً ذا بال؟!

الباردة - وأنَّ الفرص بالتالي ستسبح لرؤية عابدة التي لا يتاح لقاءها إلَّا في الحديقة، على أنَّ الشتاء إذا كان يحرمه من لقاءها في الحديقة، فإنَّه لم يحلِّ دون رؤيتها في النافذة المشرقة على الممرَّ الجانبيِّ للحديقة أو في الشرفة المطلَّة على مدخل القصر، في هذه أو تلك، عند مقدمه أو حال منصرفه، ربَّما لمحها وهي معتمدة الحافلة بمرفقيها أو مفرَّشة راحتها بذقنها، ليرفع نحوها عينه حائثًا رأسه في ولاء العابد، فتردَّ تحيَّته بابتسامة رقيقة ذات وميض وبيض يضيء له أحلام اليقظة وأحلام المنام. على أمل رؤيتها اختلس من الشرفة نظرة وهو يدخل القصر، ثمَّ من النافذة وهو يقطع الممرَّ الجانبيِّ ولكنَّه لم يجدها لا في هذه ولا في تلك، فانَّه - وهو يميَّ النفس باللقاء في الحديقة - نحو الكشك حيث رأى حسين جالسًا بمفرده على غير العادة، تصافحا وقلبه يشرق بهجة المودة التي تبعثها في نفسه مطالعة هذا الوجه الصبيح، أليف رويحه وعقله، واستمع إليه وهو يرحب به في هجته المرححة الصافية قائلاً:

- أهلاً بالمعلم! الطربوش والمعطف! لا تنس في المرة القادمة الكوفيَّة والمعصا، أهلاً... أهلاً...

خلع كمال طربوشه ووضعه على المنضدة، وطرح المعطف على كرسيٍّ وهو يتساءل:

- أين إسحاق وحسن؟

- إسحاق سافر إلى البلد مع والده فلن تراه اليوم، أمَّا حسن فقد تلقى في صباحًا بأنَّه سيتأخَّر ساعة أو أكثر لكتابة بعض المحاضرات... أنت تعلم أنَّه طالب مثاليٌّ مثل حضرتك، وهو مصمَّم على نيل الليسانس هذا العام...

جلسا على كرسيَّين متقابلين مولين القصر ظهريهما وقد وعد انفردا كمال بجلسة هادئة لا شقا فيهما، جلسة يرحب صدرها بالتأمُّلات غير أنَّها مستخلو في الوقت نفسه من النضال المتعب اللذيذ ممَّا الذي يدعو إليه حسن سليم، والملاحظات التهكميَّة اللاذعة التي يبعثرها إسحاق لطيف دون حساب، استطرد حسين قائلاً:

- أنا على العكس منكما طالب رديء، أجل إنِّي

استغفر الله لنفك ولها، وقل إنَّ هذا كلُّه عجيب، عجيب كلُّه المول، ما أشبه حبَّك به أو ما أشبهه بحبِّك، كلاهما لنز وخلود!

أفرغت عابدة آخر ما في الترموث في الكوب الرابع، ثمَّ قالت لكيال بإغراء:

- هلَّا غيَّرت رأيك؟ ما هي إلَّا شراب منعش... فابتسم ابتسامة اعتذار وشكر، وعند ذاك خطف حسين الكوب ورفعهُ إلى فيه، وهو يقول:

- أنا بذل كمال... (ثمَّ وهو يتأوَّه)... يجب أن نمسك وإلَّا متنا ابتلاء...

فرغوا من الطعام، ولكن فضل منه نصف دجاجة وثلاثة سندوتشات، فخطر لكيال أن يوزَّعها على الخلمان الذين يتجولون في المكان، غير أنَّه رأى عابدة وهي تعيد السندوتشات مع الأكواب والترموث إلى السلة، فلم يَرَّ بدًّا من أن يعيد بقية طعامه إلى الحفوية وقد وردته ذكرى حديث إسحاق لطيف عن الروح الاقتصادية لآل شدَّاد ووثب حسين إلى الأرض وهو يقول:

- لدينا مفاجأة سارَّة لك، أحضرنا معنا فونوغرافًا وبعض الأسطوانات لتساعدنا على الهضم، ستسمع أسطوانات أوريَّة من مختارات عابدة وأخرى مصريَّة مثل «حرَّز فزَّر» و«بعد العشي»، و«حسود من هنا»... ما رأيك في هذه المفاجأة؟...

- ١٨ -

انصف فيسمبر، غير أنَّ الجوَّ لم يجاوز حدَّ الاعتدال إلَّا قليلًا على رغم أنَّ الشهر هلَّ بعاصفة من الرياح والأمطار والبرد القارص. وكان كيال يقترُب من سراي آل شدَّاد في خطوات متسَّدة سعيدة طارحًا معطفه المطويَّ على ساعده الأيسر وقد دلَّ مظهره الأنيق - خاصَّة مع ملاحظة ميل الجَوِّ إلى الاعتدال - على أنَّه جاء معطفه استكمالًا لمظاهر الأناقة والوجاهة أكثر منه حيلة لتقلُّب الجَوِّ، وكانت شمس الضحى ساطعة فرجح عنده أنَّ مجلس الأصدقاء سينعقد في كشك الحديقة - لا في الثوى حيث يجتمعون في الأيام

للتناصب إلى حدّ التقلّيس، فلم يكن بدّ من أن يتبادل المنصب الرفيع والمال الوفير نظرات الشزر أحياناً.لقى حسين على الحديقة المترامية أمام ناظره نظرات هادئة يشوبها شيء من الأسف، فقد تجرّدت جذائل النخيل وتعرّت شجيرات الورد، وشجبت الخضرة الباتعة وانخفضت ابتسامات الزهور من ثغور البراعم، ويدت الحديقة غارقة في الحزن حيال زحف الشتاء، ثمّ قال وهو يشير أمامه:

- انظر إلى فعل الشتاء، هذه آخر جلسة لنا في الحديقة، ولتكنّ من هواة الشتاء...

إنّه يبرى الشتاء حقاً، ولكنّ عابدة أحبّ إليه من الشتاء والصيف والخريف والربيع ممّا، فلن يفرّ للشتاء حرمانه من مقابلات الكشك السعيدة، غير أنّه قال موافقاً:

- الشتاء فصل جميل وقصير، وفي البرد والغيم والرياح حياة يستجيب لها القلب.

- يخيّل إليّ أنّ هواة الشتاء يكونون عادة من ذوي النشاط والاجتهاد، فهكذا أنت، وهكذا حسن سليم...

ارتاح كمال إلى هذا الشتاء، ولكنّه أراد أن يخصّص - من دون حسن سليم - بأكثره، فقال:

- ولكنّي لا أعطي وإجباتي المدرسيّة إلّا نصف نشاطي فحسب، الحقّ أنّ حياة العقل أوسع من المدرسة بكثير...

هرّ حسين رأسه مستحسنًا، وقال:
- لا أظنّ أنّ ثمة مدرسة يمكن أن تستهلك الوقت الطويل الذي تتركّسه للعمل يوميًا... على فكرة: أنا لا أوافقك على هذا الإسراف وإن أكنّ أغبطك أحياناً، خبّرني ماذا تقرأ الآن...؟

ابتهج كمال بهذا الحديث الذي كان - بعد عابدة - أحبّ شيء إلى نفسه وأجاب قائلاً:

- أستطيع أن أقول لك الآن: إنّ مطالعاتي أخذت تتبّع نوعاً من النظام، لم تعد قراءة حرّة كيفما أشفق ما بين قصص مترجمة ومختارات شعرية ومقالات نقدية، أصبحت اتّلمّس سبيل على قدر من الضوء لا بأس

استمع إلى المحاضرات مفيداً من قدرتي على تركيز الانتباه، غير أنّي لا أكاد أطبق مراجعة كتيبي المدرسيّة، قالوا لي كثيراً: إنّ دراسة القانون تتطلّب ذكاء نادراً، الأخرى أن يقولوا: إنّها تتطلّب غباء وصبراً. حسن سليم طالب مجّد شأن الذين يمدّهم الطموح، طالما تساءلت حيّا يحمله يحمل نفسه فوق ما تطيق من العمل والسر، وهو لو شاء - كماثله من أبناء المستشارين - لفتح من العمل بما يكفل له النجاح اعتماداً على نفوذ أبيه الذي سيضمّن له في النهاية نيل الوظيفة التي يتطلّع إليها، فلم أجد تفسيراً لذلك إلّا كبريائه الذي يجبّ إليه التفوّق ويدفعه إليه دفماً لا هواة فيه، أليس كذلك؟ ما رأيك فيه؟

قال كمال في صدق:

- حسن شابّ جدير بالإعجاب لحلقه وذكاؤه...

- سمعت أبي يقول مرّة عن أبيه سليم بك صبري: إنّهُ مستشار فذّ عادل، فيها عدا القضايا السياسيّة...

صادف هذا الرأي هوى في نفس كمال، لما سبق إلى علمه من تشييع سليم بك صبري إلى الأحرار الدستوريّين، فقال ساخراً:

- معنى هذا أنّه قانونيّ بارع، ولكنّه غير أهل للقضاء.

فضحك حسين ضحكة عالية، وقال:

- نسيت أنّي أخطأه وفدياً...

فقال كمال وهو يرفع منكبيه:

- لكنّ والدك ليس وفدياً! تصوّر أن يجلس سليم بك صبري للفصل في قضية عبد الرحمن فهمي والنراشي!

هل صادف قوله عن سليم بك صبري ارتياحاً في نفس حسين؟ نعم، هذا يبدو جيّلاً في العنينين الجليمتين اللتين لم تألفا الكذب أو الرياء، ولمعه راجع إلى المنافسة التي تقوم عادة - مها اتّسمت بالتهلّيب وآداب اللياقة - بين الأنداد، وقد كان شدّاد بك مليونيراً ومن رجال المال ذوي المكانة والجاه فضلاً عن صلته التاريخية بالخديو عباس، غير أنّ سليم بك صبري مستشار في أكبر هيئة قضائيّة وفي بلد تفتتها

به، فعمدت أخيراً إلى تخصيص ساعتين كل مساء للقراءة في دار الكتب وهناك انظر في دائرة المعارف باحثاً عن معاني الكلمات الغامضة الساحرة، كالآداب والفلسفة والفكر والثقافة، مسجلاً في الوقت نفسه أسماء الكتب التي تصادفني، إنه عالم بديع تلوب فيه النفس شغفاً واستطلاعاً...!

كان حسين يصغي إليه بانتباه واهتمام طارحاً ظهوره على مسند الكرسي الخيزران، وإضعافاً يديه في جيبتي جاكته الكحلية الإنجليزية، وعمل شفثيه العميقتين ابتسامة مشاركة وجدانية صافية، قال:

- جميل جداً، بالأمس كنت أحياناً تسألني عما ينبغي أن أقرأ، اليوم جاءت نوبتي لأسألك أنا، هل وضع لك الطريق؟

- رويداً... رويداً، يغلب على ظني أنني سألجحه نحو الفلسفة!

ارتفع حاجباً حسين كالتسائل، ثم قال بأسياً:

- الفلسفة؟ إنها كلمة مثيرة، حذار أن تذكرها على مسمع من إسماعيل! طلالاً اعتقدت أنك ستتجه نحو الأدب...

- لا لوم عليك، الأدب متعة سامية بيد أنه لا يملأ عيني، إن مطلبي الأول الحقيقة، ما الله، ما الإنسان، ما الروح، ما الملائكة؟ الفلسفة هي التي تجمع كل أولئك في وحدة منطقيّة مضيئة كما عرفت أخيراً، هذا ما أروم معرفته من كل قلبي، وغله هي الرحلة الحقيقيّة التي تمُدّ رحلتك حول العالم بالقياس إليها مطلباً ثانوياً، نصرور أنه سيمكّنني أن أجد أجوبة شافية لهذه المسائل جميعاً...

نور الشوق والحلس وجه حسين وهو يقول:

- هذا بديع حقاً، لن أتوانى عن مرافقتك في هذا

العالم الساحر، بل لقد طالمت بالفعل فصولاً عن الفلسفة الإغريقيّة وإن لم أخرج منها بشيء يعتدّ به، لست أحبّ الاندفاع مثلك، ولكّني أقطف زهرة من هنا وزهرة من هناك وأسلك بين هذا وذاك سيلاً، والآن دعني أصارحك بأنني أخاف أن تقطع الفلسفة ما كان بينك وبين الأدب من أسباب، فأنت لا تقنع

بالاطلاع ولكّنتك تريد أن تفكر وإن تكتب، ولن يتاح لك - فيما اعتقد - أن تكون فيلسوفاً وأديباً في آن...!

- لن ينقطع ما بيني وبين الأدب، إن حب الحقيقة لا يناقض تذوق الجمال، ولكّني العمل شيء والراحة شيء آخر، وقد عزمت على أن أجعل الفلسفة عملي والأدب راحتي...

فضحك حسين فجأة، ثم قال:

- هكذا تتملّص من تعهدك لنا بأن تكتب عنا قصة جامعة!

فلم يملك كمال أن يضحك قائلاً:

- ولكّني أأمل أن أكتب يومساً عن «الإنسان» فيشملكم ضمناً!

- لا يميّني الإنسان بقدر ما يميّني أشخاصنا، انتظر حتى أشكرك إلى عابدة!

خفق قلبه لدى سماع الاسم خفقة تحيّة وحنان وشوق، فانقلب تشوان كأنما قد ثمل روحه بلحن معرب بالطرب، هل يرى حسين حقاً أنه أن من الأمر ما يستأهل عليه مؤاخذه عابدة؟ ما أجمل حسين! كيف غاب عنه أنه ما من شعور يستشعره أو فكرة يتأمله أو شوق يستشره إلا وأفاقها تترقرق بهياه عابدة وروحها!

- انتظر أنت، وسوف تثبت لك الأيام أنني لن أنخل عن عهدي ما حييت...

ثم متسائلاً بعد قليل بلهجة جدية:

- لم لا تفكر في أن تكون كاتباً؟ كل الظروف الراحنة والآية همّ لك الطرغ هذا الغنى!

فهزّ حسين كتفيه استهانة، وقال:

- أكتب ليقرا الناس؟ ولم لا يكتب الناس لأقرا أنا؟

- أيها أعظم شأنًا؟

- لا تسألني أيها أعظم شأنًا، ولكن سألني أيها أسعد حالاً، إنني أهدّ العمل لعة البشرية، لا لأني كسول، كلّاً، ولكن لأنّ العمل مضيق للوقت وسجن للفرد وحائل منيع دون الحياة، الحياة السعيدة هي الفراغ السعيد...

صمت لم يسمع خلالها إلّا حفيف الغصون وخشخشة أوراق جائئة متناثرة وزقزقة عصافير، فبدأ المكان فيها لمحت عيناه من أرضه وسياه وأشجاره وسوره البعيد الفاصل بين الحديقة والصحراء وقُصّة المعبودة المسبلة على جنبينها والنور البديع المنبثق من حور مقليتها، بدا كل أولئك كأنه منظر بهيج من حلم سعيد، لم يدرك على وجه اليقين - إن كان حقيقة ماثلة أمام ناظره أم خيالة ملوحة خيال ذاكرته، حتّى سجع الصوت الرخيم وهو يقول غاطباً بدور فيها يشبه التحليل: «لا تضايقي يا بدورا» فكان جوابه أن ضمه بدور إلى صدره قائلاً: «إن تكن هذه هي المضايقة في أحبتها إلى نفسي»، وزنا إليها وفي عينيه أشواق، وراح يتمسك منظرها أمناً هذه المرة من الرقباء منتمياً فيها التاتل كأنها يستكنه أسرارها ويطلع على صفحة غيبته ملاحظها ورموزها، فتاة في سحر المنظر حتّى بدا ذاهلاً أو غائباً، وما يدري إلّا وهي تسعد:

.. ما لك تنظر إلي هكذا... ١؟

فأفاق من غشيته، ونجّى في عينيه الارتباك فابتسمت متسائلة:

- هل تريد أن تقول شيئاً؟

هل يريد أن يقول شيئاً؟ إنه لا يدري ماذا يريد، حقاً إنه لا يدري ماذا يريد، وتساءل بدوره:

- هل قرأت في عينيّ هذا؟

أجابت وفترها يفتّر عن ابتسامة غامضة:

- نعم...

- ماذا قرأت فيها؟

فرغت حاجبيها كالمتعبّة، وهي تقول:

- هذا ما أردت معرفته...

أبوح لها بسرّ المكنون قائلاً بكلّ بساطة «أحبك» ولكن ما يكون! لكن ما جدوى البوح؟ وماذا يكون من أمره لو قطع الاعتراف ما بينه وبينها من صداقة ومودة - كما هو الراجح - إلى الأبد؟ وانتبه - وهو يتأمّل - إلى النظرة التي تلوح في عينها الجميلتين، نظرة مطمئنة شديدة الثقة بنفسها جريئة لا يتحورها ارتباك أو عجل، نظرة كأنها تهبط عليه من علّ بالرغم

حده كإل نظرة دلت على أنّه لم يأخذ قوله مأخذ الجدل، ثم قال:

- لا أدري ماذا كانت تكون حياة الإنسان لولا العمل؟. إنّ ساعة من الفراغ المطلق تنقضي أثقل من عام حافل بالعمل...

- يا للتعاسة! إنّ صلوق قولك نفسه هو ما يؤكّد هذه التعاسة، هل حسبتني أطيع الفراغ المطلق؟ كلا والأسفاه، لا أزال أشغل وقتي بالنافع والضار، ولكنّي أمل يوماً أن أعاشر الفراغ المطلق معاشرة سعيدة... همّ بالتعليق على قوله، ولكن جاء صوت من ورأها يتساءل «فيم تتحدّثان يا ترى»، صوت أو بالحريّ نغمة حلوة ما إن تردّد في سمعي حتّى تعزف أوتار قلبه مجاوبة إيّاه من الأحياق كأنها عناصر مؤتلفة في لحن واحد وسرعة ما خلّت نفسه من متوالت الفكر فغمرها فراغ مطلق - ترى أمّ الفراغ المطلق الذي يحلم به حسين؟ - هو ذاته لا شيء، ولكنّه السعادة كلها...

والتفت إلى الوراء، فرأى عائدة قادمة على بعد خطوات تقدّمها بدور حتّى وقفت أمامها، كانت ترتدي فستاناً كمّونياً وسرة صوفية زرقاء ذات أزوار مذهبة، وقد تجلّت بشرتها السمر في عمق السياه الصافية وصفاء الماء المقطر. وهرعت بدور إليه فتلقّتها بين ذراعيه وضمّهما إلى صدره كأنها ليوارى في عناقها ما اعتراه من هيلان، وعند ذلك جاء خادم مسرعاً فوقف أمام حسين وهو يقول بأدب «التليفون». فقام حسين مستأذاً، ومضى نحو السلاسل والخادم يتبعه...

وهكذا وجد نفسه معها على انفراد - وجود بدور لم يكن ليغيّر من هذا المص - لأوّل مرّة في حياته، تسامد في إشفاق: ترى أتبقى أم تذهب؟ ولكنّها تقدّمت بخطوتين حتّى صارت تحت مظلة الكشك جاعلة المنضدة بينها وبينه، فدعاهما إلى الجلوس بإشارة يده، ولكنّها هزّت رأسها بالرفض باسمّة، فقام واقفاً ورفع بدور بين يديه فأجلسها على المنضدة، ولبت برّبت رأس الصغيرة في ارتباك وهو يبدل كلّ قوّة كي يملك عواطفه ويتغلّب على انفعاله... مضت فترة

المنطق وحده، فلو صحَّ منطق لوجب أن يكون أسعد الناس بحبِّه وعيوبه، ولكن، أين هو من ذلك؟ الحقُّ أنَّ تاريخ حبِّه الطويل لم يعدم لحظات أمل خلت كان يضيء ظلمات قلبه بسعادة وهمية على أثر ابتسامة حلوة يجود بها المحبوب أو كلمة عابرة قابلة للتأويل أو حلم سعيد عقب ليلة فكر وسهاد ولوإذا بقول سائر له احترامه في نفسه مثل «من القلب للقلب رسول»، فكان يتملِّق بالأمل الخَلْب في إصرار اليأس حتَّى تعيده الحقيقة إلى وعيه، ها هو الساعة يتلقَّى هذه الجملة الساخرة الحاسمة كالدواء المرَّ لتداوى من مُستقبلاً من كواذب الآمال، ويعرف على وجه اليقين موضعه أين يكون، وليسَّ لم يُجِرَّ جواباً على سؤالها الذي تحدَّته به، هتفت معبودته ومعذِّبته بلهجة المتنصر:

- عُيِّلَتْ...!

واستحكم الصمت مرَّة أخرى، فعاد مسمعيه حفيف الغصون وشخششة الأوراق الجافَّة وزقزقة العصفور، غير أنَّه تلقَّاه هذه المرَّة بوجود فاتر وقلب خائب، ولاحظ أنَّ عينيها تتفحصانه بإمعان لا داعي له، وأنَّ نظريتها تزداد جرأة وثقة وما يوحى بالعبث، وأتَّها أبعد ما يكون عن منظر أنثى تصدَّت للذكر، فشمع بغمز في قلبه وورودة، وتبادل هل قُدِّر له أن ينفرد بها لتفوض أحلامه دفعة واحدة؟ ولاحظت قلعه، فضحكت ضحكة لاهية، وقالت في دهابة وهي توميء إلى رأسه:

- لا يبدو أنَّك شرعت في تربية شعرك؟

فقال باقتضاب:

- كلَّاً...

- ألا يروقك ذلك؟

وهو يميَّك بوزه باستخفاف:

- كلَّاً...

- قلنا لك إنَّه أجمل...

- هل ينبغي للرجل أن يكون جميلاً...؟

فقال باستغراب:

- طبعاً الجمال محبوب، سواء في الرجال

والنساء...؟

من أتَّها في مستوى نظره، فلم يرتح لها وزادته ترقِّداً، ماذا وراءها يا ترى؟ وراءها فيها رأى شعور بالاستهانة، وربما العبث كأنَّها هي بالغ ينظر إلى طفل، ولعلَّها لم تخلُ كذلك من تعالٍ لا يمكن أن يبرِّره فارق السنِّ وحده إذ لم تكن تكبر، إلَّا بعامين على أكثر تقدير، أفلا تكون هذه النظرة الخليفة بأن يلقبها هذا القصر الشامخ بشارع السرايات على البيت القديم بين القصرين؟ ولكن لم لم يلمحها في عينيها من قبل ذلك؟ ربَّما لأنَّها لم تنفرد به من قبل أو لأنَّه لم يتجسَّ له أن ينعم فيها النظر إلَّا هذه الساعة، وآله ذلك وأحزنه حتَّى فترت نشوته أو كادت. ورفعت بدور نحوه يديها داعية إيَّاه لحملها، فتناولها في حضنه، وإذا بعابدة تقول:

- يا للعجب!، لماذا تحبُّك بدور كلِّ هذا الحبِّ؟

فقال وهو ينظر في عينيها:

- لأنِّي أكنُّ لها مظه وأكثر...

فتساءلت كالمرتابة:

- ألهذا قانون يُرَكَّن إليه؟

- الحكمة السائسة تقول «من القلب للقلب

رسول»...

فجعلت تنفر المنضلة بألمتها وهي تتسأل:

- هب فتاة جميلة أحبَّها كثيرين، فهل تحبُّهم جميعاً؟

أرني كيف يصدق قانونك في هذه الحال...

فقال وقد أذهله سحر الحوار عن كلِّ شيء حتَّى

أحزانه:

- يكون من أمرها أن تحبَّ أصدقهم حبًّا لها...

- وكيف تفرزه من الآخرين...؟

لو يدرم هذا الحوار إلى الأبد!

- أحييك مرَّة أخرى إلى الحكمة السائسة «من

القلب للقلب رسول»!

فضحكت ضحكة متعذِّبة مثل ربَّة الوتر، وقالت

في تحدٍّ:

- لو صحَّ هذا ما خاب محبُّ صادق في حبِّه! فهل

هذا صحيح؟!

صلمه قولها كما تصلم حقائق الحياة المستنيم إلى

فاغرقت عابدة في الضحك وهي تميل برأسها إلى الوراء، ولم يملك هو أيضاً إلا أن يضحك، ثم سأل بدور مداولة لارتبائه:

- وأنت يا بدور، هل هالك أنفي؟...

وتسأى إليهم صوت حسين وهو يهبط سلم الفراندا، فغيرت عابدة من لهجتها فجأة، وقالت له بصوت جمع بين الرجاء والتحذير:

- إياك أن تزعل من مزاحي!...

عاد حسين إلى الكشك، فجلس على كرسية داعية كمال إلى الجلوس فاقتدى به - بعد تردد - واضعاً بدور على حجره، غير أن عابدة لم تلبث بعد ذلك إلا قليلاً فاختلت بدور وحيتها، ثم انصرفت وهي تلاحظ كمال بنظرة ذات معنى خاص، وكأنما تكثرز تحذيره من الزعل، لم يجد من نفسه أي رغبة في استئناف الحديث فاكثى بالإصغاء أو بالانظار بالإصغاء مع المشاركة فيه بين حين وآخر بسؤال أو تعجب أو استحسان أو استهجان لإثبات وجوده ليس إلا، وكان من حسن حظه أن عاد حسين إلى طرق موضوع قديم لا يتطلب انتباهاً أكثر مما عنده، وهو رغبته في السفر إلى فرنسا ومعارضه أبيه التي يأمل في التغلب عليها قريباً. أما الذي كان يشغل قلبه وفكره ممّا فهو ذلك المظهر الجديد الذي تبثت به عابدة في الدقائق التي جمعت بينها على انفراد أو على شبه انفراد، ذلك المظهر الموسوم بالاستخفاف والسخرية والقسوة، أجل القسوة! فقد عيش به بدون رحمة وأصعبت فيه دعابته كما يُعول المصور ريشته في الخلقة الأدمية ليستخرج منها صورة كاريكاتورية فذة في قبورها وصدقها ممّا.

ذكر ذلك المظهر ذاهلاً، ومع أن الألم كان يسري في روحه كما يسري السم في الدم ناشراً فيها ظلاً ثقيلاً من القنوط والكآبة، فإنه لم يجد في نفسه سخطاً أو غضباً أو احتقاراً له، أليس هو صفة جديدة من صفاتها؟ بل، لعله أن يكون غريباً كولمها بالرمانة وشرب البيرة واكل لحم الخنزير، ولكنه ككل أولئك صفة منسوبة إلى ذاتها، خليفة بأن تشرف بهذا الانتساب وإن عُدّت في غيرها نقيصة أو استهتاراً أو

هم بأن يردّ محفوظاته مثل «جمال الرجل في أخلاقه» ألخ، ولكن غريزة من غرائزه أوحى إليه بأن مثل هذا القول - مع صدوره عن شخص في صورته - لن يلقى عند معبودته إلا الهزء والسخرية، فقال وهو يعاى وخزاً في قلبه داراه بضحكة مصطنعة:

- لست من أربك...

- أو لعلك تنفر من الجبال كما تنفر من البيرة ولحم

الخنزير!

فضحك ضحكة يعالج بها يأسره وقهره، فسادت تقول:

- الشّعير الطبيعيّ غطاء طبيعيّ اعتقد أن رأسك في حاجة إليه، ألا تعلم أن رأسك كبير جداً؟
ذو الرأسون! أنسيت ذلك النداء القديم؟... يا للنعاسة!

- هو كذلك...

- له؟...

أجاب وهو يهز رأسه في إنكار:

- سليه بنفسك فإنني لا أدري.

ضحكت ضحكة خافتة، أعقبتها صمت، معبودك جميل فائن ساحر، ولكنه ذو جبروت كما ينبغي له، فُك جبروته وتلقن شتى أنواع الألم. ولم ترجمه فيما بدا، لم تزل عينها الجميلتان تصدّان البصر في وجهه وتصويان حتى ثبّتتا على... أجل على أنه... هنالك وجد قشعريرة في أحياقه حتى فتّ شعره وغضّ البصر وهو خائف يترقب، وسمعها تضحك، فرفع عينيه وهو يتسادل:

- ماذا يضحكك؟

- ذكرت أموراً مثيرة طالعها في مسرحية فرنسية معروفة، ألم تقرأ «سيرانو دي برجراك»؟.

أنسب الأوقات للاستخفاف بالألم وقت يزيد فيه الألم عن حله، قال بدهو واستهانة:

- لا داعي للمداواة، أنا أعرف أن أنفي أكبر من رأسي، ولكن أرجو ألا تسالي مرة أخرى «له؟» سليه بنفسك إن شئت...

وإذا بيدور عمد يلها فجأة فتقبض على أنه،

لح - فيها بدا - شخصاً قداماً، فأدار رأسه ثم هتب:
- ها هو حسن سليم قد أقبل، كم الساعة الآن؟
فالتفت كيال إلى الوراء، فرأى حسن مقبلاً نحو
الكشك...

- ١٩ -

غادر حسن وكيال سراي آل شذاد والساعة تدور في
الواحدة، وهم كيال بالفرق عن صاحبه أمام باب
القصر، ولكن الآخر قال له برجاء:

- هلاً تمثيت معي قليلاً من الوقت...

فلقى كيال الدعوة عن طيب خاطر، وسارا في
شارع السرايات جنباً إلى جنب... كيال بقامته
الطويلة، وحسن لا يكاد يبلغ رأسه منكب صاحبه، لم
يكن يخلو من تساؤل! خاصة وأن الوقت لم يكن
أنسب الأوقات للمشي الذي ليس وراءه هدف، وما
يذري إلا وحسن يلتفت إليه متسائلاً:

- ليم كتبنا تحدثان؟

- فأجلب كيال وهو يزداد تساؤلاً:

- في أمور شتى كالعادة، سياسة... ثقافة الخ...

فكانت مفاجأة حقاً أن يقول له بصوته الهادئ

المترن:

- أعني أنت وعابدة...

فاستولت الدهشة على كيال، حتى لبث ثواني لا
يتكلم، ثم غمالك نفسه فسأله:

- كيف عرفت هذا ولم تكن معنا؟

فقال حسن سليم دون أن يلوح في وجهه أي
تغير:

- جئت في أثناء حديثكما، فترأي لي أن أذهب إلى
حين حتى لا أقطعكم عليكما...

تري أكان يسلك مسلكه لو وجد نفسه في موقفه؟
واشتدّت به الحيرة وخلاله شعور بأنه مقبل على حديث
مثير ذي شجون، قال:

- لا احري ماذا حلك على ذلك التصرف، ولو

لمحتك ما تركتك تذهب...

معصية، ولا ذنب لها هي أن نشأ من صفة من صفاتها
ألم في قلبه أو يأس في نفسه ما دام العيب عيبه هو لا
عيبها هي، وهل كانت هي التي كثرت رأسه أو
غلطت أنفه؟ أو هل تراها جارت بدعاباتها على
الصدق والواقع؟ لم يحدث شيء من هذا فانتفى عنها
اللام وحق عليه الألم، وعليه أن يتقبله بتسليم صوفي
كما يتقبل العابد القضاء وهو أصدق ما يكون إيماناً بأنه
قضاء عادل مهما يكن من قسوته، وأنه صادر عن
معبود كامل لا مظنة في صفة من صفاته أو إرادة من
إراداته... هكذا خرج من التجربة القصيرة العنيفة
التي صهرته منذ دقائق وهو أشد ما يكون ألماً وعذاباً
ولكن دون أن ينال ذلك من قوّة حبه وافتنانه
بالحبيب... الساعة يحظى بمعرفة ألم جديد، ألم
الرضى بحكم قاسٍ قضى عليه بعدم الأهلية، كما
عرف من قبل - عن طريق الحب أيضاً - ألم الفراق وألم
الإغضاء وألم الوداع وألم الشك وألم اليأس، وكما عرف
أيضاً ألماً يحتمل وألماً يستلذ وألماً لا يسكن مهما قدّم
له من قربان التواضعات والدموع، كأنما أحب ليغفقه في
معجم الألم، ولكنه على التسامح الشرر المتطاير من
ارتطام الألام يرى نفسه ويعرف أشياء، ليس الله
والروح والمائة - فحسب - ما يجب أن تعرفه، ما
الحب؟... ما البغض؟... ما الجسال؟... ما
الفتح؟... ما المرأة؟... ما الرجل؟... كل أولئك
يجب أن تعرف أيضاً، أقصى درجات الهلاك تماشى أولى
درجات النجاة، أذكر ضاحكاً أو اضحك ذاكرة أنك
همت بالإغضاء إليها بمكنون سرّك؟ أذكر باكياً أن
أحلب نورتردام ملا حبيته رعباً وهو يحنو عليها
مواشياً، وأنه - أحلب نورتردام - لم يستشر عطفها
البرهي إلا وهو يلفظ آخر أنفاسه الأخيرة، وإليك أن
تزلزل من مزاجي!... حتى راحة اليأس تضرّ بها
عليك، فليفصح المعبود عن ذات نفسه علناً نخرج من
جحيم الحيرة ونطمئن في قبر اليأس، هيهات أن يقتلع
اليأس جذور الحب من قلبي، ولكنه على أي حال
منجاة من كواذب الآمال...
والتفت حسين نحوه ليسأله عن سرّ صمته، ولكنه

يستحق أن أخبرك به ما كتبتك، ليس إلا أننا تكلمنا بعض الوقت في شئون عادية وهذا كل ما هنالك، غير أنك أيقظت حب الاستطلاع في نفسي فهل لي أن أسالك - ولو من باب العلم بالشيء - عن الأسباب التي تراها مبررة لسؤالك؟ لست ألح بطبيعة الحال، بل إنني على أتم الاستعداد للنزول عن سؤالي إذا لم يصادف منك قبولاً...

قال حسن سليم يهدوه وآثرته المألوفين:

- سأحدثك عما تسأل عنه، ولكن أرجو أن تنتظر قليلاً، يبدو أنك لا توة إخباري عما دار بينكما من حديث، وهذا حقك لا ريب فيه، بل لا أجد فيه إخلالاً بواجب الصداقة، ولكنني أود أن ألقت نظرك إلى أن كثيرين يُحدثون بحديث عابدة ويفسرون تفسيراً لا يمت للواقع بسبب، وربما أحدثوا لأنفسهم بسبب ذلك متاعب لا داعي لها...

أفصح عما تريد قوله، في الجواب نذر نهم لا يلبث أن يتقلب إعصاراً فيعصف بقلبك المطعون، كأن به موضعاً سليماً لم يُطعن! أنت أنت المندوع يا صاح، ألا تدري أنه الحياء وحده الذي يمنعي من أن أفصح إليك بما كان؟! فلنصمغي الصواعق إن أرحت لك بالاً.

- لم أفهم مما قلت حرفاً...

علا صوت حسن قليلاً، وهو يقول:

- لسانها يجود في سر بالطف الكلام، فيحسبه السامع ذا مغزى أو أن وراء عاطفة ما، ولكنه عضو كلام لطيف تخاطب به كل من يجادها سرّاً أو جهراً!

وكم خدع كثيرين...

برح الخفاء، صاحبك مصاب بالداء الذي هصرك! من يكون حتى يدعي العلم بالبراطن؟! شد ما يشير حنفي! قال بأسياً وهو يتظاهر بعدم الاكتراث:

- يبدو أنك واثق مما تقول؟!!

- إنني أعرف عابدة حق المعرفة، نحن جيران منذ بعيد...

الاسم الذي يهاب النطق به في السرّ فضلاً عن الجهر ينطق به هذا الشاب المفتون بلا مبالاة، كأنه

- لثيقة أحكام! اعترف بأنني شديد الحساسية في هذه الناحية...

آداب أرسنقراطية!... أين أنت من إدراكها.

- لا نؤاخذي إذا صارتك بالثقة تدقق أكثر مما ينبغي...

ابتسم حسين ابتسامة خفيفة لم تمكث على شفته، ثم بدا كالمنتظر، ولها طال به الانتظار عاد يتساءل:

- نعم؟... فيها كنتما تتحدثان؟

كيف إذن ارتضت آداب اللياقة مثل هذا الاستجواب؟! وفكر لحظات في توجيه هذه الملاحظة إليه، غير أنه دقق في اختيار الصياغة الجذيرة بالاحترام الذي يكتنه له - احترام يرجع إلى شخصيته أكثر مما يرجع إلى سنه - حتى قال:

- المسألة أبسط من أن تحتاج إلى هذا كله، غير أنني

أتساءل عن مدى التزامي بالإجابة!

فبادره حسن قائلاً بلهجة للمعتبر:

- أرجو ألا ترميني بلهجة المتطفل أو بدم أنفي في خاصّ شئونك، فإنّ لديّ من الأسباب ما يبرّر هذا السؤال، وسوف أحدثك عن أمور لم تعرض مناسبة تجعلني أحدثك عنها من قبل، غير أنني اعتقدت - اعتماداً على ما بيننا من صداقة - أنك لن تضيق بسؤالي، أرجو ألا تفهم الأمر على غير هذا الوجه...

خفت التوتر، ولعلّه سرّ لتلقي هذا الكلام الرقيق عن حسن سليم بالذات، الشخص الذي طالما رآه مثلاً للارستقراطية والنبل والكبرياء، فضلاً عن أنه كان أرغب منه في استفاد أوجه الحديث عن أمر يتعلق بمعموده. لو كان إسما عليل لطيف هو صاحب السؤال ما احتاج الأمر إلى شيء من هذا اللفّ والدوران حول ما يجب وما لا يجب وما يليق وما لا يليق، وربما كان أفشى إليه بكل شيء وما يتضاحكان، ولكن حسن سليم لا يخرج عن تحفظه أبداً ولا يخلط بين الصداقة ورفع الكلفة، فلا بأس من أن يؤدي ثمن تحفظه! قال:

- أشكرك على حسن ظنك، وثق بأنه لو كان ثمة ما

اسم فرد من غبار الملايين! هذه الجرة فيه تخفضه في قلبه درجات وترفعه في خياله درجات، وجلة ونحن جيران منذ بعيدة حوت في قلبه كالخنجر فاطاحت به كما تطيح النوى بالغريب. سألته بلهجة مؤثبة وإن لم يجل مدلولها من سخرية:

- ألا يجوز أن تكون شُعدت أيضًا كالآخرين؟

فتراجع رأس حسن في كبرياء، وهو يقول في يقين:

- لست كالآخرين...!

شدّ ما أحفقه عطرته، شدّ ما أحفقه جماله وثفته بنفسه، هذا الابن المدلل للمستشار الخطير الذي ترتقي الشبهات إلى أحكامه السياسية! ونلت عن حسن «هه» كأنه ذيل ضحكة وإن لم تضحك أساريه، أراد أن يمهّد بها للانتقال من طبقة صوتية متفطرة إلى طبقة أخرى لطيفة، ثم قال:

- إنّه فناء عمتاز لا تشوبها شائبة، ولو أنّ مظهرها وحديثها وأنسها تجرّ عليها الظنون أحياناً!

فيادره كمال قائلاً بحماس:

- إنّ مظهرها وبخبرها على السواء ل فوق كلّ ظلّ!

فحنى حسن رأسه بامتنان كأنما يقول له «أحسنّت»، ثم قال:

- هذا ما ينبغي أن تراه عين بصيرة سليمة، غير أنّ ثمة أموراً تحيّز بعض الأفهام، سافرب لك أمثلة على سبيل التوضيح: إنّ البعض يسيء فهم اختلاطها في الحديقة بأصدقاء أخيها حسين، نابلة ما جرت به التقاليد الشرقية، والبعض الآخر يقف متسائلاً حيال عاداتها لهذا وملاحظتها لذلك، وآخرون يتوقّعون وراء الدعابة اللطيفة - تصدر عنها عفواً - سرّاً خطيراً، هل أدركت ما أعني؟!

فقال كمال بنفس الحماس السابق:

- إنّ أدرك ما تعني طبعاً، ولكنني أعتنى أن تكون مغالاً في ظنونك، عني أنا شخصياً لم يساورني شكّ قطّ في أيّ تصرف من تصرفاتنا، لأنّ أحاديثها ودعابتها ظاهرة البراءة، ولأنّها من ناحية أخرى لم تتلقّ تربية شرّية خالصة حتّى تطلب بالمحافظة على التقاليد أو تؤاخذ على الخروج عليها، وأظنّ أنّ هذا هو رأي

الآخرين أيضاً...

هرّ حسن رأسه كأنما يتمنّى لو يستطيع أن يؤمن برأيه في «الآخرين»، غير أنّ كمال لم يمنّ بالتعلق على ملاحظته الصامتة، كان سعيداً بالدفاع عن معبودته، سعيداً بالفرصة التي تهيأت له لإعلان رأيه في طهارتها وبراءتها، أجل لم يكن صادقاً في حماسه، لا لأنّه كان

يظن غير ما يعلن - فطالما آمن بأنّ معبودته فوق مثال الشبهات - ولكن حزناً على الأحلام السعيدة التي قامت على افتراض وجود «سر» وراء دعابات المعبودة وتلميحاتها الرقيقة، إنّ حسن يبدّد تلك الأحلام كما بدّدها حديث اليوم تحت الكشك، ومع أنّ قلبه المكشوف كان يجاهد سرّاً للاستمساك ولو بخيط واو من خيوط الأمل، فإنّه جارى حسن سليم بجارية المؤمن برأيه تغطية لموقفه ومداراة لزعيمته وإبطالاً لادّعاء الآخر بأنّه «المارف» وحده لحقيقة المعبودة! عاد حسن يقول:

- لا غرابة في أن تدرك هذا فلتك شابّ لبيب، الواقع كما قلت إنّ عابدة بريئة ولكن... معذرة إذا صارحتك بخصلة فيها ربّما بدت غريبة في عينك، وربّما كانت مشوّلة لحدّ كبير عن سوء فهم الكثيرين لها، أعني شغفها بأن تكون «فتاة أحلام» كلّ من يتصل بها من الشباب!... لا تنس أنّه شغف بريء، فإني أشهد بأنّي لم أصادف فتاة أحفظ لكرامتها منها، ولكنّها مولعة بقرارة الروايات الفرنسية، كثيرة التحدّث عن بطلاتها، مفعمة الرأس بالخيال!

ابتسم كمال ابتسامة مطمئنة أراد بها عن أنّه لم يسمع جديداً فيها قال صاحبه، ثمّ قال مدفوعاً برغبة في إغاضته:

- عرفت هذا كلّ من قبل، دار حديثنا يوماً - أنا وحسين وهي - عن الموضوع ذاته!

تمكّن أخيراً أن يخرجها عن وقاره الأرستقراطيّ، فتنقلت أساريه بالدش وتسامل كالمنزعج:

- متى كان ذلك؟ لا أذكر أنّي حضرت هذا الحديث! هل قيل أمام عابدة أنّها تؤدّ أن تكون «فتاة أحلام» كلّ شابّ؟...

رمى كمال ما طرأ عليه من تغيّر بعين الظفر

والارتياح، غير أنه أشفق من التباين، فقال بحلوه:

- لم يرد ذكر هذا بلقطه ولكن باللمنى الذي يؤكّي إليه خلال حديث دار حول ولعها بالروايات الفرنسية وأغراقها في الخيال!

استرد حسن هدوءه وأتزانته، ولزم الصمت ملياً كأنه يحاول أن يستجمع فكره الذي نجح كمال في تشتيته إلى حين، وبدأ كالتردد لحظات حتى شعر كمال بأنه يودّ أن يعرف كلّ شيء عن الحديث الذي دار بينه وبين عابدة وحسين، متى وقع؟ ماذا جعلهم يطرقون هذه الشئون الحساسة؟ وما تفصيل ما قيل فيه؟ لولا أن كبريائه كان يمنعه من السؤال، وأخيراً قال:

- ها أنت نفسك تشهد لصدق رأيي، ولكن من سوء الحظّ أن كثيرين لم يفهموا سلوك عابدة كما فهمته أنت، فلم يفتنوا إلى حقيقة هامة وهي أنّها تحبّ حبّ الشخص لها لا الشخص نفسه!

لو أطلع الاحقّ على الواقع ما تنجّم كلّ هذا التعب الضائع، ألا يعلم بأنّي لا أطمع حتى في أن تحبّ حيّ؟ انظر إلى رأسي وأنفي وأنعم بالألا قال بصوت من يخلّ من تنجّم:

- تحبّ حبّ الشخص لها لا الشخص نفسه! يا لها من فلسفة!

- هي حقيقة أنا بها عليم!

- ولكنك لا تستطيع أن تضمن صدقها في جميع الأحوال؟!

- بل أستطيع وأنا مضمض العينين.

غالب كمال حزنه وهو يتسالم متظاهراً بالدهش: - أستطيع أن تؤكّد من يقين أنّها لا تحبّ هذا الشخص أو ذاك؟

فقال حسن بثقة واطمئنان:

- أستطيع أن أوّكّد أنّها لم تحبّ أحداً من يتوصّون أحياناً أنّها تحبهم!

اثنان يحقّ لها أن يتكلّما بهذه الثقة: المؤمن واللاحق، وهو ليس باللاحق، ترى لم يتحرك الألم ولا جديد فيها سمعت؟ الحقّ أنّي تألّمت اليوم تألّم عام من أصوام الحبّ.

- ولكنك لا تستطيع أن تؤكّد أنّها لا تحبّ إطلاقاً؟!

- لم يقل هذا...

فرمقه بالعين التي يتطلّع بها الإنسان إلى العزّاف، ثمّ سأل:

- أتدري إذن أنّها تحبّ؟

فحقى رأسه بالإيجاب، وقال:

- إنّما دعوتك إلى المشي لأحدثك عن هذا...

غاص قلبه في أحياق صدره كأنما يحاول الفرار من الألم ولكنّه غرق في حباب الألم، كان قبل ذلك يتألّم لأنّها لا يمكن أن تحبّه، ها هو معبّد يؤكّد له أنّها تحبّ... إنّ المعسودة تحبّ!... إنّ قلبها الملائكيّ يخضع لنوايس الشوق والحنين والرغبة واللهافة الموجهة جيّماً إلى شخص معيّن! أجل كان عقله - لا شعوره - يسلم أحياناً بإمكان ذلك، ولكن كما يسلم بالموت كفكرة مجرّدة لا كحقيقة باردة ناشبة في جسد عزيز أو في جسده هو بالذات، لذلك فلجأه الخبر كأنه يتحقّق لأول مرة في الوجود والفكر ممّا تأمل هذه الحقائق جيّماً واعترف بأنّ ثمة الأمان في هذه الدنيا لم تحطرك على بال رغم خبرتك العميقة بالألم، استطرّد حسن قائلاً:

- قلت لك من يبادئ الأمر إنّ لدّي من الأسباب ما يبرّر هذا الحديث مملك، وألا ما سمحت لنفسني بالتدخّل في خاصّ شئونك... ينبغي أن تلتهمه النار المقدّسة حتى آخر ذرّة من رماد.

- إني مقتنع بما تقول، وما أنا مصغّ إليك... ابتسم حسن ابتسامة خفيفة أوحّت بتركه حيال الكلمة الأخيرة الفاصلة، فصرّ كمال، ثمّ تعجّله - رغم أنّ قلبه استشفّ الحقيقة المنجّمة - قائلاً:

- قلت إنّك تدري أنّها تحبّ...؟!

فنبذ حسن التردد قائلاً:

- نعم، يوجد بيننا ما يجعل لي الحقّ في ادّعاء ما قلت...!

عابدة تحبّ أيّتها السواوات! أوتار قلبك تنقبض باعثة لحناً جنائزياً، هل يكرّ قلبها لهذا الشابّ السعيد

مثل ما يكتنه لها قلبك، إن صحَّ أنَّ هذا من الممكنات

فأحرى بالعالم أن يتصدَّع، ليس صاحبك بكاذب لأنَّ

النيل الجميل لا يكذب، قصارى أملك أن يكون

حبَّها من جنس خلاف حبِّك، وإذا لم يكن من

الفاجمة بدَّ فمن العزاء أن يكون حسن هو المحبوب،

من العزاء أيضًا أنَّ الحزن والغيرة لا يطمسان الحقيقة

أمام عينيك، هذا الغنى الساحر العجيب! قال كالذي

يضغط على زناد المسكس وهو يعلم أنه فارغ:

- يبدو أنك مطمئنٌ إلى أنها تحبُّ - هذه المرة -

الشخص نفسه لا حبَّ الشخص لها!

فندت عنه «هه» مرَّةً أخرى ليعرب بها عن ثقته.

ولحه بنظرة سريعة ليرى مدى إيمانه بما يقول، ثم

قال:

- لم يكن حديثنا فقط - أنا وهي - من النوع الذي

يحتمل معنيين!

أي نوع من الحديث هو؟ حياتي كلها أمهبا ثمنا

لكلمة منه، أعرف الحقيقة كلها وأتجرَّع العذاب حتَّى

الثالة، ترى هل سمع الصوت المطرب وهو يقول له

«أحبك؟» بالفرنسية قالها أم بالبريتية؟ يمثل هذا

العذاب تشتعل النيران، قال بهدوء:

- أهتلك، كلاكيا فيها أرى جلدير بصاحبه!

- شكرًا...

- غير آتي أنسامل عمَّا دذاك إلى الإفضاء إليَّ بهذا

السُرِّ الثمين؟

رفع حاجبيه حسن، وهو يقول:

- لينا وجدتكما تحدَّثان على انفراد أشفقت أن

تُخدع ببعض القول كما تُخدع كثيرون، فصممت على

مصارحتك بالحقيقة، لأنِّي كرهت فكرة انخداعك أنت

بالذات...

غمغم كمال قائلاً «شكرًا» تأثَّرًا بالعطف السامي،

عطف الشابِّ الموهوب الذي تحبُّ عايده، الذي كره له

الانخداع فقتله بالحقيقة، ترى ألم تكن أوهام الغيرة

بين البواعث التي أغرته بمصارحته بسرِّه؟ ولكنَّ أليس

له عينان يرى بهما رأسه وأنفه؟ استطرده حسن قائلاً:

- إنَّها ووالدتها كثيرًا ما تزوران بيتنا، وهناك تسنع

لنا فرص للحديث...

- على انفراد؟

أفقت العبارة منه بلا وعي، فارتبك نادمًا وتودَّع

وجهه، ولكنَّ الآخر قال ببساطة:

- أحيانًا...

كم يؤدُّ أن يراها في هذا الدور - دور المحبة - الذي

لم يحطَّر له في خياله، كيف تتجلَّ في العين الساجية

التي تلقي إليه بنظرتها من غُلِّ لمة الوجد والحنان؟

منظر يضيء العقل بقبس من الحقيقة المقدَّسة ويقتل

القلب قتلاً، بهذا تُستباح لعنة الكفر الأبدية، وروحك

يتمللم كطائر سجين يؤدُّ أن يتنطق، العالم ملتحق

خرابات يستعذب عنه الرحيل، لكنَّك حتَّى إذا صحَّ

عندك أنَّ الشفاء تلاقت في قبلة وردية فلن تُعدم في

دوامة الجنون لَدَّة الحزينة المطلق، وسأله مدفوعًا برغبة

انتحارية لم يستطع مقاومتها فضلًا عن فهمها:

- كيف إذن توافق على اختلاطها بأصدقاء حسين؟

ترثت حسن قليلًا قبل أن يجيب قائلاً:

- لعليَّ لا ارتاح إلى ذلك كلِّ الارتاح، ولكنِّي لا

أجد فيه مأخذًا وهي تمارسه على مرأى من أخيها ومن

الجميع ويحكم تربيته الأوربية، ولا أخفي عليك أنَّ

فكرت أحيانًا في مكاشفتها بامتعاضي ولكنِّي كرهت أن

توميئي بالغيرة، وكم تودُّ لو تثير غيبي! أنت تعرف

طبعًا هذه الحيل النسائية واعترف لك بأنِّي لا

أستسيغها...

لا عجب أنَّ إثبتت دوران الأرض حول نفسها

وحول الشمس قد أطاح بأوهام ودُخِّع رؤسا.

- كأنَّها تتعمَّد مضايقتك!

فقال حسن بلهجة الناطقة بالغة:

- على أنَّه في وسعي دائمًا أن أحملها على الإذعان

لمشيئتي إذا أردت!

أثَّارت هذه الجملة واللهجة التي قيلت بها إلى حدِّ

الجنون، وتمقَّى لو يجد سببًا يعتلُّ به على ضربه ليمزَّغه

- وإنَّه لبقادر - في التراب، ولحظه من غُلِّ فلاح له

الفارق بين طوليهما أكثر من الواقع بكثير، لم تمَّ تحبُّ

أيضًا الذي دونها سنًا وأمن قلبه بأنَّه خسر الدنيا.

له بيدها المطلقة، فتكلم منها ليأخذها بين ذراعيه، ولكن عايلة جذبتها نحوها وهي تقول: «وَأَنْ لَنَا أَنْ نذهب، ثُمَّ حَيْثُمُ ومضت إلى حال سبيلها! آه، ما معنى هذا؟ إِنَّ عايلة غضبانة عليه وما أرادت بمجيئها إِلَّا أَنْ تماننه بغضبها، ولكن فهم أخذته؟ أيّ ذنب جنى؟ أيّ هفوة كبيرة أو صغيرة أن؟ يا لها من حيرة هزلت بمنطقه وشئت يقينه، بيد أنه قبض على زمام نفسه بيد قويّة أن تفضحه شجونه، وكان على ضبط النفس قادراً، فعُمل دوره المألوف مثبلاً حسناً ووارى أثر الضربة القاصمة عن أعين الصحاب، وقال لنفسه بعد تقوُّص المجلس: إنّه يحسن به أن يواجه الحقيقة مهما تكن قاسية، وأن يسلم بأنّ عايلة حرمت - اليوم على الأقل - من نعمة صداقتها... إِنَّ في قلبه العاشق مسجلاً كهربائياً دقيقاً لا يترك للمحبب همسة أو خطرة أو لمحة إِلَّا مسجلها.

حتى التوايا يطلع عليها وحتى الآتي البعيد يتدبّر، ليكون السبب ما يكون أو ليكون الأمر بلا سبب كمرضى استعصى على الطب سرّه، فإنه في الحالين يرى كأنه ورقة شجر انتزعها ريح عاتية من فنن غصن وألفت بها في غث النفايات.

ووجد فكره يحوم حول حسن سليم، ألم يشتد حديثه معه بقوله «هل أنه في وسعي دائماً أن أحلها على الإذعان لمشيئتي إذا أردت؟» ولكنها جاءت اليوم كعادتها، إن بلواه من تجاهلها إياه لا من غيابها، ثم إنه وحسن الترقا على صفاء، وليس ثمة ما يدعو حسن إلى مطالبتها بتجاهله، وليست هي بالتي تمثل أمر إنسان مهما يكن شأنه، وليس هو بالمذنب، فما سرّ التجني يا ربّ الساعات؟! إن لقاء الكشك - بينه وبينها - على قسوته وعينه الجارح برأسه وأنه وكرامته لم يجلّ من مودة ودعابة ثم حُتم بما يشبه الاعتذار، ربّما يكون قد قضى على أمله في الحب ولكنه لم يكن في حبه أمل، أما لقاء اليوم فبالبطل بالتجاهل، بالبذخ بالصمت، بالموت، ولأن يحفو الحبيب أو يقسو غير على أيّ حال من أن يرمّ بعابده وكأنه شيء لم يكن، يا للتعاسة! ألم جديد يضاف إلى معجم الآلام الذي

ودعه حسن إلى تناول الغداء على مائدته، فاعتذر شاكرًا، ثم تصافحا وافترقا.

عاد فاطر النفس منقلب القلب بالقوط، وكان يؤدّ أن يخلو إلى نفسه ليحتضن أحداث يومه متأسلاً حتى يستصفي معانيها كلها، بدت الحياة متلفعة بشوب حداد، ولكن ألم يكن يعلم من أول الأمر أنّ هذا الحب ضائع؟ فأيّ جديد جلبت به الحوادث؟ على أيّ حال ليكن عزائه أنّ الآخرين يتكلمون عن الحب، أمّا هو فيحبّ مرء قلبه. إنّ الحب الذي ينور روحه لا يستطيعه أحد سواه، فهذا هو امتيازه وتفوقه، ولن يتخلّى عن حلمه القديم بأن يظفر بمحبته في السماء، في الساء حيث لا فوارق مصطنعة ولا رأس كبير ولا أنف غليظ، في السماء ستكون عايلة لي وحدي بحكم قوانين السماء...

- ٢٠ -

كأنه لم يعد له وجود، تجاهلته بحال لا يمكن أن يتأقّل إِلَّا من تمعد، فعن إلى ذلك أول ما فطن إليه صباح الجمعة التالي - بعد مضيّ أسبوع على حديث بكشك الحديقة بسراي آل شدّاد. كانوا يتحدّثون فجاءت عايلة كعادتها مصطحبة بدور، لبث عندهم قليلاً مخاطب هذا وتداعب ذاك دون أن تعمّر التفاتاً، فظنّ أول وهلة أنّ دوره سيحيى. ولكن طال به الترقب، ولاحظ إلى هذا أنّ عينيها لا تريدان أن تلتقيا بعينه أو لعلها تجتنباه فخرج عن موقفه السليم واعترض حديثها بملاحظة عابرة ليحملها على مخاطبته، ولكنها واصلت الحديث متجاهلة إياه، ومع أنّ أحداً لم يتنبّه فيها بدا إلى مناوراته الفاضلة - لانبياهم في الحديث الملبوب - فإنّ ذلك لم يخفّف من وقع اللطمة التي تلقّاها من غير أن يدرك لها سبباً، غير أنّه مال إلى تكذيب ما قام بنفسه ودارى شكوكه، وجعل يتحرّج الفرص لتجربة حظه من جديد وهو من الإشفاق في غابة، وإذا ببدور تحاول الإفلات من يد عايلة ملوثة

يحملة على صدره، ضريبة جديدة للحب، وما أُنْفِج
ضرائبه، يؤذي بها ثمن التور الذي يضيئه ويغرقه.
واحترق بالغضب صدره، عزّ عليه جدًّا ألا يحظى
على حبّه العظيم إلا بهذا الإعراض البارد للتصجر،
وحزّ في نفسه ألا يتمخض غضبه إلا عن الحبّ
والولاء، وألا يردّ اللطمة إلا بالابتهاك والدعاء، ولو
كان المتجنّي عليها شخصًا آخر ولو كان حسين شَدَّاد
نفسه لقطعته دون تردّد، أمّا وهو المبود فقد رُكِّت
شظايا الغضب إلى نهره، وانصبت العداوة على هدف
واحد هو نفسه، فنزعت به الرغبة في الانتقام إلى إنزال
العقاب بالجاني - الذي هو نفسه - قضي عليها بالخرمان
من الدنيا، وامتلأ بشعور عنيد محزون أملى عليه
الإعراض عنها إلى الأبد! رضي فيما رضي بصداقتها،
بل اعتبرها فوق أحلام مطعمه بالرغم من أنّ قوّة حبّه
تضيق عنها السواوات والأرض، ورضي أكثر من هذا
باليأس من حبّها قائمًا من عريضة الأمانى بانتسامة حلوة
أو كلمة رقيقة ولو تكون ابتسامة الدواع وكلمته، غير
أنّ التجاهل أحزنه وأفعله وخبله ثم من الدنيا جيئًا
نبله، ولعلّهُ أتاح له أن يشعر بشعور الميت لو كان
ميت يشعر، لم ترحه الفكر ساعة من ساعات يقظته
طول الأسبوع الذي قضاه بعيدًا عن قصر آل شَدَّاد،
وتهالك شعوره في اجتراح الخيبة التي قرعته لحظة بعد
أخرى، وهو في البيت صباخًا يفطر على مائدة أبيه،
وهو في الطريق يسير بحواس زائفة، وهو في مدرسة
المُعلِّمين يسمح بمقل غالب، وهو يقرأ مساء بانتباه
مشثًا، وهو يتدلّل للنديم كي يقبله في ملكوته، ثم
وهو يفتح عينيه في الصباح الباكر فذا بالفكر تتخاطفه
كأنّما كانت على عتبة الوعي ترصده أو كأنّما هي التي
طرقته بجزع النهم كي تواصل التهامه كَرّة أخرى، ألا
ما أظفح النفس إذا خانت صاحبها! ...

ويوم الجمعة ذهب إلى قصر الحبّ والعذاب، فبلغه
قبل الميعاد المعتاد بقليل. لماذا ترقّب هذا اليوم بصبر
نافذ؟ ماذا يرجو عنده؟ هل يطمح أن يجد ولو نبضًا
بطيئًا ضيقًا ليوهم نفسه بأنّ جيئة الأمل لم تفارقها
الحياة بعد؟ هل يحلم بمعجزة تردّ معبوده إلى الرضى

على غير انتظار وبلا سبب كما غضب على غير انتظار
وبلا سبب؟ أو أنّه يسترّد من الجحيم نازًا ظمًا إلى
برودة الرماد؟! سار في عمّ الذكريات إلى الحديقة، وإذا
به يرى عابدة جالسة على كرسيّ واضعة بدور على
حافة المائدة أمامها، وليس في الكشك سواها أحد!
توقّف عن المسير وفكر في العودة إلى الخارج قبل أن
تلغظ ناحيته، ولكنّه نبذ هذه الفكرة بتحدّ وازدراء،
وتقدّم صوب الكشك تدفعه رغبة شديدة في مواجهة
العذاب وكشف النقاب عن اللغز الذي فتك بأمّنه
وسلامه، هذا الكائن اللطيف الجميل، هذا الروح
الشفاف المتنكر في فستان امرأة، هل يدري ماذا فعل
به جفاه؟ هل ينام ضميره قرير العين لو شكّا إليه ما
عناّه، ما أشبه استبداده باستبداد الشمس بالأرض
الذي قضي عليها بأن تدور حولها في دائرة مرسومة - لا
تقترب منها فتندمج ولا تبعد عنها فتتهدى - إلى الأبد!
لو تجرد بانتسامة فيبتدأى بها من الآلهة جميعًا؟ وكان
يقترّب منها متمدّدًا أن يُجثّد في مشيته صوتًا لتنبهها،
فأدارت رأسها نحوه كالمتألّفة، ثم لم تفصح أسرارها
عن شيء، فوقف على بعد ذراعين من مجلسها، وحنى
رأسه في خشوع، وقال ياسًا:

- صباح الخير...

فحنّت رأسها حنوة صغيرة، ولكنّها لم تنبس، ثم
نظرت فيما أمامها.
لم يعد ثمة شكّ في أنّ الأمل جيئة هامدة، وشيكل
إليه أنّها ستصبح به واذذهب عني برأسك وانفك حتّى
لا يحجبا عني ضوء الشمس!، غير أنّ بدور لوّست له
بيدها، فمالّت عيناه إلى وجهها الجميل المشرق ومضى
نحوها ليداري في عطفها البريء هزيمته فتملّقت
بدرابعه، فهوى رأسه إليها وقبّل خدّها قبله حنان
وامتنان، وإذا بالصوت الذي فتح له فيها مضى أبواب
الموسيقى الإلهية يقول بجفاه:

- من فضلك لا تقبلّها، القبلّة تحمّية غير
صحيّة...!

نذت عنه ضحكة حائرة لم يدرك كيف ولا لم نذت،
ثم امتنع لونه، وبعد دقيقة واجدة ذاهلة قال منكرًا:

فقال بانزعاج:

- ماذا قلت عنك؟ ولبن قلته؟ أقسم لك...

فقاطعته بضيق قائلة:

- لا يمتحن القسم في كثير أو قليل، وقره لنفسك،

إنّ الذي يختاب الناس لا يؤمن على قسم، المهم أن

تذكر ماذا قلت عني...

رمى بمقطعه على مقعد كأنها ليأخذ كامل اهبتة

للنضال، وابتعد خطوة عن بدور ليتخلص من محاولتها

البرينة في الاستئثار بانتباهه، ثم قال بحرارة ناطقة

بالصدق:

- لم أقل عنك كلمة أنجمل من إحادتها الآن عل

مسمعك، لم أتقوّ عنك بكلمة سوء في حياتي وما كان

ذلك في وسعي لو تعلمين، وإذا كان «بعضهم» قد

أبلغك عني ما أغضبك، فهو واثق حقيق لا يستحق

ثقتك، وإنّي على استعداد لمواجهة أمامك لتري

بنفسك مبلغ صدقه أو بالحرى مدى كذبه. ماذا بك

من عيب حتى أتحدث به؟! لشّد ما أسأت بي الظن!

فقالت بتهكم:

- شكراً على هذا التناء الذي لا أستحقه، لا أظنني

أخلو من نقص، على الأقل لأنّي لم أتلثّ تربية شرقيّة

خالصة!

نشبت هذه الجملة الأخيرة في انتباهه، فذكر كيف

وردت على لسانه وهو يحاور حسن سليم دافماً

الشبهات عن معبودته، فهل يكون حسن أحادها

بطريقة أثارت الشك في حُسن مقصده؟! حسن سليم

النبيل؟ هل يتأتّى هذا حقّاً؟ شدّ ما يدور رأسه! قال

وعينه تنطقان بالدعش والأسف:

- ماذا تقصدين؟! أحصرت لك باقي قائل هذه

الجملة، ولكن سلمي حسن سليم يثيرك، أو ينبغي له

أن يثيرك، بأنّي قتلها وأنا أنزه عزايك!...

فحدثته بنظرة باردة، وتساءلت:

- مزايائي؟! وهل رغبت في أن أكون «فتاة أحلام»

كلّ شاب من بين هذه المزاياء؟!

فهتف كيال بانزعاج وغيظ:

- هو قائل هذا عنك لا أنا، هلّا انتظرت حتى

- إنّها ليست القبة الأولى فيها أدكر!

فرفعت كتفها كأنها تقول وهذا لا يغيّر من الحقيقة

شيئاً. آه، أبغض إلى أسبوع جديد من العذاب دون

أن ينطق بكلمة دافعاً عن نفسه؟

- اسمحي لي أن أتساءل عن سرّ هذا التغيّر

الغريب، فقد جعلت أتساءل عنه طوال الأسبوع

الماضي دون أن أظفر بجواب؟!

لم يبدُ عليها أنّها سمعته، وبالتالي لم تمنّ بالردّة

عليه، فعاد يقول وقد وشى صوته بحيرته وأله:

- إنّ ما يمزني حقّاً هو أنّي بريء لم أجني ما أستحقّ

عليه العقاب!

ولم تزل مصرة على الصمت، فخاف أن يحمي

حسين قبل أن يستدرجها إلى الكلام، فبادر يقول

بلهجة جمعت بين التشكي والتزجي:

- ألا يستحقّ صديق قديم مثلي أن يكافئ على

الأقلّ بذنيه؟

فرفعت نحوه جانب رأسها، ولحظته بنظرة مكفّهة

اكتمهرار السحاب المتدر بالطر، ثمّ قالت بلهجة

غاضبة:

- لا تدعّ البراءة الكافية!...

يا ربّ الساعات هل ترتكب الذنوب بلا وعي من

الجاني؟! قال في نبرات متدافعة، وهو يربّت بحركة

آلة يذّي بدور التي حاولت أن تعذبه إليها وهي لا

تذكر ممّا يدور شيئاً:

- صدقت! ظنوني وأسفاه! هذا ما حدثني به قلبي

فكذّبه، إنّ مذنب في نظرك، أليس كذلك؟ ولكن

بأيّ ذنب تتهمني؟! خبريني وحياتك، لا تنتظري أن

أكون البادئ بالاقرار لسبب بسيط، وهو أنّي لم

أجني شيئاً يستحقّ الاعتراف، مهما أنقّب في زوايا

نفسي وحياتي وتاريخي فلن أعرّ على نيّة أو كلمة أو

فعل رُجّه ضدك بسوء، إنّّي أعجب كيف لا تأخذين

هذا مأخذ البديعيات من الأمور؟!

فقالت بازدياء:

- لست ممن يؤثّر فيهنّ التمثيل، سلّ نفسك عني

قلت عني!

يحضر لأعداء أمامك؟ ...

فواصلت تسألها الذي تتابع في مرارة وسخرية
قائلة:

- وهل ملاطفي إليك من بين هذه المزاي أيضاً؟

قال باشاً وقد عجز، حيال انصباب التهم، عن
الدفاع:

- ملاطفتك لي أي؟ أين؟ ومتى؟

- في هذا الكشك؟! هل نسيت؟! أنتكر أنك
أومته ذلك؟!

آلمته سخريتها وهي تتسالم «هل نسيت؟!» وأدرك
لتوه أن حسن سليم - يا للحقيقة - قد ظنّ بلفاء
الكشك الظنون، فكاشف حبيته بشكوكه أو نسبها
إليه ليتحقق منها... رجيل خبيثة راح هو ضحيتها!
قال بحزن وحتى:

- أنكر، أنكر بكل قوة وصدق، إني نادم على حُسن
ظني بـسَن!

فقالت بكبرياء، كأنها اعتبرت جلته الأخيرة موجّهة
إليها هي:

- إنه عند حُسن الظنّ دائماً...

زفر غباراً، وتخلّ إليه أن أبا الهول قد رفع قبضته
الجرانيّة المائلة التي لم تتحرّك منذ آلاف السنين، ثم
هوى بها عليه، فورسه وواراه تحتها إلى الأبد، قال
بصوت متهلّج:

- إذا كان حسن هو الذي أبلّغك عني هُله
الأكاذيب فهو كاذب وضيع، ويكون هو الذي اغتابني
لا أنا الذي اغتبتك...

لاحظ في عينيها الجميلتين نظرة قاسية، وتساءلت
بعده:

- أنتكر أنك انتقلت أمامه اختلاطي بأصدقاء
حسن؟!

أهكذا يحرف النبيل الأرستقراطي الكلام؟! قال
بتأثر شديد:

- كلا، لم يحصل ذلك، علم الله أنني لم أقله
منتقداً، ولكنه ادّعى أذعاهات كبيرة، قال... قال
إنك تحبّه! وقال إنه إن شاء منعك من الاختلاط بنا!

ولم أكن أنصد...

قاطعتها قائلة بالزبداء وهي تقف منتصبّة القامة في
كبرياء، حتّى تموجت هالة شعرها الأسود بحركة رأسها
الرفوع:

- أنت تهذي! لا يمتّني ما يقال عني، إني فوق هذا
كلّه، ولا خطأ لي فيها أعتقد إلا أنني أهب صداقتي
دون تمييز...

وأنزلت بدور إلى الأرض وهي تتكلّم، فتناولت
يدها ثمّ ولّته ظهرها، وغادرت الكشك، فتهف بها
متوسّلاً:

- انتظري لحظة من فضلك كي...

ولكنّها كانت قد ابتعدت، وكان صوته قد علا أكثر
ثمّا يبنغي حتّى تخيل إليه أنه أسمع الحديقة كلّها، وأنّ
الأشجار والكشك والكراسي ترفقه بنظرة جامدة
ساخرة، فأطبق فاه واعتمد براحته حافة المائدة، فإل
فرعه الطويل كأنما انحنى تحت ضغط الظهر، لم يمكث
وحده طويلاً، فإلّث أن جاء حسين شدّاد طلق
الحيا كعادته، فحيّاه تحيّة الصافية الحلوة وجلسا على
كرسيّين متجاورين، وتبعه بعد قليل إسماعيل لطيف،
وأخيراً جاء حسن سليم يسير في خطواته المتمهّلة
وحركاته المترقّعة. وتساءل كيال في حيرة: ترى ألم
يلمحها حسن من بعيد كما لمحها في المرّة السابقة؟

ومتى - وكيف - يدري بما دار بينهما من حديث قاطع
أسيف! وانفجر في صدره الغيظ والغيرة كما تنفجر
الزائدة، بيد أنه آلى عل نفسه ألاّ يشمت به غريباً،
وألاّ يضع شخصه موضع السخرية أو العطف
الزائف، وألاّ يميّن أحداً من أن يطالع في. صفحة
وجهه أثراً ممّا تضطرب به جوانحه، فألقى بنفسه في
تبار الحديث، ضحك لملاحظات إسماعيل لطيف،
وعلق طويلاً على تكوّن حزب الاتحاد وخروج
الخارجين على سعد زغلول والورد ودور نشأت باشا في
هذا كلّه، بالاختصار ممثّل دوره خير ممثّل حتّى انفضّ
المجلس بسلام، وغادر كيال وإسماعيل وحسن سراي
آل شدّاد عند الظهر، وكان كيال لم يمدّ يحتمل مزيداً
من الصبر، فخطب حسن قائلاً:

- أريد أن أحدثك قليلاً...
فقال حسن يهدو:
- تفضل...
فنظر كمال إلى إسماعيل كالمتلعو، وقال:
- على انفراد
هم إسماعيل بالانسحاب، فوافقه حسن بإشارة من يده، وقال:
- لست أخفي عن إسماعيل شيئاً...
فاحتفته هذه الحركة فاستشف وراهها مريباً يتوجس، غير أنه قال دون مبالاة:
- إذن فليسمنا، فلست أخفي عنه شيئاً أيضاً...
وانتظر قليلاً حتى باعد المشي بينهم وبين سراي آل شداد، ثم قال:
- قبل حضوركم اليوم اتفق لي أن قابلت عاينة في الكشك على انفراد، فدار بيننا حديث غريب أدركت منه أنك نقلت إليها بعض حديثنا في شارع السرايات - أتذكره؟ - مشوئها عرماً حتى دخل في روعها أنني حملت عليها حملة ظالمة باغية...
رد حسن بين شفتين متمعضتين لفسكي «مشو» وعرف، ثم قال ببرود وهو يلقي عليه نظرة كأنها يريد بها أن يذكره بأنه إنما يخاطب «حسن سليم» لا شخصاً آخر:
- بحسن بك أن تكلف نفسك بعض الجهد في تخير الألفاظ...
فقال كمال بانفعال:
- هذا ما فعلته فالحق أن كلامها لم يدع لي شغاً في أنك أردت الوقعة بيني وبينها
حال لون حسن غفياً، ولكنه لم يستسلم له، فقال بصوت أمن في البرود:
- يؤسفني أنني أحسن الظن طويلاً بفهمك وتقديرك للأمور (ثم بلهجة ساخرة) هلأ أخبرني حقاً عسى أن أجنبه من وراء هذه الوقعة المزعومة؟ الحق أنك تتدلع بلا رؤية أو عقل...
فاشتد الغضب بكمال، وهض قائلاً:
- بل سولت لك نفسك سلوكاً شائناً!...
- وهنا تدخل إسماعيل قائلاً:
- لني أترح عليكما تأجيل الحديث إلى وقت آخر تكونان فيه أملك لأعصابكما!
فقال كمال بإصرار:
- إن الأمر من الجلاء بحيث لا يحتاج إلى مناقشة، وهو عارف وأنا عارف!
فعاد إسماعيل يقول:
- قص علينا ما دار في الكشك بينك وبينها لعلنا...
ولكن حسن قال بكبرياء:
- أنا لا أقبل محاكمة...!
فهتف كمال منقساً عن غيظه، وإن كان يعلم أنه من الكاذبين:
- على أي حال أخبرني بالحقيقة لتعلم أننا أصلق قولاً!
فصاح حسن بوجه منمق:
- فلندعها توازن بين ما قال ابن التاجر وما قال ابن المستشار!
انذع كمال نحوه مكوراً قبضته فحاصل إسماعيل بينهما، وكان أقوى الثلاثة رغم ضالة حجمه، ثم قال بحزم:
- لا أسمح بهذا، كلاهما صديق، محترم ابن محترم، دهانا من هذا العبث الخلق بالاطفال...
عاد ثائراً هائجاً جريماً يقطع الطريق بخطوات حادة اعتدائية وياطنه يستمر بالألم، طمن في قلبه وكرامته، معبودته وأبيه، فما بقي له في الدنيا؟! وحسن، الذي لم يحترم زميلاً كسا احترامه ولا أعجب بخلق أحد كسا أعجب بخلقه، كيف انقلب في ساعة من الزمان وقاعاً سيئاً؟! الحق أنه رغم حقته عليه لم يستطع أن يؤمن بالتهمة التي اتهمه بها إيماناً خالصاً من كل شك أو تردد، فلم يزل يصاوده التفكير في الأمر، فيسائل نفسه: ألا يجوز أن يكون من وراء ذلك الموقف الأليم ما وراءه من أسرار؟! أليكون حسن شو كلامه، أم تكون عاينة قد أسامت الفهم أو بالغت في التكهن أو استسلمت للغضب؟ غير أن الموازنة بين ابن التاجر

بل عن الحيّ كَلَهُ، بل عن الدنيا كلّها فما عاد يجد لها طعمًا، أيّمكن أن يطول هذا الفراق إلى ما لا نهاية؟ . . . و قد لو كان قصدها أن تعاقبه حيًّا ثمّ تغفو، أو في الأقل أن يذكر حسين شَدَاد سببًا لغايبها يكذب غوافه، و قد هذا أو ذاك كثيرًا، وانتظر و طال انتظاره بلا فائدة.

كان إذا مضى لزيارة السراي أقبل عليها بعينين قلقتين تضطربان في عجزهما بين اليأس والرجاء، فيسترق إلى شرفة المدخل نظرة، وإلى نافذة الممرّ الجانبيّ نظرة، ثمّ يلحظ شرفة الحديقة وهو في طريق الكشك أو السلامك، ويجلس بين الأصديق ليلحم طويلًا بالمفاجأة السعيدة التي لا تريد أن تقع، وينفضّ المجلس فيفاديه ليختلس نظرات متعبّة حزينة من النافذة والشرفات، خاصّة نافذة الممرّ الجانبيّ التي كثيرًا ما تظهر في أحلام يقظته إطارًا للصورة المعبودة، ثمّ يذهب متجرّعًا اليأس زائرًا الكرب، وبلغ به اليأس أن كاد يسأل حسين شَدَاد عن سرّ اختفاء عابدة، غير أنّ تقاليد الحيّ العتيق الذي تشبّع بها عقلته فلم ينطق، وجعل يتساءل في قلق عن مدى إلمام حسين بالظروف التي أدت إلى توارى المعبودة، أمّا حسن سليم فلم يشر إلى «الماضي» بكلمة ولم يبدّ في صفحة وجهه أنّه يفكر على أيّ وجه فيه، ولكن لا شك أنّه كان يرى في كلّ جلسة تجمعهم شاهدًا على هزيمته - كمال - المجهّمة، وكم كان يتألم كمال هذا الحاضر، تعذب كثيرًا، شعر بالعذاب ينفذ إلى نخاعه، ويهلجان العذاب يخالط عقله، وكان شرًّا ما يذهب لوعة الفراق ومرارة الهزيمة وضيق اليأس، وأفزع من هذا كلّ الإحساس بالهوان، بأنّه المتبذو من روضة الرضى، المحروم من أنعام المعبود وأصواته، فجعل يرتدّ وروحه تلرب دموع الأمل والقهر «أين أنت من أولئك السعداء أيّتها المخلوق المشوّاء»، ما معنى الحياة إن أصرت على الاختفاء؟ أين تجد عينها النور؟ ويتلقّى قلبه الحرارة؟ وتنعم روحه بالنعمة؟ فلتبّد المعبودة بأيّ ثمن ترضاه، فلتبّد لتحبّ من تشاء حسن كان أو غيره، فلتبّد، ولتتهزأ برأسه وأفقه ما شاء لها المزاح

وابن المستشار دمت به في جحيم من الغضب والألم جعلًا من محاولة إنصاف حسن ضريبًا من العبث. وقد ذهب بعد ذلك إلى سراي آل شَدَاد في موعد اللقاء المعبود، فوجد حسن معتذرًا عن التخلف بطارئ، وأخبره إسمايل لطيف عقب انفضاض المجلس: بأنّه - حسن - أسف جدًّا على ما بدر منه حين الغضب عن «ابن التاجر وابن المستشار»، وأنّه مؤمن بأنّه - كمال - ظلمه ظلمًا فادحًا باستنتاجاته الواهمة وأنّه يرجو ألاّ تقطع هذه الحادثة العارضة أسباب الصداقة بينهما، وأنّه - حسن - كلّعه بإيلاخه ذلك عن لسانه، ثمّ تلقّى منه خطابًا بهذا المعنى مشدّدًا الرجاء في ألاّ يعودا إلى الماضي إذا تلاقيا وأن يسدلا عليه ستار النسيان، وختمه بقوله «أذكر جملة ما أسأت به إليّ وجملة ما أسأت به إليك لمكّك تقتنع معي بأنّ كلانا غطّي» وأنّه لا يصحّ لأحدنا تبسُّا للذّك أن يرفض اعتذار صاحبه». وطلبت نفس كمال بالرسالة حيًّا، بيد أنّه لاحظ أنّ ثمة تناقضًا بين كبرياء حسن المعروف وبين هذا الاعتذار الرقيق غير المتوقّع، أجل غير المتوقّع!! فما كان يتصوّر أنّه يعتبر لأيّ سبب من الأسباب؟ فإذا غيّر؟ لا يمكن أن يكون لصداقته هو هذا التأثير الضخم في كبرياء صاحبه، فلعنّه - حسن - أراد أن يستردّ سمعته المهذّبة أكثر ممّا أراد استرداد صداقته، ولعله حرص أيضًا على ألاّ يستفحل الشقاق فتترامى أنبأؤه إلى حسين شَدَاد أن يستاء الشاب لموقف شقيقته من النزاع أو يغضب بدوره إذا بلغه ما قيل عن ابن التاجر - وهو ابن تاجر - وابن المستشار! أيّ سبب من أولئك له وجهاته وهو أدنى إلى المنطق في حال حسن من اعتذار لا يراه به إلّا وجه الصداقة وحدها؟! كلّ شيء يوبن، فليصلحه حسن أو فليخاصمه، المهمّ حقًّا أن يعرف هل قرّرت عابدة الاختفاء؟ لم تمدّ تطوّف بمجلسهم، أو تبدو في النافذة، أو تلوح في الشرفة. لقد أفضى لما قول حسن بأنّه إذا شاء منهما من الاختلاط بأحد ليضمن - اعتمادًا على كبرائهما - إصرارها على زيارة الكشك فلا تجرم من رؤيتها. لكنّها اختفت رغم ذلك، كأنّها رحلت عن البيت كلّها،

إنسان هو أعرف بطفولة معبودته من هذه الأم السعيدة المقدسة! سوف تبقى الآلام ما بقي في متاعه الحياة أو في الأقل لن تمحي آثارها. أين تذهب ليالي يناير الطوال وهو دافئ في الوسادة عينيه الدامعتين؟ ويسبط راحتيه إلى ربّ الساعات وهو يدعو من الأعماق «اللَّهُمَّ قُلْ هَذَا الْحَبِّ كُنْ رَمَادًا كَمَا قُلْتَ لَنَارِ إِبْرَاهِيمَ كَوْنِي بِرَدًّا وَسَلَامًا؟» ويمتدّ لو كان للحبّ مركز معروف في الكائن البشريّ لعلّه يستره كما يُستر المعضو الشائر بالجراحة؟ وهتافه باسمها المحبوب ليلتقي صدها في سكون الحجر الصامتة بقلب خاشع كأنما كان غيره المتنادي؟ ومحاكاته لصوتها حينما دعت باسمه ليستعيد حلم السعادة المفقودة؟ وتقليبه البصر في كرّاسة الذكريات للتثبت من أنّ ما كان حقيقة لا وهمًا من الخيال؟!

ولأول مرّة منذ أعوام تطلّع إلى ما قبل الحبّ من الماضي بلهفة كما يتطلّع السجين إلى ذكريات الحرّة الضائعة، أجل لم يتصوّر شخصًا هو أشبه بحاله من السجين، غير أنّ قضبان السجن بدت أطوع للتخبط وأرقّ أمام الزمام من أخلال الحبّ الأثيرة التي تسائر المشاعر في القلب والأفكار في العقل والأعصاب في الجسد ثمّ لا تؤذّن بانحلال، ووجد نفسه يومًا يتساءل: ترى هل ذاق فهمي مثل هذا العذاب الذي يعانيه؟ وهفّت عليه ذكريات أخيه الراحل مثل لحن كامن حزين. تنهد في أعماق النفس. فذكر كيف قصّ يومًا على مسمعه مغامرة مريم مع جوليون، فأعمد خنجرًا مسمومًا في قلبه بهلا حيلة أو حذر. وجعل يستحضر في ذاكرته وجه فهمي، فتخلّل إليه هدومه الذي انخدع به وتذّلك، ثمّ تصوّر تقصّصات الألم في قسائه الجميلة حين خلا إلى نفسه، ومناجاة الشاكّة التي لا شكّ غرق فيها كما هو يغرق الآن في نأوّهاته وأنيته. فشمّر بغمز في قلبه وراح يقول: لقد علّى فهمي ما هو أشدّ من الرصاص قبل أن يستطرّ الرصاص في صدره! ومن عجب أنّه وجد في الحياة السياسيّة صورة مكبرة لحياته. فكان يطالع أنبأها في الصحف وكأنما يطالع مواقف تمامًا مرّ به في بين

واللعب، إنّ اشتياقه إلى اجتلاء طلعتها وسماح صوتها فاق طاقة النفس على الاشتياق، فأين منه نظرة رانية لتمسح عن صدره سمخام الكتابة والوحشة، ولتسرّ قلبًا أمسى مفقود السرور منه كالنور من فقيد البصر، فلتبذّر وإن تجاهد، فإنّه إن خسر سعادة القبول عندها فلن تضيع سعادة رؤيتها ورؤية الدنيا بعد ذلك في مجتلى ضوئها البهيج، أمّا بغير ذلك فلن تكون الحياة إلّا لحظات متصلة من الألم المخلخل بالجنون، وهل كان خروجها من حياته إلّا كخروج العمود الفقريّ من الجسم الإنسانيّ يرهّ من بعد توازن وتكامل إلى شبه جثة ناطقة؟

وأخبره الألم والقلق عن الصبر، فلم يعد يحتمل الانتظار حتّى يجيء يوم الجمعة فكان يلذهب مع الأصدقاء إلى العباسيّة فيحوم حول السراي من بعيد لعلّه يلحمها في نافذة أو شرفة أو في خطراتها وهي تطلّ أنما عنى عن عينيه، هل أنّ الانتظار في بين القصرين كان من فضائله اليأس بخلاف حومان المحموم حول مقام المعبودة، كحومان مجموعة من الديناميت حول عمود من التيران. لم يرها، ولكنّه رأى مرّات أحد الحدم وهو ذاهب إلى الطريق أو عائد منه، فكان يُتبعه حينًا متفحّصًا متعجّبًا كأنما تُسأل القادير عَمَّا جعلها تحضّر هذا الإنسان بحظوة القرب من المعبودة والاختلاط بها والاختلاص على شقّ أحواشها، مستلقية أو مترنّمة أو لاهية، كلّ ذلك من حظّ هذا الإنسان الذي يعيش في المحراب ولا تشغل قلبه العبادة!

وفي جولة من جولاته رأى عبد الحميد بك شدّاد وحرمة المصون وهما يغادران القصر ليركبا الثرثرا التي كانت في انتظارهما أمام الباب، رأى الشخصيتين السعيدتين اللذين تقف عابدة أمامهما - من دون العالمين - بإجلال واحترام، اللذين يخاطبانيا بلسان الأمر أحيانًا فلا تملك إلّا أن تطيعا، وبغذه الأم المقدّسة التي حملتها في بطنها تسعة أشهر، فما من ربّ في أنّ عابدة كانت جيتيًا فوليدة كتلك المخلوقات التي كان يرنو إليها طويلًا في فراشي عائشة وخديجة. وليس من

على كئيبين متقابلتين، وكانت الوجوه جافة، وكانت خديجة متجهة، وكانوا يتبادلون نظرات ذات معنى، ولكن أحداً منهم لم يشأ أن يطرُق الأمر الذي جمعهم حتى قالت خديجة بنية شاكية حائفة ممّا:

.. هذه المنازعات تقع في كلّ بيت، هكذا كانت الدنيا منذ خلقها ربنا وليس معنى هذا أن ننشر متاعينا على الناس، خصوصاً أولئك الذين لا ينبغي أن يشغلوا بالكلام الفارغ، ولكنها أبت إلا أن تجعل من شئون بيتنا فضائح عامة، حسبي الله ونعم الوكيل...

تحرك إبراهيم في معطفه كأنه يستوي في مجلسه، ثم ضحك ضحكة مخترلة لم يَلِدْ أحد على وجه الدقة ماذا أراد بها، فحدجته خديجة بنظرة ارتباب وهي تتساءل:

.. ماذا تعني بهنّ هنّ؟... ألا يتمّ قلبك بشيء في الدنيا؟

وأعرضت عنه كالبائسة، ثم استطردت تقول غاطبة خليل وعائشة:

.. هل يرضيكما ذهابنا إلى أبي في الدكان لتشكروني إليه؟ هل يجوز إتحام الرجال - خاصة من كان حل شاكلة أبي - في منازعات السنون؟ ما كان ينبغي أن يعلم بشيء من هذا، ولا شك أنه تضايق من زيارتها وشكواها، ولولا أدبه لصارحها بذلك... ولكنها ما زالت تلجّ عليه حتى وعدتها بالمجيء، ما أبشع تصرّفها، لم يُخلق أبي لهذه الصغائر، فهل يرضيك هذا التصرف يا سيّ خليل؟

فقطب خليل في استياء، وقال:

.. أمي أخطأت، صارتها أنا نفسي بذلك حتى صيّت حلّ غضبها، غير أنها ستّ كبيرة، وأنت تعلمين أنّ الإنسان في مثل سنّها يحتاج إلى المداواة والحلم كالأطفال، حيّداً...

فقاطعه إبراهيم في ضجر قائلاً:

.. حيّداً... حيّداً... كم كرّرت حيّداً هذه حتى مللتها، أمك كما قلت ستّ كبيرة، ولكنّ قرعتها وقعت على من لا ترحم...!

التفت خديجة إليه بحلة وقد عبس وجهها وأمسع منخراها، وقالت:

القصرين أو العباسية. هذا معد زغلول - مثله هو - شبه سجين وهدف للطعنات الباغية والحملات الظالمة ولخيانة الأصدقاء وغدرهم، وكلاهما - هو وسعد - يكابدان أحزناً من اتصالحها بأناس علوا بأرستقراطيّتهم وسفلوا بفعالهم. تقمّص شخص الزعيم في كدره كما تقمّص حال الوطن في قهره، وكان يلاقي الموقف السياسي وموقفه الشخصي بماطفة واحدة وانفعال واحد، فكأنما كان يعني نفسه وهو يقول عن سعد زغلول وأتلقى هذه المعاملة الظالمة بهذا الرجل المخلص؟، وكأنما كان يعني حسن سليم وهو يقول عن زيور وخان الأمانة واستحلّ القبح في سبيل الاستيلاء على الحكومة، وكأنما كان يعني عابدة وهو يقول عن مصر «هل تحلّت عن زجلها الأمين وهو يلدو عن حقوقها؟!».

- ٢١ -

كان بيت آل شوكت بالسجّرية من البيوت التي لا تحظى بنعمة الهواء والسكينة، لا لأنّ أدواره الثلاثة أصبحت مأهولة بالسكان من آل شوكت فحسب، ولكن بسبب خديجة قبل أيّ شيء آخر. كانت الأم المعجزة تقيم في الدور التحتاني، وغليل وعائشة وأبنائهما: نعمة، وعثمان، ويحمد في الدور فوقاني، ولكنّ ضوضاء أولئك جميعاً لم تكن شيئاً بالقياس إلى ضوضاء خديجة وحدها. سواء ما يصدر عنها مباشرة أو ما يصدر عن الآخرين بسببها، وقد حدثت تغيّرات في نظام البيت كانت خليقة بحصر أسباب الضوضاء في أضيق الحدود، كاستقلال خديجة ببيتها ومطبخها، وكاستئثارها بالسطح لتربية دواجنها، وغرس بستان متواضع في جانب منه على مثال بستان البيت القديم بعد أن أجلّت عنه حماها ودواجنها، كان كلّ ذلك خليقاً بتخفيف الضوضاء إلى حدّ كبير، ولكنّ الضوضاء لم تحفّ، أو لمأها خفّت بقدر لم يلحظه أحد، على أنّ روح خديجة اعتورها هذا اليوم فتور، ولم يكن يرّيه - فيها بدا - خافياً، فإنّ عائشة وخليل انتقلا إلى شقّتها ليشركا في تفريج الأزمة - أجل الأزمة - التي أرمتها، جلسوا: الأخوان، والأختان في الصالة

وقال خليل بمعطف:

- هَذَنِي رَوْعَكَ حَتَّى تَلْقَى وَالدَّكْ بِنَفْسٍ مَطْمَئِنَّةٍ!
من أين لها بالنفس للمطمئنة؟ لقد انتقم العجوز
منها شرَّ انتقام، وهِيَ قَلِيلٌ تُدْعَى إِلَى لِقَاءِ أَبِيهَا فِي
مَوْقِفٍ يَفْرُقُ مِنْهُ قَلْبُهَا وَدَمْعُهَا. وَهِيَ تَرَامِي إِلَيْهِمْ صِيَاغَ
عَبْدِ الْمَنَعَمِ وَوَاحِدٍ مِنْ رِوَاءِ بَابِ حَجَرَتِهَا وَأَعْقِبَهُ صَوْتُ
أَحْمَدَ وَهُوَ يَكْفِي. فَكَلِمَاتٌ عَلَى عَجَلٍ رَغْمَ سَبَاتِنِهَا
وَأَتَجَهَّتُ نَحْوَ الْحَجَرَةِ، فَدَفَعَتِ الْبَابَ وَدَخَلَتْ وَهِيَ
تَصِيحُ بِدَوْرَهَا:

- مَا مَعْنَى هَذَا؟ أَلَمْ أَهْنِكُنَّ عَنِ الشَّجَارِ أَلْفَ مَرَّةٍ؟
خَصِمِي الْمُنْتَدِي مَعْنَا...

قال إبراهيم بعد أن توارت وراء الباب:

- مَسْكِينَةٌ كَأَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الرَّاحَةِ هَدَاءَ مُسْتَحْكِكَةٍ،
مِنْدُ الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ تَبْدَأُ بِخَوْضِ مَعْرَكَةٍ طَوِيلَةٍ تَسْتَفْرِقُ
النَّهَارَ كُلَّهُ فَلَا تَسْكُنُ حَتَّى تَأْوِي إِلَى الْفَرَّاشِ، يَجِبُ أَنْ
يُدْعَى كُلُّ شَيْءٍ إِلَى إِرَادَتِهَا وَتَفَكِيرِهَا، الْخَادِمُ، الْأَكْلُ،
الشَّرْبُ، الْأَثَلُ، الدَّجَاجُ، عَبْدُ الْمَنَعَمِ، أَحْمَدُ، أَنَا،
الْكُلُّ يَجِبُ أَنْ يَدْعَى لِنَتْلِيهِمَا، إِنِّي أَشْفَقُ عَلَيْهَا،
وَأُؤَدِّدُ لَكُمْ أَنَّ بَيْنَنَا يُمْكِنُ أَنْ نَعْمَ بِأَحْسَنِ حَالٍ مِنْ
النِّظَامِ وَالِدَقَّةِ دُونَ حَاجَةٍ إِلَى هَذِهِ الْوَسُوسَةِ...

فقال خليل بأساً:

- رَبَّنَا يَعْنِيهَا...

- وَيَعْنِي مَعَهَا

قال إبراهيم ذُكَّ وَهُوَ يَرُؤُ رَأْسَهُ بِأَسْمَاءٍ أَيْضًا، ثُمَّ
أَخْرَجَ مِنْ جَيْبِ مَعْطَفِهِ الْأَسْوَدَ عَلَيْهِ سَجَّارَةٌ، وَنَهَضَ
مُتَجَهِّماً إِلَى أَخِيهِ فَقَدَّمَهَا لَهُ فَتَنَاولَ خَلِيلٌ سِجَّارَةً، وَدَعَا
عَائِشَةَ لِنَتَنَاوُلَ وَاحِدَةً وَلَكِنَّهَا رَفَضَتْ ضَاحِكَةً، وَأَوَامَاتُ
إِلَى الْبَابِ اللَّيْلِ تَوَارَتْ وَرَاءَهُ خَدِيجَةٌ، وَهِيَ تَقُولُ:

- خَلِّ السَّاعَةَ عَمَّ بَسْلَامٍ...

فَعَادَ إِبْرَاهِيمَ إِلَى مَجْلِسِهِ وَهُوَ يَشْمَلُ سِجَّارَةً، وَيَقُولُ
مَشِيراً إِلَى الْبَابِ نَفْسَهُ:

- عَكِمَةٌ، فِي الدَّخَالِ الْآنَ عَكِمَةٌ، وَلَكِنَّهَا سَتَعْمَلُ
هَؤُلَاءِ الْمَتَّهَمِينَ بِالزَّحْمَةِ وَلَوْ عَلَى رَغْمِهَا...

عَادَتْ خَدِيجَةٌ وَهِيَ تَقُولُ مُتَأَفِّفَةً:

- كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ أَذُوقَ طَعْمَ الرَّاحَةِ فِي هَذَا الْبَيْتِ!

كَيْفَ وَمَعِيَ؟

- اللَّهُ... اللَّهُ... لَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَعِيدَ هَذَا الْكَلَامَ

الْجَائِرَ أَمَامَ أَبِيهَا...

فقال إبراهيم وهو يُلَوِّحُ بِيَدِهِ أَسْفَلًا:

- أَبِي لَا يَسْأَلُ مَعْنَى الْآنَ، وَهُوَ إِنْ جَاءَ فَلَنْ يَجِيءَ
لِيَسْمَعَ إِلَيَّ أَنَا، وَلَكِنِّي أَقَرُّ الْحَقِيقَةَ الَّتِي يَسْلَمُ بِهَا
الْجَمِيعُ وَلَا تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تُنْكَرَاهَا، أَنْتَ لَا تَطِيقِينَ
أُمِّي وَلَا تَحْتَمِلِينَ ظُلْمَهَا، أَعُوذُ بِاللَّهِ، لَمْ كُلِّ هَذَا يَا
شَيْخَةَ؟ بَشِيءٌ قَلِيلٌ مِنَ الْحِلْمِ وَالْكَيَاسَةِ كَانَ يَسْعَى أَنْ
تَأْسِرِيهَا، وَلَكِنَّ الْقَمَرَ اقْرُبَ مَنَآلاً مِنْ حِلْمِكَ، هَلْ
تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تُنْكَرِي كَلِمَةً وَاحِدَةً عَمَّا قُلْتَ؟

فَرَدَّدَتْ عَيْنُهَا بَيْنَ خَلِيلٍ وَعَائِشَةَ تُشْهِدُهُمَا عَلَى هَذَا
وَالظُّلْمِ الصَّارِخِ، فَبَدَا حَاضِرِينَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالسَّلَامَةِ،
حَتَّى تَحْتَمَتِ عَائِشَةُ وَهِيَ مِنَ الْإِشْفَاقِ فِي نَهَايَةِ:

- سَيِ إِبْرَاهِيمَ يَقْصِدُ أَنْ تَغْضِي قَلِيلًا عَمَّا يَسِيرُ
مِنْهَا...

وَهَزَّ خَلِيلٌ رَأْسَهُ بِالْمُوافَقَةِ فِي ارْتِيَاكِ مِنْ ظِلْفِ أَعْيَرٍ
بِاسْمِ النِّجَاحَةِ، ثُمَّ قَالَ:

- هُوَ ذَلِكَ، أُمِّي سَرِيعَةُ الْغَضَبِ وَلَكِنَّهَا بِمَنْزِلَةِ
وَالِدَتِكَ، وَبَشِيءٌ مِنَ الْحِلْمِ تَغْفِيهِ أَعْصَابُكَ مِنْ مَشَقَّةِ
الْمُشَاحَنَةِ...

فَنَفِخَتْ خَدِيجَةٌ وَهِيَ تَقُولُ:

- الْأَصُوبُ أَنْ يَقَالَ إِنَّهَا هِيَ الَّتِي لَا تَحْتَمِلُ فِي ظُلْمٍ،
لَقَدْ أَتَلَفْتُ أَعْصَابِي، وَمَا مِنْ مَرَّةٍ نَتَلَاقَى إِلَّا وَتُسْمَعُنِي
- تَصْرِيفًا أَوْ تَلْمِيحًا - كَلِمَةً تَهْجِجُ الدَّمَ وَتَسْمُ الْبَدَنَ،
ثُمَّ أَطَالِبُ أَنَا بِالْحِلْمِ! كَأَنِّي خُلِقْتُ مِنْ تِلْجٍ، أَلَيْسَ
يَكْفِي عَبْدَ الْمَنَعَمِ وَاحِدَ اللَّذَانِ اسْتَفْضَلَا صَبْرِي
وَحِلْمِي؟ يَا هُوَ أَيْنَ أَجِدُ مُنْصَقًا؟

فقال إبراهيم في تَهْكُمٍ وَهُوَ يَتَسَمَّى:

- لَعَلَّكَ تَجِدِينَ هَذَا النِّصْفَ فِي شَخْصِ أَيْق؟

فَهْتَفَتْ قَائِلَةً:

- أَنْتَ شَامِتٌ بِي، أَنَا أَفْهَمُ كُلَّ شَيْءٍ، وَمَعَ ذَلِكَ
فَرَبَّنَا مَوْجُودًا!

فقال إبراهيم بصوتٍ مَحْطُوطٍ يَدُلُّ عَلَى التَّسْلِيمِ
وَالْتَحَدِّي فِي آيٍ:

- رَبَّنَا مَوْجُودًا!

وجلست وهي تتبهد، ثم قالت مخاطبة عائشة:
- نظرت من المشربية فوجدت الطين المتخلف من
مطر الأس لا يزال يغطي أرض الحارة، فخبرتني
وربك كيف يشق أبي سبيله؟!... ولم هذا العناد
كله؟!

لسالتها عائشة:

- والسبب؟ كيف حالها الآن؟

- قطران! ستجعل الحارات بحرًا قبل الليل،
ولكن هل أجدي ذلك في حل حائك على تأجيل ما
بيئت من شر ولو إلى يوم آخر؟ كلاً، ذهبت إلى
الدكان رغم ما يسببه المشي لها من متاعب، وما زالت
بالرجل حتى تمهد لها بالحضور، ولو سمعها سماع في
الدكان وهي تشكو في هذه الظروف المسيرة لحسبي
رياً أو سكيناً!

وضحكوا جميعاً مغتمين الفرصة التي أتاحتها لهم
للتفليس عن صدورهم، وتساءل إبراهيم:

- المحسنين نفسك أقل شأناً من رياء وسكينه؟!

وسمع نقر على الباب، ولما فتحت الحادام لاح وجه
الجارية سويدان فنظرت إلى خديجة بخوف، وقالت:

- سيدي الكبير حضر...

ثم سرعان ما توارت، وقامت خديجة شاحبة اللون
وهي تقول بصوت خافت:

- لا تتركونا وحدنا...

فقال خليل ضاحكاً:

- معك إلى النهاية يا خديجة هانم!...

فقال بلهجة وشت بالرجاء والتوسل:

- كونوا في جانبي...

وغادرت الشقة بعد أن ألقت عائشة نظرة متفحصة
على صورتها في المرآة لتتأكد من خلوه وجهها من أي أثر
للأصباغ.

كان السيد أحمد عبد الجواد يجلس على كنية في صدر
الحجرة القديمة تحت صورة كبيرة للمرحوم شوكت،
على حين جلست الأم على مقعد قريب في مطف
كثيف لم تعيد كثافته في إخفاء ضالة جسمها الذي
احدودب أعلاه، وقد نحل وجهها وعمقت تجاعيده

وتكاثر وجهت جلده فلم يبق شيء منه على ما كان
عليه إلا أسناتها الذهبية، ولم تكن هذه الحجرة بالغريبة
على السيد أحمد، ولم يتوّن قلمها من فخامتها، وإذا
كانت الستائر قد بهتت وقطيفة بعض المقاعد والكتبات
قد انجردت أو تهيكت عند المقابض والمساند، فإن
بساطها العجيب قد صان رونقه أو استجد نفاسته،
إلى أن جوها تنسم برائحة بخور لطيفة مما تولع به
العجوز، وكانت المرأة تميل على مظلتها وتقول:

- قلت لنفسي إذا لم يحضر السيد أحمد كما وعدني،
فلا هو ابني ولا أنا أمه...

فابتسم السيد قائلاً:

- لا سمح الله، إني طوع أمرك، فأنا ابنك وخديجة

ابنتك!

فمطت بوزها، وقالت:

- كلكم أبنائي! أمينة هانم ابنتي الطيبة، أنت سيد
الناس، أما خديجة (وروت إليه وعيناها تسعمان) فلم
ترث سجيّة واحدة من سجايا والديها الطيبين... (ثم

وهي تبرز رأسها) يا لطيف الطف...

فقال السيد بلهجة المتعذر:

- إني أعجب كيف أغضبتك لهذا الحد؟ كان الأمر
كله مفاجأة شديدة عليّ، لا أقبل هذا مطلقاً، ولكن

هلاً حدثني عما فعلت؟

فقال المرأة مقلبة:

- لهذا شيء قديم، كنّا نخفي عنك كل شيء إكراماً
لتوسلات والدتها التي أعبتها الخليل في إصلاحها،
ولكنني لن أقول كلمة واحدة إلا في وجهها، في وجهها
يا سي السيد كما عزمت أمامك في الدكان...

عند ذاك جاءت الجاهة، دخل إبراهيم في المقدمة،
وتبعه خليل، فعاثت، ثم خديجة، وصانحوا السيد
واحدًا فواحدًا حتى جاء دور خديجة، فالتحت في أدب
مثالي حتى ثمتت يده، فلم تتسالك العجوز من أن
تقول في عجب:

- ربك ما هذه البوليتيكا، أأنت خديجة حقاً؟! لا

تحدثك الظواهر يا سيد أحمد...

فقال خليل معاتباً أمه:

واحتلمته وصبرت عليه، وقد ظننت بعد الانفصال أن أسباب الشقاق ستنتهي، ولكن هل صدق ظني؟. كلا وحياتك.

انقطعت عن الحديث لسعال غلبها، وراحت تسعل حتى انتفخت أوداجها، وخديجة تلحظها وهي تدعو الله في سرها أن يأخذها قبل أن تتم حديثها، ولكن السعال سكت فازدردت ريقها وتشهدت، ثم رفعت إلى السيد عيتين دامعتين، وسألته بصوت لم يخل من يبع:

- أتستكف أنت يا سيد أحمد أن تقول لي يا أمي؟ فقال الرجل الذي تظاهر بالعوس رغم ابتسام إبراهيم وخليل:

- معاذ الله يا أمي...
- عوفيت يا سيد أحمد، لكن ابتك تستكف من هذا، تدعوني «نيزة»، أقول لها مراراً ادعيني «نينة»، فتقول لي «وماذا أدعو التي في بين القصرين؟»، أقول لها أنا نينة، وأنت نينة، فتقول لي «ليس لي إلا نينة واحدة ربنا يخلها في». انظر يا سي السيد، أنا التي تلقيتها يدي في عالم الغيب!

ألقى السيد أحمد على خديجة نظرة غاضبة، وسأها عتداً:
- صحيح هذا يا خديجة؟ يجب أن تتكلمي...
كانت خديجة كأنها فقدت القدرة على النطق، كانت من الغيظ في نهاية، وكانت من الخوف في نهاية، وإلى هذا كله كانت يالسة من نتيجة المناقشة لحدتها غرائز اللطاع عن النفس على التلذع بكافة ضروب الضراعة والمسكنة، قالت بصوت خافت:
- أنا مظلومة، كل واحد هنا يعلم بأن مظلومة، مظلومة والله يا بابا...

كان السيد أحمد في دهش مما يسمع، ومع أنه فطن من أول الأمر إلى حال «الكبر» التي تسيطر على المرأة، ومع أنه لم يقب عن ملاحظته ما يكتف الجور من فكاهة بدت آثارها في وجهي إبراهيم وخليل، فإنه صمم على التظاهر بالجد والصرامة إرضاء للعموز وإرهاقاً لخديجة، وكان يعجب لما يتكشف له من عناد

- هلاً تركت والدنا حتى يستريح! ليس ثمة ما يدعو إلى محاكمة على الإطلاق!

فعلا صوت المرأة وهي تحيي قائلة:
- ما الذي جاء بك؟ ما الذي جاء بك؟ دعوها وادهبوا عتاً بسلام...
فقال إبراهيم برقة:
- وخدي الله...
فصاحت به:

- أنا موثدة أحسن منك يا بغل! لو كنت رجلاً حقاً ما أحوجني إلى استدعاء هذا الرجل الطيب، ما الذي جاء بك؟ وكان يجب أن تكون غاعاً في نومك كالعادة؟!

ابتل صدر خديجة ارتياحاً إلى هذه البداية، فتمتت لو تشتت حتى تغطي على قضيتها، ولكن السيد سألها بصوت مرتفع سد الطريق في وجه المركة المأمولة:
- ما هذا الذي سمعته منك يا خديجة؟ أحيئ أنك لست الابنة المؤدبة المطيعة لوالدتك، استغفر الله، بل لوالدتنا جميعاً؟!

خاب أمل خديجة، ففضت بصرها، وتحركت شفتها في مس دون أن تين وهي تترأسها نفياً، ولكن الأم لوتحت يدها للجميع كي ينصتوا، ثم أنشأت تقول:
- هذا تاريخ قديم لن أستطيع أن أسرده عليك في هذه الجلسة، منذ أول يوم لها في هذا البيت وهي تخاضعي بلا سبب، وتخططني بأطول لسان عرفته في حياتي، لا أحب أن أعيد عليك ما سمعته طوال خمس سنوات، أو يزيد، كثير كثير، وقيح قبيح!! عابت إشرافي على البيت وتقمصت طهي - هل تتصور هذا يا سي السيد؟ وما زالت حتى انفصلت بشقتها عتي فأنشطر البيت الواحد بيتين، حتى الجارية سويدان حرمت عليها دخول شقتها لأنها جاريتي، وجاءت بخادم خصوصية لها، السطع، السطع على سمته يا سي السيد، ضيقته علي حتى اضطرت إلى نقل دواجني إلى الفناء! ماذا أقول أيضاً يا بني؟ هذا قليل من كثير، ولكن ما علينا، قلت لنفسي ما فات فأت،

«هل تعرفين عن بيتنا أكثر مما نعرف؟» فقلت لها: إني أعرف بيتكم من قبل أن تعرفه أنت بعمر مديد، فصرخت قائلة: «أنت لا تحيين لنا الخير ولا تطيقين أن يُنسب لنا شيء حميد ولو كان طهي الشرسية، الشرسية تؤكل في بيتنا قبل أن تولد زينب وعيب أن تكلب واحدة في مثل سلكه أي والله هذا يا سي السيد ما قلّفتني به أمام الجميع، فأنتنا الكاذبة برك وصلاتك؟»

قال السيد غاضبًا ساخطًا:

«رمتك بالكلب في وجهك يا رب السماوات والأرض، ما هذه ابنتي...»

غير أن خليل قال لأمه باستياء:

«ألهذا جئت بوالدنا؟ أيصح أن نكدر خاطره ونضيع وقته بسبب نزاع صبياني حول الشرسية؟»

هذا كثير يا أمه...

لمحلمت المرأة في وجهه مقبلة وصاحت به:

«اخرس، اغرب عن وجهي، لست كاذبة، ولا يصح أن يرميني مخلوق بالكلب، إني أعرف ما أقول ولا حياء في الحق، لم تكن الشرسية بالطعام المعروف في بيت السيد قبل أن تدخله زينب، وليس في ذلك ما يعيب أحدًا أو ينتقصه، ولكنّها الحقيقة. حاكم السيد فليكبني إن كنت كاذبة، إن طواجب بيتي مضرب الأمثال ويليها الأرض المحشوّ، أما الشرسية فلم تقدّم على مائدته قبل عجي زينب، تكلم يا سي السيد أنت وحكم الحكم...»

قاوم السيد أحمد إغراء الضحك طيلة حديث المرأة، ثم قال بلهجة عنيفة:

«ليت ذنبها اقتصر على الكلب والادّعاء الباطل من دون أن تضيف إليه سوء الأدب، هل شجعتك على هذا السلوك السيئ ابتعادك عن قبضة يدي؟ إن يدي تمتد إلى حيث يجب أن تمتد بلا تردّد، من المؤسف حقًا أن يجد أب ابنته مستحقّة للتأديب والعقاب بعد أن اكتمل نضجها واستوت بين النساء زوجة وأما...»

واستطرد ملوّنًا بيده:

«إني غاضب عليك، ووالله إنّه ليؤلّي أن أرى

خدعية وحدة طباعها، الأمر الذي لم يخطر له في خيال من قبل، أكانت على هذا الخلق مذ كانت في بيته؟ أتعلم أمينة من أمرها ما لا يعلم؟ هل يكشف على آخر الزمن صورة جديدة لابنته مناقضة للصورة التي كوّنها كما سبق أن كشف لياسين؟»

«أريد أن أعرف الحقيقة؟» أريد أن أعرف حقيقتك، إن التي تتحدث عنها والدتنا امرأة أخرى غير التي عهدتها، فأنتها تكون الصادقة؟»

ضمت المرأة أناملها وهزّت يدها داعية إلهة إلى الصبر حتّى تتمّ حديثها، ثم استطردت قائلة:

«قلت لها: إني تلقيتك ببدي من عالم الغيب، فقالت لي بلهجة شريرة لم أسمع بمثلا من قبل: «وإن أكون نجوت من الموت بأعجوبة!»

ضحك إبراهيم وخليل، وخضعت عائشة رأسها لتخفي ابتسامتها، فقالت العجوز غاطبة ابنها «واضحكا، واضحكا، واضحكا من أمكنا»، ولكنّ السيد تمجّه وإن يكن باطنه ضحك، ترى تخلفت بناته على مثاله أيضًا؟ أليس هذا مما يستحقّ أن يروى على إبراهيم الفار وعليّ عبد الرحيم ومحمّد عفت؟»

قال لخدعية بغلظة:

«كلّا... كلّا، لأعرفن كيف أحاسبك على هذا حسابًا عسيرًا...»

فواصلت العجوز حديثها بارتياح قائلة:

«أما سبب شجار الأمس، فهو أنّ إبراهيم دعا بعض أصدقائه إلى وليمة فقدمت لهم الشرسية فبما قُدم من أطعمة، وفي المساء سهر عندي إبراهيم و خليل وعائشة وخدعية، وجاء ذكر الوليمة فنوّ إبراهيم بنشأ المدعوّين على الشرسية، فانبسطت ستّ خديجة، ولكنّها لم تقنع بذلك، بل راحت تؤكّد أنّ الشرسية هي الصف المألوف عن بيتنا الأوّل، فقلت بحسن نية: إنّ زينب زوجة ياسين الأولى هي التي أدخلت الشرسية في بيتكم، وإنّ خديجة لا بدّ وأن تكون تعلّمتها منها، أقسم لك أنّي ما تكلمت إلّا عن حسن نية وآني ما قصدت أحدًا بسوء، ولكن أجارك الله يا حبيب، انتفضت غاضبة وصاحت في وجهي

- لم اسمع من قبل أنّ أختنا دُعيت للشهادة على

أختها... ١٠٠

فصاحت به أمّه:

- ولم اسمع من قبل أنّ أبناء يتكلمون ضدّ أمهم كما

تفعلون. (ثمّ ملفتة إلى السيّد) ولكن حسبي صمتها،

إنّ صمت عائشة شهادة لي يا سي السيّد...

ظنّنت عائشة أنّ عذابها قد انتهى عند هذا الحدّ،

ولكنّها ما تدري إلّا وخديجة تقول لها برجاس وهي

تحبّف عينيها:

- تكلمي يا عائشة، هل سمعتني أشتتها؟

لمعتها في سرّها من صميم قلبها، وراح رأسها

الذهبي يترّ اهتزازة عصبية، فهتفت العجوز:

- جاهدنا الفرج، هي التي تطالب بالشهادة، لم يبق

لك عذر يا شوشو. يا ربّي إذا كنت ظالمة حقًا كما تقول

خديجة فلمّ لم أظلم عائشة؟ لم تسير الأمور بيني وبينها

على خير حال، لم يا ربّي لمّ؟

نهض إبراهيم شوكت من مجلسه، ثمّ جلس إلى

جانب السيّد، وقال له:

- يا والدي، يؤسفني أنّنا امتعنا وأضمرنا وقتك

الثمين هباء، فلندع الشكوى والشهادة جانبًا، لندع

الماضي كلّ جانبًا ولننظر فيما هو أهمّ وأجندى، ينبغي

أن يكون محضرك خيرًا وبركة، فلنعتقد الصلح بين أمّي

وزوجي، ولنتمهّد لك بأن نحافظا عليه على

الدوام...

ارتاح السيّد أحمد إلى هذا الاقتراح، غير أنّه قال

بلباقة وهو يبرّز رأسه معترضًا:

- كلّاً، لن أقبل أن أعقد صلحاً، فإنّ الصلح لا

يكون إلّا بين نذنين، والطرفان هنا هما والدتنا من

ناحية وابنتنا من ناحية أخرى، وليست الابنة كالأمّ،

فيجب أوّلًا أن تعتذر خديجة إلى أمّها عمّا سلف، لتعفو

أمّها عنها إذا شئنا، ثمّ نتكلّم بعد ذلك في

الصلح...

ابتسمت العجوز حتّى تضامّت تجاعيدها، غير أنّها

نظرت نحو خديجة بحذر، ثمّ أعادت بصرها إلى

السيّد ولم تنبس، فاستطرد السيّد قائلاً:

وجهك أمامي...

أجهشت خديجة بالبكاء فجأة، جاء ذلك عن تائب

وتدبير ممّا، ولم يكن ثمة وسيلة أخرى للدفاع، ثمّ

قالت بصوت متهدّج تخنّته العبرات.

- أنا مظلومة، وإله أنا مظلومة، إنّها لا ترى وجهي

حتّى ترميني بكلمات قاسية، ولا تفتأ تقول لي «لولا

لقضيت العمر عانساً وأنا لم أنلها بسوء أبداً، وكلّهم

شهود على ذلك...

لم تعدم الحركة التمثيلية - الصادقة الكاذبة - أثرًا

تركته في النفوس: فكّبت خليل شوكت حانقًا، ونكس

إبراهيم شوكت رأسه، والسيّد نفسه ولو أنّ مظهره لم

يعتوره تغير إلّا أنّ قلبه انقبض عند سماعه ما قيل عن

العنوس كمعهده من قديم، أمّا العجوز فجعلت تنظر

إلى خديجة نظرات نافذة من تحت حاجبيها الأشبيين،

وكأنّها تقول لها «مُني دورك يا مكارمة لن يبور عِلّ»،

ولسّا استشعرت في الجفّ عطفًا على الممثلة قالت بتحدّ:

- هاكم عائشة أختها؟ إنّّي أستحلفك بعينيك،

أستحلفك بالقرآن الشريف إلّا ما شهدت بما سمعت

ورأيت، ألم ترميني أختك بالكلب في وجهي؟ ألم

أصغ نزاع الشكسية دون مبالغة أو تجاوز، تكلمي يا

بنية تكلمي، إنّ أختك ترميني الآن بالظلم بعد أن

رمتني بالكذب، تكلمي ليعلم السيّد من الظالم ومن

المعتدي...

روّعت عائشة بجرحها للباغت إلى حومة القضية التي

ظنّت أنّها ستقف منها موقف المشاهد إلى النهاية،

وشعرت بالخطر يخلق بها من كلّ جانب، فردّدت

عينيها الجميلتين بين زوجها وأخيه كالستغثة، فهمّ

إبراهيم بالتدخل، ولكنّ السيّد أحمد سبقه إلى الكلام،

فخاطب عائشة قائلاً:

- إنّ والدتنا تستشهد بك يا عائشة، فيجب أن

نتكلّم...

فاضطربت عائشة حتّى شحب لونها، ولكنّ شفيتها

لم تتحرّك إلّا عند ازدراد ريقها، وغمضت عينيها فرائًا

من عيني أبيها وأصرّت على الصمت. قال خليل

محتجًا:

- يبدو أنّ اقتراحي لم يصادف قبولا... -

فقلت المعجوز بامتنان:

- إنك لا تتعلّق إلّا عن الصواب: سلّم فوقك،
وبارك الله في عمرك... -

وأشار السيد إلى خديجة فقامت دون تردّد واقتربت منه في انكسار لم تشعر بمثله من قبل حتّى مثلت بين يديه، فقال لها بحزم:

- قُبلي يد والدتك، وقولي لها: اصفحي عني يا نينة... -

أه، ما كانت تتخيّل - ولا في الكابوس - أنّها يمكن أن تنقذ هذا الموقف أبداً، ولكن أباهاً - أباهاً للمعجوز - هو الذي قضى به، أجل قضى به من لا تستطيع لفضله رداً، فلنكن مشية الله. تحوّلت خديجة إلى المعجوز، ومالت نحوها، ثم تناولت اليد التي رفعها إليها - إي والله رفعها إليها دون ممانعة ولو في الظاهر - ولشمتها، وهي تشعر بالشماتة وتفترق وقهر اليم، ثم ضمخت قائلة:

- اصفحي عني يا نينة!...

فنظرت المعجوز إليها ملياً وقد شاع البشر في وجهها، ثم قالت:

- صفحت عنك يا خديجة، صفحت عنك إكراماً لايلك، وقبولاً لثقتك... -

ونذت عنها ضحكة صبيانية، ثم استطردت تقول بتحدير:

- لا جدال بعد اليوم في الشركية، الا يكفيكم أنكم فتمم الدنيا في الطواجن والأرز المحشو... ؟

قال السيد بسرود:

- الحمد لله على الصلح (ثمّ) وهو يرفع رأسه إلى خديجة)... نينة دائماً ليست تيزة، هذه نينة كالأخرى

سواء بسواء...

ثم بصوت خفيض أسف:

- من أين جئت بهذا الحلق يا خديجة؟ ما كان ينبغي لأحد نشأ في بيتي أن يعرفه، أنسيت أمك وما تتحلّى به من أدب وحنانة؟ أنسيت أنّ أيّ شرّ تأتيه إنّما

يسود وجهي أنا؟ لقد عجبت والله وأنا أستمع إلى حديث أمك، ولسوف أعجب طويلاً...

- ٢٢ -

رقيت الجهاحة في السّلم عائداً إلى مساكنها عقب رحيل السيّد أحمد عبد الجواد، كانت خديجة تتقدّم القافلة بوجه مريدّ تملؤه صفرة الغضب والحقد، وكان الآخرون يشعرون بأنّ الصفاة لم يزل أبعد ما يكون عن القلوب فأسلفقوا ممّا سينمكض عنه صمت خديجة، لذلك صعب خليل وعائشة خديجة وإبراهيم إلى شقّتها، رغم أنّ زياط نعيمة وعثمان ومحمد كان حريّاً بأن يميدهما إلى شقّتها فوراً، وليّما عادوا إلى مجلسهم بالصلاة قال خليل - وهو يسيل جسّ النفض - مخاطباً إخاه:

- كانت كلمتك الاحتامية حاسمة فانت بخير النتائج...

فكلمت خديجة لأوّل مرّة قائلة بانفعال:

- أنت بالصلح اليس كذلك؟ هي السبب فيها نزل بي من مدلّة لم أترعّص لمثلها من قبل... -

فساءل إبراهيم كالمتكر:

- لا مدلّة في أن تقبلي يد أمي أو تستصفحيها... -
فالتت دون مبالاة:

- إنّها أمك أنت، ولكنّها عدوّتي أنا، ما كنت لأدعوها نينة لولا أمر بابا، أجل فما هي إلّا نينة بأمر بابا، وبأمر بابا وحده!

مال إبراهيم إلى مسند الكنية وهو يتنهد يائساً، وكانت عائشة قلقة ولا تدرى أيّ أثر تركه امتناعها عن

الشهادة في نفس أختها، وزاد من قلقها تمجّب خديجة النظر إليها، صمّمت على محادثتها لتحملها على

معاليتها بحقيقة مشاعرها، فقالت برقة:

- ليس في الأمر مدلّة وقد تصافيتها، ويجب ألاّ تلذكري إلّا حسن الختام...

فتصلّب جلع خديجة ورمقتها بنظرة غاضبة، ثمّ قالت بحدّة:

- لا تكلميني يا عائشة، أنت آخر شخص في الدنيا يحقّ له أن يكلمني...

فظهرت عائشة بالحش، وتساءلت وهي تقلّب عينيها بين إبراهيم وختليل:

- أنا؟ لماذا لا سمح الله؟!

فقلت بصوت كالرصاص بروفة وحدة:

- لأنك ختني وشهدت بيمينك عليّ! لأنك آثرت إرضاء الأخرى عل مظارفة أختك، هذه هي الحياة بعينها...!

- أمرك عجيب يا خديجة!... كلّ واحد يعلم بأن الصمت كان في صالحك!

فقلت بنفس اللهجة أو أشدّ:

- لو راعيت صالحتي حقاً لشهدت في بالحق أو بالباطل لا يمين، ولكنك آثرت التي تُطعمك على أختك، لا تكلميني، ولا كلمة واحدة، لنا أم يكون عندها الكلام.

وفي ضحى اليوم التالي ذهبت خديجة لزيارة أمها رغم توشّل الطرقات وامتلأه منخفصاتها باللياه الرائدة، ومضت إلى حجرة الفرن، فنهضت أمها لاستقبالها في سرور وحرارة، وأقبلت نحوها أم حنفي مهللة، ولكنها ردت السلام بكلّيات مقتضية حتى تفحصنها أمها بنظرة متسائلة، فقلت دون تمهيد:

- جئتكم لري رأيك في عائشة... فلم يعد بي طاقة لأحمل أكثر مما تحمّلت...

لاح في وجه أمينة اهتمام مقرون بالأسى، فقلت وهي تشير إليها برأسها كي تسبقها إلى الخارج:

- ماذا حدث كفى الله الشر؟ حدثني أبوك بما كان في السجيرة، لما دخل عائشة في ذلك؟ (ثمّ وهما ترقبان في السلم)... رأيها يا خديجة، طالما رجوتك أن تؤسعي من صدرك، حالك عجزو ينهجي مراعاة سنّها، إنّ ذهابها إلى الدكان وحده في جزّ كجوّ أس برهان على ضعف عقلها، ولكن ما الحيلة؟ كم غضب أبوك! لم يكن يصدّق أنّه يمكن أن تنذّ عنك كلمة سوء، ولكن ماذا اغضبك من عائشة؟ لقد صمتت أليس كذلك؟ لم يكن في ومعها أن تفرج من الصمت...

وجلستا في الصالة - مجلس القهوة - على كتبة جنباً إلى جنب، وخديجة تقول عدوة:

- نينة أرجو ألا تنصّي إليهم، ما لي يا ربّي لا أجد

نصيراً في هذه الدنيا!

فابتسمت الأم ابتسامة عتاب، وقالت:

- لا تقولي هذا، لا تصوّري هذا يا نينة، ولكن خبّرني ماذا وجدت من عائشة؟ وهي تدلع بيدها الهواء كأنها تلطم عدواً:

- كلّ شرّ، شهدت عليّ، فأوقعت بي شرّ هزيمة... ماذا قالت؟

- لم تقل شيئاً...

- الحمد لله...

- إنّ المصيبة جاءت من أنّها لم تقل شيئاً...

تساملت أمينة، وهي تبسم في عطف:

- وماذا كان في وسعها أن تقول؟

وكأنما كبر عليها تساؤل أمها، فقلت بعبوس وحدة:

- كان في وسعها بأن تشهد بأنّي لم أعتدّ على المرأة، لمّ لا، لو فعلت ما جاوزت واجبات الأخوة، كان في وسعها على الأقلّ أن تقول إنّها لم تسمع شيئاً، الحقّ أنّها آثرت المرأة عليّ، خلدني وتركتني أقع تحت رحمة الماكرة الشامتة، لن أنسى هذا لعائشة ما حيت...

قالت أمينة، بإشفاق والم:

- خديجة لا ترعيني، كان يجب أن يكون كلّ شيء

قد نسي في الصبح...

- نسي؟ لم أنم من الليل ساعة، شهدت ويرأسي مثل النار، كلّ مصيبة كانت تبون لو لم تهجي، من عائشة، من أختي؟! لقد ارتضت أن تنضمّ إلى حزب الشيطان، حسناً، ولكن ما تشاء! كان لي حافة فأصبح لي اثنتان، عائشة... رأيها طالما سترتها، لو كنت خائنة مثلها لقصصت على أبي ما تزخر به حياتها من قلّة الأدب، إنّها تحبّ أن يعرف عنها أنّها ملك كريم وآثني شيطان رجيم. كلّاً، أنا خير منها ألف مرّة، إنّ لي كرامة لا يعلو إليها التراب، ولولا أبي (وهنا اشتدّت نبراتنا حدّة) لما استطاعت قوّة في الأرض أن تحملي

على أن أقبل يد عدوّتي أو أن أدعوها نينة!

رمت أمينة كفها برقة، وهي تقول:

- أنت غضبي، دائماً غضبي، هذّبي من روعك،

ستبقين معي حتى تنخلدلى ممّا ثمّ نتحدث في قبل أن تقول:

هلو... - إنّ زوجها يدلّكها تدليلاً معيّباً حتى أفسدها

وأشركها في كافّة معاصيه، ليس التدخين بشراً عادته، ولكنه يشرب الخمر في بيته دون حياء، إنّ بيته لا يخلو من الزجاجة كأنّها ضرورة من ضرورات الحياة وسوف يوقعها في الخمر كما أوقعها في التدخين، لم لا؟ العجوز تعلم بأنّ شقّة ابنها حانة ولكنها لا تكثرث لذلك، سوف يسقيها الخمر، بل إنّ أقطع بأنّه فعل فإني شملت مرّة في قمها رائحة غريبة، ومألّتها عنها وضيق عليها رغم إنكارها، أوكد لك أنّها شربت الخمر وألّها بسبيل اعتيادها كالتدخين...

صاحت الأم في يأس:

- إلّا هذا يا ربّ، ارحمني نفسك وارحمنا، اتقي الله يا خديجة... - إنّ رأيي أباك في هذا لا يحتاج إلى سؤال، ولكنّ عائشة سيّدة متزوّجة والرأي الأعلى في سلوكها لزوجها، وما دام يسمح لها بزيارة الجيران ويعلم بأنّها تغني بين صديقاتها اللاتي يبينها ويصين صوتها فما شأننا نحن؟ لك الله يا خديجة... اتّسمين هذا قلّة ادب؟ هل يُغضبك حقّاً أن ترقص نعمة؟ إنّها في السادسة وما رقصها إلّا لعباً، لست إلّا غاضبة يا خديجة، ساعك الله...

فقلت خديجة بإصرار:

- إنّ أعني كلّ كلمة قلتها، وإذا كان يعجبك أن

تغني ابنتك عند الجيران وترقص ابنتها، فهل يعجبك

أيضاً أن تدنّ، كالرجال؟ نعم، ها أنت تدنّين!

أكرّر على مسمعك أنّ عائشة تدنّ، وأنّ التدخين

صار لها كيّاً لا تلك الامتناع عنه، وأنّ زوجها يعطيها

العلبة ويقول لها بكلّ بساطة وحليتك يا شوشو،

رأيتها بنفسى وهي تأخذ النّس وهي تُخرجه من قمها

وأفنها، أفنها اتّسمعين؟ لم تعد تخفي عني ذلك كما

كانت تفعل أوّل الأمر، بل دعني إليه مرّة بحجّة أنّه

مهينٌ للأعصاب الحامية. هذه هي عائشة، فما

قولك؟ وما قول أبي يا ترى؟

ساد الصمت، وبدت أمينة في حيرة شائكة، غير

أنّها صمّمت على خطّة التهلة التي التزمها، قالت:

- التدخين عادة قبيحة بالقياس إلى الرجال

أنفسهم، أبوك لم يدنّ قطّ، فإذا أقول عليه بالنسبة

إلى النساء؟ ولكن ما القول أيضاً إذا كان زوجها هو

الذي أغراها به وعلمها؟ إمّا ما الخيلة يا خديجة؟ إنّها

لزوجها لا لنا، ولم يبنّ إلّا النصح إن كان يجدي...

فجعلت خديجة تنظر إليها في صمت وشئ يرتدّها

ساحلها حديثاً صريحاً، ومساخات سيّ خليل نفسه إن

ساحلها حديثاً صريحاً، ومساخات سيّ خليل نفسه إن

ساحلها حديثاً صريحاً، ومساخات سيّ خليل نفسه إن

ساحلها حديثاً صريحاً، ومساخات سيّ خليل نفسه إن

ساحلها حديثاً صريحاً، ومساخات سيّ خليل نفسه إن

ساحلها حديثاً صريحاً، ومساخات سيّ خليل نفسه إن

ساحلها حديثاً صريحاً، ومساخات سيّ خليل نفسه إن

ساحلها حديثاً صريحاً، ومساخات سيّ خليل نفسه إن

ساحلها حديثاً صريحاً، ومساخات سيّ خليل نفسه إن

ساحلها حديثاً صريحاً، ومساخات سيّ خليل نفسه إن

ساحلها حديثاً صريحاً، ومساخات سيّ خليل نفسه إن

ساحلها حديثاً صريحاً، ومساخات سيّ خليل نفسه إن

ساحلها حديثاً صريحاً، ومساخات سيّ خليل نفسه إن

ساحلها حديثاً صريحاً، ومساخات سيّ خليل نفسه إن

ساحلها حديثاً صريحاً، ومساخات سيّ خليل نفسه إن

ساحلها حديثاً صريحاً، ومساخات سيّ خليل نفسه إن

ساحلها حديثاً صريحاً، ومساخات سيّ خليل نفسه إن

ساحلها حديثاً صريحاً، ومساخات سيّ خليل نفسه إن

ساحلها حديثاً صريحاً، ومساخات سيّ خليل نفسه إن

ساحلها حديثاً صريحاً، ومساخات سيّ خليل نفسه إن

ساحلها حديثاً صريحاً، ومساخات سيّ خليل نفسه إن

ساحلها حديثاً صريحاً، ومساخات سيّ خليل نفسه إن

ساحلها حديثاً صريحاً، ومساخات سيّ خليل نفسه إن

ساحلها حديثاً صريحاً، ومساخات سيّ خليل نفسه إن

ساحلها حديثاً صريحاً، ومساخات سيّ خليل نفسه إن

ساحلها حديثاً صريحاً، ومساخات سيّ خليل نفسه إن

ساحلها حديثاً صريحاً، ومساخات سيّ خليل نفسه إن

ياسين إلى زيارة قصر الشوق، ولست في حاجة إلى أن أقول لك إنني لم أذهب، وتكررت الزيارة دون أن يغير ذلك من تصميمي حتى قالت لي مريم «لَمْ لَا تزورينا ونحن أختان من قديم الزمان؟» ولكني اعتذرت بشق الماذير، وبلذت كلَّ حيلها لاجتنابي، وجعلت تشكو لي معاملة ياسين لها واعرجاج سلوكه وانصرافه عنها، عليها ترقق قلبي ولكني لم أفتح لها صدري... عائشة على خلاف ذلك، تستقبلها بالترحاب والقبل، الادعى من ذلك أنها تبادلها الزيارة، وقد صحبت معها مرة مي خليل، وفي مرة أخرى صحبت نعيمة وعشيان ومحمد، لشد ما تبدو سميعة بتجديد صداقتها لمريم، وقد نَهتِها إلى مجاوزتها الحد في ذلك فقاتلت لي ولا ماخذ على مريم إلا أننا رفضنا يوماً أن نجعل منها خطيبة للمرحوم الغالي، فأتى وجه اللعدل في هذا؟!، قلت لها «أنست الجندني الإنجليزي؟» فقاتلت لي ولا ينبغي أن نذكر إلا أنها زوجة أخينا الأكبر... هل سمعت يا نينة عن شيء كهذا من قبل؟

استسلمت أمينة للحزن، فتكست رأسها ولاذت بالصمت، فجعلت خديجة تنظر إليها ملياً، ثم عادت تقول:

« هذه هي عائشة بلا زيادة ولا نقصان، عائشة التي شهدت عليّ أس فسادني أمام العجوز المخوفة... »

تهدت أمينة من الأعماق، ورمقت خديجة بعينين فاترتين، ثم قالت بصوت خافت:

« عائشة طفلة تأبى أن يكون لها عقل أو وزن، وإن زال كذلك مهما امتد بها العمر، فهل يعني أن أقول غير ذلك؟! لا أود ولا أستطيع، هل هانت عليها ذكرى فهمي؟ لا أستطيع أن أصدق ذلك، ألم يكن في وسعها أن تقتصد في عواطفها حيال تلك المرأة ولو إكراماً لي؟! لكن لن أسكت عن هذا، سأقول لها إنها أسامت إليّ ولأني غاضبة حزينة لأرى ما يكون منها بعد ذلك... »

فأمسكت خديجة بخصلة من سوالفها، وقالت:

« أحلق هذا لو صلح لها حال إنها تعيش في دنيا

لزم الأمر، فليشرب كما يشاء حتى يتوب الله عليه...
أما ابنتي فحد الله بينها وبين الشيطان... »

هفت على نفس خديجة نسمة راحة لأول مرة، فتأبعت جزع أمها بعين راضية واطمأنت إلى أن عائشة ستشعر قريباً بمدى الحسران الذي مُنبت به جزاء خيانتها، ولم تأبه كثيراً لما أضفت على الوقائع من مبالغة في التصوير أو حدة في الوصف مما جعلها تسمي شقة أختها حانة، وهي تعلم بأن إبراهيم و خليل لا يقربان الحسر إلا في أحوال نادرة وفي اعتدال لم يبلغ حد السكر أبداً، ولكنها كانت حانقة ثائرة، أما ما قيل عن أبيها من أنه منبع الأس... الخ، فقول أعلته على أمها بلهجة استنكار لا تدع مجالاً للشك في كفرها به، ولكن الحقيقة أنها اضطرت من زمن إلى التسليم بما يقال أمام إجماع إبراهيم و خليل وأمها العجوز، خصوصاً وأنهم كانوا يفهمون عنه في غير ما تحامل عليه أو انتقاد له، بل وهم ينوّهون بأريجته ويعقدون له زعامة الظرف في عصره، قابلت ذلك الإجماع بادئ الأمر بعناد غليظ، ثم داخلها الشك رويداً وإن لم تعلمه، ووجدت عسراً شديداً في مزج هذه الصفات الجديفة بالشخصية الوقور الجبارة التي أمنت بها طوال حياتها، غير أن هذا الشك لم ييؤن من شأنها وجلاها، بل لعلها أثرت في نظرها بما انضاف إليها من ظرف وأريحية. لم تقنع بما أحرزت من نصر، فعادت تقول بلهجة التحريض:

« عائشة لم تخفي حسب، ولكنها خانتك أيضاً... وصمتت ريشاً يتغلغل قسوها في الأعماق، ثم استطردت قائلة:

« إنها تزود ياسين ومريم في قصر الشوق... »

هفتت أمينة وهي تتحمل فيها بفزع:

« ماذا قلت؟ »

فقاتلت وهي تشعر بأنّها تسوّرت ذروة الظفر:

« هذه هي الحقيقة للحزنة! زارنا ياسين ومريم أكثر من مرة، زارا عائشة وزاراني، أقول الحق إنني اضطُرت لاستقبالهما وما كاد يعني إلا أن أفصل إكراماً لياسين غير أنه كان استقبلاً متحفظاً، ودعائي

- هذا أفضل، فهيهات أن تعترف بحسن نيتي
ورغبتي في إصلاح أمرها... ١

- ٢٣ -

- آه... ١

نذت عنه بغتة مقفعة بالحرارة والانفعال عندما رأى
عليدة خارجة من باب القصر. كان يقف كعادته كلَّ
أصيل على طوار العباسية يراقب البيت من بعيد وغاية
أمانه أن يلمحها في شرفة أو نافذة. وكان يرتدي بدلة
رصاصية أثيقة كأنما أراد أن يجاري الجو الذي بعثت
فيه الأيام الأخيرة من مارس أريجيه ولطفاً وشاشة،
فضلاً عن أنه كان يزداد تألقاً كلما ازداد السُحُب وقنوطاً.
وكانت عيناه لم ترياها من خاصمته في الكشك، ولكنَّ
الحيلة لم تكن تتيسر له إلا أن يحبِّج كلَّ أصيل إلى
العباسية فيطوف بالقصر من بعيد في متابعة لا تعرف
البأس، معللاً نفسه بالأحلام، قائماً إلى حين باجتلاء
المقام واجترار الذكريات. وكان الألم في الأيام الأولى
للفراق كالجنون في هذيانه ووسوسته، ولو طال به
الأمَد حلَّ ذلك لقضى عليه، ولكنَّه نجا من تلك
المرحلة الخطيرة بفضل اليأس الذي وطَّن النفس عليه
من قديم، فانسرب الألم إلى مستقرٍّ له في الأعماق يؤذي
فيه وظيفته من غير أن يعطل سائر الوظائف الحيوية
كأنه عضو أصيل في الجسم أو قوة جوهريّة في الروح،
أو أنه كان مريضاً حاداً هالماً ثمَّ ازمن فزايَلته
الأعراض العنيفة واستقرَّ، غير أنه لم يتعزَّ - وكيف
يتعزَّى عن الحبِّ، وهو أجَلُّ ما كاشفته به الحياة؟ -
ولكنَّه كان يؤمن إيماناً عميقاً بخلود الحبِّ، فكان عليه
أن يصبر كما ينبغي للإنسان مقدور عليه بأن يصاحب
داه إلى آخر العمر.

ولمَّا رآها وهي تغادر القصر فجأة نذت عنه هذه
الآهة، وتابعت عيناه عن بعد مشيتها الرشيقية التي
طال تشوُّقها إليها حتَّى رقصت ووجه رقصه قطر هيباتها
حنيناً وطرباً، ومالت المعبودة إلى اليمين وسارت في
شوارع السرايات، فثبتت في روجه ثورة اجتاحت

غير الدنيا التي تعيش فيها، لست التحامل عليها وريثاً
يعلم، لأنني لم أخاصمها ولا مرة مذ تزوجت، حتَّى أنفي
طالما حملت عليها لما يقع منها من إهمال لأطفالها أو تمَلُّق
مزجٍ لملحاتها وغير ذلك ممَّا حدثتكَ عنه في حينه، ولكنَّ
حملتي لم تتجاوز حدَّ النصيح الحازم أو النقد الصريح،
هذه أول مرة يغيبق بها صديري فاعاليتها الخصام:

فقلت الأمِّ يرجاء وإن ظلَّ وجهها غمتعُها:

- دعي الأمر لي يا خديجة، أمَّا أنت فلا أحبُّ أن
يفصل بينك وبينها خصام أبداً، لا يصحُّ أن يفترق
قلباكما وأنتميا تعيشان ممَّا في بيت واحد، لا تنسي أنها
أختك وأنتك أختها، بل أختها الكبرى، إنَّ قلبك
أبيض والحمد لله، وهو مترع بالحبِّ لاهلك جميعاً، إنِّي
كلِّما اشتدَّ أمر لم أجد عزاء إلا في قلبك، وعاتشة مهبها
يكن من فوقها هي أختك، لا تنسي هذا... ١
فهتنت في تأثر:

- إنِّي أغفر لها كلَّ شيء إلا شهادتها عليّ... ١

- لم تشهد عليك، خافت أن تغضبك كما خافت أن
تغضب حمانها فلافت بالصمت، إنها تكره أن تغضب
أحداً - كما تعلمين - وإن كنت رعونتها كثيراً ما
تغضب الكثيرين، لم تقصد الإساءة إليك أبداً، فلا
تحملي تصرفها أكثر ممَّا يحتمل، سأزورك غداً لأصفي
حسابي معها، ولكنِّي سأصلح بينكما وإنَّك أن تمنتني
عن الصلح...

ولأزل مرة تتجلى في هيني خديجة نظرة قلقة مشففة
حتَّى أنها غصَّت عينيها لتخفيها عن أمها، وصمتت
قليلاً، ثمَّ قالت بصوت خافت:

- ستجيشين غداً...؟

- نعم، لم يعد الحال يحتمل الصبر.

خديجة كأنما تحدَّث نفسها:

- سوف تنهني بأنني أفشيت أسراوها... ١

- ولو!...

ولمَّا أنست منها مزيداً من القلق والإشفاق، عادت
تقول:

- على أيِّ حال أنا أعرف ما يقال وما لا يقال...

فقلت خديجة بارتياح:

.. أعاقبتك أنا؟

تغاضى عن الحديث لحظة خاطفة كي يتملّ سحر الحال، فقد رضيت أن تحاوره، وأن تتمهّل في خطوها السعيد، وسواء أكان هذا لأنّها تودّ أن تستمع إليه أم لأنّها تتممّد إطلالة المسافة حتّى تتخلّص منه قبل بلوغ هدفها فلن يتغيّر هذا من الحقيقة الباهرة، وهي أنّها يسيران جنبًا إلى جنب في شارع السرايات، تحفّ بها أشجار الطريق الباسقة، ويترنوا إليها من فوق أسوار القصور عيون النرجس الساجية وثغور الياسمين الباسمة، في هدوء عميق يتعكّش قلبه المستعر إلى نفحة منه، وقال:

.. عاقبتني أشدّ عقاب باعفتك عني ثلاثة أشهر كاملة وأنا أتعلّب عذاب المتهم البريء...
.. يحسن ألاّ نعود إلى ذلك...
في انفعال وضراعة:

.. بل يجب أن نعود إليه، إنّي مُهَيّر على ذلك وأتوسّل إليك باسم العذاب الذي عانيتُه حتّى لم يعد بي قوّة لتحمل المزيد منه...
تساءلت في هدوء:
.. ما ذنبي أنا في ذلك؟

.. أريد أن أعرف: ألا تزالين تعذّبنني معتديًا؟ الأمر المؤكّد أنّي لا أستطيع أن أسوء إليك بحال، ولو تذكّرت موتي طوال الأعوام الماضية لاقتنعت برأيي دون عناء، ذهيني أفضل لك الأمر بكلّ صراحة، لقد دعاني حسن سليم إلى مقابله عقب الحديث الذي دار بيننا في الكشك.

قاطعته فيها يشبه الرجاء:

.. دعنا من هذا، إنّه ماضٍ انتهى...
وقعت الجملة الأخيرة من أذنه موقع النباحة من أذن الميت لو كان ميت يسمع، ثمّ قال بتأثر بدا في نبراته كالنغمة إذا هبطت من الجواب إلى القرار:
.. انتهى... أعلم أنّه انتهى، لكنّي أطمع في حسن الحتام، لا أريد أن تذهبي وأنت تظنّين بي القدر، أو الغيبة، لأنّي بريء ويعزّ عليّ أن تسيئي الظنّ بشخص يكتّ لك كلّ إعزاز واحترام، فلا يجري

المزجة التي راضٍ عليها النفس قرابة ثلاثة أشهر ففرغ به قلبه إلى أن يطرح همومه عند قدميها وليكن ما يكون. وأنّهم دون تردّد إلى شارع السرايات. كان في الماضي يحذر الكلام أن يفقدّها، الآن ليس ثمة ما يخاف عليه، إلى أنّ العذاب الذي عاناه طيلة الأشهر الثلاثة الماضية لم يدع له سبيلًا إلى التردّد أو التراجع. ولم تلبث أن انتهت إلى اقتراب خطاه، فالتفتت إلى الوراء فرائته على بعد خطوات منها، ولكنّها أعادت رأسها إلى وضعه الأوّل دون مبالاة. لم يكن يتوقّع استقبالا لطف، ولكنّه قال معاتبًا:

.. وهكذا يكون اللقاء بين الأصدقاء القدماء؟

فكان الجواب أن حثّت الخطى دون أن تمرّ أحد النفات، فأوسع خطوه مستعدًا من ألمه عندًا، ثمّ قال وهو يوشك أن يجاذبها:

.. لا تتجاهليني فهذا شيء يفوق الاحتمال ولا داعي له لو راعيت الإنصاف...

وكان أخوف ما يخاف أن تصرّ على تجاهله حتّى تبلغ هدفها المصنود، ولكنّ الصوت الرخيم خاطبه قائلاً:
.. من فضلك ابتعد عني، ودعني أسير في سلام.

فقال بإصرار وتوسّل منّا:

.. ستسيرين بسلام، ولكن بعدد أن نصغي الحسّاب...

فقال بصوت تردّد عميقًا واضحًا في صمت الطريق الاستقراطي الذي بدا خاليًا أو شبه خالي:

.. لا أدري شيئًا عن هذا الحسّاب، ولا أريد أن أدري، أرجو أن تسلك سلوك الجنتليان...!

فقال بحرارة ووجد:

.. أعذكّ بأن أسلك سلوكًا يُحسّر بالقياس إلى الجنتليان نفسه مثاليًا، وليس في وسعي أن أقبل غير هذا، إذ إنّك أنت التي ترحبن إليّ بسلوكي.

قالت ولم تكن تنظر إلى ناحيته:

.. أعني أن تتركبي في سلام، هذا ما عنيت...

.. لا أستطيع، لا أستطيع قبل أن تملن برأدي من التهم الظلمة التي عاقبتني عليها دون استئذان إلى دفاعي...

لك ذكر على لسانه إلا مقرونًا بكل شيء...
 ألفت عليه نظرة وهي تميل برأسها إلى الناحية
 الأخرى كأنها تداعبه قائلة ومن أين لك بهذه البلاغة
 كلها؟ ثم قالت بشيء من الرقة:
 - يبدو أنه وقع سوء تفاهم غير مقصود، ولكن ما
 فات فأت...
 بحماس وأمل:
 - بل لا يزال في النفس شيء من الشك فيما أرى.

فقلت بتسليم:
 - كلاً، لا أنكر أنني أسأت الظن حيناً، ولكن تبين
 لي الحق بعد ذلك...
 فطفأ قلبه فوق موجة من السعادة ترتفع فوقها
 كالشمس، ثم تسأل:
 - متى عرفت ذلك؟
 - منذ زمن غير قصير...
 وزنا إليها بامتنان، وعبرته حال من الوجد يحلو
 معها نوح من اليكاه، ثم قال:
 - عرفت أنني بريء؟...
 - نعم...
 هل يستر حسن سليم احترامه عن جدارة؟
 - وكيف عرفت الحقيقة؟
 فقلت بعجلة توحى الرغبة في إنهاء التحقيق:
 - عرفتها... ولهذا هو لهمم...

تجنب الإلحاح أن يضايقها، ولكن خاطراً خطر
 فأنزلت على قلبه سحابة من الكدر حتى قال متشككاً:
 - ومع ذلك أصرت على الاختفاء! لم تكلفني
 نفسك إعلان العفو ولو بإشارة أو كلمة مع أنك
 افترضت في إعلان الغضب! ولكن عذرك واضح، وهو
 عندي مقبول...
 - أي عذر هذا؟
 بصوت حزين:
 - إنك لا تعرفين الألم، ولأنني أسأل الله خلصاً ألا
 تعرفه أبداً...
 قالت كالمعتزة:
 - ظننت أنه لا يحتمل أن تكون متهماً... ١٠٠

ساد صمت مقطوع بأنفاسه المترددة، وكانت تنظر
 إلى الأمام فلم يطلع عينها ولكنه وجد في صمتها
 راحة لأنه على أي حال أنصف من كلمة صادرة وعده
 توفيقاً. تصور أن يهيك صوتها ناعماً عليها معرباً عن
 الشعور نفسه! يا له من مجنون! لماذا سكب ماء قلبه
 المكنون؟ لم يكن إلا كفاف رآه الارتفاع قدماً فوجد
 نفسه يعلو فوق هامة الجوار ولكن أي قوة تستطيع أن
 تشكمه بعد ذلك؟

- لا تذكريني بما لا أحب سماعه فأني في غنى عن
 ذلك، لن أنسى رأسي لأنني أجعل ليل نهار، ولا أنفي
 فأني أراه مرات كل يوم، ولكن عندي شيء لا نظير له

الأُنغام الكامنة في نفسه حتَّى برز منها لحن مليح، عند ذلك تراءت قسبات المعبودة رموزًا موسيقيةً للحن سهاويٍّ مرموقة على صفحة الوجه الملائكيّ.

- متجددني قائمًا بما دون الرجاء، لأنني كما قلت لك: أحبُّك. . .

وانفتحت صوته في رشاقة طبعية، فألقت عليه نظرة باسمحة ثم استردتها على عجل قبل أن يتمكن من قراءتها، آية نظرة كانت يا ترى؟ . . . نظرة رضى؟ تأثر؟ عطف؟ استجابة؟ سخريه مهذبة؟ وهل أصابت الوجه جملة أم اختصت بالراس والأنف؟ وجاءه صوتها قائلاً:

- لا يسمى إلَّا أن أشكرك، واعتذر لك عن إيلامك الذي لم أتعلمه، أنت رقيق وكريم. . . ونزعت به النفس إلى الارتغاء في أحضان الأحلام السعيدة، ولكنَّها استطردت قائلة بصوت خافت:

- الآن دعني أنسامد عيًّا وراء ذلك؟

ترى أيسمع صوت معبودته أم صدى صوته هو؟ هذه الجملة بنصّها مخلفة في مكان ما من سماء سين القصرين محفوفة بتبدلاته، هل أنَّ له أن يجهد لها جوابًا؟ . . . تسامد في حيرة:

- هل وراء الحب شيء؟

ها هي تبسم، ترى ما معنى ابتسامتها؟ لكنك غير الابتسام تروم، عادت تقول.

- إنَّ الاعتراف بداية وليس نهاية، إنِّي أنسامد عيًّا تريد. . . ؟

فاجلب بحيرة أيضًا:

- أريد. . . أريد أن تأذني لي بأن أحبُّك. . .

فما ملكت أن ضحكك، ثم تساملت:

- ألهذا ما تريد حقًّا؟ ولكن ماذا أنت فاعل إذا لم أذن لك؟

فقال وهو يتنهد:

- في هذه الحال أحبُّك أيضًا.

فتساملت فيها يشبه الدعابة، الأمر الذي أزعجه:

- فيم إذن كان الاستئذان؟

حقًا ما أسخف هفوات اللسان، إنَّ أخوف ما

عند الآخرين، حيَّي لا نظيره، إنِّي فخور به، ويجب أن تكوني به فخورًا أيضًا ولو زهدت فيه، هكذا كان مذ رايتك أوَّل مرَّة في الحديقة، ألم تشعرى به؟ لم أفكر في الاعتراف من قبل لأنني خفت أن يقطع ما بيننا من مودة وأن يطردني من الفردوس، لم يكن من اليسير عليَّ أن أخلع بسعادتي، أما وقد طردت من الفردوس فعلام أخاف؟!

سال سرَّه على لسانه كأنه دم تعذر منعه، ولم يكن يرى من الوجود إلَّا شخصها البليع، كأنَّ الطريق والأشجار والقصور والغلة العابرة قد غابت وراء سحابة شاملة لم تنحسر إلَّا عن فرجة لاحت منها المعبودة الصامدة بقامتها الهيباء وهالتها السوداء وعارضها الموسم بالملاحة المنطوي على الأسرار، يبدو في الظلِّ حينًا أسمر صافيًا، وحينًا - إذا مرًّا بطريق جانبيٍّ - وضياء منيرًا تحت شعاع الشمس المائلة للغروب، ولم يكن يبالي أن يسترسل في الحديث حتَّى الصباح!

- أقلت لك إنني لم أفكر في الاعتراف من قبل؟ في هذا تمجاوز، الواقع أنني همت بالاعتراف يوم التقينا في الكشك ونودي حسين للتليفون، كنت أعترف لولا أن عاجلتي بمهاجة رأسي وأنفي، فكنت (وهو يضحك ضحكة متعذرة) كالخطيب الذي همَّ بفتح فيه فانهال عليه الحصى من جمهور المستمعين؟

هائلة صامدة كما ينبغي لها، ملاك من عالم آخر لا يطيب له التحدث بلغة البشر أو الاهتمام بشئونهم، أما كان من الأكرم له أن يصون سرَّه؟ . . . الأكرم؟! الكبرياء حيال المعبود كفر، مواجهة القاتل بالقتل فنَّ من الحكمة، أتذكر الحلم السعيد الذي استيقظت منه ذات صباح فبكيت عليه؟ . . . الحلم سرعان ما يتلعه النسيان، أما الدموع أو بالحري ذكرها فبقى رمزًا خالداً، وإذا بها تقول:

- لم أقل ما قلت إلَّا على سبيل الدعابة، ورجوتك حينذاك ألا تغضب. .

هذا الشعور الرطيب جدير بالتذوق، كالفرحة السعيدة على أثر وجع ضرس وضرباته، وتداعت

يضاف أن ينحط على الأرض فجأة كما سبأ عنها فجأة،
وسمعها تقول:

- أنت تخبرني، ويبدو لي أنك تخبر نفسك أيضًا...

قال بجزع:

- إلى... حائر؟ ربما، ولكنني أحبك، ماذا وراء ذلك؟ يميل إليّ أحيانًا لئني أطمح إلى أمور تعجز الأرض عن حلها، ولكنني إذا تأملت قليلًا عجزت عن تحديد هدف لي، خبّرني أنت عن معنى هذا كله، أريد أن تتحدثني وأن أستمع، هل عندك ما يتشلي من حبرتي؟...

قالت باسمه:

- ليس عندي مما تسأل شيء، كان ينبغي أن تكون أنت المتحدث وأنا المستمعة، أليس فيلسوفًا؟

قال وجاهًا ووجهه يتورد:

- أنت تسخرين مني...!

فقالت بمجلة:

- كلاً، غير أنّي لم أكن أتوقع هذا الحديث عندما غادرت البيت، فاجأني بما لم أتوقع، وعلى أيّ حال فإنّي شاكرة ممتة، ولا يسع إنسان أن ينسى هواطلفك الرقيقة الملهبة، أمّا أن يسخر منها فهذا ما لا يحظر على بال...

نغمة أسرة ومناخمة عذبة، ولكنّه لا يدري أيّده المعبود أم يلهو، وهل تتفتح أبواب الأمل أم توحد في خفة النسيم، وقد سأله عما يريد فما أجاب لأنه لا يدري ماذا يريد، ولكن ماذا عليه لو قال إنه يطمح إلى الوصال، وصال الروح بالروح، وأن يطرّق باب السرّ الملقق بعناق أو قبلة، ألا يكون هذا هو الجواب؟ وعند مفترق الطرّق الذي ينتهي عند شارع السرايات، توقفت عابدة عن السير، ثمّ قالت برقة ولكن بلهجة قاطعة:

- هنا...!

فتوقفت عن السير أيضًا وهو يميل في وجهها بدعش، وهنا تعني أنّه يجب أن نفرّق هنا، لم يكن جملة وأحبك هذا الاعتماد في المعنى الذي يغني عن السؤال، قال دون تدبّر أو تفكير:

- كلاً...!

ثمّ هاتفاً، كمن ظفر بكشف مضى بغتة:

- ماذا وراء الحب؟ أليس هذا سؤالك؟ هاك

الجواب: ألا نفرّق...!

قالت بهلوه باسم:

- ولكن يجب أن نفرّق الآن...!

تساءل بحسرة:

- لا كدر ولا سوء ظنّ؟

- كلاً...!

- أتعودين إلى زيارة الكشك؟

- إذا سمحت الظروف.

بقلق:

- كانت الظروف تسمح في الماضي!

- الماضي غير الحاضر...

آله الجواب إيلامًا عميقًا، فقال:

- يبدو أنّك لن تعودي...

فقلّت كأنّها تنبّه إلى وجوب الافتراق:

- سسأزور الكشك كلّما سمحت الظروف،

سعيدة...

وغادرت موقفها متجهة نحو شارع المدرسة فوقف يرنو إليها كالمسحور، وعند منعطف الطريق التفت نحوه فالقت عليه نظرة باسمه ثمّ غابت عن ناظره. ماذا قال وماذا سمع؟ سيخلو إلى هذا عمّا قليل، بعد أن يفق، متى يفق؟! إنه يسير الآن وحده، وحده وخضقات الغلب وهيان الروح وأصداء النغم؟ ومع ذلك شعر بالوحدة بقوّة هزّت صميم فؤاده، وفغمه شدًا ياسمين ساحراً أسراً ولكن ما هوته؟ ما أشبهه بالحبّ في مسحه وأسرّه وغموضه، لعلّ سرّ هذا يفضي إلى ذلك، ولكنّه لن يملّ هذا الفزح حتّى يأتي على ترائيل الحيرة...

- ٢٤ -

قال حسين شدّاد:

- هلمّ جلسة الوداع والأسفاه!

امتعض كيال لدى ذكر كلمة الوداع، ورمق حسين

بنظرة سريعة ليرى إن كان وجهه ينطق بالأسف حقاً
كما نطق به لسانه! على أنه استشرع جوّ الوداع منذ أكثر

من أسبوع، إذ إن عجيء يونيه يؤذن عادة برحيل
الأصدقاء إلى رأس البر والإسكندرية، فإهي إلا أياماً

حتى تغيب عن أفقه الحديقة والكشك والأصدقاء، أما
المعبودة فقد ارتضت الاختفاء من قبل أن يقضي به
الرحيل، وأصرّت عليه رغم الصلح الذي تُوج به
حديث شارع السرايات، لكن هل يمضي يوم الوداع
دون زيارة؟ هل هانت المودة إلى حدّ الضّرّ بنظرة
عابرة قبل سفر ثلاثة أشهر؟ تسام كمال باسماً:

.. لم قلت ووالأسفاه؟

فقال حسين شذاد باهتمام:

.. وددت لو سافرت معي إلى رأس البر، يا
سلام!... أيّ تصنيف كان يكون؟!...

كان يكون عجباً بلا ريب، حسب أن المعبودة لا
تستطيع مواصلة الاختفاء هناك! وخطابه إسماعيل
لطيف:

.. كان الله في عونك! كيف تحتمل حرّ الصيف هنا،
إنّ الصيف لم يكد يبدأ بعد، ومع ذلك انظر إلى حرّ
اليوم!

كان الجوّ شديد الحرارة رغم تقلّص ذيل الشمس
عن الحديقة والصحراء الممتّدة ورامها، غير أنّ كمال
قال يهدوء:

.. لا شيء في الحياة لا يمكن احتياله...

وفي اللحظة التالية كان يسخر من إجابته ويتساءل
كيف أجاب بها، وإلى أيّ حدّ يمكن اعتبار أنّ أقوالنا
تعبير صادق صريح في نفوسنا؟ ونظر فيها حوله فرأى أناساً
سعداء ما في ذلك ريب، بدوا في قمصانهم ذوات
الأكمام القصيرة وينظفوناتهم الرمادية كأنهم يتحدّون
الحرّ، كان هو وحده الذي يرتدي بدلة كاملة - وإن
تكن بدلة خفيفة بيضاء - وطربوشاً وقد وضعه على
المنضدة، وإذا بإسماعيل لطيف ينوء بنتيجة الامتحان
قائلاً:

.. نتيجة نجاح مائة في المائة، حسن سليم نال
الليسانس، كمال أحمد عبد الجواد منقول، حسين

شذاد منقول، إسماعيل لطيف منقول...
قال كمال ضاحكاً:

.. لو اكتفيت بذكر النتيجة الأخيرة لعرفنا الأخريات
بداية!

فقال إسماعيل وهو يرفع منكبيه استهانة:

.. كلانا يبلغ هدفاً واحداً، أنت بعد كدّ وتعب
تواصل طول العام، وأنا بعد تعب شهر واحد!

.. هذا دليل على أنّك عالم بالفطرة!

فتساءل إسماعيل ساخراً:

.. ألم تقل مرّة في أحد أحاديثك التافهة إنّ برنارد شو
كان أخيب تلميذ في عصره؟

فقال كمال ضاحكاً:

.. الآن أمنت بأنّ عندي نظيراً لشو، على الأقل في
خبيته!...

عند ذلك قال حسين شذاد:

.. عندي خبر ينبغي إداعته قبل أن يسرقنا
الحديث...

ولمّا وجد أنّ قوله لم يجدي كثيراً في لفت الأنظار إليه
نهض فجأة، ثمّ قال بلهجة لم تخل من تمثيل:

.. دعوني أؤثّر إليكم خبراً طريفاً ومعيّداً (ثمّ
مستدرجاً وهو ينظر نحو حسن سليم) أليس كذلك؟

(ثمّ وهو يعود برأسه نحو كمال وإسماعيل) تمّت أمس
خطبة الأستاذ حسن سليم على أختي عابدة...

وجد كمال نفسه أمام هذا الخبر بقتة كما يجد إنسان
نفسه تحت الترام وكان أنعم ما يكون حيناً بالسلامة

والأمن، خفق قلبه خفقة عنيفة كسقطه طائرة منطلقة
في فراغ هوائي، بل هي صرخة فرح باطنية تصدّعت

الضلوع دون تسرّبها إلى الخارج، وقد عجب -
خصوصاً فيما بعد - كيف استطاع أن يضبط مشاعره

ويلامي حسين شذاد بابتسامة التهنئة، فعلمه شغل عن
القارعة - ولو إلى حين - بالصراع الذي نشب بين
نفسه وبين الدهول الذي طوّقها، وكان إسماعيل

لطيف أوّل من تكلم فردّد عينيه بين حسين شذاد
وحسن سليم الذي بدا هادئاً وزيّناً كعادته وإن شابه
هذه المرّة شيء من الحياء أو الارتباك، ثمّ هتف:

الكتاب، وباسم الكبرياء هجر إليس الجنة. قال كمال
باسياً:

- العذر مقبول والوعد مأمول.

فصلح إساعيل لطيف محتجاً:

- هذه بلاغة أزهرية إذا لاحت لها في الأفق مائدة
تناست دواعي العتاب، وتفتت بالتسامح والثناء، كل
ذلك في سبيل لقمة دسمة! حقاً إنك أديب أو فيلسوف
أو ما شاكل ذلك من ضروب الشحادة، أما أنا فلست
كذلك...

ثم مواصلاً حملة الاتهام على حسين شذاد وحسن
سليم:

- يا لكما من ذاهيتين، صمت طويل يعقبه فجأة
إعلان خطية، هه؟ حقاً يا أستاذ أنك الخليفة المنتظر
لثروت باشا...

قال حسن سليم وهو يتسم معتزلاً:

- إن حسين نفسه لم يعلم بالامر إلا قبله أيام
معدودات... فتساءل إساعيل:

- خطية من جانب واحد كتصريح ٢٨ فبراير؟

رفضته الأمة المغلوبة على امرها بإبائه ولكنه قُرض
عليها وما كان كان، وضحك كمال ضحكة عالية،
فقال إساعيل وهو يهزض حسن سليم بعينه:

- استعينوا على قضاء... لا أفكر ماذا بالكتمان!
قالها عمر بن الخطّاب، أو عمر بن أبي ربيعة، أو عمر
الغندي، والله أعلم...

وقال كمال فجأة:

- جرت العادة بأن تتضح هذه الأمور في صمت،
على أنني أقر بأن الأستاذ حسن أشار في حديث له معي
مرة إلى شيء كهذا!

فرمقه إساعيل يارتباب، على حين ألقي عليه حسن
نظرة واسعة، وقال مستنكراً:

- كان كلاماً أشبه بالعتاوين...

تساءل كمال في دهش كيف ندّ عنه ذلك القول؟ إنه
كذب أو شبه كذب على أحسن تقدير، كيف يطمع -
بهذا الأسلوب الشاذّ - أن يقنع حسن بأنه كان على

- حقاً؟! يا له من خبر سار، سار ومفاجئ، سار
ومفاجئ وغادر! غير أنني سأؤجل الحديث عن الغدر
إلى حين، حسبي الآن أن أقدم خلاص التهنائي...

ونبض فصائح حسين وحسن، فقام كمال من فوره
للتهنئة كذلك، وكان مأخوذاً رغم ابتسامته الظاهرة
بسرعة الحوادث وغرابة الأقوال حتى خيل إليه أنه في
حلم غريب وأن المظهر يهمر فوق رأسه وأنه يتلفت
باحثاً عن مأوى، وقال وهو يصاحف الشابين:

- خير سار حقاً، تهنائي القلبية...

عاد المجلس إلى سابق هيئته، واختلس كمال من
حسن سليم نظرة على رغبة فراه هادئاً وزيناً، وكان
يشفق من أن يجده غتالاً أو شاملاً - كما تصور هذا -
فداعله شيء من الارتياح العابر، وراح يستجدي
نفسه أقصى ما لديها من قوة ليست جرحه الدامي عن
العيون البواقظ ولتفادى من موضع الهزء والزرابة،
فجأدي يا نفسي وأنا أعدك بأن نعود إلى هذا كله فيما
بعد، بأن نتألم معاً حتى نهلك، وبأن نفكر في كل شيء
حتى نجبن، ما أمتع هذا الموعد في هدأة الليل حيث لا
عين ترى ولا أذن تسمع، حيث يباح الألم والهللوان
والدموع دون زراية زارٍ أو لومة لائم. وثمة البشر
القديمة الزخ عن فوهتها الغطاء وأصرخ فيها غاطباً
الشياطين ومناجياً الدموع المتجمعة في جوف الأرض
من أعين المحزونين، لا تستسلم، حذار، فالدنيا تبهو
لناظريك حمراء كعين الجحيم. عاد إساعيل لطيف
يقول متخذاً لهجة الاتهام:

- مهلاً، لنا عندك حساب، كيف حدث هذا
ودون سابق إنذار؟ أو قلن هذا إلى حين، ولنسال
كيف تمت الخطية دون حضورنا؟

قال حسين شذاد مدافعاً عن موقفه:

- لم يكن هناك حفل كبير أو صغير، اقتصر الجمع
على خاصة الأهل، معدنا يوم الكتاب وعليك خير،
مستكونان من الداعين لا المدعوين...

يوم الكتاب! كآته عنوان لحن جنازتي، حيث يشيع
قلب إلى مقرّه الأخير غمقاً بالورود مودعاً بالزغاريد،
وباسم الحب تمنو ربيبة باريس لشيخ معّم ينلو فاقحة

- ينبغي أن أعرف أولاً إن كنت سأتبقى في مصر أم لا...؟

فقال حسين شذاد معقّباً:

- إنسا أن يعسّين في النسيابة، أو في السلك السياسي... .

هكذا يبدو حسين شذاد مسروراً بالخطبة، فاستطيع أن أزعج أنني كرهته ولودقيقة عابرة، كأنه خانني فيمن خانوني، أخانني أحد؟ اختلطت الأمور عليّ، غير أن هذا المساء يعذني بخلوة حافلة... .

- أيتها تفضل يا أستاذ حسن؟

فليختر ما يحلو له، النسيابة... . السلك السياسي... . السودان... . سوريا إن أمكن... .

- النهاية ببدلة، إنّي أفضل السلك السياسي... .

- يحسن أن تفهم والدك ذلك جيّداً حتّى يركّز عنايته في إلحاقك بالسلك السياسي... .

أفلتت هذه الجملة أيضاً؟ ولا شك أنّها أصابت الهدف، ينبغي أن يتألمك أحصابه وآلّا وجد نفسه مشتبكاً مع حسن في نزاع حلّي، ثمّ ينبغي أن يراعي خاطر حسين شذاد، فيها الآن أسرة واحدة، ما أفسى هذه الشكّة من الألم. هرّ إسماعيل رأسه كالأسف، وقال:

- هذه آخر الآلام معنا يا حسن، بعد عشرة العمر كلّها، يا لها من نهاية محزنة!

يا للحياة! يحسب أنّ الحزن يسّ قلباً واحدة المعبود مرتعه.

- الواقع أنّها نهاية محزنة يا إسماعيل... .

كذب في كذب، مثل تمنيتك له، يستوي في هذا ابن الناجر وابن المستشار. قال:

- أيمن هذا أنّك ستقضي عمرك كلّ خارج القطار؟

- هذا هو التسوّع، لن نرى مصر إلّا في القليل النادر... .

قال إسماعيل متعجباً:

- حياة غريبة! هلّا فكرت فيها تنتظر أولادك من متاعب؟

واقبلها أيليق هذا اللعب بالمعاني! يحسب الشرير

علم بنواياه وآله لم يفتأجها أو يكثرثها؟ يا للحياة! أمّا إسماعيل فقد قال لحسن وهو يمدجه بنظرة عتاب: - ولكنّي لم أحظّ بعنوان واحد من هذه العناوين!

قال حسن بجدّ:

- أوكد لك أنّه إذا كان كمال قد وجد في حديثي معه ما اعتبره إشارة إلى الخطية، فإنّما يكون قد استعان على ذلك بخياله لا بكمالاتي.

ضحك حسين شذاد ضحكة عالية، وقال مخاطباً حسن سليم:

- إسماعيل زميلك القديم، وهو يريد أن يقول لك إنّه إذا كنت سبقته إلى اللسان بثلاث سنوات فلا يعني هذا أن تصنّ عليه بأسراك أو أن تؤثر بها غيره! فقال إسماعيل بأساً، وكأنّما كان يداري مضايقته: - إنّي لا أرتاب في زمانه القديمة، ولكنّي أحاسبه حتّى لا يعود إلى الوقوع في الإهمال يوم القرائن! فقال كمال بأساً:

- نحن أصدقاء الطرفين، فإذا أمعننا العريس قلن نملنا العروس... .

إنّه تكلم ليثب أنّه حيّ، لكنّه حيّ يتألم، شدّ ما يتألم، ترى هل جرى في خاطره يوماً أن يكون لحية نهاية غير هذه النهاية؟ كلّاً، غير أنّ الإيمان بأنّ الموت حتم مقدّر لا يمنع من الجزع حين حضوره، وهو ألم مفترس لا يعرف المنطق أو الرحمة، لو يستطيع أن يشخصه ليعلم في أيّ موضع يكمن أو عن أيّ ميكروب يصدر؟! وبين نوبات الألم يرشح بالللل والغفور... .

- متى يُعقد القرائن؟

إنّ إسماعيل يسأل عمّا يدور بخاطره كأنه موكل بأفكاره، ولكنّه لا ينبغي له أن يصمت. قال:

- نعم، هذا مهمّ جدّاً حتّى لا نؤخذ على غرة، متى يُعقد القرائن؟

فتساءل حسين شذاد ضاحكاً:

- لم تتعجلان الأمر؟ فليهنأ العريس بما بقي من عهد عزوبيته... .

وقال حسن يهدوئه المعتاد:

- هو الكتاب...

فقال حسين في ثقة وإيمان:

- لن يقطع الرحيل ما بيننا من أسباب...

فخفق قلب كمال رغم فتوره، وقال:

- على أنّ قلبي يجثني بكلك لن تحتمل الغربة إلى الأبد...

- هذا هو الراجح، ولكنك ستفيد من رحلتي بما سأرسله لك من كتب، سواصل أحاديثنا بالرسائل والكتب...

هكذا يتكلم حسين كما لو كان السفر قد بات أمراً

مفروغاً منه، هذا الصديق الذي يسعد ببقاء سعادة

فاتنة فحق الصمت يستمتع به في محضره، ولكل عزاء

لهذه المعبودة سيعلمه كيف يستهين بالخطب وإن

جلى، هكذا هانت وفاة جثته المحبوبة على النفس التي

اكتوت بنار الحزن على فهمي، غير أنه ينبغي أن يذكر

دائماً أنه في جلسة الدواعي كى بلا عنيه من الورد

والأزهار التملة بالنضرة لا تبالي في أي حزن يهيم،

وثمة مشكلة ينبغي أن يحلها حلاً: كيف يسمو بشر

إلى معاشره المعبود أو كيف يهبط المعبود حتى يعاشره

بشر؟ لهذا لم يجد لذلك حلاً فسوف يسير في طريقه

بقدمين ترسغان في الأغلال وفي حلقه شجاً، والحب

حمل ذو مقبضين متباعدين خلق لتحملة يدان...

فكيف يحمله وحده؟ وكان الحديث يطرد ويتفرع وهو

يتابعه بعينه وهزات رأسه وكلبات يثبت بها أن الخطب

لم يقصر عليه بعد، وكان الأمل معقوداً بأن قاطرة

الحياة تسير وأن عجلة الموت في الطريق على أي حال،

وها هي ساعة الغروب... ساعة الظلام والهدوء...

تجها كما تحب الفجر، وعابدة والام لفظان لمعى واحد

فيتبني أن تحب الالم وأن تطرب للزهية منذ اليوم، ولا

تزال عجلة الحديث في دوران غير منقطع والأصدقاء

يتباحسون ويتناظرون كأن واحداً منهم لم يعرف الحب

قلبه... حسين ضحكة الصنعة والصفاء، وإسماعيل

ضحكة العريضة والعدوان، وحسن ضحكة التحفظ

والاستعلاء، ويأى حسين إلا أن يتحدث عن رأس

البرء أعدك بأن أحج إليها يوماً وإن أسأل عن الرمال

أن المعبودة تجبل وتترحم وتنداح بطها وتكوز ثم يجيئها

المخاض فتلدا أتلكر خديجة وعائشة في الأشهر

الأخيرة؟ هو الكفر، لم تشترك في جمعية الكف

السوداء؟ الاغتياح خير من الكفر وأنجح، وتجد نفسك

يوماً في قفص الاتهام وعلى المنصة سليم بك صبري

والد صديقك الدبلوماسي وهو معبودك، كما مثل بين

يديه قتلة السردار في هذا الأسبوع، الخائن...

حسين شداد ضاحكاً:

- أقطع الدول علاقاتها السياسية حتى يرى أولاد

الدبلوماسيين في بلادهم؟

بل تقطع الروموس! عبد الحميد عنایت...

الخراط... محمود راشد... علي إبراهيم... راغب

حسن... شفيق منصور... محمود إسماعيل...

كمال أحمد عبد الجواد الإعدام شقاً، القاضي الوطني

سليم بك صبري، القاضي الإنجليزي مستر كرشو،

الاغتياح هو الجواب، أترى أن تقتل أم تقتل!...

وخاطب إسماعيل حسين قائلاً:

- رحيل أختك سيمحل والدك على الإصرار على

رفض فكرة سفرك أنت...

فقال حسين شداد باطمئنان:

- قضيتي تقترب من الحل الموقر بخطى ثابتة...

عابدة وحسين في أوربا! إنسان يفقد في ساعة حبيبه

وصديقه، تفقد روحك معبودها فلا تجده وتفقد

عقلك أليفه فلا يجده، وفي الحري العتيق تعيش وحيداً

مهجوراً كأنك صدى حنين هائم منذ أجيال، تأمل

الآلام التي ترصدك، أن لك أن تحصد ثمار ما زرعته

من أحلام في قلبك الغر، توصل إلى الله أن يعمل

الدموع دواء للأحزان، وعلى إن استطعت جسمك

بحبال المشائق أو ضمه على رأس قوة مدبرة تنقش بها

على العنود، هذا تلقى روحك خلاه كما لقيت بالأمس

ضريح الحسين، يا خيبة الآمال، والمخلصون قتل أما

أبناء الطرنة سفراء. قال إسماعيل لطيف وكأنما يخاطب

نفسه:

- لن يبقى في مصر إلا أنا وكمال، وكمال غير مأمون

الجانب، لأن صديقه الأول - قبل أو بعد أو مع حسين

- نعم أنت، لم يكن حسن يرتاح إلى صداقتكما، هذا يبدو لي عققاً رغم أنه لم ينس لي عنه بكلمة، إنه ذو كبرياء شديد - كما تعلم - ولكنني أعرف كيف أصل إلى ما أريد، أؤكد لك أنه لم يكن يرتاح إلى صداقتكما، أتذكر ما نشب بينكما ذلك اليوم؟ الظاهر أنه طلبها بأن تحمّد من حرّيتها في الاختلاط بالأصدقاء، والظاهر أنها ذكرته بأنه لا حقّ له في مطالبة فائده على هذه الخطوة الكبيرة ليكون من أصحاب الحقّ!

قال كيال وخفان قلبه يكاد يعلو على صوته:
- لكنني لم أكن الصديق الوحيد! كانت عابدة صديقتنا جميعاً!

فقال إسماعيل منهكاً:
- ولكنّها اختارتك أنت لتثير قلقه! ربّما لأنّها آنتت في صداقتك حرارة لم تجدّها عند غيرك، على أيّ حال، إنّها لا تلقى الأمور ارتجافاً، وقد صمّت منذ قديم على الظفر بحسن فجئت أخيراً ثمرة صبرها!
«الظفر بحسن»؟ «ثمره صبرها»! ما أشبه هاتين العبارتين بقول مأفون «شروق الشمس من الغرب»، قال وقلبه يتأوّه:
- ما أسوأ ظنّك بالناس! إنّها ليست على شيء ممّا تتصوّر!

فقال إسماعيل دون أن يظن إلى شعور صاحبه:
- لعلّ الأمر وقع اتفاقاً أو لعلّ حسن كان وإمّا، على أيّ حال جاءت العواقب في صالحها...
هتف كيال غاضباً:
- صالحها! ماذا تظنّ؟! سبحان الله، إنك تتحدّث عنها كما لو كانت خطبتها لحسن تعتبر ظفراً لها لا له! فحدج إسماعيل بنظرة غريبة، ثم قال:
- إنك فيما يبدو غير مقتنع بأنّ أمثال حسن قليلون؟ أسرة ومركز ومستقبل، أمّا مثيلات عابدة فلسن قليلات، هنّ أكثر ممّا تتصوّر، ترى هل تقدّرهما أكثر ممّا تستحقّ؟ إنّ أسرة حسن ارتقت زواجه منها لثروة أبيها المائلة فيما اعتقد، إنّها فتاة... (ثمّ بعد تردّد)... ليست بارعة الجمال على أيّ حال!...

التي وطلتها أقدام المعبودة لأثمتها ساجداً، الآخرين يتننّيان بسان استغافو ويتحدّثان عن أمواج كالجال، حقّاً؟ تصوّر جثّة تغلف بها الأمواج إلى الشاطئ! وقد امتصّ البحر الرهيب جامها ونبلها؟ ولتعرّف بعد هذا كلّ بأنّ الملل يطوّق الكائنات وأنّ السعادة ربّما كانت وراء أبواب الموت، وتواصل السمر حتّى أنّ للجمع أن يتفرّق، فتصافحوا بحرارة... شدّ كيال على يد حسين، وشدّ حسين على يد كيال، ثمّ مضى وهو يقول:

- إلى اللقاء... في أكتوبر!
كان في مثل هذا الموقف من العلم الماضي وما قبله يتساهل في لفظة متى يعود الأصدقاء؟ الآن ليست أشواقه رهينة بمودة أحد، تستظلّ مستعرة جاء أكتوبر أو لم يجيء، عاد الأصدقاء أو لم يعودوا. لن يلوم شهر الصيف بعد الآن لأنّها تُباهد بينه وبين عابدة، فالهوّ التي تفصل بينهما أعمق من الزمن، وقد كان يعالج الزمن بجرعات الصبر والأمل، ولكنّه يخاضع اليوم عدواً مجهولاً وقوّة خارقة غامضة لا يدري من تعاويذها ورقاعها حرّاً واحداً... فليس أمامه إلّا الصمت والتعاسة حتّى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. تراءى له حبه معلقاً فوق رأسه كالقنّدر، يشدّه إليه بأسلاك من الألم المبرّح، أشبه ما يكون في جبريته وقوّة بالظاهرة الكونيّة، فتأمله بعين ملؤها الإكبار والحزن.

افترق الأصدقاء الثلاثة أمام سراي آل شدّاد: فسار حسن سليم إلى شارع السرايات، واتّجه كيال وإسماعيل نحو الحسينيّة في طريقهما المعهد الذي يفترقان في هابته، فيمضي إسماعيل إلى عمرة، ويمضي كيال إلى الحريّ العتيق، وما إن انفردا حتّى ضحك إسماعيل ضحكة عالية طويلة، فسأله كيال عتياً أضحكه، فقال في خبث:

- ألم تظن بعد إلى أنك كنت في الأسباب الجوهرية التي دعت إلى الإسراع في إعلان الخطبة؟
- أنا؟!!

نذت عن كيال وعينه تشعان في ذهول، فقال إسماعيل في استهانة:

سمرة حائلة، وعلى الأرائك والرفوف جوائق مرصوصة
 مترعة بالحناء الخضراء والشطحة الحمراء والفلفل الأسود
 وقوارير الورد والعطر والضرطيس الملونة والموازين
 الصغيرة، وتتلألأ من علّ الشموع في أحجام وألوان
 شتى كأنها التهاويل، في جو مغمض بشذا العطارة
 والعطر كأنها أنفاس حلم قديم نائه لا يذكر متى رآه،
 أمّا الملاءات اللفت والبراقع السود والعرائس الذهبية
 والأعين الكحيلية والأرداف الثقيلة فمهما استعبد
 بواهب النعم، سير الخالم في تهاويل حلم جميل رياضة
 محبوبة يبيد أنّي أشكو ضئي القلب والعين، إن تعدّ
 النسوان هنا لا تحصىهن، مبارك المكان الذي يضمهن
 ولا منجى لك إلا أن تهتف من أحياق الفؤاد: يا
 خراب بيتك يا ياسين، هنالك يبيك صوت أن افتح
 دكان في التريفة واستقرّ أبوك تاجر. سيّد نفسه...
 ينفق في مسراته أضعاف أضعاف مربّيك، افتحها
 وتوكل ولو بعث لذلك ريع الغورية ودكان الحمزاوي،
 نجي مع الصبح كالسلطان لا ميعاد يربطك ولا رئيس
 يربك، تجلس وراء الميزان فيجيشك النسوان من كلّ
 فجّ: صباح الخير يا سي ياسين، واقعد بالعافية يا سي
 ياسين، حليّ وعليّ إن تركت مصونة دون تحية أو
 متهمكة دون ميعاد! ما ألدّ الخيال وأقساه على من
 سيقي إلى آخر العمر ضابطاً بمدرسة النحّاسين،
 والعشق داء أعراضه جوع دائم وقلب قلب فوارحه
 لمن خلق بشهوة خليفة وسلطان ضابط مدرسة، تمّيم
 الرجاء فلا جدوى من الكلب، ويوم حملته إلى قصر
 الشوق كان الأمل يملك بعباءة هادئة مطمئنة، قاتل
 الله الملل كيف يمازج النفس كما تمازج مرارة المرض
 اللعاب! عدوت ورامها علماً ثمّ ملكتها في أسابيع فما
 التماسه إن لم تكن هكذا! بيتك أوّل بيت يفسج
 بالشكوى في شهر العسل، سئل قلبك أين
 مريم؟... أين الملاحه التي لوّعتك؟... يجيبك
 بضحكة كالتأوّه ويقول أكلنا وشيعنا وصرنا نتفّرز من
 رائحة الطعام، وهي مأكرة يستعذب اللعب بها ولا
 فتوتها شاردة، مرّة بنت مرّة، اذكروا حسنات موتاكم
 هل كانت أملك خيراً من أمّها؟! المهمّ أنّها ليست

إمّا أن يكون مجنوناً وإمّا أن تكون مجنوناً أنت! حرّه
 لم كهذا من قبل يوم أطلع على كلمة جارحة تهجم بها
 كاتبها على نظام الزواج في الإسلام، ألا لعنة الله على
 الكافرين جميعاً، تسامل يهدو يغطي به على لوعته:
 - لمّ إذن تُثرّ المجنون من حولها؟
 أبرز إساعيل فكّه الأسفل فارتفع ذقنه في حركة
 استهانة، ثمّ قال:

- لعلك تعني فيمن تقصد! لا أنكر أنّها خفيفة
 الروح، وطراز وحدها في الأنافة، إلى أنّ أسلوبها
 الغربيّ في الباقة الاجتماعية يريق عليها فتنة وإغراء،
 لكنّها بعد ذلك سمراء نجيحة لا شيء فيها يُشهى!
 تعال معي إلى غمرة نثر ألواناً من الجبال تزيّ بجبالها
 جملة وتفصيلاً، هنالك ترى الملاحه الحقة في البشرة
 الرضينة والبد الكاعب والردف اللماء، هذا هو الجبال
 إن أردته... لا شيء فيها يُشهى!...
 كأنها شيء يُشهى كقمر ومرمى! نهد كاعب وردف
 مليه... كمن يصف الروح بصفات الجسد! يا لشدة
 الألم، كتّبت عليه اليوم أن يتجنّز كأس الألم حتّى
 ثباتها، إذا تواتت الضربات القاتلة فمن الخير أن
 ترخب باللوت...
 وعند الحسينيّة افترقا، فصار كلّ إلى سبيله...

- ٢٥ -

تنفّهي السنون ولا يفرّح حبه لهذا الطريق، قال
 لنفسه، وهو يلقي على ما حوله نظرة ضيقة: «لو شأبه
 حتّى للمرأة التي يجتارها قلبي حتّى لهذا الطريق
 لأراحتني من متاعب جمّة، أعجبّ به من طريق
 كالتيه، لا يكاد يمتدّ بضمة امتار طويلاً حتّى يتعطف بمنّة
 أو يسره، وفي أيّ موضع منه يطالعك منحى يطوي
 ورامه مجهولاً، وضيق ما بين جانبيه يريق عليه تواضعاً
 وألفة فهو كالحيوان الأليف، والجالس في دكان على
 يمينه يستطيع أن يصفاح الجالس في دكان على يساره،
 مسقوف بمظلات الخيش تمتدّ بين أهالي الحيوانيت
 فتحجب أشعة الشمس المحرقة وتنفض في الجزر الرطب

- اوعيتي! كلَّك تبتِ أو تزوجتِ...!
 - لا شيء على الله بكثير...
 - أما التوبة فهذا المعطف الأبيض يكذبها، وأما الزواج فلا يعد أن تسوِّقك قلة العقل يوماً إليه!
 - حاسب، إني متزوجة تقريباً...!
 ضحك - وكنا ميلان إلى الموسيقى - قائلاً:
 - مثلي عماماً...
 - لكنت متزوجة بالفعل، اليس كذلك؟
 - كيف عرفت هذا؟... (ثم مستدركاً) أوه...
 كيف نسيت أن أسرارنا عندكم أوَّل بأوَّل!
 وضحك مرة أخرى ضحكة ذات معنى، فابتسمت ابتسامة خامضة، وقالت:
 - تقصد بيت السلطنة؟
 - أو بيت أبي، اليس الوالد متصلاً؟
 - تقريباً!
 - كل شيء عندك الآن بالتقريب! أنا كذلك متزوجة تقريباً، أعني إني متزوجة وأبحث عن رفيقة...
 هتفت بيدها ذبابة حل وجهها، فوسست أساورها الذهبية المحيطة بأساعدها وهي تقول:
 - أنا مرافقة وأبحث عن زوج!
 - مرافقة؟ من السعيد ابن الـ...
 قاطعته وهي تشير إليه بحذرة:
 - ليّاك والسب، أنه رجل ذو مقام...
 فقال وهو يلحظها ساخراً:
 - ذو مقام؟! حق حق، زئوبة!... أورد لـ
 انطحك...
 - أتذكر متى تقابلنا آخر مرة؟
 - أوه، ابني رضوان عمره الآن ستة أعوام، فنكون قد تقابلنا آخر مرة منذ سبعة أعوام... تقريباً!
 - عمر طويل...
 - ولكن لا ينبغي لي أن يأس في هذه الدنيا من اللقاء...
 - ولا الفراق...
 - الظاهر أنك خلعت الوفاء مع الملاءة اللت!
 فحدثته بنظرة مقفلة وهي تقول:

كزينب يسهل خداعها وما أثقل غضبها إذا غضبت، لا هي بالتي تغضي ولا أنت بالذي يفتح، هيهات أن تُشبع جوعك المستمر امرأة أو يعرف الاستقرار قلبك، ومع ذلك توهمت أنك ستظفر بحياة زوجية سعيدة! ما أعظم أباك وما أحقر! لم تستطع أن تكون مثله ودواؤك أن تكون مثله! ربه ما هذا الذي أرى؟! أهله امرأة حقاً؟ كم قنطاراً يا ترى تزن؟! اللهم إني لم أزل من قبل طويلاً كهذا الطول ولا عرضاً كهذا العرض، كيف تملك هذه الضيعة؟! إني أنلر إذا وقعت بين يدي امرأة في قدرها أن أنيها في وسط الحجرة عارية، وأن أدور حولها سبها وأنا أفقر...
 - أنت...!
 جاء الصوت من وراء فاهتز له قلبه، وسرعان ما تحولت عيناه عن المرأة الضخمة إليه، فرأى شابة في معطف أبيض، فما تمالك أن هض:
 - زئوبة!...
 وتصافحا في حرارة وهي تضحك، غير أنه حثها على السير حتى لا يلتقا إليها الأنظار، فسارا جنباً إلى جنب يشقان الزحام. هكذا التقيا بعد طول الفراق، ولم تكن ترد على خاطره إلا في القليل النادر بعد أن شغلته عنها الشواغل، ولكنّه وجدها جميلة كيوم هجرها أو لعلها ازدادت جمالاً، ثم ما هذا الزي الحديث الذي استبدلته بالملاءة اللت؟! وابتعث فيه موجة من النشاط والسرور، وإذا بها تتساهد:
 - كيف حالك؟
 - هال، وأنت؟
 - كما ترى...
 - هال جدّاً والحمد لله، أنت غيّرت زيّك، لم أكن أعرفك عند أوَّل نظرة، لا أزال أذكر مشيتك في الملاءة اللت...
 - وأنت لم تتغير، لم تكبر، ازدادت سمنة، هذا كل ما في الأمر...
 - أنت الآن شيء آخر! بنت أجنبية!... (وهو يتسم في حذر)... إلا أن ردفاها من الغورية! لسانك!

- اتحدث عن الوفاء يا ثورا!
فسره رفع الكلفة إلى هذا الحد وشجع مطامعه، فقال:
- الله وحده يعلم كم سررت بلقاتك، كثيرا ما كنت تخمطين ببالي، ولكنكها الدنيا!
- ذبا النسوان، هه؟
فقال متظاهرا بالتأثر:
- ذبا الموت، ودنيا المتاعب...
- لا يبدو أنك تحمل للمتاعب هه، إن البنات لتحسبك على صحتك...
- لولا أن العين الجميلة لا تحسد...
- تخاف على نفسك! كذاك عبد الحليم المصري طولاً وعرضاً...
- فضحك غتلاً، وصمت قليلاً، ثم قال بلهجة جديدة جادة:
- أين كنت ذاهبة؟
- لم تذهب الواحدة إلى التريعة؟ أم ظننت الناس مثلك لا هم لهم إلا التحكك بالنسوان؟
- مظلوم والله...
- مظلوم! لِمَا لمحتك وجدتك تفرص بعينك في امرأة كالبؤابة...
- بل كنت شارداً أفكر لا أحي فيم أنظر...
- أنت! إني أنصح من يروم لقاءك أن يتقّب في التريعة عن أضخم امرأة، وأنا كفيلة بأنه سيجدك وراها لا يذاً كما تلبد القراصة في الكلب...
- أنت يا ولّيت لسانك كلّ يوم يطول عن يوم...
- اسم الله على لسانك أنت...
- ما علينا، خلتنا في الأهم، أين أنت ذاهبة الآن؟
- ساتوق قليلاً، ثم أعود إلى بيتي!
- فصمت لحظة كالمتورّد، ثم قال:
- ما رأيك في أن نقضي ممّا بعض الوقت؟ فلحظته بعينها السوداوين اللعوتين، وقالت:
- ورائي رجل غيورا...
- فقال وكأنه لم يسمع اعتراضها:
- في مكان لطيف لشرب كاسين...
- فعدت تقول بصوت أعلى من سابقه:
- قلت لك ورائي رجل غيورا...
- فاستطرد قائلاً دون اكتراث:
- توفايان، ما رأيك؟ إنّه مكان لطيف وابن حلال، سأنادي هذا التاكسي...
- فتدّ عنها صوت احتجاج، ثمّ تساءلت في استياء وثى وجهها بغيره قائلة: «بالقرّة؟» ثمّ نظرت في ساعتها بمحسمها - وقد كادت هذه الحركة الجديدة تضحكه - وقالت بلهجة الشارط:
- على ألاّ تأخر، الساعة الآن السادسة، وينبغي أن أكون في البيت قبل الثامنة...
- تساءل والتاكسي يطوي بها الطريق: ترى هل لمحتها عين ما بين التريعة والموسكي؟ غير أنّه هرّ كتفيه استهانة وهو يزحلق طربوشه المائل فوق حاجبه الأيمن إلى الوراء بمقبض منشته العاجية، ماذا يسمّه؟
- مريم وحيدة وليس وراءها وحش مثل محمّد عفت الذي قوّض أوّل بيت زوجيّة بناء، وأمّا أبوه فرجل لبق وهو يعلم أنّه لم يعد الطفل الغرير الذي نُكِّل به في فناء البيت القديم. وفي حديقة توفايان جلسا حول مائدة متقابلين، كان المشرب غاصّاً بالنساء والرجال، والبيانو الميكانيكي يعزف مقطوعاته الرتيبة، على حين هفّت رائحة الشواء مع نسيم الأصيل من ركن قصي.
- وأدرك من ارتياكها أنّها تجلس في مكان عام لأوّل مرّة فدخله سرور حريف، ثمّ أيقن في اللحظة التالية أنّ ما به حديثاً حقّاً لا يحضر رغبة عابرة، وبدت له أيّامها الغابرة أسعد الأيام كلّها. وطلب قارورة كونيّك ثمّ طلب شواء، وجرى صاء الحياة في حديثه، ثمّ خلع طربوشه فبدا شعره الأسود مفروقاً من الوسط على جانبي الرأس كشعر أبيه، فما إن لمحت زنبوبة حتّى ارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة لم يطفئ بطبيعة الحال إلى ما وراءها. كانت أوّل مرّة يخالس فيها امرأة في حانة غير حانات وجه البركة، وكانت أوّل مغامرة له بعد زواجه الثاني مع استثناء إلمة واحدة بدرب عبد الخالق. وركّبا كانت أوّل مرّة كذلك يشرب فيها كونيّك «واقياً» خارج البيت، إذ أنّه لا يتناول الجيتد

- لَمْ كَفَى الله الشر؟ ناوي تعمل حادثة؟
 - اللطف يا ربِّ بي وبها...
 وعند ذلك قالت في شيء من الاهتمام:
 - لم تحبثني عن زوجك الجديدة...؟
 فرئت ياسين شاربه وهو يقول:
 - حزينه للمسكينة! ماتت أمها هذا العام...
 - العمر الطويل لك، كانت غنية؟
 - تركت بيتاً، البيت المجاور لبيتنا، أهبي المجاور
 لبيت والدي، ولكنّها تركت في نفس الوقت شريكها
 لزوجي فيه وهو زوجها!
 - لا بدّ أنّ زوجك جميلة، فأنت لا تقع إلّا على
 النقاوة...
 فقال بحذر:
 - ها جانها، غير أنّه لا يقاس بجمالك أنت...
 - آه منك...!
 - هل عرفتي كاذباً أبداً؟
 - أنت؟ أنا أشك أحياناً في أنّ اسمك هو ياسين
 حقاً...
 - إذن فلنشرب هذه الكأس أيضاً...
 - تُسكّرني كي أصدقك...!
 - إذا قلت لك إنّني أرغب فيك وأحرّك إليك لعل
 تشكّين في صدقي؟ انظري في عيني، وجّهي
 نبهي...
 - أنت خليك بأن تقول هذا الكلام لأية امرأة
 تصادفك...
 - هذا كما يقال إنّ الجائع يؤدّ الزان الطعام جيماً،
 ولكنّ الملوخية مثلاً قد تستأثر بمنزلة خاصّة...
 - الرجل الذي يحبّ امرأة حقاً لا يتردّد عن الزواج
 منها...
 ففخ، ثم قال:
 - أنت غطّنة، بوذي لو أوقف فوق هذه المائدة
 وأصرخ بأعلى صوتي: من يحبّ منكم امرأة فلا
 يتزوجها، أجل، لا شيء يقتل الحبّ كالزواج.
 صدّقني، إنّني عرّبت، وقد تزوّجت مرّة أخرى وأعرف
 مدى صدق ما أقول...

منه إلّا فيها يقتني من زجاجات في البيت للاستعمال
 والشرعي، على حدّ تعبيره. ملأ الكاسين في زهو
 وارتياح، ثمّ رفع كأسه وهو يقول لها:
 - صحّة زنوبة مارتل!
 فقالت بكبرياء خفيف الظلّ:
 - إنّني أشرب الديوارس مع البك...
 فقال مثاقفاً:
 - دهينا من سيرته، ربّنا يقدّرنا على جعله في خبر
 كان...
 - بعدك!...
 - سنرى، كلّما شربنا كأساً تفتّحت لنا أبواب
 وانحلت عقد...
 وإحساسها يقصر الوقت التّاح تعجّلاً الشراب
 فامتلا الكاسان وفرغوا تباشراً، وهكذا أخذ الكونيك
 يزغرد بلسانه الناريّ في معدتيها فيرتفع زئيق النشوة في
 ترمومتر العروق، أمّا الأوراق الخضراء المتطلّعة من
 الأصص وراء سور الحديقة الخشبية فاقتزّت نفوسها
 عن بساط مثاقفة، وأخيراً وجد البيانو أذناً متسامحة،
 والوجوه الحاملة المرعبدة تلاقى أعينها مراراً في أنس
 وموثة، وجرّ الأصيل سحج في موجبات موسيقية
 صامتة، وبدأ كلّ شيء طيلاً وجيلاً:
 - أتعرف ماذا طفر إلى لساني أوّل ما رأيتك اليوم
 وأنت تحمّلني في المرأة كالسّمور؟
 - أفندم؟... ولكنّ الفرغى كاسك أوّلًا حتّى
 أملاه...
 وهي تتناول ريشة شواء:
 - كنت أصبح بك: يا بن الكلب...
 وهو يضحك ضحكة رثانة:
 - ولمّ لمّ تفعلني يا بنت القارحة؟
 - أصلي لا أشتم إلّا الأحياء وكنت وقتها غريباً أو
 كالغريب!
 - ولّان ماذا ترفيني؟
 - ابن ستين...
 - يا سلام، الشتيمة تُسكر أكثر من الخمر أحياناً،
 هذه الليلة المباركة ستحدّث عنها الجرائد غداً...

- لعلك لم تهتد بعد إلى المرأة التي تناسيك...
 - تناسي؟ كيف تكون هذه المرأة؟ وبأي حاسة
 يُهتدى إليها؟ وأين تكون هذه المرأة التي لا تُحَلَّ؟
 فضحكت في فتور، وقالت:
 - كأنك تتحمى أن تكون ثوراً في حديقة أبقار، هذا
 هو أنت!
 ففرق بصبعه طرباً، وقال:
 - الله... الله، منذ الذي كان في زمان مضى
 يدعوني بالثور... إنه أبي ربنا بمسيه بالخير، كم أودَّ
 لو أكون مثله، حظي بأمارة هي آية الطاعة والقناعة،
 وانطلق على هواه لا يجد في حياته المتاعب، موفقاً في
 زواجه، موفقاً في عشقه... هذا ما أريد...
 - ما عمره؟
 - أظنه في الخامسة والخمسين، بيد أنه أقوى من
 الشباب...
 - لا عظيم أمام السنين، ربنا يتعمه بصمخته...
 - إلّا أبي، إنه معشوق المعشوقات من النساء، ألا
 تربيه الآن في بيتكم؟
 فقالت ضاحكة وهي ترمي بعظمة إلى قطعة غنم
 تحت قدميها:
 - هجرت ذلك البيت منذ أشهر، الآن لي بيتي
 الخاص وأنا سيّده!
 - حقاً؟ حسبك تمزحين، وهل هجرت التخت
 أيضاً؟
 - هجرت، إنك تَحَدِّثُ سيّدة بكلّ معنى الكلمة...
 فقهت في انبساط، ثم قال:
 - إذن اشربي ودعيني أشرب، وربنا يلطف بنا...
 في النفس فتنة وفي الجوف فتنة، ولكن أيّهما الصوت
 وأيّهما الصدى؟ وأعجب من هذا أنّ الحياة تلدّب في
 الجادات، الأصغر ترتفع هامة والأركان تتساجى،
 السماء ترنو إلى الأرض بأعين النجوم الناعسة وتكلم،
 وبينه وبين صاحبه رسائل متبادلة تفصح عن المكنون
 في جوّ مشحون بالأضواء المنظورة وغير المنظورة يهر
 الفؤاد ويزغلل العين، وفي الدنيا شيء يدغدغ البشر
 فلا يتركها حتى تغرق بالضحك، الوجوه والكلمات

والحركات وغيرها تعري جيّماً بالضحك، والوقت يمرّ
 كالشهاب، وحاملو ميكروب العريضة يؤرّعونه بين
 الموائد بوجوه أثقلتها الرزاة، أمّا أنغام البيانو فتراعى
 من بعيد فيكاد يغطي عليها صليل عجلات الترام،
 وغلجان الطوار ولاقطو الأعقاب ينشرون حوهم لغظاً
 كطنين الذباب، وجحافل الليل تعسكر فوق الربوع
 وتستقرّ، كأنك تنتظر حتى يميتك الساقى فيسالك:
 أليس للشنوان مقرّ؟ وأنت عن ذلك وما هو أجل لا
 سادر، لو تسجد مريم بين يديك هامسة: حسي
 غرفة أمارس فيها طاعتك وأملأ الحجرات بمن تهوى
 من النساء، أو يربّت ناظر المدرسة كتفك كلّ صباح
 قائلاً: كيف حال والدك يا بني؟ لو تشقّ الحكومة
 طريقاً جديداً أمام دكان الحمزاوي وربع الغورية، أو
 تقول لك زّنوبة: ساهجر غداً بيت صاحبي وأكون
 طوبى بناتك، لو حدث هذا لاجتمع الناس عقب
 صلاة الجمعة يتبادلون قُبُل الصفاء، أمّا حكمة الليلة
 فهي أن تجلس على الكتبة وأن ترقص زّنوبة عارية بين
 يديك، هنالك يتاح لك أن ترعى شامة الحسن النابتة
 فوق سرّجه:
 - كيف حال الشامة المحبوبة؟
 تسأل وهو يشير إلى بطنه باسماً، فقالت ضاحكة:
 - تبوس يلك...
 فألقي نظرة زائفة على المكان، وقال:
 - أترين هؤلاء الناس، ما منهم إلّا فاسق وابن
 فاسق، هكذا كلّ الناس السكّرين...
 - تشرّفنا، أمّا أنا فمعتي بظاير...
 - أرجو أن يطير الجزء الذي يقيم فيه رفيقك...
 - آه لو علم بما هو حاصل لنا! سوف يطنك يوماً
 بفرجة شارب
 - أهو شاميّ من ذوي الشوارب الجبّارة...
 - شاميّ؟... (ثمّ ترتعت بصوت مسموع) بروم
 يا بروم...
 - هس، لا تلتقي إلينا الأنظار...
 - أيّ أنظار يا أعمى! لم يبقَ إلّا نفر قليل...
 وهو مسح على بطنه ناعفاً:

- الحمر مجنونة...
- المجنونة أمك...
- صوتك يعلو أكثر مما ينبغي، قومي بنا...
- إلى أين؟
- عسرك أطول من عمري، لنسرع الأمر إلى قدمينا...
- وهل يفلح من يترك قياده إلى قدميه؟
- إنها آمن على كل حال من مخ مبعثر...
- فكر قليلًا في...
فقطاعها وهو ينض مرتنحًا:
- علينا أن ندير أمورنا بلا تفكير، لأن التفكير لن يذعن لنا قبل صباح الغد، قومي بنا...
- ٢٦ -
أسبلت المساكن جفونها، وأقفرت الطرقات إلا من نسمة شاردة أو ضوء مصباح مهوم، أما الصمت فقد خلا له الجوف فاته ونشر جناحيه، وما جدوى الفنادق إذا كان أصحابها لا يلقونك إلا بالنظرة الشوزاء، كأنك مرض يترنح فهم يمتنبوه، أجل إنك تلاقي الإعراض بالازدراء ولكنك تستظل بلا مأوى، وقد ضم الرقاد العاشقين فلازم تبيس على وجهك، وها هو حوذني يرفع رأسه المثقل بالنعاس ويسرو إليك بنظرة ترحاب، فوارحمته للذي يسحب المرأة في أذيال الليل وهو يتساءل إلى أين...؟
- إلى أين؟
أجاب الحوذني بأسًا:
- تحت الأمر...
فقال له ياسين:
- لم أقصلك بسؤال...
فقال الرجل:
- تحت الأمر على أي حال...
عند ذاك قالت زنوبة:
- لا تسألني أنا سأل نفسك، لم تفكر في ذلك قبل أن تسكر؟
عاد الحوذني يقول متشجعًا بوقوفها أمام العربية:
- النيل! أحسن مكان، هل أذهب بكما إلى شاطئ النيل؟
فتساءل ياسين عتدًا:
- أحوذي أنت أم نوبي؟ ماذا فعل عند النيل في هذا الوقت من الليل؟
قال الحوذني بإغراء:
- هنالك النور ضئيل والمكان خال...
- جو مناسب لقطاع الطرق!
زنوبة بخوف:
- يا خير أسود، أذناي وعيني وساعداي محملة بالذهب!
فقال الحوذني وهو يبرز منكبيه:
- الدنيا بخير، أنا كل ليلة أذهب إلى هناك بأناس طيبين مثلكما، ونعود على أحسن حال...
زنوبة بحدة:
- لا تذكر النيل على لسانك، إن بدني يقشعر لذكره!
- بُعد الشر عن بدنك...
صاح ياسين وكان قد أخذ مجلسه في العربية إلى جانب زنوبة:
- كلمني أنا، مالك أنت وبدنها!
- يا بك أنا خدامك...
- الليلة كل شيء متعقد...
- ربنا يحمل عسيرها، إن أردت فندفأ ذهبنا إلى فندق...
- تشاجرنا في ثلاثة فنادق، ثلاثة أم أربعة يا زنوبة؟ شُف غيرها.
- نرجع إلى النيل...
زنوبة بغضب:
- الذهب يا عمر...!
ياسين وهو يطرح ساقيه على المقعد الخلفي:
- فضلًا عن أنه ليس هناك مكان...
فقال الحوذني:
- أما عن المكان فلديك العربية...
هتفت زنوبة:

- هل أنذرنا مضايقتي؟

فقال ياسين وهو يفتل شاربته:

- لك حق، لك حق، ثم إن العرية مكان غير صالح، ولن أرضى بعبث الأطفال على آخر الزمن، اسمع...

مد الرجل أذنه، فصاح ياسين بنفخة آمرة:

- إلى قصر الشوق!

طلق طلق طلق، تخوض الظلمات ولا أنيس إلا النجوم، في الأفق قلق يلوح، ثم لا يلبث أن يفرق في بحر النسيان كالذكرى المستعصية، ذلك أن الإرادة ذاتية في كأس من الخمر، وإذا رفيقة الهناء تساءلت بلسان ملعن عن: أين يقصد في قصر الشوق؟ أجاب إلى بيتي الذي ورثته عن أمي، قضت مقادير بأن تمش فيه للغرام وأن توقفه بعد مماتها على الغرام، استقبل بقلب شيق أم مريم ومريم، والليلة يحتضن سيّدة الليالي الخوالي، وزوجك أيّا السكران؟ في النوم مفرقة، ليس لكل شيء حساب... وأنت مع رجل لا يعرف الخوف قلبه، اقطني من لآئي النجوم ما ترصعين به جبينك، وغني في أذني وحدي: هاتيلي حبي يا نينة الليلة...

- وأين أقضي بقية الليل...؟

- سأوصلك إلى حيث تريدن...

- لن نستطيع أن نوصل قشة.

- باريس في الوجه البحري...

- لولا أنني أخاف!

- من هو؟

بصوت منكسر وهي تلقي براسها إلى الوراء:

- من يدري؟ نسيت...

غشي الجبال ظلام داس، حتى القهوة أغلقت أبوابها. ولقت العرية عند مدخل قصر الشوق ففادها ياسين وهو يتجشأ، وتبعته زئوبة معتمدة على ذراعه، ثم مضيا معًا في حذر لم يخن عن الترتع، يتعقبها

سعال الخوخي وأطيط حذاء الخفير الذي مرّ بالعerie وهي تلور مستطلاً، وقالت له: إن الطريق وعرة، فقال لها: لكن الدار أمان، وقال لها أيضًا: لا تشغلي

البال. وعبثًا حاولت أن تذكره بأن زوجه في الشقة التي إليها يسعيان، فضلًا عن أنها كانت تحاول تذكره وهي تتسم في الظلام ابتسامة بلهاء، وكادت قدمها تعثر مرتين وهي ترقى السلم، حتى وقف أمام الشقة وهما يلهتان، بعثت رهبة الموقف في شعورهما المبعثر يقطعة عابرة حاولت أن تلم شتاته بقبضة وانية، فلدار الفتاح في القفل يحذر ثم دفع الباب برق بالغ، وبحث في الظلام عن أذن زئوبة حتى عثر عليها، فمال نحوها وهمس أن تخلع الحذاء، وفعل مثلها، ثم تقدمها خطوة فوضع راحتها على كتفه ثم مضى إلى حجرة الاستقبال لقاء المدخل، ثم دفع بابها وانسل إلى الداخل وهي في أثره. تتهدأ معًا بارتياح، ورد الباب ثم قادها إلى الكنية وجلسا معًا، قالت متضايق:

- الظلام شديد، أنا لا أحب الظلام!

فقال وهو يضع الحذاءين تحت الكنية:

- ستألفينه بعد قليل...

- بدأ عني يدور...

- الآن فقط!

وقام فجأة دون أن يلقي إلى ما أجابت به بالأ وهو يهيمس في ارتياح:

- لم أخلق الباب الخارجي...

ومد يده ليخلع طربوشه فهتف:

- نسيت الطربوش أيضًا! في العرية يا ترى أم في توفابيان؟

- الطربوش في داهية، أغلق الباب يا عمر...

تسلل مرّة أخرى إلى الصالة، ثم إلى الباب الخارجي فأغلّقه بحذر شديد، وفي طريق عودته خطرت له فكرة مغرية، فأتجه نحو الكنب وهو يمد يده أمامه رائدة لتلقه الاصطدام بكرسی السفر، ثم عاد إلى حجرة الاستقبال قابضًا على زجاجة كوينيك ملوئة حتى نصفها، وضع الزجاجة في حجرها وهو يقول:

- جشك بدواء لكل شيء...

فتحسّنت يداها الزجاجة، وقالت:

- خرا؟... حسبك! أتريد أن نطفئ؟!

بحق، ثم تكلمت لأول مرة وكان صوتها جافاً متهدجاً مخشوشاً بالحقد والغضب، قالت:
- في بقي... في بقي!؟ في بقي يا مجرم يا بن الشياطين!

وفؤى صوتها كالرعد صبب عليه اللعنات ونعته بكل خبيث، صرخت وصوتت حتى شق صوتها الجسدان، ونادت السكبان والجيران وهي تحلف لتضعته وتشهد عليه النائمون. وكان ياسين ينلها بشق الوسائل ليسكتها، لوح لها بيده وحلق فيها بعينه، وصاح بها مزجراً، فلما خابت وسائله نهض متفعلاً وأجبه نحوها بخطوات واسعة ليلفها في أنصر وقت دون اندفاع خشية أن يثقل توازنه، ثم انفض عليها مسدداً راحته إلى فيها ليسد، ولكنها صرخت في وجهه كالهرة اليائسة وركلته بقدمها في بطنه، فتراجع مترنحاً مكفهز الوجه من الحق والألم ثم سقط على وجهه كالبنبان المتهزم، انطلقت من زئوبة صرخة ملوثة فجرت مريم نحوها وارتمت عليها، وجذبت شعرها بيدها وأنبشت أظفارها الأخرى في عنقها وجعلت تصيح في وجهها وهي تسب وتلعن، وما لبث ياسين أن نهض ثانياً هارداً رأسه بعنف كأنما ليطرده عنه الحصار، فتحول إلى الكنبه وسد نحو ظهر زوجته الراقدة فوق غريمته قبضة شديدة فصرخت مريم وتراجعت زائفة عنه، فتبعها وقد أعياه الغضب موجهها إليها ضربات متتابعة حتى فصلت بينها السفرة، وعند ذلك تناولت الشبشب من قدمها وقذفته به فأصاب صدره فجري نحوها، وراحا يدوران في الصالة وهو يصيح بها «اغربي عن وجهي، أنت طالقة... طالقة... طالقة...». وإذا بيد تنقر الباب وصوت الجارة المقيمة في الدور الثاني ينادي «ست مريم... ست مريم»، فتوقف ياسين عن الجري وهو يلهث، أما مريم ففتحت الباب وبادرت تقول بصوت ملا السلم كله:

- تعالي انظري داخل الحجرة وخبريني هل رأيت مثل هذا من قبل!؟ عاهرة في بيتي تسكر وتعربد، ادخلي وانظري.

- جرة نسترد بها أنفسنا بعد هذا الجهد!
شرب حتى ظن أنه قادر على كل شيء، وأن الجنون حال تستطاب، وهاج البحر فعلاً مع موجه وسفل ثم دار في دوامة ما لها من قرار، وشلت في أركان الحجرة السنة تنطق في الظلماء لغواً وهللاً، وتند عنها ضحكات مرعدة، في ضجة كضوضاء السوق حتى الغناء جرى في أثريها، وهوت الزجاجة على الأرض فأحدثت صوتاً كالنذير، ولكن كان أمامه شوط عليه أن يقطعه ولو في بحر من العرق، طال الوقت أم قصر فليس الزمان في حسبان، لذلك تحرك الظلام وشاب إهابه والجفون المخلقة عنه غافلة، وكما يستيقظ الحالم السعيد وهو يمد اليد ليقتطف لذة جديدة استيقظ هو على صوت وحركة، فتح عينيه فرأى نوراً وظلاً يتراقص على الجدران، وثق رقبته فلمح عند الباب مريم قابضة على مصباح قد جلا من وجهها ملامح عابسة وعينين تشعان شرر الغضب. تهودل بين المنظرين على الكنبه والواقفة عند الباب نظرات طويلة غريبة، زائفة بالذهول من ناحية مستعرة بالغضب من الناحية الأخرى، ثم لم يعد الصمت عما يُستطاع. أعربت زئوبة من قلقها بأن فتحت فاهها لتتكلم ولكنها لم تقل شيئاً، ثم غلبها بغنة ضحك طارئ فأغرقت فيه حتى اضطرت إلى إخفاء وجهها بكفها، وإذا ياسين يصيح بها بلسان ثقل:

- كفي من الضحك!... هذا بيت محترم!
ويدا أن مريم أرادت أن تتكلم فلم يسعها لسانها أو أعجزها الغضب، فقال لها ياسين ولم يكن يدري ماذا يقول:

- وجدت هذه «الست» في حالة سكر شديد، فجئت بها إلى هنا حتى تنيق...

ولم تسكت زئوبة، فقالت معترضة:
- هو السكران كما ترين، وقد جاء بي بالقوة...

نذت عن مريم حركة خطيرة كأنها همت بأن تقلدها بالمصباح، فتصلبت قامة ياسين ونظر إليها متحفظاً، ولكنها سرعان ما تراجعت متأثرة بخطورة الإقدام، فوضعت المصباح على منضدة وهي تصر على أسنانها

فقال الجارية باستحياء:

- هذي نفسك يا ست مريم، تعالي معي حتى

الصباح...

هتف ياسين دون مبالاة:

- اذهبي معها، لا حتى لك في البقاء في بيتي...

فصرخت مريم في وجهه:

- يا فاسق، يا مجرم، تحيضي بعاهرة في بيت

الزوجة...

فضرب الجدار بقبضته وصاح بها:

- أنت العاهرة، أنت وأهلك...

- تسب أمي وهي بين يدي الله!

- أنت عاهرة، أنا أعلم ذلك عن يقين، ألا

تذكرين الجنود الإنجليز؟ الحق عليّ لاني لم أستجب

إلى تحذير الناس الطيبين!

- أنا سنك وتاج رأسك، أنا أشرف من أهلك ومن

أمك، سل نفسك عن الرجل الذي يتزوج امرأة وهو

يعلم أنها عاهرة كما قلت! هل يكون إلا قوادًا

خسيسًا؟ .. (وهي تشير إلى حجرة الاستقبال)...

تزوج من هذه، إنها من النوع الذي يوافق مزاجك

القليل...

- كلمة أخرى، وسيل دمك حيث تقفين...

ولكن حنجرتها عادت تصرخ وتقلب اللهب حتى

تدخلت الجارية لتحول بينها إذا دها داع، وجعلت

ترت منكبها متوسلة إليها أن تمضي معها حتى يطلع

الصبح، واشتد الضيق لياسين فصاح بها:

- خلدي ثيابك واخرجي، ابعدي عن وجهي، لا

أنت زوجي ولا أنا أعرفك، أنا داخل الحجرة الآن

وإنك أن أهلك إذا عنت...

واندفع إلى حجرة الاستقبال ودفع الباب وراءه

دفعه عنقه ارتجت لها الجدران، ثم ارتقى على الكتبة

وهو يحف عرق جبينه، همست زئوبة قاتلة:

- إني خائفة...

فقال بخشونة:

- اسكتي، مم تخافين؟! (ثم بصوت مرتفع) أنا

حر... أنا حر...

فقال وكأنتا تخاطب نفسها:

- ماذا أصابني في عقلي حتى طارعتك وجئت معك

إلى هنا؟

- اسكتي!... ما كان كان ولست أسفًا على

شيء... أف...

وترامت إليهما الأصوات خلال الباب المغلق،

فلنكت على أن أكثر من جارة قد أحاطت بالزوجة

الغاضبة، ثم سمع صوت مريم وهي تقول بلهجة

باكية:

- هل سمعتم عن هذا من قبل؟ عاهرة من عرض

الطريق في بيت الزوجة؟ استيقظت على ضوضائهما

وهما يضحكان ويغنيان! إي والله كانا يغنيان بلا حياء

بعد أن أذهلها السكر، خبروني أهذا بيت أم

مناور؟!

وإذا بصوت امرأة تقول محتجة:

- اتجمعين ثيابك وتغادرين بيتك؟! هذا بيتك يا

ست مريم ولا يصح أن تغادره، فلتغادره

الأخرى...

فهتفت مريم:

- لم يعد بيتي، لقد طلقني المحترم!

فقال أخرى:

- لم يكن في وعيه، تعالي الآن معنا ولنؤجل الحديث

إلى الصباح، ومهما يكن من أمر لياسين أفندي رجل

طيب وابن ناس طيبين، لعنة الله على الشيطان، تعالي

يا ابنتي ولا تحزني...

فصاحت مريم:

- لا كلام ولا حساب، لا طلع الصباح عليه

المجرم ابن المجرمة...

ثم تتابع وقع الأقدام مبتعدًا حتى لم يعد يسمع من

المتحدثات إلا أصوات مبهمه، ثم دوت صفقة الباب

وهو يغلّق. نفخ ياسين طويلاً ثم استلقى على

ظهره...

عندما فزع عينه كان نور الضحي قد ملأ الحجرة،

وجد في رأسه ثقلاً لا عهد له به رغم أنها لم تكن أوّل

مرة يستيقظ بعد ليلة خمورة، وبحركة من رأسه غير مقصودة وقعت عيناه على زئونة وهي تغفد في نومها إلى جانبه، هنالك استعادت ذاكرته حوادث الليلة الماضية في لفظة واحدة: زئونة في فراش مريم، ومريم؟ عند الجيران، والفضيحة؟ في كل مكان، يا لها من وثبة جبارة في هاوية التدهور، ما جدوى الغضب أو الندم الآن؟ ما كان كان وكل شيء قد يتغير إلا أمس، أيقظتها؟ ولكن له؟ فلتمتلئ نوماً حتى تشبع، ولتبق حيث هي فما ينبغي أن تغادر البيت قبل أن يقبل الظلام، ولم يكن بد من استعادة شيء من حيويته ليلاتي به يومه العسير، فأزاح الغطاء الخفيف عن جسمه وانزلق إلى أرض الغرفة ثم مضى إلى الخارج ثقيلًا منقوش الشعر منتفخ الجفون عمر العنين. تنامب في الصالة بصوت كالخوار ثم نفخ وهو ينظر إلى باب حجرة الاستقبال المنتوح ثم أغمض عينيه متأوفاً من ثقل رأسه وقصد إلى الحمام. أمامه يوم عسير حقاً، مريم عند الجيران والأخرى عتلة فراشها وقد أدركها النهار قبل أن ينجفي آثار جرمته، فيا للجنون! كان يجب أن يسرها قبل أن يأوي إلى فراشه كيف تواني عما يجب؟ أي غاشية غشيته؟ بل ومتى وكيف مضى بها من حجرة الاستقبال إلى حجرة النوم؟ إنه لا يذكر شيئاً، لا يذكر حتى كيف ومتى استجاب للنوم، والجملة أنها فضيحة كبرى بلا ثمن، وليلة بريئة ولكنها مظلة بالمار مثل رأسه المثقل بالهم والصداع...

ولكن لا عجب فهذه الثقة مسكونة من قديم بشياطين الفضائح، تركه أم غفر الله لها، مضت الأم وبقي الابن ليكون مضغة الأفواه ونادرة السگان والجيران وغداً يهرع الأبواب إلى بين القصرين... فإلى الأمام!

قرار هاوية سحيقة من العريضة والسفالة فليت هذا الماء البارد الذي تمتلئ به بطنه النفس من ذكريات السوء، ومن يدري فلعلك إذا أطللت من النافذة وجدت أمام بابك لمة ترصد خروج المرأة التي طردت الزوجة واحتلت مكانها، كلاً لن تسمح لها بالخروج معها يكن من أمر، أمّا مريم فقد طلقها! طلقها وما أردت ذلك وأتمها لم يجف ماؤها في قبرها بعد، فإذا

مرة يستيقظ بعد ليلة خمورة، وبحركة من رأسه غير مقصودة وقعت عيناه على زئونة وهي تغفد في نومها إلى جانبه، هنالك استعادت ذاكرته حوادث الليلة الماضية في لفظة واحدة: زئونة في فراش مريم، ومريم؟ عند الجيران، والفضيحة؟ في كل مكان، يا لها من وثبة جبارة في هاوية التدهور، ما جدوى الغضب أو الندم الآن؟ ما كان كان وكل شيء قد يتغير إلا أمس، أيقظتها؟ ولكن له؟ فلتمتلئ نوماً حتى تشبع، ولتبق حيث هي فما ينبغي أن تغادر البيت قبل أن يقبل الظلام، ولم يكن بد من استعادة شيء من حيويته ليلاتي به يومه العسير، فأزاح الغطاء الخفيف عن جسمه وانزلق إلى أرض الغرفة ثم مضى إلى الخارج ثقيلًا منقوش الشعر منتفخ الجفون عمر العنين. تنامب في الصالة بصوت كالخوار ثم نفخ وهو ينظر إلى باب حجرة الاستقبال المنتوح ثم أغمض عينيه متأوفاً من ثقل رأسه وقصد إلى الحمام. أمامه يوم عسير حقاً، مريم عند الجيران والأخرى عتلة فراشها وقد أدركها النهار قبل أن ينجفي آثار جرمته، فيا للجنون! كان يجب أن يسرها قبل أن يأوي إلى فراشه كيف تواني عما يجب؟ أي غاشية غشيته؟ بل ومتى وكيف مضى بها من حجرة الاستقبال إلى حجرة النوم؟ إنه لا يذكر شيئاً، لا يذكر حتى كيف ومتى استجاب للنوم، والجملة أنها فضيحة كبرى بلا ثمن، وليلة بريئة ولكنها مظلة بالمار مثل رأسه المثقل بالهم والصداع...

ولكن لا عجب فهذه الثقة مسكونة من قديم بشياطين الفضائح، تركه أم غفر الله لها، مضت الأم وبقي الابن ليكون مضغة الأفواه ونادرة السگان والجيران وغداً يهرع الأبواب إلى بين القصرين... فإلى الأمام!

قرار هاوية سحيقة من العريضة والسفالة فليت هذا الماء البارد الذي تمتلئ به بطنه النفس من ذكريات السوء، ومن يدري فلعلك إذا أطللت من النافذة وجدت أمام بابك لمة ترصد خروج المرأة التي طردت الزوجة واحتلت مكانها، كلاً لن تسمح لها بالخروج معها يكن من أمر، أمّا مريم فقد طلقها! طلقها وما أردت ذلك وأتمها لم يجف ماؤها في قبرها بعد، فإذا

مرة يستيقظ بعد ليلة خمورة، وبحركة من رأسه غير مقصودة وقعت عيناه على زئونة وهي تغفد في نومها إلى جانبه، هنالك استعادت ذاكرته حوادث الليلة الماضية في لفظة واحدة: زئونة في فراش مريم، ومريم؟ عند الجيران، والفضيحة؟ في كل مكان، يا لها من وثبة جبارة في هاوية التدهور، ما جدوى الغضب أو الندم الآن؟ ما كان كان وكل شيء قد يتغير إلا أمس، أيقظتها؟ ولكن له؟ فلتمتلئ نوماً حتى تشبع، ولتبق حيث هي فما ينبغي أن تغادر البيت قبل أن يقبل الظلام، ولم يكن بد من استعادة شيء من حيويته ليلاتي به يومه العسير، فأزاح الغطاء الخفيف عن جسمه وانزلق إلى أرض الغرفة ثم مضى إلى الخارج ثقيلًا منقوش الشعر منتفخ الجفون عمر العنين. تنامب في الصالة بصوت كالخوار ثم نفخ وهو ينظر إلى باب حجرة الاستقبال المنتوح ثم أغمض عينيه متأوفاً من ثقل رأسه وقصد إلى الحمام. أمامه يوم عسير حقاً، مريم عند الجيران والأخرى عتلة فراشها وقد أدركها النهار قبل أن ينجفي آثار جرمته، فيا للجنون! كان يجب أن يسرها قبل أن يأوي إلى فراشه كيف تواني عما يجب؟ أي غاشية غشيته؟ بل ومتى وكيف مضى بها من حجرة الاستقبال إلى حجرة النوم؟ إنه لا يذكر شيئاً، لا يذكر حتى كيف ومتى استجاب للنوم، والجملة أنها فضيحة كبرى بلا ثمن، وليلة بريئة ولكنها مظلة بالمار مثل رأسه المثقل بالهم والصداع...

ولكن لا عجب فهذه الثقة مسكونة من قديم بشياطين الفضائح، تركه أم غفر الله لها، مضت الأم وبقي الابن ليكون مضغة الأفواه ونادرة السگان والجيران وغداً يهرع الأبواب إلى بين القصرين... فإلى الأمام!

قرار هاوية سحيقة من العريضة والسفالة فليت هذا الماء البارد الذي تمتلئ به بطنه النفس من ذكريات السوء، ومن يدري فلعلك إذا أطللت من النافذة وجدت أمام بابك لمة ترصد خروج المرأة التي طردت الزوجة واحتلت مكانها، كلاً لن تسمح لها بالخروج معها يكن من أمر، أمّا مريم فقد طلقها! طلقها وما أردت ذلك وأتمها لم يجف ماؤها في قبرها بعد، فإذا

مرة يستيقظ بعد ليلة خمورة، وبحركة من رأسه غير مقصودة وقعت عيناه على زئونة وهي تغفد في نومها إلى جانبه، هنالك استعادت ذاكرته حوادث الليلة الماضية في لفظة واحدة: زئونة في فراش مريم، ومريم؟ عند الجيران، والفضيحة؟ في كل مكان، يا لها من وثبة جبارة في هاوية التدهور، ما جدوى الغضب أو الندم الآن؟ ما كان كان وكل شيء قد يتغير إلا أمس، أيقظتها؟ ولكن له؟ فلتمتلئ نوماً حتى تشبع، ولتبق حيث هي فما ينبغي أن تغادر البيت قبل أن يقبل الظلام، ولم يكن بد من استعادة شيء من حيويته ليلاتي به يومه العسير، فأزاح الغطاء الخفيف عن جسمه وانزلق إلى أرض الغرفة ثم مضى إلى الخارج ثقيلًا منقوش الشعر منتفخ الجفون عمر العنين. تنامب في الصالة بصوت كالخوار ثم نفخ وهو ينظر إلى باب حجرة الاستقبال المنتوح ثم أغمض عينيه متأوفاً من ثقل رأسه وقصد إلى الحمام. أمامه يوم عسير حقاً، مريم عند الجيران والأخرى عتلة فراشها وقد أدركها النهار قبل أن ينجفي آثار جرمته، فيا للجنون! كان يجب أن يسرها قبل أن يأوي إلى فراشه كيف تواني عما يجب؟ أي غاشية غشيته؟ بل ومتى وكيف مضى بها من حجرة الاستقبال إلى حجرة النوم؟ إنه لا يذكر شيئاً، لا يذكر حتى كيف ومتى استجاب للنوم، والجملة أنها فضيحة كبرى بلا ثمن، وليلة بريئة ولكنها مظلة بالمار مثل رأسه المثقل بالهم والصداع...

- كانت تستطيع أن تعالج الأمور بحكمة لو كانت عاقلة، الغرياء في الطريق يتساعون مع السكارى المرابين، هي التي جثت على نفسها بالطلاق، وماذا كنت تقول لها؟ ... يا عاهرة يا بنت العاهرة، هه؟ وكلام آخر عن الجنود الإنجليز ...؟

تذكر هذا الآن فقط وهو يمدجها بنظرة محنة متسائلاً كيف رسخت هذه الألفاظ في ذاكرتها، وغمغم في ضيق:

- كنت غاضباً لا أدري ماذا أقول!

- إحم!

- إحم في يافوخك! ...

- الجنود الإنجليز؟ ... هل جثت بها من بار فنتي؟!؟

- أستغفر الله، إنها بنت ناس وجيران العمر، ولكنة الغضب عليه ألف لعنة ...

- لولا الغضب ما انكشفت الأسرار!

- وحياة خالك حسبتا ما نحن به ...

- خبّرني عن الجنود الإنجليز وعُد شعراً رامي ...

بصوت عال عنده:

- قلت إنه الغضب وكفى ...

شفت ساخرة، ثم قالت:

- أندافع عنها؟ ... اذهب فاسترقها ...

- ملعون أبو البارد الذي لا يستحي ...

- ملعون أبوه ...

غادرت الفراش إلى المرأة فتناولت مشط مريم،

وراحت تمشط شعرها بعجل وهي تساءل:

- ما عسى أن أفعل لو قطع الرجل علاقته بي؟

- قولي له مع السلامة، أما بيتي فمفتوح لك على

الدوام ...

فالتفت إليه قائلة بلهجة أسيفة:

- أنت لا تفقه معنى ما تقول! كنا بسبيل التفكير

الجلّي في الزواج.

- الزواج! وهل ما زلت تفكرين فيه بعد ما رأيت

من أحواله في الليلة الماضية؟!

قالت في دهاء:

خيل إليه أنها راضية رغم تشكيها، أو أنها تدعي التشكي اذعاء، ألم يعرف في الأزبكية نساء يتباهين بكل عراك دموي ينشب من أجلهن؟! على أنه لم يغضب، كانت الأمور قد بلغت حد اليأس فاعفته من مشقة التبولس لمعالجتها، فلم يملك إلا أن يضحك وهو يقول:

- شرّ البالية ما يضحك! اضحكي، خربت بيتي واحتلته، قومي فاصلحي من شأنك واستعمني لإقامة طويلة حتى يُقبل الليل، لن تغادري البيت حتى يأتي الليل ...

- يا خير أسود! سجيناً! أين زوجك؟

- لم يعد لي زوجة ...

- أين هي؟

- في المحكمة الشرعية إن صدق ظني ...

- أخاف أن تمتدّي عليّ عند خروبي ...

- تخافين؟! ربنا يرحمنا! إن ليلة أسس على فظاعتها

لم توهن من مكرك وخيلك يا بنت أخت زبيدة!

ضحكت ضحكة طويلة فبدا أنها تقرّ بالتهمة الموجهة إليها، ولي مباءة أيضاً، ثم مدّت يدها إلى كوب القهوة فتناولته واحتست قليلاً منها، ثم ردتها إليه وهي تساءل:

- والان؟

- كما ترين، لا علم لي أكثر منك، ولكن يحزّ في نفسي أن أنكشف أمام الناس كما انكشفت في الليلة الماضية ...

هزت منكبيها في استهانة قائلة:

- لا تهتمّ بذلك، ما من رجل إلا ويغني تحت ذنقه غنازي تضيق عنها الأرض.

- رغم هذا فالفضيحة فضيحة، تصوّري الشجار والحويل والطلاق عند الفجر! تصوّري الجيران وقد فزعوا إلى شقّي مستظلمين فرائت أعينهم كل شيء.

قطّبت قائلة:

- كانت هي البائنة!

لم يملك أن يضحك ضحكة ساخرة، فعدلت تقول بإصرار:

- أفصحى...
 - قلت ما فيه الكفاية...
 يا له من هجوم غير متوقع، أجل إنه يبدو أول ما يبدو مضحكاً، غير أنه يريدنا فلا يسه أن يرد على الهجوم بمثل، قال بعد صمت:
 - لا أخفي عنك آتي بئ انتظر من الزواج...
 - كما أنتظر من الحرام...
 - لم تكوني كذلك أمس!
 - كان لي قبضة يدي زوج، أما اليوم...
 - قليل من المرونة حتى نتلاقى، شيء واحد لا ينبغي أن يغيب لك عن بال، وهو آتي معها تطل به عشرتك فلن انحط عنك...
 فهتفت عتمة:
 - سوابك تشهد على صدقك...
 فقال بلهجة جليظة يداري بها ضعف مركزه:
 - الإنسان لا يتعلم بلا ثمن...
 - لم تمد تغرر في الأقوال، أه منكم يا رجال!
 ومنكن يا نساء أليس شمة ١٩٥١ يا بنت أخت زبيدة رحمتك، جاءت بعد منتصف الليل سكرى وفي الصباح ضاقت بالحرام، لعلها قالت لنفسها: إذا كانت زوجة الثانية عاهرة فلم لا أكون زوجة الثالثة؟
 هان ياسين، أنسيت ما يتسظرك في الخارج من المتاهب؟ دع المتاهب تتسظرك ولكن لا تفقد زئونة بكلمة نائية، كما فقدت مريم، مريم؟ الآن كُفرت عن ذنبي يا أخي، قال بهدوء:
 - يجب ألا ينقطع ما اتصل بيننا...
 - بيك انقطاعه وأتصّاله...
 - يجب أن تلقي كثيراً وتفكر كثيراً...
 - من جانبي لا حاجة بي إلى تفكير جديد!
 - فليسا أن أقمعك برأيي، وإسا أن تقنعيني برأيك...
 - لن أقتنع برأيك...
 وغادرت الحجرة وهي تداري عنه ابتسامة فاتتظهرها للتأؤد نظرة استغراب، أجل كَلَّ شيء يبدو غريباً، ولكن أين مريم؟ وحيدة على أي حال ولن

- أنت لا تفهمني! لقد ضقت ذرعاً بالحياة الحرام، ليس وراها إلا البوار، إن مثلي إذا تزوجت قدّرت الحياة الزوجية خير قدرها!
 من المغفل يا ترى؟! التخت لم يكن يعدّها بأكثر من عرافة، وحياة الهوى ليس وراها بعد الثلاثين - وستبلغها قريباً - إلا التلف، فالزواج هو الأمل الموعود، هل تقصدك بهذا الحديث؟... ما ألدّ الشيطانة! لا أنكر أنني أريدها، أريدها بكلّ قوّة، وفضيحتي تشهد على ذلك...
 - تحبّيه؟
 كالغاضبة:
 - لو كنت أحبه ما وجدتي الآن سجيّة هنا...
 اهتز صدره حثاثاً رغم ارتياحه في صدقها، أجل إذا لم يكن يعرف الإخلاص قلبها أبدت له ميلاً لا شك فيه.
 - لا غنى لي عنك يا زئونة، في سبيلك ارتكبت جنوناً غير مهال بالعواقب، أنت لي وأنا لك من قديم الزمان...
 وساد الصمت، بدت كأنها تنتظر مزيداً على لف، ولكنّه لم ينبس فقالت:
 - هل أقطع أسبابي بذلك الرجل؟ لست من اللاي يستطعن أن يجمع بين رجلين...
 - من هو؟
 - تاجر من ناحية القلعة يدهى عمّد القلعي...
 - متزوج؟
 - وله أولاد، ولكنّه كثير المال...
 - وعدك بالزواج؟
 - يغريني به، ولكنني مترددة، لأن ظروفه وكونه زوجاً وأباً مما ينذر بالمتاهب...
 احتمل مكرها من أجل جمال عينيها.
 - لم لا نعود كما كنّا؟... لست فقيراً على أي حال...
 - لا يعني مالك، ولكن ضقت بحياة الحرام!
 - والعمل؟
 - لهذا ما أسأل عنه...

صحّ عنه صديق هذه الشيطانة، فليصح له صدقها ولو يفقد ما بقي من عمره، هل أن له أن يتوب إلى رشده؟ مهلاً...

- متى عدت إلى العوامة؟

فرفقت ساقها حتى مستوى المقعد، وراحت تتأمل شبيها البميّ ذا الوردة البيضاء وأصابها المخضبة بالحناء، ثم قالت:

- هلاً جلست أولاً وتعلمت طربوشك لأرى مفرق

شعر رأسك؟ عدت يا سيدي مع الضحى...

- كذابة!

انطلقت من فيه كالرصاصة مفعمة غضباً وبأساً، ثم استطرد قائلاً في عنف قبل أن تفتح فاهها:

- كذابة، لم تعودى مع الضحى ولا مع العصر،

لقد جئت إلى هنا أثناء النهار مزيّن فلم أجدك...

وجئت قليلاً ثم قالت بلهجة جمعت بين التسليم والضحج:

- الحقّ أنّي عدت قبيل المغرب، منذ ساعة تقريباً،

لم يكن ثمة ما يدعوني إلى اختلاق الكذب لولا أنّي

لمحت في عينيك استيلاء أساس له فأردت أن أزيله،

الحقّ أنّ ياسمينة أحت عليّ في الصباح كي أتسوّق

معهما، ولما علمت بانفصالي عن خالتي عرضت عليّ

أن أنضمّ إلى تحتها على أن تنبني عنهما في بعض

الأفراح، وطبعاً لم أوافق، لسابق علمي بأنك لن

ترضى عن سهري مع التخت، المقصود أنّي بقيت معها

لعلمي بأنك لن تحجيّ إلى هنا قبل التاسعة مساءً، هذه

هي الحكاية فاجلس وصلّ على النبيّ...

حكاية غثقة أم صادقة؟ لو يطّلع أصحابك على

موقفك هذا! لشدّ ما تبرز بك المغادير، على أنّي أعفو

على أضعاف هذا في سبيل قطرة من الراحة، تشدّد

الراحة وما اعتدت الشحاذة من قبل، فكذلك هانت

عليك نفسك أمام العوادة، كانت موكلة يوماً بخدمتك

تقدّم لك في مجلس الأانس الفاخرة وتصرف في صمت

وأدب، إمّا الراحة أو فلتستعير نيران الجحيم.

- ياسمينة العالة ليست في جبال الواق، سوف

أسألهما عن حقيقة الحكاية...

تدلق نفسه الراحة والسلام، وسيسأل غداً في بين القصرين وبعد غد في المحكمة الشرعيّة، ولكن كانت حياتها في الأيام الأخيرة فضلاً متواصلًا، حتى قالت له بصريح العبارة: كرهتك وكرهت عشتك، لم أخلق كي أوفّي في الزواج، وهكذا كانت حياة جديّ؟ إنّني أشبه الأسرة فيها يقال، ورغم هذا كله تريد المجنونة أن تتزوّج مني...

- ٢٨ -

كانت الشمس تؤذّن بالمغيب عندما عبر السيّد أحمد عبد الجواد القطرة الحشبيّة المؤدّية إلى العوامة، وفقّ الجرس ففتح الباب بعد قليل عن زئوبة في فستان من الحرير الأبيض ثمت شقّالته عن حماس جسدها، فلما رآته هتفت:

- أهلاً... أهلاً، قل ماذا فعلت أمس؟ تصوّرت

حضورك وفقّ الجرس دون نتيجة ووقوفك حيناً ثمّ

ذهابك... (وهي تضحك) ووساوسك، قل ماذا

فعلت؟

بالرغم من أناقة مظهره والعرف الطيّب الذي يتظاهر منه بدا وجهه متجهّز وعينه جاسنتين تعكس حدقتهما استياء، سأل قائلاً:

- أين كنت أمس؟

تقدّمته إلى حجرة الجلوس وتبعها حتى وسط

الحجرة بين نافذتين مفتوحتين على الليل ولم يجلس، أمّا

هي فجلست على مقعد بين النافذتين وهي تتظاهر

بالهدوء والثقة والابتسام، ثمّ قالت:

- خرجت - كما تعلم - أمس لأستبضع، فقابلت في

بعض الطريق ياسمينة العالة فدهمتني إلى بيتها،

وهناك أبت عليّ أن أنصرف، وما زالت بي حتى

أجبرتني على المبيت عندها، لم أكن رأيتها منذ انتقلت

إلى هذه العوامة، لو سمعتها وهي تظعن في وقائي

وتسألني عن سرّ الرجل الذي أنساني عشيرتي وجيراننا!

صادقة أم كاذبة؟ هل عانى آلام أس واليوم بلا

سبب حقّاً؟ إنّه لا يريح مليّاً ولا يخسر مليّاً بلا سبب،

فكيف عانى تلك الآلام المروّعة بلا سبب؟ دنيا

مأكرة... غير أنّه على استعداد لأن يلثم تراجها إذا

طريقه، ولكنّي تجاهلته فحرّض إحدى صديقاتي على
إبلاغه برغبته، هذه هي الحكاية!

ما أكثر حكاياتك، عندما افتقدت أُنس قاتلتي أُم
واحد، لم أظنّ وتذاك إلى كلّ هذه الآلام والمتاعب،
اتركها إن استطعت، امجرها فهجرها هو سبيل
السلام. أليس الناس خطئين في تصوّرهم أنّ الموت
شراً ما يتلون؟!

- أحبّ أن أعرف صراحة، هل تؤيّد قبول هذا
العرض؟

نرتك ساعداً بحركة عصيّة وشخصت إليه
بوجهها فيما يشبه الكبرياء، ثمّ قالت بتوكيد:

- قلت لك إنّ تجاهلته، يجب أن تفهم معنى ما
أقول...

يجب ألاّ تعود الليلة إلى فراشك بأفكار قاتلة حتّى لا
تتكرّر ليلة أُنس، غرّبل نفسك من المواجه.

- صارحيني هل زارك أحد في العوامة؟

- أحد؟ أيّ أحد تعني؟ لم يدخل هذه العوامة أحد
سواك...

- زوّية، إنّني أستطيع أن أعرف كلّ شيء، لا تخفي
عني شيئاً، صارحيني بكلّ كبيرة وصغيرة ولك عندي
بعد ذلك العفو مهما يكن من أمرك...

قالت محتجّة غاضبة:

- إذا أصررت على الشكّ في صديقي فخير لنا أن
نفترق...

أذكر اللذبة التي رأيتهما تحتضر في صباح اليوم في
عيط العنكبوت؟!

- حسناً، دعيني أسألك الآن، هل قابلتك هذا
الرجل أمس؟!

- أخبرتك أين كنت أمس...

نافخاً على رغبته:

- لماذا تعبّيتني، وما حرصت على شيء حرصي على
سعادتك؟

ضربت كفاً بكفّ، كأنها قد كبر عليها شغفه، ثمّ
قالت:

- لم لا تريد أن تفهمني؟... إنّني أرفض كلّ غالي

طريقه، ولكنّي تجاهلته فحرّض إحدى صديقاتي على
إبلاغه برغبته، هذه هي الحكاية!

ما أجل هذه النعمة، المأساة أنّها يمكن أن تصدر
عن قلب فارغ، كالمنقي الذي يذوب في نعمة حزينة
شاكية وقلبه لعل بالسعادة والفوز.

- إنّني أشهد الله على قولك، صارحيني الآن: من
يكون هذا الرجل؟

- ماذا يهمّك منه؟ قلت لك إنّك لا تعرفه، تاجر
من غير حيّنا ولكنّه كان يجلس من حين لآخر في قهوة
مي علي...

- اسمه؟

- عبد التّوّاب ياسين، هل عرفته؟...

اكتريت هذه العوامة لقضاء وقت سعيد، هل تذكر
أوقاتك السعيدة؟ إنّها الدنيا هل تذكرين أحمد عبد
الجواد الذي لم يكن يسألني شيئاً؟ زبيدة...

جليلة... ببيجة... سلهنّ عنه، إنّهُ بلا ريب غير
هذا الرجل الخائر الذي اشتعل الشيب في فوديه...

- إنّ شيطان النكد هو أنشط الشياطين...

- بل هو شيطان الشكّ لأنّه يخلق من لا شيء...

جعل ينظر الأرض بطرف عصاه، ثمّ قال بصوت
عميق:

- لا أريد أن أعيش أعمى، كلّ ولا شيء بقادر
على أن يجعلني أتناول رجولي وكرامتي، بالاختصار
لا أستطيع أن أهضم ميتك في الخارج ليلة أمس...

- رجعتنا مرّة أخرى!

- وثالثة ورابعة، لست طفلة، أنت امرأة ناضجة
عاقلة، واليوم تحدّثيني عن ذلك الرجل! هل غرّك
حقاً وعده بالزواج منه؟

أجابت بكبرياء قليلة:

- إنّني أعلم أنّه لا يخدعني، وأي ذلك أنّه وعدني
بالأ يقربني حتّى يعقد زواجه مني...

- أترغبين في هذا الزواج؟

فطبت في استياء، ثمّ قالت بلهجة المتعجّب:

- ألم تسمع ما قلت؟ إنّني أعجب لما تبدي اليوم
من كسل، لكن على أيّ حال لست الساعة كالعهد
بك، إنّني من الكدر الذي جلبته على نفسك بلا سبب

واسمع مِنِّي للمرة الأخيرة: لقد تجاهلت الرجل ورغبته إكرامًا لك...
 الأمل، إني مستعد أن أنسى ليلة أمس المشتومة...
 أنسى شغبي وألمي... على أن تقلع عن هذا المكر

الحديث...
 - كنا نعيش في سعادة وولام، فهل هانت عليك العشرة؟
 - لم تكن ولكني أريد أن أجعل منها شيئًا أفضل، ليس الحلال خيرًا من الحرام؟
 تقلصت شفته السفلى عدته ابتسامة لا معنى لها، ثم قال بصوت خافت:

- الأمر بالنسبة لي مختلف جدًا...
 كيف؟
 - أنا زوج، وابني زوج، وبناتي أزواج، الأمر دقيق جدًا كما ترين... (ثم بلهفة) ألم تكن نعيش في سعادة كاملة؟
 قالت بضجر:
 - لم أقل لك طلق زوجتك وتبرأ من ذريتك! كثيرون هم الذين يجمعون بين أكثر من زوجة فقال بإشفاق:
 - ليس الزواج في مثل... حالي عما يكون أمره، أو يعرض في حياة الإنسان بلا قيل وقال.

ضحكت ساخرة، ثم قالت:
 - كل الناس يعلمون أنك عشيق وأنت لا تبالي بهم، فكيف تشفق من قيلهم وقالمهم على زواج مشروع إن أردت الزواج...؟
 قال بأسًا في ارتباك وضيق:
 - قليل من الناس من يتكلم على أسرارهم، إلى أن أهل بيتي هم أبعد الناس عن الشك في أمري...
 رفعت حاجبها المزججين في إنكار، ثم قالت:
 - هذا ظنك، أما الحقيقة فلا يعلمها إلا الله، أي سر يصان ووراء السنة الناس؟
 ثم استدركت غاضبة قبل أن يتكلم:
 - لم لعلك لا ترائي أهلًا للشرف بالانتساب إليك؟

قال بضجر:
 - لم أصرحك بأنني لم أعد أطيق هذه الحياة...
 اذكر مرة أخرى الذبابة والعنكبوت...
 - حقًا!
 - أجل، أريد حياة مطمئنة في ظل الحلال، أم ترائي غبطة؟
 جئت للتحقيق معها فأين تقف الآن؟ هي التي طردتك فمن أين لك هذا الحلم كله؟ اصجل من نفسك ما بقي لك من أيام، اتفهم ما تعني إني أمها؟ ما أجل الأمواج المتلاطمة في ساعة المغيب! ولما طال به الصمت استطردت قائلة بهلوه:

- لن يغضبك هذا، أنت رجل تقي رغم كل شيء، فلا يمكن أن تحول بين امرأة وبين الحلال الذي تؤدبه، لا أود أن أكون برودة لكل راكب، لست كخالتي، في قلب مؤمن وأخاف الله، وقد صدق عزمي على هجر الحرام...
 استمع إلى قولها الأخير بدهشة وانزعاج، وجعل يتفحصها يبحث دارة بابتسامة باهتة، ثم قال:
 - لم تخدعيني عن هذا من قبل، كنا حتى أول أمس على خير حال!

لم أكن أدري كيف أكاشفك بما في نفسي...
 إنها تبعد عنك بسرعة خفيفة خبيثة، يا خبيثة

استغفر الله، زوج زنوية العوادة على سرٍّ ورمح
 - ما قصدت هذا يا زنوية...
 ما قصدت هذا يا زنوية...
 ما قصدت هذا يا زنوية...
 ما قصدت هذا يا زنوية...

فقلت بامتياز:

- لن تخفي عني مشارك طويلاً، ساعرفها غداً إن لم أعرفها اليوم، فإن كان زواجي يعرّك فمع السلامة...

تخفي لتطردها فتطردك، لم تعد تسألها أين كانت ولكنها تخبرك بين الزوج أو اللهاب، ماذا أنت صانع؟ ماذا يقيك بلا حراك؟ إنّه القلب الخائن، إنّ نزع عظامك من لحكم أهون من هجر هذه العوادة، اليس من المحزن ألا تبطل بهذا الحبّ الأعمى إلا على كبراً؟

تسأل في عتاب:

- ألهذا هو قدرتي عندك؟

- لا قدر عندي لمن يأنف مني كأني بصفة معدية!

قال بلبؤ حزين:

- أنت أعز عليّ من نفسي...

- كلام سمعنا منه الكثير...

- ولكنّه صدق وحق...

- أن لي أن أعرف لهذا من غير اللسان!

غضّ بصره في كرب ويأس، لم يكن يدرى كيف يقبل ولم يكن يوسعه أن يرفض، وكان حرصه عليها من وراء ذلك يغله ويشغف فكره، فقال بصوت خفيض:

- أعطني مهلة كي أدبر أمري...

فقلت بلبؤ وهي تخفي ابتسامة مكرّة:

- لو كنت تحبني حقاً ما ترددت...

فقال بعجلة:

- ليس هذا، أعني أمورٍ الأخرى...

وحرك يده كأنما يفسّر بها قوله وإن كان لا يدرى على وجه التحديد ما تعني فابتسمت قائلة:

- إذا كان الأمر كذلك فانا ومن انتظارك...

فشعر براحة وقتية، كالراحة التي يجدها الملاك الموشك على السقوط إذا أدركه الجرس المؤذن بانتهاء الجولة غير الأخيرة، وانبثت في نفسه رغبة إلى الترويح عن همه والتنفيس عن قلقه، فقال لها وهو يحدّ نحوها يده:

- تعالي إلى جانبي...

فتراجعت في مقعدها إلى الوراء بإصرار وهي تقول:

- عندما يأذن الله...

- ٢٩ -

غادر العوامة يشقّ سبيله في ظلام وسار وشاطرن النبل في طريق مفقر متّجهاً إلى جسر الزمالك. كان الهواء ينفو لطيفاً فتفخ رأسه الملتهب، وبعث في اغصان الأشجار الهائلة المشابكة حركة وانية نذ عنها هسيس كالهمس، وكانت تبدو في الظلام كالكتبان أو السحب الجنون، كلياً رفع رأسه وجدها مطبقة عليه كالمّ الجائيم على صدره، وهذه الأعواء المنبثة من نوافذ العوامات هل تنبث من بيوت خلت من الهم؟ ولكن ليس كهتمك همّ، ليس من يموت كمن يتتحر، وأنت بلا جدال قد وافقت على الانتحار. وأصل السير، لم يكن أحبّ إليه وتقدلك من المشي ليريح أعصابه ويستعيد أفكاره قبل أن يمضي إلى الإخوان، وهناك ينلوا إليهم ويكاشفهم بكل شيء، لن يقدم على هذه الخطوة حتى يشاورهم وإن حُرّن سلفاً ما سيقولون، ولكنّه سيترف أمامهم مهما كلّفه الأمر، وإنّه ليجد إلى مكاشفتهم رغبة دافعة كأنها استغاثة غريق يتخطفه الموج العاتي، لم يرغب عنه أنّه يُعذّ في حكم المواقف على الزواج من زنوبة، ولم ينكر شعوره الدليل بالرغبة فيها والحرص عليها ولكنّه لم يتصور كيف يمكن أن يتحقّق هذا في صورة زواج رسمي ولا كيف يرفّ البشرى إلى الأهل والأبناء والناس جميعاً. ومع أنّه كان يريد أن يطيل المشي ما وسعه ذلك إلّا أنّه اندفع يسير بسرعة وفي خطوات واسعة وعصاه تضرب الأرض التربة كأنما يتعبّل الذهاب إلى هدف ولا هدف له. تأبّت عليه وصدته، هل تعجب من تجربته وحكته هذه الأساليب؟... ولكنّ الضعيف يقع في الشرك وهو يدرى. ومع أنّه استجبد بالمشي والهواء النقيّ بعض الراحة إلّا أنّه لم يزل مشغول الفكر مشغول الوجدان، ولم تزل الأفكار تطرق رأسه بنير انتظام

في كهولتنا! لتشرب هذه الليلة حتى يرفعلوك على
الاعتق، ما أحته إلى الشراب، كأنك لم تشرب منذ
عام الفيل، إنَّ الآلام التي تجرعتها في عامك هذا
خليقة بأن تحو حسنات السعادة التي تمت بها العمر
كله.

ضرب بعصاه الأرض، ثم توقف عن السير، ضاق
بالظلام والسكون والطريق الحاشد والأشجار وفزع
قلبه إلى الإخوان، ليس هو بالذي يستطيع أن يخلو إلى
نفسه طويلاً، فما هو إلا عضو في جماعة وجزء من كل،
وهناك تحمل المشكلات كما اعتادت أن تحمل. واستدار
ليرجع إلى الجسر، وعند ذلك انتفض جسمه غضباً
وتقرّزاً، فقال بصوت غريب تمرّقه الشكوى والام
والحنق: وليلة كاملة تبيتها في الخارج... في مكان
مجهول... ثم توافق على الزواج منها! وطه إحساس
ثقيل بازدياد النفس عصر جلده وعصر قلبه.
ياسمينه؟!... يا للسخرية! بل أمضت ليلتها في
حضن الرجل الذي لم يزلها حتى وإفاما عصر اليوم
التالي، لبت عنده وهي عالة بمواعيد حضوره فإذا
يعني هذا؟! ليس إلا الغرام أنساها الوقت. يا جحيم
الأخرة! أو أنك هنت للحد الذي لا تبالي عنده
بفضيبك، كيف حاولتها مسترضياً بعد ذلك أيتها
المسحورة؟ وكيف تمضي حاملاً وعد الزواج بها يا عار
الدنيا والأخرة، كأنك لم تشعر بالقرن الذي ارتضيته
من شدة ضغط المهّم على راسك، قرن تكلم به هامة
أسرة لتخزي به جيلاً بعد جيل، ما عسى أن يقول
الناس عن هذا القرن فوق الجبين الأغبر؟! إنَّ الغضب
والهفت والدم والدموع لا تكفي للتفسير عن
استسلامك وضعفك، لشدة ما تضحك منك الآن
وهي مستلقية على ظهرها في العوامة، ولعلها لم تغتسل
بعد من عرق رجليها الذي سيضحك منك بدوره، لا
ينبغي أن يطلع الغد وهم يضحك منك، اعترف
بخورك واعرضه على سائلة الإخوان لتسمع
قهقهاتهم... اعذروه كبر وخوف... اعذروه فقد
جرّب كل شيء إلا متعة القرون! زبيدة: أبيت أن
تكون سيّداً في بيتي وارفضت أن تكون قوّداً في بيت

حتى لم يعد يحتمل حاله فخلّ إليه أنّه سيجنّ إن لم
يحمس الأمر بحلّ ولو يكن الضلال نفسه.

في هذا الظلام يستطيع أن يخاطب نفسه بلا تردد أو
حياء، تحجبه الأغصان المتلاحة عن السماء، وتواري
خواطره الخفول المترامية إلى يمينه، ويتلع مشاعره ماء
النيل الجاري إلى يساره، ولكن حذار من النور، حذار
أن تكتشفه هالة منه فينطلق كهرية السيرك داعياً وراءه
الغلمان وهواة العجائب، أما سمته وجلاله وكرامته
فسلام الله عليها، كان ولم يزل ذا شخصيتين، يعيش
بواحدة بين الإخوان والأحباب، وبطالغ بالأخرى
الأهل ومائر الناس، وهذه الأخيرة التي تمسك عليه
جلاله ووقاره وتقرّره منزلة لا يطعم إلّ لها أحد، وهي
هي التي تتأمر نزواته عليها وعمدها بالفناء الأبدي.
وتراءى له الجسر بمصايحه الوحاجة فتساءل إلى
أين؟!... بيد أنّه رغب في مزيد من الوحدة والظلام
فمرّ أمام الجسر إلى طريق الجزيرة. ياسمين! ذكره
يرعبك، جبينك يمترق جعلاً، لم؟ سيكون أوّل من
ينهمك ويتسامع معك أم تراه يشمّت بك ويتندّر؟
طالما زجرته وأثبتته ولكنّ قدمه لم تنزل بعد إلى مثل
هاويتك؟ كمال؟ يجب أن تلقاه منذ الساعة بقناع غليظ
أن يطلع على الذنب في أساريك، خديجة وعائشة؟
سينكس منها الجبين في بيت آل شوكت، زنوبة امرأة
أبيك، زفاف يصفق له أهل المجون. في صلدك
غوايات فاختر مسرحاً غير دنياك لها، هل ثمة ملكة
ظلام بعيداً عن متناول البشر كي تمارس وذالك في
سلام؟! غداً فلتنظر إلى نسيج العنكبوت لترى ماذا
تبقي من الذبابة! استمع إلى نقيق الضفادع وزفرات
الصراصير، ما أسعد هذه الحشرات، كن حشرة
لتسعد بلا حساب، أما فوق سطح الأرض فلن
يسمك إلا أن تكون «السيدة أحمد، ممرّ الليلة بأهل
بيتك جيماً... زوجك... كمال... ياسمين...
خديجة... عائشة... ثم كاشفهم بيتك إن
استطعت، وإن استطعت فاعقد زواجك بعد ذلك.

هنية! أتذكر كيف نبلعها على حبّها؟ لم تحب امرأة
كما أحببتها، ولكن يبدو... والسفاه... أننا نخسر العقول

عزّادتي، جلييلة: لست أخي ولا حتى أختي! إني أشهد

هذا الطريق الريح والظلام الكثيف وهذه الأشجار الحرم على هرولي في الظلام باكياً كالطفل

الغريب، لا بد لي مني حتى أرى الإهانة إلى الطاغية!

وقمت عليك! لم لأنها ضاقت بالحرام! الحرام الذي لم تغتسل منه، قل إنها لم تعد تطيق وكفى، ما أظن

الأم، ولكنه حق عليّ وعبادة، كمن ينطع الجدار حتى يبتسم رأسه تكفيراً عن ذنب، الشيخ متولي عبد

الصمد يظن أنه يعرف أموراً كثيرة، ألا ما أجعلها مرّ بجسر الزمالة مرة أخرى إلى طريق أميابة، وجعل

يبحث خطاه بعزم وعناد مصمماً على غسل ما لظفه من خزي، وكلما ألح عليه الألم جد في السير ضارباً بعصاه

الأرض كأنها يسير على ثلاث.

وبدت له العوامة يلوح من نافذتها الضوء فاشتدّ

هياجه بيد أنه كان قد استعاد ثقته بنفسه وشعوره ببرجولته وكرامته واطمأنّ خاطره بعد أن استقرّ على

رأي، وانحدر على السلم فمرّ فوق الجسر الخشبيّ ثم طرق الباب بعصاه، وكّر ذلك بعض، حتى جاءه

الصوت متسائلاً في انزعاج:

- من الطارق؟!

فاجاب بقوة:

- أنا...

انفتح الباب عن وجهها المتعجب، فالتفت له وهي تدمغم «خير»، فمرق إلى حجرة الجلوس حتى

توسطها ثم استدار ووقف ينظر إليها وهي تقترب منه متسائلة حتى وقفت حiale وراحت تتفحص وجهه

المنجمّ بقلبي، قالت:

- خير إن شاء الله!! ما عاد بك؟!

فقال بهدوء مريب:

- خير والحمد لله كما متعلمين...

جعلت تتسائل بعينيها دون أن تتكلم، فاستطرد قائلاً:

- جئت لآخرك بآلاً تتعلّق بما قلّت، فإن الأمر كله لم يكن إلا دعابة سخيفة.

هبط جذعها هبوط الحية ونطق وجهها بالإنكار

والحنق، ثم هتفت:

- دعابة سخيفة! كيف لا تفرّق بين دعابة سخيفة وبين كلمة شرف ارتبطت بها؟

قال ووجهه يزداد اكفهاً:

- يحسن بك وأنت تخاطبيني أن تلتزمي حدّ الأدب الواجب، فإنّ نساء من طبقتك يرتزقن في بيتي

خادما...

صاحت وهي تمحلق في وجهه:

- هل رجعت لتسمعي هذا الكلام؟ لم تقله من قبل؟ لم وعدتني واستطعتني وتوددت إليّ؟ أنسب أنّ

هذا الكلام يخيفني؟ لم يعد بي متّسع للدعابات السخيفة.

لوح لها بيده غاضباً فاستكتها، ثم هتف:

- جئت كي أقول لك إنّ الزواج من واحدة مثلك خزي لا يليق بكرامتي، وإنّه لا يصلح أكثر من أن

يكون دعابة يتننّر بها هواة الدعابات المخجلة، وإنّه ما دامت أمثال هذه الأفكار تدور برأسك فانت لم تمودي

أهلاً لماشري، إذ لا يصحّ أن أعاشر المجانين...

كانت تصغي إليه وشرر الغضب ينطاپر من حدقتيها، بيد أنّها لم تستسلم لتيّار الغضب كما تمخّ،

ولمصلّ منظر غضبه بثّ في حناياها خوفاً وتقديراً للعواقب، فقالت بلهجة أخفّ من السابقة:

- لن أتزوّجك بالقوّة، لقد كاشفتك بما يحول بخاطري تاركة لك الخيار، الآن تريد أن تتحلّل من

عذك، لك ما تشاء، ولا داعي لسبي وإهانتني، ليذهب كلّ منّا إلى حال سبيله في سلام...

أهذا قصارى جهدي في الحرص عليك؟! ألم تكن تكون أسعد حالاً لو - في سبيل امتلاكك - أنشيت

فيك الأظافر؟ استمدّ من ذلك غضباً:

- سيذهب كلّ منّا إلى حال سبيله، خير أنّي أردت أن أصارحك برأيي فيك قبل أن أذهب، لا أنكر أنّي

سمعت إليك بنفسي، ربّما لأنّ النفس تولع أحياناً بالقافورات، فهجرت من كنت تسمعين بخدمتهنّ كي

أرفقك إلى هذه الحياة، لذلك لا أدعش لآتي لم أحظ عندك بما حظيت به عندهنّ من الحبّ والتقدير، ذلك

من الفكر، وكان كلما نزع به الخيال إلى منظر من مناظر حياته القريبة أو البعيدة صدمه بعزم، اللهم إلا منظرًا واحدًا رحب باستعادته عن طيب خاطر، ذلك هو المنظر الأخير الذي سبّل انتصاره على المرأة وحل نفسه معًا، وراح يؤكد الأمر لنفسه فيقول: «انتهى كل شيء والحمد لله ولاكوننّ شديد الحذر فيما يقبل من أيام حياتي».

بدا اليوم هادئًا في مطلعته، فاستطاع أن يفكر في فوزه المبين وأن يبتغي نفسه عليه، ولكن انقلب اليوم بعد ذلك خاملًا بل خائمًا، فلم يجد من تفسير لذلك إلا أنه ردّ الفعل للجهد العصبي المضني الذي بذله في اليومين الماضيين، بل في الأشهر الماضية على تفاوت في الدرجة، إذ الحق أن معاشرته لزّوية بدلت لمعنيه في تلك اللحظة مأساة خاسرة من أولها لآخرها. لم يكن من الميّن عليه أن يسلم بأول هزيمة تلحقه في حياته الغرامية الطويلة، كان لذلك رجوع شديد الأثر في قلبه وخياله، وكان يثور كلما همس له عقله بأن الشباب قد ولّى، معتزًا بقوّته وجماله وحيويته، ثم يصير على ذلك التعليل الذي جاهر به المرأة أمس وهو أنّها لم تحبه لأن القدر لا يقدر إلا القدرًا لشدّ ما تشوّق طوال يومه إلى مجلس الإخوان، فلما دنا موعده نفذ صبره فمضى متحجّلًا إلى بيت عمّده عفت بالجاليّة، فاجتمع به قبل أن يتوافد الإخوان، وسرّحان ما قال له:

- انتهيت منها...

فتساءل محمد عفت:

- زّوية؟

فأومأ بالإيجاب، فتساءل الآخر بأسًا:

- بهذه السرعة؟

ضحك كالساخر، ثم قال:

- هل تصدّقي إذا قلت إنّها طالبتني بالزواج حتى

ضقت بها؟

فضحك كالساخر، ثم قال:

- زبيدة نفسها لم تفكر في ذلك! يا للمعجب! لكنّها معلورة، فقد وجدتكت تملكها أكثر مما تحلم به فطمعت في المزيد...

أنّ القدر لا يقدر إلاّ من كان على شاكلته، وقد أنّ لي أن أربأ بنفسي عنك، وإن أعود إلى حظيري الأولى...

بدا في وجهها القهر، قهر من يمجّزه الخوف عن التنفيس عن صدره المستعر، وتمت بصوت مرتعش النبرات:

- مع السلامة، اذهب ودعي في سلام...

قال بحق وهو يكظم آلامه:

- لقد نزلت فهنت...

هنا أفلت الزمام، فصاحت به:

- حسبك، كفاية، ارحم الحشرة القذرة واحلّوها، اذكر كيف كنت تقبل يدها والخشوع في عينيك، نزلت فهنت؟... هه... الحق أنك كبرت، قبلت على كبرها أنا أنلقى الجزاء...

لوح بعصاه وهو يصيح بغضب:

- اخبري يا بنت الكلب، اخبري يا دون، لسي ثيابك وغادري العوامة...

فصاحت بدورها وهي ترفع رأسها في تشنّج:

- أملا أذنك بما أقول، كلمة أخرى أملا عليك العوامة والليل والطريق صوّتا حتى تحضر الحكمداريّة كلّها، سامع؟... لست لقمة مسالفة، أنا زّوية والأجر هل الله، اذهب أنت، هذه العوامة عوامتي وعقد إيجارها باسمي، فاذهب بالسلامة قبل أن تذهب في زّقة...

لبث قليلاً كالمرتد ينظر إليها باحتقار وازدراء، ولكنه عدل عن مغامرة قاسية تفاديًا من الفضيحة، ثم بصق على الأرض ومضى إلى الخارج في خطوات واسعة ثابتة...

- ٣٠ -

ذهب من ثوّ إلى الإخوان، فوجد محمد عفت وعليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار وآخرين. شرب حتى سكر كعادته وتعدّى عادته، وضحك كثيرًا وأضحك كثيرًا، ثم مضى في المزيج الأخير من الليل إلى بيته فنام نومًا عميقًا. واستقبل مع الصباح يومًا هادئًا، خلا في أوله

فمنعني السيد أحمد قائلا باستهانة:

- مجنونة...

فضحك محمد عفت مرة أخرى، وقال:

- لعلها تالكت في حبك؟

يا لها من طعنة! اضحك بقدر ما تجد من ألم...

- قلت إنها مجنونة وكفى...

- وماذا فعلت؟

- صارحها بأنني ذاهب إلى غير رجعة،

ودهبت...

- كيف تلت ذلك؟

- سبت مرة، وهذبت أخرى، وقالت في داهية

ثالثة، ثم تركتها كالمجنونة، كانت غلطة من بادئ

الأمر.

قال محمد عفت وهو يمز رأسه مقتنعا:

- نعم، ما منا إلا من ضاجعها، ولكن أحدا لم

يفكر حق في مجرد معاشرتها...

تصول وتجول في ميادين الأسود ثم تهزم أمام فارة،

أخبط عارك حتى عن أقرب المقرين واحد الله على أن

كل شيء قد انتهى...

لكن شيئا في الواقع لم ينته، لم تريح غيظته، وصح

لديه فيها تلا ذلك من إتمام أن تفكيره فيها لم يكن مجردا

ولكنه اقترن بألم عميق تزايد وتفشى، وصح لديه أيضا

أن ذلك الألم لم يكن غضبا لكرامته فحسب ولكن كان

ألم الحسرة والحنين، وأنه فيها بدا عاطفة طاغية لا تقتنع

بأقل من تدمير من يعانيتها. بيد أنه كان شديد الاعتزاز

بما سجل ساعة انتصاره، فعنى نفسه بفهر مشاعره

المستبعدة الخائنة في مهلة تطول أو تقصر كفيها اتفق.

ومها يكن من أمر فقد غادره السلام فلفظي وقته

متفكرا مجرأ أحرانه معذبا بخيالاته وذكرياته. وكان

يبلغ به الضعف أحيانا أن يفكر في مصارحة محمد

عفت بما ينوء به من الألم، بل تغادى به الحاضر مرة إلى

حد الاستعانة بزييدة نفسها، ولكنها كانت فترات

ضعف كنوات الحسى ثم يفيق إلى نفسه وهو يمز رأسه

متعجبا متحيرا.

وقد صيبت أزمته سلوكه العام بلون من القسوة

قلاومه ما استطاع بحلمه وكياسته، فلم يفلت منه

الزمام إلا قليلا، وهذا القليل لم يلحظه إلا الأصدقاء

والعارف الذين الفوا منه الدماعة والتسامح والرفق، أما

أهل بيته فلم يفتنوا إلى شيء، لأن سلوكه حيالهم بقي

هو هو لم يكد يتغير، إذ أن الذي تغير حقا هو العاطفة

المستترة وراءه فاستحالت من شدة مصطنعة إلى شدة

حقيقية لم يدرك مداها سواء. على أنه هو نفسه لم ينبج

من قسوته هذه، بل لعلها كان هدفها الأول، فيها حمل

به على نفسه من تقريع وما عبرها به من مهانة، وأخيرا

بما أخذ يفتر به وريذا رويذا من ذلة وتماتة وهجران

شبابه، ثم يمز نفسه فيقول: لن أنحر، لن أسيم

نفسى مزيدا من اللذل، فلتتربى الأفكار كل مداو،

ولتقلب بي المواقف كل منقلب، ولأبقين حيث أنا لا

يعلم بألمي إلا الله الغفور الرحيم. لكنه ما يدري إلا

وهو يسائل نفسه: ترى ألا تزال في العوامة أم تركتها؟

وإذا كانت بها، فهل ما يزال لديها بقية من ماله تغنيها

عن الناس، أم يكون الرجل قد خلق بها هنالك؟

تسائل كثيرا وفي كل مرة يلقي عذابا ينفذ من روحه

إلى لحمه وعظمه فيهره هصرًا، لم يكن يجد شيئا من

القرار إلا عند استحضاره المنظر الأخير في العوامة

الذي أوهمها فيه - وتوهم - أنه نلها وعلا عليها،

ولكنه كان يستدعي مناظر أخرى سجلت ذلة وضعفه،

ومناظر غيرها سجلت ألوانا من السعادة لا تنسى.

وخلق الخيال له مناظر جديدة النقا فيها، فتشاجرا،

وتحاسبا، وتمتصبا، ثم أدركها سلام الصبح

والوصال... حلم كثيرا ما يترأى له في عالم الباطن

الزاجر بما لا يحصى من ألوان الشفاء والسعادة، لم لا

يتأكد بنفسه عما طار على العوامة وسكانها؟ في الظلام

يستطيع أن يسير هنالك دون أن يراه أحد...

وذهب مستترا بالظلام كاللص، فمز أمام العوامة

ورأى النور يوصوص من خصائص النافذة، ولكنه لم

يدر إن كانت هي التي تستضيء به أم ساكن جديد،

بيد أن قلبه شعر بأن النور نورها هي دون غيرها،

وخيل إليه وهو يتطلع إلى العوامة أنه يستشف روح

صاحبها، وأنه ليس بينه وبين رؤيتها رؤية العين إلا

فتبعها على بعد مرحبًا بظلمة الطريق، ترى هل عاودت الاتصال بخالتها؟ أم تراها ماضية إلى السيد الجديد؟ ولكن ماذا دعاهما إلى الذهاب إليه وعندها عوامة تنادي العاشقين؟! وبلغت حي الحسين فضاعف انتباهه أن تضع منه في زحمة الملاءات اللث. لم تستين له غاية وراء هذه المطاردة الخفية، ولكن كان مدفوعًا برغبة في الاستطلاع الأيمة وعقيمة وإن تكن في نفس الوقت عنيفة لا تجدي معها المقاومة. . . سارت أمام الجامع فلانجحت إلى حارة الوطاويط حيث يقف المارة ويلبد الشحاذون المتعبون، ثم إلى الجالية حتى سالت إلى قصر الشوق فتبعها مشفقًا من أن يلقاه ياسين في الطريق أو يراه من نافذة، فزأى إن صادفه أن يزعم له أنه ذاهب لزيارة صديقه غنيم حميدو صاحب معصرة الزيتون وجار ياسين بقصر الشوق، وما يلدي إلا وهي تنطفئ إلى أول حارة، تلك الحارة التي لم يكن بها من بيت إلى بيت ياسين، فدفق قلبه بقوة وثقلت قدماء كان يعرف سكان الدورين الأول والثاني، وهما أسرتان لا يمكن أن تربطهما بزئوية رابطة! وزاغ بصره قلقًا واضطربًا، غير أنه وجد نفسه يميل إلى العطفة غير مقدّر للعواقب، فلأنه نحو الباب حتى ترمى إلى سمعه وقع الأقدام الصاعدة، ثم دخل بثر السلم رافقًا رأسه منصيًا إلى وقع الأقدام فشمع بمرورها بالباب الأول ثم الثاني، ثم وهي تطرق باب ياسين! . . .

تسمر في مكانه وهو يلث، فدار رأسه وشعر بخور وتهدم، ثم تهدم من الأعياق وانتزع نفسه من موضعه راجعًا من حيث أتى وقد غاب الطريق عن عينيه في زحمة الأفكار وارتطام الخواطر. . .

ياسين كان الرجل! قترى هل علمت زئوية بعلايته الأيوية بياسين؟! وراح يدفع الطمانينة في نفسه كما يدفع سدًا غليظًا في فوهة ضيقة قاتلاً: إنه لم يجر على لسانه ذكر لأحد أبناؤه أمامها، فضلًا عن أنه من غير المعقول أن يكون واقفًا على سره، وأنه لذكر كيف جاءه منذ أيام لينهي إليه طلاق مريم، فظالمه بوجهه المثلث المرتبك ولكن في براءة وإخلاص لا تشوبها

أن يطرق الباب فيفتح عن وجهها كما كان يفتح في الأيام الذاهبة، السعيد منها والتميس على السوء، ولكن ما عسى أن يفعل لو طالعه وجه الرجل! حقًا أنها قريبة ولكن ما أبعدا، وقد حرم عليه هذا المعبر إلى الأبد. أه. . . هل مرت به هذه الحالة في حلم من الأحلام! قالت له اذهب، قالتها من قلبها ثم مضت في سبيلها كأنه لم يمرض لها يومًا وكأنها لا تشعر له بوجود! إذا كان الإنسان بهذه القسوة فكيف يتطلع إلى طلب الرحمة أو المغفرة!

وذهب مرامت ومزات حتى صار التردد أمام العوامة بد جثوم الليل عادة يمر بها قبل ذهابه إلى مجلس الإخوان، ولم يبد عليه أنه يريد أن يفعل شيئًا ذا بال، وكأنه كان يرضي بها حب استطلاع عقيم جنوني. وكان يوم بالعودة مرة إذ انفتح الباب وخرج شيخ لم يتبينه في الظلام فدفق قلبه في خوف ورجاء، ثم عبر الطريق مسرعًا ووقف في جوار شجرة وعينه تحمفلان في الظلام. قطع الشيخ المعبر الحشيش إلى الطريق ثم سار في اتجاه جسر الزمالك، فوضع له أنه امرأة. . . وحذته قلبه بأنها هي. وتبعها عن بعد وهو لا يدري عل أي وجه تنتهي الليلة. هي أو غيرها فسيذا يقصد؟! غير أنه واصل سيره مركزًا انتباهه في شبحها، ولما بلغت الجسر ودخلت في مرمى مصابيحها توكد إحساس قلبه وأيقن أنها زئوية، غير أنها كانت ملتفة في الملاءة اللث التي تحفلت عن ارتدائها طوال معاشرتها له. عجب لذلك وتساءل عن معناه فظن. . . ما أكثر ظنونه. . . وراه أمرًا. رآها تتجه إلى عكة ترام الجزيرة وتنتظر، فسار محاذيًا للحقول حتى جاوز الموضع قبلتها، ثم عبر إلى ناحيتها ووقف بعيدًا عن مرمى بصرها. وجاء الترام فاستقلته، وعند ذاك هرول إليه فركب جاعلاً مجلسه في نهاية المقعد المطل على السلم ليراقب النازلين، وعند كل عكة راح يتطلع إلى الطريق وقد زائله الإشفاق من اكتشاف أمره لأنه حتى إذا وقع فقد فاتها أن تعلم أنه كان يرصدها أمام العوامة متجسسًا. نزلت في العتبة الخضراء فنزل وراهما ورآها تتجه إلى الموسكي مشيًا على الأقدام

دوره، أنت سعيد، لا داعي للتدب، ينبغي أن تواجه الحياة بخطة جديدة وقلب جديد وعقل جديد، دع الرابة في يد ياسين، وسوف تقيق من دوارك ويضي كل شيء وكأنه لم يكن، لن يتاح لك أن تجعل من حوادث الأيام الأخيرة حديثاً يدار على مائدة الإخوان كسابق عهدك، علمتك هذه الأيام المخيفة أن تطوي الصدر على أمور كثيرة، أه... ما أعظم تشوّقي إلى الشراب!...

أثبت السيد أحد في الأيام التالية أنه أقوى مما اعتزبه من أحداث، فسار في طريقه قلعاً، وقد ترامت إليه أنباء طلاق ياسين على حقيقتها من السيد عليّ عبد الرحيم نقلاً عن غنيم حميدو وآخرين، وإن لم يتصرّف الراوون على حقيقة المرأة التي نجم عن مغامرتها طلاق الزوجة... وبإسسم السيد، وضحك طويلاً من كل شيء، وكان ماضياً إلى بيت عمدة عفت ذات مساء - حين شعر بثقل قبح في أهل الظهر والرأس حتى لث. لم يكن الأمر جديداً كل الجدة، فقد جعل الصداق يتباه كثيراً في الأيام السابقة ولكنّه لم يشتدّ عليه كهذه المرة، ولما شكّا حاله إلى عمدة عفت أمر له بقلع من شراب الليمون المثلج، وأمضى سهرته حتى هابتها، ولكنّه استيقظ في اليوم التالي أسوأ حالاً من الأمس، وبلغ به الضجر أن فكر في استشارة الطبيب، والواقع أنه لم يكن يفكر في استشارة الطبيب إلا حين الضرورة القصوى.

- ٣١ -

تتطور الأشياء بالمناسبات كما تتطور الألفاظ بما يستجد من معاني جديدة، لم يكن قصر آل شدّاد في حاجة جديدة كي يزداد في عيني كمال جلالاً، ولكنّه بدا في ذلك المساء من ديسمبر في زبيّ جديد من أزياء الحياة. أريقت عليه الأنوار حتى غمرته. أجل: كان كل ركن من أركانه وكل موضع من جذرانه يتقلد عقداً من اللآلئ المضيئة... مصابيح كهربائية مختلفة الألوان تومض فوق رقعة جسد من أهل السطح إلى أسفل الجدار، كذلك السور الكبير، والباب الضخم،

شائبة، وإنه ليفترض كل شيء ألا أن يقدم ياسين على خيائنه وهو عالم بما يفعل، بل من أين لياسين أن يعلم بأن أباه ذو صلة أو كان ذا صلة بأي امرأة في الوجود، فله أن يطمئن من هذه الناحية، وحتى إذا كانت زنوبة قد عرفت علاقته بياسين، أو إذا عرفت ياسيناً من الأيام، فلن تطلع ياسين على سرّ خليق فإن يقطع ما بينها، وواصل السير موجلاً الذهاب إلى الإخوان ريثما يسترد أنفاسه ويملك جنته فمضي في اتجاه العتبة على تبعه وإعيائه.

أردت أن تعرفوها أنت قد صرفت، ألم يكن الأفضل أن تنفض يديك من الأمر كله قانعاً بالصبر؟! أحمد الله على أنّ الظروف لم تجمعك بياسين وجهاً لوجه في بؤرة الغضبية، كان ياسين هو الرجل، متى عرفته؟ وأين؟ وكم من مرة خائنه معه وهو لا يدري؟ أسئلة لن تبحث لها عن جواب، افترض إذا شئت أسوأ الفروض فلن يغيّر هذا من الأمر شيئاً، وهل عرفها قبل أن يطلق مريم أم بعد الطلاق أم كانت الشيطانة الباعث على الطلاق؟ أسئلة أخرى لن تعرف الجواب عنها ولن تبحث عنه، فافترض أسوأ الفروض أيضاً إراحة لראسك المصدوع، ياسين كان الرجل! قال إنه طلقها لقلّة أدبها! كلام كان يمكن أن يعمل به طلاق زينب لو لم يطلع هو على السبب الحقيقي حال وقوعه، سوف تعرف الحقيقة يوماً، ولكن ماذا يمتك من أمرها؟ ألا زلت مشغولاً بالجري وراء الحقيقة؟ أنت مبعر الرأس معذب القلب، أمكن أن تغار من ياسين؟ كلاً ليست هذه بالفيرة، على العكس مما نظنّ أنت خليك بالتحري، إذا لم يكن بدّ من أن يكون لك قاتل فليكن ابنك هو قاتلك، ياسين جزء منك، جزء منك انهمز وجزء منك انتصر، أنت المطلوب وأنت الغالب، ياسين قلب مغزى المعركة، كنت تشرب كأساً مزاجها الألم والمزجة فصار مزاجها الألم والمزجة والفوز والعزاء، لن تتحسّر على زنوبة بعد اليوم، غالت في الاعتداد بنفسك، عاهد نفسك على ألا تسقط الزمن من حسابك بعد الآن، ليك تستطيع أن توجه هذه النصيحة إلى ياسين حتى لا يؤخذ على غرة إذا جاء

كذلك أشجار الحديقة بدت كأنها استحالت أزهارها ونهارها أنواراً حمراً وخضراً وبيضاءً، ومن النوافذ جميعاً انبثت الأضواء، فكل شيء يضيء مؤذناً بالفرح، وعندما رأى كمال وهو مقبل ذلك المنظر آمن بأنه يحجّ إلى مملكة النور لأول مرة في حياته. وازدهم الطوارىء المواجه لدخول البيت بالخيلان، وفُرش المدخل برمل فاقع لونه كالذهب، وفتح الباب على مصراعيه، كذلك باب السلامك فلاحت من داخله نجفة كبيرة في سقف البهو الممدّد لاستقبال المدعوين، على حين امتلأت الشرفة العليا الكبيرة بمجموعة وضيفة من الغيد في ثياب السهرة البهيجة. ووقف شدّاد بك وجماعة من رجال الأسرة في مدخل السلامك يستقبلون الوافدين، أمّا شرفة السلامك فقد ازدانت برجال أوركسترا عجيب ترامت أنفاسه إلى حدود الصحراء.

قال إسحاق لطيف باذراء:

- لن نحظى بما تريد حتّى لو ذهبنا، فإنّ الباشوات والبيكوات خصّوا بالبهو الامامي وحدهم، فإذا ذهبت فستجد نفسك بين الشباب من الأهل والأصدقاء في البهو الخلفيّ وليس هذا ما تريد، وحدث لو أمكن أن نندسّ في الحجرات العليا التي تموج بأفخر مُثُل الجيال...

مثال واحد يعنني، مثلك أمثل، الذي لم تقع عليه عيناي منذ يوم الاعتراف، هتك سرّي وذهب. - لا أكتصك أنّي مشوّق إلى رؤية الكبراء، قال حسين لي إنّ والده قد دعا كثيرين من أقرأ عنهم في الصحف...

ضحك إسحاق ضحكة عالية، وقال:

- أتخلم بأن ترى كبيراً وله أربع أمهين أو ستّ أرجل؟! إنهم أناس مثلي ومثلك فلهذا عن أتهم طاعنون في السنّ وفؤو منظر لا يسرّ كثيراً، إنّي أفهم سرّ تطلّع إليهم، ما هو إلّا ذيل لاهتمامك المفرط بالسياسة...

يجري ألاً أهتمّ بشيء ما في هذه الدنيا، لم تعد لي ولم أعد لها، غير أنّ اهتمامي بالكبراء مستمّد في الحقيقة من هيامي بالمظمة، أنت تؤدّ أن تكون عظمياً لا تنكر، ولك مؤقلاّتك الواعدة من خلقة سقراط وآلام بتهوفن، أنت مدنيّ بهذا التعلّك للتي حرمكك الشور بلذاتها، غداً لن تجد لها أثراً في مصر كلّها، يا جنون الألام إنّ لك لسكرة!... قال بشوّف:

- قال لي حسين إنّ الحفلة متجمّع بين رجال من جميع الأحزاب...

ألقى كمال على المنظر كلّ نظرة شاملة سريعة، ثمّ تساءل: ترى عاقلة في الشرفة العليا بين المخلّات؟ وهل وقعت حينها عليه وهو يقبل مع المقبلين بقامته الفازعة وزينته الكاملة والمعطف على ساعده يتقلّعه رأسه الكبير وأنفه الشهير؟ لم يخلّ من إحساس بالارتباك وهو يبتاز الباب، ولكنّه لم يتجسّج إلى السلامك كالآخرين، وإنّما مال إلى عمّره القديم المفضي إلى الحديقة كما أنّه حسين شدّاد من قبل كي يتاح لجماعتهم البقاء ممّا أطول مدّة ممكنة في الكشك المحبوب. كأنما كان يخوض بحرّاً من نور، وقد وجد السلامك الخلفيّ - كالأماميّ - مفتوح الباب، مضاء بالأنوار، يضيء بالمدعوين، كذلك الشرفة العليا معمورة بأسراب الحسان، أمّا في الكشك فلم يجد سوى إسحاق لطيف في بدلة سوداء أنيقة أضفت على منظره العدوانيّ هيئة لطيفة لم يره في مثلها من قبل، ألقى إسحاق عليه نظرة سريعة، ثمّ قال:

- بديع، لكنّ لم أتيت بالمعطف؟ حسين لم يمكث معي إلّا ربع ساعة ولكنّه سيمود إلينا حين يفرغ من الاستقبالات، أمّا حسن فقد ليث معي دقائق ولا أظنّه سينمكّن من مجالستنا كما نودّ، لهذا يومه وله عتّا أمور

كتب، كنت أتنطلع إلى صياح حديثهم لأفهم أمرين هائين: أولهما الموقف السياسي على حقيقته وهل بات من المأمول حقاً بعد الائتلاف أن يعود الدستور والحياة النيابية؟ والثاني كلام هؤلاء الناس العادي الذي يتبادلونه في مناسبة سعيدة كهذه، اليس بديهاً أن تصفي إلى ثروة باشا مثلاً وهو يثرثر ويمزح؟ قال إسماعيل لطيف وهو يتظاهر بالاستهانة وإن تمت حركات الاستهانة نفسها عن مباحاة:

- أتيح لي أكثر من مرة أن أجلس مع أصدقائه أبي من أمثال سليم بك والد حسن وشداد بك، أؤكد لك أنك لن تجد لهم ما يستحق هذا الاهتمام...

من أين جاء الفارق إذن بين ابن المستشار وابن التجار؟ كيف كان جلّ حظّ أحدهما أن يعبد المعبود هل حين يتزوج الآخر منه؟ اليس هذا الزواج آية على أنّ هؤلاء القوم من طينة غير طينة البشر؟... لكنك لا تدري كيف يتكلم أبوك بين أصحابه وأقرانه!...

- هل أيّ حال سليم بك ليس من العظماء الذين أحيي...!

ابتسم إسماعيل لهذه الملاحظة الأخيرة دون أن يعلق عليها. هذه الضحكات تحيي من الداخل مفعمة بالخيطة، وأخرى تهبط من الشرفة العليا معبقة بشدا الأتونة الساحر، وبين هذه وتلك تجاور كالذي بين أنغام الآلات المترامية من بعيد تستقبلها الأذن وحده حيناً وطلاقة من الخان شقّ حيناً آخر، ثم تكون كلها - الضحكات والأنغام - إبطاراً ورثياً يسو فيه القلب الحزين المترع بالروحة كبطاقة سوداء في طاقة ورد... وما لبث حسين شداد أن جاء متمهلاً بقماته الفارعة

ووجهه المتألق يمتلئ في الرندجوت، فتح ذراعيه عندما اقترب ففعل كمال مثله وتعانفا بحرارة، ثم لحق به حسن سليم في بزته الرسمية، جليلاً في كبريائه الطبيعي الملقوف في مظهره المؤدب المهذب وإن بدا إلى جانب حسين قصيراً صغيراً، فتصافحا أيضاً بحرارة، وهتاه كمال من أعماق لسانه. وقال إسماعيل لطيف بصراحته المعبودة التي لا تكاد في أغلب الأحيان تميز

- صحيح، بالأمس دعا سعد الأحرار والوطنيين إلى حفلة الشاي المعروفة بالنادي السعدي، واليوم شداد بك يدعوهم إلى زفاف كريمته، رأيت من أصدقائك الوفنيين، فتح الله بركات، وعبد الباسل، وجاء من الآخرين: ثروت، وإسماعيل صدقي، وعبد العزيز فهمي. شداد بك يعمل بهمة عالية، وحسناً فعل، لقد رأى عهد أفندينا، كان الشعب يتفث منشداً: والله حي... عباس جي، ولكن الحقيقة أنه ذهب إلى غير رجعة فكان من الحكمة أن يعمل شداد بك للمستقبل حسابه، ويجب أن يسافر كل أعوام قلائل إلى سويسرا ليقدم إلى الخديو فروض طاعة كاذبة من باب الخيطة، ثم يعود ليواصل سيره الموفق...

قلبك يفت هذه الحكمة، إن محنة سعد بالأمس الغريب أثبتت أنّ الوطن مليء بؤلاء الحكماء، ترى أشداد بك واحد منهم؟ والد المعبودة؟ مهلاً، إنّ المعبودة نفسها نزلت من علياء السماء لتفتن بواحد من البشر، ليغتنق قلبك حتى يعجزك آلم أجزائه المتناثرة. - تصور أنّ حفلة كهذه تمضي بلا مطرب ولا مطربة!

قال إسماعيل بلهجة ساخنة: - آل شداد نصف باريسيين، ينظرون إلى تقاليد الأفراس بازدراء غير قليل، ولا يسمحون لعائلة بأن تحيي حفلة في بيتهم ولا يعترفون بمطرب من مطربنا، ألا تذكر حديث حسين عن هذا الأوركسترا الذي أراه الليلة لأول مرة في حياتي؟ إنه يعزف مساء الأحد من كل أسبوع في جرويي، ويستقبل إلى البهو بعد العشاء ليطرب الكبراء، دع هذا واعلم أنّ زينة الليلة هي العشاء والشبانيا!

جلييلة وصابر وزفاف عائشة وخديجة؟ شتان بين الجوين، كم كنت سعيداً في تلك الأيام! الليلة يشيع الأوركسترا حملك إلى القبر، أتذكر الذي رأيت من ثقب الباب؟... أسفي على الآلة التي تتمرغ في التراب!...

- هذا شيء يهون، الذي آسف عليه حقاً وسأسف عليه طويلاً هو أنّي لم أتمكن من مشاهدة الكبراء عن

عن المكر السيئ:

- كمال أسف لأنه لم تتَّح له مجالسة ثروت باشا وصحبها!

فقال حسن سليم بمرح غريب أطاح بتحفظه المهود:

- فليتظر حتى يسجل مؤلفاته المنتظرة، وعندما يجد نفسه واحدًا منهم...

أما حسين شذاد فقال عجبًا:

- أهوى تزمت أنت؟ إنما أريد أن تمر الليلة كلها ونحن مستمتعون بحزمتنا الكاملة...

وقيل إن مجلس حسين استأذن حسن سليم منصرفًا، إذ كان في الواقع كالغراشة لا يستقر بموضع.

ومدّ حسين ساقه أمامه، وراح يقول:

- هذا يسافرون إلى بروكسل، سبقي إلى أوروبا، ولكن بقيائي هنا لن يطول، وغدا تكون ملهاتي التنقل ما بين باريس وبروكسل...

وتنقل أنت ما بين النحاسين والغورية، بلا حبيب ولا صديق، هذا جزء ما يتطلع إلى السماء، سترد بصرك بين أركان المدينة حائرا ولن تبرا عينك من لوعة الشوق، أملا رثيبك من هذا الهواء الذي تعبه أنفاسها، غدا سوف ترثي لنفسك.

- يجزّل إليّ أيّ سلاحك بك يوما...

تساءل حسين وإسمايل معًا:

- كيف؟

لكن كذبتك ضخمة كالك...

- ثمّة أنفك بيبي وبين أبي على أن أسافر في بعثة على حسابي الخاص بعد إتمام دراستي...

هتف حسين بمرور:

- لو تحقّق هذا الحلم!

أما إسمايل فقال ضاحكًا:

- أخاف أن أجد نفسي وحيدًا بعد بضع سنين!

تلاقت آلات الأوركسترا جميعًا في حركة متدفقة سريعة، أعلنت - فيها أعلنت - عفا في كلّ آلة من مرونة وقوة، كأنما تشترك كلها في سباق عنيف بامت

الهدف منه في مرمى العين ومتناول الطموح، فها بها

اللعن إلى ذروته العليا تلك الذروة التي توحى بتداني

الختام. انجذب وعيه إلى الأنغام المستعرة رغم استغراقه بالشجن، فانهط في علوها حتى تدافع دمه

ولشت منه الأنفاس، وسرعان ما داخلته رقة وأسكرته أريجية جعلت من حزنه نشوة دامعة، فتنبذ مع النجابة

من الأعصاب، وبمّل أصداه اللحن المترقة في روحه بانفعال وتأثر، فبحّل إليه أنه يتساءل: ألا يمكن أن

تنتهي عواطفه المتأججة في ذروها إلى ختام كذلك؟ ألا يمكن أن يكون للحب - كهذا اللحن وككل شيء -

نهاية؟ وذكر أحوالاً مرّت به في أوقات نادرة، فترامت من الفتور حتى بدا وكأنه لم يبق من عابدة إلا اسمها،

أتذكر هذه الفترات؟ وكان يبرّ رأسه حيرة ثم يتساءل: هل انتهى حقًا كل شيء؟ وإذا بخيال يطوف أو فكرة

تخطر أو منظر يرى يستيقظ من غفوته ويلقى نفسه غريقًا في بحر الهوى مكبلاً بأصفاد الأثر. جرب إذا

حلّت بك فترة من هذه الفترات أن تقبض عليها بكلّ قواك وألا تدعها تفلت حتى يستقرّ بك الشقاء، أجل

حاول أن تقبض خلود الحب. قال حسين شذاد بأسًا:

- بدأت الحفلة بتلاوة سورة على سبيل البركة!

القرآن؟ ما ألفت هذا الباريسية الحسناء نفسها لا تستطيع أن تمقد قرانها إلا بمأذن وقرآن! وهكذا

سيقتن زواجها في ذهتك بالقرآن والشمبانيا.

- حدّثنا عن نظام الحفلة؟

قال حسين وهو يشير براسته إلى البيت:

- عفا قليل يُعقد القران، وبعد ساعة يُدهى الجميع إلى الموالد، ثم ينتهي كلّ شيء، وتبيت عابدة هذه

الليلة في بيتنا لآخر مرة ثم تسافر مع الصباح إلى الإسكندرية لتستقل بعد غد الباهرة إلى أوروبا...

ستصبح منك مناظر ما أخلقها بالتسجيل لتكون زادا لملك الشر، كروية اسمها الجميل وهو يكتب في

الوثيقة الشرعية، ومنظر وجهها المتطلع إلى إعلان النبا السعيد، ولون الابتسامة التي يفرّ عنها ثغرها عند

زفاف البشرى، ثم منظر العروسين وهما يتلاقيان، حتى ألك بعوزه الزاد...

- وهل يعقد القران مأذن؟

- طيباً!

هكذا أجاب حسين، أما إسماعيل فضحك ضحكة عالية، وقال:

- بل قسيس!

أتبي سخافة في سؤالك!... سأل أيضاً هل بيتان الليلة معاً! ليس من المحزن أن يسد مجرى حياتك رجل لا شأن له كهذا المأذون؟ ولكن دودة حقيرة هي التي تاكل جلث أكبر الكبراء، فكيف ستكون جنازتك حين يحتم القضاء؟ شيء هائل يملأ الطريق أم لمة تمحي؟... وإذا بالصمت يشمل البيت حتى استحالت نوراً فلا تناريد تشعر بخوف وانقباض. الآن، في مكان ما، لعلها هذه الحجرة أو تلك، ثم لعلت زغرودة طويلة بملجلة أحييت ذكرى قديمة، زغرودة كذلك الزغاريد التي عرفها من قبل فلا تفت إلى باريس بسبب، ثم تبعها زغاريد مجمعة كالصواريخ، لشد ما يبدو هذا القصر الليلة كأني بيت من بيوت القاهرة. وثابتت دفقت قلبه الزغاريد حتى لفت، ثم سمع إسماعيل يئنّ فهشأ بدوره، وتمنى عند ذاك لو كان منفرداً، ثم تعزى بأنه سينفرد بنفسه أياً ما وليالي فوجد أنه بزاز لا يقنى. وانبعثت الأوركسترا تعزف مقطوعة يعرفها حتى المعرفة هي «العفو يا سيد الملاح» فنادى قدرته الهائلة على التحمل والتصبر وإن كانت كل قطرة من دمه تطرق جدران حروقه مؤذنة بأن كل شيء قد انتهى، إن التاريخ نفسه قد انتهى، إن الحقيقة جميعاً قد انتهت، إن الأحلام التي فوق الحيلة قد انتهت، وإنه يواجه الصخر المذنب الأطراف ولا شيء غيره. قال حسين متأملًا:

- كلمة ثم زغرودة ويدخل الواحد منّا في الدنيا جديدة، سوف نعرف ذلك كلنا يوماً ما... .

فقال إسماعيل لطيف:

- سوف أباعد ما استطعت بيني وبين ذلك اليوم... .

كلنا؟! إنما السهـ وإما لا شيء!

- لن أنصن لذلك اليوم أبداً... .

بدا عليها أنها لم يكترها لقلوبه أو أنها لم يحمله على

عمل الجذ، بيد أن إسماعيل عاد يقول:

- لن أتزوج حتى أقتنع بأن الزواج ضرورة لا يحصى عنها... .

وجاء نوباً حاملاً أكواب الشرابات، ثم تبعه آخر بصينية عملة بعلب الحلوى الفاخرة. حلبة من البلور على قوائم أربع مذهبة، عمود زجاجها الكحلي بزخارف فضية، وقد انعقد عليها شريط أخضر من الحرير سجل على لافتة هلالية في عقدته الحرفان الأولان لاسمي المروسين «ع. ح». شعر وهو يتناول العلبة بارتياح لعله كان أول شعور بالارتياح يحظى به في ذلك اليوم. فقد وعده العلبة الفاخرة بأن معبودته ستترك وراءها أثراً خالداً كتبها، وأن هذا الأثر سيبقى ما بقي هو على الأرض رمزاً لماضي غريب وحلم سعيد ولفتة سامية وخيبة رالعة. ثم لقه شعور بأنه ضحية اعتداء منكر تأمر به عليه القدر وقانون الوراثة ونظام الطبقات وعناية وحسن سليم وقوة خفية غامضة لم يشأ أن يستهيا... . وتراءى له شخصه التعيس وهو يقف وحده أمام هذه القوى مجتمعة وجرحه ينزف فلا يظفر بأشئ، ولم يجد ما يرد به على هذا الاعتداء إلا ثورة مكبوتة صُرفت من الإصباح، بل أجبرته الظروف على التظاهر بالسرور كأنما ينفق القوى الباغية على تنكيلها به ونبذته خارج حدود البشرية السعيدة، فأضمر لها جميعاً حقاً خالداً ترك للمستقبل أمر تكيفه وتوجيهه، أجل شعر بأنه لن يأخذ الحياة بعد تلك الزغرودة الفاصلة مانعاً سهلاً أو يرضى فيها بالقرب أو يتسامح معها تسامح الكرم والصفاء، وأن طريقه سيكون شاقاً عسيراً ملتزماً غاصاً بالمضض والغصاصة والألم، ولكنه لم يفكر في التراجع. قَبِلَ الحرب وإلى الصلح، وأندر وتوقد، غير أنه ترك للقدر اختيار الغريم الذي سينازله والوسيلة التي سيحارب بها. قال حين شدّاد وهو يزدرد ريقه المشرب بالشرابات:

- لا تعمل الثورة على الزواج، أعتقد - إذا أتبع لك أن تسافر كما تقول - أنك ستجد زوجة تعجبك... .
كأنك لم تجد التي تعجبك هنا، ابحث عن وطن

وقالت له نفسه (اشرب) لا رغبة في الشراب فإنه لم يعرفه ولكن رغبة في الثورة، بيد أن إيمانه كان أقوى من حزنه وعجزه، قال مبتسماً:

- أما هله فلا، شكرًا...

قال إسحاق لطيف وهو يرفع كأسًا مترعة:

- لا حق لك في هذا، حتى الورد يبيع لنفسه السكر في حفلات الزفاف...

مضى يتناول طعامه الشهوي في هدوء، وكان يراقب بين حين وآخر الأكليين والشاربين أو يشترك معهم في الحديث والضحك. إن سعادة المراء تتناسب تناسبًا طرديًا مع عدد مرآت شهوده لمقاصف الأفراس، ولكن هل مقصف الباشوات مثل مقصفنا؟ نلتهم طعامهم ونحقق معهم! شربنا!... هله فرصة لتذوق

الشمبانيا... شربنا آل شداد ماذا قلتم؟ ما للأستاذ كمال لا يقرب الحمر؟ لعله ملأ بطنه فلم تعد تتسع لمزيد، الحق آتي أكل شهوة لا تحارى، كأنما أعصاب معدني لا تتأثر بالحزن أو أنها تتأثر به تأثرًا عكسيًا...

هكذا تغذيت في مائتم فهمي، امنعوا إسحاق عن الأكل والشرب ولأنا نفق. موت المتفولطي وسيد درويش وضياح السودان أحداث كلت زماننا بالسواد، لكن الائتلاف وهذا المقصف من أبناء زماننا السارة، أكلنا ثلاثة من الديكة الرومية وثمة رابع لم يمسه بعد... هو هذا! رياه إنه يشير إلى أنفي فيضحون جميعًا بالضحك! إنهم سكارى فلا تغصب! اضحك معهم متظاهراً بالاستهانة والمرح، أما قلبي فيتنفض غضبًا، إن استطعت أن تغزو العالم فاغزوه، أما آثار هذه الليلة البهيجة فهيات أن تنجو منها أبد الدهر، وهالك اسم فؤاد الحمزاوي تنقله الأسنن، عن تفوقه ونبوغته يتحسثون فهل لذهبتك الغيرة؟ سيكون حديثك عته مدعاة لإكبارك ولو على نحو ما:

- كان طاليًا عجلاً منذ طفولته!

- أتعرفه؟

أجاب حسين شداد عنه:

- والده موقف في متجر والد كمال...

في قلبي ارتياح لعن الله القلوب...

جديد لا يتأذى جسده اللطيف بمنظر الرموس الشائنة، والأنوف الكبيرة، إنما الساء وإنما الموت. قال وهو يترأسه للفتنة:

- هذا رأي...

فقال إسحاق لطيف ساخراً:

- أتعرف ماذا يعني الزواج من أوربية؟ إنه كلمة واحدة (الظفر) بامرأة من أحط طبقات الشعب، امرأة ترضى بأن تكون تحت رجل تشعر في أعناقها بأنه عبد من العبيد.

حظيت بهذه العبودية في وطنك الكريم لا في أوربا التي لن تراها.

قال حسين مستكراً:

- مغالاة!...

- انظر إلى المدرسين الإنجليز كيف يعاملوننا!

قال حسين شداد بحاس هو بالرجاء أشبه:

- الأوروبيون في بلادهم غيرهم في بلادنا!

هل من سبيل إلى قوة القاهرة تبيد الظلم والظالمين؟ يا رب العالمين أين عدالتك المساوية؟

دعا الداعي إلى الموائد فمضى الأصدقاء الثلاثة إلى السلامك، ثم إلى حجرة جانبية تنزع عن البهر الخلفي، فوجدوا مقصفاً صغيراً يتسع لعشرة على الأقل، ولحق بهم شبان بعضهم من أقرباء آل شداد والبعض من أصدقاء المدرسة، ومع أن العدد دون الحد المقرر للمقصف وهو ما شكر عليه حسين من الأعيان، إلا أنهم سرعان ما اندفعوا إلى الطعام بقوة وعنف حتى ساد الجف نشاط السباق، وكان ينبغي لهم أن يتحركوا دوماً ليطوفوا بشق ألوان الطعام التي امتدت صحائفها على طول المائدة تفصل بين كل مجموعة منها وأخرى طاقة صغيرة من الورد. ولوح حسين بإشارة من يده إلى السرجي، فجاء بقوارير الموسيقى وزجاجات الصودا، فتهبت إسحاق لطيف:

- أقسم آتي تغلات خيراً بهذه الإشارة من قبل أن أعرف مغزاها.

ومال حسين على أذن كمال قائلاً برجاء:

- كأساً واحدة من أجل خاطري...

قال كمال:

- كان والده ولا يزال الرجل المجدد الأمين.

- وما تجارة والنك؟

كم أحبط «التاجر» في خيالي بهالة الإكبار، حتى قيل لك ابن تاجر وابن مستشار:

- تاجر جملة للبقالة...

الكلب أداة نجاة حقيرة، انظر إليهم كي تستشف ما يدور وراء أفتحة وجوههم ولكن أي رجل في هذا البيت يضارع أبك جمالاً وقوة؟

وعقب الانصراف عن الموالد عادت الأكثرية إلى مجالسها في البهر، وانطلق كثيرون إلى الحديقة يتمشون، فمر وقت هادئ خامل، ثم أخذ المدعوون في الانصراف، أما الأهل فصعدوا إلى الدور الثاني ليقيموا التهانى إلى العروسين، وما لبث الأوركسترا أن انتقل إليهم ليعزف مختاراته الرائعة في المجلس السعيد. ارتدى كمال معطفه وحمل علبة الحلوى الفاخرة ثم تابط ذراع إسحاق وعاد سراي آل شذاد. قال إسحاق وهو يلقي على صاحبه نظرة غمورة:

- الساعة الحادية عشرة، ما رأيك في أن نتمشى في شارع السرايات حتى أفق قليلاً؟ فوافق كمال عن طيب خاطر، لأنه وجد في المشي وقتل الوقت فرصة مواتية يتيها، سارا معاً في نفس الطريق الذي سار فيه من قبل إلى جانب عايدة، يعترف لها بحبه ويبتها الآمه. لن يغيب عن رأسه منظر هذا الطريق ذي القصور الجليلة الصامتة، والأشجار الباسقة على جانبيه تطالع المساء يهدوه النفس المطمئنة وروعة الخيال السامي، ولن يفتأ قلبك كلياً وطمته قدمك أو استدعاه خيالك يرضى بأعشاً بخفت على جانبيه كالشجرة المقلقلة بالرياح ترمي أوراقها ولثاها، ومهما يكن من فشل رحلتك القديمة على أديمه فلن يزال يدخر لك ذكرى حلم غابر وأمل ضائع وسعادة موهومة وحياة دافقة مترعة بالشاعر هي على أسوأ التقديرات خير من راحة العلم ووحشة الحجر وخمود العاطفة، وهل أنت وأجد في مستقبلك زاداً للقلب إلا

أماكن تتطلع إليها بعين الخيال وأسماها تسمها أذان الشوق؟ تساءل كمال:

- ترى ماذا يحدث الآن في الدور الأعلى؟

فأجاب إسحاق بصوت مرتفع أزعج الصمت الجاثم:

- أوركسترا يعزف مقطوعات غربية، العروسان فوق المنصة يسيان وحوهما آل شذاد وآل سليم، رأيت مثل هذا الجمع مرّات عديدة... عايدة في ثياب العرس! يا له من منظر! هل رأيت شيئاً كهذا ولو فيها يرى النائم؟ - والإمّ تمتد الحظ!

- ساعة على الأكثر كي يتمكن العروسان من النوم ما داموا سيسافران في الصباح إلى الإسكندرية. كلمات كالحناجر، اغرز منها ما تشاء في قلبك... غير أنّ إسحاق عاد يقول متسائلاً:

- ولكن متى عرفت ليالي الزفاف النوم؟ وضحك ضحكة عالية مرعدة، ثم تمجّساً ونفخ أبخرة الخمر وهو يقطب متأنقاً ثم بسط صفحة وجهه، وقال:

- ربنا لا يحكم عليك بنوم العثاق، لا نوم لهم يا عني، لا يفرّتك تحفّظ حسن سليم، سيحصل ويجول كالفضول حتى مطلع الصبح، هذا قضاء لا نجاة منه...

تذوق هذا النوع الجديد من الألم المفكر، روح الألم أو ألم الألم، ليكن عزائك أنك انفردت بألم يشعر به إنسان قبلك، والله سيهون عليك الجحيم إذا قدر عليك يوماً أن تتملك الزبانية وترقص بك فوق السنة لهيه، ألم!! لا لقدد الحبيب فزئت ما طمحت يوماً في امتلاكه، ولكن لنزوله من علياه سائه، لتمرغه في الوحل بعد حياة عريضة فوق السحاب... لأنه رضي لحظه أن يقبل، ودعه أن يسفح! ويجسده أن يتبدل. ما أشد حسرتي واهي!...

- الحق ما يقال عن ليلة الدخلة؟

هتف إسحاق:

- أنجهل بالله هذه الأمور؟

- كيف يقدسون الدنس؟ ...
- لا أجهلها طبعاً، كنت حتى زمن قريب لا أدري عنها شيئاً، وثمة أمور أودّ أن تعاد علي مسمعي ...
- قال إسماعيل ضاحكاً:
- إنك تبدو لي أحياناً أحمق أو أبله ...
- دعني أسألك، أهبون عليك أن يفعل هذا بشخص تقدسه؟
- تجسّأ مرة ثانية حتى تطايرت رائحة الخمر اللعينة إلى أنف كمال، وقال:
- لا يوجد شخص يستحق أن يقدّس ...
- ابتك مثلاً، لو كان لك ابنة ...؟
- لا ابني ولا أمي، كيف جئت نحن؟ هذا هو قانون الطبيعة ...
- نحن! الحقيقة نور للألاء، ففُضُّ الطرف، وراء ستار القداسة الذي سجدت أمامه طيلة حياتك يعبثان بالأطفال، ما لكل شيء يبدو عاويها! الأم ...
- الأب ... عابدة، كذلك ضريح الحسين ... مهنة التجارة ... أرسقراطية شذاد بك، يا لشدة الألم.
- ما أقدر قانون الطبيعة! ...
- تجسّأ إسماعيل للمرة الثالثة، وقال وقد نَمَّ صوته عن الضحك وإن لم يُسمع له ضحك:
- الحقيقة أنّ قلبك موجه، إنّه ينقي مع المطربة الجديدة أمّ كلثوم والديه إن حفظ المسوى أو ضيها ...
- كمال في انزعاج:
- ماذا تعني؟
- فقال إسماعيل بلهجة تعتمد أن تشي بسكره أكثر من الواقع:
- أهني أنك تحبّ عابدة!
- رباه! كيف اتضح سرّه؟ ...
- أنت سكران! ...
- هي الحقيقة والجميع يعرفونها!
- هتف وهو يجملق صوبه في الظلام:
- ماذا تقول؟
- أقول إنّها الحقيقة، والجميع يعرفونها.
- الجميع!؟ من هم؟! من افترى هذا علي؟
- عابدة!
- عابدة؟
- عابدة هي التي أذاعت سرّك ...
- عابدة؟ لا أصنق هذا، أنت سكران.
- نعم أنا سكران ولكن هذه هي الحقيقة أيضاً، من فضائل السكران أنّه لا يكذب ... (ثمّ بعد ضحكة رقيقة) ... هل أغضبك هذا؟ عابدة كما تعلم شائبة لطيفة، حللاً لفت الأنظار سرّاً إلى عينيك المغرمتين وأنت لا تدري، لا بدافع السخرية ولكن لأنّها تتهب دلالاً بالمفرمين، وقد كاشفت حسن أوّل الأمر فوجّه حسن نظري إليك مرّات، ثمّ أفضى بالسّر إلى حسين، بل علمت أنّ سنيّة هانم سمعت عن العاشق الوهّان كما كانوا يدعونك! وغير مستبعد أن يكون الخدم قد استرقوا السمع إلى ما دار عنك بين سادتهم، فالكلّ يعرف قصّة العاشق الوهّان ...
- شمر بخوره، وشجّل إليه أنّ الأقدام المتحرّكة تطلّ كرامته بقسوة، فأنطبقت شفاه على حزن مرير، أهلكدا يبعثر السّر المصون. وعاد الآخر يقول:
- لا تتأثّر، كان الأمر كلّ دعاية بريئة صدرت عن قلوب تكنّ لك الودّ، حتى عابدة لم تلزع سرّك إلّا بدافع المباهلة!
- توفّمت فانتخدت! ...
- فقال إسماعيل ضاحكاً:
- إنكار حبّك عبث كإنكار الشمس في رابعة النهار! ...
- صمت كمال صمتاً مليئاً بالشجن والاستسلام، وفجأة تساءل:
- ماذا قال حسين؟
- ارتفع صوت إسماعيل وهو يقول:
- حسين!؟ إنّه صديقك الأمين، طالما أعلن عن علم ارتياحه لأسلوب اخته البريء، وكان يبيها منوّهاً بمزايك!
- تتهدّ في ارتياح. إذا كان في الحبّ قد خاب عمله، فقد بقيت له الصداقة، أه، كيف يسعه أن يدخل

سراي آل شداد بعد الليلة؟!

وقال إسماعيل بلهجة جدية كأنما يشجع صاحبه على مواجهة الموقف:

- كانت عابدة في حكم المخطوبة لحسن من قبل إعلان الخطوبة بأعوام، ثم إنها أكبر منك سنًا، وهذه العواطف تنسى عقب النوم، فلا تحزن ولا تحزن.

هذه العواطف تنسى! تسامد باهتمام غير خاف:

- أكانت تسخر مني وهي تنوء بهذا الغرام المزعوم؟
- كلا، قلت لك إنها تسعد بالحديث عن عشاقها!
كانت معبودتك إليها قاسيًا ساخرًا ينشر صدره للهمز بعابديه، أذلك يوم مثلث برأسك وأنفك؟ ما أشبهها بقانون الطبيعة في قوته وقسوته، كيف هرعت بعد ذلك منهتلة إلى ليلة الدخلة كأي فتاة؟! أما أمك فشميتها الحياء كأنما تشعر بلذنها!

وكانا قد تورعنا في الطريق فاستدارا راجعين في صمت كأنما قد تبا من الحديث وشجونه، وما لبث إسماعيل أن اندفع يخفي بصوت رديء ديا ما شاء الله ع التحفية، ولكن الآخر لم يخرج عن صمته فضلاً عن أنه لم يبد عليه أنه انتبه إلى غناؤه، ما أحججه! أصدونه كان، وكأنه بأهل البيت والأصدقاء والخدم وهم يتخامزون من وراء ظهره وهو عنهم غافل، معاملة فظة لا يستحقها، فهل يكون هذا جزاء الحب والعبادة؟! ما أقسى المعبودة وما أظلم الألم! لعل نبرون عندما غنى وروما تحرق كان ينتقم لحال كحاله هذه.

كن قائداً غارياً يئنح على متن جواد، أو زعيماً يُعمل على الاعناق، أو غملاً من صلب فوق مسارية، أو ساحراً يتصور في أي صورة شاء، أو ملاكاً يطير فوق السحاب، أو راهباً منزوياً في صحراء، أو مجرمًا خطيراً يزلزل الأميين، أو مهرجاً يأسر الضاحكين، أو متحيراً يهرّ الرايين. لو علم فؤاد الحمازوي بقصته لقال له وهو يوارى سحرته تحت طلاء أدبه المهود: الحق عليك، فأنت الذي هجرتنا من أجل هؤلاء الناس، احترقت قمر ونرجس فلنحترق الألهة. الساء أو لا شيء هذا هو جوابي. فلنزوج كما تحب، وتذهب إلى بروكسل أو باريس، ولينتقم بها العمر حتى يلدوي

عودها الرثان، فلن تنظر بحب كحبي. لا تنس هذا الطريق فقوى أدبه سكوت بجلب الامال ثم تجرعت غصص الياس، لم أحد من سكان هذا الكوكب، غريب أنا وينبغي أن أحيا حياة الغرياء.

عندما مرّا بسراي آل شداد في طريق العودة وجدا العمال عاكفين على نزع الزينات وأسلالك المصاييح الكهربائية من فوق الجدران والأشجار، فتجرد البيت الكبير من حلية الزفاف واشتمل بالظلام، إلا حجرات ظلّ النور ينبعث من شرفاتها ونوافذها. انتهى الحفل وتفرق الجمع وأذن الحال بأن لكل شيء نهاية، وبما هو يعود حاملاً عليه الحلوى كأنه طفل يلهم عن البكاء ببضع قطع من الشيكولاتة، وواصل السير على مهل حتى بلغا مطلع الحسيبة، فتصافحا، وافترقا...

لم يكذ كمال يتقدم في شارع الحسيبة امتاراً حتى توقف، ثم انقلب عائداً إلى العباسية التي بدت مغفرة مفرقة في النوم، وحث خطاه صوب سراي آل شداد، وعندما شارف البيت مال يمنة إلى الصحراء التي تكتنفه وأوغل فيها حتى بلغ موضعاً فيها وراء السور الخلفي للحديقة يطلّ على السراي على بعد، وكان الظلام كثيفاً شاملاً يطمئن الرقباء سائرته، ولأول مرة في ليلته شعر بالبرودة في ذلك الحلاء العاري، فحبك المعطف حول جسده التحيل الطويل... تراءى له شبح البيت وراء سور العالي كالقلعة الضخمة، فجالت عيناه باحثة عن هدف غالي حتى استقرتا على نافذة مغلقة يوصوص النور من خلال خصاصها في أقصى الجناح الأيمن من الدور الثاني، تلك غرفة العرس، الغرفة الوحيدة البقضي في هذا الجانب من القصر، كانت بالأسس حجرة نوم عابدة وبدور، وأزيّت الليلة لشهود أحجب ما جرت به المقادير. تطلع إليها طويلاً، أول الأمر بلهفة كأنه طائر مقصوص الجناح يتطلع إلى عشه فوق الشجرة، ثم بحزن عميق كأنما يرى بعينه مصرعه فيها وراء الغيب، ماذا يدور وراء هذه النافذة؟... لو يتاح له أن يتسلق هذه الشجرة في الحديقة ليرى إن البقعة الباقية من عمره ثم زهيد يؤدبه عن طيب خاطر لقاء نظرة خلال هذه النافذة،

- جئتُك بحنطور، وكان الأسلم أن نجيشك بقارب... .

وكانت الأمطار قد انهملت يوماً ونصف يوم حتى سالت الأرض وغرقت الحواري والأزقة، ومع أن السماء أمسكت - بعد ذلك - إلا أن نجيمها لم ينكشف، وظل وجهها متوارياً وراء سحب جون أظلم الأرض بمظلة قائمة بعثت في البحر عكارة كأنها نذير ليل بهيم. واستقبل أحمد عبد الجواد صاحبه بترحاب ودعاه إلى الجلوس، وما كاد محمد عفت يطمئن إلى مجلسه عند ركن المكتب حتى قال كأنما ليجلس سر جيمه:

- لا تعجب لجيئي في هذا الجو رغم أننا سنلتقي في مجلسنا المعتاد بعد ساعات، ولكني اشتقت إلى الانفراد بك!

وضحك محمد عفت، كأنما ليعتذر عن غرابه قوله، فضحك السيد أيضاً، ولكنهما كانت ضحكة إلى التناؤل أقرب. وذهب جميل الحمزوي - وكان ملتصقاً بكوفية ضمت قمة رأسه وما تحت ذقنه - إلى الباب، فنادى صبيّ القهوة قلاوون ليحضّر قهوة، ثم عاد إلى كرسيه وقد أعفاه المطر والبرد من العمل، أما السيد أحمد فقد حدثه قلبه بأن وراء الزيارة أمراً، فقد وقعت في وقت لا تدفع إليه إلا ضرورة، إلى أن الأزمات النفسية التي عانها الرجل منذ قريب وما انتابه من مرض أخيراً، كل أولئك جعله عرضة للقلق على غير عادته، غير أنه دارى قلقه بضحكة لطيفة، ثم قال:

- كنت قبيل حضورك أتذكر سهرة الأسس واستميد منظر الفار وهو يرقص! الله يقطعه.

فقال محمد عفت بأساً:

- كلنا تلاميذك! وبهذه المناسبة ذهني أنقل إليك ما يشيعه عليّ عبد الرحيم عنك، إنه يقول إنّ الصداق الذي انتابك في الأسابيع الماضية ما هو إلا عارض خلّو حياتك من النساء في الأيام الأخيرة!...

- خلّو حياتي من النساء! وهل للصداق من سبب غير النساء!

وجاء صبيّ القهوة بأقداح القهوة والماء على صينية صفراء، فوضعهما على ركن المكتب الذي يجلس حوله

وهل قليل أن ترى المعبود في خلوة زفافه؟ كيف يقينان وكيف تلتقي العينان؟ وبأيّ حليث يتناجان؟ وفي أيّ مكان من الدنيا يزوي الآن كبرياء عابدة؟ إنه يتحرّق شغفاً إلى الرؤية وإلى تسجيل كل كلمة تنذ أو حركة تصدر أو أمانة تنطق بها أسارير الوجه، بل إلى خطرات النفس وتصوّرات الخيال ونفثات العاطفة وفورات الغرائز... كل شيء ولو كان بشعاً مرعباً أو هزئاً مؤلماً، ولتذهب الحياة بعد ذلك دون أسف، ولبت مكانه الوقت يمضي لا هو يبرح ولا النور ينطفئ ولا خياله يملّ التساؤل. ماذا كان يفعل لو كان في مكان حسن سليم؟ ودوّخته الحيرة دون الجواب، إنّ العبادة لن تقني عن هذه الليلة شيئاً، وخلا العبادة من مطالب النفس لم يتوجّه إلى عابدة، أما حسن سليم فمن طائفة لا تتقيد بالعبادة. هكذا يتملّب في الصحراء وهناك تبادل قبل ممّا عهد الناس وتبدّات تنصّب عرفاً وغيبوبة تنزّ دماً وغلالة تنحسر عن جسد فاني، كهذا العالم الفاني وآماله الخاوية وأحلامه الطائشة... فهايك ما بدا لك على هوان الآلهة، ولیمتلّ قلبك بالأماسة، ولكن أين يمضي الشعور الباهر الرائع الذي نرّ قلبه أربعة أعوام؟ لم يكن وهماً ولا صدى لوهم، إنه حياة الحياة، ولئن تسيطر الظروف على الجسد فانيّ قوّة تستطيع أن تتناول إلى الروح، وهكذا لتبقين المعبودة معبودته، والحبّ عذابه وملاذه، والخيرة لمهاته، حتى يقف أمام الخالق يوماً يسأله عمّا حيرته من معضلات الأمور، أه لو يكلم على ما وراء النافذة، لو يكشف سرّ أسرار وجوده؟... وكان البرد يقرصه أحياناً فيذكره بموقفه وبالوقت الذي يمرّ سادراً، ولكن فيم يتملّج العوده؟... أيطمع حقاً أن يطرق النوم جفونه هذه الليلة؟

- ٣٢ -

وقف الحنطور أمام دكان أحمد عبد الجواد، وقد لُطّح عجلاته الوحل المتراكم في شارع النحاسين والمياه المتجمّعة في فجواته، فناداه السيد محمد عفت في جبهة صوفية، ودخل الدكان وهو يقول بأساً:

الصديقان، ومضى، وشرب محمد عَقَت شربة ماء، ثم قال:

- شرب الماء البارد في الشتاء لذيذ، ما رأيك في هذا؟ لكن فيم سؤالي وأنت من عشاق الشتاء الذين يستحمون كل صباح بالماء البارد حتى في هذه الأيام من فبراير... الآن خبرني، هل أعجبتك أنباء المؤمر الوطني الذي احتشد في بيت محمد محمود؟ عشنا وشفنا مرة أخرى سعد وعدي وثروت في جبهة واحدة! فتمتم السيد قائلًا:

- ربنا من حكمته أنه يقبل التوبة...

- إني لا أثق في هؤلاء الكلاب...

- ولا أنا، ولكن ما العمل؟ الملك فؤاد طيها، ومن الحزن أن المعركة لم تعد بيننا وبين الإنجليز.

ثم مضى يتسبان القهوة في صمت إن دلَّ على شيء فعل أن الحديث العابر لم يعد له عِلٌّ، وأنَّ على محمد عَقَت أن يدي بما عنده. واعتدل الرجل في جلسته، وخاطب السيد بلهجة جذبة متسائلًا:

- أعتلك أخبار عن ياسين؟

انعكس السؤال في عيني السيد الواسعتين اهتمامًا مشوبًا بقلق، وفي الوقت ذاته خفق قلبه خفقة مرّوعة، قال:

- غير! إنه يزورني من حين لآخر، وكانت زيارته الأخيرة يوم الاثنين الماضي فهل من جديد؟ أمر يتعلّق بمرهم؟ لقد رحلت إلى جهة مجهولة، وعلمت أخيرًا أنَّ يومي الشربتي اشترى نصيبها في بيت أمها.

قال محمد عَقَت وهو يتكلّف ابتسامة:

- الأمر لا يتعلّق بمرهم، من يدري لعلها غابت عن ذاكرته، المسألة دون لفّ أو دوران زواج جديد.

فخفق قلبه مرة أخرى فيها يشبه الفزع وهو يقول:

- زواج جديد؟ ولكنّه لم يشر إلى ذلك بشأن في أحاديثه معي!

هرّ محمد عَقَت رأسه أسفًا، وقال:

- لقد تزوّج بالفعل من شهر أو أكثر، حدّثني بذلك غنيم حيدو منذ ساعة فقط، وكان يظنّ أنك تعلم كل شيء!

جعلت يسراه تعبت بشأريه بسرعة عصبية، ثم قال وكأنّه يخاطب نفسه:

- لهذا الحدّ! كيف أصنّق هذا! كيف أخفي عني الأمر؟!

- الحال تقتضي الكتمان! اصغ لي، لقد آثرت أن أكاشفك بالحقيقة قبل أن تفاجأ بها مفاجأة غير كريمة، ولكن لا يصحّ أن نعيها أكثر ممّا تستحقّ، وينبغي قبل كل شيء ألا تستسلم للغضب، لم يعد الغضب مبرّرًا تحتله، اذكر تعبك الأخير وارحم نفسك.

قال السيد يائسًا:

- في الأمر فضيحة؟! هذا ما حدّثني به قلبي، هات ما عندك يا سيد محمد...

هرّ محمد عَقَت رأسه أسفًا، ثمّ قال بصوت منخفض:

- كن دائمًا أحمد عبد الجواد الذي عهدناه، لقد تزوّج من زُتوية العوّادة

- زُتوية!...

وتبادلًا نظرة ذات دلالة، وسرعان ما بدأ الارتباك في وجه أحمد والإشفاق في وجه صاحبه، ثمّ لم تعد مسألة الزواج ذاتها بالأولى في الأهمية، فساءل السيد أحمد بلهجة لاهثة:

- ترى هل تعلم زُتوية بأنّه ابني؟!

- لا يداخلي في هذا شكّ، غير أنّي أكاد أوقن بأنّها لم تطلعه على سرّك لتتمكّن من إيقاعه في الشرك، وقد نجحت نجاحًا تستحقّ عليه كلّ تهنئة!

ولكنّ أحمد عبد الجواد عاد يتساءل بنفس اللهجة اللاهثة:

- أم تراه أخفي عني الأمر لعلهم بما كان؟

- كلا، لا أصنّق هذا، لو سبق هذا إلى علمه ما أقدم على الزواج منها، إنّه شاب طائش ما في ذلك من ريب، ولكنّه ليس نذلًا، وإذا كان قد أخفي عنك الأمر، فما ذلك إلّا لأنّه لم يجد الشجاعة ليصارحك بأنّه تزوّج من عوّادة! يا ويل الآباء من الأبناء الطائشين، الحقّ أنّي تألّمت كثيرًا، ولكّني أكرّر الرجاء بالألا تستسلم للغضب، ذنبه على جنبه، وأنت بريء من فعلته ولا لوم عليك.

حلق أحمد في وجهه، ثم قطب متفعلًا، وهتف حانقًا:

- كائن غير موجود في هذه الدنيا... حتى في هذا لا يشاورني!...

ثم وهو يضرب كفًا بكف:

- ضحكوا عليه بلا ريب، وجدوا في طريقهم لفة، بغلاً بلا سلس في ثياب أفندي...

فقال محمد عفت متأثرًا:

- تصرفت أطفال!... نسي أباه ونسي ابنه ولكن ما الفائدة من الغضب!

صاح أحمد عبد الجواد:

- يجئ لي أنه ينبغي أن أخذه بالخزم مهما تكن العواقب...

مد محمد عفت ذراعيه كأنما يدلع رزية، وقال بتوسل:

- إن كبر ابنك أنيسو، لا تخطو وأنت سيد العارفين، ليس عليك إلا النصيحة وليقض الله بما هو قاض...

وخفض محمد عفت عينيه متعكرًا، وبدأ لحظات كالتردد، ثم قال:

- ثمة أمر يمتني كما يمتك ألا وهو رضوانا وتبادل الرجلان نظرة طويلة، ثم استطرد محمد عفت قائلًا:

- سيبلغ الغلام السابعة من عمره بعد أشهر، وأخاف أن يطالب به فينشأ بين أحضان زرقية، هذا شر يبيد دقعه، ولا إخالك توافق عليه، فاقنعه بأن يترك الغلام عندنا حتى يقضي الله أمرًا...

لم يكن من طبع أحمد عبد الجواد أن يرحب بأن يبقى ابن ابنه عند آل أمه بعد انقضاء فترة الحضانة الشرعية، ولكنه من ناحية أخرى لم يشأ أن يقترح ضمّه إلى بيته هو حتى لا يضيف إلى أعباء أمانة عبًا جديدًا لم تعد بحكم سنّها أهلاً لحمله، فقال في استسلام أسيف:

- لا يصح أن يترن رضوانا في بيت زرقية هذا ما أفرك عليه...

تنهد أحمد عبد الجواد بصوت مسموع، ثم سأل صاحبه:

- خترني كيف علّق غنيم حيدو على الحبر؟

فلوح محمد عفت بيده مستهينًا، وقال:

- سألني: كيف يرضى السيد أحمد عن هذا؟ فقلت له: إن الرجل لا يعلم شيئًا. فتأسف وقال لي: انظر إلى المدى البعيد بين الأب وابنه! كان الله في عونه.

قال أحمد بلهجة رائية:

- أهله عاقبة تربيتي لهم؟ إني في حيرة شديدة يا سيد محمد، المصيبة أننا نفتقد السيطرة الفعلية عليهم في السوق الذي تستوجب مصلحتهم الحقيقية سيطرتنا، إنهم يحكم العمر يتحملون مسئولية أنفسهم، ولكنهم يسيئون استعمالها دون أن نستطيع

تفويض ما يصوّج منهم، نحن رجال ولكننا لم نلد رجالًا، من أين جاء العيب يا ترى؟ هذا الثورا.

امرأة في متناول كل يد فإذا دعاه إلى الزواج منها؟ فلنبيك على أنفسنا، لا حول ولا قوة إلا بالله.

وضع محمد عفت يده على منكب صاحبه بحنو، وقال:

- لقد أدبنا ما علينا من واجب، الأمر بعد ذلك لصاحب الأمر، وهيئات أن يراك أحد مستحقًا للوم.

عند ذاك جاء صوت الحمزاوي الأسيف وهو يقول:

- لا يستطيع منصف أن يلومك على أمر كهذا يا سي السيد، على أنه يجئ لي أن الأمل في الإصلاح لم

ينعدم، انصحه يا سي السيد...

- إنه يبدو بين يديك طفلًا مطيعًا، وهو سيطفها حتى غداً أو بعد غد فخير البر عاجله...

فتساءل السيد متشككًا:

- وإن كانت قد حبلت؟ فجاء صوت الحمزاوي وهو يقول جزعًا:

- لا قدر الله ولا سمح...

وبدا أن عند محمد عفت مزيدًا من القول، فنظر إلى صاحبه بإشفاق، ثم قال:

- ومن المؤسف حقًا أنه باع دكانه بالحمزاوي ليؤثّر بيته من جديد!

فقال حمّد عَفَتَ وهو يتنّهذ بارتياح:

- إنَّ جدُّته تحبُّ من كلّ قلبها، وحقّ لو دعت ظروف قهريّة في المستقبل إلى أن ينتقل إلى بيت أمّه فسوف يجد هناك جواً صالحاً، إذ أنّ زوج أمّه رجل في الأربعين أو جاوزها، وقد حرمه الله من نعمة الذرّة...

فقال أحمد عبد الجواد برجاء:

- لكنّي أفضل أن يبقى عندك...

- طبعاً... طبعاً، إنّي تكلمت عن احتمالات بعيدة أسأل الله ألاّ تضطرّ إليها، الآن لم يبق لي إلّا أن أرجوك أن تترقّق في خاطبتك وعامستك حتّى يتيسّر إقناعه بترك رضوان لي...

وهنا جاء صوت الحمزاوي المسالم وهو يقول:

- السيّد أحمد سيّد الحكماء، وهل يغيب عنه أنّ ياسين رجل؟ وآلّه مثل كافّة الرجال حرّ التصرف في شؤنه وأملأك؟ هذا ما لا يمكن أن يغيب عن السيّد، وما عليه إلّا النصيحة، والباقي على الله...

استسلم أحمد عبد الجواد بيقّة النهار إلى التفكير والحرّون. قال لنفسه: إنّ ياسين في كلمة ابن خيّب للآمال، وليس أفجع من ابن خيّب للآمال، إنّ ماله بيّن ويا للأسف! ولن يحتاج إلى قوّة بصيرة كي يتصوّره، أجل سوف ينحدر من سبيل أسوأ وعند الله اللطف. وقد رجاه جميل الحمزاوي أن يؤجّل مخاطبة ياسين إلى الغد، فانصاع لرجاله يائساً أكثر منه قادراً لوجاعة الصبح.

وعند عصر اليوم التالي استدعاه إلى مقابلته، فأتى ياسين مبادراً كما ينبغي للابن المطيع. والحقّ أنّ ياسين لم يقطع ما بينه وبين أهله من أسباب. كان البيت القديم المكان الوحيد الذي لم يجد الشجاعة للعودة إليه على شدّة حنينه إليه، وما من مرّة كان يلتقي فيها بآبيه أو خديجة أو عائشة إلّا ويحملهم السلام إلى امرأة أبيه. أجل لم ينس قلبه غضبها عليه ولم تنح من صفحته آثار ما سبّه تعنتها معه، بيد أنّه أبى أن ينسى كذلك العهد القديم، عهد لم يكن يعرف أمّا إلّاها. ولم ينقطع عن زيارة أخيه، كما كان يقابل كمال أحياناً في قهوة أحمد

عبدّه أو يدعوه إلى بيته حيث عرف الشابّ مريم أوّلاً ثمّ زنوية أخيراً. أمّا أبوه فكان يزوره في مكانه مرّة على الأقلّ كلّ أسبوع، وهنا أتيح لياسين أن يصرف شخصيّة أبيه الثانية التي يأسر الناس بها، فنشأت بين الرجلين صداقة وطيدة وموثوقة، غلّتها صلة الرحم من ناحية وفرحة اكتشاف الأب على حقيقة من ناحية أخرى. غير أنّ ياسين وهو يتفرّس في وجه أبيه ذلك اليوم لمح فيه ما ذكره بالوجه القديم الذي طالما بعث في أطرافه الرعب، ولم يتساءل عمّا طرأ عليه، لأنّه كان واثقاً من أنّه سيفقد على سرّه عاجلاً أو آجلاً، فلم يشكّ في أنّه مُلّاقي العاصفة التي تتوقّع هبوبها منذ أقدم على فعلته. بادره الرجل قائلاً:

- يجزني أن أجد نفسي بهذا الموان، وماذا وراء أن أعرف أبناء ابني من الآخرين؟

فطامن ياسين رأسه ولم ينبس، فثار الرجل على طلاء المسكنة الكاذب الذي يطالعه به، وصاح:

- اخلع هذا القناع، صدك من التفاق وأسمعني صوتك، طبعاً أنت تعلم ما أعيته!

فقال ياسين بصوت لم يكذب يسمع:

- لم أجد الشجاعة لإخبارك...

- هذا شأن من يتسرّع على ذنب أو فضيحة!

حارّته فريزته من أن يلجأ إلى أيّ نوع من أنواع المعارضة، فقال باستسلام:

- نعم...

فسأله السيّد ذاهلاً:

- إذا كان هذا هو رأيك حقّاً، فلم فعلتها؟

لاذ ياسين بالصمت مرّة أخرى، فختلّ إلى الأب أنّه يقول له بصمته «عرفت أنّها فضيحة ولكنّي أذعنت للحب!»، وذكره هذا بموقفه المخزي أمام المرأة ذاتها، يا للمعرا غسّلت خزيك بغضبة كبرى، ولكنك عدت تسعى إليها! أمّا هذا الثور فأضيجه!

- فضيحة ارتضيته أنت دون تقدير للعواقب

للتعذّب بها نحن جميعاً!

هتف بسذاجة قائلاً:

- أنتم جميعاً؟ معاذ الله...

- طَلَّقْهَا؟ طَلَّقْهَا قَبْلَ أَنْ تُصِيرَ أُمًّا وَتُفَضِّلَنَا إِلَى أَبَدِ
الْأَبَدِينَ!...

تَرَدَّدَ يَاسِينَ مَلِيًّا، ثُمَّ تَمَتَّ:

- حَرَامٌ عَلَيَّ أَنْ أَطْلُقَهَا بِلاَ ذَنْبٍ!

يَا بْنَ الْكَلْبِ!... أَخَفَّتَنِي بِبُكَتِهِ بَارِعَةً لِسَهْرَةِ
الْليَلةِ!...

- سَوْفَ تَطْلُقُهَا عَاجِلًا أَوْ آجَلًا، وَلَكِنْ قَبْلَ أَنْ
تُجَنَّبَ لَكَ طِفْلًا يَكُونُ مُشْكَلَتَكَ وَمُشْكَلَتَنَا...

تَهَيَّأَ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ مُسْتَفْتِيًّا بِذَلِكَ عَنِ الْكَلَامِ،
عَلَى حِينٍ رَاحَ الْأَبُ يَنْتَضِعُ فِيهَا يَشْبِهُ الْحَيْرَةَ، فَهَمِي
مَلَتِ، كَيْالَ أَبِيهِ أَوْ عِيْنُونِ، وَهَذَا يَاسِينَ لَا أَمَلَ فِيهِ.
الْمَحْزُونُ أَنَّهُ أَحَزَّ الْجَمِيعَ لَدَيْهِ. دَعَا الْأَمْرَ لِلَّهِ، رَبِّهَا مَاذَا
يَكُونُ الْحَالُ لَوْ زِلْتُ قَدَمِي إِلَى الزَّوْجِ...

- بِكَمْ بَعَثَ الدَّكَّانُ؟

- مَائَتِي جِنِيَّةً...

- تَسْتَحَقُّ ثَلَاثِيَّةً، مَوْقِعُهَا مُتَازٍ جَدًّا يَا جَاهِلُ، لَنْ
يَبْتَاعَهَا؟

- عَلَيَّ طَوْلُونِ، بِأَلْعِ الْخُرَدَوَاتِ.

- مِيبَارِكُ مِيبَارِكُ، هَلْ ضَاعَ الْمُبْلَغُ فِي الْجِهَازِ الْجَدِيدِ؟

- لَدَيَّْ مِنْهُ مِائَةٌ...

بِلَهْجَةٍ سَاحِرَةٍ:

- أَحْسَنْتَ، فَالْعَرِيسُ لَا يَسْتَفْخِي عَنْ النُّقُودِ...

ثُمَّ بِلَهْجَةٍ جِدَّاءَ حَزِينَةٍ:

- يَا يَاسِينَ اسْمِعْ كَلَامِي، أَنَا أَبُوكَ، احْتَرِسْ وَغَيْرِ
سِرَّتِكَ، أَنْتَ نَفْسُكَ أَبُ، أَلَا تُفَكِّرُ فِي ابْنِكَ وَمُسْتَقْبَلِهِ؟
فَقَالَ مَدَافِعًا مُتَحَمِّسًا:

- إِنَّ نَفَقَتَهُ الشَّهْرِيَّةَ تُصَلِّهِ عَلَى آخِرِ مَلِيمٍ!

- أَهِيَ مَسْأَلَةٌ تِجَارَةً؟ إِنِّي أَنْتَكُمُ عَنْ مُسْتَقْبَلِهِ، بَلْ
عَنْ مُسْتَقْبَلِ الْآخَرِينَ الَّذِينَ يَنْتَظِرُونَ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ!

فَقَالَ يَاسِينَ بِأَطْمَئِنَّ:

- رَيْنَا يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ...

هَتَفَ الرَّجُلُ بِاسْتِثَاءٍ:

- رَيْنَا يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ وَحَضْرَتُكَ تَبْدَأُ قُلْ لِي...

واعتدل في جلسته، ثُمَّ تسامد وهو يركز فيه عينيه
الْقَوِيَّيْنِ:

عَاوَدَ السَّيِّدُ الْغَضَبُ، فَصَاحَ بِهِ:

- لَا تُصَنِّعْ الْجَهْلَ، لَا تَدْعُ الْبِرَاءَةَ، أَنْتَ تَعْلَمُ
أَنْكَ فِي سَبِيلِ شَهَوَاتِكَ لَا تَبَالِي مَا يَصِيبُ سَمْعَةَ أَبِيكَ
وَأَخَوَاتِكَ، أَفَحَمَتُ عَلَى الْأُسْرَةِ عَوْدَةً لِتَكُونَ هِيَ وَمَنْ
بَعْدَهَا ذَرْبَتُهَا مَتًّا، لَا إِخْلَاكَ كُنْتَ تَجْهَلُ هَذَا قَبْلَ أَنْ
أَذْكُرَهُ، وَلَكِنَّكَ تَسْتَهِنُ بِكُلِّ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ شَهَوَاتِكَ،
هَانَتْ كِرَامَةُ الْأُسْرَةِ عَلَى يَدَيْكَ، وَأَنْتَ نَفْسَكَ تَتَهَارَ
حَجَرًا بَعْدَ حَجَرٍ، وَسَوْفَ تَجِدُ نَفْسَكَ فِي الْهَابِيَةِ
خَرَابًا...

غَضِبَ الْبَصَرُ لَانْدَازًا بِالصَّمْتِ حَقًّا نَطَقَتْ حَالَهُ
بِالذَّنْبِ وَالتَّسْلِيمِ، لَنْ تَكْفُلَكَ هَذِهِ الْفَضِيحَةُ إِلَّا قَدْرًا
مِنَ التَّمَثِيلِ كَمَا أَرَى، حَسْبَكَ هَذَا، أَمَّا أَنَا فَسَارِزُ
غَدًا بِحَفِيدِ أُمِّهِ زُنُوبَةٍ وَخَالَاتِهِ زَيْدَةٍ، مُصَاهِرَةِ طَرِيفَةٍ
بَيْنَ السَّيِّدِ أَحَدِ التَّاجِرِ الْمَعْرُوفِ وَزَيْدَةِ الْعَالَةِ الدَّائِعَةِ
الصَّهْبَةِ، لَعَلَّنَا نَكْفُرَ عَنْ ذُنُوبٍ لَا نَدْرِيهَا

- إِنَّ بَدَنِي يَفْتَضِرُّ كُلَّمَا فُكِّرْتُ فِي مُسْتَقْبَلِكَ، قُلْتُ
لَكَ إِنَّكَ تَتَهَارَ وَسَوْفَ تَتَهَارَ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ، خَبَّرَنِي مَاذَا
فَعَلْتَ بِدَكَّانِ الْحَمْزَاوِيِّ؟

رَفَعَ إِلَيْهِ عَيْنَيْنِ كَثِيبَتَيْنِ، وَتَرَدَّدَ مَرَّتَ، ثُمَّ قَالَ:

- كُنْتُ فِي حَاجَةٍ مَاسَةً إِلَى الْمَالِ...

ثُمَّ وَهُوَ يَخْفِضُ عَيْنَيْهِ:

- لَوْ كَانَتْ الظُّرُوفُ غَيْرَ الظُّرُوفِ لَاقْتَرَضْتُ مَا
اِحْتِاجُهُ مِنْ حَضْرَتِكَ وَلَكِنْ الْأَمْرُ كَانَ مَحْرُجًا...
السَّيِّدُ حَانَقًا:

- يَا لَكَ مِنْ مِرَاءٍ! أَلَا تَخْجَلُ مِنْ نَفْسِكَ؟ أَرَاهِنَ
عَلَى أَنَّكَ لَمْ تَجِدْ فِي كُلِّ مَا فَعَلْتَهُ أَيُّ خُرَابَةٍ أَوْ انْكَارٍ، أَنَا
عَارِفُكَ وَفَافِكُكَ فَلَا تَحَاوُلُ أَنْ تُخَدِّعَنِي، لَيْسَ عِنْدِي إِلَّا
كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ وَإِنْ كُنْتَ أَعْلَمُ مَقْدَمًا أَلَّا طَالُلَ تَحْتَهَا:
أَنْتَ تُخَرِّبُ نَفْسَكَ بِنَفْسِكَ وَنَهَائِكَ سَوْدَاءً...

عَادَ يَاسِينَ إِلَى صَمْتِهِ مُتَظَاهِرًا بِالْأَمْسِ. الثُّورُ! هِيَ
جِدَّاءُ شَيْطَانَةٍ وَلَكِنْ مَاذَا اضْطَرَّكَ بِالزَّوْجِ مِنْهَا؟ كُنْتَ
أَطَّرَ أَنَّهَا طَالِبَتُنِي بِالزَّوْجِ طَالِمًا فِي تَقْدِيمِ عَمْرِي، لَكِنَّهَا
أَوْقَعَتْ هَذَا الثُّورَ عَلَى شِبَابِهِ. وَوَجَدَ عِنْدَ ذَلِكَ شَيْئًا مِنْ
الْإِرْتِيَاعِ وَالْعِزَاءِ. كَانَتْ خَطَّتُهَا الْمُدْبِرَةُ أَنْ تَنْزَوِّجَ بَائِي
ثُمَّنَ إِلَّا أَنَّهَا أَثَرَتْ غَيْرِي عَلَيَّ، فَوَقَعَ هَذَا الْأَمْرُ:

- مع السلامة ...

- رضوان على عتية السابعة، فإذا أنت صانع به؟
أتأخذه لينشأ في أحضان حرمكم؟

لاح في الوجه الممثل الارتباك، ثم تساءل بدوره:

- ماذا أفعل إذن؟ لم أعمل في الأمر فكري ...

هز الرجل رأسه في أسى ساخر، وقال:

- دفع الله عنك شرّ الفكرة! وهل لديك وقت لتبكره

فيه؟ دعني أفكر عنك، دعني أقول إن رضوان يجب

أن يبقى في حضنة جدّه ...

فكر قليلاً، ثم خفض رأسه بالإيجاب قائلاً بانصياع:

- الرأي رأيك يا أبي، هذا في صالحه ولا شك ...

قال الأب متهمّاً:

- يبدو لي أنّه في صالحك أيضاً كيلا تشغل نفسك

بأمور تافهة!

ابتسم دون تعليق، كأنما يقول له «إني واثق من
أفك مزجح ولا بأس من ذلك».

- ظننت أنّه سيشقّ عليّ إقناعك بالتخلي عنه!

- إنّ فني في رأيك هي التي جعلتني أبادر إلى
الموافقة!

تساءل السيّد بدهشة ساخرة:

- أنتق حَقّاً في رأيي؟ لمْ لمْ تعمل به في الأمور

الأخرى؟!

ثم وهو يتنهد أسفاً:

- القصد! ربّنا يديك، وذنبك على جنبك،

سأحدّث عمّد عتّة الليلة في شأن الاحتفاظ

برضوان، على أن تقوم بكلّ نفقاته فمضى أن

يوافق ...

عند ذاك نهض يامين وسلّم على أبيه وألحّه نحو

باب الدكان، وما إن خطا خطوتين حتّى أدركه صوت

أبيه وهو يسأله:

- ألا تحبّ ابنك ككلّ الآباء؟

فتوقّف يامين متلفّظاً نحوه، وهو يقول بإنكار:

- وهل يحتاج هذا إلى قرار يا أبي! إنّه أعزّ شيء في

الحياة ...

رفع السيّد حاجبيه، وقال وهو يهزّ رأسه هزّة

غامضة:

- ٣٣ -

قبل الخروج إلى صلاة الجمعة بساعة، دعا أحد

عبد الجواد كيال إلى حجّته، لم يكن يدعو أحداً من

أهل بيته إلى مقابلته إلّا لأمر هامّ، والحقّ أنّه كان

مبيل الفكر، متحفّزاً لاستجواب ابنه حمّا يشغله.

وكان بعض أصحابه قد وتجهوا نظره مساء أمس إلى

مقال ظهر في البلاغ الأسبوعيّ بقلم الأديب الناشئ

«كيال أحمد عبد الجواد»، ومع أنّ أحداً منهم لم يقرأ

من المقال إلّا العنوان وهو «أصل الإنسان» والإمضاء

وهو الأديب الناشئ «كيال أحمد عبد الجواد» فإتهم

أفحلوا منه مائة للتعليق والتهنئة وبمازحة السيّد، حتّى

فكر الرجل جاداً في أن يكلف الشيخ متولّي عبد

الصمد بعمل حجاب للشابّ. قال له عمّد عتّة

«سجّل اسم ابنك مع أسماء كبار الكتّاب في مجلة

واحدة، طب نفساً وادع الله أن يكتب له مستقبلاً

باهراً كيما كتب لهم»، وقال له عليّ عبد الرحيم

«سمعت من شخص محترم أنّ المرحوم المنفلوطي ابتاع

عزبة بقلمه فأبشر خيراً»، وحذّته آخرون عن القلم

وكيف شقّ السبيل لكثيرين إلى حظوة الحكّام

والزعماء، ضارين الأمثال بشوقي وحافظ والمنفلوطي،

وعندما جاء دور إبراهيم الفار داعيه قائلاً «سبحان

الذي خلق من ظهر الجاهل عالمياً»، أمّا السيّد فقد

ألقي نظرة على العنوان ونظرة على «الأديب الناشئ»،

ثمّ وضع المجلّة فوق جيّبه التي كان قد نزعها بسبب

حرارة يونه وحميّا الريسكي مؤجّلاً قراءتها حتّى يفرّد

بنفسه في البيت أو في الدكان، ثمّ واصل سهرته بصبر

مشرح وضمير تيّاه فخور، بل جعل يراجع نفسه لأوّل

مرّة في سخطه المكظوم على إشار الشابّ للمدرسة

المعلمين قائلاً إنّ «الولد» فيها يبدو سيكون «شيئاً» رغم

اختياره غير الموقّ، وبني أحلاماً على ما قيل عن

«القلم» وحظوة الكبراء وعزبة المنفلوطي، أجل، من

يدري؟ لعله لا يكون معلماً فحسب ولكن يشقّ

السبيل حقاً إلى حياة لم تخطر له هو على بال. وعند ضحى اليوم، وعند فراقه من الصلاة والإفطار، ترتع على الكتبة وفتح المجلة باهتمام وراح يقرأ بصوت مرتفع ليمنل بمعانيها، لكن ماذا وجد فيها؟ إنه يقرأ المقالات السياسية فيهما دون عناء، أما هذه المقالة فلأنها دارت برأسه وأفزعت قلبه، وأعاد تلاوتها بمنية فطالع كلاماً عن عالم يدعى «دارون» ومجهوده في جزر نائية، ومقارنات ثقيلة بين شتى الحيوانات حتى وقف مبهوئاً عند تقرير غريب يزعم أن الإنسان سلالة حيوانية! بل أنه متطور عن نوع من القرود! وتكرر تلاوة الفقرة الخطيرة منزعجاً، ثم لبث ذاهلاً أمام هذه الحقيقة الأسيفة وهي أن أبناً من صلبه يقرر - دون اعتراض أو مناقشة - أن الإنسان سلالة حيوانية! انزعج الرجل انزعاجاً شديداً وتساءل في حيرة: هل حقاً يعلمون الأولاد هذه المعلومات الخطيرة في مدارس الحكومة؟ ثم أرسل في طلب كمال.

وجاء كمال وهو أبعد ما يكون حياً يمتلج في رأس أبيه، وكان قد استدعاه قبل ذلك بأيام ليهتئ على النقل إلى السنة الثالثة فظن بالدعوة الجديدة خيراً. وبدا صاحب الوجه ضامر الجسم كমেهد في الفترة الأخيرة في حال علنتها الأسرة بالجدد الشديد الذي بذله قبيل الامتحان، ولكن غاب عنها سرها الحقيقي وهو ما عاناه طيلة الأشهر الخمسة الماضية من ألم وعذاب أسيراً لمعاطفة مستبدة جهنمية كادت تودي به، وأشار السيد إليه بالجلوس، فجلس على طرف الكتبة متجهماً نحو أبيه بأدب، وعند ذلك لمع أمه جالسة أمام الصوان مشغولة بترتيب الثياب وخطيها، أما الرجل فقد رمى بالبلاغ الأسبوعي إلى الفراغ الذي يفصل بينهما على الكتبة وقال بهوده مصطنع:

- لك مقال في هذه المجلة، أليس كذلك؟
خطف غلاف المجلة عيني كمال فرنا إليه بعين ذاهلة دلت على أنه لم يكن يتوقع هذه المفاجأة فقط... من أين لأبيه هذا الانكلاخ المستجدة على المجلات الأدبية؟! لقد سبق أن نشر في الصباح «تأملات» بين النثر والشعر المنشور ضمنها نظرات فلسفية بريئة وأتت

يا للتعاسة! ليس هذا المقال للمجهز، وبخاصة على مسمع من أبيه!

- إنه مقال طويل يا بابا، ألم تقرأه حضرتك؟ إلى أشرح فيه نظرية علمية...

حده الرجل بنظرة برافقة متحفزة، أهذا ما بدعونه بالعلم الآن؟ ألا لعنة الله على العلم والعلماء...

- ماذا تقول في هذه النظرية؟ لقد لفت نظري عبارات غريبة تقول إن الإنسان سلالة حيوانية، أو شيئاً من هذا القبيل، أحمق هذا؟

بالأمس ناضل نفسه وعقيدته وروبه نضالاً عنيفاً أعيا روحه وجسده، واليوم عليه أن يناضل أباه، غير أنه

كان في الجولة الأولى معلبًا عمومًا... أمّا في هذه الجولة فهو خائف مرتعب، إنّ الله قد يؤجّل عقابه، أمّا أبوه فشيعته التعميل بالعقاب...
- هذا ما تقرّره هذه النظرية!

علا صوت السيّد وهو يتساءل في انزعاج:
- وآدم أبو البشر الذي خلقه الله من طين ونفخ فيه من روحه، ماذا تقول عنه هذه النظرية العلمية؟!

طلما طرح هذا السؤال على نفسه، لم يكن دون أبيه انزعاجًا، ولم يغمض له عين ليلتها حتى الصباح، وتقبّل في الفراض متسلاً عن آدم والمخالق والفران، وقال لنفسه مرّة وعشرًا: القرآن إمّا أن يكون حقًا كلّ أو لا يكون قرآنًا، إنك تحمّل عليّ لأنك لم تدبر بعداي، لو لم أكن قد اعتدت العذاب وألفته لأدركني الموت تلك الليلة. قال بصوت خافت:

- دارون صاحب هذه النظرية لم يتكلّم عن «سيدناه» أم...
هتف الرجل غاضبًا:

- لقد كفر دارون ووقع في حبال الشيطان، إذا كان أصل الإنسان قرذاً أو أيّ حيوان آخر، فلم يكن آدم أبًا للبشر... هذا هو الكفر عينه، هذا هو الاجترار الوقح على مقام الله وجلاله! لمّا أعرف أقباطًا ويسودًا في الصاغة وكلّهم يؤمنون بآدم، كلّ الأديان تؤمن بآدم فمن أيّ ملّة دارون هذا؟ إنّه كافر وكلامه كفر، ونقل كلامه استهتار، خبّرني أهو من أسألتك في المدرسة؟

ما ادعى هذا إلى الضحك لو كان في القلب فراغ للضحك، لكنّه قلب أغمسته الآلام، ألم الحبّ الخائب، وألم الشكّ وألم العقيدة المحتضرة، إنّ للوقت الرهيب بين الدين والعلم أحرقك، ولكن كيف يتّسع عاقل أن يتنكر للمعلم، قال بصوت متواضع:

- دارون عالم إنجليزي مات منذ زمن بعيد...
وهنا ندّ عن الأمّ صوت يقول بهتّج:
- لمة الله على الإنجليزي أجمعين...

فالتفتا نحوها الغائبة قصيرة، فوجداهما قد تركت الثياب والإبرة وتابعت الحديث، ولكن سرعان ما

انصرفا عنها وعاد الأب يقول:

- خبّرني، هل تدرسون هذه النظرية في المدرسة؟
التفت جبل النجاة الذي تدلّى إليه فجأة، فقال لأبنا بالكلب:

- نعم...

- أمر غريب! وهل تدرّس هذه النظرية فيها بعد لتلاميذك؟!

- كلًّا، سأكون مدرّس آداب لا علاقة لها بالنظريات العلمية...

ضرب السيّد كفًا بكفّ، ودّ في تلك اللحظة لو كان له على العلم بعض ما له على الأسرة من سلطان، وهتف محفًّا:

- إذن لماذا يدرّسونها لكم؟! هل الغاية إدخال الكفر في قلوبكم؟

فقال كمال بلهجة المحتجّ:

- معاذ الله أن يؤثّر في عقيدتنا مؤثّر...

فتفحصه بارتياح وهو يقول:

- ولكنتك نشرت الكفر بمقالك!

- استغفر الله، لمّا أشرح النظرية ليلىم بها القارئ لا ليؤمن بها، هيّات أن يؤثّر في قلب المؤمن رأي كافر...

- ألم تجد موضوعًا غير هذه النظرية المجرمة لتكتب فيه؟

لماذا كتب مقالته؟ لقد تردّد طويلًا قبل أن يرسلها إلى المجلة، ولكنّه كان كأنما يؤدّ أن ينمي إلى الناس عقيدته. لقد ثبتت عقيدته طوال العامين الماضيين أمام عواصف الشكّ التي أرسلها المجرّي والمخترع، حتّى هوت عليها قبضة العلم الحديثة فكانت القاضية، على أنّي لست كافّرًا، لا زلت أؤمن بالله، أمّا السدين... أين الدين؟ ذهب! كما ذهب رأس الحسين، وكما ذهب عابدة، وكما ذهب تقني بنفسه! ثمّ قال بصوت حزين:

- لحليّ أخطأت، عذري أنّي كنت أدرس هذه النظرية...

- ليس هذا بعذر، عليك أن تصلح خطاك...

تفهمين، انتبهي إلى عملك، الله يقطعك...
ثم ملتفتاً إلى كمال بوجه متجهّم:

- تخبرني، هل أنت فاعل ما قلت لك؟

عليك رقيب في البيت لم يبتل الأحرار بمثله في الدول، لكنك كما تخافه تحبه، فلن يطاولك قلبك هل الإساءة إليه. تحرّج الألم فقد اخترت حياة النضال...

- كيف يمكن أن أرى على هذه النظريّة؟ لو انحصرت مناقشتي في الاستشهاد بالقرآن لما جاءت بجديد، فالكُلّ يعلم بما عندي ويؤمن به، أمّا مناقشتها علمياً فشان المختصين من العلماء...

- ولماذا تكتب فيما لا شأن لك به؟

اعتراض وجهي في ذاته، غير أنّه من المؤسف أنّه لا يجد الشجاعة للاعتراف لأبيه بأنّه آمن بالنظريّة بصفتها حقيقة علميّة، وأنها بهذه الصفة يمكن الاعتماد عليها في إنشاء فلسفة قائمة للوجود خارج نطاق العلم، أمّا السيّد فقد ظلّ صمته إقراراً بالخطأ فتضاعف أسفه وحقته. إنّ الضلال في هذا الميدان شديد الخطورة سنّى العاقبة، وهو ميدان لا سلطان له عليه، وربّما وجد فيه نفسه مكتوف اليدين أمام الشاب الضالّ كما وجد نفسه من قبل أمام ياسين بعد انقلابه من وصايته، فهل يجري عليه ما جرى على الآباء الآخرين في هذه الأيام الغريبة؟ إنّ أبناء كالأساطير تترامى إليه عن شباب «اليوم»، منهم تلاميذ قد اعتادوا التدخين، وآخرون يعبثون بكرامات المدرّسين، وغير هؤلاء وأولئك قد تمردوا على آبائهم. أجل لم يمن هيبته، ولكنّ همّ أسفر ذلك التاريخ الطويل من الحزم والصرامة؟ ها هو ياسين يتدهور ويضمحلّ، وها هو كمال يناقش ويجادل ويحاول التملّص من قبضته:

- اصغى إليّ بكلّ وعيك، لا أريد أن أقسو عليك فإنّك مؤدّب ومطيع، أمّا عن موضوعنا فلا أمك لك إلّا النصيحة، وينبغي أن تذكر أنّه ما من أحد قد خالف نصيحتي وسلم...

ثمّ بعد صمت قصير:

- إليك ياسين شاهداً عمّا أقول، وقد نصحت قديماً «المرحوم» بالأبّ يلقي بنفسه إلى التهلكة، ولو امتدّ به

يا له من رجل طيّب! إنّه يطمع في أن يجعله على مهاجمة العلم في سبيل الدفاع عن أسطورة. حقّاً لقد تعذّب كثيراً ولكنّه لن يقبل أن يفتح قلبه من جديد للأساطير والخرافات التي طهره منها، كفى عذاباً وخداعاً، لن نعبث بي الأوهام بعد اليوم، النور النور، أبونا آدم! لا أب لي، ليكن أبي قسراً إن شأمت الحقيقة، إنّه خير من آدميّ لا عدد لهم، لو كنت من سلالة نبيّ حقّاً ما سخرت مني سخرتها القاتلة...

- وكيف أصلح الخطأ؟

فقال السيّد ببساطة وحذّة ممّا:

- عندك حقيقة لا شكّ فيها، وهي أنّ الله خلق آدم من تراب، وأنّ آدم هو أبو البشر، هذا المذكور في القرآن، فما عليك إلّا أن تبين أوجه الخطأ وهو عليك هيّن، وإلّا فما فائدة نقاشك؟

وهنا جاء صوت الأمّ قائلاً:

- ما أيسر أن تبين خطأ من يعارض قول الرحمن، قل لهذا الإنجليزي الكافر: إنّ الله يقول في كتابه العزيز: إنّ آدم هو أبو البشر، كان جدّك من حلة كتاب الله فعليك أن تنتهج سبيله، لقد مرّك أنّك تبني أن تكون مثله من العلماء...

لاح الضيق في وجه السيّد، فانتهرها قائلاً:

- ماذا تفهمين أنت من كتاب الله أو من العلم؟ دعينا من جدّه وانتبهي إلى ما بين يديك...
فالتفت في حياء:

- أريد يا سيّدي أن يكون كجدّه من العلماء الذين يضيئون الدنيا بنور الله...

فصاح الرجل ساخطاً:

- ها هو قد بدأ ينشر الغلام...

فالت المرأة بإشفاق:

- معاذ يا سيّدي، لمعلّمك لم تفهم...
حددها السيّد بنظرة قاسية. لقد خفّف من شدّته في معاملتهم فإذا كانت النتيجة؟ ها هو كمال يلجأ أنّ أصل الإنسان قرد، وها هي أمّه تناقشه وتقول له لم تفهم؟ صاح بها:

- دعيني أنكلم، لا تقاطعيني، ولا تتدخل في ما لا

العمر لكان رجلاً ناهياً.

وهنا قالت الأم بصوت كالآتين:

- قتلوه الإنجليز، إنهم إنما يقتلون وإمّا يكفرون! وواصل السيد حديثه قائلاً:

- إذا وجدت في دروسك ما يخالف السدين، واضطرت إلى حفظه كي تنجح في الامتحان، فلا تؤمن به، ومن باب أولى لا تنشره في الصحف وألاً حملت وزره، ليكن موقفك من علم الإنجليز كموقفنا من احتلالهم، وهو عدم الإقرار بشرعيته ولو فُرض علينا بالقوة الجبرية...

تدخل الصوت الرقيق الحي مرة أخرى قائلاً:

- ولتكس حياتك بعد ذلك لفضح أكاذيب هذا العلم ونشر نور الله...

فصاح بها السيد:

- قلت ما فيه الكفاية دون الحاجة إلى أرائك!

فعدت إلى ما بين يديها، وجعل السيد يحدّق فيها مترعاً حتى أطمأن إلى صمتها، فالتفت إلى كمال متسائلاً:

- مفهوم؟

فقال كمال بلهجة موحية بالثقة:

- بكل تأكيد.

إذا أراد أن يكتب بعد اليوم فعلية بالسياسة الأسبوعية حيث لا تمتد يد أبيه الولدي، أمّا عن أمه فقد وعدما في سرّه بأن يكرّس حياته لنشر نور الله، أليس هو نور الحقيقة؟ بلى، وسيكون في تحرّره من الدين أقرب إلى الله ممّا كان في إيمانه به، فما السدين الحقيقي إلا العلم، هو مفتاح أسرار الكون وجلاله، ولو بُعث الأنبياء اليوم ما اختاروا سوى العلم رسالة لهم، فكذا يستيقظ من حلم الأساطير ليواجه الحقيقة المجردة، مخلفاً وراءه تلك العاصفة - التي صارع فيها الجهل حتى صرعه - حاداً قاصلاً بين ماضٍ خرافيٍ وغد نوراني، بذلك تنفتح له السبل المؤدية إلى الله، سبل العلم والخير والجمال، وبذلك يودّع الماضي بإحلامه الخادعة وآماله الكاذبة والآلهة الباطنة...

- ٣٤ -

بعباية واهتمام جعل يتفحص ما تقع عليه عيناه وهو مقبل على سراي آل شدّاد، فلما عبر مدخلها تضاعفت عنايته واهتمامه يتفحص ما حوله، فقد آمن أخيراً بأنّ هذه الزيارة ستكون آخر عهده بالبيت وآله وذكرياته، كيف لا وقد انتزع حسين في النهاية موافقة أبيه على سفره إلى فرنسا؟ تأمل بملء عينيه ووجدانه الممرّ الجائنيّ المفضي إلى الحديقة، والنافذة المطلّة عليه وكان طيفها الرقيق الأنيق يطالعه منها بنظرة حلوة لا تعني شيئاً كنظرات النجوم أو نجمة رقيقة لا يُقصد بها شخصه كثفريد البلبل المشغول بفرحته عن السامعين، ثمّ المنظر الكلّيّ للحديقة المبسوط بين مؤنّس القصر والسور المريض المشرف على الصحراء، وما بين هذا وذاك من أعراس الياسمين وجماعات النخيل وشجيرات الورد، وأخيراً الكشك العتيق الذي قفل تحت سقفه بنشوات الحبّ والصدقة. وذكر المثل الإنجليزي الذي يقول "لا تضع كلّ بيضك في سلة واحدة" وابتسم ابتسامة حزينة، فلهذا وإن حفظه منذ عهد بعيد إلّا أنّه لم ينتفع به فوضع عن سهو أو هفوة أو قضاء وقدر كلّ قلبه في هذا البيت، بعضه للحبّ وبعضه للصدقة، وقد ضاع الحبّ وما هو الصديق يحزم أمتعته استعداداً للرحيل، ومن الغد سيلقى نفسه بلا حبيب ولا صديق، كيف يمكن أن يتمزّي عن هذا المنظر؟ قد انطبع في صدره وعلق قلبه وبنات ذا اللفة وحنين، القصر والحديقة والصحراء، جملة وتفصيلاً، كانطباع أسماء عابدة وحسين شدّاد في حافظته، فكيف ينقطع عنه أو يقنع برؤيته من بعيد كسائر المائة؟ هو الذي لشدة ولعه بالبيت دعا نفسه يوماً مداعباً بالوثني!...

وكان حسين شدّاد وإسمايل لطيف جالسين على كرسيّين متقابلين أمام المنضدة التي وُضع عليها النورق التقليديّ والأكواب الثلاثة، وكانا كعادتهما في الصيف يرتديان قميصاً مفتوح الطوق وينطلون من الفانلة البيضاء، فطالعهما بوجهها المتناقضين: حسين بوجهه الجميل الوضيء، وإسمايل بوجهه الحادّ القسبات

ونظراته التهجّمية، فأتبل عليها ببلته البيضاء ممسكاً

بظربوشه الذي تدلّل زره، وتصافحوا، ثمّ جلس
جاعلاً ظهره إلى البيت، البيت الذي ولّاه - من قبل -
ظهره! وسرعان ما قال إسماعيل غاطباً كيال، وهو
يضحك ضحكة ذات معنى:

- يتعيّن علينا من الآن أن نبحث عن مكان جديد
نتقابل فيه...

ابتسم كيال ابتسامة باهتة. ما أسعد إسماعيل
بسفرته التي لم تصرف الألم، وهو وفؤاد الحمزاوي
اللذان بقيا له، صديقان يؤنسان القلب ولا يمازجانها،
يهرع إليهما هرباً من الوحشة، ولا حيلة إلا أن يرضى
بما قسم له.

- سنتلقى في المقاهي أو الطرقات ما دام حسين قد
قرّر هجرنا...

هزّ حسين رأسه في أسف، أسف الفائز بأمنية
عزيزة وهو يجمال بإعلان حزنه على فراق يهون، ثمّ
قال:

- سأغادر مصر وفي قلبي حسرة على لفراقكيا،
الصدّاقة عاطفة مقدّسة، التي أقدرها من أعماق قلبي،
والصديق هو القرين الذي يعكس نفسك فيكون
صدى لمواظفك وأفكارك، لا يهّم أن نختلف في كثير
ما دام الجوهر متشابهاً، لن أنسى هذه الصدّاقة أبداً،
وستصل الرسائل ما بيننا حتّى نعود إلى اللقاء مرّة
أخرى...

كلام جميل هو العزاء للقلب المكسوم المهجور.
ألم يكن ما أصابه على يد أخته كافياً؟ فكيف تتركني
وحيداً بلا صديق حقيقيّ، وغداً يقتل المهجور ظمناً

إلى الألفة الروحية الساخرة. تسامح في كآبة:
- متى نعود إلى اللقاء مرّة أخرى؟ لم أنس بعد
تطلّع الحارّ إلى السياحة الدائمة، فمن يضمن لي ألا
يكون ذهابك إلى الأبد؟

فأمن إسماعيل على قوله قائلاً:

- قلبي يحنّني بأنّ العصفور لن يمسود إلى
القفس...

ضحك حسين ضحكة قصيرة، غير أنّها وشت

يسروره، ثمّ قال:

- لم أظفر بموافقة أبي على سفري حتّى وعدته
بمواصلة دراستي القانونية، ولكنّي لا أدري إلى أين
مدى سيمكثني المحافظة على وعدي؟ لا استلطف بيبي
وبين القانون، أكثر من هذا يحنّ إلى أبيّ لن أصبر على
الدراسة النظامية، لا أريد إلا ما أحبّه، وقلبي موزّع

بين معارف شتّى لا تجمعها كلّية واحدة كما قلت مراراً
وتكراراً، أريد أن أتلقّى محاضرات في فلسفة الفنّ،
وأخرى في الشعر والنقص، وأن أرتاد المتاحف

ومعازف الموسيقى، وأن أعشق وأهوى، فأنيّ كلّية تحوي
هذه الألوان جميعاً؟ وثمة حقيقة أخرى تفرّغها وهي
أنيّ أفضّل أن أسمع على أن أقرأ، أريد أن يشرح
غيري لأستمع أنا، ثمّ أنطلق بحواسّ مجلّوة وعقل

مضيء إلى سفوح الجبال وشواطئ البحور والمشارب
والمقاهي والمراقص، وسوف تصلكمنا تباعاً تقاريري عن
هذه التجارب الفدّاء

كأنّه يصف الجنة التي نبذ هو الإيمان بها! بيد أنّها
جنة سليبة نأخذ ولا تعطى، وهو يطمح إلى مثال
آخر، أمّا حسين فبهيات أن يحنّ إلى معناه القديم،
إذا ضمّته تلك الحياة الوردية إلى صدرها الرفيد.

وكانّ إسماعيل كان يردّد غواطره حين قال غاطباً
حسين:

- لن نعود إلينا، الوداع يا حسين! حلمنا واحد على
وجوه التقريب، دع جانبنا فلسفة الفنّ والمتاحف

والموسيقى والشعر وسفوح الجبال... الشيخ، فنكون
شخصاً واحداً! أذكرك للمرّة الأخيرة بأنّك لن نعود
إلينا...

وحججه كيال بنظرة متسائلة، كأنما تطلبه براهيه فيها

قال إسماعيل، فقال:

- بل سأعود كثيراً، ستكون مصر ضمن سياحتي
الطويلة لأرى الأهل والأصدقاء (ثمّ موجّهاً الخطاب

إلى كيال) سوف أنتظر سفرك إلى الخارج بجزع أكاد

أشعر به من الآن!

من يدري لعلّ كذبتة تصدق فيجوب تلك الأفاق،

مهما يكن من أمر قلبه يحنّ به بأنّ حسين سيعود يوماً

وأنّ هذه الصداقة العميقة لن تضع حياء. إنّ قلبه الصدوق يؤمن بهذا كما يؤمن بأنّ الحب لا تقتل جندوره من القلب والأسفا! قال برجاء:

- سافر وافعل ما تحبّ ثمّ عد إلى مصر لتجعلها مقامك، على أن تخرج منها سالحاً كلياً طابت لك السباحة.

فأثنّ إسماعيل على رأيه:
- لو أنّك ابن حلال حقاً لقبلت هذا الحلّ الرجيع

الذي يؤقن بين رغبتك ورغبتنا...
قال حسين وهو يظلم رأسه كأنما قد اقتنع:
- سيستهي بي اللطاف إلى هذا الحلّ فيما أعتقد...

كان يصغي إليه وهو ميلاً من منظره ناظره، خاصّة العيين السوداوين اللتين تشبهان عيني عابدة، ولفتاته الجامعة بين السمو واللفظ، وروحه الشفاف الذي يكاد يتملّ أمامه خلقتاً يرى ويحسّ، إذا غاب هذا العزيز فإذا بقي من نعمة الصداقة وذكرى الحبّ؟ الصداقة التي تلتفتها على يديه ألفة روحية وسعادة مطمئنة، والحبّ الذي ألهمه على يد أخته فرحة سياه وعذاب جحيم؟ وعاد حسين يقول وهو يشير إليها واحداً بعد الآخر:

- عندما أعود إلى مصر ستكون أنت محاسباً في وزارة المالية، وأنت مدوّساً، ولا يبعد أن أجدكها والذين! ما أعجب هذا!
تساءل إسماعيل ضاحكاً:

- هل تستطيع أن تتخيّلنا موقّفين؟ تصوّر كمال مدوّساً! (ثمّ موجّهًا الخطاب إلى كمال) يجب أن تسمن كثيراً قبل أن تواجه التلاميذ، سوف تلقى جيلاً من العفاريث نحن نعدّ بالقياس إليهم من الملائكة، وسوف نجد نفسك وأنت الوفديّ العنيد مضطّراً بحكم الوظيفة إلى معاقبة المضربين بأمر الوفد!

أخرجه ملاحظة إسماعيل عن مجرى التفكير الذي كان مسترسلاً فيه، فوجد نفسه يتساءل: كيف يستطيع مواجهة التلاميذ برأسه وألفه المشهورين؟ وجد امتعاضاً وسمرة، وتخلّ إليه - قياساً على شواذّ المدّسين الذين عرفهم في حياته - أنّه سيلتزم القسوة

في معاملة التلاميذ ليحمي شخصيته المهتدة! غير أنّه تساءل: ترى هل يسهل أن يكون قاسياً على غيره كما يقسو على نفسه؟ قال ارجعاً:

- لا أظنّ أنّي سأسلمهن مهنة التدريس إلى النهاية...
لاحظ في عيني حسين نظرة حاملة وهو يقول:

- من التعليم إلى الصحافة على ما أظنّ، اليس كذلك؟
وجد نفسه يفكر في المستقبل، فعاودته فكرة الكتاب الجامع الذي حلم كثيراً بتأليفه، ولكن ماذا بقي من موضوعه الأوّل؟ لم يعد الأنبياء أنبياء، ولا الجنة والجهنم، وليس علم الإنسان إلّا فصلاً من علم الحيوان، فعليه أن يبحث عن موضوع جديد، قال مرّجلاً أيضاً:

- لو أمكنّ يوماً من إنشاء مجلة للدعاية للفكر الجديد!

فقال إسماعيل لطيف بلهجة الوعظ والإرشاد:

- بل السياسة هي السلعة الرائجة، خصّص للفكر إذا شئت عاموداً في الصفحة الأخيرة، ولي البلد متّسع لكاتب وفديّ هجّاء جديد...

فضحك حسين ضحكة عالية، وقال:

- لا يبدو أنّ صاحبنا سياسيّ إيجابيّ، حسب أمرته ما قدّمت من فدية، أمّا الفكر فالجمال أمامه واسع فيه... (ثمّ غاطباً كمال) لديك ما تقوله، لقد كانت ثورتك الإلحادية طرفة مضاجعة لم أتوقّعها من قبل...

ما أسعده بهذه الصفة الجديدة التي وجد فيها تحيّة لثورته وتعلّقاً لحروره، قال وقد تورّد وجهه:

- ما أجل أن يكرّس الإنسان حياته للمحقّ والخير والجمال...!

صفر إسماعيل ثلاثاً، لكلّ قيمة صغيراً، ثمّ قال متهمّاً:

- اسمعوا وعوا!

أمّا حسين فقال جاداً:

- إنّني مثلك! ولكنّي قانع بالمعرفة والمتعة!

- أثرت التفاق!

فقال متعجبًا:

- ليس من ضرورة تدعوني إلى إسلام الذين أحبهم...

فتساءل إسمايل ساخراً:

- أنظرن ألك بهذا القلب تستطيع أن تواجه المجتمع

يوماً بما يكره؟!

كليلة ومنمنة؟! بهجة الحساسة غطت عسل الامتعاض، وبه هل عبرت على أساس الكتاب الذي لم يتبلور في ذهني بعد؟!

- غاطبة القراء شيء، وغاطبة والدين على الفطرة شيء آخر!

فخاطب إسمايل حسين وهو يشير إلى كمال قائلاً:

- إليك فيلسوفاً من أسرة عريقة في الجهل!

لن يعوزك أن تجد أصدقاء للهو واللغو، ولكنك لن تحظى لروحك بصديق يحاورها، فأرغم بالصمت أو حاور نفسك كالمجنون. وساد الصمت قليلاً. وكانت الحديقة صامتة أيضاً فلا نسمة تهبو، أما الورد والقرنفل والبنفسج فبدت وحدها سعيدة بالحر، وحسرت الشمس نوبها المضيء عن الحديقة فلم يبق منه إلا حاشية في أعلى السور الشرقي. أمي إسمايل الصمت بأن انفتحت إلى حسين شذاد، وسأله:

- ترى هل يتاح لك أن تزور حسن سليم وعائدة

هانم؟

يا لله!.. خبطة قلب أم القيسامة قامت في صدري؟!

- عندما يستقر به المقام في باريس، سأفكر حتى في القيام برحلة إلى بروكسل...

ثم وهو يتسهم:

- تلقينا خطاباً من عائدة الأسبوع الماضي، يبدو أنها

نعاني متاعب الوح...

هكذا الأم والحياة تومأمان، لست الآن إلا أتما خالصاً في ثياب رجل، عائدة منداحة البطن سائلة الإفرازات؟! مأساة أم مهزلة الحياة؟! نعمة الحياة الفناء، ليتني أستطيع أن أعرف كنه هذا الألم. قال

فقال كمال بحماس وإخلاص:

- الأمر أجل من هذا، إنه كفاح في سبيل الحق يستهدف خير الإنسانية جميعاً، وبغيره لا يكون للحياة معنى في نظري...

ضرب إسمايل كفاً بكف - وقد ذكرته هذه الحركة بأبيه - وقال:

- إذن فالواجب ألا يكون للحياة معنى! كم تعبت وشقيت حتى تحزرت من الدين! لم أتعب أنا تعبك، ولكن الدين لم يكن شغلي أبداً فهل تصدني يا ترى فيلسوفاً بالفطرة؟! حسبي أن أعيش الحياة التي لا تحتاج إلى تعريف، غير أن هذا الذي أتبعه بالفطرة لا تبلغه أنت إلا بالكفاح المرير، أستغفر الله، بل أنت لم تبلغه بعد فلا زلت - حتى بعد إلحاذك - تؤمن بالحقيقة والغير والجمال وتريد أن تكثر ما حياتك، أليس هذا مما يدعو إليه الدين؟! فكيف تكفر بالأصل وتؤمن بالفرع؟

لا تبال رفيق المراح، لكن لم يبنو ما يؤمن به من القيم مثلاً للسخرة؟! هيك تحيرت بين عابدة وبين الحياة السامية فأبها مختار؟! لكن عابدة تتخايل لعيني دائماً وراء الكثر...

قال حسين يجيب عن كمال، إذ طال به الصمت:

- المؤمن يستمد حبه لهذه القيم من الدين، أما الحر فيحبها لذاتها.

رباه متى أراك مرة أخرى؟ أما إسمايل فضحك ضحكة وشت بانحراف تفكيره إلى ناحية جديدة، وسأل كمال:

- خبّرني ألا زلت تصلي؟ وهل تنوي أن تصوم رمضان القادم؟

كان دعائي لها أمتع ما في الصلاة، وليالي هذا القصر أسعد ما في رمضان...

- لم أهد من المصلين، ولن أكون من الصائمين...

- وهل تعلم إفطارك...

ضاحكاً:

- كلا...

إسماعيل لطيف:

- نترككم وأنتم على خير حال من الوحدة
والاتلاف، فمضى أن تسبقنا أنباء الاستقلال إلى

- سيكون أبناؤها أجنب!

- من المثلث عليه أن يرملوا إلى مصر إذا جاوزوا

طور الطفولة.

فهتف إسماعيل غاظبًا حسين وهو يشير إلى كمال:
- صاحبك غير راضٍ عن الاتلاف! عزّ عليه أن
يضع سعد يده في يد الحونة، وعزّ عليه أكثر أن
يتحاشى الاصطدام بالإنجليز فينزل عن الوزارة إلى
خصمه القديم عدلي، هكذا تجده أشدّ تطرّفًا من
زعيمه المقدّس نفسه!

هل تراهم يومًا بين تلاميذك؟ تسائل نفسك أين
رأيت هذه الأعين فيجيب القلب الخائف أنها مقيمة هنا
منذ قديم، وإذا سخر الصغير من رأسك وأنفك فبأيّ
قلب تعاقبه! أيّها النسيان... هل أنت خرافة أيضًا؟
عاد حسين يقول:

- شدّ ما أسهبت في الحديث عن حياتها الجديدة، لم
تخف سرورها بها حتّى بدا حنينها إلى الأهل مجرد
جمالة...

لمثل هذه الحياة في الأوطان المشاكّة خلقت، أما
مشاركتها في الطباع الأدميّة فعبث من الأقدار التي
عبثت شقّي مقدّساتك، ترى ألم يخطر ببالها أن تشير في
خطابها السهب بكلمة إلى الأصدقاء القدامى؟ ولكن
من أدراك بأنها لا زالت تذكرهم؟ وعادهم الصمت
مرّة أخرى، بدا المنيب يقطر سمرّة هادئة، ولاحت في
الآفاق حدأة مويّة، وتزأى إليهم نباح كلب، وأقبل
إسماعيل على الدورق يشرب، وراح حسين يصفر
بفيه، أما كمال فكان يسترق إليه النظر بوجه هادئ
وقلب يتحسّر.

- بل يشاء هذا الاتلاف أن يفرض على دائرتنا نائبًا
من الأحرار!

وضج ثلاثتهم بالضحك. وعند ذاك دبّت في مرمى
البصر منهم ضفدعة ما لبثت أن توارت في العشب،
وهضت نسمة مؤذنة بتداني المساء، وتخفّف العالم
للخلق بهم من زياط وضوضائه، فأذن المجلس
بالختام، وملا ذلك بالجزع فجعلت عيناه تتقلبان في
المكان لتمتلك من منظره. هنا بدت أوّل مرّة باعثة
شعاع الحبّ، وهنا صدح الصوت الملائكيّ بـ «ويا
كمال» وهنا دار حوار العذاب حول الرأس والأنف،
وهنا علنّ المعبود بخصام التجيّي، وفي تضاعيف هذا
الجوّ ترقد ذكريات عواطف ومشاعر وانفعالات لو
مستها يد العبث يومًا لأصحت المصحراء ونضرت
وجوها، أملا من هذا كله عينيّك وأرجحه فإنّ حوادث
كثيرة تبدو وكأنّها لم تقع لو لم يقيدها يوم وشهر وعام،
إنّما نستعدي الشمس والقمر على خطّ الزمان المستقيم
لندوره لتعود إلينا الذكريات الضائعة، ولكن لا شيء
يعود أبدًا، فذبّ في الدموع أو تسلّ بالابتسام.

وقف إسماعيل لطيف وهو يقول:
- أنّ لنا أن نذهب...
ترك إسماعيل يسبقه إلى عنق صاحبه، ثمّ جاء
دوره فتعانقا طويلاً، طبع على خدّه قبلة وتلقّى مثلها،
فغمضت خياشيمه رائحة آل شدّاد ممّلة في صاحبه،

- الحزّ هذه السنة ملعون...
قال إسماعيل ذلك، ثمّ جفّف شفتيه بمنديله
الحريريّ المزركش ثمّ تجشّأ، وأعاد المنديل إلى جيب
بنطلونه.

فراق الأحابي العن...
- متى تسافر إلى المصيف؟
- في آخر يونيه.

أجاب إسماعيل بارتياح، فعاد حسين يقول:
- سنسافر غدًا إلى رأس البرّ حيث أمكث أسبوعًا
معهم، ثمّ أسافر بصحبة أبي إلى الاسكندريّة فاستقلّ
الباخرة في ٣٠ يونيه.

وبنتهي تاريخ فترة من الزمن، وربما انتهى قلب.
حلق حسين إلى كمال مليًا، ثمّ ضحك قاتلاً:

الخيال، الزبيب أتبعها رغم أنف صالح، فيه طعم
الأنيسون الذي تجزع منه معلمي، فلا تقاطعي...
- معذرة...!

- وهناك البيرة، ولكتها شراب البحر ونحن والحمد
للّه في سبتمبر. وهناك النبيذ، غير أنّ عاقبت للسة بنت
كلب...

- إذن... إذن... فهو الويسكي...

- برافوا! توشمت فيك النجابة من قديم، ولعلك
توافقني بعد قليل على أنّ استعدادك للهزل يفوق
استعدادك للحقيقة والخير والجمال والوطنية والإنسانية
إلى آخر هذه القائمة من الخزعبلات التي تُعجب بها
قلبك دون جدوى...

ونادي النادل، تطلب كأسين من الويسكي.

- من الحكمة أن أفتح بكأس واحدة...

- قد تكون هذه هي الحكمة، غير أننا لم نجزع هنا
لطلب الحكمة، وسوف تعلم بنفسك أنّ الجنون الذّي
من الحكمة، وأنّ الحياة أعظم من الكتب والفكر،
اذكر هذا اليوم ولا تنس صاحب الفضل عليك...

- لا أحب أن أفقد الوعي، أخاف أن...

- كن حكيم نفسك...

- المهمّ عندي أن أجد الشجاعة للسير في الدرب
لئلاّ بلا ترقّد، وإن أدخلت عند الحاجة...

- اشرب حتّى تشعر بأنك لا تبالي أن تدخل...

- حسن، أرجو ألاّ أنتم على فعلتي فيها بعد...

- تندم؟! طامنا دعوتك من قبل فكنت تتعذر

بالتقوى والدين، ثمّ جاهرت بأنك لم تصدّ تؤمن
بالدين، فكسّرت عليك الدعوة، فما أعجب إلاّ
لرفضك باسم الحلق! لكن يجب أن اعترف بأنك
أتيت للمتلق أخيراً...

أجل أخيراً. بعد فترة من القلق والحيرة بين أبي
العلاء والخيال، أو بين التّشوّف واللذة. وقد نزح به
طبعه إلى مذهب الأوّل، فأنه وإن يكرّ بحياة قاسية إلاّ
أنها وافقت ما نشأ عليه من تقاليد، ولكنه لم يدر إلاّ
ونفسه تنفر إلى الفناء، وكأنّ صوتاً خفياً راح يمس في
أذنه: لا دين ولا عابدة ولا أمل، فليكن الموت. عند

زكية لطيفة كانتها صير غير آدمي، أو فنثات حلم دؤم
في سماء مليئة بالسرّات والالام، فافهم بها حتاياها حتّى
ثمل، ولبث صامتاً ملياً حتّى يملك عواطفه، غير أنّه
عندما تكلم تهجّج صوته وهو يقول:
- إلى اللقاء ولو بعد حين...

- ٣٥ -

- لا يوجد أحد إلاّ الخدم!

- ذلك لأنّ ضوء النهار لم يكذب يخفي بعد، والزبائن
يفنون عادة مع الليل، هل ضايقت خلوّ المكان؟
- أبداً. خلوّ المكان حاصل مشجّع على البقاء،
خاصةً وأنّها أوّل مرّة.

- للحنات هنا ميزات لا تقدّر بثمن، فهي تقوم في
طريق لا يشتمعه إلاّ ساعٍ وراء لذة محرّمة، فلن يكذّر
صيفوك هنا لائم ولا زاجر. وإذا عثر بك شخص
تحرّمه كايك أو وليّ أسرك، كان هو الآخر باللوم
والأعلاق بشأن يتجاهلك أو يفرّ من سبيلك إن
استطاع...

- اسم الشارع وحده فضيحة!

- لكنّه أدهى إلى الطمانينة من غيره، لو أننا ذهينا
إلى إحدى حانات شارع الألفي أو عباد الدين أو حتّى
عمّاد حلّ، لما أمنا أن يرانا أب أو أخ أو عمّ أو ذو
مال! ولكنهم لا يميّزون إلى وجه البركة فيما أرجو.

- منطقت سليم، غير أنّي لا زلت مضطرباً.

- صبرك، الخطوة الأولى دائماً صعبة، ولكنّ الحمر
مفتاح الفرج، لذلك أمدك بأنك ستجد الدنيا عند
ذهابنا للطف وأعذب ممّا عهدتها قبل ذلك...

- حدثني عن أنواع الحمر، أيّها الأوفق أن أبداً
به؟

- الكونياك حنيف وإذا مُرّج بالبيرة فقلّ على شاربهِ
السلام، الويسكي مقبول الطعم جيّد الأثر، أمّا
الزبيب...

- لعلّ الزبيب ألذّها! ألم تسمع صالح وهو يفتي
«وسقاني شراب الزبيب»...

- طامنا قلت لك إنّّه لا عيب فيك إلاّ الإغراق في

فؤاد الحمزاي ذكرني ولكن لا فلسفة له؛ نغمي حتى في
تلقؤ الجبال... يعني وراء الأدب بلاغة ينتفع بها في
تجوير المرافعات، من لي بوجه حسين وروحه؟ وجاء
النائل فوضع على المتضدة كاسين طويلين مضطفي
الكعب، وفضّ سداة قارورة الصودا وصبّ في
الكاسين فتحوّل الذهب إلى بلاتين عمّو باللائق،
ورضّ أطبق السلطة والجبن والزيتون والمرتلدلا، ثمّ
ذهب. ردّد كمال بصره بين كاسه وبين إسحاقيل، فقال
الأخير ياساً:

.. افعل كما أفعل، ابداً بجرعة كبيرة، صحتك...
غير أنّه اكفى بحسوة وراح يتلوّفها، ثمّ لبث
يرتقب... ولكن عقله لم يطر كما كان يتوقّع فتجرّع
جرعة كبيرة، ثمّ تناول قطعة من الجبن ليغيّر الطعم
الغريب الذي انتشر في فيه.

.. لا تتعجلني!
.. العجلة من الشيطان، المهم أن تترك مكانك
وأتّ على حال تمكّنك من اقتحام ما تريد...
ما الذي يريد؟ امرأة عن استرثن تفرّزه ونفوره وهو
مفيق فهل يحلّي الشراب مرارة الابتذال. كان يناضل
الغريزة بالدين وعابدة، أمّا الآن فقد خلا للغريزة
الجلوّ. غير أنّ حافزاً آخر للمغامرة هو أنّ يكتشف المرأة
ذلك المخلوق الغامض الذي تنطوي هابدة نفسها تحت
جنسه ولو كره. لعلّ في ذلك عزاء عن السهاد
والدموع المطوي سرّها في جوف الليل المكتوم،
وتكفيراً عن العذاب الدامي الذي لا أمل في التداوي
منه إلا بالياس والذهول. الآن يستطيع أن يقول إنّهُ
خرج من زناانة الاستسلام ليخطو الخطوة الأولى في
طريق الخلاص وإن يكن طريقاً خموراً محسوّفاً
بالشهوات والمكاه. وتجرّع جرعة أخرى وانتظر، ثمّ
ابتسم... أمّا باطنه فكان يحفل بموك إحساس جديد

ينث حرارة وصوبة، فتابعه مستسلماً كما يتابع نعمة
حلوة. وكان إسحاقيل يراقبه بإمعان، فقال ياساً:

.. أين حسين ليشهد بنفسه هذا المنظر؟
أين حسين أين؟
.. سوف أكتب له عنه بنفسي، هل رددت على

ذلك ناداه الحليم بلسان هذا الصديق فلتى محضّفاً
بمبادله السامية رغم هذا، وإن يكن قد وسّع من معنى
الخير حتى وسع مسرات الحياة جيّفاً، قائلاً لنفسه: إنّ
الإيمان بالحقيقة والجبال والإنسانية أسمى أنواع الخير،
وإنّهُ لذلك كان ابن سينا يحتم يوم الفكر بالشراب
والحسان، ومهما يكن من أمر فإنّه لم يجد سوى هذه
الحياة الواعدة منتقداً من الموت...

.. إنّني معك في هذا، ولكنني لم أتخلّ عن مبادئي...
.. أعلم أنّك لن تتخلّ عن أوهامك، طول العشرة
جعلها حقيقة أكثر من الحقيقة نفسها، لا بأس أن تقرأ
بل وأن تكتب ما وجدت قرّاء، اجعل من الكتابة
وسيلة للشهرة والثروة، ولكن لا تأخذها مأخذ الجدّ،
كنت متديّناً حنيفاً، وأنت الآن ملحد عنيف، دائماً
عنيف، قلن كائنك مشوّل عن البشرية، الحياة أبسط
من هذا كلّها، مركز في الحكومة يرضي النفس ويصيّ
مستوى لا بأس به من المعيشة، استمتاع بلذات الحياة
بقلب متفتح خالٍ من المهرم، استمساك بقدر من
القوة والاعتداه عند اللزوم يضمن لك الكرامة
والفوز، فإذا وافقت هذه الحياة الدين فيها ونعمت،
والأ فذنبه على جنبه...

الحياة أعمق وأعرض من أن تنحصر في شيء واحد
ولو يكون السعادة نفسها، اللذة ملائني ولكن ارتقاء
الجبال الصعبة سيظلّ مطلبني، عابدة ذهبت فيجب أن
أخلق عابدة أخرى بكلّ ما ترمز إليه من معاني، أو
فلتذهب الحياة غير مأسوف عليها.
.. ألم تشغل فكرك أبداً بما فوق هذه الحياة من
معانٍ؟

.. حقاً شغلت عن ذلك بالحياة نفسها أو بالحري
بحياتي أنا، ليس في بيتنا كافر وليس فيه متديّن،
وهكذا أنا!

صديق ضروريّ مثل وقت الفراغ، شاذّ للمنظر مثل
منظر، موصول الذكريات بعابدة فخر في القلب، رائد
هذه الدروب الغتاء، جيّار إذا تحدّيته، يُفتقد في
المسرات دون الجليّد والملمّات، ليس فيه لمرورج
موضوع، غاب وراء البحار صديق الروح والعقل...

رسائله الأخيرة؟

- نعم، رددت برسالة موجزة كرسائله...

له وحده أسهب وأفاض حتى سجل كل خاطرة، يا للسعادة التي حُصِّص بها وحده، ولكن لا ينبغي أن ييوح بسرّ رسالته أن يشير غيرة مدرّيه...

- كانت رسالته إليّ موجزة أيضًا فيها عدا الحديث الذي تعرفه ولا تحبه!

- الفكرة! (ثمّ وهو يضحك)... ما حاجته إلى هذا هو الذي سيرث ثروة ثملاً المحيط، ما سرّ ولعه بهذه الخزعبلات؟ التكلف أم الغرور أم الاثنان معًا؟

جاء دور حسين ليُمدّ تحت المطرقة، ترى ماذا تقول عنيّ في غيابي؟

- لا تتأنّض بين الفكر والغنى كما تظنّ، لقد ازدهر الفكر في اليونان القديمة بفضل بعض السادة الذين لم يشغلهم طلب الرزق عن التفرّغ للعلم...

- صحتك يا أرسطو...

أفرغ بقية كأسه وترقب. ثمّ تساهل هل مرّت به حال كهله من قبل؟ نافث الحرارة الوجدانيّة ينطلق في الدورة الدموية، يهرّ في طريقه الفجوة التي تتجمّع بها نفايات الأكدار، قمقم النفس يتفكك لحام أحزانه فتطير منه عصافير المسرات مترنمة، وهذا صدى نغمة مطربة، وهذه ذكرى أمل واعد، وذاك طيف بهجة عابرة، الحمر لعاب كله السعادة.

- ما رأيك في كاسين آخرين؟

- عمرك أطول من عمري...

ضحك إسحاق ضحكة عالية وهو يوميّ إلى النادل بإصبعه، ثمّ قال بارتياح:

- أنت سريع الاعتراف بالجميل...

- هذا من فضل ربّي...

وجاء النادل بالكاسين والمؤثّر. وأخذ الزبائن يفقدون مطربين ومقنّعين ومعتمّين، فيستقبلهم النادل بمسح وجوه المناضد بالمشاف إذ كان الليل قد أقبل وأضيت المصابيح فتألّفت المرايا الملصقة بالجدران مصوّرًا على أسطحها قواريير الديوارس والجون وكوكو، وتراحت من الخارج ضحكات ملعلعة كالآذان غير أنّها تدعو

للفجور، وصوّت نحو منضدة الصديقين المراهقين نظرات إنكار متسامع باسم، ثمّ ورد من الطريق بائع جبري صعيديّ قبائعه فول ذات ثنتين ذهبيتين، وماسح أحذية، وصبيّ كبابيّ هو في الوقت ذاته قوّد كما دلّ ترحيب الجلوس به، وقارئ كتف هنديّ، ثمّ لا تسمع هنا وهناك إلّا «صحتك» وماها، وفي مرآة تلي رأس كمال مباشرة نظر فرأى وجهه مؤرّداً وبصره لامناً باسمًا، وفيها وراء صورته عكست المرأة منظر رجل عجوز وهو يرفع كأسه إلى فيه ثمّ يتمضمض بحركة أرنبيّة ويتردد الشراب، ثمّ يقول جليسه بصوت مسموع والمضمضة بالويسكي ستة عن جدّ في مات وهو يسكره فحوّل كمال وجهه عن المرأة، وقال لإسحاق:

- نحن أسرة محافظة جدًّا، أنا أوّل ذائق للخمر فيها...

فهزّ إسحاق منكبّه هازئًا، ثمّ قال:

- كيف تحكم على ما ليس لك به علم؟ هل شاهدت شباب والدك؟ أمّا أبي فيتناول كأسًا مع الغداء وأخرى مع العشاء، وقد أمسك عن الشراب في الخارج، أوّلًا ما يذمّه أمام والدتي...

لعاب إله السعادة يتسرّب إلى مملكة الروح، وهذا الانقلاب الغريب الذي حدث في لحظات لا تقدر البشرية على إدراكه في أجيال وأجيال، وهو في جملته يعود بمعنى باهر جديد لكلمة «السكر»، وأعجب شيء أنّه لم يكن جديدًا كلّ الجذّة فلعله طاف بالروح مرّة ولكن متى وكيف وأين؟ إنّه موسيقى باطنيّة تعزفها الروح وما الموسيقى المهدودة بالقياس إليها إلّا كمشور التلّاح بالقياس إلى لبابه، ترى ما سرّ السائل الذهبيّ الذي صنع هذه المعجزة في لحظات ممدودات؟ لعلّه طهرّ بجري الحياة من الزيت والرواسب فانطلقت وثبة الحياة المكبوتة كما انطلقت أوّل مرّة حرّية مطلقة ونشوة خالصة، فهذا هو الشعور الطبيعيّ برؤية الحياة إذا تحرّرت من رقة الجسد وأغلال المجتمع وذكريات التاريخ وخلاوف المستقبل، موسيقى رائقة نقيّة تظفر طربًا وتصدر عن طرب، مثلها طاف بروحي من قبل

ولكن متى وكيف وأين؟ أه... يا للذكرى... إنها الحب! يوم نادت ويا كماله أسكرتك وأنت لا تدري ما السكر فقرْ بآنك سكرٍ قديم، وأنت عرِبت دهرًا في طريق الموى المخمور المعبّد بالأزهار والرياحين، كان ذلك قبل أن يتحوّل قطر الندى الشفاف إلى وحل، فالخمر روح الحب إذا انجابت عنه بطانة الآلام، فحبّ تسكر أو اسكر تحبّ...

- الحياة جميلة مهما قلت وأعدت...

- ها ها، أنت اللي تقول وتعيد...

طبع المقاتل على خذّ غريمه قبلة صافية فحلّ السلام على الأرض، وفردّ البلبل فوق غصن ريان، فطرب العاشقون في أربعة أركان الممسورة، وطار طائر الأشواق من القاهرة إلى بروكسل مأزًا بباريس فاستقبل بالحنان والأناشيد، وغمس الحكيم شياة قلعه في مداد قلبه فسجّل وحسًا منزلًا، ثمّ أوى المجرّب إلى شيوخه فالتفت به ذكرى دامعة بعثت في صدره ريبًا مكثيًا، أمّا أسلاك الشعر الأسود المسدل على الجبين فكعبة يتّجه إليها الثملون في حانات الوجد.

- كتاب وكأس وحسناء وارمي في البحر!

- ها ها، سيفسد الكتاب الكأس والحسناء والبحر.

- لسنا متّقين في فهم معنى اللذة، تراها أنت هوّا وعبّا وهي عندي الجذّ كلّ الجذّ، هُله النشوة الأسرة هي سرّ الحياة وغايتها العليا، وما الخمر إلّا بشيرها والمثال المحسوس المتاح لها، وكما كانت الهداة مقدّمة لاختراع الطائرات، والسمكة تمهيدًا لاختراع الغواصة، فالخمر ينبغي أن تكون رائد السعادة البشرية، والمسألة تتلخّص في هذه الكلمة: كيف نجعل من الحياة نشوة دائمة كنشوة الخمر دون الانتجاع إلى الخمر؟ لن نجد الجواب في النضال والتعمير والقتال والسعي، فكّل أولئك وسائل وليست بغايات، السعادة لن تتحقّق حتّى نفرغ من استغلال الوسائل كلّها لنتمكّن من أن نحيا حياة عقلية وروحية خالصة لا يكتثرها مكثّر، هذه هي السعادة التي أعطينا الخمر مثالها، كلّ عمل وسيلة إليها أمّا هي

فليست وسيلة لشيء...

- الله يخرب بيتك...

- أه!...

- كان أمل أن أجذك في نشوتك محدثًا طريقًا لطيفًا، ولكنك كالمرضى يزيد مرضه الخمر استهلاكًا، فيم تتحدّث يا ترى إذا شربت الكأس الثالثة؟

- لن أشرب أكثر ممّا شربت، إني الآن سعيد وني

وسعي أن أدهو آية امرأة تعجّبي...

- هلاً انتظرت قليلًا؟

- ولا دقيقة واحدة...

سار متبكًّا ذراع صاحبه غير هيّاب ولا متردّد، ينتظمه تيار من البشر يتلاطم مع تيار آخر قادم من الوجهة المضادة، في طريق ملتو ضيق برّواده. كانت الرعوس تدور إلى اليمين تارة وإلى اليسار أخرى، وعلى الجانبين يدت مضيقات الطريق قائلات وقاعدات يقلّبن في وجوههنّ المقلّعات بالزواق الفاسق أعين الترحيب والإغراء، ولا تخفى أونة حتّى يرقّ أحدهم من التّيار إلى إحداهنّ فتبعه إلى الداخل وقد مسحت عن عينيها نظرة الإغراء لتحلّ محلّها نظرة الجذّ والعمل. وكانت المصابيح المرّغبة فوق أبواب البيوت والمقاهي تضيء الطريق بأنوار ساطعة انعقدت في أعاليها سحب الدخان المتطاير من بخور المجامر وتبغ الجوز والنارجيلات، أمّا الأصوات فقد تلافت واختلطت في دوّامة صاخبة دارت بها الضحكات والغنايات وصرير الأبواب والنوافذ وعزف البيانو ومزّيقة اليد وتصفيق الأيدي الراقصة وزعيق الشرطي والشمخير والنخير وسعال الحشّاشين وصراخ السكران واستغاثات مجهولة وقرع عصي وغناء فردّي وجماعي، وفوق الجميع لاحت السياه قريبة من أسطح البيوت البالية ترنو إلى الأرض بأعين لا تطرف. كلّ حسناء هنا في متناول اليد، تمجّد بحسنها وأسرارها نظير عشرة قروش لا غير، فمن كان يصدّق هذا قبل أن يراه؟ وخاطب إساعيل قائلًا:

- هارون الرشيد يخطّر في بهو الحرم...

فتساءل إساعيل ضاحكًا:

ذلك جأذاً بل أقرب إلى العبوس والصرامة حتى تسأل
ساحراً عما تبيته له، ثم واجهته وراحت تقيسه بعينها
طويلاً وعرضاً، ولياً مرثاً برأسه وأشفه داخله قلق، غير
أنه أراد أن يتغلب على قلقه فاقترب منها فالحاً ذراعها،
ولكنها استنظرت به بحركة جافّة من يدها وهي تقول
«انتظروه فستمر في مكانه. بيد أنه كان مصعماً على
تدليل المراقيل، فقال باسمًا فيها شبيه السذاجة:

- أنا اسمي كمال...

فمدجته بنظرة داهشة وهي تقول:

- تشرفنا!...

- ناديني! قولي لي «يا كمال»!

فقالته وما تزداد إلا دهشة:

- لماذا أناديك وأنت أمامي كالرواية؟!

أعوذ بالله! ترى أتمازحه؟ وازداد تصميماً على إنقاذ
الموقف، فقال:

- قلت لي انتظر، ماذا أنتظر؟

- في هذا لك حق...

قالت ذاك، ثم نزلت ثوبها بحركة بهلوانية وثبتت
إلى الفراش ففرق تحت ثقلها، واستلقت على ظهرها
وراحت ترتب بطنها بأناملها المهضبة بالحناء. أسمع
عيناه إنكاراً، لم يكن يتوقع هذه المفاجأة البهلوانية،
وشعر بأن كلّ منها في وادٍ، وما أبعد المدى بين وادي
اللذة وادي العمل... انهدم في لحظة ما أقامه الخيال
في أيام، وجرت مرارة الامتصاص في ريشه، غير أن
الرغبة في الاكتشاف لم تقتر فغالب انزعاجه ثم حرك
ناظره صوب الجسد العاري حتى استقر على هدف
ويداً حيناً كأنه لا يصدق عينه، وأحد بصره في انزعاج
وتفرّز حتى شعر في النهاية ما يشبه الرعب. ألهذه هي
الحقيقة أم أنه أساء اختيار المثال؟ ولكن مهما يكن من
سوء اختياره فهل يغير هذا من الجوهر؟ ونزعم أننا
نحبّ الحقيقة! شدّ ما ظلّموا رأسك وأفلك! وحذّته
نفسه بالحرب، وأوشك أن يصغي إليها، ولكنه تسال
فجأة لماذا لم يهرب الرجل الذي سبقه؟ ولماذا يقول
لإسماعيل إذا عاد إليه؟ كلّ أن يهرب، لن يتراجع أمام
الحنّة...

- ألم تعجبك جارية يا أمير المؤمنين؟

فأشار كمال إلى بيت، وقال:

- كانت تقف عند هذا الباب الخالي، ترى أين
ذهبت؟

- مع زبون في الداخل يا أمير المؤمنين، فليستظر
مولانا حتى يقضي أحد رعاياه وطره...

- وأنت ألم تجد ضالّتك؟...

- إنّي قديم عهد بالطريق وأهله، ولكنّي لن أمضي
إلى وجهتي حتى أسلمك إلى صاحبك، ماذا أصعبك
فيها؟! يوجد أجل منها كثيرات...

سمراء لم تطمس الزواق سمرتها، وفي حنجرتها وتر
يذكر من بعيد تلك الموسيقى الخالدة، وقد تجلّ العين
نوعاً من الشبه بين بشرة المصنّف وأديم السياه
الصابغة:

- أتعرفها؟!

- تدعى هنا وردة، واسمها الحقيقي عيوشة.

عيوشة - وردة! لو يستطيع الإنسان أن يغيّر ماهيته
كما يغيّر اسمه! في عائدة نفسها شيء يشبه مركّب
عيوشة - وردة، وفي الدين، وفي عبد الحميد بك
شّداد، وفي الآمال العريضة، أوّاه! لكنّ الحمر
ترفعك إلى عرش الألهة فترى هذه التناقضات غارقة في
أمواج الفكاهة المفهومة، مستحقّة للعطف، وشعر
بكنوع إسماعيل ينهز في جنبه وهو يقول (دورك)، فنظر
صوب الباب فرأى رجلاً يغادر البيت متمجّلاً، وإذا
بالمرأة تعود إلى موقفها كما رأها أوّل مرّة، فألجّه نحوها
بشدين ثابتين تفلتته بإتسامة، ثم مضى إلى الداخل
وهي في أثره تعني «ارنخي الستارة اللي في ريعنا»...
ووجد سلكاً ضيقاً فرقي فيه وقلبه يخفق حتى انتهى إلى
دهليز يقضي إلى صالة، وصوتها يلاحقه قائلاً من حين
لآخر «مينك»، «شبالك»، «هذا الباب الموارب».
حجرة صغيرة موروقة الجدران، مكوّنة من فرائش
وترميّة ومشبج وكرميّ خشب وطلست وإبريق.
ووقف في وسط الحجرة كالمرتبك وعيناه تراقبانه.
ومضت هي تغلق الباب والنافذة التي كان يترامى منها
صوت دفّ وصفارة وتصفيق، ولاح وجهها في أثناء

- ما لك واقفاً كالتمثال؟
هذه التربة التي هزّت الفؤاد، لم تكذب الأذننان
ولكنّ الجهل كذاب، سوف تضحك كثيراً من نفسك
ولكن وانت ظافر لا هارب، هب الحيلة مأساة فعليك
ان تلعب دورك.
- أتقف هكذا حتى الفجر؟
قال يهدوه غريب:
- نطقى النور...
فهبت جالسة في الفراش وهي تقول بجفاء وحلر:
- بشرط أن أراك في النورا
تساءل في إنكار:
- له؟
- حتى أطمئن إلى صحتك!
ويجرد للاختبار الصحيّ في منظر بدا له آية في
الحزل، ثم ساد ظلام داس.
وعندما عاد إلى الطريق كان يحمل بين جنبيه قلباً
فاتراً مليئاً بالخزن، ويخيل إليه أنّه وسائر البشر يعانون
تدهوراً مؤلماً وأنّ الخلاص منه بعيد. ورأى إسمايل
مقبلاً نحوه، راضياً ساخراً متعباً وهو يتساءل:
- كيف حال الفلسفة؟
فتأبط ذراعه وسار به يسأله بلوره جاداً:
- هل النساء جميعاً متشابهات؟
فألغى عليه الشاب نظرة متسائلة، فأفصح له كمال
عن شكوكه وخاوفه في عبارة موجزة، فقال إسمايل
باسماً:
- عسل العموم الأصيل واحد وإن اختلفت
الأعراض! إنك مضحك لدرجة تستحقّ الرثاء، هل
استنتج من حالك أنك لن تعود إلى هنا مرة أخرى؟
- بل سأعود أكثر مما تظن، دعنا نشرب كأساً
أخرى...
ثم وكأته يحدث نفسه:

- الجبال... الجبال... ما هو الجمال؟
ناقت نفسه في هذه اللحظة إلى التطهر والانزعال
والثأمر، وحنّ إلى ذكرى الحياة التي عاشها معذباً في
ظلّ المعبودة، ثم بدا وكأته آمن بقسوة الحقيقة إلى
الابد. أيجعل من الإعراض عن هذه الحقيقة مذهبه؟
سار متفكراً في طريق الحانة يكاد لا يلفي بالاً إلى ثلثة
إسمايل. إذا كانت الحقيقة قاسية ولكنّ الانفلات من الجهل مؤلم
كالولادة، اجبر وراء الحقيقة حتى تنقطع منك
الأنفاس. ارض بالآلم حتى تخلق نفسك من جديد،
هذه المعاني تحتاج إلى عمر لاستيعابها. عمر من التعب
تخلّله سويحات من الحمر...
- ٣٦ -
أمّا هذا المساء فقد جاء كمال الدرب وحده، جاء
لملأ يترنم بصوت هامس، غير هيّاب وهو يشقّ بين
تّيار البشر الصاخب سيلاً، ووجد باب وردة خائفاً
ولكنّه لم يتردد كما فعل أوّل عهده بالدرب، وإنما قصد
البيت ودخل دون استئذان فارتقى السلم حتى انتهى
إلى الدهليز، وهناك مدّ بصره إلى الباب المغلق الذي
بدا ضوءه في ثقب مفتاحه، ثم مال إلى حجرة انتظار
فألفهاها لحسن الحظّ خالية وجلس هل مقعد خشبيّ
ملأاً ساقيه في ارتياح. وبعد مرور دقائق سمع صرير
الباب وهو يفتح فتوتّب للقيام، وغادر الرجل الآخر
الحجيرة كما غمت عليه أقدمه متجهاً نحو السلم،
فترتّ لحظات ثم نهض وذهب إلى الدهليز، فرأى
وردة خلال باب حجرتها المفتوح وهي تعيد ترتيب
الفراش، فلما لمحته ابتسمت وهضت به أن يعود إلى
جلسه دقيقة واحدة، فعاد من حيث أتى وهو يتيسم في
ثقة، ثقة الزبون الذي جاز فترة الحضانة. ولم تكد تمرّ
دقيقة هل جلوسه حتى تراهي إليه وقع أقدام صاعلة
فاستقبلها بضيق، لآته يكره البقاء مع غيره من
المنتظرين غير أنّ القدام أجبه نحو حجرة وردة، وما
لبث كمال أن سمع المرأة وهي تحاطب القادم قائلة
برقة:

- عندي زيون فاذهب إلى الحجيرة وانتظر...
ثم رفعت صوتها منادية إياه وهي تقول «تفضل»،
فقام كمال وغادر الحجيرة دون تردد فالتقى بالقادم في
الدهليز، وجد نفسه وجهاً لوجه مع ياسون! التقت

من ذلك فالسكران لا يشم رائحة السكران، خبّرني الآن: ما رأيك في هذه الحكمة التي تعلّمتها من الحياة لا من الكتب؟... (ثمّ وهو يشير إلى وردة)... إنّ زيارة واحدة لبنت المسوعة هذه تعادل مطالعة عشرة كتب عرّمة، إذن فانت تسكر يا كمال؟ يا ألف نهار * أبيض! نحن أصدقاء من قديم الزمان، أنا أوّل من عد...

- الله الله... هل أنتظر حتّى مطلع الفجر! دفع ياسين كمال وهو يقول:
- ادخل معها وسوف أنتظر أنا... ولكنّ كمال تقهقر وهو يبرّز رأسه بالرفض القاطع، ثمّ تكلم لأوّل مرّة قائلاً:
- كلّ... ليس... ليس الليلة. ودسّ يده في جيبه فأخرج نصف ريال ثمّ أعطاه المرأة. فهتف ياسين بإعجاب:
- تحيا الشهامة! لكنتي لن أتترك وحيدك...

وربّت كفف وردة مودّعاً، ثمّ تأبّط ذراع كمال وذهبا معاً حتّى غادرا البيت، قال ياسين:
- يجب أن نحفل بهذه الليلة، فلننض بعض الوقت في بار، إليّ عادة أشرب في شارع عمّاد عليّ مع نفر من الموظفين وغيرهم، ولكنّ المكان غير مناسب لك فضلاً عن بعده، فلنختار مكاناً قريباً حتّى نتمكن من العودة مبكرين، بثّ حريصاً مثلك على العودة المبكرة منذ زواجي الأخير، أين سكرت يا بطل؟... غمغم كمال في حياء:
- فنش...

- عال! هلّم بنا إليه، نتمتع بوقتك دون همّاون، فعدّاً حين تصبح معلماً سيتعلّم عليك زيارة هذا الحرم ببيوته وحاناته (ثمّ وهو يضحك): تصوّر أن يلقاك هنا أحد تلاميذك! هل أنت مهيدان اللهو واسع وسوف تتدرّج فيه من حسن إلى أحسن...

ومضيا إلى فنش صامتين. كان من حسن الحظ أنّ العلاقة بين ياسين وكمال لم تقترب بعد هجرة ياسين للبيت القديم، ولم يكن بينهما كلفة، إذ كان من طبع ياسين ألاّ يعنى بحقوقه التي تكفلها له مكانته في

عينهما في نظرة ذائلة، ومرعان ما غضّ كمال جفنيه وهو يذوب خجلاً وارتباكاً واضطراباً، وأوشك أن يندفع هارباً لولا أن عاجله ياسين بضحكة عالية ربّت في سقف الدهليز رنباً عجبياً، فرغع الشابّ إليه عينيه لراه فأنّحاً ذراعيه وهو يهتف في سرور:

- يا ألف ليلة بيضا... يا ألف نهار سلطان! وقهقهه عالياً فتملّق به نظر كمال في ذهول، وليّ طالع فيه المرح الصافي جعل ينيق إلى نفسه حتّى ارتسمت حل شفّية شبه ابتسامة متساهلة، ثمّ رجعت إليه الطمأنينة وإن لم يفارقه الحياء. وراح ياسين يقول بصوت خطّاب:

- هذه ليلة سعيدة، الخميس ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٦، ليلة سعيدة حقاً، ويجب أن نحفل بها كلّ عام، فيها تكاثفت أخوان، وفيها ثبت أنّ صغير الأسرة يتقدّم حاملاً لواء تقاليدنا المجيدة في عالم اللذات...

وهند ذاك جاءت وردة وهي تسأل ياسين:
- صديقك؟ فقال ياسين ضاحكاً:

- بل أخي ابن أبي وأ... كلّ ابن أبي فقط، أرايت أنّك معشوقة الأسرة يا بنت اللدين؟! فتمتمت قائلة «عافهم»، ثمّ خاطبت كمال قائلة:
- واجب الأدب يقضي بأن تنزل لأخيك الأكبر عن دورك يا نونو...

فضحك ياسين ضحكته الكبيرة، وقال:
- واجب الأدب! منذاً الذي علّمك آداب الوصول؟! تصوّري أنّها ينتظر أخاه على الباب!... ها... ها...

فرمقته بنظرة تحذير وهي تقول:
- اضحك بصوتك المخيف حتّى تسمع البوليس يا سكير، ولكنّك تملد ما دام أخوك النونو لا يبيّثني إلّا مترنّحاً!

حجج ياسين كمال بنظرة دحش وإكبار، ثمّ قال:
- أعرفت هذا أيضاً! ربّه حقاً إنّنا أولاد حلال، أولاد حلال بالمعنى، قُرب فاك لاشمّه! ولكن لا فائدة

الأسرة، إلى أنَّ غالطة كمال له وأطاحه على سيرته عن كتب واستماعه إلى ما يقال عنه جعلته يؤمن بولع أخيه بالنساء وميله مع الأهواء، ولكنه رغم هذا كله قد بوغت بلقائه في بيت وردة مباحثة عنيفة، إذ لم يذهب به الخيال إلى حدِّ تصوُّر ياسين سكيراً أو متسكِّماً في هذا الدرب، وجرور الوقت أخذ يتخفَّف رويداً رويداً من وقع المفاجأة، كما مضى الشعور بالانزعاج يزائله، ثمَّ حلَّ عمله إحساس بالطمأنينة بل بالارتياح. ولما بلغا فنش وجداء مكتظاً بالجلوس، فاقترح ياسين أن يجلسا في الخارج، واختار مائدة عند طرف الطوار على ناحية الطريق ليعتدا ما أمكن من الناس، ثمَّ جلسا متقابلين وهما يتسنان:

- أشربت كثيراً؟

أجاب كمال بعد تردُّد:

- كاسين...

- لا شك أنَّ لقائنا غير المتوقع طيَّر أثرهما، فلنُعيد الكرة، أنا أنا فلا أُشرب إلا قليلاً، سبعة أو ثمانية...

- يا خيراً! ائِعدْ هذا قليلاً؟

- لا تدهش كالسُّجِّ فإنَّك لم تعد صاذجاً...

- على فكرة، قبل شهرين لم أكن أدري شيئاً من طعامها...

فقال ياسين كالمتنكر:

- شهرين! يبدو أنَّي استرمتك أكثر ممَّا تستحقُّ!

وضحكا ممَّا، ثمَّ طلب ياسين كاسين، وعاد يستأهل:

- ومتى عرفت وردة؟

- عرفت وردة والويسكي في ليلة واحدة...

- وما خبرتك بالنساء عدا ذلك؟

- لا شيء...

لحن ياسين رأسه وهو ينظر إليه من تحت حاجبيه مقطِّباً في ابتسام، كأنَّما يقول له «اطلع من دول»، ثمَّ قال:

- إنَّك وإدعاء البلاء، لم يفتني أن أطلع في زمن

مضى على مناورات كانت تنور بيتك وبين بنت أبو

سريع صاحب المقل، تارة بالعين وتارة بالإشارة، هه؟ هذه الأمور لا تخفى على الحبير يا عكروت، ولكن لا شك أنَّك قتنت بالعبث السطحي حتَّى لا تجد نفسك مضطراً إلى مصاهرة عمِّ أبو سريع، كما صاهرت حماي السابقة بيومي الشربلي، هه؟ وهما هو قد أصبح من ذوي الأسلاك وجاركم المصالح! ترى أين اختفت مريم؟ لا أحد يعلم عنها شيئاً، كان أبوها رجلاً طيباً، ألا تذكر السيِّد محمَّد رضوان؟ فانظر ما آل إليه بيته؟ لكنَّها الأخلاق لا تستهين بها امرأة إلا هانت!

فما تمالك كمال أن ضحك متسائلاً:

- والرجل ألا يلحقه من استهانت شي؟

فضحك ياسين ضحكته الكبيرة، وقال:

- الرجل غير المرأة يا طويل اللسان، ختري كيف حال والدتك؟ السَّت الطيبة، ألا زالت حانقة عليَّ

حتَّى بعد طلاق مريم؟

- لا أظنَّها تذكر شيئاً من الأمر كله، قلب أبيض كما تعلم...

فأمَّن على قوله، ثمَّ هرَّ رأسه كالأسف. وجاء النادل بالشراب والمزَّة، وسرعان ما رفع ياسين كاسه وهو يقول: «صحَّة آل أحمد»، فرفع كمال كاسه ثمَّ شرب نصفها على أمل أن يستردَّ ما ذهب من مرحه، وقال ياسين بضمِّ مملوء بالخيز الأسود والجبن:

- كان يجيِّل إليَّ أنَّك ستكون أقرب إلى خلق والدتك، كما كان المرحوم، فنتبأت لك بالاستقامة، ولكنك، ولكنك...

وحجبه كمال بنظرة متسائلة، فعاد يقول بأساً:

- لكنَّنا خُلقتنا على مثال آيينا...

- آيينا! إنَّه الجذ الذي لا تطلق معه الحياة!

فقهقه ياسين عالياً، وترنَّث قليلاً، ثمَّ قال:

- إنَّك لا تعرف أباك، وقد كنت أجهله مثلك، ثمَّ

تكشَّف لي عن رجل آخر قلَّ أن يجود الزمان بمثله.

وتوقَّف عن الكلام، فقال كمال بحبِّ استطلاع

واهتمام:

- ماذا عرفت ممَّا لم أعرف...

- عرفت أنه قطب اللطافة والطرب، لا لتحمل فيَّ

عايدة المعبودة وعائدة الحبلى؟ أنا نفسي ما أنا؟ لماذا
تأملت ذلك الألم الوحشي الذي لم أبرأ منه بعد؟
اضحك حتى تنفخ.

- ما عسى أن يقع لو آتانا بمجلسنا هذا؟

فرقع ياسين بأصبعه، ثم قال:

- أعوذ بالله!

- وهل زبيدة جميلة حقاً؟

فصفر ياسين وهو يرعش حاجبيه.

- اليس من الظلم أن يتمتع أبونا بالدم، على
حين لا نجد نحن إلا الفتات؟

- انتظر حطك، ما زلت في أول الطريق.

- ألم يتغير سلوكك معه بعد وقوفك على سره؟

- إلا هذا!

لاحت نظرة حائلة في عيني كإل وهو يقول:

- ليته أعطانا من لطفه نصيباً!

- ليته...

- ما كان أمرنا ليفسد أكثر مما فسد!

- حب النساء والخمر ليس من الفساد في شيء...

- وكيف تقدر سلوكه على ضربه إيمانه العميق؟

- وهل أنا كافر؟ وهل أنت كافر؟ وهل كان

الخلفاء كفرة؟ الله غفور رحيم!...

ما عسى أن يكون جواب أبي؟ شدّ ما أتوق إلى
مناقشته، كل شيء محتمل إلا أن يكون منافقاً، كلاً
ليس هو بالمنافق، وما أزداد له إلا حباً! وغمرته الجراحة
الآخيرة رغبة في الدعابة، فقال:

- من المؤسف أنه لم يتعلم فن التمثيل!

فضحك ياسين ضحكة عالية، وقال:

- لو علم بما ينهيا للممثل من حياة حافلة بالنساء
والخمر لكُرس حياته للفر!...

أهذا الكلام المازي عن السيد أحمد عبد الجواد
حقاً! ولكن هل يكون هو أجل من آدم؟ ومع ذلك
فالمصادفة وحدها هي التي عرّفتك بحقيقة الرجل،
والمصادفة هي التي لعبت في حياتك أخطر الأدوار، لو
لم أصادف ياسين في الدرب لما انقضت عن عيني
غشاوة الجهل، لو لم يجذبني ياسين على جهله إلى

كالمترو، ولا تظنني سكران، والدك عمدة الفكاهة
والطرب والعشق!

- أيتها...

- أول ما عرفته في بيت زبيدة العالة...

- زبيدة ماذا؟... ها... ها...

ولكن وجه ياسين بدا أبعد ما يكون عن المزل،
فكف كإل عن الضحك قبل أن تزايل أساريه هيئة
الضحك، ثم أخذ فمه يضيق رويداً رويداً حتى
انطبقت شفتاه فحملن في وجه أخيه صامتاً وهذا يحذنه
عما رأى أو سمع عن أبيهما في تبسط وإسهاب. هل
يفترى ياسين على أبيه كذباً؟ كيف يمكن أن يقع هذا
وأبي بواعث تبره؟ كلاً إنه لا ينطق إلا بما علم،
وهذا إذن هو أبوه، رباه! والجذ والجلال والوقار ما
أمرها؟ إذا سمعت غداً أن الأرض مسطحة أو أن
أصل الإنسان هو آدم فلا تدهش ولا تنزعج، وأخيراً
تسأل:

- أتدري والذي بذلك؟

ياسين وهو يضحك:

- لا شك أنها تدري بسكره هل الأقل...

تري كيف كان أثر ذلك في نفسها هي التي تفرغ
من لا شيء؟ أتكون أمي - مثلي - ظاهراً من السعادة
وباطناً من الشقاء؟ قال وكأنه يتحمل أسباباً للدفاع لا
يؤمن بها:

- الناس هواة مبالغة فلا تصدق جميع ما يزعمون،
ثم إن صحته تدلّ على أنه رجل معتدل في حياته.

فقال ياسين بإعجاب، وهو يشير إلى النادل أن يعيد
الكؤ:

- إنه أعجوبة! جسمه معجزة، وروحه معجزة،
كل شيء فيه معجزة، حتى طول لسانه (ضحك منها)
مها... تصور أنه بعد هذا كله يحكم آله كما تعلم
ويحافظ على جلاله واحترامه كما ترى!.. ما
أضيعني!...

تأمل هذه العجائب: أنت وياسين تتشاربان! أبوك
شيخ ماجن! هل ثمة حقيقي وغير حقيقي؟ ما علاقة
الواقع بما في رموسنا؟ ما قيمة التاريخ؟ ما العلاقة بين

القراءة لكتبت اليوم في مدرسة الطب كما تمنى أبي، ولو التفتحت بالسعيدية ما عرفت عابدة، ولو لم أعرف عابدة لكتبت إنساناً غير الإنسان ولكان الكون غير الكون، ثم يحلو للبعض أن يعيب على دارون اعتياده على المصادفة في تفسير آلية مذهبه. قال ياسين مستعيراً لهجة الحكيم:

- سوف تعلمك الأيام ما لم تعلم...

ثم وهو يسخر من نفسه:

- ما هي تعلمني أن أنفي لذاتي مبكراً حتى لا أثير شكوك زوجتي...

وهز رأسه وهو ينظر إلى عيني كمال المتسائلتين الباسيتين، ثم استورد:

- أيتها أقوى زوجاتي الثلاث، ويخيل لي أنني لن اتخلص منها!

فسأله كمال باهتمام وهو يشير ناحية الدرب:

- ما الذي جاء بك إلى هذا وأنت متزوج للمرة الثالثة؟

فردد ياسين الجملة المشهورة من الأغنية التي سمعها كمال أول ما سمعها في دخلة عائشة:

- علشان كده... علشان كده... علشان كده...

ثم قال مبتسماً في شيء من الارتباك:

- قالت لي زُوبة مرة «أنت لم تتزوج قط، كنت

تعتبر الزواج نوعاً من العشق، وقد آن لك أن تنظر

إليه بعين الجد، ليس غريباً أن يصدر هذا القول عن

عُودة؟» ولكنها فيها يبدو أحرص على الحياة الزوجية

من سابقتها، وهي مصممة على أن تبقى زوجة لي

حتى تفض عيني، لكنني لا أستطيع أن أقاوم

النسوان، سرعان ما أحبهن وسرعان ما أملهن، لذلك

ععدت إلى هذه الدروب لأقضي اللبانة مبكراً دون

التورط في عشق طويل، ولولا الملل ما سمعت إلى

امرأة في درب طياب!

فسأله كمال باهتمام متزايد:

- أليست هي امرأة ككل النساء؟

- كلا، إنها امرأة بلا قلب، الهوى عندها سلعة!

فعاد كمال يسأل وعينه تلمعان بالأمل:

- ماذا ترى من اختلاف بين امرأة وأخرى؟

هز ياسين رأسه في زهو إزدلالاً بالكاتبة التي وضعت

فيها أسئلة كمال، ثم أجاب بلهجة خبير:

- درجة المرأة تتقرر في كادر النساء تبعاً لمزاياها

الأخلاقية والمصطفوية بصرف النظر عن أسرها

ومركزها، فزُوبة أفضل عندي من زينب لأنها أعمق

عاطفة وأشد إخلاصاً وحرصاً على الحياة الزوجية،

ولكنك في النهاية تجدهن شيئاً واحداً، عاشر الملكة

بلقبس نفسها فلا يحصى من أن تجدوها آخر الأمر

منظراً معاداً ونعمة مكثرة...

خبا اللمعان في عيني كمال، ترى هل أمست عابدة

منظراً معاداً ونعمة مكثرة؟ ما أبعد هذا التصور عن

التصديق! ولكن ما أنت إلا صريح الواقع، وحتى

الشيئة بها تكبر عليك وتعر، وإنه لما يبعث على

الجنون أن يعلم المعبود الذي تذهب النفس حصرة

عليه أنه كان في وسع الأيام أن تجعل منه منظراً معاداً

ونعمة مكثرة، بل أي الخالسين أحب إليك إن

استطعت جواباً؟ غير أنني أتحسر أحياناً على الملل من

شدّة الشوق كما يتحسر ياسين على الشوق من شدّة

الملل، وادفع رأسك أخيراً إلى ربّ الساعات وسله عن

حل سعيد:

- ألم تحب أبداً؟

- إذن ما هذا الذي أنا غارق فيه؟!

- أعني حياً حقيقياً لا هذه الشهوة العابرة...؟

أفرغ كأسه الثالثة، ومسح على فمه بظاهر كفه، ثم

فعل شاريه وقال:

- لا تؤاخذني، الحب يتركز عندي في بعض مواضع

كالنعم واليد الخ الخ.

ياسين جميل، ما كانت لتسخر من رأسه أو أنفه،

ولكنه بما قال يبدو حقيقياً بالثناء، كأن الإنسان لا

يكون إنساناً إلا أن يحب، ولكن ما جدوى ذلك وما

جنت من الحب إلا الألم؟ واستطرد ياسين قائلاً،

وهو يحثه بالإشارة على الفراغ من كأسه:

- لا تصدّق ما يقال عن الحب في الروايات، الحب

عاطفة أيام أو أسابيع مع حسن الظن؟
كفرت بالخلود ولكن هل نسيان الحب ممكن؟ لم
أعد كما كنت، إنني أتسلل من جحيم العذاب فتشغلني
الحياة حيناً حتى أرجع إليه، وكان الموت قبلي واليوم
ثمة حياة ولو بلا أمل، العجب أنك تتور على فكرة
النسيان كلها خطرت، كأنها تمناني نيكيت الضمير، أو
لعلك تخاف أن يتكشف أجمل ما قنست عن وهم، أو
أنك تأبى هل يد العلم أن تعبت بالحياة الرائعة التي
بدونها تغدو ومن لم يولد سواه، لكن ألا تذكر لم
بسطت الراحين داعياً الله أن يتشكل من العذاب وإن
يلهمك النسيان؟!

- ولكن الحب الحقيقي موجود، نقرأ حوادثه في
الصحف لا في الروايات...
ابسم ياسين ابتسامة ساخرة، ثم قال:
.. بالرغم من أنني مبتلى بحب النسوان فيأتي لا
أعترف بهذا الحب، إن المآسي التي تقرأ أخبارها
تحدث في الواقع عن شبان غير مجربين، أسمع عن
مجنون ليل؟ لعل له نظائر في هذه الحكايات، ولكن
المجنون من ليل؟ دلفي على شخص واحد
جن حب زوجه! وأسفاه! إن الأزواج عقلاء جداً،
عقلاء ولو كرهوا، أما الزوجة فيبدأ بالزواج جنونها،
لأنها لا تقنع بأقل من أن تزدرد زوجها، ويخيل إلى أن
المجانين يصيرون عشاقاً لأنهم مجانين لا أن العشاق
يصيرون مجانين لأنهم عشاق، تراهم يتحدثون عن
المراة كأنها يتحدثون عن ملاك، والمراة ليست إلا
امراة، طعام لذيذ سريعان ما تشبع منه، دعمهم
يشاركونها الفرائس ليطلقوا على منظروها عند الاستيقاظ
وليضموا راحته عرقها وسائر الروائح التي قد تصدر
عنها وليحدثوني بعد ذلك عن الملاك. فتنة المرأة ما هي
إلا طلاء أو أداة إغراء حتى تقع في الشرك وعند ذلك
يبدو لك المخلوق الأدمي على حقيقته: لذلك فالأبناء
ومؤخر الصداق والنفقة الشرعية هي سر قوة الزواج لا
الجمال أو الفتنة...
ما كان أجدره أن يغير رأيه لو رأى عابدة، غير أنه
ينبغي أن تفكر من جديد في أمر الحب. كنت تراه

وحيًا ملائكيًا ولكن لم يعد للملائكة وجود فابحث في
ذات الإنسان واسلكه ضمن الحقائق الفلسفية
والعلمية التي تتشوق إلى اقتحامها، بذلك تقف على
سر مأساتك وتكشف النقاب عن سر عابدة المكنون،
لن تمجدها ملاكاً ولكن باب السحر سيفتح لك
مصراعيه، أما الوحش والحبل والمنظر المعاد وسائر
الروائع فما أتمسني!
قال كيال بأسى لم يظن إليه أخوه:
- الإنسان مخلوق قدر، ألم يكن من الممكن أن يخلق
خيراً وأنظف مما كان؟
رفع ياسين رأسه دون أن ينظر إلى شيء بالذات،
وقال بسرور عجيب:

- الله... الله، النفس شعثت واستحالت
أغنية، وانقلبت الأعضاء آلات طرب، والدنيا حلوة،
والكائنات حبيبة للقلب، والجو حذب، والحقيقة
خيال، والحياة حقيقة، أما المنقصات فأسطورة،
الله... الله، ما أجل الحمر يا كيال، الله يطول
عمرها ويديمها علينا وموطننا الصحة والعافية لنشرها
حتى آخر العمر، وغرب بيت الذي يمسها بسوء أو
يتغول عليها بغير الحق، تأمل هذه النشرة الحلوة،
تأمل، أغمض عينيك، هل وجدت لذة كهذه؟...
الله... الله... الله، (ثم وهو يخفض رأسه ناظرًا إلى
كيال) ... ماذا قلت يا ولدي؟ الإنسان مخلوق قدر؟
أسألك ما قلت عن المرأة؟ لم أتكلم لأثير اشمعزازك
منها، الواقع أنني أحبها، أحبها بكل ما فيها، ولكنني
أردت أن أبرهن لك على أن المرأة الملاك لا وجود لها
بل لا أدري إن كنت أحبها إن وجدت! فإني مثلاً -
كأبيك - أحب الأرداف الثقيلة، ولو كان الملاك ذا
أرداف ثقيلة لتعذر عليه الطيران، الفهمي جيدًا ولا
تسئ فها حياة أينا السيد أحمد...
وما لبث كيال أن شاركه نشوته، فقال:

- لشد ما تبلى الدنيا محبوبة إذا سرت الحمر في
الروح!...
- يسلم فمك، حتى النعمة المألوفة يترنم بها شحاذ
الطريق تقع من الأذن موقع السحر...
الروح!...
- يسلم فمك، حتى النعمة المألوفة يترنم بها شحاذ
الطريق تقع من الأذن موقع السحر...

- حتى أحزاننا تبلى كأنها أحزان شخص آخر...
 - بخلاف نساء الشخص الآخر، فإنها تبلى وكأنها
 نساؤنا...
 - هما شيء واحد يا بن أبي...
 - الله... الله، لا أريد أن أفق...
 - من رذالة الحياة أنها لا تمنكنا من الاستمرار في
 السكر كما نهوى...
 - ليكن في معلومك أنني لا أرى في السكر هؤا،
 ولكن غاية سامية كاللعرفة والمثل الأعلى...
 - إذن أنا فيلسوف كبير!
 - عندما تؤمن بما قلت وليس قبل ذلك...
 - الله يطول عمرك يا أبي، فقد أنجبت فلاسفة
 مثلك!

- ٣٧ -

طرق كمال الباب في خفة حتى قُنع عن شبح أم
 حنفي، ولما عرفته قالت بصوت هامس:
 - سيدي الكبير هل السَّلم...
 فانظر وراء الباب حتى يطمئن إلى وصول أبيه إلى
 الدور الأعلى، غير أن صوته جاء من داخل السَّلم وهو
 يسأل بشدة:
 - من الطارق؟
 فحقق قلبه ولم ير بشأ من التقدّم وهو يجيبه:
 - أنا يا بابا...
 تراءى له شبح أبيه على بسطة الدور الأول هل
 حين لاح ضوء المصباح الذي تمسك به الأم في أعلى
 السَّلم، ونظر السيد إليه من فوق الدرابزين، وهو
 يتساءل في دهش:
 - كمال؟... ما الذي أحرّك خارج البيت حتى
 هُذه الساعة؟
 أحرّني الذي أحرّك...
 قال بإشفاق:
 - ذهبت إلى المسرح لاشهد التمثيلية المقررة علينا
 هُذا العام...
 فصاح ساخطاً:
 - هل أصبحت الذاكرة في المسارح؟! ألا يكفي أن
 نقرأ ونحفظ؟ كلام فارغ سمع، ولم لم تستاذني؟
 توقف كمال على بعد درجات من موقف أبيه، وقال
 معتذراً:
 - لم أتوقع أن تمتدّ السهرة إلى هُذه الساعة المتأخرة.
 فقال الرجل بغضب:
 - حتى أحزاننا تبلى كأنها أحزان شخص آخر...
 - بخلاف نساء الشخص الآخر، فإنها تبلى وكأنها
 نساؤنا...
 - هما شيء واحد يا بن أبي...
 - الله... الله، لا أريد أن أفق...
 - من رذالة الحياة أنها لا تمنكنا من الاستمرار في
 السكر كما نهوى...
 - ليكن في معلومك أنني لا أرى في السكر هؤا،
 ولكن غاية سامية كاللعرفة والمثل الأعلى...
 - إذن أنا فيلسوف كبير!
 - عندما تؤمن بما قلت وليس قبل ذلك...
 - الله يطول عمرك يا أبي، فقد أنجبت فلاسفة
 مثلك!
 - لم يبدو الإنسان تعيساً مع الله لا يطلب أحسن من
 كاس وما أكثر القوارير، وامرأة وما أكثر النساء!
 - له؟... له؟...
 - ساجيك عندما أشرب كأساً أخرى...
 - كلّ...
 قال ياسين ذلك بصوت وشى بصحوة طارئة، ثم
 استطرد عجزاً:
 - لا نفرط، إنّي شريكك الليلة فانا مسئول عنك،
 كم الساعة الآن؟...
 وأخرج ساعته فنظر فيها، ثم هض:
 - منتصف الواحدة، وقع المحلور يا بطل، كلانا
 قد تأخر، وراك أبونا وورائي زنوبة، قم بنا...
 ولم تمض دقائق حتى غادرا البار، فاستقلا عربة
 انطلقت بهما صوب العتبة، دارت العربة حول سور
 الأربكية في طريق يسوده الظلام، وبين آونة وأخرى
 يرى عابر مهرولاً أو متزنجاً، وكلما مرّت العربة بإشارع
 مقاطع تراس إليها صوت غناء تحمله نسمة رطبية،
 أما فوق المباني وأشجار الحديقة الباسقة فقد تألفت
 النجوم اليراقظ.
 قال ياسين ضاحكاً:
 - أستطيع الليلة أن أحلف غير متحرّج بأنّي لم أت
 منكراً...
 فقال الرجل بغضب:

يواظب هو عليه؟!

حال الظلام دون رؤية ما ارتسم على وجهها من دحش وإنكار، لَكِنَّه سمعها تضحك من أنفها لتوهه بأبتها لم تحمل قوله على عمل الجذ، وقالت:

- كَلَّ الرجال يسهر، وسوف تصير رجلاً عَمَّا قريب، لَمَّا الآن وأنت طالب...

فقاطعها قائلاً بلهجة من يودُّ الفراغ من الحديث:

- مفهوم... مفهوم، لم أقصد بقولي شيئاً، لماذا تَعتبت نفسك بالسليبي إلي؟ عودي مصحوبةً بالسلامة...

قالت برقة:

- خطبت أن تكون متكذباً، سائرَكَ الآن ولكن عذني بأن تنام صافي النفس، اقرأ الصمدية حتَّى يأتيك النوم...

وشعر بابتعادها، ثُمَّ سمع الباب وهو يغلَق وصوتها يقول «صاء الخير»، نفخ مرةً أخرى، وراح يمسح صدره ويطنه وهو يحلم في الظلام... أَمَّا مذاق الحياة كُلِّها فكان مرّاً، أين ذهبت نشوة الخمر الساحرة؟ وما هذا الكرب الحاقق الذي حلَّ عَملَها؟ ما أشبهه بخيبة الحبِّ التي ورثت أحلامه السليوية، ومع ذلك فلولا الأب ما انقلب حاله. هذه القوَّة الجليّابة التي يخافها كُلُّ الخلوب، يخافها ويحبُّها معاً، ما كتبها؟

ليس إلَّا رجلاً لولا مرحة الذي خصَّص به الغرباء لم يكن شيئاً، فكيف يخافه؟ وحتى متى يدعن لقوَّة هذا الخوف؟ إنَّه وهم كسائر الأوهام التي امتحن بها، ولكن ما جدوى المنطق في مقاومة العواطف الثابتة؟ وقد قرعت يده يوماً أبواب عابدين في المظاهرة الكبرى التي تحدّث الملك هاتفة «سعد أو الثورة»، فراجع الملك واستقال سعد من الوزارة... أَمَّا حيال أبيه فإنَّه يصير لا شيء. كلُّ شيء تغَيَّر مدلوله ومعناه، الله... آدم... الحسين... الحب... عابدة نفسها... الخلود. قلت الخلود؟ نعم، يسبها يجري على الحبِّ وليسا جرى على فهمي، ذلك الأخ الشهيد الذي استضافه الفناء إلى الأبد، أتذكر التجربة التي قمت بها وأنت في الثانية عشرة من عمرك لتعرف

- شُفَّ لك طريقة أخرى للمذاكرة ودعك من الأعداد السخيفة...

ومضى يرقى في السَّلم وهو يندم، فترامت إليه كلمات من مدمته مثل «المذاكرة السارح على آخر الزمن»، «الساعة واحدة بعد منتصف الليل»، «حتَّى الأطفال»، «وملعون أبوك وأبو التمثيلية المقرّة». ارتقى السَّلم حتَّى الدور الأخير ومضى إلى الصلاة، فتناول مصباحاً مضاء من فوق منضدة ودخل حجرته مكفهر الوجه، وضع المصباح على المكتب ووقف مستنداً بكلتا يديه يتساءل عن تاريخ آخر شتمة قلَّفه بها أبوه فلم يتذكَّره على وجه التحديد، ولكنَّه كان واثقاً من أنَّ سنوات دراسته العالية مرَّت في سلام وكرامة، ولذلك وقعت اللعنة من نفسه - رغم أنَّه لم يواجه بها - موقفاً اليأس. وتحوَّل عن مكتبه فخلع طربوشه وشرع في نزع ملابسه، وعلى حين فجأة شعر بدوار في رأسه وجزع في معدته، فغادر الحجره مسرعاً إلى الحِمام حيث قذف جوفه بما فيه في عتف ومرارة، وعاد إلى الحجره مرةً أخرى مهابوك القوي متفَرِّق النفس يجهد في صدره اليأس أشدَّ وأصمق، وخلع ملابسه وأطاف المصباح ثُمَّ استلقى على الفراش وهو ينفخ في ضيق وضجر، ولكن لم تمض دقائق حتَّى سمع الباب وهو يفتَح برفق، ثُمَّ جاءه صوت أمِّه متسائلاً في إشفاق:

- نمت...؟

فقال بلهجة طبيعية راضية ليصرفها عنه ويخلو إلى ما هو فيه:

- نعم...

فتدائس شبحها من الفراش حتَّى وقفت فوق رأسه، ثُمَّ قالت كالمعتذرة:

- لا تتكذَّر، أنت أعلم الناس بآبيك...

- مفهوم... مفهوم!

فقالت ركاتماً أرادت أن تنصَح عَمَّا ساورها هي:

- إنَّه مقلِّع على جُلِّك واستقامتك، ومن هنا جاء

إنكاره لتأشُّرك غير المألوف حتَّى هذه الساعة...

فركبه النفيظ حتَّى لم يتهالك من أن يقول:

- إذا كان السهر يستوجب كلُّ هذا الإنكار، فلماذا

مصيره المجهول؟ ... يا للكرى المحزنة! ... اقتنصت عصفورة من عصفها ثم خنقتها، وكفنتها وحفرت لها قبراً صغيراً في فناء البيت على كتب من البثر القديم ثم دفنتها فيه، وبعد أيام أو أسابيع نبشت القبر وأخرجت الجثة، فإذا رأيت وماذا شممت؟ وذهبت إلى أمك باكياً تسألها عن مصير الميت، كل ميت، ومصير فهمي خاصة فلم يصنك عنها إلا إفحامها في البكاء، لماذا بقي من فهمي بعد سبع سنوات؟ وماذا سيقى من الحب؟ وعم تخفص الأب الجليل؟

الفت عينه ظلام الحجر قترامى المكتب والمشجب والكرسي والصوان أشباحاً قائمة، ونبتت عن الصمت نفسه أصوات مبهمة، وامتلأ رأسه بالأرق المحموم، أما مذاق الحياة فازداد مرارة، وتساءل هل غفك ياسين في نومه؟ وهل أي حال كان لقاء زينة له؟ وهل أوى حسين إلى فراشه الباريسي؟ وعلى أي جانب تنام عليدة الآن؟ وهل تكوّر بطنها واندهاق؟ وماذا يفعلون في نصف الكرة الآخر الذي تتربّع الشمس في كبد سياته؟ ... والكواكب المنيرة، ليس ثمة حياة تعمرها خالية من التماسه؟ وهل يمكن أن يُسمع أنه الخالف في ذلك الأوركسترا الكوني اللانهائي؟!

أب! دعني أكشفك بما في نفسي، لست ساخطاً على ما تكشف لي من شخصك، فإن ما كنت أجعله منك أحب إليّ مما كنت أعرف، إني معجب بلطفك وظرفك ومجونك وعربدتك ومغامراتك، ذلك الجانب النعيم منك الذي يشغفه جميع عارفيه، وهو إن دلّ على شيء فعل حيوانك وهيامك بالحياة والناس، ولكني أسألك لم ارتضيت أن تطلعا بهذا القناع الفظ المخيف؟ لا تعتل بأصول التربية فأنت أجهل الناس بها، وأي ذلك ما ترى وما لا ترى من سلوك ياسين وسلوكي، فما فعلت إلا أن أذبتنا كثيراً وعلمتني كثيراً بجهول لا يشفع لك فيه حسن نيتك، لا تنزع فزائي ما زلت أحببك وأعجب بك، وسابقي على اللوام غلصاً حبك والإعجاب بك، غير أن نفسي تضمر لك لوماً شديداً يعادل ما جرّعتني من ألم، لم نعرفك صليحاً كما عرفك

الغريب، ولكن عرفناك حاكماً مستبدّاً شرّاً طاغية، كأنما كنت أول مقصود بالمثل الغائل «عدو عاقل خير من صديق جاهل»، لذا ساكره الجهل أكثر من أي شيء في الحياة، فهو المفسد لكل شيء حتى الأبرّة المقدسة. خير منك أب له نصف جهلك ونصف حبك لابنائك، وإني أعاهد نفسي - إذا صرت يوماً أباً - أن أكون لابنائي الصديق قبل أن أكون المرهب، غير أنني ما زلت أحببك وأعجب بك حتى بعد أن زابتك صفات الألوهية التي توهجت فيها مضي عيني المسحوران. أجل لم تعد قوتك إلا أسطورة، فلست مستشاراً

كسليم بك ولا غنياً كشديد بك ولا زعيماً كسعد زغلول ولا داهية كثروت ولا نبيلاً كمعلمي. ولكنك صديق محبوب وحبيب هذا، وما هو بالقليل، فليتك لم تضنّ علينا بصداقتك، ولكن لست وحدك الذي تغيّرت فكرته، الله نفسه لم يعد الله الذي عبدته قديماً، إني أغربل صفات ذاته لأنقيها من الجبروت والاستبداد والقهر والدكتاتورية وسائل الغرائز البشرية، ولست أدري أين ينبغي أن أشكم الفكر ولا إن كان من الفضيلة أن أشكمه، بل إن نفسي تمخّذني بأنّي لن أقف عند حدّ ويأنّ النضال على عذابه خير من الاستكانة والنوم. قد لا يهتك هذا بقدر ما يهتك أن تعلم أنني قرّرت أن أضع حدّاً لاستبدادك، استبدادك الذي يغشائي كما يغشائي هذا الظلام المحيط، والذي يؤلني كما يؤلني هذا الأرق اللعين، أما الخمر فلن أذوقها جزاء خيانتها لي، وأسفاه إذا كانت الخمر أيضاً ومما خادعاً لما بقي للإنسان؟ أقول لك إني قرّرت أن أضع حدّاً لاستبدادك، لا بالتحدي والمصيان فأنت أكرم على نفسي من أن أفعل بك هذا، ولكن بالهجرة! أجل لأهاجر من بيتك حال أقف على قدمي، وفي أحياء القاهرة متنّسح لكل مضطهد، أتدري ماذا كانت عواقب حبي لك رغم استبدادك بي؟ أتني عبدت مستبدّاً آخر طاملاً ظلمي بظاهره وباطنه ممّا استبد بي دون أن يتبيّن، ورضم ذلك كله عبيته من أهائي ولا زلت أعبد، فأنت أول مسؤل عن حبي وعذابي. ترى ما نصيب هذه الفكرة من الحقيقة؟ لست مرتاحاً

إليها ولا متحمسًا لها، ومهما يكن من واقعية الحب فلا شك أنه يرجع إلى أسباب أعمق أصالة في النفس،

فلتركها الآن معلقة حتى تعود إليها بالدرس فيها بعد، وعلى أي حال فانت يا أبي الذي هُوتت على الإحساس بالظلم بمدامتك على الاستبداد بي، وأنت يا أمي لا تخملي في وجهي بإنكار أو تساملي ما ذنبي وما جنيت على أحد، إنه الجهل. هو جنابك. الجهل... الجهل... الجهل... أبي هو الفظاظ الجاهلة، وأنت الرقة الجاهلة، وسوف أظل ما حيت ضحية هذين الضدين، وجهك أيضًا هو الذي ملأ روحي بالأساطير، فأنت همزة الوصل بيني وبين عالم الكهوف. وكما أشقى اليوم في سبيل التحرر من آثارك كما ساشق غدًا في سبيل التحرر من أبي، وما كان أحرًا أن توفرا علي هذا الجهد المضني، لذلك أقترح - وظلام هذه الحجرة شهيد - أن تلتى الأسرة - هذه الحفرة التي يتجمع فيها الماء الآسن - وأن تزول الأبوة والأمومة، بل هبي وطنًا بلا تاريخ وحياة بلا ماضٍ، ولننظر الآن في المرأة فإذا نرى هذا الأنف الضخم وهذا الرأس الكبير. أعطيني أنك يا أبي دون مشورة أو رحمة فأنت تستبد بي حتى قبل أن أولد، ومع أنه يبدو في وجهك مهيبًا جليلاً فإنه - بذاته وشكله - يلوح مضحكًا في صفحة وجهي الضيقة كأنه جندي إنجليزي في حلقة ذكر، وأعجب منه رأيي لأنه لا إلى فصيلة رأسك ينتمي ولا إلى فصيلة رأس أمي فمن أي جد بعيد اتحد إلي؟ فليظل ذئب معلقًا فوق رأسك كما حتى يتفصح لي الحق. قبيل النوم يجب أن نقول والدواع فقد لا يطلع الصبح علينا. إني أحب الحياة رغم ما فعلت بي على طريقة حيي إليك يا أبي. وفي الحياة أشياء جديرة بالحب وصفعة وجهها مليئة بعلمات الاستهزام مثيرة للشغف، غير أن النافع فيها لا نفع فيه وما لا نفع فيه عظيم الشأن، والراجح أتي لن أعود إلى تقبيل الكأس فقل وداعًا آيتها الحمر، ولكن مهلاً. أذكر ليلة غادرت بيت عيوشة عاقدا العزم على ألا أقرب النساء ما حبيت وكيف انقلبت بعد ذلك زيوني الأثير، ويحك إلي أن الإنسانية تنز

- ٣٨ -

فتر حماس ياسين حال انفراد نفسه في العربة بعد ذهب كمال، ويذا كالمتفكر رغم سكره، إذ جاوزت الساعة الواحدة ودخل الوقت منذ كثير في الهزيع المريب من الليل، وسوف يجد زئوبة إنما يغطي تنتظر وتغلي وإنما ستستيقظ حين دخوله، وعلى أي حال فلن تمر الليلة بسلام، بسلام كامل على الأقل.

غادر العربة عند منعطف قصر الشوق ومضى يخوض الظلام الدامس وهو يبرّز كتفيه العريضين في استهانة ويقول لنفسه بصوت هامس وليس ياسين الذي يعمل حسابًا لامرأة، وكثر هذا القول وهو يرقى في الدرج مسترشدًا في الظلام بالدرابزين، غير أن تكراره إياه لم ينم عن طمأنينة قاطعة. وفتح الباب ودخل، ثم مضى إلى حجرة النوم على ضوء مصباح الصالة، وألقى على الفراش نظرة فراها نائمة، فرد الباب ليحول دون تسرب الضوء الخافت الآتي من الصالة، وراح يخلع ملابسه في هدوء وحذر وهو يزداد اطمئنانًا إلى استغراقها في النوم، ويرسم في ذهنه خطة للتسلل إلى موضعه في الفراش دون أن يحدث صوتًا.

- أشعل المصباح لأكحل عيني برويتك!

الضئف رأسه نحو الفراش ثم ابتسم في تسليم، وأخيرًا نساء كالدهاش:

- أأنت يقظي؟! ظننتك نائمة فلم أشأ أن أزعجك!

- قلبك طيب، كم الساعة الآن؟

- الثانية عشرة على الأكثر، فلنأى غادرت المجلس حوالى الحادية عشرة، وجئت ماشيًا واحدة واحدة...

- لازم كان مجلسك في بنها!

- لماذا... هل تأخرت؟

- انتظر حتى يبيك ديك الفجر بنفسه.

- لعلّه لم ينم بعد!

وجلس على الكتبة ليخلع حذاه وجوربه ولم يكن عليه إلا القميص والسروال، وعند ذلك نذت عن

- السيرير طقطقة ورأى شبهها يستوي جالساً، ثم سمعها تقول في حجة:
- اشمل المصباح.
- لا داعي لذلك، فقد فرغت من خلع ملابسي.
- أريد أن تصفي حسابنا في النور...
- تصفية الحساب في الظلام الطفا
- وصدّرت عنها نغمة غيظ ثم غادرت الفراش، ولكنّه مدّ ذراعيه من مجلسه القريب فأصاب منكبها فجذبها إلى الكنية وأجلسها إلى جانبه وهو يقول:
- لا تشعلي الفتنة...
- تخلّصت من يده، وقالت:
- أين ما تعاهدنا عليه؟ لقد قبلت أن تسكر في الحانات كما تحبّ على شرط أن تعود إلى بيتك في وقت مبكر، قبلت هذا على رضي لائك لو سكّرت في بيتك لو فرّقت على نفسك مالاً كثيراً يضيع هباء، ومع ذلك فما أنت تعود قبيل الفجر غير مبالٍ بما تعاهدنا عليه! من يستطيع أن يخدع ربيبة التخت والعمود؟ وإذا ثبت لها خيانتك يوماً فهل تظف عند حدّ الشجار أم...؟ ففكر مرتين، ولا تنس كذلك أنّ فقدتها لا يسون، إنّها أحبّ زوجائي إليّ، خبيرة بما يسعدني، متمسكة بحياتنا، لولا الملل...!
- كنت في مجلس كلّ ليلة لم أغادره إلا إلى بيتي، وعندني شاهد تعريفه، أتدريين من هو؟ (وضحك بصوت عال)
- ولكنّها قالت ببرود:
- تكلم في الموضوع!
- فقال وهو لا يزال يضحك:
- كان جليسي الليلة أخي كمال!
- فلم تدعش كما توقّع، وقالت في نفاذ صبر:
- من يشهد للمروس؟!
- لا تكابري...! براعتي كالشمس...! (ثمّ متأقفاً)... يمزني والله أن تردائي في سلوكي، شبت من الدوران حتّى المرض، ولا رغبة لي الآن إلا الحياة المأدبة، أمّا الحانة فتسلي برتبة لا غبار عليها، ولا بدّ للإنسان من مخالطة الناس...
- فقال بصوت دلّت نبراته على الانفعال:
- آه منك. أنت تعلم أنّي لست طفلة، وأنّ الضحك عليّ مطلب عسير، وأنّه من الخير لكلينا ألا ندخل بيتنا الربية!...
- موعظة أم وعيد؟! أين مقي حياة أبي المثالية، الرجل الذي يفعل ما يشاء فإذا رجع إلى بيته وجد الاستقرار والحب والطاعة، لم يتحقّق لي هذا الحلم على يد زينب ولا مريم وأخلق به ألا يتحقّق على يد زوّنة، لا ينبغي لهذه المأدبة الجميلة أن تأس طاملاً هي على ذنبي! قال بحزم:
- لو كان بي رغبة إلى مزيد من الحرام ما تزوّجت!...
- فهتفت بحدة:
- ولكنّك تزوّجت من قبل مرّتين، فلم يمتنع الزواج من الحرام!
- نفخ ناشراً أنفاساً غمورة، ثمّ قال:
- حالتك غير الحالتين السابقتين يا غيبة، الزوجة الأولى اختارها أبي وفرضها عليّ، والزوجة الثانية لم تجعل لي من سبيل إليها إلا بالزواج فتزوّجتها، أمّا أنت فلم يفرضك أحد عليّ، ولم يلق بآبك دوني قبل الزواج، ولم يكن الزواج منك ليعدني بشيء جديد لم أعرفه، فلم تزوّجتك يا غيبة إن لم يكن الزواج نفسه - أي الحياة المستقيمة المستقرّة - مطلبي؟! والله لو كان بك ذرّة من عقل ما سمحت لنفسك بالشك فيّ أبداً...
- حتّى إن جشني عند الفجر؟!
- حتّى إن جشك عند الصبح!
- فهتفت بحدة:
- نه، قل كلاماً آخر أو فعل الأمن السلام!
- فقال بحدة وهو يقطب في نرفزة:
- ألف سلام!
- أرحل، أرض الله واسعة والرزق على الله...
- فقال في استهانة متعمّداً:
- أنت وشأنك...
- فقال بصوت وافر بالوعيد:

الدوران ولم يبق لي في حياتي إلا أنت!
تهدت بصوت مسموع، وكأنما أرادت أن تقول له
داود أن تكون صادقاً فيها تقول، فمدّ يده لاعباً وهو
يقول:

- يا سلام، هذه التهيدة حرقت قلبي، الله
يقطعني...

قالت برجاء وهي تستجيب ليدِه رويداً رويداً:
- لو ربنا يهديك!
من يصلق أن هذه الأمنية صادرة عن عوادة!
- لا تقابلني بالشجار أبداً، إن الشجار يبطئ
النشاط!

علاج ناجح ولكنه لا ينفع في جميع الأحوال، لو
نلت عيوشة الليلة ما تيسر...
- أرايت أن ارتياك لم يكن في عله؟

- ٣٩ -

كان السيد أحمد عبد الجواد منهمكاً في عمله وإذا
يباسين يدخل الدكان مقبلاً على مكتبه، فما إن تصفح
وجهه حتى أدرك أنه جاء مستجداً: كانت في عينيه
نظرة حائرة شاردة، ومع أنه تبسم له في أدب ومال
على يده ليقلها إلا أنه شعر بأنه يقوم بهذه الحركات
التقليدية بلا وعي، وأن وجدانه كله غائب في مكان لا
يعلمه إلا الله. أشار إليه بالجلوس ففرب الكرسي من
مجلس أبيه ثم جلس، وجعل ينظر إليه حيناً ثم يخفض
بصره أو يبتسم ابتسامة هاتئة، تساءل السيد عما دعا
إلى هذه الزيارة، وكأنما أشفق من أن يترك ابنه
الصامت إلى صمته، فقال كالتسائل:

- خير... ماذا بك؟ لست كعادتك...
فنظر ياسين إليه طويلاً كأنما يستثير عطفه، ثم قال
وهو يخفض عينيه:

- سينقلوني إلى أقاصي الصعيد!

- الوزارة؟

- نعم...

- له؟

- ارحل غير أني كالشوكة لا تنتزع بيسر.
فتهاذى في الاستهانة بها قائلاً:
- خزجلات! تلمين بأيسر مما تجلج الحذاء...
ولكنها غيرت النغمة من التحذير والتهديد إلى
التشجيع، فهتفت:

- أرمي بنفسي من النافذة فأريح وأستريح...
فهز كتفيه استهانة، ثم نهض وهو يقول بلهجة
أخف:

- ثمة طريق أفضل هو أن تقومي إلى الفراش،
هلمي لننام واخزي الشيطان...
أنجهم نحو الفراش فاستلقى عليه وهو يتأوه كأنما طال
به الشوق للرقاد، أما هي فعادت تقول وكأنها تحدث
نفسها:

- مكتوب على من يعاشرك التعب...
التعب مكتوب عليّ أنا أيضاً، جنسك هو المسئول،
لا واحدة تغني عن الآخرين وقهر الملل فوق
طاعتهم، ولكن لن أعود إلى العزوبة مختاراً، لا
أستطيع أن أبيع كل عام دكاناً في سبيل زواج جديد،
فلتبق زبوة على شرط ألا تتركبي، الرجل المجنون
يجتاح إلى امرأة عاقلة، زبوة وعاقلة؟
- أتبقي على الكنية حتى الصباح؟
- لن يخمض لي جفن، دعني لما بي وقمّع أنت
بالنوم...

لا بد مما ليس منه بد، مدّ ذراعيه حتى قبض على
منكبها، ثم جلدها إليه وهو يخمخ:

- فرائك!

فقاومت مقاومة غير عسيرة، ثم استسلمت ليدِه
فمضت إلى الفراش وهي تقول متأخرة:

- متى تُتاح لي راحة البال كسائر النساء؟
- اطمئني، ينبغي أن تضعي في كل فتتك، إنني
أهل للثقة، مثلي لا يكون سعيداً إلا إذا سهر، ولن

تسدي أنت إذا أتعبتني بوجع الدماغ، حسبك أن
تؤمني ببراءة سهري، صدّقني ولن تندمي، لست جباناً
ولا كذاباً، ألم أجنّ بك ليلة إلى هذا البيت وفيه
زوجتي؟ فهل يفعل هذا جبان أو كذاب؟ شبعنا من

يستعطفه ويعتذر له عن إزعاجه ويؤكد له أن كلَّ اعتياده بعد الله عليه، ولم يغادر الدكان حتى وعده الرجل بالسعي في وقف نقله.

وعند مساء اليوم نفسه ذهب السيد أحمد إلى قهوة الجندي ب ميدان الأوبرا لمقابلة ناظر المدرسة، فما إن رآه الرجل حتى دعاه إلى الجلوس وهو يقول له:

- كنت منتظرًا جيتك، فياسين جاوز كلَّ حدٍّ، إني آسف لما يسببه لك من متاعب. . .

فقال السيد وهو يجلس قبالة في الشرفة المطلَّة على الميدان:

- على أيِّ حال فياسين ابنك أيضًا. . .

- طبعا، ولكن لا شأن لي بالمسألة كلها، إنها محصورة بينه وبين الوزارة. . .

فقال السيد كالمحتج وإن بدا وجهه متبسِّا:

- أليس عجيبًا أن يعاقبوا موظفًا لأنه تزوج من عوادة! أليس هذا شائنًا بعينه وحده؟ ثم إن الزواج علاقة شرعية لا يصح أن يتعرض لها أحد بسوء. . .

قطب الناظر متفكرًا متسائلًا، كأنه لم يفهم ما قال صاحبه، ثم قال:

- لم يحج ذكر الزواج إلا عرضًا وآخرًا! أما علمت بالخبر كله؟ يجنل إليَّ أنك لم تعلم بكلِّ شيء!

انقبض صدر الرجل، فتساءل في إشفاق وقلق:

- أيوجد مطعن آخر؟

فقال الناظر نحوه قليلًا، وقال بأسف:

- المسألة يا سيد أحمد أن ياسين تمارك في درب طياب مع ساقطة، فحُزر له محضر بلغت صورته إلى الوزارة. . .

بهت الرجل فالتسعت حدقاته واصفرَّ وجهه، حتى لم يتمالك الناظر من أن يهرَّ رأسه أسفًا وهو يقول:

- هذه هي الحقيقة، وقد بذلت قصارى جهدي لأخفِّف العقوبة، حتى وقَّعت إلى إلغاء فكرة إحالته إلى مجلس تأديب فأكفَّني بنقله إلى الصعيد. . .

تنهد السيد مغتمًا:

- الكلب. . .!

فقال الناظر وهو يرمقه بعطف:

هرَّ رأسه كالمتعريض، وقال:

- سألت الناظر فحدثني عن أمور لا علاقة لها بالعمل، ظلم. . .

سأله الرجل بارتياح:

- أيُّ أمور؟ أوضح.

- وشايات وضبعة. . . (ثم بعد تركُّد) عن زوجتي. . .

تضاعف اهتمام السيد، فسأله فيما يشبه الإشفاق:

- ماذا قالوا؟

لاح الضيق في وجه ياسين حينًا، ثم قال:

- قال السفهاء إني متزوج من. . . عوادة!

القي السيد نظرة جزعة على الدكان، فرأى جميل الحمازوي يعمل بين رجل قالم وامرأة جالسة لا يفصلهم عنه إلا أذرع، فكظم غيظه وقال بصوت منخفض وإن لم يجنل انخفاضه من تمجِّد الغضب:

- لمُهم سفهاء حقًا، ولكن هذا ما حذرتك من عواقبه، إنك تركب كلَّ كبيرة دون مبالاة ولكنَّ العواقب لن تغفل عنك إلى الأبد، ماذا أقول؟ إنك ضابط مدرسة ويجب أن تكون سمعتك بتأي عن الشهات، طالما قلت لك هذا مرارًا وتكرارًا، فلا حول ولا قوة إلا بالله، كلَّي يجب أن أخلص من هموم الدنيا جميعًا لأفرِّغ لهُموك أنت وحدها!

فقال ياسين في ارتباك وحيرة:

- ولكنَّها زوجتي الشرعية، ولا لوم على الإنسان في حدود الشرع، فما شأن الوزارة في ذلك؟

قال السيد بغيط مكتوم:

- يجب أن تحرص الوزارة على سمعة موظفيها. . .

هالًا تركت الكلام عن السمعة لغيرك!

- ولكن هذا غير وظيفي بالنسبة لرجل متزوج! وهو يلوِّح بيده سائحًا:

- أتريدني أن أرسم لوزارة المعارف سياستها؟

فقال بانكسار ورجاء:

- كلا، ولكنِّي أرجو أن توقف النقل بنفوذك. . .

وجعلت يسراه تبعث بشاويه وهو يمدح ياسين بنظرة لم تره لآنها بلدت مشغولة بالتفكير، وراح ياسين

تحاشى السيّد أن يطرق في حديثه مع ياسين موضوع الفضيحة الحقيقيّة، واكتفى بأن قال له حين وُقّي إلى إلغاء النقل:

- ما كلّ مرّة تسلم الجُرّة! لقد اتّمتّني وأحجّلتني، ولن أتنقّل في أمورك بعد اليوم، فافعل ما بدا لك، وربّنا بيني وبينك!...

ولكنّه لم يستطع أن يسقط أمره من حسابه، فدعا يوماً إلى الدكان، وقال له:

- أنّ لك أن تفكر في حياتك تفكيراً جديداً يعود بك إلى طريق الكرامة ويتشكّل من الحياة النبوذة التي تحياها، لا يزال في الوقت متّسع كي تبدأ عهداً جديداً، ولأني أستطيع أن أمثّر لك الحياة التي تليق بك فأصع ليّ وأطعمي...

ثمّ عرض عليه مقترحاته قائلاً:

- طلق زوجك وعدّ إلى بيتك، وإنّي أتعهد بأن أزوّجك زواجاً لائقاً قُبداً حياة كريمة!

فتورّد وجه ياسين، وقال بصوت خافت:

- إنّي أقدر رغبتك الصادقة في إصلاح شأني، وسوف أعمل من ناحيتي على تحقيق هذه الرغبة دون إيداء أحد...

فهتف الرجل ساخطاً:

- وعد جديد كوعود الإنجليز! الظاهر أنّ نفسك تراودك على زيارة السجن، أجل سيّجيتي صراخك المرّة القادمة من وراء القضبان، لا زلت أكزّر عليك أن تطلق هذه المرأة وتعود إلى بيتك...

فقال ياسين وهو يتهدّد، متمعّداً أن يسمع إياه تنهده:

- إنّها حبل يا أبي، ولا أريد أن أضيف ذنباً جديداً إلى ذنوبي!...

اللهمّ اسفطننا! في بطن زنوبة حفيد لك يتكوّن! أكان في أعينك أن تتصرّف ما يدّخر لك هذا الشاب من متاعب ساعة تلقّيته وليدّاً في يوم غدّ من أسعد أيام حياتك؟!...

- حبل؟!...

- نعم...

- إنّي أسف جداً يا سيّد أحمد، غير أنّ هذا السلوك لا يليق بموظّف، لا أنكر أنّه شابّ طيّب ومثابر على عمله، بل أصارحك بأنّي أحبه، لا لآله ابنك فحسب ولكن لشخصه أيضاً، ولكنّ ما أعجب ما يقال عنه! ينبغي أن يصلح من شأنه ويقوّم سلوكه وإلّا خسر مستقبله!

صمت السيّد طويلاً والغضب مرّسم على وجهه، ثمّ قال وكأنّه يخاطب نفسه:

- معركة مع سافطة! فليذهب إذن في داهية!... ولكنّه لم يتركه للداهية وإنّما بادر إلى مقابلة معارفه من النّوّاب وعلّية القوم مستشفّعاً بهم في وقف النقل، وكان محمّد عفتّ على رأس الساعين معه، فتوالّت الشفاعات على كبار رجال المعارف حتّى أثمرت فألّني النقل، ولكنّ الوزارة أصرت على ندمه للعمل بدوامها، ثمّ أعلن رئيس المحفوظات - صهر محمّد عفتّ أو زوج زوجة ياسين الأولى - عن استعداده لقبوله في إدارته - بإيعاز من محمّد عفتّ - فتمتّ الموافقة على ذلك، ونقّل ياسين في أوّل شتاء سنة ١٩٢٦ إلى إدارة المحفوظات. ولم تمرّ المسألة في سلام تامّ فقد سجّل عليه عدم صلاحيّته للعمل في المدارس، كما صُرف النظر عن بحث ترقّيته إلى الدرجة السابعة رغم أقدميّته في الثامنة التي جاوزت عشرة أعوام، ومع أنّ محمّد عفتّ قصد من إلحاقه بإدارة صهره ألاّ تساء معاملته فإنّ ياسين لم يرتح إلى وضعه الجديد تحت رياسة زوج زينب، وقد عبّر عن مشاعره حين قال يوماً لكحال:

- لعلّها سرّرت بما وقع لي، ووجدت فيه تأييداً لموقف أبيها حين رفض إرجاعها إليّ، إنّي خير بقول النساء ولا شكّ في أنّها شمتت بي وإنّه لمن سوء الحظّ ألاّ أجد مكاناً كريماً إلّا تحت رياسة هذا التيس! ما هو إلّا كهل لا خير فيه للنساء، وما أعجزه عن أن يسدّ الفراغ الذي تركه ياسين، فلتشمت الحمقاء فلّني شامت...

ولم تقف زنوبة على سرّ النقل، وقصارى ما علمت أنّ زوجها تُدب للعمل بمركز أفضل في الوزارة، كذلك

- ونحاف أن تضيف ذنباً جديداً إلى ذنوبك!؟

ثم منجزاً قبل أن يفتح الآخر فاه:

- لم يزلك ضميرك وأنت تعتدي على الطيبات من بنات الطيبين! أنت لعة وحقّ كتاب الله...

وعند انصرافه من الدكان أتبعه عيتين مليتين بالثرثاء والازدراء. لم يكن يوسعه إلا أن يصحب مظهره الذي ورثه عنه، أما غيره الذي ورثه عن أمه... وذكر بغته كيف أوشك هو يوماً أن يترك في الهاوية على يد زنوبة نفسها! ولكنه ذكر في الوقت نفسه كيف شكّم نفسه في اللحظة المناسبة. شكّم نفسه! وشعر بامتعاض وقلق، فلحن ياسين، ثم لعن... ياسين!

- ٤٠ -

جاء يوم ٢٠ ديسمبر فشمع بآته يوم لا كِبِيَّةُ الأَيَّامِ، على الأقلّ بالقياس إليه هو، ففي ساعة منه وجد نفسه في هذه الدنيا، وسجل ذلك في شهادة حق لا يمكث أكثر أو أقلّ ممّا تمّ الاتفاق عليها... وكان يرتدي معطفه ويقطع حجرته ذهاباً وجيئة، ثم يلقي نظرة على مكتبه ليرى كشكول الذكريات مفتوحاً على صفحة بيضاء رؤم أعلامها بتاريخ الميلاد، فيفكر فيما يريد أن يكتبه لمناسبة الذكرى، ويواصل حركته مستمداً منها شيئاً من الدفء يستعين به على مقاومة البرودة القارسة. وكانت السياه كما تبدو من زجاج النافذة - متوازية وراء سحب متجهّم والمطر ينزل قليلاً ويسكت قليلاً عزمًا في نفسه بواحات التأمل والحلم. لا بدّ من الاحتفال بالميلاد ولو اقتصر الحفل على صاحب الميلاد وحده، ذلك أنّ البيت القديم لم يعرف تقاليد الاحتفال بأعياد الميلاد. وأمّه نفسها لم تدر أنّ اليوم من الأيّام التي لا ينبغي أن تنساه، فلم يبق من تواريخ الميلاد نفسها إلا ذكريات غامضة عن الفصول التي وقعت فيها والألام التي صاحبها فهي لا تعرف عن ميلاده إلا أنّه وكان في الشتاء وكانت الولادة عسيرة فجعلت أتوجع وأصرخ يومين متتابعين، قليلاً كان يذكر أبناء ميلاده فيملأ الرثاء لآتمه قلبه، ثم تضاعف شعوره بالرثاء عندما شاهد ميلاد نعيمة فحفظ

قلبه السّيا لعائشة، أمّا اليوم فإنّه يفكر في ميلاده بعقل جديد، عقل قد علّ من مهل الفلسفة المادّيّة حقّ المّ في شهرين بما تحفّض عنه تفكير الإنسانيّة في قرن من الزمان. تسأل عن عسر ولادته وهل يرجع بعضه أو كلّ إلى الإهمال أو الجهل، وكان يتساءل وكأنّها يستجوب متهمًا قائمًا بين يديه. ففكر في عسر الولادة وما عسى أن ينجم عنه من آثار تلحق بالبلوغ أو الجهل العصبّي فتلعب دورًا خطيرًا في حياة الوليد ومصيره وما قد يساق إليه من خير أو شرّ. ألا يمكن أن يكون نهالكة في الحبّ نتيجة لصدمات أصابت يافوخه أو جدار رأسه الكبير في غيابات الرحم منذ تسعة عشر عامًا؟ أو أن تكون تلك المظاليّة التي أصبته طويلاً في مجاهل الخيال وأسالت منه النعم مدرارًا فوق مذهب العذاب ما هي إلا عاقبة عزلة لعبت داية جاهلة!؟ وفكر فيما قبل الولادة، بل فيما قبل الحمل، في المجهول الذي تنبثق منه الحياة، في تلك المعادلة الكيميائية الآليّة التي تستوي كائنًا حيًّا فيشور أوّل ما يثور على أصله مزدريًا، ويتطلّع إلى النجوم مدعياً له نسباً في مداراتها. بيد أنّه قد عرف له بداية قريبة دحها بالنطفة، فهو على ذلك لم يكن قبل تسعة عشر عامًا وتسعة أشهر إلا نطفة، نطفة قلّقت بها رغبة بريئة في اللذة أو حاجة ملحة إلى العزاء أو صولة هياج بعثها سكرة غاب فيها الرشد أو حتّى مجرد إحساس بالواجب نحو الزوجة الغائبة في البيت، فابن أيّ حال من تلك الأحوال كان! لعلّه جاء إلى هذه الدنيا نتيجة الواجب، فإنّ الشعور بالواجب لا يزيله، وحقّ اللذات لم يقلل على ممارستها إلا بعد أن عثّلت له فلسفة تتّبع ورأيًا يعتق، إلى أنّه لم يخلّ من الصراع والألم ولم يأخذ الحياة أخذًا سهلاً، ومن النطفة مرق حيوان فالتقى ببويضة في البوق وتقيها، ثمّ انزلها إلى الرحم ممّا، فتحوّل إلى علقه، فكسيت العلقه لحماً وعظمًا، ثمّ خرجت إلى النور والألم بين يديها يسير، ثمّ بكت قبل أن تستبين معالمها، ومضت الغرائز المودعة بها تنمو وتبلور مستجدة على مرّ الأيّام عقائد وآراء حتّى أنحمت، وعشقت عشقًا زعمت لنفسها به نوعًا

هذا منظر السماء يخاطب الوجدان بلسان الوجد فما
أجدره أن يستلهمه طويلاً ليتأمل موقفه من الحياة في
مطلع علمه الجديد. لم يعد يجد رفيقاً يحاوره بكون
روحه مذ غادر حسين شذاد أرض الوطن، فلم تبق له
إلا نفسه ليحاورها إذا استشعر حاجة إلى الحوار،
فألتحد من روحه صديقاً بعد أن فارق صديق الروح،
وسأل روحه: هل تؤمن بوجود الله؟ فسألته بدورها
لماذا لا تحاول أن تثب من نجم إلى نجم ومن كوكب
إلى كوكب كما تثب من درجة إلى درجة فوق السلم؟
وعن الصفة المختارة من أبناء السوء فقد رفعوا
الأرض إلى مركز الكون وجعلوا الملائكة تسجد للطين
حتى جاء أخوهم كوبر نيكوس فأنزل الأرض بحيث
أنزلها الكون جارية صغيرة للشمس، ثم تلاه أخوه
داروين فهتك سر الأمير الزائف وأعلن على الملأ أن
أباه الحقيقي هو حبيس قفصه الذي يدعو الأصناف
للتفرج عليه في الأعياد والمواسم، وفي الأصل كان
السديم فتأثرت منه النجوم كالرشاش المطاير من
عجلة الدراجة، ولجاذبت النجوم في لونها الأزلي
فأنجبت الكواكب، وانطلقت الأرض كرة سائلة
والقمر في أثرها يماشيها وهي تغقب له بجانب من
وجهها وتيسم له بجانب آخر حتى فتر حاسها
فاستقرت سباتها جبالاً ونجوداً وقيعاناً وصخوراً ثم
حياة تدب، وجاء ابن الأرض يزحف على أربع
ويسائل من يصادفه عن المثل الأعلى. لا أنفي عنك
آتي غبقت بالأساطير ذرعاً، غير آتي في خضم الموج
العالي عثرت على صخرة مثقلة الأضلاع سادعوها من
الآن فصاعداً صخرة العلم والفلسفة والمثل الأعلى.
ولا تقل إن الفلسفة كالدين أسطورية المزاج، فالحق
أنما تقوم على دعائم ثابتة من العلوم وتتجه بها إلى
غايتهما، أما الفن مثلاً، لأنه لا يبرئ ولا
مطمعي أبعد من الفن مثلاً، لأنه لا يبرئ ولا
بالحقيقة، والفن بالقياص إلى الحقيقة يبدو فناً أنشأ،
وفي سبيل هذه الغاية تراني مستعداً للتضحية بكل شيء
إلا ما يمسك علي الحياة، أما عن مؤهلتي للدور الخطير
فرأس كبير وأنف ضخم وحب خالص وأمل في

من الألوهية، ثم زلزلت فهاوت عقائدها وانقلبت
أفكارها وخاب قلبها فركنت إلى مكانة أذل من التي
جاءت منها أول مرّة إذن فقد مضى من العمر تسعة
عشر عاماً يا له من عهد طويل! وما للشباب الذي
ينطوي بسرعة البرق، هل من عزاء إلا أن تتعلّ الحياة
ساعة فساعة بل دقيقة فدقيقة قبل أن ينق غراب
الغروب؟ مضى عهد البراءة، ولحق به العهد الذي
كانت تؤرّخ فيه الحياة بالحب - ق. ح. ب. ح - اليوم
الأسواق كثيرة إلا أن المحبوب مجهول الكنه، فلم يجد
عل عبه إلا بعض أسائه الحسن، فهو الحقيقة ومسرّة
الحياة ونور العلم، والسفر فيها يبدو طويل، وكأن
المحب قد استقل قطار أوجست كونت فمرّ بمحطة
اللاهوتية التي كان شعارها «نعم يا أمّاه» وما هو
يطوي الأرض في إقليم الميثافيزيقية التي شعارها «كلّ
يا أمّاه» وعن بعد تترامى خلال المنظار الكثير الواقعية
وعلى قمتها سجل شعارها «فتح عينيك وكن شجاعاً»
وتوقّف عن السير أمام المكتب فثبت عيناه على
كشكول الذكريات، وتساءل: أيجلس ليسود صفحة
الميلاد كيفما يوحى القلم، أم يؤجل ذلك حتى تتبلور
الأفكار في رأسه؟ وعند ذاك طرق أذنيه وقع المطر على
الجدران كالندنة، فأخذه بصره إلى زجاج النافذة المطلّة
على بين القصرين فرأى لآلئ عالقّة برقته الموهمة
برطوبة الجو، وما لبثت لؤلؤة أن انسابت إلى حفلة
الإطار السفلي راسمة على الرقعة الموهمة خطاً ناصباً
منعطفاً كالشهاب فمضى إلى النافذة ورفع عينيه يتابع
الأمطار المبهلة من السحب المترعة وقد وصلت السماء
بالأرض بأسلاك لؤلؤية، على حين لاحت المآذن
والقباب غير عابئة بالمطر وقد بدا الأفق وراءها إطاراً
من فضة، واكتفت المنظر كلّ لون أبيض مشرب
بسمرة ساجية بقطر جلالاً وأحلاماً... وترامت من
الطريق صيحات أطفال، فالتفت نظره إلى تحت ليرى
الأرض تسيل بالماء والأركان تتعج بالوجل وقد تعمّرت
العربات وتطاير الرشاش من عجلاتها وخلت معارض
الدكاكين من السلع ولازمت البحاريت والمقاهي وما
تحت الشرفات.

بالتغلب عليها إذا كَوَّنَتْ عنها فكرة واضحة متميَّزة. أسرك أن وجدت الحب يُنسى؟ ... سرِّي لأنه يعدني بالنجاة من الأسر، وأحزني بما كان تجربة خبرت بها الموت قبل حضوره، ومهما يكن من أمر فسأملت ما حيث الأُسْر وأعشق الحرَّة المطلقة.

سعيد من لا يفكر في الانتحار أو يتمنَّى الموت، سعيد من تتوهَّج في قلبه شعلة الحيا، وخالد من يعمل أو يتوهَّج صادقًا للعمل، حيٌّ من يتأثر الحَيَّام بكتاب وكأس ومعشوق، والقلب اللهب بالأمال ينسى أو يتناسى الزواج كالنكاس المترعة بالويسكي لا تتسع للصدأ، وحسبك أن غرامك بالشراب يسير سيرًا حسنًا وأن إقبالك على المرأة لا تعرضه عقبات من تفرِّز أو نفور، أمَّا حينك من حين لآخر إلى الطهر والتحقُّف فلملَّه بقيَّة من تلتبِّك القديم.

ولم يقطع المطر عن الإهلال لحظة، وقمع الرعد، ولع البرق، وأقفر الطريق، وسكت الصباح، وخطر له أن يلقي نظرة على فناء الدار فغادر الحجر إلى الصالة ثمَّ إلى النافذة، ونظر من خلال خصاصها فرأى المياه تجرف سطح الأرض اللوِّث فتخذه ثمَّ تتدفَّق صوب البئر القديمة، وفاض عنها جانب فتجمَّع في نفرة بين حجرة الفرن والمخزن، هذه النفرة التي ينجم فيها غبَّ الجفاف .. ثمَّ ينساق عفرًا من حنطة أو شعير أو حلبة من يدي أم حنفي - نبت يكسوها حلَّة سنديَّة فيترعرع أياها حتَّى تلوسه الأقدام، وقد كانت على عهد دولة الطفولة حقل تجاربه ومراح أحلامه، ومن ينبوع ذكرياتها يمثل قلبه الآن شوقًا وحنينًا، ومسرَّة يغشاها حزن وإن كسحابة شقَّالة تغشى وجه القمر. وتحوَّل عن النافذة ليعود إلى حجرته فانتبه إلى وجود من كان بالصالة، إلى الذكرى الباقية من مجلس القهوة القديم، إلى أمِّه متربِّمة على الكنبه بأسطة فراعها فوق المجمرة ولا جليسا لها إلا أم حنفي وقد تربَّعت على فروة قبتها. فذكر المجلس القديم في آيَّامه الزاهرة وما أودعه من جبل الذكريات، وكانت للمجرة هي الأثر الوحيد فيه الذي لم يكد يطرأ عليه تغيَّر ينكره الراي.

المرض. واحذر أن تسخر من أحلام الشباب فما السخرية منها إلا عارض من أعراض مرض الشيخوخة يدعو المرضي بالحكمة، وليس من تناقض في أن تعجب بسعد زغلول كما تعجب بكورنيكوس واستولد ومانح، فالجهاد في سبيل ربط مصر المتأخرة بركب الإنسانيَّة عمل نبيل وإنسانيَّ كذلك. والوطنية فضيلة ما لم تتلوَّث بالكرهية العدوانية، غير أن كره إنجلترا نوع من الدفاع عن النفس، وليست الوطنية على ذلك إلا إنسانية عتيقة، وتسألني هل أومن بالحب؟ فاجيب: بأنَّ الحب لم يبرح فؤادي بعد، فلا يسعني إلا أن أفرِّ بحقيقة الإنسانية، ومع أن جذوره كانت مشتبكة بجذور الدين والأساطير فإنَّ تقوُّس المعابد المقدَّسة لم يزعزع أركانها أو يقلل من خطورة شأنه اقتحام محرابه بالدراسة والتحليل، وفرز عناصره البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية، فكُلُّ أولئك لم يوهن من خفة القلب إذا هفت ذكرى أو تخاللت صورة، ألا زلت تؤمن بخلود الحب؟ ليس الخلود أسطورة. فلعلَّ الحب يُنسى ككُلِّ شيء في هذه الدنيا، وقد انقضى على زواج ... عابدة - لم تتردد قبل التفوُّه باسمها؟ - عام فقطعت شوطًا في طريق النسيان، مرت بطور الجنون فطور الدهول فطور الألم الحاد ثمَّ طور الألم المتقطع، الآن قد يمضي يوم بأكمله فلا تحظر لي على بال إلا حين الاستيقاظ وحين النوم ومرة أو مرَّتين في أثناء النهار، ويتفاوت تأثري بالتذكُّر ما بين حين ينبعث معتدلًا أو حزن يمرُّ مرور السحاب أو حسرة تسلك ولا تحرق إلا أن تشور النفس بفتة كالبركان تندور بي الأرض، وعلى أيِّ حال غدوت أومن بأنِّي سأواصل الحياة بلا عابدة. علام تُعول في طلب النسيان؟ ... على دراسة الحب وتعليله كما سلف، والتهوين من الآلام الفردية بالتأملات الكونية التي يبدو عالم الإنسان في مداراتها هبالة تافهة، والتمسك عى النفس بالشراب والجنس، والتمسك العزاء عند فلاسفة العزاء كإسبينوزا الذي يرى الزمن شيئًا غير حقيقي، وبالتالي فالانفعالات المرتبطة بحدوث في الماضي أو المستقبل مضادة للعقل، ونحن خليون

فقالت جلييلة كأنما تشجّجه:

- لا شأن لك به فلا حجاب بيننا وبينه...

وسرعان ما ضحكت زبيدة قائلة بتهجّم:

- أنا أحقّ الناس بأن أقول ذلك، ليس هو

بشبي؟!

فقطى السيّد إلى ما تُعرّض به، وتساءل في قلق عن

مدى ما اتّصل بعلمها في هذا الشأن كلّ، ولكنّه قال

برقة:

- لي الشرف يا سلطنة!

فتساءلت زبيدة وهي ترمقه بنظرة ارتباب:

- ألّنت مسرور حقاً بما كان؟

فقال بلباقة:

- ما دمت خائنها!...

فقالت وهي تلوّح بيدها في استياء:

- أمّا أنا فلن يرضى عنها قلبي أبداً!...

وقيل أن يسألها السيّد عن السبب، هتف عليّ عبد

الرحيم وهو يفرك يده:

- أجلسوا الحديث حتّى نعرّ رهوسنا...

ونفض إلى المائدة ففضّ زجاجه وملا الكؤوس ثمّ

قدّمها إليهم واحداً واحداً بعناية ثمّ عن ارتياحه

المهود إلى القيام مهمّة الساقى، ثمّ انتظر حتّى غمّ

كلّ للشرب، وقال «صحة الأحباب والإخوان والطرب

دامت جيّماً لنساء، فرفموا الكؤوس إلى شفاهم

باسمين، ونظر أحمد عبد الجواد من فوق حافة كأسه

إلى وجوه أصحابه... هؤلاء الأصحاب الذين

شاطروه حلّ المؤدّة والوفاء قرابة الأربعين عاماً، فكان

كأنّه يرى فلذات من صميم نفسه، ما ملك أن جاش

صدره بعواطف الأخوة الصادقة. ومالت عيناه إلى

زبيدة، فعاد إلى حديثها متسائلاً:

- ولماذا لا يرضى عنها قلبك؟

فالتجّمت إليه بنظرة أشعّرت بترجيّها بالحديث معه،

وأجابته:

- لانتها خائنة لا ترضى المهود، خائنتني منذ أكثر من

عام ففادرت بقي دون استئذان وذهبت إلى حيث لم

أعلم...

كان أحمد عبد الجواد يسير المويّنى على شاطئ النيل

في طريقه إلى عوامة محمّد عفت، وكان الليل ساجياً

والسباه صافية متألّقة بالنجوم، والهواء مائلاً للبرودة،

فلّما انتهى إلى هدفه وهمّ بليل إليه لم ينس - بحكم

العادة وحدها - أن يرمي ببصره بعيداً إلى حيث تقوم

عوامة التي دعاها يوماً «عوامة زُتوية». كان قد انتهى

على الذكريات الأليمة عام فلم يعد يبقى في قلبه إلّا

الامتصاص والحجل، وكان من آثارها المتخلّفة أن هجر

مجالس النساء كما فعل عقب مصرع فهمي، فثابر على

ذلك عاماً حتّى ضجر، فرجع عن عزمه وعاد ساعياً

على قدميه إلى المجلس الحرم، وما هي إلّا دقيقة حتّى

أقبل على المجلس فطالع للجموعة المحبوبة المؤلفة من

أصدقائه الثلاثة والمرأتين، أمّا الأصدقاء فكان آخر

لقاء بينه وبينهم ليلة أمس، وأمّا المرأتان فلم تقع

عليهما عيناه منذ نحو عام ونصف أو - على وجه

التحديد - منذ تلك الليلة التي أقحم فيها زُتوية في

حياته. ولم يكن شيء قد بدأ بعد، فالقوارير لم تفضّ

والنظام لم يمسّ، وكانت جلييلة عمّلة كنية الصدارة،

تعبت بأساورها اللهيّة وكأنّما نصت إلى وسوستها،

على حين قامت زبيدة تحت المصباح للتدلي من

السقف، تنظر في امرأة صغيرة بيدها، متفحّصة

زيتنها، جاعلة ظهرها إلى المائدة الحافلة بقوارير

الويسكي وصحافة المزة. وتفرّق الأصدقاء حاسري

الرهوس وقد خلعوا جياهم فصافحهم أحمد عبد الجواد

ثمّ صالغ المرأتين بحرارة، فرحبت به جلييلة قائلة

«أهلاً بأخي الحبيب» أمّا زبيدة فقالت له باسمّة

في عتاب «أهلاً بالذي لولا الأدب ما استحقّ مثا

السلام». ونزع الرجل جيّته وطربوشه، ثمّ ألقي نظرة

على الأماكن الخالية - وكانت زبيدة قد جلست إلى

جانب جلييلة - وتردّد قليلاً قبل أن يمضي إلى كنية

المرأتين ويخّذ مجلسه عليها، ولم يغب تردّد عن عين

عليّ عبد الرحيم، فقال:

- هكذا تبدو كأنك تلميذ مبتدئ!

بأهة لطيفة وشت بانبساطه، غير أنّ عليّ عبد الرحيم
نهض مرّة أخرى وهو يقول:

- لحظة سكوت حتى نستوعب هذه الكاس...

وملا الكؤوس ووزّعها بينهم، ثمّ عاد بكأسه إلى
مجلسه. وقبض أحمد عبد الجواد على كأسه ولحظ
زبيدة، فالتفت نحوه باسمه ورفعت يدها بكأسها
كأنّها تقول له «صحتك»، ففعل مثلها وتشابها،
وجعلت في أثناء ذلك تترنّو إليه بنظرة باسمه. مضى
صام دون أن تثب به رغبة إلى طلاب امرأة، كأنّ
التجربة القاسية التي امتحن بها قد أخذت حماسه، أو
لمعه الكبرياء أو لعله المرص، غير أنّ نشوة الحمر
ونظرة التردّد حركتا فؤاده فاستشعر عدوية الإقبال بعد
مرارة الصّد، واعتدّها تحيّة طيّبة من الجنس الذي هام
به حياته، لعلّها تضفّد جرح كرامته التي فست عليها
الحياة وتقدّم العمر، وكأنّ ابتسامة زبيدة الناطقة
كانت تقول له: «لم يولّ عنك بعداء فلم يحول عن
نظرتها عينيه ولم يلغ ابتسامته».

وجاء عمّد عفت بعمد ووضعه بين المراتين،
فتناولته جلييلة وراحت تلعب بأوتاره، ولما آتست من
السامعين انتباهاً غثت ووعدي عليك يالهي بحبك،
وتظاهر أحمد عبد الجواد بالانسجام كعادته كلّما سمع
جلييلة أو زبيدة، ودعّب مع النشوة برأسه وجاء، كأنّها
يريد أن يخلق الطرب بتمثيل حركاته. والحقّ أنّه لم
يعد يبقى له من عالم الغناء إلّا ذكريات، فقد ذهب
الحامولي وعثمان والميلادي وعبد الحفي، كما ذهب
شبابه وكما ولّت أيام النصر، ولكن ينبغي أن يوعك
النفس على الرضى بالموجود وأن يتبعث عاطفة الطرب
ولو بتمثيل حركاته، وقد دعاه حبّه للغناء وغرامه
بالطرب إلى ارتياح مسرح منيرة المهديّة غير أنّه لم يحو
الغناء التمثيليّ، فضلّ عن أنّه ضاق بجلسة المسرح
الذي شبّه بالمدرسة، كما استمع في بيت عمّد عفت
إلى أسطوانات المطربة الجديدة أمّ كلثوم ولكنّه أعادها
أدنا حلوة مضجرة سوء الظنّ، فلم يتلذّذها رغم ما
قيل من أنّ سعد زغلول أثنى على جمال صوتها. بيد أنّ
مظهره لم يشّر بحقيقة موقفه من الغناء، فما زال يتطلّع

ترى ألم تعلم حقّاً أين ذهبت في ذلك الوقت؟ ولم
يشأ أن يعلّق على قولها بحرف، فعادت تسأله:

- ألم يبلّغك ذلك؟

فقال بملء:

- بلغي في حينه!

- أنا التي كفلتها من الصغر ورعيتها بقلب الأمّ،
فانظر كيف كان الجزاء! سقخص على الدم النجس!
فقال عليّ عبد الرحيم سائرّاً، وهو يتظاهر
بالاحتجاج:

- لا تسبّي منها فإنّ دمها هو دمك!...

ولكنّ زبيدة قالت جاتّة:

- دعي برّء منها!

وهنا سالها السيّد أحمد:

- من كان أباهما يا ترى؟

- أباهما؟!

نذت هذه الكلمة عن إبراهيم الفار بصوت أنذر
بسيل من السخريات، ولكنّ عمّد عفت بادره قائلاً:
- تلذّر أنّ الحديث عن حرم ياسين!

فزايل وجه الفار هيئة المزاح ولاذ بالصمت في
شيء من الارتباك، على حين عادت زبيدة تقول:

- أمّا أنا فلا أهزل فيها أقول عنها، وطالما رمقتني
بعين الحسد وطعمت في منافستي وهي في رعايتي،
فكنت أداربها وأغضّ عن مساوئها (ثمّ وهي تضحك)
كانت تحلم بأن تكون علة!

ورقدت عينيها في الحاضرين، ثمّ قالت بلهجة
سائرة:

- لكنّها أفلست فتزوّجت!...

تساءل عليّ عبد الرحيم في إنكار:

- هل الزواج في عرفك إفلاس؟!

فضيقت له عيشاً، ورفعت حاجب الأخرى، وهي
تقول:

- نعم يا عمرا... العالة لا تهجر التخت حتى
تفلس...

وهنا غثت جلييلة هذا المقطع «أنت المدام يا روعي
أنت أنستنا»، فابتسم السيّد ابتسامة عريضة وحيّاها

- إلى جلييلة راضياً معيداً ويرتد مع الجميع لازمة
«وعدي عليك» بصوته الرخيم، حتى هتف الفار
بحيرة:
- أين أين الدف؟ أين الدف لنسمع ابن عبد
الجواد؟
- سأل أين أحمد عبد الجواد الذي كان ينشر على
الدف؟ آه، لم يفترنا الزمان؟ وختمت جلييلة غناها
في حالة من الاستحسان، ولكتبتها قالت في لهجة اعتذار
وهي تبسم شاكرة:
- لئي متعبة...
ولكن زبيدة كتلت لها الشاء كما يلور بينهما كثيراً
على سبيل المجاملة أو حرصاً على السلام العام، ولم
يكن يخفى على أحد أنّ نجم جلييلة كملّة أخذ في
الأفول السريع الذي كان آخر آياته هجر الدقّة فينو
لنختها والتحاقها بنخت آخر، وهو أفول طبيعي إذ
كان الدبول قد أدرك كافة المزاي التي قام عليها مجدها
القديم من الفتنة وجمال الصوت، ولذلك لم تعد زبيدة
تجد نوحها غيرة تذكر فوسمها أن تجاملها دون
مضغ، خاصة وأنها كانت بلغت ذروة حياتها، تلك
الذروة التي لاخطوة بعدها إلا نحو الانحدار. وكان
الأصدقاء كثيراً ما يتساءلون عما إذا كانت جلييلة قد
أعدت العدة لهذه المرحلة الخطيرة من الحياة، وكان
رأي أحمد عبد الجواد أنها لم تفعل، وأنهم بعض من
عشقته بتبديد الكثرة من ثروتها، ولكنّه جاهر في
الوقت ذاته بأنها امرأة تعرف كيف تحصل على المال
بأي سبيل، وأيّده على ذلك عليّ عبد الرحيم قائلاً:
إنها تتاجر بجمال نساء تحتها وإن يبتها يتحول رويداً
رويداً إلى شيء آخر. أما زبيدة فقد انمقد إجماعهم
على أنها - رغم مهاراتها في ابتزاز الأموال - جّودة
مفتونة بالمظاهر التي تحرق المال حرقاً، إلى ولعها
بالشراب والمخدرات وخاصة الكوكايين. قال محمد
عفت غاطباً زبيدة:
- اسمحي لي بأن أبدي إعجابي بنظراتك الحلوة
التي تخصّن بها بعضنا؟
فضحكت جلييلة، وقالت بصوت خافت:
- الضغطة!...
- الصبّ تفضح عيونه...
وتساءل إبراهيم الفار متكرراً:
- أم تحسّين نفسك في زاوية العميان؟
فقال أحمد عبد الجواد مظاهراً بالأسف:
- يتّنه الصراحة لن تكونوا قوادين كما تحبون!
أما زبيدة فقد أجابت محمد عفت:
- أنا لا أنظر إليه لغرض لا سمح الله ولكنّي
أحسده على شبابه؟ انظروا إلى رأسه الأسود بين
دموسكم البيض وأجبروني هل تعطونه يوماً واحداً فوق
الأربعين؟
- أنا أعطيه قرناً...
فقال أحمد عبد الجواد:
- من بعض ما عندكم!
وعند ذلك ترنّت جلييلة بمطلع الأغنية «عين الحسود
فيها عود يا حلييلة»، فقالت زبيدة:
- لا خوف عليه من الحسد، فلنّ عيني لا تؤذيه؟!
فقال محمد عفت وهو يهزّ رأسه هزّة ذات معنى:
- أصل الأذى كلّ من عيونك!
وهنا قال أحمد عبد الجواد موجّهاً الخطاب إلى
زبيدة:
- اتحدّثين عن شباهي؟ أما سمعت بما قال
الطبيب؟
فقالت كالمستنكرة:
- أخبرني محمد عفت، ولكن ما هذا الضغط الذي
يتهمك به؟
- لفّ حول ذراعي قرية غريبة، وراح ينفخ بمنفخ
جلديّ، ثمّ قال لي «عندك ضغطة!...»
- ومن أين جاء الضغط؟
فأجاب السيّد ضاحكاً:
- لا أظنه جاء إلّا من ذات النشيم!
قال إبراهيم الفار وهو يضرب كفّاً بكفّ:
- لعلّه مرض معدٍ، فإنّه لم يكد يمضي شهر على
إصابة المحروس به حتى ذهبنا جميعاً تبعاً إلى الطبيب
وكانت نتيجة الكشف في جميع الحالات واحدة:
الضغط!...

فقال عليّ عبد الرحيم:
 - أنا أقول لكم سرّه، إنّه عرض من أعراض
 الثورة، وأيّ ذلك أنّه لم يسمع به أحد قبل اشتعالها!
 وسالت جليلة السيّد أحمد:
 - وما أعراض الضغط؟
 - صداع ابن كلب، وتعب في التنفّس عند
 المشي...
 فتمتعت زبيدة وهي تبسم ابتسامة دارت بها شيئاً
 من الفلق:
 - ومن يخلو ولو مرّة من هذه الأعراض؟ ما رأيكم
 أنا عندي ضغط أيضاً...
 فسألها أحمد عبد الجواد:
 - من فوق أم من تحت؟
 وضحكوا بلا استثناء زبيدة نفسها، حتّى قالت
 جليلة:
 - ما دمت قد عبرت الضغط، فاكشف عليها لعلّك
 تعرف علّتها!
 فقال أحمد عبد الجواد:
 - عليها أن تحضر القرية وعليّ أن أحضر المنفاخ!
 فضحكوا مرّة أخرى، ثمّ قال محمّد عفت
 كالمحتجّ:
 - ضغط... ضغط... ضغط... لا نسمع الآن
 إلّا الطيب وهو يقول كأنّما يأمّر عبيده: لا تشرب
 الخمر، لا تأكل اللحوم الحمراء، احلّز البيض...
 فتساءل أحمد عبد الجواد ساخراً:
 - وماذا يصنع إنسان مثلي لا يأكل إلّا اللحوم
 الحمراء والبيض ولا يشرب إلّا الخمر؟
 فقالت زبيدة من فورها:
 - كلّ واشرب بالهنا والشفاء، الإنسان طيب نفسه،
 وربّنا هو الطيب...
 ومع ذلك فقد أتبع تعاليم الطيب في الفترة التي
 اضطُرّ فيها إلى الرقاد، فلما نهض تنهّض صحح الطيب
 جملة وتفصيلاً. عادت جليلة تقول:
 - أنا لا أؤمن بالأطباء، ولكنّي أقيم لهم المعلن فيها
 يقولون ويفعلون، فليتهم يتعيّشون من الأمراض كما
 تتعيّش نحن العوالم من الأفراح، ولا غناء لهم عن
 القرية والمنفاخ والأوامر والنواهي كما لا غناء لنا عن
 الدقّ والعود والأغاني...
 فقال السيّد بارتياح وحماس:
 - صدقت، فالمرض والصحة والحياة والموت بأمر
 الله وحده، ومن توكل على الله فلا يحزن...
 إبراهيم الفار ضاحكاً:
 - اشهدوا يا ناس على هذا الرجل، إنّه يشرب بغيه
 ويفسق بعينه ويعط بلسانه!
 أحمد عبد الجواد مقهقهاً:
 - لا عليّ من ذلك ما دمت أعط في ماخوفاً...
 عمّد عفت وهو يتفحص أحمد عبد الجواد، وبيّز
 رأسه متعجباً:
 - وددت لو كان كمال بيننا ليتنفع معنا
 بوعظك...
 فتساءل عليّ عبد الرحيم:
 - على فكرة، ألا يزال على رأيه من أنّ أصل
 الإنسان هو القرد؟
 فضربت جليلة صدرها بيدها هاتفة:
 - يا ندامتي...
 زبيدة في دهش:
 - قرد؟... (ثمّ كاللستركة) لعلّه يقصد أصله
 هو!
 قال لها السيّد محذراً:
 - وأبّيت أيضاً أنّ المرأة أصلها لبؤة!
 فقالت وهي تهاهي:
 - ليتني أرى سليل القرد واللبؤة!
 فقال إبراهيم الفار:
 - سيكبر يوماً فيخرج عن محيط أسرته، ويتقنع بأنّ
 البشر من آدم وحوّاء...
 فبادره أحمد عبد الجواد:
 - أو أحضره ممي يوماً إلى هنا ليقنع بأنّ الإنسان
 أصله كلب!
 وقام عليّ عبد الرحيم إلى اللابطة ليملاّ الكتوس،
 وهو يسأل زبيدة:

- أنت رجل رجعي، تعلّق دائماً بالماضي... ثمّ
وهو يغمز بعينه)... السّت تصرّ على حكم بيتك
بالحديد والنار حتّى في عهد الديموقراطيّة والبرلمان!
السّيّد صاخراً:

- الديموقراطيّة للشعب لا للأسرة...
علّي عبد الرحيم جلاً:
- أنظرنّ أنّه يمكن التحكّم بالطريقة القديمة في شبّان
اليوم؟! هؤلاء الشبّان الذين اعتادوا القيام بالمظاهرات
والوقوف في وجه الجنود؟!
فقال إبراهيم الفار:

- لا أدري عمّا تتكلّم، ولكنّي متّفق في الرأي مع
أحمد، كلانا أبّ للذكور، والله المستعان...
عمدّ عفت مداعباً:

- كلاهما متحمّس للحكم الديموقراطيّ باللسان
ولكنكهما مستبدّان في بيتكما...
فقال أحمد عبد الجواد كالمحتجّ:
- أتريدي على أنّ أبتّ في مسألة حتّى أجمع كمال
وياسين وأمّ كمال، ثمّ نأخذ الأصوات؟!
فهاهنا زبيدة قاتلة:

- لا تنس زُتوبة من فضلك...
وقال إبراهيم الفار:

- إذا كانت الثورة هي سبب ما نعاين من أولادنا،
فالله يسامح سعد باشا...

وتواصل الشرب والسمر والغناء والمزاح، وتعالّت
الضجّة واختلطت الأصوات، وتقدّم الليل غير عابٍ
بشيء، وكان ينظر إليها فيجدها تنظر إليه أو تنظر إليه
فتجده ينظر إليها، وقال لنفسه: إنّهُ ليس في هذا
الوجود إلّا لذة واحدة، وأراد أن يفصح عن فكرته
ولكنّه لم يفصح، إمّا لأنّ حماسه للإفصاح فتر أولاته لم
يستطع، ولكن كيف جاء هذا... الفتور؟! وتساءل
مرّة أخرى: أمتكون لذة ساعة أم مصاشرة طويلة؟
وزعّت نفسه إلى التماس التسلية والعزاء، ولكنّ ثمة
وفش كأنّ أمواج النيل تمسّ في أذنيه، ومع ذلك
فممتصّف الحلقة السادسة في تناول اليد، سلّ

- أنت أعرف منا بالسّيّد فلان أيّ حيوان ترجعينه؟
فتفكرت قليلاً وهي تتابع يديّ عليّ عبد الرحيم
وهما تصبّبان الويسكي في الكنوس، ثمّ قالت باسمّة:
- الحيارا!

ففسّاءت جليلة:
- ذمّ هذا أم مدح؟
فقال أحمد عبد الجواد:
- المعنى في بطن القاتل!
وعادوا الشراب على أصغى حال، وتناولت زبيدة
العود وغنّت «ارخي الستارة اللي في ربحنا».

وفي نشوة غامرة راح جسد أحمد عبد الجواد يرقص
مع النغمة، رافعاً الكأس التي لم يبق فيها إلّا الثالّة
أمام عينيه، ناظرّاً خلالها إلى المرأة كأنّها يروم أن يراها
بمنظار خرويّ. وبرز الخفاء إن كان ثمة خفاء ووضح
أنّ كلّ شيء - بين أحمد وزبيدة - قد عاد إلى قدميه،
وردّوا الغناء وراء زبيدة، فعلا صوت أحمد في طرب
وسرور حتّى ختمت الأغنية بالتهليل والتصفيق. وما
لبث محمّد عفت أن قال جليلة:

- لمناسبة والسبّ تفضحه عيونّه ما رأيك في أمّ
كلثوم؟
فقال جليلة:

- صوتها - والشهادة لله - جميل، غير أنّها كثيراً ما
تصرّح بالأطفال!

- البعض يقولون إنّها ستكون خليفة منيرة المهديّة،
ومنها من يقول بأنّ صوتها أحجب من صوت منيرة
نفسها...
فهتفت جليلة:

- كلام فارغ! أين هذه الصرصعة من بحة منيرة؟
وقالت زبيدة بازدياء:

- في صوتها شيء يذكّر بالقرّنين، كأنّها مطربة
بعيامة!

فقال أحمد عبد الجواد:
- لم أستطعها، ولكن ما أكثر الذين يهيمون بها،
والحقّ أنّ دولة الصوت زالت بموت سيّ عبده...
فقال محمّد عفت مداعباً:

الحكباء كيف ينطوي العمر ونحن نندري دون أن الطبيب إثمًا أزمة ضغطه، وحُجْم المريض فعلاً طستًا نندري...

- ماذا أسكتك كفى الله الشر؟

- أنا؟! ... شوية راحة...

أجل ما ألدّ الراحة! ضجعة طويلة تقوم بعدها كمال ذاهلاً كأنما يتساءل كيف تقع هذه الأمور الخطيرة صحيحاً، ما ألدّ الصحة، ولكنهم يطاردونك ولا يدعون لك لحظة واحدة تنعم فيها بالسلام، وفداه واستكان، ثم يسترق نظرة إلى شبح أمه، أو عيني النظرة أليست فائنة ولكن هسات الأمواج تعلو فكيف تخدعة الدامعتين أو وجه عائشة الشاحب ويتساءل مرة تسمع الغناء؟

- كلاً، لن نتركه حتى يزف، ما رأيكم؟. يلدي إلى تصوّر النهاية التي يخافها قلبه، تصوّر عالم لا يوجد فيه الأب، فضاء صدره وجزع قلبه، وتساءل الزفة... الزفة!...

- قُم يا جملي...

- أنا؟! ... شوية راحة...

- الزفة... الزفة، كما حدث أول مرة في بيت ذكرى فهجي، فتساءل: أيمكن أن ينسى هذا كما نسي ذاك؟ وتراءت له الدنيا ظلمات فوق ظلمات.

الغورية...

- ذلك عهد قديم...

وعلم ياسين بالحادث في اليوم التالي لوقوعه، فجاء إلى البيت لأول مرة مذ غادره عند زواجه من مريم، وقصد حجرة أبيه رأساً فالتقى عليه نظرة طويلة صامتة ثم انسحب إلى الصالة مذهولاً، فالتقى بأميّة فتصافحا بعد طول فراق، واشتد تأثره وهو يصفاحها فامتلات عيناه بالدموع. وليت السيّد راقداً، ولم يكن أول الأمر يتكلم أو يتحرك، فلما حُجِم دَبّ فيه شيء من الحياة فاستطاع أن ينطق بكلمة أو عبارة مقتضبة

أغلظ النسيان!...

- انظروا...!

- ما له؟!...

- قليلاً من الماء... افتحوا النافذة...!

- يا لطيف يا رب...

- خير... خير، بلّ هذا للتنهل بلقاء البارد...

٤٢

مضى أسبوع على «حادث» الأب، وكان الطبيب يزوره يومياً، وكانت الحال من الشدة بحيث لم يسمح لأحد بمقابلته، حتى الأبناء كانوا يتسلّلون إلى الحجرة على أطراف أصابعهم فيلقون بنظرة على الرراقد متفحصين ما يكسو وجهه من ذبول واستسلام، ثم ينسحبون وفي الوجوه اكفهرار وفي الصدور انقباض، يتبادلون النظرات ويتهرّبون منها في ذات الوقت. قال

مضى أسبوع على «حادث» الأب، وكان الطبيب يزوره يومياً، وكانت الحال من الشدة بحيث لم يسمح لأحد بمقابلته، حتى الأبناء كانوا يتسلّلون إلى الحجرة على أطراف أصابعهم فيلقون بنظرة على الرراقد متفحصين ما يكسو وجهه من ذبول واستسلام، ثم ينسحبون وفي الوجوه اكفهرار وفي الصدور انقباض، يتبادلون النظرات ويتهرّبون منها في ذات الوقت. قال

المرة إثم لا ينقطعون ولكن الطبيب منع المقابلة إلى

حين مرض وبرىء معه حين من الله عليه بالشفاء. فتطلق وجه الرجل الشاحب بالبشر وحديثهم طويلاً عن قضاء الله ورحمته ولطفه وأن على المؤمن أن يواجه مصيره بصبر وإيمان متوكلاً على الله وحده، وغادروا الحجرة إلى حجرة كمال - غلبن الصلاة مرور العواد المنتظر توافدهم - وهناك أقبل ياسين على أمينة، فشذ على يدها وهو يقول:

- لم أحدثك بما في نفسي طيلة الأسبوعين الماضيين، لأن مرض بابا لم يترك لي عقلاً أفكر به، أما الآن وقد أمر الله بالسلامة فأود أن أعتل عن رجوعي إلى البيت دون استئذائك، الحق أنك استقبلتي بالمطف الذي عهدته منك في الأيام السعيدة الخالية، ولكن علي الآن أن أقدم فروض الاعتذار...

فتورد وجه أمينة وهي تقول بتأثر:

- ما فأت فأت يا ياسين، هذا بيتك محل فيه أهلاً وسهلاً حين تشاء...
فقال ياسين مبتاً:

- لا أحب أن أعود إلى الماضي، ولكن أحلف برأس أبي وحياة رضوان أبي أني لفي لم يعمل قط سوءاً لأحد من أهل هذا البيت، وأني أحببتهم جميعاً كما أحب نفسي، ربما يكون الشيطان قد دفعني إلى خطأ، وكل إنسان عرضة لهذا، ولكن قلبي لم تشبه شائبة أبداً...
فوضعت أمينة يدها على منكبيه العريض، وقالت بإخلاص:

- كنت دائماً واحداً من أبنائي، ولا أنكر أنني غضبت مرة، ولكن زال الغضب والحمد لله، فلم يبق إلا الحب القديم، هذا بيتك يا ياسين، أهلاً بك أهلاً...

وجلس ياسين مبتاً، فلما غادرت أمينة الحجرة، قال للحاضرين بلهجة خطابية:

- ما أطيب هذه الرائحة، إن الله لا يضر لمن يسيء إليها، لعن الله الشيطان الذي أورطني يوماً فيا جرح مشاعرها...

فقال له خديجة وهي تحلجه بنظرة ذات معنى:

- لا يكاد يمضي عام حتى يورطك الشيطان في

حين. وكان يردد بصوت خافت «الأمر لله من قبل ومن بعد» و«نسأل الله حسن الختام»، ولكن الحق أنه لم يستشعر اليأس، ولم يحس بدنو النهاية، ولم تضعف ثقته بالحياة التي يحياها رغم آلامه وخوفه، عادوه الأمل بمجرد عودة الوعي إليه، فلم يحدث أحداً بحديث الراحلين كان يوصي أو يودع أو يعهد لمن يبعه الأمر بأسرار عمله وثروته، وعلى العكس من ذلك استدعى جميل الحمزاوي وكلفه ببعض أعمال المبادلة التي لم يكن يعلم عنها شيئاً، كما أرسل كمال إلى خياطة البلدي بخان جعفر ليحضر ملابس جديدة كان عهد بها إليه وليدع ثمن خيطها، لم يكن يذكر الموت إلا بتلك العبارات يرددها كأنها يداري بها قسوة الأقدار. وعند ختام الأسبوع الأول صرح الطبيب بأن مريضه اجتاز المرحلة الدقيقة بسلام، وأنه لم يعد يلزمه إلا بعض الصبر كي يسترد صحته كاملة ويستأنف نشاطه. وأعاد الطبيب على مسمعه ما سبق أن حذرته منه عند ارتفاع ضغطه أول مرة فوعده بالطاعة وعاهد نفسه صادقاً على الإقلاع عن الاستهتار بعد ما تبين له من عواقبه الوخيمة التي أقمته بأن الأمر جد لا هزل، وجعل يتعزى قائلاً: إن الحياة السليمة مع شيء من الحرمان خير على أي حال من المرض.

وفكدا مرت الأزمة بسلام، فاستردت الأسرة أنفاسها ولهجت قلوبها بالشكر، وعند نهاية الأسبوع الثاني سُمح للسيد بمقابلة هواله فكان يوم سعيد، وكانت أسرته أول من احتفل بهذا اليوم فزاره أبنائوه وأصهاره وتعدّدوا إليه لأول مرة منذ الرقاد، وقَلَب الرجل عينيه في وجوههم - ياسين وخديجة وعائشة وإبراهيم شوكت وخليل شوكت - وراح بلباقته - التي لم تخنه في موقفه هذا - يسأل عن الأطفال رضوان وعبد المنعم وأحمد ونعيمة وهاثان وعبد، فقالوا له: إنهم لم يجيئوا بهم حرصاً على راحته، ودعوا له بطول العمر وتنام الصحة والعافية، ثم حذّوه عن حزنهم لما ألم به وسرورهم بسلامته، تكلمت خديجة بصوت متهدج، وتركت عائشة على يده وهي تقبّلها دعة تفني عن كل يان، أما ياسين فقال بزلالة لسان: إنّه مرض معه

مصيبة، كأنك لعبة في يديه...
 فنظر إليها بعين كأنها يتوسل إليها أن تعفيه من مباحة:
 لسانها، وإذا بمأشاة تقول مدافعة عنه:
 - ذاك تاريخ مضى وانتهى...
 ففسألت خديجة في تحكم:
 - لم لم تأت معك بالدماء «لشخي» لنا هذا اليوم المبارك؟
 فقال ياسين في كبرياء مصطنع:
 - لم تعد زوجتي تحبي أفرأخاً بعد، إنها الآن سيّدة بكل ما في هذه الكلمة من معنى...
 فقالت خديجة بلهجة جدية، لا أثر للتهكم فيها:
 - يا خسارتك يا ياسين، ربنا يتوب عليك ويصليك...
 قال إبراهيم شوكت، كأنها يعتذر عن صراحة زوجته:
 - لا تؤاخذني يا ممي ياسين، ولكن ما حيلتي إنها اختك!
 فقال ياسين باسماً:
 - كان الله في عونك يا ممي إبراهيم!
 وهنا قالت عائشة وهي تنتهد:
 - الآن وقد أخذ الله بيد بابا، فإني أصارحكم بأنني لن أنسى ما حبيت منظره أوّل يوم رأيته، ربنا لا يحكم على أحد بالمرض...
 خديجة بصدق وحاس:
 - هذه الحياة لا تساوي بدونه قلامة ظفر...
 فقال ياسين بتأثر:
 - إنّه ملاذنا عند كلّ شدة، رجل ولا كلّ الرجال!...
 وأنا؟ أنذكر موقفك بركن الحجرة وقد أطبق عليك اليأس؟ وكيف تنطق قلبي وأنا أرى مهابت أمي، نعرف الموت معنى من المعاني أمّا إذا هلّ ظلمه من بعيد فتدور بنا الأرض، ومع ذلك فستوالى طعنات الألم بعدد من تفقد بين الأحباء، وستموت أنت أيضاً خلفاً وراثة الأسال، والحياة رغبة ولو ابتليت بالحب. وتعالى من الطريق زين جرس حنطوره، فوثبت عائشة

إلى النافذة ثم نظرت من خصاصها، التفت قائلة في مباحة:
 - زوّار من الأكابر!
 وتتابع وصول العوّاد من الأصدقاء الكثرين الذين استلأت بهم حيلة الأب، موظفين وحمامين وأعيان وتجّار، وكانت منهم قلّة لم تحج البيت من قبل، وآخرون لم يأتوا إلّا مدعوّين لبعض الولائم التي يولمها السيّد في المناسبات، وغير هؤلاء وأولئك رجال تُرى وجوههم كثيراً في الصاغة والسكّة الجديدة، والجميع أصدقاء ولكنهم ليسوا من طبقة عمّد حنّت وصاحبه. وقد مكثوا قليلاً مراعاة لظروف الزيارة، ولكن الأبناء وجدوا في مظاهرهم الفاخرة وعرياتهم ذوات الجياد المظّهة ما أشبع خيالهم وزهوهم، وقالت عائشة وهي لا تزال عوّق المراقبة:
 - ها هم الأحباب قد وصلوا...
 وترامت أصوات عمّد حنّت وهلّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار وهم يتصاحكون ويرفعون أصواتهم بالشكر والحمد، فقال ياسين:
 - لم يعد في الدنيا أصدقاء مثل هؤلاء...
 فأمن على قوله إبراهيم شوكت وخليل، على حين قال كمال بحزن لم يفتن إليه أحد:
 - قلّ أن تنجح الحياة لأصدقائه أن يجتمع شملهم طويلاً كما أتاحت لهؤلاء!
 وعاد ياسين يقول كالتمعجب:
 - لم يمرّ يوم دون أن يزوروا البيت، وما غادره في أيّام الشدة إلّا والدموع في أعينهم...
 فقال إبراهيم شوكت:
 - لا تعجب، فقد عاشروه أكثر منكم أنتم! وهنا ذهبت خديجة إلى المطبخ لتقدّم مساعداتها. أمّا تيّار العوّاد فلم ينقطع، وقد جاء جميل الحزواوي بعد أن أخلق الدكان، وتبعه غنيم حميدو صاحب معصرة الجالّية، ثم عمّد الجمعي بائع الكسكي بالصالحية. وإذا بمأشاة تبتغ وهي تشير إلى الطريق من وراء النافذة:
 - الشيخ متوكّي عبد الصمد! نرى يستطيع أن

يصعد إلى الدور فوقان؟!

وراح الشيخ يقطع الفناء متوكِّئاً على عصاه، متنحنِّحاً - من حين لآخر - لبيته من في طريقه إلى حضوره. وأجاب ياسين:

- إنه يستطيع أن يصعد إلى قمة مثنّة... (ثمّ مجيئاً خليل شوكت الذي تساءل عن عمر الرجل بعينه وأصابعه)... بين الثائنين والتسعين! ولكن لا تسلّ عن صحته!...

وتساءل كيال:

- ألم يترجّح في حياته الطويلة؟

فقال ياسين:

- يقال إنّه كان زوجاً وأباً، ولكنّ زوجه وأبنائه انتقلوا إلى رحمة الله.

وهتفت عائشة مرّة أخرى، ولم تكن برحت موقفها من النافذة:

- انظروا! هذا خواجه! من يكون يا ترى؟...

كان يقطع الفناء ملفياً على ما حوله نظرة متركّدة متسائلة، واضعاً على رأسه قبعة مستديرة من الخوص لاح تحت حافتها أنف مجذور مقوَّس وشارب منقوش، فقال إبراهيم:

- لعله صائغ من تجار الصباغة!...

فتتمت ياسين في حيرة:

- ولكنّه يونانيّ السمحة، أين يا ترى رأيت هذا الوجه؟!

وجاء شابّ ضرير ذو نظارة سوداء، يحوّه من يده رجل من أهل البلد ملكياً بكوفية رافلاً في معطف أسود طويل يبرز من تحت طرفه جلباب مقلم، فمرّفها ياسين - من أوّل نظرة - وهو من الدهش في نهاية: أمّا الشابّ الضرير فكان عبده عازف القانون بتخت زيدة، وأمّا الآخر فصاحب قهوة مشهورة بوجه البركة يدهي المهلبوني، فترة وبلطجي وبرجي ألخ...،

وسمع خليل وهو يقول:

- الضرير قانونجيّ العلة زيدة!...

فتساءل ياسين متصنّفاً الدهش:

- وكيف عرف بابا؟

فابتسم إبراهيم شوكت وهو يقول:

- والدك من السميعة القدامى، ولا غرابة في أن يعرفه جميع أهل الفن!...

وابتسمت عائشة دون أن تدبر رأسها المتجه إلى الطريق لتداوي ابتسامتها، ياسين وكيال رأيا ابتسامة إبراهيم وفطنوا إلى ما وراءها. وأخيراً جاءت سويدان جارية آل شوكت تتعرّض في خطوات الكبر، فتتمت خليل وهو يشير إليها ورسول أمنا للسؤال عن السيّد.

وكانت حرم المرحوم شوكت قد زارت السيّد مرّة، ولكنّها لم تستطع أن تعيد الكزة لما اعترافها في الأيام الأخيرة من الآم رومانزيّة تحالفت مع الكبر عليها.

وما لبثت خديجة أن عادت من المطبخ وهي تقول مبدية التشكي مضمرة المبالاة:

- يلزمنا قهوجيّ ليقدم القهوة بنفسه!...

كان السيّد جالساً في فراشه، مسند الظهر إلى وسادة منكسرة، ساجباً الغطاء حتّى عنقه، على حين جلس الموزاد على الكنبه والكراسي التي أحدثت بالفراش، وبدأ سعيّداً رغم ضعفه، فلم يكن يسعه شيء كالتفاف الأصدقاء حوله وتسابقهم إلى مجاملته ورعاية عهده، وإذا كان قد بلاء المرض بالشرّ فإنّه!

ينكر حسسته فيما وجد من جزع إخوانه لما أصاب وتحسّروهم على غيابه ومدى إحساسهم بالوحشة في مجالسهم أثناء اعتكافه، وكأنّما أراد أن يستزيد من المعطف، فجعل يقصّ عليهم ما لاقى من الآم وسأم، واستباح في سبيل ذلك أن يركّ ويبالغ، فقال متنهّداً:

- في الأيام الأولى من المرض اتقنت فيما بيني وبين نفسي بأنّي انتهيت، فجعلت أتشهد وأقرأ الصمديّة، وفيما بين هذا وذاك أذكركم كثيراً فتفسقوا على فكرة فراقكم...

فعلا أكثر من صوت قائلاً:

- لا كانت الدنيا بدونك يا سيّد أحمد!...

وقال عليّ عبد الرحيم بتأثر:

- سيترك مرضك هذا في نفسي أثراً لن يزول مع

الأيام...

وقال محمّد حقّت بصوت خافت:

هتف الشيخ متوئلي عبد الصمد، وهو يلتفت نحو
الخوaja مسلماً نحوه بصراً لا يكاد يرى:

- الآن عرفتك يا وجه المصائب، عندما سمعت
صوتك في المرة الأولى تساءلت أين سمعت هذا
الشیطان؟!

وسأل عمّد المعجمي بائع الكسكي الخوaja
مانولي، وهو يغمز بعينه ناحية الشيخ متوئلي:

- ألم يكن الشيخ متوئلي من زبائنك يا مانولي؟
فقال الخوaja باسماً:

- فمه ملآن بالطعام، فأين يضع الخمر يا حبيبي؟
وصاح عبد الصمد وهو يشدّ على مقبض عصاه:
- تأذّب يا مانولي!

فصاح به المعجمي:

- أنتكر يا شيخ متوئلي أنك كنت أكبر حشّاش قبل
أن يقطع الكبر أنفاسك؟

فلوّح الشيخ بيده عتجاً، وهو يقول:

- ليس الحشيش حراماً، أجريت صلاة الفجر وأنت
مستول؟ الله أكبر... الله أكبر!

ووجد أحمد عبد الجواد الهايوني صامتاً، فالتفت
إليه باسماً وهو يقول على سبيل الجمالة:

- كيف حالك يا معلّم؟ والله زمان!...

فقال الهايوني بصوت كالنمير:

- والله زمان زمان والله! أنت السبب يا سيّد أحمد
وأنت المهاجر، ولكنّ لِمَا قال لي السيّد عليّ عبد الرحيم

إنّ عدوك راقد ذكرت أيام الصبوات كأنها لم تنقطع،
وقلت لنفسي: لا كان الوفا إن لم أر بنفسي الرجل

الحبيب، رجل المروءة والفرشة والأنس، ولولا الملامة
لجئت معي بفكومة وعغلي ودولت وبهاوند، كلّهون

مشتاقات إلى رؤيتك، يا سلام يا سي أحمد، أنت أنت
سواء شرفتنا كلّ ليلة أم هجرتنا سنين!...

ثمّ وهو يجهل عينيه الحديديتين:

- هجرتمونا كلّكم، البركة في السيّد عليّ. ربّنا ينجّي
لنا سيّة القليّ التي تجلبه إلينا، من فأت قديمه تاه،

عندنا أصل الأّنس، ماذا غيّبكم عنّا؟ لو كانت التوبة
لعلزناكم، ولكنّ التوبة لم يثن أوانها، ربّنا يبعدها

- أتذكر تلك الليلة؟ ربّاه لقد شَيّتنا!...

فقال غنيم حميدو نحو الفراش قليلاً، وقال:

- نجباك الذي نجّانا من الإنجليز ليلة بَرّابة
الفتوح!...

تلك الأيام السعيدة، أيّام الصّحة والعشق، وفهمي
كان النجابة والأمل الموعود.

- الحمد لله يا سيّد حميدو!...

وقال الشيخ متوئلي عبد الصمد:

- لِمَ أسألك كم أعطيت الطبيب بدون وجه حقّ؟
ولا داعي للجواب، ولكنّي أدعوك إلى إطعام أولياء

الحسين...

فقاطعه عمّد عَقَّت متسائلاً:

- وأنت يا شيخ متوئلي، أَلست من أولياء الحسين؟!

وضّح هذه النقطة...

فاستورد الشيخ - دون مبالاة - وهو يضرب الأرض
بعصاه عقب كلّ عبارة:

- أطعم أولياء الحسين وأنا على رأسهم، أراد عمّد
عَقَّت أم لم يرد، وعليه هو أيضاً أن يطعمهم إكراماً

لك، وأنا على رأسهم، وعليك أن تؤدّي فريضة الحجّ
هذا العام، ربا حُبّاً لو أخذتني معك ليضاعف الله

لك الجزاء...

ما أطيبك وأفرك إلى قلبي يا شيخ متوئلي، أنت
من معالم الزمن.

- أعدك يا شيخ متوئلي بأنّ أخذك معي إلى المحجاز،

إذا أذن الرّحمن.

عند ذاك قال الخوaja، وكان قد خلع قبّعة عن شعر
خفيف ناصع البياض:

- شوية زعل، الزعل سبب كلّ شيء، أترك الزعل

ترجع مثل اليمب.

مانولي الذي باعك الخمر طيلة خمسة وثلاثين عاماً،
بائع السعادة وسمسار القرافة.

- هذه عاقبة بضاعتك يا مانولي!

فنظر الخوaja في بقية وجوه الزبائن، وقال:

- لم يقل أحمد إنّ الخمر تأتي بالمرض، كلام فارغ،
الانبساط والضحك والفرشة تسبّب المرض؟!

بطل العمر والأفراح!

أحمد عبد الجواد وهو يشير إلى نفسه:

- ها أنت ترى أننا قد انتهينا!...

فقال المعلم بحماس:

- لا تقل هذا يا سيد الرجال، وعكة وغضي إلى غير رجعة، لن أتركك حتى تنذر أن تعود إلى وجه الركة - ولو مرة - إذا أخذ الله بيدك وقمت بالسلامة!...

فقال محمد عفت:

- الزمن تغير يا معلم همايوني، أين وجه البركة الذي عرفناه قديمًا؟ ابحت عنه في التاريخ، أما ما بقي منه فمراح الشبان من أهل اليوم، كيف نسير بينهم وفيهم أبناؤنا؟

وقال إبراهيم الفار:

- ولا تنس أننا لا نستطيع أن نغالط ربنا في العمر والصحة، انتهينا كما قال سي أحمد، ما مئًا إلا من اضطر إلى زيارة الطبيب ليقول له عندك، وعندك، لا تشرب... لا تأكل... لا تتنفس، وغير ذلك من الوصايا المرفقة، ألم تسمع عن مرض الضغط يا معلم همايوني؟

فقال المعلم وهو يحدجه بنظرة:

- داي أي مرض بسكرة وضحكة ولعبة، وإن وجدت له أثرًا بعد ذلك الزقه في كبدي!

فصاح مانولي:

- قلت له هذا وحياتك أنت!

وقال محمد العجمي، كأنما يتم ما بدأ صاحبه:

- ولا تنس المنزل الأصيل يا معلم...

فهز الشيخ متولي عبد الصمد رأسه متمسبًا، وتساهل في حيرة:

- دلوني يا أهل الخير أين أنا، أي بيت ابن عبد

الجواد أم في غرزة أم في حانة؟ دلوني يا هو!...

تساهل الهمايوني وهو يرمق الشيخ متولي شزرا:

- من صاحبكم؟

- ولي كلّه خير...

فقال له متمسبًا:

- اقرأ لي الطالع إن كنت وليًا!

فهتف متولي عبد الصمد:

- إمّا السجن إمّا المشتة!...

فلم يتالك الهمايوني من أن يضمحك عاليًا، ثم

قال:

- حقًا إنه ولي، فهذه هي النهاية المتوقعة (ثم غاطبًا الشيخ) لكن اضبط لسانك، وألا حققت بك نبوءتك!...

عليّ عبد الرحيم، وهو يقرب رأسه من وجه

السيد:

- قم يا حبيبي، الدنيا لا تساوي قشرة بصلة من غيرك، ماذا جرى لنا يا أحمد؟ أترى آله يحسن بنا ألا نستعين بالمرض بعد ذلك؟ كان أبناؤنا يتزوجون وهم

فوق السبعين، فإذا جرى؟!

متولي عبد الصمد بعنف تطاير معه الرذاذ من فيه:

- كان أبناؤكم مؤمنين طاهرين، لم يسكروا ولم يفسقوا، في هذا الجواب الذي تريد...

وأجاب أحمد عبد الجواد صديقه قائلًا:

- قال لي الطبيب إنّ التباقي في الاستهانة مع الضغط عاقبته الشلل والعياذ بالله. هذا ما وقع لصاحبنا الوديعي أكرمهم الله بحسن الختام، إني أسأل الله إذا حمّ القضاء أن يكرمني بالموت، أما الرقاد أعوأنا بلا حراك... اللهم رحمتك!

وهنا استأذن العجمي وحميدو ومسانري في الانصراف، وذهبوا وهم يدهون للسيد بالصحة والعمر للمديد. ومال محمد عفت على السيد، ثم همس بصوت هامس:

- جلييلة تقررك السلام، وكم وذت لو تراك بنفسها!...

فالتقطت أذن عبده القانونجي مقالته، ففرقع بأصابعه، وقال:

- وأنا مبعوث السلطنة إليك، وقد كادت أن تتزنى بزني الرجال لتحضر إليك بنفسها لولا أن أشفت عليك من العواقب غير المتوقعة، فأرسلتني وقالت لي قل له:

وتنحني مرة مرة، وغني بصوت خافت:

أمانة يا رايح يمه تبوس لي الحلو من فمه
وقل له عبدك المزمع ذليل
فابتسم الهايوني كاشفاً عن طاقم ذهبي، وقال:
- نعم الدواء، جرب هذا ولا تلتني بالآ إلى ولي الله
المتنبي بالمشائق.
زبيدة؟! لا شوق بي إلى شيء. دنيا المرض شيء
كريم، ولو وقع المحذور لمت سكران، ألا يعني هذا أنه
لا بد من صفحة جديدة؟!
وقال له إبراهيم الفار بصوت خافت:

- تعاهدنا على ألا نذوق الخمر وأنت وراقد...
- إني أعفيكم من تعهدكم، وسامحوني عفاً فلتاً
على عبد الرحيم مبتسباً في إغراء:
- لو كان في الإيمان أن نحتفل هنا الليلة بشفاك!
متولي عبد الصمد موجهها خطابه للجمع:
- أصدقكم إلى التوبة والحق...
الهايوني ههنا:
- كآلك عسكري في غرزة.

وبإشارة متفق عليها من الفار، تقاربت رموس
محمد عفت وعليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار فوق رأس
السيد، وراحوا يثنون بصوت خافت:
أما أنت مش قد الحمرة بس تسكر ليه.
على نعمة:

أما أنت مش قد الهوى بس تمسك ليه.
على حين جعل الشيخ متولي عبد الصمد يتلو آيات
من سورة التوبة، أما أحمد عبد الجود فقد أشرق في
الضحك حتى دمت عيناه، ومرّ الوقت بلا حساب
حتى بدا في وجه الشيخ متولي عبد الصمد الجزع،
فقال:

- ليكن في معلومكم أنني آخر من سينادر هذه
الحجرة، لأنني أريد أن أدخل إلى ابن عبد الجواد...

- ٤٣ -

غادر أحمد عبد الجواد البيت بعد أسبوعين آخرين،
فكان أول ما فعله أن صحب ياسين وكيال إلى زيارة

الحسين والصلاة في مسجده شكراً لله. وكان نبأ وفاة
عليّ فهمي كامل قد نشر في الصحف، فتألمه السيد
أحمد طويلاً وخطب ابنه - وهم يغادرون البيت -
قائلاً: - سقط ميتاً وهو يحطّ في جمع حافل، وما أنا
أسمى على قدمي بعد رقاد كنت أرى فيه الموت رؤية
العين، فمتنا يستطيع أن يعلم الغيب؟! حقاً إن
الأحبار بيد الله، وإنه لكلّ أجل كتاب...

كان عليه أن يصبر أياماً وأسابيع حتى يستردّ وزنه،
غير أنه بدا رغم ذلك مستوفياً أي وقاره وجهاله. وقد
سار في المقدمة وتبعه ياسين وكيال. وهو منظر لم يَر
بهيته الكلمة منذ وفاة فهمي. وفي الطريق ما بين بين
القصرين والجامع لمس الشاهان المكناة التي يحظى بها
أبوهما في الحليّ كلّ، فما من تاجر من أصحاب
الدكاكين القائمة على جانبي الطريق إلّا وقد صافحه
وتلقاه بين ذراعيه وهو يبتسّمه بالسلامة. واستجابت نفسا
ياسين وكيال لهذه المودة الحارة المتبادلة، فملكها
السرور والزهو وارتسمت على ثغريهما ابتسامة لم
تفارقها طوال الطريق، غير أن ياسين تساءل في براءة:
لم لم يحظ بمثل مكانة أبيه وكلاهما في الجلال والجلال
والعيوب سواء؟! أما كيال بالرغم من تأثره الوقفيّ
استدعى أفكاره الغائبة عن هذه المكانة المرسوقة
ليسيرها بعين جديدة. كانت في الماضي تتمثل لعينيه
الصغيرتين آية للجلال والعظمة أما الآن فإنه يراها لا
شيء أو لا شيء بالقياس إلى مثله العليا، ما هي إلّا
المكانة التي يحظى بها رجل طيّب القلب لطيف المعشر
جَمّ المرومة، والعظمة شيء قد يناقش ذلك كلّ
المنافضة، فهي دويّ يززل قلوب الحاملين ويطرّ النوم
عن أمين الرافدين، وهي عسيّة بأن تستثير الكراهية لا
الحبّ، والسخط لا الرضى، والعداوة لا المودة، إنها
الكشف والهدم والبناء، ولكن أليس من السعادة أن
ينعم الإنسان بمثل هذا الحبّ والإجلال؟ بل وأي
ذلك أنّ عظمة العظاء تقاس أحياناً بمقدار تضحيتهن
بالحبّ والطمأنينة في سبيل أهداف أسمى، على أيّ
حال هو رجل سعيد فليهنأ بسعادته. انظر إليه ما
أجله! كذلك ياسين ما أطفاه! وما أعجب منطري

مكان فمق يشب الإنسان عن طوقه ويعتمد على نفسه؟ وهذا الصوت الجهرى الذي يترامى من أقصى الجامع يذكر الناس بالآخرة فمق كان للزمن آخر؟ وما أجل أن ترى إنساناً يغالب الأوهام ليغلبها ولكن مق ينتهي القتال ويعلم المقاتل أنه سعيد؟ وإن الدنيا لتبدو لمعني غريبة فهل تراها خلقت أمس؟ وهذان الرجلان هما أبي وأخي فلم لا يكون جميع الناس آبائي وإخوتي؟ وهذا القلب الذي أحله بين جنبي كيف ارتضى أن يسومني العذاب ألواناً؟ وما أكثر أن أرطم كل ساعة بشخص لا أوثقه فلماذا نزع الذي أهواه من دونهم إلى أقصى الأرض؟

ولسأ فرغوا من صلاتهم، قال الأب:

- لنمكث قليلاً قبل أن نقوم للطواف.

وظلوا متربعتين صامتتين، حتى عاد الأب يقول بصوت رقيق:

- لم نجتمع هنا منذ فلك اليوم!

فقال ياسين بتأثر:

- الفاتحة على روح فهمي...

وتليت الفاتحة، ثم سأل الأب ياسين فيها يشبه الأرتياب:

- ترى هل شغلتك أمور الدنيا عن زيارة الحسين؟

فقال ياسين الذي لم يزر الجامع طوال هذه الأعوام إلا مرّات معدودات:

- لا يمكن أن يمرّ أسبوع دون أن أزور سيدي!

فالتفت الأب نحو كمال، ووقفه بنظرة كأنها تسأله «وأنت؟»، فقال كمال وهو يجد استحياء:

- وأنا كذلك!

فقال الأب بخشوع:

- إنه حبيبنا وشفيعنا إلى جنته يوم لا ترجى فيه أم ولا أب...

قام من الموضع هذه المرة - بعد أن ألقى عليه درساً لا ينسى - وهو يؤمن ببطشه وخفاف عواقبه فصدقت نيته على التوبة، وقد كان يؤمن دائماً بأن التوبة آتية مهما طال بها الانتظار، فافتتح بأن تأجلها بعد ذلك ضرب من السفة والكفر بنعمة الله الرحيم. وكان كلما

بينهما كأن صورة تنكّرية في كرنفال، ازمع ما شاء لك الزعم أن الجبال حلية النساء لا الرجال فلن يحو هذا من ذاكرتك موقف الكشك الرهيب. وقد برئ أبي من الضغط فمق أبرأ من الحب؟ والحب مرض غير أنه كالسرطان لم تكتشف جرثومته بعد. إن حسين شدّاد يقول في رسالته الأخيرة: «إن باريس عاصمة الجبال والحب» فهل هي أيضاً عاصمة العذاب. وقد بدأ العزيز يبعث برسائله كأنها يقطرها من دمه الغالي، أريد عالمياً لا تُخدع فيه القلوب ولا تُخدع.

عند منعطف خان جعفر لاح لهم الجامع الكبير، فسمع أباه وهو يقول من الأعالي بصوت جمع بين رقة التحية وحرارة الاستغاثلة «يا حسين» ثم حث خطاه فتبعه ياسين وهو ينظر إلى الجامع وعمل شفثية ابتسامة غامضة. أيدور بخلد أبيه أنه لم يتبعه إلى هذه الزيارة المباركة إلا استجابة لرغبته هو دون أدنى مشاركة في عقيدته؟! أم هذا الجامع فلم يعد في نظره إلا رمزاً من رموز الحلية التي ابتلي بها قلبه. كان في الماضي يقف تحت مثانته وقلبه خفاق ودعمه منحنف وصدره مرتعش لجيشات الوجد والإيمان والأمل، واليوم يقترب منه وهو لا يراه إلا مجموعة ضخمّة من الأحجار والحديد والحشب والطلاء تحتل مساحة واسعة من الأرض بغير وجه حق! بيد أنه لا مناص من تمثيل دور المؤمن حتى تنتهي الزيارة رعاية لحقوق الأبوّة واحتراماً للناس أو اتقاء لشهرهم، وهو سلوك ينافي الكرامة والصدق، أريد عالمياً يعيش فيه الإنسان حرّاً بلا خوف ولا إكراه!

دخلوا أهدبتهم ودخلوا تباعاً، فألحهم الأب إلى المحراب ودعا ابنه إلى الصلاة تحية للمسجد، ثم رفع يديه إلى رأسه مقيماً الصلاة قائماً به. استغرق الأب في الصلاة كعادته فأرغى جفونه وامتلأ، ونسي ياسين كل شيء إلا أنه بين يدي الله الغفور الرحيم. وجعل هو يحرك شفثية دون أن يقول شيئاً، وانحنى واستوى ثم ركع وسجد وكأنه يؤدّي بعض الحركات الرياضية الغائرة، وقال لنفسه: إن أقدم الأثار المتخلّفة على وجه الأرض أو في باطنها معابد وحتى اليوم لا يخلو منها

طافت به ذكريات اللهو تمرّى بما ينتظره في حياته من مسرات بريئة، كالصدقة والطرب والفكاهة، لذلك دعا الله أن يحفظه من وساوس الشيطان وأن يثبت قدميه فيها اعزّج من توبة وراح يتلو ما تيسر من السور القصار التي يحفظها.

ونبض فنبضا وراءه، ثم مضوا إلى الضريح، وهناك استقبلهم عرف طيّب يذكو في المكان وغمغمة تلاوات تهمس في الأركان، فطافوا بالضريح بين جموع الطائفين، وارتفعت عينها كيال إلى العمامة الكبيرة الخضراء، ثم استقرّت ملياً فوق الباب الخشبي الذي ظلما لثنته شفتاه. ففارق بين عهد وعهد، وحال وحال، وذكر كيف انجلى سرّ هذا القبر عن أوّل مأساة في حياته، ثم كيف تابعت اللامي بعد ذلك غير مبقية على حبّ أو عقيدة أو صداقة، وكيف آتته رغم ذلك كله لا يزال واقفاً على قدميه، يرسو إلى الحقيقة رنو العابد، غير آبه لطعنات الألم، حتّى المرارة انداحت على شفتيه فارستمت ابتسامة، أمّا السعادة العمياء التي تغني وجوه الطائفين من حوله فقد نبذها غير آسف، وكيف يشتري السعادة بالنور وقد عاهد نفسه على أن يعيش مفتّح العينين، مؤثراً القلق الحيّ على الطمانينة الخاملة، ويقظة السهاد على راحة النوم.

ولمّا فرغوا من طوافهم دعاهما الأب إلى الجلوس ملياً في منوى الضريح، فالتجّهوا إلى ركن وجلسوا متقاربين، ولجح السيّد بعض معارفه، فاقبلوا عليه مصافحين مهتئين، وجالسه نفر منهم، وكان أكثرهم يعرفون ياسين - إمّا عن طريق دكان والده وإمّا عن طريق مدرسة النحاسين - أمّا كيال فلم يكد يعرفه أحد منهم، وقد لفتت نحاتته أنظار بعضهم فدأبب السيّد قائلاً:

- ما لاينك هذا كالبرص؟

فبادره السيّد قائلاً، وكأنّه يرّد تحية بأحسن منها:

- أنت الأبرص!

وابتسم ياسين، وابتسم كيال، وكان أوّل مرّة يكلّم فيها على شخصيّة أبيه والسريّة التي سمع عنها الكثير. هكذا بدا الأب رجلاً لا تقوته النكتة حتّى وهو

في مقام الحمد والتوبة أمام ضريح الحسين. وقد بحث ذلك ياسين على التفكير في مستقبل أبيه، فساءل: ترى هل يعود إلى مسرّاته المعروفة بعد ما كان من أمر المرض معه...؟ وقال لنفسه: وإن معرفة ذلك عندي من الدرجة الأولى من الأهمية.

- ٤٤ -

كانت أمّ حنفي مرتبّة على الحصى بالصلاة، بينما جلست نعيمة ابنة عائشة وعبد المنعم وأحد ابنا خديجة على الكتبة قبالتها. وكانت النافلتان المطلّتان على فناء البيت مفشوحتين ليطلقا من جوّ أغسطس المقيم بالحرارة والرطوبة، غير أنّه لم تكد تنفوس نسيمة واحدة فظلّ المصباح الكبير المتدلّي من السقف يرسل نوره على الصالة وهو ثابت، أمّا الحجرات بدبت مظلمة صامتة. وكانت أمّ حنفي خافضة الرأس، شابكة ذراعيها فوق صدرها، ترفع عينها إلى الصغار الجالسين على الكتبة لحظة ثمّ تنفضها، ولم تكن تتكلّم ولكنّ شفتيها لم تتوقّفا عن الحركة، وتساءل عبد المنعم:

- إلى متى يبقى خالي كيال فوق السطح؟

فتمتمت أمّ حنفي:

- الجوّ حارّ هنا، لمّ لم تبغوا معه؟

- الدنيا ظلام، ونعيمة تحاف الحشرات.

وهنا قال أحمد في ضجر:

- إلى متى نبقي هنا؟ هذا هو الأسبوع الثاني، إنّي

أعدّ الآيام يوماً يوماً، وأريد أن أعود إلى بابا وبابا...

أمّ حنفي يبرجاء:

- إن شاء الله تعودون جيئاً وأنتم على أسعد حال،

ادعوا الله فإنّه يستجيب للصغار الأطهار...

فقال عبد المنعم:

- إننا ندعوه قبل النوم وعقب الاستيقاظ كما

نوصيننا...

فقالت المرأة:

- ادعوه في كلّ وقت، ادعوه الآن، هو وحده القادر

على كشف غمّتنا...

سي عبد المنعم وسي أحمد ليلعبا معك، وخالك كمال
يحبك قد عينيه، وستعودين قريباً إلى ماما وبابا وعشيان
وعمد... لا تبكي يا ستي الصغيرة وادعي لبابا
وأخويك بالشفاء...

أحمد متأقفاً:

- أسبوعان عدديتها عل أصابعي، ثم إن شققتنا في
الدور الثالث والمرضى في الدور الثاني، لم نعود إلى
شققتنا ونأخذ معنا نعيمة؟
أم حنفي كالحدرة وهي تنفخ أصبعها على
شفيتها:

- سيفضب خالك كمال إذا سمع بما قلت، إنه
يشترى لكم الشكولاتة واللب، فكيف تقول إنك لا
ترغب في البقاء معه؟ لم تعودوا صغاراً، أنت يا سي
عبد المنعم ستدخل المدرسة الابتدائية بعد شهر،
وكل ذلك أنت يا نعيمة!

فقال أحمد متراجفاً بعض الشيء:

- دعونا على الأقل نخرج لنلعب في الطريق!
فأمن عبد المنعم على الاقتراح قائلاً:
- كلام معقول يا أم حنفي، لم نأخرج إلى
الطريق لنلعب؟

فقالت أم حنفي بحزم:

- عندكم الفناء وهو يسع الدنيا والأخرة، وعندكم
السطح أيضاً، ماذا تريدون أكثر من ذلك؟ كان سي
كمال وهو صغير لا يلعب إلا في البيت، وعندما أفرغ
من شغلي أقص عليكم الحكايات... ألا تحبون
ذلك؟

أحمد محتجاً:

- أمس قلت لنا إن حكاياتك انتهت!

نعيمة وهي تحبب عينها:

- خالتي خديجة عندها حكايات أكثر، وأين ماما
لنغني معاً؟

أم حنفي باستعطاف:

- طملاً رجوتك أن تغني لنا وأنت ترفضين!

- لا أغني هنا لا أغني وعشيان وعمد مرضى...

المرأة وهي تهبط:

ويسط عبد المنعم راحته، ثم نظر إلى أحمد داعياً
إياه إلى مشاركته، ففعل الآخر مثله دون أن يزايل
السحر وجهه، ثم قالاً معاً كما تعودا أن يقولوا في الأيام
الآخرة:

- يا رب أشف عمتنا خليل، وعشيان وعمد ابني
عمتنا، حتى نعود إلى بيتنا مجبري الحاطر...

وبدا التأثير في وجه نعيمة فأرخت أساريرها في حزن
واغرورقت عينها الزرقاوان بالدموع، وهتفت:

- بابا وعشيان وعمد كيف حالهم؟ وماما أريد أن
أراها، أريد أن أراهم جميعاً...

فتحول عبد المنعم إليها قائلاً بصوت المواسي:

- لا تبكي يا نعيمة. قلت لك كثيراً لا تبكي،
عني بخير، عشيان بخير، محمد بخير، وستعود قريباً
إلى بيتنا، جدتي تؤكد هذا، وخالتي كمال أكله أيضاً منذ
قليل...

فقالت نعيمة وهي تجهش في البكاء:

- كل يوم أسمع هذا، ولكنهم لا يسمحون لنا
بالعودة إليهم، أريد أن أرى بابا وعشيان وعمد، أريد
ماما...

قال أحمد بتلحّر:

- أنا أريد بابا وماما أيضاً...

عبد المنعم:

- ستعود عندما يشفون.

هتفت نعيمة بجزع:

- لنعد الآن، أريد أن أرجع، لم يبعدونا عنهم؟

فأجابها عبد المنعم:

- إنهم يخافون أن نشم المرض!

قالت نعيمة بعناد:

- ماما هناك، وخالتي خديجة هناك، وعني إبراهيم

هناك، وجدي هناك، فلماذا لا يشمون المرض؟

- لأنهم كبار...

- إذا كان الكبار لا يشمون المرض، فلماذا مرض

بابا؟...

تهتبت أم حنفي، وقالت برقة:

- هل ضابقتك شيء؟... هذا بيتك أيضاً، وما هو

- ساجَهْزْ لكم المشاء ثم ننام، جبن ويَطْلَخ
وشْتَام، هه؟!

كان كمال جالسًا على كرسيٍّ في جانب السطح
المكتشوف فيما يلي سقفة الياسمين واللبلاب، لا يكاد
يُرى في الظلام لولا جلبابه الأبيض الفضفاض، وكان
مادًا ساقبيه في استرخاءه، مصبِّدًا رأسه إلى الأفق
المرصع بالنجوم، مستغرقًا في التفكير، يكتفه صمت
لا يكذره شيء إلا أن يرتفع صوت من الطريق أو
تنبعث فوارة عن حجرة الدجاج، وكان في وجهه أثر مما
طرا على الأسرة في الأسبوعين الآخرين، فقد اختلَّ
نظام البيت المهدود وانضحت منه أمه إلا في أوقات
نادرة، وتشبَّع جوّه بنبْز المساجين الصغار الثلاثة
الذين ييمون في رحبته متسائلين عن «باباه وماما»
حتى أصبته الحيل في ملافتهم وملاعبتهم.

أما في السُكْرِية فإنَّ عائشة لم تعد تغني وتضحك كما
قيل كثيرًا عنها، ولكنها تقضي الليل ساهرة بين أسرة
المرضى الأعزاء، زوجها وطفليها، وكم ثَمَى صغيرًا لو
تعود عائشة إلى بيتها القديم، وكم يشفق اليوم من أن
تضطر إلى العودة مبهمة الجناح كسيرة القلب، وأما
أمه فتهمس في أذنه «لا تزر السُكْرِية، وإذا زرتها فلا
تُكث طويلاً» وإنه ليُزورها من حين لآخر، ثم
يفادها تفوح من راحته رائحة المَطْهَرات الغريبة
ويستحود القلق على فولده، وأعجب شيء أن جراثيم
التيفود - كسائر الجراثيم - آية في الضبالة، لا تراها
العين، ولكنها تستطيع أن توقف تيار الحياة، وأن
تتحكم في مصير المبادئ، وأن تشتت إذا أرادت
الأسرة. محمَّد المسكين كان أوَّل المُرْضَى، ثم تبعه
عشان، وأخيرًا - وعلى غير توقُّع - وقع الأب، والليلة
جاءت الجارية سويدان لتُخبره بأنَّ أمه ستبيت في
السُكْرِية، ثم قالت - عن أمه وعن نفسها - إنه ليس
نمَّة ما يدعوا إلى القلق! إذن لم تبيت الأم في السُكْرِية؟
ولم ينقبض صدره؟ على أمه - رغم هذا كله - من
الممكن أن يصفو الجوُّ في غمضة عين، فيشفى خليل
شوكت وطفلاء المزيزان، ويتأثَّل وجه عائشة ويضيء،
وهل نسي كيف ابتلي بيته بمثل هذه المحنة منذ ثمانية

الآن؟
قيل كثيرًا عنها، ولكنها تقضي الليل ساهرة بين أسرة

المرضى الأعزاء، زوجها وطفليها، وكم ثَمَى صغيرًا لو
تعود عائشة إلى بيتها القديم، وكم يشفق اليوم من أن

تضطر إلى العودة مبهمة الجناح كسيرة القلب، وأما
أمه فتهمس في أذنه «لا تزر السُكْرِية، وإذا زرتها فلا
تُكث طويلاً» وإنه ليُزورها من حين لآخر، ثم
يفادها تفوح من راحته رائحة المَطْهَرات الغريبة

ويستحود القلق على فولده، وأعجب شيء أن جراثيم
التيفود - كسائر الجراثيم - آية في الضبالة، لا تراها
العين، ولكنها تستطيع أن توقف تيار الحياة، وأن
تتحكم في مصير المبادئ، وأن تشتت إذا أرادت

الأسرة. محمَّد المسكين كان أوَّل المُرْضَى، ثم تبعه
عشان، وأخيرًا - وعلى غير توقُّع - وقع الأب، والليلة
جاءت الجارية سويدان لتُخبره بأنَّ أمه ستبيت في
السُكْرِية، ثم قالت - عن أمه وعن نفسها - إنه ليس

نمَّة ما يدعوا إلى القلق! إذن لم تبيت الأم في السُكْرِية؟
ولم ينقبض صدره؟ على أمه - رغم هذا كله - من
الممكن أن يصفو الجوُّ في غمضة عين، فيشفى خليل
شوكت وطفلاء المزيزان، ويتأثَّل وجه عائشة ويضيء،
وهل نسي كيف ابتلي بيته بمثل هذه المحنة منذ ثمانية

الآن؟
قيل كثيرًا عنها، ولكنها تقضي الليل ساهرة بين أسرة

المرضى الأعزاء، زوجها وطفليها، وكم ثَمَى صغيرًا لو
تعود عائشة إلى بيتها القديم، وكم يشفق اليوم من أن

تضطر إلى العودة مبهمة الجناح كسيرة القلب، وأما
أمه فتهمس في أذنه «لا تزر السُكْرِية، وإذا زرتها فلا
تُكث طويلاً» وإنه ليُزورها من حين لآخر، ثم
يفادها تفوح من راحته رائحة المَطْهَرات الغريبة

ويستحود القلق على فولده، وأعجب شيء أن جراثيم
التيفود - كسائر الجراثيم - آية في الضبالة، لا تراها
العين، ولكنها تستطيع أن توقف تيار الحياة، وأن
تتحكم في مصير المبادئ، وأن تشتت إذا أرادت

الأسرة. محمَّد المسكين كان أوَّل المُرْضَى، ثم تبعه
عشان، وأخيرًا - وعلى غير توقُّع - وقع الأب، والليلة
جاءت الجارية سويدان لتُخبره بأنَّ أمه ستبيت في
السُكْرِية، ثم قالت - عن أمه وعن نفسها - إنه ليس

نمَّة ما يدعوا إلى القلق! إذن لم تبيت الأم في السُكْرِية؟
ولم ينقبض صدره؟ على أمه - رغم هذا كله - من
الممكن أن يصفو الجوُّ في غمضة عين، فيشفى خليل
شوكت وطفلاء المزيزان، ويتأثَّل وجه عائشة ويضيء،
وهل نسي كيف ابتلي بيته بمثل هذه المحنة منذ ثمانية

الآن؟
قيل كثيرًا عنها، ولكنها تقضي الليل ساهرة بين أسرة

المرضى الأعزاء، زوجها وطفليها، وكم ثَمَى صغيرًا لو
تعود عائشة إلى بيتها القديم، وكم يشفق اليوم من أن

تلافيه بالابتسام إذا تصدّيت له دوائماً بالتأمل الصادق
والفهم الصحيح والتجرّد الأصيل، ذلك هو الانتصار
على الحياة والموت معاً، ولكن أين من عاتشة ذلك
كله؟

- رأسي يدور يا أخي
فقال ياسين بلهجة الحكيم، ولأول مرّة فيها سمع
كمال:
- هُله هي الدنيا، ويجب أن تعرفها على
حقيقتها...
ثم قام فجأة وهو يقول:
- يجب أن أذهب الآن...
فقال كمال كالمتغيث:
- ابقى معي بعض الوقت...
ولكنّه قال كالمتعذر.

- الساعة الحادية عشرة، ويجب أن أذهب إلى قصر
الشوق لأطمئن على زُنوبة، ثم أعود إلى السكّرية
لأكون إلى جانبهم، لن أنام من الليل فيها يبدو ساعة
واحدة، والله أعلم بما يتظرنا غدًا...

فقام كمال وهو يقول في جزع:
- إنك تتكلّم كما لو كان كلّ شيء قد انتهى،
سأذهب من فوري إلى السكّرية...
- بل يجب أن تبقى مع الأطفال حتّى مطلع النهار،
وحاول أن تنام ولأ ندمت على مصارحتي إليك
بالحقيقة!

وغادر ياسين السطح فتبعه كمال ليوصله إلى باب
البيت، وعندما مرّا بالدور الأعلى حيث يتام الأطفال،
قال كمال بأسف:
- يا لهم من مساكين هؤلاء الأطفال، وشدّ ما بكت
نعمة في الأيام الأخيرة كأنّ قلبها حارس ما
هنالك...

فقال ياسين باستهانة:
- الأطفال سرعان ما ينسون، ادعُ بالرحمة
للكبار...
ولمّا خرجا إلى النشاء، تراسى إليهما من الطريق

- ماذا يعني هذا، خبّرني بما عندك...
ياسين بصوت منخفض:
- الحال خطيرة جدّاً...
- خطيرة؟!

- نعم، جئت إلى هنا لأريح أعصابي قليلاً، ألم تجد
زُنوبة ليلة تلد فيها إلّا هذه الليلة؟ لشدّ ما تعبت بين
قصر الشوق والسكّرية، وبين الداية والدكتور، والحال
خطيرة، وقد نظرت حرم المرحوم شوكت في وجه ابنها
وهمتفت وأمان يا ربّ... كان يجب أن تأخذي قبله!
فانزعجت أمك انزعاجاً شديداً، ولكنّها لم تحفل بها،
وقالت بصوت مبسوح: «هذه صورة آل شوكت إذا
حضرهم الموت، رأيت أباه وعمّه ووجهه من قبل»، لم
يبق من خليل إلّا خيال، وكذا الطفلان، لا حول ولا
قوة إلّا بالله...

ازدرد كمال ريقه، ثمّ قال:
- عسى أن تحبّ الظنون!
- عسى! كمال... لست صغيراً، ينبغي أن تعلم
بما أعلم أنا على الأقلّ، الطبيب يقول إنّ الأمر جدّ
خطيراً...

- عن الكلّ؟
- الكلّ!... خليل وعثمان ومحمّد، ربّاه! ما أتعب
حقلك يا عاتشة...

تمثّلت لعينيه في الغلام أسرة عاتشة الضاحكة كما
كانت تبدّله في الماضي. السعداء الضاحكون الذين
مارسوا الحياة كأنّها هواها، متى تضحك عاتشة
من قلبها مرّة أخرى؟ كما اختطف فهمي، الإنجليز أو
التفود سيّان، أو غير ذلك من الأسباب، الإيمان بالله
هو الذي جعل من الموت قضاء وحكمة يبعثان على
الحيرة، وهو ليس في الحقيقة إلّا نوعاً من العيب.

- أظنّ ما سمعت في حياتي...
- هو ذلك، ولكن ما الحيلة؟ وماذا جنت عاتشة
حتّى تستحقّ هذا كله؟ اللهمّ عفوك ورحمتك...
هل ثمة حكمة رفيعة يمكن أن تبرّد القتل بالجملة؟
إنّ الموت يتبع قوانين «النكتة» بدقّة، ولكن كيف لنا
أن نضحك ونحن هدف النكتة؟ ولملك تستطيع أن

صوت يصيح بقوة «ملحق المقتلم» فتتمتم كمال
متسائلاً:

- ملحق المقتلم؟!

فقال ياسين بلهجة أميعة:

- أوه إني أعرف عما ينادي فقد سمعت الناس
يتناقضونه وأنا قادم إليك... سعد زغلول مات!...
هتف كمال من الأحياء:
- سعد؟!!

فتوقف ياسين عن السير، والفت نحوه قائلاً:
- هون عليك وحسبنا ما نحن فيه!...

فحملق كمال في الظلام دون أن ينطق أو يأتي
حرأثاً، كأنما قد ذهل عن خليل وعثمان ومحمد
وعائشة، عن كل شيء إلا أن سعد زغلول قد مات،
وواصل ياسين السير وهو يقول:
- مات مستوفياً حظه من العمر والعظمة فإذا تريد
له أكثر من ذلك! ليرحمه الله...

فتبعه صامتاً ولمّا يفق من ذهوله، لو في غير هذا
الظرف الحزين ما درى كيف يتحمل النبأ، ولكن
المصائب إذا تلاقت تحدى بعضها بعضاً، هكذا ماتت
جدته في أعقاب مصرع فهمي فلم تجد لها باكياً - إذن
مات سعد. النفي والشورة والحزينة والدستور مات
صاحبها، كيف لا يحزن وخير ما في روحه من حبه
وتربيته!

ووقف ياسين مرة أخرى ليفتح الباب، ثم مدّ يده
له فتصافحا، وعند ذلك تذكر كمال أمراً طال نسيانه
له، فقال لأخيه وهو يجرد من نسيانه حياء:

- أَدْعُو الله أن نجد زوجك قد ولدت بالسلامة...
فقال ياسين وهو ييمّ بالذهاب:

- إن شاء الله، وأرجو أن تنام نوماً هادئاً...

السُّكْرِيَّة

من عمرها، مجلّة الشعر بهالة ذهبية، مزينة الوجه بعينين زرقاوين، كعائشة في شبابه أو أفن صلاحه، ولكنّها كانت نحيفة رقيقة كالخيال، تعكس عنها نظرة وديعة حاملة تقطر طهارة وسلاجة وغرابة عن هذا العالم، وكانت ملتصقة بمنكب أمّها كأنّها لا تودّ أن تفارقها لحظة. وقالت أمّ حنفي وهي تفرك يديها فوق المجرمة:

- سينزل البتّامون عن العارة في هذا الأسبوع بعد عام ونصف من العمل...

فقالّت نعيمة في نعمة ساخرة:

- عارة عمّ يومي الشرباتي...

ارتفعت عينا عائشة عن المجرمة إلى وجه أمّ حنفي لحظة ولكنّها لم تملن بكلمة، قد علموا في حينه بهدم البيت الذي كان يومًا بيت السيّد عمّد رشوان ثمّ إعادة بنائه عمارة مكوّنة من أربعة أدوار باسم عمّ يسومي الشرباتي، تلك الذكريات القديمة، مريم وباسين ولكن تری أين مريم، وأمّ مريم ويسومي الشرباتي الذي استولى على البيت بالوراثة والشراء، أيّام كانت الحياة حياة والمقلب ناعم البال! وحادت أمّ حنفي تقول:

- أجل ما فيها يا سنيّ دكان عمّ يومي الجديدة، ثريات ودندمة وحلوى، كلّها مرابا وكهرباء، والرايو ليل نهار، يا عيني على حسين الخلاق ودرويش باع الفول والفولي اللبان وأبو سريع صاحب المقلي وهم ينظرون من دكاكينهم البالية إلى دكان زميلهم القديم وعيادته...

فقالّت أمانة وهي تشبك الشال حول منكبها:

- سبحان ربّك الوهاب...

فعادت نعيمة تقول وهي تحيط عنق أمّها بذراعيها:

١

تقاربت الرموس حول المجرمة وانبسطلت فوق وجهها الأيدي، يدا أمانة النحيلتان المعروفتان، ويذا عائشة المتحجّرتان، ويذا أمّ حنفي اللتان بدتا كخطاه السلفضة، وأمّا هاتان اليدان الناصعتا البياض الجميلتان فكانتا يلني نعيمة. وكان برد يتاير يكاد يتجمّد تلجًا في أركان الصلاة، تلك الصلاة التي بقيت على حالها القديم بحضرها الملوّنة وكتباتها الموزّعة على الأركان، إلّا أنّ الفانوس القديم بمصباح كهربائيّ، اخضى وتدلّى مكانه من السقف مصباح كهربائيّ، كذلك تغيّر المكان فقد رجع مجلس القهوة إلى الدور الأوّل. بل انتقل الدور الأعلى جميعه إلى هذا الدور تيسيرًا للأب الذي لم يعد قلبه يسعفه على ارتفاع السّمّ العالي. ثمّة تغيّر أدرك أهل البيت أنفسهم، فقد جفّ عود أمانة واشتعل رأسها شيئًا، ومع أنّها لم تكذّ تبلغ الستين إلّا أنّها بدت أكبر من ذلك بعشر، ولكنّ تغيّر أمانة كان لا شيء بالقياس إلى ما جرى لمعاشة من تدهور وانحلال، كان ممّا يدعوا إلى السخرية أو الرثاء أنّ شعرها لم يزل مذهبًا وعينها زرقاوان، ولكنّ هذه النظرة الحامدة لا توحى بحياة، وهذه البشرة الشاحبة بأيّ مرض تنضج؟ وهذا الوجه الذي نثأت عظامه وغازت فيه العينان والوجنتان أحو وجه امرأة في الرابعة والثلاثين؟ وأمّا أمّ حنفي فبدا أنّ الأعوام تتراكم عليها ولا تنال من جوهرها، لم تكذّ تمسّ لحما وشحمها فتكاثفت كالنبار أو كالقشور فوق جلدها وحول رقبتها وفُغرها، غير أنّ عينيها الساهتين لاحتا مُشاركتين لأهل البيت في حزنهم الصامت. نعيمة وحدها بدت في هذه المجموعة كالوردة المرفوعة في حوش مقبرة، استوت شابة جميلة في السادسة عشرة

- سدّ جدار العارية سطلحنا من هذه الناحية، وإذا عمرت بالسكان فكيف نستطيع أن نغضي الوقت فوق السطح؟

لم يكن في وسع أمينة أن تتجاهل سؤالاً توجهه حفيديها الجميلة مراعاة لحاظر عائشة قبل كل شيء فقالت:

- لا يَمَكُ السكان، امرحي كيف شئت...

واسترفت النظر إلى عائشة لترى وقع إجابتها اللطيفة، إذ إنَّها باتت من شدّة الحوف عليها وكأنَّها تخافها، ولكنَّ عائشة كانت مشغولة في تلك اللحظة بالتطلع إلى امرأة فوق نغصد بين حجرة السيد وحجرتها، لم تزايلها عادة التطلع إلى المرأة وإن لم يعد لها معنى، وعرور الزمن لم يعد يروعها منظر وجهها الضحل، وكلَّما سألها صوت باطنيّ «أين عائشة زمان؟» أجابت دون اكتراث «أين عمّد وعثمان وخليل؟»، وكانت أمينة تلاحظ ذلك فينبض قلبها، وسرعان ما يسري الانقباض إلى أمّ حنفي التي اندجعت في الأسرة حتّى ورثت عنها همومها. ونهضت نعيمة إلى الراديو القائم ما بين حجرة الاستقبال وحجرة السفارة وأدارت مفتاحه وهي تقول:

- ميعاد إذاعة الأسطوانات يا ماما...

وأشعلت عائشة سيجارة وأخذت نفساً عميقاً، وجعلت أمينة ترنو إلى الدخان وهو ينبسط سحابة خفيفة فوق المجرة، وانبعث من الراديو صوت يغني «يا عشرة الماضي الجميل يا ريت تعودى». وعادت نعيمة إلى مجلسها وهي تحبك الروب حول جسمها. كانت - كلّها في الزمان الخالي - تهوى الغناء. وهبّت كيف تسمعه وكيف تحفظه وكيف تعيده بصوت حسن. لم ينل من هذا الهوى شعورها الدينيّ الذي غلب على كافّة مشاعرها، فهي تواظب على الصلاة، وتصوم رمضان مد بلغت العاشرة، وتعلم كثيراً بعالم الغيب، وترحب بنبطة لا حدّ لها بزيارة الحسين إذا دعيتها جثتها إليها، ولكنّها في الوقت نفسه لم تقلع عن حبّ الغناء، فهي تغني كلّما خلت إلى نفسها في حجرتها أو في الحَيَّام. وكانت عائشة ترضى عن كلّ ما

يصدر عن وحيدتها، الأمل المضيء في أفقها المظلم، تعجب بتديّنها كما تعجب بصوتها، وحقّق عن التصاق الفتاة بها - ذلك الالتصاق الذي بدا خارقاً للحدّ - فهي تشجّمه وتحبّه ولا تطيق أن تسمع عنه آية ملاحظة، بل هي تضيق بالنقد عاتية وإن هانّ وحسن القصد فيه. من ذلك أنّه لم يكن لها من عمل في البيت غير القعود وحسو القهوة والتدخين، فإذا دعتها أمّها إلى المشاركة في عمل - لا لحاجتها إلى مساعدتها ولكن لتخلق لها ما تتسلّ به عن أفكارها - امتعشت وقالت بجلتها المشهورة «أف... دعيني وشائي». ولم تكن تسمح لنعيمة بأن تمّدّ للعلل يداً، كأنَّما كانت تخاف عليها أكّال حركة، ولو أمكن أن تصلّي نيابة عنها لفعلت وكفّتها جهد الصلاة. وكم من مرّة حدثتها أمّها في هذا الشأن فائلة إنّ نعيمة أصبحت «عروساء» وينبغي لها أن تلمّ بواجبات «ست البيت» فكانت تقول لها بصوت ينمّ عن الضجر «ألا تدرينها كالحبال؟. إنّ ابنتي لن تتحمّل أيّ جهد فدعها وشائها، لم يعد لي من أمل في الدنيا سواها». ولم تكن أمينة لتعيد القول. كان قلبها يتفطّع حزناً عليها، وتنتظر إليها فتجدها مثلاً مجسّماً لحيّة الأمل، وتروى وجهها التمس الذي فقد كلّ معنى للحياة فتذهب نفسها حشرات، لذلك أشفقت من مضايقتها، ولذلك اعتادت أن تتحمّل ما قد ينمّ عنها من جفاء في الرّدة أو قسوة في الملاحظة بصدر رحيب وعطف سمح. لم يزل الصوت يغني «يا عشرة الماضي الجميل». وجعلت عائشة تدخّن سيجارها وتغمي إليه. هذا الغناء الذي كانت تحبّه، ولا زالت تحبّه، فالحزن والياس لم يقتلا الإحساس به، بل لعلّها قوّياه في نفسها بما يردّه عادة من معاني الشجن والحسرات، ولو أنّ شيئاً في الوجود ليس بمستطيع أن يعيد عشرة الماضي الجميل، بل إنَّها لتتساءل أحياناً أكان هذا الماضي حقيقة لا حلاً ولا خيالاً؟ إذن أين البيت العمار؟ وأين الزوج الكريم؟ وأين عثمان وأين عمّده؟ وهل لا يفصلها عن ذلك الماضي إلّا ثمانية أعوام؟ ولم تكن أمينة ترتاح إلى هذه الأغاني إلّا في النادر. إنّ فضيلة الراديو الأولى في

اليوم كالصبيان... فقالت أم حنفي باحتقار:
- يتعلمن لآتين لا يجدن العريس، أما الجميلة
مثلك...

فهزت أمينة رأسها موافقة ثم قالت:
- وأنت متعلمة يا ست البنات. حائزة على
الابتدائية، ماذا تريدن أكثر من ذلك؟، ولست في
حاجة إلى الوظيفة، فلندع الله أن يفكر وأن يكسو
جمالك الفتان بالعافية واللحم والدهن.
فقالت عائشة بحة:

- أريد لها العافية لا السمنة، السمنة من العيوب
خاصة في البنات، أمها كانت زين أيامها ولم تكن
سمينة.

فاينسمت أمينة وقالت برقة:
- حقا أمك يا نعمة كانت زين أيامها...
فقالت عائشة وهي تتندب:
- ثم صارت حيرة الأيام!
فغمغت أم حنفي:
- ربنا يفرحك بنعمة...
فقالت أمينة وهي ترتب على ظهر نعمة بحنان:
- أمين يا رب العالمين...

وعُدَّت إلى الصمت، وإلى سماع الصوت الجديد
الذي كان ينفث وأحب أشوفك كل يوم، وإذا بباب
البيت يفتح ثم يُغلق فقالت أم حنفي «سيدي الكبير»
وقامت بسرعة إلى الخارج لتضيء مصباح السلم. وما
لبث أن سمعن دقات عصاه المبهودة، ثم تراءى عند
مدخل الصالة فوففن جميعاً في أدب. ووقف قليلاً ينظر
إليه خلال أنفاسه المبهودة ثم قال: «مساء الخير»
فرددن في صوت واحد: «يسعد مساك»، وسبقت أمينة
إلى حجرته فأضاعتها، ومضى الرجل على أثرها في حالة
من وقار الشيخوخة البيضاء. وجلس كي يسترد
أنفاسه. ولم تكن الساعة قد جاوزت التاسعة مساء.
ظلت أناقته كما كانت في الماضي، فاجبة الجوخ
واللفطان الشاهي والكوفية الحرير كالمهد القديم، أما
هذا الرأس المصعق بالبياض، والشارب الفقي،
والجسم التحيل الذي خلا من سكهانه، فكانت جميعاً -

نظرها أنه أتاح لها سماع القرآن الكريم والأخبار، أما
الأغاني فكانت تنزع عند تلقى معانيها الحزينة وتشفق
على ابتها من سباهها حتى قالت مرة لأم حنفي «أليس
هذا هو النواح؟». كانت لا تأتي عن التفكير في عائشة
حتى كادت تنسى ما أخذ يتأهبها من أعراض
الضغط ومتاعبه، ولم تكن تجد فرجة إلا في زيارة
الحسين وغيره من الأولياء، وشكراً للسيد الذي لم يعد
يحجر عليها فتركها تطلق إلى بيوت الله كما تحب. لم
تعد - هي أيضاً - أمينة العهد الماضي. غيرها كثيراً
الحزن والتوكل. وقد فقدت مع الزمان مشاربتها
العجيبة على العمل وطاقتها الحارقة في التنسيق
والتنظيف والتدبير، فبقيا عدا شئون السيد وكما لم
تكن تمنى بشيء. عهدت بحجرة القرن والمخزن لأم
حنفي، قائمة بالإشراف وحده، وحتى الإشراف كانت
تتهاون فيه. وكانت تفتحها في أم حنفي لا حد لها،
فليست هي بالغريبة من الدار وأهلها، ثم إنها شريكة
العمر ورفيقة السراء والضراء، وقد اندمجت في الأسرة
حتى صارت قطعة منها، وغُثِلت بكل قلبها مسراًها
وأحزائها. وساد الصمت حيناً كأنما استأثر الغناء
بوعيهم، حتى قالت نعمة:

- لمحت في الطريق اليوم صديقتي سلمى، كانت
معي في الابتدائية، ومستقمة العام المقبل في امتحان
البكالوريا...
فقالت عائشة بامتعاض:

- لو سمع جذك لك بالاستمرار في الدراسة لتضوقت
عليها، ولكنه لم يسمع!
وظفنت أمينة لما أوحى به جملة «ولكنه لم يسمع»
من الاحتجاج فقالت:

- جداً له أراؤه التي لا ينزل عنها، ترى أكنت
ترخين باستمرارها في التعليم رغم ما في ذلك من
تعب وهي العزيزة الرقيقة التي لا تتحمل
التعب!...

فهزت عائشة رأسها دون أن تنبس، أما نعمة
فقالت بحسرة:
- وددت لو أجمعت تعليمي، كل البنات يتعلمن

كسودته المبهكرة - من طوارئ الزمن الجديد. ومن طوارئ هذا الزمن أيضاً سلطانية اللبن الزبادي والبرتقالة اللتان أعدتا لعشائه، فلا خمر ولا مرّة ولا لحوم ولا يَبِض، وإن بقي بریق عينيه الزرقاوين الواسعتين آية على أن رغبته في الحياة لم تفر ولم تن. ومضى يخلع ملابسه بمعاونة أمينة كالمتاد، ثم ارتدى جلبابه الصوفى وتلّغ بالعباءة وليس طاقته ثم ترتع على الكتبة. وقدمت له صينية العشاء فتناوله دون حماس، ثم قدمت له أمينة قدحاً مملوئاً حتى نصفه بالماء فاخذ زجاجة الدواء وسكب في القنح ست نقط، ثم تجرعه بوجه مغضب متفزز، ثم حتم «الحمد لله رب العالمين». طالما قال له الطبيب إنَّ الدواء مؤقت أما «الرجيم» فدائم، وطالما حذّره من الاستهتار أو الإهمال، فالضنط قد استعجل، والقلب قد تأثر به. وأجبرته التجربة على الإيمان بتعليصات الطبيب بعد أن عانى من الاستهانة بها ما عانى، فما من مرّة خرج عن حده حتى تداركه أجزاءه، وأخيراً أذعن لحكمه، لا يأكل ولا يشرب إلا ما يسمح به، ولا يسهر إلى ما بعد التاسعة، ولكن قلبه لم يتخل عن الأمل في أن يسترد يوماً - بقدرة قادر - صحته وأن ينعم بحياة طيبة هادئة، وإن تكن حياة الماضي قد ولّت إلى الأبد. وامتدّت أذنه إلى الغناء المتراخي من الراديو في ارتياح، وكانت أمينة تحفّه من مجلسها فوق الشلّة عن برد اليوم والمطر الذي انهمر في الضحى فلم يلتجئ إليها بالأل وقال في سرور:

كسودته المبهكرة - من طوارئ الزمن الجديد. ومن طوارئ هذا الزمن أيضاً سلطانية اللبن الزبادي والبرتقالة اللتان أعدتا لعشائه، فلا خمر ولا مرّة ولا لحوم ولا يَبِض، وإن بقي بریق عينيه الزرقاوين الواسعتين آية على أن رغبته في الحياة لم تفر ولم تن. ومضى يخلع ملابسه بمعاونة أمينة كالمتاد، ثم ارتدى جلبابه الصوفى وتلّغ بالعباءة وليس طاقته ثم ترتع على الكتبة. وقدمت له صينية العشاء فتناوله دون حماس، ثم قدمت له أمينة قدحاً مملوئاً حتى نصفه بالماء فاخذ زجاجة الدواء وسكب في القنح ست نقط، ثم تجرعه بوجه مغضب متفزز، ثم حتم «الحمد لله رب العالمين». طالما قال له الطبيب إنَّ الدواء مؤقت أما «الرجيم» فدائم، وطالما حذّره من الاستهتار أو الإهمال، فالضنط قد استعجل، والقلب قد تأثر به. وأجبرته التجربة على الإيمان بتعليصات الطبيب بعد أن عانى من الاستهانة بها ما عانى، فما من مرّة خرج عن حده حتى تداركه أجزاءه، وأخيراً أذعن لحكمه، لا يأكل ولا يشرب إلا ما يسمح به، ولا يسهر إلى ما بعد التاسعة، ولكن قلبه لم يتخل عن الأمل في أن يسترد يوماً - بقدرة قادر - صحته وأن ينعم بحياة طيبة هادئة، وإن تكن حياة الماضي قد ولّت إلى الأبد. وامتدّت أذنه إلى الغناء المتراخي من الراديو في ارتياح، وكانت أمينة تحفّه من مجلسها فوق الشلّة عن برد اليوم والمطر الذي انهمر في الضحى فلم يلتجئ إليها بالأل وقال في سرور:

كسودته المبهكرة - من طوارئ الزمن الجديد. ومن طوارئ هذا الزمن أيضاً سلطانية اللبن الزبادي والبرتقالة اللتان أعدتا لعشائه، فلا خمر ولا مرّة ولا لحوم ولا يَبِض، وإن بقي بریق عينيه الزرقاوين الواسعتين آية على أن رغبته في الحياة لم تفر ولم تن. ومضى يخلع ملابسه بمعاونة أمينة كالمتاد، ثم ارتدى جلبابه الصوفى وتلّغ بالعباءة وليس طاقته ثم ترتع على الكتبة. وقدمت له صينية العشاء فتناوله دون حماس، ثم قدمت له أمينة قدحاً مملوئاً حتى نصفه بالماء فاخذ زجاجة الدواء وسكب في القنح ست نقط، ثم تجرعه بوجه مغضب متفزز، ثم حتم «الحمد لله رب العالمين». طالما قال له الطبيب إنَّ الدواء مؤقت أما «الرجيم» فدائم، وطالما حذّره من الاستهتار أو الإهمال، فالضنط قد استعجل، والقلب قد تأثر به. وأجبرته التجربة على الإيمان بتعليصات الطبيب بعد أن عانى من الاستهانة بها ما عانى، فما من مرّة خرج عن حده حتى تداركه أجزاءه، وأخيراً أذعن لحكمه، لا يأكل ولا يشرب إلا ما يسمح به، ولا يسهر إلى ما بعد التاسعة، ولكن قلبه لم يتخل عن الأمل في أن يسترد يوماً - بقدرة قادر - صحته وأن ينعم بحياة طيبة هادئة، وإن تكن حياة الماضي قد ولّت إلى الأبد. وامتدّت أذنه إلى الغناء المتراخي من الراديو في ارتياح، وكانت أمينة تحفّه من مجلسها فوق الشلّة عن برد اليوم والمطر الذي انهمر في الضحى فلم يلتجئ إليها بالأل وقال في سرور:

كسودته المبهكرة - من طوارئ الزمن الجديد. ومن طوارئ هذا الزمن أيضاً سلطانية اللبن الزبادي والبرتقالة اللتان أعدتا لعشائه، فلا خمر ولا مرّة ولا لحوم ولا يَبِض، وإن بقي بریق عينيه الزرقاوين الواسعتين آية على أن رغبته في الحياة لم تفر ولم تن. ومضى يخلع ملابسه بمعاونة أمينة كالمتاد، ثم ارتدى جلبابه الصوفى وتلّغ بالعباءة وليس طاقته ثم ترتع على الكتبة. وقدمت له صينية العشاء فتناوله دون حماس، ثم قدمت له أمينة قدحاً مملوئاً حتى نصفه بالماء فاخذ زجاجة الدواء وسكب في القنح ست نقط، ثم تجرعه بوجه مغضب متفزز، ثم حتم «الحمد لله رب العالمين». طالما قال له الطبيب إنَّ الدواء مؤقت أما «الرجيم» فدائم، وطالما حذّره من الاستهتار أو الإهمال، فالضنط قد استعجل، والقلب قد تأثر به. وأجبرته التجربة على الإيمان بتعليصات الطبيب بعد أن عانى من الاستهانة بها ما عانى، فما من مرّة خرج عن حده حتى تداركه أجزاءه، وأخيراً أذعن لحكمه، لا يأكل ولا يشرب إلا ما يسمح به، ولا يسهر إلى ما بعد التاسعة، ولكن قلبه لم يتخل عن الأمل في أن يسترد يوماً - بقدرة قادر - صحته وأن ينعم بحياة طيبة هادئة، وإن تكن حياة الماضي قد ولّت إلى الأبد. وامتدّت أذنه إلى الغناء المتراخي من الراديو في ارتياح، وكانت أمينة تحفّه من مجلسها فوق الشلّة عن برد اليوم والمطر الذي انهمر في الضحى فلم يلتجئ إليها بالأل وقال في سرور:

كسودته المبهكرة - من طوارئ الزمن الجديد. ومن طوارئ هذا الزمن أيضاً سلطانية اللبن الزبادي والبرتقالة اللتان أعدتا لعشائه، فلا خمر ولا مرّة ولا لحوم ولا يَبِض، وإن بقي بریق عينيه الزرقاوين الواسعتين آية على أن رغبته في الحياة لم تفر ولم تن. ومضى يخلع ملابسه بمعاونة أمينة كالمتاد، ثم ارتدى جلبابه الصوفى وتلّغ بالعباءة وليس طاقته ثم ترتع على الكتبة. وقدمت له صينية العشاء فتناوله دون حماس، ثم قدمت له أمينة قدحاً مملوئاً حتى نصفه بالماء فاخذ زجاجة الدواء وسكب في القنح ست نقط، ثم تجرعه بوجه مغضب متفزز، ثم حتم «الحمد لله رب العالمين». طالما قال له الطبيب إنَّ الدواء مؤقت أما «الرجيم» فدائم، وطالما حذّره من الاستهتار أو الإهمال، فالضنط قد استعجل، والقلب قد تأثر به. وأجبرته التجربة على الإيمان بتعليصات الطبيب بعد أن عانى من الاستهانة بها ما عانى، فما من مرّة خرج عن حده حتى تداركه أجزاءه، وأخيراً أذعن لحكمه، لا يأكل ولا يشرب إلا ما يسمح به، ولا يسهر إلى ما بعد التاسعة، ولكن قلبه لم يتخل عن الأمل في أن يسترد يوماً - بقدرة قادر - صحته وأن ينعم بحياة طيبة هادئة، وإن تكن حياة الماضي قد ولّت إلى الأبد. وامتدّت أذنه إلى الغناء المتراخي من الراديو في ارتياح، وكانت أمينة تحفّه من مجلسها فوق الشلّة عن برد اليوم والمطر الذي انهمر في الضحى فلم يلتجئ إليها بالأل وقال في سرور:

يسمع الاغاني القديمة ولو لينام على الانعام...
- اتركني الراديو مفتوحاً حتى لو نمت...
فهزّت رأسها بالإيجاب باسمه، فعاد يقول متنهّداً:
- ما أشقّ السّلم عليّ!
- استرح يا سيّدي عند كلّ بسطة...
- لكنّ جوّ السّلم شديد الرطوبة، ما ألّعن هذا الشتاء... «ثمّ متسائلاً»... أراهن على أنّك زرت الحسين كالعادة رغم هذا البرد...
فقال في حياء وارتباك:
- في سبيل زيارته يهون كلّ صعب يا سيّدي...
- الحقّ عليّ وحدي...
فقال في استرضاء:
- إنّي أطوف بالضريح الطاهر وادعو لك بالصّحة والعافية.

ما أمسّ حاجته إلى صادق الدعاء، فكُلّ طيّب يدبر عنه، حتى الدشّ البارد الذي اعتاد أن ينمش به جسده كلّ صباح حُرّم عليه لخطورته - فيها قيل - على شرايينه، وإذا صار كلّ طيّب ضارّاً فليرحمنا الله. ومضى وقت قصير ثمّ ترامت إلى الحجر صفة باب البيت وهو يغلق فرفعت أمينة عينها متممة «وكال». ولم تكد تمرّ دقائق حتى دخل كمال الحجر في معطفه

ولم تكد تمرّ دقائق حتى دخل كمال الحجر في معطفه

فلم ينس كمال بكلمة وإن نطق وجهه بالرغص المذنب، فعاد الرجل يقول متأسفاً:

- تأي هذا كي تضيح وقتك في قراءة لا نهاية لها وكتابة بلا أجر، أيصح هذا من عاقل مثلك؟ وهنا خاطبت أمية كمال قائلة:

- ينبغي أن تحب المال كما تحب العلم (ثم موجّهة الخطاب إلى السيد وهي تبسم في خيلاء) إنه كجته لا يعدل بحب العلم شيئاً... فقال السيد متأسفاً:

- رجعنا إلى جده...! يعني كان الإمام عمده عيده؟!

ومع أنها لم تعرف شيئاً عن الإمام إلا أنها قالت بحماس:

- لم لا يا سيدي؟! كان كل الجيران يقصدونه في شئون دينهم وديارهم!

فغلبت روح الفكاهة على السيد فقال ضاحكاً:

- مثله الآن كل عشرة بقرش!

واحتج وجه المرأة دون لسانها. وابستم كمال بعطف وارتيابك، واستأذن في الانصراف ثم غادر الحجرة. وفي الصالة اعترضت نعيمة طريقه لترى فستانها الجديد، وذهبت لتجيء به، فجلس إلى جانب عائشة ينتظر، كان كبقية أهل البيت - ييامل عائشة في شخص نعيمة، ولكنه إلى هذا كان معجباً بالفتاة الحسنة إعجاباً بأمها قديماً. وجاءت نعيمة بالستان فيسطه على يديه وراح يتفحصه وهو يبدي الإعجاب، وكان يتأمل صاحبة الستان بعطف وحب. مأخوذاً بجأها البديع الهادئ الذي اكتسب من صفاتها ورقتها نورانية ذات بهاء. ومضى عن المكان بقلب لا يخلو من شجن، إن مصاحبة أسرة حتى شيخونتها ليجاً يجزن. ليس مما يور أن يرى أباه في وهه بعد سطوة وجبروت أو يرى ذبول أمه وتواربها وراء الكبر، أو يرى انحلال عائشة وتدهورها، هذا الجمر الشجون بنذر التعاسة والنهاية. ووقي في السلم إلى الدور الأعلى - شقته كما يسميه - حيث يعيش منفرداً بين حجرة نومه ومكتبته المطلتين على بين القصرين. وخلع ملابسه ومضى

الأسود الذي نم على نحافته وطوله، يتطلع إلى أبيه خلال نكازته الذهبية، وقد أضفى عليه شارب المربع الغزير الأسود وقاراً ورجولة. انحنى على يد والده مسلماً فدعاه إلى الجلوس وهو يسأله كالعادة بأساً:

- أين كنت يا أستاذ؟

وكان كمال يحب هذه اللهجة الودية اللطيفة التي لم يحفظ بها إلا بعد عمر طويل، فأجاب وهو يجلس على الكنبه:

- كنت في القهوة مع الأصحاب.

ترى أي نوع من الأصحاب؟ بيد أنه يبدو جاداً رزيناً وقوراً أكثر من سته، ثم إن أكثر لياليه تقضى في مكتبته، شتان ما بينه وبين ياسين، وإن كان لكل آفته، وعاد يسأله بأساً:

- أشهدت اليوم المؤتمر الوددي؟

- نعم، وسمعتنا خطبة مصطفى النحاس، كان يوماً مشهوداً.

- قيل لنا إنه كان حدثاً عظيماً ولكني لم أستطع حضوره فنزلت عن بطاقة الدعوة لأحد الأصدقاء، لم تعد الصلة تحتمل التعب...

فداخل كمال العطف ونتم:

- ربنا يفؤك...

- ألم تقع حوادث؟

- كلاً من اليوم بسلام، واكتفى البوليس بخلاف عادته بالمراقبة...

فهز الرجل رأسه في ارتياح، ثم قال في لهجة ذات معنى:

- نعدو لموضوعنا القديم، ألا زلت عند رأيك الخاطيء عن الدروس الخصوصية؟

لم يزل يشعر بالارتباك والحرج كلما وجد نفسه مضطراً إلى إعلان مخالفته لرأي والده، فقال برقة:

- لقد انتهينا من هذا الموضوع!

- في كل يوم يطلب إلي أصدقاؤك أن تعطي دروساً خصوصية لابنائهم، لا ترفض الرزق - الحلال، إن الدروس الخصوصية مصدر رزق واسع للمدرسين، والذين يطلبونك من أعيان الحي...

الجراح، ولَشَدُّ ما استثار المشي من أحزانه، بيد أنَّه سرُّ آخر الأمر بالمتزلة الرفيعة التي بات يحتلُّها في نفوس الصغار الذين كانوا يتطلَّعون إليه بإعجاب وحبِّ وإجلال. وواجهته مشكلة أخرى تتعلَّق بمشالاته الشهريَّة في مجلَّة «الفكر»، وكان يخاف هذه المرَّة الناظر والمدرِّسين أن يسألوه عَمَّا يعرض فيها من فلسفات قديمة وحديثة تنقد أحيانًا العقائد والأخلاق بما لا يتفق ومُسوَّليَّة «المدرِّس» ولكن من حسن الحظِّ أنَّ أحدًا من المستولين لم يكن يبن قراء «الفكر»، ثمَّ نَبَّهْ له بعد ذلك أنَّ المجلَّة لا تطبع أكثر من ألف نسخة يصدُر نصفها إلى البلاد العربيَّة، فشجَّعه ذلك على الكتابة إليها وهو آمين على نفسه ووظيفته. وفي هذه السويكات القلائل يتقلب «مدرِّس اللغة الإنجليزيَّة بالسليحدار الابتدائيَّة» سائحًا حرًّا ييُوب أجواء لا تُخدُّ من الفكر، فيقرأ ويدوِّن الملاحظات التي يجمعها بعد ذلك في مقالاته الشهريَّة، تحمُّه على جهاده الرغبية في المعرفة وحبِّ الحقيقة وروح المغامرة النظرية والحنين إلى العزاء والتخفيف من جور الكأبة الذي يغشاه والشعور بالوحدة الذي يستكنُّ في أعماقه. قد يلوذ من الوحشة بوحدة الوجود عند سيينوزا، أو يتعزَّى عن هوان شأنه بالمشاركة في الانتصار على الرغبية مع شوبنهاور، أو ييُون من إحساسه بتعاسة عائشة بجرعة من فلسفة لينتز في تفسير الشرِّ، أو يروي قلبه المتعطش إلى الحبِّ من شاعريَّة برجسون، بيد أنَّ جهاده المتواصل لم يجد في تقليم غالب الحيرة التي تبلغ حدَّ المذاب، فالحقيقة معشوق ليس دون المعشوق الأدميِّ دلالةً ومثلاً ولعباً بالعقول وإثارة للشكِّ والغيرة مع إغراء عنيف بالتمكُّن والوصول، وهي كالمعشوق الأدميِّ عرضة لأن تكون ذات وجوه وأهواء وتقلُّبات، ولا تخلو في كثير من الأحيان من مكر وخداع وقسوة وكبرياء، وكان إذا ركبته الحيرة وأعياء الجهد يقول معتزِّباً «قد أكون معذباً حقاً ولكنني حيٌّ، إنسان حيٌّ، ولن تكون حياة الإنسان الخليفة بهذا الاسم بلا ثمن».

مرتدياً جلبابه متلفعاً بالروب إلى المكتبة، وكانت مكوَّنة من مكتب كبير فيها يلي المشريَّة وصقَّين من خزانات الكتب على جانبيها. وكان يريد أن يقرأ فصلاً على الأقلِّ في كتاب «منبع الدين والأخلاق» لبرجسون، وأن يراجع مراجعة أخيرة مقالته الشهريَّة لمجلَّة «الفكر» الذي اتَّفَق أن كان عن البراجمزم. هذه السويكات الموهوبة للفلسفة، التي تمتدُّ حتَّى منتصف الليل هي أسعد أوقات يومه، وهي التي يشعر فيها - على حدِّ تعبيرة - بأنَّه إنسان، أمَّا بقية اليوم الذي ينقضي في عمله كمدرِّس بـمدرسة السليحدار الابتدائيَّة أو في إشباع شغْي مطالب الحياة الضرورية، فمداره الحيوان الكامن فيه، المستهيلف أبداً تامين ذاته وتحقيق شهوراته، ولم يكن يحبُّ عمله الرسميِّ ولا يمتدحه، ولكنه لم يعلن سخطه، خاصَّة في بيته، أن شمت به الشامتون، ومع ذلك فقد كان مدرِّساً ممتازاً حائزاً للتقدير، وكان الناظر بعهد إليه ببعض النشاط المدرسيِّ، حتَّى رمى نفسه متفكِّهاً بالعبودية، أليس هو العبد الذي يقن العمل الذي لا يحبُّه؟. والحقُّ أنَّ ولعه بالتفوق الذي اعتاده منذ الصغر هو الذي دفعه إلى الاجتهاد والامتياز دفعا لا هواده فيه. وقد صمَّ من بادئ الأمر على أن يكون شخصيَّة محترمة بين التلاميذ والمدرِّسين فكان له ما أراد، بل كان شخصيَّة محترمة ومحبوبة ممَّا، رغم رأسه وأنفه العظيمين. . . ولا شكَّ أنَّه كان لها - رأسه وأنفه - أو كان لإحساسه الاليم بها الفضل الأوَّل في هذا التصميم القويِّ الذي خلق منه هذه الشخصيَّة الملهبة. كان يعلم بأنَّ رأسه وأنفه سيثيران من حوله الفتن فاستلَّ عزمه ليردَّ عنها وعنه كيد المايين. أجل لم ينجُ أحياناً من غمز وتعرُّض في أثناء الدرس أو في ملعب المدرسة، فكان يلقي المشجور بحزم شديد، ثمَّ يلفظُه بعطفه المطبوع، إلى ما أثر عنه من مقدرة في الشرح والتفهيم، وما يأخذ فيه بين أونة وأخرى من موضوعات طريفة حماسية تمسُّ القومية أو ذكريات الثورة، كلُّ أولئك جعله يستميل إليه «الرأي العام» بين التلاميذ، وكان ذلك إلى حزمه المتوثَّب عند الضرورة - كفيلاً بالقضاء - على الفتن في مهداها. ولَشَدُّ ما آله أوَّل الأمر الغمز

فخفف الحمازوي عينيه وقال:

- موقفي لا أحسد عليه، ولا أدري كيف أتكلم...

فقال السيد مشجعاً:

- ولكي عاشرت أكثر مما عاشرت أهلي فتستطيع أن تنفي إلي بكل ما في نفسك...

- العشرة هي التي تصعب علي يا سي السيد...

العشرة؟ لم يخطر له هذا على بال...

- أتريد؟... حقاً

قال الحمازوي بحزن:

- أن لي أن أعزل، الله لا يكلف نفساً إلا وسعها...

وانقبض قلب السيد، فاعتزل الحمازوي للعمل ليس إلا تذكيراً له بالاعتزال، كيف ينهض بأعباء العمل في دكانه وهو على ما هو عليه من مرض وكبر. ونظر إلى وكيله في حيرة فعاد الرجل يقول متأثراً:

- إني آسف جداً، ولكي لم أعد أطيق العمل، وكُل ذلك الزمان، غير أنني دبرت الأمر فلن أترك وحدك، سيملا مكالي من هو أقدر مني...

إن ثقته في أمانة الحمازوي قد رفعت عن كاهله نصف متاعيه، فكيف يسود ابن الثالثة والسنتين إلى ملازمة الدكان من طلعة الشمس إلى مغيبها؟ قال:

- ولكن اعتزال العمل والقبوع في البيت يسرعان بالإنسان إلى التدهور، ألا ترى هذا في أصحاب المعاش الموقوفين؟

فقال الحمازوي بأساً:

- التدهور موجود قبل الاعتزال.

وضحك السيد فجأة كأنما ليداري الحرج الذي شعر به مقدماً قبل أن يقول له:

- يا عجزو يا مكار، أنت تهجري تلبية لإلحاح ابنك فؤاد.

فهبط الحمازوي متأثراً:

- معاذ الله، إن حالتي الصحية لا تخفي على أحد، وهي السبب الأول والآخر...

من يدري؟ فؤاد وكيل نيابة ومثله لا يرتاح لبقاء أبيه عاملاً بسيطاً في دكان ولو كان صاحب الدكان هو

اليوم السابق، كل ذلك كان أحمد عبد الجواد يؤديه على خير الوجه وبالدفعة المهدودة فيه من قديم غير أنه يؤديه اليوم مشقة لم يكن يجدها من قبل أن يركبه العمر والمرض. وكان منظره وهو منكب على دفتاره تحت لافتة البسملة، وشاربه الفضي بكاد ينفذ تحت أنفه الكبير الذي زاده ضمور الوجه ضخامة، كان ذلك المنظر مما يستحق المصطف، غير أن منظر وكيله ومساعدته جميل الحمازوي الذي كان يهدف إلى السبعين كان مما يستحق الرثاء، ولم يكن يفرغ من زبون حتى يتهالك على مقعده وهو يلهث فكان أحمد يقول لنفسه في شيء من الامتناع ولو كنا موقوفين لأغنا المعاش في مثل سننا من الكد والعمل. ورفع السيد رأسه عن الدفتر وهو يقول:

- لا زالت الحالة متأثرة بعض الشيء بالازمة الاقتصادية...

فارتسم الامتناع على شفتي الحمازوي الباهتين وقال:

- بدون شك، غير أن هذا العام خير من العام السابق، والعام السابق خير من الذي قبله، الحمد لله على أي حال...

عام ١٩٣٠ وما تلاه من أعوام، تلك الفترة التي كان التجار أصحابها يسونها أيام الرعب. حين استبد إسرائيل صديقي بالحياة السياسية وسيطر القحط على الحياة الاقتصادية، ويقبلون الأكف وهم يتساءلون عما يجتري لهم الغد، وقد كان من المحظوظين بغير شك لأن ضيقته لم تبلغ به الإفلاس الذي تهده عملاً بعد عام.

- أجل الحمد لله على أي حال...

ووجد جميل الحمازوي يرنو إليه بنظرة غريبة، فيها تردد وحرج، ماذا عنده يا ترى؟ وقام الرجل فقرب مقعده من المكتب ثم جلس وهو يتسم في ارتباك. وكان البرد قاسياً رغم سطوع الشمس، وكان للهواء حملات قوية ارتجت لها الأبواب والنوافذ وتعالى الصفير. قال السيد وهو يتدلل في جلسته:

- هات ما عندك، إني موقن بأنك ستقول شيئاً هاماً.

الذي مهّد له السبيل ليتبوّأ مركزه في النيابة، ولكنّه شعر بأنّ تصرّبه قد آلم وكبّل العليّب فتراجع مسائله في لطف:

- متى يُنقل فؤاد إلى القاهرة؟

- في صيف هذا العام أو في صيف العام القادم على الأكثر...

ومضت فترة سكون مشحونة بالحرج حتّى قال الحمزاوي مجازياً السيّد في لطفه:

- وإذا أقام معي في القاهرة وجب التفكير في تزويجه، أليس كذلك يا سي السيّد؟ إنّهُ ابني الوحيد عل سبع بنات، ولا بدّ من تزويجه، وكلّما فُكرت في ذلك جرت في خاطري الأنسة المهذّبة حفيدتك...

واسترق إلى وجه السيّد نظرة استطلاع ثمّ تنمّن:

- لسا قدّ المقام طيباً...

فلم يَسع السيّد إلّا أن يقول:

- أستغفر الله يا همّ جيل، نحن أخوان من قديم الزمن...

نرى آخره فؤاد عل جسّ النبض؟. وكيل نيابة شيء عظيم والعبرة في الأصل بالطيبة، ولكن لهذا وقت التحدّث في الزواج؟

- حدّثني أوّلًا أنّت مصمّم عل اعتزال العمل؟

وجاهه صوت من باب الدكان يقول:

- يا ألف صباح الخير...

- أهلاً وسهلاً... (ثمّ وهو يشير إلى المقعد الذي

أخلاه الحمزاوي) تفضّل...

جلست زبيدة بجسم قد ترهّل، ووجه قد تقنّع بالأصباغ، أمّا الحليّ فلم يعد لها أثر في عنقها أو أذنيها أو ساعديها، ولا للخيال القديم مكان، وجعل السيّد يرحّب بها كمعادته مع كلّ زائر لا أكثر، أمّا قلبه فلم يرتج للزيارة، فما من مرّة تحبّه إلّا وترهقه بالمطالب. سالها عن الصّحة فأجابت وهي لا تعني شيئاً «الحمد

لله» وقال لها بعد نهضة صمت... أهلاً... أهلاً، فابتسمت شاكرة ولكن بدا أنّها استشعرت الفتور الكامن في مجاملاته. وضحكت متجاهلة الجوّ الذي يكتنفها. وكانت الآيام قد علّمتها البرود، ثمّ قالت:

- لا أحبّ أن أضيّع وقتك وأنت مشغول، ولكنك أنبل من عرفت في حياتي، فلوّذا أن تمثّني بسلفه أخرى، وإمّا أن تجد ليبي شاريّاً، وبها حبّدا لو تكون أنت الشاري!

فقال أحمد عبد الجواد متنبّهاً:

- أنا؟! يا ليت، الزمن غير الزمن يا سلطنة، طالما صارحتك بالحقيقة ولكن يبدو أنّك لا تصدّقين يا سلطنة...

فضحكت ضحكة دارت بها خيبة أملها وقالت:

- السلطنة مفلسة، فما العمل؟

- في المرّة السابقة أعطيتك ما قدرت عليه، ولكنّ الحال لا يسمح بتكرار ذلك...

فتساءلت في قلق:

- ألا يمكن أن تجد ليبي شاريّاً؟

- سأبحث لك عن شاري. أعدك بذلك.

فقلت بمحنة:

- هذا ما يُنتظر منك يا سيّد الكرماء (ثمّ بلهجة حزينة) ليست الدنيا وحدها التي تغيّرت ولكنّ الناس تغيّروا أكثر، سامح الله الناس، في أيّام العزّ كانوا يستبقون إلى تقبيل حذائي، والآن إذا لمحوّني عل جانب الطريق مالوا إلى الجانب الآخر.

لا بدّ أن يتنكر للإنسان شيء، بل أشياء، الصّحة أو الشباب أو الناس، أمّا أيّام العزّ، أيّام الأنعام والحبّ فإنّ هي؟!!

- ومن ناحية أخرى فأنّت يا سلطنة لم تعلمي للأيّام حساباً...

فتنبّدت آسفة وهي تقول:

- نعم، لست كأخذك جلييلة التي تتاجر بالأعراض ونقتني المال والبيوت، وفضلاً عن ذلك فقد ابتلاني الله بأولاد الحرام حتّى بلغ الفجر بحسن غير أنّه كان يبيعي شصّة الكوكابين - عندما ندر في الأسواق - بجنيه!

- لعنة الله.

- حسن عنبر!... ألف لعنة!

- بل الكوكابين.

- والله الكوكابين أرحم من الإنسان.

بصوت عتيق يتعالى من الباب قائلًا في لهجة الغزل:

- من هذا الذي يجلس وراء المكتب القلبي؟!

بدا الشيخ متورّي عبد الصمد في جلباب خشن رثّ لا لون له، ومركوب متفرّز، معصوب الرأس بتلفيفة من وير، مستند القامة على عكاز، وكان يرمش بعينه الحمراوين مسدّدًا بصره نحو الجدار الملاصق لمكتب السيّد وهو يظنّ أنّه يسدّده نحوه... فابتسم السيّد رغم همّه قائلًا:

- تعال يا شيخ متورّي، كيف حالك؟

فكشف الرجل عن فم لم يبق فيه ناب واحد وهو يبتف:

- يا ضبط زُلّ، يا صحّة عودي إلى سيّد الناس...

وقام السيّد فأخذه نحوه فاعتدل بصر الشيخ إليه ولكنّه تراجع في الوقت نفسه كالمغرب، ثمّ جعل يدور حول نفسه، مشيرًا إلى الجهات الأربع وهو يصيح ومن هنا تفرّج... ومن هنا تفرّج... ثمّ تحوّل إلى الطريق قائلًا:

- ليس اليوم، غدًا، أو بعد غد، قل الله أعلم...

ومشى في خطوات واسعة لا يناسب نشاطها مظهره البالي...

٣

يوم الجمعة رجعت الفروع إلى الأصل وهمر البيت القديم بالأبناء والأحفاد، ذلك تقليد سعيد لم ينقطعوا عنه. ولم تعد أمينة وبطلة يوم الجمعة كما كانت قديمًا، فلمّ حنفي تبوّأت المركز الأوّل في المطبخ، ولم تكن أمينة تفي عن تذكير القوم بأنّ أمّ حنفي تلميذتها فإنّ غرامها بالثناء كان يشجّع على الإفصاح عن ذاته كلّما شعرت بقلّة استحقاقها له، إلى أنّ خديجة - رغم أنّها في حكم الضيفة - لم تقصّر في إهداء معونتها. وقبيل ذهاب السيّد إلى الدكان التفت به الضيف، إبراهيم شوكت وابناه عبد النعم وأحمد، وإياسين وابناه رضوان وكريمة، يكتنفهم ذلك الحشوع الذي يجعل من ضحكهم إبتسامة ومن حديثهم همسًا. وكان السيّد يجد في حضورهم سرورًا يزداد تملّقًا به كلّما تقدّم به

- لا... لا، من المحزن حقًا أنّك وقعت في شرّه.

فقلت بتسليم وقنوط:

- هذّ حيلي وضّيح مالي، ما علينا، متى تجدد في شاربنا؟

- إن شاء الله عند أوّل فرصة.

فقلت في عتاب وهي تبهض:

- اسمع، إذا زرتك في المرّة القادمة فابتسم من قلبك، كلّ إساءة تبون إلّا التي تحبّني من ناحيتك، أنا عارفة أنّ أضيافك بمطالبي ولكنّي في ضيق لا يعلم به إلّا الله، وأنت أنبل الناس في نظري.

فقال لها معتذرًا:

- لا تتوقّمي ما ليس فيّ، الأمر أنّي كنت مشغولًا بمسألة هامة عند قدومك، وهمر التجار لا تنتهي كما تعلمين!

- رفع الله عنك الموم.

فحنى رأسه شاكرًا وهو يوصلها، ثمّ ودّعها قائلًا:

- أهلاً بك من القلب في كلّ حين...

ولمع في عينيها نظرة خابية تفيض غمًا فرق لها، وعاد إلى مجلسه متقبض الصدر فالتفت إلى جميل الحمزاوي وقال:

- دنيا...

- كفّاك شرّها وأطعمك خيرها.

غير أنّ نبرات الحمزاوي قست وهو يستدرك قائلًا:

- ولكنّها عاقبة عادلة لامرأة مستهترّة!

فهو أحمد عبد الجواد رأسه همّة مقتضية سرعة كلّما يعلن بها احتجاجًا صامتًا على قسوة هذه الموصظة، ثمّ سأل بصوت رجيع به إلى النغمة التي قطعها بجبه زبيدة:

- ألا تزال مصمّما على رأيك في هجرنا؟

فقال الرجل في حرج:

- ليس هجرًا ولكنّه تقاعد وأنا أسف من كلّ قلبي.

- كلام كالذي داريت به زبيدة منذ دقيقة!

- استغفر الله، إنّّي أنكلّم من قلبي، ألا ترى يا سيّدي أنّ الكبر يكاد يمجزي؟

ثمّ دخل الدكان زيون فمضى الحمزاوي إليه، وإذا

الكهريائي. وكان إبراهيم شوكت كعادته التي لم يغيرها الزمن ينوّه بالوان الطعام التي أعجبت، غير أنّ تنويهه اقتصر في الفترة الأخيرة على فضل الأستاذة على تلميذتها النجيب، وكانت زُتوية تعيد ثناءه كالصدي فلأنها لم تكن تحمل فرصة يمكن أن تتوّد بها إلى أحد من أهل زوجها. والحق أنّها قد فُتحت لها أبواب آل زوجها وأُتيحت لها مغالطتهم وهي تعمل بلهافة على توثيق علاقاتهم بهم، لأنّها عدّت ذلك اعترافاً بمكانتها بعد أن انقضت أعوام وهي تعيش في عزلة كالنبوة.

وكان موت وليد ياسين السبب الحقيقي في زيارة أهله لبيتة للتعزية، فصاغت يدها أبيدهم لأول مرة منذ زواجها، وتشجّعت بذلك فرارت السكرة، ثمّ زارت بين القصرين عند اشتداد المرض على السيّد، بل أقدمت على زيارته في حجرته فتقبّلا كشخصين جليدين لا تاريخ مشتركاً بينهما. هكذا اندمجت زُتوية في آل أحمد حتّى غدت مخاطب أمانة فتقول لها يا توتة وتنادي خديجة فتقول لها يا أعني، ويدت دائماً مثلاً للاحتشام، وعلى خلاف نساء الأسرة أنفسهن تحبّبت التبرّج خارج بيتها، حتّى بدت أكبر من سنّها، إذ बाद الذبول إلى جالها قبل الأوان، فلم تصدّق خديجة أبداً أنّها في السادسة والثلاثين، ولكنّها استطاعت أن تفوز من الجميع بشهادة طيّبة لها حتّى قالت عنها أمانة يوماً ولا شك أنّ أصلها طيّب، ربّما أصلها البعيد، فليكن،

ولكنّها بنت حلال، هي الوحيدة التي عمّرت مع ياسين^١. وولدت خديجة في شحمها ولحمها أضخم من ياسين نفسه، ولم تكن تنكر أنّها سعيدة بذلك، كما كانت سعيدة بعيد المنعم وأحمد وحياتها الزوجية الموفّقة عامّة، بيد أنّها لم تكفّ يوماً عن التشكّي أثناء العين.

وقد تغيّرت معاملتها لعائشة تغيّراً كليّاً فلم تندّ عنها طوال ثمانية أعوام كلمة واحدة تنمّ عن سخرية أو خشونة ولو على سبيل المازحة، بل حرصت الحرص كلّ على الترفّق بها والتودّد إليها وملاطفتها، خشوعاً حيال تعامستها وخوفاً من الأقدار التي قضت عليها بما قضت، وإشفاقاً من أن تضع المرأة المحزونة حلقها موضع المقارنة، وقد وقفت موقفاً كريماً يوم حُتمت على

العمر، فعتب على ياسين انقطاعه عن زيارته في الدكان اكتفاء بزيارة يوم الجمعة، ألا يريد هذا البغل أن يفهم أنّه يتوق إلى رؤيته كلّ حين؟. وابنه رضوان جميل المحيّا ذو العينين المكحولتين والبشرة الوردية الذي يعكس جماله ألواناً متنوّعة تذكره مرة بياسين ومرة بهيئة أم ياسين وثالثة بصليبه الحبيب عمّد فعّت فهذا أحبّ الأحفاد إلى قلبه، وكرّمة أخته مصتّر شابة في الثامنة من عمرها سوف تنضج نضجاً عجيباً كما تشهد عينها السوداوان. عينا زُتوية أمّها. اللتان يسمّ لها خاطره ابتسامة نعيّة بالحياء والذكريات. أمّا عبد المنعم وأحمد فحسبه أن يرى في وجهها قلداً لا يُستهان به من أنفه العظيم كما يرى عيني خديجة الصغيرتين، غير أنّها أجبراً من الآخرين في غناطته، وكلّهم - هؤلاء الأحفاد - يشقّون طريق دراستهم بنجاح يدعوا إلى الفخر، لكنّهم يبدون مشغولين بأنفسهم عن جدّهم، فمن ناحية يعزّونه بأنّ حياته لم ولن تنقطع ومن ناحية أخرى يذكّرونه بأنّ شخصه تراجع رويداً عن مركز الاهتمام الذي كان يستأثره، ولم يكن ذلك ليحزنه، فإنّ الإيذاء بالعمر يميّ به بالحكمة كما يميّ بالوهن والمرضى. ولكن هيئات أن يمنع ذلك الذكريات من أن تتدفّق، عندما كان مثل هؤلاء في مطلع العمر، وعندما كان العام ١٨٩٠، وكان يتعلّم قليلاً ويلهو كثيراً ما بين مغالي الجماليّة ومرتاد الأزبكية، وفي ركابه يجرى عمّد فعّت وعلى عبد الرحيم وإبراهيم الفار، وكان أبوه يلا الدكان نفسه يزجر وحيد قليلاً، ويرقّ له كثيراً. وكان العمر صفحة مطوّقة مكتظة بالأمال، ثمّ كانت هيئة... ولكن مهلاً لا ينبغي أن تستخفّه الذكريات.

وقام ليصلي العصر فكان ذلك إيلداً بالانصراف، ثم ارتدى ملباسه ومضى إلى الدكان، ونجموا هم في مجلس الفهوة حول مجرمة الجلّة، في جرّ التلاقي والسر. احتلّت الكنية الرئيسيّة أمانة وعائشة ونعيمة، أمّا الكنية اليمنى فجلس عليها ياسين وزُتوية وكرّمة، وعلى الكنية اليسرى قعد إبراهيم شوكت وخديجة وكسّال، على حين التحدّ رضوان وعبد المنعم وأحمد مجالسهم على كراسيّ توسّطت الصالة تحت المصباح

ينتفَس في جَوِّ الآمال القديمة، بيد أن الحياة تجبهه بصدمات قاسية كل يوم، فوكيل النيابة مثلاً لا يحتاج إلى تعريف أكثر من مقالات مجلة «الفكر» فربما احتاج أحمد إبراهيم شوكت لحيرته فنظر إليه بعينه الصغيرتين البارزتين وهو يقول:

- إنِّي أترك الجواب لحالي كحال...

وابتسم إبراهيم شوكت ابتسامة إداري بها حرجه، أما كمال فقال دون حماس:

- احزُسْ ما تشعر بأنَّه يوافق موهبتك.

ويدا الظفر في وجه أحمد فردد رأسه الرشيق بين أخيه وأبيه غير أن كمال عاد يقول:

- ولكن ينبغي أن تعلم أن الحقوق تفتح لك مجالاً من الحياة العملية المتأزلة لا تستطيعه الآداب. سيكون مستقبلك إذا اخترت الآداب في التعليم وهو مهنة شاقة ولا جاه لها...

- بل سألتُ إلى العمل في الصحافة.

- الصحافة!... «صاح إبراهيم شوكت»... إنَّه لا يلري ماذا يقول.

فقال أحمد غاطساً كمال:

- إنَّ قيادة الفكر وقيادة عربية كارو شيء واحد في أسرتنا!

فقال رضوان ياسين بأساً:

- إنَّ أكبر قادة الفكر في وطننا من الحقوق...

فقال أحمد في كبرياء:

- إنَّ الفكر الذي أعنيه شيء آخر!

فقال عبد المنعم شوكت عابساً:

- وهو شيء خفيف هدام، إنِّي أعلم والسفاه بما تعني...

وعاد إبراهيم شوكت يقول لأحمد وهو ينظر إلى الآخرين كأنَّهم يشهدهم عل ما يقول:

- فكُفِّر قبل أن تقدم، إنَّك لا زلت في السنة الرابعة، لن يعدو ميراثك لمائة جنيه في العام، وإنَّ بعض أصحابي يشكون مرَّ الشكوى من أنَّ أبناءهم الجامعيين لا يجدون عملاً، أو يعملون كُتَّبةً بربريات نافهة، وأنت حر بعد ذلك فيما تختار...

إبراهيم شوكت أن ينزل عن حَقِّه المشروع في ميراث أخيه المتوفَّى نعيمة فالَّ الميراث كلُّه لعائشة وكريمتهما دون شريك. وأملت خديجة أن يذكر صنيعها في حينه ولكنَّ عائشة استغرقتها ذهول غيَّب عنها كرم أختها فلم يقعد ذلك بخديجة عن غسرها بالمطبخ والرحمة والتسامح كأنَّما انقلبت أمًّا أخرى لها، ولم تكن تطمع في أكثر من رضاها ومودَّتها كي تطمئنَّ على أسباب التوفيق التي هيأها لها الله. وأُخرج إبراهيم شوكت علبة سجايره وقمَّتها لعائشة فتناولت سيجارة شاكرة، وتناول أخرى وراحا يدخنان. كثيراً ما يكون إفراط عائشة في التدخين وتعاطي القهوة ملقًى صلاحيات وإن تكن تقابل منها عادة جرَّ الكفين. أمَّا أمُّها فتتبع بأن تقول في لهجة الدعاء «ربُّنا يصبرها» وأمَّا ياسين فكان أجراً الأهل في نصيحها كأنَّما قد أمَّله لذلك فُقد وليده، غير أنَّ عائشة لم تكن تملِّه مصاباً مثلها وتضنَّ عليه بمكانة مرموقة في دولة المبتليين إذ إنَّ ابنه مات وهو دون العام لا كعثان أو محمد، والواقع أنَّ حديث المصائب كان يبدو كثيراً هوائيتها المفضَّلة، كأنَّما كانت تعزَّز بدرجةها المتأزلة في دنيا الشقاء، واستمع كمال إلى ما يدور من حديث عن المستقبل بين رضوان وعبد المنعم وأحمد فأدهف السمع بأساً، وكان رضوان ياسين يقول:

- كلُّنا من القسم الأدبي، فليس أماننا كَلِيَّة جديرة بالاختيار إلا الحقوق.

فأجاب عبد المنعم إبراهيم شوكت بصوته القوي المغمم بنبرات التوكيد، وكان يجرُّ رأسه الضخم الذي جعله أقرب الشبان شبهاً إلى كمال:

- مفهوم... مفهوم، ولكنَّه لا يريد أن يفهم!

وأوماً عند عبارته الأخيرة إلى أخيه أحمد الذي ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، فانتَهز إبراهيم شوكت الفرصة وقال مشيراً إلى أحمد أيضاً:

- ليدخل الآداب إذا شاء ولكن عليه أن يقنعني بقيمتها، أنا أفهم الحقوق ولكنني لا أفهم الآداب!

وغضَّ كمال بصره فيما يشبه الأسى، إذ علوته أصداء نقاش قديم عن الحقوق والمؤمنين. إنَّه لا زال

شعر كمال كأنّ هذا القول انتقاد مرّ موجه إلى شخصه، أمّا عائشة فقالت لأوّل مرّة:

- إنّه يريد أن يخطب نعيمة.

وفي فترة الصمت التي استُقبل بها الخبر قالت أمينة:

- أبوه قاتل جدّها أمس...

وتساءل ياسين جادًا:

- وهل وافق أبي؟

- هذا سابق لأوانه.

فتساءل إبراهيم شوكت بحذر وهو ينظر إلى عائشة:

- وما رأي عائشة هانم؟

فقالت عائشة دون أن تنظر إلى أحد:

- لا أدري...

فقالت خديجة وهي تتفحصها بعين:

- ولكنك أنت الكلّ في الكل...

وأراد كمال أن يشهد بشهادة طيبة لصديقه فقال:

- فؤاد شابّ ممتاز حقًا...

فقال إبراهيم شوكت بحذر كالتسائل:

- اظنّ أهله من السوقة؟

فقال عبد المنعم شوكت بصوته القوي:

- نعم، خاله مكاري، وخاله الآخر قرآن، وعمّه

كاتب عام (ثمّ بلهجة استدرائية ضعيفة) ولكن هذا

لا ينقص من قدر الإنسان فالإنسان بنفسه لا بأهله!

وأدرك كمال أنّ ابن أخته يريد أن يقرّر حقيقتين

يؤمن بها على تنافرهما، أوّلًا وضاعة أصل فؤاد، وثانيًا

أنّ وضاعة الأصل لا تنقص من قدر الشخص. بل

أدرك أكثر من هذا أنّه يعمل في الأولى على فؤاد وأنّه

يكفرّ في الثانية عن حملته الظالمة مرضاة لعقيدته الدينية

القوية. ومن عجب أنّ تقرير هاتين الحقيقتين أراحه

وكفاه شرّ الإفصاح عنها بنفسه، فلوّنه كابن أخته لم

يكن يؤمن بفوارق الطبقات، وكان مثله أيضًا يميل

للحملة على فؤاد والخط من شأنه الذي يدرك خطورته

وتفاهته هو بالقياس إليه. والظاهر أنّ أمينة لم ترتع

هذه الحملة فقالت:

- أبوه رجل طيب، نحلتنا العمر كله بأمانة

واخلاص.

فجمعت خديجة شجاعتها وقالت:

وتدخل ياسين في المناقشة بأن اقترح قائلًا:

- لنسمع رأي خديجة، إنّها المدرّسة الأولى لأحد،

وهي أقدرنا على الاختيار بين الحقوق والآداب...

وامتلات الثغور بالانتظام، حتّى أمينة ابتسمت

وهي عاكفة على كتفة الفهورة، بل حتّى عائشة

ابتسمت، فتشجعت خديجة بانتسامة عائشة فقالت:

- سأقصّ عليكم قصّة طريفة، أمس بعد العصر

بقليل - والدنيا تظلم بسرعة في الشتاء كما تعرفون -

كنت راجعة من الدرب الأحمر إلى السكينة، فشرعت

كأنّ رجلاً يتبعني، وإذا به يمرّ بي تحت قبة المتولي وهو

يقول «علّ فين يا جميل»، فالتفت نحوه قائلة: «علّ

البيت يا ممي ياسين!».

وضجّت الصالة بالضحك. ونظرت إليه زئوبة

نظرة ذات معنى تحجّل فيها الانتقاد واليأس، أمّا ياسين

فجعل يشير للضاحكين بيده حتّى عاد السكون، ثمّ

تساءل:

- أمن المعقول أن يصيبي العمى إلى هذا الحدّ؟

فعلّنه إبراهيم شوكت قائلًا:

- حاسب!

أمّا كريمة فأمسكت بيد أبيها وضحكت كأنّها رغم

كونها بنت ثائرة قد فهمت المقصود من قصّة عمّتها،

وقالت زئوبة تعليقًا على الحال:

- شرّ الأمور ما يضحك.

وحلج ياسين خديجة بنظرة مغیظة وهو يقول

«حفرت لي حفرة يا بنت الإيه» فقالت خديجة:

- إذا كان أحد في الموجودين في حاجة إلى الآداب

فهو أنت لا أحمد ابني المجنون.

وصدّقت زئوبة على قولها، أمّا رضوان فدافع عن

أبيه ودعاه بالبريء المظلوم، وظلّ أحمد ينظر إلى كمال

متعلّقًا به كالأمّ، أمّا عبد المنعم فكان يسترق النظر

إلى نعيمة التي تبلّدت لصبّ أمّها كالوردة البيضاء،

وكانت كلّها شرعت بعينيها الصغيرتين تورد وجهها

الشاحب الرقيق، حتّى عاد إبراهيم شوكت يقول مغتيرًا

بجري الحديث غاطيًا أحمد:

- انظر إلى الحقوق وكيف جعلت من ابن الحزراوي

وكيل نيابة قذّ الدنيا...

- ولكن رَجَا عاشرت نعيمة - لو تَمَّ هذا الزواج -
أناسًا ليسوا أهلاً للمعايشة، الأصل كل شيء.
وجاءها تأييد من حيث لم يتخطر أحد، فقالت
زَنُوبَة:

- صدقت، الأصل كل شيء!

واضطرب ياسين، واسترق إلى خديجة نظرة سريعة
وهو يتساءل عن رجوع قول زوجته في نفسها، وتعليقها
الباطني عليه وما يستدعيه ذلك إلى خواطرها عن عالم
العوامل والتخلف. حتى لعن زَنُوبَة في سرِّه على
«قزحتها» الفارغة واضطرَّ أن يتكلم ليفكِّي حل كلام
زوجته، فقال:

- تذكروا أنكم تتحدثون عن وكيل نيابة...

فقالت خديجة متشجعة بسكوت عائشة:

- أي الذي جعل منه وكيل نيابة، أموالنا نحن التي
صنعتها!

فقال أحمد شوكت في سخرية نطقت بها عيناه
البارزتان اللتان تذكَّران بالرحوم خليل شوكت:
- نحن مدينون لأبيه أكثر مما هو مدين لنا!
فاشارت إليه خديجة بسبابتها وهي تقول بلهجة
ملؤها الانتقاد:

- أنت دائماً ترميني بكلام غير مفهوم.

فقال ياسين بلهجة من يأمل في إنهاء الموضوع:

- أريحوا أنفسكم فالكلمة الأخيرة لهابا...

وَرَضَتْ أمينة فنانجيل القهوة، وانجهت أعين الشباب
إلى حيث جلست نعيمة لصق أمتها. قال رضوان
لنفسه: بنت لطيفة وجيلة، ليه كان في الإمكان أن
أصافقها وأزاملها، لو مشينا في الطريق معاً لاحتار
الرجال أينا الأجل!، وقال أحمد لنفسه أيضاً: جيلة
جداً، ولكنكأنا كما هي ملزومة في خالتي بالفرا، ولا
حظ لها من الثقافة. أما عبد المنعم فقال: جيلة وست
بيت وشديدة التقوى، لا يعيبها إلا ضعفها، وحتى
ضعفها جميل، خسارة في عين فؤاد، ثم جاوز الحديث
الباطني فسألها:

- وأنت يا نعيمة خبِّرينا عن رأيك؟

فتورد الوجه الشاحب، وقطبت ثم ابتسمت، وتوتر
حالمها وهي تنزع الابتسام بالتعطيل لتخلص منها معاً،

ثم قالت في حياء واستياء:

- لا رأي لي، دهقي وشاني...

فقال أحمد ساخراً:

- الحياء الكاذب...

ولكن عائشة قاطعت متسائلة:

- الكاذب؟!

فاستدرك قائلاً:

- الحياء موضحة قديمة، ينبغي أن تتكلمي أولاً
صاحت منك الحياء...

فقالت عائشة بجرأة:

- إننا لا نعرف هذا الكلام.

فقال أحمد متشككاً دون أن يعا بنظرة أمه المتلذذ:

- أراهن على أن أسرتنا متأثرة عن العصر الحديث

بأربعة قرون!

فسأله عبد المنعم ساخراً:

- لم حُكِّدتها بأربعة؟

فقال دون اكتراث:

- على سبيل الرأفة!

وإذا بخديجة توجه الخطاب إلى كمال متسائلة:

- وأنت!... متى تزوج أنت؟!

بوغت كمال بالسؤال فتَهَرَّب قائلاً:

- حديث قديم!

- وجديد في الوقت نفسه، ولن نتركه حتى يجمع
الله شملك على بنت الحلال...

تابعت أمينة الحديث الأخير باهتمام مضاعف،
فزواج كمال أعز أمانيتها، وكم رجته أن يحقق أمنيته
حتى تقرَّ همتها بخفيد من صلب ابنها الوحيد، قالت:
- عرض عليه أبوه عرائس من أحسن الأسر، ولكنه
يتعلل دائماً بعلو أو بآخر...

- أهدار واهية، كم عمرك الآن يا سي كمال؟...

تساءل إبراهيم شوكت ضاحكاً...

- ثمانية وعشرون عاماً... فات الوقت...

أنصتت أمينة إلى رقم العمر بدش كأنها لا تريد أن
تصتق، أما خديجة فاحتثت وهي تقول:

- أنت مغرم بتكبير عمرك!

أجل فهو الأخ الأصغر، فالكشف عن عمره كشف

فابستمت زُتوبة ابتسامه أرجعتها إلى الوراء عشرة أعوام وتساءلت:

- ولم لا ترغب في الزواج؟

فقال كمال فيها بشبه الضجر:

- الزواج حبة وأنتم تجمعون منه قبة...

ولكنه كان يؤمن في أعماقه بأن الزواج قبة لا حبة، وكان يساوره شعور غريب بأنه يوم يدعن للزواج فسيفس على قضاء مبرماً. وأنقله من موقفه صوت احمد وهو يقول له:

- أن لنا أن نصعد إلى المكتبة.

فنهض مرشحاً بدعوته، ومضى خارجاً وعبد المنعم واحمد ورضوان في أثره، وصعدوا إلى حجرة المكتب لاستمارة بعض الكتب كعادتهم كلَّما جاءوا إلى البيت القديم زائرين. وكان مكتب كمال يتوسط الحجرة تحت المصباح الكهربائي بين صفين من خزائن الكتب، فجلس إلى مكتبه على حين رأى الشبان يطالعون عناوين الكتب المصفوفة على الأرفف، ثم اختار عبد المنعم كتاب «محاضرات في تاريخ الإسلام»، وجاء احمد بكتاب «مبادئ الفلسفة»، ثم وقفوا حول مكتبه وهو يرتد بصره بينهم صامتاً، حتى قال احمد متضامناً:

- لن أقرأ كما أحب حتى أتقن لغة أجنبية واحدة على الأقل.

وقتم عبد المنعم وهو يقرأ صفحات كتابه:

- لا أحد يعرف الإسلام على حقيقته.

فقال احمد ساخطاً:

- أخي يتلقى حقيقة الإسلام على يد رجل شبه عافى في خان الخليلي...

فصاح به عبد المنعم:

- صه يا زنديق!

ونظر كمال إلى رضوان متسائلاً:

- وأنت ألا تريد كتاباً؟

فأجاب عنه عبد المنعم:

- وقته مشغول بقراءة الجرائد الوفدية!

فقال رضوان وهو يوميئ إلى كمال:

- في هذا يتفق معي عمي!

عمه لا يؤمن بشيء ورغم ذلك فهو وفدي! كما أنه

غير مباشر عن عمرها. مع أن زوجها بلغ الستين إلا أنها كانت تكره أن تذكر بأنها في الثامنة والثلاثين، أما كمال فلم يكن يدري ماذا يقول، ولم يكن الموضوع في نظره مما يحسم بكلمة، ولكنه كان يشعر دائماً أنه مطالب بإيضاح موقفه فقال بلهجة المتلذر:

- إني مشغول بناري بالمدرسة وإيلي بمكتبي!

فقال احمد بحماس:

- حياة عظيمة يا خالي، ولكن الإنسان ينبغي مع ذلك أن يتزوج.

وقال ياسين الذي كان أعرف الجميع بكمال:

- أنت تتجنب الشواغل حتى لا تشغلك عن طلب «الحقيقي» ولكن الحقيقة في هذه الشواغل، لن تعرف الحياة في المكتبة، ولكن الحقيقة في البيت والشارع...

فقال كمال معتمداً في الحرب:

- تعودت أن أنفق مرتبي لآخر ملهم، ليس عندي مدخر، كيف أتزوج؟

فكانت خديجة تحاصره:

- أئو الزواج مرة وستعرف كيف تستعد له.

وقال ياسين ضاحكاً:

- إنك تنفق مرتبك لآخر ملهم حتى لا تتزوج...

كانها شيء واحد. ولكن لم تم تزوج رغم استجابة الظروف ورغبة والوالدين؟ أجل مضت فترة في ظل الحب فكان الزواج ضرباً من العيب، وتبعها فترة حل عمل الحب فيها بديل هو الفكر فاستغرق الحياة بينهم، وكانت فرصة الأفرح أن يمر على كتاب جميل أو يظفر بنشر مقالة. وقال لنفسه إن المفكر لا يتزوج وما ينبغي له. كان ينظر إلى فوق ويظن أن الزواج سيحمله على النظر إلى تحت. وكان - وما زال - يلذ له موقف المشاهد المتأمل بقدر ما ينفر من الاندماج في ميكانيكية الحياة. وأنه أيضاً بحريته كما يضن البخل بماله، ثم إنه لم يبق عنده من المرأة إلا شهوة تفضي، وإلى هذا كله فالشباب لم يضع هباء ما دام لا يتقضي أسبوع دون مسرات فكرية ولذات جسدية، ثم إنه حائر بدخله الشك في كل شيء، والزواج نوع من الإيمان، قال:

- ارمحوا أنفسكم، سأتزوج عندما أرغب في الزواج.

وقد انحسر كمال بين الواقفين وكأنه يطلّ عليهم بقامته الطويلة النحيلة. كانوا مثله - فيها بدا له - يقصصون مكان الاحتفال بالعيد الوطني - عيد ١٣ نوفمبر - فردد عينيه في الوجوه مستطعمًا ومرحبًا.

والحقّ أنّه يشارك في هذه الأعياد كأشدّ المؤمنين بها وإن آمن في الوقت نفسه بالأيمان له. وكان الناس يتحدّثون معلقين على الموقف دون سابق تعارف مكتفين بورحلة الهدف وبرابطة «الوفاة» التي ألقت بين قلوبهم، قال أحدهم:

- عيد الجهاد هذا العام عيد جهاد بكلّ معنى الكلمة، أو هذا ما يجب أن يكون...

فقال آخر:

- يجب أن يُرَدّ فيه على هور وتصريحه المشعور.
وثار ثلث للذكر هور فصاح:

- ابن الكلب قال: نصحن بأن لا يعاد دستور ١٩٢٣، ولا دستور ١٩٣٠، ما شأنه هو ودستورنا؟
فأجاب رابع:

- لا تنس أنّه قال قبل ذلك: «علّ أنّا عندما استشارونا نصحنه» إلخ...

- أجل، من الذين استشاروه؟

- سلّ عن ذلك حكومة القوادين!

- توفيق نسيم... كفى! أنسيتموه؟ ولكن لماذا هادنه الوفاة؟

- لكلّ شيء نهاية، انتظروا خطبة اليوم.

أصغى كمال إليهم، بل اشترك في حديثهم، وأعجب من هذا أنّه لم يكن من دوعهم حماسًا، وكان هذا ثامن عيد جهاد يشهده، وكان كالأخريين قد امتلا بمرارة التجارب السياسية التي خلّفتها الأعوام السابقة. أجل ولقد عاصرت عهد محمّد محمود الذي عطّل الدستور ثلاث سنوات قابلة للتجديد واغتصب حرّية الشعب في نظير وعده له بتجفيف السرك والمستنقعات! كما عشت سنين الإرهاب التي فرضها إسماعيل صدقي على البلاد، كان الشعب يتقن في قوم ويريدهم حكامًا له ولكنّه يجد فوق رأسه دائمًا أولئك الجالدين البغضاء، تحميمهم مراوات الكونستبلات الإنجليز وخصاصهم، وسرعان ما يقولون له بلغة أو

يشكّ في الحقيقة عامّة، ورغم ذلك فهو يتعامل مع الناس والواقع. تساءل وهو يردّد عينيه بين عبد المنعم وأحمد:

- وأنتا وفديّان كلّك في وجه الغرابية؟ وكلّ وطني فهو وفديّ، أليس كذلك؟

فقال عبد المنعم بصوته اليقيني:

- الوفاة أفضل الأحزاب بلا ريب، ولكنّه في ذاته لم يعد مقتنًا كلّ الإقناع...

فقال أحمد ضاحكًا:

- إليّ أوافق أخي على رأيه هذا، أو بالأحرى لا أوافق على رأيي إلا هذا، وربما اختلفنا في درجة الإقناع الخاصّة بالوفاة، أكثر من ذلك فإنّ الوطنية نفسها يجب أن تكون موضع استفهام، أجل إنّ الاستقلال فوق كلّ نزاع، أمّا معنى الوطنية بعد ذلك فينبغي أن يتطرّق حقّ يفق في معنى أشمل وأسمى، وليس بعيد أن ننظر في المستقبل إلى شهداء الوطنية كما ننظر الآن إلى ضحايا المعارك الحمقاء التي تشب بين القبائل والأسر!

معارك حمقاء يا أحمق! فهمي لم يستشهد في معركة حمقاء، ولكن أين وجه اليقين؟ ورغم خواطره قال بحمّة:

- أيّ قتيل في سبيل شيء فوق نفسه فهو شهيد، وقد تتغيّر قيم الأشياء أمّا موقف الإنسان منها فهو قيمة لا تتغيّر...

وغادروا حجرة المكتب ورضوان يقول غاطبًا عبد المنعم ردًا على ملاحظة له:

- السياسة أخطر وظيفة في المجتمع...

وبما عادوا إلى مجلس القهوة كان إبراهيم شوكت يقول لياسين:

- وهكذا فنحن نرهب ونوجه ونصح ولكن كلّ ولد ينمّج في مكتبة، وهي عالم مستقلّ عتاء، يزعمنا فيه أناس غريباء، لا ندرى عنهم شيئًا فما عسى أن نصنع؟!.

كان الترام مكتنًا حتّى لم يعد به موضع لواقف،

فيشارك في حياتهم ويعتق آلامهم وآلامهم . إنه بطبعه لا يطيق أن يتخذ من هذه الحياة حياة ثابتة له ولكن لا بد منها بين حين وآخر حتى لا ينقطع ما بينه وبين الحياة اليومية، حياة الناس، فلتؤجل مشكلات المائدة والروح والطبيعة وما وراء الطبيعة، وليعزل اهتمامًا بما يجب هؤلاء الناس وما يكرهون، بالدستور... بالآزمة الاقتصادية... بالوقوف السياسي... بالقضية الوطنية. لذلك لم يكن عجبًا أن يتعب والوند عقيدة الأمة غداة ليل قضاء في تأمل عبث الوجود وقبض الريح، والعقل يحرم صاحبه نعمة الراحة، فهو يشق الحقيقة ويؤي النزاهة ويتطلع إلى السامح ويرتطم بالشك ويشقى في نزاعه الدائم مع الغرائز والانفعالات، فلا بد من ساعة يأوي فيها أكتفب إلى حضن الجماعة ليجدد دماه ويستمد حرارة وشبابًا. في المكتبة أصدقاء قليلون ممتازون مثل دارون وبرجسون ورسل. في هذا السراق آلاف من الأصدقاء، بيدون بلا عقول، ولكن يتمثل في مجتمعهم شرف الغرائز الواعية، وليسوا في النهاية دون الأزل خلقًا للحوادث وصنمًا للتاريخ. في هذه الحياة السياسية يجب وكره ويرضى ويغضب ويبدل كل شيء ولا قيمة له. وكلما واجه غلبًا التناقض في حياته يخلو من تناقض وبالتالي من ليس ثمة موضع في حياته يخلو من تناقض وبالتالي من قلق. لذلك شد ما يحزن قلبه إلى تحقيق وحدة منسجمة تشتم بالكمال والسعادة، ولكن أين هذه الوحدة؟ ويشعر بأن الحياة العقلية لا مفر منها ما دام به عقل يفكر فلا يقعه ذلك عن التطلع إلى الحياة الأخرى تدلعه كافة القوى المعطلة المكبوتة، فهي صخرة النجاة. فعلمه لذلك بدا هذا الجمع رائيًا، وكلما ازداد كثرة ازداد روعة. وما هو القلب ينتظر ظهور الزعماء بنفس الحرارة واللهفة كالآخرين. وقد جلس عبد المنعم وأحمد على مقعدين متجاورين، أما رضوان وصاحبه حلمي عزت فيسيران في الممر الذي يشق السراق ذهابًا ورجوعًا أو يقفان عند المدخل يتبادلان الحديث مع بعض المشرفين على الاحتفال فيا لها من شائين ذوي نفوذ. وكانت همسات القوم تتجمع فتحدث لفظًا عامًا أما الأركان التي احتلها الشباب

بأخرى أنت شعب قاصر ونحن الأوصياء، والشعب يخوض المارك دون توقف فيخرج من كل وهو يلهث، حتى اتخذ في النهاية موقفًا سلبيًا، شعاره الصبر والسخرية، فخلا الميدان إلا من الولدتين من ناحية والطفلة من ناحية أخرى، وقنع الشعب بمجلس المتفرج وراح يشجع رجاله في مس دون أن يمد لهم يدًا. إن قلبه لا يستطيع أن يتجاهل حياة الشعب، إنه يخفق معه دائمًا، رغم عقله السالك في ضباب الشك. غادر الترام عند شارع سعد زهلول، وسار في طابور غير منظم نحو سراق الاحتفال المقام في جوار بيت الأمة، تقابلهم بين كل عشرة أمتار مجموعة من الجنود تحت رئاسة كونستبل إنجليزي تنطق وجوههم بالصرامة والبلادة. والتقى قبيل السراق بعبد المنعم وأحمد ورضوان وشاب لا يعرفه وقد وقفوا معًا يتحدثون، فاقبلوا نحوه مسلمين وليشوا معه بعض الوقت. منذ شهر تقريبًا ورضوان وعبد المنعم بين طلبة الحقوق أما أحمد فقد انتقل إلى السنة النهائية بالثانوي، وإنه ليراهم في الطريق «رجلاً بخلاف ما يراهم في البيت فليسوا إلا أبناء أخته وأخيه. وما أجمل رضوانا، كذلك جميل، صاحبه الذي قدمه إليه باسم حلمي عزت وقد صفق من قال إن الطيور على أشكالها تقع. وكان أحمد يسره، ويتنظر منه دائمًا قولًا غريبًا متعًا أو سلوكًا لا يقل عنه غرابة، إنه أقرب الجميع إلى روحه، أما عبد المنعم فما أشبهه به لولا ميله إلى القصر والامتلاء، لذلك فحسب يحبه، أما بقيته وتعصبه فما أردناها. وأقبل على السراق الضخم، وألقى نظرة شاملة على الجميع الحاشدة، مسرورًا بكثرتها المائلة، وتطلع مليًا إلى المنصة التي سيلعب عندها صبا قليل صوت الشعب، ثم اتخذ مجلسه. إن وجوده في مثل هذا الجمع الحاشد يطلق من أعماق ذاته الغارقة في الوحدة شخصًا جديدًا يتفرض حياة وحماها. هنا ينحس العقل في قمع إلى حين وتتطلق قوى النفس المكبوتة طامعة إلى حياة مفعمة بالمواقف والأحاسيس دافعة إلى الكفاح والأمل، وعند ذلك تتجدد حياته وتنبعث غرائزه وتتبدد وحشته ويتصل ما بينه وبين الناس

لفلا ضجيجها وتحلّلت الهتافات، ثمّ ترمى هتاف قويّ ذو دلالة من الخارج فتسلّطت الرموس إلى مدخل السراقد الخلفيّة، ثمّ هبوا واقفين، وتعالى هتاف يصمّ الأذان، ثمّ لاح مصطفى التّحاس فوق المنصة وهو يحمي الألوف باتسامة وضيفة ويؤدّن قوتين. وتطلّع إليه بعينين اخضفت منها نظرة الشكّ إلى حين، وكان يتساءل كيف أومن بهذا الرجل بعد أن فقدت الإيمان بكلّ شيء؟. ألاّنه رمز الاستقلال والديمقراطية؟!

مهما يكن من أمر فإنّ التجاوب الحارّ المتبادل بين الرجل والشعب ظاهرة جدية بالنظر، وهي بلا شكّ قوّة خطيرة تلعب دورها التاريخي في بناء القومية المصرية. وتنبّع الجهر بالحاس والحرارة، وتعب المشرفون على الحفل حتى نشروا السكون في الأركان، كي يسمع الناس المقرئ وهو يتلو ما تيسر من القرآن مرّدًا فيما يتلو «يا أيّها النبي حرّض المؤمنين على القتال»، وكان الناس ينتظرون هذا النداء فتعالى الهتاف والتصفيق حتى احتجّ بعض المترجمين وطالبوا بالصمت احترامًا لكتاب الله. وأثار قولهم في نفسه ذكريات قديمة يوم كان يُعدّ واحدًا من هؤلاء المترجمين فازتمت على شفثية ابتسامة ما واستشعر من توهّ عائله الخاصّ الحافل بالمناقضات الذي يبلو من تصارّض متناقضاته وكأنّه فراخ. ووقف الزعيم وراح يلقي خطابه. القاه بصوت رنان وريان نافذ فاستغرق إلغاؤه ساعتين، ثمّ ختمه جاهرًا في عنف سافر بالدعوة إلى الثورة، وبلغ الحماس من القوم مداه فوقفوا على المقاعد، وجعلوا يتفنون بحماس جنوني. ولم يكن دوماهم حماسًا وهتافًا، نسي أنّه مدرّس مُطالب بالوقار ونخيل إليه أنّه رجع إلى الأيام المجيدة التي سمع عنها وحال عمره دون الاشتراك فيها. أكانت الخطب تُلقى بهذه القوّة؟. أكان الناس يتلقّونها بمثل هذا الحماس؟. أكان الموت لذلك يهون؟. من مثل هذا الموقف بدأ فهمي دون ريب، ثمّ اندفع إلى الموت، إلى الخلود أم إلى الفناء؟! أمن الممكن أن يستشهد رجل في مثل حاله من الشكّ؟. لعلّ الوطنية - كالحبّ - من القوى التي ندمن لها وإن لم تؤمن بها...!

إنّ فورة الحماس عالية، الهتافات حارّة متورّدة،

المقاعد ترتجّ بمن فوقها، فما الخطوة التالية؟ ما يدري إلّا والجموع تتّجه نحو الخارج. وغادر موضعه وهو يلقي نظرة عامّة باحثًا عن شباب أسرته ولكنّه لم يعثر لهم على أثر. وغادر السراقد من الباب الجانبي، ثمّ سار مستهذأ شارع قصر العيني في خطوات سريعة حتى يسبق الجموع. ومزّ طريقه بيت الأتمّة وكان كلّما مرّ به يعلق به بصره وردّد عينيه بين الشرفة التاريخية والفناء الذي شهد أجّل الذكريات الوطنية، أجّل لهذا البيت مثل السحر في نفسه، فما هنا كان يقف سعد، وما هنا كان يقف فهمي وأقرانه، وفي هذا الطريق الذي يسير فيه الآن كان ينطلق الرصاص ليستقرّ في صدور الشهداء. إنّ قومه في حاجة دائمة إلى الثورة ليقاوموا موجات الطغيان التي تترصّد سبيل نهضتهم، في حاجة إلى ثورات دورية تكون بمثابة التطعيم ضدّ الأمراض الخبيثة، والحقّ أنّ الاستبداد هو مرضهم المتوكلن. هكذا نجح اشتراكه في العيد الوطني في تجديد نفسه فلم يكن يميّه في تلك اللحظة إلّا أن تحجب مصر على تصريح هور إجابة حاسمة كاللكمة القاضية. وانتصبت قائمه النحيلة الطويلة، وارتفع رأسه الكبير، واشتدّ وقع خطاه وهو يتقدّم أمام الجامعة الأمريكية متخيّرًا أمرًا جليله وفعالًا خطيره. حتى المدرّس ينهي أن يبور أحيانًا مع تلاميذه. وابتمّ فيها يشبه الكتابة... مدرّس كبير الرأس مقضي عليه بأن يعلم مبادئ الإنجليزبة - المبادئ فحسب - رغم أنّه يكلّع بها على أسرار وأسرار، يمتلّ جسمه من مزدحم الأرض موضعا شديداً أمّا خياله فيضطرب في الدوامة التي تحيط بمخالف الطبيعة. يسأل في الصباح عن معنى كلمة وهجاه أخرى ويتساءل بالليل عن معنى وجوده ذلك اللغز القائم بين لغزين، وفي الصباح أيضًا يضطرب فؤاده بالثورة على الإنجليز وفي الليل تدعوه الأخوة العامة المدبّبة - أحوته لبني الإنسان - للتعاون أمام لغز القضاء. وهزّ رأسه في شيء من العنف كأنّما ليطرد عنه هذه الخيالات، وقد ترامت إلى مسامعه أصوات الهتاف وهو يقترب من ميدان الإسعاعيلية فادرك أنّ المظاهرين قد وصلوا إلى شارع قصر العيني، ودعاه الشعور بالنضال الذي يعمر صدره

الجنود المصريين ليسوا دونهم وحشية، إنها مذبحة مذبرة يا إلهي! وجه صوت من آخر المقهى يقول: «كان قلبي يحنّني بأنّ اليوم لن يمضي على خير»، فاجاب آخر: «أيام تنذر بالشرّ، فمنذ أعلن هور تصريحه والناس تتوقّع أحداثاً خطيرة، هذه معركة وستلونها معارك، وأؤكد لكم هذا».

- الضحايا الطلبة دائماً، أحرز أبناء الأمة، وا

أسفاه!...

- ولكنّ الضرب سكنت ليس كذلك!؟،

أنصتوا...

- المظاهرة الأصلية عند بيت الأمة، وسيستمرّ

الضرب هنالك ساعات طويلة!...

ولكنّ الصمت ساد الميدان، ومضى الوقت ثقيلًا مشحونًا بالتوتر، وأخذت الظلمة تدنو حتى أصيبت أنوار المقهى ثم لم يعد يُسمع صوت كأنما حلّ بالميدان والشوارع المحيطة به الموت، وفتح باب المقهى على مصراعيه فترأى الميدان خاليًا من المائة والمركبات، ثم جاء طابور من فرسان البرليس ذوي الحوذات الفولاذية فظف بالميدان يتقدّمه الرؤساء الإنجليز. وكان باطن كمال لا يكفّ عن التساؤل عن مصير الأبناء. وكما دبّت الحركة في الميدان غادر المقهى متعجلًا، ولم يعد إلى بيته حتى مرّ بالسكّرية وقصر الشوق وأطمأنّ على عبد المنعم وأحمد ورضوان.

وخلا إلى نفسه في مكتبته بقلب مليء بالحزن والأسى والغضب، لم يقرأ كلمة ولم يكتب كلمة وظلّ عقله غائبًا في منطقة بيت الأمة، في هور والخطبة الشائرة والحناف الوطنيّ وأبرز الرصاص وصرخات الضحايا، ووجد نفسه يحاول أن يتذكّر اسم صاحب دكانّ البسبوسة التي اختبأ بها قديمًا ولكنّ الذاكرة لم تسعفها.



كان منظر بيت محمد عفت بالجبالية من المناظر المألوفة المحبوبة لدى أحمد عبد الجواد. هذه البوابة الخشبية التي تبدو من الخارج كأنها مدخل وكالة قديمة، وذلك السور العالي الذي يخفي ما وراءه خلا رموس

إلى التوقّف لعلّه يشترك على نحو ما في مظاهرة ١٣ نوفمبر. شدّ ما طال بالوطن موقف الصابر الذي يتلقّى الضربات. اليوم توفيق نسيم وأمس إسمايل صدقي وأول أمس محمد محمود، تلك السلسلة المشتومة من الطغاة التي تمتدّ إلى ما قبل التاريخ، كلّ ابن كلب غرته قوته يزعم لنا أنّه الوصيّ المختار وأنّ الشعب قاصر.

مهلاً!... إنّ المظاهرة غلي وتغور، ولكن ما هذا!؟، التفت كمال إلى الوراء في اضطراب. سمع صوتًا اهتزّ له قلبه، وانصت في انتباه فصكّ الصوت مسامحة مرّة أخرى. إنه الرصاص. ورأى المتظاهرين عن بعد يضربون في دوامة خطيرة لا يتضح له أمرها، ولكنّ جماعات كانوا يهرعون نحو الميدان، وآخرين إلى الشوارع الجانبية، وكثير من الكونستبلات الإنجليز فوق الجياد يهبون الأرض. وعلا الحنّاف واختلط بأصوات الغضب والصراخ واشتدّ انطلاق الرصاص. وخفق قلبه وتساعت دقاته عن عبد المنعم وأحمد ورضوان، وامتلا اضطرابًا وغضبًا، وتلفتّ يمينه ويسرة فرأى قهوة غير بعيد على الناصية فأهجم إليها. وقد أغلق بابها نصف إغلاق. وما إن مرق منها حتى تذكر دكانّ البسبوسة بالحسين حيث سمع طلقات الرصاص لأول مرّة، وشاح الاضطراب في كلّ مكان. وانطلق الرصاص في غزارة غيصة ثم متقطّعة. وتراكت أصوات كسر زجاج وصهيل خيل، وعلت أصوات مزجرة دلّت على أنّ تجمّعات ثائرة تنتقل من مكان إلى مكان بسرعة خاطفة. ودخل المشروب شيخ وقال قبل أن يسأله أحد عمّا وراءه: «إنّ رصاص الكونستبلات يهال على الطلبة والله أعلم بعدد الضحايا، ثمّ جلس وهو يلهث وعاد يقول بصوت متهدّج: «غدروا بالأبرياء غدرا، لو كان تضيق المظاهرة غايتهم لأطلقوا الرصاص في الهواء من مواقعهم البعيدة، ولكنهم ساءروا المظاهرة في هدوء مصطنع، وجعلوا يؤرّعون أنفسهم على محارج الطريق، وفجأة أشهروا المستنمات وأطلقوا الرصاص، على أنكاثل أطلقوا بلا رحمة، وسقط الصغار يتخبّطون في دمعهم، الإنجليز وحوش ولكنّ

بصينية عليها ثلاثة أقداح شاي وكأس ويسكي بالصودا فتناول محمد عقت الكأس باسًا وتناول الثلاثة الآخرون أقداح الشاي. وكان هذا التوزيع الذي يتكرر كل مساء كثيرًا ما يُحسحكهم؛ فقال محمد عقت وهو يلوح بالكأس في يده ويشير إلى أقداح الشاي في أيديهم:

- عفا الله عن الآثام التي آذيتكم!

فقال أحمد عبد الجواد متبهّدًا:

- إنيّا آذيتنا جميعًا، وأنت أولنا، غير أنّك قليل الأدب...

وكان صنّز إليهم أمر طيّب واحد في أوقات متقاربة من عام واحد بالامتناع عن تناول الخمر، غير أنّ طبيب محمد عقت سمح له بكأس واحدة في اليوم، وظنّ أحمد عبد الجواد يومذاك أنّ طبيب صديقه يتسامح فيّا يتشددّ فيه طبيبه هو، فما كان منه إلا أن عرض نفسه عليه ولكنّ الطبيب حدّره في جدّ وحزم قائلاً: «إنّ حالتك غير حالة صديقك»، وقد انفتحع أمر سعيه إلى طبيب محمد عقت فكان موضع نقاش وتندرّ طويلين. وعاد أحمد يقول ضاحكًا:

- لا شك أنّك نفعت طبيبك برشوة كبيرة حقّ سمح لك بهذه الكأس!

فقال الفار متأوّمًا وهو يرنو إلى الكأس بيد محمد عقت:

- كنت والله أنسى نشوتي!

فقال له عليّ عبد الرحيم مازحًا:

- فسدت توتيك بهذا القول يا حريد.

فاستغفر الفار ربّه ثمّ تحمّ في استسلام:

- الحمد لله...

- بنتا نُحسد على كأس واحدة!... أين... أين النشوات!؟

فقال أحمد عبد الجواد ضاحكًا:

- إذا ندعتم فاندعّموا على الشرّ لا على الخير يا أولاد الكلب!

- إنّك كسائر الوعّاط، السنّتهم في دنيا وقلوبهم في دنيا أخرى...

الأشجار العالية، أمّا هذه الحديقة المظلّة بأشجار التوت والجَمَيز والمهندمة بأشجار الحناء والليمون والفُلق والياسمين فشأنها عجب، وهجيب أيضًا بركة المياه التي تتوسّطها، ثمّ الفراندا الخشبيّة التي عمّدت بعرض الحديقة. وكان محمد عقت واقفًا على سلّم الفراندا ينتظر القادم وهو يحبك عباءته المنزليّة، أمّا عليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار فقد جلسا على كرسيّين متجاورين. وسلّم أحمد عليّ الإخوان ثمّ تبع محمد عقت إلى الكتبة التي تتوسّط الفراندا وجلسا معًا. وكانت بدانتهم قد زایلتهن جميعًا فيّا هذا محمد عقت الذي بدا مترهلًا كما بدا وجهه شديد الاحمرار، وقد صلح عليّ عبد الرحيم واشتعلت رموس الآخرين شيئًا، وانتشرت في صفحات الوجوه التجاعيد، وبدا عليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار أشدّ إذعائًا للكبر، غير أنّ حرة وجه محمد عقت كانت بالاحتقان أشبه، وبقي أحمد رغم ضموه وشبيه جيلاً صافيًا. وكان أحمد يحبّ هذا المجلس حبًّا جادًا، كما يحبّ منظر الحديقة التي تترامى حتّى السور العالي المشرف على الجليّة، وقد مال برأسه إلى الوراء قليلًا كأنّما ليمنّ أنفه العظيم من الارتواء بعير الفُلق والياسمين والحناء، ورعًا أغمض عينيه أحيانًا ليخلص لساع زقزقة العصافير اللاهية فوق أغصان التوت والجَمَيز. غير أنّ أنبل ما خالط قلبه في تلك اللحظة كان شعور الأخوة والصداقة الذي يكتّه هؤلاء الرجال. كان يرنو بعينه الزرقاوين الواسعتين إلى وجوههم الحبيبة التي نكرها الكبر فيفيض قلبه بالأمى والحنان عليهم وعلى نفسه، وكان أشدهم تعلقًا بالماضي وذكرياته، يقتنه كلّ ما يذكر بجيال الشباب وصبوة العواطف ومغاسرات الفتوة. وقام إبراهيم الفار إلى خوان قريب وضع عليه صندوق النرد فجاء به وهو يتسائل:

- من يلاعبني؟

فقال أحمد مستنكرًا وكان قليلًا ما يشترك في ألعابهم:

- أجلّ اللعب إلى حين، لا يجوز أن تشغل به عن أنفسنا من أول الجلسة.

فأعاد الفار الصندوق إلى مكانه، ثمّ جاء نوبًا

وإذا بعليّ عبد الرحيم يقول رافعاً صوته إلى درجة جليلة منكرة بتغير مجرى الحديث:

- يا رجال! ما رأيكم في مصطفى النحاس؟
الرجل الذي لم تؤثر فيه دموى الملك الشيخ المريض فأبى أن ينسى ثانية واحدة مطلبه الأسمى «دستور سنة ١٩٢٣»...

ففرق محمد عفت بأصابعه وقال في سرور:

- برافو... برافو... إنه أصلب من سعد زغلول نفسه، من كان يرى الملك الجبار مريضاً باكياً ثم يصمد أمامه بهذه الشجاعة النادرة ويرد في ثبات صوت الأمة التي أولته زعامتها قالاً: «دستور سنة ١٩٢٣ أولاً»، وهكذا عاد الدستور، فمن كان يتصور ذلك؟

فقال إبراهيم الفار وهو يبرز رأسه في عجب:

- تصبروا لهذا المنظر، الملك فؤاد وقد حطّمه المرض والشيخوخة، يضع يده على كتف مصطفى النحاس في مودة بالغة ثم يدعو إلى تأليف وزارة اتحادية، فلا يتأثر النحاس لذلك كله، ولا ينسى واجبه كزعيم أمين، يغفل لحظة واحدة عن الدستور الذي توشك الديموقراطية أن تغطي عليه، لا يتأثر لشيء من هذا ويقول بشجاعة وصلابة: دستور سنة ١٩٢٣ أولاً يا مولاي.

عليّ عبد الرحيم محاكياً نفس اللهجة:

- أو الخازوق أولاً يا مولاي.

أحمد عبد الجواد صاحكاً:

- قسماً بمن جرت مقاديره بأن نرى الويسكي بيننا ونتجنّب إنّه لوقف عظيم.

وشرب محمد عفت بغيّة كاسه ثم قال:

- نحن في عام ١٩٣٥، ثلثي سنوات مرت على موت سعد، وخمسة عشر عاماً على الثورة، ولا يزال الإنجليز في كلّ مكان، في الكتكت والبوليس والجيش وشقّ الوزارات، الامتيازات الأجنبية التي تجعل من كلّ ابن لبوة سيّداً مهيباً ما زالت قائمة، ينبغي أن تنتهي هذه الحال المؤسفة...

- ولا تنس الجلاّدين أمثال إسماعيل صدقي ومحمد محمود والإبراهيمي!

- إذا ذهب الإنجليز فلن يبقى لأحد من هؤلاء شأن، ستصبح الانقلابات في خيم كان...

- نعم، وإذا فكر الملك أن يلعب بديله فلن يجد من يسأله!

وعاد محمد عفت يقول:

- سيجد الملك نفسه بين التنتين فليأ احترام الدستور وإلّا السلام عليكم!

وتساءل إبراهيم الفار فيما يشبه الشك:

- وهل يتخلّى عنه الإنجليز إذا طلب حمايتهم؟

- وإذا سلّم الإنجليز بالجلاء فلماذا يحمون الملك؟ فتساءل الفار مرة أخرى:

- وهل يسلم الإنجليز بالجلاء حقاً؟

قال محمد عفت في ثقة من يعتز بثقافته السياسية:

- لقد دهمونا بتصريح هور فكانت المظاهرات،

وكان الشهداء رحمة الله عليهم، ثم كانت الدعوة إلى

الاتلاف، ثم عاد دستور سنة ١٩٢٣، أوكد لكم أنّ

الإنجليز راغبون الآن في المفاوضة، حقاً إنّ الإنسان لا

يلدري كيف تتكشف هذه الغمّة، كيف يمكن أن

يلهب الإنجليز أو ينتهي نفوذ الخواجات، ولكنّ ثقتنا

في مصطفى النحاس لا نهاية لها...

- ثلاثة وخمسون عاماً من الاحتلال تنتهي بشوّة

كلام حول مائدة ١٩٢٣.

- كلام قد سبق بدم زكيّ مسفوح...

- ولوا...

فقال محمد عفت وهو يغمز بعينه:

- سيجدون أنفسهم في مركز حرج وسط حالة دولية

خطيرة!

- يستطيعون أن يجدوا دائماً من يؤمن ظهرهم،

واسماعيل صدقي حين لم يمّا...

فعاد محمد عفت يقول بلهجة العارف:

- حادثت كثيرين من المطلعين فوجدتهم مغتالين،

يقولون إنّ العالم مهتد بحرب طاحنة، وإنّ مصر في

فوهة المدفع، وإنّ من صالح الطرفين الاتفاق

المشرّف...

ثمّ واصل حديثه بعد أن مسح على كرشه في ثقة

واطمئنان:

الجامع الحرام، فقلت في نفسي خُفِّف الوطء يا بن المركوب!

وعلا الضحك، أما أحمد عبد الجواد فلم يكن أفاق من ذهوله ولكنّه رأى أن يتخفّف منه بالشاركة في الضحك. وتساءل محمّد عتّ بلهجة ذات مغزى وهو يحدّق في وجه أحمد:

- ما وجه العجب في ذلك أليس هو ابن حضرتك؟!

فقال أحمد عبد الجواد وهو يبرّز رأسه عجبا: .. عرفته دائما مؤقّبا مهذبًا هادئ الطبع، لا يُرى إلا في مكتبته وهو يقرأ أو يكتب حتّى أشفت عليه من الإغراق في الانزواء والإفراط في عمل لا جدوى منه ...

فقال إبراهيم الفار مذاهب: .. من يدري فلعلّ في بيت جليلة قرعًا من دار الكتب!

وقال عليّ عبد الرحيم: .. أو لعلّه يمتزّل في مكتبته لطالعة كتاب رجوع الشيخ، ماذا تنتظر من رجل بدأ حياته بتقرير أن الإنسان أصله قرود؟!

وصحكوا فضحك معهم أحمد عبد الجواد الذي كان يعلم بخبره أنّ الاستسلام للجدّ في أمثال هذه الأحوال يجعل منه هدفًا سهلاً للمزاح والقفش، ثمّ قال:

- لهذا لا يفكر الملعون في الزواج حتّى ظننت به الغنون! ...

- ما عمر المحروس الآن؟ .. في التاسعة والعشرين! ...

- يا سلام! .. يجب أن تزوّجه، لماذا يرغب عن الزواج؟

تحمّسًا محمّد عتّ ثمّ مسح على كرشه وهو يقول: .. هذه موضة فحسب ولكنّ بنات اليوم يزمن الشوارع فضعت الثقة بهنّ، ألم تسمعوا الشيخ حسنين وهو يفتي «يا ما نشوف حاجلت تحمّن، اليه والهانم عند مزّين»؟! ..

- ولا تنس الأزمة الاقتصادية وصيق المستقبل أمام

- إليكم خبرًا هامًا، وُعدت بأن أرشّح في دائرة الجليّة في الانتخابات القادمة، وعدني النقراشي نفسه.

وتهلّلت وجوه الأصدقاء سرورًا، ثمّ كما جاء دور التعليق قال عليّ عبد الرحيم متصنّفًا الجدّ:

- لا يعيب الوفد إلّا أنّه يرشّح حيوانات أحيانًا باسم نواب! ..

فقال أحمد عبد الجواد كأنّما يدافع عن عيب الوفد: .. وماذا يفعل الوفد؟ إنّهُ يريد أن يمثّل الامة كلّها، أبناء حلال وأبناء سفلة، فمن يمثّل أولاد السفلة إلّا الحيوانات؟! ..

فلكّزه محمّد عتّ في جنبه وهو يقول: .. عجوز وقارح، أنت وجليلة شخص واحد، كلاهما عجوز وقارح! ...

- لآني أرضي لو رشّحوا جليلة، فهي عند الزوم قد تفرش الملاية للملك نفسه!

وهنا قال عليّ عبد الرحيم باسمًا: .. قابلتها أوّل أمس أمام عطفها، ما زالت كالحمّل ولكنّ الكبر أكل عليها وبال! ..

فقال الفار: .. صارت معلّمة قدّ الدنيا، بيتها شقّال ليل نهار، ويكوت الزمار وصباغة يلبس.

فضحك عليّ عبد الرحيم طويلاً ثمّ قال: .. كنت ماؤًا أمام باب بيتها فرأيت رجلًا يتسلّل إليه وهو يظنّ أنّه يأمن من الرقيب، فمن نظّتونه كان؟ ...

(ثمّ أجاب وهو يغمز بعينه صوب أحمد عبد الجواد) .. المحروس كمال أفندي أحمد خوجة مدرسة السلحدار! ...

ضحك محمّد عتّ والفار ضحكة عالية، أمّا أحمد عبد الجواد فقد اتّسعت عيناه دهشًا وانزعاجًا، ثمّ تساءل في ذهنه:

- كمال أيني؟! ...

- أي نعم، كان ملصقًا في معطفه، وعلى عينه نظّارته الذهبية، وشاربه الغليظ يمثّال وقارًا، كان يسير في رزاة ومهابة كأنّما ليس هو ابن «ضحكجي أغاء»، وينفس القوارع انعطف إلى البيت كأنّما ينعطف إلى

متعزياً إنه ربّاه فأحسن تربيته حتى حصل على الشهادة العليا وصار مدرّساً محترماً فله أن يفعل ما يشاء. ولعلّه من حسن التوفيق أن يعرف كيف يلموهم رغم عوده الرفيع ورأسه وأنفه العظيمين! ولو أنصف الحظ لتزوَّج كمال منذ سنوات، ولما تزوّج ياسين أبداً، ولكن من يدعي القدرة على حلّ هذه الرموز؟. وإذا بالفار يسأله:

- متى رأيت زبيدة آخر مرة؟

فأجاب أحمد بعد تدكّر:

- في يناير الماضي، أي منذ عام تقريباً، يوم جاءني في الدكان لأبيع لها البيت...
فقال إبراهيم الفار:

- اشترته جلييلة، ثم وقعت المجنونة في حبّ عربي كارهو فتركها على الجلييلة، وهي الآن تقيم بحجرة على سطح بيت سوسن العمالة في حال من الاضمحلال يرى لها!

فهزّ أحمد عبد الجواد رأسه في أسف، ونتم:

- السلطنة في حجرة فوق السطح!.. سبحان من له الدوام. فقال عليّ عبد الرحيم:

- نهاية عذبة، بيد أنّها كانت متوقّعة...

فندّت عن محمد عفت ضحكة رثاء وقال:

- فليرحم الله من يأمن إلى هذه الدنيا!

ثم دعا الفار إلى اللعب فتحذاه محمد عفت، وسرعان ما التفتوا جميعاً حول النرد، وأحمد عبد الجواد يقول:

- ترى من يكون حظه كجليلة، ومن يكون كزبيدة!

٦

في إحدى حجرات قهوة أحمد عبده، جلس كمال وإسماعيل لطيف. وهي نفس الحجرة التي كان كمال يجالس فيها فؤاد الحمزاوي في مطلع شبابه. وبالرغم من برودة ديسمبر كان جوّ القهوة دافئاً، إذ إنه بإغلاق مدخلها يسدّ المنفذ الوحيد لها إلى سطح الأرض، فكان من الطبيعي أن تدفأ وإن انتشرت الرطوبة في جنباتها بدرجة محسوسة. ولم يكن إسماعيل لطيف

الشباب. إنّ خروجه الجامعة يتولّفون بعشرة جنيهات إن وجدوا وظيفة بطولح الروح.

وتساءل أحمد عبد الجواد في قلبيّ:

- أخاف أن يعرف أنّ جلييلة كانت يوماً صاحبي أو تعرف هي أنّه ابني!.

فتساءل عليّ عبد الرحيم ضاحكاً:

- أحسبتها تستجوب الزبائن؟!

فقال محمد عفت وهو يغمز بعينه:

- لو عرفته الفاجرة لفصّت عليه قصّة أبيه من الألف إلى الياء.

فهتف أحمد عبد الجواد وهو ينفخ:

- لا تقلّ الله ولا كان... .

فتساءل إبراهيم الفار:

- أتخبط أنّ الذي يستطيع أن يعرف أنّ جدّه الأوّل قرد يعجز عن معرفة أنّ أباه فاسق فاجر؟!

فضحك محمد عفت عالياً حتى سعل، وصمت لحظات ثم قال:

- الحقّ أنّ مظهر كمال خدّاع، رزين هادئ متزّن، خوجة بكلّ معنى الكلمة...

فقال عليّ عبد الرحيم بلهجة الترضية:

- يا سيّدي ربّنا يخلّيه ويطلّو عمره، ومن شابهه أباه فيا ظلم... فعاد محمد عفت يتساءل:

- المهمّ أهو وحلجّ كأيّاه؟... أهي هل يجيد معاملة النساء والاستحواذ عليهنّ؟

فقال عليّ عبد الرحيم:

- أمّا هذا فلا أظنّ!.. يتخلّ إلى أنّه يظنّ متفكّماً برزاقته ووقاره حتى يغلّق الباب عليه وعلى صاحبة النصيب، ثم يأخذ في نزع ثيابه بنفس الرزاقنة والوقار، ثم يرمي عليها، وهو في الغاية من الجذّ والرزاقنة كأنّها يلقي درساً خطيراً!

- يتخلّق من ظهر الحلجج دهل!

وسأله أحمد عبد الجواد نفسه فيما يشبه السخط: لماذا يبدو لي الأمر غريباً؟!.. وصمّم على أن يتناسى الخبر. ولما رأى الفار يذهب إلى صندوق النرد ويعود به، قال دون تردّد أنّه آن لم أن يلعبوا. بيد أنّ أفكاره ظلّت تلحور حول الخبر الجديد. وقال لنفسه

الذي زامله فيها بين عامي ١٩٢١ و١٩٢٧، تلك الفترة الغلة في حياته التي عاشها بكلّ جوارحه، فلم تمض دقيقة من زمانها دون سرور عميق أو ألم شديد، فكانت عهد الصداقة الحقة متمثلة في حسين شذاد، وعهد الحب الصادق متبلورا في عابدة، وعهد الحياصة العارمة مستمدة من شعلة الثورة المصرية الرائعة، ثم عهد التجارب العتيقة التي قلقت بها الشكّ والمجون والأهواء، وقد كان إسحاق لطيف هذا رمز العهد الأخير، ودليله الخطير، فإين هو اليوم من ذلك؟!

وعاد إسحاق لطيف يقول في شيء من التلّخّص: - بيد أنّ هناك أموراً تشغل بالنا باستمرار، كالكاكاد الجديدي ووقف الترقّيات والعلاوات، وأنت تعلم أنّي تموت على الحياة الرغيدة في كنف أبي، ولكنّ أبي لم يترك ميراثاً، ووالدي بدوره تستهلك كلّ معاشها، لذلك رضى في سبيل الرزق أن أعمل في طنطا، وهل كان مثل يرضى بذلك؟!

فضحك كمال قائلاً:

- مثلك ما كان يرضى بشيء!

فانقسم إسحاق فيها يشبه الزهو اعتراضاً بماضيه الحافل الذي هجره بمحض اختياره. وسأله كمال:

- ألا تنازعك نفسك إلى معاودة شيء من الماضي؟

- كلا شيعت من كلّ شيء، واستطيع أن أقول بأنّي لم أضجر من حياتي الجديدة بعد، كلّ المطلوب منّي أن أبدي شيئاً من المهارة بين حين وآخر، حتّى أفرز ببعض النقود من والدي، كلّك على زوجي أن تلعب نفس الدور مع أبيها، إذ لّبي لا زلت مغرماً بالحياة الرغيدة...

فلم يملك كمال أن يقول ضاحكاً:

- علمتنا وتركتنا وحدنا على الطريق...

فضحك إسحاق ضحكة عالية أعادت إلى وجهه الرزين كثيراً من ملامح الماضي الماكرة، وقال:

- آسف أنت على ذلك؟. كلاً، أنت تحبّ هذه الحياة بإخلاص عميق، غير أنّك رجل معتدل، إنّ فعلت في سنوات لمعي القلائل ما لن تفعل مثله مدى عمرك وطمّ بلهجة جدية... تزوّج وغير حياتك!

ليرضى بالجلوس في قهوة أحمد عبده، لولا رغبته في مجاراة كمال. إنّهُ الصديق القديم الذي لم تنقطع بكيال أسبابه، رغم أنّ مطالب الرزق دفعت به إلى طنطا خبيراً محاسباً لم تخرج في مدرسة التجارة. فكان إذا عاد إلى القاهرة في إجازة اتصل به تليفونياً بمدرسة السليحدار، ونال منه موعداً للقاء في هذا الركن الأثري. وجعل كمال ينظر إلى صديقه القديم، كما بدا له بمنظره المدمج وملاحه المذبذبة الحادثة. ويعجب لما آل إليه حاله من رزانة وأدب واستقامة، جعلته مثلاً طيباً للزوج والأب، الذي كان يوماً مثلاً فذاً للحمقة والاستهتار والفظاظة. وصحب كمال الشاي الأخضر في قلع صاحبه ثمّ في قذحه وهو يقول بأساً:

- يبدو أنّ قهوة أحمد عبده لا تمجك!

فارتفع رأس إسحاق في تطاوله المبهود، وقال:

- إنّها غريبة حقاً، ولكن لماذا لا نختار مكاناً فوق

سطح الأرض؟!

- على أيّ حال هي أنسب مكان للناس المستقيمين أمثالك.

فضحك إسحاق وهو يبرّز رأسه في تسليم، كأنما يقرّ بأنّه أصبح جديراً حقاً بفضيلة الاستقامة، هو الذي كان وكان، وعند ذلك سأله كمال مجاملًا:

- كيف الحال في طنطا؟

- عال، أمّا النهار فعمل متواصل في المصلحة، وأمّا الليل فأقضيه مع زوجي وأولادي.

- وكيف حال الأبنجال؟

- نعمه، إنّ راجتهم دائماً على حساب تعبنا، ولكن نعمه في جميع الأحوال...

فسأله كمال مدفوعاً بحبّ الاستطلاع الذي يثيره في نفسه حديث الأسرة بصفة عامة:

- وهل وجدتهم حقاً السعادة الحقيقية، كما يقول

العارفون؟

- نعم، إنّهم لكلّك.

- رغم متاعهم؟

- رغم كلّ شيء!

وجعل كمال ينظر إلى صاحبه بفضول أشدّ. هذا شخص جديد لا يكاد يمتّ بصلة إلى إسحاق لطيف

فقال كمال بلهجة عابثة:

- هذا أمر جدير بالتفكير!

ما بين ١٩٢٤ و ١٩٣٥ حُفِلَ لإسماعيل لطيف جديد جدير بأن يزوره غواة الأعاجيب. على أي حال إنّه الصديق القديم الباقى، أما حسين شذاد فقد اختطفته فرنسا من وطنه، وكذلك حسن سليم أمسى الخارج مقامه ومناشيه، لم يعد لها من سبب في القلب والأسفاه، لم يكن لإسماعيل لطيف يوماً صديق الروح. ولكنه ذكرى حيّة من الماضي المجيب، لذلك فهو خليق بأن يمتز به، واعتز به أيضاً لوفائه، لا مسرة رويّة في مصاحبه، ولكنه آية حيّة على أنّ الماضي لم يكن خيالاً، ذلك الماضي الذي أحرص على إثبات حقيقته حرصي على الحياة نفسها، ترى ماذا تصنع عابثة في هذه اللحظة من الزمان؟ وأين هي في عالم المكان؟ وكيف استطاع القلب أن يبرأ من مرض حبّها؟... كل أولئك أعاجيب... .

- إني معجب، يا سيد إسماعيل، أنت شخص جدير بكلّ توفيق.

ولقى إسماعيل نظرة على ما حوله، استعرض بها السفق والفسواتين والحجرات والوجوه الحسنة والعاكفين على السمر واللعب، ثم تساءل:

- ماذا يمحيط في هذه القهوة؟

فلم يجبه كمال على سؤاله، ولكنه قال بلهجة أسفة:

- أما علمت؟! سوف نهدم في القريب ليقام على

أنقاضها عمارة جديدة، سيخفي هذا الأثر إلى الأبد!

- مع ألف سلامة، فلنخطف هذه المقبرة ليقوم فوقها عمران جديد.

انطلق بالحق؟. ربّما، ولكنّ للقلب نواحيه، يا

فهرتي العزيزة أنت قطعة من نفسي، فيك حملت كثيراً

وفكرت كثيراً، وفيك سكن ياسين أعواماً، واجتمع

فهني بالثرار ليفكروا ويعملوا من أجل عالم أفضل،

ثم إني أحبك لأنك مصنوعة من مائة الحلم، ولكن ما

جسدى هذا كله؟ وما قيمة الحنين إلى الماضي؟. ربّما

ظلّ الماضي أيونة أصحاب القلوب، وأشقى ما تصاب

به أن تكون ذا قلب حنون وعقل شاك: فلنقل أيّ

كلام ما دمنا لا نؤمن بشيء.

- في هذا صدقت، إني أقترح أن يهدموا الحرم إذا وجدوا لأحجاره فائدة للمستقبل!

- الحرم! ما دخل الحرم في قهوة أحمد عبده؟!

- أعني الآثار، أعني أن نهدم كل شيء في سبيل اليوم والغد.

فضحك إسماعيل لطيف، وتطاول بعنقه.. كما كان يفعل قديماً كلياً تحدى - ثم قال:

- أحياناً تكتب كلاماً يناقض هذا القول، إني كما تعلم أقرأ بين حين وآخر جملة الفكر إكراماً لك،

وسبق أن صارحك برأيي، أي نعم، مقالاتك

عسيرة، المجلة كلها جافة والعياذ بالله، لم أستطع

المثابرة على اقتنائها لأن زوجتي لا تجد فيها شيئاً يُقرأ،

ولا تؤاخذني فهذا قولها. أقول إني وجدت أحياناً فيما

تكتب نقىض ما تقول الآن، ولكني لا أزعجك أنّي أفهم

كثيراً - ويبي وبينك ولا قليلاً - فما تكتب، وبهذه

المناسبة أليس من الأفضل أن تكتب كما يكتب الكتاب

المحيرون؟! لو فعلت لوجدت جمهوراً كبيراً،

ولربحت مائلاً وفيراً.

في زمن مضى كان يحضر هذا الرأي في عناد وثورة،

الآن لا زال يحضره ولكن دون ثورة، لكنه يشك في

هذا الاحتقار، لا لشبهة في أنه في غير موضعه، ولكن

لأنه يرتاب أحياناً في قيمة ما يكتب، وربما ارتاب في

ارتياحه نفسه، وسرعان ما اعترف فيما بينه وبين نفسه

بأنه قد ضاع بكل شيء ذرعاً، وأن الدنيا تبدو أحياناً

كلفظة قديمة اندثر معناها.

- إنك لم ترض يوماً عن عقل!

إسماعيل وهو يهقه:

- أتذكر؟. يا لها من أيام!

أيّام مضت، لم تعد نيرانا محرق، لكنها مصنوعة في

موضعها كاللثة العريضة، أو كملبة اللبس المستكنة في

مكانها منذ ليلة عائلة... .

- ألم يبلغك شيء عن حسين شذاد أو حسن

سليم؟!

رفع إسماعيل حاجبيه الكثيفين، وقال:

- ذكرتني! حدثت أمور في العام الماضي الذي

قضيته بعيداً عن القاهرة... .

- لا شك أنه عاد عقب الحادث، كذلك حسن سليم وعائدة، ولكن لا أحد منهم في مصر الآن.
- وكيف عاد حسين ناركًا أسرته على حالها؟ ومن أين له أن يتفق بعد إفلاس والده؟

- سمعت أنه تزوج هناك، ولا يبعد أن يكون قد وجد عملًا في أثناء إقامته الطويلة في فرنسا، لا أدري شيئًا عن هذا، فانا لم أره منذ ودّعناه مئًا، كم مضى على ذلك؟ عشرة أعوام على وجه التقريب. أليس كذلك؟ إنه تاريخ قديم، كم أثار شجوننا

كم وكم، أمّا هو فالدموع لا تزال تطرق أبواب عينيه الخلفية، إنها لم تفتح منذ ذلك العهد وعلاها الصدا، وقلبه يقطر حزناً، فيذكر بذلك القلب الذي أخذ من الحزن شعلاً، إن هذا الخبر قد رجه رجلاً عنيماً حتى كاد يفض عنه الحاضر كله، ويكشف عن الإنسان القديم الذي كان حياً خالصاً وحزناً خالصاً، أغذه هي نهاية الحلم القديم؟ الإفلاس والانتحار. كأنما قضى بأن تؤذيه هذه الأسرة بأدب الآلهة الساطنين. الإفلاس والانتحار، وإذا كانت عائدة لا تزال في بحبوحة من العيش بفضل مكانة زوجها، فإذا طرأ على كبرياتها الملائكي؟ وهل هبطت الأحداث بشقيقتها الصغيرة إلى...
- كان حسين أخت صغيرة. ما اسمها؟ إنني أذكره

حيناً وأنساه أحياناً كثيرة
- بدور، إنها تعيش مع والدتها وتقاسمها متاعب الحياة الجديدة...
تصور آل عائدة في حياة متواضعة! كحياة هؤلاء الناس حولنا، فهل تمضي بدور يوماً بجورب مرفوق؟ وهل تتخذ من الترام مركباً؟ أه... لا تغالط نفسك

فأنت اليوم حزين ومهما يكن لعقلك من رأي في الطبقات وفوارقها، فإنك تشعر من جرّاء هذا الانقلاب بانهايار خفيف، ويعز عليك أن تسمع بأنك تلك العليا تتمرغ في التراب، فلهنّا على أي حال بأنّه لم يبق من الحب شيء، أجل... ماذا بقي من الحب القديم؟ إذا قال لا شيء فإن قلبه ينفق في حنان عجيب عند تردد أي أغنية من أغاني ذلك العهد، رغم ابتذال ألفاظها ومعانيها وأنغامها، فما

ثم استرد في اهتمام متزايد:
- علمت حال عودتي من طنطا أن أسرة شدّاد انتهت.

تفجّرت في قلب كمال ثورة اهتمام طاغية، وعان كثيراً وهو يخالب آثارها الظاهرة، ثم تساءل:
- ماذا تعني؟

- أخبرتني والدتي أنّ شدّاد بك أفلس، التهمت البورصة آخر مليم في حوزته، انتهى شدّاد، ثم إنه لم يتحمّل الصدمة فانتحرا.

- يا له من خيرا. متى حدث ذلك؟
- منذ أشهر، وضاع القصر الكبير ليسا ضاع من متاع، ذلك القصر الذي عشنا في حديقته زمناً لا ينسى...

أيّ زمن وأيّ قصر، وأيّ حديقة، أيّ ذكريات، أيّ ألم نسي، أيّ نسيان مؤلم، الأسرة الرفيعة، الرجل العظيم، الحلم الكبير، اليس هذا الجيشان أضخم مما ينبغي أن يستدعيه الحال؟. وهذه الحقيقة التي تخطف عنها القلب أشدّ مما تستحقّ ذكريات عفى عليها النسيان؟

قال كمال بصوت حزين:
- انتحر البيك، وضاع القصر، ولكن ما مصير أهله؟

قال إسماعيل في امتعاض:
- لم تعد لأمّ صديقنا إلا خمسة عشر جنيهاً شهرياً من ريع وقف، وقد انتقلت إلى شقة متواضعة بالعبّاسية، وقد زارها والذي فعادت تصف حالها وهي تبكي، تلك السيدة التي تقلبت في نعم لا يتصوره الخيال، ألا تذكر؟

يذكر ولا شك، أم يظنه نسي؟. يذكر الحديقة والكشك والتعيم الذي كان يترنم به الهواء، ويذكر السرور والحزن، بل إنه الساعة حزين حتماً، إنّ الدموع تطرق أبواب عينيه الخلفية، ولن يحقّ له أن يجز بعد الساعة على قهوة أحمد عبده التي يتهددها الزوال، فكأن شيء ينبغي أن يتقلب رأساً على عقب.
- إنه لشيء عزون، ومما يضاعف الحزن أننا لم نقم

بواجب العزاء، ترى ألم يعد حسين من فرنسا؟

٧

ملعب هذا المجلس... غير أنَّ اليد قصيرة، من هذا الموضع الدافئ ترى الغايي والرائح... من شارع فاروق وإليه... ومن الموسيقى وإليه... ومن العتبة وإليها، ولولا برودة بنايير القاسية لما توارى المشتاق وراء زجاج القهوة، تاركاً رغم أنه الركن البديع التابع للقهوة على الطوار المقابل، ولكن سيأتي الربيع يوماً... أجل سيأتي غير أنَّ اليد قصيرة، ستة عشر عاماً أو يزيد وأنت حبيس الدرجة السابعة، دكان الحمزاوي يبيع بأبخس الأثمان... وريح الغورية على ضخماته لا يدرك إلا جنيتها... أمّا بيت قصر الشوق فمُسكني ومأوي، وإذا كان لرضوان جدٌ غني فكرمة لا عائل لها غيري، ربّ أسرة وعشيق، ولكن للأسف اليد قصيرة.

وفجأة وقعت عيناه الحائرتان على شاب طويل نحيل ذي شارب مَرَّح ونظارة ذهبية، يخطر في معطفه الأسود قادماً من الموسكي متجهاً نحو العتبة، فابتسم ونهض بنصفه الأعلى كلياً يهيم بالقيام، ولكنه لم يفرق مجلسه. ولولا أنَّ الشاب كان مسرعاً لمضى إليه ودعاه إلى مجالسته. كمال خير سمي حين الضجر، لم يخطر الزواج له على بال رغم اقترابه من الثلاثين، لم تعجلت الزواج قبل الأوان؟. ولم وقعت فيه مرة أخرى قبل أن أفيق من لطمته الأولى؟. ولكن من ذا الذي لا يشكو: أهزب كان أم متزوَّجاً؟. وكانت الأزيكية ملاذاً ومتمعة، ثم حلَّ بها البوار فهي اليوم بؤرة الخثالة والسفلة، لم يبقَ لك من عالم المسرات إلا لذة المشاهدة في هذا المرقق من الطريق ثم، الصيد الرخيص، وخير الصيد الرخيص خادمة مصرية منعاملات في الأسر الإفريقية... فهي في الغالب مهذبة المظهر نظيفة، أمّا سيّد مزايهاها دون منازع فضصف الخلق، وتوجد أكثر ما توجد بسوق الخضار بميدان الأزهار.

كان قد فرغ من حسو قهوته، وجلس وراء زجاج النافذة المغلقة يرسل طرفه إلى ملتقى الطرق، يتابع كل ذات حسن، فتتطعم على عديمة عينه صور النساء

معنى ذلك؟. لكن مهلاً، إنَّها ذكرى الحب لا الحب نفسه، ونحن نحبُّ الحب في جميع الأحوال خاصة الأحوال التي لا حب فيها، أمّا في هذه اللحظة فأتني أشعر كأني غريق في بحر الهوى، كُلك أنَّ المرض الكامن ينثب سموه حين الضعف الطارئ، وما الحيلة ما دام الشك زلزل الحقائق جميعاً يقف عند الحب في حذر، لا لأنه شيء فوق الشك، ولكن احتراماً للحزن، وحرصاً على حقيقة الماضي.

وعاد إسمايل إلى الأماسة سائقاً كثيراً من التفاصيل، حتى ضاق بها فيما بدا، فقال بلهجة من يود الفراغ من السيرة كلها:

- الدوام لله إنَّه شيء مؤسف حقاً، ولكن حسبنا نكد...

ولم يحاول كمال أن يدمره إلى مزيد. كان فيما قال الكتابة، إلى أن وجد رغبة إلى الصمت والتأمل. وكان يكي بكاء صامتاً بدموع غير منظورة يذر فيها قلبه. وأدهشه ذلك بصفته مريضاً قد برئ من مرضه، وقال لنفسه متعجباً: تسعة أعوام أو عشرة؟. ما أطولها وما أقصرها، ترى ما صورة عايلة الآن؟. كم يود أن يلهم إليها النظر ليطلع على سرِّ ذلك الماضي الساحر. بل ليقف على سرِّ نفسه. إنَّه الآن لا يراها إلا لَحْخاً خاطفاً في نعمة قديمة معادة، أو صورة في إعلان صابون. أو بين سبائه كالفرع وهو يهيم: هذه هي!.. ولكن ما هي على الحقيقة قسمة من قسبات نجمة سينائية، أو ذكرى متسللة، فيستيقظ والواقع؟! وبنا به مجلسه، فتالت نفسه إلى رحلة مغامرة في دنيا الغيب، فقال لإسمايل:

- أتقبل دعوتي إلى كاسين في مكان لطيف مأمون؟ فقهفه إسمايل قائلاً:

- إنَّ زوجتي تنتظرني لتذهب معاً إلى زيارة خالتها...

ولم يكثر لرفض دعوته. طالما كانت نفسه ندعه. وغادرا المكان وهما يتبادلان الحديث. أتى حديث. وفيها بين ذلك قال كمال لنفسه: قد نصيب بالحب إذا وُجد، ولكن شدُّ ما نفتقده إذا ذهب.

يكن بها إلا نافذة واحدة ذات قضبان حديدية تطلّ على عطفة الموردي، قد صفت بها ثلاث موائد متفرقة في الأركان، خلت التثان وأصدق بالثالثة أصحابه الذين استقبلوه مهّلّين، شأنهم كلّ مساء. كان ياسين - رغم شكواه - أصغرهم سنًا، أمّا أكبرهم فكان أعزب من أصحاب المعاشات، يليه في مجلسه باشكاتب بالأوقاف، فريثس المستخدمين بإدارة الجامعة، ثمّ حمام من ذوي الأملاك غير مشغول. كان الإدمان يلوح في سحناتهم نظرة ذابلة وشرية عنيفة أو بالغة الشحوب، وكانوا يتوافدون إلى الحانة فيها بين الثامنة والتاسعة فلا يفارقونها إلا في المزيغ الأخير من الليل، يتجرعون أردًا أنواع الخمر وأشدّها مفعولًا وأرخصها ثمنًا، خير أنّ ياسين لم يكن يلزمهم من البداية إلى النهاية، أو لم يكن يفعل ذلك إلا في القليل النادر، وفيها عدا ذلك فكان يضيّ معهم ساعتين أو ثلاثًا كيفما اتفق، وكالعادة استقبله الأعزب المعجوز قائلًا:

- أهلاً بالحاج ياسين...

وكان يصير على وصفه بالحاج إكرامًا لاسمه المبارك، أمّا المحامي وكان أشدّهم إيمانًا فقال:

- تأخّرت يا بطل، حقّ قلنا لقد عثر في امرأة مستحرنا من أنسه الليلة كلّها...

فعلّق الأعزب المعجوز على كلام المحامي مظلّمًا:

- لا يفرّق بين الرجل والرجل إلا امرأة!

فقال له ياسين مداعبًا، وكان قد جلس فيها بينه وبين باشكاتب الأوقاف:

- لا خوف عليك من هذه الناحية...

فقال المعجوز وهو يرفع الكأس إلى فيه:

- إلا لحظات شيطانية، فقد تستشيرني بنت في الرابعة عشرة.

فقال الباشكاتب:

- الاسم لطوية والفعل لأمشير!

- لا أفهم ما تقصد بهذا الكلام البارد.

- ولا أنا فاهم!

وجاء خالو بالكأس والترمس، فتناول ياسين

الكأس وهو يقول:

من ذوات المعاطف والملاعات اللفّ، يسراهنّ كلًّا وأجزاء في مثابة لا تعرف الكلال. كان يجلس أحيانًا فيطول به الجلوس حتّى العاشرة، وفي أحيان أخرى ربّما لم يطل به الجلوس إلا ربّما يشرب قهوته، ثمّ بعض مسرعًا في أثر صيد قد آنس منه استجابة ورخصًا، كأنه تاجر روبايكيا. ولكنّه يقطع في الغالب بالمشاهدة، وربّما تبع الحسنة دون مقصد جنّي، أمّا الإقدام الحقّ، كان يصطاد خادما خلية أو أرملة فوق الأربيعين، فكان يقع على فترات وفي حرص شديد. إذ إنّه لم يعد الرجل الذي كان، لا لأنّ الموارد نامت بالأعباء فحسب، ولكن لسنّ الأربيعين التي نزلت به ضيقًا دون دعوة أو استئذان. يا لها من حقيقة مرعبة! «وشمرة بيضاء في عارضي طلما أوصيت الحلاق بجماليتها، وقال الحلاق إنّ أمر الشجرة هيّن، ولكنّ الشيب لا يلبث أن ينفجر. ثبّا لها، للحلاق وللشيب، ووصف الرجل صيغة مفيدة ولكنّي لن ألجأ إليها. بيد أنّ أبي بلغ الخمسين دون أن تحترق له شعرة، أين أنا من أبي؟ لا في الشيب وحده، كان شابًا في الأربعين، وكان شابًا في الخمسين، أمّا أنا! ربّاه لم أفرط أكثر ممّا أفرط أبي». أرحّ راسك وأتمب قلبك، ترى أكانت حياة هارون الرشيد حقًا كما يروى الرواة؟ أين زُفوية من هذا كله؟! جانب من الزواج خدعة بنت كلب، ولكنّ قوّته في أنّك تحضن الخدعة ما حييت، وسوف تدول دول وتقلب أزمان، ولم يزل الدهر يتمكّن من امرأة سارحة ورجل جاد في أثرها، الشباب لعنة، والكهولة لعنة، فأين راحة القلب أين؟. وأنّس ما في الدنيا أن تتساءل يومًا ذاهلًا أين أنا؟!

وغادر القهوة في منتصف العاشرة، فقطع العتبة متمهّلًا إلى شارع عمّاد حليّ، ثمّ مال إلى حانة «النجمة»، رحبًا «خالو المائل وراه البار في وقته التقليدية»، فردّ الرجل تحيّة بابتسامة عريضة كشفت عن أنياب صفراء مرمّة، ثمّ أشار بذقنه إلى الحجرة الداخلة كأنها ليخبره بأنّ أصحابه في الانتظار. وكان يمتدّ أمام البار دهليز ينتهي إلى ثلاث حجرات متداخلة يضيّج جوّها بالمربرة، فمضى إلى الأخيرة منها، ولم

وهكدا كان جلّني من قبل، وأعاد هذا القول في هذه السهرة، فتساءل المحامي مازحاً:

- وأنت؟... أكانت كذلك أيضاً؟

وضحكوا كثيراً وضحك ياسين، غير أنّ قلبه غاص في صدره متوجّحاً وأفرط في الشراب. وخيّل إليه رغم نشوته أنّه يتدهور، فلا المكان مكانه، ولا الحمر خمره، ولا اليوم يومه «وفي كلّ مكان يتغامزون عليّ، فأين أنا من أبي؟. ليس أتعس من أن يزيد عمرك وتنقص نفودك، بيد أنّ رحمة الشراب واسمة، تفيض عليك أنساً، أنساً رقيقاً وعزاً جيلاً يبون عنده كلّ خطب، فقل ما أعظم مسرتي، لن يعود العقار الذي ضاع، ولا الشباب الذي انقضى، ولكنّ الحمر تصلح أن تكون خير رفيق على مدى العمر، رضعها شاباً باغماً، وها هي تؤنس رجولتي، وسوف يبرّز لها طويلاً وأمي المجلّل بالشيب، بذلك يفرح متّي القلب رغم الغناء، وغداً عندما يستوي رضوان رجلًا وتهادي كريمة عروستاً، أشرب أنخاب السعادة في العتبة الخضراء، فإيا أعظم مسرتي».

وإذا بالجلماعة تغني «أسير المشقّ ياما يشوف هوان» ثم غنّت «يا جماره الوادي» في جوّ صاخب وأصوات معربرة، فردّد الغناء أقوام من سائر الحجرات والدهليز، ثمّ ساد صمت مرهق لفساد رئيس المستخدمين يتحدّث عن استقالة توفيق نسيم، ويتساءل عن المعاملة التي تهدف إلى حماية مصر من خطر إيطاليا، ذلك الجار الثقيل القائم في ليبيا، فما كان من الجلماعة إلّا أن ردّمت في صوت واحد «إرخي الستارة اللي في ريشنا.. أحسن جيراننا نجرحنا». ورغم إفراط العجوز في الشراب والمريدة، فقد احتجّ على هذه الإجابة المجنّبة، ورماهم بالهذر فيما يليق به الجذّ. فأجابوه في صوت واحد مرّدين «صحيح خصامك وإلا هزاره فلم يسع الشيخ إلّا أن يضحك، وأن يعود إلى مشاركتهم بلا تحفظ.

وغادر ياسين الحانة عند منتصف الليل، فبلغ بيته في قصر الشوق حوالى الواحدة صباحاً. وكعادته كلّ ليلة جعل يمرّ بحجرات شقّته كالنمل يقوم بجولة تفتيشية، فوجد رضوان في حجرته يذاكر، وقد رفع

- يناير هذا العام شايف كيفه.

فقال رئيس المستخدمين:

- لله في خلقه شئون، جاء يناير بالبرودة ولكنّه ذهب بتوفيق نسيم إلى غير رجعة!

فصاح المحامي:

- أنقلونا من السياسة، ما زلنا نسكر ونغرّز بالسياسة حتّى أجمدت أنفاسنا، شوفوا حكاية ثانية...

فقال رئيس المستخدمين:

- حيالتنا في الواقع سياسية ولا شيء غير هذا... أنت رئيس مستخدمين درجة سادسة، مالك أنت والسياسة؟

فقال الرئيس محدّثاً:

- درجة سادسة قديم من فضلك، من آيام سعد! فقال الأعزب المعجوز:

- أنا درجي السادسة من آيام مصطفى كامل، لذلك أكلت بها على الماش إكراماً للذكراء... اسمعوا، اليس من الأفضل أن نسكر ونغني؟

فقال ياسين وهو يبرّز بإفراج كاسه:

- نسكر أوّلاً يا والذي...

لم يتّسع ياسين في حياته بنعمة الصداقة العميقة، ولكنّه كان له في كلّ مجلس - قهوة أو حانة - أصحاب، وكان يألّف بسرعة ويؤلّف بأسرع من ذلك. ومنذ التّخذ هذه الحانة - تبعاً لتطوّر حالته الماديّة - مجلساً ليلاً غنّاراً عرف هذه الجلماعة، وتوثّقت أسباب السمر بينهم، غير أنّه لم يقابل أحداً منهم في الخارج، ولم يسع إلى ذلك، جمع بينهم الإدمان والاسترخا، وكان رئيس المستخدمين أرقامهم مركزاً، ولكنّه كان كثير العيال، أمّا المحامي فقد جاء هذه الحانة جرياً وراء سمعة خمرها القويّة، بعد أن لم تعد تؤثّر فيه الخمور النظيفة إلّا في النادر، ثمّ ألفها واعتادها. وجعل ياسين يشرب ويفرّث، قاذفاً بنفسه في دوامة العريدة التي تحتاح المكان وترتطم بأركانها. وكان المعجوز الأعزب أحبّ أفراد الجلماعة إليه. ولم يكن يشيع من مداخلته خاصّة فيما يتعلق بالرموز الجنسيّة، فكان الرجل يحذّره من الإفراط. ويذكره بمسؤوليّاته العائليّة، فيقول له ياسين في استهانة ومباهاة، نحن قوم خلقنا لهذا، هكدا أبي،

الليل كان يفصح عن ولعه بهم دون تحفظ، وهو في نشوة من الحمر والحب، كان يمازجهم ويسامرهم، وربما قصص عليهم نوادر السكارى الذين صادفهم في الحانة، غير عابٍ بأثر ذلك في الأنفس البريئة، مستهيناً باحتجاجات زئوبة التي تومئ إليها به من وراء وراء، فيبدو وكأنما نسي نفسه وجرى على سجيته دون حذر أو مبالاة.

وفي حجرته وجد زئوبة - كالعادة - نائمة وليست بشائعة. هكذا كانت أبدأ، فقيل أن يبلغ الحجره يترامى إليه شخيرها، حتى إذا توسّطها تحركت وتفتحت عينها وقالت بلهجتها الساخرة - وهذا لله على السلامة. ثم تنفض لمعاوته على خلع ثيابه وترتيبها. وقد بدت في صورتها الطبيعية أكبر من سنّها، وكثيراً ما غلّتها بمائله سنّها. ولكنها باتت أليفة واشتبهت جلدورها بجلورها، تلك الغاية القديمة التي نجحت في معاشرتها فيما لم تنجح فيه سيّدة من قبل، فأرست حياته الزوجية على أساس متين، نعم لقد انتابت حياتها في أوّل الأمر محارك وعلا بها زليل ولكنها بدلت دائماً حريصة على حياتها الزوجية كلّ الحرص. ومع الأيام صارت أمّاً، ومنيت بالثكل، فلم يبق لها غير كريمة، غير أنّ ذلك دحاهما إلى مضاعفة الاستمسك بحياتها الزوجية، خاصة بعد أن تعلّدها الذبول وانواها الكبر المبكر، ثمّ علّمتها الأيام أن تتحلّى بالصبر والمهادنة، وأن تتمرّس بدور السيدة بكلّ معنى الكلمة، وغالت في ذلك إلى حدّ أنّها لم تكن تتبرّج خارج بيتها حتى فازت أخيراً باحترام بين القصرين والسكّرة إلى حدّ ما، وكان من حسن سياستها أن تحمل نفسها على معاملة رضوان معاملة كريمة بالغة الرقة والوقرة، على الرغم من أنّها لم تكن تمجد تحوره حبّاً، خاصة بعد أن تكلت في الذكّر الوحيد الذي أنجبته لياسين، وكانت رغم تغريها شديدة العناية بحسن هئلهما وأناقتهما ونظافتهما، وقد لاحظها ياسين بأساً وهي تعيد ترتيب شعرها أمام المرأة، ومع أنّه كان يضيق بها أحياناً إلى حدّ الضجر، إلّا أنّه كان يشعر بحقّها بأنها أصبحت شيئاً ثميناً في حياته لا يمكنه الاستغناء عنه بحال. وجاءت بشال فتلقّت به وهي تتفكّف من البرد، وقالت متشكّية:

الشابّ رأسه عن كتاب القانون ليتبادل مع والده ابسامة. وكان الحبّ بينهما عقيقاً، كذلك الاحترام رغم أنّ رضوان كان يعلم أنّ والده لا يعود هله الساعة إلاّ ثعلأ. أمّا ياسين فكان يعجب بجمال ابنه أيّما إعجاب، كما يعجب بذكائه واجتهاده، ويرى فيه وكيل نيابة المستقبل الذي سيرفع من شأنه، ويمرّ من كبريائه، ويمرّ به عن أمور كثيرة، سأل:

- كيف تجد دروسك؟

وأشار إلى نفسه كأنما يقول له «نحن هنا». فابتسم رضوان، وابتسمت فيه عينا هيّة المكحولتان، فعاد أبوه يسأل:

- أيزعبك إذا أدّرت الفونوغراف؟

- أمّا عني فلا. ولكنّ الجيران نائمون في هله الساعة المتأخّرة.

فابتعد عن الحجره وهو يقول هازئاً:

- نوم العافية!

ومرّ بحجرة نوم «الأولاد» فوجد كريمة تغفّ في نومها على فراش صغير، حل حين بقي فراش رضوان في الجانب الآخر من الحجره خائلاً ينتظر فراغه من مذاكرته. وعطّر له لحظة أن يوقظها ليداعبها، ولكنّه ذكر ما يصحب إيقاظها في تلك الساعة من تلمرّ فعدل عن خاطره. وألجمه صوب حجرته. أجل الليالي في هذا البيت حقّاً هي ليلة الجمعة، تلك العطلة المقدّسة، فإذا عاد إلى بيته ليلة الجمعة - بصرف النظر عن الساعة التي يعود فيها - فإنّه لا يتردّد في أن يدعو رضوان إلى مجلسه بالصالة، ثمّ يوقظ كريمة وزئوبة، ويدير الفونوغراف، ويضي في محادثتهم وممازحتهم حتى المزيغ الأخير من الليل. كان مغرماً بأسرته - خاصة رضوان - أجل لم يكن يشغل نفسه - أو لم يكن لديه من الوقت - ليتابعهم برعايته وتوجيهه، تاركاً أمرهم لعناية زئوبة وحكمتهم الفطرية. ومهما يكن الأمر فإنّه لم يطق لحظة واحدة أن يخلّ حيالهم الدور القاسي الذي مثله أبوه حياله، وكره من مصمم قلبه أن يخلق في قلب رضوان شعور الرهبة والخوف الذي كان يجده نحو أبيه. والحقّ أنّه لم يكن يستطيع ذلك حتى لو أراد. وعندما كان يجهمهم حوله بعد منتصف

- ما أشد البرد! هلاً رحمت نفسك من السهر في الشتاء؟

فقال سائحاً:

- احمر تغيرت الفصول كما تعلمين، لم تتعين نفسك بالاستيقاظ؟
فضخت قاتلة:

- فعلك متعب وكلامك متعب!

بدا في جلبابه كللتاد، ومسح يده على كرشه وهو يبرنو إلى المرأة في ارتياح، وكانت عيناه السوداوان تستعلان، ثم ضحك فجأة قائلاً:

- لو رأيته وأنا أتبادل التحية مع السكرا أمسى عساكر آخر الليل أصداقي الأعراء!

فغمضت وهي تنتهد:

- يا فرحتي!

٨

كان منظر رضوان ياسين وهو يسير في النورية بخطواته المشددة مما يلتفت الأنظار حقاً. كان في السابعة عشرة من عمره، مكحول العينين، متوسط القامة مع ميل خفيف إلى الامتلاء، أنيق اللبس إلى حد التبرج، ينتسب بيشرته الوردية إلى آل عفت، فهو يشع بهاء ونورا، وتتم حركاته عن دلال من لا يثنى عليه جماله، وعندما مر بالسكينة انهم رأسه إليها فنيا يشبه الانسجام، وذكر لتوه عفت خديجة وابنتها عبد المنعم وأحمد، فوجد لذكرهما شعوراً لا يخلو من فتور، والحق أنه لم يجد من نفسه مشجماً ولو مرة - على أن يتخذ أحداً من أقرباء صديقاً بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة.

وسرعان ما اجتاز بوابة التوت، ثم مال إلى الدرب الأحمر، حتى بلغ به المسير باب بيت قديم فطرقه وانتظر، وفتح الباب عن وجه حلمي عزت، صديق صباه، وزميله اليوم بكليّة الحقوق، ومناضيه - فيها بدا - في الجلال. وتجلل وجه حلمي لرؤياه، ثم تعانقا وتبادلا قبلة كعادتهما عند اللقاء. ومضيا معاً يصعدان السلم، وفي أثناء ذلك جعل حلمي يترقب بريرة رقية صديقه ويحارب لونها مع قميصه وجوربه، وكان يضرب بها المثل في الأناقة وحسن اللوق، فضلاً عن

أن اهتمامها باللباس والموضة لم يكن دون اهتمامها بالسياسة أو دراسة القانون. وانتهيا إلى حجرة كبيرة عالية السقف، حل وجود الفراش والمكتب بها على أنها معدة للنوم والمذاكرة معاً. والحق أنها طالما سهرت بها يذاكران، ثم ناما جنباً إلى جنب على الفراش الكبير ذي الأعمدة السوداء والناموسية. ولم يكن بيتان رضوان خارج البيت بالشيء الجديد، فقد اعتاد منذ صباه أن يدعى إلى أكثر من بيت لقضاء عدة أيام، كبيت جده محمد عفت بالجبلية، أو بيت أمه بالمنيرة التي لم تنجب غيره رغم زواجها من محمد حسن، ولذلك لجليل أبيه الطيحي إلى اللامبالاة، وترحيب زبوة الحفي بكل ما يبعده عن بيتها ولو إلى حين، لم يجد معارضة في البيات عند صديقه في مواسم المذاكرة، ثم صار الأمر بعد ذلك مالوفاً فلم يكن أحد ليعيره أي اهتمام، وفي مثل هذا الجو من اللامبالاة نشأ حلمي عزت. توفي أبوه - وكان مأمور قسم - منذ عشرة أعوام. وفي ذلك الوقت كانت أخوات الست قد تزوجن، فعاش وحده مع أمه المعجزة، ووجدت المرأة صعوبة في بادئ الأمر في السيطرة عليه، ثم ما لبث أن صار هو المسيطر على البيت كله. وكانت المرأة تعيش على معاش زوجها الصغير، وإعصار الدور الأول من بيتها القديم، فلم تعرف الأسرة الحياة الرفيعة منذ وفاة الأب، ولكن حلمي لم يعجز عن مواصلة حياته المدرسية حتى التحق بكليّة الحقوق، محافظاً في أثناء ذلك كله على ما تتطلبه حياته من مظاهر الاحترام. وكان سرور حلمي بلقاء صديقه لا يعادله سرور، ولم تكن تطيب له أوقات العمل أو الراحة إلا به، لذلك بعث وجوده في نفسه نشاطاً وحماسة، فأجلسه على الكنية الملاصقة لباب المشربية وجلس إلى جانبه، وراح يفكر في اختيار موضوع - وما أكثر المواضيع لمحدثته - غير أن نظرة واجبة لاحت في عيني رضوان اعترضت تيار حماسه، فرنا إليه مستائلاً، ثم حن ما هنالك فتمتم:

- زرت والدتك؟ أراهن أنك قادم من هناك...

أدرك رضوان أن صديق تخمين صاحبه يرجع إلى وجهه هو، فلاح الضمجر في عينيه، وهز رأسه

الصمت وهما يذبيان السكر. وتغير تعبير وجه رضوان
فأذن ذلك بإنهاء السيرة المحزنة، ورغب حلمي بذلك
فقال في ارتياح:

- تعوّدت المذاكرة معك، فلا أدري كيف أذاكر
وحدي...

فابتسم رضوان متجاوزاً مع هذا الشعور الرقيق،
ولكنه سألته فجأة:

- هل أطلعت على المرسوم الصادر بتأليف وفد
المفاوضة؟

- نعم. ولكن كثيرين يسلطون متشائمين بالجور
الذي يحيط بالمفاوضة، ويبدو أنّ إيطاليا - التي تتبدّد
حدودنا - هي محور المفاوضة الحقيقية، والإنجليز من
جانبهم يبدّدون في حال فشل الاتفاق!

- إنّ دماء الشهداء لم تبرد بعد، وعشنا دماء
جديدة!

فهز حلمي رأسه قائلاً:

- هذا كلام يقال، لقد سكنت القتال وبدأ الكلام،
ما رأيك؟

- على أيّ حال فإنّ للوفد أغلبية ساحقة في هيئة
المفاوضة، تصوّر أنّي سألت محمد حسن زوج أمّي عن
رأيه في الموقف، فقال لي ساخراً: «أتتوهم حقاً أنّ
الإنجليز يمكن أن يخرجوا من مصر؟»، هذا هو
الرجل الذي ارتضت أمّي زوجاً!

فضحك حلمي عزّت عاليّاً وسأله:

- وهل يختلف رأي أبيك عن ذلك؟

- إنّ أبي يكره الإنجليز، وحسبه ذلك.

- أكرههم من صميم قلبه؟

- إنّ أبي لا يكره ولا يحب شيئاً من صميم قلبه!

- إنّني أسألك عن رأيك أنت، فهل أنت مطمئن؟

- لمّ لا، حتى متى تبقى القضية معلقة؟ أربعة
وخمسون عاماً من الاحتلال، ألف، لست أنا التعيس
وحدي!

فتناول حلمي عزّت آخر رشقة من قدحه وقال
باسماً:

- يبدو لي أنّك كنت متحدثي بهذه الحفاضة عندما
وقعت عيناه عليك؟

بالإيجاب دون أن يتكلّم، فسأله حلمي:

- وكيف حالها؟

- عال...

ثمّ وهو يتبهد:

- ولكنّ هذا المدهو محمد حسن!، أنت لم تعرف

معنى أن يكون لأمك زوج غير أبيك!

فقال حلمي موسماً:

- كثيراً ما يقع هذا، لا عيب فيه، ثمّ إنّّه شيء
قديم!

فهتف رضوان حائفاً:

- لا لا لا، إنّّه دائماً في البيت، لا يرحله إلّا إلى
عمله في الوزارة، نفسي مرّة أزورها فأجدها وحدها،
ويطيب له أن يكلّ دور الوالد والمرشد، سحفاً له،
وعند كلّ مناسبة يذكّرني بأنّه ريس أبي في إدارة
المحفوظات، ولا يتردّد عن انتقاد مسلكه في عمله،
ولكنّي من ناحيتي لا أسكت له...

وصمت دقيقة حتّى يبدأ انفجاله، ثمّ واصل
حديثه:

- أمّي حمقاء إذ رضيت أن تتزوّج من هذا الرجل،
لم يكن من الأفضل أن تعودى إلى أبي؟

وكان حلمي يعرف الكثير عن سيرة ياسمين
المشهورة، فقال باسماً:

- في العشق يا ما كنت أنوح!

فلوّح رضوان بيده معانداً وهو يقول:

- ولولا إنّ ذوق النساء سرّ خيف والأدهى من ذلك
أثباتي فيها يبدو راضية!

- لا تسع وراء ما ينقص صفوك.

فقال رضوان في نبرات حزينة:

- يا للعجب، إنّ جانباً عريضاً من حياتي ينضج
بالعاسة، إنّني أمقت زوج أمّي ولا أحب امرأة أبي،
جوّ مشحون باليغضاء، إنّ أبي - كماي - لم يحسن
الاختيار، ولكن ماذا في وسعي أن أفعل؟، وامرأة
أبي تحسن معاملتي ولكن لا أتصوّر أنّها تحبّي، هذه
الحياة ما أزدناها!

وجاءت خدام عجوز بالشاي، فتخلّب ريق رضوان
الذي غاف في الطريق من رياح فبراير القاسية. وساد

- من؟

فاتبسم حلمي عزّت ابتسامة غريبة، وقال:

- كلّمّا تحمّست نورّد وجهك وبرز جمالك في أحسن أحواله، وفي لحظة من تلك اللحظات السعيدة رآك ولا شك وأنت تحدّثني، كان ذلك يوم ذهب وفد الطلبة إلى بيت الأئمة داعين إلى الاتحاد، ألا تذكر ذلك اليوم؟

فتساءل رضوان باهتمام لم يحاول إخفاؤه:

- نعم، ولكن من هو؟

- عبد الرحيم باشا عيسى

فتفكر رضوان قليلاً ثمّ تمتم:

- رأيته مرّة عن بُعد...

- أمّا هو فقد رآك اليوم لأول مرّة.

وارتسمت على وجهه رضوان علامة استغهام، فعاد حلمي يقول:

- وعندما قابلني عقب انصرافك سألني عنك،

وطلب إليّ أن أقدمك إليه في أول فرصة

وتبسم رضوان ثمّ قال:

- هات كلّ ما عندك.

فقال حلمي وهو يرتّب متكب صاحبه:

- دعائي وسألني بخفته - عل فكرة هو خفيف

جداً - «من الملمح الذي كان يحدثك؟» فأجبت أنّه

زميل في الحقوق وصديق قديم واسمه كذا الشيخ.

فسألني باهتمام: «ومنى تقلّمه إليّ؟» فسألته بلوري

متجاهلاً غرضه: «وله يا باشا؟» فانفجر قائلًا

كالغاضب - هكذا تبلغ به خفة الروح أحيانًا -

ولاعطيه درسًا في الديانة يا بن الكلب». فضحكت

بلوري حتّى كنتم فمي بيده...

وساد الصمت لحظة دوت فيها الريح في الخارج،

وتراعى صوت ارتظام ضلفة شباك بجدار، ثمّ علا

صوت رضوان وهو يتساءل:

- سمعت عنه كثيرًا، أهو كما يقال؟

- وأكثر...

- لكنّه عجوزًا

فقال حلمي عزّت وأسايره تنطق بالضحك دون

صوت:

- هذا في المرتبة الأخيرة من الأهميّة، إنّه رجل كبير المقام، ظريف، ذو نفوذ ولعلّ شيخوخته أجّل فائدة من الشباب...

فعاود رضوان الابتسام، ثمّ تساءل:

- أين منزله؟

- فيكلاً هادئة في حلوان.

- آه نكتظّ بالقاصدين من كافّة الطبقات!

- سنكون ضمن مرديّه، لم لا؟، إنّه من شيوخ

الساسة ونحن من شبابهم!

فتساءل رضوان في شيء من الحذر:

- وزوجه وأولاده؟

- يا لك من جاهل، إنّه أعزب، لم يتزوّج قطّ ولا

يحبّ هذه السيرة، كان وحيد أبويه، وهو يعيش وحده

مع خدمه كآته مقطوع من شجرة، وإذا عرفته فلن

تسلو عنه أبدًا...

وتبدلاً نظرة باسمة طويلة تفيض بالمؤامرات، حتّى

قال حلمي عزّت في شيء من الجزع:

- سألني متى نذهب لزيارته من فضلك؟

فقال رضوان وهو ينظر إلى ثالة الشاي في قدحه:

- متى نذهب لزيارته؟

٩

لاح بيت عبد الرحيم باشا عيسى على ناصية شارع

النجاة بحلولان آية في البساطة والأناقة. فيلاً سمراء

مكوّنة من دور واحد يعلو عن الأرض بمقدار ثلاثة

امتار تكتنفه حديقة أزهار، ويستهلّ بسلامك. وكان

البيت والطريق والمنطقة المحيطة به غارقة في صمت

مريح. وكان يجلس على أريكة عند الباب البوّاب

وسائق السيّارة، بواب نوّبيّ بارع الغسّات ممشوق

القوام، وسائق في ريق الشباب مورّد الخدين. وشمس

حلمي عزّت في أذن رضوان وهو يمدّ بصره نحو

السلامك:

- صدق الباشا فيها وعد، فلا زائر اليوم غيرنا!

وكان حلمي عزّت معروفاً لدى البوّاب والسائق،

فوفقاً لاستقباله في أدب، وكأ داعبها مازحاً انطلقا

- المخافرة يا سعادة الباشا مع وليّ الامر؟
فضحك عبد الرحيم باشا واكتفى بمصافحة
رضوان، ثمّ دعاهما إلى الجلوس وهو يجلس على مقعد
كبير على كتب منها، وقال بأسياً:
- وليّ امرك هذا ملعون يا رضوان، اليس هذا هو
اسمك؟. أهلاً وسهلاً، لقد رأيته في صحبة هذا
الولد الشقي، فراقني أدبك وتمنيت لقاءك، وها أنت لم
تضنّ عليّ به... .

- إني سعيد بالتشرف بمعرفتك يا سعادة الباشا.
فقال الرجل وهو يدير خاتماً ذهبياً كبيراً في بنصر
يسراه:

- أستغفر الله يا بنيّ، لا تستعمل عبارات التعظيم
والغلب التضخيم، إني لا أحب شيئاً من هذا كله،
الذي يميّز حقاً هو الروح اللطيف والنفس الصافية
والإخلاص، أمّا مساعدة الباشا ومساعدة البك فكلنا أبناء
آدم وحواء، الواقع لقد رافقي أدبك فوددت لو أدعوك
إلى بيتي، فأهلاً وسهلاً، أنت زميل حلمي في كلّية
الحقوق، أليس كذلك؟

- نعم يا فندم، إننا زملاء من عهد خليل آخا
الابتدائية...

لرفع الرجل حجبيه الأشيبين في إعجاب قائلاً:
- زمالة صبا!... (ثمّ وهو يبرّ رأسه)... جميل،
جميل، لملك مثله من حيّ الحسين؟

- نعم يا سيدي، ولدت في بيت جدّي السيّد محمّد
عقّت بالجلالية، وأقيم الآن بمنزل والسدي بقصر
الشرق...

- أحياء مصر الأصلية، البقاع الطيبة، ما رأيك لقد
عشت فيها دهرًا مع المرحوم أبي في بيرجوان، كنت
وحيد أبويّ، وكنت غفريًا، وطالما جمعت الصبيان في
شبه زفة ومضيّنا من حارة إلى حارة نعاكس طوب
الأرض، ويا ويل النصف لو رماه القدر إلى طريقنا،
وكان أبي يثور غضبه فيجري وراثي بالعصا... قلت
يا بنيّ إن جدّك هو محمّد عقّت؟

فقال رضوان بفخار:

- نعم يا سيدي...

فتفكر الباشا قليلاً ثمّ قال:

يضحكان دون كلفة. وكان الجوّ قارص البرودة رغم
جفائه، فدخلوا بهو استقبال آية في الفخامة، تنصّره
صورة كبيرة لسعد زغلول في بذلة التشرقية، ومال
حلمي عزّت إلى مرآة ممتّدة طولاً حتّى السقف تتوسّط
الجدار الأيمن، فالتقى على صورته نظرة متفحّصة
طويلة، فلم يتردّد رضوان أن يلحق به. وأن يمتحن
منظوره بنظرة مثلها، حتّى قال حلمي بأسياً:
- قمران يرتديان بذلة وطربوشاً، والي يعيش جمال
النبيّ يصليّ عليه!.

وجلسا متجاورين على كنية مذهبة ذات غطاء أزرق
وثير. ومزّت دقائق ثمّ سمعت حركة آية من وراء
الستار المسدل على باب كبير تحت صورة سعد، فالتجّه
ناحيتهما رأس رضوان وقلبه يخفق باهتمام. وما لبث أن
ترامى الرجل في بذلة سوداء أنيقة، تنتشر بين يديه
رائحة زكية، وقد بدا دامن السمرة، حلق الوجّه،
نحيل الجسم، مائلًا إلى الطول نوعًا، ذا قسيات دقيقة
برأها الكبير، وعينين صغيرتين ذابلتين، أمّا طربوشه
فقد مال إلى الأمام حتّى كاد يمسّ حاجبيه، وكان يتقدّم
هادئًا وقورًا في خطوات متقاربة وبطيئة معًا، فانعكس
منه إلى قلب الشاب إجلالاً وطمأنينة. ولازم الصمت
حتّى وقف أمام الشابين اللذين وقفا لاستقباله، ثمّ
تفحّصهما بنظرة ثابتة ثبتت على رضوان طويلاً حتّى
اختلج جفناه، ثمّ ابتسم فجأة، فشاع في الوجّه
القديم إيناس وجاذبيّة قرّبت المسافة التي تفصل بينه
وبينها حتّى لم تعد شيئاً. ومدّ حلمي يده فتناولها الآخر
واستبقاها في يده، ثمّ مدّ بوزه وانتظر، فأدرك حلمي
غرضه، وسرعان ما عرض له خدّه فقبله، ثمّ نظر
صوب رضوان قائلاً بصوت رقيق:

- لا تؤاخذني يا بنيّ، فهذه هي طريقة السلام
عندي...

ومدّ رضوان يده في حياء، فتناولها الرجل وهو
يتساءل ضاحكًا:

- وخذك؟

فتزوّد وجه رضوان، وهتف حلمي مشيرًا إلى
نفسه:

وسوف نتحدث طويلاً ونندرس العبر كىما نكون لنا
حياة موفورة الكمال والسعادة . . .

فنظر حلمي إلى رضوان قائلاً:

- ألم أقل لك إنَّ صداقة الباشا كنز لا يفي؟

فقال عبد الرحيم عيسى موجِّهاً الخطاب إلى رضوان
الذي لم تكد تتحوَّل عنه حيناً:

- إني أحب العلم وأحب الحياة وأحب الناس،

ويدينني أن آخذ بيد الصغير حتَّى بكبر، وأيّ شيء في

الدنيا خير من الحب؟ يجب إذا واجهتنا مشكلة

قانونية أن نحلها معاً، وإذا فُكرنا في المستقبل أن نفكر

معاً، وإذا نازعنا أنفسنا إلى الراحة أن نرتاح معاً، ما

وجدت رجلاً حكماً مثل حسن بك عباد، اليوم هو من

رجال السلك السياسي المصدودين، ودعك أنه من

أعدائي السياسيين. ولكنه كان إذا تفرَّغ لبحث قلبه،

وإذا طرب رقص عارياً، الدنيا حلوة على شرط أن

تكون حكيماً واسع . . . الإدراك! ألست واسع الإدراك

يا رضوان؟

فاجاب عنه حلمي عزَّت من فوره:

- إذا لم يكن فنحن على استعداد لتوسيعه . . .

فأشرق وجه الباشا بإسماة طفلةٍ مُتت عن رغبته

التي لا حدَّ لها في المسرة، وقال:

- هذا الولد عفريت يا رضوان، ولكن ما حيلتي؟

إنه زميل صباك يا بخته، ولست أنا الغائل إنَّ الطيور

على أشكالها تقع. لازم أنت أيضاً عفريت، خبِّري يا

رضوان من أنت؟. هه. إنَّك تركتني أنكلِّم بلا وعي

وأنت صامت كدهاء السياسة، هه؟ قل يا رضوان ماذا

تحب وماذا تكره؟.

هند ذاك دخل الخادم حاملاً صينية القهوة، وكان

لفي أمرد شبيهاً بالبواب والسائق، فشرَّبوا أكواب الماء

للمزوجة بالزهر، وجعل الباشا يقول:

- الماء بالزهر شراب أهل الحسين، ليس كذلك؟.

فغمغم رضوان بأساً:

- نعم يا سيدي.

فقال الباشا وهو يجرُّ رأسه طرفاً:

- يا أهل الحسين مندا.

وضحكوا جميعاً، حتَّى الخادم ابتسم وهو يضادر

- أذكر أنني رأيته مرَّة في بيت نائب الجالية، رجل

وجيه ووطي صادق، كاد يرشِّح نائباً في الانتخابات

القادمة لولا تنجُّه في آخر لحظة لصديقه النائب

القديم، إنَّ الاتحاد الأخير أوجب الصداقة في

الانتخابات حتَّى يظفر إخواننا الأحرار الدستوريون

ببعض المقاعد، إذن أنت زميل حلمي في الحقوق!.

جميل، القانون سيّد الدراسات، وهو يتطلَّب لدراسة

ذكاء كماً، أمَّا عن المستقبل فما عليك إلا الاجتهاد!

وجد في نبرته الأخيرة ما يرحي بالوعد والتشجيع،

فلدَّب في قلبه الطموح والحماسة فقال:

- نحن لم نفشل ولا مرَّة واحدة في حياتنا

الدراسية!.

- برافو، هذا هو الأساس، بعد ذلك نجيء النيابة

ثمَّ القضاء وسيوجد دائماً من يفتح الأبواب المغلقة أمام

المجتهدين، حياة القضاء شيء عظيم، عيادها الذكاء

اليفظ والضمير الحي، لقد كنت بفضل الله من أبنائها

الصادقين، وقد تركت القضاء للاشتغال بالسياسة،

فالوطنية تحمُّم علينا أحياناً أن نهجر أهبالنا المحبوبة

ولكن إلى اليوم نجد من يضرب بنا المثل في العدالة

والنزاهة، فضع نصب عينيك في الاجتهاد والنزاهة

وأنت حرٌّ بعد ذلك في حياتك الخاصة، قم بواجبك

وافعل ما تشاء، أمَّا إذا قصَّرت في الواجب فلن يرى

الناس فيك إلا النفاص، ألا تری أنَّه لا يجلو لكثير

من الفضوليين إلا أنَّ يقولوا فلان الوزير به الداء

الفلاني. وفلان الشاعر به الداء العلاني. حسن،

ولكن ليس كلَّ المصابين وزراء وشعراء، فكن وزيراً

وشاعراً أوَّلاً وافعل بعد ذلك ما تشاء، لا يغيبن عن

ذكائك هذا الدرس يا أستاذ رضوان . . .

وهنا قال حلمي عزَّت بغيث:

- كفى المرء نبلاً أن تعدَّ معاليه، أليس كذلك يا

معاذ الباشا؟

فتنى الرجل رأسه إلى منكبه الأيمن، وقال:

- طبعاً، سبحانه من له الكمال وحده، الإنسان

ضعيف جداً يا رضوان، ولكن عليه أن يكون قوياً في

الجوانب الأخرى. مفهوم؟. لو تشاء أحثُّك عن كبار

الرجال في الدولة ولن نجد واحداً خالياً من داء،

فؤاد هو الذي عارض في ترققي يومًا، والملك فؤاد آخر من يتكلم في الأخلاق، وصل لي حال سابقًا بل غدا في الندي، سلام عليكم يا باشا... وعاد الرجل متجهًا الوجه، ولكنه ما كاد يرى وجه رضوان حتى عاوده الانشراح فواصل حديثه قائلاً:
- نعم يا سيد رضوان، تعارنا وما أجمل التعارف، أنصحك بالاجتهاد، أنصحك بالأناقة، أنصحك بالواجب والمثل الأعلى، بعد ذلك أحذرك عن الطرب والهناء. وهنا نظر رضوان في ساعته، فلاح الجزع في وجهه الباشا وقال:

- إلاً هذا! الساعة عدو مجالس الأنا.

فتمتم رضوان في شيء من الارتباك:

- ولكننا تأخرنا يا سعادة الباشا.

- تأخرنا؟! أتعي أنه تأخر في العمر؟! انعطأت يا بغي، ما زلت أحب السهر والجمال والهناء بعد الساعة الواحدة، السهرة لم تبدأ بعد، لم نزل إلا بسم الله الرحمن الرحيم، لا تعترض. السيارة تحت أمرها حتى الصباح، ويلغي أنك تبيت خارج البيت للمذاكرة، فلندكره ليم لا؟ ما أحل أن أعود إلى المدخل في القانون العام أو شيء من الشريعة، بهذه المناسبة من يدرس لكم الشريعة؟ الشيخ إبراهيم نديم، مساء الله بالحير، إنه كاتب عظيم، لا تدعش، سنزغ يومًا لكل رجال العصر، يجب أن نفهم كل شيء، ليلتنا ليلة محبة وصداقة، خبّرني يا حلمي ما أنسب شراب لمثل هذه الليلة؟

فقال حلمي باطمئنان:

- ويسكي وصيدا وشواء.

فقال الباشا ضاحكًا:

- وهل الشواء شراب يا شقي؟

البهوى، واستطرد الباشا مستأثراً:

- ماذا تحب؟ وماذا تكره؟ تكلم بصراحة يا رضوان، دعني أثير لك الجواب، أأنت مهتم بالسياسة؟

فقال حلمي عزت:

- كلانا في لجنة الطلبة.

- فهذا أول سبب للمقاربة بيننا، وهل لك في الأدب؟

فأجاب حلمي عزت:

- إنه مغرم بشوقي وحافظ والمنفلوطي...

فبهره الباشا قائلاً:

- اسكت أنت، أريد يا أخي أن أسمع صوته...

فضحكوا، وقال رضوان بأسياً:

- إني أموت في شوقي وحافظ والمنفلوطي...

فقال الباشا بإعجاب:

- وأموت في يا له من تعبير، لا تسمعه إلا في الجالية، أي نسبة إلى الجليل يا رضوان؟ إذن أنت من هواة «فقه ذهاب» وفي الليل كما خلّ، ومن يكنه وفنن يشيله وفنن يحطه، الله... الله، هذا سبب آخر للمقاربة بيننا يا جمالية، وهل تحب الفناء؟

- إنه من غواة...

- اسكت أنت.

فضحكوا مرة أخرى، وقال رضوان:

- أم كلثوم.

- جميل، لمعي من عشاق القديم، ولكن الفناء كله جميل، فانا أحب، ثقيل وخفيف، كما يقول المعري، وأموت فيه كما تقول حضرتك. جميل جداً، الليلة عجب.

ودق جرس التلفون، فنهض الباشا إليه، ووضع السماعة على أذنه وهو يقول: آلو!

- أهلاً أهلاً معالي الباشا.

...

- أنا قلت رأيي للزعيم صراحة، وهو رأي ماهر والنقراشي أيضاً.

...

- أسف يا باشا، لا أستطيع. أنا لا أنسى أن الملك

عقب الغداء من يوم الخميس يلتزم شمل أسرة خديجة على نحو لا يكاد يتغير. وهكذا جمعت الصالة بين الأب إبراهيم شوكت وعبد المنعم وأحمد، ولما كان من النادر أن تبقى خديجة بدون عمل فقد جلست

المنعم واحد لم تكن تعجبها كثيراً، كما أنَّ نحافتها كانت تغيظها فقالت باسماء:

- قلت ألف مرة إنه يجب أن تغيري ريقك على البابونج ليفتح شهيتك، يجب أن تأكل جيداً، ألا تريان أباكيا كيف يأكل؟

وابتسم الشابتان وهما ينظران نحو أبيهما، فقال الرجل:

- ولماذا لا تضرين المثل بنفسك، وأنت تأكلين كالطاحونة؟

فقالت باسماء:

- إنني أترك لها الحكم والخيار.

فقال إبراهيم محتجاً:

- حينك يا شيخه أصابني! لذلك نصحني الدكتور بأن أخلع أسناني...

فلاحت في عينيها نظرة رقيقة، وقالت:

- لا تجزع، ستذهب بشرها، ولن تشكو ألماً بعد ذلك إن شاء الله...

وهنا خاطبها أحد قائلًا:

- جارنا ساكن الدور الثاني يرجو أن يؤجل دفع الأجرة حتى الشهر القادم، قابلي على السلم فرجاني في ذلك!

فسألت وهي تنظر إليه مقبلة:

- وماذا قلت له؟

- وعدته بأن أحلت أبي...

- وهل حدثت أباك؟

- ها أنا أحدثك أنت!

- إننا لا نشاركه في شقته فلا يجوز له أن يشاركنا في رزقنا، ولو تساهلنا معه لنتبعه ساكن الدور الأول،

أنت لا تعرف الناس فلا تتدخل فيها لا يعينك...

فنظر أحمد إلى أبيه مستأنلاً:

- ما رأيك يا بابا؟

فابتسم إبراهيم شوكت قائلًا:

- في عرضك لا تصدح دماغي، عندك أمك...

فعاد أحمد إلى أمه قائلًا:

- إذا تساهلنا مع رجل مزنوق فلن نجوع...

فقالت خديجة بامتعاض:

بينهم وهي تنظُر غطاء مائدة، وقد بدا الكبر أخيراً على إبراهيم شوكت بعد مقاومة طويلة جسارة، فشاب شعره وترمّل بعض الشيء، وإن حافظ فيها عدا ذلك على صفة تحسد عليها، وكان يدخن سيجارة، ويأخذ مكانه بين ابنه في هدوء وطمأنينة. تعكس عيناه البارزتان نظرة الحمول واللامبالاة التقليدية، على حين لم ينقطع الشابتان عن الحديث، فلما بينهما حيناً، أو مع الأب أو الأم التي شاركت في الحديث دون أن ترفع رأسها عن عملها، وقد بدت كتلة عظيمة من الشحم واللحم. لم يعد في الجوّ ما ينقص على خديجة صفوها، إذ لم يبقَ من يناديها بالسيادة في بيتها منذ تولّت هاتين. كانت تقوم بواجباتها مهمّة لا تحذلها أبداً، وترعى سماتها بعناية فائقة وهي جوهر جمالها كلّها، وتحاول فرض رعايتها على الجميع، الأب والابن، فيطْلُوع الرجل، ولما عبد المنعم واحد فيشتر كل سبيله كما يرى مستعجلين يبتغي من سطوتها. وقد نجحت منذ سنوات في حمل زوجها على احترام تقاليد الدين، فهارس الرجل الصلاة والصوم واعتادها، وكان عبد المنعم واحد قد شيئاً على ذلك من قبل، غير أنَّ أحمد توقّف عن أداء الفريضة منذ عامين، وجعل يتهرّب من استحباب أمه كلّما استجوبته أو يتعلّل بصدر أو بآخر. وكان إبراهيم شوكت يحبّ ابنه حبّاً جمّاً، ويعجب بها أشدّ الإعجاب، وينوّه في كلّ فرصة بنجاحها للتواصل الذي بلغ بعد المنعم كلّية الحقوق ويأخذ نهاية المرحلة الثانوية، وفي ذلك كانت خديجة تقول في مباحة:

- كلّ هذا ثمره اهتمامي أنا، لو ترك الأمر لك ما فلع أحدهما ولا كان له شأن...

وقد ثبت أخيراً أنّها نسيت مبادئ القراءة والكتابة لعدم الاستعمال ممّا جعلها هدفاً لسخرية إبراهيم، حتى اقترح ابنها أن يذكرها بما نسيت ردّاً لجميلها الذي تباهي به، فغضبت قليلاً وضحكت كثيراً، ثمّ خصت الحال في كلمة قاتلة:

- لا حاجة بامرأة إلى الكتابة والقراءة ما دامت لا

تكتب رسائل غرام!

بدت في أسرها سعيلاً راضية، ولعلّ شهية عبد

- بالصرخة إن رأسه يحتاج إلى تطهير من الداخل...
- إنه...
- اسمعي، هذا الشاب لا دين له، هذا ما بت اعتقده...

فلوح أحمد بيده كالغاضب، وهف متسائلاً:
- من أين لك الحق في الحكم على القلوب؟
- الأفعال تنم عن السرائر (ثم وهو يداري ابتساماً) يا عدو الله!
فقال إبراهيم شوكت دون أن يخرج من هدوئه وطمأنينته:
- لا تتهم أخاك ظليماً.

وقالت خديجة غاطبة عبد المنعم وهي تلحظ أحمد:
- لا تسلب أخاك أعز ما يملك الإنسان، كيف لا يكون مؤمناً؟، إن آل أمه لا تنقصهم إلا العالم ليكونوا من رجال الدين، وكان جدّه من صميم رجال الدين، لقد نشأنا فوجدنا من حولنا يصلّون ويتعبّون كأننا في جامع!
فقال أحمد متهمّاً:
- مثل خالي ياسين...

وبدّت عن إبراهيم شوكت ضحكة، فقالت خديجة متظاهرة بالغضب:
- تكلم عن خالك بأدب، ماله؟ قلبه عامر بالإيمان وربنا بيديه، انظر إلى جدك وجدتك.
- وخالي كمال؟
- خالك كمال من محاسيب الحسين، أنت لا تدري شيئاً.

- بعض الناس لا يدرون شيئاً...
فسأله عبد المنعم محتجاً:
- لو كان الناس جميعاً مهملين في دينهم، فهل يشفع لك ذلك؟

فقال أحمد في هدوء:
- على أيّ حال اطمئنّ، فلن تؤخّض يوماً بذنبي!
وهنا قال إبراهيم شوكت:
- كفاساً خصاماً، نفسي أراكها كرضوان ابن خالكا...

- لقد حدّثني زوجه وأجلّت لها الدفع فليرتح بك، ولكنّي أفهمتها أنّ أجرة المسكن واجبة كمصروفات الأكل والشرب، أليّ ذلك خطأ؟، إني ألام أحياناً لأنّي لم أأخذ من جاراتي صديقات، ولكن من يعرف الناس يمدد الله على الوحدة...

فعاد أحمد يتساءل وهو يغمز بعينه:
- وهل نحن خير الناس؟
فعبست خديجة قائلة:
- نعم، إلا إذا كان لك في نفسك رأي آخر!
فقال عبد المنعم:
- رايه في نفسه أنّه خير الناس جميعاً، لا رأي إلا رايه، والحكمة موقوفة على رأسه!

فقالت خديجة متهمّة:
- ومن رايه أيضاً أن يستأجر الناس البيوت دون دفع أجرهما!
فقال عبد المنعم ضاحكاً:
- إنه غير مقتنع بأنّه من حقّ بعض الناس أن يملكوا بيوتاً على الإطلاق...
فقالت خديجة وهي تبرز رأسها:
- يا عيني على الرأي الفقير...

وحددج أحمد أخاه بنظرة غاضبة، فهزّ عبد المنعم منكبيه باستهانة وهو يقول:
- راجع نفسك قبل أن تغضب...
فقال أحمد محتجاً:
- يحسن بنا ألاّ نتناقش معاً!
- بل انظر حتى تكبر...
- إنك أكبر منّي بعام لا أكثر...
- أكبر منك بيوم يعرف أكثر منك بسة...
- هذا المثل لا أؤمن به!

- اسمع، لا يحمّي إلا شيء واحد، هو أن تعود إلى الصلاة معي...
فهزّت خديجة رأسها بأسف وهي تقول:
- صدق أخوك، الناس تكبر تمعلل أما أنت فأعوذ بالله منك، حتّى أبوك صلّ وصام، فكيف فعلت بنفسك ما فعلت؟، إني أتساءل ليل نهار!

فقال عبد المنعم بصوت قويّ شليد الثقة بنفسه:
فقال عبد المنعم بصوت قويّ شليد الثقة بنفسه:

الساكنة في الدور الأول، فقالت خديجة وهي تهم بالقيام:

- ماذا تريد يا ترى؟... إن كان في الأمر تأجيل دفع أجرة فلن يفصل بيننا إلا قسم الجلالة!

١١

كان الموسكي شديد الزحام، اكتظف بأهله وما أكثرهم فضلاً عما استجد عليه ذلك اليوم من ثيابات بشرية تدفقت من ناحية العتبة. وكانت شمس إبريل الصافية تغلف هباً، فشقَّ عبد المنعم وأحد سبيلهما في جهد غير يسير وهما يتصبَّبان عرقاً. وقال أحمد وهو يتأبط ذراع أخيه:

- حدثني عن شعورك...

فتفكر عبد المنعم قليلاً، ثم راح يقول:

- لا أدري، الموت رهيب، فما بالك بموت ملك، وكان طريق الجنازة مكتظاً بالناس بصورة لم أشهدها من قبل، أنا لم أشهد جنازة سعد زغلول حتى أستطيع المغاورة بين الجنائزين، ولكن يبدو لي أن أكثر الناس كان متأثراً على نحو ما، وبعض النساء يبكين، نحن المصريين قوم عاطفيون...

- لكنني أسألك عن شعورك أنت؟

فصاح عبد المنعم بفكر وهو يتفادى من الارتطام بالناس، ثم قال:

- لم أكن أحبه، وهذا اعتقناه جميعاً فانا لم أحزن، ولكنني لم أمتُ كذلك، تابعت الشمس بعين من لا قلب له، لا له ولا عليه، غير أن فكرة الجنازة في النعش أثرت فيّ، لا يمكن أن يمرَّ منظر كهذا دون أن يؤثر فيّ، لله الملك جميعاً، هو الحَيُّ الباسقي فليت الناس يعلمون، غير أنه لو مات الملك قبل أن تتغير الحالة السياسية التي كانت قائمة لزُهرد كثيرون وكثيرون جداً، وأنت ما شعورك؟

- أنا لا أحبَّ الطلعة أيًا كانت الحالة السياسية!

- هذا حسن، ولكن منظر الموت؟

- ولا أحبُّ الرومانتيكية المريضة!

فتساءل عبد المنعم في ضجر:

فحدثته خديجة بنظرة استياء، كأنها عزَّ عليها أن يعدَّ رضوان خيراً من ابنها، فقال لإبراهيم موضحاً رأيه:

- هذا الشاب على صلة بكبار الساسة، شاب ذكي، وقد ضمن بذلك مستقبلًا باهرًا...

فقالت خديجة غاضبة:

- لست من رأيك، رضوان شاب سيِّء الحظ، ككلَّ شابٍ يحرمه سوء الحظ من رعاية أمه، وزنوية وهائم لا يتمم في الواقع بأمره، أنا لا أنخدع بحسن معاملتها له فهذه سياسة كسياسة الإنجليز، لذلك لا يقرُّ للمسكين قرار، وأكثر أئامه يبيتها خارج بيته، أمّا صلته بالكبراء فلا معنى لها، إنه طالب مع عبد المنعم في سنة واحدة، فما معنى هذا التداخل الخطير؟ أنت لا تعرف كيف تضرب الأمثال...

فرمقها إبراهيم بنظرة كأنها يقول لها: ولا يمكن أن تغريني على رأيي، ثم قال مواصلاً لإيضاح رأيه:

- ليس الشبان اليوم كما كانوا في الزمن الماضي، السياسة غيّرت كلَّ شيء، فكلُّ كبير له مريدوه منهم، والطموح الذي يريد أن يشقَّ سبيله في الحياة لا بدَّ له من كبير يرجع إليه، إن مكانة والدك الكبيرة تقوم على اتصالاته الوثيقة بالكبراء!

فقالت خديجة بكبرياء:

- أبي يسمى الناس إلى التعرّف به ولا يسمى هو إلى أحد، أمّا عن السياسة فأبائني لا شأن لهم بها، لو أتيت لها أن يريا خالها الشهيد لأدركا من نفسيهما معنى كلامي، بين يحيى فلان ويسقط فلان يهلك أبناء الناس، ولو عاش المرحوم فهمي لكان من أكبر القضاة اليوم...

فقال عبد المنعم:

- لكلِّ طريقتي، نحن لا نقفد أحداً، ولو أردنا أن نكون كرضوان لكنا...

فقالت خديجة:

- أحسنت!

وقال له أبوه بأساً:

- أنت كأمك، وكلاهما لا تسلوبان شيئاً...

ودقَّ الباب، فجماعت الخادم تؤذن بقدوم الجارية

- سعيكما مشكوراً

ثم صافحها ومضى كلٌّ إلى حال سبيله، وأتبعه أحد نظره قليلاً، ثم قال:

- جئنا طريف وأتينا، لقد ملأ أنفي شذاً طيباً...

- نينة تروي عن جبروته الأعاجيب...

- لا أظنه جباراً، هذا شيء لا يصدق.

فضحك عبد المنعم قائلاً:

- إنَّ الملك فؤاد نفسه بدا في أواخر عهده لطيفاً طيباً...

وضحكا معاً. ومضيا إلى قهوة أحمد عبده. وفي الحجرة المواجهة للمنافرة رأى أحمد شيئاً مرسل اللحية حاذٍ البصر يتوسط جملاً من الشبان يتطلعون إليه في اهتمام، فتوقف وهو يقول لأخيه:

- الشيخ عليّ المنوفي صديقك، أخرجت الأرض أثقالها، ينبئ أن أتركك هنا...

فقال عبد المنعم:

- تعال اجلس معنا، أحب أن نحالسه ونسمع له، ناقشه كيفما شئت، كثير ممن حوله من طلبة الجامعة...

فقال أحمد وهو يخلص ذراعه من ذراع أخيه:

- لا يا عمّ، كنت مرّة أشتبك معه في عراك، أنا لا أحب المتصيّين، مع السلامة...

فحدجه عبد المنعم بنظرة انتقاد، ثم قال بحدّة:

- مع السلامة، ربّنا يهلك...

وأقبل عبد المنعم على مجلس الشيخ عليّ المنوفي ناظر مدرسة الحسين الأزليّة، فنهض الرجل لاستقباله - وقد نهض معه جميع الجالوس حوله - وتعانقا، ثم جلس الشيخ وجلسوا وهو يتسأل متفضّلاً عبد المنعم بعينه الحادّتين:

- لم نرك أمس؟...

- المذاكرة...

- الاجتهاد عذر مقبول، وما لأخيك قد تركك

وذهب؟

فابتسم عبد المنعم ولم يجيب، فقال الشيخ عليّ المنوفي:

- ربّنا الهادي، لا تعجبوا له، لقد صادف مرشدنا

- أشرت إذن؟

- تمثيت أن يمتدّ بي العمر حتّى أرى العالم وقد خلس من كافّة الطفلة على اختلاف أسمائهم وأوصافهم...

وسكتنا قليلاً وكان التعب قد نال منها كلّ منال، ثم عاد أحمد يتساءل:

- وماذا عمّا بعد ذلك؟

فقال عبد المنعم بلهجة اليقين التي اشتهر بها:

- فاروق غلام، ليس له دهاء أبيه ولا نابه الأزرق، فإذا سارت الأمور سيراً حسناً، فنجحت المفاوضات، وعاد الوفد إلى الحكم، فسوف تستقرّ الأمور ويتقضي عهد المؤامرات... المستقبل حسن فيها يبدو...

- والإنجليز؟

- إذا نجحت المفاوضات انقلب الإنجليز أصدقاء، وبالتالي ينقطع التحالف القائم بين السراي والإنجليز ضدّ الشعب، فلا يجد الملك بذاً من احترام الدستور. - الوفد خير من غيره...

- بلا شك، إنّه لم يحكم طويلاً حتّى يعرف مدى قدرته، وقريناً تكشف التجربة عن إمكانيّاته الحقيقيّة، إنّي أوافقك على أنّه خير من غيره، ولكنّ طموحنا لن يقف عنده.

- طبعاً، إنّي أؤمن بأنّ حكم الوفد نقطة ابتداء حسنة لتطوّر أعظم، وهذا كلّ ما هنالك، ولكن هل تتفق مع الإنجليز حقّاً؟

- إمّا الاتفاق وإمّا العودة إلى حكم صديقي، في أمتنا احتياطيّ من الحقنة لا ينسد، كلّ مهمّة دائيّة تأديب الوفد إذا قال للإنجليز «لا»، وأنهم لفي الانتظار، هذه هي المسألة...

وعندما بلغا السكّة الجديدة وجدنا نفسيهما فجأة أمام جدّهما أحمد عبد الجواد الذي كان متّجهاً صوب الصاغة، فتقدّما إليه وسلّما عليه بلإجلال، فسالها بأساً:

- من أين وإلى أين؟

فقال عبد المنعم:

- كنّا نترجّع على جائزة الملك فؤاد...

فقال الرجل دون أن تفارق الابتسامة شفّتيه:

تكون مسلمين فعلاً، لقد منّ الله علينا بكتابه فتجاهلناه فحَقَّتْ الذَّلَّةُ علينا، فلنعد إلى الكتاب، هذا هو شعارنا، العودة إلى القرآن، بذلك نادى المرشد في الإسماعيلية، ومن ساعته ودعوته تسري في الأرواح، غازية القرى والمدارس حتى تملأ القلوب جميعاً. . .

- ولكن أليس من الحكمة أن نتجنب السياسة؟

- الدين هو العقيدة والشريعة والسياسة، إنَّ الله أرحم من أن يترك أخطر الأمور الإنسانية دون تشريع وتوجيه، وهذا في الواقع هو درسنا الليلة. . .

كان الشيخ شليد الحامسة، وكانت طريقته أن يقرّر حقيقة ما، ثم تدور حولها المناقشات ما بين أسئلة من مريديه وأجوبة عليها منه، يقرم أكثرها على الاستشهاد بالقرآن والحديث. وكان يتحدث وكأنه يخطب، أو كأنه يخطب الجالسين في القهوه جميعاً. فسمعه أحمد وهو جالس في أقصى المكان، يحتمي الشاي الأخضر، وعلى شفطه ابتسامة ساخرة. وكان يقيس الشفّة بينه وبين هذه المجموعة المتحمسة في عجب، ويحد نحوها ازدراء وغضباً، وثار به التحدي مرّة فهم بأن يطلب من الشيخ أن يخفض من صوته حتى لا يهكر على رواد القهوه صفاء راحتهم، ولكنه عدل عما هم به في اللحظة التي تذكر وجود أخيه بهم. وأخيراً لم يجد بداً من مغادرة القهوه، فقام سائطاً وغادرها. . .

١٢

عاد عبد المنعم إلى السكينة حوالى الثامنة مساء. وكان الجو سكّت حقه فيال إلى اللطافة وشاعت فيه رقة الربيع. كان الدرس ما يزال يكبر في رأسه ويتردد في قلبه، ولكن أعياه الجهد والفكر. وعبر حوش البيت في ظلام دامس ثم اتجه إلى السلم، وفي تلك اللحظة فتح باب الدور الأول، وعلى الضوء المنبعث من داخل الشفّة رأى شيئاً يتسلل إلى الخارج ثم أغلق الباب وراءه وسبقه إلى السلم. وخفق قلبه وجرى دمه حاراً كحشرة هيّجها القيظ. رآها في الظلام تنتظر عند أول بسطة وتطلّع نحوه فتطلّع نحوها، ولم يتحوّل عنها رأسه. وعجب كيف يستغل الصغار الكبار، فهذه الصغيرة غادرت بيتها بحجة زيارة الجيران، وسوف

كثيرين من أمثاله هم اليوم من أشدّ المخلصين لدعوته، ذلك أنّ الله إذا أراد لقوم هداية فلن يكون للشيطان عليهم من سلطان، ونحن جنود الله، ننشر نوره، ونحارب عدوّه، وهبنا أرواحنا له من دون الناس، فإسعدكم جنود الله. . .

وقال أحد الجالسين:

- ولكنّ مملكة الشيطان كبيرة!

فقال الشيخ على التواي معاً:

- انظروا إلى من يخاف دنيا الشيطان والله معه!

ماذا نقول له؟ نحن مع الله والله معنا فإذا نخاف؟

من ين جنود الأرض يتمتع بقوكم؟ وأي سلاح أحد من سلاحكم؟ الإنجليز والفرنسيون والألمان والطلبيان جلّ اعتقادهم على الحضارة المادّية، أمّا أنتم فاعتقادكم على الإيمان الصادق، إنّ الإيمان بفنّ الحديد، الإيمان أقوى قوّة في العالم، املاوا قلوبكم الطاهرة بالإيمان تخلص الدنيا لكم. . .

فقال آخر:

- نحن مؤمنون، ولكننا أمة ضعيفة.

فكّر الشيخ قبضته وشدّ عليها وهو يتعب:

- إذا كنت تستشر ضعفاً فإيمانك يعتوره نقص وأنت لا تدري، الإيمان خالق القوّة وساعته، إنّ القنابل تصنعها أيدي كائدينا وهي ثمرة القوّة قبل أن تكون من مسبباتها، كيف انتصر النبيّ على أهل الجزيرة؟ وكيف قهر العرب العالم كلّهُ؟

فقال عبد المنعم بحماسة:

- الإيمان. . . الإيمان. . .

غير أن صوتاً رايماً تسأل:

- ولكن كيف كان للإنجليز هذه القوّة وهم قوم غير مؤمنين؟

فابتسم الشيخ متخللاً لحيته بأصابعه وهو يقول:

- لكلّ قويٍّ إيمانه، إنهم يؤمنون بالسوطن وبالصلحة، أمّا الإيمان بالله فهو فوق كلّ شيء، وأحرى بالمؤمنين بالله أن يكونوا أقوى من المؤمنين بالحياة الدنيا، فتحت أيدينا نحن المسلمين ذخيرة مدفونة يجب أن نستخرجها. يجب أن يُبعث الإسلام كما بُعث أوّل مرّة، نحن مسلمون اسماً فيجب أن

- نحن في بيتنا، في غرفتنا، هذه البسطة هي غرفتنا!

- العصر وأنا ذاهبة إلى خالتي نظرت إلى فوق لعلّي أراك في النافذة، فإذا بوالدتك تطلّ على الحارة فالتفت عيني بعينها فارتعدت من الخوف.

- ماذا خفت؟

- خيّل إليّ أنّها عرفت عمّن أبحث وأنها كشفت سرّي...

- تعنين سرّنا، إنّهُ شيء واحد يربطنا، ألسنا الآن شيئاً واحداً؟

وضمّتها إلى صدره بعنف في رغبة جامحة، وفي الوقت نفسه كأنها كان يحذّ هارباً من أصوات المعارضة الخافتة في أعماقه باستسلام يائس، فلفحته نيران متأجّجة، واحتوته قوّة قادرة على إذابة اثنين في دوامة واحدة...

ونذّ عن الصمت تنهيدة ثمّ تردّد أنفاس، وشعر أخيراً بأنّه هو وأختها هي وأنّ الظلام يضمّ شبحين. ثمّ جاءه همسها الرقيق يقول في استحياء:

- نتقابل غداً؟

فرّد في امتعاض حاول ما استطاع التسرّع عليه:

- نعم... نعم، نعم، ستعلمين في حينه...

- أخبرني الآن...

فقال والامتعاض يزداد ثقلاً على قلبه:

- لا أدري كيف يكون وقتي غداً!

- كم؟...

- انهيّ بالسلامة، سمعت صوتاً!

- كلاً، لا صوت هناك...

- لا ينبغي أن يجهنا أحد هكلاً...

وربّت كتنها كأنها تربّت غرقة ملوّثة، وتخلّص من ذراعيها في رقة مفتعلة ثمّ رقي في السّلم على عجل. كان والداه جالسين في الصالة يستمعان إلى الراديو، وكانت حجرة المكتب مغلقة الباب مضادة الشّراعة ممّا دلّ على أنّ أحمد يذاكر، فحياهما تحيّة المساء وقصد حجرة النوم ليخلع ملابسه. واستحمّ، وتوضّأ، وعاد إلى حجرته فصلّى، ثمّ تربّع على سجّادة الصلاة وراح في تأمل عميق. كانت عتاه ترونان بنظرة حزينة،

تزور الجيران، ولكن بعد خوض مغامرة خطيرة فوق بسطة السّلم المستكنّة في الظلام. ولتوّ وجد رأسه فارغاً، تبخّر ما كان يصطرع فيه من أفكار وتطلّير، وتركّز هو في رغبة واحدة هي أن يشبع النهم الذي بات يؤرّق أعصابه وأعضائه. أمّا ذلك الإيمان الصادق فيبدو أنّه ولّى غاضباً، أو غاص في الأعماق يلطم حائفاً ولكنّ صوته ضاع في أزيز النار المستعرة. اليس هي فتاته؟ بل، تشهد بذلك حنايا الخوص وبثر السّلم وركن السطح المطّل على السّكينة. وكانت بلا ريب ترقب عودته لتلتقي به في اللحظة المناسبة. كلّ هذا العناء من أجله هوا. ومضى متعجباً حلزاً حتّى وقف إزاءها على البسطة، لا يكاد يفصل بينهما شيء، وقد سطع أنفه شداً شعرها، ودغدغ عقه تردّد أنفاسها. ورّيت منكها برقة هامساً:

- نصعد إلى البسطة الثانية فنكون في موضع آمن من هذا.

تقدّمت دون أن تنبس فتبعها محاذراً. وبلغا البسطة الثانية فيها بين الدورين. فوفقت مستندة إلى الجدار ووقف بين يديها، ثمّ أحاطها بذراعيه فقاومته بحكم العادة مقدار ثانية ثمّ سكنت في حضنه...

- حبيبي...

- انتظرتك في النافذة، نينة مشغولة باستعدادات شمْ النسيم.

- كلّ سنة وأنت طيّبة، دعيني أشمّ النسيم بين شفتيك...

والثقت شفتاهما في قبلة طويلة جائحة. ثمّ تساءلت:

- أين كنت؟

ذكر في سرعة خاطفة درس السياسة في الإسلام، ولكنه أجاب:

- مع بعض الأصدقاء في القهوة...

قالت بلهجة تشي بالاحتجاج:

- القهوة ولم يبق على الامتحان إلّا شهر؟

- ولكنّي أعرف واجبي، سأقبلك قبلة ثانية جزاء سوء ظنك بي...

- صوتك عال، أنسيت أين نحن؟

ثم جلس بعد أن جلس الرجل وأذن له في الجلوس .
شعر بالارتياح والزهو وهو يرينو إلى الأستاذ الكبير الذي
تلقى عنه النور والعرفان في الأعوام الثلاثة الماضية ،
سواء عن مؤلفاته أم مجلته ، فراح يملأ عينيه من الوجه
الشاحب الذي وخط الشيب شعره وعلاه الكبر فلم
يبق له من أمارات الفتوة إلا عينان عميقتان تشعان
بريقاً نفاذاً . هذا استلذه ، أو أبوه الروحي كما يدعوه ،
وإنه الآن في حجرة الوحي التي لا جدران لها ولكن
رفوف الكتب تمتد عاليًا حتى السقف .

وقال الأستاذ بلهجة المسائل :

- أهلاً وسهلاً ؟

فقال أحد بلهجة :

.. جئت لأسند الاشتراك .

وكما أطمأن إلى الأمر الطيب الذي أحدثه قوله
استدرك قائلاً :

- وأسأل عن مصير مقالة أرسلتها إلى المجلة من
أسبوعين .

فابتسم الأستاذ عدلي كريم وهو يتساءل :

- اسم حضرتك ؟

- أحمد إبراهيم شوكت .

فارتسمت على جبين الأستاذ تقطية التذمر ثم قال :

- إني أذكرك ، أنت أول مشترك في مجلتي ، نعم ،
وجتني بثلاثة مشتركين ، هه ؟ إني أذكر اسم شوكت ،
وأظني أرسلت لك خطاب شكر باسم المجلة ؟

فقال أحمد بارتياح ممثلاً لهذا التذمر الجميل :

- جامي كتاب حضرتك ، اعتبرني فيه «صديق
المجلة الأول» ! .

- هذا حق ، إن مجلة الإنسان الجديد مجلة مبدأ ولا
بد لها من أصدقاء مؤمنين لتشرق طريقها في زحمة
مجلات الصور والاحتكار ، فانت صديق المجلة ، أهلاً
وسهلاً ، ولكنك لم تشرفنا بالزيارة من قبل ؟

- كلاً ، إني لم أجد البكالوريا إلا في هذا الشهر .

فضحك الأستاذ عدلي كريم قائلاً :

- أنت فاهم أن المجلة لا يزورها إلا الحاصل على
البكالوريا ؟

فابتسم أحمد في ارتباك وقال :

وكان صدره يضطرم شجناً ، وهتت نفسه إلى البكاء ،
ودعا ربه أن يطرد الشيطان عن سبيله وأن يشد أزره
في مقاومة الغواية . ذلك الشيطان الذي يعترضه في
صورة فتاة ويندفع في دمه رغبة جاعسة . ودائماً أبداً
يقول عقله لا يقول قلبه نعم ، ثم يتلقفه ذلك الصراع
المخيف الذي ينتهي بالفزيمة والندم . كل يوم تجربة
وكل تجربة جحيم فمق يتقي هذا العذاب ؟ ، إن
نضاله الروحي كله مهتد بالخراب وكأما يعني قصوراً
في الهواء ولن يقر قرار لغارق في العطين ، فليت الندم
يستطيع أن يرجع ساعة مضت .

١٣

أخيراً اهتدى أحمد إبراهيم شوكت إلى مبنى مجلة
والإنسان الجديد ، بغمرة . كان المبنى يقع في مكان
وسط بين عطفتي الترام ، وكان مكشوراً من حودين
وبلدوم ، فادرك لأول وهلة أن الدور الأعلى مسكن كما
استدل من النخيل المعلق في شرفته ، أما الدور الأول
فقد ثبت لافتة باسم المجلة على بابها ، وأما البldوم
فقد خصص للمطبعة التي رأى ألتها خلل قضبان
النواذ . وصعد درجات أريماً إلى الدور الأول ، ثم
سأل أول من التقى به - وكان حاملاً يحمل بروفلت -
عن الأستاذ عدلي كريم صاحب المجلة ، فإشار الرجل
إلى باب مغلق في نهاية صالة خالية من الأثاث حيث
ترامت لافتة رئيس التحرير ، فمضى وهو يتلفت فيها
حواليه حله يحد حاجباً ولكنه ألقى نفسه منفرداً بالباب
فتردد لحظة ثم طرق بركة حتى جاءه صوت من الداخل
يقول «ادخل» ففتح الباب ودخل ، فالتفت عيناه في
نهاية الصالة بصين واسعتين تحذقان به متساثلتين من
تحت حاجبين كثيفين أشبيين ، فرد الباب وراعه وقال
بصوت المعتدل :

- لا مؤاخذه ، دقيقة واحدة . . .

فقال الرجل بصوت رقيق :

- فضّل . . .

وتقدم أحمد من مكتب گدست فوقه الكتب
والأوراق ، ثم سلم على الأستاذ الذي قام لاستقباله ،

- كلا طبعاً، أعني أنّي كنت صغيراً.
فقال الأستاذ جازاً:
- لا يليق بقارئ الإنسان الجديد أن يحسب العمر بالسنين، في بلادنا شيوخ جاوزوا الستين ولكنهم ما زالوا شيئاً بعقولهم، وفيها شبّان في ربيع العمر ولكنهم معمرّون - منذ ألف سنة أو أكثر - بعقولهم، وهذا هو داء الشرق... (ثمّ بلهجة أرقي) وهل أرسلت إلينا مقالات من قبل؟
- ثلاث مقالات كان مصيرها الإهمال، ثمّ مقالة أُعيرة كنت أطمح في نشرها!
- عن ماذا؟، لا تؤاخذني فإنّي أتلقى عشرات المقالات يومياً؟
- عن رأي لوبون في التعليم وتعليقي عليه!
- على أيّ حال ستبحث عنها في السكروية - الحجرة المجاورة لحجرتي - وتعلم بمصيرها...
وهمّ أحمد بالقيام ولكنّ الأستاذ عدلي أشار إليه بالاستمرار في الجلوس وهو يقول:
- المجلّة اليوم في شبه إجازة، أرجو أن تمكث معي قليلاً لتتحدّث.
فتتمّم أحمد بارتياح عميق:
- بكلّ سرور يا فتيم.
- قلت إنّك أخذت البكالوريا هذا العام، كم سنّك؟
- سنّة عشر عاماً.
- سنّ مبكرة، حسن، هل المجلّة منشورة في المدارس الثانوية؟
- كلا للأسف...
- أعلم هذا، أكثرية قرائنا في الجامعة، القراءة في مصر ملهية رخيصة، ولن تتطوّر حتّى نؤمن بأنّ القراءة ضرورة حيوية.
ثمّ بعد قليل من الصمت:
- وما حال التلاميذ؟
فنظر إليه أحمد متسائلاً كأنّما يستريده تفسيراً لقوله، فقال الرجل:
- إنّني أسأل عن الناحية السياسية باعتبارها أوضح من غيرها...
- الأغلبية الساحقة من التلاميذ وفديّون...
- ولكنّ ثمة كلام عن حركات جديدة؟
- مصر الفتاة؟... لا وزن لها، فرقة تُعدّ على الأصابع، الأحزاب الأخرى لا أنصار لها إلّا أنصار زعمائها، وهناك قلّة لا يتمّ بشئون الأحزاب كافّة، وآخرون - وأنا منهم - تفضّل الوفد على غيره ولكننا نطمح فيها هو أكمل...
فقال الرجل بارتياح:
- هذا ما أسأل عنه، الوفد حزب الشعب، وهو خطوة تطوّريّة خطيرة وطبيعيّة في آن واحد، كان الحزب الوطني حزباً تركيّاً دينيّاً رجعيّاً، أمّا الوفد فهو مبلور القومويّة المصريّة ومطهرها من الشوائب والخلياث، إلى أنّه مدرسة الوطنيّة والديمقراطيّة، ولكنّ المسألة أنّ الوطن لا يقنع وما ينبغي له أن يقنع بهذه المدرسة، نريد مرحلة جديدة من التطوّر، نريد مدرسة اجتماعيّة، لأنّ الاستقلال ليس بالغاية الأخيرة، ولكنّه الوسيلة لنيل حقوق الشعب الدستوريّة والاقتصاديّة والإنسانيّة.
فهفّف أحمد بحماس:
- ما أجل هذا الكلام!
- ولكنّ ينبغي أن يكون الوفد نقطة البدء، أمّا مصر الفتاة فحركة فاشستيّة رجعيّة مجرّمة، ليست دون الرجعيّة الدينيّة خطراً وهي ليست إلّا صدى للعسكريّة الألمانيّة والإيطاليّة التي تعبد القوّة وتقوم على الاستبداد وتزوي بالقيم الإنسانيّة والكرامة البشريّة، إنّ الرجعيّة داء مستوطن في الشرق كالكوليرا والتيفود فينغي استئصاله...
فعاد أحمد يقول متحمّساً:
- إنّ جماعة «الإنسان الجديد» تؤمن بهذا كلّ الإيمان...
فهزّ الرجل رأسه الكبير في أسف وهو يقول:
- ولذلك فالمجلّة هدف للرجعيّين من كافّة النحل، إنهم يرمونني بإفساد الشباب!
- كما اتهموا سقراط من قبل...
فابتسم الأستاذ عدلي كريم في ارتياح وقال:
- وما وجهتك؟ أعني أيّ كلّية تقصد؟

- الآداب...

فاعتدل الأستاذ في جلسته، وقال:

- الآداب وسيلة من وسائل التحرير الكبرى، ولكنه قد يكون وسيلة للرجعية، فاعرف سبيلك، فمن الأزهري ودار العلوم خرجت آداب مَرَضِيَّة عملت أجيالاً على تجميد العقل وقتل الروح، ومهما يكن من أمر - ولا تدعش أن بصارك هذا الرأي رجل معلود في الآداب - فالعلم أساس الحياة الحديثة، ينبغي أن ندرس العلوم وأن نشيع بالمقاييس العملية، الجاهل بالعلم ليس من سكان القرن العشرين ولو كان عبقرياً، وعلى الآداب أن ينالوا حَقَّهم منه. لم يعد العلم وفقاً على العلماء، أجل هؤلاء التضرع والتعقُّق والبحث والكشف، ولكن على كل متقِّف أن يضيء نفسه بنوره وأن يعتنق مبادئه ومناهجه ويتحلَّى بأسلوبه، ينبغي أن يحلَّ العلم محلَّ الكهانة والدين في العالم القديم...

فقال أحمد مؤثماً على قول أستاذه:

- ولذلك كانت رسالة «الإنسان الجديد» هي تطوير المجتمع على أساس علمي...

فقال عدلي كريم باهتمام:

- أجل على كل منا أن يقوم بواجبه، ولو وُجد وحيداً في الميدان...

فهزَّ أحمد رأسه موافقاً فعاد الآخر يقول:

- ادرس الآداب كما تشاء، واعنْ بعقلك أكثر ما تعنى بالمحفوظات، ولا تنسَ العلم الحديث، ولا يجب أن نخلو مكتبتك - إلى جانب شكسبير وشوبنور - من كونت ودارون وفرويد وماركس وإنجلز، لتكون لك حاسة أهل الدين ولكن ينبغي أن تذكر أنَّ لكلِّ عصر أنبياءه، وأنَّ أنبياء هذا العصر هم العلماء.

وابتسم الأستاذ ابتسامة أوجحت بأنَّها تحيية الختام فنهض أحد ماداً يده، وسلَّم ثمَّ غادر الحجرة ممثلاً حياة وسعادة. وفي الصالة الخارجية ذكر الاشتراك والمثالة فيقال إلى الحجرة المجاورة، وطرق الباب مستأنفاً ثمَّ دخل. رأى حجرة بها ثلاثة مكاتب، اثنان خاليان، والثالث جلس عليه فتاة. لم يكن يتوقع هذا فوقف ينظر إليها في حيرة وتساؤل. كانت في

العشرين، عميقة السمرة، سوداء العينين والشعر، وكان في أنفها الدقيق وذقنها المدبَّب وفمها الرقيق ما يوجي بالقوة، دون أن يفسد ملامحتها. ساءلت وهي تتفحصه:

- أأنتم؟

فقال يهزُّ مركزه:

- الاشتراك...

ودفع المبلغ وأخذ الإيصال، وفي أثناء ذلك كان قد تغلَّب على ارتباكته فقال:

- كنت قد أرسلت مقالة إلى المجلة، وأخبرني الأستاذ عدلي كريم بأنَّها في السكرتارية.

وهنا دعت للجلوس على كرسيٍّ أمام المكتب فجلس ثمَّ سألت:

- عنوان المقالة من فضلك؟

قال دون أن يشعر بارتياح لوقفه هذا أمام فتاة:

- التعليم عند لوبون.

فتحت دوسيتها، وثَّرت أوراقاً حتى استخرجت المقال، ولىح أحمد خطه فحقق قلبه، وحاول أن يقرأ التوقيع الأحمر عليه من مجلسه غير أنَّها وقَّرت عليه عناء المحاولة إذ قالت:

- موقع عليه بما يأتي «يلخص ويُشرِّف في باب رسائل القراء».

فشعر أحمد بخيبة أمل، ولبت لحظات ينظر إليها دون أن ينبس، ثمَّ تساءل:

- في أيِّ عدد؟

- في العدد القادم.

فسأل بعد ترنُّد:

- ومن الذي يلخصه؟

- أنا.

وداخله شعور بالامتناع، ولكنه سأل:

- ويوقع عليه باسمي؟

فقالت ضاحكة:

- طبعاً، يُنشر عادة ما يفيد بأنَّه جاءتنا رسالة من الأديب (ثمَّ وهي تنظر إلى الإمضاء) أحمد إبراهيم شوكت ثمَّ نورد تلخيصاً وافيّاً لفكرتك! فتردُّ قليلاً ثمَّ قال:

أمه وهي تهمس قائلة:

- سوف يطلب يد نعيمة...

وكما شعرت بوجوده التفتت إليه قائلة:

- صديقك بالداخل، ما أطفه، أراد أن يقبل يدي
فمنعته!

ورأى والده متربعا على الكنبه وفؤاد جالسا على
مقعد قبائله، فتصالح الصديقان القديان وكما يقول:
- حمدًا لله على السلامة، أهلاً وسهلاً، ... أنت في

إجازة؟

فاجاب عنه السيد احمد باسماً:

- بل نُقل إلى نياحة القاهرة، نُقل أخيراً بعد غربة
طويلة في الصعيد...

فجلس كمال على الكنبه وهو يقول:

- مبارك، من الآن فصاعداً ترجو أن نراك من آن
لآخر.

فقال فؤاد:

- طبعاً، وسنقيم من أول الشهر القادم بالمباشرة،
استأجرنا شقة بجوار قسم الوايلي...

لم تتغير هيئة فؤاد كثيراً، ولكن صحته تحسنت
بدرجة محسوسة فامتلا عوده وتورد وجهه، أما عيشه
فلا زالتا تشعان ذلك الوميض الذكي. وسال السيد
احمد الشاب قائلاً:

- وكيف حال والدك؟ ... لم أره منذ أسبوع.

- ليست صحته على ما يرام، إنه لا يزال أسفاً على
ترك المحل، لكن المأمول أن يكون خليفته قائماً
بالتأجيل.

- الأمر يقتضي اليوم بقطة متواصلة، كان والدك
يقوم بكل شيء شفاء الله وعافاه...

واعندل فؤاد في جلسته ووضع رجلاً على رجل
فلقت هذه الحركة انتباه كمال فيما يشبه الانزعاج، أما
السيد فلم يبد عليه حتى أنه لاحظها. وهكذا تنظروا
الأمور؟ أجل إنه وكل نياحة قد الدنيا، ولكن أنسي من
يكون الشخص المترتب أمامه؟ ربه ليس هذا
فحسب، لقد أخرج حلبة سجاير وقدمها للسيد فاعتلر
شاكراً! حقاً إن النياحة تنهي، ولكن من المؤسف أن
يمتد نسيانها إلى ولي النعمة الذي يبدو أن فضله تبدد

- كنت أفضل لو نُشرت باكملها...

فقالت باسمه:

- المرأة القادمة إن شاء الله...

فجعل ينظر إليها صامتاً ثم سألها:

- حضرتك موثقة هنا؟

- كما تراه!

نازعه نفسه أن يسألها عن موثقاتها ولكن شجاعته
خذلته في اللحظة الأخيرة فسألها:

- اسم حضرتك من فضلك لأطلبك في التليفون

إذا لزم الأمر!

- موسين حماد.

- متشكر جداً.

ونفض عجباً إياها بيده، وقبل أن يغادر الحجره
التفت نحوها قائلاً:

- أرجو أن تلخصيها بعناية.

فقالت دون أن تنظر إليه:

- إني أعرف واجبي!

فغادر الغرفة نادماً على قوله...

١٤

كان كمال في حجره مكتبه عندما جاءت أم حنفي
لتقول له:

- سي فؤاد الحمزاوي عند سيدي الكبير...

ونفض كمال ببجلبابه الفضفاض وشادر الحجره
مسرعا إلى تحت. إذن عاد فؤاد إلى القاهرة بعد غيبة
عام، عاد وكيل نياحة قنا العتيذا. وكانت تميش
بصدره مشاعر صداقة ومودة بيد أن شوائب عدم
الارتياح شابتها، فصدافته لفؤاد كانت ولا تزال
تضطوي على نسوع من الصراع، صراع من الحب
والنفور، بين المودة والغيرة، ومهما يحاول أن يتسامى
بعقله فالغرائز تشده على رغمه إلى الأسف الدنيوي.
فلم يكن يشك وهو يبيت السلم في أنه هذه الزيارة
ستثير عنده ذكريات سعيدة ولكنها في الوقت نفسه
ستنكأ جروحاً كانت أن تندمل. وعندما مر في الصالة
بجسوس الفهوه المكون من الأم وعائشة ونعيمة سمع

السياسية، ولعلّه لم يتنبّئ، ولكنّه يبدو مائلًا إلى الوفد، أمّا أنا فظننا كنت مندفعًا مع العاطفة، ثمّ انقلبت لا أومن بشيء، والسياسة نفسها لم تسلم من شغبي النهم، ولكن قلبي لا يزال ينبض بالوطنية رغم عقلي، وعاد فؤاد يقول ضاحكًا:

- إنّ النيابية في عهود الانقلاب تنكمش إلى الوراء على حين يحتلّ البوليس المقدمة، إذ إنّ عهود الانقلاب عهود بوليسية، فإذا عاد الوفد إلى الحكم رُكّنت للنيابية مكانتها ولزم البوليس حدوده، ففي عهد الحكم الطبيعيّ يكون القانون هو الكلمة العليا. فملّق السيد على ذلك قائلًا:

- وهل يمكن أن ننسى عهد صدقي؟!، لقد كان الجنود يجمعون الأهالي بالعصيّ أيام الانتخابات، وكثير من الأعيان من أصدقائنا خربت ببسوتهم وأشهرروا إفلاسهم منّا لثباتهم على مبدأ الوفد، ثمّ إذا بنا نرى «الشيطن» ضمن هيئة المفاوضات في لباس الوطنيين الأحرار!

فقال فؤاد:

- كانت الظروف توجب الاتحاد، ولم يكن هذا الاتحاد ليكمل دون أن ينضمّ إليه الشيطان وأعداؤه، والعمرة بالحقواتيم.

ولبث فؤاد في حضرة السيد فترة غير يسيرة، احتسب في أثنائها القهوة، وجعل كمال يتفحصه بعناية فانتبه إلى بللته الحريرية البيضاء الأنيقة، والوردة الحمراء التي تزين عرونها، وإلى الشخصية القويّة التي أضفتها عليه الوظيفة، فشرع في أحاطه بأنّه سيصرّ - رغم كلّ شيء - إذا طلب هذا الشاب يد بنت أخته، غير أنّ فؤاد لم يطرق هذا الموضوع، وبدا عليه أنّه يرغب في الذهاب وما لبث أن قال للسيد:

- أن وقت ذهابك إلى الدكان، سأملك بقية الوقت مع كمال، وسوف أؤدّر حضرتك قبل سفري إلى الاسكندرية، حيث إنني قرّرت أن أقضي بقية أغسطس وبعض سبتمبر في المصيف.

ونبض قائمًا فصافح السيد مودعًا ثمّ غادر الحجرة يتقلّبه كمال، وصعدا ممّا إلى الدور الأعلى حيث استقرّا في حجرة المكتب، وجعل فؤاد يتصفح الكتب

في الهواء كدخان هذه السجاجة الفاخرة. ولم يكن في حركات فؤاد تكلم من أيّ نوع كان، كان سيّدًا قد تعود السيادة، وقال السيد خاطبًا كمال:

- وهنّهُ أيضًا فقد رُفّي من مساعد إلى وكيل نيابة. فقال كمال بأسًا:

- مبارك، مبارك، أرجو أن اهتلك قريبًا بكرسيّ القضاء.

فقال فؤاد:

- الخطوة التالية إن شاء الله.

ربّما استباح لنفسه - عندما يصير قاضيًا - أن يبول أمام الرجل المرتع أمهله! أمّا مدرّس ابتدائيّ فيظنّ مدرّسًا ابتدائيًا، وحسبه شاربه الغليظ وأطنان الثقافة التي عرّجت رأسه.

ونظر السيد أحمد إلى فؤاد باهتمام وهو يسأل:

- وكيف حال السياسة؟

فقال فؤاد بارتياح:

- وتُعتب المعجزة! وتُعت المصاحدة في لندن، أصغيت إلى الرايو وهو يعلن استقلال مصر وانقضاء عهد التحفّظات الأربعة فلم أصدّق أدنّي، من كان يصدّق هذا؟

- إذن أنت من الراضين على المعاهدة؟

فقال وهو يهزّ رأسه هرّة أصحاب الشأن:

- في الجملة نعم، للمصاحدة أعداء مخلصون وآخرون غير مخلصين، فإذا تأملنا الظروف التي تحيط بنا، وذكرنا أنّ شعبنا صبر على عهد صدقي رغم مرارته دون أن يثور عليه، فينبغي أن نعدّ المعاهدة خطوة موقّفة، أزالنا التحفّظات ومهلّدت الطريق لإلغاء الامتيازات الأجنبية، وحلّدت مدّة الاحتلال بعد قُصره على منطقة معيّنة، إنّها خطوة عظيمة بلا شكّ.

كان حامس السيد أحمد للمعاهدة أقوى وإحاطته بظروفها أقلّ، وكان يؤدّ أن يتجاوب الآخر معه محاولًا أشدّ، فلمّا خاب ظنه قال بعناد:

- على أيّ حال ينبغي أن نذكر أنّ الوفد قد أعاد إلى الأمة دستورها وسحقّ لها الاستقلال ولو بعد حين... وفكّر كمال: كان فؤاد دائمًا «باردًا» في الناحية

- المصروفة على الأرفف بأسفًا ثم تساهل :
 - ألا أستطيع أن أستعير منك كتابًا؟
 فقال كمال وهو يداري عدم ارتياحه:
 - بكلّ سرور، ماذا تقرأ عادة في أوقات فراغك؟
 - عندي دواوين شوقي وحافظ ومطران، وبعض كتب الجاحظ والمعري، وأحب بصفة خاصة «أدب الدنيا والدين»، إلى مؤلفات كتابنا المصارعين، هذا إلى بعض مؤلفات ديكنز وكونان دويل، ولكن انكياهي على القانون يلثمهم أكثر وقتي...
 ثم نهض فجعل جولة استعراضية بين الكتب قارئًا عناوينها ثم عاد وهو ينفخ قائلاً:
 - مكتبة فلسفية قحّة، لا ناقة في فيها ولا جمل، إني أقرأ جملة الفكر التي تكتب فيها، وأتابع مقالاتك التي تظهر تباعاً منذ سنوات، لا أزعج آتي قرائتها جميعاً، أو إني أذكر منها شيئاً، إن المقالة الفلسفية أثقل ما يقرأ، ووكيل النيابة رجل مرهق بالعمل، لماذا لا تكتب في الموضوعات الجذابة؟
 طاملاً سمع بأذنه نعي مجهوده، ولكنه لم يحزن لذلك كثيراً كأنما اعتاده، إن الشك يلثمهم فيها يلثمهم الحزن نفسه، والشهرة ما هي؟ والجاذبية ما هي؟. ولكن عما يسره حقاً ألا يجد فيه فؤاد تزجية لأوقات فراغه.
 وسأله:
 - ماذا تعني بالموضوعات الجذابة؟
 - الأدب مثلاً.
 - قرأت لطائف منه منذ كنتاً ممّا ولكتني لست أديباً...
 فضحك فؤاد قائلاً:
 - إذن إني في الفلسفة وحده، ألست فيلسوفاً؟
 ألست فيلسوفاً؟. عبارة مطبوعة في أعياقه، ارتجف من هول وقعها قلبه، هكذا هي مذ التيث عليه في شوارع السرايات من ثغر عايلة. ولكي يداري جيشة صدره ضحك ضحكة عالية، ثم ذكر الأيام التي كان فؤاد يتوقده ويتبعه كظلّه، ها هو الآن يطالع رجلاً خيطيراً جديراً بالتوقد والولاء! ماذا جنيت من حياتي؟. وكان فؤاد يتفحص شارب صاحبه ثم ضحك فجأة قائلاً:
 - ولوا...
 فتساهل كمال بعينه عن معنى هذا فعاد الآخر يقول:
 - كلانا يجري نحو الثلاثين دون أن يتزوّج، جيلنا مكتظّ بالعزّاب، جيل الأزمة، ألا زلت عند رأيك؟
 - لا أنزعج...
 - لا أدري لم أعتقد بأنك لن تتزوّج أبداً.
 - أنت بعيد النظر طول عمرك.
 فقال وهو يتبسم ابتسامة رقيقة كأنما ليعتذر بها سلفاً حقاً يسقول:
 - أنت رجل أنانيّ، تأي إلا أن تستأثر بكلّ حياتك لنفسك، يا أخي لقد تزوّج النبيّ ولم يمنعه ذلك من ممارسة حياته الروحية العظيمة...
 ثم مستدركاً وهو يضحك:
 - لا تؤاخذني على ضرب اللث بالنبيّ، كدت أنسى أنك... ولكن مهلاً، إنك لم تعد للملحد القديم، انت الآن تشكّ حتى في الإلحاد، وهذه خطوة كسب للإيمان...
 فقال كمال يهدو:
 - دعنا من التفلسف فإنك لا تحبه وخبرتي لم تمّ تزوّج أنت ما دام هذا هو رأيك في العزوبية؟
 وشعر لثوّه بأنّه ما كان ينبغي له أن يطرح هذا السؤال خشية أن يفسره الآخر بأنّه استدراج إلى الكلام في خطبة نعمة! ولكنّ فؤاد لم يبدُ عليه أنّه فكر في هذا، بل ضحك ضحكة عالية وإن لم تخرج به عن حدّ الوقار، وقال:
 - أنت تعلم أنّي لم أفسد إلا متاخراً، لم أفسد مثلك في زمن مبكر، فأنما لم أشبع بعد!
 - أنتزوّج إذا شئت؟
 فغضب فؤاد الهواء بظاهر يله كأنما يطرد الكذب وقال بلهجة المعترف:
 - ما دمت قد صبرت حتى اليوم فلا صبر فترة أخرى، أصبر حتى أرقى قاضياً مثلاً فيسعي أن أصاهر وزيراً إذا شئت...
 يا بن جيل الحمازوي! عروس من صلب وذير وحامتها من المبيضة! أتعلى لينت أن يتر هذا ولو كيا

يرد وجود الشر في الخليقة!.

- أنت تنظر إلى الزواج نظرة...

فقاطعه قبل أن يكمل كلامه ضاحكًا:

- غير من الذي لا يعبره نظرة على الإطلاق!...

- ولكن السعادة...

- لا تتفلسف! السعادة فنّ ذاتي، قد نجدها عند كرمية وزير بينا لا نجد إلا التماسه في وسطك، الزواج معاهدة كاذبة وقمها التماس بالأس، مساومة وتقدير ودهاء ويعد نظر وفوائد وخسائر، وفي بلدنا لا تأتي الرفعة إلا من هذا السيل، في الأسبوع الماضي عُيِّن مستشارًا رجل لم يبلغ الأربعين من عمره، وقد أخذم القضاء عمري مجتهدًا ناصبًا دون أن أظفر بهذا المركز السامي!

ومعلم ابتدائي ما قوله؟ في الدرجة السادسة

ينقضي عمره، ولو قطع بالفلسفة رأسه...

- إن مركزك يفتيك عن أمثال هذه المغامرات...

- لولا هذه المغامرات ما استطاع رئيس أن يؤلف وزارته!

فضحك كمال ضحكة لا طعم لها وقال:

- أنت في حاجة إلى شيء من الفلسفة، تحتاج إلى

جرعة من سينوزا...

- أشبع من أنت، لكن دعنا من هذا، وعبرني عن أماكن اللهو والشراب، في قنا كنت أختلس اللذة في حلبة، إن مركزنا يحمّ علينا الانزواء ومجانبة البشر، والصراع الأبدية بينا وبين البوليس يوجب الحذر أكثر، وكيل النيابة مركز خطير متعب...

عودة إلى الحديث الذي هدد مرارتي بالانفجار، حيائي في ضروك تأديب وتهليل وأشدّ امتحانًا لفلسفي الحائرة في هذه الحياة...

- تصور أن الظروف تجمعي بكثير من الأعيان، ثم يدعوني إلى سراياتهم، فأجد أن الواجب يقضي بأن أرفض دعوتهم كيلا يؤثر مؤثر في قيامي بواجبي، ولكن عقليتهم لا تفهم هذا، فاعيان الإقليم جميعًا يرموني بالكبر وأنا منه براء.

وبل أنت غرور وكبر وغيرة على الواجب مساء. وقال موافقًا:

- نعم...

- ولتفس الأسباب خسرت رجال البوليس، أنا لا أرى عن طريقهم المتتوية، لذلك أقف لهم بالمرصاد، ورائي القانون، ووراءهم همجية القرون الوسطى، إن الجميع يكرهوني ولكن الحق معي...

الحق معك، هذا ما أعرفه فيك من قديم، الذكاء والتزاهة، ولكنك لا تحب ولا يمكن أن تحب، أنت لا تملك بالحق لوجه الحق وحده ولكن لوجه الحق والغرور والكبرياء والشعور بالنقص، هكذا الإنسان، إنني أصطدم بأمشالك حق في الوظائف الحقيقية، الإنسان العذب القوي أسطورة، ولكن ما قيمة الحب؟ وما المثالية؟ وما أي شيء؟

وهكذا طال بهما الحديث، وعندما هم فؤاد بالذهاب مال على أذن كمال متسائلًا:

- أنا جليدي في القاهرة، طبعًا أنت تعرف بيتًا بل بيروتًا، مستورة طبعًا؟

فقال كمال بأسًا:

- إن المدرس كوكيل النيابة يتحرى السر دائمًا...

- عال. سنلتقي قريبًا، إنني مشغول الآن بترتيب الشقة الجديدة ولا بد أن نسهر كم مرة معًا!

- أتفقنا...

وغادرا الحجرة معًا فلم يتركة حتى أوصله إلى باب السكّة، وعندما مرّ بالدور الأول في أثناء عودته التقى بأمه واقفة تنتظره عند المدخل، فسألته بلهفة:

- ألم يكلمك؟

فأدرك ما تسأل عنه، وشعر لذلك بألم لم يشعر

بمثله، ولكنه تجاهل الأمر وتساءل بدوره:

- عن ماذا؟

- نجيمة!...

فأجاب عمتصًا:

- كلا...

- عجيبة!...

وتبادلا نظرة طويلة، ثم عادت أمينة تقول:

- ولكن الحمزاوي كلّم أبلك!

فقال كمال وهو يداري ما استطاع من ثورة حنقه:

- لعلّه لم يكن فيها قال نالبا من ابنه...

إليه بمقالاته الفلسفية، ثم مضت سنة أعوام ومها على تعاون صادق غير مأجور، والواقع أن جميع كتّاب المجلة كانوا من المتعاونين في سبيل الفلسفة والثقافة لوجه الله وحده... .

وكان عبد العزيز يرحّب بكافة الكتّاب المتطوِّعين حتّى المختصّين - مثله - في الفلسفة الإسلامية، ومع أنّه كان أزهرىّ النشأة إلّا أنّه سافر إلى فرنسا حيث قضى هنالك أربعة أعوام محضاً ومستمتعاً دون أن يحصل على درجة علميّة، وكان في غنى عن السعي للرزق بعقار يملكه يدرّ عليه شهريّاً خمسين جنيهاً ولكنّه أنشأ مجلّة «الفكر» في عام ١٩٢٣، وداير على إصدارها بالرغم من أنّها لم تكن تزيد دخله شيئاً يضاهي بعض ما يبلّله فيها من جهد. وما كاد يستقرّ المجلس بكّال حتّى دخل الحجرة رجل في مثل سنّه، يرتدي بذلة من التيل الرماديّ، طويل القامة، وإن كان دون كمال طولاً، نحيفاً، ولكنّه أكثر امتلاء منه، مستطيل الوجه، متوسط البنية، ممثّل الشفتين، ذو أنف دقيق وذقن مدبّب أضفى على سمته طابعاً خاصاً. تقدّم خفيّاً باسم الثغر فمدّ يده إلى الأستاذ عبد العزيز فصافحه هذا ثمّ قلّمه إلى كمال قائلاً:

- الأستاذ رياض قلّدت مترجم بوزارة المعارف، انضمّ حديثاً إلى جماعة كتّاب «الفكر»، وقد أمدّ مجلّتنا العلميّة بدم جديد بتلخيصه الشهريّ للمسرحيّات العالميّة وكتابة القصّة القصيرة.

ثمّ قدّم كمال قائلاً:

- الأستاذ كمال أحمد عبد الجواد، لعلك من قراء مقالاته! .

فتصافح الرجلان ورياض يقول بإعجاب:

- إنّي أقرأ مقالاته منذ سنوات، مقالات قيّمة بكلّ معنى الكلمة... .

فشكر كمال متلقياً ثناءه بحلر، ثمّ جلسا على كرسيّين متقابلين أمام مكتب الأستاذ عبد العزيز الذي مضى يقول:

- لا تنتظر يا أستاذ رياض أن يرّد عليك بالمثل قائلاً إنّه قرأ قصصك القيّمة، إنّه لا يقرأ قصصاً البتّة... .

فضحك رياض ضحكة جذّابة كشفت عن أسنان

فقال أمينة غاضبة:

- هذا عبث لا يليق... . ألا يدري من يكون هو ومن تكون هي؟ كان ينبغي أن يُفهّمه جدّك حقيقة مركزه.

- إنّ فؤاد بري، لعلّ والده أسرع دون تدبّر بحسن نيّة... .

- ولكن حدّث ابنه دون شكّ فهل رفض الآخر؟ ذلك الذي جعلناه موظّفاً محترماً بنقودنا... .

- لا داعي للكلام في هذا الموضوع... .

- إنّ هذا يا بنيّ أمر لا يتصوّر العقل، ألا يدري أن مصاهرته لا تشرّفنا!... .

- إذن لا تأسفي عليها... .

- لست آسفة ولكنّي غاضبة للإهانة... .

- لا إهانة هنالك، ليس إلّا سوء تفاهم... .

وعاد إلى حجرته حزناً خجلاً، وجعل يحدّث نفسه: نعيمة وردة جميلة، بيد أنّي رجل لم يبق لي من الفضائل إلّا حبّ الحقيقة فينبغي أن أسأل نفسي أهّي حقاً كفه لوكل نهاية؟ يستطيع رغم وضاعة أصله أن يشرك في حياته من هي أجل ثقافة وأعرّض عيّداً وأكثر مالاً وجمالاً أيضاً، لقد تسرّع أبوه الطيّب وليس هذا خطؤه، ولكنّه كان وقحاً في حديثه معي، وهو وقح بلا شكّ، إنّه رجل ذكّيّ نزّه كفه وقح منور، وما هذا بذنبه ولكنّ الذنب ذنب هذه الفوارق التي تخلّق فينا شقّ الأمراض.

كانت مجلّة «الفكر» تشغل الدور الأرضيّ بالمعارة رقم ٢١ بشوارع عبد العزيز، وكان حجرة صاحبها الأستاذ عبد العزيز الأسويطي تطلّ بنافذة ذات قضبان على عطفة بركات المظلمة فكانت تضاهي ليل نهار، والحقّ أنّه كلّما أقبل كمال على إدارة المجلّة ذكره موضعها الأرضيّ وورثته أنّها بمكانة «الفكر» في بلده، وبمكانته هو في مجتمعه. واستقبله الأستاذ عبد العزيز بابتسامة ترحيب وودّ، ولا عجب فقد اتّصلت بينهما أسباب المعرفة منذ عام ١٩٣٠ أي منذ بدأ كمال يبعث

نضيدة لامة فلجاء الشينين ثم قال:

- ألا تحبّ الأدب إذن؟ ما من فيلسوف إلّا وله فلسفة خاصة عن الجبال، وهي لا تتأقّ له إلّا بعد اطلاع واسع على شتى الفنون ومنها الأدب طبعمًا...

فقال كيال في شيء من الارتباك:

- لست أكره الأدب، طملاً أرغمت في جثّات شعره ونثره، ولكنّ أوقلت الراحة قليلة.

- معنى ذلك أنّك قرأت ما استطعت من القصص إذ إنّ الأدب الحديث يكاد يقتصر على القصّة والتعليق...

فعاد كيال يقول:

- قرأت عددًا ولبيرًا منها على مدى العمر، بيد أنّي...

وهنا قاطعه عبد العزيز الأسويطي قائلاً وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى:

- عليك يا أستاذ رياض من الآن فصاعدًا أن تقتنه بأفكارك الجسدية، وحسبك أن تعلم الآن أنّه فيلسوف، وأنّ ولعه مركزٌ في الفكر.

ثمّ التفت إلى كيال متسائلاً:

- جثّ بمقال الشهر؟

فأخرج كيال ظرفًا متوسّطًا وضعه في سكّون أمام الأستاذ الذي تناوله بدوره فاستخرج منه أوراق المقالة ثمّ تصفّح العنوان وهو يقول:

- عن برجسون؟... حسن!

فقال كيال:

- فكرة تقديم عاتمة تبيّن الدور الذي لعبته فلسفته في تاريخ الفكر الحديث، وربما ألحقتها بمقالات آخر تفصيلية...

وكان رياض قلّس يتابع الحديث باهتمام فتساءل وهو يمدج كيال بنظرة لطيفة:

- تتبعت مقالاتك منذ سنوات، منذ بدأت تكتب عن فلاسفة الإغريق، وهي مقالات متنوعة وأحيانًا تكون متناقضة بالقياس إلى ما تعرض من فلسفات، فأدركت أنّك مؤرّخ، بيد أنّي حاولت عبثًا أن اهتدي إلى موقفك أنت ممّا تكتب، وأيّ فلسفة تتعجب إليها...

فقال عبد العزيز الأسويطي:

- نحن حديث عهد بالدراسات الفلسفية فيجب أن نبدأ بالعرض العامّ، ولعلّ الأستاذ كيال يتمخّص فيها بعد عن فلسفة جديدة، ولعلّك تكون يا أستاذ رياض من دعاة الكلازم!

فضحكوا جميعًا، وخلع كيال نظارته وراح يجلو نظريتها، وكان سرعان ما يندمج في الحديث خاصة إذا أنس إلى محدّته، وبدا الجوّ صافيًا عذبًا، وقال كيال:

- إنّي سائح في متحف لا أملك فيه شيئًا، مؤرّخ فحسب، لا أدري أين أقف...

فقال رياض قلّس في اهتمام يزايد:

- أي في متفرق الطريق، وقفت في ميدانك هذا قبل أن أعرف وجهي، ولكنّي أرجح أنه موقف ذو قصّة، لأنّه عادة يكون نهاية مرحلة وبلده مرحلة جديدة، ألم تعرف ألوانًا من الإيمان قبل موقفك هذا؟ نعمة هذا الحديث تعيد إليه ذكرى أغنية قديمة عالقة جلودها بالقلب، هذا الشابّ ولهذا الحديث، خلعت سنين ناضبة من الصداقة الروحية حتّى اعتاد أن يحادث نفسه كلّما اقتفد من محدّته، ومنذ عهد بعيد لم يستطع أن يبعث هذا النشاط الروحيّ في صدره، لا إسماعيل لطيف ولا فؤاد الحمزاوي ولا عشرات المدرّسين، هل آن للمكان الذي خلا بذهاب حسين شدّاد أن يُشغل! وأعاد وضع النظارة على عينيه وابتسم قائلاً:

- لذلك قصّة طبعمًا، وكالعادة كان لي إيماني الدينيّ، ثمّ إيماني بالحقيقة...

- أذكر أنّك عرضت الفلسفة المادّية بحماس يدعو للريبة...

- كان حماسًا صادقًا ثمّ لم ألبث أن حرّكت رأسي مرتابًا...

- لملها الفلسفة العقلية؟

- ثمّ لم ألبث أن حرّكت رأسي مرتابًا، الفلسفات تصور جملة ولكنّها لا تصلح للسكّ...

فقال عبد العزيز بأسًا:

- وشهد شاهد من أهلها!

فهو كمال كتفيه استهانة، أما رياض فواصل تحقيقه قائلًا:

- هنالك العلم فلملّه نجا من شكك؟

- إنّه دنيا مغلفة حائلنا لا نعرف إلّا بعض نتائجها الغربية، ثمّ اكلمت على آراء نخبة من العلماء يربّون في مطابقة الحقيقة العلميّة للحقيقة الواقعيّة، وآخرين ينهون بقانون الاحتمال، وغيرهم عن تراجعوا عن ادّعاء الحقيقة المطلقة، فلم ألث أن حرّكت رأسي مرتبًا!

فابتسم رياض قلّلس دون أن ينس فعداء الآخر يقول:

- حتّى مغامرات الروحيّة الحديثة وتحضير الأرواح غرّبت فيها حتّى أذنيّ، ودار رأسي، وما زال يبدو في فضاء خفيف، ما الحقيقة؟ ما القيم؟ ما أيّ شيء؟، إنّي أحيانًا أشعر بتأنيب ضمير لفعل الخير كالذي أشعر به عند الوقوع في الشرّ!...

فضحك عبد العزيز ضحكة عالية، وقال:

- لقد انتقم الدين منك، هجرته جرّيًا وراء الحقائق العليا فعلت صفر الدين!

وقال رياض قلّلس، وكان يبدو في قوله جملاً لا أكثر:

- موقف الشكّ هذا للبدل! مشاهدة وتأمّل وحرّيّة مطلقة، وأخذ من كلّ شيء أخذ السائح
فقال عبد العزيز غاطبًا كمال:

- أنت أعزب في فكرك، كما أنت أعزب في حياتك! وانتبه كمال إلى هذه الملاحظة العابرة باهتمام، ترى أعزوبته نتيجة لفكره أم العكس هو الصحيح؟ أم إنّ الاثنين نتيجة لشيء ثالث؟ وقال رياض قلّلس:
- العزوبة حال مؤقتة، وربّما كان الشكّ كذلك!
فقال عبد العزيز:

- ولكنّه فيا يبدو لن يميل إلى الزواج أبدًا!...

فقال رياض متعجبًا:

- ما الذي يحول بين الشكّ والحبّ؟ وما الذي يمنع عبًا من الزواج؟، أمّا الإصرار على العزوبة فليس من الشكّ في شيء، الشكّ لا يعرف الإصرار! فتساءل كمال، وهو غير جاذّ في بابه:

- ألا يحتاج الحبّ إلى شيء من الإيمان؟
فقال رياض قلّلس ضاحكًا:

- كلّما، إنّ الحبّ كالزلازل الذي يربّج الجامع والكنيسة والمناخ على السواء ..

زلازل؟. ما أصدقه من تشبيه، زلازل يهدم كلّ شيء يفرقه في صمت الموت.

- وانت يا أستاذ قلّلس، لقد أطريت الشكّ، فهل أنت من أهله؟

فقال عبد العزيز ضاحكًا:

- إنّه ذلك نفسه!

وضمّوا بالضحك، ثمّ قال رياض وكأنّما كان يقدّم نفسه:

- لبت في فترة ثمّ مررت منه، لم أصد أشكّ في الدين لأنّي كفرت به، ولكنّي أؤمن بالعلم والفنّ، إلى الأبد إن شاء الله!

عبد العزيز متسلّلاً في تهكم:

- إن شاء الله الذي لا تؤمن به؟

فقال رياض قلّلس بأسًا:

- الدين ملك الناس، أمّا الله فلا يعلّم لنا به، منذ الذي يستطيع أن يقول لا أؤمن بالله، أو يقول أؤمن بالله؟. الأنبياء هم المؤمنون الحقيقيّون، وذلك أتهم رأوه أو سمعوه أو خاطبوا رسل وحيه!

فقال كمال:

- ولكنك تؤمن بالعلم والفنّ؟

- نعم!...

- الإيمان بالعلم له وجهاته، ولكن الفنّ... أنا أفضل أن أؤمن بالأرواح على أن أؤمن بالقصّة مثلاً!

فحدّجه رياض بنظرة عاتية، وقال بهدوء:

- العلم لغة العقول، والفنّ لغة الشخصيّة الإنسانيّة جميعًا!

- ما أشبه هذا الكلام بالشعر!

فتقبّل رياض تهكم كمال بإسماحة متساهلة، وقال:

- العلم يجمع البشر في نور أفكاره، والفنّ يجمعهم في عاطفة سامية إنسانيّة، وكلاهما يطرّور البشريّة ويدفعها إلى مستقبل أفضل!...

يا للغرور! يكتب قصّة من صفحتين كلّ شهر،

افترق الصديقان الجليدان عند العتبة، فعاد كمال
من الموسيقى والساعة تدور في الثامنة مساءً، يتنفس
جواً خافتاً شديد الحرارة، وتَهَلُّل عند عطفة الجوهرى
ثم مال إليها، ومرق من ثالث باب على يسار
الداخل، وورقي في الدرج حتى الدور الثاني، ثم دقَّ
الجرس، ففتحت الشراة عن وجه امرأة قد تجاوزت
الستين، حثَّته بابتسامة كشفت عن أسنان ذهبية،
وفتحت الباب فدخل صامتاً، أما المرأة فقالت ترتب
به:

- أهلاً بابن الحبيب، أهلاً بابن أخي...

وتبعها إلى صالة تتوسط حجرات، فيها كنبتان
متقابلتان بينهما سجادة قصيرة مزركشة وخوان
ونارجيلة، وشدا بخور في الأركان، كانت المرأة بدنية،
هشة من كبر، عاصية الرأس يمثليل منمنم بترقر،
مكحولة العينين تلوح فيها نظرة ثقيلة تشي بوطأة
الكيف، وفي تضاعيف وجعها آثار جمال دابر واستهتار
مقيم، تزيّمت على الكنب أمام النارجيلة، وأومات إليه
ليجلس إلى جانبها، فجلس وهو يسأل بأسياً:

- كيف حال الست جلييلة؟

فنهفت محتجة:

- قل عمتي...

- كيف حالك يا عمتي؟

- الحال معدن يا بن عبد الجواد، ... (ثم بصوت

مرتفع أجش)... بنت يا نظلة...

وبعد دقائق جاءت الخادم بكأسين مترعتين
ووضعتها على الخوان، فقالت جلييلة:

- اشرب، طامنا قلتها لايبك في الأيام الحلوة
الماضية...

فتناول كمال الكأس، وهو يقول ضاحكاً:

- من المؤسف حقاً أنني جئت بعد فوات الأوان!

وهي تلكمه لكمة وموسوت لها الأساور الذهبية التي
تفلكي ساعديا:

- يا عيب الشوم، أكنت تريد أن تعبت فساداً حيث

سجد أبوك؟

ويظن أنه يطور البشرية، وأنا لست دونه سباحة،
فلأنني ألخص فضلاً من كتاب تاريخ الفلسفة لفدنج،
أطالب في أعالي بالسواة على الأكل بفؤاد جيل
الحمزوي وكيل نيابة الدرب الأحمر، ولكن كيف تطلق
الحياة دون ذلك؟ مجاين نحن أم عقلاء أو مجرد أحياء؟
أف من كل شيء!

- وما قولك في العلماء الذين لا يشاركونك في
حماستك للعلم؟

- لا ينبغي أن تفسر تواضع العلم بالعجز أو
اليأس، العلم سحر البشرية ونورها وموشدها
ومعجزاتها، وهو دين المستقبل...

- والقصة؟

بدا رياض لأول مرة وهو يداري استياءه، فاستدرك
الأخر كالمعتد:

- أعني القرن عمومًا؟

فقال رياض قلنس متسلاً في حماسة:

- أستطيع أن تعيش في وحدة مطلقة لا بد من
النجوى، من العزلة، من المسرة، من الهداية، من
النور، من الرحلة في أنحاء المعمورة والنفس لهذا هو
القرن...

وهنا قال الأستاذ عبد العزيز:

- خطر لي خاطر... أن نجتمع نحن وبعض
الزملاء مرة كل شهر للمحديث في شق الفكر، على أن
ينشر حديثنا بعنوان ومحاورة شهر كذا...

فقال رياض قلنس وهو يرمق كمال بنظرة وقية:

- إن حديثنا لن ينقطع، أو هذا ما أوقه، أتعذّر
أنفسنا أصدقاء؟

فقال كمال بحاسة صادقة:

- بكل تأكيد، يجب أن نتقابل في كل فرصة...

شمل كمال إحساساً بالسعادة لهذه والصدافة
الجديدة، كان يشعر بأن جانباً سامياً من قلبه استيقظ
بعد سبات عميق، فالتفت أكثر من قبل بخطورة الدور
الذي تلعبه الصدافة في حياته، وبأنها عنصر حيوي لا
غنى له عنه، أو يظل كالظلمن المحترق في صحراء...

«كلما جئت بي الحيرة، إنَّ الحيرة تدفعني إليك قبل الشهوة».

- كلما ماذا يا سيد نينة؟

- كلما فرغت من العمل...

- قل غير هذا الكلام. أنت من زمانكم آف، كانت فلوسنا من الذهب وقلوسكم من الحديد والنحاس، وطينا كان من لحم ودم وطريكم راديو، وكان رجالنا من صلب آدم ورجالكم من صلب حواء، عندك كلام يا خوجة البنات؟

وأخلفت من النارجيلة نفساً ثم غُت:

يا خوجة البنات علمهم ضرب الآلات ونغمهم فضحك كيال، ومال نحوها فقبل خلعها قبله جمعت بين المودة والمداعة، فهتفت:

- شاريك كالشوك، كان الله في عون عطية!

- إنها تحب الأشواك...

- بهذه المناسبة كان عندي بالأمس ضابط النقلة على سنٍ ورمح، ولا فخر، كافة زبائني من سادة القوم، أم تظن أنك تتصدق عليّ بزيارتك؟
- يا ستّ جليلة، إنك جليلة...

- أحبك إذا سكوت، فإن السكر يذهب عنك وقار الخوجة ويرتك إلى شيء من أبيك، لكن خبّرني ألا تحب عطية؟... إنها تحبك!

هذه القلوب التي حجرتها فظافتها الحياة كيف تحب؟ ولكن ماذا كان نصيبه من القلوب التي تجود بالحُب وتستطيعه؟ فإما أن تحبه بنت صاحب المظلي فيعرض عن حبها، وإما أن يحب عابدة فتعرض عن حبه، فقاموس حياته لم يعرف للحب من معنى سوى الألم، ذلك الألم المحبب الذي يحرق النفس حتى تبصر على ضوء نيرانه المقدسة عجائب من أسرار الحياة، ثم لا تخلف وراءها إلا حطاماً، قال يملأ على قولها متعجباً:

- أحبتك العافية...

- لم تعمل في المقلد إلا منذ طلاقها!

- الحمد لله الذي لا يحمّد على مكروهه سواء!...

- الحمد لله في جميع الأحوال.

وابتسم ابتسامة ذات معنى، فأدركت معناها وقالت:

كلمتجة:

ثم مستدركة:

- ولكن أين أنت من إبيك؟ كان متزوجاً للمرة الثانية حين عرفته، تزوج مبكراً على عادة أهل زمان، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يرافقني زمناً كان أحل الحياة، ثم رافق زبيدة ربنا يأخذ بيدها، ثم عشرات غيرنا ساعه الله، أما أنت فلا تزال أعزب، ولا تزور بيتي مع ذلك إلا كل ليلة جمعة، يا عيب الشوم، أين الرجولة أين؟

أبوه الذي عرفه عن لسانها غير أبيه الذي عرفه بنفسه، بل غير أبيه الذي حدّثه عنه يامين، رجل الغريزة، والحياة العارمة، لم تشغل هموم الفكر قلبه فأين هو منه؟ حتى ليلة الجمعة التي يزور فيها هذا البيت لا يصفو له «الحب» فيها إلا بالحمر، فلولا السكر لبدا له الجرح متجهماً باعثاً على الانزمام، وأول ليلة رمت به المقادير إلى هذا البيت ليلة لا تنسى، رأى المرأة لأول مرة فدته إلى مجالستها ريثما تفرغ له لقطة، وكما جرّه الحديث إلى ذكر اسمه بالكامل هتفت المرأة: آنت ابن السيد أحمد عبد الجواد التاجر بالنحاسين؟ نعم أتعرفون أبي؟ يا ألف أهلاً وسهلاً... أتعرفون أبي!... أعرفه أكثر مما تعرفه أنت... مازج عرقه عرقي... وزفت له أحتك... كنت في أيامي كاتم كلثوم في أيامك الكالحة... سل عني طوب الأرض، تشرفنا يا سقي، اختر من بناتي من تعجبك وليس بين الخفين حساب، فكذا فسق أول مرة في هذا البيت على حساب والده. وجعلت تنظر إلى وجهه طويلاً حتى انقبض قلبه، ولولا الأدب لأعلنت دهشتها، إذ أين هذا الرأس الغرب وذاك الأنف العجيب من الوجه البديع الموزد؟ ثم طال الحديث كل مطال، ففرغ عنها تاريخ أبيه السري، ميزاته وجلالات أعماله ومغامراته وخفي صفاته، «وأنا من شدة الحيرة متردد أبداً بين وهج الغريزة ونسمة التصوف».

فقال كيال يمينها:

- لا تبالغي يا عمتي، أنا مدرّس والمدرّس يحب الستر، ولا تنسي أنّي في العطلة أزورك كل أسبوع مرّات لا مرة، ألم أكن عندك أول أمس؟ إنّي أزورك كلما...

- استسكن عليّ أن أنوء بحمد الله؟ آه منك يا بن عبد الجواد، اسمع لا ابن لي ولا بنت، وقد شيعت من الدنيا، وعند الله العفو.

من صجب أن حديث المرأة تتروّد فيه كثيرًا هذه النعمة الموحية بالزهدا. وجعل يحتلّس إليها النظر وهو يتجرّع بقية كأسه. وكانت الحمر تأخذ في نفث سحرها معه من أول كأس. ووجد نفسه يتدبّر عهدًا مضى أيام كان للكأس فرحة سبّابة، ما أكثر الأفراح التي ولّت، في البلد كانت الشهوة ثورة وانتصارًا، ثم انقلبت مع الزمن فلسفة هراء، ثم أخذ نشواتها الزمن والعادة، ولم تخل في أحايين كثيرة من عذاب التردّد بين السياه والأرض، ذلك قبل أن يسري الشكّ بين الأرض والسياه.

ودقّ الجرس. ودخلت عطية، بضياء لدنة ممتلئة، لحداثها أطيح ولصمكتها زنين، فقبلت يد المعلمة، ثم ألقت نظرة باسمه على الكاسين الفارغتين وهي تقول مداعبة كمال:

- ختني!

ومالت على أذن المعلمة فهمست قليلًا، ثم رمقت كمال بنظرة ضاحكة، وسارت إلى الحجرة إلى يمين مجلس المعلمة، فلكرته جليلة قائلة:

- قم يا نور العين...

تناول طربوشه ومضى إلى الحجرة، ولم تلبث نظرة أن لحقت به حاملة صبيّة عليها زجاجة وكاسان ومزّة خفيفة، فقالت لها عطية:

- هاتي لنا رطلين من العجاني، أنا جوعانة!

خلع الجساسة ومدّ ساقيه لي ارتياح، ثم جلس يراقبها وهي تخلع حذاءها وفستانها، ثم وهي تسوي قميصها أمام المرأة وتسرح شعرها. الجسم الذي يحبه، الأبيض اللدن المتلّ، ترى كيف كان جسم عايلة؟ كثيرًا ما تبدل للذكرته وكأنما لم يكن لها جسم، وحتى ما يذكره من نحافتها وسمرتها ورشاقته فلمّا تستقرّ في روحه كالماني المجردة، أمّا ما يلتصق عادة بالذاكرة من عحاسن الأجساد كالصنوبر والسيفان والأرداف فلا يذكر البتّة أن حواسّه أجهت إلى شيء منها، واليوم لو عرضت له حسناء كلّ ميزاتها الرشاقة والسمرّة

والنحافة ما ارتضى أن يتاعها بريال، فكيف كان هذا الحبّ؟ وكيف ظلّت ذكره مصونة بالاجلال والتقدير رغم ازدياده لكلّ شيء؟!

- الدنيا حرّ، أفت...

- إذا لطستنا الحمر استوى لدينا الحرّ والبرد...

- لا تأكلني بعينيك، وارفع نظارتك.

مطلقة ذات بنين، تغطّي كابنها المعتمعة بالعريضة، وتقتصر الليالي النعمة أنوثتها وإنسانيتها دون مبالاة، يختلط في أنفاسها الوجد الكاذب بالمتى، وهي للاستعباد شرّ صورة، لذلك كانت الحمر نجاة من العذاب كما هي نجاة من الفكر!

وارتمت إلى جانبها ومدّت يدها البضة إلى الزجاجة وأخذت تملأ الكاسين، هذه الزجاجة تباع في هذا البيت بضعف ثمنها، كلّ شيء هنا غال إلا المرأة، إلا الإنسان، ولولا الحمر ما أمكن ذلك المجلس، كي يغيب عن عين البشرية المحمّلة في اشتزاز، غير أن حياتنا لا تخلو من موضوعات من نوع آخر، منهم وزراء وكتاب!

ويحلول الكأس الثانية في جوفه لاحت بشائر النسيان والمسرّة. وهذه المرأة أشتهها منذ زمن وحتى متى لا أدري، الشهوة سلطان مستبدّ أمّا الحبّ فشيء آخر، وكمن يبدو في لباس عجيب إذا برئ من الشهوة، وإذا أتبع في يومًا أن أجدهما في كائن بشريّ عرفت الاستقرار المنشود، ولذلك فلن تزول الحياة تبدو لي عناصر يعوزها الانسجام، أنا أنشد «الزواج» في الحياتين العائمة والخاصّة، لا أدري أيّهما أصل الأخرى، ولكنّي متأكد أنّي تمس رغم سلوكي في الحياة الذي صوّن لي حظي من مسرات الفكر ولذات الجسد، كالقطار الذي ينطلق في قوّة ولكنّه لا يدري من أين ولا إلى أين. والشهوة حسنة طاعية سرعان ما يصرعها القرف، ويصف القلب ناشدًا في يأس الهم السعادة السردية، عينا، لذلك فالشكوى لا تنقطع، والحياة خدعة كبرى، وينبغي أن نجاوب مع حكمتها الخفية كي نتقبّل هذه الخداع راغبين، فنكون كالمثل الذي يعمي دوره الكاذب على المسرح، ولكنّه رغم ذلك يبعد فته.

- مساء الخير...
فجاء الصوت الرقيق يقول:
- مساء الخير، أشكرك لأنك سمعت نصيحتي
ولبست معطفك...
فغلبه التأثر لرقعتها، ذابت في حلقه كلمة أو شك أن
يجيبها بها، ثم قال مدارياً ارتباكاً:
- خشيت أن تطر الساء...
فرفعت رأسها إلى أهل كأنها تنظر إلى الساء،
وقالت:
- ستمطر عاجلاً أو آجلاً، ليس في الساء نجم،
وقد ميزتك بصعوبة عندما دخلت الحارة.
فاستجمع قواه المتلاطمة، وقال فيها يشبه التحذير:
- الجو بارد، وجو السلم خاصة شديد الرطوبة!
فقال الصغيرة بصراحة تعلمت على يديه:
- لا أشعر بالبرد في قريك!...
فلفحت وجهه حرارة نبعثة من الداخل، ونمّ حاله
على أنه سيمادو الخطأ على رغبته، وجعل يستعدي
إرادته ليتغلب على الرغبة السارية في بدنه، فسألته:
- ما لك لا تتكلم؟
وأحسن بيدها على منكبه تضغطه برقة، فما تلك أن
طوّفها بلذاعة، وقبّلها قبله طويلة، ثم أمطرها قبلات
حتى سمع صوتها الرقيق يقول لامها:
- لا أطيعك أبعد عنك...
فواصل عناقه متداوياً في حضنها، وهي تمس في
أذنه:
- أتمنى لو أبقي هكذا إلى الأبد...
فشدّ عليها الرثاق قائلاً بصوت متهدج:
- يا للأسف!
فتباعد رأسها في الظلام قليلاً، وهي تتسائل:
- علام تأسف يا حبيبي؟
فقال بعد تردد:
- على الخطأ الذي ترتدي فيه...
- أيّ خطأ بالله؟
تخلّص منها برقة، وراح يخلع معطفه، فطواه، ثم
همّ بأن يضعه على الدرازين، ولكنه عدل عن فكرته
في اللحظة الأخيرة - لحظة هائلة - فتناه على ذراعه ثم

وتجرّع كأسه الثالثة دفعة واحدة حتى أغرقت عطية
في الضحك، وهي تحب السكر من صميم قلبها ولكنها
يفعل بها الأفاعيل، فإذا لم يوقفها عند حدّها علا
صوتها فتشجّت ثم بكت وتقايلت. ولعبت الأحمر
برأسه فاهزّ طرباً، ومذّ إليها بصره فانيسطت
أساريه. هي الآن امرأة فحسب لا مشكلة، وكأنه لم
تعد ثمة مشكلة في الوجود، الوجود نفسه - أثقل
مشكلة في الحياة - لم يعد مشكلة، ولكن اشرب واغرق
في القُبَل...
- ما أطفك إذا ضحكت بلا سبب!
- إذا ضحكت بلا سبب فاعلمي أنّ الأسباب أجّل
من أن تُذكر...

١٧

عاد عبد المنعم إلى السكرة ملطاً في معطفه، يحبك
من أن لاخر طاقته ليتقي بها برد الشتاء القارس،
وكان الظلام شاملاً رغم أنّ الساعة لم تجاوز السادسة
مساء، وما كاد يبلغ مدخل السلم حتى فتح باب الدور
الأول وتسلسل الشبح اللطيف الذي كان ينتظر. وخفق
قلبه وجعل يحمق في الظلام بميتين متقدتين، وتابع
شبحها وهو يرقى في السلم في حطة وحذر أن يحدث
صوتاً، فوجد نفسه موزعاً بين رغبة تغويه بالاستسلام
 وإرادة تحمّسه على السيطرة على أعصابه التي تلوح
بالخيانة والاهيار. وذكر - الآن فقط - أنها واعدته
الليلة من قبل، وقد كان يوسعه أن يقمّ موعد عودته
أو يؤخره فيتجنّب هذا اللقاء، ولكنه نسي ذلك كله،
لشدّ ما ينسى. ولم يكن ثمة وقت للتدبّر والتذكّر،
فليترك هذا إلى حينه، عندما يخلو إلى نفسه في
حجرته، إلى تلك اللحظة التي ستشهده. منتصراً
ظافراً أو منهزماً مغلولاً على أمره، وارتقى السلم في
أعقابها دون أن يزمع على أمر، ملقياً بنفسه في خضمّ
الامتحان، ولم يكن شيء لينسيه آلام صراعه الأبدى.
وفوق البسطة تحيل إليه أنّ شبحها يضمخ حتى ملا
عليه المكان والزمان. وقال وهو يخفي قلقه ويضمر
الصمود مهما كلّفه الأمر:

درسًا لك، احلري الظلام قد تكون فيه نهايتك، أنت صغيرة، فمن أين لك هذه الجرة؟ ١٩.

تردد في الظلام انتحابها، ولكنه لم يرق قلبه، كان متشئيا بلذة نصر قاسية:

- جي كل كلمة، ولا تغضي، وادكري أنني لو كنت نذلًا ما ارتضيت أن أتركك قبل أن أقضي عليك، أستودعك الله...

ورقي في السلم وثبًا، انتهى من العذاب، وإن يكون طعمة لأنياب الندم، ولكن ليذكر قول أستاذة الشيخ عليّ المنوفي: إن مغالبة الشيطان لن تكون بتجاهل سنن الطبيعة. أجل ليذكر هذا، وخلع ملابسه على عجل وارثدى الجلباب، ثم قال لأخيه أحمد وهو يغادر الحجرة:

- أريد أن أدخل قليلاً إلى والدي في حجرة المكتب، فانتظر قليلاً من فضلك...

وفي طريقه إلى الحجرة رجا والده أن يتبعه، فرفعت خديجة رأسها إليه متسائلة:

- خير؟...

- سأحدث أبي أولاً، ثم يأتي دورك...

وتبعه إبراهيم شوكت صامتًا، كان الرجل قد ركب طاقم أسنانه الجديد، وعادته طمأنينته الحاملة بعد أن واجه الحياة بلا أسنان ستة أشهر كاملة. وجلسا جنبًا إلى جنب والاب يقول:

- خير إن شاء الله!

فقال عبد المنعم دون تردد أو تمهيد:

- أريد يا أبي أن أتزوج!

فحمل الرجل في وجهه، ثم فُكَبَ بأسًا كأنه لم يفهم شيئًا، وهز رأسه في حيرة ثم قال:

- الزواج؟ كل شيء رهن بوقت، لماذا تحدّثني عن ذلك الآن؟

- أريد أن أتزوج الآن...

- الآن؟!، ما زلت في الثامنة عشرة من عمرك، ألا تنتظر حتى تأخذ شهادتك؟

- لا أستطيع...

وهنا فُتِحَ الباب ودخلت خديجة، وهي تتسائل:

- ماذا يدور وراء ذلك الباب؟ هل توجد أسرار

تراجع إلى وراء خطوة. كانت أنفاسه تضطرب ولكن عزيمة اعتزضت تيار استسلامه فقلبت كل شيء. وعادت يدها تتلمس السبيل إلى عنقه فامسك بها، وانتظر حتى هدأت أنفاسه، ثم قال بهدوء:

- هذا خطأ كبير...

- أيّ خطأ؟! لست أفهم شيئًا...

صغيرة لم تبلغ الرابعة عشرة من عمرها، أنت تعبت بها إشباعًا لرغبة لا ترحم، ولن يكون لهذا العيب من غاية، ليس إلا عيبًا تجلب به غضب الله ومقته.

- يجب أن تفهمي، أنتستطيع أن تعلمي ما نفعل؟

- نعلمه؟

- انظري كيف تستكرين!، ولكن لماذا لا نعلمه إن لم يكن عيبًا مزريًا؟

وشعر يدها بتصميده، فارتقت إلى أولى درجات السلم التالية، وكان معدشًا إلى أنه جاز منطقة الخطر بسلام:

- احترلي بأننا غخطنان، فلا ينبغي أن نصرّ على الخطأ...

- عجيب أن أسمع منك هذا الكلام...

- لا عجب، إن ضميري لم يعد يحتمل الخطيئة، إنها تملّيني وتفسد عليّ صلاحي.

وصامتة! أذيتها فليسامحي الله، يا للألم، ولكني لن أتراجع، احبب الله على أن الخطأ لم يدفعك إلى ما هو شرّ منه...

- يجب أن يكون ما حصل درسًا لنا فلا نعود إلى مثله، أنت صغيرة، وقد أخطأت، فلا تجري مرة أخرى وراء الخطأ.

وقالت في نبرات باكية:

- لم أخطئ... أنتوي هجري؟. ماذا تقصد؟

وكان قد تماثل قوّته فقال:

- عودي إلى بيتك، لا تفعلني شيئًا تسرين وجوب التسترّ عليه، لا تقابل أحدًا في الظلام...

فقال الصوت متهذبًا:

- أتهجرني؟. أنسيت كلامك عن حبنا؟

- كلام من لا عقل له، أنت غخطنة، ليكن هذا

- أبداً، صديقي، اختاري لي بنفسك...
 - وما الداعي إلى السرعة إذن؟ دعني أختار لك،
 أعطني مهلة، إنَّها مسألة عام أو عامين!
 فعلاً صوته وهو يقول:
 - أنا لا أهزل، دعيني فهو يفهمني خيراً منك!
 فسأله أبوه بهدوء:
 - ما وجه السرعة؟
 فقال عبد المنعم وهو يفضُّ بصره:
 - لا أستطيع البقاء دون زواج.
 فتساءلت خديجة:
 - وآلاف الشبان أمثالك كيف يستطيعون؟
 فقال الشاب غاطباً أباه:
 - لا أقبل أن أفعل ما يفعله الآخرون!
 فتفكر إبراهيم قليلاً، ثم قال حسناً للموقوف:
 - يكفي هذا الآن، وسنعود إلى الموضوع في فرصة
 أخرى...
 وهمت خديجة بالكلام ولكن زوجها منعها، وأدخلها
 من يدها فنادا الحجرية إلى مجلسهما في الصالة.
 وتحادث الزوجان معقّلين الأمر على جميع وجوهه، وبعد
 أخذ وردّ طويلين مال إبراهيم إلى تأييد طلب ابنه،
 وتولى بنضه إقناع زوجته، حتى سلّمت بالمليد، وهذا
 ذاك قال إبراهيم:
 - عندنا نعيمة بنت أخي، فلن نتمب لي البحث
 عن عروس...
 فقالت خديجة باستسلام:
 - أنا التي أتمتكت بالنزول عن نصيبك من ميراث
 المرحوم إكراماً لعائشة، فلا اعتراض لي على اختيار
 نعيمة زوجة لأخي، إنَّ سعادة عائشة تهمني جداً كما
 تعلم، ولكنني أخاف تفكيرها، وأحسب ألف حساب
 للشذوذ الذي طرأ عليها، ألم تلمح أمامها مرات عن
 رغبتنا في تزويج نعيمة من عبد المنعم؟ ومع ذلك خيّل
 إليّ أنّها كانت ترشّب بابن جيل الحمزاوي عندما قيل
 إنَّ والده طلب له يدها...
 - فلما تار يخ قديم، مضى عليه عام أو أكثر،
 والحمد لله أنّه لم يتمّ، فما كان يشرفني أن يأخذ بنت
 أخي شاب مثله معها تكن وظيفته، الأصل عندي كلّ

تحلّ لأبيك وتحرم عليّ؟
 ففقط عبد المنعم مترفّزاً، على حين راح إبراهيم
 يقول وهو لا يكاد يفقه معنى ما يقول:
 - عبد المنعم يريد أن يتزوَّج...
 فتخصّصته خديجة كأنها تخاف عليه الجنون،
 وهتفت:
 - يتزوَّج؟ ماذا أسمع؟ هل قرّرت أن تترك
 الجامعة؟
 فقال عبد المنعم بصوت قويّ غاضب:
 - قلت لي أريد أن أتزوَّج لا أن أهرب من
 المدرسة، سأواصل الدراسة متزوَّجاً، لهذا كلّ ما
 هنالك...
 فقالت خديجة وهي تردّد عينيها بينه وبين أبيه:
 - عبد المنعم أنت جاد حقاً؟
 فصاح:
 - كلّ الجِدِّ...
 فضربت المرأة كتفاً على كتف وقالت:
 - أصابتك عين، ماذا حصل لعقلك يا أبي؟
 فنبض عبد المنعم غاضباً وهو يقول:
 - ما الذي جاء بك؟ كنت أريد أن أختلي بأبي أولاً
 ولكنتك لا صبر لك، أصغيا لي، أريد أن أتزوَّج،
 أسامي سامان حتى أنتهي من دراستي، وأنت يا أبي
 تستطيع أن تعولي هذين العامين، لولا تأكّدي من
 هذا، ما عرضت طلبي...
 فجعلت خديجة تقول:
 - يا لطف الله! أكلوا عقله!
 - من هم الذين أكلوا عقلي؟
 - الله بهم أعلم... مهم لله، أنت أدري بهم،
 وسنرفهم عمّا قليل...
 فخطب الشاب أباه قائلاً:
 - لا تصغ ليها، لّي لا أدري حتى الساعة من التي
 ستكون من نصيبي، اختاروها بأنفسكم، أريد زوجة
 لائقة، أيّ زوجة!
 فسأته داهشة:
 - أتعني أنّه لا توجد واحدة بالذات هي السبب في
 هذه البلوى؟

شيء، نعمة عندنا على العين والراس...
فقالت خديجة وهي تتنهد:

- على العين والراس، ترى ماذا يقول أبي عن هذا اللعب إذا علم به؟!

فقال إبراهيم:

- سيرحب به دون شك، كل شيء يبدو كالخلم، ولكن لن أندم، فإني موقن بأن تجاهل رغبة عبد المنعم خطأ لا يُغتفر، ما دام في الإمكان تحقيقها...

١٨

لم يطرا على البيت القديم في بين القصرين أي تغيير يذكر، إلا أن الجيران بما فيهم حسنين الحلاق ودرويش الفزّال والفولي اللّبان وأبو سريع صاحب المغلي ويومي الشرباتي، كل أولئك قد علموا بطريقة أو بأخرى أنّ اليوم تزوّج حفيدة السيّد أحمد من ابن عمّها - وخالتها - عبد المنعم. حافظ السيّد أحمد على تقاليده القديمة لمضى اليوم كغيره من الأيام، فاقصر على دعوة الأهل، وغاية الأمر أن أعدت المنة لوليمة عشاء. وكان الوقت في مطلع الصيف، وقد اجتمعوا جميعاً في حجرة الاستقبال، السيّد أحمد عبد الجواد وأمنية وخديجة وإبراهيم وشوكت وعبد المنعم وأحمد ويسين وزّنية ورضوان وكريمة، ما عدا نعمة التي كانت تأخذ زيتها في الدور الأعلى بمعاونة عائشة.

ولمّل السيّد قد شعر بأن وجوده بينهم يلقي على الاجتماع العائلي ظلاً من الوقار الذي لا تستسيغه المناسبة السعيدة، فانتقل عقب الاستقبال بقليل إلى حجرته، حيث لبث ينتظر حضور المأذون. وكان السيّد قد صوّى تجارته وبيع الدكان مؤثراً الراحة لشيخوخته، لا لأنه بلغ الخامسة والسّتين فصب، ولكن لأنّ استفاء جيل الحمزاوي اضطرّه إلى بذل نشاط مضاعف لم يعد يحتمله، فصرّ إنهاء حياته العملية، قائماً بما تخلف له من تصفية دكانه وما أذخر من مال من قبل قدر أن يكفيه بقية العمر. وكان حدثاً هاماً في حياة الأسرة، جعل كمال يتساءل عن حقيقة الدور الذي كان يلعبه جيل الحمزاوي في حياته عامّة

وحياة أبيه خاصّة، ولبت السيّد في حجرته منفرداً، يتأمل أحداث اليوم في صمت، كأنما لا يصدّق حقاً أنّ العريس هو عبد المنعم حفيدة. ويوم فاتحه إبراهيم شوكت في الأمر عجب، واستنكر، كيف تسمح لابنك بأن يحدّثك بهذه الصراحة وأن يعلّي إرادته عليك، إنكم أباء خلقتُم لإنساد الأجيال، ولو في غير الظرف الذي يدرك دقته لقال لا، ولكن كانت هناك عائشة، فحيال تعاستها تخلّى عن عناده التقليديّ كله، ولم يطق - خاصّة بعد ما ثار حول صمت فؤاد الحمزاوي من تعليقات - أن يجيب لها رجاء، وإذا كان زواج نعمة يخلّف من لوعة قلبها فاهلاً به وسهلاً. هكذا دفعه الحرج إلى أن يقول نعم، وأن يسمح للصبيان أن يعلموا إرادتهم على الكبار وأن يتزوّجوا قبل أن يتجاوزوا مرحلة التلمذة.

ودعا عبد المنعم إلى مقابلته، وطلب إليه أن يتعدّد بإتمام دراسته، فتكلّم عبد المنعم كلاماً جليلاً مرغماً مستشهداً في أثناء ذلك بالقرآن والحديث، فترك في نفس جدّه أثراً متبينة من الإعجاب والسخرية، هكذا يتزوّج التلميذ اليوم على حين أنّ كمال لم يفكر في الزواج بعد، وهل حين رفض هو يوسا أن تعلّم خطبة المرحوم فهمي - مجرد إعلان خطبة - الذي مات قبل أن يجني ثمرة شبابه الغضّ، وهكذا يبدو أنّ العالم قد انقلب على رأسه، وأنّ دنيا عجيبة أخرى تسبّ، وأننا غرباء بين أهلينا، اليوم يتزوّج التلاميذ ولا ندري ماذا يصنعون غداً.

وفي حجرة الاستقبال كانت خديجة تقول من ضمن حديث طويل:

- لذلك أخطينا الدور الثاني من سگاته، وسيستقبل الليلة العروسين وهو على أحسن حال.

فقال لها ياسين بلهجة غادرة:

- عندك كافّة المواهب التي تجعل منك وحشاً لا نظير لها، ولكنك لن تستطعي استغلال مواهبك الفذة مع هذه العروس!

فادركت ما يرمي إليه، ولكنها تجاهلته قائلة:

- العروس ابنتي وابنة أخي...

وقالت زّنية تلطف من ترميض ياسين:

منذ تسع سنوات تحلّت بثوب جميل وعصفت شعرها. وكانت ترقب ابنتها التي تبلّت قبضة من نور بعينين حالمتين، فإذا غلبها الدمع أخفت عنها وجهها الشاحب الذابل، وقد لمحتها أمها مرة وهي تبكي، فنظرت إليها معاتبه وهي تقول:

- لا يصحّ أن تترك نعمة البيت وفي قلبها حزن!
فانتحبت عائشة قائلة:

- ألا ترينها وحيدة في هذا اليوم لا أب ولا أخ؟
فغالت أمانة:

- البركة في أمها، ربّنا يحلّيها لها، وهي ذاهبة إلى خالتها وعمّها، ولها بعد ذلك الله خالق الملك كله...
فجفّفت عائشة عينها وهي تقول:

- ذكريات الأصوات الأعزّاء تغمري من طلعة الصبح، ووجوههم تلوح لي، ثمّ إنني بعد ذهابها سأبقى وحيدة...
فغالت أمانة في عتاب:

- لست وحيدة...
وكانت نعمة تربّت خدّ أمها وتقول:
- كيف أستطيع أن أغيب عنك يا ماما؟
فتجيبها عائشة بحنان وهي تبسم:
- سيملكك بيت زوجك كيف تستطيعين!
فغالت نعمة بقلق:

- ستوريني كلّ يوم، كنت تتحاشين الاقتراب من السكربة، ولكن يجب أن تتخلّي عن هذه العادة منذ اليوم.

- طبّما، هل تشكين في ذلك؟
وإذا بكيال يقبل عليها قائلاً:
- استعدّا جاء المأذون...!

وعلفت عيناه بنعمة في إعجاب. يا للجمال، والرقّة، والشفافيّة، كيف يكون للحيوانيّة دور في هذا الكائن اللطيف؟!

وكما عرف أنّ الكتاب قد كُتب، تبدّلت الهاني، وإذا بزغرودة تقتحم على البيت وقاره وتلعلع في جوّ الصامت، فانجّمت الرووس في دهش إلى حيث وقفت أم حنفي في نهاية الصالة. وكما جاء وقت الزليمة وتوارد المدعوّون إلى المائدة، انقبض صدر عائشة وترنّج

- خديجة هانم سيّدة كاملة!

فشكرتها خديجة، وكانت تقابل تودّدها بالشكر والاحترام إكراماً لياسين. على الرغم من احتقارها الباطني لها، وكانت كريمة تتألّق في سبّها العاشرة بما جعل ياسين ينوّه بأنوثتها المنتظرة. أمّا عبد النعم فراح يحدّث جدّته أمانة المعجبة بتديّته، وكانت تقطع حديثه بالدهاء له. وسأل كمال أحمد عازحاً:

- وأنت تزوّج في العام المقبل؟
فقال أحمد ضاحكاً:

- إلّا إذا أتعت ستك يا خالي!
وكانت زُئوبة تتابع حديثها، فغالت موجّهة الخطاب إلى كمال:

- لو سمح لي سي كمال فلّني أعبد بأن أزوّجه في أيّام!

فقال لها ياسين وهو يشير إلى نفسه:
- إليّ مستعدّ لأن أسمعك لك عن نفسي!.
فغالت وهي تبرز رأسها تهكّماً:
- لقد تزوّجت بما فيه الكفاية، وانحدت نصيبك ونصيب أخيك...
وانتهت أمانة إلى موضوع الحديث، فغالت لزُئوبة:

- إذا زوّجت كمال، فسأحاول أن أزغرد لأوّل مرّة في حياتي!

وتخيّل كمال أمّه وهي تزغرد فضحك، ثمّ تخيّل نفسه في مجلس عبد النعم ينتظر المأذون فوجم. الزواج يهيج دوّامة في أعصابه كما يهيج الشفاء الربو عند المريض، وهو يرفضه عند كلّ مناسبة، لكنّه لا يستطيع أن يتجاهله، وهو خالي القلب ولكنّه يضيّق بخلوّه كما كان يضيّق قديماً بامتلائه، واليوم إذا أراد الزواج فليس أمامه إلّا الطريق التقليديّ الذي يبدأ بالمخاطبة، وينتهي بالأسرة والأطفال والاندماج في ميكانيزم الحياة، فلا يكاد يجد المولع بالتأمّل موضعاً للتأمّل، وسوف يرى الزواج دائئاً أبداً في مركز عجيب بين الحنين من ناحية والاشمئزاز من ناحية أخرى، أمّا في نهاية العمر فلن نجد إلّا الرحلة والكتابة...
السعيدة حقّاً في ذلك اليوم كانت عائشة، لأوّل مرّة

السكّرية، طوال الأعوام التسعة المنقضية لم تنادر البيت القديم إلّا لزيرة القرفة، فيها عدا زيارات معدودات لقصر الشوق حين وفاة ابني ياسين الصغيرين. وقفت قليلاً عند مدخل السكّرية تلقي على المكان نظرة شاملة، حتى غشى المنع ناظرها. على الأرض أمام مدخل البيت التي أشبعها أقدام عثمان ومحمد جرّياً ولعباً، والحوش الذي ازدان يوماً بحفل عرسها البهيج، والمنظرة التي كان يجلس فيها خليل يدخن غليونيه ويلعب الطاولة والدومينو، ذلك شدا الماضي المطر المشيع بالحنان والحُبّ المفقودين، وهي سعيدة، سعادة سارت مسير الأمثال، حتى قبل عنها الضاحكة المتركة التي لا شغل لها إلّا مضاحكة المرأة ومصاحبة الزينة، والزوج بناسج والأطفال يشون، تلك الأيام الماضية. وجلّفت عينها حتى لا تلقى العروس باكية. جفّفت عينين ما تزالان زرقاوين وإن تساقطت أهدابها وذبلت جفونها. ووجدت الشقة قد جُددت مرافقها وكُليت جدرانها فبدت ثغراً باسماً في جهاز العروس الذي أنفق عليه بسخاه. واستقبلتها نعيمة في فستان أبيض ههههه، وقد أرسلت شعرها الذهبي حتى مسّت أهدابه باطن الساقين، راقعة عذبة وضيفة ينبعث من أردانها عرف ساحر، فتعانقتا عنقاً طويلاً حارّاً، حتى قال عبد المنعم، وكان ينتظر دوره في السلام في روبر جنزاريّ شمل به جلبابه الحريري: - كفاية، أقلّ سلام يكفي هذا الفراق الوهمي! ثم عانق حالته، ومضى بها إلى مقعد ويتر فاجلسها وهو يقول:

- كنّا في سيرتك يا خالتي، فقد قرّ رأينا على أن ندهوك للإقامة هنا... ١٩
فابتسمت عائشة قائلة:

- أمّا هذا فلا، سأزورك كلّ يوم فتكون فرصة للفضحة، ما أحوجني إلى الحركة!
فقال عبد المنعم بصراخه المعهودة:

- نعوّمة قالت لي إنك لا تحتملين الكوث هنا خشية أن تطاردك الذكريات، إن الذكريات الحزينة لا تطارد المؤمن، وذلك أمر الله وقد مضى مند عهد بعيد، ونحن أولادك فقد عوّضك الله!

نفكيرها في الفراق الوشيك، فلم تنفتح نفسها للطعام، ثم جاءت أم حفي فابلغت أنّ الشيخ متوّل عبد الصمد جالس على الأرض في الحوش، وأنه طلب عشاءه خاصّة من اللحوم، فضحك السيّد وأمر بأن يُنْهَبَ له صينيّة وتُعمل إليه. وما لبث أن تراسى إليهم صوته صاعداً من الحوش وهو يدعو بطول العمر لحبيه وابن عبد الجواد ويتساءل في الوقت نفسه عن أسماء أبنائه وأحفاده ليدعو لهم، فقال السيّد باسماً:

- يا للخسارة!... نسي الشيخ متوّل أسماءكم، سامح الله الشيخوخة...
فقال إبراهيم شوكت:

- إنّه في المائة من عمره، أليس كذلك؟
فاجاب أحمد عبد الجواد بالإيجاب، وعند ذلك تعالى صوت الشيخ مرّة أخرى وهو يصيح:

- باسم الحسين الشهيد أكثروا من اللحم!

فضحك السيّد قائلاً:

- سرّ ولايته قاصر اليوم على اللحوم!

وحين ساعة الوداع سبق كمال إلى الحوش ليتجنّب ذلك المنظر، ومع أنّه لم يزد على انتقال يسير إلى السكّرية إلّا أنّه كان ذا وقع شديد كالصداق في قلبي الأمّ وابتسها. والواقع أنّ كمال كان ينظر إلى هذا الزواج بعين ملؤها الشكّ، بالنظر إلى جدارة نعيمة للحياة الزوجية. وفي الحوش رأى الشيخ متوّل عبد الصمد جالساً على الأرض تحت المصباح الكهربائيّ المثبت في جدار البيت ليضيء المكان، مهدداً ساقيه، مرتدياً جلباباً أبيض باهتاً وطاقيّة بيضاء، خالداً نعليه مستنداً إلى الجدار كأنّهم لم يريح جوفه ممّا اعتلا به من طعام، ورأى بين ساقيه ماء يسيل، فأدرك من النظرة الأولى أنّ الشيخ يبول وهو لا يشعر، وكانت أنفاسه ترتدّد فتسمع كالصفح. حذجه كمال بنظرة جمعت بين التفزّز والرثاء، ثم خطر له خاطر فابتسم على رغبه، وقال لنفسه:

- لعلّه كان طفلاً مدلّلاً عام ١٨٣٠ م.

رضوان وكريمة، تدارك نفسك بالتي هي أحسن .
وبسالة أحمد:

- بدأت العطلة المدرسية يا خالي؟
فأجاب كمال وهو ينزع طربوشه ويرنو إلى العروس الجميلة:

- لم تبق إلا فترة يسيرة للمراقبة والتصحيح في
الابتدائية!

وغابت نعيمة لتعود مرة أخرى بصبيته فضيئة حافلة
بشئ أنواع الحلوى، مختلفة الألوان والطعوم، فمضت
فترة لم يسمع خلالها إلا التمتنن والمصمصمة، ثم راح
إبراهيم يحكي ذكريات فرحه، الحفل، والمغني،
والعلة. وتابته عاتشة بوجه باسم قلب محزون،
وتابعه كمال بشغف إذ كان يعبد عليه صورا ما زال
يذكر بعضها ويود لو يعرف ما فاته منها. قال إبراهيم
ضاحكا:

- السيد أحمد كان كما هو اليوم أو أشد، ولكن أمي
رحمها الله قالت يحزم: ليعمل السيد ما يشاء في بيته،
أما عندنا فنحن نفرح كما نشاء، وقد كان. وجاء
السيد يوم الفرح ومعه أصحابه مساهم الله بالخير
جميعا، أذكر منهم السيد عماد فقت جد رضوان،
فجلسوا جميعا في المنتظرة بعيدا عن الزياط.
وقالت خديجة:

- أحييت الليلة جليلة أشهر علة في عصرها...
وابتسم قلب كمال، وذكر الدرونة العجوز التي ما
تزال تنوء بعهد أبيه...

وقال إبراهيم مسترئا النظر إلى عاتشة:
- وكان لنا علة خصوصية لبنتنا، ولكن صوتها كان
أجل من العلة المحترفة، كان يذكرنا بصوت منيرة
المهديّة في عزها!

فتورد وجه عاتشة، وقالت بهدوء:
- سكنت صوتها منذ عهد بعيد، حتى نسيت
الغناء...

فقال كمال:
- نعيمة تغني كذلك، ألم تسمعها؟
فقال إبراهيم:
- سمعت عنها ولكني لم أسمعها بعد، الحق أنا

هذا الشاب طيب صريح ولكنه لا يبالي أين يقع
كلامه من القلوب الجريحة.

- طبقا يا عبد المنعم، ولكني مرتاحة في بقي، هذا
الفضل...

وإذا بخديجة وإبراهيم وأحمد يدخلون،
فيفاصفون، ثم تقول خديجة لعاتشة:

- لو عرفت أنّ هذا الذي يعيدك إلى زيارتنا
لزوجتها قبل البلوغ!

فضحكت عاتشة، وقالت تذكّر خديجة بالماضي
البعيد:

- المطبخ واحد؟ أم تطالب العروس بالاستقلال
من حاتها؟

فضحكت خديجة وإبراهيم معا، وقالت خديجة
بلهجة لم تخل من معنى:

- العروس كأنها لا تمنى بالسفاسف!
وقال إبراهيم ليشر لابنته ما غرض من تلميح
عاتشة:

- بدأت المعارك بين أمي وأمي بسبب مشكلة
المطبخ الذي كانت أمي تستغل به، ومطالبة أمي
بالاستقلال المطبخي...

فقال العريس متعجبا:
- كنت تتعاركين يا نينة بسبب المطبخ!...
فقال أحمد ضاحكا:

- وهل من سبب للمعارك التي تدور بين الأمم إلا
هذا المطبخ!

فقال إبراهيم في تهكم:
- أمي قوية كإنجلترا، أما أمي فرحة الله
عليها...

وجاء كمال، كان يرتدي بذلة بيضاء أنيقة؛ أما
وجهه فيتكون من الطاقم المألوف المرتب من جبينه
البارز وأنفه العظيم وتظارته الذهبية وشاربه المربع
الغليظ، وكان يحمل بيده فقة كبيرة بشرت بهديّة

ممتازة، فقالت خديجة باسمه وهي تتفحص الهدية:

- حذار يا أخي، إذا لم تدارك نفسك بالزواج
تستغل نجي بالهدايا دون أن يرد لك الجميل، الأسرة
كلها اليوم مشوكة على الزواج، هذا أحد، وهناك

عرفناها شيخه لا علة! وبالأمر قلت لها: زوجك شيخ المؤمن، ولكن ينبغي أن تزجي الصلاة والعبادة إلى حين!

وضحكوا جميعاً، وقال أحمد غاطياً أخاه:

- لا ينقص عروسك إلا أن تضمها إلى شعبة الشيخ على المنوى معك.
فقال العريس:

- إن شيخنا أول من نصحبني بالزواج...

فقال أحمد غاطياً أخاه:

- لعل الإخوان يعتبرون الزواج مادة من دستورهم السياسي!

وانتفت إبراهيم إلى كمال قائلًا:

- أما أنت فكنت - أقصد أيام دخلتي - صغيراً، وكان شرك غزيراً لا كما هو اليوم، وكنت تتهمنا بسرقة أخيتك فلم تغفر لنا ذلك أبداً...

وكنت ميداناً خالياً لم تبدأ به الممارك بعد، يتحدثون عن سعادة الزواج، لو يعرفون ما يحدث به الأزواج الشاكرون! نعمة أعزّ على من أن يحملها مخلوق، أي شيء لا يتكشف عن خدعة في هذه الحياة!؟

فقالت خديجة معلقة على قول زوجها:

- كنا نظنّ ذلك حباً لنا، ولكن اتضح مع الأيام أنه ليس إلا عداوة للزواج نشأت معه منذ الصغر!

وضحك كمال كما ضحكوا جميعاً، إنه يحبّ خديجة، ويزيد من حبه علمه بحبها الشديد له، أما تعصب

العريس لشدة ما يزعجه، ولكنه من ناحية أخرى يحبّ أحمد ويعجب به، وهو نافر من الزواج ولكن يطيب له

أن تذكره خديجة في كل مناسبة، وكان قلبه شديد التأثر بجو الزواج المحيط به، فانتشى قلبه وحواسه،

ووجد حينئذٍ وإن يكن بلا هدف، ثم تساءل كأنها يتساءل لأول مرة: ماذا بمعنى من الزواج... حياة

الفكر كما كان يزعم قديماً!؟ إني أشك اليوم في الفكر والمفكر معاً، أهو الخوف، أم الانتقام، أم

الرغبة في الألم، أم ردّ الفعل الصادر من الحب القديم؟ في حياتي مسوِّغ لأيّ من هذه الأسباب!

وسأل إبراهيم شوكت كمال:

- أنتري لماذا أسف على عزوبتك؟

- نعم...؟

- إني اعتقد أنك زوج مثالي إذا تزوجت، فانت رجل بيت بطيخك، منظم، مستقيم، موثّق محترم، ولا شك أنه توجد فتاة في مكان ما من الأرض تستحقك، وانت مُضخّج عليها حظّها!

حقّ البغال أحياناً تنطق بالجحّم، فتاة في مكان ما من الأرض، ولكن أين؟ أما عن اتهامه بالاستقامة فما هو إلا كافر فاسق مسكر متافق، فتاة في مكان ما من الأرض، فلعله غير بيت جلييلة بعطفة الجوهري، وهذه الآلام التي تتطاحن في قلبه ما علتها؟. والحيرة التي لا مهرب منها إلا بالحلم والشهوات!، ويقولون

تزوج حتى تنجب فتخلد، وشدّ ما طمع إلى الخلود في شقّ اشكاله وألوانه، فهل يركن يائساً في النهاية إلى

هذه الوسيلة القسرية المبذلة؟ وثمة أمل أن يحيم الموت بلا ألم يشوّه راحته الأبدية، كم بدا الموت خيفاً

لا معنى له؛ ولكنه - بعد أن فقدت الحياة كلّ معانيها - يبدو اللذة الحقيقية في الحياة، ما أعجب العاكفين على

العلم في معاملهم، ما أعجب الزعماء الذين يلغون بأنفسهم بالمهالك في سبيل الدستور، أما الذين يدورون حول أنفسهم في حيرة وعذاب فالرحمة لهم!

وردّد بصره بين أحمد وعبد المنعم، في إعجاب مقرون بالنبهة، إن الجليل الجديد يشقّ سبيله المسير إلى

هدف بين دون شك أو حيرة، ترى ما سرّ دامي الويل؟!

قال أحمد:

- سادعو العروسين والوالديّ وخالتي إلى لوج في الريحاني الخميس القادم.

فساءلت خديجة:

- الريحاني؟

فقال لها إبراهيم مفسّراً:

- كشكش بك!

فضحكت خديجة وقالت:

- كاد ياسين يُطرد من بيتنا وهو عريس بسبب أخذه

أمّ رضوان ليلة إلى كشكش!

فقال أحمد باستهانة:

- كان زمان وجبر، جلّي الآن لا يجائع في ذهاب

- جمعية دينية تهدف إلى إحياء الإسلام علمًا وعملاً،
 ألم تسمح بشعبها التي بدأت تتكون في الأحياء؟
 - غير الشبان المسلمين؟
 - نعم...
 - وما الفرق؟
 فأجاب وهو يشير إلى عبد المنعم شوكت:
 - سأل الأخ...
 فقال عبد المنعم بصوته القوي:
 - لسنا جمعية للتعليم والتهديب فحسب، ولكننا
 نحاول فهم الإسلام كما خلقه الله، دينًا ودنياً وشرعية
 ونظام حكم...

- أهذا كلام يقال في القرن العشرين؟...
 فقال الصوت القوي:
 - وفي القرن العشرين بعد المائة...
 - احترنا يا هره بين الديمقراطية والفاشية
 والشيوعية، هذا خازوق جديد!
 فقال أحمد ضاحكاً:
 - لكنته خازوق رباني!
 فعلت ضجة ضحك، إلا أن عبد المنعم حدجه
 بنظرة غاضبة، وكان رضوان ياسين ساهه التعبير،
 فقال:

- خازوق تعبير غير موفق...
 وعاد الطالب يسأل عبد المنعم:
 - وهل ترجون الناس إذا خالفوكم؟
 - إن الشبان يتهددهم زيغ في العقيدة، وانحلال في
 الخلق، وليس الرجم بأشد ما يستحقونه، ولكننا لا
 نرجم، وإنما بالموعظة الحسنة والمشال الطيب نهدي
 ونرشده، وآية ذلك أن بيتنا يضم، أشا بمن يستحقون
 الرجم، وما هو مبرح أمامكم، ويتطاول على خالفه
 سبحانه!

فضحك أحمد، وقال حلمي عزت مخاطباً إيَّاه:
 - إذا أنست من أخيك خطراً، فإني أدعوك للإقامة
 معي في الدرب الأحمر...
 - آئت مثله؟

- كلاً، ولكننا معشر الوفديين قوم متسامحون،
 المستشار الأول لنزعينا قبطي، هكذا نحن...

جلني إلى كشكش بك!
 فقالت خديجة:
 - خذ العروسين وأباك، أما أنا فكفافية عليّ
 الراديو...
 وقالت عائشة:
 - وكفافية عليّ أنا بيتكم...
 وراحت خديجة تقص قصة ياسين وكشكش بك
 حتى حانت من كمال نظرة إلى ساعته فتذكر موعد
 رياض قلنس، فهض مستأنفاً في الانصراف.

٢٠

- أستطيع أن تستمتع بجبال الطبيعة حقاً بالرغم
 من أن الامتحان لم يبق عليه إلا أيام؟
 كان السائل طالباً، والمسئول طالباً كذلك، في
 جماعة من الطلاب افترشت العشب على هيئة نصف
 دائرة فوق هضبة خضراء في أعلاها كشك خشبي
 احتله طلاب آخرون، وعمل مرمى البصر تراءت
 جماعات النخيل وحيضان الأزهار تتخللها مباحثي
 الفيسفاه، قال الطالب المسئول:
 - كما يستمتع عبد المنعم شوكت بالحياة الزوجية،
 رغم اقتراب الامتحان.

كان عبد المنعم شوكت جالساً في محيط نصف
 الدائرة، وكذلك أحمد شوكت، فقال عبد المنعم:
 - الزواج بخلاف ما تظنون، عيّن للطلاب أحسن
 فرصة للنجاح.
 فقال حلمي عزت، وكان يجلس لصق برضوان
 ياسين في الطرف الآخر من نصف الدائرة:
 - هذا إذا كان الزوج من الإخوان المسلمين!
 وضحك رضوان عن ثغره اللؤلؤي، ورغم ما أثاره
 الحديث في نفسه من غم، أجل إن سيرة الزواج تثير
 قلقة، فلا يدري إن كان يقدم يوماً على هذه المغامرة
 أم لا، مغامرة خفيفة بقدر ما هي ضرورية، ولكن ما
 أبعدها عن روحه وجسده. وتساءل طالب:

- وما الإخوان المسلمون؟
 فأجابه حلمي عزت:

وعاد الطالب الأول يقول:

- كيف تدعون إلى هذا المراء في نفس الشهر الذي ألغيت فيه الامتحانات الأجنبية؟

فقال عبد النعمم متسائلاً:

- أنبطل ديننا إكراماً للأجانب؟

وإذا برضوان ياسين يقول وكأنما كان في وإد آخر:
- ألغيت الامتحانات، فذبح الذين انتقدوا المعاهدة يتكلمون...

فقال حلمي عزت:

- هؤلاء النقاد غير مخلصين، إنهم الكراهية والحسد، إن الاستقلال الحقيقي الكامل لا يؤخذ إلا بالحرب؛ فكيف يطعمون في أن نال بالكلام أكثر مما نلنا؟

فجاء صوت يقول في ضجر:

- دعونا نتعامل مع المستقبل...

- المستقبل لا يُبحث في شهر مايو والامتحان على الأبواب، أرى... لن أعود إلى الكلية بعد اليوم حتى يتسع لي الوقت للمستقبل...

- مهلاً، إن الوظائف لا تنتظرنا، ما مستقبل الحقوق أو الآداب؟ التسكع أو الوظائف الكتابية، تساموا عن المستقبل إذا شئتم...

- أمّا وقد ألغيت الامتحانات فستفتح الأبواب!

- الأبواب؟ السجان أكثر من الأبواب!

- اسمعوا... النحاس أدخل الطلبة الجامعة وكانت أبوابها مغلقة، وأتاح لهم النجاح بعد أن

أصجزهم المجموع المتسقف فهل يعجز عن توظيفنا؟

ولاح في أقصى الحديقة سرب، فانمقدت الألسنة والمجهت نحوه الرموس، كان مكوّناً من أربع فتيات قادمات من الجامعة متجهات صوب مديرية الجيزة، لم

تكد تميزهنّ الإبصار بعد، ولكنّ تقدّمن متعهلات يسفن الأمل في رؤيتهنّ عن قرب، إذ كان الممرّ الذي يسيرون فيه ينمط أمام مجلس الصحاب في مسيره نحو

الشمال. وصرن في مجال البصر، وكدت الألسن أسماهنّ وأسماء كليّاتهنّ، واحدة من الحقوق وثلاث من الآداب، وقال أحمد لنفسه وهو ينظر إلى إحداهنّ:

«علوية صبري»، وجذب الاسم شوارد نفسه، فتاة ذات جمال تركي محض، معتدلة الطول نحيلة، بيضاء

ذات شعر أسود قاحم، وعينين سوداوين واسعتين عاليتي الجفون، مقرونة الحاجبين، ذات سميت أرسطراطي ولفات ربيعة، وإلى ذلك كله فهي زميلة في القسم الإعدادي، وقد علم - والباحث يظفر بمعلومات شتى - أنّها سجّلت اسمها مثله في قسم الاجتماع، ولم تكن تتبّلت فرصة لبيادها كلمة واحدة، ولكنّها أثارت اهتمامه من أوّل نظرة، طالما رفق ملامح نعيمة بإعجاب ولكنّها لم تبرز أعياقه، هذه الفتاة لها شأن، فيبشر قريباً بصداقة العقل، والقلب... ١٩!

قال حلمي عزت عقب تسواري السرب عن الأناظر:

- عمّا قريب تصبح كلية الآداب وكائناتها كلية بنات!

فقال رضوان ياسين وهو يردّد بصره بين طلّاب الآداب في نصف الدائرة:

- لا تنفقا بصداقة طلّاب الحقوق الذين يكثرّون من زيارتكم في كليّتكم بين الحصص، فالغرض مغضوح!

ثمّ ضحك ضحكة عالية، ولكنّه لم يكن سعيداً في تلك اللحظة، فإنّ حديث الفتيات يشير في نفسه اضطراباً وحزناً.

- لمّ تقبل الفتيات على كلية الآداب؟

- لأنّ وظيفة التدريس هي أوسع الوظائف صدراً لمن...

فقال حلمي عزت:

- هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فدراسة الآداب دراسة نسائية، الزوج والمانيكور والكحل والشعر والقصاص، كلها باب واحد!

فضحكوا جميعاً حتى أحمد، وبقية طلّاب الآداب ضحكوا رغم توتّيهم للاحتجاج، ثمّ قال أحمد:

- يصدق هذا الحكم الجائر على الطبّ، فطالما كان التمريض نسائياً، أمّا الحقّ الذي لم يستقرّ بعد في نفوسكم فهو الإيمان بالمساواة بين الرجل والمرأة.

فقال عبد النعمم ياسناً:

- لا أدري إن كان مدحاً أم ذمّاً أن نقول للنساء إنهنّ مثلنا؟

التقديمية، ما هذا ذلك فهو نوع من القرامل الضاغطة على عجلة الإنسانية الحرة!

فقال عبد المنعم، وكان في تلك اللحظة يكره فكرة اخوة أحمد له:

- الإلحاد سهل، حلّ سهل هروبيّ، هروبيّ من الواجبات التي يلتزمها المؤمن حيال ربّه ونفسه والناس، وليس من برهان على الإلحاد يمكن أن يُعدّ أقوى من البرهان على الإيمان، فنحن لا نختار هذا أو ذلك بقولنا بقدر ما نختاره بأخلاقنا...
وتدخّل رضوان قائلاً:

- لا تستسلبا لعنف المناقشة، كان من الأفضل لكما كاشورين أن تكونا من حزب واحد...
وإذا حلّمي عزّت يندفع قائلاً، وكان أحياناً تعتربه نويات ثائرة غامضة:

- إيمان... إنسانية... الغدا. كلام فارغ، النظام القائم على العلم وحده ينبغي أن يكون كلّ شيء، يجب أن تؤمن بشيء واحد هو استئصال الضعف البشريّ بكافة أنواعه، ومنها بدا جلّنا قاسياً، وذلك للوصول بالبشرية إلى مثال قويّ نظيف!

- أهله مبادئ الولد الجديلة بعد للمعاهدة!
فضحك حلّمي عزّت ضحكة عادت به إلى حالته الطبيعية، وقال عنه رضوان:

- إنه حقاً وفديّ، ولكن تطوف به أحياناً مذاهب طارئة غريبة يدعو إلى القتل بالجملة، وربّما دلّ ذلك على أنّه لم ينم أسس نواماً مرشحاً!

وكان لشدة الخصام ردّ فعل فساد الصمت، فسرّ بذلك رضوان، وسرّح بصره فيها حوله فراح يتابع بعض الحدا الملوّنة في السماء، أو يترنّج إلى أسراب النخيل، الكلّ يعلن رأيه حقّ ما يتهمّج به على الخالق، ولكنته لا يسهو إلا أن يكتم ما يضطرم في أعناق نفسه، وسيظلّ مرّاً مرعباً يتهنّده، فهو كالطارد، أو كالغريب، من الذي قسم البشر إلى طيبيّ وشاذّ؟، وكيف تكون الخصم والحكم في آن؟، ولم نهبأ كثيراً بالتسماء؟. قال رضوان مخاطباً عبد المنعم:

- إذا تعلّق الأمر بالحقوق والواجبات فهو مدح لا ذمّ...

فقال عبد المنعم:

- لقد سوى الإسلام بين الرجل والمرأة فيما عدا الميراث.

فقال أحمد متهمّاً:

- حقّ في الرقّ ساوى بينهما!
فاحتدّ عبد المنعم قائلاً:

- أنتم لا تعرفون دينكم، فله هي المأساة!...
والفت حلّمي عزّت إلى رضوان ياسين، وسأله بأساً:

- ماذا تعرف عن الإسلام؟
فسأله الآخر بنفس لهجة:

- وماذا تعرف أنت عنه؟
فسأل عبد المنعم أخاه أحمد:

- وأنت ماذا تعرف عنه حقّ لا تجهف بما لا تعرف؟
فقال أحمد يهدهو:

- أعرف أنّه دين، وحسيّ ذلك، لا أومن بالأديان!...

فتساءل عبد المنعم مستكراً:

- أليس برهان على بطلان الأديان؟
- أليس أنت برهان على حقيقتها؟
فقال عبد المنعم وقد ارتفع صوته حقّ جعل الشاب الذي يجلس بينه وبين أخيه يردّد رأسه بينهما كالمنزعج:

- عندي، وعند كلّ مؤمن، ولكن دعني أسألك أولاً كيف تعيش؟

- بإيماني الخاصّ، إيماني بالعلم والإنسانية وبالعدل، وبما ألزمت من واجبات ترمي في النهاية إلى تمهيد الأرض لبناء جديد.

- هدمت كلّ ما للإنسان إنساناً به...

- بل قل بقاء عقيدة أكثر من ألف سنة آية لا على قوتها، ولكن على خطّة بعض بني الإنسان، ذلك ضدّ معنى الحياة المتجدّدة، ما يصلح لي وأنا طفل يجب أن أغتره وأنا رجل، طالما كان الإنسان عبداً للطبيعة والإنسان، وهو يقاوم عبودية الطبيعة بالعلم والاختراع، كما يقاوم عبودية الإنسان بالملذات

الجالسين، وكان قد توقّف عن الحديث أثناء استقبال الشائين:

- شدّ ما فوجئ الرأي العامّ وهو يطّلع على أساء الوزراء الجدد، فلا يجد بينهم النقراشي!
فقال عبد الرحيم باشا عيسى:

- توقّعنا عند الاستقالة أمرًا، خاصة وأنّ الاختلاف كان قد ذاع حتّى تحدّثت به المقاهي، ولكنّ النقراشي ليس كغيره من أعضاء الوفد. لقد فصل الوفد من قبله كثيرين فلم تقم لهم قاتمة، أمّا النقراشي فله شأن آخر، ولا تنسوا أنّ النقراشي معناه أحد ماهر أيضًا، هما الوفد، الوفد المجاهد المناضل المحارب، سلوا للشائق والسجون والقنابل، وليس الخلاف هذه المرّة بالذي يشين الخارج، هي نزاهة الحكم، قضية القنابل، وإذا وقع المخلو وانشقّ الوفد، فالوفد هو الذي سيخرج لا النقراشي ولا ماهر!...

- لقد كشف مكرم عبيد عن وجهه أخيرًا...
ووقع هذا القول من أذني رضوان موقعًا غريبًا، فلم يكن ثمة يسهل تصديقه أن يهاجم قطب الوفد بهذا الأسلوب في بيّنة وقدّية صميّة، وإذا بأخر يقول:
- مكرم عبيد هو رأس هذا الشرّ كلّه يا سعادة الباشا...

فقال عبد الرحيم باشا:

- ليس الآخرون أصفًا...
- لكنّه هو الذي لا يطبق منافسيه، إنّه يريد أن يستحوذ على النحاس وحده دون شريك، وإذا خلا له الجوّ من ماهر والنقراشي فلن يقف في سبيله شيء...
- لو أمكنه إزالة النحاس نفسه لأزاله...
فقال شيخ من الجلوس:
- أرجوكم، لا تسرفوا في القول، قد تعود المياه إلى مجاريها.

- بعد أن تألّفت الوزارة دون النقراشي؟

- كلّ شيء ممكن...

- كان من الممكن هذا على عهد سعد، أمّا النحاس فرجل عنيد، وهو إذا ركب رأسه...
وهنا دخل البهو رجل مهوّلًا، فاستقبله الباشا وسط المكان وتعاثا بحرارة والباشا يتسائل:

- لا تزعل، إنّ للدين ربًّا يجمعه، أمّا أنت فبعد تسعة أشهر على الأكثر ستكون أبًا!

- حقًا... ١٩...

فقال أحمد مداعبًا أخاه ليسمع عنه آثار الخلّة:
- آمون عليّ أن أتمرّض لغضب الله من أن أتمرّض لغضبك!

ثم مضى أحمد يحدّث نفسه: غضب أم لم يغضب لسبب عند عودته إلى السكينة صدرًا حانيًا، أمن المستحيل أن أعود يومًا فأجد علويّة صبري في الدور الأوّل بالسكينة؟
ونبتت عنه ضحكة، ولكنّ أحدًا لم يحدّث السبب الحقيقي لضحكته...

٢١

بدا بيت عبد الرحيم باشا عيسى في حركة غير مألوفة، ففي الحديقة وقف أناس كثيرون، وفي الفرائد جلس آخرون، وكثر الداخل والخارج، فلكر حلمي عزّت ذراع رضوان ياسين وهما يقتربان من البيت، وقال له بارتياح:

- لسا بلا أنصار كما تزعم جرائدهم...

وعندما اعتدلا يتشأن سبيلهما إلى الداخل، هتف بعض الشبان وبجيا التضامن، وتوزّد وجه رضوان تأثرًا. كان متحمسًا تأثرًا مثلهم، بيد أنّه ساءل نفسه في قلبي: ترى ألا يشكّ أحد في الجانب غير السياسي من زيارته؟ وقد أفضى مرّة بمخاوفه إلى حلمي عزّت، فقال له: «إنّ الرية لا تلتحق إلّا بالحرّاف! مير مرفوع الرأس ثابت الأقدام، يجدر بالذين يصلّون أنفسهم للحياة العالمة ألا يكتنّوا لأراء الناس أكثر مما يجب». وكان بهو الاستقبال مكتظًا بالجالسين، منهم طلبة وعيال وبعض أعضاء الهيئة الولديّة، وفي صدر المكان جلس عبد الرحيم باشا عيسى، متجهّيًا على غير عادته، جاثًا صائمًا، تكتفه هالة الرجل السياسي الخطير، وتقدّم إليه فهض لاستقبالها في رزانة، وصافحها ثم أشار لها بالجلوس. وقال أحد

وراءه، وجلس ثلاثهم حول منضدة، وسرعان ما تحملت إليهم أقداح الليمون، وما لبث أن تراءى عند الباب رجل في الأربعين، عرفه رضوان في بعض زيارته السابقة، يدعى عليّ مهرا، يعمل وكيلًا للباشا، وكان مظهره يوحى بما طبع عليه من ميل للمزاح والمجون، وكان يصحب معه شابًا في العشرين من عمره، جميل لُصيًا، يبدو من مظهر شعره المائج وسوالفه الطويلة وربطة عنقه العريضة أنه من أهل الفن. وقد أقبل عليّ مهرا باسم الثغر فقبل يد الباشا، وصافح الشابين، ثم قدّم الشاب قائلا:

- الأستاذ عطية جودت، مُكَنّ ناشئ لكنه موهوب، وقد سبق أن حدّثك عنه يا معالي الباشا! فلبس الباشا نظارته التي كان وضعها على المنضدة، وتفحص الشاب بعناية، ثم قال باسمًا:

- أهلاً وسهلاً يا سي عطية، سمعت عنك كثيراً، فلعلنا نسمعك هذه المرة...

فدعا للباشا باسمًا، ثم جلس، على حين مال عليّ مهرا على الباشا وهو يقول:

- كيف حال عتي؟

هكذا كان يخاطب الباشا إذا زالت دواهي الكلفة، وأجابه الرجل باسمًا:

- أحسن منك ألف مرّة!

فقال عليّ مهرا جادًا على خلاف عاداته:

- يتهايمسون في بار الأنجلو عن وزارة قومية قريبة برياسة النقراشي...

فابتسم الباشا ابتسامة سياسية وتتم:

- لسنا من المستوزرين!...

وتساءل رضوان باهتمام وقلق:

- على أيّ أساس؟ طبعًا لا أمتنع أن أنصوّر أن يقوم النقراشي بانقلاب سياسي كمحمّد عمود أو إساعيل صديقي؟

فقال عليّ مهرا:

- انقلاب! كلاً، المسألة تنحصر الآن في إقناع أكثرية الشيوخ والنواب بالانضمام إلينا، ولا تنس أنّ الملك معنا، فعليّ ماهر يعمل بحكمة وأنا!

وعاد رضوان يتساءل في كآبة:

- متى عدت؟ كيف الحال في الإسكندرية؟

- عال... عال، استقبل النقراشي في حفّة سيدي جابر استقبالاً شعبيّاً متقطع النظر، هتفت له الجماهير المتففة من الأماق، الجميع غاضبون، الكلّ ثائر لنزاهة الحكم، هتفوا: يحيا النقراشي النزيه. يحيا النقراشي ابن سعد... وهتف كثيرون يحيا النقراشي زعيم الأمة...

وكان الرجل يتكلّم بصوت مرتفع، فردّد هتافه كثيرون حتّى اضطرّ عبد الرحيم باشا أن يلوح لهم داعياً إلى التزام الهدوء. وعاد الرجل يقول:

- الرأي العامّ ساخط على الوزارة، غاضب لإخراج النقراشي منها، لقد غسر النحاس خسارة لا تموّض، وارفضي أن يؤيّد الشيطان ضدّ الملاك الطاهر... وهنا قال عبد الرحيم باشا:

- نحن الآن في أغسطس، وفي أكتوبر تفتح الجامعة، فليكن افتتاح الجامعة موقعة فاصلة، يجب أن نستعدّ منذ الآن للمظاهرات فإنّ أيّ شوب النحاس إلى رشد، وإما فليذهب إلى الهاوية...

فقال حلمي عزّت:

- أستطيع أن أوّكد أنّ مظاهرات الجامعيين ستتدفّق على بيت النقراشي...

فقال عبد الرحيم باشا:

- كلّ شيء يحتاج إلى التنظيم، اجتمعوا بأنصارنا من الطلبة وأعدوا العدة، وفضلاً عن هذا فإنّ الأخبار التي عندي تؤكّد أنّ كثرة لا تصدّق من النوايا والشيوخ سينضمّون إلينا...

- النقراشي هو خائن لجانب الوفد، لا تنسوا ذلك، إنّ تلغرافات الولاء تتسابق إلى مكتبه صباح مساء...

وتساءل رضوان ماذا يحدث في الدنيا؟ ترى أينقسم الوفد مرّة أخرى؟ وهل يتحمّل مسئولية ذلك حقّاً مكرم عبيد؟ وهل تتفق مصلحة الوطن واتقسام الحزب الذي نهض برسالته ثمانية عشر عاماً؟ وطال

الأخذ والردّ، وبحث المجتمعون اقتراحات شتى خاصّة بالدعاية وتدبير المظاهرات، ثمّ أخذوا في الانصراف حتّى لم يبق في البهو إلّا الباشا ورضوان وحلمي عزّت، وعند ذاك دعاهما للجلوس في الفراندا، فعضيا

- انتظر حتى أصلي العشاء! ...
فتسامل مهرا ناسياً في خبث:
- ألم ينقض سلامنا وضوءك!؟

٢٢

غادر أحمد عبد الجواد بيته، ناقلاً خطاه على مهل،
متوكئاً على عصاه، لم يعد اليوم كالأمس، فمئذ أن
صلى دكانه لم يكن لينادر بيته إلا مرة واحدة في
اليوم، كي يعفي نفسه ما استطاع من الجهد الذي
يتحمّله قلبه عند ارتقاء السلم. ومع أن الوقت لم يعد
سبتمبر إلا أنه رأى أن يرتدي الملابس الصوفية، إذ إن
الجسم النحيل لم يعد يطيق الجوع اللطيف الذي كان
يجرح فيه الجسم البدن القوي الذي كان. والعصا
التي صاحبته منذ الصغر رمزاً للرجولة وآية على الأناقة
بالت متوكّاه في مشيته المشهقة، التي لا يطيقها قلبه إلا
بجهد ومشقة، ولكن بقي له رونقه وأناقته، فما زال
يحرص على انتقاء الأزياء الفاخرة، ويتطّيب بالعطر
الفوّاح متمتّعاً بجبال الشيوخوعة ووقارها، وعندما
اقترب من الدكان مالت نحوه عيناه بحركة لا إرادية.
رُفعت الثلاثة التي حملت اسمه واسم أبيه أعواماً
وأعواماً، وتغيّر مظهر الدكان وخبره، فانقلب دكان
طرايش للبيع والكيف، وتقدّمه الوابور والقوالب
النحاسية، وتحالفت لمينيه لافتة وهمية، لم ترها عين
سواه، علّته بأن زمانه قد ولى، زمان الجدل والكفاح
والسرّات، وما هو في ركن المعاش ينزوي، يستدير
دنياه الآمال ويستقبل دنيا الشيوخوخة والمرضى
والانتظار، وتقشّ القلب الذي طالما. وما زال - ييم
بحبّ الدنيا وأفراحها، حتى إن الإيمان نفسه لم يكن في
نظره إلا مسرّة من مسرّاتها ودافئاً إلى أعضائها، فلم
يعرف - حتى اليوم - العبادة الزاهدة التي تنذر الظهر
للدنيا وتتعلّق إلى الآخرة وحدها. لم يعد الدكان دكانه
ولكن كيف تمحى ذكره من ذهنه وهو الذي كان مركز
النشاط، وعكس الانتظار، وملقّى الأصحاب
والأحباب، ومبعث المزة والجله؟. «ولك أن تمرّي
نفسك فتقول: زوّجنا البنات، ورّيتنا الصبيان، ورأينا

- أنكون في النهاية من رجال السراي؟
فقال عبد الرحيم باشا:
- العبارة واحدة، ولكنّ المعنى تغيّر، فاروق غير
فؤاد، والظروف غير الظروف، الملك شابّ وطنيّ
متحمّس، وهو مجيئ عليه أمام هجيات النحاس
الجلّارة!.

ففرّك عليّ مهرا ن يديه في حبور وهو يقول:
- ترى متى نبتئ الباشا بالوزارة؟ وهل تختارني وكيلاً
لوزارتك كما اخترتني وكيلاً لأعمالك؟
فقال الباشا ضاحكاً:
- بل أعيذك مديراً عاماً للسجون، إن مكانك
الطبيعيّ هو السجن.
- السجن؟. لكنهم يقولون إن السجن للجدعان؟
- ولغيرهم، فليطعنّ بالك!
ثمّ ركب الضجر فجأة فهتف:
- حسّنا سياسة، فثروا الجفّ من فضلكم! ...
والفتت نحو الأستاذ عطية متسائلاً:
- ماذا تسمّنا؟
فأجاب عنه عليّ مهرا ن:
- الباشا سمّح وابن حقله، وإذا زُفّت في نظره
تفتّحت لك أبواب الإذاعة ...
فقال عطية جودت برقة:
- تحت أخيراً أغنية «شيكوي وشيكوه» وهي من
تأليف الأستاذ مهرا ن!
فرمق الباشا وكيه، وسأله:
- منذ متى تولّفت أغاني؟
- ألم أجاور في الأزهر سبع سنوات، غرقت فيها في
مفاعيل وفعلاتن؟
- وما للأزهر وأغانيك الخليفة؟، شيكوي وشيكوه!
من هو يا حضرة المجاور؟
- المعنى يا معالي الباشا في ذقن الباشا!
- يا ابن الهرمة! ...
ونادى عليّ مهرا ن السرجي، فسأله الباشا:
- لماذا تناديه؟
- ليهيئ لنا مجلس الطرب! ...
فقال الرجل وهو ينهض:

- تأخرتم عن ميعادكم، سأمحكم الله...
بأن ضجر الرقاد في عينيه، فلم يعد يعرف الابتسام
إلا ساعة اجتماعهم، وجعل يقول:
- لا عمل لي طول اليوم إلا الاستماع إلى الراديو،
ماذا كنت أصنع لو تأخر استعماله في مصر حتى اليوم!
كل ما يذيعه يطيب لي حتى المحاضرات التي لا أكاد
أفهمها، ومع ذلك فلم نكبر إلى الحد الذي يستوجب
هذا العذاب، أجدادنا كانوا يتزوجون في مثل
أعمارنا... .

فغلبت روح الفكاهة أحمد عبد الجواد، فقال:
- فكرة! ما رأيكم في أن نتزوج من جديد، لعل
ذلك يجدد شبابنا وينفض عنا الأمراض!
فابتسم عليّ عبد الرحيم - كان يتجنب الضحك أن
تدركه نوبة السعال فتؤذي قلبه - وقال:
- معكم! اختاروا لي عروسا، ولكن صارحوها بأن
العريس لا يستطيع الحركة، وعليها الباقي...
وهنا خاطبه الفار وكأنا نذكر أمرا فجأة:
- أحمد عبد الجواد سيسبلك إلى رؤية وليد حفيدته،
ربنا يجد في عصره! .

- مبارك مقدما يا بن عبد الجواد!...
ولكن السيد أحمد تجهّم قاتلاً:
- نعمة حبلى حقاً ولكني غير مطمئن، ما زلت أذكر
ما قيل عن قلبها يوم مولدها، طالما حاولت أن أنسى
ذلك عبثاً... .

- يا لك من رجل جاحد! منذ متى تؤمن بنبوءات
الاطباء؟... .

فضحك السيد أحمد قاتلاً:
- منذ باتت اللقمة التي أناولها على غير مشورتهم
تؤزقي حتى مطلع الفجر...
فتساءل عليّ عبد الرحيم:
- ورحمة ربنا؟...
- الحمد لله رب العالمين.
ثم مستدركاً:

- لست بالغافل عن رحمة الله، ولكن الخوف يبعث
على الخوف، والحق فإن نعمة لا تحبني بقدر ما تهمني
عائشة يا عليّ، عائشة هي مركز القلق في حياتي،

الأحفاد، ولنا مال موفور يسترنا حتى الموت، وذقنا حلو
الدنيا سنين - سنين حقاً؟ - وأن لنا أن نشكر، والشكر
للله واجب، دائماً أبداً، ولكن آه من الحنين، وسامح
الله الزمن، الزمن الذي مجرد حياته - حياته التي لا
تتوقف لحظة - خيانة وأني خيانة للإنسان. لو أن
الاحجار تنطق لسألت هذه الأماكن أن تحثني عن
الماضي، لتحثني أحقاً كان هذا الجسم بيد الجبال؟،
وهذا القلب المريض لا يكف عن الخفقان؟، وهذا
الثغر لا يمسك عن الضحك؟، وهذا الشعور لا يعرف
الأم؟، وهذه الصورة معلقة في كل قلب؟ ورمّة أخرى
سامح الله الزمن! .

وعندما انتهى به المسير الوليد إلى جامع الحسين،
خلع حذاءه ودخل وهو يتلو الفاتحة، ومضى إلى المنبر
حيث وجد في انتظاره محمد عفت وإبراهيم الفار
فصلى المغرب جميعاً، ثم غادروا المسجد متجهين نحو
الطمبيكشية لزيارة عليّ عبد الرحيم، كان ثلاثتهم قد
اعتزلوا العمل ليتفرغوا لمقاومة الأمراض، ضير أتهم
كانوا أحسن حالاً من عليّ عبد الرحيم الذي لم يعد
بوسعه أن يفرق الفراش، وقال السيد أحمد متنبهاً:

- يجئ إلى أيّ عمّا قريب لن أستطيع الذهاب إلى
الجامع إلا ركاباً... .

- إلهال من بعضه...
فعاد الرجل يقول في قلق:
- شدد ما أخاف أن أضطر إلى ملازمة الفراش
كالسيد عليّ، إني أدعو الله أن يكرمني بالموت قبل أن
يدركني العجز... .

- ربنا يكفيك ويكفيكنا كل سوء...
لبدا كالحائف وهو يقول:
- غنيم حيدو لبث مشلولاً في الفراش زهاء العام،
وصادق الماوردي عانى العذاب شهوياً، فآلهم أكرمنا
بالبهاية السريعة إذا حمّ القضاء.
فضحك محمد عفت قاتلاً:

- إذا غلبتك الأفكار السوداء انقلبت امرأة، وحّد
الله يا أخي!...
وكما بلغوا بيت عليّ عبد الرحيم أدخلوا إلى حجرته،
فبأدهم يقول في جزع:

التعيسة المسكينة، سأتركها إذا تركتها وحيدة في هذه الدنيا...

فقال إبراهيم الفار:

- ربنا موجود، وهو الراعي الأكبر...

وساد الصمت ملياً، حتى قطعه صوت عليّ عبيد الرحيم قائلاً:

- وسياي دوري بعذك في رؤية وليد حفيدتي...

فضحك السيد أحمد قائلاً:

- سامح الله البنات، فإنهن يكرهن أهلن قبل الألوان.

فهف محمد عفت:

- يا عجوزاً اعترف بالكبر وكفأك مكابرة...

- لا ترفع صوتك خشية أن يسمعك قلبي فيسوق

العرج، أصبح قلبي كالطفل للدلال...

فقال إبراهيم الفار وهو يترأس أسفاً:

- يا له من عام ذلك العام الماضي، كان علينا شليداً، فما ترك واحداً منا سليماً كأننا كنا على ميحاد.

- على رأي عبد الوهاب: لنعيش سوا لنموت سوا...

فضحكوا ممّا، وإذا بعليّ عبد الرحيم يغير لهجته ويستأهل جأداً:

- أهذا يصح؟ أعني ما فعله النقراشي؟

فتجهّم وجه أحمد عبد الجواد وقال:

- كم أملنا أن تعود المياه إلى مجاريها، أستغفر الله العظيم...

- أخوة الجهاد والعمر ضاعت هباء.

- في هذا الزمن كلّ جميل يضيع هباء...

وهاد أحمد عبد الجواد يقول:

- لم أحزن لشيء كما حزنت لخروج النقراشي، ما كان ينبغي أن يذهب به الحصاص إلى هذا الحد...

- ترى ما هي النهاية التي تنتظره؟

- النهاية المحتومة، أين الباسل والشمسي؟ لقد قضى الرجل المجاهد على نفسه وأخذ في رجليه أحمد ماهر.

وهنا قال محمد عفت مترفلاً:

- دعونا من هذه السيرة. أنا أكاد أطلق السياسة!

وخطر للفار خاطره، فساءل باسفاً:

- لو اضطررنا - لا سمح الله - إلى ملازمة الفراش

كالسيد عليّ، فكيف نتقابل وتحدث؟

فتتمّم محمد عفت:

- قال الله ولا فالك...

فضحك أحمد عبد الجواد وقال:

- لو وقع المحذور نتخاطب بالراديو، كما يتخاطب

بابا «سخام» الأطفال!

وضحكوا جميعاً، وأخرج محمد عفت ساعته ونظر

فيها، ولكنّ عليّ عبد الرحيم جزع وقال:

- متيقون معي حتى يحضر الطبيب لتسمعوا ماذا

يقول، ملعون أبوه، وأبو آيابه...

٢٣

كانت الثوريرة تغلق أبوابها، فقلت السابلة واشتدّت البرودة، وكان الزمن في أواسط ديسمبر، ولكنّ الشتاء جاء متعجلاً هذا العام. ولم يكن كمال قد وجد صعوبة في جلب رياض قلنس إلى حيّ الحسين، أجل كان الشاب غريباً عن الحيّ، ولكنّه وجد من نفسه شوقاً للتقلب في أنحائه، والجلوس في مقاهيه. وكان قد مضى على تعارفها في جملة الفكر أكثر من عام ونصف عام، لم يمرّ أسبوع خلاله دون أن يتقابلا مرة أو مرتين، بخلاف العطلة التي تجمع بينهما كلّ مساء على وجه التقريب في جملة الفكر، أو بيت بين القصرين، أو بيت رياض بمنشية الكبرى، أو مقاهي عماد الدين، أو قهوة الحسين الكبرى التي لجأ إليها كمال بعد أن أتت المعاول على قهوة أحمد عبده التاريخية فمحتها من الوجود إلى الأبد. كانا سعيدين بصداقتها، وقد قال كمال لنفسه مرة «جعلت أفقد حسين شذاد أحواماً، وظلّ مكانه شاغراً، حتى ملاه رياض قلنس» ففي محضره تستيقظ روحه وتستشعر ذلك الانشقاق الذي يبلغ نسوته في عناق الفكر المتبادل، هذا على الرغم من أنّها لم يكونا شيئاً واحداً، وإن كانا متكاملين فيما بدا. وظلّت صداقتها شعوراً متبادلاً في صمت، لم يتّرها به، فلم يقل أحدهما للآخر

فقال رياض دون تردد:

- إِنَّ الأقباط جيئًا وفذَّبُون، ذَلِكَ أَنَّ الوفد حزب القومية الخالصة، ليس حزبًا دينيًا تركيًا كالحزب الوطني، وَلَكِنَّهُ حزب القومية التي تجعل مصر وطنًا حرًا للمصريين على اختلاف عناصرهم وأديانهم، أعداء الشعب يعلمون ذلك، ولذلك كان الأقباط هدفًا للاضطهاد السافر طوال عهد صدقي، وسبعانون ذلك منذ اليوم...

ورحب كمال بهذه الصراحة التي تشهد لصداقتها بالكمال، غير أنه راق له أن يتسافل في دعابة: - ها أنت تتحدث عن الأقباط! أنت الذي لا يؤمن إلا بالعلم والفن!...

فلاذ رياض بالصمت. وكان قد بلغا شارع الأزهر حيث يتدافع الهواء البارد في شيء من العنف. ثم مرًا في طريقها بدكان يسبوسة فلداه كمال إلى تناول شيء منها، وما لبث أن أخذ كل منها طبقًا صغيرًا وانتعيا ناحية ياكلا، وعند ذلك قال رياض:

- إني حُرّ وقبطي في آن، بل إني لا ديني وقبطي معًا، أشعر في أحاسين كثيرة بأن المسيحية وطني لا ديني، وربما إذا عرضت هذا الشعور على عقلي اضطربت. ولكن مهلاً، ليس من الجنب أن أنسى قومي؟ شيء واحد خليك بأن ينسني هذا التنازع، ألا وهو الفناء في القومية المصرية الخالصة كما أرادها سعد زغلول، إِنَّ النحاس مسلم دينًا، وَلَكِنَّهُ قومي بكل معنى الكلمة أيضًا، فلا نشعر حياله إلا بأننا مصريون لا مسلم ولا قبطي، بوسعي أن أعيش سعيدًا دون أن أكره صفوي بهذه الأفكار، وَلَكِنْ الحياة الحقّة مسئولية في الوقت نفسه.

كان كمال يتمكّن ويفكر وصدرة يبشش بالعواطف، كانت سحنة رياض المصرية الصميّة التي تذكّره بالصور الفرعونية تثير تأملات شتى في نفسه. «إِنَّ موقف رياض له وجاهته التي لا تمجد، وأنا نفسي - بين عقلي وقلبي - شخص يعاني انقسام الشخصية، فكذلك هو، كيف يتأتّى لأفئدة أن تعيش وسط أغلبية تضطهدها؟ وجدارة الرسائل السامية تقاس عادة بما تحقّقه من سعادة للبشر تمتلئ أوّل ما تمتلئ في الأخذ

وأنت الصديق، ولا قال له ولا أنصّور الحياة بدونك» ولكن كان ذلك كذلك، وعلى بروعة الجوّ لم تفر رغبتها في السير، فقرّرا أن يسيرا على الأقدام حتّى قهوة عماد الدين. ولم يكن رياض قلنس سعيدًا ذلك المساء، كان يقول بانفعال شديد:

- انتهت الأزمة الدستورية بهزيمة الشعب، فليست إقالة النحاس إلا هزيمة للشعب في فضاله التاريخي مع السراي...

فقال كمال في أسف:

- ثبت الآن أنّ فاروق كأيّه...

- فاروق ليس المشؤل وحده، ولكن دبرها أعداء الشعب التقليديون، فهذه يد عليّ ماهر ومحمّد محمود، ومن المبكي أن ينضمّ إلى أعداء الشعب اثنان من أبناؤه، ماهر والنقراشي، ولو تطهر الوطن من الحفوة لما وجد الملك من يمكنه من هضم حقوق الشعب... ثمّ استطرد بعد صمت قليل:

- ليس الإنجليز اليوم في الميدان، ولكن الشعب والملك وجهًا لوجه، الاستقلال ليس كلّ شيء، هنالك حقّ الشعب المقدّس في أن يتمتّع بسيادته وحقوقه، ليحيا حياة الإنسان لا حياة العبيد...

لم يكن كمال غارقًا في السياسة كرياض، أجل لم يستطع الشكّ أن يدنّرها فيما دمر قلبت حيّة في عواطفه، كان يؤمن بحقوق الشعب بقلبه، وإن كان عقله لا يدري أين المقرّ. عقله يقول حينًا «حقوق الإنسان» وحينًا آخر يقول «بيل البقاء للأصلح وما الجماهير إلا طيع» وربما قال «والشيوعية ليست تجربة جديدة بالاختبار؟». أمّا قلبه فلم يتخلّص من عواطفه الشعبيّة التي صاحبته منذ صباه متجربة بذكرى فهمي، أمّا رياض فكانت السياسة جوهرًا أصيلًا في نشاطه الذهني. وعاد رياض يقول:

- أيمكن أن ننسى الإهانة التي تلقّاها مكرم في ميدان عابدين؟. وفذه الإقالة المجرمة، سبّ وقذف وبصقة في وجه الأمة؟. والحقد الأعمى يجعل البعض يهملون، واحسرتاه... فقال كمال مداعبًا:

- أنت غاضب لمكرم!

يد المضطهدين». قال:

- لا تؤاخذني، فقد عشت حتى الآن دون أن اصطدم بمشكلة النصرانية، فمذ البدء لفتني أمي أن أحب الجميع، ثم شبت في جو الشورى المظهر من شوائب التعصب، فلم أعرف هذه المشكلة.

فقال رياض وهما يستأنفان المسير:

- المرجو ألا تكون ثمة مشكلة على الإطلاق، يوسفني أن أصارحك بأننا نشأنا في بيوت لا تخلو من ذكريات سود عذبة، لست متعصباً، ولكن من يستهين بحق إنسان في أقصى الأرض - لا في بيته - فقد استهان بحقوق الإنسانية جميعاً...

- جميل هذا القول، لا عجب أن رسالات الإنسانية الحقة كثيراً ما تنبعت من أوساط الأقلية، أو من رجال مشغولي الضباط بالأقلية البشرية، ولكن ثمة متعصبون دائماً...

- دائماً وفي كل مكان، الإنسان حديث والحيوان قديم، وهم عندكم يمتزجون كثيراً ملاهين، وهم عندنا يمتزجونكم كثيراً متعصبين، ويقولون عن أنفسهم أنهم سالة من ملوك مصر الذين استطاعوا أن يحافظوا على دينهم يدفع الجزية...

فضحك كمال ضحكة عالية، وقال:

- هذا قولنا وذلك قولكم، ترى الأصل في هذا الخلاف الدين أم الطبيعة البشرية المتطلعة أبداً إلى الخصام؟ لا المسلمون على وفاق، ولا المسيحيون على وفاق، وتستجد نزاعاً مستمراً بين الشيعي والسني، وبين الحجازي والعراقي، كالذي بين الوغدني والدستوري، وطالب الآداب وطالب العلوم، والنادي الأهلي والترسنة، ولكن رغم ذلك كله فشأنا نحن إذا ما طالعنا في الصحف خبر زلزال باليابان! اسمع، لماذا لا تعالج ذلك في قصصك؟

- مشكلة الأقباط والمسلمين...

فصمت رياض قلنس ملياً، ثم قال:

- أخاف سوء الفهم...

ثم مستطرداً بعد فترة صمت أخرى:

- ثم لا تنس أننا رغم كل شيء في عصرنا الذهبي، كان الشيخ عبد العزيز جاويش يقترح في الماضي أن

يصنع المسلمون من جلودنا أحديتهم...

- وكيف نستأصل هذه المشكلة من جلودها؟

- من حسن الحظ أنها ذابت في مشكلة الشعب كله، مشكلة الأقباط اليوم هي مشكلة الشعب، إذا اضطهد اضطهدنا وإذا تحرر تحررنا...

والسعادة والسلام... ذلك الحلم المنشود، قلبك يحيا بالحب وحده، فمضى يعرف عقل سيبه؟ متى أقول بلهجة ابن أخي عبد المنعم ونعم. نعم، إن صداقي لرياض علمتني كيف أقرأ قصصه، ولكن كيف أومن بالفن، في الوقت الذي وجدت الفلسفة نفسها قصوراً غير صالحة للسكنى؟

وسأله رياض فجأة، وهو يسترق إليه النظر:

- فم تفكر الآن؟... أصدقني!

ولفن إلى ما وراء سؤاله، فاجابه بصراحة:

- كنت أفكر في قصصك.

- ألم تألم لصراحتي؟

- أنا، ساعك الله...

فضحك كالمتلتر، ثم سأل:

- أقرأت قصتي الأخيرة؟

- نعم، وهي لطيفة، ولكن يميل إلى أن الفن

نشاط غير جنسي، مع ملاحظة أنني أخطر في حياة الإنسانية: الجذأم اللهور؟، أنت مثقف ثقافة علمية عالية، ولعلك أدرى «غير العلماء بالعلم، ولكن نشاطك كله يضيح في كتابة القصص وإني لأتساءل أحياناً: ماذا أفدت من العلم؟

فقال رياض قلنس في حماسة:

- أخذت من العلم للفن عبادة الحقيقة، والإنخلاص لها، ومواجهتها بشجاعة مهما تكن مرّة، والنزاهة في الحكم، والتسامح الشامل مع المخلوقات...

كلمات ضخمة، ولكن ما علاقتها بملمة القصص؟

ونظر رياض قلنس إليه، فقرأ الشك في وجهه،

فضحك عالياً ثم قال:

- أنت تسيء الظن بالفن، ولكن عزائي أن شيئاً في

الدنيا لا يمكن أن يسلم من شكك، نحن نرى بعقولنا ولكننا نعيش بقلوبنا، أنت مثلاً - رغم موقفك

خيالياً من مآسي الخلافات العنصرية والدينية
والمنازعات الطبقية، بيد أن الاهتمام الأول مركّز في
فني...

فقال كمال وكان في صوته دعابة:

- ولكن الإسلام قد خلق هذا العالم الذي نتحدث
عنه منذ أكثر من ألف عام...
- لكنّه دين، الشيوعية علم أمّا الدين
فأسطورة...

ثمّ مستدركاً وهو يتسم:

- ونحن نتعامل مع المسلمين لا الإسلام...
وجدا شارع فؤاد كثير الزحام رغم شدة البرودة،
فتوقّف رياض فجأة وهو يتساءل:

- ما رأيك في عشاء من المكرونة والتبّيز الجيّد؟
- لا أشرب في الأماكن المأهولة، فلنذهب إلى قهوة
عكاشة إذا شئت...

فضحك رياض قللس قائلاً:

- كيف تطيق هذا الوقار كلّهُ ونظارة وشارب
وتقاليد! حرّرت عقلك من كلّ قيد، أمّا جسمك فكُلّه
قيود، أنت خلقت - بجسمك على الأهل - لتكون
مدرّساً...

ودكره تنويه رياض بجسمه بهادلة اليمّة، فقد
اشترك في حفل ميلاد أحد زملائه، وشربوا جيّماً حتّى
سكروا، وهناك تحلّ أحدهم عليه معرّضاً برأسه وأنفه
حتّى أضحك الجميع. وإذا ذكر أنه أو رأسه فقد ذكر
عابدة، وتلك الأيام، عابدة خالقة أنفه ورأسه، ومن
عجب أن يفيض الحبّ فيمسي لا شيء، ثمّ تبقى هذه
الرواسب المؤلّة...

وجلبه رياض من ذراعه وهو يقول:

- هلمّ نشرب نبيّداً ونتحدّث عن فنّ القصة، ثمّ
نذهب بعد ذلك إلى بيت الستّ جليلية بمطقة
الجوهري، وإذا كنت تقول لها يا عتيّ، فسأقول لها يا
خالتي...

الشغبيّ - تحبّ وتتعامل وتشارك مشاركة ما في حياة
بلدك السياسية، ووراء كلّ ناحية من هذه النواحي
مبدأ شعوريّ أو لا شعوريّ لا يقلّ عن الإيمان قوّة،
الفنّ هو المعبّر عن عالم الإنسان، وإلى هذا فمن الأدباء
من أسهم بفنّه في معركة الآراء العالمية، فالتقلب الفنّ
على يديه عدّة من عدّد الكفاح في ميدان الجهاد
العالميّ، لا يمكن أن يكون الفنّ نشاطاً غير جيّد...
دفاع عن الفنّ أم عن قيمة الفنّان؟ لو أنّ لبائع
اللبّ قدرة على الجدل لدلّل أنّه يلعب دوراً خطيراً في
حياة البشر، ولا يبعد أن يكون لكلّ شيء قيمة ذاتية،
ولا يبعد كذلك ألاّ يكون لشيء قيمة البتّة، كم مليوناً
من البشر يلفظون أنفسهم في هذه اللحظة؟! في
الوقت نفسه يرتفع صوت طفل بالبكاء على فقد لعبة،
أو صوت عاشق يبكّ الليل والكون متاعب قلبه،
أضحك أم أبكي؟ قال:

- مناسبة ما قلت عن معركة الآراء العالمية، دعني
أخبرك بأنّها تنعكس على صورة مصغّرة في أسرّتنا، لي
ابن أخت من الإخوان، والأخ من الشيوعيين!
- ينبغي أن يكون لها صورة في كلّ بيت، عاجلاً أو
آجلاً، لم نعد نعيش في قمقم، وأنت لم تفكر في هذه
الأمور؟

- قرأت عن الشيوعية ضمن دراسي للفلسفة
المائيّة، كما قرأت كتباً عن الفاشستيّة والنازيّة...
- تقرأ وتفهم، مؤرّخ بلا تاريخ، أرجو أن تعدّ يوم
خروجك من هذا الموقف يوم عيد ميلادك السعيد.
فاستاء كمال لهذه الملاحظة، لأنّها تعدّ لاذع من
ناحية، ولأنّها لا تخلو من حقّ من ناحية أخرى، ثمّ
قال متهوراً من التعقيب عليها:

- كلّ من الشيوعيّ والإخوانيّ في أسرّتنا على غير
علم مكيّن بما يؤمن به!
- الإيمان إرادة لا علم، إنّ أنفه مسيحيّ اليوم
يعرف عن المسيحية أضغاث ما عرف الشهداء، كذلك
عندكم في الإسلام...

- وهل تؤمن بمذهب من هذه المذاهب؟
- لا شكّ في احتقاري للفاشيّة والنازيّة وكافة النظم
الديكتاتورية، أمّا الشيوعية فخليقة بأنّ تخلق علماً

- آه لو تذكر الآلام التي تتحملها الأم!
فقال أحمد ضاحكاً:

- كيف تطلب الجنين بأن يتذكر يا بابا؟
فقال الرجل موميّخاً:

- إذا أردت أن تعترف بالجميل فلا تعتمد على
الذاكرة وحدها...

وانقطع الطلق، وخيم على الحجرة المغلفة السكون
فأنجحت الروس إليها، ومزّت فترة فتفد صبر عبد
المنعم فقام ماضياً إلى الباب ونقره، ففتح ريع فتحة
عن وجه خديجة المكتنز، لظالمها بعينين متسائلتين،
وهنّ بإذخال رأسه، ولكنها صدته براسيتها وهي
تقول:

- لم ياذن الله بالفرج بعد...

- طال الوقت، ألا يكون طفلاً كاذباً؟

- الحكمة أدري بلذلك مثلاً، اطمنن وادع لنا
بالفرج...

وأغلقت الباب، فعاد الشاب إلى مجلسه بجوار أبيه
الذي علّق على قلعه بقوله:

- اعلروه فإنه يحدث ولادة.

وأراد كمال أن يسأل، فخرج من جيبه جريدة
البلاغ حيث كانت مطوية فيه وراح يفتحصها، فقال
أحمد:

- أعلنت في الراديو الشائج الأخيرة للمعركة
الانتخابية... (ثمّ وهو يتسم في سخرية)... ويا لها
من نتائج مضحكة!...

فسأله والده دون اكتراث:

- ما مجموع الناجحين من الوفدين؟

- ثلاثة عشر على ما أذكر!

ثمّ قال أحمد موجّهاً خطابه إلى خاله ياسين:

- لملك مسرور يا خالي إكراماً لسرور رضوان!

فقال ياسين وهو يهزّ منكبيه باستهانة:

- لا هو وزير ولا هو نائب، فهذا يهتني من الأمر
كله؟

وقال إبراهيم شوكت ضاحكاً:

- كان الوفديون يظنون أنّ عهد الانتخابات المزورة
قد انتهى، ولكنّ شهاب الدين أضرب من أخيه!...

كانت شقّة عبد المنعم شوكت، ففي حجرة النوم
اجتمعت حول فرانس نعيمة أمينة وخديجة وعائشة
وزنوبة والحكيمة المولدة، أمّا في حجرة الاستقبال فقد
جلس مع عبد المنعم والده إبراهيم وأخوه أحمد وياسين
وكمال، وكان ياسين يداعب عبد المنعم قائلاً:

- اعمل حسابك أن تكون الولادة القادمة في غير
هذا الوقت الذي تستعدّ فيه للامتحان...

كانوا في أواخر إبريل، وكان عبد المنعم متعباً بقدر
ما كان متبهجاً، بقدر ما كان قلقاً. وكان صوت الطلق
يتراعى من وراء الباب المغلق حاداً يجعل كلّ معاني
الأم، فقال عبد المنعم:

- إنّ الحمل أنعمها جدّاً، ويلغ بها درجة من
الضعف لا يتصوّرها عقل، وكان وجهها لم تعد به
نقطة دم واحدة...

فتجنّس ياسين في ارتيلج، ثمّ قال:

- هذه أمور عادية، وكلهنّ سواء...

وقال كمال بأسياً:

- ما زلت أذكر ولادة نعيمة، كانت ولادة حسيرة
عانت منها عائشة ما عانت، وكنت متألّماً، وكنت
واقفاً في هذا المكان مع المرحوم خليل...

فسأله عبد المنعم:

- هل أنهم من هذا أنّ عسر الولادة وراثي؟

فقال ياسين وهو يشير بأصبعه إلى فوق:

- عنده اليسر...

فقال عبد المنعم:

- جئنا بحكيمة معروفة في الحيّ كلّها، كانت أمّي
تفضل إحضار الداية التي ولّدها، ولكنّي أصبرت على
الحكيمة، فهي أنظف وأمهز بلا ريب.

فقال ياسين:

- طيباً، ولو أنّ الولادة بجملتها بأمر الله وعنايته.

فقال إبراهيم شوكت وهو يشعل سيجارة:

- جاءها الطلق في الصباح الباكر، والساعة تدور
الآن في الخامسة مساءً، مسكينة، إنّها رقيقة كالخيط،
ربّنا يأخذ بيدها.

ثمّ وهو يركّذ عينيه الخاملتين في الجالسين عائشة،
وابنيه عبد المنعم وأحمد خاصة:

بحكم الطفلة من أمثال محمد محمود وإسماعيل صدقي...

ولاحظ كمال أنّ عبد المنعم لا يشترك في الحديث كعادته، فأراد أن يجزّه إليه فقال:

- لماذا لا نَحْكُثَا عن رأيك؟

فابتسم عبد المنعم ابتسامة لا معنى لها، وقال:

- دعني اليوم أستمع...

فضحك ياسين قائلًا:

- فرؤيت حق لا يملك المولود واجبًا، فيفكر في

العودة من حيث أتى...

ونُتت عن ياسين حركة أدرك كمال منها أنّه يهيم بانتحال علو للدهاب، أجل جاء وقت الفهوة، ونظام

والسهره عنده لا يمكن أن يغيّر شيء، وفكر كمال في

الخروج معه حيث لا ضرورة لوجوده، وجعل يراقبه

متوثبًا، وإذا بصرخة تنطلق من حجرة نيمه عنيفة

قاسية تعمل في طياتها أنغام الأصحاب البشرية، وتتابع

الصراخات في هتاف، وتطلعت العين نحو باب

الحجرة، وساد بينهم صمت، حتى همس إبراهيم في

رجله:

- لعلّه أطلق الأخير إن شاء الله...

حقًا؟ بيد أنّه تواصل حتى وجها، وامتنع لون عبد

المنعم، ثم عاد الصمت مرة أخرى ولكن إلى حين،

ورجع الطلق ولكنّه كان خواء، تقذف به حنجرة

بُغت وصدر تصدّع فكانته النزع. ولّت حال عبد

المنعم على أنّه في حاجة إلى تشجيع، فقال له ياسين:

- كلّ ما تسمع أحوال مسالوفة في الولادة

العسيرة...

فقال عبد المنعم بصوت متهتج:

- العسيرة! العسيرة! ولكن لماذا كانت عسيرة؟

وفُتح الباب فخرجت زنوبة ثم أغلقت، فتنظروا

إليها، فاقتربت حتى وقفت أمام ياسين وقالت:

- كلّ شيء على ما يرام، غير أنّ الحكيمه زيادة في

الحيلة ترجو أن تحضروا الدكتور سيّد محمد...

فوقف عبد المنعم قائلًا:

- لا شك أنّ الحال استوجبت إحضاره، خبريني عما

جا؟

فقال أحمد في امتعاض:

- الظاهر أنّ الاستثناء هو القاعدة في مصر!

- حقّ النحاس ومكرم قد سقطا في الانتخابات،

ليس هذا هزلًا؟

وهنا قال إبراهيم شوكت في شيء من الحدة:

- لكن لا ينكر أحد أنّها أساءه الأدب حيال الملك،

إنّ للملوك مقامهم، وليس على ذلك النحو تناس

الأمور...

فقال أحمد:

- إنّ بلادنا في حاجة إلى جرعات قويّة من قلة

الأدب حيال الملوك، حتى تفيق من إغياثها

الطويل...

فقال كمال:

- ولكنّ الكلاب يعيدونها إلى الحكم المطلق، تحت

ستار بلان مؤبّد، وفي نهاية التجربة ستجد فاروق في

قوة فؤاد واستبداده أو أشدّ، كلّ هذا يُرتكب بأيدي

بعض أبناء الوطن...

لفضحك ياسين، وقال وكأنّه يفسّر ويوضّح:

- كمال ولو أنّه كان على صباه من محبي الإنجليز

كشاهين وعدلي وثروت وحيدر، إلّا أنّه انقلب وفدئيًا

بعد ذلك...

فقال كمال جادًا، وهو ينظر إلى أحمد خاصّة:

- انتخابات مزوّرة، كلّ شخص في البلد يعلم بأنّها

مزوّرة، ومع ذلك يُعترف بها رسميًا ونُحكم بها البلاد،

وبعني هذا أن يستقرّ في ضمير الشعب أنّ نوابه

لصوص سرقوا كراسيهم، وأنّ وزرائه لصوص سرقوا

بالتالي مناصبهم، وأنّ سلطاته وحكومته مزوّرة،

وأنّ السرقة والتزيف والتضليل مشروعة رسميًا، أفلا

يُعدّل الرجل العاديّ إذا كفر بالبادئ والخلق وأمن

بالزيف والانتهازية؟

فقال أحمد متحمسًا:

- دعهم يحكمون، في كلّ شرّ جانب خير، ومن

الأفضل لشعبنا أن يسام الخسف من أن يُجذّر بحكم

مجهّ ويثّ به دون أن يحقّق له... هذا الحكم - آماله

الحقيقيّة، طالما فُكرت في هذا حتى انقلبت أرحب

فقلت زُتوبة بصوت هادئ مؤكد:

- كل شيء على ما يرام، وإذا أردت أن تزيدنا اطمئناناً فأسرع في إحصار الطيب... .

ولم يُبْخِضْ عبيل المنعم وقته فمضى إلى حجرته ليستكمل ملابسه، ومضى في أثره أحمد، ثم خرجا معاً ليأتيا بالدكتور، وعند ذاك قال ياسين:

- ماذا هناك؟

فقلت زُتوبة، وقد نمت وجهها لأول مرة عن قلق:

- تعبانة المسكينة كان الله في عونها.

- والحكيمة ألم تقل شيئاً؟

فقلت زُتوبة بتسليم:

- قالت إنها تريد الدكتور...

وعادت زُتوبة إلى الحجرة تاركه وراءها ظلاً ثقيلًا من

القلق...

تسالم ياسين:

- ألهذا الطيب بعيد؟

فأجابته إبراهيم شوكت:

- في العاهرة التي فوق قهوثك بالعبثة.

ودوت صرخة فانتعلت الألسن، هل عاد الطلق

الأيام؟ وحتى يحضر الطيب، ودوت الصرخة مرة

أخرى، فلزاد التورق، وإذا ياسين يهتف مرتاحاً:

- لهذا صوت عائشة!

فأرهموا السمع، وعرفوا صوت عائشة، فقام

إبراهيم في الحجرة ونقر الباب، ففتحت زُتوبة بوجه

باهت، سالماً بلهفة:

- ما لكم؟ مال عائشة هاتم؟ أليس من المستحسن

أن تغادر الحجرة؟...

فقلت زُتوبة وهي تزدد ريقها:

- كلاً... الحال شديدة يا سي إبراهيم.

- ماذا حدث؟!

- فجأة، إنها... انظر...

في أقل من ثانية كان الرجال الثلاثة على باب

الحجرة ينظرون. كانت نعيمة مغشاة حتى الصدر،

خاليتها وجذتها والحكيمة حولها في الفراش، أمها واقفة

وسط الحجرة تحملن في بنتها من بعيد بينين زائغتين

وكأنها فقدت الوعي، وكانت نعيمة مضغمة العينين،

صدرها يعلو وينخفض كأنما قد أفلت زمامه من بقية

الجسد الساكن، أما الوجه فأبيض باهت كالسوت.

هفتت الحكيمة: «الدكتور». وجعلت أمية تهتف:

ويا رب! وخديجة تنادي بصوت مدعور «نعمة ربي

علي»، أما عائشة فلم تنطق كأن الأمر لا عنيها في

شيء. تسالم كيال «ماذا هنالك؟» وسأل أخاه في

ذهول: «ماذا هنالك؟» ولكنه لم يجبه، أي ولادة

عسيرة؟!، ودار بصره بعائشة وإبراهيم وياسين فتقهقر

قلبه في صدره، ليس هنالك إلا معنى واحد...

ودخلوا الحجرة جميعاً، لم تعد حجرة ولادة وألاً ما

دخلوا، وكانت عائشة في حال بالغ الشدة ولكن أهدأ

لم يوجّه إليها كلمة، وفتحت نعيمة عينيها فبدلتها

مظلمتين، وأتت حركة كأنما تريد أن تجلس فأجلستها

جثتها وحوتها في حضنها، شهقت الفتاة، ونذت عنها

آهة عميقة، ثم بغتة هفتت كأنما تستغيث:

- ماما... أنا ذاهية... أنا ذاهية...

ثم سقط رأسها على صدر جدتها، وضجت الحجرة

بالصوات، ولطمت خديجة خديتها، وتشهدت أمية في

وجه الفتاة، أما عائشة فرمت بناظرها من النافذة

المطلّة على السكينة، وثبتت عينيها على ماذا؟ ثم تردّد

صوتها كالخشخشة:

- ما هذا يا ربي؟ ما هذا الذي تفعله؟، لماذا؟،

لماذا؟، أريد أن أفهم...

واقترب منها إبراهيم شوكت ومدّ لها يده، فأبعدتها

بحركة عصبية وهي تقول:

- لا يلمسني منكم أحد، دعوني، دعوني...

ثم ردتّ بصرها بينهم قائلة:

- اخرجوا من فضلكم، لا تكلموني، هل عندكم

كلام يجدي؟ لن ينفعني الكلام، ماتت نعيمة كما

ترون، كانت كل ما تبقى لي فلم يبق لي شيء في

الدنيا، اذهبوا من فضلكم...

كان الظلام حالكاً عندما مضى ياسين وكيال في

طريقهما إلى بين القصرين، وكان ياسين يقول:

- ما أثقل أن أبلغ والدك الخبر!

فأجاب كيال وهو يحفف عينيه:

- نعم...

الأمر الذي لم يُتَّخَ له هذا العام في زحمة طلبة القسم الإحصائي. على أنه لم يسبق له أن وجدها هكذا قريبة منه دون كثرة من الرقباء، فحلَّته نفسه بأن يمضي إلى رفوف المراجع كأنها ليطلع على أحدها، ثم يجيئها في طريقه. وألقى نظرة على ما حوله فرأى عددًا من الطلاب منتشرين هنا وهناك لا يتجاوز عددهم أصابع اليد، فقام دون تردد وسار في الممر بين المقاعد، وعندما مرَّ بها التفت عينها لحق رأسه تحية مؤدبة، فبدأ في ملاحقتها وقع المفاجأة، ولكنَّها ردَّت تحيته برأسها ونظرت فيها أمامها. وتصادم ترى هل أخطأ؟. كلاً إنَّها زميلة منذ عام طويل، ومن واجبه أن يجيئها إذا التفت هكذا وجهًا لوجه في مكان يكاد يكون خاليًا. وواصل سيره إلى خزانة الكتب الحاسوبية لخدمة المعارف، ثم اختار مجلَّدًا وراح يقلب صفحاته دون أن يقرأ كلمة. كان سروره بردَّ التحية عظيمًا فزايله التعب واهتز صدره نشاطًا. يا لها من حسناء ملأت عليه جوانب نفسه إعجابًا وانجذابًا حتَّى صارت شغله الشاغل. إنَّ كافة أحوالها تدلُّ على أنَّها من «أسرة» كما يقولون، وأخشى ما يخشاه أن يكون لها من كبرياء الطبقة نصيب يخفيه أدبها الجَمِّ، وإنَّه يستطيع أن يعترف لها. صادقًا - بأنه من أسرة كذلك إذا دعا الأمر، أليس آل شوكت و«أسرة»؟. بلى... وذات ملك، فسيكون له يومًا ريع ومرتب معًا. والمتر نفوه عن ابتسامة ساخرة، ريع... مرتب... أسرة! إذن فإين مبادؤه؟. وشعر بشيء من الحجل. إنَّ القلب في أهوائه لا يعرف المبادئ، فالتناس يجيئون ويتزوجون خارج دائرة مبادئهم ودون مراعاة لها، وعليهم أن يخلقوا أنصافهم الجميلة خلقًا جديدًا، كمن يدخل بلدًا غريبًا فعليه أن يتكلَّم بلغته حتَّى يبلغ ما يريد. ثم إنَّ الطبقة والمليكة حقيقتان واقعتان لا يخلقها هو ولا أبوه ولا جدُّه، فليس هو بالمسئول عنها، والعلم والجهد هما الكفيلان بحو هذه السخافات التي تفرق بين البشر. من الممكن ربَّما أن يغيِّر نظام الطبقات، ولكن كيف يستطيع أن يغيِّر الماضي وهو أنَّه من أسرة موفورة الدخل؟. وههنا أن تتعارض المبادئ الشعبية مع الحبِّ الأرستقراطي، وكارل ماركس نفسه تزوج

- لا تبي، أعصابي لم تعد تتحمَّل...
فقال كمال متنبِّدًا:
- كانت عزيزة جدًا عليَّ، أنا حزين جدًا يا أخي، وعائشة المسكينة!...
- هذه هي الكارثة! عائشة! سنسى جميعًا إلَّا عائشة!...
«سنسى جميعًا!؟ لا أدري. إنَّ وجهها لا يغيب عني مدى العمر، ولو أنَّ لي مع النسيان تجربة فلَّة، هو نعمة كبرى، ولكن متى يموت بيلسمه؟». وعاد ياسين يقول:
- كنت متشائمًا عند زواجها، ألا تدري؟ لقد تنبَّأ لها الدكتور يوم مولدها بأنَّ قلبها لن يسعها على الحياة بعد العشرين! والذكَ يذكر هذا في الغالب...
- لا أدري شيئًا، أكانت عائشة تدري؟
- كلاً، إنَّه تاريخ قديم، وقضاء الله لا يدُّ منه...
- ما أتسك يا عائشة!...
- أجل ما أتسكها المسكينة!...

٢٥

كان أحمد إبراهيم شوكت جالسًا في قاعة المطالعة بمكتبة الجامعة، مكبًا على متابعة كتاب بين يديه. لم يكن بقي على الامتحان إلَّا أسبوع، وكان الجهد قد نال منه كلُّ منال، وشعر بأنَّ شخصًا قد دخل القاعة وجلس خلفه فالتفت إلى الوراء مستطلعًا فرأى علوية صبري. نعم هي، ولعلَّها جلست تنتظر كتابًا استعارته، وعند تلك الالتفاتة التفت عيناه بالعينين السوداوين، ثم أعاد رأسه إلى وضعه الأوَّل متشبي القلب والحواس. ما من شكٍّ في أنَّها باتت تعرف شكله، كما تعرف أنَّه مغرم بها، فعمل هذه الأمور لا تخفى، إلى أنَّها كلَّما التفتت هنا أو هناك - سواء في فصول المحاضرات أم حديقة الأورمان - وجدته مسترقًا إليها النظر. وقد حال حضورها بينه وبين متابعة ما يقرأ، ولكنَّ فرحته فاقت حتَّى ما كان يقدر. وكان - منذ أن علم بأنَّها ستخصص في الاجتماع مثله - يؤمل أن يتمَّ التعارف بينهما في غضون العام الدراسي المقبل،

- بكل سرور، ولكن معذرة، متجدين أكثر الدراسات بقسم الاجتماع بالإنجليزية...
فتساءلت وهي تداري مؤلدة ابتسامة:
- أتعرف أنني اخترت قسم الاجتماع؟
ابتسم كأنها ليداري حياته، ولم يكن ثمة حياة
ولكنه شعر بأنه «وقع» ولكنه قال ببساطة:
- نعم!

- لمناسبة آية مصادقة!
فقال بجرأة:
- بل سألت فعلت...
وضغطت شفيتها القرمزيتين، ثم قالت وكأنها لم

تسمع جوابه:
- غداً تبادل المذكرات...
- صباحاً...
- إلى اللقاء وشكراً...
فبادرها:

- إلى سعيد بالتعرف إليك، إلى اللقاء.
لبث وأقفاً حتى واراها الباب ثم جلس. ولحق أن
البعض كان ينظر مستطعاً نحوه، ولكنه كان تملأ
بالسعادة. ترى أكان حديثها استجابة لما بدا من إعجابها
بها، أم لحاجتها الملحة إلى مذكراته؟ لم تسنح قبل
الساعة فرصة للتعارف. كان يجدها دائماً بصحبة
الأتراب. هذه أول فرصة، وقد فاز بما تمنى طويلاً فيها
يشبه المعجزة. إن كلمة من ثغر نحيبه خليفة بأن تجعل
من كل شيء كلاً شيء...

٢٦

بدا ياسين قلقاً رغم إرادته. وكان قد تظاهر طويلاً
بأنه لا يهمه شيء، لا الدرجة ولا الماهية ولا الحكومة
نفسها، لا أمام زملائه الموثقين فحسب ولكن حيال
نفسه أيضاً. إن الدرجة السادسة - إذا رُقي إليها -
ستزيد مرتبه جنهين لا غيراً. وما ما ضيع ياسين!
ويقولون إنها ستجعل منه رئيس قلم بعد مراجع،
ولكن متى كان يكثر ياسين للرياسات؟ بيد أنه كان
قلقاً، خاصة بعد أن استدعى مدير الإدارة عمداً

من جيني فون وستفال حفيدة الدوق برونشويك،
وكانوا يستأجروها «الأميرة الساحرة» و«ملكة الرقص»،
وها هي أميرة ساحرة أخرى ولو رقصت لكاتت ملكة
الرقص. وأعاد المجلد إلى موضعه ثم رجع، وجعل
يلاً ناظره مما بدا من قاعته، جانب من أعلى الظهر،
وصفحة العنق الرقيق، والفيذال المزدان بالشعر
المعقوص، ما أجهل المنظر، ومز بها خفيفاً إلى مقعده
وجلس. ولم تضر دقائق حتى سمع وقع أقدامها
الخفيفة، فنظر إلى الوراء أسفاً وهو يظنها متصرفه
ولكنه رآها قادمة، فلما حاذته وقفت بشيء من
الارتباك، وهو لا يصدق عينه، وقالت:

- لا مؤاخلة، هل أجد عندك محاضرات التاريخ؟
نهض كالجندي، ويادر يقول:
- بكل تأكيد...
فقالت كالمعتدة:

- لم أستطع متابعة الأستاذ الإنجليزي كما يجب،
فباتني تقيد كثير من النقط الهامة، وأنا لا أرجع إلى
المراجع إلا في المواد التي سأخصص فيها فيما بعد، ولا
يشع الوقت للمراجعة في سائر المواد...

- مفهوم... مفهوم...
- وقد علمت أن مذكراتك مستوفاة، وألك أمرتها
لكثيرين لينقلوا منها ما فاتهم؟...
- نعم، ستكون تحت أمرك غداً...
- متشكراً جداً (ثم وهي تبسم) لا تظنن بي
الكسل، ولكن إنجليزي تقي متوسطاً...

- لا بأس، أنا بدوري دون المتوسط في الفرنسية،
ولمعه نتاح لنا الفرص للتعاون، ولكن معلومة تفضل
بالجلوس، قد يمتك الاكلع على هذا الكتاب،
مدخل الاجتماع هانكن...

ولكنها قالت:
- متشكراً، لقد رجعت إليه مرات، قلت إنك دون
المتوسط في الفرنسية، فلملك في حاجة إلى مذكرات
السيكولوجي؟

فأجاب دون تردد:
- أكون شاكرًا لو تفضلت...
- غداً تبادل المذكرات؟

- تولد تزحق، كل واحد وقسمته...
 - والكفاءة؟...
 فقال ياسين منعلاً:
 - الكفاءة؟ هل نقيم جسوراً أو نشق عكبات
 كهربائية؟ كفاءة! ماذا يتطلب عملنا الكتابي من
 كفاءة؟ كلانا بالابتدائية، وفضلاً عن ذلك فانا رجل
 مثقف...
 فضحك إبراهيم أفندي ضحكة ساخرة، وقال:
 - مثقف؟ أهلاً يا سي مثقف!... انتظرن نفسك
 مثقفاً بالشعر الذي غفطه؟ أو بالإنشاء الذي تكتب
 به خطابات الإدارة كأنك تؤذي امتحان الابتدائية من
 جديد؟... أنا تارك أمري لله...
 وافترق الرجلان على أسوأ حال، وعاد ياسين إلى
 مكتبه، كانت الحجرة كبيرة، صُفّت بها المكاتب
 متقابلة على الجانبين، وغطت الجدران بالرفوف المكتظة
 بالملفات. وكان البعض مكباً على الأوراق والآخرين
 يتحدثون ويلتخنون؛ على حين ذهب وجاء عدد من
 الساعة بالملفات، قال جار ياسين له:
 - ستأخذ ابني البكالوريا هذا العام، وسألحفها
 بمعهد التربية فأرتاح من ناحيتها، لا مصروفات ولا
 تعب قلب في البحث عن وظيفة بعد التخرج.
 فقال ياسين:
 - خير ما تفعل...
 فسأله الرجل مجادلاً:
 - وماذا أعددت لكرمة؟ كم بلغت من العمر هل
 فكرة؟
 فابتسمت أسارير ياسين رغم انفعاله، وقال:
 - في الحادية عشرة، وسوف تأخذ الابتدائية في
 الصيف القادم إن شاء الله (وهو يعد على أصابعه):
 نحن في نوفمبر. فيبقى سبعة أشهر بالتعام والكمال...
 - ما دامت تنجح في ابتدائي فستنجح في ثانوي،
 البنت أضمن اليوم من الصبيان...
 ثانوي؟ هذا ما تريده تزوية. كلاً إنّه لا يطيق أن
 يرى ابنته تسير في الطريق ونهداها عتكان. ثم
 المصروفات؟...

أفندي حسن - زوج زينب أم رضوان - لمقابلة وكيل
 الوزارة، وذاع بين موظفي المحفوظات أنّ الوكيل
 استدعاه لسميع رايه في موظفيه للمرة الأخيرة قبل
 توقيع الكشف الخاص بالترقيات. عسّد حسن؟
 خليفته اللدود الذي لولا السيد محمد عفت لبش به
 من زمن بعيداً. أيمن أن يشهد له هذا الرجل شهادة
 طيبة؟ وانتهاز فرصة خلّو حجرة المدير فهرع إلى
 التليفون، وطلب كَلِيّة الحقوق، وكان يتصل بها ذلك
 اليوم للمرة الثالثة، مستدعياً رضوان ياسين...
 - آله، رضوان؟ أنا والدك.
 - أهلاً وسهلاً، كلّ شيء عال.
 كان صوته يمتّ من ثقة، الابن واسطة للأب...
 - الحركة رهن التوقيع الآن؟
 - اطمن، الوزير نفسه هو الذي أوصى بك، كلمه
 نواب وشيوخ ووعدهم بكلّ خير.
 - ألا نحتاج المسألة لتوصية أخيرة؟
 - أبداً، الباشا هنّالي هذا الصباح كما أخبرتك،
 اطمن جدّاً.
 - أشكرك يا ابني، سلام عليكم.
 - وعليكم السلام يا بابا، مبارك مقبلاً...
 ووضع الساعة وغادر الحجرة، فالتقى بإبراهيم
 أفندي فتح الله - زميله ومنافسه في الدرجة - قادماً
 يحمل بعض الملفات، فتبادلا التحية في تحفّظ، وعند
 ذلك قال ياسين:
 - ليكن بيننا مباراة رياضية يا إبراهيم أفندي،
 ولتقبل النتيجة أيّاً كانت بشهامة...
 فقال الرجل في امتعاض:
 - على شرط أن تكون مباراة شريفة!
 - ماذا تعني؟
 - أن يكون الاختيار لوجه الله لا لوساطة...
 - غريب رأيك! وهل يوجد رزق بدون وساطة في
 هذه الدنيا؟ اسمع كما تشاء وأسمع كما أشاء، وسيأخذ
 الدرجة صاحب القسمة والنصيب...
 - أنا أقدم منك...
 - كلانا موظف قديم، سنة لا تقدّم ولا تؤخّر...
 - في سنة تولد نفوس وتزهر نفوس!

- لو صحت هذه النظرية، لاستحقَّ عمَّ حسين
قُرَّاش مكتبنا أن يكون وزير المعارف!...

وضرب إبراهيم فتح الله كفاً بكفٍّ، وقال مسافلاً
زملاءه جميعاً:

- يا إخوان، هذا الرجل (مشيراً إلى ياسين) طيب
وظريف وابن حلال، ولكن هل يشتغل بلمِّيم؟... أنا
راضٍ بلمَّتكم!...

- دقيقة عمل مَنِّي تساوي شغل يوم منك!...
- الحكاية أنَّ المدير يترقُّ بك، وأنت تتوكل على
ابنك في هذا العهد الأخير!...

فقال ياسين مدحجاً في إغاظته:
- وفي كلِّ عهد وحياتك، ابني في هذا العهد، فإذا
جاء الوفد عندك ابن أختي وأبي، قل من عندك
أنت؟

فقال الرجل وهو يرفع رأسه إلى السقف:
- عندي ريتنا!...

- وهو سبحانه عندي أيضاً، أليس برَّبِّ الجميع؟
- ولكنَّه لن يرضى عن زبائن محمَّد علي!...

- وهل يرضى عن مدعي الأفيون والزلول؟
- ليس أبشع في الوجود من السُّكِّير!...

- الحمر شراب الوزراء والسفراء، ألا تراهم في
الصحف وهم يشربون الانخاب؟ ولكن هل رأيت
سياسياً يقدِّم قطعة أفيون في حفل سياسيٍّ في صَحَّةٍ
عقد معاهدة مثلاً؟!

فقال جار ياسين وهو يخالِب الضحك:
- هس يا جماعة، وآلاً تقسمتم مدَّة خدمتكم في
السجن!...

فبادر ياسين مشيراً إلى فرجه:
- كان يقرِّفني في السجن وحياتك، ويقول لي أنا
أقدم منك!...

وإذا بمحمَّد حسن يعود من مقابلة وكيل الوزارة،
فساد الصمت وتطلَّمت نحوه الرموس.

وأعجبه الرجل نحو حجرته لا يلوي على شيء،
فتبادلوا النظرات متسائلين. لا يبعد أن يكون أحد
المتخصصين الآن رئيس قلم، ولكن من صاحب الحظِّ

- نحن لا نلحق بناتنا بالثانويِّ، ولماذا؟... إنَّها
لن تتوقَّفت!...

فسأل ثالث:
- ألهذا يقال في عام ١٩٣٨؟
- يقال في أسرتنا ولو في عام ١٢٠٣٨.
فضحك رابع وهو يقول:

- قل إنَّك لا تستطيع أن تنفق عليها وعلى نفسك
معاً! قهوة العتبة وخمارة محمَّد علي، وحبِّ البنات
البكاري مدَّ مَنِّي الحيل. هذه هي الحكاية...
فضحك ياسين ثمَّ قال:

- ريتنا سائرهما... ولكن كما قلت لك نحن لا
نعلم البيت أكثر من الابتدائية!...

وتعالت سعدة من الركن القصيِّ فيها يلي مدخل
الحجرة، فالتفت ياسين إلى صاحبها، ثمَّ وقف وكأَنه
تذكر أمراً هاماً، فمضى إلى مكتبه حتَّى شعر الرجل به
لرفع نحوه رأسه، فبال ياسين فوقه قائلاً:

- وعدتني بالوصفة...
فمدَّ الرجل أذنه متسائلاً:

- نعم؟...
فتضايق ياسين من أذن الرجل الثقيلة، واستحسنى
أن يرفع من صوته وإذا بصوت يجيء من وسط الحجرة
عالياً وهو يقول:

- أراهم على أنَّه يسألك عن الوصفة، وصفتك التي
ستذهب بنا جميعاً إلى القبر!...

وتراجع ياسين متريماً إلى مكتبه، فقال له الرجل
دون ميالة بإحراجِه، وبصوت سمعته الحجرة كلها:

- أنا أقول لك عنها: هات قشر مانجو، اغله غلياً
شديداً، وداوم على ذلك حتَّى يصير سائلاً لزجاً
كالعسل، وخذ منه ملمعة على غيار الرق!...

وضحكوا جميعاً، غير أنَّ إبراهيم فتح الله قال
متنهكاً:

- فايق ورايق، انتظر حتَّى تأخذ الدرجة السادسة
وهي تشدُّ حيلك؟...

فتساءل ياسين ضاحكاً:
- وهل تنفع الدرجة في هذه المسألة؟...
فقال جار ياسين ضاحكاً أيضاً:

فاستاء ياسين بالتعريض بسيرته، وقال:
- لا أقبل أن يمَسَّ إنسان سلوكي الخاص بكلمة،
أنا حرٌّ خارج الوزارة! ...
- وداعلها؟
- سأعمل ما يعمل رؤساء الأقسام، أنا اشتغلت في
ماضي ما يكفي طوال العمر ...
عاد ياسين إلى مكتبه متكلِّفًا الابتسام رغم جيشان
صدره بالغضب، وذاع النبا فتلقَّى التهانئ ...
وكان إبراهيم فتح الله يميل على أذن جاره هامسًا في
حقن:
- ابنته! ... هذه هي الحكاية! عبد الرحيم باشا
عيسى ... فهمت؟! ... اسفخص! ...

٢٧

كان السيّد أحمد عبد الجواد جالسًا على كرسيّ كبير
في المشريّة ينظر إلى الطريق حيّثًا، وحيّثًا في جريدة
الأهرام المبسوطة على حجره، وكانت نقوب المشريّة
تعكس على جلبابه الفضفاض وطاقيته نقيطًا من
الضياء، وقد ترك باب حجرته مفتوحًا ليمتكن من
سراغ الراديو القائم في الصالة، غير أنّه بدا ناحلاً
ضامراً، كما لاحت في عينيه نظرة ثقيلة تنمّ عن
استسلام حزين. وكان كالمّا يكتشف الطريق - من
جلسه بالمشريّة - لأوّل مرّة في حياته، فلم يسبق له أن
رأه من هذه الزاوية في أيّام حياته الماضية، إذ إنّهُ لم
يمكث في البيت إلّا ساعات النوم على وجه التقريب،
أمّا اليوم فلم تعد له من تسليّة - بعد الراديو - إلّا هذه
الجلسة في المشريّة، ينظر من نقوبها شمالاً وجنوباً،
وإنّه لطريق حيّ، مسلّ لطيف، وله إلى هذا طابعه
الذي يميّزه عن طريق النحاسين الذي ألف رؤيته من
دكانه - السابق - زهاء نصف قرن من الزمان، وغلّه
دكاكين حسنين الحلاق ودرويش الفؤال والفولي اللبّان
ويومي الشرياتي وأبو سريع صاحب المقلي، تقوم في
الطريق كالقسمات في الوجه حتى عُرف بها وعُرفت به،
أيّ عشرة وأيّ جوار، ترى ما أمحال هؤلاء الناس؟
حسين الحلاق مدمج الحلق، من نوع قل أن يبدو

السعيد!١٩. وتُفتح باب المدير، وظهر رأسه الأصلع وهو
ينادي بصوت جافّ «ياسين أفندي». فنهض ياسين
بجسمه الضخم، ومضى نحو الحجرة وقلبه يخفق،
وتخصّصه المدير بنظرة غريبة ثمّ قال:
- رُقيت إلى الدرجة السادسة! ...
فقال ياسين وقد انشرح صدره:
- شكراً يا أفندي! ...
فقال الرجل بلهجة لا تخلو من جفاف:
- من الإنصاف أن أصارحك بأنّه يوجد من هو
أحقّ بها منك ... ولكنّها الوساطة!
فغضب ياسين، وكان كثيراً ما يغضب حيال هذا
الرجل، وقال:
- الوساطة! ما لها هل تتمّ حركة كبيرة أو صغيرة
دون وساطة؟ هل ترقيّ مخلوق في هذه الإدارة، في هذه
الوزارة، بما يفهم حضرتك، دون وساطة؟
فكظم الرجل غيظه، ثمّ قال:
- لا يأتي من ناسيتك إلّا وجع الدماغ، تترقى
بدون وجه حقّ، ثمّ تنور لأفكّ ملاحظة عادلة، ما
هينا، مبارك، مبارك يا سيدي، فقط أرجو أن تشدّ
حيلك، أنت الآن رئيس قلم! ...
فتمشّج ياسين بتراجع المدير، وقال دون أن يخفّف
من حدّته:
- أنا موثّف منذ أكثر من عشرين عاماً، وعمري
اثنان وأربعون عاماً، فهل تستكثر عليّ الدرجة
السادسة؟ إنّ الغلمان يعمّقون فيها بمجرد تخرّجهم من
الجامعة! ...
- المهمّ أن تشدّ حيلك، أرجو أن أعتمد عليك
كبقيّة زملائك، فقد كنت وأنت ضابط مدرسة
النحاسين مثال الموثّف للمجدّد، ولولا تلك الحادثة
القديمة ...
- شيء قديم فلا داعي لذكره الآن، وكلّ واحد له
أخطاؤه ...
- أنت الآن في سنّ الرجولة الناضجة، فإذا لم
يستقم سلوكك تعدّر عليك أن تقوم بواجبك، كلّ
ليلة سهر، فيأبى مخّ تعمل في الصباح؟. أريد أن
تنهض بالإدارة، هذا كلّ ما هنالك ...

المصحف، وأسمع الراديو وأنعم بأسرتك، ويوم الجمعة زر الحسين ركباً، حسبك هذا، الأمر لصاحب الأمر، متولّي عبد الصمد لا يزال يتخطّط في الطرقات، ويقول وانعم بأسرتك! لم تعد أمانة تمكث في البيت، انقلبت الآية، أنا في المشربة وأمانة تمحول في القاهرة من مسجد إلى مسجد، كمال يحالسي خفيّاً كالضيف، عائشة؟ آه يا عائشة، أمن الأحياء أنت أم من الأموات؟ ثم يرددون من قلبي أن يسيراً ويستريح!...

- سيدي...

والثقت إلى الوراء صوب الصوت، فرأى أم حنفي حاملة صينية صغيرة عليها قارورة الدواء وفنجان قهوة فارغ وكوب ماء مملوء لنصفه.

- الدواء يا سيدي...

رائحة المطبخ تتطاير من ثوبا الأسود، هذه المرأة التي صارت مع الزمن واحدة من أسرنا. وتناول الكوب وملا الفنجان حتى نصفه، وفطن سداد القارورة ونقط منها أربع نقط في الفنجان، وقلص وجهه قبل أن يتقلص من طعم الدواء، ثم تمحّره.

- بالشفأ يا سيدي...

- متشكر، أين عائشة؟

- في حجرتها، الله يصير قلبها!

- نادها يا أم حنفي...

في حجرتها، أو صل السطوح، ثم ماذا؟. وكان الراديو ما زال يلعب أغانيه ساخراً من حزن البيت الصامت ولم يكن السيد اضطرّ إلى ملازمة البيت إلا منذ شهرين، وكان قد مضى حبل وفاة نعيمة عام وأربعة أشهر، فاستأنف الرجل في سماع الراديو لحاجته الملحة إلى التسلية، فقاتلت له عائشة: «طبيعاً يا بابا، ربّنا يكفيك شرّ قصدة البيت». وسمع حفيف ثوب فالتفت فراها قادمة في ثوب أسود، متشحة بخمار أسود رغم حرارة الجو، تشوب بشرتها البيضاء زرقة غريبة، عنوان التعماسة يا ابنتي، قال برقة:

- هاتي الكرسي واجلسي معي قليلاً.

ولكنّها لم تتحرّج عن موقفها قائلة:

- مرتاحة هكذا يا بابا.

عليه أثر الزمن، لم يكد يتغيّر منه شيء إلا شعره، ولكنّه جاوز الخمسين بلا رب، من لطف الله بهؤلاء الناس أنّه يحفظ عليهم صحتهم! ودرّيش؟. أصلح، هكذا كان دائماً، ولكنّه في الستين، ما أقوى جسمه! كذلك كنت أنا في الستين، ولكنّي أسيئت في السابعة والستين فإله من عمرا. وأعدت تفصيل ثيابي لتناسب ما تبقى من جسدي، وإذا نظرت إلى هذه الصورة المعلقة في حجرتي أنكرت نفسي. القولبي أصغر من درّيش، ذلك الأعمش المسكين، ولولا غلامه ما عرف كيف يتلصق إلى سبله، أبو سريع رجل عجوز، عجوز؟! ولكنّه ما زال يعمل، لم يفارق واحد منهم دكانه، ألا إنّ فراق الدكان لشديد! ثم لا يبقى لك إلا هذا المجلس، والقبري في البيت ليل نهار، لو استطيع أن أخرج ساعة واحدة كل يوم! ولكن عليّ أن أنتظر يوم الجمعة، ثم لا بدّ من العشاء، ولا بدّ من كمال لبصحيني، الحمد لله ربّ العالمين، بيسومي أصغره وأسددهم خطاً، من أمّ مريم بدأ، أمّا أنا فعندها انتهت، وهو اليوم مالك أحدث هارة في الحمي، هكذا كان مصير بيت السيد رضوان، أنشأ هذا المشرب المضاع بالكهرباء، حطّ رجل يبدأ بخداع امرأة، سبحان العاطي وجئت حكمتها كل شيء يتجدد، الطريق عهد بالأسفلت، وأضيء بالمصابيح، أتذكر ليالي عودتك آخر الليل في الظلام الدامس؟ لكن أين ممّي هاتيك الليالي؟ وفي كل دكان كهرباء وراديو، كل شيء جديد، إلا أنا، عجوز في السابعة والستين، لا يستطيع مفادرة داره إلا يوماً واحداً في الأسبوع وهو يلهث. القلب! كله من القلب، القلب الذي طالما عشق وطالما ضحك وطالما انبسط وغنى، يفضي اليوم بالقمود ولا راد لقضائه. قال الطبيب وغد الدواء والزم البيت وتابع نظامي الغذائي، حسن، ولكن هل بعيد ذلك إليّ قوتي؟... أعني بعض قوتي؟ فأجاب الطبيب وحسبنا أن تمنع المضاعفات، ولكنّ الجهد أو الحركة شيء خطير... (ثم ضاحكاً)... لماذا تريد أن تستردّ قوتك؟ أجل لماذا؟ إنّه لشيء عزن مضحك ممّا، ومع ذلك قال وأريد أن أذهب وأجيء فقال الطبيب ولكلّ حال مسرّاتها، جلسة هادئة، اقرأ

معطفاً، وعلى وجهها بيشة، وتقل خطاها في بطنه.
شدّ ما ركبها الكبرا. كان يُحسن الظنّ بصحتها منذرًا
ألمها للمعترّة، ولكنّها هي تبدو أكبر من سنّها. اثنين
وستين عامًا - بعشرة أعوام على الأقل، وبرز وقت غير
قصير قبل أن تدخل عليه وهي تسامح:

- كيف حال سيدي؟

فقال بصوت مرتفع نفخ فيه نبرات الحلة المطلوبة:

- كيف حالك أنت! ما شاء الله! من طلعة الصبح

يا وليّة!

فابتسمت قائلة:

- زرت سيّدتك، وزرت سيّدك، ودعوت لك

وللجميع...

عادته بعودتها طمأنينة وسلام، وشعر بأنّه يستطيع
الآن أن يطلب ما يشاء دون حرج:

- أيصحّ أن تتركيني وحدي كلّ هذا الوقت؟!

- أنت أذنت لي يا سيدي، لم أذهب طويلاً، ولكنّها
الضرورة يا سيدي، ما أخرجنا إلى الدعاء، نوسّلت
إلى سيدي أن يرّد إليك صحتك حتّى تروح وتغدو كما
تشاء، كما دعوت لعائشة وللجميع...

وجاءت بكرميّ وجلست، ثمّ سألت:

- هل تناولت الدواء يا سيدي؟ أنا تبّعت على أمّ

حنفي...

- لينك تبّعتها على شيء أحسن!

- بالشفّا يا سيدي، سمعت في المسجد درساً جيلاً

من الشيخ عبد الرحمن، تحدّث يا سيدي عن الكفّارة
عن الذنب وكيف تمسح السيّئات، كلام جميل جدّاً يا
سيدي، ليتني أستطيع أن أحفظ كآيām زمان...

- وجهك شاحب من المشي، كلّها كم يسوم

وتصبحين من زبائن الدكتور...

- ربّنا الحافظ، أنا لا أخرج إلّا لزيارة آل البيت،

فكيف يقع لي سوء؟!

ثمّ متدركة:

- آه يا سيدي، كلدت أنسى، يتحدّثون في كلّ

مكان عن الحرب، يقولون إنّ هتلر هجم...!

تسأل الرجل باهتمام:

- متأكّدة؟..

علّمته الأيام الأخيرة ألاّ يحاول أن يعدل بها عن
رأي.

- ماذا كنت تفعلين؟

فقال دون أن ينمّ وجهها عن أيّ معنى:

- لا شيء أفعله يا بابا.

- لماذا لا تخرجين مع نيتك لتزوري الأضرحة

المباركة، أليس هذا أفضل من يقاتك هنا وحدك؟

- ولماذا أزور الأضرحة؟

وكأنّها فوجئ بقولها، بيد أنّه قال بهدوء:

- تتوسّلين إلى الله أن يصبر قلبك.

- الله هنا معنا في البيت!

- طبعاً، أقصد أن تتركني هذه العزلة يا عائشة،

زوري أخوتك، زوري الجيران، رُوحي عن
نفسك...

- لا أستطيع أن أرى السكوية، ولا معارف لي، لم

يعد لي معارف، لا أحيط بزيارة أحد...

قال الرجل وهو يولي عنها رأسه:

- أحبّ أن تنصّري، وأن عتّمي بصحتك...

- صحتي!...

قالتها فيها يشبه العجب، فقال بتركيد:

- نعم، ما فائدة الحزن يا عائشة؟...

فقال وكانت رغم حالها تحافظ على الأدب الذي
تعوّدت أن تلتزمه حياله:

- وما فائدة الحياة يا بابا؟

- لا تقولي هذا، إنّ أجرك عند الله عظيم!...

فحنّت رأسها لتخفي عنها الدامعتين، وقالت:

- أوّد أن أذهب عنده لأنال هذا الأجر، ليس هنا يا

بابا!...

ثمّ انسحبت برقّة، وقبل أن تغادر الحجر توقّفت

قليلاً كأنّها تذكّرت أمراً، فسألته:

- كيف صحتك اليوم؟

فابتسم قائلاً:

- الحمد لله، المهمّ صحتك أنت يا عائشة...

وغادرت الحجر، من أين تأتي الراحة في هذا

البيت؟ وراح يرّدّه بصره في الطريق حتّى ثبت على

أمنية وهي راجعة من جولتها اليومية، كانت ترتدي

الدرجة السادسة، على حين يتعين خريجو الجامعات في
الدرجة الثامنة الكتائبية، وقد حصل عبد المنعم على
الليسانس في نفس التاريخ، ولكنه لم يكن يدري ما
المصير، قالت خديجة باسمه، وكانت تشعر بشيء من
الغيرة:

- رضوان صديق الحجام، ولكن العين لا تعلق على
الحاجب...

فقال ياسين في سرور لم يفلح في مداراته:
- ألم تروا صورته مع الوزير في أهرام أمس؟...
بتنا لا ندري كيف نكلمه!...

فأشار إبراهيم شوكت إلى عبد المنعم وأحد قائلًا:
- هذان الولدان خاتبان، ضمنا عمرهما في مناقشات
حالة لا معنى لها، وكان خير من عرفا من رجالات
البلد الشيخ علي المنوفي ناظر مدرسة الحسين الأتلية،
وسخام البرك عدلي كريم صاحب مجلة الضوء أو
الهاب لا أدري!

وكان أحمد ساخطًا وإن بدا طبيعيًا. أثاره زهو خاله
ياسين كما أثاره تعليق والده، أما عبد المنعم فقد غكى
ما كان يتصوره من وراء هذه الزيارة الجامعة على
الغضب الذي كان خليقًا أن يشتعل في صدره في
ظروف أخرى. وكان يسترق النظر في وجه رضوان
متسائلًا عما وراءه، غير أن قلبه استبشر خيرًا بالزيارة،
فلعلها لم تكن تقع لولا أنها تحمل البشري. وهذا
ياسين يقول معلقًا على كلام إبراهيم:

- لو سألتي عن رأيي لقلت لك نعم الولدان! ألم
يقولوا في الأمثال: السلطان من ابتعد عن بساب
السلطان؟

كلًا لم يفلح ياسين في مداراة سروره، كما لم يفلح
في إقناع أحد بإيمانه بما قال، غير أن خديجة قالت
مشيرة إلى رضوان:

- ربنا يطعمه خيرهم ويكفيه شرهم...
وأخيرًا التفت رضوان إلى عبد المنعم قائلًا:
- أرجو أن أهتلك عما قريب...
فقطلع إليه عبد المنعم متسائلًا وقد تورّد وجهه،
فعاد رضوان يقول:

- وعندي الوزير بأن يعينك في إدارة التحقيقات...

- سمعتها بدل المزة مائة مرة، هتار هجم... هتار
هجم...

فقال الرجل ليفهمها أنها لم تسبقه بالأخبار:

- كان هذا متوقعًا من لحظة لأخرى...

- بعيد عنا إن شاء الله يا سيدي؟...

- قالوا هتار فقط؟ وموسوليني؟ ألم تسمعي هذا
الاسم؟...

- اسم هتار فقط...

- ربنا يطلع بناء، إذا سمعتم نداء عن ملحوظ
البلاغ أو المظلم فاشترؤوه...
فكانت المرأة:

- كاتما غلوم وزين، أتذكر يا سيدي؟ سباحان
من له الدوام!...

٢٨

كانت زيارة جامعة وذات معنى كما قالت خديجة فيما
بعد، فعندما فتح باب الشقة ملا فراغه ياسين في بذلة
بيضاء من تيل المحلة، تنكّمه الوردة الحمراء والمنشأة
العاجية، يكاد جسمه الضخم يدفع الهواء بين يديه،
وتبعه ابنه رضوان في بذلته الحريرية آية في الأناقة
والجمال، ثم زنوبة في ثوب سنجابي تملؤها الخشمة
التي صارت جزءًا لا يتجزأ منها، وأخيرًا كريمة في
فستان أزرق بديع كشف عن أعلى النحر والذراعين،
وقد تبلورت أنوثتها المبكرة - لم تكن تزيد عن الثالثة
عشرة - فبدت جلاذبها صارخة. وضمتهم حجرة
الاستقبال مع خديجة وإبراهيم وعبد المنعم وأحمد،
وسرعان ما قال ياسين:

- اسمعتم عن شيء كهذا من قبل؟ ابني سكرتير
الوزير الذي أنا في وزارته مجرد رئيس قلم في
المحفوظات، نثنت له الأرض إذا سار، وأنا لا يكاد
يشعر بي إنسانًا!

كان مدلول كلامه الاحتجاج، ولكن لم يخف على
أحد ما انطوت عليه نفسه من تيه وفخر بانه. وفي
الحق قد حصل رضوان على الليسانس في مايو من هذا
العام، وما لبث أن تعين في يونيو سكرتيرًا للوزير، في

- قعدة البيت لعنة، إلا من كان صاحب ملك فهو سلطاناً... .

فقال أحمد وفي عينيه بسمه خبيثة:

- خالي ياسين صاحب ملك، ولكنه صاحب وظيفة أيضاً... .

فضحك ياسين ضحكة عالية، وقال:

- صاحب وظيفة ويس من فضلك، أما الملك! كان يا ما كان، كيف يحتفظ بملكه من كان له أسرة كاسري؟

فهتفت زُوية في ارتياح:

- أسرتك؟

والفتت رضوان - قاطعاً الحديث الذي لا يحبه - إلى أحمد قائلاً:

- إن شاء الله نجدها في خدمتك في العام المقبل عندما تأخذ الليسانس!...

فقال أحمد:

- أشكرك جداً، لكنني لن أتوظف!...

- كيف؟...

- الوظيفة خليقة بقتل أمثالي، مستقبلي في الميدان الحر!...

وهمت خديجة بالاحتجاج، ولكنها أثرت تأجيل العراك إلى حينه، أما رضوان فقال بأساً:

- إذا غيرت رأيك فستجدني في خدمتك!

فرفع أحمد يده إلى رأسه شاكراً. وجاءت الخدام بأكراب الليمون الثلج، وفي فترة الصمت التي جعلوا فيها يجلسون، حانت الطائفة من خديجة نحو كريمة فكأنما كانت تراه لأول مرة منذ إفاقتهما من مسألة عبد النعم، فقالت برقة:

- كيف حالك يا كريمة؟

فاجابتها الفتاة بصوت فيه رخامة:

- بخير يا عمتي، متشجرة... .

وكادت خديجة تأخذ في إطراره جهلاً، ولكن شيئاً كالحذر - أوقفها. الواقع أنها لم تكن أول مرة تحمي بها زُوية معها مذ حجزت في البيت بعد أخذها الابتدائية. وقالت خديجة لنفسها إن هذه الأمور تُسمَّم

كانت أسرة خديجة ترتقب على لطف هذا التقرير، فركزت أبصارهم في رضوان، طالبة المزيد من التأكيد، فمضى الشاب يقول:

- أول الشهر القادم على أكثر تقدير... .

وقال ياسين معقّباً على قول ابنه:

- إننا وظيفة قضائية، لقد عين عندنا في إدارة المحفوظات شابان من حملة الليسانس في الدرجة الثامنة بثمانية جنيهات!.

وكانت خديجة هي التي طلبت من ياسين أن يكلم ابنه بشأن عبد النعم، فقالت في امتنان:

- الشكر لله ولك يا أخي (ثم وهي تلثفت إلى رضوان) وطبعاً جبل رضوان فوق رموسنا... .

وأمن إبراهيم على قولها قائلاً:

- طبعاً، إنه أخوه، ونعم الأخ.

وقالت زُوية باسمه، لكي تخرج من هامش الجلسة:

- رضوان أخو عبد النعم وعبد النعم أخو رضوان، ما في ذلك كلام.

وتساءل عبد النعم الذي كان يشعر بحياء لم يشعر به من قبل حيال رضوان:

- أعطاك كلمة جدية؟

فقال ياسين باهتمام:

- كلمة وزير!... إني متبّع المسألة!.

وقال رضوان:

- وأنا من ناحيتي سأدلل لك الصعاب في إدارة المستخدمين، ولي فهم أصدقاء كثيرون، ولو أنّ مولفني المستخدمين لا صديق لهم! فقال إبراهيم شوكت وهو يتنهد:

- الحمد لله. لقد أراحنا الله من الوظيفة والموظفين!...

فقال ياسين:

- عشت ملكاً يا أبا خليل... .

ولكنّ خديجة قالت متهمّة:

- ربّنا لا يحكم على أحد بقعدة البيت!...

وتدخلت زُوية بجمالة كعادتها، فقالت:

- في الهواء شراً!.. وإن كريمة إذ كانت ابنة زُئوبة فهي في الوقت نفسه ابنة ياسين، ومن هنا نحىء دقة المسألة!..
- ولم يكن عبد المنعم يوفي كريمة حقها من النظر لانشغاله بموضوعه، ولكن كان يعرفها حق المعرفة، على أنه لم يكن قد برأ كل البرء من أثر وفاة زوجها، أمّا أحمد فلم يكن في فؤاده متسع! وقال ياسين:
- كريمة ما زالت أسفة على عدم التحاقها بالمدرسة الثانوية.
- فقال زُئوبة مقبلة:
- وأنا أسفة أكثر...
- فقال إبراهيم شوكت:
- إني أشفق على البنات من جهد الدراسة، ثم إنَّ البنت في النهاية لبيتها، فلن يحضر علم أو آخر حتى تزف كريمة إلى صاحب القسمة السعيد...
- يا مقطوع اللسان، هكذا قالت خديجة لنفسها، يفتح المواضيع الخطيرة وهو في غفلة عن نتائجها، يا له من موقف!.. كريمة ابنة ياسين وأخت رضوان صاحب الفضل، لعلّه لا يكون لهذا القلق من سبب إلا الوهم، ولكن لماذا تكثر زُئوبة من زيارتنا جائرة في بدنها كريمة؟.. ياسين لا يسمح له وقته بالتفكير والتدبير، أمّا ربيبة التخت!...
- وقالت زُئوبة:
- هذا الكلام كان يقال في الزمن الماضي، أمّا اليوم فالبنات كلهنّ يذهبن إلى المدارس...
- فقال خديجة:
- في حارتنا يتنان في المدارس العالية، ولكنّ شكلها والعياذ بالله!...
- فسأل ياسين أحمد:
- اليس في بنات كُتَيْك جمال؟
- وخفق قلب أحمد، وتثقلت لعينيه الصورة المعشّشة في قلبه، ثم أجاب:
- حُبّ اليلم ليس قاصراً على الدميّات...
- فقال كريمة بأسمة، وهي تنظر صوب أبيها:
- المسألة تتوقف على الآباء.
- فضحك ياسين قاتلاً:
- عفارم يا ابنتي! هكذا تتحدّث البنت الطيّبة هن
- أبيها، وهكذا كانت تخاطب عمّتك جدك!..
- فقال خديجة متهمكة:
- المسألة تتوقف على الآباء حقاً!...
- فبادرتها زُئوبة قائلة:
- البنت معذورة، آه لو سمعت حديدته بسين أولاده!
- فقال خديجة:
- أنا عارفة وفاهمة!...
- فقال ياسين:
- أنا رجل له آراؤه في التريبة، أنا الأب الصديق، لا أحب أن يرتعد أبنائي خوفاً في غضري، أنا حتى اليوم يتابني الارتباك أمام أبي!...
- فقال إبراهيم شوكت:
- الله يقوّيه ويصبره على قعدة البيت! السيّد أحمد جيل وحده، وليس مثله أحد في الرجال...
- فقال خديجة منتقدة:
- قل له!
- فقال ياسين كالمعتدل:
- أبي جيل وحده، وأأسفه أصبح هو وأصحابه قعسيدي يسوتهم، ولم تكن الدنيا لتسهمهم على راحبتنا!...
- وكان رضوان يقول لأحمد في حديث جانبيّ مستقلاً:
- بدخول إيطاليا الحرب أصبح الموقف بالنسبة لمصر شديد الخطورة...
- ربّما تحوّلت هذه الغارات الإسميّة إلى غارات فعلية...
- ولكن هل لدى الإنجليز قوّة كافية لصّد الزحف الإيطاليّ المتوقّع؟ لا شك أنّ هتلر سيترك مهمّة الاستيلاء على قناة السويس لموسوليني...
- فتساءل عبد المنعم:
- هل تقف أمريكا متفرّجة؟
- فقال أحمد:
- مفتاح الموقف الحقيقي في يد روسيا!
- لكنّها حليفة هتلر!...
- الشيوعية عدوة النازية، ثم إنَّ الشرّ الذي يتهدّد

التي كانت من سكان المعادي. وألقى نظرة على الحديقة فرأى مائدة طويلة ممتدة في أرض فضاء معشوشبة، تكتنفها من الجانبين أشجار الصنوبر والنخيل، وقد صُفَّت فوقها أباريق الشاي وأوعية اللبن وأطباق الحلوى. ثم سمع طالبًا يسأل:
- نلتزم بالأداب الإنجليزية أم نتفصّل على المائدة كالنور؟

فأجاب آخر فيها يشبه الأصم:

- آه لو لم توجد لادي فورستر!

كان الوقت أصيلًا، ولكنّ الجو كان لطيفًا رغم شمسية يونه القليلة، ثم ما لبث أن لاح السرب المنتظر عند مدخل الفيلا. جئن ممّا كنّهنّ على ميعاد، وكنّ أربعمًا من جملة الطالبات بالقسم وبدأت علوية صبري وهي تحطّر في فستان ناصع البياض مهفّف، جعل من كاتبا الطيف لونًا واحدًا بديعًا ليس عدا الشعر الأسود الفاحم، وعند ذلك شعر أحمد بأنّ هزيمة تحتكّ بقدمه كأنما تنبّه إن كان في حاجة إلى من ينهيه، وكان سرّه قد ذاع من زمن... وتابعهنّ حتّى استقرّ بهنّ المجلس في ركن أخلي هنّ بالفراندا، ثم جاء مستر فورستر وزوجه، وقالت الزوجة موجّهة الخطاب إلى الطلبة، وهي تشير إلى الفتيات:
- هل تحتاجون إلى تعارف؟

فارتفع الضحك، وقال الأستاذ وكان ذا شخصية فائقة رغم مشاركته الخمسين:

- الأجدر أن تعرّفهم بي أنا!

وضجّوا بالضحك مرّة أخرى، حتّى عاد مستر فورستر يقول:

- في مثل هذا الوقت من كلّ عام كنّا نغادر مصر إلى إنجلترا لقضاء العطلة، هذه المرّة لا ندرى إن كنّا سنرى مصر مرّة أخرى أم لا!...
فقاطعت زوجته قائلة:

- ولا حتّى إن كنّا سنرى إنجلترا!...

وأدركوا أنّها تلمح إلى خطر الغواصات، فقال لها أكثر من صوت:

- حطّ سعيد يا سيدي...

وعاد الرجل يقول:

العالم بانتصار الألمان أضعاف ما يتهدّد بانتصار الديمقراطية...

فقال خديجة:

- اظلموا لنا الدنيا يطلم عيشهم، وما هذه الأشياء التي لم نعرفها من قبل؟... صفارات إنذار!... مدافع مضادة... كشافات، مصائب تشيب الإنسان قبل الألوان!

فقال إبراهيم في سخرية هادئة:

- عسى أنّ حبال الشيب في بيتنا ليس قبل

الألوان...

- هذا عندك أنت وحلك!

كان إبراهيم في الخامسة والستين، ولكنّه يبدو بالقياص إلى السيّد أحمد - الذي لم يكن يكبره إلّا بثلاث سنوات - كأنما يصغره بعشرات السنين.

وعند انتهاء الزيارة، قال رضوان لعبد المنعم:

- زرني في الوزارة.

ولما أغلق الباب وراء المدايين، قال أحمد لعبد المنعم:

- غدا بالك أن تدخل عليه دون استئذان، ادرس كيف تزور سكرتير وزير! فلم يجبه ولم ينظر ناحيته...

لم يجد أحمد مشقة تذكر في الاهتمام إلى فيلا مستر فورستر - أستاذ علم الاجتماع - بالمعادي. وقد أدرك حال دخوله أنّه جاء متأخّرًا بعض الوقت، وأنّ كثيرًا من الطلبة الذين دُعوا مثله إلى الحفل الذي أقامه الأستاذ لمناسبة سفره إلى إنجلترا قد سبقوه إليه، واستقبله الأستاذ وحرمه، وقد قدّمه إليها باعتباره طالبًا من خير طلبة القسم، ثم مضى الشاب إلى حيث جلس الطلبة في الفراندا، كان المجلس يتكوّن من طلبة قسم الاجتماع كافّة، وكان أحمد ضمن القلّة المنقولة للسنة النهائية، يشاركهم ذلك الشعور بالامتياز والتفوق. ولم تكن واحدة من الطالبات قد حضرت، ولكنه كان مطمئنًا إلى مجيئهنّ، أو إلى مجيء «صديقه»

- ساحل معي ذكريات جميلة من حياتنا المشتركة في كَلَّة الآداب، وعن مقاطعة المعادي الهادئة الجميلة، وعنكم أنتم الذين سأعتر حقاً بهلوكم!

فقال أحد مجلماً:

- أما ذكرك فسنبقى في نفوسنا دواءً، وتنمو بنمو عقولنا. . .

- شكرًا. . . (ثم مخاطباً زوجه وهو يتسم). . . أحد شاب جامعي كما ينبغي، وإن تكن له آراء مما نسب المتأهب عادة في بلده!

فقال زميل موضوعاً:

- يعني أنه شيعي!

فرفعت السيئة حاجبها باسمه، أما مستر فورستر فقال بلهجة ذات معنى:

- لم ألق أنا ذلك، ولكن زميله الذي قال ثم نبض الأستاذ وهو يقول:

- أن وقت الشاي، يجب ألا يسرقنا الوقت، وسوف نجد بعد ذلك مسعاً للسمر واللهو. . .

وكان عمال جروي قد أخذوا المائدة ووقفوا متاهين للخدمة. . . وتوسطت لادي فورستر جانب المائدة الذي جلس إليه الفتيات، حل حين توسط الأستاذ الجانب الآخر، وهو يقول معلقاً على نظام الجلوس:

- كنا نود أن تكون الجلسة أكثر اختلافاً، ولكننا راعينا الآداب الشرقيّة، أليس كذلك؟

فاجابه طالب بلا تردد:

- للأسف هذا ما لإحطاه يا سيدي!

وصب الخادم الشاي واللين وبدأت المائدة. لاحظ أحد اختلافاً أن علوية صبري كانت أبرع زميلاتها ممارسة لأداب المائدة وأقلهن ارتباكاً، بدت ألفة للحياة الاجتماعية، كأنها في بيتها، وشعر بأن ملاحظة تناولها للحلوى الآن من الحلوى نفسها، هذه صديقته العزيزة التي تبادل الصداقة والمودة دون أن تشجعه على عبور حدودها، وقال لنفسه: إن لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة فسلام عليّ! . . . وعلا صوت لادي فورستر وهي تقول:

- أرى ألا تؤثر قيود الحرب في تناولكم للحلوى! . . . فعلق طالب على قولها قائلاً:

- من المصادفات السعيدة أن الرقابة لم تفرض على

الشاي بعد!

وبال مستر فورستر على أذن أحمد - وكان يجلس إلى يساره - وسأله:

- كيف تمضي العطلة؟ أعني ماذا تفعل؟

- كثيراً في الاقتصاد وقليلًا في السيامسة، وأكتب بعض المقالات في المجلات.

- أنصحك بأن تقدم في الماجستير بعد الليسانس.

فقال أحمد بعد الانتهاء مما في فيه:

- ربما فيها بعد، سأبدأ بالعمل في الصحافة، هذه خطتي من قديم.

- حسن!

الصديقة العزيزة تحدث لادي فورستر بطلاقة، ما أسرع ما أتقنت الإنجليزية، والورد والأزهار تنضج بالحرمة والألوان كما ينضج القلب بالحب، في عالم الحرية يزدهر الحب كالأزهار، الحب لا يكون عاطفة صحيحة طبيعية إلا في بلد شيعي. وقال مستر فورستر:

- من المؤسف أنني لم أستكمل دراستي للغة العربية، كنت أود أن أقرأ مجنون ليل دون مساعدة أحد منكم!

- المؤسف أنك ستقطع عن دراستها. . .

- إلا إذا سمحت الظروف فيها بعد. . .

وربما وجدت نفسك مضطراً إلى تعلم الألمانية، ألا يكون مضحكاً لو شهدت لندن مظاهرات تطالب بالجلود ويهتف له؟ في أخلاق الإنجليز الشخصية فتنة، أما فتنة الصديقة العزيزة فمن نوع لا مثيل له، عما قليل تغيب الشمس فيجمعنا الليل في مكان واحد لأول مرة، وإذا لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة فسلام عليّ! . . . وسأل أستاذة:

- وماذا أنت فاعل عقب وصولك إلى لندن؟

- دُعيت للعمل في الإذاعة.

- إذن لن ينقطع عنا صوتك.

ومجاملة تفتخر في هذا المجلس الذي تزينه صديقتي، إننا لا نسمع هنا إلا الإذاعة الألمانية، شعبنا يحب الألمان ولو على سبيل الكراهية للإنجليز، والاستعمار أعل مراحل الرأسمالية، اجتاعنا باستاندا يخلق موقفاً

بالتقدم لخطبتك؟

فارتفع رأسها الجميل كرد فعل لوقع المفاجأة، ولكن لم يند عنها صوت كأنها لم تجد ما تقوله، وكان الطريق خالياً وأضواء المصابيح متوارية خلف الظلام الأزرق، فعاد يسألها:

- أسمعني في؟

فقال بصوت خافت لم يخل من عتاب:

- هذه طريقك في الكلام وما لها من طريقة،

الواقع أنك أذهلني!

فضحك ضحكة خفيفة، وقال:

- اعتذر عن ذلك، وإن كنت أظن أن تاريخ صداقتنا الطويل لا يجعل من قولي مفاجأة تدل.

- نعم صداقتنا وتعاوننا الثقافي؟

فلم يرتع لقولها، ولكنه قال:

- أعني عاطفتي غير الحفية التي انحلت شكل الصداقة والتعاون الثقافي كما قلت...

فتساءلت في صوت باسم غير خال من اضطراب:

- عاطفتك الحفية؟

فقال بعناد وإخلاص:

- أعني حبي! الحب لا يخفى، إنما عادة لا تتكلم لنعلمه، وإنما لتسمع بسماع إعلاننا له...

فقالت بمحاولة حتى تسترد هدوءها:

- الأمر كله مفاجأة لي...

- يؤسفني أن أسمع هذا.

- لماذا تأسف؟ الواقع أنني لا أدري ماذا أقول...

ضاحكاً:

- قولي «أسمع لك» وهي الباقي لي...

- ولكن، ولكن... أنا لا أعرف شيئاً، معلدة، كذا أصدقاء حقاً ولكنك لم تحدثني عن... أعني لم

تسمع الظروف بأن تحدثني عن شخصك...

- ألم تعرفني؟

- عرفتك طبعاً، ولكن ثمة أمور أخرى ينبغي أن تعرف...

أعني هذه الأمور التقليدية؟ يا لها من أسئلة خليفة بقلب لم يأسره الحب! وشعر بامتصاص، بيد أنه ازداد عناداً فقال:

جديراً بالتأمل، نبره بالروح العلمية ولكن ثمة ارتطام بين حينا لامتدانا وبغضنا لجنسه، والامول أن تقضي الحرب على النازية والاستعمار معاً، هنالك أخلص للحب وحده.

ثم عادوا إلى مجالسهم بالفرنسا التي أضيت مصابيحها، ولم تلبث لادي فورستر أن قالت:

- إليكم البيانو فليفضل أحدكم بإسعادنا لحناً.

فرجأها طالب قائلاً:

- تقبلي أنت بإسعادنا...

فهضمت في رشاقة الشباب الذي جاوزته بأعوام، ثم جلست إلى البيانو وفتحت النوبة وراحت تعزف لحناً، لم يكن أحد منهم ذا إلمام بالموسيقى الغربية أو تذوق لها، ولكنهم انصتوا في اهتمام بدافع الأدب والمجاملة. وحاول أن يستمد من حبه قوة سحرية يفتح لها مغاليق اللحن، ولكنه نسي اللحن في استراق النظر إلى وجه فتاته، والتفت عنهما سرّة، فتبدلا ابتسامة لم تغب عن كثيرين، وفي نشوة الفرحة قال لنفسه: «أجل، إذا لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة فسلام علي»، وعل أثر فراخ لادي فورستر من عزفها، عزف طالب لحناً شريفاً، ثم خلصوا للسر وقتاً غير قصير، وحوالي الساعة الثامنة مساء ودّعوا أستاذهم وأدخلوا في الانصراف. ولبد أحمد عند متخرج طريق في ليل بالغ في جماله وحنانه، تحت مظلة من الأشجار الباسقة، حتى أراها قادمة وحيدة في طريقها إلى مسكنها، فبرز لها من المتعطف قاطعاً عليها الطريق، فتوقفت في دهش وقالت:

- ألم تذهب معهم؟

فنفخ فيها بشبه التهديد ليخفف صدره من جيشانه، وقال بهدوء:

- تخلفت عن القافلة لأقابلك!

- ترى ماذا يظنون بتخلفك؟

فقال باستهانة:

- هذا شأنهم!

وسارت في بطنه وسار إلى جانبها، ثم تمخض صبر الأيام الطويلة عنه وهو يقول:

- أريد أن أسالك قبل عودتي: هل تسمحين لي

- سيجيء كل شيء في حينه...
فتمادنت، وكانت قد ملكت زمام نفسها:
- أليس الآن حينه؟
فابتسم ابتسامة فاترة، وقال:
- لك حق، تمنين المستقبل؟
- طبعا!
وأحسنته «طبعا». أمل أن يسمع أغنية فسمع
معاذرة معادة! ولكن يجب ألا تخونه ثقته في نفسه
مهما يكن الأمر. العزيزة الباردة لا تلزي كم يسعده
إسعادها.
- سأجد بعد تحزجي عملاً...
ثم بعد لحظات من الصمت:
- وسيكون لي يوماً دخل لا بأس به!
فتمتعت في حياه:
- كلام عالم...
فقال وهو يداري أله بالمدود:
- سيكون المرتب في الحدود المعروفة، أما الدخل
فبحاول عشرة جنيهاً...
وساد الصمت. لعلها تزن الأمور وتفكر. هذا هو
التفسير المائي للحب! كان يحلم بالجنون العذب
ولكن أين منه هذا؟ هذا البلد عجيب يندفع في
السياسة وراء الساطفة، ويتبع في الحب دقة
المحاسبين. وأخيراً جاء الصوت الرقيق قائلاً:
- لنضع الدخل جانباً، فلا يحتمل أن ترتب حياتك
على أساس تقدير اختفاء الأعمام من حياتك...
- أردت أن أقول لك إن والسدي من ذوي
الأموال...
فقالت بجهد يتر فترة التردد التي سبقته:
- فلنكن واقعيين...
- قلت لتي سأجد عملاً، وستجدين من ناحيتك
عملاً أيضاً...
فضحكت ضحكة غريبة:
- كلاً لن أشتغل، لم أذهب إلى الجامعة لأنوظف
كسائر الزميلات...
- ليس العمل عيباً...
- طبعا، ولكن والدي... الواقع أننا جميعاً
- متفقون على هذا، لن أشتغل.
وكان قد بردت عواطفه واستغرقه البحث، فقال:
- ليكن، أشتغل أنا...
فقالت بصوت كأنها تعمدت أن يكون رقيقاً فوق
المادة:
- أستاذ أحمد، فلنؤجل الحديث، أعطني مهلة
للتفكير...
فضحك ضحكة فاترة، وقال:
- قلبنا الأمر على كافة وجوهه، ولكنك في حاجة
إلى مهلة لتدبري الرفض!
فقالت بصوت حيي:
- ينبغي أن أحادث والدي.
- هذا بدهي، ولكن كان من الممكن أن تنتهي إلى
رأي قبل ذلك!
- مهلة ولو قصيرة!...
- نحن في يوتيه، وستسافرين إلى المصيف، ولن
نلتقي إلا في أكتوبر القادم في الكلبية!
قالت بإصرار:
- لا بد من مهلة للتفكير والتشاور!
- إنك لا تريدان أن تتكلمي...
وإذا بها تتوقف عن المسير فجأة، وتقول في دأب
وعزم مفا:
- أستاذ أحمد، إنك تأبى إلا أن نحملني على
الكلام، أرجو أن تتقبل كلامي بصدر سمح، لقد
فكرت في موضوع الزواج من قبل كثيراً، لا بالقياس
إليك ولكن بصفة عامة، وانتهيت منه - ووافني على
ذلك والدي - بأن حياتي لن تستقيم، وأني لن أحافظ
على مستواي، إلا إذا تمها لي ما لا يقل عن خمسين
جنيهاً شهرياً...
وتجرع غيبة مريرة لم يتوقع - على أسوأ الفروض -
أن تبلغ مراتبها هذه الدرجة، وتساءل:
- وهل يملك مولدك - أعني في سن الزواج - هذا
المرتب الضخم؟
ولكنها لم تنبس، فعاد يقول:
- إنك تريدان زوجاً ثرياً!
- آسفة جداً، ولكنك أجبرتني على مصارحك برامي.

فضحك رياض قلندس، وقال خاطبًا إسماعيل لطيف، وكانت هذه ثاني مقابلة بينهما في مدى تعارف عام:

- أنت تخاطب رجلًا لا يشعر بمسؤولية الزوج!
فسأله إسماعيل متعجبًا:
- وهل تشعر بها أنت؟
- حقًا أنا أعزب مثله، غير أنني لست عدوًا للزواج...

كانوا يسرون في شارع فؤاد الأول، في مطلع الليل، في ظلام لم تحفقه الأضواء الضئيلة التي تسرب من أبواب المحالِّ العائمة، وكان الشارع رغم ذلك مكتظًا بالنساء والرجال والجنود البريطانيين على اختلاف أنواعهم. وكان الحريف يبعث أنفاسًا رطبة، ولكن أكثر الناس مضوا في الملابس الصيفية. ونظر رياض قلندس إلى جماعة من الجنود الهنود وقال:
- من المحزن أن يتبعده الإنسان عن وطنه هذه المسافة المدينة، ليقتل في سبيل غيره!

فقال إسماعيل لطيف:
- ترى كيف يتأثر هؤلاء التعساء أن يضحكوا؟!
فقال كمال ممتعضًا:
- كما نضحك نحن في هذه الدنيا الغريبة، الحمر والمخدَّرات واليأس.

فضحك رياض قلندس قائلًا:
- إنك تعاني أزمة فريدة، كل ما عندك مززعج الأركان، حبث وقبض الريح، نضال اليوم مع أسرار الحياة والنفس، وهلل وسقم، إنني أرثي لك.
فقال إسماعيل لطيف ببساطة:

- تزوج، إنني مرتت بهذا الملل قبل زواجي...
فقال رياض قلندس:
- قل له!...

فقال كمال، وكأنما يخاطب نفسه:
- الزواج هو التسليم الأخير في هذه المعركة الفاشلة...

واخطأ إسماعيل في المقارنة، إنه حيوان مهذب، ولكن مهلاً لعله الغرور، فيم الغرور وأنت ترقد فوق تلٍّ من الحية والفشل، إسماعيل لا يدري شيئًا عن

فقال بصوت غليظ:
- هذا أفضل على أي حال...
فعاذت تضمخ:
- أسفة!...
وثار غضبه، ولكنه بذل جهدًا صادقًا كيلا يخرج عن حدود الأدب، ثم وجد رغبة لا تقاوم في أن يصارحها برأيه فتساءل:
- أأسمحن لي أن أصارحك برأيي؟

فبادرت قائلة:
- كذا، إنني أعرف الكثير عن آرائك، وأرجو أن تبقى صديقين كما كنّا...

ورثى رغم غضبه حالها، هذه هي الحقيقة العارية قبل أن يلففها الحب. التي تهرب مع خادمها امرأة طيعة وإن عدت. بعين التقاليد. شاذة. في المجتمع المختل يبدو الصحيح مريضًا والمريض صحيحًا، إنه غاضب ولكن تعاسته أكبر من غضبه، إنها على أي حال تحسد رأيها وفي هذا عزاء، ومدت يدها للمصافحة فتلقاها بيده، ثم أبقاها فيها حتى وسعه أن يقول:

- قلت إنك لم تدخل الجامعة لتتوكلني، قول جميل في ذاته، ولكن إلى أي مدى انتضت بالجامعة؟
وارتفع ذقنها كالمسائلة، لكنه قال بلهجة لم تخل من سخرية:

- معذرة عن سخاقي، لعل المسألة أنك لم تحمي بعد، مع السلامة...
ودار على عقبه، ثم وكى مسرعًا.

٣٠

قال إسماعيل لطيف:
- لعلني أخطأت بحمل زوجي إلى القاهرة كي تلد فيها، كل ليلة تنطلق صفارة الإنذار، أما حنظلا فلم تكن تعرف شيئًا عن أموال هذه الحرب.

فقال كمال:
- إنها غارات رمزية لو أرادوا بنا شرًا ما منعتمهم قوة!

يتضاعف شقاء العالم تحت أقدامها الحديدية...
فقال إسماعيل:
- ليكن ما يكون، المهم أن نرى الإنجليز في نفس
الموضع الذي فرضوه على العالم الضعيف!...
وقال كمال:

- ليس الألمان بخير من الإنجليز...
فقال رياض قلندس:
- ولكننا انتهينا مع الإنجليز إلى برّ، والاستعمار
البريطاني يوغل في الشيفوخة، ولعلّه قد تلطف ببعض
المبادئ الإنسانية، ولكننا مستعامل غداً مع استعمار فتي
مغرور شرّه غنى حرب، فما العمل؟
فضحك كمال ضحكة تحمل نغمة جديدة، وقال:
- نشرب كأسين ونحلم بعالم واحد تسيطر عليه
حكومة واحدة عادلة!...

- سنحتاج حتّى إلى أكثر من كأسين...
وجدلوا أنفسهم أمام حانة جديدة لم يروها من
قبل، لعلّها من الحانات «الشيطنية» التي تخلفها ظروف
الحرب بين يوم وليلة، وحانت من كمال نظرة إلى
داخلها فرأى امرأة بيضاء ذات جسم شرقي تقوم على
إدارة الحانة، ثمّ جدت قدامه فلم يتحرّك من موقفه،
أو بالأحرى لم يستطع أن يتحرّك حتّى اضطرّ صاحبه
أن يتوقّف عن السير وينظر إلى حيث ينظر...
مريم! لم تكن إلّا مريم دون غيرها، مريم الزوجة
الثانية لياسين، مريم جارة العمر، في هذه الحانة بعد
اختفاء طويسل، مريم التي ظنّ بها أنّها لحقت
بأمّها!...

- أتريد أن نجلس ها هنا؟. هلمّ فليس بالداخل
إلّا أربعة جنود...
وتردّد ملياً، ولكنّ شجاعته لم تواته فقال وكما يفق
من ذهوله:

- كلا...
والقى نظرة على المرأة التي ذكرته بأمّها في إتمامها
الأخيرة، ثمّ انطلقوا في طريقهم، متى رآها آخر
مرّة؟. منذ ثلاثة أو أربعة عشر عاماً على الأقلّ، إنّها
معلم من معالم الماضي الذي لا ينسى، ماضيه...
تاريخه... ماهيته... كلّ أولئك شيء واحد، وقد

دنيا الفكر، ولكنّ السعادة المستمدة من العمل
والزوجة والأولاد، أليست سعادة جليلة بأن تسخر من
احتقارك لها؟ قال رياض:
- إذا قرّرت يوماً أن أولّف رواية، فستكون أحد
أبطالها!.

فأنه كمال نحوه في اهتمام صيائيّ، وسأله:
- ماذا صنعتك منّي؟
- لا أدري، ولكن ينبغي أن توطّن نفسك على ألا
تزعل، فإنّ كثيرين ممن قرأوا أنفسهم في أقاصيصي قد
زعلوا...
- لماذا؟...
- لعلّه لأنّ لكلّ إنسان فكرة عن شخصه من خلقه
هو، فإذا جرّده الروائيّ منها أبى وغضب!...
فتساءل كمال في قلق:
- لديك فكرة عنّي غير ما تعلن؟.

فبادره في تأكيد قائله:
- كلا، ولكنّ الروائيّ قد يبدأ من شخص ثمّ ينسأه
كلّية وهو بصدد خلق نموذج بشريّ جديد، لا صلة
بينه وبين الأصل إلّا الإجماع، وأنك تسوي إليّ
بشخصيّة الرجل الشرقيّ الخائر بين الشرق والغرب،
الذي دار حول نفسه كثيراً حتّى أصابه الدوار.
ويتكلّم عن الشرق والغرب، ولكن من أين له أن
يعرف عابده؟. قد تكون التماسّة متعدّدة الجوانب...
وقال إسماعيل لطيف في بساطة مرّة أخرى:

- طول عمرك تحلق لنفسك المتأهب، الكتب في
نظري أساس بلوك، لماذا لا تجرّب الحياة الطبيعيّة؟
ويلغوا في مسيرهم منطلق عباد الدين فمالوا إليه،
وقد اعترضهم جماعة كبيرة من الإنجليز فتأدوا منها،
وقال إسماعيل لطيف:

- إلى جهنّم، من أين لهم هذا الأمل؟. ترى هل
يصدّقون أنفسهم؟.

فقال كمال:
- يتخلّل إليّ أنّ نتيجة الحرب قد تفرّرت غايتها
الربيع القادم...
فقال رياض قلندس ممعّضاً:
- النازيّة حركة رجعيّة غير إنسانيّة، وسوف

فقال له كمال مداعباً:

- قد لا تتمكن من العبث بشخصي في روايتك...
فضحك ضحكة عصبية وقال وهو يرمي إلى الناس:

- البشرية مثلة بنسبة عادلة في هذا المخبأ...
فقال كمال منهكاً:

- لو اجتمعوا على خير كسا يجتمعون على
الخوف!...

وهض إسمايل متترفعاً:

- زمان زوجي نازلة على السلم تتلمس طريقها في
الظلام، إني أكثر جذباً في العودة إلى طنطا غداً...
- إن عشنا!

- مساكين حقاً أهل لندن!

- لكتهم أصل البلاء كله...

وكان وجه رياض قلنس يزداد شحوباً، ولكنه

دارى اضطرابه بالكلام فسأل كمال:

- سمعتك تتسائل مرة أين عمة الموت لأغادر
مركبة الحياة المملة، فهل ييون عليك أن تنسأ قنبلة
الآن؟

فابتسم كمال، وكان يرهف السمع في قلق متزايد
متوقفاً بين لحظة وأخرى أن يطلق مدفع فيصك
الأذان، وأجاب:

- كلاً... (ثم كالتسائل)... لعله الخوف من
الأم؟

- أم ثمة أمل غامض في الحياة ما زال يضطرب في
أصاقلك؟

لماذا لم ينتحر؟ ولم يبدو ظاهر حياته كائناً بمنزل
حاشاً وإيماناً؟ طالما نازعته النفس إلى التقيضين: وكر
الشهوات والتصوف، ولكنه لم يكن ليطلق حياة
خالصة للذة والشهوات، ومن ناحية أخرى كان ثمة
شيء في أصاقله ينفر من فكرة السلبية والهروب،
ولعله - هذا الشيء - الذي حال بينه وبين الانتحار،
وفي ذات الوقت فإن استمساكه بحبل الحياة المضطرب
في يديه مناقض لمصميم شكه القاتل، والخلاصة في
كلمتين: حيرة وعذاب!

وفجأة انطلقت المدافع كالطر، لا تنيح للصدر

استقبلته في قصر الشوق في آخر زيارة لهذا البيت قبل
طلائها، وما زال يذكر كيف شكت إليه اعوجاج أخيه
وارتداده إلى حياة العريضة والمجون، شكوى لم يكن
يقدر عواقبها وقد انتهت بها إلى ذلك الدور الذي تلعبه
في هذه الحانة «الشيطنية»، ومن قبل ذلك كانت كريمة
السيد محمد رضوان، وكانت صديقته وملهمة أحلامه
في الصبا الأول، في ذلك الزمان الذي شهد البيت
القديم عامراً بالأفراح والسلام، كانت مريم وردة
وكانت عائشة وردة ولكن الزمن علو لدود للورود،
وربما كان من المحتمل أن يعثر عليها في بيت من هذه
البيوت كما عثر بالسبست جليلة، ولو وقع هذا لكان وجد
نفسه في مأزق وأني مأزق، هكذا بسدات مريم
بالإنجليز وانتهت بالإنجليز...

- أعترف هذه المرأة؟

- نعم...

- كيف؟

- امرأة من هاتيك النسوة، ولعلها نسيته!...

- أوه، الحانات ملأى بهن، موسسات قديمات،

وخادعات متمردات، ومن كل لون...

- نعم...

- ولم لم تدخل فلعلها كانت ترحب بنا إكراماً

لك...

- لم نعد في طور الشباب ولدينا أماكن أفضل...

تقدم به العمر وهو لا يدري، متصيف الخلفة

الرابعة، وكأنما قد استهلك نصيبه من السعادة، وإذا

قارن بين تعامسه الراحة وتعامسه الماضية لم يدرك أيها

أشد، ولكن ماذا بهم العمر وقد ضايق بالحياة؟ حقاً إن

الموت لذة الحياة، ولكن ما هذا الصوت؟

- غارة!...

- أين نذهب؟...

- إلى مخبأ قويمة ركن...

لم يجدوا في المخبأ مكاناً خالياً للجلوس فوقفوا،

وكان ثمة أفندي وخواجات وسيّدات وأطفال، وكان

الكلام يدور بشق اللغات واللهجات. وأصوات

رجال المقاومة المدنية في الخارج تنهف «أطفي النور،

وبدا وجه رياض شاحباً، وكان يمتح دويّ المدافع،

الأخرين، وما زالت أمينة أول من يستيقظ، فتوقظ بدورها أم حنفي، ثم تتوضأ وتصلّي، وتبضع أم حنفي - وكانت نسيًا خير الجميع صحة - فتقصد حجرة الفرن، وتفتح عائشة عينين ثقيلتين فتقوم لتحصو أقداح القهوة تباغًا وتحرق السجائر الواحدة تلو الأخرى حتى إذا دُعيت للفقير تناولت لقيات. وقد اضمحلّت آيما اضمحلال، وانقلب هيكلًا عظيمًا كسي جلدًا باهتًا، واتخذ شعرها في السقوط حتى اضطرت إلى اللجوء إلى الطبيب قبل أن يدركها الصلع، وتكالبت عليها الملل حتى أشار عليها الطبيب بالتخلّص من أسنانها، فلم يبق من شخصها القديم إلا الاسم. ولم تكن أقلعت عن عادة النظر في المرأة، لا لتأخذ زينة، ولكن بحكم العادة من ناحية، وللايمان في الحزن من ناحية أخرى، وربما بدت أحيانًا وكأنها أذعنت للمقادير في استسلام لطيف، فتطيل من جلستها مع أمها، وتشارك في الحديث الدائر، وربما افترت شفتاها الدابلتان عن ابتسامة، أو تزور والدها لتسال عن صحته، أو تتسكى في حديقة السطح وتومي بالحب إلى الدجاج، هناك تقول أمها برجاء:

- كم أسعدت قلبي يا عائشة، ليتني أراك دائمًا على هله الحلال!

على حين تحفّف أم حنفي عينيها قائلة:
- فلنذهب إلى حجرة الفرن لنصنع شيئًا جميلًا!
ولكن عند منتصف الليل استيقظت أمها على صوت بكاء أت من حجرتها، فهرعت إليها عاذرة أن توقظ الرجل النائم، فوجدتها جالسة في الظلام تنتحب، وكما شعرت بدنو أمها تملقت بها هاتفة:
- لو تركت لي ما كان في بطنها! ظلّ منها يداي فارغتان، والدنيا لا شيء فيها...

فاحتضنتها أمها وهي تقول:
- إني أعلم الناس بحزنك، حزن يجلّ عن العزاء، ليتني كنت فداهم، ولكنّ لله جلّ وعلا حكمته، وما جدوى الحزن يا مسكينة؟!...
- كليًا تمت حلمت بهم، أو حلمت بالحياسة الأولى...

متنفسًا، وزاغت الأبصار، وضلّت الألسن، ولكنّ الضرب لم يستمر أكثر من دقيقتين بالحساب الزمني، وتوقع الناس عودة بفيضة إلى الدويّ المرعب، واستبدّ الفزع بالنفوس، غير أنّ الصمت ساد وعمق، وتساءل إسماعيل لطيف:

- إني اتخيل حال زوجي الآن، ترى متى تنتهي الغارة؟

فتساءل رياض قلندس:

- متى تنتهي الحرب؟

وما لبث أن انطلقت صفارة الأمان فنذ عن المخبا تنهد عميق، وقال كمال:

- ليست إلا مداعبة إيطالية...

وغادروا المخبا في الظلام كالحفايش، ولفظت الأبواب أشباحًا وراء أشباح، ثم تساقط الضوء الباهت متابتًا من النوافذ، وملأت الضجة الأركان...

يبدو أنّ الحياة - في هذه اللحظة السريعة الممتدة - ذُكرت كلّ خاطل مجلى قيمتها الذي لا يُقاس به شيء في الوجود...

٣١

اتخذ البيت القديم مع الزمن صورة جديدة تندر بالانحلال والتدهور. انفرط نظامه وتفوّض مجلسه، وكان النظام والمجلس روحه الأصل. ففي نصف النهار الأول يغيب كمال في المدرسة، ويغني أمينة إلى جولتها الروحية ما بين الحسين والسيدة، وتنزل أم حنفي إلى حجرة الفرن، ويشمّد السيد على الكنية في حجرته أو يجلس على كرسي في المشربية، ويهيم عائشة على وجهها ما بين السطح وحجرتها، ويظلّ الراديو في الصالة يهتف وحده، وعند الأصيل تجتمع أمينة وأم حنفي في الصالة، وتلبث عائشة في حجرتها، أو تمكث معها بعض الوقت ثم تذهب، أما السيد فلا يضرر حجرتة، وكما إن عاد من الخارج مبكرًا فلكي يبيع في الدور الأعلى في مكتبه. وكان اعتكاف السيد أول الأمر عزًا، ثم صار عادة عنده وعند الآخرين، وكان حزن عائشة مفعجًا ثم صار عادة عندها وعند

- لن أغادر حجرتي...
وقالت الأم:
- إنها غارات آمنة ومدافع كالمصاريع...
أما أبوه فجاء صوته من الداخل وهو يقول:
- لو أنِّي في قدرة على الذهاب إلى المخبأ لذهبت إلى
الجامع أو إلى بيت عمِّد عمت...
ويومًا جاءت عاتشة من السطح مهرولة وهي تلهث
وقالت لأمها:
- حدث شيء عجيب!...
فنفطرت إليها أمها في استطلاع مشوب بالرجاء،
فعدت تقول وهي ما تزال تلهث:
- كنت في السطح أراقب غروب الشمس، وكنت
على حال من اليأس لم أشعر بمثلها من قبل، وفجأة
فتحت في السماء نافذة من نور بييج فصعَّت بأصل
صوتي «يا رب».
اتَّسعت عينا الأم في تساؤل، أهي الرحمة المنشودة
أم هالوة جديدة من الأحران؟ وتمتمت:
- لعلها رحمة ربنا يا ابنتي...
فقالَت وجهها بهتَل بِشَرَا:
- نعم، صحت يا رب، وكان النور بملا الدنيا...
وراحوا جميعًا يفكرون في الأمر ويراقبون الحال في
فلق بالغ. أمّا عاتشة فكانت تنقف الساعات بموقفها
من السطح متوقِّبة النور أن يبيض مرَّة أخرى، حتَّى
قال كمال لنفسه «ترى أهي النهاية التي بيون إلى جانبها
الموت؟» ولكن من حسن الحظ - حُكَّ الجميع - أمّا
تناسلت الأمر مع الأيام ولم تعد تذكره، ثم لم تزل توغل
في دنيا خاصَّة خلقتها لنفسها، وعاشت فيها وحدها،
وحدها سواء أكانت متفردة في حجرتها أو جالسة
بينهم، إلَّا ساعات متباعدة تثوب فيها إليهم كالعائلة
من سفر، ثم لا تلبث أن تواصل الرحيل. والصحقت
بها عادة جديدة هي محادثة نفسها، خاصَّة حين
انفراحها، وشدَّ ما أثارت بذلك القلق، غير أمّا كانت
تخاطب أمواتًا وهي مدركة لحال موعم، ولم تتخلَّ
أموأًا أو أشباحًا، وفي ذلك كان عزاء المحيطين
بها...

- وحَدِّي الله، ذقت ما تعانيين طويلًا، أنسيت
لهمي؟ ولكنَّ المؤمن المُصاب مطالب بالصبر، أين
إيمانك؟
فهتفت في امتعاض:
- إيماني!...
- نعم، اذكري إيمانك، وتوسَّلي إلى ربِّك تنزل
عليك الرحمة من حيث لا تدريين...
- الرحمة!... أين الرحمة أين؟
- رحمة وسعت كلَّ شيء، طالعيني وتعالني معي إلى
الحسين، ضعي يدك على الضريح واتلي الفاتحة تتحوَّل
نارك إلى برد وسلام كنار سيِّدنا إبراهيم...
ولم يكن موقفها حيال صحتها دون ذلك اضطرابًا،
فحينًا تتردَّد على الأطباء في مثابة وانتظام حتَّى يظنَّ بها
العودة إلى الاستمساك بأهداب الحياة، وحينًا تهمل
نفسها وتزدري كافة النصائح لدرجة الانتحار. أمّا
زيارة الغرافة فهي التقليد الوحيد الذي لم تشدَّ عنه مرَّة
واحدة، وكانت تنفق فيها بسخاء وتبها عن طيب
خاطر كلَّ ما ملكت يمينها من ميراث زوجها وابنتها
حتَّى استحال حول المقبرة حديقة غناء موشاة بالأزهار
والرياحين. ويوم جاءها إبراهيم شوكت لإتمام
إجراءات الميراث ضحكت ضحكة عجسونة وقالت
لأمها:
- هتثني على ميراثي من نعمة...
وكان كمال يمرَّ بها كليًا آس منها استقراؤًا،
فيجالسها مليًا ملاحظًا متوقِّدًا. كان يتأملها طويلًا
صامتًا، ويتخلَّل حزنًا الصورة الداعية التي أبدع الله
صنعها، ثم يتفحص ما آلت إليه. لم تكن حزنة
فحسب، ولا مريضة فحسب، ولكن حزنة بكلِّ ما
تحمل هذه الكلمة من معنى، ولم يغب عنه ما بينها من
أوجه الشبه في الحُكِّ، فهي قد فقدت ذريَّتها وهو قد
فقد أماله، وانتهت إلى لا شيء كما انتهى إلى لا شيء،
بل كان أبناؤهما حُجًا ودما أمّا أماله فكانت كلبًا
وأوهامًا. وقال لهم يومًا:
- أليس من الأفضل أن تذهبوا إلى المخبأ إذا
أطلقت صفارة الإنذار؟
فقالَت عاتشة:

طريقه إلى مخدعه، هكذا انطوى حبيب العمر. وعلى عبد الرحيم الذي احتضر ثلاثة أيام كاملة، سمعاً حاداً متقطع حتى فزعنا إلى الله أن يحسن خاتمة ويربحه من الألم، واختفى من دنياي أليف الروح عليّ عبد الرحيم، وقد ودّع هذين الحبيبين أمّا إبراهيم الفار فلم يودعه، كان اشتداد المرض قد أقعده في فراشه ومنعه عن حياته فنعاه إليه خادمه، وحتى الجنازة لم يشمها فشمها عنه ياسين وكمال. فإلى رحمة الله يا الطيف الناس طراً، ومن قبل هؤلاء مات جميل والحمزاري وعشرات من المعارف والأصحاب، تركوه وحيداً كأنه لم يعرف من الناس أحداً، لا زائر له ولا عائد، وجنازته لن يشمها صديق، حتى الصلاة حيل بينه وبينها، وهل يتمتع بالطهر إلاّ ساعات عقب استحمام لا يجود به أولياء الأمر إلاّ مرة كلّ أشهر؟ فحرم من الصلاة وهو أشدّ ما يكون حاجة إلى مناجاة الرحمن في هذه الوحلة الموحشة. هكذا تمضي الأيام، الراديو يتكلم وهو يسمع، وأمينة تذهب وتجيء، وشذّ ما ركبها الوهن، غير أنّها لم تعد الشكوى، إنّها تمرّضته وأخوف ما يخاف أن تحتاج غداً إلى من يرضعها، وهي كلّ ما بقي له، أمّا ياسين وكمال فيمكنان عنده ساعة ثم يذهبان، ودّ لو لم يفارقه، ولكنّها أمانة لا يستطيع أن يعلنها ولن يستطيعا أن يحقّقها، أمانة وحدها التي لا تحلّه، وإذا ذهبت لزيارة الحسين فلكي تدعو له، والعالم بعد ذلك فراغ. وإنّ يوم زيارة خديجة له ليوم يستحقّ الانتظار، نجيء وفي صحبتها إبراهيم شوكت وعبد النعم وأحمد، فتمتّلّ الحجره بالأحياء وتبتدّد وحشتها، وقليل ما يتكلم هو أمّا هم فيتكلمون كثيراً، ومرة خاطبهم إبراهيم قائلاً: «أرغبوا السيّد من ثرثرتكم»، فقال له معانّباً: «دهمهم يتكلموا... أريد أن أسمعه». ودعا لابنته بالصنّة وطول العمر ودعا لزوجها وابنيها، وكان يعلم بأنّها تودّ لو تسهر على راحته بنفسها، وكان يطالع في عينها حناناً ما وراءه حنان، ويوماً سأل ياسين في شوق واستطلاع بأسياً:

- أين تمضي سهراتك؟

فقال في حياء:

- اليوم الإنجليز في كلّ مكان كأيّام زمان...

ما أقسى البرد هذا الشتاء! يذكر بشتاء قديم ظلّ الناس يؤرّخون به جيلاً، شتاء أيّ عام يا ترى؟ ربّاه أين الذاكرة التي تميّ ذلك أين؟ غير أنّ القلب العجوز يحنّ إليه في مجهوله، فهو جزء من الماضي الذي تبيّح ذكراه النمرود في مكائنها، الماضي الذي كان يستيقظ فيه مبكراً فيستحمّ تحت الدشّ غير مبالٍ برد الشتاء ثمّ يملأ بطنه وينطلق إلى دنيا الناس، دنيا الحركة والحريّة التي لا يعرف اليوم عنها شيئاً اللهمّ إلاّ ما يجود به الرواة، وكأنهم يحثّون عن عالم في أقصى الأرض. كانت له الحرّيّة والقدرة على أن يجلس على الكتبة في الحجره أو على الكرسيّ في المشريّة وكان مع ذلك يضيّق بسجن البيت، وكان يذهب حين الحاجة إلى الحمام أو يغيّر ملابسه بنفسه ومع ذلك لمن قعدة البيت، وكان له يوم في الأسبوع يستطيع أن يخالد البيت متنكباً على عصاه أو ركباً حربة فيزور الحسين أو بيت أحد الأصدقاء ومع ذلك فظالماً دعا الله أن ينقله من محبس البيت. أمّا اليوم فلم يسعه أن يخالد النفران، ولم تعد حدود عالمه تجاوز أطراف هذه الحشّية، حتى الحمام يجيء إليه ولا يذهب هو إليه، قدارة لم تكن في الحسبان، حتى استقرّ الامتناع على شفّتيه، وأسكنت المראה في لعابه، على هذه الحشّية يرقد نهاراً وينام ليلاً ويتناول طعامه ويقضي حاجته. وهو من كان يُضرب بأناته المثل ويسير الشدا الطيّب بين يديه، وفي هذا البيت الذي استكان عمره لإرادته المطلقة غدا ينظر فلا يلقى إلاّ نظرات الرثاء أو يرجو فيعاتب كالأطفال، وذهب الأحباب في فترات متقاربة من الزمن كأنهم كانوا على ميعاد، ذهبوا وتركوه وحيداً، عليك رحمة الله يا محمد يا عفت، كان آخر العهد به سهرة من ليالي رمضان في السلامك المظنّ على الحديقة، ثمّ ودّعه ومضى وضحكته العالية توصله إلى الباب، وما كاد يأوي إلى حجرته حتى طرق الباب طارق ومرع إليه رضوان وهو يقول وجدي ملت يا جدي، يا سبحان الله... متى؟ وكيف؟... وكيف؟... ألم يضاحكنا منذ دقائق! ولكنّه سقط على وجهه وهو في

أيام زمان! أيام القوة والبأس، والضحك الذي تَهَيَّر له الجدران، وسهرات الغورية والجلالية، والناس الذين لم يبق منهم إلا أسنانه، زبيدة وجليلة وهنية، ترى ألا تذكر أمك يا ياسين؟ وما هي زُنُوبة وكريمة تجلسان إلى جانب والدها، ودوامًا ستطلب الرحمة والغفران...

- هل تعجبك هذه الأيام؟

فابتسم كمال ابتسامة حائرة، وترقّد في الجواب، فاستطرد الرجل قائلاً:

- الأيام الحقيقية كانت أيامنا! كانت يسراً ورغداً، وصحةً وعافية، شهدنا سعد زغلول، وسمعنا سي عبده، ماذا في أيامكم؟!

فاجاب كمال مأخوذاً بتداعي معاني الحديث فحسب:

- لكلّ زمان محاسنه ومعاييه...

فهزّ الرجل رأسه المستند إلى حُكّة مكسورة وراء ظهره وقال:

- كلام يقال ليس إلا...

ثمّ بعد فترة صمت ودون تمهيد:

- عجزني عن الصلاة يهزّ في نفسي حزناً، فالعباد عزاء الوحلة، ومع ذلك غرّ بي أوقات غريبة أنسى فيها كافة وجوه الحمران التي أعانيها من مأكّل ومشرب وحرّة وعافية، تصفو نفسي صفاء عجيباً حتّى يثبّل إليّ أنّي متّصل بالسموات، وأنّ ثمة سعادة مجهولة تزي بالحياة وما فيها...

فتمتم كمال:

- ربّنا يمدّ في عمرك ويردّ إليك العافية...

فهزّ رأسه مرّة أخرى في استسلام، وقال:

- هذه ساحة طيّبة، لا ألم في الصدر، ولا ضيق في التنفّس، وورم ساقي أخذ في الزوال، ومرعنا في الراديو مع ما يطلبه المستمعون...

وإذا بصوت أمينة يقول:

- سيدي بخير؟

- الحمد لله.

- هل آتي بالعشاء؟

- العشاء؟! أما زلت تسمّيته العشاء؟! هاتي

سلطانية اللبن!...

أيام زمان! أيام القوة والبأس، والضحك الذي تَهَيَّر له الجدران، وسهرات الغورية والجلالية، والناس الذين لم يبق منهم إلا أسنانه، زبيدة وجليلة وهنية، ترى ألا تذكر أمك يا ياسين؟ وما هي زُنُوبة وكريمة تجلسان إلى جانب والدها، ودوامًا ستطلب الرحمة والغفران...

- من بقي من معارفنا القدامى في وزارتك يا ياسين؟

- أحيلوا جميعاً إلى المعاش، ولم أعد أدري عنهم شيئاً!

ولا هم يدرون عنّا شيئاً، أصدقاء القلب ماتوا فما لنا نسأل عن المعارف، ولكن ما أجل كريمة! فاقت أنّها في زمانها، ومع ذلك لم تُعدّ الرابعة عشرة، ونعيمة ألم تكن آية في الجهال؟!.

- ياسين إنّ نُفُوساً استطعت أن تُفُتّع عاتية بزيارتك فافعل، انتشلوها من وحدتها فلنّني أخاف عليها منها...

فقال زُنُوبة:

- طالما دعوتها لزيارة قصر الشوق ولكتبها... كان الله في عونها...

ولاحت في عيني الرجل نظرة فاقّة، ثمّ إذا به يسأل ياسين:

- ألا تصادف في طريقك الشيخ متوّلي عبد الصمد؟

فقال ياسين بأسياً:

- أحياناً، إنّه لا يكاد يعرف أحداً، ولكنّه ما زال يسير على قدمين قويتين...

يا للرجل! ألم تنازعه نفسه مرّة إلى زيارتي؟ أم نسيت كما نسي ابنائي من قبل؟!

وكما ذهب الأصدقاء أخذ الرجل من كمال صديقاً، ولعلّه فاجأه بصداقته، لم يعد الأب الذي عهد، وغدا صديقاً يناجيه ويتشوّق إلى مناجاته، وكان يقول عنه أسفاً: «أعزب في الرابعة والثلاثين من عمره، يعيش أكثر حياته في حجرة مكتبه، كان الله في عونه»، ولم يكن يعدّ نفسه مسؤولاً عنّ صار إليه أمره، فقد أبى من أوّل الأمر أن يصنع نفسه بنفسه، وانتهى به الحال إلى

فقال كمال في لهجة ساخرة:

- كفاه الله شر مهنة التدريس!

فقالت خديجة في انزعاج:

- وهل يسرك أن يشتغل جورنالجيًا؟

وهنا قال عبد المنعم ملطفًا الجوّ:

- لم تعد الوظيفة بال مطلب السعيد!

فقالت أمّه بحدّة:

- لكنك مؤكّف يا سي عبد المنعم...

- في كادر ممتاز، ولكنّي لا أرضى له وظيفة كتابيّة،

وها هو خالي كمال يستعبد في مهنته...

- في أيّ نوع من الصحافة تريد أن تعمل؟

- الأستاذ عدلي كريم موافق على قبولي في مجلّته

تحت التمرين لأقوم بالترجمة أوّلًا ثمّ بالتحريّر فيها

بعد...

- ولكنّ الإنسان الجديد، مجلّة ثقافيّة محدودة الموارد

والمجال؟...

- هي خطوة أوّل للتمرين حتّى يتيسّر لي حمل

أهمّ، وعلى أيّ حال ففي وسعي أن أنتظر دون أن

أجزع...

فنظر كمال إلى خديجة قائلاً:

- دعي الأمور تجري كما يشاء، إنّهُ راشد مثقّف

وأدري بما يفعل.

ولكنّ خديجة لم تسلّم بالهزيمة بسهولة، وعادت

تحاول إقناع ابنها بقبول الوظيفة حتّى علا صوتها واحتدّ

فندخل كمال ليخلص بينها، ثمّ تكثّر جوّ المجلس

وساد صمت ثقيل حتّى قال كمال ضاحكًا:

- جئت طامعًا في شرب الشرابات فكانت هذه

العكنة نصيبي.

وفي أثناء ذلك ارتدى أحمد ملابسه ليخادر البيت،

فاستأذن كمال وخرجًا ممّا، وسارًا في شارع الأزهر،

وقد صارح أحمد خاله بأنّه ماضٍ إلى مجلّة الإنسان

الجليد، ليضمّم عمله كما وعده الأستاذ عدلي كريم،

فقال له كمال:

- افعل ما تشاء ولكنّ تجتّب إهداء والديك...

فقال أحمد ضاحكًا:

- إنّني أحبّها وأجلّها ولكن...

بلغ كمال بيت أخته بالسكّريّة حوالي العصر
فوجد الأسرة مجتمعّة في الصالة بكامل هيشها،
فصاحهم وهو يقول غاطبًا أحمد:

- مبارك اللسانس...

فأجابته خديجة بلهجة خالية من معاني الانتهاج:

- مبارك عليك، ولكنّ تعال اسمع آخر خبر، البك

لا يريد أن يتوكّلف...

وقال إبراهيم شوكت:

- ابن خاله رضوان مستعدّ لتوظيفه إذا وافق ولكنّه

يصرّ على الرضخ، كلّمه يا أستاذ كمال لعلّه يقتنع

برأيك أنت...

خلع كمال طربوشه، ونزع - من شلّة الحرّ - الجاكّة

البيضاء فالبسها مسند كرسيه، ومع أنّه كان يتوقّع

معركة إلّا أنّه قال بأسًا:

- حسبت أنّ اليوم سيكون خالصًا للتهنئة، ولكنّ

هذا البيت لا يسلو النزاع أبدًا!

فقالت خديجة بلهجة أسيفة:

- قسمتي، الناس كلهم حال ونحن وحفنا حال.

وغاطب أحمد خاله قائلاً:

- الأمر بسيط، ليس أمامي الآن إلّا وظيفة كتابيّة،

فقد أخبرني رضوان أنّه يمكن تعييني الآن في وظيفة

كتابيّة خالية بإدارة المحفوظات عند خوالي ياسين،

واقترح عليّ أن أنتظر ثلاثة أشهر حتّى يسدّ العام

الدراسيّ الجديد لعلّي أعيّز مدرّس لغة فرنسيّة في

إحدى المدارس، ولكنّي لا أريد الوظيفة أيّا كان

نوعها!

فهتفت خديجة:

- قل له ماذا تريد؟

فأجاب الشابّ ببساطة وحزم:

- سأعمل في الصحافة.

لفتح إبراهيم شوكت قائلاً:

- جورنالجي! كتّا نسع هذا الكلام فنظّته ضحكًا

وعينًا، يأن أن يكون مدرّسًا مثلك ويسمى إلى أن

يكون جورنالجيًا...

في العقد الأخير من الشباب، وكان مظهره ينم عن الخلق والذكاء. ودمى بصبره إلى سوسن حماد وهو يسائل نفسه ترى هل تذكره؟ ولم يكن رآها منذ أول مقابلة عام ١٩٣٦. والتقت حينها فساها باسمًا مدفوعًا برغبة في الخروج عن صمته:

- قابلت حضرتك هنا منذ خمس سنوات...

فلاح التذكر في عينها اللامعتين فاستدرك قائلاً:

- كنت أسأل عن مصير مقالة تأخر نشرها!

فقال باسمه:

- أكاد أذكرك، وعلى كلٍ فقد نشرنا منذ ذلك

التاريخ مقالات كثيرة!...

فقال يوسف الجميل معلقًا:

- مقالات تنم عن روح تقدمة طيبة...

وقال إبراهيم رزق:

- إنَّ الوعي اليوم غير بالأمس، كَلِّمًا نظرت في الطريق قرأت على الجدران عبارة «الحيز والحزنة» هذا شعار الشعب الجديد.

فقال سوسن حماد باهتمام:

- ما أجمله من شعار، خاصة في هذا الوقت الذي

أطبق فيه الظلام على العالم!...

وأدرك أحمد ما يعنيه قولها فاستجابت نفسه سريعًا.

وفي حماس وسرور - للجو المحيط به وقال:

- الظلام يطبق على العالم حقًا، ولكن ما دام هنر

لم يهجم على بريطانيا فثمة أمل في النجاة.

فقال سوسن حماد:

- لآني أنظر إلى الموقف من زاوية أخرى، ألا ترى

أنَّ هنر لو هاجم بريطانيا فمن المحتمل أن يهلكا معًا

أو في الأقل أن ينتقل مركز القوة إلى روسيا؟...

- وإذا حدث العكس؟ أعني أن يهجم هنر الجزيرة

ويبلغ ذروة القوة؟!...

فقال يوسف الجميل:

- كان نابليون كهنر غازي أوروبا ولكن روسيا

كانت مقبته.

ووجد أحمد نشاطًا وحماسًا لم يشعر بمثلها من قبل.

هذا الهواء النقي، وهؤلاء الزملاء الأحرار، وهذه

الزميلة المستتيرة الحسناء، ولِدَاعٍ أو لآخر ذكر علوية

- ولكن...؟

- من الخطأ أن يكون للإنسان والدان!

كإل ضاحكًا:

- كيف هان عليك أن تقول ذلك؟

- لا أعني حرفيته، ولكن ما يرمز إليه الوالدان من

تقاليد الماضي، فالأبوة على وجه العموم قسمة، وما

حاجتنا في مصر إلى الفرامل ونحن نسير بأرجل مكبلة

بالأغلال؟!

ثم مواصلة الحديث بعد تفكير:

- إنَّ مثلي لن يعرف الكفاح بمعناه المر ما دام لي

بيت ولأبي دخل، ولا أنكر أنني مطمئن بذلك ولكن في

الوقت نفسه خجل منه!

- متى ينتظر منك أن توجر على عملك؟

- لم يحد الأستاذ وقتًا...

وعند العتبة الخضراء افترقا، فمضى أحد إلى مجلة

«الإنسان الجديد»، وقد استقبله الأستاذ علي كريم

مشجعًا، وذهب معه إلى حجرة السكرتارية حيث

خاطب من فيها قائلاً:

- زميلكم الجديد الأستاذ أحمد إبراهيم شوكت...

ثم قدّم إليه زملاؤه قائلاً:

- آنسة سوسن حماد، الأستاذ إبراهيم رزق،

الأستاذ يوسف الجميل... وصافحوه مرتحين، ثم

قال إبراهيم رزق جاملًا:

- اسمه معروف في مجلّتنا...

وقال الأستاذ علي كريم باسمًا:

- إنه الابن البكر للإنسان الجديد... (ثم وهو

يشير إلى مكتب يوسف الجميل)... ستمعل على هذا

المكتب فإن عمل صاحبه في الخارج إلا فيها ندر...

وغادر علي كريم الحجرة فدعا يوسف الجميل

أحمد إلى الجلوس على كرسي قريب من مكتبه، وانتظر

حتى جلس ثم قال:

- ستوجهك الآنسة سوسن إلى العمل الذي سيناط

بك، ولا بأس الآن أن تشرب قنجان قهوة...

وضغط على زر الجرس على حين راح أحمد يتصقح

الوجه والمكان، كان إبراهيم رزق كهلاً مهتمًا يبدو

أكبر من سنّه بعشرة أعوام، أما يوسف الجميل فكان

- إن الرقابة تقف لنا بالمرصاد...
فقلت بصوت يذلّ على الحق والازدراء:
- أنت لم تر شيئاً بعد، مجلّتنا ومشبوهة في الدوائر العليا! ولها الشرف!
فقال أحمد بأسياً:
- تذكرين طبعاً اختناحيات الأستاذ عدلي كريم قبل الحرب؟

- لقد غطّلت مجلّتنا مرّة في عهد عليّ ماهر بسبب مقال عن ذكرى الثورة الممرّابية اتهم فيه الأستاذ الخديو توفيق بالخيانة.

ويوماً سألته ضمن حديث عابر:

- لماذا اخترت الصحافة؟...

فتفكر قليلاً، إلى أيّ درجة يجوز له أن يكشف عن ذات نفسه لهذه الفتاة التي تبدو طرّاً وحدها بين من عرف من بنات جنسها:

- لم أدخل الجامعة لأتعلّم، ولكن عندي أفكار أريد التعبير عنها ونشرها وما من سبيل إلى ذلك خير من الصحافة...

فقلت باهتمام سرّ له من أمهاته:

- أمّا أنا فلم أدرس في الجامعة، أو بالحريّ لم تتح لي فرصة (سرته صراحتها كذلك وإن أدّدت في نفسه مخالفتها لبنات جنسها)... إلني متخرّجة في مدرسة الأستاذ عدلي كريم، وهي ليست دون الجامعة منزلة، درست عليه منذ حصولي على البكالوريا، وأصارتك بذلك أحسن تعريف الصحافة، أو الصحافة التي تعمل فيها، بيد أنّك تنفّس عن أفكارك - حتى الآن - عن طريق غيرك، أعني بالترجمة، ألم تفكر في اختيار الشكل الذي يناسبك من أشكال الكتابة؟

فصمت مفكراً كأنما أخلق عليه المعنى المقصود ثم تساءل:

- ماذا تعنين؟

- المقالة، الشعر، القصّة، المسرحيّة؟

- لا أدري، المقالة أوّل ما يتبادر إلى الحاطر...

فقلت بلهجة ذات معنى:

- نعم، ولكنّها لظروفنا السياسيّة، لم تعد مطلباً يسيراً، لذلك يضطرّ الأحرار إلى إذاعة آرائهم

صري، وعام العذاب الذي صار فيه الحبّ الخائب حقّ صرعه، حين كان يصبح وعسي وهو يلن الحبّ من صميم قلبه حين تطاير في الهواء تاركاً في أعناق النفس آثاراً من الامتناع والتمرد لا تزول. إنّها الآن في بيتها في المعادي تنتظر زوجاً ذا حسين جنبها شهرياً على الأقلّ، أمّا هذه الفتاة التي تدعو بالنصر لروسيا فإذا تنتظر يا ترى؟...

وإذا بسوسن تلوح برزمة أوراق في وجهه وهي تقول برقة:

- سمع!...

فنهض، ثمّ مضى إلى مكتبها بأسياً لبدأ عمله الجديد...

٣٤

لم يكن يوسف الجميل يمزّ بللجّة إلاّ يومئذ في الأسبوع أو يومين إذ كان جلّ نشاطه موجّهاً للإعلانات والاشتراكات، كذلك لإبراهيم رزق لم يمكث في السكرتارية أكثر من ساعة ثمّ يدور على بقية المجالات التي يعمل بها، فكان أكثر الوقت يقضي وهما منفردان، أحمد وسوسن. ومرة جاء رئيس عمّال المطبعة ليأخذ بعض الأصول فما راعه إلاّ أن يسمعها وهي تدعوه «أبي!». وعلم بعد ذلك أنّ ثمة صلة قويّة تربط الأستاذ عدلي كريم نفسه برئيس عمّال المطبعة. كان ذلك مفاجئاً ومثيراً، وراعه أكثر من سوسن مشايرتها على العمل، كانت محور التحرير ومركز نشاطه، بيد أنّها كانت تعمل أكثر ممّا يستوجبه تحرير المجلّة، فما تزال تقرأ أو تكتب. وودت جفاقة حادة شديدة الذكاء، وشعر من أوّل الأمر بقوة شخصيتها، حتىّ كان يجنّب إليه بعض الأحيان - رغم عينيها السوداوين الجذّابتين وجسمها الأنثويّ اللطيف - أنّه حيال رجل قويّ الإرادة حسن التنظيم، ثمّ تأثّر بنشاطها فتأبّر على عمله بهمة لا تعرف الكلل أو الملل، وقد أخذ على عاتقه ترجمة المختارات من مجلّات العالم الثقافيّة، إلى ترجمة بعض المقالات ذات الشأن، وقد قال لها يوماً:

فقلت موسون في حماس:

- هذا مناقض لما كتبت، فأراهن على أنك متأثر بالوفاء لحالك! . عندما يكون الإنسان متأثراً يرتجز اهتمامه في إزالة أسباب الألم، مجتمعنا متألم جداً فيجب أن نزيل الألم قبل كل شيء، ولنا بعد ذلك أن نلهم ونفلسف! ولكن تصور إنساناً يفلسف لاهياً وبه جرح ينزف لا يعبره أدل التفات، ماذا تقول عن مثل هذا الإنسان؟!

أهذا خاله حقاً؟ لكن فليقر بأن كلامها يلقي لهاوياً كاملاً في نفسه، وبأن عينيها جيلتان، وبأسقامها رغم غرايتها وجلتيها جذابة... جذابة...
- الواقع أن خالي لا يعبر هذه الأمور التفاتاً جذياً، لقد حدثته كثيراً عنها فوجدته إنساناً يدرس النازية كما يدرس الديمقراطية أو الشيوعية، ولكنه لا هو بارد ولا هو حار، ولم أستطع أن أتبين موقفه...
قلت باسمه:

- لا موقف له، إن موقف الكاتب لا يمكن أن ينفى، إنه مثل من المثقفين البورجوازيين بقراً ويستمتع ويتساءل، وقد تمجده في حيرة أمام «الطلق»، وربما بلغت به الحيرة حد الألم، ولكنه يمر سادراً بالمشاكل الحقيقية في طريقه...
فقال ضاحكاً:

- ليس خالي كذلك...
- أنت أدري، كذلك قصص رياض قلندس ليست بالقصص المنشودة، إنها واقعية وصفية تحليلية، ولا تتقدم عن ذلك خطوة، لا توجه بها ولا تبشيراً
ففكر أحمد قليلاً ثم قال:
- ولكنه كثيراً ما يصف حال الكادحين من العمال والفلاحين، ومعنى هذا أنه يبب مسرح البطولة في أقاصيصه للطبقة الكادحة!
- ولكنه يقتصر على الوصف والتحليل، إنه لعمل سلبى بالنسبة للمعركة الحقيقية!...
يا لها من فتاة تروم العراك! شديدة الجذبة فيما يبدو، ولكن أين المرأه؟!

- وكيف تريدني أن يكتب؟

- أقرأت شيئاً عن الأدب السوفييتي الحديث، بل

بالمشروبات السرية، المقالة صريحة ومباشرة ولذلك فهي خطيرة، خاصة وأن الاعين عملاقة فينا، أما القصة فذات سجل لا حصر لها، إنها فنٌ مكر، وقد غدت شكلاً أدبياً شائعاً سوف ينتزع الإلمة في عالم الأدب في وقت قصير، ألا ترى أنه ما من كبير من شيوخ الأدب إلا وهو يثبت وجوده في مجال نشاطها ولو يؤلف واحداً؟

- نعم، قرأت أكثر هذه المؤلفات، ألم تقرئي للأستاذ رياض قلندس الكاتب بمجلة الفكر؟
- هذا واحد من كثيرين، وليس خيراً ما
- ربما، لقد لفتني إليه خالي الأستاذ كمال أحمد عبد الجواد الكاتب بنفس المجلة...
فقلت باسمه:
- هو خالك؟ قرأت له مؤات، ولكن...
-...؟

- معذرة إنه من الكتّاب الذين يبيسون في تيه الميتافيزيقا!
فستدل فيها يشبه القلق:
- ألم يعجبك؟

- الإعجاب شيء آخر، إنّه يكتب كثيراً عن الحقائق القديمة: الروح... المطلق... نظرية المعرفة، هذا جميل، ولكنه - فبا عدا المتعة الذهنية والترقب الفكري - لا يفضي إلى غاية، ينبغي أن تكون الكتابة وسيلة محدّدة الهدف، وأن يكون هدفها الأخير تطوير هذا العالم والصعود بالإنسان في سلم الرقي والتحرّر، الإنسانية في معركة متواصلة والكتّاب الحليق بهذا الاسم حقاً يجب أن يكون على رأس المجاهدين، أمّا وثبة الحياة فلنذهب لبرجسون وحده...
- ولكن كارل ماركس نفسه بدأ فيلسوفاً ناشئاً يهيم في تيه الميتافيزيقا.

- وانتهى بعلم الاجتماع العلمي، فمن هنا نبدأ لا من حيث بدأ.
لم يرتج أحمد إلى نقد خاله على هذا النحو، فقال بنية الدفاع عنه قبل كل شيء:
- الحقيقة جديرة دائماً بأن تعرف، مهما تكن، ومهما يكن الرأي في آثارها...
يكن الرأي في آثارها...

أقرأت مكسيم جوركي؟

فصمت بآسَاء، لا داعي للخلجل، كان طالب اجتياح لا طالب أدب، ثم إنها تكره بسنوات، ترى ما عصرها؟ ربما كانت في الرابعة والعشرين أو أكثر! وعادت تقول:

- هذا ما ينبغي أن تقرأ من ألوان الأدب، سأعيرك بعضه إذا شئت...

- بكل سرور...

فابتسمت قائلة:

- ولكن الإنسان والحرّ لا يكفي أن يكون قارئاً أو كاتباً! إن المبادئ تتعلق بالإرادة قبل كل شيء، الإرادة أولاً وقبل كل شيء.

مع ذلك رأها أنيقة، أجل ليس في وجهها زواقي، ولكن عنایتها بظهورها وأناقتها ليست دون غيرها من بنات جنسها، هذا الصدر الحليّ مؤثّر كغيره من الصدور الفاتنة، ولكن مهلاً هل يختلف هو عن غيره من الرجال بما يعتنق من مبدأ؟ طبقتنا غريبة تأبى أن تنظر إلى المرأة إلا من زاوية خاصة...

- إني مسرور بمعرفتك، وأرى أنه أمامنا أكثر من مجال للعمل ممّا كيد واحدة...

فقلت باسمه، وكانت عند الابتسام تبدو أنني قبل كل شيء:

- هذا إطار!

- إني مسرور بمعرفتك حقاً...

أجل إنه كذلك، ولكن ينبغي ألا يسيء فهم ما ينقل به صدره فلملّه الاستجابة الطيعيّة لمرافق مثله، واصطنع الحذر حتى لا ترمي بنفسك إلى مثل موقفك بالمعادي، فإن الحزن لم ينجح بعد من صفحة قلبي...

٣٥

- مساء الخير يا عتي.

وتبع جلييلة إلى مجلسها المختار في الصالة، وما استقرّ بهما المجلس فوق الكتبة حتى نادى المرأة خادمتها فجدعت حاملة الشراب وجعلت ترقبها وهي تعدّ الخوان حتى فرغت من مهنتها وذهبت، وعند ذلك

التفت جلييلة إلى كمال قائلة:

- يا ابن أخي، أقسم لك أنني لم أعد أشرب إلّا معك، كلّ ليلة جمعة، كما كان يحلّوني أن أشارب أباك في الزمن القديم، ولكن في ذلك الزمن أشارب الكثيرين أيضاً...

وقال كمال في نفسه: «ما أحوطني إلى الشراب، لا أدري ماذا كانت تكون الحياة ببلونه» ثم قال يحاورها:

- ولكنّ الويسكي اختفى يا عتي، وكذلك كافّة المشروبات النظيفة، ويقال إنّ الغارة الألمانية الأخيرة على اسكتلندا أصابت مخزن مخور عالمي حتى سالت الوديان بالويسكي الأصلي...

- يا روجي على غارة من هذا النوع! ولكن خبرني قبل أن تسكر كيف حال السيّد أحمد؟

- لا تقلّم ولا تأشّر، يمزّ عليّ يا ستّ جلييلة مرقده، ربّما يلفظ به...

- يا ما نفسي أزوره، ألا تجمد الشجاعة فتبلغه عتي السلام؟

- يا خيرا. لم يبق إلّا هذا حتى تقوم الساعة! فضحكت العجوز ثم قالت:

- انحسب أنّ رجلاً مثل السيّد أحمد يمكن أن يتصوّر البرامة في إنسان خاصة إذا كان من صلبه؟

- ولو يا زين السّنات!... صحتك...

- صحتك... ربّما تأخّرت عطية إذ إنّ ابنها مريض...

فقال كمال في شيء من الاهتمام:

- في آخر مرّة لم يكن بها شيء!...

- نعم ولكنّ ابنها مريض يوم السبت الماضي، وروحها المسكينة في ابنها، وإذا سمّه سوء طسارت أبراج عقلها...

- يا لها من امرأة طيبة عائرة الخطّ، طلما أفتعني أحوالها بأنّها لا تمارس هذه الحياة إلّا مضطّرة...

فقلت جلييلة باسمه أو ساخرة:

- إذا كان مثلك يضيق بمهنته الشريفة فكيف ترضى

هي بمهنتها؟

ومرّت الخادم بمجمرة تنفث بخوراً لطيفاً، وكان جو

- وهل تحسبني أشرب الآن؟ مضى ذلك الزمان، لا طعم لها اليوم ولا أثر، كالقهوة لا أكثر ولا أقل، في الزمان الأول سكرت مرة في فرح بيرجوان حتى اضطررت لتخت أن يحملي إلى عريتي آخر الليل، ربنا يكتفيك شرهما! ...

ولكنها خير من لا خير له! ...

- وذروة النشوة هل عرفتوها؟ كنت أبلغها بكاسين، اليوم يلزمني ثمانية كنوس كي أبلغها، ولا أدري كم غداً، ولكننا ضرورية يا عمتي، فعندها يرقص القلب المكلوم طرباً... .

- قلبك طروب يا ابن أخي دون الحاجة إلى الخمر... .

قلبه طروب! وهذا الحزن الصديقي؟ والرماد المتخلف من محرق الآمال؟ لم يبق للمملول إلا الامتلاء بالخمر، في هذه الصالة أو في تلك الحجرة إذا جاءت التي تداوي ابنها، هو وهي في موضع واحد من الحياة، حياة من لا حياة لهم.

- أخشى ألا تحيي عطية! ...

- سيجيء حتماً، أليس المرض في حاجة إلى النقود؟ يا له من جواب! بيد أنها لم تكنه من الضحك إذ مالت نحوه في اهتمام، ونظرت إليه ملياً، ثم قالت بصوت منخفض:

- لم يبق إلا أيام! ...

فقال دون أن يدرك حقيقة مرادها:

- ربنا يطول عمرك ولا يجرمني منك!

فألتفت باسمه:

- ساهجر هذه الحياة!

فانتصب نصفه الأعلى في حمسة وهتف:

- ماذا قلت؟!

فضحكت ثم قالت بلهجة لم تخل من سخرية:

- لا تخف، ستذهب بك عطية إلى بيت آمن كهذا

البيت... .

-!؟ ...

- ولكن ماذا حدث؟

- كبرت يا ابن أخي، وأغنانني الله فوق حاجتي، وبالأمر صُبط بيت قريب وسيقت صاحبتة إلى

الحريف يهفو رطبياً من نافذة في نهاية الصالة، وكانت الخمر شديدة المرارة ولكنها قوية الأثر، غير أن كلام جليلة عن المهنة ذكره بأمر كاد ينساها فقال:

- كدت أنقل من مصر يا عمتي، ولو وقع المحظور لكنت الآن أعذ الحفائط للسفر إلى أسبوط! ...

فضربت جليلة صدرها بكفها وقالت:

- أسبوط يا بلح! أسبوط في عين عدوك، وماذا حصل؟

- سليمة والحمد لله!

- معارف والدك يملأون الدواوين كالنمل... .

فهز رأسه كالواقف دون تعليق. إنها ما زالت ترى أباه في حالة المجد القديم، لا تدري أنه - حين أخبره عما تقرر من نقله - قال عزوئاً أسفاً ولم يعد يعرفها أحد، أين أصدقاؤنا أين؟، وقبل ذلك مضى إلى صديقه القديم فؤاد جميل الخمزاي لعله يعرف أحداً من كبار رجال المعارف ولكن القاضي الخطير قال له «إني أسف جداً يا كمال فانا بصفتي قاضياً لا أستطيع أن أرجو أحداً». وأخيراً لجأ إلى رضوان ابن أخيه وهو يتمرّ بخجله، وفي نفس اليوم عدل عن نقله! «يا له من شاب خطيراً كلامها موكلف في وزارة واحدة وفي درجة واحدة رغم أنه في الخامسة والثلاثين والشاب في الثانية والعشرين، ولكن كيف ينتظر من عروجة ابتدائي أفضل من هذا؟» ولم يعد من الممكن أن يتعزى بالفلسفة أو يدعيها، فليس الفيلسوف من رقد قول الفلاسفة، كالبيضاء، واليوم كل متخرج في كلية الآداب يستطيع أن يكتب كما يكتب هو أو أحسن، وقد كان هناك نمة أمل في أن يجمع ناشر مقالاته في كتاب، ولكن لم يعد لئله هذه المقالات التعليمية من قيمة تذكر، وما أكثر الكتب هذه الأيام، وهو في هذا الحضم لا شيء، وقد ملّ حتى طفق بالملل. فعنى يدرك قطاره محطة الموت؟. ونظر إلى الكأس في يده عتمة، ثم إلى وجهها الناطق بعمرها الجديد فلم يسمعه إلا الإعجاب بها، ثم تسامد:

- ماذا تجدني في الشراب يا عمتي؟

فالتفت فوها عن أسنان نهيبة وهي تقول:

- ساعك الله، هذا بيتك ما دام بيتي، وكل بيت
أحل فيه فهو بيتك يا ابن أخي...
أتمّة لعنة قديمة مجهولة فُضي عليه بأن يكفر
عنها؟ كيف المخرج من هذه الحيرة التي تغشي
حياته؟ حتى جليّة تفكر جاذبة في تغيير حياتها فلم لا
يتخذ منها أسوة؟ لا بدّ للغريق من صخرة يلوذ بها أو
فليغرق، وإذا لم يكن للحياة معنى فلم لا نخلق لها
معنى؟...!

- ربّما كان من الخطأ أن نبحث في هذه الدنيا عن
معنى بينا أنّ مهمّتنا الأولى أن نخلق هذا المعنى...
وحلجته جليّة بنظرة غريبة فانتبه بعد فوات الوقت
إلى ما بدر منه دون شعور. وضحكت جليّة متسائلة:
- سكوت بهذه السرعة؟
فدارى ارتباكك بضحكة عالية، وقال:
- خسر الحرب كالسّم، لا تؤاخذيني، ترى متى تأتي
عطية؟!

٣٦

غادر كمال بيت جليّة عند منتصف الساعة الثانية
صباحاً، كان كلّ شيء غارقاً في الظلام، وكان الظلام
غارقاً في الصمت، وسار على مهل نحو السكّة الجديدة
ثمّ مال إلى الحسين. حقّ متى يعيش في هذا الحيّ
المقدس الذي لم يمتّ إليه بصلّة؟. وابتمس ابتسامة
فاترة، لم يكن بقي من الحمر إلّا خارها، أمّا الجسد
فقد خلدت لواعجه، فنقل خطاه في إعياء وكسل.
عادة في مثل هذه اللحظة الحامدة يصرخ شيء في
أعياقه - لا هو التوبة ولا الندم - ناشداً التطهر،
ملتصماً الخلاص من قبضة الشهوات إلى الأبد، كأنّ
موجة شهواته تنحصر عن صخور تقشّف كاملة. وربع
رأسه إلى السماء، كأنّها ليستأنس بالنجوم فانطلقت في
السكون صفارة الإنذار. ودقّ قلبه دقّة عنيفة ثمّ
حلمت عيناه النائمات، ثمّ بدافع غريزيّ مال إلى
أقرب جدار وسار بحدائه، ونظر إلى السماء مرّة أخرى
فرأى أضواء الكشافات الكهربائية تسمح صفحاتها في
سرعة شديدة، تلتقي أحياناً ثمّ تتفرّق في جنون.

الغسم، حسبي، إنّي أفكر في التوبة، ينبغي أن أقابل
ربّي على غير ما أنا عليه
إن على بقية كاسه، وملاه كأنّما لم يصدّق ما
سمعه:

- لم يبق إلّا أن تستقلّ السفينة إلى مكّة!!
- ربّنا يقدّرني على فعل الخير...
وتساءل وكأ يفق من دهشته:
- أجاه هذا كلّ فجاءة؟
- كلّاً، إلى لا أبوح بسرّ إلّا عند العمل، طلالا
تكرت في هذا من زمن...
- جدّ؟
- كلّ الجدّ، ربّنا معنا
- لا أدري ماذا أقول، ولكن ربّنا يقدّرك على فعل
الخير.

- آمين...
ثمّ صاحكة:
- ولكن اطمئنّ فإن أغلق هذا البيت حتى اطمئنّ
على مستقبلك!...
فضحك ضحكة عالية وقال:

- هيهات أن أجد بيتاً أرتاح فيه كهذا البيت!.
- لك عليّ أن أوصي بك الهدونة الجديدة ولو كنت
في مكّة!
كلّ شيء يبدو مضحكاً ولكنّ الحمر ستظلّ قبله
المحزون، وتتغير الأوضاع فيحلو فؤاد جميل الحمزاوي
ويسفل كمال أحمد عبد الجواد، ولكنّ الحمر ستظلّ
بشاشة المكروب، ويوماً يحمل كمال رضوان على كتفه
ليدلكه ثمّ يميّ يوم فيحمل رضوان كمال ليقبله من
عثرته ولكنّ الحمر ستظلّ نجدة الملهور، وحتى الست
جليّة تفكر في التوبة في الوقت الذي يبحث هو عن
ماخوذ جديد ولكنّ الحمر ستظلّ الماوي الأخير، وعلى
السقيم كلّ شيء حتى يملّ الملل ولكنّ الحمر ستظلّ
مفتاح الفرج.

- يسمعي أن أسمع عنك دائماً ما يسرّ.

- الله يهديك ويسعدك...
- إذا كان وجودي يضايقك؟...
وسدّت فاه بأصبعها، وقالت:

لم يجب أبوه، وكان ملقياً بظهره في إحياء إلى جدار القبر بين الأمّ وعائشة، أمّا الأمّ فقالت:

- كمال؟. الحمد لله، شيء فظيع يا بني، ليست ككلّ مرّة، خيّل إلينا أنّ البيت سينقضّ فوق رؤوسنا، ورَبَّنَا شدّ حبل أليك فنفض وجاه بيتنا، لا أدري كيف جاء ولا كيف جثنا...
وغصغت أمّ حنفي:

- عنده الرحمة، ما هذا الهول؟!. ربَّنَا بلطف بنا...
وفجأة هتفت عائشة:

- متى تسكت هذه للدافع؟!.
وخيل إلى كمال أنّ صوتها ينلر بانهباء صميم فاقترّب منها وأمسك بكفّها بين يديه وكأنّه قد استرّد بعض وعيه المفقود عندما وجد نفسه حيال مَنْ هم في حاجة إلى تشجيعه. وكانت المدافع ما تزال تنطلق في غضبها الجنوني، طير أنّ وطأها أدخلت تحفّ بدرجة غير محسوسة، ومال كمال نحو أبيه وسأله:

- كيف حالك يا أبي؟
فجاءه صوته وهو يهيم في خور:
- أين كنت يا كمال؟. أين كنت حين وقعت الغارة؟...
فقال يطمئنه:

- كنت على مقربة من القبر، كيف حالك؟
فأجاب بصوت متقطع:

- الله أعلم... كيف غادرت فراشي وهرولت في الطريق؟. الله أعلم... لم أشعر بشيء... متى تعود الحال إلى الهدوء؟

- أأخلع لك جاكتي لتجلس عليها؟
- كلاً، أنا قادر على الوقوف، ولكن متى تعود الحال إلى الهدوء؟...

- الغارة انتهت ليا بيدو، أمّا قيامك المفاجئ فلا تحفّه. إنّ المفاجآت كثيراً ما تصنع المعجزات مع المرض...!

وما كاد ينتهي من قوله حتّى زلزلت الأرض بثلاثة انفجارات متتابعة فتار جنون المدافع المضادة مرّة أخرى وضجّ القبر بالصراخ:

وحثّ خطاه دون أن يفارق الجدران وقد شعر شعوراً موحشاً بوجوده كأنّ وجه الأرض قد خلا إلّا منه!.

وإذا بصغير مبحوح ينهال لم يطرق أذنه من قبل، يعقبه انفجار شديد ارتجّت له الأرض تحت قدميه، قريب أم بعيد؟ ولم يتسع له الوقت لمراجعة معلوماته عن الغارات، إذ تتابعت الانفجارات بسرعة تكتم الأنفاس، وانطلقت المدافع المضادة جماعات جماعات، والتمع الجوّ بأصواء كالبرق لم يعرف مصدرها ولا كنهها فخيّل إليه أنّ الأرض تتطاير. وانطلق يعدو بسرعة لا يلوي على شيء صوب درب قرمز ملتصقاً في قبوها التارخّي غباً. وكانت المدافع تنطلق في غضب جنوني، والقنابل تدكّ مراميمها دكّاً، والأرض تمهد. وفي ثواني من الفزع بلغ القبر، وكسان يكتظّ بخلق كثيرين تكاثفت بهم ظلمته، فاندسّ بينهم وهو يلهث. وكان جوه يسوده الرعب ويمتّلّ بهمهمات الفزع في ظلام داس، أمّا مدخل القبر وخرجه فيضيان من أن لآخر بانمكاسات الإشعاعات المنطلقة في الفضاء، وقد توقّف سقوط القنابل أو هذا ما خيّل إليهم، أمّا المدافع فلم تحفّ جنونياً ولم يكن رَجْمُها في النفوس دون رجح القنابل، واختلطت أصوات صراخ وبكاء وزجر وانتهار صادرة عن نسوة وأطفال ورجال.

- هذه غارة جديدة وليست كالسابقات...
- ولهذا الحيّ القديم هل يتحمّل الغارات الجليدية؟!

- اعفونا من هذه الثثرة وقولوا يا ربّ!.
- كلنا يقول يا ربّ!...
- اسكتوا... اسكتوا يرحمكم الله!

وكان كمال يلاحظ الضوء الذي ينير مخرج القبر حين رأى جماعة جديدة قائمة فخيّل إليه أنّه لمح هيئة أبيه بينها، وخفق قلبه، أيكون حقّاً أباه؟ وكيف استطاع أن يقطع الطريق إلى القبر؟ بل كيف استطاع أن يغادر فراشه؟ وشقّ طريقاً إلى نهاية القبر غترقاً الكتل البشريّة المضطربة، فتبيّن على التتابع الضوء أمرته جيماً، أباه وأمه وعائشة وأمّ حنفي! وألجّه نحوهم حتّى وقف بينهم وهو يهيم:

- أنا كمال! كلّم بخير!

الأطفال عقب مدافع الأعياد، وضح المكان وما حوله بحركة ما لها من آخر. صفقات أبواب ونوافذ، هدير كلام عصبي، ثم تتابع انصراف المنحشرين في القبر، وقال كمال وهو يتندب:

- فلنعد...

وضع الأب ذراعاً على كتف كمال والأخرى على كتف الأم وسار بينهما خطوة خطوة. وبدءوا يتساءلون عن الرجل، كيف هو، وماذا أصابه إثر مغامرته الخطيرة. غير أن الأب توقف عن المشي وهو يقول بصوت ضعيف:

- أشعر بأنني يجب أن أجلس...

فقال له كمال:

- دعني أحملك.

فقال في إعياء:

- لن تستطيع...

ولكن كمال أحاطه بذراع من وراء ظهره ووضع الأخرى تحت ساقيه، ورفع. لم يكن حملاً خفيفاً ولكن ما بقي من أبيه كان على أي حال هيئاً. وسار في بطة شديد، والآخران يتبعونه مشفقين. وانتجت عائشة فجأة فقال الأب بصوت متعجب:

- لا داعي للفضيحة!

فكتمت فاما بيدها، وكما بلغوا البيت عاوت أم حنفي في حمل السيد، فصعدا به السلم على مهل وحذر، وكان مستسلاً ولكن مهمته الاستغفارية المتواصلة تمت عن حزنه وضيقه، حتى طرعا بعناية على فراشه، وكما أضيء نور الحجر بدا وجه الأب شديد الشحوب كأجهد قد استصفى دمه، وكان صدره يعلو وينخفض بضعف، فأغمض عينيه إعياء، ثم راح يتأوه، ولكنه غالب له حتى استطاع أخيراً أن يلوذ بالصمت. وكان الجميع يقفون صفّاً بإزاء فراشه ويتطلعون إليه في وجل وإشفاق، وأخيراً تسامت أمانة بصوت مهتج:

- سيدي بخير؟

ففتح عينيه، وجعل ينظر في الوجوه ملئاً، وبدأ لحظات كآته لا يعرفها، ثم تنهد وقال بصوت لا يكاد يسمع:

- إنها فوق رموسنا! ..
- وخذ الله...
- أسكتوا هذا الشوم!

وترك كمال يد عائشة ليأخذ يدي أبيه بيده، وكان يفعل ذلك لأول مرة في حياته، وكانت يدا الرجل ترتجفان، وكانت يدا كمال ترتجفان كذلك، أما أم حنفي فقد انبطحت على الأرض وهي تولول. وعاد الصوت العصبي يصيح في هياج:

- إياكم والصراخ، سأقتل الصارخ!...

وعلا الصراخ، وتلاصحت طلقات المدافع، واشتد توتر الأعصاب، في توقع زلازل جديدة، ولكن المدافع استمرت تنطلق وحدها، وظل توقع انفجارات جديدة يفتق الأرواح.

- انتهت القتابل!

- إنها تغيب ثم تنفجر...

- إنها بعيدة، لو كانت قريبة ما سلمت البيوت من حولنا!

- بل سقطت في النحاسين!

- هكذا يتجلى إليك ولعلها في الأورنس!

- انصتوا يا هو، ألم تخف المدافع؟

بل خفت طلقاتها، ثم لم تعد تسمع إلا من بعيد، ثم متقطعة ثم متباعدة، ثم بين الطلقة والأخرى دقيقة كاملة، ثم أناخ الصمت، وامتد، وطال وعقب، ثم انعقدت الألسن، حتى مضت تعالي همسات الأمل الباكي، وأخذ كثيرون يتذكرون أشياء وأشياء، ويمحون من جديدهم، ويتهددون في ارتياح حذر مشروب بالإشفاق، وعثبا حاول كمال أن يرى وجه أبيه بعد أن عادت التفاعات الضوئية الحافظت ويخم الظلام...

- أبي، ستعود الحال إلى الهدوء...

فلم يجب الرجل ولكنه حرك يديه بين يدي ابنه كأنما ليقتنه بأنه ما زال حياً...

- هل أنت بخير؟...

فحرك يديه مرة أخرى، وشعر كمال بحزن أوشك أن يبيح دموعه.

وانطلقت صفارة الأمان...

وأعقبها صياح تحليل من جميع الأركان كصياح

- الحمد لله...
- ثم يا سيدي... ثم كي تستريح...
وتراعى إليهم رنين الجرس الخارجي فمضت أم حنفي لتفتح الباب، وتبادلوا نظرات متسائلة فقال كمال:
- لعل أحداً من السكينة أو قصر الشوق قد جاء ليطمنن علينا.
وصدق حدسه فما لبث أن دخل الحجرة عبد المنعم وأحمد ثم تبعهما ياسين ورضوان فأقبلوا على فراش الأب وهم يحسون الموجودين، فوجه إليهم الرجل نظرات غائرة، وكأن الكلام لم يسغه فالتفت برفق يده النحيلة نحيفة، وقصص عليهم كمال في اقتضاب ما عاناه والده في ليلته المزعجة، ثم قالت أمينة همساً:
- ليلة فظيعة ربنا لا يميدها...
وقالت أم حنفي:
- الحركة أتمتبه قليلاً ولكنه سيسترده بالراحة عافيته...
ومال ياسين فوق أبيه وهو يقول:
- ينبغي أن تنام، كيف حالك الآن؟
فرنا الرجل إليه ببصر خاب وغمغم:
- الحمد لله... أشعر بتعب في جبني الأيسر...
فسأله ياسين:
- أحضر لك الطبيب؟
فأشار بيده في ضجر ثم همس:
- كل خير لي أن أنام...
فأشار ياسين إلى الموجودين بالخروج، وتراجع إلى الوراء قليلاً فرفع الرجل يده النحيلة مرة أخرى. وغادروا الحجرة واحداً في إثر واحد فلم يبق فيها مع الرجل إلا أمينة، وكما جمعتهم الصلاة سأل عبد المنعم خاله كمال:
- ماذا فعلتم؟ أما نحن فقد هرعنا إلى المنظرة في الخوش.
وقال ياسين:
- ونحن نزلنا إلى شقة الدور الأرضي عند جيراننا...
فقال كمال في قلق:

٣٧

أوصل كمال زوار آخر الليل حتى الباب الخارجي، ولم يكذ يعود إلى باب السلم حتى ترامت إليه من فوق ضجة مريبة، وكانت أعصابه ما تزال متوترة فدخله كابة ورتي السلم وثبات. وجد الصلاة خالية، وحجرة الأب مغلقة، وخليطاً من الأصوات يعلو خلف بابها المغلق، فهورع إلى الحجرة ودفع الباب ثم دخل، وكان يتوقع شراً أي أن يفكر في كنهه. كان صوت الأم المبحوح يهتف «سيدي»، وكانت عائشة تنادي بصوت غليظ «بابا» على حين تسمرت أم حنفي عند رأس الفراش فدعه شعور بالفزع واليأس والاستسلام الحزين؛ رأى نصف أبيه الأسفل مطروحاً على الفراش، ونصفه الأعلى ملقى على صدر الأم التي تربعت وراء ظهره، وصدره يعلو وينخفض في حركة آلية تند عنها حشرة غريبة ليست من أصوات هذا العالم، وعينيه مفتحتين عن نظرة مظلمة جديدة لا ترى ولا تعي ولا تملك أن تخبر عينا يتلج وراءها، فتسمرت قدمه وراء شباك السرير، وانعقد لسانه، وتجمرت عيناه، لم يجد شيئاً يقوله أو شيئاً يفعله، وعان شعوراً قاهراً بالمعجز المطلق، واليأس المطلق والتضاعة المطلقة وكأنه فقد الوعي لولا إدراكه أن أباه يودع الحياة. وودعت عائشة بصراً زائفاً بين وجه أبيها

ووجه كمال ثم هفت:

- أبي، هذا كمال يريد أن يمدّك!

وخرجت أم حنفي عن غمضتها المتصلة قائلة في نبرات ممزقة:

- احضروا الطبيب...

فأثت الأم في حزن غاضب:

- أي طبيب يا حمقاء!

ثم نثت عن الأب حركة كلها يحاول الجلوس، وازداد صدره تشنّجاً واضطراباً، ومدّ سبابة يده ثم سبابة يسراه، فلما رأت الأم ذلك تقلّص وجهها من الألم ثم مالت على أذنه وتشهدت بصوت مسموع وكزرت ذلك حتى سكنت يده. وأدرك كمال أنّ أباه لم يعد يستطيع النطق وأنه دعا الأم لتشهد نيابة عنه، وأنّ كنه هذه الساعة الأخيرة سيضيئ سراً إلى الأبد، وأنّ وصفه بالأم أو الفرع أو الغيبوبة رجم بالغيب، ولكنه على كلّ حال لا ينبغي أن تطول، إلّا أجل وأخطر من أن تبدّل، أمّا أعصابه فقد انهالت حيالها، وحجل من نفسه إذ نزعت لحظات إلى تحليل الموقف ودراسته، كأنّ احتضار أبيه يبيّز أن يكون زائداً لتأمّله ومائة لمعرفته، وضاعف ذلك من حزنه ومن لهُ، وقد اشتدّت حركة الصدر وعلت حشرجه، ثم ما هذا؟ أيهمّ بالغيام؟ أم يحاول الكلام؟ أم يضابط شيئاً مجهولاً؟ أين أم؟ أم يفرغ؟... أه... وشهق الأب شهقة عميقة ثم ارمى رأسه على صدره.

صرخت عائشة من الأعماق: «يا أبي... يا نعمة... يا عثمان، يا عمّده فهرعت إليها أم حنفي ودفعتها أمامها برقة إلى الخارج، ورفعت الأم وجهها الشاحب إلى كمال وأشارت إلى الخارج، ولكنه لم يتحرّك، فهمست في ناس:

- دعني أقم بواجبي الأخير نحو أبيك...

فتحوّل من موقفه ومضى خارجاً، وكانت عائشة مرتقية على الكنية وهي تعول، فمضى إلى الكنية للمقابلة لها وجلس، أمّا أم حنفي فذهبت إلى الحجر لتساعد سيديتها وأغلقت الباب وراءها. ولم يعد بكاء عائشة ممّا يُحتمل فقام واقفاً وراح يقطع الصلاة ذهاباً وإياباً دون

أن يورثه إليها خطاباً، وكان من حين لآخر يرنو إلى باب الحجر المغلق ثم يضغط على شفتيه بشدّة، وتساءل لم يبلولنا الموت بهذه الغرابة؟ وكان كلّما جمع أفكاره ليتأمّل تشبّت وغلبه الانفعال. كان الأب - حتى بعد انزوائه - يملأ هذه الحياة، فلن يكون غريباً إذا وجد غداً البيت غير البيت الذي عهد، والحياة غير الحياة التي ألفها، بل عليه منذ اللحظة أن يعدّ نفسه لدور جديد. واشتدّ ضيقه بنحيب عائشة وهمّ مرة بأن يُسكنها ولكنه لم يفعل، وعجب من أين لها بهذا الشعور وقد كانت تبدو جامدة غريبة عن كلّ شيء. وعاد يفكر في اختفاء أبيه من هذه الحياة فكبر عليه تصوّر هذا، ثم ذكر حاله الأخير فأكمل الحزن شغاف قلبه. وذكر صورته القديمة المائلة في خاطره، وهو في تمام أبعثه وقوته، فحضر برثاء عميق للكائنات جميعاً، ولكن متى يسكت نحيب عائشة؟... ألا تستطيع أن تبكي - مثله - بغير دموع؟

وفتح باب الحجر وخرجت منه أم حنفي، وترامى إليه من خلال الباب قبل أن يغلق نحيب الأم، فادرك أنّها فرغت من أداء واجبها وخلصت للبكاء، وتقدّمت أم حنفي من عائشة وقالت لها بصوت غليظ:

- كفاية بكاء يا سيدي...

ثم تحوّلت إليه قائلة:

- الفجر لاح يا سيدي، نم ولو قليلاً فاملك غد عصب...

ثم انصمّت في البكاء، ثم غادرت المكان وهي تقول في صوت باك:

- سأذهب إلى السكينة وقصر الشوق للإبلاغ الخبر الأسود!...

وجاء ياسين مهرولاً تتبعه زئوبة ورضوان، ثم ترامى إليهم من الطريق العصامت صوات خديجة. وبوصول خديجة استمرت النار في البيت جميعاً فاختلطت الصوات بالصراخ والبكاء. وتعلّز على الرجال البقاء في الدور الأول فصعدوا إلى المكتبة في الدور الأعلى وجلسوا واجمين، وغشيههم الصمت والوجوم حتى قال إبراهيم شوكت:

كان الأب في الساعة الخامسة اليوم في فراشه يتابع الراديو أما في نفس الساعة غدًا...! إلى جانب فهمي وابني ياسين الصغيرين، ترى ماذا تبقى من فهمي؟ لم يخفف العمر من رغبته القديفة في التطلع إلى جوف القبر، ترى هل كان الأب حقا يرغب في قول شيء كما تبتأ له؟ ماذا كان يريد أن يقول؟ والتفت ياسين إليه متسائلا:

- هل شعلت احتضاره؟

- نعم، عقب انصرافك مباشرة.

- تألم؟

- لا أدري، من يدرى يا أخي؟ ولكنه لم يستغرق أكثر من خمس دقائق...

تنهد ياسين ثم تساءل:

- ألم يقل شيئا؟

- كلا، والغالب أنه فقد النطق...

- ألم ينشده؟

فقال كمال وهو يفيض بصره ليداري تأثره:

- قامت أُمِّي بذلك نهاية عنه...

- ليرحمه الله...

- آمين...

وساد الصمت مليا حتى خرقة رضوان قائلا:

- يجب أن يكون السراق كبيرا ليتسع

للمعزين...

فقال ياسين:

- طبعا، أصدقاءنا كثيرون... (ثم وهو ينظر نحو

عبد المنعم)... وهناك شعبة الإخوان المسلمين...

ثم متبها:

- لو كان أصحابه أحياء لحملوا النعش على

أكتافهم...

ثم كانت الجنائزة كما رسموا، وكان أصدقاء عبد المنعم أكثر عددا، أما أصدقاء رضوان فكانوا أقل مقاما، ولفت نفر منهم الأنظار بشخصياتهم للعرافة لقرء الجرائد والمجلات، وكان رضوان بهم مزهوا حتى كاد يغفل زهوه على حزنه. وشيع أهل الحي وجار العمره حتى الدين لم يصلهم به سبب من أسباب

- لا حول ولا قوة إلا بالله، قضت عليه الغارة، رحمه الله رحمة واسعة كان رجلا ولا كل الرجال...

ولم يتالك ياسين نفسه فيكي، وعند ذلك انفجر كمال باكيا، فعاد إبراهيم شوكت يقول:

- وخذوا الله، لقد ترككم رجالا...

وكان رضوان وعبد المنعم وأحمد يتطلعون إلى الرجلين الباكين في حزن ووجوم وشيء من الدهش.

وسرعان ما جفف الرجلان دمعهما ولاذا بالصمت، فقال إبراهيم شوكت:

- الصباح قريب، فلنفكر فيما يجب عمله...

فقال ياسين في اقتضاب حزين:

- لا جديد في الأمر فقد جرتناه مرات...

فقال إبراهيم شوكت:

- يجب أن تكون الجنائزة جدية بمقامه...

فقال ياسين بتوكيد:

- هذا أقل ما يجب!

وهنا قال رضوان:

- الشارع أمام البيت ضيق لا يتسع للسراق المناسب فلننظم سراق العزاء في ميدان بيت

الفاضي...

فقال إبراهيم شوكت:

- ولكن العادة جرت بأن يقام سراق العزاء أمام

بيت المتولى!

فقال رضوان:

- ليس هذا بالمكان الأول من الأهمية خاصة وأنه سيؤم السراق وزوا وشيوخ ونواب!

وأدرك المستمعون أنه يشير إلى معارفه هو فقال ياسين دون مبالاة:

- نقيمه هناك...

وكان أحمد يفكر في الدور المنوط به فقال:

- لن نتمكن من نشر النعي في جرائد الصباح... فقال كمال:

- جرائد المساء تصدر حوالي الساعة الثالثة بعد

الظهر فلنجعل ميعد الجنائزة في الساعة الخامسة...

- ليكن، الفرافة قريبة على أي حال...

وتأمل كمال مجرى الحديث في شيء من العجب.

الذي تدور حوله فكيف أطبقها ولم يعد له فيها ظل؟ وأنا أول من اقترح تغيير معالم الحجر العزيرة... ما حيلتي ما داموا لا يدخلونها حتى تتعلق أبصارهم بمكانه الحالي ويجهشون بالبكاء... وسيدي يستحق الدموع التي تسيل من أجله، ولكني لا أطيق بكاءهم وأعاف على قلوبهم الغضة فأعزيهم بما تعزي بي أم حنفي وأطالبهم بالتسليم لله وقضائه، ولذلك أخليت الحجر من أثائها القديم وانتقلت إلى حجر عائشة، ولكن لا تهاجر الحجر وتستوحش نقلت إليها أثاث الصالة فانتقل إليها مجلس القهوة حيث نجتمع حول المجمعرة نتحدث كثيراً ونقطع أحاديثنا الصموم، ولا يشغلنا شيء كما يشغلنا الإعداد للفرافة وأشرف بنفسي على تجهيز الرحمة فلعله الواجب الأرحم الذي لم أنخل عنه لأم حنفي كما تخليت لها عن كل شيء، تلك المرأة العزيرة الوفية التي دخلت ببجدارة في صميم أسرنا، فنحن نعد الرحمة معاً ونبكي معاً وتذكر الأيام الجميلة معاً فهي دائماً معي بروحها وذاكرتها، وأمس جرت الحديث إلى ذكر ليالي رمضان فبادرت تتحدث عن سيرة سيدي في رمضان منذ ساعة استيقاظه في الضحى حتى حين عودته إلينا عند السحور، فذكرت بدوري كيف كنت أهرع إلى المشرية لأرى الحنطور الذي يمهده وأستمع إلى ضحكاته وركابه أولئك الذين ذهبوا تبارها إلى رحمة الله كما ذهبت الأيام الحلوة وكما ذهب الشباب والصحة والعافية فاللهم منع الأبناء بطول العمر وقز أعيانهم بأفراح الحياة، وهذا الصباح رأيت فطنتنا تشم الأرض تحت الفراش حيث كانت ترضع فلذات كبدها التي أهديناها إلى الجيران ففقط قلبي منظرها الحاضر الحزين وهنت من أعياق قلبي الله يصبرك يا عائشة... عائشة المسكينة التي هاج موت أبيها حزنها فهي تبكي أباه وابنتها وابنها وزوجها فما أصر الدموع وأنا التي تجرعت مرارة الكحل قديماً حتى سال قلبي دماً واليوم أجمع بوفاء سيدي وتحلو حياتي منه وكان مله حياتي جميعاً ولا يبقى لي من الواجبات إلا أن أعد له الرحمة أو أتلقاها من السكرية وقصر الشوق فهذا كل ما بقي لي، كلاً يا بتي، اختر لنفسك هذه الأيام مجلساً غير مجلسنا الحزين حتى لا تسري إليك عدوا... لذا

التعارف الشخصي، فلم تكذ الجنازة تحلو إلا من أصدقاء المرحوم نفسه الذين سبقوه إلى الدار الآخرة. وعند باب النصر ظهر الشيخ متولي عبد الصمد في الطريق، وكان يرتج من الكبر فرغ رأسه نحو النعش وهو يهبط عينيه ثم سال:

- من هذا؟

فاجابه رجل من أهل الحي:

- المرحوم السيد أحمد عبد الجواد!

فجعل وجه الرجل يهتز بينة ويسرة في ارتعاش، ومعهما تتساءل في حيرة، ثم إذا به يسأل:

- من أين؟...

فاجابه الرجل وهو يهز رأسه في شيء من الحزن:

- من هذا الحي، كيف لا تعرفه! ألا تذكر السيد

أحمد عبد الجواد؟...

ولكن لم يبد عليه أنه تذكر شيئاً، وألقى نظرة أخيرة على النعش ثم سار في سبيله...

٣٨

خلال البيت من سيدي فليس هو البيت الذي عاشته أكثر من حسين عائ، والجميع يكون حولي، وخديجة لا تفارقني فهي قلبي الصامع بالحسزن والذكريات وهي قلب كل قلب بل هي ابنتي وأختي وأمي أحياناً، وأكثر بكائي خلصة حين أدخل إلى نفسي إذ ينبغي أن أشجهم على النسيان فما يهون علي أن يمزنوا أو... لا قدر الله... أن ينال منهم الحزن أي مثال. أما إذا خلوت إلى نفسي فلا أجد عزاء إلا في البكاء فابكي حتى تجف دموعي، وأقول لأم حنفي إذا تسكنت إلى وحدي الباكية ذهني وشاتي يرحك الله. فتقول لي كيف أتذكر وأنت على هذه الحال؟ أنا عارفة بحالك... ولكنك ست مؤمنة بل أنت ست المؤمنات فعندك تعلم العزاء والتسليم لقضاء الله... قول جميل يا أم حنفي ولكن أني للقلب المحزون أن يفقه معناه، ولم يعد لي شأن في هذه الدنيا ولم يعد لي عمل وكل ساعة من ساعات يومي مرتبطة بذكرى من ذكريات سيدي... لم أعرف الحياة إلا وهو محورها

اللابس إلى سعاة ديوانه وقراشي مدرسة كمال فليس أحقّ بها من الفقراء أمثالهم الذين سيدهون له بالرحمة في مقرّه الأخير، أمّا المسبحة العزیزة فلن تفارق يدي حقّ أفارق الحياة، والقرع كم يبدو حلو المزار على ما يثير من شجن ولم أكن انقطعت عنه منذ انتقل إليه الشهيد الغالي، ومنذ ذلك الوقت وأنا اعتبره حجرة من بيئتنا لكتبها في أطراف حيّنا، ويجمعنا القبر جميعاً كما كان يجمعنا مجلس القهوة في الزمن الحالي، وتنوح خديجة حقّ ينال منها الإحياء ثمّ نؤمر بالسكوت تأكيّاً لاستيعاب القرآن، ثمّ يشغلهم الحديث حيناً فأتسرّ بما يصرف أعزّائي عن الحزن، ويشبك رضوان وعبد المنعم وأحد في نقاش طويل وتنضمّ إليهم كريمة أحياناً لذلك ما يخري كمال بمشاركتهم الحديث ويلطّف من كآبة المغام، ويسأل عبد المنعم عن خاله الشهيد فيقصّ ياسين القصص فتنبعث الحياة في الآيام القديمة ويعود غالب الذكريات ويخفق قلبي فلا أدري كيف أداري دموعي، وكثيراً ما أرى كمال واجباً فأسأله حيّاً به فيقول لي إنّ صورته لا تفارقي خاصّة منظر الاحتضار فلو كانت نهايته أخيراً! فقلت له برقة عليك أن تنسى هذا كلّهُ. فساد كيف يكون النسيان؟ فقلت له بالإيمان فابتسم ابتسامة حزينة وقال: كم كنت أخافه في مطلع حياتي ولكنّه تكشّف لي في عهده الأخير عن إنسان جديد بل صديق حبيب. ألا ما كان أطرفه وأرقّه والطفه، لم يكن في الرجال مثله. وياسين يبكي كلّما أهاجته الذكرى... كمال حزنه في صمته الواجم أمّا ياسين الضخم فيبكي كالأطفال ويقول لي إنّهُ الرجل الوحيد الذي أحببته في حياتي، أجل كان أباه وكان أمّه ولم ينعم بالمطف والحنان والرعاية إلّا في كنفه حقّ شيدته كانت رحمة وإنّ أنسى يوم عفا عني ورثني إلى بيته فصلّى فراصة أمّي رحمها الله التي ما انفكت تقول لي إنّ السيّد ليس بالرجل الذي يقطع أمّ أولاده، وكان يجمعنا حيّه فالיום يجمعنا ذكراه، أمّا بيئتنا فلا يخلو من الزوّار غير أنّ قلبي لا يسكن حقّ أجد خديجة وياسين وألمها حولي... حقّ زبونة فما أصدق حزنها، وقالت لي كريمة الصغيرة الجميلة: يا جدّتي تعالي عندنا فهله أيام مولد الحسين ونحت بيئتنا تقام

أنت واجم؟. الحزن لم يُخلق للرجال فالرجل لا يستطيع أن يجعل الأعباء والأحزان ممّا... اصعد إلى حجرتك وتسلّ بالقراءة والكتابة كما تفعل أو انطلق إلى أصحابك فاسهر، ومن يده الخليفة فالأعزّاء يفارقون ذويم، فلو كان الاستسلام إلى الحزن هو المتبع لما بقي على ظهر الأرض حيّ... لست حزينة كما تتوهم وما ينبغي لمومن أن يحزن، وصوف نعيش إذا أراد الله وسوف ننسى ولا سبيل إلى الحزب الذي سبق إلّا حين يشاء الله، هكذا أقول له ولا ألو أن أدكّف ما ليس بي من التصرّ والتجلّد إلّا إذا هلّت خديجة قلب بيئتنا الحبيّ وذرفت الدموع بلا حساب هنالك لا أملك أن أجهش في البكاء، وقالت لي عائشة إنّها رأت أباهما في المنام قابضاً على مساعد نعيمة بيدي وعلى مساعد محمّد بيدي حاملاً عثمان على كتفه وقال لها إنّهُ بخير وإثم بخير فسألته عن سرّ النافلة التي نورت لها في السهاء ثمّ نوارت إلى الأبد فتجلّت في عينيه نظرة عتاب ولم ينس. ثمّ سألته عن معنى الحلم. يا حيرة أمك يا عائشة... غير أنّي قلت لها إنّ العزيز مات وهو مشغول القلب بها ولذلك زارها في الحلم وجاءها بأولادها من الجلّة لتقرّ برؤيتهم حيّاً فلا تنفّس عليهم صوفهم باستسلامك للحزن، ليت عائشة الزمان الأوّل تعود ولو ساعة، ليت الذين حولي يبرهون من حزنهم حقّ لا يشغلني شأغل عن واجب الحزن العميق، وجمعت ياسين وكهال وقلت لها: هلله المخلفات العزیزة ماذا فعلت بها؟ فقال ياسين: أخذت الخاتم فأنه على قد أصبهي، ولك الساعة يا كمال أمّا السبحة فلنك أنت يا نسيّة... والجيب والفضاطين؟... وذكّرت من توي الشيخ متولّي عبد الصمد الذكري الباقيّة من عهد العزيز فقال ياسين: لقد انتهى الرجل فهو في غيبوبة ولا يُعرف له مقرّ، وقال كمال مقلّبياً: لم يعرف أبي!... نسي اسمه وتولّى عن الجنازة دون اكتراث. فأنزعجت وأنا أقول: يا للعجب متى حدث هذا؟ كان سيديّ يسأل عنه حقّ أيامه الأخيرة وكان دائماً يميّه ولم يره إلّا مرة أو مرّتين مدّ زار بيئتنا ليلة دخله نعيمة، ولكن ربّاه أين نعيمة وأين ذلك التاريخ كلّهُ؟ ثمّ اقترح ياسين أن تهدي

دلّت على أنّه لم يفاجأ بالخبر، على حين تركت خديجة الشال الذي تطرّزه وحدته بنظرة غريبة غير مصدّقة ثمّ نظرت إلى زوجها وهي تتساءل:

- ماذا قال؟

فعاد عبد المنعم يقول:

- سأنتوكل على الله واخطب كريمة بنت أخيك...

فبسطت خديجة يديها في حيرة وقالت:

- هل أفلست الدنيا من الذوق؟ أهدأ الوقت مناسب لحديث الخطبة حتّى مع صرف النظر عن المخطوبة؟

فقال عبد المنعم بأسياً:

- كلّ الأوقات مناسبة للخطبة...

فهزّت رأسها في حيرة وهي تتساءل:

- وجنّك؟! (ثمّ وهي تردّد حينها بين أحمد وإبراهيم)... هل سمعتم عن شيء كهذا من قبل؟

فقال عبد المنعم في شيء من الحدة:

- خطبة لا زواج ولا فرح، وقد انقضى على وفاة جدّي أربعة أشهر كاملة...

وقال إبراهيم شوكت وهو يشمل سيجارة:

- كريمة ما زالت صغيرة، مظهرها أكبر من سنّها فيها أعتقد...

فقال عبد المنعم:

- هي في الخامسة عشرة ولن يُكتب الكتاب قبل عام...

فقال خديجة في تهجّم ومرارة:

- هل أطلعتك زُوية هائم على شهادة الميلاد؟

فضحك إبراهيم شوكت، وضحك أحمد، أمّا عبد المنعم فقال جاداً:

- لن يتمّ شيء قبل عام، وبعد عام سيكون قد مضى على وفاة جدّي حوالى العام والنصف وتكون كريمة قد بلغت سنّ الزواج...

- ولماذا توجع دماغنا الآن؟

- لأنّه لا بأس من إعلان الخطبة في الوقت الحاضر.

فتساءلت خديجة في سخرية:

- وهل تحمّض الخطبة إذا أُجلت عاماً؟

- أرجوك... أرجوك أن تكفّي عن المزاح...

الأذكار واثم تحيّن ذلك، فقبّلها شاكرة وقلت لها: يا بنتي جدّتك لم تمتد اليات خارج بيتها... إنها لا تدري شيئاً عن آداب بيت جدّها في تلك الأيام التي خلت. ما أجل ذكراهما والمشريّة آخر حلود دنياي حيث أنظر عودة سيّدي آخر الليل وهو من قوّته يكاد يبدّ الأرض عند مغادرته للمحضور ثمّ يملأ الحجره بطوله وعرضه والعافية تكاد تثب من وجهه أمّا اليوم فلا يعود ولن يعود وقيل ذلك ذبل وانزوى ولزم الفراش ورقّ جسمه وخفّ وزنه حتّى يحمل بيد واحدة. يا حزني الذي لن يذهب! وقالت عائشة في غضب إنّ هؤلاء الأحفاد لم يمزنوا على جدّهم، إنهم لا يمزنون، فقلت لها بل حزنوا ولكنهم صغار ومن رحمة الله بهم ألا يفرقوا في الحزن، فقالت: انظري إلى عبد المنعم لا ينتهي نفاشه، وهو لم يمزن على أبني وسرعان ما نسيها كأنّها شيء لم يكن. فقلت لها: بل حزن عليها طويلاً ويكي كثيراً وحزن الرجال غير حزن النساء وقلب الأمّ غير القلوب جميعاً، ومثلاً الذي لا ينسى يا عائشة، ونحن ألا نتسلّ بالحديث أو يتركنا الابتسام أحياناً وسوف يأتي يوم لا يكون فيه دموع، ثمّ أين فهمي أين؟. وقالت لي أمّ حنفي: لماذا امتنعت عن زيارة الحسين؟ فقلت: نفسي فاترة عن كلّ شيء أحبته وسأزور سيّدي عندما يبرأ الجرح. فقالت لي: وهل يبرأ الجرح إلاّ بزيارة سيّدك؟ هكذا ترعائي أمّ حنفي وهي ربّة بيتنا ولولاها ما كان لنا بيت، إنك يا ربّي ربّ الجميع أنت القاضي ولا رادّ لقرضائك ولك أصلي، وددت لو أبقيت على سيّدي قوّته حتّى النهاية لما ألّمني شيء كما ألّمني رقاذه، هو الذي كانت الدنيا تضيق عن مراحه... حتّى الصلاة عجز عنها وما عاناه قلبه الضميف وعودته محمّلاً على الأيدي كالطفل لذلك تسيل دموعي ويتكاثف حزني...

- سأنتوكل على الله واخطب كريمة بنت خالي...

رفع إبراهيم شوكت عينيه إلى ابنه في شيء من الدهش، أمّا أحد فاحص رأسه وهو يتسم ابتسامة

الدعوات المتتابعة إلى ولائم قصر الشوق، وإذ بك
تقع كالجرذل!

فرّدت عبد المنعم عينيه غاضباً بين أبيه وأخيه ثم
تساءل:

- ألهذا الكلام يليق بنا؟ أسمعاني رأيكما! ...
فقال إبراهيم شوكت مثائباً:

- لا داعي لكثرة الكلام، عبد المنعم سيتزوج إن
اليوم أو غداً، وأنت تودّين هذا، وكرهية ابتنا، وهي
بنت جميلة ولطيفة، لا داعي للشوشرة ...
وقال أحمد:

- أنت يا نينة أول من يؤدّ إرضاء خالي ياسين!
فقالت خديجة حاتقة:

- كلّكم ضيّتي كالعادة، ولا حاجة لكم إلّا خالي
ياسين، ياسين أخي، وكان خطوه الأول أنه لم يعرف
كيف يتزوج، وعنه ورث ابن أخته هذا المزاج
الغريب! ...

فتساءل عبد المنعم في عجب:

- أليست امرأة خالي صديقتك؟ من يراكها وأنتما
تتناجيان يظنكما شقيقتين! ...

- ما حيلتي في امرأة سياسية مثل اللتي؟ لكن لو
ترك لي الأمر أو لو لم أزع خاطر ياسين ما سمحت لها
بدخول بيتي، وماذا كانت النتيجة؟ ... أكلت شكّك
بالولائم المغرصة، وعليه العوض؟

عند ذلك قال أحمد غاطباً أخاه:

- اخطبها وقتها تشاء، نينة لاسما كثير الكلام ولكنّ
قلها طيب ...

فضحك ضحكة عصبية وقالت:

- عفارم يا ولداً مختلفان في كلّ شيء ... في الدين
والملة والسياسة، أمّا عليّ فتّحدان! ...

فقال أحمد في مرح:

- خالي ياسين أغل الناس عندك، وسوف ترخّين
بكرمته كاحسن ما يكون الترحيب، الحكاية أنك
تودّين عروساً غريبة حقّ تتمكّني - كحياة - من
اضطهادها، حسن، عليّ أنا أن أحقّق لك هذا الأمل،
سوف أجيتك بالعروس الغريبة لتشفي غليلك!

فصاحت خديجة:

- لو وقع هذا لكان فضيحة.

فقال عبد المنعم في هدوء ما استطاع:

- دعي جدتي لي، ستفهمني خيراً منك، إنّها جدتي
وجدّة كريمة على السواء.

فقالت بخشونة:

- ليست جدّة لكريمة! ...

فسكت عبد المنعم وقد تمجّهم وجهه فبادره أبوه
قائلاً:

- المسألة مسألة ذوق فيحسن أن تنتظر قليلاً ...

فهضت خديجة حاتقة:

- يعني أنّه لا اعتراض لك إلّا على الوقت؟

فتساءل عبد المنعم متغابياً:

- هل ثمة اعتراض آخر؟

فلم تجب خديجة وعادت تتشاهل بتعريض الشال
فاستطرد عبد المنعم قائلاً:

- كريمة ابنة ياسين أخيك اليس كذلك؟

فتركت خديجة الشال وقالت بمرارة:

- هي ابنة أخي حقاً ولكن كان ينبغي أن تذكر أمّها
أيضاً!

وتبادلا النظرات في إشفاق، ثم اندفع عبد المنعم
قائلاً في حدة:

- أمّها زوجة أخيك كذلك!

فارتفع صوته وهي تقول:

- أعلم هذا، وهو بما يؤسف له!

- ذلك الماضي المنسيّ! من يذكره الآن؟! لم تعد إلّا
سيّدة محترمة مثلك!

فقالت بصوت غليظ:

- ليست مثلي ولن تكون مثلي أبداً!

- ماذا يعيها؟! عرفناها منذ صغرنا سيّدة محترمة
بكلّ معنى الكلمة، والإنسان إذا تاب واستقام عيت

صفحة سوابقه فلا يذكره بها بعد ذلك إلّا ...

وأمسك، فقالت وهي تمزّ راسها في أسف:

- نعم؟ صيغتي! سبّ أمك إكراماً لهذه المرأة التي
عرفت كيف تاكل شكّك، طالما تساملت عمّا وراء

وكان إسماعيل لطيف يقول:
 - أنا في إجازة للاستعداد ومن ثم أسافر...
 فتسائل كمال في أسف:
 - ستغيب عنا ثلاثة أعوام؟
 - نعم، لا بد من المغامرة، مرتب ضخم لا أتمنئ
 أن أتاله يومًا هنا، ثم إن العراق بلد عربي لا يختلف
 عن مصر كثيرًا...
 سيختلف وحشة، لم يكن صديق الروح ولكنه
 صديق العمر، وتساهل رياض قلنس ضاحكًا:
 - ألا يحتاج العراق إلى مترجمين؟
 فسأله كمال:
 - أتسافر إذا منحت لك فرصة كفرصة إسماعيل؟
 - لو حدثت في الماضي ما ترددت أما اليوم فلا...
 - وما الفرق بين الماضي والحاضر؟
 فقال رياض قلنس ضاحكًا:
 - بالنسبة لك لا شيء، أما بالنسبة لي فهو كل
 شيء، الظاهر أنني سأنضم قريبًا إلى جماعة المترجمين!
 دهش كمال للخبير الذي وقع عليه دون تمهيد وقد
 ساوره قلق لم يدرك كنهه:
 - حقًا؟! لم تشر إلى ذلك من قبل!
 - بل، جاء بغتة، في آخر مقابلة، في آخر مقابلة
 بينما لم يكن لي البال شيء!
 ضحك إسماعيل لطيف في ظفر، أما كمال فتسائل
 وهو يحاول أن يتسم:
 - كيف؟

- كيف؟! كما يحدث كل يوم، مدرسة جاءت لزيارة
 أخيها في إدارة الترجمة فأعجبني، فجسست النبض
 فوجدت من يقول: «تفضل»...
 تسائل إسماعيل ضاحكًا وهو يتناول خرطوم
 النارجيلة من كمال:
 - ترى متى يحس هذا (مشيرًا إلى كمال) النبض؟
 هكذا إسماعيل لا يفوت فرصة أبدًا لإثارة هذا
 الموضوع المعاد، ولكن ثمة أمر أخطر من هذا، فجميع
 الأصدقاء المترجمين يقولون إن الزواج «زناقة»، فمن
 المحتمل جدًا ألا يرى رياض- إذا تزوج- إلا في
 القليل النادر، وربما تغير وتبدل فيصبح صديقًا

- لا عجب إن جيتني غداً براقصة! سلام
 تضحكون؟! هذا شيخ الإسلام سيصاهر عائلة فهاذا
 أتوقع منك أنت التهم في دينه والعياذ بالله؟!
 - نحن في حاجة إلى راقصة بالفعل!
 وإذا بخديجة تقول وكأنما تلذّرت أمرًا خطيرًا:
 - وعائشة يا ربّي ترى ماذا تقول عتًا؟!
 فقال عبد المنعم محتجًا:
 - ماذا تقول؟ لقد توقّيت زوجتي منذ أربع سنوات
 كاملة فهل تودّ أن أبقي أرملي مدى العمر؟
 فقال إبراهيم شوكت في ضجر:
 - لا تخفلوا من الحبّة ثمة، المسألة أبسط من هذا
 كله، كريمة ابنة ياسين، ياسين أخو خديجة وعائشة،
 حبسنا هذا ألف. كل شيء عندكم تقار حتى
 الأفراح؟!
 واختلس أحد من أمّه نظرة باسمه، وجعل يراقبها
 حتى قامت كالغاضبة وغادرت الصالة، وراح يقول
 لنفسه: هذه الطيقة البورجوازية كلها عقد، تحتاج إلى
 محلّ نسائي بارع ليشفها من كآته عللها، محلّ له
 قوة التاريخ نفسه! لو هادني المحطّ لسبقت أخي إلى
 الزواج ولكن البورجوازية الأخرى اشتربت مرتبة لا
 يقلّ عن خمسين جنبها، هكذا تجرح قلوب لأمور لا
 شأن لها بالقلوب، ترى ماذا يكون رأي سوسن حماد لو
 علمت بمغامرتي الفاشلة؟!.

٤٠

كان الجوّ شديد البرودة، ولم يكن خان الحليلي
 الرطب بما يؤثر شتاء، ولكن رياض قلنس نفسه الذي
 أشار ذلك المساء بالذهاب إلى قهوة خان الحليلي التي
 شيدت مكان قهوة أحمد عبده فوق سطح الأرض، أو
 كما قال: «علمي كمال عليّ آخر الزمن أن أكون من
 غواة الغرائب». كانت قهوة صغيرة، بابها يفتح على
 حيّ الحسين، ثم تمتدّ طولًا في شبه عمّ تصفّ على
 جانبيه الموائد وينتهي بشرفة خشبية تطلّ على خان
 الحليلي الجديد. جلس الأصدقاء في جناح الشرفة
 الأيمن يتسمنن الشاي ويدخّنون نارجيلة بالمناولية.

- دعونا من حديث الزواج، لقد انتهت منه وعقبي لك، على أن ثمة أحداثاً سياسية هامة هي التي ينبغي أن تستأثر اليوم باهتمامنا.

وكان كمال يشاركه مشاعره هذه غير أنه لم يستطع أن يفيق من المفاجأة فتلقى دعوة الآخر بفقر ظاهري ولم ينس، أما إسماعيل لطيف فقال ضاحكاً:

- عرف النحاس كيف ينتقم لإقالة ديسمبر سنة ١٩٣٧ فاقنم عابدين على رأس الدبالبات البريطانية! وتوت رياض قليلًا ليعطي كمال فرصة للرد غير أن هذا لم ينشط للكلام، فقال رياض في لهجة متجهمة: - انتقام! إن خيالك يصور لك المسألة على وجه هو أبعد ما يكون عن الحقيقة...

- فما الحقيقة؟

والقى رياض نظره على كمال كأنما يحته على الكلام فلما لم يستجب استطرد قائلاً:

- ليس النحاس بالرجل الذي يتأمر مع الإنجليز في سبيل العودة إلى الحكم، إن أحمد ماهر مجنون، هو الذي خان الشعب وانضم إلى الملك، ثم أراد أن يغطي مركزه المضمض بتصريحه الأحمق الذي أعلنه أمام الصحفيين!

ثم نظر إلى كمال مستطلاً رايه، وكان حديث السياسة قد جذب أخيراً بعض اهتمامه غير أنه شعر برغبة في معارضة رياض ولو بعض الشيء فقال:

- لا شك أن النحاس قد أنقذ الموقف، ولست أشك في وطنيته مطلقاً، إن الإنسان لا ينقلب في هذه السن إلى خائن ليتولى وظيفة تولّاها خمس مرّات أو سناً من قبل، ولكن هل كان تصرفه هو التصرف المثالي؟...

- أنت شكاك لا نهاية لشكك، ما الموقف المثالي؟ - أن يصّر على رفض الوزارة حتى لا يخضع للإنذار البريطاني وليكن ما يكون.

- ولو عزل الملك وتولى أمر البلاد حاكم عسكري بريطاني؟

- ولوا!...

تتهد رياض في غيظ وقال:

- نحن نلهم بالحديث أمام التارجيلة، أما السياسي

بالمراسلة، وهو وديع رقيق فما أسهل مضمه، ولكن كيف تمضي الحياة بدونها؟ وإذا جعل الزواج منه شخصاً جديداً كإسماعيل فسلام على كافة مرّات الحياة! وسأله:

- متى تتزوج؟

- في الشتاء القادم على أبعد الفروض.

كأنما قضي عليه أن يفتقد دوائماً صديقاً لروحه الملتبّة:

- عند ذلك ستكون رياض قللس آخر!

- له؟!... أنت وأهم جداً...

فقال وهو يداري قلقة بابسامة:

- وأهم؟! رياض اليوم شخص لا يشبع روحه شيء ويقنع بجبه بلا شيء، أما الزوج فلن يشبع بجبه أبداً ولن يجد فرصة لثنا الروح...

- يا له من تعريف جاحح للزوج! ولكني لا أوافقك عليه...

- كإسماعيل الذي اضطرّ إلى الهجرة إلى العراق، لست أسخر من هذا، فهو طبيعي فوق أنه بطولية، ولكنه في الوقت نفسه بشع، تصوّر أن تفرق حتى قمت رأسك في هموم الحياة اليومية، ألا تفكر إلا في مشكلات الرزق، أن يحسب وقتك بالقروش أو الملايم، أن تمسي شاعرية الحياة ضياع وقت! فقال رياض في استهانة:

- أوهام مبعثها الخوف!

وقال إسماعيل لطيف:

- آه لو تعرف الزواج والأبوة! لقد فانتك حتى اليوم أن تعرف حقيقة الحياة...

لا يبعد أن يكون الصواب رايه، ولو صحّ هذا فحياته مأساة سخيفة، ولكن ما السعادة وماذا يروم على وجه التحقيق؟ غير أن الذي يكرهه الآن أنه بات مهتداً بالوحدة المربعة مرّة أخرى، كما عانى عقب اختفاء حسين شذاد من حياته، لو كان من الممكن أن يجد زوجة لها جسم عطية وروح رياض؟! هُذا ما يروم حقاً، جسم عطية وروح رياض في شخص واحد يتزوّجه فلا يتهدّه الشعور بالوحدة حتى الموت، هذه هي المشكلة، وإذا برياض يقول في سحر:

فأمامه مسئولية خطيرة، في هذه الظروف الحربية الدقيقة كيف يقبل النحاس أن يعزل الملك ويحكم البلاد حاكم عسكري إنجليزي؟ وإذا انتصر الحلفاء - ويجب أن نفترض هذا أيضًا - فنكون في صفوف الأعداء المهزومين، السياسة ليست مثالية شرعية ولكنها واقعية حكيمة...

- لا زلت أومن بالنحاس، ولكن لعله أخطأ، لا أقول تأمر أو خاف...

- المسئولية تقع على العائدين اللجن مالاً الفاشست من وراء ظهور الإنجليز كأن الفاشست سيحترمون استقلالنا، ليس بيننا وبين الإنجليز معاهدة؟ وليس الشرف يقضي علينا باحترام كلمتنا؟ ثم ألسنا ديمقراطيين حيناً أن تنتصر الديمقراطية على النازية التي تضمننا في جدول الأمم والأجناس في أسوأ طبقة وتثير شعنا الجنسية والعنصرية والطائفية؟...

- معك في هذا كله، ولكن الخضوع للإنذار البريطاني جعل من استقلالنا ومها...!

- احتج الرجل على الإنذار ونزل الإنجليز عند رآه...

فضحك إسحاق علياً ثم قال:

- يا عيني على الاحتجاج الأتجلو أجيشان!... غير أنه سرعان ما قال جاداً:

- لئن أقره على ما فعل، ولو كنت مكانه لفعلته، رجل أبعد رغم أغليته وأهين فعرف كيف ينتقم لنفسه، والواقع أنه ليس هنالك استقلال ولا كلام فارغ، ففي سبيل أي شيء يعزل الملك ويحكمنا حاكم عسكري إنجليزي؟!

وزداد وجه رياض تجمهاً، أما كمال فابتسم قائلاً في هدوء بدا غريباً:

- أخطأ الآخرون وتحمل النحاس نتيجة الخطأ، لا شك أنه أنقذ الموقف، أنقذ العرش والبلاد، ثم إن العبرة بالخاتمة، فإذا ذكر له الإنجليز صنيعة بعد الحرب فلن يذكر أحد ٤ فبراير...!

إسحاق هائزاً وهو يصقن طالباً جرات للترجيعة: - إذا ذكر الإنجليز صنيعة! وأنا أقول لك من الآن بأنهم سيقبلونه قبل ذلك!

فقال رياض بإيمان:

- الرجل تقلّم حمل أكبر مسئولية في أخرج الظروف...

فقال كمال بآساً:

- كما ستتقدم حمل أكبر مسئولية في حياتك!... فضحك رياض، ثم نهض قائلاً «عن إذكم»

ومضى في اتجاه دورة المياه، وعند ذلك مال إسحاق نحو كمال وقال وهو يتبسم:

- في الأسبوع الماضي زار والدي وجماعة لا شك أنك تذكرهم!

فنظر كمال إليه مستطعاً وهو يتساءل:

- من؟...

فقال الآخر وهو يتبسم ابتسامة ذات معنى:

- عايدة!

وقع الاسم من أذنيه موقفاً غريباً، فغطت غرابية موقعه على كافة الانفعالات التي كان حزيناً بأن يثيرها، وبدا حيناً كأنما هو صادر من أعماقه هو لا من لسان صاحبه، وكل شيء كان متوقفاً إلا هذا، ومضت لحظات وكأن الاسم ليس له معنى، من عايدة؟ أي عايدة؟ يا للتاريخ! كم عامًا مضى دون أن يطرُق هذا الاسم مسامحه منذ ١٩٢٦، أو ١٩٢٧ سنة عشر عامًا أو عمر شاب يافع بالكمال لعله أحب ومي بالإخفاق! لقد طعن في السن حقاً، عايدة؟ ترى ماذا أصابه بهذه الذكرى؟ لا شيء! ليس إلا اهتماماً عاطفياً مشوباً بشيء من الانفعال كمن تمسّ يده موضع عملية جراحية ملثم من قديم فيذكر ما اكتشفه من ظرف خطير مضى وانقضى، وتمتم متسائلاً:

- عايدة؟!

- نعم، عايدة شدّاد ألا تذكرها؟ أخت حسين شدّاد!...

وشعر بمضايقة تحت عيني إسحاق فقال متهمزاً:

- حسين! ترى ما أخبار حسين؟

- من يدري؟

وشعر بسخف تهمزه، ولكن ما حيلته وقد أحسّ بوجهه يسخن رغم برودة فبراير الشديدة؟ وبدا له الحب على مثال غريب بعض الشيء... كالطعام!

وحاد رياض إلى مجلسه فخاف كمال أن يقطع
إسمايل حديثه ولكنه واصله قائلاً:

- وسألوها عنك!

ردّ رياض نظره بينهما فأدرك أنّ حديثاً خاصاً يدور
بينهما فعدل عنها إلى النارجيلة، أمّا كمال فقد شعر بأنّ
جملة «سألوها عنك» توشك أن تؤدي بقوة مناعته كاشدً
الميكروبات فتكاً، وتساءل وهو يبذل أقصى ما يملك من
قوة ل يبدو طبيعياً:

- لماذا؟

- سألوها عن فلان وفلان من أصحاب زمان ثم
سألوها عنك فقلت مدرّس بحدسة السلحدار وفيلسوف
كبير ينشر مقالات لا أفهمها في جملة الفكر التي لا
أفتحها فضحكوا ثم سألوها «هل تزوّج؟» فقلت
كلّ...

فوجد نفسه يسأل:

- ماذا قالوا؟

- لا أذكر ماذا حولنا عن هذا الحديث؟

إنّ المرض الكامن يبدّد بالانفجار، والذي مرض
قديماً بالسّل يجب أن يحذر البرد، أمّا جملة سألوها عنك
فما أشبهها بأنغام الصبا في بساطة معناها وشديد نفاذها
في النفس، وقد يطرا طرف فتتبرّ النفس حال عاطفة
مندثرة بكامل قوتها الماضية ثم تنقطع... كالمنظر في
غير أوانه، على ذلك شعر في هذه اللحظة العابرة بأنّه
انقلب ذلك العاشق القديم، وأنّه يعاني الحبّ حياً
بكافة أنفاسه الساوّة والحزينة، ولكنّ الخطر لم يكن
يتهدّد بصفة جدّية فهو كالحامّ المكروب الذي يداخله
شعور ملطف بأنّ ما يراه حلم لا حقيقة، لكنّه غمّي في
تلك اللحظة لو تقع معجزة من السماء ليلفها ولو
لبضع دقائق فتصترف له بأنّها بادلته عاطفته يوماً أو
بعض يوم وأنّ فارق السّر أو غيره هو الذي فرق
بينهما لو وقعت هذه المعجزة لمزّنه عن كافة الآله
قديماً وحديثاً ولعدّ نفسه سعيداً في الحلق وأنّ الحياة
لم تمض عبثاً، بيد أنّها صحوّة كاذبة كصحوّة الموت،
والأحرى به أن يقنع بالنسيان، وهو نصر ولو انطوى
على هزيمة، وليكن عزاءه أنّه ليس الوحيد في البرّ الذي
يُخيّ بخيبة الحياة، وتساءل:

تشعر به بقوة وهو على المائدة، ثمّ وهو في المعدة، ثمّ
وهو في الأمعاء على نحو ما، ثمّ وهو في الدم على نحو
آخر، حتّى يستحيل خلايا ثمّ تتجدّد الخلايا بمرور
الزمن فلا يبقى منه أثر، لكن ربّما بقي منه صدى في
الأعناق هو ما نسمّيه بالنسيان، وقد يعرض للإنسان
«صوت» قديم فيدفع بهذا النسيان إلى قريب من
منطقة الوعي فيسمع الصدى على وجه ما، وإلّا فما
هذا الاضطراب؟ أم لعلّه الحنين إلى عايلة لا باعتبارها
المحبوبة التي كانت- فقد انتهى هذا إلى غير رجعة-
ولكن باعتبارها رمزاً للحبّ الذي كان كثيراً ما
يستوحش غيبته الطويلة، مجرّد رمز كالحربة المهجورة
التي تثير ذكريات تاريخيّة جليلة.

وعاد إسمايل يقول:

- ومخادنتنا طويلة- أنا وعابدة وأمي وزوجي- فروت
لنا كيف هربت هي وزوجها بل وجميع ممثلي الدول
السياسيين أمام الجيوش الألمانية حتّى لاذا بأسبانيا،
وأُنْهيا ثقلًا أخيراً إلى إيران؛ ثمّ رجعتا إلى أهام زمان
وضحكنا كثيراً...

مهما يكن من أمر الحبّ الذي مات قلبه يبحث
حينئذٍ مسكراً، وأوتار الأعناق التي تتكتك أخذت
تصعد أنغاماً بالغة في الحفوت والحزن، وتساءل:

- ما شكلها الآن؟

- لعلّها في الأربعين، كلّاً أنا أكبر منها بصامين،
عايلة في السابعة والثلاثين، وامتلأت قليلاً حتّى كانت،
لكنّها ما زالت محتفظة برشاقتها، ووجهها هو هو تقريباً
لها عدا نظرة عينيها التي أصبحت توحى بالجلد
والرزانة، وقالت إنّها أنجبت ابناً في الرابعة عشرة ونشأ
في العاشرة...

هذه هي عابدة إذن، لم تكن حليماً ولم يكن تاريخها
وهماً، فقد تمرّ لحظات فيبدو ذلك الماضي كأنّه لم يكن،
وهي زوجة وأمّ وتذكر الماضي وتضحك كثيراً، ولكن
ما حقيقة صورتها؟ وماذا بقي من هله الحقيقة في
الذاكرة؟ فلشّد ما تتغيّر المناظر في أثناء حفظها
بالذاكرة، وهو يؤدّد أن يلقي نظرة ثابتة على هذا الكائن
البشريّ لعلّه يقف على السّر الذي مكّنه قديماً من أن
يفعل به الأفاعيل.

- متى يسافرون إلى إيران؟

- سافروا أمس أو هذا ما أخبرتني به في زيارتها...

- وكيف تلفت كاتبة أسرتها؟

- تحببت هذا الحديث بطبيعة الحال ولم تشر هي إليه!

وإذا برياض قلنس يهتف مشيراً أمامه وانظروا
فنظروا إلى الجناح الأيسر من الشرفة فرأوا امرأة غريبة
الشكل، كانت في الحلقة السابعة، نحيلة الجسد،
حافية القدمين، ترتدي جلباباً ثماً يرتدي الرجال،
وتضع على رأسها طاقية لا يبدو تحت حافتها أي أثر
للشعر فهي صلعاء أو قرعاء، أما وجهها فبدا غارقاً في
أصباغ الزواق على هيئة مزرية مضحكة معاً، ولم يكن
ليها ناب واحد على حين راحت عينها ترسلان في
جميع الجهات نظرات توقد واستعطاف باليم. تسال
رياض باهتمام:

- شحاذة؟

فقال إسماعيل:

- مجلدية على الأرجح!

وقفت تنظر إلى المقاعد الحالية في الجناح الأيسر ثم
اختارت مقعداً وجلست، عند ذلك انتهت إلى أعين
المحاذين فيها فابتسمت ابتسامة عريضة وقالت:

- مساء الخير يا رجال!

فرحب رياض بتحياتها وقال بحرارة:

- مساء الخير يا حاجة!

فندت عنها ضحكة ذكرت إسماعيل - على حد
قوله - بالأريكة في عزها... وقالت:

- حاجة! نعم أنا كذلك إن كنت تقصد المسجد

والحرام!

وضحكوا لثلاثتهم فتشجعت وقالت بإفراء:

- اطلبوا لي الشاي والتارجيلة ولكم الأجر عند
الله...

فصفق رياض بحاس ليطلب لها ما أرادت ومال
على أذن كمال هامساً «هكذا تبدأ بعض القصص» أما
المعجوز فقد ضحك في سرور وقالت:

- هذا كرم أيام زمان... أغنياء حرب يا
أولادي؟...

فقال كمال ضاحكاً:

- نحن فقراء حرب، أي موكفين يا حاجة...

وسألها رياض:

- ما الاسم الكريم؟

فارتفع رأسها في كبرياء مضحك وقالت:

- السلطانة زبيدة على سن ورمح!

- السلطانة؟!

- نعم... (ثم وهي تضحك)... ولكن رعتي
ماتوا!

- الله يرحمهم!

- الله يرحم الأحياء أما الأموات فحسبهم أتهم بين
يدي الله...، خبروني من أنتم؟

وجاء النادل بالتارجيلة والشاي وهو يتسم، ثم
اقترب من مجلس الأصحاب وسألهم:

- تعرفونها؟

- من هي؟

- زبيدة العالمة، أشهر علة في زماننا، ثم انتهى بها
العمر والكوكابين إلى ما ترون!

تخيل إلى كمال أنه لا يسمع هذا الاسم للمرة الأولى
أما رياض قلنس فقد ارتفع اهتمامه إلى اللروة فجعل
يبحث أصحابه عن أن يعرفوها بأنفسهم كما طلبت حتى
تفتح نفسها للكلام فقال إسماعيل مقملاً نفسه:

- إسماعيل لطيف.

فقال ضاحكة وهي ترشف الشاي قبل أن يرد:

- عاشت الأساء ولو أنه اسم لا معنى له...

فضحكوا، وفي ذات الوقت سبها إسماعيل بصوت
لم تسمعه، أما رياض قلنس فقال:

- رياض قلنس.

- كاسفر؟! عشقتي واحد منكم كان تاجراً في

الموسكي اسمه يوسف غطاس، كان قد الدنيا، وكنت
أصليه على السرير حتى يطلع الصبح...

وشاركهم ضحكهم وقد لاحت الغبطة في وجهها
ثم اتجه بصرها إلى كمال فقال:

- كمال أحمد عبد الجواد.

وكانت تقرب قلنس الشاي من فيها فتوقفت يدها في
يقظة طارئة ثم حلفت في وجهه مسائلة:

- قلت ماذا؟

فاجاب عنه رياض قللمس:

- كمال أحمد عبد الجواد.

فاخذت نفسها من التارجيلة وقالت وكأنها مخاطب نفسها:

- أحمد عبد الجواد! ولكن ما أكثر الأساء! كالقروش أيام زمان... (ثم مخاطبة كمال)... والدك تاجر النحاسين؟

فدهش كمال وقال:

- نعم.

فقامت من مجلسها واقتربت منهم حتى وقفت أمامه ثم ضحكت ضحكة عالية أقوى من هيكلها بأجبال وهتفت:

- أنت ابن عبد الجواد! يا ابن الرفيق الغالي! ولكنك لا تشبه! هذا أنه حقاً، ولكنه كان كاليدري في ليلته، ما عليك إلا أن تذكره بالسلطنة زبيدة وهو يحدك عني بما فيه الكفاية!

أفرق رياض وإسماعيل في الضحك، على حين ابتسم كمال وهو يغالب ما ركب من ارتباك، وهنا فقط تذكر حديث ياسين في الزمن الحالي، بل أحاديثه عن أبيه وزبيدة العالة وعادته تساله:

- كيف حال السيد؟ انقطعتم من زمن طويل عن حيكم الذي نبذني، أنا الآن من أهل الإمام، ولكنني أحسن إلى الحسين فأزوره كل حين وعين، وكنت مريضة وطال بي المرض حتى ضاقت بي الجيران فلولا السلام لرموني في القبر حيّة، كيف حال السيد؟

فقال كمال في شيء من الوجوم:

- توفي منذ أربعة أشهر...

فقطبت قليلاً وقالت:

- إلى رحمة الله، يا خسارة، كان رجلاً ولا كل الرجال...

ثم عادت إلى مجلسها، وبنته ضحكت ضحكة عالية، وما لبث أن ظهر صاحب القهوة عند مدخل الشرفة وهو يقول لها منلداً:

- كفاية ضحك، سكتنا له دخل بحباره، كثر خير البكوات على إكرامهم لك، ولكن إن عدلت إلى

الزياد فالياب من هنا...

فلذت بالصمت حتى ذهب الرجل، ثم نظرت

إليهم باسمه، ثم سألت كمال:

- وأنت كايك أم لا...؟

وأنت يدها حركة شاذة فضحك الأصدقاء وقال إسماعيل:

- إنه لم يتزوج بعدا...

فقال في لهجة ارتياب عابث:

- الظاهر أنك ابن اونطةا...

فضحكوا، ثم نهض رياض، ومضى إليها فجلس إلى جانبها وهو يقول:

- حصل لنا الشرف يا سلطنة، ولكنني أود أن اسمع لك وأنت تحدّثنا عن أيام السلطنة...

٤١

لم يبق إلا ثلث ساعة ثم تلقى المحاضرة، أمّا قاعة إيوارت فقد قايت الامتلاء، إن مستر روجر - كما قال رياض قللمس - أستاذ خطير، وهو كأخطر ما يكون حين يتكلم عن شكسير. أجل قيل إن المحاضرة لن تخلو في النهاية من نوع من الدعاية السياسية ولكن ماذا يهم في ذلك ما دام المحاضر هو مستر روجر والموضوع هو وليم شكسير. غير أن رياض كان مغتاً راجماً، ولولا أنه هو الذي دعا كمال إلى سماع المحاضرة لتخلّف عن شهودها، وكان حزيناً كما ينبغي لرجل مثله تستائر السياسة باعتامه كل هذا الاستتار. وكان يمس في أذن كمال بانفعال غير خالف:

- يُفصل مكرم من الوفد! كيف تقع هذه الحوارق؟!

ولم يكن كمال قد أفاق من الخبر كذلك فهز رأسه في وجوم دون أن ينس:

- إننا كارثة قديمة يا كمال، ما كان ينبغي أن

تتهارى الأمور حتى هذا الحضيض...

- نعم، ولكن من المسؤول؟

- للنحاس! قد يكون مكرم عصياً، ولكن الفساد

الذي تسرب إلى الحكومة أمر واقع ولا يصحّ السكوت عليه.

فقال كمال بأساً:

- دعنا من الفساد الحكومي، ثورة مكرم ليست على الفساد بقدر ما هي لضياع النفوذ...
- فتسادل رياض في شيء من التسليم:
- أبيع مكرم المجاهد بعاطفة زائلة؟...
- فلم يتالك كمال أن ضحك قائلاً:
- لقد بعث نفسك أنت بهذه العاطفة الزائلة!...
ولكن رياض قال دون أن يتيسم:
- أجبني!...

- مكرم عصبي، شاعر ومغتراباً عنده أن يكون كل شيء أو لا يكون شيئاً على الإطلاق، وجد نفوذه المأثور يتقلص فنار، ثم وقف لهم وقفته في مجلس الوزراء منذاً علانية بالاستثناءات فاستحال التضاهم أو التعاون، حدث يؤسف له!.

- والنتيجة؟

- هناك السراي تبارك ولا شك هذا الانشقاق الجديد في الوفد، وستحضر مكرم في الوقت المناسب كما احتضنت غيره من قبل، سرى من الآن فصاعداً مكرم وهو يلعب دوره الجديد مع الأقليات السياسية ورجال السراي، إنما هذا وإنا العزلة، لعلهم يكرهونه كما يكرهون النحاس أو أكثر، ومنهم أناس لم يكرهوا الوفد إلا كراهة في مكرم ولكنهم سيحتضنونه ليهدموا به الوفد، أما عن المصير بعد ذلك فلا يمكن التنبؤ به...
فعبس رياض وقال:

- صورة بشمة، أعطى الانان، النحاس ومكرم، إن قلبي متشائم من هذه الحركة...
ثم بصوت أشد انخفاضاً:

- سيجد الأقباط أنفسهم بلا مأوى، أو يأوون إلى حصن عدوهم اللود «الملك» وهو مأوى لن يدوم لهم طويلاً، وإذا اضطهدنا الوفد كما تضطهدنا الأقليات فكيف يكون الحال؟
فتسادل كمال متغافلاً:

- لماذا تدفع بالأمر خارج حدود الطبيعة؟ مكرم ليس الأقباط والأقباط ليسوا مكرم، إنه شخص ذهب أما مبدأ الوفد القومي فلن يذهب...

فهز رياض رأسه في أسف ساخر وقال:

- هذا ما قد يكتب في الجرائد، أما الحقيقة فهي ما أعني، لقد شعر الأقباط بأنهم طردوا من الوفد، وهم يتلمسون الأمان وأعشى ألا يظفروا به أبداً، لقد جاتني السياسة أخيراً بعقدة جديدة كمقدة الدين، فكيف كنت أنبذ الدين بعقلي وأميل إليه بقلمي بصفته رابطة قومية فكذلك سأنبذ الوفد بقلمي وأميل إليه بعقلي، إذا قلت إني وفدي فقد كذبت قلبي وإذا قلت إني عدو للوفد خنت عقلي، إنها كارثة لم تحظر لي حل بال، والظاهر أنه مقضي علينا نحن الأقباط بأن نميش في شخصيات متقسمة أبداً، لو كانت مجموعتنا فرداً واحداً لحن!...

شعر كمال بامتعاض وألم، ويدت له لحظتناك جماعات البشر وكأنتما تمثل مهزلة ساخرة ذات نهاية مفاجئة، ثم قال في صوت لا ينم عن إيمان:

- عسى أن تكون مشكلة وهمية، إذا نظرتم إلى مكرم كرجل سياسي لا الآلة القبطية جيماً...
- هل ينظر إليه المسلمون أنفسهم على هذا النحو؟
- هكذا أنظر إليه أنا!

فابتسمت شفتا رياض رغم كآبته وقال:
- إني أتساءل عن المسلمين فما دخلك أنت؟
- أليس موقفاً واحداً أعني أنا وأنت؟
- بلى مع فسارقي بسيط، وهو أشك لست من الأقلية... (ثم وهو يتيسم) لو عشت في عصر الفتح الإسلامي وتكشفت لي الغيب لدعوت الأقباط جميعاً إلى الدخول في دين الله!...

ثم في شيء من الاحتجاج:
- إنك لا تصغي إليّ!...

أجل! كانت عيناه مصوَّبتين نحو مدخل القاعة، ونظر رياض إلى حيث ينظر فرأى فتاة في مقبيل العمر، ترتدي فستاناً رمادياً بسيطاً، في هيئة الطالبات، وقد جلست في المقاعد الأمامية المخصصة للسيدات.
- تعرفها؟...

- لا أدري!...

وانقطعت فرصة الكلام إذ ظهر الأستاذ المحاضر على المنصة ودوت القاعة بالتصفيق الحاد، ثم ساد

يُفترضه ليس إلّا أضغاث أحلام؟. عابدة لم تستقلّ تراثاً في حياتها قطّ. كان رهن أمرها سيارتان، أمّا هذه المسكينة... ودخله حزن كحزنه يوم استمع إلى قصّة إفلاس شدّاد بك وانتحاره. وأفرغ الترام أكثر حوله في العتية فاختار موقفاً غير بعيد منها فوق طوار المحطّة، وجعلت تنظر صوب الناحية التي تترقّب مجيء الترام منها فرأى جيدها الطويل النحيل، ذلك العهد القديم، ثمّ لاحظ أنّ بشرتها قمحيّة اللون مع ميل إلى البياض، ليست حرّية كالصورة الذهابة، فشرع لذلك بأول أسف منذ تبعها، كأنّها تبعتها ليرى الأخرى. ثمّ جاء ترام العباسيّة تناقبت للركوب. وكما وجدلت الحريم مزدهة استقلّت عربّة الدرجة الثانية، ولم يتردّد فكان في أعقابها، وجلست فجلس إلى جانبها، ثمّ امتلأت المقاعد حل الصمّين، ثمّ امتلأ ما بينهما بالواقفين. ووجد ترفيقه في الجلوس إلى جانبها أرتياحاً لا مزيد عليه، غير أنّ جلوسها بين جمهور الدرجة الثانية أزعجه مرّة أخرى، ربّما لما يجده ذلك من تباين عند مطابقة الصورتين، القديمة الخالدة والمائلة إلى جانبه. وكان منكبه يلامس منكبه ملامسة خفيفة كلّما نذّ عن الترام حركة مفاجئة خاصّة عند القيام والوقوف، وجعل يلاحظها كلّما أمكن ويضمّصها ما استطاع. هاتان العينان السوداوان السابجتان، والحاجبان المورنات، والأنف السيّء اللطيف، والوجه البدريّ، كأنّه ينظر إلى عابدة. حقّاً، كلّاً، ثمّة تباين في لون البشرة، ولسّة اختلاف هنا أو هناك، لا يذكر إن كانت إلى الزيادة في أم إلى نقصان، ومع أنّ تباينها كان سيّراً إلّا أنّ إحساسه به كان خطيراً فهو كدرجة الحرارة الواحدة التي قد تكون فاصلاً بين الصّحة والمرض، ولأنّ كان في الوقت نفسه حيال أقرب مثال إلى عابدة التي خيّل إليه أنّه بات يذكروها أوضح من أيّ وقت مضى على ضوئه هذا الوجه الجميل. والجسم لعلّه هو هو، ما أكثر ما تساءل عنه، فلملّه الآن براء، وهو رشيق نحيل، صدره آية في الحياء، كذلك هو في جملة، لا يمتّ بسبب إلى جسم عطية البضّ المملج الذي يتعمّق! فهل فسد ذوقه على مرّ الأيام؟ أو إنّ حبّه القديم كان نائراً على غريزته

الصمت الذي تبدو فيه السعلة كالذهب الفاضح، ثمّ قلّمه مدير الجامعة الأمريكيّة بكلمة مناسبة، ثمّ بدأ الرجل في إلقاء محاضرته. وظلّ كيال أكثر الوقت متّجه العيين نحو رأس الفتاة في تساؤل واهتمام. وكان قد رآها مصافدة عند دخولها، فدهمه منظرها، وانزعجته بقوة من تيار أفكاره، ثمّ قلقت به في الماضي عشرين عاماً ثمّ استردّته إلى الحاضر وهو يلهث. خيّل إليه أوّل الأمر أنّه يرى عابدة، غير أنّها لم تكن عابدة دون ريب... هذه الفتاة التي لا يمكن أن تجاوز العشرين، ولم يتح له وقت كافٍ كي يتفحص قسائنها ولكنّ جملة منظرها كان فيه الكفاية، هيئة الوجبة والقامة والروح وجعل العيين، أجل لم ير هاتين العيين في غير وجه عابدة من قبل. أتكون شقيقتها؟ خطر له هذا الرأي أوّل ما خطر، بدور، ولم يغب عنه الاسم هذه المرّة، وسرعان ما ذكر صداقتها له في الماضي البعيد، ولكنّ هيهات... أن تكون حقّاً هي - أن تتذكّره، المهمّ أنّ صورتها أيقظت قلبه، ودته ولو إلى حين إلى شيء من تلك الحيلة الفاسدة التي اكتشف بها زمناً، فهو في اضطراب، يسمح إلى الأستاذ المحاضر دقائق ثمّ ينظر إلى رأس الفتاة أكثر الوقت، ثمّ يفرق في موجة الذكريات، مستشعراً في أثناء جملة المشاعر التي تتلاحم وتصطرح في وجدانه. فلا تبعتها لأعرف حقيقتها، لا غاية في ولكنّ أكلول مشاء، إني أتوق لأني شيء قد يمسح عن روحي الصدا المتكاثف فوقها. وترنّص ميّثاً هذه النيّة، ترى أطالت المحاضرة أم قصرت؟. لا يدري. ولكنّه عند انتهائها أفشى بغرضه إلى رياض ثمّ ودّعه وسار في أثر الفتاة. تابع بنائية مشيتها، مشية رشيقة، قامة هيفاء، لا يستطيع أن يقارن بين المشيتين لأنّ الأخرى لم يعد متوقّداً منها، أمّا القامة فأغلب الظنّ أنّها هي هي، وكان شعر الأخرى والأجسامونّه أمّا هذا الشعر فغزير معقوص، ولكنّ اللون الأسود واحد في الحالين ما في ذلك شكّ، ولم يستطع أيضاً أن يتفحص وجهها حل عطية الترام لازدهامها بجمهور المستمعين، ولكنّها استقلّت الترام رقم ١٥ الذاهب إلى العتية وانحشرت في الحريم فاستقلّه ورامها وهو يتساءل ترى أمي في طريقها إلى العباسيّة أم إنّ ما

انحدرت إلينا نحن جمهور الدرجة الثانية، ألا تذكرين صديقك الذي كنت تتعلّقين بعنفه وتبادليه القبل؟ كيف تعيشين اليوم يا صغيرتي؟ وهل تعملين مثلي في النهاية مدرّسة في إحدى المدارس الابتدائية؟ ومَرّ الترام بمكان القصر القديم الذي قام في موضعه بناء ضخّم جديد، وقد رآه قبل ذلك في المَرّات القلائل التي زار فيها العباسية منذ انقطاعه التاريخي عنها خاصّة في العهد الأخير وهو يتردّد على بيت فؤاد جميل الحمزاوي. العباسية نفسها تغيّرت كيبتكم يا صغيرتي، اختضت قصورها وحدايقها التي عاصرت حيّ وحزني، وقامت مكانها العمارات الفخمة المكتنّة بالسكان والحوانيت والمقاهي والسينمات، فليسَ بذلك أحد الفنّون بمتابة صراع الطبقات أمّا أنا فكيف أضمت بالقصر وآله على حين أنّ قلبي مطمور في أنقاضه؟ أو كيف أحضر المخلوق البديع الذي لم يلد نكد العيش ولا زحمة الشعب إذ كان يحضر كالمنى الجميل وقلبي له ساجد؟

وعندما توقّف الترام في المحطة التالية لقسم الوابلي غادرته فتبعها ووقف على طوار المحطة يراقبها، فرأها وهي تعبر الطريق إلى شارع وابن زيدون الذي يواجه المحطة مباشرة. كان شارعاً ضيقاً تقصّر على جانبيه بيوت قديمة من بيوت الطبقة الوسطى وتتفكي وجهه المهْد بالأسفلت الأتربة والحصى والأوراق المبعثرة وقد دخلت ثالث بيت إلى اليسار من باب ضيق تلاصقه دكان كوّاه. ووقف ينظر إلى الطريق والبيت في صمت واجم، ذلك المكان الذي تقم فيه اليوم سنيّة هانم حرم شدّاد بك! وهذه الشقّة لا يزيد إيجارها على ثلاثة جنيهات، وليت سنيّة هانم تخرج إلى الشرفه ليلي عليها نظرة ويفيس ما حاق بها من تغيّر لا شك أنّه خطير، ولعلّه لم ينس بعد منظرها النفيس حين كانت تغادر السلاسل متأنّبة ذراع زوجها إلى حيث تنتظر السيارة، كانت تحتل عجباً في معطفها الوثير وتلقي على ما حولها نظرات مليئة بالسؤدد والطمانينة، ولن يحقّ الإنسان بعدوً أشدّ فتكاً من الزمن. في هذه الشقّة نزلت عائدة في أثناء إقامتها بالقاهرة، ولعلّها جلست بعد العصاري في هذه الشرفه البالية، ولعلّها قاسمت

الكامنة؟. بيد أنّه كان حبّاً سعيداً حالماً ثمل القلب بنشوات الذكريات، وكانت ملاصقاته المتقطعة لها تزيده نشوة وإغراقاً في التأمّلات، أنّه لم يمّ عابدة، كان يراها أبداً مستحيلة المثال، أمّا هذه الصغيرة فهي تسير في الأسواق وتجلس بين جمهور الدرجة الثانية، فما أشدّ حزنه! وذلك التباين الطفيف الذي أحفقه وخيّب أمه، وقضى على حبه القديم بأن يبقى لغزاً إلى الأبد. وجاءه الكمساري منادياً والتذكّر والابونيّهات، ففتحت حقيبتها وأخرجت تذكّرة الاشتراك وانظرت حتّى يصل الرجل إليها. فاسترق إلى التذكّرة النظر حتّى عثر على اسمها وبدور عبد الحميد شدّاد. . . طالبة بكليّة الآداب، لم يعد ثمة شك، إنّ قلبي يخفق أكثر ممّا ينبغي، لو استطع أن أنسل لهذا الاشتراك كي أحفظ بأقرب صورة لعابدة، أه لو كان في الإمكان لهذا، مدرّس في السادسة والثلاثين ينشل طالبة بكليّة الآداب! يا له من عنوان مثير تسمّاه الجرائد، فيلسوف فاشل في حدود الأربعين! ترى ما سنّ بدور؟ لم تكن تجاوز الخامسة عام ١٩٢٦ فهي في الواحدة والعشرين من عمرها السعيد، السعيد؟! لا قصر ولا سيّارة ولا خدم ولا حشم، ولم تكن دون الرابعة عشرة حين حلّت الكارثة بأسرتها، وهو عمر حرجي بأن يدرك معنى الكارثة ويلدق الألم، تألّت المسكينة وفهرت، ابتليت بهذا الشعور القاسي الذي أصبحت به جدّ خير، جمعنا الألم على تفاوت في الزمن كما جمعنا الصداقة القديمة المنسية، وجامها الكمساري فسممها وهي تقول له وتفضّل، ثمّ ناولته التذكّرة. وطرق الصوت مسمعه كنغمة قديمة محبوبة طواها النسيان دهرًا طويلاً ثمّ انبعثت في السمع بكلّ حلاوتها وجميع ذكرياتها فأحيت فترة سايوة من الزمن، دوّمت أذنه في مملكة الطرب الإلّهيّة مستهدفة أحلام الزمان الضائر، هذه النغمة الدافئة الرخيمة المفعمة بسحر الطرب. أسمعني صوتك وما هو بصوتك، يا صديقتي القديمة السيّدة الحفّدة من حسن الحظّ أنّ صاحبة هذا الصوت الأصلية ما زالت تنعم بمثل حياتها الأولى، لم ترق إليها الأحزان التي أغرقت أسرتها، أمّا أنت فقد

طريق محفوف بالتزمت والتقاليد من ناحية، وبالسبب المتوكل للسخرية من ناحية أخرى. كان غارقاً في اليأس والملل فجري ملهوقاً وراء هذا الشيء الذي لا يشك في أنه تسليّة وأي تسليّة، وحياة وأي حياة، ويحبسه أنه انقلب يتمّ بالزمن وينشد الأمل ويأمل في المسرة، بل وما هو قلبه يخفق وكان قبل ذلك ميتاً، وكان يشعر بضيق الوقت، فالصام الدراسي يشارف نهايته المحتومة، بيد أن نهايته لم تضع هباء، فبدور قد رآه كما رآه الجميع، ولعلها شاركت فيها يدور من همس حوله، إلى أن عينيهما قد تلاقيا أكثر من مرة، ولعلها طالمت في عينيه ما يضطرم في ذاته من الاهتمام والإعجاب، من يدري؟ وفضلاً عن هذا كله فغند العودة يستقلان ترام الجزيرة معاً ثم ترام العباسية، وكثيراً ما يجلسان في مكان واحد، فباتت تعرفه جيّداً، وهو نجاح لا بأس به لشخص بعيد عن حيّها كله، خاصة إذا كان مدرّساً حريصاً على مظاهر مهنته وما تقتضيه من استقامة ووقار. أما عن غايته من هذا كله فلم يشقّ على نفسه في تحقيقها، لقد دبت فيه الحياة بعد موات فتهالك عليها، وهو تواق بكلّ قوة نفسه المعبّدة إلى أن يعود ذلك الإنسان الذي تمتلج في وجدانه المشاعر وتهميم في عقله الخواطر وتنجلي في حواسّه المناظر، وأن ينسى بهذا السحر ضحرة وسقمه وحيرته أمام الغاز لا تحمل، كآبتها الحمر ولكنّها أعمق متاعاً والطف عاقبة. وفي الأسبوع الماضي حدث شيء نأثر له قلبه أيّما تأثر، فقد عاقه إشرافه على النشاط الرياضي بمدرسة السلحدار عن الوصول إلى الكلية في الوقت المناسب، فدخل حجرة الدرس متأخراً، والتقت عيناهما عند دخوله وهو يسير على أطراف أصابعه أن يحدث صوتاً، التقت عيناهما التقاء خاطئاً سحرياً وسرعان ما أرخت جنوبها فيها يشبه الحياة. لم تكن إذن مجرد نظرة تلتقي فيها عيناه مخادعتان، وبات مرجحاً أنّها استشعرت شيئاً من الحياة، فهل كان يقع هذا لو كان نشاط عينيه قد ضاع عبثاً؟! الصغيرة باتت تستنحي من نظراته فتلطمها أخذت تدرك أنّها ليست بالنظرات البريئة التي توجّهاها المصادفة، وأثار ذلك في نفسه جملة من الذكريات واستدعى كثيراً من الصور،

أمّها وأختها فراشهما الواحد ما في ذلك ريب، فليتني علمت بوجودها في الوقت المناسب، وليتني رأيتهما بعد ذلك التاريخ الطويل، كان ينبغي أن أراها وأنا متحرّر من استبدادها، كي أعرفها على حقيقتها، وبالتالي كي أصرف نفسي أنا ولكن ضاعت هذه الفرصة النادرة...

٤٢

جلس كمال بين طلبة وطالبات قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب يصغي إلى الدرس الذي يلقيه الأستاذ الإنجليزي، لم تكن أول مرة يحضر فيها هذا الدرس ولا آخر مرة فيها بدا له، ولم يكن قد وجد صعوبة تذكر عند الاستئذان في الحضور - كمستمع - لتابعة الدروس المسائية التي تلقى ثلاث مرّات في الأسبوع، وأكثر من هذا فإنّ الأستاذ قد رحّب به عندما علم أنّه مدرّس لغة إنجليزية. أجل كان غريباً بعض الشيء أن يعنى بتابعة هذه الدروس في أواخر العام الدراسي ولكنّه علّل ذلك أمام الأستاذ أنّه يقوم ببحث استدعى متابعة هذه المحاضرات رغم ما فاته منها، وكان قد علم بوجوده بدور في هذا القسم عن طريق رياض قلّلس الذي عرفه بدوره عن طريق صديقه مكرّمير الكلية. وبدا منظّره، ببذله الأنيقة ونظّارته الذهبية وطوله ونحوه وشاربه الغليظ وشعره الببيض التي تلتصق في سوائله إلى رأسه الضخم وأنفه الكبير، بدا كلّ أولئك لفتاً للأنظار خاصة وهو يجلس بين عدد محدود من الشباب الغضّ، فكم يبدوا كالتساليين وكم حذوهم بنظرات لم يرتح لها، حتّى خجل إليه أنّه يسمع ما يدور في نفوسهم من ملاحظات وتعليقات هو أدري بها وأخيراً. هو نفسه كان يعجب هذه الخطوة المخارقة التي أقدم عليها دون مبالاة هل ما جشّمته من جهد وخرج، ما بواسعها الحقيقية وما هدفها؟ لا يدري شيئاً على وجه التحقيق ولكنّه ما إن رأى بارقة نور في ظلمة حيائه الدائكة حتّى انزلق يستمته وهو لا يلوي على شيء مدفوعاً بقوى هائلة من اليأس والأشواق والأمل، غير مبالي بما قد يعثر به في

مع أختها بهذه الجراءة، ولكنها كانت الكبرى وكان الصغير الساذج.

- حضرتك من العباسية فيها أعتقد؟

- نعم...

لا تريد أن تدفع الحديث من ناحيتها!

- من المؤسف أنني لم أتابع المحاضرات إلا أخيراً...

- نعم...

- أرجو أن أعوض ما فاتني في المستقبل...

فأبستمت دون أن تنبس، «زيدني من سماع صوتك فإنيك النعمة الوحيدة من الماضي التي لم يغيرها الزمن»...

- ماذا تنوين بعد الليسانس؟ معهد التربية؟

فقالت باهتمام لأول مرة:

- لا حاجة بي إلى ذلك لأن الوزارة محتاجة إلى مدرّسات ومدرّسين بسبب ظروف الحرب والتوسع الجديد في التعليم...

طمع في نعمة واحدة فوهب لحناً كاملاً!

- إذن ستعملين مدرّسة!

- نعم، لم لا؟

- إتّبا مهنة شاقّة، سليلي عنها.

- حضرتك مدرّس فيها سمعت؟

- نعم، أوه، نسيت أن أقم نفسي، كمال أحمد عبد الجواد.

- تشرفنا...

فقال بآس:

- ولكنك لم تشرفني بعد؟

- بدور عبد الحميد شدّاد!

- تشرفنا يا أفندم...

ثم مستدركاً كمن فوجئ بشيء فريد:

- عبد الحميد شدّاد! ومن العباسية؟ حضرتك

أخت حسين شدّاد؟

فلمعت عينها في اهتمام وقالت:

- نعم.

فضحك كمال كأنما يضحك عجباً من غرابة

المصادفات وقال:

حقّ وجد نفسه يتذكّر عابدة ويتخلّلها، ولكنّه لم يدري لماذا، فإنّ عابدة لم تغضّ الطرف حيّاه حيّاله قطّ، ففعل شيئاً آخر الذي ذكره بها، لفظة أو رنوة أو ذلك السرّ الساحر الذي ندعوه بالروح. وأوّل أمس حدث شيء آخر له خطورته كذلك، انظر كيف رقت الحياة إليك! قبل ذلك لم يكن شيء خطورة قطّ، أو لم تكن تضفي الخطورة إلا على هذه الألفاظ العقيمة كالإرادة عند شوبنهاور أو المطلق عند هيغل أو ونية الحياة عند برجسون، كانت الحياة كلّها صمّاً لا خطر لها، انظر اليوم كيف أن رنوة أو لفظة أو ابتسامة قد تزلزل لها الأرض جيّماً! حدث ذلك وهو ماضٍ إلى الكلّيّة قبل الخامسة مساءً غتراً حديقة الأورمان، فما يدري إلا ويدور وثلاث فتيات يطالعهن على أريكة ينتظرن عليها ميعاد الدرس، والتقت عينهما التقاء عميقاً كما وقع في حجرة الدرس، وكان يودّ أن يجيّهنّ عند الاقتراب ولكنّ المشي الذي يسير فيه عرج به بعيداً عنهنّ كأنّه أي أن يشترك في هذه المؤامرة العاطفيّة المرحّلة، وكما ابتعد قليلاً التفت وراءه فسرّاهنّ يمسّس في أذنها بأسات وهي مسندة رأسها إلى راحتها كأنّها تخفي وجهها! ما هذا المنظر البديع؟! لو كان رياض معه لأحسن تحليله وتفسيره، ولكنّه لا يحتاج إلى براعة رياض، لا شكّ أنّهنّ يمسّس لها عنه حقّ أخفت وجهها حيّاه! هل ثمة معنى غير هذا؟. ففعل الصبّ فضحته عينونه، ولعلّه جاوز المدى وهو لا يدري حقّ صار أحدونه، وماذا يكون من أمره لو انقلب الحمس تعريضاً يتلّوح به الطلبة الشياطين؟! وفكر جاداً في الانقطاع عن الكلّيّة، ولكنّه وجدها تجلس إلى جانبه في ترام العباسية ذلك المساء كما حدث أوّل يوم تبعها فيها وترصد التفاني ناحيته ليحييها وليكن ما يكون، فلما طال انتظاره بعض الشيء التفت هو ثمّ تظاهر بأنّه فوجئ بجولوسها لصقه فهمس في أدب:

- مساء الخير...

ف نظرت نحوه كالداهشة - لم تترك له عابدة ذكرى تصنّع أنثوي من أيّ نوع كان - ثم همست:

- مساء الخير...

زميلان يتبادلان التحية ولا غبار على ذلك، لم يكن

الذكريات وعلبة المتس التي أهديت إليه ليلة الزفاف. ثم جاش صدره بالحنين حتى تساءل ترى أمكن أن يقع الإنسان في الحب وهو يحسن فهمه ويلم بعناصر تركيبه البيولوجية والاجتماعية والنفسية؟ ولكن هل بقي الكيميائي علمه بالسموم من أن يموت بها كضحاياها الآخرين؟ أو فلماذا يحيش صدره هذا الجيشان؟ رغم ما مَنَحَ به من خيبة الأمل، ورغم الفارق الكبير بين الماضي والحاضر، رغم أنه لا يلوي إن كان من أهل الماضي أم من أهل الحاضر، رغم هذا كله فصدوره جيشا وقلبه يخفق...

٤٣

هنا حديقة الشاي، ساوفا أفرع وغصون ريانة، ومرتاد النظر البطء الساحب في البحيرة الزمرئية، والجلابية فيها وراء ذلك، واليوم عطلة مجلة الإنسان الجديد، وما هي سوسن حماد تبدو راقعة في فستان أزرق خفيف كشف عن ذراعيها السمراوين، وهي آخلة زيتنها ولكن في لباقة وحلر، وكان قد مضى عل زمالتها عام فجلسا متقابلين يضيء وجهيهما ابتسام التفاهم، بينهما مائدة عليها دورق ماء وكأسا دندورمة لم يبق فيها إلا ذوب ثائلة الحليب المورّد بالفراولا، وإثها أهر شيء لدي في هذه الدنيا، أدين لها بمسراتي جيما وهي قبة آمالي أيضا، ونحن زميلان مخلصان، لم ينطق الحب بيننا ولكنني لا أشك في أننا متحابان، ومتعاونان كاحسن ما يكون التعاون، بذانا ريفيين في ميدان الحرّية، وعملنا يدا واحدة، وكلانا مرشّح للسجن، وكنت كلّما نومت بجبالها خلقت في وجهي عتجة وزجرتني مقلبة كأن الحب شيء لا يلبق بنا فأبتسم وأعود إلى ما كنا فيه من عمل، ويومًا قلت لها: «إني أحبك... إني أحبك... فافعلي ما بدا لك»، فقالت لي: «وهذه الحياة هي الجسد كلّ الجسد وأنت تعبت»، فقلت لها: «إني مشكك أرى أنّ الرأسمالية في طور الاحتضار وإثها استنفدت كافة أغراضها، وأنّ على الطبقة العاملة أن تطلق إرادتها لتلور آلة التطور إذ إنّ الثمرة لن تسقط وحدها، وإنّ

- يا سلام! كان أهر أصدقائي، وقضينا ممّا آياها سعيدة جدًا، ريثا أنت أخته الصغيرة التي كانت تلعب في الحديقة؟

فحجته بنظرة استطلاع. هيهات أن تتذكّره! وفي ذلك العهد كنت مغرمة بي كما كنت مغرما بانثك».

- لا أذكر شيئًا طيبًا...

- طيبًا، هذا تاريخ يرجع إلى عام ١٩٢٣ وما بعده حتى عام ١٩٢٦، تاريخ سفر حسين إلى أوروبا، ماذا يفعل الآن؟

- في فرنسا في القسم الجنوبي الذي انتقلت إليه الحكومة الفرنسية عقب الاحتلال الألماني...

- وكيف حاله؟ من زمن طويل انقطعت عني أخباره ورسائله...
- بخير...

نطقت بها في لهجة نمت عن رغبة في الخوض في الموضوع أكثر من ذلك، وتساءل كمال والترام جر بمكان القصر القديم: ترى ألم يخطئ بمكانتها بصداقته القديمة لأخيها؟ أليس في ذلك حدًا من حرّيتها فيها هو بسيليه؟ ولما جاءت المحطة التالية لقسم الوايلي حيثه وغادرت الترام، فلبث في مكانه كأنما نسي نفسه. كان طوال الطريق يتفحصها كلّما سحّت فرصة لعله يتندي إلى السرّ الذي سحره قديمًا، ولكنّه لم يجده وإن شعر مرارًا بأنّه منه قريب. وكانت تبدو لطيفة وديعة، وكانت تبدو قريبة المائل، وهو الآن يشعر كأنما يعاني خيبة أمل غامضة وحزنًا غير يُبَيّن الأسباب، لو أراد الزواج من هذه الفتاة ما اعترضه عائق جدّي. أجل إثها تبدو مستجيبة مليّة، رغم فارق السرّ المحسوس أو بسبب فارق السرّ! ثمّ إنّ التجارب قد علمته أنّ شكله لن يموّقه عن الزواج إذا أراد. وهو إذا تزوّجها انتقل بقدرة قادر إلى عضوية أسرة عايدة، ولكن ما كنه هذا الخيال السخيف؟ وما عايدة الآن بالنسبة إليه؟ الحقّ أنّه لا يريد عايدة، ولكنّه لا يكفّ عن التطلع إلى معرفة سرّها، لعله يقتنع في الأقلّ بأنّ أهر عصور العمر لم يضع هباء. ووجد رغبة - طالما ألحّت عليه عل فترات من العمر - في مراجعة كُرّاسة

علينا أن نخلق الوعي ولكن بعد ذلك أو قبل ذلك أحبك فقطبت تقطيعه متكلفة بعض الشيء وقالت: «إنك نصر على إسماعي ما لا أحب»، وشجعتني خلّو حجرة السكرتارية فهويت إلى وجهها فجأة ولثمت خذها فحدجتي بنظرة قاسية وأكبّت على ترجمة ما تبقى من الفصل الثامن من كتاب نظام الأسرة في الاتحاد السوفييتي الذي كنّا نترجمه معاً.

- هذا الحزّ كلّ في يونيه فكيف إذا جاء يوليو وأغسطس يا عزيزي؟

- يبدو أنّ الإسكندرية لم تخلق لأمثالنا.

فضحك قائلاً:

- ولكنّ الإسكندرية لم تعد مصيفاً، كانت كذلك قبل الحرب أمّا اليوم فالإشاعات قد جعلتها خراباً... - الأستاذ عدلي كريم يؤكّد أنّ أغلبية سكّانها قد هجروها وأنّ طرقاتها ملأى بالقطط الهائمة على وجهها!

- هي كذلك، وعصاً قليل يدخلها رومل بجيشه...

ثمّ بعد صمت قصير:

- وسوف يلتقي في السويس بالجيش اليابانيّة الزاحفة حلّ آسيا ويعود العهد الفاشستي كما كان في العصر الحجري!

فقلت سوسن في شيء من الانفعال:

- روسيا لن تهزم، وإنّ آمال البشريّة مصونة خلف جبال الأورال...

- نعم لكنّ الألمان حلّ أبواب الإسكندرية!

تساءلت وهي تنفخ:

- لماذا يحبّ المصريون الألمان؟

- كراهة في الإنجليز، وسوف يمتصّونهم في الغد القريب، إنّ الملك يبدو اليوم كالمسجين ولكنّه سينطلق من سجنه ليستقبل رومل ثمّ يشربان معاً نخب وادّ الديمقراطية الناشئة في بلادنا، ومن المضحك أنّ الفلاحين يظنون أنّ رومل سيؤرّع الأرض عليهم!

- أعداؤنا كثيرون، الألمان في الخارج، والإخوان والرجعية في الداخل وكلاهما شيء واحد...

- لو سمعك أخي عبد المنعم لثار على رأسك، يعتبر

الإخوانيّة فكرة تقدّمية تزي بالاشتراكيّة المادّية...

- قد يكون في الإسلام اشتراكيّة، ولكنّها اشتراكيّة خياليّة كالتي بشر بها توماس مور ولويس بلان وسان سيمو، أنّه يبحث عن حلّ للظلم الاجتماعيّ في ضمير الإنسان بينا أنّ الحلّ موجود في تطوّر المجتمع نفسه، أنّه لا ينظر إلى طبقات المجتمع ولكن إلى أفرادها، وليس فيه بطبيعة الحال آية فكرة عن الاشتراكيّة العلميّة، وفضلاً عن هذا كلّ فثاليم الإسلام تستند إلى ميتافيزيقا أسطوريّة تلعب فيها الملائكة دوراً خطيراً، لا ينبغي أن نبحث عن حلول للمشكلات حاضرنّا في الماضي البعيد، قل هذا لأخيك...

فضحك أحمد عن سرور غير خافٍ وقال:

- أخي شاب مثقّف وقانونيّ ذكيّ، إنّّي أعجب كيف يتحمّس أمثاله للإخوان! فقالت بازدراد:

- الإخوان يصطنعون عمليّة تزيف هائلة، فهم حيال المثقّفين يقدّمون الإسلام في ثوب عصريّ، وهم حيال البسطاء يتحدثون عن الجنة والنار، فينتشرون باسم الاشتراكيّة والوطنية والديمقراطية.

حبيبي لا تملّ الحديث عن مبادئها، قلت حبيبي؟ نعم فمعدّ القيلة التي اختلستها دأبت حلّ أن ادعوا بحبيبي وكانت تحمّج بالكلام تارة وبالإشارة تارة أخرى ثمّ جعلت تتجاهله كأنّها قد يشت من إصلاحه، وعندما قلت لها إنّّي تراق إلى سماع كلمات الحبّ من ثغرها المشغول بالاشتراكيّة وُبختني قائلة باحتقار:

وهذه النظرة البورجوازيّة العتيقة إلى المرأة... هههه! فقلت لها جزعاً: إنّ احترامك لك فوق كلّ كلام وإنّي لا احترف بأنّي تلميذك في أنبل ما صنعت في حياتي ولكنّي أحبك كذلك وما في ذلك من بأس. فذهب غضبها فيها شعرت ولكنّها استبقت مظاهره فيها رأيت، واقتربت منها مضطراً تقبيلها فلا أدري كيف حذرت غرضي فدفعني في صدره ولكنّي رغم ذلك لثمت خذها وما دام المحلور قد وقع - وقد كان يوسعها منه جدّاً - فقد اعتبرتها راضية، وإنّها لكائن بديع جميل العقل والجسم معاً رغم إفراقها في السياسة، وعندما دعوتها للتزوّج في الحديقة قالت: وعلى شرط أن نأخذ

فقال بلهجة لم تخل من حدة:

- أنت غطت يا ظلة لا يعينني ما ورثته، فكيف أن
الفقر لا يعبك فالغنى لا يعينني، أهني الدخل القليل
الذي عاشت به أسرتنا عيشة التابلية، لا يعيب أحداً
أن يجد نفسه بورجوازيًا، ولا عيب إلا في الجمود
والتخلف عن روح العصر...

فقلت وهي تبسم:

- لا تغضب، كلانا ظاهرة طبيعية علمية، لا نسأل
عما وجدنا أنفسنا عليه ولكننا مشغولون صمًا نعتقد
ونفعل، إني أعتذر إليك يا إنجلز، ولكن خبرني هل
أنت هل استعداد لمواصلة إلقاء المحاضرات على العمال
مهما تكن المواقف؟

فقال بإدلال:

- لقد حاضرت حتى أمس خمس مرّات، وحوّرت
متشورين خطيرين، ووزّعت عشرات المنشورات،
وللحكومة ذين في عتقي جاوز العامين سجنًا...
- ولها في عتقي أضعاف ذلك...

مدّ يده في خفة فوضمها على يدها السمراء البضة
في حنان وإعجاب. نعم إنه يحبّها، ولكنّه لا يندفع في
جهاده باسم الحب، ترى ألم تبتّ أحيانًا وكأنتا تشكّ
فيه؟ أهى مداعبة من المداعبات أو توجس خيفة من
البورجوازية التي تحسبها كاعنة فيه؟ إنه مؤمن بالمبدأ
كما إنه مغرم بها، لا غنى له عن هذا ولا ذاك، وليس
من السعادة أن تحظى بشخص يفهمك حتى الفهم
وتفهمه حتى الفهم؟ وألا يجوز بينك وبينه أي نوع من
المكر؟ إني أحبها إذ قالت ولقد دقت الفقر طويلاً،
هذا القول الصريح الذي ساها من بنات جنسها
جميعًا ومزجها بنفسي، لكننا عبثون غافلون والسجن
يترصّ بنا، ويوسمنا أن نتزوّج وأن نتجنّب المتاعب
ونقتنع برغد العيش، ولكنّها تكون حياة بلا روح، لشدّ
ما يبيلو لي المبدأ أحيانًا كأنه لعنة مصوّية علينا من
القضاء والقدر، إنّه دمي وروحي، كائنني المشغول
الأوّل عن الإنسانية جميعًا...

- أحبّك...

- ما المناسبة لهذا؟

- في كلّ مناسبة وبلا مناسبة...

معنا الكتاب لنواصل الترجمة، قلت لها: بل للفرجة
والمناجاة وإلا كضرت بالاشتراكية جميعًا! ولعلّه ممّا
يزعجني كثيرًا حيال نفسي المتشعبة بالسكينة التي ما
زلت أنظر أحيانًا إلى المرأة بالعين التقليدية البورجوازية
فيخيل إليّ في بعض ساعات التفهّر والحقّور أنّ
الاشتراكية عند المرأة التقلّمية ليست إلا نوعًا من الفتنة
كضرب البيانو والتبرّج ولكن من المسلم به كذلك أنّ
العام الذي زاملت فيه سوسن قد غيّرني كثيرًا وطهرني
لدرجة محمودة من البورجوازية المستوطنة في
أعالي...

- من الموصف أنّ زملائي يمتثلون بلا حساب...

- نعم يا حبيبي، الاعتقال موضة تشيع أيام
الحروب وأيام الإرهاب على السواء، غير أنّ القانون لا
يرى بأشأ في اعتناق المبدأ إذا لم يقترن بالدعوة إلى
العتف...

فضحك أحمد وقال:

- سيليقي القبض علينا إن أجلاً وإن عاجلاً
إلا...

فحدجته بنظرة متسائلة فعاد يقول:

- إلا إذا أئبنا الزواج!

فهزّت متكبّية في ازدرأ وقالت:

- من أدراك بأنني أوافق على الزواج من رجل
مزيف مثلك؟

- مزيف؟!

ففكرت قليلاً ثم قالت باهتمام جدّي:

- لست من طبقة العمال مثلي! كلانا يجارب عدوًا
واحدًا ولكنك لم تحبّه كما خبّرته، لقد دقت الفقر
طويلاً، ولست آثاره الكريّة في أسرتي، وغالبته أخت
لي حتى غلبها فهائت، أمّا أنت فلست... لست من
طبقة العمال!

فقال بهدوء:

- ولا كان إنجلز من هذه الطبقة...

فضحكت ضحكة قصيرة بعث أنوثتها وقالت:

- كيف أدعوك؟ البرنس أحمدوف؟! هه لا أنكر
عليك بذلك، ولكن بك بقايا بورجوازية عتيقة، يحتمل
إني أئبك أحيانًا لكونك من آل شوكت!

- إِنَّكَ تَحْدُثُ عَنِ الْجِهَادِ وَلَكِنَّ قَلْبَكَ يَتَفَقَّهٌ بِالْهِنَاءِ...
 - التفریق بین هُدیْن سَخَفٌ كَالْتَفْرِيقِ بَيْنِي وَبَيْنَكَ...
 - أَلَا يَعْنِي الْحُبُّ الْهِنَاءَ وَالْإِسْتِقْرَارَ وَكَرَاهَاةَ السَّجَنِ؟
 - أَلَمْ تَسْمَعْ عَنِ النَّبِيِّ الَّذِي كَانَ يُجَاهِدُ لَيْلَ نَهَارٍ دُونَ أَنْ يَنْتَمِعَ مِنْ أَنْ يَتَزَوَّجَ تَسْمَأُ؟...
 - ففَرَعْتُ بِأَصَابِعِهَا هَائِفَةً:
 - هَا هُوَ أَحْوَكُ قَدْ أَحْوَكُ فَاهُ، أَيُّ نَبِيٍّ يَا هَذَا؟
 - فَقَالَ ضَاحِكًا:
 - نَبِيُّ الْمُسْلِمِينَ!
 - دَعْنِي أَحَدُكَ عَنْ كَارِلٍ مَارِكْسَ الَّذِي عَكَفَ هَلْ تَأَلِّفُ «رَأْسَ الْمَالِ» تَارِكًا زَوْجَهُ وَأَوْلَادَهُ لِلْجُوعِ وَالْهَيْدَلَةِ!
 - كَانَ مَتَزَوِّجًا عَلَى أَيِّ حَالٍ...!
 - كَأَنَّ مَاءَ الْهَرَاةِ عَصِيرَ زَمْرَدٍ، وَهَذِهِ النِّسْمَةُ اللَّطِيفَةُ تَهْفُو فِي خِلْسَةٍ مِنْ يُونِيهِ، وَالْبَطِّكُ يَسِيحُ مَسَدًا مِثْلَهُ لَانْتِقَاطِ فَنَاتِ الْخَبْزِ، وَأَنْتِ سَعِيدٌ جَدًّا، وَالْحَبِيبَةُ الْمُتَعَبَةُ الْكَلْبُ مِنَ الطَّبِيعَةِ، يَحْتَلِلُ لِيَّ أَنْ وَجْهَهَا تَوَرَّدَ، فَلَمَعْلَهَا تَنَاسَتِ السِّيَاسَةَ قَلِيلًا وَأَخْلَدَتْ تَفَكَّرَ فِي...
 - كَانَ الْمَعْمُولُ يَا زَمِيلَتِي الْعَزِيزَةُ أَنْ نَحْظِيَ فِي هَذِهِ الْحَدِيقَةِ بِحَدِيثٍ عَذَبٍ!
 - أَعَذَبَ ثَمَّا كُنَّا نَتَحَدَّثُ بِهِ؟
 - أَعْيَ حَبْنًا...؟
 - حَبْنًا؟...
 - نَعَمْ وَأَنْتِ تَعْلَمِينَ...!
 - وَسَادَ الصَّمْتُ مَلْبًا حَتَّى غَضَّتْ عَيْنُهَا مَسْأَلَةً:
 - مَاذَا تَرِيدُ؟
 - قُولِي لِي أَنَا نَزِيدُ شَيْئًا وَاحِدًا!
 - فَقَالَتْ كَأَنَّهَا لِنَظِيمِهِ فَحَسِبَ:
 - نَعَمْ، وَلَكِنْ مَا هُوَ؟
 - حَسْبُنَا لَقَفٌ وَدُورَانُ!
 - كَأَنَّهَا تَفَكَّرَ، فَمَا أَمْرُ الْإِنْتَظَارِ عَلَى قَصْرِهِ، وَإِذَا جَاءَ تَقُولُ:
 - مَا دَامَ كُلُّ شَيْءٍ وَاضِحًا فَلَيْمَ تَعْدُبِينَ؟
 - فَتَنْهَدُ فِي ارْتِيَاحٍ عَمِيقٍ وَقَالَ:
 - مَا أَجَبَّ حَبْنًا!
 - وَسَادَ الصَّمْتُ مَرَّةً أُخْرَى كَاللَّازِمَةِ بَيْنَ النِّعْمَةِ وَالنِّعْمَةِ، ثُمَّ قَالَتْ:
 - يَجْعَلُنِي شَيْءٌ وَاحِدًا.
 - أَفَتَنْدَمُ؟
 - كَرَامَتِي!
 - فَقَالَ كَالْمُنْزَعِجِ:
 - هِيَ وَكَرَامَتِي شَيْءٌ وَاحِدًا!
 - فَقَالَتْ بِامْتِنَاعٍ:
 - أَنْتِ أَجْدَى بِتَقَالِيدِ أَنْسَاكِ! سَتَسْمَعُ كَثِيرًا عَنْ الْأَصْلِ وَالْفَصْلِ...
 - كَلَامُ فَارُغٍ، أَتُنَظِّفُنِي طِفْلًا؟
 - وَتَرَدَّدَتْ قَلِيلًا ثُمَّ قَالَتْ:
 - لَا يَسْتَدْنَا إِلَّا شَيْءٌ وَاحِدٌ هُوَ «الْعَقْلِيَّةُ الْبُورْجُؤَازِيَّةُ»...!
 - فَقَالَ بِقُوَّةٍ جَعَلَتْهُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَشْبَهَ مَا يَكُونُ بِأَعْيُنِهِ عَبْدُ الْمُنْعَمِ:
 - لَسْتُ مِنْهَا فِي شَيْءٍ!
 - هَلْ تَدْرِكُ مَدَى خَطَرَةِ قَوْلِكَ؟... لَقَدْ عَنَيْتُ أَشْيَاءَ تَخْصُ عِلَاقَةَ الرَّجُلِ بِالْمَرْأَةِ فِي صَمِيمِهَا الشَّخْصِيِّ وَالْاجْتِنَاحِيِّ!
 - مَفْهُومٌ جَدًّا.
 - سَوْفَ تَطَالُبُ بِقَاعُومِ جَدِيدٍ عِنْدَ الْكَشْفِ عَنْ الْكَلِمَاتِ الْمَثَوْرَةِ مِثْلَ: حُبٍّ، زَوَاجٍ، غَيْرَةِ، الْوَفَاءِ، الْمَاضِي...
 - نَعَمْ...!
 - قَدْ يَعْنِي هَذَا لَا شَيْءَ، وَقَدْ يَعْنِي كُلُّ شَيْءٍ، وَكَمْ مِنْ مَرَّةٍ خَطَرْتُ لَهُ الْفُكَارَ، وَلَكِنَّ الْمَوْقِفَ يَتَطَلَّبُ شَجَاعَةً فَائِقَةً، مَا هُوَ إِلَّا امْتِحَانٌ لِعَقْلِيَّةِ الْمُرُوءَةِ وَالْمَكْتَسَبَةِ جَمِيعًا، امْتِحَانٌ رَهِيْبٌ، خَيْلٌ إِلَيْهِ أَنَّهُ أَدْرَكَ مَا تَعْنِي، وَلَمَعَلَّ الْأَمْرَ لَا يَمُدُّوْهُمَا لَهَا تَمْتَحِنَهُ، وَلَكِنْ حَتَّى لَوْ كَانَ الَّذِي أَدْرَكَهُ فَلَنْ يَتَرَجَّعَ، لَقَدْ اعْتَرَاهُ أَلَمٌ وَدَبَّتْ فِي أَعْيَاقِهِ الْغَيْرَةُ وَلَكِنَّهُ لَنْ يَتَرَجَّعَ...
 - إِيَّيْ مُسْلِمٌ جَا تَعْنِينَ، وَلَكِنْ دَعْنِي أَصَارْحَكَ بِأَنِّي كُنْتُ أَمَلُ أَنْ أَحْظِيَ بِفَتَاةٍ عَاطِفِيَّةٍ لَا يَفْكُرُ عَاسِبٌ مَدْفُوقًا!

فتساءلت وعينها تتابعان البكّ السابح :
 - لتقول لك أحبك وأوافق على الزواج منك؟
 - نعم! ...
 صاحبة:
 - وهل تراني كنت ادخل في التفاصيل ما لم أكن موافقة على المبدأ؟
 فضغط على راحتها في رقّة، فعادت تقول:
 - وأنت تعرف كل شيء، ولكنك تودّ سباهه!
 - ولا أمل سباهه! ...

٤٤

- إنها سمعة أسرنا جميعاً، وهو على أيّ حال ابنكم، وأنتم بعد ذلك أحرار فيها ترون! ...
 كانت خديجة تحبط وعينها تنتقلان بسرعة وقلق من وجه إلى وجه، من زوجها إبراهيم الذي جلس إلى يمينها إلى ابنها أحمد في الناحية المقابلة من الصلاة، مارتين يباين وكحال وعبد المنعم. ...
 وقال أحمد مداعباً وهو يقلّد لهجتها:
 - انتبهوا جميعاً، إنها سمعة أسرة، وأنا على أيّ حال ابنكم!
 فقالت له بصوت متشكك مليء بالمرارة:
 - ما هذا البلاء يا ابني؟ أنت لا ترضى أن يحكمك أحد ولو كان أباك، وتأبى المشورة ولو كانت في صالحك، دائماً أنت على صواب والناس جميعاً هل خطأ، تركت الصلاة قلنا ربنا يهله، رفضت أن تدخل الحقوق كأخيك قلنا المستقبل بيد الله، قلت اشتغل جورنا لحيّ قلنا اشتغل عربيّ! ...
 فقال باسماً:
 - والآن أريد أن أتزوج!
 - تزوج، كلنا سرّ لهذا، ولكنّ الزواج له شروط. ...
 - ومن يضع شروطه؟
 - العقل السليم.
 - عقلي اختار لي. ...
 - ألم تثبت لك الأيّام بعد أنّه لا يصحّ الاعتدال على

عقلك وحده؟
 - أبداً، والمشورة جائزة في كلّ شيء إلا الزواج فهو كالطعام سواء بسواء! ...
 - الطعام! ... إنك لا تتزوج من فتاة فحسب ولكن من أسرتها كلها، ونحن - أهلك - نتزوج بالتبعية معك ...
 فضحك أحمد ضحكة عالية وقال:
 - كلّكم! هذا أكثر ممّا يُحتمل، خالي كمال لا يريد أن يتزوج، وخالي ياسين يودّ لو يتزوجها وحده. ...
 وضحكوا جميعاً إلا خديجة، ثمّ قال ياسين قبل أن تزايل وجهه هيئة الضحك:
 - إذا كان في هذا فضّ المشكلة فانا على أنّم استعداد للتضحية.
 فهتفت خديجة:
 - اضحكوا، إنّه يتشجّع بضحككم، خبر من ذلك أن تصارعوه بأراكم، فما رأيكم فيمن يرضى في الزواج من وكرمة عامل المطبعة التي يعمل بمجلّتها؟
 إنّه يحزّ علينا أن نعمل بالمجلّة «جورنالجي» فكيف وأنت تريد أن تصاهر عيالها! ليس لك رأي يا سي إبراهيم؟
 فرفع إبراهيم شوكته حاجبيه كأنه يريد أن يقول شيئاً، ولكنّه سكت، فعادت تقول:
 - لو وقعت هذه المصيبة فيمتلئ بيتك ليلة الزفاف بميّال المطبعة والعنابر والحدوّة، والله أعلم بما خفي! ...
 فقال أحمد بتأثر:
 - لا تتكلّمي هكذا عن أهلي!
 - يا ربّ الساعات، أتتكر أنّ هؤلاء هم أهليها؟
 - سألتزوجها هي وحدها، إنّي لا أتزوج بالجملة. ...
 فقال إبراهيم شوكته في صخر:
 - لن تزوّجها وحدها، الله يتعبك كما تعبنا!
 فقالت خديجة متشجّعة بمحارضة زوجها:
 - ذهبت لزيارة بيتها كما تقضي العادة، قلت أرى عروس ابني، فوجدتهم يقيمون في بدروم في شارع كلّ يوم على الصّين، وأما لا تفتقر في هيئتها عن

عن نفسه، أنا لم يستقر في بيت إلا بزوجة كما تعلمين! فمضى أن يكون الأخير فيها اختار، ثم إننا لا نغفل بالكلام ولكن بالتجارب.

ثم مستدركاً وهو يضحك:

- ولو أنه لا الكلام ولا التجارب عقلتي!

وعلق كمال حل قول ياسين قائلاً:

- الحقّ فيها قال أخي...

فحدجته بنظرة عتاب قائلة:

- أهذا كلّ ما عندك يا كمال؟ إنه يجبك فلو أنّك

حدّثته حل انفراد...

فقال كمال:

- إنّي خارج معه وسأحدّثه، ولكن كفى عن الشجار، إنه رجل حرّ، ومن حقّه أن يتزوّد منّ يشاء، أنتستطيعين منه أم تتوين مقاطعت؟

وقال ياسين بأسياً:

- الأمر بسيط يا אחتي، يتزوّد اليوم ويطلق غدًا،

نحن مسلمون لا كاثوليك...

فضيقت عينها الصغيرتين وقالت بضم شبه مغلق:

- طبعاً، من حمام غريك يدافع عنه؟ صدق من قال

إنّ الولد لحاله!

فضحك ياسين ضحكته العظيمة وقال:

- الله يسامحك، لو ترك النساء تحت رحمة النساء لما

تزوّجت امرأة قطاً...

فأشارت إلى زوجها وقالت:

- أمّه الله يرحمها هي التي اختارتني بنفسها!

فقال إبراهيم وهو يتهدّ بأسياً:

- ودفعت الثمن، الله يرحمها ويعفو عنها!

ولكنّها لم تأبه لتعليقه وعادت تقول متحسرة:

- لو كانت جميلة... إنه أعمى!

فقال إبراهيم ضاحكاً:

- مثل آية!

فالتفت نحوه غاضبة وقالت:

- أنت جاحد كجنس الرجال!

فقال الرجل بهلوه:

- بل نحن صابرون ولنا الجنة...

الخدمات المحترفات، والعروس نفسها لا يقلّ عمرها عن ثلاثين عاماً، أي والله، ولو كان بها ذرة من جال لعذرتة، لماذا يريد أن يتزوّد؟ إنه مسحور، سحرته بحيلة، إنّا تعمل معه في المجلّة المشنومة، لعلّها غافلت فوضعت له شيئاً في القهوة أو الماء، اذهبوا وشوفوا واحكموا، أنا علّيت، لقد عدت من الزيارة لا أكاد أرى الطريق من حزني وأسفي...

- إنك تغضبيني، لن أغفر لك كلامك هذا...

- العفو، العفو يا سيّد الملاح! الحقّ عليّ، أنا طول عمري عيّابة فورماني ربّنا في أولادي بكلّ العيوب، استغفر الله العظيم.

- مهما تقوّلت عنهم فليس فيهم من يرمي الناس بالباطل... مثلك!

- بكرة يا ما سمع، ويا ما تعرف، سامحك الله حل إهانتي.

- أنت التي أهنتي بما فيه الكفاية!...

- إنّا تطمع في مالك، ولولا خيبتك ما طمعت في أحسن من بياح جرائد...

- إنّا عجزت في المجلّة بمربّب شعب مرتئي...

- جورنا لحيّة هي الأخرى!... ما شاء الله، وهل تتوكّلف إلا الفتنة البائرة أو القبيحة أو المسترجلة!...

- سامحك الله...

- فليسامحك أنت حل ما تعبّب علينا من عذاب! وهنا قال ياسين الذي كان يتابع الحديث ويده لا تمسك عن فتل شاربه:

- اسمعي يا אחتي لا داعي للتلقيار، مستصراح أحد بما ينبغي قوله ولكن لا جلوى من الشجار...

ومضى أحد كالغاضب وهو يقول:

- عن إذنكم سأرتدي ملابس لي لأذهب إلى عملي...

ولما ذهب انتقل ياسين إلى جانب أخته ومال عليها قائلاً:

- لن يفيدك الشجار شيئاً، نحن لا نحكم أبناءنا، إنهم يرون أنفسهم خيراً ممّا وأذكى، إذا كان لا بدّ من الزواج فليتزوّج، فإن سعد كان بها وإلا فهو المسؤول

- خالي، ستعجبك جداً، سترى وتحكم بنفسك،
إنها شخصية ممتازة بكل معنى الكلمة.

فصاحت به:
- إذا كنت متدخلها فيفضلي... أنا التي علمتك
دينك!...

٤٥

يا لها من حيرة! كأنها مرض مؤمن، فكل أمر يبدو
ذا وجوه متعددة متساوية يتعدّل فيها الاختيار، تستوي
في ذلك المسألة الميتافيزيقية والتجربة البسيطة من الحياة
اليومية، فلماذا كلّ تمارض الحيرة والتدبّر، أيتزوج أم
لا؟، كان ينبغي أن يقطع برأي لكنه يدور حول
نفسه حتّى يصيبه الدوار ويختلّ منه ميزان الروح
والعقل والحواسّ ثمّ تنجلي الدوامّة عن موقف لم يتغيّر
وسؤال لم يظفر بالجواب بعد وهو: أيتزوج أم لا؟. قد
يضيّق أحياناً بحرّيته فيظلل عليه الشعور بالوحدة أو
يضيّج من معايشرة الأشباح الفكرية الخافية فيحسّ إلى
الآليف وتتنّ في عبيسه غرائز الأسرة والحبّ تروم
متنفّساً، ثمّ يتخيّل نفسه زوجاً قد برأ من التركيز في
ذاته وتبدّدت أوهامه لكنّه في الوقت نفسه في الإبناء
واستغرقه الرزق ومطالبه فتراكمت عليه مشاغل الحياة
اليومية فيزعزع أتما انزعاج ويقرّر الاستمسك بانطلاقه
مهماً يحشّم من وحشة وعذاب، بيد أنّه لا ينعم
بالاستقرار طويلاً فلا يلبث أن يعود إلى التساؤل كزّة
أخرى، وهكذا وهكذا، فإين المفرّ؟ ويلدور فتاة ممتازة
حقاً، لا يعيبها اليوم أن تترك الترام ما دامت قد
ولدت وشيّت في جنّة الملائكة التي شغفت قلبه قديماً،
فهي كالشهاب الساقط، وهي فتاة ممتازة حقاً في حسبنا
وخلفها وثقاتها، ثمّ إنّها ليست عصية المنال فهي
الزوجة الواعدة بكلّ معنى الكلمة إذا أراد أن يتقدّم،
وما عليه إلّا أن يتقدّم، وإلى هذا كلّ فهو لا يسهه إلّا
أن يسلم باحتلالها مركز الاهتمام من وعيه، فهي آخر
ما يودّع من أطياب الحياة قبل النوم وهي أوّل من
يستقبل من أطياها عند الاستيقاظ، ثمّ لا تكاد تغادر
خياله طوال يومه، وما إن يحظى برؤيتها البصر حتّى
ينفق الفؤاد مروداً أنغاماً شجيّة من أوتار علاها
الصداء، ثمّ إنّ دنياه لم تبق كما كانت، دنيا حيرة
وعذاب ووحشة، داخلتها ناسم وجري فيها ماء

غادر كإل واحد السكينة معاً، وكان يقف من
مشروع هذا الزواج موقف الشكّ والتدبّر، إنّهُ لا يمكن
أن يتهم نفسه بالمحافظة على التقاليد السخيفة، أو
بالفتور حيال مبادئ المساواة والإنسانية، ومع ذلك
فالواقع الاجتماعي الذي لا يد له في بشاعته حقيقة
واقعة لا يجوز أن يتجاهلها إنسان، وقديماً ولع عهداً
بقمر بنت أبي سريع صاحب القلي، فكادت - رغم
جاذبيّتها - تحدث له عقدة برائحة جسدها المحزنة. غير
أنّه كان رغم هذا معجباً بالشاب، غابطاً له شجاعته
وقوّة إرادته وغيرهما من المزايا التي حُرّم هو منها وعلى
رأسها الإيمان والعمل والزواج، كأنّها قد بحث في
الأسرة كقارة عن جوده وسليته. ما الذي يجعل
للزواج هذه الخطورة في نظره بينما هو في نظر الآخرين
لا يزيد عن السلام عليكم... وعليكم السلام؟

- إلى أين يا لمي؟
- المجلّة يا خالي، وأنت؟
- مجلّة الفكر لأقابل رياض قلّس، ألا تفكر قليلاً
قبل أن تخطو هذه الخطوة؟
- أيّ خطوة يا خالي! لقد تزوّجت بالفعل!...
- حقاً؟
- حقاً، وسوف أقيم في الدور الأوّل من بيتنا نظراً
لازمة المساكين...
- يا له من محدّ سافر!...
- نعم، ولكنّها لن توجد في البيت إلّا حين تكون
أمّي قد نامت...

وبعد أن أفانق من وقع الخبر سألّه ياسراً:
- وهل تزوّجت على منّة الله ورسوله؟
- فضحك أحمد أيضاً وقال:
- طبعاً، الزواج والدفن على سنن ديننا القديم، أمّا
الحياة فعلى دين ماركس!
ثمّ وهو يودّعه:

الفقير الهندى سخيفاً أو مجنوناً ولكنه أحكم ألف مرة من الفارق حتى أفضيه في سبيل الرزق، فأنتم بالحب الذي كنت تفتقده وتحتسّر عليه... ها هو يبيت حياً في فؤادك جازراً وراه المتاعب! وقال له رياض: «أمن المحقول أن تحبها وأن يكون في وسعك أن تزوجها... ثم تمنع عن زواجها؟»، فأجابته بأنه يحبها ولكنه لا يحب الزواج! فقال عجباً: «إن الحب هو الذي يسلمنا للزواج لما دمت لا تحب الزواج كما تقول فأنت لا تحب الفساة» فأجابته بإصرار: «بل أحبها وأكره الزواج»، فقال: «ولك تخاف المسئولية»، فأجابته عجباً: «إني أعمل من أعباء المسئولية في بيتي وفي عملي ما لا تحمل بعضه»، فقال: «ولك أنار أكثر مما أنصوّر»، فقال ساخراً: «وهل يتزوج الفرد إلا مدفوعاً بأنانيته الظاهرة أو الخفية؟» فقال بأساً: «ولك مريض فاذهب إلى دكتور نفساني لعله يملكك»، فقال له: «من الطريف أن مقالتي القادمة في مجلة الفكر عن: كيف نملك نفسك»، فقال له: «أشهد لقد حيرتني»، فقال له: «أنا الحائر إلى الأبد». ومرة وهو يقطع كعادته شارع ابن زيدون صادف في طريقه أم حبيبته متجهة نحو البيت، عرفها من أول نظرة رغم أنه لم يرها منذ سبعة عشر عاماً على الأقل. ولم تكن «الهانم» التي عرفها قديماً. ذبلت ذبولاً عجزاً وركبها الهم قبل الكبر ولم يكن في وسع إنسان أن يتصور أن هذه المرأة الساعية في هزالها هي نفس الهانم التي كانت تحط في حديقة القصر في نهاية من الجبال والكيال. ورغم هذا كله قد ذكّرت هيئة رأسها بمايدة ففقط قلبه منظرها، وكان حسن الحظ أنه تبادل مع بدور الابتسام قبل رؤيتها وإلا ما استطاع أن يبتسم، ثم ما يدري إلا وهو يتذكر حادثة! ثم يذكر كيف أثارت عاصفة من النكد هذا الصباح في البيت وهي تبحث عن طاقم أسنانها التي نسيتم أين أودعته قبل نومها. وأول أسس رأى بدور واقفة في الشرفة على غير عادتها ثم تبين أنها متوترة للخروج! وتساءل أخرج وحدها! وما لبثت أن غابت من الشرفة فمضى في سبيله متمهلاً متفكراً. حقاً لو جاءت وحدها فإنا نحبه له، هذا الظفر المسكر لعله يفسل إهانة حلّت

الحياة، فإن لم يكن هذا هو الحب فما حسى أن يكون! وطوال الشهرين الماضيين جعل من شارع ابن زيدون مقصده كل أميل، يقطعه على مهل، مستنداً عينيه إلى الشرفة حتى تلتقي بعينيه ثم يتبادلان الابتسام كما يجدر بزميلين، وقد بدا ذلك كما تقع المصادفات، ثم تكرر وقوعه كأنما عن عمد، فما يجد مبعده حتى يجدها بمجلسها من الشرفة تقرا في كتاب أو تسرح الطرف، فأيقن أنها تنتظره، إذ لو شامت أن تمحو هذا المعنى من ذهنه ما كلّفها ذلك إلا تحبب الشرفة دقائق كل أصيل. ولكن ماذا تظن بمروره وابتسامته ونحيته! لكن مهلاً، إن الفرائز لا تخطي، كلاهما يود أن يلتقي صاحبه، وقد استغفه لذلك الطرب وأسكرو السرور، وعلا إحساس بدجوى الحياة لم يشعر به من قبل، غير أن هذا الهناء كله لم يمس دون قلق يشوبه، كيف لا وهو لم يجمع بعد على عزم، ولم يتضح له سبيل، ولكن تياراً جرفه فاستسلم له وهو لا يدري كيف مجراه ولا أين مرساه! قليل من العقل يوجب عليه أن يتدبر أمره ولكن فرحة الحياة صنته في إشفاق. فتمل مروّداً دون أن يخلو من قلق. وقال له رياض: أقدم فهذه فرصتك، ورياض منذ أن لبس خاتم الخطوبة وهو يتحدث عن الزواج كأنه غاية الإنسان الأولى والأخيرة في هذه الحياة، فيقول مزهواً إنه سيستمح هذه التجربة الفريدة غير هيّاب فيتاح له أن يفهم الحياة فهماً جليداً صادقاً ومن ثم يفتح أبواب قصصه للحياة الزوجية والأطفال... أليست هذه هي الحياة آتيا الفيلسوف السابح فوق الحياة؟ فأجابته متهمّاً: أنت اليوم خصم فأنت آخر من يصلح حكماً وسوف أفتقد فيك المشير الصادق؟ وبدا له الحب من ناحية أخرى «دكتوراً» وقد علمته الحياة السياسية في مصر أن يفت الدكاتور من صميم قلبه. ففي بيت عمته جلية كان يهب عطية جسده ثم سرعان ما يسترده وكأن ما كان لم يكن، أما هذه الفتاة المستكنة في حيائها فلن تقنع بما دون روحه وجسده جيباً إلى الأبد، ولن يجد من شعار يأنم به بعد ذلك إلا الكفاح المرير في سبيل الرزق ليؤمن حياة الأسرة والأبناء، مصير غريب يجعل من الحياة الحافلة بالجلال مجرد وسيلة «لتحصيل» الرزق، وقد يكون

- فرصة سعيدة! ...

- شكرًا!

ثم ماذا؟ يبدو أنها تنتظر خطوة جديدة من ناحيته،
وها هي نهاية الطريق تقترب، يجب أن يقطع برأي
فلما التوسط وإما الوداع، لعلها لا تتصور أبدًا أن
يفترقا ببساطة، ولو كلمة واحدة، وها الفترق على بعد
خطوات، إنه يشعر شعورًا مؤلمًا بمدى الخيبة التي
ستمنى بها، وبأي لسانه أن ينطق، أم يتكلم وليكن ما
يكون؟! وتوقفت عن المسير وابتمت ابتسامة مرتبكة
كأنها تقول أن لنا أن نفرق ببلغ به الاضطراب نهايته،
ثم مدت يدها، فلقاها بيده وصمت فترة رهبة، ثم
غمغم:

- مع السلامة! ...

واستمرت يدها ثم مالت إلى عطفة جانبية. أو شك
أن يتأديها، إن ذهابها متعمدًا بالخبية والخلج كابوس لا
يُحتمل، وأنت أدري بهذه المواقف التعمية، غير أن
لسانه انعقد. فبم كانت متابعتها لها طوال الشهرين
الماضيين؟ أمن اللذوق أن ترفضها وقد جاءتك
بنفسها؟. أمن الرحمة أن تعاملها نفس المعاملة التاريخية
التي عاملتك بها اختها؟ وأنت تحبها؟! وهل تلقى من
ليها ما لقيت من ليلتك التي خلقتها وراءك كالجمرة
المقعدة تضيء في غياهب الماضي بالآلم المنصهر؟!

وواصل سيره وهو يتساءل ترى أريد حقًا أن يبقى
أعزب لكي يكون فيلسوفًا أم أنه يذبح الفلسفة ليبقى
أعزب؟ وقال له رياضي: هذا شيء لا يصدق ولسوف
تندم! وهو شيء لا يصدق حقًا ولكن هل ينم أيضًا؟
وقال له: كيف هان عليك أن تقطعها وقد كنت
تتحدث عنها وكأنها فتاة أحلامك؟ ليست فتاة
أحلامه... إن فتاة أحلامه لم تكن لتسمى إليه أبدًا.
وأخيرًا قال له. إنك في نهاية السادسة والثلاثين من
عمرك ولن تكون بعد ذلك صالحًا للزواج. فامتعض
لقوله وداخلته كتابة...

منذ سنين! ولكن هل كانت عايدة تفعل هذا ولو
انشق القمر؟! وعندما بلغ منتصف الطريق التفت
إلى الوراء فرأها قادمة... وحدها! ويخيل إليه أن
خفقان قلبه سيطرق مسامع الجيران. وسرعان ما شعر
بخطورة الموقف الوشيك الحدوث حتى نازعته بعض
جوانب نفسه إلى الهروب! كان تبادل الابتسام قبل
ذلك هوًا عاطفيًا بريئًا أما اللقاء فسيكون له شأن وأثر
شأن. هو مسئولية وخطورة ومطالبة بالحسم في
الاختيار. ولو هرب الآن لشع نفسه مزيدًا من
الترويح! ولكنه لم يهرب، وتقدم في خطاه المتعمدة
كالخدر حتى أدركته عند منعطف الطريق إلى شارع
الجلال، وفي التفاتة منه التفت حينها في ابتسامة،
فقال:

- مساء الخير...

- مساء الخير...

وتساءل وشعوره بالخطورة يتراد:

- إلى أين؟

- عند واحدة صاحبي، هناك في هذا الاتجاه...

وأشارت صوب شارع الملكة نازلي، فقال في
استهتار:

- إنه طريقي فهل تسمحين بأن تسير معًا...؟

فقال وهي تداري ابتسامة:

- تفضل...

وسارا جنبًا إلى جنب، إنها لم تتحل بهذا الفستان
الجميل لتقابل واحدة صاحبها ولكن لتقابل هو، وها
هو قلبه يستقبلها بالوجد والحنان، ولكن كيف يكون
مسلكه؟ لعلها ضاقت بجموده فجات بنفسها لتهيئ
له فرصة مواتية فلما ينتهزها إكرامًا لها وإما يتجاهلها
فيفتقدنا إلى الأبد، هي كلمة قد تقال فيتوسط قائلها
مدى العمر أو نجس فيندم حابسها مدى العمر، هكذا
دفع إلى مازق وهو لا يدري، وها هو الطريق يطوى
ولعلها تترقب، وهي تبدو مستجيبة ملية كأنها ليست
من آل شداد، أجل ليست من آل شداد في شيء، لقد
انتهى آل شداد، وولّى زمانهم، وليست التي تسابرك
إلا فتاة سيئة الخط، والتفت نحوه كالبايسة فقال
برقة:

- عن معركة العلمين، وقد ارتجت جدران المنطرة بأصواتهم.

- وكيف شعورهم حيال انتصار الإنجليز؟
- الغضب طبعًا، إتهم أعداء الإنجليز والألمان والروس جميعًا، وهكذا لم يرحموا العريس حتى في ليلة زفافه...

وكان ياسين جالسًا إلى جانب زُتوية، يبدو في زينة كأنها يصفرها بعشرة أعوام، فقال:

- فليأكلوا بعضهم البعض بعيدًا عنّا، ومن رحمة ربنا أنه لم يجعل من مصر ميدان حرب...

فقالت خديجة باسمه:

- لعلك تريد السلام حتى تفرغ لمزاجك!
ورمقت زُتوية بنظرة مأكرة حتى ضحك الجميع، وكان قد ذاع في الأيام القريبة الماضية أن ياسين غازل سائحة جديدة في بيته، وأن زُتوية ضبطته متلبسًا أو كالتلبس فما زالت بالسائحة حتى اضطرتها إلى إخلاء الشقة. فقال ياسين بداري ارتباك:

- كيف أفرغ لمزاجي ويبي عكسوم بالأحكام العرفية!

فغالت زُتوية في امتعاض:

- هلا استحييت أمام ابنتك؟

فقال ياسين في توسل:

- إني بريء والجارة المسكينة مظلومة!

- أنا الظلة! أنا التي شُبطت وأنا أطرقت شفتها بليل ثم اعتذرت بأنني ضللت سبيلي في الظلام! هه؟ أربعون عامًا في البيت ثم لا تعرف أين تقع شفتك؟! فتعالى الضحك حتى قالت خديجة في تهكم:

- إنه كثير الخطأ في الظلام!

- وفي النور على السواء...

وإذا بإبراهيم شوكت يخاطب رضوان قائلًا:

- وأنت يا رضوان كيف حالك مع محمد أفندي

حسن؟

فقال ياسين مصححًا:

- محمد أفندي زفت!

وأجاب رضوان حانقًا:

مع والدنيا وأخيها. وكان في استقبالهم إبراهيم شوكت وخديجة وأحمد وزوجه سوسن حماد وكمال. ولم يكن ثمة ما يدل على زفاف إلا طاقات الورد التي طوّقت الصالة، أمّا المنطرة فقد امتلأت بلادي اللحى من الشبان يتوسطهم الشيخ علي التوفي. ومع ذلك كان قد مرّ عام ونصف على وفاة السيد إلا أن أمينة لم تشهد الزفاف ووعدت بالحضور للتهنئة فيها بعد، أمّا عائشة فأتتها عندما دعيتها خديجة إلى شهود الدخلة الصامتة هزّت رأسها عجبًا وقالت بلهجة عصبية:

- أنا لا أشهد إلا الماتم!

وقد تأملت خديجة لقولها ولكنها كانت قد اعتادت أن تتحلّى بالحلم الملائكي حيال عائشة. وقد جُهِز الدور الثاني بالسكينة للمرة الثانية بأثاث العرس. وبجُهِز ياسين ابنته كما ينبغي وراح في سبيل ذلك آخر أملاكه فلم يعد يبقى له إلا بيت قصر الشوق. ويدت كريمة آية في الجبال، وقد شابت أمها في عهدها الزاهر خاصة في عينها الدافئين، ولم تكن بلغت سن الزواج إلا في الأسبوع الماضي من أكتوبر. ولاحت خديجة سعيدة كما ينبغي لأم العريس، وقد انتهزت فرصة انفرادها بكيال مرة فالت على أنه قاتلة:

- حل أيّ حال فهي ابنة ياسين، ومهيا يكن من أمر فهي خير ألف مرة من عروس العنابرا

وقد مدّ بوفيه صغير في حجرة السفرة للأسرة، ومدّ آخر في الفناء لدهويّ عبد المنعم من ذوي اللحى، ولم يكن يشترّ عنهم إذ أرسل بدوره لحيته حتى قالت له خديجة يومذاك:

- الدين جميل ولكن ما ضرورة هذه اللحية التي تبدو فيها مثل محمد العجمي يباع الكسكي؟!

وجلس أفراد الأسرة في حجرة الاستقبال ما عدا عبد المنعم الذي جالس أصحابه، وأحمد الذي شاركه في الترحيب بهم بعض الوقت، ثم انتقل إلى حجرة الاستقبال حيث انضمّ إلى أهله وهو يقول بأسفًا:

- تراجعت المنطرة في الزمان ألف عام

فسأله كيال:

- فيم يتحدّثون؟

متعجبة من «استرجالها» في الحديث، فما تمالك أنت
قالت:

- المفروض أننا في فرح، نكلموا في أمور مناسبة!
ولاذت سوسن بالصمت دون اصطدام، عل حين
تبادل أحمد وكمال نظرة باسمة، أما إبراهيم شوكت
فقال ضاحكاً:

- عذرهم أن أفرحنا لم تعد أفرحنا، الله يرحم
السيد أحمد ويسكنه فسيح جناته. . .

فقال ياسين متحسراً:

- تزوجت ثلاث مرّات ولكّني لم أزل مرّة واحدة!
فقالت زُئوبة في انتقاد مرّ:

- أتذكر نفسك وتسى ابتك؟

فقال ياسين ضاحكاً:

- زُوف في الرابعة إن شاء الله. . .

فقالت زُئوبة في تحمُّم:

- أجلسها حتّى تزف رضوان!

فغضب رضوان دون أن ينس. لعنة الله عليكم
جميعاً وعلى الزواج أيضاً، ألا تذكرون أنّي لن أتزوج
أبداً! وأنّي أودّ أن أقتل من يفاخني بهذه السيرة
اللعينة. وعقب صمت قصير قال ياسين:

- ليجني أبقي في بوفيه السيّدات حتّى لا أقف بين
أصحاب اللحم الذين يضيفوني!

أدركته زُئوبة قائلة:

- لو عرفوا سيرتك لرجحوك!

فقال أحمد ساخراً:

- مستخوس لحاهم في الصحاف، وتكون معركة،
وخالي كمال هل يحبّ الإخوان؟

فقال كمال باسماً:

- أحبّ منهم واحداً على الأقل!

والفتت سوسن إلى العروس وسألها بموّة:

- وما رأي كريمة في لحية زوجها؟

فدارت كريمة ضحكة خفيفة بحني رأسها المتوجّع ولم

تتكلم، فأجابتها زُئوبة قائلة:

- قليل من الشبان من هم في تدين عبد المنعم. . .

فقالت خديجة:

- إنه ينعم الآن بثروة جدي التي آلت إلى أمي!

وقال ياسين محتجاً:

- ميراث لا يُستهان به، وكلّما فصلها رضوان في
معونة للترفيه أو خلاصه تصدّى له الصفيق وناقشه
الحساب!

فقالت خديجة خاطبة ورضوان:

- إنّه لم تنجب غيرك، وخير لها أن تمّلك بما لها في
حياتها. . . ثمّ مستدركة:

- وقد آن لك أن تتزوج، اليس كذلك؟

فضحك رضوان ضحكة فاترة ثمّ قال:

- عندما يتزوج عمّي كمال!

- لقد يشت من عمك كمال ولكن لا ينبغي أن
تفكده. . .

وأصغى كمال لما يدور حوله بامتصاص وإن لم يبذ
أثره في وجهه. لقد يشت منه ويش هو من نفسه.

وكان قد انقطع عن المرور بشارع ابن زيدون معلّماً
بذلك من شعوره بذنبه، غير أنّه كان يقف عند طرف
المحطة ليراها في شرفتها من حيث لا تراه، لم يستطع
أن يقاوم رغبته في رؤيتها، ولا أن ينكر حبّه لها، أو
يتجاهل نفوره وجفوله من فكرة التزوج منها حتّى قال
له رياض إنك مريض وتأب أن تبرا!

وسأل أحمد شوكت رضوان بلهجة ذات معنى:

- أكان محمد حسن يناقشك الحساب لو كان
السعدونيّ من الحكم؟

فضحك رضوان ضحكة حائقة وقال:

- إنه ليس الوحيد الذي يناقشني الحساب اليوم،
ولكن صبراً، إن هي إلا أيام أو أسابيع.

فسأله سوسن حماد:

- أنظرن أيام الوفد معدودة كما يشيع خصومه؟

- أيامه رهن بمشية الإنجليز، وعلى أيّ حال فلن
تطول الحرب إلى الأبد. . .، ثمّ يجيء وقت الحساب!

فقالت سوسن في جدّ ظاهر:

- المسئول الأوّل عن المأساة هم الذين ظاهروا
الفاشيست لطعن الإنجليز من الخلف. . .

وكانت خديجة ترمق سوسن بنظرة ساخرة منتقدة،

- تفضّلوا إلى البوفيه، احتفالنا اليوم قاصر على
المعدة...

- يعجبني تديتي، هذا خلق في دم أسرتنا، ولكن لا
تعجبني لحيته...

فقال إبراهيم شوكت ضاحكاً:

- اعترف بأنّ ابني - المؤمن والمارق على السواء -
مجنون!

فضحك ياسين ضحكته العظيمة وقال:

- الجنون خلق في دم أسرتنا أيضاً!

فحدجته خديجة بنظرة احتجاج فمالجها قائلاً قبل
أن تنبس:

- أعني أنّي مجنون، وأظنّ كمال أيضاً مجنون، وإن
شئت فأنا المجنون وحدي!

- هذا هو الحقّ دون زيادة.

- وهل من العقل أن يقضي إنسان على نفسه
بالعزوبة لينفّخ للقراءة والكتابة؟

- سيتزوّج عاجلاً أو آجلاً ويكون سيّد العقلاء.

فسأل رضوان عمّه كمال قائلاً:

- لم لا تزوّج يا عمّي؟ أريد أن أقف على الأثقل
على وجه اعتراضك لأدافع به عن نفسي حين
الضرورة!

فقال ياسين:

- أتتوي الإضراب عن الزواج؟ لن أسمع بهذا ما
حييت، ولكن انتظر حتّى تعودوا للحكم ثمّ تزوّج
زواجاً سياسياً رائيّاً!

أمّا كمال فقال له:

- إذا لم يكن عندك مانع فتزوّج في الحال...

هذا الشاب ما أجمله! هو مرشّح للجاه والمال! لو
رأته عابدة في زمانها لعشقت، ولو ألقى نظرة عابرة على
بدور لشغفها حبّاً، أمّا هو فيدور على نفسه والدنيا
كلّها تقتّم، ولا يزال يتساءل: أتزوّج أم لا أتزوّج؟!
والحياة تبدو حيرة مظلمة، فلا هي فرصة سانحة ولا
هي فرصة ضائعة، والحبّ عسير طبعه الحصام
والعذاب، فليتها تزوّج حتّى يخلص من حيرته
وعذابه!

ولإذا بعدد النعم يدخل عليهم تنقّعه لحيته وهو
يقول:

٤٧

كان كمال يسير متسكّماً في شارع فؤاد الأوّل،
وكانت الساعة تلور في العاشرة من صباح الجمعة
للقي طريقاً غاصّاً بالمائة والواقفين، نساء ورجالاً،
وكان الجوّ لطيفاً كأكثر أيّام نوفمبر، يهري بالمشي، وقد
الف أن يتحقّق من عزلة الغليظة بالاندساس بين
الناس في يوم عطلة، فيمضي على وجهه بلا غاية،
متسلّكاً بمشاهدة الناس والأشياء، وصادفه في طريقه
أكثر من واحد من تلاميذه الصغار فحيّوه برفع أيديهم
إلى رؤوسهم فرّد تحيّتهم بأحسن منها بأسياً. ما أكثر
تلاميذه! منهم من توطّف، ومنهم من لا يزال
بالجامعة، وغالبيتهم بين الابتدائي والثانويّ فليس
بالعمر القصير أن تحلم الجلم والتعليم أربعة عشر
عاماً. وكان منظره التقليدي لا يكاد يتغيّر، البذلة
الأنيقة والحذاء اللامع والطربوش المستقيم والنظارة
الذهبيّة والشارب الغليظ، حتّى درجته السادسة لم
تتغيّر أربعة عشر عامّاً رغم ما يشاع عن تفكير الوغد في
إنصاف الميئات المظلومة، شيء واحد تغيّر هو رأسه
الذي انتشر الشيب في سوافه. وبدا سعيداً بتحيّات
تلاميذه الذين يحبّونه ويحترمونه، وتلك منزلة لم يظفر
بمثلها أحد من المدرّسين، ظفر بها هو رغم رأسه
وأفنه، وبالرغم ممّا اعترى تلاميذه هذه الأيام من شيطنة
وجحوج!

وعندما بلغ تسكّمه تقاطع عباد الدين مع فؤاد
الأوّل ما يدرى إلّا وبدور تطالعها وجهاً لوجه،
وخفقت جوانحه كأنّها انسلطت بها صفارة الإنذار،
وجد بصره لحظات، ثمّ همّ بالانتماء ليتفادى من
الموقف الحرج، غير أنّها حوّلت عنه عينيها في تجاهل
بيّن وجون أنّ تلين أسأريها ثمّ مرقت من جانبته،
وعند ذلك فحسب رأى أنّها تتأبّط ذراع شاب تسير في
صحبته! وتوقّف عن السير، ثمّ أتبعها ناظره، أجل
هي بدور، في معطف أسود أثيق، ولهذا صاحبها في

توقف تخفي تارة وراء المازة وتبدو تارة، ويرى منها جانب مرة ثم يرى جانب آخر. وكان كل وتر من أوتار قلبه ينغمس: «وداعاً». ونفذ إلى أحياقه شعور العذاب مصحوباً بانغام حزينة ليست بالجديدة. فذكر بها حالاً مماثلة ماضية، دبت في أحياقه جازة وراءها شتى ذكرياتها المدخمة، كأنها لحن غامض مثير لأجل الألم وهو في الوقت نفسه لا يخلو من لذة خفيفة مبهمة! شعور واحد يلتقي فيه الألم باللذة كالفجر يلتقي عنده حاشية الليل بأهداب النهار. ثم اختفت عن نظريه، وربما اختفت إلى الأبد، كما اختفت أخت لها من قبل! ووجد نفسه يتسامل من عسى أن يكون خطيبها؟ لم يستطيع أن يتفحصه وكم يؤذ أن يفعل، وودّ - أن يكون موثقاً - أن يكون من طبقة أخرى من طبقة المعلمين! ولكن ما هذه الأفكار الصبائية؟ إنه لأمر عجول، أما عن الألم فمدير بالخير به أن يطعمني إذ إنه عرف بالتجربة أن مصيره - ككل شيء - إلى الموت. وانتبه أول مرة إلى معرض اللعب الذي ينسبط تحت عينيه، كان آية في التنسيق والجمال، حاولاً لشقى فنون اللعب التي يقيم بها الأطفال من قطارات وسيارات وأراجيح وأدوات موسيقية وبيوت وحدائق، فاندلج إلى المنظر أمامه بقوة غريبة تفجرت عنها نفسه المعبدة حتى تشبّثت بها عيناه، لم يتح له في طفولته أن ينعم بهذه الجنة فكبر طويلاً نفسه على غريزة لم تشبع وفات أوان إشباعها. وهؤلاء الذين يتحشّون عن سعادة الطفولة من أدرانهم بها؟ ومنذا يستطيع أن يجزم بأنه كان طفلاً سعيداً؟ لذلك فما أسخف هذه الرغبة الطارئة البائسة التي تخلم بأن تتركه طفلاً مثل هذا الطفل الخشبي الذي يلعب في هذه الحديقة الوهمية الجميلة! إنها رغبة سخيفة وعزينة في آن. ولعل الأطفال في الأصل كائنات لا تختمل، ولعلها المهنة وحدها التي علمت كيف يمكن التفاهم معهم وتوجيههم. ولكن كيف كانت تكون الحياة لو رُدّ إلى الطفولة محضاً في ذات الوقت بعقله النامي وذاكرته؟ فيعود إلى اللعب في بستان السطح بقلب عامر بذكريات عابدة، أو يمضي إلى العباسية عام ١٩١٤ فيرى عابدة وهي تلعب في الحديقة ويعرف في الوقت

مثل أناتها، ولعله لم يبلغ الثلاثين بعد. وبذل جهداً صادقاً ليتأكد نفسه التي هزتها المفاجأة ثم تسامل في اهتمام من يكون هذا الشاب؟ ليس أختاً لها، ولا هو بالعاشق إذ إن العاشق لا يماهرون بحبهم في شارع فؤاد الأول خاصة صباح الجمعة، فهل يكون...؟! وتتابعت دقات قلبه في إشفاق، ثم تبعها دون تردد، وعيناه لا تفارقانها، ووعيه مركز فيهما حتى شعر بأن حرارته ترتفع وأن ضغطه يصعد وأن دقات قلبه تنعاه، وراهما يتوقفان أمام معرض عمل ليبس الحجاب فدنا منها متباطئاً مصوّباً عينيه نحو يد الفتاة اليمنى حتى استقر بصره على الحاتم الذهبي! ولفحه إحساس حار كأنه مزيج من الألم العميق، وكان قد مضى على موقف شارع ابن زيدون أربعة أشهر، فهل كان لهذا الشاب برصه في نهاية الطريق ليحلب حمله؟ وما ينبغي أن يدهش لأن أربعة شهور زمن طويل قد تنقلب فيه الدنيا رأساً على عقب، وقف أمام عمل اللعب على بعد يسير من موقعها، يلحظها وكأنه يتفرّج على اللعب. إنها اليوم تبدو أجمل مما كانت في أي يوم مضى، كالعروس بكل معنى الكلمة! ولكن ما هذا السواد الذي يشيع في كافة ملابسها؟ إن سواد المعطف أمر مألوف بل فاخر ولكن ما بال فستانها أسود كذلك؟ موضحة أم حذاد؟ أتكون أمها قد توفيت؟ ليس من عادته تصفح الوفيات في الصحف ولكن ماذا يهّمه من ذلك؟ الذي يهّمه حقاً أن صفحة بدور قد انطوت في كتاب حياته، انتهت بدور، وعرف السؤال الحائر «أتزوج أم لا أتزوج» جوابه المحتوم! فليهنأ بالطمأنينة بعد الحيرة والعذاب! وكم تمّ لو تزوج ليخلص من عذابه فيها هي قد تزوجت فليهنأ بالخلاص من العذاب! ويخيل إليه أن إنساناً لو دُبح لعاني مثل الإحساس الذي يعانيه في موقفه. إن أبواب الحياة تغلق في وجهه وقد نبذ خارج أسوارها. ثم وآها يتحولان عن موقعها، ويتجهان نحوه، ومراً به في سلام وأتبعها عينيه وهمّ بالمسير في أثرهما ولكنه عدل عن ذلك فيما يشبه الضجر، ولبت أمام معرض اللعب، ينظر ولا يرى شيئاً، ونظر صوبها مرة أخرى كأنما يلقي عليها نظرة الوداع، وكانت تبعد دون

- كم يوافق أحدنا الآخر!
فقلت له بسخرية مستسلمة:
- ما اللفظ في سكرك! ...
فاستطرد:
- ما أسعدنا من زوجين لو تزوجنا! ...
فقلت مقطبة:
- لا تمزأ بي فقد كنت «سيّدة» بكلّ معنى
الكلمة. . .
- نعم، نعم، إنك ألدّ من الفاكهة في إناها! ...
لفرصته هازئة وقالت:
- هذا قولك ولكنّي إذا سألتك ربّالاً فوق ما
تعطيني هربت!
- إنّ ما بيننا ليسمى فوق النفود!
فحدجته بنظرة احتجاج وقالت:
- ولكن لي طفلان يفضّلان النفود على ما بيننا
فبلغ به السكر والحزن غايتهما وقال ساخراً:
- أنا أفكر في التوبة أسوء بالسّت جليّة، ويوم
يختارني التصوّف فسأزل لك عن ثروتي!
فقلت ضاحكة:
- إذا وصلت التوبة إليك فقل علينا السلام. . .
فضحك ضحكة عالية وقال:
- لا كانت التوبة المضرّة بميلاتك!
إلى هذا يفزع من السهاد! ثمّ شعر بأنّ وقفته أمام
معرض اللعب قد طالت فتحول عنه وذهب. . .

٤٨

تساءل خالو صاحب حانة النجمة:
- حقيقي يا حبيبي أتهم سيغلّفون الخبّارات؟
فأجاب ياسين بقلّة واطمئنان:
- لا سمح الله يا خالو! من عادة النّوّاب أن يهزّوا
عند نظر الميزانيّة، ومن عادة الحكومة أن تُجِد بالنظر في
تحقيق رغبات النّوّاب في أقرب فرصة، ومن عادة هذه
الفرصة ألاّ تقترب أبداً. . .
واستبقت جماعة ياسين بخانة عمّد على المشاركة في
التحقيق، فقال رئيس المستخدمين:

نفسه ما لقيه منها عام ١٩٢٤ وما بعده! أو يخاطب أباه
وهو يلثّم فيقول له إنّ الحرب ستقع علم ١٩٣٩ إنّه
سيقضي عليه عقب إحدى غاراتها! يا لها من أفكار
سخيفة ولكنّها خير على أيّ حال من التركيز في هذه
الحياة الجديدة التي ارتطم بها الآن في شارع فؤاد، خير
من التفكير في بدور وخطيئها وموقفه منها، ولعلّ ثمة
خطأ في الماضي يكرّر عنه وهو لا يدري، كيف ومعنى
وقع هذا الخطأ؟ لعلّه حادث عرضي أو كلمة قيلت أو
موقف كابده، هذا أو ذاك هو المشكوك عن هذا
العذاب الذي يعاني. يجب أن يعرف نفسه حتّى يتيسّر
له أن يخلصها من آلامها، فالمعركة لم تنته بعد،
والتسليم لم يقع، وما ينبغي له أن يقع، ولعلّه المشكوك
عن ذلك التردّد الجهنميّ الذي انتهى به إلى قضم
الأظفار على حين مضت بدور متلبّطة ذراع خطيئها!
وينبغي التذكير مرّتين في هذا العذاب الميكانيكي بلذّة
غامضة، أليس هو الذي ذاقه قديماً في صحراء
العباسيّة وهو يتطلّع إلى الضوء اللبنيّ من نافذة حجرة
الزفاف؟ فهل كان تردّد حيال بدور حيلة لدفع نفسه
إلى موقف مماثل ليستعيد مشاعر قديمة فيشعل بعدها
ولذتها ممّا؟ يحسن به قبل أن يجرّك يده للكتابة عن
الله والروح والمادة أن يعرف نفسه، بل شخصه المفرد،
كيال أفندي أحمد، بل كيال أحمد، بل كيال فقط، حتّى
يتسنى له أن يخلقه من جديد، وليبدأ الليلة بمعاودة
كراسة الذكريات ليتفحص الماضي جيّداً، وستكون
ليلة بلا نوم، ولكنّها ليست الأولى من نوعها، فعنده
منها ذخيرة يصحّ جمعها في مؤلّف واحد تحت عنوان
«ليالي بلا نوم»، ولن يقول إنّ حياته عبث، ففي
النهاية سيخلف عظماً قد تصنع منها الأجيال القادمة
أداة لنورها! أمّا بدور فقد ولّت من حياته إلى الأبد، يا
ها من حقيقة مليئة بالشجن، كاللحن الجنائزي، ولم
ترك ذكرى حنان واحدة، لا عناق ولا قُبْل، حتّى ولا
لمسة أو كلمة طيّبة، ولكنّه لم يعد يخشى السهاد. فقدّماً
كان يلقاه وحيداً، أمّا اليوم فلنود ذلك أفاتين تنيب
فيها العقول والقلوب، ثمّ يلعب إلى عطية في البيت
الجديد بشارع عمّد عليّ، ثمّ يواصل أحاديثها التي
لا تنقضي. وفي آخر مرّة قال لها بلسان أقله السكر:

- إيتا عروس كالوردة، زينة السكينة، ولكنّها أول فتاة في أسرنا تمرّ عليها عام على زواجها دون أن تحمل، لهذا جزعت أمّها!

- وأبوها فيها بيدو

فقال ياسين وهو يتسم ابتسامة بلهاء:

- إذا جزعت الزوجة جزع زوجها...

- لو تذكر الإنسان قرب الأولاد لكراه الحبل!...

- ولوا الناس يتزوجون عادة لإنجاب الذرّة...

- لم حقّ! لولا الأطفال ما طاق الحياة الزوجية أحد...

فشر ياسين كأسه وهو يقول:

- أخشى أن يكون ابن أخي من أتباع هذا

الرأي...

- بعض الرجال ينجيون الأطفال ليشغلوا زوجاتهم

بهم فيستردوا شيئاً من حرّيتهم المفقودة!

فقال ياسين:

- مبهات! المرأة ترضع طفلاً وتهدد آخر ولكنّها في

نفس الوقت تحمل في زوجها وأين كنت؟. لماذا غبت

إلى هذه الساعة؟ ومع ذلك فالذكاء لم يستطيعوا أن

يعتبروا هذا النظام الكوني.

- ماذا منعهم؟

- أزواجهم! لم يدعهم لهم فرصة للتفكير في

ذلك...

- اطمئن يا ياسين أفندي، فإنّ زوج ابنتك لا يمكن

أن ينسى فضل ابنتك في توظيفه.

- كلّ شيء يُسَى...

- ثمّ - وهو يضحك - وقد دغدغت الحنجر رأسه:

- ثمّ إنّ (المحروس) نفسه خارج الحكم الآن!

- آه! والوفد سيتمرّ هذه المرّة فيها بيدو...

وإذا بالمحامي يقول بلهجة خطافية:

- لو سارت الأمور سيراً طبيعياً في مصر لحكم الوفد

إلى الأبد!...

فقال ياسين ضاحكاً:

- هذا القول له وجهته لولا خروج ابني على الوفد!

- ولا تنسوا حادث القضاة! إذا مات الملك فقلّ

على أعداء الوفد السلام!

- طول عمرهم يُعدون بإخراج الإنجليز، ويفتح جامعة جديدة، ويتوسّع شارع الخليج، فهل تمّ شيء من هذا يا خالو؟

وقال عميد ذوي المعاشات:

- لعلّ النائب مقدّم الاقتراح قد شرب خمرًا زعافًا

من مخور الحرب فانتقم بتقديم اقتراحه...

وقال المحامي:

- ومهما يكن من أمر، فإنّ حانات الشوارع

الإفريقية لن تمسّ بسوء، فما عليك يا خالو إذا وقع

المحلور، إلّا أن تسهم في تافرن أو غيرها... والختار

للختار كالبيان يشدّ بعضه بعضًا...

وقال باشكاتب الأوقاف:

- إذا كان الإنجليز قد دفعوا بدبّابهم إلى عابدين

لمسألة تافهة هي إعادة النحاس إلى الحكم، فهل نظّمهم

يسكتون عن إغلاق الخيّارات؟!

وكان بالبحر - إلى جماعة ياسين - نفر من أهل

البلد من التجار، ولكن على الرغم من ذلك اقترح

الباشكاتب أن يزوجوا سكرهم بشيء من الغناء قائلاً:

- هلمّوا نغني «أسير العشق».

فبادر خالو بالمودة إلى موقفه وراء الطاولة، وراح

الأصدقاء يفتنون «أسير العشق» يا ما يشوف هوان،

ويدت نغمة السكر أوضع الأنغام في أصواتهم حتى

لاحت في وجوه أهل البلد بسات ساهرة، غير أنّ

الغناء لم يستمرّ طويلاً، وكان ياسين أوّل المنسحقين،

ثمّ تبعه الآخرون فلم يُتمّ الدور إلّا الباشكاتب، ثمّ

ساد سكوت تقطعه من حين إلى حين مصمصة أو

مخفق أو يد تصفّق في طلب كأس أو مرّة، وإذا بياسين

يقول:

- أما من وسيلة ناجعة للحبل!

فقال الموظف العجوز كالمحتجّ:

- لا تفتأ تسأل هذا السؤال وتعيده!... صبرك

بالله يا أخي!...

وقال باشكاتب الأوقاف:

- لا داعي للجزع يا ياسين أفندي، ومسير بتك

تحبل!

فقال ياسين وهو يتسم ابتسامة بلهاء:

يوم المعركة الكبرى سرت على رأس المظاهرة أنا وأخي
أول شهداء الحركة الوطنية، فسمعت أزيز الرصاص
وهو يرق لصق لأذي ويستقر في أخي، يا للذكرى! لو
امتد به العمر للحق بركب الوزراء المجاهدين!

- ولكن العمر امتد بك أنت!

- نعم، ولكن ما كان بسوسي أن أكون وزيراً
بالاتحادية، ثم إئتينا في جهادنا توفقتنا الموت لا
المناصب، غير أنه لا بد أن يموت أناس ويتبرأ المناصب
آخرون، وفي جنازة أخي شئ سعد زغلول فقدمني
إليه زعيم الطلبة، هذه ذكرى عظيمة أخرى!

- ولكن كيف وجسدت - رغم جهادك - متسماً
للعريضة والعشق؟!

- اسمعوا يا هوى، وهؤلاء الجنود الذين يضاجعون
النساء في الطرق أليسوا هم الذين ردوا رومل على
أعقابهم؟! فالجهاد لا يكره الفرفشة، والخمر لو علمتم
روح الفروسية، والمجاهد والسكران أخوان يا أولي
الآلباب!

- وسعد زغلول ألم يقل لك شيئاً في جنازة
أخيك...؟

فلجأب عنه المحامي قائلاً:

- قال له ليتك كنت الشهيد أنت!...

وضحكوا، وكانوا في هذه الحال يضحكون أولاً ثم
يتساءلون عن السبب، ضحك معهم ياسين في أريحية
صافية ثم وأصل حديثه قائلاً:

- لم يقل هذا، كان رحمه الله مؤدباً لا كحضرتك،
وكان ابن حطّ أيضاً، ولذلك كان واسع الأفاق، فكان
سياسياً ومجاهداً وأديباً وفيلسوفاً وقانونياً، وكانت كلمة
منه نجيّة وقيمت!

- الله يرجمه.

- ويرحم الجميع، كل ميت يستحق الرحمة، بحسبه
أنه فقد الحياة، حتى المومس وحتى القواد، وحتى الأم
التي كانت تبعت بابنها إلى رفيقها ليعود إليها به... .

- وهل يمكن أن توجد هذه الأم؟!

- كل ما تتصور وما لا تتصور يوجد في الحياة!

- ألم تجد إلا ابنها؟

- الملك بسلام!

- الأمير محمد عليّ يُعَدُّ بلذة التشريف! وهو منسجم
مع الوجد طول عمره... .

- اجلس على العرش - أيّا كان اسمه - هو عدو
للوجد بحكم مركزه كالويسكي والجلوى لا يتفان!
فقال ياسين وهو يضحك نشوة:

- لعلّ الحقّ معكم، فكبر منك بيوم يعرف أكثر
منك بسنة، وأنتم منكم من بلغ أرقّ العمر ومنكم
من يورثك أن يدركه!

- اسم الله عليك يا ابن السبعة والأربعين!

- هل أيّ حال فأنا أصغركم سنّاً... .

- ثم فرقع بأصابعه وهو يتهايل نشوة وخيلاء،
واستطرد:

- ولكنّ العمر الحقيقي لا يقاس بالسنين، ولكن
بالنشوة ينبغي أن يقاس، والخمر قد انحطّت نوحاً
ومذاقاً في أيام الحرب ولكنّ نشوتها هي هي، وعند
الاستيقاظ صباحاً يلقى رأسك الصداق فتفتح عينيك
بكاشفة ثم تتجشأ كحولاً، غير أنّي أقول لكم إنّه في
سبيل النشوة يسون أيّ شيء، وربّ أخ يتساءل
والصحة؟ أجل لم تعد الصحة كما كانت، وابن السبعة
والأربعين غير مثيله في الزمن الأول ثمّ يدلّ على أنّ كلّ
شيء قد خلا ثمنه في الحرب إلاّ العمر فلا ثمن له، في
الزمن الأول كان الرجل يتزوّج في السّتين من عمره أمّا
في زماننا الغادر فابن الأربعين يسأل أهل العلم عن
الوصفات الملوّية، والعريس في شهر العسل قد يوحل
في شبر ماء!

- الزمن الأول، أهل الدنيا جيّماً يسألون عنه!
لعاد ياسين يقول وقد أخذت أنغام السكر ترونّ في
أوتار صوته:

- الزمن الأول، اللهمّ أرحم أبي، شدّ ما ضربني
ليمتني من الاشتراك العمويّ في الثورة! ولكنّ الذي
لا تُرهبه قتال الإنجليز لا يُرهبه الزجرا! وفي قهوة أحمد
عبيد كنّا ننتجع لتبدير المظاهرات وقذف القتال... .

- هذه الأسطوانة من جديد! خبّرتني يا ياسين أفندي

أكان وزنك أيام الجهاد كوزنك اليوم؟

- وأقلّ، غير أنّي كنت حين الجِدّ كالنحلة، وفي

كتب، وكان لي منهم أصدقاء على عهد الثورة
فهذه المحامي:

- ولتلك كنت تجاهدهم... أنسيت؟

- نعم... نعم، لكل حال ما يناسبها، وفي مرة
ظنوني جاسوساً لولا أن سارع إلى زعيم الطلبة في
اللحظة المناسبة فدلّ القوم على حقيقتي فهتفوا لي،
وكان ذلك في جامع الحسين!

- يعيش ياسين... يعيش ياسين! ولكن ماذا كنت
تفعل في جامع الحسين؟

- أجب، هذه نقطة هامة جداً...!

فصحك ياسين ثم قال:

- كنا نصلي الجمعة، وكان من عادة أبي أن يأخذنا
معه لصلاة الجمعة، ألا تصبّون؟ سلوا أهل الحسين!
- كنت تصلي زلفى لأبيك؟

- والله، لا تسيروا الظن بنا، نحن أسرة دينية، أجل
كلنا سكيرون فاسقون، ولكن في النهاية تنتظرنا التوبة!
وهنا تأوه المحامي قائلاً:

- ألا نمارد الغناء قليلاً؟

فيادر ياسين قائلاً:

- أمس غادرت الحانة وأنا أغني فاعترضني شرطي
وهتف بي عذراً: «يا أفندي!» فسأله: «ألا يحق لي أن
أغني؟»، فقال: «ممنوع الزعيق بعد الساعة ١٢» فقلد
عحتجاً: «ولكنني أغني!» فقال بحدة: «كله زعق أما
القانون»، فسأله: «والقنايل التي تنفجر بعد الساعة
١٢ ألا تتمدّ زعقاً؟» فقال مهتدّاً: «الظاهر أنك ترغب
في البيات في القسم» فابتعدت عنه وأنا أقول: «ويل
الأفضل إن أبيت في البيت»، كيف نكون أمة
متحضرة والمساكر تحكمنا؟! وفي البيت تلقى زوجك
بالمصداق وهناك في الوزارة رئيسك، حتى في التربة
يستقبلك ملاكان بالهراوات...

وعاد المحامي يقول:

- فلنمرّ بشيء من الغناء...

فتفتح عميد ذوي المعاشات ثم راح يترنم:

جوزي التجوز عليه

ولسه الحنة في يدي

يسوم ما جه وجبها عليه

دي نار يا ناس وأدت فيه

- ومن أرى للألم من الالين؟! ثم إنكم جيئاً أبناء
المضاجعة!

- الشرعية!

- هذه شكليات أما الحقيقة فواحدة، وقد عرفت
مومات بالسات كان فراشه يخلو من ضجيج أسبوعاً
أو أكثر، دلوني على أم من أمهاتكم قضت مثل هذه
الفترة بعيداً عن قرينها!

- لا أعرف شعباً كالشعب المصري ولماً بالخوف في
أعراض الأمهات!

- نحن شعب قليل الأدب...

فقال ياسين ضاحكاً:

- إن الزمن أقنأ أكثر مما ينبغي، والشيء إذا زاد
عن حده انقلب إلى ضده، ولذلك فنحن غير مؤقنين!
ولكن تغلب علينا الطيبة رغم ذلك، فالتوبة عادة
خاتمانا!...

- ها أنا من ذوي المعاشات ولكنني لم أتب بعداً
- التوبة لا تخضع لكادر المؤلفين، ثم إنك لا تفعل
شيئاً صائراً، أنت تسكر ساعات كل ليلة وليس في
ذلك من بأس، وسوف يمنك عن السكر يوماً المرض
أو الطبيب وكلهما شيء واحد، ونحن بطبعنا ضعفاء،
ولولا ذلك ما ألفنا الحمر ولا صبرنا على الحياة
الزوجية، وزداد بمرور الأيام ضعفاً ولكن رغائبنا لا
تقف عند حد، هيهات، فتعذب ثم تسكر مرة
أخرى، ويشيب شعرنا فيفضح من المستور وإذا بصديق
يعترض سبيلك في الطريق وهو يقول: «عيب أن
تطارد امرأة وضرك شابب» يا سبحة الله ما لك
أنت إذا كنت شاباً أو شيخاً، أتبع امرأة أم أتبع حارة!
حتى تخال حيناً أن الناس متآمرون مع زوجك عليك،
وهناك إلى ذلك كله الدلال بقله والمسكر
بهرأوته، حتى الخادمة تنبه دلالاً في سوق الخضار،
وهكذا تجد نفسك في عالم مشاكس لا صديق لك فيه
إلا الكأس، ثم يجيء دور المرتزة من الأطباء فيقولون
لك بكل بساطة: «لا تشرب»!

- ومع ذلك أنكرت أننا نحب الدنيا بكل قلوبنا؟

- بكل قلوبنا! والشر نفسه لا يخلو من خير، حتى
الإنجليز لا يخلون من خير، لقد عرفتهم يوماً عن

وسرعان ما ركدوا المطلق في حاسم مهيبي، وكان ياسين يفرق في الضحك حتى دمعت عيناه...

٤٩

كثيراً ما كانت تشعر خديجة بأنها وحيدة. ومع أن إبراهيم شوكت - خاصة منذ أن قارب السبعين - كان يعتكف في بيته طوال أيام الشتاء، إلا أنه لم يستطع أن يبذل وحشتها، ولم تمن في القيام بواجبات بيتها، غير أنها - الواجبات - باتت أهون من أن تستغرق حيوتها ونشاطها، فعل تجاوزها السادسة والأربعين لم تزل قوية نشيطة وازدادت جسامه. وأسوأ من هذا أن وظفتها كأم قد انقطعت كل حين أن دورها كحياة لم ولن يبدأ أبداً فيها بدا. فإحدى الزوجتين ابنة أخيها، والأخرى موظفة لا تكاد تلتقي بها إلا فيها ندر من الأوقات والمناسبات. فكانت تروح عن صدرها المكبوت فيها بدور بينها وبين زوجها الملتصق بعباته.

- مضى أكثر من عام على زواجها ولم نوقد شموعاً! فهز الرجل منكبها استهانة دون تعليق فعاتت تقول:

- لعل عبد المنعم وأحد يعدان الذرية موضحة قديمة كطاعة والوالدين!

فقال الرجل في ضجر:

- أريحي نفسك فيها سعيدان وحسبنا هذا.

فسادت في حدة:

- إذا كانت العروس لا تحبل ولا تلد فما فائدتها؟

- لعل إينيك يخالفناك في هذا الرأي!

- لقد خالفاني في كل شيء، ما أصبح تعمي وأمل ..

- أعينك ألا تكوني جنة؟

فقال في حدة تعالت درجتها:

- إن حزني عليها لا على نفسي!

- لقد عرض عبد المنعم كريمة على الطبيب فيشره

خيراً ..

- أنفق المسكين كثيراً وسيفنق غداً أكثر، إن عرائس اليوم غالبية الثمن كالطباطم واللحم!

فضحك الرجل دون تعليق فاستطردت تقول:

- أما الأخرى فاستعين عليها بسيدي المنوي.

- اعترني بأن لسانها كالشهدا

- مكر ودهاء، ماذا تتوقع من ابنة العنابر؟

- أتقي الله يا شيخه!

- ترى متى يذهب بها «الاستاذ» إلى الطبيب؟

- إنهما زاهدان في هذا!

- طبعاً، إنهما موظفة، فمن أين نجد الوقت للحبل

والولادة؟

- إنهما سعيدان ما في ذلك شك.

- الموظفة لا يمكن أن تكون زوجة صالحة،

وسيعرف ذلك بعد فوات الأوان ..

- إنه رجل ولن يضره ذلك ..

- ليس في هذا الحلي كله شأنان كلودي! فيا خسارة!

وكان عبد المنعم قد تبلور طابعه وإنهاؤه، فأثبت أنه موظف كفه و«أخ» نشيط، وقد انتهى الإشراف على شعبة الجالية إليه فتيق مستشاراً قانونياً لها، وأسهم في تحرير المجلة، وكان يلقي المواظ أحياناً في المساجد الأهلية. وجعل من شقته نادياً لإخوانه يسهرون عنده كل ليلة وعلى رأسهم الشيخ علي المنوي. وكان الشاب شديد التحمس موفور الاستعداد كي يضع جميع ما يملك من جهد ومال وعقل في خدمة الدعوة التي آمن بكل قلبه - على حدّ تعبير المرشد - بأنها دعوة سلفية وطريقة سنية وحقيقة صوفية وهيئة سياسية وجماعة رياضية ورابطة علمية ثقافية وشركة اقتصادية وفكرة اجتماعية، وكان الشيخ علي المنوي يقول:

- تعاليم الإسلام وأحكامه شاملة تنظيم شئون الناس في الدنيا والآخرة، وإن الذين يظنون أن هذه التعاليم إنما تتناول الناحية الروحية أو العبادة دون غيرها من النواحي غفلتوا في هذا الظن، فالإسلام عقيدة وعبادة ووطن وجنسية ودين ودولة وروحانية ومصطف وسيف ..

فيقول شاب من المجتمعين:

- هذا هو ديننا، ولكننا جامعون لا نفعل شيئاً والكفر يحكمنا بقوانينه وتقاليده ورجالهم ..

العالم المجاهد، وكلا العاملين واجب لا غنى عنه...

فقال الأستاذ:

- ولكن المجتمع الفاسد لن يتطور إلا باليد العاملة، ونحن يمثلنا وعيها بالإيمان الجديد، ويمسي الشعب كله كتلة واحدة من الإرادة، فهناك لن تقف في سبيلنا القوانين الممجيّة ولا المدافع...

- كلنا مؤمنون بذلك، غير أنّ كسب العقول المثقفة يعني السيطرة على الفئة المرشحة للتوجيه والحكم... وإذا بأحمد يقول:

- سيدي الأستاذ، ثمة ملاحظة أود إبداءها، عرفت بالثجربة أنّه ليس من العسير إقناع المثقفين بأنّ الدين خرافة وأنّ الغيبيات تخدير وتضليل، ولكن من الخطورة بمكان مخاطبة الشعب بهذه الآراء، وإنّ أكبر عمة يستغلها أعداؤنا هي رمي حركتنا بالإلحاد أو الكفر...؟

- إنّ مهمتنا الأولى أن نحارب روح القنصاعة والحمول والاستسلام، أمّا الدين فلن يتأتى القضاء عليه إلّا في ظلّ الحكم الحرّ، ولن يتحقق هذا الحكم إلّا بالانقلاب، وعلى العموم فالفقر أقوى من الإيمان، ومن الحكمة دائماً أن تخاطب الناس على قدر عقولهم...

ونظر الأستاذ إلى سوسن بامياً وهو يقول:

- كنت تؤمنين بالعمل فهل بتّ تقتنعين بالنقاش في ظلّ الزواج؟...

وكانت تدرك أنّه يداعبها وآثت لا يعني ما يقول، ومع ذلك فقد قالت جادة:

- إنّ زوجي يحاضر العال في الحرايات النائية، وأنا لا أتي أودع المنشورات بنفسي... ثمّ قال أحمد مبتغياً:

- إنّ عيب حركتنا أنّها تجذب إليها كثيرين من النفعيين غير المخلصين، من هؤلاء من يعمل بغية الأجر أو من يعمل للمصلحة الحزبية!

فقال الأستاذ عدلي كريم وهو يهز رأسه الكبير في استهانة واضحة:

- أعلم هذا حقّ العلم، ولكنّي أعلم أيضاً أنّ

فيقول الشيخ عليّ:

- لا بدّ من الذعابة والتبشير، وتكوين الأنصار للمجاهدين، ثمّ تحمي مرحلة التنفيذ...

- والآن نتنظر؟

- لنتنظر حتّى تنتهي الحرب. إنّ الحقل مهيباً لدعوتنا، وقد نزع الناس ثقتهم من الأحزاب، وعندما يهتف الداعي في الوقت المناسب يهب الإخوان وكلّ مدزّع بقرآنه وسلاحه...

عبد المنعم بصوته القوي العميق:

- فلنوطن النفس على جهاد طويل، إنّ دعوتنا ليست موجّهة إلى مصر وحدها. ولكن إلى كافة المسلمين في الأرض، ولن يتحقّق لها النجاح حتّى تجمع مصر والأمم الإسلاميّة حول هله المبادئ القرآنيّة، فلن نغمد السلاح حتّى نرى القرآن دستوراً للمسلمين أجمعين...

الشيخ عليّ المنوفي:

- أبشركم بأنّ دعوتنا تنتشر بفضل الله في كلّ بيتة، لها اليوم مركز في كلّ قرية، إنّها دعوة الله، والله لا يخذل قوماً ينصرونه...

وفي نفس الوقت، كان يستمر نشاط آخر في الدور التحتاني وإن اختلف الهدف، ولم يكن وفيه العدد كهذا، فإنّ أحمد وسوسن كانا يجتمعان في كثير من الليالي بعدد محدود من الأصدقاء مختلفي النحل والملل، أكثرهم من البيئة الصحفيّة. وقد زارهم الأستاذ عدلي كريم ذات مساء، وكان على علم بما يدور بينهم من مناقشات نظريّة. فقال لهم:

- حسن أن تدرسوا الماركسيّة، ولكن تذكّروا أنّها وإن تكن ضرورة تاريخيّة إلّا أنّ حتميّيها ليست من حتميّة الظاهرات الفلكيّة. إنّها لن توجد إلّا بإرادة البشر وجهادهم، فواجبنا الأوّل ليس في أن نتلفس كثيرًا ولكن في أن نملأ وهي الطبقة الكادحة بمعنى الدور التاريخي الذي عليها أن تلعب لإفقاد نفسها والعالم جميعاً...

أحمد:

- إنّنا نترجم الكتب القيّمة عن هذه الفلسفة الخاصّة من المثقفين، ونلقي المحاضرات الحاسيّة على

٥٠

كانت فيلاً عبد الرحيم باشا عيسى يحلوان تودّع
الفوج الأخير من الزوّار الذين جاءوا يودّعون قبيل
سفره إلى الأراضي الحجازية لأداء فريضة الحج...
- إنّ الحجّ أمنية قديمة، لعن الله السياسة فهي التي
شغلّني عنه علماً بعد عام، ولكن في مثل عمري يجب
أن يفكر المرء في أداء الفداء القريب برّه.

فقال عليّ مهراڤ وكيل الباشا:

- لعن الله السياسة!

فرّد الباشا عينيه الذابلتين بين رضوان وبين حلمي
متفكراً ثم قال:

- قل فيها ما شئت، غير أنّ لها جيلاً في عنقي لا
أنساه وهو أنّها سلّنتني عن وحشي، إنّ الأعراب العجوز
مثلي يلتصق الأنس ولو في الجحيم!

فلعب عليّ مهراڤ حاجبيه وقال:

- ونحن يا باشا لم نغم بواجبنا في تسليتك؟

- دون شكّ، ولكن يوم الأعراب طويل قليل
الشتاء، ولا بدّ للإنسان من رفيق، وإنّي لأعترف بأنّ
المرأة ضرورة خطيرة، وكم أذكر أمّي هذه الأيام! إنّ
المرأة ضرورة حتّى لا ننسى متعتها!

وكان رضوان يفكر في أمور بعيدة فلذا به يسأل
الباشا:

- هبّ النحاس باشا بسقط أفلا تعدل عن السفر؟

فلوّح الباشا بيده ساخطاً وقال:

- فليبق بنحسه حتّى أعود على الأقلّ من
الحجّ...!

ثم وهو يبرّز رأسه:

- كلّنا مذنب، والحجّ يغسل الذنوب...

فضحك حلمي عزّت قائلاً:

- إنّك يا باشا مؤمن، وإنّ إيمانك كما يجرّ الكثيرين!

- له؟ إنّ الإيمان واسع الصدر، والمنافق وحده

الذي يدّعي البراءة المطلقة، ومن الغباء أن تظنّ أنّ

الإنسان لا يقترف الذنوب إلّا على جنة الإيمان، ثم إنّ

ذنوبنا أشبه بالعبث الصبيانّي البريء!

فقال عليّ مهراڤ متنبّها في ارتياح:

الأمويّون قد ورثوا الإسلام وهم لا يؤمنون به ومع
ذلك فهم الذين نشره في بقاع العالم القديم حتّى
إسبانيا! فمن حقّنا أن نستفيد من هؤلاء، علينا أن
نحذّره في الوقت نفسه، ولا ننسوا أنّ الزمن معنا
على شرط أن نبذل ما في وسعنا من جهد وتضحية...
- والإخوان يا أستاذ! لقد بنتنا نشرهم بأنهم عبدة
خطيرة في سبيلنا!

- لا أنكر هذا، ولكنهم ليسوا بالخطورة التي
تتخيّلها، ألا ترى أنّهم يخاطبون العقول بلغتنا فيقولون
اشترائيّة الإسلام؟ فحقّ الرجعيّون لم يبلوا بدءاً من
استعارة اصطلاحاتنا، وهم لو سبقونا إلى الانقلاب
فسوف ينفقون بعض مبادلتنا ولو تحقيقاً جزئياً، ولكنهم
لن يوقفوا حركة الزمن المتلقّمة إلى هدفها المحتوم، ثمّ
إنّ نشر العلم قليل بطردهم كما يطرد النور الخفافيش!

ومضت خديجة ترافق مظاهر هذا النشاط الغريب
في دهشة مقرونة بالامتعاض والسخط، حتّى قالت يوماً
لزوجها:

- لم أر بيتاً كبيراً عبد المنعم وأحمد، لعلّهما قهوتان
وأنا لا أدري، فلا يبيح المساء حتّى يمتلئ الطريق
بالزوّار من أصحاب اللحي والخواجبات، لم أسمع عن
شيء كهذا من قبل...

فهزّ الرجل رأسه قائلاً:

- أن لك أن تسمعي...

فقالت بحذّة:

- إنّ مرثبيها لن يكفيها ثمن القهوة التي تقدّم
للضيوف!

- هل اشتكي إليك الفقر؟

- والناس؟ ماذا يقولون وهم يرون أفواجاً تدخل
وأفواجاً تخرج؟

- كلّ واحد حرّ في بيته...

فنفخت قائلة:

- إنّ أصوات أحاديثهم التي لا تنتهي تملأ أحياءنا
حتّى تخرج إلى الحارة...

- لتخرج إلى الحارة أو لتفصعد إلى السباه!...
وتهدّدت خديجة من الأعياق وهي تضرب كفّاً بكفّ.

- فشرأ إذا تحدّثني فسوف أستقبلك حين العودة
من الحجّ بقمر ولا كلّ الأتقار ثمّ ننظر ماذا يكون من
أمرك!

فقال الباشا بأساً:

- ستكون النتيجة مثل وجهك يا بوز الإخص،
أنت شيطان يا مهران، شيطان لا غنى للإنسان
عنه...

- أحمده الله على ذلك...

رضوان وحلمي في وقت واحد تقريباً:

- ونحمده عليه...

فقال الباشا في خيلاء وسرور:

- أنتم أنسي، ما الحياة بدون المودة والصدقة؟
الحياة جميلة، الجبال جميلة، الطرب جميل، العفو
جميل، أنتم شباب وتنظرون إلى الدنيا من زاوية
خاصّة، وسوف تعلّمكم العمر الكثير، إليّ أحبكم
وأحبّ الدنيا، وإنّ زيارتي لبيت الله للشكر والاعتذار
وطلب الهداية...

فقال رضوان بأساً:

- ما أجل منظرك! إنك تقطر صفاء...

فقال عليّ مهران بمكر:

- ولكنّ حركة صغيرة تجعله يقطر أشياء أخرى،
حقاً يا باشا إنك معلّم الجبل!

- وأنت إبليس نفسه يا ابن الهرمة! اللهمّ إني إذا
قدّمت يوماً للحساب فسأشير إليك وكفى!

- أنا! مظلوم والله، لست إلّا بعيداً مأموراً!...

- بل أنت شيطان...

- ولكن لا غنى للإنسان عنه؟

فضحك الباشا قائلاً:

- نعم يا عكروت...

- كنت وما أزال في حياتك العاصرة نغمًا مطربًا
ووجهًا مليحًا وهناء متجدّدًا، وأخيرًا لا تنس أيام
شبابي يا سعادة الغادر!...

فتأهّو الباشا قائلاً:

- أيام زمان! آه من الزمان! يا أولاد لم نكبر!!
جلّت حكمتك يا ربّي وعلّت!...

- يا له من قول جميل! والآن دعني أصارحك بأنّي
تساءمت كثيرًا حين حدّثني عن اعتزاسك الحجّ،
وسادلت نفسي ترى أهي التوبة؟! وهل تنتهي بالنسبة
لنا مسرّات الحياة؟!

فضحك الباشا حقّ اهتزّ جده وقال:

- أنت شيطان من صلب شيطان، أتمزنون حقاً إذا
علمتم أنّها التوبة؟

فقال حلمي متأوّمًا:

- كمن ذبح وليدها في حجرها!...

فضحك عبد الرحيم باشا مرّة أخرى وقال:

- آه منكم يا أولاد الإيه، على مثلي إذا أراد التوبة
حقاً أن ينأى بنفسه عن العيون النجل والحدود
الوردية، وأنّ يعكف على مجاورة قبر النبيّ عليه الصلاة
والسلام...

فهتف مهران في شجاعة:

- الحجاز وما أدراك ما الحجاز، لقد حدّثني عنها
العارفون، ستكون كالمتجبر من الرضا بالنارا
فقال حلمي عزّت كالمتحجّ:

- لمعلّها دعاية كاذبة كالدعايات الإنجليزية، وهل
يوجد في الحجاز كلّ وجه كوجه رضوان؟!

فهتف عبد الرحيم عيسى:

- ولا في الجنة!... (ثمّ متراجعا)... لكننا يا أولاد
الحرام يصدد حديث التوبة!

فقال عليّ مهران:

- مهلاً يا باشا، لقد أخبرني يوماً عن الصوفيّ الذي
تاب سبعين مرّة، ليس معنى هذا أنّه أذنّب سبعين
مرّة؟

فقال رضوان:

- أو مائة مرّة!

فقال عليّ مهران:

- أنا راض بسبعين!

فتساءل الباشا ووجهه يتهلّل بشراً:

- وهل في العمر بقية؟
- ربّنا يطوّل عمرك يا باشا، طمئننا وقل إنّها التوبة

الأولى!

- والآخرية!

كانت قناتي لا تميل لخاصز
فألبها الإصباح والإسماء

فقال مهران ملعياً حاجبه:

- لغامز؟ بل قل لا تمل لمران!

- يا ابن الكلب لا تفسد الجؤ بهرك! لا يجوز أن
نعبث عند ذكر الأيام الجميلة، الديموع أحياناً أجل من
الابتسام وأضحك إنسانية وأشدّ عرفاناً بالجميل،
اسمعوا هذا أيضاً:

واستنكرتني وما كان الذي نكسرت

من الحوادث إلا الشيب والصلما

- ما رأيكم في قول ومن الحوادث؟

وإذا بهران ينادي على طريقة باعة الصحف:

- الحوادث والأهرام والمصري...

الباشا بالأس!

- الحق ليس عليك ولكن عذ...

- عليك أنت!

- أنا! أنا بريء منك، عندما عرفتك كنت على

حال يسندك عليها إبليس، ولكني لن أسمع لك أن

تنزعني من جؤ الذكريات، نعم اسمعوا إلى هذا

أيضاً:

عريت من الشيباب وكان غصاً

كما يعمرى من السورق السقيبيب

فتساءل مهران كلمتزعج:

- القضيبي يا باشا.

الباشا وهو يردد ناظره بين رضوان وحلمي

المفرقين في الضحك:

- صاحبكم جئت لا يؤثر فيها الشعر! ولكنه سيبلى

قريباً فترة الحسرات، حين يصير كل جميل خيراً لكان

أو إحدى إخوانها، (ثم متلفتاً إلى مهران) وأصحاب

زمان يا ابن الهرمة هل نسيتم؟

- أوه، الله يسيهم بالخبر... كانوا الجمال كله

والدلال كله...

- ماذا تعرف عن شاعر سلياني؟

- كان وكيل الداخلية وفرقة بكشك عند الإنجليز

حتى أحيل على المعاش قبل الألوان في وزارة الخناس

الثانية أو الثالثة لا أذكر، وأظنه الآن معتكفاً في عزبته
يكون حمادة...

- يا عيني على أيامه! وحامد النجدي؟

- هذا أسوأ أحيانا حقاً! خسر الجلد والسقط،

وإنه ليطوف الآن ليلاً بالمراحيض العمومية...

- كان خفيفاً ظريفاً ولكنه كان كذلك مضامراً

وعريبداً. وعلياً راقت؟

- لقد بلغ «باجتهاده» أن صار عضواً في مجلس إدارة

عثة شركات، ولكن سمعته ضيقت عليه الوزارة فيما

يقال...

- لا تصدق ما يقال، ولي الوزارة أناس جلوزت

شهرتهم حدود المملكة، غير أن هذا الرأي الذي طالما

نوهت لكم عنه وهو أن التحلل بالفضائل العامة واجب

علينا أكثر من بقية الناس! فإذا تحقق لأحدكم هذا فلا

تشرب عليه بعد ذلك، لقد حكم المسالك مصر

أجبالاً، وما زالت ذرايعهم تنعم بالبلقاء والمال، وما

المملوك؟ هو ذلك نفسه! ساقص عليكم قصة عظيمة

المغزى...

وصمت الباشا قليلاً كأنما ليجمع شتات فكره ثم

قال:

- كنت في ذلك الوقت رئيس محكمة، وحدث أن

عرضت على قضية مدنية عن ميراث تختلف عليه،

وقبل نظر القضية عرفني بعضهم بشاب جميل له وجه

رضوان وقوام حلبي... (ثم مشيراً إلى مهران)

ورشاقة هذا الكلب في عز أيامه فتصادقنا عهداً وأنا

لا أدري عن سره شيئاً، حتى إذا كان يوم نظر القضية

ما أدري إلا وهو يقف أمامي ممثلاً لأحد طرفي النزاع!

ماذا تظنون فعلت؟

فتتمم رضوان:

- يا له من موقف!

- تنحيت عن نظر القضية دون تردد!

وأبدى رضوان وحلمي عن إعجابها أما مهران

فقال كلمتج:

- وضيعت عليه كفاحه؟!

فقال الباشا دون أكثرات لهدر مهران:

- ليس هذا فحسب، ولكنني قطعتة احتقاراً لسوء

ودموعي تتساقط فوق جبينها وخديها، وكم أودّ لو
تغلّب على متاعيك يا رضوان...
فقال رضوان وكان يبدو شاردًا ساهمًا:
- يستطيع الإنسان أن يعيش بلا امرأة... ليس
الأمر مشكلة!

- يستطيع الإنسان أن يعيش بلا امرأة، ولكن الأمر
مشكلة، وقد لا تبالي تسألون الناس ولكن ماذا عن
تساؤل أنت؟ من الممكن أن تقول إنّ المرأة مشيرة
للاشمئزاز، ولكن لماذا هي لا تثير اشمئزاز الآخرين؟
هناك يركبك إحساس كالمرض، مرض لا تعرف له
دواء، فتعزل العالم به، وهو شرّ رفيق في الوحدة،
وربّما أخجلك بعد ذلك أن تحقر المرأة وإن تكن
مضطّرًا إلى مواصلة احتقارها!

وهنا نفخ عليّ مهراون فيها يشبه اليأس ثم قال:
- ممّيت النفس بليلة مرحة جديرة بالوداع!
فضحك عبد الرحيم باشا ثم قال:
- ولكنّه وداع حاحٍ! ماذا تعرف أنت عن توديع
الحجاج؟

- ساودك بالدعاء ثمّ استقبلك بالورود والحدود،
ويومئذٍ نرى ماذا أنت فاعل!
فصُرب الباشا كعًا بكفّ وهو يقول ضاحكًا:
- إنّني مفوّض أمري إلى الله ذي الجلال!...

٥١

عند تقاطع شارعي شريف وقصر النبل، أمام
مقهى رتز، وفجأة، وجد كمال نفسه أمام حسين
شدّاد! وتوقّفا عن السير وكلاهما يمسك في وجه صاحبه
حتى هتف كمال:

- حسين!...

فهتف الآخر بدوره:

- كمال!

ثمّ تصافحا في حرارة وهما يضمحكان ضحكة الذبلة
والسرور.

- آية مفاجأة سعيدة بعد ذلك التاريخ الطويل!
- آية مفاجأة سعيدة! تغيّرت كثيرًا يا كمال، ولكن

خلقه، أجل، لا قيمة للإنسان بلا خلق، ليس
الإنجليز بأذكى الناس، الفرنسيون والإيطاليون أذكى
منهم ولكنهم سادة المخلوق فهم سادة العالم! لذلك أنبد
الرجال النافه المنحط.

فتساءل عليّ مهراون ضاحكًا:

- هل أفهم من إيقاظك عليّ أنّي ذو خلق؟...

فأشار الباشا نحوه جادًا وهو يقول:

- الأخلاق متنوعة، فالقاضي مطالب بالنزاهة
والعدل، والوزير بالواجب والشعور بالمسؤولية العامة،
والصديق بالصفاء والوفاء، وأنت عرييد بلا شك
ووغد في أحايين كثيرة، ولكنك أمين وفيّ...
- أرجو أن يكون وجهي قد تودّد!

- الله لا يكلف نفسًا إلّا وسعها! والحقّ أنّي قانع بما
فيك من خير، ثمّ إنّك زوج وأب وهذه فضيلة
أخرى، وهي سماعة لا يقرّها إلّا من عالٍ صمت
اليوت، إلّا أنّ صمت المقام عذاب الشيفوخة!
فقال رضوان كالمنكر:

- حسبت الشيفوخة عبّة للهدوء.

- تخيلات الشباب عن الشيفوخة ضلال، تخيلات
الشيفوخة عن الشباب حشرات، ختبرني يا رضوان
عن رأيك في الزواج؟

وانقبضت أسارير رضوان وهو يقول:

- هو الرأي الذي حدّثك عنه من قبل يا باشا.

- لا أمل في المدول عنه؟

- لا أظنّ.

- له؟

تردّد رضوان قليلًا ثمّ قال:

- شيء عجيب، لا أدري كنهه، ولكنّ المرأة تبدو
لي مخلوقًا مثيرًا للاشمئزاز!...

فتجلّت في العنين الذابتين نظرة حزينة وقال:

- يا للأسف، ألا ترى أنّ عليّ مهراون زوج وأب؟

وإنّ صديقك حلمي من أنصار الزواج؟ إنّني أرثي لك
رثاء مضاعفًا إذ إنّهُ رثاء لنفسي أيضًا، طلالا حترني ما
قرأت وما سمعت عن جمال المرأة، غير أنّي طويت
نفسي على رأيي الخاصّ لإكرامًا لذكري أنّي، كنت
أحبّها حبًّا جمًّا، وقد اسلمت الروح بين ذراعي

والذي... وجدت الموم في انتظاري كما قلت، ثم كان عليّ أن أعمل، وأن أعمل ليل نهار! هذا حسين شّداد طبعة ١٩٤٤ ذلك الذي يعد العمل جريمة إنسانية، أحتجّ وجد ذلك الماضي؟ لعلّه لا دليل عليه إلّا خفقان هذا القلب.
- أتذكر آخر مرة تلاقينا؟
- أوه!...

وجه النادل بالشاي والقهوة قبل أن يتمّ كلامه غير أنّه لم يبد متحمّساً للذكريات...
- دعني أذكرك، كان ذلك عام ١٩٢٦.
- عفارم على ذاكرتك!... (ثمّ شارداً)... سبعة عشر عاماً في أوروبا!...

- حدّثني عن حياتك هنالك!
فهزّ رأسه الذي لم يشب منه إلّا سوائفه وقال:
- دع ذلك إلى حينه، واقنع الآن بهذه العناوين:
أعوام سياحية وفرحة كالحلم، حبّ فزواج من باريّة من أسرة محترمة، الحرب والهجرة إلى الجنوب، إفلاس أبي، العمل في متجر حماي، عودتي إلى مصر دون زوجي حتّى أمثّر لها حياة مستقرة، ماذا تريد أكثر من ذلك؟

- أنجبت أطفالاً!
- كلا...!

كأنما لا يوّء أن يتكلّم، ولكن ماذا بقي من الصداقة القديمة حتّى يأسف على ذلك؟ ورغم هذا وجد رغبة قويّة في طرق أبواب الماضي فساءل:

- وماذا عن فلسفتك القديمة؟
وتفكر حسين ملياً، ثمّ ضحك ضحكة ساخرة وقال:

- إنّي غارق في العمل منذ أعوام وأعوام، لست إلّا رجل أعمال!

أين روح حسين شّداد الذي كان يراي منها إلى ظلّ ظليل من النخلة الروحية؟ ليست في هذا الرجل الضخم، لعلّها استقرّت في رياض قلندس، أمّا هذا الرجل فوّنه لا يعرفه، ولا يربطه به إلّا ماضٍ مجهول، ماضٍ وء في تلك اللحظة لو كان يحفظ له بصورة حيّة لا صورة فوتوغرافية باردة.

مهلاً لعلّ أباي! عودك هو هو، جملة منظر، ولكن ما هذا الشارب المحترم؟ وهذه النظارة الكلاسيكية وهذه العصا! وهذا الطربوش الذي لم يعد أحد يلبسه غيرك!

- وأنت شدّ ما تغرّبت! سمعت أكثر ممّا كنت أتصوّر، أهذا يتفق وتغاليب باريس؟ أين حسين زمان؟

- وأين باريس زمان؟ أين هتلر وموسوليني؟ ما علينا، كنت ذاهباً إلى ريتز لأشرب قلع شاي فهل عندك مانع من الجلوس معي قليلاً؟
- بكلّ سرور...

فيلا إلى ريتز ثمّ جلسا حول مائدة وراء النافذة الزجاجيّة المطّلة على الطريق، وطلب حسين شّداد الشاي وطلب كمال قهوة ثمّ عاذا بتخصّصان بعضهما البعض في ابتسام. لقد ضحك حسين فامتدّ طولاً وعرضاً. ولكن ماذا فعل بحياته يا ترى؟ هل سلاح في الأرض والسما كما كان يوّء قديماً؟ لكنّ عينيه تمكسان رضم ابتسامهما نظرة غليظة كأنما بذلت من طفولة الحياة جدّاً. وكان قد مضى عام على التقائه ببدور في شارع فؤاد الأوّل فبرئ في أثنائه من نكسة الحبّ وانزوى آل شّداد جميعاً في ركن النسيان، غير أنّ ظهور حسين قد أبقت النفس من سباتها، فبدأ الماضي وكأنّه يتمسّك ناشراً أفراده وآلامه.

- متى عدت من الخارج؟
- منذ عام تقريباً...

ولم يحاول مقابلته على الإطلاق؟ ولكن علامّ يلومه وهو نفسه قد نسيه وفرغ من صداقته منذ دهر؟
- لو علمت أنّك عدت إلى مصر لسميت إلى لقائك!

ولم يبد على حسين أنّه أخرج أو ارتبك ولكّنه قال ببساطة:

- عدت فوجدت الموم في انتظاري، ألم تبلغك أشياء عتاً؟

فتجهمّ وجه كمال وقال بالقتضاب وأسف:
- بل، عن طريق صديقنا إسماعيل لطيف.
- لقد سافر إلى العراق منذ عامين كما أخبرتني

- لا اختيار لي، ومرجوي الوحيد أن استعيد شيئاً من مستوى الماضي...

وساد الصمت ملياً، وكان كمال يتفحص حسين باهتمام، وكانت صورة من الماضي تنبعت خلال تفحصه، حتى وجد نفسه يسأله قائلاً:

- وكيف حال الأسرة؟

فقال دون اكتراث:

- بخير...

فتردّد كمال قليلاً ثم قال:

- كانت لك أخت صغيرة نسيت اسمها فكيف صارت اليوم؟

- بدوراء، تزوجت في العام الماضي...

- ما شاء الله، أولادنا يتزوجون!

- وأنت ألم تتزوج؟

ترى ألم تعاوده الذكريات؟

- كلا...

- أسرع وألاً فالتك القطار...

فقال ضاحكاً:

- فاتي بأموال...

- ربما تزوجت من حيث لا تدري، صدقي، لم

يكن الزواج ضمن خطتي ولكنّي متزوج منذ أكثر من عشر سنوات...

فهزّ كمال كتفيه دون اكتراث وقال:

- خبّري كيف تجد الحياة هنا بعد إقامتك الطويلة في فرنسا؟

- لم تكن الحياة في فرنسا عقب الغزو ممّا يسرّ، أمّا هنا فالحياة سيرة بالقياس إلى هناك. (ثمّ بحتان) ولكنّ باريس، أين أين باريس؟!

- لمّ لمّ تبقى في فرنسا؟

فقال باستنكار:

- أعيش كلّ على حدة؟، كلاً، كان ثمة عذر عندما حالت ظروف الحرب دون السفر، أمّا بعد ذلك فلم يكن من السفر بدّاً!

ترى أهو شذا من الكبرياء القديم؟ ثمّ وجد نفسه مدفوعاً إلى مغامرة خطيرة عذبة ممّا، فتساءل بكسر:

- وماذا تعمل الآن؟

- ألحقني أحد أصدقاء أبي بوظيفة في الرقابة حيث أعمل ابتداء من منتصف الليل حتّى الفجر، وإلى هذا فإنّي أقوم بالترجمة في بعض الصحف الإنرجية...

- ومتى تخلو من العمل؟

- فيها ندر، والذي يؤنّ عليّ المشقة أنّي لن أدعو زوجي إلى مصر حتّى أهبط لها حياة تناسبها، فهي من أسرة محترمة، وكنت حين تزوّجت منها معدوداً من الأغنياء...

قال ذلك وضحك ضحكة كأنّها يسخر بها من نفسه فابتسم كمال ابتسامة كأنّها يشجعه بها، وراح يقول لنفسه: من حسن حظّي أنّي سلوتك من زمن طويل، ولولا ذلك لم يكن عليك من أهلك قلبي!

- وأنت يا كمال ماذا تعمل؟

ثمّ مسترغماً:

- أذكر أنّك كنت مغرماً بالثقافة؟

ما أجدره بالشكر على هذا التذكّر! فهو ميت بالنسبة إليه كما أنّ الآخر ميت بالنسبة إليه هو، وإنّا لنموت ونحيا كلّ يوم مرّات! وأجابه:

- إنّني مدرّس لغة إنجليزية...

- مدرّس! نعم... نعم. تذكرت الآن أشياء، وكنت ترغب في أن تكون مؤلّفاً؟
يا للرغبات الخائبة!...

- إنّني أنشر مقالتي في مجلة الفكر، ولعلّي أجمع بعضها في كتاب عمّا قريب!

فابتسم حسين ابتسامة كثية وقال:

- أنت سعيد لأنك حققت أحلام صباك، أمّا أنا... أنا!

وضحك مرّة أخرى، أمّا كمال فقد وقعت جملة وأنت سعيدة من أذنيه موقعاً غريباً، ولم يكن أغرب منها إلّا اللهجة التي قبلت بها الدالة على الحسد، فوجد نفسه مرّة واحدة سعيداً ومحمّداً! وتجنّ؟ من عميد آل شدّاد! غير أنّه قال على سبيل المجاملة:

- حياتك العملية أجلّ حياة!

فقال الآخر بأساً:

الأعلى لهيئته التعليمية، ولعلّه تشرف بمقابلته مرّات
وهو زوج لعليدة. ربّاه... إنّه ليذكر الآن أنّه شيع
جنازة حرم المراقب منذ عام الفكانت هي عابدة؟!

ولكن كيف لم يلتق بحسين؟!

- هل حضرت وفاتها؟

- كلاً، توقّيت قبل عودتي إلى مصر...

فقال وهو يهزّ رأسه تعجباً:

- لقد سرت في جنازتها وأنا لا أدري أنّها انحلت!

- كيف؟

- علمت في المدرسة ذلك اليوم بأنّ حرم كبير
المفتشين قد توقّيت وأنّ الجنازة ستشيع من ميدان
الإسماعيلية، فذهبت مع زملائي المدرسين دون أن
أكلع على النعي في الصحف، وصرنا بين المشيعين
حقّ جامع جركس، كان ذلك منذ علم...
فايتسم حسين ابتسامة حزينة وهو يقول:

- معيكم مشكور...

لو وقعت هذه الوفاة عام ١٩٢٦ لجنّ أو انتحر،
اليوم عمّر به كخبر من الأخبار، ومن عجب أن شيع
جنازتها وهو لا يدري، وكان وقتذاك ما يزال أسيراً
لمرارة التجربة التي تخلّفت عن زواج بلور فلعلّ
صباحة النعش طافت برأسه فيها طاف به من خواطر
بدور وأسرعها، وما زال يذكر يوم الجنازة حين تقدّم من
أنور بك زكي معزّياً ثمّ جلس بين المشيعين، قالوا
قيماً لقد حضر النعش فمدّ حينه فرأى نعشاً جميلاً
مكلّلاً بالحرير الأبيض حقّ تهاوس بعض زملائه إنّها
عروس... الزوجة الثانية للمفتش... وقد ذهبت
ضحيةً للالتهاب الرئوي، وودّع النعش وهو لا يدري
أنّه يودّع ماضيه، ومن كان زوجها؟ رجل فوق
الخمسين ذو زوجة وأبناء فكيف رضي به ملاك الزمان
الحالي؟ وكنت تظنّها فوق الزواج فإذا هي تمنو للطلاق
ثمّ تقنع بنصيب الزوجة الثانية! وسوف يمضي وقت
طويل قبل أن يسكن جيشان هذا الصدر لا من الحزن
أو الألم ولكن من الدهول والدهشة، ومن خلّو العالم
من مباهج الأحلام، ومن ضياع سرّ الماضي الساحر إلى
الأبد، وإن كان ثمة حزن فعل أنّك لم تحزن كما كان
يجدر بك!

- وما أخبار صاحبنا حسن سليم؟

فحدّثه بنظرة ارتياب لحظة ثمّ قال ببرود:

- لا أدري عنه شيئاً!

- كيف؟!

فقال وهو يمدّ بصره إلى الطريق خلل الزجاج:

- انتهى ما بيننا وبينه منذ حوالي العامين!

فقال كمال في دهشة لم يستطع إخفاها:

- أتعني...؟!

ولم يتمّ كلامه. غلبته المفاجأة. هل عادت عابدة
إلى العباسية مرةً أخرى؟ امرأة مطلقة؟! فليؤجل
التفكير في هذا كلّ إلى حين، وقال يدهو:

- كان سفره إلى إيران آخر ما حدّثني به إسماعيل

لطيف عنه!

فقال حسين بكابة:

- لم تمكث أمتي معه في هذه الرحلة إلّا شهرًا
واحدًا، ثمّ عادت بمفردها... (ثمّ بصوت منخفض)
يرجعها الله!

- هه...!

نذت عن كمال في صوت تراسي إلى الموائد القريبة
من حوهم. فنظر إليه حسين كالداهش وقال:

- لم تكن تدري! لقد ماتت منذ عام!

- عابدة؟!

فهزّ الآخر رأسه بالإيجاب، وفي نفس الوقت خجل
كمال من نطقه الاسم مجرّداً بصوت مسموع، ولكنّه لم
يفف عند هذا إلّا أقلّ من لحظة. وبلت الألفاظ جيّداً
وكان لا معنى لها. وصرر بدوامة الفناء تدور برأس.
وكان ما به دهشة وإرتباك، لا حزن ولا ألم، وتكلّم
أخيراً فقال:

- يا له من خبر عزن! البقية في حياتك!

فقال حسين:

- عادت من إيران وحيدة، ومكثت مع أمّي شهرًا،
ثمّ تزوّجت من أنور بك زكي كبير مفتشي اللغة
الإنجليزية ولكنها لم تعاشه إلّا شهرين، ثمّ مرضت،
ثمّ توقّيت في المستشفى القبطي.
كيف لرأسه أن يتابع هذه الأحداث في سرعتها
الجنونية! ولكنّه يقول أنور بك زكي، وهو المراقب

إبراهيم المقيمين في هذا البيت؟
فأجاب الرجل وقد امتنع وجهه:
- إلى...
- عندنا أوامر بتفتيش البيت جميعه...
- لماذا يا حضرة الأمور؟
فلم يابه له والتفت نحو معاونيه أمراً:
- فتشوا...
واندفع الرجال إلى الحجرات صادعين بالأمر على
حين تساءل إبراهيم شوكت:
- لماذا تفتشون شفتي؟
ولكن الأمور تمهاهل، وعند ذلك اضطرت خديجة
إلى مغادرة حجرة النوم - التي اقتحمها المخبرون -
متلعة بشال أسود وهي تبتغ غاضبة:
- أليس للنساء حرمة؟ هل نحن لصوص يا حضرة
الأمور؟
كانت تحقّق في وجهه غاضبة، وإذا بها تشعر بفتنة
بأنها رأت هذا الوجه من قبل، أو بمعنى أصح أنها رأت
صورته الأولى قبل أن يتورها تقدّم السنّ، متى وأين؟
ربّاه إنّه هو دون ريب، لم يكذب تشبّيراً، واسمه؟
وقالت دون تردد:
- حضرتك كنت ضابطاً بقسم الجسائيّة، منذ
عشرين عاماً، بل منذ ثلاثين عاماً لا أذكر الزمن
بالضبط...
فرغ الأمور إليها عيين متسائلتين، وردّد إبراهيم
شوكت ناظره بينهما متساكلاً كذلك، وإذا بها تقول:
- اسمك حسن إبراهيم، أليس كذلك؟
- حضرتك تعرفيني؟
فقالت برحاه:
- أنا بنت السيّد أحمد عبد الجواد وأخت فهمي
أحمد الذي قتله الإنجليز أيّام الثورة، ألا تذكره؟
فلاححت الدهشة في عيني الأمور وتمتم بصوت
مهذب لأوّل مرّة:
- رحمه الله رحمة واسعة...
فقالت برجاه أشدّ:
- أنا أخته فهل ترضى ليّقي هذه البهدة؟
فأشاح الأمور عنها برجوه وهو يقول كالمعتذر:

- لكن ماذا غيّر حسن سليم؟
فهو حسين رأسه بازدرأ وقال:
- عشق الوغد موكلّة بمفوضيّة بليجيكا بإيران
فغضبت المرحومة لكرامتها وطالبت بالانفصال...
«وما يمزّي المرء في مثل هذا الموقف أنّ بديهيّات
إقليدس لم تعد بالبدهيّات المطلقة!»
- وأولادها؟
- عند جدّتهم لأبيهم.
وهي أين هي؟ وماذا جدّ عليها في هذا العام؟
وهل يمكن أن يعرفها فهمي أو السيّد أحمد عبد الجواد
أو نعيمة؟
وإذا بحسين شدّاد ينهش وهو يقول:
- أن لي أن أذهب، دعني أراك، إنّي أتناول عشاّي
عادة في رتز.
فنهض بدوره، وتصافحا وهو يتمتم:
- إن شاء الله...
وافترقا عند ذلك وهو يشعر بأنّه لن يراه مرّة أخرى،
وبأنّه ليس به حاجة إلى معاوذة رؤيته، كما ليس بالآخر
حاجة إلى ذلك، وغادر المشرب وهو يقول لنفسه: «إنّي
حزين يا عابدة لأنّي لم أحزن عليك كما كان ييلدر
بي...»

٥٢

في سكّون المزيج الأخير من الليل طرق طارق باب
بيت آل شوكت بالسكرية، ثمّ تسابع الطرق حتّى
استيقظ النائمون، وما إن فتحت خادم الباب حتّى
تدافعت إلى الدناخل أقدام ثقيلة شديدة الوقع،
انتشرت في الفناء والسلم وأطبقت على الشفق
الثلاث. وخرج إبراهيم شوكت إلى الصالة مغفل
الراس بالنوم متعباً بالكبر فرأى ضابطاً كبيراً يتوسّط
مجموعة من الجنود والمخبرين، فدهش الرجل وتساءل
منعجباً:
- ماذا هنالك كفى الله الشرّ؟
فسأله الضابط الكبير بخشونة:
- أأنت والد أحمد إبراهيم شوكت وعبد النعم

- إنا ننفذ الأوامر يا هاتم.
- ولكن لماذا يا حضرة المأمور، نحن أناس طيبون؟
فقال المأمور برقة:
- نعم، ولكن ليس كذلك نجلاك...
فهتفت خديجة باضطراب:
- إنيها ابنا أخت صديقك القديم!
فقال المأمور دون أن ينظر نحوهما.
- إنا ننفذ أوامر الداخلية.
- لم يفعلوا شيئاً ضاراً، إنيها ولدان طيبان وأقسم لك على ذلك...
وعاد الجند والمخبرون إلى الصلاة دون أن يمتروا على شيء فالمرهم المأمور بمغادرة الشقة، ثم التفت إلى الزوجين المائلين أمامه وقال:
- أبلغنا عن اجتماعات مريبة تُعقد في شقتيها...
- هذا كذب يا حضرة المأمور!
- أرجو أن يكون الأمر كذلك، لكنني مضطر الآن إلى القبض عليها وسوف يقيان حتى يتم التحقيق معها، ولعل العاقبة أن تكون سلمة!
هتفت خديجة بصوت متهاج وحي بلموعها:
- أمسقوها حثماً إلى القسم؟ هذا... لا أتصور... اعف عنها وحياة أولادك!
- ليس بوسعي ذلك، لدي أوامر صريحة بالقبض عليها، طاب مساؤكما!
وغادر الرجل الشقة، وما لبث أن غادرتها خديجة وفي أعقابها الرجل المجوز ونزلا السلم لا يلوآن على شيء، وراهما كريمة وكانت واقفة أمام شقتها في حال شديدة من الفزع فهتفت:
- أدخلوه يا عمتي، أدخلوه إلى السجن...
فالتفت خديجة على الشقة نظرة متحيرة، ونزلت مسرعة إلى الشقة الأولى حيث وجدت سوسن هلى باب شقتها كذلك تتطلع إلى الفناء بوجه كالح، فنظرت حيث تنظر فرأت القوة تحيط بعيد المنعم وأحمد، متجهة بهما إلى الخارج، فلم تتالك أن تصرخ من أعياق قلبها وهمت بالانطلاق في أثرهما لولا أن أمسكت بها يد سوسن، فالتفتت نحوها هاتجة، غير أن سوسن قالت لها بصوت هادئ حزين:

- هذني روعك، لم يمتروا على شيء مريب، ولن يثبت ضدّهما شيء، لا تجري وراءهم حقلًا لكرامة عبد المنعم وأحمد...
فصاحت بها:
- هذا الهدوء تحسدين عليه!
فقالت سوسن برقة وصبر:
- سيعودان إلى بيتها بخير، اطمئني...
فتساءلت بحدة:
- من أدراك؟
- إني واثقة بما أقول...
فلم تكثر لقولها والتفتت نحو زوجها ثم ضربت كفًا بكف وهي تقول:
- انعلم الوفاء، أقول لها إنيها ابنا أخت فهمي فيقول لي عندي أوامر، لماذا يأخذ ربنا الناس الطيبين ويترك الأراذل؟
وانجهمت سوسن نحو إبراهيم وقالت:
- سيفتشون بيت الجماعة في بين القصرين! سمعت غيبرًا يقول للمأمور إنّه يعرف بيت جدّهما في بين القصرين فاقترح عليه الضابط المساعد تفنيده تنفيذًا للأوامر هل سبيل الحيلة أن يكونا قد أخفيا فيه منشورات!
فصاحت خديجة:
- إني ذاهبة إلى أمي، لعل كإل يستطيع شيئًا، آه يا ربّي إني أحترق...
وجاءت بمعطنها وغادرت السكرية في خطوات متلاحقة مضطربة، كان الجو باردًا والظلام ما يزال كثيفًا، وكانت اللديكة تصيح في تجارب متواصل، انطلقت من الغورية مخترقة الصباغة إلى النحاسين. ووجدت عند باب البيت غيبرًا، ووجدت في الفناء غيبرًا آخر، ثم صعدت السلم وهي تلهث...
وكانت الأسرة قد استيقظت مضطربة على زنين الجرس، ثم جاءتهم أم حنفي وهي تقول في ذعر:
«بوليس»، وهرع كإل إلى الخوض حيث التقى بالمأمور فتساءل منزعجًا:
- أأنتم؟
فسأله المأمور:

فصافحه الرجل قائلاً:

- حسن إبراهيم مأمور قسم الجيالة! بدأت فيه ملازماً وعدت إليه في آخر اللطاف مأموراً...
ثم وهو يبرأ رأسه:
- كانت الأوامر صريحة، أرجو ألا يثبت عليها ما يدينها.

وهنا ترمى إليها صوت خديجة وهي تحدث أمها وعائشة بما كان وتبكي فقال:

- هذه أمها، عرفني بذكرتها العجيبة ثم ذكرني بالمرحوم ولكن بعد أن كان التفتيش الدقيق قد وقع، طمئنتها ما أمكنت.

ثم نزلًا معًا جنبًا إلى جنب، وعند مرورها بالدور الثاني موقت عائشة من الباب في حدة بادية وحدجت المأمور بنظرة قاسية وصاحت به:

- لماذا تقبضون على أولاد الناس بلا سبب؟ ألا تسمع بكاء أمها؟ فانهرف بصير المأمور إليها كرد فعل للمفاجأة ثم غصّ بصرة تادبًا وهو يقول:
- سيطلق سراحها عما قريب إن شاء الله...
ثم سال كمال بعد أن ابتعدا عن مدخل الدور الثاني:

- والدتك؟

- بل شقيقتي! لم تجاوز الرابعة والأربعين ولكنها عانت من سوء الحظ ما حطّمها...

وانتفت المأمور إليه كالداهش، ونحى إليه بأنه همّ أن يطرح سؤالاً، ولكنه تردّد لحظة ثم عدل عما كان همّ به، وتصافحا في الفناء، وقبل أن يمضي الرجل إلى سيبله سأل كمال:

- أمن المستطاع أن أزورها في السجن؟

- نعم...

- شكرًا...

وعاد كمال إلى الصالة فانضمّ إلى أمه وشقيقتيه وهو يقول:

- سأزورها غدًا، لا داعي للخوف، وسوف يطلق سراحها عقب التحقيق معها...

وكانت خديجة لا تمسك عن البكاء فصاحت عائشة في ترففة:

- أتعرف عبد المنعم إبراهيم وأحمد إبراهيم؟

- أنا خالهما!

- صناعتك؟

- مدرّس مدرسة السليحدار...

- عندنا أوامر بتفتيش البيت؟

- ولكن لماذا؟ أيّ تهمة توجهها إليّ؟

- إننا نفتش عن منشورات تخصّ الشائين لعلها أخفيها هنا!

- أوكد لحضرتك أنه ليس في بيتنا منشورات، تفضّل فتش كما تشاء...

ولاحظ كمال أنه أمر القوة باحتلال السلم والسطح وأنه مضى معه بمفرده، وما كان تفتيشًا يقلب البيت رأسًا على عقب ولكنّ المأمور اكتفى بتفقد الحجرات واللقاء نظرة سطحية على المكتب وخزانات الكتب فاستردّ أنفاسه، واستطاع أن يسأله وقد انس إليه:

- فتشتم بيتهما؟

- طبعًا...

ثم بعد لحظة قصيرة:

- إنهما الآن في سجن القسم!

فسأله كمال في انزعاج:

- هل ثبت عليها شيء؟

فأجاب الرجل برقة غير ممهدة في أمثاله:

- أرجو ألا يصل الأمر إلى هذا الحدّ، غير أنّ التحقيق متروك للنياية.

- أشكر لك جميل عواطفك!

فقال المأمور بهدوء وهو يتبسّم:

- ولا تنس أنّي لم أهدل البيت!

- نعم يا سيدي، إنّي لا أدري كيف أشكرك!

وإذا به يلتفت نحوه متسائلًا:

- حضرتك أخو المرحوم فهمي؟

فأنتسعت عينا كمال دهشة وقال:

- نعم، أكنت تعرفه؟

- كنّا أصدقاء رحمه الله...

فقال كمال برجاء:

- مصادفة سعيدة... (وهو يحدّ له يده)... كمال

أحمد عبد الجواد...

- لا تبك، كفانا بكاء، سيعودان إليك ألا

تسمعين؟

قولت خديجة قائلة:

- لا أدري... لا أدري. في السجن يا ولداه!
وكانت أمينة صامتة كأن الحزن أحرسها، فقال كمال
في لهجة توحى بالطمأنينة:

- المأمور يعرفنا، كان صديق المرحوم فهمي، وقد
تلفف بنا في الفتيش للدرجة لا تصدق، ولا شك أنه
سيرعاهما بعطفه!

فرفعت الأم رأسها كالمسائلة ف قالت خديجة في
حنق:

- حسن إبراهيم، ألا تذكرينه يا أمي؟ وقد أخبرته
بأنني أبحث فهمي فما كان منه إلا أن قال: إننا ننفذ
الأوامر يا هانم! أوامر في عينه...
والجهد عينا الأم نحو عائشة ولكنها لم يبد عليها
أنها ذكرت شيئاً...

ثم انتحلت أمينة بكاء جانباً وراحت تقول له في
قلق بال:

- لم أفهم شيئاً يا بني، لماذا قبض عليها؟

فتفكر كمال فيها ينهي قوله، ثم قال:

- الحكومة نظرت خطأ أنها يعملان ضدها!

فهرزت رأسها في حيرة وقالت:

- أعتقد تقول إنهم قد قبضوا على عبد المنعم لأنه
من الإخوان المسلمين، لماذا يقبضون على المسلمين؟
- الحكومة نظرتهم يعملون ضدها...

- واحد؟ قالت إنه... نسيت الكلمة يا
بني؟

- شيوعي؟ الشيوعيون كالإخوان في ظن
الحكومة!

- الشيوعيون؟ أشياح سيدنا علي؟

فدارى كمال ابتسامة وقال:

- الشيوعيون لا الشيعة، هم حزب ضد الحكومة
والإنجليز!...

فتنهبت المرأة في حيرة وقالت:

- متى يفرج عنها؟ انظر إلى أختك المسكينة!
الحكومة والإنجليز ألم يجلوا إلا بيتنا المصاب؟

كان أذان الفجر يسري في الصمت الشامل حين
استدعى مأمور قسم الجبائية عبد المنعم وأحد إلى
حجرته، ومثلاً أمام مكتبه يسوقها جندي مسلح،
فأمرة المأمور بالانصراف، ومضى يتخصصها باهتمام،
ثم نظر إلى عبد المنعم وسأله:

- اسمك وستك وصناعتك؟

فاجاب عبد المنعم بهدوء وثبات:

- عبد المنعم إبراهيم شوكت، خمسة وعشرون
عاماً، محقق بإدارة التحقيقات بوزارة المعارف.

- كيف تحرق قوانين الدولة وأنت من رجال
القانون؟!

- لم أحرق قانوناً، ونحن نعمل جهازاً فنكتب في
الصحف ونخطب في المساجد، إن الذين يدعون إلى
الله لا يحدون ما يحفونه.

- ألم تحدث في بيتك اجتماعات مريبة؟

- كلاً، كانت اجتماعات عادية مما تجمع بين
الأصدقاء لتبادل الرأي والمشورة والتفقه في الدين...
وهل يدخل ضمن هذه الأغراض التعريض على
معاداة دول حليفة؟

- أتعني بريطانيا يا سيدي؟ إنها عدو غادر، الدولة
التي تلوس كرامتنا بالذبابات لا يمكن أن تكون دولة
حليفة...

- إنك رجل مثقف، وكان ينبغي أن تدرك أن
للحرب طروقاً تبيح المحظورات!

- إنني أدرك أن بريطانيا هي عدونا الأول في هذا
الوجود!

والتفت المأمور إلى أحمد متسائلاً:

- وأنت؟

فاجاب أحمد وعمل شفته شبه ابتسامة:

- أحمد إبراهيم شوكت، أربعة وعشرون عاماً،
محرر بمجلة الإنسان الجديد...

- هنالك تقارير خطيرة عن مقالاتك المتطرفة،
فضلاً عن أنه من المسلم به أن جليتك سيئة
السمعة...

وغادرا الحجرة حيث تسلّهما أوباشي وجنديان مسلّحان، ومضوا جميعاً إلى الدور الأرضي، ثمّ عرجوا إلى بهو مظلم شديد الرطوبة فساروا فيه قليلاً حتى استقبلهم السجّان بكشّافه الكهربائيّ كأنّما ليدلّهم على باب السجن، وفتح الرجل الباب وأدخلهما، ثمّ صوّب ضوءه إلى الداخل ليهنّديا به إلى بُرشيهما، وأضاء الكشّاف المكان فبدأ متوسط المساحة عالي السقف، ذا نافذة صغيرة في أعلى جداره تتعرّضها القضيّبان الحديديّتين. وكان عامراً بالضيوف، فيهم شابّان على هيئة الطلبة، وثلاثة رجال حفاة جفري المنظر شالهي الحفاة. وما لبث أن أطلق الباب وساد الظلام، غير أنّ الضوء وحركة القادمين كانت قد أيقظت النائمين، وقال أحمد لأخيه همساً:

- لن أجلس وإلاّ قتلني الرطوبة، فلنتنظر الصبح واقفين!

- سنضطرّ إلى الجلوس عاجلاً أو آجلاً، أعلمت متى نبرح هذا السجن؟

وإذا بصوت - أحركا بالبداهة أنّه لأحد الشابّين - يقول:

- لا بدّ من الجلوس، ليس هو بالشئ السارّ ولكنّه أعفّ من الوقوف أيّاماً...

- هل مكثنا طويلاً؟

- منذ ثلاثة أيّام!

وساد الصمت حتّى عاد الصوت يسأل:

- لماذا قبض عليك؟

فأجاب عبد المنعم باقتضاب قائلاً:

- أسباب سياسيّة فيا يبدو...

فقال الصوت ضاحكاً:

- صارت الأغلبية أخيراً للسياسيّين في هذا السجن، كنّا قبل تشريفكنا أقلّيّة...

- مقالتي لا تمدو الدفّاع عن مبادئ العدالة الاجتماعيّة...

- شيوعيّ حضرتك؟

- إنّي اشتراكيّ، وكثير من الثوّاب يدعون إلى الاشتراكيّة، والقانون نفسه لا يؤاخذ الشيوعيّ على

رأيه ما دام لا يلجأ إلى أساليب العنف...

- أكان ينبغي أن ننتظر حتّى تتمخّض الاجتماعات التي تعقد كلّ مساء في شقّتك عن العنف؟

وتساءل في نفسه ترى هل وقفوا على سرّ المنشورات والمحاضرات الليلية؟! وأجاب:

- إنّي لا أجمع في بيبي إلّا بالاصدقاء الحزبيين، ولم يزد عدد زوّاري يوماً عن أربعة أو خمسة، وكان تفكيرنا أبعد ما يكون عن العنف...

وردّد المأمور نظره بهيما ثمّ قال بعد تردّد:

- إنكنا مثقّفان... مهذّبان، ومشرّوجان اليس كذلك؟ حسن، اليس من الأفضل لكما أن تبتئبا بشؤونكما الخاصّة وأن تحبّبا نفسيكما الملاك؟...

فقال عبد المنعم بصوته القويّ:

- إنّي أشكر لك نصيحتك التي لن أعمل بها...

فندّبت عن المأمور ضحكة متفضّية كأنّما على رُحمه، ثمّ قال:

- علمت في أثناء التفتيش أنّكنا حفيداً للمرحوم أحمد عبد الجواد، وقد كان خالكما المرحوم فهمي صديقاً حميماً لي، وأظنّكنا تعلمان أنّه فقد حياته في ربيع العمر

على حين أنّ زملاءه ظلّوا على قيد الحياة حتّى تبوّأوا أكبر المناصب...

فقال أحمد وقد أدرك السرّ في لطف المأمور الذي حمّره:

- دعني أسألك يا سيّدني عمّا كانت تكون عليه مصر لولا تضحية خالي وأمّثاله؟!

فهزّ الرجل رأسه وقال:

- فكّرنا في نصيحتي بعقل ورويّة ودعكمنا من هذه الفلسفة المهلكة!

ثمّ وهو يقف:

- ستبقيان ضعيفين في سجننا حتّى تُدعّوا إلى التحقيق، أرجو لكما حظّاً سعيداً...

- كلانا طالب في الحقوق متهم بتوزيع منشورات
هدامة كما يقولون...

فثار أحد وسأله:

- أعضبتما متلبسين!

- نعم...

- وماذا كان في المنشورات؟

- بيان بتوزيع الثروة الزراعية في مصر...

- هذا مما تنشره الصحف في ظل الأحكام العرفية
نفسها!

- يضاف إليه شوية ترجيحات حماسية!

فانقسم أحد مرة أخرى في الظلام وقد تحقّف من
وحشته لأول مرة، وعاد صاحب الصوت يقول:

- إننا لا نخاف القانون بقدر ما نخاف
الاعتقال...

- إن الأمور تشتر بتغير شامل...

- لكننا سنظل الهدف في جميع المهود...

وإذا بصوت غليظ يعلو في خشونة قائلاً:

- فكفّا كلاهما ودعونا ننام...

ولكن صوته أيقظ زميلًا من زميله فتشابه
متسائلًا:

- طلع الصبح؟

فاجابه الأول هازئًا:

- كلا، ولكن أصحابنا يحسبون أنفسهم في
غزة...

تهدّد عبد المنعم وهمس بصوت لم يسمعه إلا أحمد:

- أيزج بي إلى هذا المكان لا لسبب إلا أنني أعبد
الله؟!

فهمس أحمد في أذنه بأسًا:

- وما ذنبى أنا الذي لا أعبد؟!

لم يشأ أحد بعد ذلك أن يرفع صوته، وراح أحد
يسأل نفسه عياّ دعا إلى القبض على الآخرين، سرقة
أم مشاجرة أم سكر وعريضة؟ طللا كتب عن الشعب
وهو مدنّر بمعطف في حجرة مكتبه الجميلة، ها هو
الشعب يلعن أو ينفك في نومه، وهذه الوجوه الكالحة
البائسة التي رآها على ضوء الكشافات لحظات، وذلك
الرجل الذي كان يحك رأسه وما تحت إبطيه فلملّ

قلمه يزحف نحوهما دائمًا، هذا هو الشعب الذي
تعيش من أجله فكيف تجزع عن فكرة ملامسته؟! هذا
الرجل المناط به خلاص الإنسانية ينبغي أن يمسك عن
شخيره وأن يمي موقفه التاريخي حتّى ينفض لإنقاذ
العالم جميعًا! وقال لنفسه: «إن موقفًا إنسانيًا واحدًا
هو الذي جمعنا على اختلاف مشاربنا في هذا المكان
المظلم الرطب. الأخ والشيوعي والسكّبر والسارق على
السواء، كلنا واحد على تفاوت في قوة المناعة أو
الحيلة. وحدث نفسه مرة أخرى فقال: لماذا لا تمنى
بشغوك الخاصة، هكذا يقول المأمور، ولي زوجة
عجيبة وورق موفور، ولحقّ أنّ الإنسان قد يسعد بما
هو زوج أو موظف أو أب أو ابن ولكنّه مقضيّ عليه
بالتعاب أو بالموت نفسه بما هو إنسان. وسواء أفضي
عليه بالسجن هذه المرة أم أطلق سراحه فباب السجن
الغليظ المتجهّم هو ما يترامى لعينه في أفق حياته،
وعاد يتساءل: ماذا يدفعني في هذا السبيل الخطير
الياهر؟ ألا إنّ الإنسان الكامن في أعماقي، الإنسان
الواعي لذاته المدرك لموقفه الإنساني التاريخي العام،
وإنّ ميزة الإنسان على سائر المخلوقات هي أنّه يستطيع
أن يقضي على نفسه بالموت بحض اختياره ورضاه...
وشعر بالرطوبة تسري في ساقبيه والإعياء يتخلّل
مفاصله، وكان الشخير يتردّد في الأركان بليقاع
موصول، ثمّ لاحت خلال قضبان النافذة الصميرة
طلائع من النور وانية رقيقة...

٥٤

غادر الطبيب الحجرة وكيال يتبعه وجامًا، ثمّ لحق به
في الصالة وحده بعشرين متسائلين، قال الطبيب
بهلوه:

- يوسفني أن أخبرك بأنّها حالة شلل كليّ...

فاتقّب صدر كيال اتقباضًا شديدًا وسأله:

- حالة خطيرة؟

- طبّاش! وقد أصيبت في الوقت نفسه بالتهاب

رئويّ، ولذلك فالحقن ضرورية لإراحته.

- أليس هناك أمل في الشفاء؟

وكان هذا آخر عهد يبقظتها، وقد جاءه نبأ مرضها
ظهرًا في المدرسة فعاد مصطحبًا الطبيب الذي نعاها
إليه سلفًا منذ دقائق. أجل لم يبق إلا ثلاثة أيام! ترى
كم يومًا تبقى له هو؟ واقترب من عائشة وسألها:

- متى وكيف وقع لها ما وقع؟

فأجابتها عنها أم حنفي قائلة:

- كنا جالسين في الصلاة، ثم قامت متجهة نحو
حجرتها لترتدي معطفها وتخرج وهي تقول لي «عندما
أفرغ من زيارة الحسين سأزور خديجة»، وذهبت إلى
الحجرة، وبعد دخولها مباشرة تراسى إلى أذن صوت
وقوع شيء فهرعت إلى الداخل فوجدتها ملقاة على
الأرض بين السرير والدولاب، فجريت نحوها وأنا
أنادي ست عائشة...

وقالت عائشة:

- جئت مسرعة فوجدتها في هذا المكان، فحملناها
إلى السرير، وجعلت أسألهما عما بها ولكنهما لم يجبي، ولم
تتكلم، متى تتكلم يا أمي؟

فأجاب في ضيق:

- عندما يشاء الله...

وترجع إلى الكبة ثم جلس، ومضى ينظر في حزن
إلى الوجه الشاحب الصامت، أجل لينظر إليه طويلًا
فعمًا قريب لن يكون له إلى رؤيته سبيل. هذه الحجرة
نفسها ستتغير معالمها وستتغير بالتالي معالم البيت في
مجموعه، ولن ينادي به أحد «أمي»، لم يكن يتصور أن
موتها سيحمل قلبه هذا الألم كله، ألم يائف الموت
بعد؟... بل، ولديه من العمر والتجربة ما يقيه
الجزع، ولكن لدعة الفراق الأبدية موجعة، ولعله ثما
يلام عليه قلبه أنه رغم ما كابد من ألم يتألم كالقلب
الغض. وكما أحبت، وكما أحببت الجميع، وكما أحببت
كل شيء في الوجود، ولكن هذه السجيا الطيبة لا
تعيها النفس ولا عند الفراق، ففي هذه اللحظة
الخطيرة تزدحم ذاكرتك بصور أماكن وأزمنة وحوادث
يبرز لها من أحقادها، وبها هي يتخالط نورها الظلام،
وتعترج فيها زرقة الفجر بحديقة السطح، وبجمرة
مجلس القهوة بالأساطير، وهديل الحمام بأغنيات حلوة،
وكان حيا راضيا أميا القلب الجاحد، ولعلك تقول غدا

فصمت الطبيب قليلاً ثم قال:

- الأعمار بيد الله، أما الطبيب فيقرر في حدوده أن
هذه الحال لا يمكن أن تستمر أكثر من ثلاثة أيام...
وتلقى كمال نذير الموت بتجلد، وأوصل الطبيب إلى
الباب الخارجي ثم عاد إلى الحجرة. وكانت الأم
نائمة، أو كالتائمة، لا يبدو من الغطاء الكثيف إلا
وجهها الشاحب وفوها المطبق في شيء من الأعرجاج،
وكانت عائشة واقفة حمال السرير فأقبلت نحوه
مستائلة:

- ما لها يا أمي؟ ماذا قال الطبيب؟

وقالت أم حنفي من موقفها عند مقدم الفراش:

- إنها لا تتكلم يا سيدي، لم تتكلم كلمة واحدة.

وقال لنفسه: ولن يسمع لها صوت بعد الآن، ثم

قال جيبًا أخته:

- حالة ضغط مصحوبة بإصابة برد خفيفة، سوف

ترىها الحزن!

فكانت عائشة، ولعلها كانت تخاطب نفسها:

- إني خائفة، وإذا كانت سترقد هكذا طويلًا فكيف

تُحتمل الحياة في هذا البيت؟

فتحول عنها إلى أم حنفي وسألها:

- هل أخبرت الجياحة؟

- نعم يا سيدي، وستحضر ست خديجة وسي

ياسين في الحال، ما لها يا سيدي؟ كانت في الصباح في

تمام الصحة والعافية...

كانت!... وهو يشهد بذلك! وقد مر بالصالة

كعادته كل صباح قبل انطلاقه إلى مدرسة السلدحار،

فتناول نجان القهوة الذي قدّمته له وهو يقول:

- لا تغادري البيت اليوم فالجرب بارد جدًا...

فابتسمت ابتسامتها الرقيقة وقالت:

- وكيف يطيب لي اليوم دون زيارة سيدك؟

فقال محتجًا:

- العمل ما يملو لك، إنك عنيده يا أمه!

فتمتعت:

- ربك الحافظ...

ثم وهو ينادر المكان:

- ربنا يسعد أيامك...

- متلد في بحر هذا الأسبوع، أو هذا ما تؤكده الحكمة...

فتمتم كمال:

- ربنا يأخذ بيدها...

فقال ياسين:

- سيخرج الوليد إلى الدنيا وأبوه في المعتقل...

ودقّ الجرس، فكان القادم رياض قلدس، وقد

استقبله كمال ومضى به إلى حجرة مكتبه، وفي الطريق

إلى الحجرة قال رياض:

- سألت عنك في المدرسة فأخبرني السكرتير بالخبر،

كيف حالها؟

- أصيبت بشلل وأخبرني الطبيب بأنها ستتهي في

ظرف ثلاثة أيام...

فوجم رياض وتساءل:

- أليس هنالك حيلة ما؟

فهزّ كمال رأسه يائساً، وقال:

- لعلّه من حسن الحظ أنّها في غيبوبة لا تدري عَمَّا

يبتظرها شيئاً...

ثمّ في هجة ساخرة وهما يجلسان:

- ولكن هل ندري نحن عَمَّا يبتظرنا شيئاً؟

وابتسم رياض دون أن ينبس، فعاد الآخر يقول:

- كثيرون يرون أنّ من الحكمة أن نتخذ من الموت

ذريعة للتفكير في الموت، والحقّ أنّه يجب أن نتخذ من

الموت ذريعة للتفكير في الحياة...

فقال رياض بأساً:

- هذا أفضل فيما أرى، كذلك فلنسأل أنفسنا عند

الموت - أيّ موت - ماذا صنعنا بحياتنا؟

- لئلاّ أنا فلم أصنع بحياتي شيئاً، هذا ما كنت أفكر

فيه...

- بيد أنّك ما زلت في منتصف الطريق...

ربّما نعم، وربّما لا، غير أنّه من المستحسن دائماً أن

يتأمّل الإنسان ما يراود نفسه من أحلام، على ذلك

فالتصوّف هروب، كما إنّ الإيمان السليبيّ بالعلم

هروب، وإنّ فلا بدّ من عمل، ولا بدّ للعمل من

إيمان، والمسألة هي كيف نخلق لأنفسنا إيماناً جديراً

بالحياة. قال:

بحقّ إنّ الموت استأثر بأحبّ الناس إليك، ولعلّ

عينيك أن تدعما حقّ يزعرك المشيب. والنظر إلى

الحياة كمأساة لا يخلو من رومانتيكيّة طفليّة والأجدر

بك أن تنظر إليها في شجاعة كدراما ذات نهاية سعيدة

هي الموت. ثمّ سأل نفسك إلّا م تضيع حياتك هباء؟

إنّ الّأم تموت، وقد صنعت بناء كاملاً فإذا صنعت

أنت؟

واستيقظ على صوت أقدام، وإذا بخديجة تدخل

الحجرة مرتاعة وتبّج نحو الفراش وهي تنادي أمّها

وتسألهم همّاً حلّ بها. وتضعاف الله حقّ خيال أن

يخونه تجلّده فغادر الحجرة إلى الصلاة، وما لبث أن

جاء ياسين وزوّية ورضوان، فصاحوه، وأخبرهم عن

مرضها دون التفاصيل، فذهبوا إلى الحجرة ولبث

وحيداً حقّ عاد إليه ياسين وهو يسأله:

- ماذا قال لك الطبيب؟

فقال في وجوم:

- شلل والتهاب رئويّ، سيتهي كلّ شيء في خلال

ثلاثة أيّام...

فعضّ ياسين على شفته وقال بحزن:

- لا حول ولا قوة إلّا بالله...

ثمّ جلس وهو يتمتم:

- مسكينة، كان كلّ شيء مفاجئاً! ألم تشكّ تعباً في

الأيّام الأخيرة؟

- كلا، إنّها لم تُعْثِد الشكوى كما تعلم، ولكنّها

كانت تبدو أحياناً كالتيمة...

- ليترك عرضتها على الطبيب من قبل!

- لم يكن أبغض إلى نفسها من سيرة الطبيب!

وانضمّ إليها رضوان بعد حين فقال لكيال:

- أرى أن نُفْطِل إلى المستشفى يا عتي!

فقال كمال وهو يهزّ رأسه في حزن:

- لا داعي إلى ذلك، وسيرسل الصيدليّ عمّضة

يعرفها لتحقّقها...

ولاذقاً بالصمت والوجوم يعلو وجوههم، وعند ذاك

ذكر كمال أمراً تقضي المجملّة ألاّ يحمله فسأل ياسين:

- كيف حال كريمة؟...

بعذاب الضمير الخلق بكلّ خائن، قد يبدو يسيراً أن تميش في قمم أناتيك ولكن من العسير أن تسعد بملك إذا كنت إنساناً حقاً...

فاشرق وجه رياض على رغم كتابة المناسبة وقال:
- هذا بشرى بانقلاب خطير يوشك أن يقع!
فقال كمال في حذر:

- لا تسخر مني، إنّ مشكلة الإيمان ما زالت قائمة بدون حلّ، وغاية ما أستطيع أن أعزي به نفسي هو أنّ الحركة لم تنته، ولن تنتهي ولو لم يبق من عمري إلا ثلاثة أيّام كآتي...
ثمّ وهو يتنهد:

- أتعلم ماذا قال أيضاً؟ قال: إنّ أومن بالحياة وبالناس، وأرى نفسي ملزماً باتّباع مثلهم العليا ما دمت أعتقد أنّها الحقّ إذ النكوص عن ذلك جبن وهروب، كما أرى نفسي ملزماً بالثورة على مثلهم ما اعتقدت أنّها باطل إذ النكوص عن ذلك خيانة، وهذا هو معنى الثورة الأبدية!

وجعل رياض ينصت وهو يبرز رأسه موافقاً، ثمّ بدا على كمال الإعياء والضيق فقال رياض:

- أنا مضطّر إلى الذهاب فما رأيك في أن تصحبني إلى محطّة الترام لعلّ المشي يريح أعصابك!
ونفضاً ممّا وغادرا الحجرة، وقابلاً ياسين عند مدخل الدور الأوّل - وكان على محرّفة سطحيّة برياض - فدعاه كمال إلى مصاحبته. غير أنّه استأذن منها دقائق ريشا يلقي نظرة على أمّه، ومضى إلى حجرتها فوجدتها كما تركها في غيبوبة. وكانت خديجة جالسة في الفراش عند قدميها وقد أحمرت عينها من البكاء، وعلت وجهها الكتابة التي لم تفارقه منذ آمدّت يد الحكومة إلى ابنتها، أمّا زّوية وعائشة وأمّ حنفي فقد جلسن على الكنبه صامتات، وكانت عائشة تدخن سيجارة في سرعة وقلّة، على حين راحت عينها نجلان في المكان في اضطراب عصبيّ، وسألن:

- كيف حالها؟

فجاببت عائشة بصوت مرتفع ينم عن الضيق والاحتجاج:
- لا تريد أن تصحبوا!

- حسيتي قد أدّيت للحياة واجبتها بالإخلاص لمهنتي كمعلم وكتابة المقالات الفلسفيّة...

قال رياض بعطف:

- وقد أدّيت واجباً بلا شك!
- ولكنني عشت مصّلب الضمير كما ينبغي لكلّ خائن!

- خائن؟

فتنهد كمال وقال:

- دعني أخبرك بما قال لي أحمد ابن أختي عندما زرتة في سجن القسم قبل نقله إلى المعتقل...
- على فكرة، أما من جديد عنها؟
- لقد رحلا مع كثيرين إلى معتقل الطور...

فصاعد رياض بأسياً:

- الذي يبعد الله والذي لا يعبده؟
- يجب أن تعبد الحكومة أولاً كي تعيش مطمئناً...

- على أيّ حال الاعتقال أضفّ في نظري من المحاكمة!

- هذا رأي، ولكن متى تكشف هذه الغمّة؟ متى تُرفع الأحكام العرفيّة؟ متى يعود السلطان إلى القانون الطبيعيّ والدستور؟ متى يعامل المصريون كالأدمنين؟
فجعل رياض يعبت بغاتم الزواج في يسراه، ثمّ قال بحزن:

- نعم متى؟ ما علينا، ماذا قال أحمد في سجن القسم؟

- نعم، قال لي إنّ الحياة عمل وزواج وواجب إنسانيّ عامّ، وليست هذه المناسبة للحديث عن واجب الفرد نحو مهنته أو زوجه أمّا الواجب الإنسانيّ العامّ فهو الثورة الأبدية، وما ذلك إلا العمل الدائب على تحقيق إرادة الحياة ممثلة في تطوّرها نحو المثل الأعلى...

فتفكر رياض قليلاً ثمّ قال:

- رأي جميل، ولكنّه يتسع لكافة المتناقضات...

- نعم، ولذلك وافقه عليه أخوه ونفيضة عبد النعم، ولذلك فهمته على أنّه دعوة إلى الإيمان أيّما كان مشربه أيّما كانت غايته، ولذلك فإني أحلّل تعاسي

وكان كمال من أعرف الناس بزواج أخيه، فقال:
- لا داعي إلى ذلك البتة...
فدفعه ياسين أمامه وهو يقول:

- إنها آتي كما إنها أتت!

وداخل كمال بفتة شعور بالخوف على ياسين! حقاً
إنه يسير مكتئباً بالحياة في ضخامة الجمل ولكن إلان
يحتمل حياته المفعمة بالأهواء؟ وطفح فؤاده بالكآبة،
غير أن فكره طار فجأة إلى الطور، إلى المتعل. أتى
أومن بالحياة وبالناس، هكذا قال، وأرى نفسي ملزماً
بالتابع مثلهم العليا ما دمت أعتقد أنها الحق إذ
النكوص عن ذلك جبن وهروب، كما أرى نفسي ملزماً
بالثورة على مثلهم ما اعطقت أنها باطل إذ النكوص
عن ذلك خيانة! وقد تسأل ما الحق وما الباطل، ولكن
لعل الشك نوع من الهروب كالتصوف والإيمان السليبي
بالعلم. فهل تستطيع أن تكون مدرّساً مثاليًا وزوجًا
مثاليًا وثائرًا أهدياً؟!

وعندما مرّا بدكان الشرقاوي توقف ياسين وهو
يقول:

- كلفتني كرمه بأن أستبشع لها بعض اللوازم
للمولود المنتظر... عن إذنك...

ودخل الدكان الصغير، وراح ياسين ينتقي ما يريد
من لوازم المولود المنتظر: قماعًا وطاقية ومنامة، وعند
ذلك تذكر كمال أن رباط عتقه الأسود الذي استعمله
عائماً حديثاً على والده قد استهلك، وأنه يلزمه آخر
جديد ليواجه به اليوم الحزين، فقال للرجل حين فرغ
من ياسين:

- رباط عتق أسود من فضلك...

وتناول كل لفافته، وغادرا الدكان.

وكان المغيب يقطر سمرة هادئة فمضيا جنباً إلى
جنب نحو البيت...

وحانت منه الفتاة إلى خديجة فبدلاً نظرة طويلة
دلت على تفاهم حزين وبأس مشترك فلم يتألك إلا
أن يغادر الحجرة ويلحق بصاحبه...

وساروا في الطريق متمهلين، فقطعوا الصاغة إلى
الغورية في شبه صمت، وعندما بلغوا الصناديق
صادفوا الشيخ متربّي عبد الصمد ينحدر منها إلى
الغورية متوكّناً على عصاه، في خطوات غلخلة، وقد
كفّ بصره وارتعشت أطرافه، وكان يلتفت فيما حوله
متسائلاً في صوت مرتفع:

- من أين طريق الجنة؟

فأجاب ما وهو يضحك:

- أول عطفة على يمينك...

وقال ياسين لرياض قللس:

- أتصنّف أن هذا الرجل قد جاوز المئة بما يقرب
من عشرة أعوام؟...

فقال رياض بأساً:

- إنه لم يعد رجلاً على أي حال...

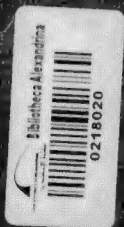
وكان كمال ينظر نحو الشيخ متربّي بهطف، كان
يلكر به أباه، وكان يعدّه معلماً من معالم الحمي كالسبيل
القديم وجامع قلاوون وقبور قرمز، ووجد كثيرين وهم
يعطفون عليه، غير أن العجوز لم يسلم من شقاوة
بعض الغليان الذين راحوا يصفّرون في وجهه أو
يتبعونه عماكين حركاته.

وأوصلا رياض حتى محطة الترام، وانتظرا معه حتى
ركب، ثم عادا معاً إلى الغورية، وتوقف كمال هن
السير فجأة وقال لأخيه:

- أن لك أن تذهب إلى القهوة...

فقال ياسين بحدة:

- كلاً، سأبقى معك...



Biblioteca Alexandrina



0218020